

صُفْوَةُ النَّفْسِ الْكَلِيمَةِ

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين المأثور والعقول ، مستمد من أوثق كتب التفسير
« الطبري ، الكشاف ، القرطبي ، الألوسي ، ابن كثير ، البحر المحيط » وغيرها
بأسلوب مبسّط ، وتنظيم حديث ، مع العناية بالوجه البليغ واللغوية

تأليف

محمد علي الصّابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

دار القرآن الكريم

بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صِفْوَةُ النَّفْسِ الْبِغَاءِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِينَ هُمْ أَقْوَمُ"

"وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ"
"البقرة"

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

"أَشْرَافُ أُمَّتِي حَمَلَةُ الْقُرْآنِ" "المنذرية"

"مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ حَسَنَةٌ وَحَسَنَةٌ وَحَسَنَةٌ بَعْشَرُ
أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَوَاوٌ حَرْفٌ
وَمِيمٌ حَرْفٌ." "البخاري"

اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ"
"البخاري"

عَنْ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ..

بِبِلْعَادَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي الْأَرْضِ ..

أَصْحَابِ كِتَابِ اللَّهِ وَتَفْسِيرِهِ ..

لِيَأْتُونَ عَوْنًا عَلَى فِرْقِمْ الْقُرْآنِ وَالْمَعْلَمِ بِهِ ..

وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

"تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكُمْ بِهِ لَنْ تَضَلُّوا بَعْدِي أَبَدًا"
كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي." "منفع عليه"

السَّيِّدُ حَسَنٌ بَوَّابٌ شَرِيفٌ

الطبعة الرابعة
(منقحة)

جميع الحقوق محفوظة

١٩٨١ م = ١٤٠٢ هـ

طُبِعَ عَلَى نَفَقَاتِ
المُحْسِنِ الكَبِيرِ
معالي السِّيدِ حَسَنِ عِبَّاسِ الشَّرِيفِيِّ
وَجَعَلَهُ وَقْفًا لِلَّهِ تَعَالَى
فجزاهُ اللهُ كُلَّ حَسَنَةٍ
يُوزَعُ مَجَانًّا وَلَا يُبَاعُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ﴾

الآية ٤٤ سورة النحل

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ
لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾

الآية ١٨٧ سورة آل عمران

« صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمِ »

فهرس موضوعات المجلد الأول

٦٠١

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	السر في التعبير بقوله تعالى:	٥	كلمة الناشر مدير دار القرآن الكريم
٤٠	﴿ذهب الله بنورهم﴾ ولم يقل بنارهم	٦	تقاريط لطائفة من كبار العلماء
٤٠	السر في جمع الظلمات وتوحيد النور	٦	كلمة سماحة شيخ الأزهر
٤١	الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين	٧	كلمة سماحة رئيس مجلس القضاء الأعلى
٤١	كلام الإمام البيضاوي حول كروية الأرض	٩	كلمة سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي
٤٢	وجوه إعجاز القرآن الكريم	١١	كلمة معالي مدير جامعة الملك عبد العزيز
٤٢	القرآن معجز في نظمه، وتشريعه، وبيانه	١٣	كلمة فضيلة عميد كلية الشريعة
٤٢	عجز البشر عن الإتيان بمثل القرآن	١٥	كلمة فضيلة خطيب المسجد الحرام
٤٢	كلام الحافظ ابن كثير في إعجاز القرآن	١٧	كلمة فضيلة رئيس قسم الدعوة
٤٤	الرد على شبهات المشركين	١٩	مقدمة المؤلف الشيخ محمد علي الصابوني
٤٤	لماذا ضرب القرآن الأمثال بالذباب والعنكبوت!	٢٠	طريقة المؤلف في صفوة التفاسير
٤٦	الحكمة من إكثار الأمثال في القرآن		١- سورة الفاتحة
٤٩	خلق آدم وخلافته في الأرض	٢٣	الحكمة من افتتاح السور بيسم الله الرحمن الرحيم
٥٢	الحكمة من أمر الملائكة بالسجود لآدم	٢٤	المقاصد الأساسية لسورة الفاتحة
	سجود الملائكة كان سجود تحية وتكريم لا	٢٤	فضل سورة الفاتحة
٤٩	سجود خضوع وعبادة.	٢٦	وجوه الفصاحة والبلاغة في الفاتحة
٤٩	لطيفة هل لإبليس زوجة ورد الشعبي على السؤال	٢٧	الأسرار القدسية في فاتحة الكتاب
٥٢	سجود الملائكة لآدم سجود تحية وتكريم		٢- سورة البقرة
٥٢	التحقيق في أن إبليس لم يكن من الملائكة	٢٩	المقاصد الأساسية لسورة البقرة
٥٣	من هو إسرائيل؟	٣٠	لماذا سميت سورة البقرة؟
٥٤	الفرق بين عبيد النعم وعبيد المنعم	٣٠	فضل سورة البقرة
٥٦	قول عليّ «قَصَمَ ظَهْرِي رَجُلَانِ..»	٣١	السرُّ في افتتاح بعض السور بالحروف المقطعة
٥٨	سبب تقتيل الذكور من بني إسرائيل	٣٢	انقسام الناس إلى مؤمنين، وكافرين، ومنافقين
٦٣	ما هو الحجر الذي نبع منه الماء؟	٣٢	أوصاف المؤمنين الفاضلة
٦٦	قصة البقرة ومعجزة إحياء الميت	٣٣	أوصاف الكافرين ومصيرهم في الآخرة
٦٩	في سورة البقرة ذكر إحياء الموتى في خمسة مواضع	٣٥	صفات المنافقين الشنيعة
٧٣	التحريف لكلام الله نوعان	٣٧	ضرب الأمثال للمنافقين
٧٣	قصة عزم اليهود على قتل الرسول بالسُّم	٣٨	بيان من القرآن لظلمة الضلال والنفاق
٨١	سبب بغض اليهود لجبريل عليه السلام	٣٩	وصف المنافقين بعشرة أوصاف شنيعة
٨١	السرُّ في التفريق بين ﴿ولن يتمنوه﴾ و﴿ولا يتمنونه﴾	٤٠	كلام ابن القيم حول أمثال القرآن

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	٣- سورة آل عمران	٨٤	الحكمة من تعليم الملكين السحر للبشر وورود لفظ ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ في ثمانية وأربعين موضعاً من القرآن
١٨٦	أحسن ما قيل في المتشابه والمحكم	٨٧	معنى إسلام الوجه لله تعالى
١٨٦	سؤال رجل لابن عباس عن المتشابه في القرآن	٩٠	تعريف لطيف ودقيق لمعنى البدعة
١٩٠	فائدة في تخصيص الأسحار بالاستغفار	٩٢	الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم
١٩٤	لطيفة في المحاورة بين العقل والعلم	٩٥	السُّرُّ في تفضيل البيت العتيق
٢٠٠	كرامات الأولياء والأدلة عليها	٩٦	المقصود من معنى ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾
٢٠٧	سؤال الجنيد عن مكر الله وجوابه اللطيف	١٠١	الحكمة من تحويل القبلة
٢١٣	لا تحل أموال أهل الذمة إذا أدوا الجزية	١٠٥	الحكمة من تكرار الأمر باستقبال القبلة
	قصة شاس بن قيس اليهودي وما نزل في الأنصار بسبب عدو الله	١٠٧	ما هي النعم الثلاث في المصيبة؟
٢١٧	النهي عن الاختلاف في الأصول لا في الفروع	١١٦	معنى اتباع خطوات الشيطان
٢٢٣	المقصود بالأضعاف المضاعفة في الربا		فائدة هامة في سمو التعبير من ناحية حسن البيان
٢٢٩	أعمال الآخرة ينبغي لها المسارعة	١٢٠	في قوله ﴿ولكم في القصاص حياة﴾
٢٣٤	قصة أنس بن النضر رضي الله عنه	١٢٧	السُّرُّ في اقتران القتال بكلمة ﴿في سبيل الله﴾
٢٣٩	جهاد النساء في غزوة أحد	١٢٧	الحكمة من المغايرة بين «قل» و«فقل» في أجوبة الأسئلة
٢٣٩	محمد ﷺ بحر المكارم والفضائل	١٢٧	المعنى الصحيح للإلقاء بالنفس إلى التهلكة
٢٤٣	استحباب قول المؤمن «حسبنا الله ونعم الوكيل»	١٣١	الفرق بين زاد الدنيا وزاد الآخرة
٢٤٧	عند الغمِّ والأمر العظيمة	١٤٣	لماذا كانت الخمر أم الخبائث؟
٢٤٧	قصة أبي بكر مع فحاض	١٤٣	ما هي المنافع في الخمر والميسر؟
٢٥٥	أعجب ما رأته عائشة من رسول الله ﷺ	١٤٧	أول خلع كان في الإسلام
	٤- سورة النساء	١٥٣	الحكمة من إيجاب المتعة
٢٦١	كلمة لطيفة حول تعدد الزوجات في الإسلام	١٥٣	قصة تمتيع الحسن بن علي لزوجته
٢٦٥	استنباط بديع من آية ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾	١٥٥	التحقيق أن الصلاة الوسطى هي العصر
٢٦٧	في الكناية عن الجماع بالإفشاء أدب رفيع	١٦٠	قصة أبي الدرداح في تصدقه ببستانه
٢٦٨	نهي عمر عن المغالاة في المهور وردُّ امرأة عليه	١٦٣	تفسير ابن عباس للكروسي بأنه العلم
٢٧٢	خطأ فاحش ارتكبه الشيعة في المتعة	١٦٧	ملك الدنيا مؤمنان وكافران
٢٧٢	لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار	١٦٧	سؤال الخليل عن كيفية الإحياء ليست للشك
٢٧٣	قصة سعد بن الربيع مع امرأته حبيبة	١٧١	سؤال عمر للصحابية عن معنى آية
٢٧٨	السُّرُّ في ذكر الإصلاح دون التفريق	١٧٤	قول بعض الحكماء: إذا اصطنعت المعروف فاستره
٢٧٨	كلمة لطيفة حول تأديب النساء	١٧٩	العلم نوعان: كسبيٌّ ووهبيٌّ
٢٧٨	الإيجاز والإعجاز في التعبير القرآني		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٤٢	كلمة وجيزة لبيان حكمة التشريع في قطع اليد	٢٨٤	قصة إسلام عثمان بن طلحة صاحب مفتاح الكعبة
٣٤٣	قصة اليهودي الذي زنى وحكم الرسول ﷺ فيه	٢٨٤	قصة المنافق واليهودي وما نزل فيه
٣٥٢	اليهود إخوة الخنازير والقروود وما نزل فيهم		قول الصحابة: كنا في عز ونحن مشركون فلما
٣٥٤	كراهية عمر رضي الله عنه لاستعمال اليهود والنصارى	٢٨٨	آمنا صرنا أذلة!؟
٣٦٦	تنبيه هام إلى التفصيل في علة تحريم الخمر والميسر	٢٩٤	التوفيق بين آيتي الحسنه والسيئة
٣٧١	المواطن التي يكون فيها السؤال مذموماً عشرة	٢٩٤	اختلاف الصحابة في شأن المنافقين
	٦- سورة الأنعام	٢٩٨	الفارق الهائل بين حضارة الإسلام والحضارة الغربية
٣٨٢	فائدة: خمس سور ابتدأت بـ «الحمد لله»	٢٩٩	قصة طعمة بن أبيرق وجماعته المنافقين
	قصة الأخنس بن شريق مع أبي جهل بن هشام	٢٩٩	قصة الصحابي «ضمرة بن القيس» رضي الله عنه
٣٨٣	وسؤاله هل محمد صادق أم كاذب؟ وما أجابه به	٣٠٥	تفاخر المسلمين وتفاخر أهل الكتاب
٣٩٤	وجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة	٣١٠	العدل بين النساء الذي أمر به الإسلام
٣٩٥	ما هي مفاتيح الغيب؟	٣١٤	معنى آية ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾
٤٠٢	كلام إبراهيم في الشمس والقمر كان للمناظرة		أسماء جهنم السبعة «جهنم، لظى، الحطمة،
٤٠٧	الصحيح أن «أزر» والد إبراهيم	٣١٤	السعير، سقر، الجحيم، الهاوية»
٤٠٨	معنى إخراج الحي من الميت والميت من الحي	٣١٤	تنبيه هام للتفريق بين النفاق والكفر
	آية ﴿لا تدركه الأبصار﴾ نفي للإحاطة لا نفي	٣١٩	الرد على بهتان النصارى في زعمهم صلب المسيح
٤١٢	للرؤية في الآخرة	٣٢٢	معنى أن المسيح عيسى بن مريم من روح الله
٤١٨	القول في الدين بمجرد التقليد حرام	٣٢٣	قصة الطبيب النصراني ومناظرته للواقدي
٤٢٣	قصة الصحابي الذي وأدا ابنته في الجاهلية		٥- سورة المائدة
٤٢٣	بحث الرسل من الإنس لا من الجن	١٣١	قصة الفيلسوف الكندي الذي عزم على معارضة القرآن
٤٢٧	فائدة: التحريم يعلم بالوحي لا بالهوى	٣٣١	الفارق بين المبدأ الجاهلي والمبدأ الإنساني
٤٢٨	ما هي الوصايا العشر؟	٣٣١	قصة اليهودي مع عمر بن الخطاب وفضل آية من القرآن
٤٣٢	الحكمة من التفضيل بين الخلق	٣٣٤	كفر من زعم حلول الله في الصور من جهلة الصوفية
٤٣٣	سبيل الحق واحد، وطرق الضلال كثيرة	٣٣٧	السُرُّ في تسمية أرض فلسطين الأرض المقدسة
٤٣٣	كثيراً ما يقرون القرآن بين آيات الرغبة والرغبة	٣٣٧	استنباط دقيق من القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه
	٧- سورة الأعراف	٣٣٨	قصة قابيل وهابيل وسبب قتل قابيل لأخيه
٤٣٦	الحكمة من الحروف المقطعة بيان إعجاز القرآن		عقوبة قطاع الطريق والرهط من عرينة الذين
٤٣٧	سؤال الرسل توبيخ للمجرمين والعصاة	٣٣٨	قتلوا راعي النبي ﷺ
٤٣٧	كيف توزن الأعمال يوم القيامة؟	٣٤٢	معنى النفي من الأرض وهل يدخل فيه الحبس
٤٣٨	الأدلة على أن إبليس من الجن وليس من الملائكة	٣٤٢	قصة الأصمعي مع الأعرابي وآية السرقة
٤٤٢	الغرض الخبيث من الدعوة إلى تعري المرأة	٣٤٢	اعتراض بعض الملاحدة على قطع يد السارق

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	معنى آية ﴿اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾	٤٤٢	لماذا سميت العورة سواة؟
٥٠٠	قصة اجتماع إبليس اللعين مع المشركين بدار الندوة.	٤٤٣	كيف كان العرب يطوفون حول الكعبة؟
٥٠١	للمؤمنين أمانان: نبيُّ الله، والاستغفار	٤٤٧	من هم أصحاب الأعراف؟
٥٠٣	تنبيهه إلى وجوب إجابة دعاء الرسول ﷺ	٤٤٨	ما معنى نسيان الله للكافر؟
٥٠٥	لطيفة في قول معاوية لرجل: ما أجهل قومك حين ملكتهم امرأة؟	٤٤٩	علم الأبدان وعلم الأديان وقصة الطبيب النصراني معنى الاستواء على العرش وتوضيح مذهب السلف فيه
٥٠٥	قول أبي جهل في بدر والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، ونشرب الخمر. الخ	٤٥٠	آداب الدعاء والساعات التي يستجاب فيها سبب سكنى بني إسرائيل في مصر
٥٠٨	معنى قوله تعالى ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾	٤٥٤	السبب في تأجيل مناجاة موسى لربه
٥١١	تنبيهه إلى أن القوة نوعان: مادية وروحية	٤٦٢	تنبيه هام إلى رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة
٥١٢	استشارة النبي ﷺ لأصحابه في أسرى بدر	٤٦٢	سماع كلام الحبيب يزيد في الشوق والحنين
٥١٢	أخذه لرأي أبي بكر وما نزل من العتاب	٤٧٢	السعادة والشقاوة بيد الله تعالى
٥١٣	قصة أسر العباس ومعجزة واضحة لرسول الله ﷺ في إخباره بما قاله لزوجته أم الفضل	٤٧٢	قصة أصحاب القرية الذين مسخوا قرده وخنازير
٥١٣	٩- سورة التوبة	٤٧٨	معنى استخراج ذرية آدم من صلبه وأخذ العهد عليهم
٥١٩	سورة التوبة كشفت أسرار المنافقين	٤٨١	قصة «بلعم بن باعورا» الذي أعطاه الله العلم ثم ارتد عن الدين وكفر بالله.
٥١٩	السر في عدم وجود البسمة فيها	٤٨٢	هل أسماء الله الحسنى محصورة في التسعة والتسعين؟
٥٢٠	أسماء سورة التوبة أربعة عشر اسمًا	٤٨٥	الحكمة في إخفاء الساعة عن العباد
٥٢٠	توبيخ الصحابة للعباس وتغيرهم له بالشرك	٤٨٦	التحقيق العلمي في آية ﴿أشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون﴾ وقصة آدم وحواء
٥٢٠	قول العباس: مالكم تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا	٤٨٧	قصة إسلام معاذ بن جبل ومعاذ بن الجموح وتكسيهما لأصنام المشركين
٥٢٧	عمارة المساجد نوعان: حسية، ومعنوية	٤٨٧	الأدلة على بطلان عبادة الأصنام والأوثان
٥٢٧	لطيفة في قصة أعرابي طلب تعليمه القرآن	٤٨٨	كيف يدفع الإنسان عنه كيد الشيطان؟
٥٣٠	معنى آية ﴿إنما المشركون نجس﴾	٤٩٠	فائدة الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم
٥٣٠	من لطائف الاستعارات قوله ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾	٤٩٠	٨- سورة الأنفال
٥٣٢	قول الرسول لأبي بكر: ما ظنك باثنين الله ثالثهما!!	٤٩١	النداءات الإلهية للمؤمنين في سورة الأنفال
٥٣٦	اتفاق المفسرين على أن أبا بكر كان صاحب الرسول في الغار	٤٩٤	صفات المؤمنين الكاملين وكلام ابن الخطيب إمداد المؤمنين بالملائكة يوم بدر
٥٣٦	علو قدر الرسول ﷺ وسمو منزلته عند ربه	٤٩٦	التوفيق بين إمدادهم بألف وبنلثة آلاف
٥٣٧	تقديم العفو على العتاب تكريم للرسول عليه السلام	٤٩٩	قصة «أبو لبابة» واستشارة اليهود له
٥٣٧		٥٠٠	

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	١٠- سورة يونس	٥٣٨	المعنى الصحيح لكنز الأموال
٥٧٢	الحكمة من الحروف المقطعة التنبيه على إعجاز القرآن	٥٣٩	تنبيه على عظيم فضل الصديق رضي الله عنه
٥٧٣	معنى الاستواء على العرش ومذهب السلف الصالح		قصة «صفوان بن عمرو» وخروجه للجهاد وهو
٥٧٣	قول الحافظ ابن كثير في معنى الاستواء	٥٣٩	شيخ هرم
٥٧٤	السُّرِّيُّ في تخصيص الشمس بالضياء والقمر بالنور	٥٣٩	قصة «الجد بن قيس» المنافق وما نزل فيه
	القرآن مشتمل على نفائس علم الأصول،	٥٤٤	لطيفة في معنى آية ﴿وقيل اقعديا مع القاعدين﴾
	ودقائق علم الأحكام، ولطائف علم	٥٤٤	تنبيه عن سبب دخول المنافقين في الإسلام
٥٧٦	الأخلاق . الخ	٥٥٠	قول علي: بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسيف
٥٧٦	هذا القرآن جاء به نبيُّ أميُّ يعلمون أحواله	٥٥٠	الأمر التي يتميز بها المؤمن عن المنافق
٥٧٨	قصة إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه		قصة ثعلبة المنافق وهو غير ثعلبة بن أبي حاطب
٥٨٥	اكتشاف البشر لنواميس الكون	٥٥١	الصحابي المشهور.
٥٨٨	معنى القرآن شفاءً لما في الصدور	٥٥١	النهي عن الصلاة على المنافقين وما نزل في ابن سلول
٥٨٩	من هم أولياء الله؟		السُّرِّيُّ في ذكر السبعين في قوله ﴿إن تستغفر لهم
٥٨٩	معنى البشارة للمؤمن في الحياة الدنيا	٥٥٦	سبعين مرة﴾
٥٩١	أمر الله رسوله بالخلف في ثلاثة مواضع		الصلاة على الميت استغفاراً له واستشفاعاً والكافر
٥٩١	تنبيه إلى المراد من قوله «أرأيت»	٥٥٦	ليس أهلاً لذلك
٥٩٢	الغرض من ذكر قصص الأنبياء		لماذا كان عمر يقول لحذيفة: هل عدني رسول
٥٩٦	معنى قول الله تعالى ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾	٥٥٦	الله من المنافقين؟
٥٩٨	الغرض من نجاة بدن فرعون بعد غرقه	٥٥٧	قصة أبو عامر الراهب الذي تنصّر في الجاهلية
٥٩٩	ذكر قصة قوم يونس عليه السلام	٥٥٧	مسجد الضرار وأمر الرسول ﷺ بإحراقه
٦٠٠	سنة الله في إنجاء الرسل والمؤمنين	٥٦٣	لطيفة في قصة «زيد بن صوحان» مع الأعرابي
		٥٦٣	تنبيه هام إلى أن «عسى» من الله واجبة
		٥٦٤	قصة أبي طالب لما حضرته الوفاة وما نزل فيه
		٥٦٥	التحقيق في أن أبا طالب مات على الكفر
		٥٦٥	معنى قوله تعالى ﴿السائحون الراكعون الساجدون﴾
		٥٦٧	الثلاثة الذين تحلفوا عن غزوة تبوك
		٥٦٦	لماذا سميت غزوة تبوك بغزوة العسرة؟
		٥٦٨	لا ينبغي خروج جميع المسلمين إلى الغزو
		٥٦٨	معنى آية ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾
		٥٧٠	قصة «أبي خيثمة الأنصاري» مع زوجته الحسنة
		٥٧٠	السُّرِّيُّ في ختم السورة بقول ﴿حسبي الله ونعم الوكيل﴾
		٥٧٠	رحمة الرسول ﷺ وشفقته على أمته

فهرس موضوعات المجلد الثاني

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	١٢- سورة يوسف		١١- سورة هود
٣٩	السورة أسلوب فريد في ألفاظها، وتعبيرها، وأدائها	٦	معنى تفصيل الآيات
٣٩	إفراد الحديث في هذه السورة عن قصة يوسف الصديق	٧	الأخنس بن شريق وعداوته للرسول ﷺ
٣٩	سورة يوسف مما يتفكه به أهل الجنة في الجنة	٩	تحريضه ﷺ على تبليغ الدعوة
٤٠	السُرُّ في تكرار قصص الأنبياء في القرآن	١١	الاستغفار مع الإصرار على الذنب توبة الكذابين
٤٣	تأمر إخوة يوسف على أخيهم	١٢	التدرج في التحدي من عشر سور إلى سورة
٤٣	المحنة الأولى ليوسف إلقاؤه في الحب	١٢	الأنواع التسعة المشتملة على وجوه الإعجاز
٤٤	المحنة الثانية تعرضه للاسترقاق والاستعباد	١٢	تسليية الرسول ﷺ بذكر قصص الأنبياء
٤٥	لطيفة في امرأة تحاكت إلى شريح فبكت	١٣	القصة الأولى قصة نوح عليه السلام
٤٥	التحقيق في أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء	١٥	أصح الأقوال في المراد بالتور
٤٦	المحنة الثالثة عشق امرأة العزيز له ومراودته عن نفسها	١٨	العبرة بقراءة الدين لا النسب
٤٧	معنى آية ﴿ولقد همَّت به وهمَّ بها﴾	١٨	تنبيه إلى أسرار الإعجاز في آية كريمة
٤٧	أقوال المفسرين في الهمِّ والبرهان	١٩	مشاهد رائعة من قصة نوح عليه السلام
٥٠	المحنة الرابعة محنة دخوله السجن	٢٠	القصة الثانية قصة هود عليه السلام
٥١	دعوته إلى الله وهو في السجن	٢٢	القصة الثالثة قصة صالح عليه السلام
٥٣	فائدة في عتاب جبريل ليوسف	٢٣	القصة الرابعة قصة إبراهيم عليه السلام
٥٣	القرآن يجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة	٢٥	السُرُّ في التفريق بين شهادة الله والقوم
٥٣	شطحات بعض المفسرين في تفسير الهمِّ	٢٦	القصة الخامسة قصة لوط عليه السلام
٥٣	التحقيق في براءة يوسف الصديق	٢٨	القصة السادسة قصة شعيب عليه السلام
٥٤	عشرة وجوه من القرآن تشير إلى براءته عليه السلام	٣١	القصة السابعة قصة موسى وهارون عليهما السلام
٥٥	الرؤيا التي رآها الملك في منامه وطلب تعبيرها	٣١	أنواع العذاب الذي أصاب أهل مدين والسُرُّ في
٥٦	تفسير الصديق لرؤيا الملك	٣١	ذكر الصيحة والرجفة . . الخ
٥٦	امتناع يوسف عن الخروج من السجن إلا بعد البراءة	٣٤	معنى آية ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾
٥٧	سبب مجيء إخوة يوسف لمصر	٣٤	المراد من الاستثناء في قوله ﴿إلا ما شاء ربك﴾
٦٠	ثناء الرسول على يوسف في صبره وكرمه وحلمه	٣٥	الميل إلى الظلمة موجب لنار جهنم
٦٠	لطيفة في ميل النساء نحو يوسف حتى نبأه الله	٣٦	ضرورة هجران أهل الفسق والمعاصي
٦٤	سبب فقد يعقوب لبصره حزنه على ولديه	٣٧	معنى قوله تعالى ﴿ولذلك خلقهم﴾
٦٦	لطيفة ذكرها القاضي عياض	٣٨	فائدة إلى لطيفة من الأسرار القرآنية
٧١	تنبيه على وجه الاعتبار بقصة يوسف	٣٨	تنبيه إلى خلود أهل الجنة والنار

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	١٥- سورة الحجر		١٣- سورة الرعد
١٠٥	الحروف المقطعة للإشارة إلى إعجاز القرآن	٧٢	وجه التسمية بسورة الرعد
١٠٦	اتهام الكفار للرسول ﷺ بالجنون	٧٢	جمع في السحاب بين الرحمة والعذاب
١٠٦	حفظ الله للقرآن من الزيادة والنقصان	٧٣	قصة الجبار من الفراعنة الذي هلك بالصاعقة
١٠٧	البراهين الدالة على وحدانية الله	٧٣	معنى الاستواء على العرش والتحقيق فيه
١١١	قصة الرجل الذي أراد أن يتحن الأديان	٧٤	لا منافاة بين لفظ البسط وكروية الأرض
١١٢	قصة ضيف إبراهيم الخليل	٧٤	معنى آية ﴿جعل فيها زوجين اثنين﴾
١١٧	تنبيه إلى الجمع بين آيتين في القرآن	٧٤	البراهين والأدلة على وجود الله من مخلوقاته
	١٦- سورة النحل	٧٨	لماذا سميت الملائكة معقبات؟
١٢٠	وسائل حديثه في عصرنا أشار إليها القرآن	٧٨	ماذا يُقال عند سماع صوت الرعد؟
١٢٣	المشركون يجلسون بمدخل مكة يحذرون من الرسول	٧٩	مثلان ضربهما القرآن للحق والباطل
١٢٣	مكر المجرمين بأنبيائهم لإطفاء نور الله	٨٠	المثل الأول للماء النازل من السماء
١٢٤	سبب تسمية سورة النحل بسورة النعم	٨٠	المثل الثاني للمعادن التي يوقد عليها الناس
١٢٨	معنى سجود الظلال للواحد الديان	٨٠	كلام سيد قطب حول المثليين
١٢٩	استنباط دقيق أن النبوة خاصة بالرجال	٨٥	فائدة في أن النسب لا ينفع بدون العمل الصالح
١٢٩	تنبيه إلى أن الاحتجاج بالقدر حجة باطلة	٨٥	تنبيه على احتجاج القرآن البليغ على المشركين
١٣٢	العبرة الإلهية في خروج اللبن بين الفرث والدم	٨٨	لطيفة في أن نقصان الأرض بموت علمائها
١٣٣	المناسبة اللطيفة بذكر العقل في آية الخمر		١٤- سورة إبراهيم
١٣٣	السُرُّ في خروج العسل من النحل	٨٩	السُرُّ في تسمية السورة سورة إبراهيم
١٣٦	مثلان لبطلان عبادة الأوثان	٩٠	كلُّ نبي أرسل بلغته قومه
١٤٤	التغليظ لجريمة الردة عن الإسلام		فائدة السر في التفريق بين لفظة «يذبحون» في
١٤٤	عَمَّارٌ ملىء إيماناً من فرقه إلى قدمه	٩١	البقرة «ويذبحون» هنا
١٤٥	السُرُّ في الاستعاذة قبل قراءة القرآن	٩٥	خطبة إبليس البتراء في جهنم
١٤٦	مثل ضربه الله تعالى لأهل مكة	٩٧	مثلان لكلمتي الكفر والإيمان
١٤٨	إبراهيم خليل الرحمن أمة وحده	٩٧	تثيبت المؤمن في القبر عند سؤال الملكين
١٤٩	الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة	٩٧	كفر أهل مكة لنعمة الله
	١٧- سورة الإسراء	٩٨	الدلائل والبراهين على وجود الخالق
١٥١	لماذا بدئت سورة الإسراء بالتسبيح؟	٩٩	إبراهيم حصن التوحيد والإيمان
١٥٦	الحكمة في إسرائه إلى بيت المقدس	١٠٠	دعوات الخليل إبراهيم لأهل مكة
١٥٦	مقام العبودية أشرف المقامات العلية	١٠١	مشاهد القيامة وما فيها من أهوال
١٥٧	مكارم الأخلاق التي دعا إليها القرآن	١٠٣	الحكمة من تعريف البلد هنا وتنكيره في البقرة

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٥٣	لطيفة في سرِّ بديع من بلاغة القرآن	١٦٢	لطيفة في دقائق التعبير القرآني
٢٥٣	فائدة في التمثيل بالعشر واليوم	١٧٠	الصحيح أن المراد بالإمام كتاب الأعمال
	٢١- سورة الأنبياء	١٧٤	لطيفة في الحقيقة والمجاز في القرآن
٢٥٥	معنى آية ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾	١٧٨	ما هي الآيات التسع التي أعطيتها موسى؟
٢٥٩	فائدة في كيفية تسبيح الملائكة عليهم السلام		١٨- سورة الكهف
٢٦٥	تفسير ابن عباس لمعنى ﴿كانتا رتقا ففتقناهما﴾	١٨٣	قصة أصحاب الكهف كما ذكرها المفسرون
٢٦٨	قصة إبراهيم وتحطيمه للأصنام	١٨٧	معنى آية ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾
٢٦٩	قصة داود وسليمان	١٩١	قصة صاحب الجنتين الظالم لنفسه
٢٧١	قصة أيوب وابتلائه بأنواع المحن	١٩٣	مثل للحياة الدنيا يصوره القرآن
٢٧٧	سيدنا محمد ﷺ الرحمة العظمى لجميع الخلق	١٩٥	معنى الباقيات الصالحات..
	٢٢- سورة الحج	١٩٦	قصة موسى عليه السلام مع الخضر
٢٨٠	سبب تسميتها بسورة الحج	١٩٨	الكرامات التي ظهرت على يد الخضر
٢٨٣	معنى آية ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله﴾	٢٠٣	تنبيه على كرامات الأولياء من الآيات والأخبار
٢٨٥	فائدة في الفرق بين الرضع والمرضة	٢٠٣	قصة ذي القرنين ورحلاته الثلاث
٢٨٥	تنبيه على من تحدّث في المشيئة والقدر	٢٠٦	من هم يأجوج ومأجوج، والسرُّ في بناء السدِّ
٢٨٧	إبراهيم وبناء البيت العتيق		١٩- سورة مريم
	أصح ما قيل في تفسير ﴿إذا تمنى ألقى الشيطان	٢١١	قصة نبي الله زكريا وولده يحيى
٢٩٤	في أمنيته﴾ وانظر الحاشية.	٢١٣	قصة مريم العذراء وولدها عيسى
٢٩٩	مثل للأصنام وعابديها من روائع الأمثال	٢١٣	السرُّ في تمثيل جبريل لمريم بصورة إنسان
	٢٣- سورة المؤمنون	٢١٤	كيف حملت العذراء بعيسى عليه السلام؟
٣٠٤	الأطوار التي مرَّ بها خلق الإنسان	٢١٧	لماذا كان يوم القيامة يوم الحسرة؟
٣٠٦	تنبيه في ذكر أربعة دلائل من دلائل القدرة	٢٢٣	تنبيه في عمر إبراهيم والمدة بينه وبين آدم
٣٠٦	فائدة في فضل الآيات العشر من سورة المؤمنون	٢٢٤	قصة خبَّاب مع العاص بن وائل
٣١١	لفظ «البشر» يطلق على المفرد والجمع	٢٢٤	التحقيق في معنى الورود على جهنم
٣١٦	قصة إسلام «ثمامة بن أثال»	٢٢٨	لطيفة في نصيحة ابن السماك للمأمون
٣٢٠	العوامل ثلاثة «عالم الدنيا، والبرزخ، والآخرة»		٢٠- سورة طه
	٢٤- سورة النور	٢٣٢	الحكمة من إخفاء وقت الساعة والموت
٣٢٤	سبب تسميتها بسورة النور	٢٣٥	فائدة في نفع موسى لأخيه هارون
٣٢٦	أحسن ما قيل في تفسير ﴿الزاني لا ينكح إزانية﴾	٢٣٥	تنبيه إلى ممن الله العديدة على موسى
٣٢٨	حادثة الإفك ومعنى ﴿بل هو خير لكم﴾	٢٤٦	سبب عبادة بني إسرائيل العجل
٣٣١	لماذا بدىء في الزنى بالمرأة، وفي السرقة بالرجل؟	٢٥٠	معنى الحياة الضنك لمن عصى الله

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٩٩	لطيفة فيما أنشده الفرزدق لسليمان بن عبد الملك	٣٣١	تنبيه إلى فائدة ذكر الإحصان
	٢٧- سورة النمل		لطيفة: لماذا عدل عن قوله ﴿تَوَابٌ رَحِيمٌ﴾ إلى
٤٠٠	سبب تسمية السورة بسورة النمل	٣٣١	قوله ﴿تَوَابٌ حَكِيمٌ﴾؟
٤٠٦	لطيفة في بيان ذكاء النملة في خطابها	٣٣٤	معنى آية ﴿الْحَبِيثَاتُ لِلْحَبِيثِينَ﴾
٤٠٩	من هو الذي عنده علمٌ من الكتاب؟		فائدة: ما رضي الله لعائشة ببراءة صبي ولانبي
٤١١	استحباب تفقد الملك لأحوال الرعية	٣٣٨	حتى برأها الله في القرآن
٤١٤	الدلائل والبراهين على وحدانية رب العالمين	٣٣٩	لطيفة في قصة قسيس أراد الطعن في عائشة
٤١٩	خروج الدابة التي تكلم الناس	٣٤٦	لطيفة في إسلام أحد علماء الطبيعة
٤٢١	حرمة البلد الأمين بلد الإسلام	٣٥١	وجوب تعظيم مقام الرسول وتفخيم شأنه
	٢٨- سورة القصص	٣٥٢	فائدة في أن من حَكَّم السنة نطق بالحكمة، ومن
٤٢٥	قصة موسى وتربيته في بيت فرعون	٣٥٢	حَكَّم الهوى نطق بالبدعة
٤٢٧	قتل موسى للقبطي وخروجه من مصر	٣٥٢	قيل لبعضهم: من أحبُّ إليك أخوك أم صديقك؟
٤٢٩	قصة الأصمعي مع الجارية		٢٥- سورة الفرقان
٤٤٤	تنبيه على موت أبي طالب على غير الإيمان	٣٥٦	ما أكرم الله به الرسول ﷺ
٤٤٥	طغيان قارون بسبب الغنى	٣٥٩	لطيفة في أن الله يعطي على حسب الحكمة
٤٤٩	لطيفة في القناعة وفضلها	٣٥٩	قصة «عقبة بن أبي معيط» وما نزل فيه
	٢٩- سورة العنكبوت	٣٦٣	تنبيه هجران القرآن أنواع وكلام ابن القيم
٤٥١	سبب تسمية السورة بسورة العنكبوت	٣٦٥	الأشياء تعرف بأضدادها
٤٥١	قصة سعد بن أبي وقاص مع أمه المشركة	٣٦٨	الفرق بين «ميت» و«ميتت»
٤٥٨	فاحشة اللواط خاصة بقوم لوط	٣٦٨	تفسير آية ﴿فاسألْ به خبيراً﴾
٤٦١	مثلٌ رائع ضربه القرآن للأوثان وعابديها	٣٧٢	وصف تعالى «عباد الرحمن» بإحدى عشرة خصلة
٤٦٣	قصة الذي كان يقوم الليل ثم يسرق		٢٦- سورة الشعراء
٤٦٧	الحياة الدنيا كما يصورها القرآن	٣٧٤	معنى قوله «محدث» أي في نزوله لا في وصفه
٤٦٩	وجوب الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام	٣٧٦	المناظرة التي جرت بين موسى الكليم وفرعون
	٣٠- سورة الروم	٣٨١	لطيفة في تدرج موسى بالمناظرة بطريق الحكمة
٤٧٠	أهداف سورة الروم	٣٨٤	راعى الخليل جانب الأدب في نسبة المرض إلى نفسه
٤٧١	معجزة غيبية أخبر عنها القرآن	٣٨٦	تنبيه إلى لقاء إبراهيم لأبيه أزر في القيامة
٤٧٥	الكفار يعلمون ظاهر الحياة الدنيا	٣٩١	معجزة صالح في خروج الناقة من صخر أصم
٤٧٥	آيات الله الجليلة المنبثة في الكون	٣٩٦	إنذاره ﷺ لعشيرته وأقربائه
٤٨٥	تنبيه على سماع الميت وإحساسه	٣٩٩	لطيفة فيما كان ينشده عمر بن عبد العزيز
		٣٩٩	تنبيه الشعر حسنه حسنٌ وقبيحه قبيح

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٤١	الرد على من أباح كشف الوجه وطائفة من أقوال الأئمة المفسرين.	٤٩٠	٣١- سورة لقمان
٥٤٣	٣٤- سورة سبأ	٤٩٤	وصايا لقمان الحكيم لابنه
٥٥٠	سبب تسميتها بسورة سبأ	٤٩٨	تنبيه على أن شكر الله مقدم على شكر الوالدين
٥٥٦	قصة الجنيتين وسبيل العرم	٥٠٠	مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله
٥٥٨	اعتزاز المشركين بالمال والبنين	٥٠٢	٣٢- سورة السجدة
٥٥٩	سؤال الملائكة لتقريع وتوبيخ المشركين	٥٠٤	أهداف السورة الكريمة
٥٥٩	نصيحة الرسول ﷺ لأهل مكة	٥٠٧	الإحكام والإتقان في خلق الرحمن
٥٦٣	٣٥- سورة فاطر	٥٠٧	صفات المؤمنين الأبرار
٥٦٤	أهداف سورة فاطر	٥٠٩	دلائل القدرة والوحدانية
٥٦٦	الملائكة وسائط بين الله ورسله	٥١١	٣٣- سورة الأحزاب
٥٧٦	الشیطان عدو لدود للإنسان	٥١٣	المقاصد الأساسية للسورة الكريمة
٥٧٧	الوراثة الربانية للأمة المحمدية	٥١٨	قصة «جميل بن معمر الفهري» ذي القلبين
٥٧٨	انقسام الأمة إلى ظالم ومقتصد وسابق	٥١٨	من هم الأحزاب؟ وما هو موقف المنافقين؟
٥٧٨	استغاثة الكفار في جهنم	٥٢٠	تنبيه هام إلى قدر الرسول عليه السلام
٥٨١	معنى آية ﴿وجاءكم النذير﴾	٥٢٤	ما الفائدة بأمر الرسول بالتقوى وهو سيد المتقين؟
٥٨١	بيان لحلم الله ورحمته بعباده	٥٢٧	سبب نزول آية الخيار وتخيير الرسول لزوجاته
			هل صوت المرأة عورة؟
			ردشبهات المستشرقين حول زواج الرسول بزینب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٩٧	مشاهد الآخرة وأهوال يوم الحساب	٩	٣٦- سورة يس
٩٩	قصة الإيمان والطغيان ممثلة في دعوة موسى لفرعون	١٠	قصة أهل القرية الذين كذبوا الرسل
١٠٠	مؤمن آل فرعون ونصحه لقومه	١٣	نصح حبيب النجار لقومه
١٠٥	المخاصمة بين الكبراء والضعفاء في نار جهنم	١٥	دلائل القدرة والوحدانية في الكون
١٠٩	دلائل القدرة والوحدانية في الآفاق والأنفس	٢١	كلام سيد قطب حول دوران الشمس؟
١١٢	إيمان الكفار عند معاينة الأهوال	٢٦	قصة «أبي بن خلف» وما نزل فيه
	٤١- سورة فصلت		تنبيه هام إلى تمثل الرسول ﷺ بالشعر
١١٤	مقاصد السورة الكريمة وأهدافها		٣٧- سورة الصفات
١١٥	القرآن هو المعجزة الدائمة الخالدة للرسول ﷺ	٢٩	سرُّ القسم بالملائكة الأطهار
١١٨	تفصيل لما حلَّ بعادٍ وثمود من العذاب	٣٤	قصة المؤمن والكافر وما دار بينهما من حوار
١٣٢	فضل المؤمن الداعي إلى الله	٣٩	قصة الخليل إبراهيم والإبتلاء بذبح ولده
١٢٨	طبيعة الإنسان الجحود والنكران لنعمة الله	٤٤	يونس عليه السلام في بطن الحوت
	٤٢- سورة الشورى	٤٥	افتراءات المشركين والرد القاطع عليها
١٣٢	مكانة الشورى في الإسلام		٣٨- سورة ص
١٣٧	أهوال الساعة واستعجال المشركين لها	٥١	طلب المشركين من أبي طالب كف الرسول عنهم
١٤١	فائدة في أن المصائب لتكفير السيئات	٥٤	فريضة عظيمة على داود عليه السلام وردّها
١٤١	تنبيه على أنه لا يستبعد وجود مخلوقات في الكواكب	٥٩	قصة سليمان عليه السلام والكلام حول فتنته
١٤٦	الوحي وأقسامه وتكليم الله للرسول	٦٤	تخاصم الرؤساء والأتباع في جهنم
	٤٣- سورة الزخرف	٦٥	قصة خلق آدم عليه السلام وسجود الملائكة له
١٤٩	مقاصد السورة الكريمة وأهدافها	٦٥	التحقيق في أن إبليس لم يكن من الملائكة
١٥٢	مظاهر المجتمع الجاهلي والخرافات والأساطير		٣٩- سورة الزمر
١٥٦	اقتراح المشركين بنزول القرآن على رجل عظيم	٦٨	الأدلة والبراهين على وحدانية الله في إبداع الخلق
١٦٠	منطق العناد والطغيان في قصة فرعون	٧٨	مثلٌ من يعبد إلهاً واحداً ومن يعبد آله متعددة
	نزول عيسى بن مريم في آخر الزمان من	٨٢	الوفاة الكبرى والوفاة الصغرى
١٦٢	علامات الساعة	٨٥	لا ينبغي القنوط من رحمة الله تعالى
١٦٤	في الجنة ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين	٨٨	سوق المجرمين إلى جهنم زمراً، والمتقين إلى
	٤٤- سورة الدخان		الجنة زمراً
١٧٠	القرآن ونزوله في ليلة مباركة		٤٠- سورة غافر
١٧١	دعاء الرسول ﷺ على قريش بسبب كفرهم	٩٤	مجادلة الكافرين في آيات الله

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	٤٩- سورة الحجرات	١٧٢	الدخان من علامات الساعة الكبرى
٢٣٢	وجوب التأدب في مقام النبي ﷺ	١٧٧	قصة أبي جهل مع الرسول وما نزل فيه
٢٣٣	التثبت من الأخبار لا سيما أخبار الفسقة	١٧٧	المقام الأمين الذي أعده الله للمتقين
٢٣٤	دعوة المؤمنين إلى الإصلاح بين المتخاصمين		٤٥- سورة الجاثية
٢٣٧	التحذير من الغيبة والنميمة والتجسس	١٨١	الآيات الكونية المنبئة في هذا العالم الفسيح
٢٣٩	تنبيه إلى ما أرشدت إليه السورة من مكارم الأخلاق	١٨٥	قصة أبي جهل مع الوليد بن المغيرة
٢٣٩	لطيفة فيما حدث بين الصحابة من القتال	١٨٦	لا يتساوى عند الله المؤمنون والمجرمون
	٥٠- سورة ق	١٨٨	لا يبقى أحد يوم القيامة إلا جثا على ركبته
٢٤٠	مقاصد السورة الكريمة وأهدافها	١٨٩	معنى نسيان الله تعالى للكفرة المجرمين
٢٤١	القضية التي أنكرها كفار قريش قضية البعث		٤٦- سورة الأحقاف
٢٤٤	الملكان الموكلان كاتب الحسنات وكاتب السيئات	١٩٢	ضلال وخطأ المشركين في عبادتهم للأوثان
٢٤٦	جهنم مأوى المجرمين واللجنة مأوى المتقين	١٩٤	قصة إسلام عبد الله بن سلام
٢٤٨	صيحة الحق التي يخرج الناس فيها من القبور	١٩٥	نموذج الولد الصالح المستقيم في فطرته
	٥١- سورة الذاريات	١٩٦	نموذج الولد الشقي المنحرف عن الفطرة
٢٥١	دلائل القدرة والوحدانية في الكون الفسيح	١٩٨	قصة نبي الله هود مع قومه المتجبرين
٢٥٣	قصص الرسل الكرام صلوات الله عليهم	٢٠٢	قصة النفر من الجن الذين استمعوا القرآن
٢٥٥	قصة ضيف إبراهيم من الملائكة		٤٧- سورة محمد ﷺ
٢٥٦	قصة موسى مع فرعون الطاغية	٢٠٤	أهداف السورة ومقاصدها الأساسية
٢٦٠	لطيفة في قصة الأعرابي حول الزرق	٢٠٧	طريق العز والنصر التمسك بالدين
	٥٢- سورة الطور	٢١١	المنافقون أخطر على الإسلام من المشركين
٢٦١	مقاصد السورة الكريمة وأهدافها	٢١٤	الدعوة إلى الصلح ذل وهوان
٢٦٣	قصة إسلام جبير بن مطعم	٢١٤	الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس
٢٦٧	افتراءات المشركين وسفاهاتهم		٤٨- سورة الفتح
٢٧٠	أمر الرسول ﷺ بالصبر على قضاء الله	٢١٧	فضل السورة الكريمة سورة الفتح
	٥٣- سورة النجم	٢١٨	صلح الحديدية بداية للفتح الأعظم
٢٧١	الحديث عن معراج النبي ﷺ	٢٢٠	بيعة الرضوان التي بايع فيها المؤمنون الرسول
٢٧٤	رؤية الرسول للبيت المعمور وسدرة المنتهى	٢٢٠	الحديث عن المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد
٢٧٨	قصة الوليد بن المغيرة وما نزل فيه	٢٢٦	رؤيا الرسول ﷺ في المنام دخول المسجد الحرام
٢٨١	تنبيه حول أشهر أصنام المشركين	٢٢٨	ثناء الله العاطر على صحابة الرسول ﷺ

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٤٢	موالاة المنافقين لليهود	٢٨٣	٥٤- سورة القمر
٣٤٥	أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله	٢٨٢	معجزة انشقاق القمر للرسول ﷺ
٣٤٨	٥٩- سورة الحشر	٢٨٥	أهوال القيامة وشدائدها
٣٥١	جلاء اليهود عن المدينة المنورة	٢٩٠	مصارع المكذبين وما نالهم من الدمار
٣٥٣	المهاجرون والأنصار ومآثرهم		إنكار الكفار للقضاء والقدر وما نزل فيهم
٣٥٨	موالاة المنافقين لأعداء الله		٥٥- سورة الرحمن
	قصة الصحابي الذي آثر ضيفه على أهله	٢٩٢	فضل السورة الكريمة
	٦٠- سورة الممتحنة	٢٩٣	تعداد نعم الله الباهرة على العباد
٣٥٩	التحذير من موالاة أعداء الله	٢٩٧	تفسير خاطيء لآية ﴿لا تنفذون إلا بسلطان﴾
٣٦٠	قصة حاطب بن أبي بلتعة وما نزل فيه	٢٩٨	أهوال القيامة وحال الأشقياء المجرمين
٣٦٢	القراية والنسب والصدقة لا تنفع في الآخرة	٣٠١	مآل المتقين في الآخرة ونعيمهم في الجنة
٣٦٤	امتحان المؤمنات المهاجرات		٥٦- سورة الواقعة
٣٦٥	مبايعة الرسول ﷺ للمؤمنات	٣٠٤	فضل سورة الواقعة
	٦١- سورة الصف	٣٠٦	انقسام الناس إلى طوائف ثلاث
٣٦٩	سنة الله في نصرته دينه وأنبيائه	٣٠٦	أهل اليمين وما أعد الله لهم
٣٧٤	دعوة المؤمنين إلى التجارة الربحية	٣٠٦	أهل الشمال وما ينالهم من العذاب
٣٧٦	تنبيه إلى السبب في قرن قصة موسى وعيسى	٣٠٧	السابقون المقربون أصحاب الدرجات الرفيعة
	٦٢- سورة الجمعة	٣١٢	الأدلة والبراهين على قدرة الله ووحدانيته
٣٧٨	بعثة خاتم الرسل ﷺ من العرب	٣١٤	معجزة القرآن حول مواقع النجوم
٣٧٩	الحديث عن اليهود وانحرافهم عن شريعة الله		٥٧- سورة الحديد
٣٧٩	المثل المخزي الذي ضربه القرآن لعلماء سوء	٣١٨	مقاصد السورة الكريمة وأهدافها
٣٨١	السعي بهمة لأداء فريضة الجمعة	٣٢٢	وجوب التضحية بالنفس والمال لإعزاز الدين
	٦٣- سورة المنافقون	٣٢٣	قصة أبي الدحداح الأنصاري رضي الله عنه
٣٨٣	أخلاق المنافقين وصفاتهم الذميمة	٣٢٧	حقيقة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل
٣٨٤	قصة عبد الله بن سلول رأس المنافقين	٣٢٩	الغاية من بعثة الرسل الكرام
٣٨٩	فائدة في التمييز بين العزة والكبر		٥٨- سورة المجادلة
٣٨٩	لطيفة فيمن يسأل الرجعة عند الموت	٣٣٣	مقاصد السورة الكريمة وأهدافها
	٦٤- سورة التغابن	٣٣٤	نصه خولة بنت ثعلبة التي ظاهر منها زوجها
٣٩١	جلال الله وعظمته وآثار قدرته	٣٣٨	حكم التناجي وأعمال المنافقين واليهود

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٤٤٣	استعجال المشركين للعذاب الذي وعدوا به	٣٩٣	في الآخرة يظهر غبن الكافر وخسارته
٤٤٣	صور عن شدائد وأهوال القيامة		٦٥- سورة الطلاق
٤٤٨	تنبيه إلى طبائع البشر	٣٩٧	مقاصد السورة الكريمة وأهدافها
	٧١- سورة نوح	٣٩٨	الطلاق السني والطلاق البدعي
٤٤٩	أهداف السورة الكريمة ومقاصدها	٤٠٠	قصة عوف بن مالك وثمرة التقوى
٤٥١	جهاد نوح عليه السلام وتضحيته وصبره	٤٠٠	أحكام العدة وعدة اليأس والحامل والصغيرة
٤٥٤	دعوة نوح على قومه وهلاكهم بالطوفان	٤٠٢	هلاك الأمم الباغية التي عنت عن أمر الله
٤٥٥	فائدة في الاستدلال على عذاب القبر		٦٦- سورة التحريم
	٧٢- سورة الجن	٤٠٧	سبب تحريم الرسول ﷺ لجاريته مارية القبطية
٤٥٧	استماع الجن للقرآن وإيمانهم به	٤٠٨	النهي عن إفشاء السرّ لا سيما بين الزوجين
٤٥٩	استراقهم للسمع وإرسال الشهب عليهم	٤٠٨	مثل للزوجة الكافرة في عصمة الرجل المؤمن
٤٦٠	انقسام الجن إلى فريقين: مؤمنين وكافرين	٤١٢	مثل للزوجة المؤمنة في عصمة الكافر
	٧٣- سورة المزمل		٦٧- سورة الملك
٤٦٤	سيرة الرسول ﷺ في تبته وطاعته وقيامه الليل	٤١٤	مقاصد السور الكريمة وأهدافها
٤٦٥	تكليف الرسول الكريم بتبليغ الوحي	٤١٩	الأدلة والشواهد على عظمة الله وقدرته
	٧٤- سورة المدثر	٤٢١	الإندار والتحذير للمكذابين بيوم الدين
٤٧٢	جوانب من شخصية الرسول الأعظم ﷺ		٦٨- سورة القلم
٤٧٥	قصة «الوليد بن المغيرة» وما نزل فيه	٤٢٥	الشبه التي أثارها الكفار حول رسالته ﷺ
٤٧٧	خزنة جهنم تسعة عشر من الزبانية الأشداء	٤٢٧	قصة أصحاب الجنة «البيستان»
	٧٥- سورة القيامة	٤٢٩	المقارنة بين المؤمنين والمجرمين
٤٨٤	السرّ في آية ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾		٦٩- سورة الحاقة
٤٨٧	حالة الإنسان وقت الاحتضار	٤٣٤	أهوال يوم القيامة وشدائدها
٤٨٨	إثبات البعث بالأدلة والبراهين العقلية	٤٣٥	قصص الأقوام المكذبين للرسول
	٧٦- سورة الإنسان	٤٣٧	حال السعداء والأشقياء في الآخرة
٤٩١	بيان قدرة الله في خلق الإنسان في أطوار	٤٣٩	البرهان القاطع على صدق القرآن
٤٩٤	نعيم أهل الجنة وما أعدّه الله للأبرار	٤٤٠	تنبيه إلى قصة إسلام عمر بن الخطاب
	٧٧- سورة المرسلات		٧٠- سورة المعارج
٥٠١	دلائل قدرة الله الباهرة على إحياء الخلق	٤٤١	أهداف السورة الكريمة ومقاصدها

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	٨٤- سورة الانشقاق	٥٠٣	مآل المجرمين ومآل المتقين في الآخرة
٥٣٧	مشاهد الآخرة كما يصورها القرآن		٧٨- سورة النبأ
٥٣٩	موقف المشركين من هذا القرآن المبين	٥٠٧	إقامة الدلائل والبراهين على قدرة الله
	٨٥- سورة البروج	٥٠٩	الحديث عن جهنم وأهوالها
٥٤١	قصة أصحاب الأخدود	٥١٠	ما أعدّه الله للمتقين في دار الكرامة
٥٤٣	هلاك الطغاة المكذبين من الأمم السابقة		٧٩- سورة النازعات
	٨٦- سورة الطارق	٥١٢	القسم بالملائكة الأبرار التي تدبر شؤون الخلق
٥٤٥	إثبات إعادة الإنسان بعد فناءه	٥١٥	قصة فرعون الطاغية الذي ادعى الربوبية
٥٤٦	الحديث عن القرآن معجزة محمد الخالدة	٥١٥	طغيان أهل مكة وتمردهم على الرسول
	٨٧- سورة الأعلى	٥١٧	بيان وقت الساعة الذي استبعده المشركون
٥٤٨	الحديث عن عظمة الله وجلاله وعظيم سلطانه		٨٠- سورة عبس
٥٤٩	الوحي والقرآن المنزل على خاتم الأنبياء	٥١٩	قصة الأعمى الذي جاء الرسول ﷺ يستفتيه
	٨٨- سورة الغاشية	٥٢٠	جحود الإنسان وكفرانه لنعم الله
٥٥٣	الأدلة والبراهين على قدرة الله وعظمته	٥٢١	فرار الإنسان من أحبابه يوم القيامة
٥٥٤	تنبيه على بكاء عمر بن الخطاب لرؤية راهب		٨١- سورة التكوير
	٨٩- سورة الفجر	٥٢٣	مقاصد السورة الكريمة وأهدافها
٥٥٧	بيان سنة الله تعالى في ابتلاء العباد	٥٢٤	الانقلاب الهائل في الكون عند قيام الساعة
٥٥٨	الحديث عن الآخرة وأهوالها والنفس المطمئنة	٥٢٥	حقيقة الوحي وصفة النبي الصادق
	٩٠- سورة البلد		٨٢- سورة الانفطار
٥٦١	القسم بالبلد الحرام مسكن النبي عليه الصلاة والسلام	٥٢٨	بيان لمشاهد القيامة وأهوالها
٥٦٢	اغترار الكفار بما منحهم الله من مال وبنين	٥٢٨	جحود الإنسان وكفرانه لنعم الله
	٩١- سورة الشمس	٥٢٩	انقسام الناس يوم القيامة إلى أبرار وفجار
٥٦٦	موضوع النفس الإنسانية وما جبلت عليه من الخير والشر	٥٣٠	لطيفة في سؤال الخليفة سليمان لأبي حازم
٥٦٧	موضوع الطغيان ممثلاً في قصة ثمود		٨٣- سورة المطففين
	٩٢- سورة الليل	٥٣١	إعلان الحرب على المطففين في الكيل والوزن
٥٦٩	بيان سبيل السعادة وسبيل الشقاء في الآخرة	٥٣٣	رؤية المؤمنين لربهم في الجنة
		٥٣٥	استهزاء المؤمنين بالكفرة المجرمين في الآخرة

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٦٠٠	تفسير سورة الهمزة (١٠٤)	٥٧٠	مثل رائع في البذل والإنفاق لأبي بكر رضي الله عنه
٦٠٤	تفسير سورة الفيل (١٠٥)	٥٧٢	تفسير سورة الضحى (٩٣)
٦٠٦	تفسير سورة قريش (١٠٦)	٥٧٥	تفسير سورة الانشراح (٩٤)
٦٠٨	تفسير سورة الماعون (١٠٧)	٥٧٧	تفسير سورة التين (٩٥)
٦١٠	تفسير سورة الكوثر (١٠٨)	٥٨٠	تفسير سورة العلق (٩٦)
٦١٣	تفسير سورة الكافرون (١٠٩)	٥٨٤	تفسير سورة القدر (٩٧)
٦١٥	تفسير سورة النصر (١١٠)	٥٨٦	تفسير سورة البينة (٩٨)
٦١٧	تفسير سورة المسد (١١١)	٥٩٠	تفسير سورة الزلزلة (٩٩)
٦٢٠	تفسير سورة الاخلاص (١١٢)	٥٩٢	تفسير سورة العاديات (١٠٠)
٦٢٣	تفسير سورة الفلق (١١٣)	٥٩٥	تفسير سورة القارعة (١٠١)
٦٢٥	تفسير سورة الناس (١١٤)	٥٩٧	تفسير سورة التكاثر (١٠٢)
		٦٠٠	تفسير سورة العصر (١٠٣)

* * *

صِفْوَةُ النَّفْسَانِ

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين المأثور والمعقول ، مستمد من أوثق كتب التفسير
« الطبري ، الكشاف ، القرطبي ، الألوسي ، ابن كثير ، البحر المحيط » وغيرها
بأسلوب مبسّط ، وتنظيم حديث ، مع العناية بالوجه البَيَانِي واللغوية

المجلد الأول

تأليف

محمد علي الصّابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

دار القرآن الكريم

بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة الناشر

الحمد لله الذي شرفنا بخدمة كتابه المجيد، وحبب إلينا السهر على العناية بطباعته، ونشر علومه وتراثه وهديه، ويسر لنا الصعاب في سبيل ذلك، والصلاة والسلام على خير عباد الله ورسله الأبرار، سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن عمل بهدي الكتاب والسنة إلى يوم الدين.

وبعد، فقد سبق أن قدمنا للقراء الكرام، وللمكتبة القرآنية، من تأليف فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني، كتاب «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام» بمجلدين، و«مختصر تفسير ابن كثير» بثلاثة مجلدات كبيرة، لاقى كل منها وما يزال ترحيب وتقدير العلماء، وإقبال طلبة العلم، والشباب المثقف، لما امتازا به من وضوح في العبارة، وتجنب التعقيد والإطالة، ودقة في اختيار أصح الأقوال المعتمدة، في تفسير كتاب الله العظيم.

ويسعدنا في مستهل القرن الخامس عشر الهجري أن نقدم للقراء الكرام، عملاً جديداً جليلاً لفضيلة الشيخ الصابوني هو «صفوة التفاسير»، وهو بحق اسم على مسمى، جمع فيه المؤلف صفوة ما حوته أمهات التفاسير المعتمدة، ونسق بين أطيب ثمارها وأزهارها، بأسلوب واضح مبسط، ونهج علمي جامعي، يغني طلاب العلم والمعرفة عن العودة إلى المراجع الكبيرة، وبذل الجهد الشاق في البحث والتقصي عن المعنى المطلوب، كما اختصر الطريق للشباب الإسلامي المثقف، ممن لا صبر لهم على المطولات، ولا تشفي غليلهم المختصرات المكثفة.

وأترك القارئ الكريم، يتعرف على مزايا هذا التفسير الجديد الجليل، من خلال مقدمة المؤلف الفاضل، التي يعرض فيها منهجه في «صفوة التفاسير»، الذي جاء ثمره جهود دائبة، وصبر طويل، وعمل متواصل، دام أكثر من خمسة أعوام كاملة، قضاها المؤلف بالغوص في بحار من المراجع وأمهات التفاسير، دون كلل أو ملل، حتى جمع صفوتها وزبدتها، جمّع الذواق الخبير المتمكن، وقد أعانه الله تبارك وتعالى على ذلك، وبسط له البركة في وقته وصحته، وأيده بالتوفيق، حتى أتم هذا العمل الموفق الكبير.

ويسرنا أن نقدمه للقراء الكرام، بثوب قشيب، وطباعة أنيقة، وإخراج بديع، كما عودناهم في سائر مطبوعاتنا القرآنية، بعد أن بذلنا فيه جهداً كبيراً، استغرق أكثر من عامين من العمل الجاد، في التصحيح والمراجعة والتدقيق والترتيب، ليكون خلواً من أخطاء الطباعة، محاولين بلوغ أقصى ما نقدر عليه من الكمال البشري، نسأل الله جلّ جلاله، أن يتقبل منا، وينفع به، ويجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، والحمد لله رب العالمين.

كلمة سماحة الدكتور عبد الحليم محمود

شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين وبعد :
فقد أطلعني الأخ الأستاذ محمد علي الصابوني على شيء من كتابه الجديد « صفوة التفاسير » وهو كتاب تحرى فيه المؤلف ذكر أصح الآراء في تفسير كتاب الله تعالى مع الاختصار والسهولة ، وإذا كان اختيار المرء قطعة من عقله ، فإنه لا شك أن المؤلف وفق توفيقاً كبيراً في الاختيار من أمهات كتب التفاسير التي رجع إليها على علم وبصيرة .

وليس هذا هو الكتاب الأول للمؤلف في موضوع القرآن فقد سبق أن اختصر كتاب « تفسير ابن كثير » وكان اختصاره لهذا الكتاب العظيم مفيداً نافعاً خلا من كل تعقيد .

ولقد اختص آيات الأحكام في القرآن الكريم بمؤلف مستقل سماه : « روائع البيان في تفسير آيات الأحكام » ، وهو كتاب يبين الأحكام في المرجع الأول لها وهو الكتاب الكريم .

وسبق أيضاً أن ألف في علوم القرآن الكريم تحت عنوان : « التبيان في علوم القرآن » ، وها هو يتوج كل هذه الدراسات بكتاب نفيس هو زهور رائعة لكثير مما أنتجته قرائح أسلافنا رضوان الله عليهم في التفسير .

ونرجو الله سبحانه له التوفيق وأن يهدي سبحانه لكتابه ويهدي به إنه سميع قريب مجيب .

عبد الحليم محمود
شيخ الجامع الأزهر

مكة المكرمة ٢٧ صفر ١٣٩٦ هـ
٢٧ فبراير ١٩٧٦ م

كلمة سماحة الشيخ عبداللّٰه بن حميد

رئيس مجلس القضاء الأعلى

الرئيس العام للإشراف الديني على السجده الحرام

الحمد لله وحده ، وبعد بناء على طلب الأخ فضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي الصابوني المدرس بجامعة الملك عبد العزيز كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة أن أكتب تقريراً لكتابه « صفوة التفاسير » بعد أن قرأ عليّ بنفسه بعض المواضيع من هذا الكتاب ولم يتسع الوقت لسماعه كله .

فقد أجاد المؤلف وأفاد فيما سمعته من كتابه جزاءه الله خيراً ، كما اجتهد في جمعه واختار أصح الأقوال وأرجحها في تفسير كتاب الله وجمع في هذا التفسير بين المأثور والمعقول ، بأسلوب واضح ، وطريقة حديثة سهلة ، يذكر بين يدي السورة خلاصة للمقاصد الأساسية لها . يوضح معاني الكلمات وبيان اشتقاقها . والمناسبة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة ، ويبين السبب الذي نزلت من أجله الآيات . يبدأ بتفسير الآيات دون وجوه الإعراب ، ويذكر الفوائد التي لها علاقة بالآيات والمستنبطة منها ، ويوضح بيان الصور البيانية والنكات البلاغية .

نسأل الله لنا وله التوفيق والسداد وأن يعم النفع بهذا الكتاب ويمجزي المؤلف على ما بذل من جهد .

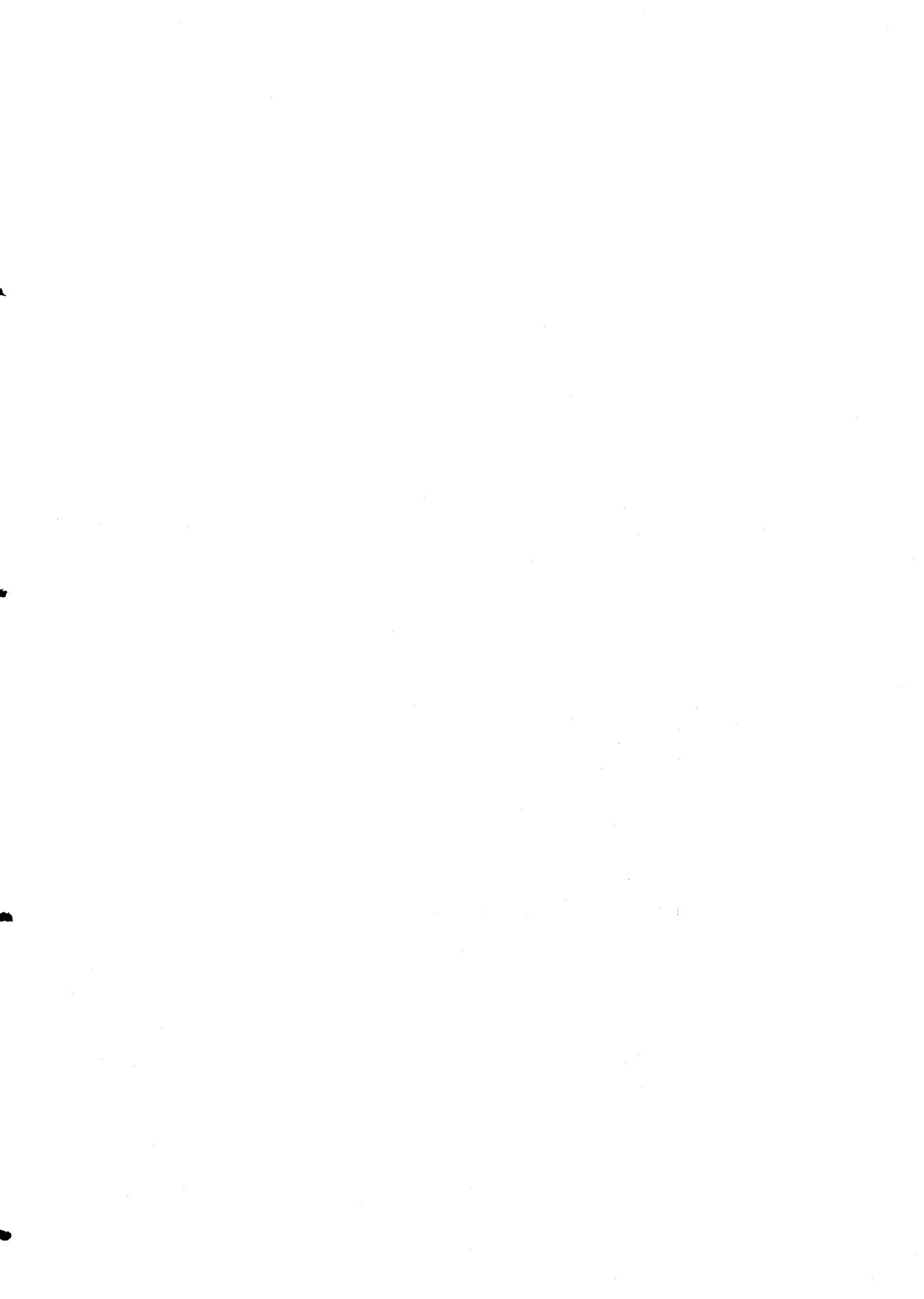
والله الموفق وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم . . .

عبداللّٰه بن حميد

رئيس مجلس القضاء الأعلى

الرئيس العام للإشراف الديني على السجده الحرام

٧ / ٤ / ١٣٩٧ هـ



كلمة سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

رئيس ندوة العلماء بلكنهو - الهند

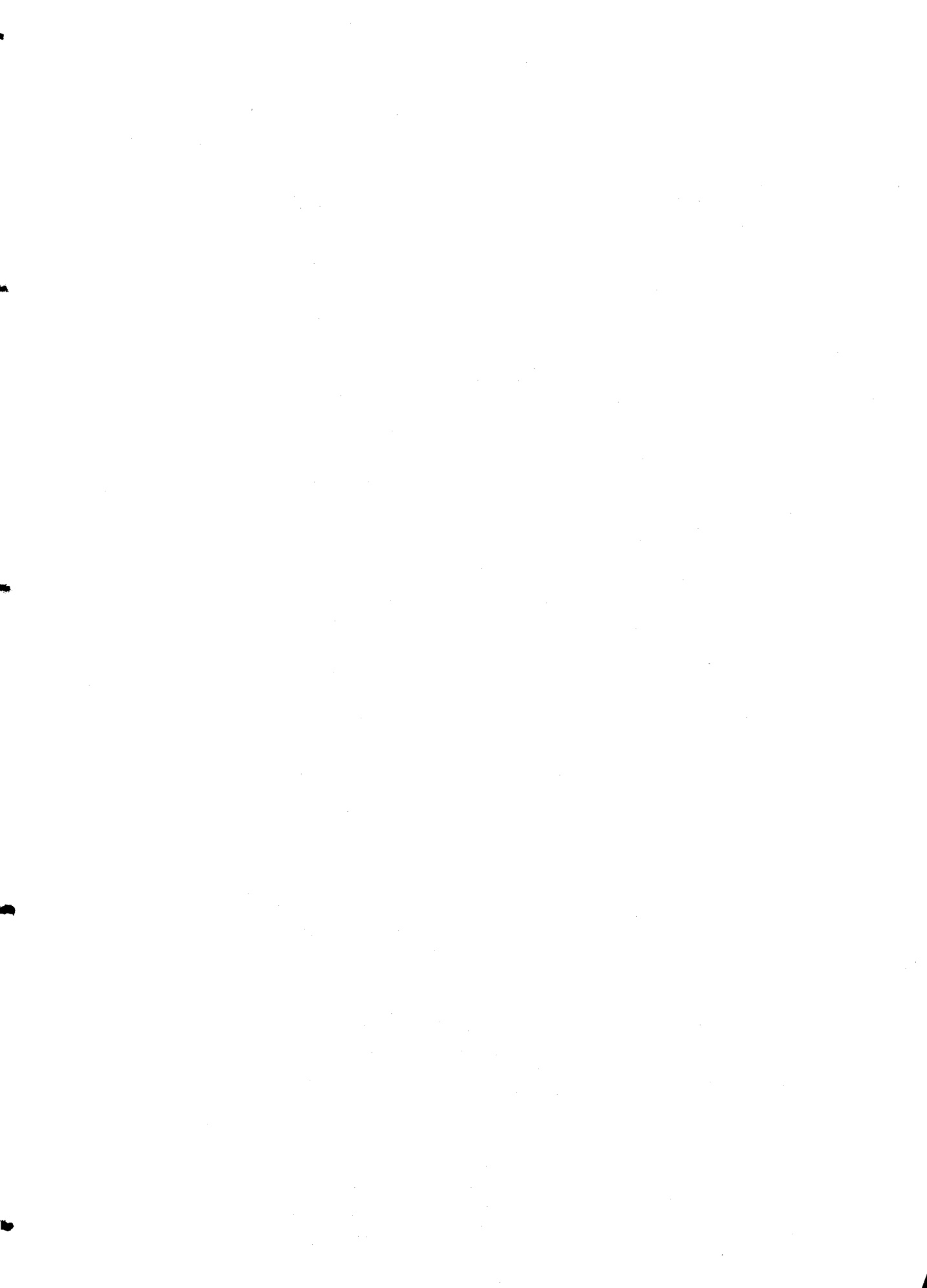
الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فقد كان الاتجاه العلمي السائد في عصور التأليف الإسلامي الأولى هو الاستيعاب الشامل لكل ما قيل ورُوي في الموضوع ، فكانت كتب المؤلفين في التفسير ، والحديث ، والسيرة ، والتاريخ أشبه بموسوعات علمية . وإن كانت لهذا الاتجاه والأسلوب الشائع فوائد أعظمها صيانة هذه الثروة العلمية من الضياع ، وتمكين القارئ من اختيار ما هو أوفق وأقرب إلى ذوقه فقد أحدث مشكلة - خصوصاً في هذا العصر - وهي أن الطالب المبتدئ والمتوسط يحار في اختيار أقرب الأقوال إلى الصواب ، ويتشتت ذهنه فلا يرسخ فيه قول واحد ويمجد نفسه في غابة ملتفة من الأقوال والآراء والمذاهب ، ولذلك مال كثير من المؤلفين في كل عصر إلى الانتقاء من هذه الكتب الموسوعية ، واختيار أقرب الأقوال وأقواها ، فكانت لهذه الكتب فائدة عظيمة وفضل كبير على طلبة العلم .

وكان هذا العصر من أحوج العصور إلى هذا الأسلوب من التأليف لقصر الوقت وضعف الهمم وتشتت الأذهان ، لذلك كان صديقنا الفاضل فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني موفقاً كل التوفيق في وضع كتابه « صفوة التفاسير » فقد وفر على طلبة علم التفسير وقتاً طويلاً وأخذ بيدهم إلى ما هو عصارة دراسته وخلاصة التفاسير ، لا يقدر على ذلك إلا من توسعت دراسته وسلم ذوقه وحسنت ممارسته لفن التدريس ، فاستحق بذلك شكر طلبة العلم والمشتغلين بفن التفسير جزاه الله خيراً وأثابه وتقبل عمله .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

مكة المكرمة
١٣٩٦/٤/٩ هـ



كاتبه معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف

مدير جامعة الملك عبد العزيز

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على عبده ورسوله نبينا الأمين، محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين..

وبعد:

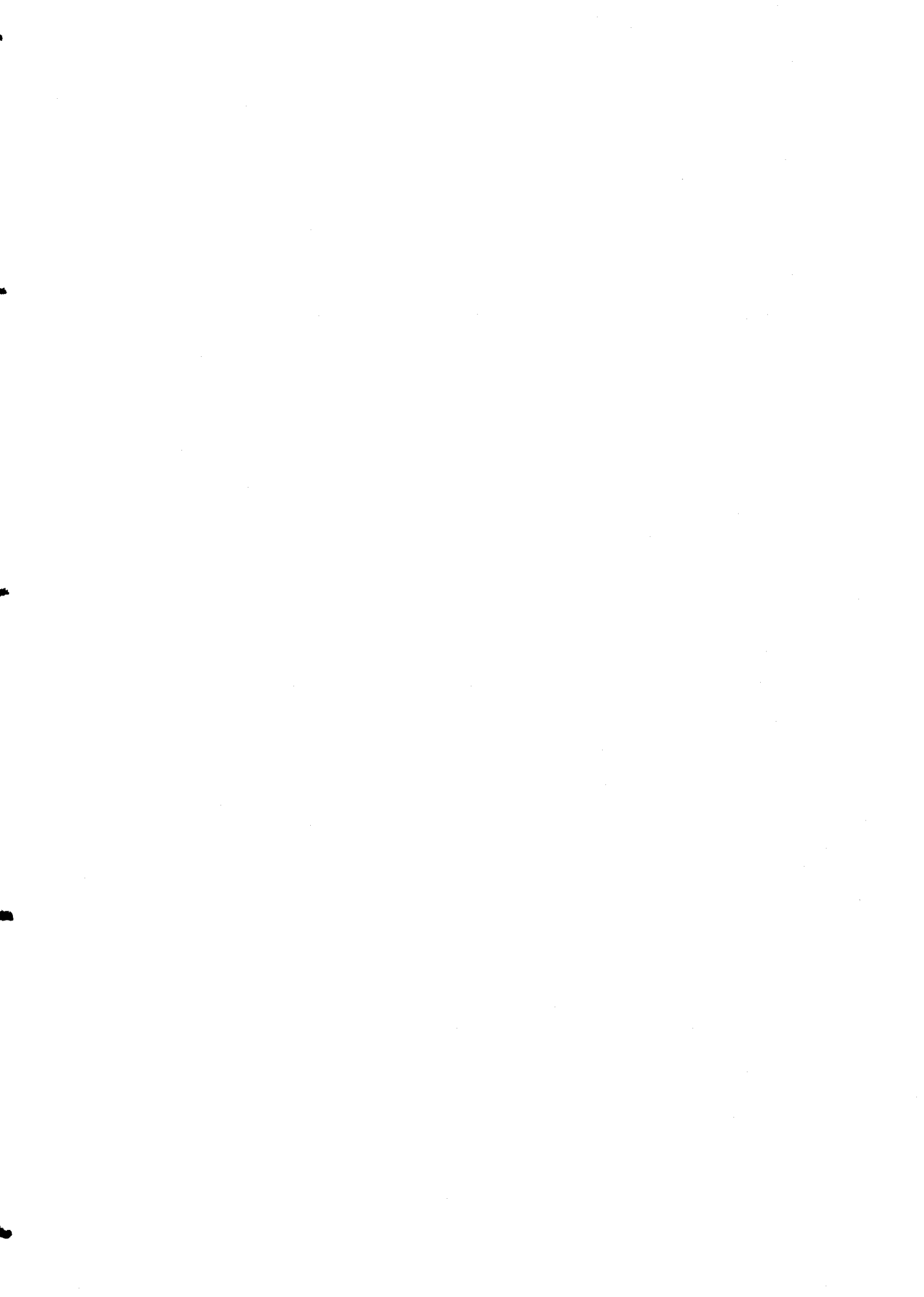
فإن أشرف ما يقدمه الباحثون، وأسمى ما يسعى إليه المؤلفون، في بحوثهم وتآليفهم، ما كان في خدمة القرآن العظيم، وعلومه الجليلة الزاهرة. . وشرف الإنسان بشرف الرسالة التي يحملها، والغاية التي يسعى من أجل تحقيقها. . وليس ثمة جهدٌ يضاهي جهد العلماء، فإنهم مشاعل النور والضياء، في كل زمان ومكان، ولهذا رفع الله قدرهم، وأعلى شأنهم بقوله جل ثناؤه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ﴾. . وإن هذا العمل الجليل، الذي قام به فضيلة الأخ العزيز الشيخ محمد علي الصابوني أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة، من استخلاص مجموعة من تفاسير القرآن الكريم، لعددٍ من جهاذة الأئمة المفسرين، لتكون في متناول العلماء وطلاب العلم على حد سواء، هو توفيقٌ من الله سبحانه وتعالى للمؤلف، فقد مكّنه جلّ وعلا من تقديم هذه الكنوز العظيمة، في سفرٍ واحد هو «صفوة التفاسير» ليسهل على الباحثين مهمة الاطلاع والفهم لكتاب الله عزّ وجل. . والله أسأل أن يثيب فضيلة المؤلف على عمله، وأن ينفع به المسلمين، وأن يجزيه عنهم خير الجزاء إنه وليّ ذلك والقادر عليه، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

د. عبد الله عمر نصيف

مدير جامعة الملك عبد العزيز

جدة : ١٥ صفر ١٤٠٠ هـ

الموافق: ٣ يناير ١٩٨٠ م



كلمة معادة الدكتور راشد بن راجح

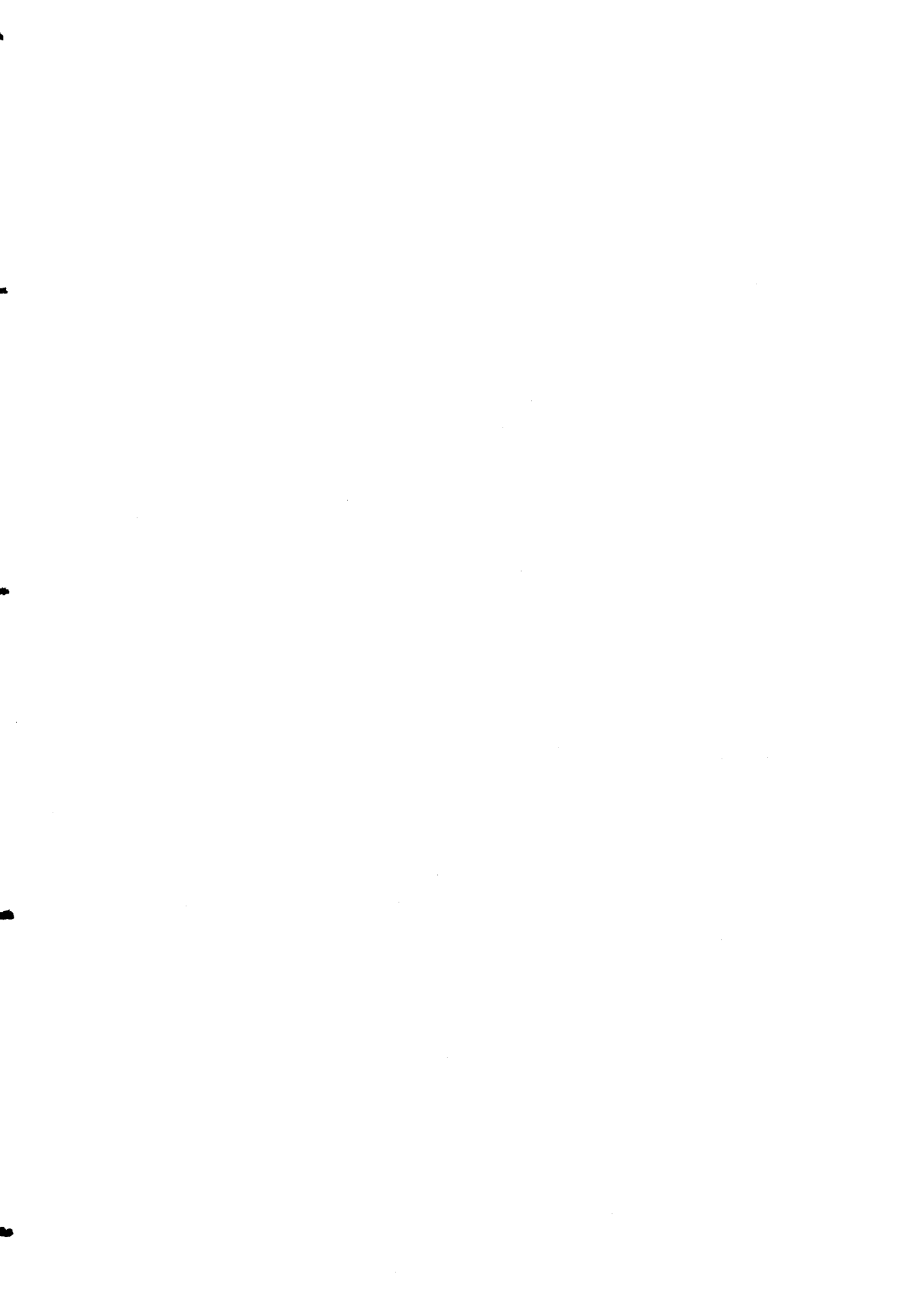
عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ، لقد اطلعت على كتاب « صفوة التفاسير » لفضيلة الشيخ الفاضل الأستاذ محمد علي الصابوني وقرأت بعض صفحاته فألفيته كتاباً ثميناً حوى خلاصة ما قاله أئمة المفسرين ليسهل فهمه على طلبة العلم بأسلوب مبسط وعبارات ميسرة وإيضاحات جيدة مع العناية بالجوانب اللغوية والبيانية . . فهو بذلك كتاب جيد يستحق الطبع والنشر لتعم الفائدة . جزى الله مؤلفه خير الجزاء ونفع به الإسلام والمسلمين ، إنه ولي ذلك والقادر عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل .

كتبه الفقير إلى عفو مولاه راشد بن راجح الشريف عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة .

مكة المكرمة ١٥/١٠/١٣٩٦ هـ .



كلمة فضيلة الشيخ عبدالله خياط

خطيب المسجد الحرام

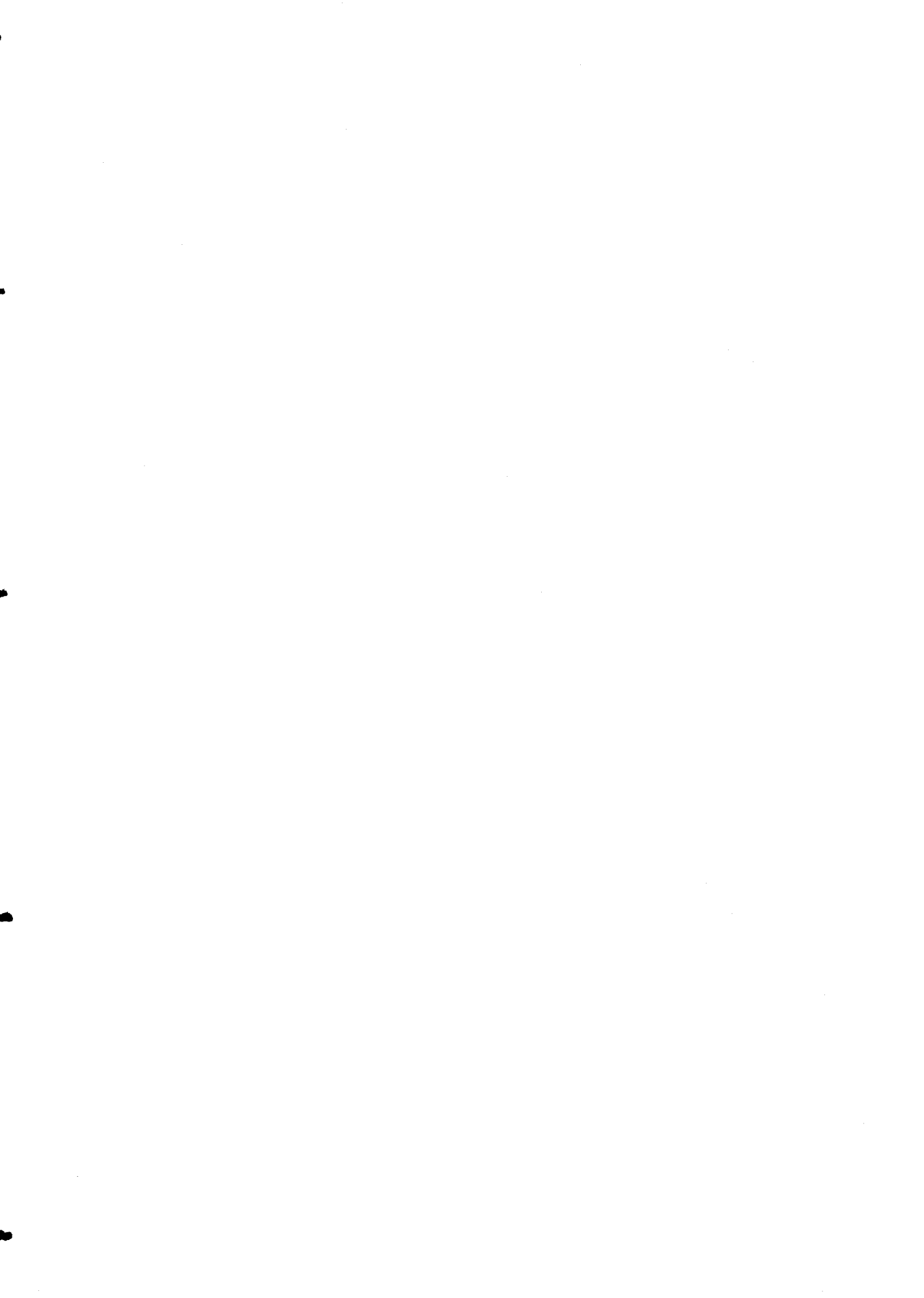
كتاب صفوة التفاسير

كنت أجد في نفسي رغبة ملحة لتفسير للقرآن الكريم في تناول طالب العلم ، يجمل ما تفرق في كتب التفسير المعتمدة ، ويغنيه عن المراجع المطولة ، ويعطيه فكرة واضحة عن لغة القرآن ، وسبب النزول ، ويسر له المعاني فيكون زاده وعدته ، فكان كتاب « صفوة التفاسير » هو الضالة المنشودة والحلقة المفقودة ، إذ قد عني مؤلفه فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني بكل ما أشرت إليه مما حقق الرغبة ، ولبى الحاجة .

والله أسأل أن ينفع به ويأجر مؤلفه على ما بذله من جهد وتضحية ، وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

وكتبه الفقير إلى الله عبد الله خياط خطيب المسجد الحرام في اليوم الخامس والعشرين من شهر شوال سنة

١٣٩٥ هجرية .



كلمة فضيلة الشيخ محمد الفزالي

رئيس قسم الدعوة وأصول الدين بكلية الشريعة بمكة المكرمة

الحمد لله أهل التقوى والمغفرة ، والصلاة والسلام على منار العلم والهدى في الدنيا والآخرة .

وبعد :

فإن الثقافة القرآنية تحتاج إلى قلم سهل العبارة ، فياض الأداء ، بعيد عن المصطلحات الفنية ، والمناقشات الفلسفية ، همه الأكبر إبراز السياق السماوي ، والوصول به إلى نفوس الجماهير دون تكلف أو التواء .

وقد نجح فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني في تحقيق هذه الغاية، إذ يسّر تفسير الكتاب العزيز، وجمع في تفسيره جملاً من أقوال الأئمة تتضمن خلاصات علمية وأدبية جعلته غنياً بالحقائق ، والحكم النافعة . وقد لاحظنا أن الشيخ محمد علي الصابوني قرن في تفسيره بين كثير من مآثورات السلف واجتهادات الخلف ، أي أنه جمع بين المنقول والمعقول - كما يقولون - فيستطيع القارئ أن يرى أمامه اللونين معاً ، وأن ينتفع بخير ما في الطريقتين .

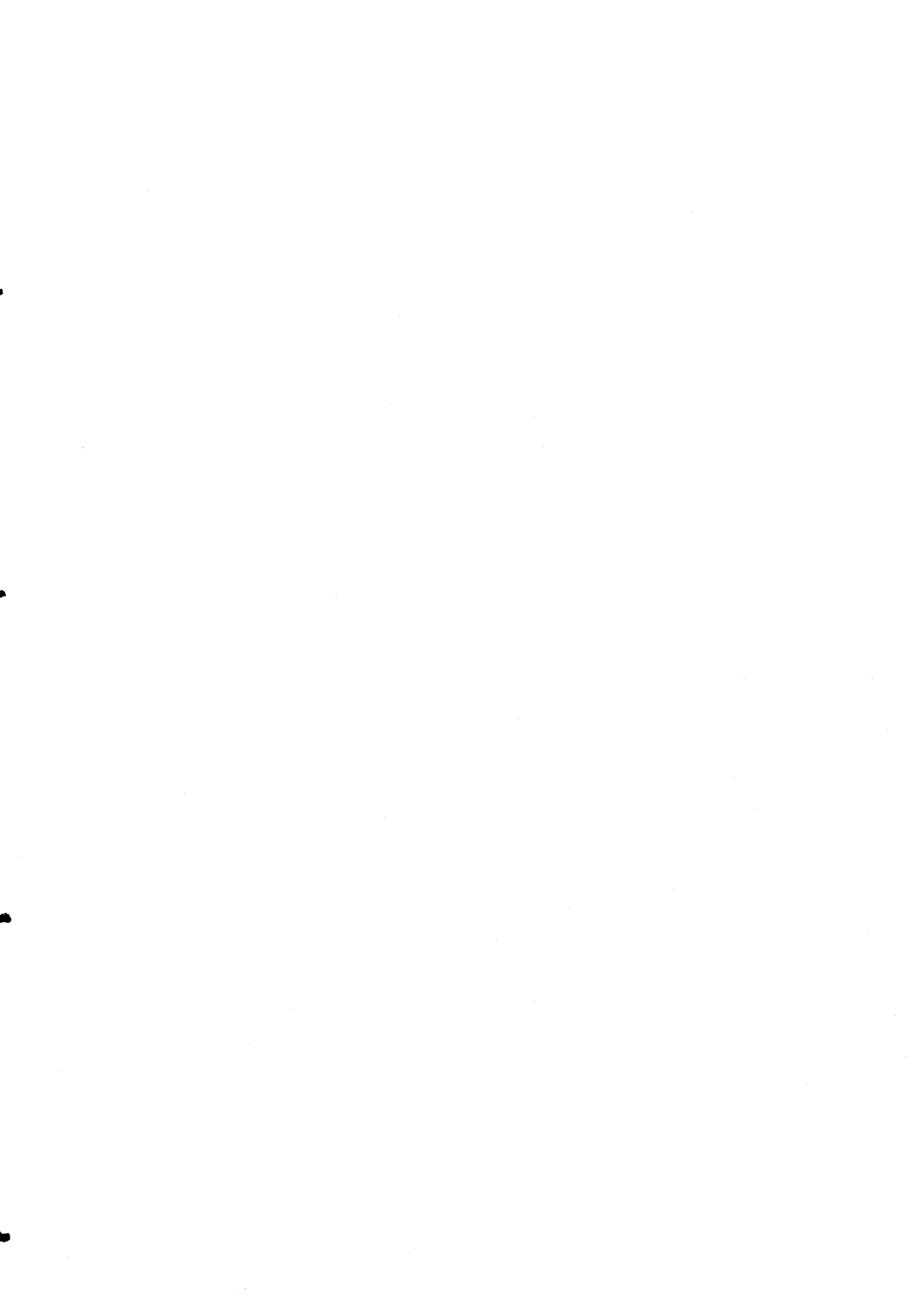
كما لاحظنا أن التفاسير الأخرى قد تجنب إلى أحد الطرفين ، فإما إيجاز شديد وإما إطراب لا يطيقه العصر ، ولكن الشيخ محمد علي الصابوني - جزاه الله خيراً - استطاع أن يتوسط في مسلكه العلمي فأفاد وأجمل كما ابتعد عن الشطط الذي وقع فيه البعض حين جازف بذكر نظريات علمية أو أحاديث نبوية لا بد في سوقها من التثبت والتمحيص .

نفع الله به وشرح الصدور له وجزاه عن الأمة كل خير .

محمد الفزالي

رئيس قسم الدعوة وأصول الدين بكلية الشريعة بمكة المكرمة

في ٦/٤/١٣٩٦ هـ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي أنار قلوب عباده المتقين بنور كتابه المبين ، وجعل القرآن شفاءً لما في الصدور وهدى ورحمةً للمؤمنين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبي العربي الأمين ، الذي فتح الله به أعيناً عمياً ، وأذناً صمماً ، وقلوباً غلغلاً ، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، صلاة وسلاماً دائماً إلى يوم البعث والنشور ، وعلى آله الطيبين الأطهار ، وأصحابه المهادين الأبرار ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ، وبعد :

فلا يزال القرآن الكريم بحراً زاخراً بأنواع العلوم والمعارف ، يحتاج من يرغب الحصول على لآئته ودرره ، أن يغوص في أعماقه ، ولا يزال القرآن يتحدثُ أساطين البلغاء ، ومصاقيع العلماء ، بأنه الكتاب المعجز ، المنزَّل على النبي الأمي شاهداً بصدقه ، يحمل بين دفتيه برهان كماله ، وآية إعجازه ، ودليل أنه تنزيل الحكيم العليم : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ .

وعلى كثرة ما كتب العلماء وألقوا - وعلى كثرة ما تحويه المكتبة الإسلامية من أسفار ضخمة ، وكتب نفيسة ، خدم بها العلماء كتاب الله الجليل - يبقى القرآن زاخراً بالعجائب ، مملوءاً بالدرر والجواهر ، يطالعنا بين حين وآخر ، بما يبهر العقول ويحير الألباب ، بما فيه من الإشراقات الإلهية ، والفيوضات القدسية ، والنفحات النورانية ، بما هو كفيلاً لتخليص الإنسانية ، من شقاء الحياة وجحيمها المستعر . . وكلُّ علمٍ شاطٍ واحترق إلا « علم التفسير » فإنه لا يزال بحراً جلياً ، يحتاج إلى من يغوص في أعماقه ، لاستخراج كنوزه الثمينة ، واستنباط روائعه وأسراره ، ولا يزال العلماء يقفون عند ساحله ، يرتشفون من معينه الصافي ولا يرتوون . . ومن ذا الذي يستطيع أن يحيط علماً بكلام رب العزة جلَّ وعلا ، وأن يدرك أسراره ، ودقائقه ، وإعجازه ! وأن يزعم أنه أوفى أو وصل إلى درجة الكمال !!

إنه الكتاب المعجز ، الذي سيظل يمنح الإنسانية ، من علومه ومعارفه ، ومن أسراره وحكمه ، ما يزيدهم إيماناً وإذعاناً بأنه « المعجزة الخالدة » للنبي العربي الأمي محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وأنه تنزيل الحكيم الحميد .

وإذا كان المسلم قد اضطرتته الدنيا ليشغل وقته في تحصيل معاشه ، وضاعت أيامه عن الرجوع إلى التفاسير الكبيرة ، التي خدم بها أسلافنا - رضوان الله عليهم - كتاب الله تعالى ، تبياناً وتفصيلاً لآياته ، وإظهاراً لبلاغته ، وإيضاحاً لإعجازه ، وإبرازاً لما حواه الكتاب المجيد من تشريع وتهذيب ، وأحكام وأخلاق ، وتربية وتوجيه . . فإن من واجب العلماء اليوم أن يبذلوا جهدهم لتيسير فهمه على الناس ، بأسلوب واضح ، وبيان ناصع ، لا حشوفيه ولا تطويل ، ولا تعقيد ولا تكلف ، وأن يُبرزوا ما في القرآن من روعة الإعجاز والبيان ، بما يتفق وروح العصر الحديث ، ويلبي حاجة الشباب المثقف ، المتعطش إلى التزود من علوم ومعارف القرآن الكريم .

ولم أجد تفسيراً لكتاب الله عز وجل - على ما وصفتُ - رغم الحاجة إليه ، وسؤال الناس عنه ، ورغبتهم فيه ، فعزمتُ على القيام بهذا العمل ، رغم ما فيه من مشقةٍ وتعب ، واحتياجه لوقتٍ لا يُتاح في هذا الزمان ، مستعيناً بالله الكريم ، متوكلاً عليه ، سائلاً إياه أن يعينني على إتمام هذا الواجب ، وأن يوفقني لإخراجه بشكلٍ يليق بكتاب الله تعالى ، يعين المسلم على فهم آيات القرآن ، والتزود من بيانه ، ما يزيده إيماناً ويقيناً ، ويدفعه إلى العمل الجادّ الموفق إلى مرضاة الرب جل وعلا .

وقد أسميت كتابي «صفوة التفاسير» وذلك لأنه لأنه جامع لعيون ما في التفاسير الكبيرة المفصلة ، مع الاختصار والترتيب ، والوضوح والبيان ، وكلّي أملٌ أن يكون اسمه مطابقاً لمسمّاه ، وأن تستفيد منه الأمة الإسلامية ، بما يوضح لها السبيل الأقوم ، والصرط المستقيم .

وقد سلكت في طريقي لتفسير الكتاب العزيز الأسلوب الآتي :

أولاً : بين يدي السورة ، وهو بيان إجمالي للسورة الكريمة وتوضيح مقاصدها الأساسية .

ثانياً : المناسبة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة .

ثالثاً : اللغة مع بيان الاشتقاق اللغوي والشواهد العربية .

رابعاً : سبب النزول .

خامساً : التفسير .

سادساً : البلاغة .

سابعاً : الفوائد واللطائف .

وقد مكثت في تأليف هذا التفسير خمس سنوات ، أو اصل فيه الليل بالنهار ، وما كنت أكتب شيئاً حتى أقرأ ما كتبه المفسرون في أمهات كتب التفسير الموثوقة ، مع التحري الدقيق لأصح الأقوال وأرجحها ، وإنني أشكر المولى جلّ وعلا أن سهّل لي هذا العمل ، فقد كنت أشعر أن الزمن يُطوى لي ، وكلُّ ذلك ببركات جوار البيت العتيق الذي أكرمني الله وشرفني بجواره ، منذ أن انتدبت للتدريس بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة عام ألف وثلاثمائة وإحدى وثمانين من هجرة سيد المرسلين .

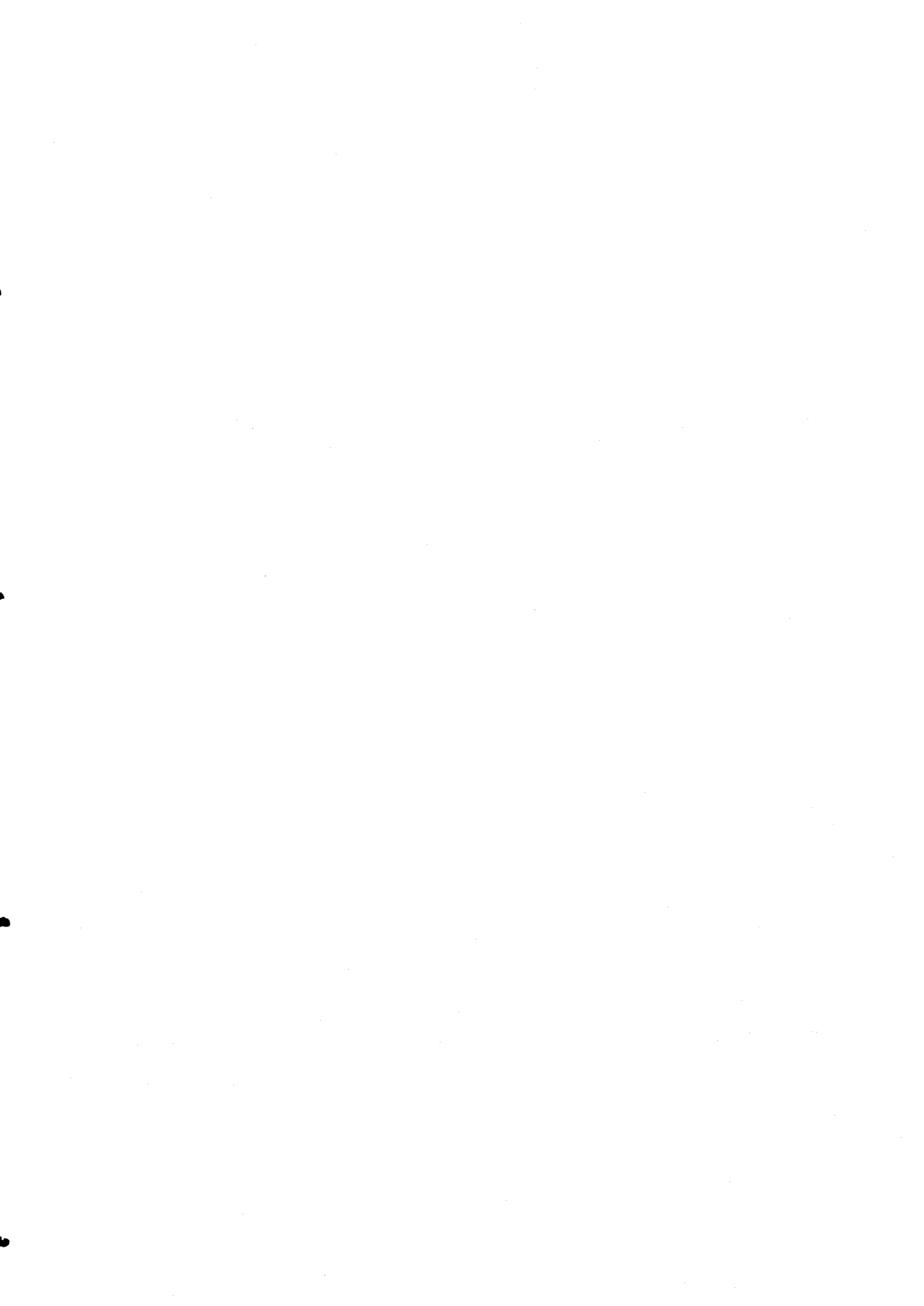
والله تعالى أسأل أن يسدد خطاي ، ويجزل لي الثواب يوم المآب ، فما عملتُ إلا أملاً بنيل رضاه ،
راجياً منه أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم ، ويقيه ذخراً لي يوم الدين ، وأرجو ممن قرأ فيه فاستفاد أن
يخصني بدعوة صالحة تنفعني يوم المعاد ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

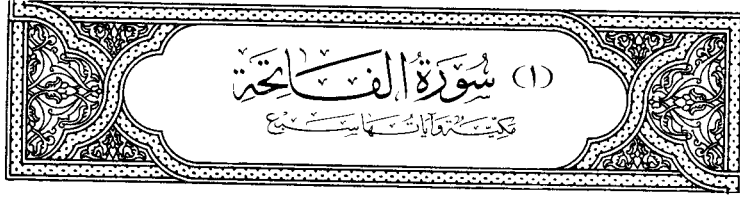
وكتبه الفقير إلى عفو ربه

محمد علي الصابوني

مكة المكرمة - غرة ذي الحجة ١٣٩٩ هـ

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بمكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز





أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

تَفْسِيرُ الْأَسْتِعَاذَةِ الْمَعْنَى : أَسْتَجِيرُ بِجَنَابِ اللَّهِ وَأَعْتَصِمُ بِهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ الْعَاتِي الْمْتَمَرِدِ ، أَنْ يَضْرِبَنِي فِي دِينِي أَوْ دُنْيَايَ ، أَوْ يَصْدِنِي عَنْ فِعْلِ مَا أُمِرْتُ بِهِ ، وَأَحْتَمِي بِالْخَالِقِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَلَمْزِهِ وَوَسَاوِسِهِ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَكْفُهُ عَنِ الْإِنْسَانِ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . . . عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ ، اسْتَفْتَحَ صَلَاتَهُ بِالتَّكْبِيرِ ثُمَّ يَقُولُ : (أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ) (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِيرُ الْبَسْمَلَةِ: الْمَعْنَى : أَبْدَأُ بِتَسْمِيَةِ اللَّهِ وَذَكَرَهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، مُسْتَعِيناً بِهِ جَلًّا وَعِلًّا فِي جَمِيعِ أُمُورِي ، طَالِباً مِنْهُ وَحْدَهُ الْعَوْنَ ، فَإِنَّهُ الرَّبُّ الْمَعْبُودُ ذُو الْفَضْلِ وَالْجُودِ ، وَاسِعِ الرَّحْمَةِ كَثِيرِ التَّفَضُّلِ وَالْإِحْسَانِ ، الَّذِي وَسَعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَعَمَّ فَضْلُهُ جَمِيعَ الْأَنْعَامِ .

تَبْيِيهُ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ افْتَتَحَ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ وَكُلَّ سُورَةٍ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ - مَا عَدَا سُورَةَ التَّوْبَةِ - لِيُرْشِدَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى أَنْ يَبْدَعُوا أَعْمَالَهُمْ وَأَقْوَامَهُمْ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، التَّاسِئاً لِمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ ، وَمُخَالَفَةً لِلْوَثْنِيِّينَ الَّذِينَ يَبْدَعُونَ أَعْمَالَهُمْ بِأَسْمَاءِ آهْتِهِمْ أَوْ طَوَاغِيَتِهِمْ فَيَقُولُونَ : بِاسْمِ اللَّاتِ ، أَوْ بِاسْمِ الْعِزَّى ، أَوْ بِاسْمِ الشَّعْبِ ، أَوْ بِاسْمِ هَيْبِلِ .

قال الطبري : « إن الله تعالى ذكره وتقدست أسماؤه ، أدب نبيه محمداً ﷺ بتعليمه ذكر أسماؤه الحسنی أمام جميع أفعاله ، وجعل ذلك لجميع خلقه سنةً يستنون بها ، وسبيلاً يتبعونه عليها فقول القائل : بسم الله الرحمن الرحيم إذا افتتح تالياً سورة نبيء عن أن مراده : أقرأ بسم الله ، وكذلك سائر الأفعال » (٢) .

(١) أخرجه أصحاب السنن . (٢) جامع البيان للطبري .

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾
أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ :

هذه السورة الكريمة مكية وآياتها سبع بالإجماع ، وتسمى « الفاتحة » لافتتاح الكتاب العزيز بها حيث إنها أول القرآن في الترتيب لا في النزول ، وهي - على قصرها ووجازتها - قد حوت معاني القرآن العظيم ، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال ، فهي تتناول أصول الدين وفروعه ، تتناول العقيدة ، والعبادة ، والتشريع ، والاعتقاد باليوم الآخر ، والإيمان بصفات الله الحسنى ، وإفراجه بالعبادة والاستعانة والدعاء ، والتوجه إليه جلّ وعلا بطلب الهداية إلى الدين الحق والصراط المستقيم ، والتضرع إليه بالثبوت على الإيمان ونهج سبيل الصالحين ، وتجنب طريق المغضوب عليهم والضالين ، وفيها الاخبار عن قصص الأمم السابقين ، والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء ، وفيها التعبّد بأمر الله سبحانه ونهيه ، إلى غير ما هنالك من مقاصد وأغراض وأهداف ، فهي كالأم بالنسبة لبقية السور الكريمة ولهذا تسمى « أم الكتاب » لأنها جمعت مقاصده الأساسية .

فضّلها : أ - روى الإمام أحمد في المسند أن « أبي بن كعب » قرأ على النبي ﷺ أم القرآن فقال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته) فهذا الحديث الشريف يشير إلى قوله تعالى في سورة الحجر ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾ .

ب - وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال لأبي سعيد بن المعلى : (لأعلمتكم سورة هي أعظم السور في القرآن : الحمد لله رب العالمين ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته) .

التسمية : تسمى « الفاتحة » ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني ، والشافية ، والوافية ، والكافية ، والأساس ، والحمد « وقد عدّها العلامة القرطبي وذكر أن لهذه السورة اثني عشر اسماً .

اللغة : ﴿ الحمد ﴾ الثناء بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل مقروناً بالمحبة وهو نقيض الذم وأعم من الشكر ، لأن الشكر يكون مقابل النعمة بخلاف الحمد ﴿ الله ﴾ اسم علم للذات المقدسة لا يشاركه فيه غيره ، قال القرطبي : هذا الاسم ﴿ الله ﴾ أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها ، وهو اسم للموجود

الحق ، الجامع لصفات الإلهية ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيقي لا إله إلا هو سبحانه ﴿رب﴾ الرب : مشتق من التربية وهي إصلاح شئون الغير ورعاية أمره قال الهروي : « يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد ربه ومنه الربانيون لقيامهم بالكتب »^(١) والرب يطلق على عدة معان وهي « المالك ، والمصلح ، والمعبود ، والسيد المطاع » ﴿العالمين﴾ العالم : اسم جنس لا واحد له من لفظه كالرط ، وهو يشمل : الإنس والجن والملائكة والشياطين كذا قال الفراء ، وهو مشتق من العلامة لأن العالم علامة على وجود الخالق جل وعلا ﴿الرحمن الرحيم﴾ صفتان مشتقتان من الرحمة ، وقد روعي في كل من ﴿الرحمن﴾ و﴿الرحيم﴾ معنى لم يراع في الآخر فالرحمن بمعنى عظيم الرحمة لأن « فَعْلَان » صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته ولا يلزم منه الدوام كغضبان وسكران ، والرحيم بمعنى دائم الرحمة لأن صيغة فعيل تستعمل في الصفات الدائمة ككريم وظريف فكأنه قيل : العظيم الرحمة الدائم الإحسان .^(٢)

قال الخطابي : الرحمن ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم وعمت المؤمن والكافر ، والرحيم خاص بالمؤمن كما قال تعالى ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ ، ﴿الدين﴾ الجزاء ومنه الحديث (كما تدين تُدان) أي كما تفعل تجزى ﴿نعبد﴾ قال الزمخشري : العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولى أعظم النعم فكان حقيقاً بأقصى الخضوع^(٣) ﴿الصراط﴾ الطريق وأصله بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع كأن الطريق يتلعب السالك قال الشاعر :

شحننا أرضهم بالخيال حتى تركناهم أذلّ من الصراط
﴿المستقيم﴾ الذي لا عوج فيه ولا انحراف ﴿أمين﴾ أي استجب دعاءنا وهي ليست من القرآن الكريم إجماعاً .

النفسير : علمنا الباري جلّ وعلا كيف ينبغي أن نحمده ونقدسه ونثني عليه بما هو أهله فقال ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ أي قولوا يا عبادي إذا أردتم شكري وثنائي الحمد لله ، اشكروني على إحساني وجميلي إليكم ، فأنا الله ذو العظمة والمجد والسؤدد ، المنفرد بالخلق والإيجاد ، رب الإنس والجن والملائكة ، ورب السموات والأرضين ، فالثناء والشكر لله رب العالمين دون ما يُعبد من دونه ﴿الرحمن الرحيم﴾ أي الذي وسعت رحمته كل شيء ، وعمّ فضله جميع الأنام ، بما أنعم على عباده من الخلق والرزق والهداية إلى سعادة الدارين ، فهو الرب الجليل عظيم الرحمة دائم الإحسان ﴿مالك يوم الدين﴾ أي هو سبحانه المالك للجزاء والحساب ، المتصرف في يوم الدين تصرف المالك في ملكه ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾ أي نخصك يا الله بالعبادة ، ونخصك بطلب الإعانة ، فلا نعبد أحداً سواك ، لك وحدك نذلّ ونخضع ونستكين ونخشع ، وإيّاك ربنا نستعين على طاعتك ومرضاتك ، فإنك المستحق لكل إجلال وتعظيم ، ولا يملك القدرة على عوننا أحد سواك ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ أي دلنا وأرشدنا يا رب إلى طريقك الحق ودينك المستقيم ، وثبتنا على الإسلام الذي

بعثت به أنبياءك ورسلك ، وأرسلت به خاتم المرسلين ، واجعلنا ممن سلك طريق المقربين ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ أي طريق من تفضلت عليهم بالجود والإنعام ، من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، وَحَسُنَ أولئك رفيقاً ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ أي لا تجعلنا يا الله من زمرة أعدائك الحائدين عن الصراط المستقيم ، السالكين غير المنهج القويم ، من اليهود المغضوب عليهم أو النصارى الضالين ، الذين ضلوا عن شريعتك القدسية ، فاستحقوا الغضب واللعنة الأبدية . اللهم آمين .

البَلَاغَةُ : ﴿الحمد لله﴾ الجملة خبرية لفظاً إنشائية معنى أي قولوا « الحمد لله » وهي مفيدة لقصر الحمد عليه تعالى كقولهم : الكرم في العرب . ٢ - ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فيه إلتفات من الغيبة إلى الخطاب ولو جرى الكلام على الأصل لقال : إياه نعبد ، وتقديم المفعول يفيد القصر أي لا نعبد سواك كما في قوله ﴿وإياي فارهبون﴾ ٣ - قال في البحر المحيط : وفي هذه السورة الكريمة من أنواع الفصاحة والبلاغة أنواع :

الأول : حسن الافتتاح وبراعة المطلع .

الثاني : المبالغة في الثناء لإفادة « أل » الاستغراق

الثالث : تلوين الخطاب إذ صيغته الخبر ومعناه الأمر أي قولوا الحمد لله .

الرابع : الاختصاص في قوله ﴿لله﴾ .

الخامس : الحذف كحذف صراط من قوله ﴿غير المغضوب عليهم﴾ تقديره غير صراط المغضوب عليهم وغير صراط الضالين .

السادس : التقديم والتأخير في ﴿إياك نعبد﴾ .

السابع : التصريح بعد الإبهام ﴿الصراط المستقيم﴾ ثم فسرهُ بقوله ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ .

الثامن : الإلتفات في ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ .

التاسع : طلب الشيء والمراد به دوامه واستمراره في ﴿إهدنا الصراط﴾ أي ثبتنا عليه .

العاشر : السجع المتوازي في قوله ﴿الرحمن الرحيم * الصراط المستقيم﴾ وقوله ﴿نستعين * الضالين﴾ .^(١)

الفوائد: الأولى : الفرق بين ﴿الله﴾ و﴿الإله﴾ أن الأول اسم علم للذات المقدسة ذات الباري جل وعلا ومعناه المعبود بحق والثاني معناه المعبود بحق أو باطل فهو اسم يطلق على الله تعالى وعلى غيره .

الثانية : وردت الصيغة بلفظ الجمع « نعبد ونستعين » ولم يقل « إياك أعبد وإياك أستعين » بصيغة المفرد وذلك للاعتراف بقصور العبد عن الوقوف في باب ملك الملوك فكأنه يقول : أنا يا رب العبد الحقير الذليل ، لا يليق بي أن أقف هذا الموقف في مناجاتك بمفردي ، بل أنضم إلى سلك المؤمنين الموحدين فتقبل دعائي في زمرتهم فنحن جميعاً نعبدك ونستعين بك .

الثالثة : نسب النعمة إلى الله عز وجل ﴿أنعمت عليهم﴾ ولم ينسب إليه الإضلال والغضب فلم يقل : غضبت عليهم أو الذين أضللتهم ؛ ذلك لتعليم العباد الأدب مع الله تعالى ، فالشر لا ينسب إلى الله تعالى أدباً وإن كان منه تقديراً « الخير كله بيدك والشر لا ينسب إليك » .

خاتمة

في بيان الأسرار القدسية في فاتحة الكتاب العزيز

يقول شهيد الإسلام الشيخ حسن البنا في رسالته القيمة « مقدمة في التفسير » ما نصه : « لا شك أن من تدبر الفاتحة الكريمة رأى من غزارة المعاني وجمالها ، وروعة التناسب وجلاله ما يأخذ بلبه ، ويضيء جوانب قلبه ، فهو يتبدى ذاكراً تالياً متميناً باسم الله ، الموصوف بالرحمة التي تظهر آثار رحمته متجددة في كل شيء ، فإذا استشعر هذا المعنى ووقر في نفسه انطلق لسانه بحمد هذا الإله ﴿الرحمن الرحيم﴾ وذكره الحمد بعظيم نعمه وكريم فضله ، وجميل آلائه البادية في تربيته للعوالم جميعاً ، فأجال بصيرته في هذا المحيط الذي لا ساحل له ، ثم تذكر من جديد أن هذه النعم الجزيلة والتربية الجليلة ، ليست عن رغبة ولا رهبة ، ولكنها عن تفضل ورحمة ، فنطق لسانه مرة ثانية بـ ﴿الرحمن الرحيم﴾ ومن كمال هذا الإله العظيم أن يقرن الرحمن بـ « العدل » ويذكر بالحساب بعد الفضل فهو مع رحمته السابعة المتجددة سيدين عباده ويحاسب خلقه يوم الدين ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ فربيته لخلقهم قائمة على الترغيب بالرحمة ، والترهيب بالعدالة والحساب ﴿مالك يوم الدين﴾ وإذا كان الأمر كذلك فقد أصبح العبد مكلفاً بتحري الخير ، والبحث عن وسائل النجاة ، وهو في هذا أشد ما يكون حاجة إلى من يهديه سواء السبيل ، ويرشده إلى الصراط المستقيم ، وليس أولى به في ذلك من خالقه ومولاه فليلجأ إليه وليعتمد عليه وليخاطبه بقوله ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وليسأله الهداية من فضله إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم بمعرفة الحق واتباعه ، غير لمغضوب عليهم بالسلب بعد العطاء ، والنكوص بعد الاهتداء ، وغير الضالين التائهين ، الذي يضلون عن الحق أو يريدون الوصول إليه فلا يوفقون للعشور عليه ، أمين . ولا جرم أن « أمين » براعة مقطع في غاية الجمال والحسن ، وأي شيء أولى بهذه البراعة من فاتحة

الكتاب ، والتوجه إلى الله بالدعاء ؟ فهل رأيت تناسقاً أدق ، أو ارتباطاً أوثق ، مما تراه بين معاني هذه الآية الكريمة ؟ وتذكر وأنت تهيم في أودية هذا الجمال ما يرويه رسول الله ﷺ عن ربه في الحديث القدسي (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبيدني ماسأل .) الحديث وأدم هذا التدبير والإنعام ، واجتهد أن تقرأ في الصلاة وغيرها على مكث وتمهّل ، وخشوع وتذلل ، وأن تقف على رؤوس الآيات ، وتعطي التلاوة حقها من التجويد أو النغمات ، من غير تكلف ولا تطريب ، واشتغال بالألفاظ عن المعاني ، فإن ذلك يعين على الفهم ، ويثير ما غاض من شآبيب الدمع ، وما نفع القلب شيء أفضل من تلاوة في تدبر وخشوع^(١) .

« انتهى تفسير سورة الفاتحة »

* * *



سورة البقرة جميعها مدنية بلا خلاف ، وهي من أوائل ما نزل ، وآياتها مائتان وثمانون وسبع آيات

بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

- * سورة البقرة من أطول سور القرآن على الإطلاق ، وهي من السور المدنية التي تُعنى بجانب التشريع ، شأنها كشأن سائر السور المدنية ، التي تعالج النظم والقوانين التشريعية التي يحتاج إليها المسلمون في حياتهم الاجتماعية .
- * اشتملت هذه السورة الكريمة على معظم الأحكام التشريعية : في العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والأخلاق ، وفي أمور الزواج ، والطلاق ، والعدة ، وغيرها من الأحكام الشرعية .
- * وقد تناولت الآيات في البدء الحديث عن صفات المؤمنين ، والكافرين ، والمنافقين ، فوضّحت حقيقة الإيمان ، وحقيقة الكفر والنفاق ، للمقارنة بين أهل السعادة وأهل الشقاء .
- * ثم تحدثت عن بدء الخليقة فذكرت قصة أبي البشر « آدم » عليه السلام ، وما جرى عند تكوينه من الأحداث والمفاجآت العجيبة التي تدل على تكريم الله جل وعلا للنوع البشري .
- * ثم تناولت السورة الحديث بالإسهاب عن أهل الكتاب ، وبوجه خاص بني إسرائيل « اليهود » لأنهم كانوا مجاورين للمسلمين في المدينة المنورة ، فنبهت المؤمنين إلى خبثهم ومكرهم ، وما تنطوي عليه نفوسهم الشريرة من اللؤم والغدر والخيانة ، ونقض العهود والمواثيق ، إلى غير ما هنالك من القبائح والجرائم التي ارتكبتها هؤلاء المفسدون ، مما يوضح عظيم خطرهم ، وكبير ضررهم ، وقد تناول الحديث عنهم ما يزيد على الثلث من السورة الكريمة ، بدءاً من قوله تعالى ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ . إلى قوله تعالى ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن ﴾ .
- * وأما بقية السورة الكريمة فقد تناولت جانب التشريع ، لأن المسلمين كانوا في بداية تكوين « الدولة الإسلامية » وهم في أمسّ الحاجة إلى المنهاج الرباني ، والتشريع السماوي ، الذي يسرون عليه في حياتهم سواء في العبادات أو المعاملات ، ولذا فإن جماع السورة يتناول الجانب التشريعي ، وهو باختصار كما يلي :

« أحكام الصوم مفصلة بعض التفصيل ، أحكام الحج والعمرة ، أحكام الجهاد في سبيل الله ، شئون الأسرة وما يتعلق بها من الزواج ، والطلاق ، والرضاع ، والعدة ، تحريم نكاح المشركات ، والتحذير من معاشرة النساء في حالة الحيض إلى غير ما هنالك من أحكام تتعلق بالأسرة ، لأنها النواة الأولى للمجتمع الأكبر» .

* ثم تحدثت السورة الكريمة عن « جريمة الربا » التي تهدد كيان المجتمع وتقوض بنيانه ، وحملت حملة عنيفة شديدة على المرابين ، بإعلان الحرب السافرة من الله ورسوله على كل من يتعامل بالربا أو يقدم عليه ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلکم رءوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ .

* وأعقبت آيات الربا بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب ، الذي يجازى فيه الإنسان على عمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وهو آخر ما نزل من القرآن الكريم ، وآخر وحي تنزل من السماء إلى الأرض ، وبنزول هذه الآية انقطع الوحي ، وانتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه ، بعد أن أدى الرسالة وبلغ الأمانة .

* وختمت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة ، والتضرع إلى الله جلّ وعلا برفع الأغلال والأصار ، وطلب النصرة على الكفار ، والدعاء لما فيه سعادة الدارين ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ وهكذا بدأت السورة بأوصاف المؤمنين ، وختمت بدعاء المؤمنين ليتناسق البدء مع الختام ، ويلتئم شمل السورة أفضل التمام !!

التسمية : سميت السورة الكريمة « سورة البقرة » إحياءً لذكرى تلك المعجزة الباهرة ، التي ظهرت في زمن موسى الكليم ، حيث قُتل شخص من بني إسرائيل ولم يعرفوا قاتله ، فعرضوا الأمر على موسى لعله يعرف القاتل ، فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بذبح بقرة ، وأن يضربوا الميت بجزءٍ منها فيحيا بإذن الله ويخبرهم عن القاتل ، وتكون برهاناً على قدرة الله جلّ وعلا في إحياء الخلق بعد الموت ، وستأتي القصة مفصلة في موضعها إن شاء الله .

فضلها : عن رسول الله ﷺ أنه قال (لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة) أخرجه مسلم والترمذي . وقال ﷺ : (اقرءوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة) يعني السحرة . رواه مسلم في صحيحه .

قال الله تعالى ﴿ ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه . . إلى . . وأولئك هم المفلحون ﴾

من آية (١) إلى نهاية آية (٥) .

اللغة : ﴿ ريب ﴾ الرِّيبُ : الشك وعدم الطمأنينة يقال : ارتاب ، وأمرٌ مريب إذا كان فيه شك وريبة قال الزمخشري : الريبُ مصدر رآبه إذا أحدث له الريبة وهي قلق النفس واضطرابها ، ومنه

ريب الزمان لنوابه^(١) ﴿المتقين﴾ أصل التقوى مأخوذ من اتقاء المكروه بما تجعله حاجزاً بينك وبينه قال النابغة :

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرَدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَّاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَدِ

فالمتقي هو الذي يقي نفسه مما يضرها ، وهو الذي يتقي عذاب الله بطاعته ، وجماع التقوى أن يمثل العبد الأوامر ويجتنب النواهي ﴿الغيب﴾ ما غاب عن الحواس ، وكل شيء مستور فهو غيب كالجنة والنار ، والحشر والنشر قال الراغب : الغيب ما لا يقع تحت الحواس^(٢) ﴿المفلحون﴾ الفلاح : الفوز والنجاح قال أبو عبيدة : كُلُّ مَنْ أَصَابَ شَيْئاً مِنَ الْخَيْرِ فَهُوَ مَفْلُحٌ^(٣) وقال البيضاوي : المفلح : الفائز بالمطلوب كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر^(٤) ، وأصل الفلح في اللغة : الشقُّ والقطع ومنه قولهم « إِنَّ الْحَدِيدَ بِالْحَدِيدِ يُفْلِحُ » أي يُشَقُّ ، ولذلك سمي الفلاح لأنه يشق الأرض بالحرثة ﴿كفروا﴾ الكفر لغة : ستر النعمة ولهذا يسمى الكافر كافراً لأنه يجحد النعمة ويسترها ، ومنه قيل للزراع ولليل كافر قال تعالى ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أي أعجب الزُّرَّاعُ ، وسُمي الليل كافراً لأنه يغطي كل شيء بسواده ﴿أنذرتهم﴾ الإنذار : الإعلام مع التخويف فإن خلا من التخويف فهو إعلام وإخبار لا إنذار ﴿ختم﴾ الختم : التغطية على الشيء والطبع عليه حتى لا يدخله شيء ، ومنه ختم الكتاب . ﴿عشاوة﴾ العشاوة : الغطاء من غشاه إذا غطاه ، ومنه العاشية وهي القيامة لأنها تغشى الناس بأهوالها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

التفسير : ابتدأت السورة الكريمة بذكر أوصاف المتقين ، وابتداء السورة بالحروف المقطعة ﴿الم﴾ وتصديرها بهذه الحروف الهجائية يجذب أنظار المعرضين عن هذا القرآن ، إذ يطرُق أسماءهم لأول وهلة ألفاظ غير مألوفة في تخاطبهم ، فينتبهوا إلى ما يلقي إليهم من آيات بينات ، وفي هذه الحروف وأمثالها تنبيه على « إعجاز القرآن » فإن هذا الكتاب منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله ، فذلك أعظم برهان على إعجاز القرآن . يقول العلامة ابن كثير رحمه الله : إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وهو قول جمع من المحققين ، وقد قرره الزمخشري في تفسيره الكشاف ونصره أتم نصر ، وإليه ذهب الإمام « ابن تيمية » ثم قال : ولهذا كلُّ سورة افتتحت بالحروف ،

(١) الكشاف ٢٧/١ (٢) مفردات القرآن للراغب (٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة/ ٢٩ (٤) البيضاوي ١٠/١

فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن ، وبيان إعجازه وعظمته مثل ﴿الم * ذلك الكتاب﴾ ﴿المص * كتاب أنزل إليك﴾ ﴿الم * تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ ﴿حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة على إعجاز القرآن .^(١) ثم قال تعالى ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ أي هذا القرآن المنزل عليك يا محمد هو الكتاب الذي لا يدانيه كتاب ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك في أنه من عند الله لمن تفكر وتدبر ، أو ألقى السمع وهو شهيد ﴿هدى للمتقين﴾ أي هادٍ للمؤمنين المتقين ، الذين يتقون سخط الله بامتنال أوامره واجتناب نواهيه ، ويدفعون عذابه بطاعته ، قال ابن عباس : المتقون هم الذين يتقون الشرك ، ويعملون بطاعة الله ، وقال الحسن البصري : اتقوا ما حرم عليهم ، وأدوا ما افترض عليهم . . ثم بين تعالى صفات هؤلاء المتقين فقال ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ أي يصدقون بما غاب عنهم ولم تدركه حواسهم من البعث ، والجنة ، والنار ، والصراف ، والحساب ، وغير ذلك من كل ما أخبر عنه القرآن أو النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ويقيمون الصلاة﴾ أي يؤديونها على الوجه الأكمل بشرروطها وأركانها ، وخشوعها وآدابها قال ابن عباس : إقامتها : إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع^(٢) ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي ومن الذي أعطيناهم من الأموال ينفقون ويتصدقون في وجه البر والإحسان ، والآية عامة تشمل الزكاة ، والصدقة ، وسائر النفقات ، وهذا اختيار ابن جرير ، وروي عن ابن عباس أن المراد بها زكاة الأموال ، قال ابن كثير : كثيراً ما يقرن تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال ، لأن الصلاة حق الله وهي مشتملة على توحيده وتمجيده والثناء عليه ، والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين وهو حق العبد ، فكل من النفقات الواجبة ، والزكاة المفروضة داخل في الآية الكريمة^(٣) ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك﴾ أي يصدقون بكل ما جئت به عن الله تعالى ﴿وما أنزل من قبلك﴾ أي وبما جاءت به الرسل من قبلك ، لا يفرقون بين كتب الله ولا بين رسله ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ أي ويعتقدون اعتقاداً جازماً لا يلبسه شك أو ارتياب بالدار الآخرة التي تتلو الدنيا ، بما فيها من بعثٍ وجزاءٍ ، وجنةٍ ، ونار ، وحساب ، وميزان ، وإنما سميت الدار الآخرة لأنها بعد الدنيا ﴿وأولئك على هدى من ربهم﴾ أي أولئك المتصفون بما تقدم من الصفات الجليلة ، على نور وبيان وبصيرة من الله ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية في جنات النعيم .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - المجاز العقلي ﴿هدى للمتقين﴾ أسند الهداية للقرآن وهو من الإسناد للسبب ، والهادي في الحقيقة هو الله رب العالمين ففيه مجاز عقلي .
- ٢ - الإشارة بالبعيد عن القريب ﴿ذلك الكتاب﴾ للإيدان بعلو شأنه ، وبعد مرتبته في الكمال ، فنزل بعد المرتبة منزلة البعد الحسي .
- ٣ - تكرير الإشارة ﴿أولئك على هدى﴾ ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ للعناية بشأن المتقين ، وجيء بالضمير ﴿هم﴾ ليفيد الحصر كأنه قال : هم المفلحون لا غيرهم .

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٢٧ - (٢) اقتبسنا التفسير من الطبري وابن كثير وتفسير الجلالين . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٣٠ .

٤ - التئيس من إيمان الكفار ﴿سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ فالجملة سيقت للتنبية على غلوهم في الكفر والطغيان ، وعدم استعدادهم للإيمان ، ففيها تئيس وإقناط من إيمانهم .

٥ - الاستعارة التصريحية اللطيفة ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ شبه قلوبهم لتأبيها عن الحق ، وأسماهم وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية ، بالوعاء المختوم عليه ، المسدود منافذه ، المغشى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه ، واستعار لفظ الختم والغشاوة لذلك بطريق الاستعارة التصريحية (١) .

المَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى صفات المؤمنين في الآيات السابقة ، أعقبها بذكر صفات الكافرين ، ليظهر الفارق الواضح بين الصنفين ، على طريقة القرآن الكريم في المقارنة بين الأبرار والفجار ، والتميز بين أهل السعادة وأهل الشقاوة « وبضدها تتميز الأشياء » .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٢﴾

النَّفْسِيرُ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إن الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسالة محمد ﷺ ﴿سواء عليهم﴾ أي يتساوى عندهم ﴿أنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ أي سواء أهدرتهم يا محمد من عذاب الله وخوفتهم منه أم لم تحذرهم ﴿لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون بما جئتهم به ، فلا تطمع في إيمانهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ عن تكذيب قومه له . . ثم بين تعالى العلة في سبب عدم الإيمان فقال ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ أي طبع على قلوبهم فلا يدخل فيها نور ، ولا يُشرق فيها إيمان قال المفسرون : الختمُ التغطية والطبعُ ، وذلك أن القلوب إذا كثرت عليها الذنوب طمست نور البصيرة فيها ، فلا يكون للإيمان إليها مسلكٌ ، ولا للكفر عنها مخلص كما قال تعالى ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ (٢) ﴿وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾ أي وعلى أسماهم وعلى أبصارهم غطاء ، فلا يبصرون هدى ، ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون ، لأن أسماهم وأبصارهم كأنها مغطاة بحجب كثيفة ، لذلك يرون الحق فلا يتبعونه ، ويسمعونه فلا يعونه قال أبو حيان : شبه تعالى قلوبهم لتأبيها عن الحق ، وأسماهم لإضرارها عن سماع داعي الفلاح ، وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية ، بالوعاء المختوم عليه ، المسدود منافذه ، المغشى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه ، وذلك لأنها كانت - مع صحتها وقوة إدراكها - ممنوعة عن قبول الخير وسماعه ، وتلمح نوره ، وهذا بطريق الاستعارة (٣) ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب شديد لا ينقطع ، بسبب كفرهم وإجرامهم وتكذيبهم بآيات الله .

(١) انظر تلخيص البيان للشيخ الرضي ٣/١ والبحر المحيط لأبي حيان ٥١/١ . (٢) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير حول معنى الختم

فيه تحقيق وتفصيل جميل . (٣) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٥١/١ .

قال الله تعالى ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر . . . إلى . . . إن الله على كل شيء قدير﴾
من آية (٨) إلى نهاية آية (٢٠) .

المناسكة : لما ذكر تعالى في أول السورة صفات المؤمنين ، وأعقبها بذكر صفات الكافرين ، ذكر هنا « المنافقين » وهم الصنف الثالث ، الذين يُظهرون الإيمان ويُبتنون الكفر ، وأُتنب بذكرهم في ثلاث عشرة آية لينبه إلى عظيم خطرهم ، وكبير ضررهم ، ثم عقب ذلك بضرب مثلين زيادة في الكشف والبيان ، وتوضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق ، وما يؤول إليه حالهم من الهلاك والدمار .

اللفظة : ﴿يُخَادِعُونَ﴾ الخِدَاع : المكر والاحتيال وإظهار خلاف الباطن ، وأصله الإخفاء ومنه سُمي الدهرُ خادعاً لما يخفي من غوائله ، وسُمي الخِدْعُ مُخدعاً لتستر أصحاب المنزل فيه ﴿مَرَضٌ﴾ المرض : السُّقْم وهو ضد الصحة وقد يكون حسياً كمرض الجسم ، أو معنوياً كمرض النفاق ومرض الحسد والرياء ، قال ابن فارس : المرضُ كُلُّ ما خرج به الإنسان عن حد الصحة من علةٍ ، أو نفاق ، أو تقصير في أمرٍ ﴿تَفْسُدُوا﴾ الفساد : العدول عن الاستقامة وهو ضد الصلاح ﴿السفهاء﴾ جمع سفيه وهو الجاهل ، الضعيف الرأي ، القليل المعرفة ، بمواضع المنافع والمضار ، وأصل السَّفَه : الخِفَّة ، والسفيه : الخفيف العقل قال علماء اللغة : السَّفَه خِفَةٌ وسخافة رأي يقتضيان نقصان العقل ، والحِلْمُ يقابله^(١) ﴿طغيانهم﴾ الطغيان : مجاوزة الحد في كل شيء ومنه ﴿إنا لما طغى الماء﴾ أي ارتفع وعلا وجاوز حده ، والطاغية : الجبار العنيد ﴿يعمّهون﴾ العمّه : التحير والتردد في الشيء يقال : عمّه يعمه فهو عمّه قال رؤبة : « أعمى الهدى بالحائرين العمّه » قال الفخر الرازي : العمّه مثل العمى ، إلا أن العمى عام في البصر والرأي ، والعمّه في الرأي خاصة ، وهو التردد والتحير لا يدري أين يتوجه^(٢) ﴿اشتروا﴾ حقيقة الاشتراء : الاستبدال ، وأصله بذل الثمن لتحصيل الشيء المطلوب ، والعرب تقول لمن استبدل شيئاً بشيء اشتراه قال الشاعر :

فإن تزعميني كنتُ أجهلُ فيكم فإني اشتريتُ الحلمَ بعدك بالجهل

﴿صم﴾ جمع أصم وهو الذي لا يسمع ﴿بكم﴾ جمع أبكم وهو الأخرس الذي لا ينطق ﴿عمي﴾ جمع أعمى وهو الذي فقد بصره ﴿صيب﴾ الصَّيْبُ : المطر الغزير مأخوذ من الصَّوْب وهو النزول بشدة قال الشاعر « سقتك روايا المُرْن حيثُ تصوب » ﴿الصواعق﴾ جمع صاعقة وهي نارٌ محرقة لا تمر بشيء إلا أتت عليه ، مشتقة من الصَّعَق وهو شدة الصوت ﴿السَّماء﴾ السماء في اللغة : كلُّ ما علاك فأظلك ، ومنه قيل لسقف البيت سماء ، ويسمى المطر سماءً لنزوله من السماء قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قومٍ رعيناه وإن كانوا غضابا

(١) انظر تهذيب اللغة ، والصحاح ، والقاموس . (٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٧١ / ٢ .

﴿يَخْطِفُ﴾ الخَطْفُ : الأخذ بسرعة ومنه ﴿إِلَّا مِنْ خَطْفِ الْخَطْفَةِ﴾ وَسُمِّي الطير خُطْفًا لِسُرْعَتِهِ ، وَالْخَاطِفُ الذي يأخذ الشيء بسرعة شديدة .

سَبَبُ النَّزُولِ : قال ابن عباس : نزلت هذه الآيات في منافقي أهل الكتاب منهم « عبد الله بن أبي ابن سلول ، ومعتب بن قشير ، والجد بن قيس » كانوا إذا لقوا المؤمنين يظهرن الإيمان والتصديق ويقولون : إِنَّا لَنَجِدُ فِي كِتَابِنَا نَعْتَهُ وَصِفَتَهُ (١) .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

التفسير : ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾ أي ومن الناس فريق يقولون بألسنتهم صدقنا بالله وبما أنزل على رسوله من الآيات البينات ﴿وباليوم الآخر﴾ أي وصدقنا بالبعث والنشور ﴿وما هم بمؤمنين﴾ أي وما هم على الحقيقة بمصدقين ولا مؤمنين ، لأنهم يقولون ذلك قولاً دون اعتقاد ، وكلاماً دون تصديق قال البيضاوي : هذا هو القسم الثالث المذبذب بين القسمين ، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله ، لأنهم موهوا الكفر وخلطوا به خداعاً واستهزاءً ، ولذلك أطال في بيان خبثهم وجهلهم ، واستهزأ بهم وتهكّم بأفعالهم ، وسجّل عليهم الضلال والطغيان ، وضرب لهم الأمثال (٢) ﴿يخادعون الله والذين آمنوا﴾ أي يعملون عمل المخادع بإظهار ما أظهره من الإيمان مع إصرارهم على الكفر ، يعتقدون - بجهلهم - أنهم يخدعون الله بذلك ، وأن ذلك نافعهم عنده ، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين ، وما علموا أن الله لا يخدع لأنه لا يخدع عليه خافية قال ابن كثير : النفاق هو إظهار الخير ، وإسرار الشر وهو أنواع : اعتقادي وهو الذي يخدع صاحبه في النار ، وعملي وهو من أكبر الذنوب والأوزار ، لأن المنافق يخالف قوله فعله ، وسره علانيته ، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن بها نفاق بل كان خلافه (٣) ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ أي وما يخدعون في الحقيقة إلا أنفسهم لأن وبال فعلهم راجع عليهم ﴿وما يشعرون﴾ أي ولا يحسّون بذلك ولا يفتنون إليه ، لتأدي غفلتهم ، وتكامل حماقتهم ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾ أي في قلوبهم شك ونفاق فزادهم الله رجساً فوق رجسهم ، وضلالاً فوق ضلالهم ، والجملة دعائية قال ابن أسلم : هذا مرض في الدين ، وليس مرضاً في الجسد ، وهو الشك الذي دخلهم في الإسلام فزادهم الله رجساً وشكاً (٤) ﴿ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ أي ولهم عذاب مؤلم بسبب كذبهم في دعوى الإيمان ، واستهزائهم بآيات الرحمن . . ثم شرع تعالى في بيان قبائحهم ، وأحوالهم الشنيعة فقال ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض﴾ أي وإذا قال

(١) تفسير الفخر الرازي ٦١/٢ . (٢) تفسير البيضاوي ١١/١ . (٣) و(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣٣/١ .

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ
السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ
قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٢٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٢٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ

لهم بعض المؤمنين : لا تسعوا في الأرض بالإفساد بإثارة الفتن ، والكفر والصد عن سبيل الله قال ابن مسعود : الفساد في الأرض هو الكفر ، والعمل بالمعصية ، فمن عصى الله فقد أفسد في الأرض ﴿١٢٢﴾ قالوا إنما نحن مصلحون ﴿١٢٣﴾ أي ليس شأننا الإفساد أبداً ، وإنما نحن أناس مصلحون ، نسعى للخير والصلاح فلا يصح مخاطبتنا بذلك قال البيضاوي : تصوروا الفساد بصورة الصلاح ، لما في قلوبهم من المرض فكانوا كمن قال الله فيهم ﴿١٢٤﴾ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴿١٢٥﴾ ولذلك رد الله عليهم أبلغ رد بتصدير الجملة بحرفي

التأكيد ﴿ألا﴾ المنبهة و﴿إن﴾ المقررة ، وتعريف الخير ، وتوسيط الفصل ، والاستدراك بعدم الشعور^(١) فقال ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ أي ألا فاتبهوا أيها الناس ، إنهم هم المفسدون حقاً لا غيرهم ، ولكن لا يفتنون ولا يحسون ، لانطماس نور الإيمان في قلوبهم ﴿١٢٢﴾ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ﴿١٢٣﴾ أي وإذا قيل للمنافقين : آمنوا إيماناً صادقاً لا يشوبه نفاق ولا رياء ، كما آمن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، وأخلصوا في إيمانكم وطاعتكم لله ﴿١٢٤﴾ قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ﴿١٢٥﴾ الهزيمة للإنكار مع السخرية والاستهزاء أي قالوا أنؤمن من كإيمان هؤلاء الجهلة أمثال « صهيب ، وعمار ، وبلال » ناقصي العقل والتفكير ؟ ! قال البيضاوي : وإنما سفهوهم لاعتقادهم فساد رأيهم ، أولتحقير شأنهم ، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موالي كصهيب وبلال^(٢) ﴿ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ أي ألا إنهم هم السفهاء حقاً ، لأن من ركب متن الباطل كان سفياً بلا امتراء ، ولكن لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل ، وذلك أبلغ في العمى ، والبعد عن الهدى . أكد وتبّه وحصر السفاهة فيهم ، ثم قال تعالى منبهاً إلى مصانعتهم ونفاقهم ﴿١٢٤﴾ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴿١٢٥﴾ أي وإذا رأوا المؤمنين وصادفوهم أظهروا لهم الإيمان والموالة نفاقاً ومصانعة ﴿١٢٤﴾ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴿١٢٥﴾ أي وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم وكبرائهم ، أهل الضلال والنفاق ﴿١٢٤﴾ قالوا إنما نحن مستهزءون ﴿١٢٥﴾ أي قالوا لهم نحن على دينكم وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد ، وإنما نستهزىء بالقوم ونسخر منهم بإظهار الإيمان ، قال تعالى رداً عليهم ﴿١٢٥﴾ الله يستهزىء بهم ﴿١٢٥﴾ أي الله يجازيهم على استهزائهم بالإمهال ثم بالنكال قال ابن عباس : يسخر بهم للنتمة منهم ويملي لهم كقوله ﴿وأملئهم إن كيدي متين﴾ قال ابن كثير : هذا إخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ، ومعاقبهم عقوبة الخداع ، فأخرج الخبر عن الجزء من مخرج الخبر عن الفعل الذي استحقوق العقاب عليه ، فاللفظ متفق والمعنى مختلف^(٣) ، وإليه وجهوا كل ما في القرآن من نظائر مثل ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ ومثل

(١) البيضاوي ١٢/١ . (٢) البيضاوي ١٢/١ . (٣) يسمى هذا النوع عند علماء البيان « المشاكلة » وهو أن تتفق الجملتان في اللفظ وتختلفا في المعنى كقوله :

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت: اطبخوا لي جبةً وقميصاً

أَشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بَكْرٍ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ

﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾ فالأول ظلم والثاني عدل ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي ويزيدهم - بطريق الإمهال والترك - في ضلالهم وكفرهم يتخبطون ويترددون حيارى ، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً لأن الله طبع على قلوبهم وأعمى أبصارهم ، فلا يبصرون رشداً ولا يهتدون سبيلاً ﴿أولئك الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أي استبدلوا الكفر بالإيمان ، وأخذوا الضلالة ودفَعوا ثمنها الهدى ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ أي ما ربحت صفقتهم في هذه المعامضة وبيع ﴿وما كانوا مهتدين﴾ أي وما كانوا راشدين في صنيعهم ذلك ، لأنهم خسروا سعادة الدارين ، ثم ضرب تعالى مثلين وضَّح فيها خسارتهم الفادحة فقال ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أي مثالهم في نفاقهم وحالهم العجيبة فيه كحال شخص أوقد ناراً ليستدفئ بها ويستضيء ، فما اتقدت حتى انطفأت ، وتركته في ظلام دامس وخوف شديد ﴿فلما أضاءت ما حوله ذهبَ اللهُ بنورهم﴾ أي فلما أنارت المكان الذي حوله فأبصر وأمن ، واستأنس بتلك النار المشعة المضيئة ذهب الله بنورهم أي أطفأها الله بالكلية ، فتلاشت النار وعُدمَ النور ﴿وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرون﴾ أي وأبقاهم في ظلماتٍ كثيفة وخوف شديد ، يتخبطون فلا يهتدون قال ابن كثير : ضرب الله للمنافقين هذا المثل ، فشبهم في اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى ، بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها ، وتأنس بها وأبصر ما عن يمينه وشماله . . فبينا هو كذلك إذ طفت ناره ، وصار في ظلام شديد ، لا يبصر ولا يهتدي ، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى ، واستحبابهم الغي على الرشد ، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا ، ولذلك ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات الشك والكفر والنفاق لا يهتدون إلى سبيل خير ، ولا يعرفون طريق النجاة ﴿صُمُّ﴾ أي هم كالصم لا يسمعون خيراً ﴿بِكُمْ﴾ أي كالخرس لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عمى﴾ أي كالعمى لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله ﴿فهم لا يرجعون﴾ أي لا يرجعون عمًا هم فيه من الغي والضلال ، ثم ثنى تعالى بتمثيل آخر لهم زيادة في الكشف والإيضاح فقال ﴿أو كصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي أو مثلهم في حيرتهم وترددهم كمثل قوم أصابهم مطر شديد ، أظلمت له الأرض ، وأرعدت له السماء ، مصحوب بالبرق والرعد والصواعق ﴿فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ﴾ أي في ذلك السحاب ظلماتٌ داجية ، ورعدٌ قاصف ، وبرقٌ خاطف ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾ أي يضعون رءوس أصابعهم في آذانهم لدفع خطر الصواعق ، وذلك من فرط الدهشة والفرع كأنهم يظنون أن ذلك ينجيهم ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ أي خشية الموت من تلك الصواعق المدمرة ﴿واللهُ محيطٌ بالكافرين﴾ جملة اعتراضية أي والله تعالى

مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٥١﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كَمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥٢﴾

محيط بهم بقدرته ، وهم تحت إرادته ومشيئته لا يفوتونه ، كما لا يفوت من أحاط به الأعداء من كل جانب ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ﴾ أي يقارب البرق لشدة وقوته وكثرة لمعانه أن يذهب بأبصارهم فيأخذها بسرعة ﴿كَلِمًا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ أي كلما أنار لهم البرق الطريق مشوا في ضوئه ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أي وإذا اختفى البرق وفتر لمعانه وقفوا عن السير وثبتوا في مكانهم . . وفي هذا تصوير لما هم فيه من غاية التحير والجهل ، فإذا صادفوا من البرق لمعة - مع خوفهم أن يخطف أبصارهم - انتهزوها فرصة فخطوا خطوات يسيرة ، وإذا خفي وفتر لمعانه وقفوا عن السير ، وثبتوا في أماكنهم خشية التردى في حفرة ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ أي لو أراد الله لزداد في قصف الرعد فأصمهم وذهب بأسماهم ، وفي ضوء البرق فأعماهم وذهب بأبصارهم ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي إنه تعالى قادر على كل شيء ، لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء، قال ابن جرير : إنما وصف تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع ، لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته ، وأخبرهم أنه بهم محيط ، وعلى إذهاب أسماهم وأبصارهم قادر^(١) .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

أولاً : المبالغة في التكذيب لهم ﴿وما هم بمؤمنين﴾ كان الأصل أن يقول : « وما آمنوا » ليطابق قوله « من يقول آمنا » ولكنه عدل عن الفعل إلى الاسم لإخراج ذواتهم من عداد المؤمنين وأكده بالبلاء للمبالغة في نفي الإيمان عنهم .

ثانياً : الاستعارة التمثيلية ﴿يُجَادِعُونَ اللَّهَ﴾ شبه حالهم مع ربهم في إظهار الإيمان وإخفاء الكفر بحال رعية تخادع سلطانها واستعير اسم المشبه به للمشبه بطريق الاستعارة .

ثالثاً : صيغة القصر ﴿إنما نحن مصلحون﴾ وهذا من نوع « قصر الموصوف على الصفة » أي نحن مصلحون ليس إلا .

رابعاً : الكناية اللطيفة ﴿في قلوبهم مرض﴾ المرض في الأجسام حقيقة وقد كنى به عن النفاق لأن المرض فساد للبدن ، والنفاق فساد للقلب .

خامساً : تنويع التأكيد ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ جاءت الجملة مؤكدة بأربع تأكيدات ﴿ألا﴾ التي تفيد التنبيه ، و﴿إن﴾ التي هي للتأكيد ، وضمير الفصل ﴿هم﴾ ثم تعريف الخبر ﴿المفسدون﴾ ومثلها في التأكيد ﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ وهذا رد من الله تعالى عليهم بأبلغ رد وأحكمه .

سادساً : المشاكلة ﴿الله يستهزىء بهم﴾ سمى الجزء على الاستهزاء استهزاءً بطريق المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى .

سابعاً : الاستعارة التصريحية ﴿اشترؤا الضلالة بالهدى﴾ المراد استبدلوا الغي بالرشاد ، والكفر بالإيمان فخرت صفقتهم ولم تريح تجارتهم فاستعار لفظ الشراء للاستبدال ثم زاده توضيحاً بقوله ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ وهذا هو الترشيح الذي يبلغ بالاستعارة الذروة العليا^(١) .

ثامناً : التشبيه التمثيلي ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ وكذلك في ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات﴾ شبه في المثال الأول المنافق بالمستوقد للنار ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة ، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار ، وفي المثال الثاني شبه الإسلام بالمطر لأن القلوب تحيا به كحياة الأرض بالماء ، وشبه شبهات الكفار بالظلمات ، وما في القرآن من الوعد والوعيد بالرعد والبرق . الخ^(٢)

تاسعاً : التشبيه البليغ ﴿صم بكم عمي﴾ أي هم كالصم البكم العمي في عدم الاستفادة من هذه الحواس حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

عاشراً : المجاز المرسل ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم﴾ وهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء أي رؤوس أصابعهم لأن دخول الأصبع كلها في الأذن لا يمكن .

الحادي عشر : توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات ، وهذا له وقع في الأذن حسن ، وأثر في النفس رائع مثل ﴿لهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ ﴿إنما نحن مصلحون﴾ ﴿ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية^(٣) .

الفوائد : الأولى : الغاية من ضرب المثل : تقريب البعيد ، وتوضيح الغامض حتى يصبح كالأمر المشاهد المحسوس ، وللأمثال تأثير عجيب في النفس ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ .

الثانية : وصف تعالى المنافقين في هذه الآيات بعشرة أوصاف كلها شنيعة وقبيحة تدل على رسوخهم في الضلال وهي (الكذب ، الخداع ، المكر ، السّفه ، الاستهزاء ، الإفساد في الأرض ، الجهل ، الضلال ، التذبذب ، السخرية بالمؤمنين) أعادنا الله من صفات المنافقين .

(١) قال الزمخشري : وهذا من الصنعة البديعية التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا انظر الكشاف ١/ ٣٥

(٢) قال الفخر الرازي : والتشبيه ههنا في غاية الصحة ، لأنهم بإيمانهم أولاً اكتسبوا نوراً ، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور ، ووقعوا في حيرة عظيمة لأنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين لحسران نفسه أبد الأبد . الرازي ٢/ ٧٣ (٣) ذكرنا الأمثلة البلاغية على سبيل المثال الحصر ، ليتذوق القارئ بعض روائع القرآن ، وإلا فكلام الله معجز وفيه من الروائع البيانية ، والصور البلاغية ، ما يتذوقه ويعجز عن وصفه اللسان .

الثالثة : حكمة كفه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع أنهم كفار وعلمه ﷺ بأعيان بعضهم ما أخرجه البخاري أن النبي ﷺ قال لعمر : (أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه)^(١) .

لطيفة : قال العلامة ابن القيم : تأمل قوله تعالى ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ ولم يقل : « ذهب الله بنارهم » مع أنه مقتضى السياق ليطابق أول الآية ﴿ استوقد ناراً ﴾ فإن النار فيها إشراق وإحراق ، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو « النور » وأبقى ما فيها من الإحراق وهو « النارية » ! ! وتأمل كيف قال ﴿ بنورهم ﴾ ولم يقل بضوئهم ، لأن الضوء زيادة في النور ، فلو قيل : ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل ! ! وتأمل كيف قال ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ فوحد النور ثم قال ﴿ وتركهم في ظلمات ﴾ فجمعها ، فإن الحق واحد هو صراط الله المستقيم ، الذي لا صراط يوصل سواه ، بخلاف طرُق الباطل فإنها متعددة ومتشعبة ، ولهذا أفرد سبحانه « الحق » وجمع « الباطل » في آيات عديدة مثل قوله تعالى ﴿ يخرجونهم من الظلمات إلى النور ﴾ وقوله ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ وقوله ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ فجمع سبل الباطل ووحد سبيل الحق^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم . . . إلى .. وهم فيها خالدون ﴾

من آية (٢١) إلى نهاية آية (٢٥) .

المناسكة : لما ذكر تعالى الأصناف الثلاثة « المؤمنين ، والكافرين ، والمنافقين » وذكر ما تميزوا به من سعادة أو شقاوة ، أو إيمان أو نفاق ، وضرب الأمثال ووضّح طرق الضلال أعقبه هنا بذكر الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين ، وعرف الناس بنعمه ليشكروه عليها ، وأقبل عليهم بالخطاب ﴿ يا أيها الناس ﴾ وهو خطاب لجميع الفئات ممتناً عليهم بما خلق ورزق ، وأبرز لهم « معجزة القرآن » بأنصع بيان وأوضح برهان ، ليقنتل من القلوب جذور الشك والارتياب .

اللغة : ﴿ خلقكم ﴾ الخلق : الإيجاد والاختراع بلا مثال ، وأصله في اللغة التقدير يقال : خلقت النعل إذا قدرتها وسواها بالمقياس ، وخلق الأديم للسقاء إذا قدره قال الحجاج « ما خلقت إلا فريت ، ولا وعدت إلا وفيت » أي ما قدرت شيئاً إلا أمضيته ، ولا وعدت بشيء إلا وفيت به . ﴿ فراشاً ﴾ الفراش : الوطاء والمهاد الذي يقعد عليه الإنسان وينام ﴿ بناء ﴾ البناء : ما يُبنى من قبة أو خباء أو بيت ﴿ أنداداً ﴾ جمع نِدٍّ وهو الكفاء والمثيل والنظير ومنه قول علماء التوحيد « ليس لله نِدٌّ ولا ضدٌّ » قال حسان :

أتهجوه ولست له بندٌ فشرُّكمما خيراً كما الفداء^(٣)

(١) ذكرها ابن كثير كذا في المختصر ١/٣٣ (٢) نقلاً عن محاسن التأويل للقاسمي . (٣) القرطبي ١/٢٣٠ .

وقال الزمخشري : « النَّدُّ : المثل ولا يقال إلا للمخالف المناوىء قال جرير : أتياً تجعلون إلى نداءً؟^(١) »
 ﴿وقودها﴾ الوقود : الحطب الذي توقد به النار قال القرطبي : الوقود بالفتح الحطب ، وبالضم مصدر
 بمعنى التوقد^(٢) ﴿أُعِدَّتْ﴾ هيئت ، وأعدنا هيأنا قال البيضاوي : ﴿أُعِدَّتْ﴾ هيئت لهم وجعلت عُدَّةً
 لعذابهم^(٣) ﴿وبشر﴾ البشارة : الخبر السار الذي يتغير به بشرة الوجه من السرور ، وإذا استعمل في الشر
 فهو تهكم مثل ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ ﴿أزواج﴾ جمع زوج ويطلق على الذكر والأنثى ﴿اسكن أنت
 وزوجك الجنة﴾ فالمرأة زوج الرجل ، والرجل زوج المرأة قال الأصمعي : لا تكاد العرب تقول زوجة
 ﴿خالدون﴾ باقون دائمون .

يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
 الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا

التفسير : يقول تعالى منبهاً العباد إلى دلائل القدرة والوحدانية ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ أي
 يا معشر بني آدم اذكروا نعم الله الجليلة عليكم ، وابدعوا الله ربكم الذي ربكم وأنشأكم بعد أن لم
 تكونوا شيئاً ، اعبدوه بتوحيده ، وشكره ، وطاعته ﴿الذي خلقكم والذين من قبلكم﴾ أي الذي أوجدكم
 بقدرته من العدم ، وخلق من قبلكم من الأمم ﴿لعلكم تتقون﴾ أي لتكونوا في زمرة المتقين ، الفائزين
 بالهدى والفلاح قال البيضاوي : لما عدَّد تعالى فِرَقَ المكلفين ، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات ،
 هزأً للسامع ، وتنشيطاً له ، واهتماماً بأمر العبادة وتفخياً لشأنها ، وإنما كثر النداء في القرآن بـ ﴿يا أيها﴾
 لاستقلاله بأوجه من التأكيد ، وكلُّ ما نادى الله له عباده من حيث إنها أمور عظام من حقها أن يتفطنوا لها ،
 ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثرهم عنها غافلون حقيق بأن يُنادى له بالأكد الأبلغ^(٤) ، ثمَّ عدَّد تعالى نعمه عليهم
 فقال ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ أي جعلها مهاداً وقراراً ، تستقرون عليها وتفترشونها كالبساط
 المفروش مع كرويتها ، وإلا ما أمكنكم العيش والاستقرار عليها قال البيضاوي : جعلها مهياً لأن يقعدوا
 ويناموا عليها كالفراش المبسوط ، وذلك لا يستدعي كونها مسطحة لأن كروية شكلها مع عظم حجمها لا
 يأبى الافتراش عليها^(٥) ﴿والسماء بناءً﴾ أي سقفاً للأرض مرفوعاً فوقها كهيئة القبة ﴿وأنزل من السماء ماء﴾
 أي مطراً عذباً فراتاً أنزله بقدرته من السحاب ﴿فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾ أي فأخرج بذلك المطر
 أنواع الثمار والفواكه والخضار غذاءً لكم ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ أي فلا تتخذوا معه شركاء
 من الأصنام والبشر تشركونهم مع الله في العبادة ، وأنتم تعلمون أنها لا تخلق شيئاً ولا ترزق ، وأن الله هو
 الخالق الرازق وحده ، ذو القوة المتين قال ابن كثير : شرع تعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه هو المنعم على

(١) الكشاف ٧٢/١ . (٢) القرطبي ٢٣٨/١ . (٣) البيضاوي ١٨/١ . (٤) البيضاوي ١٦/١ .

(٥) نفس المرجع السابق والصفحة ورأي الإمام البيضاوي صريح في كروية الأرض قبل أن يدور روأد الفضاء حولها في هذا العصر .

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۖ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ ۚ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۗ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾

عبيده بإخراجهم من العدم ، وإسباغه عليهم النعم ، والمراد بالسما هنا السحاب ، فهو تعالى الذي أنزل المطر من السحاب في وقته عند احتياجهم إليه ، فأخرج لهم به أنواع الزروع والثمار رزقاً لهم ولأنعامهم ، ومضمونه أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم ، فهذا يستحق أن يُعبد وحده ولا يُشرك به غيره^(١) . ثم ذكر تعالى بعد أدلة التوحيد الحجة على النبوة ، وأقام البرهان على إعجاز القرآن فقال ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي وإذا كنتم أيها الناس في شك وارتياب من صدق هذا القرآن ، المعجز في بيانه ، وتشريعه ، ونظمه ، الذي أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ ﴿فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ أي فأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن ، في البلاغة والفصاحة والبيان ﴿وادعوا شهداءكم من دون الله﴾ أي وادعوا أعوانكم وأنصاركم الذين يساعدونكم على معارضة القرآن غير الله سبحانه ، والمراد استعينوا بمن شئتم غيره تعالى قال البيضاوي : المعنى أدعوا للمعارضة من حضركم أو رجوتهم معونته من إنسكم وجنكم وأهتكم غير الله سبحانه وتعالى ، فإنه لا يقدر أن يأتي بمثله إلا الله^(٢) ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي أنه مختلق وأنه من كلام البشر ، وجوابه محذوف دل عليه ما قبله ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ أي فإن لم تقدروا على الإتيان بمثل سورة من سوره ، وعجزتم في الماضي عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه ، مع استعانتكم بالفصحاء والعباقرة والبلغاء ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ أي ولن تقدروا في المستقبل أيضاً على الإتيان بمثله ، والجملة اعتراضية للإشارة إلى عجز البشر في الحاضر والمستقبل كقوله ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ أي معيناً قال ابن كثير : تحداهم القرآن وهم أفصح الأمم ومع هذا عجزوا ، ﴿وَلَنْ﴾ لنفي التأييد في المستقبل أي ولن تفعلوا ذلك أبداً ، وهذه أيضاً معجزة أخرى وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً ، غير حائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يُعارض بمثله أبد الأبدين ودهر الدهرين ، وكذلك وقع الأمر لم يُعارض من لدنه إلى زماننا هذا ، ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية ، من حيث اللفظ ومن حيث المعنى ، والقرآن جميعه فصيح في غاية نهايات الفصاحة والبيان عند من يعرف كلام العرب ، ويفهم تصاريف الكلام^(٣) ﴿فاتقوا النار﴾ أي فخافوا عذاب الله ، واحذروا نار الجحيم التي جعلها الله جزاء المكذبين ﴿التي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي اتقوا النار التي مادتها التي تُشعل بها وتُضرم لايقادها هي الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله كقوله تعالى ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ قال مجاهد : حجارة من كبريت أتت من الجيفة يعذبون بها مع النار ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي هيئت تلك النار وأرصدت للكافرين الجاحدين ، ينالون فيها ألوان العذاب المهين .

ثم لما ذكر ما أعدّه لأعدائه ، عطف عليه بذكر ما أعدّه لأوليائه ، على طريقة القرآن في الجمع بين

(١) مختصر ابن كثير ٣٨/١ . (٢) البيضاوي ١٧/١ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٤١/١ .

وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

الترغيب والترهيب ، للمقارنة بين حال الأبرار والفجار فقال ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي وبشّر يا محمد المؤمنين المتقين ، الذين كانوا في الدنيا محسنين ، والذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي بأن لهم حدائق وبساتين ذات أشجار ومسكن ، تجري من تحت قصورها ومسكنها أنهار الجنة^(١) ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا﴾ أي كلما أعطوا عطاءً ورزقوا رزقاً من ثمار الجنة ﴿قالوا هذا الذي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي هذا مثل الطعام الذي قَدَّم إلينا قبل هذه المرة قال المفسرون : إن أهل الجنة يُرزقون من ثمارها ، تأتيهم به الملائكة ، فإذا قَدَّم لهم مرة ثانية قالوا : هذا الذي أتيتمونا به من قبل فتقول الملائكة : كل يا عبد الله فاللون واحد والطعم مختلف^(٢) قال تعالى ﴿وأتوا به متشابهًا﴾ أي متشابهاً في الشكل والمنظر ، لا في الطعم والمخبر قال ابن جرير : يعني في اللون والمرأى وليس يشبهه في الطعم قال ابن عباس : لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾ أي ولهم في الجنة زوجات من الحور العين مطهّرات من الأقدار والأدناس الحسية والمعنوية قال ابن عباس : مطهّرة من القدر والأذى وقال مجاهد : مطهّرة من الحيض والنفاس ، والغائط والبول والنخام ، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنّ يوم القيامة أجمل من الحور العين كما قال تعالى ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * غُرْبًا أَثْرَابًا﴾ ﴿ولهم فيها خالدون﴾ أي دائمون ، وهذا هو تمام السعادة ، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين ، يعيشون مع زوجاتهم في هناء خالد لا يعتريه انتقطاع .

البلاغَة : ١ - ذكر الربوبية ﴿اعبدوا ربكم﴾ مع إضافته إلى المخاطبين للتفخيم والتعظيم .

٢ - الإضافة ﴿على عبدنا﴾ للتشريف والتخصيص ، وهذا أشرف وصف لرسول الله ﷺ .

٣ - التعجيز ﴿فأتوا بسورة﴾ خرج الأمر عن صيغته إلى معنى التعجيز ، وتنكير السورة لإرادة العموم والشمول .

٤ - المقابلة اللطيفة ﴿جعل لكم الأرض فراشاً ، والسماء بناءً﴾ فقد قابل بين الأرض والسماء ، والفراش والبناء ، وهذا من المحسنات البديعية .

٥ - الجملة الاعتراضية ﴿ولن تفعلوا﴾ لبيان التحدي في الماضي والمستقبل وبيان العجز التام في جميع العصور والأزمان .

(١) جاء في الحديث أن أنهار الجنة تجري في غير أهدود .

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله ﴿هذا الذي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي في الدنيا ، وهذا قول مرجوح والصحيح ما روي عن ابن عباس وغيره أن هذا في الجنة وأنه ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء .

٦ - الإيجاز البديع بذكر الكناية ﴿فاتقوا النار﴾ أي فإن عجزتم فخافوا نار جهنم بتصديقكم بالقرآن .

قال الله تعالى ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً . . . إلى . . . وهو بكل شيء عليم﴾

من آية (٢٦) إلى نهاية آية (٢٩) .

المناسبة : لما بينّ تعالى بالدليل الساطع ، والبرهان القاطع ، أن القرآن كلام الله لا يتطراً إليه شك ، وإنه كتاب معجز أنزله على خاتم المرسلين ، وتحداهم أن يأتوا بمثل سورةٍ من أقصر سورهِ ، ذكر هنا شبهة أوردها الكفار للقدح فيه وهي أنه جاء في القرآن ذكر (النحل ، والذباب ، والعنكبوت ، والنمل) الخ وهذه الأمور لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء فضلاً عن كلام ربّ الأرباب ، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة ، وردّ عليهم بأنّ صغر هذه الأشياء لا يقدح في فصاحة القرآن وإعجازه ، إذا كان ذكر المثل مشتملاً على حكمٍ بالغة .

اللفت : ﴿ لا يستحيي ﴾ الحياء : تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم ، والمراد به هنا لازمه وهو الترك ، قال الزمخشري : أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحي من ذكرها لحقارتها^(١) ﴿فما فوقها﴾ فما دونها في الصغر ﴿الفاسقين﴾ أصل الفسق في كلام العرب : الخروج عن الشيء ، والمنافق فاسق لخروجه عن طاعة ربه ، قال الفراء : الفاسق مأخوذ من قولهم فسقت الرطبة من قشرها أي خرجت ، ويسمى الفاسق فاسقاً لخروجه عن طاعة الله ، وتسمى الفأرة فويسقة لخروجها لأجل المضرة^(٢) . ﴿ينقضون﴾ النقض : فسخ التركيب وإفساد ما أبرمته من بناء ، أو حبل ، أو عهد قال تعالى ﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها﴾ وقال ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ أي فبنقضهم الميثاق ﴿عهد﴾ العهد : الموثق الذي يعطيه الإنسان لغيره ويقال عهد إليه أي أوصاه ﴿الميثاق﴾ العهد المؤكد باليمين وهو أبلغ من العهد . ﴿استوى﴾ الاستواء في الأصل : الاعتدال والاستقامة يقال : استوى العود إذا قام واعتدل ، واستوى إليه كالسهم إذا قصده قصداً مستوياً ، وقال ثعلب : الاستواء : الإقبال على الشيء^(٣) . ﴿فسواهن﴾ خلقهن وأتقنهن وقيل معناه : صيرهن .

سبب النزول : لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت في كتابه ، وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله ، وما أراد بذكر هذه الأشياء الخسيسة ؟ فأنزل الله الآية^(٤) .

(١) الكشف ج ١ ص ٨٥ . (٢) التفسير الكبير للرازي ج ٢ ص ١٤٧ .

(٣) الصاوي على الجلالين ج ١ ص ١٩ ، والكشاف ج ١ ص ٩٢ .

(٤) القرطبي ج ١ ص ٢٤٤ والصاوي ج ١ ص ١٧ .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۙ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ۚ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ ءَامُونَ ۗ فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

التفسير: يقول تعالى في الرد على مزاعم اليهود والمنافقين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي إن الله لا يستنكف ولا يمتنع عن أن يضرب أي مثل كان ، بأي شيء كان ، صغيراً كان أو كبيراً ﴿بعوضة فما فوقها﴾ أي سواء كان هذا المثل بالبعوضة أو بما هو دونها في الحقارة والصغر ، فكما لا يستنكف عن خلقها ، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها ﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾ أما المؤمنون فيعلمون أن الله حق ، لا يقول غير الحق ، وأن هذا المثل من عند الله ﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ ؟ وأما الذين كفروا فيتعجبون ويقولون : ماذا أراد الله من ضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء الحقيرة ؟ قال تعالى في الرد عليهم ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾ أي يضل بهذا المثل كثيراً من الكافرين لكفرهم به ، ويهدي به كثيراً من المؤمنين لتصديقهم به ، فيزيد أولئك ضلالة ، وهو لاء هدى ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾ أي ما يضل بهذا المثل أو بهذا القرآن إلا الخارجين عن طاعة الله ، الجاحدين بآياته ، ثم عدّد تعالى أوصاف هؤلاء الفاسقين فقال ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ أي ينقضون ما عهده إليهم في الكتب السماوية ، من الإيمان بحمد ﷺ من بعد توكيده عليهم ، أو ينقضون كل عهد وميثاق من الإيمان بالله ، والتصديق بالرسول ، والعمل بالشرائع ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ من صلة الأرحام والقربات ، واللفظ عام في كل قطعة لا يرضاها الله كقطع الصلة بين الأنبياء ، وقطع الأرحام ، وترك موالاة المؤمنين ﴿ويفسدون في الأرض﴾ بالمعاصي ، والفتن ، والمنع عن الإيمان ، وإثارة الشبهات حول القرآن ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ أي أولئك المذكورون ، الموصوفون بتلك الأوصاف القبيحة هم الخاسرون لأنهم استبدلوا الضلالة بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، فصاروا إلى النار المؤبدة ﴿كيف تكفرون بالله﴾ استفهام للتوبيخ والإنكار والمعنى كيف تجحدون الخالق ، وتنكرون الصانع ﴿وكنتم أمواتاً﴾ أي وقد كنتم في العدم نطفاً في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ﴿فأحياكم﴾ أي أخرجكم إلى الدنيا ﴿ثم يميتكم﴾ عند انقضاء الأجل ﴿ثم يحييكم﴾ بالبعث من القبور ﴿ثم إليه ترجعون﴾ للحساب والجزاء يوم النشور . ثم ذكر تعالى برهاناً على البعث فقال ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ أي خلق لكم الأرض وما فيها لتنتفعوا بكل ما فيها ، وتعتبروا بأن الله هو الخالق الرازق ﴿ثم

استوى إلى السماء ﴿ أي ثم وجه إرادته إلى السماء ﴾ ﴿ فسواهن سبع سموات ﴾ أي صيّرهن وقضاهن سبع سموات محكمة البناء وذلك دليل القدرة الباهرة ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ أي وهو عالم بكل ما خلق وذراً ، أفلا تعتبرون بأن القادر على خلق ذلك - وهي أعظم منكم - قادر على إعادتكم ؟ ! بلى إنه على كل شيء قدير .

البالغة : ١ - قوله ﴿ لا يستحي ﴾ مجاز من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللزوم ، المعنى : لا يترك فعبر بالحياء عن الترك ، لأن الترك من ثمرات الحياء ، ومن استحيا من فعل شيء تركه^(١) .

٢ - قوله ﴿ ينقضون عهد الله ﴾ فيه (استعارة مكنية) حيث شبه العهد بالجل ، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو النقض على سبيل الاستعارة المكنية .

٣ - قوله ﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ هو من باب (الالتفات) للتوبيخ والتفريع ، فقد كان الكلام بصيغة الغيبة ثم التفت فخطبهم بصيغة الحضور ، وهو ضرب من ضروب البديع .

٤ - قوله ﴿ عليم ﴾ من صيغ المبالغة ، ومعناه الواسع العلم الذي أحاط علمه بجميع الأشياء ، قال أبو حيان : وصف تعالى نفسه بـ (عالم وعليم وعلام) وهذان للمبالغة ، وقد أدخلت العرب الهاء لتأكيد المبالغة في (علامة) ولا يجوز وصفه به تعالى^(٢) .

الفوائد : الأولى : قال الزمخشري : التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب ، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إلا أمراً تستدعيه حال التمثيل له ، ألا ترى إلى الحق لما كان أبلج واضحاً جلياً ، كيف تمثل له بالضياء والنور ؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته كيف تمثل له بالظلمة ؟ ولما كان حال الآلهة التي جعلها الكفار أنداداً لله تعالى ليس أحقر منها وأقل ، لذلك ضرب لها المثل ببيت العنكبوت في الضعف والوهن ﴿ كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ﴾ وجعلت أقل من الذباب وأخس قدراً ﴿ لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ﴾ والعجب منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور ، والحشرات والهوام ، وهذه أمثال العرب بين أيديهم سائرة في حواضرهم وبوادئهم^(٣) .

الثانية : قدم الإضلال على الهداية ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾ ليكون أول ما يقرع أسماهم من الجواب أمراً فظيماً يسوءهم ويفت في أعضادهم ، وأوثر صيغة الاستقبال إيداناً بالتجدد والاستمرار ، أفاده العلامة أبو السعود^(٤) .

الثالثة : قال ابن جزى في التسهيل : وهذه الآية ﴿ خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء ﴾ تقتضي أنه خلق السماء بعد الأرض ، وقوله تعالى ﴿ والأرض بعد ذلك دحائها ﴾ ظاهره خلاف

(١) أفاده الزمخشري . (٢) البحر المحيط ج ١ ص ١٣٦ . (٣) الكشف ج ١ ص ٨٣ . (٤) إرشاد العقل السليم ج ١ ص ٦٠ .

ذلك ، والجواب من وجهين : أحدهما أن الأرض خلقت قبل السماء ، ودحيت بعد ذلك فلا تعارض ، والآخر تكون ﴿ثم﴾ لترتيب الأخبار^(١) .

قال الله تعالى ﴿وإذ قال ربك للملائكة . . . إلى . . . وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾
من آية (٣٠) إلى نهاية آية (٣٣) .

المناسكة : لما امتنَّ تعالى على العباد بنعمة الخلق والإيجاد وأنه سخر لهم ما في الأرض جميعاً ، وأخرجهم من العدم إلى الوجود ، أتبع ذلك ببداء خلقهم ، وامتنَّ عليهم بتشريف أبيهم وتكريمه ، بجعله خليفة ، وإسكانه دار الكرامة ، وإسجاد الملائكة تعظيماً لشأنه ، ولا شك أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع ، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء ، ولهذا ناسب أن يذكرهم بذلك ، لأنه من وجوه النعم التي أنعم بها عليهم .

اللفظة : ﴿إذ﴾ ظرف زمان منصوب بفعل محذوف تقديره : اذكر حين أو اذكر وقت ، وقد يصرح بالمحذوف كقوله تعالى ﴿واذكروا إذ أنتم قليل﴾ قال المبرد : إذا جاء «إذ» مع مستقبل كان معناه ماضياً نحو قوله ﴿وإذ يمكر بك﴾ معناه إذ مكروا ، وإذا جاء «إذا» مع الماضي كان معناه مستقبلاً كقوله ﴿فإذا جاءت الطامة﴾ و﴿إذا جاء نصر الله﴾ أي يجيء^(٢) . ﴿خليفة﴾ الخليفة : من يخلف غيره وينوب منابه ، فعيل بمعنى فاعل والتاء للمبالغة ، سمي خليفة لأنه مستخلف عن الله عز وجل في إجراء الأحكام وتنفيذ الأوامر الربانية قال تعالى ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ الآية ﴿يسفك﴾ السفك : الصب والإراقة ولا يستعمل إلا في الدم قال في المصباح : وسفك الدم : أراقه وبابه ضرب ﴿نسبح﴾ التسبيح : تنزيه الله وتبرئته عن السوء^(٣) ، وأصله من السَّبَح وهو الجري والذهاب قال تعالى ﴿إنَّ لك في النهار سبحاً طويلاً﴾ فالسَّبَح جارٍ في تنزيه الله تعالى ﴿ونقدس﴾ التقديس : التطهير ومنه الأرض المقدسة ، وروح القدس ، وضده التنجيس ، وتقديس الله معناه : تمجيده وتعظيمه وتطهير ذكره عما لا يليق به وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده (سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ) ﴿أنبئوني﴾ أخبروني والنبأ : الخبر الهام ذو الفائدة العظيمة قال تعالى ﴿قل هو نبيأ عظيم﴾ ﴿وتبدون﴾ تظهرون ﴿تكتمون﴾ تخفون ومنه كتم العلم أي اخفاؤه .

(١) التسهيل في علوم التنزيل ج ١ ص ٤٣ . (٢) القرطبي ج ١ ص ٢٦٢ .

(٣) روى طلحة بن عبيد الله قال سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله فقال : (هو تنزيه الله عز وجل عن كل سوء) القرطبي ج ١ ص ٢٧٦ .

البَلَاغَةُ : ١ - التعرض بعنوان الربوبية ﴿ وإذ قال ربك ﴾ مع الإضافة إلى الرسول عليه السلام للتشريف والتكريم لمقامه العظيم وتقديم الجار والمجرور ﴿ للملائكة ﴾ للاهتمام بما قُدّم ، والتشويق إلى ما أُخّر .

٢ - الأمر في قوله تعالى ﴿ أنبئوني ﴾ خرج عن حقيقته إلى التعجيز والتبكيث ^(١) .

٣ - ﴿ فلما أنبأهم بأسمائهم ﴾ فيه مجاز بالحذف والتقدير : فأنبأهم بها فلما أنبأهم حذف لفهم المعنى .

٤ - ﴿ ثم عرضهم ﴾ هو من باب التغليب لأن الميم علامة الجمع للعقلاء الذكور ، ولو لم يغلب لقال ﴿ ثم عرضها ﴾ أو عرضهن .

٥ - إبراز الفعل في قوله ﴿ إني أعلم غيب السموات ﴾ ثم قال ﴿ وأعلم ما تبدون ﴾ للاهتمام بالخبر والتنبيه على إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء ، ويسمى هذا بالإطناب .

٦ - تضمنت آخر هذه الآية من علم البديع ما يسمى بـ « الطباق » وذلك في كلمتي ﴿ تبدون ﴾ و﴿ تكتمون ﴾ .

الفَوَائِد : الأولى : قال بعض العلماء : في إخبار الله تعالى للملائكة عن خلق آدم واستخلافه في الأرض ، تعليمٌ لعباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها .

الثانية : الحكمة من جعل آدم عليه السلام خليفة هي الرحمة بالعباد - لا لافتقار الله - وذلك أن العباد لا طاقة لهم على تلقي الأوامر والنواهي من الله بلا واسطة ، ولا بواسطة ملك ، فمن رحمته ولطفه وإحسانه إرسال الرسل من البشر .

الثالثة : قال الحافظ ابن كثير : وقول الملائكة ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ الآية ليس هذا على وجه الاعتراض على الله ، ولا على وجه الحسد لبني آدم ، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عين الحكمة في ذلك ، يقولون : ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ؟ ^(٢) وقال في التسهيل : وإنما علمت الملائكة أن بني آدم يفسدون بإعلام الله إياهم بذلك ، وقيل : كان في الأرض جنٌ فأفسدوا ، فبعث الله إليهم ملائكة فقتلتهم ، ففاس الملائكة بني آدم عليهم ^(٣) .

الرابعة : سئل الشعبي : هل لإبليس زوجة ؟ قال : ذلك عرسٌ لم أشهده ؟ قال : ثم قرأتُ قوله تعالى : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني ﴾ فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة ، فقلت : نعم ^(٤) .

(١) أفاده أبو السعود . (٢) مختصر ابن كثير ج ١ ص ٤٩ . (٣) التسهيل لابن جزي ج ١ ص ٤٣ . (٤) محاسن التأويل ج ٢ ص ١٠٤ .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَازْلَمَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

المناسبة: أشارت الآيات السابقة إلى أن الله تعالى خصَّ آدم عليه السلام بالخلافة ، كما خصه بعلم غزير وفتت الملائكة عاجزة عنه ، وأضافت هذه الآيات الكريمة بيان نوع آخر من التكريم أكرمه الله به ألا وهو أمر الملائكة بالسجود له ، وذلك من أظهر وجوه التشريف والتكريم لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أصل البشرية آدم عليه السلام .

اللفظة: ﴿اسجدوا﴾ أصل السجود : الانحناء لمن يُسجد له والتعظيم ، وهو في اللغة : التذلل والخضوع، وفي الشرع : وضع الجبهة على الأرض ﴿إبليس﴾ اسم للشيطان وهو أعجمي ، وقيل إنه مشتق من الإيلاس وهو الإيلاس ﴿أبى﴾ امتنع ، والإيلاء : الامتناع مع التمكن من الفعل ﴿استكبر﴾ الاستكبار : التكبر والتعظيم في النفس ﴿رغداً﴾ واسعاً كثيراً لا عناء فيه ، والرغد : سعة العيش ، يقال : رغد عيش القوم إذا كانوا في رزقٍ واسع قال الشاعر :

بينما المرء تراه ناعماً يأمن الأحداث في عيشٍ رغد

﴿فأزلهما﴾ أصله من الزلل وهو عثور القدم يقال : زلت قدمه أي زلقت ثم استعمل في ارتكاب الخطيئة مجازاً يقال : زلَّ الرجل إذا أخطأ وأتى ما ليس له إتيانه ، وأزله غيره : إذا سبب له ذلك ^(١) ﴿مستقر﴾ موضع استقرار ﴿ومتاع﴾ المتاع ما يتمتع به من المأكول والمشروب والملبوس ونحوه ﴿فتلقى﴾ التلقى في الأصل : الاستقبال تقول خرجنا نتلقى الحجيج أي نستقبلهم ، ثم استعمل في أخذ الشيء وقبوله تقول : تلقيت رسالة من فلان أي أخذتها وقبلتها ﴿فتاب﴾ التوبة في أصل اللغة الرجوع ، وإذا عدت بعن كان معناها الرجوع عن المعصية ، وإذا عدت بعلى كان معناها قبول التوبة .

التفسير: ﴿وإذ قلنا للملائكة﴾ أي اذكر يا محمد لقومك حين قلنا للملائكة ﴿اسجدوا لآدم﴾ أي

سجود تحية وتعظيم لا سجود عبادة ﴿فسجدوا إلا إبليس﴾ أي سجدوا جميعاً له غير إبليس ﴿أبى واستكبر﴾ أي امتنع مما أمر به وتكبر عنه ﴿وكان من الكافرين﴾ أي صار بإيائه واستكباره من الكافرين حيث استقبح أمر الله بالسجود لآدم ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ أي اسكن في جنة الخلد مع زوجك حواء ﴿وكلا منها رغداً﴾ أي كلا من ثمار الجنة أكلاً رغداً واسعاً ﴿حيث شئتما﴾ أي من أي مكان في الجنة أردتما الأكل فيه ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ أي لا تأكلا من هذه الشجرة قال ابن عباس: هي الكرمة ﴿فتكونا من الظالمين﴾ أي فتصيراً من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ أي أوقعهما في الزلة بسببها وأغواهما بالأكل منها هذا إذا كان الضمير عائداً إلى الشجرة ، أما إذا كان عائداً إلى الجنة فيكون المعنى أبعدهما وحوّلها من الجنة^(١) ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ أي من نعيم الجنة ﴿وقلنا اهبطوا﴾ أي اهبطوا من الجنة إلى الأرض والخطاب لآدم وحواء وإبليس ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ أي الشيطان عدو لكم فكونوا أعداء له كقوله ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾ ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ أي لكم في الدنيا موضع استقرار بالإقامة فيها ﴿ومتاع إلى حين﴾ أي تمتع بنعيمها إلى وقت انقضاء آجالكم ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ أي استقبل آدم دعوات من ربه ألهمه إياها فدعاها بها وهذه الكلمات مفسرة في موطن آخر في سورة الأعراف ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ الآية ﴿فتاب عليه﴾ أي قبل ربه توبته ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ أي إن الله كثير القبول للتوبة ، واسع الرحمة للعباد ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ كرر الأمر بالهبوط للتأكيد ولبيان أنّ إقامة آدم وذريته في الأرض لا في الجنة^(٢) ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ أي رسول أبعثه لكم ، وكتاب أنزله عليكم ﴿فمن تبع هداي﴾ أي من آمن بي وعمل بطاعتي ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي لا ينالهم خوف ولا حزن في الآخرة ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ أي جحدوا بما أنزلت وبما أرسلت ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي هم مخلدون في الجحيم أعادنا الله منها .

البَلَاغَةُ : أولاً : صيغة الجمع ﴿وإذ قلنا﴾ للتعظيم ، وهي معطوفة على قوله ﴿وإذ قال ربك﴾ وفيه التفات من الغائب إلى المتكلم لتربية المهابة وإظهار الجلالة .

ثانياً : أفادت الفاء في قوله ﴿فسجدوا﴾ أنهم سارعوا في الامتثال ولم يتشبثوا فيه ، وفي الآية إيجاز بالحذف أي فسجدوا له وكذلك ﴿أبى﴾ مفعوله محذوف أي أبى السجود .

ثالثاً : قوله ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ المنهي عنه هو الأكل من ثمار الشجرة ، وتعليق النهي بالقرب منها ﴿ولا تقربا﴾ لقصد المبالغة في النهي عن الأكل ، إذ النهي عن القرب نهي عن الفعل بطريق أبلغ كقوله تعالى ﴿ولا تقربوا الزنى﴾ فهى عن القرب من الزنى ليقطع الوسيلة إلى ارتكابه .

رابعاً : التعبير بقوله ﴿مما كانا فيه﴾ أبلغ في الدلالة على فخامة الخيرات مما لو قيل : من النعيم أو

(١) (٢) وهذا ما ذهب إليه السيوطي والمحلّي في تفسير الجلالين ، والأول اختيار الطبري .

الجنة ، فإن من أساليب البلاغة في الدلالة على عظم الشيء أن يعبر عنه بلفظ مبهم نحو ﴿مما كانا فيه﴾ لتذهب نفس السامع في تصور عظمتة وكماله إلى أقصى ما يمكنها أن تذهب إليه .

خامساً : ﴿التواب الرحيم﴾ من صيغ المبالغة أي كثير التوبة واسع الرحمة .

الفوائد : الأولى : كيف يصح السجود لغير الله ؟ والجواب أن سجود الملائكة لآدم كان للتحية وكان سجود تعظيم وتكريم لا سجود صلاة وعبادة ، قال الزمخشري : السجود لله تعالى على سبيل العبادة ، ولغيره على وجه التكرمة كما سجدت الملائكة لآدم ، ويعقوب وأبناؤه ليوסף^(١) .

الثانية : قال بعض العارفين : سابق العناية لا يؤثر فيه حدوث الجناية ، ولا يحط عن رتبة الولاية ، فمخالفة آدم التي أوجبت له الإخراج من دار الكرامة لم تخرجه عن حظيرة القدس ، ولم تسلبه رتبة الخلافة ، بل أجزل الله له في العطية فقال ﴿ثم اجتباه ربه﴾ وقال الشاعر :

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ جاءت محاسنه بألف شفيع^(٢)

الثالثة : هل كان إبليس من الملائكة ؟ الجواب : اختلف المفسرون على قولين : ذهب بعضهم إلى أنه من الملائكة بدليل الاستثناء ﴿فسجدوا إلا إبليس﴾ وقال آخرون : الاستثناء منقطع وإبليس من الجن وليس من الملائكة وإليه ذهب الحسن وقتادة واختاره الزمخشري ، قال الحسن البصري : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين ، ونحن نرجح القول الثاني للأدلة الآتية : ١ - الملائكة منزهون عن المعصية ﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾ وإبليس قد عصى أمر ربه ٢ - الملائكة خلقت من نور وإبليس خلق من نار فطبيعتها مختلفة ٣ - الملائكة لا ذرية لهم وإبليس له ذرية ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ ؟ ٤ - النص الصريح الواضح في سورة الكهف على أنه من الجن وهو قوله تعالى ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ وكفى به حجة وبرهاناً^(٣) .

قال الله تعالى ﴿يا بني إسرائيل . . إلى . . واركعوا مع الراكعين﴾
من آية (٤٠) إلى نهاية آية (٤٣).

المناسكبة : من بداية هذه الآية إلى آية ١٤٢ / ورد الكلام عن بني إسرائيل ، وقد تحدث القرآن الكريم بالإسهاب عنهم فيما يقرب من جزء كامل ، وذلك يدل على عناية القرآن بكشف حقائق اليهود ، وإظهار ما انطوت عليه نفوسهم الشريرة من خبث وكيد وتدمير حتى يحذرهم المسلمون ، أما وجه المناسبة فإن الله تعالى لما دعا البشر إلى عبادته وتوحيده ، وأقام للناس الحجج الواضحة على وحدانيته ووجوده ، ثم ذكرهم بما أنعم به على أبيهم آدم عليه السلام ، دعا بني إسرائيل خصوصاً - وهم اليهود - إلى الإيمان بخاتم

(١) الكشاف ج ١ ص ٩٥ . (٢) البحر المحيط ج ١ ص ١٤١ . (٣) انظر التحقيق المفصل في كتابنا « النبوة والأنبياء » .

الرسول وتصديقه فيما جاء به عن الله ، لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ، وقد تفنن في مخاطبتهم ، فتارة دعاهم بالملاطفة ، وتارة بالتخويف ، وتارة بالتذكير بالنعم عليهم وعلى آبائهم ، وأخرى بإقامة الحججة والتوبيخ على سوء أعمالهم وهكذا انتقل من التذكير بالنعم العامة على البشرية في تكريم أبي الإنسانية ، إلى التذكير بالنعم الخاصة على بني إسرائيل .

اللفظة : ﴿إسرائيل﴾ اسم أعجمي ومعناه : عبد الله وهو اسم ﴿يعقوب﴾ عليه السلام ، وقد صرّح به في آل عمران ﴿إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه﴾ الآية ﴿أوفوا﴾ الوفاء : الإتيان بالشيء على التام والكمال ، يقال أوفى ووفى أي أداه وافية تاماً . ﴿تلبسوا﴾ اللبس : الخلط تقول العرب : لبستُ الشيء بالشيء خلطته ، والتبس به اختلط ، قال تعالى ﴿وللبسناء عليهم ما يلبسون﴾ وفي المصباح : لبس الثوب من باب تعب لبساً بضم اللام ، ولبستُ عليه الأمر لبساً من باب ضرب خلطته ، والتبس الأمر : أشكل . ﴿الزكاة﴾ مشتقة من زكا الزرع يزكو أي نما لأن إخراجها يجلب البركة ، أو هي من الزكاة أي الطهارة لأنها تطهر المال قال تعالى ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها﴾ الآية

يٰٓبَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَارِهُونَ ﴿٤٠﴾
وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتُرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتِقُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾

التفسير : ﴿يا بني إسرائيل﴾ أي يا أولاد النبي الصالح يعقوب ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ اذكروا ما أنعمت به عليكم وعلى آبائكم من نعم لا تعد ولا تحصى ﴿وأوفوا بعهدي﴾ أي أدوا ما عاهدتموني عليه من الإيمان والطاعة ﴿أوف بعهدكم﴾ بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب ﴿وإياي فارهبون﴾ أي اخشوني دون غيري ﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ من القرآن العظيم ﴿مصدقاً لما معكم﴾ أي من التوراة في أمور التوحيد والنبوة ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ أي أول من كفر من أهل الكتاب فحقتكم أن تكونوا أول من آمن ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ أي لا تستبدلوا بآياتي البينات التي أنزلتها عليكم حطام الدنيا الفانية ﴿وإياي فاتقون﴾ أي خافون دون غيري ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ أي لا تخلطوا الحق المنزل من الله بالباطل الذي تحتزعونه ، ولا تحرفوا ما في التوراة بالبهتان الذي تفترونه ﴿وتكتموا الحق﴾ أي ولا تخفوا ما في كتابكم من أوصاف محمد عليه السلام ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنه حق أو حال كونكم عالين بضرر الكتان ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ أي أدوا ما وجب عليكم من الصلاة والزكاة ، وصلوا مع المصلين بالجماعة ، أو مع أصحاب محمد عليه السلام .

البلاغة : أولاً : في إضافة النعمة إليه سبحانه ﴿نعمتي﴾ إشارة إلى عظم قدرها ، وسعة

برّها ، وحسن موقعها لأن الإضافة تفيد التشريف كقوله ﴿بيت الله﴾ و﴿ناقة الله﴾ .

ثانياً : قوله ﴿ولا تشتروا آياتي﴾ الشراء هنا ليس حقيقياً بل هو على سبيل الاستعارة كما تقدم في قوله ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ .

ثالثاً : تكرير الحق في قوله ﴿تلبسوا الحق﴾ وقوله ﴿وتكتموا الحق﴾ لزيادة تقبيح المنهي عنه إذ في التصريح ما ليس في الضمير من التأكيد ويسمى هذا الإطناب أضعف من سواه .

رابعاً : قوله ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ هو من باب تسمية الكل باسم الجزء أي صلوا مع المصلين أطلق الركوع وأراد به الصلاة فيه مجاز مرسل .

خامساً : ﴿وإياي فارهبون﴾ و﴿إياي فاتقون﴾ يفيد الاختصاص .

فكائدة : قال بعض العارفين : عبيد النعم كثيرون ، وعبيد المنعم قليلون ، فالله تعالى ذكر بني إسرائيل بنعمه عليهم ، حتى يعرفوا نعمة المنعم فقال ﴿اذكروا نعمتي﴾ وأما أمة محمد ﷺ فقد ذكرهم بالمنعم فقال ﴿فاذكروني أذكركم﴾ ليتعرفوا من المنعم على النعمة وشتان بين الأمرين .

قال الله تعالى ﴿أتأمرون الناس بالبر .. إلى .. ولا هم ينصرون﴾

من آية (٤٤) إلى نهاية آية (٤٨) .

اللغات : ﴿بالبر﴾ البرُّ : سعة الخير والمعروف ومنه البرُّ والبرِّية للسعة ، وهو اسم جامع لأعمال الخير ، ومنه بر الوالدين وهو طاعتها وفي الحديث (البرُّ لا يبلى والذنب لا ينسى) ﴿وتنسون﴾ : تتركون والنسيان يأتي بمعنى الترك كقوله ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ وهو المراد هنا ويأتي بمعنى ذهاب الشيء من الذاكرة كقوله ﴿فنسي ولم نجد له عزماً﴾ ﴿تتلون﴾ : تقرءون وتدرسون ﴿الخاشعين﴾ الخاشع : المتواضع وأصله من الاستكانة والذل قال الزجاج : الخاشع الذي يرى أثر الذل والخشوع عليه ، وخشعت الأصوات : سكنت^(١) ﴿يظنون﴾ الظنُّ هنا بمعنى اليقين لا الشك ، وهو من الأضداد قال أبو عبيدة : العرب تقول لليقين ظنٌّ ، وللشك ظن^(٢) وقد كثر استعمال الظن بمعنى اليقين ومنه ﴿إني ظننت أني ملاق حسابيه﴾ ﴿فظنوا أنهم مواقعوها﴾ ، ﴿شفاعة﴾ الشفاعة مأخوذة من الشفَّع ضد الوتر ، وهي ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك ولهذا سميت شفاعة ، فهي إذاً إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفَّع ﴿عدل﴾ بفتح العين فداء وبكسرهما معناه : المثل يقال : عدلٌ وعديلٌ للذي يماثلك .

المناسكة : لا تزال الآيات تتحدث عن بني إسرائيل ، وفي هذه الآيات ذم وتوبيخ لهم على سوء صنيعهم ، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه ، ويدعون الناس إلى الهدى والرشاد ولا يتبعونه .
سبب النزول : نزلت هذه الآية في بعض علماء اليهود ، كانوا يقولون لأقربائهم الذين أسلموا : اثبتوا على دين محمد فإنه حق ، فكانوا يأمرون الناس بالإيمان ولا يفعلونه^(١) .

* **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَتَكُنُونَ مِنَ الْكٰثِبِينَ ۗ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۗ** ﴿٤٤﴾ **وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلٰوةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخٰشِعِينَ ۗ** ﴿٤٥﴾ **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهم مَلٰقُوا رَبِّهم وَأَنَّهم إِلَيْهٖ رٰجِعُونَ ۗ** ﴿٤٦﴾ **يٰٓبَنِي إِسْرٰءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعٰلَمِينَ ۗ** ﴿٤٧﴾ **وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۗ** ﴿٤٨﴾

التفسير : يخاطب الله أحبار اليهود فيقول لهم على سبيل التقرير والتوبيخ ﴿أتأمرون الناس بالبر﴾ أي أتدعون الناس إلى الخير وإلى الإيمان بـمحمد ﴿وتنسئون أنفسكم﴾ أي تتركونها فلا تؤمنون ولا تفعلون الخير ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ أي حال كونكم تقرأون التوراة وفيها صفة ونعت محمد عليه السلام ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفلا تفطنون وتفقهون أن ذلك قبيح فترجعون عنه؟! ثم بيّن لهم تعالى طريق التغلب على الأهواء والشهوات ، والتخلص من حب الرياسة وسلطان المال فقال ﴿واستعينوا﴾ أي اطلبوا المعونة على أموركم كلها ﴿بالصبر والصلاة﴾ أي بتحمل ما يشق على النفس من تكاليف شرعية ، وبالصلاة التي هي عماد الدين ﴿وإنها﴾ أي الصلاة ﴿لكبيرة﴾ أي شاقة وثقيلة ﴿إلا على الخاشعين﴾ أي المتواضعين المستكينين الذين صفت نفوسهم لله ﴿الذين يظنون﴾ أي يعتقدون اعتقاداً جازماً لا يخالجه شك ﴿أنهم ملاقوا ربهم﴾ أي سيلقون ربهم يوم البعث فيحاسبهم على أعمالهم ﴿وأنهم إليه راجعون﴾ أي معادهم إليه يوم الدين . ثم ذكّرهم تعالى بنعمه وآلائه العديدة مرة أخرى فقال ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ بالشكر عليها بطاعتي ﴿وأنني فضلتكم﴾ أي فضلت آباءكم ﴿على العالمين﴾ أي عالمي زمانهم بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وجعلهم سادة وملوكاً ، وتفضيل الآباء شرفاً للأبناء ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي لا تقضي فيه نفس عن أخرى شيئاً من الحقوق ﴿ولا يقبل منها شفاعت﴾ أي لا تقبل شفاعت في نفس كافرة بالله أبداً ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ أي لا يقبل منها فداء ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي ليس لهم من يمنهم وينجيهم من عذاب الله .

البلاغَة : أولاً : ﴿أتأمرون﴾ الاستفهام خرج عن حقيقته إلى معنى التوبيخ والتقرير .

ثانياً : أتى بالمضارع ﴿أتأمرون﴾ وإن كان قد وقع ذلك منهم لأن صيغة المضارع تفيد التجدد والحدوث ، وعبر عن ترك فعلهم بالنسيان ﴿وتنسون أنفسكم﴾ مبالغة في الترك فكأنه لا يجري لهم على بال ، وعلقه بالأنفس توكيداً للمبالغة في الغفلة المفرطة ، ولا يخفى ما في الجملة الحالية ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ من التبكيث والتقريع والتوبيخ .

ثالثاً : ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾ هو من باب عطف الخاص على العام لبيان الكمال ، لأن النعمة اندرج تحتها التفضيل المذكور ، فلما قال ﴿اذكروا نعمتي﴾ عمّ جميع النعم فلما عطف ﴿وأني فضلتكم﴾ كان من باب عطف الخاص على العام .

رابعاً : ﴿واتقوا يوماً﴾ التنكير للتهويل أي يوماً شديداً الهول ، وتنكير النفس ﴿نفسٌ عن نفسٍ﴾ ليفيد العموم والاقناط الكلي .

الضوابط : الفائدة الأولى : قال القرطبي : إنما خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويهاً بذكرها وقد كان عليه السلام إذا حزبه أمرٌ (أغمه) فزَع إلى الصلاة ، وكان يقول (أرحنا بها يا بلال).

الثانية : قال علي كرم الله وجهه : « قصم ظهري رجلان : عالم مهتك ، وجاهل متنسك » ومن دعا غيره إلى الهدى ولم يعمل به كان كالسراج يضيء للناس ويحرق نفسه قال الشاعر :

إبدأ بنفسك فانها عن غيرها
فإنك يقبل إن وعظت ويقتنى
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
بالرأي منك وينفع التعليم

وقال أبو العتاهية :

وصفت التقي حتى كأنك ذو تقي
وريح الخطايا من ثيابك تسطع

وقال آخر :

وغير تقي يأمر الناس بالتقي
طيب يداوي الناس وهو عليل

قال الله تعالى ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون . . . إلى . . . إنه هو التواب الرحيم﴾ .

من آية (٤٩) إلى نهاية آية (٥٤) .

المناسبات : لما قدم تعالى ذكر نعمه على بني إسرائيل إجمالاً ، بين بعد ذلك أقسام تلك النعم على سبيل التفصيل ، ليكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى الشكر ، فكأنه قال : اذكروا نعمتي ، واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون ، واذكروا إذ فرقنا بكم البحر . . . إلى آخره وكل هذه النعم تستدعي شكر المنعم جل وعلا لا كفرانه وعصيانه .

اللغات: ﴿آل فرعون﴾ أصل «آل» أهل ولذلك يصغر بأهيل فأبدلت هاؤه ألفاً ، وخصّ استعماله بأولي الخطر والشأن كالمملوك وأشباههم ، فلا يقال آل الإسكاف والحجام ، و﴿فرعون﴾ علم لمن ملك العمالة كقيصر لملك الروم وكسرى لملك الفرس ، ولعتو الفراعنة اشتقوا تفرعن إذا عتا وتجبر^(١) ﴿يسومونكم﴾ يذيقونكم من سامه إذا أذاقه وأولاه قال الطبري : يوردونكم ويذيقونكم .
﴿يستحيون﴾ يستبقون الإناث على قيد الحياة ﴿بلاء﴾ اختبار ومحنة ، ويستعمل في الخير والشركما قال تعالى ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ ﴿فرقنا﴾ الفرق : الفصل والتمييز ومنه ﴿وقرناً فرقناه﴾ أي فصلناه وميزناه بالبيان ﴿بارئكم﴾ الباري هو الخالق للشيء على غير مثال سابق ، والبرية : الخلق .

وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَظِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ۖ يَلْقَوُاْ أَنفُسَكُمْ يَتَّخِذِكُمُ الْعِجْلَ فُتُوبًا إِلَىٰ بَرِّكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَرِّكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٦﴾

التفسير: ﴿وإذ نجيناكم﴾ أي اذكروا يا بني اسرائيل نعمتي عليكم حين نجيت آباءكم ﴿من آل فرعون﴾ أي من بطش فرعون وأشياعه العتاة ، والخطاب للأبناء المعاصرين للنبي ﷺ إلا أن النعمة على الآباء نعمة على الأبناء ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ أي يولونكم ويذيقونكم أشد العذاب وأفظعه ﴿يذبحون أبناءكم﴾ أي يذبحون الذكور من الأولاد ﴿ويستحيون نساءكم﴾ أي يستبقون الإناث على قيد الحياة للخدمة ﴿وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم﴾ أي فيما ذكر من العذاب المهين من الذبح والاستحياء ، محنة واختبار عظيم لكم من جهته تعالى بتسليطهم عليكم ليتميز البر من الفاجر ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ أي اذكروا أيضاً إذ فلقنا لكم البحر حتى ظهرت لكم الأرض اليابسة فمشيتم عليها ﴿فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون﴾ أي نجيناكم من الغرق وأغرقنا فرعون وقومه ﴿وأنتم تنظرون﴾ أي وأنتم تشاهدون ذلك فقد كان آية باهرة من آيات الله في إنجاء أوليائه وإهلاك أعدائه ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ أي وعدنا موسى أن نعطيهِ التوراة بعد أربعين ليلة وكان ذلك بعد نجاتكم وإهلاك فرعون ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ أي عبدتم العجل ﴿من بعده﴾ أي بعد غيبته عنكم حين ذهب لميقات ربه ﴿وأنتم ظالمون﴾ أي معتدون في تلك العبادة ظالمون لأنفسكم ﴿ثم عفونا عنكم﴾ أي تجاوزنا عن تلك الجريمة الشنيعة ﴿من بعد

ذلك ﴿ أي من بعد ذلك الاتخاذ المتناهي في القبح ﴾ لعلكم تشكرون ﴿ أي لكي تشكروا نعمة الله عليكم وتستمروا بعد ذلك على الطاعة ﴾ وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان ﴿ أي واذكروا نعمتي أيضاً حين أعطيت موسى التوراة الفارقة بين الحق والباطل وأيدته بالمعجزات ﴾ لعلكم تهتدون ﴿ أي لكي تهتدوا بالتدبر فيها والعمل بما فيها من أحكام .

ثم بيّن تعالى كيفية وقوع العفو المذكور بقوله ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم ﴾ أي واذكروا حين قال موسى لقومه بعدما رجع من الموعد الذي وعده ربه فرأهم قد عبدوا العجل يا قوم لقد ظلمتم أنفسكم ﴿ باتخاذكم العجل ﴾ أي بعبادتكم للعجل ﴿ فتوبوا إليّ يا قوم ﴾ أي توبوا إلي من خلقكم بريئاً من العيب والنقصان ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ أي ليقتل البريء منكم المجرم ﴿ ذلكم ﴾ أي القتل ﴿ خير لكم عند بارئكم ﴾ أي رضاكم بحكم الله ونزولكم عند أمره خير لكم عند الخالق العظيم ﴿ فتاب عليكم ﴾ أي قبل توبتكم ﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ أي عظيم المغفرة واسع التوبة .

البلاغَة : قال ابن جزري : ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ أي يلزمونهم به وهو استعارة من السوم في البيع وفسر سوء العذاب بقوله ﴿ يذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ ولذلك لم يعطفه هنا^(١) .

ثانياً : التنكير في كل من ﴿ بلاء ﴾ و ﴿ عظيم ﴾ للتفخيم والتهويل .

ثالثاً : صيغة المفاعلة في قوله ﴿ وإذ واعدنا ﴾ ليست على بابها لأنها لا تفيد المشاركة من الطرفين ، وإنما هي بمعنى الثلاثي ﴿ وإذ واعدنا ﴾ .

رابعاً : قال أبو السعود : ﴿ فتوبوا إليّ يا قوم ﴾ التعرض بذكر الباري للإشعار بأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها ومن الغواية منتهاها ، حيث تركوا عبادة العليم الحكيم ، الذي خلقهم بلطف حكمته ، إلى عبادة البقر الذي هو مثل في الغباوة^(٢) .

الفوائد : الأولى : العطف في قوله ﴿ الكتاب والفرقان ﴾ هو من باب عطف الصفات بعضها على بعض ، لأن الكتاب هو التوراة والفرقان هو التوراة أيضاً وحسن العطف لكون معناه أنه آتاه جامعاً بين كونه كتاباً منزلاً وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل^(٣) .

الثانية : سبب تقتيل الذكور من بني إسرائيل ما رواه المفسرون أن فرعون رأى في منامه كأن ناراً أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر ، وأحرق كل قبطني بها ولم تتعرض لبني إسرائيل فهاله ذلك وسأل الكهنة عن رؤياه فقالوا : يولد في بني إسرائيل غلام يكون هلاكك وزوال ملكك على يده ، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل .

الثالثة : قال القشيري : من صبر في الله على قضاء الله ، عوضه الله صحبة أوليائه ، هؤلاء بنو

(١) كتاب التسهيل ٤٧/١ . (٢) أبو السعود ٨١/١ . (٣) قاله الزجاج واختاره الزمخشري .

إسرائيل ، صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه ، فجعل منهم أنبياء ، وجعل منهم ملوكاً ، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين^(١) .

قال الله تعالى : ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة .. إلى .. بما كانوا يفسقون﴾
من آية (٥٥) إلى نهاية آية (٥٩)

المناسكة : بعد أن ذكّرهم تعالى بالنعم ، بيّن لوناً من ألوان طغيانهم وجحودهم ، وتبديلهم لأوامر الله ، وهم مع الكفر والعصيان ، يعاملون باللطف والإحسان ، فما أقبحهم من أمة وما أخزاهم!! قال الطبري : لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل أمر الله تعالى موسى أن يختار من قومه رجالاً يعتذرون إليه من عبادتهم العجل ، فاختار موسى سبعين رجلاً من خيارهم كما قال تعالى ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ وقال لهم : صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ففعلوا ، وخرج بهم إلى « طور سيناء » فقالوا لموسى : اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا فقال : أفعل ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً ، فسمعوا الله يكلم موسى يأمره وينهاه ، فلما انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا لموسى ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾^(٢)

اللفظة : ﴿جهرة﴾ علانية ، وأصل الجهر : الظهور ، ومنه الجهر بالقراءة والجهر بالمعاصي يعني المظاهرة بها ، تقول : رأيت الأمير جهاراً ووجهرة أي غير مستتر بشيء ، وقال ابن عباس : جهرة : عياناً . ﴿الصاعقة﴾ صيحة العذاب أو هي نار محرقة ﴿بعثناكم﴾ أحييناكم قال الطبري : وأصل البعث : إثارة الشيء من محله ﴿الغمام﴾ جمع غمامة كسحابة وسحاب وزناً ومعنى ، لأنها تغم السماء أي تسترها ، وكل مغطى فهو مغموم ، وغمّ الهلال : إذا غطاه الغيم فلم ير ﴿حطة﴾ : مصدر من حطّ عنا ذنوبنا^(٣) ، وهي كلمة استغفار ومعناها : اغفر خطايانا . ﴿رجزاً﴾ عذاباً ومنه ﴿لئن كشفت عنا الرجز﴾ أي العذاب ﴿يفسقون﴾ الفسق : الخروج عن الطاعة وقد تقدم .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ
بَعْدِ مُوتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلًّا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَأَدْخُلُوا
الْبَابَ سَبْعًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي
قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

النفسير : ﴿وإذ قتلتم يا موسى﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين خرجتم مع موسى لتعتذروا إلى الله من عبادة العجل فقتلتم ﴿لن تؤمنن لك﴾ أي لن نصدق لك بأن ما نسمعه كلام الله ﴿حتى نرى الله جهرة﴾ أي حتى نرى الله علانية ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ أي أرسل الله عليهم ناراً من السماء فأحرقهم ﴿وأنتم تنظرون﴾ أي ما حلّ بكم ثم لما ماتوا قام موسى يبكي ويدعو الله ويقول : ربّ ماذا أقول لبني إسرائيل وقد أهلكت خيارهم ، وما زال يدعو ربه حتى أحياهم قال تعالى ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ أي أحييناكم بعد أن مكثتم ميتين يوماً وليلة ، فقاموا وعاشوا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يموتون ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي لتشكروا الله على إنعامه عليكم بالبعث بعد الموت .

ثم ذكّرهم تعالى بنعمته عليهم وهم في التيه لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتلهم وقالوا لموسى ﴿إذهب أنت وربك فقاتلا﴾ فعوّقوا على ذلك بالضياح أربعين سنة يتيهون في الأرض فقال تعالى : ﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ أي سترناكم بالسحاب من حر الشمس وجعلناه عليكم كالظلّة ﴿وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾ أي أنعمنا عليكم بأنواعٍ من الطعام والشراب من غير كد ولا تعب ، والمن كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه ^(١) ، والسلوى : طير يشبه السمانى لذيد الطعم ^(٢) ﴿كلوا من طبيبات ما رزقناكم﴾ أي قلنا لهم كلوا من لذائذ نعم الله ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي أنهم كفروا هذه النعم الجليلة ، وما ظلمونا ولكن ظلموا أنفسهم ، لأن وبال العصيان راجع عليهم ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية﴾ أي واذكروا أيضاً نعمتي عليكم حين قلنا لكم بعد خروجكم من التيه ، ادخلوا بيت المقدس ﴿فكلوا منها حيث شئتم رغداً﴾ أي كلوا منها أكلاً واسعاً هنيئاً ﴿وادخلوا الباب سجداً﴾ أي وادخلوا باب القرية ساجدين لله شكراً على خلاصكم من التيه ﴿وقولوا حطة﴾ أي قولوا يا ربنا حطّ عنا ذنوبنا واغفر لنا خطايانا ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ أي نمح ذنوبكم ونكفر سيئاتكم ﴿وسنزيد المحسنين﴾ أي نزيد من أحسن إحساناً ، بالثواب العظيم ، والأجر الجزيل ﴿فبدّل الذين ظلموا﴾ أي غير الظالمون أمر الله فقالوا ﴿قولاً غير الذي قيل لهم﴾ حيث دخلوا يزحفون على أستاههم أعني « أدبارهم » وقالوا على سبيل الاستهزاء : « حبة في شعيرة » وسخروا من أوامر الله ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء﴾ أي أنزلنا عليهم طاعوناً وبلاءً ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله ، روي أنه مات بالطاعون في ساعة واحدة منهم سبعون ألفاً .

البلاغَة : أولاً : إنّما قيّد البعث بعد الموت ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ لزيادة التأكيد على أنه موت حقيقي ، ولدفع ما عساه يتوهم أن بعثهم كان بعد إغماء أو بعد نوم .

ثانياً : في الآية إيجاز بالحذف في قوله ﴿كلوا﴾ أي قلنا لهم كلوا وفي قوله ﴿وما ظلمونا﴾ تقديره فظلموا أنفسهم بأن كفروا وما ظلمونا بذلك دل على هذا الحذف قوله ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾

(١) هو قول الربيع بن أنس . (٢) قول جمهور المفسرين .

والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع ﴿ظلمونا﴾ و﴿يظلمون﴾ للدلالة على تدايمهم في الظلم واستمرارهم على الكفر^(١).

ثالثاً: وضع الظاهر مكان الضمير في قوله ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾ ولم يقل «فأنزلنا عليهم» لزيادة التوبيخ والمبالغة في الذم والتقرير، وتنكير ﴿رجزاً﴾ للتحويل والتفخيم^(٢).

تنبية: قال الراغب: تخصيص قوله ﴿رجزاً من السماء﴾ هو أن العذاب ضربان: ضربٌ قد يمكن دفاعه وهو كل عذاب جاء على يد آدمي، أو من جهة المخلوقات كالهدم والغرق، وضربٌ لا يمكن دفاعه بقوة آدمي كالطاعون والصاعقة والموت وهو المراد بقوله ﴿رجزاً من السماء﴾^(٣).

قال الله تعالى ﴿وإذ قال موسى لقومه . . إلى . . وما الله بغافل عما تعملون﴾
آية (٦٠) إلى نهاية آية (٦٢).

المناسبة: لا تزال الآيات تعدد النعم على بني إسرائيل، وهذه إحدى النعم العظيمة عليهم حين كانوا في التيه، وعطشوا عطشاً شديداً كادوا يهلكون معه، فدعا موسى ربه أن يغيثهم فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه الحجر، فتفجرت منه عيون بقدر قبائلهم، وكانوا اثنتي عشرة قبيلة فجرى لكل منهم جدول خاص، يأخذون منه حاجتهم لا يشاركهم فيه غيرهم، وكان موضوع السقيا آية باهرة ومعجزة ظاهرة لسيدنا موسى عليه السلام ومع ذلك كفرُوا وجحدوا.

اللغة: ﴿استسقى﴾ طلب السقيا لقومه لأن السين والتاء للطلب مثل: استنصر واستخبر قال أبو حيان: الاستسقاء: طلب الماء عند عدمه أو قلته، ومفعوله محذوف أي استسقى موسى ربه^(٤). ﴿فانفجرت﴾ الانفجار: الإنشقاق ومنه سمي الفجر لانشقاق ضوئه، وانفجر وانبجس بمعنى واحد قال تعالى ﴿فانبجست منه﴾، ﴿مشربهم﴾ جهة وموضع الشرب ﴿تعثوا﴾ العيث: شدة الفساد، يقال: عثى يعثى، وعثاً يعثو إذا أفسد فهو عاث^(٥)، قال الطبري: معناه تطغوا وأصله شدة الإفساد ﴿فومها﴾ الفوم: الثوم وقيل: الخنطة ﴿أستبدلون﴾ الاستبدال: ترك شيء لآخر وأخذ غيره مكانه ﴿أدنى﴾ أحس وأحقر يقال رجل دنيء إذا كان يتتبع الخسائس ﴿الذلة﴾ الذل والهوان والحقارة ﴿والمسكنة﴾ الفاقة والخشوع مأخوذة من السكون لأن المسكين قليل الحركة لما به من الفقر ﴿باءوا﴾ رجعوا وانصرفوا قال الرازي: ولا يقال باء إلا بشرّ ﴿يعتدون﴾ الإعتداء: تجاوز الحد في كل شيء واشتهر في الظلم والمعاصي.

(١) الفتوحات الإلهية ٥٧/١ . (٢) إرشاد العقل السليم ٨٣/١ . (٣) محاسن التأويل ١٣٥/٢ .

(٤) البحر المحيط ٢٢٦/١ . (٥) كذا في المصباح .

* وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبِ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّيْنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَىٰ وَالصَّدِيقِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾

التفسير : ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين طلب موسى السقيا لقومه وقد عطشوا في التيه ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ أي اضرب أي حجر كان تتفجر بقدرتنا العيون منه ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ أي فضرِب فتدفق الماء منه بقوة وخرجت منه اثنتا عشرة عينا بقدر قبائلهم ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ أي علمت كل قبيلة مكان شربها لثلاثا يتنازعوا ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ أي قلنا لهم : كلوا من المن والسلوى ، واشربوا من هذا الماء ، من غير كد منكم ولا تعب ، بل هو من خالص إنعام الله ﴿ولا تعتوا في الأرض مفسدين﴾ أي ولا تطغوا في الأرض بأنواع البغي والفساد . ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قلتُم لنبِيكُم موسى وأتمم في الصحراء تأكلون من المن والسلوى ﴿لن نصبر على طعام واحد﴾ أي على نوع واحد من الطعام وهو المن والسلوى ﴿فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض﴾ أي ادع الله أن يرزقنا غير ذلك الطعام فقد سئمنا المن والسلوى وكرهناه ونريد ما تخرجه الأرض من الحبوب والبقول ﴿من بقلها﴾ من خضرتها كالنعناع والكرفس والكراث ﴿وقثائها﴾ يعني القثَّة التي تشبه الخيار ﴿وفومها﴾ أي الثوم ﴿وعدسها وبصلها﴾ أي العدس والبصل المعروفان ﴿قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾ أي قال لهم موسى منكرًا عليهم : ويحكم أتستبدلون الخسيس بالنفيس ! وتفضلون البصل والبقل والثوم على المن والسلوى ؟ ﴿اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم﴾ أي ادخلوا مصرًا من الأمصار وبلدًا من البلدان أيًا كان لتجدوا فيه مثل هذه الأشياء . . ثم قال تعالى منبهاً على ضلالهم وفسادهم وبغيهم وعدوانهم ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ أي لزمهم الذل والهوان وضرب عليهم الصغار والخزي الأبدي الذي لا يفارقهم مدى الحياة ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ أي انصرفوا ورجعوا بالغضب والسخط الشديد من الله ﴿ذلك﴾ أي ما نالوه من الذل والهوان والسخط والغضب بسبب ما اقترفوه من الجرائم الشنيعة ﴿بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ أي بسبب كفرهم بآيات الله جحوداً واستكباراً ، وقتلهم رسل الله ظلماً وعدواناً

﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي بسبب عصيانهم وطغيانهم وتمردهم على أحكام الله ثم دعا تعالى أصحاب الملل والنحل «المؤمنين ، واليهود ، والنصارى ، والصابئين» إلى الإيمان الصادق وإخلاص العمل لله وساقه بصيغة الخبر فقال ﴿إن الذين آمنوا﴾ المؤمنون أتباع محمد ﴿والذين هادوا﴾ اليهود أتباع موسى ﴿والنصارى﴾ أتباع عيسى ﴿والصابئين﴾ قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾ أي من آمن من هذه الطوائف إيماناً صادقاً فصدق بالله ، وأيقن بالآخرة ﴿وعمل صالحاً﴾ أي عمل بطاعة الله في دار الدنيا ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾ أي لهم ثوابهم عند الله لا يضيع منه مثقال ذرة ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي ليس على هؤلاء المؤمنين خوف في الآخرة ، حين يخاف الكفار من العقاب ، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب .

البلاغَة : أولاً : في إضافة الرزق إلى الله تعالى ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ تعظيم للمنة والإنعام وإيماء إلى أنه رزقٌ حاصلٌ من غير تعب ولا مشقة .

ثانياً : في التصريح بذكر الأرض ﴿ولا تعثوا في الأرض﴾ مبالغة في تقبيح الفساد وقوله ﴿مفسدين﴾ حالٌ مؤكدة ووجه فصاحة هذا الأسلوب أن المتكلم قد تشتد عنايته بأن يجعل الأمر أو النهي لا يحوم حوله لبسٌ أو شك ، ومن مظاهر هذه العناية التوكيد فقوله ﴿مفسدين﴾ يكسو النهي عن الفساد قوة ، ويجعله بعيداً من أن يُغفل عنه أو يُنسى .

ثالثاً : قوله تعالى ﴿عما تنبت الأرض﴾ المنبت الحقيقي هو الله سبحانه ففيه مجاز يسمى (المجاز العقلي) وعلاقته السببية لأن الأرض لما كانت سبباً للنبات أُسند إليها .

رابعاً : قوله ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ كناية^(١) عن إحاطتهما بهم كما تحيط القبة بمن ضربت عليه كما قال الشاعر :

إن الساحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشر

خامساً : تقييد قتل الأنبياء بقوله ﴿بغير الحق﴾ مع أن قتلهم لا يكون بحق البتة إنما هو لزيادة التشنيع بقبح عدوانه .

الفوائد : الأولى : حكى المفسرون أقوالاً كثيرة في الحجر الذي ضربه موسى فجرت منه العيون ما هو؟ وكيف وصفه؟ وقد ضربنا صفحاً عن هذه الأقوال والذي يكفي في فهم معنى الآية أن واقعة انفجار الماء إنما كان على وجه « المعجزة » وأن الحجر الذي ضربه موسى كان من الصخر الأصم الذي ليس من شأنه الانفجار بالماء ، وهنا تكون المعجزة أوضح ، والبرهان أسطع قال الحسن البصري : لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه قال : وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة^(٢) .

(١) تسمى الاستعارة بالكناية كما نبه على ذلك أبو السعود . (٢) الكشاف ١/١٠٧ .

الثانية : فإن قيل ما الحكمة في جعل الماء اثنتي عشرة عيناً ؟ والجواب : أن قوم موسى كانوا كثيرين وكانوا في الصحراء ، والناس إذا اشتدت بهم الحاجة إلى الماء ثم وجدوه فإنه يقع بينهم تشاجر وتنازع ، فأكمل الله هذه النعمة بأن عين لكل سبط منهم ماءً معيناً على عددهم لأنهم كانوا اثني عشر سبطاً ، وهم ذرية أبناء يعقوب الاثني عشر والله أعلم .

الثالثة : ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالفوم في قوله ﴿ وفومها ﴾ الحنطة والأرجح أن المراد به الثوم بدليل قراءة ابن مسعود ﴿ وثومها ﴾ وبدليل اقتران البصل بعده قال الفخر الرازي : الثوم أوفق للعدس والبصل من الحنطة ، واستدل القرطبي على ذلك بقول حسان :

وأنتم أناسٌ لثامُ الأصول طعامكم الفوم والحوقل .
يعني الثوم والبصل ^(١)

قال الله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم . . إلى . . وما خلفها وموعظة للمتقين ﴾ .
من آية (٦٣) إلى نهاية آية (٦٦) .

المناسكة : لما ذكرهم تعالى بالنعم الجليلة العظيمة ، أردف ذلك ببيان ما حلّ بهم من نقم ، جزاء كفرهم وعصيانهم وتمردهم على أوامر الله ، فقد كفروا النعمة ، ونقضوا الميثاق ، واعتدوا في السبب فمسخهم الله إلى قردة ، وهكذا شأن كل أمة عتت عن أمر ربها وعصت رسله .

اللغات : ﴿ ميثاقكم ﴾ الميثاق : العهد المؤكد بيمين ونحوه ، والمراد به هنا العمل بأحكام التوراة ﴿ الطور ﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ﴿ بقوة ﴾ بحزم وعزم ﴿ توليتم ﴾ التولي : الإعراض عن الشيء والإدبار عنه ﴿ خاسئين ﴾ جمع خاسيء وهو الذليل المهين قال أهل اللغة : الخاسيء : الصاغر المبعد المطرود كالكلب إذا دنا من الناس قيل له : إخسأ أي تباعد وانطرد صاغراً . ﴿ نكالاً ﴾ النكال : العقوبة الشديدة الزاجرة ولا يقال لكل عقوبة نكال حتى تكون زاجرة رادعة .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُم بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَلَّانَهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

النصير : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا منكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ أي نتقناه حتى أصبح كالظلة فوقكم وقلنا لكم ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي اعملوا بما في التوراة بجدٍّ وعزيمة ﴿واذكروا ما فيه﴾ أي احفظوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ﴿لعلكم تتقون﴾ أي لتتقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ، أو رجاء منكم أن تكونوا من فريق المتقين ﴿ثم توليتهم من بعد ذلك﴾ أي عرضتم عن الميثاق بعد أخذه ﴿فلولا فضل الله عليكم﴾ أي بقبول التوبة ﴿ورحمته﴾ بالعفو عن الزلة ﴿لكنتم من الخاسرين﴾ أي لكنتم من الهالكين في الدنيا والآخرة ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت﴾ أي عرفتم ما فعلنا بمن عصى أمرنا حين خالفوا واصطادوا يوم السبت وقد نهيناهم عن ذلك ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ أي مسخناهم قردة بعد أن كانوا بشراً مع الذلّة والإهانة ﴿فجعلناها﴾ أي المسخة ﴿نكالاً لما بين يديها﴾ أي عقوبة زاجرة لمن يأتي بعدها من الأمم ﴿وما خلفها﴾ أي جعلنا مسخهم قردة عبرة لمن شهدها وعابنها ، وعبرة لمن جاء بعدها ولم يشاهدها ﴿وموعظة للمتقين﴾ أي عظة وذكرى لكل عبدٍ صالحٍ متّقٍ لله سبحانه وتعالى .

البلاغَة : أولاً : ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ فيه إيجاز بالحذف أي قلنا لهم خذوا فهو كما قال الزمخشري على إرادة القول .

ثانياً : ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ خرج الأمر عن حقيقته إلى معنى الإهانة والتحقير ، وقال بعض المفسرين : هذا أمر تسخيرٍ وتكوين ، فهو عبارة عن تعلق القدرة بنقلهم من حقيقة البشرية إلى حقيقة القردة .^(١)

ثالثاً : ﴿لما بين يديها وما خلفها﴾ كناية عن أتى قبلها أو أتى بعدها من الأمم والخلائق ، أو عبرة لمن تقدم ومن تأخر .

الفوائد : الأولى : قال القفال : إنما قال ﴿ميثاقكم﴾ ولم يقل « موثيقكم » لأنه أراد ميثاق كل واحدٍ منكم كقوله ﴿ثم يخرجكم طفلاً﴾ أي يخرج كل واحدٍ منكم طفلاً .^(٢)

الثانية : قال بعض أهل اللطائف : كانت نفوس بني إسرائيل من ظلمات عصيانها تحبب في عشواء حالكة الجلباب ، وتخطر من غلوائها وعلوّها في حلتي كبرٍ وإعجاب ، فلما أمروا بأخذ التوراة ورأوا ما فيها من أفعال ثارت نفوسهم فرفع الله عليهم الجبل فوجدوه أثقل مما كلّفوه ، فهان عليهم حمل التوراة قال الشاعر :

إلى الله يُدعى بالبراهين من أبي فإن لم يُجبْ نادته بيض الصّوارم^(٣)

الثالثة : إنما خصّ المتقين بإضافة الموعظة إليهم ﴿وموعظة للمتقين﴾ لأنهم هم الذين يتنفعون بالعظة والتذكير قال تعالى ﴿وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ .

(١) الفتوحات الإلهية ١/٦٣ . (٢) البحر المحيط ١/٢٤٣ . (٣) البحر المحيط ١/٢٤٥ .

قال الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ . . . إِلَى . . . وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾
من آية (٦٧) إلى نهاية آية (٧٤).

المناسكبة : لما ذكر تعالى بعض قبائح اليهود وجرائمهم ، من نقض المواثيق ، واعتدائهم في السبوت ، وتمردهم على الله عز وجل في تطبيق شريعته المنزلة ، أعقبه بذكر نوع آخر من مساوئهم ألا وهو مخالفتهم للأنبياء وتكذيبهم لهم ، وعدم مسارعتهم لامثال الأوامر التي يوحىها الله إليهم ، ثم كثرة اللجاج والعناد للرسول صلوات الله عليهم ، وجفاؤهم في مخاطبة نبيهم الكريم موسى عليه السلام ، إلى آخر ما هنالك من قبائح ومساوىء .

اللغز : ﴿هزوا﴾ الهزؤ : السخرية بضم الزاي وقلب الهمزة واواً ﴿هزوا﴾ مثل ﴿كفوا﴾ أحد والمعنى على حذف مضاف أي أتخذنا موضع هزؤ ، أو يحمل المصدر على معنى اسم المفعول أي أتجعلنا مهزوءاً بنا ﴿فارض﴾ الفارض : الفتية التي لم تلد من الصغر ، ولم يلقحها الفحل لصغرهما قال الشاعر :

لعمري لقد أعطيت ضيفك فارضاً تُساق إليه ما تقوم على رجل
ولم تعطه بكرةً فيرضى سمينه فكيف تجازى بالمودة والفضل؟^(١)

﴿عوان﴾ وسط ليست بمسنة ولا صغيرة ، وقيل هي التي ولدت بطناً أو بطنين ، ﴿فالق﴾ الفقوع : شدة الصفرة يقال : أصفر فاقع أي شديد الصفرة كما يقال : أحمر قان أي شديد الحمرة قال الطبري : وهو نظير النضوع في البياض ﴿ذلول﴾ أي مذلة للعمل يقال : دابة ذلول أي ريضة زالت صعوبتها فقوله ﴿لا ذلول﴾ أي لم تذلل لإثارة الأرض أي لحرثها ﴿مسلمة﴾ من السلامة أي خالصة ومبرأة من العيوب ﴿شية﴾ الشية : اللمعة المخالفة لبقية اللون الأصلي قال الطبري : ﴿لا شية فيها﴾ أي لا بياض ولا سواد يخالف لونها^(٢) ﴿فاداراتم﴾ أي تدافعتم واختلقتن وتنازعتن وأصلها تداراتم أدغمت التاء في الدال ، وأتي بهمزة الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالسكان فصار اداراتم ، ومعنى الدرء : الدفع لأن كلاً من الفريقين كان يدرأ على الآخر أي يدفع وفي الحديث (ادروا الحدود بالشبهات) ﴿قست﴾ القسوة : الصلابة ونقيضها الرقة ﴿يشقق﴾ التشقق : التصدع بطول أو عرض ﴿يهبط﴾ الهبوط : النزول من أعلى إلى أسفل .

« معجزة إحياء الميت وقصة البقرة »

ذكر القصة : روى ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني قال : « كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض ، فقال ذوو الرأي منهم والنهي : علام يقتل

(١) البحر المحيط ١/ ٢٤٨ . (٢) مختصر الطبري ١/ ٤٧ .

بعضنا بعضاً وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ قال : ولو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها ، فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدتها ذهباً ، فاشتروها بملء جلدتها ذهباً فذبحوها فضر به بعضها فقام ، فقالوا : من قتلك ؟ قال : هذا وأشار على ابن أخيه ثم مال ميتاً ، فلم يعط من ماله شيئاً فلم يورث قاتل بعد «^(١) وفي رواية « فأخذوا الغلام فقتلوه » .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَنْتَخَذْنَاهُ زُجُورًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بَيْنَ لَنَا مَا لَوْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقْعَ لَوْنَهَا تَسْرُ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾

التفسير : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قال لكم نبيكم موسى إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴿قَالُوا أَنْتَخَذْنَاهُ زُجُورًا﴾ أي فكان جوابكم الوقح لنيبكم أن قلتم : أتهزأ بنا يا موسى ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي ألتجىء إلى الله أن أكون في زمرة المستهزئين الجاهلين ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي ما هي هذه البقرة وأي شيء صفتها ؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ﴾ أي لا كبيرة هرمة ، ولا صغيرة لم يلقحها الفحل ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي وسط بين الكبيرة والصغيرة ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي افعلوا ما أمركم به ربكم ولا تتعنتوا ولا تشددوا فيشدد الله عليكم ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بَيْنَ لَنَا مَا لَوْهَا﴾ أي ما هو لونها أبيض أم أسود أم غير ذلك ؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقْعَ لَوْنَهَا تَسْرُ النَّظِيرِينَ﴾ أي إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة ، حسن منظرها تسر كل من رآها . ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ﴾ أعادوا السؤال عن حال البقرة بعد أن عرفوا سنها ولونها ليزدادوا بياناً لوصفها ، ثم اعتذروا بأن البقر الموصوف بكونه عواناً وبالصفرة الفاقعة كثيراً ﴿إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أي التبس الأمر علينا فلم ندر ما البقرة المأمور بذبحها ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ أي سنهتدي إلى معرفتها إن شاء الله ، ولو لم يقولوا ذلك لم يهتدوا إليها أبداً كما ثبت في الحديث ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذُلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي ليست هذه البقرة مسخرة لحراثة الأرض ، ولا لسقاية الزرع ﴿مَسْلَمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي سليمة من العيوب ليس فيها لون آخر يخالف لونها فهي صفراء كلها ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي الآن بينتها لنا بياناً شافياً لا غموض فيه ولا لبس قال تعالى

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبِينُ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَسْبَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ
لَأَذْلُولُ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا أَسِيَّةَ فِيهَا قَالُوا الْكِنَّ جِئَتْ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾
وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ
الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً
وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَائِسِقٌ يُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ
وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

إخباراً عنهم ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ لغلاء ثمنها أو خوف الفضيحة ثم أخبر تعالى عن سبب أمرهم بذبح البقرة ، وعمّا شهدوه من آيات الله الباهرة ، فقال ﴿وإذ قتلتم نفساً﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قتلتم نفساً ﴿فادارأتم فيها﴾ أي تخاصمتم وتدافعتم بشأنها ، وأصبح كل فريق يدافع التهمة عن نفسه وينسبها لغيره ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ أي مظهر ما تخفونه ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ أي اضربوا القتيل بشيء من البقرة يمحا ويخبركم عن قاتله ﴿كذلك يحيي الله الموتى﴾ أي كما أحيا هذا القتيل أمام أبصاركم يحيي الموتى من قبورهم ﴿ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ أي يريكم دلائل قدرته لتفكروا وتدبروا وتعلموا أن الله على كل شيء قدير . ثم أخبر تعالى عن جفائهم وقسوة قلوبهم فقال ﴿ثم قست قلوبكم﴾ أي صلبت قلوبكم يا معشر اليهود فلا يؤثر فيها وعظ ولا تذكير ﴿من بعد ذلك﴾ أي من بعد رؤية المعجزات الباهرة ﴿فهى كالحجارة أو أشد قسوة﴾ أي بعضها كالحجارة وبعضها أشد قسوة من الحجارة كالحديد ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار﴾ أي تتدفق منها الأنهار الغزيرة ﴿وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء﴾ أي من الحجارة ما يتصدع إشفاقاً من عظمة الله فينبع منه الماء ﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ أي ومنها ما يفتت ويردّى من ربوس الجبال من خشية الله ، فالحجارة تلين وتخشع وقلوبكم يا معشر اليهود لا تتأثر ولا تلين ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ أي أنه تعالى رقيب على أعمالهم لا تخفى عليه خافية ، وسيجازيهم عليها يوم القيامة ، وفي هذا وعيد وتهديد .

الْبَلَاغَةُ : أولاً : قوله تعالى ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ من إيجاز القرآن أن حذف من صدر هذه الجملة جملتين مفهومتين من نظم الكلام والتقدير : فطلبوا البقرة الجامعة للأوصاف السابقة وحصلوها ، فلما اهتموا إليها ذبحوها وهذا من الإيجاز بالحذف .

ثانياً : قوله تعالى ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ هذه الجملة اعتراضية بين قوله ﴿فادارأتم﴾ وقوله ﴿فقلنا اضربوه﴾ والجملة المعترضة بين ما شأنها الاتصال تحيىء تحلية يزداد بها الكلام البليغ حسناً ، وفائدة

الاعتراض هنا إشعار المخاطبين بأن الحقيقة ستنجلي لا محالة .

ثالثاً : ﴿ثم قست قلوبكم﴾ وصف القلوب بالصلابة والغلظ يراد منه نبؤها عن الاعتبار، وعدم تأثرها بالمواعظ ففيه استعارة تصريحية قال أبو السعود : القسوة عبارة عن الغلظ والجفاء والصلابة كما في الحجر استعيرت لِنُبُوِّ قلوبهم عن التأثر بالعظات والقوارع التي تميم منها الجبال وتلين بها الصخور^(١) .

رابعاً : ﴿فهي كالحجارة﴾ فيه تشبيه يسمى (مرسلاً مجملاً) لأن أداة الشبه مذكورة ووجه الشبه محذوف .

خامساً : ﴿لما يتفجر منه الأنهار﴾ أي ماء الأنهار ، والعرب يطلقون اسم المحل كالنهر على الحال فيه كالماء والقرينة ظاهرة لأن التفجر إنما يكون للماء ويسمى هذا مجازاً مرسلاً .

الفوائد : الفائدة الأولى : نبه قوله تعالى ﴿قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ على أن الاستهزاء بأمر من أمور الدين جهل كبير ، وقد منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها في مقام المزح والهزل ، وقالوا إنما أنزل القرآن للتدبر والخشوع لا للتسلي والتفكه والمزاح .

الثانية : الخطاب في قوله ﴿وإذ قتلتم نفساً﴾ لليهود المعاصرين للنبي ﷺ وقد جرى على الأسلوب المعروف في مخاطبة الأقسام ، إذ ينسب إلى الخلف ما فعل السلف إذا كانوا سائرين على نهجهم ، راضين بفعالهم ، وفيه توبيخ وتقريع للغابرين والحاضرين .

الثالثة : هذه الواقعة واقعة (قتل النفس) جرت قبل أمرهم بذبح البقرة ، وإن وردت في الذكر بعده ، والسر في ذلك التشويق إلى معرفة السبب في ذبح البقرة ، والتكرير في التقريع والتوبيخ قال العلامة أبو السعود : وإنما غير الترتيب لتكرير التوبيخ وتثنية التقريع ، فإن كل واحد من قتل النفس المحرمة ، والاستهزاء بموسى عليه السلام والافتيات على أمره جناية عظيمة جدية بأن تنعى عليهم^(٢) .

الرابعة : ذكر تعالى إحياء الموتى في هذه السورة الكريمة في خمسة مواضع : أ - في قوله ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ ب - وفي هذه القصة ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ ج - وفي قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ د - وفي قصة عزيز ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ هـ وفي قصة إبراهيم ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى﴾^(٣)

الخامسة : ﴿أو﴾ في قوله تعالى ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ بمعنى «بل» أي بل أشد قسوة كقوله تعالى ﴿وأرسلناه إلى مائة ألفٍ أو يزيدون﴾ وقال بعضهم : هي للتديد ، أو التخخير فمن عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى كالحديد ، ومن لم يعرفها شبهها بالحجارة أو قال : هي أقسى من الحجارة .

السادسة : ذهب بعض المفسرين إلى أن الخشية هنا حقيقية ، وأن الله تعالى جعل هذه الأحجار خشية بقدرها كقوله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِغْ بِحَمْدِهِ ﴾ وقال آخرون : بل هو من باب المجاز كقول القائل : قال الحائط للمسهار لم تشقني ؟ قال : سل من يدقني والله أعلم ؟

قال الله تعالى ﴿ أفطمعون أن يؤمنوا لكم . . . إلى . . . فأولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ .
من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٨٢) .

المناسكة : لما ذكر تعالى عناد اليهود ، وعدم امتثالهم لأوامر الله تعالى ، ومجادلتهم للأنبياء الكرام ، وعدم الانقياد والإذعان ، عقب ذلك بذكر بعض القبائح والجرائم التي ارتكبوها كتحريف كلام الله تعالى ، وادعائهم بأنهم أحباب الله ، وأن النار لن تمسهم إلا بضعة أيام قليلة ، إلى آخر ما هم عليه من أماني كاذبة ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ، وقد بدأ تعالى الآيات بتأسيس المسلمين من إيمانهم لأنهم فطروا على الضلال ، وجبلوا على العناد والمكابرة .

اللفظة : ﴿ أفطمعون ﴾ الطمع : تعلق النفس بشيء مطلوب تعلقاً قوياً ، فإذا اشتد فهو طمع ، وإذا ضعف كان رجاءً ورغبةً ﴿ فريق ﴾ الفريق : الجماعة وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه كالرھط والقوم . ﴿ يحرفونه ﴾ التحريف : التبديل والتغيير وأصله من الانحراف عن الشيء ﴿ عقلوه ﴾ عقل الشيء أدركه بعقله والمراد فهموه وعرفوه ﴿ أميون ﴾ جمع أمي وهو الذي لا يحسن القراءة والكتابة ، سمي بذلك نسبة إلى الأم ، لأنه باقٍ على ما ولدته عليه أمه من عدم المعرفة ﴿ أماني ﴾ جمع أمنية وهي ما يتمناه الإنسان ويشتهي ، أو يقدره في نفسه من منى ولذلك تطلق على الكذب قال أعرابي لا إنسان : « أهدا شيء رأيت أم تمنيته » أي اختلقته ، وتأتي بمعنى قرأ قال حسان : تمنى كتاب الله أول ليلة ﴿ فويل ﴾ الويل : الهلاك والدمار وقيل : الفضيحة والخزي ، وهي كلمة تستعمل في الشر والعذاب قال القاضي : هي نهاية الوعيد والتهديد كقوله ﴿ ويل للمطففين ﴾ وقال سيويه : ويل لمن وقع في الهلكة ، وويح لمن أشرف عليها .

سَبَبُ الزَّوْلِ : ١ - نزلت في الأنصار كانوا حلفاء لليهود وبينهم جوارٌ ورضاعة وكانوا يودون لو أسلموا فأنزل الله تعالى ﴿ أفطمعون أن يؤمنوا لكم . . . ﴾ (١) الآية .

٢ - وروى مجاهد عن ابن عباس أن اليهود كانوا يقولون : إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نُعذب بكل ألف سنة يوماً في النار ، وإنما هي سبعة أيام معدودة فأنزل الله تعالى ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ (٢) .

* أَفْتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ؕ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يُظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ قَوْلٍ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ءِثْمًا قَلِيلًا قَوْلٍ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا

التفسير : يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين فيقول ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم﴾ أي أترجون يا معشر المؤمنين أن يسلم اليهود ويدخلوا في دينكم ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله﴾ أي والحال قد كان طائفة من أبحارهم وعلمائهم يتلون كتاب الله ويسمعونه بيناً جلياً ﴿ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه﴾ أي يغيرون آيات التوراة بالتبديل أو التأويل ، من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ﴿وهم يعلمون﴾ أنهم يرتكبون جريمة أي أنهم يخالفونه على بصيرة لا عن خطأ أو نسيان ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ أي إذا اجتمعوا بأصحاب النبي ﷺ قال المنافقون من اليهود آمنا بأنكم على الحق ، وأن محمداً هو الرسول المبشّر به ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض﴾ أي إذا انفردوا واختلوا ببعضهم ببعض ﴿قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ أي قالوا عاتبين عليهم أتخبرون أصحاب محمد بما بين الله لكم في التوراة من صفة محمد عليه السلام ﴿ليحاجوكم به عند ربكم﴾ أي لتكون الحجة للمؤمنين عليكم في الآخرة في ترك اتباع الرسول مع العلم بصدقه ﴿أفلا تعقلون﴾ ؟ أي أفليست لكم عقول تمنعكم من أن تحدثوهم بما يكون لهم فيه حجة عليكم ؟ والقائلون ذلك هم اليهود لمن نافق منهم قال تعالى رداً عليهم وتوبيخاً ﴿أولاً يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي ألا يعلم هؤلاء اليهود أن الله يعلم ما يخفون وما يظهرون ، وأنه تعالى لا تخفى عليه خافية ، فكيف يقولون ذلك ثم يزعمون الإيمان !!

ولما ذكر تعالى العلماء الذين حرفوا وبدلوا ، ذكر العوام الذين قلدوهم ونبه أنهم في الضلال سواء فقال : ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب﴾ أي ومن اليهود طائفة من الجهلة العوام ، الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ليطلعوا على ما في التوراة بأنفسهم ويتحققوا بما فيها ﴿الإأمانى﴾ أي إلا ما هم عليه من الأمانى التي مناهم بها أبحارهم ، من أن الله يعفو عنهم ويرحمهم ، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة ، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ، وأنهم أبناء الله وأحبائه ، إلى غير ما هنالك من الأمانى الفارغة ﴿وإنهم إلا يظنون﴾ أي ما هم على يقين من أمرهم ، بل هم مقلدون للآباء تقليد أهل العمى والغباء . ثم ذكر تعالى جريمة أولئك الرؤساء المضللين ، الذين أضلوا العامة في سبيل حطام الدنيا فقال ﴿قويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ أي هلاك وعذاب لأولئك الذين حرفوا التوراة ، وكتبوا تلك الآيات المحرفة

يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

بأيديهم ﴿ثم يقولون هذا من عند الله﴾ أي يقولون لأتباعهم الأيمن هذا الذي تجدونه هو من نصوص التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام ، مع أنهم كتبوها بأيديهم ونسبوها إلى الله كذباً وزوراً ﴿ليشتروا به ثمناً قليلاً﴾ أي لينالوا به عرض الدنيا وحطامها الفاني ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم﴾ أي فشدة عذاب لهم على ما فعلوا من تحريف الكتاب ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾ أي وويل لهم مما يصيبون من الحرام والسحت ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ أي لن ندخل النار إلا أياماً قلائل ، هي مدة عبادة العجل ، أو سبعة أيام فقط ﴿قل اتخذتم عند الله عهداً﴾ أي قل لهم يا محمد على سبيل الإنكار والتوبيخ : هل أعطاكم الله الميثاق والعهد بذلك ؟ فإذا كان قد وعدكم بذلك ﴿فلن يخلف الله عهده﴾ لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾ أي أم تكذبون على الله فتقولون عليه ما لم يقله ، فتجمعون بين جريمة التحريف لكلام الله ، والكذب والبهتان عليه جل وعلا .

ثم بيّن تعالى كذب اليهود ، وأبطل مزاعمهم بأن النار لن تمسهم وأنهم لا يخلدون فيها فقال : ﴿بلى من كسب سيئة﴾ أي بلى تمسكم النار وتخلدون فيها ، كما يخلد الكافر الذي عمل الكبائر ، وكذلك كل من اقترف السيئات ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ أي غمرته من جميع جوانبه ، وسدّت عليه مسالك النجاة ، بأن فعل مثل فعلكم أيها اليهود ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي فالنار ملازمة لهم لا يخرجون منها أبداً ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي وأما المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان ، والعمل الصالح فلا تمسهم النار ، بل هم في روضات الجنات يجبرون ﴿وأولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أي مخلدون في الجنان لا يخرجون منها أبداً ، اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين .

البلاغَة : أولاً : قوله ﴿وهم يعلمون﴾ جملة مفيدة لكمال قبح صنيعهم ، فتحريفهم للتوراة كان عن قصد وتصميم لا عن جهل أو نسيان ، ومن يرتكب المعصية عن علم يستحق الذم والتوبيخ أكثر ممن يرتكبها وهو جاهل .

ثانياً : قوله ﴿يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ ذكر الأيدي هنا لدفع توهم المجاز ، وللتأكيد بأن الكتابة باشرها بأنفسهم كما يقول القائل : كتبه بيمينى ، وسمعته بأذنى .

ثالثاً : قوله ﴿ما يسرون وما يعلنون﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بـ (الطباق) حيث جمع بين لفظتي « يسرون » و « يعلنون » وهو من نوع طباق الإيجاب .

رابعاً : التكرير في قوله ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب ﴾ وقوله ﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم ﴾ وقوله ﴿ وويل لهم مما يكتبون ﴾ للتوبيخ والتقريع ولييان أن جريمتهم بلغت من القبح والشناعة الغاية القصوى .

خامساً : قوله ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ هو من باب الاستعارة حيث شبه الخطايا بجيش من الأعداء نزل على قوم من كل جانب فأحاط به إحاطة السوار بالمعصم ، واستعار لفظة الإحاطة لغلبة السيئات على الحسنات ، فكأنها أحاطت بها من جميع الجهات (١) .

الفوائد : الفائدة الأولى : تحريف كلام الله يصدق بتأويله تأويلاً فاسداً ، ويصدق بمعنى التغيير وتبديل كلام بكلام ، وقد وقع من أhabar اليهود التحريف بالتأويل ، وبالتغيير ، كما فعلوا في صفته عليه السلام قال العلامة أبو السعود : روي أن أhabar اليهود خافوا زوال رياستهم فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ في التوراة وكانت هي فيها « حسن الوجه ، حسن الشعر ، أكحل العينين ، أبيض ، ربعة » فغيروها وكتبوا مكانها « طوال ، أزرق ، سبط الشعر » فإذا سألهم العامة عن ذلك قرءوا ما كتبوا فيجدونه مخالفاً لما في التوراة فيكذبونه (٢) .

الثانية : التحريف بقسميه وقع في الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل كما قال تعالى ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ أما التحريف بمعنى التأويل الباطل فقد وقع في القرآن من الجهلة أو الملاحدة ، وأما التحريف بمعنى إسقاط الآية ووضع كلام بدلها فقد حفظ الله منه كتابه العزيز ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

الثالثة : روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال « لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم ، فقال رسول الله ﷺ : اجمعوا لي من كان من اليهود هنا ، فقال لهم رسول الله : من أبوكم ؟ قالوا : فلان قال : كذبتكم بل أبوكم فلان فقالوا : صدقت وبررت ثم قال لهم : هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبتك عرفت كذبتنا كما عرفت في أبنينا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : من أهل النار ؟ فقالوا : نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها ، فقال لهم رسول الله ﷺ : اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبداً ، ثم قال لهم رسول الله ﷺ : هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم يا أبا القاسم ، قال : هل جعلتم في هذه الشاة سمياً ؟ فقالوا نعم قال : فما حملكم على ذلك ؟ فقالوا : أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك ، وإن كنت نبياً لم يضرك » (٣) .

قال الله تعالى ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله . . . إلى . . . ولا هم ينصرون ﴾ .
من آية (٨٣) إلى نهاية آية (٨٦) .

الْمَنَاسِكَةُ : لا تزال الآيات الكريمة تعدّد جرائم اليهود ، وفي هذه الآيات أمثلة صارخة على عدوانهم وطغيانهم وإفسادهم في الأرض ، فقد نقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم في التوراة ، وقتلوا النفس التي حرّم الله ، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل ، واعتدوا على إخوانهم في الدين فأخرجوهم من الديار ، فاستحقوا اللعنة والحزبي والدمار .

اللغز : ﴿ميثاق﴾ الميثاق : العهد المؤكد باليمين غاية التأكيد ، فإن لم يكن مؤكداً سمي عهداً ﴿حسناً﴾ الحسن : اسم عام جامع لمعاني الخير ، ومنه لين القول ، والأدب الجميل ، والخلق الكريم ، وضده القبح والمعنى : قولوا قولاً حسناً فهو صفة لمصدر محذوف ﴿توليتهم﴾ التولي عن الشيء : الإعراض عنه ورفضه وعدم قبوله كقوله ﴿فأعرضُ عن تولي عن ذكرنا﴾ وفرق بعضهم بين التولي والإعراض فقال : التولي بالجسم ، والإعراض بالقلب^(١) ﴿تظاهرون﴾ تتعاونون وهو مضارع حذف منه أحد التاءين ، كأن المتظاهرين يسند كل واحد منهما ظهره إلى الآخر ، والظهير : المعين ﴿الإثم﴾ الذنب الذي يستحق صاحبه الملامة وجمعه آثام ﴿العدوان﴾ تجاوز الحد في الظلم ﴿خزي﴾ الخزي : الهوان والمقت والعقوبة .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَتُّوْلَاءٌ تَقْتُلُونَ

النفسير : ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي اذكروا حين أخذنا على أسلافكم يا معشر اليهود العهد المؤكد غاية التأكيد ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ بأن لا تعبدوا غير الله ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي وأمرناهم بأن يحسنوا إلى الوالدين إحساناً ﴿وذو القربى واليتامى والمساكين﴾ أي وأن يحسنوا أيضاً إلى الأقرباء ، واليتامى الذين مات أبائهم وهم صغار ، والمساكين الذين عجزوا عن الكسب ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ أي قولوا حسناً بخفض الجناح ، ولين الجانب ، مع الكلام الطيب ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي صلوا وزكوا كما فرض الله عليكم من أداء الركنين العظيمين « الصلاة ، والزكاة » لأنها أعظم العبادات البدنية والمالية ﴿ثم توليتهم﴾ ثم توليتهم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون ﴿أي ثم رفضتم وأسلافكم الميثاق رفضاً باتاً ، وأعرضتم عن العمل بموجبه إلا قليلاً منكم ثبتوا عليه﴾ ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي واذكروا أيضاً يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد بأن لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ ولا يعتدي بعضكم على بعض بالإخراج من الديار ، والإجلاء

أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَظَاهِرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسْرَى تَقْلُدُوهُمْ وَهُوَ
 مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفْتَوْمُنُونَ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

عن الأوطان ﴿ثم أقررتم وأنتم تشهدون﴾ أي ثم اعترفتكم بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه ، وأنتم تشهدون بلزومه ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾ أي ثم نقضتم أيضاً الميثاق يا معشر اليهود بعد إقراركم به ، فقتلتم إخوانكم في الدين ، وارتكبتم ما نهيتهم عنه من القتل ﴿وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم﴾ أي كما طردتموهم من ديارهم من غير التفاتٍ إلى العهد الوثيق ﴿تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان﴾ أي تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم ﴿وإن يأتوكم أسارى تفادوهم﴾ أي إذا وقعوا في الأسر فاديتموهم ، ودفعتم المال لتخليصهم من الأسر ﴿وهو محرم عليكم إخراجهم﴾ أي فكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار ، ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي عدوهم ؟ ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ ؟ أي أفتؤمنون ببعض أحكام التوراة وتكفرون ببعض ؟ والغرض التوبيخ لأنهم جمعوا بين الكفر والإيمان ، والكفر ببعض آيات الله كفرٌ بالكتاب كله ولهذا عقب تعالى ذلك بقوله ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا﴾ أي ما عقوبة من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض إلا ذلٌ وهوان ، ومقتٌ وغضب في الدنيا ﴿ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب﴾ أي وهم صائرون في الآخرة إلى عذاب أشد منه ، لأنه عذاب خالد لا ينقضي ولا ينتهي ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ وفيه وعيد شديد لمن عصى أوامر الله ، ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك العصيان والعدوان فقال ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة هم الذين استبدلوا الحياة الدنيا بالآخرة بمعنى اختاروها وأثروها على الآخرة ﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾ أي لا يُفتر عنهم العذاب ساعة واحدة ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي وليس لهم ناصر ينصرهم ، ولا مجير ينقذهم من عذاب الله الأليم .

تَبْيِيهِ : كانت (بنو قريظة) و (بنو النضير) من اليهود ، فحالفت بنو قريظة الأوس ، وبنو النضير الخزرج ، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق من اليهود مع حلفائه ، فيقتل اليهودي أخاه اليهودي من الفريق الآخر ، ويخرجونهم من بيوتهم ، وينهبون ما فيها من الأثاث والمتاع والمال ، وذلك حرام عليهم في دينهم وفي نص التوراة ، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها افتكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة ولهذا قال تعالى ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ (١) .

البالغة : ١ - ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ خبرٌ في معنى النهي ، وهو أبلغ من صريح النهي كما قال أبو السعود لما فيه من إيهام أن المنهي حقه أن يسارع إلى الانتهاء فكأنه انتهى عنه ، فجاء بصيغة الخبر وأراد به النهي^(١) .

٢ - ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ وقع المصدر موقع الصفة أي قولاً حسناً أو ذا حسنٍ للمبالغة فإن العرب تضع المصدر مكان اسم الفاعل أو الصفة بقصد المبالغة فيقولون : هو عدلٌ .

٣ - التنكير في قوله ﴿خزي في الحياة الدنيا﴾ للتفخيم والتهويل .

٤ - ﴿تقتلون أنفسكم﴾ عبر عن قتل الغير بقتل النفس لأن من أراق دم غيره فكأنما أراق دم نفسه فهو من باب المجاز لأدنى ملابسة .

٥ - ﴿أفتؤمنون﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي .

الفوائد : الفائدة الأولى : جاء الترتيب في الآية بتقديم الأهم فالأهم ، فقدّم حق الله تعالى لأنه المنعم في الحقيقة على العباد ، ثم قدم ذكر الوالدين لحقهما الأعظم في تربية الولد ، ثم القرابة لأن فيهم صلة الرحم وأجر الإحسان ، ثم اليتامى لقلّة حيلتهم ، ثم المساكين لضعفهم ومسكنتهم .

الثانية : ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ ولم يقل : وقولوا لإخوانكم أو قولوا للمؤمنين حسناً ليدل على أن الأمر بالإحسان عام لجميع الناس ، المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، وفي هذا حضٌّ على مكارم الأخلاق ، بلين الكلام ، وبسط الوجه ، والأدب الجميل ، والخلق الكريم قال أحد الأدباء :

بُنِيَ إِنَّ البرَّ شَيْءٌ هَيِّنٌ وَجَهٌ طَلِيقٌ وَلِسَانٌ لَيِّنٌ

قال الله تعالى : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسول . . إلى . . ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾
من آية (٨٧) إلى نهاية آية (٩٢) .

اللفظة : ﴿الكتاب﴾ التوراة ﴿وقفينا﴾ أردفنا وأتبعنا وأصله من القفا يقال : قفاه إذا أتبعه ، وقفاه بكذا إذا أتبعه إياه ﴿البيّنات﴾ المعجزات الباهرات كإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى ﴿أيّدناه﴾ قويناه مأخوذ من الأيد وهو القوة ﴿روح القدس﴾ جبريل عليه السلام ، والقدس : الطهر والبركة ﴿تهوى﴾ تحب من هوى إذا أحب ومصدره الهوى ﴿غلف﴾ جمع أغلف ، والغلاف : الغطاء ، يقال : سيف أغلف إذا كان في غلافه ، وقلب أغلف أي مستور عن الفهم والتمييز ، مستعار من الأغلف الذي لم

يُخْتَنُ^(١) ﴿لَعْنَهُمْ﴾ أصل اللعن في كلام العرب : الطردُ والإبعاد يقال : ذُئِبَ لعين أي مطرود مبعَد والمراد : أقصاهم وأبعدهم عن رحمته ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يستنصرون من الاستفتاح وهو طلب الفتح أي النصرَة ﴿بِئْسَمَا﴾ أصلها بئس ما أي بئس الذي ، وبئس فعل للذم ، كما أن « نَعَمْ » للمدح ﴿بَغِيًّا﴾ البغي : الحسد والظلم ، وأصله الفساد من بغى الجرح إذا فسد قاله الأصمعي^(٢) ﴿بَاءُوا﴾ رجعوا وأكثر ما يستعمل في الشر ﴿مُهِينٌ﴾ مخزٍ مذل مأخوذ من الهوان بمعنى الذل .

الْمُنَاسِكَةُ : لا تزال الآيات تتحدث عن بني إسرائيل ، وفي هذه الآيات الكريمة تذكير لهم بضرب من النعم التي أمدهم الله بها ثم قابلوها بالكفر والإجرام ، كعادتهم في مقابلة الإحسان بالإساءة ، والنعمة بالكفران والجحود .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٧٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعْنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٩﴾ بِئْسَمَا

الْمُنْفِيسِير : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة ﴿وقفينا من بعده بالرسول﴾ أي أتبعنا وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ أي أعطينا عيسى الآيات البينات والمعجزات الواضحات الدالة على نبوته ﴿وأيديناه بروح القدس﴾ أي قويناه وشددنا أزره بجبريل عليه السلام ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم﴾ أي أفكلما جاءكم يا بني إسرائيل رسول بما لا يوافق هواكم ﴿استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ أي تكبرتم عن اتباعه فطائفة منهم كذبتموهم ، وطائفة قتلتموهم . . ثم أخبر تعالى عن اليهود المعاصرين للنبي ﷺ وبين ضلالهم في اقتدائهم بالأسلاف فقال حكاية عنهم ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ أي في أكنة لا تفقه ولا تعي ما تقوله يا محمد ، والغرض إقنائه عليه السلام من إيمانهم ، قال تعالى رداً عليهم ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته بسبب كفرهم وضلالهم ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ أي قليل من يؤمن منهم ، أو يؤمنون إيماناً قليلاً وهو إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم بالبعض الآخر ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم﴾ وهو القرآن العظيم الذي أنزل على خاتم المرسلين ، مصدقاً لما في التوراة ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ أي وقد كانوا قبل مجيئه يستنصرون به على أعدائهم ويقولون : اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان ، الذي نجد نعته في التوراة ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ أي فلما بعث محمد ﷺ الذي عرفوه حق المعرفة كفروا برسالته ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ أي لعنة الله على اليهود الذين كفروا بخاتم

أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا
بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ
عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ۚ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾
* وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾

المرسلين ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم﴾ أي بئس الشيء التافه الذي باع به هؤلاء اليهود أنفسهم ﴿أن يكفروا بما أنزل الله﴾ أي كفرهم بالقرآن الذي أنزله الله ﴿بغياً﴾ أي حسداً وطلباً لما ليس لهم ﴿أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ أي حسداً منهم لأجل أن ينزل الله وحياً من فضله على من يشاء ويصطفيه من خلقه ﴿فباءوا بغضب على غضب﴾ أي رجعوا بغضب من الله زيادة على سابق غضبه عليهم ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ أي ولهم عذاب شديد مع الإهانة والإذلال لأن كفرهم سببه التكبر والحسد فقبولوا بالإهانة والصغار ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله﴾ أي آمنوا بما أنزل الله من القرآن وصدقوه واتبعوه ﴿قالوا نؤمن بما أنزل علينا﴾ أي يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة ﴿ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم﴾ أي يكفرون بالقرآن مع أنه هو الحق موافقاً لما معهم من كلام الله ﴿قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ أي قل لهم يا محمد إذا كان إيمانكم بما في التوراة صحيحاً فلم كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل إذا كنتم فعلاً مؤمنين ؟ ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ أي بالحجج الباهرات ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ أي عبدتم العجل من بعد ذهابه إلى الطور ، وأنتم ظالمون في هذا الصنيع .

الْبَلَاغَةُ : ١ - تقديم المفعول في الموضعين ﴿فريقاً كذبتهم﴾ و﴿فريقاً تقتلون﴾ للاهتمام وتشويق السامع إلى ما يلقى إليه .

٢ - التعبير بالمضارع ﴿وفريقاً تقتلون﴾ ولم يقل قتلتم كما قال كذبتهم ، لأن الفعل المضارع - كما هو المؤلف في أساليب البلاغة - يستعمل في الأفعال الماضية التي بلغت من الفظاعة مبلغاً عظيماً ، فكأنه أحضر صورة قتل الأنبياء أمام السامع ، وجعله ينظر إليها بعينه ، فيكون إنكاره لها أبلغ ، واستفظاعه لها أعظم .

٣ - وضع الظاهر مكان الضمير ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ ولم يقل «عليهم» ليشعر بأن سبب حلول اللعنة هو كفرهم .

٤ - الخبر في قوله ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ يراد به التبكيت والتوبيخ على عدم اتباع الرسول .

٥ - أسندت الإهانة إلى العذاب فقال ﴿عذاب مهين﴾ لأن الإهانة تحصل بعدابهم ، ومن أساليب البيان إسناد الأفعال إلى أسبابها .

فكائدة : قال الحسن البصري : إنما سمي جبريل « روح القدس » لأن القدس هو الله ، وروحه جبريل ، فلاضافة للتشريف ، قال الرازي : ومما يدل على أن روح القدس جبريل قوله تعالى في سورة النحل ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾^(١) .

قال الله تعالى : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم .. إلى .. فإن الله عدو للكافرين﴾

من آية (٩٣) إلى نهاية آية (٩٨) .

المناسكة : هذه طائفة أخرى من جرائم اليهود ، فقد نقضوا الميثاق حتى رفع جبل الطور عليهم وأمروا أن يأخذوا بما في التوراة ، فأظهروا القبول والطاعة ثم عادوا إلى الكفر والعصيان ، فعبدوا العجل من دون الله ، وزعموا أنهم أحباب الله ، وأن الجنة خالصة لهم من دون الناس لا يدخلها أحد سواهم ، وعادوا الملائكة الأطهار وعلى رأسهم جبريل عليه السلام ، وكفروا بالأنبياء والرسل ، وهكذا شأنهم في سائر العصور والدهور .

اللغات : ﴿ميثاقكم﴾ الميثاق : العهد المؤكد بيمين ﴿الطور﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ﴿بقوة﴾ بعزم وجد ﴿أشربوا﴾ أشرب : سقي أي جعلت قلوبهم تشربه ، يقال : أشرب قلبه حباً كذا قال زهير :

فصحوتُ عنها بعد حبٍّ داخلٍ والحبُّ تُشربُه فؤادك داءً^(٢)

﴿خالصة﴾ مصدر كالعافية والعاقبة بمعنى الخلوص أي خاصة بكم لا يشارككم فيها أحد ﴿أحرص﴾ الحرص : شدة الرغبة في الشيء وفي الحديث (إحرص على ما ينفعك) ﴿بمزحزحه﴾ الزحزحة : الإبعاد والتنحية قال تعالى ﴿فمن زحزح عن النار﴾ أي أبعد وقال الشاعر :

خيلِيَّ ما بال الدُّجَى لا يَزَحْزَحُ وما بال ضوء الصبح لا يتوضَّح^(٣)

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتِنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قُلُوبًا سَمِعْنَا وَعَصِينَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ

التفسير : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة ، ورفعنا فوقكم جبل الطور قائلين ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي بعزم وحزم وإلا طرحنا الجبل فوقكم ﴿واسمعوا﴾ أي سماع طاعة وقبول ﴿قالوا سمعنا وعصينا﴾ أي سمعنا قولك ، وعصينا أمرك ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ أي خالط حبه قلوبهم ، وتغلغل في

الْعَجَلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بئسما يأمركم به - إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴿٩٣﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يُوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحَهُ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾

سويدائها والمراد أن حب عبادة العجل امتزج بدمائهم ودخل في قلوبهم ، كما يدخل الصبغ في الثوب ، والماء في البدن ﴿ بكفرهم ﴾ أي بسبب كفرهم ﴿ قل بئسما يأمركم به إيمانكم ﴾ أي قل لهم على سبيل التهكم بهم بشس هذا الإيمان الذي يأمركم بعبادة العجل ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي إن كنتم تزعمون الإيمان فيشس هذا العمل والصنيع والمعنى : لستم بمؤمنين لأن الإيمان لا يأمركم بعبادة العجل ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس ﴾ أي قل لهم يا محمد إن كانت الجنة لكم خاصة لا يشارككم في نعيمها أحد كما زعمتم ﴿ فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ أي اشتاقوا الموت الذي يوصلكم إلى الجنة ، لأن نعيم هذه الحياة لا يساوي شيئاً إذا قيس بنعيم الآخرة . ومن أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها قال تعالى راداً عليهم تلك الدعوى الكاذبة ﴿ ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم ﴾ أي لن يتمنوا الموت ما عاشوا بسبب ما اجترحوه من الذنوب والآثام ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ أي عالم بظلمهم وإجرامهم وسيجازيهم على ذلك ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا ﴾ أي ولتجدن اليهود أشد الناس حرصاً على الحياة ، وأحرص من المشركين أنفسهم ، وذلك لعلمهم بأنهم صائرون إلى النار لإجرامهم ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ أي يتمنى الواحد منهم أن يعيش ألف سنة ﴿ وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ﴾ أي وما طول العمر - مهيا عمر - بمبعده ومنجيه من عذاب الله ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ أي مطلع على أعمالهم فيجازيهم عليها ﴿ قل من كان عدواً لجبريل ﴾ أي قل لهم يا محمد من كان عدواً لجبريل فإنه عدو لله ، لأن الله جعله واسطة بينه وبين رسله فمن عاداه فقد عادى الله ﴿ فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ أي فإن جبريل الأمين نزل هذا القرآن على قلبك يا محمد بأمر الله تعالى ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية ﴿ وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أي وفيه الهداية الكاملة ، والبشارة السارة للمؤمنين بجنات النعيم ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكايل ﴾ أي من عادى الله وملائكته ورسله ، وعادى على الوجه الأخص « جبريل وميكايل » فهو كافر عدو لله ﴿ فإن الله عدو

للكافرين ﴿ لأن الله يبغض من عادى أحداً من أوليائه ، ومن عاداهم عاداه الله ، ففيه الوعيد والتهديد الشديد .

سَبَبُ الزُّوْلِ : روي أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : إنه ليس نبيٌ من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحي ، فمن صاحبك حتى نتابعك ؟ قال : جبريل قالوا : ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال ذاك عدونا ! لو قلت : ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعتنا فأنزل الله ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك . . . ﴾ (١) الآية .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل ﴾ فيه استعارة مكنية ، شبه حبَّ عبادة العجل بمشروب لذيد سائغ الشراب ، وطوى ذكر المشبه به ورمز بشيء من لوازمه وهو الإشراب على طريق الاستعارة المكنية . قال في تلخيص البيان : « وهذه استعارة والمراد وصف قلوبهم بالمبالغة في حب العجل فكأنها تشربت حبه فمازجها ممازجة المشروب ، وخالطها مخالطة الشيء الملدود » (٢) .

٢ - ﴿ قل بئسما يأمركم به إيمانكم ﴾ إسناد الأمر إلى الإيمان تهكمٌ بهم كقوله ﴿ أصلاتك تأمرك ﴾ وكذلك إضافة الإيمان إليهم ، أفاده الزمخشري .

٣ - التكنير في قوله ﴿ على حياة ﴾ للتنبيه على أن المراد بها حياة مخصوصة ، وهي الحياة المتطاولة التي يعمر فيها الشخص آلاف السنين .

٤ - ﴿ فإن الله عدوٌ للكافرين ﴾ الجملة واقعة في جواب الشرط وحيء بها إسمية لزيادة التقيح لأنها تفيد الثبات ، ووضع الظاهر موضع الضمير فقال ﴿ عدوٌ للكافرين ﴾ بدل عدوٌ لهم لتسجيل صفة الكفر عليهم ، وأنهم بسبب عداوتهم للملائكة أصبحوا من الكافرين .

٥ - ﴿ وجبريل وميكال ﴾ جاء بعد ذكر الملائكة فهو من باب ذكر الخاص بعد العام للتشريف والتعظيم .

الفَوَائِد : الأولى : ليس معنى السمع في قوله ﴿ واسمعوا ﴾ إدراك القول فقط ، بل المراد سماع ما أمروا به في التوراة سماع تدبير وطاعة والتزام فهو مؤكد ومقرر لقوله ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ .

الثانية : خصَّ القلب بالذكر ﴿ نزله على قلبك ﴾ لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف كما قال تعالى ﴿ لهم قلوب لا يعقلون بها ﴾ .

الثالثة : الحكمة في الإتيان هنا بـ « لن » ﴿ ولن يتمنوه أبداً ﴾ وفي الجمعة بـ « لا » ﴿ ولا يتمنونه أبداً ﴾ أن ادعاءهم هنا أعظم من ادعائهم هناك ، فإنهم ادعوا هنا اختصاصهم بالجنة ، وهناك كونهم أولياء

(١) رواه الترمذي وانظر القرطبي ٣٦ / ٢ . (٢) تلخيص البيان للشريف الرضي ص ٩ .

لله من دون الناس ، فناسب هنا التوكيد بلن المفيدة للنفي في الحاضر والمستقبل ، وأما هناك فافتفى بالنفي^(١) .

الرابعة : الآية الكريمة من المعجزات لأنها إخبار بالغيب وكان الأمر كما أخبر ، ويكفي في تحقق هذه المعجزة أن لا يقع تمنى الموت من اليهود الذين كانوا في عصره ﷺ وفي الحديث الشريف (لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار)^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات . . إلى . . لثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ من آية (٩٩) إلى نهاية آية (١٠٣) .

المناسكة : لما ذكر تعالى ما جبل عليه اليهود ، من خبث السريرة ونقض العهود ، والتكذيب لرسول الله ومعاداة أوليائه ، حتى انتهى بهم الحال إلى عداوة السفير بين الله وبين خلقه وهو « جبريل » الأمين عليه السلام ، أعقب ذلك بيان أن من عادة اليهود عدم الوفاء بالعقود ، وتكذيب الرسل ، واتباع طرق الشعوذة والضلال ، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ حيث سلكوا معه هذه الطريقة ، في عدم الأخذ بما انطوى عليه كتاب الله من التبشير ببعثة السراج المنير ، وإلزامهم الإيمان به واتباعه ، فنبذوا الكتاب وراء ظهورهم ، واتبعوا ما ألفت إليهم الشياطين من كتب السحر والشعوذة ، ونسبوا إلى سليمان عليه السلام وهو منها بريء ، وهكذا حالهم مع جميع الرسل الكرام ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

اللفظ : ﴿ نبذ ﴾ النبذ : الطرح والإلقاء ومنه سمي اللقيط منبذاً لأنه ينبذ على الطريق قال الشاعر :

إن الذين أمرتهم أن يعدلوا نبذوا كتابك واستحلوا المحرماً^(٣)

﴿ تتلو ﴾ تحدث وتروي من التلاوة بمعنى القراءة ، أو من التلاوة بمعنى الاتباع قال الطبري : ولقول القائل : « هو يتلو كذا » في كلام العرب معنيان : أحدهما الاتباع كما تقول : تلوت فلاناً إذا مشيت خلفه وتبعته أثره ، والآخر : القراءة والدراسة كقولك : فلان يتلو القرآن أي يقرؤه^(٤) ﴿ السحر ﴾ قال الجوهري : كل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر ، وسحره أيضاً بمعنى خدعه^(٥) وفي الحديث (إن من البيان لسحراً) ﴿ فتنه ﴾ الفتنه : الابتلاء والاختبار ومنه قولهم : فتنت الذهب إذا امتحنته بالنار لتعرف سلامته أو غشه ﴿ خلاق ﴾ الخلاق : النصيب قال الزجاج : هو النصيب الوافر من الخير ، وأكثر ما يستعمل في الخير ﴿ لثوبة ﴾ لثوبة : الثواب والجزاء .

(١) الصاوي على الجلالين ٤٩/١ . (٢) القرطبي ٣٣/٢ . (٣) القرطبي ٤٠/٢ . (٤) الطبري ٤٠٧/٢ . (٥) الصحاح للجوهري .

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾

التفسير : ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾ أي والله لقد أنزلنا إليك يا محمد آيات واضحة دالات على نبوتك ﴿وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ أي وما يجحد بهذه الآيات ويكذب بها إلا الخارجون عن الطاعة الماردون على الكفر ﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذوه فریق منهم﴾ أي أيكفرون بالآيات وهي في غاية الوضوح وكلما أعطوا عهداً نقضه جماعة منهم ؟ ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ أي بل أكثر اليهود لا يؤمن بالتوراة الإيمان الصادق لذلك ينقضون العهود والمواثيق ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله﴾ وهو محمد ﷺ ﴿مصدق لما معهم﴾ أي مصدقاً للتوراة وموافقاً لها في أصول الدين ومقرراً لنبوة موسى عليه السلام ﴿نبذ فریق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم﴾ أي طرح أحبارهم وعلماءهم التوراة وأعرضوا عنها بالكلية لأنها تدل على نبوة محمد ﷺ فجحدوا وأصروا على إنكار نبوته ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ أي كأنهم لا يعلمون من دلائل نبوته شيئاً ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ أي اتبعوا طرق السحر والشعوذة التي كانت تحدثهم بها الشياطين في عهد ملك سليمان ﴿وما كفر سليمان﴾ أي وما كان سليمان ساحراً ولا كفر بتعلمه السحر ﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾ أي ولكن الشياطين هم الذين علموا الناس السحر حتى فشا أمره بين الناس ﴿وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾ أي وكما اتبع رؤساء اليهود السحر كذلك اتبعوا ما أنزل على الملكين وهما هاروت وماروت بمملكة بابل بأرض الكوفة ، وقد أنزلهما الله ابتلاءً وامتحاناً للناس ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ أي إن الملكين لا يعلمان أحداً من الناس السحر حتى يبذلا له النصيحة ويقولوا إن هذا الذي نصفه لك إنما هو امتحان من الله وابتلاء ، فلا تستعمله للإضرار ولا تكفر بسببه ، فمن تعلمه ليدفع ضرره عن الناس

فقد نجا ، ومن تعلمه ليلحق ضرره بالناس فقد هلك وضل . . قال تعالى ﴿فیتعلمون منها ما یفرقون به بین المرء وزوجه﴾ أي يتعلمون منها من علم السحر ما يكون سبباً في التفريق بين الزوجين ، فبعد أن كانت المودة والمحبة بينهما يصبح الشقاق والفراق ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ أي وما هم بما استعملوه من السحر يضرون أحداً إلا إذا شاء الله ﴿ويتعلمون ما یضرهم ولا ینفعهم﴾ أي والحال أنهم بتعلم السحر يحصلون على الضرر لا على النفع ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق﴾ أي ولقد علم اليهود الذين نبذوا كتاب الله واستبدلوا به السحر ، أنهم ليس لهم حظ من رحمة الله ولا من الجنة لأنهم آثروا السحر على كتاب الله ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا یعلمون﴾ أي ولبئس هذا الشيء الذي باعوا به أنفسهم لو كان لهم علم أو فهم وإدراك ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا﴾ أي ولو أن أولئك الذين يتعلمون السحر آمنوا بالله وخافوا عذابه ﴿لمثوبة من عند الله خیر لو كانوا یعلمون﴾ أي لأثابهم الله ثواباً أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر ، الذي لا یعود عليهم إلا بالويل والخسار والدمار .

سَبَبُ النَّزُولِ : لما ذكر رسول الله ﷺ سليمان في المرسلين ، قال بعض أحبار اليهود : ألا تعجبون لمحمد يزعم أن ابن داود كان نبياً ! ! والله ما كان إلا ساحراً فنزلت هذه الآية ﴿وما كفر سليمان ولكن الشیاطین کفروا یعلمون الناس السحر﴾ (١) .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿رسولٌ من عند الله﴾ التنكير للتفخيم ووصف الرسول بأنه آتٍ من عند الله لإفادة مزيد التعظيم .

٢ - ﴿وراء ظهورهم﴾ مثل يضرب للإعراض عن الشيء جملةً تقول العرب : جعل هذا الأمر وراء ظهره أي تولى عنه معرضاً ، لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه ، فهو كناية عن الإعراض عن التوراة بالكلية .

٣ - ﴿لو كانوا یعلمون﴾ هذا جارٍ على الأسلوب المعروف في فنون البلاغة ، من أن العالم بالشيء إذا لم یجر على موجب علمه قد ينزل منزلة الجاهل به ، وينفى عنه العلم كما ينفى عن الجاهلين .

٤ - ﴿لمثوبة من عند الله﴾ جيء بالجملة الإسمية بدل الفعلية للدلالة على الثبوت والاستقرار .

فكائِدَةٌ : الحكمة من تعليم الملکین الناس السحر ، أن السحرة كثروا في ذلك العهد واخترعوا فنوناً غريبة من السحر ، وربما زعموا أنهم أنبياء ، فبعث الله تعالى الملکین ليعلموا الناس وجوه السحر حتى يتمكنوا من التمييز بينه وبين المعجزة ، ويعرفوا أن الذين يدعون النبوة كذباً إنما هم سحرة لا أنبياء .

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا . . . إِلَى . . . إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

من آية (١٠٤) إلى نهاية آية (١١٠) .

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى قبائح اليهود ، وما اختصوا به من ضروب السحر والشعوذة ، أعقبه بيان نوع آخر من السوء والشر ، الذي يضمرونه للنبي ﷺ والمسلمين ، من الطعن والحقد والحسد ، وتمني زوال النعمة عن المؤمنين ، واتخاذهم الشريعة الغراء هدفاً للطعن والتجريح بسبب النسخ لبعض الأحكام الشرعية .

الْفَعْرَةُ : ﴿ رَاعِنَا ﴾ من المراعاة وهي الإنظار والإمهال ، وأصلها من الرعاية وهي النظر في مصالح الإنسان ، وقد حرفها اليهود فجعلوها كلمة مسبة مشتقة من الرعونة وهي الحُمق ولذلك نهي عنها المؤمنون ﴿ انظرونا ﴾ من النظر والانتظار تقول : نظرتُ الرجل إذا انتظرته وارتقبته أي انتظرنا وتأنَّ بنا ﴿ يود ﴾ يتمنى ويجب ﴿ ننسخ ﴾ النسخ في اللغة : الإبطال والإزالة يقال : نسخت الشمس الظل أي أزالته وفي الشرع : رفع حكم شرعي وتبديله بحكم آخر ﴿ ننسها ﴾ من أنسى الشيء جعله منسياً فهو من النسيان الذي هو ضد الذكر أي نحتها من القلوب ﴿ ولي ﴾ الولي : من يتولى أمور الإنسان ومصالحه ﴿ نصير ﴾ النصير : المعين مأخوذ من قولهم نصره إذا أعانه ﴿ أم ﴾ بمعنى بل وهي تفيد الانتقال من جملة إلى جملة كقوله تعالى ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ أي بل يقولون ﴿ يتبدل ﴾ يقال : بدل وتبدل واستبدل أي جعل شيئاً موضع آخر ، وتبدل الكفر بالإيمان معناه أخذه بدل الإيمان ﴿ سواء السبيل ﴾ أي وسط الطريق ، والسواء من كل شيء : الوسط ، والسبيل معناه الطريق ﴿ فاعفوا ﴾ العفو : ترك المؤاخذة على الذنب ﴿ واصفحوا ﴾ والصفح : ترك التأنيب عنه .

سَبَبُ الزُّوْلِ : روي أن اليهود قالوا : ألا تعجبون لأمر محمد ؟ ! يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ، فما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه ، يناقض بعضه بعضاً فنزلت ^(١) ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ ^(٢) .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

النَّفْسِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ هذا نداء من الله جل شأنه للمؤمنين يخاطبهم فيه فيقول ﴿ لا تقولوا راعينا ﴾ أي راقبنا وأمهلتنا حتى نتمكن من حفظ ما تلقيه علينا ﴿ وقولوا انظرونا ﴾ أي انتظرنا وارتقبنا ﴿ واسمعوا ﴾ أي أطيعوا وأوامر الله ولا تكونوا كاليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ أي ولليهود الذين نالوا من الرسول وسبوه ، عذاب أليم موجع ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل

(١) الكشاف ١/ ١٣١ . (٢) انظر حكمة النسخ وتفصيل أحكامه في كتابنا « روائع البيان » ج ١ ص ١٠٠ .

أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ * مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسَخَ نَاتٍ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴿١٠٥﴾ أي ما يجب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون أن ينزل عليكم شيء من الخير ، بغضاً فيكم وحسداً لكم ﴿١٠٦﴾ والله يختص برحمته من يشاء ﴿١٠٧﴾ أي يختص بالنبوة والوحي والفضل والإحسان من شاء من عباده ﴿١٠٨﴾ والله ذو الفضل العظيم ﴿١٠٩﴾ والله واسع الفضل والإحسان ثم قال تعالى رداً على اليهود حين طعنوا في القرآن بسبب النسخ ﴿١١٠﴾ ما نسخ من آية أو نسها ﴿١١١﴾ أي ما تبدل من حكم آية فغيره بآخر أو نسها يا محمد أي نصحها من قلبك ﴿١١٢﴾ نأت بخير منها أو مثلها ﴿١١٣﴾ أي نأت بخير لكم منها أيها المؤمنون بما هو أنفع لكم في العاجل أو الأجل ، إما برفع المشقة عنكم ، أو بزيادة الأجر والثواب لكم ﴿١١٤﴾ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴿١١٥﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله عليم حكيم قدير ، لا يصدر منه إلا كل خير وإحسان للعباد !! ﴿١١٦﴾ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴿١١٧﴾ أي ألم تعلم أن الله هو المالك المتصرف في شئون الخلق يحكم بما شاء ويأمر بما شاء ؟ ﴿١١٨﴾ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴿١١٩﴾ أي مالكم ولي يرعى شئونكم أو ناصر ينصركم غير الله تعالى فهو نعم الناصر والمعين ﴿١٢٠﴾ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ﴿١٢١﴾ أي بل أتريدون يا معشر المؤمنين أن تسألوا نبيكم كما سأل قوم موسى نبيهم من قبل ويكون مثلكم مثل اليهود الذين قالوا لنبيهم ﴿١٢٢﴾ أرنا الله جهرة ﴿١٢٣﴾ فضلوا كما ضلوا ﴿١٢٤﴾ ومن يتبدل الكفر بالإيمان ﴿١٢٥﴾ أي يستبدل الضلالة بالهدى ويأخذ الكفر بدل الإيمان ﴿١٢٦﴾ فقد ضلّ سواء السبيل ﴿١٢٧﴾ أي فقد حاد عن الجادة وخرج عن الصراط السوي ﴿١٢٨﴾ ود كثير من أهل الكتاب ﴿١٢٩﴾ أي تمنى كثير من اليهود والنصارى ﴿١٣٠﴾ لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ﴿١٣١﴾ أي لو يصيرونكم كفاراً بعد أن آمنتم ﴿١٣٢﴾ حسداً من عند أنفسهم ﴿١٣٣﴾ أي حسداً منهم لكم حملتهم عليه أنفسهم الخبيثة ﴿١٣٤﴾ من بعد ما تبين لهم الحق ﴿١٣٥﴾ أي من بعد ما ظهر لهم بالبراهين الساطعة أن دينكم هو الحق ﴿١٣٦﴾ فاعفوا واصفحوا ﴿١٣٧﴾ أي اتركوهم وأعرضوا عنهم فلا تؤاخذوهم ﴿١٣٨﴾ حتى يأتي الله بأمره ﴿١٣٩﴾ أي حتى يأذن الله لكم بقتالهم ﴿١٤٠﴾ إن

الله على كل شيء قدير ﴿ أي قادر على كل شيء فينتقم منهم إذا حان الأوان ﴾ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴿ أي حافظوا على عمودي الإسلام وهما « الصلاة والزكاة » وتقربوا إليه بالعبادة البدنية والمالية ﴾ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴿ أي ما تتقربوا إلى الله من صلاة أو صدقة أو عمل صالح فرضاً كان أو تطوعاً تجدوا ثوابه عند الله ﴾ إن الله بما تعملون بصير ﴿ أي رقيب عليكم مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها يوم الدين .

البالغة : ١ - الإضافة في قوله ﴿ من ربكم ﴾ للتشريف . وفيها تذكير للعباد بتربيته لهم .

٢ - تصدير الجملتين بلفظ الجلالة ﴿ والله يختص ﴾ ﴿ والله ذو الفضل ﴾ للإيدان بفخامة الأمر .

٣ - ﴿ ألم تعلم ﴾ الاستفهام للتقرير والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته بدليل قوله تعالى ﴿ وما لكم من دون الله ﴾ .

٤ - وضع الاسم الجليل موضع الضمير ﴿ إن الله ﴾ و﴿ من دون الله ﴾ لتربية الروعة والمهابة في النفوس .

٥ - ﴿ ضلّ سواء السبيل ﴾ من إضافة الصفة للموصوف أي الطريق المستوي ، وفي التعبير به نهاية التبيكيت والتشنيع لمن ظهر له الحق فعدل عنه إلى الباطل .

الفوائد : الأولى : خاطب الله المؤمنين بقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن ، وهذا أول خطاب خوطب به المؤمنون في هذه السورة بالنداء الدال على الإقبال عليهم ، ونداء المخاطبين باسم المؤمنين يذكرهم بأن الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقى أوامر الله ونواهيه بحسن الطاعة والامتثال .

الثانية : نهي المسلمون أن يقولوا في خطاب النبي عليه السلام ﴿ راعنا ﴾ وأمروا بأن يقولوا مكانها ﴿ انظرنا ﴾ وفي ذلك تنبيه لأدب جميل هو أن الإنسان يتجنب في مخاطباته الألفاظ التي توهم الجفاء أو التنقيص في مقام يقتضي إظهار المودة أو التعظيم .

الثالثة : كانت اليهود تستعمل كلمة ﴿ راعنا ﴾ يعنون بها المسبة والشتيمة وروى أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال يا أعداء الله : عليكم لعنة الله والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربن عنقه فقالوا : أولستم تقولونها ؟ فنزلت هذه الآية ﴿ لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . . إلى . . إن الله سميع عليم ﴾

من آية (١١١) إلى نهاية آية (١١٥)

الْمَنَاسِكَةُ : في هذه الآيات الكريمة بيان آخر لأباطيل أهل الكتاب ، حيث ادعى كل من الفريقين اليهود والنصارى أن الجنة خاصة به وطعن في دين الآخر ، فاليهود يعتقدون بكفر النصارى وضلالهم ، ويكفرون بعيسى وبالإنجيل ، والنصارى يعتقدون بكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح وقد جاء لإتمام شريعتهم ، ونشأ عن هذا النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء حتى صار كل فريق يطعن في دين الآخر ويزعم أن الجنة وقف عليه ، فأكذب الله الفريقين ، ويبيّن أن الجنة إنما يفوز بها المؤمن التقى الذي عمل الصالحات .

اللغز : ﴿هُودًا﴾ أي يهوداً جمع هائد ، والهائد : التائب الراجع مشتق من هاد إذا تاب ﴿إِنَّا هَدْنَا إِلَيْكَ﴾ ، ﴿أَمَانِيهِمْ﴾ جمع أمنية وهي ما يتمناه الإنسان ويشتهيها، ﴿برهانكم﴾ البرهان : الدليل والحجة الموصلان إلى اليقين، ﴿أسلم﴾ استسلم وخضع، ﴿خرابها﴾ الخراب : الهدم والتدمير وهو حسيّ كتخريب بيوت الله ، ومعنوي كتعطيل إقامة الشعائر فيها، ﴿خزي﴾ هوانٌ وذلة، ﴿ثم﴾ بفتح الثاء أي هناك ظرفٌ للمكان، ﴿وجه الله﴾ الوجه : الجهة والمراد بوجه الله : الجهة التي ارتضاها وأمر بالتوجه إليها .

سَبَبُ النَّزُولِ : عن ابن عباس قال : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شيء وكفر بعيسى وبالإنجيل ، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة فأنزل الله ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾^(١) الآية .

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾
بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرِيُّ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرِيُّ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا

التفسير : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ أي قال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ، وقال النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً ﴿تلك أمانيتهم﴾ أي تلك خيالاتهم وأحلامهم ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ أي قل لهم يا محمد أنتوني بالحجة الساطعة على ما تزعمون إن كنتم صادقين في دعواكم ﴿بلى من أسلم وجهه لله﴾ أي بلى من أسلم وجهه لله ﴿وآخلص نفسه لله﴾ وهو محسن ﴿أي وهو مؤمن مصدق متبع لرسول الله ﷺ﴾ ﴿فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي فله ثواب عمله ولا خوف عليهم في الآخرة ولا يعترهم حزنٌ أو كدر بل هم في نعيم مقيم ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ أي كفر اليهود بعيسى وقالوا ليس

(١) مختصر ابن كثير ١٠٨/١ .

يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

النصارى على دين صحيح معتد به فدينهم باطل ﴿وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ أي وقال النصارى في اليهود مثل ذلك وكفروا بموسى ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ أي والحال أن اليهود يقرءون التوراة والنصارى يقرءون الإنجيل فقد كفروا عن علم ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ أي كذلك قال مشركو العرب مثل قول أهل الكتاب قالوا : ليس محمد على شيء ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي يحكم بين اليهود والنصارى ويفصل بينهم بقضائه العادل فيما اختلفوا فيه من أمر الدين ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾ استنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أي لا أحد أظلم ممن منع الناس من عبادة الله في بيوت الله ، وعمل خرابها بالهدم كما فعل الرومان ببيت المقدس ، أو بتعطيلها من العبادة كما فعل كفار قريش ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ أي ما ينبغي لأولئك أن يدخلوها إلا وهم في خشية وخضوع فضلاً عن التجرؤ على تخريبها أو تعطيلها ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ أي لأولئك المذكورين هوان وذلة في الدنيا ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ وهو عذاب النار . ﴿ولله المشرق والمغرب﴾ أي لله مكان شروق الشمس ومكان غروبها والمراد جميع الأرض ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ أي إلى أي جهة توجهتم بأمره فهناك قبلته التي رضيها لكم ، وقد نزلت الآية فيمن أضع جهة القبلة ﴿إن الله واسع عليم﴾ أي يسع الخلق بالجوهر والإفضال ، عليم بتدبير شئونهم ، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم .

البلاغَة : ١ - ﴿تلك أمانيتهم﴾ الجملة اعتراضية وفائدتها بيان بطلان الدعوى وأنها دعوى كاذبة .

٢ - ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ الأمر هنا للتبكيث والتقريع .

٣ - ﴿من أسلم وجهه لله﴾ خص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء والوجه ههنا (استعارة) أي من أقبل على عبادة الله وجعل توجهه إليه بجملته^(١) .

٤ - ﴿عند ربه﴾ العندية للتشريف ووضع اسم الرب مضافاً إلى ضمير من أسلم موضع ضمير الجلالة لإظهار مزيد اللطف به .

٥ - ﴿قال الذين لا يعلمون﴾ فيه توبيخ عظيم لأهل الكتاب لأنهم نظموا أنفسهم - مع علمهم - في سلك من لا يعلم أصلاً .

٦ - ﴿ومن أظلم﴾ الاستفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم منه .

٧ - ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ التنكير للتحويل أي خزي هائل فظيع لا يكاد يوصف لهوله .

٨ - ﴿عليم﴾ صيغة فعيل للمبالغة . أي واسع العلم .

فَكَايْدَةٌ : قال الإمام الفخر : إسلام الوجه لله يعني إسلام النفس لطاعة الله وقد يكنى بالوجه عن النفس كما قال تعالى ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ وقال زيد بن نفييل :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخوراً ثقلاً
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذباً زلالاً^(١)

قال الله تعالى : ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه .. إلى .. ولا هم ينصرون﴾

من آية (١١٧) إلى نهاية آية (١٢٣) .

الْمَنَابِتَةُ : لما ذكر تعالى افتراء اليهود والنصارى وزعمهم أن الجنة خاصة بهم لا يشاركون فيها أحد أعقبه بذكر بعض قبائحهم وقبائح المشركين في ادعائهم أن لله ولداً حيث زعم اليهود أن عزيزاً ابن الله ، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله ، وزعم المشركون أن الملائكة بنات الله فأكذبهم الله وردّ دعواهم بالحجة الدامغة والبرهان القاطع .

الْفَكْرَةُ : ﴿سبحانه﴾ سبحان مصدر سَبَّحَ بمعنى نزهَ ومعناه التبرئة والتنزيه عما لا يليق بجلاله تعالى ﴿قانتون﴾ مطيعون خاضعون من القنوت وهو الطاعة والخضوع ﴿بديع﴾ البديع : المبدع من الإبداع، والإبداع : اختراع الشيء على غير مثال سبق ﴿قضى﴾ أراد وقدر ﴿بشيراً﴾ البشير: المبشروهو المخبر بالأمر الصادق السار ﴿نذيراً﴾ النذير : المنذر وهو المخبر بالأمر المخوف ليحذر منه ﴿الرحيم﴾ المتأجج من النار ﴿ملتهم﴾ أي دينهم وجمعها ملل وأصل الملة : الطريقة المسلوكة ثم جعلت اسماً للشيعة التي أنزلها الله ﴿عدل﴾ فداء .

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ ۗ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قٰنِتُونَ ﴿١١٧﴾ بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ

التفسير : ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً﴾ هو قول اليهود والنصارى والمشركين فاليهود قالوا : عزيز ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله، والمشركون قالوا : الملائكة بنات الله فأكذب الله الجميع في

وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا
 آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهت قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا
 أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ
 تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ أَهْدَىٰ وَلَئِن أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعَدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن
 وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ء فَأُولَٰئِكَ

دعواهم فقال ﴿سبحانه﴾ أي تقدس وتنزه عما زعموا تنزهاً بليغاً ﴿بل له ما في السموات والأرض﴾ بل
 للإضراب أي ليس الأمر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها عزير والمسيح والملائكة
 ﴿كل له قانتون﴾ أي الكل منقادون له لا يستعصي شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته ﴿بديع
 السموات والأرض﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾
 أي إذا أراد إيجاد شيء حصل من غير امتناع ولا مهلة فمتى أراد شيئاً وجد بلمح البصر ، فمراده نافذ وأمره
 لا يتخلف ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ وقال الذين لا يعلمون ﴿المراد بهم جهلة المشركين وهم
 كفار قريش﴾ لولا يكلمنا الله ﴿أي هلاً يكلمنا الله مشافهة أو بإنزال الوحي علينا بأنك رسوله﴾ أو تأتينا
 آية ﴿أي تكون برهاناً وحجة على صدق نبوتك ، قالوا ذلك استكباراً وعناداً﴾ كذلك قال الذين من قبلهم
 مثل قولهم ﴿أي مثل هذا الباطل الشنيع قال المكذبون من أسلافهم لرسولهم﴾ تشابهت قلوبهم ﴿أي
 قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى والعناد والتكذيب للأنبياء وفي هذا تسلية له ﷺ﴾ قد بينا الآيات لقوم
 يوقنون ﴿أي قد وضحنا الأدلة وأقمنا البراهين لقوم يطلبون الحق واليقين ، وكلها ناطقة بصدق ما جئت به
 ﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿أي أرسلناك يا محمد بالشرعية النيرة والدين القويم بشيراً للمؤمنين
 بجنات النعيم ، ونذيراً للكافرين من عذاب الجحيم﴾ ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم ﴿أي أنت لست
 مسئولاً عما عملوا به من قبلهم بعد أن بذلت الجهد في دعوتهم﴾ إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿ولن
 ترضىٰ عنك اليهود ولا النصرىٰ حتى تتبع ملتهم﴾ أي لن ترضىٰ عنك الطائفتان «اليهود والنصارى»
 حتى تترك الإسلام المنير وتتبع دينهم الأعوج ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ أي قل لهم يا محمد إن الإسلام
 هو الدين الحق وما عداه فهو ضلال ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم﴾ أي ولئن سايرتهم
 على آرائهم الزائفة وأهوائهم الفاسدة بعدما ظهر لك الحق بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة ﴿ما لك من
 الله من ولي ولا نصير﴾ أي ليس لك من يحفظك أو يدفع عنك عقابه الأليم ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾
 مبتدأ وهم طائفة من اليهود والنصارى أسلموا ﴿يتلونونه حق تلاوته﴾ أي يقرءونه قراءة حقة كما أنزل
 ﴿أولئك يؤمنون به﴾ هذا خبر المبتدأ أي فأولئك هم المؤمنون حقاً دون المعاندين المحرفين لكلام الله
 ﴿ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾ أي ومن كفر بالقرآن فقد خسر دينه وآخرته ﴿يا بني إسرائيل

هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١٢٦﴾ يٰٓدٰبِنٰى اِسْرَءٰىلَ اذْكُرُوْا نِعْمَتِىَ الَّتِىْ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَاِنِّىْ فَضَّلْتُكُمْ عَلٰى الْعٰلَمِیْنَ ﴿١٢٧﴾ وَاَتَّقُوا یَوْمًا لَا تَجْزِیْ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا یُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ یُنصُرُونَ ﴿١٢٨﴾

اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴿١٢٦﴾ أي اذكروا نعمي الكثيرة عليكم وعلى آبائكم ﴿١٢٧﴾ وأناي فضلتكم على العالمين ﴿١٢٨﴾ أي واذكروا تفضيلي لكم على سائر الأمم في زمانكم ﴿١٢٩﴾ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ، أي خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي لا تغني فيه نفس عن نفس ولا تدفع عنها من عذاب الله شيئاً ، لأن كل نفس بما كسبت رهينة ﴿١٣٠﴾ ولا يقبل منها عدل ﴿١٣١﴾ أي لا يقبل منها فداء ﴿١٣٢﴾ ولا تنفعها شفاعتة ﴿١٣٣﴾ أي لا تفيدها شفاعتة أحد لأنها كفرت بالله ﴿١٣٤﴾ فما تنفعهم شفاعتة الشافعين ﴿١٣٥﴾ ولا هم ينصرون ﴿١٣٦﴾ أي لا يدفع عنهم أحد عذاب الله ولا يجيرهم من سطوة عقابه .

البلاغَة : ١ - ﴿سبحانه﴾ جملة اعتراضية وفائدتها بيان بطلان دعوى الظالمين الذين زعموا لله الولد قال أبو السعود : وفيه من التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من « السَّحَّ » ومن جهة النقل إلى التفعيل « التسبيح » ومن جهة العدول إلى المصدر ما لا يخفى والمراد أنزهه تنزيهاً لا ثقاً به (١) .

٢ - ﴿كل له قانتون﴾ صيغة جمع العقلاء في ﴿قانتون﴾ للتغليب أي تغليب العقلاء على غير العقلاء ، والتغليب من الفنون المعدودة في محاسن البيان .

٣ - التعبير عن الكافرين والمكذبين بكلمة ﴿أصحاب الجحيم﴾ إيذاناً بأن أولئك المعاندين من المطبوع على قلوبهم فلا يرجى منهم الرجوع عن الكفر والضلال إلى الإيمان والإذعان .

٤ - إيراد الهدى معروفاً بأل في قوله ﴿هو الهدى﴾ مع اقترانه بضمير الفصل « هو » يفيد قصر الهداية على دين الله فهو من باب قصر الصفة على الموصوف فالإسلام هو الهدى كله وما عداه فهو هوى وعمى .

٥ - ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ هذا من باب التهيج والإلهاب .

تبنيّه : قال القرطبي : ﴿بديع السموات والأرض﴾ أي منشئها وموجدتها ومبدعها ومخترعها على غير حد ولا مثال ، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع ، ومنه أصحاب البدع ، وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام وفي البخاري « نعمت البدعة هذه » يعني قيام رمضان . . ثم قال : وكل بدعة صدرت من مخلوق فلا يخلو أن يكون لها أصل في الشرع أولاً ؟ فإن كان لها أصل فهي في حيز المدح ويعضده قول عمر « نعمت البدعة هذه » وإلا فهي في حيز الذم والابتكار وقد بين هذا الحديث الشريف (من سنن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها . . ومن سنن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها . .) (٢) .

قال الله تعالى ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . . . إِلَىٰ . . . إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾
من آية (١٢٤) إلى نهاية آية (١٢٩) .

المناسكة : بعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة نعمه على بني إسرائيل ، وبين كيف كانوا يقابلون النعم بالكفر والعناد ، ويأتون منكرات في الأقوال والأعمال ، وصل حديثهم بقصة إبراهيم أبي الأنبياء الذي يزعم اليهود والنصارى انتماءهم إليه ويقرّون بفضلهم ، ولو كانوا صادقين لوجب عليهم اتباع هذا النبي الكريم « محمد ﷺ » ودخولهم في دينه القويم لأنه أثر دعوة إبراهيم الخليل حين دعا لأهل الحرم ، ثم هو من ولد اسماعيل عليه السلام فكان أولى بالاتباع والتمسك بشريعته الحنيفية السمحة التي هي شريعة الخليل عليه السلام .

اللغة : ﴿ابتلى﴾ امتحن والابتلاء : الاختبار ﴿فأتمهن﴾ أتى بهن على التمام والكمال ﴿إماماً﴾ الإمام : القدوة الذي يؤتم به في الأقوال والأفعال ﴿مثابة﴾ مرجعاً من ثاب يثوب إذا رجع أي أنهم يترددون إليه لا يقضون منه وطهرهم قال الشاعر :

جُعِلَ الْبَيْتُ مَثَاباً لَهُمْ لَيْسَ مِنْهُ الدَّهْرُ يَقْضُونَ الْوَطْرُ

﴿وأمناً﴾ الأمن : السلامة من الخوف والطمأنينة في النفس والأهل ﴿وعهدنا﴾ أمرنا وأوحينا ﴿للطائفين﴾ جمع طائف من الطواف وهو الدوران حول الشيء ﴿والعاكفين﴾ جمع عاكف من العكوف وهي الإقامة على الشيء والملازمة له والمراد المقيمون في الحرم بقصد العبادة ﴿فأتمعه﴾ من التمتع وهو إعطاء الإنسان ما ينتفع به ﴿قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ ﴿القواعد﴾ جمع قاعدة وهي الأساس ﴿مناسكنا﴾ جمع منسك وهي العبادة والطاعة ﴿الحكمة﴾ العلم النافع المصحوب بالعمل والمراد بها السنة النبوية المطهرة ﴿ويذكهم﴾ من التذكية وهي في الأصل التنمية يقال : زكى الزرع إذا نما ثم استعملت في معنى الطهارة النفسية قال تعالى ﴿قد أفلح من زكّاه﴾ .

وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَهِ عَهْدِي
الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

التفسير : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي اذكر يا محمد حين اختبر الله عبده إبراهيم الخليل ، وكلفه بجملة من التكاليف الشرعية « أوامر ونواهي » فقام بهن خير قيام ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً﴾ أي قال له ربه إني جاعلك قدوة للناس ومناراً يهتدي بك الخلق ﴿قال ومن ذريتي﴾ أي قال إبراهيم واجعل يا رب أيضاً أئمة من ذريتي ﴿قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ أي لا ينال هذا الفضل العظيم أحد من الكافرين ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي واذكر حين جعلنا الكعبة المعظمة مرجعاً للناس يقبلون عليه من كل جانب ﴿وأمناً﴾ أي مكان آمن يأمن من لجأ إليه ، وذلك لما أودع الله في قلوب

وَاسْمَعِيلَ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا
 بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿١٢٦﴾ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ
 أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٧﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا
 تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا
 وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٩﴾ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
 وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٣٠﴾

العرب من تعظيمه وإجلاله ﴿واخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ أي وقلنا للناس اتخذوا من المقام - وهو
 الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم لبناء الكعبة مصلى أي صلوا عنده ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل﴾
 أي أوصينا وأمرنا إبراهيم وولده إسماعيل ﴿أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ أي أمرناهما
 بأن يصونا البيت من الأرجاس والأوثان ليكون معقلاً للطائفين حوله والمعتكفين الملازمين له والمصلين فيه ،
 فالآية جمعت أصناف العابدين في البيت الحرام : الطائفين ، المعتكفين ، والمصلين . . ثم أخبر تعالى عن
 دعوة الخليل إبراهيم فقال ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ أي اجعل هذا المكان - والمراد مكة
 المكرمة - بلداً ذا أمن يكون أهله في أمن واستقرار ﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم
 الآخر﴾ أي وارزق يا رب المؤمنين من أهله وسكانه من أنواع الثمرات ، ليقبلوا على طاعتك ويتفرغوا
 لعبادتك وخص بدعوته المؤمنين فقط قال تعالى جواباً له ﴿قال ومن كفر فامتعه قليلاً﴾ أي قال الله وأرزق من
 كفر أيضاً كما أرزق المؤمن ، أأخلق خلقاً ثم لا أرزقهم ؟ أما الكافر فامتعه في الدنيا متاعاً قليلاً وذلك مدة
 حياته فيها ﴿ثم اضطره إلى عذاب النار﴾ أي ثم ألجئه في الآخرة وأسوقه إلى عذاب النار فلا يجد عنها محيصاً
 ﴿وبئس المصير﴾ أي وبئس المآل والمرجع للكافر أن يكون مأواه نار جهنم . قاس الخليل الرزق على
 الإمامة فنبهه تعالى على أن الرزق رحمة دنيوية شاملة للبرِّ والفاجر بخلاف الإمامة فإنها خاصة بالخواص من
 المؤمنين ، ثم قال تعالى حكاية عن قصة بناء البيت العتيق ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت
 وإسماعيل﴾ أي واذكر يا محمد ذلك الأمر الغريب وهو رفع الرسولين العظيمين « إبراهيم وإسماعيل »
 قواعد البيت وقيامهما بوضع أساسه ورفع بنائه وهما يقولان بخضوع وإجلال ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت
 السميع العليم﴾ أي بينان ويدعوان بهذه الدعوات الكريمة قائلين يا ربنا تقبل منا أي إقبل منا عملنا هذا
 واجعله خالصاً لوجهك الكريم فإنك أنت السميع لدعائنا العليم بنياتنا ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾ أي
 اجعلنا خاضعين لك منقادين لحكمك ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ أي واجعل من ذريتنا من يسلم
 وجهه لك ويخضع لعظمتك ﴿وأرنا مناسكنا﴾ أي وعلمنا شرائع عبادتنا ومناسك حجنا ﴿وتب علينا

إنك أنت التواب الرحيم ﴿ أي تب علينا وارحمنا فإنك عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴾ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ﴿ أي ابعث في الأمة المسلمة رسولا من أنفسهم وهذا من جملة دعواتها المباركة فاستجاب الله الدعاء ببعثة السراج المنير محمد ﷺ ﴿ يتلو عليهم آياتك ﴾ أي يقرأ آيات القرآن ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ أي يعلمهم القرآن العظيم والسنة المطهرة ﴿ ويزكيهم ﴾ أي يطهرهم من رجس الشرك ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ العزيز الذي لا يُقهر ولا يُغلب ، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

البلاغَة : ١ - التعرض لعنوان الربوبية ﴿ ابتلى إبراهيم ربه ﴾ تشريف له عليه السلام وإيدان بأن ذلك الابتلاء تربية له وترشيح لأمر خطير ، والمعنى عامله سبحانه معاملة المختبر حيث كلفه بأوامر ونواهي يظهر بها استحقاقه للإمامة العظمى .

٢ - إيقاع المصدر موقع اسم الفاعل في قوله ﴿ وأمنأ ﴾ للمبالغة والإسناد مجازي أي أمنأ من دخله كقوله تعالى ﴿ ومن دخله كان أمنأ ﴾ وخير ما فسرت بالوارد .

٣ - إضافة البيت إلى ضمير الجلالة ﴿ وطهر بيتي ﴾ للتشريف والتعظيم .

٤ - قوله تعالى ﴿ وإذ يرفع إبراهيم ﴾ ورد التعبير بصيغة المضارع حكاية عن الماضي ولذلك وجه معروف في محاسن البيان وهو استحضار الصورة الماضية وكأنها مشاهدة بالعيان فكأن السامع ينظر ويرى إلى البنيان وهو يرتفع والبناء هو إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قال أبو السعود : وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة^(١) .

٥ - ﴿ التواب الرحيم ﴾ صيغتان من صيغ المبالغة لأن فعال وفعال من صيغ المبالغة .

الفوائد : الفائدة الأولى : تقديم المفعول في قوله ﴿ ابتلى إبراهيم ربه ﴾ واجب لاتصال الفاعل بضمير يعود على المفعول ، فلو قُدِّم الفاعل لزم عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة قال ابن مالك :

وشاع نحو خاف ربه عمر وشذ نحو زان نوره الشجر

الثانية : الاختبار في الأصل الامتحان بالشيء ليعلم صدق ذلك الشخص أو كذبه وهو مستحيل على الله لأنه عالم بذلك قبل الاختبار ، فالمراد أنه عامله معاملة المختبر ليظهر ذلك للخلق .

الثالثة : اختلف المفسرون في الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم عليه السلام وأصح هذه الأقوال ما روي عن ابن عباس أنه قال : « الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن : فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم ، ومحاجة نمرود في الله ، وصبره على قذفهم إياه في النار ليحرقوه ، والهجرة من وطنه حين أمر بالخروج عنهم ، وما ابتلى به من ذبح ابنه حين أمر بذبحه »^(٢) .

الرابعة : المراد من الإمامة في الآية الكريمة «الإمامة في الدين» وهي النبوة التي حرّمها الظالمون ، ولو كانت الإمامة الدنيوية لخالف ذلك الواقع إذ نالها كثير من الظالمين ، فظهر أن المراد الإمامة في الدين خاصة .

الخامسة : ذكر العلامة ابن القيم أن السرّ في تفضيل البيت العتيق ظاهر في انجذاب الأفتدة ، وهوى القلوب ومحبتها له ، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد ، فهم يثوبون إليه من جميع الأقطار ولا يقضون منه وطراً ، بل كلما ازدادوا له زيارة ، ازدادوا له اشتياقاً .

لا يرجع الطرف عنها حين يبصرها حتى يعود إليها الطرف مشتاقاً^(١)

قال الله تعالى : ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه . . . إلى . . . ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾
من آية (١٣٠) إلى نهاية آية (١٣٤)

المناسكة : لما ذكر تعالى مآثر الخليل إبراهيم عليه السلام ، وقصة بنائه للبيت العتيق منار التوحيد ، أعقبه بالتوبيخ الشديد للمخالفين لملة الخليل من اليهود والنصارى والمشركين ، وأكد أنه لا يرغب عن ملته إلا كل شقي سفيه الرأي ، خفيف العقل ، متبع لخطوات الشيطان .

اللفظ : ﴿سفه نفسه﴾ امتنها واستخفّ بها وأصل السفه : الخفة ومنه زمام سفيه أي خفيف ﴿اصطفيناه﴾ أي جعلناه صافياً من الأدناس مشتق من الصفوة ومعناه تخير الأصفى والمراد اصطفاؤه بالرسالة والخلة والإمامة العظمى ﴿وصى﴾ التوصية : إرشاد الغير إلى ما فيه صلاح وقربة ﴿شهداء﴾ جمع شاهد أي حاضر ﴿خلت﴾ مضت وانقرضت .

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ

التفسير : ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ أي لا يرغب عن دين إبراهيم وملته الواضحة الغراء إلا من استخفّ نفسه وامتنها ﴿ولقد اصطفيناه في الدنيا﴾ أي اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي من المقربين الذين لهم الدرجات العلى ﴿إذ قال له ربه أسلم﴾ أي استسلم لأمر ربك وأخلص نفسك له ﴿قال أسلمت لرب العالمين﴾ أي استسلمت لأمر الله وخضعت لحكمه ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب﴾ أي وصى الخليل أبناءه باتباع

يَبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٧﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٨﴾

ملته وكذلك يعقوب أوصى بملة إبراهيم ﴿يا بني إن الله اصطفى لكم الدين﴾ أي اختار لكم دين الإسلام ديناً وهذا حكاية لما قال إبراهيم ويعقوب لأبنائهما ﴿فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾ أي اثبتوا على الإسلام حتى يدرككم الموت وأنتم متمسكون به ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت﴾ أي بل أكنتم شهداء حين احتضر يعقوب وأشرف على الموت وأوصى بنيه باتباع ملة إبراهيم ﴿إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي﴾ ؟ أي أي شيء تعبدونه بعدي ؟ ﴿قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً﴾ أي لا نعبد إلا إلهاً واحداً هو الله رب العالمين إله آبائك وأجدادك السابقين ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي نحن له وحده مطيعون خاضعون ، والغرض تحقيق البراءة من الشرك ، قال تعالى مشيراً إلى تلك الذرية الطيبة ﴿تلك أمة قد خلت﴾ والإشارة إلى إبراهيم وبنيه أي تلك جماعة وجيل قد سلف ومضى ﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ أي لها ثواب ما كسبت ولكم ثواب ما كسبتم ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ أي لا تسألون يوم القيامة عما كانوا يعملون في الدنيا بل كل نفسٍ تتحمل وحدها تبعه ما اكتسبت من سوء .

البلاغَة : ١ - ﴿ومن يرغب﴾ استفهام يراد به الإنكار والتفريع ، وقع فيه معنى النفي أي لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا السفية والجملة واردة مورد التوبيخ للكافرين .

٢ - التأكيد بـ « إن » و « اللام » ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ لأنه لما كان إخباراً عن حالة مغيبة في الآخرة احتاجت إلى تأكيد بخلاف حال الدنيا فإنه معلوم ومشاهد .

٣ - ﴿إذ قال له ربه أسلم﴾ هو من باب الالتفات إذ السياق ﴿إذ قلنا﴾ والالتفات من محاسن البيان ، والتعرض بعنوان الربوبية ﴿ربه﴾ لإظهار مزيد اللطف والاعتناء بتربيته كما أن جواب إبراهيم جاء على هذا المنوال ﴿أسلمت لرب العالمين﴾ ولم يقل : أسلمت لك للإيدان بكمال قوة إسلامه وللإشارة إلى أن من كان رباً للعالمين لا يليق إلا أن يتلقى أمره بالخضوع وحسن الطاعة .

٤ - قوله ﴿آبائك﴾ شمل العم والأب والجد ، فالجد إبراهيم والعم إسماعيل والأب إسحاق وهو من باب « التغليب » وهو من المجازات المعهودة في فصيح الكلام .

فكائِدَة : قال أبو حيان : « كنى بالموت عن مقدماته لأنه إذا حضر الموت نفسه لا يقول المحتضر شيئاً ، وفي قوله ﴿حضر الموت﴾ كناية غريبة وهو أنه غائب ولا بد أن يقدم ولذلك يقال في الدعاء : واجعل الموت خير غائب نتظره »^(١) .

تنبية : ظاهر قوله تعالى ﴿ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾ النهي عن الموت إلا على هذه الحالة من الإسلام ، والمقصود الأمر بالثبات على الإسلام إلى حين الموت ، أي فاثبتوا على الإسلام ولا تفرقوه أبداً واستقيموا على محجته البيضاء حتى يدرككم الموت وأنتم على الإسلام الكامل كقولك لا تصل إلا وأنت خاشع .

قال الله تعالى : ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا .. إلى .. ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾
من آية (١٣٥) إلى نهاية آية (١٤١) .

المناسكة : لما ذكر تعالى أن ملة إبراهيم هي ملة الحنيفية السمحة ، وأن من لم يؤمن بها ورغب عنها فقد بلغ الذروة العليا في الجهالة والسفاهة ، ذكر تعالى ما عليه أهل الكتاب من الدعوى الباطلة من زعمهم أن الهداية في اتباع اليهودية والنصرانية ، ويبيّن أن تلك الدعوى لم تكن عن دليل أو شبهة بل هي مجرد جحود وعناد ، ثم عقب ذلك بأن الدين الحق هو في التمسك بالإسلام ، دين جميع الأنبياء والمرسلين .

اللغز : ﴿حنيفاً﴾ الحنيف : المائل عن الدين الباطل إلى الدين الحق ، والحنف المائل وبه سمي الأحنف لميل في إحدى قدميه قال الشاعر :

ولكنّا خلّقنا إذ خلّقنا حنيفاً ديننا عن كل دين^(١)
﴿الأسباط﴾ جمع سبط وهم حفدة يعقوب أي ذريات أبنائه وكانوا اثني عشر سبطاً وهم في بني إسرائيل كالقبائل في العرب ﴿شقاق﴾ الشقاق : المخالفة والعداوة وأصله من الشق وهو الجانب أي صار هذا في شق وهذا في شق ﴿فسيكفيهم﴾ من الكفاية بمعنى الوقاية ﴿صبغة الله﴾ الصبغة مأخوذة من الصبغ وهو تغيير الشيء بلون من الألوان والمراد بها الدين ﴿أتحاجوننا﴾ أتجادلوننا من المحاجة وهي المجادلة ﴿مخلصون﴾ الإخلاص أن يقصد بالعمل وجه الله وحده .

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤١﴾ قُولُوا آمَنَّا

التفسير : ﴿وقالوا كانوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ أي قال اليهود كونوا على ملتنا يهوداً تهتدوا وقال النصارى كونوا نصارى تهتدوا فكل من الفريقين يدعو إلى دينه المعوج ﴿قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ أي قل لهم يا محمد بل نتبع ملة الحنيفية السمحة وهي ملة إبراهيم حال كونه مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيم وما كان إبراهيم من المشركين بل كان مؤمناً موحداً وفيه تعريض بأهل الكتاب وإيدان بأن ما هم عليه إنما هو شرك وضلال . ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ أي قولوا أيها

بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ لَأُنْفِرُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٤٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥١﴾

المؤمنون آمنوا بالله وما أنزل إلينا من القرآن العظيم ﴿ وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ﴾ أي وآمنوا بما أنزل إلى إبراهيم من الصحف والأحكام التي كان الأنبياء متعبدين بها وكذلك حفدة إبراهيم وإسحاق وهم الأسباط حيث كانت النبوة فيهم ﴿ وما أوتي موسى وعيسى ﴾ أي من التوراة والإنجيل ﴿ وما أوتي النبيون من ربهم ﴾ أي ونؤ من بما أنزل على غيرهم من الأنبياء جميعاً ونصدق بما جاءوا به من عند الله من الآيات البينات والمعجزات الباهرات ﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ أي لا تؤمن بالبعث ونكفر بالبعث كما فعلت اليهود والنصارى ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أي منقادون لأمر الله خاضعون لحكمه ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴾ أي إن آمن أهل الكتاب بنفس ما آمنتم به معشر المؤمنين فقد اهتدوا إلى الحق كما اهتديتم ﴿ وإن تولوا فإنما هم في شقاق ﴾ أي وإن أعرضوا عن الإيمان بما دعوتهم إليه فاعلم أنهم إنما يريدون عداوتك وخلافك ، وليسوا من طلب الحق في شيء ﴿ فسيفيكهم الله ﴾ أي سيفيك يا محمد شرهم وأذاهم ويعصمك منهم ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أي هو تعالى يسمع ما ينطقون به ويعلم ما يضمرونه في قلوبهم من المكر والشر ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ أي ما نحن عليه من الإيمان هودين الله الذي صبغنا به وفطرنا عليه فظهر أثره علينا كما يظهر الصبغ في الثوب ، ولا أحد أحسن من الله صبغة أي ديناً ﴿ ونحن له عابدون ﴾ أي ونحن نعبد له جل وعلا ولا نعبد أحداً سواه ﴿ قل أتُحاجوننا في الله ﴾ أي أتُجادلوننا في شأن الله زاعمين أنكم أبناء الله وأحبواؤه ، وأن الأنبياء منكم دون غيركم ؟ ﴿ وهو ربنا وربكم ﴾ أي رب الجميع على السواء وكلنا عبده ﴿ ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم لا يتحمل أحد وزر غيره ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ أي قد أخلصنا الدين والعمل لله ﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ﴾ ؟ أي أم تدعون يا معشر أهل الكتاب أن هؤلاء الرسل وأحفادهم كانوا يهوداً أو نصارى ﴿ قل

أأنتم أعلم أم الله ﴿ أي هل أنتم أعلم بديانتهم أم الله ؟ وقد شهد الله لهم بجملة الإسلام وبرأهم من اليهودية والنصرانية ﴾ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴿ فكيف تزعمون أنهم على دينكم ؟ ﴾ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴿ أي لا أحد أظلم ممن أخفى وكنتم ما اشتملت عليه آيات التوراة والإنجيل من البشارة برسول الله ، أو لا أحد أظلم ممن كتم ما أخبر الباري عنه من أن الأنبياء الكرام كانوا على الإسلام ﴾ وما الله بغافل عما تعملون ﴿ أي مطلع على أعمالهم ومجازيهم عليها وفيه وعيد شديد ﴾ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴿ كررها لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف ، أي إذا كان أولئك الأنبياء على فضلهم وجلالة قدرهم يجازون بكسبهم فأنتم أحرى ، وقد تقدم تفسيرها فأغنى عن الإعادة .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي قال اليهود كونوا يهوداً وقال النصارى كونوا نصارى ، وليس المعنى أن الفريقين قالوا ذلك لأن كل فريق يعدُّ دين الآخر باطلاً .

٢ - ﴿ فسيكفيكم الله ﴾ فيه إيجاز ظاهر أي يكفيك الله شرهم ، وتصدير الفعل بالسين دون سوف مشعر بأن ظهوره عليهم واقع في زمن قريب .

٣ - ﴿ السميع العليم ﴾ من صيغ المبالغة ومعناه الذي أحاط سمعه وعلمه بجميع الأشياء .

٤ - ﴿ صبغة الله ﴾ سمي الدين صبغةً بطريق الاستعارة حيث تظهر سمته على المؤمن كما يظهر أثر الصبغ في الثوب^(١) .

٥ - ﴿ أتجادلوننا في الله ﴾ الاستفهام وارد على جهة التوبيخ والتقريع .

الفَوَائِد : الفائدة الأولى : تكرر ورود هذه الآية في مواطن من القرآن ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ قال أبو حيان : ولا تأتي الجملة إلا عقب ارتكاب معصية فتجيء متضمنة وعيداً ومعلمة أن الله لا يترك أمرهم سدى^(٢) .

الثانية : قال ابن عباس : إن النصارى كان إذا ولد لأحدهم ولد فأتى عليه سبعة أيام صبغوه في ماءٍ لهم يقال له : المعمودي ليطهره بذلك ، ويقولون هذا طهور مكان الختان فإذا فعلوا ذلك صار نصرانياً حقاً فأنزل الله هذه الآية^(٣) .

الثالثة : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ : (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا) رواه البخاري .

قال الله تعالى : ﴿ سيقول السفهاء من الناس . . إلى . . وما الله بغافل عما يعملون ﴾

من آية (١٤٤) إلى نهاية آية (١٤٥).

المناسكة : زعم اليهود والنصارى أن إبراهيم والأنبياء معه كانوا يهوداً و نصارى وقد كانت قبلة الأنبياء بيت المقدس وكان صلوات الله عليه وهو بمكة يستقبل بيت المقدس فلما أمر ﷺ بالتوجه إلى الكعبة المشرفة طعن اليهود في رسالته واتخذوا ذلك ذريعة للنيل من الإسلام وقالوا : لقد اشتاق محمد إلى مولده وعن قريب يرجع إلى دين قومه ، فأخبر الله رسوله الكريم بما سيقوله السفهاء ولقنه الحجّة الدامغة ليردّ عليهم ، ويوطن نفسه على تحمل الأذى منهم عند مفاجأة المكروه ، وكان هذا الإخبار قبل تحويل القبلة معجزة له عليه السلام .

اللغات : ﴿ السفهاء ﴾ جمع سفيه وهو الجاهل ضعيف الرأي ، قليل المعرفة بالمنافع والمضار ، وأصل السفه الخفة والرقّة من قولهم ثوب سفيه إذا كان خفيف النسج ﴿ ولأهم ﴾ صرفهم يقال : ولّى عن الشيء وتولّى عنه أي انصرف ﴿ وسطاً ﴾ قال الطبري : الوسط في كلام العرب : الخيار وقيل : العدل (١) ، وأصل هذا أن خير الأشياء أوساطها وأن الغلو والتقصير مذمومان ﴿ عقبه ﴾ تشية عقب وهو مؤخر القدم ﴿ كبيرة ﴾ شاقة وثقيلة ﴿ شطر ﴾ الشطر في اللغة يأتي بمعنى الجهة كقول الشاعر : تعدو بنا شطر نجد وهي عاقدة ، ويأتي بمعنى النصف ومنه الحديث (الطهور شطر الإيمان) .

سبب النزول : عن البراء قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان رسول الله ﷺ يجب أن يتوجه نحو الكعبة فأنزل الله تعالى ﴿ قد نرى تقلّب وجهك في السماء ﴾ الآية فقال السفهاء من الناس - وهم اليهود - ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ قال تعالى ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾ (٢) إلى آخر الآية ، أخرجه البخاري .

* سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٤﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا

التفسير : ﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾ أي سيقول ضعفاء العقول من الناس ﴿ ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ أي ما صرفهم وحولهم عن القبلة التي كانوا يصلون إليها وهي بيت المقدس ، قبلة المرسلين من قبلهم ؟ ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾ أي قل لهم يا محمد الجهات كلها لله له المشرق والمغرب فأينما ولينا وجوهنا فهناك وجه الله ﴿ يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ أي يهدي عباده المؤمنين إلى الطريق القويم الموصل لسعادة الدارين ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ أي كما هديناكم إلى الإسلام كذلك جعلناكم يا معشر المؤمنين أمة عدولاً خياراً ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم

وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٧﴾ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾

شهيذاً ﴿١﴾ أي لتشهدوا على الأمم يوم القيامة أن رسلهم بلغتهم ، ويشهد عليكم الرسول أنه بلغكم ﴿٢﴾ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها ﴿٣﴾ أي وما أمرناك بالتوجه إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ﴿٤﴾ إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴿٥﴾ أي إلا لنختبر إيمان الناس فنعلم من يصدق الرسول ، ممن يشكك في الدين ويرجع إلى الكفر لضعف يقينه ﴿٦﴾ وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴿٧﴾ أي وإن كان هذا التحويل لشاقاً وصعباً إلا على الذين هداهم الله ﴿٨﴾ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴿٩﴾ أي ما صح ولا استقام أن يضيع الله صلاتكم إلى بيت المقدس بل يثيبكم عليها ، وذلك حين سأله ﷺ عن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة فنزلت ، وقوله تعالى ﴿١٠﴾ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴿١١﴾ تعليل للحكم أي أنه تعالى عظيم الرحمة بعباده لا يضيع أعمالهم الصالحة التي فعلوها ﴿١٢﴾ قد نرى تقلب وجهك في السماء ﴿١٣﴾ كثيراً ما رأينا تردّد بصرك يا محمد جهة السماء تشوقاً لتحويل القبلة ﴿١٤﴾ فلنولينك قبلة ترضاها ﴿١٥﴾ أي فلنوجهنك إلى قبلة تحبها ، - وهي الكعبة - قبلة أبيك إبراهيم ﴿١٦﴾ فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴿١٧﴾ أي توجه في صلاتك نحو الكعبة المعظمة ﴿١٨﴾ وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴿١٩﴾ أي وحيثما كنتم أيها المؤمنون فتوجهوا في صلاتكم نحو الكعبة أيضاً ﴿٢٠﴾ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ﴿٢١﴾ أي إن اليهود والنصارى ليعلمون أن هذا التحويل للقبلة حق من عند الله ولكنهم يفتنون الناس بإلقاء الشبهات ﴿٢٢﴾ وما الله بغافل عما يعملون ﴿٢٣﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وسيجازيهم عليها ، وفيه وعيد وتهديد لهم .

البلاغَة : ١ - في قوله ﴿١٠﴾ ينقلب على عقبيه ﴿١١﴾ استعارة تمثيلية حيث مثل لمن يرتد عن دينه بمن ينقلب على عقبيه أفاده الإمام الفخر .

٢ - ﴿١٢﴾ لرءوف رحيم ﴿١٣﴾ الرأفة : شدة الرحمة وقدم الأبلغ مراعاة للفاصلة وهي الميم في قوله ﴿١٤﴾ صراط مستقيم ﴿١٥﴾ وقوله ﴿١٦﴾ وكلاهما من صيغ المبالغة .

٣ - ﴿١٦﴾ فولّ وجهك ﴿١٧﴾ أطلق الوجه وأراد به الذات كقوله ﴿١٨﴾ ويبقى وجه ربك ﴿١٩﴾ وهذا النوع يسمى « المجاز المرسل » من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل .

الفوائد : الأولى : أخرج البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : (يدعى نوح عليه

السلام يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يا رب فيقول : هل بلغت ؟ فيقول نعم فيقال لأمته هل بلغكم ؟ فيقولون ما جاءنا من نذير فيقول من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ ذلك قوله عز وجل ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ .

الثانية : سمي الله تعالى الصلاة « إيماناً » في قوله ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي صلاتكم لأن الإيمان لا يتم إلا بها ، ولأنها تشتمل على نية وقول وعمل .

الثالثة : في التعبير عن الكعبة بالمسجد الحرام إشارة إلى أن الواجب مراعاة الجهة دون العين ، لأن في إصابة عين الكعبة من البعيد حرماً عظيماً على الناس .

قال الله تعالى : ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك . . إلى . . ولعلكم تهتدون﴾ من آية (١٤٥) إلى نهاية آية (١٥٠) .

المناسكة : لما ذكر تعالى ما قاله السفهاء من اليهود عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المعظمة ، وأمر رسوله بأن يتوجه في صلاته نحو البيت العتيق ، ذكر في هذه الآيات أن أهل الكتاب قد انتهوا في العناد والمكابرة إلى درجة اليأس من إسلامهم ، فإنهم ما تركوا قبلكم لشبهة عارضة تزيلها الحجة ، وإنما خالفوك عناداً واستكباراً ، وفي ذلك تسلية له ﷺ من جحود وتكذيب أهل الكتاب .

اللغز : ﴿آية﴾ الآية : الحجة والعلامة ﴿أهواءهم﴾ جمع هوى مقصور ، وهوى النفس : ما تحبه وتميل إليه ﴿الممترين﴾ الامتراء : الشك ، امترى في الشيء شك فيه ومنه المراء والمريية ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه﴾ أي شك ﴿وجهة﴾ قال الفراء : وجهة وجهة ووجه بمعنى واحد والمراد بها القبلة ﴿هو مواليها﴾ أي هو مواليها وجهه فاستغنى عن ذكر الوجه قال الفراء : أي مستقبلها ﴿فاستبقوا﴾ أي بادروا وسارعوا ﴿الخيرات﴾ الأعمال الصالحة جمع خيرة ﴿تحشوهم﴾ تخافوهم والخشية : الخوف .

ج
وَلِئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ

التفسير : ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلكم﴾ أي والله لئن جئت اليهود والنصارى بكل معجزة على صدقك في أمر القبلة ما اتبعوك يا محمد ولا صلوا إلى قبلكم ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ أي ولست أنت بمتبع قبلتهم بعد أن حولك الله عنها ، وهذا لقطع أطماهم الفارغة حيث قالت اليهود : لو ثبت على قبلتنا لكننا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننظره تفريراً له عليه السلام ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ أي إن النصارى لا يتبعون قبلة اليهود ، كما أن اليهود لا يتبعون قبلة النصارى ، لما بينهم من العداوة والخلاف الشديد مع أن الكل من بني إسرائيل ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من

وَلِينَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُكْتُمِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلَاهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُرِّ اللَّهِ جَمِيعًا إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمِ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

بعد ما جاءك من العلم ﴿١٤٥﴾ أي ولئن فرض وقدّر أنك سايرتهم على أهوائهم ، واتبعت ما يهونه ويجبونه بعد وضوح البرهان الذي جاءك بطريق الوحي ﴿١٤٦﴾ إنك إذا لمن الظالمين ﴿١٤٧﴾ أي تكون ممن ارتكب أفحش الظلم ، والكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير وإلا فحاشاه ﷺ من اتباع أهواء الكفرة المجرمين ، وهو من باب التهيج للثبات على الحق . ﴿١٤٨﴾ الذين آتيناهم الكتاب ﴿١٤٩﴾ أي اليهود والنصارى ﴿١٤٩﴾ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴿١٤٩﴾ أي يعرفون محمداً معرفة لا امتراء فيها كما يعرف الواحد منهم ولده معرفة يقين ﴿١٤٩﴾ وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴿١٤٩﴾ أي وإن جماعة منهم - وهم رؤساؤهم وأخبارهم - ليخفون الحق ولا يعلنونه ويخفون صفة النبي مع أنه منعوت لديهم بأظهر النعوت ﴿١٤٩﴾ الذي يجذبونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴿١٤٩﴾ فهم يكتمون أوصافه عن علم وعرفان ﴿١٤٩﴾ الحق من ربك فلا تكونن من الممتريين ﴿١٤٩﴾ أي ما أوحاه الله إليك يا محمد من أمر القبلة والدين هو الحق فلا تكونن من الشاكين ، والخطاب للرسول والمراد أمته ﴿١٤٩﴾ ولكل وجهه هو موليها فاستبقوا الخيرات ﴿١٤٩﴾ أي لكل أمة من الأمم قبله هو موليها وجهه أي مائل إليها بوجهه فبادروا وسارعوا أيها المؤمنون إلى فعل الخيرات ﴿١٤٩﴾ أي تَكُونُوا بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا ﴿١٤٩﴾ أي في أي موضع تكونوا من أعماق الأرض أو قُلل الجبال يجمعكم الله للحساب فيفصل بين المحق والمبطل ﴿١٤٩﴾ إن الله على كل شيء قدير ﴿١٤٩﴾ أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسامكم وأبدانكم ﴿١٤٩﴾ ومن حيث خرجت فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴿١٤٩﴾ أي من أي مكان خرجت إليه للسفر فتوجه بوجهك في صلاتك جهة الكعبة ﴿١٤٩﴾ وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون ﴿١٤٩﴾ تقدم تفسيره وكرّره لبيان تساوي حكم السفر والحضر ﴿١٤٩﴾ ومن حيث خرجت فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴿١٤٩﴾ هذا أمر ثالث باستقبال الكعبة المشرفة ، وفائدة هذا التكرار أن القبلة كان أول ما نسخ من الأحكام الشرعية ، فدعت الحاجة إلى التكرار لأجل التأكيد والتقرير وإزالة الشبهة قال تعالى ﴿١٤٩﴾ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴿١٤٩﴾ أي عرفكم أمر القبلة لئلا يحتج عليكم اليهود فيقولوا : يحدد ديننا ويتبع قبلتنا

فتكون لهم حجة عليكم أو كقول المشركين : يدعي محمد ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿ إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ﴾ أي إلا الظلمة المعاندين الذين لا يقبلون أيّ تعليل فلا تخافوهم وخافوني ﴿ ولأنتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون ﴾ أي أتمّ فضلي عليكم بالهداية إلى قبلة أبيكم إبراهيم والتوفيق لسعادة الدارين .

البلاغَة : ١ - وضع اسم الموصول موضع الضمير في قوله ﴿ أوتوا الكتاب ﴾ للإيدان بكمال سوء حالهم من العناد .

٢ - ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ هذا من باب التهيج والإلهاب للثبات على الحق .

٣ - ﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ هذه الجملة أبلغ في النفي من قوله ﴿ ما تبعوا قبلك ﴾ لأنها جملة اسمية أولاً ولتأكيد نفيها بالباء ثانياً ذكره صاحب الفتوحات الإلهية .

٤ - ﴿ كما يعرفون أبناءهم ﴾ فيه تشبيه « مرسل مفصل » أي يعرفون محمداً معرفة واضحة كمعرفة أبنائهم الذين من أصلابهم .

الضوابط : الأولى : روي أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ولست أشك فيه أنه نبي ، وأما ولدي فلا أدري ما كان من أمه فلعلها خانت ، فقبل عمر رأسه^(١) .

الثانية : توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه على غيرهم ، ولهذا زاد الله في ذم أهل الكتاب بقوله ﴿ وهم يعلمون ﴾ فإنه ليس المرتكب ذنباً عن جهلٍ كمن يرتكبه عن علم .

الثالثة : تكرر الأمر باستقبال الكعبة ثلاث مرات قال القرطبي : والحكمة في هذا التكرار أن الأول لمن هو بمكة ، والثاني لمن هو ببقية الأمصار ، والثالث لمن خرج في الأسفار .^(٢)

قال الله تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم .. إلى .. وأولئك هم المهتدون ﴾ من آية (١٥١) إلى نهاية آية (١٥٧) .

المناسِبة : بدأت الآيات الكريمة بمخاطبة المؤمنين ، وتذكيرهم بنعمة الله العظمى عليهم ، ببعثة خاتم المرسلين ﷺ ، بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن بني إسرائيل ، وذكرت بالتفصيل نعم الله عليهم التي قابلوها بالجحود والكفران فيما يزيد على ثلث السورة الكريمة ، وقد عدّد القرآن الكريم جرائمهم ليعتبر ويتعظ بها المؤمنون ، ولما انتهى الحديث عن اليهود بعد ذلك البيان الواضح جاء

(١) مختصر ابن كثير ١/١٤٠ . ومحاسن التأويل ٢/٣٠٥ . (٢) القرطبي ٢/١٦٨ .

دور التذكير للمؤمنين بالنعم الجليلة والتشريعات الحكيمة التي بها سعادتهم في الدارين .

الغفر: ﴿الكتاب﴾ القرآن العظيم ﴿الحكمة﴾ السنة النبوية ﴿فاذكروني﴾ أصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور ، وسُمِّيَ الذكر باللسان ذكراً لأنه علامة على الذكر القلبي ﴿ولنبلونكم﴾ أصل البلاء المحنة ، ثم قد يكون بالخير أو بالشر ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ ﴿مصيبة﴾ المصيبة : كل ما يؤدي المؤمن ويصيبه في نفسه أو ماله أو ولده ﴿صلوات﴾ الأصل في الصلاة الدعاء وهي من الله بمعنى الرحمة ومن الملائكة بمعنى الاستغفار .

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥٦﴾ فَادْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٨﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَمُوتٌ بَلْ ءَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٩﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٦٠﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٦١﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٦٢﴾

النفيس: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم﴾ الكلام متعلق بما سبق في قوله ﴿ولأنتم نعمتي﴾ والمعنى كما أتممت عليكم نعمتي كذلك أرسلت فيكم رسولاً منكم ﴿يتلوا عليكم آياتنا﴾ أي يقرأ عليكم القرآن ﴿ويزكيكم﴾ أي يطهركم من الشرك وقبيح الفعال ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ أي يعلمكم أحكام الكتاب المجيد ، والسنة النبوية المطهرة ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ أي يعلمكم من أمور الدنيا والدين الشيء الكثير الذي لم تكونوا تعلمونه ﴿فاذكروني أذكركم﴾ أي اذكروني بالعبادة والطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة ﴿واشكروا لي ولا تكفروا﴾ أي اشكروا نعمتي عليكم ولا تكفروا بالجحود والعصيان ، روي أن موسى عليه السلام قال : يا رب كيف أشكرك ؟ قال له ربه : «تذكرني ولا تنساني ، فإذا ذكرتني فقد شكرتني ، وإذا نسيتني فقد كفرتني»^(١) ثم نادى تبارك وتعالى عباده المؤمنين بلفظ الإيمان ليستنهض همهم إلى امتثال الأوامر الإلهية ، وهو النداء الثاني الذي جاء في هذه السورة الكريمة فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾ أي استعينوا على أمور دنياكم وآخرتكم بالصبر والصلاة ، فبالصبر تنالون كل فضيلة ، وبالصلاة تنتهون عن كل رذيلة ﴿إن الله مع الصابرين﴾ أي معهم بالنصر والمعونة والحفظ والتأييد ﴿ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله ءموات﴾ أي لا تقولوا للشهداء إنهم

أموات ﴿بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ أي بل هم أحياء عند ربهم يرزقون ولكن لا تشعرون بذلك لأنهم في حياة برزخية أسمى من هذه الحياة ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾ أي ولنختبرنكم بشيء يسير من ألوان البلاء مثل الخوف والجوع ، وذهاب بعض الأموال ، وموت بعض الأحباب ، وضياح بعض الزروع والثمار ﴿وبشر الصابرين﴾ أي بشر الصابرين على المصائب والبلايا بجنات النعيم ثم بيّن تعالى تعريف الصابرين بقوله ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة﴾ أي نزل بهم كرب أو بلاء أو مكروه ﴿قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ أي استرجعوا وأقروا بأنهم عبيد لله يفعل بهم ما يشاء ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر لهم ثناء وتمجيد ورحمة من الله ، وهم المهتدون إلى طريق السعادة .

البَلَاغَةُ : ١ - بين كلمتي ﴿أرسلنا﴾ و﴿رسولاً﴾ جناس الاشتقاق وهو من المحسنات البديعية .

٢ - قوله ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ بعد قوله ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ هو من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول ويسمى هذا في البلاغة بـ (الإطناب) .

٣ - ﴿أموات بل أحياء﴾ فيه إيجاز بالحذف أي لا تقولوا هم أموات بل هم أحياء (وبينهما طباق)

٤ - التنكير في قوله ﴿بشيء من الخوف﴾ للتقليل أي بشيء قليل .

٥ - ﴿صلوات من ربهم ورحمة﴾ التنوين فيها للتفخيم ، والتعرض بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم ﴿ربهم﴾ لإظهار مزيد العناية بهم .

٦ - ﴿هم المهتدون﴾ صيغة قصر وهو من نوع قصر الصفة على الموصوف .

الفَوَائِد : الأولى : روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : « ما أصابتنى مصيبة إلا وجدتُ فيها ثلاث نعم : الأولى : أنها لم تكن في ديني ، الثانية : أنها لم تكن أعظم مما كانت ، الثالثة : أن الله يجازي عليها الجزاء الكبير ثم تلا قوله تعالى : ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ .»

الثانية : قال ﷺ (إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم ، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون نعم ، فيقول : فماذا قال عبدي ؟ فيقولون حمدك واسترجع ، فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد) .^(١)

قال الله تعالى : ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله . . . إلى . . . ولا هم ينظرون﴾
من آية (١٥٨) إلى نهاية آية (١٦٢) .

المناسكة : لما أمر تعالى بذكره وشكره ودعا المؤمنين إلى الاستعانة بالصبر والصلاة ، أعقب ذلك بيان أهمية الحج وأنه من شعائر دين الله ، ثم نبه تعالى على وجوب نشر العلم وعدم كتمان ، وذكر خطر كتمان ما أنزل الله من البيّنات والهدى ، كما فعل اليهود والنصارى في كتبهم فاستحقوا اللعنة والغضب والدمار .

اللغة : ﴿ شعائر الله ﴾ جمع شعيرة وهي في اللغة : العلامة ومنه الشّعار ، وأشعر الهدى جعل له علامة ليعرف بها ، والشعائر : كل ما تعبدنا الله به من أمور الدين كالطواف والسعي والأذان ونحوه .
 ﴿ حج ﴾ الحج في اللغة : القصد ، وفي الشرع : قصد البيت العتيق لأداء المناسك من الطواف والسعي
 ﴿ اعتمر ﴾ العمرة في اللغة : الزيارة ثم صار علماً لزيارة البيت للنسك ﴿ جناح ﴾ الجناح : الميل إلى الإثم وقيل : هو الإثم نفسه سمي به لأنه ميل إلى الباطل يقال : جنح إلى كذا إذا مال قال ابن الأثير وأينا ورد فمعناه الإثم والميل ﴿ يكتمون ﴾ الكتمان : الإخفاء والستر ﴿ ينظرون ﴾ يمهلون .

إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرَوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ^ط فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ لَكُمْ أَلَّا تَتُوبُوا

التفسير : ﴿ إن الصفا والمروة ﴾ اسم جبلين بمقربة من البيت الحرام ﴿ من شعائر الله ﴾ أي من أعلام دينه ومناسكه التي تعبدنا الله بها ﴿ فمن حج البيت أو اعتمر ﴾ أي من قصد بيت الله للحج أو قصده للزيارة بأحد النسكين «الحج» أو «العمرة» ﴿ فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ أي لا حرج ولا إثم عليه أن يسعى بينهما ، فإذا كان المشركون يسعون بينهما ويتمسحون بالأصنام ، فاسعوا أنتم لله رب العالمين ، ولا تتركوا الطواف بينهما خشية التشبه بالمشركين ﴿ ومن تطوع خيراً ﴾ أي من تطوع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته المفروضة عليه ، أو فعل خيراً فرضاً كان أو نفلًا ﴿ فإن الله شاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أي إنه سبحانه شاكِرٌ له طاعته ومجازيه عليها خير الجزاء ، لأنه عليم بكل ما يصدر من عباده من الأعمال فلا يضيع عنده أجر المحسنين ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى ﴾ أي يخفون ما أنزلناه من الآيات البيّنات ، والدلائل الواضحات التي تدل على صدق محمد ﷺ ﴿ من بعد ما بيناه للناس في الكتاب ﴾ أي من بعد توضيحه لهم في التوراة أو في الكتب السماوية كقوله تعالى ﴿ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ ﴿ أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ أي أولئك الموصوفون بقبیح الأعمال ، الكاتمون لأوصاف الرسول ، المحرفون لأحكام التوراة يلعنهم الله فيبعدهم من رحمته ، وتلعنهم الملائكة والمؤمنون ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم ﴾ أي إلا الذين ندموا على ما صنعوا ، وأصلحوا ما أفسدوه بالكتمان ، وبينوا للناس حقيقة ما أنزل الله فأولئك يقبل الله توبتهم ويشملهم برحمته ﴿ وأنا

عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٠٢﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٠٣﴾

التواب الرحيم ﴿١٠١﴾ أي كثير التوبة على عبادي، واسع الرحمة بهم، أصفح عما فرط منهم من السيئات ﴿١٠٢﴾ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار ﴿١٠٣﴾ أي كفروا بالله واستمروا على الكفر حتى داهمهم الموت وهم على تلك الحالة ﴿١٠٤﴾ أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴿١٠٥﴾ أي يلعنهم الله وملائكته وأهل الأرض جميعاً، حتى الكفار فإنهم يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً ﴿١٠٦﴾ خالدين فيها ﴿١٠٧﴾ أي خالدين في النار - وفي إضمارها تفخيم لشأنها - ﴿١٠٨﴾ لا يخفف عنهم العذاب ﴿١٠٩﴾ أي إن عذابهم في جهنم دائم لا ينقطع لا يخف عنهم طرفة عين ﴿١١٠﴾ لا يفتّر عنهم وهم فيه ملبسون ﴿١١١﴾ ولا هم يُنظرون ﴿١١٢﴾ أي ولا يمهلون أو يؤجلون بل يلاقيهم العذاب حال مفارقة الحياة الدنيا .

سَبَبُ النَّزُولِ : عن أنس رضي الله عنه أنه سئل عن الصفا والمروة فقال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾^(١) .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿من شعائر الله﴾ أي من شعائر دين الله ففيه إيجاز بالحذف .

٢ - ﴿شاكر عليهم﴾ أي يثيب على الطاعة قال أبو السعود : عبّر عن ذلك بالشكر مبالغة في الإحسان على العباد فأطلق الشكر وأراد به الجزاء بطريق المجاز .

٣ - ﴿يلعنهم الله﴾ فيه التفات من ضمير المتكلم إلى الغيبة إذ الأصل « نلعنهم » ولكن في إظهار الاسم الجليل ﴿يلعنهم الله﴾ إلقاء الروعة والمهابة في القلب .

٤ - ﴿يلعنهم اللاعنون﴾ فيه جناس الاشتقاق . وهو من المحسنات البديعية .

٥ - ﴿خالدین فيها﴾ أي في اللعنة أو في النار وأضمرت النار تفخيماً لشأنها وتهويلاً لأمرها .

٦ - ﴿ولا هم ينظرون﴾ إثارة الجملة الإسمية لإفادة دوام النفي واستمراره .

الفَوَاسِدُ : الأولى : كان على الصفا صنم يقال له « إساف » وعلى المروة صنم يقال له « نائلة » فكان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما فخشي المسلمون أن يتشبهوا بأهل الجاهلية ولذلك تخرجوا من الطواف لهذا السبب فنزلت الآية تبين أنهما من شعائر الله وأنه لا حرج عليهم في السعي بينهما فالمسلمون يسعون لله لا للأصنام .

الثانية : الشكر معناه مقابلة النعمة والإحسان بالثناء والعرفان ، وهذا المعنى محال على الله إذ ليس

لأحد عنده يدُ ونعمة حتى يشكره عليها ولهذا حملة العلماء على الثواب والجزاء أي أنه تعالى يثيبه ولا يضيع أجر العاملين أقول: والصحيح ما عليه السلف من إثبات الصفات كما وردت، فهو شكر يليق بجلاله وكماله.

قال الله تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . . . إلى . . . وما هم بخارجين من النار ﴾ من آية (١٦٣) إلى نهاية (١٦٧).

المناسكة : لما ذكر تعالى حال الكافرين الجاحدين لآيات الله وما لهم من العذاب والنكال في الآخرة ، ذكر هنا أدلة القدرة والوحدانية ، وأتى بالبراهين على وجود الخالق الحكيم ، فبدأ بذكر العالم العلوي ثم بالعالم السفلي ، ثم بتعاقب الليل والنهار ، ثم بالسفن التي تمخر عباب البحار ، ثم بالأقطار التي فيها حياة الزروع والنفوس ، ثم بما بث في الأرض من أنواع الحيوانات العجيبة ، ثم بالرياح والسحب التي سخرها الله لفائدة الإنسان وختم ذلك بالأمر بالتفكير في بدائع صنع الله ، وإعمال العقل في جميل خلقه ، ليستدل العاقل بالأثر على وجود المؤثر ، وبالصنعة على عظمة الخالق المدبر الحكيم .

اللغة : ﴿ وإلهكم ﴾ الإله : المعبود بحقٍ أو باطل والمراد به هنا المعبود بحق وهو الله رب العالمين ﴿ الفلك ﴾ ما عظم من السفن وهو اسم يطلق على المفرد والجمع ﴿ وبث ﴾ فرَّق ونشر ومنه ﴿ كالفراش المبثوث ﴾ ﴿ دابة ﴾ الدابة في اللغة : كل ما يدب على الأرض من إنسان وحيوان مأخوذ من الدبيب وهو المشي رويداً وقد خصّه العرف بالحيوان ، ويدل على المعنى اللغوي قوله تعالى ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع ﴾ فجمع بين الزواحف والإنسان والحيوان ﴿ تصريف الرياح ﴾ الرياح : جمع ريح وهي نسيم الهواء ، وتصريفها تقلبها في الجهات ونقلها من حال إلى حال ، فتهب حارة وباردة ، وعاصفة ولينة ، وملقحة للنبات وعميقاً ﴿ المسخر ﴾ من التسخير وهو التذليل والتيسير ﴿ أنداداً ﴾ جمع ندّ وهو المماثل والمراد بها الأوثان والأصنام ﴿ الأسباب ﴾ جمع سبب وأصله الحبل والمراد به ما يكون بين الناس من روابط كالنسب والصدقة ﴿ كرة ﴾ الكرة : الرجعة والعودة إلى الحالة التي كان فيها ﴿ حشرات ﴾ جمع حشرة وهي أشد الندم على شيء فائت وفي التنزيل ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ﴾ .

سبب النزول : عن عطاء قال : أنزلت بالمدينة على النبي ﷺ ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ فقالت كفار قريش بمكة كيف يسعُ الناسَ إلهٌ واحد؟ فأنزل الله تعالى ﴿ إن في خلق السموات والأرض . . . إلى قوله لآيات لقومٍ يعقلون ﴾ (١).

وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾

التفسير : ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة إله واحد ، لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿ لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو جلّ وعلا مؤلي النعم ومصدر الإحسان ﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ أي إن في إبداع السموات والأرض بما فيها من عجائب الصنعة ودلائل القدرة ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ أي تعاقبها بنظام محكم ، يأتي الليل فيعقبه النهار ، وينسلخ النهار فيعقبه الليل ، ويطول النهار ويقصر الليل والعكس ﴿ والفلك التي تجري في البحر ﴾ أي السفن الضخمة الكبيرة التي تسير في البحر على وجه الماء وهي موقرة بالأنقال ﴿ بما ينفع الناس ﴾ أي بما فيه مصالح الناس من أنواع المتاجر والبضائع ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء ﴾ أي وما أنزل الله من السحاب من المطر الذي به حياة البلاد والعباد ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ أي أحيا هذا الماء الزروع والأشجار ، بعد أن كانت يابسة مجدبة ليس فيها حبوب ولا ثمار ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ أي نشر وفرق في الأرض من كل ما يدب عليها من أنواع الدواب ، المختلفة في أحجامها وأشكالها وألوانها وأصواتها ﴿ وتصريف الرياح ﴾ أي تقليب الرياح في هبوبها جنوباً وشمالاً ، حارة وباردة ، ولينة وعاصفة ﴿ والسحاب المسخر بين السماء والأرض ﴾ أي السحاب المذلل بقدرة الله ، يسير حيث شاء الله وهو يحمل الماء الغزير ثم يصبه على الأرض قطرات قطرات ، قال كعب الأحبار : السحاب غربال المطر ولولا السحاب لأفسد المطر ما يقع عليه من الأرض ^(١) ﴿ آيات لقوم يعقلون ﴾ أي لدلائل وبراهين عظيمة دالة على القدرة القاهرة ، والحكمة الباهرة ، والرحمة الواسعة لقوم لهم عقول تعي وأبصار تدرك ، وتتدبر بأن هذه الأمور من صنع إله قادر حكيم . ثم أخبر تعالى عن سوء عاقبة المشركين الذين عبدوا غير الله فقال ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً ﴾ أي ومن الناس من تبلغ بهم الجهالة أن يتخذ من غير الله أنداداً أي رؤساء وأصناماً ﴿ يحبونهم كحب الله ﴾ أي يعظمونهم ويخضعون لهم كحب المؤمنين لله ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ أي حب المؤمنين لله أشد من حب المشركين للأنداد ﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً ﴾ أي لو رأى الظالمون حين يشاهدون العذاب المعد لهم يوم القيامة أن القدرة كلها لله وحده ﴿ وأن الله شديد العذاب ﴾ أي وأن عذاب الله شديد أليم وجواب

إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

« لو » محذوف أي لرأوا ما لا يوصف من الهول والفظاعة ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ﴾ أي تبرأ الرؤساء من الأتباع ﴿ ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ أي حين عاينوا العذاب وتقطعت بينهم الروابط وزالت المودات ﴿ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم ﴾ أي تمنى الأتباع لو أن لهم رجعة إلى الدنيا ليتبرعوا من هؤلاء الذين أضلوهم السبيل ﴿ كما تبرءوا منا ﴾ أي كما تبرأ الرؤساء من الأتباع في ذلك اليوم العصيب . . قال تعالى ﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ﴾ أي أنه تعالى كما أراهم شدة عذابه كذلك يريهم أعمالهم القبيحة ندامات شديدة وحسرات تتردد في صدورهم كأنها شرر الجحيم ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ أي ليس لهم سبيل إلى الخروج من النار ، بل هم في عذاب سرمدي وشقاء أبدي .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿ وإلهم إله واحد ﴾ ورد الخبر خالياً من التأكيد تنزيلاً للمنكر منزلة غير المنكر ، وذلك لأن بين أيديهم من البراهين الساطعة والحجج القاطعة ما لو تأملوه لوجدوا فيه غاية الإقناع .

٢ - ﴿ الآيات ﴾ التنكير في آيات للتفخيم أي آيات عظيمة دالة على قدرة قاهرة وحكمة باهرة .

٣ - ﴿ كحب الله ﴾ فيه تشبيه (مرسل مجمل) حيث ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه .

٤ - ﴿ أشد حبا لله ﴾ التصريح بالأشدية أبلغ من أن يقال « أحب لله » كقوله ﴿ فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ مع صحة أن يقال : أو أقسى .

٥ - ﴿ ولو يرى الذين ظلموا ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير ﴿ ولو يرون ﴾ لإحضار الصورة في ذهن السامع وتسجيل السبب في العذاب الشديد وهو الظلم الفادح .

٦ - في قوله ﴿ رأوا العذاب ﴾ و﴿ تقطعت بهم الأسباب ﴾ من علم البديع ما يسمى بـ « الترصيع » وهو أن يكون الكلام مسجوعاً .

٧ - ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ الجملة إسمية وإيرادها بهذه الصيغة لإفادة دوام الخلود .

الفوائد : الأولى : ذكر تعالى في الآية من عجائب مخلوقاته ثمانية أنواع تنبهاً على ما فيها من العبر واستدلالاً على الوحدانية من الأثر، الأول : خلق السموات وما فيها من الكواكب والشمس والقمر، الثاني : الأرض وما فيها من جبال وبحار وأشجار وأنهار ومعادن وجواهر، الثالث : اختلاف الليل والنهار بالطول والقصر والنور والظلمة والزيادة والنقصان، الرابع : السفن العظيمة كأنها الراسيات من الجبال وهي موقرة

بالأثقال والرجال تجري بها الرياح مقبلة ومدبرة، الخامس : المطر الذي جعله الله سبباً لحياة الموجودات من حيوان ونبات وإنزاله بمقدار، السادس : ما بث في الأرض من إنسان وحيوان مع اختلاف الصور والأشكال والألوان، السابع : تصريف الرياح والهواء جسم لطيف وهو مع ذلك في غاية القوة بحيث يقلع الصخر والشجر ويجرب البنیان العظيم وهو مع ذلك حياة الوجود فلو أمسك طرفه عين لمات كل ذي روح وأنتن ما على وجه الأرض، الثامن : السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية الكبيرة يبقى معلقاً بين السماء والأرض بلا علاقة تمسكه ولا دعامة تسنده فسبحان الواحد القهار .

الثانية : ورد لفظ الرياح في القرآن مفردة ومجموعة ، فجاءت مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب كقوله ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾ وقوله ﴿وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ وجاءت مفردة في العذاب كقوله ﴿بريح صرصر عاتية﴾ وقوله ﴿الريح العقيم﴾ وروى أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا هبت الريح (اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً) .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً . . إلى . . لفي شقاقٍ بعيد﴾ من آية (١٦٨) إلى نهاية آية (١٧٦) .

المَنَاسِكَةُ : لما بين تعالى التوحيد ودلائله ، وما للمؤمنين المتقين والكفرة العاصين ، أتبع ذلك بذكر إنعامه على الكافر والمؤمن ، ليدل على أن الكفر لا يؤثر في قطع الإنعام ، لأنه تعالى رب العالمين ، فأحسانه عام لجميع الأنام دون تمييز بين مؤمن وكافر وبر وفاجر ، ثم دعا المؤمنين إلى شكر المنعم جلّ وعلا والأكل من الطيبات التي أباحها الله ، واجتناب ما حرّمه الله من أنواع الخبائث .

اللغز : ﴿خطوات الشيطان﴾ جمع خطوة وهي في الأصل ما بين القدمين عند المشي وتستعمل مجازاً في تتبع الآثار ﴿السوء﴾ أصل السوء ما يسوء الإنسان أي يحزنه ويطلق على المعصية قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً لأنها تسوء صاحبها أي تحزنه في الحال أو المال ﴿الفحشاء﴾ ما يستعظم ويستفحش من المعاصي فهي أقبح أنواع المعاصي ﴿ألفينا﴾ وجدنا ومنه ﴿وألفيا سيدها﴾ ﴿إنهم ألفوا آباءهم ضالين﴾ أي وجدوا ﴿ينعق﴾ يصيح يقال : نعق الراعي بغنمه ينعق نعيقاً إذا صاح بها وزجرها قال الأخطل :

فانعقُ بضأنك يا جريرُ فإنما متتكَ نفسُك في الخلاء ضلالاً

﴿أهل﴾ الإهلال : رفع الصوت يقال : أهل المحرم إذا رفع صوته بالتلبية ومنه إهلال الصبي وهو صياحه عند الولادة ، وكان المشركون إذا ذبحوا ذكروا اللات والعزى ورفعوا بذلك أصواتهم ﴿اضطر﴾ ألجى أي ألجأته الضرورة إلى الأكل من المحرمات ﴿باغ ولا عاد﴾ الباعي من البغي والعادي من العدوان ، وهما بمعنى الظلم وتجاوز الحد ﴿يزكّهم﴾ يطهرهم من التزكية وهي التطهير ﴿شفاق﴾ الشقاق : الخلاف والعداوة .

يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٧١﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ
بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا
عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٣﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا
لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَكَرٍ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ ءِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٥﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا ءُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ

النَّفْسِيرُ : ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ الخطاب عام لجميع البشر أي كلوا مما أحله الله لكم من الطيبات حال كونه مستطاباً في نفسه غير ضار بالأبدان والعقول ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي لا تقتدوا بآثار الشيطان فيما يزينه لكم من المعاصي والفواحش ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ أي إنه عظيم العداوة لكم وعداوته ظاهرة لا تخفى على عاقل ﴿إنما يأمركم بالسوء والفحشاء﴾ أي لا يأمركم الشيطان بما فيه خير إنما يأمركم بالمعاصي والمنكرات وما تناهى في القبح من الرذائل ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ أي وأن تفتروا على الله بتحريم ما أحل لكم وتحليل ما حرم عليكم فتحلوا وتحرموا من تلقاء أنفسكم ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله﴾ أي وإذا قيل للمشركين اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحي والقرآن واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل ﴿قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ أي بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، قال تعالى في الرد عليهم ﴿أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ أي أيتبعون آباءهم ولو كانوا سفهاء أغبياء ليس لهم عقل يردعهم عن الشر ولا بصيرة تنير لهم الطريق ؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتعجيب من حالهم في تقليدهم الأعمى للآباء ، ثم ضرب تعالى مثلاً للكافرين في غاية الوضوح والجللاء فقال تعالى ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً﴾ أي ومثل الكفار في عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الساطعة ومثل من يدعوهم إلى الهدى كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها فهي تسمع الصوت والنداء دون أن تفهم الكلام والمراد، أو تدرك المعنى الذي يقال لها ، فهو لاء الكفار كالدواب السارحة لا يفهمون ما تدعوهم إليه ولا يفقهون ، يسمعون القرآن ويصمّون عنه الأذان ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾ ولهذا قال تعالى ﴿صمُّ بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ أي صمُّ عن سماع الحق ، بكم أي خرسٌ عن النطق به عمي عن رؤيته فهم لا يفقهون ما يقال لهم لأنهم أصبحوا كالدواب فهم في ضلالهم يتخبطون . وخلاصة المثل - والله أعلم - مثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من سماع الصوت دون أن تفهم المعنى وهو خلاصة قول ابن عباس ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ خاطب المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بالتوجيهات الربانية والمعنى كلوا يا أيها المؤمنون من المستلذات وما طاب من الرزق الحلال الذي رزقكم الله إياه ﴿واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي واشكروا الله على نعمه التي لا تحصى إن كنتم تخصصونه بالعبادة ولا تعبدون

أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ
الْكِتَابِ وَيَسْتُرُونَ بِهِ ءِثْمًا قَلِيلًا أَوْلَيْكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا
يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى
النَّارِ ﴿١٧٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٩﴾ *

أحداً سواه ﴿إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ أي ما حرّم عليكم إلا الخبائث كالميتة والدم ولحم الخنزير
﴿وما أهلّ به لغير الله﴾ أي وما ذبح للأصنام فذكر عليه اسم غير الله كقولهم باسم اللات والعزى
﴿فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ﴾ أي فمن أُلجأته ضرورة إلى أكل شيء من المحرمات بشرط ألا يكون
ساعياً في فساد ، ولا متجاوزاً مقدار الحاجة ﴿فلا إثم عليه﴾ أي فلا عقوبة عليه في الأكل ﴿إن الله غفور
رحيم﴾ أي يغفر الذنوب ويرحم العباد ومن رحمته أن أباح المحرمات وقت الضرورة ﴿إن الذين يكتُمون
ما أنزل الله من الكتاب﴾ أي يخفون صفة النبي عليه السلام المذكورة في التوراة وهم اليهود قال ابن
عباس : نزلت في رؤساء اليهود حين كتموا نعت النبي ﷺ ﴿ويسترون به ثمناً قليلاً﴾ أي يأخذون بدله
عوضاً حقيراً من حطام الدنيا ﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ أي إنما يأكلون ناراً تأجج في بطونهم
يوم القيامة لأن أكل ذلك المال الحرام يفضي بهم إلى النار ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ أي لا يكلمهم
كلام رضى كما يكلم المؤمنين بل يكلمهم كلام غضب كقوله ﴿احسثوا فيها ولا تكلمون﴾ ﴿ولا يزيكهم﴾
أي يطهرهم من دنس الذنوب ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي عذاب مؤلم وهو عذاب جهنم ﴿أولئك الذين
اشتروا الضلالة بالهدى﴾ أي أخذوا الضلالة بدل الهدى والكفر بدل الإيمان ﴿والعذاب بالمغفرة﴾ أي
واستبدلوا الجحيم بالجنة ﴿فما أصبرهم على النار﴾ أي ما أشدّ صبرهم على نار جهنم ؟ وهو تعجب
للمؤمنين من جرأة أولئك الكفار على اقتراف أنواع المعاصي ثم قال تعالى مبيناً سبب النكال والعذاب
﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾ أي ذلك العذاب الأليم بسبب أن الله أنزل كتابه ﴿التوراة﴾ بيان
الحق فكتموا وحرّفوا ما فيه ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب﴾ أي اختلفوا في تأويله وتحريفه ﴿لفي شقاق
بعيد﴾ أي في خلاف بعيد عن الحق والصواب ، مستوجب لأشدّ العذاب .

سَبَبُ الزُّوْلِ : قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود : كعب بن الأشرف ومالك بن
الصفى وحبي بن أخطب كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا ، فلما بعث محمد عليه السلام خافوا انقطاع
تلك المنافع فكتموا أمر محمد وأمر شرائعه فنزلت ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب . . .﴾ الآية .
الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿خطوات الشيطان﴾ استعارة عن الاقتداء به واتباع آثاره قال في تلخيص البيان :

وهي أبلغ عبارة عن التحذير من طاعته فيما يأمر به وقبول قوله فيما يدعو إلى فعله^(١) .

٢ - ﴿السوء والفحشاء﴾ هو من باب « عطف الخاص على العام » لأن السوء يتناول جميع المعاصي ، والفحشاء أقبح وأفحش المعاصي .

٣ - ﴿ومثل الذين كفروا﴾ فيه تشبيه (مرسل ومجمل) مرسل لذكر الأداة ومجمل لحذف وجه الشبه فقد شبه الكفار بالبهايم التي تسمع صوت المنادي دون أن تفقه كلامه وتعرف مراده .

٤ - ﴿صمُّ بكم عمي﴾ حذف أداة التشبيه ووجه الشبه فهو « تشبيه بليغ » أي هم كالصم في عدم سماع الحق وكالعمي وكالبكم في عدم الانتفاع بنور القرآن .

٥ - ﴿ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ مجاز مرسل باعتبار ما يؤول إليه أي إنما يأكلون المال الحرام الذي يفضي بهم إلى النار وقوله ﴿في بطونهم﴾ زيادة تشنيع وتقبيح لحالهم وتصويرهم بمن يتناول رصف جهنم ، وذلك أفظع سماعاً وأشد إيجاعاً .

٦ - ﴿اشتروا الضلالة بالهدى﴾ استعارة والمراد استبدلوا الكفر بالإيمان وقد تقدّم في أول السورة إجراء هذه الاستعارة .

الفوائد : الأولى : عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبي ﷺ ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ فقام سعد بن أبي وقاص فقال يا رسول الله : أدع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ! فقال يا سعد : أظب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به^(٢) .

الثانية : قال بعض السلف : « يدخل في اتباع خطوات الشيطان كل معصية لله ، وكل نذر في المعاصي قال الشعبي : نذر رجل أن ينحر ابنه فأفتاه مسروق بذبح كبش وقال : هذا من خطوات الشيطان »^(٣) .

الثالثة : قال ابن القيم في أعلام الموقعين عن قوله تعالى ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً﴾ قال : لك أن تجعل هذا من التشبيه المركب ، وأن تجعله من التشبيه المفرق ، فإن جعلته من المركب كان تشبيهاً للكفار - في عدم فقههم وانتفاعهم - بالغنم التي ينعق بها الراعي فلا تفقه من قوله شيئاً غير الصوت المجرد الذي هو الدعاء والنداء ، وإن جعلته من التشبيه المفرق : فالذين كفروا بمنزلة البهايم ، ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الذي ينعق بها ، ودعائهم إلى الهدى بمنزلة النعق ، وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهايم مجرد صوت الناعق والله أعلم .

قال الله تعالى : ﴿ ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . . إلى . . فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ﴾
من آية (١٧٧) إلى نهاية آية (١٨٢).

المناسكة : من هنا بداية النصف الثاني من السورة الكريمة على وجه التقريب ، ونصف السورة السابق كان متعلقاً بأصول الدين وبقبائح بني إسرائيل ، وهذا النصف غالبه متعلق بالأحكام التشريعية الفرعية ، ووجه المناسبة أنه تعالى ذكر في الآية السابقة أن أهل الكتاب اختلفوا في دينهم اختلافاً كبيراً صاروا بسببه في شقاق بعيد ، ومن أسباب شقاقهم أمر القبلة إذ أكثروا الخوض فيه وأنكروا على المسلمين التحول إلى استقبال الكعبة ، وادّعى كل من الفريقين - اليهود والنصارى - أن الهدى مقصور على قبلته ، فردّ الله عليهم وبين أن العبادة الحقّة وعمل البر ليس بتوجه الإنسان جهة المشرق والمغرب ، ولكن بطاعة الله وامتنال أوامره وبالإيمان الصادق الراسخ .

اللغز : ﴿ البرّ ﴾ اسم جامع للطاعات وأعمال الخير ﴿ الرقاب ﴾ جمع رقبة وهي في الأصل العنق ، وتطلق على البدن كله كما تطلق العين على الجاسوس والمراد في الآية الأسرى والأرقاء ﴿ البأساء ﴾ الفقر ﴿ الضراء ﴾ السقم والوجع ﴿ البأس ﴾ القتال وأصل البأس في اللغة : الشدة ﴿ كتب ﴾ فرض ﴿ القصاص ﴾ العقوبة بالمثل من قتل أو جرح مأخوذ من القص وهو تتبع الأثر ﴿ وقالت لأخته قصيه ﴾ أي اتبع أثره ﴿ القتلى ﴾ جمع قتيل يستوي فيه المذكر والمؤنث يقال : رجل قتيل وامرأة قتيل ﴿ الألباب ﴾ العقول جمع لب مأخوذ من لبّ النخلة ﴿ إثمًا ﴾ الإثم : الذنب ﴿ جنفاً ﴾ الجنف : العدول عن الحق على وجه الخطأ .

سبب النزول : عن قتادة أن أهل الجاهلية كان فيهم بغيّ وطاعة للشيطان ، وكان الحيّ منهم إذا كان فيهم منعة فقتل عبدُهم عبد آخرين قالوا لن نقتل به إلا حراً ، وإذا قتلت امرأة منهم امرأة من آخرين قالوا لن نقتل بها إلا رجلاً فأنزل الله ﴿ الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ (١) .

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَالسَّالِفِينَ وَفِي

التفسير : ﴿ ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾ أي ليس فعل الخير وعمل الصالح محصوراً في أن يتوجه الإنسان في صلاته جهة المشرق أو المغرب ﴿ ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ أي ولكن البرّ الصحيح هو الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿ والملائكة والكتاب والنبیین ﴾ أي وأن يؤمن بالملائكة والكتب والرسل ﴿ وآتى المال على حبه ذوي القربى ﴾ أي أعطى المال على محبته له ذوي قرابته فهم

الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ
وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ
فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُتِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ
بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ
حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ

أولى بالمعروف ﴿والتيامى والمسكين وابن السبيل﴾ أي وأعطى المال أيضاً لليتامى الذين فقدوا آباءهم
والمساكين الذين لا مال لهم ، وابن السبيل المسافر المنقطع عن ماله ﴿والمساكين وفي الرقاب﴾ أي الذين
يسألون المعونة بدافع الحاجة وفي تخلص الأسرى والأرقاء بالفداء ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ أي وآتى
بأهم أركان الإسلام وهما الصلاة والزكاة ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ أي ومن يوفون بالعهود ولا
يخلفون الوعود ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾ أي الصابرين على الشدائد وحين القتال في
سبيل الله وهو منصوب على المدح ﴿وأولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ أي أهل هذه الأوصاف هم
الذين صدقوا في إيمانهم وأولئك هم الكاملون في التقوى ، وفي الآية ثناء على الأبرار وإيحاء إلى ما يلاقونه
من اطمئنان وخيرات حسان . ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ أي فرض عليكم أن
تقتصوا للمقتول من قاتله بالمساواة دون بغي أو عدوان ﴿الحرب بالحرب والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ أي
اقتصوا من الجاني فقط فإذا قتل الحرُّ الحرَّ فاقتلوه به ، وإذا قتل العبد العبد فاقتلوه به ، وكذلك الأنثى إذا
قتلت الأنثى ، مثلاً بمثل ولا تعتدوا فتقتلوا غير الجاني ، فإن أخذ غير الجاني ليس بقصاص بل هو ظلم
واعتداء ﴿فمن عُتِيَ له من أخيه شيء﴾ أي فمن ترك له من دم أخيه المقتول شيء ، بأن ترك وليه القود
وأسقط القصاص راضياً بقبول الدية ﴿فاتبع بالمعروف وأداءً إليه بإحسان﴾ أي فعلى العاقب اتباعاً للقاتل
بالمعروف بأن يطالبه بالدية بلا عنف ولا إرهاب ، وعلى القاتل أداءً للدية إلى العاقب - ولي المقتول - بلا مظل
ولا بخس ﴿ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾ أي ما شرعته لكم من العفو إلى الدية تخفيف من ربكم عليكم
ورحمة منه بكم ، ففي الدية تخفيف على القاتل ونفع لأولياء القتيل ، وقد جمع الإسلام في عقوبة القتل بين
العدل والرحمة ، فجعل القصاص حقاً لأولياء المقتول إذا طالبوا به وذلك عدل ، وشرع الدية إذا
أسقطوا القصاص عن القاتل وذلك رحمة ﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ أي فمن اعتدى على
القاتل بعد قبول الدية فله عذاب أليم في الآخرة ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الأبواب﴾ أي ولكم - يا
أولي العقول - فيما شرعت من القصاص حياةً وأي حياةً لأنه من علم أنه إذا قتل نفساً قتل بها يرتدع وينزجر
عن القتل ، فيحفظ حياته وحياة من أراد قتله وبذلك تُصان الدماء وتحفظ حياة الناس ﴿لعلكم تتقون﴾
أي لعلكم تنزجرون وتتقون محارم الله ومآثمه ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت﴾ أي فرض عليكم

وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ وَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِذِ انَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

إذا أشرف أحدكم على الموت وقد ترك مالا كثيرا ﴿الوصية للوالدين والأقربين﴾ أي وجب عليه الإيصال للوالدين والأقربين ﴿بالمعروف حقاً على المتقين﴾ أي بالعدل بأن لا يزيد على الثلث وألا يوصي للأغنياء ويترك الفقراء ، حقاً لازماً على المتقين لله وقد كان هذا واجباً قبل نزول آية المواريث ثم نسخ بآية المواريث ﴿فمن بدله بعدما سمعه﴾ أي من غير هذه الوصية بعد ما علمها من وصي أو شاهد ﴿فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾ أي إثم هذا التبديل على الذين بدلوه لأنهم خانوا وخالفوا حكم الشرع ﴿إن الله سميع عليم﴾ فيه وعيد شديد للمبدلين ﴿فمن خاف من موصٍ جنفاً﴾ أي فمن علم أو ظن من الموصي ميلاً عن الحق بالخطأ ﴿أو إثمًا﴾ أي ميلاً عن الحق عمداً ﴿فأصلح بينهم فلا إثم عليه﴾ أي أصلح بين الموصي والموصى له فلا ذنب عليه بهذا التبديل ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي واسع المغفرة والرحمة لمن قصد بعمله الإصلاح .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿ولكن البر من آمن﴾ جعل البر نفس من آمن على طريق المبالغة وهذا معهود في كلام البلغاء إذ تجدهم يقولون : السخاء حاتم ، والشعر زهير أي أن السخاء سخاء حاتم ، والشعر شعر زهير ، وعلى هذا خرجه سيبويه حيث قال في كتابه قال جلّ وعز : ﴿ولكن البر من آمن﴾ وإنما هو ولكن البر من آمن بالله انتهى^(١) ونظير ذلك أن تقول : ليس الكرم أن تبذل درهماً ولكن الكرم بذل الآلاف فلا يناسب ولكن الكريم من يبذل الآلاف .

٢ - ﴿وفي الرقاب﴾ إيجاز بالحذف أي وفي فك الرقاب يعني فداء الأسرى ، وفي لفظ الرقاب « مجاز مرسل » حيث أطلق الرقبة وأراد به النفس وهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل .

٣ - ﴿والصابرين في البأساء﴾ الأصل أن يأتي مرفوعاً كقوله ﴿والموفون بعهدهم﴾ وإنما نصب على الاختصاص أي وأخص بالذكر الصابرين وهذا الأسلوب معروف بين البلغاء فإذا ذكرت صفات للمدح أو الذم وخولف الإعراب في بعضها فذلك تفننٌ ويسمى قطعاً لأن تغيير المألوف يدل على مزيد اهتمام بشأنه وتشويق لسماعه .

٥ - ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ الجملة جاء الخبر فيها فعلاً ماضياً « صدقوا » لإفادة التحقيق وأن ذلك وقع منهم واستقر ، وأتى بخبر الثانية في جملة اسمية ﴿أولئك هم المتقون﴾ ليدل على الثبوت وأنه ليس متجدداً بل صار كالسجية لهم ومراعاة للفاصلة أيضاً .

٦ - ﴿حقاً على المتقين﴾ ذكر المتقين من باب الإلهاب والتهيج .

٧ - الطباق بين ﴿اتباع﴾ و﴿أداء﴾ وبين ﴿الحر﴾ و﴿العبد﴾ .

الفوائد : الأولى : في ذكر الأخوة تعطفُ داع إلى العفو فقد سمى الله القاتل أخواً لولي المقتول ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾ تذكيراً بالأخوة الدينية والبشرية حتى يهز عطف كل واحد منهما إلى الآخر فيقع بينهم العفو والاتباع بالمعروف والأداء بالإحسان .

الثانية : كان في بني إسرائيل القصاص ولم يكن فيهم الدية ، وكان في النصارى الدية ولم يكن فيهم القصاص ، فأكرم الله هذه الأمة المحمدية وخيرها بين القصاص والدية والعفو ، وهذا من يسر الشريعة الغراء التي جاء بها سيّد الأنبياء ﷺ .

الثالثة : اتفق علماء البيان على أن هذه الآية ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ بالغة أعلى درجات البلاغة ، ونقل عن العرب في هذا المعنى قولهم : القتل أنفى للقتل ، ولكن لورود الحكمة في القرآن فضلاً من ناحية حسن البيان ، وإذا شئت أن تزداد خبرة بفضل بلاغة القرآن وسمو مرتبته على مرتبة ما نطق به بلغاء البشر فانظر إلى العبارتين فإنك تجد من نفحات الإعجاز ما ينبهك لأن تشهد الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق ، أما الحكمة القرآنية فقد جعلت سبب الحياة القصاص وهو القتل عقوبة على وجه التماثل ، والمثل العربي جعل سبب الحياة القتل ، ومن القتل ما يكون ظلماً فيكون سبباً للفناء وتصحيح العبارة أن يقال : القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً ، والآية جاءت خالية من التكرار اللفظي والمثل كرر فيه لفظ القتل فمسه بهذا التكرار من الثقل ما سلمت منه الآية ، ومن الفروق الدقيقة بينهما أن الآية جعلت القصاص سبباً للحياة والمثل جعل القتل سبباً لنفي القتل وهو لا يستلزم الحياة الخ وقد عدّ العلماء عشرين وجهاً من وجوه التفريق بين الآية القرآنية واللفظة العربية وقد ذكرها السيوطي في الإتيقان فارجع إليه تجد فيه شفاء العليل .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام . . . إلى . . . كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾

المناسبة : ذكر تعالى في الآيات السابقة حكم القصاص ثم عقبه بحكم الوصية للوالدين والأقربين ، ثم بأحكام الصيام على وجه التفصيل لأن هذا الجزء من السورة الكريمة يتناول جانب الأحكام التشريعية ولما كان الصوم من أهم الأركان ذكره الله تعالى هنا ليهيء عباده إلى منازل القدس ومعارج المتقين الأبرار .

اللفظة : ﴿الصيام﴾ في اللغة : الإمساك عن الشيء قال أبو عبيدة : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم قال الشاعر :

خيلٌ صيامٌ وخيلٌ غير صائمةٍ تحت العجاج وأخرى تعلق اللجما

وفي الشرع : الإمساك عن الطعام والشراب والجماع في النهار مع النية ﴿يطيقونه﴾ أي يصومونه بعسر ومشقة قال الراغب : الطاقة اسمٌ لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله مع المشقة وشبهه بالطوق المحيط بالشيء^(١) ﴿فدية﴾ ما يفدي به الإنسان نفسه من مالٍ وغيره ﴿شهر﴾ من الأشتهار وهو الظهور ﴿رمضان﴾ من الرَّمض وهو شدة الحر والرمضاء شدة حر الشمس وسمي رمضان لأنه يرمض الذنوب أي يجرقها ﴿الرفث﴾ الجماع ودواعيه وأصله قولُ الفحش ثم كني به عن الجماع قال الشاعر :

ويُرَيْن من أنس الحديثِ زوانياً وبهنَّ عن رفث الرجالِ نِفَار

﴿تختانون﴾ قال في اللسان : خانه واختانه والمخانة مصدر من الخيانة وهي ضد الأمانة وسئل بعضهم عن السيف فقال : أخوك وإن خانك ﴿عاكفون﴾ الإعتكاف في اللغة : اللبث واللزوم وفي الشرع : المكث في المسجد للعبادة ﴿حدود الله﴾ الحد في اللغة : المنع وأصله الحاجز بين الشيئين المتقابلين وسميت الأحكام حدوداً لأنها تحجز بين الحق والباطل .

سَبَبُ التَّزْوِيلِ : روي أن جماعة من الأعراب سألوا النبي ﷺ فقالوا : يا محمد أقریب ربنا فنناجیه أم بعيد فننادیه ؟ فأنزل الله ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ الآية .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ ۖ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ ۖ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ۚ وَإِنْ تَصَوْمُوا خَيْرٌ لَكُمْ ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى

النَّفْسِيرُ : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ناداهم بلفظ الإيمان ليحرك فيهم مشاعر الطاعة ويذكري فيهم جدوة الإيمان ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ أي فرض عليكم صيام شهر رمضان ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ أي كما فرض على الأمم قبلكم ﴿لعلكم تتقون﴾ أي لتكونوا من المتقين لله المجتنبين لمحارمه ﴿أياماً معدودات﴾ أي والصيام أيامه معدودات وهي أيام قلائل ، فلم يفرض عليكم الدهر كله تخفيفاً ورحمة بكم ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفرٍ فعِدَّةٌ من أيامٍ أُخَرَ﴾ أي من كان به مرضٌ أو كان مسافراً فأفطر فعليه قضاء عدة ما أفطر من أيام غيرها ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعمام مسكين﴾ أي وعلى الذين يستطيعون صيامه مع المشقة لشيخوخةٍ أو ضعفٍ إذا أفطروا عليهم فدية بقدر طعام مسكين لكل يوم ﴿فمن تطوع خيراً﴾ أي فمن زاد على القدر المذكور في الفدية ﴿فهو خيرٌ له﴾ ثم قال تعالى ﴿وأن تصوموا خيراً لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي والصوم خير لكم من الفطر والفدية إن كنتم تعلمون ما في الصوم من أجر وفضيلة ، ثم بين تعالى وقت الصيام فقال ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ أي والأيام المعدودات التي فرضتها عليكم أيها المؤمنون هي شهر رمضان

لِلنَّاسِ وَبَيَّنَّتْ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾
وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾
أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ۖ فَالْغَنَ بِشُرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَىٰ اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ

الذي أبتدأ فيه نزول القرآن حال كونه هداية للناس لما فيه من إرشاد وإعجاز وآيات واضحات تفرق بين الحق والباطل ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ أي من حضر منكم الشهر فليصمه ﴿ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ أي ومن كان مريضاً أو مسافراً فأفطر فعليه صيام أيام أخر ، وكرر لثلاثا يتوهم نسخه بعموم لفظ شهود الشهر ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ أي يريد الله بهذا الترخيص التيسير عليكم لا التعسير ﴿ولتكمّلوا العدة﴾ أي ولتكمّلوا عدة شهر رمضان بقضاء ما أفطرتم ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ أي ولتحمّدوا الله على ما أرشدكم إليه من معالم الدين ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولكي تشكروا الله على فضله وإحسانه . . ثم بين تعالى أنه قريب يجيب دعوة الداعين ويقضي حوائج السائلين فقال ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ أي أنا معهم أسمع دعاءهم ، وأرى تضرعهم وأعلم حالهم كقوله ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ أي أجيب دعوة من دعاني إذا كان عن إيمان وخشوع قلب ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ أي إذا كنت أنا ربكم الغني عنكم أجيب دعاءكم فاستجيبوا أنتم لدعوتي بالإيمان بي وطاعتي ودوموا على الإيمان لتكونوا من السعداء الراشدين . . ثم شرع تعالى في بيان تنمة أحكام الصيام بعد أن ذكر آية القرب والدعاء فقال ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ أي أبيع لكم أيها الصائمون غشيان النساء في ليالي الصوم ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ قال ابن عباس : هن سكن لكم وأنتم سكن لهن ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ أي تخونونها بمقارفة الجماع ليلة الصيام وكان هذا محرماً في صدر الإسلام ثم نسخ ، روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال : لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله ، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ الآية ﴿فتاب عليكم وعفا عنكم﴾ أي فقبل توبتكم وعفا عنكم لما فعلتموه قبل النسخ ﴿فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أي جامعوهن في ليالي الصوم واطلبوا بنكاحهن الولد ولا تبشروهن لقضاء الشهوة فقط ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ أي كلوا

فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

واشربوا إلى طلوع الفجر ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ أي أمسكوا عن الطعام والشراب والنكاح إلى غروب الشمس ﴿ولا تبشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ أي لا تقربوهن ليلاً أو نهاراً ما دتمم معتكفين في المساجد ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ أي تلك أوامر الله وزواجره وأحكامه التي شرعها لكم فلا تخالفوها ﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ أي يتقون المحارم .

البلاغَة : ١ - ﴿كما كتب﴾ التشبيه في الفرضية لا في الكيفية أي فرض الصيام عليكم كما فرض على الأمم قبلكم وهذا التشبيه يسمى «مرسلاً مجملاً» .

٢ - ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر﴾ فيه إيجاز بالحذف أي من كان مريضاً فأفطر ، أو على سفر فأفطر فعليه قضاء أيام بعدد ما أفطر .

٣ - ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ في تفسير الجلالين قدره بحذف « لا » أي لا يطيقونه ، ولا ضرورة لهذا الحذف لأن معنى الآية يطيقونه بجهدٍ شديد وذلك كالشيخ الهرم والحامل والمرضع فهم يستطيعونه لكن مع المشقة الزائدة ، والطاقة اسم لمن كان قادراً على الشيء مع الشدة والمشقة .

٤ - ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بـ « طباق السلب » .

٥ - ﴿الرفث إلى نسائكم﴾ الرفث كناية عن الجماع وعدّي بـ « إلى » لتضمنه معنى الإفضاء وهو من الكنايات الحسنة كقوله ﴿فلما تغشأها﴾ وقوله ﴿فأتوا حرثكم﴾ وقوله ﴿فالآن باشروهن﴾ قال ابن عباس : إن الله عز وجل كريمٌ حلِيمٌ يكني^(١) .

٦ - ﴿هن لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهن﴾ استعارة بديعة شبه كل واحد من الزوجين لاشتماله على صاحبه في العناق والضم باللباس المشتمل على لابسه قال في تلخيص البيان : « المراد قرب بعضهم من بعض واشتمال بعضهم على بعض كما تشتمل الملابس على الأجسام فاللباس استعارة^(٢) .

٧ - ﴿الخيطة الأبيض من الخيط الأسود﴾ قال الشريف الرضي : وهذه استعارة عجيبة والمراد بها بياض الصبح وسواد الليل والخيطان ههنا مجاز وإنما شبههما بذلك لأن بياض الصبح يكون في أول طلوعه مشرقاً خافياً ، ويكون سواد الليل منقضياً مولياً ، فهما جميعاً ضعيفان إلا أن هذا يزداد انتشاراً وهذا يزداد استسراراً ، وذهب الزمخشري إلى أنه من التشبيه البليغ .

الفوائد : الأولى : روي عن الحسن أنه قال : إن الله تعالى فرض صيام رمضان على اليهود

(١) روائع البيان ١٩٠/١ تلخيص البيان ص ١٢ . (٢) انظر الكشاف ١٧٥/١ .

والنصارى ، أما اليهود فإنها تركت هذا الشهر وصامت يوماً من السنة زعموا أنه يوم غرق فيه فرعون ، وأما النصارى فإنهم صاموا رمضان فصادفوا فيه الحر الشديد فحولوه إلى وقت لا يتغير ثم قالوا عند ذلك نزيد فيه فزادوا عشرًا ، ثم بعد زمانٍ اشتكى^(١) ملكهم فنذر سبعمائة فزادوه ، ثم جاء بعد ذلك ملك آخر فقال : ما بال هذه الثلاثة فأتمه خمسين يوماً وهذا معنى قوله تعالى ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً ﴾^(٢) .

الثانية : قال الحافظ ابن كثير : وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام ﴿ وإذا سألك عبادي عني ﴾ إرشاداً إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر لحديث (إن للصائم عند فطره دعوة ما تُرد) وكان عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر : اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي .

الثالثة : ظاهر نظم الجملة ﴿ وإذا سألك عبادي عني ﴾ أنهم سألوا عن الله ، والسؤال لا يكون عن الذات وإنما يكون عن شأن من شئونها فقلوه في الجواب ﴿ فإني قريب ﴾ يدل على أنهم سألوا عن جهة القرب أو البعد ، ولم يصدر الجواب بـ « قل » أو فقل كما وقع في أجوبة مسائلهم الواردة في آيات أخرى نحو ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾ بل تولى جوابهم بنفسه إشعاراً بفرط قربه منهم ، وحضوره مع كل سائل بحيث لا تتوقف إجابته على وجود واسطة بينه وبين السائلين من ذوي الحاجات .

الرابعة : قال الإمام ابن تيمية « وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلعٌ إليهم فدخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه » وفي الصحيح (إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته فإنه سبحانه ليس كمثله شيء .

الخامسة : عبر المولى جل وعلا عن المباشرة الجنسية التي تكون بين الزوجين بتعبير سام لطيف ، لتعليمنا الأدب في الأمور التي تتعلق بالجنس والنساء ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنه : إن الله عز وجل كريم حلِيم يَكْنِي .

قال الله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل .. إلى .. وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾

من آية (١٨٨) إلى نهاية آية (١٩٥).

الْمَنَاسِكَةُ : لما بين تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام وأباح للمؤمنين الاستمتاع بالطعام والشراب والنكاح في ليالي رمضان عقبه بالنهي عن أكل الأموال بغير حق لأن المسلم لا يصح له أن يستمتع بالمال الحرام لا في ليالي رمضان ولا غيره ، ولما كان حديث الصيام يتصل برؤية الهلال وهذا ما يحرك في النفوس خاطر السؤال عن الأهلة جاءت الآيات الكريمة تبين أن الأهلة مواقيت لعبادات الناس في الصيام وسائر أنواع القربات .

اللفظ : ﴿الباطل﴾ في اللغة : الزائل الذاهب يقال : بطل الشيء بطولاً فهو باطل وفي الشرع هو المال الحرام كالغصب والسرقة والقمار والربا ﴿وتدلوا﴾ الإدلاء في الأصل : إرسال الدلو في البئر ثم جعل كل إلقاء أو دفع لقول أو فعل إدلاءً يقال : أدلى بحجته أي أرسلها والمراد بالإدلاء هنا الدفع إلى الحاكم بطريق الرشوة ﴿الأهلة﴾ جمع هلال وهو أول حال القمر حين يراه الناس ثم يصبح قمراً ثم بدرأ حين يتكامل نوره ﴿مواقيت﴾ جمع ميقات وهو الوقت كالميعاد بمعنى الوعد وقيل : الميقات منتهى الوقت ﴿ثقفتموهم﴾ ثقف الشيء إذا ظفر به ووجده على جهة الأخذ والغلبة ، ورجل ثقفٌ سريع الأخذ لأقرانه قال الشاعر :

فإمّا تثقفوني فاقتلوني فمَنْ أثقفُ فليس إلى خلود
﴿التَّهْلُكَةُ﴾ الهلاكُ يقال هلكَ يهلكُ هلاكاً وتَهْلَكَةً .

سَبَبُ الزَّوْلِ : روي أن بعض الصحابة قالوا يا رسول الله : ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلىء ويستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا لا يكون على حالة واحدة كالشمس فنزلت ﴿يسألونك عن الأهلة . . ﴾ (١) الآية .

روي أن الأنصار كانوا إذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية لم يدخل بيتاً من بابه بل كان يدخل من نقيب في ظهره ، أو يتخذ سُلماً يصعد فيه فنزل قوله تعالى ﴿وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ .
وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِنَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِمَّنْ آتَىٰ وَآتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَنْطُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

التفسير : ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ أي لا يأكل بعضكم أموال بعض بالوجه الذي لم يبيحه الله ﴿وتدلوا بها إلى الحكام﴾ أي تدفعوها إلى الحكام رشوة ﴿لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم﴾ أي ليعينوكم على أخذ طائفة من أموال الناس بالباطل ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنكم مبطلون تأكلون الحرام ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ أي يسألونك يا محمد عن الهلال لم يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يعظم ويستدير ثم ينقص ويدق حتى يعود كما كان ؟ ﴿قل هي مواقيت للناس والحج﴾ أي فقل لهم إنها أوقات لعباداتكم ومعالم تعرفون بها مواعيد الصوم والحج والزكاة ﴿وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ أي ليس البرُّ بدخولكم المنازل من ظهورها كما كنتم تفعلون في الجاهلية ﴿ولكن البرُّ من اتقى﴾ أي ولكن العمل الصالح الذي يقربكم من الله في اجتناب محارم الله ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ ادخلوها كعادة الناس من الأبواب ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ أي اتقوا الله لتسعدوا وتظفروا برضاه ﴿وقانتلوا في

الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقْتَلُوا فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩٦﴾ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٧﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٨﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ مِّمَّنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا عَتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٩﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٠٠﴾

سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴿١٩٥﴾ أي قاتلوا لإعلاء دين الله من قاتلكم من الكفار ﴿١٩٥﴾ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴿١٩٥﴾ أي لا تبدءوا بقتالهم فإنه تعالى لا يجب من ظلم أو اعتدى ، وكان هذا في بدء أمر الدعوة ثم نسخ بآية براءة ﴿١٩٥﴾ وقاتلوا المشركين كافة ﴿١٩٥﴾ وقيل نسخ بالآية التي بعدها وهي قوله ﴿١٩٥﴾ واقتلوهم حيث ثقتمهم ﴿١٩٥﴾ أي اقتلوهم حيث وجدتموهم في حل أو حرم ﴿١٩٥﴾ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴿١٩٥﴾ أي شردوهم من أوطانهم وأخرجوهم منها كما أخرجوكم من مكة ﴿١٩٥﴾ والفتنة أشد من القتل ﴿١٩٥﴾ أي فتنة المؤمن عن دينه أشد من قتله ، أو كفر الكفار أشد وأبلغ من قتلهم في الحرم ، فإذا استعظموا القتال فيه فكفرهم أعظم ﴿١٩٥﴾ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ﴿١٩٥﴾ أي لا تبدءوهم بالقتال في الحرم حتى يبدءوا هم بقتالكم فيه ﴿١٩٥﴾ فإن قاتلوكم فاقتلوهم ﴿١٩٥﴾ أي إن بدءوكم بالقتال فلكم حينئذٍ قتالهم لأنهم انتهكوا حرمة والبادي بالشراظلم ﴿١٩٥﴾ كذلك جزاء الكافرين ﴿١٩٥﴾ أي هذا الحكم جزاء كل من كفر بالله ﴿١٩٥﴾ فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ﴿١٩٥﴾ أي فإن انتهوا عن الشرك وأسلموا فكفوا عنهم فإن الله يغفر لمن تاب وأناب ﴿١٩٥﴾ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴿١٩٥﴾ أي قاتلوا المحاربين حتى تكسروا شوكتهم ولا يبقى شرك على وجه الأرض ويصبح دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان ﴿١٩٥﴾ فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴿١٩٥﴾ أي فإن انتهوا عن قتالكم فكفوا عن قتلهم فمن قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين ، أو فإن انتهوا عن الشرك فلا تعتدوا عليهم ثم بيّن تعالى أن قتال المشركين في الشهر الحرام يبيح للمؤمنين دفع العدوان فيه فقال ﴿١٩٥﴾ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ﴿١٩٥﴾ أي إذا قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام ، فكما هتكوا حرمة الشهر واستحلوا دماءكم فافعلوا بهم مثله ﴿١٩٥﴾ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴿١٩٥﴾ أي ردوا عن أنفسكم العدوان فمن قاتلكم في الحرم أو في الشهر الحرام فقابلوه وجازوه بالمثل ﴿١٩٥﴾ واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴿١٩٥﴾ أي

(١) وقيل معناه الشهر الحرام الذي دخلتم فيه مكة بالشهر الحرام الذي صدقتم فيه عن دخولها ، وكان ذلك لما صد الكفار النبي ﷺ عن دخول مكة عام الحديبية في شهر ذي القعدة .

راقبوا الله في جميع أعمالكم وأفعالكم واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ أي أنفقوا في الجهاد وفي سائر وجوه القربات ولا تبخلوا في الانفاق فيصيبكم الهلاك ويتقوى عليكم الأعداء وقيل معناه : لا تركوا الجهاد في سبيل الله وتشتغلوا بالأموال والأولاد فتهلكوا ﴿ وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ أي أحسنوا في جميع أعمالكم حتى يحبكم الله وتكونوا من أوليائه المقربين .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ هذا النوع من البديع يسمى « الأسلوب الحكيم » فقد سألوا الرسول ﷺ عن الهلال لم يبدو صغيراً ثم يزداد حتى يتكامل نوره ؟ فصرّهم إلى بيان الحكمة من الأهلة وكأنه يقول : كان الأولى بكم أن تسألوا عن حكمة خلق الأهلة لا عن سبب تزايدها في أول الشهر وتناقصها في آخره ، وهذا ما يسميه علماء البلاغة « الأسلوب الحكيم »

٢ - ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام ﴾ فيه إيجاز بالحذف تقديره : هتك حرمة الشهر الحرام تقابل بهتك حرمة الشهر الحرام ويسمى حذف الإيجاز .

٣ - ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ﴾ سمي جزاء العدوان عدواناً من قبيل « المشاكلة » وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى كقوله ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ قال الزجاج : العرب تقول ظلمي فلان فظلمته أي جازيته بظلمه .

فَكَايِدَةٌ : لا يذكر في القرآن الكريم لفظ القتال أو الجهاد إلا ويقرن بكلمة « سبيل الله » وفي ذلك دلالة واضحة على أن الغاية من القتال غاية شريفة نبيلة هي إعلاء كلمة الله لا السيطرة أو المغنم أو الاستعلاء في الأرض أو غيرها من الغايات الدنيئة .

تَبْيِيهُ : كل ما ورد في القرآن بصيغة السؤال أجيب عنه بـ « قل » بلا فاء إلا في طه ﴿ فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾ فقد وردت بالفاء ، والحكمة أن الجواب في الجميع كان بعد وقوع السؤال وفي طه كان قبله إذ تقديره إن سئلت عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً^(١) .

فَكَايِدَةٌ : روي أن رجلاً من المسلمين حمل على جيش الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس : سبحان الله ألقى بيديه إلى التهلكة فقال أبو أيوب الأنصاري إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار حين أعز الله الإسلام وكثر ناصروه فقلنا : لو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها فنزلت ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وترك الجهاد في سبيل الله فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى استشهد ودفن بأرض الروم .

قال الله تعالى: ﴿وَأْتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ . . . إِلَى . . . وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تَحْشُرُونَ﴾
من آية (١٩٦) إلى نهاية آية (٢٠٣).

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام ، أعقب ذلك بذكر أحكام الحج لأن شهوره تأتي مباشرة بعد شهر الصيام ، وأما آيات القتال فقد ذكرت عَرَضاً لبيان حكمِ هَام وهو بيان الأشهر الحرم والقتال فيها وفيما لو تعرّض المشركون للمؤمنين وهم في حالة الإحرام هل يباح لهم ردُّ العدوان عن أنفسهم والقتال في الأشهر الحرم ؟ فقد وردت الآيات السابقة تبيّن حكمة الأهلّة وأنها موافقت للصيام والحج ثم بيّنت الآيات بعدها موقف المسلمين من القتال في الشهر الحرام وذلك حين أراد رسول الله ﷺ العمرة وصدّه المشركون ومنعوه من دخول مكة ووقع صلح الحديبية ثم لما أراد القضاء في العام القابل وخشي أصحابه غدر المشركين بهم وهم في حالة الإحرام نزلت الآيات تبيّن أنه ليس لهم أن ينتهكوا هذه الحرمات على سبيل الابتداء بل على سبيل القصاص ودفع العدوان ، ثم عاد الكلام إلى أحكام الحج وحكم الإحصار فيه فهذا هو الارتباط بين الآيات السابقة واللاحقة .

الْفَحْرُ : ﴿أُحْصِرْتُمْ﴾ الإحصار : معناه المنع والحبس يقال حَصَرَه عن السفر وأحصره إذا حبسه ومنعه قال الأزهري : حُصِرَ الرجلُ في الحبس ، وأُحْصِرَ في السفر من مرضٍ أو انقطاعٍ به ﴿الْهَدْيُ﴾ هو ما يُهدى إلى بيت الله من أنواع النعم كالإبل والبقر والغنم وأقله شاة ﴿مَحَلَّهُ﴾ المحلُّ : الموضع الذي يجلب به نحر الهدْي وهو الحرم أو مكان الإحصار للمحصَّر ﴿النُّسْكُ﴾ جمع نسكّة وهي الذبيحة ينسكها العبد لله تعالى ﴿جَنَاحٌ﴾ إثم وأصله من الجنوح وهو الميل عن القصد ﴿أَفْضُتُمْ﴾ أي دفعتم وأصله من فاض الماء إذا سال منصباً ومعنى ﴿أَفْضُتُمْ من عرفات﴾ أي دفعتم منها بقوة تشبيهاً بفيض الماء . ﴿خَلَقٌ﴾ نصيب من رحمة الله تعالى ﴿تَحْشُرُونَ﴾ تجمعون للحساب .

سَبَبُ النَّزُولِ : أولاً : عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله عز وجل ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾^(١) .

ثانياً : وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحُمس وسائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله تعالى نبيّه أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها ، وكانت قريش تفيض من جمع من المشعر الحرام فأنزل الله تعالى ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾^(٢) .

وَأْتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ .

النَّفْسِيرُ : ﴿وَأْتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي أدوها تامين بأركانها وشروطها لوجه الله تعالى

فَن كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ ۖ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ ۚ فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِّن مَّتَمَعٍ
بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۚ تِلْكَ عَشْرَةٌ
كَامِلَةٌ ۚ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾
الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۚ فَمِن فَرَضٍ فِيهِنَّ الْحَجُّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۚ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ
يَعْلَمُهُ اللَّهُ تَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا

﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى﴾ أي إذا منعتم عن إتمام الحج أو العمرة بمرض أو عدو وأردتم التحلل فعليكم أن تذبحوا ما تيسر من بدنة أو بقرة أو شاة ﴿ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله﴾ أي لا تتحللوا من إحرامكم بالحلقة أو التقصير حتى يصل الهدى المكان الذي يحل ذبحه فيه وهو الحرم أو مكان الإحصار ﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ أي فمن كان منكم معسر المحرمين مريضاً مرضاً يتضرر معه بالشعر فحلق ، أو كان به أذى من رأسه كقمل وصداع فحلق في الإحرام ، فعليه فدية وهي إما صيام ثلاثة أيام أو يتصدق بثلاثة أصع على ستة مساكين أو يذبح ذبيحة وأقلها شاة ﴿فإذا أمنتكم﴾ أي كنتم آمنين من أول الأمر ، أو صرتم بعد الإحصار آمنين ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى﴾ أي من اعتمر في أشهر الحج واستمتع بما يستمتع به غير المحرم من الطيب والنساء وغيرها ، فعليه ما تيسر من الهدى وهو شاة يذبحها شكراً لله تعالى ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعت﴾ أي من لم يجد ثمن الهدى فعليه صيام عشرة أيام ، ثلاثة حين يحرم بالحج وسبعة إذا رجع إلى وطنه ﴿تلك عشرة كاملة﴾ أي عشرة أيام كاملة تجزئ عن الذبح ووثابها كثوابه من غير نقصان ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ أي ذلك التمتع أو الهدى خاص بغير أهل الحرم ، أما سكان الحرم فليس لهم تمتع وليس عليهم هدي ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ أي خافوا الله تعالى بامثال أوامره واجتناب نواهيه واعلموا أن عقابه شديد لمن خالف أمره . ثم بين تعالى وقت الحج فقال ﴿الحج أشهر معلومات﴾ أي وقت الحج هو تلك الأشهر المعروفة بين الناس وهي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ أي من ألزم نفسه الحج بالإحرام والتلبية ﴿فلا رث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ أي لا يقرب النساء ولا يستمتع بهن فإنه مقبل على الله قاصد لرضاه ، فعليه أن يترك الشهوات ، وأن يترك المعاصي والجدال والخصام مع الرفقاء ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ أي وما تقدموا لأنفسكم من خير يجازيكم عليه الله خير الجزاء ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ أي تزودوا لآخرتكم بالتقوى فإنها خير زاد ﴿واتقون يا أولي الألباب﴾ أي خافون واتقوا عقابي يا ذوي العقول والأفهام ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ أي لا حرج ولا إثم عليكم في التجارة في أثناء الحج فإن التجارة الدنيوية لا تنافي العبادة الدينية ، وقد كانوا يتأثمون من ذلك

مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ

فنزلت الآية تبيح لهم الاتجار في أشهر الحج ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ أي إذا دفعتم من عرفات بعد الوقوف بها فاذكروا الله بالدعاء والتضرع والتكبير والتهليل عند المشعر الحرام بالمزدلفة ﴿واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ أي اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة ، واشكروه على نعمة الهداية والإيمان فقد كنتم قبل هدايته لكم في عداد الضالين ، الجاهلين بالإيمان وشرائع الدين ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ أي ثم انزلوا من عرفة حيث ينزل الناس لا من المزدلفة ، والخطاب لقريش حيث كانوا يترفعون على الناس أن يقفوا معهم وكانوا يقولون : نحن أهل الله وسكان حرمه فلا نخرج منه فيقفون في المزدلفة لأنها من الحرم ثم يفيضون منها وكانوا يسمون « الحُمس » فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يأتي عرفة ثم يقف بها ثم يفيض منها ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ أي استغفروا الله عما سلف منكم من المعاصي فإن الله عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدَّ ذكراً﴾ أي إذا فرغتم من أعمال الحج وانتهيتم منها فأكثروا ذكره وبالغوا في ذلك كما كنتم تذكرون آباءكم وتعدون مفاخرهم بل أشدَّ ، قال المفسرون كانوا يقفون بمنى بين المسجد والجبل بعد قضاء المناسك فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم فأمروا أن يذكروا الله وحده ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتينا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾ أي من الناس من تكون الدنيا همه فيقول : اللهم أجعل عطائي ومنحتي في الدنيا خاصة وما له في الآخرة من حظ ولا نصيب ﴿ومنهم من يقول ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة﴾ أي ومنهم من يطلب خيري الدنيا والآخرة وهو المؤمن العاقل ، وقد جمعت هذه الدعوة كل خيرٍ وصرفت كل شر ، فالحسنة في الدنيا تشمل الصحة والعافية ، والدار الرحبة ، والزوجة الحسنة ، والرزق الواسع إلى غير ما هنالك والحسنة في الآخرة تشمل الأمن من الفزع الأكبر ، وتيسير الحساب ، ودخول الجنة ، والنظر إلى وجه الله الكريم الخ ﴿وقنا عذاب النار﴾ أي نجنا من عذاب جهنم ﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب﴾ أي هؤلاء الذين طلبوا سعادة الدارين لهم حظ وافر مما عملوا من الخيرات والله سريع الحساب يحاسب الخلائق بقدر لمحة بصر ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ أي كبروا الله في أعقاب الصلوات وعند رمي الجمرات في أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾ أي من استعجل بالنفر من منى بعد تمام

فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

يومين فنفر فلا حرج عليه ﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾ أي ومن تأخر حتى رمى في اليوم الثالث - وهو النفر الثاني - فلا حرج عليه أيضاً ﴿لمن اتقى﴾ أي ما ذكر من الأحكام لمن أراد أن يتقي الله فيأتي بالحج على الوجه الأكمل ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ أي خافوا الله تعالى واعلموا أنكم مجموعون إليه للحساب فيجازيكم بأعمالكم .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿يبلغ الهدي محلّه﴾ كناية عن ذبحه في مكان الإحصار .

٢ - ﴿فمن كان منكم مريضاً﴾ فيه إيجاز بالحذف أي كان مريضاً فحلق أو به أذى من رأسه فحلق فعليه فدية .

٣ - ﴿وسبعة إذا رجعتم﴾ فيه التفات من الغائب إلى المخاطب وهو من المحسنات البديعية .

٤ - ﴿تلك عشرة كاملة﴾ فيه إجمال بعد التفصيل وهذا من باب « الإطناب » وفائدته زيادة التأكيد والمبالغة في المحافظة على صيامها وعدم التهاون بها أو تنقيص عددها .

٥ - ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة .

٦ - ﴿فلا رفث ولا فسوق﴾ صيغته نفيٌ وحقيقته نهيٌ أي لا يرفث ولا يفسق وهو أبلغ من النهي الصريح لأنه يفيد أن هذا الأمر مما لا ينبغي أن يقع أصلاً فإن ما كان منكراً مستقبلاً في نفسه ففي أشهر الحج يكون أقبح وأشنع ففي الإتيان بصيغة الخبر وإرادة النهي مبالغة واضحة .

٧ - ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم﴾ فيه تشبيه تمثيلي يسمى « مرسلًا مجملًا » .

٨ - المقابلة اللطيفة بين ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا﴾ وبين ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة﴾ . الآية .

فكائِدَةٌ : أصل النسك : العبادة، وسميت ذبيحة الأنعام نسكاً لأنها من أشرف العبادات التي يتقرب بها المؤمن إلى الله تعالى .

فائدة ثانية : زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها ، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم في الآخرة ولهذا ذكر تعالى زاد الآخرة وهو الزاد النافع وفي هذا المعنى يقول الأعشى :

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقى ولا قيتَ بعد الموت من قد تزودا
ندمتَ على ألا تكون كمثلها وأنك لم تُرصدَ كما كان أرصدا

قال الله تعالى : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا . . إلى . . والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾
من آية (٢٠٤) إلى نهاية آية (٢١٢) .

المناسكة : لما ذكر تعالى في الآيات السابقة العبادات التي تُطهّر القلوب ، وتزكّي النفوس كالصيام ، والصدقة ، والحج ، وذكر أن من الناس من يطلب الدنيا ولا غاية له وراءها ، ومنهم من تكون غايته نيل رضوان الله تبارك وتعالى ، أعقبها بذكر نموذجٍ عن الفريقين : فريق الضلالة الذي باع نفسه للشيطان ، وفريق الهدى الذي باع نفسه للرحمن ، ثم حذّر تبارك وتعالى من اتباع خطوات الشيطان ، وبين لنا عداوته الشديدة .

اللغات : ﴿ألدُّ﴾ اللدُّ : شدة الخصومة قال الطبري : الألدُّ : الشديد الخصومة وفي الحديث (إنَّ أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِم) ﴿الحرث﴾ : الزرع لأنه يزرع ثم يحرث ﴿النسل﴾ الذرية والولد ، وأصله الخروج بسرعة ومنه ﴿إلى ربهم ينسلون﴾ وسمي نسلًا لأنه ينسل - يسقط - من بطن أمه بسرعة ﴿العزة﴾ الأنفة والحمية ﴿حسبه﴾ حسب اسم فعل بمعنى كافيهِ ﴿المهاد﴾ : الفراش الممهّد للنوم ﴿يشري﴾ : يبيع ﴿ابتغاء﴾ طلب ﴿السُّلم﴾ بكسر السين بمعنى الإسلام وبتفتحها بمعنى الصلح ، وأصله من الاستسلام وهو الخضوع والانقياد قال الشاعر :

دَعَوْتُ عَشِيرَتِي لِلسُّلْمِ حَتَّى رَأَيْتَهُمْ تَوَكَّؤُوا مُدْبِرِينَا

﴿زلتم﴾ الزل : الانحراف عن الطريق المستقيم وأصله في القدم ثم استعمل في الأمور المعنوية ﴿ظلل﴾ جمع ظلّة وهي ما يستر الشمس ويحجب أشعتها عن الرؤية .

سبب النزول : ١ - روي أن الأحنس بن شريق أتى النبي ﷺ فأظهر له الإسلام وحلف أنه يحبه ، وكان منافقاً حسن العلانية خبيث الباطن ، ثم خرج من عند النبي ﷺ فمرّ بزرعٍ لقومٍ من المسلمين وحمرّ فأحرق الزرع وقتل الحمرّ فأنزّل الله تعالى فيه الآيات ﴿ومن الناس من يعجبك قوله . . الآية إلى قوله : ﴿وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل . .﴾^(١) الآية .

٢ - وروي أن صهيباً الرومي لما أراد الهجرة إلى المدينة المنورة لحقه نفر من قريش من المشركين ليردوه فنزل عن راحلته ونثر ما في كنانته وأخذ قوسه ثم قال : يا معشر قريش لقد علمتم أنني من أركمكم رجلاً ، وإيم الله لا تصلون إليّ حتى أرمي بما في كنانتي ، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ثم افعلوا ما شئتم ، قالوا جئتنا صعلوكاً لا تملك شيئاً وأنت الآن ذو مال كثير !! فقال : رأيتم إن دلتكم على مالي تخلون سبيلي ؟ قالوا نعم فدهم على ماله بمكة فلما قدم المدينة دخل على رسول الله ﷺ فقال له عليه السلام : (ربح البيع صهيب ، ربح البيع صهيب) وأنزل الله عز وجل فيه ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله . .﴾^(٢) الآية .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٤٤﴾
 وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٤٥﴾ وَإِذَا قِيلَ
 لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۖ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٤٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ
 مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٤٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا آدْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ
 ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٤٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٩﴾ هَلْ

التفسير : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله﴾ أي ومن الناس فريق يروقك كلامه يا محمد ويشير إعجابك بخلاصة لسانه وقوة بيانه ، ولكنه منافق كذاب ﴿في الحياة الدنيا﴾ أي في هذه الحياة فقط أما الآخرة فالحاكم فيها علام الغيوب الذي يطلع على القلوب والسرائر ﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾ أي يظهر لك الإيمان وبيارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق ﴿وهو ألد الخصام﴾ أي شديد الخصومة يجادل بالباطل ويتظاهر بالدين والصلاح بكلامه المعسول ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها﴾ أي وإذا انصرف عنك عاث في الأرض فساداً ، وقد نزلت في الأخنس ولكنها عامة في كل منافق يقول بلسانه ما ليس في قلبه « يعطيك من طرف اللسان حلاوة : ويروغ فيك كما يروغ الثعلب » ﴿ويهلك الحرث والنسل﴾ أي يهلك الزرع وما تناسل من الإنسان والحيوان ومعناه أن فساده عام يشمل الحاضر والباد ، فالحرث محل نماء الزروع والثمار ، والنسل وهو نتاج الحيوانات التي لا قوام للناس إلا بهما ، فإفسادهما تدمير للإنسانية ﴿والله لا يحب الفساد﴾ أي يبغض الفساد ولا يحب المفسدين ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ أي إذا وعظ هذا الفاجر وذكر وقيل له انزع عن قولك وفعلك القبيح ، حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الفعل بالإثم والتكبر عن قبول الحق ، فأغرق في الإفساد وأمعن في العناد ﴿فحسبه جهنم ولبيس المهاد﴾ أي يكفيه أن تكون له جهنم فراشاً ومهاداً ، وبئس هذا الفراش والمهاد ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ هذا هو النوع الثاني وهم الأخيار الأبرار ، فبعد أن ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة أتبعه بذكر صفات المؤمنين الحميدة والمعنى ومن الناس فريق من أهل الخير والصلاح باع نفسه لله ، طلباً لمرضاته ورغبة في ثوابه لا يتحرى بعمله إلا وجه الله ﴿والله رءوف بالعباد﴾ أي عظيم الرحمة بالعباد يضاعف الحسنات ويعفو عن السيئات ولا يعجل العقوبة لمن عصاه . . ثم أمر تعالى المؤمنين بالانقياد لحكمه والاستسلام لأمره والدخول في الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً سواه فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾ أي ادخلوا في الإسلام بكلية في جميع أحكامه وشرائعه ، فلا تأخذوا حكماً وتتركوا حكماً ، لا تأخذوا بالصلاة وتمنعوا الزكاة مثلاً فالإسلام كل لا يتجزأ ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ أي لا تتبعوا طرق الشيطان وإغواءه فإنه عدو لكم ظاهر العداوة ﴿فإن زلتم من بعد ما جاءتكم البيِّنات﴾ أي إن انحرفتم عن الدخول في الإسلام من بعد مجيء الحجج

يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلِّ
بَنِي إِسْرَائِيلَ كَرَّمَاتِنَهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيْنَهُ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾
زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ
مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

الباهرة والبراهين القاطعة على أنه حق ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ أي اعلموا أن الله غالب لا يعجزه الانتقام ممن عصاه حكيم في خلقه وصنعه ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظللٍ من الغمام والملائكة﴾ أي ما ينتظرون شيئاً إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق^(١) حيث تنشق السماء وينزل الجبار عز وجل في ظللٍ من الغمام وحمة العرش والملائكة الذين لا يعلم كثرتهم إلا الله ولهم زجل من التسبيح يقولون : سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان ذي العزة والجبروت ، سبحان الحي الذي لا يموت ، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت ، سبح قدوس رب الملائكة والروح ﴿وقضي الأمور إلى الله ترجع الأمور﴾ أي انتهى أمر الخلائق بالفصل بينهم فريق في الجنة وفريق في السعير ، وإلى الله وحده مرجع الناس جميعاً . والمقصود تصوير عظمة يوم القيامة وهولها وشدتها وبيان أن الحاكم فيها هو ملك الملوك جل وعلا الذي لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه وهو أحكم الحاكمين . . ثم قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم ﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة﴾ أي سل يا محمد بني إسرائيل - توبيخاً لهم وتقريعاً - كم شاهدوا مع موسى من معجزات باهرات وحجج قاطعات تدل على صدقه ومع ذلك كفروا ولم يؤمنوا ﴿ومن يبديل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾ أي من يبديل نعم الله بالكفر والجحود بها فإن عقاب الله له أليم وشديد ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾ أي زينت لهم شهوات الدنيا ونعيمها حتى نسوا الآخرة وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهافتوا عليها وأعرضوا عن دار الخلود . ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ أي وهم مع ذلك يهزءون ويسخرون بالمؤمنين يرمونهم بقلة العقل لتركهم الدنيا وإقبالهم على الآخرة كقوله ﴿إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾ قال تعالى رداً عليهم ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ أي والمؤمنون المتقون لله فوق أولئك الكافرين منزلةً ومكانة ، فهم في أعلى عليين وأولئك في أسفل سافلين ، والمؤمنون في الآخرة في أوج العز والكرامة والكافرون في حضيض الذل والمهانة ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي والله يرزق أوليائه رزقاً واسعاً رغداً ، لا فناء له ولا انقطاع كقوله ﴿يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ أو يرزق في الدنيا من شاء من خلقه ويوسع

(١) ذهب الإمام الفخر إلى أن معنى قوله ﴿أن يأتيهم الله﴾ أي يأتيهم أمره وبأسه فهو على حذف مضاف مثل قوله ﴿واسأل القرية﴾ وهو مجاز مشهور يقال ضرب الأمير فلانا وصلبه وأعطاه والمراد أنه أمر بذلك واستدل على صحة هذا التأويل بالآية الأخرى ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك﴾ وما أثبتناه من تفسير ابن كثير هو مذهب السلف وهو عدم التأويل وتفويض معنى الآية على سبيل التفصيل إلى الله

على من شاء مؤمناً كان أو كافراً ، براً أو فاجراً على حسب الحكمة والمشئمة دون أن يكون له محاسب سبحانه وتعالى .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿أخذته العزة بالإثم﴾ ذكر لفظ الإثم بعد قوله العزة يسمى عند علماء البديع بـ « التتميم » لأنه ربما يتوهم أن المراد عزة الممدوح فذكر بالإثم ليشير إلى أنها عزة مذمومة .

٢ - ﴿ولبئس المهاد﴾ هذا من باب التهكم أي جعلت لهم جهنم غطاءً ووطاءً فأكرم بذلك كما تكرم الأم ولدها بالغطاء والوطاء اللينين .

٣ - ﴿هل ينظرون﴾ استفهام إنكاري في معنى النفي بدليل مجيء إلا بعدها أي ما ينتظرون .

٤ - ﴿في ظلل من الغمام﴾ التنكير للتحويل فهي في غاية الهول والمهابة لما لها من الكثافة التي تغم على الرائي ما فيها وقوله ﴿وقضي الأمر﴾ هو عطف على المضارع ﴿يأتيهم الله﴾ وإنما عدل إلى صيغة الماضي دلالة على تحققه فكأنه قد كان .

٥ - ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة .

٦ - ﴿زَيْنٍ . . ويسخرون﴾ أورد التزيين بصيغة الماضي لكونه مفروغاً منه مركزاً في طبيعتهم وعطف عليه بالفعل المضارع ﴿ويسخرون﴾ للدلالة على استمرار السخرية منهم لأن صيغة المضارع تفيد الدوام والاستمرار .

تنبیه: قال ابن تيمية رحمه الله في رسالته التدمرية : « وصفه تعالى نفسه بالإتيان في ظلل من الغمام كوصفه بالمجيء في آيات أخر ونحوهما مما وصف به نفسه في كتابه أو صحَّ عن رسوله ﷺ والقول في جميع ذلك من جنس واحد وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها ، إنهم يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، والقول في صفاته كالقول في ذاته والله تعالى ليس كمثل شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله فلو سأل سائل : كيف يجيء سبحانه ؟ فليقل له : كما لا تعلم كيفية ذاته كذلك لا تعلم كيفية صفاته » .

قال الله تعالى : ﴿كان الناس أمة واحدة . . إلى . . أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾

من آية (٢١٣) إلى نهاية آية (٢١٨) .

المناسكة : ذكر سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أن الناس فريقان : فريق يسعى في الأرض فساداً ويضل الناس بخلافة لسانه وقوة بيانه ، وفريق باع نفسه للحق بيتغي به رضى الله ولا يرجو أحداً سواه ، ولما كان لا بد من التنازع بين الخير والشر ، ولا بد للحق من سيفٍ وصلت إلى جانبه لذا شرع الله للمؤمنين أن يحملوا السيف مناضلين وشرع الجهاد دفاعاً للعدوان وردعاً للظلم والطغيان .

اللغتم: ﴿بغياً﴾ البغي: العدوان والطغيان ﴿وزلزلوا﴾ مأخوذ من زلزلة الأرض وهو اضطرابها والزلزلة: التحريك الشديد ﴿كره﴾ مكروه تكرهه نفوسكم قال ابن قتيبة: الكره بالضم المشقة وبالفتح الإكراه والقهر ﴿صد﴾ الصد: المنع يقال: صدته عن الشيء أي منعه عنه ﴿يرتد﴾ يرجع والردة الرجوع من الإيمان إلى الكفر قال الراغب: الارتداد والردة: الرجوع في الطريق الذي جاء منه لكن الردة تختص بالكفر، والارتداد يستعمل فيه وفي غيره قال تعالى ﴿فارتدا على آثارهما قصصاً﴾^(١) ﴿حبط﴾ بطلت وذهبت قال في اللسان: حبط عمل عملاً ثم أفسده وفي التنزيل ﴿فأحبط أعمالهم﴾ أي أبطل ثوابهم ﴿يرجون﴾ الرجاء: الأمل والطمع في حصول ما فيه نفع ومصلحة^(٢).

سبب النزول: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش على سرية ليرصدوا عيراً لقريش فيها « عمرو بن الحضرمي » وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير بما فيها من تجارة، وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنون من جمادى الآخرة فقالت قريش: قد استحل محمد الشهر الحرام، شهراً يأمن فيه الخائف ويتفرق فيه الناس إلى معاشهم وعظم ذلك على المسلمين فنزلت ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه.. الآية».

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفُوا فِيهِ وَمَا اختلف فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اختلفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ

التفسير: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ أي كانوا على الإيمان والفترة المستقيمة فاختلّفوا وتنازعوا ﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾ أي بعث الله الأنبياء لهداية الناس مبشرين للمؤمنين وبنجات النعيم ومنذرين للكافرين بعذاب الجحيم ﴿وأُنزل معهم الكتاب بالحق﴾ أي وأنزل معهم الكتب السماوية لهداية البشرية حال كونها منزلة بين الناس في أمر الدين الذي اختلفوا فيه ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه﴾ أي وما اختلف في الكتاب الهادي المنير المنزل لإزالة الاختلاف إلا الذين أعطوا الكتاب أي إنهم عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أنزل لإزالة الاختلاف سبباً لاستحكامه ورسوخه ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي من بعد ظهور الحجج الواضحة والدلائل القاطعة على صدق الكتاب فقد كان خلافهم عن بيّنة وعلم لا عن غفلة وجهل ﴿بغياً بينهم﴾ أي حسداً من الكافرين للمؤمنين ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ أي هدى الله المؤمنين للحق الذي اختلف فيه أهل الضلالة بتيسيره ولطفه ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي يهدي من يشاء هدايته إلى طريق الحق الموصل إلى جنات النعيم ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ أي بل ظننتم يا معشر المؤمنين أن تدخلوا الجنة بدون ابتلاء وامتحان

أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَأَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ

واختبار ﴿ ولما يأتكم مثل الذين من قبلكم ﴾ أي والحال لم ينلکم مثل ما نال من سبقکم من المؤمنین من المحن الشديدة ، ولم تُبتلوا بمثل ما ابتلوا به من النكبات ﴿ مسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ ﴾ أي أصابتهم الشدائد والمصائب والنواب ﴿ وزلُّوا ﴾ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴿ ؟ أي أزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة حتى وصل بهم الحال أن يقول الرسول والمؤمنون معه متى نصر الله ؟ أي متى يأتي نصر الله وذلك استبطاءً منهم للنصر لتناهي الشدة عليهم ، وهذا غاية الغايات في تصوير شدة المحنة ، فإذا كان الرسل - مع علو كعبهم في الصبر والثبات - قد عيل صبرهم وبلغوا هذا المبلغ من الضجر والضييق كان ذلك دليلاً على أن الشدة بلغت منتهاها قال تعالى جواباً لهم ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾ أي ألا فأبشروا بالنصر فإنه قد حان أوانه ﴿ ولينصرنَّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾ ثم قال تعالى ﴿ يسألونك ماذا ينفقون ﴾ أي يسألونك يا محمد ماذا ينفقون وعلى من ينفقون ؟ وقد نزلت لما قال بعض الصحابة يا رسول الله : ماذا نفق من أموالنا وأين نضعها ؟ ﴿ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمسكين وابن السبيل ﴾ أي قل لهم يا محمد اصرفوها في هذه الوجوه ﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾ أي وكل معروف تفعلونه يعلمه الله وسيجزىكم عليه أوفر الجزاء ، ثم قال تعالى مبيناً حكمة مشروعية القتال في الإسلام ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ أي فرض عليكم قتال الكفار أيها المؤمنون وهو شاق ومكروه على نفوسكم لما فيه من بذل المال وخطر هلاك النفس ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ أي ولكن قد تكره نفوسكم شيئاً وفيه كل النفع والخير ﴿ وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ أي وقد تحب نفوسكم شيئاً وفيه كل الخطر والضرر عليكم ، فلعل لكم في القتال - وإن كرهتموه - خيراً لأن فيه إما الظفر والغنيمة أو الشهادة والأجر ، ولعل لكم في تركه - وإن أحببتموه - شراً لأن فيه الذل والفقر وحرمان الأجر ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ أي الله أعلم بعواقب الأمور منكم وأدرى بما فيه صلاحكم في دنياكم وآخرتكم فبادروا إلى ما يأمركم به ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد عن القتال في الشهر الحرام أي هل لهم القتال فيه ؟ ﴿ قل قتال فيه كبير ﴾ أي قل لهم القتال فيه أمره كبير ووزره عظيم ولكن هناك ما هو أعظم وأخطر وهو ﴿ صدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ﴾ أي ومنع المؤمنین عن دين الله وكفرهم بالله وصدُّهم عن

وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ
 حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ
 أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا
 وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

المسجد الحرام - يعني مكة - وإخراجكم من البلد الحرام وأنتم أهله وحماته ، كل ذلك أعظم وزراً وذنوباً عند
 الله من قتل من قتلتم من المشركين ، فإذا استعظموا قتالكم لهم في الشهر الحرام فليعلموا أن ما ارتكبه في
 حق النبي والمؤمنين أعظم وأشنع ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ أي فتنة المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر
 بعد إيمانه أكبر عند الله من القتل ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ أي ولا
 يزالون جاهدين في قتالكم حتى يعيدوكم إلى الكفر والضلال إن قدروا فهم غير نازعين عن كفرهم
 وعدوانهم ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ أي ومن
 يستجب لهم منكم فيرجع عن دينه ويرتد عن الإسلام ثم يموت على الكفر فقد بطل عمله الصالح في
 الدارين وذهب ثوابه ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي وهم مخلدون في جهنم لا يخرجون
 منها أبداً ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله﴾ أي إن المؤمنين الذين فارقوا الأهل
 والأوطان وجاهدوا الأعداء لإعلاء دين الله ﴿أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ أي أولئك
 الموصوفون بما ذكرهم الجديرون بأن ينالوا رحمة الله والله عظيم المغفرة ، واسع الرحمة .

البالغة : ١ - ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ فيه إيجاز بالحذف أي كانوا أمة واحدة على الإيمان
 متمسكين بالحق فاختلّفوا فبعث الله النبيين ودلّ على المحذوف قوله ﴿ليحكم بين الناس فيما اختلفوا
 فيه﴾ .

٢ - ﴿أم حسبتم﴾ أم منقطعة والهمزة فيها للإنكار والاستبعاد أي بل أحسبتم ففيه استفهام
 إنكاري .

٣ - ﴿ولمّا يأتكم﴾ لمّا تدل على النفي مع توقع وقوع المنفي كما قال الزمخشري والمعنى : لمّا ينزل بكم
 مثل ما نزل بمن قبلكم وسينزل فإن نزل فاصبروا قال المبرد : إذا قال القائل : لم يأتني زيد فهو نفي لقولك
 أتاك زيد ؟ وإذا قال : لمّا يأتني فمعناه أنه لم يأتني بعد وأنا أتوقّعه وعلى هذا يكون إتيان الشدائد على
 المؤمنين متوقّعاً منتظراً .

٤ - ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ في هذه الجملة عدة مؤكّدات تدل على تحقق النصر أولاً : بدء الجملة
 بأداة الاستفتاح «ألا» التي تفيد التأكيد، ثانياً : ذكر «إن» الدالة على التوكيد أيضاً، ثالثاً : إيثار الجملة

الإسمية على الفعلية فلم يقل « ستنصرون » والتعبير بالجملة الإسمية يفيد التأكيد رابعاً : إضافة النصر إلى رب العالمين القادر على كل شيء .

٥ - ﴿وهو كره لكم﴾ وضع المصدر موضع اسم المفعول « كره » مكان « مكروه » للمبالغة كقول الخنساء : فإنما هي إقبال وإدبار .

٦ - ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً . . . وعسى أن تحبوا شيئاً﴾ بين الجملتين من المحسنات البديعية ما يسمى بـ « المقابلة » فقد قابل بين الكراهية والحب ، وبين الخير والشر .

٧ - ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ طباق بالسلب .

فكائِدَة : عبرت تعالى بصيغة الواحد عن كتب النبيين ﴿وأُنزِلَ معهم الكتاب﴾ للإشارة إلى أن كتب النبيين وإن تعددت هي في لبها وجوهرها كتاب واحد لاشتغالها على شرع واحد في أصله كما قال تعالى ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك . . . الآية .

تنبية : روى البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون .

قال الله تعالى : ﴿يسألونك عن الخمر والميسر . . . إلى . . . والله غفور حلِيم﴾
من آية (٢١٩) إلى نهاية آية (٢٢٥).

المناسِبة : لما ذكر تعالى في الآيات السابقة أحكام القتال ، وبيّن الهدف السامي من مشروعيته وهو نصرة الحق وإعزاز الدين وحماية الأمة من أن يلتهمها العدو الخارجي ، ذكر بعدها ما يتعلق بإصلاح المجتمع الداخلي على أسس من الفضيلة والخلق الكريم ، ولا بدّ للدولة من الإصلاح الداخلي والخارجي لتقوم دعائمها على أسسٍ متينة وتبقى صرحاً شامخاً لا تؤثر فيه الأعاصير .

اللغز : ﴿الخمر﴾ المسكر من الأشربة سميت خمرًا لأنها تستر العقل وتغويه ومنه خمرت الإناء أي غطيته ﴿الميسر﴾ القمار وأصله من اليسر لأنه كسب من غير كد ولا تعب ، وقيل من اليسار لأنه سبب الغنى ﴿إثم﴾ الإثم : الذنب وجمعه آثام وتسمى الخمر بـ « الإثم » لأن شرها سبب في الإثم قال الشاعر :

شربت الإثم حتى ضلّ عقلي كذاك الإثم تذهب بالعقول
﴿العفو﴾ الفضل والزيادة على الحاجة ﴿أعنتكم﴾ أوقعكم في الحرج والمشقة ، وأصل العنت : المشقة

﴿أُمَّة﴾ الأُمَّة : المملوكة بملك اليمين وهي تقابل الحرة وجمعها إماء ﴿المحيض﴾ مصدر بمعنى الحيض كالعيش بمعنى العيش ، وأصل الحيض : السيلان يقال : حاض السيل وفاض وحاضت الشجرة أي سالت ويقال للمرأة حائض وحائضة وأنشد الفراء : « كحائضة يُزنى بها غيرَ طاهر » ﴿حرث﴾ الحرث : إلقاء البذر في الأرض قاله الراغب وقال الجوهري : الحرث : الزرع ، والحرث الزارع ومعنى حرث أي مزرع ومنبت للولد على سبيل التشبيه^(١) ﴿عُرْضَةٌ﴾ مانعاً وكل ما يعترض فيمنع عن الشيء فهو عُرْضَةٌ ولهذا يقال للسحاب : عارض لأنه يمنع رؤية الشمس . ﴿اللغو﴾ الساقط الذي لا يعتد به سواء كان كلاماً أو غيره ولغو الطائر : تصويته .

سَبَبُ النُّزُولِ : أ - جاء جماعة من الأنصار فيهم عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقالوا : أفتنا في الخمر والميسر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال فأنزل الله ﴿يسألونك عن الخمر والميسر . . .﴾ الآية .

ب - عن ابن عباس قال : لما أنزل الله ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ انطلق من كان عنده مال يتيم فعزل طعامه من شرابه وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد واشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير . . .﴾ الآية .

ج - عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت منهم امرأة أخرجوها من البيت فلم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيت ، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله عز وجل ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى . . .﴾ الآية .

* **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١٦٦﴾** فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ

النَّفْسِ : ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ أي يسألونك يا محمد عن حكم الخمر وحكم القمار ﴿قل فيها إثم كبير ومنافع للناس﴾ أي قل لهم إن في تعاطي الخمر والميسر ضرراً عظيماً وإثماً كبيراً ومنافع مادية ضئيلة ﴿وإثمها أكبر من نفعها﴾ أي ضررها أعظم من نفعها فإن ضياع العقل وذهاب المال وتعريض البدن للمرض في الخمر ، وما يجره القمار من خراب البيوت ودمار الأسر وحدوث العداوة والبغضاء بين اللاعنين ، كل ذلك محسوس مشاهد وإذا قيس الضرر الفادح بالنفع التافه ظهر خطر المنكر الخبيث ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ أي ويسألونك ماذا ينفقون وماذا يتركون من أموالهم ؟ قل لهم : أنفقوا الفاضل عن الحاجة ولا تنفقوا ما تحتاجون إليه وتضيعوا أنفسكم ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ أي كما يبين لكم الأحكام يبين لكم المنافع والمضار والحلال والحرام ﴿لعلكم تتفكرون﴾ في الدنيا والآخرة أي لتفكروا في أمر الدنيا والآخرة فتعلموا أن الأولى فانية والآخرة باقية فتعملوا لما هو

(١) الصحاح للجوهري مادة حرث .

الْيَتَمَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبِدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١١١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ

أصلح ، والعاقلة من أثر ما يبقى على ما يفنى . ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ﴾ أي ويسألونك يا محمد عن مخالطة اليتامى في أموالهم أئجالطونهم أم يعتزلونهم ؟ فقل لهم : مداخلتهم على وجه الإصلاح خير من اعتزالهم ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ أي إذا خلطتم أموالهم بأموالكم على وجه المصلحة لهم فهم إخوانكم في الدين ، وأخوة الدين أقوى من أخوة النسب ، ومن حقوق هذه الأخوة المخالطة بالإصلاح والنفع ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ أي والله تعالى أعلم وأدرى بمن يقصد بمخالطتهم الخيانة والإفساد لأموالهم ، ويعلم كذلك من يقصد لهم الإصلاح فيجازي كلاً بعمله ﴿ ولو شاء الله لأعتبكم ﴾ أي لو شاء تعالى لأوقعكم في الحرج والمشقة وشدّد عليكم ولكنه يسر عليكم الدين وسهله رحمة بكم ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ أي هو تعالى الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء الحكيم فيما يشرع لعباده من الأحكام ثم قال تعالى محذراً من زواج المشرك اللواتي ليس هن دين سماوي ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنن ﴾ أي لا تتزوجوا أيها المسلمون بالمشركات من غير أهل الكتاب حتى يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ﴾ أي ولأمة مؤمنة خير وأفضل من حرة مشركة ، ولو أعجبتكم المشركة بجماها وما لها وسائر ما يوجب الرغبة فيها من حسب أو جاه أو سلطان ﴿ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ﴾ أي ولا تتزوجوا بناتكم من المشركين - وثنيين كانوا أو أهل كتاب - حتى يؤمنوا بالله ورسوله ﴿ ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبتكم ﴾ أي ولأن تزوجوهن من عبد مؤمن خير لكم من أن تزوجوهن من حر مشرك مهما أعجبتكم في الحسب والنسب والجمال ﴿ أولئك يدعون إلى النار ﴾ أي أولئك المذكورون من المشركين والمشركات الذين حرمت عليكم مصاهرتهم ومناكحتهم يدعونكم إلى ما يوصلكم إلى النار وهو الكفر والفسوق فحقكم ألا تتزوجوا منهم ولا تزوجوهم ﴿ والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ﴾ أي هو تعالى يريد بكم الخير ويدعوكم إلى ما فيه سعادتكم وهو العمل الذي يوجب الجنة ومغفرة الذنوب ﴿ ويبيّن آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ أي يوضح حججه وأدلته للناس ليتذكروا فيميزوا بين الخير والشر والخبيث والطيب . . ثم بيّن تعالى أحكام الحيض فقال ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ﴾ ويسألونك يا محمد عن إتيان النساء في حالة الحيض أجل أم يجرم ؟ فقل لهم : إنه شيء مستقذر ومعاشرتهن في هذه الحالة فيه أذى للزوجين ﴿ فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾ أي اجتنبوا معاشرتهن في حالة الحيض ﴿ ولا تقربوهن

حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي
 شَتَمْتُ وَقَدِّمُوا لِنَفْسِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ
 أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ
 بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

حتى يَطْهَرْنَ ﴿٢٢٢﴾ أي لا تجامعوهن حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن . والمراد التنبيه على أن الغرض عدم
 المعاشرة لا عدم القرب منهن وعدم مؤاكلتهن ومجالستهن كما كان يفعل اليهود إذا حاضت عندهم المرأة
 ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي فإذا تطهَّرن بالماء فأتوهنَّ في المكان الذي أحله الله لكم ،
 وهو مكان النسل والولد القَبْل لا الدبر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي يحبُّ التائبين
 من الذنوب ، المتزهرين عن الفواحش والأقذار ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شَتَمْتُ﴾ أي نساؤكم
 مكان زرعكم وموضع نسلكم وفي أرحامهن يتكوّن الولد ، فأتوهن في موضع النسل والذرية ولا تتعدوه
 إلى غيره قال ابن عباس : « اسق نباتك من حيث ينبت » ومعنى ﴿أَنِّي شَتَمْتُ﴾ أي كيف شتّم قائمة وقاعدة
 ومضطجعة بعد أن يكون في مكان الحرث « الفرج » وهو ردُّ لقول اليهود : إذا أتى الرجل امرأته في قُبْلِهَا
 من دبرها جاء الولد أحول ﴿وقدّموا لأنفسكم﴾ أي قدّموا صالح الأعمال التي تكون لكم ذخراً في الآخرة
 ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه﴾ أي خافوا الله باجتناب معاصيه وأيقنوا بأن مصيركم إليه
 فيجازيكم بأعمالكم ﴿وبشّر المؤمنين﴾ أي بشرهم بالفوز العظيم في جنات النعيم ﴿ولا تجعلوا الله عرضة
 لأيمانكم﴾ أي لا تجعلوا الحلف بالله سبباً مانعاً عن فعل الخير فتعللوا باليمين بأن يقول أحدكم : قد
 حلفتُ بالله ألا أفعله وأريد أن أبرّ بيمينتي بل افعلوا الخير وكفّروا عن أيمانكم قال ابن عباس : لا تجعلنَّ
 الله عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير ولكن كفّر عن يمينك واصنع الخير ﴿أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين
 الناس﴾ أي لا تجعلوه تعالاً سبباً مانعاً عن البر والتقوى والإصلاح بين الناس وقد نزلت في «عبد الله بن
 رواحة» حين حلف ألا يكلم خنته «النعمان بن بشير» ولا يصلح بينه وبين أخته ﴿والله سميعٌ عليمٌ﴾ أي
 سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم . . ثم قال تعالى ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ أي لا
 يؤاخذكم بما جرى على لسانكم من ذكر اسم الله من غير قصد الحلف كقول أحدكم : بلى والله ، ولا
 والله لا يقصد به اليمين ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ أي يؤاخذكم بما قصدتم إليه وعقدتم
 القلب عليه من الإيمان إذا حثتم فيها ﴿والله غفورٌ حلِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة لا يعاجل عباده بالعقوبة .

(١) وقيل المعنى : لا تكثرُوا الحلف فتجعلوا الله هدفاً لأيمانكم تتبدلون اسمه الأعظم في كل شيء قليل أو كثير ، عظيم أو حقير إرادة أن تبروا
 وتتقوا وتصلحوا فإن الحلف لا يكون براً ولا تقياً .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ فيه إيجاز بالحذف أي عن شرب الخمر وتعاطي الميسر .

٢ - ﴿وإثمها أكبر من نفعها﴾ هذا من باب التفصيل بعد الإجمال وهو ما يسمى في البلاغة بـ « الإطناب » .

٣ - ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ فيه تشبيه مرسلٌ مجملٌ .

٤ - ﴿المفسد من المصلح﴾ في الآية طباقٌ بين كلمة « المفسد » و « المصلح » وهو من المحسنات البديعية .

٥ - ﴿يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة﴾ كذلك يوجد طباق بين كلمة « النار » وكلمة « الجنة » .

٦ - ﴿قل هو أذى﴾ فيه تشبيه بليغ حيث حذف أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً وأصله الخيض شيء مستقذر كالأذى فحذف ذلك مبالغة على حد قولهم : عليّ أسد .

٧ - ﴿ولا تقربوهن﴾ كناية عن الجماع .

٨ - ﴿نساؤكم حرث﴾ على حذف مضاف أي موضع حرث أو على سبيل التشبيه للمرأة كالأرض ، والنظفة كالبذر ، والولد كالنبات الخارج ، فالحرث بمعنى المحترث سمي به على سبيل المبالغة .

الفَوَائِد : الأولى : تسمى الخمر أم الخبائث لأنها سبب في كل فعل قبيح ، روى النسائي عن عثمان رضي الله عنه أنه قال « اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث ، إنه كان رجل ممن قبلكم متعبداً فعلقته امرأة غوية فأرسلت إليه جاريتها فقالت له : إنا ندعوك للشهادة فانطلق مع جاريتها ، ففطقت كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة ، عندها غلامٌ وباطية خمر فقالت : إني ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع عليّ أو تشرب من هذه الخمر كأساً أو تقتل هذا الغلام ، قال فاسقيني من هذه الخمر كأساً فسقته كأساً فقال : زيدوني فزادوه فلم يبرح حتى وقع عليها وقتل النفس ، فاجتنبوا الخمر فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه .»

الثانية : كيف يكون في الخمر منافع مع أنها تذهب بالعقل والمال ؟ والجواب أن المراد بالمنافع في الآية « المنافع المادية » حيث كانوا يتاجرون بها فيربحون منها الربح الفاحش ويحتمل أن يراد بالنع تلك اللذة والنشوة المزعومة التي عبر عنها الشاعر بقوله :

ونشربها فتركنا ملوكاً وأسداً ما ينهنها اللقاء

قال القرطبي : وشارب الخمر يصير ضحكةً للعقلاء فيلعب ببوله وعذرتة وربما يمسح وجهه حتى رؤي بعضهم يمسح وجهه ببوله ويقول : اللهم اجعلني من التوايين واجعلني من المتطهرين ورؤي بعضهم

والكلب يلحس وجهه وهو يقول : أكرمك الله كما أكرمتني^(١)

الثالثة : قال الزمخشري : ﴿فاعتزلوا النساء﴾ ﴿من حيث أمركم الله﴾ ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة ، وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة ، على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلموا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر . . إلى . . وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾
من آية (٢٢٦) إلى نهاية آية (٢٣٠).

المناسكبة : ذكر تعالى في الآيات السابقة بعض الأمراض الاجتماعية التي تنخر جسم الأمة وتحل عرى الجماعة وتوقع بينهم العداوة والبغضاء كالخمر والميسر ، ثم انتقل إلى الحديث عن الأسرة باعتبار أنها النواة الأولى لبناء المجتمع الفاضل ، فبصلاح الأسرة يصلح المجتمع وبفسادها يفسد المجتمع ، وابتداء من أحكام الأسرة بالعلاقة الزوجية ونبه على ضرورة أن يكون الاختيار على أساس الدين لتظل العلاقة موثقة بروابط المودة والرحمة والإخلاص ، فالمشركة لا يحل لها أن تكون في حجر المسلم ، والمؤمنة لا يحل لها أن تكون تحت سلطان الرجل المشرك ولهذا حرّم الإسلام الزواج بالمشركات وتزويج المشركين بالمؤمنات ، ثم بين في هذه الآيات الكريمة بعض الأمراض التي تحل بالأسرة وتهدد كيانها فذكر منها الإيلاء ، والطلاق ، والخلع وبين العلاج الناجع لمثل هذه المشاكل التي تقوّض ببيان الأسرة .

اللفظ : ﴿يؤلون﴾ الإيلاء لغة : الحلف يقال : آلى يؤال إيلاءً قال الشاعر :

فأليت لا أنفك أحدو قصيدةً تكون وإياها بها مثلاً بعدي

وفي الشرع : اليمين على ترك وطء الزوجة ﴿تربص﴾ التربص : الانتظار ومنه ﴿قل تربصوا فإنني معكم من المتربصين﴾ أي انتظروا ﴿فأءوا﴾ الفيء : الرجوع ومنه قيل للظل فيء لأنه يرجع بعد أن تقلص قال الفراء : العرب تقول فلان سريع الفيء أي سريع الرجوع بعد الغضب قال الشاعر :

ففاءت ولم تقض الذي أقبلت له ومن حاجة الإنسان ما ليس قاضياً

﴿قروء﴾ جمع قرء اسم يقع على الحيض والطمهر فهو من الأضداد وأصل القرء : الاجتماع سمي به الحيض لاجتماع الدم في الرحم قال في القاموس : القرء بالفتح ويضم : الحيض والطمهر والوقت ، وجمع الطمهر قروء ، وجمع الحيض أقرء ﴿بعولتهن﴾ جمع بعل ومعناه الزوج ﴿وهذا بعلي شيخاً﴾ والمرأة بعله ﴿درجة﴾ الدرجة : المنزلة الرفيعة ﴿الطلاق﴾ مصدر طلقت المرأة ومعنى الطلاق : حل عقد النكاح وأصله الانطلاق والتخليه يقال : ناقة طالق أي مهملة تركت في المرعى بلا قيد ولا راعي ، فسميت المرأة المخلى سبيلها طالقاً لهذا المعنى ﴿تسريح﴾ التسريح : إرسال الشيء ومنه تسريح الشعر ليخلص البعض من

البعض ، وسرَّح الماشية أرسلها قال الراغب : والتسريح في الطلاق مستعارٌ من تسريح الإبل كالطلاق مستعار من إطلاق الإبل^(١) .

سَبَبُ الزَّوْلِ : كان الرجل في الجاهلية يطلق امرأته ما شاء من الطلاق ثم يراجعها قبل أن تنقضي عدتها ولو طلقها ألف مرة كان له الحق في مراجعتها ، فعمد رجل لامرأته فقال لها : لا أويك ولا أدعك تحلين قالت : وكيف ؟ قال أطلقك فإذا دنا مضى عدتك راجعتك ، فشكت المرأة أمرها للنبي ﷺ فأنزل الله ﴿الطلاق مرتان . . . الآية .

لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرْبُصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءَ وَإِن فَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِن عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَأَمْطَلَقْتُ يَتَرَبَّصَنَّ بِنَفْسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلهنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيَنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ أَطْلَقُ مَرَّتَانِ فِيمَا سَأَلْتُ

النَّفْسِيرُ : ﴿لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرْبُصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أي للذين يملفون ألا يجامعوا نساءهم للإضرار بهن انتظار أربعة أشهر ﴿فَإِن فَاءَ وَإِن فَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إن رجعوا إلى عشرة أزواجهن بالمعروف - وهو كناية عن الجماع - أي رجعوا عن اليمين إلى الوطء فإن الله يغفر ما صدر منهم من إساءة ويرحمهم ﴿وَإِن عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي وإن صمموا على عدم المعاشرة والامتناع عن الوطء فإن الله سميعٌ لأقوالهم عليمٌ بنياتهم ، والمراد من الآية أن الزوج إذا حلف ألا يقرب زوجته تنتظره الزوجة مدة أربعة أشهر فإن عاشرها في المدة فيها ونعمت ويكون قد حنث في يمينه وعليه الكفارة ، وإن لم يعاشرها وقعت الفرقة والطلاق بمضي تلك المدة عند أبي حنيفة ، وقال الشافعي : ترفع أمره إلى الحاكم فيأمره إما بالفئته أو الطلاق فإن امتنع عنها طلق عليه الحاكم هذا هو خلاصة حكم الإيلاء . . ثم قال تعالى مبيناً أحكام العدة والطلاق الشرعي ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ أي الواجب على المطلقات الحرائر المدخول بهن أن ينتظرن مدة ثلاثة أطهار - على قول الشافعي ومالك - أو ثلاث حيض على قول أبي حنيفة وأحمد ثم تتزوج إن شاءت بعد انتهاء عدتها ، وهذا في المدخول بها أما غير المدخول بها فلا عدة عليها لقوله تعالى ﴿فما لكم عليهن من عدة﴾ ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ أي لا يباح للمطلقات أن يخفين ما في أرحامهن من حبلٍ أو حيض استعجالاً في العدة وإبطالاً لحق الزوج في الرجعة ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي إن كنَّ حقاً مؤمنات بالله ويخشين من عقابه ، وهذا تهديد لهن حتى يخبرن بالحق من غير زيادة ولا نقصان لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن ﴿وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أي وأزواجهن أحقُّ بهن في الرجعة من التزويج للأجانب إذا لم تنقض عدتهن

بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ^ط
 فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ
 حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا
 جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يَبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

وكان الغرض من الرجعة الإصلاحي لا الإضرار، وهذا في الطلاق الرجعي ﴿ولهنَّ مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ أي وهنَّ على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن ، بالمعروف الذي أمر تعالى به من حسن العشرة وترك الضرر ونحوه ﴿وللرجال عليهنَّ درجة﴾ أي وللرجال على النساء ميزة وهي فيما أمر تعالى به من القوامة والإنفاق والإمارة ووجوب الطاعة فهي درجة تكليف لا تشريف لقوله تعالى ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي غالب ينتقم ممن عصاه حكيم في أمره وتشريعه ثم بين تعالى طريقة الطلاق الشرعية فقال ﴿الطلاق مرتان فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ أي الطلاق المشروع الذي يملك به الزوج الرجعة مرتان وليس بعدها إلا المعاشرة بالمعروف مع حسن المعاملة أو التسريح بإحسان ألا يظلمها من حقها شيئاً ولا يذكرها بسوء ولا ينفّر الناس عنها ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً﴾ أي لا يحل لكم أيها الأزواج أن تأخذوا مما دفعتم إليهن من المهور شيئاً ولو قليلاً ﴿إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾ أي إلا أن يخاف الزوجان سوء العشرة وألا يرعيا حقوق الزوجية التي أمر الله تعالى بها ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ أي فإن خفتم سوء العشرة بينهما وأرادت الزوجة أن تحتلج بالنزول عن مهرها أو بدفع شيء من المال لزوجها حتى يطلقها فلا إثم على الزوج في أخذه ولا على الزوجة في بذله ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ أي هذه الأحكام العظيمة من الطلاق والرجعة والخلع وغيرها هي شرائع الله وأحكامه فلا تخالفوها ولا تتجاوزوها إلى غيرها مما لم يشرعه الله ﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ أي من خالف أحكام الله فقد عرض نفسه لسخط الله وهو من الظالمين المستحقين للعقاب الشديد ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾ أي فإن طلق الرجل المرأة ثالث مرة فلا تحل له بعد ذلك حتى تتزوج غيره وتطلق منه ، بعد أن يذوق عسيلتها وتذوق عسيلته كما صرح به الحديث الشريف ، وفي ذلك زجر عن طلاق المرأة ثلاثاً لمن له رغبة في زوجته لأن كل ذي مروءة يكره أن يفترش امرأته آخر ﴿فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾ أي إن طلقها الزوج الثاني فلا بأس أن تعود إلى زوجها الأول بعد إنقضاء العدة إن كان ثمة دلائل تشير إلى الوفاق وحسن العشرة ﴿وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾ أي تلك شرائع الله وأحكامه يوضحها ويبينها لذوي العلم والفهم الذين ينظرون في عواقب الأمور .^(١)

(١) انظر الحكمة التشريعية للطلاق في كتابنا روائع البيان / ١ / ٣٤٣ .

- ١ - ﴿فإن الله سميع عليم﴾ خرج الخبر عن ظاهره إلى معنى الوعيد والتهديد .
- ٢ - ﴿والمطلقات يتربصن﴾ خبرٌ في معنى الأمر وأصل الكلام وليتربصُ المطلقاتُ قال الزمخشري : وإخراج الأمر في صيغة الخبر تأكيدٌ للأمر وإشعارٌ بأنه مما يجب أن يُتلقى بالمسارعة إلى امتثاله ، فكأنهن امتثلن الأمر فهو يخبر عنه موجوداً ، وبنائوه على المبتدأ مما زاده فضل تأكيداً^(١) .
- ٣ - ﴿إن كنَّ يؤمننَّ بالله﴾ ليس الغرض منه التقييد بالإيمان بل هو للتسهيل وتهويل الأمر في نفوسهن .
- ٤ - ﴿ولهن مثل الذي عليهن﴾ فيه إيجاز وإيداع لا يخفى على المتمكن من علوم البيان ، فقد حذف من الأول بقرينة الثاني ، ومن الثاني بقرينة الأول والمعنى : لهنَّ على الرجال من الحقوق مثل الذي للرجال عليهن من الحقوق ، وفيه من المحسنات البديعية أيضاً « الطباق » بين « لهنَّ » و « عليهنَّ » وهو طباقٌ بين حرفين .
- ٥ - ﴿فإمساكٌ بمعروف﴾ بين لفظ « إمساك » ولفظ « تسريح » طباقٌ أيضاً .
- ٦ - ﴿تلك حدود الله﴾ وضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة وإدخال الروعة في النفوس ، وتعقيبُ النهي بالوعيد للمبالغة في التهديد .
- ٧ - ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ قصر صفة على موصوف .
- فكائِدة : أول خلعٍ كان في الإسلام في امرأة (ثابت بن قيس) أتت رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله : لا يجمع الله رأسي ورأسه شيء أبداً ، والله ما أعيب عليه في خلقٍ ولا دين ولكن أكره الكفر بعد الإسلام فقال لها عليه السلام : أتردين عليه حديثه ؟ قالت : نعم ففرقَ بينهما .
- لطيفة : روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إني لأحب أن أتزين لأمرأتي كما تتزين لي لأن الله تعالى يقول ﴿ولهنَّ مثلُ الذي عليهنَّ بالمعروف﴾ .

قال الله تعالى : ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن . . إلى . . والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾

من آية (٢٣١) إلى نهاية آية (٢٣٢) .

المناسكة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن أحكام الطلاق وتوضح طريقته وشروطه وآدابه وتنتهي عن الإيذاء والإضرار فوجه المناسبة إذاً ظاهر .

اللفك : ﴿فبلغن أجلهن﴾ أي قاربن من الانتهاء من العدة ﴿ضراراً﴾ أي بقصد الإضرار قال القفال : الضرار هو المضارة كقوله ﴿مسجداً ضراراً﴾ أي ليضاروا المؤمنين ﴿تعصلوهن﴾ العضل : المنع

والتضييق يقال : أعضل الأمر أي أشكل وضاق في الحيل وداء عُضال أي عسير أعياء الأطباء قال الأزهري : وأصله من عضلت الناقة إذا نشب ولدها فلم يسهل خروجه^(١) ﴿يوعظ به﴾ يوصى ويؤمر به ﴿أزكى﴾ أتمى وأنفع يقال : زكا الزرع إذا نما بكثرة وبركة ﴿وأطهر﴾ الطهارة : التنزه عن الدنس والمعاصي .

سبب النزول : روي أن «معقل بن يسار» زوج أخته رجلاً من المسلمين على عهد النبي ﷺ فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة ، فهويها وهويته ثم خطبها مع الخطاب فقال له : يا لكع «أي يا لثيم» أكرمتك بها وزوجتك فطلقتها !! والله لا ترجع إليك أبداً فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن . . .﴾ الآية فلما سمعها معقل قال : سمعاً لربي وطاعة ثم دعاه فقال : أزوجك وأكرمك^(٢) .

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا^ع وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ^ع وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ^ظ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مِنْ

التفسير : ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن﴾ أي إذا طلقتم يا معشر الرجال النساء طلاقاً رجعياً وقاربن انقضاء العدة ﴿فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف﴾ أي فراجعوهن من غير ضرار ولا أذى أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن بإحسان من غير تطويل العدة عليهن ﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا﴾ أي لا تراجعوهن إرادة الإضرار بهن لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء ، وفيه زجر لما كان عليه الناس حيث كان الزوج يترك المعتدة حتى إذا شارفت انقضاء العدة يراجعها للإضرار بها ليطول عليها العدة لا للرغبة فيها ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ أي من يمسكها للإضرار بها أو ليكرهها على الافتداء فقد ظلم بذلك العمل نفسه لانه عرضها لعذاب الله ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ أي لا تهزءوا بأحكام الله وأوامره ونواهيته فتجعلوا شريعته مهزوءاً بها بمخالفتكم لها ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾ أي اذكروا فضل الله عليكم بهدائيتكم للإسلام وما أنعم به عليكم من القرآن العظيم والسنة المطهرة ﴿يعظكم به﴾ أي يرشدكم ويذكركم بكتابه وهدى رسوله إلى سعادتكم في الدارين ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ أي خافوا الله وراقبوه في أعمالكم واعلموا أنه تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ثم أمر تعالى الأولياء بعدم عضل النساء الراغبات في العودة إلى أزواجهن فقال ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن﴾ أي إذا طلقتم النساء وانقضت عدتهن ﴿فلا تعضلوهن

(١) تهذيب اللغة مادة عضل . (٢) رواه البخاري وانظر التاج ٦٣/٤ .

كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٧﴾

أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ﴿٢٣٧﴾ أي فلا تمنعهن يا معشر الأولياء من العودة لأزواجهن إذا صلحت الأحوال بين الزوجين وظهرت أمارات الندم ورضي كل منهما العودة لصاحبه والسير بما يرضي الله ﴿٢٣٧﴾ ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿٢٣٧﴾ أي ما نهيتكم عنه من الإضرار والعضل يُنصح به ويوعظ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر لأنه هو المنتفع بالمواعظ الشرعية ﴿٢٣٧﴾ ذلكم أزكى لكم وأطهر ﴿٢٣٧﴾ أي الاتعاظ بما ذكر والتمسك بأوامر الله خير وأنفع لكم وأطهر من الآثام وأوضار الذنوب ﴿٢٣٧﴾ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿٢٣٧﴾ أي والله يعلم ما هو أصلح لكم من الأحكام والشرائع وأنتم لا تعلمون ذلك ، فامثلوا أمره تعالى ونهيه في جميع ما تأتون وما تدرتون .

البلاغَة : ١ - ﴿٢٣٧﴾ فبلغن أجلهن ﴿٢٣٧﴾ أي قاربن انقضاء عدتهن أطلق اسم الكل على الأكثر فهو مجاز مرسل لأنه لو انقضت العدة لما جاز له إمساكها والله تعالى يقول ﴿٢٣٧﴾ فأمسكوهن بمعروف ﴿٢٣٧﴾ .

٢ - ﴿٢٣٧﴾ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة ﴿٢٣٧﴾ هو من باب عطف الخاص على العام لأن النعمة يراد بها نعم الله والكتاب والسنة من أفراد هذه النعم .

٣ - ﴿٢٣٧﴾ واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴿٢٣٧﴾ بين كلمة « اعلموا » و « عليم » من المحسنات البديعية ما يسمى بجناس الاشتقاق .

٤ - ﴿٢٣٧﴾ أن ينكحن أزواجهن ﴿٢٣٧﴾ يراد بأزواجهن « المطلقين » هن فهو من باب المجاز المرسل والعلاقة اعتبار ما كان .

فكائدَة : قال الإمام الفخر : الحكمة في إثبات حق الرجعة أن الإنسان ما دام مع صاحبه لا يدري هل تشقُّ عليه المفارقة أو لا؟ فإذا فارقه فعند ذلك يظهر فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان إذ قد تظهر المنحبة بعد المفارقة ، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة أثبت تعالى حق المراجعة مرتين ، وهذا يدل على كمال رحمته تعالى ورأفته بعباده ^(١) .

قال الله تعالى : ﴿٢٣٧﴾ والوالدات يرضعن أولادهن حولين . . إلى . . ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما

من آية (٢٣٣) إلى نهاية آية (٢٣٧) .

تعملون بصير ﴿٢٣٧﴾

المناسكَة : لما ذكر تعالى جملة من الأحكام المتعلقة بالنكاح والطلاق والعدة والرجعة والعضل ، ذكر في هذه الآية الكريمة حكم الرضاع لأن الطلاق يحصل به الفراق فقد يطلق الرجل زوجته ويكون لها طفل ترضعه وربما أضاعت الطفل أو حرمت الرضاع انتقاماً من الزوج وإيذاءً له في ولده ، لذلك وردت

هذه الآية لندب الوالدات المطلقات إلى رعاية الأطفال والاهتمام بشأنهم ، ثم أعقب ذلك ببيان حكم الفراق بين الزوجين بالموت وما يجب على المرأة من العدة فيه رعاية لحق الزوج ، كما ذكر تعالى موضوع خطبة المرأة في حالة العدة ، وموضوع استحقاق المرأة لنصف المهر أو كامل المهر بعد الفراق أو الطلاق .

اللغات : ﴿فصلاً﴾ الفصل والفصل : الفطام سمي به لأن الولد ينفصل عن لبن أمه إلى غيره من الأقوات قال المبرد : الفصل أحسن من الفصل لأنه إذا انفصل عن أمه فقد انفصلت عنه فبينها فصل كالقتال والضراب ﴿تشاور﴾ التشاور : استخراج الرأي ومثله المشاورة والمشورة مأخوذ من الشور وهو استخراج العسل ﴿يذرون﴾ يتركون وهذا الفعل لا يستعمل منه الماضي ولا المصدر ﴿عرضتم﴾ التعريض : الإيحاء والتلويح من غير كشف وإظهار، مأخوذ من عرض الشيء أي جانبه كقول الفقير للمحسن : جئت لأنظر إلى وجهك الكريم ﴿خطبة﴾ بكسر الخاء طلب النكاح وبالضم الموعظة كخطبة الجمعة والعديدين ﴿أكنتم﴾ سترتم وأضمرتم والإكنان : السر والخفاء ﴿عقدة النكاح﴾ من العقد وهو الشد وفي المثل « يا عاقد اذكر حلاً » قال الراغب : العقدة اسم لما يعقد من نكاح أو يمين أو غيرها ﴿حليم﴾ يمهل العقوبة فلا يعجل بها للعاصي ﴿المقتر﴾ الفقير يقال : أقر الرجل إذا افتقر .

سَبَبُ النِّزُول : روي أن رجلاً من الأنصار تزوج امرأة من بني حنيفة ولم يسم لها مهراً ثم طلقها قبل أن يمسه فنزلت الآية ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن ﴾ فقال له النبي ﷺ (متعها ولو بقلنسوتك) (١) .

* وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَةٌ بَوْلِدًا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلِدًا وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ

التفسير : ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ أي الواجب على الأمهات أن يرضعن أولادهن لمدة سنتين كاملتين ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ أي إذا شاء الوالدان إتمام الرضاعة ولا زيادة عليه ﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾ أي وعلى الأب نفقة الوالدات المطلقات وكسوتهن بما هو متعارف بدون إسراف ولا تقتير لتقوم بخدمته حق القيام ﴿لا تكلف نفس إلا وسعها﴾ أي تكون النفقة بقدر الطاقة لأنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ﴿لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده﴾ أي لا يضر الوالدان بالولد فيفرطاً في تعهده ويقصراً في ما ينبغي له ، أو يضر أحدهما الآخر بسبب الولد فترفض الأم إرضاعه لتضر أباه بتربيته ، وينتزع الأب الولد منها إضراراً بها مع رغبتها في إرضاعه ليغيب أحدهما صاحبه ، قاله مجاهد ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ أي وعلى الوارث مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على الأم والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها والمراد به وارث الأب وقيل : وارث الصبي ، والأول اختيار

ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٣٣﴾ وَالَّذِينَ يَتُوفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَدْرُوْنَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرَبُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

الطبري ﴿فإن أرادا فصلاً عن تراضٍ منهما وتشاورٍ فلا جناح عليهما﴾ أي إذا اتفق الوالدان على فطامه قبل الحولين ورأيا في ذلك مصلحة له بعد التشاور فلا إثم عليهما ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾ أي وإن أردتم أيها الآباء أن تطلبوا مرضعةً لولدكم غير الأم بسبب عجزها أو إرادتها الزواج فلا إثم عليكم شريطة أن تدفعا لها ما اتفقتما عليه من الأجر ، فإن المرضع إذا لم تكرم لا تهتم بالطفل ولا تُعنى بإرضاعه ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ أي راقبوا الله في جميع أفعالكم فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأحوالكم ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ أي على النساء اللواتي يموت أزواجهن أن يمكثن في العدة أربعة أشهر وعشرة أيام حداً على أزواجهن وهذا الحكم لغير الحامل أما الحامل فعدتها ، وضع الحمل لقوله تعالى ﴿وأولاتُ الأحمالِ أجلهنَّ أن يضعن حملهنَّ﴾ ﴿فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف﴾ أي فإذا انقضت عدتهن فلا إثم عليكم أيها الأولياء في الإذن لمن بالزواج وفعل ما أباحه لمن الشرع من الزينة والتعرض للخطاب ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي عليم بجميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء﴾ أي لا إثم عليكم أيها الرجال في التعريض بخطبة النساء المتوفى عنهن أزواجهن في العدة ، بطريق التلميح لا التصريح قال ابن عباس : كقول الرجل : وددت أن الله يسر لي امرأةً سالحة ، وإن النساء لمن حاجتي ﴿أو أكننتم في أنفسكم﴾ أي ولا إثم عليكم أيضاً فيما أخفيتموه في أنفسكم من رغبة الزواج بهن ﴿علم الله أنكم ستذكروهن ولكن لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾ أي قد علم الله أنكم ستذكروهن في أنفسكم ولا تصبرون عنهن فرفع عنكم الحرج ، فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن بالنكاح سراً إلا بطريق التعريض والتلويح وبالمعروف الذي أقره لكم الشرع ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ أي ولا تعقدوا عقد النكاح حتى تنتهي العدة ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ أي احذروا عقابه في مخالفتكم أمره ﴿واعلموا أن الله غفورٌ حلِيمٌ﴾ أي يمحو ذنب من أناب ولا يعاجل العقوبة لمن عصاه . ثم ذكر تعالى حكم المطلقة قبل

حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

المساس فقال ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة﴾ أي لا إثم عليكم أيها الرجال إن طلقتم النساء قبل المسيس «الجماع» وقبل أن تفرضوا لهن مهراً ، فالطلاق في مثل هذه الحالة غير محظور إذا كان لمصلحة أو ضرورة ﴿ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾ أي فإذا طلقتموهن فادفعوا لهن المتعة تطبيقاً لخاطرهن وجبراً لوحشة الفراق ، على قدر حال الرجل في الغنى والفقر ، الموسر بقدر يساره ، والمعسر بقدر إعساره ، تمتيعاً بالمعروف حقاً على المؤمنين المحسنين ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ أي وإذا طلقتموهن قبل الجماع وقد كنتم ذكرتم لهن مهراً معيناً فالواجب عليكم أن تدفعوا نصف المهر المسمى لهن لأنه طلاق قبل المسيس ﴿إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ أي إلا إذا أسقطت المطلقة حقها أو أسقطولي أمرها الحق إذا كانت صغيرة ، وقيل : هو الزوج لأنه هو الذي يملك عقدة النكاح وذلك بأن يساعها بكامل المهر الذي دفعه لها واختاره ابن جرير ، وقال الزمخشري : القول بأنه الولي ظاهر الصحة (١) ﴿وأن تعفو أقرب للتقوى﴾ الخطاب عام للرجال والنساء قال ابن عباس : أقربها للتقوى الذي يعفو ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾ أي لا تنسوا أيها المؤمنون الجميل والإحسان بينكم ، فقد ختم تعالى الآيات بالتذكير بعدم نسيان المودة والإحسان والجميل بين الزوجين ، فإذا كان الطلاق قد تم لأسباب ضرورية قاهرة فلا ينبغي أن يكون هذا قاطعاً لروابط المصاهرة وشائج القربى .

البلاغَة : ﴿والوالدات يرضعن﴾ أمرٌ أُخرج مخرج الخبر مبالغة في الحمل على تحقيقه أي ليرضعن كالأية السابقة ﴿والمطلقات يتربصن﴾ .

٢ - ﴿أن تسترضعوا أولادكم﴾ فيه إيجاز بالحذف أي تسترضعوا المراضع لأولادكم ، كما أن فيه الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لأن ما قبله ﴿فإن أرادا فصلاً﴾ وفائدة هذا الالتفات هز مشاعر الآباء نحو الأبناء .

٣ - ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح﴾ ذكر العزم للمبالغة في النهي عن مباشرة النكاح ، فإذا نهى عنه كان النهي عن الفعل من باب أولى .

(١) هذا القول مروى عن ابن عباس وهو مذهب مالك وقول الشافعي في القديم قال الناصر في تعليقه على كلام الزمخشري : وصدق الزمخشري أنه قول ظاهر الصحة ، عليه رونق الحق وطلاوة الصواب لوجوه ستة ساقها بالطف بيان فانظرها في الكشاف ١/٢١٧ .

٤ - ﴿ ما لم تمسوهن ﴾ كنى تعالى بالمسّ عن الجماع تأديباً للعباد في اختيار أحسن الألفاظ فيما يتخاطبون به .

٥ - ﴿ وأن تعفوا ﴾ و ﴿ لا تنسوا الفضل ﴾ الخطاب عام للرجال والنساء ولكنه ورد بطريق التغليب .

٦ - ﴿ واعلموا أن الله ﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة والروعة .

الفوائد : الأولى : التعبير بلفظ « الوالدات » دون قوله « المطلقات » أو النساء المطلقات لاستعطافهن نحو الأولاد ، فحصول الطلاق لهن لا ينبغي أن يجرمهن عاطفة الأمومة .

الثانية : أضاف تعالى الولد في الآية الكريمة إلى كل من الأبوين في قوله ﴿ والدة بولدها ﴾ و ﴿ مولود بولده ﴾ وذلك لطلب الاستعطاف والإشفاق عليه ، فالولد ليس أجنبياً عن الوالدين هذه أمه وذاك أبوه فمن حقها أن يشفقا عليه ولا تكون العداوة بينهما سبباً للإضرار به .

الثالثة : الحكمة في إيجاب المتعة للمطلقة هي جبر إيجاش الطلاق قال ابن عباس : إن كان معسراً متعها بثلاثة أثواب ، وإن كان موسراً متّعها بخادم .

الرابعة : روي أن الحسن بن علي متّع زوجته بعشرة آلاف درهم فقالت المرأة « متاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مفارق » وسبب طلاقه إياها ما روي أنه لما أصيب عليٌّ كرم الله وجهه وبويح الحسن بالخلافة قالت له : لتهنك الخلافة يا أمير المؤمنين ! فقال : يُقتل عليٌّ وتظهرين الشماتة ؟ إذهبي فأنت طالق ثلاثاً ، فتلفعت بجلبابها وقعدت حتى انقضت عدتها فبعث إليها بعشرة آلاف متعة وبقية ما بقي لها من صداقها فقالت ذلك ، فلما أخبره الرسول بكى وقال : لولا أنني طلقتها ثلاثاً لراجعتها^(١) .

قال الله تعالى : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى .. إلى .. يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ من آية (٢٣٨) إلى نهاية آية (٢٤٢)

المناسبة : توسطت آيات المحافظة على الصلاة خلال الآيات الكريمة المتعلقة بأحكام الأسرة وعلاقات الزوجين عند الطلاق أو الافتراق وذلك لحكمة بليغة ، وهي أن الله تعالى لما أمر بالعتق والتسامح وعدم نسيان الفضل بعد الطلاق بيّن بعد ذلك أمر الصلاة ، لأنها أعظم وسيلة إلى نسيان هموم الدنيا وأكدارها ولهذا كان ﷺ إذا حزبه همٌّ فزع إلى الصلاة فالطلاق يوئد الشحناء والبغضاء ، والصلاة تدعو إلى الإحسان والتسامح وتنتهي عن الفحشاء والمنكر ، وذلك أفضل طريق لتربية النفس الإنسانية .

اللفت : ﴿ حافظوا ﴾ المحافظة : المداومة على الشيء والمواظبة عليه ﴿ الوسطى ﴾ مؤنث

الأوسط ، ووسط الشيء خيره وأعدله قال أعرابي يمدح الرسول ﷺ :

يا أوسط الناس طراً في مفاخرهم وأكرم الناس أمماً برةً وأبا
﴿قانتين﴾ أصل القنوت في اللغة : المداومة على الشيء وقد خصه القرآن بالدوام على الطاعة والملازمة لها
على وجه الخشوع والخضوع قال تعالى ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾ ﴿فرجالاً﴾ جمع راجل وهو القائم على
القدمين قال الراغب : اشتق من الرجل راجل للماشي بالرجل ويقال : رجل راجل أي قوي على المشي^(١)
﴿ركباناً﴾ جمع راكب وهو من يركب الفرس والدابة ونحوهما .

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ
فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيُذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ
مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ نَجَّجْنَ فَلَاجِنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

النفسير : ﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى﴾ أي واطبوا أيها المؤمنون وداوموا على
أداء الصلوات في أوقاتها وخاصة صلاة العصر فإن الملائكة تشهدها ﴿وقوموا لله قانتين﴾ أي داوموا على
العبادة والطاعة بالخشوع والخضوع أي قوموا لله في صلاتكم خاشعين ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا﴾ أي
فإذا كنتم في خوف من عدو أو غيره فصلوا ماشين على الأقدام أو راكبين على الدواب ﴿فإذا أمنتهم فاذكروا
الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ أي فإذا زال الخوف وجاء الأمن فأقيموا الصلاة مستوفية لجميع
الأركان كما أمركم الله وعلى الوجه الذي شرعه لكم وهذه كقوله ﴿فإذا أطمأننتهم فأقيموا الصلاة﴾ والذكر
في الآية يراد به الصلاة الكاملة المستوفية للأركان قال الزمخشري : المعنى اذكروه بالعبادة كما أحسن إليكم
بما علمكم من الشرائع وكيف تصلون في حال الخوف والأمن . ثم قال تعالى مبيناً أحكام العدة ﴿والذين
يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصيةً لأزواجهن متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾ أي والذين يموتون من رجالكم
ويتركون زوجاتهم على هؤلاء أن يوصوا قبل أن يموتوا بأن تمتع أزواجهن بعدهم حولاً كاملاً ، ينفق
عليهن من تركته ولا يخرجن من مساكنهن - وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة إلى أربعة أشهر
وعشرة أيام ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾ أي فإن خرجن مختارات
راضيات فلا إثم عليكم يا أولياء الميت في تركهن أن يفعلن ما لا ينكره الشرع كالترزين والتطيب والتعرض
للخطاب ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي هو سبحانه غالب في ملكه حكيم في صنعه ﴿وللمطلقات متاع

(١) مفردات الراغب مادة رجل .

بالمعروف حقاً على المتقين ﴿ أي واجبٌ على الأزواج أن يمتنعن المطلقات بقدر استطاعتهم جبراً لوحشة الفراق وهذه المتعة حقٌ لازم على المؤمنين المتقين لله ﴾ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴿ أي مثل ذلك البيان الشافي الذي يوجه النفوس نحو المودة والرحمة يبين الله سبحانه لكم آياته الدالة على أحكامه الشرعية لتعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها .

البلاغَة : ١ - ﴿ الصلاة الوسطى ﴾ عطف خاص على عام لبيان مزيد فضلها .

٢ - ﴿ فإن خفتم ﴾ ﴿ فإذا أمتتم ﴾ بين لفظ خفتم وأمتتم طباق وهو من المحسنات البديعية قال أبو السعود : وفي إيراد الشرطية بكلمة « إن » المنبئة عن عدم تحقق وقوع الخوف ، وإيراد الثانية بكلمة « إذا » المنبئة عن تحقق وقوع الأمن وكثرته مع الإيجاز في جواب الأولى والإطناب في جواب الثانية من الجزالة ولطف الاعتبار ما فيه عبرة لأولي الأبصار^(١) .

تنبية : الصلاة الوسطى على الراجح من الأقوال هي صلاة العصر لأنها وسط بين الفجر والظهر والمغرب والعشاء ويقوي هذا ما ورد في الصحيحين (شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملاً الله قلوبهم وبيوتهم ناراً) وفي الحديث (الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله) أخرجه الشيخان وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة .

قال الله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف . . إلى . . وإنك لمن المرسلين ﴾ من آية (٢٤٢) إلى نهاية آية (٢٥٢) .

المناسكة : لما ذكر تعالى أحكام الأسرة بالتفصيل والنظم التي تربط بين أفرادها ، وسعى لإصلاحها باعتبار أنها النواة واللبنة التي يشاد منها صرح المجتمع الفاضل ، ذكر بعدها أحكام الجهاد وذلك لحماية العقيدة وصيانة المقدسات ، وتأمين البيئة الصالحة للأسرة المسلمة التي تنشئ الحياة الكريمة ، فلا صلاح للأسرة إلا بصلاح المجتمع ، ولا بقاء لها ولا خلود إلا ببقاء الحق وأنصاره ، ولهذا أمر تعالى بالقتال وضرب عليه الأمثال بالأمم السابقة ، كيف جاهدت في سبيل الحق وانتصرت القلة مع إيمانها على الكثرة مع كفرها وطغيانها ، فليست العبرة بكثرة أنصار الباطل بل بصمود أهل الحق والتزامهم له وجهادهم في سبيله .

اللفك : ﴿ ألوف ﴾ جمع ألف جمع كثرة وفي القلة آلاف ، ومعناه كثرة كاثرة وألوف مؤلفة ﴿ حذر ﴾ خشية وخوف ﴿ يقبض ويبسط ﴾ القبض : ضم الشيء والجمع عليه والمراد به التقدير والبسط ضده والمراد به التوسيع قال أبو تمام :

تعود بسط الكف حتى لو أنه دعاها لقبض لم تجبه أنامله

﴿الملا﴾ الأشراف من الناس سموا بذلك لأنهم يملأون العين مهابةً وإجلالاً ﴿فصل﴾ انفصل من مكانه يقال : فصل عن الموضع انفصل عنه وجاوزه ﴿مبتليكم﴾ مختبركم ﴿يظنون﴾ يستيقنون ويعلمون ﴿فتة﴾ الفتة : الجماعة من الناس لا واحد له كالرھط والنفر ﴿أفرغ﴾ أفرغ الشيء صبّه وأنزله .

* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيضَعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أبعثْ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلُ

النفيسير : ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ﴿أي ألم يصل إلى سمعك يا محمد أو أيها المخاطب حال أولئك القوم الذين خرجوا من وطنهم وهم ألوف مؤلفة﴾ حذر الموت ﴿أي خوفاً من الموت وفراراً منه ، والغرض من الاستفهام التعجيب والتشويق إلى سماع قصتهم وكانوا سبعين ألفاً﴾ فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ﴿أي أماتهم الله ثم أحياهم ، وهم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا خوفاً من الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم بدعوة نبيهم « حزقييل » فعاشوا بعد ذلك دهرًا ، وقيل : هربوا من الطاعون فأماتهم الله قال ابن كثير : وفي هذه القصة عبرة على أنه لا يغني حذر من قدر ، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ أي ذو إنعام وإحسان على الناس حيث يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة ما يبصرهم بما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي لا يشكرون الله على نعمه بل ينكرون ويحذون ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع لأقوالكم ، عليم بنياتكم وأحوالكم فيجازيكم عليها ، وكما أن الحذر لا يغني من القدر فكذلك الفرار من الجهاد لا يقرب أجلاً ولا يبعده﴾ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضْعَافًا كَثِيرَةً ﴿أي من الذي يبذل ماله وينفقه في سبيل الخير ابتغاء وجه الله ، ولا إعلاء كلمة الله في الجهاد وسائر طرق الخير ، فيكون جزاؤه أن يضاعف الله تعالى له ذلك القرض أضْعَافًا كَثِيرَةً ؟ لأنه قرض لأغني الأغنياء رب العالمين جل جلاله وفي الحديث (من يقرض غير عديم ولا ظلوم) ﴿والله يقبض ويبسط﴾ أي يقتر على من يشاء ويوسع على من يشاء ابتلاءً وامتحاناً ﴿وإليه ترجعون﴾ أي يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم ﴿ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى﴾ أي ألم يصل خبر القوم إليك ؟ وهو تعجيب وتشويق للسامع كما تقدم وكانوا من بني إسرائيل وبعد وفاة موسى عليه السلام كما دلت عليه الآية ﴿إذ قالوا لنبيهم أبعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾ أي حين قالوا لنبيهم « شمعون » - وهو من نسل

(١) حديث قدسي ذكره ابن كثير عند هذه الآية من حديث النزول ، وانظر مختصر ابن كثير ١/ ٢٢٢ .

فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمَلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ

هارون (١) أقم لنا أميراً واجعله قائداً لنا لنقاتل معه الأعداء في سبيل الله ﴿قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾ أي قال لهم نبيهم : أخشى أن يفرض عليكم القتال ثم لا تقاتلوا عدوكم وتجنّبوا عن لقاءه ﴿قالوا وما لنا ألا تقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أي أي سبب لنا في ألا نقاتل عدونا وقد أخذت منا البلاد وسُبيت الأولاد ؟ قال تعالى بياناً لما انطوت عليه نفوسهم من الهلع والجبن ﴿فلما كُتب عليهم القتال تولّوا إلا قليلاً منهم﴾ أي لما فرض عليهم القتال نكل أكثرهم عن الجهاد إلا فئة قليلة منهم صبروا وثبتوا ، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت ، قال القرطبي : وهذا شأن الأمم المتنعمة المائلة إلى الدعة ، تتمنى الحرب أوقات الأنفة فإذا حضرت الحرب جُبت وانقادت لطبعها (٢) ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وعيدٌ لهم على ظلمهم بترك الجهاد عصيانياً لأمره تعالى ﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾ أي أخبرهم نبيهم بأن الله تعالى قد ملّك عليهم طالوت ليكونوا تحت إمرته في تدبير أمر الحرب واختاره ليكون أميراً عليهم ﴿قالوا أتى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾ أي قالوا معترضين على نبيهم كيف يكون ملكاً علينا والحال أننا أحق بالملك منه لأن فينا من هو من أولاد الملوك وهو مع هذا فقير لا مال له فكيف يكون ملكاً علينا ؟ ﴿قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم﴾ أي أجابهم نبيهم على ذلك الاعتراض فقال : إن الله اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم ، والعمدة في الاختيار أمران : العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة ، والأمر الثاني قوة البدن ليعظم خطره في القلوب ، ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الشدائد ، وقد خصّه الله تعالى منها بحظ وافر قال ابن كثير : ومن ههنا ينبغي أن يكون الملك ذا علمٍ ، وشكلٍ حسنٍ ، وقوةٍ شديدة في بدنه ونفسه (٣) ، ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾ أي يعطي الملك لمن شاء من عباده من غير إرثٍ أو مالٍ ﴿والله واسع عليم﴾ أي واسع الفضل عليم بمن هو أهل له فيعطيه إياه . . ولما طلبوا آية تدل على اصطفاء الله لطالوت أجابهم إلى ذلك ﴿وقال لهم نبيهم إن آية ملكه﴾ أي علامة ملكه واصطفائه عليكم ﴿أن يأتيكم التابوت﴾ أي يردّ الله إليكم التابوت الذي أخذ منكم ، وهو كما قال الزمخشري : صندوق التوراة الذي كان موسى عليه السلام إذا قاتل قدمه فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون ﴿فيه سكينَةٌ من

(٣) مختصر ابن كثير ١/ ٢٢٤

(٢) القرطبي ٣/ ٢٤٥

(١) قاله مقاتل وهو من أنبياء بني إسرائيل .

ءَالَ مُوسَىٰ وَءَالَ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ
بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ۖ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ۖ وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً
بِيَدِهِ ۖ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ
قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلتَقُوا اللَّهَ كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾
وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾

ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ﴿٢٤٨﴾ أي في التابوت السكون والطمأنينة والوقار وفيه أيضاً بقية من آثار آل موسى وآل هارون وهي عصا موسى وثيابه وبعض الألواح التي كتبت فيها التوراة تحمله الملائكة قال ابن عباس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعت بين يدي طالوت والناس ينظرون ﴿٢٤٩﴾ إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴿٢٤٩﴾ أي إن في نزول التابوت لعلامة واضحة أن الله اختاره ليكون ملكاً عليكم إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر ﴿٢٤٩﴾ فلما فصل طالوت بالجنود ﴿٢٤٩﴾ أي خرج بالجيش وانفصل عن بيت المقدس وجاوزه وكانوا ثمانين ألفاً أخذ بهم في أرض قفرة فأصابهم حر وعطش شديد ﴿٢٤٩﴾ قال إن الله مبتليكم بنهر ﴿٢٤٩﴾ أي مختبركم بنهر وهو نهر الشريعة المشهور بين الأردن وفلسطين ﴿٢٤٩﴾ فمن شرب منه فليس مني ﴿٢٤٩﴾ أي من شرب منه فلا يصحبي - وأراد بذلك أن يختبر إرادتهم وطاعتهم قبل أن يخوض بهم غمار الحرب - ﴿٢٤٩﴾ ومن لم يطعمه فإنه مني ﴿٢٤٩﴾ أي من لم يشرب منه ولم يذقه فإنه من جندي الذين يقاتلون معي ﴿٢٤٩﴾ إلا من اغترف غرفة بيده ﴿٢٤٩﴾ أي لكن من اغترف قليلاً من الماء ليل عطشه وينقع غلته فلا بأس بذلك ، فأذن لهم برشفة من الماء تذهب بالعطش ﴿٢٤٩﴾ فشرّبوا منه إلا قليلاً منهم ﴿٢٤٩﴾ أي شرب الجيش منه إلا فئة قليلة صبرت على العطش قال السدي : شرب منه ستة وسبعون ألفاً وتبقى معه أربعة آلاف ﴿٢٤٩﴾ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه ﴿٢٤٩﴾ أي لما اجتاز النهر مع الذين صبروا على العطش والتعب ورأوا كثرة عدوهم اعتراهم الخوف فقال فريق منهم ﴿٢٤٩﴾ قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴿٢٤٩﴾ أي لا قدرة لنا على قتال الأعداء مع قائد جيشهم جالوت فنحن قلة وهم كثرة كاثرة ﴿٢٤٩﴾ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله ﴿٢٤٩﴾ أي قال الذين يعتقدون بقاء الله وهم الصفوة الأخيار والعلماء الأبرار من أتباع طالوت ﴿٢٤٩﴾ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴿٢٤٩﴾ أي كثيراً ما غلبت الجماعة القليلة الجماعة الكثيرة بإرادة الله ومشيئته ، فليس النصر عن كثرة العدد وإنما النصر من عند الله ﴿٢٤٩﴾ والله مع الصابرين ﴿٢٤٩﴾ أي معهم بالحفظ والرعاية والتأييد ومن كان الله معه فهو منصور بحول الله ﴿٢٤٩﴾ ولما برزوا لجالوت وجنوده ﴿٢٤٩﴾ أي ظهروا في الفضاء المتسع وجهاً لوجه أمام ذلك الجيش الجرار جيش جالوت المدرب على الحروب ﴿٢٤٩﴾ قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً ﴿٢٤٩﴾ دعوا الله ضارعين إليه بثلاث دعوات تفيد إدراك أسباب النصر فقالوا أولاً : ربنا أفض علينا صبراً يعمنا في جمعنا وفي خاصة نفوسنا لتقوى على قتال أعدائك ﴿٢٤٩﴾ وثبت أقدامنا ﴿٢٤٩﴾ أي ثبتنا في ميدان الحرب ولا تجعل للفرار

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

سبيلاً إلى قلوبنا وهي الدعوة الثانية ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ أي انصرنا على من كفر بك وكذب رسلك وهم جالوت وجنوده وهي الدعوة الثالثة قال تعالى إخباراً عنهم ﴿فهزموهم بإذن الله﴾ أي هزموا جيش جالوت بنصر الله وتأييده إجابةً لدعائهم وانكسر عدوهم رغم كثرته ﴿وقتل داود جالوت﴾ أي وقتل داود - وكان في جيش المؤمنين مع طالوت - رأس الطغيان جالوت واندرج جيشه ﴿وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾ أي أعطى الله تعالى داود الملك والنبوة وعلمه ما يشاء من العلم النافع الذي أفاضه عليه قال ابن كثير : كان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته ، ويشركه في أمره ، فوفى له ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ أي لولا أن يدفع الله شرّ الأشرار بجهاد الأخيار لفسدت الحياة ، لأن الشر إن غلب كان الخراب والدمار ﴿ولكن الله ذو فضلٍ على العالمين﴾ أي ذو فضلٍ وإنعام على البشر حيث لم يمكن للشر من الاستعلاء ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾ أي ما قصصنا عليك يا محمد من الأمور الغريبة والقصص العجيبة التي وقعت في بني إسرائيل هي من آيات الله وأخباره المغيبة التي أوحاها إليك بالحق بواسطة جبريل الأمين ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ أي وإنك يا محمد لمن جملة الرسل الذين أرسلهم الله لتبليغ دعوة الله عز وجل .

البلاغَة : قال أبو حيان : تضمنت الآية الكريمة من ضروب البلاغة وصنوف البيان أموراً كثيرة منها الاستفهام الذي أجري مجرى التعجب في قوله ﴿ألم تر إلى الذين﴾ والحذف بين ﴿موتوا ثم أحياهم﴾ أي فماتوا ثم أحياهم ، والطباق في قوله ﴿موتوا﴾ و﴿أحياهم﴾ وكذلك في قوله ﴿يقبض﴾ و﴿يسسط﴾ والتكرار في قوله ﴿فضلٍ على الناس﴾ و﴿لكن أكثر الناس﴾ والالتفات في ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ والتشبيه بدون الأداة في قوله ﴿قرضاً حسناً﴾ شبه قبوله تعالى إنفاق العبد في سبيله بالقرض الحقيقي فأطلق اسم القرض عليه ، والتجنيس المغاير في قوله ﴿فيضاعفه﴾ وقوله ﴿أضعافاً﴾^(١) .

٢ - ﴿أفرغ علينا صبراً﴾ فيه استعارة تمثيلية فقد شبه حالهم والله تعالى يفيض عليهم بالصبر بحال الماء يصب ويفرغ على الجسم فيعمه كله ، ظاهره وباطنه فيلقي في القلب برداً وسلاماً وهدوءاً واطمئناناً .

الفوائد : الأولى : أسند الاستقراض إلى الله في قوله ﴿من ذا الذي يقرض الله﴾ وهو المنزه عن الحاجات ترغيباً في الصدقة كما أضاف الإحسان إلى المريض والجائع والعطشان إلى نفسه تعالى في قوله جل

وعلا في الحديث القدسي « ابن آدم مرضتُ فلم تعطني » و « استطعمتك فلم تطعمني » و « استسقيتك فلم تسقني » الحديث الذي رواه الشيخان .

الثانية : روي أنه لما نزلت الآية الكريمة جاء أبو الدحداح الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : وإنّ الله ليريد منّا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح ! قال : أرني يدك يا رسول الله ، فناوله يده قال : فإنني قد أقرضتُ ربي حائطي - أي بستاني وكان فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها - فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أمّ الدحداح قالت : لبيك ، قال : اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل (١) ، وفي رواية قالت : ربح بيعك يا أبا الدحداح وخرجت منه مع عيالها .

الثالثة : قال البقاعي : ولعلّ ختام بني إسرائيل بهذه القصة لما فيها للنبي ﷺ من واضح الدلالة على صحة رسالته لأنها مما لا يعلمه إلا القليل من حذاق علماء بني إسرائيل (٢) .

قال الله تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض .. إلى .. والكافرون هم الظالمون ﴾

من آية (٢٥٣) إلى نهاية آية (٢٥٤) .

المناسكة : لما ذكر تعالى في الآيات السابقة اصطفاء طالوت على بني إسرائيل ، وتفضيل داود عليهم بالملك والنبوة ثم خاطب رسوله ﷺ بأنه من المرسلين ، وكان ظاهر اللفظ يقتضي التسوية بين الرسل ، ذكر في هذه الآية أن المرسلين ليسوا في درجة واحدة بل بعضهم أفضل من بعض كما يكون التفاضل بين البشر .

اللفظة : ﴿ درجات ﴾ جمع درجة وهي المنزلة الرفيعة السامية ﴿ البيئات ﴾ المعجزات ﴿ وأيدناه ﴾ قويناه من التأييد بمعنى التقوية ﴿ روح القدس ﴾ القدس : الطهارة وروح القدس جبريل عليه السلام وقد تقدم ﴿ نخلة ﴾ الخلة : الصداقة والمودة سميت بذلك لأنها تتخلل الأعضاء أي تدخل خلالها ومنه الخليل ﴿ شفاعة ﴾ مأخوذة من الشفع بمعنى الضم ، والشفاعة الانضمام إلى آخر ناصرأله وسائلاً عونه .

* تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ

النِّسْبَ : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ أي أولئك الرسل الكرام الذين قصصنا عليك من أنبيائهم يا محمد هم رسل الله حقاً ، وقد فضلنا بعضهم على بعض في الرفعة والمنزلة والمراتب العالية ﴿ منهم من كلم الله ﴾ أي منهم من خصّه الله بالتكليم بلا واسطة كموسى عليه السلام ﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ أي ومنهم من خصّه الله بالمرتبة الرفيعة السامية كخاتم المرسلين محمد ﷺ فهو سيد الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة ، وكأبي الأنبياء إبراهيم الخليل ﴿ وآتيناه عيسى ابن مريم البيئات ﴾ أي

(١) أخرجه البزار والطبراني عن ابن مسعود . (٢) محاسن التأويل ٣ / ٦٥٠ .

الْبَيْنَاتِ وَأَيْدِنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ ائْتَلَفُوا
فِيهِمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٣﴾

ومنهم من أعطاه الله المعجزات الباهرات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار عن المغيبات ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أي قويناه بجبريل الأمين وهو عيسى بن مريم ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي لو أراد الله ما اقتتل الأمم الذين جاءوا بعد الرسل من بعد الحجج الباهرة والبراهين الساطعة التي جاءتهم بها رسلهم ، فلو شاء الله ما تنازعوا ولا اختلفوا ولا تقاتلوا ، ولجعلهم متفقين على اتباع الرسل كما أن الرسل متفقون على كلمة الحق ﴿ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾ أي ولكن الله لم يشأ هدايتهم بسبب اختلافهم في الدين وتشعب مذاهبهم وأهوائهم ، فمنهم من ثبت على الإيمان ومنهم من حاد وكفر ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ أي لو شاء الله لجعل البشر على طبيعة الملائكة لا يتنازعون ولا يقتتلون ولكن الله حكيم يفعل ما فيه المصلحة ، وكل ذلك عن قضاء الله وقدره فهو الفعال لما يريد ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم﴾ أي أنفقوا في سبيل الله من مال الله الذي منحكم إياه ، ادفعوا الزكاة وأنفقوا في وجوه الخير والبر والصلوات ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ أي من قبل مجيء ذلك اليوم الرهيب الذي لا تستطيعون أن تفتدوا نفوسكم بمال تقدمونه فيكون كالبيع ، ولا تجدون صديقاً يدفع عنكم العذاب ، ولا شفيعاً يشفع لكم ليحط عنكم من سيئاتكم إلا أن يأذن الله رب العالمين ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ أي لا أحد أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً ، والكافر بالله هو الظالم المعتدي الذي يستحق العقاب .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿تلك الرسل﴾ الإشارة بالبعيد لبعده مرتبتهم في الكمال .

٢ - ﴿منهم من كلم الله . .﴾ الآية تفصيلٌ لذلك التفضيل ويسمى هذا في البلاغة : التقسيم وكذلك في قوله ﴿فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾ وبين لفظ « آمن » و« كفر » طباقاً .

٣ - الإطناب وذلك في قوله ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ حيث كرر جملة ﴿ولو شاء الله﴾ .

٤ - ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ قصر صفة على الموصوف ، وقد أكدت بالجملة الإسمية وبضمير

الفصل .

فَكَايِدَةٌ : روي عن عطاء بن دينار أنه قال : الحمد لله الذي قال ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ ولم يقل « والظالمون هم الكافرون » ومراده أنه لو نزل هكذا لكان قد حكم على كل ظالم بالكفر فلم يخلص منه إلا من عصمه الله .

تَسْبِيَهُ : يحتمل أن يراد بالكفر المعنى الحقيقي أو المجازي فيكون المراد بالكافر تارك الزكاة كما ذهب إليه الزمخشري حيث قال : أراد والتاركون للزكاة هم الظالمون ، وإيثاره عليه للتغليظ والتهديد كما في آية الحج ﴿ومن كفر﴾ مكان ﴿ومن لم يحج﴾ ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار في قوله ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾ .

قال الله تعالى : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم . . إلى . . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾

من آية (٢٥٥) إلى نهاية آية (٢٥٧) .

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى تفضيل بعض الأنبياء على بعض ، وبيّن أن الخلائق قد اختلفوا من بعدهم وتنازعوا وتقاتلوا بسبب الدين ، ذكر أن هذا التفضيل بين الأنبياء لا يستدعي الصراع بين الأتباع ولا الخصام والنزاع ، فالرسل صلوات الله عليهم وإن كانوا متفاوتين في الفضل إلا أنهم جميعاً جاءوا بدعوة واحدة هي « دعوة التوحيد » فرسالتهم واحدة ودينهم واحد ، وأنه لا إكراه في الدين فقد سطع نور الحق وأشرق ضياؤه .

الْفَكْرُ : ﴿الحي﴾ ذو الحياة الكاملة ومعناه الباقي الدائم الذي لا سبيل للفناء عليه ﴿القيوم﴾ القائم بتدبير الخلق ﴿سِنَّةٌ﴾ بكسر السين النعاس وهو ما يسبق النوم من فتور قال الشاعر :

وسنان أقعده النعاس فرنّقت في عينه سنّةٌ وليس بنائم

﴿يؤوده﴾ يثقله ويتعبه ﴿العلي﴾ المراد علو المنزلة والشأن الذي تعالى في جلاله وعظم في سلطانه ﴿إكراه﴾ الإكراه : حمل الشخص على ما يكره بطريق القسر والجبر ﴿الطاغوت﴾ من الطغيان وهو كل ما يطغى الإنسان ويضله عن طريق الحق والهدى ﴿الوثقى﴾ مؤنث الأوثق وهو الشيء المحكم الموثق ﴿انفصام﴾ الانفصام : الانكسار قال الفراء : الانفصام والانقصام لغتان وبالفاء أفصح وقال بعضهم : الفصم انكسار بغير بينونة والقصم انكسار ببينونة .

سَبَبُ الزَّوْلِ : كان لرجلٍ من الأنصار ابنان تنصراً قبل بعثة النبي ﷺ ثم قدما المدينة في نفرٍ من التجار يحملون الزيت ، فلزمها أبوها وقال : لا أدعكما حتى تسلما فنزلت ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾^(١) . الآية .

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ

النَّفْسِيرُ : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ أي هو الله جل جلاله الواحد الأحد الفرد الصمد ، ذو الحياة الكاملة ، الباقي الدائم الذي لا يموت ، القائم على تدبير شئون الخلق بالرعاية والحفظ

عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ
الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾
اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ
إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

والتدبير ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ أي لا يأخذه نعاس ولا نوم كما ورد في الحديث (إن الله لا ينام ولا
ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه)، ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي جميع ما في السموات
والأرض ملكه وعبيده وتحت قهره وسلطانه ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ أي لا أحد يستطيع أن
يشفع لأحد إلا إذا أذن له الله تعالى قال ابن كثير : وهذا بيان لعظمته وجلاله وكبريائه بحيث لا يتجاسر
أحد على الشفاعة إلا بإذن المولى ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي يعلم ما هو حاضر مشاهد لهم وهو
الدنيا وما خلفهم أي أماتهم وهو الآخرة فقد أحاط علمه بالكائنات والعوالم ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه
إلا بما شاء ﴾ أي لا يعلمون شيئاً من معلوماته إلا بما أعلمهم إياه على السنة الرسل ﴿ وسع كرسية السموات
والأرض ﴾ أي أحاط كرسية بالسموات والأرض لبطوته وسعته ، والسموات السبع والأرضون بالنسبة
للكرسي كحلقة ملقاة في فلاة ، وروي عن ابن عباس ﴿ وسع كرسية ﴾ قال : علمه بدلالة قوله تعالى
﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً ﴾ فأخبر أن علمه وسع كل شيء ^(١) وقال الحسن البصري : الكرسي هو
العرش قال ابن كثير : والصحيح أن الكرسي غير العرش وأن العرش أكبر منه كما دلت على ذلك الآثار
والأخبار ﴿ ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾ أي لا يثقله ولا يعجزه حفظ السموات والأرض ومن
فيها وهو العلي فوق خلقه ذو العظمة والجلال كقوله ﴿ وهو الكبير المتعال ﴾ ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين
الرشد من الغي ﴾ أي لا إجبار ولا إكراه لأحد على الدخول في دين الإسلام ، فقد بان ووضح الحق من
الباطل والهدى من الضلال ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أي من
كفر بما يعبد من غير الله كالشيطان والأوثان وآمن بالله فقد تمسك من الدين بأقوى سبب ﴿ لا انفصام
لها ﴾ أي لا انقطاع لها ولا زوال ﴿ والله سميع عليم ﴾ أي سميع لأقوال عباده عليم بأفعالهم ﴿ الله ولي
الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ أي الله ناصر المؤمنين وحافظهم ومتولي أمورهم ، يخرجهم
من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان والهداية ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من
النور إلى الظلمات ﴾ أي وأما الكافرون فأولياؤهم الشياطين يخرجونهم من نور الإيمان إلى ظلمات الشك

(١) قال ابن جرير : وقول ابن عباس هذا يدل على صحته ظاهر القرآن ولأن أصل الكرسي العلم ، ومنه يقال للعلماء كراسي لأنهم المعتمد
عليهم كما يقال أوتاد الأرض انتهى والصحيح ما قاله ابن كثير .

والضلال ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي ما كثون في نار جهنم لا يخرجون منها أبداً .

البَلَاغَةُ : ١ - في آية الكرسي أنواع من الفصاحة وعلم البيان منها حسنُ الافتتاح لأنها افتتحت بأجل أسماء الله تعالى ، وتكرار اسمه ظاهراً ومضمراً في ثمانية عشر موضعاً ، والإطناب بتكرير الصفات ، وقطعُ الجمل حيث لم يصلها بحرف العطف ، والطباقُ في ﴿ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أفاده صاحب البحر المحيط .

٢ - ﴿استمسك بالعروة الوثقى﴾ استعارة تمثيلية حيث شبه المستمسك بدين الإسلام بالمستمسك بالجلب المحكم ، وعدم الانفصام ترشيحاً .

٣ - ﴿من الظلمات إلى النور﴾ استعارة تصريحية حيث شبه الكفر بالظلمات والإيمان بالنور قال في تلخيص البيان : وذلك من أحسن التشبيهات لأن الكفر كالظلمة التي يتسكع فيها الخابط ويضل القاصد ، والإيمان كالنور الذي يؤمه الجائر ويهتدي به الحائر ، وعاقبة الإيمان مضيئة بالنعيم والثواب ، وعاقبة الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب (١) .

فكائِدَةٌ : أفرد النور وجمع الظلمات لأن الحق واحد لا يتعدد وأما طرق الضلال فكثيرة ومتشعبة .

تنبية : آية الكرسي لها شأن عظيم وقد صحَّ الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله وفيها اسم الله الأعظم كما جاء في الحديث الشريف : (اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب في ثلاث : سورة البقرة وآل عمران وطه) قال هشام : أما البقرة فقوله ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وفي آل عمران ﴿الم * الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وفي طه ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾ قال ابن كثير : وقد اشتملت على عشر جملٍ مستقلة ، متعلقة بالذات الإلهية وفيها تمجيد الواحد الأحد (٢) .

قال الله تعالى : ﴿لم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه . . إلى . . يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ من آية (٢٥٨) إلى نهاية آية (٢٦٠) .

المناسِبة : لما ذكر تعالى الإيمان بالله وصفاته القدسية العلية ، وذكر ولايته للمؤمنين وولاية الطاغوت للكافرين ، ذكر هنا نموذجاً عن تحكم الطغيان في نفوس الكفرة المعاندين ومجادلتهم في وحدانية الله ، فذكر ههنا قصصاً ثلاثة : الأولى في بيان إثبات الخالق الحكيم والثانية والثالثة في إثبات الحشر ، والبعث بعد الفناء .

اللغز : ﴿حاجَّ﴾ المحاجة : المغالبة يقال : حاججته فحججته ، وحاجه أي بادله الحجة

﴿فبهت﴾ انقطع وسكت متحيراً قال العذري :

فما هو إلا أن أراها فجاءةً فأبهتُ حتى ما أكاد أجيب
﴿خاوية﴾ ساقطة ﴿عروشها﴾ العرش : سقف البيت ، وكلُّ ما يهيا يُظَلُّ أو يُكَنُّ فهو عريش ﴿يتسنه﴾
يتغير ويتبدل من تسنَّهت النخلة إذا أتت عليها السنون وغيرتها ﴿ننشزها﴾ نركب بعضها فوق بعض من
النشاز وهو الرفع يقال لما ارتفع من الأرض نشز ومنه نشوز المرأة ﴿فصرهن﴾ ضمنن إليك ثم اقطعهن من
صار الشيء يصوره إذا قطعه .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ
أَنَا أحيي ومُيتٌ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ
مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ

النفسير : ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ تعجب للسامع من أمر هذا الكافر ،
المجادل في قدرة الله أي ألم ينته علمك إلى ذلك المارد وهو « النمرود بن كنعان » الذي جادل إبراهيم في
وجود الله ؟ ﴿أن آتاه الله الملك﴾ أي لأن آتاه الله الملك حيث حملة بطره بنعم الله على إنكار وجود الله ،
فقابل الجود والإحسان بالكفر والطغيان ﴿إذ قال إبراهيم ربِّي الذي يحيي ويميت﴾ أي حين قال له إبراهيم
مستدلاً على وجود الله إن ربي هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد فهو وحده رب العالمين ﴿قال أنا
أحيي وأميت﴾ أي قال ذلك الطاغية وأنا أيضاً أحيي وأميت ، روي أنه دعا برجلين حكم عليهما
بالإعدام فأمر بقتل أحدهما فقال : هذا قتلته ، وأمر بإطلاق الآخر وقال : هذا أحييته ، ولما رأى الخليل
حماقته ومشاغبته في الدليل عدل إلى دليل آخر أجدى وأروع وأشد إجحاماً ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي
بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾ أي إذا كنت تدعي الألوهية وأنتك تحيي وتميت كما يفعل رب
العالمين جل جلاله فهذه الشمس تطلع كل يوم من المشرق بأمر الله ومشيتته فأطلعها من المغرب بقدرتك
وسلطانك ولو مرة واحدة ﴿فبهت الذي كفر﴾ أي أخرس ذلك الفاجر بالحجة القاطعة ، وأصبح مبهوتاً
دهشاً لا يستطيع الجواب ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يلهمهم الحجة والبيان في مقام المناظرة
والبرهان بخلاف أوليائه المتقين ﴿أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها﴾ وهذه هي القصة الثانية
وهي مثل لمن أراد الله هدايته والمعنى ألم ينته إلى علمك كذلك مثل الذي مرَّ على قرية وقد سقطت
جدرانها على سقفها وهي قرية بيت المقدس لما حُرِّبها بختنصر ﴿قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾ أي
قال ذلك الرجل الصالح واسمه « عزير » على الرأي الأشهر : كيف يحيي الله هذه البلدة بعد خرابها
ودمارها ؟ قال ذلك استعظماً لقدرة الله تعالى وتعجباً من حال تلك المدينة وما هي عليه من الخراب

إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهٗ ۖ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

والدمار ، وكان راكباً على حماره حيناً مرَّ عليها ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ أي أمات الله ذلك السائل واستمر ميتاً مائة سنة ثم أحياه الله ليريه كمال قدرته ﴿قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم﴾ أي قال له ربه بواسطة الملك كم مكثت في هذه الحال ؟ قال يوماً ثم نظر حوله فرأى الشمس باقية لم تغب فقال : أو بعض يوم أي أقل من يوم فخاطبه ربه بقوله ﴿قال بل لبثت مائة عام﴾ أي بل مكثت ميتاً مائة سنة كاملة ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لن يتسنه﴾ أي إن شككت فانظر إلى طعامك لم يتغير بمرور الزمان ، وكان معه عنبٌ وتينٌ وعصير فوجدها على حالها لم تفسد ﴿وانظر إلى حمارك﴾ أي كيف تفرقت عظامه ونخرت وصار هيكلًا من البلى ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ أي فعلنا ما فعلنا لتدرك قدرة الله سبحانه ولنجعلك معجزة ظاهرة تدل على كمال قدرتنا ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً﴾ أي تأمل في عظام حمارك النخرة كيف نركب بعضها فوق بعض وأنت تنظر ثم نكسوها لحماً بقدرتنا ﴿فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ أي فلما رأى الآيات الباهرات قال أيقنت وعلمت علم مشاهدة أن الله على كل شيء قدير ﴿وإذ قال إبراهيم رب أريني كيف تحيي الموتى﴾ وهذه هي القصة الثالثة وفيها الدليل الحسي على الإعادة بعد الفناء والمعنى : اذكر حين طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ، سأل الخليل عن الكيفية مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية ، فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان ، ولهذا خاطبه ربه بقوله ﴿قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبني﴾ أي أولم تصدق بقدرتي على الإحياء ؟ قال بلى آمنت ولكن أردت أن أزداد بصيرةً وسكون قلب برؤية ذلك ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك﴾ أي خذ أربعة طيور فضمهن إليك ثم اقطعهن ثم اخلط بعضهن ببعض حتى يصبحن كتلة واحدة ﴿ثم اجعل على كل جبلٍ منهن جزءاً﴾ أي فرق أجزاءهن على رؤوس الجبال ﴿ثم ادعهن يأتينك سعيًا﴾ أي نادهن يأتينك مسرعات قال مجاهد : كانت طاووساً وغراباً وحمامةً وديكاً فذبحن ثم فعل بهن ما فعل ثم دعاهن فأتين مسرعات ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ أي لا يعجز عما يريد حكيم في تدبيره وصنعه . قال المفسرون : ذبحهن ثم قطعهن ثم خلط بعضهن ببعض حتى اختلط ريشها ودمائها ولحومها ثم أمسك برؤوسها عنده وجزأها أجزاءً على الجبال ثم دعاهن كما أمره تعالى فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم حتى عادت طيراً كما كانت وأتينه يمشين سعيًا ليكون أبلغ له في الرؤية لما سأل . ذكره ابن كثير .

البَلَاغَةُ : ﴿ألم تر﴾ الرؤية قلبية والاستفهام للتعجب .

٢ - ﴿يحيي ويميت﴾ التعبير بالمضارع يفيد التجدد والاستمرار ، والصيغة تفيد القصر ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ لأن المبتدأ والخبر وردا معرفتين والمعنى أنه وحده سبحانه هو الذي يحيي ويميت ، وبين كلمتي « يحيي » و « يميت » طباقٌ وهو من المحسنات البديعية وكذلك بين لفظ « المشرق » و « المغرب » .

٣ - ﴿فبهت الذي كفر﴾ التعبير بالنص السامي يشعر بالعلة وأن سبب الحيرة هو كفره ولو قال : فبهت الكافر لما أفاد ذلك المعنى الدقيق .

٤ - ﴿أتى يحيي هذه الله بعد موتها﴾ موت القرية هو موت السكان فهو من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحال ويسمى المجاز المرسل .

٥ - ﴿ثم نكسوها لحماً﴾ نسترها به كما يستر الجسد باللباس قال أبو حيان : الكسوة حقيقةً هي ما وراء الجسد من الثياب واستعارها هنا لما أنشأ من اللحم الذي غطى العظم وهي استعارة في غاية الحسن^(١) .

الفَوَائِد : الأولى : قال مجاهد : ملك الدنيا مشارقتها ومغارها أربعة : مؤمنان ، وكافران فالمؤمنان « سليمان بن داود » و « ذو القرنين » والكافران « النمرود » و « بختنصر »^(٢) الذي خرب بيت المقدس .

الثانية : لما رأى الخليل تجاهل الطاغية معنى الحياة والموت وسلوكه مسلك التلبيس والتمويه على الرعاع ، وكان بطلان جوابه من الجلاء بحيث لا يخفى على أحد ، انتقل إبراهيم إلى حجة أخرى لا تجري فيها المغالطة ولا يتيسر للطاغية أن يخرج عنها بمكابرة أو مشاغبة فقال ﴿إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾ فلوى خليل الله عنقه حتى أراه عجزه وأخرس لسانه .

الثالثة : سؤال الخليل ربه بقوله ﴿كيف يحيي الموتى﴾ ليس عن شك في قدرة الله ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ويدل عليه وروده بصيغة ﴿كيف﴾ وموضوعها السؤال عن الحال ويؤيد المعنى قول النبي ﷺ ﴿نحن أحق بالشك من إبراهيم﴾ ومعناه : ونحن لم نشك فلأن لا يشك إبراهيم أحرى وأولى .

قال الله تعالى : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله . . . إلى . . . وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾

من آية (٢٦١) إلى نهاية آية (٢٦٩) .

المناسكبة : لما ذكر تعالى في الآيات السابقة أن الناس فريقان : أولياء الله وهم المؤمنون ، وأولياء الطاغوت وهم الكافرون ثم أعقبه بذكر نموذج للإيمان ونموذج للطغيان ، ذكر هنا ما يرغب في الإنفاق في

سبيل الله وخاصة في أمر الجهاد لأعداء الله ، لأن الجهاد في سبيل الحق له ميادين ثلاثة : أولها الإقناع بالحجة والبرهان وثانيها الجهاد بالنفس وثالثها الجهاد بالمال ، فلما ذكر فيما سبق جهاد الدعوة وجهاد النفس شرع الآن في ذكر الجهاد بالمال .

اللفظة : ﴿المن﴾ أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه ، وأن يذكره النعمة على سبيل التناول والتفضل قال الشاعر :

أفسدت بالمن ما أسديت من حسن ليس الكريم إذا أسدى بمنان

﴿رثاء الناس﴾ لا يريد بإنفاقه رضى الله وإنما يريد ثناء الناس وأصله من الرؤية وهو أن يري الناس ما يفعله حتى يشنوا عليه ويعظموه ﴿صفوان﴾ الصفوان : الحجر الأملس الكبير قال الأخفش : وهو جمع واحده صفوانه وقيل : هو اسم جنس كالحجر ﴿وابل﴾ الوابل : المطر الشديد ﴿صلدا﴾ الصلدا : الأملس من الحجارة وهو كل ما لا ينبت شيئاً ومنه جبين أصلد ﴿بربوة﴾ الربوة : المكان المرتفع من الأرض يقال : ربوة وراية وأصله من ربا الشيء إذا زاد وارتفع ﴿طل﴾ الطل : المطر الخفيف الذي تكون قطراته صغيرة وقال قوم منهم مجاهد : الطل الندى ﴿إعصار﴾ الإعصار : الريح الشديدة التي تهب من الأرض وترتفع إلى السماء كالعمود ويقال لها : الزوبعة ﴿تيمموا﴾ تقصدوا ﴿تغمضوا﴾ من أغمض الرجل في أمر كذا إذا تساهل فيه وهذا كالأغضاء عند المكروه .

سبب النزول : نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف في غزوة تبوك ، حيث جهز عثمان ألف بعير بأحلاسها وأقتابها ووضع بين يدي رسول الله ﷺ ألف دينار ، فصار رسول الله ﷺ يقبلها ويقول : ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم ، وأتى عبد الرحمن بن عوف النبي ﷺ بأربعة آلاف درهم فقال يا رسول الله : كان عندي ثمانية آلاف درهم فأمسكت منها لنفسي ولعيالي أربعة آلاف وأربعة آلاف أقرضتها ربي ، فقال له رسول الله ﷺ : بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت ، فنزلت فيها الآية ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله . .﴾ (١) الآية .

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا

التفسير : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾ قال ابن كثير : هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف أي مثل نفقتهم كمثل حبة زُرعت فأنبتت سبع سنابل ﴿في كل سنبل مائة حبة﴾ أي كل سنبل مائة حبة فتكون الحبة قد أغلّت سبعمائة حبة ، وهذا تمثيل لمضاعفة

أَذَى لَهُمْ أَجْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا
 أَذَىٰ ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ
 النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَنَّهُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۗ لَا
 يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ
 مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاتَتْ أَكْطُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ

الأجر لمن أخلص في صدقته ولهذا قال تعالى ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ أي يضاعف الأجر لمن أراد على حسب حال المنفق من إخلاصه وابتغائه بنفقته وجه الله ﴿والله واسع عليم﴾ أي واسع الفضل عليم بنية المنفق ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى﴾ أي لا يقصدون بإنفاقهم إلا وجه الله ، ولا يعقبون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات بالمن على من أحسنوا إليه كقوله قد أحسنت إليك وجبرتُ حالك ، ولا بالأذى كذكره لغيره فيؤذيه بذلك ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ أي لهم ثواب ما قدموا من الطاعة عند الله ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي لا يعترهم فزع يوم القيامة ولا هم يحزنون على فائتٍ من زهرة الدنيا ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾ أي ردُّ السائل بالتي هي أحسن والصفح عن الجاحه ، خيرٌ عند الله وأفضل من إعطائه ثم إيذائه أو تعييره بذل السؤال ﴿والله غني حليم﴾ أي مستغن عن الخلق حليم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره . . ثم أخبر تعالى عما يبطل الصدقة ويضيع ثوابها فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ أي لا تحبطوا أجرها بالمن والأذى ﴿كالذي ينفق ماله رياء الناس﴾ أي كالمرائي الذي يبطل إنفاقه بالرياء ﴿ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي لا يصدق بقاء الله ليرجو ثواباً أو يخشى عقاباً ﴿فمثلته كمثل صفوان عليه تراب﴾ أي مثل ذلك المرائي بإنفاقه كمثل الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب يظنه الظان أرضاً طيبة منتبة ﴿فأصابه وابلٌ فتركه صلداً﴾ أي فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب فيبقى صلداً أملس ليس عليه شيء من الغبار أصلاً كذلك هذا المنافق يظن أن له أعمالاً صالحة فإذا كان يوم القيامة اضمحلت وذهبت ولهذا قال تعالى ﴿لا يقدرُونَ على شيء مما كسبوا﴾ أي لا يجدون له ثواباً في الآخرة فلا ينتفع بشيء منها أصلاً ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي لا يهديهم إلى طريق الخير والرشاد . . ثم ضرب تعالى مثلاً آخر للمؤمن من المنفق ماله ابتغاء مرضاة الله فقال ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم﴾ أي ينفقونها طلباً لمرضاته وتصديقاً ببقائه تحقيقاً للثواب عليه ﴿كمثل جنّة برية﴾ أي كمثل بستان كثير الشجر بمكان مرتفع من الأرض ، وخصت بالربوة لحسن شجرها وزكاه ثمرها ﴿أصابها وابلٌ فأتت أكلها ضعفين﴾ أي أصابها مطر غزير فأخرجت ثمارها جنية مضاعفة ، ضعفي ثمر غيرها من الأرض ﴿فإن لم يصبها وابلٌ فطلَّ﴾ أي فإن لم ينزل عليها المطر الغزير فيكفيها المطر الخفيف أو يكفيها الندى

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢١٩﴾ أَيُودٌ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَاَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٢٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ط وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٢١﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٢﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٢٣﴾

لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها فهي تنتج على كل حال ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب﴾ أي يجب أحدكم أن تكون له حديقة غناء فيها من أنواع النخيل والأعناب والثمار الشيء الكثير ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تمر الأنهار من تحت أشجارها ﴿له فيها من كل الثمرات﴾ أي ينبت له فيها جميع الثمار ومن كل زوج بهيج ﴿وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء﴾ أي أصابته الشيخوخة فضعف عن الكسب وله أولاد صغار لا يقدر على الكسب ﴿فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت﴾ أي أصاب تلك الحديقة ريح عاصفة شديدة معها نار فاحترقت الثمار والأشجار أحوج ما يكون الإنسان إليها ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ أي مثل هذا البيان الواضح في هذا المثل الرائع المحكم يبين الله لكم آياته في كتابه الحكيم لكي تتفكروا وتتدبروا بما فيها من العبر والعظات ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ أي أنفقوا من الحلال الطيب من المال الذي كسبتموه ﴿ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ أي ولا تقصدوا الرديء الخسيس فتصدقوا منه ﴿ولستم بأخذيهِ إلا أن تغمضوا فيه﴾ أي لستم تقبلونه لو أعطيتموه إلا إذا تساهلتم وأغمضتم البصر فكيف تؤدون منه حق الله !! ﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾ أي أنه سبحانه غني عن نفقاتكم حميد مجازي المحسن أفضل الجزاء . . ثم حذر تعالى من وسوسة الشيطان فقال ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ أي الشيطان يخوفكم من الفقر إن تصدقتم وبغيركم بالبخل ومنع الزكاة ﴿والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾ أي وهو سبحانه يعدكم على إنفاقكم في سبيله مغفرةً للذنوب وخلفاً لما أنفقتموه زائداً عن الأصل ﴿والله واسع عليم﴾ أي واسع الفضل والعطاء عليم بمن يستحق الثناء ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾ أي يعطي العلم النافع المؤدي إلى العمل الصالح من شاء من عباده ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ أي من أعطي الحكمة فقد أعطي الخير الكثير لمصير صاحبها إلى السعادة الأبدية ﴿وما يذكر إلا أولوا الأبواب﴾ أي ما يتعظ بأمثال القرآن وحكمه إلا أصحاب العقول النيرة الخالصة من الهوى .

البلاغة : ١ - ﴿كمثل حبة﴾ شبه سبحانه الصدقة التي تُنق في سبيله بحبة زرعت وباركها المولى فأصبحت سبعائة حبة ، ففيه تشبيه « مرسل مجمل » لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه قال أبو حيان : وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها ماثلة بين عيني الناظر ^(١) .

٢ - ﴿أنبت سبع سنابل﴾ إسناد الإنبات إلى الحبة إسنادٌ مجازي ويسمى « المجاز العقلي » لأن المنبت في الحقيقة هو الله تعالى .

٣ - ﴿منأ ولا أذى﴾ من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول لأن الأذى يشمل المنأ .

٤ - ﴿كمثل صفوان عليه تراب﴾ فيه تشبيه يسمى « تشبيهاً تمثيلاً » لأن وجه الشبه منتزع من متعدد وكذلك يوجد تشبيه تمثيلي في قوله ﴿كمثل جنةٍ برودة﴾ .

٥ - ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة . . .﴾ الآية ، لم يذكر المشبه ولا أداة التشبيه وهذا النوع يسميه علماء البلاغة « استعارة تمثيلية » وهي تشبيه حال بحال لم يذكر فيه سوى المشبه به فقط وقامت قرائن تدل على إرادة التشبيه ، والهمزة للاستفهام والمعنى على التبعيد والنفي أي ما يود أحدٌ ذلك .

٦ - ﴿تغمضوا فيه﴾ المراد به هنا التجاوز والمساهلة لأن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عينيه لئلا يرى ذلك ففي الكلام مجاز مرسل أو استعارة ^(٢) .

الفوائد : الأولى : قال الزمخشري : المنأ أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ، وفي نوابغ الكلم « صنوان من منح سائله ومن ، ومن منع نائله وضمن » و « طعم الألاء أحلى من المن وهي أمرٌ من الألاء مع المن » ^(٣) وقال الشاعر :

وإن امرءاً أسدى إليّ صنيعاً ودكر فيها مرةً للثيم

الثانية : المطر أوله رش ثم طش ثم ظل ثم نضح ثم هطل ثم وبل والمطر الوابل الشديد الغزير .

الثالثة : قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ « فيمن ترون هذه الآية نزلت ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة﴾ ؟ قالوا : الله أعلم فغضب عمر فقال : قولوا نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك ، فقال ابن عباس ضربت مثلاً بعمل لرجلٍ غني يعمل بطاعة الله ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله » أخرجه البخاري .

الرابعة : قال الحسن البصري : هذا مثلٌ قلّ والله من يعقله : شيخ كبير ، ضعف جسمه ، وكثر

(١) البحر المحيط ٢/٣٠٤ . (٢) الفتوحات الإلهية ١/٢٢٣ . (٣) الكشاف ١/٢٣٨ والالاء بالفتح شجرٌ حسن المنظر مر الطعم

صبيانه أفقر ما كان إلى جنته فجاءها الإِعصار فأحرقها ، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا .

قال الله تعالى : ﴿وما أنفقتم من نفقةٍ أو نذرتم من نذرٍ . . إلى . . ولا خوف عليهم ولا هم

يخزون﴾ من آية (٢٧٠) إلى نهاية آية (٢٧٤) .

يخزون﴾

الْمَنَاسِكَةُ : لا تزال الآيات تتحدث عن الإنفاق في وجوه البر والخير ، وأعلاها الجهاد في سبيل الله والإنفاق لإِعلاء كلمته ، وترغّب في إخفاء الصدقات لأنها أبعد عن الرياء ، فوجه المناسبة ظاهر .

اللغز : ﴿فنعماً﴾ أصلها « نعم ما » أدغمت الميان فصارت نعماً قال الزجاج : أي نعم الشيء هو، ﴿أحصروا﴾ الحصر : الحس أي حبسوا أنفسهم على الجهاد وقد تقدم معنى الحصر ﴿التعفف﴾ من العفة يقال : عفّ عن الشيء أمسك عنه وتنزّه عن طلبه والمراد التعفف عن السؤال ﴿بسيّاهم﴾ السيّا : العلامة التي يعرف بها الشيء ويقال : سيمياء كالكيمياء وأصلها من السّمة بمعنى العلامة قال تعالى ﴿سيّاهم في وجوههم من أثر السجود﴾ ﴿إلحافاً﴾ الإلحاف : الإلحاح في السؤال يقال : ألحف : إذا ألحّ ولجّ في السؤال والطلب .

سَبَبُ الزَّوْلِ : عن سعيد بن جبير أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله ﷺ : (لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم) فنزلت هذه الآية ﴿ليس عليك هداهم﴾ مبيحةً للصدقة على من ليس من دين الإسلام^(١) .

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٢٧٠) ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَصَدَقَاتٍ فَنِعْمَ هِيَ وَإِنْ تُخَفُّوْهَا وَتَوْتَوْهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٧١) * لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ

النَّصِير : ﴿وما أنفقتم من نفقةٍ أو نذرتم من نذرٍ فإن الله يعلمها﴾ أي ما بذلتم أيها المؤمنون من مال أو نذرتم من شيء في سبيل الله فإن الله يعلمه ويجازيكم عليه ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ أي وليس لمن منع الزكاة أو صرف المال في معاصي الله ، من معين أو نصير ينصرهم من عذاب الله ﴿إن تبدوا الصدقات فنعماً هي﴾ أي إن تظهروا صدقاتكم فنعم هذا الشيء الذي تفعلونه ﴿وإن تخفوها وتوتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ أي وإن تخفوها وتدفعوها للفقراء فهو أفضل لكم لأن ذلك أبعد عن الرياء ﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم﴾ أي يزيل بجميل أعمالكم سيء أثامكم ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي هو سبحانه مطلع على أعمالكم يعلم خفاياكم ، والآية ترغيب في الإسرار

وَجِهَ اللَّهُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ بِحَسَبِهِمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْفًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ أي ليس عليك يا محمد أن تهدي الناس فإنك لست بمؤاخذ بجريرة من لم يهتد ، إنما أنت ملزم بتبليغهم فحسب ، والله يهدي من شاء من عباده إلى الإسلام ﴿وما تنفقوا من خيرٍ فلا أنفسكم﴾ أي أي شيء تنفقونه من المال فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم لأن ثوابه لكم ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ خبرٌ بمعنى النهي أي لا تجعلوا إنفاقكم إلا لوجه الله لا لغرضٍ دنيوي ﴿وما تنفقوا من خيرٍ يوفِّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أي فإن أجره وثوابه أضعافاً مضاعفةً تنالونه أنتم ولا تنقصون شيئاً من حسناتكم ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾ أي اجعلوا ما تنفقونه للفقراء الذين حبسوا أنفسهم للجهاد والغزو في سبيل الله ﴿لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾ أي لا يستطيعون بسبب الجهاد السفر في الأرض للتجارة والكسب ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ أي يظنهم الذي لا يعرف حالهم أغنياء موسرين من شدة تعففهم ﴿تعرفهم بسياتهم لا يسألون الناس إخفاً﴾ أي تعرف حالهم أيها المخاطب بعلامتهم من التواضع وأثر الجهد ، وهم مع ذلك لا يسألون الناس شيئاً أصلاً فلا يقع منهم إجحاح وقيل معناه : إن سألوا سألوا بلطفٍ ولم يلحوا ﴿وما تنفقوا من خيرٍ فإن الله به عليم﴾ أي ما أنفقتموه في وجهه الخير فإن الله يجازيكم عليه أحسن الجزاء ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية﴾ أي الذين ينفقون في سبيل الله ابتغاء مرضاته ، في جميع الأوقات ، من ليل أو نهار ، وفي جميع الأحوال من سر وجهه ﴿فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي لهم ثواب ما أنفقوا ولا خوف عليهم يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ بين أنفقتم ونفقة جناس الاشتقاق وكذلك بين نذرتم ونذر .

٢ - ﴿إن تبدوا الصدقات﴾ في الإيداء والإخفاء طباق لفظي ، وكذلك بين لفظ «الليل والنهار» و«السر والعلانية» وهو من المحسنات البديعية .

٣ - ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ إطناب لورودها بعد قوله ﴿يوفِّ إليكم﴾ الذي معناه يصلكم وافيّاً غير منقوص .

فَكَايِدَةٌ : قال بعض الحكماء : إذا اصطنعت المعروف فاستره ، وإذا اصطنع إليك فانشره وأنشدوا :

يُخْفِي صَنَائِعَهُ وَاللَّهُ يُظْهِرُهَا إِنَّ الْجَمِيلَ إِذَا أَخْفَيْتَهُ ظَهَرَ

قال الله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ . . . إِلَى . . . ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا

يُظْلَمُونَ﴾ من آية (٢٧٥) إلى نهاية آية (٢٨١) .

الْمَنَاسِكَةُ : لما أمر تعالى بالإنفاق من طيبات ما كسبوا ، وحضّ على الصدقة ورغب في الإنفاق في سبيل الله ، ذكر هنا ما يقابل ذلك وهو الربا الكسب الخبيث ذو الوجه الكالح الطالح ، الذي هو شحّ وقذارة ودنس ، بينما الصدقة عطاء وسماحة وطهارة ، وقد جاء عرضه مباشرة بعد عرض ذلك الوجه الطيب من الإنفاق في سبيل الله ليظهر الفارق بجلاء بين الكسب الطيب والكسب الخبيث وكما قيل « وبضدها تتميّز الأشياء » .

اللفظة : ﴿الربا﴾ لغة : الزيادة يقال : ربا الشيء إذا زاد ومنه الربوة والرابية ، وشرعاً : زيادة على أصل المال يأخذها الدائن من المدين مقابل الأجل ﴿يتخبّطه﴾ التخبط : الضرب على غير استواء كخبط البعير الأرض بأخفافه ويقال للذي يتصرف ولا يهتدي : خبط في عشواء وتورط في عمياء ، وتخبطه الشيطان إذا مسّه بخبلٍ أو جنونٍ ﴿المس﴾ الجنون وأصله من المسّ باليد كأن الشيطان يمسّ الإنسان فيحصل له الجنون ﴿سلف﴾ مضى وانقضى ومنه سالف الدهر أي ماضيه ﴿يمحق﴾ المحق : نقصان الشيء حالاً بعد حال ومنه المحاق في الهلال يقال : محقه الله فامحق وامتحق ﴿أثيم﴾ كثير الإثم المتأدي في الذنوب والآثام .

سَبَبُ الزُّوْلِ : كان لبني عمرو من ثقيف ديونٌ ربا على بني المغيرة فلما حلّ الأجل أرادوا أن يتقاضوا الربا منهم فنزلت الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله . . .﴾ الآية فقالت ثقيف : لا يد لنا « أي لا طاقة لنا » بحرب الله ورسوله وتابوا وأخذوا رءوس أموالهم فقط^(١) .

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا

التفسير : ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ أي الذين يتعاملون بالربا ويمتصون دماء الناس لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع من جنونه ، يتعثر ويقع ولا يستطيع أن يمشي سوياً ، يقومون مخبلين كالمصروعين تلك سيأهم يعرفون بها عند الموقف هتكا لهم وفضيحة ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ أي ذلك التخبط والتعثر بسبب

الْبَيْعِ مِثْلَ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا

استحلالهم ما حرّمه الله ، وقولهم : الربا كالبيع فلماذا يكون حراماً ؟ قال تعالى ردّاً عليهم ﴿ وأحلّ الله البيع وحرّم الربا ﴾ أي أحلّ الله البيع لما فيه من تبادل المنافع ، وحرّم الربا لما فيه من الضرر الفادح بالفرد والمجتمع ، لأن فيه زيادة مقطوعة من جهد المدين ولحمه ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ﴾ أي من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى عن التعامل به فله ما مضى قبل التحريم ﴿ وأمره إلى الله ﴾ أي أمره موكل إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه ﴿ ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أي ومن عاد إلى التعامل بالربا واستحلّه بعد تحريم الله له فهو من المخلدين في نار جهنم ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات ﴾ أي يذهب ريعه ويمحو خيره وإن كان زيادة في الظاهر ، ويكثر الصدقات وينميها وإن كانت نقصاناً في الشاهد ﴿ والله لا يحب كل كفار أثيم ﴾ أي لا يحب كل كفور القلب ، أثيم القول والفعل ، وفي الآية تغليظ في أمر الربا وإيدان بأنه من فعل الكفار ، ثم قال تعالى مادحاً المؤمنين المطيعين أمره في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أي صدّقوا بالله وعملوا الصالحات التي من جملتها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿ لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ أي لهم ثوابهم الكامل في الجنة ، ولا يخافون يوم الفزع الأكبر ولا يحزنون على ما فاتهم في الدنيا ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ أي اخشوا ربكم وراقبوه فيما تفعلون ، واتركوا ما لكم من الربا عند الناس إن كنتم مؤمنين بالله حقاً ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ أي وإن لم تتركوا التعامل بالربا فأيقنوا بحرب الله ورسوله لكم قال ابن عباس : يقال لا كل الربا يوم القيامة خذ سلاحك للحرب ﴿ وإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ أي إن رجعتم عن الربا وتركتموه فلکم أصل المال الذي دفعتموه من غير زيادة ولا نقصان ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾ أي إذا كان المستدين معسراً فعليكم أن تمهلوه إلى وقت اليسر لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه : إمّا أن تقضي وإمّا أن تُربي ﴿ وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي إن تجاوزتم عمّا لكم عنده فهو أكرم وأفضل ، إن كنتم تعلمون ما فيه من الذكر الجميل

يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

والأجر العظيم ثم حذر تعالى عباده من ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه إلا العمل الصالح فقال ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون﴾ أي احذروا يوماً سترجعون فيه إلى ربكم ثم توفى كل نفس حسابها وأنتم لا تظلمون ، وقد ختمت هذه الآيات الكريمة بهذه الآية الجامعة المانعة التي كانت آخر ما نزل من القرآن وبنزولها انقطع الوحي ، وفيها تذكير العباد بذلك اليوم العصيب الشديد قال ابن كثير : هذه الآية آخر ما نزل من القرآن العظيم وقد عاش النبي ﷺ بعد نزولها تسع ليال ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿إنما البيع مثل الربا﴾ فيه تشبيه يسمى (التشبيه المقلوب) وهو أعلى مراتب التشبيه حيث يجعل المشبه مكان المشبه به كقول الشاعر : كأن ضياء الشمس غرة جعفر والأصل في الآية أن يقال : الربا مثل البيع ولكنه بلغ من اعتقادهم في حل الربا أن جعلوه أصلاً يقاس عليه فشبها به البيع .

٢ - ﴿أحل الله البيع وحرم الربا﴾ بين لفظ «أحل» و «حرم» طباق وكذلك بين لفظ «يحق» و «يربي» .

٣ - ﴿كفار أثيم﴾ صيغة فعال وفعل للمبالغة فقوله ﴿كفار أثيم﴾ أي عظيم الكفر شديد الإثم .

٤ - ﴿فأذنوا بحرب﴾ التنكير للتهويل أي بنوع من الحرب عظيم لا يقادر قدره كائن من عند الله أفاده أبو السعود .

٥ - ﴿لا تظلمون ولا تظلمون﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى «الجناس الناقص» لاختلاف الشكل .

٦ - ﴿واتقوا يوماً﴾ التنكير للتفخيم والتهويل .

الفَوَائِد : الأولى : عبر بقوله ﴿يأكلون الربا﴾ عن الانتفاع به لأن الأكل هو الغالب في المنافع وسواء في ذلك المعطي والأخذ لقول جابر في الحديث الشريف «لعن رسول الله أكل الربا وموكله وكتابه وشاهديه وقال : هم سواء»

الثانية : شبه تعالى المرابين بالمصروعين الذين تتخبطهم الشياطين ، وذلك لأن الله عز وجل أربى في بطونهم ما أكلوا من الربا فأثقلهم فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون قال سعيد بن جبير تلك علامة أكل الربا يوم القيامة .

الثالثة : يقول شهيد الإسلام سيد قطب عليه الرحمة عند هذه الآية ﴿لا يقومون﴾ إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ما نصه «إنها الحملة المفزعة والتصوير المرعب ، وما كان أى تهديد معنوي

ليبلغ إلى الحسّ ما تبلغه هذه الصورة الحيّة المجسّمة ، صورة المسوس المصروع ، ولقد مضت معظم التفسير على أن المقصود بالقيام في هذه الصورة المفزعة هو القيام يوم البعث ، ولكنها - فيما نرى - واقعة في هذه الأرض أيضاً على البشرية الضالة التي تتخبط كالمسوس في حكم النظام الربوي ، إن العالم الذي نعيش فيه اليوم هو عالم القلق والاضطراب والخوف والأمراض العصبية والنفسية ، وذلك على الرغم من كل ما بلغته الحضارة المادية وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادي ، ثم هو عالم الحروب الشاملة والتهديد الدائم بالحروب المبيدة وحرب الأعصاب والاضطرابات التي لا تنقطع هنا وهناك^(١) وهذا رأي حسن .

الرابعة : أخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (كان رجلٌ يداينُ الناسُ فكان يقول لفتاه إذا أتيتَ معسراً فتجاوز عنه لعلَّ الله أن يتجاوز عنا ، فلقي الله فتجاوز عنه)^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تدانيتم بدين . . إلى . . والله بما تعملون عليم﴾
من آية (٢٨٢) إلى نهاية آية (٢٨٣) .

المناسكة : لما ذكر تعالى الربا وبين ما فيه من قباحة وشناعة ، لأنه زيادة مقتطعة من عرق المدين ولحمه وهو كسب خبيث يمقته الإسلام ويحرمه ، أعقبه بذكر القرض الحسن بلا فائدة وذكر الأحكام الخاصة بالدين والتجارة والرهن ، وكلها طرق شريفة لتنمية المال وزيادته بما فيه صلاح الفرد والمجتمع ، وآية الدين أطول آيات القرآن على الإطلاق مما يدل على عناية الإسلام بالنظم الاقتصادية .

اللفتر : ﴿وليُمَلِّلْ﴾ من الإيلاء وهو أن يُلقى عليه ما يكتبه يقال : أملّ وأملّ ﴿يبخس﴾ البخس : النقص ﴿تسأموا﴾ السأم والسامة : الملل من الشيء والضرجر منه ﴿أقسط﴾ القسط : بكسر القاف العدل يقال : أقسط الرجل إذا عدل ، وبفتح القاف الجور يقال : قسط أي جار ومنه ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطاباً﴾ ﴿تضل﴾ قال أبو عبيد : معنى تضل أي تنسى والضلال عن الشهادة نسيان جزءٍ منها ﴿أدنى﴾ أقرب ﴿ترتابوا﴾ تشكوا من الريب بمعنى الشك ﴿فرهان﴾ جمع رهن وهو ما يدفع إلى الدائن توثيقاً للدين .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا

النفسي : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تدانيتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ أي إذا تعاملتم بدين مؤجل فاكتبوه ، وهذا إرشاد منه تعالى لعباده بكتابة المعاملات المؤجلة ليكون ذلك أحفظ وأوثق لمقدراتها وميقاتها ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ أي وليكتب لكم كاتب عادل مأمون لا يجور على أحد الطرفين

(١) في ظلال القرآن ٨٢/٣ . (٢) انظر الأدوار التي مرّ بها تحريم الربا والحكمة التشريعية في كتابنا روائع البيان ١/٣٨٩ .

يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بَيِّخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ * وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةٌ

﴿ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله﴾ أي ولا يمتنع أحد من الكتابة بالعدل كما علمه الله ﴿فليكتب وليملل الذي عليه الحق﴾ أي وليمل على الكاتب ويلقي عليه المدين وهو الذي عليه الحق لأنه المقر المشهود عليه ﴿وليتق الله ربه ولا يبيخس منه شيئاً﴾ أي وليخش الله رب العالمين ولا ينقص من الحق شيئاً ﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً﴾ أي إن كان المدين ناقص العقل مبذراً أو كان صبيهاً أو شيخاً هرمًا ﴿أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل﴾ أي لا يستطيع الإملاء بنفسه لعي أو خرس أو عجمة فليملل قيمه أو وكيله بالعدل من غير نقص أو زيادة ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ أي اطلبوا مع الكتابة أن يشهد لكم شاهدان من المسلمين زيادة في التوثيق ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء﴾ أي فإن لم يكن الشاهدان رجلين ، فليشهد رجل وامرأتان ممن يوثق بدينهم وعدلتهم ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾ أي تنسى إحدى المرأتين الشهادة فتذكرها الأخرى ، وهذا علة لوجوب الأثنين لنقص الضبط فيهن ﴿ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا﴾ أي ولا يمتنع الشهداء عن أداء الشهادة أو تحملها إذا طلب منهم ذلك ﴿ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله﴾ أي لا تملوا أن تكتبوا الدين صغيراً كان أو كبيراً ، قليلاً أو كثيراً إلى وقت حلول ميعاده ﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا﴾ أي ما أمرناكم به من كتابة الدين أعدل في حكمه تعالى ، وأثبت للشهادة لثلاً تنسى ، وأقرب أن لا تشكوا في قدر الدين والأجل ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم﴾ أي إلا إذا كان البيع حاضراً يداً بيد والثلث مقبوضاً ﴿فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾ أي فلا بأس بعدم كتابتها لانتهاء المحذور ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ أي أشهدوا على حقكم مطلقاً سواء كان البيع ناجزاً أو بالدين لأنه أبعد عن النزاع والاختلاف ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ أي لا يضر صاحب الحق الكتاب والشهود ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾ أي إن فعلتم ما نهيتم عنه فقد فسقتم بخروجكم عن طاعة الله ﴿واتقوا﴾

فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنُ أَمْنَتَهُ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّمٌ قَلْبُهُ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

الله ويعلمكم الله ﴿ أي خافوا الله وراقبوه يمنحكم العلم النافع الذي به سعادة الدارين ﴾ والله بكل شيء عليم ﴿ أي عالم بالمصالح والعواقب فلا يخفى عليه شيء من الأشياء ﴾ وإن كنتم على سفرٍ ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة ﴿ أي إن كنتم مسافرين وتداينتم إلى أجلٍ مسمى ولم تجدوا من يكتب لكم ، فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة يقبضها صاحب الحق وثيقة لدينه ﴾ فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ﴿ أي فإن أمن الدائن المدين فاستغنى عن الرهن ثقة بأمانة صاحبه فليدفع ذلك المؤتمن الدين الذي عليه وليتق الله في رعاية حقوق الأمانة ﴾ ولا تكتُموا الشهادة ومن يكتُمها فإنه إثم قلبه ﴿ أي إذا دعيتم إلى أداء شهادة فلا تكتُموها فإن كتمانها إثم كبير ، يجعل القلب آثماً وصاحبه فاجراً ، وخصّ القلب بالذكر لأنه سلطان الأعضاء ، إذا صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ﴾ والله بما تعملون عليم ﴿ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال وأفعال العباد .

البلاغَة : ١ - في الآية من ضروب الفصاحة « الجناس المغاير » في قوله ﴿ تداينتم بدين ﴾ وفي ﴿ استشهدوا شهيدين ﴾ وفي ﴿ أؤتمن أمانته ﴾ وفي ﴿ يعلمكم .. وعليم ﴾ .

٢ - الطباق في قوله ﴿ صغيراً أو كبيراً ﴾ وفي ﴿ أن تضل .. وتذكر ﴾ لأن الضلال هنا بمعنى النسيان .

٣ - وفي الآية أيضاً الإطناب في قوله ﴿ فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا ياب كاتب ﴾ وفي ﴿ فليملل الذي عليه الحق .. فإن كان الذي عليه الحق ﴾ وفي ﴿ أن تضل إحداها فتذكر إحداها الأخرى ﴾ .

٤ - الإيجاز بالحذف وذلك كثير وقد ذكر أمثله صاحب البحر المحيط .

٥ - كرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث ﴿ واتقوا الله ﴾ ﴿ ويعلمكم الله ﴾ ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ لإدخال الروعة وتربية المهابة في النفوس .

٦ - ﴿ وليتق الله ربه ﴾ جمع ما بين الإسم الجليل والنعمة الجميل مبالغة في التحذير .

فكائِدَة : العلم نوعان : كسبيٌّ ووهبيٌّ ، أما الأول فيكون تحصيله بالاجتهاد والمثابرة والمذاكرة ، وأما الثاني فطريقه تقوى الله والعمل الصالح كما قال تعالى ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ وهذا العلم يسمى العلم اللدني ﴿ وآتيناه من لدنا علماً ﴾ وهو العلم النافع الذي يهبه الله لمن شاء من عباده المتقين وإليه أشار الإمام الشافعي بقوله :

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي
وأخبرني بأن العلم نور
فأرشدني إلى ترك المعاصي
ونور الله لا يهدى لعاصي

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٦﴾ ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ءَوَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ ءَوَكُتُبِهِ ءَوَرُسُلِهِ ءَلَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ءَوَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

المناسبة : ناسب ختم هذه السورة الكريمة بهذه الآيات لأنها اشتملت على تكاليف كثيرة في الصلاة والزكاة والقصاص والصوم والحج والجهاد والطلاق والعدة وأحكام الربا والبيع والدين الخ فناسب تكليفه إيانا بهذه الشرائع أن يذكر أنه تعالى مالك لما في السموات وما في الأرض فهو يكلف من يشاء بما يشاء ، والجزاء على الأعمال إنما يكون في الدار الآخرة ، فختم هذه السورة بهذه الآيات على سبيل الوعيد والتهديد .

اللفظة : ﴿إصراً﴾ الإصر في اللغة : الثقل والشدة قال النابغة :

يا مانع الضيم أن يغشى سراتهم والحامل الإصر عنهم بعد ما عرفوا

وسميت التكاليف الشاقة إصراً لأنها تثقل كاهل صاحبها كما يسمى العهد إصراً لأنه ثقل . ﴿طاقة﴾ الطاقة : القدرة على الشيء من أطاق الشيء وهو مصدر جاء على غير قياس الفعل ﴿اعف عنا﴾ العفو : الصفح عن الذنب ﴿واغفر لنا﴾ الغفران : ستر الذنب ومحوه .

سبب النزول : لما نزل قوله تعالى ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ الآية ، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله فقالوا : كُلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيعها فقال ﷺ : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : ﴿سمعنا وعصينا﴾ قولوا ﴿سمعنا وأطعنا﴾ (فلما قرأها القوم وجرت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه﴾ ونسخها الله تعالى فأنزل ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾^(١) الآية).

التفسير : ﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي هو سبحانه المالك لما في السموات والأرض المطلع على ما فيهن ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ أي إن أظهرتم ما في أنفسكم من السوء أو أسررتموه فإن الله يعلمه ويحاسبكم عليه ﴿فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ أي يعفو عن من يشاء ويعاقب من يشاء وهو القادر على كل شيء الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ أي صدق محمد ﷺ بما أنزل الله إليه من القرآن والوحي وكذلك المؤمنون ﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ أي الجميع من النبي والأتباع صدق بوحدانية الله ، وآمن بملائكته وكتبه ورسله ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما

(١) أخرجه مسلم وانظر أسباب النزول للواحدي ص ٥١ .

غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

فعل اليهود والنصارى بل تؤمن بجميع رسل الله دون تفريق ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ أي أجبنا دعوتك وأطعنا أمرك فנסألك يا الله المغفرة لما اقترفناه من الذنوب وإليك وحدك يا الله المرجع والمآب . ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ أي لا يكلف المولى تعالى أحداً فوق طاقته ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ أي لكل نفس جزاء ما قدمت من خير ، وجزاء ما اقترفت من شر ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ أي قولوا ذلك في دعائكم والمعنى لا تعذبنا يا الله بما يصدر عنا بسبب النسيان أو الخطأ ﴿ربنا ولا تحمّل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ أي ولا تكلفنا بالتكاليف الشاقة التي نعجز عنها كما كلفت بها من قبلنا من الأمم كقتل النفس في التوبة وقرض موضع النجاسة ﴿ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به﴾ أي لا تحمّلنا ما لا قدرة لنا عليه من التكاليف والبلاء ﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا﴾ أي امحُ عنا ذنوبنا واستر سيئاتنا فلا تفضحنا يوم الحشر الأكبر وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ أي أنت يا الله ناصرنا ومتولي أمورنا فلا تحذلنا ، وانصرنا على أعدائنا وأعداء دينك من القوم الكافرين ، الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك وكذبوا برسالة نبيك ﷺ . روي أنه عليه السلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل دعوة : قد فعلتُ .

البلاغة : ١ - تضمنت الآية من أنواع الفصاحة وضروب البلاغة أشياء منها «الطباق» في قوله ﴿وإن تبدوا . . أو تخفوه﴾ وبين « يغفر » و « يعذب » ومنها الطباق المعنوي بين ﴿كسبت﴾ و ﴿اكتسبت﴾ لأن كسب في الخير واكتسب في الشر .

٢ - ومنها الجناس ويسمى جناس الاشتقاق في قوله ﴿آمن . . والمؤمنون﴾ .

٣ - ومنها الإطناب في قوله ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ .

٤ - ومنها الإيجاز بالحذف في قوله ﴿والمؤمنون﴾ أي آمنوا بالله ورسله ومواضع أخرى .

فائدة : عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه) أخرجه البخاري وفي رواية لمسلم أن ملكاً نزل من السماء فأتى النبي ﷺ فقال له : « أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفاً منها إلا أوتيته » .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة البقرة »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة آل عمران من السور المدنية الطويلة ، وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على ركنين هامين من أركان الدين هما : الأول : ركن العقيدة وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله جل وعلا. الثاني : التشريع وبخاصة فيما يتعلق بالمغازي والجهاد في سبيل الله . . أما الأول فقد جاءت الآيات الكريمة لإثبات الوحدانية ، والنبوة ، وإثبات صدق القرآن ، والرد على الشبهات التي يثيرها أهل الكتاب حول الإسلام والقرآن وأمر محمد عليه الصلاة والسلام ، وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب وهم « اليهود » وأظهرت حقيقتهم وكشفت عن نواياهم وخبائهم ، وما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر ، فإن سورة آل عمران قد تناولت الزمرة الثانية من أهل الكتاب وهم « النصارى » الذين جادلوا في شأن المسيح وزعموا ألوهيته وكذبوا برسالة محمد وأنكروا القرآن ، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من نصف السورة الكريمة ، وكان فيها الرد على الشبهات التي أثاروها بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة ، وبخاصة فيما يتعلق بشأن مريم وعيسى عليه السلام ، وجاء ضمن هذا الرد الحاسم بعض الإشارات والتقريرات لليهود ، والتحذير للمسلمين من كيد ودسائس أهل الكتاب ، أما الركن الثاني فقد تناول الحديث عن بعض الأحكام الشرعية كفرضية الحج والجهاد وأمور الربا وحكم مانع الزكاة ، وقد جاء الحديث بالإسهاب عن الغزوات كغزوة بدر ، وغزوة أحد والدروس التي تلقاها المؤمنون من تلك الغزوات ، فقد انتصروا في بدر ، وهزموا في أحد بسبب عصيانهم لأمر الرسول ﷺ وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيراً من كلمات الشائنة والتخذيل ، فأرشدهم تعالى إلى الحكمة من ذلك الدرس ، وهي أن الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة ، ليميز بين الخبيث والطيب ، كما تحدثت الآيات الكريمة بالتفصيل عن النفاق والمنافقين وموقفهم من تثبيط همم المؤمنين ، ثم ختمت بالتفكير والتدبر في ملكوت السموات والأرض وما فيها من إتيان وإبداع ، وعجائب وأسرار تدل على وجود الخالق الحكيم ، وقد ختمت بذكر الجهاد والمجاهدين في تلك الوصية الفذة الجامعة ، التي بها يتحقق الخير ، ويعظم النصر ، ويتم الفلاح والنجاح ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ .

فضّلها : عن النّوّاس بن سمعان قال سمعت النبي ﷺ يقول : (يُؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدّمهم سورة البقرة وآل عمران)^(١) .

التّسمية : سميت السّورة بـ «آل عمران» لورود ذكر قصة تلك الأسرة الفاضلة «آل عمران» والد مريم أم عيسى ، وماتجلى فيها من مظاهر القدرة الإلهية بولادة مريم البتول وابنها عيسى عليهما السلام .

قال الله تعالى : ﴿الم * الله لا إله إلا هو الحي القيوم .. إلى .. إن الله لا يخلف الميعاد﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (٩)

اللغز : ﴿الحي﴾ الباقي الدائم الذي لا يفنى ولا يموت ﴿القيوم﴾ القائم على تدبير شئون العباد ﴿يصوركم﴾ التصوير : جعل الشيء على صورة معينة أي يخلقكم كما يريد ﴿الأرحام﴾ جمع رحم وهو محل تكوّن الجنين ﴿محكمات﴾ المحكم : ما كان واضح المعنى قال القرطبي : «المحكم ما عُرف تأويله وفهم معناه وتفسيره ، والمتشابه : ما لم يكن لأحدٍ إلى علمه سبيل مما استأثر تعالى بعلمه دون خلقه مثل الحروف المقطعة في أوائل السور ، هذا أحسن ما قيل فيه»^(٢) ﴿أم الكتاب﴾ أصل الكتاب وأساسه وعموده ﴿زبيح﴾ ميلٌ عن الحق يقال : زاع زبيحاً أي مال ميلاً ﴿تأويله﴾ التأويل : التفسير وأصله المرجع والمصير من قولهم آل الأمر إلى كذا إذا صار إليه ﴿الراسخون﴾ الرسوخ : الثبوت في الشيء والتمكن منه قال الشاعر :

لقد رسخت في القلب مني مودةً ليلي أبت أيامها أن تغيراً^(٣)

سبب النزول : نزلت هذه الآيات في وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكباً ، فيهم أربعة عشر من أشرافهم ثلاثة منهم أكابرهم «عبد المسيح» أميرهم و«الأيهم» مشيرهم و«أبو حارثة بن علقمة» حبرهم ، فقدموا على النبي ﷺ فتكلم منهم أولئك الثلاثة معه فقالوا تارة عيسى هو «الله» لأنه كان يحيي الموتى ، وتارة هو «ابن الله» إذ لم يكن له أب ، وتارة إنه «ثالث ثلاثة» لقوله تعالى «فعلنا وقلنا» ولو كان واحداً لقال «فعلت وقلت» فقال لهم رسول الله ﷺ : ألستم تعلمون أن ربنا حيٌّ لا يموت وأن عيسى يموت !! قالوا : بلى ، قال ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه !! قالوا بلى ، قال ألستم تعلمون أن ربنا قائم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه فهل يملك عيسى شيئاً من ذلك ؟ قالوا : لا ، قال ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلا ما علم ؟ قالوا : لا ، قال ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث وأن عيسى كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث !! قالوا بلى فقال ﷺ فكيف يكون كما زعمتم ؟ فسكتوا وأبوا إلا الجحود فأنزل الله من أول السورة إلى نيف وثمانين آية^(٤) .

(١) أخرجه مسلم . (٢) القرطبي ٩/٤ . (٣) القرطبي ١٩/٤ . (٤) الفخر الرازي ١٦٥/٧ وابن كثير المختصر ٢٨٨/١ .

الْمَ ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ

التفسير : ﴿الم﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية وقد تقدم في أول البقرة ﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي لا رب سواه ولا معبود بحق غيره ﴿الحي القيوم﴾ أي الباقي الدائم الذي لا يموت ، القائم على تدبير شئون عباده ﴿نزل عليك الكتاب بالحق﴾ أي نزل عليك يا محمد القرآن بالحجج والبراهين القاطعة ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب المنزلة قبله المطابقة لما جاء به القرآن ﴿وأنزل التوراة والإنجيل﴾ من قبل إنزال هذا القرآن هداية لبني إسرائيل ﴿وأنزل الفرقان﴾ أي العظيمين « التوراة » و « الإنجيل » من قبل إنزال هذا القرآن هداية لبني إسرائيل ﴿والفرقان﴾ أي جنس الكتب السماوية لأنها تفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، وقيل : المراد بالفرقان القرآن وكرر تعظيماً لشأنه ﴿١﴾ ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ أي جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل ﴿لهم عذاب شديد﴾ أي عظيم أليم في الآخرة ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾ أي غالب على أمره لا يغلِب ، منتقم ممن عصاه ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ أي لا يغيب ولا يغرب عن علمه أمر من الأمور ، فهو مطلع على كل ما في الكون لا تخفى عليه خافية ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ أي يخلقكم في أرحام أمهاتكم كما يشاء من ذكر وأنثى ، وحسن وقبيح ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ أي لا رب سواه ، متفرد بالوحدانية والألوهية ، العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ، وفي الآية رد على النصراني حيث ادعوا ألوهية عيسى فنبه تعالى بكونه مصوراً في الرحم ، وأنه لا يعلم الغيب على أنه عبد كغيره من العباد ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب﴾ أي أنزل عليك يا محمد القرآن العظيم ﴿فيه آيات محكمة﴾ هن أم الكتاب ﴿أي فيه آيات بينات واضحات الدلالة ، لا التباس فيها ولا غموض كآيات الحلال والحرام ، هن أصل الكتاب وأساسه﴾ وأخر متشابهات ﴿أي وفيه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس ، فمن رد المتشابه إلى الواضح المحكم فقد اهتدى ، وإن عكس فقد ضلّ ولهذا قال تعالى ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾ أي فأما من كان في قلبه ميل عن الهدى إلى الضلال

(١) وهو قول قتادة والربيع واختار ابن جرير أن الفرقان مصدر بمعنى الفارق بين الغي والرشاد والهدى والضلال لتقدم ذكر القرآن في قوله ﴿نزل عليك الكتاب﴾ .

وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمْنَاهُ عَلَىٰ كُلِّ مَنٍ عِنْدَ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾
 رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ
 لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿٩﴾

فيتبع المتشابه منه ويفسره على حسب هواه ﴿ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ أي طلباً لفتنة الناس في دينهم ، وإيهاماً للأتباع بأنهم يتغنون تفسير كلام الله ، كما فعل النصارى الضالون حيث احتجوا بقوله تعالى في شأن عيسى ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ على أن عيسى ابن الله أو هو جزء من الله فادعوا ألوهيته وتركوا المحكم وهو قوله تعالى ﴿إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه﴾ الدال على أنه عبد من عباد الله ورسول من رسله ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ أي لا يعلم تفسير المتشابه ومعناه الحقيقي إلا الله وحده ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾ أي الثابتون المتمكنون من العلم يؤمنون بالمتشابه وأنه من عند الله ﴿كل من عند ربنا﴾ أي كل من المتشابه والمحكم حقٌ وصدق لأنه كلام الله ، قال تعالى ﴿وما يذكر إلا أولوا الأبواب﴾ أي ما يتعظ ويتدبر إلا أصحاب العقول السليمة المستنيرة ﴿ربنا لا تُزغ قلوبنا﴾ أي لا تملأها عن الحق ولا تضلنا ﴿بعد إذ هديتنا﴾ أي بعد أن هديتنا إلى دينك القويم وشرعك المستقيم ﴿وهب لنا من لَدُنكَ رحمة﴾ أي امنحنا من فضلك وكرمك رحمةً تثبتنا بها على دينك الحق ﴿إنك أنت الوهاب﴾ أي أنت يا رب المتفضل على عبادك بالعطاء والإحسان ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه﴾ أي جامع الخلائق في ذلك اليوم الرهيب «يوم الحساب» الذي لا شك فيه ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ أي وعدك حق وأنت يا رب لا تخلف الموعد ، كقوله تعالى ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً﴾ ؟ !

البلاغَة : ١ - ﴿نزل عليك الكتاب﴾ عبّر عن القرآن بالكتاب الذي هو اسم جنس إيداناً بكمال تفوقه على بقية الكتب السماوية كأنه هو الحقيقي بأن يطلق عليه اسم الكتاب .

٢ - ﴿لما بين يديه﴾ كناية عما تقدمه وسبقه من الكتب السماوية فسمى ما مضى بين يديه لغاية ظهوره

واشتهاره .

٣ - ﴿وأنزل الفرقان﴾ أي أنزل سائر ما يفرق بين الحق والباطل فهو من باب عطف العام على الخاص حيث ذكر أولاً الكتب الثلاثة ثم عمّ الكتب كلها لإفادة الشمول مع العناية بالخاص .

٤ - ﴿هن أم الكتاب﴾ قال الشريف الرضي : هذه استعارة والمراد بها أن هذه الآيات جماع

الكتاب وأصله فهي بمنزلة الأم له ، وكأن سائر القرآن يتبعها أو يتعلق بها كما يتعلق الولد بأمه ويفزع إليها في مهمه^(١) .

٥ - ﴿والراسخون في العلم﴾ وهذه استعارة والمراد بها المتمكنون في العلم تشبيهاً برسوخ الشيء الثقيل في الأرض الخوارة وهو أبلغ من قوله والثابتون في العلم^(١) .

الفوائد: الأولى : روى مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ تلا ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ الآية ثم قال : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّاهم الله فاحذروهم » .

الثانية : قال القرطبي : أحسن ما قيل في المتشابه والمحكم : أن المحكم ما عُرف تأويله وفهم معناه وتفسيره ، والمتشابه ما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه ولم يكن لأحدٍ إلى علمه سبيل ، قال بعضهم : وذلك مثل وقت قيام الساعة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج الدجال ، وعيسى ، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور^(٢) .

الثالثة : آيات القرآن قسمان : محكمات ومتشابهات كما دلت عليه الآية الكريمة ، فإن قيل : كيف يمكن التوفيق بين هذه الآية وبين ما جاء في سورة هود أن القرآن كله محكم ﴿كتاب أحكمت آياته﴾ وما جاء في الزمر أن القرآن كله متشابه ﴿نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ ؟ ! فالجواب أنه لا تعارض بين الآيات إذ كل آية لها معنى خاص غير ما نحن في صدده فقوله ﴿أحكمت آياته﴾ بمعنى أنه ليس به عيبٌ وأنه كلامٌ حقٌ فصيح الألفاظ ، صحيح المعاني وقوله ﴿كتاباً متشابهاً﴾ بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً في الحسن ويصدق بعضه بعضاً ، فلا تعارض بين الآيات .

الرابعة : روى البخاري عن سعيد بن جبير أن رجلاً قال لابن عباس : إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ ، قال : ما هو؟ قال قوله تعالى ﴿فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون﴾ وقال : ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ وقال تعالى : ﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾ وقال ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فقد كتموا في هذه الآية ، وفي النازعات ذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ، وفي فصلت ذكر خلق الأرض قبل خلق السماء ، وقال : ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ ﴿وكان الله سمياً بصيراً﴾ فكأنه كان ثم مضى . . فقال ابن عباس : ﴿فلا أنساب بينهم﴾ في النفخة الأولى ﴿فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾ فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون ، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، وأما قوله ﴿ما كنا مشركين﴾ ﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾ فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون تعالوا نقول : لم نكن مشركين ، فختم الله على أفواههم فتنتطق جوارحهم بأعمالهم فعند ذلك عُرف أن الله لا يكتُم حديثاً وعنده يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ، وخلق الله الأرض في يومين ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات في يومين ، ثم دحا الأرض أي بسطها فأخرج منها الماء والمرعى وخلق فيها الجبال والأشجار والأكام وما بينها في يومين

آخرين فذلك قوله ﴿والأرض بعد ذلك دحاهها﴾ فخلقت الأرض وما فيها في أربعة أيام وخلقت السماء في يومين ، وقوله ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ فسمي نفسه ذلك أي لم يزل ولا يزال كذلك ، ويحك فلا يختلف عليك القرآن فإن كلاً من عند الله .

قال الله تعالى : ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم . . إلى . والمستغفرين بالأسحار﴾
من آية (١٠) إلى نهاية آية (١٧)

المناسكة : لما حكى تعالى عن المؤمنين دعاءهم وتضرعهم أن يشبثهم الله على الإيمان ، حكى عن الكافرين سبب كفرهم وهو اغترارهم في هذه الحياة بكثرة المال والبنين ، وبين أنها لن تدفع عنهم عذاب الله ، كما لن تغني عنهم شيئاً في الدنيا ، وضرب على ذلك الأمثال بغزوة بدر حيث التقى فيها جند الرحمن بجند الشيطان ، وكانت النتيجة اندحار الكافرين مع كثرتهم وانتصار المؤمنين مع قلتهم ، فلم تنفعهم الأموال ولا الأولاد ، ثم أعقب تعالى ذلك بذكر شهوات الدنيا وممتع الحياة التي يتنافس الناس فيها ، ثم ختمها بالتذكير بأن ما عند الله خير للأبرار .

اللفظ : ﴿تغني﴾ الإغناء : الدفع والنفع ﴿وقود النار﴾ الوقود بفتح الواو الحطب الذي توقد به النار وبالضم مصدر بمعنى الاتقاد ﴿دأب﴾ الدأب : العادة والشأن وأصله من دأب الرجل في عمله إذا جد فيه واجتهد ثم أطلق الدأب على العادة والشأن لأن من دأب على شيء أمدأ طويلاً صار له عادة ﴿آية﴾ علامة ﴿فئة﴾ جماعة وسميت الجماعة من الناس فئة لأنه يُفَاء إليها في وقت الشدة ﴿عبرة﴾ العبرة : الاتعاض ومنه يقال : اعتبر ، واشتقاقها من العبور وهو مجاوزة الشيء إلى الشيء ومنه عبور النهر ، فالاعتبار انتقال من حالة الجهل إلى حالة العلم ﴿زُين﴾ التزين : تحسين الشيء وتجميله في عين الإنسان ﴿الشهوات﴾ الشهوة : ما تدعو النفس إليه وتشتهيه والفعل منه اشتهى ويُجمع على شهوات ﴿القناطير﴾ جمع قنطار وهو العقدة الكبيرة من المال أو المال الكثير الذي لا يحصى ﴿المقنطرة﴾ المضعفة وهو للتأكيد كقولك ألوف مؤلفة وأضعاف مضاعفة قاله الطبري ، وروي عن الفراء أنه قال : القناطير جمع القنطار ، والمقنطرة جمع الجمع فيكون تسع قناطير^(١) ﴿المسومة﴾ المعلمة بعلامة تجعلها حسنة المنظر تجلب الأنظار وقيل المسومة : الراعية وقال مجاهد وعكرمة : إنها الخيل المطهّمة الحسان^(٢) ﴿المأب﴾ المرجع يقال : أب الرجل إياباً ومأباً قال تعالى ﴿إن إلينا إيابهم﴾ ﴿الأسحار﴾ السحر : الوقت الذي قبل طلوع الفجر .

سبب النزول : لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً ببدر ، ورجع إلى المدينة جمع اليهود فقال لهم : يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً فقد عرفتم أنني نبيٌ مرسل ، فقالوا يا محمد : لا يغرّنك من نفسك أنك قتلت نَفراً من قريش كانوا أغماراً - يعني جهالاً - لا علم لهم بالحرب ، إنك والله لو

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾
 كَذَابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ الَّتِي تَقْتُلُ
 تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً
 لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

قاتلتنا لعرفت أنا نحن الرجال ، وأنتك لم تلق مثلنا فأنزل الله ﴿قل للذين كفروا ستغلبون﴾ (١١) الآية

النفسير : ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم﴾ أي لن تفيدهم الأموال والأولاد ، ولن تدفع عنهم من عذاب الله في الآخرة ﴿من الله شيئاً﴾ أي من عذاب الله وأليم عقابه ﴿وأولئك هم وقود النار﴾ أي هم حطب جهنم الذي تُسجَّر وتوقد به النار ﴿كذاب آل فرعون﴾ أي حال هؤلاء الكفار وشأنهم كحال وشأن آل فرعون ، وصنيعهم مثل صنيعهم ﴿والذين من قبلهم﴾ أي من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة كقوم هود وصالح وشعيب ﴿كذبوا بآياتنا﴾ أي كذبوا بالآيات التي تدل على رسالات الرسل ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي أهلكهم وعاقبهم بسبب الكفر والمعاصي ﴿والله شديد العقاب﴾ أي أليم العذاب شديد البطش ، والغرض من الآية أن كفار قريش كفروا كما كفر أولئك المعاندون من آل فرعون ومن سبقهم ، فكما لم تنفع أولئك أموالهم ولا أولادهم فكذلك لن تنفع هؤلاء . ﴿قل للذين كفروا﴾ أي قل يا محمد لليهود ولجميع الكفار ﴿ستغلبون﴾ أي تُهزمون في الدنيا ﴿وتحشرون إلى جهنم﴾ أي تُجمعون وتساقون إلى جهنم ﴿وبئس المهاد﴾ أي بئس المهاد والفراس الذي تمتهدونه نار جهنم ﴿قد كان لكم آية﴾ أي قد كان لكم يا معشر اليهود عظة وعبرة ﴿في فئتين التقتا﴾ أي في طائفتين التقتا للقتال يوم بدر ﴿فئة تقاتل في سبيل الله﴾ أي طائفة مؤمنة تقاتل لإعلاء دين الله ﴿وأخرى كافرة﴾ أي وطائفة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت وهم كفار قريش ﴿يرونهم مثلهم﴾ أي يرى المؤمنون الكافرين أكثر منهم مرتين ﴿رأى العين﴾ أي رؤية ظاهرة مكشوفة بالعين المجردة لا بالوهم والخيال ، وقيل : المراد يرى الكافرون المؤمنين ضعفيهم في العدد ، وذلك أن الله أكثر المؤمنين في أعين الكافرين ليرهبوهم ويجبنوا عن قتالهم ، والقول الأول اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله تعالى ﴿رأى العين﴾ أي رؤية حقيقية لا بالخيال ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء﴾ أي يقوي بنصره من يشاء ﴿إن في ذلك لعبرة﴾ أي لآية وموعظة ﴿لأولي الأبصار﴾ أي لذوي العقول السليمة والأفكار المستقيمة . ومغزى الآية أن القوة المادية ليست كل شيء ، وأن النصر لا يكون بكثرة العدد والعتاد ، وإنما يكون بمعونة الله

زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ
وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَآبِ ﴿١٤﴾ * قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ
ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ
وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ
وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

وتأييده كقوله ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ ثم أخبر تعالى عن اغترار الناس بشهوات الحياة الفانية فقال ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي حَسَنَ إِلَيْهِمْ وَحُبَّ إِلَى نَفْسِهِمْ المِيلَ نَحْوَ الشَّهَوَاتِ ، وبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد ، والالتذاذ بهن أكثر وفي الحديث (ما تركتُ بعدي فتنةً أضرتُ على الرجال من النساء)^(١) ثم ذكر ما يتولد منهن فقال ﴿والبنين﴾ وإنما ثنى بالبنين لأنهم ثمرات القلوب وقررة الأعين كما قال القائل :

وإنما أولادنا بيننا أبداً تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني عن الغمض

وقدّموا على الأموال لأن حب الإنسان لولده أكثر من حبه لماله ﴿والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة﴾ أي الأموال الكثيرة المكدّسة من الذهب والفضة ، وإنما كان المال محبوباً لأنه يحصل به غالب الشهوات ، والمرء يرتكب الأخطار في تحصيله ﴿وتحبون المال حباً جماً﴾ والذهب والفضة أصل التعامل ولذا خصّ بالذكر ﴿والخيل المسوّمة﴾ أي الأصيلة الحسان ﴿والأنعام﴾ أي الإبل والبقر والغنم فمنها المركب والمطعم والزينة ﴿والحرث﴾ أي الزرع والغراس لأن فيه تحصيل أقاتهم ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ أي إنما هذه الشهوات زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ﴿والله عنده حسن المآب﴾ أي حسن المرجع والثواب ﴿قل أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ﴾ أي قل يا محمد أخبركم بخير مما زَيْنَ النَّاسِ من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها الزائل ؟ والاستفهام للتقرير ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي للمتقين يوم القيامة جنات فسيحات تجري من خلال جوانبها وأرجائها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبد الأبد ﴿وأزواج مطهرة﴾ أي منزّهة عن الدنس والخبث، الحسي والمعنوي ، لا يتغوطن ولا يتبولن ولا يحضن ولا ينفسن ، ولا يعترين ما يعترى نساء الدنيا ﴿ورضوان من الله﴾ أي وهم مع ذلك النعيم رضوان من الله وأي رضوان ، وقد جاء في الحديث (أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً) ﴿والله بصيرٌ

بالعباد ﴿ أي عليم بأحوال العباد يعطي كلاً بحسب ما يستحقه من العطاء . ثم بيّن تعالى صفات هؤلاء المتقين الذين أكرمهم بالخلود في دار النعيم فقال ﴿ الذين يقولون ربنا إنا آمنّا ﴾ أي آمنّا بك وبكتبتك ورسلك ﴿ فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ﴾ أي اغفر لنا بفضلك ورحمتك ذنوبنا ونجنا من عذاب النار ﴿ الصابرين والصادقين والقانتين ﴾ أي الصابرين على البأساء والضراء ، والصادقين في إيمانهم وعند اللقاء ، والمطيعين لله في الشدة والرخاء ﴿ والمنفقين ﴾ أي الذين يبذلون أموالهم في وجوه الخير ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ أي وقت السحر قبيل طلوع الفجر .

البلاغَة : ﴿ من الله ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي من عذاب الله ﴿ شيئاً ﴾ التنكير للتقليل أي لن تنفعهم أي نفع ولو قليلاً ﴿ وأولئك هم وقود النار ﴾ الجملة إسمية للدلالة على ثبوت الأمر وتحققه ﴿ كذبوا بآياتنا فأخذهم الله ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الحاضر والأصل فأخذناهم ﴿ لكم آية ﴾ الأصل « آية لكم » وقدّم للإعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، والتنكير في آية للتفخيم والتهويل أي آية عظيمة ومثله التنكير في ﴿ رضوان من الله ﴾ وقوله تعالى ﴿ ترونهم ﴾ و﴿ رأي العين ﴾ بينهما جناس الاشتقاق ﴿ حب الشهوات ﴾ يراد به المشتبهات قال الزمخشري : عبر بالشهوات مبالغة كأنها نفس الشهوات ، وتنبهها على خستها لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء ﴿ بخير من ذلكم ﴾ إبهام الخير لتفخيم شأنه والتشويق لمعرفة ﴿ للذين اتقوا عند ربهم ﴾ قال أبو السعود : التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المتقين لإظهار مزيد اللطف بهم ^(١) ﴿ القناطير المقنطرة ﴾ بينهما من المحسنات البديعية ما يسمى بالجناس الناقص .

فكائِدَة : الأولى : من هو المزيّن للشهوات ؟ قيل : هو الشيطان ويدل عليه قوله تعالى ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ وتزيّن الشيطان : وسوسته وتحسينه الميل إليها وقيل : المزيّن هو الله ويدل عليه ﴿ إنّنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ وتزيّن الله للابتلاء ليظهر عبد الشهوة من عبد المولى وهو ظاهر قول عمر : « اللهم لا صبر لنا على ما زينتنا لنا إلا بك » ^(٢) .

الثانية : تخصيص الأسحار بالاستغفار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة ، لأن النفس أصفى ، والروح أجمع ، والعبادة أشق فكانت أقرب إلى القبول ، قال ابن كثير : كان عبد الله بن عمر يصلي من الليل ثم يقول يا نافع : هل جاء السحر ؟ فإذا قال نعم أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح ^(٣) .

قال الله تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو . . . إلى . . . ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾

من آية (١٨) إلى نهاية آية (٢٥)

المناسِبة : لما مدح تعالى المؤمنين وأثنى عليهم بقوله ﴿ الذين يقولون ربنا إنا آمنّا ﴾ أردفه بأن بيّن أن دلائل الإيمان ظاهرة جليلة فقال ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ ثم بيّن أن الإسلام هو الدين الحق الذي

(١) تفسير أبي السعود ١/ ٢٢١ . (٢) رواه البخاري . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٢٧١ .

ارتضاه الله لعباده ، وأمر الرسول بأن يعلن استسلامه لله وانقياده لدين الله ، وأعقبه بذكر ضلالات أهل الكتاب واختلافهم في أمر الدين اختلافاً كبيراً ، وإعراضهم عن قبول حكم الله .

اللغة : ﴿شهد﴾ الشهادة : الإقرار والبيان ﴿القسط﴾ العدل ﴿الدين﴾ أصل الدين في اللغة : الجزاء ويطلق على الملة وهو المراد هنا ﴿الإسلام﴾ الإسلام في اللغة : الاستسلام والانقياد التام قال ابن الأنباري : المسلم معناه المخلص لله عبادته من قولهم : سلم الشيء لفلان أي خلص له فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى ﴿حاجوك﴾ جادلوك ونازعوك ﴿غرههم﴾ فتنهم ﴿يفترون﴾ يكذبون .

سَبَبُ الزُّوْل : لما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حَبْرَان من أحبار الشام ، فلما دخلا عليه عرفاه بالصفة والنعت فقالا له : أنت محمد ؟ قال نعم ، قالا : وأنت أحمد ؟ قال نعم ، قالا نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنّا بك وصدقناك ، فقال لهما رسول الله ﷺ : سلاني ، فقالا : أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله فنزلت ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ الآية فأسلم الرجلان وصدقوا برسول الله ﷺ (١)

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾
 إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِعَايَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾

التفسير : ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ أي بين وأعلم تعالى عباده بانفراده بالوحدانية ، قال الزمخشري : شبهت دلالته على وحدانيته بشهادة الشاهد في البيان والكشف ﴿والملائكة وأولو العلم﴾ أي وشهدت الملائكة وأهل العلم بوحدانيته بدلائل خلقه وبديع صنعه ﴿قائماً بالقسط﴾ أي حال كونه مقياً للعدل فيما يقسم من الأجال والأرزاق ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا معبود في الوجود بحق إلا هو ﴿العزیز الحكيم﴾ أي العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ أي الشرع المقبول عند الله هو الإسلام ، ولا دين يرضاه الله سوى الإسلام ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ أي وما اختلف اليهود والنصارى في أمر الإسلام ونبوة محمد عليه السلام ، إلا بعد أن علموا بالحجج النيرة والآيات الباهرة حقيقة الأمر ، فلم يكن كفرهم عن شبهة وخفاء وإنما كان عن استكبار وعناد ، فكانوا ممن ضلّ عن علم ﴿بغياً بينهم﴾ أي حسداً كائناً بينهم حملهم عليه حب الرئاسة ﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ وهو وعيد وتهديد أي من يكفر بآياته تعالى فإنه سيصير إلى الله سريعاً فيجازيه على كفره ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله﴾ أي إن جادلوك يا محمد في شأن الدين فقل

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴿٢١﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسَلَّمْتُ فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ
 اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
 النَّبِيَّيْنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٣﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
 حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ
 يُدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٥﴾

لهم : أنا عبد لله قد استسلمت بكليتي لله ، وأخلصت عبادتي له وحده ، لا شريك له ولا يذ ولا صاحبة
 ولا ولد ﴿ومن اتبعني﴾ أي أنا وأتباعي على ملة الإسلام ، مستسلمون منقادون لأمر الله ﴿وقل للذين
 أوتوا الكتاب والأميين﴾ أي قل لليهود والنصارى والوثنيين من العرب ﴿أسلمتم﴾ أي هل أسلمتم أم
 أنتم باقون على كفركم فقد أتاكم من البينات ما يوجب إسلامكم ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ أي فإن أسلموا
 كما أسلمتم فقد نفَعوا أنفسهم بخروجهم من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور ﴿وإن تولوا فإنما
 عليك البلاغ﴾ أي وإن أعرضوا فلن يضروك يا محمد إذ لم يكلفك الله هدايتهم وإنما أنت مكلف بالتبليغ
 فحسب والغرض منها تسلية النبي ﷺ ﴿والله بصير بالعباد﴾ أي عالم بجميع أحوالهم فيجازيهم عليها ،
 روي أن رسول الله ﷺ لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا : أسلمنا فقال عليه السلام لليهود :
 أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله ! فقالوا : معاذ الله ، فقال للنصارى : أتشهدون أن عيسى
 عبد الله ورسوله ! فقالوا : معاذ الله أن يكون عيسى عبداً وذلك قوله عز وجل ﴿وإن تولوا﴾ (١) . ﴿إن
 الذين يكفرون بآيات الله﴾ أي يكذبون بما أنزل الله ﴿ويقتلون النبيين بغير حق﴾ أي يقتلون أنبياء الله
 بغير سبب ولا جريمة إلا لكونهم دعوهم إلى الله ، وهم اليهود قتلوا زكريا وابنه يحيى وقتلوا أنبياء الله ، قال
 ابن كثير : « قتل بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار ، وأقاموا سوق بقلهم من آخره » ﴿ويقتلون
 الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾ أي يقتلون الدعوة إلى الله الذين يأمرون بالخير والعدل ﴿فبشرهم
 بعذاب أليم﴾ أي أخبرهم بما يسرهم وهو العذاب الموجه المهين ، والأسلوب للتهكم وقد استحقوا ذلك
 لأنهم جمعوا ثلاثة أنواع من الجرائم : الكفر بآيات الله ، وقتل الأنبياء ، وقتل الدعوة إلى الله قال تعالى
 مبيناً عاقبة إجرامهم ﴿أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ أي بطلت أعمالهم التي عملوها من
 البر والحسنات ، ولم يبق لها أثر في الدارين ، بل بقي لهم اللعنة والخزي في الدنيا والآخرة ﴿وما لهم من
 ناصرين﴾ أي ليس لهم من ينصرهم من عذاب الله أو يدفع عنهم عقابه . . ثم ذكر تعالى طرفاً من لجأج
 وعناد أهل الكتاب فقال ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ أي ألا تعجب يا محمد من أمر هؤلاء

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ^ط وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وُوفِيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ! فالصيغة صيغة تعجيب للرسول أو لكل مخاطب قال الزمخشري : يريد أحبار اليهود وأنهم حصلوا نصيباً وافراً من التوراة ﴿يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يدعون إلى التوراة كتابهم الذي بين أيديهم والذي يعتقدون صحته ، ليحكم بينهم فيما تنازعوا فيه فيأبون ﴿ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾ أي ثم يعرض فريق منهم عن قبول حكم الله ، وهو استبعاد لتوليتهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه ، وجملة ﴿وهم معرضون﴾ تأكيد للتولي أي وهم قوم طبيعتهم الإعراض عن الحق ، والإصرار على الباطل ، والآية كما يقول المفسرون تشير إلى قصة تحاكم اليهود إلى النبي ﷺ لما زنى منهم إثنان فحكم عليها بالرجم فأبوا وقالوا : لا نجد في كتابنا إلا التحميم فجيء بالتوراة فوجد فيها الرجم فرجما ، فغضبوا فشنَّ تعالى عليهم بهذه الآية^(١) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ أي ذلك التولي والإعراض بسبب افترائهم على الله وزعمهم أنهم أبناء الأنبياء وأن النار لن تصيبهم إلا مدة يسيرة- أربعين يوماً- مدة عبادتهم للعجل ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي غرهم كذبهم على الله ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي كيف يكون حالهم يوم القيامة حين يجمعهم الله للحساب ! ! وهو استعظام لما يدهمهم من الشدائد والأحوال ﴿ووفيت كل نفس ما كسبت﴾ أي نالت كل نفس جزاءها العادل ﴿وهم لا يُظلمون﴾ أي لا يظلمون بزيادة العذاب أو نقص الثواب .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ الجملة معرفة الطرفين فتفيد الحصر أي لا دين إلا الإسلام .

٢ - ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ التعبير عن اليهود والنصارى بقوله « أوتوا الكتاب » لزيادة التشنيع والتقبيح عليهم فإن الاختلاف مع علمهم بالكتاب في غاية القبح والشناعة .

٣ - ﴿بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ﴾ إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة في النفس .

٤ - ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ﴾ أطلق الوجه وأراد الكل فهو مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل .

٥ - ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الأصل في البشارة أن تكون في الخير واستعمالها في الشر للتهكم ويسمى « الأسلوب التهكمي » حيث نزل الإنذار منزلة البشارة السارة كقوله ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾ وهو أسلوب مشهور .

(١) انظر القصة في صحيح البخاري كتاب التفسير .

فَكَايِدَةٌ : قال القرطبي : في هذه الآية دليل على فضل العلم ، وشرف العلماء ، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء ، ويكفي في شرف العلم قوله لنبيه ﷺ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ وقوله ﷺ : (إن العلماء ورثة الأنبياء) وفي حديث ابن مسعود أن من قرأ قوله تعالى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ الآية فإنه يجاء به يوم القيامة فيقول الله تعالى : عبدي عهد إليَّ عهداً وأنا أحقُّ من وقى ، أدخلوا عبدي الجنة^(١) .

لطيفة : من أطرف ما قرأتُ في بيان فضل العلم تلك المحاوراة اللطيفة بين العقل والعلم حيث يقول القائل وقد أبدع وأجاد :

علمُ العليمِ وعقلُ العاقلِ اختلفا	من ذا الذي منها قد أحرز الشرفا
فالعلم قال : أنا أحرزتُ غايته	والعقلُ قال : أنا الرحمن بي عرفا
فأفصح العلم إفصاحاً وقال له	بأينا الله في فرقانه اتصفا
فبان للعقل أن العلم سيده	فقبل للعقل رأس العلم وانصفا

قال الله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءَ . . . إِلَى . . . فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾
من آية (٢٦) إلى نهاية آية (٣٢)

المناسبة : لما ذكر تعالى في الآيات السابقة دلائل التوحيد والنبوة وصحة دين الإسلام ، أعقبه بذكر البشائر التي تدل على قرب نصر الله للإسلام والمسلمين ، فالأمر كله بيد الله يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وأمر رسوله بالدعاء والابتهال إلى الله بأن يعز جند الحق وينصر دينه المبين .

اللغة : ﴿ اللهم ﴾ أصله يا الله حذفت أداة النداء واستعيض عنها بالميم المشددة هكذا قال الخليل وسيبويه ﴿ تنزع ﴾ تسلب ويعبر به عن الزوال يقال : نزع الله عنه الشر أي أزاله ﴿ تولج ﴾ الإيلاج : الإدخال يقال : ولج يلج ولوجاً ومنه ﴿ حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ ﴿ أمداً ﴾ الأمد : غاية الشيء ومنتهاه وجمعه أمداء ﴿ تقاة ﴾ تقية وهي مداراة الإنسان مخافة شره .

سبب النزول : أ - لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ووعد أمته ملك فارس والروم ، قال المنافقون واليهود : هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم !! هم أعزُّ وأمنع من ذلك ألم يكفه مكة حتى طمع في ملك فارس والروم فأنزل الله ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءَ . . . ﴾ الآية^(٢) .

ب - عن ابن عباس أن « عبادة بن الصامت » - وكان بدرياً تقياً - كان له حلفٌ مع اليهود ، فلما خرج النبي ﷺ يوم الأحزاب قال له عبادة : يا نبي الله إن معي خمسمائة من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي فاستظهر بهم على العدو فأنزل الله ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ﴾ الآية^(٣) .

(١) رواه الطبراني في الكبير . (٢) القرطبي ٥٢/٤ . (٣) روائع البيان ٣٩٩/١ .

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلُّ مَنْ تَشَاءُ بِبَيْدِكَ الْخَيْرِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٧٧﴾ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ۖ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٧٨﴾

التفسير : ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ أي قل : يا الله يا مالك كل شيء ﴿توتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾ أي أنت المتصرف في الأكوان، تهب الملك لمن تشاء وتخلع الملك ممن تشاء ﴿وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾ أي تعطي العزة لمن تشاء والذلة لمن تشاء ﴿ببيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾ أي بيدك وحدك خزائن كل خير وأنت على كل شيء قدير ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي تدخل الليل في النهار كما تدخل النهار في الليل ، فتزيد في هذا وتنقص في ذاك والعكس ، وهكذا في فصول السنة شتاءً وصيفاً ﴿وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ أي تخرج الزرع من الحب والحب من الزرع ، والنخلة من النواة والنواة من النخلة ، والبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن هكذا قال ابن كثير ، وقال الطبري : « وأولى التأويلات بالصواب تأويل من قال : يخرج الإنسان الحي والأنعام والبهائم من النطف الميتة ، ويخرج النطفة الميتة من الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء »^(١) ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ أي تعطي من تشاء عطاءً واسعاً بلا عدو ولا تضييق . . ثم نهى تعالى عن اتخاذ الكافرين أنصاراً وأحباباً فقال ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ أي لا توالوا أعداء الله وتتركوا أولياءه فمن غير المعقول أن يجمع الإنسان بين محبة الله وبين محبة أعدائه قال الزمخشري : فهو أن يوالوا الكافرين لقراءة بينهم أو صداقة أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشرون ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ﴿أي من يوال الكفرة فليس من دين الله في شيء﴾ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴿أي إلا أن تخافوا منهم محذوراً أو تخافوا أذاهم وشرهم ، فأظهروا موالاتهم باللسان دون

(١) تفسير الطبري ٣٠٩/٥ وللشهيد سيد قطب قول رائع في معنى الآية الكريمة نقله بإيجاز من الظلال يقول قدس الله روحه « وسواء كان معنى إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل هو أخذ هذا من ذاك ، وأخذ ذاك من هذا عند دورة الفصول . . سواء كان هذا أو ذاك فإن القلب يكاد يبصر يد الله وهي تحرك الأفلاك ، وتلف هذه الكرة المعتمة أمام تلك الكرة المضيئة - يعني الشمس - وتقلب مواضع الظلمة ومواضع الضياء ، شيئاً فشيئاً يتسرب غيش الليل إلى وضاعة النهار ، و شيئاً فشيئاً يتنفس الصبح في غيابة الظلام ، شيئاً فشيئاً يطول الليل وهو يأكل من النهار في الشتاء ، ويطول النهار وهو يسحب من الليل في الصيف . . كذلك الحياة والموت يدب أحدهما في الآخر في بطه وتدرج ، كل لحظة تمر على الحي يدب فيه الموت إلى جانب الحياة ، ويأكل منه الموت وتبني فيه الحياة ، خلايا حية منه تموت وتذهب ، وخلايا جديدة فيه تنشأ وتعمل ، هكذا دورة دائبة في كل لحظة من لحظات الليل والنهار ، تبرزها هذه الإشارة القرآنية القصيرة للعقل البشري ، ولا يستطيع إنسان أن يدعي أنه هو الذي يصنع من هذا كله شيئاً ، ولا يزعم عاقل كذلك أنها تتم هكذا مصادفة بلا تدبير ، وإنما هي حركة خفية هائلة تدبرها يدُ القادر المبدع اللطيف المدبر . . ظلال القرآن ١٧٠/٣ .

قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبَدُّوهُ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾
يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكَ اللَّهُ
نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾

القلب ، لأنه من نوع مداراة السفهاء كما روي « إِنَّا لَنَبِّشُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَقُلُوبِنَا تَلْعَنُهُمْ » ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أي يخوفكم الله عقابه الصادر منه تعالى ﴿وإلى الله المصير﴾ أي المنقلب والمرجع فيجازي كل عاملٍ بعمله ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله﴾ أي إن أخفيتم ما في قلوبكم من موالة الكفار أو أظهرتموه فإن الله مطلع عليه لا تخفى عليه خافية ﴿ويعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ أي عالم بجميع الأمور، يعلم كل ما هو حادث في السموات والأرض ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي وهو سبحانه قادر على الانتقام ممن خالف حكمه وعصى أمره ، وهو تهديد عظيم ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾ أي يوم القيامة يجد كل إنسان جزاء عمله حاضراً لا يغيب عنه ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فإن كان عمله حسناً سره ذلك وأفرحه ﴿وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ أي وإن كان عمله سيئاً تمنى أن لا يرى عمله ، وأحب أن يكون بينه وبين عمله القبيح غاية في نهاية البعد أي مكاناً بعيداً كما بين المشرق والمغرب ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أي يخوفكم عقابه ﴿والله رءوف بالعباد﴾ أي رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ أي قل لهم يا محمد إن كنتم حقاً تحبون الله فاتبعوني لأنني رسوله يحببكم الله ﴿ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ أي باتباعكم الرسول وطاعتكم لأمره يحببكم الله ويغفر لكم من الذنوب قال ابن كثير : « هذه الآية الكريمة حكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية ، فإنه كاذب في دعواه تلك حتى يتبع الشرع المحمدي في جميع أقواله وأفعاله »^(١) ثم قال تعالى : ﴿قل أطيعوا الله والرسول﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله ﴿فإن تولّوا﴾ أي أعرضوا عن الطاعة ﴿فإن الله لا يحب الكافرين﴾ أي لا يحب من كفر بآياته وعصى رسله بل يعاقبه ويخزيه ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه﴾ .

البلاغَة : جمعت هذه الآيات الكريمة من ضروب الفصاحة وفنون البلاغة ما يلي :

١ - الطباق في مواضع مثل « تؤتي وتنزع » و « تعز وتذل » و « الليل والنهار » و « الحي والميت » و « تخفوا وتبدوا » وفي « خير وسوء » و « محضراً وبعيداً » .

٢ - والجناس الناقص في « مالك الملك » وفي « تحبون ويحبكم » وجناس الاشتقاق بين « تتقوا وتقاة » وبين « يغفر وغفور » .

٣ - رد العجز على الصدر في ﴿تولج الليل في النهار﴾ و﴿تولج النهار في الليل﴾ .

٤ - التكرار في جمل للتفخيم والتعظيم كقوله ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾

٥ - الإيجاز بالحذف في مواطن عديدة كقوله ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾ أي من تشاء أن تؤتيه ومثلها وتنزع ، وتعز ، وتذل .

٦ - ﴿تولج الليل في النهار﴾ قال في تلخيص البيان : وهذه استعارة عجيبة وهي عبارة عن إدخال هذا على هذا ، وهذا على هذا فما ينقصه من الليل يزيده في النهار والعكس ، ولفظ الإيلاج أبلغ لأنه يفيد إدخال كل واحد منهما في الآخر بلطف الممازجة وشديد الملاسة .

٧ - ﴿تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ والحيُّ والميت مجاز عن المؤمن والكافر فقد شبه المؤمن بالحي والكافر بالميت^(١) والله أعلم .

فكائدَة : في الاختصار على ذكر الخير ﴿بيدك الخير﴾ دون ذكر الشر تعليمٌ لنا الأدب مع الله فالشر لا ينسب إلى الله تعالى أدباً وإن كان منه خلقاً وتقديراً ﴿قل كل من عند الله﴾ .

تنبية : روى مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن الله إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل فقال : إني أحب فلاناً فأحبه قال فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول إن الله يحب فلاناً فأحبه قال فيحبه أهل السماء ، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضه قال فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض) .

قال الله تعالى : ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً . . إلى . . وسح بالعشي والإيكار﴾

من آية (٣٣) إلى نهاية آية (٤١)

المناسكة : لما بين تعالى أن محبته لا تتم إلا بمتابعة الرسل وطاعتهم ، بين علو درجات الرسل وشرف مناصبهم ، فبدأ بآدم أولهم ، وثنى بنوح أبي البشر الثاني ، ثم أتى ثالثاً بآل إبراهيم فاندرج فيهم رسول الله ﷺ لأنه من ولد إسماعيل ، ثم أتى رابعاً بآل عمران فاندرج فيه عيسى عليه السلام ، وأعقب ذلك بذكر ثلاث قصص : قصة ولادة مريم ، وقصة ولادة يحيى ، وقصة ولادة عيسى ، وكلها خوارق للعادة تدل على قدرة العلي القدير .

اللفظة : ﴿اصطفى﴾ اختار وأصله من الصفوة أي جعلهم صفوة خلقه ﴿محرراً﴾ مأخوذ من

(١) هذا على رأي من فسّر الآية بالوجه الآخر وهو أن المراد يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ وهو قول الحسن البصري .

الحرية وهو الذي يجعل حراً خالصاً ، والمراد الخالص لله عز وجل الذي لا يشوبه شيء من أمر الدنيا ﴿أعيذها﴾ عاذ بكذا : اعتصم به ﴿وكفلها﴾ الكفالة : الضمان يقال كفلَ يكفلُ فهو كافل ، وهو الذي ينفق على إنسانٍ ويهتم بمصالحه وفي الحديث (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين) ﴿المحراب﴾ الموضوع العالي الشريف ، قال أبو عبيدة : سيد المجالس وأشرفها ومقدمها وكذلك هو من المسجد^(١) ﴿حضوراً﴾ من الحصر وهو الحبس ، وهو الذي يحبس نفسه عن الشهوات ، وللمفسرين في معناه قولان نختار منها ما اختاره المحققون : أنه الذي لا يأتي النساء لا لعجز بل للعفة^(٢) ﴿عاقراً﴾ عقيم لا تلد والعاقر من لا يولد له من رجلٍ أو امرأة ﴿رمزاً﴾ الرمز : الإشارة باليد أو بالرأس أو غيرها قال الطبري : الأيماء بالشفيتين وقد يستعمل في الحاجبين والعينين^(٣) ﴿العشي﴾ من حين زوال الشمس إلى غروبها ﴿الإيكار﴾ من طلوع الشمس إلى وقت الضحى قال الشاعر :

فلا الظلُّ من برد الضحى تستطيعه ولا الفسيء من برد العشيّ تذوق

* إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾

التفسير : ﴿إن الله اصطفى آدم﴾ أي اختار للنبوّة صفوة خلقه منهم آدم أبو البشر ﴿ونوحاً﴾ شيخ المرسلين ﴿وآل إبراهيم﴾ أي عشيرته وذوي قربه وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادها ومن جملتهم خاتم المرسلين ﴿وآل عمران﴾ أي أهل عمران ومنهم عيسى بن مريم خاتم أنبياء بني إسرائيل ﴿على العالمين﴾ أي عالمي زمانهم قال القرطبي : وخص هؤلاء بالذكر من بين الأنبياء لأن الأنبياء والرسل جميعاً من نسلهم ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ أي اصطفاهم متجانسين في الدين والتقى والصلاح ﴿والله سميع عليم﴾ أي سميع لأقوال العباد عليم بضمائرهم ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾ أي اذكر لهم وقت قول امرأة عمران واسمها «حنة بنت فاقود» ﴿ربّ إنني نذرت لك ما في بطني﴾ أي نذرت لعبادتك وطاعتك ما أحمله في بطني ﴿محراً﴾ أي مخلصاً للعبادة والخدمة ﴿فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾ أي السميع لدعائي العليم بنيتي ﴿فلما وضعتها قالت ربّ إنني وضعتها أنثى﴾ أي لما ولدتها قالت على وجه التحسر والاعتذار يا ربّ إنها أنثى قال ابن عباس : إنما قالت هذا لأنه لم يكن يُقبل في النذر إلا الذكور فقبل الله مريم قال تعالى ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ أي والله أعلم بالشيء الذي وضعت قالت ذلك أولم

(١) البحر المحيط ٢/٤٣٣ . (٢) تفسير الفخر الرازي ٨/٣٩ . وبنحوه في الطبري والقرطبي . (٣) الطبري ٦/٣٨٦ .

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقُبُولِ حَسَنِ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُومُ إِنِّي لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ هُنَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَلِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدَقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٩﴾

تقله ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ أي ليس الذكر الذي طلبته كالأنثى التي وهبتها بل هذه أفضل والجملتان معترضتان من كلامه تعالى تعظيماً لشأن هذه المولودة وما علق بها من عظام الأمور وجعلها وابنها آية للعالمين ﴿وإني سميتها مريم﴾ من تنمة كلام امرأة عمران والأصل إني وضعتها أنثى وإني سميتها مريم أي أسميت هذه الأنثى مريم ومعناه في لغتهم العابدة خادمة الرب ﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ أي أجيدها بحفظك وأولادها من شر الشيطان الرجيم ، فاستجاب الله لها ذلك قال تعالى ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن﴾ أي قبلها الله قبولاً حسناً قال ابن عباس : سلك بها طريق السعداء ﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾ أي ربّأها تربية كاملة ونشأها تنشئة صالحة ﴿وكفلها زكريا﴾ أي جعل زكريا كافلاً لها ومتعهداً للقيام بمصالحها ، حتى إذا بلغت مبلغ النساء انزوت في محرابها تتعبد الله ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً﴾ أي كلما دخل عليها زكريا حجرتها ومكان عبادتها وجد عندها فاكهة وطعاماً ، قال مجاهد : وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ﴿قال يا مريم أنسى لك هذا﴾ ؟ أي من أين لك هذا ؟ ﴿قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي رزقاً واسعاً بغير جهد ولا تعب ﴿هنالك دعا زكريا ربه﴾ أي في ذلك الوقت الذي رأى فيه زكريا كرامة الله لمريم دعا ربه متوسلاً ومتضرعاً ﴿قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة﴾ أي أعطني من عندك ولداً صالحاً - وكان شيخاً كبيراً وامرأته عجوزاً وعاقراً - ومعنى طيبة صالحة مباركة ﴿إنك سميع الدعاء﴾ أي مجيبٌ لدعاء من ناداك ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب﴾ أي ناداه جبريل حال كونه زكريا قائماً في الصلاة ﴿أن الله يبشرك بيحیی﴾ أي يبشرك بغلام اسمه يحيى ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ أي مصدقاً بوعده مؤمناً برسالته ، وسمي عيسى كلمة الله لأنه خلق بكلمة « كن » من غير أب ﴿وسيداً﴾ أي يسود قومه ويفوقهم ﴿وحصوراً﴾ أي يجبس نفسه عن الشهوات عفةً وزهداً ولا يقرب النساء مع قدرته على ذلك ، وما قاله بعض المفسرين أنه كان عتياً فباطل لا يجوز على الأنبياء لأنه نقص وذم والآية وردت مورد المدح والثناء^(١) ﴿ونبياً من الصالحين﴾ أي ويكون نبياً من الأنبياء الصالحين قال ابن كثير : وهذه بشارة

(١) قال ابن كثير نقلاً عن القاضي عياض « أعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان حصوراً ليس كما قاله بعضهم إنه كان عتياً أو لا ذكر له ، بل قد أنكر هذا حدائق المفسرين وقالوا : هذه نقیصة وعیب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب أي لا يأتيها كأنه حصور أو يمنع نفسه من الشهوات ، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة عيسى أو بكفاية من الله كيحيى عليه السلام » انتهى .

قَالَ رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤١﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَأَذْكُرَّ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤٢﴾

ثانية نبوته بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى كقوله لأم موسى ﴿إنا رآدوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾^(١) ﴿قال رب أنى يكون لى غلام﴾ أي كيف يأتينا الولد ﴿وقد بلغنى الكبر﴾ أي أدركتني الشيخوخة وكان عمره حينذاك مائة وعشرين سنة ﴿وامراتى عاقرة﴾ أي عقيم لا تلد وكانت زوجته بنت ثمان وتسعين سنة ، فقد اجتمع فيها الشيخوخة والعقم في الزوجة وكل من السبين مانع من الولد ﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ أي لا يعجزه شيء ولا يتعاضمه أمر ﴿قال رب اجعل لى آية﴾ أي علامة على حمل امرأتى ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً﴾ أي علامتك عليه أن لا تقدر على كلام الناس إلا بالإشارة ثلاثة أيام بلياليها مع أنك سوي صحيح والغرض أنه يأتيه مانع سماوي يمنعه من الكلام بغير ذكر الله ﴿واذكر ربك كثيراً﴾ أي اذكر الله ذكراً كثيراً بلسانك شكراً على النعمة ، فقد منع عن الكلام ولم يمنع عن الذكر لله والتسبيح له وذلك أبلغ في الإعجاز ﴿وسبح بالعشي والإيكار﴾ أي نزه الله عن صفات النقص بقولك سبحان الله في آخر النهار وأوله . وقيل : المراد صلّ لله ، قال الطبري : يعني عظم ربك بعبادته بالعشي والإيكار .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ جملتان معترضتان لتعظيم الموضوع ورفع منزلة المولود .

٢ - ﴿وانى أعيدها﴾ صيغة المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد .

٣ - ﴿وأنتها نباتاً حسناً﴾ شبهها في نموها وترعرعها بالزرع الذي ينمو شيئاً فشيئاً ، والكلام مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها بطريق الاستعارة التبعية .

٤ - ﴿فنادته الملائكة﴾ المنادي جبريل وعبر عنه باسم الجماعة تعظيماً له لأنه رئيسهم .

٥ - ﴿بالعشي والإيكار﴾ بين كلمتي العشي والإيكار طباق وهو من المحسنات البديعية .

الفَوَائِد : الأولى : روي أن « حنة » امرأة عمران كانت عجوزاً عاقراً فبينما هي ذات يوم تحت ظل شجرة إذ رأت طائراً يطعم فرخه فحنت إلى الولد وتمنته وقالت : اللهم إن لك على نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته ثم هلك عمران وهي حامل وهذا سر النذر^(٢) .

الثانية : قال ابن كثير عند قوله تعالى ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً﴾ قال :

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٢٨١ . (٢) تفسير أبي السعود ١/ ٢٣٠ .

والآية فيها دلالة على كرامات الأولياء ، وفي السنة بهذا نظائر كثيرة وساق بسنده عن جابر قصة الجفنة وخلاصتها أن النبي ﷺ جاع أياماً فدخل على ابنته فاطمة الزهراء يسألها عن الطعام فلم يكن عندها شيء وأرسلت إليها جارتها برغيفين وقطعة لحم فوضعتها في جفنة ثم رأت الجفنة وقد امتلأت لحماً وخبزاً .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ .. إلى .. هذا صراطٌ مستقيم ﴾ من آية (٤٢) إلى نهاية آية (٥١)

المناسبة : لما ذكر تعالى قصة ولادة « يحيى بن زكريا » من عجوز عاقرة وشيخ قد بلغ من الكبر عتياً ، وذلك بمقتضى السنن الكونية شيء خارق للعادة ، أعقبها بما هو أبلغ وأروع في خرق العادات ، فذكر قصة ولادة السيد المسيح عيسى من غير أب وهي شيء أعجب من الأول ، والغرض من ذكر هذه القصة الرد على النصارى الذين ادعوا ألوهية عيسى ، فذكر ولادته من مريم البتول ليدل على بشريته ، وأعقبه بذكر ما أيده به من المعجزات ليشير إلى رسالته ، وأنه أحد الرسل الكرام الذين أظهر الله على أيديهم خوارق العادات ، وليس له شيء من أوصاف الربوبية .

اللغة : ﴿ أنباء ﴾ جمع نبأ وهو الخبر الهام ﴿ نوحيه ﴾ الوحي : إلقاء المعنى في النفس في خفاء ﴿ أقلامهم ﴾ القلم معروف وهو الذي يكتب به وقد يطلق على السهم الذي يقترع به وهو المراد هنا ﴿ المسيح ﴾ لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق وأصله مشيحاً بالعبرانية ومعناه المبارك^(١) ﴿ وجيهاً ﴾ شريفاً ذا جاهٍ وقدر ، والوجاهة الشرف والقدر ﴿ المهد ﴾ فراش الطفل ﴿ كهلاً ﴾ الكهل : ما بين الشاب والشيخ والمرأة كهلة ﴿ الأكمه ﴾ الذي يولد أعمى ﴿ الأبرص ﴾ المصاب بالبرص وهو بياض يعتري الجلد وداء عضال .

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَمَهُمْ

التفسير : ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك ﴾ أي اذكر وقت قول الملائكة أي جبريل يا مريم إن الله اختارك من بين سائر النساء فخصك بالكرامات ﴿ وطهرك ﴾ من الأدناس والأقذار ومما اتهمك به اليهود من الفاحشة ﴿ واصطفاك على نساء العالمين ﴾ أي اختارك على سائر نساء العالمين لتكوني مظهر قدرة الله في إنجاب ولد بدون أب ﴿ يا مريم اقنتي لربك ﴾ أي إلزمي عبادته وطاعته شكراً على اصطفاك ﴿ واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ أي صلي لله مع المصلين ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه

أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٧﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٨﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٩﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٠﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٥١﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِعَايَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ

إليك ﴿٤٧﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك من قصة امرأة عمران وابنتها مريم البتول ومن قصة زكريا يحيى إنما هو من الانبياء المغيبة والأخبار الهامة التي أوحيناها إليك يا محمد ما كنت تعلمها من قبل ﴿٤٨﴾ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ﴿٤٩﴾ أي ما كنت عندهم إذ يختصمون ويتنافسون على كفالة مريم حين ألقوا سهامهم للقرعة كل يريد لها في كفه ورعايته ﴿٥٠﴾ وما كنت لديهم إذ يختصمون أي يتنازعون فيمن يكفلها منهم ، والغرض أن هذه الأخبار كانت وحياً من عند الله العليم الخبير . . . روي أن حنة حين ولدتها لفثتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم ثم اقتصروا فخرجت في كفالة زكريا فكفلها^(١) قال ابن كثير : وإنما قدر الله كون زكريا كافلاً لها لسعادتها لتقتبس منه علماً جماً وعملاً صالحاً ﴿٥١﴾ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه ﴿٥٢﴾ أي بمولود يحصل بكلمة من الله بلا واسطة أب ﴿٥٣﴾ اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴿٥٤﴾ أي اسمه عيسى ولقبه المسيح ، ونسبه إلى أمه تنبيهاً على أنها تلده بلا أب ﴿٥٥﴾ وجيهاً في الدنيا والآخرة ﴿٥٦﴾ أي سيداً ومعظماً فيها ﴿٥٧﴾ ومن المقربين ﴿٥٨﴾ عند الله ﴿٥٩﴾ ويكلم الناس في المهد وكهلاً ﴿٦٠﴾ أي طفلاً قبل وقت الكلام ويكلمهم كهلاً قال الزمخشري « ومعناه يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة^(٢) ولا شك أن ذلك غاية في الإعجاز ﴿٦١﴾ ومن الصالحين ﴿٦٢﴾ أي وهو من الكاملين في التقى والصلاح ﴿٦٣﴾ قالت رب أنسى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر ﴿٦٤﴾ أي كيف يأتيني الولد وأنا لست بذات زوج ؟ ﴿٦٥﴾ قال كذلك الله يخلق ما يشاء ﴿٦٦﴾ أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء يخلق بسبب من الوالدين وبغير سبب ﴿٦٧﴾ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴿٦٨﴾ أي إذا أراد شيئاً حصل من غير تأخر ولا حاجة إلى سبب ، يقول له كن فيكون ﴿٦٩﴾ ويعلمه الكتاب ﴿٧٠﴾ أي الكتابة ﴿٧١﴾ والحكمة ﴿٧٢﴾ أي السداد في القول والعمل أو سنن الأنبياء ﴿٧٣﴾ والتوراة والإنجيل ﴿٧٤﴾ أي ويجعله يحفظ التوراة والإنجيل قال ابن كثير : وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا ﴿٧٥﴾ ورسولاً إلى بني إسرائيل ﴿٧٦﴾ أي ويرسله رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً لهم ﴿٧٧﴾ أنسى قد جئتكم بأية من ربكم ﴿٧٨﴾ أي بأني قد جئتكم بعلامة تدل على صدقي وهي ما أيدني الله به من المعجزات ، وآية صدقي ﴿٧٩﴾ أني أخلق لكم من الطين كهية الطير ﴿٨٠﴾ أي

الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحِيَ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ
 إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩١﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن
 رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۗ ﴿١٩٢﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٩٣﴾

أصوّر لكم من الطين مثل صورة الطير ﴿فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾ أي أنفخ في تلك الصورة فتصبح طيراً بإذن الله. قال ابن كثير : وكذلك كان يفعل ، يصوّر من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله ^(١) ، وهذه المعجزة الأولى ﴿وأبرىء الأكمه والأبرص﴾ أي أشفي الذي ولد أعمى كما أشفي المصاب بالبرص ، وهذه المعجزة الثانية ﴿وأحيى الموتى بإذن الله﴾ أي أحيى بعض الموتى لا بقدرتي ولكن بمشيئة الله وقدرته ، وقد أحيى أربعة أنفس : غازر وكان صديقاً له ، وابن العجوز ، وبنو العاشر ، وسام بن نوح هكذا ذكر القرطبي وغيره ، وكرر لفظ « بإذن الله » دعواً لتوهم الألوهية ، وهذه المعجزة الثالثة ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم﴾ أي وأخبركم بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكّون فيها فكان يخبر الشخص بما أكل وما ادخر في بيته وهذه هي المعجزة الرابعة ﴿إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي فيما أتيتكم به من المعجزات علامة واضحة تدل على صدقي إن كنتم مصدّقين بآيات الله ، ثم أخبرهم أنه جاء مؤيداً لرسالة موسى فقال ﴿ومصدّقاً لما بين يديّ من التوراة﴾ أي وجئتكم مصدّقاً لرسالة موسى ، مؤيداً لما جاء به في التوراة ﴿ولأحلّ لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ أي ولأحلّ لكم بعض ما كان محرماً عليكم في شريعة موسى قال ابن كثير : وفيه دليل على أن عيسى نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ أي جئتكم بعلامة شاهدة على صحة رسالتي وهي ما أيديني الله به من المعجزات وكرّر تأكيداً ﴿فاتقوا الله وأطيعوا﴾ أي خافوا الله وأطيعوا أمري ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ أي أنا وأنتم سواء في العبودية له جلّ وعلا ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي فإن تقوى الله وعبادته ، والإقرار بوحدانيته هو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه .

البلاغَة : ١ - ﴿وإذ قالت الملائكة﴾ أطلق الملائكة وأريد به جبريل فهو من باب تسمية الخاص باسم العام تعظيماً له ويسمى المجاز المرسل .

٢ - ﴿اصطفاك وطهرك واصطفاك﴾ تكرر لفظ اصطفاك كما تكرر لفظ « مريم » وهذا من باب الإطناب .

٣ - ﴿ولم يمسنني بشر﴾ كنى عن الجماع بالمس كما كنى عنه بالحرث واللباس والمباشرة .

٤ - ﴿ولأحلّ لكم بعض الذي حرم﴾ بين لفظ ﴿أحلّ﴾ و﴿حرم﴾ من المحسنات البديعية الطباق ،

كما ورد الحذف في عدة مواضع والإطناب في عدة مواضع ، وهناك نواحٍ بلاغية أخرى ضربنا عنها صفحاً خشية الإطالة .

فَكَايِدَةٌ : جاء التعبير هنا بقوله ﴿كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ وفي قصة يحيى ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ والسرُّ في ذلك هو أن خلق عيسى من غير أبٍ إيجاداً واختراعاً من غير سببٍ عاديٍ فناسبه ذكر الخلق ، وهناك الزوجة والزوج موجودان ولكن وجود الشيخوخة والعقم مانعٌ في العادة من وجود الولد فناسبه ذكر الفعل والله أعلم .

تَبْيِيهُ : قال بعض العلماء: الحكمة في أن الله لم يذكر في القرآن امرأة باسمها إلا « مريم » هي الإشارة من طرفٍ خفيٍ إلى ردِّ ما قاله النصارى من أنها زوجته فإن العظيم يأنف من ذكر اسم زوجته بين الناس ولينسب إليها عيسى باعتبار عدم وجود أبٍ له ولهذا قال في الآية ﴿اسمه المسيح عيسى بن مريم﴾^(١)

قال الله تعالى : ﴿فلما أحسن عيسى منهم الكفر . . إلى . . فإن تولوا فإن الله عليهم بالفسدين﴾
من آية (٥٢) إلى نهاية آية (٦٣)

المناسكة : لا تزال الآيات تتحدث عن قصة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، وقد ذكر تعالى في الآيات السابقة بشارة مريم بالسيد المسيح ، ثم أعقبها بذكر معجزاته وكلها براهين ساطعة تدل على نبوته عليه السلام ، ومع كل البراهين والمعجزات التي أيده الله بها فإن الكثيرين من بني إسرائيل لم يؤمنوا به وقد عزم أعداء الله « اليهود » على قتله فنجاه الله من شرهم ورفعاه إلى السماء .

اللغتم : ﴿أحسن﴾ عرف وتحقق وأصله من الإحساس وهو الإدراك ببعض الحواس الخمس ﴿الحواريون﴾ جمع حوارى وهو صفوة الرجل وخاصته ومنه قيل للحضريات حواريات لخلوص ألوانهن وبياضهن قال الشاعر :

فقل للحواريات يئكين غيرنا ولا تبكنا إلا الكلابُ النوايحُ

والحواريون أتباع عيسى كالصحابة لرسول الله ﷺ سموا حواريين لصفاء قلوبهم ونقاء سرائرهم ﴿مكروا﴾ المكر : الخداع وأصله السعي بالفساد في خفية قال الزجاج : يقال مكر الليل وأمكر إذا أظلم ، ومكر الله استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون حكى عن الفراء وغيره ﴿نبتهل﴾ نتضرع في الدعاء ، وأصل الابتهاال : الاجتهاد في الدعاء باللعن ، والبهلة اللعنة .

سببُ النزول : لما قدم وفد نصارى نجران ، وجادلوا رسول الله ﷺ في أمر عيسى ، قالوا للرسول ﷺ : مالك تشتم صاحبنا ؟ قال : وما أقول ؟ قالوا : تقول إنه عبد قال : أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول ، فغضبوا وقالوا : هل رأيت إنساناً قط من غير أبٍ ؟ فإن كنت صادقاً فأرنا مثله فأنزل الله ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ الآية وروي أنه عليه السلام لما دعاهم إلى

(١) انظر الجزء الأول من حاشية الصاوي على الجلالين .

الإسلام قالوا : قد كنا مسلمين قبلك ، فقال : كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث : قولكم اتخذ الله ولداً ، وأكلكم الخنزير ، وسجودكم للصليب فقالوا : فمن أبوه فأنزل الله ﴿ إن مثل عيسى . . إلى قوله ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ فدعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة ، فقال بعضهم لبعض : إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم ناراً فقالوا أما تعرض علينا سوى هذا ؟ فقال : الإسلام أو الجزية أو الحرب فأقروا بالجزية (١) .

* فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَأَمْنَا بِاللَّهِ وَآشَهِدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَأَمْنَا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُؤًا لِّمَكْرِ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ

النفسير : ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ﴾ أي استشعر من اليهود التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال وإرادتهم قتله ﴿ قال من أنصاري إلى الله ﴾ أي من أنصاري في الدعوة إلى الله قال مجاهد : أي من يتبعني إلى الله ﴿ قال الخواريون نحن أنصار الله ﴾ أي قال المؤمنون الأصفياء من أتباعه نحن أنصار دين الله ﴿ أمنا بالله واشهد أنا مسلمون ﴾ أي صدقنا بالله وبما جئتنا به واشهد بأننا منقادون لرسالتك مخلصون في نصرتك ﴿ ربنا أمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ أي أمنا بآياتك واتبعنا رسولك عيسى فاكتبنا مع من شهد لك بالوحدانية ولرسولك بالصدق ، ثم أخبر تعالى عن اليهود المتأمرين الذين أرادوا قتل عيسى فقال ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ أي أرادوا قتله فنجاه الله من شرهم ورفعهم إلى السماء دون أن يمس بأذى وألقى شبهه على ذلك الخائن «يهودا» وسمي مكرراً من باب المشاكلة (٢) ولهذا قال ﴿ والله خير الماكرين ﴾ أي أقواهم مكرراً بحيث جعل تدميرهم في تدميرهم وفي الحديث (اللهم امكرو لي ولا تمكرو علي) ﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ﴾ أي إني رافعك إلى السماء ثم ميمتك بعد استيفائك كامل أجلك والمقصود بشارته بنجاته من اليهود ورفعهم إلى السماء سالماً دون أذى قال قتادة : هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إلي ثم متوفيك بعد ذلك ، وقد ذكره الطبري فقال : وقال آخرون معنى ذلك : إذ قال الله يا عيسى إني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا ، ومتوفيك بعد إنزالي إياك إلى الدنيا (٣) ﴿ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ أي مخلصك من شر الأشرار الذين أرادوا قتلك قال

(١) القرطبي ١٠٣/٤ وأسباب النزول للواحد ص ٥٨ . (٢) المشاكلة : الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى وقد تقدم .
(٣) الطبري ٦ / ٤٥٨ وأما قول بعض المفسرين انه توفي ثلاث ساعات من نهار ثم رفع وقول بعضهم المراد بالوفاة وفاة النوم فضعيف فقد رده المحققون قال القرطبي : « والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد وهو اختيار الطبري وهو الصحيح عن ابن عباس » .

كَفَرُوا فَأَعَذِبَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فِيؤْفِقِهِمْ أَجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَل
عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ
الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا
وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُو الْقَصَصُ الْحَقُّ
وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُو الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

الحسن : طهره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفار قومه ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ أي جاعل أتباعك الذين آمنوا بك فوق الذين جحدوا نبوتك ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة وقال في تفسير الجلالين : ﴿الذين اتبعوك﴾ أي صدقوا بنبوتك من المسلمين والنصارى ﴿فوق الذين كفروا﴾ وهم اليهود يعلونهم بالحجة والسيف ﴿ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ أي ثم مصيركم إلى الله فأقضي بين جميعكم بالحق فيما كنتم تختلفون فيه من أمر عيسى ﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة﴾ أي أما الكافرون بنبوتك المخالفون لملك فإني معذبهم عذاباً شديداً في الدنيا بالقتل والسني ، وبالآخرة بنار جهنم ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ليس لهم ناصر يمنع عنهم عذاب الله ﴿وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيؤفقيهم أجورهم﴾ أي وأما المؤمنون فيعطيهنم جزاء أعمالهم الصالحة كاملة غير منقوصة ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ أي لا يجب من كان ظالماً فكيف يظلم عباده ؟ ﴿ذلك نتلوهُ عليك﴾ أي هذه الأنباء التي نقصها عليك يا محمد ﴿من الآيات والذكر الحكيم﴾ أي من آيات القرآن الكريم المحكم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ أي إن شأن عيسى إذ خلقه بلا أب - وهو في بابه غريب - كشأن آدم ﴿خلقهُ من ترابٍ ثم قال له كن فيكون﴾ أي خلق آدم من غير أب ولا أم ثم قال له كن فكان ، فليس أمر عيسى بأعجب من أمر آدم ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممتريين﴾ أي هذا هو القول الحق في عيسى فلا تكن من الشاكين ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم﴾ أي من جادلك في أمر عيسى بعدما وضع لك الحق واستبان ﴿فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسكم﴾ أي هلموا نجتمع ويدعو كل منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة وفي صحيح مسلم لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ فاطمة وحسناً وحسيناً فقال : اللهم هؤلاء أهلي ﴿ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ أي نتضرع إلى الله فنقول : اللهم العن الكاذب منا في شأن عيسى ، فلما دعاهم إلى المباهلة امتنعوا وقبلوا بالجزية عن ابن عباس أنه قال « لو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً » قال أبو

حيان : « وفي ترك النصارى الملاعنة لعلمهم بصدقه شاهد عظيم على صحة نبوته »^(١) ثم قال تعالى ﴿ إن هذا هو القصص الحق ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا شك فيه ﴿ وما من إله إلا الله ﴾ أي لا يوجد إله غير الله ، وفيه ردُّ على النصارى في قولهم بالتثليث ﴿ وإن الله هو العزيز الحكيم ﴾ أي هو جل شأنه العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ﴿ فإن تولوا فإن الله عليهم بالفسدين ﴾ أي إن أعرضوا عن الإقرار بالتوحيد فإنهم مفسدون والله عليهم بهم وسيجازيهم على ذلك شر الجزاء .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿ فلما أحس ﴾ قال أبو حيان : فيها استعارة إذ الكفر ليس بمحسوس وإنما يُعلم ويفطن به بإطلاق الحسّ عليه من نوع الاستعارة .

٢ - ﴿ والله خير الماكرين ﴾ بين لفظ مكروا والماكرين جناس الاشتقاق وهو من باب المشاكلة .

٣ - ﴿ فيوفيههم أجورهم ﴾ فيه التفات من ضمير التكلم إلى ضمير الغيبة للتنوع في الفصاحة .

٤ - ﴿ الحق من ربك ﴾ التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى الرسول لتشريفه عليه الصلاة والسلام .

٥ - ﴿ فلا تكن من الممترين ﴾ هو من باب الألهاب والتهييج لزيادة التثبيت أفاده أبو السعود .

لطيفة : قال صاحب البحر المحيط : سأل رجل الجنيد فقال : كيف رضي الله سبحانه لنفسه المكر وقد عاب به غيره ، فقال : لا أدري ما تقول ولكن أنشدني فلان الظهراني :

ويقبح من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاك

ثم قال له : قد أجبته إن كنت تعقل^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء . . إلى . . والله ذو الفضل العظيم ﴾ من آية (٦٤) إلى نهاية آية (٧٤)

المناسكة : لما أقام القرآن الحجة على النصارى وأبطل دعواهم في شأن ألوهية المسيح ، دعا الفريقين « اليهود والنصارى » إلى التوحيد ، والافتداء بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، إذ كانت ملته الحنيفية السمحة وهي ملة الإسلام ، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً كما زعم كل من الفريقين ، ثم بين أن أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم محمد ﷺ وأمه .

اللغة : ﴿ سواء ﴾ السواء : العدل والتّصف قال أبو عبيدة : يقال قد دعاك إلى السّواء فاقبل منه قال زهير :

أروني خطةً لا ضيم فيها يُسوّى بيننا فيها السّواء

﴿أولى﴾ ﴿أحق﴾ ﴿ودت﴾ ﴿تمنت﴾ ﴿تلبسون﴾ اللبس : الخلط يقال : لبس الأمر عليه إذا اشتبه واختلط ﴿وجه النهار﴾ أوله سمي وجهاً لأن أول ما يواجهه من النهار أوله قال الشاعر :

من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت نِسوتنا بوجه نهار^(١)

سَبَبُ الزَّوْلِ : روي عن ابن عباس أن أحبار اليهود ونصارى نجران اجتمعوا عند رسول الله ﷺ فتنازعوا في إبراهيم فقالت اليهود : ما كان إلا يهودياً ، وقالت النصارى : ما كان إلا نصرانياً فأنزل الله ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾ الآية^(٢) .

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ۟ ۖ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦءَ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ أَشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٣١﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَٰجُّونَ فِىٓ إِبرَهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٢﴾ هَٰتُنَّ هُنَّ لَكُمْ بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَٰجُّونَ

النفسير : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ أي قل لهم يا معشر اليهود والنصارى هلموا إلى كلمة عادلة مستقيمة فيها إنصاف من بعضنا لبعض ﴿ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً﴾ أي أن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نجعل له شريكاً ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ أي لا يعبد بعضنا بعضاً كما عبد اليهود والنصارى عزيزاً وعيسى ، وأطاعوا الأحبار والرهبان فيما أحلوا لهم وحرّموا ، روي أن الآية لما نزلت قال عدي بن حاتم ما كنا نعبدكم يا رسول الله ، فقال ﷺ أما كانوا يجلون لكم ويمرّمون فتأخذون بقولهم ؟ فقال : نعم فقال النبي ﷺ هو ذاك ﴿فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ أي فإن أعرضوا عن التوحيد ورفضوا قبول تلك الدعوة العادلة فقولوا أنتم اشهدوا يا معشر أهل الكتاب بأننا موحدون مسلمون ، مقرّون لله بالوحدانية مخلصون له العبادة ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لم تجادلون وتنازعون في إبراهيم وتزعمون أنه على دينكم ﴿وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده﴾ أي والحال أنه ما حدثت هذه الأديان إلا من بعده بقرون كثيرة فكيف يكون من أهلها ؟ ﴿أفلا تعقلون﴾ بطلان قولكم ؟ فقد كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة ، وبين موسى وعيسى ألفاً سنة فكيف يقول بذلك عاقل ؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿ها أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم﴾ أي ها أنتم يا معشر اليهود والنصارى جادلتكم وخاصمتكم في شأن عيسى وقد عشتم زمانه فرعتم ما زعمتموه ﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ أي فلم تخاصمون وتجادلون في شأن إبراهيم ودينه وتنسبونوه إلى اليهودية أو النصرانية بدون علم ؟ أفليست هذه سفاهة وحماقة ؟ ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي والله يعلم الحق من أمر إبراهيم وأنتم لا تعلمون ذلك ، قال أبو حيان : « وهذا استدعاء لهم أن يسمعوا كما تقول لمن تخبره بشيء لا يعلمه : اسمع فإنني أعلم ما لا تعلم »^(٣) ثم أكد لهم الله تعالى

فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفِرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾

في دعوى إبراهيم فقال ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ﴾ أي ما كان إبراهيم على دين اليهودية ولا على دين النصرانية ، فإن اليهودية ملة محرّفة عن شرع موسى ، وكذلك النصرانية ملة محرّفة عن شرع عيسى ﴿ ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾ أي مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيم ﴿ وما كان من المشركين ﴾ أي كان مسلماً ولم يكن مشركاً ، وفيه تعريض بأنهم مشركون في قولهم عزيز بن الله ، والمسيح بن الله ، وردّ لدعوى المشركين أنهم على ملة إبراهيم ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ﴾ أي أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم أتباعه الذين سلكوا طريقه ومنهاجه في عصره وبعده ﴿ وهذا النبي ﴾ أي محمد ﷺ ﴿ والذين آمنوا ﴾ أي المؤمنون من أمة محمد فهم الجديرون بأن يقولوا نحن على دينه لا أنتم ﴿ والله ولي المؤمنين ﴾ أي حافظهم وناصرهم . . ولما دعا اليهود بعض الصحابة إلى اليهودية نزل قوله ﴿ ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ﴾ أي تمنّوا إضلالكم بالرجوع إلى دينهم حسداً وبغياً ﴿ وما يضلون إلا أنفسهم ﴾ أي لا يعود وبال ذلك إلا عليهم إذ يضاعف به عذابهم ﴿ وما يشعرون ﴾ أي ما يفطنون لذلك ، ثم وبّخهم القرآن على فعلهم القبيح فقال ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ﴾ أي بالقرآن المنزل على محمد ﷺ ﴿ وأنتم تشهدون ﴾ أي تعلمون أنه حق ﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ﴾ أي لم تخلطون بين الحق والباطل بإلقاء الشبهة والتحريف والتبديل ؟ ﴿ وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾ أي تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعلمون ذلك ، ثم حكى تعالى نوعاً آخر من مكرهم وخبثهم ، وهو أن يظهروا الإسلام في أول النهار ثم يرتدوا عنه في آخره ليشككوا الناس في دين الإسلام فقال ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ﴾ قال ابن كثير : وهذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم ، وهو أنهم تشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلّوا مع المسلمين فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين ^(١) ﴿ وآكفروا آخره ﴾ أي اكفروا بالإسلام

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ
 قُلْ إِنَّا الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ بِمَخْتَصِّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
 الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

آخر النهار ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي لعلهم يشكون في دينهم فيرجعون عنه ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ هذا من تنمة كلام اليهود حكاة الله عنهم والمعنى : لا تصدقوا ولا تظهروا سركم وتطمثوا لأحد إلا إذا كان على دينكم ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ أي قل لهم يا محمد الهدى ليس بأيديكم وإنما الهدى هدى الله ، يهدي من يشاء إلى الإيمان ويثبت عليه كما هدى المؤمنين ، والجملة اعتراضية ، ثم ذكر تعالى بعد ذلك الاعتراض بقية كلام اليهود فقال ﴿أن يؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتُمْ أو يحاجوكم عند ربكم﴾ أي يقول اليهود بعضهم لبعض : لا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم ، وانظروا فيمن ادعى النبوة فإن كان متبعاً لدينكم فصدقه وإلا فكذبوه ، ولا تقروا ولا تعترفوا لأحدٍ بالنبوة إلا إذا كان على دينكم ، خشية أن يؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتُمْ وخشية أن يحاجوكم به عند ربكم ، فإذا أقررتُم بنبوة محمد ولم تدخلوا في دينه تكون له الحجة عليكم يوم القيامة ، وغرضهم نفي النبوة عن رسول الله ﷺ ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ أي قل لهم يا محمد أمر النبوة ليس إليكم وإنما هو بيد الله والفضل والخير كله بيد الله يؤتيه من يشاء ﴿والله واسع عليم﴾ أي كثير العطاء واسع الإنعام يعلم من هو أهل له ﴿يختص برحمته من يشاء﴾ أي يختص بالنبوة من شاء ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ أي فضله واسع عظيم لا يُحَدُّ ولا يُمنع .

البَلَاغَةُ : جمعت هذه الآيات من ضروب الفصاحة والبلاغة ما يأتي : المجازُ في قوله ﴿إلى كلمة﴾ حيث أطلق اسم الواحد على الجمع ، والتشبيه في قوله ﴿أرباباً﴾ حيث شبه طاعتهم لرؤساء الدين في أمر التحليل بالرب المستحق للعبادة ، والطباق في قوله ﴿الحق بالباطل﴾ والجناس التام في قوله ﴿يُضِلُّونَكُمْ وما يُضِلُّون﴾ وجناس الاشتقاق في ﴿أولى﴾ و﴿ولي﴾ والتكرار في عدة مواطن ، والحذف في عدة مواطن (١) .

فَكَيْدَةٌ : كتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى « هرقل » ملك الروم يدعو فيه إلى الإسلام واستشهد فيه بالآية الكريمة التي فيها إخلاص الدعوة لعبادة الله وحده ، ونص الكتاب كما هو في صحيح مسلم « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلامٌ على من أتبع الهدى أما بعد : فإنني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلمٌ تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين - يعني الفلاحين والخدم - و﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ (٢) .

(١) نقلًا عن البحر المحيط . (٢) انظر صحيح البخاري ومسلم .

قال الله تعالى : ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك . . إلى . . بعد إذ أنتم مسلمون﴾

من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٨٠)

المناسكبة : لما حكى تعالى قبائح أهل الكتاب ، وما هم عليه من الخبث والكيد والمكر ، أعقبه بذكر بعض أوصاف اليهود خاصة وهي خيانتهم من الناحيتين : المالية والدينية ، فقد خانوا الله والناس بتحريفهم كلام الله عن معناه ، واستحلالهم أكل أموال الناس بالباطل .

اللفتر : ﴿قنطار﴾ القنطار المال الكثير وقد تقدم ﴿قائماً﴾ ملازماً ومداماً على مطالبته ﴿الأميين﴾ المراد بهم العرب وأصل الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب والعرب كانوا كذلك ﴿يلوون﴾ من اللي وهو اللف والقتل تقول : لويت يده إذا قتلها والمراد أنهم يقتلون ألسنتهم ليميلوها عن الآيات المنزلة إلى العبارات المحرفة ﴿لا خلاق﴾ أي لا نصيب لهم من رحمة الله ﴿ربانيين﴾ جمع رباني وهو المنسوب إلى الرب قال الطبري معناه : كونوا حكماء علماء^(١) .

سبب النزول : عن الأشعث بن قيس قال : كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحديني فقدمته إلى النبي ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ هل لك بيته ؟ قلت : لا ، قال لليهودي : احلف قلت : إذا يحلف فيذهب بما لي فأنزل الله ﴿إن الذين يشترون بعهد الله . .﴾^(٢) الآية .

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بَانْتِهِمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِينِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾
بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ

النفسير : ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك﴾ أي من اليهود من إذا ائتمنته على المال الكثير أداه إليك لأمانته كعبد الله بن سلام أودعه قرشي ألف أوقية ذهباً فأداها إليه ﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك﴾ أي ومنهم من لا يؤتمن على دينار لخيانته كفنحاص بن عازوراء ائتمنته قرشي على دينار فجحده ﴿إلا ما دمت عليه قائماً﴾ أي إلا إذا كنت ملازماً له ومُشهداً عليه ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾ أي إنما حملهم على الخيانة زعمهم أن الله أباح لهم أموال الأميين - يعني العرب - روي أن اليهود قالوا ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ والخلق لنا عبيد ، فلا سبيل لأحدٍ علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا ، وقيل إنهم قالوا إن الله أباح لنا مال من خالف ديننا ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أي يكذبون على الله بادعائهم ذلك وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون ، روي أنهم لما قالوا ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ قال نبي الله ﷺ : كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا هوت تحت

لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾
 وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ
 اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ
 وَالنَّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّنِي سُبْحَانَ مَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ
 تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

قدمي هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرِّ والفاجر^(١) ، ثم قال تعالى ﴿بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾ أي ليس كما زعموا بل عليهم فيه إثم لكن من أدى الأمانة منهم وآمن بمحمد ﷺ واتقى الله واجتنب محارمه فإن الله يحبه ويكرمه ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ أي يستبدلون بالعهد الذي عاهدوا عليه من التصديق بمحمد وبأيمانهم الكاذبة حطام الدنيا وعرضها الخسيس الزائل ﴿أولئك لا خلاق لهم في الآخرة﴾ أي ليس لهم حظ ولا نصيب من رحمة الله تعالى ﴿ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة﴾ أي لا يكلمهم كلام أنس ولطف ، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة يوم القيامة ﴿ولا يزكِّيهم ولهم عذاب أليم﴾ أي لا يطهرهم من أوزار الأوزار ، ولهم عذاب مؤلم على ما ارتكبوه من المعاصي ﴿وإن منهم لفرقاً يلون ألسنتهم بالكتاب﴾ أي وإن من اليهود طائفة يفتلون ألسنتهم في حال قراءة الكتاب لتحريف معانيه وتبديل كلام الله عن المراد منه قال ابن عباس : يحرفونه بتأويله على غير مراد الله ﴿لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب﴾ أي لتظنوا أن هذا المحرف من كلام الله وما هو إلا تضليل وبهتان ﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله﴾ أي ينسبونه إلى الله وهو كذب على الله ﴿وهم يعلمون﴾ أنهم كذبوا وافتروا على الله ، ثم قال تعالى رداً على النصارى لما زعموا أن عيسى أمرهم أن يعبدوه ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة﴾ أي لا يصح ولا ينبغي لأحد من البشر أعطاه الله الكتاب والحكمة والنبوة ﴿ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله﴾ أي ثم يقول للناس اعبدوني من دون الله ، والنفي في مثل هذه الصيغة ﴿ما كان﴾ إنما يؤتى به للنفي العام الذي لا يجوز عقلاً ثبوته والغرض أنه لا يصح أصلاً ولا يتصور عقلاً صدور دعوى الألوهية من نبي قط أعطاه الله النبوة والشريعة فضلاً عن أن يحصل ذلك بالفعل لأن الرسول سفير بين الله وخلقه ليرشد الناس إلى عبادة الله فكيف يدعوهم إلى عبادة نفسه ؟ ﴿ولكن كونوا ربانيين﴾ أي ولكن يقول لهم كونوا ربانيين قال ابن عباس : حكماء علماء حلماء والمعنى : لا أدعوكم إلى أن تكونوا عباداً لي ولكن أدعوكم أن تكونوا علماء فقهاء مطيعين لله ﴿بما كنتم تعلمون الناس الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ أي بتعليمكم الناس الكتاب ودراستكم إياه ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ أي وما كان له أن يأمركم بعبادة غير الله -

ملائكة أو أنبياء - لأن مهمة الرسل الدعوة إلى الله وإخلاص العبادة له ﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ أي أيأمركم بالكفر وجحود وحدانية الله ، بعد أن أسلمتم ودخلتم في دين الله ؟ والاستفهام إنكاري تعجبي .

١ - ﴿ذلك بأنهم قالوا﴾ الإشارة بالبعيد للإيدان بكمال غلوهم في الشر والفساد .

٢ - ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ فيه إيجاز بالحذف أي ليس علينا في أكل أموال الأميين سبيل .

٣ - ﴿يشترون بعهد الله﴾ فيه استعارة فقد استعار لفظ الشراء للاستبدال .

٤ - ﴿ولا يكلمهم الله﴾ مجاز عن شدة غضبه وسخطه تعالى عليهم وكذلك في الآتي بعدها .

٥ - ﴿ولا ينظر إليهم﴾ قال الزمخشري : مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم لأن من اعتد بإنسان التفت إليه وأعاره نظر عينيه .

٦ - بين لفظ ﴿اتقى﴾ و﴿المتقين﴾ جناس الاشتقاق وبين لفظ ﴿الكفر﴾ و﴿مسلمون﴾ طباقاً .

فكائِدَة : روي أن رجلاً قال لابن عباس : « إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة ، قال ابن عباس : فماذا تقولون ؟ قالوا نقول ليس علينا بذلك بأس ، قال : هذا كما قال أهل الكتاب ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم » ذكره ابن كثير .

قال تعالى : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة . . . إلى وما لهم من ناصرين﴾
من آية (٨١) إلى نهاية آية (٩٠)

المناسِبة : لما ذكر تعالى خيانة أهل الكتاب بتحريفهم كلام الله عن مواضعه ، وتغييرهم أوصاف رسول الله ﷺ الموجودة في كتبهم حتى لا يؤمنوا به ، ذكر تعالى هنا ما تقوم به الحجة عليهم وهو أن الله قد أخذ الميثاق على أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إن أدركوا حياته ، وأن يكونوا من أتباعه وأنصاره ، فإذا كان الأنبياء قد أخذ عليهم العهد أن يؤمنوا به ويبشروا ببعثه فكيف يصح من أتباعهم التكذيب برسالته ؟ ثم ذكر تعالى أن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان ويبيّن أن الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله ديناً سواه .

اللغة : ﴿ميثاق﴾ الميثاق : العهد المؤكد بيمين ونحوه وقد تقدم ﴿إصري﴾ عهدي وأصله في اللغة الثقل قال الزمخشري : وسمى إصراً لأنه مما يؤصر أي يشد ويعقد^(١) ﴿الفاسقون﴾ الخارجون عن

طاعة الله ﴿طوعاً﴾ انقياداً عن رغبة ﴿كرهاً﴾ إجباراً وهو كاره ﴿الأسباط﴾ جمع سبط وهو ابن الإبن والمراد به هنا قبائل بني إسرائيل من أولاد يعقوب ﴿يُنظرون﴾ يمهلون يقال : أنظره يعني أمهله والنظرة الإمهال ﴿الخاسرون﴾ الخسران : انتقاص رأس المال يقال : خسر فلان أي أضاع من رأس ماله ﴿الضالون﴾ التائهون في مهامه الكفر .

سَبَبُ الزَّوْلِ : عن ابن عباس قال : ارتد رجل من الأنصار عن الإسلام ولحق بالشرك ثم ندم ، فأرسل إلى قومه : سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة فإني قد ندمت ؟ فنزلت الآية ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا . . . إلى قوله إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ فكتب بها قومه إليه فرجع فأسلم^(١) .

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا وَقَالَ فَأْتِهِمْ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾
فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

النَّفْسِيرُ : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ أي اذكروا يا أهل الكتاب حين أخذ الله العهد المؤكد على النبيين ﴿لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾ أي لمن أجل ما آتيتكم من الكتاب والحكمة قال الطبري : المعنى لهما آتيتكم أيها النبيون من كتاب وحكمة ﴿ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم﴾ أي ثم جاءكم رسول من عندي بكتاب مصدق لما بين أيديكم وهو محمد ﷺ ﴿لتؤمننَّ به ولتنصرنه﴾ أي لتصدقنَّ به ولتنصرنه ، قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمننَّ به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ﴿قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري﴾ أي أقررتم واعترفتم بهذا الميثاق وأخذتم عليه عهدي ؟ ﴿قالوا أقررنا﴾ أي اعترفنا ﴿قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ أي اشهدوا على أنفسكم وأتباعكم وأنا من الشاهدين عليكم وعليهم ﴿فمن تولى بعد ذلك﴾ أي أعرض ونكث عهده ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ أي هم الخارجون عن طاعة الله ﴿أفغير دين الله يبغون﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي أي أيتغني أهل الكتاب ديناً غير الإسلام الذي أرسل الله به رسله ؟ ﴿وله أسلم من في السموات والأرض﴾ أي ولله استسلم وانقاد وخضع أهل السموات والأرض ﴿طوعاً وكرهاً﴾ أي طائعين ومكرهين قال قتادة : المؤمن أسلم طائعاً والكافر أسلم كرهاً حين لا ينفعه ذلك^(٢) قال ابن كثير : فالؤمن مستسلم بقلبه وقلبه لله طوعاً ، والكافر مستسلم لله كرهاً فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع^(٣) ﴿وإليه يرجعون﴾ أي

(١) أخرجه النسائي وانظر القرطبي ٤/ ١٢٩ . (٢) الطبري ٦/ ٥٧٦ . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٢٩٧ .

وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾
 وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا
 بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أَوْلَيْكَ جَزَاؤُهُمْ
 أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾
 إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا
 كُفْرًا لَنْ نُقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأَوْلَيْكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ

يوم المعاد فيجازي كلاً بعمله ﴿قل آمننا بالله وما أنزل علينا﴾ أي قل يا محمد أنت وأمتك آمننا بالله وبالقرآن المنزل علينا ﴿وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط﴾ أي آمننا بما أنزل على هؤلاء من الصحف والوحي ، والأسباط هم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد يعقوب ﴿وما أوتى موسى وعيسى﴾ أي من التوراة والإنجيل ﴿والنبيون من ربهم﴾ أي وما أنزل على الأنبياء جميعهم ﴿لا نفرق بين أحدٍ منهم﴾ أي لا نؤم بالبعث ونكفر بالبعث كما فعل اليهود والنصارى بل نؤم بالكل ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي مخلصون في العبادة مقرّون له بالألوهية والربوبية لا نشرك معه أحداً أبداً ، ثم أخبر تعالى بأن كل دين غير الإسلام باطل ومرفوض فقال ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ أي يطلب شريعة غير شريعة الإسلام بعد بعثة النبي عليه الصلاة والسلام ليدين بها فلن يتقبل الله منه ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ أي مصيره إلى النار مخلداً فيها ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾ استفهام للتعجب والتعظيم لكفرهم أي كيف يستحق الهداية قوم كفروا بعد إيمانهم ﴿وشهدوا أن الرسول حق﴾ أي بعد أن جاءتهم الشواهد ووضح لهم الحق أن محمداً رسول الله ﴿وجاءهم البينات﴾ أي جاءتهم المعجزات والحجج البينات على صدق النبي ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يوفقهم لطريق السعادة ، قال الحسن: هم اليهود والنصارى رأوا صفة محمد ﷺ في كتابهم ، وشهدوا أنه حق فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب فكفروا بعد إيمانهم^(١) ﴿أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ أي جزاؤهم على كفرهم اللعنة من الله والملائكة والخلق أجمعين ﴿خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينعظون﴾ أي ماكثين في النار أبد الأبدية ، لا يقتر عنهم العذاب ولا هم يمهلون ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ أي إلا من تاب وأناب وأصلح ما أفسد من عمله ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ أي متفضل عليه بالرحمة والغفران ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً﴾ نزلت في اليهود كفروا بعيسى بعد إيمانهم بموسى ثم ازدادوا كفراً حيث كفروا بمحمد والقرآن ﴿لن تقبل توبتهم﴾ أي لا تقبل

مِلءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ ^قأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۗ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴿١١﴾

منهم توبة ما أقاموا على الكفر ﴿وأولئك هم الضالون﴾ أي الخارجون عن منهج الحق إلى طريق الغي ، ثم أخبر تعالى عمّن كفر ومات على الكفر فقال ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ أي كفروا ثم ماتوا على الكفر ولم يتوبوا وهو عام في جميع الكفار ﴿فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾ أي لن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿أولئك لهم عذاب أليم﴾ أي مؤلم موجه ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه .

البَلَاغَةُ : ١ - الالتفات ﴿لما آتيتكم﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الحاضر لأن قبله ﴿ميثاق النبيين﴾ .

٢ - بين لفظ ﴿اشهدوا﴾ و﴿الشاهدين﴾ جناس الاشتقاق وكذلك بين لفظ ﴿كفروا﴾ و﴿كفراً﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٣ - الطباق بين ﴿طوعاً﴾ و﴿كرهاً﴾ وكذلك يوجد الطباق بين لفظ الكفر والإيمان .

٤ - ﴿وأولئك هم الضالون﴾ قصر صفة على موصوف ومثله ﴿وأولئك هم الفاسقون﴾ .

٥ - ﴿وما أوتي موسى وعيسى والنبيون﴾ هو من باب عطف العام على الخاص .

٦ - ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي مؤلم والعدول إلى صيغة فعيل للمبالغة .

فكائِدَة : الآيات الكريمة قسمت الكفار إلى ثلاثة أقسام :

١ - قسم تاب توبة صادقة فنفعته وإليهم الإشارة بقوله ﴿إلا الذين تابوا بعد ذلك﴾ .

٢ - وقسم تاب توبة فاسدة فلم تنفعه وإليهم الإشارة بقوله ﴿كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً﴾ .

٣ - وقسم لم يتب أصلاً ومات على الكفر وإليهم الإشارة بقوله ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ .

تنبية : روى الشيخان عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال فيقول : نعم فيقول الله : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذتُ عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك) .

قال الله تعالى : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ . . . إِلَى . . . آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

من آية (٩٢) إلى نهاية آية (١٠٣)

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى حال الكفار ومآلهم في الآخرة ، وبين أن الكافر لو أراد أن يفقدى نفسه بملء الأرض ذهباً ما نفعه ذلك ، ذكر هنا استطراداً ما ينفع المؤمن لنيل رضى الله والفوز بالجنة ، ثم عاد الكلام لرفع الشبهات التي أوردها أهل الكتاب حول النبوة والرسالة وصحة دين الإسلام ، ثم جاء بعده التحذير من مكائدهم ودسائسهم التي يدبرونها للإسلام والمسلمين لتفرقة الصف وتشيت الشمل .

اللَّفَاكَةُ : ﴿البر﴾ كلمة جامعة لوجوه الخير والمراد بها هنا الجنة ﴿حلالاً﴾ حلالاً وهو مصدر نعت به ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿اسرائيل﴾ هو يعقوب عليه السلام ﴿بكة﴾ اسم لمكة فتسمى « بكة » و « مكة » سميت بذلك لأنها تبك أي تدق أعناق الجبابرة فلم يقصدها جبار بسوء إلا قصمه الله ﴿مباركاً﴾ البركة : الزيادة وكثرة الخير ﴿مقام إبراهيم﴾ محل قيام إبراهيم وهو الحجر الذي قام عليه لما ارتفع بناء البيت ﴿عوجاً﴾ العوج : الميل قال أبو عبيدة : في الدين والكلام والعمل ، وبالفتح عَوْجٌ فِي الْحَائِطِ وَالْجَذَعِ ﴿يعتصم﴾ يتمسك ويلتجئ وأصله المنع قال القرطبي : وكل متمسك بشيء معتصمٌ وكل مانعٌ شيئاً فهو عاصم^(١) ﴿قال لا عاصم اليوم من أمر الله﴾ ﴿شفا﴾ الشفا : حرف كل شيء وحده ومثله الشفير ، وشفا الحفرة : حرفها قال تعالى ﴿على شفا جرف هار﴾

سَبَبُ النَّزُولِ : يروى أن « شاس بن قيس » اليهودي مرَّ على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة فقال : ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار ، ثم أمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم « بُعِثَ » وينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار - وكان يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس - ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا : السلاح السلاح ، فبلغ النبي ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال : (أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألَّفَ بينكم) ؟ فعرف القوم أنها كانت نزعة من الشيطان وكيداً من عدوهم ، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين فأنزل الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾^(٢) الآية .

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ * كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا

التفسير : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي لن تكونوا من الأبرار ولن تدرکوا الجنة

لَبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ

حتى تنفقوا من أفضل أموالكم ﴿وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ أي وما تبذلوا من شيء في سبيل الله فهو محفوظ لكم تجزون عنه خير الجزاء ﴿كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل﴾ أي كل الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل ﴿إلا ما حرم إسرائيل على نفسه﴾ أي إلا ما حرمه يعقوب على نفسه وهو لحم الإبل ولبنها ثم حرمت عليهم أنواع من الأطعمة كالشحوم وغيرها عقوبة لهم على معاصيهم ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ أي كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة ﴿قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ أي قل لهم يا محمد اتنوني بالتوراة واقروها علي إن كنتم صادقين في دعواكم أنها لم تحرم عليكم بسبب بغيتكم وظلمكم قال الزمخشري : وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغى والظلم والصد عن سبيل الله فلما حاجهم بكتابهم وبكتهم بهتوا وانقلبوا صاغرين ولم يجسر أحد منهم على إخراج التوراة ، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي ﷺ ^(١) ﴿فمن افتري على الله الكذب من بعد ذلك﴾ أي اختلق الكذب من بعد قيام الحجة وظهور البينة ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ أي المعتدون المكابرون بالباطل ﴿قل صدق الله﴾ أي صدق الله في كل ما أوحى إلى محمد وفي كل ما أخبر ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم﴾ أي اتركوا اليهودية واتبعوا ملة الإسلام التي هي ملة إبراهيم ﴿حنيفاً﴾ أي مائلاً عن الأديان الزائفة كلها ﴿وما كان من المشركين﴾ برأه مما نسبه اليهود والنصارى إليه من اليهودية والنصرانية ، وفيه تعريض بإشراكهم ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة﴾ أي أول مسجد بني في الأرض لعبادة الله المسجد الحرام الذي هو بمكة ﴿مباركاً وهدى للعالمين﴾ أي وضع مباركاً كثيراً الخير والنفع لمن حجه واعتمره ، ومصدر الهداية والنور لأهل الأرض لأنه قبلتهم ، ثم عدد تعالى من مزاياه ما يستحق تفضيله على جميع المساجد فقال ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ أي فيه علامات واضحة كثيرة تدل على شرفه وفضله على سائر المساجد منها ﴿مقام إبراهيم﴾ وهو الذي قام عليه حين رفع القواعد من البيت ، وفيه زمزم والحطيم ، وفيه الصفا والمروة والحجر الأسود ، أفلا يكفي برهاناً على شرف هذا البيت وأحقيته أن يكون قبلة للمسلمين ؟ ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ وهذه آية أخرى وهي أمن من دخل الحرم بدعوة الخليل إبراهيم ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ أي فرض لازم على المستطيع حج بيت الله العتيق ﴿ومن كفر فإن الله غني عن

وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مِنِّ امْنٍ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ ۗ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَد هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۗ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۗ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً ۗ فَأَلَّفَ بَيْنَ

العالمين﴾ أي من ترك الحج فإن الله مستغن عن عبادته وعن الخلق أجمعين ، وعبر عنه بالكفر تغليظاً عليه قال ابن عباس : من جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه^(١) ، ثم أخذ بيكت أهل الكتاب على كفرهم فقال ﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله﴾ أي لم تجحدون بالقرآن المنزل على محمد مع قيام الدلائل والبراهين على صدقه ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ أي مطلع على جميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من أمن﴾ أي لم تصرفون الناس عن دين الله الحق ، وتمنعون من أراد الإيمان به ؟ ﴿تبغونها عوجاً﴾ أي تطلبون أن تكون الطريق المستقيمة معوجة ، وذلك بتغيير صفة الرسول ، والتلبيس على الناس بإيهامهم أن في الإسلام خللاً وعوجاً ﴿وأنتم شهداء﴾ أي عالمون بأن الإسلام هو الحق والدين المستقيم ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ تهديد ووعيد ، وقد جمع اليهود والنصارى الوصفين : الضلال والاضلال كما أشارت الآيتان الكريمتان فقد كفروا بالإسلام ثم صدوا الناس عن الدخول فيه بإلقاء الشبه والشكوك في قلوب الضعفة من الناس ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب﴾ أي إن تطيعوا طائفة من أهل الكتاب ﴿يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ أي يصيروكم كافرين بعد أن هداكم الله للإيمان ، والخطاب للأوس والخزرج إذ كان اليهود يريدون فتنهم كما في سبب النزول واللفظ في الآية عام ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ إنكار واستبعاد أي كيف يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله لا تزال تنزل عليكم والوحي لم ينقطع ورسول الله حي بين أظهركم ؟ ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ أي من يتمسك بدينه الحق الذي بيّنه بآياته على لسان رسوله فقد اهتدى إلى أقوم طريق ، وهي الطريق الموصلة إلى جنات النعيم ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾ أي اتقوا الله تقوى حقة أو حق تقواه قال ابن مسعود : « هو أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر »^(٢) والمراد بالآية ﴿حق تقاته﴾ أي كما يحق أن يتقى وذلك باجتناب جميع معاصيه ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ أي تمسكوا بالإسلام وعضوا عليه بالنواجذ حتى يدرككم الموت وأنتم على تلك الحالة فتموتون على الإسلام والمقصود الأمر بالإقامة على الإسلام ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ أي تمسكوا بدين الله وكتابه جميعاً ولا

(١) مختصر ابن كثير ١/٣٠٣ . (٢) مختصر ابن كثير ١/٣٠٤ .

قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٤﴾

تتفرقوا عنه ولا تختلفوا في الدين كما اختلف من قبلكم من اليهود والنصارى ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي اذكروا إنعامه عليكم يا معشر العرب ﴿إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم﴾ أي حين كنتم قبل الإسلام أعداءً ألداءً فألف بين قلوبكم بالإسلام وجمعكم على الإيمان ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ أي وكنتم مشرفين على الوقوع في نار جهنم فأنقذكم الله منها بالإسلام ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر الآيات ﴿لعلكم تهتدون﴾ أي لكي تهتدوا بها إلى سعادة الدارين .

البَلاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة نوجزها فيما يلي :

- ١ - ﴿قل فاتوا بالتوراة﴾ الأمر للتبكيث والتوبيخ للدلالة على كمال القبح .
- ٢ - ﴿للذي ببكة﴾ أي للبيت الذي ببكة وفي ترك الموصوف من التفضيم ما لا يخفى .
- ٣ - ﴿ومن كفر﴾ وضع هذا اللفظ « موضع ومن لم يحج » تأكيداً لوجوبه وتشديداً على تاركة قال أبو السعود : « ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبارات ما لا مزيد عليه وهي قوله ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ حيث أثمرت صيغة الخبر الدالة على التحقيق وأبرزت في صورة الجملة الإسمية الدالة على الثبات والاستمرار ، على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه في ذم الناس ، وسلك بهم مسلك التعميم ثم التخصيص ، والإيهام ثم التبيين ، والإجمال ثم التفصيل »^(١) .
- ٤ - ﴿واعتصموا بحبل الله﴾ شبه القرآن بالحبل واستعير اسم المشبه به وهو الحبل للمشبه وهو القرآن على سبيل الاستعارة التصريحية والجامع بينهما النجاة في كل .
- ٥ - ﴿شفا حفرة﴾ شبه حالهم الذي كانوا عليه بالجاهلية بحال من كان مشرفاً على حفرة عميقة وهوة سحيقة ففيه استعارة تمثيلية والله أعلم .

تبيينه : وردت الآيات الكريمة لدفع شبهتين من شبه أهل الكتاب :

الشبهة الأولى : أنهم قالوا للنبي ﷺ إنك تدعي أنك على دين إبراهيم وقد خالفت شريعته فأنت تبيع لحوم الإيل وألبانها مع أن ذلك كان حراماً في دين إبراهيم ؟ فرد الله عليهم بقوله ﴿كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل﴾ الآية .

الشبهة الثانية : قالوا إن « بيت المقدس » قبله جميع الأنبياء وهو أول المساجد وأحق بالاستقبال فكيف تترك يا محمد التوجه إليه ثم تزعم أنك مصدق لما جاء به الأنبياء فرد الله تعالى بقوله ﴿إن أول بيت

وضع للناس للذي ببكة ﴿ الآية .

قال تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير . . إلى قوله . . بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾

من آية (١٠٤) إلى نهاية آية (١١٢)

المناسكة : لما حذر تعالى من مكاييد أهل الكتاب ، وأمر بالاعتصام بحبل الله والتمسك بشرعه القويم ، دعا المؤمنين إلى القيام بواجب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأمر بالائتلاف وعدم الاختلاف ، ثم ذكر ما حلّ باليهود من الذل والصغار بسبب البغي والعدوان .

اللفظة : ﴿ أمة ﴾ طائفة وجماعة ﴿ البيئات ﴾ الآيات الواضحات ﴿ المعروف ﴾ ما أمر به الشرع واستحسنه العقل السليم ﴿ المنكر ﴾ ما نهى عنه الشرع واستقبحه العقل السليم ﴿ الأدبار ﴾ جمع دبر وهو مؤخر كل شيء يقال : ولاه دبره أي هرب من وجهه ﴿ ثقفوا ﴾ وجدوا وصدفوا ﴿ حبل ﴾ من الله ﴿ الحبل معروف والمراد به هنا : العهد وسمي حبلًا لأنه سبب يحصل به الأمن وزوال الخوف ﴿ بءوا ﴾ رجعوا ﴿ المسكنة ﴾ الفقر .

وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ

التفسير : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ﴾ أي ولتقم منكم طائفة للدعوة إلى الله ﴿ ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ أي للأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ أي هم الفائزون ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيئات ﴾ أي لا تكونوا كاليهود والنصارى الذين تفرقوا في الدين واختلفوا فيه بسبب اتباع الهوى من بعد ما جاءتهم الواضحات ﴿ وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ أي لهم بسبب الاختلاف عذاب شديد يوم القيامة ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ أي يوم القيامة تبيض وجوه المؤمنين بالإيمان والطاعة ، وتسود وجوه الكافرين بالكفر والمعاصي ﴿ فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم ﴾ هذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإجمال والمعنى أما أهل النار الذين اسودت وجوههم فيقال لهم على سبيل التوبيخ : أكفرتم بعد إيمانكم أي بعد ما وضحت لكم الآيات والدلائل ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ أي ذوقوا العذاب الشديد بسبب كفركم ﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ﴾ أي وأما السعداء الأبرار الذين ابيضت وجوههم بأعمالهم الصالحات ﴿ ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ أي فهم في الجنة مخلدون لا يخرجون منها أبداً ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ﴾ أي هذه آيات الله نتلوها عليك يا محمد حال كونها متلبسة بالحق ﴿ وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾ أي وما كان الله ليظلم أحداً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴿ ولله ما في السموات وما في

تَكْفُرُونَ ﴿١١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْغَضْتَ وَجُوهَهُمْ فَبِ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١١٨﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١٩﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٢٠﴾ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتَلُوا يُولَوْكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢١﴾ ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَ أَيْنَ مَا تُقْفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بَأْسُهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١٢٢﴾

الأرض ﴿أي الجميع ملك له وعبيد﴾ وإلى الله تُرجع الأمور ﴿أي هو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة﴾ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴿أي أنتم يا أمة محمد خير الأمم لأنكم أنفع الناس للناس ولهذا قال﴾ أخرجت للناس ﴿أي أخرجت لأجلهم ومصالحتهم ، روى البخاري عن أبي هريرة﴾ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴿قال : خير الناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام﴾ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴿وهذا بيان لوجه الخيرية كأنه قيل السبب في كونكم خير أمة هذه الخصال الحميدة روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال « من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها » (١) ثم قال تعالى ﴿ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم﴾ أي لو آمنوا بما أنزل على محمد وصدقوا بما جاء به لكان ذلك خيراً لهم في الدنيا والآخرة ﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ أي منهم فئة قليلة مؤمنة كالنجاشي وعبد الله بن سلام ، والكثرة الكثيرة فاسقة خارجة عن طاعة الله ، ﴿لن يضرركم إلا أذى﴾ أي لن يضرركم إلا ضرراً يسيراً بألسنتهم من سب و طعن ﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار﴾ أي ينهزمون من غير أن ينالوا منكم شيئاً ﴿ثم لا ينصرون﴾ أي ثم شأنهم الذي أبشركم به أنهم مخذولون لا ينصرون ، والجملة استثنائية ﴿ضربت عليهم الدلة أينما تقفوا﴾ أي لزمهم الذل والهوان أينما وجدوا وأحاط بهم كما يحيط البيت المضروب بساكنه ﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ أي إلا إذا اعتصموا بدمة الله ودمة المسلمين قال ابن عباس : بعهد من الله وعهد من الناس ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ أي رجعوا مستوجبين للغضب الشديد من الله ﴿وضربت عليهم المسكنة﴾ أي لزمتهم الفاقة والخشوع فهي محيطة بهم من جميع جوانبهم ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾ أي ذلك الذل والصغار والغضب والدمار ، بسبب جحودهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ظلماً وطغياناً ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي بسبب تمردهم وعصيانهم أوامر الله تعالى .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة .
- ٢ - ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ فيه قصر صفة على موصوف حيث قصر الفلاح عليهم .
- ٣ - ﴿تبيضُ وجوه وتسود وجوه﴾ بين كلمتي ﴿تبيضُ﴾ و﴿تسودُ﴾ طباق .
- ٤ - ﴿ففي رحمة الله﴾ مجاز مرسل أطلق الحال وأريد المحل أي ففي الجنة لأنها مكان تنزل الرحمة .
- ٥ - ﴿ضربت عليهم الذلة﴾ فيه استعارة حيث شبه الذل بالخباء المضروب على أصحابه وقد تقدمت في البقرة
- ٦ - ﴿وبأءوا بغضب﴾ التنكير للتفخيم والتهويل .

فكائِدَة : قوله تعالى ﴿ثم لا يُنصرون﴾ جملة مستأنفة ولهذا ثبتت فيها النون قال الزمخشري : « وعدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداءً كأنه قيل : ثم أخبركم أنهم مخذولون منتفٍ عنهم النصر ، ولو جزم لكان نفي النصر مقيداً لقتالهم بينا النصر وعدٌ مطلق »^(١)

تَبْيِيْهٌ : الاختلاف الذي أشارت إليه الآية ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ إنما يراد به الاختلاف في العقيدة وفي أصول الدين وأما الاختلاف في الفروع كما اختلف الأئمة المجتهدون فذلك من اليسر في الشريعة كما نبه على ذلك العلماء ولابن تيمية رحمه الله رسالة قيمة أسماها « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » فارجع إليها فإنها رائعة ومفيدة .

قال الله تعالى : ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة . . إلى . . إن الله بما يعملون محيط﴾

من آية (١١٣) إلى نهاية آية (١٢٠)

المناسِكة : لما وصف تعالى أهل الكتاب بالصفات الذميمة ، ذكر هنا أنهم ليسوا بدرجة واحدة ففيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر ، ثم ذكر تعالى عقاب الكافرين وأن أموالهم وأولادهم لن تنفعهم يوم القيامة شيئاً ، وأعقب ذلك بالنهي عن اتخاذ أعداء الدين أولياء ونبه إلى ما في ذلك من الضرر الجسيم في الدنيا والدين .

اللغمة : ﴿آناء﴾ أوقات وساعات مفردها إنى على وزن معى ﴿يكفروه﴾ يُجحدوه من الكفر بمعنى الجحود ، سمي منعُ الجزاء كفراً لأنه بمنزلة الجحد والستر ﴿صر﴾ الصرُّ : البرد الشديد قاله ابن

(١) الكشاف ٣٠٨/١ باختصار .

عباس وأصله من الصرير الذي هو الصوت ويراد به الريح الشديدة الباردة ﴿حرت﴾ زرع وأصله من حرت الأرض إذا شقها للزرع والبذر ﴿بطانة﴾ بطانة الرجل : خاصته الذين يفضي إليهم بأسراره شبه ببطانة الثوب لأنه يلي البدن ﴿لا يألونكم﴾ أي لا يقصرون قال الزمخشري : يقال ألا في الأمر يألو إذا قصر فيه ﴿خبالاً﴾ الخبال : الفساد والنقصان ومنه رجل مخبول إذا كان ناقص العقل ﴿عنتم﴾ العنت : شدة الضرر والمشقة ﴿الأنامل﴾ أطراف الأصابع .

سَبَبُ النَّزُولِ : لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه قال أحبار اليهود : ما آمن بمحمد إلا شرارنا ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وقالوا لهم : لقد كفرتم وخسرتم فأنزل الله ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ (١) الآية .

* لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ

التفسير : ﴿ليسوا سواء﴾ أي ليس أهل الكتاب مستويين في المساوىء ، وهنا تم الكلام ثم ابتداء تعالى بقوله ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ أي منهم طائفة مستقيمة على دين الله ﴿يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ أي يتهجدون في الليل بتلاوة آيات الله حال الصلاة ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي يؤمنون بالله على الوجه الصحيح ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ أي يدعون إلى الخير وينهون عن الشر ولا يدهنون ﴿ويسارعون في الخيرات﴾ أي يعملونها بمبادرين غير متثاقلين ﴿وأولئك من الصالحين﴾ أي وهم في زمرة عباد الله الصالحين ﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾ أي ما عملوا من عمل صالح فلن يضيع عند الله ﴿والله عليم بالمتقين﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل ، ولا يضيع لديه أجر المتقين ، ثم أخبر تعالى عن مآل الكافرين فقال ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ أي لن تدفع عنهم أموالهم التي تهالكوا على اقتنائها ولا أولادهم الذين تفانوا في جهم من عذاب الله شيئاً ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي مخلدون في عذاب جهنم ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريحٍ فيها صرٌّ﴾ أي مثل ما ينفقونه في الدنيا بقصد الثناء وحسن الذكر كمثل ريح عاصفة فيها بردٌ شديد ﴿أصابت حرت قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته﴾ أي أصابت تلك

أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مَنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ
 الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰئِنتُمْ أَوْلَاءُ لِمُحِبُّوهُمْ
 وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا الْقُورُكُمُ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ
 مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا
 الريح المدمرة زرع قوم ظلموا أنفسهم بالمعاصي فأفسدته وأهلكته فلم ينتفعوا به ؛ فكذلك الكفار يحق
 الله أعمالهم الصالحة كما يذهب هذا الزرع بذنوب صاحبه ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾ أي
 وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما يستوجب العقاب ، ثم حذر تعالى من
 اتخاذ المنافقين بطانة يطلعونهم على أسرارهم فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾ أي لا
 تتخذوا المنافقين أصدقاء تودونهم وتطلعونهم على أسراركم وتجعلونهم أولياء من غير المؤمنين ﴿لا يألونكم
 خبالاً﴾ أي لا يقصرون لكم في الفساد ﴿ودوا ما عنتم﴾ أي تمنوا مشقتكم وما يوقعكم في الضرر الشديد
 ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾ أي ظهرت أمارات العداوة لكم على ألسنتهم فهم لا يكتفون ببغضكم
 بقلوبهم حتى يصرحوا بذلك بأفواههم ﴿وما تخفي صدورهم أكبر﴾ أي وما يطنونه لكم من البغضاء أكثر
 مما يظهره ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ أي وضحنا لكم الآيات الدالة على وجوب الإخلاص في الدين ،
 وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين ﴿إن كنتم تعقلون﴾ أي إن كنتم عقلاء ، وهذا على سبيل الهزء
 والتحريك للنفوس كقولك إن كنت مؤمناً فلا تؤذ الناس وقال ابن جرير المعنى : إن كنتم تعقلون عن الله
 أمره ونبيه ، ثم بين سبحانه ما هم عليه من كراهية المؤمنين فقال ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم﴾
 أي ها أنتم يا معشر المؤمنين خاطئون في موالاتكم إذ تحبونهم ولا يحبونكم ، تريدون لهم النفع وتبدلون لهم
 المحبة وهم يريدون لكم الضر ويضمرون لكم العداوة ﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾ أي وأنتم تؤمنون
 بالكتب المنزلة كلها وهم مع ذلك يبغضونكم ، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم ؟ وفيه
 توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم ﴿وإذا القوركم قالوا آمنا﴾ أي وهذا من خبثهم إذ
 يظهرون أمامكم الإيمان نفاقاً ﴿وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ أي وإذا خلت مجالسهم
 منكم عضوا أطراف الأصابع من شدة الحنق والغضب لما يرون من ائتلافكم ، وهو كناية عن شدة الغيظ
 والتأسف لما يفوتهم من إذابة المؤمنين ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ هو دعاء عليهم أي قل يا محمد أدام الله
 غيظكم إلى أن تموتوا ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي إن الله عالم بما تكنه سرائركم من البغضاء
 والحسد للمؤمنين ، ثم أخبر تعالى بما يترقبون نزوله من البلاء والمحنة بالمؤمنين فقال ﴿إن تمسككم حسنة
 تسؤهم﴾ أي إن أصابكم ما يسركم من رخاءٍ وخصبٍ ونصرةٍ وغنيمةٍ ونحو ذلك ساءتكم ﴿وإن تصبكم

(١) هذا قول الطبري وكثير من المفسرين وقيل المراد منه : التفرع والإغاظة والمعنى أنهم لا يدركون ما يؤملون فإن الموت دون ذلك كذا في

وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَأَيُّضْرَكُمْ كَيْدَهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١١٢﴾

سيئة يفرحوا بها ﴿١﴾ أي وإن أصابكم ما يضركم من شدةٍ وجذبٍ وهزيمةٍ وأمثال ذلك سرتهم ، فبين تعالى بذلك فرط عداوتهم حيث يسوءهم ما نال المؤمنين من الخير ويفرحون بما يصيبهم من الشدة ﴿٢﴾ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴿٣﴾ أي إن صبرتم على أذاهم واتقيتم الله في أقوالكم وأعمالكم لا يضركم مكرهم وكيدهم ، فشرط تعالى نفي ضررهم بالصبر والتقوى ﴿٤﴾ إن الله بما يعملون محيطٌ ﴿٥﴾ أي هو سبحانه عالم بما يُدبرونه لكم من مكائد فيصرف عنكم شرهم ويعاقبهم على نواياهم الخبيثة .

البلاغَة : ١ - ﴿من أهل الكتاب أمة﴾ جيء بالجملة اسمية للدلالة على الاستمرار كما جيء بعدها بصيغة المضارع ﴿يتلون آيات الله﴾ للدلالة على التجدد ومثله في ﴿يسجدون﴾ .

٢ - ﴿وأولئك من الصالحين﴾ الإشارة بالبعيد لبيان علو درجتهم وسمو منزلتهم في الفضل .

٣ - ﴿كمثل ريح فيها صر﴾ فيه تشبيه وهو من نوع التشبيه التمثيلي شبه ما كانوا ينفقونه في المفاخر وكسب الثناء بالزرع الذي أصابته الريح العاصفة الباردة فدمرته وجعلته حطاماً .

٤ - ﴿لا تتخذوا بطانة﴾ شبه دخلاء الرجل وخواصه بالبطانة لأنهم يستبطنون دخيل أمره ويلازمونه ملازمة شعاره لجسمه ففيه استعارة أفاده في تلخيص البيان^(١) .

٥ - ﴿عضوا عليكم الأنامل﴾ قال أبو حيان : يوصف المعتاظ والنادم بعض الأنامل فيكون حقيقة ويحتمل أنه من مجاز التمثيل عبر بذلك عن شدة الغيظ والتأسف لما يفوتهم من إذاية المؤمنين^(٢) .

٦ - في الآيات من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة وذلك في قوله ﴿إن تمسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ حيث قابل الحسنة بالسيئة والمساءة بالفرح وهي مقابلة بديعة ، كما أن فيها جناس الاشتقاق في ﴿ظلمهم﴾ و ﴿يظلمون﴾ وفي ﴿الغيظ﴾ و ﴿غيظكم﴾ وفي ﴿تؤمنون﴾ و ﴿أمناء﴾ .

لطيفة : عبر بالمس في قوله ﴿إن تمسكم حسنة﴾ وبالإصابة في قوله ﴿وإن تصبكم سيئة﴾ وذلك للإشارة إلى أن الحسنة تسوء الأعداء وحتى ولو كانت بأيسر الأشياء ولو مساً خفيفاً وأما السيئة فإذا تمكنت الإصابة بها إلى الحد الذي يرثي له الشامت فإنهم لا يرثون بل يفرحون ويسرون وهذا من أسرار بلاغة التنزيل ، نقلاً عن حاشية الكشاف

قال الله تعالى : ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال .. إلى .. وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾

من آية (١٢١) إلى نهاية آية (١٣٢)

المناسبة : يبدأ الحديث عن الغزوات من هذه الآيات الكريمة ، وقد انتقل السياق من معركة الجدل والمناظرة إلى معركة الميدان والقتال ، والآيات تتحدث عن غزوة « أحد » بالإسهاب وقد جاء الحديث عن غزوة بدر في أثنائها اعتراضاً ليدكرهم بنعمته تعالى عليهم لما نصرهم ببدر وهم أذلة قليلون في العُدَد والعدَد ، وهذه الآية هي افتتاح القصة عن غزوة أحد وقد أنزل فيها ستون آية ، ومناسبة الآيات لما قبلها أنه تعالى لما حذر من اتخاذ بطانة السوء ذكر هنا أن السبب في هم الطائفتين من الأنصار بالفشل إنما كان بسبب تشييط المنافقين لهم وعلى رأسهم أبي بن سلول رأس النفاق فللمناسبة واضحة ، روى الشيخان عن جابر قال « فينا نزلت ﴿ إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما ﴾ قال نحن الطائفتان : بنو حارثة ، وبنو سلمة وما نحب أنها لم تنزل لقوله تعالى ﴿ والله وليهما ﴾ » .

اللفظ : ﴿ غدوت ﴾ خرجت غدوة وهي الساعات الأولى من الصبح ﴿ نفشلا ﴾ الفشل : الجبن والضعف ﴿ تبوى ﴾ تنزل يقال : بوأته منزلاً وبوأته له منزلاً أي أنزلته فيه وأصل التبوى اتخاذ المنزل ﴿ أذلة ﴾ أي قلة في العدد والسلاح ﴿ فورهم ﴾ الفور : السرعة وأصله شدة الغليان من فارت القدر إذا غلت ثم استعملت للسرعة تقول : من فوره أي من ساعته ﴿ مسومين ﴾ بفتح الواو بمعنى معلمين على القتال وبكسرهما بمعنى لهم علامة وكانت سيماهم يوم بدر عمام بيضاء ﴿ طرفاً ﴾ طائفة وقطعة ﴿ يكتبهم ﴾ الكبت : الهزيمة والإهلاك وقد يأتي بمعنى الغيظ والإذلال ﴿ خائبين ﴾ الخيبة : عدم الظفر بالطلب .

سبب النزول : ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشج في رأسه ، فجعل يسلي الدم عنه ويقول : كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله تعالى ؟ فأنزل الله ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ .

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُسْكِرُونَ ﴿١٢٣﴾

التفسير : ﴿ وإذ غدوت من أهلك ﴾ أي اذكر يا محمد حين خرجت إلى أحد من عند أهلك ﴿ تبوى المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ أي تنزل المؤمنين أماكنهم لقتال عدوهم ﴿ والله سميعٌ عليم ﴾ أي سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ أي حين كادت طائفتان من جيش المسلمين أن تجبنا وتضعفا وهمتا بالرجوع وهما « بنو سلمة » و « بنو حارثة » وذلك حين خرج رسول الله ﷺ لأحد بألف من أصحابه فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة آلاف انخذل « عبد الله بن أبي » بثلاث الجيش وقال : علام نقتل أنفسنا وأولادنا ؟ فهم الحيان من الأنصار بالرجوع فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله ﷺ وذلك قوله تعالى ﴿ والله وليهما ﴾ أي ناصرهما ومتولي أمرهما ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي في جميع أحوالهم وأمورهم ، ثم ذكرهم تعالى بالنصر يوم بدر لتقوى قلوبهم ويتسلوا عما

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدْعَىٰ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١١٤﴾ بَلَىٰ إِنْ
تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُدْعَىٰ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١١٥﴾
وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١١٦﴾
لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١١٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ
يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٨﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِر لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ

أصابهم من الهزيمة يوم أحد فقال ﴿ولقد نصركم الله بيدر وأنتم أذلة﴾ أي نصركم يوم بدر مع قلة العدد
والسلاح لتعلموا أن النصر من عند الله لا بكثرة العدد والعدد ﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ أي اشكروه
على ما من به عليكم من النصر ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة
منزليين﴾ أي إذ تقول يا محمد لأصحابك أما يكفيكم أن يعينكم الله بإمداده لكم بثلاثة آلاف من الملائكة
منزليين لنصرتكم ﴿بلى أن تصبروا وتتقوا﴾ بلى تصديق للوعد أي بلى يمدكم بالملائكة إن صبرتم في المعركة
واتقيتم الله وأطعتم أمره ﴿ويأتوكم من فورهم هذا﴾ أي يأتيكم المشركون من ساعتهم هذه ﴿يمددكم ربكم
بخمسة آلاف من الملائكة مسؤمين﴾ أي يزدكم الله مدداً من الملائكة معلّمين على السلاح ومدريين على
القتال^(١) ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم﴾ أي وما جعل الله ذلك الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم أيها
المؤمنون لتزدادوا ثباتاً ﴿ولتطمئن قلوبكم به﴾ أي ولتسكن قلوبكم فلا تخافوا من كثرة عدوكم وقلة
عددكم ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ أي فلا تتوهموا أن النصر بكثرة العدد والعدد ، ما النصر في
الحقيقة إلا بعون الله وحده ، لا من الملائكة ولا من غيرهم ﴿العزيز الحكيم﴾ أي الغالب الذي لا يغلب
في أمره الحكيم الذي يفعل ما تقتضيه حكمته الباهرة ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾ أي ذلك التدبير
الإلهي ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر ، ويهدم ركناً من أركان الشرك ﴿أو يكتسبهم﴾ أي يغيظهم
ويخزيهم بالهزيمة ﴿فينقلبوا خائبين﴾ أي يرجعوا غير ظافرين بمبتغاهم ، وقد فعل تعالى ذلك بهم في بدر
حيث قتل المسلمون من صناديدهم سبعين وأسروا سبعين وأعز الله المؤمنين وأذل الشرك والمشركين ﴿ليس
لك من الأمر شيء﴾ هذه الآية وردت اعتراضاً وهي في قصة أحد ، وذلك لما كسرت ربايعته ﷺ وشج
وجبه الشريف قال : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدّم ؟ ! فنزلت ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ أي
ليس لك يا محمد من أمر تدبير العباد شيء وإنما أمرهم إلى الله ﴿أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾
أي فالله مالك أمرهم فيما أن يهلكهم ، أو يهزمهم ، أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن أصروا
على الكفر فإنهم ظالمون يستحقون العذاب ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من

(١) وقيل معنى مسؤمين : أي معلمين بعلامة قال عروة بن الزبير : كانت الملائكة على خيل بلق عليهم عمامم بيض قد أرسلوها بين
اكتافهم ، انظر الطبري والكشاف .

غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٧﴾
وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣٨﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٩﴾

يشاء والله غفور رحيم ﴿﴾ أي له جل وعلا ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء وهو الغفور الرحيم ﴿﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ﴿﴾ هذا نهي من الله تعالى لعباده المؤمنين عن تعاطي الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه في الجاهلية من تضعيفه قال ابن كثير : كانوا في الجاهلية إذا حلّ أجل الدين يقول الدائن : إما أن تقضي وإما أن تُرَبِّي ! فإن قضاه وإلا زاده في المدة وزاده في القدر وهكذا كلّ عام فرجما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً ﴿﴾ واتقوا الله ﴿﴾ أي اتقوا عذابه بترك ما نهى عنه ﴿﴾ لعلكم تفلحون ﴿﴾ أي لتكونوا من الفائزين ﴿﴾ واتقوا النار التي أعدت للكافرين ﴿﴾ أي احذروا نار جهنم التي هيئت للكافرين ﴿﴾ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴿﴾ أي اطيعوا الله ورسوله لتكونوا من الأبرار الذين تنالهم رحمة الله .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿﴾ إذ تقول ﴿﴾ صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية باستحضار صورتها في الذهن .
٢ - ﴿﴾ أن يمدكم ربكم ﴿﴾ التعرض لعنوان الربوبية مع إضافته للمخاطبين لإظهار كمال العناية بهم أفاده أبو السعود .

٣ - ﴿﴾ يغفر ويعذب ﴿﴾ بينهما طباق .

٤ - ﴿﴾ أضعافاً مضاعفة ﴿﴾ جناس الاشتقاق .

٤ - ﴿﴾ لا تأكلوا الربا ﴿﴾ سمي الأخذ أكلاً لأنه يثول إليه فهو مجاز مرسل .

تبيينه : ذكر الأضعاف المضاعفة في الآية ليس للقيّد ولا للشرط ، وإنما هو لبيان الحالة التي كان الناس عليها في الجاهلية ، وللتشنيع عليهم بأن في هذه المعاملة ظلماً صارخاً وعدواناً مبيهاً حيث كانوا يأخذون الربا أضعافاً مضاعفة قال أبو حيان : « نهوا عن الحالة الشنعاء التي يوقعون الربا عليها فرجما استغرق بالزر اليسير مال المدين ، وأشار بقوله ﴿﴾ مضاعفة ﴿﴾ إلى أنهم كانوا يكررون التضعيف عاماً بعد عام ، والربا محرم بجميع أنواعه ، فهذه الحال ليس قيّداً في النهي » ﴿٣﴾ .

قال الله تعالى : ﴿﴾ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم .. إلى .. وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴿﴾
من آية (١٣٣) إلى نهاية آية (١٤٨)

المناسِبَةُ : لما حث تعالى على الصبر والتقوى ونبه المؤمنين إلى إمداد الله لهم بالملائكة في غزوة

بدر ، عقبه بالأمر بالمسارعة إلى نيل رضوان الله ، ثم ذكر بالتفصيل غزوة أحد وما نال المؤمنين فيها من الهزيمة بعد النصر بسبب مخالفة أمر الرسول ، ثم بين أن الابتلاء سنة الحياة ، وأن قتل الأنبياء لا ينبغي أن يدخل الوهن إلى قلوب المؤمنين ، ثم توالى الآيات الكريمة في بيان الدروس والعبر من غزوة أحد .

اللفظة : ﴿وسارعوا﴾ بادروا ﴿السراء﴾ الرخاء ﴿الضرأ﴾ الشدة والضيقة ﴿والكاظمين﴾ كظم الغيظ : رده في الجوف يقال : كظم غيظه أي لم يظهره مع قدرته على إيقاعه بالعدو مأخوذ من كظم القرية إذا ملاًها وشد رأسها ﴿فاحشة﴾ الفاحشة : العمل الذي تنهى في القبح ﴿خلت﴾ مضت ﴿سنن﴾ السنن : جمع سنة وهي الطريقة التي يقتدى بها ومنها سنة النبي ﷺ والمراد بها هنا الوقائع التي حصلت للمكذبين ﴿قرح﴾ جرح بالفتح والضم قال الفراء : هو بالفتح الجرح وبالضم ألمه (١) ، وأصل الكلمة الخلوص ومنه ماء قراح ﴿نداؤها﴾ نصرقتها والمدولة : نقل الشيء من واحد إلى آخر يقال : تداولته الأيدي إذا انتقل من شخص إلى شخص ﴿وليمحص﴾ التمحيص : التخليص يقال : محصته إذا خلصته من كل عيب وأصله في اللغة : التنقية والإزالة ﴿ويمحق﴾ المحق : نقص الشيء قليلاً قليلاً ﴿أعقابكم﴾ جمع عقب وهو مؤخر الرجل يقال : انقلب على عقبه أي رجع إلى ما كان عليه ﴿مؤجلاً﴾ له وقت محدد لا يتقدم ولا يتأخر ﴿وكأين﴾ كم وهي للتكثير وأصلها أي دخلت عليها كاف التشبيه فأصبح معناها التكثير ﴿ربيون﴾ جمع ربي نسبة إلى الرب كالربانيين وهم العلماء الأتقياء العابدون لربهم وقيل : نسبة إلى الربة وهي الجماعة ﴿استكانوا﴾ خضعوا وذلوا وأصله من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليصنع به ما يريد .

* **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٤٦﴾ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٧﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ**

التفسير : ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾ أي بادروا إلى ما يوجب المغفرة بطاعة الله وامثال أوامره ﴿وجنة عرضها السموات والأرض﴾ أي إلى الجنة واسعة عرضها كعرض السماء والأرض كما قال في سورة الحديد « عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ والغرض بيان سعته فإذا كان هذا عرضها فما ظنك بطولها ؟ ﴿أعدت للمتقين﴾ أي هيئت للمتقين لله ﴿الذين ينفقون في السراء والضرأ﴾ أي يبذلون أموالهم في اليسر والعسر ، وفي الشدة والرخاء ﴿والكاظمين الغيظ﴾ أي يمسكون غيظهم مع قدرتهم على الانتقام ﴿والعافين عن الناس﴾ أي يعفون عن أساء إليهم أو ظلمهم ﴿والله يحب المحسنين﴾ أي يحب المتصفين بتلك الأوصاف الجليلة وغيرها ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ أي ارتكبوا ذنباً

وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكَ سُنَنٌ فَيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ
 الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوَاهُ بَيْنَ النَّاسِ
 وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَخَذَ مِنْكَ شُهَدَاءُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ

قبيحاً كالكبائر^(١) ﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ بإتيان أي ذنب ﴿ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ أي تذكروا
 عظمة الله ووعيده لمن عصاه فأقلعوا عن الذنب وتابوا وأنابوا ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ استفهام
 بمعنى النفي أي لا يغفر الذنوب إلا الله وهي جملة اعتراضية لتطيب نفوس العباد وتنشيطهم للتوبة
 وليبان أن الذنوب - وإن جلَّت - فإن عفوه تعالى أجل ورحمته أوسع ﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم
 يعلمون﴾ أي لم يقيموا على قبيح فعلهم وهم عالمون بقبحه بل يقلعون ويتوبون ﴿وأولئك جزاؤهم مغفرة
 من ربهم﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات الحميدة جزاؤهم وثوابهم العفو عما سلف من الذنوب ﴿وجنات
 تجري من تحتها الأنهار﴾ أي ولهم جنات تجري خلال أشجارها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها
 أبداً ﴿ونعم أجر العاملين﴾ أي نعمت الجنة جزاءً لمن أطاع الله ، ثم ذكر تعالى تنمة تفصيل غزوة أحد
 بعد تمهيد مبادئ الرشد والصلاح فقال ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ أي قد مضت سنة الله في الأمم
 الماضية بالهلاك والاستئصال بسبب مخالفتهم الأنبياء ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة
 المكذبين﴾ أي تعرفوا أخبار المكذبين وما نزل بهم لتتعظوا بما ترون من آثار هلاكهم ﴿هذا بيان للناس﴾
 أي هذا القرآن^(٢) فيه بيانٌ شاف للناس عامة ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ أي وهداية لطريق الرشاد
 وموعظة وذكرى للمتقين خاصة، وإنما خص المتقين بالذكر لأنهم هم المنتفعون به دون سائر الناس ، ثم أخذ
 يسليهم عما أصابهم من الهزيمة في وقعة أحد فقال ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ أي لا تضعفوا عن الجهاد ولا
 تحزنوا على ما أصابكم من قتلٍ أو هزيمة ﴿وأنتم الأعلون﴾ أي وأنتم الغالبون لهم المتفوقون عليهم فإن
 كانوا قد أصابوكم يوم أحد فقد أبلتكم فيهم يوم بدر ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم حقاً مؤمنين فلا تهنوا
 ولا تحزنوا ﴿إن يمسسكم قرحٌ فقد مسَّ القوم قرح مثله﴾ أي إن أصابكم قتلٌ أو جراح فقد أصاب
 المشركين مثل ما أصابكم ﴿وتلك الأيام نداؤها بين الناس﴾ أي الأيام دول، يوم لك ويوم عليك ، ويوم
 تُساء ويوم تُسر ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ أي فعل ذلك ليتمتحنكم فيرى من يصبر عند الشدائد

(١) قال ابن عباس : الفاحشة الزنا وظلم النفس ما دونه من النظر واللمسة .

(٢) اختار الطبري وبعض المفسرين أن تكون الإشارة راجعة إلى ما تقدم ذكره والمعنى : هذا الذي أوضحت لكم وعرفتكم به من أخبار هلاك

الأمم السابقة فيه بيان للناس من العمى وهدى من الضلالة وموعظة للمتقين .

الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾
 وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ
 مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْبَغُ أَنْ يُرْسِلَ اللَّهُ رَسُولًا يَضُرُّهُ شَيْعًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ
 الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُؤَجَّلَاتٍ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ

ويميز بين المؤمنين والمنافقين ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ أي وليكرم بعضكم بنعمة الشهادة في سبيل الله
 ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ أي لا يحب المعتدين ومنهم المنافقون الذين انخدلوا عن نبيه يوم أحد
 ﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾ أي ينقيهم ويطهرهم من الذنوب ويميزهم عن المنافقين ﴿ويمحق
 الكافرين﴾ أي يهلكهم شيئاً فشيئاً ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ استفهام على سبيل الإنكار أي هل
 تظنون يا معشر المؤمنين أن تنالوا الجنة بدون ابتلاء وتمحيص؟ ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم
 ويعلم الصابرين﴾ أي ولما تجاهدوا في سبيله فيعلم الله جهادكم وصبركم على الشدائد؟ قال الطبري
 المعنى : أظننتم يا معشر أصحاب محمد أن تنالوا كرامة ربكم ولما يتبين لعبادي المؤمنين المجاهدون منكم في
 سبيل الله والصابرون عند البأس على ما ينالهم في ذات الله من ألم ومكروه^(١) ! ﴿ولقد كنتم تمنون
 الموت﴾ أي كنتم تمنون لقاء الأعداء لتحظوا بالشهادة ﴿من قبل أن تلقوه﴾ أي من قبل أن تذوقوا
 شدته ، والآية عتاب في حق من انهزم ﴿فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ أي رأيتموه بأعينكم حين قتل من
 إخوانكم وشارفتم أن تقتلوا ، ونزل لما أشاع الكافرون أن محمداً قد قتل وقال المنافقون : إن كان قد قتل
 فتعالوا نرجع إلى ديننا الأول ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ أي ليس محمد إلا رسول
 مضت قبله رسل ، والرسل منهم من مات ومنهم من قُتل ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ أفإن
 أماته الله أو قتله الكفار ارتددتم كفاراً بعد إيمانكم؟ ﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً﴾ أي
 ومن يرتد عن دينه فلا يضر الله ، وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب ﴿وسيجزي الله
 الشاكرين﴾ أي يثيب الله المطيعين وهم الذين ثبتوا ولم ينقلبوا ، ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل نفس أجلاً
 لا يتقدم ولا يتأخر فقال ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ أي بإرادته ومشئته ﴿كتاباً مؤجلاً﴾ أي
 كتب لكل نفس أجلاً كتاباً مؤقتاً بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ، والغرض تحريضهم على الجهاد
 وترغيبهم في لقاء العدو ، فالجنُّ لا يزيد في الحياة ، والشجاعة لا تنقص منها ، والحذر لا يدفع القدر
 والإنسان لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك ﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها﴾
 أي من أراد بعمله أجر الدنيا أعطيناها منها وليس له في الآخرة من نصيب ، وهو تعريض بالذين رغبوا في
 الغنائم ، فبين تعالى أن حصول الدنيا للإنسان ليس بموضع غبطة لأنها مبدولة للبر والفاجر ﴿ومن يرد

ثَوَابِ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

ثواب الآخرة نؤتيه منها أي ومن أراد بعمله أجر الآخرة أعطيناها الأجر كاملاً مع ما قسمنا له من الدنيا كقوله ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه﴾ ﴿وسنجزي الشاكرين﴾ أي سنعطيه من فضلنا ورحمتنا بحسب شكرهم وعملهم ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير﴾ أي كم من الأنبياء قاتل لإعلاء كلمة الله وقاتل معه علماء ربانيون^(١) وعباد صالحون قاتلوا فقتل منهم من قتل ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله﴾ أي ما جنبوا ولا ضعفت هممهم لما أصابهم من القتل والجراح ﴿وما ضعفوا﴾ عن الجهاد ﴿وما استكانوا﴾ أي ما ذلوا ولا خضعوا لعدوهم ﴿والله يحب الصابرين﴾ أي يحب الصابرين على مقاساة الشدائد والأهوال في سبيل الله ﴿وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا﴾ أي ما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين إلا طلب المغفرة من الله ﴿وإسرافنا في أمرنا﴾ أي وتفريطنا وتقصيرنا في واجب طاعتك وعبادتك ﴿وثبت أقدامنا﴾ أي ثبتنا في مواطن الحرب ﴿وانصرونا على القوم الكافرين﴾ أي انصرونا على الكفار ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾ أي جمع الله لهم بين جزاء الدنيا بالغنيمة والعز والظفر والتمكين لهم بالبلاد وبين جزاء الآخرة بالجنة ونعيمها ﴿والله يحب المحسنين﴾ أي يجب من أحسن عمله وأخلص نيته ، وخص ثواب الآخرة بالحسن إشعاراً بفضله وأنه المعتد به عند الله .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - ﴿عرضها السموات والأرض﴾ أي كعرض السموات والأرض حذف أداة التشبيه ووجه الشبه يسمى هذا « التشبيه البليغ » .

٢ - ﴿سارعوا إلى مغفرة﴾ من باب تسمية الشيء باسم سببه أي إلى موجبات المغفرة .

٣ - ﴿السراء والضراء﴾ فيه الطباق وهو من المحسنات البديعية .

٤ - ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ استفهام يقصد منه النفي أي لا يغفر .

٥ - ﴿أولئك جزاؤهم مغفرة﴾ الإشارة بالبعيد للإشعار ببعده منزلتهم وعلو طبقتهم في الفضل .

(١) ذهب الطبري إلى أن معنى ﴿ربيون كثير﴾ أي جموع كثيرة وهذا قول قتادة وعن الحسن أن المراد علماء كثيرون .

- ٦ - ﴿ونعم أجر العاملين﴾ المخصوص بالمدح محذوف أي ونعم أجر العاملين ذلك .
- ٧ - ﴿وليعلم الله﴾ هو من باب الالتفات لأنه جاء بعد لفظ ﴿نداؤها﴾ فهو التفات من الحاضر إلى الغيبة ، والسرُّ في هذا الالتفات تعظيم شأن الجهاد في سبيل الله .
- ٨ - ﴿وما محمد إلا رسول﴾ قصر موصوف على صفة .
- ٩ - ﴿انقلبتم على أعقابكم﴾ قال في تلخيص البيان : هذه استعارة والمراد بها الرجوع عن دينه ، فشبه سبحانه الرجوع في الإرتياب بالرجوع على الأعقاب^(١) .
- الفوائد :** الأولى : في هذه الآيات الكريمة ﴿وسارعوا إلى مغفرة﴾ أمهات مكارم الأخلاق من البذل وكظم الغيظ والعفو عن المسيئين والتوبة من الذنوب ، وكلُّ منها مصدر لفضائل لا تدخل تحت الحصر .
- الثانية : قدم المغفرة على الجنة لأن التخلية مقدمة على التحلية فلا يستحق دخول الجنة من لم يتطهر من الذنوب والآثام .

- الثالثة : تخصيص العرض بالذكر للمبالغة في وصف الجنة بالسعة والبسطة فإذا كان هذا عرضها فكيف يكون طولها ؟ قال ابن عباس : كسبع سماوات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض^(٢) .
- الرابعة : كتب هرقل إلى النبي ﷺ إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال عليه السلام : (سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار)^(٣) .

الخامسة : أمر تعالى بالمسارعة إلى عمل الآخرة في آيات عديدة ﴿وسارعوا إلى مغفرة﴾ و﴿سابقوا إلى مغفرة﴾ و﴿فاستبقوا الخيرات﴾ و﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ و﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ وأما لعمل الدنيا فأمر بالهوينى ﴿فامشوا في مناكبها﴾ و﴿آخرون يضربون في الأرض﴾ فتدبر السرّ الدقيق .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا . . إلى . . أو قتلتم لإي الله تحشرون﴾

من آية (١٤٩) إلى نهاية آية (١٥٨)

المناسكة : لا تزال الآيات الكريمة تتناول سرد أحداث غزوة أحد وما فيها من العظات والعبر ، فهي تتحدث عن أسباب الهزيمة وموقف المنافقين الفاضح في تلك الغزوة ، وتأمّرهم على الدعوة الإسلامية بتشبيط عزائم المؤمنين .

اللغز : ﴿سلطاناً﴾ حجة وبرهاناً وأصله القوة ومنه قيل للوالي سلطان ﴿مثنوى﴾ المثنوى :

(١) تلخيص البيان ص ٢١ . (٢) البحر المحيط ٥٨/٣ . (٣) أخرجه أحمد .

المكان الذي يكون مقر الإنسان ومأواه من قولهم ثوى بالمكان إذا أقام فيه ﴿تحسونهم﴾ تقتلونهم قال الزجاج : الحسُّ الإِسْتِصَالُ بالقتل وأصله الضرب على مكان الحس قال الشاعر :

حسناهم بالسيف حساً فأصبحت
بقيتهم قد شردوا وتبددوا

﴿تُصْعَدُونَ﴾ الإِصْعَادُ : الذهاب والإيعاد في الأرض ، والفرق بينه وبين الصعود أن الإِصْعَادَ يكون في مستوى من الأرض ، والصعود يكون في ارتفاع ﴿لا تلون﴾ أي لا تلتفتون إلى أحد كما يفعل المنهزم وأصله من لى العنق للإلتفات ﴿أخراكم﴾ أخركم ﴿أثابكم﴾ جازاكم ﴿أمنة﴾ أمناً واطمئناناً ﴿يغشى﴾ يستر ويغطي ﴿وليمحص﴾ التمحيص : التنقية وتخليص الشيء مما فيه من عيب ﴿استزهم﴾ أوقعهم في الزلّة وهي الخطيئة ﴿غزى﴾ جمع غازٍ وهو الخارج في سبيل الله .

سَبَبُ النَّزُولِ : لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أُحد ، قال ناس من أصحابه : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله ﴿ولقد صدقكم الله وعده . . . إلى قوله منكم من يريد الدنيا﴾ يعني الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أُحد^(١) .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٦﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٤٧﴾ سَنَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ

النَّفْسِيرُ : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا﴾ أي إن أطعتم الكفار والمنافقين فيما يأمرونكم به ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ أي يردوكم إلى الكفر ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ أي ترجعوا إلى الخسران ، ولا خسران أعظم من أن تبدلوا الكفر بالإيمان قال ابن عباس : هم المنافقون قالوا للمؤمنين لما رجعوا من أحد لو كان نبياً ما أصابه الذي أصابه فارجعوا إلى إخوانكم ﴿بل الله مولاكم﴾ بل للإضراب أي ليسوا أنصاراً لكم حتى تطيعوهم بل الله ناصركم فأطيعوا أمره ﴿وهو خير الناصرين﴾ أي هو سبحانه خير ناصر وخير معين فلا تستنصروا بغيره ، ثم بشر تعالى المؤمنين باللقاء الرعب في قلوب أعدائهم فقال ﴿سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ أي سنقذف في قلوبهم الخوف والفرع ﴿بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم معه آلهة أخرى من غير حجة ولا برهان ﴿ومأواهم النار﴾ أي مستقرهم النار ﴿وبئس مَثْوَى الظالمين﴾ أي بئس مقام الظالمين نار جهنم ، فهم في الدنيا مرعوبون وفي الآخرة معذبون وفي الحديث (نصرت بالرعب مسيرة شهر) ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ أي وفي الله لكم ما وعدكم به من النصر على عدوكم ﴿إذ تحسونهم بإذنه﴾ أي

وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفْنَا عَنْهُمْ لِبَتْلِيكُمْ
وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٦﴾ * إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلُونَنَّ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ
فِي آخِرِكُمْ فَأَتْبِكُمْ غَمًّا بَغْمٍ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٧﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ
عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَاعَسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ
تَقْتُلُونَهُمْ قَتْلًا ذُرِيعًا وَتَحْصِدُونَهُمْ بَسِيفِكُمْ بِإِزَاةِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ ﴿١٥٨﴾ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴿١٥٩﴾ أَي
حَتَّى إِذَا جَبِيتُمْ وَوَضَعْتُمْ وَاخْتَلَفْتُمْ فِي أَمْرِ الْمَقَامِ فِي الْجَبَلِ ﴿١٦٠﴾ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴿١٦١﴾ أَي عَصَيْتُمْ أَمْرَ
الرَّسُولِ ﷺ بَعْدَ أَنْ كَانَ النَّصْرَ حَلِيفِكُمْ ، رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَضَعَ خَمْسِينَ مِنَ الرَّمَاةِ فَوْقَ الْجَبَلِ وَأَمْرَهُمْ أَنْ
يُدْفَعُوا عَنِ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ لَهُمْ : لَا تَبْرَحُوا أَمَاكِنَكُمْ حَتَّى وَلَوْ رَأَيْتُمُونَا تَخَطَّفْتَنَا الطَّيْرَ ، فَلَمَّا التَقَى
الْجَيْشَانِ لَمْ تَقْوِ خَيْلَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الثَّبَاتِ بِسَبَبِ السَّهَامِ الَّتِي أَخَذْتَهُمْ فِي جَوْهَهُمْ مِنَ الرَّمَاةِ فَانْهَزَمَ
الْمُشْرِكُونَ ، فَلَمَّا رَأَى الرَّمَاةَ ذَلِكَ قَالُوا : الْغَنِيمَةُ الْغَنِيمَةُ وَنَزَلُوا لَجْمَعَ الْأَسْلَابِ ، وَثَبَتَ رِثْسُهُمْ وَمَعَهُ
عَشْرَةٌ فَجَاءَهُمُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ خَلْفِ الْجَبَلِ فَقَتَلُوا الْبَقِيَّةَ مِنَ الرَّمَاةِ وَنَزَلُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِسِيفِهِمْ مِنْ خَلْفِ
ظُهُورِهِمْ فَانْقَلَبَ النَّصْرُ إِلَى هَزِيمَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿١٦٢﴾ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴿١٦٣﴾ أَي مِنْ بَعْدِ
النَّصْرِ ﴿١٦٤﴾ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ﴿١٦٥﴾ أَي الْغَنِيمَةُ وَهُمْ الَّذِينَ تَرَكُوا الْجَبَلَ ﴿١٦٦﴾ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴿١٦٧﴾ أَي
ثَوَابَ اللَّهِ وَهُمْ الْعَشْرَةُ الَّذِينَ ثَبَتُوا فِي مَرْكَزِهِمْ مَعَ أَمِيرِهِمْ «عَبْدَ اللَّهِ بْنِ جَبْرِ» ثُمَّ اسْتَشْهَدُوا ﴿١٦٨﴾ ثُمَّ
صَرَفْنَا عَنْهُمْ لِبَتْلِيكُمْ ﴿١٦٩﴾ أَي رَدَّكُمْ بِالْهَزِيمَةِ عَنِ الْكُفَّارِ لِيَمْتَحِنَ إِيمَانَكُمْ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ﴿١٧١﴾ أَي صَفَحَ
عَنْكُمْ مَعَ الْعَصِيانِ ، وَفِيهِ إِعْلَامٌ بِأَنَّ الذَّنْبَ كَانَ يَسْتَحِقُّ أَكْثَرَ مِمَّا نَزَلَ بِهِمْ لَوْلَا عَفْوُ اللَّهِ عَنْهُمْ وَهَذَا
قَالَ ﴿١٧٢﴾ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٣﴾ أَي ذُو مَنٍّ وَنِعْمَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ وَالْأَحْوَالِ ﴿١٧٤﴾ إِذْ تَصْعَدُونَ
وَلَا تَلُونَنَّ عَلَى أَحَدٍ ﴿١٧٥﴾ أَي اذْكُرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ وَلِيَتِمَّ الْأَدْبَارُ تَبْعُدُونَ فِي الْفِرَارِ وَلَا تَلْتَفِتُونَ إِلَى مَا
وَرَاءَكُمْ وَلَا يَقِفْ وَاحِدٌ مِنْكُمْ لِآخِرِ ﴿١٧٦﴾ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي آخِرِكُمْ ﴿١٧٧﴾ أَي وَمُحَمَّدٌ ﷺ يَنَادِيكُمْ مِنْ وَرَاءِكُمْ
يَقُولُ (إِلَى عِبَادِ اللَّهِ، إِلَى عِبَادِ اللَّهِ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ، مَنْ يَكْرَهُ فَلَهُ الْجَنَّةُ) وَأَنْتُمْ تَمْعِنُونَ فِي الْفِرَارِ ﴿١٧٨﴾ فَأَتَابَكُمْ
غَمًّا بَغْمٍ ﴿١٧٩﴾ أَي جَازَاكُمْ عَلَى صَنِيعِكُمْ غَمًّا بِسَبَبِ غَمِّكُمْ لِلرَّسُولِ ﷺ وَمَخَالَفَتِكُمْ أَمْرَهُ ﴿١٨٠﴾ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى
مَا فَاتَكُمْ ﴿١٨١﴾ أَي لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴿١٨٣﴾ أَي مِنَ الْهَزِيمَةِ ، وَالْغَرَضُ بَيَانُ
الْحِكْمَةِ مِنَ الْغَمِّ ، وَهُوَ أَنْ يَنْسِيَهُمُ الْحُزْنَ عَلَى مَا فَاتَهُمْ وَمَا أَصَابَهُمْ وَذَلِكَ مِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَى بِهِمْ ﴿١٨٤﴾ وَاللَّهُ
خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٥﴾ أَي يَعْلَمُ الْمَخْلُصَ مِنْ غَيْرِهِ ﴿١٨٦﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَاعَسًا ﴿١٨٧﴾ وَهَذَا امْتِنَانٌ
مِنْ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَي ثُمَّ أَرْسَلَ عَلَيْكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْغَمِّ الشَّدِيدِ النَّعَاسَ لِلسَّكِينَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ وَلِتَأْمَنُوا عَلَى
أَنْفُسِكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ فَالْخَائِفُ لَا يَنَامُ ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَالَ : « غَشِينَا النَّعَاسُ وَنَحْنُ

(١) ذهب الطبري الى أن الباء بمعنى على والمعنى : فجازاكم على معصيتكم ومخالفتكم أمر الرسول غمًّا على غم ، كقوله ﴿وَأَصْلِبْنَكُمْ فِي
جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ أَي عَلَى جُدُوعِ النَّخْلِ ، وَقَدْ رَجَعَ هَذَا الْقَوْلُ ابْنَ الْقَيْمِ وَعَاطَمَهُ ابْنُ كَثِيرٍ .

الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ
لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ
وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ
التَّقِي الْجَمْعَانَ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَا أَيُّهَا

في مصافنا يوم أحد ، قال فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه ، ويسقط وأخذه ، ثم ذكر سبحانه أن تلك الأمانة لم تكن عامة بل كانت لأهل الإخلاص ، وبقي أهل النفاق في خوف وفزع فقال ﴿ يغشى طائفة منكم ﴾ أي يغشى النوم فريقاً منكم وهم المؤمنون المخلصون ﴿ وطائفة قد أهتمهم أنفسهم ﴾ أي وجماعة أخرى حملتهم أنفسهم على الهزيمة فلارغبة لهم إلا نجاتها وهم المنافقون ، وكان السبب في ذلك تواعد المشركين بالرجوع إلى القتال ، فقعد المؤمنون متهيئين للحرب فأنزل الله عليهم الأمانة فناموا ، وأما المنافقون الذين أزعجهم الخوف بأن يرجع الكفار عليهم فقد طار النوم من أعينهم من الفزع والجزع ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ أي يظنون بالله الظنون السيئة مثل ظن أهل الجاهلية ، قال ابن كثير : وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة ، وأن الإسلام قد باد وأمله ، وهذا شأن أهل الريب والشك ، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة ، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة ^(١) ﴿ يقولون هل لنا من الأمر من شيء ﴾ أي ليس لنا من الأمر شيء ، ولو كان لنا اختيار ما خرجنا لقتال ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المنافقين الأمر كله بيد الله يصرّفه كيف شاء ﴿ يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ﴾ أي يبطنون في أنفسهم ما لا يظهرون لك ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ أي لو كان الاختيار لنا لم نخرج فلم نُقتل ولكن أكرهنا على الخروج ، وهذا تفسير لما يبطنونه قال الزبير : أرسل علينا النوم ذلك اليوم وإني لأسمع قول « معتب بن قشير » والنعاس يغشاني يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ^(٢) ﴿ قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ أي قل لهم يا محمد لو لم تخرجوا من بيوتكم وفيكم من قدر الله عليه القتل لخرج أولئك إلى مصارعهم ، فقدر الله لا مناص منه ولا مفر ﴿ وليبتلي الله ما في صدوركم ﴾ أي ليختبر ما في قلوبكم من الإخلاص والنفاق ﴿ وليمحّص ما في قلوبكم ﴾ أي ولينقي ما في قلوبكم ويظهره فعل بكم ذلك ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ أي عالم بالسرائر مطلع على الضمائر وما فيها خير أو شر ، ثم ذكر سبحانه الذين انهزموا يوم أحد فقال ﴿ إن الذين تولوا منكم ﴾ أي انهزموا منكم من المعركة ﴿ يوم التقى الجمعان ﴾ أي جمع المسلمين وجمع المشركين ﴿ إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ﴾ أي إنما أزلهم الشيطان بوسوسته وأوقعهم في الخطيئة ببعض ما عملوا من الذنوب وهو مخالفة أمر الرسول ﷺ ﴿ ولقد عفا الله

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٣٠ . (٢) تفسير القرطبي ٤/ ٢٤٢ .

الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا
وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ أَوْ مُتْتُمْ لِمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

عنهم ﴿ أي تجاوز عن عقوبتهم وصفح عنهم ﴾ ﴿ إن الله غفور حلیم ﴾ أي واسع المغفرة حلیم لا يعجل العقوبة لمن عصاه ، ثم نهى سبحانه عن الاقتداء بالمنافقين في أقوالهم وأفعالهم فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ﴾ أي لا تكونوا كالمنافقين ﴿ وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض ﴾ أي وقالوا لإخوانهم من أهل النفاق إذا خرجوا في الأسفار والحروب ﴿ أو كانوا غزى ﴾ أو خرجوا غازين في سبيل الله ﴿ لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ﴾ أي لو أقاموا عندنا ولم يخرجوا لما ماتوا ولا قتلوا ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ﴾ أي قالوا ذلك ليصير ذلك الاعتقاد الفاسد حسرة في نفوسهم ﴿ والله يحيي ويميت ﴾ رد على قولهم واعتقادهم أي هو سبحانه المحيي المميت فلا يمنع الموت قعود ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ أي مطلع على أعمال العباد فيجازيهم عليها ﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله ﴾ أي استشهدتم في الحرب والجهاد ﴿ أو متم ﴾ أي جاءكم الموت وأنتم قاصدون قتالهم ﴿ لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ﴾ أي ذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني ﴿ ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾ أي وسواء متم على فراشكم أو قتلتم في ساحة الحرب فإن مرجعكم إلى الله فيجازيكم بأعمالكم ، فأثروا ما يقربكم إلى الله ويوجب لكم رضاه من الجهاد في سبيل الله والعمل بطاعته ، ولله در القائل حيث يقول :

فإن تكن الأبدان للموت أنشت فقتل امرئ بالسيف في الله أفضل

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿ يردوكم على أعقابكم ﴾ أي يرجعوكم من الإيمان إلى الكفر وهو من باب الاستعارة وقد تقدم .

٢ - بين لفظ ﴿ آمنوا ﴾ و﴿ كفروا ﴾ في الآية طباق وكذلك بين ﴿ يخفون ﴾ و﴿ يبدون ﴾ وبين ﴿ فاتكم ﴾ و﴿ أصابكم ﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٣ - ﴿ وبش مثوى الظالمين ﴾ لم يقل وبش مثواهم بل وضع الظاهر مكان الضمير للتغليظ وللإشعار بأنهم ظالمون لوضعهم الشيء في غير موضعه والمخصوص بالذم محذوف أي بش مثوى الظالمين النار أفاده أبو السعود^(١) .

٤ - ﴿ ذو فضل على المؤمنين ﴾ التنكير للتفخيم وقوله ﴿ على المؤمنين ﴾ دون عليهم فيه الإظهار في موضع الإضمار للتشريف والإشعار بعلّة الحكم .

(١) أبو السعود ٢٨٢/١ .

٥ - ﴿يظنون بالله ظنً﴾ بينهما جناس الاشتقاق وكذلك في ﴿فتوكل . . والمتوكلين﴾ .

٦ - ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ فيه استعارة تشبيهاً للمسافر في البر بالساحب الضارب في البحر . لأنه يضرب بأطرافه في غمرة الماء شقاً لها واستعانة على قطعها كذا في تلخيص البيان^(١)

فكائِدَة : من الذين ثبتوا في المعركة بأحد الأسد المقدام « أنس بن النضر » عم أنس بن مالك ، فلما هزم المسلمون وأشاع المنافقون أن محمداً ﷺ قد قتل قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم بسيفه فلقبه « سعد بن معاذ » فقال : أين يا سعد ؟ والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد ، فمضى فقتل ومثل به المشركون فلم يعرفه أحد إلا أخته عرفته من بنانه ورؤي وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم^(٢) .

فكائِدَة : روى ابن كثير عن ابن مسعود قال : إن النساء كنَّ يوم أحد خلف المسلمين يُجهزن على جرحى المشركين ، فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبرّ أنه ليس أحد منا يريد الدنيا حتى أنزل الله ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ وعصوا ما أمروا به أفرد النبي ﷺ في تسعة وهو عاشرهم فلما أرهقوه قال : رحم الله رجلاً ردّهم عنا فلم يزل يقول ذلك حتى قتل سبعة منهم ، فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطيع أن تأكلها ، وحزن عليه رسول الله ﷺ حزناً شديداً ، وصلى عليه يومئذ سبعين صلاة .

قال الله تعالى : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم . . إلى . . عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾

من آية (١٥٩) إلى نهاية آية (١٦٨)

المناسِبة : لا تزال الآيات تتحدث عن غزوة أحد ، فقد ذكر تعالى فيما سبق انهزام المسلمين وما أصيبوا به من غم واضطراب ، وأرشدهم إلى موطن الداء ووصف لهم الدواء ، وفي هذه الآيات الكريمة اشادة بالقيادة الحكيمة ، فمع مخالفة بعض الصحابة لأوامر الرسول ﷺ فقد وسعهم عليه السلام بخلقه الكريم وقلبه الرحيم ، ولم يخاطبهم بالغلظة والشدة وإنما خاطبهم باللطف واللين ، ولذلك اجتمعت القلوب حول دعوته ، وتوحدت تحت قيادته ، والآيات تتحدث عن أخلاق النبوة ، وعن المنّة العظمى ببعثة الرسول الرحيم والقائد الحكيم وعن بقية الأحداث الهامة في تلك الغزوة .

اللغز : ﴿فظاً﴾ الغليظ الجافي قال الواحدي هو الغليظ سيء الخلق قال الشاعر :

أخشى فظاظه عمٌّ أو جفاء أخٍ
وكنتُ أخشى عليها من أذى الكلم
﴿غليظ القلب﴾ هو الذي لا يتأثر قلبه ولا يرقّ ومن ذلك قول الشاعر :

يُكّي علينا ولا نبكي على أحدٍ؟
لنحن أغلظُ أكباداً من الإيل^(٣)

﴿ انفضوا ﴾ تفرقوا وأصل الفض الكسر ومنه قوهم : لا يفضض الله فاك ﴿ يغل ﴾ الغلول : الخيانة وأصله أخذ الشيء في الخفية يقال : غل فلان في الغنيمة أي أخذ شيئاً منها في خفية ﴿ باء ﴾ رجع ﴿ سخط ﴾ السخط : الغضب الشديد ﴿ مأواه ﴾ منزله ومثواه ﴿ يزكيهم ﴾ يطهرهم ﴿ من ﴾ المنة : الإنعام والإحسان ﴿ فادعوا ﴾ الدرع : الدفع ومنه ﴿ ويدراً عنها العذاب ﴾ .

سَبَبُ النُّزُولِ : فقدت قطيفة حمراء يوم بدر من المغنم فقال بعض الناس لعل النبي ﷺ أخذها فأنزل الله ﴿ وما كان لنبي أن يغل ﴾ (١) الآية .

فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٦﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٥٧﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٥٨﴾ أَقْرَبَ أَتْبَعِ

التفسير : ﴿ فيما رحمة من الله لنت لهم ﴾ أي فسبب رحمة من الله أودعها الله في قلبك يا محمد كنت هيناً لئن الجانب مع أصحابك مع أنهم خالفوا أمرك وعصوك ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ أي لو كنت جافي الطبع قاسي القلب ، تعاملهم بالغلظة والجفا ، لتفرقوا عنك ونفروا منك ، ولما كانت الفظاظ في الكلام نفى الجفاء عن لسانه والقسوة عن قلبه ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾ أي فتجاوز عما نالك من أذاهم يا محمد ، واطلب لهم من الله المغفرة ، وشاورهم في جميع أمورك ليقتردي بك الناس قال الحسن « ما شاور قوم قط إلا هُدوا لأرشد أمورهم » (٢) وكان عليه السلام كثير المشاورة لأصحابه ﴿ فإذا عزم فتوكل على الله ﴾ أي إذا عقدت قلبك على أمر بعد الاستشارة فاعتمد على الله وفوض أمرك إليه ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ أي يحب المعتمدين عليه ، المفوضين أمورهم إليه ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ أي إن أراد الله نصركم فلا يمكن لأحد أن يغلبكم ﴿ وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ﴾ أي وإن أراد خذلانكم وترك معونتكم فلا ناصر لكم ، فمهما وقع لكم من النصر كيوم بدر أو من الخذلان كيوم أحد بمشيئته سبحانه فالأمر كله لله ، بيده العزة والنصرة والإذلال والخذلان ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي وعلى الله وحده فليلجأ وليعتمد المؤمنون ﴿ وما كان لنبي أن يغل ﴾ أي ما صح ولا استقام شرعاً ولا عقلاً لنبي من الأنبياء أن يخون في الغنيمة ، والنفي هنا نفى للشأن وهو أبلغ من نفى الفعل لأن المراد أنه لا يتأتى ولا يصح أن يتصور فضلاً عن أن يحصل ويقع ﴿ ومن يغل يأت بما غل يوم القيامة ﴾ أي ومن يخن من غنائم المسلمين شيئاً يأت حاملاً له على عنقه يوم القيامة فضيحة له على رءوس الأشهاد ﴿ ثم توفى كل نفس ما كسبت ﴾ أي تعطى جزاء ما عملت وافية غير منقوص

رَضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَهُ جَهَنَّمَ ۚ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٦٦﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٧﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ۚ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٨﴾ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٠﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا ﴿١٧١﴾ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٧٢﴾ أَي تَنَال جَزَاءَهَا الْعَادِلَ دُونَ زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصٍ ، فَلَا يَزَادُ فِي عِقَابِ الْعَاصِي ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ ثَوَابِ الْمُطِيعِ ﴿١٧٣﴾ أَفَمَن اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ ﴿١٧٤﴾ أَي لَا يَسْتَوِي مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَطَلَبَ رِضْوَانَهُ ، وَمَنْ عَصَى اللَّهَ فَاسْتَحَقَّ سَخَطَهُ وَبَاءَ بِالْخُسْرَانِ ﴿١٧٥﴾ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرَ ﴿١٧٦﴾ أَي مَصِيرَهُ وَمَرْجَعَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ النَّارُ مَسْتَقَرًّا لَهُ ﴿١٧٧﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴿١٧٨﴾ أَي مُتَفَاوِتُونَ فِي الْمَنَازِلِ قَالَ الطَّبْرِيُّ : هُمْ مُخْتَلِفُوا الْمَنَازِلَ عِنْدَ اللَّهِ ، فَلَمَن اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ الْكِرَامَةَ وَالثَّوَابَ الْجَزِيلَ ، وَلَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ الْمَهَانَةَ وَالْعِقَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧٩﴾ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ أَي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَعْمَالُ الْعِبَادِ وَسَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهَا ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْمَنَّةِ الْعَظْمَى عَلَيْهِمْ بِيَعْتَهُ خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ ﴿١٨١﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴿١٨٢﴾ أَي وَاللَّهُ لَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حِينَ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا عَرَبِيًّا مِّنْ جَنْسِهِمْ ، عَرَفُوا أَمْرَهُ وَخَبَرُوا شَأْنَهُ ، وَخَصَّ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالذِّكْرِ وَإِن كَانَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُتَنَفِعُونَ بِبِعْتَتِهِ ﴿١٨٣﴾ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴿١٨٤﴾ أَي يَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْوَحْيَ الْمُنزَلَ ﴿١٨٥﴾ وَيُزَكِّيهِمْ ﴿١٨٦﴾ أَي يَطْهَرُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ وَدَنَسِ الْأَعْمَالِ ﴿١٨٧﴾ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴿١٨٨﴾ أَي يُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ وَالسُّنَّةَ الْمُطَهَّرَةَ ﴿١٨٩﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٩٠﴾ أَي وَإِنَّهَ الْحَالُ وَالشَّأْنُ كَانُوا قَبْلَ بَعْتَتِهِ فِي ضَلَالٍ ظَاهِرٍ ، فَنَقَلُوا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَصَارُوا أَفْضَلَ الْأُمَّمِ ﴿١٩١﴾ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ ﴿١٩٢﴾ أَي أَوْ حِينَ أَصَابَتْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ كَارِثَةٌ يَوْمَ أُحُدٍ فَقَتَلْتُمْ مِنْكُمْ سَبْعُونَ ﴿١٩٣﴾ قَدْ أَصَابَتْكُمْ مِثْلَيْهَا ﴿١٩٤﴾ أَي فِي بَدْرٍ حَيْثُ قَتَلْتُمْ سَبْعِينَ وَأَسْرَتُمْ سَبْعِينَ ﴿١٩٥﴾ قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ﴿١٩٦﴾ ؟ أَي مِنْ أَيْنَ هَذَا الْبَلَاءُ ، وَمِنْ أَيْنَ جَاءَتْنا الْهَزِيمَةُ وَقَدْ وَعَدْنَا بِالنَّصْرِ ، وَمَوْضِعُ التَّقْرِيعِ قَوْلُهُمْ ﴿١٩٧﴾ أَنَّى هَذَا ﴿١٩٨﴾ ؟ مَعَ أَنَّهُمْ سَبَبُ النِّكْسَةِ وَالْهَزِيمَةِ ﴿١٩٩﴾ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ ﴿٢٠٠﴾ أَي قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ : إِن سَبَبَ الْمُصِيبَةِ مِنْكُمْ أَنْتُمْ بِمَعْصِيَتِكُمْ أَمْرَ الرَّسُولِ وَحِرْصِكُمْ عَلَى الْغَنِيمَةِ ﴿٢٠١﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠٢﴾ أَي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ ﴿٢٠٣﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهِ ﴿٢٠٤﴾ أَي وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ أُحُدٍ ، يَوْمَ التَّقَى جَمَعَ الْمُسْلِمِينَ وَجَمَعَ الْمُشْرِكِينَ فَبَقِضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ وَبَارَادَتِهِ الْأَزَلِيَّةِ وَتَقْدِيرِهِ الْحَكِيمِ ، لِيَتَمَيَّزَ الْمُؤْمِنُونَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ ﴿٢٠٥﴾ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠٦﴾ أَي لِيَعْلَمَ أَهْلَ الْإِيمَانِ الَّذِينَ صَبَرُوا وَثَبَّتُوا وَلَمْ يَتَزَلُّوا ﴿٢٠٧﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا ﴿٢٠٨﴾ أَي وَلِيَعْلَمَ أَهْلَ النِّفَاقِ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي

لَا تَبِعَنَّكُمُ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

ابن سلول وأصحابه الذين انخذلوا يوم أُحد عن رسول الله ﷺ ورجعوا وكانوا نحواً من ثلاثمائة رجل فقال لهم المؤمنون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا ﴿قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ أي قال المنافقون لو نعلم أنكم تلقون حرباً لقاتلنا معكم ، ولكن لا نظن أن يكون قتال ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ أي بإظهارهم هذا القول صاروا أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ أي يظهرن خلاف ما يضمرون ﴿والله أعلم بما يكتُمون﴾ أي بما يخفونه من النفاق والشرك ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا﴾ أي وليعلم الله أيضاً المنافقين الذين قالوا لإخوانهم الذين هم مثلهم وقد قعدوا عن القتال ﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾ أي لو أطاعنا المؤمنون وسمعوا نصيحتنا فرجعوا كما رجعنا ما قتلوا هنالك ﴿قل فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ أي قل يا محمد لأولئك المنافقين إن كان عدم الخروج ينجي من الموت فادفعوا الموت عن أنفسكم إن كنتم صادقين في دعاؤكم ، والغرض منه التوبيخ والتبكيك وأن الموت آتٍ إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿إن ينصركم . . وإن يخذلكم﴾ بينهما مقابلة وهي من المحسنات البديعية .

٢ - ﴿وعلى الله فليتوكل﴾ تقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر .

٣ - ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ أي ما صح ولا استقام والنفي هنا للشأن وهو أبلغ من نفي الفعل .

٤ - ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله﴾ قال أبو حيان: «هذا من الاستعارة البديعية جعل ما شرعه الله كالدليل الذي يتبعه من يهتدي به ، وجعل العاصي كالشخص الذي أمر بأن يتبع شيئاً فنكص عن اتباعه ورجع بدونه» (١) .

٥ - ﴿بسخط من الله﴾ التنكير للتحويل أي بسخط عظيم لا يكاد يوصف .

٦ - ﴿هم درجات﴾ على حذف مضاف أي ذوو درجات متفاوتة ، فالؤمن من درجته مرتفعة والكافر درجته متضعة (٢) .

٧ - ﴿للكفر . . وللإيمان﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿بيدون . . ويخفون﴾ .

٨ - ﴿أصابتكم مصيبة﴾ بينهما جناس الاشتقاق ، وهو من المحسنات البديعية .

تنبية : في هذه الآية ﴿فبها رحمة من الله لنت لهم﴾ دلالة على اختصاص نبيينا بمكارم الأخلاق ، ومن عجب أمره ﷺ أنه كان أجمع الناس لدواعي العظمة ثم كان أدناهم إلى التواضع ، فكان أشرف الناس نسباً وأوفرهم حسباً وأزكاهم عملاً وأسخاهم كراماً وأفصحهم بياناً وكلها من دواعي العظمة ، ثم كان من تواضعه عليه السلام أنه كان يرقع الثوب ويخصف النعل ويركب الحمار ويجلس على الأرض ويحجب دعوة العبد المملوك فصلوات الله وسلامه على السراج المنير بحر المكارم والفضائل .

فكائدة : التوكل على الله من أعلى المقامات لوجهين : أحدهما محبة الله للعبد ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ والثاني الضمان في كنف الرحمن ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾^(١) .

قال الله تعالى : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً . . إلى . . والله بما تعملون خبير﴾

من آية (١٦٩) إلى نهاية آية (١٨٠)

المناسبة : لا تزال الآيات الكريمة تتابع أحداث أحد ، وتكشف عن أسرار المنافقين ومواقفهم المخزية ، وتوضح الدروس والعبر من تلك الغزوة المجيدة .

اللغة : ﴿يستبشرون﴾ يفرحون وأصله من البشرة لأن الإنسان إذا فرح ظهر أثر السرور في وجهه قال ابن عطية : وليست استفعل في هذا الموضع بمعنى طلب البشارة وإنما هي بمعنى الفعل المجرد كقوله تعالى ﴿واستغنى الله﴾ ﴿الفرح﴾ بالفتح الجرح وبالضم ألم الجرح وقد تقدم ﴿حسبنا﴾ كافينا مأخوذ من الإحساب بمعنى الكفاية قال الشاعر :

فتملاً بيتنا أقطاً وسمناً وحسبك من غنى شيع وري

﴿حظاً﴾ الحظ : النصيب ويستعمل في الخير والشر وإذا لم يقيّد يكون للخير ﴿غلي﴾ الإملاء : التأخير والإمهال قال القرطبي : والمراد بالإملاء هنا طول العمر ورغد العيش^(٢) ﴿يُميز﴾ يُميز يقال : ماز وميز أي فصل الشيء من الشيء ومنه ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ ﴿يجتبي﴾ يختار ﴿سيطوقون﴾ من الطوق وهو القلادة أي يلزمون به لزوم الطوق في العنق .

سبب النزول : أ - عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ، ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظلّ العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق لثلاثا يزهّدوا في الجهاد ولا ينكّلوا عند الحرب فقال الله سبحانه : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾^(٣) الآية .

ب - عن جابر بن عبد الله قال : لقيني رسول الله ﷺ فقال يا جابر : ما لي أراك منكساً مهتماً ؟

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٢٢ . (٢) القرطبي ٤/٢٨٦ . (٣) أسباب النزول ص ٧٣ والقرطبي ٤/٢٦٨ .

قلت يا رسول الله : استشهد أبي وترك عيلاً وعليه دين فقال : ألا أبشرك بما لقي الله عز وجل به أباك ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحاً^(١) - وما كلم أحداً قط إلا من وراء حجاب - فقال له : يا عبد الله تمن أعطك قال يا رب : أسألك أن تردني الى الدنيا فأقتل فيك ثانية فقال الرب تبارك وتعالى : إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون ، قال يا رب : فأبلغ من وراثي فأنزل الله ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾^(٢).

وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٦﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦٧﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٨﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٦٩﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ

التفسير : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾ أي لا تظنن الذين استشهدوا في سبيل الله لإعلاء دينه أمواتاً لا يحسون ولا يتنعمون ﴿بل أحياء عند ربهم يُرزقون﴾ أي بل هم أحياء متنعمون في جنات الخلد يرزقون من نعيمها غدواً وعشياً قال الواحدي : الأصح في حياة الشهداء ما روي عن النبي ﷺ من أن أرواحهم في أجواف طيور خضر وأنهم يُرزقون ويأكلون ويتنعمون ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ أي هم منعمون في الجنة فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ أي يستبشرون بإخوانهم المجاهدين الذين لم يموتوا في الجهاد بما سيكونون عليه بعد الموت إن استشهدوا فهم لذلك فرحون مستبشرون ﴿ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي بأن لا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون على مفارقة الدنيا لأنهم في جنات النعيم ﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ أكد استبشارهم ليذكر ما تعلق به من النعمة والفضل والمعنى : يفرحون بما حباهم الله تعالى من عظيم كرامته وبما أسغ عليهم من الفضل وجزيل الثواب ، فالنعمة ما استحقوقه بطاعتهم ، والفضل ما زادهم من المضاعفة في الأجر ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾ أي الذين أطاعوا الله وأطاعوا الرسول من بعد ما نالهم الجراح يوم أحد قال ابن كثير : وهذا كان يوم «حمراء الأسد»^(٣) وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم ثم ندموا لم لا تموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ويريبهم أن بهم قوة وجلداً ، ولم يأذن لأحدٍ سوى من حضر أحداً فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والاثخان طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ^(٤) . ﴿للذين أحسنوا

(١) كفاحاً : أي مواجهة بدون حجاب ولا رسول . (٢) أخرجه ابن ماجه والترمذي كذا في القرطبي ٤ / ٢٦٨ .

(٣) حمراء الأسد مكان على بعد ثمانية أميال من المدينة المنورة . (٤) مختصر ابن كثير ١ / ٣٣٨ .

فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضِيلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ۗ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ ۗ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرًا لَّأَنْفُسِهِمْ ۗ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾

منهم واتقوا أجر عظيم ﴿١﴾ أي لمن أطاع منهم أمر الرسول وأجابه إلى الغزو - على ما به من جراح وشدائد - الأجر العظيم والثواب الجزيل ﴿٢﴾ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ﴿٣﴾ أي الذين أرجف لهم المرجفون من أنصار المشركين فقالوا لهم : إن قريشاً قد جمعت لكم جمعاً لا تحصى فخافوا على أنفسهم فما زادهم هذا التخويف إلا إيماناً ﴿٤﴾ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿٥﴾ أي قال المؤمنون الله كافينا وحافظنا ومتولي أمرنا ونعم الملجأ والنصير لمن توكل عليه جل وعلا ﴿٦﴾ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ﴿٧﴾ أي فرجعوا بنعمة السلامة وفضل الأجر والثواب ﴿٨﴾ لم يمسسهم سوء ﴿٩﴾ أي لم ينلهم مكروه أو أذى ﴿١٠﴾ واتبعوا رضوان الله ﴿١١﴾ أي نالوا رضوان الله الذي هو سبيل السعادة في الدارين ﴿١٢﴾ والله ذو فضل عظيم ﴿١٣﴾ أي ذو إحسان عظيم على العباد ﴿١٤﴾ إنما ذلکم الشیطان یخوف أولیاءه ﴿١٥﴾ أي إنما ذلکم القائل ﴿١٦﴾ إن الناس قد جمعوا لكم ﴿١٧﴾ بقصد تبيط العزائم هو الشيطان يخوفكم أولیاءه وهم الكفار لترهبوهم ﴿١٨﴾ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴿١٩﴾ أي فلا تخافوهم ولا ترهبوهم فإنني متكفل لكم بالنصر عليهم ، ولكن خافوا إن كنتم مؤمنين حقاً أن تعصوا أمري فتهلكوا ، والمراد بالشيطان « نعيم ابن مسعود الأشجعي » الذي أرسله أبو سفيان ليثبط المسلمين ، قال أبو حيان : وإنما نسب إلى الشيطان لأنه ناشيء عن وسوسته وإغوائه وإلقائه ﴿٢٠﴾ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ﴿٢١﴾ تسلياً للنبي ﷺ أي لا تحزن ولا تتألم يا محمد لأولئك المنافقين الذين يبادرون نحو الكفر بأقوالهم وأفعالهم ، ولا تبال بما يظهر منهم من آثار الكيد للإسلام وأهله ﴿٢٢﴾ إنهم لن يضروا الله شيئاً ﴿٢٣﴾ أي إنهم بكفرهم لن يضروا الله شيئاً وإنما يضرون أنفسهم ﴿٢٤﴾ يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ﴿٢٥﴾ أي يريد تعالى بحكمته ومشیئته ألا يجعل لهم نصيباً من الثواب في الآخرة ﴿٢٦﴾ ولهم عذاب عظيم ﴿٢٧﴾ أي ولهم فوق الحرمان من الثواب عذاب عظيم في نار جهنم ﴿٢٨﴾ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم ﴿٢٩﴾ أي الذين استبدلوا الكفر بالإيمان وهم المنافقون المذكورون قبل ، لن يضروا الله بكفرهم وارتدادهم ولهم عذاب مؤلم ﴿٣٠﴾ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم ﴿٣١﴾ أي لا يظنن الكافرون أن إمهالنا لهم بدون جزاء وعذاب ، وإطالنا لأعمارهم خير لهم ﴿٣٢﴾ إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ﴿٣٣﴾ أي إنما نمهلهم ونؤخر آجالهم

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تَوَمَّنُوا وَتَنَقَّوْا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٨﴾
وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَآءِ أَنَّهُمْ آلَهُمِ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ ۗ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

ليكتسبوا المعاصي فتزداد آثامهم ﴿ولهم عذاب مهين﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب يهينهم ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ هذا وعد من الله لرسوله بأنه سيميز له المؤمن من المنافق والمعنى لن يترك الله المؤمنين مختلطين بالمنافقين حتى يتليهم فيفصل بين هؤلاء وهؤلاء ، كما فعل في غزوة أحد حيث ظهر أهل الإيمان وأهل النفاق قال ابن كثير «أي لا بد أن يعقد شيئاً من المحنة يظهر فيها وليه ويقضح بها عدوه ، يُعرف به المؤمن الصابر من المنافق الفاجر ، كما ميز بينهم يوم أحد» (١) . ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ قال الطبري : وأولى الأقوال بتأويله : أي وما كان الله ليطلعكم على قلوب عباده فتعرفوا المؤمن من المنافق والكافر ، ولكنه يميز بينهم بالمحن والإبتلاء كما ميز بينهم يوم أحد بالبأساء وجهاد عدوه (٢) ﴿ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾ أي يختار من رسله من يشاء فيطلعهم على غيبه كما أطلع النبي ﷺ على حال المنافقين ﴿فآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي آمنوا إيماناً صحيحاً بأن الله وحده المطلع على الغيب وأن ما يخبر به الرسول من أمور الغيب إنما هو بوحى من الله ﴿وإن تَوَمَّنُوا وَتَنَقَّوْا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي وإن تصدقوا رسلي وتتقوا ربكم بطاعته فلکم ثواب عظيم ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم﴾ لما بلغ تعالى في التحريض على بذل النفس في الجهاد شرع هنا في التحريض على بذل المال في سبيل الله ، وذكر الوعيد الشديد لمن يبخل بماله والمعنى لا يحسبن البخل أن جمعه المال وبخله بإنفاقه ينفعه ، بل هو مضره عليه في دينه ودنياه ﴿بل هو شر لهم﴾ أي ليس كما يظنون بل ذلك البخل شر لهم ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ أي سيجعل الله ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم يعذبون به يوم القيامة كما جاء في صحيح البخاري (من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع - أي ثعباناً عظيماً - له زبيبتان فيأخذ بلهزمته - يعني شديقه - ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ثم تلا ﷻ ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون﴾ الآية ﴿والله ميراث السموات والأرض﴾) أي جميع ما في الكون ملك له يعود إليه بعد فناء خلقه ﴿والله خبير بما تعملون﴾ أي مطلع على أعمالكم .

البلاغَة : قال في البحر : تضمنت هذه الآيات فناً من البلاغة والبديع : الإطناب في يستبشرون ﴿ وفي ﴿لن يضرؤا﴾ وفي آسم الجلالة في مواضع ، والطباق في ﴿أمواتاً بل أحياء﴾ وفي

﴿الكفر بالإيمان﴾ والاستعارة في ﴿اشتروا الكفر﴾ وفي ﴿يسارعون في الكفر﴾ وفي ﴿الخبيث والطيب﴾ إذ يراد به المؤمن والمنافق والحذف في مواضع^(١).

فكائدة : قوله تعالى ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ هي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار قال السيوطي في الإكليل : يستحب قول هذه الكلمة عند الغمّ والأمور العظيمة .

قال الله تعالى : ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير . . إلى . . والله على كل شيء قدير﴾ من آية (١٨١) إلى نهاية آية (١٨٩)

المناسكة : بعد أن انتهى الاستعراض القرآني لمعركة أحد وما فيها من أحداث جسيمة ، وتناولت الآيات ضمن ما تناولت مكائد المنافقين ودسائسهم ، وما انطوت عليه نفوسهم من الكيد للإسلام والغدر بالمسلمين وتثبيط عزائمهم عن الجهاد في سبيل الله ، أعقبه تعالى بذكر دسائس اليهود وأساليبهم الخبيثة في محاربة الدعوة الإسلامية عن طريق التشكيك والبلبلة ، والكيد والدس ، ليحذّر المؤمنين من خطرهم كما حذّره من المنافقين ، والآيات الكريمة تتحدث عن اليهود وموقفهم المخزي من الذات الإلهية ، واتهامهم لله عز وجل بأشنع الاتهامات بالبخل والفقر ، ثم نقضهم للعهد ، وقتلهم للأنبياء ، وخيانتهم للأمانة التي حملهم الله إياها ، إلى آخر ما هنالك من جرائم وشنائع اتصف بها هذا الجنس الملعون .

اللفظة : ﴿عهد إلينا﴾ أوصانا ﴿بقربان﴾ القربان : ما يذبح من الأنعام تقرباً إلى الله تعالى ﴿البيئات﴾ الآيات الواضحات والمراد به هنا المعجزات ﴿الزُّبُر﴾ جمع زبور وهو الكتاب من الزُّبر وهو الكتابة ، والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب كالرُّكوب بمعنى المركوب قال الزجاج : الزبور كل كتاب ذي حكمة ﴿زحزح﴾ الزحزحة : التنحية والإبعاد تكرير الزح وهو الجذب بعجلة ﴿فاز﴾ ظفر بما يؤمل ونجا مما يخاف ﴿الغرور﴾ مصدر غرّه يغره غروراً أي خدعه ﴿متاع﴾ المتاع : ما يُتمتع به ويُتفَع ثم يزول ﴿تلبون﴾ لتمتحن من بلاه أي امتحنه ﴿عزم الأمور﴾ أصل العزم ثبات الرأي على الشيء والمراد هنا صواب التدبير والرأي وهو مما ينبغي لكل عاقل أن يعزم عليه ﴿بمفازة﴾ بمنجاة من قولهم فاز فلان إذا نجا .

سبب النزول : أ - عن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصديق ذات يوم بيت مدراس اليهود ، فوجد ناساً من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له «فنحاص بن عازوراء» وكان من علمائهم وأخبارهم فقال أبو بكر لفنحاص : ويحك اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإننا عنه لأغنياء ، ولو كان غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنياً ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر وضرب وجه «فنحاص» ضربة شديدة وقال : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو

الله ، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد : انظر إلى ما صنع بي صاحبك ، فقال رسول الله ﷺ : ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر ؟ فقال يا رسول الله : إن عدو الله قال قولاً عظيماً ، زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء ، فغضبتُ لله وضربتُ وجهه فوجد ذلك فنحاص فأنزل الله رداً على فنحاص وتصديقاً لأبي بكر ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ (١) الآية .

ب - عن ابن عباس قال : جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ - منهم كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف ، وفنحاص بن عازوراء - وغيرهم فقالوا : يا محمد تزعم أنك رسول الله وأنه تعالى أنزل عليك كتاباً ، وقد عهد الله إلينا في التوراة ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، فإن جئنا بهذا صدقناك فنزلت هذه الآية ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾ (٢) الآية .

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ
وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ
اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ

التفسير : ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ هذه المقالة الشنيعة مقالة أعداء الله اليهود عليهم لعنة الله زعموا أن الله فقير ، وذلك حين نزل قوله تعالى ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ قالوا : إن الله فقير يقترض منا كما قالوا ﴿يد الله مغلولة﴾ قال القرطبي : وإنما قالوا هذا تمويهاً على ضعفائهم لا أنهم يعتقدون هذا ، وغرضهم تشكيك الضعفاء من المؤمنين وتكذيب النبي ﷺ أي إنه فقير على قول محمد لأنه اقترض منا (٣) ﴿سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ أي سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوه في صحائف أعمالهم ونكتب جرميتهم الشنيعة بقتل الأنبياء بغير حق ، والمراد بقتلهم الأنبياء رضاهم بفعل أسلافهم ﴿وتقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ أي ويقول الله لهم في الآخرة على لسان الملائكة : ذوقوا عذاب النار المحرقة الملتهبة ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ أي ذلك العذاب بما اقترفته أيديكم من الجرائم ﴿وأن الله ليس بظالم للعبيد﴾ أي وأنه سبحانه عادل ليس بظالم للخلق ، والمراد أن ذلك العقاب حاصل بسبب معاصيكم ، وعدل الله تعالى فيكم ، قال الزمخشري : ومن العدل أن يعاقب المسيء ويثيب المحسن (٤) ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا﴾ أي هم الذين قالوا إن الله أمرنا وأوصانا في التوراة ﴿ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾ أي أمرنا بأن لا نصدق لرسول حتى يأتينا بآية خاصة وهي أن يقدم قرباناً فتنزل نار من السماء فتأكله ، وهذا افتراء على الله حيث لم يعهد إليهم بذلك ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخاً وإظهاراً لكذبهم : قد

(١) أسباب النزول للواحد ص ٧٦ ومختصر ابن كثير ١/٣٤٢ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٩/١٢١ .

(٣) القرطبي ٤/٢٩٤ (٤) الكشاف ١/٣٤٤ .

وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا
بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٨﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٩﴾
* لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا
وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٩٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ
لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ تَمَتُّاعًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَسْتُرُونَ ﴿١٩١﴾ لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ

جاءتكم رسلٌ قبلي بالمعجزات الواضحات والحجج الباهرات الدالة على صدق نبوتهم وبالذي ادعيتهم
﴿ فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ﴾ أي فلم كذبتموهم وقتلتموهم إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان
بالله والتصديق برسله ؟ ثم قال تعالى مسلماً لرسوله ﷺ ﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسولٌ من قبلك ﴾ أي لا
يجزئك يا محمد تكذيب هؤلاء لك ، فإنهم إن فعلوا ذلك فقد كذبت أسلافهم من قبل رسول الله فلا تحزن
فلك بهم أسوة حسنة ﴿ جاءوا بالبينات ﴾ أي كذبوهم مع أنهم جاءوهم بالبراهين القاطعة والمعجزات
الواضحة ﴿ والزُّبُرِ والكتاب المنير ﴾ أي بالكتب السماوية المملوءة بالحِكْمِ والمواعظ ، والكتاب الواضح
الجلي كالتوراة والإنجيل ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ أي مصير الخلائق إلى الفناء وكل نفس مميّة لا محالة
كقوله ﴿ كلٌّ من عليها فان ﴾ ﴿ وإنما تُوفَّقون أُجوركم يوم القيامة ﴾ أي تُعطون جزاء أعمالكم وافيّاً يوم
القيامة ﴿ فمن زُحِرَ عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ أي فمن نُحِيَ عن النار وأُبعِدَ عنها ، وأدخل الجنة
فقد فاز بالسعادة السرمدية والنعيم المخلّد ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ أي ليست الدنيا إلا دار
الفناء يستمتع بها الأحمق المغرور قال ابن كثير : الآية فيها تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها وأنها فانية
زائلة^(١) ﴿ لتبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ أي والله لتمتحنن وتختبرن في أموالكم بالفقر والمصائب ، وفي
أنفسكم بالشدائد والأمراض ﴿ ولتسمعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى
كَثِيرًا ﴾ أي ولينالكم من اليهود والنصارى والمشركين - أعدائكم - الأذى الكثير ، وهذا إخبارٌ منه جلّ
وعلا للمؤمنين بأنه سينالهم بلايا وأكدار من المشركين والفجّار ، وأمرهم بالصبر عند وقوع ذلك لأن
الجنة حَفَّتْ بِالْمَكَارِهِ ولهذا قال ﴿ وإن تصبروا وتتقوا ﴾ أي وإن تصبروا على المكاره وتتقوا الله في الأقوال
والأعمال ﴿ فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ أي الصبر والتقوى من الأمور التي ينبغي أن تعزموا وتحزموا عليها
لأنها مما أمر الله بها ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أُوتوا الكتاب ﴾ أي اذكر يا محمد حين أخذ الله العهد
المؤكد على اليهود في التوراة ﴿ لتبيننّه للناس ولا تكتُمونه ﴾ أي لتظهرنّ ما في الكتاب من أحكام الله ولا

يَفْرَحُونَ بِمَا أْتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾
 وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

تحفونها ، قال ابن عباس : هي لليهود أخذ عليهم العهد والميثاق في أمر رسول الله ﷺ فكتموه ونبذوه^(١) ﴿فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً﴾ أي طرحوا ذلك العهد وراء ظهورهم واستبدلوا به شيئاً حقيراً من حطام الدنيا ﴿فبئس ما يشترون﴾ أي بئس هذا الشراء وبئست تلك الصفقة الخاسرة ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا﴾ أي لا تظننَّ يا محمد الذين يفرحون بما أوتوا من إخفاء أمرك عن الناس ﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ أي ويحبون أن يمدحهم الناس على تمسكهم بالحق وهم على ضلال ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ أي فلا تظننَّهم بمنجاة من عذاب الله ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي عذاب مؤلم قال ابن عباس : نزلت في أهل الكتاب سألمهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره وفرحوا بما أوتوا من كتابهم إياه ما سألمهم عنه^(٢) ﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ أي له سبحانه جميع ما في السموات والأرض فكيف يكون من له ما في السموات والأرض فقيراً ؟ والآية ردُّ على الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي هو تعالى قادر على عقابهم .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يأتي :

- ١ - ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ أكد اليهود الجملة بـ ﴿إن الله فقير﴾ على سبيل المبالغة ، فحيث نسبوا إلى أنفسهم الغنى لم يؤكدوا بل أخرجوا الجملة مخرج ما لا يحتاج إلى تأكيد كأن الغنى وصف لهم لا يمكن فيه نزاع فيحتاج إلى تأكيد وهذا دليل على تمردهم في الكفر والطغيان .
- ٢ - ﴿سنكتب ما قالوا﴾ فيه مجاز يسمى المجاز العقلي أي ستكتب ملائكتنا ولما كان الله لا يكتب وإنما يأمر بالكتابة أسند الفعل إليه مجازاً .
- ٣ - ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ فيه مجاز مرسل من إطلاق اسم الجزء وإرادة الكل وذكر الأيدي لأن أكثر الأعمال تُزوال بهن .
- ٤ - ﴿تأكله النار﴾ إسناد الأكل إلى النار بطريق الاستعارة إذ حقيقة الأكل إنما تكون في الإنسان والحيوان وكذلك توجد استعارة في قوله ﴿ذائقة الموت﴾ لأن حقيقة الذوق ما يكون بحاسة اللسان .
- ٥ - ﴿متاع الغرور﴾ قال الزمخشري : « شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلّس به على المستام ويُغر حتى يشتره والشيطان هو المدلّس الغرور »^(٢) فهو من باب الاستعارة .

٦ - ﴿فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً﴾ كذلك توجد استعارة في النبذ والاشترى شبه عدم التمسك والعمل به بالشيء الملقى خلف ظهر الإنسان وباشترى ثمن قليل ما تعوضوه من الحطام على كتم آيات الله .

٧ - وفي الآيات الكريمة من المحسنات البديعية الطباق في ﴿فقير وأغنياء﴾ والمقابلة ﴿زحزح عن النار وأدخل الجنة﴾ وفي ﴿لتبيننه . . ولا تكتمونه﴾ والجناس المغاير في ﴿قول الذين قالوا﴾ وفي ﴿كذبوك فقد كذب﴾ .

فكائِدَة : صيغة فعَّال في الآية ﴿وما ربك بظلام﴾ ليست للمبالغة وإنما هي للنسب مثل عطار ونجار وتجار كلها ليست للمبالغة وإنما هي للنسب قال ابن مالك .

ومع فاعل وفعَّال فُعل في نسبٍ أغنى من الياء قبل

تنبية : إنما وصف تعالى عيش الدنيا ونعيمها بأنه متاع الغرور ، لما تمنى لذاتها وشهواتها من طول البقاء وأمل الدوام فتخذه ثم تصرعه ، ولهذا قال بعض السلف : الدنيا متاعٌ متروك يوشك أن يضمحلَّ ويزول ، فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم والله المستعان .

قال الله تعالى : ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات . . إلى آخر السورة﴾

من آية (١٩٠) إلى نهاية آية (٢٠٠)

المناسِبة : بدأ تعالى هذه السورة الكريمة بذكر أدلة التوحيد والألوهية والنبوة ، وختمها بذكر دلائل الوحدانية والقدرة ودلائل الخلق والإيجاد ، ليستدل منها الإنسان على البعث والنشور فكان ختام مسك ، ولما كان المقصود من هذا الكتاب العظيم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق إلى معرفة الإله الحق ، جاءت الآيات الكريمة تنير القلوب بأدلة التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال ، فلفتت الأنظار إلى التفكير والتدبر في ملكوت السموات والأرض ، ليخلص الإنسان إلى الاعتراف بوحدانية الله وباهر قدرته وهو يتأمل في كتاب الله المنظور « الكون الفسيح » بعد أن تأمل في كتاب الله المسطور « القرآن العظيم » وفي الكتاب المسطور إشارات عديدة لآيات الكتاب المنظور وهو يدعو إلى معرفة الحقائق باستخدام الحواس ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ .

اللغز : ﴿الألباب﴾ العقول ﴿باطلاً﴾ عبثاً بدون حكمة ﴿سبحانك﴾ تنزيه لله عن السوء ﴿أخزيته﴾ أذلته وأهنته ﴿كفرنا﴾ استر وامح ﴿الأبرار﴾ جمع بر أو بار وهم المستمسكون بالشرعية ﴿فاستجاب﴾ بمعنى أجاب ﴿نزلنا﴾ النزل : ما يهب للنزول وهو الضيف من أنواع الإكرام ﴿رابطوا﴾ المرابطة : ترصد العدو في الثغور .

سَبَبُ النُّزُولِ : عن أم سلمة قالت قلت : يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾ (١) الآية .

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩١﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا مُّسَبِّحًا فَفَنَّا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٤﴾

رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَأَتَّخِذُ الْمِيْعَادَ ﴿١٩٥﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي الْمُنْفِيسِ : ﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ أي إن في خلق السموات والأرض على ما بهما من إحكام وإبداع ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ أي وتعاقب الليل والنهار على الدوام ﴿ لآيات لأولي الألباب ﴾ أي علامات واضحة على الصانع وباهر حكمته ، ولا يظهر ذلك إلا لذوي العقول الذين ينظرون إلى الكون بطريق التفكير والاستدلال لا كما تنظر البهائم ، ثم وصف تعالى أولي الألباب فقال ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ أي يذكرون الله بألسنتهم وقلوبهم في جميع الأحوال في حال القيام والقعود والاضطجاع فلا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم ، لاطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم في مراقبته ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ أي يتدبرون في ملكوت السموات والأرض ، في خلقها بهذه الأجرام العظام وما فيها من عجائب المصنوعات وغرائب المبتدعات قائلين ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ أي ما خلقت هذا الكون وما فيه عبثاً من غير حكمة ﴿ سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ أي ننزهك يا الله عن العبث فأجرنا واحمنا من عذاب جهنم ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيت ﴾ أي من أدخلته النار فقد أذلته وأهنته غاية الإهانة وفضحته على رعوس الأشهاد ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أي ليس لهم من يمنعهم من عذاب الله ، والمراد بالظالمين الكفار كما قال ابن عباس وجهور المفسرين وقد صرح به في البقرة ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان ﴾ أي داعياً يدعو إلى الإيمان وهو محمد ﷺ ﴿ أن آمنوا بربكم فآمنوا ﴾ أي يقول هذا الداعي أيها الناس آمنوا بربكم واشهدوا له بالوحدانية فصدقنا بذلك واتبعناه ﴿ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ﴾ أي استر لنا ذنوبنا ولا تفضحنا بها ﴿ وكفر عنا سيئاتنا ﴾ أي امح بفضلك ورحمتك ما ارتكبناه من سيئات ﴿ وتوفنا مع الأبرار ﴾ أي ألحقنا بالصالحين قال ابن عباس : الذنوب هي الكبائر والسيئات هي الصغائر ويؤيده ﴿ إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ فلا تكرر إذا ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ تكرير النداء للتضرع ولإظهار كمال الخضوع أي أعطنا ما وعدتنا على السنة رسلك وهي الجنة لمن أطاع قاله ابن

لَا أَضِيعُ عَمَلٍ عَمِلَ مِنْكُمْ مِنْ ذِكْرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا الْأَكْفَرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلْنَاهُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا

عباس ﴿ولا نخزننا يوم القيامة﴾ أي لا نفضحنها كما فضحت الكفار ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾ أي لا تخلف وعدك وقد وعدت من آمن بالجنة ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى﴾ أي أجاب الله دعاءهم بقوله إني لا أبطل عمل من عمل خيراً ذكراً كان العامل أو أنثى قال الحسن : ما زالوا يقولون ربنا ، ربنا ، حتى استجاب لهم (١) ﴿بعضكم من بعض﴾ أي الذكر من الأنثى ، والأنثى من الذكر ، فإذا كنتم مشتركين في الأصل فكذلك أنتم مشتركون في الأجر (٢) ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم﴾ أي هجروا أوطانهم فارين بدينهم ، وألجأهم المشركون إلى الخروج من الديار ﴿وأودوا في سبيلي﴾ أي تحملوا الأذى من أجل دين الله ﴿وقاتلوا وقتلوا﴾ أي وقتلوا أعدائي وقتلوا في سبيلي ﴿لا كفرن عنهم سيئاتهم﴾ أي الموصوفون بما تقدم لأحون ذنوبهم بمغفرتي ورحمتي ﴿ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله﴾ أي ولأدخلنهم جنات النعيم جزاءً من عند الله على أعمالهم الصالحة ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ أي عنده حسن الجزاء وهي الجنة التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم نبه تعالى إلى ما عليه الكفار في هذه الدار من النعمة والغبطة والسرور ، وبيّن أنه نعيم زائل فقال ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾ أي لا يخذعنك أيها السامع تنقل الذين كفروا في البلاد طلباً لكسب الأموال والجاه والرتب ﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ أي إنما يتنعمون بذلك قليلاً ثم يزول هذا النعيم ، ومصيرهم في الآخرة إلى النار ، وبئس الفراش والقرار نار جهنم . ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي لكن المتقون لله لهم النعيم المقيم في جنات النعيم مخلدين فيها أبداً ﴿نزلًا من عند الله﴾ أي ضيافة وكرامة من عند الله ﴿وما عند الله خيرٌ للأبرار﴾ أي وما عند الله من الثواب والكرامة للأخيار الأبرار ، خير مما يتقلب فيه الأشرار الفجار من المتاع القليل الزائل ، ثم أخبر تعالى عن إيمان بعض أهل الكتاب فقال ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم﴾ أي ومن اليهود والنصارى فريق يؤمنون بالله حق الإيمان ، ويؤمنون بما أنزل إليكم وهو القرآن وبما أنزل إليهم وهو التوراة والإنجيل كعبد الله بن

(١) القرطبي ٤/٣١٨ . (٢) قال الطبري : بعضكم من بعض في النصرة والملة والدين ، وما ذكرناه رأي الجلايين وهو أظهر .

أَنْزَلَ إِلَيْهِمُ خَشَعِينَ لِلَّهِ لَا يُسْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا أَوْلِيكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

سلام وأصحابه ، والنجاشي وأتباعه ﴿خاشعين لله﴾ أي خاضعين متذللين لله ﴿لا يشترون بآيات الله تمناً قليلاً﴾ أي لا يحرفون نعت محمد ولا أحكام الشريعة الموجودة في كتبهم لعرض من الدنيا خسيس كما فعل الأخبار والرهبان ﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم﴾ أي ثواب إيمانهم يعطونه مضاعفاً كما قال ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾ ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي سريع حسابه لنفوذ علمه بجميع المعلومات ، يعلم ما لكل واحد من الثواب والعقاب ، قال ابن عباس والحسن : نزلت في النجاشي وذلك أنه لما مات نعا جبريل لرسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ لأصحابه : قوموا فصلوا على أخيكم النجاشي ، فقال بعضهم لبعض : يأمرنا أن نصلي على علق من علوج الحبشة فأنزل الله ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ (١) الآية . ثم ختم تعالى السورة الكريمة بهذه الوصية الجامعة لسعادة الدارين فقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا﴾ أي اصبروا على مشاق الطاعات وما يصيبكم من الشدائد ﴿وصابروا﴾ أي غالبوا أعداء الله بالصبر على أهوال القتال وشدائد الحروب ﴿ورابطوا﴾ أي لازموا ثغوركم مستعدين للكفاح والغزو ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ أي خافوا الله فلا تخالفوا أمره لتفوزوا بسعادة الدارين .

البالغة : تضمنت هذه الآيات من ضروب البيان والبديع ما يلي :

- ١ - الإطناب في قوله ﴿ربنا﴾ حيث كرر خمس مرات والغرض منه المبالغة في التضرع .
- ٢ - الطباق في قوله ﴿السموات والأرض﴾ و﴿الليل والنهار﴾ و﴿قياماً وقعوداً﴾ و﴿ذكر أو أنسى﴾ .
- ٣ - الإيجاز بالحذف ﴿ما وعدتنا على رسلك﴾ أي على السنة رسلك وكذلك في قوله ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا﴾ أي قائلين ربنا .
- ٤ - الجناس المغاير في قوله ﴿آمنوا . . فآمنوا﴾ وفي ﴿عمل عامل﴾ وفي ﴿منادٍ يُنادي﴾ .
- ٥ - ﴿آيات لأولي الألباب﴾ التنكير للتفخيم ودخلت اللام في خبر إن لزيادة التأكيد .
- ٦ - الاستعارة في قوله ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا﴾ استعير التقلب للضرب في الأرض لطلب المكاسب والله أعلم .

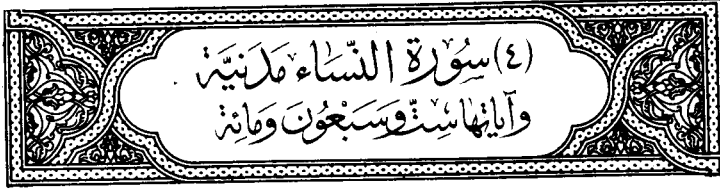
الفوائد : الأولى : إنما خصص التفكير بالخلق للنهي عن التفكير في الخالق ففي الحديث الشريف (تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون الله قدره) وذلك لعدم الوصول إلى

كنه ذاته وصفاته قال بعض العلماء : المتفكر في ذات الله كالناظر في عين الشمس لأنه تعالى ليس كمثله شيء .

الثانية : تكرر النداء بهذا الاسم الجليل ﴿ربنا﴾ خمس مرات كل ذلك على سبيل الاستعطاف وتطلب رحمة الله بنداؤه بهذا الاسم الشريف الدال على التربة والملك والإصلاح .

الثالثة : سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن أعجب ما رآته من رسول الله ﷺ فبكت وقالت : كل أمره كان عجباً ، أتاني في ليلتي حتى مسّ جلده جلدي ثم قال (ذريني أتعبد لربي عز وجل) فقلت : والله إنني لأحب قربك وأحب هواك ، فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر صبّ الماء ثم قام يصلي فبكى حتى بلّ لحيته ، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض ، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يا رسول الله : ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال (ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة ﴿إن في خلق السموات والأرض ..﴾ الآيات ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها^(١) .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة آل عمران »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة النساء إحدى السور المدنية الطويلة ، وهي سورة مليئة بالأحكام الشرعية ، التي تنظم الشؤون الداخلية والخارجية للمسلمين ، وهي تُعنى بجانب التشريع كما هو الحال في السور المدنية ، وقد تحدثت السورة الكريمة عن أمور هامة تتعلق بالمرأة ، والبيت ، والأسرة ، والدولة ، والمجتمع ، ولكن معظم الأحكام التي وردت فيها كانت تبحث حول موضوع النساء ولهذا سميت « سورة النساء » ! !

تحدثت السورة الكريمة عن حقوق النساء والأيتام - وبخاصة اليتيمات - في حجور الأولياء والأوصياء ، فقررت حقوقهن في الميراث والكسب والزواج ، واستتقدتهن من عسف الجاهلية وتقاليدها الظلمة المهينة .

* وتعرضت لموضوع المرأة فصانت كرامتها ، وحفظت كيانها ، ودعت إلى إنصافها بإعطائها حقوقها التي فرضها الله تعالى لها كالمهر ، والميراث ، وإحسان العشرة .

* كما تعرضت بالتفصيل إلى « أحكام الموارث » على الوجه الدقيق العادل ، الذي يكفل العدالة ويحقق المساواة ، وتحدثت عن المحرمات من النساء « بالنسب ، والرضاع ، والمصاهرة » .

* وتناولت السورة الكريمة تنظيم العلاقات الزوجية وبيّنت أنها ليست علاقة جسد وإنما علاقة إنسانية ، وأن المهر ليس أجراً ولا ثمناً ، وإنما هو عطاء يوثق المحبة ، ويديم العشرة ، ويربط القلوب .

* ثم تناولت حق الزوج على زوجته ، وحق الزوجة على زوجها ، وأرشدت إلى الخطوات التي ينبغي أن يسلكها الرجل لإصلاح الحياة الزوجية ، عندما يبدأ الشقاق والخلاف بين الزوجين ، وبيّنت معنى « قوامة الرجل » وأنها ليست قوامة استعباد وتسخير ، وإنما هي قوامة نصح وتأديب كالتي تكون بين الراعي ورعيته .

* ثم انتقلت من دائرة الأسرة إلى « دائرة المجتمع » فأمرت بالإحسان في كل شيء ، وبيّنت أن

أساس الإحسان التكافل والتراحم ، والتناصح والتسامح ، والأمانة والعدل ، حتى يكون المجتمع راسخ
البنيان قوي الأركان .

* ومن الإصلاح الداخلي انتقلت الآيات إلى الاستعداد للأمن الخارجي الذي يحفظ على الأمة
استقرارها وهدوءها ، فأمرت بأخذ العدة لمكافحة الأعداء .

* ثم وضعت بعض قواعد المعاملات الدولية بين المسلمين والدول الأخرى المحايدة أو المعادية .

* واستتبع الأمر بالجهاد حملة ضخمة على المنافقين ، فهم نابتة السوء وجرثومة الشر التي ينبغي
الحذر منها ، وقد تحدثت السورة الكريمة عن مكائدهم وخطرهم .

* كما نبهت إلى خطر أهل الكتاب وبخاصة اليهود وموقفهم من رسل الله الكرام .

* ثم ختمت السورة الكريمة ببيان ضلالات النصراني في أمر المسيح عيسى بن مريم حيث غالوا فيه
حتى عبدوه ثم صلبوه^(١) مع اعتقادهم بألوهيته ، واخترعوا فكرة التثليث فأصبحوا كالمشركين الوثنيين ،
وقد دعتهم الآيات الى الرجوع عن تلك الضلالات إلى العقيدة السمحة الصافية « عقيدة التوحيد »
وصدق الله حيث يقول : ﴿ ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد ﴾ .

التسمية : سميت سورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بهن ، بدرجة لم توجد
في غيرها من السور ولذلك أطلق عليها « سورة النساء الكبرى » في مقابلة « سورة النساء الصغرى » التي
عرفت في القرآن بسورة الطلاق .

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة . . إلى . . إنما يأكلون في
بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (١٠) .

اللغات : ﴿ بث ﴾ نشر وفرق ومنه ﴿ وزرابي مبثوثة ﴾ ﴿ الأرحام ﴾ جمع رحم وهو في الأصل
مكان تكون الجنين في بطن أمه ثم أطلق على القرابة ﴿ رقيباً ﴾ الرقيب : الحفيظ المطلع على الأعمال
﴿ حوباً ﴾ الحوب : الذنب والإثم ﴿ تعولوا ﴾ تميلوا وتجوروا يقال : عال الميزان إذا مال ، وعال الحاكم إذا
جار ﴿ صدقاتهن ﴾ جمع صدقة وهو المهر ﴿ نحلته ﴾ هبة وعطية ﴿ السفهاء ﴾ ضعفاء العقول والمراد به هنا
المبذرون للأموال ﴿ أنستم ﴾ أبصرتم من أنس الشيء أبصره ﴿ بداراً ﴾ أي مبادرة بمعنى مسارعة أي يسارع
في تبذيرها قبل أن يكبر اليتيم فيتسلمها منه ﴿ سديداً ﴾ من السداد بمعنى الاستقامة .

(١) أي زعموا أنه صلب وقد أحسن من قال : إذا صلب الإله بفعل عبد

يهودي فما هذا الإله ؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا
الْحَبِثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾

سَبَبُ النُّزُولِ : أ - عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى ﴿وإن خفتن ألا تقتسوا في اليتامى﴾ فقالت : يا ابن أخي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يُقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا عن ذلك إلا أن يُقسطوا لهنَّ ويبلغوا لهنَّ أعلى سنتهن في الصَّدَاق ، فأمرُوا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهنَّ ، وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله ﴿ويستفتونك في النساء﴾ (١) الآية

ب - عن مقاتل بن حيان أن رجلاً من غطفان يقال له « مرثد بن زيد » ولي مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله فأنزل الله ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً . . .﴾ (٢) الآية .

التفسير : افتتح الله جل ثناؤه سورة النساء بخطاب الناس جميعاً ودعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، منبهاً لهم على قدرته ووحدانيته فقال ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة﴾ أي خافوا الله الذي أنشأكم من أصلٍ واحد وهو نفس أبيكم آدم ﴿وخلق منها زوجها﴾ أي أوجد من تلك النفس الواحدة زوجها وهي حواء ﴿وبثَّ منها رجالاً كثيراً ونساءً﴾ أي نشر وفرَّق من آدم وحواء خلائق كثيرين ذكوراً وإناثاً ﴿واتقوا الله الذي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ أي خافوا الله الذي يناشد بعضكم بعضاً به حيث يقول : أسألك بالله ، وأنشدك بالله ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ أي حفيظاً مطلعاً على جميع أحوالكم وأعمالكم ، وقد أكد تعالى الأمر بتقوى الله في موطنين : في أول الآية ، وفي آخرها ليشير إلى عظم حق الله على عباده ، كما قرن تعالى بين التقوى وصللة الرحم ليدل على أهمية هذه الرابطة الإنسانية ، فالناس جميعاً من أصل واحد ، وهم إخوة في الإنسانية والنسب ، ولو أدرك الناس هذا لعاشوا في سعادة وأمان ، ولما كانت هناك حروب طاحنة مدمرة تلتهب الأخضر واليابس ، وتقضي على الكهل والوليد ، ثم ذكر تعالى اليتامى فأوصى بهم خيراً وأمر بالمحافظة على أموالهم فقال ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ أي أعطوا اليتامى الذين مات أبأؤهم وهم صغار أموالهم إذا بلغوا ﴿ولا تبدلوا الحبيث بالطيب﴾ أي لا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنِي وَثَلَاثَ وَرُبْعًا ۗ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿١٠٤﴾ ۗ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۗ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُنَّ نَفْسًا فَكُلُوهُنَّ حَيْثُ مَرِيتُمْ ۗ وَلَا تَتُوتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿١٠٥﴾ ۗ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۗ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبُرُوا ۗ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۗ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ

أموالكم ﴿١٠٤﴾ أي لا تخلطوا أموال اليتامى بأموالكم فتأكلوها جميعاً ﴿١٠٥﴾ إنه كان حوباً كبيراً ﴿١٠٦﴾ أي ذنباً عظيماً ، فإن اليتيم بحاجة إلى رعاية وحماية لأنه ضعيف ، وظلم الضعيف ذنب عظيم عند الله ، ثم أرشد تعالى إلى ترك الزوج من اليتيمة إذا لم يعطها مهر المثل فقال ﴿١٠٧﴾ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى ﴿١٠٨﴾ أي إذا كانت تحت حجر أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر مثلها فليتركها إلى ما سواها فإن النساء كثير ولم يضيّق الله عليه ﴿١٠٩﴾ فإنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴿١١٠﴾ أي انكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم اثنتين وإن شاء ثلاثاً وإن شاء أربعاً ﴿١١١﴾ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴿١١٢﴾ أي إن خفتم من عدم العدل بين الزوجات فالزموا الاقتصار على واحدة ﴿١١٣﴾ أو ما ملكت أيانكم ﴿١١٤﴾ أي اقتصروا على نكاح الإماء لملك اليمين إذ ليس هن من الحقوق كما للزوجات ﴿١١٥﴾ ذلك أدنى ألا تعولوا ﴿١١٦﴾ أي ذلك الاقتصار على الواحدة أو على ملك اليمين أقرب ألا تميلوا وتجوروا ﴿١١٧﴾ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ﴿١١٨﴾ أي أعطوا النساء مهرهن عطية عن طيب نفس ﴿١١٩﴾ فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً ﴿١٢٠﴾ أي فإن طابت نفوسهن بهبة شيء من الصداق ﴿١٢١﴾ فكلوه هنيئاً مريئاً ﴿١٢٢﴾ أي فخذوا ذلك الشيء الموهوب حلالاً طيباً ﴿١٢٣﴾ ولا توتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً ﴿١٢٤﴾ أي لا تعطوا المبذرين من اليتامى أموالهم التي جعلها الله قياماً للأبدان ولمعايشكم فيضيعوها قال ابن عباس : السفهاء هم الصبيان والنساء وقال الطبري : لا توت سفياً ماله وهو الذي يفسده بسوء تدبيره ، صبياً كان أو رجلاً ، ذكراً كان أو أنثى ﴿١٢٥﴾ وارضقوهم فيها واكسوهم ﴿١٢٦﴾ أي أطعموهم منها واكسوهم ﴿١٢٧﴾ وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴿١٢٨﴾ أي قولاً ليناً كقولكم إذا رشدتم سلمنا إليكم أموالكم ﴿١٢٩﴾ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ﴿١٣٠﴾ أي اختبروا اليتامى حتى إذا بلغوا سن النكاح وهو بلوغ الحلم الذي يصلحون عنده للنكاح ﴿١٣١﴾ فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ﴿١٣٢﴾ أي إن أبصرتم منهم صلاحاً في دينهم ومالهم فادفعوا إليهم أموالهم بدون تأخير ﴿١٣٣﴾ ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ﴿١٣٤﴾ أي لا تسرعوا في إنفاقها وتبذرها قائلين نفق كما نشتهي قبل ان يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا ﴿١٣٥﴾ ومن كان غنياً فليستعفف ﴿١٣٦﴾ أي من كان منكم غنياً أيها الأولياء فليعف عن مال اليتيم ولا يأخذ أجراً على وصايته ﴿١٣٧﴾ ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴿١٣٨﴾ أي

(١) اختار الطبري أن المعنى إن خفتم ألا تعدلوا في اليتامى فخافوا أيضاً ألا تعدلوا بين النساء إذ انكحتموهن ، وما أثبتناه هو الموافق لسبب النزول وهو اختيار ابن كثير . (٢) الطبري ٥٦٥ / ٧ .

بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

ومن كان فقيراً فليأخذ بقدر حاجته الضرورية وبقدر أجرة عمله ﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم﴾ أي فإذا سلمتم إلى اليتامى أموالهم بعد بلوغهم الرشد فأشهدوا على ذلك لئلا يجحدوا تسلمها ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي كفى بالله محاسباً ورقياً، ثم بين تعالى أن للرجال والنساء نصيباً من تركة الأقرباء فقال ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ أي للأولاد والأقرباء حظ من تركة الميت كما للبنات والنساء حظ أيضاً الجميع فيه سواء يستوون في أصل الوراثة وإن تفاوتوا في قدرها، وسببها أن بعض العرب كانوا لا يورثون النساء والأطفال وكانوا يقولون: إنما يرث من يجارب ويذب عن الحوزة فأبطل الله حكم الجاهلية ﴿مما قلَّ منه أو كثر﴾ أي سواء كانت التركة قليلة أو كثيرة ﴿نصيباً مفروضاً﴾ أي نصيباً مقطوعاً فرضه الله بشرعه العادل وكتابه المبين ﴿وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمسكين فأرزقوهم منه﴾ أي إذا حضر قسمة التركة الفقراء من قرابة الميت واليتامى والمسكين من غير الوارثين فأعطوهم شيئاً من هذه التركة تطيباً لخطأهم ﴿وقولوا لهم قولا معروفاً﴾ أي قولا جميلاً بأن تعتذروا إليهم أنه للصغار وأنكم لا تملكونه ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم﴾ نزلت في الأوصياء أي تذكر أيها الوصي ذريتك الضعاف من بعدك وكيف يكون حالهم وعامل اليتامى الذين في حَجْرِكَ بمثل ما تريد أن يُعامل به أبناؤك بعد فقدك ﴿فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً﴾ أي فليتقوا الله في أمر اليتامى وليقولوا لهم ما يقولونه لأولادهم من عبارات العطف والحنان ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ أي يأكلونها بدون حق ﴿إنما يأكلون في بطونهم نارا﴾ أي ما يأكلون في الحقيقة إلا نارا تتأجج في بطونهم يوم القيامة ﴿وسيصلون سعيراً﴾ أي سيدخلون نارا هائلة مستعرة وهي نار السعير .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات من ضروب الفصاحة والبيان ما يلي :

١ - الطباق في ﴿غنياً وفقيراً﴾ وفي ﴿قلَّ أو كثر﴾ وفي ﴿رجالاً ونساء﴾ وفي الخبيث بالطيب .

٢ - والجناس المغاير في ﴿دفعتم فادفعوا﴾ وفي ﴿قولوا قولاً﴾ .

٣ - والإطناب في ﴿فادفعوا إليهم أموالهم .. فإذا دفعتم إليهم أموالهم﴾ وفي ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان .. وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ .

٤ - والمجاز المرسل في ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ أي الذين كانوا يتامى فهو باعتبار ما كان وكذلك ﴿يأكلون في بطونهم ناراً﴾ مجاز مرسل وهو باعتبار ما يثول إليه كقوله ﴿إني أراني أعصر خراً﴾ أي عنباً يثول إلى الخمر .

٥ - المقابلة اللطيفة بين ﴿ومن كان غنياً فليستعفف .. ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ .

٦ - والإيجاز في مواضع مثل ﴿رجالاً كثيراً ونساءً﴾ أي ونساءً كثيرات ... الخ .

الفوائد : الأولى : في الافتتاح بتذكير الناس أنهم خلقوا من نفسٍ واحدة تمهيداً جميل وبراءة مطلع لما في السورة من أحكام الأنكحة والموارث والحقوق الزوجية وأحكام المصاهرة والرضاع وغيرها من الاحكام الشرعية .

الثانية : الأغلب أنه إذا كان الخطاب بـ ﴿يا أيها الناس﴾ وكان للكافرين فقط أو للكافرين وغيرهم أعتب بدلائل الوجدانية والربوبية مثل ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ و﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق﴾ وإذا كان الخطاب للمؤمنين أعتب بذكر النعم كما هنا أفاده صاحب البحر^(١) .

الثالثة : ذكرُ البطون مع أن الأكل لا يكون إلا فيها للتأكيد والمبالغة فهو كقولك : أبصرتُ بعيني وسمعتُ بأذني ومثله قوله تعالى ﴿ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ .

الرابعة : أضاف تعالى أموال اليتامى إلى الأوصياء مع أنها أموال اليتامى للتنبيه إلى « التكافل بين الأمة » والحث على حفظ الأموال وعدم تضييعها فإن تبذير السفيه للمال فيه مضرّة للمجتمع كله .

« كلمة حول تعدد الزوجات »

مسألة تعدد الزوجات ضرورة اقتضتها ظروف الحياة وهي ليست تشريعاً جديداً انفرد به الإسلام ، وإنما جاء الإسلام فوجده بلا قيود ولا حدود وبصورة غير إنسانية فنظّمه وشدّبه وجعله علاجاً ودواءً لبعض الحالات الاضطرارية التي يعاني منها المجتمع وفي الحقيقة فإن تشريع التعدد مفخرة من مفاخر الإسلام لأنه استطاع ان يحل « مشكلة إجتماعية » هي من أعقد المشاكل التي تعانيها الأمم والمجتمعات اليوم فلا تجد لها حلاً .. إن المجتمع كالميزان يجب أن تتعادل كفتاه فماذا نصنع حين يختل التوازن ويصبح عدد النساء أضعاف عدد الرجال ؟ أنحرم المرأة من نعمة الزوجية و« نعمة الأمومة » ونتركها تسلك طريق الفاحشة

والرذيلة ، أم نحل هذه المشكلة بطرق فاضلة نصون فيها كرامة المرأة وطهارة الأسرة وسلامة المجتمع ؟ وأقرب الأمثلة شاهداً على ما نقول ما حدث في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية حيث زاد عدد النساء زيادة فاحشة على عدد الرجال فأصبح مقابل كل شاب ثلاث فتيات وهي حالة اختلال اجتماعي فكيف يواجهها المشرع ؟ لقد حلّ الإسلام المشكلة بتشريعه الإسلامي الرائع ، بينما وقفت المسيحية حائرة مكتوفة الأيدي لا تُبدي ولا تُعيد . . إن الرجل الأوروبي لا يبيع له دينه التعدد ، لكنه يبيع لنفسه مصاحبة المئات من الفتيات بطريق الرذيلة ، يرى الوالد منهم فتاته مع عشيقها فيُسّر ويغتبط بل ويمهدّ لها جميع السبل المؤدية لراحتها حتى أصبح ذلك عرفاً سارياً اضطرت معه الدول إلى الاعتراف بمشروعية العلاقات الأثمة بين الجنسين ففتحت باب التدهور الخلقي على مصراعيه ، ووافقت على قبول مبدأ « تعدد الزوجات » ولكن تحت ستار المخادنة وهو زواج حقيقي لكنه غير مسجل بعقد ، ويستطيع الرجل ان يطردها متى شاء دون أن يتقيد حيالها بأي حق من الحقوق ، والعلاقة بينها علاقة جسد لا علاقة أسرة وزوجية ، فأعجب من منع « تعدد الزوجات » بالحلال وإباحته بالحرام حتى نزلوا بالمرأة من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الحيوانية .

ربّ إن الهدى هُداك وآيا تك حق تهدي بها من تشاء .

قال الله تعالى : ﴿يوصيكم الله في أولادكم . . إلى . . يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾
من آية (١١) إلى نهاية آية (١٤) .

المناسكة : لما أوصى تعالى في الآيات السابقة بالأيام وذكر ضمنها حق الأقارب بالإجمال ، أعقبه بذكر أحكام المواريث بالتفصيل ليكون ذلك توضيحاً لما سبق من الإجمال فذكر نصيب الأولاد بنين وبنات ، ثم ذكر نصيب الأبناء والأمهات ، ثم نصيب الأزواج والزوجات ، ثم نصيب الإخوة والأخوات .

اللغة : ﴿يوصيكم﴾ الوصية : العهد بالشيء والأمر به ولفظ الإيضاء أبلغ وأدل على الاهتمام من لفظ الأمر لأنه طلب الحرص على الشيء والتمسك به ﴿فريضة﴾ أي حقاً فرضه الله وأوجبه ﴿كلالة﴾ أن يموت الرجل ولا ولد له ولا والد أي لا أصل له ولا فرع لأنها مشتقة من الكل بمعنى الضعف يقال : كلّ الرجل إذا ضعف وذهبت قوته ﴿حدود الله﴾ أحكامه وفرائضه المحدودة التي لا تجوز مجاوزتها .

سبب النزول : روي أن امرأة « سعد بن الربيع » جاءت رسول الله ﷺ بإنيتها فقالت : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتل أبوهما سعد معك بأحد شهيداً ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً ، ولا تُنكحان إلا بما لعمهما فقال ﷺ : يقضي الله في ذلك فنزلت آية الموارث ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ الآية فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما أن أعطى ابنتي سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقي فهو لك^(١) .

(١) رواه أبو داود والترمذي .

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ۖ فَإِن كُن نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُن ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتُهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ ءَابَاءُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ * وَلَكُم نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دِينٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَنَّ

التفسير : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ أي يأمركم الله ويعهد إليكم بالعدل في شأن ميراث أولادكم ﴿لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أي للابن من الميراث مثل نصيب البنتين ﴿فَإِن كُن نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ أي إن كان الوارث إناثاً فقط اثنتين فأكثر ﴿فَلَهُن ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي فلبنتين فأكثر ثلثا التركة ﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أي وإن كانت الوارثة بنتاً واحدة فلها نصف التركة . . بدأ تعالى بذكر ميراث الأولاد ثم ذكر ميراث الأبوين لأن الفرع مقدم في الإرث على الأصل فقال تعالى ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ أي للأب السدس وللأم السدس ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ أي من تركة الميت ﴿إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي إن وجد للميت ابن أو بنت لأن الولد يطلق على الذكر والأنثى ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتُهُ أَبَوَاهُ﴾ أي فإن لم يوجد للميت أولاد وكان الوارث أبواه فقط أو معها أحد الزوجين ﴿فَلَأُمُّهُ الثُّلُثُ﴾ أي فللأم ثلث المال أو ثلث الباقي بعد فرض أحد الزوجين والباقي للأب ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلَأُمُّهُ السُّدُسُ﴾ أي فإن وجد مع الأبوين إخوة للميت « اثنان فأكثر » فالأم ترث حينئذ السدس فقط والباقي للأب ، والحكمة أن الأب مكلف بالنفقة عليهم دون أمهم فكانت حاجته إلى المال أكثر ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ﴾ أي إن حق الورثة يكون بعد تنفيذ وصية الميت وقضاء ديونه فلا تقسم التركة إلا بعد ذلك ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي إنه تعالى تولى قسمة الموارث بنفسه وفرض الفرائض على ما علمه من الحكمة ، فقسم حيث توجد المصلحة وتتوفر المنفعة ولو ترك الأمر إلى البشر لم يعلموا أيهم أنفع لهم فيضعون الأموال على غير حكمة ولهذا أتبعه بقوله ﴿إِنَ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي إنه تعالى عليم بما يصلح لخلقته حكيم فيما شرع وفرض . ثم ذكر تعالى ميراث الزوج والزوجة فقال ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ أي ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم من المال إن لم يكن لزوجاتكم أولاد منكم أو من غيركم ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ﴾ أي من ميراثهن ، وألحق بالولد في ذلك ولد الإبن بالإجماع ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دِينٍ﴾ أي من بعد الوصية وقضاء الدين ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾ أي ولزوجاتكم واحدة فأكثر الربع مما تركتم من الميراث إن لم يكن

مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصُونَ بِهَا أَوْ دِينَ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ ۚ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرِ مُضَارٍ ۚ وَصِيَّةٍ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

لكم ولد منهن أو من غيرهن ﴿فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم﴾ أي فإن كان لكم ولد منهن أو من غيرهن فلزوجاتكم الثمن مما تركتم من المال ﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ وفي تكرير ذكر الوصية والدين من الاعتناء بشأنهما ما لا يخفي . ﴿وإن كان رجل يورث كلالَةً﴾ أي وإن كان الميت يورث كلاله أي لا والده ولا ولد وورثه أقاربه البعيدون لعدم وجود الأصل أو الفرع ﴿أو امرأة﴾ عطف على رجل والمعنى أو امرأة تورث كلاله ﴿وله أخ أو أخت﴾ أي وللمورث أخ أو أخت من أم ﴿فلكل واحد منها السدس﴾ أي فلأخ من الأم السدس وللأخت للأم السدس أيضاً ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ أي فإن كان الإخوة والأخوات من الأم أكثر من واحد فإنهم يقتسمون الثلث بالسوية ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء ، قال في البحر : وأجمعوا على أن المراد في هذه الآية الإخوة للأم ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار﴾ أي بقصد أن تكون الوصية للمصلحة لا بقصد الإضرار بالورثة أي في حدود الوصية بالثلث لقوله عليه السلام (الثلث والثلث كثير) ﴿وصية من الله﴾ أي أوصاكم الله بذلك وصية ﴿والله عليم حلیم﴾ أي عالم بما شرع حلیم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره ﴿تلك حدود الله﴾ أي تلك الأحكام المذكورة شرائع الله التي حدّها لعباده ليعملوا بها ولا يعتدوها ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي من يطع أمر الله فيما حكم وأمر رسوله فيما بين ، يدخله جنات النعيم التي تجري من تحت أشجارها وأبنيتها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿وذلك الفوز العظيم﴾ أي الفلاح العظيم ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده﴾ أي ومن يعص أمر الله وأمر الرسول ويتجاوز ما حدّه تعالى له من الطاعات ﴿يدخله ناراً خالداً فيها﴾ أي يجعله مخلداً في نار جهنم لا يخرج منها أبداً ﴿وله عذاب مهين﴾ أي وله عذاب شديد مع الإهانة والإذلال والعذاب والنكال .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات من أصناف البديع ما يلي :

- ١ - الطباق في لفظ ﴿الذكر والانثى﴾ وفي ﴿ومن يطع ومن يعص﴾ وفي ﴿أباؤكم وأبناؤكم﴾ .
- ٢ - الإطناب في ﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ و﴿من بعد وصية يوصين بها أو دين﴾ والفائدة التأكيد على تنفيذ ما ذكر .

٣ - جناس الاشتقاق في ﴿وصية يوصى﴾ . ٤ - المبالغة في ﴿عليم ، حليم﴾ .

فكائِدَة : استنبط بعض العلماء من قوله تعالى ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ أنه تعالى أرحم من الوالدة بولدها حيث أوصى الوالدين بأولادهم ويؤيده ما ورد « لله أرحم بعباده من هذه بولدها » .
تنبية : وجه الحكمة في تضعيف نصيب الذكر هو احتياجه إلى مؤنة النفقة ومعاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق ، فنفقاته أكثر والتزاماته أضخم فهو إلى المال أحوج^(١) .

قال الله تعالى: ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم . . إلى قوله تعالى . . وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ من الآية (١٥) إلى نهاية الآية (٢١) .

النَّاسِكَة : لما بين سبحانه وتعالى حكم الرجال والنساء في باب النكاح والميراث ، بين حكم الحدود فيهن إذا ارتكبن الحرام ، ثم أعقبه بالتحذير عن عادات الجاهلية من ظلم النساء ، وأكل مهورهن ، وعدم معاملتهن المعاملة الإنسانية الشريفة .

اللغات : ﴿واللاتي﴾ جمع التي على غير قياس ﴿الفاحشة﴾ الفعلة القبيحة والمراد بها هنا الزنا ﴿واللذان﴾ تشبيه الذي ﴿التوبة﴾ أصل التوبة الرجوع وحقيقتها الندم على فعل القبيح ﴿كرهاً﴾ بفتح الكاف بمعنى الإكراه وبضمها بمعنى المشقة ﴿حملته أمه كرهاً﴾ تعضلوهن ﴿تمنعوهن يقال عضل المرأة إذا منعها الزواج﴾ بهتاناً ﴿ظلماً وأصله الكذب الذي يتحير منه صاحبه﴾ أفضى ﴿وصل إليها ، وأصله من الفضا وهو السعة﴾ ميثاقاً غليظاً عهداً شديداً مؤكداً وهو عقد النكاح .

وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾

سَبَبُ الزَّوْلِ : روي أن أهل الجاهلية كانوا إذا مات الرجل جاء ابنه من غيرها أو وليه فورث امرأته كما يرث ماله وألقى عليها ثوباً ، فإن شاء تزوجها بالصدّاق الأول وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً . .﴾^(٢) .

التفسير : ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ أي اللواتي يزين من أزواجكم فاطلبوا أن يشهد على اقترافهن الزنا أربعة رجال من المسلمين الأحرار ﴿فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت﴾ أي فإن ثبت بالشهود جرميتهن فاحبسوهن في البيوت ﴿حتى يتوفاهن الموت﴾ أي احبسوهن فيها إلى الموت ﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ أي يجعل الله لهن مخلصاً بما يشرعه من الأحكام قال

(١) انظر الحكمة التشريعية في كتابنا الموارث في الشريعة الإسلامية ص ١٨ . (٢) زاد المسير ٢/ ٣٩ .

وَالَّذِينَ يَأْتِيهِمْ مِنْكُمْ فَعَاذُوهُمْ فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴿١٧١﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١٧٢﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْعَنَانَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴿١٧٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَجِدُ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ

ابن كثير : كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة حبست في بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت ، حتى أنزل الله سورة النور فمسحها بالجلد أو الرجم^(١) ﴿واللذان يأتيانها منكم﴾ أي واللذان يفعلان الفاحشة والمراد به الزاني والزانية بطريق التغليب ﴿فأذوهما﴾ أي بالتوبيخ والتفريع والضرب بالنعال ﴿فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما﴾ أي فإن تابا عن الفاحشة وأصلحا سيرتهما فكفوا عن الإيذاء لهما ﴿إن الله كان تواباً رحيماً﴾ أي مبالغاً في قبول التوبة واسع الرحمة . قال الفخر الرازي : « خص الحبس في البيت بالمرأة وخص الإيذاء بالرجل لأن المرأة إنما تقع في الزنا عند الخروج والبروز فإذا حبست في البيت انقطعت مادة هذه المعصية ، وأما الرجل فإنه لا يمكن حبسه في البيت لأنه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه واكتساب قوت عياله فلا جرم جعلت عقوبتها مختلفة »^(٢) ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة﴾ أي إنما التوبة التي كتب الله على نفسه قبولها هي توبة من فعل المعصية سفهاً وجهالةً مقدراً قبح المعصية وسوء عاقبتها ثم ندم وأناب ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ أي يتوبون سريعاً قبل مفاجأة الموت ﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾ أي يتقبل الله توبتهم ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ أي عليماً بخلقته حكيماً في شرعه ﴿وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني نبت الآن﴾ أي وليس قبول التوبة ممن ارتكب المعاصي واستمر عليها حتى إذا فاجأه الموت تاب وأناب فهذه توبة المضطر وهي غير مقبولة^(٣) وفي الحديث (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) ﴿ولا الذين يموتون وهم كفار﴾ أي يموتون على الكفر فلا يقبل إيمانهم عند الاحتضار ﴿أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ أي هيأنا وأعدنا لهم عذاباً مؤلماً ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا﴾ أي لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالميتات ينتقل بالإرث من إنسان إلى آخر وترثوهن بعد موت أزواجهن كرهًا عنهن قال ابن عباس : كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحقَّ بامرأته إن شاءوا تزوجها أحدهم ، وإن شاءوا زوجوها غيرهم ، وإن شاءوا منعوها الزواج^(٤) ﴿ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتينموهن﴾ أي ولا يحل

(١) مختصر ابن كثير ١/٣٦٦ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٩/٢٣٥ . (٣) قال الشهيد سيد قطب في الظلال : « فهذه توبة المضطر لجت به الغواية وأحاطت به الخطيئة ، توبة الذي يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب ولا فسحة لغفارة الخطيئة ، وهذه لا يقبلها الله لأنها لا تنشىء صلاحاً في القلب ولا صلاحاً في الحياة ولا تدل على تبدل في الطبع ولا في الاتجاه » . (٤) القرطبي ٥/٩٤ .

بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسِيءٌ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٦﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَيْبَتِنَا وَإِنَّمَا مِيثَاقُكُمْ ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَاهُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

لكم أن تمنعوهن من الزواج أو تضيقوا عليهن لتذهبوا ببعض ما دفعتموه لهن من الصَّدَاقِ ﴿١٦﴾ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴿١٧﴾ أي إلا في حال إتيانهن بفاحشة الزنا وقال ابن عباس : الفاحشة المبينة النشوز والعصيان ﴿١٨﴾ وعاشروهن بالمعروف ﴿١٩﴾ أي صاحبوهن بما أمركم الله به من طيب القول والمعاملة بالإحسان ﴿٢٠﴾ فإن كرهتموهن فمسيء أي كرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴿٢١﴾ أي فإن كرهتم صحبتهن فاصبروا عليهن واستمروا في الإحسان إليهن فمسيء أن يرزقكم الله منهن ولداً صالحاً تقرُّ به أعينكم ، وعسى أن يكون في الشيء المكروه الخير الكثير وفي الحديث الصحيح (لا يفرُّكُ «أي لا يبغض» مؤمنٌ مؤمنةٌ إن كره منها خلقاً رضي منها آخر) ثم حذّر تعالى من أخذ شيء من المهر بعد الطلاق فقال ﴿٢٢﴾ وإن أردتم استبدال زوجٍ مكان زوجٍ ﴿٢٣﴾ أي وإن أردتم أيها المؤمنون نكاح امرأة مكان امرأة طلقتموها ﴿٢٤﴾ وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ﴿٢٥﴾ أي والحال انكم كنتم قد دفعتم مهراً كبيراً يبلغ قنطاراً ﴿٢٦﴾ فلا تأخذوا منه شيئاً ﴿٢٧﴾ أي فلا تأخذوا ولو قليلاً من ذلك المهر ﴿٢٨﴾ تأخذونه بهتناً وإثمًا مبيناً ﴿٢٩﴾ استفهام إنكاري أي أتأخذونه باطلاً وظلماً ؟ ﴿٣٠﴾ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴿٣١﴾ أي كيف يباح لكم أخذه وقد استمتعتم بهن بالمعاشرة الزوجية ؟ ﴿٣٢﴾ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴿٣٣﴾ أي أخذن منكم عهداً وثيقاً مؤكداً هو « عقد النكاح » قال مجاهد : الميثاق الغليظ عقدة النكاح وفي الحديث (اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله) ﴿٣٤﴾ .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات أنواعاً من البيان والبديع وهي بإيجاز كما يلي :

١ - المجاز العقلي في قوله ﴿يتوفاهن الموت﴾ والمراد يتوفاهن الله أو ملائكته .

٢ - الاستعارة في ﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ استعار لفظ الميثاق للعقد الشرعي .

٣ - الجناس المغاير في ﴿فإن تابا . . توأبا﴾ وفي ﴿كرهتموهن . . أن تكرهوا﴾ .

٤ - المبالغة في تفخيم الأمر وتأكيدده ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ لتعظيم الأمر والمبالغة فيه .

فَكَايِدَةٌ : كنى الله تعالى عن الجماع بلفظ الإفضاء ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ لتعليم المؤمنين الأدب الرفيع قال ابن عباس : « الإفضاء في هذه الآية الجماع ولكن الله كريم يكني » ﴿٣٥﴾ .

تَبَيَّنَهُ : خطب عمر رضي الله عنه فقال : أيها الناس لا تغالوا في مهور النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ ما أصدق امرأة من نسائه ولا أحداً من بناته فوق اثنتي عشرة أوقية ، فقامت إليه امرأة فقالت : يا عمر ، يعطينا الله وتحرمنا ؟ يقول تعالى ﴿ وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ﴾ فقال رضي الله عنه : أصابت امرأة وأخطأ عمر ^(١) .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ .. إِلَى .. وَنَدْخَلَكُمْ مَدْخِلاً كَرِيماً ﴾ من الآية (٢٢) إلى نهاية الآية (٣١) .

الْمَنَاسِكَةُ : لما أوصى تعالى بحسن معاشررة الأزواج ، وحذر من إيذائهن أو أكل مهورهن ، عقبه بذكر المحرمات من النساء اللواتي لا يجوز الزواج بهن بسبب القرابة أو المصاهرة أو الرضاع .

اللِّغْطَرُ : ﴿ سَلْفٌ ﴾ ماضى ﴿ مَقْتاً ﴾ المقت : البغض الشديد لمن تعاطى القبيح وكان العرب يسمون زواج الرجل امرأة أبيه « نكاح المقت » ﴿ رَبَائِبِكُمْ ﴾ جمع ربيبة وهي بنت المرأة من آخر سميت به لأنها تربت في حجر الزوج ﴿ حَجُورِكُمْ ﴾ جمع حَجْر أي في تربيتكم يقال : فلان في حجر فلان إذا كان في تربيته قال أبو عبيدة : في حجورك أي في بيوتكم ﴿ حَلَائِلُ ﴾ جمع حليلة بمعنى الزوجة سميت بذلك لأنها تحل لزوجها ﴿ مَحْصِنِينَ ﴾ متعففين عن الزنى ﴿ مَسَافِحِينَ ﴾ السفاح : الزنى وأصله في اللغة من السفح وهو الصبّ وسمي سفاحاً لأنه لا غرض للزاني إلا سفح النطفة وقضاء الشهوة ﴿ طَوَّالاً ﴾ سعةً وغنى ﴿ أَخْدَانٌ ﴾ جمع خِدْن وهو الصديق للمرأة يزني بها سرّاً ﴿ الْعَنْتُ ﴾ الفجور وأصله الضرر والفساد ﴿ سَنَنٌ ﴾ جمع سنة وهي الطريقة ﴿ نَصْلِيهِ ﴾ ندخله .

سَبَبُ النَّزُولِ : أ - لما توفي « أبو قيس بن الأسلت » وكان من صالحى الأنصار ، خطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت : إني أعدك ولداً !! ولكني آتي رسول الله ﷺ استأمره فأنته فأخبرته فأنزل الله ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ .. ﴾ ^(٢) الآية .

ب - عن أبي سعيد الخدري قال : أصبنا سبايا يوم اوطاس لهن أزواج ، فكرهنا أن نفع عليهن فسألنا النبي ﷺ فنزلت ﴿ وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ .. ﴾ الآية قال : فاستحللناهن ^(٣) .

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٢٢﴾

النَّفْسِيرُ : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ أي لا تتزوجوا ما تزوج آبائكم من النساء لكن ما سبق فقد عفا الله عنه ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتاً ﴾ أي فإن نكاحهن أمر قبيح قد تنهى في القبح والشناعة ، وبلغ الذروة العليا في الفظاعة والبشاعة ، إذ كيف يليق بالإنسان أن يتزوج امرأة أبيه وأن يعلوها بعد وفاته وهي مثل أمه ؟ ﴿ وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ أي بش ذلك النكاح القبيح الخبيث

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعُمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ
الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهُنَّ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ الَّتِي فِي جُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ
الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ
تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ^ع إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾ * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ
إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِحْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ^ع
طريقاً، ثم بيّن تعالى المحرمات من النساء فقال ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أي حُرِّمَ عليكم نكاح الأمهات
وشمل اللفظ الجدات من قبل الأب أو الأم ﴿وبَنَاتِكُمْ﴾ وشمل بنات الأولاد وإن نزلن ﴿وأَخَوَاتِكُمْ﴾
أي شقيقة كانت أو لأب أو لأم ﴿وعَمَّاتِكُمْ﴾ أي أخوات آبائكم وأخوات أجدادكم ﴿وبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ
الْأَخْتِ﴾ أي بنت الأخ وبنت الأخت ويدخل فيهن أولادهن ، وهؤلاء المحرمات بالنسب وهن كما تقدم
« الأمهات ، البنات ، الأخوات ، العمات ، الخالات ، بنات الأخ ، بنات الأخت » ثم شرع تعالى في
ذكر المحرمات من الرضاع فقال ﴿وأُمَّهَاتِكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتِكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾ نزل الله الرضاعة
منزلة النسب حتى سمى المرضعة أمّاً للرضيع أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك ، كذلك يحرم عليك
أمك التي أرضعتك ، وكذلك أختك من الرضاع ، ولم تذكر الآية من المحرمات بالرضاع سوى
« الأمهات والأخوات » وقد وضحت السنة النبوية أن المحرمات بالرضاع سبع كما هو الحال في النسب لقوله عليه
السلام (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب) (١) ثم ذكر تعالى المحرمات بالمصاهرة فقال ﴿وأُمَّهَاتُكُمْ
نِسَائِكُمْ﴾ أي وكذلك يحرم نكاح أم الزوجة سواء دخل بالزوجة أو لم يدخل لأن مجرد العقد على البنت
يحرم الأم ﴿ورَبَائِبِكُمُ اللَّاتِي فِي جُورِكُمْ﴾ أي بنات أزواجكم اللاتي ربيتموهن ، وذكر الحجر ليس
للقيد وإنما هو للغالب لأن الغالب أنها تكون مع أمها ويتولى الزوج تربيتها وهذا بالإجماع ﴿من نِسَائِكُمْ
اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾ الدخول هنا كناية عن الجماع أي من نِسَائِكُمْ
اللاتي أدخلتموهن الستر قاله ابن عباس فإن لم تكونوا أيها المؤمنون قد دخلتم بأُمَّهَاتِهِنَّ وفارقتموهن فلا
جناح عليكم في نكاح بناتهن ﴿وحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ أي وحُرِّمَ عليكم نكاح زوجات
أبنائكم الذين ولدتموهن من أصلابكم بخلاف من تبنتموهن فلكنم نكاح حلائلهم ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ
الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي وحُرِّمَ عليكم الجمع بين الأختين معاً في النكاح إلا ما كان منكم في الجاهلية
فقد عفا الله عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي غفوراً لما سلف رحيماً بالعباد ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا
مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي وحُرِّمَ عليكم نكاح المتزوجات من النساء إلا ما ملكتموهن بالسبي فيحل لكم
وطؤهن بعد الاستبراء ولو كان هنَّ أزواج في دار الحرب لأن بالسبي تنقطع عصمة الكافر ﴿ولا تمسكوا

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ۚ
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا
 مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ
 أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرٍ مُسَفَّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ
 فَإِنَّهُنَّ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ۚ

بِعِصْمِ الْكُوفَرِ ﴿﴾ (كتاب الله عليكم) أي هذا فرض الله عليكم ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ أي
 أحل لكم نكاح ما سواهن ﴿أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين﴾ أي إرادة أن تطلبوا النساء بطريق
 شرعي فتدفعوا لهن المهور حال كونكم متزوجين غير زانين ﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن
 فريضة﴾ أي فما تلذذتم به من النساء بالنكاح فآتوهن مهورهن فريضة فرضها الله عليكم بقوله ﴿وآتوا
 النساء صدقاتهن نحلة﴾ ثم قال تعالى ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة﴾ أي لا إثم
 عليكم فيما أسقطن من المهر برضاهن كقوله ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ قال
 ابن كثير: أي إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك ﴿إن
 الله كان عليماً حكيماً﴾ أي عليماً بمصالح العباد حكماً فيما شرع لهم من الأحكام ﴿ومن لم يستطع منكم
 طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ أي من لم يكن منكم ذا سعة وقدرة أن يتزوج الحرائر المؤمنات ﴿فمما
 ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ أي فله أن ينكح من الإماء المؤمنات اللاتي يملكنهن المؤمنون ﴿والله
 أعلم بإيمانكم﴾ جملة معترضة لبيان أنه يكفي في الإيمان معرفة الظاهر والله يتولى السرائر ﴿بعضكم من
 بعض﴾ أي إنكم جميعاً بنو آدم ومن نفس واحدة فلا تستنكفوا من نكاحهن قرب أمة خير من حرة ، وفيه
 تأنيس لهم بنكاح الإماء فالعبرة بفضل الإيمان لا بفضل الأحساب والأنساب ﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾
 أي تزوجوهن بأمر أسيادهن وموافقة مواليهن ﴿وآتوهن أجورهن بالمعروف﴾ أي ادفعوا لهن مهورهن عن
 طيب نفس ولا تبخسوهن منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات ﴿محصنات غير مسافحات﴾ أي
 عفيفات غير مجاهرات بالزنى ﴿ولا متخذات أخدان﴾ أي ولا متسترات بالزنى مع أخدانهن قال ابن
 عباس: الخدن هو الصديق للمرأة يزني بها سراً فنهى الله تعالى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴿١١﴾
 ﴿فإذا أحصن فإن آتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ أي فإذا أحصن بالزواج ثم
 زنين فعليهن نصف ما على الحرائر من عقوبة الزنى ﴿ذلك لمن خشي العنت منكم﴾ أي إنما يباح نكاح
 الإماء لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنى ﴿وأن تصبروا خير لكم﴾ أي صبركم وتعففكم عن نكاحهن

وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ۗ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

أفضل لثلا يصير الولد رقيقاً وفي الحديث (من أراد أن يلقي الله طاهراً مطهراً فليتكح الحرائر)^(١) ﴿والله غفور رحيم﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ أي يريد الله أن يفصل لكم شرائع دينكم ومصالح أموركم ﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ أي يرشدكم إلى طرائق الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم ﴿ويتوب عليكم﴾ أي يقبل توبتكم فيما اقترفتموه من الإثم والمحارم ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بأحوال العباد حكيم في تشريعه لهم ﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ كرره ليؤكد سعة رحمته تعالى على العباد أي يجب بما شرع من الأحكام أن يطهركم من الذنوب والآثام ، ويريد توبة العبد ليتوب عليه ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ أي ويريد الفجرة أتباع الشيطان أن تعدلوا عن الحق إلى الباطل وتكونوا فسقة فجرة مثلهم ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ أي يريد تعالى بما يسر أن يسهل عليكم أحكام الشرع ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ أي عاجزاً عن مخالفة هواه لا يصبر عن إتيان الشهوات ، ثم حذر تعالى من أكل أموال الناس بالباطل فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا يأكل بعضكم أموال بعض بالباطل وهو كل طريق لم تبحه الشريعة كالسرقة والخيانة والغصب والربا والقمار وما شاكل ذلك ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ أي إلا ما كان بطريق شرعي شريف كالتجارة التي أحلها الله قال ابن كثير : الاستثناء منقطع أي لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها^(٢) ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾ أي لا يسفك بعضكم دم بعض ، والتعبير عنه بقتل النفس للمبالغة في الزجر ، أو هو على ظاهره بمعنى الانتحار وذلك من رحمته تعالى بكم ﴿ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً﴾ أي ومن يرتكب ما نهى الله عنه معتدياً ظلماً لا سهواً ولا خطأً ﴿فسوف نصليه ناراً﴾ أي ندخله ناراً عظيمة يحترق فيها ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي هيناً يسيراً لا عسر فيه لأنه تعالى لا يعجزه شيء ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ أي

(١) أخرجه ابن ماجه عن أنس مرفوعاً . (٢) مختصر ابن كثير ١/٣٧٨ .

إن تتركوا أيها المؤمنون الذنوب الكبائر التي نهاكم الله عز وجل عنها منح عنكم صغائر الذنوب بفضلنا ورحمتنا ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي نُدْخِلْكُمْ الجنة دار الكرامة والنعيم ، التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ! .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات أنواعاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - المجاز المرسل في ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ أي حرّم عليكم نكاح الأمهات فهو على حذف مضاف .

٢ - الطباق في ﴿حرمت .. وأحلّ﴾ وفي ﴿محصنين .. ومسافحين﴾ وفي ﴿كباثر .. وسيئاتكم﴾ لأن المراد بالسيئات الصغائر من الذنوب .

٣ - الكناية في ﴿اللاتي دخلتم بهن﴾ فهو كناية عن الجماع كقولهم بنى عليها ، وضرب عليها الحجاب .

٤ - الاستعارة في ﴿وأتوهن أجورهن﴾ استعار لفظ الأجور للمهور ، لان المهر يشبه الاجر في الصورة .

٥ - الجناس المغاير في ﴿تنكحوا ما نكح﴾ وفي ﴿أرضعنكم .. من الرضاعة﴾ وفي ﴿محصنات .. فإذا أحصن﴾ والإطناب في مواضع ، والحذف في مواضع .

الفوائد : الأولى : استنبط العلماء من آية المحرمات القاعدة الآتية وهي «العقد على البنات يحرم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرم البنات» .

الثانية : حمل بعض الروافض والشيعة قوله تعالى ﴿فما استمتعتم به منهن﴾ على نكاح المتعة وهو خطأ فاحش لأن الغرض من الاستمتاع هنا التمتع بالأزواج عن طريق الجماع لانكاح المتعة فقد ثبت حرمة نكاح المتعة بالسنة والإجماع ولا عبرة بما خالف ذلك^(١) .

الثالثة : قال ابن عباس : الكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار ، أو غضب ، أو لعنة ، أو عذاب .

الرابعة : روى سعيد بن جبير أن رجلاً قال لابن عباس : الكبائر سبع ؟ قال : هي إلى السبعمة أقرب منها إلى السبع ، ولكن لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع إصرار ، ذكره القرطبي .

قال تعالى : ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض .. إلى .. إن الله كان عفواً غفوراً﴾ من الآية (٣٢) إلى نهاية الآية (٤٣) .

(١) انظر تفصيل البحث وأدلة التحريم للمتعة في كتابنا روائع البيان ١/٥٧ فيه بحث هام .

المناسكة : لما ذكر تعالى المحرمات من النساء وذكر قبلها تفضيل الله الرجال عليهن في الميراث ، جاءت الآيات تنهى عن تمني ما خص الله به كلاً من الجنسين لأنه سبب للحسد والبغضاء ، ثم ذكر تعالى حقوق كل من الزوجين على الآخر ، وأرشد إلى الخطوات التي ينبغي التدرج بها في حالة النشوز والعصيان .

اللغة : ﴿موالي﴾ المولى : الذي يتولى غيره يقال للعبد مولى وللسيد مولى لأن كلاً منهما يتولى الآخر والمراد به هنا الورثة والعصبة ﴿قوامون﴾ قوام : مبالغة من القيام على الأمر بمعنى حفظه ورعايته أي يقومون عليهن قيام الولاية على الرعية ﴿قانتات﴾ مطيعات وأصل القنوت دوام الطاعة ﴿نشوزهن﴾ عصيانهن وترفعهن وأصله المكان المرتفع ومنه تل ناشز ويقال : نشزت المرأة إذا ترفعت على زوجها وعصته ﴿المضاجع﴾ جمع مضجع وهو المرقد ﴿شقاق﴾ الشقاق : الخلاف والعداوة مأخوذ من الشق بمعنى الجانب لأن كلاً من المتشاقين يكون في شق غير شق صاحبه أي في ناحية ﴿الجُنُب﴾ البعيد الذي ليس له قرابة تربطه بجاره ، وأصل الجنابة : البعد ﴿مختالاً﴾ المختال : ذو الخيلاء والكبر ﴿مثقال﴾ وزن ﴿الغائط﴾ الحدث وأصله المطمئن من الأرض وكانوا إذا أرادوا قضاء الحاجة أتوا منخفضاً من الأرض فكسني عن الحدث بالغائط .

سبب النزول : أ- عن مجاهد قال : قالت « أم سلمة » يا رسول الله : يغزو الرجال ولا يغزو وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾^(١) الآية .

ب- روي أن سعد بن الربيع - وكان نقيباً من نقباء الأنصار - نشزت عليه امرأته « حبيبة بنت زيد » فلطمها فانطلق أبوها معها إلى رسول الله ﷺ فقال : أفرشته كريمة فلطمها فقال النبي ﷺ لتقتص منه فنزلت ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ فقال ﷺ : (أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير)^(٢) .

وَلَا تَتَمَنَوْنَ مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلنِّسَاءِ وَنَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا
وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ

التفسير : ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ أي لا تتمنوا أيها المؤمنون ما خص الله تعالى به غيركم من أمر الدنيا أو الدين ذلك يؤدي إلى التحاسد والتباغض قال الزمخشري : نهوا عن الحسد وعن تمني ما فضل الله بعض الناس على بعض من الجاه والمال لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد ﴿للرجال نصيب مما كتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ أي لكل من الفريقين في الميراث نصيب معين المقدار قال الطبري : كل له جزاء على عمله بحسبه إن خيراً فخير وإن شراً فشر^(٣) ﴿واسألوا الله من فضله﴾ أي وسلوا الله من فضله يعطكم فإنه كريم وهاب ﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾ أي ولذلك جعل الناس طبقات ورفع بعضهم درجات ﴿ولكل جعلنا موالى﴾

(١) أسباب النزول ص ٨٥ (٢) الكشاف ١/ ٢٩٠ . (٣) الطبري ٨/ ٢٦٧ .

وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَعَاتُوهُمْ نَصِيْبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ الرَّجَالُ قَوْمُونَ عَلَىٰ
النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَنَتَاتٌ حَفِظَتْ
لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۗ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُسُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ ۚ فَإِنْ
أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾

مما ترك الوالدان والأقربون ﴿٣٣﴾ أي ولكل إنسان جعلنا عصبته يرثون ماله مما تركه الوالدان والأقربون
الميراث ﴿٣٤﴾ والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ﴿٣٥﴾ أي والذين حالفتموهم في الجاهلية على النصره والإرث
فأعطوهم حظهم من الميراث ، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام ثم نسخ قال الحسن : كان الرجل يحالف
الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما الآخر فنسخ الله ذلك بقوله ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾
وقال ابن عباس : كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه بالأخوة
التي آخى رسول الله ﷺ بينهم فلما نزلت ﴿ولكل جعلنا موالى﴾ نسخت ^(١) ﴿إن الله كان على كل شيء
شهيداً﴾ أي مطلعاً على كل شيء وسيجازيكم عليه . . ثم بين تعالى أن الرجال يتولون أمر النساء في
المسئولية والتوجيه فقال ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ أي قائمون عليهن بالأمر والنهي ، والإنفاق
والتوجيه كما يقوم الولاة على الرعية ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾ أي بسبب
ما منحهم الله من العقل والتدبير ، وخصهم به من الكسب والإنفاق ، فهم يقومون على النساء بالحفظ
والرعاية والإنفاق والتأديب قال أبو السعود : « والتفضيل للرجل لكمال العقل وحسن التدبير ورزانة الرأي
ومزيد القوة ، ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية والشهادة والجهاد وغير ذلك » ^(٢) ﴿فالصالحات
قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾ هذا تفصيل لحال النساء تحت رياسة الرجل ، وقد ذكر تعالى
أنهن قسان : قسم صالحات مطيعات ، وقسم عاصيات متمردات ، فالنساء الصالحات مطيعات لله
ولأزواجهن ، قائمات بما عليهن من حقوق ، يحفظن أنفسهن عن الفاحشة وأموال أزواجهن عن التبذير كما
أنهن حافظات لما يجري بينهن وبين أزواجهن مما يجب كتمه ويحمل ستره وفي الحديث (إن من شر الناس عند
الله منزلة يوم القيامة ، الرجل يُفْضِي إلى امرأته وتُفْضِي إليه ثم ينشر أحدهما سر صاحبه) ﴿واللاتي
تخافون نشوزهن﴾ هذا القسم الثاني وهن النساء العاصيات المتمردات أي واللاتي يتكبرن ويتعالين عن
طاعة الأزواج فعليكم أيها الرجال أن تسلكوا معهن سبل الإصلاح ﴿فعظوهن واهجروهن في المضاجع
واضربوهن﴾ أي فخوفوهن الله بطريق النصح والإرشاد ، فإن لم ينجح الوعظ والتذكير فاهجروهن في
الفراش فلا تكلموهن ولا تقربوهن قال ابن عباس : الهجر ألا يجامعها وأن يضاجعها على فراشها ويوليها
ظهره ^(٣) ، فإن لم يرتدعن فاضربوهن ضرباً غير مبرح ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾ أي فإن
أطعن أمركم فلا تلتمسوا طريقاً لا يذائهن ﴿إن الله كان عليماً كبيراً﴾ أي فإن الله تعالى أعلى منكم وأكبر

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٨٤ . (٢) إرشاد العقل السليم ١/ ٣٣٩ . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٣٨٦ .

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٤٥﴾ * وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْعًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٤٦﴾ الَّذِينَ يَخْلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَاللَّهُ مَنَّانٌ فَضْلُهُ وَأَعْتَدْنَا لَهُ وَلِيَهُنَّ يَنْتَقِمُ مَن ظَلَمَهُنَّ وَبَغَىٰ عَلَيْهِنَّ . . انظر كيف يعلمنا سبحانه أن تؤدب نساءنا وانظر إلى ترتيب العقوبات ودقتها حيث أمرنا بالوعظ ثم بالهجران ثم بالضرب ضرباً غير مبرح ثم ختم الآية بصفة العلو والكبر لينبه العبد على أن قدرة الله فوق قدرة الزوج عليها وأنه تعالى عون الضعفاء وملأذ المظلومين ! ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ أي وإن خشيتن أيها الحكام مخالفة وعداوة بين الزوجين فوجهوا حكماً عدلاً من أهل الزوج وحكماً عدلاً من أهل الزوجة يجتمعان فينظران في أمرهما ويفعلان ما فيه المصلحة ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ أي إن قصدا إصلاح ذات البين وكانت نيتهم صحيحة وقلوبها ناصحة لوجه الله ، بورك في وساطتها وأوقع الله بين الزوجين الوفاق والألفة وألقى في نفوسهما المودة والرحمة ﴿ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ أي علماً بأحوال العباد حكماً في تشريعه لهم ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ أي وحدوه وعظموه ولا تشركوا به شيئاً من الأشياء صنأً أو غيره ، واستوصوا بالوالدين برأً وإنعاماً وإحساناً وإكراماً ﴿ وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ ﴾ أي وأحسنوا إلى الأقارب عامة وإلى اليتامى والمساكين خاصة ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أي الجار القريب فله عليك حق الجوار وحق القرابة ﴿ وَالْجَارِ الْجُنُبِ ﴾ أي الجار الأجنبي الذي لا قرابة بينك وبينه ﴿ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ ﴾ قال ابن عباس : هو الرفيق في السفر ، وقال الزمخشري : « هو الذي صحبتك إما رفيقاً في سفر ، أو جاراً ملاصقاً ، أو شريكاً في تعلم علم ، أو قاعداً إلى جنبك في مجلس أو غير ذلك ، من له أدنى صحبة التأمت بينك وبينه فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه وقيل : هي المرأة » ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ أي المسافر الغريب الذي انقطع عن بلده وأهله ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أي المماليك من العبيد والإماء ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ أي متكبراً في نفسه يأنف عن أقاربه وجيرانه فخوراً على الناس مترفعاً عليهم يرى أنه خير منهم ، وهذه آية جامعة جاءت حثاً على الإحسان واستطراداً لمكارم الأخلاق ، ومن تدبرها حق التدبر أغنته عن كثير من مواظب البلغاء ، ونصائح الحكماء . ثم بين تعالى صفات هؤلاء الذين يبغضهم الله فقال ﴿ الَّذِينَ يَخْلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ أي يمنعون ما أوجب الله عليهم من الإنفاق في سبيل الله ويأمرون غيرهم بترك الإنفاق ، والآية في اليهود نزلت في جماعة منهم كانوا يقولون للأنصار لا تنفقوا أموالكم في الجهاد والصدقات ، وهي مع ذلك عامة ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي يخفون ما عندهم من المال والغنى ، ويخفون نعمة عليه السلام الموجود في التوراة ﴿ وَأَعْتَدْنَا

(١) الكشاف ١/٣٩٣ وهذا الرأي اختيار الطبري أيضاً . (٢) هذا ما رجحه الطبري وأبو السعود .

لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ
يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ
اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَدِّعُ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَإِنْ كُنْتُمْ إِلَّا رِجَالًا مَدْبُورًا ﴿٤٢﴾ وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٣﴾

للكافرين عذاباً مهيناً ﴿٣٧﴾ أي هيأنا للجاحدين نعمة الله عذاباً أليماً مع الخزي والإذلال لهم ﴿٣٨﴾ والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ﴿٣٩﴾ أي ينفقونها للفخار والشهرة لا ابتغاء وجه الله ﴿٤٠﴾ ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴿٤١﴾ أي لا يؤمنون بالإيمان الصحيح بالله واليوم الآخر ، والآية في المنافقين ﴿٤٢﴾ ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً ﴿٤٣﴾ أي من كان الشيطان صاحباً له وخليلاً يعمل بأمره فساء هذا القرين والصاحب ﴿٤٤﴾ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ﴿٤٥﴾ الإستفهام للإنكار والتوبيخ أي ماذا يضيرهم وأي تبعة ووبال عليهم في الإيمان بالله والإنفاق في سبيله ؟ قال الزمخشري : وهذا كما يقال للمتقمم : ما ضرك لو عفوت ؟ وللعاقب : ما كان يرزؤك لو كنت باراً ؟ وهو ذم وتوبيخ وتجهيل بمكان المنفعة (١) وكان الله بهم عليماً ﴿٤٦﴾ وعيد لهم بالعقاب أي سيجازيهم بما عملوا ﴿٤٧﴾ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴿٤٨﴾ أي لا يخس أحداً من عمله شيئاً ولو كان وزن ذرة وهي الهباءة وذلك على سبيل التمثيل تنبيهاً بالقليل على الكثير ﴿٤٩﴾ وإن تك حسنة يضاعفها ﴿٥٠﴾ أي وإن كانت تلك الذرة حسنة ينمها ويجعلها أضعافاً كثيرة ﴿٥١﴾ ويؤت من لده أجرأ عظيماً ﴿٥٢﴾ أي ويعط من عنده تفضلاً وزيادة على ثواب العمل أجرأ عظيماً وهو الجنة ﴿٥٣﴾ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴿٥٤﴾ أي كيف يكون حال الكفار والفجار حين تأتي من كل أمة بنبيها يشهد عليها ، وتأتي بك يا محمد على العصاة والمكذبين من أمتك تشهد عليهم بالجحود والعصيان ؟ ! كيف يكون موقفهم ؟ وكيف يكون حالهم ؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع ﴿٥٥﴾ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول ﴿٥٦﴾ أي في ذلك اليوم العصيب يتمنى الفجار الذين جحدوا وحدانية الله وعصوا رسوله ﴿٥٧﴾ لو تسوى بهم الأرض ﴿٥٨﴾ أي لو يدفنوا في الأرض ثم تسوى بهم كما تسوى بالموتى ، أو لو تشق الأرض فتبتلعهم ويكونون تراباً كقوله ﴿٥٩﴾ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴿٦٠﴾ وذلك لما يرون من أهوال يوم القيامة ﴿٦١﴾ ولا يكتُمون الله حديثاً ﴿٦٢﴾ أي لا يستطيعون أن يكتُموا الله حديثاً لأن جوارحهم تشهد عليهم بما فعلوه (٢) . . ثم أمر تعالى باجتنب الصلاة في حال السكر والجنابة

(١) الكشاف ١/ ٣٩٥ .

(٢) هذا التفسير على أن الجملة مستأنفة وهو الظاهر وقيل : إن الجملة معطوفة على السابق أي يودون أن يدفنوا تحت الأرض وأنهم لم يكتُموا ولم يكذبوا في قولهم ﴿٥٨﴾ والله ربنا ما كنا مشركين ﴿٥٩﴾ لأنهم إذا كتموا افتضحوا فليشدة الأمر يتمنون ان تسوى بهم الأرض ، انظر الكشاف

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا ءَاعَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ أي لا تصلوا في حالة السكر لأن هذه الحالة لا يتأتى معها الخشوع والخضوع بمناجاته سبحانه وتعالى ، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر روى الترمذي عن علي كرم الله وجهه أنه قال « صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموني فقرات « قل يا أيها الكافرون * أعبد ما تعبدون . ونحن نعبد ما تعبدون » فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾^(١) الآية ﴿ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾ أي ولا تقربوها وأنتم جنب أي غير طاهرين بإنزال أو إيلاج إذا كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء فصلوا على تلك الحالة بالتيمم ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ أي وإن كنتم مرضى ويضركم الماء ، أو مسافرين وأنتم محدثون أو أحدثتم ببول أو غائط ونحوهما حدثاً أصغر ولم تجدوا الماء ﴿أو لامستم النساء﴾ قال ابن عباس : هو الجماع ﴿فلم تجدوا ماء﴾ أي فلم تجدوا الماء الذي تطهرون به ﴿فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ أي اقصدوا عند عدم وجود الماء التراب الطاهر فتطهروا به وامسحوا بوجوهكم وأيديكم بذلك التراب ﴿إن الله كان عفواً غفوراً﴾ أي يرخص ويسهل على عباده لئلا يقعوا في الحرج .

البالغة : تضمنت هذه الآيات من الفصاحة والبيان والبديع ما يلي :

١ - الإطناب في قوله ﴿نصيب مما اكتسبوا . . ونصيب مما اكتسبن﴾ وفي ﴿حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ وفي ﴿والجار ذي القربى والجار الجنب﴾ .

٢ - الاستعارة في ﴿مما اكتسبوا﴾ شبه استحقاقهم للإرث وتملكهم له بالاكْتِسَاب واشتق من لفظ الاكْتِسَاب اكتسبوا على طريقة الاستعارة التبعية .

٣ - الكناية في ﴿واهجروهن في المضاجع﴾ فقد كنى بذلك عن الجماع وكذلك في ﴿لامستم النساء﴾ قال ابن عباس معناه : جامعتم النساء كما كنى عن الحدث بالغائط في قوله ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ .

٤ - صيغة المبالغة في ﴿الرجال قوامون﴾ لأن فعّال من صيغ المبالغة ومجيء الجملة إسمية لإفادة الدوام والاستمرار .

(١) قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

٥ - السؤال عن المعلوم لتوبيخ السامع في قوله ﴿ فكيف إذا جئنا ﴾ يراد بها التفرقة والتوبيخ .

٦ - جناس الاشتقاق في ﴿ حافظات .. بما حفظ ﴾ وفي قوله ﴿ شهيد .. وشهيداً ﴾ .

٧ - التعريض في ﴿ مختالاً فخوراً ﴾ عرّض بذلك إلى ذم الكبير المؤدي لاحتقار الناس .

٨ - الحذف في عدة مواضع مثل ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ أي أحسنوا إلى الوالدين إحساناً .

الفوائد : الأولى : لم يذكر الله تعالى في الآية إلا « الإصلاح » في قوله ﴿ إن يريدوا إصلاحاً ﴾ ولم يذكر ما يقابله وهو التفرقة وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أنه ينبغي على الحكمين أن يبذلا جهدهما للإصلاح لأن في التفرقة خراب البيوت وتشتيت الأولاد وذلك مما ينبغي أن يجتنب .

الثانية : ختم تعالى الآية بهذين الإسمين العظيمين ﴿ إن الله كان علياً كبيراً ﴾ وذلك لتهديد الأزواج عند التعسف في استعمال الحق فكأن الآية تقول : لا تغتروا بكونكم أعلى يداً منهن وأكبر درجة منهن فإن الله عليٌّ قاهرٌ ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن ، فالله أعلى منكم وأقدر عليكم منكم عليهن فاحذروا عقابه .

الثالثة : روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ اقرأ عليّ القرآن فقلت يا رسول الله : اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : نعم فإني أحب أن أسمع من غيري ! فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ فقال : حسبك الآن فنظرتُ فإذا عيناه تذرفان .

تنبه : ورد النظم الكريم ﴿ بما فضل الله بعضهم على بعض ﴾ ولو قال : بتفضيلهم عليهن لكان أخصراً وأوجز ولكن التعبير ورد بتلك الصيغة لحكمة جليلة وهي إفادة أن المرأة من الرجل بمنزلة عضو من جسم الإنسان وكذلك العكس ، فالرجل بمنزلة الرأس ، والمرأة بمنزلة البدن ولا ينبغي أن يتكبر عضو على عضو ، فالأذن لا تغني عن العين ، واليد لا تغني عن القدم ، ولا عار على الشخص أن يكون قلبه أفضل من معدته ورأسه أشرف من يده فالكل يؤدي دوره بانتظام ولا غنى لواحدٍ عن الآخر وهذا هو سر التعبير بقوله ﴿ بعضهم على بعض ﴾ فظهر أن الآية في نهاية الإيجاز والإعجاز .

« كلمة حول تأديب النساء »

لعل أحبث ما يتخذه أعداء الإسلام للطعن في الشريعة الإسلامية زعمهم أن الإسلام أهان المرأة حين سمح للرجل أن يضربها ويقولون : كيف يسمح القرآن بضرب المرأة ﴿ واهجروهن في المضاجع واضربوهن ﴾ أفليس هذا إهانة للمرأة واعتداءً على كرامتها ؟ !

والجواب : نعم لقد أذن الحكيم العليم بضربها ولكن متى يكون الضرب ؟ ولمن يكون ؟ إن الضرب - ضرباً غير مبرح - كما ورد به الحديث الشريف أحد الطرق في معالجة نشوز المرأة وعصيانها لأمر الزوج ، فحين تسيء المرأة عشرة زوجها وتركب رأسها وتسير بقيادة الشيطان وتقلب الحياة الزوجية إلى

جحيم لا يطاق فماذا يصنع الرجل في مثل هذه الحالة ؟ ! لقد أرشدنا القرآن الكريم إلى الدواء فأمر بالصبر والأناة ، ثم بالوعظ والإرشاد ، ثم بالهجر في المضاجع ، فإذا لم تنجح كل هذه الوسائل فلا بد من سلوك طريق آخر هو الضرب غير المبرح لكسر الغطرسة والكبرياء ، وهذا أقل ضرراً من إيقاع الطلاق عليها ، وإذا قيس الضرر الأخف بالضرر الأكبر كان حسناً وجميلاً وما أحسن ما قيل « وعند ذكر العمى يُستحسن العور » فالضرب طريق من طرق العلاج ينفع في بعض الحالات التي يستعصي فيها الإصلاح باللفظ والإحسان والجميل ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ !!

قال تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب . . إلى . . وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾
من الآية (٤٤) إلى نهاية الآية (٥٧) .

سَبَبُ النُّزُولِ : روي أن أبا سفيان قال لكعب بن الأشرف - أحد أئمة اليهود - إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ، ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقاً نحن أم محمد ؟ فقال : اعرضوا علي دينكم فقال أبو سفيان : نحن ننحز للحجيج الكوماء ، ونسقيهم الماء ، ونقري الضيف ، ونعمر بيت ربنا ، ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم !! فقال : دينكم خير من دينه وأنتم والله أهدى سبيلاً مما هو عليه فأنزل الله ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب . .﴾^(١) الآية .

المناسبة : لما ذكر تعالى شيئاً من أحوال الكفار في الآخرة وأنهم يتمنون لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً . . أعقبه بذكر ما عليه اليهود من الكفر والجحود والتكذيب بآيات الله ، ثم ذكر طائفة من عقائد أهل الكتاب الزائغة وما أعد لهم من العذاب المقيم في دار الجحيم أعاذنا الله منها .

اللغة : ﴿راعنا﴾ راقبنا وانظرنا وهي كلمة سب في العبرية وكان اليهود يقولونها ويعنون بها معنى الرعونة ﴿أقوم﴾ أعدل وأصوب ﴿نطمس﴾ الطمس : المحو وإذهاب أثر الشيء ﴿فتيلاً﴾ الفتيل : الخيط الذي في شق النواة ﴿الجبث﴾ اسم الصنم ثم صار مستعملاً لكل باطل ﴿الطاغوت﴾ كل ما عبد من دون الله من حجر أو بشر أو شيطان وقيل هو اسم للشيطان ﴿نقيراً﴾ النقير : النقطة التي على ظهر النواة ﴿نصليهم﴾ ندخلهم .

ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ﴿٤٤﴾ والله أعلم

التفسير : ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ الاستفهام للتعجب من سوء حالهم والتحذير عن موالاتهم أي ألم تنظر يا محمد إلى الذين أعطوا حظاً من علم التوراة وهم أحبار اليهود ﴿يشترون الضلالة﴾ أي يختارون الضلالة على الهدى ويؤثرون الكفر على الإيمان ﴿ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ أي ويريدون لكم يا معشر المؤمنين أن تضلوا طريق الحق لتكونوا مثلهم ﴿والله أعلم

بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَتَأَيَّبُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِيمَانًا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ

بأعدائكم ﴿٤٥﴾ أي هو تعالى أعلم بعداوة هؤلاء اليهود الضالين منكم فاحذروهم ﴿٤٦﴾ وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً ﴿٤٥﴾ أي حسبكم أن يكون الله ولياً وناصراً لكم فثقوا به واعتمدوا عليه وحده فهو تعالى يكفيكم مكرهم . . ثم ذكر تعالى طرفاً من قبائح اليهود اللعناء فقال ﴿٤٦﴾ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ﴿٤٥﴾ أي من هؤلاء اليهود فريق يبذلون كلام الله في التوراة ويفسرونه بغير مراد الله قصداً وعمداً فقد غيروا نعت محمد ﷺ وأحكام الرجم وغير ذلك ﴿٤٦﴾ ويقولون سمعنا وعصينا ﴿٤٥﴾ أي ويقولون لك إذا دعوتهم للإيمان سمعنا قولك وعصينا أمرك قال مجاهد : سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه ، وهذا أبلغ في الكفر والعناد ﴿٤٥﴾ واسمع غير مسمع ﴿٤٥﴾ أي اسمع ما نقول لاسمعت والكلام ذو وجهين يحتمل الخير والشر وأصله للخير أي لاسمعت مكرهاً ولكن اليهود الخبيثاء كانوا يقصدون به الدعاء على الرسول ﷺ أي لا أسمعك الله وهو دعاء بالصمم أو بالموت ﴿٤٥﴾ وراعنا ﴿٤٥﴾ أي ويقولون في أثناء خطابهم راعنا وهي كلمة سب من الرعونة وهي الحمق ، فكانوا سخرية وهزواً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل ينون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام ولهذا قال تعالى ﴿٤٥﴾ لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ﴿٤٥﴾ أي فتلاً وتحريفاً عن الحق إلى الباطل وقدحاً في الإسلام قال ابن عطية : وهذا موجود حتى الآن في اليهود وقد شاهدناهم يربون أولادهم الصغار على ذلك ويحفظونهم ما يخاطبون به المسلمين مما ظاهره التوقير ويريدون به التحقير (١) ﴿٤٥﴾ ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا ﴿٤٥﴾ أي عوضاً من قولهم سمعنا وعصينا ﴿٤٥﴾ واسمع وانظرنا ﴿٤٥﴾ أي عوضاً عن قولهم غير مسمع وراعنا أي لو أن هؤلاء اليهود قالوا للرسول ﷺ ذلك القول اللطيف بدل ذلك القول الشنيع ﴿٤٥﴾ لكان خيراً لهم وأقوم ﴿٤٥﴾ أي لكان ذلك القول خيراً لهم عند الله وأعدل وأصوب ﴿٤٥﴾ ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴿٤٥﴾ أي أبعدهم الله عن الهدى وعن رحمته بسبب كفرهم السابق فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً قال الزمخشري : أي ضعيفاً ركيكاً لا يُعبأ به (٢) وهو إيمانهم ببعض الكتب والرسول . . ثم توعدهم تعالى بالطمس وإذهاب الحواس فقال ﴿٤٥﴾ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا ﴿٤٥﴾ أي يا معشر اليهود آمنوا بالقرآن الذي نزلناه على محمد ﷺ ﴿٤٥﴾ مصدقاً لما معكم ﴿٤٥﴾ أي مصدقاً للتوراة ﴿٤٥﴾ من قبل أن نطمس وجوهاً فنردّها على أدبارها ﴿٤٥﴾ أي نطمس منها الحواس من أنف أو عين أو حاجب حتى تصير كأدبار ، وهذا تشويه عظيم لمحاسن الإنسان وهو قول ابن عباس (٣) ﴿٤٥﴾ أو نلعنهم كما

(١) البحر المحيط ٣/ ٢٦٤ . (٢) الكشاف ١/ ٤٠١ . (٣) وهو اختيار الطبري حيث قال : أي من قبل أن نطمس أبصارها ونمحو آثارها فنسويها كالأقفاء فنجعل أبصارها في أدبارها فيمشون القهقري .

السَّبِّ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ^٤
 وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ
 فِتْنًا ﴿٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ
 الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْحَبِيبِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّؤَلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ

لعلنا أصحاب السبت ﴿٤٧﴾ أي نمسخهم كما مسخنا أصحاب السبت وهم الذين اعتدوا في السبت فمسخهم الله قردة وخنازير ﴿٤٨﴾ وكان أمر الله مفعولاً ﴿٤٩﴾ أي إذا أمر بأمر فإنه نافذ كائن لا محالة ﴿٥٠﴾ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴿٥١﴾ أي لا يغفر الشرك ويغفر ما سوى ذلك من الذنوب لمن شاء من عباده ﴿٥٢﴾ ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً قال الطبري : قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركاً بالله . . . (١) ثم ذكر تعالى تزكية اليهود أنفسهم مع كفرهم وتحريفهم الكتاب فقال ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ﴾ أي ألم يبلغك خبر هؤلاء الذين يمدحون أنفسهم ويصفونها بالطاعة والتقوى ؟ والاستفهام للتعجب من أمرهم قال قتادة : ذلكم أعداء الله اليهود زكوا أنفسهم فقالوا ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ وقالوا : لا ذنوب لنا (٢) ﴿ بل الله يزكي من يشاء ﴾ أي ليس الأمر بتزكيتهم بل بتزكية الله فهو أعلم بحقائق الأمور وغوامضها يزكي المرتضين من عباده وهم الأطهار الأبرار لا اليهود الأشرار ﴿ ولا يظلمون فتيلاً ﴾ أي لا ينقصون من أعمالهم بقدر الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة وهو مثل للقلة كقوله ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ ﴿ انظر كيف يفترون على الله الكذب ﴾ هذا تعجب من افتراءهم وكذبهم أي انظر يا محمد كيف اختلقوا على الله الكذب في تزكيتهم أنفسهم وادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ؟ ﴿ وكفى به إثماً مبيناً ﴾ أي كفى بهذا الافتراء وزراً بيناً وجرماً عظيماً ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبث والطاغوت ﴾ الاستفهام للتعجب والمراد بهم أيضاً اليهود أعطوا حظاً من التوراة وهم مع ذلك يؤمنون بالأوثان والأصنام وكل ما عبد من دون الرحمن ﴿ ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾ أي يقول اليهود لكفار قريش أنتم أهدى سبيلاً من محمد وأصحابه قال ابن كثير : يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم وقلة دينهم وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم (٣) قال تعالى إخباراً عن ضلالهم ﴿ أولئك الذين لعنهم الله ﴾ أي طردهم وأبعدهم عن رحمته ﴿ ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴾ أي من يطرده من رحمته فمن ينصره من عذاب الله ؟ ويمنع عنه آثار اللعنة وهو العذاب العظيم ﴿ أم لهم نصيب من الملك ﴾ أي أم لهم حظ من الملك ؟ وهذا على وجه الإنكار يعني ليس

فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ
 الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ
 سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَمَا نَضِجَتِ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا
 الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَكُنْ فِيهَا زَوْجٌ مَطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

لهم من الملك شيء ﴿فإذا لا يؤتون الناس نقيراً﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحداً مقدار نقير لفرط بخلهم ، والنقير مثل في القلة كالفتيل والقطمير وهو النكتة في ظهر النواة ، ثم انتقل إلى خصلة ذميمة أشد من البخل فقال ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ قال ابن عباس : حسدوا النبي ﷺ على النبوة وحسدوا أصحابه على الإيمان والمعنى : بل يحسدون النبي ﷺ والمؤمنين على النبوة التي فضل الله بها محمداً وشرف بها العرب ويحسدون المؤمنين على ازدياد العز والتمكين ؟ ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ أي فقد أعطينا أسلافكم من ذرية إبراهيم النبوة وأنزلنا عليهم الكتب وأعطيناهم الملك العظيم مع النبوة كداود وسليمان فلأي شيء تخصون محمداً ﷺ بالحسد دون غيره ممن أنعم الله عليهم ؟ والمقصود الرد على اليهود في حسدهم للنبي ﷺ وإلزامهم بما عرفوه من فضل الله على آل إبراهيم ﴿فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه﴾ أي من اليهود من آمن بمحمد ﷺ وهم قلة قليلة ومنهم من أعرض فلم يؤمن وهم الكثرة كقوله ﴿فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون﴾ ﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾ أي كفى بالنار المسعرة عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم . . ثم أخبر تعالى بما أعده للكفرة الفجرة من الوعيد والعذاب الشديد فقال ﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً﴾ أي سوف ندخلهم ناراً عظيمة هائلة تشوي الوجوه والجلود ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾ أي كلما انشوت جلودهم واحترقت احترقاً تاماً بدلناهم جلوداً غيرها ليدوم لهم ألم العذاب ، قال الحسن : تُنضجهم النار في اليوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فعادوا كما كانوا وقال الربيع : جلد أحدهم أربعون ذراعاً ، وبطنه لو وضع فيه جبل لوسعه ، فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلوداً غيرها وفي الحديث (يعظم أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام ، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً وإن ضره مثل أحد) (١) ﴿إن الله كان عزيزاً حكيماً﴾ أي عزيز لا يمتنع عليه شيء حكيم لا يعذب إلا بعدل ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء أي سندخلهم جنات تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها وأرجائها حيث شاءوا وأين أرادوا مقيمين في الجنة لا يموتون ﴿لهم فيها أزواج مطهرة﴾ أي

(١) أخرجه أحمد في المسند .

لهم في الجنة زوجات مطهرات من الأقدار والأذى قال مجاهد : مطهرات من البول والحيض والنخام والبزاق والمنى والولد ﴿وندخلهم ظللاً ظليلاً﴾ أي ظللاً دائماً لا تنسخه الشمس ولا حرقه ولا برد قال الحسن : وُصف بأنه ظليل لأنه لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحرّ والسموم ، وفي الحديث (إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها) (١) .

البلاغة : تضمنت هذه الآيات من الفصاحة والبلاغة والبدیع ما يلي بالإيجاز :

١ - المجاز المرسل في ﴿أم يحسدون الناس﴾ المراد به محمد ﷺ من باب تسمية الخاص باسم العام إشارة إلى أنه جمعت فيه كمالات الأولين والآخرين .

٢ - الاستعارة في ﴿يشترون الضلالة﴾ وفي ﴿ليذوقوا العذاب﴾ لأن أصل الذوق باللسان فاستعير إلى الألم الذي يصيب الإنسان وفي ﴿ليأ بالستهم﴾ لأن أصل الليّ قتل الحبل فاستعير للكلام الذي قصد به غير ظاهره وفي ﴿نطمس وجوهاً﴾ وهي عبارة عن مسخ الوجوه تشبيهاً بالصحيفة المطموسة التي عميت سطورها وأشكلت حروفها .

٣ - الاستفهام الذي يراد به التعجب في ﴿ألم تر﴾ في موضعين .

٤ - التعجب بلفظ الأمر في ﴿انظر كيف يفترون﴾ وتلوين الخطاب في ﴿يفترون﴾ وإقامته مقام الماضي للدلالة على الدوام والاستمرار .

٥ - الاستفهام الذي يراد منه التوبيخ والتقرّيع في ﴿أم لهم نصيب﴾ وفي ﴿أم يحسدون﴾ .

٦ - التعريض في ﴿فاذا لا يؤتون الناس نقيراً﴾ عرض بشدة بخلهم .

٧ - الطباق في ﴿وجوه .. وأدبار﴾ وفي ﴿آمنوا .. وكفروا﴾ .

٨ - جناس الاشتقاق في ﴿نلعنهم .. ولعناً﴾ وفي ﴿يؤتون .. وآتاهم﴾ وفي ﴿ظلاً ظليلاً﴾ .

٩ - الإطناب في مواضع ، والحذف في مواضع .

قال الله تعالى : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات ... إلى .. وكفى بالله علماً﴾

من آية (٥٨) إلى نهاية آية (٧٠) .

المناسكة : لما ذكر تعالى حال اليهود وما هم عليه من الحسد والعناد والجحود ، وذكر ما أعده لهم من العذاب والنكال في الآخرة ، أعقبه بتوجيه المؤمنين إلى طريق السعادة بطاعة الله ورسوله وأداء

الأمانات والحكم بالعدل بين الناس ، ثم ذكر صفات المنافقين التي ينبغي الحذر منها والبعد عنها .

اللغز : ﴿نعمًا﴾ أصلها نعم ما أي نعم الشيء يعظكم به ﴿تأويلاً﴾ مآلاً وعاقبة ﴿يزعمون﴾ الزعم : الاعتقاد الظني قال الليث : أهل العربية يقولون : زعم فلان إذا شكوا فيه فلم يعرفوا أكذب أو صدق وقال ابن دريد : أكثر ما يقع على الباطل ومنه قولهم « زعموا مطية الكذب » ﴿توفيقاً﴾ تأليفاً والوفيق والوفق ضد المخالفة ﴿بليغاً﴾ مؤثراً ﴿شجر﴾ اختلف واختلط ومنه الشجر لتداخل أغصانه واختلاط بعضها في بعض ﴿حرجاً﴾ ضيقاً وشكاً قال الواحدي : يقال للشجر الملتف الذي لا يكاد يوصل إليه حرج .

سبب النزول : أ- روي أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح أغلق « عثمان بن طلحة » باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح لرسول الله ﷺ وقال : لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلوى علي يده وأخذه منه وفتح بابها فدخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين فلما خرج أمر علياً أن يرد المفتاح إلى عثمان بن طلحة ويعتذر إليه فقال له عثمان : أذيت وأكرهت ثم جئت تترفق ! ! فقال لقد أنزل الله في شأنك قرآناً ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . .﴾ وقرأ عليه الآية فأسلم عثمان فقال النبي ﷺ : (خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلا ظالم)^(١) .

ب- عن ابن عباس أن رجلاً من المنافقين يقال له «بشر» كان بينه وبين يهودي خصومة فقال اليهودي : تعال نتحاكم إلى محمد فقال المنافق : بل نتحاكم إلى « كعب بن الأشرف » - وهو الذي سماه الله الطاغوت - فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ ففضى رسول الله لليهودي على المنافق ، فلما خرج من عنده لم يرض المنافق وقال : تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب فأتيا عمر فقال اليهودي : كان بيني وبين هذا خصومة فتحاكمتنا إلى محمد ففضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه يخاصمني إليك فقال عمر للمنافق : أكذلك هو؟ فقال : نعم فقال عمر : مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل عمر فاشتمل عليه سيفه ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد - أي مات - وقال : هكذا أفضي فيمن لم يرض بقضاء الله ورسوله فنزلت الآية ﴿الم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك . .﴾^(٢) الآية .

* إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا

التفسير : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ الخطاب عام لجميع المكلفين كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بالذمم سواء كانت حقوق الله أو العباد قال الزمخشري : الخطاب عام لكل أحد في كل أمانة ،^(٣) والمعنى يأمركم الله أيها المؤمنون بأداء الأمانات إلى أربابها قال ابن كثير : يأمر تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على

(١) الفخر الرازي ١٠ / ١٣٨ وأسباب النزول ص ٩٠ . (٢) الكشاف ١ / ٤٠٦ والترطبي ٥ / ٢٦٤ . (٣) الكشاف ١ / ٤٠٥ .

وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يَرِيدُونَ أَنْ يُخَاكُمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ عِبَادَهُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْكَفَارَاتِ وَغَيْرِهَا ، وَمِنْ حَقُوقِ الْعِبَادِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ كَالْوَدَائِعِ وَغَيْرِهَا (١) ﴿وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أَي وَيَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النَّاسِ فِي أَحْكَامِكُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ أَي نِعْمَ الشَّيْءُ الَّذِي يَعِظُكُمْ بِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فِيهِ وَعَدُّ وَوَعِيدُ أَي سَمِيعٌ لِأَقْوَالِكُمْ بَصِيرٌ بِأَفْعَالِكُمْ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أَي أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ بِالْتَمَسْكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَأَطِيعُوا الْحُكَّامَ إِذَا كَانُوا مُسْلِمِينَ مَتَمَسِّكِينَ بِشَرَعِ اللَّهِ إِذْ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ، وَفِي قَوْلِهِ ﴿مِنْكُمْ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْحُكَّامَ الَّذِينَ تَجِبُ طَاعَتُهُمْ يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا مُسْلِمِينَ حَسَبًا وَمَعْنَى ، لِحِمًا وَدَمًا ، لَا أَنْ يَكُونُوا مُسْلِمِينَ صُورَةً وَشَكْلًا ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أَي فَإِن ائْتَلَفْتُمْ فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ فَاحْتَكُمُوا فِيهِ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أَي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقًّا وَهُوَ شَرْطُ حَذْفِ جَوَابِهِ لِدَلَالَةِ مَا سَبَقَ أَي فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ وَالْغُرُضُ مِنْهُ الْحَثُّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ : إِن كُنْتُ ابْنِي فَلَا تَخَالَفْنِي ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أَي الرَّجُوعُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَصْلَحُ وَأَحْسَنُ عَاقِبَةٌ وَمَالًا . . . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ وَقُلُوبُهُمْ خَاوِيَةٌ مِنْهُ فَقَالَ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تَعْجِيبٌ مِنْ أَمْرٍ مِنْ يَدَّعِيِ الْإِيمَانَ ثُمَّ لَا يَرْضَى بِحُكْمِ اللَّهِ أَي لَا تَعْجَبُ مِنْ صُنْعِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ الْإِيمَانَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَهُوَ الْقُرْآنُ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَهُوَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ ﴿يَرِيدُونَ أَنْ يُتْحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ أَي يَرِيدُونَ أَنْ يُتْحَاكَمُوا فِي خُصُومَتِهِمْ إِلَى الطَّاغُوتِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ هُوَ « كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ » أَحَدُ طُغَاةِ الْيَهُودِ سَمِيَ بِهِ لِإِفْرَاطِهِ فِي الطُّغْيَانِ وَعَدَاوَتِهِ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أَي وَالْحَالُ أَنَّهُمْ قَدْ أَمَرُوا بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْكَفْرَ بِمَا سِوَاهُ كَقَوْلِهِ ﴿فَمَنْ يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أَي وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ بِمَا زَيَّنَ لَهُمْ أَنْ يَجْرِفَهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أَي وَإِذَا قِيلَ لِأَوْلِيكَ الْمُنَافِقِينَ تَعَالَوْا فَتَحَاكَمُوا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَإِلَى الرَّسُولِ لِيُفْصَلَ بَيْنَكُمْ فِيمَا تَنَازَعْتُمْ فِيهِ ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ

صُدُودًا ﴿٦٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْفُونَ بِاللَّهِ إِنَّ آرْدَنَا إِلَّا
 إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا
 بَلِيغًا ﴿٦٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ
 وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٩﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
 فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّوْا سَلِيمًا ﴿٧٠﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ

صدوداً أي رأيتهم لنفاقهم يعرضون عنك إعراضاً ﴿٦٦﴾ فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ﴿٦٧﴾ أي كيف يكون حالهم إذا عاقبهم الله بذنوبهم وبما جنته أيديهم من الكفر والمعاصي أيقنرون أن يدفعوا عنهم العذاب ؟ ﴿٦٨﴾ ثم جاءوك يحفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ﴿٦٩﴾ أي ثم جاءك هؤلاء المنافقون للاعتذار عما اقترفوه من الأوزار يقسمون بالله ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك إلا الصلح والتأليف بين الخصمين وما أردنا رفض حكمك قال تعالى تكذيباً لهم ﴿٧٠﴾ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم ﴿٦٧﴾ أي هؤلاء المنافقون يكذبون والله يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخديعة وهم يريدون أن يخدعوك بهذا الكلام المعسول ﴿٦٨﴾ فأعرض عنهم ﴿٦٩﴾ أي فأعرض عن معاقبتهم للمصلحة ولا تظهر لهم علمك بما في بواطنهم ولا تهتك سترهم حتى يبقوا على وجلٍ وحذرٍ ﴿٧٠﴾ وعظهم ﴿٦٩﴾ أي ازجرهم عن الكيد والنفاق بقوارع الآيات ﴿٧٠﴾ وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴿٦٧﴾ أي انصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ مؤثر يصل إلى سويداء قلوبهم يكون لهم رادعاً ولنفاقهم زاجراً ، ثم أخبر تعالى عن بيان وظيفة الرسل فقال ﴿٧٠﴾ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴿٦٨﴾ أي لم نرسل رسولاً من الرسل إلا ليطاع بأمر الله تعالى فطاعته طاعة لله ومعصيته معصية لله ﴿٧٠﴾ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله ﴿٦٩﴾ أي لو أن هؤلاء المنافقين حين ظلموا أنفسهم بعدم قبول حكمك جاءوك تائبين من النفاق مستغفرين الله من ذنوبهم معترفين بخطئهم ﴿٧٠﴾ واستغفر لهم الرسول ﴿٦٧﴾ أي واستغفرت لهم يا محمد أي سألت الله أن يغفر لهم ذنوبهم ﴿٧٠﴾ لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴿٦٨﴾ أي لعلوا كثرة توبة الله على عباده وسعة رحمته لهم ثم بين تعالى طريق الإيمان الصادق فقال ﴿٧٠﴾ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ﴿٧٠﴾ اللام لتأكيد القسم أي فوربك يا محمد لا يكونون مؤمنين حتى يجعلوك حكماً بينهم ويرضوا بحكمك فيما تنازعوا فيه واختلفوا من الأمور ﴿٧٠﴾ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴿٦٧﴾ أي ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً من حكمك وينقادوا انقياداً تاماً كاملاً لقضائك ، من غير معارضة ولا مدافعة ولا منازعة ، فحقيقة الإيمان الخضوع والإذعان ﴿٧٠﴾ ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو أخرجوا من دياركم أو أخرجوا من دياركم ﴿٧٠﴾ أي لو فرضنا على هؤلاء المنافقين ما فرضنا على من قبلهم من المشقات وشدّنا التكليف عليهم فأمرناهم بقتل النفس والخروج من الأوطان كما فرض ذلك على بني إسرائيل ﴿٧٠﴾ ما فعلوه إلا قليل منهم ﴿٧٠﴾ أي ما استجاب ولا انقاد إلا قليل منهم لضعف إيمانهم

مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَأَتَيْنَهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيثاً﴾ أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به من طاعة الله وطاعة رسوله لكان خيراً لهم في عاجلهم وأجلهم وأشد تثبيثاً لإيمانهم ، وأبعد لهم عن الضلال والنفاق ﴿وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي أرشدناهم إلى الطريق المستقيم الموصل إلى جنات النعيم ، ثم ذكر تعالى ثمرة الطاعة لله ورسوله فقال ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ أي ومن يعمل بما أمره الله به ورسوله ويحْتَبِئ ما نهى الله عنه ورسوله ، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته في دار الخلد مع المقربين ﴿من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين﴾ أي مع أصحاب المنازل العالية في الآخرة وهم الأنبياء الأطهار والصدّيقون الأبرار وهم أفاضل أصحاب الأنبياء والشهداء الأخيار وهم الذين استشهدوا في سبيل الله ثم مع بقية عباد الله الصالحين ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾ أي ونعمت رفقة هؤلاء وصحبتهم ، وحسن رفيق أولئك الأبرار ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت النبي ﷺ في شكواه التي قبض فيها يقول ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين﴾ فعلمت أنه خير^(١) ﴿ذلك الفضل من الله﴾ أي ما أعطيه المطيعون من الأجر العظيم إنما هو بمحض فضله تعالى ﴿وكفى بالله عليماً﴾ أي وكفى به تعالى مجازياً لمن أطاع عالماً بمن يستحق الفضل والإحسان .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة من ضروب الفصاحة والبديع ما يلي باختصار :

- ١ - الاستفهام المراد به التعجب في ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾ .
- ٢ - الالتفات في ﴿واستغفر لهم الرسول﴾ تفخياً لشأن الرسول وتعظيماً لاستغفاره ولو جرى على الأصل لقال ﴿واستغفرت لهم﴾ .
- ٣ - إيراد الأمر بصورة الإخبار وتصديره بـ «إن» المفيدة للتحقيق في قوله ﴿إن الله يأمركم﴾ للتفخيم وتأكيد وجوب العناية والامثال .
- ٤ - الجناس المغاير في ﴿يضلهم ضلالاً﴾ وفي ﴿قل لهم .. قولاً﴾ وفي ﴿يسلموا تسليماً﴾ وفي ﴿يصدون .. صدوداً﴾ وفي ﴿فأفوز فوزاً﴾ .
- ٥ - الاستعارة في قوله ﴿فيما شجر بينهم﴾ استعار ما اشتبك وتضايق من الشجر

للتنازع الذي يدخل به بعض الكلام في بعض استعارة للمعقول بالمحسوس .

٦ - تكريم الاسم الجليل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾
لتربية المهابة في النفوس .

٧ - الإطناب في مواضع والحذف في مواضع .

فَكَايِدَةٌ : عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : إنك لأحب إلي من نفسي وأحب إلي من أهلي ، وإنني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك ، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى أنزل الله ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم . . .﴾^(١) الآية .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم . . . إلى . . . ومن أصدق من الله حديثاً﴾
من آية (٧١) إلى نهاية آية (٨٧) .

المناسكة : لما حذر تعالى من النفاق والمنافقين وأوصى بطاعة الله وطاعة رسوله ، أمر هنا بأعظم الطاعات والقربات وهو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته وإحياء دينه ، وأمر بالاستعداد والتأهب حذراً من مباغته الكفار ، ثم بين حال المتخلفين عن الجهاد المثبتين للعزائم من المنافقين وحذر المؤمنين من شرهم .

اللفظة : ﴿ثبات﴾ جمع ثبته وهي الجماعة أي جماعة بعد جماعة ﴿بروج﴾ جمع برج وهو البناء المرتفع والقصر العظيم والمراد به هنا الحصون ﴿مشيدة﴾ مرتفعة البناء ﴿بيت﴾ دبر الأمر ليلاً ، والبيات أن يأتي العدو ليلاً ومنه قول العرب : أمرٌ بيّت بليل ﴿أذاعوا به﴾ أشاعوه ونشروه ﴿يستنبطونه﴾ يستخرجونه مأخوذ من استنبط الماء إذا استخرجته ومنه استنباط الأحكام من الكتاب والسنة ﴿حرص﴾ التحريض : الحث على الشيء ﴿تنكيلاً﴾ تعذيباً والنكال : العذاب ﴿كفل﴾ نصيب وأكثر ما يستعمل الكفل في الشر ﴿مقيتاً﴾ مقتدرًا من أقات على الشيء قدر عليه قال الشاعر :

وذي ضِعْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقِيْتًا

سبب النزول : عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا : يا نبي الله لقد كنا في عزٍ ونحن مشركون فلما آمننا صرنا أذلة ؟ فقال : إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم ، فلما حوله الله تعالى إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله ﴿لم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة . . .﴾^(٢) الآية .

(١) أخرجه ابن مردويه . (٢) أسباب النزول ص ٩٦ والقرطبي ٥ / ٢٨١ .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبِطَنَّ
فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ
لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِيتُنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ * فَلْيُقَاتِلْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم﴾ أي يا معشر المؤمنین احترزوا من عدوكم واستعدوا له ﴿فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً﴾ أي اخرجوا إلى الجهاد جماعات متفرقين ، سرية بعد سرية أو اخرجوا مجتمعين في الجيش الكثيف ، فخيرهم تعالى في الخروج إلى الجهاد متفرقين ومجتمعين ﴿وإن منكم من ليبطن﴾ أي ليشاقلن ويتخلفن عن الجهاد ، والمراد بهم المنافقون وجعلوا من المؤمنین باعتبار زعمهم وباعتبار الظاهر ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾ أي قتل وهزيمة ﴿قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً﴾ أي قال ذلك المنافق قد فضل الله علي إذ لم أشهد الحرب معهم فأقتل ضمن من قتلوا ﴿ولئن أصابكم فضل من الله﴾ أي ولئن أصابكم أيها المؤمنون نصر وظفر وغنيمة ﴿ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾ أي ليقولن هذا المنافق قول نادم متحسر كأن لم يكن بينكم وبينه معرفة وصداقة يا ليتني كنت معهم في الغزو لأنال حظاً وافراً من الغنيمة ، وجملة ﴿كأن لم تكن﴾ اعتراضية للتنبيه على ضعف إيمانهم ، وهذه المودة في ظاهر المنافق لا في اعتقاده فهو يتمنى أن لو كان مع المؤمنین لا من أجل عزة الإسلام بل طلباً للمال وتحصيلاً للحطام ، ولما ذم تعالى المبطنين عن القتال في سبيل الله رغب المؤمنین فيه فقال ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ أي فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله الذين يبيعون الحياة الفانية بالحياة الباقية ﴿ومن يقاتل في سبيل الله فليقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ وهذا وعد منه سبحانه بالأجر العظيم لمن قاتل في سبيل الله سواء غلب أو غلب أي من يقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فيستشهد أو يظفر على الأعداء فسوف نعطيهم ثواباً جزيلاً فهو فائز بإحدى الحسنيين : الشهادة أو الغنيمة كما في الحديث (تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي ، وإيمان بي وتصديق برسلي فهو علي ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة) (١) ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾ الاستفهام للحث والتحريض على الجهاد أي وما لكم أيها المؤمنون لا تقاتلون في سبيل الله وفي سبيل خلاص المستضعفين من إخوانكم الذين صدّهم المشركون عن الهجرة فبقوا مستذلين مستضعفين يلقون أنواع الأذى الشديد ؟ ! وقوله ﴿من الرجال والنساء والولدان﴾

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
 نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ
 إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ الرَّ تَرَّ إِلَى الَّذِينَ قَبِلَ لَهُمْ كُفُؤًا أَيْدِيكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا
 كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ تَخْشِيَةَ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ
 بَيَانٌ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ ، وَهَمَّ الَّذِينَ كَانَ يَدْعُو لَهُمُ الرَّسُولُ
 ﷺ فيقول : اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَسَلْمَةَ بْنَ هِشَامٍ خِمْمَا فِي الصَّحِيحِ ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
 أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أَي الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ لِكَشْفِ الضَّرِّ عَنْهُمْ قَائِلِينَ : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
 وَهِيَ مَكَّةُ إِذْ أَنهَا كَانَتْ مَوْطِنَ الْكُفْرِ وَلِذَا هَاجَرَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْهَا ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ بِالْكَفْرِ وَهَمَّ صِنَادِيدُ
 قُرَيْشٍ الَّذِينَ مَنَعُوا الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ وَمَنَعُوا مِنْ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ فِيهَا ﴿وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا
 مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ أَي اجْعَل لَنَا مِنْ هَذَا الضَّيْقِ فَرَجًا وَمَخْرَجًا وَسَخَّرَ لَنَا مِنْ عِنْدِكَ وَلِيًّا وَنَاصِرًا ، وَقَدْ
 اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُمْ فَجَعَلَ لَهُمْ خَيْرَ وِلِيٍّ وَنَاصِرٍ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ فَتَحَ مَكَّةَ وَمَا خَرَجَ مِنْهَا وَلَّى عَلَيْهِمْ
 «عَتَابُ بْنُ أُسَيْدٍ» فَأَنْصَفَ مَظْلُومَهُمْ مِنْ ظَالِمِهِمْ ، ثُمَّ شَجَعَ تَعَالَى الْمَجَاهِدِينَ وَرَغَبَهُمْ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ
 ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي الْمُؤْمِنُونَ يُقَاتِلُونَ لِهَدْفِ سَامِ غَايَةِ نَبِيلَةٍ وَهِيَ نَصْرَةُ دِينِ اللَّهِ
 وَإِعْلَاءُ كَلِمَتِهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ فَهُوَ تَعَالَى وَلِيَهُمْ وَنَاصِرُهُمْ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أَي
 وَأَمَّا الْكَافِرُونَ فَيُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ الدَّاعِي إِلَى الْكُفْرِ وَالطَّاغُوتِ ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ أَي
 قَاتِلُوا يَا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ أَنْصَارُ وَعَاوَانُ الشَّيْطَانِ فَإِنَّكُمْ تَغْلِبُونَهُمْ ، فَشَتَانُ بَيْنَ مَنْ يُقَاتِلُ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَبَيْنَ
 مَنْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ ، فَمَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ الَّذِي يَغْلِبُ لِأَنَّ اللَّهَ وَلِيُّهُ وَنَاصِرُهُ ، وَمَنْ قَاتَلَ فِي
 سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَهُوَ الْمَخْذُولُ الْمَغْلُوبُ وَهَذَا قَالَ ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أَي سَعْيُ الشَّيْطَانِ فِي
 حُدُوثِهِ ضَعِيفٌ فَكَيْفَ بِالْقِيَاسِ إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ ؟ ! قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ : كَيْدُ الشَّيْطَانِ لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَى جَنْبِ كَيْدِ
 اللَّهِ لِلْكَافِرِينَ أَوْ هُنَا «أَوْ هُنَا» ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَبِلَ لَهُمْ كُفُؤًا أَيْدِيكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
 الزَّكَاةَ﴾ أَي أَلَا تَعْجَبُ يَا مُحَمَّدُ مِنْ قَوْمٍ طَلَبُوا الْقِتَالَ وَهَمَّ بِمَكَّةَ فَقِيلَ لَهُمْ : أَسْكُوا عَنِ الْقِتَالِ الْكُفْرَانِ فَلَمْ
 يَحْنُ وَقْتَهُ وَأَعَدُّوا نَفْسَهُمْ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ
 كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ أَي فَلَمَّا فُرِضَ عَلَيْهِمْ قِتَالُ الْمُشْرِكِينَ إِذَا جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ يَخَافُونَ وَيَجْبِنُونَ وَيَفْزَعُونَ
 مِنَ الْمَوْتِ كَخَشْيَتِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : كَانَ الْمُؤْمِنُونَ فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ وَهَمَّ
 بِمَكَّةَ مَأْمُورِينَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّبْرِ عَلَى أذى الْمُشْرِكِينَ وَكَانُوا يَتَحَرَّقُونَ لَوْ أَمُرُوا بِالْقِتَالِ لِيَشْتَفُوا مِنْ
 أَعْدَائِهِمْ فَلَمَّا أَمُرُوا بِمَا كَانُوا يَدُونَهُ جَزَعُ بَعْضِهِمْ وَخَافَ مِنْ مَوَاجِهَةِ النَّاسِ خَوْفًا شَدِيدًا ﴿٧٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ
 كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ ؟ أَي وَقَالُوا جَزَعًا مِنَ الْمَوْتِ رَبَّنَا لِمَ فُرِضَتْ عَلَيْنَا الْقِتَالُ ؟ ﴿لَوْلَا أَخْرَجْنَا إِلَى أَجَلٍ

لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٨﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٩﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكُنِيَ بِاللَّهِ قَرِيبًا ﴿٨٠﴾ لَوْلَا لِلتَّحْضِيضِ بِمَعْنَى هَلَا أَيْ هَلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ حَتَّىٰ نَمُوتَ بِأَجَالِنَا وَلَا نَقْتُلَ فِيْفِرْحَ بِنَا الْأَعْدَاءِ ! ﴿٨١﴾ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٨٢﴾ أَيْ قُلْ لِمَنْ يَأْتِيهِ مِنَ الدُّنْيَا فَنَعِيمٌ وَالنَّعِيمُ الْآخِرَةُ بَاقٍ فَهُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ الْمَتَاعِ الْفَانِي لِمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَامْتَثَلَ أَمْرَهُ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٨٤﴾ أَيْ لَا تُنْقَصُونَ مِنْ أَجْزَائِكُمْ أَدْنَى شَيْءٍ وَلَوْ كَانَ فَتِيلًا وَهُوَ الْخَيْطُ الَّذِي فِي شِقِّ النَّوَاةِ قَالَ فِي التَّسْهِيلِ : إِنْ الْآيَةُ فِي قَوْمٍ مِنَ الصَّحَابَةِ كَانُوا قَدْ أَمَرُوا بِالْكَفِّ عَنِ الْقِتَالِ فَتَمَنُّوا أَنْ يُؤْمَرُوا بِهِ ، فَلَمَّا أَمَرُوا بِهِ كَرِهُوا لَا شُكَّاءَ فِي دِينِهِمْ وَلَكِنْ خَوْفًا مِنَ الْمَوْتِ ، وَقِيلَ هِيَ فِي الْمُنَافِقِينَ وَهُوَ الْبَيْقُ فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ (١) ﴿٨٥﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴿٨٦﴾ أَيْ فِي أَيِّ مَكَانٍ وَجَدْتُمْ فَلَا بَدَّ أَنْ يُدْرِككُمُ الْمَوْتُ عِنْدَ انْتِهَاءِ الْأَجَلِ وَيَفَاجئكُمُ وَلَوْ تَحَصَّنْتُمْ مِنْهُ بِالْحِصُونِ الْمُنِيعَةِ فَلَا تَخْشَوُا الْقِتَالَ خَوْفَ الْمَوْتِ ﴿٨٧﴾ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿٨٨﴾ أَيْ إِنْ تُصَبُّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ حَسَنَةٌ مِنْ نَصْرِ وَغَنِيمَةٍ وَشَبَّهَ ذَلِكَ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ وَمَنْ تَقْدِيرُهُ لَمَّا عَلِمَ فِينَا مِنَ الْخَيْرِ ﴿٨٩﴾ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴿٩٠﴾ أَيْ وَإِنْ تَنْلَهُمْ سَيِّئَةٌ مِنْ هَزِيمَةٍ وَجُوعٍ وَشَبَّهَ ذَلِكَ يَقُولُوا هَذِهِ بِسَبَبِ اتِّبَاعِنَا لِمُحَمَّدٍ وَدَخُولِنَا فِي دِينِهِ يَعْنُونَ بِشَوْءِ مُحَمَّدٍ وَدِينِهِ قَالَ السُّدِّيُّ : يَقُولُونَ هَذَا بِسَبَبِ تَرْكِنَا دِينَنَا وَاتِّبَاعِنَا مُحَمَّدًا أَصَابَنَا هَذَا الْبَلَاءُ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴿٩١﴾ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطِيرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ﴿٩٢﴾ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ ﴿٩٣﴾ أَمْرٌ ﴿٩٤﴾ بِأَنْ يَرِدَ زَعْمُهُمُ الْبَاطِلَ وَيُلْقِمُهُمُ الْحَجَرَ بَيَانًا أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ أَيْ قُلْ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ السُّفَهَاءُ : الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ وَالنِّعْمَةُ وَالنَّقْمَةُ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَلْقًا وَإِجَادًا لَا خَالِقَ سِوَاهُ فَهُوَ وَحْدَهُ النَّافِعُ الضَّارُّ وَعَنْ إِرَادَتِهِ تَصْدُرُ جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ ﴿٩٥﴾ فَمَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٩٦﴾ أَيْ مَا شَأْنُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا بِتَقْدِيرِ اللَّهِ ؟ وَهُوَ تَوْبِيخٌ لَهُمْ عَلَى قَلَّةِ الْفَهْمِ . . . ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُبِينًا حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ ﴿٩٧﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ﴿٩٨﴾ الْخُطَابُ لِكُلِّ سَامِعٍ أَيْ مَا أَصَابَكَ يَا إِنْسَانُ مِنْ نِعْمَةٍ وَإِحْسَانٍ فَمِنَ اللَّهِ تَفَضُّلاً مِنْهُ وَإِحْسَانًا وَامْتِنَانًا وَامْتِحَانًا ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ بَلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ فَمِنَ عِنْدِكَ لِأَنَّكَ السَّبَبُ فِيهَا بِمَا ارْتَكَبْتَ يَدَاكَ كَقَوْلِهِ ﴿٩٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴿١٠٠﴾ . . . ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُخَاطَبًا الرَّسُولَ ﴿١٠١﴾ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٠٢﴾ أَيْ وَأَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولًا لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ تَبْلِغُهُمْ شَرَائِعَ اللَّهِ وَحَسْبُكَ

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٤٨ واختار هذا القرطبي وأبو حيان وهو الأرجح قال في البحر : الظاهر ان القائلين هذا هم منافقون لأن الله تعالى اذا أمر بشيء لا يسأل عن علته من هو خالص الإيمان ولهذا جاء السياق بعده ﴿٨٥﴾ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴿٨٦﴾ وهذا لا يصدر إلا من منافق أه البحر ٣/٩٢٨ .

شَهِيدًا ﴿٧٨﴾ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٧٩﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَّوْا
 مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ
 وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ ﴿٨٢﴾ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٣﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ
 الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۗ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ
 وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٤﴾ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ
 وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۗ وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٥﴾

أن يكون الله شاهداً على رسالتك ، ثم رغب تعالى في طاعة الرسول فقال ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ أي من أطاع أمر الرسول فقد أطاع الله لأنه مبلغ عن الله ﴿ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ أي ومن أعرض عن طاعتك فما أرسلناك يا محمد حافظاً لأعمالهم ومحاسباً لهم عليها إن عليك إلا البلاغ ﴿ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيئت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ أي ويقول المنافقون : أمرك يا محمد طاعة كقول القائل « سمعاً وطاعة » فإذا خرجوا من عندك دبر جماعة منهم غير الذي تقوله لهم وهو الخلاف والعصيان لأمرك ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾ أي يأمر الحفظة بكتابته في صحائف أعمالهم ليجازوا عليه ﴿فأعرض عنهم وتوكل على الله﴾ أي اصفح عنهم وفوض أمرك إلى الله وثق به ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ أي فهو سبحانه ينتقم لك منهم وكفى به ناصراً ومعيناً لمن توكل عليه ، ثم عاب تعالى المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن في فهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة ففي تدبره يظهر برهانه ويسطع نوره وبيانه ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ أي لو كان هذا القرآن مختلفاً كما يزعم المشركون والمنافقون لوجدوا فيه تناقضاً كبيراً في أخباره ونظمه ومعانيه ولكنه منزه عن ذلك فأخبره صدق ، ونظمه بليغ ، ومعانيه محكمة ، فدل على أنه تنزيل الحكيم الحميد ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ أي إذا جاء المنافقين خبر من الأخبار عن المؤمنين بالظفر والغنيمة أو النكبة والهزيمة أذاعوا به أي أفشوه وأظهروه وتحدثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته وكان في إذاعتهم له مفسدة على المسلمين ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ أي لو ترك هؤلاء الكلام بذلك الأمر الذي بلغهم وردوه إلى رسول الله ﷺ وإلى كبراء الصحابة وأهل البصائر منهم لعلمه الذين يستخرجونه منهم أي من الرسول وأولي الأمر ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾ أي لولا فضل الله عليكم ورحمته بإنزال القرآن لاتبعتم الشيطان فيما يأمركم به من الفواحش إلا قليلاً منكم ، ثم أمر الرسول بالجهاد فقال ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ أي قاتل يا محمد لإعلاء كلمة الله ولو وحدك فإنك موعود بالنصر ولا تهتم بتخلف

مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّةٍ فحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِمَّا أوردوها^ج إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

المنافقين عنك ﴿وحرّض المؤمنين﴾ أي شجّعهم على القتال ورغبهم فيه ﴿عسى الله أن يكفّ بأس الذين كفروا﴾ هذا وعدٌ من الله بكفهم و﴿عسى﴾ من الله تفيد التحقيق أي بتحريضك المؤمنين يكف الله شر الكفرة الفجار ، وقد كفهم الله بهزيمتهم في بدر وفتح مكة ﴿والله أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلاً﴾ أي هو سبحانه أشد قوة وسطوة ، وأعظم عقوبة وعذاباً ﴿من يشفع شفاعته حسنة يكن له نصيب منها﴾ أي من يشفع بين الناس شفاعته موافقة للشرع يكن له نصيب من الأجر ﴿ومن يشفع شفاعته سيئة يكن له كفلٌ منها﴾ أي ومن يشفع شفاعته مخالفة للشرع يكن له نصيب من الوزر بسببها ﴿وكان الله على كل شيء مقتدياً﴾ أي مقتدراً فيجازي كل أحدٍ بعمله ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ أي إذا سلّم عليكم المسلم فردوا عليه بأفضل مما سلّم أو ردّوا عليه بمثل ما سلّم ﴿إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾ أي يحاسب العباد على كل شيء من أعمالهم الصغيرة والكبيرة ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ هذا قسم من الله بجمع الخلائق يوم المعاد أي الله الواحد الذي لا معبود سواه ليحشرنكم من قبوركم إلى حساب يوم القيامة الذي لا شك فيه وسيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحدٍ للجزاء والحساب ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ لفظه استفهام ومعناه النفي أي لا أحد أصدق في الحديث والوعد من الله رب العالمين .

البلاغَة : تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستعارة في قوله ﴿يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ أي يبيعون الفانية بالباقية فاستعار لفظ الشراء للمبادلة وهو من لطيف الاستعارة .
- ٢ - الاعتراض في ﴿كأن لم يكن بينكم وبينه مودة﴾ .
- ٣ - التشبيه المرسل المجمل في ﴿يخشون الناس كخشية الله﴾ .
- ٤ - الطباق بين ﴿الأمن أو الخوف﴾ .
- ٥ - جناس الاشتقاق في ﴿أصابتكم مصيبة﴾ وفي ﴿حييتم فحيوا﴾ وفي ﴿يشفع شفاعته﴾ وفي ﴿بيّت .. ويبيتون﴾ .
- ٦ - الاستفهام الذي يراد به الإنكار في ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ ؟
- ٧ - المقابلة في قوله ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾

وكذلك في قوله ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفلٌ منها﴾ وهذه من المحسنات البديعية وهي أي يؤتى بمعينين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب .

تبيته : لا تعارض بين قوله تعالى ﴿قل كلٌ من عند الله﴾ أي كلٌ من الحسنة والسيئة وبين قوله ﴿وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسك﴾ إذ الأولى على الحقيقة أي خلقاً وإيجاداً والثانية تسبباً وكسباً بسبب الذنوب ﴿وما أصابكم من مصيبةٍ فيما كسبت أيديكم﴾ أو نقول : نسبة الحسنة إلى الله ، والسيئة إلى العبد هو من باب الأدب مع الله في الكلام وإن كان كل شيء منه في الحقيقة كقوله ﷺ (الخير كله بيدك والشر ليس إليك) والله أعلم .

قال الله تعالى : ﴿فما لكم في المنافقين فئتين . . . إلى . . . ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾ من آية (٨٨) إلى نهاية آية (٩٦) .

المناسكة : لما ذكر تعالى مواقف المنافقين المخزية ، عقبه بذكر نوع آخر من أحوال المنافقين الشنيعة ، ثم ذكر حكم القتل الخطأ والقتل العمد ، وأمر بالتثبت قبل الإقدام على قتل إنسان لئلا يُفضي إلى قتل أحد من المسلمين ، ثم ذكر تعالى مراتب المجاهدين ومنازلهم الرفيعة في الآخرة .

اللفك : ﴿أركسهم﴾ ردهم إلى الكفر أو نكسهم وأصل الركب رد الشيء مقلوباً قال الشاعر :
فأركسوا في حميم النار إنهم كانوا عصاةً وقالوا الإفك والزورا^(١)
﴿حصرت﴾ ضاقت من الحصر وهو الضيق ﴿السلم﴾ الاستسلام والإنياد ﴿ثفتموهم﴾ صادفتموهم ووجدتموهم ﴿فتبينوا﴾ فتشبتوا ﴿أركسوا فيها﴾ قلبوا فيها .

سبب النزول : أ - عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناساً ممن كان معه ، فكان أصحاب النبي ﷺ فيهم فرقتين فقال بعضهم : نقتلهم ، وقال بعضهم : لا ، فأنزل الله ﴿فما لكم في المنافقين فئتين . . .﴾ الآية فقال ﷺ : (إنها طيبة تنفي الحُبث كما تنفي النار حُبث الحديد) أخرجه الشيخان .

ب - يروى أن « الحارث بن يزيد » كان شديداً على النبي ﷺ فجاء مهاجراً وهو يريد الإسلام فلقيه « عياش بن أبي ربيعة » - والحارث يريد الإسلام وعياش لا يشعر - فقتله فأنزل الله ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ﴾^(٢) الآية .

ج - عن ابن عباس قال : لحق المسلمون رجلاً في غنيمة له فقال : السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته فنزلت هذه الآية ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً . . .﴾^(٣) الآية .

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت . (٢) أسباب النزول ص ٩٧ . (٣) رواه البخاري .

* فَمَّا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدَوَّالُوا لَو تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴿٨٩﴾ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُليَاءَ وَلَا نَصِيرًا ﴿٩٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُواكُمْ وَالْقَوَاءُ إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩١﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ

التفسير : ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا﴾ أي ما لكم أيها المؤمنون أصبحتم فرقتين في شأن المنافقين ، بعضكم يقول تقتلهم وبعضكم يقول لا تقتلهم والحال أنهم منافقون والله نكسهم وردّهم إلى الكفر بسبب النفاق والعصيان ﴿أتريدون أن تهّدوا من أضلّ الله﴾ أي أتريدون هداية من أضله الله ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ في الموضوعين والمعنى لا تختلفوا في أمرهم ولا تظنوا فيهم الخير لأن الله حكم بضلّهم ﴿ومن يضلّل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي من يضلله الله فلن تجد له طريقاً إلى الهدى والإيمان ﴿ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء﴾ أي تمنى هؤلاء المنافقون أن تكفروا مثلهم فتستوتوا أنتم وهم وتصبحوا جميعاً كفاراً ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله﴾ أي لا توالوا ولا تصادقوا منهم أحداً حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد في سبيل الله ﴿فإن تولّوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾ أي إن عرضوا عن الهجرة في سبيل الله فخذوهم أيها المؤمنون واقتلوهم حيث وجدتموهم في حلٍّ أو حرمٍ ﴿ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً﴾ أي لا تستنصروهم ولا تستنصحوهم ولا تستعينوا بهم في الأمور ولو بذلوا لكم الولاية والنصرة ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ أي إلا الذين ينتهون ويلجأون إلى قوم عاهدوكم فدخلوا فيهم بالحلف فحكمهم حكم أولئك في حقن دمائهم ﴿أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم﴾ وهذا استثناء أيضاً من القتل أي وإلا الذين جاءوكم وقد ضاقت صدورهم عن قتالكم وقاتل قومهم فهم قوم ليسوا معكم ولا عليكم ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم فقاتلوكم﴾ أي من لطفه بكم أن كفهم عنكم ولو شاء لقواهم وجراهم عليكم فقاتلوكم ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ أي فإن لم يتعرضوا لكم بقتال وانقادوا واستسلموا لكم فليس لكم أن تقاتلوهم طالما سالموكم ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ أي ستجدون قوماً آخرين من المنافقين يريدون أن يأمنوكم بإظهار الإيمان ويأمنوا قومهم بإظهار الكفر إذا رجعوا إليهم قال أبو السعود : هم قوم من « أسد وغطفان » كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا من المسلمين فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا

كُلَّ مَارَدُوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا ۖ فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ نَحْدُوهُمْ
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا مَّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا
خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ
عَدُوًّا لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ عَ وَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
مَتَعَمَّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

عهدهم ليأمنوا قومهم^(١) ﴿كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها﴾ أي كلما دعوا إلى الكفر أو قتال المسلمين عادوا إليه وقلبوا فيه على أسوأ شكل فهم شر من كل عدو شرير ﴿فإن لم يعتزلوكم وقلبوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم﴾ أي فإن أم يجتنبوكم ويستسلموا إليكم ويكفوا أيديهم عن قتالكم ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أي فأسروهم واقتلوهم حيث وجدتموهم وأصبتموهم ﴿وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ أي جعلنا لكم على أخذهم وقتلهم حجة واضحة وبرهاناً بيناً بسبب غدريهم وخيانتهم ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ﴾ أي لا ينبغي لمؤمن ولا يليق به أن يقتل مؤمناً إلا على وجه الخطأ لأن الإيمان زاجر عن العدوان ﴿ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبته مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا﴾ أي ومن قتل مؤمناً على وجه الخطأ فعليه إعتاق رقبته مؤمنة لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها ، وعليه كذلك دية مؤداة إلى ورثة المقتول إلا إذا عفا الورثة عن القاتل فأسقطوا الدية ، وقد أوجب الشارع في القتل الخطأ شيئين : الكفارة وهي تحرير رقبته مؤمنة في مال القاتل ، والدية وهي مائة من الإبل على العاقلة ﴿فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبته مؤمنة﴾ أي إن كان المقتول خطأً مؤمناً وقومه كفاراً أعداء وهم المحاربون فإنما على قاتله الكفارة فقط دون الدية لثلاثي يستعينوا بها على المسلمين ﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبته مؤمنة﴾ أي وإن كان المقتول خطأً من قوم كفرة بينكم وبينهم عهد كأهل الذمة فعلى قاتله دية تدفع إلى أهله لأجل معاهدتهم ويجب أيضاً على القاتل إعتاق رقبته مؤمنة ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله﴾ أي فمن لم يجد الرقبة فعليه صيام شهرين متتابعين عوضاً عنها شرع تعالى لكم ذلك لأجل التوبة عليكم ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ أي عليماً بخلقه حكماً فيما شرع . . ثم بين تعالى حكم القتل العمد وجريمته النكراء وعقوبته الشديدة فقال ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾ أي ومن يقدم على قتل مؤ من علماً بإيمانه متعمداً لقتله فجزاؤه جهنم مخلداً فيها على الدوام ، وهذا محمول عند الجمهور على من استحل قتل المؤمن كما قال ابن

(١) انظر تفصيل حكم القاتل عمداً في البحر ٣/٣٢٦ وفي ابن كثير ٤٢٢/١ من المختصر .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ ءَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ ءَلَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾

عباس لأنه باستحلال القتل يصبح كافراً ﴿وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾ أي ويناله السخط الشديد من الله والطرده من رحمة الله والعذاب الشديد في الآخرة ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا﴾ أي إذا سافرتهم في الجهاد لغزو الأعداء فتثبتوا ولا تعجلوا في القتل حتى يتبين لكم المؤمن من الكافر ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾ أي ولا تقولوا لمن حياكم بتحية الإسلام لست مؤمناً وإنما قلت هذا خوفاً من القتل فتقتلوه ﴿تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾ أي حال كونكم طالبين لماله الذي هو حطامٌ سريع الزوال ﴿فعند الله مغانم كثيرة﴾ أي فعند الله ما هو خير من ذلك وهو ما أعدده لكم من جزيل الثواب والنعيم ﴿كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا﴾ أي كذلك كنتم كفاراً فهداكم للإسلام ومن عليكم بالإيمان فتبينوا أن تقتلوا مؤمناً وقيسوا حاله بحالكم ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي مطلعاً على أعمالكم فيجازيكم عليها ، ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين فقال ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين - غير أولي الضرر - والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾ أي لا يتساوى من قعد عن الجهاد من المؤمنين مع من جاهد بماله ونفسه في سبيل الله غير أهل الأعدار كالأعمى والأعرج والمريض قال ابن عباس : هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها ، ولما نزلت الآية قام ابن أم مكتوم فقال يا رسول الله : هل لي من رخصة فوالله لو أستطيع الجهاد لجاهدتُ - وكان أعمى - فأنزل الله ﴿غير أولي الضرر﴾ ﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾ أي فضل الله المجاهدين على القاعدين من أهل الأعدار درجة لاستوائهم في النية كما قال ﷺ : (إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه قالوا : وهم بالمدينة يا رسول الله ؟ قال : نعم حسبهم العذر) (١) ﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾ أي وكلاً من المجاهدين والقاعدين بسبب ضررٍ لحقهم وعدهم الله الجزاء الحسن في الآخرة ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾ أي وفضل الله المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بغير عذر بالشواب الوافر العظيم ﴿درجاتٍ منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي منازل بعضها أعلى من بعض مع المغفرة والرحمة وفي الحديث (إن في الجنة مائة درجة أعددها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض) (٢) .

(١) أخرجه البخاري . (٢) أخرجه النسائي .

البَلَاغَةُ : تضمنت هذه الآيات من البلاغة والبيان والبدیع أنواعاً نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستفهام بمعنى الإنكار في ﴿فما لكم في المنافقين﴾ ؟ وفي ﴿أتريدون أن تهدوا﴾ ؟ .
- ٢ - الطباق في ﴿أن تهدوا من أضلَّ اللهُ﴾ وكذلك ﴿القاعدون .. والمجاهدون﴾ .
- ٣ - والجناس المغاير في ﴿تكفرون كما كفروا﴾ وفي ﴿مغفرة .. وغفوراً﴾ .
- ٤ - الإطناب في ﴿فضَّل اللهُ المجاهدين بأموالهم وأنفسهم .. وفضلَّ اللهُ المجاهدين على القاعدين﴾ وكذلك في ﴿أن يقتل مؤمناً إلا خطأ﴾ ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ﴾ .
- ٥ - الاستعارة في ﴿إذا ضربتم في سبيل الله﴾ استعار الضرب للسعي في قتال الأعداء واستعار السبيل لدين الله ، ففيه استعارة الضرب للجهاد ، واستعارة السبيل لدين الله .
- ٦ - المجاز المرسل في ﴿فتحرير رقبة﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي عتق مملوك .

الفَوَائِد : القتل العمد من أعظم الجرائم في نظر الإسلام ولهذا كانت عاقبته في غاية التغليظ والتشديد وقد قال ﷺ : (من أعان على قتل مسلم مؤمن بشرط كلمة جاء يوم القيامة مكتوبٌ بين عينيه آيسٌ من رحمة الله)^(١) وفي الحديث أيضاً (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مؤمن)^(٢) ولهذا أفتى ابن عباس بعدم قبول توبة القاتل ، أعاذنا الله من ذلك .

تنبیه : أمر تعالى في القتل الخطأ بإعتاق رقبة مؤمنة والحكمة في هذا - والله أعلم - أنه لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار إذ أن إطلاقها من قيد الرق إحياء لها ، والعبد الرقيق في الإسلام له من الحقوق ما ليس للأحرار في الأمم الأخرى وليس أدل على ذلك من قوله تعالى ﴿فما الذين فضّلوا برادّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء﴾ وقوله ﷺ في مرضه الذي مات فيه (الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون) ومن يطلع على معاملة الزنوج في أمريكا يتضح له جلياً صحة ما نقول . وها هي الأمم الغربية تحرم استرقاق العبيد في حين أنها تسترق الأحرار ، وتحرم استرقاق الأفراد وتسترق الجماعات والأمم والشعوب ، باسم الاستعمار والانتداب ، فأين هذه الحضارة المزعومة والمدنيّة الزائفة من حضارة الإسلام ومدنيته الصادقة التي حررت الشعوب والأمم والأفراد ؟ !

قال الله تعالى : ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ... إلى .. وكان فضل الله عليك عظيماً﴾

من آية (٩٧) إلى نهاية آية (١١٣) .

(١) أخرجه ابن ماجه . (٢) أخرجه البيهقي .

المناسكة : لما ذكر تعالى ثواب المجاهدين الأبرار ، أتبعه بذكر عقاب القاعدين عن الجهاد الذين سكنوا في بلاد الكفر ، ثم رغب تعالى في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان وذكر ما يترتب عليها من السعة والأجر والثواب ، ثم لما كان الجهاد والهجرة سبباً لحدوث الخوف بين تعالى صلاة المسافر وطريقة صلاة الخوف ، ثم أتبع ذلك بذكر أروع مثل في الانتصار للعدالة سجله التاريخ ألا وهو إنصاف رجل يهودي اتهم ظلماً بالسرقة وإدانة الذين تأمروا عليه وهم أهل بيت من الأنصار في المدينة المنورة .

اللغز : ﴿مُرَاغِمًا﴾ مذهباً ومتحولاً مشتق من الرغام وهو التراب قال ابن قتيبة : المرغام والمهاجر واحد وأصله أن الرجل كان إذا أسلم خرج عن قومه مرغاماً لهم أي مغاضباً فليل للمذهب مرغاماً وسمي مصيره إلى النبي ﷺ هجرة^(١) ﴿سعة﴾ اتساعاً في الرزق ﴿تَقْصُرُوا﴾ القصر : النقص يقال قصر صلاته إذا صلى الرباعية ركعتين قال أبو عبيد : فيها ثلاث لغات قصرت الصلاة وقصرتها وأقصرتها^(٢) ﴿تغفلون﴾ الغفلة : السهو الذي يعتري الإنسان من قلة التحفظ والתיقظ ﴿موقوتاً﴾ محدود الأوقات لا يجوز إخراجه عن وقته ﴿تهنوا﴾ تضعفوا ﴿خصياً﴾ الخصيم بمعنى المخاصم أي المنازع والمدافع ﴿خواناً﴾ مبالغاً في الخيانة .

سبب النزول : أ - عن ابن عباس قال : كان قوم من المسلمين أقاموا بمكة - وكانوا يستخفون بالإسلام - فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم فقال المسلمون : كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكروها على الخروج فنزلت ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم . . .﴾^(٣) الآية .

ب - كان ضمرة بن القيس من المستضعفين بمكة وكان مريضاً فلما سمع ما أنزل الله في الهجرة قال لأولاده احملوني فإني لست من المستضعفين وإني لأهتدي الطريق ، والله لا آبيت الليلة بمكة فحملوه على سرير ثم خرجوا به فمات في الطريق بالتنعيم فأنزل الله ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾^(٤) .

ج - روي أن رجلاً من الأنصار يقال له « طعمة بن أبيرق » من بني ظفر سرق درعاً من جاره « قتادة ابن النعمان » في جراب دقيق ، فجعل الدقيق ينثر من خرق فيه فخبأها عند « زيد بن السمين » اليهودي فالتصمت الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها وما له بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوها فقال : دفعها إلي طعمة وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر : انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودي فهم رسول الله ﷺ أن يفعل فنزلت الآية ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله . . .﴾ الآية وهرب طعمة إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله^(٥) .

(١) تفسير غريب القرآن ص ١٣٤ . (٢) القرطبي ٥ / ٣٦٠ . (٣) مختصر ابن كثير ١ / ٤٢٧ .

(٤) القرطبي ٥ / ٣٤٩ . (٥) أبو السعود ١ / ٣٨٠ .

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ
 وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
 وَالْوِلْدَانَ لَيْسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا
 غَفُورًا ﴿١٩﴾ * وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسِعَةً ﴿٢٠﴾ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ
 مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢١﴾ وَإِذَا
 ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٢٢﴾

التفسير : ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ أي توفاهم الملائكة حال كونهم ظالمي
 أنفسهم بالإقامة مع الكفار في دار الشرك وترك الهجرة إلى دار الإيمان ﴿قالوا فيم كنتم قالوا كنا
 مستضعفين في الأرض﴾ أي تقول لهم الملائكة في أي شيء كنتم من أمر دينكم ؟ وهو سؤال توبيخ وتقريع
 قالوا معتذرين : كنا مستضعفين في أرض مكة عاجزين عن إقامة الدين فيها ﴿قالوا ألم تكن أرض الله
 واسعة فتهاجروا فيها﴾ ؟ أي قالت لهم الملائكة توبيخاً : أليست أرض الله واسعة فتهاجروا من دار الكفر
 إلى دار تقدر فيها على إقامة دين الله كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة ؟ قال تعالى بياناً لجزائهم
 ﴿فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً﴾ أي مقرهم النار وساءت مقراً ومصيراً ، ثم استثنى تعالى منهم
 الضعفة والعاجزين عن الهجرة فقال ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون
 حيلة ولا يهتدون سبيلاً﴾ أي لكن من كان منهم مستضعفاً كالرجال والنساء والأطفال الذين استضعفهم
 المشركون وعجزوا لإعسارهم وضعفهم عن الهجرة ولا يستطيعون الخلاص ولا يهتدون الطريق الموصل
 لدار الهجرة ﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم﴾ أي لعل الله أن يعفو عنهم لأنهم لم يتركوا الهجرة
 اختياراً ﴿وكان الله عفواً غفوراً﴾ أي يعفو ويغفر لأهل الأعذار ، وعسى في كلام الله تفيد التحقيق
 ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراعماً كثيراً وسعة﴾ هذا ترغيب في الهجرة أي من يفارق وطنه
 ويهرب فراراً بدينه من كيد الأعداء يجد مهاجراً ومتجولاً في الأرض كبيراً يرأغم به أنف عدوه ويجد سعة في
 الرزق فأرض الله واسعة ورزقه سابع على العباد ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾
 ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ أخبر تعالى أن من خرج
 من بلده مهاجراً من أرض الشرك فاراً بدينه إلى الله ورسوله ثم مات قبل بلوغه دار الهجرة فقد ثبت أجر
 هجرته على الله تعالى ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي ساتراً على العباد رحماً بهم ﴿وإذا ضربتم في
 الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ أي وإذا سافرتم للغزو أو التجارة أو غيرها فلا إثم
 عليكم أن تقصروا من الصلاة فتصلوا الرباعية ركعتين ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ أي إن

إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١١٠﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ
 وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا
 حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِنَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً
 وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ
 إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١١١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ

خشيتم أن ينالكم مكروه من أعدائكم الكفرة ، وذكر الخوف ليس للشرط وإنما هو لبيان الواقع حيث كانت
 أسفارهم لا تخلو من خوف العدو لكثرة المشركين ويؤيده حديث « يعلى بن أمية » قال قلت لعمر بن
 الخطاب : إن الله يقول ﴿ إن خفتهم ﴾ وقد أمن الناس فقال : عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله
 ﷺ عن ذلك فقال (صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته) ﴿ إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً ﴾ أي
 إن الكافرين أعداء لكم مظهرون للعداوة ولا يمنعونهم فرصة اشتغالكم بمنجاة الله أن يقتلوكم ﴿ وإذا كنت
 فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ﴾ أي وإذا كنت معهم يا محمد وهم
 يصلون صلاة الخوف في الحرب فلتأتم بك طائفة منهم وهم مدجون بأسلحتهم احتياطاً ولتقم الطائفة
 الأخرى في وجه العدو ﴿ فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك ﴾
 أي فإذا فرغت الطائفة الأولى من الصلاة فلتأت الطائفة التي لم تصل إلى مكانها لتصلي خلفك ﴿ وليأخذوا
 حذرهم وأسلحتهم ﴾ أي وليكونوا حذرين من عدوهم متأهين لقتالهم بحملهم السلاح ﴿ وذ الذين كفروا لو
 تغفلون عن أسلحتكم وأمعتكم فيميلون عليكم ميلاً واحدة ﴾ أي تمنى أعداؤكم أن تشغلوا عن
 أسلحتكم وأمعتكم فيأخذوكم غرة ، ويشدوا عليكم شدة واحدة فيقتلونكم وأنتم تصلون والمعنى لا
 تتشاغلوا بأجمعكم بالصلاة فيتمكن عدوكم منكم ولكن أقيموها على ما أمرتم به ﴿ ولا جناح عليكم إن كان
 بكم أذى من مطرٍ أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم ﴾ أي لا إثم عليكم في حالة المطر أو المرض أن لا
 تحملوا أسلحتكم إذا ضعفتم عنها ﴿ وخذوا حذركم ﴾ أي كونوا متيقظين واحترزوا من عدوكم ما
 استطعتم ﴿ إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ أي أعد لهم عذاباً مخزياً مع الإهانة ، روى ابن كثير عند
 هذه الآية عن أبي عياش الزرقى قال : كنا مع رسول الله ﷺ بعُسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن
 الوليد - وهم بيننا وبين القبلة - فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا : لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم
 ثم قالوا : يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم قال : فنزل جبريل بهذه الآيات
 بين الظهر والعصر ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ﴾ (١) الآية ثم أمر تعالى بكثرة ذكره عقب صلاة
 الخوف فقال ﴿ فإذا قضيت الصلاة فادكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ﴾ أي فإذا فرغتم من الصلاة

فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٧﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٨﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٩﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ﴿١١٠﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١١١﴾

فاكثروا من ذكر الله في حال قيامكم وقعودكم واضطجاعكم واذكروه في جميع الحالات لعله ينصركم على عدوكم ﴿فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة﴾ أي فإذا أمنتهم وذهب الخوف فأتوا الصلاة وأقيموها كما أمرتم بخشوعها وركوعها وسجودها وجميع شروطها ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ أي فرضاً محدوداً بأوقات معلومة لا يجوز تأخيرها عنه ، ثم حث تعالى على الجهاد والصبر عند الشدائد فقال ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾ أي لا تضعفوا في طلب عدوكم بل جدوا فيهم وقاتلوهم واقعدوا لهم كل مرصد ﴿إن تكونوا تآلمون: فإنهم يآلمون كما تآلمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾ أي إن كنتم تتآلمون من الجراح والقتال فإنهم يتآلمون أيضاً منه كما تتآلمون ولكنكم ترجون من الله الشهادة والثوبة والنصر حيث لا يرجونه هم ﴿وكان الله علماً حكيماً﴾ أي علماً بمصالح خلقه حكيماً في تشريعه وتديبه ، قال القرطبي : نزلت هذه الآية في حرب أحد حيث أمر ﷺ بالخروج في آثار المشركين وكان بالمسلمين جراحات وكان أمر ألا يخرج معه إلا من حضر في تلك الوقعة ، وقيل : هذا في كل جهاد (١) . ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ أي إنا أنزلنا إليك يا محمد القرآن متلبساً بالحق لتحكم بين الناس بما عرفك الله وأوحى به إليك ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ أي لا تكن مدافعاً ومخاصماً عن الخائنين تجادل وتدافع عنهم ، والمراد به « طعمة بن أبيرق » وجماعته ﴿واستغفر الله﴾ أي استغفر الله مما هممت به من الدفاع عن طعمة اطمئناناً لشهادة قومه بصلاحه ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن يستغفره ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ أي لا تخاصم وتدافع عن الذين يخونون أنفسهم بالمعاصي ﴿إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾ أي لا يحب من كان مفرطاً في الخيانة منهمكاً في المعاصي والآثام ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله﴾ أي يستترون من الناس خوفاً وحياءً ولا يستحيون من الله وهو أحق بأن يستحيا منه ويخاف من عقابه ﴿وهو معهم إذ يبَيِّنُونَ ما لا يرضى من القول﴾ أي وهو معهم جل وعلا عالم بهم وبأحوالهم يسمع ما يدبرونه في الخفاء ويضمرونه في السر من رمي البريء وشهادة الزور والحلف الكاذب ﴿وكان الله بما يعملون محيطاً﴾ أي لا يعزب عنه شيء منها

هَاتَمْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١١٦﴾
 وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٧﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا
 يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١٨﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ
 احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ
 إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ۗ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۗ وَكَانَ
 فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١٢٠﴾

ولا يفوت . . ثم قال تعالى توبيخاً لقوم طُعْمَة ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا﴾ أي ها أنتم يا معشر القوم دافعتم عن السارق والخائنين في الدنيا ﴿فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة﴾ أي فمن يدافع عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه ؟ ﴿أم من يكون عليهم وكيلاً﴾؟؟ أي من يتولى الدفاع عنهم ونصرتهم من بأس الله وانتقامه ؟ ثم دعاهم الله تعالى إلى الإنابة والتوبة فقال ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ أي من يعمل أمراً قبيحاً يسوء به غيره كاتهام بريء أو يرتكب جريمة يظلم بها نفسه كالسرقة ﴿ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ أي ثم يتوب من ذنبه يجد الله عظيم المغفرة واسع الرحمة قال ابن عباس : عرض الله التوبة بهذه الآية على بني أبيرق ﴿ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً﴾ أي من يقترف إثماً متعمداً فإنما يعود وبال ذلك على نفسه وكان الله عليماً بذنبه حكيماً في عقابه ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً﴾ أي من يفعل ذنباً صغيراً أو إثماً كبيراً ﴿ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ أي ثم ينسب ذلك إلى بريء ويتهمه به فقد تحمّل جرماً وذنباً واضحاً ، ثم بين تعالى فضله على رسوله فقال ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ أي لولا فضل الله عليك بالنبوة ورحمته بالعصمة لَهَمَّتْ جماعة منهم أن يضلوك عن الحق ، وذلك حين سألوا الرسول ﷺ أن يبرئهم صاحبهم « طُعْمَة » من التهمة ويلحقها باليهودي فتفضل الله عز وجل على رسوله بأن أطلعه على الحقيقة ﴿وما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي وبال إضلالهم راجع عليهم ﴿وما يضرُّونك من شيء﴾ أي وما يضرُّونك يا محمد لأن الله عاصمك من ذلك ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ أي أنزل الله عليك القرآن والسنة فكيف يضلونك وهو تعالى يُنزل عليك الكتاب ويوحى إليك بالأحكام ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ أي علمك ما لم تكن تعلمه من الشرائع والأمور الغيبية وكان فضله تعالى عليك كبيراً بالوحي والرسالة وسائر النعم الجسيمة .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة من البلاغة والبيان والبديع أنواعاً نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستفهام الذي يراد به التوبيخ والتقريع في ﴿قالوا فيم كنتم﴾ ؟ وفي ﴿ألم تكن أرض الله واسعة﴾ ؟
- ٢ - إطلاق العام وإرادة الخاص ﴿فإذا قضيتم الصلاة﴾ أريد بها صلاة الخوف .
- ٣ - الجناس المغاير في ﴿يعفو . . عفواً﴾ وفي ﴿يهاجر . . مهاجراً﴾ وفي ﴿يختانون . . خواناً﴾ وفي ﴿يستغفر . . غفوراً﴾ .
- ٤ - إطلاق الجمع على الواحد في ﴿توفاهم الملائكة﴾ يراد به ملك الموت وذكر بصيغة الجمع تفخيماً له وتعظيماً لشأنه .
- ٥ - طباق السلب ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله﴾ .
- ٦ - الاطناب بتكرار لفظ الصلاة تنبيهاً على فضلها ﴿فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ .

قال الله تعالى : ﴿لا خير في كثير من نجواهم . . إلى . . فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً﴾ .
من آية (١١٤) إلى نهاية آية (١٣٤) .

المناسكة : لما ذكر تعالى قصة طُعْمَة وحادثة السرقة التي اتهم بها اليهودي البريء ودفاع قومه عنه وتأمريهم في السر لايقاع البريء بها ، ذكر تعالى هنا أن موضوع النجوى لا يخفى على الله وأن كل تدبير في السر يعلمه الله ، وأنه لا خير في التناجي إلا ما كان بقصد الخير والإصلاح ، ثم ذكر تعالى أن مخالفة أمر الرسول ﷺ جرمٌ عظيم وحذرٌ من الشيطان وطرق إغوائه ، ثم عاد الحديث إلى التحذير من ظلم النساء في ميراثهن ومهورهن وأكد على وجوب الإحسان إليهن ، وأعقبه بذكر النشوز والطريق إلى الإصلاح بين الزوجين إما بالوفاق أو بالفراق .

اللفظة : ﴿نجواهم﴾ النجوى : السرُّ بين الإثنين قال الواحدي : ولا تكون النجوى إلا بين اثنين ﴿يشاقق﴾ يخالف والشقاق : الخلاف مع العداوة لأن كلاً من المتخالفين يكون في شق غير شق الآخر ﴿مريداً﴾ المريد : العاتي المتمرد من مرد إذا عتا وتجير قال الأزهري : مرد الرجل إذا عتا وخرج عن الطاعة فهو مارد ومريد ﴿فليبتكن﴾ البتك : القطع ومنه سيف باتك أي قاطع ﴿محيصاً﴾ مهرباً من حاص إذا هرب ونفر وفي المثل « وقعوا في حيص بيص » أي فيما لا يقدر على التخلص منه ﴿خليلاً﴾ من الخلة وهي صفاء المودة قال ثعلب : سمي الخليل خليلاً لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خلاً إلا ملأته قال بشار :

قد تخللت مسلك الروح مني وبه سمي الخليل خليلاً^(١)
﴿الشح﴾ شدة البخل ﴿المعلقة﴾ هي التي ليست ذات بعل ولا مطلقة .

سَبَبُ النَّزُولِ : أ - لما سرق « طُعْمَةُ بن أُبَيْرِق » وحكم النبي ﷺ عليه بالقطع هرب إلى مكة وارتد عن الإسلام فأنزل الله ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ﴾ (١) الآية .
 ب - قال قتادة : تفاخر المؤمنون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ونحن أحقُّ بالله منكم ، وقال المؤمنون : نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على سائر الكتب فنزلت ﴿ ليس بآمانيتكم ولا أمانيت أهل الكتاب ﴾ (٢) الآية .

* **لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾** وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۗ جَهَنَّمَ سَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾** **إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾** **لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا اتَّخَذَنَّ مِنَ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾**

النَّفْسِيرُ : ﴿ لا خير في كثير من نجواهم ﴾ أي لا خير في كثير مما يُسرّه القوم ويتناجون به في الخفاء ﴿ إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ أي إلا نجوى من أمر بصدقة ليعطيها سرّاً أو أمر بطاعة الله قال الطبري : المعروف هو كل ما أمر الله به أو نذب إليه من أعمال البر والخير ، والإصلاح هو الإصلاح بين المختصمين (٣) ﴿ ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ﴾ أي ومن يفعل ما أمر به من البر والمعروف والإصلاح طلباً لرضى الله تعالى لا لشيء من أغراض الدنيا ﴿ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ أي فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً هو الجنة قال الصاوي : والتعبير بسوف إشارة إلى أن جزاء الأعمال الصالحة في الآخرة لا في الدنيا لأنها ليست دار جزاء ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ﴾ أي يخالف أمر الرسول فيما جاء به عن الله من بعد ما ظهر له الحق بالمعجزات ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ أي يسلك طريقاً غير طريق المؤمنين ويتبع منهاجاً غير منهاجهم ﴿ نولّه ما تولى ونصله جهنم ﴾ أي تركه مع اختياره الفاسد وندخله جهنم عقوبة له ﴿ وساءت مصيراً ﴾ أي وساءت جهنم مرجعاً لهم ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ أي لا يغفر ذنب الشرك ويغفر ما دونه من الذنوب لمن يريد ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ﴾ أي فقد بعد عن طريق الحق والسعادة بعداً كبيراً ﴿ إن يدعون من دونه إلا إنثاً ﴾ أي ما يدعو هو لاء المشركون وما يعبدون من دون الله إلا أوثاناً سموها بأسماء الإناث « اللات والعزى ومناة » قال في التسهيل : كانت العرب تسمي الأصنام بأسماء مؤنثة (٤) ﴿ وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً ﴾ أي وما يعبدون إلا شيطاناً متمرداً بلغ الغاية في العتو والفجور وهو إبليس الذي فسق عن أمر ربه ﴿ لعنه الله وقال لا اتخذنَّ من

(١) القرطبي ٣٨٥/٥ . (٢) أسباب النزول ص ١٠٤ . (٣) الطبري ٢٠١/٩ . (٤) وهذا اختيار الطبري وقيل : إن المراد بالإناث

الملائكة كتوله تعالى ﴿ ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ﴾ فقد زعم المشركون أن الملائكة بنات الله .

وَلَا ضَلَّيْنَهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْهَمَهُمْ فَلْيُبْتِئِكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْهَمَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ
وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٦﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيْنَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١١٧﴾
أُولَئِكَ مَا لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١١٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١١٩﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيْكُمْ وَلَا أَمَانِيِ أَهْلِ

عبادك نصيباً مفروضاً ﴿١١٦﴾ أي أبعد الله عن رحمته فأقسم الشيطان قائلاً : لأتخذنَّ من عبادك الذين أبعدتني من أجلهم نصيباً أي حظاً مقدراً معلوماً أدعوهم إلى طاعتي من الكفرة والعصاة وفي صحيح مسلم يقول الله تعالى لآدم يوم القيامة « إبعثُ بعثُ النار فيقول : وما بعثُ النار ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون » ﴿وَلَا ضَلَّيْنَهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ﴾ أي لأصرفنهم عن طريق الهدى وأعدهم الأمانى الكاذبة وألقي في قلوبهم طول الحياة وأن لا بعث ولا حساب ﴿وَلَا مَرْهَمَهُمْ فَلْيُبْتِئِكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ أي ولأمرنهم بتقطيع آذان الأنعام قال قتادة : يعني تشقيقتها وجعلها علامة للبحيرة والسائبة كما كانوا يفعلون في الجاهلية ﴿وَلَا مَرْهَمَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ أي ولأمرنهم بتغيير خلق الله كخصاء العبيد والحيوان والوشم وغيره وقيل : المراد به تغيير دين الله بالكفر والمعاصي^(١) وإحلال ما حرم الله وتحريم ما أحل ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي ومن يتول الشيطان ويطعمه ويترك أمر الله ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ أي خسر دنياه وآخرته لمصيره إلى النار المؤبدة وأي خسرانٍ أعظم من هذا ؟ ثم قال تعالى عن إبليس ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيْنَهُمْ﴾ أي يعدهم بالفوز والسعادة ويمنيهم بالكاذب والأباطيل قال ابن كثير : هذا إخبار عن الواقع فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة وقد كذب وافترى في ذلك^(٢) ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي وما يعدهم إلا باطلاً وضلالاً قال ابن عرفة : الغرور ما له ظاهر محبوب وباطن مكروه ، فهو مزين الظاهر فاسد الباطن ﴿أُولَئِكَ مَا لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ﴾ أي مصيرهم وما لهم يوم القيامة نار جهنم ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي ليس لهم منها مفر ولا مهرب ، ثم ذكر تعالى حال السعداء الأبرار وما لهم من الكرامة في دار القرار فقال ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي مخلصين في دار النعيم بلا زوال ولا انتقال ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي وعداً لا شك فيه ولا ارتياب ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ أي ومن أصدق من الله قولاً ؟ والاستفهام معناه النفي أي لا أحد أصدق قولاً من الله قال أبو السعود : والمقصود معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه^(٣) ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيْكُمْ وَلَا أَمَانِيِ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يحصل بأمانيتكم أيها المسلمون ولا بأمانى أهل الكتاب وإنما يحصل بالإيمان والعمل الصالح قال الحسن البصري : ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وفر في القلب وصدقه العمل ، إن قوماً ألهتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن

(١) هذا مروى عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وهو اختيار الطبري . (٢) مختصر ابن كثير ١ / ٤٣٩ . (٣) أبو السعود ١ / ٣٨٤ .

الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِبْهُ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٦﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِ
 الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٧﴾ وَمَن
 أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٨﴾
 وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٩﴾ وَاسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۗ
 قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُم فِي الْكِتَابِ فِي نِسَاءِ الَّذِينَ لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ
 لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلنِّسَاءِ بِالْقِسْطِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا

بالله ، وكذبوا لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل ﴿من يعمل سوءاً يُجْزِبْهُ﴾ أي من يعمل السوء والشر ينال عقابه عاجلاً أو آجلاً ﴿ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ أي لا يجد من يحفظه أو ينصره من عذاب الله ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن﴾ أي ومن يعمل الأعمال الصالحة سواء كان ذكراً أو أنثى بشرط الإيمان ﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيراً﴾ أي يدخلهم الله الجنة ولا يُنقصون شيئاً حقيراً من ثواب أعمالهم كيف لا والمجازي أرحم الراحمين !! وإنما قال ﴿وهو مؤمن﴾ ليبين أن الطاعة لا تنفع من دون الإيمان ، ثم قال تعالى ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله﴾ ؟ أي لا أحد أحسن ديناً ممن اتفاد لأمر الله وشرعه وأخلص عمله لله ﴿وهو محسن﴾ أي مطيع لله مجتنب لنواهيه ﴿واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي واتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن ، مستقيماً على منهاجه وسبيله وهو دين الإسلام ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ أي صفيماً اصطفاه لمحبتة وخلته قال ابن كثير : فإنه انتهى إلى درجة الخلة التي هي أرفع مقامات المحبة وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه ^(١) ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي جميع ما في الكائنات ملكه وعبيده وخلقه وهو المتصرف في جميع ذلك ، لا راداً لما قضى ولا معقب لما حكم ﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية ﴿ويستفتونك في النساء﴾ أي يسألونك عما يجب عليهم في أمر النساء ﴿قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب﴾ أي قل لهم يا محمد : يبين الله لكم ما سألتهم في شأنهن ويبين لكم ما يتلى في القرآن من أمر ميراثهن ﴿في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن﴾ أي ويفتيكم أيضاً في اليتيمات اللواتي ترغبون في نكاحهن لجمالهن أو لما هنن ولا تدفعون لهن مهورهن كاملة فنهاهم الله عز وجل عن ذلك قال ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً فإن كانت جميلة واحبها تزوجها وأكل مالها ، وإن كانت دميمةً منعها الرجال حتى تموت فإذا ماتت ورثها ، فحرم الله ذلك ونهى عنه ﴿والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ أي ويفتيكم في

مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ مُحْسِنًا وَتَقْوًا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ نَسْتَبِيعَهُمْ أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ

المستضعفين الصغار أن تعطوهم حقوقهم وأن تعدلوا مع اليتامى في الميراث والمهر ، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون الصغار ولا النساء ويقولون : كيف نعطى المال من لا يركب فرساً ولا يحمل سلاحاً ولا يقاتل عدواً ! فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يعطوهم نصيبهم من الميراث ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾ أي وما تفعلوه من عدل وبر في أمر النساء واليتامى فإن الله يجازيكم عليه قال ابن كثير : وهذا تهيج على فعل الخيرات وامثال الأوامر وأن الله سيجزي عليه أوفر الجزاء (١) ، ثم ذكر تعالى حكم نشوز الرجل فقال ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾ أي وإذا علمت امرأة أو شعرت من زوجها الترفع عليها أو الإعراض عنها بوجهه بسبب الكره لها لدمايتها أو لكبر سنها وطموح عينه إلى من هي أشب وأجمل منها ﴿فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً﴾ أي فلا حرج ولا إثم على كل واحد من الزوجين من المصالحة والتوفيق بينهما بإسقاط المرأة بعض حقوقها من نفقة أو كسوة أو مبيت لتستعطفه بذلك وتستديم مودته وصحبته ، روى ابن جرير عن عائشة أنها قالت : هذا الرجل يكون له امرأتان إحداها قد عجزت أو هي دميمة وهو لا يحبها فتقول : لا تطلقني وأنت في حل من شأني (٢) ﴿والصلح خير﴾ أي والصلح خير من الفراق ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ أي جبلت الأنفس على الشح وهو شدة البخل فالمرأة لا تكاد تسمح بحقتها من النفقة والاستمتاع ، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يسكها إذا رغب عنها وأحب غيرها ﴿وإن تحسنا وتتقوا﴾ أي وإن تحسنا في معاملة النساء وتتقوا الله بترك الجور عليهن ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي فإن الله عالم بما تعملون وسيجزيكم عليه أوفر الجزاء . . ثم ذكر تعالى أن العدل المطلق بين النساء بالغ من الصعوبة مبلغاً لا يكاد يطاق ، وهو كالجوارح عن حد الاستطاعة فقال ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء﴾ أي لن تستطيعوا أيها الرجال أن تحققوا العدل التام الكامل بين النساء وتسووا بينهن في المحبة والأنس والاستمتاع ﴿ولو حرصتم﴾ أي ولو بذلتم كل جهدكم لأن التسوية في المحبة وميل القلب ليست بمقدور الإنسان ﴿فلا تميلوا كل الميل فتدروها كالمعلقة﴾ أي لا تميلوا عن المرغوب عنها ميلاً كاملاً فتجعلوها كالمعلقة التي ليست بذات زوج ولا مطلقة ، شبهت بالشيء المعلق بين السماء والأرض ، فلا هي مستقرة على الأرض ولا هي في السماء ، وهذا من أبلغ التشبيه ﴿وإن تصلحوا وتتقوا﴾ أي وإن تصلحوا ما مضى من الجور وتتقوا الله بالتمسك بالعدل ﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي يغفر ما فرط منكم ويرحمكم ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلًّا من سعته﴾ أي وإن يفارق كل واحد منهما صاحبه ، فإن

وَكَانَ اللَّهُ وَسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ^ع وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ^ع وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ^ع وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣٦﴾
 وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ^ع وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٧﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمْ أَهْلُ النَّاسِ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ^ع وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٨﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^ع وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٩﴾
 الله يغنيه بفضله ولطفه ، بأن يرزقه زوجاً خيراً من زوجه ، وعيشاً أهنأ من عيشه ﴿ وكان الله واسعاً حكيماً ﴾ أي واسع الفضل على العباد حكيماً في تدبيره لهم ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي ملكاً وخلقاً وعبداً ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم ﴾ أي وصينا الأولين والآخرين وأمرناكم بما أمرناهم به من امتثال الأمر والطاعة ﴿ أن اتقوا الله ﴾ أي وصيناكم جميعاً بتقوى الله وطاعته ﴿ وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي وإن تكفروا فلا يضره تعالى كفركم لأنه مستغن عن العباد وهو المالك لما في السموات والأرض ﴿ وكان الله غنياً حميداً ﴾ أي غنياً عن خلقه ، محموداً في ذاته ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ أي كفى به حافظاً لأعمال عباده ﴿ إن يسألكم أيها الناس ويأت بآخرين ﴾ أي لو أراد الله لأهلككم وأفناكم وأتى بآخرين غيركم ﴿ وكان الله على ذلك قديراً ﴾ أي قادراً على ذلك ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً ﴾ أي من كان يريد بعمله أجر الدنيا فعند الله ما هو أعلى وأسمى وهو أجر الدنيا والآخرة فلم يطلب الأحسن ولا يطلب الأعلى ؟ فليسأل العبد ربه خيرى الدنيا والآخرة فهو تعالى سميع لأقوال العباد بصير بأعمالهم .

البلاغه : تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستعارة في ﴿ أسلم وجهه لله ﴾ استعار الوجه للتقصد والجهة وكذلك في قوله ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ لأن الشح لما كان غير مفارق للأنفس ولا متباعد عنها كان كأنه أحضرها وحمل على ملازمتها فاستعار الإحضار للملازمة^(١) .
- ٢ - الجناس المغاير في ﴿ ضل . ضلالاً ﴾ وفي ﴿ خسر . خسراناً ﴾ وفي ﴿ أحسن . محسن ﴾ وفي ﴿ صلحاً . . والصلح ﴾ وفي ﴿ تميلوا كل الميل ﴾ .
- ٣ - التشبيه في ﴿ فتذروها كالمعلقة ﴾ وهو مرسل مجمل .
- ٤ - الإطناب والإيجاز في عدة مواضع .

تبيينه : العدل المقصود في هذه الآية هو العدل في المحبة القلبية فقط وإلا لتناقضت الآية مع

الآية السابقة ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ وقد كان ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول (اللهم هذا قَسْمِي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك) يعني بذلك المحبة القلبية ويدل على هذا قوله تعالى ﴿فتذروها كالمعلقة﴾ ، وأما ما يدعو إليه بعض من يتسمون بـ « المجددين » من وجوب التزوج بواحدة فقط بدليل هذه الآية فلا عبرة به لأنه جهل بفهم النصوص وهو باطل محض تَرَدُّهُ الشريعة الغراء ، والسنة النبوية المطهرة ، وكفانا الله شر علماء السوء .

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط . . إلى . . وكان الله شاكراً عليماً﴾

من الآية (١٣٥) إلى نهاية الآية (١٤٧) .

المناسكبة : لما أمر تعالى بالإحسان إلى النساء والعدل في معاملتهن ، أمر هنا بالعدل العام في جميع الأحكام ، ودعا إلى أداء الشهادة على الوجه الأكمل سواء كان المشهود عليه غنياً أو فقيراً ، وحذر من اتباع الهوى ، ثم دعا إلى الإيمان بجميع الملائكة والكتب والرسل ، ثم أعقب ذلك بذكر أوصاف المنافقين المخزية وما لهم من العذاب والنكال في دركات الجحيم .

اللفظ : ﴿تلووا﴾ اللي : الدفع يقال لويت فلاناً حقه إذا دفعته ومطلته ومنه الحديث (لي الواجد ظلم) أي مظل الغني ظلم ﴿يخوضوا﴾ الخوض : الاقتحام في الشيء ومنه خوض الماء ﴿نستحوذ﴾ الاستحواذ : الاستيلاء والتغلب يقال استحوذ على كذا إذا غلب عليه ومنه قوله تعالى ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ ﴿مذبذبين﴾ الذذبذة : التحريك والاضطراب يقال ذبذبت فتذبذب والمذبذب المتردد بين أمرين ﴿الدرك﴾ بسكون الراء وفتحها بمعنى الطبقة وهي لما تسافل قال ابن عباس : الدرك لأهل النار كالدرج لأهل الجنة إلا أن الدرجات بعضها فوق بعض ، والدركات بعضها أسفل من بعض^(١) .

* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ

غَنِيًّا أَوْ فَاقِرًا فَإِنَّ لِلَّهِ أَوْلَىٰ بِيَهُمَا طَبَّ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْتُمْ أَوْ لَعُنْتُمْ فَلِئِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
النفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾ أي يا من آمنتم بالله وصدقتم بكتابه كونوا مجتهدين في إقامة العدل والاستقامة وأتى بصيغة المبالغة في ﴿قوامين﴾ حتى لا يكون منهم جور أبداً ﴿شهداء لله﴾ أي تقيمون شهادتكم لوجه الله دون تحيز ولا محاباة ﴿ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ أي ولو كانت تلك الشهادة على أنفسكم أو على آبائكم أو أقربائكم فلا تمنعكم القرابة ولا المنفعة عن أداء الشهادة على الوجه الأكمل فإن الحق حاكم على كل إنسان ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً﴾ أي إن يكن المشهود عليه غنياً فلا يراعى لغناه ، أو فقيراً فلا يمتنع من الشهادة عليه ترحمًا وإشفاقاً ﴿فالله أولى بهما﴾ أي فالله أولى بالغني والفقير وأعلم بما فيه صلاحها فراعوا أمر الله فيما أمركم به فإنه أعلم بمصالح العباد منكم ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ أي فلا تتبعوا هوى النفس مخافة أن تعدلوا بين الناس قال ابن كثير : أي لا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في شئونكم بل الزموا العدل

خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ
 مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ
 الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾
 بَشِيرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّتُوا
 عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

على كل حال (١) ﴿وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تُعْرَضُوا﴾ أي وإن تلووا ألسنتكم عن شهادة الحق أو تعرضوا عن إقامتها
 رأساً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازيكم عليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي
 اثبتوا على الإيمان ودوموا عليه ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي آمنوا بالقرآن الذي نزل على محمد
 ﷺ ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي وبالكتب السماوية التي أنزلها من قبل القرآن قال أبو السعود :
 المراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب السماوية (٢) ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ
 الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي ومن يكفر بشيء من ذلك فقد خرج عن طريق الهدى ، وبعد عن القصد
 كل البعد ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ هذه الآية في المنافقين (٣) آمنوا ثم
 ارتدوا ثم آمنوا ثم ارتدوا ثم ماتوا على الكفر قال ابن عباس : دخل في هذه الآية كل منافق كان في عهد
 النبي ﷺ في البر والبحر وقال ابن كثير : يخبر تعالى عن دخول في الإيمان ثم رجع فيه ثم عاد إلى الإيمان ثم
 رجع واستمر على ضلاله وازداد حتى مات فإنه لا توبة له بعد موته ولا يغفر الله له ولا يجعل له مما هو فيه
 فرجاً ولا مخرجاً ولا طريقاً إلى الهدى (٤) ولهذا قال تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ أي لم
 يكن الله ليسامحهم على ذلك ولا ليهديهم طريقاً إلى الجنة قال الزمخشري : ليس المعنى أنهم لو أخلصوا
 الإيمان بعد تكرار الردة لم يقبل منهم ولم يغفر لهم ولكنه استبعاد له واستغراب كأنه أمر لا يكاد يكون ،
 وهكذا ترى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع لا يكاد يرجع منه الثبات ، والغالب أنه يموت
 على شر حال (٥) ، ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين فقال ﴿بَشِيرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عبر تعالى
 بلفظ ﴿بَشِيرٍ﴾ تهكماً بهم أي أخبر يا محمد المنافقين بعذاب النار الأليم ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ
 مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أولئك هم الذين يوالون الكافرين ويتخذونهم أعواناً وأنصاراً لما يتوهمونه فيهم من
 القوة ويتركون ولاية المؤمنين ﴿أُمِّتُوا عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ﴾ أي أيطلبون بموالاتة الكفار القوة والغلبة ؟
 والاستفهام إنكار أي إن الكفار لا عزة لهم فكيف تُبْتَغَى منهم ! ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي العزة لله
 وأوليائه قال ابن كثير والمقصود من هذا التهيج على طلب العزة من جناب الله ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي

(١) مختصر ابن كثير ١/٤٤٧ . (٢) أبو السعود ١/٣٨٩ . (٣) وقيل إنها في اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادة العجل ثم آمنوا بعد عودة

موسى إليهم ثم كفروا بعبادة محمد وهو قول قتادة واختاره الطبري .

(٤) مختصر ابن كثير ١/٤٤٨ . (٥) الكشاف ١/٤٤٧ .

وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكَ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤١﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤٢﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ الْكِتَابِ ﴿١٤٣﴾ أَي نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْقُرْآنِ ، وَالخَطَابُ لِمَنْ أَظْهَرَ الْإِيمَانَ مِنْ مُؤْمِنٍ وَمُنَافِقٍ ﴿١٤٤﴾ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ﴿١٤٥﴾ أَي أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ أَنَّهُ إِذَا سَمِعْتُمْ الْقُرْآنَ يُكْفَرُ بِهِ الْكَافِرُونَ وَيُسْتَهْزَأُ بِهِ الْمُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤٦﴾ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴿١٤٧﴾ أَي لَا تَجْلِسُوا مَعَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَسْتَهْزِئُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ حَتَّى يَتَحَدَّثُوا بِحَدِيثٍ آخَرَ وَيَتْرَكُوا الْخَوْضَ فِي الْقُرْآنِ ﴿١٤٨﴾ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ﴿١٤٩﴾ أَي إِنَّكُمْ إِنْ قَعَدْتُمْ مَعَهُمْ كُنْتُمْ مِثْلَهُمْ فِي الْكُفْرِ ﴿١٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٥١﴾ أَي يَجْمَعُ الْفَرِيقَيْنِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي الْآخِرَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ لِأَنَّ الْمَرْءَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ، وَهَذَا الْوَعِيدُ مِنْهُ تَعَالَى لِلتَّحْذِيرِ مِنْ مَخَالَطَتِهِمْ وَمَجَالَسَتِهِمْ . . . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى تَرَبَّصَهُمُ السُّوءَ بِالْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ ﴿١٥٢﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ﴿١٥٣﴾ أَي يَنْتَظِرُونَ بِكُمْ الدَّوَائِرَ ﴿١٥٤﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِنَ اللَّهِ ﴿١٥٥﴾ أَي غَلَبَةٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَغَنِيمَةٌ ﴿١٥٦﴾ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴿١٥٧﴾ أَي فَأَعْطَوْنَا مَا غَنَمْتُمُوهُ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ ﴿١٥٩﴾ أَي ظَفَرَ عَلَيْكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٠﴾ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦١﴾ أَي قَالُوا لِلْمُشْرِكِينَ أَلَمْ نَغْلِبْكُمْ وَنَتِمَكَّنْ مِنْ قِتْلِكُمْ وَأَسْرَكُمْ فَأَبْقَيْنَا عَلَيْكُمْ وَثْبُنًا عِزَائِمِ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى انْتَصَرْتُمْ عَلَيْهِمْ ؟ فَهَاتُوا نَصِيبِنَا مَا أَصَبْتُمْ لِأَنَّا نُوَالِيكُمْ وَلَا نَتْرُكُ أَحَدًا يُوَدِّعُكُمْ قَالَ تَعَالَى بَيَانًا لِمَالِ الْفَرِيقَيْنِ ﴿١٦٢﴾ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿١٦٣﴾ أَي يَحْكُمُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ وَيَفْصَلُ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴿١٦٤﴾ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٦٥﴾ أَي لَنْ يَمَكَّنَ الْكُفْرَةَ مِنْ رِقَابِ الْمُؤْمِنِينَ فَيَبِيدُوهُمْ وَيَسْتَأْصِلُوهُمْ (١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : وَذَلِكَ بِأَنْ يَسْلُطُوا عَلَيْهِمْ اسْتِئْصَالَ بِالْكَلِيَّةِ وَإِنْ حَصَلَ لَهُمْ ظَفَرٌ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (٢) ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴿١٦٧﴾ أَي يَفْعَلُونَ مَا يَفْعَلُ الْمَخَادِعُ مِنْ إِظْهَارِ الْإِيمَانِ وَإِطْطَانِ الْكُفْرِ وَاللَّهُ يَجَازِيهِمْ عَلَى خَدَاعِهِمْ وَيَسْتَدْرِجُهُمْ بِأَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِحَقْنِ دِمَائِهِمْ ، وَقَدْ أَعَدَّ لَهُمُ الدَّرَكَ الْأَسْفَلَ مِنَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ ، فَسَمَّى تَعَالَى جِزَاءَهُمْ خَدَاعًا بِطَرِيقِ الْمَشَاكَلَةِ لِأَنَّ وَبَالَ خَدَاعِهِمْ رَاجِعٌ عَلَيْهِمْ ﴿١٦٨﴾ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ ﴿١٦٩﴾ أَي يَصِلُونَ وَهُمْ مَتَثَاقِلُونَ مَتَكَاسِلُونَ ، لَا يَرْجُونَ ثَوَابًا وَلَا يَخَافُونَ عِقَابًا ﴿١٧٠﴾ يُرَاءُونَ

(١) ذكر القرطبي خمسة أقوال للمفسرين في هذه الآية هذا أحدها وهو الذي رجحناه وقيل : إن المراد بالسبيل الحجة وقيل هذا يوم القيامة وقد رجحه الطبري حيث قال : يعني حجة يوم القيامة واستدل له بما روي أن رجلاً سأل علياً عن هذه الآية فقال : أدن مني ثم قرأ عليه ﴿١٦٢﴾ فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴿١٦٣﴾ أي يوم القيامة وقد ضعف هذا الرأي ابن العربي انظر القرطبي ٤١٩/٥ . (٢) مختصر ابن كثير ٤٤٩/١ .

وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٦﴾ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَتُولَاءَ وَلَا إِلَى هَتُولَاءَ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٨﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٥٠﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٥١﴾

الناس ﴿ أي يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة ولا يقصدون وجه الله ﴾ ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴿ أي لا يذكرون الله سبحانه إلا ذكراً قليلاً ﴾ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ ﴿ أي مضطربين مترددين بين الكفر والإيمان ، وصفهم تعالى بالحيرة في دينهم ﴾ لا إلى هتولاء ولا إلى هتولاء ﴿ أي لا ينتسبون إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين ﴾ ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً ﴿ أي ومن يضلله الله فلن تجد له طريقاً إلى السعادة والهدى ، ثم حذر تعالى المؤمنين من موالات أعداء الدين فقال ﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴿ أي لا تتركوا موالات المؤمنين وتوالوا الكفرة المجرمين بالمصاحبة والمصادقة ﴾ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿ أي أتريدون أن تجعلوا لله حجة بالغة عليكم أنكم منافقون ؟ قال ابن عباس : كل سلطان في القرآن حجة ، ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين فقال ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ أي في الطبقة التي في قعر جهنم وهي سبع طبقات قال ابن عباس : أي في أسفل النار ، وذلك لأنهم جمعوا مع الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله ، والنار دركات كما أن الجنة درجات ﴿ ولن تجد لهم نصيراً ﴾ أي لن تجد لهؤلاء المنافقين ناصراً ينصرهم من عذاب الله ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ وهذا استثناء أي تابوا عن النفاق ﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ أي أعماهم ونياتهم ﴿ وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ ﴾ أي تمسكوا بكتاب الله ودينه ﴿ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ أي لم يبتغوا بعملهم إلا وجه الله ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي في زمرة يوم القيامة ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي يعطيهم الأجر الكبير في الآخرة وهو الجنة ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴾ أي أيُّ منفعة له سبحانه في عذابكم ؟ أيتشفى به من الغيظ ، أم يدرك به الثأر ، أم يدفع به الضر ويستجلب النفع وهو الغنى عنكم ؟ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ أي شاكراً لطاعة العباد مع غناه عنهم يعطي على العمل القليل الثواب الجزيل .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - المبالغة في الصيغة في ﴿ قَوَّامِينَ بِالتَّسْطِ ﴾ أي مبالغين في العدل .

٢ - الطباق بين ﴿ غَنِيًّا وَفَقِيرًا ﴾ وبين ﴿ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ .

٣ - الجناس الناقص في ﴿آمَنُوا آمِنُوا﴾ لتغير الشكل .

٤ - جناس الاشتقاق في ﴿يُخَادِعُونَ .. خَادِعُهُمْ﴾ وفي ﴿جامع .. جميعاً﴾ وفي ﴿شكرتم .. شاكراً﴾ .

٥ - الاسلوب التهكمي في ﴿بشر المنافقين﴾ حيث استعمل لفظ البشارة مكان الإنذار تهكماً .

٦ - الاستعارة في ﴿وهو خادعهم﴾ استعار اسم الخداع للمجازاة على العمل ، والله تعالى منزّه عن الخداع .

٧ - الاستفهام الإنكاري في ﴿أيتنغون عندهم العزة﴾ ؟ والغرض منه التقرير والتوبيخ .

الفوائد : الأولى : قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾ ليس تكراراً وإنما معناه اثبتوا على الإيمان ودوموا عليه كقول المؤمن ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ أي ثبتنا على الصراط المستقيم .

الثانية : سمي تعالى ظفر المؤمنين فتحاً عظيماً ونسبه إليه ﴿فتح من الله﴾ وظفر الكافرين نصيباً ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ ولم ينسبه إليه وذلك لتعظيم شأن المسلمين ، وتحسيس حظ الكافرين .

الثالثة : قال المفسرون : النار سبع دركات أوها جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية وقد تسمى بعض الطبقات باسم بعض لأن لفظ النار يجمعها ، كذا في البحر .

تنبيه : المنافق أخطر من الكافر ولهذا كان عذابه أشد ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾ وقد شرط تعالى للتوبة على الكافر الانتهاء عن الكفر فقط ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ وأما المنافق فشرط عليه أربعاً : التوبة ، والإصلاح ، والاعتصام ، وإخلاص الدين له فقال ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله﴾ فدل على أن المنافقين شر من كفر به وأولاهم بمقتته ، وأبعدهم من الإنابة إليه ثم قال ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ ولم يقل فأولئك هم المؤمنون ثم قال ﴿وسوف يؤت الله المؤمنين منه أجراً عظيماً﴾ ولم يقل « وسوف يؤتيهم » بغضاً لهم وإعراضاً عنهم وتفضيلاً لما كانوا عليه من عظم كفر النفاق ، زادنا الله فهماً لأسرار كتابه .

قال الله تعالى : ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم .. إلى .. أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾

المناسكبة : لما ذكر تعالى المنافقين وفضحهم في الآيات السابقة ، ذكر هنا أنه لا يجب إظهار الفضائح والقبائح ، إلا في حق من زاد ضرره وعظم خطره ، فلا عجب أن يكشف الله عن المنافقين الستر ، ثم تحدث عن اليهود وعدد بعض جرائمهم الشنيعة مثل طلبهم لرؤية الله ، وعبادتهم للعجل ،

وادعائهم صلب المسيح ، واتهامهم مريم البتول بالفاحشة إلى غير ما هنالك من قبائح وجرائم شنيعة .

اللغة : ﴿جهرة﴾ عياناً ﴿بهتاناً﴾ البهتان : الكذب الذي يُتَحِيرُ فيه من شدته وعظمته ﴿شبه﴾ وقع الشبه بين عيسى والمقتول الذي صلبوه ﴿وأعتدنا﴾ هيأنا ﴿الراسخون﴾ المتمكنون من العلم .

سَبَبُ النَّزُولِ : روي أن كعب بن الأشرف وجماعة من اليهود قالوا يا محمد : إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء جملةً كما أتى موسى بالتوراة جملةً فأنزل الله ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء . . .﴾^(١) الآية .

* لَا يُجِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾

التفسير : ﴿لا يجب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ أي لا يجب الله الفحش في القول والإيذاء باللسان إلا المظلوم فإنه يباح له أن يجهر بالدعاء على ظلمه وأن يذكره بما فيه من سوء قال ابن عباس : المعنى لا يجب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً^(٢) ﴿وكان الله سمياً عليماً﴾ أي سمياً لدعاء المظلوم عليماً بالظالم ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أي إن أظهرتم أيها الناس عمل الخير أو أخفيتموه أو عفيتم عن أساء إليكم ﴿فإن الله كان عفواً قديراً﴾ أي كان مبالغاً في العفو مع كمال قدرته على المؤاخذة ، قال الحسن : يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى^(٣) حث تعالى على العفو وأشار إلى أنه عفو مع قدرته فكيف لا تعفون مع ضعفكم وعجزكم ؟ ! ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسوله﴾ الآية في اليهود والنصارى لأنهم آمنوا بأنبيائهم وكفروا بمحمد ﷺ وغيره ، جعل كفرهم ببعض الرسل كفراً بجميع الرسل ، وكفرهم بالرسول كفراً بالله تعالى ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله﴾ التفريق بين الله ورسوله أن يؤمنوا بالله ويكفروا برسوله ، وكذلك التفريق بين الرسل هو الكفر ببعضهم والإيمان ببعضهم وقد فسره تعالى بقوله بعده ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾ أي نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض قال قتادة : أولئك أعداء الله اليهود والنصارى ، آمنت اليهود بالتوراة وموسى وكفروا بالإنجيل وعيسى ، وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى وكفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ وتركوا الإسلام دين الله الذي بعث به رسوله^(٤) ﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً﴾ أي طريقاً وسطاً بين الكفر والإيمان ولا واسطة بينهما ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالصفات القبيحة هم الكافرون يقيناً ولو ادعوا الإيمان ﴿وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ أي

(١) مجمع البيان ٣/ ١٣٣ . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٤٥٢ . (٣) أبو السعود ١/ ٣٩٣ . (٤) الطبري ٩/ ٣٥٤ .

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يَفْرِقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَوْلَيْكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾
 يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً
 فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُوسَىٰ سُلْطَنًا
 مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ
 وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فِيمَا نَقَضُوا مِيثَاقَهُمْ وَكُفِّرُوا بَعَائِلَ اللَّهِ وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَقًّا وَقَوْلَهُمْ

هَيَأْنَا لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا مَعَ الْإِهَانَةِ وَالخُلُودِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يَفْرِقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أَي صَدَقُوا اللَّهَ وَأَقْرَبُوا بِجَمِيعِ الرُّسُلِ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ أَتْبَاعُ مُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يَفْرِقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ بَلْ آمَنُوا بِجَمِيعِهِمْ ﴿أَوْلَيْكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ أَي سَنُعْطِيهِمْ ثَوَابَهُمْ الْكَامِلَ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أَي غَفُورًا لِمَا سَلَفَ مِنْهُمْ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْإِثَامِ مُتَفَضِّلًا عَلَيْهِمْ بِأَنْوَاعِ الْإِنْعَامِ ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ نَزَلَتْ فِي أَحْبَارِ الْيَهُودِ حِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا فَأْتِنَا بِكِتَابٍ مِنَ السَّمَاءِ جَمْلَةً كَمَا أَتَى بِهِ مُوسَىٰ جَمْلَةً ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ ، فَذَكَرَ تَعَالَى سَوْأَهُمْ مَا هُوَ أَفْظَعُ وَأَشْنَعُ تَسْلِيَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ لِلتَّأْسِيِ بِالرُّسُلِ فَقَالَ ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أَي سَأَلُوا مُوسَىٰ رُؤْيَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِيَانًا ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أَي جَاءَتْهُمْ مِنَ السَّمَاءِ نَارٌ فَأَهْلَكَتَهُمْ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أَي ثَمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ إلهًا وَعَبَدُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْمَعْجَزَاتُ وَالْحُجُجُ الْبَاهِرَاتُ مِنَ الْعَصَا وَالْيَدِ وَفُلْقِ الْبَحْرِ وَغَيْرِهَا قَالَ أَبُو السَّعُودِ : وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ - وَهِيَ طَلَبُ رُؤْيَةِ اللَّهِ - وَإِنْ صَدَرَتْ عَنْ أَسْلَافِهِمْ لَكُنْهُمْ لَمَّا كَانُوا مُقْتَدِينَ بِهِمْ فِي كُلِّ مَا يَأْتُونَ وَيَذَرُونَ أَسَدَّتْ إِلَيْهِمْ ^(١) ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ أَي عَفَوْنَا عَمَّا ارْتَكَبُوهُ مَعَ عَظَمِ جُرْمَتِهِمْ وَخِيَانَتِهِمْ ﴿وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أَي حُجَّةً ظَاهِرَةً تَظْهَرُ صِدْقَهُ وَصِحَّةَ نُبُوَّتِهِ قَالَ الطَّبْرِيُّ : وَتِلْكَ الْحُجَّةُ هِيَ الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ الَّتِي آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُمْ ^(٢) ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ أَي رَفَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ لَمَّا امْتَنَعُوا عَنْ قَبُولِ شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ بِسَبَبِ الْمِيثَاقِ لِيَقْبَلُوهُ ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أَي ادْخُلُوا بَابَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مَطَّاطِينَ رِعْوسِكُمْ خُضُوعًا لِلَّهِ فَخَالَفُوا مَا أَمَرُوا بِهِ وَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ حَنْطَةَ فِي شَعْرَةِ اسْتِهْزَاءٍ ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أَي لَا تَعْتَدُوا بِاصْطِيَادِ الْحَيْتَانِ يَوْمَ السَّبْتِ فَخَالَفُوا وَاصْطَادُوا ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أَي عَهْدًا وَثِيقًا مُؤَكَّدًا ﴿فِيمَا نَقَضُوا مِيثَاقَهُمْ﴾ أَي فَسَبَبِ نَقْضِهِمُ الْمِيثَاقَ لِعَنَاتِهِمْ وَأَذْلَلْنَاهُمْ وَ﴿مَا﴾ لِتَأْكِيدِ الْمَعْنَى ﴿وَكَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أَي وَبِجُحُودِهِمْ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَقًّا﴾ كَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ﴿وَقَوْلَهُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أَي

قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتِنَا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَتْبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فِظَلَّمِ قَوْلَهُم لِلنَّبِيِّ ﷺ قُلُوبُنَا مَغْشَاةٌ بِأَغْشِيَةِ لَا تَعِي مَا تَقُولُهُ يَا مُحَمَّدُ ، قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَي بَلْ خَتَمَ تَعَالَى عَلَيْهَا بِسَبَبِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ فَلَا يُؤْمِنُ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتِنَا عَظِيمًا﴾ أَي وَبِكُفْرِهِمْ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْضًا وَرَمِيهِمْ مَرْيَمَ بِالزُّنَى وَقَدْ فَضَّلَهَا اللَّهُ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أَي قَتَلْنَا هَذَا الَّذِي يَزْعَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وَهَذَا إِثْمًا قَالُوهُ عَلَى سَبِيلِ «التَّهْكُمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ» كَقَوْلِ فِرْعَوْنَ ﴿إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ وَإِلَّا فَهَمْ يَزْعَمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ زُنَى وَأُمَّهُ زَانِيَةٌ وَلَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ تَعَالَى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أَي وَمَا قَتَلُوا عِيسَى وَلَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ قَتَلُوا وَصَلَبُوا مِنْ أَلْتَمِي عَلَيْهِ شَبَّهُهُ قَالَ الْبِيضَاوِيُّ : رَوَى أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَنَافِقُ لِعِيسَى فَخَرَجَ لِيَدُلَّ عَلَيْهِ فَأَلْتَمَى اللَّهُ عَلَيْهِ شَبَّهُهُ فَأَخَذَ وَصَلَبَ وَهَمْ يظنون أَنَّهُ عِيسَى^(١) ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ أَي وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي شَأْنِ عِيسَى لَفِي شَكٍّ مِنْ قَتْلِهِ ، رَوَى أَنَّهُ لَمَّا رُفِعَ عِيسَى وَأَلْتَمَى شَبَّهُهُ عَلَى غَيْرِهِ فَقَتَلُوهُ قَالُوا : إِنْ كَانَ هَذَا الْمَقْتُولُ عِيسَى فَأَيْنَ صَاحِبِنَا ؟ وَإِنْ كَانَ هَذَا صَاحِبِنَا فَأَيْنَ عِيسَى ؟ فَاخْتَلَفُوا فَقَالَ بَعْضُهُمْ هُوَ عِيسَى وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَيْسَ هُوَ عِيسَى بَلْ هُوَ غَيْرُهُ ، فَأَجْمَعُوا أَنَّ شَخْصًا قَدْ قَتَلَ وَاخْتَلَفُوا مِنْ كَانَ^(٢) ﴿مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَتْبَاعَ الظَّنِّ﴾ أَي مَا لَهُمْ بِقَتْلِهِ عِلْمٌ حَقِيقِيٌّ وَلَكِنْهُمْ يَتَّبِعُونَ فِيهِ الظَّنَّ الَّذِي تَخَيَّلُوهُ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أَي وَمَا قَتَلُوهُ مَتَيْقِنِينَ أَنَّهُ هُوَ بَلْ شَاكِينَ مَتَوْهَمِينَ وَنَجَّاهُ اللَّهُ مِنْ شَرِّهِمْ فَرَفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَيًّا بِجَسَدِهِ وَرُوحِهِ كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ^(٣) ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أَي عَزِيزًا فِي مَلِكِهِ حَكِيمًا فِي صَنْعِهِ ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أَي لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ قَبْلَ مَوْتِهِ بِعِيسَى وَبِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ حِينَ يَعَايِنُ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ وَلَكِنْ لَا يَتَفَعُّهُ إِيمَانُهُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَا يَمُوتُ يَهُودِيٌّ حَتَّى يُؤْمِنَ بِعِيسَى قَبْلَ لَهْ : أَرَأَيْتَ إِنْ ضُرِبَتْ عُنُقُ أَحَدِهِمْ ؟ قَالَ : يَلْجُلُجُ بِهَا لِسَانُهُ وَكَذَا صَحَّ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعُكْرَمَةَ وَابْنِ سِيرِينَ^(٤) ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أَي يَشْهَدُ عِيسَى عَلَى الْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا وَعَلَى النَّصَارَى بِأَنَّهُمْ دَعَوْهُ ابْنَ اللَّهِ ﴿فَبِظُلْمٍ مِنْ

(١) البضاوي ص ١٤١ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٦٣ . (٣) منها ما رواه الشيخان (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية) الحديث وانظر كتاب «التصريح بما تواتر في نزول المسيح» للكشميري تحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة . (٤) اختار الطبري أن الضمير في ﴿قبل موته﴾ يعود على عيسى ويصبح المعنى : لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى قبل موت عيسى لما ينزل قرب الساعة ، وما ذكرناه هو اختيار أبي السعود والكشاف والجلالين .

مَنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٦﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدَّ
 نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبِطْلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦٧﴾ لَكِنَّ الرَّاْسُخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ
 وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٨﴾

الذين هادوا حرمانا عليهم طيبات أحلت لهم ﴿١٦٦﴾ أي بسبب ظلم اليهود وما ارتكبه من الذنوب العظيمة حرمانا
 عليهم أنواعاً من الطيبات التي كانت محللة لهم ﴿وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾ أي وبمنعهم كثيراً من
 الناس عن الدخول في دين الله قال مجاهد : صدوا أنفسهم وغيرهم عن الحق ﴿وأخذهم الربا وقد نهوا
 عنه﴾ أي تعاطيهم الربا وقد حرمه الله عليهم في التوراة ﴿وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾ أي بالرشوة
 وسائر الوجوه المحرمة ﴿وأعدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾ أي وهياناً لمن كفر من هؤلاء اليهود العذاب
 المؤلم الموجه ﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾ أي لكن المتمكنون في العلم منهم والثابتون فيه كعبد
 الله بن سلام وجماعته ﴿والمؤمنون﴾ أي من المهاجرين والأنصار أصحاب النبي ﷺ من غير أهل الكتاب
 ﴿يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ أي يؤمنون بالكتب والأنبياء ﴿والمقيمين الصلاة﴾ أي أمدح
 المقيمين الصلاة فهو نصبٌ على المدح ﴿والمؤتون الزكاة﴾ أي المعطون زكاة أموالهم ﴿والمؤمنون بالله
 واليوم الآخر﴾ أي والمؤمنون بوحدة الله وبالبعث بعد الموت ﴿وأولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ أي
 هؤلاء الموصوفون بالأوصاف الجليلة سنعطيهم ثواباً جزيلاً على طاعتهم وهو الخلود في الجنة .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿تبدوا .. أو تحفوه﴾ وبين ﴿نؤمن .. ونكفر﴾ .
- ٢ - التعريض والتهكم في ﴿قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله﴾ قالوه على سبيل التهكم والاستهزاء لأنهم لا يؤمنون برسالته .
- ٣ - زيادة الحرف لمعنى التأكيد ﴿فبما نقضهم﴾ أي فبنقضهم .
- ٤ - الاستعارة في ﴿الراسخون في العلم﴾ استعار الرسوخ للثبوت في العلم والتمكن فيه وكذلك الاستعارة في ﴿قلوبنا غلفت﴾ استعار الغلاف بمعنى الغطاء لعدم الفهم والإدراك أي لا يتوصل إليها شيء من الذكر والموعظة .
- ٥ - الاعتراض في ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ رداً لمزاعمهم الفاسدة .
- ٦ - الإلتفات في ﴿وأولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ والأصل سيؤتيهم وتنكير الأجر للتفخيم .

٧ - المجاز المرسل في ﴿وقتلهم الأنبياء﴾ حيث أطلق الكل وأريد البعض وكذلك في ﴿كفرهم بآيات الله﴾ لأنهم كفروا بالقرآن والإنجيل ولم يكفروا بغيرهما .

الفوائد : قال في التسهيل : إن قيل كيف قالوا فيه رسول الله وهم يكفرون به ويسبونونه ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه : أحدها : أنهم قالوا ذلك على وجه التهكم والاستهزاء ، والثاني : أنهم قالوه على حسب اعتقاد المسلمين فيه كأنهم قالوا : رسول الله عندكم أو بزعمكم والثالث : أنه من قول الله لا من قولهم فيوقف قبله وفائدته تعظيم ذنبهم وتقييح قولهم إنا قتلناه وقوله تعالى ﴿وما قتلوه وما صلبوه﴾ ردُّ على اليهود وتكذيب لهم وردُّ على النصارى في قولهم إنه صلب حتى عبدوا الصليب من أجل ذلك ، والعجب كل العجب من تناقضهم في قولهم إنه إله أو ابن إله ثم يقولون إنه صلب^(١) .

تنبيه : دلَّ قوله تعالى ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ على أن الله تعالى نجّى رسوله عيسى من شر اليهود الخبيثاء فلم يُقتل ولم يصلب وإنما صلبوا شخصاً غيره ظنوه عيسى وهو الذي ألقى الله الشبه عليه فقتلوه وهم يحسبون عيسى ، وهذا هو الاعتقاد الحق الذي يتفق مع العقل والنقل ، وأما النصارى فيعتقدون أنه صلب وأن اليهود أهانوه ووضعوا الشوك على رأسه وأنه تضرَّع وبكى مع زعمهم أنه هو « الله » أو « ابن الله » وأنه جاء ليخلص البشرية من أوزارها إلى غير ما هنالك من التناقض العجيب الغريب ولقد أحسن من قال :

عجباً للمسيح بين النصارى	وإلى أي والدٍ نسبه !
أسلموه إلى اليهود وقالوا	إنهم بعد ضربه صلبوه
فإذا كان ما يقولون حقاً	وصحيحاً فأين كان أبوه ؟
حين خلّى ابنه رهين الأعداي	أتراهم أرضوه أم أغضبوه ؟
فلئن كان راضياً بأذاهم	فاحمدوهم لأنهم عذبوه
ولئن كان ساخطاً فاتركوه	واعبدوهم لأنهم غلبوه

قال الله تعالى : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين . . . إلى . . . والله بكل شيء عليم﴾ .

من آية (١٦٣) إلى نهاية آية (١٧٦) آخر السورة الكريمة .

المناسكبة : لما حكى تعالى جرائم اليهود التي من ضمنها كفرهم بعيسى ومحمد وزعمهم أنهم صلبوا المسيح ، ذكر تعالى هنا أن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان ، وأنه أرسل سائر المرسلين مبشرين ومنذرين ، ثم دعا النصارى إلى عدم الغلو في شأن المسيح باعتقادهم فيه أنه ابن الله أو ثالث ثلاثة ، فليس هو ابن الله كما يزعم النصارى وليس ابن زنى كما يزعم اليهود فكلا الفريقين واقع بين الإفراط والتفريط ، ثم ختمت السورة الكريمة بما ابتدأت به من رعاية حقوق الورثة من الأقرباء .

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٦٣ .

* إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٦﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٧﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٨﴾

الغلوة: ﴿تغلو﴾ الغلو: مجاوزة الحد ومنه غلا السعر ﴿يستكف﴾ يأنف والاستنكاف الأنفة والترفع قال الزجاج: مأخوذ من نكفت الدمع إذا نحيته بأصبعك عن خدك ﴿برهان﴾ البرهان: الدليل والمراد به هنا المعجزات ﴿اعتصموا﴾ لاذوا ولجأوا والعصمة الامتناع ﴿الكلالة﴾ من لا ولد له ولا والد وقد تقدم.

سبب النزول: جاء وفد من النصارى إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد: لم تعيب صاحبنا؟ قال: ومن صاحبكم؟ قالوا عيسى قال: وأي شيء أقول فيه؟ قالوا تقول: إنه عبد الله ورسوله، فقال لهم: إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله قالوا: بلى فانزل الله ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله﴾ الآية (١).

التفسير: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبين من بعده﴾ أي نحن أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى نوح والأنبياء من بعده، وإنما قدم ﷺ في الذكر وإن تأخرت نبوته لتقدمه في الفضل ﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان﴾ أي وأوحينا إلى سائر النبيين إبراهيم وإسماعيل الخ خص تعالى بالذكر هؤلاء تشریفاً وتعظيماً لهم وبدأ بعد محمد ﷺ بنوح لأنه شيخ الأنبياء وأبو البشر الثاني ثم ذكر إبراهيم لأنه الأب الثالث ومنه تفرعت شجرة النبوة كما قال تعالى ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ وقدم عيسى على أنبياء كانوا قبله لشدة العناية بأمره لغلو اليهود في الطعن فيه والنصارى في تقديسه ﴿وآتينا داود زبوراً﴾ أي وخصصنا داود بالزبور قال القرطبي: كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم من الأحكام وإنما هي حكم ومواعظ (٢) ﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل﴾ أي وأرسلنا رسلاً منهم من ذكرنا أخبارهم لك يا محمد في غير هذه السورة ﴿ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ أي ورسلاً آخرين لم نخبرك عن أحوالهم ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ أي وخص الله موسى بأن كلمه بلا واسطة ولهذا سمي الكليم، وإنما أكد ﴿تكليماً﴾ رفعا لاحتمال المجاز قال ثعلب: لولا التأكيد لجاز أن تقول: قد كلمت لك فلاناً بمعنى كتبت إليه رقعة أو بعثت إليه رسولا فلما قال تكليماً لم يكن إلا كلاماً مسموعاً من الله تعالى (٣) ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين﴾ أي يبشرون بالجنة من أطاع وينذرون بالنار من عصى ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ أي بعثهم الله ليقطع حجة من يقول لو أرسل إلي رسول لآمنت وأطعت فقطع الله حجة البشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ أي عزيزاً في ملكه حكيماً في صنعه، ثم ذكر تعالى رداً على اليهود حين أنكروا نبوة محمد فقال

لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلًّا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا
 لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾
 يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ
 لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ
 وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ
 ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ أي إن لم يشهد لك هؤلاء بالنبوة فالله يشهد لك بذلك بما أنزل إليك
 من القرآن المعجز ﴿أنزله بعلمه والملائكة يشهدون﴾ أي أنزله بعلمه الخاص الذي لا يعلمه غيره بأسلوب
 يعجز عنه كل بليغ ، والملائكة يشهدون كذلك بما أنزل الله إليك ويشهدون بنبوتك ﴿وكفى بالله
 شهيداً﴾ أي كفى الله شاهداً فشهادته تعالى تغنيك وتكفيك وإن لم يشهد غيره ﴿إن الذين كفروا وصدّوا
 عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾ أي كفروا بأنفسهم ومنعوا الناس عن الدخول في دين الله قد ضلوا
 عن طريق الرشاد ضلالاً بعيداً لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال فضلالهم في أقصى الغايات ﴿إن الذين
 كفروا وظلموا﴾ قال الزمخشري : أي جمعوا بين الكفر والمعاصي ^(١) ﴿لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم
 طريقاً﴾ أي لن يعفو الله عنهم ولن يهديهم إلى طريق الجنة لأنهم ماتوا على الكفر ﴿إلا طريق جهنم
 خالدين فيها أبداً﴾ أي لن يهديهم إلا إلى الطريق الموصلة إلى جهنم جزاء لهم على ما أسلفوه من الكفر
 والظلم مخلدين فيها أبداً ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي تخليدهم في جهنم لا يصعب عليه ولا
 يستعظمه ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم﴾ أي يا أيها الناس قد جاءكم محمد بالدين
 الحق والشريعة السمحة من عند ربكم ﴿فآمنوا خيراً لكم﴾ أي صدّقوا ما جاءكم من عند ربكم يكن
 الإيمان خيراً لكم ﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السموات والأرض﴾ أي وإن تستمروا على الكفر فإن الله غني
 عنكم لا يضره كفركم إذ له ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبداً ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ أي عليماً بأحوال العباد
 حكيماً فيما دبره لهم ، ولما ردّ تعالى على شبه اليهود فيما سبق أخذ في الردّ على ضلالات النصارى في إفراطهم
 في تعظيم المسيح حيث عبده من دون الله فقال ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾ أي يا معشر
 النصارى لا تتجاوزوا الحدّ في أمر الدين بافراطكم في شأن المسيح وادعاء ألوهيته ﴿ولا تقولوا على الله إلا
 الحق﴾ أي لا تصفوا الله بما لا يليق من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم
 رسول الله﴾ أي ما عيسى إلا رسول من رسل الله وليس ابن الله كما زعمتم ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم﴾

(١) وقال الطبري : أي جحدوا رسالة محمد ﷺ فكفروا بالله وظلموا بمقامهم على الكفر .

وَرُوحٌ مِنْهُ فَعَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً ۚ أَنْتَهُمَا خَيْرٌ لَكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ ۚ
 أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَكُنِيَ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ
 أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾
 فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۖ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا
 وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ
 بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ۖ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ

أي وقد خلق بكلمته تعالى « كن » من غير واسطة أب ولا نطفة ﴿ وروح منه ﴾ أي ذو روح مبتدأة من الله وهو أثر نفخة جبريل في صدر مريم حيث حملت بتلك النفخة بعيسى ، وإنما أضيف إلى الله تشریفاً وتكريماً ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ أي آمنوا بوحدانيته وصدقوا رسله أجمعين ﴿ ولا تقولوا ثلاثة ﴾ أي لا تقولوا الآلهة ثلاثة : الله ، والمسيح ، ومريم ، أو الله ثلاثة : الأب والابن وروح القدس ، فنهاهم تعالى عن التثليث وأمرهم بالتوحيد لأن الإله منزّه عن التركيب وعن نسبة المركب إليه ﴿ انتهوا خيراً لكم ﴾ أي انتهوا عن التثليث يكن ذلك خيراً لكم ﴿ إنما الله إله واحد ﴾ أي منفرد في ألوهيته ليس كما تزعمون أنه ثالث ثلاثة ﴿ سبحانه أن يكون له ولد ﴾ أي تنزه الله عن أن يكون له ولد ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً وهو تعالى لا يماثله شيء حتى يتخذه ولداً ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ تنبيه على غناه عن الولد أي كفى الله أن يقوم بتدبير مخلوقاته وحفظها فلا حاجة له إلى ولد أو معين لأنه مالك كل شيء ، ثم ردّ تعالى على النصارى مزاعمهم الباطلة فقال ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ﴾ أي لن يأنف ويتكبر المسيح الذي زعمتم أنه إله عن أن يكون عبداً لله ﴿ ولا الملائكة المقربون ﴾ أي لا يستنكفون أيضاً أن يكونوا عبيداً لله ﴿ ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ أي ومن يأنف ويتكبر عن عبادة الله سبحانه فسيبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم ﴾ أي يوفّيهم ثواب أعمالهم ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أي بإعطائهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ وأما الذين استنكفوا واستكبروا فיעذبهم عذاباً أليماً ﴾ أي وأما الذين أنفوا وتعظّموا عن عبادته فسيعذبهم عذاباً موجعاً شديداً ﴿ ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ أي ليس لهم من يتولاهم أو ينصرهم من عذاب الله ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ﴾ أي أتاكم حجة من الله وهو محمد رسول الله المؤيد بالمعجزات الباهرة ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ أي أنزلنا عليكم القرآن ذلك النور الوضاء ﴿ فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به ﴾ أي صدقوا بوحدانية الله وتمسكوا بكتابه المنير ﴿ فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ﴾ أي سيدخلهم في جنته دار الخلود ﴿ ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً ﴾ أي

مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنَّ أُمَّرُؤًا هَلَكَ لَيْسَ لَهَا وَلَدٌ وَلَهَا أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا ۚ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

يهديمهم إلى دين الإسلام في الدنيا وإلى طريق الجنة في الآخرة ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله﴾ أي يستفتونك يا محمد في شأن الميت إذا لم يكن له والد أو ولد من يرثه؟ ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد﴾ أي قل لهم من مات وليس له والد أو ولد وهي الكلاله ﴿وله أخت فلها نصف ما ترك﴾ أي وله أخت شقيقة أو أخت لأب فلها نصف ما ترك أخوها ﴿وهو يرثها إن لم يكن لها ولد﴾ أي وأخوها الشقيق أو لأب يرث جميع ما تركت إن لم يكن لها ولد ﴿فإن كانتا اثنتين فلها الثلثان مما ترك﴾ أي إن كانت الأختان اثنتين فأكثر فلها الثلثان مما ترك أخوها ﴿وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ أي وإن كان الورثة مختلطين إخوة وأخوات فللذكر منهم مثل نصيب الأختين ﴿بيّن الله لكم أن تضلوا﴾ أي بيّن الله لكم أحكامه وشرائعه خشية أن تضلوا ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي يعلم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم فهو تعالى العالم بمصالح العباد في الحيا والممات .

البالغة : ١ - تخصيص بعض الأنبياء بالذكر ﴿كما أوحينا إلى نوح﴾ الخ للتشريف وإظهار فضل المذكورين وفيه تشبيه يسمى «مرسلاً مفصلاً» .

٢ - قوله ﴿يا أهل الكتاب﴾ اللفظ للعموم ويراد منه الخصوص وهم «النصارى» بدليل قوله بعده ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ وهي قوله النصارى .

٣ - قوله ﴿إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله﴾ فيه قصر وهو من نوع قصر موصوف على صفة .

٤ - في قوله ﴿يشهدون .. وشهيداً﴾ جناس الاشتقاق .

الفوائد : لفظه « من » تكون للتبويض وقد تأتي لابتداء الغاية كما في قوله تعالى ﴿وروح منه﴾ يحكى أن طبيباً نصرانياً للرشيد ناظر الإمام الواقدي ذات يوم فقال له : إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى جزء من الله وتلا هذه الآية ﴿وروح منه﴾ فقال الواقدي قال تعالى ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ فيجب إذا كان عيسى جزءاً من الله أن يكون ما في السموات وما في الأرض جزءاً منه فانقطع النصراني وأسلم ، وفرح الرشيد بذلك فرحاً شديداً ووصل الواقدي بصلة عظيمة^(١) .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النساء »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة المائدة من السور المدنية الطويلة ، وقد تناولت كسائر السور المدنية جانب التشريع بإسهاب مثل سورة البقرة ، والنساء ، والأنفال ، إلى جانب موضوع العقيدة وقصص أهل الكتاب ، قال أبو ميسرة : المائدة من آخر ما نزل من القرآن ليس فيها منسوخ وفيها ثمان عشرة فريضة ^(١) .

* نزلت هذه السورة منصرفاً رسول الله ﷺ من الحديبية ، وجماعها يتناول الأحكام الشرعية لأن الدولة الإسلامية كانت في بداية تكوينها وهي بحاجة إلى المنهج الرباني الذي يعصمها من الزلل ، ويرسم لها طريق البناء والاستقرار .

* أما الأحكام التي تناولتها السورة فنلخصها فيما يلي : « أحكام العقود ، الذبائح ، الصيد ، الإحرام ، نكاح الكتابيات ، الردة ، أحكام الطهارة ، حدّ السرقة ، حدّ البغي والإفساد في الأرض ، أحكام الخمر والميسر ، كفارة اليمين ، قتل الصيد في الإحرام ، الوصية عند الموت ، البحيرة والسائبة ، الحكم على من ترك العمل بشريعة الله » إلى آخر ما هنالك من الأحكام التشريعية .

* وإلى جانب التشريع قصّ تعالى علينا في هذه السورة بعض القصص للعظة والعبرة ، فذكر قصة بني إسرائيل مع موسى وهي قصة ترمز إلى التمرد والطغيان ممثلة في هذه الشذمة الباغية من « اليهود » حين قالوا لرسولهم ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ وما حصل لهم من التشرذم والضياع إذ وقعوا في أرض التيه أربعين سنة .

* ثم قصة ابني آدم وهي قصة ترمز إلى الصراع العنيف بين قوتي الخير والشر ، ممثلة في قصة « قابيل وهابيل » حيث قتل قابيل أخاه هابيل وكانت أول جريمة نكراء تحدث في الأرض أريق فيها الدم البريء الطاهر ، والقصة تعرض لنموذجين من نماذج البشرية : نموذج النفس الشريرة الأثيمة ، ونموذج النفس الخيرة الكريمة ﴿ فسوّلت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ كما ذكرت السورة قصة « المائدة » التي كانت معجزة لعيسى بن مريم ظهرت على يديه أمام الحواريين . والسورة الكريمة تعرض أيضاً لمناقشة

« اليهود والنصارى » في عقائدهم الزائفة ، حيث نسبوا إلى الله ما لا يليق من الذرية والبنين ، ونقضوا العهود والمواثيق ، وحرفوا التوراة والإنجيل ، وكفروا برسالة محمد عليه السلام إلى آخر ما هنالك من ضلالات وأباطيل ، وقد ختمت السورة الكريمة بالموقف الرهيب يوم الحشر الأكبر حيث يُدعى السيد المسيح عيسى بن مريم على رءوس الأشهاد ويسأله ربه تبيكيتاً للنصارى الذين عبدوه من دون الله ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ ويا له من موقف مخزٍ لأعداء الله ، تشيب لهولة الرءوس ، وتتفطر من فزعه النفوس !!

فضلها : عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها^(١) .

التسمية : سميت سورة « المائدة » لورود ذكر المائدة فيها حيث طلب الحواريون من عيسى عليه السلام آية تدل على صدق نبوته وتكون لهم عيداً وقصتها أعجب ما ذكر فيها لاشتغالها على آيات كثيرة ولطف عظيم من الله العليّ الكبير .

قال الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . . . إلى . . أولئك أصحاب الجحيم﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (١٠) .

اللغة : ﴿العقود﴾ أصل العقد في اللغة : الربط تقول عقدتُ الحبل بالحبل ثم استعير للمعاني قال الزمخشري : العقد العهد الموثق شبه بعقد الحبل قال الخطيئة :

قومٌ إذا عقدوا عقداً لجارهم شدوا العنجا وشدوا فوقه الكرباً^(٢)

﴿بهيمة الأنعام﴾ البهيمة ما لا ينطق له لما في صوته من الإبهام والأنعام جمع نَعَم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿القلائد﴾ جمع قلادة وهي ما يقلد به الهدى من لحاء الشجر ليُعلم أنه هدي ﴿يجرمنكم﴾ يكسبنكم يقال : جرم ذنباً أي كسبه وأجرم اكتسب الإثم ﴿شنان﴾ الشنان : البغض ﴿الموقوذة﴾ الوقذ : ضرب الشيء حتى يسترخي ويشرف على الموت ﴿النُّصب﴾ صنمٌ وحجر كانت الجاهلية تنصبه وتدبح عنده وجمعه أنصاب كذا في اللسان ﴿الأزلام﴾ القداح جمع زكَم كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة ضرب بالقداح وهو الاستقسام بالأزلام^(٣) ﴿مُحْمَصَةٌ﴾ مجاعة لأن البطون فيها تُمحص أي تضمصر والخمصر ضمور البطن ﴿الجوارح﴾ الكواسب من سباع البهائم والطيور كالكلب والفهد والصقر والشاهين .

سَبَبُ النُّزُول : عن ابن عباس أن المشركين كانوا يحجون البيت ويهدون الهدايا ويعظمون الشعائر وينحرون ، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله . .﴾^(٤) الآية .

(١) أخرجه أحمد . (٢) الكشاف ١/ ٤٦٦ . (٣) البحر ٣/ ٤١٠ . (٤) الطبري ٩/ ٤٦٣ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ
 إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعْبِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ
 وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ
 قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ
 وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

النَّفْسِيرُ : ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ الخطاب بلفظ الإيمان للتكريم والتعظيم أي يا
 معشر المؤمنين أوفوا بالعقود وهو لفظ يشمل كل عقد وعهد بين الإنسان وربه وبين الإنسان والإنسان قال
 ابن عباس : العقود العهود وهي ما أحلَّ الله وما حرَّم وما فرض في القرآن كله من التكليف والأحكام (١)
 ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي أُبِيحَ لَكُمْ أَكْلُ الْأَنْعَامِ وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ بَعْدَ
 ذَبْحِهَا إِلَّا مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَهِيَ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنْزِيرِ الْخ ﴿غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ
 حُرْمٌ﴾ أَي أُحِلَّتْ لَكُمْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَسْتَحِلُّوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ مَحْرُومُونَ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾
 أَي يَقْضِي فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ لِأَنَّهُ الْحَكِيمُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أَي لَا
 تَسْتَحِلُّوا حُرْمَاتِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَدُوا حُدُودَهُ قَالَ الْحَسَنُ : يَعْنِي شَرَائِعَهُ الَّتِي حَدَّهَا لِعِبَادِهِ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا
 حُرِّمَ عَلَيْكُمْ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ (٢) ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ أَي وَلَا تَسْتَحِلُّوا الشَّهْرَ الْحَرَامَ
 بِالْقِتَالِ فِيهِ ، وَلَا مَا أُهْدِيَ إِلَى الْبَيْتِ أَوْ قُلِّدَ بِقِلَادَةٍ لِيَعْرِفَ أَنَّهُ هَدْيٌ بِالتَّعَرُّضِ لَهُ وَلَا صَحَابَهُ ﴿وَالْءَامِينَ
 الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أَي وَلَا تَسْتَحِلُّوا قِتَالَ الْقَاصِدِينَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ
 لِحُجٍّ أَوْ عَمْرَةٍ ، نَهَى تَعَالَى عَنِ الْإِغَارَةِ عَلَيْهِمْ أَوْ صَدْهِمٍ عَنِ الْبَيْتِ كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَفْعَلُونَ ﴿وَإِذَا
 حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أَي إِذَا تَحَلَّلْتُمْ مِنَ الْإِحْرَامِ فَقَدْ أُبِيحَ لَكُمْ الصَّيْدُ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ
 صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ أَي لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بَغْضُ قَوْمٍ كَانُوا قَدْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عَلَى
 أَنْ تَعْتَدُوا عَلَيْهِمْ ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالعُدْوَانِ﴾ أَي تَعَاوَنُوا عَلَى فِعْلِ
 الْخَيْرَاتِ وَتَرَكُوا الْمُنْكَرَاتِ ، وَعَلَى كُلِّ مَا يَقْرُبُ إِلَى اللَّهِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَي خَافُوا

(١) هذا القول اختاره الطبري والزمخشري ، والأرجح العموم فهو أمرٌ بالوفاء بكل عقد وهو اختيار صاحب البحر وجمع من المفسرين قال ابن
 أسلم هي ستة : عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين كذا في ابن كثير . (٢) القول الأول
 أرجح وهو اختيار الطبري لعموم الآية .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيحَةُ
وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّبَتْهُ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسَقٌ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَذْيَانُ
كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ

عقابه فإنه تعالى شديد العقاب لمن عصاه ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ أي حرّم عليكم أيها المؤمنون أكل الميتة وهي ما مات حتف أنفه من غير ذكاة والدم المسفوح ولحم الخنزير قال الزمخشري : كان أهل الجاهلية يأكلون هذه المحرمات : البهيمة التي تموت حتف أنفها والفصيد وهو الدم في الأمعاء يشوونه ويقولون لم يجرم من فُرد - أي فصد - له ^(١) وإنما ذكر لحم الخنزير ليبيّن أنه حرام بعينه حتى ولو ذبح بالطريق الشرعي ﴿وما أهلّ لغير الله به﴾ أي ما ذكر عليه غير اسم الله أو ذبح لغير الله كقولهم باسم اللات والعزى ﴿والمنخنقة﴾ هي التي تُنخق بحبلٍ وشبهه ﴿والموقوذة﴾ هي المضروبة بعصا أو حجر ﴿والمتردية﴾ هي التي تسقط من جبل ونحوه ﴿والنطيحة﴾ هي التي نطحتها بهيمة أخرى فماتت بالنطح ﴿وما أكل السبع﴾ أي أكل بعضه السبع فمات ﴿إلا ما ذكيتم﴾ أي إلا ما أدركتم فيه الروح من هذه الأشياء فذبحتموه الذبح الشرعي قبل الموت قال الطبري معناه : إلا ما طهرتموه بالذبح الذي جعله الله طهوراً ^(٢) ﴿وما ذُبح على النُصب﴾ أي وما ذُبح على الأحجار المنصوبة قال قتادة : النُصبُ حجارةٌ كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها فنهى الله عن ذلك قال الزمخشري : كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها ، يعظمونها بذلك ويتقربون به إليها فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع ﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ أي وحرّم عليكم الاستقسام بالأزلام أي طلب معرفة ما قسم له من الخير والشر بواسطة ضرب القداح قال في الكشف : كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارةً أو نكاحاً أو أمراً من معازم الأمور ضرب بالقداح وهي مكتوب على بعضها : نهاني ربي ، وعلى بعضها أمرني ربي ، وبعضها عُقلُ فإن خرج الأمر مضى لغرضه وإن خرج الناهي أمسك وإن خرج الغفل أعاد ^(٣) ﴿ذلكم فسق﴾ أي تعاطيه فسقٌ وخروجٌ عن طاعة الله لأنه دخولٌ في علم الغيب الذي استأثر الله به علام الغيوب ^(٤) ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم﴾ أي انقطع طمع الكافرين منكم ويئسوا أن ترجعوا عن دينكم قال ابن عباس : يئسوا أن ترجعوا إلى دينهم أبداً ﴿فلا تحشوهم واخشون﴾ أي لا تخافوا المشركين ولا تهابوهم وخافون أنصركم عليهم وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ أي أكملت لكم الشريعة ببيان الحلال والحرام ﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ بالهداية والتوفيق إلى أقوم طريق ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ أي اخترت لكم الإسلام ديناً من بين الأديان وهو

(١) الكشف ١/٤٦٨ . (٢) الطبري ٩/٥٠٢ .

(٣) الكشف ١/٤٦٩ . (٤) هذا إذا قلنا إن الإشارة عائدة على الاستقسام بالأزلام لعوده على أقرب المذكور وهو قول ابن عباس وهو الراجح واختار الطبري أن الإشارة تعود إلى المحرمات وكل صحيح .

الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٠﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ
 لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ
 عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٠١﴾ الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ
 وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ
 مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ
 الدين المرضي الذي لا يقبل الله ديناً سواه ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ ﴿فمن اضطر
 في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾ أي فمن أُلجأته الضرورة إلى تناول شيء من
 المحرمات المذكورة ، في مجاعة حال كونه غير مائل إلى الإثم ولا متعمد لذلك ، فإن الله لا يؤاخذ به بأكله ،
 لأن الضرورات تبيح المحظورات ﴿يسألونك ماذا أحل لهم﴾ أي يسألونك يا محمد ما الذي أحل لهم
 من المطاعم والمأكول ؟ ﴿قل أحل لكم الطيبات﴾ أي قل لهم أبيع لكم المستلذات وما ليس منها
 بخبيث ، وحرّم كل مستقذر كالخنافس والفتران وأشباهاها ﴿وما علمتم من الجوارح﴾ أي وأحل لكم
 صيد ما علمتم من الجوارح وهي الكلاب ونحوها مما يُصطاد به ﴿مكليين﴾ أي مُعلمين للكلاب
 الاصطياد قال الزمخشري : المكلب مؤدب الجوارح ورائضها واشتقاقه من الكلب لأن التأديب أكثر ما
 يكون في الكلاب ^(١) ﴿تعلمونهن مما علمكم الله﴾ أي تعلمونهن طرق الاصطياد وكيفية تحصيل
 الصيد ، وهذا جزء مما علمه الله للإنسان ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ أي فكلوا مما أمسكن لكم من
 الصيد إذا لم تأكل منه ، فإن أكلت فلا يحل أكله لحديث (إذا أرسلت كلبك المعلم فقتل فكل ، وإذا
 أكل فلا تأكل فإنما أمسكه على نفسه) ^(٢) وعلامة المعلم أن يسترسل إذا أرسل ، وينزجر إذا زجر ، وأن
 يُمسك الصيد فلا يأكل منه ، وأن يذكر اسم الله عند إرساله فهذه أربع شروط لصحة الأكل من صيد
 الكلب المعلم ﴿واذكروا اسم الله عليه﴾ أي عند إرساله ﴿واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾ أي
 راقبوا الله في أعمالكم فإنه سريع المجازاة للعباد ﴿اليوم أحل لكم الطيبات﴾ أي أبيع لكم المستلذات
 من الذبائح وغيرها ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ أي ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم
 ﴿وطعامكم حل لهم﴾ أي ذبائحكم حلال لهم فلا حرج أن تُطعموهم وتبعوهم لهم ﴿والمحصنات من
 المؤمنات﴾ أي وأبيع لكم أيها المؤمنون زواج الحرائر العفيفات من المؤمنات ﴿والمحصنات من الذين أوتوا
 الكتاب من قبلكم﴾ أي وزواج الحرائر من الكتابيات (يهوديات أو نصرانيات) وهذا رأي الجمهور وقال
 عطاء : قد أكثر الله المسلمات وإنما رخص لهم يومئذٍ ﴿إذا آتيتموهن أجورهن﴾ أي إذا دفعتم لهن
 مهورهن ﴿محصنين غير مسافحين﴾ أي حال كونكم أعفاء بالنكاح غير مجاهرين بالزنى ﴿ولا متخذين

(١) الكشاف ١/ ٤٧١ . (٢) أخرجه البخاري من حديث عدي بن حاتم .

وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ فِي الْأَحْرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿١٠٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٠١﴾ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

أخدان ﴿١٠٠﴾ أي وغير متخذين عشيقات وصديقات تزنون بهن سرّاً قال الطبري : المعنى ولا منفرداً ببغية قد خادنها وخادنته واتخذها لنفسه صديقةً يفجر بها ﴿١٠١﴾ ومن يكفر بالإيمان فقد بطل عمله وهو من الهالكين ، ثم أمر تعالى الخاسرين ﴿١٠٢﴾ أي ومن يرتد عن الدين ويكفر بشرائع الإيمان فقد بطل عمله وهو من الهالكين ، ثم أمر تعالى بإسباغ الوضوء عند الصلاة فقال ﴿١٠٣﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ﴿١٠٤﴾ أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون ﴿١٠٥﴾ فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ﴿١٠٦﴾ أي اغسلوا الوجوه والأيدي مع المرافق ﴿١٠٧﴾ وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ﴿١٠٨﴾ أي امسحوا برؤوسكم وارجلكم إلى الكعبين أي معها قال الزمخشري : وفائدة المجيء بالغاية ﴿١٠٩﴾ إلى الكعبين ﴿١١٠﴾ لدفع ظن من يحسبها ممسوحة لأن المسح لم تضرب له غاية في الشريعة وفي الحديث (ويل للأعقاب من النار) ﴿١١١﴾ وهذا الحديث يردُّ على الإمامية الذين يقولون بأن الرجلين فرضهما المسح لا الغسل ، والآية صريحة لأنها جاءت بالنصب ﴿١١٢﴾ وأرجلكم ﴿١١٣﴾ فهي معطوفة على المغسول وجيء بالمسح بين المغسولات لإفادة الترتيب ﴿١١٤﴾ وإن كنتم جنباً فاطهروا ﴿١١٥﴾ أي إن كنتم في حالة جنابة فطهروا بغسل جميع البدن ﴿١١٦﴾ وإن كنتم مرضى أو على سفر ﴿١١٧﴾ أي إن كنتم مرضى ويضركم الماء ، أو كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء ﴿١١٨﴾ أو جاء أحدٌ منكم من الغائط ﴿١١٩﴾ أي أتى من مكان البراز ﴿١٢٠﴾ أو لامستم النساء ﴿١٢١﴾ أي جامعتموهن ﴿١٢٢﴾ فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً ﴿١٢٣﴾ أي ولم تجدوا الماء بعد طلبه فاقصدوا التراب الطاهر للتيمم به ﴿١٢٤﴾ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ﴿١٢٥﴾ أي امسحوا بوجوهكم وأيديكم بالتراب بضربتين كما وضحت السنة النبوية ﴿١٢٦﴾ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴿١٢٧﴾ أي ما يريد بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم تضييقاً عليكم ﴿١٢٨﴾ ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴿١٢٩﴾ أي يطهركم من الذنوب وأدناس الخطايا بالوضوء والتيمم ، وليتم نعمته عليكم ببيان شرائع الإسلام ولتشكروه على نعمه التي لا تحصى ﴿١٣٠﴾ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴿١٣١﴾ الخطاب للمؤمنين والنعمة هنا الإسلام وما صاروا إليه من اجتماع الكلمة والعزة أي اذكروا يا أيها المؤمنون نعمة الله العظمى عليكم بالإسلام وعهده الذي عاهدكم

(١) الطبري ٥٩٠/٩ .

(٢) الكشاف ٤٧٤/١ .

وَأَطَعْنَا^ح وَاتَّقُوا اللَّهَ^ع إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ^ط
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ^ج وَاتَّقُوا اللَّهَ^ع إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾
وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ءَوَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٧٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا ءُولَئِكَ ءَصْحَابُ

الْجَحِيمِ ﴿٨٠﴾

عليه رسوله حين بايعتموه على السمع والطاعة في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ﴿واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي اتقوا الله فإنه عالم بخفايا نفوسكم فيجازيكم عليها ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله﴾ أي كونوا مبالغين في الاستقامة بشهادتكم لله وصيغة قوام للمبالغة ﴿شهداء بالقسط﴾ أي تشهدون بالعدل ﴿ولا يجرمنكم شنان قوم على ألا تعدلوا﴾ أي لا يحملنكم شدة بغضكم للأعداء على ترك العدل فيهم والاعتداء عليهم ﴿إعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ أي العدل مع من تبغضونهم أقرب لتقواكم لله ﴿واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ أي مطلع على أعمالكم ومجازيكم عليها قال الزمخشري : وفي هذا تنبيه عظيم على أن العدل إذا كان واجباً مع الكفار الذين هم أعداء الله وكان بهذه الصفة من القوة ، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحبائه^(١) ؟ ! ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي وعد الله المؤمنين المطيعين ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ أي لهم في الآخرة مغفرة للذنوب وثواب عظيم وهو الجنة ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ لما ذكر مال المؤمنين المتقين وعاقبتهم ذكر مال الكافرين المجرمين وأنهم في دركات الجحيم دائمون في العذاب قال أبو حيان : وقد جاءت الجملة فعلية بالنسبة للمؤمنين متضمنة الوعد بالماضي الذي هو الدليل على الوقوع ، وفي الكافرين جاءت الجملة إسمية دالة على ثبوت هذا الحكم لهم وأنهم أصحاب النار فهم دائمون في عذاب الجحيم^(٢) .

البلاغَة : ١ - ﴿لا تحلوا شعائر الله﴾ فيه استعارة استعمار الشعيرة وهي العلامة للمتعبدات التي تعبد الله بها العباد من الحلال والحرام .

٢ - ﴿ولا القلائد﴾ أي ذوات القلائد وهي من باب عطف الخاص على العام لأنها أشرف الهدى كقوله ﴿من كان عدواً لله وملائكته وجبريل وميكال﴾ .

٣ - ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة .

٤ - ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب﴾ أطلق العام وأراد به الخاص وهو الذبائح .

٥ - ﴿محصنين غير مسافحين﴾ بينهما طباق لأن معنى محصنين أي أعفاء ومسافحين أي زناة .

٦ - ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة فعبر عن إرادة الفعل بالفعل وأقام المسبب مقام السبب للملابسة بينهما^(١) ، وفي الآية إيجاز بالحذف أيضاً أي إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم محدثون .

الفوائد : الأولى : يحكى أن أصحاب الكنديّ - الفيلسوف - قال له أصحابه : أيها الحكيم إعمل لنا مثل هذا القرآن فقال : نعم أعمل مثل بعضه ، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد ، إنني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ، ونهى عن النكث ، وحلّل تحليلاً عاماً ، ثم استثنى استثناءً ، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يقدر أحدٌ أن يأتي بهذا إلا في مجلدات^(٢) .

الثانية : جرت سنة الجاهلية على مبدأ العصبية العمياء الذي عبر عنه الشاعر الجاهلي بقوله :

وهل أنا إلا من غزيرة إن غوت غويت وأن ترشد غزيرة أرشد

وجاء الإسلام بهذا المبدأ الإنساني الكريم ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ وشتان بين المبدئين .

الثالثة : روي أن رجلاً من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يا أمير المؤمنين : آية في كتابكم تقرأونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ! قال أي آية تعني ؟ قال ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ الآية فقال عمر : والله إنني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ فيه ، والساعة التي نزلت فيها ، نزلت على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم الجمعة^(٣) .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم . . . إلى . . . فلاتأس على القوم

الفاستقين﴾ من آية (١١) إلى نهاية آية (٢٦) .

المناسكة : لما ذكر تعالى ما شرعه لعباده المؤمنين في هذه السورة الكريمة من الأحكام ، ومن أعظمها بيان الحلال والحرام ، ذكر هنا نعمته عليهم بالهداية إلى الإسلام ودفع الشرور عنهم والآثام ، ثم أعقبه ببيان نعمته تعالى على أهل الكتاب « اليهود والنصارى » وأخذ العهد والميثاق عليهم ولكنهم نقضوا العهد فألزمهم الله العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، ثم دعا الفريقين إلى الاهتداء بنور القرآن ، والتمسك بشريعة خاتم المرسلين ، وترك ما هم عليه من ضلالات وأوهام .

(١) أفاده الزمخشري في الكشاف ١/٤٧٣ . (٢) القرطبي ٦/٣١ . (٣) أخرجه الشيخان .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ * وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ
أَثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ

اللفظة: ﴿نقياً﴾ النقيب : كبير القوم الذي يبحث عن أحوالهم ومصالحهم فهو كالكفيل عن الجماعة ﴿وعزرتموهم﴾ التعزير : التعظيم والتوقير ﴿سواء السبيل﴾ قصد الطريق ووسطه ﴿قاسية﴾ صلبة لا تعي خيراً والقاسية والعاتية بمعنى واحد ﴿خائنة﴾ خيانة ويجوز أن يكون صفة للخائن كما يقال : رجل طاغية وراوية للحديث ﴿فأغرنا﴾ هيجنا وألزمنا مأخوذاً من الغراء ، وغري بالشيء إذا لصق به ﴿فترة﴾ انقطاع ﴿يتيهون﴾ التيه : الخيرة والضياع .

سَبَبُ النُّزُولِ : أراد بنو النضير أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحي وأن يغدروا به وبأصحابه فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يسطوا إليكم أيديهم . .﴾ (١) الآية .

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي اذكروا فضل الله عليكم بحفظه إياكم من أعدائكم ﴿إذ هم قوم أن يسطوا إليكم أيديهم﴾ أي يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك ﴿فكف أيديهم عنكم﴾ أي عصمكم من شرهم ورد أذاهم عنكم ﴿واتقوا الله﴾ بامثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي فليثق المؤمنون بالله فإنه كافيهم وناصرهم ، ثم ذكر تعالى أحوال اليهود وما تنطوي عليه نفوسهم من الخيانة ونقض الميثاق فقال ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ أي عهدهم المؤكد باليمين ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ أي وأمرنا موسى بأن يأخذ اثني عشر نقيباً - والنقيب كبير القوم القائم بأمرهم - من كل سبط نقيب يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بالعهد توثقاً عليهم قال الزمخشري : لما استقر بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله تعالى بالسير إلى «أريحاء» بأرض الشام كان يسكنها الكنعانيون الجبابرة وقال لهم : إنني كتبتها لكم داراً وقراراً فجاهدوا من فيها فإني ناصركم ، وأمر موسى بأن يأخذ من كل سبط نقيباً فاختر النقباء وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعثهم يتجسسون الأخبار فأرأوا قوماً أجسامهم عظيمة ولهم قوة وشوكة فهابوهم ورجعوا وحدثوا قومهم وكان موسى قد نهاهم أن يتحدثوا بما يرون فنكثوا الميثاق وتحدثوا إلا اثنين منهم (٢) ﴿وقال الله إنني معكم﴾ أي ناصركم ومعينكم ﴿لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة﴾ اللام للقسمة أي وأقسم لكم يا بني إسرائيل لئن أدبتم ما فرضت عليكم من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿وآمنتكم برسلي وعزرتموهم﴾ أي وصدقتم برسلي ونصرتموهم ومنعتموهم من الأعداء ﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾ أي بالإنفاق في سبيل الخير ابتغاء مرضاة الله ﴿لأكفرنَّ عنكم سيئاتكم﴾ أي لأحونَّ عنكم ذنوبكم ، وهذا

اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا لَّا كُفِرْنَ عَنْكُمْ سِعَاتِكُمْ وَلَا دَخَلْنَاكُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٣﴾ فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِيُّ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٥﴾

جواب القسم قال البيضاوي : وقد سدَّ مسدَّ جواب الشرط (١) ﴿ولأدخلناكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري من تحت غرفها وأشجارها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل ﴿فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلَّ سواء السبيل﴾ أي من كفر بعد ذلك الميثاق ، فقد أخطأ الطريق السوي وضلَّ ضلالاً لا شبهة فيه ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم﴾ أي بسبب نقضهم الميثاق طردناهم من رحمتنا ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ أي جافة جافية لا تلين لقبول الإيمان (٢) ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ قال ابن كثير : تأولوا كتابه - التوراة - على غير ما أنزله وحملوه على غير مراده وقالوا على الله ما لم يقل (٣) ، ولا جرم أعظم من الاجترار على تغيير كلام الله عز وجل ﴿ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾ أي تركوا نصيباً وافياً مما أمروا به في التوراة ﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ أي لا تزال يا محمد تظهر على خيانة منهم بنقض العهود وتدبير المكائد ، فالغدر والخيانة عادتهم وعادة أسلافهم إلا قليلاً منهم ممن أسلم ﴿فأعف عنهم وأصفح إن الله يحب المحسنين﴾ أي لا تعاقبهم وأصفح عن أساءتهم ، وهذا منسوخ بآية السيف والجزية كما قال الجمهور ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم﴾ أي ومن الذين ادعوا أنهم أنصار الله وسموا أنفسهم بذلك أخذنا منهم أيضاً الميثاق على توحيد الله والإيمان بمحمد رسول الله ﴿ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾ أي فتركوا ما أمروا به في الإنجيل من الإيمان بالأنبياء ونقضوا الميثاق ﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ أي ألزمتنا وألصقنا بين فرق النصارى العداوة والبغضاء إلى قيام الساعة قال ابن كثير : ولا يزالون متباغضين متعادين ، يكفر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، وكل فرقة تمنع الأخرى دخول معبدها (٤) . . وهكذا نجد الأمم الغريبة - وهم أبناء دين واحد - يتفنن بعضهم في إهلاك بعض ، فمن مخترع للقبلة الذرية إلى مخترع للقبلة الهيدروجينية وهي مواد مدمرة لا يمكن أن يتصور العقل ما تحدثه من تلف بالغ وهلاك شامل ﴿إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الحياة الدنيا وترهق أنفسهم وهم كافرون﴾ ثم قال تعالى ﴿وسوف ينبتهم الله بما كانوا يصنعون﴾

(١) البيضاوي ص ١٤٧ قال ابن مالك :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أحررت فهو ملتزم

(٢) هذا قول ابن عباس كما في البحر . (٣) مختصر ابن كثير ١/٤٩٧ . (٤) مختصر ابن كثير ١/٤٩٨ .

يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْعًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

تهديد لهم أي سيلقون جزاء عملهم القبيح ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب﴾ الخطاب لليهود والنصارى أي يا معشر أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ بالدين الحق يبين لكم الكثير مما كنتم تكتمونه في كتابكم من الإيمان به ، ومن آية الرجم ، ومن قصة أصحاب السبت الذين مسحوا قرده وغير ذلك مما كنتم تخفونه ﴿ويعفو عن كثير﴾ أي يتركه ولا يبيته وإنما يبين لكم ما فيه حجة على نبوته وشهادته على صدقه ، ولو ذكر كل شيء لفضحكم قال في التسهيل : وفي الآية دليل على صحة نبوته لأنه بين ما أخفوه في كتبهم وهو أمي لم يقرأ كتبهم (١) ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ أي جاءكم نور هو القرآن لأنه مزيل لظلمات الشرك والشك وهو كتاب مبين ظاهر الإعجاز ﴿يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام﴾ أي يهدي بالقرآن من اتبع رضا الله طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه﴾ أي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بتوفيقه وإرادته ﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ هو دين الإسلام ، ثم ذكر تعالى إفراط النصارى في حق عيسى حيث اعتقدوا ألوهيته فقال ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ أي جعلوه إلهاً وهم فرقة من النصارى زعموا أن الله حل في عيسى ولهذا نجد في كتبهم «وجاء الرب يسوع» وأمثاله ، ويسوع عندهم هو عيسى (٢) ﴿قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً﴾ أي قل لهم يا محمد لقد كذبتكم فمن الذي يستطيع أن يدفع عذاب الله لو أراد أن يهلك المسيح وأمه وأهل الأرض جميعاً؟ فعيسى عبد مقهور قابل للفناء كسائر المخلوقات ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية ولو كان إلهاً لقدرة على تخليص نفسه من الموت ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ أي من الخلق والعجائب ﴿يخلق ما يشاء﴾ أي هو قادر على أن يخلق ما يريد ولذلك خلق عيسى من غير أب ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي لا يعجزه شيء ، ثم

(١) التسهيل ١٧٢/١ . (٢) قال أبو حيان : ذكر سبحانه أن من النصارى من قال إن المسيح هو الله ، ومنهم من قال هو ابن الله ، ومنهم من قال هو ثالث ثلاثة ، ومن بعض اعتقاد النصارى استنبط من تستر بالإسلام ظاهراً وانتمى إلى الصوفية حلول الله في الصور الجميلة ومن ذهب من ملاحظتهم إلى القول بـ «الاتحاد والوحدة» كالحلاج والصفار وابن اللباج وأمثالهم وإنما ذكرتهم نصحاً لدين الله وقد أوقع جهلة من ينتمي إلى التصوف بتعظيم هؤلاء وإدعائهم أنهم صفة الله وأوليائه ، البحر المحيط ٤٤٨/٣ .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ رَبُّهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يٰ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ۖ يَقَوْمِ ۖ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَّا لَمْ يُوْت أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ

حكى عن اليهود والنصارى افتراءهم فقال ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ أي نحن من الله بمنزلة الأبناء من الآباء ونحن أحباؤه لأننا على دينه قال ابن كثير : أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية وهو يحبنا ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ ؟ أي لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباؤه فلم أعد لكم نار جهنم على كفركم وافتراءكم ؟ ﴿بل أنتم بشرٌ ممن خلق﴾ أي أنتم بشر كسائر الناس وهو سبحانه الحاكم في جميع عبادته ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ أي يغفر لمن شاء من عبادته ويعذب من شاء لا اعتراض لحكمه ولا رادٌ لأمره ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه وإليه المرجع والمآب ، ثم دعاهم إلى الإيمان بخاتم المرسلين فقال ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيِّن لكم على فترةٍ من الرسل﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لقد جاءكم محمد ﷺ يوضح لكم شرائع الدين على انقطاع من الرسل ودروسٍ من الدين ، وكانت الفترة بين عيسى ومحمد ومدتها خمسمائة وستون سنة لم يُبعث فيها رسول ﴿أن تقولوا ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ﴾ أي لثلاث تحتجوا وتقولوا : ما جاءنا من رسولٍ يبشر بالخير وينذر من الشر ﴿فقد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ﴾ هو محمد ﷺ ﴿والله على كل شيء قدير﴾ قال ابن جرير : أي قادرٌ على عقاب من عصاه وثواب من أطاعه ، ثم ذكر تعالى ما عليه اليهود من العناد والجحود فقال ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي اذكروا يا محمد حين قال موسى لبني إسرائيل يا قوم تذكروا نعمة الله العظمى عليكم واشكروه عليها ﴿إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً﴾ أي حين بعث فيكم الأنبياء يرشدونكم إلى معالم الدين وجعلكم تعيشون كالمملوك لا يغلبكم غالب بعد أن كنتم مملوكين لفرعون مقهورين فأنقذكم منه بإغراقه قال البيضاوي : لم يُبعث في أمةٍ ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء (٢) ﴿وآتاكم ما لم يوت أحدًا من العالمين﴾ أي من أنواع الإنعام والإكرام من فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى ونحوها ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم﴾ قال البيضاوي : هي أرض بيت المقدس سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين (٣) ومعنى ﴿التي كتب الله لكم﴾

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٤٩٩ . (٢) البيضاوي ص ١٤٨ . (٣) البيضاوي ص ١٤٨ .

لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا
 حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا
 عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴿٢٣﴾ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَنَنْ
 نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا
 نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ
 فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٧﴾

أي التي وعدكموها على لسان أبيكم اسرائيل وقضى أن تكون لكم ﴿ولا تتردوا على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾ أي ولا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبايرة قال في التسهيل : روي أنه لما أمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة خافوا من الجبارين الذين فيها وهموا أن يرجعوا إلى مصر ^(١) ﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين﴾ أي عظام الأجسام طوال القامة لا قدرة لنا على قتالهم وهم العمالقة من بقايا عاد ﴿وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾ أي لن ندخلها حتى يسلموها لنا من غير قتال ﴿فإن يخرجوا منها فإننا داخلون﴾ أي لا يمكننا الدخول ما داموا فيها فإن خرجوا منها دخلناها ﴿قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما﴾ أي فلما جنبوا حرضهم رجلان من النقباء ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه وفيهما الصلاح واليقين ﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾ أي قال لهم لا يهولنكم عظم أجسامهم ، فأجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة فإذا دخلتم عليهم باب المدينة غلبتموهم بإذن الله ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ أي اعتمدوا على الله فإنه ناصركم إن كنتم حقاً مؤمنين ﴿قالوا يا موسى إننا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلنا ههنا قاعدون﴾ وهذا إفراط في العصيان ومع سوء الأدب بعبارة تقتضي الكفر والاستهانة بالله ورسوله ، وأين هؤلاء من الصحابة الأبرار الذين قالوا لرسول الله ﷺ : لسنا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل ولكن نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلنا إننا معكم مقاتلون ؟ ! ﴿قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ أي قال موسى حينذاك معتذراً إلى الله متبرئاً من مقالة السفهاء : يا رب لا أملك قومي ، لا أملك إلا نفسي وأخي هارون فافصل بيننا وبين الخارجين عن طاعتك بحكمك العادل ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾ استجاب الله دعاءه وعاقبهم في التيه أربعين سنة والمعنى : قال الله لموسى إن الأرض المقدسة محرم عليهم دخولها مدة أربعين سنة يتيهون في الأرض ولا يبتدون إلى الخروج منها ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ أي لا تحزن عليهم فإنهم فاسقون مستحقون

للعقاب قال في التسهيل : روي أنهم كانوا يسيرون الليل كله فإذا أصبحوا وجدوا أنفسهم في الموضع الذي كانوا فيه^(١) .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿ أن يسطوا إليكم أيديهم ﴾ بسط الأيدي كناية عن البطش والفتك ، وكف الأيدي كناية عن المنع والحبس .

٢ - ﴿ وبعثنا منهم ﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى المتكلم ومقتضى الظاهر وبعث وإنما التفت اعتناءً بشأنه .

٣ - ﴿ ويخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ فيه استعارة استعمار الظلمات للكفر والنور للإيمان .

٤ - ﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾ فيه تشبيه بليغ أي كالمملوك في رغد العيش وراحة البال فحذف أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

٥ - الطباق بين ﴿ يغفر . . ويعذب ﴾ .

٦ - ﴿ أنعم الله عليهما ﴾ جملة اعتراضية لبيان فضل الله على عباده الصالحين .

الفَوَائِد : الأولى : إنما سميت الأرض المقدسة أي المطهرة لسكنى الأنبياء المطهرين فيها فشرفت وطهرت بهم فالظرف طاب بالمظروف .

الثانية : قال بعض العارفين لبعض الفقهاء : أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فسكت ولم يردّ عليه فتلا عليه هذه الآية ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ ففي الآية دليل على أن المحب لا يعذب حبيبه ذكره ابن كثير .

قال الله تعالى : ﴿ وأتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق . . . إلى . . . ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير ﴾

من آية (٢٧) إلى نهاية آية (٤٠) .

المناسكَة : لما ذكر تعالى تمرد بني إسرائيل وعصيانهم لأمر الله في قتال الجبارين ، ذكر قصة ابني آدم وعصيان « قابيل » أمر الله وإقدامه على قتل النفس البريئة التي حرّمها الله ، فاليهود اقتفوا في العصيان أول عاصٍ لله في الأرض ، فطبيعة الشر فيهم مستقاة من ولد آدم الأول ، فاشتبهت القصتان من حيث التمرد والعصيان ، ثم ذكر تعالى عقوبة قُطَاع الطريق والسُرَّاق الخارجين على أمن الدولة والمفسدين في الأرض .

اللغَة : ﴿ قرباناً ﴾ القُربان ما يُتقرب به إلى الله ﴿ تبوء ﴾ ترجع يقال : باء إذا رجع إلى المباءة

* **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَىٰ يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾** إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ وَهُوَ الْمَنْزِلُ ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ سَوَّغَتْ وَسَهَّلَتْ يُقَالُ : طَاعَ الشَّيْءُ إِذَا سَهَلَ وَانْقَادَ وَطَوَّعَهُ لَهُ أَيَّ سَهَّلَهُ ﴿يَبْحَثُ﴾ يَفْتَشُ وَيَنْقَبُ ﴿سَوَاءٌ﴾ السَّوَاءُ : الْعَوْرَةُ ﴿يَا وَيَلْتَا﴾ كَلِمَةٌ تَحْسُرُ وَتَلْهَفُ قَالَ سَيَبُوه : كَلِمَةٌ تَقَالُ عِنْدَ الْهَلَكَةِ ﴿يَنْفُوا﴾ نَفَاهُ : طَرَدَهُ وَأَصْلُهُ الْإِهْلَاكُ وَمِنْهُ التَّفَايَةُ لِرُدِّيهِ الْمَتَاعَ ﴿خَزْيٌ﴾ الْخِزْيُ : الْفُضِيحَةُ وَالذَّلُّ يُقَالُ أَخْزَاهُ اللَّهُ أَيَّ فَضَحَهُ وَأَذَلَّهُ ﴿الْوَسِيلَةُ﴾ كُلُّ مَا يَتَوَسَّلُ بِهِ إِلَى اللَّهِ ﴿نِكَالًا﴾ عَقُوبَةٌ .

سَبَبُ الزُّوْلِ : عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَهْطًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاجْتَمَعُوا فِي الْمَدِينَةِ - اسْتَوْخَمُوهَا - فَبَعَثَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى إِبِلِ الصَّدَقَةِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا ، فَلَمَّا صَحُّوا قَتَلُوا رَاعِيَ النَّبِيِّ ﷺ وَاسْتَأْفَقُوا النَّعَمَ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي آثَارِهِمْ فَجَاءَ بِهِمْ فَأَمَرَ بِهِمْ فَقَطَّعَتْ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسُمِّرَتْ أَعْيُنُهُمْ وَأَلْقُوا فِي الْحَرَّةِ حَتَّى مَاتُوا فَنَزَلَتْ ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . . ﴿١﴾ الْآيَةُ .

التَّفْسِيرُ : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ أَيَّ اقْرَأْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْحَسَدَةَ مِنَ الْيَهُودِ وَأَشْبَاهِهِمْ خَبَرَ « قَابِيلَ وَهَابِيلَ » ابْنَيْ آدَمَ مَلْتَبَسَةً بِالْحَقِّ وَالصَّدَقَ وَذَكَرَهُمْ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ فَهِيَ قِصَّةُ حَقِّ ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ أَيَّ حِينَ قَرَّبَ كُلُّ مِنْهُمَا قُرْبَانًا فَتُقَبَّلَ مِنْ هَابِيلَ وَلَمْ يُتَقَبَّلَ مِنْ قَابِيلَ قَالَ الْمَفْسُرُونَ : سَبَبُ هَذَا الْقُرْبَانِ أَنْ حَوَّاءَ كَانَتْ تَلِدُ فِي كُلِّ بَطْنٍ ذَكَرًا وَأُنْثَى وَكَانَ يَزُوجُ الذَّكَرَ مِنْ هَذَا الْبَطْنِ الْأُنْثَى مِنَ الْبَطْنِ الْآخَرَ فَلَمَّا أَرَادَ آدَمُ أَنْ يَزُوجَ قَابِيلَ أُخْتِ هَابِيلَ وَيَزُوجَ هَابِيلَ أُخْتِ قَابِيلَ رَضِيَ هَابِيلَ وَأَبَى قَابِيلَ لِأَنَّ تَوَامَتَهُ كَانَتْ أَجْمَلُ فَقَالَ لَهَا آدَمُ : قُرْبًا قُرْبَانًا فَمِنْ أَيْكُمَا تُقْبَلُ تَزَوَّجَهَا ، وَكَانَ قَابِيلُ صَاحِبُ زَرْعٍ فَقَرَّبَ أَرْدَلُ زَرْعِهِ وَكَانَ هَابِيلُ صَاحِبُ غَنَمٍ فَقَرَّبَ أَحْسَنَ كَبِشٍ عِنْدَهُ فَقَبِلَ قُرْبَانَ هَابِيلَ بَأَنَّ نَارَ فَاكَلْتَهُ فَازْدَادَ قَابِيلُ حَسَدًا وَسَخَطًا وَتَوَعَّدَهُ بِالْقَتْلِ ﴿١﴾ ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ أَيَّ قَالَ قَابِيلُ لِأَخِيهِ هَابِيلَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ : لِمَ؟ قَالَ لِأَنَّهُ تَقْبَلُ قُرْبَانَكَ وَلَمْ يُتَقَبَّلْ قُرْبَانِي قَالَ : وَمَا ذَنْبِي؟ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أَيَّ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ عَمَّنِ اتَّقَى رَبَّهُ وَأَخْلَصَ نِيَّتَهُ قَالَ الْبِيضَاوِيُّ : تَوَعَّدَهُ بِالْقَتْلِ لِفِرْطِ الْحَسَدِ لَهُ عَلَى تَقْبَلِ قُرْبَانِهِ فَأَجَابَهُ بِأَنَّكَ أُتَيْتَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِكَ بِتَرْكِ التَّقْوَى لَا مِنْ قِبَلِي وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الطَّاعَةَ لَا تُقْبَلُ إِلَّا مِنْ مَوْءٍ مِنْ مَتَّقَى لِلَّهِ ﴿٣﴾ ﴿لَئِن بَسَطْتَ إِلَىٰ يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ أَيَّ لَئِن مَدَدْتَ إِلَيَّ يَدَكَ ظَلَمًا لِأَجْلِ قَتْلِي مَا كُنْتُ لِأَقَابِلَكَ بِالْمِثْلِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ الْمَعْنَى : مَا أَنَا بِمَجْتَنِرٍ لِنَفْسِي ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيَّ لَا أَمُدُّ يَدِي إِلَيْكَ لِأَنِّي أَخَافُ رَبَّ الْعَالَمِينَ قَالَ الزَّمخَشَرِيُّ : قِيلَ : كَانَ هَابِيلُ أَقْوَى مِنَ الْقَاتِلِ وَلَكِنَّهُ تَحَرَّجَ عَنِ قَتْلِ أَخِيهِ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ ﴿٤﴾ ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أَيَّ إِنْ قَتَلْتَنِي فَذَاكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَنَّكَ قَالَ أَبُو حَيَّانٍ : الْمَعْنَى إِنْ سَبَقَ

الظالمين ﴿٣٦﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٧﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ، كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يَوَيْلَ لِي لَيَلَّتِي أُعْجِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٨﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٩﴾

بذلك قَدَّرَ فاختياري أن أكون مظلوماً ينتصر الله لي لا ظالماً^(١) وقال ابن عباس : المعنى لا أبدؤك بالقتل لترجع بإثم قتلي إن قتلتي ، وإثمك الذي كان منك قبل قتلي فتصير من أهل النار ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ أي عقاب من تعدى وعصى أمر الله ﴿فطوَّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾ أي زينت له نفسه وسهلت له قتل أخيه فقتله فخر وشقي قال ابن عباس : خوفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه﴾ أي أرسل الله غراباً يحفر بمنقاره ورجله الأرض ليرى القتال كيف يستر جسد أخيه قال مجاهد : بعث الله غرابين فاقتلا حتى قتل أحدهما صاحبه ثم حفر له فدفنه ، وكان ابن آدم هذا أول من قُتل ، وروي أنه لما قتلته تركه بالعراء ولم يدر كيف يدفنه حتى رأى الغراب يدفن صاحبه فلما رآه قال ﴿يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخيه﴾ أي قال قابيل متحسراً يا ويلى ويا هلاكي أضعفت أن أكون مثل هذا الطير فاستر جسد أخيه في التراب كما فعل هذا الغراب ؟ ﴿فأصبح من النادمين﴾ أي صار نادماً على عدم الاهتداء إلى دفن أخيه لا على قتله قال ابن عباس : ولو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبة له^(٢) ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض﴾ أي من أجل حادثة « قابيل وهابيل » وبسبب قتله لأخيه ظليماً فرضنا وحكمنا على بني إسرائيل أن من قتل منهم نفساً ظليماً بغير أن يقتل نفساً فيستحق القصاص وبغير فسادٍ يوجب إهدار الدم كالردة وقطع الطريق ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ أي فكأنه قتل جميع الناس قال البيضاوي : من حيث انه هتك حرمة الدماء وسنَّ القتل وجرأ الناس عليه ، والمقصود منه تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ترهيباً عن التعرض لها وترغيباً في المحاماة عليها^(٣) ﴿ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ أي ومن تسبب لبقاء حياتها واستنقاذها من الهلكة فكأنه أحيا جميع الناس قال ابن عباس في تفسير الآية : من قتل نفساً واحدة حرّمها الله فهو مثل من قتل الناس جميعاً ومن امتنع عن قتل نفسٍ حرّمها الله وصان حرمتها خوفاً من الله فهو كمن أحيا الناس جميعاً^(٤) ﴿ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات﴾ أي بعدما كتبنا على بني إسرائيل هذا التشديد العظيم وجاءتهم رسلنا بالمعجزات الساطعات والآيات الواضحات ﴿ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في

(١) البحر ٤٦٣/٣ . (٢) القرطبي ١٤٢/٦ . (٣) البيضاوي ص ١٥١ . (٤) مختصر ابن كثير ١/٥٠٩ .

إِنَّمَا جَزَأُوا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾
 إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
 وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ

الأرض لمسرفون ﴿٣٣﴾ أي ثم إنهم بعد تلك الزواجر كلها يسرفون في القتل ولا يبالون بعظمته قال ابن كثير : هذا تفرغ لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها وقال الرازي : إن اليهود مع علمهم بهذه المبالغة العظيمة أقدموا على قتل الأنبياء والرسل وذلك يدل على غاية قساوة قلوبهم ونهاية بعدهم عن طاعة الله تعالى ، ولما كان الغرض من ذكر هذه القصص تسلية الرسول ﷺ لأنهم عزموا على الفتك به وبأصحابه كان تخصيص بني إسرائيل بهذه المبالغة العظيمة مناسباً للكلام ومؤكداً للمقصود (١) ، ثم ذكر تعالى عقوبة قَطَّاع الطريق فقال ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يحاربون شريعة الله ودينه وأولياءه ويحاربون رسوله ﴿وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي يفسدون في الأرض بالمعاصي وسفك الدماء ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ أي يُقَتَّلُوا جَزَاءً بغيهم ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ أي يُقَتَّلُوا وَيُصَلَّبُوا جزاءً لغيرهم ، والصيغة للتكثير ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ معناه أن تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمُ اليمنى وأرجلهم اليسرى ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي يُطْرَدُوا وَيُبعَدُوا من بلدٍ إلى بلدٍ آخر (٢) ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي ذلك الجزاء المذكور ذلُّ لهم وفضيحة في الدنيا ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو عذاب النار ، قال بعض العلماء : الإمام بالخيار إن شاء قتل ، وإن شاء صلب ، وإن شاء قطع الأيدي والأرجل ، وإن شاء نفى وهو مذهب مالك . وقال ابن عباس : لكل رتبة من الحرابة رتبة من العقاب فمن قتل قُتِلَ ، ومن قتل وأخذ المال قُتِلَ وصُلب ، ومن اقتصر على أخذ المال قطعت يده ورجله من خلاف ، ومن أخاف فقطع نفي من الأرض ، وهذا قول الجمهور (٣) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي لكن الذين تابوا من المحاربين وقطَّاع الطريق قبل القدرة على أخذهم وعقوبتهم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأتاب يقبل توبته ويغفر ذنوبه ، ثم أمر تعالى المؤمنين بالتقوى والعمل الصالح فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي خافوا عقابه واطلبوا ما يقربكم إليه من طاعته وعبادته قال قتادة : تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه ﴿وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾ أي جاهدوا لإعلاء دينه لتفوزوا بنعيم الأبد ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي لو كان لكل كافر جميع ما في الأرض من خيرات وأموال ومثله معه ﴿ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقبل منهم

(١) التفسير الكبير ١١/ ٢١١ . (٢) قال الشافعي : النفي من بلدٍ إلى بلدٍ لا يزال يطلب وهو هاربٌ فرعاً وقال أبو حنيفة : النفي السجن واختار ابن جرير أن المراد بالنفي ههنا أن يخرج من بلده إلى بلدٍ آخر فيسجن فيه . (٣) الفخر الرازي ١١/ ٢١٥ .

جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

ولهم عذاب أليم ﴿٣٦﴾ أي وأراد أن يفتدي بها نفسه من عذاب الله ما نفعه ذلك وله عذاب مؤلم موجه ﴿يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم﴾ أي دائم لا ينقطع وفي الحديث (يُجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقَالُ لَهُ : أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَلَأُ الْأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ فَيَقَالُ لَهُ : قَدْ كُنْتَ سَأَلْتَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ أَلَّا تُشْرِكَ بِي فَأَبَيْتَ فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ) (١) ثم ذكر تعالى عقوبة السارق فقال ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ أي كل من سرق رجلاً كان أو امرأة فاقطعوا يده ﴿جزاء بما كسبا﴾ أي مجازاة لهما على فعلهما القبيح ﴿نكالاً من الله﴾ أي عقوبة من الله ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي حكيم في شرعه فلا يأمر بقطع اليد ظلماً ﴿فمن تاب من بعد ظلمه﴾ أي رجع عن السرقة ﴿وأصلح﴾ أي أصلح سيرته وعمله ﴿فإن الله يتوب عليه﴾ أي يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة ، ثم نبه تعالى على واسع ملكه وأنه لا معقب لحكمه فقال ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله تعالى له السلطان القاهر والملك الباهر وبيده ملكوت السموات والأرض والاستفهام للتقرير ﴿يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير﴾ أي يعذب من يشاء تعذيبه ويغفر لمن يشاء غفران ذنبه وهو القادر على كل شيء الذي لا يعجزه شيء .

البلاغَة : ١ - الطباق بين كلمة ﴿قتل . . وأحيا﴾ وهو من المحسنات البديعية وكذلك بين ﴿يعذب . . ويغفر﴾ .

٢ - ﴿يجاربون الله﴾ هو على حذف مضاف أي يجاربون أولياء الله لأن الله لا يجارَب ولا يُغَالَب فالكلام على سبيل المجاز .

٣ - الاستعارة ﴿ومن أحياها﴾ لأن المراد استبقاها ولم يتعرض لقتلها ، وإحياء النفس بعد موتها لا يقدر عليه إلا الله تعالى .

٤ - ﴿لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به﴾ قال الزمخشري : هذا تمثيل للزوم العذاب لهم وأنه لا سبيل لهم إلى النجاة منه بوجهٍ من الوجوه (٢) .

٥ - طباق السلب ﴿لئن بسطت . . ما أنا بياسط يدي﴾ .

الفَوَاسِدُ : الأولى : النفي من الأرض كما يكون بالطرد والإبعاد يكون بالحبس ولهذا قال مالك رحمه الله : النفي : السجنُ ينفي من سعة الدنيا إلى ضيقها قال الشاعر وهو في السجن :

خرجنا عن الدنيا وعن وصل أهلها
إذا جاءنا السَّجان يوماً لحاجةٍ
فلسنا من الأحياء ولسنا من الموتى
عجبنا وقلنا : جاء هذا من الدنيا^(٢)

الثانية : السرُّ في تقديم السارق على السارقة هنا وتقديم الزانية على الزاني في قوله ﴿الزانية والزاني فاجلدوا﴾ أن الرجل على السرقة أجراً ، والزنى من المرأة أشنع وأقبح فناسب ذكر كلٍ منهما المقام .

الثالثة : قال الأصمعي : قرأت يوماً هذه الآية ﴿والسارق والسارقة﴾ وإلى جنبي أعرابي فقلت ﴿والله غفور رحيم﴾ سهواً فقال الأعرابي : كلامٌ من هذا ؟ قلت : كلام الله قال : ليس هذا بكلام الله أعِدُّ فأعدت وتنبهت فقلت ﴿والله عزيز حكيم﴾ فقال : نعم هذا كلام الله فقلت : أتقرأ القرآن ؟ قال : لا . قلت : فمن أين علمت أنني أخطأت ؟ فقال يا هذا : عزَّ فحكمت فقطع ، ولو غفر ورحم لما قطع^(٣) .

الرابعة : اعترض بعض الملحدِّين على الشريعة الغراء في قطع يد السارق بالقليل من المال ونظم ذلك شعراً فقال :

يدٌ بخمسٍ مئين عسجدٍ وُديتُ
تحكَّمْ مالنا إلا السكوتُ له
ما بالها قُطعتُ في رُبْعِ دينارٍ؟
وأن نعوذَ بمولانا من النَّارِ

فأجابه بعض العلماء بقوله :

عزُّ الأمانة أغلاها وأرخصها
ذلُّ الخيانة فافهم حكمة الباري

أي لما كانت أمينة كانت ثمينة ، فلما خانت هانت ، ويا له من قول سديد .

« كلمة وجيزة حول قطع يد السارق »

يعيب بعض الغربيين على الشريعة الإسلامية قطع يد السارق ويزعمون أن هذه العقوبة صارمة لا تليق بمجتمع متحضر ويقولون : يكفي في عقوبته السجن رداً له ، وكان من أثر هذه الفلسفة التي لا تستند على منطقٍ سليم أن زادت الجرائم وكثرت العصابات وأصبحت السجون ممتلئة بالمجرمين وقطاع الطريق الذين يهددون الأمن والاستقرار ، يسرق السارق وهو آمن مطمئن لا يخشى شيئاً اللهم إلا ذلك السجن الذي يُطعم ويكسى فيه فيقضي مدة العقوبة التي فرضها عليه القانون الوضعي ثم يخرج منه وهو إلى الإجرام أميل وعلى الشر أقدر ، يؤكد هذا ما نقرؤه ونسمعه عن تعداد الجرائم وزيادتها يوماً بعد يوم ،

(١) الفخر الرازي ١١/٢١٦ . (٢) زاد المسير لابن الجوزي ٢/٣٥٤ .

وذلك لقصور العقل البشري عن الوصول إلى الدواء الناجع والشفاء النافع لمعالجة مثل هذه الأمراض الخطيرة ، أما الإسلام فقد استطاع أن يقتلع الشر من جذوره ويدّ واحدة تقطع كافية لردع المجرمين فيأله من تشريع حكيم !!

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر . . إلى . . ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾^(١) من آية (٤١) إلى نهاية آية (٥٠) .

المناسكة : لما ذكر تعالى قصة ابني آدم وإقدام الأخ على قتل أخيه بسبب البغي والحسد وذكر أحكام الحراة والسرقه ، أعقبه بذكر أمر المنافقين وأمر اليهود في حسدهم للنبي ﷺ وتربصهم به وبأصحابه الدوائر ، وأمر رسوله ﷺ ألا يحزن لما يناله من أذى من أعداء الإنسانية فالله سيعصمه من شرهم ، وينجيهم من مكرهم ، ثم ذكر ما أنزل الله من أحكام نورانية في شريعة التوراة .

اللغات : ﴿يحزنك﴾ الحزن والحزن خلاف السرور ﴿السحت﴾ : الحرام سمي بذلك لأنه يسحت الطاعات أي يذهبها ويستأصلها وأصل السحت : الهلاك قال تعالى ﴿فيسحتكم بعباد﴾ أي يستأصلكم ويهلككم ﴿الأخبار﴾ جمع خبر وهو العالم مأخوذ من التحبير وهو التحسين ﴿وقفينا﴾ أتبعنا ﴿مهيمناً﴾ المهيمن : الرقيب على الشيء الحافظ له ، من هيمن عليه أي راقبه ويأتي بمعنى العالي والمرتفع على الشيء^(١) ﴿شريعة﴾ الشريعة : السنّة والطريقة يقال : شرع لهم أي سنّ لهم ﴿منهاجاً﴾ المنهاج : الطريق الواضح

سبب النزول : عن البراء بن عازب قال : مرّ على النبي ﷺ بيهودي محمماً مجلوداً فدعاهم فقال : هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قالوا نعم فدعا رجلاً من علمائهم فقال : أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قال : لا ، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك ، نجده الرجم ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فقلنا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيم على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم فقال رسول الله ﷺ : اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه فأمر به فرجم فأنزل الله ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ إلى قوله ﴿إن أوتيتم هذا فخذوه﴾ يقولون : ائتوا محمداً فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا^(٢) .

* يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ

التفسير : ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ الخطاب للرسول ﷺ على وجه التسلية أي لا تتأثر يا محمد ولا تحزن لصنيع الذين يتسابقون نحو الكفر ويقعون فيه بسرعة ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ أي من المنافقين الذين لم يجاوزوا الإيمان أفواههم يقولون

(١) القرطبي ٦ / ٢١٠ . (٢) رواه مسلم .

وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمِعُوا لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ
 إِنَّ أُوتِيئْتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تَأْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ
 لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرِ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمِعُوا لِلْكَذِبِ
 أَكْثَلُونَ لِلْحَقِّ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ
 حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُوكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا

بألسنتهم آمنوا وقلوبهم كافرة ﴿ومن الذين هادوا﴾ أي ومن اليهود ﴿سماعون للكذب﴾ أي هم مبالغون
 في سماع الأكاذيب والأباطيل وفي قبول ما يفتريه أخبارهم من الكذب على الله وتحريف كتابه ﴿سماعون
 لقوم آخرين لم يأتوك﴾ أي مبالغون في قبول كلام قوم آخرين لم يحضروا مجلسك تكبراً وإفراطاً في
 العداوة والبغضاء وهم يهود خيبر ، والسماعون للكذب بنو قريظة ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾
 أي يزيلونه ويملونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها والمراد تحريف أحكام الله وتغييرها بأحكام
 أخرى قال ابن عباس : هي حدود الله في التوراة غيروا الرجم بالجلد والتحميم^(١) - يعني تسويد الوجه -
 ﴿يقولون إن أوتيتهم هذا فخذوه وإن لم تأتوهم فاحذروا﴾ أي إن أمركم محمد بالجلد فاقبلوا وإن أمركم
 بالرجم فلا تقبلوا قال تعالى رداً عليهم ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾ أي ومن يرد
 الله كفره وضلالته فلن يقدر أحداً على دفع ذلك عنه ﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم﴾ أي لم
 يرد الله أن يظهر قلوبهم من رجس الكفر وخبث الضلالة لقبح صنيعهم وسوء اختيارهم ﴿لهم في الدنيا
 خزي﴾ أي ذل وفضيحة ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ هو الخلود في نار جهنم قال أبو حيان : والآية
 جاءت تسلياً للرسول ﷺ وتحفيفاً عنه من ثقل حزنه على مسارعتهم في الكفر وقطعاً لرجائه من فلاحهم^(٢)
 ﴿سماعون للكذب﴾ أي الباطل كرهه تأكيداً وتفخياً ﴿أكثالون للسهة﴾ أي الحرام من الرشوة والربا
 وشبه ذلك ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ أي إن تحاكموا إليك يا محمد فيما شجر بينهم من
 الخصومات فأنت مخير بين أن تحكم بينهم وبين أن تعرض عنهم قال ابن كثير : أي إن جاءوك يتحاكمون
 إليك فلا عليك ألا تحكم بينهم لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل ما يوافق أهواءهم^(٣)
 ﴿وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً﴾ أي لأن الله عاصمك وحافظك من الناس ﴿وإن حكمت فاحكم
 بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين﴾ أي فاحكم بينهم بالعدل والحق وإن كانوا ظلمة خارجين عن
 طريق العدل لأن الله يحب العادلين ، ثم قال تعالى منكرأ عليهم مخالفتهم لأحكام التوراة ﴿وكيف
 يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ أي كيف يحكمك يا محمد هؤلاء اليهود ويرضون بحكمك

حُكِرَ اللَّهُ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ
بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا
تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَسْتَرُوا بِعَايَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٣﴾
وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ

وعندهم التوراة فيها حكم الله يرونه ولا يعملون به ؟ قال الرازي : هذا تعجيبٌ من الله تعالى لنبيه ﷺ
بتحكيم اليهود إياه بعد علمهم بما في التوراة من حد الزاني ثم تركهم قبول ذلك الحكم ، فعدلوا عما
يعتقدونه حكماً حقاً إلى ما يعتقدونه باطلاً طلباً للرخصة فظهر بذلك جهلهم وعنادهم^(١) ﴿ثم يتولون من
بعد ذلك﴾ أي يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد أن وضح لهم الحق وبان ﴿وما أولئك
بالمؤمنين﴾ أي ليسوا بمؤمنين لأنهم لا يؤمنون بكتابهم « التوراة » لإعراضهم عنه وعن حكمك الموافق لما
فيه قال في التسهيل : وهذا الإزام لهم لأن من خالف كتاب الله وبدلته فدعواه الإيمان باطلة^(٢) ، ثم مدح
تعالى التوراة بأنها نور وضيء فقال ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ أي أنزلنا التوراة على موسى فيها
بيان واضح ونور ساطع يكشف ما اشتبه من الأحكام ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا﴾ أي يحكم
بالتوراة أنبياء بني إسرائيل الذين انقادوا لحكم الله ﴿للذين هادوا﴾ أي يحكمون بالتوراة لليهود لا
يخرجون عن حكمها ولا يُبدّلونها ولا يُحرفونها ﴿والرّبّانيون والأحبار﴾ أي العلماء منهم والفقهاء ﴿بما
استحفظوا من كتاب الله﴾ أي بسبب أمر الله إياهم بحفظ كتابه من التحريف والتضييع ﴿وكانوا
عليه شهداء﴾ أي رقباء لئلا يُبدّل ويُغَيّر ﴿فلا تخشوا الناس واخشوا﴾ أي لا تخافوا يا علماء اليهود
الناس في إظهار ما عندكم من نعت محمد ﷺ والرجم بل خافوا مني في كتاب ذلك ﴿ولا تستروا بآياتي ثمناً
قليلاً﴾ أي ولا تستبدلوا بآياتي حطام الدنيا الفاني من الرشوة والجاه والعرض الخسيس ﴿ومن لم يحكم بما
أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ أي من لم يحكم بشرع الله كائناً من كان فقد كفر وقال الزمخشري : ومن
لم يحكم بما أنزل الله مستهيناً به فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون وصف لهم بالعتوّ في كفرهم
حين ظلموا آيات الله بالاستهزاء والاستهانة وتمردوا بأن حكموا بغيرها^(٣) قال أبو حيان : والآية وإن كان
الظاهر من سياقها أن الخطاب فيها لليهود إلا أنها عامة في اليهود وغيرهم^(٤) . . . وكل آية وردت في الكفار
تجرُّ بذيلها على عصاة المؤمنين ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ أي فرضنا على اليهود في التوراة
أن النفس تُقتل بالنفس ﴿والعين بالعين﴾ أي تُفقأ بالعين إذا فقئت بدون حق ﴿والأنف بالأنف﴾ أي
يُجَدع بالأنف إذا قطع ظملاً ﴿والأذن بالأذن﴾ أي تقطع بالأذن ﴿والسن بالسن﴾ أي يقلع بالسن
﴿والجروح قصاص﴾ أي يُقتص من جانيها بأن يفعل به مثل ما فعله بالمجني عليه وهذا في الجراح التي

(١) الفخر الرازي ١١/٢٣٦ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٧٨ . (٣) الكشاف ١/٤٩٦ . (٤) البحر ٣/٤٩٢ .

قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفِينَا عَلَىٰ
 آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا
 بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ
 يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
 الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ
 جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا

يمكن فيها المماثلة ولا يُخاف على النفس منها ﴿فمن تصدَّق به فهو كفارة له﴾ قال ابن عباس : أي فمن عفا
 عن الجاني وتصدَّق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجرٌ للطالب^(١) وقال الطبري : من تصدَّق من أصحاب
 الحق وعفا فهو كفارة له أي للمتصدَّق ويكفر الله ذنوبه لعفوه وإسقاطه حقه^(٢) ﴿ومن لم يحكم بما أنزل
 الله فأولئك هم الظالمون﴾ أي المبالغون في الظلم لمخالفة شرع الله ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم
 مصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ أي أتبعنا على آثار النبيين بعيسى بن مريم وأرسلناه عقيبهم مصدقاً لما
 تقدمه من التوراة ﴿وأتيناه الإنجيل فيه هدى ونور﴾ أي أنزلنا عليه الإنجيل فيه هدى إلى الحق ونور
 يُستضاء به في إزالة الشبهات ﴿ومصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ أي مُعتزلاً بأنها من عند الله ، والتكرير
 لزيادة التقرير ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ أي وهادياً وواعظاً للمتقين ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل
 الله فيه﴾ أي وأتينا عيسى بن مريم الإنجيل وأمرناه وأتباعه بالحكم به ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك
 هم الفاسقون﴾ أي المتمردون الخارجون عن الإيمان وطاعة الله ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ أي
 وأنزلنا إليك يا محمد القرآن بالعدل والصدق الذي لا ريب فيه ﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ أي
 مصدقاً للكتب السماوية التي سبقته ﴿ومُهيمناً عليه﴾ أي مؤتمناً عليه وحاكماً على ما قبله من الكتب قال
 الزمخشري : أي رقيباً على سائر الكتب لأنه يشهد لها بالصحة والثبات^(٣) قال ابن كثير : اسم المهيمن
 يتضمن ذلك فهو أمينٌ وشاهدٌ وحاكمٌ على كل كتابٍ قبله جمع الله فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما
 ليس في غيره^(٤) ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ أي فاحكم يا محمد بين الناس بما أنزل الله إليك في هذا
 الكتاب العظيم ﴿ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾ أي لا توافقهم على أغراضهم الفاسدة عادلاً عما
 جاءك في هذا القرآن قال ابن كثير : أي لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة
 الأشقياء^(٥) ﴿لكل جعلنا منكم شريعةً ومنهاجاً﴾ أي لكل أمة جعلنا شريعةً وطريقاً بيناً واضحاً خاصاً بتلك

(١) مختصر ابن كثير ١/٥٢٢ . (٢) الطبري ١٠/٣٦٩ . (٣) الكشاف ١/٤٩٧ . (٤) مختصر ابن كثير ١/٥٢٤ .

(٥) ابن كثير المختصر ١/٥٢٤ .

أَلْحِيَرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرَجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَلْحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

الأمة قال أبو حيان : لليهود شرعةٌ ومنهاج وللنصارى كذلك والمراد في الأحكام وأما المعتقد فواحدٌ لجميع الناس توحيدٌ وإيمان بالرسول وجميع الكتب وما تضمنته من المعاد والجزاء (١) ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ أي لو أراد الله لجمع الناس كلهم على دين واحد وشرعة واحدة لا ينسخ شيء منها الآخر ﴿ولكن ليبلوكم فيما آتاكم﴾ أي شرع الشرائع مختلفة ليختبر العباد هل يدعون لحكم الله أم يعرضون ، فخالف بين الشرائع لينظر المطيع من العاصي ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي فسارعوا إلى ما هو خير لكم من طاعة الله واتباع شرعه ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ أي معادكم ومصيركم أيها الناس إلى الله يوم القيامة فيخبركم بما اختلافتم فيه من أمر الدين ويجازيكم بأعمالكم ﴿وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ أي أحكم بين أهل الكتاب بهذا القرآن ولا تتبع أهواءهم الزائفة ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ أي احذر هؤلاء الأعداء أن يصرفوك عن شريعة الله فإنهم كذبة كفرة خونة ﴿فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ أي فإن عرضوا عن الحكم بما أنزل الله وأرادوا غيره فاعلم يا محمد أنما يريد الله أن يعاقبهم ببعض إجرامهم ﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ أي أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق منهمكون في المعاصي ﴿أفحكم الجاهلية يبغيون﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى أيتولون عن حكمك ويبتغون غير حكم الله وهو حكم الجاهلية ؟ ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه ، وأصدق في بيانه ، وأحكم في تشريعه لقوم يصدقون بالعلي الحكيم !!

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿يا أيها الرسول﴾ الخطاب بلفظ الرسالة للتشريف والتعظيم .

٢ - ﴿يسارعون في الكفر﴾ إيثار كلمة « في » على كلمة « إلى » للإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفر لا يبرحونه وإنما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه إلى بعض آخر (٢) .

٣ - ﴿سماعون للكذب﴾ صيغة فعال للمبالغة أي مبالغون في سماع الكذب .

٤ - ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ تنكير الخزي للتفخيم وتكرير لهم ﴿ولهم في الآخرة﴾ لزيادة التقرير والتأكيد وبين كلمتي « الدنيا والآخرة » طباق .

٥ - ﴿وكيف يحكمونك﴾ تعجيب من تحكيمهم لرسول الله ﷺ وهم لا يؤمنون به ولا بكتابه .

٦ - ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ الإشارة بالبعيد للإيذان ببعدهم في العتو والمكابرة .
٧ - ﴿فلا تخشوا الناس﴾ خطاباً لرؤساء اليهود وعلماؤهم بطريق الإلتفات والأصل « فلا يخشوا » .

٨ - ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي بادروا فعل الخيرات وفيه استعارة حيث شبهه بالمتسابقين على ظهور الخيل إذ كل واحد ينافس صاحبه في السبق لبلوغ الغاية المقصودة^(١) .

الفوائد: قال الفخر الرازي : خاطب الله محمداً ﷺ بقوله ﴿يا أيها النبي﴾ في مواضع كثيرة وما خاطبه بقوله ﴿يا أيها الرسول﴾ إلا في موضعين أحدهما ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ والثاني في هذه السورة أيضاً وهو قوله ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك﴾ وهذا الخطاب لا شك أنه خطاب تشریف وتعظيم^(٢) .

تبيينه: يقول شهيد الإسلام « سيد قطب » طيب الله ثراه في تفسير الظلال ما نصه « إن الجاهلية في ضوء هذا النص القرآني البليغ ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ هي حكم البشر للبشر وعبودية البشر للبشر ورفض ألوهية الله والخروج من عبوديته إلى عبودية غير الله ، إنه مفرق الطريق فيما حكم الله ، وإما حكم الجاهلية ولا وسط ولا بديل ، إما أن تنفذ شريعة الله في حياة الناس أو ينفذ حكم الجاهلية وشريعة الهوى ومنهج العبودية لغير الله ، والجاهلية ليست فترة من الزمان ولكنها وضع من الأوضاع يوجد بالأمس واليوم وغداً والناس إما أنهم يحكمون بشريعة الله ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً فهم إذا مسلمون وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر فهم في جاهلية وهم خارجون عن شريعة الله »^(٣) .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . . إلى . . وكثير منهم ساء ما يعملون﴾
من آية (٥١) إلى نهاية آية (٦٦)

المناسبة: لما حكى تعالى عن أهل الكتاب أنهم تركوا العمل بالتوراة والإنجيل وحكم عليهم بالكفر والظلم والفسوق ، حذر تعالى في هذه الآيات من موالاته اليهود والنصارى ، ثم عدّد جرائم اليهود وما اتهموا به الذات الإلهية المقدسة من شنيع الأقوال وقبيح الفعال .

اللفظة: ﴿دائرة﴾ واحدة الدوائر وهي صروف الدهر ونوازله قال الراجز :

تردُّ عنكَ القَدَرُ المَقْدُورَا ودائرتِ الدَّهْرِ أنْ تَدُورَا^(٤)

﴿حبطت﴾ بطلت وذهبت ﴿تقومون﴾ تنكرون وتعيون ﴿السحت﴾ الحرام وقد تقدم ﴿مغلولة﴾ مقبوضة والغلُّ : القيد يوضع في اليد وهو كناية عن البخل ، وغلّه وضع القيد في يده ﴿أطفأها﴾ الإطفاء : الإخماد حتى لا يبقى هناك أثر ﴿مقتصد﴾ أي عادلة غير متغالية من القصد وهو الاعتدال .

(١) تلخيص البيان ص ٣١ . (٢) الفخر الرازي ١١ / ٢٣١ . (٣) ظلال القرآن ٦ / ١٨٣ بإيجاز . (٤) الطبري ١٠ / ٤٠٤ .

سَبَبُ الزُّوْلِ : ١- عن ابن عباس قال : كان « رفاعةُ بن زيد » و « سُوَيْدُ بن الحارث » قد أظهرَا الإسلامَ ثم نافقا ، وكان رجال من المسلمين يوادونها فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا... ﴾ (١) الآية .

ب - عن ابن عباس قال : جاء نفرٌ من اليهود إلى النبي ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل عليهم السلام ، فقال : أو من بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل إلى قوله « ونحن له مسلمون » فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا : والله ما نعلم أهل دينٍ أقلَّ حظاً في الدنيا والآخرة منكم ، ولا ديناً شراً من دينكم فأنزل الله ﴿ قُلْ هَلْ أَنْبَأُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (٢) الآية .

* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٦﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا

دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ وَيَقُولُ

الَّذِينَ آمَنُوا أَهْتُوا لَوْلَا الَّذِينَ آقَسُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَإِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا

النَّصِيرُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾ نهى تعالى المؤمنين عن

موالاة اليهود والنصارى ينصرونهم ويستنصرون بهم ويصافونهم ويعاشرهم معاشرة المؤمنين (٣)

﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ أي هم يدٌ واحدة على المسلمين لاتحادهم في الكفر والضلال ، وملة الكفر

واحدة ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ أي من جملتهم وحكمه حكمهم قال الزمخشري : وهذا تغليظ من

الله وتشديد في مجانبة المخالف في الدين واعتزاله كما قال ﷺ (لا تراءى نارهما) (٤) ﴿ إن الله لا يهدي

القوم الظالمين ﴾ أي لا يهديهم إلى الإيمان ﴿ فتري الذين في قلوبهم مرضٌ يسارعون فيهم ﴾ أي شك

ونفاق كعبد الله بن أبي وأصحابه يسارعون في مؤالاتهم ومعاونتهم ﴿ يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ﴾

أي يقولون معتذرين عن موالاة الكافرين نخاف حوادث الدهر وشورره أن يظفر اليهود بالمسلمين فلا يتم

الأمر لمحمد قال تعالى رداً على مزاعمهم الفاسدة ﴿ فعسى الله أن يأتي بالفتح ﴾ يعني فتح مكة (٥) وهذه

بشارة للنبي ﷺ والمؤمنين بوعده تعالى بالفتح والنصرة ﴿ أو أمر من عنده ﴾ أي يهلكهم بأمر من عنده لا

يكون فيه تسببٌ لمخلوق كاللقاء الرعب في قلوبهم كما فعل ببني النضير ﴿ فيصبحوا على ما أسروا في

أنفسهم نادمين ﴾ أي يصير المنافقون نادمين على ما كان منهم من موالاة أعداء الله من اليهود والنصارى

﴿ ويقول الذين آمنوا ﴾ أي يقول المؤمنون تعجباً من حال المنافقين إذا هتك الله سترهم ﴿ أهؤلاء

الذين آقسوا بالله جهد أيمانهم لئن لمعكم ﴾ أي حلفوا لكم يا معشر اليهود بأغلظ الإيمان إنهم لمعكم

(١) أسباب النزول للواحي ص ١١٤ . (٢) القرطبي ٦/٢٣٣ ومجمع البيان ٣/٢١٤ . (٣) البحر ٣/٥٠٧ .

(٤) الكشاف ١/٤٩٩ . (٥) هذا قول السدي وقال ابن عباس : هو ظهور النبي ﷺ والمسلمين على جميع الخلق بانتصاره عليهم .

خٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ

بالنصرة والمعونة كما حكى تعالى عنهم ﴿وإن قوتلتهم لننصرنكم﴾ ﴿حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ أي بطلت أعمالهم بنفاقهم فصاروا خاسرين في الدنيا والآخرة ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه﴾ خطاب على وجه التحذير والوعيد والمعنى : يا معشر المؤمنين من يرجع منكم عن دينه الحق ويبدله بدين آخر ويرجع عن الإيمان إلى الكفر^(١) ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ أي فسوف يأتي الله مكانهم بأناس مؤمنين يحبهم الله ويحبون الله ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ أي رحماء متواضعين للمؤمنين أشداء متعززين على الكافرين قال ابن كثير : وهذه صفات المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه متعزراً على عدوه^(٢) كقوله تعالى ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ ومن علامة حب الله تعالى للمؤمن أن يكون لئن الجانب متواضعاً لإخوانه المؤمنين متسربلاً بالعزة حيال الكافرين والمنافقين ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ أي يجاهدون لإعلاء كلمة الله ولا يبالون بمن لامهم فهم صلاب في دين الله لا يخافون في ذات الله أحداً ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ أي من اتصف بهذه الأوصاف الحميدة فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ﴿والله واسع عليم﴾ أي واسع الإفضال والإحسان عليم بمن يستحق ذلك ، ثم لما نهاهم تعالى عن موالاته الكفرة ذكر هنا من هم حقيقون بالموالاته فقال ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ أي ليس اليهود والنصارى بأوليائكم إنما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راعون﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف الجليلة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون متواضعون لله عز وجل قال في التسهيل : ذكر تعالى الولي بلفظ المفرد إفراداً لله تعالى بهما ، ثم عطف على اسمه تعالى الرسول ﷺ والمؤمنين على سبيل التبع ، ولو قال «إنما أولياؤكم» لم يكن في الكلام أصل وتبع^(٣) ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ أي من يتول الله ورسوله والمؤمنين فإنه

(١) في الآية إعلام بارتداد بعض المسلمين فهو إخبار بالغيب قبل وقوعه وقد ارتد عن الإسلام فرق كثيرة منهم من ارتد في عهد رسول الله ﷺ ومنهم في عهد أبي بكر ، وقد ارتد بنو حنيفة قوم «مسيلمة الكذاب» وكتب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد : فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك فأجابته عليه السلام : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . (٢) مختصر ابن كثير ٥٢٨/١ . (٣) التسهيل ١/١٨١ .

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾
 قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ
 فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَٰلِكَ مُتَوَبِّعٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ
 وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾

من حزب الله وهم الغالبون القاهرون لأعدائهم ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزُوًا ولعبًا﴾ أي لا تتخذوا أعداء الدين الذين يسخرون من دينكم ويهزءون ﴿من الذين أتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء﴾ أي من هؤلاء المستهزئين اليهود والنصارى وسائر الكفرة أولياء لكم وتدوّنهم وتحبونهم وهم أعداء لكم ، فمن اتخذ دينكم سخرية لا يصح لكم أن تصادقوه أو توالوه بل يجب أن تبغضوه وتعادوه ﴿واقفوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ أي اتقوا الله في موالاته الكفار والفجار إن كنتم مؤمنين حقاً ، ثم بيّن تعالى جانباً من استهزائهم فقال ﴿وإذا ناديتهم إلى الصلاة اتخذوها هُزُوًا ولعبًا﴾ أي وإذا أدنتم إلى الصلاة ودعوتهم إليها سخروا منكم ومن صلاتكم قال في البحر : حسد اليهود الرسول ﷺ حين سمعوا الأذان وقالوا : ابتدعت شيئاً لم يكن للأنبياء فمن أين لك الصياح كصياح العير فما أقبحه من صوت فأنزل الله هذه الآية (١) نبه تعالى على أن من استهزأ بالصلاة ينبغي أن لا يتخذ ولياً بل يهجر ويطرده ، وهذه الآية جاءت كالتركيد للآية قبلها ﴿ذلك بأنهم قومٌ لا يعقلون﴾ أي ذلك الفعل منهم بسبب أنهم فجرة لا يعقلون حكمة الصلاة ولا يدركون غايتها في تطهير النفوس ، ونفى العقل عنهم لكونهم لم ينتفعوا به في أمر الدين وإن كان لهم عقول يدركون بها مصالح الدنيا ﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا﴾ أي قل يا محمد : يا معشر اليهود والنصارى هل تعيبون علينا وتنكرون منا ﴿إلا أن آمننا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل﴾ أي إلا إيماننا بالله وبما جاء به رسل الله قال ابن كثير : أي هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا ؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة فيكون الاستثناء منقطعاً (٢) ﴿وأن أكثركم فاسقون﴾ أي خارجون عن الطريق المستقيم ﴿قل هل أنبئكم بشرٍ من ذلك﴾ أي هل أخبركم بما هو شر من هذا الذي تعيبونه علينا ؟ ﴿متوبية عند الله﴾ أي ثواباً وجزاءً ثابتاً عند الله قال في التسهيل : ووضع الثواب موضع العقاب تهكماً بهم نحو قوله ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ (٣) ﴿من لعنه الله﴾ أي طرده من رحمته ﴿وغضب عليه﴾ أي سخط عليه بكفره وانهاكه في المعاصي بعد وضوح الآيات ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾ أي ومسح بعضهم قردةً وخنازير ﴿وعبد الطاغوت﴾ أي وجعل منهم من عبد الشيطان بطاعته ﴿أولئك شرٌّ مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾ أي هؤلاء الملعونون الموصوفون بتلك القبائح

(١) البحر ٥١٥/٣ وقال أبو السعود عند هذه الآية : روي أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول : أشهد أن محمداً رسول الله يقول :

أحرق الله الكاذب ، فدخل خادمه ذات ليلة بنارٍ وأهله نياماً فتطايرت منه شرارة في البيت فأحرقته وأهله جميعاً أبو السعود ٤٠/٢ .

(٢) مختصر ابن كثير ١/٥٣٠ . (٣) التسهيل ١/١٨٢ .

وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ^٤ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾
 وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَيْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ^٥ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا
 يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْأَيْمِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ^٥ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ
 اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ^٤ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ

والفضائح شرًّا مكاناً في الآخرة وأكثر ضللاً عن الطريق المستقيم قال ابن كثير والمعنى : يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادة دون ما سواه كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر^(١)؟ قال القرطبي : ولما نزلت هذه الآية قال المسلمون لهم : يا إخوة القردة والخنزير فكسروا رؤوسهم افتضحاً وفيهم يقول الشاعر :

فلعنة الله على اليهود إن اليهود إخوة القردة^(٢)

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ الضمير يعود إلى المنافقين من اليهود أي إذا جاءوكم أظهروا الإسلام ﴿وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾ أي والحال قد دخلوا إليك كفاراً وخرجوا كفاراً لم ينتفعوا بما سمعوا منك يا محمد من العلم ، ولا نجعت فيهم المواعظ والزواجر ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ أي من كفرهم ونفاقهم وفيه وعيد شديد لهم ﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان﴾ أي وترى كثيراً من اليهود يسابقون في المعاصي والظلم ﴿وأكلهم السحت﴾ أي أكلهم الحرام ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾ أي بشس أعمالهم القبيحة تلك الأخلاق الشنيعة ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار﴾ أي هلاً يزرهم علماءهم وأحبارهم ﴿عن قولهم الإثم وأكلهم السحت﴾ أي عن المعاصي والآثام وأكل الحرام ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ أي بشس صنيعهم ذلك تركهم النهي عن ارتكاب محارم الله قال ابن عباس : ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية - يعني على العلماء - وقال أبو حيان : تضمنت هذه الآية توبيخ العلماء والعباد على سكوتهم عن النهي عن معاصي الله وأنشد ابن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا الملو كُ وأحبار سوء ورهبانها^(٣)

﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ أي قال اليهود اللعنة إن الله بخيل يقرّ الرزق على العباد قال ابن عباس : مغلولة أي بخيلة أمسك ما عنده بخلاً ليس يعنون أن يد الله موثقة ولكنهم يقولون إنه بخيل^(٤) ﴿غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاءٌ عليهم بالبخل المذموم والفقر والنكد ﴿ولُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ أي أبعدهم الله من رحمته بسبب تلك المقالة الشنيعة ﴿بل يدها ميسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ أي بل هو جواد كريم سابغ الإنعام يرزق ويعطي كما يشاء قال أبو السعود : وتضييق الرزق ليس لقصور في فيضه بل لأن إنفاقه تابع

(١) ابن كثير ١/٥٣١ . (٢) القرطبي ٦/٢٣٦ . (٣) البحر المحيط ٣/٥٢٢ . (٤) الطبري ١٠/٤٥٢ .

إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ الرَّبِّمْ لَا أَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ۗ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

لمشيئته المبنية على الحكيم وقد اقتضت الحكمة بسبب ما فيهم من شؤم المعاصي أن يضيق عليهم (١) ﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ أي وليزيدنهم هذا القرآن الذي أنزل عليك يا محمد كفراً فوق كفرهم وطغياناً فوق طغيانهم إذ كلما نزلت آية كفروا بها فيزداد طغيانهم وكفرهم كما أن الطعام للأصحاء يزيد المرضى مرضاً قال الطبري : أعلم تعالى نبيه أنهم أهل عتو وتمرد على ربهم وأنهم لا يدعون لحق وإن علموا صحته ولكنهم يعاندونه يسلي بذلك نبيه ﷺ في ذهابهم عن الله وتكذيبهم إياه (٢) ﴿والقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ أي ألقينا بين اليهود العداوة والبغضاء فكلمتهم مختلفة وقلوبهم شتى لا يزالون متباغضين متعادين إلى قيام الساعة ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله﴾ أي كلما أرادوا إشعال حرب على رسول الله ﷺ أطفاها الله ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ أي يجتهدون في الكيد للإسلام وأهله ويسعون لإثارة الفتن بين المسلمين قال ابن كثير : أي من سجيئتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض ﴿والله لا يحب المفسدين﴾ أي لا يحب من كانت هذه صفته (٣) ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا﴾ أي لو أن اليهود والنصارى آمنوا بالله وبرسوله حق الإيمان واتقوا محارم الله فاجتنبوها ﴿لكفرنا عنهم سيئاتهم﴾ أي محونا عنهم ذنوبهم التي اقترفوها ﴿ولأدخلناهم جنات النعيم﴾ أي ولأدخلناهم مع ذلك في جنات النعيم ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم﴾ أي ولو أنهم استقاموا على أمر الله وعملوا بما في التوراة والإنجيل وبما أنزل إليهم في هذا الكتاب الجليل الذي نزل على خاتم الرسل ﷺ ﴿لاأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ أي لوسع الله عليهم الأرزاق وأغدق عليهم الخيرات بإفاضة بركات السماء والأرض عليهم ﴿منهم أمةٌ مقتصدة﴾ أي منهم جماعة معتدلة مستقيمة غير غالية ولا مقصرة ، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ كعبد الله بن سلام والنجاشي وسلمان ﴿وكثيرٌ منهم ساء ما يعملون﴾ أي وكثير منهم أشرار بئس ما يعملون من قبيح الأقوال وسوء الفعال .

البلاغَة : ١ - ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ بين لفظ « أعزة » و « أذلة » طباق وهو

من المحسنات البديعية وكذلك بين لفظ ﴿من فوقهم . . ومن تحت أرجلهم﴾ .

- ٢ - ﴿لومة لائم﴾ في تنكير لومة ولائم مبالغة لا تخفى لأن اللومة المرة من اللوم .
- ٣ - ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ هذا على سبيل التهيج .
- ٤ - ﴿هل تنقمون منا إلا أن آمنا﴾ يسمى مثل هذا عند علماء البيان تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس فقد جعلوا التمسك بالإيمان موجباً للإنكار والنقمة مع أن الأمر بالعكس .
- ٥ - ﴿مثوبة عند الله من لعنه الله﴾ هذا من باب التهكم حيث استعملت المثوبة في العقوبة .
- ٦ - ﴿شرٌّ مكاناً﴾ نسب الشرُّ للمكان وهو في الحقيقة لأهله وذلك مبالغة في الذم .
- ٧ - ﴿يد الله مغلولة﴾ غلُّ اليد كناية عن البخل وبسطها كناية عن الجود .
- ٨ - ﴿أوقدوا ناراً للحرب﴾ إيقاد النار في الحرب استعارة لأن الحرب لا نارها وإنما شبهت بالنار لأنها تأكل أهلها كما تأكل النار حطبها .
- ٩ - ﴿لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ استعارة أيضاً عن سبوغ النعم وتوسعة الرزق عليهم كما يقال : عمه الرزق من فوقه إلى قدمه .

الفوائد : الأولى : روي أن عمر بلغه أن كاتباً نصرانياً قد استعمله أبو موسى الأشعري فكتب إلى أبي موسى : لا تكرموهم إذ أهانهم الله ، ولا تأمنوهم إذ خونهم الله ، ولا تُدنوهم إذ أقصاهم الله فقال له أبو موسى : لا قوام للبصرة إلا به فقال عمر : مات النصراني فماذا تفعل (١) .

الثانية : قُتِلَ مسيلمة الكذاب في عهد أبي بكر على يد « وحشي » قاتل حمزة وكان يقول : قتلتُ خير الناس في الجاهلية - يريد حمزة - وشرَّ الناس في الإسلام - يريد مسيلمة الكذاب (٢) .

الثالثة : قال المفسرون : « عسى » من الله واجب لأن الكريم إذا أطمع في خيرٍ فعله فهو بمنزلة الوعد لتعلق النفس به (٣) .

الرابعة : قال البيضاوي في قوله تعالى ﴿لولا ينهاهم الربانيون﴾ فيها تخصيصٌ لعلمائهم للنهي عن ذلك فإنَّ ﴿لولا﴾ إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض (٤) .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك . . . إلى . . . ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ من آية (٦٧) إلى نهاية آية (٨١) .

المناسكبة : لما حذر تعالى المؤمنين من موالة الكافرين ، وكانت رسالته ﷺ تتضمن الطعن في

أحوال الكفرة والمخالفين ، وهذا يستدعي مناصبتهم العداء له ولأتباعه أمره تعالى في هذه الآيات بتبليغ الدعوة ، ووعدته بالحفظ والنصرة ، ثم ذكر تعالى طرفاً من عقائد أهل الكتاب الفاسدة وبخاصة النصراني الذين يعتقدون بالوهية عيسى وأنه ثالث ثلاثة ، وردّ عليهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع .

اللغة : ﴿ يعصمك ﴾ العصمة : الحفظ والحماية ﴿ طغياناً ﴾ الطغيان : تجاوز الحد في الظلم والغلو فيه ﴿ تأس ﴾ تحزن يقال : أسى يأسى ، والأسى : الحزن قال :

وانحلبت عيناه من فرط الأسى^(١)

﴿ خلت ﴾ مضت ﴿ صديقة ﴾ الصديق : المبالغ في الصدق وفِعيل من أبنية المبالغة كما يقال رجل سَكِيت أي مبالغ في السكوت وسَكِير أي كثير السكر ﴿ يوفكون ﴾ يُصرفون عن الحق يقال : أفكّه إذا صرفه ومنه ﴿ أجتئنا لتأفكنا ﴾ ﴿ تغلو ﴾ الغلو : التجاوز في الحد والتشدد في الأمر يقال : غلا في دينه غلواً تشدّد فيه حتى جاوز الحد .

سَبَبُ النُّزُولِ : أ - عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : (لما بعثني الله برسالته ضقتُ بها ذرعاً وعرفتُ أن من الناس من يكذبني فأنزل الله ﴿ يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك ﴾^(٢) الآية) .

ب - وعن ابن عباس قال : جاء جماعة من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا : ألسنتُ تُقرُّ أن التوراة حقٌّ من عند الله ؟ قال : بلى فقالوا : فإننا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها فأنزل الله ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل . . ﴾^(٣) الآية .

* يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ^٤

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ

التفسير : ﴿ يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ هذان دعاء تشریف وتعظيم ناداه تعالى بأشرف الأوصاف بالرسالة الربانية أي بلّغ رسالة ربك غير مراقب أحداً ولا خائف أن ينالك مكروه ﴿ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ وهذا تأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئاً من أمر شريعته ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ أي يمنعك من أن ينالوك بسوء قال الزمخشري : هذا وعد من الله بالحفظ والكلاءة والمعنى : والله يضمن لك العصمة من أعدائك فما عذرک في مراقبتهم ؟ روي أن رسول الله ﷺ كان يحرس حتى نزلت فأخرج رأسه من قبة آدم وقال : انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله عز وجل^(٥) ﴿ والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ أي إنما عليك البلاغ والله هو الذي يهدي من يشاء فمن قضي له بالكفر لا يهتدي أبداً ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى

(١) القرطبي ٦/ ٢٤٥ . (٢) أسباب النزول ص ١١٥ . (٣) القرطبي ٦/ ٢٤٥ . (٤) القرطبي ٦/ ٢٤٢ . (٥) الكشاف ١/ ٥١٤ .

وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنَ رَبِّكُمْ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا إِنَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ
بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٤٦﴾ وَحَسِبُوا أَنَّا لَأَن نَّكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ

لستم على شيء من الدين أصلاً حتى تعملوا بما في التوراة والإنجيل وتقيموا أحكامهما على الوجه الأكمل ،
ومن إقامتهما الإيمان بمحمد ﷺ ﴿وما أنزل إليكم من ربكم﴾ قال ابن عباس : يعني القرآن العظيم
﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ اللام للقسمة أي وأقسم ليزيدن هذا القرآن
المنزل عليك يا محمد الكثير منهم غلواً في التكذيب وجحوداً لنبوتك^(١) وإصراراً على الكفر والضلال ﴿فلا
تأس على القوم الكافرين﴾ أي لا تحزن عليهم فإن تكذيب الأنبياء عادتهم ودأبهم ، وهذه تسلية للنبي
ﷺ وليس بنهي عن الحزن^(٢) ثم قال تعالى ﴿إن الذين آمنوا﴾ أي صدقوا الله ورسوله وهم المسلمون
﴿والذين هادوا﴾ وهم اليهود ﴿والصابئون﴾ وهم طائفة من النصارى عبدوا الكواكب ﴿والنصارى﴾
وهم أتباع عيسى ﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً﴾ أي من آمن من هؤلاء المذكورين إيماناً
صحيحاً خالصاً لا يشوبه ارتياب بالله وباليوم الآخر وعمل صالحاً يقربه من الله ﴿فلا خوف عليهم ولا
هم يحزنون﴾ أي فلا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما خلّفوا
وراءهم من الدنيا بعد معاينتهم جزيل ثواب الله^(٣) قال ابن كثير : والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله واليوم
الآخر وعملت عملاً صالحاً - ولا يكون ذلك كذلك حتى يوافق الشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها
المبعوث إلى جميع الثقليين - فمن اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما تركوه
وراء ظهورهم^(٤) ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ أي أخذنا من اليهود العهد المؤكد على الإيمان بالله
ورسوله قال في البحر : هذا إخبار بما صدر من أسلاف اليهود من نقض الميثاق الذي أخذه تعالى عليهم وما
اجترحوه من الجرائم العظام من تكذيب الأنبياء وقتل بعضهم ، وهؤلاء أخلاف أولئك فغير بدع ما يصدر منهم
للسول من الأذى والعصيان إذ ذاك شنيئة من أسلافهم^(٥) ﴿وارسلنا إليهم رسلاً﴾ أي أرسلنا لهم
الرسول ليرشدوهم ويبينوا لهم أمر الدين ﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم﴾ أي كلما جاءهم رسول
من أولئك الرسل بما يخالف أهواءهم وشهواتهم ﴿فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾ أي كذبوا طائفة من
الرسول يقتلون طائفة أخرى منهم قال البيضاوي : وإنما جيء بـ « وقتلوا » موضع « قتلوا » على حكاية
الحال الماضية استحضاراً لها واستفظاعاً للقتل وتبهيها على أن ذلك من ديدنهم ماضياً ومستقبلاً ومحافظاً على
رءوس الآي^(٦) ﴿وحسبوا أن لا تكون فتنة﴾ أي وظن بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء

(١) الطبري ٤٧٤/١٠ . (٢) القرطبي ٢٤٥/٦ . (٣) الطبري ٤٧٦/١٠ . (٤) مختصر ابن كثير ٥٣٥/١ . (٥) البحر ٥٣١/٣ .

(٦) البيضاوي ص ١٥٧ .

اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ
 ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ ابْنُ إِسْرَائِيلَ عَبْدُ اللَّهِ رَبِّي وَرَبُّكُمْ إِنَّهُ مِنْ يُسْرِكَ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ
 وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ
 وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ
 وَتَكْذِيبَ الرِّسْلِ اغْتِرَارًا بِإِمْهَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ ﴿فَعَمُوا وَصَمُوا﴾ أي تَمَادَوْا فِي الْغِيِّ وَالْفَسَادِ فَعَمُوا
 عَنْ الْهُدَى وَصَمُوا عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ وَهَذَا عَلَى التَّشْبِيهِ بِالْأَعْمَى وَالْأَصْمَ لِأَنَّهُ لَا يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقِ الرَّشْدِ فِي
 الدِّينِ لِإِعْرَاضِهِ عَنِ النَّظَرِ ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : فِي الْكَلَامِ إِضْهَارٌ أَيْ أُوقِعَتْ بِهِمُ الْفِتْنَةُ
 فَتَابُوا فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ^(١) ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ أَي عَمِيَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَصَمَّ بَعْدَ تَبَيَّنِ الْحَقِّ لَهُ
 ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أَي عَلِيمٌ بِمَا عَمَلُوا وَهَذَا وَعِيدٌ لَهُمْ وَتَهْدِيدٌ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى عَقَائِدَ النَّصَارَى
 الضَّالَّةِ فِي الْمَسِيحِ فَقَالَ ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ قَالَ أَبُو السَّعُودِ : هَذَا
 شُرُوعٌ فِي تَفْصِيلِ قَبَائِحِ النَّصَارَى وَإِبْطَالِ أَقْوَامِهِمُ الْفَاسِدَةِ بَعْدَ تَفْصِيلِ قَبَائِحِ الْيَهُودِ وَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ
 مَرْيَمَ وَلَدَتْ إِبْرَاهِيمَ «الْيَعْقُوبِيَّةُ» زَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَلٌّ فِي ذَاتِ عَيْسَى وَاتَّحَدَ بِهِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ
 عُلُوًّا كَبِيرًا ^(٢) ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أَي أَنَا عَبْدٌ مِثْلَكُمْ فَاعْبُدُوا خَالِقِي
 وَخَالِقَكُمْ الَّذِي يَذَلُّ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَيَخْضَعُ لَهُ كُلُّ مَوْجُودٍ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : كَانَ أَوَّلُ كَلِمَةٍ نَطَقَ بِهَا وَهُوَ صَغِيرٌ أَنَّ
 قَالَ ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : إِنِّي أَنَا اللَّهُ ، وَلَا ابْنُ اللَّهِ بَلْ قَالَ ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ أَنَا فِي الْكِتَابِ وَجَعَلَنِي
 نَبِيًّا﴾ ^(٣) وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ مِمَّا يُقَرُّونَ بِهِ فَقَالَ ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
 اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فَإِذَا كَانَ الْمَسِيحُ يَقُولُ : يَا رَبِّ ، وَيَا إِلَهَ فَكَيْفَ يَدْعُو نَفْسَهُ أَمْ كَيْفَ يَسْأَلُهَا ؟
 هَذَا مَحَالٌ ^(٤) ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ أَي مَنْ يَعْتَقِدُ بِالْوَهْمِ غَيْرَ اللَّهِ فَلَنْ يَدْخُلَ
 الْجَنَّةَ أَبَدًا لِأَنَّهَا دَارُ الْمُوحِدِينَ ﴿وَمَاوَاهُ النَّارُ﴾ أَي مَصِيرُهُ نَارُ جَهَنَّمَ ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أَي فَلَا
 نَاصِرَ وَلَا مُنْقَذَ لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أَي أَحَدُ ثَلَاثَةِ آلِهَةٍ وَهَذَا قَوْلُ
 فِرْقَةٍ مِنَ النَّصَارَى يُسَمُّونَ «النُّسْطُورِيَّةَ وَالْمَلِكَانِيَّةَ» الْقَائِلِينَ بِالتَّثْلِيثِ وَهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ الْإِلَهِيَّةَ مُشْرَكَةٌ بَيْنَ
 اللَّهِ ، وَعَيْسَى ، وَمَرْيَمَ وَكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هؤُلَاءِ إِلَهٌ وَهَذَا اشْتَهَرَ قَوْلُهُمْ «الْأَبُ وَالْإِبْنُ وَرُوحُ الْقُدُسِ» ^(٥)
 ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أَي وَالْحَالُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ مُوصُوفٌ بِالْوَحْدَانِيَّةِ مُتَعَالٍ عَنِ
 الْمِثْلِ وَالنَّظِيرِ ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أَي وَإِنْ لَمْ يَكْفُوا عَنِ الْقَوْلِ بِالتَّثْلِيثِ ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَي لَيَمَسَّنَّهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾

(١) القرطبي ٢٤٨/٦ . (٢) أبو السعود ٤٩/٢ . (٣) ابن كثير ٥٣٦/١ .

(٤) القرطبي ٢٤٩/٦ . (٥) قال السدي : نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار وقال في البحر : يقولون جوهر واحد وثلاثة أقانيم «أب وابن وروح قدس» وهذه الثلاثة إله واحد كما ان الشمس تتناول القرص والشعاع والحجارة وزعموا أن الأب إله والإبن إله والروح إله والكل إله واحد ، وهذا معلوم البطلان ببداهة العقل أن الثلاثة لا تكون واحداً وإن الواحد لا يكون ثلاثة .

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نَبِّينُهُمْ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

الاستفهام للتوبيخ أي أفلا ينتهون عن تلك العقائد الزائفة والأقاويل الباطلة ويستغفرون الله مما نسبوه إليه من الاتحاد والحلول ؟ ﴿والله غفور رحيم﴾ أي يغفر لهم ويرحمهم إن تابوا قال البيضاوي : وفي هذا الاستفهام ﴿أفلا يتوبون﴾ تعجب من إصرارهم على الكفر ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل﴾ أي ما المسيح إلا رسولٌ كالرسل الخالية الذين تقدموه خصه الله تعالى ببعض الآيات الباهرات إظهاراً لصدقه كما خص بعض الرسل ، فإن أحياء الموتى على يده فقد أحيى العصا في يد موسى . وجعلت حية تسعى وهو أعجب ، وإن خلقت من غير أب فقد خلق آدم من غير أب ولا أم وهو أغرب ، وكل ذلك من جنابه عز وجل وإنما موسى وعيسى مظاهر شئونه وأفعاله ﴿وأمه صديقة﴾ أي مبالغة في الصدق ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ أي أنه مخلوق كسائر المخلوقين مركب من عظم ولحم وعروق وأعصاب وفيه إشارة لطيفة إلى أن من يأكل الطعام لا بد أن يكون في حاجة إلى إخراجه ومن يكن هذا حاله فكيف يُعبد ، أو كيف يُتوهم أنه إله ؟ ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات﴾ تعجب من حال الذين يدعون ألوهيته هو وأمه أي أنظر كيف نوضح لهم الآيات الباهرة على بطلان ما اعتقدوه ﴿ثم انظر أتى يؤفكون﴾ أي كيف يُصرفون عن استماع الحق وتأمله بعد هذا البيان مع أنه أوضح من الشمس في رابعة النهار ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً﴾ أي قل يا محمد أتوجهون عبادتكم إلى من لا يقدر لكم على النفع والضر ؟ ﴿والله هو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم وتضمنت الآية الإنكار عليهم حيث عبدوا من هو متصف بالعجز عن دفع ضرر أو جلب نفع ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لا تتجاوزوا الحد في دينكم وتقرطوا كما أفرط أسلافكم فتقولوا عن عيسى إنه إله أو ابن إله قال القرطبي : وغلو اليهود قولهم في عيسى إنه ليس ولد رثدة - أي هو ابن زنا - وغلو النصارى قولهم إنه إله ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ أي لا تتبعوا أسلافكم وأمتكم الذين كانوا على الضلال قبل بعثة النبي ﷺ ﴿وأضلوا كثيراً﴾ أي أضلوا كثيراً من الخلق بإغوائهم لهم ﴿وضلوا عن سواء السبيل﴾ أي ضلوا عن الطريق الواضح المستقيم قال القرطبي : وتكرير ضلوا للإشارة إلى أنهم ضلوا من قبل وضلوا من بعد ، والمراد الأسلاف الذين سنوا

(١) قال في البحر : لما بين تعالى بدليل النقل والعقل انتفاء الألوهية عن عيسى ودعاهم للتوبة وطلب الغفران أنكر عليهم وبوخهم من وجوه آخر وهو عجز عيسى على دفع ضرر وجلب نفع وأن من كان لا يدفع عن نفسه حري أن لا يدفع عنكم ؛ البحر ٣/ ٥٣٨ . (٢) القرطبي

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾
 كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ فَعْلُوهُ لِبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبِئْسَ مَا
 قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا
 أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾

الضلالة وعملوا بها من رؤساء اليهود والنصارى^(١) ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي لعنهم الله عز وجل في الزبور ، والإنجيل قال ابن عباس : لعنوا بكل لسان ، لعنوا على عهد موسى في التوراة ، وعلى عهد داود في الزبور ، وعلى عهد عيسى في الإنجيل وعلى عهد محمد في القرآن^(٢) قال المفسرون : إن اليهود لما اعتدوا في السبت دعا عليهم داود فمسخهم الله قرده ، وأصحاب المائة لما كفروا بعيسى دعا عليهم عيسى فمسخوا خنازير ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي ذلك اللعن بسبب عصيانهم واعتدائهم ، ثم بين تعالى حالهم الشنيع فقال ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن قبيح فعلوه ﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ أي بشئ شيناً فعلوه قال الزمخشري : تعجيب من سوء فعلهم مؤكداً بالقسم فيا حسرتا على المسلمين في إعراضهم عن التناهي عن المنكر كأنه ليس من الإسلام في شيء مع ما يتلون من كتاب الله من المبالغات في هذا الباب^(٣) وقال في البحر : وذلك أنهم جمعوا بين فعل المنكر ، والتجاهر به ، وعدم النهي عنه ، والمعصية إذ أفعلت ينبغي أن يُستتر بها لحديث (من ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر) فإذا فعلت جهاراً وتواطأ الناس على عدم الإنكار كان ذلك تحريضاً على فعلها وسبباً مثيراً لإفشائها وكثرتها^(٤) ﴿ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا﴾ أي ترى كثيراً من اليهود يوالون المشركين بغضاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين والمراد «كعب بن الأشرف» وأصحابه ﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم﴾ أي بشئ ما قدموا من العمل لمعادهم في الآخرة ﴿أن سخط الله عليهم﴾ وهذا هو المخصوص بالذم أي بشئ ما قدموه لآخرتهم سخط الله وغضبه عليهم ﴿وفي العذاب هم خالدون﴾ أي وفي عذاب جهنم مخلدون أبد الأبدين ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء﴾ أي لو كان هؤلاء اليهود يصدقون بالله ونبئهم وما جاءهم من الكتاب ما اتخذوا المشركين أولياء ﴿ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ أي ولكن أكثرهم خارجون عن الإيمان وطاعة الله عز وجل .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿لستم على شيء﴾ في هذا التعبير من التحقير والتصغير ما لا غاية وراءه^(٥) .
 ٢ - ﴿وما أنزل إليكم من ربكم﴾ أضاف الاسم الجليل إليهم تليفاً معهم في الدعوة .
 ٣ - ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾ لم يقل عليهم وإنما وضع الظاهر مكان الضمير للتسجيل

(١) القرطبي ٦/٢٥٢ . (٢) البحر ٣/٥٣٩ . (٣) الكشاف ١/٥١٩ . (٤) البحر ٣/٥٤٠ . (٥) أبو السعود ٢/٤٦ .

عليهم بالرسوخ في الكفر .

٤ - ﴿والله بصير بما يعملون﴾ صيغة المضارع بدل الماضي ﴿بما عملوا﴾ لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها الفظيعة ومراعاةً لرءوس الآيات .

٥ - ﴿فقد حرم الله عليه الجنة﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتحويل الأمر وترتبة المهابة .

٦ - الاستعارة ﴿فعموا وطموا﴾ استعار العمى والصمم للإعراض عن الهداية والإيمان

٧ - ﴿انظر كيف نبين﴾ ثم انظر أتى يؤفكون﴾ قال أبو السعود : تكرير الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب ولفظ «ثم» لإظهار ما بين العجبين من التفاوت أي إن بياننا للآيات أمرٌ بديع بالغ أقصى الغايات من الوضوح والتحقيق وإعراضهم عنها أعجب وأبدع^(١) .

٨ - ﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ تقبيحٌ لسوء أعمالهم وتعجيبٌ منه بالتوكيد مع القسم .

الفوائد : قال بعض المحققين في قوله تعالى ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً﴾ إذا كان هذا في حق عيسى النبي فما ظنك بولي من الأولياء هل يملك لهم نفعاً أو ضرراً ؟ !

تنبية : قال ابن كثير : دلت الآية ﴿وأمة صديقة﴾ على أن مريم ليست بنبيّة كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة «سارة» ونبوة «أم موسى» استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم﴾ وحكى الأشعري الإجماع على ذلك^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود . . إلى . . واتقوا الله الذي إليه تُحشرون﴾

المناسبة : لما ذكر تعالى أحوال اليهود والنصارى وما هم عليه من الزيغ والضلال ، ذكر هنا أن اليهود في غاية العداوة للمسلمين ، ولذلك جعلهم قرناء للمشركين في شدة العداوة ، وذكر أن النصارى ألين عريكة من اليهود وأقرب إلى المسلمين منهم ، ثم لما استقصى المناظرة مع أهل الكتاب عاد إلى بيان الأحكام الشرعية فذكر منها كفارة اليمين ، وتحريم الخمر والميسر ، وجزاء قتل الصيد في حالة الإحرام .

اللغة : ﴿قسيسين﴾ القيسُ والقسيسُ اسم لرئيس النصارى ومعناه العالم ﴿رهباناً﴾ جمع راهب وأصله من الرهبة بمعنى المخافة ، والرهبانية والترهب التعب في الصومعة^(٣) ﴿تفيض﴾ الفيض أن يمتلئ الإناء ويسيل من شدة الامتلاء يقال : فاض الماء وفاض الدمع قال الشاعر :

ففاضت دموع العين مني صباباً
على النحر حتى بلّ دمعى محملي

(١) أبو السعود ٥٠/٢ . (٢) ابن كثير ٥٣٧/١ . (٣) القرطبي ٢٥٨/٦ .

* لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا^ط وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ^ج ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾

﴿رجس﴾ قال الزجاج : الرجس اسم لكل ما استقدر من عمل ويقال للعدرة والأقذار رجس لأنها قذارة ونجاسة ﴿الجحيم﴾ النار الشديدة الاتقاد ﴿الصيد﴾ كل ما يصطاد من حيوانٍ وطيْرٍ وغيره فالصيد يطلق على المصيد قال الشاعر :

صيدُ الملوكِ أرانبٌ وثعالبٌ
وإذا ركبْتُ فصيديَ الأبطالِ

سَبَبُ النَّزُولِ : أ - عن ابن عباس أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : إني إذا أكلت هذا اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوتي وإني حرّمت عليّ اللحم فأنزل الله : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحلّ الله لكم﴾^(١) الآية .

ب - عن أنس قال : كنت ساقى القوم يوم حرّمت الخمر في بيت « أبي طلحة » وما شراهم إلا الفضيخ والبسر والتمر ، وإذا منادٍ ينادي إن الخمر قد حرّمت قال : فأريقت في سكك المدينة فقال أبو طلحة إذ ذهب فأهرقها فقال بعض القوم قُتل قومٌ وهي في بطونهم فأنزل الله ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طعموا﴾^(٢) .

التفسير : ﴿لتجدنَّ أشدَّ الناسِ عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا﴾ اللام للقسام أي قسماً لتجدنَّ يا محمد اليهود والمشركين أشدَّ الناسِ عداوةً للمؤمنين ﴿ولتجدنَّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ نزلت في النجاشي ملك الحبشة وأصحابه قال الزمخشري : وصف الله شدة شكيمة اليهود وصعوبة إيجابتهم إلى الحق ، ولين عريكة النصارى وسهولة ميلهم إلى الإسلام ، وجعل اليهود قراء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين بل نبه على زيادة عداوتهم بتقديمهم على الذين أشركوا^(٣) ﴿ذلك بأنَّ منهم قسّيسين ورهباناً﴾ تعليل لقرب مودتهم أي كونهم أقرب مودة بسبب أن منهم علماء وعُباداً ﴿وأنهم لا يستكبرون﴾ أي يتواضعون لوداعتهم ولا يتكبرون كاليهود قال البيضاوي : وفيه دليلٌ على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات ، محمودٌ وإن كان من كافر^(٤) ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول﴾ أي إذا سمعوا القرآن المنزّل على محمد رسول الله ﴿ترى أعينهم تفيض من الدمع﴾ أي فاضت أعينهم بالدمع من خشية الله لرقه قلوبهم وتأثرهم بكلام الله الجليل ﴿مما عرفوا من الحق﴾ أي من أجل معرفتهم أنه كلام الله وأنه حق ﴿يقولون ربنا آمنّا﴾ أي يقولون يا ربنا صدقنا بنبيك وكتابك ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أي مع أمة محمد عليه السلام الذين يشهدون على الأمم يوم القيامة قال ابن

(١) أسباب النزول ١١٧ والقرطبي ٦/ ٢٦٠. (٢) القرطبي ٦/ ٢٩٣ وأسباب النزول ١٢٠. (٣) الكشاف ١/ ٥٢١. (٤) البيضاوي ص ١٥٩.

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثْنَاهُمْ اللَّهُ
بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِعَايِنَتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾
لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمْ مِنَ الْأَيْمَانِ فَكَفَرْتُمْ بِهَا بِطَنٍ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ

عباس : نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه الذين حين تلا عليهم « جعفر بن أبي طالب » بالحبشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم^(١) ﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق﴾ أي ما الذي يمنعنا عن الإيمان ويصدنا عن اتباع الحق وقد لاح لنا الصواب وظهر الحق المنير؟ قالوا ذلك في جواب من عيرهم بالإسلام من اليهود قال في البحر : هذا إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان منهم مع قيام موجه وهو عرفان الحق^(٢) ﴿ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ أي والحال أننا نطمع أن يدخلنا ربنا الجنة بصحبة الصالحين من عباده الأبرار ﴿فأثناهم الله بما قالوا﴾ أي جازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي ماكين فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿وذلك جزاء المحسنين﴾ أي ذلك الأجر والثواب جزاء من أحسن عمله وأصلح نيته ، ثم أخبر تعالى عن حال الأشقياء فقال ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ أي جحدوا بآيات الله وأنكروا نبوة محمد ﷺ فهم أهل الجحيم المعذبون فيها قال أبو السعود : وذكرهم بمقابلة المصدقين بآيات الله جمعاً بين الترغيب والترهيب^(٣) ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ روى الطبري عن عكرمة قال : كان أناس من أصحاب النبي ﷺ هموا بالخِصاء وترك اللحم والنساء فنزلت هذه الآية^(٤) أي لا تمنعوا أنفسكم تلك اللذائذ وتقولوا حرمانها على أنفسنا مبالغة في تركها وتقشفاً وتزهداً ﴿ولا تعتدوا﴾ أي ولا تتعدوا حدود ما أحل الله لكم بتجاوز الحلال إلى الحرام ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ أي يبغض المتجاوزين الحد ، والإسلام يدعو إلى القصد بدون إفراط أو تفريط ولهذا قال ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ أي كلوا ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله قال في التسهيل : أي تمتعوا بالمأكل الحلال وبالنساء وغير ذلك ، وإنما خص الأكل بالذكر لأنه أعظم حاجات الإنسان^(٥) ﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ هذا استدعاء إلى التقوى بألطف الوجوه كأنه يقول : لا تضيعوا إيمانكم بالتقصير في طاعة الله عز وجل فتكون عليكم الحسرة العظمى فإن الإيمان بالله تعالى يوجب المبالغة في تقوى الله ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ أي لا يؤاخذكم بما يسبق إليه اللسان من غير قصد الحلف كقولكم لا والله ،

(١) ابن كثير ١/٥٣٩ (٢) البحر ٤/٦ . (٣) أبو السعود ٢/٥٥ . (٤) الطبري ، ١/٥١٤ . (٥) التسهيل ص ١٨٦ .

مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتَهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَلِكَ كَفَّارَةٌ لِأَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۚ

وبلى والله ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ أي ولكن يؤاخذكم بما وثقتم الأيمان عليه بالقصد والنية إذا حنثتم ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ أي كفارة اليمين عند الحنث أن تطعموا عشرة مساكين من الطعام الوسط الذي تطعمون منه أهليكم قال ابن عباس : أي من أعدل ما تطعمون أهليكم وقال ابن عمر : الأوسط الخبز والتمر ، والخبز والزبيب ، وخير ما نطعم أهلينا الخبز واللحم^(١) ﴿أو كسوتهم﴾ أي كسوة المساكين لكل مسكين ثوبٌ يستر البدن ﴿أو تحرير رقبة﴾ أي إعتاق عبد مملوك لوجه الله قال في البحر : وأجمع العلماء على أن الحانث مُحَيَّرٌ بين الإطعام والكسوة والعتق^(٢) ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام﴾ أي فمن لم يجد شيئاً من الأمور المذكورة فكفارته صيام ثلاثة أيام^(٣) ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتُمْ﴾ أي هذه كفارة اليمين الشرعية عند الحنث ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ أي احفظوها عن الابتذال ولا تحلفوا إلا للضرورة قال ابن عباس : أي لا تحلفوا وقال ابن جرير : أي لا تركوها بغير تكفير ﴿كذلك يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي مثل ذلك التبيين يبين الله لكم الأحكام الشرعية ويوضحها لتشكروه على هدايته وتوفيقه لكم ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾ قال ابن عباس : الخمر جميع الأشربة التي تُسَكَّرُ ، والميسر القمار كانوا يتقمارون به في الجاهلية ﴿والأنصاب والأزلام﴾ أي الأصنام المنصوبة للعبادة والأقداح التي كانت عند سدنة البيت وخدام الأصنام قال ابن عباس ومجاهد : الأنصاب حجارة كانوا يذبحون قرايبنهم عندها والأزلام : قدام كانوا يستقسمون بها^(٤) ﴿رجسٌ من عمل الشيطان﴾ أي قدر ونجسٌ تعافه العقول ، وخبيثٌ مستقذر من تزوين الشيطان ﴿فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ أي اتركوه وكونوا في جانب آخر بعيدين عن هذه القاذورات لتفوزوا بالثواب العظيم ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾ أي ما يريد الشيطان بهذه الرذائل إلا إيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين في شربهم الخمر ولعبهم بالقمار ﴿ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة﴾ أي ويمنعكم بالخمر والميسر عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم وعن الصلاة التي هي عماد دينكم قال أبو حيان : ذكر تعالى في الخمر والميسر مفسدتين : إحداها دنيوية ، والأخرى دينية ، فأما الدنيوية فإن الخمر تثير الشرور والأحقاد وتثول بشارها إلى التقاطع ، وأما الميسر فإن الرجل لا

(١) ابن كثير ١/٥٤٣ . (٢) البحر ٤/١١ . (٣) شرط الاحناف والحنابلة التابع في الأيام وقال الشافعي ومالك لا يجب التابع واختار الطبري أنه كيفما صامهن مفرقة أو متتابعة أجزاءه كذا في الطبري ١٠/٥٦٢ . (٤) البحر المحيط ٤/١٤ .

فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا ءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ ءَأَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾

يزال يقامر حتى يبقى سليباً لا شيء له وينتهي إلى أن يقامر حتى على أهله وولده ، وأما الدينية فالخمر لغلبة السرور والطرب بها تلهي عن ذكر الله وعن الصلاة ، والميسر - سواء كان غالباً أو مغلوباً - يلهي عن ذكر الله (١) ﴿فهل أنتم منتهون﴾ الصيغة للاستفهام ومعناه الأمر أي انتهوا ولذلك قال عمر : انتهينا ربنا انتهينا قال في البحر : وهذا الاستفهام من أبلغ ما ينهى به كأنه قيل : قد تئي عليكم ما فيهما من المفسد التي توجب الانتهاء فهل أنتم منتهون أم باقون على حالكم (٢) ؟ ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله واحذروا مخالفتها ﴿فإن توليتم﴾ أي عرضتم ولم تعملوا بأمر الله ورسوله ﴿فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ أي ليس عليه هدايتكم وإنما عليه تبليغكم الرسالة وجزاؤكم علينا قال الطبري : وهذا من الله وعيد لمن تولى عن أمره ونهيه يقول تعالى ذكره لهم : فإن توليتم عن أمري ونهي فتوقعوا عقابي واحذروا سخطي (٣) وقال أبو حيان : وفي هذا من الوعيد البالغ ما لا خفاء به إذ تضمن أن عقابكم إنما يتولاه المرسل لا الرسول (٤) ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنح فيما طعموا﴾ قال ابن عباس : لما نزل تحريم الخمر قال قوم كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر فنزلت فأخبر تعالى أن الإثم والذم إنما يتعلق بفعل المعاصي والذين ماتوا قبل التحريم ليسوا بعاصين ﴿إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي ليس عليهم جنح فيما تناولوه من المأكول والمشروب إذا اتقوا المحرم وثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة ﴿ثم اتقوا وآمنوا﴾ أي اتقوا المحرم وآمنوا بتحريمه بمعنى اجتنبوا ما حرمه الله معتقدين حرمة ﴿ثم اتقوا وأحسنوا﴾ أي ثم استمروا على تقوى الله واجتتاب المحارم وعملوا الأعمال الحسنة التي تقر بهم من الله ﴿والله يحب المحسنين﴾ أي يحب المتقربين إليه بالأعمال الصالحة قال في التسهيل : كرر التقوى مبالغة وقيل : الرتبة الأولى : إتقاء الشرك ، والثانية : إتقاء المعاصي ، والثالثة : إتقاء ما لا بأس به حذراً مما به البأس (٥) ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلوتكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم﴾ أي ليختبرنكم الله في حال إحرامكم بالحج أو العمرة بشيء من الصيد تنال صغاره الأيدي وكباره الرماح قال البيضاوي : نزل في عام الحديبية ابتلاهم الله سبحانه وتعالى : بالصيد وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعنأ برماحهم وهم محرمون (٦) قال في البحر : وكان الصيد مما تعيش به العرب وتتلذذ باقتناصه ولهم فيه الأشعار والأوصاف الحسنة (٧) ﴿ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾

(١) (٢) البحر المحيط ١٥/٤ . (٣) الطبري ١٠/٥٧٥ . (٤) البحر ١٥/٤ .

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل ١٨٧/١ . (٦) البيضاوي ص ١٦٠ . (٧) البحر ١٦/٤ .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ بِحُرْمِ
 بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مَنكُمْ هَدِيًّا بَلَغَ الْكَعْبَةَ أَوْ كَفَّارَةً طَعَامٍ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ
 وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿١٥﴾ أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ
 الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٦﴾

أي لتمييز الخائف من الله بطريق الغيب لقوة إيمانه من لا يخاف الله لضعف إيمانه ﴿فمن اعتدى بعد ذلك
 فله عذاب أليم﴾ أي فمن تعرّض للصيد بعد هذا الإعلام والإنذار فله عذاب مؤلم موجه ﴿يا أيها
 الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ أي لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحجج أو عمرة ﴿ومن قتله منكم
 متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ أي من قتل الصيد في حالة الإحرام فعليه جزاء مماثل ما قتل من النعم
 وهي الإبل والبقر والغنم ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ أي يحكم بالمثل حكمان عادلان من المسلمين
 ﴿هدياً بالغ الكعبة﴾ أي حال كونه هدياً يُنحر ويُتصدق به على مساكينه فإن لم يكن للصيد مثل من النعم
 كالعصفور والجراد فعليه قيمته ﴿أو كفارة طعام مساكين﴾ أي وإذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم
 فيقوم الصيد المقتول ثم يشتري به طعاماً فيصرف لكل مسكين مد منه ﴿أو عدل ذلك صياماً ليدوق وبال
 أمره﴾ أي عليه مثل ذلك الطعام صياماً يصومه عن كل مد يوماً ليدوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام قال
 في التسهيل : عدد تعالى ما يجب في قتل المحرم للصيد ، فذكر أولاً الجزاء من النعم ، ثم الطعام ، ثم
 الصيام ومذهب مالك والجمهور أنها على التخير وهو الذي يقتضيه العطف بـ « أو » وعن ابن عباس أنها
 على الترتيب ^(١) ﴿عفا الله عما سلف﴾ أي من قتل الصيد قبل التحريم ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾ أي
 ومن عاد إلى قتل الصيد وهو محرم فينتقم الله منه في الآخرة ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾ أي غالب على أمره
 منتقم ممن عصاه ﴿أحل لكم صيد البحر﴾ أي أحل لكم أيها الناس صيد البحر سواء كنتم محرمين أو غير
 محرمين ﴿وطعامه متاعاً لكم وللسيارة﴾ أي وما يُطعم من صيده كالسمك وغيره منفعة وقوتاً لكم وزاداً
 للمسافرين يتزودونه في أسفارهم ﴿وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً﴾ أي وحرم عليكم صيد البر ما
 دمتم محرمين ﴿واتقوا الله الذي إليه تُحشرون﴾ أي خافوا الله الذي تبعثون إليه يوم القيامة فيجازيكم
 على أعمالكم وهو وعيد وتهديد .

البَلَاغَةُ : ١ - بين لفظ ﴿عداوة .. ومودة﴾ طباق وهو من المحسنات البديعية .

٢ - ﴿نفيض من الدمع﴾ أي تمتلئ بالدمع فاستعير له الفيض الذي هو الانصباب

عن امتلاء مبالغة أو جعلت أعينهم من فرط البكاء تفيض بأنفسها^(١) .

٣ - ﴿تحرير رقبة﴾ مجاز مرسل أطلق الجزء وأراد الكل أي عتق إنسان .

٤ - ﴿فهل أنتم متتهون﴾ الاستفهام يراد به الأمر أي انتهوا وهو من أبلغ ما يُنهى به قال أبو السعود : ولقد أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية الكريمة بفنون التأكيد حيث صُدّرت الجملة بـ «إنما» وقرنا بالأصنام والأزلام ، وسُمّي رجساً من عمل الشيطان ، وأمر بالاجتناب عن عينها وجعل ذلك سبباً للفلاح ، ثم ذكر ما فيها من المفاصد الدنيوية والدينية ، ثم أعيد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام ﴿فهل أنتم متتهون﴾ إيداناً بأن الأمر في الزجر والتحذير قد بلغ الغاية القصوى^(٢) .

فكائِدَة : التعبير بقوله تعالى ﴿فاجتنبوه﴾ نصٌّ في التحريم ولكنه أبلغ في النهي والتحريم من لفظ «حُرْم» لأن معناه البعد عنه بالكلية فهو مثل قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنى﴾ لأن القرب منه إذا كان حراماً فيكون الفعل محرماً من باب أولى وكذلك هنا .

تنبية : لم يذكر في القرآن الكريم تعليل الأحكام الشرعية إلا بالإنجاز أما هنا فقد ذكرت العلة بالتفصيل فذكر تعالى منها إلقاء العداوة والبغضاء بين المؤمنين ، والصدّ عن سبيل الله وذكره ، وشغل المؤمنين عن الصلاة ، ووصف الخمر والميسر بأنهما رجس وأنها من عمل الشيطان وأن الشيطان يريد إغواء الإنسان وكل ذلك ليشير إلى ضرر وخطر هاتين الرذيلتين « القمار والخمر » فتدبر أسرار القرآن العظيم^(٣) .

قال الله تعالى: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس . . إلى قوله.. والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ .

من آية (٩٧) إلى نهاية آية (١٠٨) .

المناسكَة : لما ذكر تعالى في الآية المتقدمة أن الصيد على المحرم حرام ، ونهى عن قتل الطير والوحش في حالة الإحرام ، ذكر تعالى في هذه الآية أنه جعل الكعبة قياماً للناس إذ ركز في قلوبهم تعظيمها بحيث لا يقع فيها أذى لأحد ، فكما أن الحرم سبب لأمن الوحش والطير فكذلك هو سبب لأمن الناس عن الآفات والمخافات ، وسبب لحصول الخيرات والسعادات في الدنيا والآخرة .

اللغز : ﴿البحيرة﴾ من البحر وهو الشق قال أبو عبيدة : وهي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن في آخرها ذكر شقوا أذنها وخلّوا سبيلها فلا تُركب ولا تُحلب^(٤) ﴿السائبة﴾ البعير يسيب بنذرٍ ونحوه ﴿وصيلة﴾ الوصلة من الغنم كانوا إذا وكدت الشاة سبعة أبطن وكان السابع ذكراً وأثنى قالوا قد وصلت

(١) انظر حاشية الكشاف / ١ / ٥٢١ . (٢) أبو السعود ٢ / ٥٦ . (٣) روائع البيان ١ / ٥٦٢ . (٤) البحر ٤ / ٢٨ .

اخاها فلم تُذبح^(١) ﴿حام﴾ : الفحل إذا نتج من صلبه عشرة أبطن يقال قد حمى ظهره فلا يُركب ولا يمنع من كلاً ولا ماء ﴿عثر﴾ ظهر يقال : عثرت منه على خيانة أي اطلعت وظهرت لي ﴿الأوليان﴾ ثنية أولى بمعنى أحق .

سَبَبُ النُّزُولِ : أ - عن ابن عباس قال : كان قومٌ يسألون النبي ﷺ استهزاء فيقول الرجل : من أبي ؟ ويقول الرجل تضل ناقته : أين ناقتي فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . . . الآية^(٢) .

ب - وعن ابن عباس قال : كان تميم الداري وعدي بن بداء يختلفان إلى مكة فخرج معهما فتى من « بني سهم » فتوفي بأرض ليس بها مسلم ، فأوصى إليها فدفعها تركته إلى أهله وحبسها جاماً من فضة مخصوصاً بالذهب ، فاستحلفها رسول الله ﷺ ما كنتم ولا اطلعتا !! ثم وجد الجام بمكة فقالوا : اشتريناه من عدي و تميم فجاء رجلان من ورثة السهمي فحلفا أن هذا الجام للسهمي ولشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا فأخذوا الجام وفيهم نزلت هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم . . . الآية^(٣) .

* جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي

النَّفْسِيرُ : ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾ أي جعل الله الكعبة المشرفة وهي البيت المحرم صلاحاً ومعاشاً للناس لقيام أمر دينهم ودنياهم إذ هو سبب لانتعاشهم في أمور معاشهم ومعادهم ، يلوذ به الخائف ، ويأمن فيه الضعيف ، ويربح فيه التجار ، ويتوجه إليه الحجاج والعمار ﴿والشهر الحرام﴾ أي الأشهر الحرم « ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب » قياماً لهم لأنهم القتال فيها ﴿والهدي والقلائد﴾ أي الهدى الذي يهدى للحرم من الأنعام ، والبُدن ذوات القلائد التي تُقلد من شجر الحرم لتأمن هي وأصحابها جعلها الله أيضاً قياماً للناس ﴿ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾ أي جعل هذه الحرمة للبيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد لتعلموا أيها الناس أن الله يعلم تفاصيل أمور السموات والأرض ويعلم مصالحكم لذلك جعل الحرم آمناً يسكن فيه كل شيء ، فانظروا لطفه بالعباد مع كفرهم وضلالهم ﴿إعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم﴾ أي اعلموا أيها الناس أن الله شديد العقاب لمن عصاه وأنه غفور رحيم لمن تاب وأطاع وأتاب ، فلا تُيسنكم نعمته ولا تُطمعنكم رحمته ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ أي ليس على الرسول إلا أداء الرسالة

الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠١﴾
يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْءَانُ
تُبَدَّلْكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا

كٰفِرِينَ ﴿١٠٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِّن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَا كِنٍّ الَّذِينَ كَفَرُوا

وتبليغ الشريعة وقد بلغ ما وجب عليه فلا عذر لأحد في التفريط ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأعمالكم وسيجازيكم عليها قال أبو حيان : الجملة فيها تهديد إذ أخبر تعالى أنه مطلع على حال العبد ظاهراً وباطناً فهو مجازيه على ذلك ثواباً أو عقاباً ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ أي قل يا محمد لا يتساوى الخبيث والطيب ولو أعجبك أيها السامع كثرة الخبيث وهو مثل ضربه الله للتمييز بين الحلال والحرام ، والمطيع والعاصي ، والرديء والجيد قال القرطبي : اللفظ عام في جميع الأمور يتصور في المكاسب ، والأعمال ، والناس ، والمعارف من العلوم وغيرها ، فالخبيث من هذا كله لا يفلح ولا يُنجب ولا يُحسن له عاقبة وإن كثر ، والطيب - وإن قل - نافع حميد جميل العاقبة (١) وقال أبو حيان : الظاهر أن الخبيث والطيب عامان فيندرج تحتها المال وحرامه ، وصالح العمل وفاسده ، وجيد الناس ورديتهم ، وصحيح العقائد وفاسدها ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً﴾ (٢) ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون﴾ أي فاتقوا الله بامثال أوامره واجتناب نواهيه يا ذوي العقول لتفلحوا وتفوزوا برضوان الله والنعيم المقيم ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ أي لا تسألوا الرسول عن أمور لا حاجة لكم بها إن طهرت لكم ساءتكم قال الزمخشري : أي لا تكثروا مسألة رسول الله ﷺ حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم إن أفتاكمم بها وكلفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها (٤) ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ أي وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان نزول الوحي تظهر لكم تلك التكاليف التي تسؤكم فلا تسألوا عنها (٥) ﴿عفا الله عنها﴾ أي عفا الله عن مسائلكم السالفة التي لا ضرورة لها وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية فلا تعودوا إلى مثلها ﴿والله غفور حلِيم﴾ أي واسع المغفرة عظيم الفضل والإحسان ولذلك عفا عنكم ولم يعاجلكم بالعقوبة ﴿قد سأها قوم من قبلكم﴾ أي سأل أمثال هذه المسائل قوم قبلكم فلما أعطوها وفرضت عليهم كفروا بها ولهذا قال ﴿ثم أصبحوا بها كافرين﴾ أي صاروا بتركهم العمل بها كافرين وذلك أن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء فإذا أمروا بها تركوها فهلكوا ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾ كان أهل الجاهلية إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها

(١) البحر ٤/٢٧ . (٢) القرطبي ٦/٣٢٧ . (٣) البحر ٤/٢٧ . (٤) الكشاف ١/٥٣٣ (٥) وقال ابن عباس في تفسير الآية : لا تسألوا عن أشياء في ضمن الإخبار عنها مساءة لكم إما لتكليف شرعي يلزمكم ، وإما لخبر يسوءكم مثل الذي قال أين أبي ؟ ولكن إذا نزل القرآن بشيء وابتدأكم ربكم بأمرفحيثئذ إن سألتهم عن بيانه بين لكم وأبدى . نقلاً عن البحر المحيط ٤/٣١ .

يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٥٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٥٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِينْدِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَتْسَانٍ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ

ذكر بحروا أذنها أي شقوها وحرموها ركوبها وهي البحيرة ، وكان الرجل يقول : إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة ، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها ، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لأهنتهم وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها وهي الوصيلة ، وإذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره وهو الحام ، فلما جاء الإسلام أبطل هذه العادات كلها فلا بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ أي ولكن الذين كفروا بالله يختلقون الكذب على الله وينسبون التحريم إليه فيقولون الله أمرنا بهذا وأكثرهم لا يعقلون أن هذا افتراء لأنهم يقلدون فيه الآباء ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾ أي وإذا قيل هؤلاء الضالين هلموا إلى حكم الله ورسوله فيما حللتكم وحرمتكم ﴿قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ أي يكفينا دين آبائنا ﴿أولو كانوا آبائهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ الهمة للإنكار والغرض التوبيخ أي أيتبعون آباءهم فيما هم عليه من الضلال ولو كانوا لا يعلمون شيئاً من الدين ولا يهتدون إلى الحق ؟ ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ أي احفظوها عن ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب والزموا إصلاحها ﴿لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم﴾ أي لا يضركم ضلال من ضلَّ من الناس إذا كنتم مهتدين قال الزمخشري : كان المسلمون تذهب أنفسهم حسرة على الكفرة يتمنون دخولهم في الإسلام فقليل هم عليكم أنفسكم بإصلاحها والمشئي بها في طرق الهدى لا يضركم الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين كما قال تعالى لنبية ﷺ ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾^(١) وقال أبو السعود : ولا يتوهمن أحدٌ أن في الآية رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن من جملة الاهتداء أن ينكر وقد روي أن الصديق قال يوماً على المنبر : أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها غير موضعها وإني سمعت رسول الله ﷺ قال : إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه عمهم الله بعقابه^(٢) ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ أي مصيركم ومصير جميع الخلائق إلى الله ﴿فبينكم بما كنتم تعملون﴾ أي فيجازيكم بأعمالكم قال البيضاوي : هذا وعدٌ ووعدٌ للفريقين ، وتنبية على أن أحداً لا يؤخذ بذنوب غيره ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية﴾ أي يا أيها المؤمنون إذا شارف أحدكم على الموت

(١) الكشاف ١/٥٣٤

(٢) أبو السعود ٢/٦٥ ويؤيده حديث (اتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطعاً ، وهوىً متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك) أخرجه الحاكم .

ءَاخِرَانَ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ
فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ آرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْأَثِمِينَ ﴿٦٦﴾
فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخِرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ
لَشَهِدْتَنَّا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتِيهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٧﴾ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ
وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمِعُوا وَأَلَلَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦٨﴾

وظهرت علائمه فينبغي أن يشهد على وصيته ﴿اثنان ذوا عدلٍ منكم أو آخران من غيركم﴾ أي يشهد على الوصية شخصين عدلين من المسلمين أو اثنان من غير المسلمين إن لم تجدوا شاهدين منكم ﴿إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت﴾ أي إن أنتم سافرتم فقاربكم الأجل ونزل بكم الموت ﴿تحبسونهما من بعد الصلاة﴾ أي توقفونها من بعد صلاة العصر لأنه وقت اجتماع الناس وكذا فعل رسول الله ﷺ استحلف عدياً وتمياً بعد العصر عند المنبر ﴿فيقسمان بالله إن ارتبتم﴾ أي يحلفان بالله إن شككتم وارتبتم في شهادتهما قال أبو السعود : أي إن ارتاب بهما الوارث منكم بخيانته وأخذ شيء من التركة فاحبسوها وحلفوها بالله ﴿لا نشترى به ثمنًا ولو كان ذا قربى﴾ أي يحلفان بالله قائلين : لا نحابي بشهادتنا أحداً ولا نستبدل بالقسم بالله عرضاً من الدنيا أي لا نحلف بالله كاذبين من أجل المال ولو كان من نُقسم له قريباً لنا ﴿ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين﴾ أي ولا نكتم الشهادة التي أمرنا الله تعالى بإقامتها إنا إن فعلنا ذلك كنا من الآثمين ﴿فإن عثر على أنهما استحقا إثماً﴾ أي فإن أطلع بعد حلفها على خيانتها أو كذبها في الشهادة ﴿فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان﴾ أي فرجلان آخران من الورثة المستحقين للتركة يقومان مقام الشاهدين الخائنين وليكونا من أولى من يستحق الميراث ﴿فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما﴾ أي يحلفان بالله لشهادتنا أصدق وأولى بالسمع والاعتبار من شهادتهما لأنها خانا ﴿وما اعتدنا إنا إذا لمن الظالمين﴾ أي وما اعتدنا فيما قلنا فيها من الخيانة إنا إذا كذبنا عليهم نكون من الظالمين ﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ أي ذلك الحكم أقرب أن يأتوا بالشهادة على حقيقتها من غير تغيير ولا تبديل ﴿أو يخافوا أن تُردَّ أيمانٌ بعد أيمانهم﴾ أي يخافوا أن يحلف غيرهم بعدهم فيفتضحوا ﴿واتقوا الله واسمعوا﴾ أي خافوا ربكم وأطيعوا أمره ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي والله لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى جنته ورحمته .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿الهدى والقلائد﴾ عطفُ القلائد على الهدى من عطف الخاص على العام، خصت

بالذكر لأن الثواب فيها أكثر، وبهاء الحج بها أظهر .

٢ - ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾ أطلق المصدر البلاغ وأراد به التبليغ للمبالغة .

٣ - ﴿ الخبيث والطيب ﴾ بينهما طباق ، وبين ﴿ أصابتمكم مصيبة ﴾ جناس الاشتقاق وكلاهما من المحسنات البديعية .

٤ - ﴿ شهادة بينكم ﴾ جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى يراد منها الأمر أي ليشهد بينكم .

الفوائد : قال الإمام الشاطبي : الإكثار من الأسئلة مذموم وله مواضع نذكر منها عشرة :
أحدها : السؤال عما لا ينفع في الدين كسؤال بعضهم : من أبي ؟

ثانيها : أن يسأل ما يزيد عن الحاجة كسؤال الرجل عن الحج : أكل عام ؟

ثالثها : السؤال من غير احتياج إليه في الوقت ويدل عليه : « ذروني ما تركتكم » .

رابعها : أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها كما جاء في النهي عن الأغلوطات .

خامسها : أن يسأل عن علة الحكم في التبعيدات كالسؤال عن قضاء الصوم للحائض دون الصلاة .

سادسها : أن يبلغ بالسؤال حدّ التكلف والتعمق كسؤال بني إسرائيل عن البقرة وما هي وما لونها ؟

سابعها : أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأي ولذلك قال سعيد : أعراقي أنت ؟

ثامنها : السؤال عن التشابهات ومن ذلك سؤال مالك عن الاستواء فقال : الاستواء معلوم .. الخ .

تاسعها : السؤال عما حصل بين السلف وقد قال عمر بن عبد العزيز : تلك دماء كف الله عنها يدي فلا ألتخ بها لساني .

عاشرها : سؤال التعنت والإفحام وطلب الغلبة في الخصام ففي الحديث : أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم^(١) .

قال الله تعالى : ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ... إلى آخر السورة الكريمة ﴾ .

من آية (١٠٨) إلى نهاية آية (١٢٠) .

المناسكة : لما ذكر تعالى الوصية عند دنو الأجل وأمر بتقوى الله والسمع والطاعة ، أعقبه بذكر اليوم المهول المخيف وهو يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين للجزاء والحساب ، ثم ذكر المعجزات التي أيدها عبده ورسوله « عيسى » ومنها المائدة من السماء ، وختم السورة الكريمة ببراعة السيد المسيح من دعوى الألوهية .

(١) نقلاً عن محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ٢١٧٦ .

* يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ^ط قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٦١﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ
يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا ^ط
وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ^ط وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ
فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ^ط وَتُبْرِئُ الْأَعْمَاهُ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ^ط وَإِذْ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِذْنِي ^ط وَإِذْ كَفَفْتُ

اللفظة: ﴿كففت﴾ منعتُ وصرفتُ ومنه الكفيف لأنه منع الرؤية ﴿أيدتكَ﴾ قويتك مأخوذ من الأيد وهو القوة ﴿أوحيت﴾ الوحي : إلقاء المعنى الى النفس خفية وهو على أقسام : وحي بمعنى الإلهام ووحى بمعنى الإعلام في اليقظة والنام ، ووحى بمعنى إرسال جبريل إلى الرسل عليهم السلام^(١) ﴿مائدة﴾ المائدة : الخوان الذي عليه الطعام أي السفرة فإن لم يكن عليه طعام فليس بمائدة^(٢) ﴿الرقيب﴾ المراقب الشاهد على الأفعال ﴿أبدأ﴾ أي بلا انقطاع .

النفسير: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ أي اذكروا أيها الناس ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة حين يجمع الله الرسل والخلائق للحساب والجزاء ﴿فيقول ماذا أجبتهم﴾ أي ما الذي أجابتكم به أممكم ؟ وما الذي ردّ عليكم قومكم حين دعوتهم الى الإيمان والتوحيد ؟ ﴿قالوا لا علم لنا﴾ أي لا علم لنا الى جنب علمك قال ابن عباس : أي لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا^(٣) ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ أي تعلم ما لا نعلم مما ظهر وبطن قال أبو السعود : وفيه إظهارٌ للشكوى وردّ للأمر إلى علمه تعالى بما لقوا من قومهم من الخطوب وكابدوا من الكروب والتجاء إلى ربهم في الانتقام منهم^(٤) ﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك﴾ قال ابن كثير : يذكر تعالى ما من به على عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام بما أجراه على يديه من المعجزات وخوارق العادات أي اذكر نعمتي عليك في خلقي إياك من أم بلا ذكر وجعلني إياك آية قاطعة على كمال قدرتي ، وعلى والدتك حيث جعلتك برهاناً على براءتها مما اتهمها به الظالمون من الفاحشة^(٥) وقال القرطبي : هذا من صفة يوم القيامة كأنه قال : اذكر يوم يجمع الله الرسل وإذ يقول لعيسى كذا^(٦) وذكر بلفظ الماضي ﴿إذ قال﴾ تقريباً للقيامة لأن ما هو آت قريب ﴿إذ أيدتكَ﴾ بروح القدس ﴿أي حين قويتك بالروح الطاهرة المقدسة « جبريل » عليه السلام﴾ تكلم الناس في المهدي وكهلاً ﴿أي تكلم الناس في المهدي صبيّاً وفي الكهولة نبياً﴾ وإذ علمتكَ الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴿أي واذكر نعمتي عليك حين علمتكَ الكتابة والحكمة وهي العلم النافع مع التوراة والإنجيل﴾ وإذ تخلق من الطين كهية الطير بإذني ﴿أي واذكر أيضاً حين كنت تصور الطين كصورة الطير﴾

(١) القرطبي ٦/٣٦٣ . (٢) البحر ٤/٣٠ . (٣) القرطبي ٦/٣٦١ قال ابن كثير : وهذا من باب التأدب مع الرب جل جلاله أي لا علم بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء فأنت المطلع على كل شيء فعلمنا كلاً شيء بالنسبة لعلمك المحيط .

(٤) أبو السعود ٢/٧٠ . (٥) ابن كثير ١/٥٦١ . (٦) القرطبي ٦/٣٦٢ .

بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أُوْحِيَتْ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُونَ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾

بتيسيري وأمري ﴿فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني﴾ أي فتنفخ في تلك الصورة والهيئة فتصبح طيراً بأمر الله ومشيتته ﴿وتبرئ الأكمة والأبرص بإذني﴾ أي تشفي الأعمى الذي لا يبصر والأبرص الذي استعصى شفاؤه بأمرى ومشيتي ﴿وإذ تُخرج الموتى بإذني﴾ أي تحيي الموتى بأمرى ومشيتي ، وكرر لفظ ﴿بإذني﴾ مع كل معجزة رداً على من نسب الربوبية إلى عيسى ولبيان أن تلك الخوارق من جهته سبحانه أظهرها على يديه معجزة له ﴿وإذ كفت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات﴾ أي واذكر حين منعت اليهود من قتلك لما هموا وعزموا على الفتك بك حين جئتهم بالحجج والمعجزات ﴿فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحرٌ مبين﴾ أي قال الذين جحدوا نبوتك ولم يؤمنوا بك ما هذه الخوارق إلا سحرٌ ظاهر واضح ﴿وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بي وبرسولي﴾ وهذا أيضاً من الامتنان على عيسى أي واذكر حين أمرت الخواريين وقذفت في قلوبهم أن صدقوا بي وبرسولي عيسى بن مريم ﴿قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ أي قال الخواريون صدقنا يا رب بما أمرتنا واشهد بأننا مخلصون في هذا الإيمان خاضعون لأمر الرحمن ﴿إذ قال الخواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ أي واذكر حين قال الخواريون يا عيسى هل يقدر ربك على إنزال مائدة من السماء علينا؟ قال القرطبي : وكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل ويمجوز أن يكون ذلك صدر ممن كان معهم من الجهال كما قال بعض قوم موسى ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾^(١) وقال أبو حيان : وهذا اللفظ يقتضي ظاهره الشك في قدرة الله تعالى على أن ينزل مائدة من السماء وهذا ما ذهب إليه الزمخشري^(٢) وأما غيره من أهل التفسير فأطبقوا على أن الخواريين كانوا مؤمنين وهم خواص عيسى وأنهم لم يشكوا في ذلك حتى قال الحسن : لم يشكوا في قدرة الله وإنما سأله سؤال مستخبر هل ينزل أم لا ؟ فإن كان ينزل فاسأله لنا^(٣) فسؤالهم كان للاطمئنان والتثبت ﴿قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ أي اتقوا الله في أمثال هذه الأسئلة إن كنتم مصدقين بكمال قدرته تعالى ﴿قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا﴾ أي قال الخواريون نريد بسؤالنا المائدة أن نأكل منها تبركاً وتسكن نفوسنا بزيادة اليقين ﴿ونعلم أن قد صدقتنا﴾ أي ونعلم علماً

(١) القرطبي ٣٦٤/٦ . (٢) قال الزمخشري : فإن قلت : كيف قالوا هل يستطيع ربك بعد إيمانهم وإخلاصهم ؟ قلت : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص وإنما حكى ادعاءهم لها فدعواهم كانت باطلة وإنهم شاكين وهذا كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم ! الكشف

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوْلَانَا وَعَاجِرِنَا وَأَيَّةً
 مِنَّا وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنَزَلْتُهَا عَلَيْكَ فَقَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ
 عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ
 إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ

يقيناً لا يحوم حوله شائبة من الشك بصدقك في دعوى النبوة ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ أي تشهد بها عند من لم يحضرها من الناس ﴿قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء﴾ أجاوبهم عيسى إلى سؤال المائدة لإلزامهم بالحجة الدامغة وروي أنه لما أراد الدعاء لبس جبة شعر ورداء شعر وقام يصلي ويدعو ربه ويبكي قال أبو السعود : نادى عيسى ربه مرتين : مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات ، ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية إظهاراً لغاية التضرع ^(١) ﴿تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا﴾ أي يكون يوم فرح وسرور لنا ولن يأتي بعدنا ﴿وآيةً منك وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ أي ودلالة وحجة شاهدة على صدق رسولك وارزقنا يا الله فإنك خير من يعطي ويرزق لأنك الغني الحميد ﴿قال الله إنني منزلها عليكم﴾ أي أجاب الله دعاءه فقال إنني سأنزل عليكم هذه المائدة من السماء ﴿فمن يكفر بعد منكم فإنني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ أي من كفر بعد تلك الآية الباهرة فسوف أعذبه عذاباً شديداً لا أعذب مثل ذلك التعذيب أحداً من البشر وفي الحديث (أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً وأمروا ألا يدخروا لغير ولا يخونوا فخانوا وادخروا ورفعوا لغير فمسخوها قرده وخنازير) ^(٢) قال في التسهيل : جرت عادة الله عز وجل بعقاب من كفر بعد اقتراح آية فأعطىها ، ولما كفر بعض هؤلاء مسخهم الله خنازير ^(٣) ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ هذا عطف قصة على قصة ﴿إذ قال الحواريون﴾ ﴿وإذ قال الله يا عيسى﴾ قال ابن عباس : هذا القول يكون من الله يوم القيامة على رءوس الخلائق ليعلم الكفار أنهم كانوا على باطل ^(٤) والمعنى : اذكر للناس يوم يخاطب الله عبده ورسوله عيسى بن مريم في الآخرة توبيخاً للكفرة وتبكيئاً لهم قائلاً : يا عيسى أنت دعوت الناس إلى عبادتك والاعتقاد بألوهيتك وألوهية أمك ؟ ! قال القرطبي : إنما سأله عن ذلك توبيخاً لمن ادعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب وأشد في التوبيخ والتقريع ^(٥) ﴿قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ أي أنزهك عما لا يليق بك يا رب فما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله ﴿إن كنت قلته فقد علمته﴾ أي إن كان ذلك صدر مني فإنك لا تخفى عليك شيء وأنت العالم بأني لم أقله ، وهذا اعتذار وبراءة من ذلك القول ومبالغة في الأدب وإظهار الذلّة والمسكنة في حضرة ذي الجلال ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾ أي تعلم حقيقة

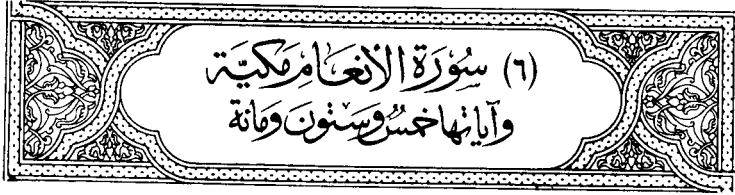
(١) أبو السعود ٧٣/٢ . (٢) أخرجه الترمذي في باب التفسير . (٣) التسهيل ١٩٤/١ . (٤) البحر ٥٨/٤ . (٥) القرطبي ٣٧٥/٦ .

تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا
 اللَّهُ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ
 يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ
 الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

ذاتي وما انطوت عليه ولا أعلم حقيقة ذاتك وما احتوت عليه من صفات الكمال إنك أنت العالم بالخفايا
 والنوايا وعلمك محيط بما كان وما يكون ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به﴾ أي ما أمرتهم إلا بما أمرتني به قال
 الرازي : وضع القول موضع الأمر نزولاً على موجب الأدب لئلا يجعل نفسه وربه أمرين معاً ﴿أن اعبدوا
 الله ربي وربكم﴾ أي قلت لهم اعبدوا الله خالقي وخالقكم فانا عبد مثلكم ﴿وكنت عليهم شهيداً ما
 دمت فيهم﴾ أي كنت شاهداً على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم ﴿فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم﴾
 أي فلما قبضتني إليك بالرفع إلى السماء كنت يا الله الحفيظ لأعمالهم ، والشاهد على أفعالهم ﴿وأنت على
 كل شيء شهيد﴾ أي وأنت المطلع على كل شيء لا يخفى عليك شيء ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ أي إن
 تعذبهم فانت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت لا اعتراض عليك ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾
 أي وإن تغفر لمن تاب منهم فإنك أنت الغالب على أمره الحكيم في صنعه ﴿قال الله هذا يوم ينفع الصادقين
 صدقهم﴾ أي يوم القيامة ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم لأنه يوم الجزاء ﴿لهم جنات تجري من تحتها
 الأنهار خالدون فيها أبداً﴾ أي لهم جنات تجري من تحت غرفها وأشجارها الأنهار ماكثين فيها لا يخرجون
 منها أبداً ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾ أي نالوا رضوان الله لصدقهم ورضوا
 عن الله فيما أثابهم وجازاهم ذلك هو الظفر والفوز الكبير بجنات النعيم ﴿لله ملك السموات والأرض وما
 فيهن وهو على كل شيء قدير﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره ومشيتته وهو القادر على كل شيء .

تبيته : روى الإمام مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿رب
 إني أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ وقول عيسى ﴿إن تعذبهم
 فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فرفع يديه وقال : اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله
 تعالى يا جبريل : اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فاسأله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله
 فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم ، فقال الله يا جبريل : اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في
 أمتك ولا نسوءك .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المائدة »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة الأنعام إحدى السور المكية الطويلة التي يدور محورها حول « العقيدة وأصول الإيمان » وهي تختلف في أهدافها ومقاصدها عن السور المدنية التي سبق الحديث عنها كالبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، فهي لم تعرض لشيء من الأحكام التنظيمية لجماعة المسلمين ، كالصوم والحج والعقوبات وأحكام الأسرة ، ولم تذكر أمور القتال ومحاربة الخارجين على دعوة الإسلام ، كما لم تتحدث عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ولا على المنافقين ، وإنما تناولت القضايا الكبرى الأساسية لأصول العقيدة والإيمان ، وهذه القضايا يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ - قضية الألوهية ٢ - قضية الوحي والرسالة ٣ - قضية البعث والجزاء .

* نجد الحديث في هذه السورة مستفيضاً يدور بشدة حول هذه الأصول الأساسية للدعوة الإسلامية ، ونجد سلاحها في ذلك الحجة الدامغة ، والدلائل الباهرة ، والبرهان القاطع في طريق الإلزام والإقناع لأن السورة نزلت في مكة على قوم مشركين . ومما يلفت النظر في السورة الكريمة أنها عرضت لأسلوبين بارزين لا نكاد نجدهما بهذه الكثرة في غيرها من السور هما : ١ - أسلوب التقرير ٢ - أسلوب التلقين .

* أما الأول : «أسلوب التقرير» فإن القرآن يعرض الأدلة المتعلقة بتوحيد الله والدلائل المنصوبة على وجوده وقدرته ، وسلطانه وقهره ، في صورة الشأن المسلم ، ويضع لذلك ضمير الغائب عن الحسّ الحاضر في القلب الذي لا يماري فيه قلب سليم ولا عقل راشد في أنه تعالى المبدع للكائنات صاحب الفضل والإنعام فيأتي بعبارة « هو » الدالة على الخالق المدبر الحكيم ، استمع قوله تعالى ﴿ هو الذي خلقكم من طين ﴾ .. ﴿ وهو الله في السموات والأرض ﴾ .. ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ .. ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ .. ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ﴾ .. الخ .

* أما الثاني : «أسلوب التلقين» فإنه يظهر جلياً في تعليم الرسول ﷺ تلقين الحجة ليقذف بها في وجه الخصم بحيث تأخذ عليه سمعه ، وتملك عليه قلبه فلا يستطيع التخلص أو التفلت منها ، ويأتي هذا

الأسلوب بطريق السؤال والجواب يسألهم ثم يجيب استمع إلى الآيات الكريمة ﴿قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة﴾ . . ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ . . ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به﴾ . . ﴿وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وهكذا تعرض السورة الكريمة لمناقشة المشركين وإفحامهم بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل . ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المكية ذات شأن في تركيز الدعوة الإسلامية^(١) ، تقرر حقائقها ، وثبتت دعائمها ، وتفند شبه المعارضين لها بطريق التنوع العجيب في المناظرة والمجادلة ، فهي تذكر توحيد الله جلّ وعلا في الخلق والإيجاد ، وفي التشريع والعبادة ، وتذكر موقف المكذبين للرسول وتقص عليهم ما حاق بأمثالهم السابقين ، وتذكر شبههم في الوحي والرسالة ، وتذكر يوم البعث والجزاء ، وتبسط كل هذا بالتنبيه إلى الدلائل في الأنفس والآفاق ، وفي الطبائع البشرية وقت الشدة والرخاء . . وتذكر أبا الأنبياء إبراهيم وجملة من أنبأه الرسل وترشد الرسول ﷺ إلى اتباع هداهم وسلوك طريقهم في احتمال المشاق وفي الصبر عليها ، وتعرض لتصوير حال المكذبين يوم الحشر، وتفيض في هذا بالسوان مختلفة ثم تعرض لكثير من تصرفات الجاهلية التي دفعهم إليها شركهم فيما يختص بالتحليل والتحريم وتقضي عليه بالتنفيذ والإبطال ، ثم تختم السورة بعد ذلك - في ربيع كامل - بالوصايا العشر التي نزلت في كل الكتب السابقة ، ودعا إليها جميع الأنبياء السابقين ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ . . الآية وتنتهي بأية فذة تكشف للإنسان عن مركزه عند ربه في هذه الحياة . وهو أنه خليفة في الأرض ، وأن الله سبحانه جعل عمارة الكون تحت يد الإنسان تتعاقب عليها أجياله ، ويقوم اللاحق منها مقام السابق ، وأن الله سبحانه قد فاوت في المواهب بين أفراد الإنسان لغاية سامية وحكمة عظيمة وهي « الابتلاء والاختبار » في القيام بتبعات هذه الحياة ، وذلك شأن يرجع إليه كماله المقصود من هذا الخلق وذلك النظام ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما أتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ .

التسمية : سميت بـ « سورة الأنعام » لورود ذكر الأنعام فيها ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ . . ولأن أكثر أحكامها الموضحة لجهالات المشركين تقرباً بها إلى أصنامهم المذكورة فيها ، ومن خصائصها ما روي عن ابن عباس أنه قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة ، حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح^(٢) .

(١) يقول الإمام الرازي : « امتازت هذه السورة بنوعين من الفضيلة : أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة ، وثانيها أنه شيعها سبعون ألفاً من الملائكة ، والسبب في هذا الامتياز أنها مشتملة على دلائل التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والمعاد ، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدن » ويقول الإمام القرطبي : إن هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المتبدعين ، ومن كذب بالبعث والنشور ، وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة . (٢) محاسن التأويل ٦ / ٢٢٣٢ .

قال الله تعالى : ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض .. إلى .. وهو الحكيم الخبير﴾

من آية (١) إلى نهاية آية (١٨) .

اللغز : ﴿يعدلون﴾ يسوون به غيره ويجعلون له عدلاً وشريكاً يقال : عدل فلاناً بفلان أي سواه به ﴿تمترون﴾ تشكّون يقال امترى في الأمر إذا شك فيه ﴿قرن﴾ القرن : الأمة المقترنة في مدة من الزمان ومنه حديث (خير القرون قرني) وأصل القرن مائة سنة ثم أصبح يطلق على الأمة من الناس التي تعيش في ذلك العصر قال الشاعر :

إذا ذهب القرن الذي كنت فيهم
وخلفت في قرنٍ فأنت غريب^(١)

﴿مدراراً﴾ غزيرة دائمة ﴿قرطاس﴾ القرطاس : الصحيفة التي يكتب فيها ﴿لبسناً﴾ خلطنا يقال لبستُ عليه الأمر أي خلطته عليه حتى اشتبهه ﴿حاق﴾ نزل بهم وأصابهم ﴿ولياً﴾ ناصرًا ومعيناً .

سبب النزول : روي أن مشركي مكة قالوا : يا محمد والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله فأنزل الله ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاسٍ فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحرٌ مبين﴾^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي

التفسير : ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ بدأ تعالى هذه السورة بالحمد لنفسه تعليماً لعباده أن يحمده بهذه الصيغة الجامعة لصفوف التعظيم والتبجيل والكمال وإعلاماً بأنه المستحق لجميع المحامد فلا ند له ولا شريك ، ولا نظير ولا مثل ومعنى الآية : احمدا الله ربكم المتفضل عليكم بصنوف الإنعام والإكرام الذي أوجد وأنشأ وابتدع خلق السموات والأرض بما فيها من أنواع البدائع وأصناف الروائع ، وبما اشتملا عليه من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة ، بما يدهش العقول والأفكار تبصرة وذكرى لأولي الأبصار ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ أي وأنشأ الظلمات والأنوار وخلق الليل والنهار يتعاقبان في الوجود لفائدة العوالم بما لا يدخل تحت حصر أو فكر ، وجمع الظلمات لأن شعب الضلال متعددة ، ومسالكه متنوعة ، وأفرد النور لأن مصدره واحد هو الرحمن منور الأكوان قال في التسهيل : وفي الآية ردُّ على المجوس في عبادتهم للنار وغيرها من الأنوار ، وقولهم إن الخير من النور والشر من الظلمة ، فإن المخلوق لا يكون إلهاً ولا فاعلاً لشيء من الحوادث^(٣) ﴿ثم الذين كفروا بربهم

الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿١٠٠﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١٠١﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠٢﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّانُهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿١٠٣﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلْيُسِّوْهُ

يعدلون ﴿١٠٠﴾ أي ثم بعد تلك الدلائل الباهرة والبراهين القاطعة على وجود الله ووحدانيته يشرك الكافرون بربهم فيساوون به أصناماً نحتوها بأيديهم ، وأوهاماً ولذوها بخيالهم ، ففي ذلك تعجيب من فعلهم وتوبيخ لهم قال ابن عطية : والآية دالة على قبح فعل الكافرين لأن المعنى أن خلقه السموات والأرض وغيرها قد تقرر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تبين ، ثم بعد هذا كله قد عدلوا بربهم فهذا كما تقول : يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنْتُ إليك ثم تشمتني ؟ أي بعد وضوح هذا كله ^(١) ﴿ هو الذي خلقكم من طين ﴾ أي خلق أباكم آدم من طين ﴿ ثم قضى أجلاً ﴾ أي حكم وقدر لكم أجلاً من الزمن تموتون عند انتهائه ﴿ وأجل مسمى عنده ﴾ أي وأجل آخر مسمى عنده لبعثكم جميعاً ، فالأجل الأول الموت والثاني البعث والنشور ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ أي ثم أنتم الكفار تشكون في البعث وتنكرونه بعد ظهور تلك الآيات العظيمة ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض ﴾ أي هو الله المعظم المعبود في السموات والأرض قال ابن كثير : أي يعبده ويوحده ويقرله بالألوهية من في السموات والأرض ويدعونه رغباً ورهباً ويسمونه الله ^(٢) ﴿ يعلم سركم وجهركم ﴾ أي يعلم سركم وعلمكم ﴿ ويعلم ما تكسبون ﴾ أي من خير أو شر وسيجازيكم عليه ، ثم أخبر تعالى عن عنادهم وإعراضهم فقال ﴿ وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم ﴾ أي ما يظهر لهم دليل من الأدلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن ﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾ أي إلا تركوا النظر فيها ولم يلتفتوا إليها قال القرطبي : والمراد تركهم النظر في الآيات التي يجب ان يستدلوا بها على توحيد الله عز وجل ، والمعجزات التي أقامها لنبية ﷺ التي يستدل بها على صدقه في جميع ما أتى به عن ربه ^(٣) ﴿ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم ﴾ أي كذبوا بالقرآن الذي جاءهم من عند الله ﴿ فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي سوف يحل بهم العقاب ان عاجلاً أو آجلاً ويظهر لهم خبر ما كانوا به يستهزئون ، وهذا وعيد بالعذاب والعقاب على استهزائهم ، ثم حضهم تعالى على الاعتبار بمن سبقهم من الأمم فقال ﴿ ألم يروا كم أهلكتنا من قبلهم من قرن ﴾ أي ألا يعتبرون بمن أهلكتنا من الأمم قبلهم لتكذيبهم الأنبياء ألم يعرفوا ذلك ؟ ﴿ مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ﴾ أي منحناهم من أسباب السعة والعيش والتمكين في الأرض ما لم نعظكم يا أهل مكة ﴿ وأرسلنا السماء عليهم مدراراً ﴾ أي أنزلنا المطر غزيراً متتابعاً يدر عليهم درأً ﴿ وجعلنا الأنهار تجري

بأيديهم لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ
 ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّنْ
 قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمعنَّكُمْ إِلَى

من تحتهم ﴿١﴾ أي من تحت أشجارهم ومنازلهم حتى عاشوا في الخصب والريف بين الأنهار والثمار ﴿٢﴾ فأهلكناهم بذنوبهم ﴿٣﴾ أي فكفروا وعصوا فأهلكناهم بسبب ذنوبهم ، وهذا تهديد للكفار أن يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء على حال قوتهم وتمكينهم في الأرض ﴿٤﴾ وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴿٥﴾ أي أحدثنا من بعد إهلاك المكذبين قوماً آخرين غيرهم قال أبو حيان : وفيه تعريض للمخاطبين بإهلاكهم إذا عصوا كما أهلك من قبلهم ﴿٦﴾ ﴿٧﴾ ولو أنزلنا عليك كتاباً في قرطاس ﴿٨﴾ أي لو أنزلنا عليك يا محمد كتاباً مكتوباً على ورقٍ كما اقترحوا ﴿٩﴾ فلمسوه بأيديهم ﴿١٠﴾ أي فعاینوا ذلك ومسوه باليد ليرتفع عنهم كل إشكال ويزول كل ارتياب ﴿١١﴾ لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحرٌ مبين ﴿١٢﴾ أي لقال الكافرون عند رؤية تلك الآية الباهرة تعنتاً وعناداً ما هذا إلا سحرٌ واضح ، والغرض أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم أوضح الآيات وأظهر الدلائل ﴿١٣﴾ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴿١٤﴾ أي هلاً أنزل على محمد ملك يشهد بنبوته وصدقه و﴿١٥﴾ لولا ﴿١٦﴾ بمعنى هلاً للتحضيض قال أبو السعود : أي هلاً أنزل عليه ملك بحيث نراه ويكلمنا أنه نبي وهذا من أباطيلهم المحققة وخرافاتهم الملققة التي يتعللون بها كلما ضاقت عليهم الحيل وعييت بهم العلل ﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾ ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ﴿١٩﴾ أي لو أنزلنا الملك كما اقترحوا وعاینوه ثم كفروا لحق إهلاكهم ﴿٢٠﴾ كما جرت عادة الله بأن من طلب آية ثم لم يؤمن أهلكه الله حالاً ﴿٢١﴾ ثم لا ينظرون ﴿٢٢﴾ أي ثم لا يمهلون ولا يؤخرون ، والآية كالتعليل لعدم إجابة طلبهم ، فإنهم - في ذلك الاقتراح - كالباحث عن حفته بظلفه ﴿٢٣﴾ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ﴿٢٤﴾ أي لو جعلنا الرسول ملكاً لكان في صورة رجل لأنهم لا طاقة لهم على رؤية الملك في صورته ﴿٢٥﴾ وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴿٢٦﴾ أي لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم ، فإنهم لو رأوا الملك في صورة إنسان قالوا هذا إنسان وليس بملك قال ابن عباس : لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور ﴿٢٧﴾ ، ثم قال تعالى تسلياً للنبي ﷺ ﴿٢٨﴾ ولقد استهزىء برسولٍ من قبلك ﴿٢٩﴾ أي والله لقد استهزأ الكافرون من كل الأمم بأنبيائهم الذين بعثوا إليهم ﴿٣٠﴾ فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا يستهزئون ﴿٣١﴾ أي أحاطوا ونزل هؤلاء المستهزئين بالرسول عاقبة استهزائهم ، وفي هذا الإخبار تهديد للكفار ﴿٣٢﴾ قل سيروا في الأرض ثم انظروا

(١) البحر المحيط ٧٧/٤ . (٢) أبو السعود ٨٣/٢ . (٣) وقيل : المعنى لو أنزلنا ملكاً لماتوا من هول رؤيته إذ لا يطيقون رؤيته وهو

منقول عن ابن عباس كذا في القرطبي ٢٩٣/٦ . (٤) ابن كثير ٥٦٩/١ المختصر .

يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ * وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ أَلْحَدُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي
أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا
كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

كيف كان عاقبة المكذبين ﴿١﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين الساخرين : سافروا في الأرض فانظروا
وتأملوا ماذا حل بالكفرة قبلكم من العقاب وأليم العذاب لتعتبروا بأثار من خلا من الأمم كيف أهلكتهم
الله وأصبحوا عبرة للمعتبرين ﴿٢﴾ قل لمن ما في السموات والأرض ﴿٣﴾ أي قل يا محمد لمن
الكائنات جميعاً خلقاً وملكاً وتصرفاً؟ والسؤال لإقامة الحجة على الكفار فهو سؤال تنكيت ﴿٤﴾ قل لله ﴿٥﴾
أي قل لهم تقريراً وتنبهاً هي لله لأن الكفار يوافقون على ذلك بالضرورة لأنه خالق الكل إما باعترافهم أو
بقيام الحجة عليهم ﴿٦﴾ كتب على نفسه الرحمة ﴿٧﴾ أي ألزم نفسه الرحمة تفضلاً وإحساناً والغرض التلطف
في دعائهم إلى الإيمان وإنابتهم إلى الرحمن ﴿٨﴾ ليجمعنكم ﴿٩﴾ إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴿١٠﴾ أي
ليحشرنكم من قبوركم مبعوثين إلى يوم القيامة الذي لا شك فيه ليجازيكم بأعمالكم ﴿١١﴾ الذين خسروا
أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴿١٢﴾ أي أضاعوها بكفرهم وأعمالهم السيئة في الدنيا فهم لا يؤمنون ولهذا لا يقام لهم
وزن في الآخرة وليس لهم نصيب فيها سوى الجحيم والعذاب الأليم ﴿١٣﴾ وله ما سكن في الليل والنهار ﴿١٤﴾
أي لله عز وجل ما حل واستقر في الليل والنهار لجميع عباده وخلقه وتحت قهره وتصرفه ، والمراد عموم
ملكه تعالى لكل شيء ﴿١٥﴾ وهو السميع العليم ﴿١٦﴾ أي السميع لأقوال العباد العليم بأحوالهم ﴿١٧﴾ قل أغير
الله أتحذ ولياً ﴿١٨﴾ الاستفهام للتوبيخ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أغير الله أتحذ معبوداً ؟ ﴿١٩﴾ فاطر
السموات والأرض ﴿٢٠﴾ أي خالقهما ومبدعها على غير مثال سابق ﴿٢١﴾ وهو يطعم ولا يطعم ﴿٢٢﴾ أي هو جل
وعلا يرزق ولا يرزق قال ابن كثير: أي هو الرازق لخلقه من غير احتياج إليهم ﴿٢٣﴾ قل إني أمرت أن
أكون أول من أسلم ﴿٢٤﴾ أي قل لهم يا محمد إن ربي أمرني أن أكون أول من أسلم لله من هذه الأمة ﴿٢٥﴾ ولا
تكونن من المشركين ﴿٢٦﴾ أي وقيل لي : لا تكونن من المشركين قال الزمخشري ومعناه : أمرت بالإسلام
ونهيته عن الشرك ﴿٢٧﴾ قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴿٢٨﴾ أي قل لهم أيضاً إني
أخاف إن عبت غير ربي عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة ﴿٢٩﴾ من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ﴿٣٠﴾ أي من يصرف

(١) قال أبو السعود : هذا جواب قسم محذوف والجملة استئناف مسوق للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر أي والله ليجمعنكم في
القبور . الخ . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٥٧٠ . (٣) الكشاف ٧/٢ .

عنه العذاب فقد رحمه الله ﴿وذلك هو الفوز المبين﴾ أي النجاة الظاهرة ﴿وإن يمسسك الله بضرٍ فلا كاشف له إلا هو﴾ أي إن تنزل بك يا محمد شدة من فقرٍ أو مرضٍ فلا رافعٍ ولا صارفٍ له إلا هو ولا يملك كشفه سواه ﴿وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير﴾ أي وإن يصبك بخيرٍ من صحةٍ ونعمةٍ فلا رادٍ له لأنه وحده القادر على إيصال الخير والضر قال في التسهيل : والآية برهان على الوجدانية لانفراد الله تعالى بالضر والخير وكذلك ما بعد هذا من الأوصاف براهين ورد على المشركين^(١) ﴿وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير﴾ قال ابن كثير : أي هو الذي خضعت له الرقاب وذلت له الجبابرة وعنت له الوجوه وقهر كل شيء وهو الحكيم في جميع أفعاله الخير بمواضع الأشياء^(٢) .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿الحمد لله﴾ الصيغة تفيد القصر أي لا يستحق الحمد والثناء إلا الله رب العالمين .

٢ - ﴿جعل الظلمات والنور﴾ فيه من المحسنات البديعية الطباق .

٣ - ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ فيه استبعاد أن يعدلوا به غيره بعد وضوح آيات قدرته ووضع الرب ﴿ربهم﴾ موضع الضمير لزيادة التشنيع والتقييح .

٤ - ﴿سركم وجهركم﴾ بينهما طباق .

٥ - ﴿من قرن﴾ أي أهل قرن فهو مجاز مرسل .

٦ - ﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً﴾ أي المطر عبّر عنه بالسماء لأنه ينزل من السماء فهو مجاز أيضاً .

٧ - ﴿استهزىء برسلى﴾ تنكير رسل للتفخيم والتكثير .

٨ - ﴿السميع العليم﴾ من صيغ المبالغة .

فكائِدَةٌ : في القرآن العظيم خمس سور ابتدأت بـ ﴿الحمد لله﴾ وهي سورة الفاتحة ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ والآنعام ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ وسورة الكهف ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ وسورة سبأ ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ وسورة فاطر ﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض﴾ .

قال الله تعالى : ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل لله . . إلى . . فلا تكوننَّ من الجاهلين﴾

من آية (١٩) إلى نهاية آية (٣٥) .

المناسِبة : لما أفاض جلّ ذكره في إقامة الدلائل والبراهين على قدرته ووجدانيته من أول السورة الكريمة ذكر هنا شهادته تعالى على صدق نبوة محمد عليه السلام ثم ذكر موقف الجاحدين للقرآن المكذبين للوحي ، وحسرتهم الشديدة يوم القيامة .

اللغز : ﴿لأنذرکم﴾ الإندار : إخبار فيه تخويف ﴿فتنتهم﴾ الفتنة الاختبار ﴿أكثت﴾ جمع

كينان وهو الغطاء ﴿وقرأ﴾ ثقلاً يقال وقرت أذنه إذا ثقلت أو صمّت ﴿أساطير﴾ خرافات وأباطيل جمع أسطورة قال الجوهري الأساطير : الأباطيل والترهات^(١) ﴿ينأون﴾ يبعدون يقال نأى عنه إذا ابتعد ﴿بغته﴾ فجأة يقال : بغته إذا فجأه ﴿فرطنا﴾ فرط : قصر مع القدرة على ترك التقصير قال أبو عبيد : فرط : ضيع ﴿أوزارهم﴾ ذنوبهم جمع وزر ﴿يزرون﴾ يحملون ﴿لهو﴾ اللهو : صرف النفس عن الجد إلى الهزل ، وكل ما شغلك فقد أهلك .

سبب النزول : أ - روي أن رؤساء مكة قالوا يا محمد : ما نرى أحداً يصدقك بما تقول من أمر الرسالة ، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا من يشهد لك أنك رسول كما تزعم ؟ فأنزل الله ﴿قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم . . .﴾^(٢) الآية .
ب - عن ابن عباس أن «أبا سفيان» و«الوليد بن المغيرة» و«النضر بن الحارث» جلسوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن فقالوا للنضر : ما يقول محمد ؟ فقال أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية فأنزل الله ﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه . . .﴾^(٣) الآية .

ج - روي أن «الأخنس بن شريق» التقى بـ «أبي جهل بن هشام» فقال له : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس عندنا أحد غيرنا فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق وما كذب قط ، ولكن إذا ذهب «بنو قصي» باللواء ، والسقاية ، والحجابه ، والنسوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ فأنزل الله ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنه لا يكذبونك . . .﴾^(٤) الآية .

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٠١﴾

التفسير : ﴿قل أي شيء أكبر شهادة﴾ أي قل لهم يا محمد أي شيء أعظم شهادة حتى يشهد لي بأني صادق في دعوى النبوة ؟ ﴿قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ أي أجبهم أنت وقل لهم الله يشهد لي بالرسالة والنبوة وكفى بشهادة الله لي شهادة قال ابن عباس : قال الله لنبيه محمد ﷺ قل لهم أي شيء أكبر شهادة فإن أجابوك وإلا فقل لهم الله شهيد بيني وبينكم^(٥) ﴿وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ أي وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكة وأنذركم كل من بلغه القرآن من العرب والعجم إلى يوم القيامة قال ابن جزي : والمقصود بالآية الاستشهاد بالله - الذي هو أكبر شهادة - على صدق رسول الله ﷺ وشهادة الله بهذا هي علمه بصحة نبوة سيدنا محمد ﷺ وإظهار معجزته الدالة على صدقه^(٦) ﴿أإنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى﴾ استفهام توبيخ أي أنتمكم أيها المشركون لتقرون بوجود آلهة مع الله؟

(١) مجمع البيان ٤/٢٨٦ . (٢) أسباب النزول ص ١٢٢ . (٣) القرطبي ٦/٤١٤ .

(٤) التفسير الكبير ١٢/٢٠٥ . (٥) البحر ٤/٩٠ . (٦) التسهيل ٥/٢ .

الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا
أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتِنَتِهِمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٤﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ
كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ
فَكَيْفَ تَشْهَدُونَ أَنْ مَعَ اللَّهِ آلِهَةٌ أُخْرَىٰ بَعْدَ وَضُوحِ الْأَدْلَةِ وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَىٰ وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ؟ ﴿٢٦﴾ قُلْ لَا
أَشْهَدُ أَيُّ قَلْبٍ لَهُمْ لَا أَشْهَدُ بِذَلِكَ ﴿٢٧﴾ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴿٢٨﴾ أَيُّ قَلْبٍ يَا مُحَمَّدُ إِنَّمَا أَشْهَدُ بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ
أَحَدٌ ، فَرَدَّ صَمَدٌ ﴿٢٩﴾ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٣٠﴾ أَيُّ وَأَنَا بَرِيءٌ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَامِ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنْ
الْكَفَّارَ بَيْنَ جَاهِلٍ وَمَعَانِدٍ فَقَالَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَعْنِي الْيَهُودَ
وَالنَّصَارَى الَّذِينَ عَرَفُوا وَعَانَدُوا يَعْرِفُونَ النَّبِيَّ ﷺ بِحَلِيَّتِهِ وَنَعْتِهِ عَلَىٰ مَا هُوَ مَذْكَورٌ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ كَمَا
يَعْرِفُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ وَلَدَهُ لَا يَشْكُ فِي ذَلِكَ أَصْلًا قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ : وَهَذَا اسْتِشْهَادٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ بِمَعْرِفَةِ أَهْلِ
الْكِتَابِ وَبِصِحَّةِ نَبَوْتِهِ ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٤﴾ أَيُّ أَوْلَيْكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ لِأَنَّهُمْ لَمْ
يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ وَضُوحِ الْآيَاتِ ﴿٣٥﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴿٣٦﴾
الاسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٌّ وَمَعْنَاهُ النَّفْيُ أَيُّ لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِمَّنْ اخْتَلَقَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ أَوْ كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ وَالْمَعْجَزَاتِ
الْبَاهِرَةِ وَسَمَّاهَا سِحْرًا قَالَ أَبُو السَّعُودِ : وَكَلِمَةٌ ﴿أَوْ﴾ لِلإِذَانِ بِأَنَّ كَلَامًا مِنَ الْإِفْتِرَاءِ وَالتَّكْذِيبِ وَحَدَهُ بِالْغُ
غَايَةِ الْإِفْرَاطِ فِي الظُّلْمِ ، فَكَيْفَ وَهُمْ قَدْ جَمَعُوا بَيْنَهُمَا فَأَثْبَتُوا مَا نَفَاهُ اللَّهُ وَنَفَوْا مَا أَثْبَتَهُ ! قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَتَى
يُؤْفَكُونَ ﴿٣٧﴾ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أَيُّ لَا يُفْلِحُ الْمُفْتَرِيَّ وَلَا الْمَكْذِبَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنْ مَدَّعَى الرِّسَالَةَ لَوْ
كَانَ كَاذِبًا لَكَانَ مُفْتَرِيًّا عَلَى اللَّهِ فَلَا يَكُونُ مَحَلًّا لظُهُورِ الْمَعْجَزَاتِ ﴿٣٨﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ
أَشْرَكُوا ﴿٣٩﴾ أَيُّ إِذْكَرُ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا لِلْحِسَابِ وَنَقُولُ لَهُمْ عَلَى رِءُوسِ الْأَشْهَادِ ﴿٤٠﴾ أَيْنَ شُرَكَاءُ كُمْ الَّذِينَ
كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٤١﴾ أَيُّ أَيْنَ أَهْتَكُمُ الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا شُرَكَاءَ لِلَّهِ ؟ قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ : وَالْمُرَادُ مِنَ الْاسْتِفْهَامِ
التَّوْبِيخِ وَ﴿تَزْعُمُونَ﴾ أَيُّ تَزْعُمُونَهُمْ آلِهَةٌ وَشُرَكَاءُ مَعَ اللَّهِ فَحُذِفَ الْمَفْعُولَانِ وَلَعَلَّهُ يَحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْتَهُمْ
حِينَئِذٍ لِيَفْقِدُوهَا فِي السَّاعَةِ الَّتِي عُلِقُوا بِهَا الرَّجَاءُ فِيهَا ﴿٤٢﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كُلُّ زَعْمٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ كُذْبٌ ﴿٤٣﴾
﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتِنَتِهِمْ﴾ أَيُّ لَمْ يَكُنْ جَوَابُهُمْ حِينَ اخْتَبَرُوا بِهَذَا السُّؤَالِ وَرَأَوْا الْحَقَائِقَ ﴿٤٤﴾ إِلَّا أَنْ قَالُوا
وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٤٥﴾ أَيُّ أَقْسَمُوا كَاذِبِينَ بِقَوْمِهِمُ وَاللَّهُ يَارَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : تَبَرَّءُوا
مِنَ الشَّرْكِ وَانْتَفُوا مِنْهُ لَمَّا رَأَوْا مِنْ تَجَاوُزِهِ وَمَغْفِرَتِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَغْفِرُ اللَّهُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ
ذُنُوبَهُمْ فَإِذَا رَأَى الْمُشْرِكُونَ ذَلِكَ قَالُوا تَعَالَوْا نَقُولُ : إِنَّا كُنَّا أَهْلَ ذُنُوبٍ وَلَمْ نَكُنْ مُشْرِكِينَ ، فَيُخْتَمُ عَلَى
أَفْوَاهِهِمْ وَتَنْطِقُ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٤٦﴾ ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أَيُّ أَنْظِرْ
يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِنَفْيِ الْإِشْرَاقِ عَنْهَا أَمَامَ عِلْمِ الْغُيُوبِ ، وَهَذَا لِلتَّعْجِيبِ مِنْ كَذِبِهِمْ

يَفْقَهُهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقُرْأُوْا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوْا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يَجِدُلُوْنَكَ يَقُوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوْا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيْرُ الْأَوَّلِيْنَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُوْنَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوْا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِعَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوْا يُخْفُوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوْا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوْثِيْنَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوْا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوْا الصَّرِيْحَ ﴿٣٠﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَ ﴿٣١﴾ أَي تَلَاشَى وَبَطَلَ مَا كَانُوْا يَظُنُوْنَهُ مِنْ شَفَاعَةِ أَهْلَتِهِمْ وَغَاب عَنْهُمْ مَا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَهُ عَلَى اللَّهِ مِنَ الشُّرَكَاءِ ، ثُمَّ وَصَفَ تَعَالَى حَالَ الْمُشْرِكِيْنَ حِيْنَ اسْتَمَاعِ الْقُرْآنِ فَقَالَ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أَي وَمَنْ هُوَ لِأَنَّ الْمُشْرِكِيْنَ مِنْ يَصْغِي إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدَ حِيْنَ تَتْلُو الْقُرْآنَ ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوْبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوْهُ﴾ أَي جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوْبِهِمْ أَغْطِيَةً لِثَلَا يَفْقَهُوْهُ الْقُرْآنَ ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقُرْأُوْا﴾ أَي ثِقَلًا وَصَمًّا يَمْنَعُ مِنَ السَّمْعِ قَالَ ابْنُ جَزِي : وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ فَهْمِ الْقُرْآنِ إِذَا اسْتَمَعُوْهُ وَعَبَّرَ بِالْأَكِنَّةِ وَالْوَقْرِ مَبَالِغَةً ^(١) ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوْا بِهَا﴾ أَي مَهْمَا رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ وَالْحُجُجِ الْبَيِّنَاتِ لَا يُؤْمِنُوْا بِهَا لِفُرْطِ الْعِنَادِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يَجِدُلُوْنَكَ يَقُوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوْا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيْرُ الْأَوَّلِيْنَ﴾ أَي بَلَّغُوا مِنَ التَّكْذِيْبِ وَالْمَكَابِرَةِ إِلَىٰ أَنَّهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ مُجَادِلِيْنَ يَقُوْلُوْنَ عَنِ الْقُرْآنِ مَا هَذَا إِلَّا خِرَافَاتٌ وَأَبَاطِيْلُ الْأَوَّلِيْنَ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ أَي هُوَ لِأَنَّ الْمُشْرِكِيْنَ الْمَكْذِبِيْنَ يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ الْقُرْآنِ وَعَنِ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيُبْعَدُوْنَ هُمُ عَنْهُ ﴿وَإِنْ يُهْلِكُوْنَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ﴾ أَي وَمَا يَهْلِكُوْنَ بِهَذَا الصَّنِيْعِ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ بِذَلِكَ قَالَ ابْنُ كَثِيْرٍ : فَهَمُ قَدْ جَمَعُوا بَيْنَ الْفَعْلِيْنَ الْقَيِّحِيْنَ لَا يَنْتَفَعُوْنَ وَلَا يَدْعُوْنَ أَحَدًا يَنْتَفِعُ وَلَا يَعُوْدُ وَبِالهِ إِلَّا عَلَيْهِمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ ^(٢) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أَي لَوْ تَرَىٰ يَا مُحَمَّدُ هُوَ لِأَنَّ الْمُشْرِكِيْنَ إِذْ عَرَضُوا عَلَى النَّارِ لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيْمًا تَشْبِيهُ لَهْوَلِ الرَّعْوَسِ قَالَ الْبِيضَاوِي : وَجَوَابُ ﴿لَوْ﴾ مَحْذُوفٌ تَقْدِيْرُهُ لَرَأَيْتَ أَمْرًا شَنِيعًا ^(٣) وَإِنَّمَا حَذَفَ لِيَكُوْنَ أَبْلَغُ مَا يَقْدِرُهُ السَّمَاعُ ﴿فَقَالُوْا يَا لَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ أَي تَمَنُّوا الرَّجُوْعَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يَكْذِبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴿وَنَكُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ أَي إِذَا رَجَعْنَا إِلَى الدُّنْيَا نَصَدِّقُ وَنُؤْمِنُ بِاللَّهِ إِيمَانًا صَادِقًا فَتَمَنُّوا الْعَوْدَةَ لِيَصْلِحُوا الْعَمَلَ وَيَتَدَارَكُوا الزَّلَلَ قَالَ تَعَالَى رَدًّا لِذَلِكَ التَّمَنِّيِ ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوْا يُخْفُوْنَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي ظَهَرَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كَانُوْا يُخْفُوْنَ فِي الدُّنْيَا مِنْ عِيُوْبِهِمْ وَقَبَائِحِهِمْ فَتَمَنُّوا ذَلِكَ ﴿وَلَوْ رَدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ﴾ أَي لَوْ رَدُّوْا - عَلَى سَبِيْلِ الْفُرْضِ لِأَنَّهُ لَا رَجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا بَعْدَ الْمَوْتِ - لَعَادُوْا إِلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ فِي وَعْدِهِمْ بِالْإِيْمَانِ ﴿وَقَالُوْا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوْثِيْنَ﴾ أَي

(١) التسهيل ٦/٢ . (٢) ابن كثير ٥٧٣/١ . (٣) البيضاوي ص ١٦٩ .

الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣١﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرْتَنَا
 عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهَوٌ
 وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٣﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ
 وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايَتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ
 قَالَ أُولَٰئِكَ الْكٰفِرَ الْفَجَارَ مَا هِيَ إِلَّا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا بَعثَ وَلَا نَشُورَ ﴿٣٥﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ
 أَي لَوْ تَرَىٰ حَالَهُمْ إِذْ حُسِبُوا لِلْحِسَابِ أَمَامَ رَبِّ الْأَرْبَابِ كَمَا يُوقِفُ الْعَبْدَ الْجَانِي بَيْنَ يَدَيْ سَيِّدِهِ لِلْعِقَابِ ،
 وَجَوَابَ ﴿لَوْ﴾ مَحْذُوفٍ لِلتَّهْوِيلِ مِنْ فِطْرَةِ الْمَوْقِفِ ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أَي أَلَيْسَ هَذَا الْمَعَادُ
 بِحَقٍّ ؟ وَالْهَمْزَةُ لِلتَّقْرِيعِ عَلَى التَّكْذِيبِ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أَي قَالُوا بَلَىٰ وَاللَّهِ إِنَّهُ لِحَقٌّ ﴿قَالَ فَذُوقُوا
 الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أَي ذُوقُوا الْعَذَابَ بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَتَكْذِيبِكُمْ رِسْلَ اللَّهِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ
 تَعَالَىٰ عَنْ هَؤُلَاءِ الْكٰفِرَ فَقَالَ ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ أَي لَقَدْ خَسِرَ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبُونَ بِالْبَعْثِ ﴿حَتَّىٰ
 إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أَي حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ الْقِيَامَةُ فَجَاءَتْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفُوا وَقْتَهَا قَالَ الْقُرْطُبِيُّ :
 سَمِيَتْ الْقِيَامَةُ بِالسَّاعَةِ لِسُرْعَةِ الْحِسَابِ فِيهَا^(١) ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتْنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ أَي قَالُوا يَا
 نَدَامَتْنَا عَلَىٰ مَا قَصَّرْنَا وَضَيَّعْنَا فِي الدُّنْيَا مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ أَي
 وَالْحَالُ أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ أَثْقَالَ ذُنُوبِهِمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ قَالَ الْبِيضَاوِيُّ : وَهَذَا تَمَثُّلٌ لِاسْتِحْقَاقِهِمْ آصَارَ الْأَثَامِ^(٢)
 وَقَالَ ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ لِأَنَّ الْعَادَةَ حَمْلُ الْأَثْقَالِ عَلَى الظُّهُورِ ، قَالَ ابْنُ جَزِي : وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنْ تَحْمِلِ
 الذُّنُوبِ ، وَقِيلَ إِنَّهُمْ يَحْمِلُونَهَا عَلَى ظُهُورِهِمْ حَقِيقَةً فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْكٰفِرَ يَرْكَبُهُ عَمَلُهُ بَعْدَ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ فِي
 أَقْبَحِ صُورَةٍ ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ يَرْكَبُ عَمَلَهُ بَعْدَ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ^(٣) ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أَي
 بَسَّ مَا يَحْمِلُونَهُ مِنَ الْأَوْزَارِ ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهَوٌ﴾ أَي بَاطِلٌ وَغُرُورٌ لِقَصْرِ مَدَّتِهَا وَفَنَاءِ
 لَذَّتِهَا ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أَي الْآخِرَةُ وَمَا فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ النِّعَمِ خَيْرٌ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ مِنْ
 دَارِ الْفَنَاءِ لِأَنَّهَا دَائِمَةٌ لَا يَزُولُ عَنْهُمْ نَعِيمُهَا وَلَا يَذْهَبُ عَنْهُمْ سُرُورُهَا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَي أَفَلَا تَعْقِلُونَ
 أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا ؟ ثُمَّ سَلَّىٰ تَعَالَىٰ نَبِيَّهُ لِتَكْذِيبِ قَوْمِهِ لَهُ فَقَالَ ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي
 يَقُولُونَ﴾ أَي قَدْ أَحْطْنَا عَلِمًا بِتَكْذِيبِهِمْ لَكَ وَحَزْنِكَ وَتَأْسَفِكَ عَلَيْهِمْ قَالَ الْحَسَنُ : كَانُوا يَقُولُونَ إِنَّهُ سَاحِرٌ
 وَشَاعِرٌ وَكَاهِنٌ وَمَجْنُونٌ ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أَي فَإِنَّهُمْ فِي دَخِيلَةٍ
 نَفْسِهِمْ لَا يَكْذِبُونَكَ بَلْ يَعْتَقِدُونَ صِدْقَكَ وَلَكِنَّهُمْ يَجْحَدُونَ عَنْ عِنَادٍ فَلَا تَحْزَنَ لِتَكْذِيبِهِمْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ :
 كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُسَمَّى الْأَمِينَ فَعَرَفُوا أَنَّهُ لَا يَكْذِبُ فِي شَيْءٍ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَجْحَدُونَ فَكَانَ أَبُو جَهْلٍ
 يَقُولُ : مَا نَكْذِبُكَ يَا مُحَمَّدُ وَإِنَّكَ عِنْدَنَا لِمُصَدِّقٌ وَإِنَّمَا نَكْذِبُ مَا جِئْتَنَا بِهِ^(٤) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ

أَتْلَهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ
 اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِغَايَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا
 تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾

فصبروا على ما كُذِّبُوا ﴿٣٤﴾ أي صبروا على ما نالهم من قومهم من التكذيب والاستهزاء ﴿٣٥﴾ وأوذوا حتى أتاهم
 نصرنا ﴿٣٤﴾ أي وأوذوا في الله حتى نصرهم الله ، وفي الآية إرشاد إلى الصبر ، ووعد له بالنصر ﴿٣٥﴾ ولا مبدل
 لكلمات الله ﴿٣٤﴾ قال ابن عباس : أي لمواعيد الله ، وفي هذا تقوية للوعد ﴿٣٤﴾ ولقد جاءك من نبي المرسلين ﴿٣٤﴾
 أي ولقد جاءك بعض أخبار المرسلين الذين كُذِّبُوا وأوذوا كيف أنجيناهم ونصرناهم على قومهم فتسلَّ ولا
 تحزن فإن الله ناصر كما نصرهم ﴿٣٤﴾ وإن كان كُبر عليك إعراضهم ﴿٣٤﴾ أي إن كان إعراضهم عن الإسلام قد
 عظم وشقَّ عليك يا محمد ﴿٣٤﴾ فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض ﴿٣٤﴾ أي إن قدرت أن تطلب سرّاً ومسكناً
 في جوف الأرض ﴿٣٤﴾ أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ﴿٣٤﴾ أي مصعداً تصعد به إلى السماء فتأتيهم بآية مما
 اقترحوه فافعل ﴿٣٤﴾ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴿٣٤﴾ أي لو أراد الله لهداهم إلى
 الإيمان فلا تكونن يا محمد من الذين يجهلون حكمة الله ومشيئته الأزلية .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ فيه تشبيه يسمى « المرسل المجمل » .

٢ - ﴿الذين كنتم تزعمون﴾ فيه إيجاز بالحذف أي تزعمونهم شركاء .

٣ - ﴿انظر كيف كذبوا﴾ الصيغة للتعجب من كذبهم الغريب .

٤ - ﴿وفي آذانهم وقرأ﴾ عبّر بالأكنة في القلوب والوقر في الأذان وهو تمثيل بطريق الاستعارة
 لإعراضهم عن القرآن .

٥ - ﴿يقول الذين كفروا﴾ وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل الكفر عليهم .

٦ - ﴿ينهون وينأون﴾ بينهما من المحسنات البديعية الجناس الناقص .

٧ - ﴿وإنهم لكاذبون﴾ وردت الصيغة مؤكدة بمؤكدين « إن » و « اللام » للتنبية على أن الكذب
 طبيعتهم .

٨ - ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعبٌ وهو﴾ تشبيه بليغ حيث جعلت الدنيا نفس اللعب واللهو مبالغة
 كقول الخنساء : « فإنما هي إقبال وإدبار » .

٩ - ﴿أفلا تعقلون﴾ الاستفهام للتوبيخ .

١٠ - ﴿كذبت رسل﴾ تنوين رسل للتفخيم والتكثير .

تَبْيِيهٌ : قال الإمام الفخر : قوله تعالى ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ يقتضي له جواباً وقد حُذِفَ تفخيماً للأمر وتعظيماً للشأن ، وأشباهه كثير في القرآن والشعر ، وحذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره ألا ترى أنك لو قلت لغلامك : والله لئن قمتُ إليك - وسكتَ عن الجواب - ذهب فكره إلى أنواع المكروه من الضرب ، والقتل ، والكسر ، وعظم خوفه لأنه لم يدر أي الأقسام تبغي ، ولو قلت : والله لئن قمتُ إليك لأضربنك فأتيتَ بالجواب لعلم أنك لم تبلغ شيئاً غير الضرب ، فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيراً في حصول الخوف^(١) .

قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ . . . إِلَى . . . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ من آية (٣٦) إلى نهاية آية (٥٨) .

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر الله تعالى إعراض المشركين عن القرآن وعن الإيمان بالنبي عليه السلام ، ذكر في هذه الآيات السبب في ذلك وهو أن القرآن نور وشفاء يهتدي به المؤمنون ، وأما الكافرون فهم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ولا يستجيبون ، ثم ذكر اقتراح المشركين بعض الآيات وشبههم بالصم البكم الذين لا يعقلون .

اللِّغْزُ : ﴿تَضَرَّعُوا﴾ التضرع من الضراعة وهي الذلة يقال : ضرع فهو ضارِعٌ ﴿البأساء﴾ من البؤس وهو الفقر ﴿الضراء﴾ من الضر وهو البلاء قال القرطبي : البأساء في الأموال ، والضراء في الأبدان ، هذا قول الأكثر^(٢) ﴿مبلسون﴾ المبلس : اليأس من الخير من أبلس الرجل إذا يئس ومنه «إبليس» لأنه أبلس من رحمة الله عز وجل^(٣) ﴿دابِرٌ﴾ الدابر : الآخر ودابر القوم : خلفهم من نسلهم قال قطرب : يعني استؤصلوا وأهلكوا قال الشاعر :

فأهلكو بعدابٍ حصَّ دابِرهْمُ فما استطاعوا له صرفاً ولا انتصروا^(٤)

﴿يصدفون﴾ صدَفَ عن الشيء أعرض عنه ﴿تطرد﴾ الطرد : الإبعاد مع الإهانة ﴿الفاصلين﴾ الحاكمين .

سَبَبُ النِّزُولِ : عن ابن مسعود قال : مرَّ الملائم من قريش على رسول الله ﷺ وعنده «صهيب ، وخبَّاب ، وبلال ، وعمَّار» وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يا محمد : أرضيتَ بهؤلاء من قومك ! أفنحن نكون تبعاً لهم ! أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم ! اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم إتبعناك فأنزل الله تعالى ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ الآية^(٥) .

(١) التفسير الكبير ١٢ / ١٩٠ . (٢) القرطبي ٦ / ٤٢٤ . (٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٣ .

(٤) البيت لأمية بن أبي الصلت كذا في القرطبي ٦ / ٤٢٧ . (٥) أسباب النزول ص ١٢٤ .

* إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءِ اللَّهُ يُضِلِّهِ وَمَن يَشَاءِ يُجْعَلُهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

التفسير : ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ أي إنما يستجيب للإيمان الذين يسمعون سماع قبول وإصغاء ، وهنا تم الكلام ثم ابتداء فقال ﴿والموتى يبعثهم الله﴾ قال ابن كثير : يعني بذلك الكفار لأنهم موتى القلوب فشبهم الله بأموات الأجساد ، وهذا من باب التهكم بهم والإزرار عليهم^(١) وقال الطبري : يعني والكفار يبعثهم الله مع الموتى ، فجعلهم تعالى ذكره في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتاً ، ولا يعقلون دعاءً ، ولا يفقهون قولاً ، إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله ولا يعتبرون بآياته ولا يتذكرون فينجزون عن تكذيب رسل الله^(٢) ﴿ثم إليه يرجعون﴾ أي ثم مرجعهم إلى الله فيجازيهم بأعمالهم ﴿وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه﴾ أي قال كفار مكة هلاً نزل على محمد معجزة تدل على صدقه كالناقة والعصا والمائدة قال القرطبي وكان هذا منهم تعنتاً بعد ظهور البراهين وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة من مثله^(٣) ﴿قل إن الله قادر على أن ينزل آية﴾ أي هو تعالى قادر على أن يأتيهم بما اقترحوا ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون أن إنزالها يستجلب لهم البلاء لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السابقة ﴿وما من دابة في الأرض﴾ أي ما من حيوان يمشي على وجه الأرض ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ أي ولا من طائر يطير في الجو بجناحيه ﴿إلا أمم أمثالكم﴾ أي إلا طوائف مخلوقة مثلكم خلقها الله وقدر أحوالها وأرزاقها وأجالها قال البيضاوي : والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية^(٤) ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ أي ما تركنا وما أغفلنا في القرآن شيئاً من أمر الدين يحتاج الناس إليه في أمورهم إلا بيناه وقيل : إن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ويكون المعنى : ما تركنا في اللوح المحفوظ شيئاً فلم نكتبه^(٥) ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾ أي يجمعون فيقضي بينهم قال الزمخشري : يعني الأمم كلها من الدواب والطيير فيعوضها وينصف بعضها من بعض كما روي أنه يأخذ للجاء من القرناء^(٦) ﴿والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات﴾ أي والذين كذبوا بالقرآن صم لا يسمعون كلام الله سماع قبول بكم لا ينطقون بالحق خابطون

(١) ابن كثير ٥٧٦/١ (٢) الطبري ٣٤١/١١ (٣) القرطبي ٤١٩/٦ (٤) البيضاوي ص ١٧٠ .

(٥) هذا اختيار الطبري والزمخشري والجلالين ورجح أبو حيان في البحر المحيط أن المراد بالكتاب القرآن العظيم ثم قال : وهذا الذي يقتضيه

سياق الآية والمعنى وبه بدأ ابن عطية (٦) الكشف ١٦/٢

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرْتُمْ اللَّهَ تَدْعُونَ ﴿٤١﴾ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٢﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٤﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٥﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٦﴾ فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾

في ظلمات الكفر قال ابن كثير : وهذا مثل أي مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم وهو الذي لا يسمع ، أبكم وهو الذي لا يتكلم ، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر ، فكيف يهتدى مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه ^(١) ! ﴿ من يشأ الله يضلله ومن يشأ الله يجعله على صراطٍ مستقيم ﴾ أي من يشأ الله إضلاله يضلله ومن يشأ هدايته يرشده إلى الهدى ويوفقه لدين الإسلام ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ﴾ استفهام تعجب أي أخبروني إن أتاكم عذاب الله كما أتى من قبلكم أو أتتكم القيامة بغتة من تدعون ؟ ﴿ أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ﴾ أي أتدعون غير الله لكشف الضر عنكم ؟ إن كنتم صادقين في أن الأصنام تنفعكم ﴿ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾ أي بل تحصونه تعالى بدعائكم في الشدائد فيكشف الضر الذي تدعونه إلى كشفه إن شاء كشفه ﴿ وتنسون ما تشركون ﴾ أي تتركون الآلهة فلا تدعونها لاعتقادكم أن الله تعالى هو القادر على كشف الضر وحده دون سواه ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ أي والله لقد أرسلنا رسلاً إلى أمم كثيرين من قبلك فكذبوهم ﴿ فأخذناهم بالبأساء والضراء ﴾ أي بالفقر والبؤس والأسقام والأوجاع ﴿ لعلهم يتضرعون ﴾ أي لكي يتضرعوا إلى الله بالتذلل والإنابة ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ﴾ لولا للتحضيض أي فهلا تضرعوا حين جاءهم العذاب ، وهذا عتاب على ترك الدعاء وإخبار عنهم أنهم لم يتضرعوا مع قيام ما يدعوهم إلى التضرع ﴿ ولكن قست قلوبهم ﴾ أي ولكن ظهر منهم النقيض حيث قست قلوبهم فلم تلن للإيمان ﴿ وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾ أي زين لهم المعاصي والإصرار على الضلال ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ أي لما تركوا ما وعظوا به ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ أي من النعم والخيرات استدراجاً لهم ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا ﴾ أي فرحوا بذلك النعيم وازدادوا بطراً ﴿ أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون ﴾ أي أخذناهم بعدابنا فجأة فإذا هم يائسون قانطون من كل خير ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا ﴾ أي استؤصلوا وهلكوا عن آخرهم ﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ أي على نصر الرسل وإهلاك الكافرين قال الحسن : مكر بالقوم ورب الكعبة ، أعطوا حاجتهم ثم أخذوا ^(٢) وفي الحديث (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يجب فإنما هو

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرَفُ
 الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٨﴾
 وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَالَّذِينَ
 كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ
 وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

استدراج ثم قرأ ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة
 فإذا هم مبلسون﴾ (١) ﴿قل أرايتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم﴾ أي قل يا محمد هؤلاء المكذبين المعاندين
 من أهل مكة أخبروني لو أذهب الله حواسكم فأصمكم وأعماكم ﴿وختم على قلوبكم﴾ أي طبع على قلوبكم
 حتى زال عنها العقل والفهم ﴿من إله غير الله يأتيكم به﴾ أي هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم
 إذا سلبه الله منكم؟ ﴿انظر كيف نصرّف الآيات ثم هم يصدفون﴾ أي انظر كيف نبين ونوضح الآيات
 الدالة على وحدانيتنا ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها فلا يعتبرون ﴿قل أرايتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو
 جهرة﴾ أي قل هؤلاء المكذبين أخبروني إن أتاكم عذاب الله العاجل فجأة أو عياناً بالليل أو بالنهار ﴿هل
 يهلك إلا القوم الظالمون﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي ما يهلك بالعذاب إلا أنتم لأنكم كفرتم
 وعاندم ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ أي ما نرسل الرسل إلا لتبشير المؤمنين بالشواب ،
 وإنذار الكافرين بالعقاب ، وليس إرسا لهم ليأتوا بما يقترحه الكافرون من الآيات ﴿فمن آمن وأصلح فلا خوف
 عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي فمن آمن بهم وأصلح عمله فلا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون والمراد
 أنهم لا يخافون ولا يحزنون لأن الآخرة دار الجزاء للمتقين ﴿والذين كذبوا بآياتنا يمسه العذاب بما كانوا
 يفسقون﴾ أي وأما المكذبون بآيات الله فيمسه العذاب الأليم بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله
 قال ابن عباس : يفسقون أي يكفرون (٢) ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب﴾ أي قل يا
 محمد هؤلاء الكفرة الذين يقترحون عليك تنزيل الآيات وخوارق العادات لست أدعي أن خزائن الله
 مفوضة إلي حتى تقترحوا عليّ تنزيل الآيات ولا أدعي أيضاً أنني أعلم الغيب حتى تسألوني عن وقت نزول
 العذاب ﴿ولا أقول لكم إنني ملك﴾ أي ولست أدعي أنني من الملائكة حتى تكلفوني الصعود إلى السماء
 وعدم المشي في الأسواق وعدم الأكل والشرب قال الصاوي : وهذه الآية نزلت حين قالوا له إن كنت رسولاً
 فاطلب من ربك أن يوسع علينا ويغني فقرنا وأخبرنا بمصالحنا ومضارنا فأخبر أن ذلك بيد الله سبحانه لا
 بيده (٣) . والمعنى : إنني لا أدعي شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة حتى تجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك دليلاً على

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ

عدم صحة رسالتي ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ أي ما أتبع فيما أدعوكم إليه إلا وحي الله الذي يوحى إلي ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾ أي هل يتساوى الكافر والمؤمن والضال والمهتدي ؟ ﴿أفلا تتفكرون﴾

تفريع وتوبيخ أي أستمعون فلا تفكرون ؟ ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾ أي خوف يا محمد بهذا القرآن المؤمنين المصدقين بوعد الله ووعيده الذين يتوقعون عذاب الحشر قال أبو حيان : وكأنه قيل : أنذر بالقرآن من يرجى إيمانه وأما الكفرة المعرضون فدعهم ورأيهم ﴿ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾ أي ليس لهم غير الله ولي ينصرهم ولا شفيع يشفع لهم ﴿لعلهم يتقون﴾ أي أنذرهم لكي يتقوا الكفر والمعاصي ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ أي لا تطرد هؤلاء المؤمنين الضعفاء من مجلسك يا محمد الذين يعبدون ربهم دوماً في الصباح والمساء يلتمسون بذلك القرب من الله والدنو من رضاه قال الطبري : نزلت الآية في سبب جماعة من ضعفاء المسلمين قال المشركون لرسول الله ﷺ : لو طردت هؤلاء عنك لغشيناك وحضرنا مجلسك ﴿١﴾ وأراد النبي ﷺ ذلك طمعاً في إسلامهم ﴿ما عليك من حسابهم من شيء﴾ أي لا تؤاخذ بأعمالهم وذنوبهم كقول نوح ﴿إن حسابهم إلا على ربي﴾ قال الصاوي : هذا كالتعليل لما قبله والمعنى لا تؤاخذ بذنوبهم ولا بما في قلوبهم إن أرادوا بصحبتك غير وجه الله ، وهذا على فرض تسليم ما قاله المشركون وإلا فقد شهد الله لهم بالإخلاص بقوله ﴿يريدون وجهه﴾ ﴿٣﴾ ﴿وما من حسابك عليهم من شيء﴾ وهذا التأكيد لمطابقة الكلام والمعنى لا تؤاخذ أنت بحسابهم ولا هم بحسابك فلم تطردهم ؟ وقيل إن المراد بالحساب الرزق ، والمعنى ليس رزقهم عليك ولا رزقك عليهم وإنما يرزقك وإياهم الله رب العالمين ﴿٤﴾ ﴿فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ أي لا تطردهم فإنك إن طردتهم تكون من الظالمين ، وهذا لبيان الأحكام وحاشاه من وقوع ذلك منه عليه السلام قال القرطبي : وهذا كقوله تعالى ﴿لئن أشركت ليحطنَّ عملك﴾ وقد علم الله منه أنه لا يشرك ولا يحبط عمله ﴿٥﴾ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ﴿أي ابتلينا الغني بالفقير والشريف بالوضيع﴾ ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ﴿أي ليقول الأشراف والأغنياء أهؤلاء الضعفاء والفقراء من الله عليهم بالهداية والسبق إلى الإسلام من دوننا !! قالوا ذلك إنكاراً واستهزاء كقولهم ﴿أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ قال تعالى رداً عليهم ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ أي الله أعلم بمن يشكره ويهديه ومن يكفره يخزيه ، والاستهزاء للتعريف ﴿وإذا جاءك

(١) البحر ٤/١٣٤ (٢) الطبري ١١/٣٧٤ (٣) حاشية الصاوي ١٧/٢ (٤) ذهب إلى هذا الطبري وبعض المفسرين

(٥) القرطبي ٦/٤٣٤ .

عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مِنْ عَمَلٍ مِنْكُمْ سُوءٍ أَجْهَلَةٌ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ
 نَفِصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 قُلْ لَا آتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ
 مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي
 مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكم ﴿٥٤﴾ قال القرطبي: نزلت في الذين نهى الله نبيه عليه الصلاة والسلام عن طردهم فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال (الحمد لله الذي جعل في أممي من أمرني أن أبدأهم بالسلام) ﴿٥٥﴾ وأمر ﷺ بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم وتطيباً لقلوبهم ﴿٥٦﴾ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴿٥٧﴾ أي ألزم نفسه الرحمة تفضلاً منه وإحساناً ﴿٥٨﴾ أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ﴿٥٩﴾ أي خطيئة من غير قصد قال مجاهد: أي لا يعلم حلالاً من حرام ومن جهالته ركب الأمر ﴿٦٠﴾ ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم ﴿٦١﴾ أي ثم تاب من بعد ذلك الذنب وأصلح عمله فإن الله يغفر له ، وهو وعدٌ بالمغفرة والرحمة لمن تاب وأصلح ﴿٦٢﴾ وكذلك فصل الآيات ﴿٦٣﴾ أي كما فصلنا في هذه السورة الدلائل والحجج على ضلالات المشركين كذلك نبين ونوضح لكم أمور الدين ﴿٦٤﴾ ولتستبين سبيل المجرمين ﴿٦٥﴾ أي ولتتوضح وتظهر طريق المجرمين فينكشف أمرهم وتستبين سبلهم ﴿٦٦﴾ قل إنني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ﴿٦٧﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين إنني نهيت أن أعبد هذه الأصنام التي زعمتموها آلهة وعبدتموها من دون الله ﴿٦٨﴾ قل لا أتبع أهواءكم ﴿٦٩﴾ أي في عبادة غير الله ، وفيه تنبيه على سبب ضلالهم ﴿٧٠﴾ قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ﴿٧١﴾ أي قد ضللت إن أتبع أهواءكم ولا أكون في زمرة المهتدين ﴿٧٢﴾ قل إنني على بينة من ربي ﴿٧٣﴾ أي على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إلي ﴿٧٤﴾ وكذبتكم به ﴿٧٥﴾ أي وكذبتكم بالحق الذي جاءني من عند الله ﴿٧٦﴾ ما عندي ما تستعجلون به ﴿٧٧﴾ أي ليس عندي ما أبادركم به من العذاب قال الزمخشري: يعني العذاب الذي استعجلوه في قولهم ﴿٧٨﴾ فأمطر علينا حجارة من السماء ﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾ إن الحكم إلا لله ﴿٨١﴾ أي ما الحكم في أمر العذاب وغيره إلا لله وحده ﴿٨٢﴾ يقض الحق وهو خير الفاصلين ﴿٨٣﴾ أي يجزئ الخبر الحق ويبينه البيان الشافي وهو خير الحاكمين بين عباده ﴿٨٤﴾ قل لو أن عندي ما تستعجلون به ﴿٨٥﴾ أي لو أن بيدي أمر العذاب الذي تستعجلونه ﴿٨٦﴾ لقضي الأمر بيني وبينكم ﴿٨٧﴾ أي لعجلته لكم لأستريح منكم ولكنه بيد الله قال ابن عباس: لم أهملكم ساعةً ولأهلكتمكم ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ والله أعلم بالظالمين ﴿٩٠﴾ أي هو تعالى أعلم بهم إن شاء عاجلهم وإن شاء أخر عقوبتهم ، وفيه وعيد وتهديد .

البلاغه : ١ - ﴿والموتى يعثهم الله﴾ فيه استعارة لأن الموتى عبارة عن الكفار لموت قلوبهم .

٢ - ﴿يطير بجناحيه﴾ تأكيد لدفع توهم المجاز لأن الطائر قد يستعمل مجازاً للعمل كقوله ﴿ألزمناه طائره في عنقه﴾ .

٣ - ﴿صم وبكم﴾ تشبيه بليغ أي كالصم البكم في عدم السماع وعدم الكلام فحذفت منه الأداة ووجه الشبه .

٤ - ﴿إياه تدعون﴾ فيه قصر أي لا تدعون غيره لكشف الضر ، فهو قصر صفة على موصوف .

٥ - ﴿فقطع دابر﴾ كناية عن إهلاكهم بعذاب الاستئصال .

٦ - ﴿الاعمى والبصير﴾ استعارة عن الكافر والمؤمن .

٧ - ﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء﴾ في هاتين الجملتين من أنواع البديع ما يسمى ردّ الصدر على العجز .

فكأيدة : قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ هذا إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة وأنه من أجلّ النعم وأجزل القسم^(١) .

فكأيدة : قال بعض المفسرين : إن الواجب في الدعاء بالإخلاص به لأنه تعالى قال ﴿يريدون وجهه﴾ وهكذا جميع الطاعات لا ينبغي أن تكون لشيء من أغراض الدنيا .

قال الله تعالى : ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو . . . إلى . . . عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾
من آية (٥٩) إلى نهاية آية (٧٣) .

المناسبة : لما أقام تعالى الأدلة والبراهين على وجوده ووحدانيته ، أعقبه بذكر الأدلة على صفاته القدسية : علمه ، وقدرته ، وعظمته ، وجلاله ، وسائر صفات الجلال والجمال ، ثم ذكر نعمته على العباد بإنجائهم من الشدائد ، وقدرته على الانتقام ممن خالف أمره وعصى رسله .

اللغة : ﴿كرب﴾ الكرب : الغم الذي يأخذ بالنفس ﴿شيعاً﴾ الشيعة : الفرقة تتبع الأخرى ويجمع على شيع وأشيع ﴿أبسلوا﴾ الإيسال : تسليم الإنسان نفسه للهلاك ﴿عدل﴾ فدية ﴿حميم﴾ الحميم : الماء الحار ﴿حيران﴾ الحيرة : التردد في الأمر لا يهتدي إلى مخرج منه ﴿الغيب﴾ ما غاب عن الحواس ﴿الشهادة﴾ ما كان مشاهداً ظاهراً للعيان ﴿تخشرون﴾ تجمعون .

* وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥١﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ

التفسير : ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ أي عند الله خزائن الغيب وهي الأمور المغيبة الخفية لا يعلمها ولا يحيط بها إلا هو ﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾ أي ويعلم ما في البر والبحر من الحيوانات جملة وتفصيلاً وفي كل عوالم وعجائب وسعها علمه وقدرته ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ مبالغة في إحاطة علمه بالجزئيات أي لا تسقط ورقة من الشجر إلا يعلم وقت سقوطها والأرض التي تسقط عليها ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض﴾ أي ولا حبة صغيرة في باطن الأرض إلا يعلم مكانها وهل تنبت أو لا وكم تنبت ومن يأكلها ﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ أي ولا شيء فيه رطوبة أو جفاف إلا وهو معلوم عند الله ومسجل في اللوح المحفوظ^(١) قال أبو حيان: (٢) وانظر إلى حسن ترتيب هذه المعلومات : بدأ أولاً بأمر معقول لا ندرکه نحن بالحس وهو ﴿مفاتيح الغيب﴾ ثم ثانياً بأمر ندرک كثيراً منه بالحس وهو ﴿البر والبحر﴾ ثم ثالثاً بجزأين لطيفين أحدهما علوي وهو سقوط الورقة من علو والثاني سفلي وهو اختفاء حبة في بطن الأرض فدل ذلك على أنه تعالى عالمٌ بالكلّيات والجزئيات (٣) ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ أي ينمكم بالليل ويعلم ما كسبتم من العمل بالنهار قال القرطبي: وليس ذلك موتاً حقيقة بل هو قبض الأرواح ، قال ابن عباس: يقبض أرواحكم في منامكم (٤) ، وفي هذا اعتبار واستدلال على البعث الأخرى ﴿ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى﴾ أي ثم يوقظكم في النهار لتبلغوا الأجل المسمى لانقطاع حياتكم ، والضمير عائد على النهار لأن غالب اليقظة فيه وغالب النوم بالليل ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ أي ثم مرجعكم إليه يوم القيامة ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي يخبركم بأعمالكم ويميزكم عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ثم ذكر تعالى

(١) البحر المحيط ٤/١٤٦ . (٢) كتب شهيد الإسلام « سيد قطب » في تفسيره الظلال حول هذه الآية كلاماً رائعاً نجتزئ منه بعض فقرات ، قال طيب الله ثراه « وهذه الآية صورة لعلم الله الشامل المحيط الذي لا يتد عن شيء في الزمان ولا في المكان ، في الأرض ولا في السماء ، في البر ولا في البحر ، في جوف الأرض ولا في طبقات الجو ، من حي وميت ، ويايس ورطب ، إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول ، وراء حدود هذا الكون المشهود ، وإن الوجدان ليرتعث وهو يرتاد أستار الغيوب المحتمومة في الماضي والحاضر والمستقبل ، البعيدة الآماد والآفاق والأغوار ، مفاتيحها كلها عند الله لا يعلمها إلا هو ، ويجول في مجاهل البر ، وفي غيابات البحر ، المكشوفة كلها لعلم الله ، ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض لا يحصيها عد ، وعين الله على كل ورقة تسقط هنا وهناك ، ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله ، ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض لا يتد منه شيء عن علم الله المحيط ، إنها جولة تدبير الرؤوس وتذهل العقول ، جولة في أغوار من المنظور والمحجوب ، والمعلوم والمجهول ، وهي ترسم هكذا بدقة كاملة شاملة في بضع كلمات . . . ألا إنه الإعجاز » في ظلال القرآن ٧/٢٤٧ . (٣) القرطبي ٧/٥٠ (٤) زاد المسير ٣/٥٥ .

تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۗ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظِلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنَ أَنْجَلْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ

جلال عظمته وكبريائه فقال ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ أي هو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء ﴿ويُرسل عليكم حفظة﴾ أي ملائكة تحفظ أعمالكم وهم الكرام الكاتبون قال أبو السعود : وفي ذلك حكمة جميلة ونعمة جلييلة لأن المكلف إذا علم أن أعماله تُحفظ عليه وتعرض على رءوس الشهداء كان ذلك أزجر له عن تعاطي المعاصي والقبائح ^(١) ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ أي حتى إذا انتهى أجل الإنسان توفته الملائكة الموكلون بقبض الأرواح والمعنى أن حفظ الملائكة للأشخاص ينتهي عند نهاية الأجل فهم مأمورون بحفظ ابن آدم ما دام حياً فإذا انتهى أجله فقد انتهى حفظهم له ﴿وهم لا يفترطون﴾ أي لا يقصرون في شيء مما أمروا به من الحفظ والتوفي ﴿ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحق﴾ أي ثم يردُّ العباد بعد البعث إلى الله خالقهم ومالكهم الذي له الحكم والتصرف والذي لا يقضي إلا بالعدل ﴿ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ أي له جل وعلا الحكم وحده يوم القيامة وله الفصل والقضاء لا يشغله حساب عن حساب ولا شأن عن شأن ، يحاسب الخلائق كلهم في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا كما ورد به الحديث وروي أنه يحاسب الناس في مقدار حلب شاة ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البرِّ والبحر﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة من ينقذكم ويخلصكم في أسفاركم من شدائد وأهوال البرِّ والبحر ؟ ﴿تدعونه تضرعاً وخفية﴾ أي تدعون ربكم عند معاينة هذه الأهوال مخلصين له الدعاء مظهرين الضراعة ، تضرعاً بألسنتكم وخفية في أنفسكم قال ابن عباس المعنى : تدعون ربكم علانيةً وسراً قائلين ﴿لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ أي لئن خلصتنا من هذه الظلمات والشدائد لنكونن من المؤمنين الشاكرين والغرض : إذا خفتن الهلاك دعوتنوه فإذا نجاكم كفرتموه قال القرطبي : وبخهم الله في دعائهم إياه عند الشدائد وهم يدعون معه في حالة الرخاء غيره ^(٢) ﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب﴾ أي الله وحده ينجيكم من هذه الشدائد ومن كل كربٍ وغمٍ ﴿ثم أنتم تشركون﴾ تفرع وتوبيخ أي ثم أنتم بعد معرفتكم بهذا كله وتحققه تشركون به ولا تؤمنون ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة إنه تعالى قادر على إهلاككم بإرسال الصواعق من السماء وما تلقيه البراكين من الأحجار والحُمم وكالرجم بالحجارة والطوفان والصيحة والريح كما فعل بمن قبلكم ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ بالخسف والزلازل والرجفة كما فعل

أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعاً وَيَذِيقُ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٤٦﴾
 وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤٧﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤٨﴾
 وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ؕ وَإِمَّا يُنسِئَكَ الشَّيْطَانُ
 فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٩﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذِكْرَى

بقارون وأصحاب مدين ﴿أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعاً وَيَذِيقُ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي يجعلكم فرقاً متحزبين يقاتل بعضكم بعضاً قال البيضاوي : أي يخلطكم فرقاً متحزبين على أهواء شتى فينشب القتال بينكم (١) وقال ابن عباس : أي يبت فيكم الأهواء المختلفة فتصيرون فرقاً (٢) ، والكل متقارب والغرض منه الوعيد ﴿انظر كيف نصرّف الآيات لعلهم يفقهون﴾ أي انظر كيف نبين ونوضح لهم الآيات بوجوه العبر والعظات ليفهموا ويتدبروا عن الله آياته وبراهينه وحججه ، عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال رسول الله ﷺ : أعوذ بوجهك ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال رسول الله ﷺ : هذه أهون أو أيسر (٣) ﴿وكذب به قومك وهو الحق﴾ أي وكذب بهذا القرآن قومك يا محمد - وهم قريش - وهو الكتاب المنزل بالحق ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ أي لست عليكم بحفيظ ومتسلط إنما أنا منذر ﴿لكل نبيٍّ مستقر﴾ أي لكل خيرٍ من أخبار الله عز وجل وقت يقع فيه من غير خلفٍ ولا تأخير ﴿وسوف تعلمون﴾ مبالغة في الوعيد والتهديد أي سوف تعلمون ما يحل بكم من العذاب ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ أي إذا رأيت هؤلاء الكفار يخوضون في القرآن بالطعن والتكذيب والاستهزاء ﴿فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره﴾ أي لا تجالسهم وقم عنهم حتى يأخذوا في كلامٍ آخر ويدعوا الخوض والاستهزاء بالقرآن قال السدي : كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في النبي ﷺ والقرآن فسبّوه واستهزءوا به فأمرهم الله ألا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره (٤) ﴿وإمّا ينسئَكَ الشَّيْطَانُ﴾ أي إن أنساكَ الشيطان النهي عن مجالستهم فجالستهم ثم تذكرت ﴿فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ أي لا تجلس بعد تذكر النهي مع الكفرة والفساق الذين يهزءون بالقرآن والدين قال ابن عباس : أي قم إذا ذكرت النهي ولا تقعد مع المشركين ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ أي ليس على المؤمنين شيء من حساب الكفار على استهزائهم وإضلالهم إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم ﴿ولكن ذكرى لعلهم يتقون﴾ أي ولكن عليهم أن يذكرهم ويمنعوهم عما هم عليه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير (٥) ، ويظهروا لهم الكراهة لعلهم يجتنبون الخوض في

(١) البيضاوي ص/ ١٧٣ . (٢) زاد المسير ٣/ ٥٩ . (٣) أخرجه البخاري . (٤) الطبري ١١/ ٤٣٧ .

(٥) ذهب الطبري إلى أن معنى الآية : ولكن ليعرضوا عنهم حينئذ ذكرى لأمر الله ليتقوا الله .

لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦١﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَهَلْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ ۚ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ قَدْلٍ لَأَيُؤَخِّدَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٢﴾ قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ ۚ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ ۚ إِلَىٰ الْهُدَىٰ اثْتَنَاءً قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۚ وَأَمْرًا لِّنُسَلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٣﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ

القرآن حياءً من المؤمنين إذا رأوهم قد تركوا مجالستهم قال ابن عطية : ينبغي للمؤمن أن يمثل حكم هذه الآية مع الملحددين وأهل الجدل والخوض فيه (١) ﴿وذري الذين اتخذوا دينهم لعباً وهلوا﴾ أي اترك هؤلاء الفجرة الذين اتخذوا الدين الذي كان ينبغي احترامه وتعظيمه لعباً وهلوا باستهزائهم به ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ أي خدعتهم هذه الحياة الفانية حتى زعموا أن لا حياة بعدها أبداً ﴿وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت﴾ أي وذكر بالقرآن الناس مخافة أن تسلم نفس للهلاك وتُرهن بسوء عملها ﴿ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع﴾ أي ليس لها ناصر ينجيها من العذاب ولا شفيع يشفع لها عند الله ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ أي وإن تُعط تلك النفس كل فدية لا يقبل منها قال قتادة : لو جاءت بملء الأرض ذهباً لم يقبل منها (٢) ﴿أولئك الذين أسلوا بما كسبوا﴾ أي أسلموا لعذاب الله بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الشنيعة ﴿لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ أي هؤلاء الضالين شراب من ماء مغلي يتجرجر في بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم ، و نار تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم المستمر فلهم مع الشراب الحميم العذاب الأليم والهوان المقيم ﴿قل أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي قل لهم يا محمد أعبداً ما لا ينجعنا إن دعوانه ولا يضرنا إن تركناه ؟ والمراد به الأصنام ﴿ونرد على أعقابنا﴾ أي نرجع إلى الضلالة بعد الهدى ﴿بعد إذ هدانا الله﴾ أي بعد أن هدانا الله للإسلام ﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض﴾ أي فيكون مثلنا كمثل الذي اختطفته الشياطين وأضلته وسارت به في المفاوز والمهالك فألقت في هوة سحيقة ﴿حيران﴾ أي متحيراً لا يدري أين يذهب ﴿له أصحاب يدعونه إلى الهدى اثناء﴾ أي إلى الطريق الواضح يقولون ائتنا فلا يقبل منهم ولا يستجيب لهم ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ أي قل هؤلاء الكفار إن ما نحن عليه من الإسلام هو الهدى وحده وما عداه ضلال ﴿وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ أي أمرنا بأن نستسلم لله عز وجل ونخلص له العبادة في جميع أمورنا وأحوالنا ، وهذا تمثيل لمن ضل عن الهدى وهو يُدعى إلى الإسلام فلا يُجيب قال ابن عباس : هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها وللدعاة الذين يدعون إلى الله ، كمثل رجل ضل عن الطريق تائهاً ضالاً إذ ناداه مناد يا فلان بن فلان هلم إلى الطريق وله أصحاب يدعونه يا فلان هلم إلى

وَأَتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٨﴾

الطريق ، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه في الهلكة وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق يقول : مثل من يعبد هؤلاء الآلهة من دون الله فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت فيستقبل الهلكة والندامة^(١) ﴿وأن أقيموا الصلاة واتقوه﴾ أي وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقوى الله في جميع الأحوال ﴿وهو الذي إليه تحشرون﴾ أي تجمعون إليه يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق﴾ أي هو سبحانه الخالق المالك المدبر للسموات والأرض ومن فيها خلقها بالحق ولم يخلقها باطلاً ولا عبثاً ﴿يوم يقول كن فيكون﴾ أي واتقوه واتقوا عقابه والشدائد يوم يقول كن فيكون قال أبو حيان: وهذا تمثيل لإخراج الشيء من العدم إلى الوجود وسرعته لا أن ثم شيئاً يؤمر^(٢) ﴿قوله الحق وله الملك﴾ أي قوله الصدق الواقع لا محالة وله الملك يوم القيامة ﴿يوم يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أي يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية وهي نفخة الإحياء ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي يعلم ما خفي وما ظهر وما يغيب عن الحواس والأبصار وما تشاهدونه بالليل والنهار ﴿وهو الحكيم الخبير﴾ أي الحكيم في أفعاله الخبير بشئون عباده .

البلاغَة : ١ - ﴿وعنده مفاتيح الغيب﴾ استعار المفاتيح للأمور الغيبية كأنها مخازن خزنت فيها المغيبات قال الزمخشري : جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة لأن المفاتيح يتوصل بها إلى ما في المخازن المغلقة بالأقفال ، فهو سبحانه العالم بالمغيبات وحده^(٣) .

٢ - ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ استعير التوفي من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز .

٣ - ﴿فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ وضع الظاهر موضع الضمير « معهم » للتسجيل عليهم بشناعة ما ارتكبوا حيث وضعوا التكذيب والاستهزاء مكان التصديق والتعظيم .

٤ - ﴿ونرد على أعقابنا﴾ عبر بالرد على الأعقاب عن الشرك لزيادة تقييح الأمر وتشنيعه .

٥ - ﴿تعديل كل عدل﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٦ - من المحسنات البديعية الطباق في كل من ﴿رطبٍ ويابسٍ﴾ و ﴿الليل والنهار﴾ و ﴿فوق

وتحت ﴿ و ينفعنا ويضرنا ﴾ و ﴿ الغيب والشهادة ﴾ والسجع في ﴿ شرابٌ من حميم وعذابٌ أليم ﴾ والله أعلم .

تنبية : قال الحاكم : دلّ قوله تعالى ﴿ وعنده مفاتيح الغيب ﴾ على بطلان قول الإمامية : إن الإمام يعلم شيئاً من الغيب^(١) ، انتهى أقول : هذا كذب وبهتان لأن الغيب لا يعلمه إلا الله .

قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر . . إلى . . وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ من آية (٧٤) إلى نهاية آية (٩٤) .

المناسكة : لما ذكر تعالى الحجج الدامغة الدالة على التوحيد وبطلان عبادة الأوثان ، ذكر هنا قصة أب الأنبياء « إبراهيم » لإقامة الحجة على مشركي العرب في تقديسهم الأصنام ، فإنه جاء بالتوحيد الخالص الذي يتنافى مع الإشراف بالله ، وجميع الطوائف والملل معترفةً بفضل إبراهيم وجلالة قدره ، ثم ذكر شرف الرسل من أبناء إبراهيم ، وأمر رسوله بالافتداء بهديهم الكريم .

اللغز : ﴿ ملكوت ﴾ ملك والواو والتاء للمبالغة في الوصف كالرغبوت والرهبوت من الرغبة والرهبنة ﴿ جن ﴾ ستره بظلمته قال الواحدي : جنّ عليه الليل وأجنّه الليل ويقال لكل ما سترته جنّ وأجنّ ومنه الجنة ، والجنّ والجنون ، والجنين وكل هذا يعود أصله إلى الستروالاستتار^(٢) ﴿ بازغاً ﴾ طالعاً يقال : بزغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع قال الأزهري : كأنه مأخوذ من البزغ وهو الشق لأنه بنوره يشق الظلمة شقاً^(٣) ﴿ أفل ﴾ غاب يقال : أفل أفولاً إذا غاب ﴿ سلطاناً ﴾ حجة ﴿ يلبسوا ﴾ يخلطوا يقال : لبس الأمر خلطه ولبس الثوب اكتسى به ﴿ اجتبيناهم ﴾ اصطفيناهم ﴿ قراطيس ﴾ جمع قرطاس وهو الورق قال الشاعر :

استودع العلم قرطاساً فضيئعه فبسّ مستودع العلم القراطيسُ

﴿ غمرات ﴾ الغمرة : الشدة المذهلة وأصله من غمرة الماء وهي ما يغطي الشيء ﴿ خولناكم ﴾ أعطيناكم وملكناكم والتحويل : المنح والإعطاء ﴿ ضلّ عنكم ﴾ ضاع وبطل .

سبب النزول : عن سعيد بن جبیر أن « مالك بن الصيّف » من اليهود جاء يخاصم النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ : أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أنّ الله يبغض الحبر السمين ؟ وكان حبراً سميئاً - فغضب وقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء فقال له أصحابه الذين معه ويحك ولا على موسى ؟ فقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء فأنزل الله ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء . . ﴾^(٤) الآية .

(١) محاسن التأويل ٦/٢٣٤٣ . (٢) تفسير الرازي ١٣/٤٦ .

(٣) تهذيب اللغة مادة بزغ . (٤) أسباب النزول ص ١٢٦ والقرطبي ٧/٣٧ .

* وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَسْنَمَاءُ إِلَهَةٌ ۖ إِنِّي أَرَبُّكَ وَقَوْمِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ ۖ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلذِّى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ

النفسير : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه أزر أنتخذ أصناماً إلهة ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك عبدة الأوثان وقت قول إبراهيم - الذي يدعون أنهم على ملته - لأبيه أزر منكراً عليه أنتخذ أصناماً إلهة تعبدها وتجعلها رباً دون الله الذي خلقك فسواك ورزقك ؟ ﴿ إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ أي فأنت وقومك في ضلال عن الحق مبين واضح لا شك فيه ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ أي نرى إبراهيم الملك العظيم والسلطان الباهر ﴿ وليكون من الموقنين ﴾ أي وليكون من الراسخين في اليقين أريناه تلك الآيات الباهرة قال مجاهد : فرجت له السموات والأرض فرأى ببصره الملكوت الأعلى والملكوت الأسفل ^(١) ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ﴾ أي فلما ستر الليل بظلمته كل ضياء رأى كوكباً مضيئاً في السماء هو الزهرة أو المشتري ﴿ قال هذا ربي ﴾ أي على زعمكم قاله على سبيل الرد عليهم والتوبيخ لهم واستدرجاً لهم لأجل أن يعرفهم جهلهم وخطأهم في عبادة غير الله قال الزمخشري : كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكب فأراد أن ينههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدٌ إلى ألا يكون شيء منها إلهاً وأن وراءها محدثاً أحدثها ، ومدبراً دبّر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وقوله ﴿ هذا ربي ﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل ، فيحكى قوله كما هو غير متعصب لمذهبه لأن ذلك أدعى إلى الحق ثم يكرُّ عليه فيبطله بالحجة ^(٢) ﴿ فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ أي فلما غاب الكوكب قال لا أحب عبادة من كان كذلك ، لأن الرب لا يجوز عليه التغير والانتقال لأن ذلك من صفات الأجرام ﴿ فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي ﴾ أي فلما رأى القمر طالعا منتشرا الضوء قال هذا ربي على الأسلوب المتقدم لفتاً لأنظار قومه إلى فساد ما يعبدونه وتسفيهاً لأحلامهم ﴿ فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لآكونن من القوم الضالين ﴾ أي فلما غاب القمر قال إبراهيم لئن لم يثبني ربي على الهدى لآكونن من القوم الضالين ، وفيه تعريض لقومه بأنهم على ضلال ﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ﴾ أي هذا أكبر من الكوكب والقمر ﴿ فلما أفلت قال يا قوم إنني بريء مما تشركون ﴾ أي فلما غابت الشمس قال أنا بريء من إشراككم

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ

وأصنامكم قال أبو حيان: لما أوضح لهم أن هذا الكوكب الذي رآه لا يصلح أن يكون رباً ارتقب ما هو أنور منه وأضوأ فرأى القمر أول طلوعه، ثم لما غاب ارتقب الشمس إذ كانت أنور من القمر وأضوأ، وأكبر جرمًا وأعم نفعاً، فقال ذلك على سبيل الاحتجاج عليهم وبين أنها مساوية للنجم في صفة الحدوث^(١) وقال ابن كثير: والحق أن إبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والكواكب السيارة وأشدهن إضاءة الشمس ثم القمر ثم الزهرة فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾^(٢) ﴿إني وجهت وجهي﴾ أي قصدت بعبادتي وتوحيدي ﴿للمذي فطر السموات والأرض﴾ أي الله الذي ابتدع العالم وخلق السموات والأرض ﴿حنيفاً﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ﴿وما أنا من المشركين﴾ أي لست ممن يعبد مع الله غيره ﴿وحاجه قومه﴾^(٣) أي جادلوه وناظروه في شأن التوحيد قال ابن عباس: جادلوه في أهنتهم وخوفه بها فأجابهم منكرًا عليهم ﴿قال أتُحْجُّونِي فِي اللَّهِ﴾ أي أتجادلونني في وجود الله ووحدانيته ﴿وقد هدان﴾ أي وقد بصرني وهداني إلى الحق ﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ أي لا أخاف هذه الآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله لأنها لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع وليست قادرة على شيء مما ترعونون ﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً﴾ أي إلا إذا أراد ربي أن يصيبني شيء من المكروه فيكون ﴿وسع ربي كل شيء علماً﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء ﴿أفلا تتذكرون﴾ استفهام للتوبيخ أي أفلا تعتبرون وتتعتظون؟ وفي هذا تنبيه لهم على غفلتهم التامة حيث عبدوا ما لا يضر ولا ينفع وأشركوا مع ظهور الدلائل الساطعة على وحدانيته سبحانه ﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾ أي كيف أخاف أهنتكم التي أشركتموها مع الله في العبادة! ﴿ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً﴾ أي وأنتم لا تخافون الله القادر على كل شيء الذي أشركتم به بدون حجة ولا برهان ﴿فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾ أي أينا أحق بالأمن أنحن

(١) البحر المحيط ٤/١٦٧ . (٢) مختصر ابن كثير ١/٥٩٢ .

(٣) ذهب بعض المفسرين إلى أن قول إبراهيم عن الكوكب ﴿هذا ربي﴾ إنما كان في حال الطفولة قبل استحكام النظر في معرفة الله جل وعلا ، والصحيح ما ذهب إليه الجمهور من أن هذا القول كان في مقام المناظرة لقومه لإقامة الحجة عليهم في بطلان عبادة الكواكب والشمس والقمر ، وأن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح البراهين ، وما يدل عليه قوله تعالى ﴿وحاجه قومه﴾ وقوله ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ فالقائم مقام مناظرة - كما قال الحافظ ابن كثير - لا مقام نظر ، وحاشا الخليل أن يشك في الرب الجليل وهو أب الأنبياء وإمام الخنفاء ، وقد ساق « الفخر الرازي » اثنتي عشرة حجة في تأييد مذهب الجمهور في تفسيره الكبير ج ١٣ ص ٤٧ وهذا اختيار أساطين المفسرين كالقرطبي والزنجشيري وأبي السعود وابن كثير وصاحب البحر المحيط والله أعلم .

تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حِجَّتُنَا
 آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ
 نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ

وقد عرفنا الله بأدلة وخصصناه بالعبادة أم أنتم وقد أشركتم معه الأصنام وكفرتهم بالواحد
 الديان؟ ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿أولئك لهم الأمن وهم
 مهتدون﴾ أي لهم الأمن من العذاب وهم على هداية ورشاد ، روي أن هذه الآية لما نزلت أشفق منها
 أصحاب النبي ﷺ فقالوا : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال ﷺ : ليس كما تظنون وإنما هو كما قال لقمان لابنه
 ﴿يا بُنَيَّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلمٌ عظيم﴾^(١) ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ الإشارة
 إلى ما تقدم من الحجج الباهرة التي أيد الله بها خليله عليه السلام أي هذا الذي احتج به إبراهيم على
 وحدانية الله من أفول الكواكب والشمس والقمر من أدلتنا التي أرشدناه لها لتكون له الحججة الدامغة على
 قومه ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ أي بالعلم والفهم والنبوة ﴿إن ربك حكيم عليم﴾ أي حكيم يضع
 الشيء في محله عليم لا يخفى عليه شيء ﴿وهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ أي وهبنا لإبراهيم ولداً وولد ولد
 لتقر عينه ببقاء العقب ﴿كلأ هدينا﴾ أي كلأ منها أرشدناه إلى سبيل السعادة وآتيناها النبوة والحكمة قال
 ابن كثير : يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعن في السن وأيس من الولد ، وبُشّر بنوته وبأن
 له نسلًا وعقبًا وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة ، وكان هذا مجازاةً لإبراهيم حين اعتزل قومه وهاجر
 من بلادهم لعبادة الله ، فعوضه الله عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه لتقر بهم عينه^(٢) ﴿ونوحاً
 هدينا من قبل﴾ أي من قبل إبراهيم ، وذكر تعالى نوحاً لأنه أب البشر الثاني فذكر شرف أبناء إبراهيم ثم
 ذكر شرف آبائه ﴿ومن ذريته داود وسليمان﴾ أي ومن ذرية إبراهيم^(٣) هؤلاء الأنبياء الكرام ، وبدأ
 تعالى بذكر داود وسليمان لأنها جمعاً للملك مع النبوة وسليمان بن داود فذكر الأب والابن ﴿وأيوب
 ويوسف﴾ قرنهما لاشتراكهما في الإمتحان والبلاء ﴿وموسى وهارون﴾ قرنهما لاشتراكهما في الأخوة
 وقدّم موسى لأنه كليم الله ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكريم لإبراهيم
 نجزي من كان محسناً في عمله صادقاً في إيمانه ﴿وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس﴾ قرن بينهم لاشتراكهم
 في الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا ﴿كل من الصالحين﴾ أي الكاملين في الصلاح ﴿وإسماعيل
 واليسع ويونس ولوطاً﴾ إسماعيل هو ابن إبراهيم ، ويونس بن متى ، ولوط بن هاران وهو ابن أخ إبراهيم

(١) الحديث أصله في الصحيحين . (٢) مختصر ابن كثير ١/٥٩٦ . (٣) الضمير في ﴿ذريته﴾ فيه قولان : قيل إنه يرجع إلى نوح واختاره
 الفراء وابن جرير وقيل : إنه يرجع إلى إبراهيم وهو قول عطاء واختاره أبو السعود لأن مساق الآية لبيان شئون إبراهيم العظيمة .

وَلَوْ طَآءَ وَكَلَّآ فَضَلَّنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَمِنَ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٨﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ءَمَنَ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ءَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٩٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبُهْدَنُهُمْ فَقَدْ عَلَّمَهُ تَلْمِيزَهُ لَأَسْأَلَكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ءِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ ءَمُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْزِيَ قَرَاتِهِمْ فَبَدَّلَ قُرْآنَهُ لِيَكُونَ مِنَ الْكُفْرِ كَثِيرًا مِّن مَّن كَفَرُوا وَلَٰ

﴿وكلاً فضلنا على العالمين﴾ أي كلاً من هؤلاء المذكورين في هذه الآية فضلناه بالنبوة على عالمي عصرهم ﴿ومن آباؤهم وذرياتهم وإخوانهم﴾ أي وهدينا من آباؤهم وذرياتهم وإخوانهم جماعات كثيرة ﴿واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾ أي اصطفيناهم وهديناهم إلى الطريق الحق المستقيم الذي لا عوج فيه قال ابن عباس : هؤلاء الأنبياء كلهم مضافون إلى ذرية إبراهيم وإن كان فيهم من لا يلحقه بولادة من قبل أم ولا أب ^(١) ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده﴾ أي ذلك الهدى إلى الطريق المستقيم هو هدى الله يهدي به من أراد من خلقه ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ أي لو أشرك هؤلاء الأنبياء مع فضلهم وعلو قدرهم لبطل عملهم فكيف بغيرهم؟ ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة﴾ أي أنعمنا عليهم بإنزال الكتب السماوية والحكمة الربانية والنبوة والرسالة ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ أي فإن يكفر بآياتنا كفار عصرك يا محمد فقد استحفظناهم واسترعيناها ورسلنا وأنبياءنا ^(٢) ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ أي هؤلاء الرسل المتقدم ذكرهم هم الهداة المهديون فتأس واقتد بسيرتهم العطرة ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً﴾ أي قل يا محمد لقومك لا أسألكم على تبليغ القرآن شيئاً من الأجر والمال ﴿إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظة وتذكير لجميع الخلق ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ أي ما عرفوا الله حق معرفته ولا عظّموه حق تعظيمه ﴿إذ قالوا ما أنزل الله على بشرٍ من شيء﴾ أي حين أنكروا الوحي وبعثه الرسل ، والقائلون هم اليهود اللعناء تفوهوا بهذه العظيمة الشنعاء مبالغة في إنكار نزول القرآن على محمد عليه السلام ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس﴾ أي قل يا محمد هؤلاء المعاندين من أنزل التوراة على موسى نوراً يستضاء به وهداية لبني إسرائيل ؟ ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾ أي تكتبونه في قراطيس مقطعة وورقات مفرقة تبدون منها ما تشاءون وتخفون ما تشاءون

(١) البحر ١٧٣/٢ . (٢) قيل إن المراد بهم أهل المدينة من الأنصار وهو قول ابن عباس وقيل هم النبيون الثمانية عشر المذكورون في هذه

الآية وهو قول قتادة واختيار الزجاج وابن جرير .

ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى
إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ
بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ

قال الطبري : وما كانوا يكتمونهم إياهم ما فيها من أمر محمد ﷺ ونبوته ^(١) وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا
أباؤكم ﴿١﴾ أي علمتم يا معشر اليهود من دين الله وهدايته في هذا القرآن ما لم تعلموا به من قبل لا أنتم
ولا آباؤكم ﴿٢﴾ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴿٣﴾ أي قل لهم في الجواب : الله أنزل هذا القرآن
ثم اتركهم في باطلهم الذي يخوضون فيه يهزءون ويلعبون ، وهذا وعيد لهم وتهديد على إجرامهم ﴿٤﴾ وهذا
كتاب أنزلناه مبارك ﴿٥﴾ أي وهذا القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ مبارك كثير النفع والفائدة ﴿٦﴾ مصدق
الذي بين يديه ﴿٧﴾ أي يصدق كتب الله المنزلة كالطوراة والإنجيل ﴿٨﴾ ولتنذر أم القرى ومن حولها ﴿٩﴾ أي
لتنذر به يا محمد أهل مكة ومن حولها وهم سائر أهل الأرض قاله ابن عباس ﴿١٠﴾ والذين يؤمنون بالآخرة
يؤمنون به ﴿١١﴾ أي والذين يصدقون بالحشر والنشر يؤمنون بهذا الكتاب لما انطوى عليه من ذكر الوعد
والوعيد والتبشير والتهديد ﴿١٢﴾ وهم على صلاتهم يحافظون ﴿١٣﴾ أي يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل في
أوقاتها قال الصاوي : خص الصلاة بالذكر لأنها أشرف العبادات ^(١) ﴿١٤﴾ ومن أظلم ممن افترى على الله
كذبا ﴿١٥﴾ استفهام معناه النفي أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله فجعل له شركاء وأندادا ﴿١٦﴾ أو قال أوحى
إلي ولم يوح إليه شيء ﴿١٧﴾ أي زعم أن الله بعثه نبيا كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي مع أن الله لم
يرسله ﴿١٨﴾ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴿١٩﴾ أي ومن ادعى أنه سينظم كلاما يماثل ما أنزله الله كقول
الفجار ﴿٢٠﴾ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴿٢١﴾ قال أبو حيان : نزلت في النضر بن الحارث ومن معه من المستهزئين
لأنه عارض القرآن بكلام سخيف لا يذكر لسخفه ^(٢) ﴿٢٢﴾ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ﴿٢٣﴾ أي
ولو ترى يا محمد هؤلاء الظلمة وهم في سكرات الموت وشدائده، وجواب ﴿لو﴾ محذوف للتهويل أي
لرأيت أمرا عظيما ﴿٢٤﴾ والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ﴿٢٥﴾ أي وملائكة العذاب يضربون وجوههم
وأدبارهم لتخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم : خلصوا أنفسكم من العذاب قال الزمخشري :
المعنى يقولون هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم ، وهذه عبارة عن العنف في السياق والإلحاح
الشديد في الإزهاق من غير تنفيس وإمهال ^(٤) ﴿٢٦﴾ اليوم تجزون عذاب الهون ﴿٢٧﴾ أي تجزون العذاب الذي

أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۗ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

يقع به الهوان الشديد مع الخزي الأكيد ﴿بما كنتم تقولون على الله غير الحق﴾ أي بافترائكم على الله ونسبتكم إليه الشريك والولد ﴿وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ أي تتكبرون عن الإيمان بآيات الله فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ أي جئتمونا للحساب منفردين عن الأهل والمال والولد حفاةً عراةً غرلاً كما ورد في الحديث (أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاةً عراةً غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده . .) (١) ﴿وتركتكم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾ أي تركتم ما أعطيناكم من الأموال في الدنيا فلم تنفعكم في هذا اليوم العصيب ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعتم أنهم فيكم شركاء﴾ أي وما نرى معكم آلهتكم الذين زعتم أنهم يشفعون لكم والذين اعتقدتم أنهم شركاء لله في استحقاق العبادة ﴿لقد تقطع بينكم﴾ أي تقطع وصلكم وتشئت جمعكم ﴿وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ أي ضاع وتلاشى ما زعمتموه من الشفعاء والشركاء .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿وكذلك نري إبراهيم﴾ حكاية حال ماضية أي أريناه .

٢ - ﴿لأكوننَّ من القوم الضالين﴾ فيه تعريض بضلال قومه ، وبين لفظ ﴿الهداية والضلالة﴾ طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

٣ - ﴿وجهتُ وجهي﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٤ - ﴿هدى الله﴾ الإضافة للتشريف وبين ﴿هدى﴾ و﴿يهدي﴾ جناس الاشتقاق أيضاً .

٥ - ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ مبالغة في إنكار نزول شيء من الوحي على أحد من الرسل .

٦ - ﴿من أنزل الكتاب﴾ استفهام للتبكيك والتوبيخ .

٧ - ﴿تبدونها وتخفون﴾ بينهما طباق .

٨ - ﴿أم القرى﴾ مكة المكرمة وفيه استعارة حيث شبهت بالأم لأنها أصل المدن والقرى .

٩ - ﴿في غمرات الموت﴾ قال الشريف الرضي : هذه استعارة عجيبة حيث شبه سبحانه ما

يعتورهم من كُرب الموت وغصصه بالذين تتقاذفهم غمرات الماء ولججه وسميت غمرة

لأنها تغمر قلب الإنسان (٢) .

(١) الحديث من رواية الشيخين ومعنى « غرلاً » أي غير محتونين . (٢) تلخيص البيان ص ٣٧ .

تنبية : ذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿آزر﴾ عم إبراهيم وليس أباه وقال آخرون : إنه اسم للصنم ، والصحيح كما قال المحققون من المفسرين أنه اسم لوالد إبراهيم وقد دل على ذلك الكتاب والسنة ، والآية صريحة في أن آزر كان كافراً ولا يقدر ذلك في مقام إبراهيم عليه السلام وفي صحيح البخاري « يلقي إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قتره وغبرة . . » الحديث ودعوى إيمانه مرفوضة بنص الكتاب والسنة والله أعلم .

قال الله تعالى : ﴿إن الله فائق الحب والنوى . . إلى . . ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾

من آية (٩٥) إلى نهاية آية (١١٠) .

المناسكة : لما ذكر تعالى أمر التوحيد وأردفه بتقرير أمر النبوة ، ذكر هنا الأدلة الدالة على وجود الخالق وكمال علمه وقدرته وحكمته ، تنبيهاً على أن المقصود الأصلي إنما هو معرفة الله بذاته وصفاته وأفعاله .

اللغز : ﴿فالق﴾ الفلق : الشق ، وانفلق الصبح انشق ﴿سكناً﴾ السكن ما يسكن إليه الإنسان ويأنس به ، والسكن : الرحمة ﴿حسباناً﴾ أي بحساب قال الزمخشري : الحسبان مصدر حسب كما أن الحسبان مصدر حسب ونظيره الكفران والشكران^(١) ﴿متراكباً﴾ بعضه فوق بعض ﴿قنوان﴾ جمع قنوه وهو العذيق أي عنقود النخلة ﴿ويئعه﴾ أي نُضِجِه وإدراكه يقال : يئعت الشجرة وأئعت إذا نضجت ﴿خرقوا﴾ اختلقوا كذباً وإفكاً ﴿بديع﴾ مبدع وهو الخالق على غير مثال سابق ، والإيداع الإتيان بشيء لم يسبق إليه ولهذا يقال لمن أتى في فن من الفنون لم يسبقه فيه غيره إنه أبدع ﴿نصرّف﴾ التصريف : نقل الشيء من حال إلى حال .

سبب النزول : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال كفار قريش لأبي طالب إما أن تنهى محمداً وأصحابه عن سب آهتنا والنيل منها وإما أن نسب إلهه ونهجوهُ فنزلت ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم . .﴾^(٢) الآية وفي رواية أخرى أن المشركين قالوا يا محمد : لتنتهين عن سبك آهتنا أو لنهجون ربك^(٣) فنزلت .

* **إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** ﴿٩٥﴾
النفسير : عاد الكلام إلى الاحتجاج على المشركين بعجائب الصنع ولطائف التدبير فقال سبحانه : ﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾ أي يفلق الحب تحت الأرض لخروج النبات منها ويفلق النوى لخروج الشجر منها قال القرطبي : أي يشق النواة الميتة فيخرج منها ورقاً أخضر وكذلك الحبة^(٤) ﴿يُخْرِجُ

(١) الكشاف ٢/٣٩ . (٢) القرطبي ٧/٦١ . (٣) أسباب النزول ص ١٢٧ . (٤) القرطبي ٧/٤٤ .

فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٦٦﴾ وَهُوَ الَّذِي
 جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم
 مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٦٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
 فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ

الحي من الميت ومُخْرَجِ المَيْتِ من الحي ﴿٦٦﴾ أي يخرج النبات الغضُّ الطري من الحبِّ اليابس ، ويخرج الحبَّ
 اليابس من النبات الحي النامي وعن ابن عباس : يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، وعلى
 هذا فالحي والميت استعارة عن المؤمن والكافر ﴿٦٧﴾ ذلكم الله فأنى توفكون ﴿٦٨﴾ أي ذلكم الله الخالق المدبر فكيف
 تُصرفون عن الحق بعد هذا البيان ! ﴿٦٩﴾ فالق الإصباح ﴿٦٩﴾ أي شاق الضياء عن الظلام وكاشفه قال الطبري :
 شقَّ عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده ^(١) ﴿٧٠﴾ وجعل الليل سَكَنًا ﴿٧٠﴾ أي يسكن الناس فيه عن الحركات
 ويستريحون ﴿٧١﴾ والشمس والقمر حُسْبَانًا ﴿٧١﴾ أي بحساب دقيق يتعلق به مصالح العباد ، ويُعرف بهما حساب
 الأزمان والليل والنهار ﴿٧٢﴾ ذلك تقدير العزيز العليم ﴿٧٢﴾ أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم تقدير الغالب القاهر
 الذي لا يستعصي عليه شيء العليم بمصالح خلقه وتدبيرهم ﴿٧٣﴾ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في
 ظلمات البر والبحر ﴿٧٣﴾ أي خلق لكم النجوم لتهتدوا بها في أسفاركم في ظلمات الليل في البر والبحر ، وإنما
 امتنَّ عليهم بالنجوم لأن سالكي القفار ، وراكبي البحار إنما يهتدون في الليل لمقاصدهم بها ﴿٧٤﴾ قد فصلنا
 الآيات لقوم يعلمون ﴿٧٤﴾ أي بينا الدلائل على قدرتنا لقوم يتدبرون عظمة الخالق ﴿٧٥﴾ وهو الذي أنشأكم من نفسٍ
 واحدة ﴿٧٥﴾ أي خلقكم وأبدعكم من نفسٍ واحدة هي آدم عليه السلام ﴿٧٦﴾ فمستقرٌّ ومستودعٌ ﴿٧٦﴾ قال ابن
 عباس : المستقرُّ في الأرحام والمستودع في الأصلاب ، أي لكم استقرار في أرحام أمهاتكم وأصلاب
 آبائكم ، وقال ابن مسعود : مستقر في الرحم ومستودع في الأرض التي تموت فيها ﴿٧٧﴾ قد فصلنا الآيات لقوم
 يفقهون ﴿٧٧﴾ أي بينا الحجج لقوم يفقهون الأسرار والدقائق قال الصاوي : عبر هنا بـ ﴿٧٨﴾ يفقهون ﴿٧٨﴾ إشارة إلى أن
 أطوار الإنسان وما احتوى عليه أمرٌ خفيٌ تتحير فيه الألباب ، بخلاف النجوم فأمرها ظاهر مشاهد ، ولذا
 عبر فيها بـ ﴿٧٩﴾ يعلمون ﴿٧٩﴾ وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء ﴿٨٠﴾ أي أنزل من السحاب
 المطر فأخرج به كل ما ينبت من الحبوب والفواكه والثمار والبقول والحشائش والشجر قال الطبري : أي
 أخرجنا به ما ينبت به كل شيء وينمو عليه ويصلح ^(٢) ﴿٨١﴾ فأخرجنا منه خضراً ﴿٨١﴾ أي أخرجنا من النبات شيئاً
 غضباً أخضر ﴿٨٢﴾ نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴿٨٢﴾ أي نُخْرِجُ مِنْهُ خَضِرًا مُتَرَاكِبًا بِعَضِّهِ فَوْقَ بَعْضِ كَسَابِلِ الْخِنْطَةِ
 والشعير قال ابن عباس : يريد القمح والشعير والذرة والأرز ﴿٨٣﴾ ومن النخل من طلعها قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴿٨٣﴾ أي

(١) الطبري ٥٥٤/١١ . (٢) وفسر المستقر أيضاً بالاستقرار فوق الأرض والمستودع تحت الأرض واختار الطبري العموم .

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣٤/٢ . (٤) الطبري ٥٧٣/١١ .

مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٢٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٠١﴾ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٢٠٢﴾

وأخرجنا من طلع النخل - والطلع أول ما يخرج من التمر في أكمامه - عناقيد قريبة سهلة التناول قال ابن عباس : يريد العراجين التي قد تدلت من الطلع دانيةً ممن يجنيها ﴿وجناتٍ من أعناب﴾ أي وأخرجنا بالماء بساتين وحدائق من أعناب ﴿والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه﴾ أي وأخرجنا به أيضاً شجر الزيتون وشجر الرمان مشتبهاً في المنظر وغير متشابه في الطعم قال قتادة : مشتبهاً ورقه مختلفاً ثمره ، وفي ذلك دليل قاطع على الصانع المختار العليم القدير ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾ أي انظروا أيها الناس نظر اعتبار واستبصار إلى خروج هذه الثمار من ابتداء خروجها إلى انتهاء ظهورها ونضجها كيف تنتقل من حال إلى حال في اللون والرائحة والصغر والكبر، وتأملوا ابتداء الثمر حيث يكون بعضه مرأً وبعضه مالحاً لا يُنتفع بشيء منه ، ثم إذا انتهى ونضج فإنه يعود حلواً طيباً نافعاً مستساغ المذاق ! فسبحان القدير الخلاق !! ﴿إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي إن في خلق هذه الثمار والزروع مع اختلاف الأجناس والأشكال والألوان لدلائل باهرة على قدرة الله ووحدانيته لقوم يصدقون بوجود الله قال ابن عباس : يصدقون أن الذي أخرج هذا النبات قادرٌ على أن يحيي الموتى ^(١) ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ أي وجعلوا الجن شركاء لله حيث أطاعوهم في عبادة الأوثان ﴿وخلقهم﴾ أي وقد علموا أنه تعالى هو الذي خلقهم وانفرد بإيجادهم فكيف يجعلونهم شركاء له ؟ وهذه غاية الجهالة ﴿وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم﴾ أي واختلقوا ونسبوا إليه تعالى البنين والبنات حيث قالوا : عزيز ابن الله والملائكة بناتُ الله سفهاً وجهالةً ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ أي تنزه الله وتقدس عن هذه الصفات التي نسبها إليه الظالمون وتعالى علواً كبيراً ﴿بديع السموات والأرض﴾ أي مبدعها من غير مثالٍ سبق ﴿ألم يكن له ولد ولم تكن له صاحبة﴾ أي كيف يكون له ولد وليس له زوجة ؟ والولد لا يكون إلا من زوجة ﴿وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾ أي وما من شيء إلا هو خالقه والعالم به ومن كان كذلك كان غنياً عن كل شيء قال في التسهيل : والغرض الرد على من نسب لله الولد من وجهين : أحدهما أن الولد لا يكون إلا من جنس والده والله تعالى متعالٍ عن الأجناس لأنه مبدعها فلا يصح أن يكون له ولد ، والثاني : أن الله خلق السموات والأرض ومن كان هكذا فهو غني عن الولد وعن كل شيء ^(٢) ثم أكد تعالى على وحدانيته وتفردده بالخلق والإيجاد فقال ﴿ذلكم

لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿٦٦﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٦٧﴾ وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٧٠﴾ وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا

الله ربكم لا إله إلا هو ﴿٦٦﴾ أي ذلكم الله خالقكم ومالككم ومدبّر أموركم لا معبود بحق سواه ﴿٦٧﴾ خالق كل شيء فاعبدوه ﴿٦٨﴾ أي هو الخالق لجميع الموجودات ومن كان هكذا فهو المستحق للعبادة وحده ﴿٦٩﴾ وهو على كل شيء وكيل ﴿٧٠﴾ أي وهو الحافظ والمدبر لكل شيء ففوضوا أموركم إليه وتوسلوا إليه بعبادته ﴿٦٦﴾ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴿٦٧﴾ أي لا تصل إليه الأبصار ولا تحيط به وهو يراها ويحيط بها لشمول علمه تعالى للخفيات ﴿٦٨﴾ وهو اللطيف الخبير ﴿٦٩﴾ أي اللطيف بعباده الخبير بمصالحهم قال ابن كثير: ونفي الإدراك الخاص لا ينفي الرؤية يوم القيامة إذ يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء، فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه تعالى وتقدس فلا تدركه الأبصار ولهذا كانت عائشة تثبت الرؤية في الآخرة وتنفيها في الدنيا وتحتج بهذه الآية (١) ﴿٦٦﴾ قد جاءكم بصائر من ربكم ﴿٦٧﴾ أي قد جاءكم البينات والحجج التي تبصرون بها الهدى من الضلال وتميزون بها بين الحق والباطل قال الزجاج: المعنى قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والبصائر (٢) ﴿٦٧﴾ فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها ﴿٦٨﴾ قال الزمخشري: المعنى من أبصر الحق وأمن فلنفسه أبصر وإياها نفع ومن عمي عنه فعلى نفسه عمي وإياها ضرر بالعمى (٣) ﴿٦٩﴾ وما أنا عليكم بحفيظ ﴿٧٠﴾ أي لست عليكم بحافظ ولا رقيب وإنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم ﴿٦٦﴾ وكذلك نصرّف الآيات ﴿٦٧﴾ أي وكما بينا ما ذكر نيّن الآيات ليعتبروا ﴿٦٨﴾ وليقولوا درست ﴿٦٩﴾ أي وليقول المشركون درست يا محمد في الكتب وقرأت فيها وجئت بهذا القرآن، واللام العاقبة ﴿٧٠﴾ ولنبيته لقوم يعلمون ﴿٦٦﴾ أي ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه ﴿٦٧﴾ اتبع ما أوحى إليك من ربك ﴿٦٨﴾ أي اتبع يا محمد القرآن الذي أوحاه الله إليك قال القرطبي: أي لا تشغل قلبك وخطرك بهم بل اشتغل بعبادة الله (٤) ﴿٦٩﴾ لا إله إلا هو ﴿٧٠﴾ أي لا معبود بحق إلا هو ﴿٦٦﴾ وأعرض عن المشركين ﴿٦٧﴾ أي لا تحتفل بهم ولا تلتفت إلى آرائهم ﴿٦٨﴾ ولو شاء الله ما أشركوا ﴿٦٩﴾ أي لو شاء الله هدايتهم لهداهم فلم يشركوا ولكنه سبحانه يفعل ما يشاء ﴿٧٠﴾ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿٦٦﴾ وما جعلناك عليهم حفيظاً ﴿٦٧﴾ أي وما جعلناك رقيباً على أعمالهم تجازيهم عليها ﴿٦٨﴾ وما أنت عليهم بوكيل ﴿٦٩﴾ أي ولست بموكل على أرزاقهم وأمورهم قال الصاوي: وهذا تأكيد لما قبله أي لست حفيظاً مراقباً لهم فتجبرهم على الإيمان وهذا كان قبل الأمر بالقتال (٥) ﴿٧٠﴾ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ﴿٦٦﴾ أي لا تسبوا آلهة المشركين وأصنامهم ﴿٦٧﴾ فيسبوا الله عدواً بغير علم ﴿٦٨﴾ أي فيسبوا الله جهلاً واعتداءً لعدم

(١) مختصر ابن كثير ١/٦٠٥ (٢) تفسير ابن الجوزي ٣/٩٩ (٣) الكشاف ٢/٤٣ (٤) القرطبي ٧/٦٠

(٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/٣٧

اللَّهُ عَدَوًّا بَغِيرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾
 وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعُرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ
 لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ وَنَقَلِبُ أَفْعِدْتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٢٠﴾

معرفتهم بعظمة الله قال ابن عباس : قال المشركون : لتنتهينَّ عن سبك آلهتنا أولنهجون ربك فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ^(١) ﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾ أي كما زينا لهؤلاء أفعالهم كذلك زينا لكل أمة عملهم قال ابن عباس : زينا لأهل الطاعة الكفر الكفر الكفر ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ أي ثم معادهم ومصيرهم إلى الله فيجازيهم بأفعالهم ، وهو وعيدٌ بالجزاء والعذاب ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ أي حلف كفار مكة بأغلظ الأيمان وأشدّها ﴿لئن جاءتهم آية لِيُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي لئن جاءتهم معجزة أو أمر خارق مما اقترحوه لِيُؤْمِنُوا بِهَا ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ أي قل لهم يا محمد أمر هذه الآيات عند الله لا عندي هو القادر على الإتيان بها دوني ﴿وما يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي وما يدرىكم أيها المؤمنون لعلها إذا جاءتهم لا يصدقون بها !! ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ أي ونحوّل قلوبهم عن الإيمان كما لم يؤمنوا بما أنزل من القرآن أول مرة قال الصاوي : وهو استئناف مسوق لبيان أن خالق الهدى والضلال هو الله لا غيره فمن أراد له الهدى حوّل قلبه له ، ومن أراد الله شقاوته حوّل قلبه لها ^(٢) ﴿ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي وتركهم في ضلالهم يتخبطون ويترددون متحيرين .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ بين لفظ الحيّ والميت طباق وهو من المحسنات البديعية وفي الآية أيضاً من المحسنات ما يسمى ردّ العجز على الصدر في قوله ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ .

٢ - ﴿فَأَنى تَوْفُكُونَ﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا وجه لصرفكم عن الإيمان بعد قيام البرهان .

٣ - ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ فيه التفاتٌ عن الغيبة والأصل فأخرج به والنكته هي الاعتناء بشأن المخرج والإشارة إلى أن نعمة عظيمة .

٤ - ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرَّهْمَانُ﴾ من عطف الخاص على العام لمزيد الشرف لأنها من أعظم النعم .

٥ - ﴿بصائر من ربكم﴾ مجاز مرسل من باب تسمية المسبب باسم السبب أي حجج وبراهين تبصرون بها الحقائق .

٦ - بين لفظ ﴿أبصر وعمي﴾ طباق وبين لفظ ﴿بصائر وأبصر﴾ جناس الاشتقاق .

تبييه : قوله تعالى ﴿لا تدركه الأبصار﴾ الآية نفت الإحاطة ولم تنف الرؤية فلم يقل تعالى : لا تراه الأبصار فمن ذهب إلى عدم رؤية الله في الآخرة كالمعتزلة فقد جانب الحق وضلّ السبيل بمخالفة ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ المتواترة أما الكتاب فقوله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة﴾ وأما السنة فما أخرج به البخاري (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته . .) الحديث وكفى بالكتاب والسنة دليلاً وهادياً .

قال الله تعالى : ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى . . إلى . . وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾
من آية (١١١) إلى نهاية آية (١٢٧) .

المناسكة : لما ذكر تعالى دلائل التوحيد والنبوة والبعث ، واقتراح المشركين بعض الآيات على رسول الله ﷺ ، ذكر هنا أن رؤية المعجزات لن تفيد من عميت بصيرته ، وأنه لو أتاهم بالآيات التي اقترحوها من إنزال الملائكة ، وإحياء الموتى حتى يكلموهم ، وحشر السباع والدواب والطيور وشهادتهم بصدق الرسول ما آمنوا بمحمد والقرآن لتأصلهم في الضلال .

اللغز : ﴿قُبلاً﴾ مقابلة ومواجهة ومنه قولهم أتيتك قبلاً لا دُبراً أي من قبل وجهك ﴿وحشراً﴾ الحشر : الجمع مع سوق وكل جمع حشراً ومنه ﴿فحشرفنادى﴾ . ﴿زخرف﴾ قال الزجاج : الزخرف الزينة وقال أبو عبيدة : كل ما حسنته وزينته وهو باطل فهو زخرف ﴿ولتصغى﴾ صغى إلى الشيء مال إليه ومثله أصغى وفي الحديث (فأصغى إليها الإناء) وأصله الميل ﴿يقترفون﴾ اقترف : اكتسب وأكثر ما يكون في الشر يقال : قرف الذنب واقترفه أي اكتسبه ﴿يخرسون﴾ يكذبون قال الأزهري : أصله الظن فيما لا يستيقن^(١) ﴿صغار﴾ ذلة وهوان ﴿يشرح﴾ يوسع والشرح : البسط والتوسعة ﴿حرجاً﴾ الحرج : شدة الضيق قال ابن قتيبة : الحرج الذي ضاق فلم يجد منفذاً^(٢) .

سبب النزول : عن ابن عباس أن أبا جهل رمى رسول الله ﷺ بفرت - وحمزة لم يؤمن بعد - فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه ويده قوس فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس فقال أبو جهل : أما ترى ما جاء به سفة عقولنا ، وسب أهتنا ، وخالف آباءنا قال حمزة : ومن أسفه منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فأنزل الله ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه . .﴾^(٣) الآية .

(١) تهذيب اللغة مادة خرص . (٢) غريب القرآن ص ١٦٠ . (٣) أسباب النزول ص ١٢٨ .

* وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴿١١٤﴾

التفسير : ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى﴾ هذا بيان لكذب المشركين في أيمانهم الفاجرة حين أقسموا ﴿لئن جاءتهم آية لؤمنن بها﴾ والمعنى : ولو أننا لم نفتصر على إيتاء ما اقترحوه من آية واحدة من الآيات بل نزلنا إليهم الملائكة وأحيينا لهم الموتى فكلموهم وأخبروهم بصدق محمد ﷺ كما اقترحوه ﴿وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً﴾ أي وجمعنا لهم كل شيء من الخلائق عياناً ومشاهدة ﴿ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ أي لو أعطيناهم هذه الآيات التي اقترحوها وكل آية لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله ، والغرض التيسر من إيمانهم ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾ أي ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون ذلك قال الطبري : أي يجهلون أن الأمر بمشيئة الله ، يحسبون أن الإيمان إليهم والكفر بأيديهم متى شاءوا آمنوا ، ومتى شاءوا كفروا ، وليس الأمر كذلك ، ذلك بيدي لا يؤمن منهم إلا من هديته له فوفقته ، ولا يكفر إلا من خذلته فأصللته^(١) ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن﴾ أي كما جعلنا هؤلاء المشركين أعداءك يعادونك ويخالفونك كذلك جعلنا لمن قبلك من الأنبياء أعداء من شياطين الإنس والجن ، فاصبر على الأذى كما صبروا قال ابن الجوزي : أي كما ابتليناك بالأعداء ابتلينا من قبلك من الأنبياء ليعظم الثواب عند الصبر على الأذى^(٢) ﴿يوحى بعضهم إلى بعض﴾ أي يوسوس بعضهم إلى بعض بالضلال والشر ﴿زخرف القول غروراً﴾ أي يوسوسون بالكلام المزين والأباطيل المموهة ليغروا الناس ويخدعوهم قال مقاتل : وكل إبليس بالإنس شياطين يضلونهم فإذا التقى شيطان الإنس بشيطان الجن قال أحدهما لصاحبه : إني أضللت صاحبي بكذا وكذا فأصلل أنت صاحبي بكذا وكذا ، فذلك وحي بعضهم إلى بعض^(٣) ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ أي لو شاء الله ما عادى هؤلاء أنبياءهم ولكن حكمة الله اقتضت هذا الابتلاء قال ابن كثير : وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيبته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء^(٤) ﴿فذرهم وما يفترون﴾ أي اتركهم وما يدبرونه من المكائد فإن الله كافيك وناصرك عليهم ﴿ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي ولتتميل إلى هذا القول المزخرف لقلب الكفرة الذين لا يصدقون بالآخرة ﴿وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ أي وليرضوا بهذا الباطل وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الآثام ﴿أفغير الله أبتغي حكماً﴾ أي قل لهم يا محمد أغير الله أطلب قاضياً بيني وبينكم ؟ قال أبو حيان : قال

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۗ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تَطَّعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ بِعَايَنَتِهِ ۗ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ

مشركو قريش لرسول الله ﷺ : اجعل بيننا وبينك حكماً إن شئت من أحبار اليهود أو النصارى ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك فنزلت^(١) ﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾ أي أنزل إليكم القرآن بأوضح بيان ، مفصلاً فيه الحق والباطل موضعاً الهدى من الضلال ﴿والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزلٌ من ربك بالحق﴾ أي وعلماء اليهود والنصارى يعلمون حق العلم أن القرآن حق لتصديقه ما عندهم ﴿فلا تكوننَّ من الممترين﴾ أي فلا تكوننَّ من الشاكين قال أبو السعود : وهذا من باب التهيج والإلهاب وقيل : الخطاب للرسول والمراد به الأمة^(٢) ﴿وتمَّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ أي تمَّ كلام الله المنزل صدقاً فيما أخبر ، وعدلاً فيما قضى وقدر ﴿لا مبدل لكلماته﴾ أي لا مغير لحكمه ولا راد لقضائه ﴿وهو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال العباد العليم بأحوالهم ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلُّوك عن سبيل الله﴾ أي إن تطع هؤلاء الكفار وهم أكثر أهل الأرض يضلُّوك عن سبيل الهدى قال الطبري : وإنما قال ﴿أكثر من في الأرض﴾ لأنهم كانوا حينئذٍ كفاراً أضللاً والمعنى : لا تطعهم فيما دعوك إليه فإنك إن أطعتهم ضللت ضلالهم وكنتم مثلهم لأنهم لا يدعونك إلى الهدى وقد أخطأوه^(٣) ﴿إن يتبعون إلا الظنَّ وإن هم إلا يخرصون﴾ أي ما يتبعون في أمر الدين إلا الظنون والأوهام يقلدون آباءهم ظناً منهم أنهم كانوا على الحق وما هم إلا قوم يكذبون ﴿إن ربك هو أعلم من يضلُّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ أي إن ربك يا محمد أعلم بالفريقين بمن ضلَّ عن سبيل الرشاد وبمن اهتدى إلى طريق الهدى والسداد قال في البحر : وهذه الجملة خبرية تتضمن الوعيد والوعد لأن كونه تعالى عالماً بالضال والمهتدي كناية عن مجازاتها^(٤) ﴿فكلوا مما ذُكر اسمُ الله عليه إن كنتم مؤمنين﴾ أي كلوا مما ذبحتم وذكرتم اسم الله عليه إن كنتم حقاً مؤمنين قال ابن عباس : قال المشركون للمؤمنين إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله فما قتله الله - يريدون الميتة - أحق أن تأكلوه مما قتلتم أتم فنزلت الآية^(٥) ﴿وما لكم أَلَّا تأكلوا مما ذُكر اسمُ الله عليه﴾ أي وما المانع لكم من أكل ما ذبحتموه بأيديكم بعد أن ذكرتم اسم ربكم عليه عند ذبحه ؟ ﴿وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه﴾ أي وقد

(١) البحر المحيط ٤/٢٠٦ . (٢) أبو السعود ٤/٢٧٤ . (٣) الطبري ١٢/٦٤ . (٤) البحر المحيط ٤/٢١٠ . (٥) زاد المسير ٣/١١٢ .

عَلِمَ إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٣﴾ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۗ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١١٤﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١١٥﴾ أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٦﴾ وَكَذَلِكَ

بَيَّنَّ لَكُمْ رَبِّكُمْ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ وَوَضَّحَ لَكُمْ مَا يَحْرِمُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمَيْتَةِ وَالْدَمِ الْخَبِيثِ فِي آيَةِ الْمَحْرَمَاتِ إِلَّا فِي حَالَةِ الْاضْطِرَّارِ فَقَدْ أَحَلَّ لَكُمْ مَا حَرَّمَ أَيْضًا فَمَا لَكُمْ تَسْتَمِعُونَ إِلَى الشَّبَهَاتِ الَّتِي يَثِيرُهَا أَعْدَاؤُكُمْ الْكُفَّارُ؟ ﴿١١٣﴾ وَإِنْ كَثِيرًا لِيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿١١٤﴾ أَي وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ الْكُفَّارِ الْمَجَادِلِينَ لِيُضِلُّونَ النَّاسَ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ وَتَحْلِيلِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ شَرْعٍ مِنَ اللَّهِ بَلْ بِمَجْرَدِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ ﴿١١٥﴾ إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٦﴾ أَي الْمَجَاوِزِينَ الْحَدَّ فِي الْإِعْتِدَاءِ فَيَحْلُلُونَ وَيَحْرِمُونَ بِدُونِ دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ ، وَفِيهِ وَعِيدٌ شَدِيدٌ وَتَهْدِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ اعْتَدَى حُدُودَ اللَّهِ ﴿١١٣﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴿١١٤﴾ أَي أَتْرَكُوا الْمَعَاصِيَ ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا وَسَرَّهَا وَعِلَانِيَّتَهَا قَالَ مَجَاهِدٌ : هِيَ الْمَعْصِيَةُ فِي السَّرِّ وَالْعِلَانِيَّةِ وَقَالَ السُّدِّيُّ : ظَاهِرُهُ الزُّنَى مَعَ الْبَغْيَايَا وَبَاطِنُهُ الزُّنَى مَعَ الصَّدَائِقِ وَالْأَخْدَانِ ﴿١١٥﴾ إِنْ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١١٦﴾ أَي يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ وَالْمَعَاصِيَ وَيَأْتُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ سَيَلْقَوْنَ فِي الْآخِرَةِ جَزَاءَ مَا كَانُوا يَكْتَسِبُونَ ﴿١١٣﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴿١١٤﴾ أَي لَا تَأْكُلُوا مِنْهَا الْمُؤْمِنُونَ مِمَّا ذُبِحَ لِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ ذَكَرَ اسْمَ غَيْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ كَالَّذِي يَذْبَحُ لِلْأوثَانِ ﴿١١٤﴾ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴿١١٤﴾ أَي وَإِنْ أَكَلْنَا مِنْهُ لَمَعْصِيَةٌ وَخُرُوجٌ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ ﴿١١٤﴾ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴿١١٥﴾ أَي وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوسُوسُونَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ أَوْلِيَآئِهِمْ فِي الضَّلَالَةِ الْمَجَادِلَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْبَاطِلِ فِي قَوْلِهِمْ : أَتَأْكُلُونَ مِمَّا قَتَلْتُمْ وَلَا تَأْكُلُونَ مِمَّا قَتَلَ اللَّهُ؟ يَعْنِي الْمَيْتَةَ ﴿١١٥﴾ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١١٥﴾ أَي وَإِنْ أَطَعْتُمْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتِحْلَالِ الْحَرَامِ وَسَاعَدْتُمُوهُمْ عَلَىٰ أَبْطَالِهِمْ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ قَوْلَهُمْ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : لِأَنَّ مَنْ اتَّبَعَ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى فِي دِينِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ بِهِ ، وَمَنْ حَقَّ ذِي الْبَصِيرَةِ فِي دِينِهِ أَلَّا يَأْكُلَ مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ كَيْفَمَا كَانَ لِلتَّشْدِيدِ الْعَظِيمِ ﴿١١٦﴾ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴿١١٦﴾ قَالَ أَبُو حَيَّانٍ : لَمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ مِثْلَ تَعَالَى بِأَنَّ شَبَهَ الْمُؤْمِنِ بِالْحَيِّ الَّذِي لَهُ نُورٌ يَتَصَرَّفُ بِهِ كَيْفَمَا سَلَكَ ، وَالْكَافِرِ بِالْمُتَخَبِّطِ فِي الظُّلُمَاتِ الْمَسْتَقَرِّ فِيهَا لِيُظْهِرَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ﴿١١٦﴾ وَالْمَعْنَى : أَوْ مَنْ كَانَ بِمَنْزِلَةِ الْمَيْتِ أَعْمَى الْبَصِيرَةَ كَافِرًا ضَالًّا ، فَأَحْيَا اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ ، وَأَنْقَذَهُ مِنَ الضَّلَالَةِ بِالْقُرْآنِ ﴿١١٦﴾ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴿١١٦﴾ أَي وَجَعَلْنَا مَعَ تِلْكَ الْهُدَايَةِ النُّورِ الْعَظِيمِ الْوَضَاءَ الَّذِي يَتَأَمَّلُ بِهِ الْأَشْيَاءَ فَيَمِيزُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ﴿١١٦﴾ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴿١١٦﴾ أَي كَمَنْ هُوَ يَتَخَبِّطُ فِي الظُّلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ لَا يَعْرِفُ الْمُنْفَذَ وَلَا الْمَخْلُصَ؟ قَالَ الْبَيْضاوِيُّ : وَهُوَ مِثْلٌ لِمَنْ بَقِيَ فِي الضَّلَالَةِ لَا يَفَارِقُهَا

جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّما يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَىٰ

بحال^(١) ﴿كذلك زُيِّنَ للكافرين ما كانوا يعملون﴾ أي وكما بقي هذا في الظلمات يتخبط فيها كذلك حسناً للكافرين وزينا لهم ما كانوا يعملون من الشرك والمعاصي ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾ أي وكما جعلنا في مكة صنائدها ليمكروا فيها كذلك جعلنا في كل بلدة مجرميها من الأكابر والعظماء ليفسدوا فيها قال ابن الجوزي : وإنما جعل الأكابر فساق كل قرية لأنهم أقرب إلى الكفر بما أعطوا من الرياسة والسعة^(٢) ﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾ أي وما يدرون أن وبال هذا المكر يحيق بهم ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي وإذا جاءت هؤلاء المشركين حجة قاطعة وبرهان ساطع على صدق محمد ﷺ قالوا لن نصدق برسالته حتى نُعْطَىٰ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ مِثْلَ مَا أُعْطِيَ رُسُلُ اللَّهِ ، قال في البحر : وإنما قالوا ذلك على سبيل التهكم والاستهزاء ولو كانوا موقنين غير معاندين لاتبعوا رسل الله تعالى ، وروي أن أبا جهل قال : زاحنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يُوحى إليه ! والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحياً كما يأتية فنزلت الآية^(٣) ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أي الله أعلم من هو أهلُ للرسالة فيضعها فيه وقد وضعها فيمن اختاره لها وهو محمد ﷺ دون أكابر مكة كأبي جهل والوليد بن المغيرة ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ أي سيصيب هؤلاء المجرمين الذل والهوان ، والعذاب الشديد يوم القيامة بسبب استكبارهم ومكرهم المستمر قال في البحر : وقدم الصغار على العذاب لأنهم تمردوا عن اتباع الرسول وتكبروا طلباً للعز والكرامة فقبولوا بالهوان والذل أولاً ثم بالعقاب الشديد ثانياً ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أي من شاء الله هدايته قذف في قلبه نوراً فينفسح له وينشرح وذاك علامة الهداية للإسلام قال ابن عباس : معناه يوسع قلبه للتوحيد والإيمان ، وحين سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية قال : إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح قالوا : فهل لذلك من أمانة يُعرف بها ؟ قال : الإجابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله^(٤) ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ أي ومن يرد شقاوته وإضلاله ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ أي يجعل صدره ضيقاً شديداً الضيق لا يتسع لشيء من الهدى ، ولا يخلص إليه شيء من الإيمان

(١) البيضاوي ص ١٨١ . (٢) زاد المسير ١١٧/٣ . (٣) البحر ٢١٦/٤ . (٤) البحر ٢١٧/٤ . (٥) الطبري ١٢/١٠٠ .

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٦٦﴾ * لَهُمْ دَارُ
السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٧﴾

قال عطاء : ليس للخير فيه منفذ^(١) ﴿كأنما يصعد في السماء﴾ أي كأنما يحاول الصعود إلى السماء
ويزاول أمراً غير ممكن قال ابن جرير : وهذا مثل ضرب به الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول
الإيمان إليه ، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه لأنه ليس في وسعه^(٢) ﴿كذلك يجعل الله
الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ أي مثل جعل صدر الكافر شديد الضيق كذلك يلقي الله العذاب
والخذلان على الذين لا يؤمنون بآياته قال مجاهد : الرجس كل ما لا خير فيه وقال الزجاج : الرجس اللعنة
في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿وهذا صراط ربك مستقيماً﴾ أي وهذا الدين الذي أنت عليه يا محمد
هو الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه فاستمسك به ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون﴾ أي بينا ووضحنا
الآيات والبراهين لقوم يتدبرون بعقولهم ﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾ أي هؤلاء الذين يؤمنون
ويعتبرون ويتنفعون بالآيات دار السلام أي السلامة من المكاره وهي الجنة في نزل الله وضيافته ﴿وهو
وليهم بما كانوا يعملون﴾ أي هو تعالى حافظهم وناصرهم ومؤيدهم جزاء لأعمالهم الصالحة قال ابن
كثير : وإنما وصف تعالى الجنة هنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم ، المقتفي أثر
الأنبياء وطرائقهم ، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام^(٣) .

البلاغه : ١ - ﴿ولو شاء ربك﴾ التعرض لوصف الربوبية والإضافة إلى ضميره عليه السلام
﴿ربك﴾ لتشريف مقامه وللمبالغة في اللطف في التسلية^(٤)

٢ - ﴿فلا تكونن من الممتريين﴾ الخطاب للرسول ﷺ على طريق التهيج والإلهاب .

٣ - ﴿ومتت كلمة ربك﴾ أي تم كلامه ووحيه أطلق الجزء وأراد الكل فهو مجاز مرسل .

٤ - ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ بين لفظ ﴿ظاهر﴾ و ﴿باطن﴾ طباق .

٥ - ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه﴾ الموت والحياة ، والنور والظلمة كلها من باب الاستعارة فقد
استعار الموت للكفر والحياة للإيمان وكذلك النور والظلمات للهدى والضلال^(٥) .

٦ - ﴿يشرح صدره للإسلام﴾ الشرح كناية عن قبول النفس للحق والهدى الذي جاء به الرسول
ﷺ وبين لفظ الشرح والضييق طباق وهو من المحسنات البديعية .

(١) ابن كثير ١/٦١٧ . (٢) الطبري ١٢/١٠٩ . (٣) مختصر ابن كثير ١/٦١٨ .

(٤) أفاده أبو السعود . (٥) انظر البحر المحيط ٤/٢١٤ .

فكائِدَة : الحكم أبلغ من الحاكم وأدلُّ على الرسوخ لأنه لا يطلق إلا على العادل وعلى من تكرر منه الحكم بخلاف الحاكم^(١) .

تنبية : قال الرازي : دلَّت هذه الآية ﴿وإن كثيراً ليضلُّون بأهوائهم بغير علم﴾ على أن القول في الدين بمجرد التقليد حرام ، لأن القول بالتقليد قولٌ بمحض الهوى والشهوة ، والآية دلَّت على أن ذلك حرام^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس . . إلى . . قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ .

من آية (١٢٨) إلى نهاية آية (١٤٠) .

المناسكة : لما ذكر سبحانه أن البشر فريقان : مهتد وضال ، وذكر أن منهم من شرح الله صدره وأنار قلبه فأمن واهتدى ، ومنهم من اتبع الهوى وسار بقيادة الشيطان فضلَّ وغوى ، ذكر هنا أنه سيحشر الخلائق جميعاً يوم القيامة للحساب ، لينال كلُّ جزاءه العادل على ما قدَّم في هذه الحياة .

اللغز : ﴿مثواكم﴾ مأواكم يقال ثوى بالمكان إذا أقام فيه ﴿يقصون﴾ يحكون يقال قصَّ الخبر يقصُّه قصاً أي حكاة ﴿ذراً﴾ خلق ﴿الحرث﴾ الزرع ﴿ليردوهم﴾ الإرداء : الإهلاك يقال أرداهُ يرديه أي أهلكه ﴿حجر﴾ الحجر : الحرام وأصله المنع يقال حجره أي منعه والحجر : العقل سمي به لأنه يمنع عن القبائح قال تعالى ﴿هل في ذلك قسمٌ لذي حجر﴾ ﴿سفهاً﴾ حماقة وجهالة والسفه : خفة العقل .

ويوم يحشرهم جميعاً بمعشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثونكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم ﴿١٢٨﴾

التفسير : ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ أي اذكر يوم يجمع الله الثقلين : الإنس والجن جميعاً للحساب قائلاً ﴿يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾ أي استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم قال ابن عباس : أضللتهم منهم كثيراً ، وهذا بطريق التوبيخ والتقريع ﴿وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ أي وقال الذين أطاعوهم من الإنس ربنا انتفع بعضنا ببعض قال البيضاوي : انتفع الإنس بالجن بأن دلّوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها ، وانتفع الجن بالإنس بأن أطاعوهم وحصلوا مرادهم^(٣) ﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ أي وصلنا إلى الموت والقبر ووافينا الحساب ،

وَكَذَلِكَ نُوتِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٥﴾ يَمَعِشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ الرَّبِّيَاتِكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ

وهذا منهم اعتذارٌ واعترافٌ بما كان منهم من طاعة الشياطين واتباع الهوى وتحسر على حالهم ﴿قال النار مثواكم﴾ أي قال تعالى رداً عليهم النار موضع مقامكم وهي منزلكم ﴿خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾ أي ماكثين في النار في حال خلودٍ دائمٍ إلا الزمان الذي شاء الله أن لا يخلدوا فيها قال الطبري : هي المدة التي بين حشرهم إلى دخولهم النار^(١) وقال الزمخشري : يخلدون في عذاب النار الأبد كله إلا ما شاء الله أي إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير فقد روي أنهم يدخلون وادياً من الزمهرير فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم^(٢) ﴿إن ربك حكيم عليم﴾ أي حكيم في أفعاله عليم بأعمال عباده ﴿وكذلك نوتني بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾ أي كما متعنا الإنس والجن بعضهم ببعض نسلب بعض الظالمين على بعض بسبب كسبهم للمعاصي والذنوب قال القرطبي : وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلط الله عليه ظالماً آخر قال ابن عباس : إذا رضي الله عن قوم ولّى أمرهم خيارهم ، وإذا سخط الله على قوم ولّى أمرهم شرارهم^(٣) وعن مالك بن دينار قال : قرأت في بعض كتب الحكمة إن الله تعالى يقول : « إني أنا الله مالك الملوك ، قلوب الملوك بيدي ، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم »^(٤) ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي﴾ هذا النداء أيضاً يوم القيامة والاستفهام للتوبيخ والتقريع أي ألم تأتكم الرسل يتلون عليكم آيات ربكم ؟ ﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ أي يخوفونكم عذاب هذا اليوم الشديد ؟ ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾ أي لم يجدوا إلا الإعراف فقالوا : بلى شهدنا على أنفسنا بأن رسلك قد أتتنا وأنذرتنا لقاء يومنا هذا قال ابن عطية : وهذا إقرار منهم بالكفر واعتراف على أنفسهم بالتقصير كقولهم ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا﴾ ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ أي خدعتهم الدنيا بنعيمها وبهرجها الكاذب ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ أي اعترفوا بكفرهم قال البيضاوي : وهذا ذم لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم ، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيا ولذاتها الفانية ، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا بالشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد تحذيراً للسامعين من مثل حالهم^(٥) ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون﴾ أي إنما فعلنا هذا بهم من إرسال الرسل إليهم لإيذارهم سوء العاقبة لأن ربك عادل لم يكن ليهلك قوماً حتى يبعث إليهم رسولاً قال الطبري : أي إنما

(١) الطبري ١١٨/١٢ . (٢) الكشاف ٥١/٢ . (٣) القرطبي ٨٥/٧ . (٤) الفخر الرازي ١٣/١٩٤ . (٥) البيضاوي ص ١٨٢ .

مَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٦﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يذْهَبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٧﴾ إِنَّ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ يَنْقُومُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِهِمْ

أرسلنا الرسل يا محمد يقصون عليهم آياتي وينذرونهم لقاء معادهم من أجل أن ربك لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسول والآيات والعيبر^(١) ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ أي ولكل عامل بطاعة الله أو معصيته ، منازل ومراتب من عمله يلقيها في آخرته إن كان خيراً فخير ، وإن كان شراً فشر ، قال ابن الجوزي : وإنما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط كتفاضل الدرج^(٢) ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ أي ليس الله بلاه أو ساء عن أعمال عباده ، وفي ذلك تهديد ووعيد ﴿وربك الغني﴾ أي هو جل وعلا المستغني عن الخلق وعبادتهم ، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ﴿ذو الرحمة﴾ أي ذو التفضل التام قال ابن عباس : ذو الرحمة بأوليائه وأهل طاعته ، وقال غيره : بجميع الخلق ومن رحمته تأخير الانتقام من المخالفين قال أبو السعود : وفيه تنبيه على أن ما سلف ذكره من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد^(٣) ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ أي لو شاء لأهلككم أيها العصاة بعذاب الاستئصال ﴿ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾ أي وأتى بخلق آخر أمثل منكم وأطوع ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ أي كما خلقكم وابتدأكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم قال أبو حيان : وتضمنت الآية التحذير من بطش الله في التعجيل بالإهلاك^(٤) ﴿إن ما توعدون لآت﴾ أي ما توعدون من مجيء الساعة والحشر لواقع لا محالة ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ أي لا تخرجون عن قدرتنا وعقابنا وإن ركبتهم في الهرب متن كل صعب وذكول ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي قل لهم يا محمد يا قوم اثبتوا على كفركم ومعاداتكم لي واعملوا ما أنتم عاملون ، والأمر هنا للتهديد كقوله ﴿اعملوا ما شئتم﴾ ﴿إني عامل﴾ أي عامل ما أمرني به ربي من الثبات على دينه ﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار﴾ أي فسوف تعلمون أينما تكون له العاقبة المحمودة في الدار الآخرة أنحن أم أنتم ؟ ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي لا ينجح ولا يفوز بمطلوبه من كان ظالماً قال الزمخشري : في الآية طريق من الإنذار لطيف المسلك ، فيه إنصاف في المقال وأدب حسن ، مع تضمن شدة الوعيد ، والثوق بأن المُنذَر محق ، والمُنذَر مبطل^(٥) ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ أي جعل شركو قريش لله مما خلق من الزرع والأنعام نصيباً ينفقونه على الفقراء ولشركائهم نصيباً يصرفونه إلى سدنتها قال ابن كثير : هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين

(١) الطبري ١٢٤/١٢ . (٢) ابن الجوزي ١٢٦/٣ . (٣) أبو السعود ١٣٨/٢ . (٤) البحر ٢٢٥/٤ . (٥) الكشاف ٥٣/٢ .

فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمٌ أَحْرَثَ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لُدُّ كُورِنَا وَمُحَرَّمٌ

ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً، وجعلوا لله شركاء وهو خالق كل شيء سبحانه ﴿وجعلوا لله مما ذرأ﴾ أي خلق وبرأ من الزرع والثمار والأنعام جزءاً وقسماً ﴿١﴾ فقالوا هذا لله بزعمهم ﴿أي قالوا : هذا نصيب الله بزعمهم أي بدعواهم وقولهم من غير دليل ولا شرع قال في التسهيل : وأكثر ما يقال الزعم في الكذب (٢)﴾ وهذا لشركائنا ﴿أي وهذا النصيب لأهتنا وأصنامنا قال ابن عباس : إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه ، وإن سقط منه شيء فيما سُمي لله ردوه إلى ما جعلوه للوثن وقالوا إن الله غني والأصنام أحوج (٣)﴾ ولهذا قال : ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله﴾ أي ما كان للأصنام فلا يصل إلى الله منه شيء ﴿وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم﴾ وما كان من نصيب الله فهو يصل إلى أصنامهم قال مجاهد : كانوا يسمون جزءاً من الحرث لله وجزءاً لشركائهم وأوثانهم فما ذهبت به الريح من نصيب الله إلى أوثانهم تركوه وما ذهب من نصيب أوثانهم إلى نصيب الله ردوه ، وكانوا إذا أصابتهم سنة « قحط » أكلوا نصيب الله وتحاموا نصيب شركائهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بشس هذا الحكم الجائر حكمتهم ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم﴾ أي مثل ذلك التزيين في قسمة القربان بين الله وبين آلهتهم زين شياطينهم لهم قتل أولادهم بالوآد أو بنحرمهم لآلهتهم قال الزمخشري : كان الرجل في الجاهلية يحلف لئن ولد له كذا غلاماً لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب (٤) ﴿ليردوهم﴾ أي ليهلكوهم بالإغواء ﴿وليلبسوا عليهم دينهم﴾ أي وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام ﴿ولو شاء الله ما فعلوه﴾ أي لو شاء الله ما فعلوا ذلك القبيح ﴿فذرهم وما يفترون﴾ أي دعهم وما يختلقونه من الإفك على الله ، وهو تهديد ووعيد ﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر﴾ هذه حكاية عن بعض قبائحهم وجرائمهم أيضاً أي قال المشركون هذه أنعام وزروع أفردناها لآهتنا حرام ممنوعة على غيرهم ﴿لا يطعمها إلا من نشاء﴾ أي من خدمة الأوثان وغيرهم ﴿بزعمهم﴾ أي بزعمهم الباطل من غير حجة ولا برهان ﴿وأنعام حرمت ظهورها﴾ أي لا تركب كالبحائر والسواحب والحوامي ﴿وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها﴾ أي عند الذبح وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام ﴿افتراءً عليه﴾ أي كذباً واختلاقاً على الله ﴿سيجزئهم بما كانوا يفترون﴾ أي سيجزئهم

عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مِّتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا
أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

على ذلك الافتراء ، وهو تهديد شديد ووعيد ﴿وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصةً لذكورنا﴾ هذا إشارة إلى نوع آخر من أنواع قبائحهم أي قالوا ما في بطون هذه البحائر والسواحب حلال لذكورنا خاصة ﴿ومحرّم على أزواجنا﴾ أي لا تأكل منه الإناث ﴿وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء﴾ أي وإن كان هذا المولود منها ميتةً اشترك فيه الذكور والإناث ﴿سيجزيهم وصفهم﴾ أي سيجزيهم جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحريم ﴿إنه حكيم عليم﴾ أي حكيم في صنعه عليم بخلقهم ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم﴾ أي والله لقد خسر هؤلاء السفهاء الذين قتلوا أولادهم قال الزمخشري : نزلت في ربيعة ومضر والعرب الذين كانوا يثدون بناتهم مخافة السبي والفقرا^(١) ﴿سفهًا بغير علم﴾ أي جهالة وسفاهة لحفة عقلهم وجهلهم بأن الله هو الرازق لهم ولأولادهم ﴿وحرموا ما رزقهم الله﴾ أي حرموا على أنفسهم البحيرة والسائبة وشبهها ﴿افتراء على الله﴾ أي كذباً واختلاقاً على الله ﴿قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ أي لقد ضلوا عن الطريق المستقيم بصنيعهم القبيح وما كانوا من الأصل مهتدين لسوء سيرتهم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهًا بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾^(٢) .

البلاغَة : ١ - ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾ أي أفرطتم في إضلال وإغواء الإنس ، ففيه إيجاز بالحذف ومثله ﴿استمتع بعضنا ببعض﴾ أي استمتع بعض الإنس ببعض الجن ، وبعض الجن ببعض الإنس .

٢ - ﴿النار مثواكم﴾ تعريف الطرفين لإفادة الحصر .

٣ - ﴿ألم يأتكم رسل﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقرير .

٤ - ﴿ولكل﴾ أي لكل من العاملين فالتنوين عوض عن محذوف .

٥ - ﴿إن ما توعدون لآت﴾ صيغة الاستقبال ﴿توعدون﴾ للدلالة على الاستمرار التجددى ، ودخول إن واللام على الجملة للتأكيد لأن المخاطبين منكرون للبعث فلذا أكد الخبر بمؤكدين .

٦ - ﴿ما رزقهم الله افتراءً على الله﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لإظهار كمال عتوهم وضلالهم أفاده أبو السعود^(١).

الفوائد: الأولى : قال السيوطي في الإكليل : قوله تعالى ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾ الآية في معنى حديث (كما تكونون يولي عليكم)^(٢) وقال الفضيل بن عياض : إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم فقف وانظر متعجباً .

الثانية : الجمهور على أن الرسل من الإنس ولم يكن من الجن رسول وقوله تعالى ﴿ألم يأتكم رسلٌ منكم﴾ هو من باب التغليب كقوله ﴿يخرج منها اللؤلؤ والمرجان﴾ وإنما يخرجان من البحر المالح دون العذب .

الثالثة : ذكر القرطبي في تفسيره أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ كان لا يزال مغتماً بين يدي رسول الله ﷺ فقال له الرسول : مالك تكون محزوناً؟ فقال يا رسول الله : إني أذنبت في الجاهلية ذنباً فأخاف ألا يغفره الله لي وإن أسلمت ! فقال له : أخبرني عن ذنبك؟ فقال يا رسول الله : إني كنت من الذين يقتلون بناتهم فولدت لي بنتٌ فتشفت إلي امرأتي أن أتركها فتركتها حتى كبرت وأدركت وصارت من أجمل النساء فخطبها فدخلتني الحمية ولم يحتمل قلبي أن أزوجهها أو أتركها في البيت بغير زوج فقلت للمرأة : إني أريد أن أذهب لزيارة أقربائي فابعثها معي فسرت بذلك وزينتها بالحلي والثياب ، وأخذت علي المواثيق بألا أخونها فذهبت بها إلى رأس بئر فنظرت في البئر فظننت الجارية بأني أريد أن ألقيتها في البئر فالتزمتني وجعلت تبكي فرحمتها ، ثم نظرت في البئر فدخلت علي الحمية حتى غلبني الشيطان فألقيتها في البئر منكوسة ومكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت فبكى رسول الله ﷺ وأصحابه وقال : لو أمرت أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك^(٣) .

قال الله تعالى : ﴿وهو الذي أنشأ جناتٍ معروشاتٍ . . . إلى . . . وهم برهم يعدلون﴾ من آية (١٤١) إلى نهاية آية (١٥٠)

المناسكة : لما أخبر تعالى عن المشركين أنهم حرّموا أشياء مما رزقهم الله وحكى طرفاً من قبائحهم وجرائمهم ، ذكر تعالى هنا ما امتن به عليهم من الرزق الذي تصرفوا فيه بغير إذنه تعالى افتراءً منهم عليه واختلاقاً ، ثم أعقبه باحتجاجهم على الشرك وعدم الإيمان بالقضاء والقدر ، وهذا أيضاً من جملة الكذب والبهتان والافتراء على الله .

اللغات : ﴿معروشات﴾ مرفوعات على ما يحملها من العيدان ﴿حصاده﴾ الحصاد : جمع الثمر كالجذاذ ﴿حمولة﴾ الحمولة : الإبل التي تحمل الأثقال على ظهورها ﴿فرشاً﴾ الفرش : الصغار

(١) أبو السعود ٢/١٤١ . (٢) محاسن التأويل للقاسمي ٦/٢٥٠٥ . (٣) تفسير القرطبي ٧/٩٧ .

التي لا تصلح للحمل كالفُصلان والعجاجيل قال الزجاج : الفرشُ صغار الإبل قال الشاعر :

أورثني حمولةً وفرشاً
أمشؤها في كلِّ يومٍ مشاً

﴿الحوايا﴾ قال الواحدي : هي المباعر والمصارين واحدتها حاوية وحاوية وقيل : الحوايا الأمعاء التي عليها الشحوم سميت حوايا لأن البطن يحويها ﴿هلم﴾ هاتوا ﴿يعدلون﴾ يشركون به .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مِثْلَهَا
وغير مِثْلِهِ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ، وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾
وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾
ثُمَّ نَبَّأَ أَزْوَاجَ مَنْ الضَّانِّ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعزَاتَيْنِ قُلْ ءالَّذِينَ حَرَّمَ امَّ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ

النفسير : ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات﴾ أي هو الذي أنعم عليكم بأنواع النعم لتعبده وحده ، فخلق لكم بساتين من الكروم منها مرفوعات على عيدان ، ومنها متروكات على وجه الأرض لم تعرش ﴿والنخل والزرع مختلفاً أكله﴾ أي وأنشأ لكم شجر النخيل المثمر بما هو فاكهة وقوت ، وأنواع الزرع المحصل لأنواع القوت مختلفاً ثمره وحبّه في اللون والطعم والحجم والرائحة ﴿والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه﴾ أي متشابهاً في اللون والشكل وغير متشابه في الطعم ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر﴾ أي كلوا أيها الناس من ثمر كل واحد مما ذكر إذا أدرك من رطبه وعنبه ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ أي أعطوا الفقير والمسكين من ثمره يوم الحصاد ما تجود به نفوسكم وقال ابن عباس : يعني الزكاة المفروضة يوم يكال ويعلم كيئله^(١) ﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ أي ولا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن قال الطبري : المختار قول عطاء أنه نهي عن الإسراف في كل شيء^(٢) ﴿ومن الأنعام حمولةً وفرشاً﴾ أي وخلق لكم من الأنعام ما يحمل الأثقال وما يُفرش للذبح « أي يضجع » قال ابن أسلم : الحمولة ما تركبون ، والفرش ما تأكلون وتحلبون ﴿كلوا مما رزقكم الله﴾ أي كلوا من الثمار والزرع والأنعام فقد جعلها الله لكم رزقاً ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي طريقه وأوامره في التحليل والتحريم كفعل أهل الجاهلية ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ أي إن الشيطان ظاهر العداوة للإنسان فاحذروا كيده ﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعزاتين﴾ أي وأنشأ لكم من الأنعام ثمانية أنواع أحل لكم أكلها ، من الضأن ذكراً وأنثى ، ومن المعز ذكراً وأنثى قال القرطبي : يعني ثمانية أفراد ، وكل فرد عند العرب يحتاج إلى آخر يُسمى زوجاً فيقال للذكر : زوجٌ وللأنثى زوجٌ^(٣) ويراد بالزوجين من

(٣) القرطبي ١١٣/٧ .

(٢) الطبري ١٧٦/١٢ .

(١) مختصر ابن كثير ٦٢٤/١ .

أَرْحَامُ الْأَنْثِيَيْنِ نَبِيُونِي بَعْلِمِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٢﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكِرِينَ حَرَّمَ
 أَمْ الْأُنثِيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى
 اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٣﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى
 طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ
 اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٤﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرِ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ

الضأن : الكبشُ والنعجة ، ومن المعز : التيسُ والعنزُ ﴿قل الذكركين حرم أم الأنثيين﴾ ؟ هذا إنكار لما كانوا يفعلونه من تحريم ما أحلَّ الله أي قل لهم يا محمد على وجه التوبيخ والزرجر : الذكركين من الضأن والمعز حرم الله عليكم أيها المشركون أم الانثيين منها ؟ ﴿أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ أي أو ما حملت إناث الجنسين ذكراً كان أو أنثى ؟ ﴿نبئوني بعلم إن كنتم صادقين﴾ تعجيزٌ وتوبيخٌ أي أخبروني عن الله بأمرٍ معلوم لا بافتراءٍ ولا بتخرصٍ إن كنتم صادقين في نسبة ذلك التحريم إلى الله ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنتين﴾ أي وأنشأ لكم من الإبل اثنين هما الجمل والناقة ومن البقر اثنين هما الجاموس والبقرة ﴿قل الذكركين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ ؟ كرره هنا مبالغة في التقرير والتوبيخ قال أبو السعود : والمقصود إنكار أن الله سبحانه حرم عليهم شيئاً من الأنواع الأربعة وإظهار كذبهم في ذلك فإنهم كانوا يجرمون ذكور الأنعام تارةً ، وإناثها تارةً ، وأولادها تارةً أخرى (١) ﴿أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا﴾ زيادة في التوبيخ أي هل كنتم حاضرين حين وصاكم الله بهذا التحريم ؟ وهذا من باب التهكم ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضلَّ الناسَ بغير علم﴾ أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله فنسب إليه تحريم ما لم يجرم بغير دليلٍ ولا برهانٍ ﴿إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ عمومٌ في كل ظالم ، ثم أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يبين لهم ما حرمه الله عليهم فقال ﴿قل لا أجد فيما أوحى إليَّ محرماً على طاعمٍ يطعمه إلا أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحوً أو لحم خنزيرٍ فإنه رجسٌ﴾ أي قل يا محمد لكفار مكة لا أجد فيما أوحاه الله إليَّ من القرآن شيئاً محرماً على أي إنسانٍ إلا أن يكون ذلك الطعام ميتةً أو دماً سائلاً مصبوباً أو يكون لحم خنزيرٍ فإنه قدرٌ ونجسٌ لتعوده أكل النجاسات ﴿أو فسقاً أهلاً لغير الله به﴾ أي أو يكون المذبوح فسقاً ذبح على اسم غير الله كالمذبوح على النصب ، سُمِّي فسقاً مبالغةً كأنه نفس الفسق لأنه ذبح على اسم الأصنام ﴿فمن اضطرَّ غير باغٍ ولا عادٍ فإن ربك غفور رحيم﴾ أي من أصابته الضرورة واضطرتته إلى أكل شيء من المحرمات فلا إثم عليه إن كان غير باغٍ أي غير قاصد التلذذ بأكلها بدون ضرورة ولا عادٍ أي مجاوزٍ قدر الضرورة التي تدفع عنه الهلاك فالله غفور

حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ
وَأَنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾
سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن نَّدِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِن أَنتُمْ إِلَّا مُخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ

رحيم بالعباد ، ثم بين تعالى أن ما حرّمه على اليهود إنما كان بسبب بغيتهم وعصيانهم فقال ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ أي وعلى اليهود خاصة حرمنا عليهم كل ذي ظفر قال ابن عباس : هي ذوات الظلف كالإبل والنعامة وما ليس بذي أصابع منفرجة كالبط والأوز^(١) ﴿ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما﴾ أي وحرمنا عليهم أكل شحوم البقر وشحوم الغنم ﴿إلا ما حملت ظهورهما﴾ أي إلا الشحم الذي علق بالظهر منها ﴿أو الحوايا﴾ أي الأمعاء والمصارين ﴿أو ما اختلط بعظم﴾ كشحم الألية والمعنى أن الشحم الذي تعلق بالظهور أو احتوت عليه المصارين أو اختلط بعظم كشحم الألية جائز لهم ﴿ذلك جزيناهاهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾ أي ذلك التحريم بسبب ظلمهم وعدوانهم الذي سبق من قتل الأنبياء وأكل الربا واستحلال أموال الناس بالباطل وإنا لصادقون فيما قصصنا عليك يا محمد ، وفي ذلك تعريض بكذب من حرم ما لم يحرم الله والتعريض بكذب اليهود ﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة﴾ أي فإن كذبك يا محمد هؤلاء اليهود فيما جئت به من بيان التحريم فقل متعجباً من حالهم ربكم ذو رحمة واسعة حيث لم يعاجلكم بالعقوبة مع شدة إجرامكم قال في البحر : وهذا كما تقول عند رؤية معصية عظيمة : ما أحلم الله تعالى! وأنت تريد ما أحلمه لإمهاله العاصي^(٢) ، ثم أعقب وصفه بالرحمة الواسعة بالوعيد الشديد فقال ﴿ولا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي لا تغتروا بسعة رحمته فإنه لا يُرَدُّ عذابه وسطوته عن اكتسبوا الذنوب واجترحوا السيئات فهو مع رحمته ذو بأس شديد ، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب حتى لا يقنط المذنب من الرحمة ولا يغتر العاصي بحلم الله . ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ أي سيقول مشركو العرب لو أراد الله ما كفرنا ولا أشركنا لا نحن ولا آبؤنا يريدون أن شركهم وتحريمهم لما حرموا كان بمشيئة الله ولو شاء ألا يفعلوا ذلك ما فعلوه ، فاحتجوا على ذلك بإرادة الله كما يقول الواقع في معصية إذا طلب منه الإقلاع عنها : هذا قدر الله لا مهرب ولا مفر منه ، ولا حجة في هذا لأنهم مكلفون بمأمورين بفعل الخير وترك القبيح ولكنها نزعة جبرية يحتج بها السفهاء عندما تدمغهم الحجة قال تعالى في الرد عليهم ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا﴾ أي كذلك كذب من سبقهم من الأمم حتى أنزلنا عليهم العذاب ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾ استفهام إنكاري يقصد به التهكم أي قل لهم هل عندكم حجة أو برهان

الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْكُمْ شُهَدَاءُ كُرِّ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا
فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٦٥﴾

على صدق قولكم فتظهره لنا ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي ما تتبعون في ذلك إلا الظنون والأوهام وما أنتم في الحقيقة إلا تكذبون على الله عز وجل ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي قل لهم إن لم تكن لكم حجة فلله الحجة البينة الواضحة التي بلغت غاية الظهور والإقناع ، فلو شاء لهداكم إلى الإيمان أجمعين ولكنه تعالى ترك للخلق أمر الاختيار في الإيمان والكفر ليتم التكليف ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ ﴿قُلْ هَلْ مِنْكُمْ شُهَدَاءُ كَمِ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أي قل لهم يا محمد احضروا لي من يشهد لكم على صحة ما تزعمون أن الله تعالى حرم هذه الأشياء التي تدعونها من البحيرة والسائبة وغيرها ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي فإن حضروا وكذبوا في شهادتهم وزوروا فلا تشهد بمثل شهادتهم ولا تصدقهم فإنه كذبٌ بحتٌ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي ولا تتبع أهواء المكذبين بآيات الرحمن الذين لا يصدقون بالآخرة ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي وهم يشركون بالله غيره فيعبدون الأوثان .

البَالِغَةُ : ١ - ﴿حمولةٌ وفرشاً﴾ بينهما طباقٌ لأن الحمولة الكبار الصالحة للحمل ، والفرشُ الصغار الدانية من الأرض كأنها فرش .

٢ - ﴿خطوات الشيطان﴾ هذا من لطيف الاستعارة وهي أبلغ عبارة للتحذير من طاعة الشيطان والسير في ركابه (١) .

٣ - ﴿غفور رحيم﴾ من صيغ المبالغة أي مبالغ في المغفرة والرحمة .

٤ - ﴿ربكم ذو رحمة واسعة ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ جاءت الأولى جملة اسمية لأنها أبلغ في الإخبار من الفعلية فناسب وصفه تعالى بالرحمة الواسعة وجاءت الجملة الثانية فعلية ﴿وَلَا يُرَدُّ﴾ لثلا يتعادل الإخبار عن الوصفين ، وباب الرحمة أوسع (٢) أفاده في البحر .

فَكَايِدَةٌ : في قوله تعالى ﴿قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً﴾ إيذان بأن التحريم إنما يعلم بالوحي لا بالهوى ، وأن الله جل وعلا هو المشرع للأحكام والرسول مبلغٌ عن الله ذلك التشريع كقوله ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ .

قال الله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ .. إلى .. وإنه لغفور رحيم﴾

من آية (١٥١) إلى الآية (١٦٥) نهاية السورة .

* قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقَ تَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا

المناسكبة : لما ذكر تعالى ما حرّمه الكفار افتراء عليه وذكر ما أباحه تعالى لهم من الحبوب والفواكه والحيوان ، ذكر هنا ما حرّمه تعالى عليهم حقيقة من الأمور الضارة ، وذكر الوصايا العشر التي اتفقت عليها الشرائع السماوية وبها سعادة البشرية .

اللغات : ﴿أتل﴾ أقرأ وأقص ﴿إملاق﴾ فقر يقال أملق الرجل إذا افتقر ﴿أشده﴾ قوته وهو بلوغ سن النكاح والرشد ، والأشدُّ جمع لا واحد له ﴿بالقسط﴾ بالعدل بلا بخس ولا نقصان ﴿السبل﴾ جمع سبيل وهي الطريق ﴿شيعاً﴾ فرقا وأحزاباً جمع شيعة وهي الفرقة تشيع وتتعصب لمذهبها ﴿قيماً﴾ مستقيماً لا عوج فيه ﴿نسكي﴾ النسك جمع نسيكة وهي الذبيحة وقال الزجاج : عبادتي ومنه الناسك الذي يتقرب إلى الله بالعبادة^(١) .

النفيسير : ﴿قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم﴾ أي قل يا محمد تعالوا أقرأ الذي حرّمه ربكم عليكم باليقين لا بالظن والتخمين ﴿ألا تشركوا به شيئاً﴾ أي لا تعبدوا معه غيره ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً ، وذكر ضمن المحرمات لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده فكأنه قال : ولا تسيئوا إلى الوالدين قال أبو السعود : والسرُّ في ذلك المبالغة والدلالة على أن ترك الإساءة إليهما غير كافٍ في قضاء حقوقهما^(٢) ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾ أي ولا تقتلوا أولادكم خشية الفقر قال ابن الجوزي : المراد دفن البنات أحياء من خوف الفقر^(٣) ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ أي رزقكم ورزقهم علينا فإن الله هو الرازق للعباد ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ أي لا تقربوا المنكرات الكبائر علانيتها وسترها قال ابن عباس : كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأساً في السرِّ ويستقبحونه في العلانية فحرّمه الله في السرِّ والعلانية^(٤) ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق﴾ أي لا تقتلوا النفس البريئة التي حرّم الله قتلها إلا بموجب وقد فسره فول رسول الله ﷺ : (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة) ﴿ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون﴾ أي ذلكم المذكور هو ما أوصاكم تعالى بحفظه وأمركم به أمراً مؤكداً لعلكم تسترشدون بعقولكم إلى فوائد هذه التكاليف ومنافعها في الدين والدنيا قال أبو حيان : وفي لفظ وصّاكم من اللطف والرفقة وجعلهم أوصياء له تعالى ما لا يخفى من الإحسان^(٥) ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾ أي لا تقربوا مال اليتيم بوجه من الوجوه إلا بالخصلة التي هي أنفع له حتى يصير بالغاً رشيداً ،

(١) تفسير القرطبي ١٥٢/٧ . (٢) أبو السعود ١٤٦/٢ . (٣) زاد المسير ١٤٨/٣ . (٤) الطبري ٢١٩/١٢ . (٥) البحر ٢٥٢/٤ .

الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّوْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٦﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّوْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٧﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بَلِقَاءَ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٨﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا

والنهي عن القرب يعم وجوه التصرف لأنه إذا نُهي عن أن يقرب المال فالنهي عن أكله أولى وأحرى والتي هي أحسن منفعة اليتيم وثمر مالها قال ابن عباس : هو أن يعمل له عملاً مصلحاً فيأكل منه بالمعروف ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ أي بالعدل والتسوية في الأخذ والعطاء ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي لا نكلف أحداً إلا بمقدار طاقته بما لا يعجز عنه قال البيضاوي : أي إلا ما يسعها ولا يعسر عليها ، وذكره بعد وفاء الكيل لأن إيفاء الحق عسر فعليكم بما في وسعكم وما وراءه معفو عنكم ^(١) ﴿وإذا قلتُم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾ أي اعدلوا في حكومتكم وشهادتكم ولو كان المشهود عليه من ذوي قرابتكم ﴿وبعهد الله أوفوا﴾ أي أوفوا بالعهد إذا عاهدتم قال القرطبي : وهذا عام في جميع ما عهده الله إلى عباده ويحتمل أن يراد به ما انعقد بين الناس وأضيف إلى الله من حيث أمر بحفظه والوفاء به ^(٢) ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾ أي لعلكم تتعظون ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ أي وبأن هذا ديني المستقيم شرعته لكم فتمسكوا به ولا تتبعوا الأديان المختلفة والطرق المتلوية فتفرقكم وتزيلكم عن سبيل الهدى عن ابن مسعود قال : خطبنا رسول الله ﷺ يوماً خطأً ثم قال هذا سبيل الله ، ثم خطب خطوطاً عن يمينه ويساره ثم قال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها ثم قرأ ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه . . .﴾ ^(٣) الآية ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ كرر الوصية على سبيل التوكيد أي لعلكم تتقون النار بامثال أوامر الله واجتناب نواهيها قال ابن عطية : لما كانت المحرمات الأولى لا يقع فيها عاقل جاءت العبارة ﴿لعلكم تعقلون﴾ والمحرمات الأخر شهوات وقد يقع فيها من لم يتذكر جاءت العبارة ﴿لعلكم تذكرون﴾ والسير في الجادة المستقيمة يتضمن فعل الفضائل ولا بد لها من تقوى الله جاءت العبارة ﴿لعلكم تتقون﴾ ^(٤) ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن﴾ أي أعطينا موسى التوراة تماماً للكرامة والنعمة على من كان محسناً وصالحاً قال الطبري : أي آتينا موسى الكتاب تماماً لنعمتنا عليه في قيامه بأمرنا ونهينا فإن إيتاء موسى الكتاب نعمة من الله عليه ومنة عظيمة لما سلف منه من صالح العمل وحسن الطاعة ^(٥) ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ أي وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في الدين ﴿وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون﴾ أي وهدى لبني إسرائيل ورحمة عليهم ليصدقوا بقاء الله قال ابن عباس : كي يؤمنوا بالبعث ويصدقوا

لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴿١٦٦﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٦٦﴾
أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُمْ مِنَ رَبِّكُمْ وَهْدًى وَرَحْمَةً ۖ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا
يَصْدِفُونَ ﴿١٦٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي
بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِنَّا
بِالْثَوَابِ وَالْعَذَابِ ﴿١﴾ ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ أي وهذا القرآن الذي أنزلناه على محمد كتاب عظيم
الشان كثير المنافع مشتمل على أنواع الفوائد الدينية والدنيوية ﴿فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون﴾ أي
تمسكوا به واجعلوه إماماً واحذروا أن تخالفوه لتكونوا راجين للرحمة ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على
طائفتين﴾ أي أنزلناه بهذا الوصف العظيم الجامع لخيرات الدنيا والآخرة كراهة أن تقولوا يوم القيامة ما
جاءنا كتاب فنتبعه وإنما نزلت الكتب المقدسة على اليهود والنصارى قال ابن جرير : فقطع الله بانزاله
القرآن على محمد ﷺ حجتهم تلك ﴿وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ أي وإنه الحال والشأن كنا عن معرفة
ما في كتبهم ودراستهم غافلين لا نعلم ما فيها لأنها لم تكن بلغتنا ﴿أو تقولوا لو أنزل علينا الكتاب
لكننا أهدي منهم﴾ أو تقولوا لو أنزل علينا الكتاب كما أنزل على هاتين الطائفتين لكننا أهدي منهم إلى
الحق وأسرع إجابة لأمر الرسول لمزيد ذكائنا وجدنا في العمل ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى
ورحمة﴾ أي فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ قرآن عظيم ، فيه بيان للحلال والحرام وهدى لما في
القلوب ورحمة من الله لعباده قال القرطبي : أي قد زال العذر بمجيء محمد ﷺ ﴿٢﴾ قال ابن عباس : بينة أي
حجة وهو النبي ﷺ والقرآن ﴿٣﴾ ﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات الله﴾ أي من أكفر من كذب بالقرآن ولم يؤمن
به ﴿وصدغ عنها﴾ أي أعرض عن آيات الله قال أبو السعود : أي صرف الناس عنها فجمع بين
الضلال والإضلال ﴿٤﴾ ﴿سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾ وعيد لهم
أي سثيب هؤلاء المعرضين عن آيات الله وحججه الساطعة شديد العقاب بسبب إعراضهم عن آيات الله
وتكذيبهم لرسوله ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ أي ما ينتظر هؤلاء المشركون إلا أن تأتيهم
الملائكة لقبض أرواحهم وتعذيبها وهو وقت لا تنفع فيه توبتهم ﴿أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات
ربك﴾ قال ابن عباس : أي يأتي أمر ربك فيهم بالقتل أو غيره وقال الطبري : المراد أن يأتيهم ربك في
موقف القيامة للفصل بين خلقه أو يأتيهم بعض آيات ربك وهو طلوع الشمس من مغربها ﴿٥﴾ ﴿يوم يأتي
بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ أي يوم يأتي بعض
أشراط الساعة وحينئذ لا ينفع الإيمان نفساً كافرة آمنت في ذلك الحين ولا نفساً عاصية لم تعمل خيراً قال

(١) أبو السعود ١٤٨/٢ . (٢) القرطبي ١٤٤/٧ . (٣) زاد المسير ١٥٥/٣ . (٤) أبو السعود ١٤٩/٢ . (٥) الطبري ١٢/٢٤٥ .

مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴿١٥٩﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٦٠﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٢﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٤﴾

الطبري : أي لا ينفع من كان قبل ذلك مشركاً بالله أن يؤمن بعد مجيء تلك الآية لعظيم الهول الوارد عليهم من أمر الله ، فحكم إيمانهم كحكم إيمانهم عند قيام الساعة^(١) وفي الحديث (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورأها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل)^(٢) ﴿ قل انتظروا إنا منتظرون ﴾ أي انتظروا ما يحل بكم وهو أمر تهديد ووعد ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ﴾ أي فرقوا الدين فأصبحوا شيعاً وأحزاباً قال ابن عباس : هم اليهود والنصارى فرقوا دين إبراهيم الحنيف ﴿ لست منهم في شيء ﴾ أي أنت يا محمد بريء منهم ﴿ إنما أمرهم إلى الله ﴾ أي جزاؤهم وعقابهم على الله هو يتولى جزاءهم ﴿ ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ أي يخبرهم بشنيع فعالهم قال الطبري : أي أخبرهم في الآخرة بما كانوا يفعلون وأجازي كلاً منهم بما كان يفعل^(٣) ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ أي من جاء يوم القيامة بحسنة واحدة جوزي عنها بعشر حسنات أمثالها فضلاً من الله وكرماً وهو أقل المضاعفة للحسنات فقد تنتهي إلى سبعمائة أو أزيد ﴿ ومن جاء بالسئنة فلا يجزى إلا مثلاً ﴾ أي ومن جاء بالسئنة عوقب بمثلها دون مضاعفة ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يُنقصون من جزائهم شيئاً وفي الحديث القدسي : « يقول الله عز وجل : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد ، ومن جاء بالسئنة فجزاء سيئة مثلاً أو أغفر »^(٤) فالزيادة في الحسنات من باب الفضل ، والمعاملة بالمثل في السيئات من باب العدل ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ﴾ أي قل يا محمد هؤلاء المشركين المكذبين إن ربي هداني إلى الطريق القويم وأرشدني إلى الدين الحق دين إبراهيم ﴿ ديناً قيمياً ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ أي ديناً مستقيماً لا عوج فيه هو دين الحنيفية السمحة الذي جاء به إمام الحنفاء إبراهيم الخليل ﴿ وما كان من المشركين ﴾ أي وما كان إبراهيم مشركاً ، وفيه تعريض بإشراك من خالف دين الإسلام لخروجه عن دين إبراهيم ﴿ قل إن صلاتي ﴾ أي قل يا محمد إن صلاتي التي أعبد بها ربي ﴿ ونسكي ﴾ أي ذبحي^(٥) ﴿ ومحياي ومماتي ﴾ أي حياتي ووفاتي وما أقدمه في هذه الحياة من خيرات وطاعات ﴿ لله رب العالمين ﴾ أي ذلك كله لله خالصاً له دون ما أشركتم به ﴿ لا شريك له ﴾ أي لا أعبد غير الله ﴿ وبذلك أُمِرْتُ ﴾ أي بإخلاص العبادة لله وحده أُمِرْتُ ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ أي

(١) الطبري ١٢/٢٦٦ . (٢) أخرجه البخاري . (٣) الطبري ١٢/٢٧٤ . (٤) رواه مسلم .

(٥) هذا قول ابن عباس ومجاهد واختاره الطبري وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالنسك العبادة والأول أرجح

قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

أولُ من أقرَّ وأذعنَ وخضعَ لله جلَّ وعلا ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا﴾ تقريرٌ وتوبيخٌ للكفار ، وسببها أنهم دعوه إلى عبادة آلهتهم والمعنى : قل يا محمد أطلب رباً غير الله تعالى ؟ ﴿وهو ربُّ كلِّ شيء﴾ أي والحال هو خالق ومالك كلِّ شيء فكيف يليق أن أتخذ إلهاً غير الله ؟ ﴿ولا تكسب كلُّ نفسٍ إلا عليها﴾ أي لا تكون جنانية نفسٍ من النفوس إلا عليها ﴿ولا تزر وازرةٌ وزرَ أُخرى﴾ أي لا يحمل أحدٌ ذنب أحد ، ولا يؤخذ إنسانٌ بجريرة غيره ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ وهذا وعيدٌ وتهديدٌ أي مرجعكم إليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم ويميز بين المحسن والمسيء ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ أي جعلكم خلفاً للأمم الماضية والقرون السالفة يخلف بعضكم بعضاً قال الطبري : أي استخلفكم بعد أن أهلك من كان قبلكم من القرون والأمم الخالية فجعلكم خلائف منهم في الأرض تخلفونهم فيها^(١) ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ أي خالف بين أحوالكم في الغنى والفقير ، والعلم والجهل ، والقوة والضعف وغير ذلك مما وقع فيه التفضيل بين العباد ﴿ليبلوكم في ما آتاكم﴾ أي ليختبر شكركم على ما أعطاكم قال ابن الجوزي : أي ليختبركم فيظهر منكم ما يكون به الثواب والعقاب^(٢) ﴿إن ربك سريع العقاب وإنه لغفورٌ رحيم﴾ أي إن ربك سريع العقاب لمن عصاه وغفور رحيم لمن أطاعه ، قال في التسهيل : جمع بين الخوف والرجاء ، وسرعة العقاب إما في الدنيا بتعجيل الأخذ أو في الآخرة لأن كل ما هو آتٍ قريب^(٣) .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿ولا تتبعوا السبيل﴾ السبيل استعارة عن البدع والضلالات والمذاهب المنحرفة .

٢ - ﴿لا تكلف نفساً﴾ التنكير لإفادة العموم والشمول .

٣ - ﴿وبعهد الله﴾ الإضافة للتشريف والتعظيم .

٤ - ﴿يصدفون عن آياتنا﴾ وضع الظاهر مكان الضمير ﴿عنها﴾ لتسجيل شناعة وقباحة طغيانهم .

٥ - ﴿قل انتظروا﴾ الأمر للتهديد والوعيد .

٦ - ﴿لا ينفع نفساً إيمانها . .﴾ الآية اشتمل هذا الكلام على النوع المعروف من علم البيان باللف

وأصل الكلام : يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنةً قبلُ إيمانها بعدُ ، ولا نفساً لم تكسب في إيمانها خيراً قبلُ ما تكسبه من الخير بعدُ ، إلا أنه لفّ الكلامين فجعلها كلاماً واحداً بلاغة واختصاراً وإعجازاً ، أفاده صاحب الانتصاف^(١) .

٧ - بين ﴿ظهر﴾ و﴿بطن﴾ طباق وبين ﴿الحسنة﴾ و﴿السيئة﴾ طباق كذلك وهو من المحسنات البديعية .

٨ - ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ قال الشريف الرضي : ليس هناك على الحقيقة أحمال على الظهور وإنما هي أثقال الآثام والذنوب فهو من الاستعارة اللطيفة^(٢) .

فكائِدَة : وحَدَّ تعالى ﴿سبيله﴾ لأن الحق واحد وجمع ﴿السُّبُل﴾ لأن طرق الضلالة كثيرة ومتشعبة .

تنبية : قال الحافظ ابن كثير : كثيراً ما يقرن تبارك وتعالى في القرآن بين هاتين الصفتين ﴿إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ كقوله تعالى ﴿نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب ، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه ، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها ، وتارة بهما لينجع في كل بحسبه^(٣) .

« تم تفسير سورة الأنعام بعونه تعالى وله الحمد والمنة »

* * *

(١) حاشية الكشاف ٦٤/٢ . (٢) تلخيص البيان ص ٤٠ . (٣) مختصر ابن كثير ٦٤٢/١ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة الأعراف من أطول السور المكية ، وهي أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء ، ومهمتها كمهمة السور المكية تقرير أصول الدعوة الإسلامية من توحيد الله جل وعلا ، وتقرير البعث والجزاء ، وتقرير الوحي والرسالة .

* تعرضت السورة الكريمة في بدء آياتها للقرآن العظيم معجزة محمد الخالدة ، وقررت أن هذا القرآن نعمة من الرحمن على الإنسانية جمعاء ، فعليهم أن يستمسكوا بتوجيهاته وإرشاداته ليفوزوا بسعادة الدارين .

* ولفتت الأنظار إلى نعمة خلقهم من أب واحد ، وإلى تكريم الله لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أب البشر آدم عليه السلام الذي أمر الله الملائكة بالسجود له ، ثم حذرت من كيد الشيطان ذلك العدو المتربص الذي قعد على طريق الناس ليصدهم عن الهدى ويبعدهم عن خالقهم .

* وقد ذكر تعالى قصة آدم مع إبليس وخروجه من الجنة ، وهبوطه إلى الأرض كنموذج للصراع بين الخير والشر ، والحق والباطل ، وبيان لكيد إبليس لآدم وذريته ، ولهذا وجه الله إلى أبناء آدم - بعد أن بين لهم عداوة إبليس لأبيهم - أربعة نداءات متتالية بوصف البُنوَّة لآدم ﴿يا بني آدم﴾ وهو نداء خاص بهذه السورة يحذّرهم بها من عدوهم الذي نشأ على عداوتهم من قديم الزمن حين وسوس لأبيهم آدم حتى أوقعه في الزلّة والمخالفة لأمر الله ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما . . ﴾ .

* كما تعرضت السورة الكريمة لمشهدٍ من المشاهد الواقعة يوم القيامة ، مشهد الفرق الثلاثة وما يدور بينهم من محاوره ومناظرة : فرقة المؤمنين أصحاب الجنة ، وفرقة الكافرين أصحاب النار ، وفرقةٍ ثالثة لم يتحدث عنها القرآن إلا في هذه السورة ، وهي الفرقة التي سميت بأصحاب الأعراف وسميت باسمها السورة «سورة الأعراف» مشهدٌ سوف يشهده العالم يوم البعث والجزاء على الحقيقة دون تمثيل ولا تخييل ، تبين ما يكون فيه من شماتة أهل الحق «أصحاب الجنة» بالمبطلين أصحاب النار، وينطلق

صوت علوي يسجل عليهم اللعنة والطرده والحرمان ، وقد ضرب بين الفريقين بحجاب ووقف عليه رجال يعرفون كلاً بسماهم ، يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ونضرتها ، ويعرفون أهل النار بسواد الوجوه وقرتها .

* وتناولت السورة قصص الأنبياء بإسهاب « نوح ، هود ، صالح ، لوط ، شعيب ، موسى » وقد ابتدأت بشيخ الأنبياء « نوح » عليه السلام وما لاقاه من قومه من جحودٍ وعناد ، وتكذيب وإعراض ، وقد ذكرت بالتفصيل قصة الكليم موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية ، وتحدثت عما نال بني إسرائيل من بلاء وشدة ثم من أمنٍ ورخاء وكيف لما بدلوا نعمة الله وخالفوا أمره عاقبهم الله تعالى بالمسخ إلى قردة وخنزير .

* وتناولت السورة كذلك المثل المخزي لعلماء السوء ، وصورتهم بأشنع وأقبح ما يمكن للخيال أن يتصوره ، صورة الكلب اللاهث الذي لا يكف عن اللهث ، ولا ينفك عن التمرغ في الطين والأوحال ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث * وتلك لعمر الحق أقبح صورة مزرية لمن رزقه الله العلم النافع فاستعمله لجمع الحطام الفاني وكان خزيًا ووبالاً عليه ، لأنه لم يتفجع بهذا العلم ، ولم يستقم على طريق الإيمان وانسلخ من النعمة ، وأتبعه الشيطان فكان من الغاوين .

* وقد ختمت السورة الكريمة بإثبات التوحيد ، والتهكم بمن عبدوا ما لا يضر ولا ينفع ، ولا يبصر ولا يسمع ، من أحجار وأصنام اتخذوها شركاء مع الله ، وهو جل وعلا وحده الذي خلقهم وصورهم ويعلم متقلبهم ومثوهم ، وهكذا ختمت السورة الكريمة بالتوحيد كما بدأت بالتوحيد ، فكانت الدعوة إلى الإيمان بوحداية الرب المعبود في البدء والختام .

التسمية : سميت هذه السورة بسورة الأعراف لورود ذكر اسم الأعراف فيها ، وهو سور مضروب بين الجنة والنار يحول بين أهلها ، روى ابن جرير عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة ، وتخلفت بهم حسناتهم عن دخول النار ، فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله فيهم .

قال الله تعالى : ﴿المص*كتابٌ أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه .. إلى .. ويحسبون أنهم مهتدون﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (٣٠) .

اللغز : ﴿حرج﴾ ضيق يقال : حرج المكان أو الصدر إذا ضاق ﴿بياتاً﴾ قال الراغب : البيات والتبيت : قصد العدو ليلاً^(١) ﴿قائلون﴾ من القيلولة وهي النوم وسط النهار ، والقائلة : الظهيرة ﴿مذءوماً﴾ مذموماً يقال ذامه أي ذمه وحقره ﴿مدحوراً﴾ مطروداً يقال دحره أي طرده وأبعده ﴿سواتها﴾ السواة : العورة سميت بذلك لأن الإنسان يسوء ظهورها ﴿طفقا﴾ شرعاً وأخذاً يقال : طفق

(١) المفردات للراغب مادة بيت .

يطلق إذا ابتداء وأخذ ﴿يخصفان﴾ يرقعان ويلزقان ﴿ريشاً﴾ لباساً تتجملون به وأصل الريش : المال والجمال ومنه ريش الطير لأنه زينة له وجمال ﴿قبيله﴾ جنوده وأصل القبيل : الجماعة سواء كانوا من أصلٍ أو أصول شتى ﴿فاحشة﴾ الفاحشة هي الشيء الذي تنهى قبحه والمراد بها هنا الطواف حول البيت عراً وكل أمر قبيح يسمى فاحشة ، والفحشاء ما اشتد قبحه من الذنوب كالفاحشة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصَّ ﴿١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾

التفسير : ﴿المص﴾ تقدم في أول سورة البقرة الكلام عن الحروف المقطعة وأن الحكمة في ذكرها بيان «إعجاز القرآن» بالإشارة إلى أنه مركب من أمثال هذه الحروف ومع ذلك فقد عجز بلغاؤهم وفصحائهم وعباقرتهم عن الإتيان بمثله وروي عن ابن عباس معناه : أنا الله أعلم وأفصيل ، وقال أبو العالية : الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد والصاد مفتاح اسمه صادق ﴿كتاب أنزل إليك﴾ أي هذا كتاب أنزله الله إليك يا محمد وهو القرآن ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي لا يضق صدرك من تبليغه خوفاً من تكذيب قومك ﴿لتنذر به وذكري للمؤمنين﴾ أي لتنذر بالقرآن من يخاف الرحمن ، ولتذكر وتعظ به المؤمنين لأنهم المنتفعون به ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ أي اتبعوا أيها الناس القرآن الذي فيه الهدى والنور والبيان المنزل إليكم من ربكم ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ أي ولا تتخذوا أولياء من دون الله كالأوثان والرهبان والكهّان تولونهم أموركم وتطيعونهم فيما يشرعون لكم ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ أي تذكرون تذكراً قليلاً قال الخازن : أي ما تتعظون إلا قليلاً^(١) ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾ أي وكثير من القرى أهلكناها والمراد بالقرية أهلها ﴿فجاءها بأسنا بيئاً﴾ أي جاءها عذابنا ليلاً ﴿أو هم قائلون﴾ أي جاءهم العذاب في وقت القيلولة وهي النوم في وسط النهار قال أبو حيان : وخص مجيء البأس بهذين الوقتين لأنها وقتان للسكون والدعة والاستراحة فمجيء العذاب فيهما أشق وأفظع لأنه يكون على غفلة من المهلكين^(٢) ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا﴾ أي ما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين شاهدوا العذاب ورأوا أماراته ﴿إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ أي إلا اعترافهم بظلمهم تحسراً وندامة ، وهيئات أن ينفع الندم ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ أي لنسألن الأمم قاطبة هل بلغكم الرسل وماذا أجبتهم ؟ والمقصود من هذا السؤال

(١) تفسير الخازن ٢/ ١٧٣ . (٢) البحر ٤/ ٢٦٩ .

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠﴾ فَلَنَقْصُنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿١١﴾ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٥﴾

التقريع والتوبيخ للكفار ﴿ولنسألن المرسلين﴾ أي ولنسألن الرسل أيضاً هل بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة؟ قال في البحر: وسؤال الأمم تقرير وتوبيخ يعقب الكفار والعصاة نكالا وعذاباً، وسؤال الرسل تأنيس يعقب الأنبياء كرامة وثواباً ﴿١٠﴾ فلنقصن عليهم بعلم ﴿أي فلنخبرنهم بما فعلوا عن علم منا قال ابن عباس: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿وما كنا غائبين﴾ أي ما كنا غائبين عنهم حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم قال ابن كثير: يخبر تعالى عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير، وجليل وحقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء بل هو العالم بخاتنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿١١﴾ والوزن يومئذ الحق ﴿أي والوزن للأعمال يوم القيامة كائن بالعدل ولا يظلم ربك أحداً﴾ فمن ثقلت موازينه ﴿أي فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات﴾ فأولئك هم المفلحون ﴿أي الناجون غداً من العذاب الفائزون بجزيل الثواب﴾ ومن خفت موازينه ﴿أي ومن خفت موازين أعماله بسبب الكفر واجتراح السيئات﴾ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴿أي خسروا أنفسهم وسعادتهم﴾ بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴿أي بسبب كفرهم وجحودهم بآيات الله، قال ابن كثير: والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقبلها يوم القيامة أجساماً يروى هذا عن ابن عباس، وقيل: يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة، وقيل: يوزن صاحب العمل كما في الحديث (يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة) والكل صحيح فتارة توزن الأعمال، وتارة محالها، وتارة يوزن فاعلها والله أعلم ﴿١٣﴾ أقول: لا غرابة في وزن الأعمال ووزن الحسنات والسيئات بالذات، فإذا كان العلم الحديث قد كشف لنا عن موازين للحر والبرد، واتجاه الرياح والأمطار، أفيعجز القادر على كل شيء عن وضع موازين لأعمال البشر؟ ﴿ولقد مكنناكم في الأرض﴾ أي جعلنا لكم أيها الناس في الأرض مكاناً وقراراً قال البيضاوي: أي مكنناكم من سكنها وزرعها والتصرف فيها ﴿١٤﴾ وجعلنا لكم فيها معيشة ﴿أي ما تعيشون به وتحبون من المطاعم والمشارب وسائر ما تكون به الحياة﴾ قليلاً ما تشكرون ﴿أي ومع هذا الفضل والإنعام قليل منكم من يشكر ربه كقوله ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ أي خلقنا أبابكم آدم طيناً غير مصور ثم صورناه أبداع تصوير وأحسن تقويم، وإنما ذكر

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٧﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٩﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَا فِي بَيْنِ أَيْدِيهِمْ

بلفظ الجمع تعظيماً له لأنه أبو البشر ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ أي ثم أمرنا الملائكة بالسجود لآدم تكريماً له ولذريته ﴿فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ أي سجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس امتنع من السجود تكبراً وعناداً ، والاستثناء منقطع لأنه استثناء من غير الجنس وقد تقدم قول الحسن البصري : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين^(١) ﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك﴾ أي قال تعالى لإبليس أي شيء منعك أن تدع السجود لآدم ؟ والاستفهام للتقرير والتوبيخ ﴿قال أنا خير منه﴾ أي قال إبليس اللعين أنا أفضل من آدم وأشرف منه فكيف يسجد الفاضل للمفضول ؟ ثم ذكر العلة في الامتناع فقال ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ أي أنا أشرف منه لشرف عنصري على عنصره ، لأنني مخلوق من نار والنار أشرف من الطين ، ولم ينظر المسكين لأمر من أمره بالسجود وهو الله تعالى قال ابن كثير : نظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف والتعظيم وهو أن الله خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وقاس قياساً فاسداً فأخطأ قبحه الله في قياسه في دعواه أن النار أشرف من الطين ، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم ، والنار من شأنها الإحراق والطيش ، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح والنار محل العذاب ولهذا خان إبليس عنصره فأورثه الهلاك والشقاء والدمار^(٢) قال ابن سيرين : أول من قاس إبليس فأخطأ فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس^(٣) ﴿قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾ أي اهبط من الجنة فما يصح ولا يستقيم ولا ينبغي أن تستكبر عن طاعتي وأمري وتسكن دار قدسي ﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾ أي الدليلين الحقيرين قال الزمخشري : وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبسه الله الذل والصغار فمن تواضع لله رفعه ومن تكبر على الله وضعه^(٤) ﴿قال أنظرنني إلى يوم يبعثون﴾ استدرك اللعين فطلب من الله الإمهال إلى يوم البعث لينجو من الموت لأن يوم البعث لا موت بعده فأجابه تعالى بقوله ﴿قال إنك من المنظرين﴾ قال ابن عباس : أنظره إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين فأبى الله ذلك عليه^(٥) ويؤيده الآية الأخرى ﴿قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ ﴿قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ أي فسبب إغوائك وإضلالك لي لأقعدن لآدم وذريته على طريق الحق وسبيل النجاة الموصل للجنة كما يقعد القطاع للسابلة ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ أي آتي عبادك من كل جهة من الجهات الأربع

(١) انظر التحقيق الذي كتبه حول إبليس والأدلة التي ذكرناها على أنه من الجن وليس من الملائكة في صفحة ٤٨ من كتابنا « النبوة والأنبياء » . (٢) مختصر ابن كثير ٨/٢ . (٣) البحر ٤/٢٧٣ . (٤) الكشف ٩٠/٢ . (٥) القرطبي ٧/١٤٧ .

وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا
لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَتَادَمُّ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ
سُوءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا
إِنِّي لَكُمَا لِمَنِ النَّصِيحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سُوءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا

لأصدهم عن دينك قال الطبري : معناه لا تينهم من جميع وجوه الحق والباطل ، فأصدهم عن الحق وأحسن لهم الباطل قال ابن عباس : ولا يستطيع أن يأتي من فوقهم لثلا يحول بين العبد وبين رحمة الله تعالى (١) ﴿ثم لا تجد أكثرهم شاكرين﴾ أي مؤنين مطيعين شاكرين لنعمك ﴿قال اخراج منها مذموماً مدحوراً﴾ أي اخراج من الجنة مذموماً معيباً مطروداً من رحمتي ﴿لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ اللام موطئة للقسم أي لمن أطاعك من الإنس والجن لأملأن جهنم من الأتباع الغاوين أجمعين ، وهو وعيد بالعذاب لكل من انقاد للشيطان وترك أمر الرحمن ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ أي وقلنا يا آدم اسكن مع زوجك حواء الجنة بعد أن أهبط منها إبليس وأخرج وطرد ﴿فكلامن حيث شئتما﴾ أي كلامن ثمارها من أي مكان شئتما ﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ أباح لها الأكل من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة عينها لها ونهاها عن الأكل منها ابتلاءً وامتحاناً فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في الوسوسة والمكر والخديعة ﴿فوسوس لها الشيطان﴾ أي ألقى لها بصوت خفي لإغرائها بالأكل من الشجرة ﴿ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما﴾ أي ليظهر لهما ما كان مستوراً من العورات التي يخبئ كسفيها ﴿وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ وهذا توضيح لوسوسة اللعين أي قال في وسوسته لهما : ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهية أن تكونا ملكين أو تصبحا من المخلدين في الجنة ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد تجدد المؤمن بالله قال الألوسي : وإنما عبر بصيغة المفاعلة للمبالغة لأن من يباري أحداً في فعلٍ يجد فيه (٢) ﴿فدلاهما بغرور﴾ أي خدعهما بما غرهما به من القسم بالله قال ابن عباس : غرهما باليمين وكان آدم يظن أنه لا يحلف أحد بالله كاذباً فغرهما بوسوسته وقسمه لهما (٣) ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما﴾ أي فلما أكلا من الشجرة ظهرت عوراتهما قال الكلبي : تهافت عنها لباسها فأبصر كل منهما عورة صاحبه فاستحيا ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ أي أخذوا وشرعوا يلصقان ورقة على ورقة ليستترا به بعد أن كانت كسوتها

مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَيْهِمَا رَهْمَا أَلَمْ أَنهَمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقْلُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكَا عَدُوٌّ مَبِينٌ ﴿٢٢﴾
 قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
 وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ
 أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكْمُورِيسًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

من حلال الجنة قال القرطبي : أي جعلنا يقطعان الورق ويلزقانه ليستترا به ومنه خصف النعل^(١) وعن وهب ابن منبه قال : كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ، ولا هذه عورة هذا فلما أصابا الخطيئة بدت لهما سواتهما^(٢) ﴿وناداهما رهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ أي ناداهما الله بطريق العتاب والتوبيخ قائلاً : ألم أحذركما من الأكل من هذه الشجرة وأخبركما بعداوة الشيطان اللعين ؟ روى أنه تعالى قال لآدم : ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة ؟ فقال : بلى وعزتك ولكن ما ظننت أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً قال : فوعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كدأ^(٣) ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ اعترفا بالخطيئة وتابا من الذنب وطلبوا من الله المغفرة والرحمة قال الطبري : وهذه الآية هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه^(٤) ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾ الخطاب لآدم وحواء وإبليس ولهذا جاء بصيغة الجمع أي اهبطوا من سماء القدس إلى الأرض حال كون بعضكم عدواً لبعض ، فالشيطان عدو للإنسان ، والإنسان عدو للشيطان كقوله ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾ ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ أي لكم في الأرض موضع استقرار وتمتع وانتفاع إلى حين انقضاء آجالكم ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تُخرجون﴾ أي في الأرض تعيشون وفيها تُقبرون ومنها تُخرجون للجزاء كقوله ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ ثم ذكر تعالى ما امتن به على ذرية آدم من اللباس والرياش والمتاع فقال ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سواتكم وريشاً﴾ أي أنزلنا عليكم لباسين : لباساً يستر عوراتكم ، ولباساً يزينكم وتتجملون به قال الزمخشري : الريش لباس الزينة استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته^(٥) ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ أي ولباس الورع والخشية من الله تعالى خير ما يتزين به المرء فإن طهارة الباطن أهم من جمال الظاهر قال الشاعر :

وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصياً

﴿ذلك من آيات الله﴾ أي إنزال اللباس من الآيات العظيمة الدالة على فضل الله ورحمته على عباده

(١) القرطبي ١٨١/٧ . (٢) الطبري ٣٥٥/١٢ . (٣) البحر ٢٨١/٤ . (٤) هذه الرواية نقلها الطبري عن الضحاك وفيها الإشارة إلى قوله تعالى ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾ (٥) الكشاف ٩٧/٢ .

يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبُو يَكْمَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهْمَاهُمَا إِنَّهُ رِيْرُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنْ أَلَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي لعلمهم يذكرون هذه النعم فيشكرون الله عليها ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان﴾ أي لا يغوينكم الشيطان بإضلاله وفتنته ﴿كما أخرج أبو يكم من الجنة﴾ أي كما أغوى أبو يكم بالأكل من الشجرة حتى أخرجها من الجنة ﴿ينزع عنهما لباسهما ليريهما سؤتهما﴾ أي ينزع عنها اللباس لتظهر العورات ، ونسب النزاع إليه لأنه المتسبب ، وهذا هدف اللعين أن يهتك الستر عن الإنسان ويعريه من جميع الفضائل الحسية والمعنوية ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾ أي إن الشيطان يصركم هو وجنوده من الجهة التي لا تبصرونه منها ، فهو لكم بالمرصاد فاحذروا كيده ومكره لأن العدو إذا أتى من حيث لا يرى كان أشد وأخوف ﴿إننا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ أي جعلنا الشياطين أعواناً وقرناء للكافرين ﴿وإذا فعلوا فاحشة﴾ أي وإذا فعل المشركون فاحشة وهي الفعل القبيح المتناهية في القبح كالطواف حول البيت عراة ﴿قالوا وجدنا عليها آباءنا﴾ أي اعتذروا عن ذلك الفعل القبيح بتقليد الآباء ﴿والله أمرنا بها﴾ أي أمرنا بالتجرد من الثياب إذ كيف نطوف في ثياب عصينا فيها الله ! وهذا افتراء على ذي الجلال قال البيضاوي : احتجوا بأمرين : تقليد الآباء ، والافتراء على الله سبحانه ، فأعرض عن الأول لظهور فساده ، ورد الثاني بقوله ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ (١) أي قل لهم يا محمد : الله منزّه عن النقص لا يأمر عباده بقبائح الأفعال ومساوىء الخصال ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أنكذبون على الله وتنسبون إليه القبيح دون علمٍ ونظرٍ صحيح ؟ ﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ أي بالعدل والاستقامة ﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾ أي توجهوا بكليتكم إليه عند كل سجود ﴿وادعوه مخلصين له الدين﴾ أي واعبدوه مخلصين له العبادة والطاعة قال ابن كثير : أي أمركم بالاستقامة في عبادته وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات وبالإخلاص لله في العبادة فإن الله تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين : أن يكون صواباً موافقاً للشريعة ، وأن يكون خالصاً من الشرك (٢) ﴿كما بدأكم تعودون﴾ أي كما بدأكم من الأرض تعودون إليها ﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾ أي هدى فريقاً منكم وأضل فريقاً منكم وهو الفعال لما يريد لا يسأل عما يفعل ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ هذا تعليل

للفريق الذين حقت عليهم الضلالة أي اتخذوا الشياطين نصراء من دون الله ﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾ أي يظنون أنهم على بصيرة وهداية .

البلاغَة : ١ - ﴿حرج منه﴾ أي ضيق من تبليغه فهو على حذف مضاف مثل ﴿واسأل القرية﴾ .

٢ - ﴿من ربكم﴾ التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة لضمير المخاطبين لمزيد اللطف بهم وترغيبهم في امتثال الأوامر^(١) .

٣ - ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ بين ﴿ثقلت﴾ و ﴿خفت﴾ طباقٌ وكذلك بين ﴿بياتاً﴾ و ﴿قائلون﴾ لأن البيات معناه ليلاً و ﴿قائلون﴾ معناه نهراً وقت الظهيرة .

٤ - ﴿خلقناكم ثم صورناكم﴾ هو على حذف مضاف أي خلقنا أباكم وصورنا أباكم .

٥ - ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ استعار الصراط المستقيم لطريق الهداية الموصل إلى جنان النعيم .

٦ - ﴿ويا آدم﴾ فيه إيجاز بالحذف أي وقلنا يا آدم .

٧ - ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ عبّر عن الأكل بالقرب مبالغة في النهي عن الأكل منها .

٨ - ﴿وقاسمها إني لكما﴾ أكد الخبر بالقسم وبيان اللام لدفع شبهة الكذب وهو من الضرب الذي يسمى «إنكارياً» لأن السامع متردد .

٩ - ﴿فيها تحيون وفيها تموتون﴾ بين الجمليتين طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

تبديّه : سميت العورة سوءاً لأن كشفها يسوء صاحبها قال العلماء : في الآية دليل على أن كشف العورة من عظام الأمور وأنه مستهجنٌ في الطباع ولذلك سميت سوءاً أقول : إن الآية قد أوضحت هدف إبليس اللعين ﴿ينزع عنها لباسها ليريها سواتها﴾ فمن دعا إلى تعري المرأة وشجّع على ذلك كما هو حال من يزعم التقدمية ويدعو المرأة الى نزع الحجاب بدعوى الحرية والمساواة فإنما هو عدوٌ للمرأة ومن أنصار وأعوان إبليس لأن الهدف واحد ، وهي دعوة مكشوفة غايتها التفسخ والانحلال الخلقي ، وليست التقدمية بالتكشف والتعري وإنما هي بصيانة الشرف والعفاف ولله در القائل :

يا ابتني إن أردت آيةً حسن
فانبذي عادة التبرج نبذاً
وجمالاً يزينُ جسماً وعقلاً
فجمالُ النفوسِ أسمى وأعلى
يصنع الصّانعون رداً ولكن
وردةُ الروض لا تُضارع شكلاً

قال الله تعالى : ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم .. إلى .. وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾

من آية (٣١) إلى نهاية آية (٥١) .

المناسكة : لما ذكر تعالى قصة آدم عليه السلام ، وذكر ما امتن به على بنيه وما أنعم به عليهم من اللباس الذي يستر العورات ، أمر هنا بأخذ الزينة والتجمل في المناسبات وعند إرادة الصلاة ، ثم ذكر أحوال الآخرة وانقسام الناس إلى طوائف : « أهل الجنة ، وأهل النار ، وأهل الأعراف » ومأل كل فريق من سعادة أو شقاء في دار العدل والجزاء .

اللغت : ﴿زيتكم﴾ الزينة : ما يتزين به المرء ويتجمل من ثياب وغيرها ﴿الفواحش﴾ جمع فاحشة وهي ما تنهى قبحة من المعاصي ﴿البغي﴾ الظلم والاستطالة على الناس ﴿سلطاناً﴾ حجة وبرهاناً ﴿سَمَّ الخياط﴾ ثقب الإبرة ﴿مهاده﴾ فراش يمتده الإنسان ﴿غواش﴾ أغطية جمع غاشية قال ابن عباس : هي اللحف ﴿الأعراف﴾ السور المضروب بين الجنة والنار جمع عرف مستعار من عرف الديك ﴿بسيهام﴾ بعلامتهم .

سَبَبُ النَّزُولِ : عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت عريانة وتقول : من يعيرني تطوفاً تجعله على فرجها وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله
فما بدا منه فلا أحله

فزلت هذه الآية ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ وأذن مؤذن رسول الله ﷺ : ألا يطوف بالبيت عريان^(١) .

* يَا بَنِيَّ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾
قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ۖ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا

النفسير : ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ أي البسوا أفخر ثيابكم وأطهرها عند كل صلاة أو طواف ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ أي لا تسرفوا في الزينة والأكل والشرب بما يضر بالنفس والمال ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ أي المتعدين حدود الله فيما أحل وحرّم ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة ويحرمون على أنفسهم ما أحلت لهم من الطيبات ، من حرم عليكم التجمل بالثياب التي خلقها الله لنفعمكم من النبات ، والمستلذات من المأكّل والمشرب ! والاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ أي هذه الزينة والطيبات في الدنيا مخلوقة للمؤمنين وإن شاركهم فيها الكفار ، وستكون خالصة لهم يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد لأن الله حرم الجنة على الكافرين ﴿كذلك نفضّل

وَمَا بَطَّنْ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بَغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾
 وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَذُنُّ آدَمَ إِمَامًا يَا تَيْنَكَمُ رَسُولٌ مِنْكُمْ
 يُقْصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي لَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا
 عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ
 أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتُوفَوْنَهُمْ قَالُوا آيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ

الآيات لقوم يعلمون ﴿٣٣﴾ أي نبين ونوضح الآيات التشريعية لقوم يتدبرون حكمة الله ويفقهون تشريعه ﴿٣٤﴾ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴿٣٥﴾ أي قل لهم يا محمد ما حرم الله إلا القبائح من الأشياء التي تفاحش قبحها وتناهى ضررها، سواء ما كان منها في السر أو في العلن ﴿٣٦﴾ والإثم والبغي بغير الحق ﴿٣٧﴾ أي وحرم المعاصي كلها والعدوان على الناس ﴿٣٨﴾ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴿٣٩﴾ أي تجعلوا له شركاء في عبادته بدون حجة أو برهان ﴿٤٠﴾ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴿٤١﴾ أي تفتروا على الله الكذب في التحليل والتحريم ﴿٤٢﴾ ولكل أمة أجل ﴿٤٣﴾ أي لكل أمة كذبت رسلها مدة مضروبة هلاكها قال في البحر: هذا وعيد للمشركين بالعذاب إذا خالفوا أمر ربهم ﴿٤٤﴾ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴿٤٥﴾ أي فإذا جاء وقت هلاكهم المقدر لهم لا يتأخر عنهم برهة من الزمن ولا يتقدم كقوله ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ ﴿٤٦﴾ والساعة مثل في غاية القلة من الزمان ﴿٤٧﴾ يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ﴿٤٨﴾ المراد بيني آدم جميع الأمم والمعنى إن يحنثكم رسلي الذين أرسلتهم إليكم يبينون لكم الأحكام والشرائع ﴿٤٩﴾ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿٥٠﴾ أي فمن اتقى منكم ربه بفعل الطاعات وترك المحرمات فلا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون ﴿٥١﴾ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿٥٢﴾ أي وأما من كذب واستكبر عن الإيمان بما جاء به الرسل فأولئك في نار جهنم ما كثون لا يخرجون منها أبداً ﴿٥٣﴾ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ﴿٥٤﴾ الاستفهام للإنكار أي من أقبح وأشنع ممن تعمد الكذب على الله أو كذب بآياته المنزلة؟ ﴿٥٥﴾ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴿٥٦﴾ أي يصيبهم حظهم في الدنيا مما كتب لهم وقدر من الأرزاق والأجال قال مجاهد: ما وعدوا به من خير أو شر ﴿٥٧﴾ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴿٥٨﴾ أي جاءت ملائكة الموت تقبض أرواحهم ﴿٥٩﴾ قالوا آين ما كنتم تدعون من دون الله ﴿٦٠﴾ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله أدعوهم ليخلصوكم من العذاب ، والسؤال للتبكي والتوبيخ ﴿٦١﴾ قالوا ضلوا عننا ﴿٦٢﴾ أي قال الأشقياء المكذبون لقد

(١) البحر المحيط ٢٩٢/٤ . (٢) هذا الراجح في تفسير الآية أن المراد به أجل الامم المكذبة للرسل وهو اختيار الطبري وابن كثير وأبي السعود وقيل : المراد أن كل إنسان له عمر ينتهي إليه لا يزيد ولا ينقص ، والأول أرجح لأن اللفظ ورد لكل أمة والله أعلم .

اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَارُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَعَاتِبِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أَوْلَاهُمْ لِأَخْرَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾

غابوا عنا فلا نرجوا نفعهم ولا خيرهم ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ أي أقروا واعترفوا على أنفسهم بالكفر والضلال ، وإنما قالوا ذلك على سبيل التحسر والاعتراف بما هم عليه من الخيبة والخسران ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار﴾ أي يقول الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء المكذبين بآياته : ادخلوا مع أمم أمثالكم من الفجرة في نار جهنم من كفار الأمم الماضية من الإنس والجن ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾ أي كلما دخلت طائفة النار لعنت التي قبلها لضلالها بها قال الألوسي : يلعن الأتباع القادة يقولون : أنتم أوردتمونا هذه الموارد فلعنكم الله تعالى^(١) ، والمراد أن أهل النار يلعن بعضهم بعضاً كقوله تعالى ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً﴾ حتى إذا آداركوا فيها جميعاً أي تلاحقوا واجتمعوا في النار كلهم ﴿قالت أخواهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا﴾ أي قال الأتباع للقادة والرؤساء الذين أضلوهم يا ربنا هؤلاء هم الذين أضلونا عن سبيلك وزينوا لنا طاعة الشيطان ﴿فاتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ أي أذقهم العذاب مضاعفاً لأنهم تسبوا في كفرنا ونظير هذه الآية ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتتهم ضعفين من العذاب﴾ قال لكل ضعف أي لكل من القادة والأتباع عذاب مضاعف أما القادة فلضلالهم وإضلالهم ، وأما الأتباع فللكفرهم وتقليدهم ﴿ولكن لا تعلمون﴾ أي لا تعلمون هوله ولهذا تسألون لهم مضاعفة العذاب ﴿وقالت أولاهم لأخواهم فما كان لكم علينا من فضل﴾ أي قال القادة للأتباع : لا فضل لكم علينا في تخفيف العذاب فنحن متساوون في الضلال وفي استحقاق العذاب الأليم ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ أي فذوقوا عذاب جهنم بسبب إجرامكم ، قالوه لهم على سبيل التشفي لأنهم دعوا عليهم بمضاعفة العذاب^(٢) ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها﴾ أي كذبوا بآياتنا مع وضوحها واستكبروا عن الإيمان بها والعلم بمقتضاها ﴿لا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي لا يصعد لهم عمل صالح كقوله تعالى ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ قال ابن عباس : لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء ، وقيل : لا تُفْتَحُ لأرواحهم أبواب السماء إذا قبضت أرواحهم

(١) روح المعاني ٨/ ١١٦ . (٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله ﴿فذوقوا العذاب﴾ من كلام الله للفریقین على سبيل التوبيخ وهو اختيار الطبري والظاهر أنه من كلام القادة للأتباع كما في البحر والله أعلم .

لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُّمُ الْجَنَّةَ ۖ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ

ويؤيده حديث (إن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا يجيئه ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة أخرجي مني إلى سخط من الله وغضب ، ويخرج منها كأن تن ربح جيفة فلا يمر على ملا من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة ؟ حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له . .) (١) الحديث ﴿ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ أي لا يدخلون يوم القيامة الجنة حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة ، وهذا تمثيل لاستحالة دخول الكفار الجنة كاستحالة دخول الجمل على ضخامته في ثقب الإبرة على دقته مبالغة في التصوير ﴿ وكذلك نجزي المجرمين ﴾ أي ومثل ذلك الجزء الفطيع نجزي أهل العصيان والإجرام ﴿ لهم من جهنم مهاد ﴾ أي لهم فراش من النار من تحتهم ﴿ ومن فوقهم غواش ﴾ أي ومن فوقهم أغطية من النار ﴿ وكذلك نجزي الظالمين ﴾ أي ومثل ذلك الجزء الشديد نجزي كل من ظلم وتعدى حدود الله ، ولما ذكر تعالى وعيد الكافرين وما أعد لهم في الآخرة أتبعه بذكر وعد المؤمنين وما أعد لهم فقال ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي والذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم به وأطاعوه ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ أي لا نكلف أحداً بما هو فوق طاقته أو بما يعجز عنه بل بما هو في وسعه والجملة اعتراضية بين المبتدأ والخبر قال في البحر : وفائدته التنبيه على أن ذلك العمل في وسعهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم ما فيها يوصل إليها بالعمل السهل من غير مشقة (٢) ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ هذا هو الخبر أي هؤلاء المؤمنون السعداء هم المستحقون للخلود الأبدي في جنات النعيم لا يُخرجون منها أبداً ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ أي طهرنا قلوبهم من الحسد والبغضاء حتى لا يكون بينهم إلا المحبة والتعاطف كما ورد في الحديث (يدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل) (٣) وصيغة الماضي تفيد التحقق والتثبت ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ أي تجري أنهار الجنة من تحت قصورهم زيادة في نعيمهم ﴿ وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ أي وفقنا لتحصيل هذا النعيم العظيم ولولا هداية الله تعالى وتوفيقه لما وصلنا إلى هذه السعادة ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ أي والله لقد صدقنا الرسل فيما أخبرونا به عن الله عز وجل ﴿ وتودوا أن تُلَكُّمُ الجنة ۖ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي وتناديهم الملائكة أن هذه هي الجنة التي أعطيتموها بسبب أعمالكم الصالحة في الدنيا قال القرطبي: ورثتم منازلها بعملكم ، ودخولكم إياها برحمة الله وفضله وفي الحديث (لن

(١) هذا من حديث أخرجه الإمام أحمد وانظره كاملاً في ابن كثير ١٨/٢ . (٢) البحر المحيط ٤/٢٩٨ . (٣) أخرجه ابن أبي حاتم .

أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٦﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَاوُا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٨﴾ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٩﴾

يُدخل أحداً منكم عمله الجنة . . .) الحديث ﴿١﴾ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم ﴿٢﴾ هذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، وعبر بالماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه أي ينادي أهل الجنة أهل النار يقولون : إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا على السنة رسله من النعيم والكرامة حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من الخزي والهوان والعذاب حقاً ؟ قال أهل النار مجيبين : نعم وجدناه حقاً قال الزمخشري : وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم ، وشماتةً بأهل النار ، وزيادة في غمهم ﴿٣﴾ لمجرد الإخبار والاستخبار ﴿٤﴾ فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ﴿٥﴾ أي أعلن معلناً ونادى منادٍ بين الفريقين بأن لعنة الله على كل ظالم بالله ثم وصفه بقوله ﴿٦﴾ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أي الذين كانوا في الدنيا يمنعون الناس عن اتباع دين الله ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد ﴿٧﴾ وهم بالآخرة كافرون ﴿٨﴾ أي وهم ببقاء الله في الدار الآخرة مكذبون جاحدون ﴿٩﴾ وبينهما حجابٌ وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلاً بسيماهم ﴿١٠﴾ أي بين الفريقين حجاب وهو السور الذي ذكره بقوله ﴿١١﴾ فُضِرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ ﴿١٢﴾ يمنع من وصول أهل النار للجنة ، وعلى هذا السور رجال يعرفون كلاً من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم أي بعلامتهم التي ميّزهم الله بها قال قتادة : يعرفون أهل النار بسواد وجوههم وأهل الجنة بياض وجوههم ﴿١٣﴾ ونادوا أصحاب الجنة أن سلامٌ عليكم ﴿١٤﴾ أي ونادى أصحاب الأعراف أهل الجنة حين رأوهم أن سلامٌ عليكم أي قالوا لهم : سلام عليكم قال تعالى ﴿١٥﴾ لم يدخلوها وهم يطمعون ﴿١٦﴾ أي لم يدخل أصحاب الأعراف الجنة وهم يطمعون في دخولها ﴿١٧﴾ وإذا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ قال المفسرون : أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فليسوا من أهل الجنة ولا من أهل النار ، يحسبون هناك على السور حتى يقضي الله فيهم فإذا نظروا إلى أهل الجنة سلّموا عليهم ، وإذا نظروا إلى أهل النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ، سألوا الله ألا يجعلهم معهم قال أبو حيان : وفي التعبير بقوله ﴿١٩﴾ صُرِفَتْ ﴿٢٠﴾ دليل على أن أكثر أحوالهم النظر إلى أهل الجنة وأن نظرهم إلى أصحاب النار ليس من قبيلهم بل هم محمولون عليه والمعنى أنهم إذا حملوا على صرف أبصارهم ورأوا ما عليه أهل النار من العذاب استغاثوا بربهم من أن يجعلهم معهم ﴿٢١﴾ ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم ﴿٢٢﴾ أي من أهل النار وهم

(١) أخرجه مسلم وانظر القرطبي ٢٠٩/٧ . (٢) الكشاف ١٠٦/٢ . (٣) الطبري ٤٦٣/١٢ . (٤) البحر المحيط ٣٠٣/٤

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾
 أَهْتُولَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا يَخُوفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ
 النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾
 الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسُوهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا
 بِعَايِنَتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

رؤساء الكفرة ﴿قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون﴾ أي أي شيء نفعكم جمعكم للمال واستكباركم عن الإيمان؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته﴾ أي أهؤلاء المؤمنون الضعفاء الذين كنتم في الدنيا تسخرون منهم وتحلفون أن الله لا يدخلهم الجنة، والاستفهام استفهام تقرير وتوبيخ وشماتة يوبخونهم بذلك ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ أي يقولون للمؤمنين ادخلوا الجنة رغم أنوف الكافرين قال الألوسي: هذا من كلام أصحاب الأعراف يقولون لأهل الجنة المشار إليهم: دوما في الجنة غير خائفين ولا محزونين على أكمل سرور وأتم كرامة^(١) ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ يخبر تعالى عن المحاورة بين أهل النار وأهل الجنة بعد أن استقر بكل من الفريقين القرار واطمأنت به الدار، وعن استغاثتهم بهم عند نزول عظيم البلاء من شدة العطش والجوع والمعنى ينادونهم يوم القيامة أغيثونا بشيء من الماء لنسكن به حرارة النار والعطش أو مما رزقكم الله من غيره من الأشربة فقد قتلنا العطش ﴿قالوا إن الله حرمها على الكافرين﴾ أي منع الكافرين شراب الجنة وطعامها قال ابن عباس: ينادي الرجل أخاه وأباه فيقول: قد احترقت فأفرض علي من الماء! فيقال لهم أجيئوهم فيقولون: إن الله حرمها على الكافرين^(٢)، ثم وصف تعالى الكافرين بقوله ﴿الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً﴾ أي هزءوا من دين الله وجعلوا الدين سخرية ولعباً ﴿وغرَّتْهم الحياة الدنيا﴾ أي خدعتهم بزخارفها العاجلة وشهواتها القاتلة وهذا شأنها مع أهلها تغرُّ وتضر، وتخدع ثم تصرع ﴿فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ أي ففي هذا اليوم نتركهم في العذاب كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا فلم يخطر ببالهم ولم يهتموا به قال الألوسي: الكلام خارجٌ مخرج التمثيل أي نتركهم في النار وننسأهم مثل نسيانهم لقاء هذا اليوم العظيم الذي ينبغي ألا ينسى^(٣) وقال ابن كثير: أي يعاملهم معاملة من نسيهم لأنه تعالى لا يشدُّ عن علمه شيء ولا ينسأه^(٤) ﴿وما كانوا بآياتنا يجدون﴾ أي وكما كانوا منكربين لآيات الله في الدنيا، يكذبون بها ويستهزءون، ننسأهم في العذاب.

البلاغَة : ١ - ﴿عند كل مسجد﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية لأن المراد بالمسجد هنا الصلاة

(١) روح المعاني ٨ / ١٢٦ . (٢) الطبري ١٢ / ٤٧٣ . (٣) روح المعاني ٨ / ١٢٧ . (٤) مختصر ابن كثير ٢ / ٢٤ .

- والطواف ، ولما كان المسجد مكان الصلاة أطلق ذلك عليه .
- ٢ - ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ كناية عن عدم قبول العمل ، فلا يقبل لهم دعاء أو عمل .
- ٣ - ﴿ حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ فيه تشبيه ضمني أي لا يدخلون الجنة بحالٍ من الأحوال إلا إذا أمكن دخول الجمل في ثقب الإبرة ، وهو تمثيلٌ للاستحالة .
- ٤ - ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾ قال صاحب البحر : هذه استعارة لما يحيط بهم من النار من كل جانب كقوله ﴿ لهم من فوقهم ظللٌ من النار ومن تحتهم ظللٌ ﴾^(١) .
- ٥ - ﴿ ما ظهر منها وما بطن ﴾ بين « ظهر » و « بطن » طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

فكائدَة : يروى أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق فقال ذلك الطبيب لأحد العلماء : ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلمُ علمان : علم الأبدان وعلم الأديان فقال له العالم : قد جمع الله تعالى الطبَّ كله في نصف آية من كتابه قال وما هي ؟ قال قوله تعالى ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ فقال النصراني : ولا يُؤثر عن رسولكم شيء في الطب فقال العالم : قد جمع رسولنا الطب في ألفاظيسيرة قال وما هي ؟ قال قوله (ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه بحسب ابن آدم لقيمت يُقمن صلبه) الحديث فقال النصراني : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم .. إلى .. وما كانوا مؤمنين ﴾
من آية (٥٢) إلى نهاية آية (٧٢) .

المناسكة : لما ذكر تعالى حال الكفار الأشقياء وخسارتهم الفادحة في الآخرة ، ذكر هنا أنه لا حجة لأحد فقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لهداية البشرية ، ثم ذكر قصص بعض الأنبياء فبدأ بنوح عليه السلام شيخ الأنبياء ثم أعقبه بذكر هودٍ عليه السلام وموقف المشركين من دعوة الرسل الكرام .

اللغز : ﴿ تأويله ﴾ عاقبة أمره وما يثول إليه من آل يثول إذا صار إليه ﴿ استوى ﴾ الاستواء : العلو والاستقرار قال الجوهري : استوى على ظهر الدابة استقر ، واستوى إلى السماء قصد ، واستوى الشيء إذا اعتدل ﴿ يغشي ﴾ يغطي ﴿ حثيثاً ﴾ سريعاً والحث : الإعجال والسرعة ﴿ تبارك ﴾ تفاعل من البركة وهي الكثرة والاتساع قال الأزهري : تبارك أي تعالى وتعاظم وارتفع ﴿ تضرعاً ﴾ تذلاً واستكانة وهو إظهار الذل الذي في النفس مع الخشوع ﴿ وخفية ﴾ سرّاً ﴿ بُشراً ﴾ مبشرة بالمطر ﴿ أقلت ﴾ حملت ﴿ نكيداً ﴾ العسر القليل ﴿ آلاء ﴾ الآلاء النعم واحدها « لى » كعمى .

(١) البحر المحيط ٤/٢٩٨ . (٢) عاسن التأويل ٧/٢٦٦٤ .

وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا

التفسير : ﴿ولقد جئناهم بكتاب﴾ أي ولقد جئنا أهل مكة بكتاب هو القرآن العظيم ﴿فصلناه على علم﴾ أي بينا معانيه ووضحنا أحكامه على علم منا حتى جاء قياً غير ذي عوج ﴿هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي هداية ورحمة وسعادة لمن آمن به ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ أي ما ينتظر أهل مكة إلا عاقبة ما وعدوا به من العذاب والنكال قال قتادة : تأويله عاقبته ﴿يوم يأتي تأويله﴾ هو يوم القيامة ﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾ أي يقول الذين ضيعوا وتركوا العمل به في الدنيا ﴿قد جاءت رسلنا بالحق﴾ أي جاءتنا الرسل بالأخبار الصادقة وتحقق لنا صدقهم فلم نؤمن بهم ولم نتبعهم قال الطبري : أقسم المساكين حين حل بهم العقاب أن رسل الله قد بلغتهم الرسالة ونصحت لهم وصدقتهم حين لا ينفعهم ولا ينجيهم من سخط الله كثرة القيل والقال^(١) ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾ أي هل لنا اليوم شفيع يخلصنا من هذا العذاب ؟ استفهام فيه معنى التمني ﴿أو نردُّ فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾ أو هل لنا من عودة إلى الدنيا لنعمل صالحاً غير ما كنا نعمله من المعاصي وقبيح الأعمال ؟ قال تعالى رداً عليهم ﴿قد خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي خسروا أنفسهم حيث ابتاعوا الخسيس الفاني من الدنيا بالنفيس الباقي من الآخرة ، وبطل عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة والأصنام ، ثم ذكر تعالى دلائل القدرة والوحدانية فقال ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ أي إن معبودكم وخالقكم الذي تعبدونه هو المنفرد بقدرة الإيجاد الذي خلق السموات والأرض في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا قال القرطبي : لو أراد لخلقها في لحظة ولكنه أراد أن يعلم العباد الثبوت في الأمور^(٢) ﴿ثم استوى على العرش﴾ أي استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف كما هو مذهب السلف وكما قال الإمام مالك رحمه الله : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة وقال الإمام أحمد رحمه الله : أخبار الصفات ثمر كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل فلا يقال : كيف ؟ ولم ؟ تؤمن بأن الله على العرش كيف شاء ، وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف أو يحدها حاد ، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيها ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل^(٣) وقال القرطبي : لم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته^(٤) ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ أي يغطي الليل على النهار فيذهب بضوئه ويطلبه سريعاً حتى يدركه ﴿والشمس والقمر والنجوم

(١) الطبري ١٢/٤٨٠ . (٢) القرطبي ٧/٢١٩ . (٣) عاسن التأويل ٧/٢٧٠٨ . (٤) القرطبي ٧/٢١٩ .

وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٦﴾ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٧﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ۗ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٩﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۗ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ

مسخراتٍ بأمره ﴿٥٦﴾ أي الجميع تحت قهره ومشيتته وتسخيره ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ أي له الملك والتصرف التام في الكائنات ﴿تبارك الله رب العالمين﴾ أي تعظم وتمجد الخالق المبدع رب العالمين ﴿أدعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ أي أدعو الله تذلاً وسراً بخشوع وخضوع ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ أي لا يحب المعتدين في الدعاء بالتشدد ورفع الصوت وفي الحديث (إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً) ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ أي لا تفسدوا في الأرض بالشرك والمعاصي بعد أن أصلحها الله ببعثة المرسلين ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ أي خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ أي رحمته تعالى قريبة من المطيعين الذين يمتثلون وأوامره ويتركون زواجره ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ أي يرسل الرياح مبشرة بالمطر قال في البحر : ومعنى بين يدي رحمته أي أمام نعمته وهو المطر الذي هو من أجل النعم وأحسنها أثراً على الإنسان^(١) ﴿حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً﴾ أي حتى إذا حملت الرياح سحاباً مثقلاً بالماء ﴿سقناه لبلد ميت﴾ أي سقنا السحاب إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها ﴿فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات﴾ أي أنزلنا في ذلك البلد الميت الماء فأخرجنا بذلك الماء من كل أنواع الثمرات ﴿كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ أي مثل هذا الإخراج نُخرج الموتى من قبورهم لعلكم تعتبرون وتؤمنون قال ابن كثير : وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله المثل ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال لعلكم تذكرون^(٢) ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه﴾ أي الأرض الكريمة التربة يُخرج النبات فيها وافياً حسناً غزير النفع بمشيئة الله وتيسيره، وهذا مثل للمؤمن يسمع الموعدة فينتفع بها ﴿والذي خبث لا يخرج إلا نكداً﴾ أي والأرض إذا كانت خبيثة التربة كالحرّة أو السبخة^(٣) لا يخرج النبات فيها إلا بعسر ومشقة وقليلاً لا خير فيه، وهذا مثل للكافر الذي لا ينتفع بالموعدة قال ابن عباس : هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالؤمن طيب وعمله طيب كالأرض الطيبة ثمرها طيب ، والكافر خبيث وعمله خبيث كالأرض السبخة المالحة لا ينتفع بها^(٤) ﴿كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾ أي كما ضربنا هذا المثل كذلك نبين

(١) البحر المحيط ٤/٣١٧ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/٢٧ . (٣) الحرّة : الأرض ذات الحجارة السود ، والسبخة : الأرض ذات الملح .

(٤) الطبري ١٢/٤٩٧ .

الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٦١﴾ أَلْبَلِغُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَ كُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ * وَإِلَىٰ عَادٍ

وجوه الحجج ونكرها آية بعد آية ، وحجة بعد حجة لقوم يشكرون الله على نعمه ، وإنما خص الشاكرين بالذكر لأنهم المتفكرون بسماع القرآن قال الألوسي : أي مثل هذا التصريف البديع نردد الآيات الدالة على القدرة الباهرة ونكرها لقوم يشكرون نعم الله تعالى ، وشكرها بالتفكير والاعتبار بها ^(١) ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ اللام جواب قسم محذوف أي والله لقد أرسلنا نوحاً ، ونوح شيخ الأنبياء لأنه أطولهم عمراً وهو أول نبي بعثه الله بعد إدريس ، ولم يلق نبي من الأذى مثل نوح ^(٢) ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي وحدوا الله ولا تشركوا به فما لكم إله مستحق للعبادة غيره ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ أي إن أشركتم به ولم تؤمنوا فأنا أخاف عليكم عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة ﴿قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين﴾ أي قال الأشراف والسادة من قومه إنا لنراك يا نوح في ذهاب عن طريق الحق والصواب واضح جلي قال أبو حيان : ولم يجبه من قومه إلا أشرافهم وسادتهم وهم الذين يتعاصون على الرسل لانغماس عقولهم بالدنيا وطلب الرياسة ^(٣) ، وهكذا حال الفجار وإنما يرون الأبرار في ضلالة ﴿قال يا قوم ليس بي ضلالة ^(٤)﴾ ولكني رسول من رب العالمين ﴿أي ما أنا بضال ولكن أنا مرسل إليكم من عند ربكم المالك لأمركم الناظر لكم بالمصلحة﴾ أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما تعلمون ﴿أي أنا أبلغكم ما أرسلني الله به إليكم وأقصد صلاحكم وخيركم وأعلم من الأمور الغيبية أشياء لا علم لكم بها قال ابن كثير : وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدرکه أحد من خلق الله في هذه الصفات ^(٥) ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم﴾ أي لا تعجبوا من هذا فإن هذا ليس بعجيب أن يوحى الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم ﴿ليُنذِرَكُمْ ولتتقوا ولعلكم تُرْحَمُونَ﴾ أي ليخوفكم هذا الرسول من العذاب إن لم تؤمنوا ولتتقوا ربكم وتنالكم الرحمة بتقواه ﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾ أي كذبوا نوحاً مع طول مدة إقامته فيهم فأنجاه الله والمؤمنين معه في السفينة

(١) روح المعاني ٨ / ١٤٨ . (٢) انظر ترجمة نوح مفصلة في كتابنا « النبوة والأنبياء » . (٣) البحر ٤ / ٣٢٠ . (٤) لم يأت التركيب لست في ضلال مبين بل جاء في غاية الحسن ﴿ليس بي ضلالة﴾ لنفي أن يلتبس أو يختلط به ضلالة ما ، وهذا أبلغ من الانتفاء من الضلال إذ لم يتعلق به ولا ضلالة واحدة ، أفاده صاحب البحر . (٥) مختصر ابن كثير ٢ / ٢٨ .

أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿١٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَنْظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٦٦﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٧﴾ أبلغكم رسالت ربي وأنا لكم ناصح أمين ﴿١٦٨﴾ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجلٍ منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴿١٦٩﴾ قالوا أجتئنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴿١٧٠﴾ قال قد وقع عليكم من ربكم رجسٌ وغضبٌ أتجدلوني في أسماءٍ سميتموها أنتم

﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي أهلكتنا المكذبين منهم بالغرق ﴿إنهم كانوا قوماً عمين﴾ أي عميت قلوبهم عن الحق فهم لا يبصرونه ولا يهتدون له قال ابن عباس : عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد (١) ﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً﴾ أي وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هوداً وكانت مساكنهم بالأحقاف باليمن ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي قال لهم رسولهم وحدوا الله فليس لكم إله غيره ﴿أفلا تتقون﴾ أي أفلا تخافون عذابه ؟ ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أي قال السادة والقادة منهم ﴿إنا لنراك في سفاهةٍ وإنا لنظنُّكَ من الكاذبين﴾ أي نراك في خفة حلم وسخافة عقل وإننا لنظنك من الكاذبين في ادعائك الرسالة ﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسولٌ من رب العالمين﴾ أي ليس بي كما تزعمون نقص في العقل ولكني مرسل إليكم بالهداية من رب العالمين ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ أي أبلغكم أوامر الله وأنا ناصح لكم فيما أدعوكم إليه ، أمينٌ على ما أقول لا أكذب فيه قال الزمخشري : وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام بمن نسبهم إلى السفاهة والضلالة- بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم وترك المقابلة - أدبٌ حسنٌ وخلقٌ عظيمٌ ، وتعليمٌ للعباد كيف يخاطبون السفهاء ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم (٢) ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجلٍ منكم لينذركم﴾ أي لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم لقاء الله ويخوفكم عذابه ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ أي اذكروا نعمة الله حين استخلفكم في الأرض بعد إهلاك قوم نوح ﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾ أي زاد في أجسامكم قوةً وضخامةً ﴿فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾ أي اذكروا نعم الله عليكم كي تفلحوا وتفوزوا بالسعادة ﴿قالوا أجتئنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا﴾ أي أجتئنا يهود تنوعنا بالعذاب كي نعبد الله وحده ونهجر عبادة الآلهة والأصنام ونبتراً منها ؟ ﴿فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ أي فاتنا بما تعدنا به من العذاب فلن نؤمن لك إن كنت من الصادقين في قولك ﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجسٌ

وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأُنَجِّنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

وغضب ﴿أي قد حلّ بكم عذاب وغضب من الله﴾ أمجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وأباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ﴿أي أنخاصمونني في أصنام لا تضر ولا تنفع ما أنزل الله بعبادتها من حجة أو برهان﴾ فانظروا إلي من المنتظرين ﴿أي فانظروا نزول العذاب إلي من المنتظرين لما يحل بكم وهذا غاية الوعيد والتهديد﴾ فأنجيناه والذين معه برحمة منا ﴿أي أنجيناه هوداً والذين معه من المؤمنين رحمة منا لهم﴾ وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ﴿أي استأصلناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم﴾ وما كانوا مؤمنين ﴿أي كذبوا ولم يؤمنوا فاستحقوا العذاب قال أبو السعود : أي أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرفعوا عن ذلك أبداً فأهلكهم الله بالريح العقيم^(١) .

البلاغَة : ١ - ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ الآية على قلة ألفاظها جمعت معاني كثيرة استوعبت جميع الأشياء والشئون على وجه الاستقصاء حتى قال ابن عمر : من بقي له شيء فليطلبه وهذا الأسلوب البليغ يسمى «إيجاز قصر» ومداره على جمع الألفاظ القليلة للمعاني الكثيرة .

٢ - ﴿سقناه لبلدٍ ميّت﴾ وصف البلد بالموت استعارةً حسنة لجذبه وعدم نباته كأنه كالجسد الذي لا روح فيه من حيث عدم الانتفاع به .

٣ - ﴿كذلك نُخرج الموتى﴾ أي مثل إخراج النبات من الأرض نخرج الموتى من قبورهم فهو تشبيه «مرسل مجمل» ذكرت الأداة ولم يذكر وجه الشبه .

٤ - ﴿وقطعنا دابر﴾ قطع الدابر كناية لطيفة عن استئصالهم جميعاً بالهلاك .

تبليغه : ذكر العلامة الألوسي عند قوله تعالى ﴿أدعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ عن الحسن البصري أنه قال : لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم وذلك أنه تعالى يقول ﴿أدعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ وأنه سبحانه ذكر عبداً صالحاً فقال ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ ثم قال : وذكروا للدعاء آداباً كثيرة منها : أن يكون على طهارة ، وأن يستقبل القبلة ، وتخفية القلب من الشواغل ، وافتتاحه واختتامه بالصلاة على النبي ﷺ ورفع اليدين نحو السماء ، وإشراك المؤمنين فيه ، وتحري ساعات الإجابة كثلث الليل الأخير ، ووقت إفطار الصائم ، ويوم الجمعة وغير ذلك^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿والإي ثمود أخاهم صالحاً . . إلى . . فكيف آسى على قوم كافرين﴾

من آية (٧٣) إلى نهاية آية (٩٣)

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيْنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا

المناسكة : لما ذكر تعالى في أول السورة قصة آدم ، وما اتصل بها من آثار قدرته ، وغرائب صنعته ، الدالة على توحيده وربوبيته ، وأقام الحجة الدامغة على صحة البعث بعد الموت ، أتبع ذلك بقصص الأنبياء وما جرى لهم مع أمهم ، فذكر نوحاً وهوداً وأعقبه هنا بذكر قصة صالح وشعيب ، وموقف المعاندين للرسول الكرام .

اللفظ : ﴿ناقة﴾ الناقة : الأثني من الجمال ، وعقر الناقة ضرب قوائمها بالسيف ﴿عتوا﴾ استكبروا عتوا أي استكبر والليل العاتي : الشديد الظلمة ﴿جاثمين﴾ لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر ﴿الرجفة﴾ الطامة التي يرفج لها الإنسان أي يتزعزع ويضطرب وأصل الرجف الاضطراب رجفت الأرض اضطربت ﴿الغابرين﴾ الباقيين في عذاب الله ، والغابر بمعنى الباقي ويجيء بمعنى الماضي والذاهب ومنه قول الأعشى : في الزمن الغابر فهو من الأضداد كما في الصحاح ﴿يغنوا﴾ يقيموا يقال غنى بالمكان إذا أقام به دهرًا طويلاً ﴿عقوا﴾ كثروا وغنوا من عفا النبات إذا كثر .

التفسير : ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي وحدوا الله ولا تشركوا به ﴿قد جاءكم آية من ربكم﴾ أي معجزة ظاهرة جليلة تدل على صحة نبوتي ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ هذا بيان للمعجزة أي هذه الناقة معجزتي إليكم وإضافتها إلى الله للتشريف والتعظيم لأنها خلقت بغير واسطة قال القرطبي : أخرج لهم الناقة حين سألوه من حجر صلد^(١) ﴿فذرورها تأكل في أرض الله﴾ أي اتركوها تأكل من رزق ربها ﴿ولا تمسوها بسوءٍ فياخذكم عذاب أليم﴾ أي لا تتعرضوا لها بشيء من السوء أصلاً إكراماً لها لأنها آية الله ، والعذاب الأليم هو ما حل بهم حين عقروها ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾ أي خلفاء في الأرض قال الشهاب : لم يقل خلفاء عاد إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً ﴿وبوآكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً﴾ أي أسكنكم في أرض الحجر تبون في سهولها قصوراً رفيعة ﴿وتنحتون الجبال بيوتاً﴾ أي تنحتون الجبال لسكناكم قال القرطبي : اتخذوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم فإن الأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم^(٢) ﴿فاذكروا آية الله ولا تعتوا في الأرض مفسدين﴾ أي اذكروا نعم الله عليكم واشكروه على ما تفضل به ولا تعيثوا في الأرض فساداً ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين

لَمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنْ صَلِحًا مَرَّسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
 إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِحُ آئِنْتَنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
 مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ
 رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلَوْطَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا
 مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ

استضعفوا لمن آمن منهم ﴿٧٥﴾ أي قال الأشراف المستكبرون من قوم صالح للمؤمنين المستضعفين من أتباع صالح عليه السلام ﴿٧٦﴾ أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ﴿٧٧﴾ أي أن الله أرسله إلينا وإليكم ، وهذا قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء ﴿٧٨﴾ قالوا إننا بما أرسل به مؤمنون ﴿٧٩﴾ أي أجابوهم بالأسلوب الحكيم بالإيمان برسالته قال أبو حيان : وعدوهم عن قولهم هو مرسل إلى قولهم ﴿٨٠﴾ إننا بما أرسل به مؤمنون ﴿٨١﴾ في غاية الحسن إذ أمر رسالته معلوم واضح مسلم لا يدخله ريب لما أتى به من هذا المعجز الخارق العظيم فلا يحتاج أن يسأل عن رسالته ^(١) ﴿٨٢﴾ قال الذين استكبروا إننا بالذي آمنتم به كافرون ﴿٨٣﴾ أي قال المستكبرون نحن كافرون بما صدقتم به من نبوة صالح وإنما لم يقولوا إننا بما أرسل به كافرون إظهاراً لمخالفتهم إياهم ورداً لمقاتلتهم ﴿٨٤﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴿٨٥﴾ أي نحروا الناقة واستكبروا عن امتثال أمر الله ﴿٨٦﴾ وقالوا يا صالح آئتتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴿٨٧﴾ أي جئنا يا صالح بما تعدنا من العذاب الذي تخوفنا به إن كنت يا صالح حقاً رسولاً ، قالوا ذلك استهزاء به وتعجيزاً ﴿٨٨﴾ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴿٨٩﴾ أخذتهم الزلزلة الشديدة فصاروا في منازلهم هامدين موتى لا حراك بهم قال في البحر : أخذتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت في الأرض فقطعت قلوبهم وهلكوا ^(٢) ﴿٩٠﴾ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالتكم وبصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴿٩١﴾ أي أدبر عنهم صالح بعد هلاكهم ومشاهدة ما جرى عليهم وقال على سبيل التفجع والتحسر عليهم : لقد بلغتكم الرسالة وحذرتكم عذاب الله وبذلت وسعي في نصيحتكم ولكن شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم قال الزمخشري ﴿٩٢﴾ ولكن لا تحبون الناصحين ﴿٩٣﴾ حكاية حال ماضية قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت - وكان قد نصحه حياً فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة - : يا أخي كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل مني ^(٣) ؟ ﴿٩٤﴾ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴿٩٥﴾ أي واذكر وقت أن قال لوط لقومه أهل سدوم على سبيل الإنكار والتوبيخ : أتفعلون تلك الفعل الشنيعة المتناهية في القبح التي ما عملها أحد قبلكم في زمن من الأزمان ! والفاحشة هي إتيان الذكور في الأدبار ، أنكر عليهم أولاً فعلها ثم

جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ
كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَافُؤُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ

وبخهم بأنهم أول من فعلها قال أبو حيان : ولما كان هذا الفعل معهوداً قبحه ، ومركوزاً في العقول فحشه أتى به معرفاً بالألف واللام ﴿الفاحشة﴾ بخلاف الزنى فإنه قال فيه ﴿إنه كان فاحشة﴾ فأتى به منكراً ، والجملة المنفية ﴿ما سبقكم﴾ تدل على أنهم أول من فعل هذه الفعلة القبيحة وأنهم مبتكروها ، والمبالغة في ﴿من أحد﴾ حيث زيدت من تأكيد نفي الجنس ، وفي الإتيان بعموم ﴿العالمين﴾ جمعاً قال عمرو بن دينار : ما روي ذكر على ذكر قوم لوط^(١) ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ هذا بيان للفاحشة وهو توبيخ آخر أشنع مما سبق لتأكيد بئان وباللام أي إنكم أيها القوم لتأتون الرجال في أدبارهم شهوة منكم لذلك الفعل الخبيث المكروه دون ما أحله الله لكم من النساء ثم أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح واتباع الشهوات فقال ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي لا عذر لكم بل أنتم عادتكم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء قال أبو السعود : وفي التقييد بقوله ﴿شهوة﴾ وصف لهم بالبهيمية الصرفة وتنبه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النسل لا قضاء الشهوة^(٢) ﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي ما كان جوابهم للوط إذ وبخهم على فعلهم القبيح إلا أن قال بعضهم لبعض : أخرجوا لوطاً وأتباعه المؤمنين من بلدتكم لأنهم أناس ينتزهون عما نفعه نحن من إتيان الرجال في الأدبار ، قال ابن عباس ومجاهد : ﴿إنهم أناسٌ يتطهرون﴾ أي يتقذرون عن إتيان أدبار الرجال والنساء ، قالوا ذلك سخرياً واستهزاءً بلوط وقومه وعابوهم بما يمدح به الإنسان ﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أي أنجيناه من العذاب الذي حل بقومه وأهله المؤمنين إلا امرأته فلم تنج وكانت من الباقيين في ديارهم الهالكين قال الطبري : أي أنجيناه لوطاً وأهله المؤمنين به إلا امرأته فإنها كانت للوط خائنة وبالله كافرة فهلكت مع من هلك من قوم لوط حين جاءهم العذاب^(٣) ﴿وأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي أرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً هو حجارة من سجيل كما في الآية الأخرى ﴿وأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ﴾ وشبه العذاب بالمطر المدرار لكثرة حيث أرسل إرسال المطر ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ أي انظر أيها السامع إلى عاقبة هؤلاء المجرمين كيف كانت ؟ وإلى أي شيء صارت ؟ هل كانت إلا البوار والهلاك ؟! ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي وأرسلنا إلى أهل مدين شعيباً داعياً لهم إلى توحيد الله وعبادته قال ابن كثير : ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب « معان » من طريق الحجاز

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٥﴾
وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ ءَامَنَ بِهِ ۖ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۖ وَإِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا
فَكَثُرْتُكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَآئِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ۖ
وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٧﴾ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَٰئِكَ كَافِرِينَ ﴿٤٨﴾

وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره^(١) ﴿قد جاءكم بينة من ربكم﴾ أي معجزة تدل على صدقي ﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾ أي أتموا للناس حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به والوزن الذي تزنون به ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ أي لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم إياها ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ أي لا تعملوا بالمعاصي بعد إصلاحها ببعثة الرسل ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي ما أمرتكم به من إخلاص العبادة لله وإيفاء الناس حقوقهم وترك الفساد في الأرض خير لكم إن كنتم مصدقين لي في قولي ﴿ولا تقعدوا بكل صراطٍ تُوعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به﴾ أي لا تجلسوا بكل طريق تخوفون من آمن بالقتل قال ابن عباس : كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون : إنه كذاب فلا تذهب إليه على نحو ما كانت تفعله قريش مع رسول الله ﷺ^(٢) ﴿وتبغونها عوجاً﴾ أي تريدون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة بمعنى تصويرهم أن دين الله غير مستقيم كما يقول الضالون في هذا الزمان : «هذا الدين لا ينطبق مع العقل» لأنه لا يتمتى مع أهوائهم الفاجرة ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾ أي كنتم قلة مستضعفين فأصبحتم كثرة أعزة فاشكروا الله على نعمته ﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ هذا تهديد لهم أي انظروا ما حلّ بالأمم السابقة حين عصوا الرسل كيف انتقم الله منهم واعتبروا بهم ﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ أي إذا كان فريق صدقوني فيما جئتكم به وفريق لم يصدقوني فاصبروا حتى يفصل الله بحكمه العادل بيننا وهو خير الفاصلين قال أبو حيان : هذا الكلام من أحسن ما تلتطف به في المحاوراة إذ برز المتحقق في صورة المشكوك وهو من بارع التقسيم فيكون وعداً للمؤمنين بالنصر ووعيداً للكافرين بالعقوبة والخسار^(٣) ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ أي قال أشرف قومه المستكبرين عن الإيمان بالله ورسله ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾ أقسموا على أحد الأمرين : إما إخراج شعيب وأتباعه وإما العودة إلى ملتهم أي إلى الكفر والمعنى لنخرجنك يا شعيب ومن آمن بك من بين أظهرنا أو لترجعن أنت وهم إلى ديننا قال شعيب مجيباً لهم ﴿أو لو كنا

(١) مختصر ابن كثير ٢/٥٣ . (٢) البحر ٤/٣٣٨ . (٣) البحر ٤/٣٤٠ .

قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنْ كُمْرًا إِذَا الْخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأْتُمْ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾

كارهين ﴿٩٠﴾ أي تجبروننا على الخروج من الوطن أو العودة في ملتكم ولو كنا كارهين لذلك ؟ والاستفهام للإنكار ﴿٩١﴾ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴿٩٢﴾ أي إن عدنا إلى دينكم بعد أن أنقذنا الله منه بالإيمان وبصرنا بالهدى نكون مختلقين على الله أعظم أنواع الكذب ، وهذا تيسير للكفار من العودة إلى دينهم ﴿٩٣﴾ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ﴿٩٤﴾ أي لا ينبغي ولا يصح لنا أن نعود إلى ملتكم ودينكم إلا إذا شاء الله لنا الانتكاس والخذلان فيمضي فينا قضاؤه ﴿٩٥﴾ وسع ربنا كل شيء علماً ﴿٩٦﴾ أي وسع علمه كل الأشياء ﴿٩٧﴾ على الله توكلنا ﴿٩٨﴾ أي اعتمادنا على الله وهو الكافي لمن توكل عليه ﴿٩٩﴾ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴿١٠٠﴾ أي احكم بيننا وبينهم بحكمك الحق الذي لا جور فيه ولا ظلم وأنت خير الحاكمين ﴿١٠١﴾ وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون ﴿١٠٢﴾ أي قال الأشراف من قومه الفجرة الكفرة : إذا اتبعتم شعيباً وأجتموه إلى ما يدعوكم إليه إنكم إذا لخاسرون لاستبدالكم الضلالة بالهدى قال تعالى ﴿١٠٣﴾ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴿١٠٤﴾ أي فأخذتهم الزلزلة العظيمة فأصبحوا ميتين جاثمين على الركب ﴿١٠٥﴾ الذين كذبوا شعيباً كان لهم يغنوا فيها ﴿١٠٦﴾ أي أهلك الله المكذبين كأنهم لم يقيموا في ديارهم منعّمين ﴿١٠٧﴾ الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴿١٠٨﴾ إخباراً عنهم بالخسار بعد الهلاك والدمار ﴿١٠٩﴾ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ﴿١١٠﴾ قاله تأسفاً لشدة حزنه عليهم لأنهم لم يتبعوا نصحه ﴿١١١﴾ فكيف آسى على قوم كافرين ﴿١١٢﴾ أي كيف أحزن على من لا يستحق أن يحزن عليه قال الطبري : أي كيف أحزن على قوم جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وأتوجع لهلاكهم (١) ؟

البلاغه : ١ - ﴿هذه ناقة الله﴾ الإضافة للتشريف والتكريم .

٢ - ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ التنكير للتقليل والتحقير أي لا تمسوها بأدنى سوء .

- ٣ - ﴿أتأتون الفاحشة﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتشنيع .
 ٤ - ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ يسمى هذا النوع في علم البديع التعريض بما يوهم الذم ولذلك قال ابن عباس : عابوهم بما يمدح به .
 ٥ - ﴿على الله توكلنا﴾ إظهار الاسم الجليل للمبالغة في التضرع وتقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر .
 ٦ - بين لفظ ﴿مؤمنون﴾ و﴿كافرون﴾ طباقاً .

فكائِدَة : الذي عقر الناقة هو «قُدار بن سالف» وإنما نسب الفعل إليهم جميعاً في قوله تعالى ﴿فعقروا الناقة﴾ لأنه كان برضاهم وأمرهم ، والراضي بالعمل القبيح شريك في الجريمة .

قال الله تعالى : ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي . . إلى . . فينظر كيف تعملون﴾
 من آية (٩٤) إلى نهاية آية (١٢٩)

المناسِكة : لما ذكر تعالى قصص الأنبياء (نوح ، هود ، صالح ، لوط ، شعيب) وما حل بأقوامهم من العذاب والنكال حين لم تُجد فيهم الموعظة ، ذكر تعالى هنا سنته الإلهية في الانتقام من كذب أنبياءه وذلك بالتدرج معهم بالبأساء والضراء ، ثم بالنعمة والرخاء ، ثم بالبطش بهم إن لم يؤمنوا ثم أعقب ذلك بقصة موسى مع الطاغية فرعون وفيها كثير من العبر والعظات .

اللغز : ﴿البأساء﴾ شدة الفقر ﴿الضراء﴾ المرض ﴿عَفْوًا﴾ كثروا ونموا ﴿بِغْتَةٍ﴾ فجأة ﴿مَلَائِهِ﴾ أشراف قومه ﴿أَرْجَهُ﴾ آخر ﴿صاغرين﴾ أذلاء ﴿تلقف﴾ تبتلع وتلتقم ﴿يأفكون﴾ الإفك : الكذب ﴿أفرغ﴾ الإفراغ : الصب أي اصببه علينا .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَّوْا وَقَالُوا قَد مَسَّ آبَاءُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَتَّسِعُونَ ﴿٩٥﴾

التفسير : ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ في الكلام حذف أي وما أرسلنا في قرية من نبي فكذبه أهلها ﴿إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء﴾ أي عاقبناهم بالبؤس والفقر ، والمرض وسوء الحال ﴿لعلهم يضرعون﴾ أي كي يتضرعوا ويخضعوا ويتوبوا من ذنوبهم ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ أي ثم أبدلناهم بالفقر والمرض ، الغنى والصحة ﴿حتى عفوا﴾ أي حتى كثروا ونموا ﴿وقالوا قد مسَّ آباءنا الضراء والسراء﴾ أي أبطرتهم النعمة وأشروا فقالوا كفراناً لها : هذه عادة الدهر وقد مسَّ آباءنا مثل ذلك من المصائب ومن الرخاء وليست بعقوبة من الله فلنبق على ديننا ، والغرض أن الله ابتلاهم بالسيئة لينبوا إليه فما فعلوا ، ثم بالحسنة ليشكروا فما فعلوا ، فلم يبق إلا أن يأخذهم بالعذاب ولهذا قال تعالى ﴿فأخذناهم بغتة وهم لا

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّو نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَّعُ عَلَيْهِ قُلُوبَهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا لَقَد جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا

يشعرون ﴿٩٦﴾ أي أخذناهم بالهلاك والعذاب فجأة من حيث لا يدرون ﴿٩٧﴾ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ﴿٩٨﴾ أي ولو أن أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا آمنوا بالله ورسله واتقوا الكفر والمعاصي ﴿٩٩﴾ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴿١٠٠﴾ أي لو سئنا عليهم الخير من كل جانب وقيل : بركات السماء المطر ، وبركات الأرض الثمار ، قال السدي : فتحنا عليهم أبواب السماء والأرض بالرزق ﴿١٠١﴾ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴿١٠٢﴾ أي ولكن كذبوا الرسل فعاقبناهم بالهلاك بسوء كسبهم ﴿١٠٣﴾ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بيئات وهم نائمون ﴿١٠٤﴾ الهمة للإنكار أي هل آمن هؤلاء المكذبون أن يأتيهم عذابنا ليلاً وهم نائمون غافلون عنه ؟ ﴿١٠٥﴾ أو آمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴿١٠٦﴾ أم هل آمنوا أن يأتيهم عذابنا ونكالنا نهراً جهاراً وهم يلهون ويشغلون بما لا يجدي كأنهم يلعبون ؟ ﴿١٠٧﴾ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴿١٠٨﴾ أي أفأمنوا استدراجه إياهم بالنعمة حتى يهلكوا في غفلتهم ؟ فإنه لا يأمن ذلك إلا القوم الذين خسروا عقولهم وإنسانيتهم فصاروا أخس من البهائم قال الحسن البصري : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق خائف وجل ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو مطمئن آمن ﴿١٠٩﴾ أولم يهد للذين يرتون الأرض من بعد أهلها ﴿١١٠﴾ أي أولم يتضح ويتبين للذين يخلفون الأرض بعد هلاك أهلها الذين كانوا يعمرونها قبلهم ، والمراد بها كفار مكة ومن حولهم ﴿١١١﴾ أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ﴿١١٢﴾ أي لو أردنا لأهلكناهم بسبب ذنوبهم كما أهلكنا من قبلهم قال في البحر : أي قد علمتم ما حل بهم أفما تحذرون أن يحل بكم ما حل بهم فذلك ليس بمتنع علينا لو شئنا ﴿١١٣﴾ ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴿١١٤﴾ أي ونختم على قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تذكيراً سماع منتفع بها ﴿١١٥﴾ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ﴿١١٦﴾ أي تلك القرى المذكورة نقص عليك يا محمد بعض أخبارها وما حصل لأهلها من الخسف والرجفة والرجم بالحجارة ليعتبر بذلك من يسمع وما حدث أهول وأفظع ﴿١١٧﴾ ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ﴿١١٨﴾ أي جاءتهم بالمعجزات والحجج القاطعات ﴿١١٩﴾ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ﴿١٢٠﴾ أي ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل لتكذيبهم إياهم قبل مجيئهم بالمعجزات وبعد مجيئهم بها فحالمهم واحد في العتو والضلال قال الزمخشري : أي استمروا على التكذيب من لدن مجيء

لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٦﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٦٧﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٦٨﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْفِرُونَ إِلَيَّ رَسُولٌ مِنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٩﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧٠﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧١﴾ فَأَلْتَقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٧٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا

الرسول إليهم إلى أن ماتوا مصرين لا يربعون مع تكرر المواعظ عليهم وتتابع الآيات (١) ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ أي مثل ذلك الطبع الشديد المحكم نطبع على قلوب الكافرين فلا يكاد يؤثر فيهم التذرر والآيات ، وفيه تحذير للسامعين ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسين﴾ أي ما وجدنا لأكثر الناس من وفاء للعهد بل وجدناهم خارجين عن الطاعة والامتثال قال ابن كثير: والعهد الذي أخذه هو ما فطروهم عليه وأخذه عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكمهم فخالقوه وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع (٢) ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا﴾ أي ثم بعثنا من بعد الرسل المتقدم ذكرهم موسى بن عمران بالمعجزات الباهرات والحجج الساطعات ﴿إلى فرعون وملائته﴾ أي أرسلناه إلى فرعون - ملك مصر في زمن موسى - وقومه ﴿فظلموا بها﴾ أي كفروا ووجدوا بها ظلماً وعناداً ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي انظر أيها السامع ما آل إليه أمر المفسدين الظالمين كيف أغرقناهم عن آخرهم بمراى من موسى وقومه ، وهذا أبلغ في النكال لأعداء الله ، وأشفى لقلوب أولياء الله ﴿وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين﴾ أي إني رسول إليك من الخالق العظيم رب كل شيء وخالقه ومليكه ﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾ أي جدير بي وحق علي أن لا أخبر عن الله إلا بما هو حق وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه ﴿قد جئتكم بأية من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل﴾ أي جئتكم بحجة قاطعة من الله تشهد على صدقي فخل واترك سبيل بني إسرائيل حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطن آبائهم (٣) قال أبو حيان : ولما كان فرعون قد ادعى الربوبية فاتحه موسى بقوله ﴿إني رسول من رب العالمين﴾ لينبهه على الوصف الذي ادعاه وأنه فيه مبطل لا محق ، ولما كان قوله ﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾ أردفها بما يدل على صحتها وهو قوله ﴿قد جئتكم بأية من ربكم﴾ ولما قرر رسالته فرع عليها تبليغ الحكم وهو قوله ﴿فأرسل معي بني إسرائيل﴾ (٤) ﴿قال إن كنت جئت بأية فأت بها إن كنت من الصادقين﴾ أي

(١) الكشاف ٢/ ١٣٥- (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٣٩

(٣) قال المفسرون : كان سبب سكنى بني إسرائيل بمصر مع أن أباهم كان بالأرض المقدسة أن الأسباط - أولاد يعقوب - جاءوا مصر إلى أخيهم يوسف فمكثوا وتناسلوا في مصر فلما ظهر فرعون استعبدهم واستعملهم في الأعمال الشاقة فأحب موسى أن يخلصهم من هذا الأسر ويذهب بهم إلى الأرض المقدسة وطن آبائهم . (٤) البحر ٤/ ٣٥٥ .

هِيَ بَيْضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٢١﴾ يَا تُوكُ بِكُلِّ سِحْرِ عَلَيْهِ ﴿٢٢﴾ وَجَاءَ السَّحْرَةُ
فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٢٤﴾ قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِيمَا
أَنْ تُلْقِي وَإِمَا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا

قال فرعون لموسى : إن كنت جئت بأية من ربك كما تدعي فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك في دعواك ،
قال ذلك على سبيل التعجيز لموسى ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ أي فإذا بها حية ضخمة طويلة قال
ابن عباس : تحولت إلى حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة نحو فرعون و ﴿ مبين ﴾ أي ظاهر لا متخيل ﴿ ونزع
يده فإذا هي بيضاء للنظرين ﴾ أي أخرجها من جيبه فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً عجبياً يغلب نورها نور
الشمس قال ابن عباس : كان ليده نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن
هذا لساحر عليم ﴾ أي قال الأشراف منهم وهم أصحاب مشورته إن هذا عالمٌ بالسحر ماهرٌ فيه ، وقولهم
﴿ عليم ﴾ أي بالغ الغاية في علم السحر وخدمه وفنونه ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم ﴾ أي يخرجكم من
أرض مصر بسحره ﴿ فماذا تأمرون ﴾ أي بأي شيء تأمرون أن نفعل في أمره ؟ وبأي شيء تشيرون فيه ؟ قال
القرطبي : قال فرعون : فماذا تأمرون وقيل : هو من قول الملأ أي قالوا لفرعون وحده ﴿ فماذا تأمرون ﴾
كما يخاطب الجبارون والرؤساء : ما ترون في كذا^(١) ، ﴿ قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين ﴾ أي أخر
أمرها حتى ترى رأيك فيهما وأرسل في أنحاء البلاد من يجمع لك السحرة ﴿ يأتوك بكل ساحر عليم ﴾ أي
يأتوك بكل ساحر مثله ماهر في السحر ، وكان رؤساء السحرة بأقصى صعيد مصر ﴿ وجاء السحرة فرعون
قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ﴾ في الكلام محذوف يدل عليه السياق وهو أنه بعث إلى السحرة وطلب
أن يجمعوا له فلما جاءوا فرعون قالوا : إن لنا لأجراً عظيماً إن نحن غلبنا موسى وهزمناه وأبطلنا سحره ؟
﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾ أي قال فرعون : نعم لكم الأجر وأزيدكم على ذلك بأن أجعلكم من
المقربين أي من أعز خاصتي وأهل مشورتني قال القرطبي : زادهم على ما طلبوا ﴿ قالوا يا موسى إماماً أن تلقني
وإماماً أن نكون نحن الملحقين ﴾ أي قال السحرة لموسى : اختر إماماً أن تلقني عصاك أو تلقني نحن عصيتنا قال
الزمخشري : تخييرهم إياه أذبٌ حسن كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يخوضوا في
الجدال^(٢) هذا ما قاله الزمخشري ، والأظهر أنهم قالوا ذلك من باب الاعتزاز بالنفس وتوهم الغلبة وعدم
الاكتراث بأمر موسى كما يقول المعتد بنفسه : أبدأ أو تبدأ ﴿ قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس ﴾ أي قال
لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا العصي والحبال سحروا أعين الناس أي خيلوا إليهم ما لا حقيقة له
كما قال تعالى ﴿ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّهَا تَسْعَى ﴾ ﴿ واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ أي أفزعوهم

بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ
 وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغَلِبُوا هنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءَأَمْنَا
 رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمْتُمْ بِهِ ؕ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ؕ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُمُوهُ
 فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا ءَأَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ ءَأَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ؕ ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْ ءَأَمْنَا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ تَنَارِنَا

وأرهبوهم إرهاباً شديداً حيث خيلوها حيات تسعى وجاءوا بسحر عظيم يهابه من رآه قال ابن اسحق :
 صَفَّ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ سَاحِرٍ مَعَ كُلِّ سَاحِرٍ حِبَالُهُ وَعَصِيَّتُهُ وَفِرْعَوْنُ فِي مَجْلِسِهِ مَعَ أَشْرَافِ مَمْلَكَتِهِ فَكَانَ أَوَّلَ مَا
 اخْتَلَطُوا بِسِحْرِهِمْ بَصَرَ مُوسَىٰ وَبَصَرَ فِرْعَوْنَ، ثُمَّ أَبْصَرَ النَّاسَ بَعْدَ ثَمَّ أَلْقَى رَجُلٌ مِنْهُمْ مَا فِي يَدِهِ مِنَ الْعَصِيِّ
 وَالْحِبَالِ فَإِذَا هِيَ حَيَاتٌ كَأَمْثَالِ الْجِبَالِ قَدْ مَلَأَتْ الْوَادِي يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا^(١) ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ
 عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ أَيُّ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ بِأَنْ أَلْقَى عَصَاكَ فَالْقَاهَا فَإِذَا هِيَ تَبْتَلَعُ بِسُرْعَةٍ مَا يَزُورُونَهُ
 مِنَ الْكُذْبِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ لَا تَمُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ حِبَالِهِمْ وَخَشَبِهِمُ الَّتِي أَلْقَوْهَا إِلَّا التَّقَمَّتْهُ
 ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ ثَبَتَ وَظَهَرَ الْحَقُّ لِمَنْ شَهِدَهُ وَحَضَرَهُ ، وَبَطَلَ إِفْكُ السِّحْرِ وَكُذْبُهُ
 وَمُخَالِفُهُ ﴿فَغَلِبُوا هنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ أَيُّ غَلِبَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ فِي ذَلِكَ الْمَجْمَعِ الْعَظِيمِ وَصَارُوا ذَلِيلِينَ
 ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ أَيُّ خَرُّوا سَاجِدِينَ مُعَلِّينَ إِيْمَانِهِمْ بِرَبِّ
 الْعَالَمِينَ لِأَنَّ الْحَقَّ بِهِمْ قَالَ قَتَادَةُ : كَانُوا أَوَّلَ النَّهَارِ كَفَّارًا سَحْرَةً وَفِي آخِرِهِ شُهَدَاءَ بَرَّةٍ^(٢) ﴿١٢٠﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ
 ءَأَمْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴿١٢٣﴾ أَيُّ قَالَ فِرْعَوْنُ الْجَبَّارُ لِلْسَّحْرَةِ ءَأَمْتُمْ بِمُوسَىٰ قَبْلَ أَنْ تَسْتَأْذِنُونِي ؟ وَالْمَقْصُودُ بِالْجُمْلَةِ
 التَّوْبِيخُ ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا ءَأَهْلَهَا﴾ أَيُّ صَنِعْتُمْ هَذَا حِيلَةً اِحْتَلَمْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَمُوسَىٰ
 فِي مِصْرَ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَى الْمِيْعَادِ لِتَخْرُجُوا مِنْهَا الْقَبْطُ وَتَسْكُنُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، قَالَ هَذَا تَمْوِيهًا عَلَى النَّاسِ لِثَلَا
 يَتَّبِعُوا السَّحْرَةَ فِي الْإِيْمَانِ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَا يَجْلُ بِكُمْ ، وَهَذَا وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ سَاقَهُ
 بِطَرِيقِ الْإِيْمَالِ لِلتَّهْوِيلِ ثُمَّ عَقَّبَهُ بِالتَّفْصِيلِ فَقَالَ ﴿لَأَقْطَعَنَّ ءَأَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ أَيُّ لَأَقْطَعَنَّ مِنْ كُلِّ
 وَاحِدٍ مِنْكُمْ يَدَهُ وَرِجْلَهُ مِنْ خَلْفٍ قَالَ الطَّبْرِيُّ : وَمَعْنَى ﴿مِّنْ خَلْفٍ﴾ هُوَ أَنْ يَقْطَعُ مِنْ أَحَدِهِمْ يَدَهُ
 الْيَمْنَى وَرِجْلَهُ الْيَسْرَى ، أَوْ يَقْطَعُ يَدَهُ الْيَسْرَى وَرِجْلَهُ الْيَمْنَى فَيُخَالِفُ بَيْنَ الْعَضْوَيْنِ فِي الْقَطْعِ^(٣) ﴿١٢٣﴾ ثُمَّ
 لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ أَيُّ ثُمَّ أَصْلَبْتُكُمْ جَمِيعًا تَنْكِيلًا لَكُمْ وَأَمْثَالَكُمْ ، وَالصَّلْبُ التَّعْلِيْقُ عَلَى الْخَشَبِ حَتَّى
 الْمَوْتِ ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ إِنَّا رَاجِعُونَ إِلَى اللَّهِ بِالْمَوْتِ لَا مَحَالَةَ فَلَا نَخَافُ مَا تَتَوَعَّدُنَا بِهِ وَلَا نَبَالِي
 بِالْمَوْتِ وَحَيْدًا الْمَوْتِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿وَمَا نَنقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْ ءَأَمْنَا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ تَنَارُنَا﴾ أَيُّ مَا تَكْرَهُ مِنَّا وَلَا تَعِيبُ

أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
وَيَذُرْكَ وَيَآهِتِكَ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسَحِيءُ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ
أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٦٨﴾ قَالُوا أَوْذِينَا
مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عِدْوُكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾

علينا إلا إيماننا بالله وآياته !! كقوله ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ قال الزمخشري :
أرادوا وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها وهو الإيمان ^(١) ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا
مسلمين﴾ أي أفض علينا صبراً يغمرنا عند تعذيب فرعون إيانا وتوفنا على ملة الإسلام غير مفتونين ﴿وقال
الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآهتك﴾ أي قال الأشراف لفرعون : أتترك
موسى وجماعته ليفسدوا في الأرض بالخروج عن دينك وترك عبادة آهتك !! وفي هذا إغراء لفرعون بموسى
وقومه وتحريض له على قتلهم وتعذيبهم ﴿قال سنقتل أبناءهم ونسحبي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾ أي قال
فرعون مجيئاً لهم : سنقتل أبناءهم الذكور ونسبقي نساءهم للاستخدام كما كنا نفعل بهم ذلك وإنا عالون
فوقهم بالقهر والسلطان ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا﴾ أي قال موسى لقومه تسليماً لهم حين
تضجروا مما سمعوا : استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما ينالكم من أذاهم واصبروا على حكم الله ﴿إن
الأرض لله يورثها من يشاء من عباده﴾ أي الأرض كلها لله يعطيها من أراد من عباده ، أطمعهم في أن
يورثهم الله أرض مصر ﴿والعاقبة للمتقين﴾ أي النتيجة المحمودة لمن اتقى الله ﴿قالوا أوذينا من قبل أن
تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ أي أوذينا من قبل أن تأتينا بالرسالة ومن بعدما جئتنا بها يعنون أن المحنة لم تفارقهم
فهم في العذاب والبلاء قبل بعثة موسى وبعد بعثته ﴿قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض
فينظر كيف تعملون﴾ أي لعل ربكم أن يهلك فرعون وقومه ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم
وينظر كيف تعملون بعد استخلافكم من الإصلاح والإفساد ، والغرض تحريضهم على طاعة الله ، وقد
حقق الله رجاء موسى فأغرق فرعون وملك بني إسرائيل أرض مصر قال في البحر : سلك موسى طريق
الأدب مع الله وساق الكلام مساق الرجاء ^(٢) .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ بين لفظ الحسنة والسيئة طباقاً وكذلك بين لفظ
﴿الضراء والسراء﴾ .

٢ - ﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء﴾ شبه تيسير البركات عليهم بفتح الأبواب في سهولة التناول

فهو من باب الاستعارة أي وسعنا عليهم الخير من جميع الأطراف .

٣ - ﴿أفأمن أهل القرى﴾ تكررت الجملة والغرض منها الإنذار ويسمى هذا في علم البلاغة الإطناب ومثلها ﴿أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله﴾ قال ابو السعود : تكريرٌ للتكرير لزيادة التقرير ، ومكرُ الله استعارةٌ لاستدراجه العبد وأخذه من حيث لا يحتسب ^(١) .

٤ - ﴿وإنكم لمن المقربين﴾ أكد الجملة بيان واللام لإزالة الشك من نفوس السحرة ويسمى هذا النوع من أضرب الخبر إنكارياً .

٥ - ﴿فوق الحق﴾ فيه استعارة استعير الوقع للثبوت والحصول والله أعلم .

تنبية : لما عجز فرعون عن دفع الحجة بالبرهان عدل إلى البطش والفتك بالسنان ، وهكذا حال كل ضال مبتدع إذا أعيتته الحجة مال إلى التهديد والوعيد .

قول الله تعالى : ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات . . إلى . . لنكونن من الخاسرين﴾ من آية (١٣٠) إلى نهاية آية (١٤٩) .

المناسبة : لما كانت قصة الكليم مع الطاغية فرعون مملوءة بالعبر والعظات لذلك استطرقت الآيات في الحديث عنهم فتحدثت عما حلَّ بقوم فرعون من البلايا والنكبات ، وما ابتلاهم الله به من القحط والجذب ، والطوفان والجراد وغير ذلك من المصائب نتيجة إصرارهم على الكفر وتكذيبهم بآيات الله ، ثم ذكرت أنواع النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل ومن أعظمها إهلاك عدوهم وقطعهم البحر مع السلامة والأمان .

اللفظ : ﴿السنين﴾ جمع سنّة وهي الجذب والقحط ﴿يطيروا﴾ يتشاءموا والأصل يتطيروا مأخوذ من الطيرة وهي زجر الطير ثم استعمل في التشاؤم ﴿الطوفان﴾ السيل المتلف المدمر ﴿القمل﴾ السوس وهي حشرات صغيرة تكون في الحنطة وغيرها تفسد الحبوب ﴿الرجز﴾ العذاب ، والرجس بالسين : النجس وقد يستعمل بمعنى العذاب ﴿اليم﴾ البحر ﴿يعكفون﴾ عكف على الشيء أقام عليه ولزمه ﴿متبر﴾ مهلك والتبار : الهلاك ﴿صعقاً﴾ مغشياً عليه يقال : صعق الرجل إذا أغمى عليه .

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا

التفسير : ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ اللام موطئة لقسم محذوف أي والله لقد ابتلينا واختبرنا فرعون وأتباعه بالجذب والقحط ﴿ونقص من الثمرات﴾ أي وابتليناهم بإذهاب الثمار من كثرة الآفات قال المفسرون : كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة ^(٢) ﴿لعلهم يذكرون﴾ أي لعلهم

هَذِهِ ۖ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيْئَةٌ يَطِيرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۖ أَلَا إِنَّمَا طَافُوا عَلَيْهِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٧﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ۚ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ

يتعظون وترقُّ قلوبهم فإن الشدة تجلب الإنابة والخشية ورقة القلب ، ثم بين تعالى أنهم مع تلك المحن والشدائد لم يزدادوا إلا تمرداً وكفراً فقال ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه﴾ أي إذا جاءهم الخصب والرخاء قالوا هذه لنا وبسعدنا ونحن مستحقون لذلك ﴿وإن تصيبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾ أي إذا جاءهم الجذب والشدة تشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين أي قالوا : هذا بشؤمهم قال تعالى رداً عليهم ﴿ألا إنما طأثرهم عند الله﴾ أي إن ما يصيبهم من خير أو شر بتقدير الله وليس بشؤم موسى قال ابن عباس : الأمر من قبل الله ليس شؤمهم إلا من قبله وحكمه ^(١) ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون أن ما لحقهم من القحط والشدائد من عند الله بسبب معاصيهم لا من عند موسى ﴿وقالوا مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ أي قال قوم فرعون لموسى : أي شيء تأتينا به يا موسى من المعجزات لتصرفنا عما نحن عليه فلن نؤمن لك قال الزمخشري : فإن قلت كيف سموها آية ثم قالوا ﴿لتسحرنا بها﴾ ؟ قلت : ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية وإنما قصدوا بذلك الاستهزاء والتلهي ^(٢) قال تعالى ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ أي أرسلنا عليهم المطر الشديد حتى عاموا فيه وكادوا يهلكون قال ابن عباس : الطوفان كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزرع والثمار ^(٣) ﴿والجراد﴾ أي وأرسلنا عليهم كذلك الجراد فأكل زروعهم وثمارهم حتى أكل ثيابهم ﴿والقمل﴾ وهو السوس حتى نخر حبوبهم وتتبع ما تركه الجراد وقيل : هو القمل المشهور كان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيمصه ﴿والضفادع﴾ جمع ضفدع حتى ملأت بيوتهم وطعامهم وإذا تكلم أحدهم وثبت الضفدع إلى فمه ﴿والدم﴾ أي صارت مياههم دماً فما يستقون من بئر ولا نهر إلا وجدوه دماً ﴿آيات مفصلات﴾ أي علامات ظاهرات فيها عبرٌ وعظاتٌ ومع ذلك استكبروا عن الإيمان ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي استكبروا عن الإيمان بها لغلوهم في الإجمام ﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾ أي وحين نزل بهم العذاب المذكور ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾ أي ادع لنا ربك ليكشف عنا البلاء بحق ما أكرمك به من النبوة قال الزمخشري : أي أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة ^(٤) ﴿لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننَّ لك ولنرسلنَّ معك بني إسرائيل﴾ اللام لام القسم أي والله لئن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه يا موسى لنصدقنَّ بما جئت به ولنطلقنَّ سراح بني إسرائيل ، وقد كانوا يستخدمونهم في أرذل الأعمال ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إلى أجلٍ هم بالغوه﴾

(١) روح المعاني ٣٢/٩ . (٢) الكشاف ١٤٦/٢ .

(٣) مختصر ابن كثير ٤٥/٢ . (٤) الكشاف ١٤٨/٢ .

قَالُوا يَمُوسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾
 فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرَّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ
 كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي
 بَرَكَتٌ فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ
 وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَىٰ
 أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلُ مَا كَانُوا

أي فلما كشفنا بدعاء موسى عنهم العذاب إلى حدٍّ من الزمان هم واصلون إليه ولا بدَّ قال ابن عباس : هو وقت الغرق ﴿إذا هم ينكثون﴾ أي إذا هم ينفضون عهودهم ويصرون على الكفر ﴿فانتقمنا منهم فأغرقتناهم في اليم﴾ أي فانتقمنا منهم بالإغراق في البحر ﴿بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ أي بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عنها وعدم مبالاتهم بها ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾ أي وأورثنا بني إسرائيل الذين كانوا يُستذلون بالخدمة أرض الشام وملكناهم جميع جهاتها ونواحيها : مشارقها ومغاربها ﴿التي باركنا فيها﴾ بالخيرات وكثرة الثمرات ﴿وتمَّت كلمة ربك الحُسنى على بني إسرائيل﴾ أي تمَّ وعد الله الصادق بالتمكين لبني إسرائيل في الأرض ونصره إياهم على عدوهم قال الطبري : وكلمته الحسنى هي قوله جل ثناؤه ﴿ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة . . .﴾ (١) الآية ﴿بما صبروا﴾ أي بسبب صبرهم على الأذى ﴿ودمَّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ أي خربنا ودمَّرنا القصور والعمارات التي كان يشيدها فرعون وجماعته وما كانوا يعرشون من الجنَّات والمزارع ، وإلى هنا تنتهي قصة فرعون وقومه ويبتدىء الحديث عن بني إسرائيل وما أغدق الله عليهم من النعم الجسام ، وأراهم من الآيات العظام ، تسليَّة لرسوله عليه الصلاة والسلام مما رآه منهم قال تعالى ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ أي عبرنا ببني إسرائيل البحر وهو بحر القلزم عند خليج السويس الآن ﴿فأتوا على قومٍ يعكفون على أصنامٍ لهم﴾ أي مروا على قوم يلازمون على عبادة أصنام لهم ﴿قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ أي اجعل لنا صنماً نعبده كما لهم أصنام يعبدونها قال ابن عطية : الظاهر أنهم استحسِنوا ما رأوا فأرادوا ان يكون ذلك في شرع موسى وفي جملة ما يتقرب به إلى الله وإلا فبعيدٌ أن يقولوا لموسى اجعل لنا إلهاً نُقرده بالعبادة (٢) ﴿قال إنكم قوم تجهلون﴾ أي إنكم قوم تجهلون عظمة الله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والنظير قال الزمخشري : تعجَّب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى ، والمعجزة الكبرى فوصفهم بالجهل المطلق وأكده ،

يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكَ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَ كُرٍ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كُرٍ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ * وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَمَمَّ مِيقَتُ رَبِّهِ - أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ

لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع (١) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ﴾ أي هالك مدمر ما هم فيه من الدين الباطل وهو عبادة الأصنام ﴿وَبِاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي باطل عملهم مضمحل بالكلية لأنهم عبدوا ما لا يستحق العبادة ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي أطلب لكم معبوداً غير الله المستحق للعبادة والحال أن الله فضلكم على غيركم بالنعم الجليلة ! ! قال الطبري : فضلكم على عالمي دهركم وزمانكم (٢) ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل النعم التي سلفت مني إليكم حين أنجيتكم من قوم فرعون يذيقونكم أفطع أنواع العذاب وأسوأه ثم فسره بقوله ﴿يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَ كُرٍ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كُرٍ﴾ أي يذبحون الذكور ويستبقون الإناث لامتهانهم في الخدمة ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي وفي هذا العذاب اختبار وابتلاء من الله لكم عظيم فنجاكم منه أفلا تشكرونه ؟ ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَمَمَّ مِيقَاتِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أي وعدنا موسى لمناجاتنا بعد مضي ثلاثين ليلة وأكملناها بعشر ليالٍ فتمت المناجاة بعد أربعين ليلة قال الزمخشري : روي أن موسى وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فمه « تغير رائحته » فتسوك فأوحى الله تعالى إليه : أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ! فأمره تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة (٣) ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ أي كن خليفتي فيهم إلى أن أرجع ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي وأصلح أمرهم ولا تسلك طريق الذين يفسدون في الأرض بمعصيتهم لله ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ أي ولما جاء موسى للوقت الذي وعدناه فيه وناجاه ربه وكلمه من غير واسطة ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ﴾ أي أرني ذاتك المقدسة أنظر إليها قال القرطبي : اشتاق إلى رؤية ربه لما أسمعته كلامه فسأل النظر إليه (٤) ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ أي أجابه ربه لن تستطيع رؤيتي في الدنيا فإن هذه البنية البشرية لا طاقة لها بذلك ولكن سأ تجلّي لما هو أقوى منك وهو الجبل فإن ثبت الجبل مكانه ولم يتزلزل فسوف تراني أي تثبت لرؤيتي وإلا فلا طاقة لك ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعْقًا﴾

لَنْ تَرِنِّي وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِّي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا
 وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ
 عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي نَحْذُ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
 مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ نَحْذُهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٨﴾
 سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ

أي فلما ظهر من نور الله قدر نصف أمثلة الخنصر اندك الجبل وتفتت وسقط موسى مغشياً عليه من هول ما
 رأى قال ابن عباس : ما تجلّى منه سبحانه للجبل إلا قدر الخنصر فصار تراباً وخرّ موسى مغشياً عليه (١) وفي
 الحديث : فساخ الجبل ﴿ فلما أفاق قال سبحانه تبتُ إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ أي فلما صحا من غشيته
 قال تنزيهاً لك يا رب وتبرئة أن يراك أحد في الدنيا تبتُ إليك من سؤالي رؤيتك في الدنيا وأنا أول المؤمنين
 بعظمتك وجلالك ﴿ قال يا موسى إنني اصطفتيك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ أي اخترتك على
 أهل زمانك بالرسالة الإلهية وبتكليمي إياك بدون واسطة ﴿ فخذ ما آتيتك ﴾ أي خذ ما أعطيتك من
 شرف النبوة والحكمة ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ واشكر ربك على ما أعطاك من جلائل النعم قال أبو
 السعود : والآية مسوقة لتسليته عليه السلام من عدم الإجابة إلى سؤال الرؤية كأنه قيل : إن منعتك
 الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما لم أعط أحدًا من العالمين فاغتنمها وثابر على شكرها (٢) ﴿ وكتبنا له
 في الألواح من كل شيء ﴾ أي كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل
 الأحكام مبيّنة للحلال والحرام كل ذلك في الألواح التوراة ﴿ موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴾ أي ليتعظوا بها
 ويزدجروا وتفصيلاً لكل التكليف الشرعية ﴿ فخذها بقوة ﴾ أي خذ التوراة بجد واجتهاد شأن أولي العزم
 ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ أي وأمر بني إسرائيل بالحث على اختيار الأفضل كالأخذ بالعزائم دون
 الرخص فالعفو أفضل من القصاص ، والصبر أفضل من الانتصار كما قال تعالى ﴿ ولمن صبر وغفر إن
 ذلك لمن عزم الأمور ﴾ قال ابن عباس : أمر موسى أن يأخذها بأشدّ مما أمر به قومه (٣) ﴿ سأريكم دار
 الفاسقين ﴾ أي سترون منازل الفاسقين - فرعون وقومه - كيف أقفرت منهم ودمروا لفسقهم لتعتبروا فلا
 تكونوا مثلهم ، فإن رؤيتها وهي خالية عن أهلها موجبة للاعتبار والانزجار ﴿ سأصرف عن آياتي الذين
 يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ أي سأمنع المتكبرين عن فهم آياتي فلا يتفكرون ولا يتدبرون بما فيها ،
 وأطمس على قلوبهم عقوبة لهم على تكبرهم قال الزمخشري : وفيه إنذار للمخاطبين من عاقبة الذين
 يُصرفون عن آيات الله لتكبرهم وكفرهم بها لئلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم (٤) ﴿ وإن يروا كلاً آيةً

(٤) الكشاف ٢/ ١٥٩ .

(١) الطبري ١٣/ ٩٧ . (٢) أبو السعود ٢/ ١٩٥ . (٣) الطبري ١٣/ ١١٠ .

الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾
 وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ
 بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمُ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾
 وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

لا يؤمنوا بها﴾ أي وإن يشاهدوا كل آية قرآنية من الآيات المنزلة عليهم أو يروا كل معجزة ربانية لا يصدقوا بها ﴿وإن يروا سبيل الرُّشْدِ لا يتخذوه سبيلًا﴾ أي وإن يروا طريق الهدى والفلاح لا يسلكوه ﴿وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلًا﴾ أي وإن يروا طريق الضلال والفساد سلكوه كقوله ﴿فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ ﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا﴾ أي ذلك الانحراف عن هدي الله وشرعه بسبب تكذيبهم بآيات الله ﴿وكانوا عنها غافلين﴾ أي وغفلتهم عن الآيات التي بها سعادتهم حيث لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ أي جحدوا بما أنزل الله ﴿ولقاء الآخرة﴾ أي وكذبوا بلقاء الله في الآخرة أي لم يؤمنوا بالبعث بعد الموت ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي بطلت أعمالهم الخيرية التي عملوها في الدنيا من إحسانٍ وصلةٍ رحمٍ وصدقةٍ وأمثالها وذهب ثوابها لعدم الإيمان ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ أي هل يُثابون أو يعاقبون إلا بما عملوا في الدنيا؟ ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسدًا له خوار﴾ قال الحافظ ابن كثير: يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذهم السامري من الحلي، فشكّل لهم منه عجلًا جسدًا لا روح فيه وقد احتال بإدخال الريح فيه حتى صار يسمع له خوار أي صوت كصوت البقر^(١) ومعنى ﴿من بعده﴾ أي من بعد ذهاب موسى إلى الطور لمناجاة ربه ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلًا﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي كيف عبدوا العجل واتخذوه إلهًا مع أنه ليس فيه شيء من صفات الخالق الرازق، فإنه لا يملك قدرة الكلام ولا قدرة هدايتهم إلى سبيل السعادة فكيف يتخذ إلهًا؟ ﴿اتخذوه وكانوا ظالمين﴾ أي عبدوا العجل واتخذوه إلهًا فكانوا ظالمين لأنفسهم حيث وضعوا الأشياء في غير موضعها، وتكرير لفظ ﴿اتخذوا﴾ لمزيد التشنيع عليهم ﴿ولما سقط في أيديهم﴾ أي ندموا على جنائتهم واشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ أي تبينوا ضلالهم تبيينًا جليًا كأنهم أبصروه بعيونهم ﴿قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا﴾ أي لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ أي لنكونن من الهالكين قال ابن كثير: وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل^(٢).

البلاغَة : ١ - ﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ بين لفظ الحسنة والسيئة طباق كما أن بين لفظ ﴿طائرهم﴾

- و ﴿يطيروا﴾ جناس الاشتقاق وكلاهما من المحسنات البديعية .
- ٢ - ﴿ودمرنا ما كان يصنع﴾ عدل عن الماضي إلى المضارع لاستحضار الصورة في ذهن المخاطب ومثله ﴿وما كانوا يعرشون﴾ والأصل ما صنعوا وما عرشوا .
- ٣ - ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ أتى بلفظ تجهلون ولم يقل : جهلتم إشعاراً بأن ذلك منهم كالتبع والغريزة لا ينتقلون عنه في ماضٍ ولا مستقبل^(١) .
- ٤ - ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في الحض على نهج سبيل الصالحين ، والأصل أن يقال : سأريهم .
- ٥ - ﴿ولما سقط في أيديهم﴾ هذا من باب الكناية فهو كناية عن شدة الندم لأن النادم يعرض على يده غمماً .
- ٦ - بين لفظ ﴿مشارك﴾ و﴿مغارب﴾ طباقاً .

تنبية : مذهب أهل السنة قاطبة على أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة وأنكرت المعتزلة ذلك واستدلوا بالآية الكريمة ﴿لن تراني﴾ وليس لهم في هذه الآية متمسك بل هي دليل لأهل السنة والجماعة على إمكان الرؤية ، لأنها لو كانت محالاً لم يسألها موسى فإن الأنبياء عليهم السلام يعلمون ما يجوز على الله وما يستحيل ، ولو كانت الرؤية مستحيلة لكان في الجواب زجرٌ وإغلاظ كما قال تعالى لنوح ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ فهذا المنع من رؤية الله إنما هو في الدنيا لضعف البنية البشرية عن ذلك قال مجاهد : إن الله قال لموسى : لن تراني ، لأنك لا تطيق ذلك ولكن سأنجلي للجبل الذي هو أقوى منك وأشد ، فإن استقر وأطاق الصبر لهيبتني أمكن أن تراني أنت ، وإن لم يُطق الجبل فأحرى ألا تطيق أنت فعلى هذا جعل الله الجبل مثلاً لموسى ولم يجعل الرؤية مستحيلة على الإطلاق ، وقد صرح بوقوع الرؤية في الآخرة كتاب الله ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ فلا ينكرها إلا مبتدع .

فائدة : لما سمع الكليم موسى كلام الله اشتاق إلى رؤيته ، لأن التلذذ بسماع كلام الحبيب يزيد في الشوق إليه والحنين وقد أحسن من قال :

وأفرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنست الديار من الديار

لطيفة : السعادة والشقاوة بيد الله فموسى بن عمران رباه فرعون فكان مؤمناً ، وموسى السامري رباه جبريل وكان كافراً ، فلم تنفع تربية الأمين لموسى السامري ، ولم تضر تربية اللعين لموسى الكليم عليه السلام ، وقد أنشد بعضهم في هذا المعنى :

إذا المرء لم يُخلَق سعيداً من الأزل فقد خاب من ربّي وخاب المؤمِّلُ

فموسى الذي رباه جبريلُ كافراً وموسى الذي رباه فرعونُ مُرسَلُ

قال الله تعالى : ﴿ولما رجع موسى إلى قومه.. إلى .. إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾

من آية (١٥٠) إلى نهاية آية (١٧٠) .

المناسكة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل ، وما أغدق الله عليهم من النعم ، وما قابلوها به من الجحود والعصيان ، وقد ذكرت الآيات قصة أصحاب القرية ﴿ واعتداءهم يوم السبت بالاصطياد فيه وكيف أن الله تعالى مسخهم قردة ، وفي ذلك عبرة للمعتبرين .

اللفتر : ﴿أسفأ﴾ الأسف : شدة الحزن أو الغضب يقال هو أسيفٌ وأسيفٌ ﴿ابن أم﴾ أصلها ابن أُمي وهي استعطاف ولين ﴿تشمتم﴾ الشماتة : السرور بما يصيب الإنسان من مكروه وفي الحديث (وأعوذ بك من شماتة الأعداء) ﴿الرجفة﴾ الزلزلة الشديدة ﴿هدنا﴾ تبنا يقال : هاد يهود إذا تاب ورجع فهو هائد قال الشاعر : إني امرؤٌ مما جنيتُ هائدٌ ﴿إصرهم﴾ التكاليف الشاقة وأصل الإصر الثقل الذي يأصر صاحبه عن الحراك ﴿الأغلال﴾ جمع غُل وهو ما يوضع في العنق أو اليد من الحديد ﴿عزروه﴾ وقروه ونصروه ﴿أسباطاً﴾ جمع سبط وهو ولد الولد أو ولد البنت ثم أطلق على كل قبيلة من بني إسرائيل ﴿تأذن﴾ أذن من الإيدان بمعنى الإعلام ﴿يسومهم﴾ يذيقهم ﴿خلف﴾ بسكون اللام من يخلف غيره بالسوء والشر وأما بفتح اللام فهو من يخلف غيره بالخير ومنه قولهم : « جعلك الله خير خلف لخير سلف » .

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعْجَلْتُمُ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَتِي وَاَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥٢﴾

النفسي : ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفأ﴾ أي ولما رجع موسى من المناجاة ﴿غضبان﴾ مما فعلوه من عبادة العجل ﴿أسفأ﴾ أي شديد الحزن ﴿قال بشما خلفتموني من بعدي﴾ أي بش ما فعلتموه بعد غيبتني حيث عبدتم العجل ﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ أي أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حتى يرجع من الطور؟ والاستفهام للإنكار ﴿وألقي الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾ أي طرح الألواح لما عراه من شدة الغضب ، وفرط الضجر غضباً لله من عبادة العجل ، وأخذ بشعر رأس أخيه هارون يجره إليه ظناً منه أنه قصر في كفهم عن ذلك وكان عليه السلام شديد الغضب لله سبحانه قال ابن عباس : لما عين قومه وقد عكفوا على العجل ألقي الألواح فكسرها غضباً لله وأخذ برأس أخيه يجره إليه ^(١) ﴿قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني﴾ أي قال هارون يا ابن أُمي - وهو نداء استعطاف وترفق ^(٢) - إن القوم استدلونني وقهروني وقاربوا قتلي حين نهيتهم عن ذلك فأنا لم أقصر في نصحتهم ﴿فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ أي لا تُسئ إلي حتى يُسر الأعداء بي ويشتموا بإهانتك إلي ولا تجعلني في عداد الظالمين بالمؤاخذة أو النسبة إلى التقصير قال مجاهد : ﴿الظالمين﴾ أي الذين عبدوا العجل ﴿قال رب اغفر

(١) الطبري ١٣/١٢٣ (٢) قال ابن كثير : وإنما قال « ابن أم » ليكون أرق وأنجع عنده وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه .

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾
 وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَأَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن
 مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ^١ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُم لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ
 سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُهُمْ بِمَا فَعَلَ

لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴿١٥٢﴾ لما تحقق لموسى براءة ساحة هارون عليه السلام من التقصير طلب عند ذلك المغفرة له ولأخيه فقال ﴿اغفر لي ولأخي﴾ الآية قال الزمخشري : استغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ، ولأخيه مما عسى أن يكون فرط منه في حين الخلافة ، وطلب ألا يتفرقا عن رحمة ، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة^(١) ﴿١٥٣﴾ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضبٌ من ربهم وذلةٌ في الحياة الدنيا ﴿١٥٤﴾ أي إن الذين عبدوا العجل - ذكر البقر - واتخذوه إلهاً سيصي بهم غضب شديد من الرحمن ، وينالهم في الدنيا الذل والهوان قال ابن كثير : أما الغضب الذي نال بني إسرائيل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً ، وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا^(٢) ﴿١٥٤﴾ وكذلك نجزي المفتريين ﴿١٥٥﴾ أي كما جازينا هؤلاء بإحلال الغضب والإذلال كذلك نجزي كل من افتري الكذب على الله قال سفيان بن عيينة : كلُّ صاحب بدعة ذليل^(٣) ﴿١٥٦﴾ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا ﴿١٥٧﴾ أي عملوا القبائح والمعاصي ثم تابوا ورجعوا إلى الله من بعد اقترافها وداموا على إيمانهم وأخلصوا فيه ﴿١٥٨﴾ إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيم ﴿١٥٩﴾ أي إن ربك يا محمد من بعد تلك التوبة لغفور لذنوبهم رحيم بهم قال الألوسي : وفي الآية إعلامٌ بأن الذنوب وإن جلّت وعظمت فإن عفو الله تعالى وكرمه أعظم وأجلُّ ، وما أطف قول أبي نواس غفر الله تعالى له :

يا ربَّ إنَّ عَظُمْتَ ذُنُوبِي كَثْرَةً فلقد علمتُ بأنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
 إنَّ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ فبمن يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ؟^(٤)

﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ أي سكن غضب موسى على أخيه وقومه ﴿أخذ الألواح﴾ أي ألواح التوراة التي كان ألقاها ﴿وفي نسختها هدى ورحمة﴾ أي وفيما نُسخ فيها وكتب هداية للحق ورحمة للخلق بإرشادهم إلى ما فيه سعادة الدارين ﴿للذين هم لربهم يرهبون﴾ أي هذه الرحمة للذين يخافون الله ويخشون عقابه على معاصيه ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ أي اختار موسى من قومه سبعين رجلاً ممن لم يعبدوا العجل للوقت الذي وعده ربه الإتيان فيه للاعتذار عن عبادة العجل ﴿فلما أخذتهم الرجفة﴾ أي فلما رجف بهم الجبل وصعقوا ﴿قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾ أي قال موسى على وجه التضرع والاستسلام

السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن نَّشَاءُ وَتَهْدِي مَن نَّشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْعَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ * وَأَكْتَبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِعَايَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ

لأمر الله : لو شئت يا رب أن تهلكنا قبل ذلك لفعلت فإننا عبيدك وتحت قهرك وأنت تفعل ما تشاء ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ ؟ أي أتهلكنا وسائر بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء السبعون في قولهم : ﴿أرنا الله جهرة﴾ ؟ والاستفهام استفهام استعطاف وتذلل فكأنه يقول : لا تعذبنا يا الله بذنوب غيرنا قال الطبري في رواية السدي : إن الله أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناسٍ من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ، ووعدهم موعداً فاخترار موسى من قومه سبعين رجلاً على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا : لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة ، فإنك قد كلمته فأرناهم فأخذتهم الصاعقة فماتوا ، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول : رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي (١) « أقول : إذا كان هذا قول الأخيار من بني إسرائيل فكيف حال الأشرار منهم ؟ نعوذ بالله من خبث اليهود ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ أي ما هذه الفتنة التي حدثت لهم إلا محتتك وابتلاؤك تمتحن بها عبادك ﴿تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ أي تضل بهذه المحنة من تشاء إضلاله وتهدي من تشاء هدايته ﴿أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا﴾ أي أنت يا رب متولي أمورنا وناصرنا وحافظنا فاغفر لنا ما قارفناه من المعاصي وارحمنا برحمتك الواسعة الشاملة ﴿وأنت خير الغافرين﴾ أي أنت خير من صفح وستر ، تغفر السيئة وتبدها بالحسنة ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾ هذا من جملة دعاء موسى عليه السلام أي حقق وأثبت لنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴿إننا هدنا إليك﴾ أي تبنا ورجعنا إليك من جميع ذنوبنا ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء﴾ أي قال تعالى أما عذابي فأصيب به من أشاء من عبادي وأما رحمتي فقد عمّت خلقي كلهم قال أبو السعود : وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذاناً بأن الرحمة مقتضى الذات ، وأما العذاب فبمقتضى معاصي العباد (٢) ﴿فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ أي سأجعل هذه الرحمة خاصة في الآخرة بالذين يتقون الكفر والمعاصي ويعطون زكاة أموالهم ويصدقون بجميع الكتب والأنبياء ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾ أي هؤلاء الذين تنالهم الرحمة هم الذين يتبعون محمداً ﷺ النبي العربي الأمي أي الذي لا يقرأ ولا يكتب قال البيضاوي : وإنما سماه رسولاً بالإضافة إلى الله تعالى ، ونبياً بالإضافة إلى العباد (٣) ﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة

(١) الطبري ١٣ / ١٤٠ . (٢) أبو السعود ٢ / ٢٠١ . (٣) البيضاوي ص ٢

عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَجْلُ لُهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ
فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ
إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ۖ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ
وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَعْنَا لَهُمْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَّةً وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ ۖ أَنْ أَضْرِبْ

والإنجيل ﴿١﴾ أي الذي يجدون نعته وصفته في التوراة والإنجيل قال ابن كثير : هذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء ، بشرى أمهم ببعثته وأمرهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم ﴿١﴾ «يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر» أي لا يأمر إلا بكل شيء مستحسن ولا ينهي إلا عن كل شيء قبيح ﴿٢﴾ «ويجزل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث» أي يجزل لهم ما حرم عليهم من الأشياء الطيبة بشؤم ظلمهم ويحرم عليهم ما يستخبث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير ﴿٣﴾ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴿٤﴾ أي يخفف عنهم ما كلفوه من التكليف الشاقة التي تشبه الأغلال كقتل النفس في التوبة وقطع موضع النجاسة من الثوب والقصاص من القاتل عمداً كان القتل أو خطأً وشبه ذلك ﴿٥﴾ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ﴿٦﴾ أي فالذين صدقوا بمحمد وعظموه ووقروه ونصروا دينه ﴿٧﴾ «واتبعوا النور الذي أنزل معه» أي «واتبعوا قرآنه المنير وشرعه المجيد» «أولئك هم المفلحون» أي هم الفائزون بالسعادة السرمدية ﴿٨﴾ «قل يا أيها الناس إنني رسول الله إليكم جميعاً» هذا بيان لعموم رسالته ﷺ لجميع الخلق أي قل يا محمد للناس إنني رسول من عند الله إلى جميع أهل الأرض ﴿٩﴾ «الذي له ملك السموات والأرض» أي المالك لجميع الكائنات ﴿١٠﴾ «لا إله إلا هو يحيي ويميت» أي لا رب ولا معبود سواه فهو الإله القادر على الإحياء والإفناء ﴿١١﴾ «فآمنوا بالله ورسوله» أي صدقوا بآيات الله وصدقوا برسوله المبعوث إلى جميع خلقه ﴿١٢﴾ «النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته» أي آمنوا بالنبي الأمي صاحب المعجزات الذي لا يقرأ ولا يكتب المصدق بالكتب التي أنزلها الله عليه وعلى غيره من الأنبياء ﴿١٣﴾ «واتبعوه لعلكم تهتدون» أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره رجاء اهتدائكم إلى المطلوب ﴿١٤﴾ «ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق» أي ومن بني إسرائيل جماعة مستقيمون على شريعة الله يهدون الناس بكلمة الحق لا يجورون قال الزمخشري : لما ذكر تعالى الذين تزلزلوا منهم في الدين وارتابوا حتى أقدموا على العظيمتين : عبادة العجل ، وطلب رؤية الله ، ذكر أن منهم أمة موقنين ثابتين يهدون الناس بكلمة الحق ويدلونهم ويرشدونهم على الاستقامة ﴿١٥﴾ «وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أُمَّةً» أي وفرقنا بني إسرائيل فجعلناهم قبائل اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً من أولاد يعقوب

بِعَصَاكَ الْحَجْرَ فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٦﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٧﴾ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ

قال أبو حيان : أي فرقناهم وميزناهم أسباطاً ليرجع أمر كل سبط أي « قبيلة » إلى رئيسه ليخفف أمرهم على موسى ولثلاثي تحاسدوا فيقع الهرج ، ولهذا فجر لهم اثنتي عشرة عيناً لثلاثي تنازعوا ويقتتلوا على الماء ، وجعل لكل سبط نقيباً ليرجعوا في أمورهم إليه^(١) ﴿ وأوحينا إلى موسى إذ استسفاه قومه ﴾ أي حين استولى عليهم العطش في التيه ﴿ أن اضرب بعصاك الحجر ﴾ أي أوحينا إليه أن يضرب الحجر بعصاه فضربه ﴿ فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً ﴾ أي انفجرت من الحجر اثنتا عشرة عيناً من الماء بعدد الأسباط ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ أي قد عرف كل سبط وجماعة منهم عينهم الخاصة بهم قال الطبري : لا يدخل سبط على غيره في شربه^(٢) ﴿ وظللنا عليهم الغمام ﴾ أي جعلنا الغمام يكتهم من حر الشمس ويقيهم من أذاها قال الألوسي : وكان الظل يسير بسيرهم ويسكن بإقامتهم ﴿ وأنزلنا عليهم المن والسلوى ﴾ أي وأكرمناهم بطعام شهى هو ﴿ المن ﴾ وهي شيء حلو ينزل على الشجر يجمعونه ويأكلونه و ﴿ السلوى ﴾ وهو طائر لذيذ اللحم يسمى السمانى ، كل ذلك من إفضال الله وإنعامه عليهم دون جهد منهم ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أي وقلنا لهم كلوا من هذا الشيء الطيب اللذيذ الذي رزقناكم إياه ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ في الكلام محذوف تقديره : فكفروا بهذه النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك ولكن ظلموا أنفسهم حيث عرضوها بالكفر لعذاب الله ﴿ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم ﴾ أي واذكر لهم حين قلنا لأسلافهم اسكنوا بيت المقدس وكلوا من مطاعمها وثأرها من أي جهة ومن أي مكان شئتم منها ﴿ وقولوا حطة ﴾ أي وقولوا حين دخولكم : يا الله حطاً عنا ذنوبنا ﴿ نغفر لكم خطيئاتكم ﴾ أي نوح عنكم جميع الذنوب التي سلفت منكم ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ أي وسنزيد من أحسن عمله بامتثال أمر الله وطاعته فوق الغفران دخول الجنان ﴿ فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم ﴾ أي غير الظالمون منهم أمر الله بقولهم كلاماً لا يليق حيث قالوا بدل ﴿ حطة ﴾ حنطة في شعيرة وبدل أن يدخلوا ساجدين خشوعاً لله دخلوا يزحفون على أستاههم ﴿ أدبارهم ﴾ سخرية واستهزاء بأوامر الله ﴿ فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾ أي فأرسلنا عليهم عذاباً من السماء بسبب ظلمهم وعدوانهم المستمر سابقاً ولاحقاً قال أبو السعود : والمراد

يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِيسٍ بَعْثًا لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٥﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن

بالعذاب « الطاعون » روي أنه مات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً^(١) وأسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر أي وأسأل يا محمد اليهود عن أخبار أسلافهم وعن أمر القرية التي كانت بقرب البحر وعلى شاطئه ماذا حلَّ بهم لما عصوا أمر الله واصطادوا يوم السبت ؟ ألم يمسخهم الله قردة وخنازير ؟ قال ابن كثير : وهذه القرية هي (أيلة) وهي على شاطئ بحر القلزم^(٢) « إذ يعدون في السبت » أي يتجاوزون حدَّ الله فيه وهو اصطيدادهم يوم السبت « إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً » أي حين كانت الحيتان « الأسماك » تأتيهم يوم السبت - وقد حرّم عليهم الصيد فيه - كثيرة ظاهرة على وجه الماء « ويوم لا يستون لا تأتيهم » أي وفي غير يوم السبت وهي سائر الأيام لا تأتيهم بل تغيب عنهم وتختفي « كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » أي مثل ذلك البلاء العجيب نخبرهم ومثحنهم بإظهار السمك لهم على وجه الماء في اليوم المحرّم عليهم صيده وإخفائها عنهم في اليوم الحلال بسبب فسقهم وانتهاكهم حرمت الله قال القرطبي : روي أنها كانت في زمن داود عليه السلام وأن إبليس أوحى إليهم فقال : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا الحياض فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها لقلّة الماء فيأخذونها يوم الأحد ويحتالون في صيدها^(٣) « وإذ قالت أمةٌ منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً » قال ابن كثير : يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحظور واحتالوا على اصطيد السمك يوم السبت ، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم ، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة « لم تعظون قوماً الله مهلكهم » أي لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكم إياهم^(٤) ؟ « قالوا معذرة إلى ربكم » أي قال الناهون : إنما نعظهم لنعذر عند الله بقيامنا بواجب النصيح والتذكير « ولعلهم يتقون » أي ينزعون عما هم فيه من الإجماع قال الطبري : أي لعلهم أن يتقوا الله فينبوا إلى طاعته ويتوبوا من معصيتهم إياه وتعذبهم الاعتداء في السبت^(٥) « فلما نسوا ما ذكروا به » أي فلما تركوا ما ذكروا به صلحاؤهم ترك الناسي للشيء وأعرضوا عن قبول النصيحة إعراضاً كلياً « أنجينا الذين ينهون عن السوء » أي نجينا الناهين عن الفساد في الأرض « وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس » أي وأخذنا الظالمين العصاة بعذاب شديد وهم الذين ارتكبوا المنكر « بما كانوا يفسقون » أي بسبب فسقهم وعصيانهم لأمر الله « فلما

(١) أبو السعود ٢/٢٠٥ . (٢) المختصر ٢/٥٨ . (٣) القرطبي ٧/٣٠٦ . (٤) المختصر ٢/٥٩ . (٥) الطبري ١٣/١٨٥ .

يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا
مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ
خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ

عَتَوْا عما نُهوا عنه ﴿١﴾ أي فلما استعصوا وتكبروا عن ترك ما نهوا عنه ﴿٢﴾ قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴿٣﴾ أي
مسخناهم إلى قردة وخنازير ؛ والمعنى أنهم عذبوا أولاً بعذاب شديد فلما لم يرتدعوا وتمادوا في الطغيان
مسخوا قردة وخنازير ، والحاصل أن أصحاب القرية انقسموا ثلاث فرق : فرقة عصت فحل بها
العذاب ، وفرقة نهت ووعظت فنجأها الله من العذاب ، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تُقارَف المعصية وقد
سكت عنها القرآن قال ابن عباس : ما أدري ما فعل بالفرقة الساكنة أنجوا أم هلكوا ؟ قال عكرمة : فلم
أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا لأنهم كرهوا ما فعله أولئك ، فكساني حلة (١) ﴿٤﴾ وإذ تأذن ربك ليعثن
عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴿٥﴾ أي واذكر يا محمد حين أعلم ربك ليسلطن على اليهود إلى
قيام الساعة من يذيقهم أسوأ العذاب بسبب عصيانهم ومخالفتهم أمر الله واحتياهم على المحارم ، وقد سلط
الله عليهم بختنصر فقتلهم وسبهم ، وسلط عليهم النصارى فأذلوهم وضربوا عليهم الجزية ، وسلط
عليهم محمداً ﷺ فطهر الأرض من رجسهم وأجلاهم عن الجزيرة العربية ، وسلط عليهم أخيراً « هتلر »
فاستباح حماهم وكاد أن يبدهم ويفنيهم بالقتل والتشريد في الأرض ، ولا يزال وعد الله بتسليط العذاب
عليهم سارياً إلى أن يقتلهم المسلمون في المعركة الفاصلة إن شاء الله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴿٦﴾ إن
ربك لسريع العقاب وإنه لغفورٌ رحيم ﴿٧﴾ أي سريع العقاب لمن عصاه وغفورٌ رحيم لمن أطاعه ﴿٨﴾ وقطعناهم في
الأرض أُمَمًا ﴿٩﴾ أي فرقناهم في البلاد طوائف وفرقاً ففي كل بلدة فرقة منهم ، وليس لهم إقليم يملكونه حتى لا
تكون لهم شوكة ، وما اجتمعوا في الأرض المقدسة في هذه الأيام إلا ليذبحوا بأيدي المؤمنين إن شاء الله كما
وعد بذلك رسول الله ﷺ حيث قال : (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود . .) الحديث أخرجه
مسلم ثم بين تعالى أنهم ليسوا جميعاً فجاراً بل فيهم الأخيار وفيهم الأشرار فقال ﴿١٠﴾ منهم الصالحون ومنهم
دون ذلك ﴿١١﴾ أي منهم من آمن وهم قلة قليلة ومنهم من انحط عن درجة الصلاح بالكفر والفسوق وهم
الكثرة الغالبة ﴿١٢﴾ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴿١٣﴾ أي اختبرناهم بالنعم والنقم والشدة والرخاء
لعلهم يرجعون عن الكفر والمعاصي ﴿١٤﴾ فخلف من بعدهم خلفٌ ورثوا الكتاب ﴿١٥﴾ قال ابن كثير : أي خلف
من بعد ذلك الجيل الذي فيهم الصالح والطالح خلفٌ آخر لا خير فيهم ورثوا الكتاب وهو التوراة عن
آبائهم (٢) ﴿١٦﴾ يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ﴿١٧﴾ أي يأخذون ذلك الشيء الدنيء من حطام الدنيا
من حلال وحرام ويقولون متبجحين : سيغفر الله لنا ما فعلناه ، وهذا اغترار منهم وكذب على الله ﴿١٨﴾ وإن
يأتهم عرضٌ مثله يأخذوه ﴿١٩﴾ أي يرجون المغفرة وهم مصرّون على الذنب كلما لاح لهم شيء من حطام الدنيا

أَلَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧٠﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أُجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧١﴾

أخذه لا يُبالون من حلالٍ كان أو حرام ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي ألم يؤخذ عليهم العهد المؤكد في التوراة أن يقولوا الحق ولا يكذبوا على الله ؟ فكيف يزعمون أنه سيغفر لهم مع إصرارهم على المعاصي وأكل الحرام ؟ ﴿ودرسوا ما فيه﴾ في هذا أعظم التوبيخ لهم أي والحال أنهم درسوا ما في الكتاب وعرفوا ما فيه المعرفة التامة من الوعيد على قول الباطل والافتراء على الله ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون﴾ أي والآخرة خير للذين يتقون الله بترك الحرام ﴿أفلا تعقلون﴾ ؟ الاستفهام للإنكار أي أفلا ينزجرون ويعقلون ؟ والمراد أنهم لو كانوا عقلاء لما آثروا الفانية على الباقية ﴿والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة﴾ أي يتمسكون في أمور دينهم بما أنزله الله ويحافظون على أداء الصلاة في أوقاتها ﴿إننا لا نضيع أجر المصلحين﴾ أي لا نضيع أجرهم بل نجزيهم على تمسكهم وصلاتهم أفضل وأكرم الجزاء .

البلاغَة : ١ - ﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ شبه الغضب بإنسان يردد ويزبد ويزجر بصوته أمراً بالانتقام ثم اختفى هذا الصوت وسكت ، ففي الكلام « استعارة مكنية » ويا له من تصوير لطيف يستشعر جماله كل ذي طبع سليم وذوق صحيح .

٢ - بين لفظ « تضل » و « تهدي » طباقاً وكذلك بين لفظ « يحمي » و « يميت » .

٣ - ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويجل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة ، وهي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابلها على الترتيب .

٤ - ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال﴾ استعار الإصر والأغلال للأحكام والتكاليف الشاقة .

٥ - ﴿أفلا تعقلون﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والتأنيب .

فكائِدَة : الخَلْفُ بفتح اللام من يخلف غيره بالخير ، والخَلْفُ بسكون اللام من يخلف غيره في الشر ومنه قوله تعالى ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾ وهذه الآية ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب﴾ والله أعلم .

قال الله تعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة . إلى . . . ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾

من آية (١٧١) إلى نهاية آية (١٨٦) .

المناسكة : لما حكى تعالى عن بني إسرائيل عصيانهم وتمردهم على أوامر الله ، حكى هنا ما عاقبهم به من اقتلاع جبل الطور وسحقهم به إن لم يعملوا بأحكام التوراة ، ثم ذكر تعالى مثلاً لعلماء السوء في قصة الذي انسلخ عن آيات الله طمعاً في حطام الدنيا وضرب له مثلاً بالكلب اللاهث في حالتي التعب والراحة ، وكفى به تصويراً لنفسية اليهود في تكالبهم على الدنيا وعبادتهم للمال .

اللغز : ﴿نتقنا﴾ التتق : الجذب بقوة قال أبو عبيدة : أصل التتق قلع الشيء من موضعه والرمي به^(١) ﴿ظلة﴾ الظلة : كل ما أظلك من سقف أو سحابة أو جناح حائط والجمع ظلل وظلال ﴿وظنوا﴾ علموا أو أيقنوا ﴿انسلخ﴾ الانسلاخ : الخروج يقال لكل من فارق شيئاً بالكلية انسلخ منه وانسلخت الحية من جلدها أي خرجت منه ﴿أخلد﴾ مال الى الشيء وركن إليه وأصله اللزوم يقال أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به ومنه الخلود في الجنة ﴿يلهث﴾ قال الجوهري : لهث الكلب يلهث إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش^(٢) ﴿ذرأنا﴾ خلقنا ﴿يلحدون﴾ الإلحاد : الميل عن القصد والاستقامة يقال : ألحد في الدين ولحد فهو ملحد لانحرافه عن تعاليم الدين .

* وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ

النفسير : ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ أي اذكر حين اقتلعنا جبل الطور ورفعناه فوق رؤوس بني إسرائيل ﴿كأنه ظلة﴾ أي كأنه سقيفة أو ظلة غمام ﴿وظنوا أنه واقع بهم﴾ أي أيقنوا أنه ساقط عليهم إن لم يمثلوا الأمر قال المفسرون : روي أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها فرفع الله الطور على رؤوسهم وقيل لهم : إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم فلما نظروا إلى الجبل خروا كل واحد منهم ساجداً خوفاً من سقوطه ثم قال تعالى ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي قلنا لهم خذوا التوراة بجد وعزيمة ﴿واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ أي اذكروا ما فيه بالعمل واعملوا به لتكونوا في سلك المتقين ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ قال الطبري : أي واذكر يا محمد إذ استخرج ربك أولاد آدم من أصلاب آبائهم فقررهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض بذلك^(٣) قال ابن عباس : مسح الله ظهر آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة . ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألسنتهم ألسنتهم ألسنتهم﴾ أي

(١) الرازي ٤/٤٥٧ . (٢) الصحاح مادة لهث .

(٣) للمفسرين في هذه الآية قولان : أحدهما أن الله لما خلق آدم أخرج ذريته من صلبه وهم مثل الذر وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم فأقروا وشهدوا بذلك وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ من طرق كثيرة وقال به جماعة من الصحابة والثاني : أن هذا من باب التمثيل والتخييل والمعنى أنه سبحانه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكانه أشهدهم على أنفسهم وقال لهم ألسنتهم ألسنتهم ألسنتهم فقالوا بلى وهذا الرأي اختاره الزمخشري وأبو حيان وأبو السعود والأول أصح .

وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفْتَهُلِكُمْ مَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٦﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٧﴾
 وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٨﴾ وَلَوْ شِئْنَا
 لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ
 يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٩﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ
 الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٨٠﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

وقرّهم على ربوبيته ووحدانيته فأقروا بذلك والتزموه ﴿ أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ أي
 لثلاث تقولوا يوم الحساب إنا كنا عن هذا الميثاق والإقرار بالربوبية غافلين لم ننبه عليه ﴿ أو تقولوا إنما أشرك
 آباءنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ﴾ أي ولكيلا تقولوا يوم القيامة أيضاً نحن ما أشركنا وإنما قلدنا آباءنا
 واتبعنا منهاجهم فنحن معذورون ﴿ أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ أي أفتهلكنا بإشراك من أشرك من آباءنا
 المضلين بعد اتباعنا منهاجهم على جهل منا بالحق ؟ ﴿ وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون ﴾ أي وكما بينا
 الميثاق نبين الآيات ليتدبرها الناس وليرجعوا عما هم عليه من الإصرار على الباطل وتقليد الآباء ﴿ واتل
 عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ أي واتل يا محمد على اليهود خبر وقصة ذلك العالم الذي علمناه
 علم بعض كتب الله فانسلخ من الآيات كما تنسلخ الحية من جلدها بأن كفر بها وأعرض عنها ﴿ فأتبعه
 الشيطان فكان من الغاوين ﴾ أي فلاحقه الشيطان واستحوذ عليه حتى جعله في زمرة الضالين الراسخين في
 العوایة بعد أن كان من المهتدين قال ابن عباس : هو « بلعم بن باعوراء » كان عنده اسم الله الأعظم وقال
 ابن مسعود : هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى إلى ملك « مدّين » داعياً إلى الله فرشاه الملك وأعطاه
 الملك على أن يترك دين موسى ويتابع الملك على دينه ففعل وأضل الناس بذلك ^(١) ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها
 ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ﴾ أي لو شئنا لرفعناه إلى منزل العلماء الأبرار ولكنه مال إلى الدنيا وسكن
 إليها وأثر لذاتها وشهواتها على الآخرة واتبع ما تهواه نفسه فانحط أسفل سافلين ﴿ فمثله كمثل الكلب إن تحمل
 عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ أي فمثله في الخسة والدناءة كمثل الكلب إن طردته وزجرته فسعى لهث ، وإن
 تركته على حاله لهث ، وهو تمثيل بادي الروعة ظاهر البلاغة ﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي هذا
 المثل السيء هو مثل لكل من كذب بآيات الله ، وفيه تعريض باليهود فقد أوتوا التوراة وعرفوا صفة النبي
 عليه الصلاة والسلام فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة ﴿ فاقصص القصص لعلهم
 يتفكرون ﴾ أي اقصص على أمتك ما أوحينا إليك لعلهم يتدبرون فيها ويتعظون ﴿ ساء مثلاً القوم الذين
 كذبوا بآياتنا ﴾ أي بئس مثلاً مثل القوم المكذبين بآيات الله ﴿ وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ أي وما ظلّموا

الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَأَلٍ لَّنَعْمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾

بالتكذيب إلا أنفسهم فإن وباله لا يتعدها ﴿من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ أي من هداه الله فهو السعيد الموفق ، ومن أضله فهو الخائب الخاسر لا محالة ، والغرض من الآية بيان أن الهداية والإضلال بيد الله ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾ أي خلقنا لجهنم ليكونوا حطباء لها خلقاً كثيراً كائناً من الجن والإنس ، والمراد بهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ أي لهم قلوب لا يفهمون بها الحق ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ أي لا يبصرون بها دلائل قدرة الله بصر اعتبار ﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ أي لا يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ ، وليس المراد نفي السمع والبصر بالكلية وإنما المراد نفيها عما ينفعها في الدين ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾ أي هم كالحوانات في عدم الفقه والبصر والاستماع بل هم أسوأ حالاً من الحيوانات فإنها تدرك منافعها ومضارها وهؤلاء لا يميزون بين المنافع والمضار ولهذا يُقدِّمون على النار ﴿أولئك هم الغافلون﴾ أي الغارقون في الغفلة ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ أي لله الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها فسموه بتلك الأسماء ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائهم﴾ أي اتركوا الذين يميلون في أسمائهم تعالى عن الحق كما فعل المشركون حيث اشتقوا لأهتهم أسماء منها كالكلمات من الله ، والعزى من العزيز ، ومناة من المنان ﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾ أي سينالون جزاء ما عملوا في الآخرة ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ أي ومن بعض الأمم التي خلقنا أمة مستمسكة بشرع الله قولاً وعملاً يدعون الناس إلى الحق وبه يعملون ويقضون قال ابن كثير : والمراد في الآية هذه الأمة المحمدية لحديث (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك)^(١) وهذه الطائفة لا تختص بزمان دون زمان بل هم في كل زمان وفي كل مكان ، فالإسلام دائماً يعلو ولا يُعلى عليه وإن كثرت الفسقات وأهل الشر فلا عبرة فيهم ولا صولة لهم ، وفي الحديث بشارة عظيمة لهذه الأمة المحمدية بأن الإسلام في علوشرف وأهله كذلك إلى قرب الساعة ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ أي والذين كذبوا بالقرآن من أهل مكة وغيرهم سنأخذهم قليلاً وندنيهم من الهلاك من حيث لا يشعرون قال البيضاوي : وذلك بأن تتواتر عليهم النعم ، فيظنوا أنها لطف من الله تعالى بهم فيزدادوا بطراً وانهاكاً في الغي حتى تحق عليهم كلمة العذاب^(٢) ﴿وأملئهم﴾ أي وأمهلهم ثم أخذهم أخذ

وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

عزيم مقتدر كما في الحديث الشريف (إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) ﴿إن كيدي متين﴾ أي أخذي وعقابي قوي شديد وإنما سماه كيداً لأن ظاهره إحسانٌ وباطنه خذلان ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة﴾ أي أولم يتفكر هؤلاء المكذبون بآيات الله فيعلموا أنه ليس بمحمد ﷺ جنون بل هو رسول الله حقاً أرسله الله لهدايتهم ، وهذا نفي لما نسب له المشركون من الجنون في قولهم ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ ﴿إن هو إلا نذيرٌ مبين﴾ أي ليس محمد إلا رسول منذر أمره بين واضح لمن كان له لب أو قلب يعقل به ويعي ﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾ أي أولم ينظروا نظر استدلال في ملك الله الواسع مما يدل على عظم الملك وكمال القدرة ، والاستفهام للإنكار والتعجب والتوبيخ ﴿وما خلق الله من شيء﴾ أي وفي جميع مخلوقات الله الجليل فيها والدقيق فيستدلوا بذلك على كمال قدرة صانعها وعظم شأن مالكتها ووحدة خالقها ومبدعها ؟ ﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ أي وأن يتفكروا لعلهم يموتون عن قريب فينبغي لهم أن يسارعوا إلى النظر والتدبر فيما يخلصهم عند الله قبل حلول الأجل ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ أي فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به وهو النهاية في الظهور والبيان ﴿من يضل الله فلا هادي له﴾ أي من كتب الله عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد ﴿ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي ويتركهم في كفرهم وتمردهم يترددون ويتحIRON .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿وإذ أخذ ربك﴾ فيه التفات من المتكلم إلى المخاطب والأصل وإذ أخذنا والنكتة في ذلك تعظيم شأن الرسول بتوجيه الخطاب له ، ولا يخفى أيضاً ما في الإضافة إلى ضميره عليه السلام ﴿ربك﴾ من التكريم والتشريف ، وفي الآية البيان بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال ﴿فانسلخ منها﴾ أي خرج منها بالكلية انسلخ الجلد من الشاة قال أبو السعود : التعبير عن الخروج منها بالانسلخ للإيدان بكمال مباينته للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتصال^(١) ﴿فمثلته كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ فيه تشبيه تمثيلي أي حاله التي هي مثل في السوء كحال أحسن الحيوانات وأسفلها وهي حالة الكلب في دوام لهثه في حالتي التعب والراحة فالصورة منتزعة من متعدد ولهذا يسمى التشبيه التمثيلي ﴿أولئك كالأنعام﴾ التشبيه هنا مرسل مجمل .

فَكَايِدَةٌ : روي عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ألسنتُ بربكم قالوا بلى﴾ أنه قال : لو قالوا نعم لكفروا ، ووجهه أن «نعم» تصديق للمخبر بنفي أو إيجاب فكأنهم أقروا أنه ليس ربهم بخلاف «بلى»

فإنها حرف جواب وتختص بالنفي وتفيد إبطاله فالمعنى بلى أنت ربنا ولو قالوا نعم لصار المعنى نعم لست ربنا فهذا وجه قول ابن عباس فتنبه له فإنه دقيق .

تَبْدِيهِ : في الحديث الشريف (إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة) رواه الترمذي قال العلماء : معناه من حفظها وتفكر في مدلولها دخل الجنة وليس المراد حصر أسماؤه تعالى في هذه التسعة والتسعين بدليل ما جاء في الحديث الآخر (اسألك بكل اسم سميت به نفسك ، او استأثرت به في علم الغيب عندك) وقد ذكر ابن العربي عن بعضهم أن لله تعالى ألف اسم .

قال الله تعالى : ﴿ يستلونك عن الساعة أيان مرساها .. إلى .. ويسبحونه وله يسجدون ﴾

من آية (١٨٧) إلى آية (٢٠٦) نهاية السورة الكريمة .

المناسبة : لما ذكر تعالى موقف المستهزئين من دعوة الرسول ﷺ ذكر هنا طرفاً من عنادهم واستهزائهم بسؤالهم الرسول ﷺ عن وقت قيام الساعة ، ثم ذكر الحجج والبراهين على بطلان عقيدة المشركين في عبادة الأوثان والأصنام ، وختم السورة الكريمة ببيان عظمة شأن القرآن ووجوب الاستماع والإنصات عند تلاوته .

اللغز : ﴿ مرساها ﴾ استقرارها وحصولها من أرساه إذا أثبته وأقره ومنه رست السفينة إذا ثبتت ووقفت ﴿ يجليها ﴾ يظهرها ، والتجلية : الكشف والإظهار ﴿ حفي ﴾ الحفي : المستقصي للشيء المعني بأمره قال الأعشى :

فإن تسألني عنِّي فيا ربِّ سائلٍ حفيٌّ عن الأعشى به حيث أصعداً^(١)

والإحفاء الاستقصاء ومنه إحفاء الشوارب وحفي عن الشيء إذا بحث للتعرف عن حاله ﴿ العرف ﴾ المعروف وهو كل خصلة حميدة ترتضيها العقول وتطمئن إليها النفوس ﴿ الأصال ﴾ جمع أصيل قال الجوهري : والأصيل الوقت بعد العصر إلى المغرب^(٢) .

سبب النزول : روي أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : إن كنت نبياً فأخبرنا عن الساعة متى تقوم ؟ فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾^(٣) .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثُقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ

التفسير : ﴿ يسألونك عن الساعة ﴾ أي يسألونك يا محمد عن القيامة ﴿ أيان مرساها ﴾ أي متى وقوعها وحدوثها ؟ وسميت القيامة ساعة لسرعة ما فيها من الحساب كقوله ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ ﴿ قل إنما علمها عند ربي ﴾ أي قل لهم يا محمد لا يعلم الوقت الذي يحصل قيام القيامة فيه

وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْعَوْنَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَا سَتَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا

إلا الله سبحانه ثم أكد ذلك بقوله ﴿ لا يُجَلِّبُهَا لَوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا يكشف أمرها ولا يظهرها للناس إلا الرب سبحانه بالذات فهو العالم بوقتها ﴿ أثقلت في السموات والأرض ﴾ أي عظمت على أهل السموات والأرض حيث يشفقون منها ويخافون شدائدتها وأهوالها^(١) ﴿ يسألونك كأنك حفي عنها ﴾ أي يسألونك يا محمد عن وقتها كأنك كثير السؤال عنها شديد الطلب لمعرفة ﴿ قل إنما علمها عند الله ﴾ أي لا يعلم وقتها إلا الله لأنها من الأمور الغيبية التي استأثر بها علام الغيوب ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي لا يعلمون السبب الذي لأجله أخفيت قال الإمام الفخر : والحكمة في إخفاء الساعة عن العباد أنهم إذا لم يعلموا متى تكون كانوا على حذر منها فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية^(٢) ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ﴾ أي لا أملك أن أجلب إلى نفسي خيرا ولا أدفع عنها شرا إلا بمشيئته تعالى فكيف أملك علم الساعة ؟ ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ﴾ أي لو كنت أعرف أمور الغيب لحصلت كثيرا من منافع الدنيا وخيراتها ودفعت عني آفاتها ومضراتها ﴿ وما مسني سوء ﴾ أي لو كنت أعلم الغيب لاحترست من سوء ولكن لا أعلمه فلماذا يصيبني ما قُدِّر لي من الخير والشر ﴿ إن أنا إلا نذير وبشير ﴾ أي ما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ أي لقوم يصدقون بما جئتهم به من عند الله ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ أي هو سبحانه ذلك العظيم الشأن الذي خلقكم جميعاً وحده من غير معين من نفس واحدة هي آدم عليه السلام ﴿ وجعل منها زوجها ﴾ أي وخلق منها حواء ﴿ ليسكن إليها ﴾ أي ليطمئن إليها ويستأنس بها ﴿ فلما تغشاهما حملت حملاً خفيفاً ﴾ أي فلما جامعها حملت بالجنين حملاً خفيفاً دون إزعاج لكونه نطفة في بادئ الأمر قال أبو السعود : فإنه عند كونه نطفة أو علقة أخف عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك من المراتب ، والتعرض لذكر خفته للإشارة إلى نعمته تعالى عليهم في إنشائه إياهم متدرجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ، ومن الضعف إلى القوة^(٣) ﴿ فمرت به ﴾ أي استمرت به إلى حين ميلاده ﴿ فلما أثقلت ﴾ أي ثقل حملها وصارت به ثقيلة لكبر الحمل في بطنها ﴿ دعوا الله ربهما ﴾ أي دعوا الله مربيهما ومالك أمرهما ﴿ لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين ﴾ أي لئن رزقتنا ولداً صالحاً سوي الخلقة لنشكرنك

(١) هذا قول قتادة وقيل المعنى : خفي علمها على أهل السموات والأرض . (٢) الفخر الرازي ٤ / ٤٨٤ . (٣) أبو السعود ٢

يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْعًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾
وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَمْ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ

على نعمائك ﴿فلما آتاهما صالحاً﴾ أي فلما وهبها الولد الصالح السوي ﴿جعلاه شركاء فيما آتاهما﴾ أي جعل
هؤلاء الأولاد والذرية^(١) شركاء مع الله فعبدوا الأوثان والأصنام ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ أي تنزه
وتقدس الله عما ينسبه إليه المشركون ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً﴾ الاستفهام للتوبيخ أي أيشركون مع الله
ما لا يقدر على خلق شيء أصلاً ﴿وهم يخلقون﴾ أي والحال أن تلك الأوثان والآلهة مخلوقة فكيف يعبدونها
مع الله؟ قال القرطبي: وجمع الضمير بالواو والنون لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع فأجريت مجرى
الناس^(٢) ﴿ولا يستطيعون لهم نصراً﴾ أي لا تستطيع هذه الأصنام نصر عابديها ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ أي
ولا ينصرون أنفسهم ممن أرادهم بسوء، فهم في غاية العجز والذلة فكيف يكونون آلهة؟ ﴿وإن تدعوهم إلى
الهدى لا يتبعوكم﴾ أي أن الأصنام لا تجيب إذا دعيت إلى خير أو رشاد لأنها جمادات ﴿سواءً عليكم أَدْعَاؤُهُمْ
أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ أي يتساوى في عدم الإفادة دعاؤكم لهم وسكوتكم قال ابن كثير: يعني أن هذه الأصنام
لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحها كما قال ابراهيم ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع
ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾^(٣) ﴿إن الذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثالكم﴾ أي إن الذين تعبدونهم من
دونه تعالى من الأصنام وتسمونهم آلهة مخلوقون مثلكم بل الأناس أكمل منها لأنها تسمع وتبصر وتبطنش
وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك فلماذا قال ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾ أمرٌ على جهة
التعجيز والتبكيك أي ادعوهم في جلب نفع أو دفع ضرر إن كنتم صادقين في دعوى أنها آلهة^(٤) ﴿ألم أرُجُلُ

(١) ذهبنا إلى هذا الرأي لجلالته ووضوحه وهو ما رجحه المحققون من أهل العلم، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في «آدم وحواء» وأن
الضمير في قوله تعالى ﴿جعلاه شركاء﴾ يعود إليهما ورووا في ذلك أحاديث وأثار منها ما روي عن سمرة مرفوعاً قال: «لما ولدت حواء طاف
بها إبليس وكان لا يعيش بها ولد فقال سمته: عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان» رواه أحمد
والترمذي قال الحافظ ابن كثير: وهذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه وقد وضحها رحمه الله ورجح أن الحديث موقوف وضعف ما ورد من أثار
ثم روى بسنده عن الحسن أنه قال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بأدم ثم قال ابن كثير: وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري في
هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق «آدم وحواء» وإنما المراد المشركون من ذريته بدليل قول الله بعده ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ أقول: وهو
الحق الذي لا محيد عنه (٢) القرطبي ٣٤١/٧.

(٣) المختصر ٧٥/٢ (٤) قال الحافظ ابن كثير: أسلم معاذ بن جبل. ومعاذ بن عمرو بن الجموح وكانا شاوين فكانا يعدوان في الليل على
أصنام المشركين يكسرانها ويتخذانها حطباً، وكان لعمر بن الجموح - وهو سيد قومه - صنم يعبده ويطلبه فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على
رأسه ويلطخان بالعدرة - النجس - فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطلبه ويضع عنده سيفاً ويقول له: انتصر، ثم
يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك علم أن ما
عليه من الدين باطل فأنشد يقول

«تالله لو كنت إلهاً مستدن لم تك والكلب جميعاً في قرن»

ثم أسلم فحسن إسلامه وقتل يوم أحد شهيداً.

أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا
فَلَا تَنْظُرُونَ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
لَا يَسْتَبِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ
إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ

يشون بها ﴿﴾ توبيخ إثر توبيخ وكذلك ما بعده من الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي هل هذه الأصنام ﴿﴾ أم لهم أيدي يبطشون بها ﴿﴾ أي أم هل لهم أيدي تفتك وتبطش بمن أرادها بسوء؟ ﴿﴾ أم لهم أعين يبصرون بها ﴿﴾ أي أم هل لهم أعين تبصر بها الأشياء؟ ﴿﴾ أم لهم آذان يسمعون بها ﴿﴾ أي أم هل لهم آذان تسمع بها الأصوات؟ والغرض بيان جهلهم وتسفيه عقولهم في عبادة جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن عابدها شيئاً لأنها فقدت الحواس وفاقده الشيء لا يعطيه ، والإنسان أفضل بكثير من هذه الأصنام لوجود العقل والحواس فيه فكيف يليق بالأكمل الأشرف أن يشتغل بعبادة الأخس الأدون الذي لا يحس منه فائدة أبداً لا في جلب منفعة ولا في دفع مضرة؟! ﴿﴾ قل ادعوا شركاءكم ﴿﴾ أي قل لهم يا محمد ادعوا أصنامكم واستنصروا واستعينوا بها علي ﴿﴾ ثم كيدون فلا تنظرون ﴿﴾ أي ابدلوا جهدكم أنتم وهم في الكيد لي وإلحاق الأذى والمضرة بي ولا تمهلون طرفة عين ، فإني لا أبالي بكم لاعتمادي على الله قال الحسن : خوفوا الرسول ﷺ بأهتهم فأمره تعالى أن يجابههم بذلك ﴿﴾ إن وليي الله الذي نزل الكتاب ﴿﴾ أي إن الذي يتولى نصري وحفظي هو الله الذي نزل علي القرآن ﴿﴾ وهو يتولى الصالحين ﴿﴾ أي هو جل وعلا يتولى عباده الصالحين بالحفظ والتأييد، وهو وليهم في الدنيا والآخرة ﴿﴾ والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴿﴾ كرهه لبيّن أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضر ﴿﴾ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون ﴿﴾ أي وإن تدعوا هذه الأصنام إلى الهداية والرشاد لا يسمعون دعاءكم فضلاً عن المساعدة والإمداد ﴿﴾ وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴿﴾ أي وتراهم يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد لا تبصر لأن لهم صورة الأعين وهم لا يرون بها شيئاً ﴿﴾ خذ العفو ﴿﴾ أمر له عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق أي خذ بالسهل اليسير في معاملة الناس ومعاشرتهم قال ابن كثير : وهذا أشهر الأقوال ويشهد له قول جبريل للرسول ﷺ « إن الله يأمرك أن تعفو عن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك » ﴿﴾ وأمر بالعرف ﴿﴾ أي بالمعروف والجميل المستحسن من الأقوال والأفعال ﴿﴾ وأعرض عن الجاهلين ﴿﴾ أي لا تقابل السفهاء بمثل سفههم بل احلم عليهم قال القرطبي : وهذا وإن كان خطاباً لنبيه عليه الصلاة والسلام فهو تأديب لجميع خلقه ﴿﴾ وإما ينزعنك من الشيطان نزع ﴿﴾ أي وإما يصيبنك يا محمد طائف من الشيطان

تَزَعُّ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٦﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْجُدُونَ لَهُ وَلَهُ يُسْجَدُونَ ﴿٢٩﴾

بالوسوسة والتشكيك في الحق ﴿فاستعذ بالله﴾ أي فاستجبر بالله والجارأ إليه في دفعه عنك ﴿إنه سميعٌ عليم﴾ أي سميعٌ لما تقول عليمٌ بما تفعل ﴿إن الذين اتقوا﴾ أي الذين اتصفوا بتقوى الله ﴿إذامسهم طائف من الشيطان﴾ أي إذا أصابهم الشيطان بوسوسته وحام حولهم بهواجسه ﴿تذكروا﴾ أي تذكروا عقاب الله وثوابه ﴿فإذا هم مبصرون﴾ أي يبصرون الحق بنور البصيرة ويتخلصون من وساوس الشيطان ﴿واخوانهم يمدونهم في الغي﴾ أي إخوان الشياطين الذين لم يتقوا الله وهم الكفرة الفجرة فإن الشياطين تغويهم وتزين لهم سبل الضلال ﴿ثم لا يقصرون﴾ أي لا يمسكون ولا يكفون عن إغوائهم ﴿وإذا لم تأتهم بآية﴾ أي وإذا لم تأتهم بمعجزة كما اقترحوا ﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾ أي هلا اختلقتها يا محمد واخترعتها من عند نفسك؟! وهو تهكمٌ منهم لعنهم الله ﴿قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي﴾ أي قل لهم يا محمد ليس الأمر إلي حتى آتي بشيء من عند نفسي وإنما أنا عبدٌ أمثل ما يوحيه الله إلي ﴿هذا بصائر من ربكم﴾ أي هذا القرآن الجليل حججٌ بيّنة ، وبراهين نيرةٌ يغني عن غيره من المعجزات فهو بمنزلة البصائر للقلوب به يُبصر الحق ويُدرك ﴿وهدى ورحمة لقومٍ يؤمنون﴾ أي وهداية ورحمة للمؤمنين لأنهم المقتبسون من أنواره والمتفعلون من أحكامه ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ أي وإذا تليت آيات القرآن فاستمعوها بتدبر واسكتوا عند تلاوته إعظاماً للقرآن وإجلالاً ﴿لعلكم ترحمون﴾ أي لكي تفوزوا بالرحمة ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ أي واذكر ربك سرّاً مستحضراً لعظمته وجلاله ﴿تضرعاً وخيفة﴾ أي متضرعاً إليه وخائفاً منه ﴿ودون الجهر من القول﴾ أي وسطاً بين الجهر والسرّ ﴿بالغدو والآصال﴾ أي في الصباح والعشيّ ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ أي ولا تغفل عن ذكر الله ﴿إن الذين عند ربك﴾ أي الملائكة الأطهار ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ أي لا يتكبرون عن عبادة ربهم ﴿ويسبحونه﴾ أي ينزهونه عما لا يليق به ﴿وله يسجدون﴾ أي لا يسجدون إلا لله .

البلاغه : ١ - ﴿كأنك حفيٌّ عنها﴾ التشبيه مرسل مجمل لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه .

٢ - ﴿فلما تغشاها﴾ التغشي هنا كناية عن الجماع وهو من الكنايات اللطيفة .

٣- ﴿أَلْهَمَ أَرْجُلَ يَمْشُونَ بِهَا . . ﴾ الخ هذا الأسلوب يسمى « الإطناب » وفائدته زيادة التقرير والتوبيخ .

٤- ﴿يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ شبه وسوسة الشيطان وإغراءه الناس على المعاصي بالنزغ وهو إدخال الأبرة وما شابهها في الجلد ففيه استعارة لطيفة .

٥- ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فيه تشبيه بليغ وأصله هذا كالبصائر ، حُذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فهو بليغ ويرى بعض العلماء أنه من قبيل المجاز المرسل حيث أطلق المسبب على السبب لأن القرآن لما كان سبباً لتنوير العقول أطلق عليه لفظ البصيرة .

لطفية : حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : ما تصنع بالشیطان إذا سَوَّلَ لك الخطايا ؟ قال : أجاهده قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده ، قال إن هذا يطول ، أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنعك من العبور ماذا تصنع ؟ قال : أكابده وأرده جهدي قال : هذا يطول عليك ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك ، فهذه فائدة الإستعاذة.

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعراف »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة الأنفال إحدى السور المدنية التي عُنيت بجانب التشريع ، وبخاصة فيما يتعلق بالغزوات والجهاد في سبيل الله ، فقد عاجلت بعض النواحي الحربية التي ظهرت عقب بعض الغزوات ، وتضمنت كثيراً من التشريعات الحربية ، والإرشادات الإلهية التي يجب على المؤمنين اتباعها في قتالهم لأعداء الله ، وتناولت جانب السلم والحرب ، وأحكام الأسر والغنائم .

* نزلت هذه السورة الكريمة في أعقاب « غزوة بدر » التي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام المجيد ، وبداية النصر لجند الرحمن حتى سماها بعض الصحابة « سورة بدر » لأنها تناولت أحداث هذه الموقعة بإسهاب ، ورسمت الخطة التفصيلية للقتال ، وبيّنت ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من البطولة والشهامة ، والوقوف في وجه الباطل بكل شجاعة وجرأة وحزم وصمود .

* ومن المعلوم من تاريخ الغزوات التي خاضها المسلمون أن غزوة بدر كانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وكانت هي الجولة الأولى من جولات الحق مع الباطل ، ورد البغي والطغيان ، وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين قعد بهم الضعف في مكة ، وأخذوا في الضراعة إلى الله أن يخرجهم من القرية الظالم أهلها ، وقد استجاب الله ضراعتهم فهبأ لهم ظروف تلك الغزوة ، التي تمّ فيها النصر للمؤمنين على قلة في عددهم ، وضعف في عددهم ، وعلى عدم تهيئتهم للقتال ، وبها عرف أنصار الباطل أنه مهما طال أمده ، وقويت شوكته ، وامتد سلطانه ، فلا بدّ له من يوم يخرّ فيه صريعاً أمام جلال الحق وقوة الإيمان ، وهكذا كانت غزوة بدر نصراً للمؤمنين ، وهزيمة للمشركين .

* وفي ثنايا سرد أحداث بدر جاءت النداءات الإلهية للمؤمنين ست مرات بوصف الإيمان ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ كحافز لهم على الصبر والثبات في مجاهدتهم لأعداء الله ، وكتذكير لهم بأن هذه التكليف التي أمروا بها من مقتضيات الإيمان الذي تحلوا به ، وأن النصر الذي حازوا عليه كان بسبب الإيمان لا بكثرة السلاح والرجال .

* أما النداء الأول : فقد جاء فيه التحذير من الفرار من المعركة ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين

كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ﴿١﴾ وقد توعدت الآيات المنهزمين أمام الأعداء بأشد العذاب .

* وأما النداء الثاني : فقد جاء فيه الأمر بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله ﴿٢﴾ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴿٣﴾ كما صوّرت الآيات الكافرين بالأنعام السارحة التي لا تسمع ولا تعي ولا تستجيب لدعوة الحق .

* وأما النداء الثالث : فقد بيّن فيه أن ما يدعوهم إليه الرسول فيه حياتهم وعزتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ﴿٤﴾ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم . . . الآية .

* وأما النداء الرابع : فقد نبههم فيه إلى أن إفشاء سر الأمة للأعداء خيانة لله ولرسوله وخيانة للأمة أيضاً ﴿٥﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴿٦﴾ .

* وأما النداء الخامس : فقد لفت نظرهم فيه إلى ثمرة التقوى ، وذكرهم بأنها أساس الخير كله ، وأن من أعظم ثمرات التقوى ذلك النور الرباني ، الذي يقذفه الله في قلب المؤمن ، وبه يفرق بين الرشد والغي ، والهدى والضلال ﴿٧﴾ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم ﴿٨﴾ .

* وأما النداء السادس : وهو النداء الأخير فقد وضّح لهم فيه طريق العزة ، وأسس النصر ، وذلك بالثبات أمام الأعداء ، والصبر عند اللقاء ، واستحضار عظمة الله التي لا تحد ، وقوته التي لا تقهر ، والاعتصام بالمدد الروحي الذي يعينهم على الثبات ألا وهو ذكر الله كثيراً ﴿٩﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴿١٠﴾ .

* وقد ختمت السورة الكريمة ببيان الولاية الكاملة بين المؤمنين ، وأنه مهما تناءت ديارهم ، واختلفت أجناسهم ، فهم أمة واحدة ، وعليهم نصر الذين يستنصرونهم في الدين ، كما أن ملة الكفر أيضاً واحدة ، وبين الكافرين ولاية قائمة على أسس البغي والضلال ، وأنه لا ولاية بين المؤمنين والكافرين ﴿١١﴾ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن في الأرض فتنة في الأرض وفساد كبير ﴿١٢﴾ .

* هذه خلاصة ما أشارت إليه السورة الكريمة من أهداف ، وما أرشدت إليه من دروس وعبر ، نسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفهم والبصر .

قال الله تعالى : ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال . . . إلى . . . لتولوا وهم معرضون﴾

من آية (١) إلى نهاية آية (٢٣) .

اللفظة : ﴿الأنفال﴾ الغنائم جمع نفل بالفتح وهو الزيادة وسميت الغنائم به لأنها زيادة على القيام بحماية الدين والأوطان ، وتسمى صلاة التطوع نفلاً ، وولد الولد نافلة لهذا المعنى قال لبيد :
إن تقوى ربنا خير نفل وبإذن الله ريثي والعجل

﴿وجلّت﴾ الوجل : الخوف والفرع ﴿ذات الشوكة﴾ الشوكة : السلاح وأصلها من الشوك قال أبو عبيدة : ومجاز الشوكة الحد يقال : ما أشد شوكة بني فلان أي حدّهم^(١) ﴿تستغيثون﴾ الاستغاثة : طلب النصرة والعون ﴿مردفين﴾ متتابعين يتلو بعضهم بعضاً وردف وأردف بمعنى واحد أي تبع قال الطبري : العرب تقول : أردفته وردفته بمعنى تبعته وأتبعته قال الشاعر : إذا الجوزاء أردفت الثريا^(٢) ﴿بنان﴾ البنان : جمع بنانة وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين قال عنترة :

وكان فتى الهيجاء يحمي ذمارها
ويضرب عند الكرب كل بنان^(٣)

﴿زحفاً﴾ الزحف : الدنو قليلاً مأخوذ من زحف الصبي إذا مشى على أليته قليلاً قليلاً ثم سمي به الجيش الكثير العدد لأنه لكثرتة وتكاثفه يرى كأنه يزحف زحفاً ﴿متحيزاً﴾ منضماً يقال : تحيز أي انضم واجتمع إلى غيره ﴿باء﴾ رجع ﴿موهن﴾ مضعف ﴿تستفتحوا﴾ استفتح : أي طلب الفتح والنصرة على عدوه .

سَبَبُ الزَّوْلِ : أ - عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا ، فأما المشيخة فبنتوا تحت الرايات ، وأما الشبان فتسارعوا إلى القتل والغنائم فقال المشيخة للشبان : أشركونا معكم فإننا كنا لكم رداءً ولو كان منكم شيء للجاتم إلينا فأبوا واختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ الآية فقسم ﷺ الغنائم بينهم بالسوية^(٤) .

ب - روي أن النبي ﷺ أخذ قبضة من تراب يوم بدر فرمى بها في وجوه القوم وقال : شأهت الوجوه فما بقي أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخره تراب من تلك القبضة ولولا مدبرين فنزلت ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى . . الآية^(٥) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ
الْمُفْسِرُ : ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد عن الغنائم التي غنمتها من بدر لمن هي ؟ وكيف تقسم ؟ ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ أي قل لهم : الحكم فيها لله والرسول لا لكم ﴿فاتقوا الله﴾ أي اتقوا الله بطاعته واجتناب معاصيه ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي أصلحوا الحال التي بينكم بالائتلاف وعدم الاختلاف ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في الحكم في الغنائم قال عبادة بن الصامت : نزلت فينا أصحاب بدر حين اختلفنا وساءت أخلاقنا ، فنزع الله الأنفال من أيدينا وجعلها لرسول الله ﷺ فقسمها على السواء فكان في ذلك تقوى الله ، وطاعة رسوله ، وإصلاح ذات البين^(٦) ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ شرط حذف جوابه أي إن كنتم حقاً مؤمنين كاملين في الإيمان فأطيعوا الله ورسوله ﴿إنما المؤمنون﴾ أي إنما الكاملون في الإيمان المخلصون فيه ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت

(١) زاد المسير ٣/ ٣٢٤ . (٢) الطبري ١٣/ ٤١٥ . (٣) القرطبي ٧/ ٣٧٩ .

(٤) روح المعاني ٩/ ١٦٢ . (٥) الطبري ١٣/ ٤٤٥ . (٦) التسهيل ٢/ ٦٠ .

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١٣﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿١٤﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٥﴾

قلوبهم ﴿١٠﴾ أي إذا ذكر اسم الله فزعت قلوبهم لمجرد ذكره ، استعظماً لشأنه ، وتهيباً منه جلُّ وعلا ﴿١١﴾ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴿١٢﴾ أي إذا تليت عليهم آيات القرآن ازداد تصديقهم ويقينهم بالله ﴿١٣﴾ وعلى ربهم يتوكلون ﴿١٤﴾ أي لا يرجون غير الله ولا يرهبون سواه قال في البحر : أخبر عنهم باسم الموصول بثلاث مقلمات عظيمة وهي : مقام الخوف ، ومقام الزيادة في الإيمان ، ومقام التوكل على الرحمن ﴿١٥﴾ ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ أي يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل بخشوعها وفروضها وآدابها ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي وينفقون في طاعة الله مما أعطاهم الله ، وهو عام في الزكاة ونوافل الصدقات ﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾ أي المتصفون بما ذكر من الصفات الحميدة هم المؤمنون إيماناً حقاً لأنهم جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ﴿لهم درجات عند ربهم﴾ أي لهم منازل رفيعة في الجنة ﴿ومغفرة﴾ أي تكفير لما فرط منهم من الذنوب ﴿ورزق كريم﴾ أي رزق دائم مستمر مقرون بالإكرام والتعظيم ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ الكاف تقتضي مشبهاً قال ابن عطية : شبهت هذه القصة التي هي إخراجهم من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال وكرهتهم لما وقع ﴿١٤﴾ فيها ، والمعنى : حالهم في كراهة تنفيل الغنائم كحالهم في حالة خروجك للحرب وقال الطبري : المعنى : كما أخرجك ربك بالحق على كره من فريق من المؤمنين كذلك يجادلونك في الحق بعدما تبين ، والحق الذي كانوا يجادلون فيه النبي ﷺ بعد ما تبينوه هو القتال ﴿١٥﴾ ﴿وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ أي والحال أن فريقاً منهم كارهون للخروج لقتال العدو خوفاً من القتل أو لعدم الاستعداد ﴿يجادلونك في الحق بعد ما تبين﴾ أي يجادلونك يا محمد في شأن الخروج للقتال بعد أن وضع لهم الحق وبان ، وكان جدالهم هو قولهم : ما كان خروجنا إلا للغير ولو عرفنا لاستعدنا للقتال ﴿كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ قال البيضاوي : أي يكرهون القتال كراهة من ينساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه ، وذلك لقلّة عددهم وعدم تأهبهم ، وفيه إيحاء إلى أن مجادلتهم إنما كانت لفرط فرغهم ورعبهم ﴿٥﴾ ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾ أي اذكروا حين وعدكم الله يا أصحاب محمد إحدى الفرقتين أنها لكم غنيمة

(١) قال ابن الخطيب : ليقراً هذه الآية ولتدبرها كل مؤمن ، وليعرضها على نفسه ، فإن وجدها تنطبق على صفاته فليهنأ بما آتاه الله من فضل ، وما وهبه من خير ، وإن وجدها في وادٍ وهو في وادٍ ، فليلجأ إلى الرحيم الودود ، وليجأ إلى اللطيف الحميد ، إن يصفى قلبه ويزيده إيماناً وتوكلاً ، ويوفقه لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فنعمة القريب ونعم المجيب ، وليكن هذا بإخلاص قلب وصدق طوية .

(٢) البحر ٤٥٧/٤ . (٣) الطبري ٤٦١/٤ . (٤) الطبري ٢٩٣/١٣ . (٥) البيضاوي ص ٢٠٩ .

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ

إِما العير أو النفير ﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ أي وتحبون أن تلقوا الطائفة التي لا سلاح لها وهي العير لأنها كانت محملة بتجارة قريش قال المفسرون : روي أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة برأسة أبي سفيان ، ونزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد : إن الله وعدكم إحدى الطائفتين : إما العير وإما قريشاً ، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه فاختاروا العير لخفة الحرب وكثرة الغنيمة ، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة فنأدى أبو جهل : يا أهل مكة النجاء النجاء ، غيركم أموالكم إن أصابها محمد فلن تفلحوا بعدها أبداً ، فخرج المشركون على كل صعب وذلول ومعهم أبو جهل حتى وصلوا بدرأ ، ونجت القافلة فأخبر الرسول ﷺ أصحابه وقال لهم : إن العير قد مضت على ساحل البحر ، وهذا أبو جهل قد أقبل ، فقالوا يا رسول الله : عليك بالعير ودع العدو فغضب رسول الله فقام سعد بن عبادة فقال : امض بنا لما شئت فإننا متبعوك ، وقام سعد بن معاذ فقال : والذي بعثك بالحق لو خضت بنا البحر لخضناه معك فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله ﷺ وقال لأصحابه : سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأنني أنظر إلى مصارع القوم^(١) ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾ أي يظهر الدين الحق وهو الإسلام بقتل الكفار وإهلاكهم يوم بدر ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ أي يستأصل الكافرين ويهلكهم جملة من أصلهم قال في البحر : والمعنى أنكم ترغبون في الفائدة العاجلة ، وسلامة الأحوال ، وسفساف الأمور ، والله تعالى يريد معالي الأمور ، وإعلاء الحق ، والفوز في الدارين ، وشتان ما بين المرادين ، ولذلك اختار لكم ذات الشوكة وأراكمهم عياناً خذلانهم ، فنصركم وهزمهم ، وأذلهم وأعزكم^(٢) ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾ متعلق بمحذوف تقديره : ليحق الحق ويبطل الباطل فعل ما فعل والمراد إظهار الإسلام وإبطال الكفر ﴿ولو كره المجرمون﴾ أي ولو كره المشركون ذلك أي إظهار الإسلام وإبطال الشرك ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ أي اذكروا حين تطلبون من ربكم الغوث بالنصر على المشركين ، روي أن رسول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف ، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر ، فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو : اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تعبد في الأرض ، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأخذه أبو بكر فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبي الله كفك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فنزلت هذه الآية ﴿فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة﴾ أي استجاب الله الدعاء بأني معينكم بألف من الملائكة ﴿مردفين﴾ أي متتابعين يتبع بعضهم بعضاً قال

قُلُوبِكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ أَلَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيَطْهَرَكُم بِهِ وَيُدْهَبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيَثْبِتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١٢﴾
إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَرَأَيْتَ فَاضْرِبُوا

المفسرون : ورد أن جبريل نزل بخمسمائة وقاتل بها في يمين الجيش ، ونزل ميكائيل بخمسمائة وقاتل بها في يسار الجيش ، ولم يثبت ان الملائكة قاتلت في وقعة إلا في بدر ، وأما في غيرها فكانت تنزل الملائكة لتكثير عدد المسلمين ولا تقاتل (١) ﴿وما جعله الله إلا بشري﴾ أي وما جعل إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بالنصر ﴿ولتطمئنن به قلوبكم﴾ أي ولتسكن بهذا الإمداد نفوسكم ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ أي وما النصر في الحقيقة إلا من عند الله العلي الكبير فثقوا بنصره ولا تتكلوا على قوتكم وعدتكم ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي غالب لا يغلب يفعل ما تقضي به الحكمة ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾ أي يلقي عليكم النوم أمناً من عنده سبحانه وتعالى ، وهذه معجزة لرسول الله ﷺ حيث غشي الجميع النوم في وقت الخوف قال علي رضي الله عنه : « ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح » (٢) قال ابن كثير : وكان ذلك كان للمؤمنين عند شدة البأس ، لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله (٣) ﴿وينزل عليكم من السماء ماء﴾ تعديد لنعمة أخرى ، وذلك أنهم عدموا الماء في غزوة بدر فأنزل الله عليهم المطر حتى سالت الأودية ، وكان منهم من أصابته جنابة فطهر بماء المطر ﴿ليطهركم به﴾ أي من الأحداث والجنابات ﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ أي يدفع عنكم وسوسته وتخويفه إياكم من العطش ، قال البيضاوي : روي أنهم نزلوا في كتيب أعفر ، تسوخ فيه الأقدام على غير ماء ، وناموا فاحتلم أكثرهم فوسوس إليهم الشيطان وقال : كيف تنصرون وقد غلبتم على الماء ، وأنتم تصلون محدثين مجننين وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ؟ فأنزل الله المطر حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة (٤) ﴿وليربط على قلوبكم﴾ أي يقويها بالثقة بنصر الله ﴿ويثبت به الأقدام﴾ أي يثبت بالمطر الأقدام حتى لا تسوخ في الرمل قال الطبري : ثبت بالمطر أقدامهم لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رملة ميثاء فلبدها المطر حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها (٥) ﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم﴾ تذكير بنعمة أخرى أي يوحى إلى الملائكة بأنني معكم بالعون والنصر ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ أي ثبتوا المؤمنون وقووا أنفسهم على أعدائهم ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ أي سأقذف في قلوب الكافرين الخوف والفرع حتى ينهزموا ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ أي اضربوهم على الأعناق كقوله ﴿فضرب الرقاب﴾ وقيل : المراد الرؤوس لأنها فوق الأعناق ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ أي اضربوهم على أطراف الأصابع قال في التسهيل : وفائدة ذلك

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ١١٨/٢ . (٢) رواه أبو يعلى . (٣) المختصر ٩٠/٢ .

(٤) البيضاوي ص ٢١٠ . (٥) الطبري ٤٢١/١٣ .

فَوْقَ الْأَعْتَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ كُرْهُ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَرِيدٌ

أن المقاتل إذا ضربت أصابعه تعطل عن القتال فأمكن أسره وقتله^(١) ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أي ذلك العذاب الفظيع واقع عليهم بسبب مخالفتهم وعصيانهم لأمر الله وأمر رسوله ﴿ومن يشاقق الله فإن الله شديد العقاب﴾ أي ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله بالكفر والعناد فإن عذاب الله شديد له ﴿ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار﴾ أي ذلكم العقاب فذوقوه يا معشر الكفار في الدنيا ، مع أن لكم العقاب الأجل في الآخرة وهو عذاب النار ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً﴾ أي إذا لقيتم أعداءكم الكفار مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون زحفاً ﴿فلا تولوهم الأدبار﴾ أي فلا تنهزموا أمامهم بل اثبتوا واصبروا ﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ أي ومن يولهم يوم اللقاء ظهره منهزماً ﴿إلا متحرفاً لقتال﴾ أي إلا في حال التوجه إلى قتال طائفة أخرى ، أو بالفر للكفر بأن يخيل إلى عدوه أنه منهزم ليغرّه مكيدة وهو من باب « الحرب خدعة » ﴿أو متحيزاً إلى فتنة﴾ أي منضماً إلى جماعة المسلمين يستنجد بهم ﴿فقد باء بغضب من الله﴾ أي فقد رجع بسخط عظيم ﴿ومأواه جهنم﴾ أي مقره ومسكنه الذي يأوي إليه نار جهنم ﴿وبئس المصير﴾ أي بئس المرجع والمآل ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾ أي فلم تقتلوهم أيها المسلمون بيد بقوتكم وقدرتكم ، ولكن الله قتلهم بنصركم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم ﴿وما رميت إذ رميت﴾ أي وما رميت في الحقيقة أنت يا محمد أعين القوم بقبضة من تراب لأن كفاً من تراب لا يملأ عيون الجيش الكبير قال ابن عباس : أخذ رسول الله قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين وقال : شاهت الوجوه ، فلم يبق أحد منهم إلا أصاب عينيه ومنخره من تلك الرمية فولوا مدبرين^(٢) ﴿ولكن الله رمى﴾ أي بإيصال ذلك إليهم فالأمر في الحقيقة من الله ﴿وليبلّي المؤمنين منه بلاءً حسناً﴾ أي فعل ذلك ليقهر الكافرين ويُنعم على المؤمنين بالأجر والنصر والغنيمة ﴿إن الله سميع عليم﴾ أي سميع لأقوالهم عليم بنياتهم وأحوالهم ﴿ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ أي ذلك^(٣) الذي حدث من قتل المشركين ونصر المؤمنين حق ، والغرض منه إضعاف وتوهين كيد الكافرين حتى لا تقوم لهم قائمة ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ هذا خطاب

(١) التسهيل ٦٢/٢ . (٢) الطبري ٤٤٣/١٣ . (٣) ذلكم مبتدأ حذف خبره تقديره : ذلكم الذي حدث حق .

الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدَ وَلَن تَغْنِيَّ عَنْكُمْ
فِتْنَتَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ
وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ * إِنْ شَرَّ الدَّوَابُّ عِنْدَ اللَّهِ
الصَّمَّ الْبُكْرُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

لكفار قريش أي إن تطلبوا يا معشر الكفار الفتح والنصر على المؤمنين فقد جاءكم الفتح وهو الهزيمة والقهر ، وهذا على سبيل التهكم بهم قال الطبري في رواية الزهري : قال أبو جهل يوم بدر : اللهم أينا كان أفجر ، وأقطع للرحم ، فأحنه اليوم - أي أهلكه - فأنزل الله ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ فكان أبو جهل هو المستفتح ﴿ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي وإن تكفوا يا معشر قريش عن حرب الرسول ومعاداته ، وعن الكفر بالله ورسوله فهو خير لكم في دنياكم وآخرتكم ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدَ ﴾ أي وإن تعودوا لحربه وقتاله نعد لنصره عليكم ﴿ وَلَن تَغْنِيَّ عَنْكُمْ فِتْنَتَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ أي لن تدفع عنكم جماعتكم التي تستنجدون بها شيئاً من عذاب الدنيا مهما كثر الأعوان والأنصار ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي لأن الله سبحانه مع المؤمنين بالنصر والعون والتأييد ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي دوموا على طاعة الله وطاعة رسوله يدم لكم العز الذي حصل بيد ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ أي لا تعرضوا عنه بمخالفة أمره وأصله تتولوا حذف منه إحدى التاءين ﴿ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ أي تسمعون القرآن والمواظظ ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي لا تكونوا كالكفار الذين سمعوا بأذانهم دون قلوبهم ، فسماهم كلا سماع لأن الغرض من السماع التدبر والاعتاظ ﴿ إِنْ شَرَّ الدَّوَابُّ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي شر الخلق وشر البهائم التي تدب على وجه الأرض ﴿ الصَّمَّ الْبُكْرُ ﴾ أي الصم الذين لا يسمعون الحق ، البكم أي الخرس الذين لا ينطقون به ﴿ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي الذين فقدوا العقل الذي يميز به المرء بين الخير والشر ، نزلت في جماعة من بني عبد الدار كانوا يقولون : نحن صم بكم عما جاء به محمد ، وتوجهوا لقتال الرسول ﷺ مع أبي جهل ، وفي الآية غاية الذم للكافرين بأنهم أشر من الكلب والخنزير والحمير ، لأنهم لم يستفيدوا من حواسهم فصاروا أحسن من كل خسيس ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ أي لو علم الله فيهم شيئاً من الخير لأسمعهم سماع تفهم وتدبر ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ أي ولو فرض أن الله أسمعهم - وقد علم أن لا خير فيهم - لتولوا وهم معرضون عنه جحوداً وعناداً ، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على عدم إيمان الكافرين .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿ أَوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب لعلو رتبته وبعد منزلتهم

في الشرف .

٢ - ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ استعار الدرجات للمراتب الرفيعة والمنازل العالية في الجنة .

- ٣- ﴿كأنما يساقون الى الموت﴾ التشبيه هنا تمثيلي .
 ٤- ﴿أن يحق الحق﴾ بينهما جناس الاشتقاق .
 ٥- ﴿ذات الشوكة﴾ استعيرت الشوكة للسلاح بجامع الشدة والحدة بينها .
 ٦- ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ كناية عن استئصالهم بالهلاك .
 ٧- ﴿إذ تستغيثون﴾ صيغة المضارع لاستحضار صورتها الغريبة في الذهن .
 ٨- ﴿وينزل عليكم من السماء ماء﴾ تقديم الجار والمجرور على المفعول به للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر .
 ٩- ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ الخطاب للمشركين على سبيل التهكم كقوله ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ .
 ١٠- ﴿إن شر الدواب عند الله﴾ شبه الكفار بالبهائم بل جعلهم شراً منها ، وذلك منتهى البلاغة ونهاية الإعجاز ، إذ أن الكافر لا يسمع الحق والبهائم لا تسمع ، ولا ينطق به والبهائم لا تنطق ، ويأكل والبهائم تأكل ، بقي أنه يضر والبهائم لا تضر فكيف لا يكون شراً منها ؟
تبيته : ذكر تعالى في هذه السورة أنه أمد المؤمنين بألف من الملائكة ، وذكر في سورة آل عمران أنه أمدهم بثلاثة آلاف ، ولا تعارض بين الآيات فإنه تعالى ذكر هنا لفظ ﴿مردفين﴾ ومعناه متتابعين فأمدهم أولاً بألف ثم بثلاثة آلاف والله الموفق .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول . . إلى . . نعم المولى ونعم النصير﴾

من آية (٢٤) إلى نهاية آية (٤٠) .

المناسبة : لما ذكر تعالى الكافرين ، وشبههم بالأنعام السارحة لأنهم أعرضوا عن قبول دعوة الله ، أمر المؤمنين هنا بالاستجابة لله والرسول ، وقبول دعوته التي فيها حياة القلوب ، وبها السعادة الكاملة في الدنيا والآخرة .

اللغات : ﴿مكاء﴾ المكاء : الصفير قال أبو عبيدة : والكثير في الأصوات أن تكون على فعال كالصراخ والحوار والدعاء والنباح^(١) ﴿تصدية﴾ التصدية : التصفيق يقال : صدى تصدياً إذا صفق بيديه وأصله من الصدى وهو الصوت الذي يرجع من الجبل ﴿فيركمه﴾ الركم : الجمع قال الليث : هو أن تجمع الشيء فوق الشيء حتى تجعله ركاماً ركوماً كركام الرمل والسحاب^(٢) ﴿سلف﴾ مضى ﴿سنة﴾ الأولين ﴿عادة الله وسنته في إهلاك المكذبين من الأمم السالفة﴾ مولاكم ﴿ناصركم ومعينكم﴾ .

سبب النزول : أخرج ابن جرير عن الزهري أن رسول الله ﷺ لما حاصر يهود بني قريظة طلبوا الصلح فأمرهم أن ينزلوا على حكم « سعد بن معاذ » فقالوا : أرسل لنا « أبا لبابة » فبعثه رسول الله ﷺ

إليهم فقالوا : يا أبا لبابة ما ترى ؟ أنزل على حكم سعد ؟ فأشار إلى حلقه يعني أنه الذبح ، قال أبو لبابة : والله ما زالت قدمي عن مكانها حتى عرفت أنني قد خنت الله ورسوله فقال : لا والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ فنزلت الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول . . ﴾ الآية ثم نزلت توبته (١) .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ أي أجيبوا دعاء رسوله إذا دعاكم للإيمان الذي به تحيا النفوس ، وبه تحيون الحياة الأبدية قال قتادة : هو القرآن فيه الحياة ، والثقة ، والنجاة ، والعصمة في الدنيا والآخرة (٢) ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ أي أنه تعالى المتصرف في جميع الأشياء ، يصرف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها ، فيفسخ عزائمها ، ويغير مقاصدها ، ويلهمه رشده ، أو يُزيغ قلبه عن الصراط السوي ، وفي الحديث : (يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) قال ابن عباس : يحول بين المؤمن والكافر ، وبين الكافر والإيمان (٣) قال أبو حيان : وفي ذلك حض على المراقبة ، والخوف من الله تعالى والمبادرة إلى الاستجابة له جل وعلا (٤) ﴿وأنه إليه تحشرون﴾ أي وأنه سبحانه إليه مرجعكم ومصيركم فيجازيكم بأعمالكم ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ أي احذروا بطش الله وانتقامه إن عصيتم أمره واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة بل تعم الجميع ، وتصل إلى الصالح والطالح ، لأن الظالم يهلك بظلمه وعصيانه ، وغير الظالم يهلك لعدم منعه وسكوته عليه وفي الحديث (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده) (٥) قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب ، فيصيب الظالم وغير الظالم (٦) ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ وهذا وعيد شديد أي شديد العذاب لمن عصاه ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ أي اذكروا نعمة الله عليكم وقت أن كنتم قلة أدلة يستضعفكم الكفار في أرض مكة فيفتنونكم عن دينكم وينالونكم بالأذى والمكروه ﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ أي تخافون المشركين أن يخطفوكم بالقتل والسلب ، والخطف : الأخذ بسرعة ﴿فأواكم﴾ أي جعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم وهو المدينة المنورة ﴿وأيدكم بنصره﴾ أي أعانكم وقواكم يوم بدر بنصره

(١) روح المعاني للألوسي ١٩٥/٩ . (٢) الطبري ١٣/٤٦٨ . (٣) روح المعاني ٩/١٩١ .

(٤) البحر ٤/٤٨١ . (٥) رواه البخاري . (٦) حاشية الصاوي ٢/١٢٢ .

مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنِنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَعَلِمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمُ

المؤزر حتى هزمتهم ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أي منحكم غنائمهم حلالاً طيبة ولم تكن تحل لأحد من قبل ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي لتشكروا الله على هذه النعم الجليلة ، والغرض التذكير بالنعمة فإنهم كانوا قبل ظهور الرسول ﷺ في غاية القلة والذلة ، وبعد ظهوره صاروا في غاية العزة والرفعة ، فعليهم أن يطيعوا الله ويشكروه على هذه النعمة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول﴾ أي لا تخونوا دينكم ورسولكم بإطلاع المشركين على أسرار المؤمنين ﴿وتخونوا أماناتكم﴾ أي ما ائتمنكم عليه من التكليف الشرعية كقوله ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال . . .﴾ الآية قال ابن عباس : خيانة الله سبحانه بترك فرائضه ، والرسول ﷺ بترك سنته وارتكاب معصيته ، والأمانات : الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد^(١) ﴿وأنتم تعلمون﴾ أي تعلمون أنه خيانة وتعرفون تبعة ذلك ووباله ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ أي محنة من الله ليختبركم كيف تحافظون معها على حدوده قال الإمام الفخر : وإنما كانت فتنة لأنها تشغل القلب بالدنيا ، وتصير حجاباً عن خدمة المولى^(٢) ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ أي ثوابه وعطاؤه خير لكم من الأموال والأولاد فاحرصوا على طاعة الله ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ أي إن أطعتم الله واجتنبتم معاصيه يجعل لكم هداية ونوراً في قلوبكم ، تفرقون به بين الحق والباطل كقوله ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ وفي الآية دليل على أن التقوى تنور القلب ، وتشرح الصدر ، وتزيد في العلم والمعرفة ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ أي يحو عنكم ما سلف من ذنوبكم ﴿ويغفر لكم﴾ أي يسترها عليكم فلا يؤخذكم بها ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ أي واسع الفضل عظيم العطاء ﴿وإذ يكره الذين كفروا﴾ هذا تذكير بنعمة خاصة على الرسول ﷺ بعد تذكير المؤمنين بالنعمة العامة عليهم والمعنى : اذكر يا محمد حين تأمر عليك المشركون في دار الندوة ﴿ليثبتوك﴾ أي يجسوك ﴿أو يقتلوك﴾ أي بالسيف ضربة رجل واحد ليتفرق دمه ﷺ بين القبائل ﴿أو يخرجوك﴾ أي من مكة ﴿ويمكرون ويمكر الله﴾ أي يحتالون ويتآمرون عليك يا محمد ويدبر لك ربك ما يبطل مكرهم ويفضح أمرهم ﴿والله خير الماكرين﴾ أي مكره تعالى أنفذ من مكرهم وأبلغ تأثيراً قال الطبري في روايته عن ابن عباس : إن نفرًا من أشرف قريش اجتمعوا في دار الندوة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال شيخ من العرب ،

ءَايَاتِنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ

سمعت باجتماعكم فأردت ان أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح قالوا : أجل فادخل ، فقال انظروا في شأن هذا الرجل - يعني محمداً ﷺ - فقال قائل : احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك ، فصرخ عدو الله وقال : والله ما هذا لكم برأي ، فليوشكن أن يثب أصحابه عليه حتى يأخذه من أيديكم فيمنعوه منكم ، فقال قائل : أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه فإنه إذا خرج فلن يضركم ما صنع وأين وقع ، فقال الشيخ المذكور : والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حلاوة قوله ، وطلاقة لسانه ، وأخذه القلوب بحديثه ؟ والله لئن فعلتم لتجتمعن عليكم العرب حتى يخرجوكم من بلادكم ويقتلوا أشرافكم ، قالوا صدق فانظروا رأياً غير هذا ، فقال أبو جهل : والله لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره ! قالوا : وما هو ؟ قال نأخذ من كل قبيلة غلاماً شاباً جلدأ ، ونعطي كل واحد سيفاً صارماً ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، ويتفرق دمه في القبائل كلها ، ولا أظن بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلها فيقبلون الدية ونستريح منه ونقطع عنا أذاه ، فصرخ عدو الله إبليس : هذا والله الرأي لا أرى غيره ، فنفرقوا على ذلك فأتى جبريل النبي ﷺ فأخبره وأمره أن لا يبيت في مضجعه ، وأذن له بالهجرة ، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَثْبُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ ، أَوْ يَخْرُجُوكَ . . ﴾ الآية ﴿ وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أي وإذا قرئت عليهم آيات القرآن المبين ﴿ قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ أي قالوا مكابرة وعناداً : قد سمعنا هذا الكلام ولو أردنا لقلنا مثله ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أي ما هذا القرآن الذي تتلوه علينا إلا أكاذيب وأباطيل وحكايات الأمم السابقة سطررها وليس كلام الله تعالى قال أبو السعود : وهذا غاية المكابرة ونهاية العناد ، كيف لا ، ولو استطاعوا لما تأخروا ! فما الذي كان يمنعهم وقد تحداهم عشر سنين ؟ وقرعوا على العجز ، ثم قورعوا بالسيف فلم يعارضوه ، مع أنفتهم ، وفرط استنكافهم أن يغلبوا لا سيما في باب البيان (٢) ؟ ! ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ أي إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً من عندك ﴿ فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ أي أنزل علينا حاصباً وحجارة من السماء كما أنزلتها على قوم لوط ﴿ أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ أي بعذاب مؤلم أهلكنا به ، وهذا تهكم منهم واستهزاء قال ابن كثير : وهذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم ، وكان الأولى لهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه ، ولكنهم استعجلوا العقوبة والعذاب لسفهمهم (٣) ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ هذا جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للسبب الموجب لإمهالهم أي إنهم مستحقون للعذاب ولكنه لا يعذبهم وأنت فيهم إكراماً لك يا محمد ، فقد جرت سنة الله وحكمته ألا يعذب أمة ونبيا بين ظهرانيها قال ابن

وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ - إِنْ أَوْلِيَائُهُمْ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٤٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٤٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ

عباس : لم تعذب أمة قط ونبيا فيها^(١) ، والمراد بالعذاب عذاب الاستئصال ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ أي وما كان الله ليعذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون الله ، وهو إشارة الى استغفار من بقي بين أظهرهم من المسلمين المستضعفين قال ابن عباس : كان فيهم أمانان : نبي الله ﷺ ، والاستغفار ، أما النبي فقد مضى ، وأما الاستغفار فهو باق إلى يوم القيامة^(٢) ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ أي شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم؟ وكيف لا يعذبون وهم على ما هم عليه من العتو والضلال؟ ﴿وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ أي وحالهم الصد عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية ، وكما اضطروه والمؤمنين إلى الهجرة من مكة ، ﴿وما كانوا أولياءه﴾ أي ما كانوا أهلاً لولاية المسجد الحرام مع إشرافهم ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾ أي إنما يستأهل ولايته من كان براً تقياً ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي ولكن أكثرهم جهلة سفلة فقد كانوا يقولون : نحن ولاة البيت والحرم ، نصد من نشاء ، وندخل من نشاء . . والغرض من الآية بيان استحقاقهم لعذاب الاستئصال بسبب جرائمهم الشنيعة ، ولكن الله رفعه عنهم إكراماً لرسوله عليه السلام ، ولاستغفار المسلمين المستضعفين ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصديَةً﴾ هذا من جملة قبائحهم أي ما كانت عبادة المشركين وصلاتهم عند البيت الحرام إلا تصفيراً وتصفيقاً ، وكانوا يفعلونها إذا صلى المسلمون ليخلطوا عليهم صلاتهم ، والمعنى أنهم وضعوا مكان الصلاة والتقرب إلى الله التصفير والتصفيق قال ابن عباس : كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون^(٣) ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي فذوقوا عذاب القتل والأسر بسبب كفركم وأفعالكم القبيحة ، وهو إشارة إلى ما حصل لهم يوم بدر ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ أي يصفون أموالهم ويبدلون منع الناس عن الدخول في دين الإسلام ، ولحرب محمد عليه السلام ، قال الطبري : لما أصيب كفار قريش يوم بدر ، ورجع فلهم إلى مكة قالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثاراً بمن أصيب منا فنزلت الآية^(٤) ﴿فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة﴾ أي فسيفقون هذه الأموال ثم تصير ندامة عليهم ، لأن أموالهم تذهب ولا يظفرون بما كانوا يطمعون من إطفاء نور الله وإعلاء كلمة الكفر ﴿ثم يُغلبون﴾ إخبار بالغيب أي ثم نهايتهم الهزيمة والانحجار ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾

الطَّيِّبِ وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أَوْلَيْكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾
 قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى
 لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ آنتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
 مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ أي والذين ماتوا على الكفر منهم يساقون إلى جهنم ، فأعظم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ أي ليفرق الله بين جند الرحمن وجند الشيطان ، ويفصل بين المؤمنين الأبرار والكفرة الأشرار ، والمراد بالخبيث والطيب الكافر والمؤمن ﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض﴾ أي يجعل الكفار بعضهم فوق بعض ﴿فيركمه جميعاً﴾ أي يجعلهم كالركام متراكماً بعضهم فوق بعض لشدة الازدحام ﴿فيجعلهم في جهنم﴾ أي فيقذف بهم في نار جهنم ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ أي الكاملون في الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم ، ثم دعاهم تعالى إلى التوبة والإنابة ، وحذرهم من الإصرار على الكفر والضلال فقال سبحانه ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك ، إن ينتهوا عن الكفر ويؤمنوا بالله ويتركوا قتالك وقاتل المؤمنين ، يغفر لهم ما قد سلف من الذنوب والآثام ﴿وإن يعودوا فقد مضت سنتُ الأولين﴾ أي وإن عادوا إلى قتالك وتكذيبك فقد مضت سنتي في تدمير وإهلاك المكذبين لأنبيائي ، فكَذلك نفع لهم ، وهذا وعيد شديد لهم بالدمار إن لم يقلعوا عن المكابرة والعناد ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ أي قاتلوا يا معشر المؤمنين أعداءكم المشركين حتى لا يكون شرك ولا يعبد إلا الله وحده ، قال ابن عباس : الفتنة : الشرك ، أي حتى لا يبقى مشرك على وجه الأرض وقال ابن جريج : حتى لا يفتن مؤمن عن دينه^(١) ﴿ويكون الدين كله لله﴾ أي تضمحل الأديان الباطلة ولا يبقى إلا دين الإسلام قال الألوسي : واضمحلالها إما بهلاك أهلها جميعاً ، أو برجوعهم عنها خشية القتل^(٢) ، لقوله عليه السلام (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) ﴿فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾ أي فإن انتهوا عن الكفر وأسلموا فإن الله مطلع على قلوبهم ، يثيبهم على توبتهم وإسلامهم ﴿وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم﴾ أي وإن لم ينتهوا عن كفرهم وأعرضوا عن الإيمان فاعلموا يا معشر المؤمنين أن الله ناصركم ومعينكم عليهم ، فتقوا بنصرتة وولايته ولا تبالوا بمعاداتهم لكم ﴿نعم المولى ونعم النصير﴾ أي نعم الله أن يكون مولاكم فإنه لا يضيع من تولاه ، ونعم النصير لكم فإنه لا يُغلب من نصره الله .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿يحول بين المرء وقلبه﴾ الكلام من باب الاستعارة التمثيلية ، شبه تمكنه تعالى من

قلوب العباد وتصريفها كما يشاء ، بمن يحول بين الشيء والشيء ، وهي استعارة لطيفة .

٢ - ﴿ وإذ يمكر بك ﴾ صيغة المضارع لاستحضار الصورة العجيبة من تأمر المشركين على صاحب الرسالة عليه السلام .

٣ - ﴿ ويمكر الله ﴾ إضافة المكر إليه تعالى على طريق « المشاكلة » بمعنى إحباط ما دبروا من كيد ومكر ، والمشاكلة ان يتفق اللفظ ويختلف المعنى وقد تقدم (١) .

٤ - ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصديّة ﴾ تأمل التعبير الرائع في أسلوب القرآن حيث وضعوا المكاء والتصديّة « التصفير والتصفيق » موضع الصلاة التي ينبغي ان تؤدى عند البيت فكانوا كالأنعام التي لا تفقه معنى العبادة ، ولا تعرف حرمة بيوت الله ، وهو على حد قول القائل : « تحية بينهم ضرب وجيع » .

٥ - ﴿ الخبيث من الطيب ﴾ كناية عن المؤمن والكافر وبين لفظ « الخبيث » و « الطيب » طباق وهو من المحسنات البديعية .

تَبْيِيهٌ : روى الحافظ ابن كثير عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال : كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت ، ثم أتيتة فقال : ما منعك أن تأتيني ؟ ألم يقل الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ ؟ ثم قال : لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج ، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له ذلك فقال ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيتة (٢) .

لَطِيفَةٌ : حكي عن معاوية رضي الله عنه أنه قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملئوا عليهم امرأة ! فقال الرجل : أجهل من قومي قومك حين قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ولم يقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، فسكت معاوية رضي الله عنه .

قال الله تعالى : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء . . . إلى . . . يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾

من آية (٤١) إلى نهاية آية (٦٠) .

الْمَنَاسِكَةُ : لما أمر تعالى بقتال المشركين ، وذكر فيما تقدم طرفاً من غزوة بدر ، وكان لا بد بعد القتال من أن يغنم المجاهدون الغنائم - وهي أموال المشركين - على طريق القهر والظفر ، ذكر سبحانه هنا حكم الغنائم وكيفية قسمتها ، ثم سرد بقية الأحداث الهامة في تلك الغزوة المجيدة « غزوة بدر » .

(١) انظر توضيح ذلك عند قوله تعالى ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ من سورة البقرة . (٢) مختصر ابن كثير ٩٥/٢ .

اللغز : ﴿العدوة الدنيا﴾ عدوة الوادي : جانبه وشفيره ، والدنيا تأنيث الأدنى أي الأقرب والمراد ما يلي جانب المدينة ﴿العدوى القصوى﴾ القصوى : تأنيث الأقصى أي الأبعد ، وكل شيء تنحى عن شيء فقد قصا والمراد ما يلي جانب مكة ﴿نكص﴾ النكوص : الإحجام عن الشيء ﴿كذاب﴾ الدأب : العادة ، وأصله في اللغة إدامة العمل يقال : فلان يدأب في كذا أي يدوم عليه ويواظب ثم سميت العادة دأباً لأن الإنسان مداوم على عاداته ﴿تثقفنهم﴾ قال الليث : يقال تثقفنا فلاناً في موضع كذا أي أخذناه وظفرنا به^(١) ﴿فشرد﴾ التشريد : التفريق والتبديد يقال : شردت القوم إذا قاتلتهم وطردتهم عنها حتى فارقوها .

* وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ
إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦١﴾ إِذْ أَنْتُمْ
بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن

الفسير : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ أي اعلموا أيها المؤمنون أنما غنمتموه من أموال المشركين في الحرب سواء كان قليلاً أو كثيراً ﴿فإن لله خمسة﴾ قال الحسن : هذا مفتاح كلام ، الدنيا والآخرة لله^(٢) أي أن ذكر اسم الله على جهة التبرك والتعظيم كقوله ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ قال المفسرون : تقسم الغنيمة خمسة أقسام ، فيعطى الخمس لمن ذكر الله تعالى في هذه الآية ، والباقي يوزع على الغنائم ﴿وللرسول﴾ أي سهم من الخمس يعطى للرسول ﷺ ﴿ولذي القربى﴾ أي قرابة الرسول ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب ﴿واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ أي ولهؤلاء الأصناف من اليتامى الذين مات أبائهم ، والفقراء من ذوي الحاجة ، والمنقطع في سفره من المسلمين ﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ جواب الشرط محذوف تقديره : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن هذا هو حكم الله في الغنائم فامتثلوا أمره بطاعته ﴿وما أنزلنا على عبدنا﴾ أي وبما أنزلنا على محمد ﷺ ﴿يوم الفرقان﴾ أي يوم بدر لأن الله فرق به بين الحق والباطل ﴿يوم التقى الجمعان﴾ أي جمع المؤمنين وجمع الكافرين ، والتقى فيه جند الرحمن بجند الشيطان ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي قادر لا يعجزه شيء ، ومنه نصركم مع قتلكم وكثرتهم ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا﴾ هذا تصوير للمعركة أي وقت كنتم يا معشر المؤمنين بجانب الوادي القريب الى المدينة ﴿وهم بالعدوة القصوى﴾ أي وأعداؤكم المشركون بجانب الوادي الأبعد عن المدينة ﴿والركب أسفل منكم﴾ أي والعرير التي فيها تجارة قريش في مكان أسفل من مكانكم فيما يلي ساحل البحر ﴿ولو تواعدتم لاختلقتم في الميعاد﴾ أي ولو تواعدتم أنتم والمشركون على القتال لاختلقتم له ولكن الله بحكمته يسر وتمم ذلك قال كعب بن مالك : إنما خرج

لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنَةٍ وَيُحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٤﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنْتَزِعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٥﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَّمِّمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ

رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد^(١) قال الرازي : المعنى لو تواعدتم أنتم وأهل مكة على القتال لخالف بعضكم بعضاً لقتلكم وكثرتهم^(٢) ، ﴿ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ أي ولكن جمع بينكم على غير ميعاد ليقضي الله ما أراد بقدرته ، من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله ، فكان أمراً متحققاً واقعاً لاحالة قال أبو السعود: والغرض من الآية أن يتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ، ليس إلا صنعاً من الله عز وجل خارقاً للعادات ، فيزدادوا إيماناً وشكراً ، وتطمئن نفوسهم بفرض الخمس^(٣) ﴿ليهلك من هلك عن بينة﴾ أي فعل ذلك تعالى ليكفر من كفر عن وضوح وبيان ﴿ويحيي من حي عن بينة﴾ أي ويؤمن من آمن عن وضوح وبيان^(٤) ، فإن وقعة بدر من الآيات الباهرات على نصر الله لأوليائه وخذلانه لأعدائه ﴿وإن الله لسميعٌ عليمٌ﴾ أي سميع لأقوال العباد عليم بنياتهم ﴿إذ يريكم الله في منامك قليلاً﴾ أي اذكر يا محمد حين أراك الله في المنام أعداءك قلة ، فأخبرت بها أصحابك حتى قويت نفوسهم وتشجعوا على حربهم قال مجاهد : أراه الله إياهم في منامه قليلاً ، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تشيئاً لهم ﴿ولو أراكم كثيراً لفشلتم﴾ أي ولو أراك ربك عدوك كثيراً لجبن أصحابك ولم يقدرُوا على حرب القوم ، وانظر إلى محاسن القرآن فإنه لم يسند الفشل إليه ﷺ لأنه معصوم بل قال ﴿لفشلتم﴾ إشارة إلى أصحابه ﴿ولتنازعتن في الأمر﴾ أي ولاختلفتم يا معشر الصحابة في أمر قتالهم ﴿ولكن الله سلم﴾ أي ولكن الله أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي عليم بما في القلوب يعلم ما يغير أحوالها من الشجاعة والجبن ، والصبر والجزع ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم﴾ هذه الرؤية باليقظة لا بالنام أي واذكروا يا معشر المؤمنين حين التقيتم في المعركة فقلل الله عدوكم في أعينكم لتزداد جرأتكم عليهم ، وقللكم في أعينهم حتى لا يستعدوا ويتأهبوا لكم قال ابن مسعود : لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل : أتراهم يكونون مائة^(٥) ؟ وهذا قبل التحام الحرب فلما التحم القتال كثر الله المؤمنين في أعين الكفار فبُهِتوا وهابوا ، وقلت شوكتهم ، ورأوا ما لم يكن في الحسبان ، وهذا من عظام آيات الله في تلك الغزوة ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ أي فعل ذلك فجراً المؤمنين على الكافرين ، والكافرين على المؤمنين ، لتقع الحرب ويلتحم القتال ، وينصر الله جنده ويهزم الباطل وحزبه ، وتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين

(١) الطبري ٥٦٦/١٣ . (٢) تفسير الرازي ١٦٧/١٥ . (٣) أبو السعود ٢/٢٤٠ . (٤) ذهب الطبري الى أن المعنى : ليموت من مات من خلقه عن حجة لله قد أثبت له وقطعت عنده ، وليعيش من عاش منهم عن حجة لله قد أثبت له وظهرت لعينه فعلمها وما ذهبنا إليه هو اختبار الجلالين وهو أوضح ويؤيده ليلندر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . (٥) الطبري ٥٧٣/١٣ .

مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَأِرْصَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ

كفروا السفلى ﴿٤٤﴾ وإلى الله ترجع الأمور ﴿٤٥﴾ أي مصير الأمور كلها إلى الله يصرفها كيف يريد ، لا معقب لحكمه وهو الحكيم المجيد ، ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا﴾ هذا إرشاد إلى سبيل النصر في مبارزة الأعداء أي إذا لقيتم جماعة من الكفرة فاثبتوا لقتالهم ولا تنهزموا ﴿واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ أي أكثروا من ذكر الله بألستكم لتستمطروا نصره وعونه وتفوزوا بالظفر عليهم ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ أي في جميع أقوالكم وأفعالكم ولا تخالفوا أمرهما في شيء ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا﴾ أي ولا تختلفوا فيما بينكم فتضعفوا وتجنبوا عن لقاء عدوكم ﴿وتذهب ريحكم﴾ أي تذهب قوتكم وبأسكم ، ويدخلكم الوهن والخور ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ أي واصبروا على شدائد الحرب وأهوالها ، فإن الله مع الصابرين بالنصر والعون ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس﴾ أي لا تكونوا ككفار قريش حين خرجوا لبدر عتواً وتكبراً ، وطلباً للفخر والثناء ، والآية إشارة إلى قول أبي جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ ، فنشرب فيها الخمر وننحر الجزور ، وتعزف علينا القيان - المغنيات - وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبداً^(١) قال الطبري : فسقوا مكان الخمر كؤوس المنايا^(٢) ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ أي ويمنعون الناس عن الدخول في الإسلام ﴿والله بما يعملون محيط﴾ أي وهو سبحانه عالم بجميع ذلك وسيجازيهم عليه ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ أي واذكر وقت أن حسن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة من الشرك وعبادة الأصنام ، وخروجهم لحرب الرسول عليه السلام ﴿وقال لا غالب لكم اليوم من الناس﴾ أي لن يغلبكم محمد وأصحابه ﴿وإني جارٌ لكم﴾ أي مجير ومعين لكم ﴿فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه﴾ أي فلما تلاقى الفريقان ولي الشيطان هارباً مولياً الأديبار ﴿وقال إني بريء منكم﴾ أي بريء من عهد جواركم ، وهذا مبالغة في الخذلان لهم ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ أي أرى الملائكة نازلين لنصرة المؤمنين وأنتم لا ترون ذلك وفي الحديث (ما رؤي الشيطان يوماً هوفيه أصغر ،

(١) ذكر الطبري في روايته عن ابن عباس ان أبا سفيان لما نجا بالعرس أرسل الى قريش يقول : ارجعوا فقد سلمت غيركم ونجت تجارتكم فقال أبو جهل اللعين ما قال . (٢) الطبري ٥٧٨/١٣ .

العقاب ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّهُمْ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ
الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ

ولا أذحر ، ولا أحقر ، ولا أغيظ منه في يوم عرفة ، إلا ما رأى يوم بدر ، فإنه رأى جبريل يَرْعُ الملائكة (١) أي يصفها للحرب ﴿إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾ أي إني أخاف الله أن يعذبني لشدة عقابه قال ابن عباس : جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رأيته في صورة «سراقه بن مالك» فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها وجوه المشركين ، فولوا مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس ، فلما رآه - وكانت يده في يد رجل من المشركين - انتزع يده ثم ولى مدبراً وشيعته ، فقال الرجل : يا سراقه أتزعم أنك لنا جار ؟ فقال : إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله ، وكذب عدو الله فإنه علم أنه لا قوة له ولا منعة وذلك حين رأى الملائكة (٢) ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ أي حين قال أهل النفاق الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر لضعف اعتقادهم بالله ﴿غره هؤلاء دينهم﴾ أي اغتر المسلمون بدينهم فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به قال تعالى في جوابهم ﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾ أي ومن يعتمد على الله ويثق به فإن الله ناصره لأن الله عزيز أي غالب لا يذل من استجار به ، حكيم في أفعاله وصنعه ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة﴾ أي لو رأيت وشاهدت أيها المخاطب أو أيها السامع حالتهم ببدر حين تقبض ملائكة العذاب أرواح الكفرة المجرمين ، وجواب ﴿لو﴾ محذوف للتهويل أي لرأيت أمراً فظيماً وشأناً هائلاً قال أبو حيان : وحذف جواب لو جائز بليغ حذفه في مثل هذا لأنه يدل على التهويل والتعظيم (٣) أي لرأيت أمراً فظيماً لا يكاد يوصف ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ أي تضربهم الملائكة من أمامهم وخلفهم ، على وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ أي ويقولون لهم : ذوقوا يا معشر الفجرة عذاب النار المحرق ، وهذا بشارة لهم بعذاب الآخرة وقيل : كانت معهم أسواط من نار يضربونهم بها فتشتعل جراحاتهم ناراً (٤) ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ أي ذلك العذاب بسبب ما كسبتم من الكفر والآثام ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ أي وانه تعالى عادل ليس بذئ ظلم لأحد من العباد حتى يعذبه بغير ذنب ، وصيغة ﴿ظلام﴾ ليست للمبالغة وإنما هي للنسب أي ليس منسوباً إلى الظلم فقد انتفى أصل الظلم عنه تعالى فتدبره ﴿كذاب آل فرعون والذين من قبلهم﴾ أي دأب هؤلاء الكفرة في الإجماع يعني عملهم وطريقهم الذي دأبوا فيه كعمل وطريق آل فرعون ومن تقدمهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود في العناد والتكذيب

قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَلَمَّا تَثَقَفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَرُوا مِنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكِرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّمَا تَحَافَنَ

والكفر والإجرام ﴿كفروا بآيات الله﴾ أي جحدوا ما جاءهم به الرسل من عند الله ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي أهلكهم بكفرهم وتكذيبهم ﴿إن الله قوي شديد العقاب﴾ أي قوي البطش شديد العذاب، لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم﴾ أي ذلك الذي حل بهم من العذاب بسبب أن الله عادل في حكمه لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، وأنه لا يبدل النعمة بالنقمة ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ أي حتى يبدلوا نعمة الله بالكفر والعصيان، كتبديل كفار قريش نعمة الله من الخصب والسعة والأمن والعافية، بالكفر والصد عن سبيل الله وقتال المؤمنين قال السدي: نعمة الله على قريش محمد ﷺ فكفروا به وكذبوه، فنقله الله إلى المدينة وحل بالمشركين العقاب ^(١) ﴿وأن الله سميع عليم﴾ أي وأنه سبحانه سميع لما يقولون عليم بما يفعلون ﴿كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم﴾ كرهه لزيادة التشنيع والتوبيخ على إجرامهم أي شأن هؤلاء وحالهم كشأن وحال المكذبين السابقين حيث غيروا حالهم فغير الله نعمته عليهم ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ أي أهلكناهم بسبب ذنوبهم بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالحجارة، وبعضهم بالغرق ولهذا قال ﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ أي أغرقنا فرعون وقومه معه ﴿وكلُّ كانوا ظالمين﴾ أي وكل من الفرق المكذبة كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصي حيث عرضوها للعذاب ﴿إن شر الدواب عند الله﴾ أي شر من يدب على وجه الأرض في علم الله وحكمه ﴿الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ أي الذين أصروا على الكفر ورسخوا فيه فهم لا يتوقع منهم إيمان لذلك قال ابن عباس: نزلت في بني قريظة من اليهود، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه عاهدتهم رسول الله ﷺ ألا يجاربه فنقضوا العهد ^(٢) ﴿الذين عاهدت منهم﴾ أي الذين عاهدتهم يا محمد على ألا يعينوا المشركين ﴿ثم ينقضون عهدهم في كل مرة﴾ أي يستمرون على النقض مرة بعد مرة ﴿وهم لا يتقون﴾ أي لا يتقون الله في نقض العهد قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ قد عاهد يهود بني قريظة ألا يجاربه ولا يعاونوا عليه المشركين، فنقضوا العهد وأعانوا عليه كفار مكة بالسلاح يوم بدر، ثم قالوا: نسينا

مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا ۚ
 إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
 وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

وأخطأنا فعاهدكم مرة أخرى فنقضوا العهد ومالوا الكفار يوم الخندق^(١) ﴿فإما تثقفنهم في الحرب﴾ أي
 فإن تظفر بهم في الحرب ﴿فشردهم من خلفهم﴾ أي فاقتلهم ونكل بهم تنكيلاً شديداً يشردهم غيرهم من
 الكفرة المجرمين ﴿لعلهم يذكرون﴾ أي لعلهم يتعظون بما شاهدوا فيرتدعوا والمعنى : اجعلهم عبرة
 لغيرهم حتى لا يبقى لهم قوة على محاربتك ﴿وإما تخافن من قوم خيانة﴾ أي وإن أحسست يا محمد من
 قوم معاهدين خيانة للعهد ونكثاً بأمارات ظاهرة ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾ أي اطرح إليهم عهدهم على
 بينة ووضوح من الأمر قال النحاس : هذا من معجز ما جاء في القرآن مما لا يوجد في الكلام مثله على
 اختصاره وكثرة معانيه والمعنى : وإما تخافن من قوم - بينك وبينهم عهد - خيانة فانبذ إليهم العهد أي قل لهم قد
 نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم ، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء ، ولا تقاتلهم وبينك
 وبينهم عهد وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة وغدراً^(٢) ﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ وهذا كالتعليل
 للأمر بنبذ العهد أي لا يجب من ليس عنده وفاء ولا عهد ﴿ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا﴾ أي لا
 يظن هؤلاء الكفار الذين أفلتوا يوم بدر من القتل أنهم فاتونا فلا نقدر عليهم ، بل هم في قبضتنا وتحت
 مشيئتنا وقهرنا ﴿إنهم لا يعجزون﴾ كلام مستأنف أي إنهم لا يعجزون ربهم ، بل هو قادر على الانتقام
 منهم في كل لحظة ، لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ أي
 أعدوا لقتال أعدائكم جميع أنواع القوة : المادية ، والمعنوية قال الشهاب : وإنما ذكر القوة هنا لأنه لم يكن
 لهم في بدر استعداد تام ، فنبهوا على أن النصر من غير استعداد لا يتأتى في كل زمان^(٣) ﴿ومن رباط
 الخيل﴾ أي الخيل التي تربط في سبيل الله ﴿ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ أي تخيفون بتلك القوة
 الكفار أعداء الله وأعداءكم ﴿وأخريين من دونهم﴾ أي وترهبون به آخرين غيرهم قال ابن زيد : هم
 المنافقون وقال مجاهد : هم اليهود من بني قريظة والأول أصح لقوله ﴿لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ أي لا
 تعلمون ما هم عليه من النفاق ولكن الله يعلمهم ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله﴾ أي وما تنفقوا
 في الجهاد وفي سائر وجوه الخيرات ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي تُعطون جزاءه وافياً كاملاً يوم القيامة ﴿وأنتم
 لا تظلمون﴾ أي لا تنقصون من ذلك الأجر شيئاً .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿من شيء﴾ التكرير للتقليل .

٢ - ﴿على عبدنا﴾ ذكره ﷺ بلفظ العبودية وإضافته إلى الله للتشريف والتكريم .

٣ - ﴿بالعدوة الدنيا﴾ بين لفظ « الدنيا » و « القصوى » طباق .

٤ - ﴿ليهلك ويحيا﴾ استعار الهلاك والحياة للكفر والإيمان ، وبين « يهلك » و « يحيا » طباقاً .

٥ - ﴿وتذهب ريحكم﴾ أي تذهب قوتكم وشوكتكم وهو من باب الاستعارة أيضاً .

تَبْيِيهٌ : يأمرنا الله تعالى بإعداد القوة لقتال الأعداء ، وقد جاء التعبير عاماً ﴿من قوة﴾ ليشمل القوة المادية ، والقوة الروحية ، وجميع أسباب القوة ، وكيف لا يطمع العدو بالممالك الإسلامية وهو لا يرى عندنا معامل للأسلحة ، وذخائر للحرب ، بل كلها مما يشتريه المسلمون من بلاد العدو؟ فلا بد لنا من العودة إلى تعاليم الإسلام إذا ما أردنا حياة العزة والكرامة .

قال الله تعالى : ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها . . إلى . . إن الله بكل شيء عليم﴾
من آية (٦١) إلى آية (٧٥) نهاية السورة الكريمة .

المناسكبة : لما أمر الله تعالى بإعداد العدة لإرهاب الأعداء ، أمرنا بالسلم بشرط العزة والكرامة متى وجد السبيل إليه ، لأن الحرب ضرورة اقتضتها ظروف الحياة لرد العدوان ، وحرية الأديان ، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان ، ثم تناولت الآيات الكريمة حكم الأسرى ، وختمت السورة بوجوب مناصرة المؤمنين بعضهم لبعض ، بسبب الولاية الكاملة وأخوة الإيمان .

اللفكتر : ﴿جنح﴾ مال يقال : جنح الرجل إلى فلان إذا مال إليه وخضع له ، وجنحت الإبل : إذا مالت أعناقها في السير ، ومنه قيل للأضلاع جوانح ﴿السلم﴾ المسالمة والصلح قال الزمخشري : وهي تؤنث تأنيث ضدها وهي الحرب قال الشاعر :

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب تكفيك من أنفاسها جرع^(١)

﴿حرص﴾ التحريض : الحث على الشيء وتحريك الهمة نحوه كالتحضيض ﴿يشخن﴾ قال الواحدي : الإثخان في كل شيء عبارة عن قوته وشدته ، يقال : قد أثخنه المرض إذا اشتدت قوته عليه ، وأثخنته الجراح ، والثخانة : الغلظة ، والمراد بالإثخان هنا المبالغة في القتل والجراحات^(٢) .

سبب النزول : أ - عن عمر رضي الله عنه قال : لما هزم الله المشركين يوم بدر، وقتل منهم سبعون وأسر منهم سبعون ، استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر : يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة ، وإنني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهدبهم الله فيكونوا لنا عضداً ، فقال رسول الله : ما ترى يا ابن الخطاب ! قلت : والله ما أرى ما رأى أبو

بكر ، ولكن أرى أن تمكنتني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هواده على المشركين ، هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان ، فقلت يا رسول الله : أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاءً بكيت ، وإن لم أجد بكاءً تباكيت ، فقال ﷺ : (أبكي للذي عرض علي أصحابك من الفداء ، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة) لشجرة قريبة فأنزل الله ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض . . ﴾ (١) الآية .

ب - لما وقع العباس عم النبي ﷺ في الأسر كان معه عشرون أوقية من ذهب ، فلم تحسب له من فدايه ، وكلف أن يفدي ابني أخيه فأدى عنهما ثمانين أوقية من ذهب ، وقال النبي ﷺ (أضعفوا على العباس الفداء) فأخذوا منه ثمانين أوقية فقال العباس لرسول الله ﷺ : لقد تركتني أتكفّف قريشاً ما بقيت ، فقال له ﷺ : وأين الذهب الذي تركته عند أم الفضل ؟ فقال : أي الذهب ؟ فقال : إنك قلت لها : إنني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا ! فإن حدث بي حدث فهو لك ولولدك ، فقال يا ابن أخي : من أخبرك بهذا ؟ قال : الله أخبرني فقال العباس : أشهد أنك صادق ، وما علمت أنك رسول الله قبل اليوم ، وأمر ابني أخيه فأسلمها ففيهما نزلت ﴿ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى . . ﴾ (٢) الآية .

* وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا

النَّفْسِيرُ : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ أي إن مالوا إلى الصلح والمهادنة فمل إليه وأجبههم إلى ما طلبوا إن كان فيه مصلحة ﴿ وتوكل على الله ﴾ أي فوض الأمر إلى الله ليكون عوناً لك على السلامة ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ أي هو سبحانه السميع لأقوالهم العليم بنياتهم ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك ﴾ أي وإن أرادوا بالصلح خداعك ليستعدوا لك ﴿ فإن حسبك الله ﴾ أي فإن الله يكفيك وهو حسبك ، ثم ذكره بنعمته عليه فقال ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ أي قواك وأعانك بنصره وشد أزرك بالمؤمنين قال ابن عباس : يعني الأنصار ﴿ وألف بين قلوبهم ﴾ أي جمع بين قلوبهم على ما كان بينهم من العداوة والبغضاء ، فأبدلهم بالعداوة حباً ، وبالتباعد قرباً قال القرطبي : وكان تأليف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي ﷺ ومعجزاته ، لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة فيقاتل عليها ، وكانوا أشد خلق الله حمية ، فألف الله بينهم بالإيمان ، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين (٣) ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ﴾ أي لو أنفقت في إصلاح ذات بينهم ما

(١) زاد المسير ٣/٣٨٠ والرواية لمسلم . (٢) القرطبي ٤٢/٨ . (٣) القرطبي ٥٣/٨ .

أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٣٦﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣٨﴾ أَلَعَلَّ خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٣٩﴾ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُخْزَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ

في الأرض من الأموال ما قدرت على تأليف قلوبهم واجتماعها على محبة بعضها بعضاً ﴿ولكن الله ألف بينهم﴾ أي ولكنه سبحانه بقدرته البالغة جمع بينهم ووفق ، فإنه المالك للقلوب يقبلها كيف يشاء ﴿إنه عزيز حكيم﴾ أي غالب على أمره لا يفعل شيئاً إلا عن حكمة ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ أي الله وحده كافيك ، وكافي أتباعك ، فلا تحتاجون معه إلى أحد وقال الحسن البصري : المعنى حسبك أي كافيك الله والمؤمنون^(١) ﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال﴾ أي حرض المؤمنين ورجبهم بكل جهدك على قتال المشركين ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ قال أبو السعود : هذا وعد كريم منه تعالى بغلبة كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم^(٢) والمعنى : إن يوجد منكم يا معشر المؤمنين عشرون صابرون على شدائد الحرب يغلبوا مائتين من عدوهم ، بعون الله وتأييده ﴿وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾ أي وإن يوجد منكم مائة - بشرط الصبر عند اللقاء - تغلب ألفاً من الكفار بمشيئة الله ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ الباء سببية أي سبب ذلك بأن الكفار قوم جهلة لا يفقهون حكمة الله ، ولا يعرفون طريق النصر وسببه ، فهم يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب ، فلذلك يُغلبون قال ابن عباس : كان ثبات الواحد للعشرة فرضاً ، ثم لما شق ذلك عليهم نسخ وأصبح ثبات الواحد للاثنتين فرضاً ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ أي رفع عنكم ما فيه مشقة عليكم ﴿وعلم أن فيكم ضعفاً﴾ أي وعلم ضعفكم فرحمكم في أمر القتال ﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾ أي إن يوجد منكم مائة صابرة على الشدائد يتغلبوا على مائتين من الكفرة ﴿وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين﴾ أي وإن يوجد منكم ألف صابرون في ساحة اللقاء ، يتغلبوا على ألفين من الأعداء ﴿بإذن الله﴾ أي بتيسيره وتسهيله ﴿والله مع الصابرين﴾ هذا ترغيب في الثبات وتبشير بالنصر أي الله معهم بالحفظ والرعاية والنصرة ، ومن كان الله معه فهو الغالب ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ عتاب للنبي ﷺ وأصحابه على أخذ الفداء^(٣) والمعنى : لا

(١) القول الأول معناه : حسبك الله وحده وحسب أتباعك وقد اختاره الزمخشري ونصره ابن القيم في مقدمة « زاد المعاد » بأدلة مقنعة ، والقول الثاني روي عن مجاهد والحسن البصري واختاره السيوطي والمحلي في تفسير الجلالين ، والأول أرجح .

(٢) تفسير أبي السعود ٢٤٧/٢ . (٣) انظر سبب النزول .

الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا
 غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ
 اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ

ينبغي لنبي من الأنبياء أن يأخذ الفداء من الأسرى إلا بعد أن يكثر القتل ويبالغ فيه ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ أي تريدون أيها المؤمنون بأخذ الفداء حطام الدنيا ومتاعها الزائل ؟ ﴿والله يريد الآخرة﴾ أي يريد لكم الباقي الدائم ، وهو ثواب الآخرة ، بإعزاز دينه وقتل أعدائه ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي عزيز في ملكه لا يقهر ولا يُغلب ، حكيم في تدبير مصالح العباد ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ أي لولا حكم في الأزل من الله سابق وهو ألا يعذب المخطيء في اجتهاده^(١) ﴿لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ أي لأصابتكم في أخذ الفداء من الأسرى عذاب عظيم ، وروي أنها لما نزلت قال عليه السلام (لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر)^(٢) ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ أي كلوا يا معشر المجاهدين مما أصبتموه من أعدائكم من الغنائم في الحرب حال كونه حلالاً أي محللاً لكم ﴿طيباً﴾ أي من أطيب المكاسب لأنه ثمرة جهادكم ، وفي الصحيح (وجعل رزقي تحت ظل رمحي) ﴿واتقوا الله﴾ أي خافوا الله في مخالفة أمره ونهيه ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي مبالغ في المغفرة لمن تاب ، رحيم بعباده حيث أباح لهم الغنائم ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾ أي قل لهؤلاء الذين وقعوا في الأسر من الأعداء ، والمراد بهم أسرى بدر ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيراً﴾ أي إن يعلم الله في قلوبكم إيماناً وإخلاصاً ، وصدقاً في دعوى الإيمان ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ أي يعطكم أفضل مما أخذ منكم من الفداء ﴿ويغفر لكم﴾ أي يمحو عنكم ما سلف من الذنوب ﴿والله غفور رحيم﴾ أي واسع المغفرة ، عظيم الرحمة لمن تاب وأتاب قال البيضاوي : نزلت في العباس رضي الله عنه حين كلفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه وابني أخويه «عقيل» و«نوفل» فقال يا محمد : تركتني أتكف قريشاً ما بقيت ، فقال : أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك وقلت لها : إنني لا أدري ما يصيبني في جهتي هذه ، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعيلك ! ! فقال العباس : ما يدريك ؟ قال : أخبرني به ربي تعالى ، قال : فأشهد أنك صادق ، وأن لا إله إلا الله وأنت رسوله ، والله لم يطلع عليه أحد ، ولقد دفعته إليها في سواد الليل ! ! قال العباس : فأبدلني الله خيراً من ذلك ، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال مكة ، وأنا أنتظر المغفرة من ربي - يعني الموعود - بقوله تعالى ﴿ويغفر لكم﴾^(٣) ﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ وإن كان هؤلاء الأسرى يريدون خيانتك يا محمد بما أظهروا من القول ودعوى الإيمان ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ أي فقد خانوا الله تعالى قبل هذه الغزوة غزوة بدر

(١) هذا القول اختاره الرازي وضعف بقية الأقوال وهو أحد الأقوال المروية عن ابن عباس . انظر الفخر الرازي ٢٠٢/١٥ .

(٢) انظر تفصيل موضوع الفداء في التفسير الكبير للرازي . (٣) تفسير البيضاوي ٢١٧/١ .

خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأَ وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِّنَ الشَّيْءِ وَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأَ وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا

﴿فأمكن منهم﴾ أي ففكوا ونصرك الله عليهم وجعلك تتمكن من رقابهم ، فإن عادوا إلى الخيانة فسيمكنك منهم أيضاً ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عالم بجميع ما يجري ، يفعل ما تقضي به حكمته البالغة ﴿إن الذين آمنوا﴾ أي صدقوا الله ورسوله ﴿وهاجروا﴾ أي تركوا وهجروا الديار والأوطان حباً في الله ورسوله ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ أي جاهدوا الأعداء بالأموال والأنفس لإعزاز دين الله ، وهم المهاجرون ﴿والذين آووا ونصروا﴾ أي آووا المهاجرين في ديارهم ونصروا رسول الله وهم الأنصار ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الفاضلة بعضهم أولياء بعض في النصرة والإيثار ، ولهذا آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا﴾ أي آمنوا وأقاموا بمكة فلم يهاجروا إلى المدينة ﴿ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ أي لا إرث بينكم وبينهم ولا ولاية حتى يهاجروا من بلد الكفر ﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر﴾ أي وإن طلبوا منكم النصرة لأجل إعزاز الدين ، فعليكم أن تنصروهم على أعدائهم لأنهم إخوانكم ﴿إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ أي إلا إذا استنصروكم على من بينكم وبينهم عهد ومهادنة فلا تعينوهم عليهم ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي رقيب على أعمالكم فلا تخالفوا أمره . . ذكر تعالى المؤمنين وقسمهم إلى ثلاثة أقسام : المهاجرين ، الأنصار ، الذين لم يهاجروا ، فبدأ بالمهاجرين لأنهم أصل الإسلام وقد هجروا الديار والأوطان ابتغاء رضوان الله ، وثنى بالأنصار لأنهم نصروا الله ورسوله وجاهدوا بالنفس والمال ، وجعل بين المهاجرين والأنصار الولاية والنصرة ، ثم ذكر حكم المؤمنين الذين لم يهاجروا وبيّن أنهم حرموا الولاية حتى يهاجروا في سبيل الله ، وبعد ذكر هذه الأقسام الثلاثة ذكر حكم الكفار فقال ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ أي هم في الكفر والضلال ملة واحدة فلا يتولاهم إلا من كان منهم ﴿إلا تفعلوه﴾ أي وإن لم تفعلوا ما أمرتم به من تولي المؤمنين وقطع الكفار ﴿تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ أي تحصل في الأرض فتنة عظيمة ومفسدة كبيرة ، لأنه يترتب على ذلك قوة الكفار وضعف المسلمين ، ثم عاد بالذكر والثناء على المهاجرين والأنصار فقال ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله﴾ وهم المهاجرون أصحاب السبق إلى الإسلام ﴿والذين آووا ونصروا﴾ وهم الأنصار أصحاب الإيثار والإيثار ﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾

لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

أي هؤلاء هم الكاملون في الإيمان ، المتحققون في مراتب الإحسان ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ أي لهم مغفرة لذنوبهم ، ورزق كريم في جنات النعيم قال المفسرون : ليس في هذه الآيات تكرار ، فالآيات السابقة تضمنت الولاية والنصرة بين المؤمنين ، وهذه تضمنت الثناء والتشريف ، ومآل حال أولئك الأبرار من المغفرة والرزق الكريم في دار النعيم ﴿والذين آمنوا من بعد وهجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم﴾ هذا قسم رابع وهم المؤمنون الذين هاجروا بعد الهجرة الأولى فحكمهم حكم المؤمنين السابقين في الثواب والأجر ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ أي أصحاب القرباب بعضهم أحق بإرث بعض من الأجانب في حكم الله وشرعه قال العلماء : هذه ناسخة للإرث بالحلف والإخاء ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ أي أحاط بكل شيء علماً ، فكل ما شرعه الله حكمة وصواب وصلاح ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وهو ختم للسورة في غاية البراعة .

البلاغَة : ١ - ﴿وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ هذا الأسلوب يسمى بـ « الإطناب » وفائدته التذكير بالمنة الكبرى والنعمة العظمية على الرسول والمؤمنين .

٢ - ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . . .﴾ الآيات قال في البحر : انظر إلى فصاحة هذا الكلام حيث أثبت في الشرطية الأولى قيد الصبر ، وحذف نظيره من الثانية ، وأثبت في الثانية قيد كونهم من الكفرة ، وحذفه من الأولى ، ولما كان الصبر شديد الطلب أثبت في جملة التخفيف ، ثم ختمت الآيات بقوله ﴿والله مع الصابرين﴾ مبالغة في شدة المطلوبة ، وهذا النوع من البديع يسمى « الاحتباك »^(١) . فلهذا التنزيل ما أحلى فصاحته وأنضر بلاغته !

« تم بحمده تعالى تفسير سورة الأنفال »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية التي تعنى بجانب التشريع، وهي من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ فقد روى البخاري عن البراء بن عازب أن آخر سورة نزلت سورة براءة^(١)، وروى الحافظ ابن كثير: أن أول هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ عند مرجعه من غزوة تبوك، وبعث أبا بكر الصديق أميراً على الحج تلك السنة، ليقوم للناس مناسكهم، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ ما فيها من الأحكام^(٢) نزلت في السنة التاسعة من الهجرة، وهي السنة التي خرج فيها رسول الله ﷺ لغزو الروم، واشتهرت بين الغزوات النبوية بـ «غزوة تبوك» وكانت في حرٍّ شديد، وسفر بعيد، حين طابت الثمار، وأخلد الناس إلى نعيم الحياة، فكانت ابتلاءً لإيمان المؤمنين، وامتحاناً لصدقهم وإخلاصهم لدين الله، وتمييزاً بينهم وبين المنافقين، ولهذا السورة الكريمة هدفان أساسيان - إلى جانب الأحكام الأخرى - هما:

أولاً: بيان القانون الإسلامي في معاملة المشركين، وأهل الكتاب.

ثانياً: إظهار ما كانت عليه النفوس حينما استنفرهم الرسول لغزو الروم.

* أما بالنسبة للهدف الأول فقد عرضت السورة إلى عهود المشركين فوضعت لها حداً، ومنعت حج المشركين لبيت الله الحرام، وقطعت الولاية بينهم وبين المسلمين، ووضعت الأساس في قبول بقاء أهل الكتاب في الجزيرة العربية، وإياحة التعامل معهم، وقد كان بين النبي ﷺ والمشركين عهود ومواثيق، كما كان بينه وبين أهل الكتاب عهود أيضاً، ولكن المشركين نقضوا العهود وتآمروا مع اليهود عدة مرات على حرب المسلمين، وخانت طوائف اليهود «بنو النضير» و«بنو قريظة» و«بنو قينقاع» ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ ونقضوا عهودهم مرات ومرات، فلم يعد من الحكمة أن يبقى المسلمون متمسكين بالعهود وقد نقضها أعداؤهم، فنزلت السورة الكريمة بإلغاء تلك العهود ونبذها إليهم على وضوح وبصيرة، لأن الناكثين لا يتورعون عن الخيانة كلما سنحت لهم الفرصة، وبذلك قطع الله تعالى ما بين المسلمين

(١) البخاري ٢٢٧/٨ . (٢) مختصر ابن كثير ١٢٣/٢ .

والمشركين من صلوات ، فلا عهد ، ولا تعاهد ، ولا سلم ، ولا أمان ، بعد أن منحهم الله فرصة كافية هي السياحة في الأرض أربعة أشهر ينطلقون فيها آمنين ، ليتمكنوا من النظر والتدبر في أمرهم ، ويختاروا ما يرون فيه المصلحة لهم . وفي ذلك نزل صدر السورة الكريمة ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . . . ﴾ الآيات .

* ثم تلتها الآيات في قتال الناقضين للعهود من أهل الكتاب ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . . . ﴾ الآية ، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من عشرين آية ، كشف الله سبحانه فيها القناع عن خفايا أهل الكتاب ، وما انطوت عليه نفوسهم من خبثٍ ومكر ، وحقدٍ على الإسلام والمسلمين .

* وعرضت السورة للهدف الثاني ، وهو شرح نفسيات المسلمين حين استنفرهم رسول الله ﷺ لغزو الروم ، وقد تحدثت الآيات عن المثاقيل منهم والمتخلفين ، والمثبطين ، وكشفت الغطاء عن فتن المنافقين ، باعتبار خطرهم الداهم على الإسلام والمسلمين ، وفضحت أساليب نفاقهم ، وألوان فتنهم وتحذيلهم للمؤمنين ، حتى لم تدع لهم سترًا إلا هتكته ، ولا دخيلة إلا كشفتها ، وتركتهم بعد هذا الكشف والإيضاح تكاد تلمسهم أيدي المؤمنين ، وقد استغرق الحديث عنهم معظم السورة بدءاً من قوله تعالى ﴿ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لا تبعوك . . . ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبةً في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم ﴾ (١) ولهذا سماها بعض الصحابة « الفاضحة » لأنها فضحت المنافقين وكشفت أسرارهم ، قال سعيد بن جبير : سألت ابن عباس عن سورة براءة فقال : تلك الفاضحة ، ما زال ينزل : ومنهم ، ومنهم ، حتى خفنا ألا تدع منهم أحداً (٢) ، وروي عن حذيفة بن اليمان أنه قال : إنكم تسمونها سورة التوبة ، وإنما هي سورة العذاب ، والله ما تركت أحداً من المنافقين إلا نالت منه (٣) ، وهذا هو السر في عدم وجود البسملة فيها قال ابن عباس : سألت علي بن أبي طالب لم لم يكتب في براءة ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ؟ قال : لأن ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ أمان ، وبراءة نزلت بالسيف ، ليس فيها أمان ، وقال سفيان بن عيينة : إنما لم تكتب في صدر هذه السورة البسملة لأن التسمية رحمة ، والرحمة أمان ، وهذه السورة نزلت بالمنافقين وبالسيف ، ولا أمان للمنافقين (٤) .

* وبالجملية فإن هذه السورة الكريمة قد تناولت « الطابور الخامس » المندس بين صفوف المسلمين ألا وهم « المنافقون » الذين هم أشد خطراً من المشركين ، ففضحتهم وكشفت أسرارهم ومخازيمهم ، وظلت تقذفهم بالحمم حتى لم تُبق منهم دياراً ، فقد وصل بهم الكيد في التآمر على الإسلام ، أن يتخذوا بيوت الله أوكاراً للتخريب والتدمير ، وإلقاء الفتنة بين صفوف المسلمين ، في مسجدهم الذي عرف باسم « مسجد الضرار » وقد نزل في شأنه أربع آيات في هذه السورة ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل . . . ﴾ الآيات ولم يكد النبي ﷺ

(١) الآيات من (٤٢ - إلى ١١٠) ويكاد يكون جو السورة في النفاق والمنافقين . (٢) القرطبي ٦١/٨ .

(٣) الكشف ٢٤١/٢ . (٤) القرطبي ٦٣/٨ .

يتلقى الوحي حتى قال لأصحابه : (انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه) فهدموه وكفى الله الإسلام والمسلمين شرهم ، وكيدهم ، وخبثهم ، وفضحهم إلى يوم الدين .

التَّيْمِيَّةُ : تسمى هذه السورة بأسماء عديدة أوصلها بعض المفسرين إلى أربعة عشر اسماً ، قال العلامة الزمخشري : لهذه السورة عدة أسماء : (براءة ، والتوبة ، والمقشقة ، والمبعثرة ، والمشردة ، والمخزية ، والفاضحة ، والمثيرة ، والحافرة ، والمنكلة ، والمدممة ، وسورة العذاب) قال : لأن فيها التوبة على المؤمنين ، وهي تقشش من النفاق أي تبرئ منه ، وتبعثر عن أسرار المنافقين ، وتبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها ، وتفضحهم ، وتنكل بهم ، وتشردهم ، وتخزيهم ، وتدمدم عليهم ^(١) .

قال الله تعالى : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . . . إلى . . . أجر عظيم ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٢) .

اللفظة : ﴿ براءة ﴾ برئت من الشيء : إذا قطعت ما بينك وبينه من سبب وأزلته عن نفسك ، قال الزجاج : برئت من الرجل والدين براءة ، وبرئت من المرض براءة ^(٢) ﴿ فسيحوا ﴾ السياحة : السير في الأرض والذهاب فيها للتجارة أو العبادة أو غيرها ﴿ أذان ﴾ الأذان : الإعلام ومنه أذان الصلاة ﴿ مرصد ﴾ المرصد : الموضع الذي يرقب فيه العدو من قولهم : رصدت فلاناً إذا ترقبته قال الشاعر : إن المنية للفتى بالمرصد ^(٣) ﴿ استجارك ﴾ طلب جوارك أي أمانك ﴿ الإل ﴾ العهد والقرابة وأنشد أبو عبيدة :

أفسد الناس خلوف خلفوا قطعوا الإل وأعراف الرحم ^(٤)

﴿ نكثوا ﴾ النكث : النقض وأصله في كل ما قُتل ثم حل ﴿ وليجة ﴾ بطانة ودخيلة ، قال أبو عبيدة : كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة وأصله من الولوج ، فالداخل في القوم وليس منهم يسمى وليجة ^(٥) وقال الفراء : الوليجة : البطانة من المشركين يفشي إليهم سره ، ويعلمهم أمره .

سَبَبُ الزُّوْلِ : روي أن جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر ، وفيهم « العباس بن عبد المطلب » فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فغيروهم بالشرك ، وجعل علي بن أبي طالب يويخ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم ، فقال العباس : ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسنا ؟ فقال : وهل لكم من محاسن ؟ فقال : نعم ، إنا لنعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونسقي الحجيج ، ونفك العاني - الأسير - فنزلت هذه الآية ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر . . . الآية ^(٦) .

(١) الكشاف ٢/٢٤١ . (٢) زاد السير ٣/٣٩٢ . (٣) القرطبي ٨/٧٣ .

(٤) البحر المحيط ٥/٣ . (٥) الرازي ١٦/٥ . (٦) زاد السير ٣/٤٠٧ .

بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٠﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْعًا وَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَوْ أَحَدًا فَأَتِمُوا الْبَيْعَ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٠٣﴾ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا

التفسير : ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ أي هذه براءة من المشركين ومن عهودهم كائنة من الله ورسوله قال المفسرون : أخذت العرب تنقض عهوداً عقدتها مع رسول الله ﷺ فأمره الله بالبقاء عهودهم إليهم ، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الحج ليقيم للناس المناسك ، ثم أتبعه علياً ليعلم الناس بالبراءة ، فقام علي فنادى في الناس بأربع : ألا يقرب البيت الحرام بعد العام مشرك ، وألا يطوف بالبيت عريان ، وأنه لا يدخل الجنة إلا مسلم ، ومن كان بينه وبين رسول الله مدة فأجله إلى مدته ، والله بريء من المشركين ورسوله ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ أي سيروا آمنين أيها المشركون مدة أربعة أشهر لا يقع بكم منا مكروه ، وهو أمر إباحة وفي ضمنه تهديد ﴿واعلموا أنكم غير معجزى الله﴾ أي لا تفوتونه تعالى وإن أمهلكم هذه المدة ﴿وأن الله محزى الكافرين﴾ أي مذلمهم في الدنيا بالأسر والقتل ، وفي الآخرة بالعذاب الشديد ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس﴾ أي إعلام إلى كافة الناس بتبريء الله تعالى ورسوله من المشركين ﴿يوم الحج الأكبر﴾ أي يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك قال الزمخشري : وصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر^(١) ﴿أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ أي إعلام لهم بأن الله بريء من المشركين وعهودهم ، ورسوله بريء منهم أيضاً ﴿فإن تبتم فهو خير لكم﴾ أي فإن تبتم عن الكفر ورجعتم إلى توحيد الله فهو خير لكم من التادي في الضلال ﴿وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله﴾ أي وإن أعرضتم عن الإسلام وأبيتم إلا الاستمرار على الغي والضلال ، فاعلموا أنكم لا تفوتون الله طلباً ، ولا تُعجزونه هرباً ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ أي بشر الكافرين بعذاب مؤلم موجه يحل بهم قال أبو حيان : جعل الإنذار بشارة على سبيل الاستهزاء بهم ، وفي هذا وعيد عظيم لهم^(٢) ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين﴾ أي إلا الذين عاهدتموهم ولم ينقضوا العهد فأتوا إليهم عهدهم قال في الكشاف : وهو استثناء بمعنى الاستدراك أي لكن من وفى ولم ينكث فأتوا عليهم عهدهم ، ولا تجروهم مجراهم ، ولا تجعلوا الوفي كالغادر^(٣) ﴿ثم لم ينقصوكم شيئاً﴾ أي لم ينقصوا من شروط الميثاق شيئاً ﴿ولم يظاهروا عليكم أحداً﴾ أي لم يعينوا عليكم أحداً من أعدائكم ﴿فأتوا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ أي وفوا العهد

الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ^٢ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ^٣ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^٤ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ
كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ^٥ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ^٦ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ
إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ^٧ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ^٨ كَيْفَ

كاملاً إلى انقضاء مدته ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي يحب المتقين لربهم الموفين لعهودهم قال البيضاوي :
هذا تعليل وتنبية على أن إتمام عهدهم من باب التقوى^(١) قال ابن عباس : كان قد بقي لحي من كنانة من
عهدهم تسعة أشهر ، فأتهم^(٢) إليهم عهدهم ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ﴾ أي مضت وخرجت الأشهر
الأربعة التي حرم فيها قتالهم ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي اقتلوهم في أي مكان أو زمان من
حل أو حرم ، قال ابن عباس : في الحل والحرم وفي الأشهر الحرم^(٣) ﴿وَخَذُوهُمْ﴾ أي بالأسر
﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ أي احبسوهم وامنعوهم من التقلب في البلاد قال ابن عباس : إن تحصنوا فاحصروهم
أي في القلاع والحصون حتى يضطروا إلى القتل أو الإسلام ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أي اقعدوا لهم
في كل طريق يسلكونه ، وارقبوهم في كل ممر يجتازون منه في أسفارهم قال في البحر : وهذا تنبيه على أن
المقصود إيصال الأذى إليهم بكل وسيلة بطريق القتال أو بطريق الاغتيال^(٤) ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي فإن تابوا عن الشرك وأدوا ما فرض عليهم من الصلاة والزكاة ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أي
كفوا عنهم ولا تعرضوا لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب ﴿وَإِنْ
أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ أي إن استأمنك مشرك وطلب منك جوارك ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ
اللَّهِ﴾ أي آمنه حتى يسمع القرآن ويتدبره قال الزمخشري : المعنى إن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء
الأشهر ، لا عهد بينك وبينه ، واستأمنك لسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن ، فأمنه حتى يسمع
كلام الله ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر^(٥) أقول : هذا غاية في حسن المعاملة وكرم الأخلاق ، لأن المراد
ليس النيل من الكافرين ، بل إقناعهم وهدايتهم حتى يعرفوا الحق فيتبعوه ، ويتركوا ما هم عليه من
الضلال ﴿ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي ثم إن لم يسلم فأوصله إلى ديار قومه التي يأمن فيها على نفسه وماله
من غير غدر ولا خيانة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ذلك الأمر بالإجارة للمشركين ، بسبب أنهم
لا يعلمون حقيقة دين الإسلام ، فلا بد من أمانهم حتى يسمعوا ويتدبروا ، ثم بين تعالى الحكمة من
البراءة من عهود المشركين فقال ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ استفهام بمعنى الإنكار
والاستبعاد أي كيف يكون لهم عهد معتد به عند الله ورسوله ، ثم استدرك فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي لكن من عاهدتم من المشركين عند المسجد الحرام ولم ينقضوا العهد قال ابن عباس :

(١) البيضاوي ٢١٨ . (٢) زاد المسير ٣/٣٩٨ . (٣) البحر المحیط ٥/١٠ . (٤) الكشاف ٢/٢٤٨ .

وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَقْبِئُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾
 أَشْتَرُوا بِعَآيِنِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ ۗ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَقْبِئُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا
 وَلَا ذِمَّةً ۗ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ
 الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ
 إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدءُكُمْ وَأُولَٰئِ

هم أهل مكة وقال ابن اسحاق : هم قبائل بني بكر كانوا دخلوا وقت الحديبية في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش ، فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن نقض عهده منهم ^(١) ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ أي فما داموا مستقيمين على عهدهم فاستقيموا لهم على العهد قال الطبري : أي فما استقاموا لكم على العهد فاستقيموا لهم على الوفاء ^(٢) ﴿إن الله يحب المتقين﴾ أي يجب من اتقى ربه ، ووفى عهده ، وترك الغدر والخيانة ﴿كيف وإن يظهروا عليكم﴾ تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد أي كيف يكون لهم عهد وحالهم هذه أنهم إن يظفروا بكم ﴿لا يقبوا فيكم إلا ولا ذمة﴾ أي لا يراعوا فيكم عهداً ولا ذمة ، لأنه لا عهد لهم ولا أمان قال أبو حيان : وهذا كله تقرير واستبعاد لثبات قلوبهم على العهد ^(٣) ﴿يرضونكم بأفواههم﴾ أي يرضونكم بالكلام الجميل إن كان الظفر لكم عليهم ﴿وتأبى قلوبهم﴾ أي وتمتنع قلوبهم من الإذعان والوفاء بما أظهره قال الطبري : المعنى يعطونكم بألسنتهم من القول خلاف ما يضمرونه لكم في نفوسهم من العداوة والبغضاء ، وتأبى قلوبهم أن يذعنوا بتصديق ما يبدونه لكم بألسنتهم ^(٤) ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ أي وأكثرهم ناقضون للعهد خارجون عن طاعة الله ﴿اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ أي استبدلوا بالقرآن عرضاً يسيراً من متاع الدنيا الخسيس ﴿فصدوا عن سبيله﴾ أي منعوا الناس عن اتباع دين الإسلام ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ أي بشس هذا العمل القبيح الذي عملوه ﴿لا يقبون في مؤمنٍ إلا ولا ذمة﴾ أي لا يراعون في قتل مؤمنٍ لو قدروا عليه عهداً ولا ذمة ﴿وأولئك هم المعتدون﴾ أي وأولئك الجامعون لتلك الأوصاف الذميمة هم المجاوزون الحد في الظلم والبغي ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي فإن تابوا عن الكفر وأقاموا الصلاة وأعطوا الزكاة ﴿فإخوانكم في الدين﴾ أي فهم إخوانكم في الدين ، لهم ما لكم ، وعليهم ما عليكم ﴿ونفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ أي ونبين الحجج والأدلة لأهل العلم والفهم ، والجملة اعتراضية للحث على التدبر والتأمل ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم﴾ أي وإن نقضوا عهدهم الموثقة بالأيمان ﴿وطعنوا في دينكم﴾ أي عابوا الإسلام بالقدح والذم ﴿فقاتلوا أئمة

مَرَّةً أَنْخَشُونَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ
وَيَسْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ غِيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ يَسَاءٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ
حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ

الكفر ﴿أي رؤساء وصاديد الكفر﴾ إنهم لا إيمان لهم ﴿أي لا إيمان لهم ولا عهد يوفون بها﴾
﴿لعلهم ينتهون﴾ أي كي يكفوا عن الإجماع ، وينتهوا عن الطعن في الإسلام ، قال البيضاوي : وهو
متعلق بـ « قاتلوا » أي ليكن غرضكم في المقاتلة الانتهاء عما هم عليه ، لا إيصال الأذى بهم كما هو طريقة
المؤذنين ﴿١٣﴾ ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم ﴿تحريض على قتالهم أي ألا تقاتلون يا معشر المؤمنين
قوماً نقضوا العهد وطعنوا في دينكم ؟﴾ وهما بإخراج الرسول ﴿أي عزموا على تهجير الرسول ﷺ من
مكة حين تشاوروا بدار الندوة على إخراجهم من بين أظهركم﴾ وهم بدءكم أول مرة ﴿أي هم البادئون
بالقتال حيث قاتلوا حلفاءكم خزاعة ، والباديء أظلم ، فما يمنعكم أن تقاتلوهم ؟﴾ أنخسوهم فالله
أحق أن تخشوه ﴿؟ أي تخافوهم فتتركون قتالهم خوفاً على أنفسكم منهم ؟ فالله أحق أن تخافوا عقوبته
إن تركتم أمره﴾ إن كنتم مؤمنين ﴿أي إن كنتم مصدقين بعذابه وثوابه قال الزمخشري : يعني أن قضية
الإيمان الصحيح ألا يخشى المؤمن إلا من إله ولا يبالي بمن سواه﴾ . . ثم بعد الحث أمرهم بقتالهم
صراحة فقال ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ أي قاتلوهم يا معشر المؤمنين فقاتلهم بأيديهم عذاب بأيدي
أولياء الله وجهاد لمن قاتلهم ﴿ويخزهم﴾ أي يذلمهم بالأسر والقهر ﴿وينصركم عليهم﴾ أي يمنحكم
الظفر والغلبة عليهم ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ أي يشف قلوب المؤمنين بإعلاء دين الله
وتعذيب الكفار وخزيهم قال ابن عباس : هم قوم من اليمن قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيراً
فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال : أبشروا فإن الفرج قريب ﴿١٣﴾ ويذهب غيظ قلوبهم ﴿أي يذهب ما
بها من غيظ ، وغم ، وكرب ، وهو كالتأكيد لشفاء الصدور وفائدته المبالغة في جعلهم مسرورين بما ين
الله عليهم من تعذيب أعدائهم قال الرازي : أمر تعالى بقتالهم وذكر فيه خمسة أنواع من الفوائد ، كل
واحد منها يعظم موقعه إذا انفرد ، فكيف بها إذا اجتمعت ﴿١٤﴾ ؟ ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ كلام
مستأنف أي يمن الله على من يشاء منهم بالتوبة والدخول في الإسلام كأبي سفيان ﴿والله عليم حكيم﴾
أي عالم بالأسرار لا تخفى عليه خافية ، حكيم لا يفعل إلا ما فيه حكمة ومصلحة قال أبو السعود : ولقد
أنجز الله سبحانه جميع ما وعدهم به على أجل ما يكون ، فكان إخباره عليه السلام بذلك قبل وقوعه
معجزة عظيمة ﴿١٥﴾ أم حسبتم أن تتركوا ﴿أم منقطعة بمعنى بل والهزمة أي بل حسبتم يا معشر المؤمنين
أن تتركوا بغير امتحان وابتلاء يعرف الصادق منكم في دينه من الكاذب فيه !﴾ ولما يعلم الله الذين
جاهدوا منكم ﴿أي والحال أنه لم يتبين المجاهد منكم من غيره ، والمراد بالعلم علم ظهور لا علم خفاء فإنه

وَلِيَجْزِيَ^ع وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ
 أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِهِمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ * أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ
 الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ

تعالى يعلم ذلك غيباً فأراد إظهار ما علم ليجازي على العمل ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ أي جاهدوا في سبيل الله ولم يتخذوا بطانة وأولياء من المشركين يفشون إليهم أسرارهم ويوالونهم من دون المؤمنين ، والغرض من الآية : ان الله تعالى لا يترك الناس دون تمحيص يظهر فيه الطيب من الخبيث ﴿والله خير بما تعملون﴾ أي يعلم جميع أعمالكم لا يخفى عليه شيء منها ﴿ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله﴾ أي لا يصح ولا يستقيم ولا ينبغي ولا يليق للمشركين أن يعمرُوا شيئاً من المساجد ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ أي حال كونهم مقرين بالكفر ، ناطقين به بأقوالهم وأفعالهم حيث كانوا يقولون في تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هولك ، تملكه وما ملك » يعنون الأصنام ، وكانوا قد نصبوا أصنامهم خارج البيت ، وكانوا يطوفون عراة كلما طافوا طوفة سجدوا للأصنام^(١) والمعنى : ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين : عمارة مساجد الله ، مع الكفر بالله وبعبادته ﴿أولئك حبطت أعمالهم﴾ أي بطلت أعمالهم بما قارنها من الشرك ﴿وفي النار هم خالدون﴾ أي ماكثون في نار جهنم أبداً ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ أي إنما تستقيم عمارة المساجد وتليق بالمؤمن المصدق بوحداية الله ، الموقن بالآخرة ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ أي أقام الصلاة المكتوبة بحدودها ، وأدى الزكاة المفروضة بشروطها ﴿ولم يحش إلا الله﴾ أي خاف الله ولم يرهب أحداً سواه ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ أي فعسى أن يكونوا في زمرة المهتدين يوم القيامة قال ابن عباس : كل عسى في القرآن واجبة قال الله لنيبه ﴿عسى أن يعثك ربك مقاماً محموداً﴾ يقول : إن ربك سيعثك مقاماً محموداً وهي الشفاعة^(٢) قال أبو حيان : وعسى من الله تعالى واجبة حيثما وقعت في القرآن ، وفي التعبير بعسى قطع لأطماع المشركين ان يكونوا مهتدين ، إذ من جمع هذه الخصال الأربعة جعل حاله حال من تُرجى له الهداية ، فكيف بمن هو عارٍ منها ؟ وفيه ترجيح الخشية على الرجاء ، ورفض الاغترار بالأعمال الصالحة^(٣) ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله﴾ الخطاب للمشركين^(٤) ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى : أجعلتم يا معشر المشركين سقاية الحجيج وسدانة البيت ، كإيمان من آمن بالله وجاهد في سبيله ؟ وهو رد على العباس حين قال : لئن كنتم سبقتُمونا بالإسلام والهجرة ، فلقد كنا نعمل المسجد الحرام ، ونسقي

(١) الصاوي على الجلائين ٢/١٤١ . (٢) الطبري ١٠/٩٤ . (٣) البحر المحيط ٥/٢٠ . (٤) انظر سبب النزول .

اللَّهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
 أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا
 نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

الحاج فنزلت قال الطبري : هذا توييح من الله تعالى لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت الحرام ، فأعلمهم أن الفخر في الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والجهد في سبيله ^(١) لا يستوون عند الله أي لا يتساوى المشركون بالمؤمنين ، ولا أعمال أولئك بأعمال هؤلاء ومنزلهم ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ هذا كالتعليل أي لا يوفق الظالمين إلى معرفة الحق ، قال في البحر : ومعنى الآية إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين ، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة ، ولما نفى المساواة بينهم أوضحها بأن الكافرين بالله هم الظالمون ، ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان ، وظلموا المسجد الحرام إذ جعلوه متعبداً لأوثانهم ، وأثبت للمؤمنين الهداية في الآية السابقة ، ونفاها عن المشركين هنا فقال ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ^(٢) ثم قال تعالى ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أكبر درجة عند الله﴾ هذا زيادة توضيح وبيان لأهل الجهاد والإيمان والمعنى : إن الذين طهروا أنفسهم من دنس الشرك بالإيمان ، وطهروا أبدانهم بالهجرة من الأوطان ، وبدلوا أنفسهم وأموالهم للجهاد في سبيل الرحمن ، هؤلاء المتصفون بالأوصاف الجليلة أعظم أجراً ، وأرفع ذكراً من سقاة الحاج ، وعمار المسجد الحرام وهم بالله مشركون ﴿وأولئك هم الفائزون﴾ أي وأولئك هم المختصون بالفوز العظيم في جنات النعيم ﴿يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان﴾ أي يبشرهم المولى برحمة عظيمة ، ورضوان كبير من رب عظيم ﴿وجنات لهم فيها نعيم مقيم﴾ أي وجنات عالية ، قطوفها دانية ، لهم في تلك الجنات نعيم دائم لا زوال له ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي ماكثين في الجنان إلى ما لا نهاية ﴿إن الله عنده أجر عظيم﴾ أي ثوابهم عند الله عظيم ، تعجز العقول عن وصفه قال أبو حيان : لما وصف المؤمنين بثلاث صفات : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد بالنفس والمال ، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاثة : الرحمة ، والرضوان ، والجنان ، فبدأ بالرحمة لأنها أعم النعم في مقابلة الإيمان ، وثنى بالرضوان الذي هو نهاية الإحسان في مقابلة الجهاد ، وثالث بالجنان في مقابلة الهجرة وترك الأوطان ^(٣) وقال الألوسي : ولا يخفى أن وصف الجنات بأن لهم فيها نعيم مقيم جاء في غاية اللطافة ، لأن الهجرة فيها السفر ، الذي هو قطعة من العذاب ^(٤) .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿براءة من الله ورسوله﴾ التنوين للتفخيم والتقيد بأنها من الله ورسوله لزيادة التفخيم والتهويل .

٢ - ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ هذا يسمى « الأسلوب التهكمي » لأن البشارة بالعذاب

تهكم به .

٣ - ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾ شبه مضي الأشهر وانقضاءها بالإنسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده فهو من باب الاستعارة .

٤ - ﴿والله عليم حكيم﴾ ذكر الاسم الجليل مكان الضمير لتربية المهابة وإدخال الروعة في القلب .

٥ - ﴿وأولئك هم الفائزون﴾ الجملة مفيدة للحصر أي هم الفائزون لا غيرهم .

٦ - ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ في تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر تفخيم لشأنها وحث على التنبه لها .

٧ - ﴿برحمةٍ منه ورضوانٍ﴾ تنكير الرحمة والرضوان للتفخيم والتعظيم أي برحمة لا يبلغها وصف واصف .

فكائدَة : عمارة المساجد نوعان : حسية ، ومعنوية ، فالحسية بالتشييد والبناء ، والمعنوية بالصلاة وذكر الله ، وقد ربط الباري جل وعلا بين العمارة والإيمان وفي الحديث (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان لأن الله تعالى يقول ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾^(١) فالعمارة الحقيقية بالصلاة وذكر الله .

لطيفة : ذكر القرطبي أن أعرابياً قدم المدينة المنورة فقال : من يقرئني مما أنزل على محمد ﷺ ؟ فأقرأه رجل سورة براءة حتى أتى الآية الكريمة ﴿أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ فقرأها عليه بالجر ﴿ورسوله﴾ فقال الأعرابي : وأنا أيضاً أبرأ من رسوله ، فاستعظم الناس الأمر وبلغ ذلك عمر فدعاه فقال يا أعرابي : تبرأ من رسول الله ﷺ ؟ فقال يا أمير المؤمنين : قدمت المدينة فأقرأني رجل سورة براءة فقلت إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه ، فقال : ما هكذا الآية يا أعرابي ؟ قال فكيف يا أمير المؤمنين ! فقرأها عليه بالضم ﴿ورسوله﴾ فقال الأعرابي : وأنا والله أبرأ مما برىء الله ورسوله منه ، فأمر عمر ألا يقرئ الناس إلا عالم بلغة العرب^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء . إلى . ولو كره المشركون﴾

من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٣٣) .

الناسكَة : لما ذكر تعالى قبائح المشركين ، وأثنى على المهاجرين المؤمنين الذين هجروا الديار والأوطان حباً في الله ورسوله ، حذر هنا من ولاية الكافرين وذكر أن الانقطاع عن الآباء والأقارب واجب

(١) رواه الترمذي . (٢) القرطبي ٢٤/١ .

بسبب الكفر ، ثم استطرد إلى تذكير المؤمنين بنصرهم في مواطن كثيرة ليعتروا بدينهم ، ثم عاد إلى الحديث عن قبائح أهل الكتاب للتحذير من موالاتهم ، وأنهم كالمشركين يسعون لإطفاء نور الله .

اللفظة : ﴿أولياء﴾ جمع ولي : وهو الناصر والمعين الذي يتولى شئون الغير وينصره ويقويه ﴿وعشيرتكم﴾ العشيرة : الجماعة التي يعتز ويحتمي بها الإنسان قال الواحدي : عشيرة الرجل أهله الأذنون وهو من العشيرة أي الصحبة لأنها من شأن القريبى ﴿كسادهاء﴾ كسد الشيء كساداً وكسوداً إذا بار ولم يكن له تفاق ﴿عيلة﴾ فقراً يقال : عال الرجل يعيل إذا افتقر قال الشاعر :

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل^(١)

﴿الجزية﴾ ما أخذ من أهل الذمة سميت جزية لأنهم أعطوها جزاء ما منحوا من الأمن ﴿يضاهئون﴾ يشابهون والمضاهاة المماثلة والمحاكاة ﴿يؤفكون﴾ يصرفون عن الحق والإفك الصرف يقال : أفك الرجل أي قلب وصرّف .

سبب النزول : قال الكلبي : لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة الى المدينة ، جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامراته : لقد أمرنا بالهجرة ، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه ، ومنهم من تتعلق به زوجته وولده فيقولون : نشدناك الله إن تدعنا من غير شيء فنضيع ، فيرق فيجلس معهم ويدع الهجرة فتزلت الآية تعاتبهم ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء . . .﴾^(٢) الآية .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء﴾ النداء بلفظ الإيمان للتركيم ولتحريك الهمة للمسارعة إلى امثال أوامر الله قال ابن مسعود : « إذا سمعت الله تعالى يقول : يا أيها الذين آمنوا فأرعيها سمعك ، فإنه خير تؤمر به ، أو شر تنهى عنه » والمعنى : لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم الكافرين أنصاراً وأعواناً تودونهم وتحبونهم ﴿إن استحبوا الكفر على الإيمان﴾ أي إن فضلوا الكفر واختاروه على الإيمان وأصروا عليه إصراراً ﴿ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ قال ابن عباس : هو مشرك مثلهم ، لأن من رضي بالشرك فهو مشرك^(٣) ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم﴾ أي إن كان هؤلاء الأقارب من الآباء ، والأبناء ، والإخوان ، والزوجات ومن سواهم ﴿وعشيرتكم﴾ أي جماعتكم التي تستنصرون بهم ﴿وأموال اقترفتموها﴾ أي وأموالكم التي اكتسبتموها ﴿وتجارة تخشون كسادهاء﴾ أي تخافون عدم نفاقها ﴿ومساكن ترضونها﴾ أي منازل

وَأَمْوَالٌ أَقْتَرَفْتُمُوهَا وَبِجْرَةٍ تَبْخَشُونَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شِبَعًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَدْيَنَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا

تعجبكم الإقامة فيها ﴿أحب إليكم من الله ورسوله﴾ هذا هو جواب كان أي إن كانت هذه الأشياء المذكورة أحب إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله ﴿وجهاد في سبيله﴾ أي وأحب إليكم من الجهاد لنصرة دين الله ﴿فتربصوا﴾ أي انتظروا وهو وعيد شديد وتهديد ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ أي بعاقبته العاجلة أو الآجلة ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى طريق السعادة ، وهذا وعيد لمن أثر أهله ، أو ماله ، أو وطنه ، على الهجرة والجهاد ، ثم ذكرهم تعالى بالنصر على الأعداء في مواطن اللقاء فقال ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة﴾ أي نصركم في مشاهد كثيرة ، وحروب عديدة ﴿ويوم حنين﴾ أي ونصركم أيضاً يوم حنين بعد الهزيمة التي منيتم بها بسبب اغتراكم بالكثرة ﴿إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً﴾ أي حين أعجبكم كثرة عددكم فقلتم : لن نغلب اليوم من قلة ، وكنتم اثني عشر ألفاً وأعداؤكم أربعة آلاف ، فلم تنفعكم الكثرة ولم تدفع عنكم شيئاً ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾ أي وضافت الأرض على رحبها وكثرة اتساعها بكم من شدة الخوف ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ أي وليتم على أدباركم منهزمين قال الطبري : يخبرهم تبارك وتعالى أن النصر بيده ومن عنده ، وأنه ليس بكثرة العدد ، وأنه ينصر القليل على الكثير إذا شاء ، ويخلى القليل فيهزم الكثير ، قيل للبراء بن عازب : أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال البراء : أشهد أن رسول الله ﷺ لم يفر ، ولقد رأيته على بغلته البيضاء - وأبو سفيان أخذ بلجامها يقودها - فلما غشيه المشركون نزل فجعل يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين وقال : شأهت الوجوه ففروا ، فما بقي أحد إلا ويمسح القذى عن عينيه ^(١) ، وقال البراء : كنا والله إذا حمي البأس نتقي برسول الله ﷺ وإن الشجاع منا الذي يخاذيه ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ أي أنزل بعد الهزيمة الأمن والطمأنينة على المؤمنين حتى سكنت نفوسهم قال أبو السعود : أي أنزل رحمته التي تسكن بها القلوب وتطمئن إليها ^(٢) ﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ قال ابن عباس : يعني الملائكة ﴿وعذب الذين كفروا﴾ أي بالقتل والأسر وسبي النساء والذراري ﴿وذلك جزاء الكافرين﴾ أي وذلك عقوبة الكافرين بالله . ﴿ثم يتوب﴾

وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ۖ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ
 مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ
 مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ

الله من بعد ذلك على من يشاء ﴿٢٦﴾ أي يتوب على من يشاء فيوفقه للإسلام ، وهو إشارة إلى إسلام هوازن
 ﴿والله غفور رحيم﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس﴾
 أي قدر لخبث باطنهم قال ابن عباس : أعيانهم نجسة كالكلاب والخنزير ، وقال الحسن : من صافح
 مشركاً فليتوضأ^(١) ، والجمهور على أن هذا على التشبيه أي هم بمنزلة النجس أو كالنجس لخبث اعتقادهم
 وكفرهم بالله جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغة في الوصف على حد قولهم : عليُّ أسدٌ أي كالأسد ﴿فلا
 يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ أي فلا يدخلوا الحرم ، أطلق المسجد الحرام وقصد به الحرم كله
 قال أبو السعود : وقيل : المراد المنع عن الحج والعمرة أي لا يحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا وهو
 عام تسع من الهجرة ويؤيده حديث (وَأَلَّحِجَّ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكًا)^(٢) وهو العام الذي نزلت فيه
 سورة براءة ونادى بها عليٌّ في المواسم ﴿وإن خفتم عيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ أي وإن خفتم
 أيها المؤمنون فقراً بسبب منعهم من دخول الحرم أو من الحج فإن الله سبحانه يغنيكم عنهم بطريق آخر من
 فضله وعطائه قال المفسرون : لما مُنِعَ المسلمون من تمكين المشركين من دخول الحرم ، وكان المشركون
 يجلبون الأطعمة والتجارات اليهم في المواسم ، ألقى الشيطان في قلوبهم الحزن فقال لهم : من أين
 تأكلون ؟ وكيف تعيشون وقد منعت عنكم الأرزاق والمكاسب ؟ فأمنهم الله من الفقر والعيلة ، ورزقهم
 الغنائم والجزية^(٣) ﴿إن شاء﴾ أي يغنيكم بإرادته ومشئته ﴿إن الله عليم حكيم﴾ قال ابن عباس :
 عليم بما يصلحكم ، حكيم فيما حكم في المشركين . . ولما ذكر حكم المشركين ذكر حكم أهل الكتاب فقال
 ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ أي قاتلوا الذين لا يؤمنون إيماناً صحيحاً بالله واليوم
 الآخر وإن زعموا الإيمان ، فإن اليهود يقولون عزيز ابن الله ، والنصارى يعتقدون بالوهية المسيح
 ويقولون بالتثليث ﴿ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله﴾ أي لا يحرمون ما حرم الله في كتابه ، ولا رسوله
 في سنته ، بل يأخذون بما شرعه لهم الأحبار والرهبان ولهذا يستحلون الخمر والخنزير وما شابههما ﴿ولا
 يدينون دين الحق﴾ أي لا يعتقدون بدين الإسلام الذي هو دين الحق ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾
 هذا بيان للمذكورين أي من هؤلاء المنحرفين من اليهود والنصارى الذين نزلت عليهم التوراة والإنجيل

(١) القرطبي ١٠٣/٨ وهو الذي نقل عن ابن عباس والحسن البصري ورجحه الفخر الرازي والألوسي وهو ظاهر الآية ، والجمهور على أنه
 على التشبيه . (٢) أبو السعود ٢٦٤/٢ . (٣) انظر الطبري ١٠٧/١٠ .

صَلُّوا ۞ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزْرُ بْنُ أَبِي نَضْرَةَ وَقَالَتِ النَّصْرِيُّ الْمَسِيحُ بْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
يُضَاهِعُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْتَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۞ أَخَذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرَهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞

﴿حتى يُعطوا الجزية عن يد﴾ أي حتى يدفعوا إليكم الجزية منقادين مستسلمين ﴿وهم صاغرون﴾ أي أذلاء حقيرون مهجورون بسطان الإسلام ، ثم ذكر تعالى طرفاً من قبائحهم فقال ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ أي نسب اللعناء إلى الله الولد، وهو واحد أحد فرد صمد قال البيضاوي: وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبق فيهم بعد بختنصر من يحفظ التوراة ، فلما أحياه الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلا لأنه ابن الله^(١) ﴿وقالت النصرى المسيح ابن الله﴾ أي وزعم النصرى - أعداء الله - أن المسيح ابن الله قالوا: لأن عيسى ولد بدون أب ، ولا يمكن أن يكون ولد بدون أب ، فلا بد أن يكون ابن الله ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾ أي ذلك القول الشنيع هو مجرد دعوى باللسان من غير دليل ولا برهان قال في التسهيل: يتضمن معنيين: أحدهما إلزامهم هذه المقالة والتأكيد في ذلك ، والثاني أنهم لا حجة لهم في ذلك ، وإنما هو مجرد دعوى كقولك لمن تكذبه: هذا قولك بلسانك^(٢) ﴿يضاهئون قول الذين كفروا من قبل﴾ أي يشابهون بهذا القول الشنيع قول المشركين قبلهم: الملائكة بنات الله ﴿تشابهت قلوبهم﴾ ﴿قاتلهم الله أنى يُؤفكون﴾ دعاء عليهم بالهلاك أي أهلكهم الله كيف يُصرفون عن الحق إلى الباطل بعد وضوح الدليل حتى يجعلوا لله ولداً! قال الرازي: الصيغة للتعجب وهو راجع إلى الخلق على عادة العرب في مخاطبتهم ، والله تعالى عجب نبيه من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل^(٣) ﴿أخذوا أعبادهم وrehبانهم أرباباً من دون الله﴾ أي أطاع اليهود أعبادهم والنصارى رهبانهم في التحليل والتحرير وتركوا أمر الله فكأنهم عبدوهم من دون الله والمعنى: أطاعوهم كما يطاع الرب وإن كانوا لم يعبدوهم وهو التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ قال عدي ابن حاتم: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عدي إطرح عنك هذا الوثن ، قال وسمعتة يقرأ سورة براءة ﴿أخذوا أعبادهم وrehبانهم أرباباً من دون الله﴾ فقلت يا رسول الله: لم يكونوا يعبدوهم فقال عليه السلام: ليس يُحرمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه ، ويجلون ما حرم الله فيستحلون؟! فقلت: بلى ، قال: فذلك عبادتهم^(٤) ﴿والمسيح ابن مريم﴾ أي اتخذ النصرى رباً معبوداً ﴿وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ أي والحال أن أولئك الكفرة ما أُمروا على لسان الأنبياء إلا بعبادة إله واحد هو الله رب العالمين ﴿لا إله إلا هو﴾ لا معبود بحق سواه ﴿سبحانه عما يشركون﴾ أي تنزه الله عما يقول المشركون وتعالى علواً كبيراً ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾ أي يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب أن يطفئوا نور الإسلام وشرع محمد عليه السلام بأفواههم

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

الحقيرة ، بمجرد جدالهم وافتراءهم ، وهو النور الذي جعله الله لخلق ضياءً ، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه بفيه ولا سبيل إلى ذلك ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره﴾ أي ويأبى الله إلا أن يعليه ويرفع شأنه ﴿ولو كره الكافرون﴾ أي ولو كره الكافرون ذلك ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ أي أرسل محمداً ﷺ بالهداية التامة والدين الكامل وهو الإسلام ﴿ليظهره على الدين كله﴾ أي ليعليه على سائر الأديان ﴿ولو كره المشركون﴾ جوابه محذوف أي ولو كره المشركون ظهوره .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿قربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ صيغته أمر وحقيقته وعيد كقوله ﴿إعملوا ما شئتم﴾ .

٢ - ﴿ويوم حنين﴾ من باب عطف الخاص على العام للتنويه بشأنه حيث جاء النصر بعد اليأس ، والفرج بعد الشدة .

٣ - ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾ شبه ما حل بهم من الكرب والهزيمة والضيق النفسي بضيق الأرض على سعتها على سبيل الاستعارة .

٤ - ﴿إنما المشركون نجس﴾ الصيغة لإفادة الحصر واللفظ فيه تشبيه بليغ أي كالنجس في خبث الباطن وخبث الاعتقاد حذفت منه أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً ومثله ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً﴾ أي كالآرباب في طاعتهم وامتثال أوامرهم في التحريم والتحليل .

٥ - ﴿فلا يقربوا المسجد﴾ عبّر عن الدخول بالقرب بالمبالغة .

٦ - ﴿يطفئوا نور الله﴾ أراد به نور الإسلام فإن الإسلام بنوره المضيء وحججه القاطعة يشبه الشمس الساطعة في نورها وضيائها فهو من باب الاستعارة . وهي من لطائف الاستعارات .

لَطِيفَةٌ : قال العلامة القرطبي دل قوله تعالى ﴿لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء﴾ على أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان ، وقد أنشدوا في ذلك أبياتاً :

يقولون لي دار الأجابة قد دنت وأنت كئيبٌ إن ذا لعجيب
فقلت : وما تغني دياراً قريبة إذا لم يكن بين القلوب قريب

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان . . إلى . . في ربيهم يترددون﴾

من آية (٣٤) إلى نهاية آية (٤٥) .

المناسكة : لما وصف تعالى رؤساء اليهود والنصارى بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية ، وصفهم هنا بالطمع والجشع والحرص على أكل أموال الناس ، تحقيراً لشأنهم وتسفيهاً لأحلامهم ، لأنهم اتخذوا الدين مطية لنيل الدنيا ، وذلك نهاية الذل والدناءة ، ثم ذكر تعالى قبائحهم وقبائح المشركين ، ثم دعا إلى النفير العام وذكر موقف المنافقين المثبتين عن الجهاد في سبيل الله .

اللفظة : ﴿الأحبار﴾ علماء اليهود ﴿الرهبان﴾ علماء النصارى قال ابن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها^(١)
 ﴿يكتزون﴾ أصل الكتز في اللغة : الجمع والضم ومنه حديث (ألا أخبركم بخير ما يكتز المرء ؟ المرأة الصالحة) أي يضمه لنفسه ويجمعه ، ثم غلب استعماله على المدفون من الذهب والفضة قال الطبري : الكتز كل شيء مجموع بعضه إلى بعض في بطن الأرض كان أو على ظهرها^(٢) ﴿تكوى﴾ الكي : إلصاق المحمي من الحديد وشبهه بالعضو حتى يتمزق الجلد وفي الأمثال « آخر الدواء الكي » ﴿النسيء﴾ التأخير يقال : نساء وأنسأه إذا أخره ومنه حديث (وينسأ له في أثره) أي يؤخر له في أجله قال الزمخشري : النسيء : تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ﴿ليواطئوا﴾ أي ليوافقوا والمواطأة : الموافقة يقال : تواطأ القوم : إذا اتفقوا على أمر خفية ﴿انفروا﴾ النفر : الخروج بسرعة ومنه ﴿ولوا على أديبارهم نفوراً﴾ ﴿أثاقلتم﴾ أصله ثاقلتم بمعنى تباطأتم ولم تسرعوا ﴿عرضاً﴾ العرض : ما يعرض للانسان من منافع الدنيا سمي عرضاً لأنه لا يدوم وفي الحديث (الدنيا عرض حاضر ، يأكل منه البر والفاجر) ﴿الشقة﴾ المسافة البعيدة التي لا تقطع إلا بمشقة قال الجوهري : الشقة السفر البعيد^(٣) ، وكأنه مأخوذ من المشقة يقال : شقة شاقة .

سبب النزول : لما رجع رسول الله ﷺ من الطائف وغزوة حنين ، أمر الناس بالجهاد ، لغزو الروم ، وذلك في زمن عسرة من البأس ، وجذب من البلاد ، وشدة من الحر ، حين أثمرت النخل ، وطابت الثمار ، فعظم على الناس غزو الروم ، وأحبوا الظلال والمقام في المساكن والمال ، وشق عليهم الخروج إلى القتال فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض . .﴾ الآية^(٤) .

* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَيَصُدُّونَ عَن

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان﴾ أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إن كثيراً من علماء اليهود « الأحبار » وعلماء النصارى « الرهبان » ﴿ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله﴾ أي ليأخذون أموال الناس بالحرام ، ويمنعونهم عن الدخول في دين

(١) القرطبي ٨/ ١٢٠ . (٢) الطبري ١/ ١٢١ . (٣) القرطبي ٨/ ١٥٤ . (٤) أسباب النزول للواحد ص ١٤١ .

سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنْتُمْ تَكْنُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَافَّةً^٤

الإسلام قال ابن كثير : والمقصود التحذير من علماء السوء ، وعباد الضلال قال ابن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبأدنا كان في شبه من النصارى^(١) ﴿والذين يكتنون الذهب والفضة﴾ أي يجمعون الأموال ويدخرون الثروات ﴿ثم لا ينفقونها في سبيل الله﴾ أي لا يؤدون زكاتها ولا يبذلون منها في وجوه الخير قال ابن عمر : الكنز ما لم تؤد زكاته ، وما أدت زكاته فليس بكنز ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ أسلوب تهكم أي أخبرهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم قال الزمخشري : وإنما قرن بين الكنازين وبين اليهود والنصارى تغليظاً عليهم ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت ، ومن لا يعطي من المسلمين من طيب ماله ، سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم^(٢) ﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم﴾ أي يوم يحمى عليها بالنار المستعرة حتى تصبح حامية كاوية ﴿فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ أي تحرق بها الجباه والجنوب والظهور بالكي عليها قال ابن مسعود : والذي لا إله غيره لا يكوى عبد بكنز فيمس دينار ديناراً ، ولا درهم درهماً ، ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته^(٣) ، وخصت هذه الأماكن بالكي لأن البخيل يرى الفقير قادماً فيقطن جبهته ، فإذا جاءه أعرض بجانبه ، فإذا طالبه بإحسان ولاه ظهره ، قال القرطبي : الكي في الوجه أشهر وأشنع ، وفي الظهر والجنب ألم وأوجع ، فلذلك خصها بالذكر من بين سائر الأعضاء^(٤) ﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنزتم﴾ أي يقال لهم تبكيتاً وتقريراً : هذا ما كنزتموه لأنفسكم فذوقوا وبال ما كنزتم تكنزونه وفي صحيح مسلم (ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار ، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين الف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار) ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾ أي إن عدد الشهور المعتد بها عند الله في شرعه وحكمه هي اثنا عشر شهراً على منازل القمر ، فالمعتبر به الشهور القمرية إذ عليها يدور فلك الأحكام الشرعية ﴿في كتاب الله﴾ أي في اللوح المحفوظ ﴿يوم خلق السموات والأرض﴾ قال ابن عباس : كتبه يوم خلق السموات والأرض في الكتاب الإمام الذي عند الله ﴿منها أربعة حرم﴾ أي منها أربعة شهور محرمة هي : « ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب » وسميت حرماً لأنها معظمة محترمة تتضاعف فيها الطاعات ويحرم القتال فيها ﴿ذلك الدين القيم﴾ أي ذلك

(١) المختصر ٢/١٣٨ . (٢) الكشاف ٢/٢٦٦ . (٣) الطبري ١٠/١٢٤ . (٤) القرطبي ٨/١٢٩ .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْاطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءٌ أَعْمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلُم إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٦٥﴾ إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ

الشرع المستقيم ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ أي لا تظلموا في هذه الأشهر المحرمة أنفسكم بهتك حرمتهن وارتكاب ما حرم الله من المعاصي والآثام ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ أي قاتلوهم جميعاً مجتمعين غير متفرقين كما يقاتلكم المشركون جميعاً ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أي معهم بالنصرة والتأييد ، وهو بشارة وضمان لأهل التقوى ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ أي إنما تأخير حرمة شهر لشهر آخر زيادة في الكفر لأنه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم قال المفسرون : كان العرب أهل حروب وغارات ، وكان القتال محرماً عليهم في الأشهر الحرم ، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة ، فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر ، كأنهم يستقرضون حرمة شهر لشهر غيره ، فربما أحلوا المحرم وحرموا صفر حتى يكمل في العام أربعة أشهر محرمة ﴿يضلُّ به الذين كفروا﴾ أي يضل بسببه الكافرين ضلالاً على ضلالهم ﴿يحلونهُ عاماً ويحرمونه عاماً﴾ أي يحلون المحرم عاماً والشهر الحلال عاماً فيجعلون هذا مكان هذا والعكس ﴿ليؤاطعوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي ليوافقوا عِدَّةَ الأشهر الحرم الأربعة ﴿فيحلوا ما حرم الله﴾ أي فيستحلوا بذلك ما حرمه الله قال مجاهد : كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له ، فيقول أيها الناس : إني لا أعاب ولا أجاب ، ولا مرد لما أقول ، إنا قد حرمننا المحرم ، وأخرنا صفر ، ثم يجيء العام المقبل ويقول : إنا قد حرمننا صفر وأخرنا المحرم فذلك قوله تعالى ﴿ليؤاطعوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ (١) .

﴿زَيْنٌ لَهُمْ سُوءٌ أَعْمَلِهِمْ﴾ أي زين الشيطان لهم أعمالهم القبيحة حتى حسبوها حسنة ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي لا يرشدهم إلى طريق السعادة ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم أنفروا في سبيل الله أتأتلُم إِلَى الْأَرْضِ﴾ استفهام للتقريع والتوبيخ ، وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك والمعنى : ما لكم أيها المؤمنون إذا قيل لكم اخرجوا للجهاد أعداء الله تباطأتم وتثاقلتم ، وملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعه ؟ ! ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي أرضيتم بنعيم الدنيا ومتاعها الفاني بدل نعيم الآخرة وثوابها الباقي ؟ ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي فما التمتع بلذائذ الدنيا في جنب الآخرة إِلَّا شَيْءٌ مُسْتَحَقَّرٌ قَلِيلٌ لَا قِيَمَةَ لَهُ ، ثم توعدهم على ترك الجهاد فقال ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي إن لا تخرجوا إلى الجهاد

قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٦﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٧﴾
 أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۗ لَكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

مع رسول الله يعذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً ، باستيلاء العدو عليكم في الدنيا ، وبالنار المحرقة في الآخرة وقال ابن عباس : هو حبس المطر عنهم^(١) ﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾ أي يهلككم ويستبدل قوماً آخرين خيراً منكم ، يكونون أسرع استجابة لرسوله وأطوع ﴿ولا تضروه شيئاً﴾ ولا تضروا الله شيئاً بتثاقلكم عن الجهاد فإنه سبحانه غني عن العالمين ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي قادر على كل ما يشاء ومنه الانتصار على الأعداء وبدونكم قال الرازي : وهو تنبيه على شدة الزجر من حيث إنه تعالى قادر لا يجوز عليه العجز ، فإذا توعد بالعقاب فعل^(٢) ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ أي إن لا تنصروا رسوله فإن الله ناصره وحافظه وجواب الشرط محذوف تقديره : فسينصره الله دل عليه قوله ﴿فقد نصره الله﴾ والمعنى : إن لم تنصروه أنتم فسينصره الله الذي نصره حين كان ثاني اثنين ، حيث لم يكن معه أنصار ولا أعوان ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ أي حين خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة ، وأسند إخراجهم إلى الكفار لأنهم ألبثوه إلى الخروج وتأمروا على قتله حتى اضطر إلى الهجرة ﴿ثاني اثنين﴾ أي أحد اثنين لا ثالث لهما هو أبو بكر الصديق ﴿إذ هما في الغار﴾ أي حين كان هو والصديق مختبئين في النقب في جبل ثور ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ أي حين يقول لصاحبه وهو أبو بكر الصديق تطميناً وتطييباً : لا تخف فالله معنا بالمعونة والنصر ، روى الطبري عن أنس أن أبا بكر رضي الله عنه قال « بينا أنا مع رسول الله ﷺ في الغار ، وأقدام المشركين فوق رؤوسنا فقلت يا رسول الله : لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا فقال يا أبا بكر : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ »^(٣) وكان سبب حزن أبي بكر خوفه على رسول الله ﷺ فنهاه الرسول تسكيناً لقلبه ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ أي أنزل الله السكون والطمأنينة على رسوله ﴿وأيده بجنود لم تروها﴾ أي قواه بجنود من عنده من الملائكة يحرسونه في الغار لم تروها أنتم ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ أي جعل كلمة الشرك سافلة دنيئة حقيرة ، أذل بها الشرك والمشركين ﴿وكلمة الله هي العليا﴾ أي وكلمة التوحيد « لا إله إلا الله » هي الغالبة الظاهرة ، أعز الله بها المسلمين ، وأذل الشرك والمشركين ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي قاهر غالب لا يُغلب ، لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ أي اخرجوا للقتال يا معشر المؤمنين شيئاً وشباناً ، مُشاةً وركباناً ، في جميع الظروف والأحوال ، في اليسر والعسر ، والمنشط والمكره

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسِيحِلْفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا
 لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٤﴾ عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعِينَ
 لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٥﴾ لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا
 بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾

﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ أي جاهدوا بالأموال والأنفس لإعلاء كلمة الله
 ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي هذا النفي والجهاد خير من التناقل إلى الأرض والخلود إليها
 والرضا بالقليل من متاع الحياة الدنيا إن كنتم تعلمون ذلك قال في البحر : والخيرية في الدنيا بغلبة العدو
 ووراثه الأرض ، وفي الآخرة بالثواب العظيم ورضوان الله^(١) ، ثم ذكر تعالى أحوال المخلفين الذين
 تخلفوا عن غزوة تبوك ، وموقف المثبتين المنافقين منهم فقال ﴿لو كان عرضاً قريباً﴾ أي لو كان ما دعوا
 إليه غنماً قريباً سهل المنال ﴿وسفراً قاصداً﴾ أي وسفراً وسطاً ليس ببعيد ﴿لاتبعوك﴾ أي لخرجوا معك
 لا لوجه الله بل طمعاً في الغنيمة ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ أي ولكن بعدت عليهم الطريق
 والمسافة الشاقة ولذلك اعتذروا عن الخروج لما في قلوبهم من النفاق ﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا
 لخرجنا معكم﴾ أي وسيحلفون لكم معتذرين^(٢) بأعذار كاذبة لو قدرنا على الخروج معكم لما تأخرنا ،
 ولو كان لنا سعة في المال أو قوة في الأبدان لخرجنا للجهاد معكم ، قال تعالى رداً عليهم وتكديماً لهم
 ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي يوقعون أنفسهم في الهلاك بأيامهم الكاذبة ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ أي
 لكاذبون في دعواهم حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ تلطف في
 عتاب الرسول ﷺ حيث قدم العفو على العتاب إكراماً له عليه السلام^(٣) والمعنى ساحكك الله يا محمد لم
 أذنت لهؤلاء المنافقين في التخلف عن الخروج معك بمجرد الاعتذار !! ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا
 وتعلم الكاذبين﴾ أي وهلا تركتهم حتى يظهر لك الصادق منهم في عذره من الكاذب المنافق قال مجاهد :
 نزلت في المنافقين قال أناس منهم استأذنوا رسول الله ، فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم
 فاقعدوا^(٤) ، فقد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم يأذن لهم ، ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه
 أهل الإيمان فقال ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي لا يستأذنك يا محمد عن
 الجهاد والغزو من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ أي كراهية الجهاد بالمال

(١) البحر ٤٤/٥ . (٢) هذا إخبار بغيب أي سيحلفون عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين بهذه الأيمان الكاذبة وقد حصل كما أخبر القرآن
 فكان ذلك من أوضح المعجزات القرآنية . (٣) قال المفسرون : من هذه الآية يعرف الإنسان مكانة الرسول ﷺ عند ربه ، وعلو قدره ،
 وسمو منزلته ، بشره بالعفو قبل أن يخبره بالذنب ، ولو قال له معاتباً : لم أذنت لهم ؟ لخيف عليه أن ينشق قلبه حزناً وكمداً قال عون : هل
 سمعتم معاتبه أحسن من هذا ؟ ناداه بالعفو قبل المعاتبه ، أقول : وما ذكره الزمخشري سوء أدب في مقام الرسول ﷺ . (٤) الطبري

إِنَّمَا يَسْتَعِذُّنَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

والنفس لأنهم يعلمون ما أعدّه الله للمجاهدين الأبرار من الأجر الجزيل فكيف يتخلفون عنه؟ ﴿والله عليم بالمتقين﴾ أي عليم بهم لأنهم مخلصون في الإيمان متقون للرحمن ﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي إنما يستأذنك يا محمد المنافقون الذين لم يثبت الإيمان في قلوبهم ﴿وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾ أي شكّت قلوبهم في الله وثوابه فهم يترددون حيارى لا يدرون ما يصنعون .

البالغة : ١ - ﴿يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً﴾ بين يحلون ويحرمون طباق وهو من المحسنات البديعية .

٢ - ﴿ما لكم إذا قيل لكم﴾ استفهام يقصد به الإنكار والتوبيخ .

٣ - ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ فيه إيجاز بالحذف أي أرضيتم بنعيم الدنيا ولذاتها بدل نعيم الآخرة .

٤ - ﴿فما متاع الحياة الدنيا﴾ أظهر في مقام الإضمار لزيادة التقرير والمبالغة في بيان حقارة الدنيا ودناءتها بالنسبة للآخرة .

٥ - ﴿يعذبكم عذاباً﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٦ - ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ « كلمة الذين كفروا » استعارة عن الشرك كما أن « كلمة الله » استعارة عن الإيمان والتوحيد .

٧ - ﴿خفافاً وثقلاً﴾ بينهما طباق .

٨ - ﴿بعُدت عليهم الشقة﴾ استعارة الشقة للمسافة الطويلة البعيدة التي توجب المشقة على النفس .

٩ - ﴿عفا الله عنك﴾ خبر بقصد تقديم المسرة على المضرة وقد أحسن من قال : إن من لطف الله بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب .

فكائدة : روي أن اعرابياً قال لابن عمر : أخبرني عن قول الله تعالى ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ فقال ابن عمر : من كنزها فلم يؤدّ زكاتها فويل له ، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما أنزلت جعلها الله طهرةً للأموال ، وما أبالي لو كان لي مثل أحد ذهباً أزيه ، وأعمل فيه بطاعة الله تعالى (١) !!

تَبِيَهُ : دلت الآية ﴿إِذ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ على عظيم فضل الصديق وجليل قدره ، إذ جعله الله صاحب الرسول في الغار ، ورفيقه في الهجرة ، ولهذا قال العلماء : من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر لأنه رد كتاب الله تعالى .

لَطِيفَةٌ : عن حيان بن زيد قال : نفرنا مع صفوان بن عمرو ، فرأيت شيخاً كبيراً هرمًا ، قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت عليه فقلت : يا عم لقد أعذر الله إليك قال : فرفع حاجبيه فقال يا ابن أخي : استنفرنا الله خفافاً وثقلاً ، ألا إنه من يحبه الله يبتليه ، ثم يعيده الله فيقيه ، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ، ولم يعبد إلا الله عز وجل^(١) .
أقول : رحم الله تلك الأنفس الزكية التي باعت أرواحها في مرضاة الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً .. إِلَى .. وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾
من آية (٤٦) إلى نهاية آية (٦٠) .

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى المنافقين وتباطؤهم عن الخروج للجهاد ، ذكر هنا بعض أعمالهم القبيحة من الكيد ، والمكر ، وإثارة الفتن بين المسلمين ، والفرح بأذاهم . وذكر تعالى أنهم لو خرجوا مع المؤمنين ما زادوا الجيش إلا ضعفاً واندحاراً بتفريق الجماعة وتشيت الكلمة ، وذكر كثيراً من مثالبهم وجرائمهم الشنيعة .

اللَّفْكَرُ : ﴿انْبِعَاتِهِمْ﴾ الانبعاث : الانطلاق في الأمر ﴿فَبَطَّهْمُ﴾ التبيط : رد الإنسان عن الفعل الذي هم به ﴿خِبَالًا﴾ الخبال : الشر والفساد في كل شيء ومنه المخبول للمعتوه الذي فسد عقله ﴿وَلَا وُضِعُوا﴾ الايضاع : سرعة السير قال الراجز :

يا ليتني فيها جذع أحبُّ فيها وأضع

يقال : وضع البعير إذا أسرع السير ، وأوضع الرجل إذا سار بنفسه سيراً حثيثاً^(٢) ﴿يَجْمَحُونَ﴾ جمع : نفر بإسراع من قولهم فرس جموح أي لا يرده اللجام ﴿يَلْمِزُكَ﴾ اللمز : العيب يقال : لمزه إذا عابه قال الجوهري : وأصله الإشارة بالعين ونحوها ورجل لماز أي عيَّاب^(٣) ﴿الغارمين﴾ الغارم : المديون قال الزجاج : أصل الغرم لزوم ما يشق ، والغرام العذاب اللازم الشاق وسمي العشق غراماً لكونه أمراً شاقاً ولازماً ، وسمي الدين غراماً لكونه شاقاً على الإنسان^(٤) .

سَبَبُ النَّزُولِ : لما أراد ﷺ الخروج إلى تبوك قال « للجد بن قيس » - وكان منافقاً - يا أبا وهب : هل لك في جلاد بني الأصفر - يعني الروم - تتخذ منهم سراري ووصفاء ؟ فقال يا رسول الله : لقد عرف قومي أنني مغرم بالنساء ، وإنني أخشى إن رأيت بني الأصفر ألا أصبر عنهن فلا تفتني وأذن لي في القعود

(١) الطبري ١٠/١٣٨ . (٢) الرازي ١٦/٨١ . (٣) الصحاح للجوهري . (٤) البحر ٥/٣٥ .

* وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾
 لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوا كُرْهًا إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا لِكُلِّ لَكْرٍبٍ يُغْوِنَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
 بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَهُ ﴿٤٨﴾
 وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنْذِنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ
 وَأَعْيُنِكَ بِمَالِي ، فَأَعْرِضْ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ : قَدْ أَذْنَتُ لَكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿٥٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنْذِنَ لِي وَلَا
 تَفْتِنِي ﴿٥١﴾ الآية .

التفسير : ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عُدَّة﴾ أي ولو أراد هؤلاء المنافقون الخروج معك للجهاد أو كانت لهم نية في الغزو لاستعدوا له بالسلاح والزراد ، فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ أي ولكن كره الله خروجهم معك ﴿فثبطهم﴾ أي كسر عزمهم وجعل في قلوبهم الكسل ﴿وقيل أقدوا مع القاعدين﴾ أي اجلسوا مع المخلفين من النساء والصبيان وأهل الأعدار ، وهو ذم لهم لإيثارهم القعود على الخروج للجهاد ، والآية تسلية له ﷺ على عدم خروج المنافقين معه إذ لا فائدة فيه ولا مصلحة بل فيه الأذى والمضرة ولهذا قال ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ أي لو خرجوا معكم ما زادوكم إلا شراً وفساداً ﴿ولأضعوا خلالكم﴾ أي أسرعوا بينكم بالمشي بالنميمة ﴿يبغونكم الفتنة﴾ أي يطلبون لكم الفتنة بإلقاء العداوة بينكم ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ أي وفيكم ضعفاء قلوب يصغون إلى قولهم ويطيعونهم ﴿٥١﴾ ﴿والله عليم بالظالمين﴾ أي عالم بالمنافقين علماً محيطاً بضآئيرهم وظواهرهم ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ أي طلبوا لك الشر بتشتيت شملك وتفريق صحبك عنك من قبل غزوة تبوك كما فعل ابن سلول حين انصرف بأصحابه يوم أحد ﴿وقلبوا لك الأمور﴾ أي دبروا لك المكائد والحيل وأداروا الآراء في إبطال دينك ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله﴾ أي حتى جاء نصر الله وظهر دينه وعلا على سائر الأديان ﴿وهم كارهون﴾ أي والحال أنهم كارهون لذلك لنفاقهم ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين من يقول لك يا محمد ائذن لي في القعود ولا تفتني بسبب الأمر بالخروج قال ابن عباس : نزلت في «الجد ابن قيس» حين دعاه الرسول ﷺ إلى جلاذ بني الأصفر ، فقال يا رسول الله : ائذن لي في القعود عن الجهاد ولا تفتني بالنساء ﴿٥٣﴾ ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ أي ألا إنهم قد سقطوا في عين الفتنة فيما أرادوا الفرار منه ، بل فيما هو أعظم وهي فتنة التخلف عن الجهاد وظهور كفرهم ونفاقهم قال أبو السعود : وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة ، المفصحة عن ترددهم في دركات الردى

(١) أسباب النزول ص ١٤٢ . (٢) وقال مجاهد : المعنى وفيكم عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم ، والمعنى الأول أظهر وهو الأشهر ، وإليه ذهب قتادة واختاره ابن كثير . (٣) انظر سبب النزول .

تَسُوهُمُ وَإِنْ تَصَبَّكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٦﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥٧﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٩﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٦٠﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ

أسفل سافلين ﴿١﴾ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴿٢﴾ أي لا مفر لهم منها لأنها محيطة بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم ، وفيه وعيد شديد ﴿٣﴾ إن تصبك حسنة تسوهم ﴿٤﴾ أي إن تصبك في بعض الغزوات حسنة ، سواء كانت ظفراً أو غنيمة ، يسوهم ذلك ﴿٥﴾ وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ﴿٦﴾ أي وإن تصبك مصيبة من نكبة وشدة ، أو هزيمة ومكروه وفرحوا به ويقولوا : قد احتطنا لأنفسنا وأخذنا بالحذر والتهيؤ فلم نخرج للقتال من قبل أن يحل بنا البلاء ﴿٧﴾ ويتولوا وهم فرحون ﴿٨﴾ أي وينصرفوا عن مجتمعهم وهم فرحون مسرورون ﴿٩﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴿١٠﴾ أي لن يصيبنا خير ولا شر ، ولا خوف ولا رجاء ، ولا شدة ولا رخاء ، إلا وهو مقدر علينا مكتوب عند الله ﴿١١﴾ هو مولانا ﴿١٢﴾ أي ناصرنا وحافظنا ﴿١٣﴾ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿١٤﴾ أي ليفوض المؤمنون أمورهم إلى الله ، ولا يعتمدوا على أحد سواه ﴿١٥﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنِ ﴿١٦﴾ أي قل لهم هل تنتظرون بنا يا معشر المنافقين إلا إحدى العاقبتين الحميدتين : إما النصر ، وإما الشهادة ، وكل واحدة منهما شيء حسن !! ﴿١٧﴾ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴿١٨﴾ أي ونحن ننتظر لكم أسوأ العاقبتين الوخيمتين : أن يهلككم الله بعذاب من عنده يستأصل به شأفتكم ، أو يقتلكم بأيدينا ﴿١٩﴾ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴿٢٠﴾ أي انتظروا ما يحل بنا ونحن ننتظر ما يحل بكم ، وهو أمر يتضمن التهديد والوعيد ﴿٢١﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ ﴿٢٢﴾ أي قل لهم انفقوا يا معشر المنافقين طائعين أو مكريين ، فمهما أنفقتم الأموال فلن يتقبل الله منكم قال الطبري : وهو أمر معناه الخبر كقوله ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ والمعنى لن يتقبل منكم سواء أنفقتم طوعاً أو كرهاً ﴿٢٣﴾ إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴿٢٤﴾ تعليل لرد إنفاقهم أي لأنكم كنتم عتاة متمردين خارجين عن طاعة الله ، ثم أكد هذا المعنى بقوله ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ أي وما منع من قبول النفقات منهم إلا كفرهم بالله ورسوله ﴿٢٥﴾ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ﴿٢٦﴾ أي ولا يأتون إلى الصلاة إلا وهم متثاقلون ﴿٢٧﴾ ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴿٢٨﴾ أي ولا ينفقون

إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ
 مِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾
 وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضًا وَإِن لَّا يَعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ
 رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

أموالهم إلا بالإكراه لأنهم يعدونها مغرمًا قال في البحر : ذكر تعالى السبب المانع من قبول نفقاتهم وهو الكفر
 واتبعه بما هو مستلزم له وهو إتيانهم الصلاة كسالي ، وإيتاء النفقة وهم كارهون ، لأنهم لا يرجون بذلك
 ثواباً ولا يخافون عقاباً ، وذكر من أعمال البر هذين العاملين الجليلين وهما : الصلاة ، والنفقة ، لأن
 الصلاة أشرف الأعمال البدنية ، والنفقة في سبيل الله أشرف الأعمال المالية ^(١) ﴿ فلا تعجبك أموالهم
 ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ﴾ أي لا تستحسن أيها السامع ولا تفتتن بما أوتوا
 من زينة الدنيا ، وبما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد ، فظاهرها نعمة وباطنها نقمة ، إنما يريد الله
 بذلك استدراجهم ليعذبهم بها في الدنيا قال البيضاوي : وعذابهم بها بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها
 من المتاعب ، وما يرون فيها من الشدائد والمصائب ^(٢) ﴿ وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ أي ويموتوا
 كافرين مشغولين بالتمتع بزينة الدنيا عن النظر في العاقبة فيشتد في الآخرة عذابهم ﴿ ويحلفون بالله
 إنهم لمنكم وما هم منكم ﴾ أي ويقسمون بالله لكم إنهم لمؤمنون مثلكم ، وما هم بمؤمنين لكفر قلوبهم
 ﴿ ولكنهم قوم يفرقون ﴾ أي ولكنهم يخافون منكم أن تقتلوهم كما تقتلون المشركين ، فيظهرون
 الإسلام تقية ويؤيدونه بالإيمان الفاجرة ﴿ لو يجدون ملجأً ﴾ أي حصناً يلجأون إليه ﴿ أو مغارات ﴾
 أي سراديب يختفون فيها ﴿ أو مدخلاً ﴾ أي مكاناً يدخلون فيه ولو ضيقاً ﴿ لو لولوا إليه وهم
 يجمحون ﴾ أي لأقبلوا إليه يسرعون إسرعاً كالفرس الجموح ، والمراد من الآية تنبيه المؤمنين إلى أن المنافقين
 لو قدروا على الهروب منهم ولو في شر الأمكنة وأخسها لفعلوا لشدة بغضهم لكم فلا تغتروا بأيمانهم الكاذبة
 أنهم معكم ومنكم ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ أي ومنهم من يعيبك يا محمد في قسمة
 الصدقات ﴿ فإن أعطوا منها رضوا ﴾ أي فإن أعطيتهم من تلك الصدقات استحسنا فعلك ﴿ وإن لم
 يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾ أي وإن لم تعطهم منها ما يرضيهم سخطوا عليك وعابوك قال
 المفسرون : كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين فجاء إليه رجل من المنافقين يقال له « ذو الخويصرة »
 فقال : اعدل يا محمد فإنك لم تعدل فقال ﷺ : (ويلك إن لم أعدل فمن يعدل ؟) ^(٣) ، الحديث
 ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ﴾ أي ولو أن هؤلاء الذين عابوك يا محمد رضوا بما
 أعطيتهم من الصدقات وقنعوا بتلك القسمة وإن قلت قال أبو السعود : وذكر الله عز وجل للتعظيم

* إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرْمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

والتنبيه على أن ما فعله الرسول كان بأمره سبحانه^(١) ﴿وقالوا حسبنا الله﴾ أي كفانا فضل الله وإنعامه علينا ﴿سيؤتينا الله من فضله ورسوله﴾ أي سيرزقنا الله صدقة أو غنيمة أخرى خيراً وأكثر مما آتانا ﴿إنا إلى الله راغبون﴾ أي إنا إلى طاعة الله وإفضاله وإحسانه لراغبون ، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره لكان خيراً لهم قال الرازي : وترك الجواب في هذا المعرض أدل على التعظيم والتهويل وهو كقولك للرجل : لو جئتنا . . ثم لم تذكر الجواب أي لو فعلت ذلك لرأيت أمراً عظيماً^(٢) ، ثم ذكر تعالى مصرف الصدقات فقال ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ قال الطبري : أي لا تنال الصدقات إلا للفقراء والمساكين ومن ساهم الله جل ثناؤه^(٣) والآية تقتضي حصر الصدقات وهي الزكاة في هذه الأصناف الثمانية فلا يجوز أن يعطى منها غيرهم ، والفقير الذي له بلغة من العيش ، والمسكين الذي لا شيء له قال يونس : سألت اعرابياً أفقر أنت ؟ فقال : لا والله بل مسكين ، وقيل : المسكين أحسن حالاً من الفقير ، والمسألة خلافية ﴿والعاملين عليها﴾ أي الجباة الذين يجمعون الصدقات ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ هم قوم من أشرف العرب أعطاهم ﷺ ليتألف قلوبهم على الإسلام ، وروى الطبري عن صفوان بن أمية قال : لقد أعطاني رسول الله ﷺ وإنه لأبغض الناس إلي ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي^(٤) ﴿وفي الرقاب﴾ أي وفي فك الرقاب لتخليصهم من الرق ﴿والغارمين﴾ أي المديونين الذين أثقلهم الدين ﴿وفي سبيل الله﴾ أي المجاهدين والمرابطين وما تحتاج إليه الحرب من السلاح والعتاد ﴿وابن السبيل﴾ أي الغريب الذي انقطع في سفره ﴿فريضة من الله﴾ أي فرضها الله جل وعلا وحددها ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بمصالح العباد ، حكيم لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة قال في التسهيل : وإنما حصر مصرف الزكاة في تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين فيها فاتصلت هذه في المعنى بآية اللزم في الصدقات^(٥) .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿أعدوا له عدة﴾ بينهما جناس الاشتقاق وكذلك في قوله ﴿أعدوا مع القاعدین﴾ .

٢ - ﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ قال الطيبي : فيه استعارة تبعية حيث شبه سرعة إفسادهم ذات البين بالنميمة بسرعة سير الراكب ثم استعير لها الإيضاع وهو للائيل ، والأصل ولأوضعوا ركائب غنائمهم خلالكم^(٦) .

(١) أبو السعود ٢/٢٧٧ . (٢) الرازي ١٦/٩٩ . (٣) الطبري ١٠/١٥٧ .

(٤) الطبري ١٠/١٦٢ . (٥) التسهيل ٢/٧٩ . (٦) روح المعاني ١٠/١١٢ .

٣- ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ فيه استعارة حيث شبه وقوعهم في جهنم بإحاطة العدو بالجند أو السوار بالمعصم ، وإيثار الجملة الإسمية للدلالة على الثبات والاستمرار .

٤- ﴿إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة . . ﴾ الآية فيها من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة .

٥- ﴿وعلى الله فليتوكل﴾ تقديم الجار والمجرور على الفعل لإفادة القصر ، وإظهار الاسم الجليل مكان الاضمار لتربية الروعة والمهابة .

٦- ﴿طوعاً أو كرهاً﴾ بينهما طباق وكذلك بين الرضا والسخط في قوله ﴿رضوا وإن لم يُعطوا إذا هم يسخطون﴾ .

٧- ﴿عليم حكيم﴾ صيغة فعيل للمبالغة أي عظيم العلم والحكمة .

لطيفة : قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿وقيل اقعدا مع القاعدین﴾ هذا ذم لهم وتعجيز وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت^(١) على حد قول القائل :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

تنبية : قال ابن كثير : لما قدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوسٍ واحدة ، وحاربتة يهود المدينة و منافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال ابن أبي وأصحابه : هذا أمر قد توجه - يعني أقبل - فدخلوا في الإسلام ظاهراً ، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله ، أغاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى ﴿وظهر أمر الله وهم كارهون﴾^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي . . إلى . . من ولي ولا نصير﴾

من آية (٦١) إلى نهاية آية (٧٤) .

المناسكة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين توضيحاً لخطرهم ، وتحذيراً للمؤمنين من مكائدهم ، وفي هذه الآيات ذكر تعالى نوعاً آخر من قبائحهم ، وهو إيذاؤهم للرسول ﷺ ، وإقدامهم على الأيمان الكاذبة ، واستهزاؤهم بآيات الله وشريعته المطهرة ، إلى غير ما هنالك من الأعمال المنكرة ، والأفعال الخبيثة .

اللغز : ﴿أذن﴾ قال الجوهري : يقال رجل أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد ، يستوي فيه الواحد والجمع^(٣) وقال الزمخشري : الأذن : الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ، ويقبل قول كل أحد ،

سمي بالجارحة التي هي آلة السماع^(١) . قال الشاعر :

قد صرت أذنًا للوشاة سمیعة ينالون من عرضي ولو شئت ما نالوا

﴿يحادد﴾ المحادة : المخالفة والمعاداة كالمشاقة وهي أن يكون كل واحد من المتخاصمين في حد وشق غير ما عليه صاحبه ﴿بخلاقهم﴾ الخلاق : النصيب كقوله ﴿وما له في الآخرة من خلاق﴾ وقد تقدم ﴿وخضتم﴾ الخوض : الدخول في اللهو والباطل وهو مستعار من الخوض في الماء ﴿حبطت﴾ بطلت وذهب ثوابها ﴿والمؤتفكات﴾ الائتفak : الانقلاب ويراد بهم قوم لوط لأن أرضهم ائتفكت بهم أي انقلبت ، وقيل هو مجاز عن انقلاب حالها من الخير إلى الشر كقول ابن الرومي :

وما الخسف أن تلقى أسافل بلدة أعاليها بل أن تسود الأراذل

سَبَبُ النَّزُولِ : أ - كان جماعة من المنافقين يؤذون رسول الله ويقولون فيه ما لا ينبغي ، فقال بعضهم : لا تفعلوا فإننا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا ، فقال « الجلاس بن سويد » : نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإنما محمد أذن سامعة فأنزل الله ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن . . .﴾^(٢)

ب - قال مجاهد : كان المنافقون يعيبون رسول الله ﷺ فيما بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي سرنا فأنزل الله ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم . . .﴾^(٣) الآية .

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذنٌ قُلْ أذنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٦﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُورًا لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ

النَّفْسِيرِ : ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي﴾ أي ومن المنافقين أناس يؤذون الرسول بأقوالهم وأفعالهم ﴿ويقولون هو أذن﴾ أي يصدق بكل خبر يسمعه ﴿قل أذن خير لكم﴾ أي هو أذن خير لا أذن شر ، يسمع الخير فيعمل به ، ولا يعمل بالشر إذا سمعه ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ أي يصدق الله فيما يقول ، ويصدق المؤمن فيما يخبرونه به لعلمه بإخلاصهم ﴿ورحمة للذين آمنوا منكم﴾ أي وهو رحمة للمؤمنين لأنه كان سبب إيمانهم ﴿والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ أي والذين يعيبون الرسول ويقولون ما لا يليق بجنابه الشريف لهم عذاب موجه في الآخرة ﴿يخلفون بالله لكم ليرضوكم﴾ أي يخلفون لكم ليرضوكم ﴿وما قالوا شيئاً فيه انتقاص للرسول ليرضوكم بتلك الأيمان﴾ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴿أي والحال أنه تعالى ورسوله أحق بالإرضاء ، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة ، والمتابعة ، وتعظيم أمره عليه السلام﴾ إن كانوا مؤمنين ﴿أي إن كانوا حقاً مؤمنين فليرضوا

(١) الكشاف ٢/٢٨٤ . (٢) أسباب النزول ص ١٤٣ . (٣) زاد المسير ٣/٤٦٣ .

يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ
 الْعَظِيمِ ﴿١٢٨﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجُ
 مَا تَحْذَرُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلِ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٣٠﴾
 لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةَ بَأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٣١﴾ الْمُنَافِقُونَ
 وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ

الله ورسوله ﴿الم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله﴾ أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أنه من يعادي ويخالف الله والرسول ، والاستفهام للتوبيخ ﴿فأن له نار جهنم خالداً فيها﴾ أي فقد حق دخوله جهنم وخلوده فيها ﴿ذلك الخزي العظيم﴾ . أي ذلك هو الذل العظيم ، والشقاء الكبير ، المقرون بالفضيحة حيث يفتضحون على رءوس الأشهاد ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾ أي يخشى المنافقون أن تنزل فيهم سورة تكشف عما في قلوبهم من النفاق ﴿قل استهزئوا﴾ أي استهزئوا بدين الله كما تشتهون وهو أمر للتهديد كقوله ﴿إعملوا ما شئتم﴾ ﴿إن الله مخرج ما تحذرون﴾ أي مظهر ما تخفونه وتحذرون ظهوره من النفاق ، قال الزمخشري : كانوا يستهزئون بالإسلام ويحذرون أن يفضحهم الله بالوحي ، حتى قال بعضهم : والله لا أرانا إلا شر خلق الله ، ولوددت أنني جلدت مائة جلدة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا^(١) ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عما قالوا من الباطل والكذب ، في حقه وفي حق الإسلام ، ليقولون لك ما كنا جادين ، وإنما كنا نمزح ونلعب للترويح عن النفس قال الطبري : بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوته إلى تبوك وبين يديه ناس من المنافقين ، فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات !! فأطلع الله نبيه فاتاهم فقال : قلت كذا وكذا فقالوا يا نبي الله : إنما كنا نخوض ونلعب فنزلت^(٢) ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ أي قل لهؤلاء المنافقين : أتستهزئون بدين الله وشرعه ، وكتابه ورسوله ؟ والاستفهام للتوبيخ ، ثم كشف تعالى أمرهم وفضح حالهم فقال ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ أي لا تعتذروا بتلك الأيمان الكاذبة فإنها لا تنفعكم بعد ظهور أمركم ، فقد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول بعد إظهاركم الإيمان ﴿إن نغف عن طائفة منكم﴾ أي إن نغف عن فريق منكم لتوبتهم وإخلاصهم ﴿نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾ أي نعذب فريقاً آخر لأنهم أصروا على النفاق والإجرام ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ أي المنافقون والمنافقات صنف واحد ، وهم متشابهون في النفاق والبعد عن الإيمان ، كتشابه أجزاء الشيء الواحد قال في

(١) الكشاف ٢/ ٢٨٦ . (٢) هذه رواية قتادة كذا في الطبري .

فَنَسِيهِمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَالْعَذَابُ مُقِيمٌ ﴿١٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِمَخْلَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِمَخْلَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِمَخْلَقِهِمْ وَخَضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أَوْلَيْتُكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَوْلَيْتُكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ

الكشاف : وأريد بقوله ﴿بعضهم من بعض﴾ نفي أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيبهم في قولهم ﴿ويخلفون بالله إنهم لمنكم﴾^(١) ثم وصفهم بما يدل على مخالفة حالهم لحال المؤمنين فقال ﴿يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف﴾ أي يأمرون بالكفر والمعاصي وينهون عن الإيمان والطاعة ﴿ويقبضون أيديهم﴾ أي يسكون أيديهم عن الانفاق في سبيل الله ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ أي تركوا طاعته فتركهم من رحمته وفضله وجعلهم كالمُنْسِينَ ﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾ أي الكاملون في التمرد والعصيان ، والخروج عن طاعة الرحمن ، وكفى به زجراً لأهل النفاق ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم﴾ أي وعد الله المنافقين والمتجاهرين بالكفر بإصلاهم في نار جهنم ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿هي حسبهم﴾ أي هي كفايتهم في العذاب ، إذ ليس هناك عذاب يعادلها ﴿ولعنتهم الله﴾ أي أبعدهم من رحمته وأهانهم ﴿ولههم عذاب مقيم﴾ أي دائم لا ينقطع ﴿كالذين من قبلكم﴾ أي حالكم يا معشر المنافقين كحال من سبقكم من المكذبين ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿كانوا أشد منكم قوة﴾ أي كانوا أقوى منكم أجساماً وأشد بطشاً ﴿وأكثر أموالاً وأولاداً﴾ أي وكانوا أوفر أموالاً ، وأكثر أولاداً ، ومع ذلك أهلكهم الله فاحذروا أن يحل بكم ما حل بهم ﴿فاستمتعوا بخلافهم﴾ أي تمتعوا بنصيبيهم وحظهم من ملاذ الدنيا ﴿فاستمتعتم بخلافكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلافهم﴾ أي استمتعتم بملاذ الدنيا وشهواتها كما استمتع أولئك الذين سبقوكم بنصيبيهم منها ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ أي وخضتم في الباطل والضلال كما خاضوا هم فيه قال الطبري : المعنى سلكتم أيها المنافقون سبيلهم في الاستمتاع بالدنيا كما استمتع الأمم الذين كانوا من قبلكم ، وخضتم في الكذب والباطل على الله كخوض تلك الأمم قبلكم ، فاحذروا أن يحل بكم من عقوبة الله مثل الذي حل بهم^(٢) ﴿وأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من قبيح الفعال ذهبت أعمالهم باطلاً فلا ثواب لها إلا النار ﴿وأولئك هم الخاسرون﴾ أي وأولئك هم الكاملون في الخسران ﴿ألم يأتهم نبياً الذين من قبلهم﴾ أي ألم يأت هؤلاء المنافقين خبر الأمم السابقين حين عصوا الرسل ماذا حل

لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٦٥﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٦﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٧﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ

بهم من العقوبة ؟ ﴿قوم نوح وعاد وثمود﴾ أي قوم نوح الذين أهلكوا بالطوفان وقوم هود « عاد » الذين أهلكوا بالريح ، وقوم صالح « ثمود » الذين أهلكوا بالصيحة ﴿وقوم إبراهيم﴾ الذين أهلكوا بسلب النعمة ﴿وأصحاب مدين﴾ قوم شعيب الذين أهلكوا بعذاب يوم الظلة ﴿والمؤتفكات﴾ قرى قوم لوط الذين انقلبت بهم فصار عاليها سافلها ، وأمطروا حجارة من سجيل ﴿أتتهم رسلهم بالبينات﴾ أي جاءتهم رسلهم بالمعجزات فكذبوهم ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ أي فما أهلكهم الله ظلماً إنما أهلكهم بإجرامهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصي ، أفامن هؤلاء المنافقون أن يسلك بهم في الانتقام سبيل أسلافهم المكذبين من أهل الإجماع ؟ ولما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة أعقبها بذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ أي هم إخوان في الدين يتناصرون ويتعاضدون ﴿يأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي يأْمُرُونَ النَّاسَ بِكُلِّ خَيْرٍ وَجَمِيلٍ يَرْضِي اللَّهَ ، وَيَنْهَوْنَهُمْ عَنِ كُلِّ قَبِيحٍ يَسْخَطُ اللَّهَ ، فَهَمَّ عَلَى عَكْسِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي يُوَدِّنُهَا عَلَى الْوَجْهِ الْكَامِلِ ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي يُعْطُونَهَا إِلَى مُسْتَحِقِّيهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي فِي كُلِّ أَمْرٍ وَنَهْيٍ ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي سَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، وَيَفِيضُ عَلَيْهِمْ جَلَالَاتِ نِعْمَتِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ أَيْ غَالِبٌ لَا يُغْلَبُ مِنْ أَطَاعِهِ وَيَذَلُّ مِنْ عَصَاةٍ﴾ ﴿حَكِيمٌ﴾ أَيْ يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ عَلَى أَسَاسِ الْحِكْمَةِ ، فِي النِّعْمَةِ وَالنَّقْمَةِ ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيْ وَعَدَّهُمْ عَلَى إِيمَانِهِمْ بِجَنَّاتٍ وَارِفَةِ الظَّلَالِ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا الْأَنْهَارُ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيْ لَا يَبْشُرُونَ فِيهَا أَبَداً ، لَا يَزُولُ عَنْهُمْ نَعِيمُهَا وَلَا يَبِيدُ ﴿وَمَسَاكِنٌ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أَيْ وَمَنَازِلٌ يَطِيبُ فِيهَا الْعَيْشُ فِي جَنَّاتِ الْخُلْدِ وَالْإِقَامَةِ قَالَ الْحَسَنُ : هِيَ قُصُورٌ مِنَ اللَّوْلُؤِ وَالْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ وَالزَّبْرِجَدِ ﴿١﴾ ﴿وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرَ﴾ أَيْ وَشَيْءٍ مِّنَ رِضْوَانِ اللَّهِ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَفِي الْحَدِيثِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ الْجَنَّةِ : « يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ : لِيَبْكُ رَبُّنَا وَسَعْدِيكَ فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نُتَعْطَ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ! فَيَقُولُ : أُعْطِيْتُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُونَ : وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أَحَلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً » ﴿٢﴾ ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أَيْ ذَلِكَ هُوَ الظَّفَرُ

وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ
وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنْبَلُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ
خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

العظيم الذي لا سعادة بعده ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ قال ابن عباس : جاهد الكفار
بالسيف ، والمنافقين باللسان ﴿واغلظ عليهم﴾ أي اشدد عليهم بالجهاد والقتال والارعاب ﴿ومأواهم
جهنم﴾ أي مسكنهم ومثواهم جهنم ﴿وبئس المصير﴾ أي بئس المكان الذي يصر إليه جهنم ﴿يخلفون
بالله ما قالوا﴾ أي يخلف المنافقون أنهم ما قالوا الذي بلغك عنهم من السب قال قتادة : نزلت في عبد
الله بن أبي ، وذلك أنه اقتتل رجلان : جهني وانصاري ، فعلا الجهني على الأنصاري ، فقال ابن سلول
للأنصار : ألا تنصرون أحاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل « سمن كلبك يأكلك »
فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه يسأله فجعل يخلف بالله ما قاله فأنزل الله فيه هذه
الآية (١) ﴿ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ هي قول ابن سلول « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها
الأذل » ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ أي أظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ قال ابن
كثير : هم نفر من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ عند عودته من تبوك وكانوا بضعة عشر رجلاً (٢) ﴿وما
تقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ أي ما عابوا على الرسول وما له عندهم ذنب إلا أن الله
أغناهم ببركته ، ويؤمن سعادته ، وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب . . ثم دعاهم تبارك وتعالى إلى التوبة
فقال ﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم﴾ أي فإن يتوبوا عن النفاق يكن رجوعهم وتوبتهم خيراً لهم وأفضل
﴿وإن يتولوا﴾ أي عرضوا ويصروا على النفاق ﴿يعذبهم الله عذاباً أليماً﴾ أي يعذبهم عذاباً شديداً
﴿في الدنيا والآخرة﴾ أي في الدنيا بالقتل والأسر ، وفي الآخرة بالنار وسخط الجبار ﴿وما لهم في
الأرض من وليٍّ ولا نصير﴾ أي ليس لهم من ينقذهم من العذاب ، أو يشفع لهم فيخلصهم وينجيهم يوم
الحساب .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿هو أذن﴾ أصله هو كالأذن يسمع كل ما يقال له ، فحذف منه أداة التشبيه
ووجه الشبه فصار تشبيهاً بليغاً مثل زيد أسد .

٢ - ﴿يؤذون رسول الله﴾ أبرز اسم الرسول ولم يأت به ضميراً ﴿يؤذونه﴾ تعظيماً لشأنه عليه
السلام وجمعاً له بين الرتبتين العظيمتين « النبوة والرسالة » وإضافته إليه زيادة في التكريم والتشريف (٣) .

٣ - ﴿ذلك الخزي العظيم﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب للإيذان ببعده ودرجته في الهول
والفظاعة .

٤ - ﴿ويقبضون أيديهم﴾ قبض اليد كناية عن الشح والبخل ، كما أن بسطها كناية عن الجود والكرم .

٥ - ﴿نسوا الله فسيهم﴾ من باب المشاكلة لأن الله لا ينسى أي تركوا طاعته فتركهم تعالى من رحمته .

٦ - ﴿كالذين من قبلكم﴾ إلتفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التقرير والعتاب .

٧ - ﴿فاستمتعوا بخلاقهم . .﴾ الآية فيه إطناب والغرض منه الذم والتوبيخ لاشتغالهم بالمتاع الخسيس ، عن الشيء النفيس .

٨ - ﴿وما نعموا إلا أن أعناهم الله . .﴾ في الآية تأكيد المدح بما يشبه الذم على حد قول القائل « ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم » البيت .

فَكَايِدَةٌ : روى ابن كثير عن علي كرم الله وجهه قال : بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف : سيف للمشركين ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾ وسيف لأهل الكتاب ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . .﴾ وسيف للمنافقين ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾ وسيف للبغاة ﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾^(١) .

لطيفة : قال الإمام الفخر : لما وصف تعالى المؤمنين بكون بعضهم أولياء بعض ، ذكر بعده خمسة أمور بها يتميز المؤمن ، عن المنافق ، فالمنافق يأمر بالمنكر ، وينهى عن المعروف ، ولا يقوم إلى الصلاة إلا بكسل ، ويبخل بالزكاة وسائر الواجبات ، وإذا أمر بالمسارعة إلى الجهاد فإنه يتخلف ويشبط غيره ، والمؤمن بالصد منه فإنه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويؤدي الصلاة على الوجه الأكمل ، ويؤتي الزكاة ، ويسارع إلى طاعة الله ورسوله ، ولهذا قابل تعالى بين صفات المؤمنين ، وصفات المنافقين بقوله ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله﴾ كما قابل في الجزء بين نار جهنم والجنة فكانت مقابلة لطيفة^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله . . إلى . . فهم لا يعلمون﴾ من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٩٣) .

المناسكبة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين ، وتفضح أسرارهم ، وتكشف أحوالهم ، باعتبار خطرهم الداهم على الإسلام والمسلمين .

اللغز : ﴿أعقبهم﴾ قال الليث : يقال أعقبت فلاناً ندامة إذا صارت عاقبة أمره ذلك ، ويقال : أكل أكلة أعقبته سقماً أي حصل له بها السقم قال الهذلي :

أودى بني وأعقبوني حسرة بعد الرقاد وعبرة لا تقلع^(١)

﴿سرههم﴾ السر : ما ينطوي عليه الصدر ﴿نجواهم﴾ النجوى : ما يكون بين شخصين أو أكثر من الحديث مأخوذ من النجوة وهو الكلام الخفي ، كأن المتناجين منعاً إدخال غيرها معها ﴿يلمزون﴾ يعيبون واللمز : العيب ﴿المخلفون﴾ المخلف ، المتروك الذي تخلف عن الجهاد ﴿الطُول﴾ الغنى ﴿المعذرون﴾ جمع معذر كمقصر وهو الذي يعتذر بغير عذر قال الجوهري : هو الذي يعتذر بالكذب^(٢) وأصله من العذر وفي الأمثال «أعذر من أنذر» أي بالغ في العذر من تقدم إليك فأنذرك .

سبب النزول : - روي أن رجلاً يسمى ثعلبة جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : ادع الله أن يرزقني مالاً فقال : ويحك يا ثعلبة قليل تؤذي شكره ، خير من كثير ، لا تطيقه ، فقال : والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه ، فلم يزل يراجع حتى دعاه ، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود ، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما ، ثم نمت وكثرت حتى ترك الجمعة والجماعة ، فسأل رسول الله ﷺ عنه فأخبروه بخبره فقال : يا ويح ثعلبة ثلاثاً ، فأنزل الله ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن . . .﴾ الآية^(٣) فهلك في خلافة عثمان . . .

ب - عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه ، فقام عمر فقال يا رسول الله : أعلى عدو الله تصلي ؟ فقال : أخر عني يا عمر إني خيرت فاخترت فليل لي ﴿استغفر لهم﴾ الآية ولو أعلم أنني لو زدت على السبعين غفر له لزدت ، ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره فما كان إلا يسيراً حتى أنزل الله ﴿ولا تصل على أحدٍ منهم مات أبداً . . .﴾ الآية^(٤) .

* وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَإِنِ آتَيْنَاهُم مِّنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّنْ فَضْلِهِ

النفسير : ﴿ومنهم من عاهد الله﴾ أي ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه ﴿لئن آتانا من فضله﴾ أي لئن أعطانا الله من فضله ووسع علينا في الرزق ﴿لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾ أي لنصدقن على الفقراء والمساكين ، ولنعملن فيها بعمل أهل الخير والصلاح ﴿فلما آتاهم من فضله﴾ أي فلما رزقهم الله وأغناهم من فضله ﴿بخلوا به وتولوا وهم معرضون﴾ أي بخلوا

(١) الرازي ١٤٢/١٦ . (٢) القرطبي ٢٢٥/٨ . (٣) أسباب النزول ١٤٥ وهذا الذي ذكره المفسرون غير «ثعلبة بن أبي حاطب» الصحابي المشهور ، وإنما هذا رجل من المنافقين يسمى ثعلبة والله أعلم . (٤) مختصر ابن كثير ١٦١/٢ .

بِخُلُوبِهِمْ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مَعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ
وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبَ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ
الْمُطَوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا

بالإنفاق ونقضوا العهد وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه﴾
أي جعل الله عاقبتهم رسوخ النفاق في قلوبهم إلى يوم لقاء الله ﴿بما أخلفوا الله ما وعده﴾ أي
بسبب إخلافهم ما عاهدوا الله عليه من التصديق والصلاح ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ أي وبسبب كذبهم
في دعوى الإيمان والإحسان ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع
أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله يعلم أسرارهم وأحوالهم ، ما يخفونه في صدورهم ، وما يتحدثون به
بينهم ؟ ﴿وأن الله علام الغيوب﴾ أي لا يخفى عليه شيء مما غاب عن الأسماع والأبصار والحواس ؟
﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات﴾ أي يعيبون المطوعين المتبرعين من المؤمنين في
صدقاتهم ﴿والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم﴾ أي ويعيبون الذين لا يجدون إلا طاقتهم
فيهزون منهم روى الطبري عن ابن عباس قال : جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى
النبي ﷺ ، وجاء رجل من الأنصار بصاع من تمر ، فقال بعض المنافقين : والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء
به إلا رياءً ، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع فزلت ^(١) ﴿سخر الله منهم﴾ أي جازاهم
على سخريتهم وهو من باب المشاكلة ^(٢) ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي عذاب موجه ، هو عذاب الآخرة
المقيم ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ أمر ومعناه الخبر أي سواء يا محمد استغفرت لهؤلاء المنافقين أم لم
تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ قال الزمخشري :
والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير ^(٣) والمعنى مهما أكثرت من الاستغفار لهم وبالغت فيه فلن
يغفر الله لهم أبداً ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ أي عدم المغفرة لهم بسبب كفرهم بالله ورسوله
كفراً شنيعاً حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي لا يوفق للإيمان
الخارجين عن طاعته ، ولا يهديهم إلى سبيل السعادة ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ أي
فرح المنافقون الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة تبوك بعودهم بعد خروج الرسول ﷺ مخالفة له حين
سار وأقاموا ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ أي وكرهوا الخروج إلى الجهاد إشاراً للراحة

(١) الطبري ١٠/١٩٤ . (٢) المشاكلة : اتفاق الكلمتين لفظاً واختلافها معنى . (٣) الكشاف ٢/٢٩٥ .

أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ نَخْرُجَ مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

وخوف إتلاف النفس والمال لما في قلوبهم من الكفر والنفاق ﴿وقالوا لا تنفروا في الحر﴾ أي قال بعضهم لبعض : لا تخرجوا إلى الجهاد في وقت الحر ، وذلك أن النبي ﷺ استنفرهم إلى هذه الغزوة في حر شديد ، قال أبو السعود : وإنما قال ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ على قوله « وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو » إيذاناً بأن الجهاد في سبيل الله مع كونه من أجل الرغائب ، وأشرف المطالب ، التي يجب ان يتنافس فيها المتنافسون قد كرهوه ، كما فرحوا بأقبح القبائح الذي هو القعود خلاف رسول الله ﷺ وقالوا لإخوانهم تواصياً فيما بينهم بالشر والفساد لا تنفروا في الحر ، فقد جمعوا ثلاث خصال من الكفر والضلال : الفرح بالقعود ، وكرهية الجهاد ، ونهي الغير عن ذلك ^(١) ، قال تعالى رداً عليهم ﴿قل نار جهنم أشد حراً﴾ أي قل لهم يا محمد : نار جهنم التي تصيرون إليها بتثاقلكم عن الجهاد أشد حراً مما تحذرون من الحر المعهود ، فإن حر الدنيا يزول ولا يبقى ، وحر جهنم دائم لا يفتر ، فما لكم لا تحذرون نار جهنم ؟ قال الزمخشري : وهذا استجهال لهم ، لأن من تصون من مشقة ساعة ، فوقع بذلك التصون في مشقة الأبد كان أجهل من كل جاهل ^(٢) ﴿لو كانوا يفقهون﴾ أي لو كانوا يفهمون لنفروا مع الرسول ﷺ في الحر ، ليتقوا به حر جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا ولكنهم « كالمستجير من الرمضاء بالنار » ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ أمر يراد به الخبر معناه : فسيضحكون قليلاً ، وسيكون كثيراً ، قال ابن عباس : الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا ، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً ^(٣) ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ أي جزاء لهم على ما اجترحوا من فنون المعاصي ﴿فإن رجعت الله إلى طائفة منهم﴾ أي فإن رذك الله من غزوة تبوك إلى طائفة من المنافقين الذين تخلفوا بغير عذر ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ أي طلبوا الخروج معك لغزوة أخرى ﴿فقل لَنْ نخرجوا معي أبداً﴾ أي قل لهم لَنْ نخرجوا معي للجهاد أبداً ﴿ولن تقاتلوا معي عدواً﴾ أي لَنْ يكون لكم شرف القتال معي لأعداء الله ، وهو خبر معناه النهي للمبالغة ، جار مجرى الذم لهم لإظهار نفاقهم ﴿إنكم رضيتم بالقعود أول مرة﴾ أي قعدتم عن الخروج معي أول مرة حين لم تخرجوا إلى تبوك ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ أي فاقعدوا مع المتخلفين عن الغزو من النساء والصبيان ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ أي لا تصل يا محمد على أحد من هؤلاء المنافقين إذا مات ، لأن صلاتك

وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعْذَنَكَ أُولَئِكَ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيَّتِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ

رحمة ، وهم ليسوا أهلاً للرحمة ﴿ولا تقم على قبره﴾ أي لا تقف على قبره للدفن ، أو للزيارة والدعاء ﴿إنهم كفروا بالله ورسوله﴾ أي لأنهم كانوا في حياتهم منافقين يظهرن الإيمان وبيطنون الكفر ﴿وماتوا وهم فاسقون﴾ أي وماتوا وهم على نفاقهم خارجون من الإسلام متمردون في العصيان ، نزلت في ابن سلول^(١) ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم﴾ أي لا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد ﴿إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا﴾ أي لا يريد بهم الخير إنما يريد أن يعذبهم بها في الدنيا بالمصائب والنكبات ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ أي تخرج أرواحهم ويموتوا على الكفر منشغلين بالتمتع بالأموال والأولاد عن النظر والتدبر في العواقب ﴿وإذا أنزلت سورة﴾ التنكير للتفخيم أي وإذا أنزلت سورة جليلة الشأن ﴿أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله﴾ أي بأن آمنوا بالله بصدقٍ ويقين ، وجاهدوا مع الرسول لنصرة الحق وإعزاز الدين ﴿استأذنتك أولوا الطول منهم﴾ أي استأذنتك في التخلف أولو الغنى والمال الكثير ﴿وقالوا ذرنا نحن مع القاعدين﴾ أي دعنا نحن مع الذين لم يخرجوا للغزو وقعدوا لعذر ، قال تعالى تقيحاً لهم وذمماً ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة الذين تخلفوا في البيوت ﴿وطبع على قلوبهم﴾ أي ختم عليها ﴿فهم لا يفقهون﴾ أي فهم لا يفهمون ما في الجهاد وطاعة الرسول من السعادة ، وما في التخلف عنه من الشقاوة ﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ قال الرازي : لما شرح حال المنافقين ، بين حال الرسول والمؤمنين بالصد من حيث بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والتقرب إليه^(٢) والمعنى : إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا ، فقد جاهد من هو خير منهم وأخلص نية واعتقاداً ﴿وأولئك لهم الخيرات﴾ أي لهم منافع الدارين : النصر والغنيمة في الدنيا ، والجنة والكرامة في الآخرة ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي الفائزون بالمطلوب ﴿أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي أعد الله لهم على إيمانهم وجهادهم بساتين تجري من تحت قصورها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أي لا يبدون في الجنة أبداً ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم

(١) انظر سبب النزول السابق . (٢) الرازي ١٥٧/١٦ .

لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ
 وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٣﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ
 تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٤﴾ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ
 رِضْوَانًا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾

الذي لا فوز وراءه ﴿وجاء المعتذرون من الأعراب﴾ أي جاء المعتذرون من الأعراب الذين انتحلوا الأعدار وتخلفوا عن الجهاد ﴿ليؤذن لهم﴾ أي في ترك الجهاد ، وهذا بيان لأحوال المنافقين من الأعراب بعد بيان أحوال المنافقين من أهل المدينة ، قال البيضاوي : هم « أسد » و « غطفان » استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال ^(١) ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ أي وقعد عن الجهاد الذين كذبوا الله ورسوله في دعوى الإيمان ، وهم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا عن تخلفهم ﴿سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ وعيد لهم شديد أي سينال هؤلاء المتخلفين الكاذبين في دعوى الإيمان عذاب أليم بالقتل والأسر في الدنيا ، والنار في الآخرة ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ أي ليس على الشيوخ المسنين ، ولا على المرضى العاجزين الذين لا يستطيعون الجهاد لعجزهم أو مرضهم ﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ أي الفقراء الذين لا يجدون نفقة للجهاد ﴿حرج﴾ أي إثم في القعود ﴿إذا نصحوا لله ورسوله﴾ أي أخلصوا الإيمان والعمل الصالح ، فلم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم ، ولم يثيروا الفتن ، فليس على هؤلاء حرج إذا تركوا الغزو لأنهم أصحاب أعدار ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ أي ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل قال في التسهيل : وصفهم بالمحسنين لأنهم نصحوا لله ورسوله ، ورفع عنهم العقوبة والتعنيف واللوم ^(٢) ، وهذا من بليغ الكلام لأن معناه : لا سبيل لعاتب عليهم ، وهو جار مجرى المثل ﴿والله غفور رحيم﴾ أي عظيم المغفرة والرحمة حيث وسع على أهل الأعدار ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ نزلت في البكائين الذين أرادوا الغزو مع رسول الله ولم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه قال البيضاوي : هم البكاءون سبعة من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ وقالوا : قد نذرنا الخروج فاحملنا نغزو معك ، فقال عليه السلام : لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وهم يكون ^(٣) ﴿قلت لا أجد ما أحملكم عليه﴾ أي ليس عندي ما أحملكم عليه من الدواب ﴿تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً﴾ أي انصرفوا وأعينهم تسيل دمعاً من شدة الحزن ﴿ألا يجدوا ما ينفقون﴾ أي لأنهم لم يجدوا ما ينفقونه لغزوهم ، ولم يكن عند الرسول ما يحملهم عليه ﴿إنما السبيل

(١) البيضاوي ٢٣٠ . (٢) التسهيل ٨٣/٢ . (٣) البيضاوي ٢٣٠ .

على الذين يستأذنونك وهم أغنياء ﴿ أي إنما الإثم والجرح على الذين يستأذنونك في التخلف وهم قادرون على الجهاد وعلى الإنفاق لغناهم ﴾ ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة ﴿ وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ﴾ أي ختم عليها فهم لذلك لا يهتدون .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿ يعلم . . وعلام الغيوب ﴾ بين يعلم وعلام جناس الاشتقاق .

٢ - ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ التنوين في عذاب للتهويل والتفخيم .

٣ - ﴿ استغفر لهم أو لا نستغفر لهم ﴾ بينهما طباق السلب، وقد خرج الأمر عن حقيقته إلى التسوية .

٤ - ﴿ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة .

٥ - ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ الخوالف : النساء المقيمات في دار الحي بعد رحيل الرجال ففيه استعارة ، وإنما سمي النساء خوالف تشبيهاً لهن بالخوالف وهي الأعمدة تكون في أواخر بيوت الحي فشبهن لكثرة لزوم البيوت بالخوالف التي تكون في البيوت (١) .

٦ - ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ هو من عطف الخاص على العام اعتناءً بشأنهم أفاده الألويسي (٢) .

فكائِدَةٌ : قال الزمخشري عند قوله تعالى ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة ﴾ لفظ السبعين جار مجرى المثل في كلام العرب للتكثير قال علي بن أبي طالب :

لأصبحن العاص وابن العاصي سبعين ألفاً عاقدي النواصي

فذكرها ليس لتحديد العدد ، وإنما هو للمبالغة جرياً على أساليب العرب (٣) .

تَبْيِهُهُ : إنما منع ﷺ من الصلاة على المنافقين ، لأن الصلاة على الميت دعاء واستغفار واستشفاع له ، والكافر ليس بأهل لذلك .

لطيفة : اشتهر « حذيفة بن اليمان » بأنه صاحب سر الرسول ﷺ وقد قال له ﷺ : إني مسرٌ إليك سرّاً فلا تذكره لأحد ، إني نهيته أن أصلي على فلان وفلان ، لرهط ذوي عدد من المنافقين ، ولذلك كان عمر رضي الله عنه يأتيه فيقول : أسألك بالله هل عدّني رسول الله من المنافقين ؟ !

قال الله تعالى : ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم . . إلى . . والله عليم حكيم﴾
 من آية (٩٤) إلى نهاية آية (١١٠) .

المناسكة : لا تزال الآيات تتحدث عن المنافقين ، الذين تخلفوا عن الجهاد وجاءوا يؤكدون تلك الأعداء بالآيمان الكاذبة ، وقد ذكر تعالى من مكائد المنافقين «مسجد الضرار» الذي بنوه ليكون وكراً للتأمر على الإسلام والمسلمين ، وحذر نبيه ﷺ من الصلاة فيه ، لأنه لم يشيد على أساس من التقوى ، وإنما بني ليكون مركزاً لأهل الشقاق والنفاق ، ولتفريق وحدة المسلمين ، وقد اشتهر باسم مسجد الضرار .

اللغز : ﴿انقلبتم﴾ رجعتم ﴿رجس﴾ الرجس : الشيء الخبيث المستقذر ، وقد يطلق على النجس ﴿ومأواهم﴾ قال الجوهري : المأوى كل مكان يأوي إليه ليلاً أو نهاراً ﴿الأعراب﴾ جمع أعرابي قال أهل اللغة : يقال رجل عربي إذا كان نسبه في العرب وجمعه العرب ، ورجل أعرابي إذا كان بدوياً يطلب مساقط الغيث والكلأ ، سواء كان من العرب أو من مواليهم ، فمن استوطن القرى العربية فهم عرب ، ومن نزل البادية فهم أعراب^(١) ﴿أجدر﴾ أولى وأحق ﴿مغرم﴾ المغرم : الغرم والخسران وأصله من الغرام وهو لزوم الشيء^(٢) ﴿مردوا﴾ ثبتوا واستمروا وأصل الكلمة من اللين والملاسة والتجرد فكأنهم تجردوا للنفاق ، ومنه رملة مرداء لا نبت فيها ، وغصن أمرد لا ورق عليه ، وغلام أمرد لا لحية له ﴿مرجون﴾ الإرجاء : التأخير يقال : أرجأته أي أخرته ومنه المرجئة لأنهم أخروا العمل ﴿ضرار﴾ الضرار : محاولة الضر وفي الحديث (لا ضرر ولا ضرار)^(٣) ﴿إرصاداً﴾ الإرصاء : الترقب والانتظار يقال أرصدت له كذا إذا أعددت مرتقباً له به ﴿شفا﴾ الشفا : الحرف والشفير ومنه أشفى على كذا إذا دنا منه ﴿جرف﴾ : ما تجرفه السيول من الأودية ويبقى على الأطراف طين مشرف على السقوط وأصله من الجرف وهو اقتلاع الشيء من أصله ﴿هار﴾ ساقط يقال : تهور البناء إذا سقط وأصله هائر .

سبب النزول : روي أن «أبا عامر الراهب»^(٤) قد تنصر في الجاهلية وترهب ، فلما خرج رسول الله ﷺ عاداه لأنه ذهب رياسته وقال : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم - وسماه النبي ﷺ أبا عامر الفاسق - فلما انهزمت هوازن في حنين خرج إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، وابنوا لي مسجداً فإنني ذاهب إلى قيصر فآتي بجند الروم فأخرج محمداً وأصحابه ، فبنوا مسجداً إلى جانب مسجد قباء ، وأتوا رسول الله ﷺ فقالوا : إنا بنينا مسجداً للذي العلة ، والحاجة ، والليله المطيرة ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ، فدعا بثوبه ليلبسه فيأتيهم فنزل عليه القرآن ، وأخبر الله رسوله خبر مسجد الضرار وما هموا به ، فدعا ﷺ بعض الصحابة وقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله واحرقوه ، فذهبوا إليه فحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله ، وفيه نزلت ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً . .﴾^(٥) الآية .

(١) الرازي ١٦ / ١٦٥ . (٢) القرطبي ٨ / ٢٣٤ . (٣) رواه الدارقطني .

(٤) هو والد حفظة الذي غسلته الملائكة . (٥) أسباب النزول ١٤٩ .

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسِيرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
 وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سِيحِلْفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا
 أَنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعْرَضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾
 يَحِلْفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ
 كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ

التفسير : ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم﴾ أي يعتذر إليكم هؤلاء المتخلفون عن غزوة تبوك إذا رجعتم إليهم من سفركم وجهادكم ﴿قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم﴾ أي قل لهم لا تعتذروا فلن نصدقكم فيما تقولون ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ أي قد أخبرنا الله بأحوالكم وما في ضمائركم من الخبث والنفاق ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ أي سيرى الله ورسوله عملكم فيما بعد ، أتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه ؟ ﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ أي ثم ترجعون بعد مما تكتم إلى الله تعالى الذي يعلم السر والعلانية ، ولا تخفى عليه خافية ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي فيخبركم عند وقوفكم بين يديه بأعمالكم كلها ، ويجازيكم عليها الجزاء العادل ﴿سيحلفون بالله لكم﴾ أي سيحلف لكم بالله هؤلاء المنافقون ﴿إذا انقلبتم إليهم﴾ أي إذا رجعتم إليهم من تبوك معتذرين بالأعذار الكاذبة ﴿لتعرضوا عنهم﴾ أي لتصفحوا عنهم ولتعرضوا عن ذمهم ﴿فأعرضوا عنهم﴾ أي فأعرضوا عنهم إعراض مقت واجتناب ، وخلوهم وما اختاروا لأنفسهم من الكفر والنفاق قال ابن عباس : يريد ترك الكلام والسلام ^(١) ثم ذكر تعالى العلة فقال : ﴿إنهم رجس﴾ أي لأنهم كالقدر لخبث باطنهم ﴿ومأواهم جهنم﴾ أي مصيرهم إلى جهنم هي مسكنهم ومأواهم ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ أي جزاء لهم على نفاقهم في الدنيا ، وما اكتسبوه من الآثام ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم﴾ كرره لبيان كذبهم وللتحذير من الاغترار بمعاذيرهم الكاذبة ، أي يحلفون لكم بأعظم الأيمان لينالوا رضاكم ﴿فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ أي فإن رضيتهم عنهم فإن رضاكم لا ينفعهم لأن الله ساخط عليهم قال أبو السعود : ووضع الفاسقين موضع الضمير للتسجيل عليهم بالفسق والخروج عن الطاعة ^(٢) ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً﴾ الأعراب - أهل البدو - أشد كفراً وأعظم نفاقاً من أهل الحضرة ، لجفائهم وقسوة قلوبهم ، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير والصلاح ﴿وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ أي وهم أولى بالألمة يعلموا ما أنزل الله على رسوله من الأحكام والشرائع قال في البحر : وإنما كانوا أشد كفراً ونفاقاً

مَنْ يَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُرِّ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةَ السَّوِّءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ قُرْبَىٰ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٠﴾ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ

لفخرهم وطيشهم وتربيتهم بلا سائس ولا مؤدب ، فقد نشأوا كما شاءوا ، ولبعدهم عن مشاهدة العلماء ومعرفة كتاب الله وسنة رسوله ، فكانوا أطلق لساناً بالكفر من منافقي المدينة (١) ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بخلقهم حكيم في صنعه ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمًا﴾ أي ومن هؤلاء الأعراب الجهلاء من يعدُّ ما يصرفه في سبيل الله ويتصدق به غرامة وخسراناً ، لأنه لا ينفقه احتساباً فلا يرجوه ثواباً ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾ أي ينتظر بكم مصائب الدنيا ليتخلص من أعباء النفقة ﴿عليهم دائرة السوء﴾ جملة اعتراضية للدعاء عليهم أي عليهم يدور العذاب والهلاك ﴿والله سميع عليم﴾ أي سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي ومن الأعراب من يصدق بوحداية الله وبالبعث بعد الموت على عكس أولئك المنافقين ﴿ويتخذ ما ينفق قربات عند الله﴾ أي ويتخذ ما ينفق في سبيل الله ما يقربه من رضا الله ومحبهته ﴿وصلوات الرسول﴾ أي دعاء الرسول واستغفاره له ﴿ألا إنها قربة لهم﴾ ﴿ألا﴾ أداة استفتاح للتنبيه على الاعتناء بالأمر أي ألا إن هذا الإنفاق قربة عظيمة تقربهم لرضاء ربهم حيث أنفقوها مخلصين ﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ أي سيدخلهم الله في جنته التي أعدها للمتقين ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي غفور لأهل طاعته رحيم بهم حيث وفقهم للطاعة ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾ أي والسابقون الأولون في الهجرة والنصرة ، الذين سبقوا إلى الإيمان من الصحابة (٢) ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ أي سلكوا طريقهم واقتدوا بهم في سيرتهم الحسنة ، وهم التابعون ومن سار على نهجهم إلى يوم القيامة ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ وعدُّ بالغفران والرضوان أي رضي الله عنهم وأرضاهم ، وهذا أرقى المراتب التي يسعى إليها المؤمنون ، ويتنافس فيها المتنافسون أن يرضى الله تعالى عنهم ويرضيهم قال الطبري : رضي الله عنهم لطاعتهم إياه وإجابتهم نبيه ، ورضوا عنه لما أجزل لهم من الثواب على الطاعة والإيمان ﴿وأعدَّ لهم جنات تجري تحتها الأنهار﴾ أي وأعد لهم في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي مقيمين فيها من غير انتهاء ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ أي ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه قال في البحر : لما بين تعالى فضائل الأعراب المؤمنين ، بين حال هؤلاء السابقين ، ولكن

(١) البحر المحيط . (٢) روي عن الشعبي أنهم الذين يابعدوا بيعة الرضوان وقيل : هم الذين صلوا إلى القبليتين وما ذكرناه أنهم جميع الصحابة وهم السابقون في الهجرة والنصرة هو ما رجحه الطبري واختاره الفخر الرازي .

الْعَظِيمِ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ
سُنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا
وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ
بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنْ صَلَّوْتَكَ سَكَنَ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ
عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ

شتان ما بين الشاءين فهناك قال ﴿ألا إنها قربة لهم﴾ وهنا قال ﴿وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار﴾
وهناك ختم ﴿إن الله غفور رحيم﴾ وهنا ختم ﴿ذلك الفوز العظيم﴾^(١) ﴿وممن حولكم من
الأعراب منافقون﴾ أي وممن حولكم يا أهل المدينة منافقون من الأعراب منازلهم قريبة من منازلكم
﴿وممن أهل المدينة﴾ أي ومن أهل المدينة منافقون أيضاً ﴿مردوا على النفاق﴾ أي لجوا في النفاق
واستمروا عليه قال ابن عباس : مرنا عليه وثبتوا منهم ابن سلول ، والجلالاس ، وأبو عامر الراهب^(٢) ﴿لا
تعلمهم نحن نعلمهم﴾ أي لا تعلمهم أنت يا محمد لمهارتهم في النفاق بحيث يخفى أمرهم على كثيرين ،
ولكن نحن نعلمهم ونخبرك عن أحوالهم ﴿سنعذبهم مرتين﴾ أي في الدنيا بالقتل والأسر ، وعند الموت
بعذاب القبر ﴿ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ أي ثم في الآخرة يردون إلى عذاب النار ، الذي أعده الله
للكفار والفجار ﴿وأخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ أي وقوم آخرون أقروا بذنوبهم ولم يعتذروا عن
تحلفهم بالمعاذير الكاذبة قال الرازي^(٣) : هم قوم من المسلمين تخلفوا عن غزوة تبوك لا لنفاقهم بل
لكسلهم ، ثم ندموا على ما فعلوا وتابوا ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ أي خلطوا جهادهم السابق
وخرجهم مع الرسول لسائر الغزوات بالعمل السيء وهو تخلفهم عن غزوة تبوك هذه المرة ﴿عسى الله
أن يتوب عليهم﴾ أي لعل الله يتوب عليهم قال الطبري : وعسى من الله واجب ومعناه : سيتوب الله
عليهم ، ولكنه في كلام العرب بمعنى الترجي على ما وصفت^(٤) ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي ذو عفو لمن
تاب ، عظيم الرحمة لمن أناب ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ أي خذ يا محمد من
هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم صدقة تطهرهم بها من الذنوب والأوضار ، وتنمي بتلك الصدقة حسناتهم
حتى يرتفعوا بها إلى مراتب المخلصين الأبرار ﴿وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾ أي وادع لهم بالمغفرة
فإن دعاءك واستغفارك طمأنينة لهم قال ابن عباس : ﴿سكن لهم﴾ رحمة لهم ﴿والله سميع عليم﴾
أي سميع لقولهم عليم بنياتهم ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ الاستفهام للتقرير أي ألم
يعلم أولئك التائبون أن الله تعالى هو الذي يقبل توبة من تاب من عباده ، ﴿ويأخذ الصدقات﴾ أي

وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُتْرُدُونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ وَآخَرُونَ مَرْجُونَ
 لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا
 وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ
 إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿٥٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسَسَّ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ

يتقبلها من أخلص النية ﴿وأن الله هو التواب الرحيم﴾ أي وأن الله وحده المستأثر بقبول التوبة والرحمة ، لقوله ﴿غافر الذنب قابل التوب﴾ ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ صيغة أمر متضمنة للوعيد أي اعملوا ما شئتم من الأعمال فأعمالكم لا تخفى على الله ، وستعرض يوم الحساب على الرسول والمؤمنين ﴿وستردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ أي وستردون إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴿وآخرون مرجون لأمر الله﴾ أي وآخرون من المتخلفين مؤخرون إلى أن يظهر أمر الله فيهم قال ابن عباس : هم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، لم يسارعوا إلى التوبة والاعتذار ، وكانوا من أصحاب بدر ، فهى النبي ﷺ عن كلامهم والسلام عليهم ، فصاروا مرجئين لأمره تعالى (١) إلى أن يتجاوز عن سيئاتهم ، فهو تعالى وحده الذي يقبل التوبة ويتوب على العبد دون غيره ﴿إمّا يعذبهم وإمّا يتوب عليهم﴾ أي إمّا أن يعذبهم إن لم يتوبوا ، وإمّا أن يوفقهم للتوبة ويغفر لهم ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بأحوالهم حكيم فيما يفعله بهم ، وهؤلاء الثلاثة المذكورون في قوله تعالى ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ وقد وقف أمرهم خمسين ليلة وهجرهم الناس حتى نزلت توبتهم بعد ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً﴾ أي ومن المنافقين جماعة بالغوا في الإجماع حتى ابتنوا مجعاً يدبرون فيه الشر ، وسموه مسجداً مضاراً للمؤمنين (٢) ، وقد اشتهر باسم «مسجد الضرار» ﴿وكفراً﴾ أي نصرة للكفر الذي يخفونه ﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾ أي يفرقون بواسطته جماعة المؤمنين ، ويصرفونهم عن مسجد قباء ﴿وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل﴾ أي ترقباً وانتظاراً لقدم أبي عامر الفاسق الذي قال لرسول الله : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، وهو الذي أمرهم ببناء المسجد ليكون معقلاً له قال الطبري في رواية الضحاك : هم ناس من المنافقين بنوا مسجداً بقباء يضارون به نبي الله والمسلمين وكانوا يقولون : إذا رجع أبو عامر صلى فيه ، وإذا قدم ظهر على محمد وتغلب عليه (٣) ﴿وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى﴾ أي وليقسمن ما أردنا ببنائه إلا الخير والإحسان ، من الرفق بالمسكين ، والتوسعة على المصلين ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ أي والله يعلم كذبهم في ذلك الحلف ، وأتى بإن واللام لزيادة التأكيد ، ثم نهى تعالى رسوله عن الصلاة في مسجد الضرار فقال ﴿لا

(١) أبو السعود ٢/٢٩٥ . (٢) انظر سبب النزول . (٣) الطبري ١١/٢٥٠ .

يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١١٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ
أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانَهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١٩﴾
لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٠﴾

تقم فيه أبدأ ﴿ أي لا تصل فيه يا محمد أبدأ لأنه لم يُبَيَّنْ إلا ليكون معقلاً لأهل النفاق ﴾ لمسجد أسس على التقوى ﴿ اللام لام القسم أي لمسجد قباء الذي بني على تقوى الله وطاعته ﴾ من أول يوم ﴿ من أول يوم ﴾ في بنائه ﴿ أحق أن تقوم فيه ﴾ أي أولى وأجدر بأن تصلي فيه من مسجد الضرار ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ أي في هذا المسجد رجال أتقياء - وهم الأنصار - يحبون أن يتطهروا من الذنوب والمعاصي ﴿ والله يحب المطهرين ﴾ أي المبالغين في الطهارة الظاهرة والباطنة ، ثم أشار تعالى إلى فضل مسجد التقوى على مسجد الضرار فقال : ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ﴾ الاستفهام للإنكار والمعنى : هل من أسس بنيانه على تقوى وخوف من الله تعالى وطلب لمرضاته بالطاعة ﴿ خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ﴾ أي هل ذلك خير أم هذا الذي أسس بنيانه على طرف واد متصدع مشرف على السقوط ؟ ﴿ فانهار به في نار جهنم ﴾ أي فسقط به البناء في نار جهنم ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي لا يوفق الظالمين إلى السداد ، ولا يهديهم سبيل الرشاد ، والآية الكريمة على سبيل التشبيه والتمثيل لعمل أهل الإخلاص ، والإيمان ، وعمل أهل النفاق والضلال ، والمعنى هل من أسس ببيان دينه على التقوى والإخلاص كمن أسسه على الباطل والنفاق الذي يشبه طرف الوادي أو الجبل الذي أشفى على السقوط ؟ ﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبةً في قلوبهم ﴾ أي لا يزال في قلوب أهل مسجد الضرار شك ونفاق ، وغيظ وارتباب بسبب هدمه ، يحسبون أنهم كانوا في بنائه محسنين ، روي أن النبي ﷺ بعث إلى ذلك المسجد من هدمه وحرقه وأمر بإلقاء الجيف والتتن والقمامة فيه إهانة لأهله ، فلذلك اشتد غيظ المنافقين وحقدهم ﴿ إلا أن تقطع قلوبهم ﴾ أي لا يزالون في ارتياب وغيظ إلا ان تتصدع قلوبهم فيموتوا ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي والله سبحانه عليم بأحوال المنافقين ، حكيم في تدبيره إياهم ومجازاتهم بسوء نياتهم .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿ الغيب والشهادة ﴾ بين الكلمتين طباق .

٢ - ﴿ لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ الإظهار في موضع الإضمار لزيادة التشنيع والتفحيط وأصله لا يرضى عنهم .

٣ - ﴿ سيدخلهم في رحمته ﴾ فيه مجاز مرسل أي يدخلهم في جنته التي هي محل الرحمة وهو من إطلاق الحال وإرادة المحل .

٤ - ﴿ عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ بين ﴿ صالحاً وسيئاً ﴾ طباق .

٥ - ﴿إن صلاتك سكن لهم﴾ فيه تشبيه بليغ حيث جعل الصلاة نفس السكن والاطمئنان مبالغة وأصله كالسكن حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

٦ - ﴿هارٍ فانهار﴾ بينهما جناس ناقص وهو من المحسنات البديعية .

٧ - ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى﴾ في الكلام استعارة مكنية حيث شبهت التقوى والرضوان بأرض صلبة يعتمد عليها البنيان وطوي ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو التأسيس^(١) .

تنبية : كلمة « عسى » من الله واجب قال الإمام الرازي : وتحقيق القول فيه أن القرآن نزل على عرف الناس في الكلام ، والسلطان العظيم إذا التمس المحتاج منه شيئاً فإنه لا يجيبه إلا على سبيل الترجي مع كلمة « عسى » أو « لعل » تنبيهاً على أنه ليس لأحد أن يلزمه بشيء ، بل كل ما يفعله فإنما هو على سبيل التفضل والتطول ، وفيه فائدة أخرى وهو أن يكون المكلف على الطمع والإشفاق لأنه أبعد من الإتكال والإهمال^(٢) .

لطيفة : روى الأعمش أن أعرابياً جلس إلى « زيد بن صوحان » - وهو يحدث أصحابه - وكانت يده أصيبت يوم نهاوند ، فقال الأعرابي : والله إن حديثك ليعجبني ، وإن يدك لتريني ! فقال زيد : ما يريبك من يدي إنها الشمال ، فقال الأعرابي : والله ما أدري اليمين يقطعون أم الشمال فقال زيد : صدق الله ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله . . .﴾ الآية ، معنى تريني أي تدخل إلى قلبي الشك هل قطعت في سرقة وهذا من جهل الأعرابي^(٣) .

قال الله تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم . . . إلى . . . وهو رب العرش العظيم﴾ من آية (١١١) إلى آية (١٢٩) نهاية السورة الكريمة .

المناسبة : لما ذكر تعالى أحوال المنافقين ، المتخلفين عن الجهاد ، المثبطين عنه ، ذكر صفات المؤمنين المجاهدين ، الذين باعوا أنفسهم لله . . . ثم ذكر قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وتوبة الله عليهم ، وختم السورة بتذكير المؤمنين بالنعمة العظمى ، ببعثة السراج المنير ، النبي العربي ، الذي أرسله الله رحمة للعالمين .

اللفظة : ﴿أواه﴾ كثير التأوه ومعناه الخاشع المتضرع ، يقال : تأوه الرجل تأوهاً إذا توجع قال الشاعر :

إذا ما قمت أرحلها بليلٍ تأوه آهة الرجل الحزين^(٤)

(١) انظر ما كتبه الشريف الرضي في تلخيص البيان حول هذه الآية الكريمة ص ١٤٩ ففيه روائع البيان . (٢) الرازي ١٧٦/١٦ .

(٣) محاسن التأويل ٨/ ٣٢٣٩ . (٤) البحر ٥/ ٨٨ .

﴿حليم﴾ الحليم : الكثير الحلم وهو الذي يصفح عن الذنب ويصبر على الأذى ﴿العسرة﴾ الشدة وصعوبة الأمر وتسمى غزوة تبوك « غزوة العسرة » لما فيها من المشقة والشدة ﴿يزيغ﴾ الزيغ : الميل : يقال زاغ قلبه إذا مال عن الهدى والإيمان ﴿ظماً﴾ الظماً : شدة العطش ﴿نصب﴾ النصب : الإعياء والتعب ﴿مخمصة﴾ مخمصة شديدة يظهر بها ضمور البطن ﴿ينالون﴾ يصيبون ، نال الشيء إذا أدركه وأصابه ﴿غلظة﴾ غلظة وقوة وحمية ﴿عزيز﴾ صعب وشاق ﴿عنتم﴾ العنت : الشدة والمشقة .

سَبَبُ النَّزُولِ : أ - لما بايع الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة - وكانوا سبعين رجلاً - قال عبد الله بن رواحة يا رسول الله : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال : اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ، قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة ، قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم . .﴾^(١) الآية .

ب - لما حضرت أبا طالب الوفاة ، دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمية ، فقال : أي عم قل « لا إله إلا الله » كلمة أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وابن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول « لا إله إلا الله » فقال رسول الله ﷺ : أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فأنزل الله عز وجل ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين . .﴾ ونزلت ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾^(٢) .

* **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي**

التفسير : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ أي اشترى أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة وهو تمثيل في ذروة البلاغة والبيان لأجر المجاهدين ، مثل تعالي جزاءهم بالجنة على بذلهم الأموال والأنفس في سبيله بصورة عقد فيه بيع وشراء قال الحسن : بايعهم فأغلى لهم الثمن^(٣) وانظروا إلى كرم الله ، أنفساً هو خلقها ، وأموالاً هو رزقها ، ثم وهبها لهم ، ثم اشترأها منهم بهذا الثمن الغالي فإنها لصفقة رابحة وقال بعضهم : ناهيك عن بيع البائع فيه المؤمن ، والمشتري فيه رب العزة والثمن فيه الجنة ، والصك فيه الكتب السماوية ، والواسطة فيه محمد عليه الصلاة والسلام ﴿يقاتلون في سبيل الله﴾ أي يجاهدون لإعزاز دين الله وإعلاء كلمته ﴿فيقتلون ويقتلون﴾ أي في حالتي الظفر بالأعداء بقتلهم ، أو الاستشهاد في المعركة بموتهم ﴿وعداً عليه حقاً﴾ أي وعدهم به المولى وعداً قاطعاً ﴿في التوراة والإنجيل والقرآن﴾ أي وعداً مثبتاً في الكتب المقدسة « التوراة ، والإنجيل ، والقرآن »

(١) زاد المسير ٥٠٤/٣ . (٢) أخرجه مسلم . (٣) الطبري ٣٥/١١ والرازي ١٦/١٩٩ .

بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ
الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ
اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

﴿ومن أوفى بعهد من الله﴾ الاستفهام إنكارى بمعنى النفي أى لا أحد أوفى من الله جل وعلا قال الزمخشري : لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق ، فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه القبيح ؟ ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ ^(١) ﴿فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به﴾ أى أشيروا بذلك البيع الرابح وافرخوا به غاية الفرح ﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾ هو الفوز الذي لا فوز أعظم منه ﴿التائبون العابدون الحامدون﴾ كلام مستأنف قال الزجاج : مبتدأ خبره محذوف أى التائبون العابدون من أهل الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا كقوله ﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾ والمعنى التائبون عن المعاصي ، العابدون أى المخلصون في العبادة ، الحامدون لله في السراء والضراء ﴿السائحون﴾ أى السائرون في الأرض للغزو أو طلب العلم ، من السياحة وهي السير والذهاب في المدن والقفار للعبادة والاعتبار ^(٢) ﴿الراكعون الساجدون﴾ أى المصلون ﴿الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر﴾ أى الداعون إلى الله ، يدعون الناس إلى الرشاد والهدى ، وينهونهم عن الفساد والردى ﴿والحافظون لحدود الله﴾ أى المحافظون على فرائض الله ، المتمسكون بما شرع الله من حلال وحرام قال الطبري : أى المؤدون فرائض الله ، المنتهون إلى أمره ونهيه ^(٣) ﴿وبشّر المؤمنين﴾ أى بشرهم بجنات النعيم ، وحذف المبشر به إشارة إلى أنه لا يدخل تحت حصر ، بل لهم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ أى لا ينبغي ولا يصح للنبي والمؤمنين أن يطلبوا من الله المغفرة للمشركين ﴿ولو كانوا أولي قربى﴾ أى ولو كان المشركون أقرباء لهم ﴿من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ أى من بعد ما وضح لهم أنهم من أهل الجحيم لموتهم على الكفر ، والآية نزلت في أبي طالب ^(٤) ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه﴾ هذا بيان للسبب الذي حمل إبراهيم على الاستغفار لأبيه أزر أي ما أقدم إبراهيم على الاستغفار ﴿إلا عن موعدة وعدها إياه﴾ أى إلا من أجل وعد تقدم له بقوله ﴿سأستغفر لك ربي﴾ وأنه كان قبل أن يتحقق إصراره على الشرك ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾ أى فلما تبين لإبراهيم ان أباه مصرّ على الكفر ومستمر على

(١) الكشاف ٢/ ٣١٤ .

(٢) فسر بعضهم « السائحون » بأنهم الصائمون وقال عطاء : هم الغزاة وقال ابن زيد : هم المهاجرون وما ذهبنا إليه هو ما رجحه الفخر الرازي وهو الأولى بتفسير الآية الكريمة ويدل عليه ﴿فسبحوا في الأرض﴾ والله أعلم . (٣) الطبري ١١/ ٣٩ . (٤) انظر سبب النزول .

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ

الكفر ، تبرأ من أبيه بالكلية فضلاً عن الاستغفار له ، ثم بيّن تعالى بأن الذي حمل إبراهيم على الاستغفار هو فرط ترحمه وصبوره على أبيه فقال ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ أي كثير التأوه من فرط الرحمة ورقة القلب ﴿حَلِيمٌ﴾ أي صبور على ما يعترضه من الأذى ولذلك حلم عن أبيه مع توعده له بقوله ﴿لَكِن لَمْ تَنْتَه لَأَرْجَمَنَّكَ﴾ فليس لغيره أن يتأسى به في ذلك قال أبو حيان : ولما كان استغفار إبراهيم لأبيه بصدد ان يقتدى به بيّن تعالى العلة في استغفار إبراهيم لأبيه ، وهو الوعد الذي كان وعده به ، فكان يرجو إيمانه فلما تبين له من جهة الوحي أنه عدو لله ، وأنه يموت كافراً ، وانقطع رجاؤه منه تبرأ منه وقطع استغفاره^(١) ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ نزلت الآية في قوم من المسلمين استغفروا للمشركين ، فخافوا على أنفسهم من ذلك فنزلت الآية تأنيساً لهم^(٢) أي ما كان الله ليقضي على قوم بالضلال ﴿بعد إذ هداهم﴾ أي بعد أن وفقهم للإيمان ﴿حتى يبين لهم ما يتقون﴾ أي حتى يبين لهم ما يجتنبونه فإن خالفوا بعد النهي استحقوا العقوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عليم بجميع الأشياء ومنها أنه يعلم من يستحق الهداية ، ومن يستحق الإضلال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له سلطان السموات والأرض وملكهما ، وكل من فيها عبيده ومماليكه ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي بيده وحده حياتهم وموتهم ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ما لكم أيها الناس من أحد غير الله تلجأون إليه أو تعتمدون عليه قال الألوسي : لما منعهم سبحانه عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى ، وتضمن ذلك وجوب التبري عنهم ، بيّن لهم أن الله سبحانه مالك كل موجود ، ومتولي أمره ، والغالب عليه ، ولا يتأنى لهم ولاية ولا نصر إلا منه تعالى ، ليتوجهوا إليه بكليتهم ، متبرئين عما سواه ، غير قاصدين إلا إياه^(٣) ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ أي تاب الله على النبي من إذنه للمنافقين في التخلف ، وتاب على المهاجرين والأنصار لما حصل منهم من بعض المفوات في غزوة تبوك ، حيث تباطأ بعضهم ، وتناقل عن الجهاد آخرون ، والغرض التوبة على من تخلفوا من المؤمنين عن غزوة تبوك ثم تابوا وأنبأوا ، وعلم الله صدق توبتهم فقبلها منهم ، وصدّرها بتوبته على رسوله وكبار صحبه جبراً لقلوبهم ، وتنويهاً لشأنهم ، وبعثاً للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار ، حتى النبي والمهاجرون والأنصار^(٤) ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أي اتبعوه في غزوة تبوك وقت العسرة في شدة الحر ، وقلة الزاد ، والضيق الشديد روى الطبري عن عمر رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش ، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع ، حتى إن الرجل لينحر

(١) البحر المحيط ١٠٥/٥ . (٢) التسهيل ٨٦/٢ . (٣) روح المعاني ٣٩/١١ . (٤) انظر الكشف ٣١٦/٢ .

ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ يَرْتَدُّونَ رِعْذِيقَهُمْ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ بَنَائِبًا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَن حَوْلَهُمْ مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا

البعير فيعصر فرثه فيشربه ، فقال أبو بكر يا رسول الله : إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا ، قال : تحب ذلك ؟ قال : نعم فرفع يديه فلم يرجعها حتى سكبت السماء فملاًوا ما معهم ، فرجعنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر^(١) ﴿من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ أي من بعد ما كادت قلوب بعضهم تميل عن الحق وترتاب ، لما نالهم من المشقة والشدة ﴿ثم تاب عليهم﴾ أي وفقهم للثبات على الحق وتاب عليهم لما ندموا ﴿إنه بهم رءوف رحيم﴾ أي لطيف رحيم بال مؤمنين ﴿وعلى الثلاثة الذين خَلَفُوا﴾ أي وتاب كذلك على الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو ، وهم « كعب ، وهلال ، ومرارة » ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ أي ضاقت عليهم مع سعتها ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ أي ضاقت نفوسهم بما اعتراها من الغم والهجم ، بحيث لا يسعها أنس ولا سرور ، وذلك بسبب أن الرسول عليه السلام دعا لمقاطعتهم ، فكان أحدهم يفشي السلام لأقرب أقربائه فلا يرد عليه ، وهجرتهم نساؤهم وأهلهم وأهملوهم حتى تاب الله عليهم ﴿وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ أي وأيقنوا أنه لا معصم لهم من الله ومن عذابه ، إلا بالرجوع والإجابة إليه سبحانه ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ أي رجع عليهم بالقبول والرحمة ، ليستقيموا على التوبة ويدوموا عليها ﴿إن الله هو التواب الرحيم﴾ أي المبالغ في قبول التوبة وإن كثرت الجنایات وعظمت ، المتفضل على العباد بالرحمة الشاملة ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم ، وكونوا مع أهل الصدق واليقين ، الذين صدقوا في الدين نية وقولاً وعملاً ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ عتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك أي ما صحح ولا استقام لأهل المدينة ومن حولهم من سكان البوادي أن يتخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ ﴿ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ أي لا يترفخوا بأنفسهم عن نفسه بأن يكرهوا لها المكاره ولا يكرهوها له عليه السلام ، بل عليهم ان يفدوه بالهَج والأرواح ، وأن يكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب قال الزخشي : أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأن يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علماً بأنها أعز نفس على الله وأكرمها عليه ، لا أن يضمنوا بأنفسهم على ما سمح بنفسه عليه ، وهذا نهي بليغ ، وتهييج لمتابعته عليه السلام^(٣) ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ﴾ أي ذلك النهي عن التخلف بسبب أنهم لا يصيبهم عطش ﴿ولا نصب﴾ أي ولا تعب

(١) الطبري ٥٥/١١ . (٢) انظر قصتهم في صحيح البخاري كتاب المغازي وفي الطبري ٥٨/١١ . (٣) الكشاف ٣٢١/٢ .

نَصَبٌ وَلَا مَحْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْعُونَ مَوْطَأًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ * وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا

﴿ولا مَحْمَصَةٌ﴾ أي ولا جماعة ﴿في سبيل الله﴾ أي في طريق الجهاد ﴿ولا يَطَّأُونَ مَوْطَأًا﴾ أي ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بأرجلهم أو حوافر خيولهم ﴿يغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أي يغضب الكفار وطؤها ﴿ولا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا﴾ أي ولا يصيبون أعداءهم بشيء بقتل أو أسر أو هزيمة قليلاً كان أو كثيراً ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ أي إلا كان ذلك قرابة لهم عند الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي لا يضيع أجر من أحسن عملاً ﴿ولا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ قال ابن عباس : تمرة فما فوقها ﴿ولا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي ولا يجتازون للجهاد في سيرهم أرضاً ذهاباً أو إياباً ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أي أثبت لهم أجر ذلك ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ليجزيهم على كل عمل لهم جزاء أحسن أعمالهم قال الألوسي : على معنى أن لأعمالهم جزاءً حسناً وجزاءً أحسن ، وهو سبحانه اختار لهم أحسن جزاء^(١) ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ أي لا ينبغي خروج جميع المؤمنين للغزو^(٢) بحيث تخلو منهم البلاد ، روي عن ابن عباس انه تعالى لما شدد على المتخلفين قالوا : لا يتخلف منا أحد عن جيشٍ او سرية أبداً ، فلما قدم الرسول المدينة وأرسل السرايا إلى الكفار ، نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوه وحده بالمدينة فنزلت هذه الآية^(٣) ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ أي فإذا لم يمكن نفي الجميع ولم يكن فيه مصلحة فهلا نفر من كل جماعة كثيرة فئة قليلة ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ أي ليصبحوا فقهاء ويتكلفوا المشاق في طلب العلم ﴿ولِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي وليخوفوا قومهم ويرشدوهم إذا رجعوا إليهم من الغزو ، لعلمهم يخافون عقاب الله بامثال أوامره واجتناب نواهيه قال الألوسي : وكان الظاهر أن يقال ﴿ليعلموا﴾ بدل ﴿لينذروا﴾ و﴿يفقهون﴾ بدل ﴿يحذرون﴾ لكنه اختير ما في النظم الجليل للإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون غرض المعلم : الإرشاد والإيثار ، وغرض المتعلم : اكتساب الخشية لا التبسط والاستكبار^(٤) ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أي قاتلوا القريبين منكم وطهروا ما حولكم من رجس المشركين ثم انتقلوا إلى غيرهم ، والغرض إرشادهم إلى الطريق الأصوب والأصلح ، وهو أن يبتدئوا من الأقرب فالأقرب حتى يصلوا إلى

(١) روح المعاني ٤٧/١١ . (٢) وقيل : المراد أن ينفروا لطلب العلم . (٣) الرازي ١٦ / ٢٢٥ . (٤) روح المعاني ٤٨/١١ .

مَا أَنْزَلَتْ سُورَةً مِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوْ لَا يَرْوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾

الأبعد فالأبعد ﴿وليوجدوا فيكم غلظة﴾ أي وليجد هؤلاء الكفار منكم شدة عليهم ﴿واعلموا ان الله مع المتقين﴾ أي واعلموا أن من اتقى الله كان الله معه بالنصر والعون ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ أي من سور القرآن ﴿فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً﴾ أي فمن هؤلاء المنافقين من يقول استهزاء : أيكم زادته هذه إيماناً؟ على وجه الاستخفاف بالقرآن كأنهم يقولون : أي عجب في هذا وأي دليل في هذا؟ يقول تعالى ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾ أي فأما المؤمنون فزادتهم تصديقاً وذلك لما يتجدد عندهم من البراهين والأدلة عند نزول كل سورة ﴿وهم يستبشرون﴾ أي وهم يفرحون لنزولها لأنه كلما نزل شيء من القرآن ازدادوا إيماناً ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ أي وأما المنافقون الذين في قلوبهم نفاق وشك في دين الله ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ أي زادتهم نفاقاً إلى نفاقهم وكفراً إلى كفرهم ، فازدادوا رجساً وضلالاً فوق ما هم فيه من الرجس والضلال ﴿وماتوا وهم كافرون﴾ أي ماتوا على الكفر ﴿أولا يرون أنهم يُفْتَنُونَ في كل عام مرة أو مرتين﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي أولاً يرى هؤلاء المنافقون الذين تُفْضَحُ سرائرهم كل سنة مرة أو مرتين حين ينزل فيهم الوحي؟ ﴿ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾ أي ثم لا يرجعون عما هم فيه من النفاق ولا يعتبرون ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا﴾ أي وإذا أنزلت سورة من القرآن فيها عيب المنافقين وهم في مجلس النبي ﷺ نظر بعضهم لبعض هل يراكم أحد من المسلمين لنصرف ، فإننا لا نصبر على استماعه وهو يفضحنا ثم قاموا فانصرفوا ﴿صرف الله قلوبهم﴾ جملة دعائية أي صرفها عن الهدى والإيمان ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ أي لأجل أنهم لا يفهمون الحق ولا يتدبرون فهم حقى غافلون ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ أي لقد جاءكم أيها القوم رسول عظيم القدر ، من جنسكم عربي قرشي ، يُبَلِّغُكُمْ رسالة الله ﴿عزیزٌ عليه ما عنتم﴾ أي يشق عليه عنتم وهو المشقة ولقاء المكروه ﴿حريصٌ عليكم﴾ أي حريص على هدايتكم ﴿بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ أي رءوف بالمؤمنين رحيم بالمدنيين ، شديد الشفقة والرحمة عليهم قال ابن عباس : ساء باسمين من أسماؤه ^(١) ﴿فإن تولوا فقل حسبى الله﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٦﴾

بك يا محمد فقل يكفيني ربي ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا معبود سواه ﴿عليه توكلت﴾ أي عليه اعتمدت فلا أرجو ولا أخاف أحداً غيره ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ أي هو سبحانه رب العرش المحيط بكل شيء ، لكونه أعظم الأشياء ؛ الذي لا يعلم مقدار عظمته إلا الله تعالى .

البالغة : ١ - ﴿إن الله اشترى﴾ استعارة تبعية شبه بذلم الأموال والأنفس وإثابتهم عليها بالجنة بالبيع والشراء .

٢ - ﴿فيقتلون ويقتلون﴾ فيه جناس ناقص لاختلافها في الشكل وهو من المحسنات البديعية .
٣ - ﴿الراكعون الساجدون﴾ يعني المصلون فيه مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل ، وخص الركوع والسجود بالذكر لشرفها (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)^(١)

٤ - ﴿وبشر المؤمنين﴾ الإظهار في مقام الإضمار للاعتناء بهم وتكريمهم .

٥ - ﴿موعدة وعدها﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٦ - ﴿ليضل . . إذ هداهم﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿يجي . . ويميت﴾ وكذلك ﴿ضاق . .

ورحبت﴾ .

٧ - ﴿التواب الرحيم﴾ من صيغ المبالغة .

٨ - ﴿يطأون موطئاً﴾ جناس الاشتقاق وكذلك ﴿ينالون نيلاً﴾ .

٩ - ﴿صغيرة ولا كبيرة﴾ طباق .

١٠ - ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ قال في تلخيص البيان : السورة لا تزيد الأرجاس رجساً ، ولا

القلوب مرضاً ، بل هي شفاء للصدر وجلاء للقلوب ، ولكن المنافقين لما ازدادوا عند نزولها عمى ، حسن أن يضاف ذلك إلى السورة على طريق الاستعارة .

تنبه : روي أن أبا خيثمة الأنصاري رضي الله عنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرطب والماء البارد ، فنظر فقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله ﷺ في الحر والريح ! ما هذا بخير ، فقام فرحل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ومر كالريح فنظر رسول الله ﷺ خلفه فإذا براكب وراء السراب ، فقال : كن أبا خيثمة ! فكان فرح به رسول الله ﷺ واستغفر له .

تم تفسير سورة التوبة ولله الحمد في البدء والختام



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة يونس من السور المكية التي تُعنى بأصول العقيدة الإسلامية « الإيمان بالله تعالى ، والإيمان بالكتب ، والرسول ، والبعث والجزاء » وهي تتميز بطابع التوجيه إلى الإيمان بالرسالات السماوية ، وبوجه أخص إلى « القرآن العظيم » خاتمة الكتب المنزلة ، والمعجزة الخالدة على مدى العصور والدهور .

* تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الرسالة والرسول ، وبيّنت أن هذه سنة الله في الأولين والآخرين ، فما من أمة إلا بعث الله إليها رسولاً ، فلا داعي للمشركين للعجب من بعثة خاتم المرسلين ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذر الناس . . ﴾ ؟ ثم تلتها الآيات عن بيان حقيقة « الألوهية » و « العبودية » وأساس الصلة بين الخالق والمخلوق ، وعرفت الناس بربهم الحق الذي ينبغي أن يعبدوه ، وأن يُسلموا وجوههم إليه ، فهو وحده الخالق الرازق ، المحيي المميت ، المدبّر الحكيم ، وكل ما سواه فباطل وهباء ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام . . ﴾ الآيات .

* وتناولت السورة الكريمة موقف المشركين من الرسالة والقرآن ، وذكرت أن هذا القرآن هو المعجزة الخالدة ، الدالة على صدق النبي الأمي ، وأنه يحمل برهانه في تفرد المعجز ، حيث تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا مع أنهم أساطين الفصاحة ، وأمراء البيان ﴿أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورةٍ مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ .

* وانتقلت السورة لتعريف الناس بصفات الإله الحق ، بذكر آثار قدرته ورحمته ، الدالة على التدبير الحكيم ، وما في هذا الكون المنظور من آثار القدرة الباهرة ، التي هي أوضح البراهين على عظمة الله وجلاله وسلطانه ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟ أمَّن يملك السمع والأبصار . . ﴾ الآيات وهذه هي القضية الكبرى التي يدور محور السورة عليها وهي موضوع الإيمان بوحدانية الله جل وعلا ، وقد عرضت السورة لها بشتى الأدلة السمعية والعقلية .

* وتحدثت السورة عن قصص بعض الأنبياء ، فذكرت قصة نوح مع قومه ، وقصة موسى مع فرعون الجبار ، وذكرت قصة نبي الله « يونس » - الذي سميت السورة باسمه - وكل هذه القصص لبيان سنة الله الكونية في إهلاك الظالمين ، ونصرة المؤمنين .

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالاستمسك بشريعة الله ، والصبر على ما يلقي من الأذى في سبيل الله ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ .

التسمية : سميت السورة « سورة يونس » لذكر قصته فيها ، وما تضمنته من العظة والعبرة برفع العذاب عن قومه حين آمنوا بعد أن كاد يجل بهم البلاء والعذاب ، وهذا من الخصائص التي خصَّ الله بها قوم يونس لصدق توبتهم وإيمانهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

اللغة : ﴿قدم صدق﴾ قال الليث : القدم السابقة قال ذو الرمة :

وأنت امرؤٌ من أهل بيت ذؤابةٍ لهم قدمٌ معروفةٌ ومفاخر^(١)

وقال أبو عبيدة : كل سابق في خير أو شر فهو قدم وقال الأخفش : سابقة إخلاص ﴿يدبر﴾ التدبير : القضاء والتقدير على حسب الحكمة ﴿القسط﴾ العدل ﴿حميم﴾ الحميم : الماء الحار الذي سخن بالنار حتى انتهى حره ﴿يفصل﴾ التفصيل : التبيين والتوضيح ﴿مأواهم﴾ مثواهم ومقامهم ﴿طغيانهم﴾ الطغيان : العلو والارتفاع ﴿يعمّهون﴾ يتحيرّون ﴿خلائف﴾ جمع خليفة وهو الذي يخلف غيره في شئونه .

سبب النزول : قال ابن عباس : لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ أنكرت الكفار وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، أما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب؟ فأنزل الله ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذر الناس . . .﴾^(٢) الآية .

التفسير : ﴿الر﴾ إشارة إلى أن هذا الكلام البليغ المعجز ، مكوّن من جنس الأحرف التي يتكون منها كلامكم ، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب الحكيم ، وهي في متناول أيديهم ثم يعجزون عن الإتيان بمثل آية واحدة منه^(٣) ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم المبين الذي لا يدخله شك ، ولا يعتريه كذب ولا تناقض ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم﴾ أي أكان عجباً لأهل مكة إبحاؤنا إلى رجلٍ منهم هو محمد عليه السلام؟ والهمزة للإنكار أي لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة أوحى إلى رسلهم ليلغوهم رسالة الله ﴿أن أنذر الناس﴾ أي أوحينا إليه بأن خوف الكفار عذاب النار ﴿وبشّر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ أي وأن بشّر المؤمنين بأن لهم سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموا من صالح الأعمال ﴿قال الكافرون إن هذا

(١) التفسير الكبير للرازي ٧/١٧ . (٢) القرطبي ٨/٣٠٦ . (٣) انظر ما كتبه في أول سورة البقرة .

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٠٦﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا لِإِنَّهُ يُبَدِّئُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٠٧﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا لِسَاحِرٍ مَّبِينٍ ﴿٢٠٨﴾ أَي وَمَعَ وَضُوحِ صَدَقِ الرَّسُولِ ﷺ وَإِعْجَازِ الْقُرْآنِ، قَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا لِسَاحِرٌ ظَاهِرِ السَّحْرِ، مَبْطُلٌ فِيمَا يَدَّعِيهِ قَالَ الْبِيضَاوِيُّ: وَفِيهِ اعْتِرَافٌ بِأَنَّهُمْ صَادَفُوا مِنَ الرَّسُولِ ﷺ أُمُورًا خَارِقَةً لِلْعَادَةِ، مَعْجِزَةٌ إِيَّاهُمْ عَنِ الْمَعَارِضَةِ، وَهُوَ اعْتِرَافٌ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ خَارِجٌ عَنِ طَوْقِ الْبَشَرِ (١) ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أَي إِنَّ رَبَّكُمْ وَمَالِكُ أَمْرِكُمُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تَفْرُدُوهُ بِالْعِبَادَةِ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْكَائِنَاتِ فِي مِقْدَارِ سِتَّةِ أَيَّامٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، وَلَوْ شَاءَ لَخَلَقَهُنَّ فِي لِحْمَةٍ وَلَكِنَّهُ أَرَادَ تَعْلِيمَ الْعِبَادِ التَّائِبِي وَالْتِثَبَ فِي الْأُمُورِ ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ اسْتَوَاءً يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ، وَلَا تَشْبِيهِ، وَلَا تَعْطِيلٍ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: نَسَلْنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ مَذْهَبَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَهُوَ إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهِ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَالْمُتَبَادِرُ إِلَى أَذْهَانِ الْمُشْبِهِينَ مَنْفِيٌّ عَنِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَشْبَهُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ، فَمِنْ أَثْبَتَ لِلَّهِ تَعَالَى مَا وَرَدَتْ بِهِ الْآيَاتُ الصَّرِيحَةُ، وَالْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيْقُ بِجَلَالِ اللَّهِ، فَقَدْ سَلَكَ سَبِيلَ الْهُدَى (٢) وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ: الْعَرْشُ هُوَ الْجِسْمُ الْحَيْطُ بِسَائِرِ الْأَجْسَامِ، سُمِّيَ بِهِ لِارْتِفَاعِهِ، أَوْ لِتَشْبِيهِهِ بِسُرِيرِ الْمَلِكِ، وَالِاسْتَوَاءُ عَلَى الْعَرْشِ صِفَةٌ لَهُ سَبَّحَانَهُ بِلَاكَيْفٍ (٣)

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أَي يُدَبِّرُ أَمْرَ الْخَلَائِقِ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ وَالْمَصْلَحَةُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يَشْغَلُهُ فِي تَدْبِيرِ خَلْقِهِ أَحَدٌ ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ أَي لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ شَافِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ، وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ الْأَصْنَامَ تَشْفَعُ لَهُمْ ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أَي ذَٰلِكُمْ الْعَظِيمُ الشَّانِ هُوَ رَبُّكُمْ وَخَالِقُكُمْ لَا رَبَّ سِوَاهُ، فَوَحَّدُوهُ بِالْعِبَادَةِ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَي أَفَلَا تَتَعَطَّوْنَ وَتَتَعَبَّرُونَ؟ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ ثُمَّ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أَي إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَمِيعًا ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ أَي وَعَدَّ مِنْ غَيْرِهِ ﴿إِلَيْهِ مِنْ اللَّهِ لَا يَتَبَدَّلُ﴾ وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى مَنْكَرِي الْبَعْثِ حَيْثُ قَالُوا ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ ﴿إِنَّهُ يُبَدِّئُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أَي كَمَا ابْتَدَأَ الْخَلْقَ كَذَلِكَ يُعِيدُهُ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أَي لِيَجْزِيَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعَدْلِ، وَيُوفِّيهِمْ أَجُورَهُمْ بِالْجِزَاءِ الْأَوْفَى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي وَالَّذِينَ جَحَدُوا بِاللَّهِ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أَي لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ، بَالِغِ النَّهْيَةِ فِي الْحَرَارَةِ ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أَي وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّوَجَّعٌ بِسَبَبِ

(١) الْبِيضَاوِيُّ ٢٣٥ . (٢) الْمَخْتَصَرُ ٢٥/٢ وَانظُرْ تَوْضِيحَ الْمَسْأَلَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ . (٣) أَبُو السَّعُودِ ٣٠٧/٢ .

عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا
بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٦٧﴾ أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٨﴾
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٩﴾ دَعَوْهُمْ

كفرهم وإشراكهم قال البيضاوي : والآية كالتعليل لما سبق فإنه لما كان المقصود من البدء والإعادة مجازاة
المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة^(١) ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء﴾ الآية للتنبيه
على دلائل القدرة والوحدانية أي هو تعالى بقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهاج
﴿والقمر نوراً﴾ أي وجعل القمر منيراً بالليل وهذا من كمال رحمته بالعباد، ولما كانت الشمس أعظم جرماً
خُصَّت بالضياء ، لأنه هو الذي له سطوعٌ ولمعان قال الطبري : المعنى أضواء الشمس وأنار القمر^(٢)
﴿وقدره منازل﴾ أي قدر سيره في منازل وهي البروج ﴿لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ أي لتعلموا
أيها الناس حساب الأوقات ، فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تُعرف الشهور والأعوام ﴿ما خلق
الله ذلك إلا بالحق﴾ أي ما خلق تعالى ذلك عبثاً بل لحكمة عظيمة ، وفائدة جليلة ﴿يفصل الآيات
لقوم يعلمون﴾ أي يبين الآيات الكونية ويوضحها لقوم يعلمون قدرة الله ، ويتدبرون حكمته قال أبو
السعود : أي يعلمون الحكمة في إبداع الكائنات ، فيستدلون بذلك على شئون مبدعها جل وعلا^(٣) ﴿إنَّ
في اختلاف الليل والنهار﴾ أي في تعاقبها يأتي الليل فيذهب النهار ، ويأتي النهار فيذهب الليل
﴿وما خلق الله في السموات والأرض﴾ أي وما أوجد فيها من أصناف المصنوعات ﴿لآياتٍ لقوم
يتقون﴾ أي لآيات عظيمة وبراهين جليلة ، على وجود الصانع ووحده ، وكمال علمه وقدرته ، لقوم
يتقون الله ويخافون عذابه ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي لا يتوقعون لقاء الله أصلاً ولا يخطر
ببالهم ، فقد أعمتهم الشهوات عن التصديق بما بعد الممات ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ أي رضوا بالدنيا عوضاً
من الآخرة ، وآثروا الخسيس على النفيس ﴿واطمأنوا بها﴾ أي فرحوا بها وسكنوا إليها ﴿والذين هم
عن آياتنا غافلون﴾ أي وهم عن الأدلة المنبئة في صحائف الأكوان غافلون ، لا يعتبرون فيها ولا
يتفكرون ﴿أولئك ماؤاهم النار﴾ أي مثواهم ومقامهم النار ﴿بما كانوا يكسبون﴾ أي بسبب
كفرهم وإجرامهم ، وبعد أن ذكر الله حال الأشقياء أردفه بذكر حال السعداء فقال ﴿إن الذين آمنوا
وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ أي يهديهم إلى طريق الجنة بسبب إيمانهم ﴿تجري من
تحتهم الأنهار في جنات النعيم﴾ أي تجري من تحت قصورهم الأنهار أو من تحت أسرتهم وهم
مقيمون في جنات النعيم ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ أي دعاؤهم في الجنة سبحانك اللهم وفي

فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ * وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ
 لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنذُرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٢﴾
 وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ
 مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ
 رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ

الحديث (يُلهمون التسييح والتحميد كما تُلهمون النفس) أي كلامهم في الجنة تسييح الله ﴿ وتحييتهم فيها سلام ﴾ أي وتحية بعضهم بعضاً سلاماً عليكم كما تحييهم بذلك الملائكة ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلاماً عليكم ﴾ ﴿ وآخردعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ أي وآخردعائهم أن يقولوا : الحمد لله رب العالمين ﴿ ولو يُعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير ﴾ قال مجاهد : هو دعاء الرجل على نفسه أو ولده إذا غضب ، اللهم أهلكه ، اللهم لا تبارك فيه قال الطبري : المعنى لو يعجل الله إجابة دعاء الناس في الشر وفيما عليهم فيه مضرّة ، كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به ﴿ لقضي إليهم أجلهم ﴾ أي هللكوا وعُجل لهم الموت ﴿ فنذر الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ أي فترك المكذبين بلقائنا الذين لا يؤمنون بالبعث ﴿ في طغيانهم يعمهون ﴾ أي في تمردهم وعتوهم يترددون تحيراً والمعنى : نترك المجرمين ونمهلهم ونفيض عليهم النعم مع طغيانهم لتلزمهم الحجة ﴿ وإذا مس الإنسان الضر ﴾ أي وإذا أصاب الإنسان الضر من مرض أو فقر أو نحو ذلك ﴿ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ﴾ أي دعانا في جميع الحالات : مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً لكشف ذلك الضر عنه ﴿ فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرّ مسّه ﴾ أي فلما أزلنا ما به من ضرّ استمرّ على عصيانه ، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء أو تناساه ، وهو عتاب لمن يدعو الله عند الضر ، ويفقل عنه عند العافية ﴿ كذلك زين للمُسرفين ما كانوا يعملون ﴾ أي كما زين لذلك الإنسان الدعاء عند الضرّ والإعراض عند الرخاء ، كذلك زين للمُسرفين المتجاوزين الحد في الإجمام ، ما كانوا يعملون من الإعراض عن الذكر ، ومتابعة الشهوات ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾ أي ولقد أهلكنا الأمم من قبلكم أيها المشركون لما كفروا وأشركوا وتمادوا في الغي والضلال ﴿ وجاءتهم رسالهم بالبينات ﴾ أي جاءوهم بالمعجزات الباهرة التي تدل على صدقهم ﴿ وما كانوا ليؤمنوا ﴾ أي وما آمنوا بما جاءتهم به الرسل ، أي أنهم ظلموا وما آمنوا فكان سبب إهلاكهم شيثان : ظلمهم ، وعدم إيمانهم ﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ أي مثل ذلك الجزاء - يعني الإهلاك - نجزي كل مجرم ، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم

(١) الطبري ٩١/١١ وقال بعض المفسرين : نزلت في كفار مكة حيث قالوا ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ قال الزمخشري: يعني: لو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيهم إليه لأميتوا وأهلكوا. هـ. الكشاف ٢/٣٣٢.

مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنِ اتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ إِيَّايَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ﴿ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم﴾ أي ثم استخلفناكم في الأرض يا أهل مكة من بعد إهلاك أولئك القرون ، التي تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها ﴿لننظر كيف تعملون﴾ أي لننظر أتعلمون خيراً أم شراً فنجازيكم على حسب عملكم قال القرطبي : والمعنى : يعاملكم معاملة المختبر إظهاراً للعدل (١) وقال في التسهيل : معناه ليظهر في الوجود عملكم فتقوم عليكم به الحجة (٢) والغرض أن الله تعالى عالم بأعمالهم من قبل ذلك ولكن يختبرهم ليتبين في الوجود ما علمه تعالى أولاً ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ أي وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين ، حال كونها واضحة لا لبس فيها ولا إشكال ﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي قال الذين لا يؤمنون بالبعث والحساب ، ولا يرجون الأجر والثواب ﴿أنت بقرآن غير هذا﴾ أي أنت يا محمد بكتاب آخر غير هذا القرآن ، ليس فيه ما نكرهه من عيب أهتنا ، وتسفيه أحلامنا ، ﴿أو بدله﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، ومكان سب أهتنا مدحهم ، ومكان الحرام حلالاً ، وإنما قالوه على سبيل الاستهزاء والسخرية قال ابن عباس : نزلت في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة قالوا يا محمد : اثنتا بقرآن غير هذا فيه ما نسألك (٣) ﴿قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي﴾ أي قل لهم يا محمد ما ينبغي ولا يصح لي أن أغير أو أبدل شيئاً من قبل نفسي ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ أي لا أتبع إلا ما يوحى إلي ربي ، فأنا عبد مأمور ، ورسول مبلّغ ، أبلغكم رسالة الله ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ أي إني أخشى إن خالفت أمره ، وبدلت وحيه ، عذاب يوم شديد الهول هو يوم القيامة ، وهذا كالتعليل لما سبق ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم﴾ أي قل لهم يا محمد لو شاء الله ما تلوته هذا القرآن عليكم ، وما تلوته إلا بمشيئته تعالى ، لأنه من عنده وما هو من عندي ﴿ولا أدراكم به﴾ أي ولا أعلمكم به على لساني ﴿فقد لبثت فيكم عمراً من قبله﴾ أي فقد مكثت بين أظهركم زمناً طويلاً ، مدة أربعين سنة من قبل القرآن لا أعلمه أنا ولا أتلوته عليكم ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكير لتعلموا أن مثل هذا الكتاب المعجز ليس إلا من عند الله ؟ قال الإمام الفخر : إن الكفار شاهدوا رسول الله ﷺ من أول عمره إلى ذلك الوقت ، وكانوا عالمين بأحواله ، وأنه ما طالع كتاباً ، ولا تتلمذ لأستاذ ، ولا تعلم من أحد ، ثم بعد انقراض أربعين سنة جاءهم بهذا الكتاب العظيم ، المشتمل على نفائس علم الأصول ، ودقائق علم الأحكام ، ولطائف علم الاخلاق ، وأسرار قصص الأولين ، وعجز عن معارضته العلماء ،

الْمُجْرِمُونَ ﴿٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَدْعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠﴾

والفصحاء ، والبلغاء ، وكل من له عقل سليم يعلم أن مثل هذا لا يكون إلا على سبيل الوحي والتنزيل^(١) ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ استفهام انكاري بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب والمقصود منه نفي الكذب عن مقامه الشريف ﷺ حيث زعم المشركون أن هذا القرآن من صنع محمد ﴿أو كذب بآياته﴾ أي كذب بالحق الذي جاءت به الرسل ﴿إنه لا يفلح المجرمون﴾ أي لا يفوز بالسعادة من ارتكب الإجمام وكذب الرسل الكرام ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ بيان لقبائح المشركين أي ويعبدون الأوثان التي هي جمادات لا تقدر على جلب نفع أو دفع ضرر ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ أي يزعمون أن الأصنام تشفع لهم مع أنها حجارة لا تبصر ولا تسمع ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾ ؟ أي قل يا محمد هؤلاء المشركين أنخبرون الله تعالى بشريك أو شفيع كائن في السموات أو الأرض لا يعلمه جل وعلا ، وهو علام الغيوب الذي أحاط علمه بجميع الكائنات ؟ والاستفهام للتهكم والهزء بهم ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي تنزه الله وتقدس عما يقول الظالمون ، وينسبه إليه المشركون ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلَفوا﴾ أي وما كان الناس إلا على دين واحد هو الإسلام من لدن آدم إلى نوح فاختلَفوا في دينهم وتفرقوا شيعاً وأحزاباً قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، ثم وقع الاختلاف بين الناس وعُبدت الأوثان والأصنام فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين^(٢) ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ أي ولولا قضاء الله بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي لعُجِّل عقابهم في الدنيا باختلافهم في الدين ﴿ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ أي ويقول هؤلاء الكفرة المعاندون هلاً أنزل على محمد معجزة من ربه كما كان للأنبياء من الناقة والعصا واليد ﴿فقل إنما الغيب لله﴾ أي قل لهم أمر الغيب لله وحده ولا يأتي بالآيات إلا هو وإنما أنا مبلغ ﴿فانتظروا إنني معكم من المنتظرين﴾ أي فانتظروا قضاء الله بيننا فإنا ممن ينتظر ذلك .

البلاغَة : ١ - ﴿الكتاب الحكيم﴾ فعيل بمعنى مفعول أي المحكم الذي لا يتطرق إليه الفساد ولا يعتريه الكذب والتناقض .

٢ - ﴿أَنْذِرْ.. وَبَشِّرْ﴾ بينهما طباقٌ .

٣ - ﴿قَدِمَ صَدَقٌ﴾ كناية عن المنزلة الرفيعة ، والعبارة غاية في البلاغة لأن بالقدم يكون السبق والتقدم ، كما سميت النعمة يداً لأنها تُعطى بها .

٤ - ﴿يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُكُمْ﴾ بين كلمتي البدء والإعادة طباقٌ .

٥ - ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ فيه التفاتٌ مع الإضافة إلى ضمير الجلالة لتعظيم الأمر وتهويله .

٦ - ﴿الشَّرُّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ أي كاستعجالهم أو مثل استعجالهم بالخير ففيه تشبيه مؤكد مجمل ، وبين الشر والخير طباقٌ .

٧ - ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ في الكلام استعارة تمثيلية حيث شبه حال العباد مع ربهم بحال رعية مع سلطانها في إهمالهم للنظر في أعمالهم ، واستعير الاسم الدال على المشبه به للمشبه على سبيل التمثيل والتقريب ، ولله المثل الأعلى .

٨ - ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ .

فكائِدَةٌ : قال السيوطي في قوله تعالى ﴿جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا﴾ إن هذه الآية أصلٌ في علم المواقيت ، والحساب ، والتاريخ ، ومنازل القمر .

لطيفة : قال الحافظ ابن كثير : من قال مقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد أن يُنصَبَ عليه من الأدلة على برّه أو فجوره ما هو أظهر من الشمس ، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين الضحى وحندس الظلماء ، قال عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس (أي تفرق اليهود عنه) فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيته عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذاب ، فكان أول ما سمعته يقول (يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام) فقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى من الدلائل قال حسان :

لو لم تكن فيه آياتٌ مبيّنةٌ لكان منظره يُنبئك بالخبر

قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ .. إِلَى .. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣٩)

المناسكة : لما ذكر تعالى الأدلة على فساد عبادة الأوثان ، وشبهات المشركين حول الرسالة والقرآن ، ذكر هنا أن عادة هؤلاء الأشقياء المكر ، والجحود ، والعناد ، فإن أصابتهم الشدة تضرعوا ،

وإن جاءتهم الرحمة بطروا وكفروا ، ثم ضرب تعالى المثل بالحياة الدنيا في الزوال والفناء ، ثم عاد إلى ذكر الأدلة والبراهين ، على وحدانية الله رب العالمين .

اللغز : ﴿عاصف﴾ العاصف : الريح الشديدة التي تعصف بالأوراق والأشجار ، قال الفراء : يقال عصفت الريح وأعصفت أي اشتدت قال الشاعر :

إن الرياح إذا ما أعصفت قَصَفَتْ
عيدانَ نجدٍ ولا يعبانَ بالرِّثَمِ^(١)

﴿الموج﴾ ما ارتفع من الماء فوق البحر ، سُمِّي موجاً لاضطرابه ﴿زخرفها﴾ الزخرف : كمالُ حسنِ الشيء ونضارته ، سُمِّي زخرفاً لبهجته ونضارته ﴿تغن﴾ غني بالمكان إذا أقام به وعمره ﴿يرهبق﴾ يغشى ويعلو يقال : رهقه الذل أي غشيه ﴿قتر﴾ القتر والقتر : الغبار الذي معه سواد قال تعالى ﴿تَرَهَّقَهَا قَتْرَةٌ﴾ أي تعلوها غبرة جهنم ، وقيل : القتر الغبار وإن لم يكن معه سواد قال الفرزدق :

متوجُّ برداء الملك يتبعه
موجٌ ترى فوقه الرايات والقتر^(٢)

﴿زيلتنا﴾ فرقنا وميزنا ﴿تؤفكون﴾ تصرفون عن الحق إلى الباطل .

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٣١﴾ هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

التفسير : ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم﴾ المراد بالناس كفار مكة روي أن الله سلط عليهم القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون فطلبوا منه ﷺ أن يدعو لهم بالخصب ووعدوه بالإيمان فلما رحمهم الله بإنزال المطر رجعوا إلى الكفر والعناد والمعنى : وإذا أذقنا هؤلاء المشركين رخاءً بعد شدة ، وخصباً بعد جذب أصحابهم ﴿إذا لهم مكر في آياتنا﴾ قال مجاهد : استهزاء وتكذيب ﴿قل الله أسرع مكرًا﴾ أي أعجل عقوبة على جزاء مكرهم^(٣) ﴿إن رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾ أي إن الملائكة الحفظة يكتبون مكرهم ويسجلون إجرامكم ، وفيه تنبيه على أن ما دبروه غير خاف على الحفظة فضلاً عن العليم الخبير ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ أي هو تعالى بقدرته الذي يحملكم في البر على الدواب ، وفي البحر على السفن التي تسير على وجه الماء ﴿حتى إذا كنتم في الفلك﴾ أي حتى إذا كنتم في البحر على ظهور هذه السفن ﴿وجرين بهم بريح طيبة﴾ فيه التفات أي وجرين بهم بالريح اللينة الطرية التي تسير السفن ﴿وفرحوا بها﴾ أي فرح الركاب بتلك الريح الطيبة ﴿جاءتها ريح عاصف﴾ أي فجاءت جاءتها الريح الشديدة العاصفة

(١) البحر ٥/ ١٢٠. (٢) القرطبي ٨/ ٣٣١.

(٣) مكر الله الموصوف بالسرعة هو عقابه لهم سبأه مكرًا مشاكلة لفعالهم وتسمية للعقوبة باسم الذنب .

الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ مَعِيَ حَقٌّ ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَنْجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ
يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْرِ حَقٍّ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾
إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ
حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا

المدمرة ﴿وجاءهم الموج من كل مكان﴾ أي وأحاطت بهم أمواج البحار من كل جهة ﴿وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي أيقنوا بالهلاك ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ أي أخلصوا الدعاء لله وتركوا ما كانوا يعبدون ، قال القرطبي : وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد ، وأن المضطر يجب دعائه وإن كان كافراً ، لانقطاع الأسباب ، ورجوعه إلى رب الأرباب ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ أي لئن أنقذتنا من هذه الشدائد والأهوال لنكونن من الشاكرين لك على نعمائك ، والعاملين بطاعتك ومرضاتك قال في البحر : ومعنى الإخلاص إفراده بالدعاء من غير إشراك أصنام وغيرها وقال الحسن : مخلصين لا إخلاص إيمان ولكن لأجل العلم بأنهم لا ينجيهم من ذلك إلا الله فيكون ذلك جاريًا مجرى الإيمان الاضطراري ﴿١١﴾ ﴿فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾ أي فلما خلصهم وأنقذهم إذا هم يعملون في الأرض بالفساد والمعاصي قال ابن عباس : يبغون بالدعاء فيدعون غير الله ويعملون بالمعاصي ﴿١٢﴾ قال تعالى رداً عليهم ﴿يأيتها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم﴾ أي وبال البغي عليكم ، ولا يجني ثمرته إلا أنتم ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ أي تتمتعون في هذه الحياة بالشهوات الفانية ، التي تعقبها الحسرات الباقية ﴿ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي مرجعكم بعد الموت إلينا فنجازيكم عليها ، وفي هذا وعيد وتهديد . والآية الكريمة تمثيل لطبيعة الإنسان الجحود ، لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة ، ولا يرجع إليه إلا وقت الكرب والشدّة ، فإذا نجاه الله من الضيق ، وكشف عنه الكرب ، رجع إلى الكفر والعصيان ، وتمادى في الشر والطغيان . ثم ضرب تعالى مثلاً للحياة الدنيا الزائلة الفانية وقصر مدة التمتع بها فقال ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾ أي صفة الحياة الدنيا وحالها العجيبة في فنائها وزوالها ، وذهاب نعيمها واغترار الناس بها كمثل مطر نزل من السماء فنبت به أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض قال ابن عباس : اختلط فنبت بالماء كل لون ﴿١٣﴾ ﴿مما يأكل الناس والأنعام﴾ أي مما يأكله الناس من الحبوب والثمار والبقول ، والأنعام من الكلال والتبن والشعير ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها﴾ أي أخذت حسنها وبهجتها ﴿وازيّنت﴾ أي تزيّنت بالحبوب والثمار والأزهار ، وهو تمثيل بالعروس إذا تزيّنت بالحلي والثياب ﴿وظن أهلها أنهم قادرون عليها﴾ أي وظن أصحابها أنهم متمكنون من الانتفاع بها ، محصلون لثمرتها وغلتها ﴿أتاها أمرنا ليلًا أو نهارًا﴾ أي جاءها

فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ^٤ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٥﴾ * لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِمٍ ^٥ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا

قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات إما ليلاً وإما نهاراً ﴿فجعلناها حصيداً﴾ أي محصودة مقطوعة لا شيء فيها كالذي حصد بالمناجل ﴿كأن لم تغن بالأمس﴾ أي كأنها لم تكن عامرة قائمة على ظهر الأرض قبل ذلك ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ أي مثل ما بينا هذا المثل الرائع للحياة الدنيا نبين الآيات ونضرب الأمثال لقوم يتفكرون فيعتبرون بهذه الأمثال قال الألوسي : وتخصيصهم بالذكر لأنهم المنتفعون ^(١) ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ أي يدعو إلى الجنة دار السرور والإقامة ﴿ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي يوصل من شاء هدايته إلى الطريق المستقيم وهو دين الإسلام ﴿للذين أحسنوا الحسنى﴾ أي للذين أحسنوا بالإيمان والعمل الصالح لهم الحسنى أي الجنة ﴿وزيادة﴾ وهي النظر إلى وجه الله الكريم ^(٢) ﴿ولا يرهق وجوههم قترٌ﴾ أي ولا يغشى وجوههم غبار ولا سواد كما يعترى وجوه أهل النار ﴿ولا ذلة﴾ أي هوانٌ وصغار ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أي دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها بخلاف الدنيا وزخارفها ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئةً بمثلها﴾ أي والذين عملوا السيئات في الدنيا فعصوا الله وكفروا فسيجزون على السيئة بمثلها لا يزدادون على ذلك ، فالحسنات مضاعفة بفضل الله ، والسيئات جزاؤها بالمثل عدلاً منه تعالى ^(٣) ﴿وترهقهم ذلة﴾ أي تغشاهم ذلة وهوان ﴿ما لهم من الله من عاصم﴾ أي ليس لهم أحد يعصمهم أو يمنعهم من سخط الله تعالى وعقابه ﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً﴾ أي كأنما ألبست وجوههم من فرط السواد والظلمة قطعاً من ظلام الليل ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي لا يخرجون منها أبداً ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا﴾ أي نجمع الفريقين للحساب : المؤمنين والكافرين ثم نقول للذين أشركوا بالله ﴿مكانكم أنتم وشركاءكم﴾ أي الزموا مكانكم أنتم والذين عبدتموهم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل الله بكم ﴿فزيلنا بينهم﴾ أي وفرقنا وميزنا بينهم وبين المؤمنين كقوله ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون ﴿أي تبرأ منهم الشركاء وهم الأصنام الذين عبدوهم من دون الله قال مجاهد : يُنطق الله الأوثان فتقول : ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون وما أمرناكم بعبادتنا ^(٤) كقوله ﴿إذ تبرأ الذين أتبعوا من الذين أتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم

(١) روح المعاني ١١/١٠٢ - (٢) ورد هذا في حديث صحيح أخرجه مسلم . (٣) قال في الجوهرة : فالسيئات عنده بالمثل : والحسنات

ضوعفت بالفضل . (٤) القرطبي ٨/٣٣٣ .

بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٦٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ
 لَغَافِلِينَ ﴿٦٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُغُ كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ^ط وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٠﴾
 قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
 الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ^ط فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٧١﴾ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَآذًا بَعْدَ
 الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتَ تُصِرُّونَ ﴿٧٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧٣﴾

الأسباب ﴿﴾ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ﴿﴾ أي تقول الشركاء للمشركين يوم القيامة : حسبنا الله شاهداً
 بيننا وبينكم ﴿﴾ إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴿﴾ أي ما كنا عن عبادتكم لنا إلا غافلين ، لا نسمع ولا نبصر ولا
 نعقل ، لأننا كنا جهاداً لا روح فينا ﴿﴾ هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت ﴿﴾ أي في ذلك الوقت تُختبر كل نفس بما
 قدمت من خير أو شر ، وتنال جزاء ما عملت ﴿﴾ ورددوا إلى الله مولاهم الحق ﴿﴾ أي ردوا إلى الله تعالى المتولي
 جزاءهم بالعدل والقسط ﴿﴾ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿﴾ أي ضاع وذهب عنهم ما كانوا يزعمونه من أن
 الأوثان تشفع لهم ، وفي الآية تبكى شديداً للمشركين الذين عبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم
 شيئاً ﴿﴾ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴿﴾ في هذه الآيات الأدلة على وحدانية الله وربوبيته أي قل يا محمد
 لهؤلاء المشركين من ينزل لكم الغيث والقطر ، ويخرج لكم الزروع والثمار ؟ ﴿﴾ أمن يملك السمع والأبصار ﴿﴾
 أي من ذا الذي يملك أسما عكم وأبصاركم ، التي تسمعون وتبصرون بها ؟ ومن يستطيع أن يردها لكم إذا
 أراد الله أن يسلبكموها ؟ كقوله ﴿﴾ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ﴿﴾ الآية ﴿﴾ ومن يخرج الحي من
 الميت ، ويخرج الميت من الحي ﴿﴾ ؟ أي من يخرج الإنسان من النطفة ، والطيور من البيضة ، والسنبلة من
 الحبة ، والنبات من الأرض ، والمؤمن من الكافر ؟ ﴿﴾ ومن يدبر الأمر ﴿﴾ أي ومن يدبر أمر الخلائق ،
 ويصرف شئون الكائنات ؟ ﴿﴾ فسيقولون الله ﴿﴾ أي فسيقرون بأن فاعل ذلك كله هو الله رب العالمين ، إذ
 لا مجال للمكابرة والعناد لغاية وضوحه ﴿﴾ فقل أفلا تتقون ﴿﴾ أي قل لهم يا محمد أفلا تخافون عقابه ونقمته
 بإشراككم وعبادتكم غير الله ؟ ﴿﴾ فذلكم الله ربكم الحق ﴿﴾ أي هذا الذي يفعل هذه الأشياء الجليلة هو
 ربكم الحق ، الثابت ربوبيته ووجدانيته بالبراهين القاطعة ﴿﴾ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴿﴾ استفهام انكاري
 أي ليس بعد الحق إلا الضلال ، فمن تحطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال ﴿﴾ فأنسى
 تصرفون ﴿﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادة الله ، إلى عبادة ما لا يخلق ولا يرزق ، ولا يحيي ولا يميت ؟
 ﴿﴾ كذلك حقت كلمة ربك ﴿﴾ أي كذلك وجب قضاء الله وحكمه السابق ﴿﴾ على الذين فسقوا ﴿﴾ أي على الذين
 خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا ﴿﴾ أنهم لا يؤمنون ﴿﴾ أي لأنهم لا يصدقون بوجدانية الله ورسالة نبيه ،
 فلذلك حقت عليهم كلمة العذاب لشقاوتهم وضلالتهم ﴿﴾ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ﴿﴾
 أي قل لهم يا محمد على جهة التوبيخ والتفريع : هل من الأوثان والأصنام من ينشئ الخلق من العدم ثم

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَى تُؤْفَكُونَ ﴿٤٤﴾
 قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ
 لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ قُلْ لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا يُتَّبَعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ
 شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي
 بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ

يفنيه ، ثم يعيده ويحييه ؟ قال الطبري : ولما كانوا لا يقدرّون على دعوى ذلك ، وفيه الحجة القاطعة ،
 والدلالة الواضحة على أنهم في دعوى الأرباب كاذبون مفترّون ، أمر ﷺ بالجواب ^(١) ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ
 ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذي يحيي ويميت ، ويبدأ ويعيد ، وليس أحدٌ من هؤلاء
 الآلهة المزعومة يفعل ذلك ﴿فَأَنْتَى تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تنقلون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل ؟ ﴿قُلْ هَلْ
 مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ توبيخٌ آخر في صورة استفهام أي قل لهؤلاء المشركين هل من هذه الآلهة
 التي تعبدونها من يرشد ضالاً؟ أو يهدي حائراً؟ أو يدل على طريق الحق وسبيل الاستقامة؟ ﴿قُلِ اللَّهُ
 يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أي فقل لهم : إن عجزت أهتكم عن ذلك فالله هو القادر على هداية الضال ، وإنارة
 السبيل ، وبيان الحق ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ﴾ أي أفمن يرشد إلى
 الحق وهو الله سبحانه وتعالى أحق بالاتباع أم هذه الأصنام التي لا تهدي أحداً؟ ولا تستطيع هداية نفسها
 فضلاً عن هداية غيرها ^(٢)؟ ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي ما لكم أيها المشركون تسوون بين الأصنام وبين
 ربّ الأرباب ، وتحكمون بهذا الباطل الصّراح؟ وهو استفهام معناه التعجب والإنكار ، ثم بين تعالى فساد
 نحلّتهم بعد أن أفحمهم بالبراهين النيرة التي توجب التوحيد وتبطل التقليد فقال ﴿وَمَا يُتَّبَعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا
 ظَنًّا﴾ أي وما يتبعون في اعتقادهم ألوهية الأصنام ، إلا اعتقاداً غير مستند لدليل أو برهان ، بل مجرد أوهام
 باطلة ، وخرافات فاسدة ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي ومثل هذا الاعتقاد المبني على الأوهام
 والخيالات ، ظنٌ كاذب لا يغني من اليقين شيئاً ، فليس الظنُّ كاليقين ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي
 عالمٌ بما هم عليه من الكفر والتكذيب ، وهو وعيدٌ على اتباعهم للظن ، وإعراضهم عن البرهان ، ثم بين
 تعالى صدق النبوة والوحي فقال ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي لا يصح ولا يعقل ، ولا
 يستقيم لذي عقل سليم ، أن يزعم أن هذا القرآن مفترى مكذوب على الله ، لأنه فوق طاقة البشر ﴿وَلَكِنْ
 تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ولكنه جاء مصدقاً لما قبله من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل ﴿وتفصيل
 الكتاب﴾ أي وفيه تفصيل وتبيين الشرائع والعقائد والأحكام ﴿لا ريب فيه من ربّ العالمين﴾ أي لا شك في

(١) هذا ما ذهب إليه الطبري وقال بعض المفسرين : المراد الرؤساء والمضللون الذين لا يرشدون أنفسهم إلى هدى إلا أن يرشدوا .

(٢) الطبري ١١ / ١١٥

مَثَلِهِ ۖ وَادْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعَلَمِهِ ۖ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾

أنه تنزيل رب العالمين ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي بل يقولون اختلق محمد هذا القرآن من قبل نفسه ؟ وهو استفهام معناه التقرير ﴿قل فاتوا بسورة مثله﴾ أي إن كان كما زعمتم فجيئوا بسورة مثل هذا القرآن ، وهو تعجيز لهم وإقامة حجة عليهم ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ أي ادعوا من دونه تعالى من استطعتم من خلقه ، من الإنس والجن للاستعانة بهم ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي إن كنتم صادقين في أن محمداً افتراه قال الطبري : والمراد أنكم إن لم تفعلوا فلا شك أنكم كذبة ، لأن محمداً لن يعدوا أن يكون بشراً مثلكم ، فإذا عجز الجميع من الخلق أن يأتوا بسورة مثله ، فالواحد منهم أن يأتي بجميعه أعجز^(١) ، قال تعالى ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ أي بل كذب هؤلاء المشركون بالقرآن العظيم ، وسارعوا إلى الطعن به قبل أن يفقهوه ويتدبروا ما فيه ، والناس دائماً أعداء لما جهلوا ﴿ولمَّا يأتهم تأويله﴾ أي والحال لم يأتهم بعد عاقبة ما فيه من الوعيد ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ أي مثل تكذيب هؤلاء كذبت الأمم الخالية قبلهم ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ أي فانظر يا محمد كيف أخذهم الله بالعذاب والهلاك بسبب ظلمهم وبغيهم ، فكما فعل بأولئك يفعل بهؤلاء الظالمين الطاغين .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿أسرع مكرأ﴾ تسمية عقوبة الله مكرأً من باب « المشاكلة » .

٢ - ﴿وجرين بهم﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة وحكمته زيادة التوبيخ والتشنيع على الكفار لعدم شكرهم النعمة .

٣ - ﴿أخذت الأرض زخرفها﴾ هذا من بديع الاستعارة شبه الأرض حينئذ تتزين بالنبات والأزهار بالعروس التي تتزين بالحلي والثياب واستعير لتلك البهجة والنضارة لفظ الزخرف .

٤ - ﴿أتاها أمرنا﴾ الأمر ههنا كناية عن العذاب والدمار .

٥ - ﴿أحسنوا الحسنى﴾ بينها جناس الإشتقاق .

٦ - ﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل﴾ فيه تشبيه مرسلٌ مجمل .

٧ - ﴿يبدأ . . ثم يعيده﴾ بينها طباقٌ .

٨ - ﴿فأنتى تؤفكون﴾ الاستفهام للتوبيخ ، ومثله ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾؟

٩ - ﴿بين يديه﴾ استعارة لطيفة والمراد لما سبقه من التوراة والإنجيل فإنها قد بشرت به .

لطيفة : يقول شهيد الإسلام « سيد قطب » في تفسيره الظلال : « ما يزال البشر يكشفون كلما اهدوا إلى نواميس الكون عن رزقٍ بعد رزقٍ في السماء والأرض ، يستخدمونه أحياناً في الخير ، ويستخدمونه أحياناً في الشر ، حسبما تسلم عقائدهم أو تعتل ، وكله من رزق الله المسخر للإنسان ، فمن سطح الأرض أرزاق ، ومن جوفها أرزاق ، ومن سطح الماء أرزاق ، ومن أعماقه أرزاق ، ومن أشعة الشمس أرزاق ، ومن ضوء القمر أرزاق ، حتى عفن الأرض كشف فيه العلم عن دواء وترياق^(١) وصدق الله ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾ ؟

قال الله تعالى : ﴿ ومنهم من يؤمن ومنهم من لا يؤمن به .. إلى .. العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾
من آية (٤٠) إلى نهاية آية (٧٠)

المناسكة : لما حكى تعالى عن الكافرين طعنهم في أمر النبوة والوحي ، ذكر هنا أن منهم من يصدق بأن القرآن كلام الرحمن ، ولكنه يكابر ويعاند ، ومنهم من لا يصدق به أصلاً لفرط غباوته ، وسخافة عقله ، واختلال تمييزه .. ثم ذكر تعالى أن القرآن شفاء لما في الصدور ، وأعقبه بذكر مال المشركين في الآخرة .

اللفك : ﴿ الصم ﴾ جمع أصم وهو الذي لا يسمع ﴿ بيئاتاً ﴾ ليلاً ﴿ تفيضون ﴾ يقال أفاض فلان في الحديث إذا اندفع فيه ﴿ يعزب ﴾ يخفى ويغيب ﴿ مثقال ﴾ وزن ﴿ سلطان ﴾ حجة وبرهان ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه لله جل وعلا عن النقائص .

وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ۗ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ

النفسي : ﴿ ومنهم من يؤمن به ﴾ أي ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك ويتنفع بما أرسلت به ﴿ ومنهم من لا يؤمن به ﴾ بل يموت على ذلك ويُبعث عليه ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ، ومن يستحق الضلالة فيضله ﴿ فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم ﴾ أي وإن كذبتك هؤلاء المشركون فقل لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقاً كان أو باطلاً ﴿ أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ أي لا يؤاخذ أحد بذنوب الآخر ﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ أي يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وقلوبهم لا تعي شيئاً مما تقرأه وتتلوه ﴿ أفأنت تسمع الصم ﴾ ؟ أي أنت يا محمد لا تقدر أن تسمع من سلبه الله السمع ﴿ ولو كانوا لا يعقلون ﴾ أي ولو كانوا من الصم لا يعقلون ولا يتدبرون ؟ قال ابن كثير : المعنى ومن هؤلاء من

تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّمَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِينَاكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن

يسمعون كلامك الحسن ، والقرآن النافع ، ولكن ليس أمر هدايتهم إليك ، فكما لا تقدر على إسماع الأصم فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله (١) ﴿ ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون ﴾ أي ومن هؤلاء من ينظر إليك ويعاين دلائل نبوتك الواضحة ، ولكنهم عمي لا ينتفعون بما رأوا ، أفأنت يا محمد تقدر على هدايتهم ولو كانوا عمي القلوب ؟ شبههم بالعمى لتعاميهم عن الحق ، قال القرطبي : والمراد تسليية النبي ﷺ أي كما لا تقدر أن تخلق للأعمى بصراً يهتدي به ، فكذلك لا تقدر أن توفق هؤلاء للإيمان (٢) ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ﴾ أي لا يعاقب أحداً بدون ذنب ، ولا يفعل بخلقه ما لا يستحقون ﴿ ولكنَّ الناسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلَمُونَ ﴾ أي ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والمعاصي ومخالفة أمر الله قال الطبري : وهذا إعلامٌ من الله تعالى بأنه لم يسلب هؤلاء الإيمان ابتداءً منه بغير جرم سلف منهم ، وإنما سلبهم ذلك لذنوب اكتسبوها ، فحق عليهم أن يطبع الله على قلوبهم (٣) ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبسوا إلا ساعة من النهار ﴾ أي اذكر يوم نجمع هؤلاء المشركين للحساب كأنهم ما أقاموا في الدنيا إلا ساعة من النهار ، لهول ما يرون من الأحوال ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً كما كانوا في الدنيا ، وهو تعارف توبيخ وافتضاح ، يقول الواحد للآخر : أنت أغويتني وأضللتني ، وليس تعارف محبة ومودة ﴿ قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين ﴾ أي لقد خسر حقاً هؤلاء الظالمون الذين كذبوا بالبعث والنشور ، وما كانوا موفقين للخير في هذه الحياة ﴿ وإِنَّمَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِينَاكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أي إن أريناك يا محمد بعض عذابهم في الدنيا لتقر عينك منهم فذاك ، وإن توفيناك قبل ذلك فمرجعهم إلينا في الآخرة ، ولا بد من الجزاء إن عاجلاً أو آجلاً ﴿ ثم الله شهيدٌ على ما يفعلون ﴾ أي هو سبحانه شاهدٌ على أفعالهم وإجرامهم ومعاقبهم على ما اقترفوا ﴿ ولكل أمة رسول ﴾ أي ولكل أمة من الأمم رسولٌ أرسل لهدايتهم ﴿ فإذا جاء رسولهم قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ قال مجاهد : يعني يوم القيامة قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ قال ابن كثير : فكل أمة تُعرض على الله بحضرة رسوله ، وكتاب أعمالها من خير وشر شاهدٌ عليها ، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً (٤) ﴿ وهم لا يُظْلَمُونَ ﴾ أي لا يُعذَّبون بغير ذنب ﴿ ويقولون متى

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْرِضُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيْنًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَلَمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ؎ ءَ الْعَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ * وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قَوْلٌ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لِحَقِّ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ؎ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا

هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴿٤٨﴾ أي ويقول كفار مكة متى هذا العذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً؟ وهذا القول منهم على سبيل السخرية والاستهزاء ﴿٤٩﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا أي لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضراً ، ولا أجلب إليها نفعاً ، وليس ذلك لي ولا لغيري ﴿٥٠﴾ إلا ما شاء الله أي إلا ما شاء الله أن أملكه وأقدر عليه ، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم به من العذاب ! ﴿٥١﴾ لكل أمة أجل ﴿٥٢﴾ أي لكل أمة وقت معلوم هلاكهم وعذابهم ﴿٥٣﴾ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴿٥٤﴾ أي فإذا جاء أجل هلاكهم فلا يمكنهم أن يستأخروا عنه ساعة فيمهلون ويؤخرون ، ولا يستقدمون قبل ذلك لأن قضاء الله واقع في حينه ﴿٥٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا أي قل لأولئك المكذبين أخبروني إن جاءكم عذاب الله ليلاً أو نهاراً فما نفعكم فيه ؟ ﴿٥٦﴾ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴿٥٧﴾ استفهام معناه التهويل والتعظيم أي ما أعظم ما يستعجلون به ؟ كما يقال لمن يطلب أمراً وخيماً : ماذا تجني على نفسك ﴿٥٨﴾ أَلَمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ﴿٥٩﴾ في الكلام حذف تقديره : أتؤخرون إلى أن تؤمنوا بها وإذا وقع العذاب وعايينتموه فما فائدة الإيمان وما نفعكم فيه ، إذا كان الإيمان لا ينفع حينذاك ؟ قال الطبري : المعنى أنهالك إذا وقع عذاب الله بكم أيها المشركون صدقتم به في حال لا ينفعكم فيه التصديق ﴿٦٠﴾ الآن وقد كنتم به تستعجلون ﴿٦١﴾ أي يقال لكم أيها المجرمون : الآن تؤمنون وقد كنتم قبله تهزءون وتسخرون وتستعجلون نزول العذاب ؟ ﴿٦٢﴾ ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ﴿٦٣﴾ أي ذوقوا العذاب الدائم الذي لا زوال له ولا فناء ﴿٦٤﴾ هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴿٦٥﴾ أي هل تجزون إلا جزاء كفركم وتكذيبكم ؟ ﴿٦٦﴾ ويستنبئونك أحق هو ﴿٦٧﴾ أي ويستخبرونك يا محمد فيقولون : أحق ما وعدتنا به من العذاب والبعث ؟ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لِحَقِّ أَي قل نعم والله إنه كائن لا شك فيه ﴿٦٩﴾ وما أنتم بمعجزين ﴿٧٠﴾ أي لستم بمعجزين الله بهرب أو امتناع من العذاب بل أنتم في قبضته وسلطانه ﴿٧١﴾ ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض ﴿٧٢﴾ أي لو أن لكل نفس كافرة ما في الدنيا جميعاً من خزائنها وأموالها ، ومنافعها قاطبة ﴿٧٣﴾ لافتدت به ﴿٧٤﴾ أي لدفعته فدية لها من عذاب الله ولكن هيهات أن يقبل كما قال تعالى ﴿٧٥﴾ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴿٧٦﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن أسفهم وندمهم ﴿٧٧﴾ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴿٧٨﴾ أي أخفى هؤلاء الظلمة الندم لما عاينوا العذاب قال الإمام الجلال : أي أخفاها رؤساؤهم عن

الْعَذَابِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْآلَاءِ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنْ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ

الضعفاء الذين أضلوهم مخافة التعيير^(١) ﴿وقضي بينهم بالقسط﴾ أي قضي بين الخلائق بالعدل ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي لا يظلمون من أعمالهم شيئاً ، ولا يعاقبون إلا بجريرتهم ﴿ألا إن لله ما في السموات والأرض﴾ «الأ» كلمة تنبيه للسامع تزداد في أول الكلام أي انتبهوا لما أقول لكم فكل ما في السموات والأرض ملك لله ، لا شيء فيها لأحد سواه ، هو الخالق وهو المالك ﴿ألا إن وعد الله حق﴾ أي إن وعده بالبعث والجزاء حق كائن لا محالة ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ولكن أكثر الناس لقصور عقولهم ، واستيلاء الغفلة عليهم ، لا يعلمون ذلك فيقولون ما يقولون ﴿هو يحيي ويميت وإليه ترجعون﴾ أي هو سبحانه المحيي والمميت ، وإليه مرجعكم في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم ﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم﴾ خطاب لجميع البشر أي قد جاءكم هذا القرآن العظيم الذي هو موعظة لكم من خالقكم ﴿وشفاء لما في الصدور﴾ أي يشفي ما فيها من الشك والجهل ﴿وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ أي وهداية من الضلال ورحمة لأهل الإيمان قال صاحب الكشاف : المعنى قد جاءكم كتاب جامع هذه الفوائد العظيمة من الموعظة ، والتنبيه على التوحيد ، ودواء الصدور من العقائد الفاسدة ، ودعاء إلى الحق ، ورحمة لمن آمن به منكم^(٢) ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ قال ابن عباس : فضل الله القرآن ، ورحمته الإسلام^(٣) والمعنى : ليفرحوا بهذا الذي جاءهم من الله ، من القرآن والإسلام ، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿هو خير مما يجمعون﴾ أي هو خير مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية ، والنعيم الزائل ، فإن الدنيا بما فيها لا تساوي جناح بعوضة كما ورد به الحديث الشريف ﴿قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق﴾ خطاب لكفار العرب والمعنى : أخبروني أيها المشركون عما خلقه الله لكم من الرزق الحلال ﴿فجعلتم منه حراماً وحلالاً﴾ أي فحرمتم بعضه وحللتم بعضه كالبحيرة ، والسائبة ، والميتة قال ابن عباس : نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يجلون ويحرمون من البحائر والسوائب ، والحرث والأنعام^(٤) ﴿قلء الله أذن لكم أم على الله تفترون﴾ أي قل لهم يا محمد أخبروني : أحصل إذن من الله لكم بالتحليل والتحريم ، فأنتم فيه ممثلون

(١) تفسير الجلالين ١٩٢/٢ وقال في البحر : وإخفاء الندامة هو من كونهم يهتوا لرؤيتهم ما لم يحسبوه ولا خطر ببالهم ، ومعابيتهم ما أوهم قواهم ، فلم يطيقوا عند ذلك بكاءً ولا صراخاً ، كما يعرض لمن يقدم للصلب لا يكاد ينس بكلمة ، ويبقى مبهوتاً جامداً .

(٢) الكشاف ٣٠٥٣/٢ (٣) البحر ١٧١/٥ (٤) المختصر ١٩٨/٢

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١٠٧﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٠٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٠٩﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ

لأمره ، أم هو مجرد افتراء وبهتان على ذي العزة والجلال ؟ ﴿وما ظنُّ الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ أي وما ظنُّ هؤلاء الذين يتخرصون على الله الكذب فيحلون ويحرمون من تلقاء أنفسهم ، أيجسبون أن الله يصفح عنهم ويغفر يوم القيامة ؟ كلاً بل سيصليهم سعيراً ، وهو وعيدٌ شديد للمفترين ﴿إنَّ الله لذو فضلٍ على الناس﴾ أي لذو إنعامٍ عظيمٍ على العباد حيث رحمهم بترك معاجلة العذاب ، وبالإنعام عليهم ببعثة الرسل وإنزال الكتب ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يشكرون﴾ أي لا يشكرون النعم بل يحسدون ويكفرون ﴿وما تكونُ في شأنٍ﴾ الخطابُ للرسول ﷺ أي ما تكون يا محمد في أمرٍ من الأمور ، ولا عملٍ من الأعمال ﴿وما تتلوا منه من قرآنٍ﴾ أي وما تقرأ من كتاب الله شيئاً من القرآن ﴿ولا تعملون من عملٍ﴾ أي ولا تعملون أيها الناس من خير أو شر ﴿إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾ أي إلا كنا شاهدين رقباء ، نحصي عليكم أعمالكم حين تندفعون وتخوضون فيها ﴿وما يعزبُ عن ربك﴾ أي ما يغيب ولا يخفى على الله ﴿من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء﴾ أي من وزن هبأة أو نملة صغيرة في سائر الكائنات أو الموجودات ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ أي ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها إلا وهو معلوم لدينا ومسجل في اللوح المحفوظ قال الطبري : والآية خيرٌ منه تعالى أنه لا يخفى عليه أصغر الأشياء وإن خف في الوزن ، ولا أكبرها وإن عظم في الوزن ، فليكن عملكم أيها الناس فيما يرضي ربكم ، فإننا محصوها عليكم ومجازوكم بها^(١) ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي انتبهوا أيها الناس واعلموا أن أحبب الله وأولياءه لا خوف عليهم في الآخرة من عذاب الله ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا ، ثم بين تعالى هؤلاء الأولياء فقال ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي الذين صدقوا الله ورسوله ، وكانوا يتقون ربهم بامثال أوامره واجتناب نواهيه ، فالوليُّ هو المؤمنُ التقى وفي الحديث (إنَّ لله عبداً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله ، قالوا أخبرنا من هم ؟ وما أعمالهم ؟ فلعلنا نحبهم ، قال : هم قومٌ تحابوا في الله ، على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابرٍ من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ ﴿ألا إن أولياء الله . . .﴾ الآية^(٢) ﴿لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ أي لهم ما يسرهم في الدارين ، حيث تبشرهم الملائكة^(٣) عند الاحتضار برضوان الله ورحمته ، وفي الآخرة بجنان

(١) الطبري ١١/١٣٠ . (٢) الطبري ١١/١٣٢ . (٣) ذهب بعض المفسرين إلى أن البشارة في الدنيا هي « الرؤية الصالحة » التي يراها المؤمن أو تُرى له ، وقد ورد ذلك في حديث أخرجه الحاكم ، واختار الطبري أن البشارة تكون بالرؤية الصالحة وببشارة الملائكة عند الموت

الْفَوْزَ الْعَظِيمَ ﴿٦٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٦﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٧٠﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧١﴾

النعيم والفوز العظيم كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ أي لا إخلاف لوعده ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ أي هو الفوز الذي لا فوز وراءه ، والظفر بالمقصود الذي لا يضاهي ﴿ولا يحزنك قولهم﴾ أي لا يحزنك ولا يؤلمك يا محمد تكذيبهم لك وقولهم : لست نبياً مرسلأ ، ثم ابتداء تعالى فقال ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي القوة الكاملة ، والغلبة الشاملة ، لله وحده ، فهو ناصرك ومانعك ومعينك ، وهو المنفرد بالعزيزة يمنحها أوليائه ، ويمنعها أعداءه ﴿هو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوالهم ، العليم بأعمالهم ﴿ألا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي وما يتبع هؤلاء المشركون الذين يعبدون غير الله آلهة على الحقيقة ، بل يظنون أنها تشفع أو تنفع ، وهي لا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي ما يتبعون إلا ظناً باطلاً ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يحدسون ويكذبون ، يظنون الأوهام حقائق ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ تنبيه على القدرة الكاملة والمعنى من دلائل قدرته الدالة على وحدانيته ، أن جعل لكم أيها الناس الليل راحة لأبدانكم تستريحون فيه من التعب والنصب في طلب المعاش ﴿والنهار مبصراً﴾ أي وجعل النهار مضيئاً تبصرون فيه الأشياء لتهتدوا إلى حوائجكم ومكاسبكم ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾ أي لعلامات ودلالات على وحدانية الله ، لقوم يسمعون سمع اعتبار ، ثم نبه تعالى على ضلال اليهود والنصارى والمشركين فقال ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أي نسب اليهود والنصارى لله ولداً ﴿فَقَالُوا﴾ : عزيز ابن الله ، والمسيح ابن الله ، كما قال كفار مكة : الملائكة بناتُ الله ﴿سبحانه هو الغني﴾ أي تنزه الله وتقدس عما نسبوا إليه فإنه المستغني عن جميع الخلق ، فإن اتخاذاً الولد إنما يكون للحاجة إليه ، والله تعالى غير محتاج إلى شيء ، فالولد منتفٍ عنه ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي الجميع خلقه وملكه ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا﴾ أي ما عندكم من حجة بهذا القول ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أنفترون على الله

(١) يا له من جهل وحق ينسبون إلى العلي الأعلى ما يزهون عنه رهبانهم ويزعمون أنهم مقدسون لا يتزوجون !!

وتكذبون بنسبه الشريك والولد؟ وهو توبيخ وتقريع على جهلهم . ﴿قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ أي كل من كذب على الله لا يفوز ولا ينجح ﴿متاع في الدنيا﴾ أي متاع قليل في الدنيا يتمتعون به مدة حياتهم ﴿ثم إلينا مرجعهم﴾ أي ثم معادهم ورجوعهم إلينا للجزاء والحساب ﴿ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ أي ثم في الآخرة نذيقهم العذاب الموجه الأليم بسبب كفرهم وكذبهم على الله .

البلاغَة : ١ - ﴿من يؤمن به . . ومن لا يؤمن﴾ بينهما طباق السلب .

٢ - ﴿تسمع الصم . . تهدي العمي﴾ الصمُّ والعميُّ مجازٌ عن الكافرين شبههم بالصمِّ والعمي لتعاميهم عن الحق .

٣ - ﴿ضراً ولا نفعاً﴾ بينهما طباقٌ وكذلك بين ﴿بياتاً ونهاراً﴾ وبين ﴿يحيى ويميت﴾ وبين ﴿يستقدمون . . ويستأخرون﴾ .

٤ - ﴿شفاء لما في الصدور﴾ مجاز مرسل أطلق المحلَّ وأراد الحالَّ أي شفاءً للقلوب لأن الصدور محلُّ القلوب .

٥ - ﴿حراماً وحلالاً﴾ بينهما طباق .

٦ - ﴿والنهار مبصراً﴾ قال في تلخيص البيان : هذه استعارة عجيبة ، سمى النهار مبصراً لأن الناس يبصرون فيه ، فكأن ذلك صفة الشيء بما هو سبب له على طريق المبالغة كما قالوا : ليلٌ أعمى وليلة عمياء إذا لم يبصر الناس فيها شيئاً لشدة إظلامها^(١) .

٧ - ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ استفهام توبيخ وتقريع .

فكأئدة : أمر تعالى رسوله ﷺ بالحلف في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم في هذه السورة ﴿قل إي وربي إنه لحق﴾ وفي سورة سبأ ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم﴾ وفي سورة التغابن ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن﴾ ذكره ابن كثير .

تنبية : كلمة « رأيت » تستعمل بمعنى الاستفهام عن الرؤية البصرية ، أو العلمية ، وهذا أصل وضعها ثم استعملت بمعنى « أخبرني » فيقولون : رأيت ذلك الأمر أي أخبرني عنه ، والرؤية إما بصرية أو علمية والتقدير : أبصرت حالته العجيبة ، أو أعرفت أمره العجيب ؟ فأخبرني عنها ، ولذا لم تستعمل في غير الأمر العجيب ، ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾ ؟ ﴿أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى﴾ ؟ وهكذا .

قال الله تعالى : ﴿واتل عليهم نبأ نوح . . إلى . . ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ من آية (٧٢) إلى نهاية آية (٨٩) .

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى الدلائل الدالة على وحدانيته ، وذكر ما جرى بين الرسول ﷺ وكفار مكة ، ذكر هنا بعض قصص الأنبياء ، تسلية للرسول ﷺ ليتأسى بهم فيهنون عليه ما يلقاه من الشدائد والمكاره ، وقد ذكر تعالى هنا ثلاث قصص : ١ - قصة نوح عليه السلام مع قومه ٢ - قصة موسى وهارون مع الطاغية فرعون ٣ - قصة يونس مع قومه ، وفي كل قصة عبرة لمن اعتبر ، وذكرى لمن تدبر .

اللَّفْكَتِرُ : ﴿كَبُرَ﴾ قال الواحدي : كَبُرَ يَكْبُرُ كِبْرًا فِي السَّنِّ ، وَكَبُرَ الْأَمْرُ وَالشَّيْءُ يَكْبُرُ كُبْرًا وَكِبَارَةً إِذَا عَظُمَ ^(١) ﴿فَأَجْمَعُوا﴾ الإجماع : الإعداد والعزيمة على الأمر وأنشد الفراء :

يا ليت شعري والمنى لا ينفع
هل أغدون يوماً وأمري مجمع ^(٢)

﴿عُمَّةٌ﴾ مبهماً من قولهم عُمٌ علينا الهلال فهو مغموم إذا التبس واستتر قال طرفة :

لعمرك ما أمري عليّ بعُمّةٍ
نهاري ولا ليلى عليّ بسرمد

﴿نَطَعَ﴾ نَحْتَمُ ﴿تَلَفَّتْنَا﴾ تصرفنا وتلوينا واللفت : الصرف عن أمر وأصله الليُّ يقال لفت عنقه إذا لواها
﴿الكبرياء﴾ العظمة والملك والسلطان ﴿عالٍ﴾ عاتٍ متكبر ﴿المسرفين﴾ المجاوزين الحد في الضلال
والطغيان ﴿اطمس﴾ الطمس : المسخ قال الزجاج : طمس الشيء إذهابه عن صورته ومنه عين مطموسة .

* وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِعَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ
تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ عُمَةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ
تَوَلَّيْتُمْ فَأَسْأَلُتْكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرُتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ

النَّفْسِيرُ : ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي اقرأ يا محمد على المشركين من أهل مكة خبر أخيك نوح مع قومه المكذبين ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾ أي حين قال لقومه الجاحدين المعاندين يا قوم إن كان عظم وشق عليكم ﴿مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِعَايَتِ اللَّهِ﴾ أي طول مقامي ولبثي فيكم ، وتخويفي إياكم بآيات ربكم ، وعزمتي على قتلي وطردي ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي على الله وحده اعتمدت ، وبه وثقت فلا أبالي بكم ﴿فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أي فاعزموا أمركم وادعوا شركاءكم ، ودبروا ما تريدون لمكيدتي ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ عُمَةً﴾ أي لا يكن أمركم في شأني مستوراً بل مكشوفاً مشهوراً ، ﴿ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي أنفذوا ما تريدونه في أمري ولا تؤخروني ساعة واحدة ، قال أبو السعود : وإنما خاطبهم بذلك إظهاراً لعدم المبالاة ، وثقة بالله وبوعده من عصمته وكلاءته ^(٣) ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي فإن عرضتم عن نصيحتي وتذكيري

فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْفَيْهِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الْمُنذِرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَبَدَّوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ
 كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
 بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا السِّحْرُ مِيقَاتٌ
 قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَ كُرْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا
 عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ

فليس لأنني طلبت منكم أجراً حتى تمتنعوا ، بل لشقاوتكم وضلالكم ﴿إن أجري إلا على الله﴾ أي ما
 أطلب ثواباً أو جزاءً على تبليغ الرسالة إلا من الله ، وما نصحتكم إلا لوجه الله لا لغرضٍ من أغراض
 الدنيا ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أي من الموحدين لله تعالى ﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه في
 الفلِّ﴾ أي فأصروا واستمروا على تكذيب نوح فنجيناه ومن معه من المؤمنين في السفينة ﴿وجعلناهم
 خلفاً﴾ أي جعلنا من معه من المؤمنين سكان الأرض وخلفاً ممن غرق ﴿وأغرقنا الذين كذبوا
 بآياتنا﴾ أي أغرقنا المكذبين بالطوفان ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ أي انظر يا محمد كيف كان
 نهاية المكذبين لرسولهم ؟ والغرض : تسلية للرسول ﷺ والتحذير لكفار مكة أن يحل بهم ما حلَّ بالسابقين
 ﴿ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم﴾ أي أرسلنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم يعني هوداً وصالحاً ولوطاً
 وإبراهيم وشعيباً ﴿فجاءوهم بالبينات﴾ أي بالمعجزات الواضحات ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به
 من قبل﴾ أي ما كانوا ليصدقوا بما جاءتهم به الرسل ، ولم يزرهم عقاب السابقين ﴿كذلك نطبع
 على قلوب المعتدين﴾ أي كذلك نختم على قلوب المجاوزين الحد في الكفر والتكذيب والعداوة ﴿ثم
 بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملأه﴾ أي بعثنا من بعد أولئك الرسل والأمم موسى
 وهارون إلى فرعون وأشرف قومه ﴿بآياتنا﴾ أي بالبراهين والمعجزات الباهرة ، وهي الآيات التسع
 المذكورة في سورة الأعراف ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي تكبروا عن الإيمان بها وكانوا
 مفسدين ، تعدوا الإجماع وارتكاب الذنوب العظام ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا
 لسحر مبين﴾ أي فلما وضع لهم الحق الذي جاءهم به موسى من اليد والعصا قالوا لفرط عتوهم
 وعداوتهم : هذا سحر ظاهر بين أراد به موسى أن يسحرنا ﴿قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم﴾
 الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتقولون عن هذا الحق إنه سحر ؟ ثم أنكر عليهم أيضاً باستفهام آخر
 ﴿أسحر هذا﴾ أي أسحر هذا الذي جئتكم به ؟ ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ أي والحال أنه لا يفوز ولا
 ينجح الساحرون ﴿قالوا أجئتنا لنتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا﴾ أي أجئتنا لتصرفنا وتلوينا عن

عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ
السَّحْرَ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَمَّا مَنْ لِمُوسَىٰ إِذْ ذُرِّيَّتٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ
لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يُقَوْمِ إِنِ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ
مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا الْقَوْمَ كَمَا بِمِصْرَ بِيوتَا وَأَجْعَلُوا بِيوتَكَرَّ قِبَلَهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
دين الآباء والأجداد ؟ ﴿ وتكون لكما الكبرياءُ في الأرض ﴾ أي يكون لك ولأخيك هارون العظمة
والملك والسلطان في أرض مصر ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ أي ولسنا بمصدقين لكما فيما جئتما به ﴿ وقال
فرعون ائتوني بكل ساحر عليم ﴾ أي ائتوني بكل ساحر ماهر ، عليم بفنون السحر ﴿ فلما جاء
السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ في الكلام محذوف تقديره فأتوه بالسحرة فلما جاءوا قال لهم
موسى ألقوا ما أنتم ملقون من حبالكم وعصيكم ﴿ فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر ﴾ أي ما
جئتم به الآن هو السحر لا ما اتهمتموني به ﴿ إن الله سيبتله ﴾ أي سيمحقه وسيذهب به ويظهر بطلانه
للناس ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ أي لا يصلح عمل من سعى بالفساد ﴿ ويحق الله الحق
بكلماته ﴾ أي يثبت الله الحق ويقويه بحججه وبراهينه ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ أي ولو كره ذلك الفجرة
الكافرون ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ﴾ أي فما آمن مع موسى ولا دخل في دينه ، مع مشاهدة
تلك الآيات الباهرة إلا نفر قليل من أولاد بني إسرائيل قال مجاهد : هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من
طول الزمان ومات أبائهم ﴿ على خوف من فرعون وملائتهم أن يفتنهم ﴾ أي على تخوف وحذر من
فرعون وملاه أن يعذبهم ويصرفهم عن دينهم ﴿ وإن فرعون لعالٍ في الأرض ﴾ أي عات متكبر مفسد في
الأرض ﴿ وإنه لمن المسرفين ﴾ أي المتجاوزين الحد بادعاء الربوبية ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم
آمنتم بالله ﴾ أي قال لقومه لما رأى تخوف المؤمنين من فرعون يا قوم إن كنتم صدقتم بالله وبآياته ﴿ فعليه
توكلوا ﴾ أي على الله وحده اعتمدوا فإنه يكفيكم كل شرٍّ وضرٍّ ﴿ إن كنتم مسلمين ﴾ أي إن كنتم
مستسلمين لحكم الله منقادين لشرعه ﴿ فقالوا على الله توكلنا ﴾ أي أجابوا قائلين : على ربنا
اعتمدنا وبه وثقنا ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ أي لا تسلطهم علينا حتى يعذبونا ويفتنوا
بنا فيقولوا : لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا ﴿ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ أي خلصنا
وأنقذنا بفضلك وإنعامك من كيد فرعون وأنصاره الجاحدين ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا

(١) اختار الإمام الجلال أن الطائفة التي آمنت بموسى هم من آل فرعون وما ذكرناه هو اختيار الطبري والجمهور وهو الأرجح .

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ فَاَسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

لقومكما بمصر بيوتاً ﴿ أي اتخذوا لهم بيوتاً للصلاة والعبادة ﴾ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴿ أي اجعلوها مصلى ﴾ (١) تصلون فيها عند الخوف قال ابن عباس : كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم (٢) ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أي أدوا الصلاة المفروضة في أوقاتها ، بشروطها وأركانها على الوجه الأكمل ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أي بشر يا موسى أتباعك المؤمنين بالنصر والغلبة على عدوهم ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملاه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ﴾ أي قال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرفهم ، زينة من متاع الدنيا وأثاثها ، وأنواعاً كثيرة من المال ﴿ ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ اللام لام العاقبة (٣) أي آتيتهم تلك الأموال الكثيرة لتكون عاقبة أمرهم إضلال الناس عن دينك ، ومنعهم عن طاعتك وتوحيدك ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ دعاء عليهم أي أهلك أموالهم يا الله وبددها ﴿ واشدّد على قلوبهم ﴾ أي قسّ قلوبهم واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان قال ابن عباس : أي امنعهم الإيمان ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ دعاء عليهم بلفظ النفي أي اللهم فلا يؤمنوا حتى يذوقوا العذاب المؤلم ويوقنوا به حيث لا ينفعهم ذلك ، وإنما دعا عليهم موسى لطغيانهم وشدة ضلالهم ، وقد علم بطريق الوحي أنهم لن يؤمنوا فدعا عليهم قال ابن عباس : كان موسى يدعو وهارون يؤمن فنسبت الدعوة إليهما (٤) ﴿ قال قد أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ ﴾ أي قال تعالى قد استجبت دعوتكما على فرعون وأشرف قومه ﴿ فاستقيما ﴾ أي اثبتا على ما أنتم عليه من الدعوة إلى الله وإلزام الحجة ﴿ ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ أي لا تسلكا سبيل الجهلة في الاستعجال أو عدم الاطمئنان بوعد الله تعالى ، قال الطبري : روي أنه مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة (٥) ثم أغرق الله فرعون .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ تقديم ما حقه التأخير لإفاده الحصر أي على الله لا على غيره .

٢ - ﴿ ويحق الحق ﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٣ - ﴿ لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ عبر عن الالتباس والستر بالغمّة بطريق الاستعارة أي لا يكن أمركم مغطى تغطية حيرة ومبهما فيكون كالغمّة العمياء .

٤ - ﴿ واشدّد على قلوبهم ﴾ الشدّد استعارة عن تغليظ العقاب ، ومضاعفة العذاب .

(١) وقيل : المراد اجعلوا بيوتكم موجهة إلى جهة القبلة . (٢) الطبري ١١ / ١٥٤ .

(٣) هذه اللام كقوله تعالى ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ وفي الخبر (لدوا للموت وابتوا للخراب) أي لتكون العاقبة الموت والخراب . (٤) البحر ٥ / ١٨٧ . (٥) الطبري ١١ / ١٦١ .

تنبية : قال ابن كثير : دعوة موسى على فرعون كانت غضباً لله ولدينه كما دعا نوح على قومه فقال ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك﴾ ولهذا استجاب الله لموسى دعوته التي شاركه فيها أخوه هارون ، كما استجاب دعوة نوح عليه السلام .

قال الله تعالى : ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر . . إلى . . وهو خير الحاكمين﴾

من آية (٩٠) إلى نهاية السورة الكريمة .

المناسكة : لما ذكر تعالى دعاء موسى على فرعون لطغيانه ، ذكر هنا ما حدث لفرعون وجنوده من الإغراق في البحر نتيجة البغي والعدوان ، وأن إيمانه لم ينفعه لأنه إيمان المضطر ، ثم ذكر قصة يونس وتوبة الله تعالى على قومه ، وختم السورة الكريمة ببيان حقيقة التوحيد ، وأن الإنسان لا ينجيه عند الله إلا الإيمان .

اللغات : ﴿بوانا﴾ أنزلنا وأسكننا ﴿المتمرين﴾ الشاكين ، امترى : شك وارتاب ﴿فلولا﴾ لولا للتحضيض بمعنى هلاً ﴿الرجس﴾ العذاب أو السخط ﴿حنيفاً﴾ مانئاً عن الأديان الباطلة كلها ﴿يمسك﴾ يصبك ﴿كاشف﴾ دافع ومزيل يقال : كشف السوء أي أزاله ﴿بوكيل﴾ بحفيظ موكول إلى أمركم .

* **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال ءأمنت أنه لا إله إلا الذي ءأمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين ﴿٩٠﴾ ءألن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴿٩١﴾ فاليوم نجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا**

التفسير : ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ أي قطعنا وعدينا ببني إسرائيل البحر « بحر السويس » حتى جاوزوه ﴿فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً﴾ أي لحقهم فرعون مع جنوده ظمناً وعدواناً وطلباً للاستعلاء بغير حق ﴿حتى إذا أدركه الغرق﴾ أي حتى إذا أحاط به الغرق وأيقن بالهلاك ﴿قال أمنت أنه لا إله إلا الذي أمنت به بنو إسرائيل﴾ أي قال عندئذ أقرت وصدقت بأنه لا إله إلا الله رب العالمين ، الذي أمنت وأقرت به بنو إسرائيل ﴿وأنا من المسلمين﴾ تأكيد لدعوى الإيمان أي وأنا ممن أسلم نفسه لله ، وأخلص في إيمانه قال ابن عباس : جعل جبريل عليه السلام في فم فرعون الطين مخافة أن تدركه الرحمة ﴿٩٠﴾ ءألن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴿٩١﴾ أي الآن تؤمن حين يئست من الحياة ، وقد عصيت الله قبل نزول نعمته بك ، وكنت من الغالين في الضلال والاضلال والصد عن دين الله؟ ﴿فاليوم نجيك بيدك﴾ أي فاليوم نخرجك من البحر بجسدك الذي لا روح فيه ﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ أي لتكون عبرة لمن بعدك من الناس ، ومن الجبابرة والفراعنة ، حتى لا يظغوا مثل طغيانك قال ابن عباس :

(١) الطبري ١١/١٦٣ والمراد بإدراك الرحمة النجاة من الغرق كما كان طلب المخدول ، قاله أبو السعود .

لَغْفُلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صَدَقَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ
 إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ
 الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ
 مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَةِ اللَّهِ فَتَكُونُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا
 يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا

إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون ، فأمر الله البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح ليتحققوا
 موته وهلاكه^(١) ﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ أي معرضون عن تأمل آياتنا لا يتفكرون فيها
 ولا يعتبرون بها ﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مَبُوءًا صَدَقَ﴾ أي أنزلنا وأسكننا بني إسرائيل بعد إهلاك
 أعدائهم منزلاً صالحاً مرضياً ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي اللذات الطيبة النافعة ﴿فما اختلفوا حتى
 جاءهم العلم إنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي فما
 اختلفوا في أمر الدين إلا من بعد ما جاءهم العلم وهو التوراة التي فيها حكم الله ، وهذا
 ذمُّ لهم لأن اختلفاهم كان بسبب الدين ، والدينُ يجمع ولا يفرِّق ، ويوحِّد ولا يشتت وقال
 الطبري : كانوا قبل أن يُبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته ، والإقرار بمبعثه ، فلما جاءهم ما عرفوا كفر
 به بعضهم ، وأمن البعض ، فذلك اختلفاهم^(٢) ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ هذا على سبيل
 الفرض والتقدير : أي إن فرض أنك شككت فاسأل قال ابن عباس : لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل وقال
 الزمخشري : هذا على الفرض والتمثيل كأنه قيل : فإن وقع شكٌ مثلاً ، وخيَّل لك الشيطان خيلاً تقديراً
 فسل علماء أهل الكتاب ، وفرقٌ عظيم بين قوله ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ بإثبات الشك على
 سبيل التأكيد والتحقيق وبين قوله ﴿فإن كنت في شك﴾ بمعنى الفرض والتمثيل^(٣) وقال بعضهم :
 الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره ﴿فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾ أي اسأل أهل الكتاب الذين
 يعرفون التوراة والإنجيل ، فإن ذلك محقق عندهم كما قصصنا عليك ، والغرضُ دفع الشك عن قصص
 القرآن ﴿لقد جاءك الحق من ربك﴾ أي جاءك يا محمد البيان الحق ، والخبر الصادق ، الذي لا يعتريه
 شك ﴿فلا تكوننَّ من الممترين﴾ أي فلا تكن من الشاكيين المرتابين ﴿ولا تكوننَّ من الذين كذبوا
 بآيات الله﴾ أي لا تكذب بشيء من آيات الله ﴿فتكون من الخاسرين﴾ أي فتصبح ممن خسر دنياه
 وآخرته ، قال البيضاوي : وهذا من باب التهيج والتشيت وقطع أطماع المشركين عنه^(٤) وقال القرطبي :
 الخطابُ في هاتين الآيتين للنبي ﷺ والمراد غيره^(٥) ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك﴾ أي وجبت
 عليهم كلمة العذاب بإرادة الله الأزلية ﴿لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية﴾ أي لا يصدقون ولا يؤمنون

(١) المختصر ٢/٢٠٦ . (٢) الطبري ١١/١٦٧ . (٣) الكشاف ٢/٣٧٠ . (٤) البيضاوي ٢٤٥ . (٥) القرطبي ٨/٣٨٣ .

إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٠١﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ
لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَا ذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي
الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٤﴾ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي
مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٥﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٦﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ

أبداً ولو جاءتهم البراهين والمعجزات ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ أي فحينئذ يؤمنون كما آمن فرعون ولكن لا ينفعهم الإيمان ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها﴾ أي فهلا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكتها ، تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان عند معاينة العذاب فنفعها إيمانها في ذلك الوقت ﴿إلا قوم يونس﴾ أي غير قوم يونس ﴿لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾ أي لما تابوا عن الكفر وآمنوا بالله رفعنا عنهم العذاب المخزي المهين في الحياة الدنيا ﴿ومتعناهم إلى حين﴾ أي أخرناهم إلى انتهاء آجالهم قال قتادة : روي أن يونس أنذرهم بالعذاب ثم خرج من بين أظهرهم ، فلما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم ، كذب الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المسوح ، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم ، والتوبة والندم على ما مضى منهم ، كشف الله عنهم العذاب ^(١) ﴿ولو شاء ربك لأمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾ أي لو أراد الله لأمن الناس جميعاً ، ولكن لم يشأ ذلك لكونه مخالفاً للحكمة ، فإنه تعالى يريد من عباده إيمان الاختيار ، لا إيمان الإكراه والاضطرار ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ ؟ أي أفأنت يا محمد تكره الناس على الإيمان ، وتضطرمهم إلى الدخول في دينك ؟ ليس ذلك إليك ، والآية تسلية له ﷺ وترويح لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم قال ابن عباس : كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس ، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذكر الأول ، ولا يضل إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول ^(٢) ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ أي ما كان لأحد أن يؤمن إلا بإرادته تعالى وتوفيقه ﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ أي ويجعل العذاب على الذين لا يتدبرون آيات الله ، ولا يستعملون عقولهم فيما ينفع ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ أي قل يا محمد هؤلاء الكفار : انظروا نظر تفكر واعتبار ، ما الذي في السموات والأرض من الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته سبحانه ؟ ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ أي وما تنفع الآيات والإنذارات قوماً سبق لهم من الله الشقاء ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي فهل ينتظر مشركو مكة إلا مثل أيام أسلافهم ، وما حل بهم من العذاب والنكال ؟ ﴿قل فانظروا إنني معكم من المنتظرين﴾ أي قل لهم يا محمد : انتظروا عاقبة البغي

إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ
أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ
اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ
لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٧﴾ قُلْ
يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا
وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٤٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۗ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٤٩﴾

والتكذيب إني من المنتظرين هلاككم ودماركم ﴿ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك﴾ أي ثم إذا نزل العذاب بالملكذين نُنجِي الرسل والمؤمنين إنجاءً مثل ذلك الإنجاء ﴿حقاً علينا نُنجِي المؤمنين﴾ أي حقاً ثابتاً علينا من غير شك قال الربيع بن أنس : خوفهم عذابه ونقمته ، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك أمر أنجى الله رسله والذين آمنوا معه ^(١) ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شكٍ من ديني﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك إن كنتم في شكٍ من حقيقة ديني وصحته ﴿فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ أي فلا أعبد ما تعبدون من الأوثان والأصنام التي لا تنفع ولا تضر ﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾ أي ولكني أعبد الله الذي يتوفاكم ، ويبيد محياكم ومماتكم ، قال الطبري : وهذا تعريضٌ وحنٌّ من الكلام لطيف ، وكأنه يقول : لا ينبغي لكم أن تشكوا في ديني ، وإنما ينبغي أن تشكوا في عبادة الأصنام التي لا تعقل ولا تضر ولا تنفع ، فأما إلهي الذي أعبدته فهو الذي يقبض الخلق وينفع ويضر ^(٢) ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ أي وأنا مأمور بأن أكون مؤمناً موحداً لله لا أشرك معه غيره ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفاً﴾ أي وأمرت بالاستقامة في الدين ، على الحنيفية السمحة ملة إبراهيم ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ أي ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾ تأكيدٌ للنهي المذكور أي ولا تعبد غير الله مما لا ينفع ولا يضر كالألهة والأصنام ﴿فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين﴾ أي فإن عبدت تلك الألهة المزعومة كنت ممن ظلم نفسه لأنك عرضتها لعذاب الله ، والخطاب هنا للرسول ﷺ والمراد غيره كما تقدم ﴿وإن يمسسك الله بضرٍ فلا كاشف له إلا هو﴾ أي وإن أراد الله إصابتك بضرٍ فلا دافع له إلا هو وحده ﴿وإن يردك بخير فلا راد لفضله﴾ أي وإن أراد إصابتك بنعمة أو رخاء فلا يمنعه عنك مانع ﴿يصيب به من يشاء من عباده﴾ أي يصيب بهذا الفضل والإحسان من شاء من العباد ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ أي هو سبحانه الغفور لذنوب العباد ، الرحيم بأهل الرشاد ﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم﴾ أي جاءكم القرآن العظيم المشتمل على محاسن الأحكام ﴿فمن

اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴿ أي من اهتدى بالإيمان فممنوعة اهتدائه لها خاصة ﴾ ﴿ ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها ﴾ أي ومن ضلّ بالكفر والإعراض فوبال الضلال مقصور عليها ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ أي ولست بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم إنما أنا بشيرٌ ونذيرٌ ﴿ واتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ أي اتَّبِعْ يَا مُحَمَّدُ فِي جَمِيعِ شُؤْنِكَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ رَبِّكَ ﴿ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ أي اصبر على ما يعتريك من مشاقّ التبليغ حتى يقضي الله بينك وبينهم ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ أي هو سبحانه خير من يفصل في الحكومة ، والآية تسلية للنبي ﷺ ووعيدٌ للمشركين .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿الآن وقد عصيت قبل﴾ الاستفهام للتوبيخ والإنكار .

٢ - ﴿بوأنا . . مبوأ﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٣ - ﴿كلمة ربك﴾ كناية عن القضاء والحكم الأزلي بالشقاوة .

٤ - ﴿ثم ننجي رسلنا﴾ صيغة المضارع حكاية عن الماضي لتحويل أمرها باستحضار صورتها .

٥ - ﴿ما لا ينفعك ولا يضرك﴾ بينهما طباق .

٦ - ﴿وإن يمسسك الله بضر . . وإن يردك بخير﴾ بين الجملتين مقابلة لطيفة وهي من المحسنات البديعية .

٧ - ﴿فمن اهتدى . . ومن ضلّ﴾ بينهما طباق .

٨ - ﴿يحكم الله . . الحاكمين﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

فَكَايِدَةٌ : قال الإمام الفخر : آمن فرعون ثلاث مرات : أولها قوله ﴿أمنت﴾ وثانيها قوله ﴿لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾ وثالثها قوله ﴿وأنا من المسلمين﴾ فما السبب في عدم قبول إيمانه ؟ والجواب : أنه إنما آمن عند نزول العذاب ، والإيمان في هذا الوقت غير مقبول ، لأنه يصير الحال حال الإلجاء فلا ينفع التوبة ولا الإيمان قال تعالى ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا . . ﴾^(١)

تَبْيِيهُ : قال المفسرون : إنما نجى الله بدن فرعون بعد الغرق ، لأن قوماً اعتقدوا فيه الإلهية ، وزعموا أن مثله لا يموت ، فأراد الله أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة ، ليتحققوا موته ، ويعرفوا أن الذي كان بالأمس في نهاية الجلالة والعظمة قد آل أمره إلى الذل والهوان ، فيكون عبرة للخلق ، وزجراً لأهل الطغيان .

«تم تفسير سورة يونس بعون الله وحسن توفيقه ، والحمد لله رب العالمين»

فهرس الأحاديث الشريفة - المجلد الأول

الراوي	** أطراف الحديث **	الصفحة
أصحاب السنن	« كان ﷺ إذا قام من الليل استفتح صلاته بالتكبير. . . »	٢٣
أحمد	« والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل مثلها. . . »	٢٤
البخاري	« لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن: الحمد لله رب العالمين »	٢٤
مسلم والترمذي	« لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة »	٣٠
مسلم	« إقرءوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة. . . »	٣٠
أصحاب السنن	« البرُّ لا يبلى، والذنبُ لا يُنسى، والديانُ لا يموت. . . »	٥٤
أصحاب السنن	« كان ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ فزِعَ إلى الصلاة »	٥٦
البخاري	« لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاةً فيها سمٌّ. . . »	٧٣
البخاري والنسائي	« لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار »	٨٢
البخاري	« لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله. . . »	١٠٠
البخاري	« لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلَّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً. . . »	١٠١
أحمد والترمذي	« إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ »	١٠٧
الحافظ ابن مردويه	« يا سعدُ أظبُ مطعمك تكنُ مستجاب الدعوة. . . »	١١٦
الترمذي	« إن للصائم عند فطره دعوةٌ ما تُردُّ. . . »	١٢٤
أصحاب السنن	« إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته. . . »	١٢٤
البخاري	« شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة. . . »	١٣٩
النسائي	« اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن قبلكم متعبداً. . . »	١٤٣
البخاري ومسلم	« شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً »	١٥٥
البخاري ومسلم	« الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » أي فقدهما	١٥٥
البخاري ومسلم	حديث قدسي « ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال وكيف أعودك وأنت رب العالمين »	١٦٠
البخاري	« سألت عمر بن الخطاب يوماً أصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت. . . »	١٧١
البخاري	« كان رجل يداين الناس، فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه. . . »	١٧٧
مسلم	« أبشربنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم البقرة. . . »	١٨١
مسلم	« يؤق يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به. . . »	١٨٣
مسلم	« إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين ساء لهم الله فأحذروهم »	١٨٦
البخاري	« قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي. . . »	١٨٦
البخاري	« قال عمر بن الخطاب: اللهم لا صبر لنا على ما زينت لنا إلا بك »	١٩٠
الطبراني	حديث قدسي « عبدي عهد إلي عهداً وأنا أحقُّ من وقي، أدخلوا عبدي الجنة »	١٩٤
الشيخان والترمذي	حديث قدسي « إن الله إذا أحبَّ عبداً نادى جبريل فقال: إني أحبُّ فلاناً فأحبه. . . »	١٩٧
مسلم والترمذي	« من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من أتبع الهدى. . . »	٢١٠
النسائي	« لحق رجل من الأنصار بالمشركين ثم ندم، فأرسل إلى قومه هل لي من توبة؟ »	٢١٤

الراوي	* * أطراف الحديث * *	الصفحة
الشيخان	« يُقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض . . »	٢١٦
مسلم	« لما كسرت رباعية النبي ﷺ وشُجَّ وجهه قال: كيف يفلح قوم شجوار أس نبيهم . . »	٢٢٧
أحمد	« كتب هرقل إلى النبي ﷺ إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار . . »	٢٣٤
البخاري	« لما هُزم المسلمون بأحد وأشاع المشركون بأن محمداً ﷺ قد قُتل . . »	٢٣٩
الشيخان	« لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر . . »	٢٤٣
ابن ماجة والترمذي	« ألا أبشرك بما لقي الله عز وجل به أباك! قلت بلى يا رسول الله . . »	٢٤٤
ابن مردويه	« سئلت عائشة عن أعجب ما رأته من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: . . »	٢٥٥
الشيخان	« يا ابن أخي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه ماهاوجمالها . . »	٢٥٨
الشيخان	« جاءت امرأة سعد بن الربيع رسول الله ﷺ بابنتيها فقالت يا رسول الله: . . »	٢٦٢
مسلم	« لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر »	٢٦٧
مسلم	« اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله »	٢٦٧
الترمذي	« صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً وسقانا من الخمر فأخذت منا وحضرت الصلاة . . »	٢٧٧
البخاري	« إقرأ عليّ القرآن، قلت يا رسول الله: أقرأ عليك وعليك أنزل . . ؟ »	٢٧٨
أحمد	« يعظم أهل النار في النار حتى إن ضرس أحدهم مثل أحد . . »	٢٨٢
ابن مردويه	« قال رجل للنبي ﷺ: إنك لأحب إليّ من نفسي وأهلي وإني لأذكرك فما أصبر . . »	٢٨٨
مسلم	« تضمّن الله لمن خرج في سبيله لا يجره إلا جهاداً في سبيله . . »	٢٨٩
مسلم	« لحق المسلمون رجلاً في غنيمَةٍ له فقال: السلام عليكم فقتلوه . . »	٢٩٤
الشيخان	« إنها طيبة تنفي الحَبث كما تنفي النار حَبث الحديد »	٢٩٤
البخاري	« إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم . . »	٢٩٧
النسائي	« إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله . . »	٢٩٧
ابن ماجة	« من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة جاء يوم القيامة . . »	٢٩٨
البيهقي	« لزوال الدين أهون على الله من قتل رجل مؤمن . . »	٣١٠
البخاري	« اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك »	٣١٠
الشيخان	« والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً . . »	٣١٧
أحمد	« أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله . . »	٣٢٨
البخاري	« إذا أرسلت كلبك المعلم فقتل فكل . . »	٣٢٩
الشيخان	« ويلٌ للأعقاب من النار » وفي رواية « ويل للعراقيب من النار »	٣٢٩
الشيخان	« آية في كتابكم تقرأونها وعلينا معشر اليهود نزلت لا نخذنا ذلك اليوم عيداً . . »	٣٣١
البخاري	« مجيء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً . . »	٣٤١
مسلم	« مرّ على النبي ﷺ يهودي محمّم مجلود، فدعاهم فقال هكذا تجدون حد الزاني . . »	٣٤٣

الراوي	** أطراف الحديث **	الصفحة
الحاكم	« ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً . . »	٣٦٩
الترمذي	« أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً، وأمروا ألا يدخروا الغد . . »	٣٧٤
مسلم	حديث قدسي « يا جبريل إذهب إلى محمد فاسأله ما يبكيك؟ فقال: . . »	٣٧٥
أحمد	« إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج »	٣٩٠
الترمذي	« الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام . . »	٣٩٣
الشيخان	« أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حُفَاةٌ عُرَاةٌ غُرْلًا . . »	٤٠٦
البخاري	« لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا . . »	٤٣١
مسلم	حديث قدسي « يقول الله عز وجل: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أَوْ زَيْدٌ، وَمَنْ جَاءَ »	٤٣١
البخاري	« يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالرَّجُلِ الْعَظِيمِ السَّمِينِ فَلَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ »	٤٣٧
مسلم	« كانت المرأة تطوف بالبيت عريانة وتقول: من يعيرني تطوفاً . . »	٤٤٣
أحمد	« إن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا يجيئه ملك الموت . . »	٤٤٦
مسلم	« لن يدخل أحدكم عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله . . »	٤٤٧
مسلم	« لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون . . »	٤٧٩
الشيخان	« لا تزال طائفة من أممي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم . . »	٤٨٣
الترمذي	« إن الله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة »	٤٨٥
أصحاب السنن	« إن الله يأمرك أن تعفو عن ظلمك، وتُعطي من حرمك، وتصل من قطعك »	٤٨٨
أبو داود والترمذي	« إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه »	٤٨٨
مالك	« مارؤي الشيطان يوماً هوفيه أصغر ولا أدر، ولا أحقر ولا أعظم منه في يوم عرفة . . »	٥٠٩
مسلم	« أبكي للذي عرض علي أصحابك من الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة »	٥١٣
أصحاب السنن	« لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر »	٥١٥
البخاري	« إن آخر سورة نزلت سورة براءة »	٥١٨
الترمذي	« إذا رأيت الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان . . »	٥٢٧
الترمذي	« كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْبَاسُ نَتَّقِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّ الشَّجَاعَ مِنَّا الَّذِي مِحَازِيهِ »	٥٢٩
أحمد والترمذي	« أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ: يَا عَدِي اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوِثْنَ . . »	٥٣١
أبو داود	« ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرته . . »	٥٣٣
أحمد	« ويملك إن لم أعدل فمن يعدل .؟ »	٥٤٢
الشيخان والترمذي	حديث قدسي « يا أهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك . . »	٥٤٨
مسلم	« لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل . . »	٢٦٤
مسلم	« إن أهل الجنة يُلهمون التسبيح والتحميد كما تُلهمون النَّفس . . »	٥٧٥
أبو داود	« إن لله عبداً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة . . »	٥٨٩

صَفْوَةُ النَّفْسِ الْأَمْرِ

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين الأثر والعقول ، مستمد من أوثق كتب التفسير
« الطبري ، الكشاف ، القرطبي ، الألوسي ، ابن كثير ، البحر المحيط » وغيرها
بأسلوب مبسّط ، وتنظيم حديث ، مع العناية بالوجه البانية واللغوية

المجلد الثاني

تأليف

محمد علي الصّابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

دار القرآن الكريم

بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صِفْوَةُ النَّفْسِ الْفَاسِقَةِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ"

"وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ.."
"البقرة"

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

"أَشْرَافُ أُمَّتِي حَمَلَةُ الْقُرْآنِ" "المتنبي"

"مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ حَسَنَةٌ وَحَسَنَةٌ وَحَسَنَةٌ بَعْشُ
أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَا م حَرْفٌ
وَمِيمٌ حَرْفٌ." "البخاري"

اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ
"البخاري"

إِلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ..
يُرِيدُ الْغَايَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي الْأَخِرَةِ ..

أَهْدِي كِتَابَ اللَّهِ وَتَفْسِيرَهُ ..

لِيَأْتُونَ عَوْنًا عَلَى فَرْمِ الْقُرْآنِ وَيَعْمَلُوا بِهِ ..

وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

"تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكُمْ بِهِ لَنْ تَضَلُّوا بَعْدِي أَبَدًا
كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي." "متفق عليه"

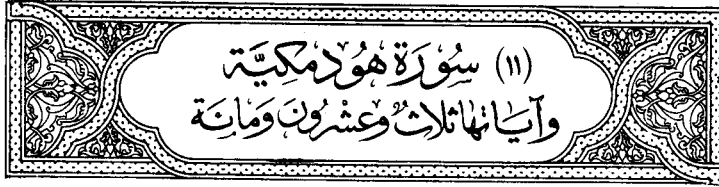
السَّيِّدُ حَسَنٌ عَجَابٌ شَرِيفٌ

الطبعة الرابعة
(منقحة)

جميع الحقوق محفوظة

١٤٠٢ هـ = ١٩٨١ م

طُبِعَ عَلَى نَفَقَاتِهِ
المحسِن الكَبِير
معالي السيد حسن عباس الشربتلي
وَجَعَلَهُ وَقْفًا لِلَّهِ تَعَالَى
فجزاهُ اللهُ كُلَّ حَيْرٍ
يُوزَعُ مَجَّانًا وَلَا يُبَاعُ



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة هود مكية وهي تُعنى بأصول العقيدة الإسلامية «التوحيد، الرسالة، البعث والجزاء» وقد عرضت لقصص الأنبياء بالتفصيل تسلياً للنبي عليه الصلاة والسلام على ما يلقيه من أذى المشركين لا سيما بعد تلك الفترة العصيبة التي مرت عليه بعد وفاة عمه «أبي طالب» وزوجه «خديجة» فكانت الآيات تنزل عليه وهي تقص عليه ما حدث لإخوانه الرسل من أنواع الابتلاء، ليتأسى بهم في الصبر والثبات.

* ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد القرآن العظيم، الذي أحكمت آياته، فلا يتطرق إليه خلل ولا تناقض، لأنه تنزيل الحكيم العليم، الذي لا تحفى عليه خافية من مصالح العباد... ثم عرضت لعناصر الدعوة الإسلامية، عن طريق الحجج العقلية، مع الموازنة بين الفريقين: فريق الهدى، وفريق الضلال، وضربت مثلاً للفريقين وضّحت به الفارق الهائل بين المؤمنين والكافرين، وفرقت بينهما كما تفرق الشمس بين الظلمات والنور ﴿مثلُ الفريقين كالأعمى والأصم، والبصير والسميع، هل يستويان مثلاً؟ أفلا تذكرون؟﴾.

* ثم تحدثت عن الرسل الكرام مبتدئة بقصة «نوح» عليه السلام أب البشر الثاني، لأنه لم ينج من الطوفان إلا نوحٌ والمؤمنون الذين ركبوا معه في السفينة، وغرق كل من على وجه الأرض، وهو أطول الأنبياء عمراً، وأكثرهم بلاءً وصبراً.

* ثم ذكرت قصة «هود» عليه السلام الذي سميت السورة الكريمة باسمه، تخليداً لجهوده الكريمة في الدعوة إلى الله، فقد أرسله الله تعالى إلى قوم «عاد» العتاة المتجبرين، الذين اغتروا بقوة أجسامهم وقالوا: من أشدُّ منا قوة؟ فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، وقد أسهبت الآيات في الحديث عنهم بقصد العظة والعبرة للمتكبرين المتجبرين ﴿وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله، واتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ... إلى قوله ألا إن عاداً كفروا ربهم، ألا بعداً لعادٍ قوم هود﴾.

* ثم تلتها قصة نبي الله «صالح» ثم قصة «لوط» ثم قصة «شعيب» ثم قصة «موسى وهارون» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ثم جاء التعقيب المباشر بما في هذه القصص من العبر والعظات في

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كَتَبْتُ أَحْكَمَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١٠﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿١١﴾ وَإِنْ أَسْتَعْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ يُعْتَبِعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي

إهلاك الله تعالى للظالمين ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . . إلى قوله تعالى : وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذها أليم شديد﴾ .

* وختمت السورة الكريمة ببيان الحكمة من ذكر قصص المرسلين ، وذلك للاعتبار بما حدث للمكذبين في العصور السالفة ، ولتثبيت قلب النبي عليه السلام أمام تلك الشدائد والأهوال ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . . إلى قوله فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون﴾ وهكذا تختم السورة بالتوحيد كما بدأت به ليتناسق البدء مع الختام !!

اللفظ: ﴿أحكمت﴾ الإحكام : المنع من الفساد يقال : أحكم الأمر إذا أتى به على وجه لا يتطرق إليه خلل أو فساد ﴿مستقرها﴾ المكان الذي تأوي إليه في الدنيا ﴿مستودعها﴾ المكان الذي تصير إليه بعد الموت ﴿أمة معدودة﴾ الأمة هنا بمعنى المدة من الزمن أي مدة محدودة من السنين قال القرطبي : والأمة اسم مشترك يطلق على ثمانية أوجه : الجماعة ، الملة ، الرجل الجامع للخير ، الحين والزمن ، أتباع الأنبياء^(١) الخ ﴿مريّة﴾ شك وارتياب ﴿ضل﴾ ضاع وتلاشى ﴿لا جرم﴾ كلمة واحدة بمعنى حقاً وهو قول الخليل وسيبويه ﴿أحببوا﴾ خشعوا وخضعوا والإخبات : الذل والخضوع ﴿الأصم﴾ الذي لا يسمع وبه صمم .

سبب النزول: ذكر القرطبي عن ابن عباس أن «الأخنس بن شريق» كان رجلاً حلوا الكلام وحلوا المنطق ، يلقي رسول الله ﷺ بما يجب ، وينطوي له بقلبه على ما يسوء فأنزل الله ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه . . الآية^(٢) .

التفسير: ﴿الر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن ، وأنه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية ، وعن ابن عباس أن معناه : أنا الله أرى ﴿كتاب أحكمت آياته﴾ أي هو كتاب جليل القدر ، نظمت آياته نظماً محكماً ، لا يلحقه تناقض ولا خلل ﴿ثم فصلت﴾ أي بينت فيه أمور الحلال والحرام ، وما يحتاج إليه العباد في أمور المعاش والمعاد ﴿من لدن حكيم خبير﴾ أي من عند الله فصلها وبينها الخير العالم بكيفيات الأمور ، ولذا كانت محكمة أحسن الإحكام ومفصلة أحسن التفصيل ﴿ألا

(١) كقوله تعالى ﴿وجد عليه أمة من الناس﴾ أي جماعة ، وقوله ﴿وادكر بعد أمة﴾ أي حين من الزمن ، وقوله ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ أي ملة ودين الخ . (٢) القرطبي ٥ / ٩ .

فَضِّلْ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿١٤﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٦﴾ * وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ

تعبدوا إلا الله ﴿١٤﴾ أي لثلاثا تعبدا وإلا الله ﴿١٥﴾ إنني لكم منه نذير وبشير ﴿١٦﴾ أي إنني مرسل إليكم من جهته تعالى ، أنذركم بعذابه إن كفرتم ، وأبشركم بثوابه إن آمنتم ﴿١٧﴾ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴿١٨﴾ أي استغفروه من الذنوب وأخلصوا التوبة واستقيموا عليها بالطاعة والإجابة ﴿١٩﴾ يمتنعكم متاعاً حسناً ﴿٢٠﴾ أي يمتنعكم في هذه الدنيا بالمنافع الجليلة من سعة الرزق ، ورغد العيش ﴿٢١﴾ إلى أجلٍ مسمى ﴿٢٢﴾ أي إلى وقتٍ محددٍ هو انتهاء أعماركم ﴿٢٣﴾ ويؤت كل ذي فضلٍ فضله ﴿٢٤﴾ أي ويعطي كل محسنٍ في عمله جزاءً إحسانه ﴿٢٥﴾ وإن تولَّوْا ﴿٢٦﴾ أي وإن تتولَّوا عن الإيمان وتعرضوا عن طاعة الرحمن ﴿٢٧﴾ فإنني أخاف عليكم عذاب يومٍ كبيرٍ ﴿٢٨﴾ أي أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ، ووصف العذاب بأنه كبير لما فيه من الأهوال الشديدة ﴿٢٩﴾ إلى الله مرجعكم ﴿٣٠﴾ أي إليه جلٌّ وعلا رجوعكم بعد الموت ﴿٣١﴾ وهو على كل شيء قدير ﴿٣٢﴾ أي قادر على إماتتكم ثم إحيائكم وعلى معاقبة من كذب لا يعجزه شيء ، وفي الآية تهديد عظيم ﴿٣٣﴾ ألا إنهم يفتنون صدورهم ليستخفوا منه ﴿٣٤﴾ قال ابن عباس : نزلت في الأخنس بن شريق كان يجالس رسول الله ﷺ ويحلف أنه ليحبه ويضمر خلاف ما يظهر ﴿٣٥﴾ وقال القرطبي : أخبر عن معادة المشركين للنبي ﷺ والمؤمنين ، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم ﴿٣٦﴾ والمعنى إنهم يظنون صدورهم على عداوة النبي والمؤمنين ، يريدون بذلك أن يستخفوا من الله حتى لا يفتضح أمرهم ﴿٣٧﴾ ألا حين يستغشون ثيابهم ﴿٣٨﴾ أي حين يتغطون بثيابهم ﴿٣٩﴾ يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴿٤٠﴾ أي يعلم تعالى ما يظنون وما يظهرون وكان الآية تقول : لا تظنوا أن تغطيتكم تحجبكم عن الله بل الله يعلم سرائركم وظواهركم لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ﴿٤١﴾ إنه عليمٌ بذات الصدور ﴿٤٢﴾ أي عالم بما في القلوب ﴿٤٣﴾ وما من دابةٍ في الأرض إلا على الله رزقها ﴿٤٤﴾ أي ما من شيء يدب على وجه الأرض من إنسان أو حيوان إلا تكفل الله برزقه تفضلاً منه تعالى وكرماً ، فكما كان هو الخالق كان هو الرازق ﴿٤٥﴾ ويعلم مستقرها ومستودعها ﴿٤٦﴾ قال ابن عباس : مستقرها حيث تأوي إليه من الأرض ، ومستودعها الموضع الذي تموت فيه فتدفن ﴿٤٧﴾ كلٌ في كتابٍ مبين ﴿٤٨﴾ أي كلٌ من الأرزاق ، والأقذار ، والأعمار ، مسطرٌ في اللوح المحفوظ ﴿٤٩﴾ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴿٥٠﴾ أي خلقها في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا ، وفيه الحث للعباد على التأنى في الأمور فإن الإله القادر على خلق الكائنات بلمح البصر خلقها في ستة أيام

أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾
 وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ
 بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَدْخَلْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ رَحْمَةٍ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ زَعَّمْنَا مِنْهُ إِتْرًا لَيَعُوسُ كَفُورٌ ﴿٩﴾

وَلَئِنْ أَدْخَلْنَا نِعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۗ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ

﴿وكان عرشه على الماء﴾ أي وكان العرش قبل خلقها على الماء قال الزمخشري : أي ما كان تحته خلق ، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض ^(١) ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي خلقهن لحكمة بالغة ليختبركم فيظهر المحسن من المسيء ، ويجازيكم حسب أعمالكم ﴿ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت﴾ أي ولئن قلت يا محمد لأولئك المنكرين من كفار مكة إنكم ستبعثون بعد موتكم للحساب ﴿ليقولنَّ الذين كفروا إن هذا إلا سحرٌ مبين﴾ أي ليقولنَّ الكفار المنكرون للبعث والنشور ما هذا القرآن إلا سحرٌ واضح مكشوف ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة﴾ أي إلى مدة من الزمن قليلة ﴿ليقولنَّ ما يحبسهم﴾ أي ليقولنَّ استهزاءً ما يمنعهم من النزول ؟ ﴿إلا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم﴾ أي ألا فليستبهاوا فإنه يوم يأتيهم العذاب ليس مدفوعاً عنهم ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي نزل وأحاط بهم جزاء ما كانوا به يستهزئون ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة﴾ أي أنعمنا على الإنسان بأنواع النعم من الصحة ، والأمن ، والرزق وغيرها من النعم ﴿ثم نزعناها منه﴾ أي ثم سلبنا تلك النعم منه ﴿إنه لينوس قنوط﴾ أي قنوط من رحمة الله ، شديد الكفر به ﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته﴾ أي ولئن منحنا الإنسان نعمة من بعد ما نزل به من الضر ، وما أصابه من البلاء ، كالفقر والمرض والشدة ﴿ليقولنَّ ذهب السيئات عني﴾ أي انقطع الفقر والضييق والمصائب ولن تصيبني بعد اليوم ﴿إنه لفرح فخور﴾ أي بطرٌ بالنعمة مغترٌ بها ، متعاضم على الناس بما أوتي ، والآية ذمٌ لمن يقنط عند الشدائد ، ويبطر عند النعم ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾ أي هذه عادة الإنسان إلا المؤمن الذي يصبرون على الضراء ، ويفعلون الخير في النعماء ، فهم في حالتهم المحنة والنعمة محسنون ﴿أولئك لهم مغفرةٌ وأجر كبير﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الحميدة لهم مغفرةٌ لذنوبهم ، وأجر كبيرٌ في الآخرة هو الجنة قال في البحر : ووصف الثواب بأنه كبير وذلك لما احتوى عليه من النعيم السرمدي ، والأمن من العذاب ، ورضا الله عنهم ، والنظر إلى وجهه الكريم ^(٢) ﴿فلعلك تاركٌ بعض ما يوحى إليك﴾ كان المشركون يقترحون على رسول الله ﷺ أن يأتي بكنز أو يأتي معه ملك ، وكانوا يستهزئون بالقرآن فقال الله تعالى له : فلعلك يا محمد تاركٌ بعض ما أنزل

أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا مَعَهُ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
 افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾
 فَإِذَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَإِنَّ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوْفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا
 النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ

إليك من ربك فلا تبلغهم إياه لاستهزائهم ﴿وضائق به صدرك﴾ أي ويضيق صدرك من تبليغهم ما
 نزل عليك من ربك خشية التكذيب ، والغرض تحريضه ﷺ على تبليغ الرسالة وعدم المبالاة بمن عاداه
 ﴿أن يقولوا لولا أنزل عليه كتاب﴾ أي لأجل أن يقولوا هلا أنزل عليه مال كثير ﴿أوجاء معه
 ملك﴾ أي جاء معه ملك يصدقه كما اقترحنا ، قال تعالى محمداً مهمته عليه السلام ﴿إنما أنت نذير﴾
 أي لست يا محمد إلا منذراً تخوف المجرمين من عذاب الله ﴿والله على كل شيء وكيل﴾ أي قائم على
 شؤون العباد يحفظ عليهم أعمالهم ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي بل يقولون اختلق محمد هذا القرآن وافتراه
 من عند نفسه ؟ ﴿قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ أي إن كان الأمر كذلك فاتوا بعشر سور
 مثله في الفصاحة والبلاغة مفتريات فأنتم عرب فصحاء ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ أي
 استعينوا بمن شئتم غير الله سبحانه ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أن هذا القرآن مفترى ﴿فإن لم يستجيبوا
 لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ أي فإن لم يستجب لكم من دعوتهم للمعاونة وعجزوا عن ذلك
 فاعلموا أيها المشركون أنما نزل هذا القرآن بوحى من الله ﴿وأن لا إله إلا هو﴾ أي لا رب ولا معبود إلا
 الله الذي أنزل هذا القرآن المعجز ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ لفظه استفهام ومعناه أمر أي فأسلموا بعد
 ظهور هذه الحجة القاطعة إذ لم يبق لكم عذر مانع من ذلك ، قال في التسهيل : الاستفهام معناه استدعاء
 إلى الإسلام ، والزام للكفار أن يسلموا لما قام الدليل على صحة الإسلام لعجزهم عن الإتيان بمثل
 القرآن ^(١) ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ أي من كان يقصد بأعماله الصالحة نعيم الدنيا فقط
 لأنه لا يعتقد بالآخرة ﴿نوف إليهم أعمالهم فيها﴾ أي نوف إليهم أجور أعمالهم بما يجنون فيها من
 الصحة والأمن والرزق ﴿وهم فيها لا يبخسون﴾ أي وهم في الدنيا لا يُنقصون شيئاً من أجورهم قال
 قتادة : من كانت الدنيا همه ونيتته جازاه الله بحسناته في الدنيا ، ثم يُقضي إلى الآخرة وليس له حسنة
 يُعطى بها ، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ^(٢) ﴿أولئك الذين ليس لهم في
 الآخرة إلا النار﴾ أي هؤلاء الذين هدفهم الدنيا ليس لهم في الآخرة إلا نار جهنم وعذابها المخلد ﴿وحبط

قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلْئِنْ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَا يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا

ما صنعوا فيها ﴿١٧﴾ أي بطل ما صنعوه من الأعمال الصالحة لأنهم قد استوفوا في الدنيا جزاءها ﴿١٨﴾ وباطل ما كانوا يعملون ﴿١٩﴾ تأكيد لما سبق أي باطل ما كانوا يعملون في الدنيا من الخيرات ﴿٢٠﴾ أفمن كان على بينة من ربه ﴿٢١﴾ أي أفمن كان على نور واضح ، وبرهان ساطع من الله تعالى ، وهو النبي ﷺ والمؤمنون ، وجوابه محذوف أي كمن كان يريد الحياة الدنيا ؟ يريد أن بينهما تفاوتاً كبيراً ، وتبايناً بعيداً ، فلا يستوي من أراد الله ، ومن أراد الدنيا وزينتها ﴿٢٢﴾ ويتلوه شاهدٌ منه ﴿٢٣﴾ أي ويتبعه شاهد من الله بصدقه قال ابن عباس : هو جبريل عليه السلام ﴿٢٤﴾ ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ﴿٢٥﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب التوراة الذي أنزله الله على موسى قدوة في الخير ورحمة لمن نزل عليهم ﴿٢٦﴾ أولئك المؤمنون به ﴿٢٧﴾ أي أولئك الموصوفون بأنهم على نور من ربهم يصدقون بالقرآن حق التصديق ﴿٢٨﴾ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴿٢٩﴾ أي ومن يكفر بالقرآن من أهل الملل والأديان ، فله نار جهنم يردها لا محالة ﴿٣٠﴾ فلاتك في مريّة منه ﴿٣١﴾ أي فلا تكن في شك من هذا القرآن ﴿٣٢﴾ إنه الحق من ربك ﴿٣٣﴾ أي إنه الحق الثابت المنزل من عند الله ﴿٣٤﴾ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴿٣٥﴾ أي لا يصدقون أنه تنزيل رب العالمين ﴿٣٦﴾ ومن أظلم ممن افتري على الله كذباً ﴿٣٧﴾ أي لا أحد أظغى ولا أظلم ممن اختلق الكذب على الله بنسبة الشريك والولد إليه ﴿٣٨﴾ أولئك يعرضون على ربهم ﴿٣٩﴾ أي يعرضون يوم القيامة في جملة الخلق على خالقهم ومالكهم ﴿٤٠﴾ ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴿٤١﴾ أي ويقول الخلائق والملائكة الذين يشهدون على أعمالهم هؤلاء الذين كذبوا على الله ، والغرض فضيحتهم في الدار الآخرة على رءوس الأشهاد والتشهير بهم خزيًا ونكالاً ﴿٤٢﴾ ألا لعنة الله على الظالمين ﴿٤٣﴾ لظلمهم وافتراءهم على الله ، واللعة : الطرد من رحمة الله ﴿٤٤﴾ الذين يصدون عن سبيل الله ﴿٤٥﴾ أي يمنعون الناس عن اتباع الحق ، وسلوك سبيل الهدى الموصل إلى الله ﴿٤٦﴾ ويبغونها عوجاً ﴿٤٧﴾ أي ويريدون أن تكون السبيل معوجة أي يبغون أن يكون دين الله معوجاً على حسب أهوائهم ﴿٤٨﴾ وهم بالآخرة هم كافرون ﴿٤٩﴾ أي جاحدون بالآخرة منكرون للبعث والنشور ﴿٥٠﴾ أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ﴿٥١﴾ أي ليسوا مفلتين من عذاب الله وإن أمهلهم ﴿٥٢﴾ وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴿٥٣﴾ أي ليس لهم من يتولاهم أو يمنعمهم من عذاب الله ﴿٥٤﴾ يضاعف لهم العذاب ﴿٥٥﴾ جملة مستأنفة أي يضاعف عليهم العذاب بسبب إجرامهم

كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَأَجْرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

وطغيانهم ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ أي سبب تشديد العذاب ومضاعفته عليهم أن الله جعل لهم سمعاً وبصراً ، ولكنهم كانوا صماً عن سماع الحق ، عمياً عن اتباعه ، فلم يتفعدوا بما منحهم الله من حواس ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي خسروا سعادة الدنيا والآخرة ، وخسروا راحة أنفسهم لدخولهم نار جهنم ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي وغاب عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة ﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ أي حقاً إنهم يوم القيامة من أخسر الناس ، ولا ترى أحداً أبين خسراناً منهم ، لأنهم أثروا الفانية على الباقية ، واستعاضوا عن الجنان بلظى النيران ، ثم لما ذكر تعالى حال الكفار الأشقياء ، ذكر حال المؤمنين السعداء فقال ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ﴾ أي جمعوا مع الإيمان والعمل الصالح الإخبات : وهو الاطمئنان إليه سبحانه والخشوع له والانقطاع لعبادته ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ أي منعمون في الجنة لا يخرجون منها أبداً ﴿ مثل الفريقين ﴾ أي فريق المؤمنين وفريق الكافرين ﴿ كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع ﴾ قال الزمخشري : شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع ، وهو من اللف والطباق ^(١) والمعنى حال الفريقين العجيب كحال من جمع بين العمى والصمم ، ومن جمع بين السمع والبصر ﴿ هل يستويان مثلاً ﴾ الاستفهام إنكاري أي لا يستويان مثلاً فليس حال من يبصر نور الحق ويستضيء بضياءه كحال من يخبط في ظلمات الضلالة ولا يهتدي إلى سبيل السعادة ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي أفلا تعتبرون وتتعتون ؟ والغرض التفريق بين أهل الطاعة والإيمان ، وأهل الجحود والعصيان .

البالغة : ١ - ﴿ عذاب يوم كبير ﴾ إضافة العذاب إلى اليوم الكبير للتهويل والتفطيع .

٢ - ﴿ ما يسرون وما يعلنون ﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿ نعماء وضراء ﴾ وبين ﴿ نذير وبشير ﴾ .

٣ - ﴿ يتوس كفور ﴾ من صيغ المبالغة أي شديد اليأس كثير الكفران .

٤ - ﴿ كالأعمى والأصم ﴾ فيه تشبيه مرسل مجمل لوجود أداة التشبيه وحذف وجه الشبه أي مثل

الفريق الكافر كالأعمى والأصم في عدم البصر والسمع، ومثل الفريق المؤمن كالسميع والبصير .

لطيفة : قال بعض الصالحين : الاستغفار بلا إقلاع عن الذنب توبة الكذابين ^(٢) .

تَبْيِيهُ : التحدي بعشر سور جاء بعد التحدي بالقرآن الكريم ، فلما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن تحداهم بعشر سور ، ثم لما عجزوا تحداهم بالإتيان بسورة مثله في البلاغة والفصاحة والاشتمال على المغيبات والأحكام التشريعية وأمثالها ، وهي الأنواع التسعة وقد نظمها بعضهم بقوله :

ألا إنما القرآنُ تسعةُ أحرفٍ سأنبيكها في بيت شعر بلا مكلل
حلالٌ ، حرامٌ ، محكمٌ ، متشابهٌ بشيرٌ ، نذيرٌ ، قصةٌ ، عظةٌ ، مثل

قال الله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه .. إلى .. فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾
من آية (٢٥) إلى نهاية آية (٤٩) .

المناسكة : لما ذكر تعالى عناد الكافرين من أهل مكة ، وتكذيبهم لرسول الله ﷺ واتهامهم له بافتراء القرآن ، ذكر هنا قصة نوح مع قومه الكافرين لتكون كالعظة والعبرة لمن كذب وعاند ، ولتسلية الرسول ﷺ بسرد قصص المرسلين وما جرى لهم مع أقوامهم .

اللفك : ﴿ الملاء ﴾ أشرف القوم وسادتهم ﴿ أراذلنا ﴾ الأراذل هنا : المراد بهم الفقراء والضعفاء والسفلة ، وهو جمع أرذل بمعنى السافل الذي لا خلاق له ولا يبالي بما يفعل ﴿ فعميت ﴾ عمي عن كذا ، وعمي عليه كذا ، بمعنى التبس عليه ولم يفهمه ، وخفي عليه أمره ﴿ جادلتنا ﴾ الجدل في كلام العرب : المبالغة في الخصومة ﴿ تزدري ﴾ تحتقر ﴿ الفلك ﴾ السفينة ويطلق على المفرد والجمع ﴿ التنور ﴾ مستوقد النار ﴿ مرساها ﴾ رسا الشيء يرسو ثبت واستقر ﴿ عاصم ﴾ مانع يقال : عصمه إذا منعه ومنه الحديث (فقد عصموا مني دماءهم) ﴿ غيظ ﴾ غاض الماء نقص بنفسه وغضته أنقصته ﴿ الجودي ﴾ جبل بقرب الموصل .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ

الْأَلِيمِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا

النفسير : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ أي أرسلناه رسولاً إلى قومه بعد أن امتلأت الأرض بشركهم وشرورهم ﴿ إني لكم نذيرٌ مبين ﴾ أي بأني منذرٌ لكم ومخوفٌ من عذاب الله إن لم تؤمنوا ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ أي أرسلناه بدعوة التوحيد وهي عبادة الله وحده ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم الأليم ﴾ أي إني أخاف عليكم إن عبدتم غيره عذاب يوم شديد مؤلم ﴿ فقال الملاء الذين كفروا من قومه ﴾ أي قال السادة والكبراء من قوم نوح ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلنا ﴾ أي ما نراك إلا واحداً مثلنا ولا فضل لك علينا قال الزمخشري : وفيه تعريضٌ بأنهم أحقُّ منه بالنبوة ، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحدٍ من البشر لجعلها فيهم ^(١) ﴿ وما نراك أتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾ أي وما أتبعك إلا سفلة الناس قال في التسهيل : وإنما

بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَزَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلِ بَلْ نَظَنُّكُمْ كَذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ كَمَا هُمْ وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَأَنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ

وصفوهم بذلك لفقرهم جهلاً منهم واعتقاداً بأن الشرف هو بالمال والجاه ، وليس الامر كذلك ، بل المؤمنون أشرف منهم على فقرهم وخمولهم^(١) ﴿بادي الرأي﴾ أي في ظاهر الرأي من غير تفكير أو روية ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ أي وما نرى لك ولأتباعك من مزية وشرف علينا يؤهلكم للنبوّة ، واستحقاق المتابعة ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ أي بل نظنكم كاذبين فيما تدعونه ، أرادوا أن يججوا نوحاً من وجهين : أحدهما : أن المتبعين له أرادل القوم ليسوا قدوة ولا أسوة ، والثاني : أنهم مع ذلك لم يتروا في اتباعه ، ولا أمعنوا الفكر في صحة ما جاء به ، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية ، وغرضهم ألا تقوم الحجة عليهم بأن منهم من آمن به وصدّقه ﴿قال يا قوم أرايتم إن كنتُ على بيتة من ربي﴾ تلطف معهم في الخطاب لاستمالتهم إلى الإيمان أي قال لهم نوح : أخبروني يا قوم إن كنتُ على برهان وأمر جلي من ربي بصحة دعواي ﴿وأتاني رحمة من عنده﴾ أي ورزقني هداية خاصة من عنده وهي النبوّة ﴿فعمّيت عليكم﴾ أي فخفي الأمر عليكم لاحتجابكم بالمادة عن نور الإيمان ﴿أنزلكم كما هم وأنتم لها كاهون﴾ أي أنكرهمكم على قبولها ونجبركم على الإهتداء بها والحال أنكم كاهون منكرون لها ؟ والاستفهام للإنكار أي لا نفعل ذلك لأنه لا إكراه في الدين ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالا﴾ أي لا أسألكم على تبليغ الدعوة أجراً ، ولا أطلب على النصيحة مالا حتى تهمني ﴿إن أجري إلا على الله﴾ أي ما أطلب ثوابي إلا من الله فإنه هو الذي يثيبني ويجازيني ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ أي ولست بمبعد هؤلاء المؤمنين الضعفاء عن مجلسي ، ولا بطاردهم عني كما طلبتم ﴿إنهم ملاقوا ربهم﴾ أي إنهم صائرون إلى ربهم ، وفائزون بقربه فكيف أطردهم ؟ ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ أي ولكنكم قوم تجهلون قدرهم فطلبون طردهم ، وتظنون أنكم خير منهم ﴿ويا قوم من ينصرنني من الله إن طردتهم﴾ أي من يدفع عني عقاب الله إن ظلمتهم وطردتهم ؟ ﴿أفلا تذكرون﴾ أي أفلا تتفكرون فتعلمون خطأ رأيكم وتنزجرون عنه ؟ ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ أي لا أقول لكم عندي المال الوافر الكثير حتى تتبعوني لغناي ﴿ولا أعلم الغيب﴾ أي ولا أقول لكم إنني أعلم الغيب حتى تظنوا بي الربوبية ﴿ولا أقول إنني ملك﴾ أي ولا أقول لكم إنني من الملائكة أرسلت

الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَاْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾
 قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ
 اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِيَ إِجْرَامِي وَأَنَا
 بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ أَمِنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾
 وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا
 مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُهُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

إليكم فأكون كاذباً في دعواي ﴿٣١﴾ ولا أقول للذين تزدي أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً ﴿٣٢﴾ أي ولا أقول لهؤلاء
 الضعفاء الذين آمنوا بي واحترقتموهم لفرهم لن يمنحهم الله الهداية والتوفيق ﴿٣٣﴾ الله أعلم بما في أنفسهم ﴿٣٤﴾ أي
 أعلم بسرئيرهم وضمائرهم ﴿٣٥﴾ إني إذا لمن الظالمين ﴿٣٦﴾ أي إني إن قلت ذلك أكون ظالماً مستحقاً للعقاب
 ﴿٣٧﴾ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴿٣٨﴾ أي قال قوم نوح لنوح عليه السلام : قد خصمنا فأكثرت
 خصومتنا ﴿٣٩﴾ فأتينا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴿٤٠﴾ أي فأتينا بالعذاب الذي كنت تعدنا به إن كنت صادقاً في
 ما تقول ﴿٤١﴾ قال إنما يأتيكم به الله إن شاء ﴿٤٢﴾ أي أمر تعجيل العذاب إليه تعالى لا إلى الذي يأتيكم به إن شاء
 ﴿٤٣﴾ وما أنتم بمعجزين ﴿٤٤﴾ أي ولستم بفاتين الله هرباً لأنكم في ملكه وسلطانه ﴿٤٥﴾ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن
 أنصح لكم ﴿٤٦﴾ أي ولا ينفعكم تذكيري إياكم ونصحي لكم ﴿٤٧﴾ إن كان الله يريد أن يغويكم ﴿٤٨﴾ أي إن أراد الله
 إضلالكم وهو جواب لما تقدم والمعنى ماذا ينفع نصحي لكم إن أراد الله شقاوتكم وإضلالكم ؟ ﴿٤٩﴾ هو
 ربكم وإليه تُرجعون ﴿٥٠﴾ أي هو خالقكم والمتصرف في شؤونكم ، وإليه مرجعكم ومصيركم فيجازيكم على
 أعمالكم ﴿٥١﴾ أم يقولون افتراه ﴿٥٢﴾ أي يقول كفار قريش اختلق محمد هذا القرآن من عند نفسه ﴿٥٣﴾ قل إن
 افتريته فعلياً إجرامي ﴿٥٤﴾ أي قل لهم يا محمد إن كنت قد افتريت هذا القرآن فعلياً وزري وذنبي ، ولا
 تؤخذون أنتم بجريرتي ﴿٥٥﴾ وأنا بريء مما تجرمون ﴿٥٦﴾ أي وأنا بريء من إجرامكم بكفركم وتكذيبكم ، والآية
 اعتراض بين قصة نوح للإشارة إلى أن موقف مشركي مكة كموقف المشركين من قوم نوح في العناد
 والتكذيب ﴿٥٧﴾ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴿٥٨﴾ أي أوحى الله إلى نوح أنه لن يتبعك
 ويصدق برسالتك إلا من قد آمن من قبل ﴿٥٩﴾ فلا تبتسئ بما كانوا يفعلون ﴿٦٠﴾ أي فلا تحزن بسبب كفرهم
 وتكذيبهم لك فإني مهلكهم ﴿٦١﴾ واصنع الفلك بأعيننا ﴿٦٢﴾ أي اصنع السفينة تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا
 ﴿٦٣﴾ ووحينا ﴿٦٤﴾ أي وتعليمنا لك قال مجاهد : أي كما نأمرك ﴿٦٥﴾ ولا تخاطبني في الذين ظلموا ﴿٦٦﴾ أي لا تشفع فيهم

(١) هذا رأي أكثر المفسرين ، وذهب ابن عطية وأبو حيان إلى أن الآية من جملة قصة نوح وأن الضمير عائد إلى قوم نوح والمعنى يقولون
 افتري نوح هذه الأخبار الخ .

مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُجْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ * وَقَالَ أَرَبِئُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَجْرُهَا وَمُرسَهَا إِنَّ رَبِّي لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ

فإني مهلكهم لا محالة ﴿إنهم مُعْرَقُونَ﴾ أي هالكون غرقاً بالطوفان ﴿ويصنعُ الفُلَّكُ﴾ حكاية حال ماضية لاستحضارها في الذهن أي صنع نوح السفينة كما علمه ربه ﴿وكلما مرَّ عليه مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي كلما مرَّ عليه جماعة من كبراء قومه هزءوا منه وضحكوا وقالوا : يا نوحُ كنتَ بالأمس نبياً ، وأصبحتَ اليوم نجاراً !! ﴿قال إن تسخروا منَّا﴾ أي إن تهزءوا منا اليوم ﴿فإنَّا نسخر منكم كما تسخرون﴾ أي فإننا سنسخر منكم في المستقبل عندما تغرقون مثل سخريتكم منا الآن ، فأنتم أولى بالسخرية والاستهزاء ﴿فسوف تعلمون﴾ وعيدٌ وتهديد أي سوف تعلمون عاقبة التكذيب والاستهزاء ﴿من يأتيه عذابٌ يُجْزِيهِ﴾ أي عذابٌ يُذَلُّه ويهينه وهو الغرق ﴿ويحلُّ عليه عذابٌ مُقِيمٌ﴾ أي وينزل عليه عذاب دائم لا ينقطع وهو عذاب جهنم ﴿حتى إذا جاء أمرنا﴾ أي جاء أمرنا الموعد بالطوفان ﴿وفار التنور﴾ أي فار الماء من التنور الذي يوقد به النار قال العلماء : جعل الله ذلك علامة لنوح وموعداً لهلاك قومه ، وقال ابن عباس : التنور وجه الأرض قال الطبري : والعرب تسمي وجه الأرض تنور الأرض ، قيل له : إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك^(١) في السفينة وقال ابن كثير : التنور وجه الأرض أي صارت الأرض عيوناً تغور ، حتى فار الماء من التناير التي هي مكان النار صارت تغور ماءً ، وهذا قول جمهور السلف والخلف^(٢) ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين﴾ أي احمل في السفينة من كل صنفٍ من المخلوقات اثنين : ذكراً ، وأنثى ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول﴾ أي واحمل قرابتك أيضاً أولادك ونساءك إلا من حكم الله بهلاكه ، والمراد به ابنه الكافر «كنعان» وامراته «واعلة» ﴿ومن آمن﴾ أي واحمل معك من آمن من أتباعك ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ أي وما آمن بنوح إلا نزرٌ يسير مع طول إقامته بينهم وهي مدة تسعمائة وخمسين سنة ، قال ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساءؤهم ، وعن كعب : كانوا اثنين وسبعين نفساً ، وقيل : كانوا عشرة^(٣) ﴿وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومُرسها﴾ أي وقال نوح لمن آمن به اركبوا في السفينة ، باسم الله يكون جريها على وجه الماء ، وباسم الله يكون رسوها واستقرارها قال الطبري : المعنى بسم الله حين تجري وحين تُرسي ، أي حين تسير وحين تقف^(٤) ﴿إن ربي لغفور رحيم﴾ أي ساتر للذنوب التائبين ، رحيمٌ بالمؤمنين حيث نجاهم من الغرق ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ أي والسفينة تسير بهم وسط الأمواج ، التي هي كالجبل في العِظَم والارتفاع ، بإذن الله وعنايته ولطفه قال الصاوي : روي أن الله أرسل المطر

(١) بعد أن ذكر الإمام الطبري أقوال السلف في المراد بالتنور قال : وأولى هذه الأقوال عندنا قول من قال : هو التنور الذي يجز فيه لأن ذلك

هو المعروف من كلام العرب ، وكلام الله يحمل على الأغلب الأشهر . انظر الطبري ٤٠/١٢ . (٢) المختصر ٢٢٠/٢ .

(٣) مختصر ابن كثير ٢٢٠/٢ . (٤) الطبري ٤٤/١٢ .

فِي مَعْزِلٍ يَبْنِيَّ أَرْكَبُ مَعْنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرِقِينَ ﴿٤٤﴾ وَقِيلَ يَتَّارُضْ اأْبْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٥﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ يَبْنُوْحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْخٰهْلِينَ ﴿٤٧﴾

أربعين يوماً وليلة ، وخرج الماء من الأرض ينابيع كما قال تعالى ﴿فتفتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر﴾ وارتفع الماء على أعلى جبل أربعين ذراعاً حتى أغرق كل شيء ^(١) ﴿ونادى نوح ابنه وكان في معزل﴾ أي ونادى نوح ولده « كنعان » قبيل سير السفينة وكان في ناحية منها لم يركب مع المؤمنين ﴿يا بني أركب معنا﴾ أي اركب معنا ولا تهلك نفسك بالغرق ﴿ولا تكن مع الكافرين﴾ أي فتغرق كما يغرقون ﴿قال ساوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ أي سأصعد إلى رأس جبل أتحصن به من الغرق ، ظناً منه أن الماء لا يصل إلى رءوس الجبال ﴿قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم الله﴾ أي قال له أبوه نوح : لا معصوم اليوم من عذاب الله ولا ناجي من عقابه إلا من رحمه الله ﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ أي حال بين نوح وولده موج البحر فغرق ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك﴾ أي انشقي وابتلعي ما على وجهك من الماء ﴿ويا سماء اقلعي﴾ أي أمسكي عن المطر ﴿وغيض الماء﴾ أي ذهب في أغوار الأرض قال مجاهد : نقص الماء ﴿وقضي الأمر﴾ أي تم أمر الله بإغراق من غرق ، ونجاة من نجا ﴿واستوت على الجودي﴾ أي استقرت السفينة على جبل الجودي بقرب الموصل ﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ أي هلاكاً وخساراً لمن كفر بالله وهي جملة دعائية قال الألوسي : ولا يخفى ما في الآية من الدلالة على عموم هلاك الكفرة ، بل على عموم هلاك أهل الأرض ما عدا أهل السفينة ، ويدل عليه ما روي أن الغرق أصاب امرأة معها صبي لها فوضعت على صدرها ، فلما بلغها الماء وضعت على منكبها ، فلما بلغها الماء رفعت يديها ، فلو رحم الله أحداً من أهل الأرض لرحمها ^(٢) ﴿ونادى نوح ربّه فقال ربّ إن ابني من أهلي﴾ أي نادى نوح ربّه متضرعاً إليه فقال : ربّ إن ابني « كنعان » من أهلي وقد وعدتني بنجاتهم ﴿وإنّ وعدك الحق﴾ أي وعدك حق لا خلف فيه ﴿وأنت أحكم الحاكمين﴾ أي وأنت يا الله أعدل الحاكمين بالحق ﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك﴾ أي قال له ربه : يا نوح إنّ ولدك هذا ليس من أهلك الذين وعدتكم بنجاتهم لأنه كافر ولا ولاية بين المؤمن والكافر ﴿إنه عمل غير صالح﴾ أي إنّ عمله سيء غير صالح ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ أي لا تطلب مني أمراً لا تعلم أصوابه هو أم غير صواب ؟ ﴿إنني أعظك أن تكون من

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٢١٦ . (٢) روح المعاني ١٢/ ٦٢ .

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ
يَنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّ سَنَمْتِعُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾
تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

الجاهلين ﴿٤٧﴾ أي إني أنبهك وأنصحك خشية أن تكون من الجاهلين قال في التسهيل : وليس في ذلك وصف له بالجهل ، بل فيه ملاطفة وإكرام ﴿١﴾ ﴿قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم﴾ أي قال نوح معذراً إلى ربه عما صدر عنه : رب إني أستجير بك من أن أسألك أمراً لا يليق بي سؤاله ﴿وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾ أي وإلا تغفر لي زلتي ، وتتداركني برحمتك ، أكن ممن خسر آخرته وسعادته ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا﴾ أي اهبط من السفينة بسلامة وأمن ﴿وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾ أي وخيرات عظيمة عليك وعلى ذرية من معك من أهل السفينة ، قال القرطبي : دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة ﴿٢﴾ ﴿وأمم ستمتعهم﴾ أي وأمم أخرى من ذرية من معك تمتعهم متاع الحياة الدنيا وهم الكفرة المجرمون ﴿ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾ أي ثم نذيقهم في الآخرة العذاب الأليم وهو عذاب جهنم ﴿تلك من أنباء الغيب﴾ أي هذه القصة وأشباهاها من أخبار الغيوب السالفة التي لم تشهدا ﴿نوحياً إليك﴾ أي نعلمك بها يا محمد بواسطة الوحي ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها من قبل هذا القرآن ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ أي فاصبر على أمر الله بتبليغ الدعوة كما صبر نوح ، فإن العاقبة المحمودة لمن اتقى الله ، وفيه تسلية له ﷺ على أذى المشركين .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ شبه الذي لا يهتدي بالحجة لخفائها عليه ، بمن سلك مفازة لا يعرف طرقها ومسالكها ، واتباع دليلاً أعمى فيها على سبيل الاستعارة التمثيلية .

٢ - ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتقريع .

٣ - ﴿فَانْتَنَا بِمَا تَعَدْنَا﴾ الأمر يراد به التهكم والاستهزاء .

٤ - ﴿فَعَلِيَ إِجْرَامِي﴾ مجاز بالحذف أي عقوبة إجرامي وجاء بـ ﴿إن﴾ الدالة على الشك لبيان أنه على سبيل الفرض ﴿إن افتريته﴾ بخلاف إجرامهم فإنه محقق ﴿وأنا بريء مما تجرمون﴾ .

٥ - ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ الأعين كناية عن الرعاية والحفظ يقال للمسافر « صحبتك عين الله » أي رعاية الله وحفظه .

٦ - ﴿يا أرضُ ابلعي ماءك ويا سماءِ أقلعي﴾ بين الأرض والسماء طباقٌ ، وبين ابلعي وأقلعي جناسٌ ناقص ، وكلاهما من المحسنات البديعية .

فائدة : قال ابن عباس في قوله تعالى ﴿إنه ليس من أهلِكَ﴾ كان ابنه من صلبه ، ولكنه لم يكن مؤمناً ، وما بغت امرأة نبي قط ومعنى الآية : إنه ليس من أهلِكَ الذين وعدتكَ أن أنجيهم معك^(١) .

أقول : نهبت الآية على أن أهله هم الصلحاء ، أهل دينه وشريعته ، فمن لا صلاح له لا نجاة له ، ومدار الأهلية القرابة الدينية ، لا القرابة البدنية .

أبي الإسلام لا أبَ لي سواه إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم

لطيفة : روي أن أعرابياً سمع هذه الآية ﴿وقيل يا أرضُ ابلعي ماءك ، ويا سماءِ أقلعي . .﴾ الآية فقال : هذا كلام القادرين لا يشبه كلام المخلوقين ، ويروى أن « ابن المقفع » - وكان أفصح أهل زمانه - رام أن يعارض القرآن فنظم كلاماً ، وجعله مفصلاً ، وسمّاه سوراً ، فمر يوماً بصبي فسمعه يقرأ الآية فرجع إلى بيته ومحا ما كان قد بدأ به ، وقال : أشهد أن هذا لا يُعارض أبداً ، وما هو من كلام البشر^(٢) .

تبني : هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها ، وحوث من بدائع الفوائد نهايتها ، وجمعت من المحاسن اللفظية والمعنوية ما يضيق عنه نطاق البيان ، وقد اهتم بإظهار لطائفها وأسرارها العلامة أبو حيان حيث قال رحمه الله وطيب ثراه : في هذه الآية أحدٌ وعشرون نوعاً من البديع : المناسبة في قوله ﴿أقلعي وابلعي﴾ والمطابقة بذكر الأرض والسماء ، والمجاز في ﴿يا سماء﴾ المراد مطر السماء ، والاستعارة في ﴿أقلعي﴾ والإشارة في ﴿وغيض الماء﴾ فإنها إشارة إلى معانٍ كثيرة ، والتمثيل في ﴿وقضي الأمر﴾ عبر بالأمر عن إهلاك الهالكين ونجاة الناجين ، والإرداف في ﴿واستوت على الجودي﴾ فلفظ واستوت كلام تام أردفه بلفظ ﴿على الجودي﴾ قصداً للمبالغة في التمكن بهذا المكان ، والتعليل في ﴿وغيض الماء﴾ فإنه علة للاستواء ، والاحتباس في ﴿بعداً للقوم الظالمين﴾ وهو أيضاً ذم لهم ، والإيجاز وهو ذكر القصة باللفظ القصير مستوعباً للمعاني الجمّة ، وعدد بقية الوجوه وهي : الإيضاح ، والمساواة ، وحسن النسق ، وصحة التقسيم ، وحسن البيان ، والتمكين ، والتجنيس ، والتسهيم ، والمقابلة ، والتهذيب ، والوصف^(٣) .

« مقتطفات من تفسير سيد قطب في ظلال القرآن »

وننقل هنا فقراتٍ من تفسير شهيد الإسلام « سيد قطب » عليه الرحمة والرضوان حيث قال ما نصه :

(١) الطبري ٥١/١٢ . (٢) روح المعاني ٦٣/١٢ . (٣) النهر الماد من البحر ٥/٢٢٧ .

« وعند هذا المقطع من قصة نوح يلتفت السياق لفتةً عجيبة ، إلى استقبال مشرقي قريش لمثل هذه القصة التي تشبه أن تكون قصتهم مع الرسول ﷺ ودعواهم أن محمداً يفترى هذا القصص ﴿ أم يقولون افتراه ؟ قل إن افتريته فعلياً إجرامي وأنا بريء مما تجرمون ﴾ فالافتراء إجرام وعليّ تبعته ، وأنا أعرف أنه إجرام فمستبعد أن أرتكبه ، وهذا الاعتراض لا يخالف سياق القصة في القرآن لأنها إنما جاءت لتأدية غرض معين ، ثم يمضي السياق في قصة نوح يعرض مشهداً ثانياً ، مشهد نوح يتلقى وحي ربه وأمره ﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قدامن فلا تبئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ أي برعايتنا وتعليمنا ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ فقد تقرر مصيرهم ، وانتهى الإنذار ، وانتهى الجدل . والمشهد الثالث من مشاهد القصة : مشهد نوح يصنع الفلك ﴿ ويصنع الفلك وكلما مرَّ عليه ملاً من قومه سخروا منه ﴾ والتعبير بالمضارع هو الذي يعطي المشهد حيويته وجدته ، فنحن نراه مائلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير ، وقومه المتكبرون يمدون به فيسخرون ، يسخرون من الرجل الذي كان يقول لهم إنه رسول ، ثم إذا هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً ، والمشهد الرابع : مشهد التعبئة عندما حلت اللحظة المرتقبة ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين . . . ﴾ ثم يأتي المشهد الهائل المرهوب : مشهد الطوفان ﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال . . . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ إن الهول هنا هولان : هول في الطبيعة الصامته ، وهول في النفس البشرية يلتقيان . وإنما بعد آلاف السنين لنمسك أنفسنا - ونحن نتابع السياق - والهول يأخذنا كأننا نشهد المشهد ، ﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾ ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النداء ، وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء ، والموجة الغامرة تحسم الموقف في سرعة خاطفة راجفة ﴿ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ وينتهي كل شيء ، وكأن لم يكن دعاء ولا جواب ، وتلك سمة بارزة في تصوير القرآن . وتهدا العاصفة ، ويخيم السكون ، ويقضى الأمر ، ويوجه الخطاب إلى الأرض والسماء بصيغة العاقل ، فتستجيب كلتاها للأمر الفاصل ، فتبلع الأرض وتكف السماء ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي ، وقيل بعداً للقوم الظالمين » .

قال الله تعالى: ﴿ وإلى عادٍ أخاهم هوداً . . . إلى . . . رحمتُ الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾

من آية (٥٠) إلى نهاية آية (٧٣) .

المناسكَة : هذه هي القصة الثانية من القصص التي ذكرها الله في هذه السورة الكريمة ، وهي قصة هود مع قومه عاد ، وقد ذكرها تعالى بالإسهاب ، ولهذا سميت السورة « سورة هود » ثم أعقبها بالحديث عن ثمود وهي القصة الثالثة في هذه السورة ، ثم قصة إبراهيم وبشارة الملائكة له بإسحاق وهي القصة الرابعة .

اللغز: ﴿مدراراً﴾ كثيراً متتابعاً من درت السماء تدر إذا سكبت المطر بسخاء ، والمدرارُ : الكثير الدر وهو من أبنية المبالغة ﴿اعتراك﴾ أصابك ﴿ناصيتها﴾ الناصية : منبت الشعر في مقدم الرأس ﴿جبار﴾ الجبار : المتكبر ﴿عنيد﴾ العنيد : الطاغى الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له ، قال أبو عبيدة : العنيد والمعاند : المعارض بالخلاف ﴿استعمركم فيها﴾ جعلكم عمّارها وسكانها ﴿تحسير﴾ تضليل وإبعاد عن الخير ﴿حنيد﴾ مشوي يقال : حنذت الشاة أحنيذها حنذاً أي شويتها ﴿نكرهم﴾ أنكرهم يقال : نكره وأنكره واستنكره بمعنى واحد وهو أن يجده على غير ما عهده قال الشاعر :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت
من الحوادث إلا الشيب والصلعاً^(١)

فجمع الشاعر بين اللغتين ﴿أوجس﴾ استشعر وأحس ﴿بعلي﴾ زوجي .

وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥١﴾ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ

النفيس: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة عاد نبياً منهم اسمه هود ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ أي اعبدوا الله وحده دون الآلهة والأوثان ﴿ما لكم من إله غيره﴾ أي ليس لكم معبود غيره يستحق العبادة ﴿إن أنتم إلا مفترون﴾ أي ما أنتم في عبادتكم غير الله إلا كاذبون عليه جل وعلا ، لأنه لا إله سواه ﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً﴾ أي لا أطلب منكم على النصيح والبلاغ جزاءً ولا ثواباً ﴿إن أجري إلا على الذي فطرني﴾ أي ما ثوابي وجزائي إلا على الله الذي خلقني ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أنغفلون عن ذلك فلا تعقلون أن من يدعوكم إلى الخير دون إرادة جزاء منكم هو لكم ناصح أمين ؟ والاستفهام للإنكار والتفريع ﴿ويا قوم استغفروا ربكم﴾ أي استغفروه من الكفر والإشراك ﴿ثم توبوا إليه﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة والاستقامة على دينه والتمسك بالإيمان والتوحيد ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ أي يرسل عليكم المطر غزيراً متتابعاً ، روي أن عاداً كان حبس عنهم المطر ثلاث سنين حتى كادوا يهلكون ، فأمرهم هود بالتوبة والاستغفار ووعدهم على ذلك بنزول الغيث والمطر ، وفي الآية دليل على أن التوبة والاستغفار ، سبب للرحمة ونزول الأمطار ﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ أي ويزدكم عزاً وفخاراً فوق عزكم وفخاركم قال مجاهد : شدة إلى شدتكم^(٢) ، فإنهم كانوا في غاية القوة والبطش حتى قالوا ﴿من أشد منا قوة﴾ ؟ ﴿ولا تتولوا مجرمين﴾ أي لا تعرضوا عما أدعوكم إليه مصرين على الإجماع ، وارتكاب الآثام ﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة﴾ أي ما جئتنا بحجة واضحة تدل على صدقك قال الألوسي : وإنما قالوه لفرط عنادهم ، أو لشدة

وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ
 إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي
 تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ
 تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾

عماهم عن الحق^(١) ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك﴾ أي لسنا بتاركين عبادة الأصنام من أجل قولك ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ أي لسنا بمصدقين لبوتك ورسالتك ، والجملة تقنيط من دخولهم في دينه ، ثم نسبه
 إلى الخبل والجنون فقالوا ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ أي ما نقول إلا أصابك بعض آلهتنا
 بجنون لما سببتها ونهيتها عن عبادتها قال الزمخشري : دلت أجوبتهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة ،
 غلاظ الأكباد ، لا يلتفتون إلى النصيح ، ولا تلين شكيمتهم للرشد ، وقد دل قولهم الأخير على جهل
 مفرط ، وبله متناه ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تتصرف وتتقم^(٢) ﴿قال إني أشهد الله﴾ أي قال هود إني
 أشهد الله على نفسي ﴿واشهدوا أنني بريء مما تشركون من دونه﴾ أي وأشهدكم أيضاً أيها القوم بأنني بريء
 مما تشركون في عبادة الله من الأوثان والأصنام ﴿فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾ أي فاحتالوا في هلاكهم
 وآلهتكم ثم لا تمهلوني طرفة عين قال أبو السعود : وهذا من أعظم المعجزات ، فإنه عليه السلام كان رجلاً
 مفرداً بين الجم الغفير من عتاة عاد ، الغلاظ الشداد ، وقد حقرهم وهيجهم بانتقاص آلهتهم ، وحثهم على
 التصدي له فلم يقدرُوا على مباشرة شيء ، وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بلياً^(٣) وقال الزمخشري : من
 أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه ، يرمونه عن قوس واحدة ،
 وذلك لثقتة بربه وأنه يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخال بهم ، ومثله قول نوح ﴿فأجمعوا أمركم
 وشركاءكم﴾^(٤) ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم﴾ أي إني لجأت إلى الله وفوضت أمري إليه تعالى مالكي
 ومالككم ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ أي ما من نسمة تدب على وجه الأرض إلا هي في قبضته وتحت
 قهره ، والآخذ بالناصية تمثيل للملك والقهر ، والجملة تعليل لقوة توكله على الله وعدم مبالاته بالخلق ﴿إن
 ربي على صراط مستقيم﴾ أي إن ربي عادل ، يجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، لا يظلم أحداً
 شيئاً ﴿فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم﴾ أي فإن تعرضوا عن قبول دعوتي فقد أبلغتكم أيها القوم
 رسالة ربي ، وما على الرسول إلا البلاغ ﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾ أي فسوف يهلككم الله
 ويستخلف قوماً آخرين غيركم ، وهذا وعيد شديد ﴿ولا تضرونه شيئاً﴾ أي لا تضرون الله شيئاً بإشراككم
 ﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾ أي إنه سبحانه رقيب على كل شيء ، وهو يحفظني من شركم ومكرم ﴿ولما

وَتِلْكَ آيَاتُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً
 وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴿٦٠﴾ الْأَبْعَادُ لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦١﴾ * وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ
 اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ
 إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦٢﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّآ

جاء أمرنا ﴿٥٩﴾ أي ولما جاء أمرنا بالعذاب ، وهو ما نزل بهم من الريح العقيم ﴿نجينا هوداً والذين آمنوا معه
 برحمة منا﴾ أي نجينا من العذاب هوداً والمؤمنين بفضلٍ عظيمٍ ونعمة منا عليهم ﴿ونجيناهم من عذاب
 غليظ﴾ أي وخلصناهم من ذلك العذاب الشديد ، وهي الريح المدمرة التي كانت تهدم المساكن ، وتدخل
 في أنوف أعداء الله وتخرج من أديبارهم ، وتصرعهم على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخلٍ خاوية
 ﴿وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربهم﴾ الإشارة لآثارهم أي تلك آثار المكذبين من قوم عاد انظروا ماذا حل بهم ،
 حين كفروا بالله ، وأنكروا آياته في الأنفس والآفاق الدالة على وحدانيته ؟ ﴿وعصوا رسله﴾ أي عصوا
 رسوله هوداً ، وجمعه تفضيلاً لحلمهم ، وإظهاراً لكمال كفرهم وعنادهم ، ببيان أن عصيانهم له عصيانٌ
 لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد ﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ أي أطاعوا أمر
 كل مستكبر على الله ، حائدٍ عن الحق ، لا يُدعن له ولا يقبله ، يريد به الرؤساء والكبراء ﴿واتبعوا في هذه
 الدنيا لعنة﴾ أي وألحقوا باللعة والطرده من رحمة الله في الدنيا ﴿ويوم القيامة﴾ أي ويوم القيامة أيضاً
 تلحقهم اللعة قال الرازي : جعل اللعن رديفاً لهم ومتابعاً ومصاحباً في الدنيا والآخرة ، ومعنى اللعة
 الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير ﴿٥٩﴾ «ألا إن عاداً كفروا ربهم﴾ هذا تشنيعٌ لكفرهم وتهويلٌ بحرف
 التنبيه وبتكرار اسم عاد أي ألا فانتبهوا إن عاداً كفروا برهم إذ عبدوا غيره ، وجحدوا نعمته إذ كذبوا
 رسوله ، فاستحقوا اللعة في الدنيا ، واللعة في الآخرة ﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ أي أبعدهم الله من
 الخير ، وأهلكهم عن بكرة أبيهم ، وهي جملة دعائية بالهلاك واللعة ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ أي ولقد
 أرسلنا إلى قوم ثمود نبياً منهم وهو صالح عليه السلام ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره﴾ أي
 اعبدوا الله وحده ليس لكم ربٌ معبود سواه ﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ أي هو تعالى ابتداء خلقكم من
 الأرض ، فخلق آدم من تراب ثم ذريته من نطفة ﴿واستعمركم فيها﴾ أي جعلكم عمّارها وسكانها تسكنون
 بها ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه﴾ أي استغفروه من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة ﴿إن ربي قريبٌ مجيب﴾ أي
 إنه سبحانه قريب الرحمة مجيب الدعاء ﴿قالوا يا صالحُ قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا﴾ أي كنا نرجو أن تكون
 فينا سيِّداً قبل تلك المقالة فلما قلتها انقطع رجاؤنا فيك ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾ أي أتنهانا يا صالح
 عن عبادة الأوثان التي عبدها آباؤنا ؟ ﴿وإننا لفي شكٍ مما تدعوننا إليه مريب﴾ أي وإننا لشاكون في

لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿١٦٦﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَعَآتَنِي مِنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴿١٦٧﴾ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٦٨﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ ﴿١٦٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٧٠﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِّينَ ﴿١٧١﴾ كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ؕ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعِدَ لثَمُودَ ﴿١٧٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلِّمًا قَالَ سَلِّمٌ دَعَاكَ ، وَأَمْرُكَ مُرِيبٌ يوجب التهمة ﴿قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي﴾ أي أخبروني إن كنت على برهانٍ وحيجة واضحة من ربي ﴿وآتاني منه رحمة﴾ أي وأعطاني النبوة والرسالة ﴿فمن ينصُرني من الله إن عصيته﴾ أي فمن يمنعني من عذاب الله إن عصيت أمره ؟ ﴿فما تزيدونني غير تحسير﴾ أي فما تزيدونني بموافقتكم وعصيان أمر الله غير تضليل وإبعاد عن الخير قال الزمخشري : ﴿غير تحسير﴾ يعني تخسرون أعمالِي وتبطلونها^(١) ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾ أضاف الناقة إلى الله تشرِيفاً لها لأنها خرجت من صخرة صماء بقدره الله حسب طلبهم أي هذه الناقة معجزتي لكم وعلامة على صدقي ﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ أي دعوها تأكل وتشرب في أرض الله فليس عليكم رزقها ﴿ولا تمسوها بسوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أي لا تناولوها بشيءٍ من السوء فيصيبكم عذاب عاجل لا يتأخر عنكم ﴿فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ أي ذبحوا الناقة فقال لهم صالح : استمتعوا بالعيش في بلدكم ثلاثة أيام ثم تهلكون قال القرطبي : إنما عقرها بعضهم وأضيف إلى الكل لأنه كان مرضى الباقين ، فعقرت يوم الأربعاء فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد^(٢) ﴿ذلك وعدٌ غير مكذوب﴾ أي وعدٌ حق غير مكذوب فيه ﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه﴾ أي فلما جاء أمرنا بإهلاكهم نجينا صالحاً ومن آمن به ﴿برحمة منا﴾ أي بنعمةٍ وفضلٍ عظيمٍ من الله ﴿ومن خزي يومئذٍ﴾ أي ونجيناهم من هوان ذلك اليوم وذلّه ﴿إن ربك هو القوي العزيز﴾ أي القوي في بطشه ، العزيز في ملكه ، لا يغلبه غالب ، ولا يقهره قاهر ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ أي أخذتهم صيحة من السماء تقطعت لها قلوبهم ، فأصبحوا هامدين موتى لا حراك بهم كالطير إذا جثمت ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ أي كأن لم يقيموا في ديارهم ولم يعمرُّوها ﴿ألا إن ثموداً كفروا ربهم ألا بعداً لثمود﴾ أي ألا فاتتوها أيها القوم إن ثمود كفروا بآيات ربهم فسحقاً لهم وبُعداً ، وهلاكاً ولعنة ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ هذه هي القصة الرابعة وهي قصة لوط وهلاك قومه المكذبين أي جاءت الملائكة الذين أرسلناهم لإهلاك قوم لوط إبراهيم

فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْفَظْنَا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٦٧﴾ وَأَمْرًا لَهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٦٨﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٠﴾

بالبشارة بإسحاق^(١) ، قال القرطبي : لما أنزل الله الملائكة لعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم فظنهم أضيافاً ، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل قاله ابن عباس ، وقال السدي : كانوا أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الحسان الوجوه^(٢) ﴿قالوا سلاماً﴾ أي سلموا عليه سلاماً ﴿قال سلام﴾ أي قال لهم إبراهيم : سلام عليكم قال المفسرون : ردٌ عليهم التحية بأحسن من تحيتهم لأنه جاء بها جملة اسمية وهي تدل على الثبات والاستمرار ﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيز﴾ أي فما أبطأ ولا تأخر مجيئه حتى جاء بعجل مشوي فقدمه لهم قال الزمخشري : والعجل : ولد البقرة ويسمى « الحسيل » وكان مال إبراهيم عليه السلام البقر ، والحنيز : المشوي بالحجارة المحماة في أخدود وقيل : الذي يقطر دسمه ويدل عليه « بعجل سمين »^(٣) ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾ أي فلما رآهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام ولا يأكلون منه أنكرهم ﴿وأوجس منهم خيفة﴾ أي أحس منهم الخوف والفرع قال قتادة : كان العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم ظنوا أنه لم يجيء بخير وأنه جاء يحدث نفسه بشر^(٤) ﴿قالوا لا تحفظنا إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾ أي قالت الملائكة : لا تحفظنا فإنا ملائكة ربك لا نأكل ، وقد أرسلنا لإهلاك قوم لوط ﴿وامرأته قائمة فضحكت﴾ أي وامرأة إبراهيم واسمها « سارة » قائمة وراء الستر تسمع كلامهم فضحكت استبشاراً بهلاك قوم لوط ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ أي بشرتها الملائكة بإسحاق ولداً لها ويأتيه مولودٌ هو يعقوب ابناً لولدها ﴿قالت يا ويلىتى ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً﴾ أي قالت سارة متعجبة : يا لهفي ويا عجبى ألد وأنا امرأة مسنة وهذا زوجي إبراهيم شيخ هرم أيضاً فكيف يأتينا الولد ؟ ﴿إن هذا لشيء عجب﴾ أي إن هذا الأمر لشيء غريب لم تجر به العادة قال مجاهد : كانت يومئذ ابنة تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة^(٥) ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ أي أتعجبين من قدرة الله وحكمته في خلق الولد من زوجين هرمين ؟ ليس هذا بمكان عجب على قدرة الله ﴿رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أي رحمت الله وبارك فيكم يا أهل بيت إبراهيم ﴿إنه حميد مجيد﴾ أي إنه تعالى محمود مجد في صفاته وذاته ، مستحق للحمد والتمجيد من عباده ، وهو تعليل بدعي لما سبق من البشارة .

البلاغَة : ١ - ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ المراد بالسما المطر فهو مجاز مرسل لأن المطر ينزل

(١) البشرى هي البشارة بالولد ، وقيل : بهلاك قوم لوط قال الزمخشري : والظاهر الولد . (٢) القرطبي ٦٢/٩ .

(٣) الكشاف ٤٠٩/٢ . (٤) الطبري ٧١/١٢ . (٥) البيضاوي ٢٥٣ .

من السماء ولفظ «مدراراً» للمبالغة أي كثير الدر .

٢ - ﴿فكيدوني جميعاً﴾ أمرٌ بمعنى التعجيز .

٣ - ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ استعارة تمثيلية شبه الخلق وهم في قبضة الله ومملكه وتحت قهره وسلطانه بالمالك الذي يقود المقدور عليه بناصيته كما يقاد الأسير والفرس بناصيته .

٤ - ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ استعارة لطيفة عن كمال العدل في ملكه تعالى فهو مطلع على أمور العباد لا يفوته ظالم ، ولا يضيع عنده معتصم به .

٥ - ﴿ولما جاء أمرنا﴾ الأمر كناية عن العذاب .

٦ - ﴿نجينا هوداً . . ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ التكرار في لفظ الإنجاء لبيان أن الأمر شديد عظيم لا سهل يسير ، ويسمى هذا الإطناب .

٧ - ﴿وعصوا رسله﴾ أي عصوا رسولهم هوداً وفيه تفضيح لحالم وبيان أن عصيانهم له عصيانٌ لجميع الرسل السابقين واللاحقين ، وهو مجاز مرسل من باب إطلاق الكل وإرادة البعض .

٨ - ﴿ألا إن عاداً . . ألا بعداً لعاد﴾ تكرير حرف التنبيه وإعادة لفظ «عاد» للمبالغة في تهويل حالهم .

تنبية : لم يقل هود عليه السلام : ﴿إني أشهد الله وأشهدكم وإنما قال : ﴿إني أشهد الله وأشهدوا أني بريء مما تشركون﴾ وذلك لكلا يفيد التشريك بين الشهادتين والتسوية بينهما ، فأين شهادة الله العلي الكبير من شهادة العبد الحقير ؟ !

قال الله تعالى : ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع . . إلى . . . ويوم القيامة بثس الرfid المرفود﴾ من آية (٧٤) إلى نهاية آية (٩٩) .

المناسكة : لا تزال الآيات تتحدث عن قصة ضيوف إبراهيم ، وهم الملائكة الذين مروا عليه وهم بطريقهم لإهلاك قوم لوط ، وبشروه بالبشارة السارة بولادة غلام له ، وقد ذكرت الآيات مرورهم على لوط وما حلّ بقومه من النكال والدمار ، وهي القصة الخامسة ، ثم ذكرت قصة شعيب مع أهل مدين ، وقصة موسى مع فرعون ، وفي جميع هذه القصص عبرٌ وعظات .

اللغز : ﴿الروع﴾ الخوف والفرع ﴿منيب﴾ الإنابة : الرجوع والتوبة ﴿عصيب﴾ شديد في الشر قال الشاعر :

وإنك إلا تُرض بكر بن وائل
يكن لك يوم بالعراق عصيب

﴿يهرعون﴾ يسرعون قال الفراء : الإهرع الإسراع مع رعدة يقال أهرع الرجل إهرعاً أي أسرع في رعدة من برد أو غضب^(١) ﴿تُخزون﴾ أخزاه: أهانه وأذله قال حسان :

فأحزاك ربي يا عتيبَ بن مالكٍ ولقآك قبل الموتِ إحدى الصَّواعقِ

﴿سجيل﴾ السَّجِيل والسَّجِين : الشديد من الحجر قاله أبو عبيدة ، وقال الفراء : طينٌ طبخ حتى صار كالآجر ﴿منضود﴾ متتابع بعضه فوق بعض في النزول ﴿مسومة﴾ معلّمة من السِما وهي العلامة ﴿شقاقي﴾ الشقاق : العداوة قال الشاعر :

ألاً من مبلغٍ عني رسولاً فكيف وجدتم طعم الشقاق^(٢)

﴿رهطك﴾ رهط الرجل : عشيرته التي يتقوى بهم ﴿الورد﴾ المدخل ﴿الرفد﴾ العطاء والإعانة .

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعَ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٦﴾
يَلِيَّ إِبْرَاهِيمَ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَذَابٍ غَيْرِ مَرْدُودٍ ﴿٧٧﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ
رُسُلْنَا لُوطًا سِئَاءً بِبِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٨﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ

النَّفْسِيرُ : ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع﴾ أي فلما ذهب عن إبراهيم الخوف الذي أوجسه في نفسه ، واطمأن قلبه لضيوفه حين علم أنهم ملائكة ﴿وجاءته البشرى﴾ أي جاءته البشارة بالولد ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ أي أخذ يجادل ملائكتنا في شأن إهلاك قوم لوط ، وغرضه تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون قال المفسرون : لما قالت الملائكة : ﴿إنا مهلكو أهل هذه القرية﴾ قال لهم : أرايتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا : لا ، قال : فأربعون؟ قالوا : لا فما زال ينتزل معهم حتى قال لهم : أرايتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونهم؟ قالوا لا فقال لهم ﴿إن فيها لوطاً ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾^(٣) ﴿إن إبراهيم حلِيمٌ﴾ أي غير عجولٍ في الانتقام من المسيء إليه ﴿أواه منيب﴾ أي كثير التأوه والتأسف على الناس لرقه قلبه ، منيب رجاعٌ إلى طاعة الله ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا﴾ أي قالت الملائكة : يا إبراهيم دع عنك الجدال في قوم لوط فقد نفذ القضاء بعذابهم ﴿إنه قد جاء أمر ربك﴾ أي جاء أمر الله بإهلاكهم ﴿وإنهم أتيتهم عذابٌ غير مردود﴾ أي نازلٌ بهم عذابٌ غير مصروفٍ عنهم ولا مدفوعٍ ﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سيءاً بهم﴾ أي ولما جاءت الملائكة لوطاً أصابه سوء وضجر ، لأنه ظهر أنهم من البشر فخاف عليهم من قومه ﴿وضاق بهم ذرعاً﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم خشيةً عليهم من قومه الأشرار ﴿وقال هذا يومٌ عصيب﴾ أي شديد في الشر ﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾ أي جاء قومه

(١) القرطبي ٧٤/٩ . (٢) الرسول هنا بمعنى الرسالة والبيت للأخطل كذا في القرطبي . (٣) انظر الطبري ٨٠/١٢ .

كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُومُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْرُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْنَا هَكَذَا بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا

يسرعون إليه لطلب الفاحشة بالضيوف كأنهم يدفعون إلى ذلك دفعا ﴿٧٨﴾ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴿٧٩﴾ أي ومن قبل ذلك الحين كانت عاداتهم إتيان الرجال وعمل الفاحشة فلذلك لم يستحيوا حين جاءوا يهرعون لها مجاهرين قال القرطبي : وكان سبب إسراعهم أن امرأة لوط الكافرة لما رأت الأضياف وجههم ، خرجت حتى أتت مجلس قومها فقالت لهم : إن لوطاً قد أضاف الليلة فتية ما رأيت مثلهم جمالاً فحينئذ جاءوا يهرعون إليه ﴿٨٠﴾ قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴿٨١﴾ أي قال لهم لوط : هؤلاء نساء البلدة أزوجكم بهن فذلك أطهر لكم وأفضل ، وإنما قال بناتي لأن كل نبي أب لأمته في الشفقة والتربية ﴿فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي﴾ أي اخشوا عذاب الله ولا تفضحوني وتهينوني في ضيوفي ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ أي استفهام توبيخ أي أليس فيكم رجل عاقل يمنع عن القبيح ؟ ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ أي قال له قومه : لقد علمت يا لوط ما لنا في النساء من أرب ، وليس لنا رغبة فيهن ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ أي وأنت تعلم غرضنا وهو إتيان الذكور ، صرّحوا له بغرضهم الخبيث قبّحهم الله ﴿قال لو أن لي بكم قوة﴾ أي لو كان لي قوة أستطيع أن أدفع أذاكم بها ﴿أو آوي إلى ركن شديد﴾ أي أجد إلى عشيرة وأنصار تنصرنني عليكم ، وجواب « لو » محذوف تقديره لبطشت بكم وفي الحديث (رحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد) ﴿٢﴾ يريد ﷺ أن الله كان ناصره ومؤيده ، فهو ركنه الشديد وسنده القوي قال قتادة : وذكر لنا أن الله تعالى لم يبعث نبياً بعد لوط إلا في منعة من عشيرته ﴿٣﴾ ، وحين سمع رسل الله تعالى تحسر لوط على ضعفه وانقطاعه من الأنصار ﴿قالوا يا لوط إننا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ أي قالت الملائكة للوط : إننا رسل ربك أرسلنا لإهلاكهم وإنهم لن يصلوا إليك بضرر ولا مكروه ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾ أي اخرج بهم بطائفة من الليل قال الطبري : أي اخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقية من الليل ﴿٤﴾ ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ﴿٥﴾ أي لا ينظر أحد منكم وراءه إلا امرأتك فإنها ستهلك كما هلكوا ، نهوا عن الالتفات لثلاث تنفطر أكبادهم على قريتهم قال القرطبي : إن امرأة لوط لما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت : واقوماه ! فأدركها حجر فقتلها ﴿٥﴾ ﴿إنه مصيبها ما أصابهم﴾ أي إنه يصيب امرأتك من

(١) القرطبي ٧٥/٩ . (٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً . (٣) روح المعاني ١٠٨/١٢ . (٤) الطبري ٨٩/١٢ .

(٥) القرطبي ٨٠/٩ .

جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٣﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٤﴾ * وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيتُمْ بِبَحِيرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٥﴾ وَيَقَوْمِ أَوفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ

العذاب ما أصاب قومك ﴿٨٣﴾ إن موعدهم الصبح ﴿٨٤﴾ أي موعدهم عذابهم وهاكهم الصبح ﴿٨٥﴾ ليس الصبح بقریب ﴿٨٦﴾ استعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه فقالوا له : أليس وقت الصبح قريباً ؟ قال المفسرون : إن قوم لوط لما سمعوا بالضيوف هرعوا نحوه ، فأغلق بابه وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب ، فتسورا الجدار ، فلما رأت الملائكة ما بلوط من الكرب قالوا يا لوط : افتح الباب ودعنا وإياهم ، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم وعموا ، وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاء ، النجاء كما قال تعالى ﴿٨٧﴾ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ﴿٨٨﴾ ثم إن لوطاً سرى بمن معه قبل الفجر ، ولما حان وقت عذابهم أمر الله جبريل فاقتلع مدائن قوم لوط - وهي خمس - من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ، حتى سمع أهل السماء صراخ الديكة ، ونباح الكلاب ، ثم أرسلها مقلوبة وأتبعهم الله بالحجارة ولهذا قال تعالى ﴿٨٩﴾ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ﴿٩٠﴾ أي فلما جاء وقت العذاب قلبنا بهم القرى فجعلنا العالی سافلاً ﴿٩١﴾ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ﴿٩٢﴾ أي أرسلنا على أهل تلك المدن حجارة صلبة شديدة من نارٍ وطين ، شَبَّهَهَا بالمطر لكثرتها وشدتها ﴿منضود﴾ أي متتابعة ، بعضها في إثر بعض ﴿مُسَوِّمَةً عند ربك﴾ أي معلّمة بعلامة قال الربيع : قد كتب على كل حجر اسم من يرمى به قال القرطبي : وقوله ﴿عند ربك﴾ دليل على أنها ليست من حجارة الأرض ﴿٩٣﴾ وما هي من الظالمين ببعيد ﴿٩٤﴾ أي ما هذه القرى المهلكة ﴿٩٥﴾ ببعيدة عن قومك « كفار قريش » فإنهم يمدون عليها في أسفارهم أفلا يعتبرون ؟ قال المفسرون : وقد صار موضع تلك المدن بحراً أجاجاً يعرف بـ « البحر الميت » لأن مياهه لا تغذي شيئاً من الحيوان وقد اشتهر باسم « بحيرة لوط » والأرض التي تليها قاحلة لا تنبت شيئاً ﴿٩٦﴾ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴿٩٧﴾ هذه هي القصة السادسة من القصص المذكورة في هذه السورة أي وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم شعيباً ، وقد كان شعيب من نفس القبيلة ولهذا قال « أخاهم » ﴿٩٨﴾ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴿٩٩﴾ أي اعبدوا الله وحده فليس لكم رب سواه ﴿١٠٠﴾ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴿١٠١﴾ أي لا تنقصوا الناس حقوقهم في المكيال والميزان ، وقد اشتهروا بتطفيف الكيل والوزن ﴿١٠٢﴾ إنني أراكم بخير ﴿١٠٣﴾ أي إنني أراكم في سعة تغنيكم عن نقص الكيل والميزان قال القرطبي : أي في سعة من الرزق ، وكثرة من النعم ﴿١٠٤﴾ وإنني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴿١٠٥﴾ أي إنني أخاف عليكم إن لم تؤمنوا عذاب يوم مهلك ، لا يفلت منه أحد ، والمراد به عذاب يوم القيامة ﴿١٠٦﴾ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ﴿١٠٧﴾ أي أتموا الكيل والوزن للناس بالعدل ﴿١٠٨﴾ ولا تبخسوا الناس

(١) القرطبي ٨٣/٩ . (٢) وقيل الضمير يعود على الحجارة أي وما تلك الحجارة بشيء بعيد عن كل ظالم . (٣) القرطبي ٨٥/٩ .

بِالْفِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلُوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَنْقُومُ آرَاءُيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ

أشياءهم ﴿٨٥﴾ أي لا تُنقصوهم من حقوقهم شيئاً ﴿٨٦﴾ ولا تعشوا في الأرض مفسدين ﴿٨٧﴾ أي ولا تسعوا بالفساد في الأرض ، والعشي أشد الفساد ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي ما أبقاه الله لكم من الحلال خيرٌ مما تجمعونه من الحرام ، إن كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده وقال مجاهد : أي طاعة الله خير لكم ^(١) ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أي ولست ب قريب أحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم بها وإنما أنا ناصح مبلغ ، وقد أعذر من أنذر ﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ لما أمرهم شعيب عليه السلام بعبادة الله تعالى وترك عبادة الأوثان ، وبإيفاء الكيل والميزان ، ردوا عليه على سبيل السخرية والاستهزاء فقالوا : أصلاتك تدعوك لأن تأمرنا بترك عبادة الأصنام التي عبدها آباؤنا ؟ إن هذا لا يصدر عن عاقل ﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ أي وتأمرك بأن نترك تطيف الكيل والميزان . قال الإمام الفخر : إن شعيباً أمرهم بشيئين : بالتوحيد ، وترك البخس ، فأنكروا عليه أمره بهذين النوعين فقوله ﴿ما يعبد آباؤنا﴾ إشارة إلى التوحيد ، وقوله ﴿نفعل في أموالنا﴾ إشارة إلى ترك البخس ، وقد يراد بالصلاة الدين والمعنى : دينك يأمرك بذلك ؟ وأطلق عليه الصلاة لأنها أظهر شعار الدين ، وروي أن شعيباً كان كثير الصلاة وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا ، فقصدوا بقولهم ﴿أصلاتك تأمرك﴾ السخرية والهزاء ، كما إذا رأيت معتوها يطالع كتباً ثم يذكر كلاماً فاسداً فتقول : هذا من مطالعة تلك الكتب ^(٢) ؟ ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ أي إنك لأنت العاقل المتصف بالحلم والرشد ؟ قال الطبري : يستهزئون به فإنهم أعداء الله قالوا له ذلك استهزاءً ، وإنما سفهوه وجهلوه بهذا الكلام ^(٣) ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾ أي قال لهم شعيب : أخبروني إن كنت على برهان من ربي وهو الهداية والنبوة ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ أي أعطاني المال الحلال ، فقد كان عليه السلام كثير المال قال الزمخشري : والجواب محذوف دل عليه المعنى أي أخبروني إن كنت على حجة واضحة ، ويقين من ربي ، وكنت نبياً على الحقيقة أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان ، والكف عن المعاصي ؟ والأنبياء لا يُبعثون إلا لذلك ^(٤) ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ أي لست أنهاكم عن شيء وأرتكبه وإنما آمركم بما أمر به نفسي ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾ أي لا أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه إلا إصلاحكم وإصلاح أمركم بقدر استطاعتي ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ أي ليس التوفيق

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠٠﴾ وَيَقَوْمٍ لَا يُجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ
هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿١٠١﴾ وَأَسْتَغْفِرُكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ
وَدُودٌ ﴿١٠٢﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ
عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿١٠٣﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِي ۚ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ ﴿١٠٤﴾ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ

إلى الخير إلا بتأييده سبحانه ومعونته ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾ أي على الله سبحانه اعتمدت في جميع أموري ، وإليه تعالى أرجع بالتوبة والإنابة ﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى﴾ أي لا يكسبنكم عداوتي ﴿أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح﴾ أي يصيبكم العذاب كما أصاب قوم نوح بالغرق ، وقوم هود بالريح ، وقوم صالح بالرجفة وقال الحسن المعنى : لا يحملنكم معاداتي على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار^(١) ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ أي وما ديار الظالمين من قوم لوط بمكان بعيد ، أفلا تتعظون وتعتبرون ! ؟ ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ أي استغفروا ربكم من جميع الذنوب ، ثم توبوا إليه توبةً نصوحاً ﴿إن ربي رحيم ودود﴾ أي إنه جل وعلا عظيم الرحمة ، كثير الود والمحبة لمن تاب وأناب ﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول﴾ أي قالوا لنبيهم شعيب على وجه الاستهانة : ما نفهم كثيراً مما تحدثنا به قال الألوسي : جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ ، وأنواع العلوم والمعارف ، من قبيل التخليط والهديان الذي لا يفهم معناه ، ولا يدرك فحواه مع أنه كما ورد في الحديث الشريف (خطيب الأنبياء)^(٢) ﴿وإننا لنراك فينا ضعيفاً﴾ أي لا قوة لك ولا عز فيما بيننا ﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾ أي ولولا جماعتك لقتلناك رمياً بالأحجار ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ أي لست عندنا بمكرم ولا محترم حتى نمتنع من رجحك ﴿قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾ ؟ هذا توبيخ لهم أي أتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرب تبارك وتعالى ؟ فهل عشيرتي أعز عندكم من الله وأكرم ؟ قال ابن عباس : إن قوم شعيب ورهطه كانوا أعز عليهم من الله وصغر شأن الله عندهم ، عز ربنا وجل ثناؤه^(٣) ﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾ أي جعلتم الله خلف ظهوركم لا تطيعونه ولا تعظمونه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يُعْبَأُ به ، وهذا مثل قال الطبري : يقال للرجل إذا لم يقض حاجة الرجل : نبذ حاجته وراء ظهره أي تركها ولم يلتفت إليها^(٤) ﴿إن ربي بما تعملون محيط﴾ أي إنه جل وعلا قد أحاط علماً بأعمالكم السيئة وسيجازيكم عليها ﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنني عامل﴾ تهديد شديد أي اعملوا على طريقته على طريقي

(١) القرطبي ٩/٩٠ . (٢) روح المعاني ١٢/١٢٣ . (٣) الطبري ١٢/١٠٦ . (٤) الطبري ١٢/١٠٦ .

وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبَعْنَا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

كأنه يقول : اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة ، فأننا ثابت على الإسلام والمصابرة ﴿سوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه﴾ أي سوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يذله ويهينه ﴿ومن هو كاذب﴾ أي وتعلمون من هو الكاذب ﴿وارتقبوا إنني معكم رقيب﴾ أي انتظروا عاقبة أمركم إنني منتظر معكم ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ أي ولما جاء أمرنا بإهلاكهم نجينا شعيباً والمؤمنين معه بسبب رحمة عظيمة منا لهم ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة﴾ أي وأخذ أولئك الظالمين صيحة العذاب قال القرطبي : صاح بهم جبريل صيحةً فخرجت أرواحهم من أجسادهم^(١) ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ أي موتى هامدين لا حراك بهم قال ابن كثير : وذكر ههنا أنه أتتهم صيحة ، وفي الأعراف رجفة ، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها ، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه^(٢) ﴿كأن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي كأن لم يعيشوا و يقيموا في ديارهم قبل ذلك ﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾ قال الطبري : أي ألا أبعد الله مدين من رحمة بإحلال نقمته ، كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمة بإنزال سخطه بهم^(٣) ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبين﴾ هذه هي القصة السابعة وهي آخر القصص في هذه السورة والمعنى : لقد أرسلنا موسى بشرائع وأحكام وتكاليف إلهية ، وأيدناه بمعجزات قاهرة ، وبيّنات باهرة ، كالعصا واليد ﴿إلى فرعون وملائته﴾ أي إلى فرعون وأشرف قومه ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ أي فأتبعوا أمر فرعون وعصوا أمر الله ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ أي وما أمر فرعون بسديد لأنه ليس فيه رشد ولا هدى ، وإنما هو جهل وضلال ﴿يقدم قومه يوم القيامة﴾ أي يتقدم أمامهم إلى النار يوم القيامة كما كان يتقدمهم في الدنيا ﴿فأوردتهم النار﴾ أي أدخلهم نار جهنم ﴿وبئس الورد المورود﴾ أي بئس المدخل المدخول هي ﴿وأتبعوا في هذه لعنة﴾ أي ألحقوا فوق العذاب الذي عجله الله لهم لعنة في الدنيا ﴿ويوم القيامة﴾ أي وأردفوا بلعنة أخرى يوم القيامة ﴿بئس الرfid المرفود﴾ أي بئس العون المعان والعطاء المعطى لهم ، وهي اللعنة في الدارين .

البَلَاغَةَ : ١ - ﴿ذهب الروحُ . . وجاءته﴾ بينهما طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

٢ - ﴿جاء أمر ربك﴾ كناية عن العذاب الذي قضاه الله لهم .

٣ - ﴿أليس منكم رجلٌ رشيدٌ﴾ الاستفهام للتعجب والتوبيخ .

٤ - ﴿أو أوي إلى ركنٍ شديدٍ﴾ قال الشريف الرضي : وهذه استعارة والمراد بها قومه وعشيرته ، جعلهم ركناً له لأن الإنسان يلجأ إلى قبيلته ، ويستند إلى أعوانه كما يستند إلى ركن البناء الرصين ، وجاء جواب « لو » محذوفاً تقديره : لحلت بينكم وبين ما همتمم به من الفساد ، والحذف ههنا أبلغ لأنه يوهم بعظيم الجزاء وغليظ النكال^(١) .

٥ - ﴿عاليتها سافلها﴾ بينهما طباقٌ .

٦ - ﴿عذاب يومٍ محيطٍ﴾ فيه مجاز عقلي أسند الإحاطة لليوم مع أن اليوم ليس بجسم باعتبار أن العذاب يكون فيه ، فهو إسنادٌ للزمان .

٧ - ﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾ فيه استعارة تمثيلية كالشيء الذي يلقي وراء الظهر ولا يكثرث به .

٨ - ﴿فأوردتهم النار﴾ فيه استعارة مكنية لأن الورود في الأصل يقال للمرور على الماء للاستسقاء منه ، فشبه النار بما يورد وحذف ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الورود ، وشبه فرعون في تقدمه على قومه بمنزلة من يتقدم على الواردين إلى الماء ليكسر العطش وقوله ﴿وبئس الورد المورود﴾ تأكيد له لأن الورد إنما يورد لتسكين العطش وتبريد الأكباد وفي النار إهابٌ للعطش وتقطيع للأكباد ، نعوذ بالله من نار جهنم .

قال الله تعالى : ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك . . إلى . . وما ربك بغافل عما تعملون﴾ من آية (١٠٠) إلى نهاية آية (١٢٣) .

المناسبة : لما ذكر تعالى بعض قصص المرسلين ، وما حلَّ بأمتهم من النكال والدمار ، ذكر هنا العبرة من سرد هذه القصص ، وهي أن تكون شاهداً على تعجيل العقوبة للمكذبين والانتقام العاجل منهم ، وبرهاناً على تأييد الله ونصرته لأوليائه وأنبيائه ، وقد ذكرت الآيات يوم القيامة وانقسام الناس فيه إلى فريقين : سعداء ، وأشقياء ، وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالصبر على الأذى ، والتوكل على الحي القيوم .

اللغة: ﴿حصيد﴾ مستأصل كالزرع المحصود ﴿تتبيب﴾ التباب : الهلاك والخسران قال

ليد :

فلقد بليتُ وكلُّ صاحبِ جدَّةٍ ليلِيَّ يعودُ وذاكُمُ التَّتبيبُ^(١)

﴿زفير﴾ الزفير : إخراج النَّفس من شدة الجري ﴿وشهيق﴾ الشهيق : ردُّ النَّفس وقال الليث : الزفير أن يملاً الرجل صدره من النَّفس في حال الغم الشديد ويخرجه ، والشهيق أن يخرج ذلك النَّفس بشدة^(٢) وقال بعض أهل اللغة : الزفير مثل أول نبيق الحمار ، والشهيق مثل آخره ﴿مجذوذ﴾ مقطوع من جذه يجذّه إذا قطعه ﴿تركنوا﴾ الركون : الميلُ إلى الشيء والرضا به ﴿زُلفاً﴾ الزُلف : جمع زُلفة وهي الطائفة من أول الليل قال ثعلب : هي أول ساعات الليل ، وأصلها من الزلفى وهي القربة ﴿وأزلفت الجنة﴾ قُرِبت ﴿أترفوا﴾ التَّرف : البطر يقال فلان مترف أي أبطرته النعمة وسعة العيش ﴿مرية﴾ شك وريب .

سَبَبُ الزُّوْل : عن ابن مسعود أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال : إني عاجلتُ امرأةً في أقصى المدينة ، وإني أصبتُ منها من دون أن أمسّها، وأنا هذا فاقض فيّ ما شئت ! فقال له عمر : لقد سترك الله لو سترت على نفسك ، فلم يردّ عليه رسولُ الله ﷺ شيئاً ، فانطلق الرجل ونزلت هذه الآية ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إنَّ الحسنات يذهبن السيئات﴾ فأتبعه رسول الله ﷺ رجلاً فدعاه فتلاها عليه^(٣) .

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠١﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠٢﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ

النَّفْسِير : ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك﴾ أي ذلك القصص من أخبار القرى التي أهلكنا أهلها بكفرهم وتكذيبهم الرسل ، نقصه عليك يا محمد ونخبرك عنه بطريق الوحي ﴿منها قائمٌ وحصيد﴾ أي من هذه القرى ما هو عامر قد هلك أهله وبقي بنيانه ، ومنها ما هو خراب قد اندثر بأهله فلم يبق له أثر كالزرع المحصود ﴿وما ظلمناهم ولكن ظلمناهم﴾ أي وما ظلمناهم بإهلاكهم بغير ذنب ، ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي فاستحقوا عذاب الله ونقمته ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء﴾ أي ما نفعتهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله ، ولا دفعت عنهم شيئاً من عقاب الله وعذابه ﴿لما جاء أمر ربك﴾ أي حين جاء قضاء الله بعذابهم ﴿وما زادوهم غير تتبيب﴾ أي وما زادتهم تلك الآلهة غير تخسير وتدمير ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ أي مثل ذلك الأخذ والإهلاك الذي أخذ الله به أهل القرى الظالمين المكذبين ، يأخذ تعالى

عَذَابِ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١١﴾ وَمَا نُوَخَّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٣﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٥﴾ * وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ ﴿١٦﴾ فَلَا تَكُ

بعذابه الفجرة الظلمة قال الألوسي : وفي الآية من إنذار الظالم ما لا يخفى كما قال عليه السلام (إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) ثم قرأ الآية (١١) ﴿إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ أي إن عذابه موجع شديد ، وهذا مبالغة في التهديد والوعيد ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي إن في هذه القصص والأخبار لعظة وعبرة لمن خاف عذاب الله وعقابه في الآخرة ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ أي يجتمع فيه الخلائق للحساب والثواب والعقاب ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي يشهده أهل السماء والأرض ، والأولون والآخرون قال ابن عباس : يشهده البر والفاجر (١٢) ﴿وَمَا نُوَخَّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي ما نُؤَخَّرُ ذَلِكَ الْيَوْمَ - يوم القيامة - إِلَّا لِمَنْ مَعِينٌ سَبَقَ بِهِ قَضَاءَ اللَّهِ ، لا يتقدم ولا يتأخر ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي يوم يأتي ذلك اليوم الرهيب لا يتكلم أحدٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي فمن أهل الموقف شقيٌّ ، ومنهم سعيد كقوله ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ أي فأما الأشقياء الذين سبقت لهم الشقاوة فإنهم مستقرون في نار جهنم ، لهم من شدة كربهم ﴿زَفِيرٌ﴾ وهو إخراج النَّفْسِ بِشِدَّةِ ﴿وَشَهِيقٌ﴾ وهو رُدُّ النَّفْسِ بِشِدَّةِ ، وقال بعض المفسرين : شبه صراخهم في جهنم بأصوات الحمير قال الطبري : في روايته عن قتادة : صوت الكافر في النار صوت الحمار ، أوله زفير وآخره شهيق (٣) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي ما كثر في جهنم أبداً على الدوام ما دامت السموات والأرض قال الطبري : إن العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت : هذا دائمٌ دوام السموات والأرض بمعنى انه دائمٌ أبداً ، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفون به بينهم قال ابن زيد : ما دامت السماء سماءً ، والأرض أرضاً والمعنى خالدون فيها أبداً (٤) وقال الزمخشري : فيه وجهان : أحدهما أن تراد سموات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للأبد ، والثاني : أن يكون عبارة عن التأييد ونفي الانقطاع (٥) ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ الاستثناء في أهل التوحيد (٦) ، لأن لفظة ﴿شَقُوا﴾ تعم الكفار والمذنبين ، فاستثنى الله من خلود أهل الشقاوة العصاة من المؤمنين ، فإنهم يطهرون في نار جهنم ثم يخرجون منها بشفاة سيد المرسلين ﷺ ويدخلهم الله الجنة ويقال لهم : ﴿طَبَّتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي يفعل ما يريد يرحم ويعذب كما يشاء ويختار ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه

(١) روح المعاني ١٣٧/١٢ . (٢) القرطبي ٩٦/٩ . (٣) الطبري ١١٧/١٢ . (٤) الطبري ١١٧/١٢ . (٥) الكشاف ٤٣ / ٢ .

(٦) هذا اختيار الطبري وهو أحد أوجه عشرة ذكرها المفسرون في معنى الاستثناء وانظر القرطبي ٩٩/٩ .

فِي مَرِيَّةٍ مَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَرِيبٍ ﴿١١٦﴾ وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيُوفِينَ رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١٧﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٨﴾ وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ هذا بيانٌ لحال الفريق الثاني « أهل السعادة » اللهم اجعلنا منهم أي وأما السعداء الأبرار فإنهم مستقرون في الجنة ، لا يُخرجون منها أبداً ، دائمون فيها دوام السموات والأرض ، أو ما دامت سموات الجنة وأرض الجنة حسب مشيئته تعالى ، وقد شاء تعالى لهم الخلود والدوام ﴿عطاءً غير مجذوذ﴾ أي عطاءً غير مقطوع عنهم ، بل هو ممتد إلى غير نهاية ﴿فلاتك في مريّةٍ مما يعبد هؤلاء﴾ أي لا تكن في شكٍ من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال بمعنى لا تشك في فساد دينهم ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل﴾ أي هم متبعون لأبائهم تقليداً من غير حجة ولا برهان ، وهذه تسليّة للرسول ﷺ ووعده له بالانتقام منهم ، إذ حالهم حال من سبقهم من الضالين المكذبين ، وقد بلغك ما نزل بأسلافهم فسينزل بهم مثله ﴿وإننا لموفونهم نصيبهم غير منقوص﴾ أي وسنعطيهم جزاءهم من العذاب كاملاً غير منقوص وقال ابن عباس : ما قُدِّر لهم من الخير والشر (١) ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلّف فيه﴾ قال الطبري : يقول تعالى مسلماً نبيه في تكذيب مشركي قومه له : لا يحزنك يا محمد تكذيب هؤلاء لك ، فلقد آتينا موسى التوراة كما آتيناك الفرقان ، فاختلّف في ذلك الكتاب ، فكذب به بعضهم ، وصدق به بعضهم ، كما فعل قومك (٢) ﴿ولولا كلمةٌ سبقت من ربك لقضى بينهم﴾ أي ولولا حكم الله السابق بتأخير الحساب والجزاء إلى يوم القيامة لقضى بينهم في الدنيا فجوزي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، ولكن سبق القدر بتأخير الجزاء إلى يوم الحساب ﴿وإنهم لفي شكٍ منه مريب﴾ أي وإن كفار قومك لفي شكٍ من هذا القرآن مريب لهم ، إذ لا يدرون أحق هو أم باطل ؟ ﴿وإن كلاً لآلئاً ليوفيّنهم ربك أعمالهم﴾ أي وإن كلاً من المؤمنين والكافرين لما ينالوا جزاء أعمالهم وسيوفيهم ربك جزاءها في الآخرة ﴿إنه بما يعملون خبير﴾ أي عليم بأعمالهم جميعاً ، صغيرها وكبيرها ، وسيجازيهم عليها ﴿فاستقم كما أمرت﴾ أي استقم يا محمد على أمر الله واثبت وداوم على الاستقامة كما أمرك ربك ﴿ومن تاب معك﴾ أي ومن تاب من الشرك والكفر وآمن معك ﴿ولا تطغوا﴾ أي لا تجاوزوا حدود الله بارتكاب المحارم ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ أي إنه تعالى مطلع على أعمالكم ويجازي عليها ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾ أي لا تميلوا إلى الظلمة من الولاة وغيرهم من الفسقة الفجرة فتمسكم نار جهنم قال

لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿١١٦﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ
يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٧﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ
مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا
فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٩﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ

البيضاوي : الركون هو الميل اليسير أي لا تميلوا إليهم أدنى ميل فتمسك النار بركونكم إليهم ، وإذا كان
الركون اليسير إلى من وجد منه ما يسمى ظلماً كذلك ، فما ظنك بالركون إلى الظالمين الموسومين بالظلم ،
والميل إليهم كل الميل (١) ؟ ! ﴿وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ أي ليس لكم من
يمنعكم من عذابه ثم لا تجدون من ينصركم من ذلك البلاء قال القرطبي : والآية دالة على هجران أهل
الكفر والمعاصي فإن صحبتهم كفر أو معصية إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة ، وأما صحبة الظالم على
التقية فمستثناة من النهي بحال الاضطرار (٢) ﴿واقم الصلاة طرفي النهار﴾ أي أقم الصلاة المكتوبة على
تمامها وكما لها أول النهار وآخره ، والمراد صلاة الصبح والعصر لأنها طرفا النهار (٣) ﴿وزلّفًا من
الليل﴾ أي ساعات منه قريبة من النهار ، والمراد بها المغرب والعشاء ﴿إن الحسنات يذهبهن السيئات﴾
أي إن الأعمال الصالحة ومنها الصلوات الخمس تكفر الذنوب الصغائر ، لحديث (الصلوات الخمس
كفارة لما بينها ما اجتنبت الكبائر) قال المفسرون : المراد بالحسنات الصلوات الخمس واستدلوا على
ذلك بسبب النزول ، وهذا قول الجمهور ، والأظهر أن المراد بها العموم وهو اختيار ابن كثير حيث قال :
المعنى إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث (ما من مسلم يُذنب ذنباً فيتوضأ
ويصلي ركعتين إلا غفر له) (٤) ﴿ذلك ذكرى للذاكرين﴾ أي ذلك المذكور من الاستقامة والمحافظة
على الصلاة ، عظة للمتعتزين وإرشاد للمسترشدين ﴿واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ أي
اصبر يا محمد على ما تلقى من المكروه ومن أذى المشركين ، فإن الله معك وهو لا يضيع ثواب المحسنين
﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض﴾ أي فهلاً كان من الأمم الماضية
قبلكم أولو عقل وفضل ، وجماعة أحياناً ينهون الأشرار عن الإفساد في الأرض ﴿إلا قليلاً ممن أنجينا
منهم﴾ استثناء منقطع أي لكن قليلاً منهم ، نهواً عن الفساد فجواً قال في البحر : «لولا» في الآية
للتحضيض صحبها معنى التأسف والتفجع مثل قوله ﴿يا حسرة على العباد﴾ والغرض التأسف على
تلك الأمم التي لم تهتد كقوم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكره (٥) ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾ أي
واتبع أولئك الظلمة شهواتهم ، وما نعموا به من الاشتغال بالمال واللذات وأثروها على الآخرة ﴿وكانوا

(١) البيضاوي ٢٥٨ . (٢) القرطبي ١٠٨/٩ . (٣) هذا قول الحسن وقتادة واختار الطبري أنها الصبح والعصر وهو مروي عن ابن

عباس . (٤) المختصر ٢/٢٣٥ . (٥) البحر ٥/٢٧١ .

النَّاسِ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۗ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ۗ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ
 مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٨﴾ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنشِئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ
 الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢٠﴾ وَانظُرُوا
 إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢١﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ
 بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

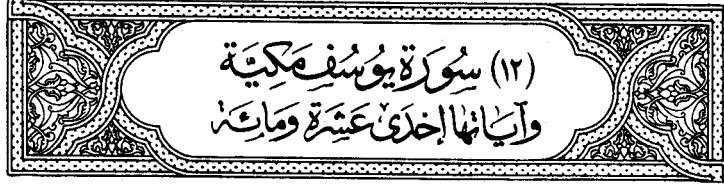
مجرمين ﴿ أي وكانوا قوماً مصرين على الإجرام ﴾ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴿ أي
 ما جرت عادة الله تعالى أن يهلك القرى ظلماً وأهلها مصلحون في أعمالهم ، لأنه تعالى منزّه عن الظلم ،
 وإنما يهلكهم بكفرهم ومعاصيهم ﴾ ولو شاء ربك لجعل الناس أمةً واحدة ﴿ أي لو شاء الله لجعل الناس كلهم
 مؤمنين مهتدين على ملة الإسلام ، ولكنه لم يفعل ذلك للحكمة ﴾ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم
 ربك ﴿ أي ولا يزالون مختلفين على أديان شتى ، وملل متعددة ما بين يهودي ، نصراني ، ومجوسي ، إلا
 ناساً هداهم الله من فضله وهم أهل الحق ﴾ ولذلك خلقهم ﴿ اللام لام العاقبة أي خلقهم
 لتكون العاقبة اختلافهم ما بين شقي وسعيد قال الطبري : المعنى وللإختلاف بالشقاء والسعادة خلقهم ،
 فريق في الجنة ، وفريق في السعير ﴿١﴾ و﴿ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أي تم أمر
 الله ونفذ قضاؤه بأن يملأ جهنم من الجن والإنس من الكفرة الفجرة جميعاً قال الألوسي : والجملة متضمنة
 معنى القسم ولذا جيء باللام في ﴿ لأمْلَانِ ﴾ ﴿٢﴾ وكأنه قال : والله لأملأن جهنم من أتباع إبليس من
 الإنس والجن أجمعين ﴿ وكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنشِئُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أي كل هذه الأخبار التي
 قصصناها عليك يا محمد من أخبار الرسل السابقين ، إنما هي بقصد تثبيتك على أداء الرسالة ، وتطمين
 قلبك ، ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة فتصبر كما صبروا ﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾
 أي جاءك في هذه الأنباء التي قصها الله عليك النبأ اليقيني الصادق ﴿ ومَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي
 وجاءك في هذه الأخبار أيضاً ما فيه عظة وعبرة للمعتبرين ، وخص المؤمنين بالذكر لانتفاعهم بمواعظ
 القرآن ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ أي اعملوا على طريقتكم ومنهجكم
 إنا عاملون على طريقتنا ومنهجنا ، وهو أمرٌ ومعناه التهديد والوعيد ﴿ وانظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ تهديد
 آخر أي انظروا ما يحل بنا إنا منتظرون ما يحل بكم من عذاب الله ﴿ ولله غيبُ السموات والأرض ﴾ أي
 علم ما غاب وخفي فيهما ، كل ذلك بيده وبعلمه ﴿ وإليه يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ أي إليه يرد أمر كل شيء ،
 فينتقم ممن عصى ، ويثيب من أطاع وفيه تسلية للنبي ﷺ وتهديد للكفار بالانتقام منهم ﴿ فاعبده وتوكل
 عليه ﴾ أي اعبد ربك وحده ، وفوض إليه أمرك ، ولا تعتمد على أحدٍ سواه ، فإنه كافي من توكل عليه

- ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ، ويجازي كلاً بعمله .
- البلاغَة : ١** - ﴿ منها قائم وحصيد ﴾ شبه ما بقي من آثار القرى وجدرائها بالزرع القائم على ساقه ، وشبه ما هلك مع أهله ولم يبق له أثر بالزرع المحصود بالمناجل على طريق الاستعارة المكنية .
- ٢ - ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ فيه طباق السلب .
- ٣ - ﴿ إذا أخذ القرى ﴾ مجازاً عن الأهل أي أخذ أهل القرى .
- ٤ - ﴿ شقي وسعيد ﴾ بينهما طباق وهو من المحسنات البديعية .
- ٥ - ﴿ فأما الذين شقوا . . . وأما الذين سعدوا ﴾ فيه لفٌ ونشر مرتب .
- ٦ - ﴿ لولا كلمة سبقت من ربك ﴾ الكلمة هنا كناية عن القضاء والقدر .
- ٧ - ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ بينهما طباقٌ .
- ٨ - ﴿ ذكرى للذاكرين ﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

تنبيه : خلود أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، ثابتٌ مقطوعٌ به بالنصوص العديدة ، وأما الاستثناء بالمشيئة في هذه السورة فقد استعمل في أسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والاستمرار ، والنكتة في ذكره بيان أن هذه الأمور إنما كانت بمشيئته تعالى ولو شاء لغيرها ، وليس شيء خارج عن مشيئته ، فالإيمان والكفر ، والسعادة والشقاوة ، والخلود والخروج كلها بمشيئته تعالى .

فكائدة : أشار الشهاب إلى لطيفة من البلاغة القرآنية ، وهي أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبي ﷺ وإن كانت عامة في المعنى ﴿ فاستقم كما أمرت ، وأقم الصلاة ، واصبر ﴾ وفي المنهيات جمعت للأمة ﴿ ولا تطغوا ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ كذا في العناية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة هود »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة يوسف إحدى السور المكية التي تناولت قصص الأنبياء ، وقد أفردت الحديث عن قصة نبي الله « يوسف بن يعقوب » وما لاقاه عليه السلام من أنواع البلاء ، ومن ضروب المحن والشدائد ، من إخوته ومن الآخرين ، في بيت عزيز مصر ، وفي السجن ، وفي تأمر النسوة ، حتى نجَّاه الله من ذلك الضيق ، والمقصودُ بها تسليية النبي ﷺ بما مرَّ عليه من الكرب والشدة ، وما لاقاه من أذى القريب والبعيد .

* والسورة الكريمة أسلوبٌ فذٌ فريد ، في ألفاظها ، وتعبيرها ، وأدائها ، وفي قصصها الممتع اللطيف ، تسري مع النفس سريان الدم في العروق ، وتجري - برقتها وسلاستها - في القلب جريان الروح في الجسد ، فهي وإن كانت من السور المكية ، التي تحمل - في الغالب - طابع الإنذار والتهديد ، إلا أنها اختلفت عنها في هذا الميدان ، فجاءت طريفةً نديّةً ، في أسلوب ممتع لطيف ، سلكس رقيق ، يحمل جو الأناقة والرحمة ، والرأفة والحنان ، ولهذا قال خالد بن معدان : « سورة يوسف ومريم مما يتفكَّه بهما أهل الجنة في الجنة » وقال عطاء : « لا يسمع سورة يوسف محزونٌ إلا استراح إليها »^(١) .

* نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد سورة « هود » ، في تلك الفترة الحرجة العصبية من حياة الرسول الأعظم ﷺ ، حيث توالى الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين ، وبالأخص بعد أن فقد عليه السلام نصيره : زوجه الطاهر الحنون « خديجة » وعمه « أبا طالب » الذي كان له خير نصير ، وخير معين ، وبوفاتها اشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين ، حتى عُرف ذلك العام بـ « عام الحزن » .

* في تلك الفترة العصبية من حياة الرسول الكريم ، وفي ذلك الوقت الذي كان يعاني فيه الرسول المؤمنون ، الوحشة ، والغربة ، والانقطاع في جاهلية قريش ، كان الله سبحانه ينزل على نبيه الكريم هذه السورة تسليّةً له ، وتخفيفاً لآلامه ، بذكر قصص المرسلين ، وكأن الله تعالى يقول لنبيه عليه السلام : لا تحزن يا محمد ولا تتفجع لتكذيب قومك ، وإيذائهم لك ، فإن بعد الشدة فرجاً ، وإن بعد الضيق

مخرجاً ، أنظر إلى أخيك « يوسف » وتمعن ما حدث له من صنوف البلايا والمحن ، وألوان الشدائد والنكبات ، وما ناله من ضروب المحن : محنة حسد إخوته وكيدهم له ، ومحنة رميه في الجب ، ومحنة تعلق امرأة العزيز به وعشقها له ، ثم مراودته عن نفسه بثتى طرق الفتنة والإغراء ، ثم محنة السجن بعد ذلك العز ورجد العيش !! انظر إليه كيف أنه لما صبر على الأذى في سبيل العقيدة ، وصبر على الضر والبلاء ، نقله الله من السجن إلى القصر ، وجعله عزيزاً في أرض مصر ، وملّكه الله خزائنها ، فكان السيد المطاع ، والعزيز المكرّم . . وهكذا أفعّل بأوليائي ، ومن صبر على بلائي ، فلا بد أن توطّد النفس على تحمل البلاء ، اقتداءً بمن سبقك من المرسلين ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيقٍ مما يمكرون ﴾ .

* وهكذا جاءت قصة يوسف الصديق تسليّة لرسول الله ﷺ عما يلقاه ، وجاءت تحمل البشر والأنس ، والراحة ، والطمأنينة لمن سار على درب الأنبياء ، فلا بد من الفرج بعد الضيق ، ومن اليسر بعد العسر ، وفي السورة دروسٌ وعبر ، وعظات بالغات ، حافلات بروائع الأخبار العجيبة ، والأنباء الغريبة ﴿ لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ .

* هذا هو جوّ السورة ، وهذه إيحاءاتها ورموزها . . تُبشّر بقرب النصر ، لمن تمسك بالصبر ، وسار على طريق الأنبياء والمرسلين ، والدعاة المخلصين ، فهي سلوى للقلب ، وبلسم للجروح ، وقد جرت عادة القرآن الكريم بتكرير القصة في مواطن عديدة ، بقصد « العظة والاعتبار » ولكن بإيجاز دون توسع ، لاستكمال جميع حلقات القصة ، وللتشويق إلى سماع الأخبار دون سامة أو ملل ، وأما سورة يوسف فقد ذكرت حلقاتها هنا متتابعة بإسهاب وإطناب ، ولم تكرر في مكان آخر كسائر قصص الرسل ، لتشير إلى « إعجاز القرآن » في المجمل والمفصل ، وفي حالتها الإيجاز والإطناب ، فسبحان الملك العلي الوهاب .

قال العلامة القرطبي : ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن ، وكررها بمعنى واحد ، في وجوه مختلفة ، وبألفاظ متباينة ، على درجات البلاغة والبيان ، وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر ، ولا على معارضة غير المكرر ، والإعجاز واضح لمن تأمل . وصدق الله ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب . . ﴾ !

قال الله تعالى : ﴿ الرتلک آیاتُ الكتاب المبين . . إلى . . آتیناه حکماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٢) .

اللغة : ﴿ المبين ﴾ الظاهر الجلي ﴿ القصص ﴾ إتباع الخبر بعضه بعضاً وأصله في اللغة المتابعة ﴿ وقالت لأخته قُصّيه ﴾ أي اتبعي أثره والمراد بالقصص الأخبار التي قصها علينا الله في كتابه العزيز ﴿ الرؤيا ﴾ خاصة بالمنام وأما باليقظة فهي بالتاء الرؤية قال الألوسي : مصدر رأى الحلمية الرؤيا ومصدر

البصرية الرؤية ولهذا خُطِيء المتنبى في قوله « ورؤياك أحلى في العيون من الغمض »^(١) ﴿يجتبيك﴾ الاجتباء : الاصطفاء والاختيار وأصله من جبيت الشيء أي حصلته ﴿عُصْبَةٌ﴾ جماعة قال الفراء : ما زاد على العشرة ، والعصبة والعصابة العشرة فصاعداً ﴿اطرحوه﴾ الطرح : رمي الشيء وإلقاؤه ﴿غيابة الجب﴾ قعره وغوره سمي به لغيبته عن عين الناظر ﴿يرتع﴾ يتسع في أكل ما لذ وطاب قال الراغب : الرتع حقيقته في أكل البهائم ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير قالت الخنساء :

ترتع ما رتعت حتى إذا اذكرت فأنما هي إقبال وإدبار^(٢)

﴿السيارة﴾ المسافرين ﴿سوكت﴾ زينت ﴿واردهم﴾ الوارد الذي يرد الماء ليستقي للقوم.

سَبَبُ التَّزْوِيلِ : روي أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وما حصل له مع إخوته من أولاد يعقوب فنزلت السورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ

النَّفْسِيرُ : ﴿الر﴾ إشارة إلى الإعجاز، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب المعجز^(٣) ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ أي تلك الآيات التي أنزلت إليك يا محمد هي آيات الكتاب المعجز في بيانه ، الساطع في حججه وبراهينه ، الواضح في معانيه ، الذي لا تشبته حقائقه ، ولا تلتبس دقائقه ﴿إننا أنزلناه قرآنًا عربيًّا﴾ أي أنزلناه بلغة العرب كتاباً عربياً مؤلفاً من هذه الأحرف العربية ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي لكي تعقلوا وتدرکوا أن الذي يصنع من الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز ليس بشراً ، وإنما هو إله قدير ، وهذا الكلام وحي منزل من رب العالمين ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ أي نحن نحدثك يا محمد ونروي لك أخبار الأمم السابقة ، بأصدق كلام ، وأحسن بيان ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ أي بإيحائنا إليك هذا القرآن المعجز ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ أي وإن الحال والشأن أنك كنت من قبل أن نوحى إليك هذا القرآن لمن الغافلين عن هذه القصة ، لم تخطر ببالك ، ولم تفرغ سمعك ، لأنك أمة لا تقرأ ولا تكتب ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً﴾ من هنا بداية القصة ، أي اذكر حين قال يوسف لأبيه يعقوب يا أبي إني رأيت في المنام هذه الرؤيا العجيبة ، رأيت أحد عشر كوكباً من كواكب السماء خرّت ساجدة لي ﴿والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾ أي ورأيت في المنام الشمس والقمر ساجدة لي مع الكواكب قال ابن عباس : كانت الرؤيا فيهم وحيًّا^(٤) قال المفسرون : الكواكب الأحد عشر كانت

(١) روح المعاني ١٢/١٧٩ (٢) تصف بقرة فقدت ولدها فكلما غفلت عنه رعت فإذا ذكرته حنت إليه فأقبلت وأدبرت ، وهو مثل لفقدها أياها صحراً . (٣) انظر ما كتبه حول الحروف المقطعة والتحقيق الدقيق حول الموضوع في أول سورة البقرة . (٤) الطبري ١٢/١٥١

لَأَبِيهِ يَأْتِبُ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ يَبْنِي لَاتَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٤٢﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٤٣﴾ * لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَحُلْ

إخوته ، والشمس والقمر أبواه ، وكان سنه إذ ذاك اثنتي عشرة سنة ، وبين هذه الرؤيا واجتماعه بأبيه وإخوته في مصر أربعون سنة (١) ﴿قال يا بُني لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾ أي قال له يعقوب : لا تخبر بهذه الرؤيا إخوتك ﴿فيكيدوا لك كيدا﴾ أي فيحتالوا لإهلاكك حيلة عظيمة لا تقدر على ردها ﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ أي ظاهر العداوة قال أبو حيان : فهم يعقوب من رؤيا يوسف أن الله تعالى يبلغه مبلغاً من الحكمة ، ويصطفيه للنبوّة ، وينعم عليه بشرف الدارين ، فخاف عليه من حسد إخوته فنهاه أن يقصّ رؤياه عليهم (٢) ﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾ أي وكما أراك مثل هذه الرؤيا العظيمة كذلك يختارك ربك للنبوّة ﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ أي يعلمك تفسير الرؤيا المنامية ﴿ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب﴾ أي يتم فضله وإنعامه عليك وعلى ذرية أبيك يعقوب ﴿كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق﴾ أي كما أكمل النعمة من قبل ذلك على جدك إبراهيم وجدك إسحق بالرسالة والاصطفاء ﴿إن ربك عليم حكيم﴾ أي عليم بمن هو أهل للفضل ، حكيم في تدبيره لخلقته ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ أي لقد كان في خبر يوسف وإخوته الأحد عشر عبر وعظات للسائلين عن أخبارهم ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبُّ إلينا منا﴾ هذه هي المحنة الأولى ليوسف عليه السلام أي حين قالوا : والله ليوسف وأخوه « بنيامين » أحبُّ منا عند أبينا ، أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه ، وإنما قالوا ﴿وأخوه﴾ وهم جميعاً إخوة لأن أمهما كانت واحدة ﴿ونحن عصبة﴾ أي والحال نحن جماعة ذوو عدد ، نقدر على النفع والضرر ، بخلاف الصغيرين ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ أي إنه في خطأ وخروج عن الصواب بين واضح ، لإيثاره يوسف وأخاه علينا بالمحبة قال القرطبي : لم يريدوا ضلال الدين إذ لو أرادوه لكفروا ، وإنما أرادوا أنه في خطأ بين في إيثار اثنين على عشرة (٣) ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾ أي أقتلوا يوسف أو ألقوه في أرض بعيدة مجهولة ﴿يحل لكم وجه أبيكم﴾ أي فعند ذلك يخلص ويصفو لكم حب أبيكم ، فيقبل عليكم قال الرازي : المعنى إن يوسف شغله عنا وصرف وجهه إليه ، فإذا فقدناه قبل علينا بالمحبة والميل (٤) ﴿وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾ أي وتوبوا من بعد هذا

(١) الصاوي على الجلالين ٢/٢٣٤ . (٢) البحر ٥/٢٨٠ . (٣) القرطبي ٩/١٣١ . (٤) الرازي ١٨/٩٤ .

لَكُمْ وَجَهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿١١﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ
 الْجَبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٢﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ
 لَنَصِاحُونَ ﴿١٣﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ
 أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا
 بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمْ

الذئب وتصبحوا قوماً صالحين ﴿١١﴾ قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب ﴿١٢﴾ أي قال لهم أخوهم
 «يهودا»^(١) وهو أكبر ولد يعقوب : لا تقتلوا يوسف بل ألقوه في قعر الجب وغوره ﴿١٣﴾ يلتقطه بعضُ السَّيَّارَةِ
 أي يأخذه بعض المارة من المسافرين ﴿١٤﴾ إن كنتم فاعلين ﴿١٥﴾ أي إن كان لا بد من الخلاص منه فافتقوا بذلك ،
 وكان رأيُه فيه أهون شراً من رأي غيره ﴿١٦﴾ قالوا يا أبانا ما لك لا تأمناً على يوسف ﴿١٧﴾ المعنى أي شيء حدث لك
 حتى لا تأمنا على أحيانا يوسف ، ونحن جميعاً أبناؤك ؟ ﴿١٨﴾ وإنا له لناصحون ﴿١٩﴾ أي ونحن نشفق عليه ونريد له
 الخير قال المفسرون : لما أحكموا العزم ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم أنهم في غاية المحبة ليوسف ،
 وفي غاية الشفقة عليه ، ليستنزله عن رأيُه في تحوفه منهم وكأنهم قالوا : لِمَ تخافنا عليه ونحن نحبه ونريد
 الخير به !! ﴿٢٠﴾ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ﴿٢١﴾ أي أرسله معنا غداً إلى البادية ، يتسع في أكل ما لذ وطاب ،
 ويلهو ويلعب بالاستباق وغيره ﴿٢٢﴾ وإنا له لحافظون ﴿٢٣﴾ أي ونحن نحفظه من كل سوء ومكروه ، أكدوا
 كلامهم بأن واللام وهم كاذبون ﴿٢٤﴾ قال إني ليحزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴿٢٥﴾ أي قال لهم يعقوب : إنه ليؤلمني فراقه
 لقلته صبري عنه ﴿٢٦﴾ وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴿٢٧﴾ أي وأخاف أن يفترسه الذئب في حال غفلتكم
 عنه ، وكأنه لقنهم الحجة قال الزمخشري : إعتذر إليهم بشيئين : أحدهما : أن ذهابهم به ومفارقتة إياه مما
 يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة ، والثاني : خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم^(٢) ﴿٢٨﴾ قالوا
 لئن أكله الذئب ونحن عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٢٩﴾ اللام للقسم أي والله لئن أكله الذئب ونحن جماعة أقوياء
 أشداء إنا لمستحقون أن يدعى علينا بالخسار والدمار ﴿٣٠﴾ فلما ذهبوا به ﴿٣١﴾ في الكلام محذوف أي فأرسله معهم
 فلما أخذوه وابتعدوا به عن أبيه ﴿٣٢﴾ وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ﴿٣٣﴾ أي عزموا واتفقوا على إلقائه في غور الجب
 ﴿٣٤﴾ وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴿٣٥﴾ أي أوحينا إلى يوسف لتخبرن إخوتك بفعلهم هذا
 الذي فعلوه بك وهم لا يشعرون في ذلك الوقت أنك يوسف ، قال الرازي : وفائدة هذا الوحي تأنيسه ،
 وتسكين نفسه ، وإزالة الغم والوحشة عن قلبه ، بأنه سيحصل له الخلاص من هذه المحنة^(٣) ﴿٣٦﴾ وجاء
 آباهم عشاءً يبكون ﴿٣٧﴾ أي رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ليلاً وهم يبكون ، روي أنه لما سمع يعقوب بكاءهم

(١) هذا قول ابن عباس وقيل هو «روبييل» وهو قول قتادة . (٢) الكشاف ٤٤٨/٢ . (٣) الفخر الرازي ١٨ / ١٠٠ .

عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَ وَعَلَى قَيْصِهِ بِدْمٍ كَذِبٌ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَى هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْلَةٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢١﴾

فزع ، وقال : ما لكم يا بني ، وأين يوسف ؟ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي نتسابق في العدو ، أو في الرمي ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب﴾ أي تركنا يوسف عند ثيابنا وحوادثنا ليحفظها فجاء الذئب فافترسه ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ أي لست بمصدق لنا في هذه المقالة ولو كنا في الواقع صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا وغير واثق بقولنا ؟ وهذا القول منهم يدل على الارتياب ، وكما قيل : يكاد المريب يقول خذوني ﴿وجاءو على قميصه بدم كذب﴾ أي جاءوا على ثوبه بدم كاذب ، وُصِفَ بالمصدر مبالغةً كأنه نفسُ الكذب وعينه قال ابن عباس : ذبحوا شاةً ولطخوا بدمها القميص فلما جاءوا يعقوب قال : كذبتُم لو أكله الذئب لخرقَ القميص^(١) وروي أنه قال : « ما أحلم هذا الذئب أكل ابني ولم يشق قميصه » ؟ ! ﴿قال بل سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أي زَيَّنَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً في يوسف وليس كما زعمتم أن الذئب أكله ﴿فصبر جميل﴾ أي أمري صبر جميل لا شكوى فيه ﴿والله المستعان على ما تصفون﴾ أي وهو سبحانه عوني على تحمل ما تصفون من الكذب ﴿وجاءت سيارة﴾ أي قوم مسافرون مروا بذلك الطريق قال ابن عباس : جاء قوم يسرون من مدين إلى مصر فأخطئوا الطريق فانطلقوا يهيمون حتى هبطوا على الأرض التي فيها جب يوسف ، وكان الجب في قفرة بعيدة عن العمران^(٢) ﴿فأرسلوا واردهم﴾ أي بعثوا من يستقي لهم الماء ﴿فأدلى دلوهُ﴾ أي أرسل دلوهُ في البئر قال المفسرون : لما أدلى الوارد دلوهُ وكان يوسف في ناحية من قعر البئر تعلق بالجل فخرج فلما رأى حسنه وجماله نادى ﴿قال يا بشرى هذا غلام﴾ قاله على سبيل السرور والفرح لتبشير نفسه وجماعته قال أبو السعود : كأنه نادى البشري وقال تعالي فهذا أوانك حيث فاز بنعمة جليلة^(٣) ﴿وأسرَّوه بضاعة﴾ أي أخفوا أمره عن الناس لبيعه في أرض مصر متاعاً كالْبضاعة ، والضمير يعود على الوارد وجماعته ﴿والله عليم بما يعملون﴾ أي لا يخفى عليه سبحانه أسرارهم ، وما عزموا عليه في أمر يوسف ﴿وشروه بثمن بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ هذه هي المحنة الثانية في حياة يوسف الصديق وهي محنة الاسترقاق أي باعه أولئك المارة الذين استخرجوه من البئر بثمن قليل منقوص هو عشرون درهماً كما قال ابن عباس ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ أي وكانوا في يوسف من الزاهدين الذين لا يرغبون فيه لأنهم التقطوه وخافوا أن يكون عبداً أبقاً فيتزرعه سيده من أيديهم ، ولذلك باعوه بأخس الأثمان ﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه﴾ أي وقال الذي اشتراه من مدينة مصر لزوجته أكرمي إقامته عندنا قال

(١) الطبري ١٢/١٦٤ . (٢) الرازي ١٨/١٠٥ . (٣) أبو السعود ٢/٥٩ .

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَأَمْرًا أَنَّهُ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَأَ لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

ابن عباس : كان اسم الذي اشتراه « قطفير » وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر^(١) ﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا﴾ أي عسى أن يكفيننا بعض المهيات إذا بلغ أو تنبناه حيث لم يكن يولد لهما ولد ﴿وكذلك مكأ ليوسف في الأرض﴾ أي وكما نجيناه من الجب جعلناه متمكناً في أرض مصر يعيش فيها بعز وأمان ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ أي نوقفه لتعبير بعض المنامات ﴿والله غالب على أمره﴾ أي لا يعجزه تعالى شيء ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله ﴿ولما بلغ أشده﴾ أي بلغ منتهى شدته وقوته وهو ثلاثون سنة ﴿آتيناها حكماً وعلماً﴾ أي أعطيناها حكمةً وفقهاً في الدين ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي المحسنين في أعمالهم .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿تلك آيات﴾ الإشارة بالبعيد لبعده مرتبته في الكمال وعلو شأنه .

٢ - ﴿كما أتمها على أبويك﴾ تشبيه مرسل مجمل .

٣ - ﴿أحد عشر كوكباً والشمس والقمر﴾ قال الشريف الرضي : هذه استعارة لأن الكواكب والشمس والقمر مما لا يعقل فكان الوجه أن يقال : ساجدة ، ولكنها لما أطلق عليها فعل من يعقل جاز أن توصف بصفة من يعقل لأن السجود من فعل العقلاء^(٢) .

٤ - ﴿بدم كذب﴾ الدم لا يوصف بالكذب والمراد بدم مكذوب فيه أو دم ذي كذب وجيء بالمصدر على طريق المبالغة .

لطيفة : روي أن امرأة تحاكت إلى شريح فبكت فقال الشعبي : يا أبا أمية أما تراها تبكي ؟ فقال الشعبي : لقد جاء إخوة يوسف ويكون وهم ظلمة كذبة ، لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلا بالحق^(٣) .

تنبية : ذهب بعض المفسرين إلى أن إخوة يوسف أنبياء واستدلوا على ذلك بأنهم الأسباط المذكورون في قوله تعالى ﴿قل آمننا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط﴾ والصحيح أن الأسباط ليسوا أولاد يعقوب وإنما هم القبائل من ذرية يعقوب كما نبه عليه المحققون ، ولو كان إخوة يوسف أنبياء لما أقدموا على مثل هذه الأفعال الشنيعة ، فالحسد ، والسعي بالفساد ، والإقدام على القتل ، والكذب ، وإلقاء يوسف في الجب ، كل ذلك من الكبائر التي تنافي

(١) الطبري ١٢/١٧٥ . (٢) تلخيص البيان ١٦٩ . (٣) الفخر الرازي ١٨/١٠١ .

عصمة الأنبياء ، فالقول بأنهم أنبياء - مع هذه الجرائم - لا يقبله عقل حصيف ، وانظر ما قاله العلامة ابن كثير رحمه الله في هذا الشأن ، فإنه لطيف ودقيق .

قال الله تعالى : ﴿ورأودته التي هو في بيتها . . إلى . . فلبث في السجن بضع سنين﴾

من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٤٢) .

المناسكة : لما ذكر تعالى ما أكرم به يوسف من الإقامة في القصر مع عزيز مصر ، ذكر هنا ما تعرض له عليه السلام من أنواع الفتنة والإغراء من زوجة العزيز ، وصموده أمام تلك الفتنة العارمة ، وما ظهر منه من العفة والنزاهة حتى أثر دخول السجن على عمل الفاحشة ، وكفى بذلك برهاناً على عفته وطهارته .

اللفظة : ﴿ورأودته﴾ المرادة: الطلب برفقٍ ولين مأخوذة من راد يرود إذا جاء وذهب ومنه الرائد لطلب الكلاً ، يقال في الرجل : رأودها عن نفسها ، وفي المرأة رأودته عن نفسه أي طلبت منه مضاجعتها ﴿هيت﴾ اسم فعل أمر بمعنى تعال وهلم ﴿مثنواي﴾ مقامي ، والثواء الإقامة مع الاستقرار ﴿همت﴾ الهم يأتي بمعنى العزم والقصد ، ومنه ﴿وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه﴾ ويأتي بمعنى الخاطر وحديث النفس دون عزم قال الشاعر :

هممت بهم من بشينة لو بدا شفيت غليلات الهوى من فؤاديا^(١)

فاهم من امرأة العزيز كان هم عزم وتصميم ، والهم من يوسف كان مجرد حديث نفس ﴿السوء﴾ المنكر ، والفجور ، والمكروه ﴿الفحشاء﴾ ما تنهى قبحه والمراد به الزنى ﴿قدت﴾ القد : الشق والقطع وأكثر ما يستعمل في الطول ، والقط يستعمل في العرض ﴿ألفيا﴾ وجدا ﴿كيدكن﴾ الكيد : المكر والحيلة ﴿الخاطئين﴾ المتعمدين للذنب قال الأصمعي : خطيء الرجل فهو خاطيء إذا تعمد الذنب ، وأخطأ يخطيء إذا غلط ولم يتعمد^(٢) ﴿شغفها حباً﴾ وصل حبه إلى سويداء قلبها قال الزجاج : الشغاف سويداء القلب ﴿أصب﴾ أمل يقال : صبا إلى اللهو إذا مال إليه .

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ

التفسير : ﴿ورأودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾ هذه المحنة الثالثة بعد محنة الحب والاسترقاق ، والمرادة الطلب برفقٍ ولين كما يفعل المخادع بكلامه المعسول المعنى : طلبت امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها منه أن يضاجعها ، ودعته برفقٍ ولين أن يواقعها ، وتوسلت إليه بكل وسيلة ﴿وغلقت الأبواب﴾ أي غلقت أبواب البيوت عليها وعلى يوسف وأحكمت إغلاقها قال القرطبي : كانت سبعة أبواب غلقتها ثم دعت إلى نفسها^(٣) ﴿وقالت هيت لك﴾ أي هلم وأسرع إلى الفراش فليس ثمة ما يخشى قال في البحر : أمرته بأن يسرع إليها^(٤) ﴿قال معاذ الله﴾ أي عياداً بالله من فعل السوء قال أبو السعود : وهذا إشارة إلى أنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه ، لما أراه الله من البرهان النير على ما

(١) القرطبي ١٦٦/٩ . (٢) غريب القرآن لابن قتيبة ٢١٥ . (٣) القرطبي ١٦٣/٩ . (٤) البحر ٢٩٣/٥ .

مَثَوَىٰ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصَرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا

فيه من غاية القبح ونهاية السوء^(١) ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾ أي إن زوجك هو سيدي العزيز الذي أكرمني وأحسن تعهدي فكيف أسىء إليه بالخيانة في حرمة؟ ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي لا يظفر الظالمون بمطالبهم ، ومنهم الخائنون المجازون بالإحسان بالسوء ، ثم أخبر تعالى أن امرأة العزيز حاولت إيقاعه في شركها ، وتوسلت إليه بكل وسائل الإغراء ، ولولا أن الله جلّ وعلا حفظه من كيدها لهلك فقال ﴿ولقد همت به﴾ أي همت بمخالطته عن عزمٍ وقصدٍ وتصميم ، عزمًا جازمًا على الفاحشة لا يصرفها عنها صارف ، وقصدت إجباره على مطاوعتها بالقوة ، بعد أن استحكمت من تغليق الأبواب ، ودعوته إلى الإسراع ، مما اضطره إلى الهرب إلى الباب ﴿وهمَّ بها﴾ أي مالت نفسه إليها بمقتضى الطبيعة البشرية ، وحدثته نفسه بالنزول عند رغبتها حديث نفس ، دون عزمٍ وقصد ، فبين الهمّين فرق كبير^(٢) قال الإمام الفخر : الهمُّ خطورُ الشيء بالبال أو ميلُ الطبع ، كالصائم في الصيف يرى الماء البارد فتحمله نفسه على الميل إليه وطلب شربه ، ولكن يمنعه دينه عنه^(٣) ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ جوابه محذوف أي لولا حفظ الله ورعايته ليوسف ، وعصمته له لخالطها وأمضى ما حدثته نفسه به ، ولكن الله عصمه بالحفظ والتأييد فلم يحصل منه شيء البتة قال في البحر : نسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبتُه لأحد الفساق ، والذي اختاره أن « يوسف » عليه السلام لم يقع منه همُّ البتة ، بل هو منفيٌ لوجود رؤية البرهان كما تقول : « قارفت الذنب لولا أن عصمك الله » وكقول العرب : « أنت ظالمٌ إن فعلت » وتقديره : إن فعلت فأنت ظالم وكذلك هنا التقدير : لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها ولكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهمُّ ، وأمّا أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحدٍ منهم شيءٌ من ذلك ، لأنها أقوالٌ متكاذبة يناقض بعضها بعضاً مع كونها قادحة في بعض فساق الملل فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة^(٤) وقال أبو السعود : إن همَّ بها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية ، ميلاً جبلياً ، لا أنه قصدها قصداً اختيارياً ، ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه النبيء عن كمال كراهيته له ونفرته عنه ، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين ، وهل هو إلا تسجيلٌ باستحالة صدور الهمِّ منه تسجيلاً محكماً؟ وما قيل : إنه حلَّ الهميان ، وجلس مجلس الختان ، فإنما هي خرافاتٌ وأباطيل ، تمجها الأذان ، وتردّها العقول والأذهان^(٥) ﴿كذلك لنصرف عنه السوء﴾ أي ثبتناه على العفة أمام دوافع الفتنة والإغراء لنصرف عنه المنكر والفجور ، وهذه آيةٌ بيّنة ، وحجةٌ قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه همٌّ بالمعصية ، ولو كان كما زعموا لقال « لنصرفه عن السوء والفحشاء » فلما قال ﴿لنصرف عنه﴾ دلَّ على أن ذلك شيء خارج عن الإرادة فصرفه الله عنه ، بما منحه من موجبات العفة والعصمة ﴿والفحشاء﴾ أي لنصرف عنه الزنى الذي تنهى قبحة ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ بفتح اللام أي

(١) أبو السعود ٦٢/٢ . (٢) هذا من باب المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى ، فالهمُّ منها كان همَّ عزمٍ وقصدٍ ، والهمُّ

منه كان حديث نفس . (٣) الفخر الرازي ١١٩/١٨ . (٤) البحر ٢٩٥/٥ . (٥) أبو السعود ٦٣/٢ .

لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي ^ج
 وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِن قَبْلِ فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّ
 مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدِّمَ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ
 عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ * وَقَالَ نِسْوَةٌ

الذين أخلصهم الله لطاعته ، واصطفاهم واختارهم لوحيه ورسالته ، فلا يستطيع أن يغويهم الشيطان . . ثم أخبر تعالى بما حصل من المفاجأة العجيبة بقدم زوجها وهما يتسابقان نحو الباب ، ولا تزال هي في هياجها الحيواني ﴿واستبقا الباب﴾ أي تسابقا نحو باب القصر ، هو للهرب ، وهي للطلب ﴿وقدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي شقت ثوبه من خلف لأنها كانت تلحقه فجذبتة فشقت قميصه ﴿وألفيا سيدها لدا الباب﴾ أي وجدا العزيز عند باب القصر فجاءة وقد حضر في غير أوان حضوره ، وبمهاره فائقة تشبه مهارة إبليس انقلب الوضع فأصبح الظالم مظلوماً ، والبريء متهماً ﴿قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾ أي ما جزاؤه إلا السجن أو الضرب ضرباً مؤلماً وجيعاً ﴿قال هي راودتني عن نفسي﴾ أي قال يوسف مكذباً لها : هي التي دعنتني إلى مفارقة الفاحشة لا أنني أردت بها السوء ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ قال ابن عباس : كان طفلاً في المهد أنطقه الله ، وكان ابن خالها^(١) قال في البحر : وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة^(٢) ﴿إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين﴾ أي إن كان ثوبه قد شق من أمام فهي صادقة وهو كاذب ﴿وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين﴾ أي وإن كان ثوبه قد شق من الورا في كاذبة وهو صادق ، لأن الأمر المنطقي أن يُشق الثوب من خلف إن كانت هي الطالبة له وهو الهارب ﴿فلما رأى قميصه قد من دبر﴾ أي فلما رأى زوجها أن الثوب قد شق من الورا ﴿قال إنه من كيدكن﴾ أي إن هذا الأمر من جملة مكركن واحتيالكن أيتها النسوة ﴿إن كيدكن عظيم﴾ تأكيد لما سبق ذكره أي مكركن معشر النسوة واحتيالكن للتخلص مما دبرتن شيئاً عظيماً ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ أي يا يوسف أكرم هذا الأمر ولا تذكره لأحد ، يقول سيد قطب عليه الرحمة والرضوان : وهنا تبدو صورة من «الطبقة الراقية» في المجتمع الجاهلي ، رخاوة في مواجهة الفضائح الجنسية ، وميل إلى كتمانها عن المجتمع ، فيلتفت العزيز إلى يوسف البريء ويأمره بكتام الأمر وعدم إظهاره لأحد ، ثم يخاطب زوجته الخائن بأسلوب اللباقة في مواجهة الحادث الذي يثير الدم في العروق ﴿واستغفري لذنبك﴾ أي توبيي واطلبي المغفرة من هذا الذنب القبيح ، وكان هذا هو المهم محافظة على الطواهر^(٣) ﴿إنك كنت من الخاطئين﴾ أي من القوم المتعمدين للذنب ، وفي هذا إشارة إلى أن العزيز كان قليل الغيرة حيث لم ينتقم ممن أرادت خيانتها ، وتدليس فراشه بالإثم

فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۗ إِنَّا لَنَرِيهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَأًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرِجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٤١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ

والفجور قال ابن كثير : كان زوجها لِين العريكة سهلاً ، أو أنه عذرهما لأنها رأت ما لا صبر لها عنه ^(١) ﴿وقال نسوة في المدينة﴾ أي قال جماعة من النساء في مدينة مصر ، روي أنهم خمس نسوة : امرأة ساقى العزيز ، وامرأة الحاجب ، وامرأة الخباز ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن قاله ابن عباس وغيره ، والأظهر أن تلك الواقعة شاعت في البلد ، واشتهرت وتحدث بها النساء ﴿امرأة العزيز تراوّد فتاها عن نفسه﴾ أي امرأة عزيز مصر تطلب من خادمها وعبدها أن يواقعها وتخادعه وتتوسل إليه لقضاء وطرها منه قال أبو حيان : وتصريحهن بإضافتها إلى العزيز مبالغة في التشنيع ، لأن النفوس أميل لسماع أخبار ذوي الجاه ، وعبرن بـ ﴿تراوّد﴾ للدلالة على أن ذلك صار سجية لها فهي دائماً تخادعه عن نفسه لأن المضارع يفيد التجدد والاستمرار ^(٢) ﴿قد شغفها حباً﴾ أي بلغ حبه شغاف قلبها - وهو حجابها - وشغفه حتى وصل إلى فؤادها ﴿إنّا لنراها في ضلالٍ مبين﴾ أي إنّنا لنعقد أنّها في ضلال عن طريق الرشده واضح بسبب حبها إيّاه ﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ أي فلما سمعت بحديثهن ، وسماه مكرّاً لأنه كان في خفية ، كما يخفي الماكر مكره ﴿أرسلت إليهن﴾ أي أرسلت إليهنّ تدعوهنّ إلى منزلها لحضور وليمة قال المفسرون : دعت أربعين امرأة من الذوات منهن النساء الخمس المذكورات ﴿وأعدتّ لهنّ متكأ﴾ أي هيأت لهنّ ما يتكئنّ عليه من الفرش والوسائد ^(٣) ﴿وآتت كلّ واحدةٍ منهنّ سكيناً﴾ في الكلام محذوف أي قدمت لهنّ الطعام وأنواع الفاكهة ثم أعطت كل واحدةٍ منهنّ سكيناً لتقطع به ﴿وقالت أخرج عليهن﴾ أي وقالت ليوسف وهنّ مشغولات بتقشير الفاكهة والسكاكين في أيديهن : أخرج عليهنّ فلم يشعرنّ إلا ويوسف يمرّ من بينهنّ ﴿فلما رأينه أكبرته﴾ أي فلما رأى يوسف أعظمته وأجللته ، وبهتت من جماله ودّهشن ﴿وقطعنّ أيديهن﴾ أي جرحن أيديهنّ بالسكاكين لفرط الدهشة المفاجئة ﴿وقلنّ حاش لله﴾ أي تنزّه الله عن صفات العجز ، وتعالّت عظمته في قدرته على خلق مثله ﴿ما هذا بشراً﴾ أي ليس هذا من البشر ﴿إنّ هذا إلا ملك كريم﴾ أي ما هو إلا ملك من الملائكة ، فإنّ هذا الجمال الفائق ، والحسن الرائع مما لا يكاد يوجد في البشر ﴿قالت فذلكنّ الذي لمنّني فيه﴾ صرّحت عند ذلك بما في نفسها من الحب ليوسف لأنها شعرت بأنها انتصرت عليهنّ فقالت قولة

(١) مختصر ابن كثير ٢/٢٤٧ . (٢) البحر ٥/٣٠١ . (٣) يقول الشهيد سيد قطب عليه الرحمة والرضوان : لقد أقامت لهنّ مأدبة في قصرها ، وندرك من هذا أنّهن كنّ نساء الطبقة الراقية ، فهن اللواتي يُدعَيْن إلى المآدب في القصور ، وهنّ اللواتي يؤخذن هذه الوسائل الناعمة المظهر ، ويبدو أنّهن ياكلن وهنّ متكئات على الوسائد والحشايا وأعدت لهنّ هذا المتكأ وآتت كلّ واحدةٍ منهنّ سكيناً تستعملها في الطعام ، ويؤخذ من هذا صورة الترف والحضارة المادية التي كان عليها أهل القصور ، وبيننا هنّ منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة فاجأتهم بيوسف فلما رأينه بهتن لظلمته ودّهشن وجرحن أيديهنّ بالسكاكين . ظلال القرآن ١٢/٢٣٢ .

الَّذِي لُمْتُنِّي فِيهِ ^ط وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ^ط وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ أُمْرِهِ لَيُسْجَنَ وَيَكُونَنَّ مِنَ
 الصَّغِيرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ^ط وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ
 مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٨﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٩﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ
 بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُنُنُهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ

المنتصرة : هذا الذي رأيتموه هو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتني في محبته ، فانظرن ماذا لقيتن منه من الافتتان والدهش والإعجاب !! ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ أي أردت أن أنال وطري منه ، وأن أقضي شهوتي معه ، فامتنع امتناعاً شديداً ، وأبى إباءً عنيماً قال الزمخشري : والاستعصام بناء مبالغته يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد ^(١) ﴿ولئن لم يفعل ما أمره لیسجنن ليكوناً من الصاغرين﴾ أي ولئن لم يطاوعني ليعاقبن بالسجن والحبس وليكونن من الأذلاء المهانين قال القرطبي : عاودته المرادة بمحضر منهن ، وهتكت جلاب الحياء ، وتوعدت بالسجن إن لم يفعل ، ولم تعد تخشى لوماً ولا مقالاً ، خلاف أول أمرها إذ كان ذلك سراً بينها وبينه ^(٢) ﴿قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾ لجأ يوسف إلى ربه وجعل ينجيه في خشوع وتضرع فقال : رب السجن أترعندي وأحب إلى نفسي من اقتراف الفاحشة ، وأسند الفعل إليهن لأنهن جميعاً مشتركات في الدعوة بالتصريح أو التلويح ، وقيل إنها لما توعدته نصحنه وزين له مطاوعتها ، ونهينه عن إلقاء نفسه في السجن ﴿وإلا تصرف عني كيدهن﴾ أي وإن لم تدفع عني شرهن وتعصمني منهن ﴿أصب إليهن﴾ أي أمل إلى إجابتهن بمقتضى البشرية ﴿وأكن من الجاهلين﴾ أي بسبب ما يدعونني إليه من القبيح ، وهذا كله على سبيل التضرع والاستغاثة بجناب الله تعالى كعادة الأنبياء والصالحين ﴿فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن﴾ أي أجاب الله دعاءه فنجاه من مكرهن ، وثبته على العصمة والعفة ﴿إنه هو السميع﴾ أي لدعاء الملتجئين إليه ﴿العليم﴾ بأحوالهم وما انطوت عليه نياتهم . . وهكذا اجتاز يوسف محتته الثالثة بلطف الله ورعايته ﴿ثم بدأ لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجنن حتى حين﴾ هذه بداية المحنة الرابعة وهي الأخيرة من محن الشدة في حياة يوسف الصديق وهي « محنة السجن » وكل ما بعدها فرخاء والمعنى ثم ظهر للعزير وأهله ومن استشارهم بعد الدلائل القاطعة على براءة يوسف ، سجنه إلى مدة من الزمن غير معلومة ، روي أن امرأة العزيز لما استعصى عليها يوسف وأيست منه ، احتالت بطريق آخر ، فقالت لزوجها : إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس يقول لهم : إنني راودته عن نفسه وأنا لا أقدر على إظهار عذري ، فإما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر ، وإما أن تحبسه ، فعند ذلك بدأ له سجنه قال ابن عباس : فأمر به فحمل على حمار ، وضرب بالطليل ، وتؤدي عليه في

خَمْرًا وَقَالَ الْآخِرُ إِنِّي أُرْسِنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْتُكَ بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نُرَبِّكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ۚ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۗ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

أسواق مصر ، إن يوسف العبراني أراد سيده فجزأوه أن يسجن ، قال أبو صالح ما ذكر ابن عباس هذا الحديث إلا بكى ^(١) «ودخل معه السجن فتيان» أي أدخل يوسف السجن واتفق أنه أدخل حينئذ آخران من خدم الملك الخاص أحدهما خبازه ، والآخر ساقيه ، اتها بأنها أرادا أن يسماه فحبسهما «قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً» أي قال الساقى إني رأيت في المنام أني أعصر عنباً يثول إلى خمر وأسقي منه الملك «وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه» أي وقال الخباز : إني رأيت في منامي أني أحمل على رأسي طبقاً فيه خبز ، والطير تأكل من ذلك الخبز «نبأنا بتأويله إنا نراك من المحسنين» أي أخبرنا بتفسير ما رأينا إنا نراك من الذين يحسنون تفسير الرؤيا ، أخبراه عن رؤياهما لما علما أنه يجيد تفسير الرؤيا «قال لا يأتیکما طعامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا» أي لا يأتیکما شيء من الطعام إِلَّا أَخْبَرْتُكُمَا ببيان حقيقته وماهيته وكيفيته قبل أن يصل إليكما ، أخبرهما بمعجزاته ومنها معرفة «المغيبات» توطئةً لدعائهما إلى الإیمان قال البيضاوي : أراد أن يدعوها إلى التوحيد ويرشدهما إلى الدين القويم قبل أن يسعفهما إلى ما سألاه عنه ، كما هو طريقة الأنبياء في الهداية والإرشاد ، فقدّم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلها على صدقه في الدعوة والتعبير ^(٢) «ذلكما مما علّمني ربي» إن ذلك الإخبار بالمغيبات ليس بكهانة ولا تنجيم ، وإنما هو بإلهامٍ ووحىٍ من الله «إني تركتُ ملة قوم لا يؤمنون بالله» أي خصني ربي بذلك العلم لأنني من بيت النبوة وقد تركت دين قومٍ مشركين لا يؤمنون بالله «وهم بالآخرة هم كافرون» أي يكذبون بيوم القيامة ، نبه على أصلين عظيمين : الإیمان بالله ، والإیمان بدار الجزاء ، إذ هما أعظم أركان الإیمان ، وكرر لفظة «هم» على سبيل التأكيد «واتبعتُ ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب» أي اتبعت دين الأنبياء ، لا دين أهل الشرك والضلال ، والغرض إظهار أنه من بيت النبوة ، لتقوى رغبتها في الاستماع إليه والوثوق بكلامه «ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء» أي ما ينبغي لنا معاصر الأنبياء أن نشرك بالله شيئاً مع اصطفائه لنا وإنعامه علينا «ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس» أي ذلك الإیمان والتوحيد من فضل الله علينا حيث أكرمنا بالرسالة ، وعلى الناس حيث بعث الرسل لهدايتهم وإرشادهم «ولكن أكثر الناس لا يشكرون» أي لا يشكرون فضل الله عليهم فيشركون به غيره . . ولما ذكر عليه السلام ما هو عليه من الدين الحنيف الذي هو دين الرسل ، تلطّف في حسن الاستدلال على فساد ما عليه قوم الفتيين من عبادة

النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٨﴾ يَصْحَبِي السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ يَصْحَبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَنَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٣١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٣٢﴾

الأصنام فقال ﴿يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾ أي يا صاحبي في السجن آلهة متعددة لا تنفع ولا تضر ولا تستجيب لمن دعاها كالأصنام ، خير أم عبادة الواحد الأحد ، المتفرد بالعظمة والجلال؟! ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم﴾ أي ما تعبدون يا معشر القوم من دون الله إلا أسماء فارغة سميتوها آلهة وهي لا تملك القدرة والسلطان لأنها جمادات ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ أي ما أنزل الله لكم في عبادتها من حجة أو برهان ﴿إن الحكم إلا لله﴾ أي ما الحكم في أمر العبادة والدين إلا لله رب العالمين ﴿أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾ أي أمر سبحانه بإفراد العبادة له ، لأنه لا يستحقها إلا من له العظمة والجلال ﴿ذلك الدين القيم﴾ أي ذلك الذي أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي يجهلون عظمة الله فيعبدون ما لا يضر ولا ينفع . . تدرج عليه السلام في دعوتهم وألزمهم الحجة بأن بين لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة المتعددة ، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها من دون الله لا تستحق الألوهية والعبادة ، ثم نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم وهو عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد ، وذلك من الأسلوب الحكيم في الدعوة إلى الله ، حيث قدم الهداية والإرشاد ، والنصيحة والموعظة ، ثم شرع في تفسير رؤياهما فقال ﴿يا صاحبي السجن أماً أحدكما فيسقي ربه خمرًا﴾ أي يا صاحبي في السجن أماً الذي رأى أنه يعصر خمرًا فيخرج من السجن ويعود إلى ما كان عليه من سقي سيده الخمر ، وأما الآخر الذي رأى على رأسه الخبز فيقتل ويعلق على خشبة فتأكل الطير من لحم رأسه ، قال المفسرون : روي أنه لما أخبرهما بذلك جحداً وقالاً ما رأينا شيئاً فقال ﴿قضى الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ أي انتهى وتم قضاء الله صدقتهما أو كذبتما فهو واقع لا محالة ﴿وقال للذي ظن أنه ناجٍ منها﴾ أي قال يوسف للذي اعتقد نجاته وهو الساقى ﴿اذكرني عند ربك﴾ أي اذكرني عند سيّدك وأخبره عن أمري لعلّه يخلصني مما ظلمتُ به ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ أي أنسى الشيطان الساقى أن يذكر أمر يوسف للملك ﴿فلبث في السجن بضع سنين﴾ أي مكث يوسف في السجن سبع سنين ، قال المفسرون : وإنما لبث في السجن بضع سنين ، لأنه اعتمد ووثق بالمخلوق ، وغفل أن يرفع حاجته إلى الخالق جل وعلا قال القرطبي : قال وهب بن منبه : أقام أيوب في البلاء سبع سنين ، وأقام يوسف في السجن سبع سنين .

البَلَاغَةُ : ١ - بين ﴿صدقت﴾ و ﴿كذبت﴾ و ﴿الصادقين﴾ و ﴿الكاذبين﴾ طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

٢ - ﴿من الخاطئين﴾ من باب تغليب الذكور على الإناث .

٣ - ﴿سمعت بمكرهن﴾ استعير المكر للغيبة لشبهها له في الإخفاء .

٤ - ﴿وقطعن أيديهن﴾ كذلك فيه استعارة حيث استعار لفظ القطع عن الجرح أي جرحن أيديهن .

٥ - ﴿أعصر خراً﴾ مجاز مرسل باعتبار ما يكون أي عنباً يتول إلى خمر .

فَكَايِدَةٌ : روي أن جبريل جاء إلى يوسف وهو في السجن معاتباً له فقال له : يا يوسف من خلصك من القتل من أيدي إخوتك ؟ قال: الله تعالى ، قال: فمن أخرجك من الجب ؟ قال: الله تعالى ، قال : فمن عصمك من الفاحشة ؟ قال: الله تعالى ، قال : فمن صرف عنك كيد النساء ؟ قال : الله تعالى ، قال : فكيف تركت ربك فلم تسأله ووثقت بمخلوق ؟ قال : يا رب كلمة زلت مني أسألك يا إله إبراهيم وآله والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمني فقال له جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين^(١) .

تبليغه : قال العلماء في قوله تعالى ﴿واستبقا الباب﴾ هذا من اختصار القرآن المعجز ، الذي يجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ، وذلك أنها لما راودته عن نفسه وأبى ، عزمته على أن تجبره بالقسر والإكراه ، فهرب منها فتسابقا نحو الباب هي لترده إلى نفسها وهو يهرب منها فاختصر القرآن ذلك كله بتلك العبارة البليغة ﴿واستبقا الباب﴾ .

﴿شطحات بعض المفسرين في تفسير الهم﴾

لقد شطَّ القلم ، وزلقت القدم ببعض المفسرين حين زعموا أن يوسف عليه السلام قد همَّ بمقارفة الفاحشة ، وشُحنت بعضُ كتب التفسير بكثير من الروايات الإسرائيلية الواهية ، بل المنكرة الباطلة في تفسير « الهم » و « البرهان » حتى زعم بعضهم أن يوسف حلَّ رباط السروال ، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته ، ثم رأى صورة أبيه « يعقوب » عاضاً على أصبعه ، فقام عنها وتركها خجلاً من أبيه إلى غير ما هنالك من أقوال واهية ، لا زمام لها ولا خطام . ولست أدري كيف دخلت تلك الروايات المنكرة إلى بعض كتب التفسير ، وتقبَّلها بعضهم بقبول حسن ، وكلُّها - كما يقول العلامة أبو السعود - خرافات وأباطيل ، تمجَّها الأذان ، وتردها العقول والأذهان ! ؟ ثم كيف غاب عن أولئك المفسرين أن « يوسف الصديق » نبي كريم ، ابن نبي كريم ، وأن العصمة من صفات الأنبياء !! يا قوم اعقلوا وفكروا ، ونزهوا هذه الكتب عن أمثال هذه الترهات والأباطيل ، فإن الزنى جريمة من أشنع الجرائم فكيف يرتكبها نبي من الأنبياء المكرمين ؟ وهاكم الأدلة أسوقها من كتاب الله فقط على عصمته عليه السلام من عشرة وجوه :

الأول : امتناعه الشديد ووقوفه أمامها بكل صلابة وعزم ﴿قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي . .﴾ .

الثاني : فراره منها بعد أن غلقت الأبواب وشدت عليه الحصار ﴿واستبقا الباب وقدت قميصه من

دبر . .﴾ .

(١) القرطبي ١٩٦/٩ .

- الثالث : إثارة السجن على الفاحشة ﴿قال رب السجن أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه . . .﴾ .
- الرابع : ثناء الله تعالى عليه في مواطن عديدة ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾ فهل يكون مخلصاً لله من همِّ بفاحشة الزنى ؟ .
- الخامس : شهادة الطفل الذي أنطقه الله وهو في المهد بالحجة الدامغة ﴿وشهد شاهدٌ من أهلها . . .﴾ الآية .
- السادس : اعتراف امرأة العزيز ببراءته وعفته ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم . . .﴾ .
- السابع : استغاثته بربه لينجيه من كيد النساء ﴿فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن . . .﴾ .
- الثامن : ظهور الأمارات الواضحة والبراهين الساطعة على براءته وإدخاله السجن لدفع مقالة الناس ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين﴾ .
- التاسع : عدم قبوله الخروج من السجن حتى تبرأ ساحتها من التهمة ﴿ارجعْ إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن . . .﴾ ؟ .
- العاشر : الاعتراف الصريح من امرأة العزيز والنسوة ببراءته ﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ . وكفى بذلك برهاناً على عفته ونزاهته !! والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

قال الله تعالى : ﴿وقال الملك إنني أرى سبع بقرات سمان . . . إلى . . . ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ من آية (٤٣) إلى نهاية آية (٦٨) .

المناسكة : لما أراد الله الفرج عن يوسف وإخراجه من السجن ، رأى ملك مصر رؤيا عجيبة أفزعته ، فجمع السحرة والكهنة والمنجمين وأخبرهم بما رأى في منامه ، وسألهم عن تأويلها فأعجزهم الله جميعاً ليكون ذلك سبباً في خلاص يوسف من السجن .

اللفظة : ﴿عجاف﴾ هزيلة ضعيفة جمع أعجف والأثنى عجفاء ﴿تعبرون﴾ التعبير : معرفة تفسير الرؤيا المنامية ﴿أضغاث﴾ جمع ضِغْث وهو الحزمة من الحشيش اختلط فيها اليبس بالرطب ﴿أحلام﴾ جمع حُلْم وهو ما يراه النائم ومعناه أخلاط منامات اختلط فيها الحق بالباطل ﴿أذكر﴾ تذكّر بعد النسيان ﴿دأباً﴾ الدأب : الاستمرار على الشيء يقال : دأب على عمله فهو دأب أي استمر عليه ﴿تحصنون﴾ تحرزون وتدخرون ﴿حصحص﴾ ظهر وبان ﴿مكين﴾ ذو مكانة رفيعة ﴿رحالهم﴾ جمع رحل وهو ما على ظهر المركوب من متاع الراكب وغيره ﴿غمير﴾ نأتي لهم بالميرة وهي الطعام ﴿يحاطبكم﴾ تهلکوا جميعاً .

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَىٰ يُاسِئَاتٍ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ
الْتَفْسِيرُ : ﴿وقال الملك إنني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف﴾ أي قال ملك مصر إنني رأيت في منامي سبع بقرات سمان خرجت من نهر يابس ، وفي أثرهن سبع بقرات هزيلة في غاية الهزال

أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ

فابتعلت العجافُ السمانَ ﴿٤٦﴾ وسبعَ سنبلاتٍ خضرٍ وأخرَ يابساتٍ ﴿٤٧﴾ هذا من تنمة الرؤيا أي ورأيتُ أيضاً سبعَ سنبلاتٍ خضرٍ قد انعقد حبُّها وسبعاً أخرَ يابساتٍ قد استحصدت ، فالتوت اليابسات على الخضر فأكلنهنَّ ﴿٤٨﴾ يا أيها الملائكة أفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ﴿٤٩﴾ أي يا أيها الأشراف من رجالي وأصحابي أخبروني عن تفسير هذه الرؤيا ﴿٥٠﴾ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴿٥١﴾ أي إن كنتم تجيدون تعبيرها وتعرفون مغزاها ﴿٥٢﴾ قالوا أضغاث أحلام ﴿٥٣﴾ أي أخلاط رؤيا كاذبة لا حقيقة لها قال الضحاك : أحلامٌ كاذبة ﴿٥٤﴾ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴿٥٥﴾ أي ولسنا نعرف تأويل مثل هذه الأحلام الكاذبة ^(١) ﴿٥٦﴾ وقال الذي نجا منها وادَّكرَ بعد أُمَّةٍ ﴿٥٧﴾ أي وقال الذي نجا من السجن وهو الساقى وتذكر ما سبق له مع يوسف بعد مدة طويلة ﴿٥٨﴾ أنا أنبئكم بتأويله ﴿٥٩﴾ أي أنا أخبركم عن تفسير هذه الرؤيا من عنده علم بتأويل المنامات ﴿٦٠﴾ فأرسلون ﴿٦١﴾ أي فأرسلوني إليه لاتيكم بتأويلها ، خاطب الملك بلفظ التعظيم قال ابن عباس : لم يكن السجن في المدينة ولهذا قال فأرسلون ^(٢) ﴿٦٢﴾ يوسفُ أيها الصديق ﴿٦٣﴾ في الكلام محذوف دلُّ عليه السياق وتقديره : فأرسلوه فانطلق الساقى إلى السجن ودخل على يوسف وقال له : يا يوسف يا أيها الصديق وسمَّاه صديقاً لانه كان قد جرب صدقه في تعبير الرؤيا التي رآها في السجن ، والصديق مبالغة من الصدق ﴿٦٤﴾ أفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ، وسبع سنبلات خضرٍ وأخرَ يابساتٍ ﴿٦٥﴾ أي أخبرنا عن تأويل هذه الرؤيا العجيبة ﴿٦٦﴾ لعلِّي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴿٦٧﴾ أي لأرجع إلى الملك وأصحابه وأخبرهم بها ليعلموا فضلك وعلمك ويخلصوك من محتك قال الإمام الفخر : وإنما قال ﴿٦٨﴾ لعلِّي أرجع إلى الناس ﴿٦٩﴾ لأنه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسألة فخاف أن يعجز هو أيضاً عنها فلهذا السبب قال لعلِّي ^(٣) ﴿٧٠﴾ قال تزرعون سبع سنين داباً ﴿٧١﴾ أي تزرعون سبع سنين دائبين بجدٍ وعزيمة ﴿٧٢﴾ فما حصدتم فذروه في سنبله ﴿٧٣﴾ أي فما حصدتم من الزرع فتركوه في سنبله لثلاث سنين ﴿٧٤﴾ إلا قليلاً مما تأكلون ﴿٧٥﴾ أي إلا ما أردتم أكله فادرسوه واتركوا الباقي في سنبله ﴿٧٦﴾ ثم يأتي من بعد ذلك سبع شدادٍ ﴿٧٧﴾ أي ثم يأتي بعد سني الرخاء سبع سنين مجدبات ذات شدة وقحط على الناس ﴿٧٨﴾ يأكلن ما قدمتم لهنَّ ﴿٧٩﴾ أي تأكلون فيها مما ادخرتم أيام الرخاء ﴿٨٠﴾ إلا

(١) وقيل المعنى : لسنا نعرف تأويل الأحلام على الإطلاق . (٢) الطبري ١٢ / ٢٢٩ . (٣) الرازي ١٨ / ١٤٩ .

يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿١٠١﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهَٰذَا فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رُودْتُمْنِ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ؕ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رُودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٣﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِبِينَ ﴿١٠٤﴾ * وَمَا أBRَىٰ نَفْسِي

قليلاً مما تحصنون ﴿١٠١﴾ أي إلا القليل الذي تدخرونه وتخبئونه للزراعة ﴿١٠٢﴾ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يُغَاثُ النَّاسُ وفيه يعصرون ﴿١٠٣﴾ أي ثم يأتي بعد سني القحط والجذب العصيبة عام رخاء ، فيه يُمطر الناس ويُغاثون ، وفيه يعصرون الأعناب وغيرها لكثرة خصبه ، قال الزمخشري : تأول عليه السلام البقرات السماء والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب ، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك من جهة الوحي (١) ﴿١٠٤﴾ وقال الملك اتوني به ﴿١٠٤﴾ أي ولما رجع الساقى إلى الملك وعرض عليه ما عبر به يوسف رؤياه استحسنت ذلك فقال : أحضروه لي لأسمع منه تفسيرها بنفسى ولأبصره ﴿١٠٤﴾ فلما جاءه الرسول ﴿١٠٤﴾ أي فلما جاء رسول الملك يوسف ﴿١٠٤﴾ قال ارجع إلى ربك ﴿١٠٤﴾ أي قال يوسف للرسول : إرجع إلى سيدك الملك ﴿١٠٤﴾ فأسأله ما بال النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴿١٠٤﴾ أي سلّه عن قصة النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ هل يعلم أمرهنّ؟ وهل يدري لماذا حُبِسَتْ ودخلت السجن؟ وأني ظلمت بسببهنّ؟ أبا عليه السلام أن يخرج من السجن حتى تُبرأ ساحته من تلك التهمة الشنيعة ، وأن يعلم الناس جميعاً أنه حُبِسَ بلا جرم ﴿١٠٤﴾ إن ربي بكيدهن عليم ﴿١٠٤﴾ أي إنه تعالى هو العالم بخفيات الأمور وبما دبرن من كيد لي ﴿١٠٤﴾ قال ما خطبكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه ﴿١٠٤﴾ جمع الملك النسوة ودعا امرأة العزيز معهن فسألهن عن أمر يوسف وقال لهن : ما شأنكن الخطير حين دعوتن يوسف إلى مقارفة الفاحشة؟ (٢) ﴿١٠٤﴾ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴿١٠٤﴾ أي معاذ الله أن يكون يوسف أراد السوء ، وهو تنزيه له وتعجب من نزاهته وعفته ﴿١٠٤﴾ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ﴿١٠٤﴾ أي ظهر وانكشف الحق وبان بعد خفائه ﴿١٠٤﴾ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴿١٠٤﴾ أي أنا التي أغريته ودعوته إلى نفسي وهو بريء من الخيانة وصادق في قوله «هي راودتني عن نفسي» وهذا اعتراف صريح ببراءة يوسف على رءوس الأشهاد ﴿١٠٤﴾ ذلك ليعلم أنني لم أخنّه بالغيبة ﴿١٠٤﴾ الأظهر أن هذا من كلام يوسف قاله لما وصله براءة

(١) الكشاف ٤٧٧/٢ .

(٢) يقول الشهيد سيد قطب عليه الرحمة : رجع الرسول فأخبر الملك ، وأحضر الملك النسوة يستجوبهن ، والخطب : الأمر الجلل ، فكان الملك استقصى فعلم أمرهنّ ، فهو يواجههن مقرأً الاتهام ، ومشيراً إلى أمرهن جلل وشأنهن خطير ﴿١٠٤﴾ ما خطبكنّ إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ ومن هذا نعلم شيئاً مما دار في حفل الاستقبال في بيت العزيز ، وما قالته النسوة ليوسف وما أشرن إليه من الإغراء الذي يبلغ درجة المراودة ، ومن هذا تتخيل صورة هذه الأوساط ونسائها حتى في ذلك العهد الموهل في التاريخ ، فالجاهلية دائماً هي الجاهلية ، إنه حيثما كان الترف ، وكانت القصور والحاشية ، كان التحلل والتمتع ، والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الأرستقراطية ! ! (ظلال القرآن ١٢/٤٤٨ .

إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْمِنُ بِهِ ۖ اسْتَخْلَصَهُ
لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾
وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْأَلِيَّةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ
فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُؤْمِنُ بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْأَكْثَلِ

النسوة له والمعنى ذلك الأمر الذي فعلته من رد الرسول حتى تظهر براءتي ليعلم العزيز أنني لم أخنه في زوجته في غيبته بل تعففت عنها ﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ أي لا يوفق الخائن ولا يسدد خطاه ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ أي لا أزكي نفسي ولا أنزهها ، فإن النفس البشرية ميالة إلى الشهوات ، قاله يوسف على وجه التواضع قال الزمخشري : أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه ، لئلا يكون لها مزكياً ، وبحالها معجباً ومفتخراً^(١) ﴿ إلا ما رحم ربي ﴾ أي إلا من رحمه الله بالعصمة ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿ وقال الملك أتؤني به استخلصه لنفسه ﴾ أي اتؤني بيوسف اجعله من خاصتي وخلصائي ، قال ذلك لما تحقق براءته وعرف عفته وشهامته وعلمه ﴿ فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ أي فلما أتوا به وكلمه يوسف وشاهد الملك فضله ، ووفور عقله ، وحسن كلامه قال إنك اليوم قريب المنزلة رفيع الرتبة ، مؤتمن على كل شيء ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض ﴾ أي قال يوسف للملك اجعلني على خزائن أرضك ﴿ إنني حفيظ عليم ﴾ أي أمين على ما استودعتني ، عليم بوجوه التصرف ، وإنما طلب منه الولاية رغبة في العدل ، وإقامة الحق والإحسان ، وليس هو من باب التزكية للنفس ، وإنما هو للإشعار بحنكته ودرايته لاستلام وزارة المالية ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ أي وهكذا مكنا ليوسف في أرض مصر ، وجعلنا له العز والسلطان بعد الحبس والضيق ﴿ يتبوا منها حيث يشاء ﴾ أي يتخذ منها منزلاً حيث يشاء ويتصرف في المملكة كما يريد ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ﴾ أي نخص بإنعامنا وفضلنا من نشاء من عبادنا ﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ أي لا نضيع أجر من أحسن عمله وأطاع ربه بل نضاعفه له ﴿ ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ أي أجر الآخرة وثوابها خير للمؤمنين المتقين من أجر الدنيا ، وفيه إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة ، وأن ما يُدخِر لهؤلاء المحسنين أعظم وأجل من هذا النعيم العاجل في الدنيا ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾ أي دخلوا على يوسف فعرف أنهم إخوته ولكنهم لم يعرفوه لهيبة الملك ، وبعْد العهد ، وتغير الملامح قال ابن عباس : كان بين إلقائه في الحب وبين دخولهم عليه اثنتان وعشرون سنة فلذا أنكروه^(٢) ، وكان سبب مجيئهم أنهم أصابتهم مجاعة في بلادهم بسبب القحط الذي عم البلاد ، فخرجوا إلى مصر ليشتروا من

وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَ نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا

الطعام الذي ادخره يوسف ، فلما دخلوا على يوسف قال كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادي ؟ قالوا : جئنا للميرة ، قال : لعلكم عيونٌ «جواسيس» علينا ؟ قالوا : معاذ الله ، قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبيُّ الله ، قال : وله أولاد غيركم ؟ قالوا : نعم كنا اثني عشر فذهب أصغرنا وهلك في البرية - وكان أحبنا إليه - وبقي شقيقه فاتحبسه ليتسلَّى به عنه وجئنا نحن العشرة ، فأمر بإنزالهم وإكرامهم^(١) ﴿ ولما جهَّزهم بجهازهم ﴾ أي هيا لهم الطعام والميرة وأعطاهم ما يحتاجون إليه في سفرهم ﴿ قال اتنوني بأخٍ لكم من أبيكم ﴾ أي اتنوني بأخيكم بنيامين لأصدقكم ﴿ ألا ترون أنني أوفي الكيل ﴾ أي ألا ترون أنني أتم الكيل من غير بخس ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ أي خير من يكرم الضيفان وخير المضيفين لهم ، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ أي إن لم تأتوني بأخيكم فليس لكم عندي بعد اليوم ميرة ، ولا تقربوا بلادي مرة ثانية ، رغبتهم ثم توعدهم قال في البحر : والظاهر أن كل ما فعله يوسف عليه السلام كان بوحى من الله وإلا فمقتضى البر أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه لكن الله أراد تكميل أجر يعقوب ومحتته ، ولتفسر الرؤيا الأولى^(٢) ﴿ قالوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي سنخادعه ونحتال في انتزاعه من يده ، ونجتهد في طلبه منه ، وإنا لفاعلون ذلك ﴿ وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ﴾ أي قال يوسف لغلمايه الكياليين اجعلوا المال الذي اشتروا به الطعام في أوعيتهم ﴿ لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم ﴾ أي لكي يعرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم وفتحوا أوعيتهم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي لعلهم يرجعون إلينا إذا رأوها ، فإنه علم أن دينهم يحملهم على رد الثمن لأنهم مطهرون عن أكل الحرام فيكون ذلك أدعى لهم إلى العود إليه ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ أي فلما عادوا إلى أبيهم قالوا له - قبل أن يفتحوا متاعهم - يا أبانا لقد أنذرنا بمنع الكيل في المستقبل إن لم نأت بأخينا بنيامين ، فإن ملك مصر ظن أننا جواسيس وأخبرناه بقصتنا فطلب أخانا ليتحقق صدقنا ﴿ فأرسل معنا أخانا نكتل ﴾ أي أرسل معنا أخانا بنيامين لناخذ ما نستحقه من الحبوب التي تُكال لنا ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ أي نحفظه من أن يناله مكروه ﴿ قال هل آمنكم عليه إلا كما آمنكم على أخيه من قبل ﴾ أي قال لهم يعقوب : كيف آمنكم على بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم بعد أن ضمنتم لي حفظه ، ثم ختم العهد ؟ فأخاف أن تكيدوا له كما كدتم لأخيه ؟ فإنا لا أتق بكم ولا بحفظكم ، وإنما أتق بحفظ الله ﴿ فالله خير حافظاً ﴾ أي حفظ

مَنَعَهُمْ وَجَدُوا بِضَعَّتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبِغِي هَذِهِ بَضَعْتَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا
وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ
بِكُرِّ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ
مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾
وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا
اللَّهُ خَيْرٌ مِنْ حِفْظِكُمْ ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ أي هو أرحم من والديه وإخوته ، فأرجو أن يُنَّ عليَّ بحفظه
ولا يجمع عليَّ مصيبتين ﴿ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ أي ولما فتحوا الأوعية التي
وضعوا فيها الميرة وجدوا ثمن الطعام في متاعهم ﴿قالوا يا أبانا ما نبيغي﴾ أي ماذا نبيغي ؟ وأي شيء نطلب
من إكرام الملك أعظم من هذا ؟ ﴿هذه بضاعتنا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أي هذا ثمن الطعام قد رُدَّ إلينا من حيث لا
ندري ، فهل هناك مزيدٌ فوق هذا الإحسان ، أوفى لنا الكيل ، وردَّ لنا الثمن !! أرادوا بذلك استئزال
أبيهم عن رأيه ﴿ونميرُ أهلنا﴾ أي نأتي بالميرة والطعام لأهلنا ﴿ونحفظ أخانا﴾ أي نحفظه من المكاره ،
وكررنا حفظ الأخ مبالغةً في الحُض على إرساله ﴿ونزداد كيل بعير﴾ أي ونزداد باستصحابنا له حمل بعير ،
روي أنه ما كان يعطي الواحد إلا كيل بعير من الطعام ، فأعطاهم حمل عشرة جمال ومنعهم الحادي عشر
حتى يحضر أخوهم ﴿ذلك كيلٌ يسير﴾ أي سهلٌ على الملك إعطاؤه لسخائه ﴿قال لن أرسله معكم حتى
تؤتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ أي قال لهم أبوهم : لن أرسل معكم بنيامين إلى مصر حتى تعطوني عهداً
مؤكداً وتحلفوا بالله لتردُّه عليَّ ﴿إلا أن يُحَاطَ بكم﴾ أي إلا أن تغلبوا فلا تقدرُوا على تخليصه ، ولا يبقى
لكم طريق أو حيلة إلى ذلك قال مجاهد : إلا أن تموتوا كلُّكم فيكون ذلك عذراً عندي ﴿فلما آتوه مَوْثِقَهُمْ﴾
أي فلما حلفوا له وأعطوه العهد المؤكد ﴿قال الله على ما نقول وكيل﴾ أي الله شهيد رقيب على ذلك ﴿وقال
يا بني لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ أي لا تدخلوا مصر من بابٍ واحد قال
المفسرون : خاف عليهم من العين إن دخلوا مجتمعين إذ كانوا أهل جمالٍ وهيبة ، والعينُ حقٌ تُدْخِلُ الرَّجُلَ
القبرَ ، والجمالُ القِدر كما جاء في الحديث ﴿وما أغني عنكم من الله من شيء﴾ أي لا أدفع عنكم بتدبيرِي
شيئاً مما قضاه الله عليكم ، فإن الحذر لا يدفع القدر ﴿إن الحكم إلا لله﴾ أي ما الحكم إلا لله جلَّ وعلا
وحده لا يشاركه أحد ، ولا يمانعه شيء ﴿عليه توكلت﴾ أي عليه وحده اعتمدت وبه وثقت ﴿وعليه
فليتوكل المتوكلون﴾ أي وعليه فليعتمد أهل التوكل والإيمان ، وليفوضوا أمورهم إليه ﴿ولما دخلوا من حيث
أمرهم أبوهم﴾ أي دخلوا من الأبواب المتفرقة كما أوصاهم أبوهم ﴿ما كان يغني عنهم من الله من شيء﴾ أي
ما كان دخولهم متفرقين ليدفع عنهم من قضاء الله شيئاً ﴿إلا حاجةً في نفس يعقوب قضاها﴾ أي إلا خشية
العين شفقةً منه على بنيه ﴿وإنه لذو علمٍ لما علمناه﴾ أي وإن يعقوب لذو علمٍ واسعٍ لتعليمنا إياه بطريق

وَإِنَّهُ لَدُوْعٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾

الوحي ، وهذا ثناء من الله تعالى عظيم على يعقوب ، لأنه علم بنور النبوة أن القدر لا يدفعه الحذر ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون ما خص الله به أنبياءه وأصفياه من العلوم التي تنفعهم في الدارين .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿إني أرى سبع بقرات﴾ صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية .

٢ - ﴿سمان . . . وعجاف﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿خضر . . . ويابسات﴾ طباق .

٣ - ﴿أضغاث أحلام﴾ هذا من أبلغ أنواع الاستعارة وألطفها فإن الأضغاث هو المختلط من الحشيش المضموم بعضه إلى بعض ، فشبّه اختلاط الأحلام وما فيها من المحبوب والمكروه ، والخير والشر باختلاط الحشيش المجموع من أصناف كثيرة .

٤ - ﴿يوسف أيها الصديق﴾ هذا من براءة الاستهلال فقد قدم الثناء قبل السؤال طمعاً في إجابة مطلبه .

٥ - ﴿يأكلن ما قدمتم هن﴾ فيه مجاز عقلي لأن السنين لا تأكل وإنما يأكل الناس ما ادخره فيها ، فهو من باب الإسناد إلى الزمان كقول الفصحاء : نهار الزاهد صائم وليه قائم .

٦ - ﴿لأمارة بالسوء﴾ لم يقل أمرة مبالغة في وصف النفس بكثرة الدفع في الهاوي ، والقود إلى المغاوي لأن «فعال» من أبنية المبالغة .

٧ - ﴿فعرّفهم وهم له منكرون﴾ بين عرف وأنكر طباق .

٨ - ﴿لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ فيه إطناب وهو زيادة اللفظ على المعنى ، وفائدته تمكين المعنى من النفس ، وفيه أيضاً من المحسنات البديعية ما يسمى « طباق السلب » .

فَكَايِدَةٌ : أثنى رسول الله ﷺ على يوسف الصديق في كرمه وصبره وحلمه فقال : (لولبتُ في السجن ما لبثتُ يوسف لأجبتُ الداعي) وكفى بهذا برهاناً على عفة يوسف ونزاهته عليه السلام .

لَطِيفَةٌ : ذكر بعض العلماء أن يوسف عليه السلام ما زال النساء يملن إليه ميل شهوة حتى نبأه الله ، فألقى عليه هيئة النبوة فشغلت هيئته كل من رآه عن حسنه .

قال الله تعالى : ﴿ولما دخلوا على يوسف . . . إلى . . . وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ من آية (٦٩) إلى نهاية آية (٩٣) .

المناسكة : تتحدث الآيات عن مجيء إخوة يوسف للمرة الثانية إلى مصر ومعهم « بنيامين » الأخ الشقيق ليوسف ، وما كان من شأنه حين ظهر الصواع في رحله ، فاحتجزه يوسف عنده بحكم شريعة يعقوب ، ثم ما كان من تمام المحنة على يعقوب عليه السلام بفقد ولديه حتى ذهب الحزن ببصره .

اللغز : ﴿تبتئس﴾ تحزن ﴿العير﴾ الإبل التي عليها الأحمال ثم كثر الاستعمال حتى قيل لكل قافلة عير ﴿صواع﴾ الصواع الذي يكال به يُذكَر ويؤنث وهو السقاية ﴿زعيم﴾ كفيل ﴿سوكت﴾ زينة وسهلت ﴿كظيم﴾ ممتلئ من الحزن يكتمه ولا يبيده ﴿تفتأ﴾ لا تفتأ ولا تزال من أخوات كان الناقصة ﴿حرصاً﴾ المرص الذي يُشفي على الهلاك قال الشاعر :

سرى همي فأمرضني وقدماً زادني مرصاً
كذاك الحب قبل اليوم مما يورث الحرصاً

وأصل الحرص الفساد في الجسم أو العقل ﴿بثي﴾ البث : أشد الغم والهَمَّ ﴿فتحسسوا﴾ التحسس : طلب الشيء بالحواس ، والتعرفُ عليه مع الاستقصاء الدقيق ويستعمل في الخير كما أن التجسس يستعمل في الشر ، وقيل يستعمل في الخير والشر ﴿لا تثريب﴾ التثريب : التأنيب والتوبيخ .

ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴿١﴾ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن آيتها العير إنكم لسارقون ﴿٢﴾ قالوا وأقبلوا عليهم ماذا

التفسير : ﴿ولما دخلوا على يوسف﴾ أي وحين دخل أولاد يعقوب على يوسف ﴿آوى إليه أخاه﴾ أي ضم إليه أخاه الشقيق بنيامين ﴿قال إني أنا أخوك﴾ أي أنا أخوك يوسف ، أخبره بذلك واستكتمه ﴿فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾ أي لا تحزن بما فعلوا بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير قال المفسرون : لما دخل إخوة يوسف عليه أكرمهم وأحسن ضيافتهم ثم أنزل كل اثنين في بيت وبقي « بنيامين » وحيداً فقال : هذا لا ثاني له فيكون معي ، فبات يوسف يضمه إليه ويعانقه ، وقال له : أنا أخوك يوسف فلا تحزن بما صنعوا ، ثم أعلمه أنه سيحتال لإيقائه عنده وأمره أن يكتم الخبر ﴿فلما جهزهم بجهازهم﴾ أي ولما قضى حاجتهم وحمل إبلهم بالطعام والميرة ﴿جعل السقاية في رحل أخيه﴾ أي أمر يوسف بأن تجعل السقاية - وهي صاعٌ من ذهب مرصعٌ بالجواهر - في متاع أخيه بنيامين ﴿ثم أذن مؤذن﴾ أي نادى منادٍ ﴿آيتها العير﴾ أي يا أصحاب الإبل ويا أيها الركب المسافرون ﴿إنكم لسارقون﴾ أي أنتم قوم سارقون ، وإنما استحل أن يرميهم بالسرقة لما في ذلك من المصلحة من إمساك أخيه ﴿قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾ ؟ قال المفسرون : لما وصل المنادون إليهم قالوا : ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم ؟ ونوف إليكم الكيل ؟ ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم ؟ قالوا : بلى وما ذاك ؟ قالوا : فقدنا سقاية الملك ولا ننتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى : ﴿قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾ أي التفتوا إليهم وسألوهم ماذا ضاع

تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ

منكم وماذا فقد؟ وفي قولهم ﴿ماذا تفقدون﴾ بدل «ماذا سرقنا» إرشاد لهم إلى مراعاة حسن الأدب، وعدم المجازفة بنسبة البريئين إلى تهمة السرقة، ولهذا التزموا الأدب معهم فأجابوهم ﴿قالوا نفقد صواع الملك﴾ أي ضاع منا مكيال الملك المرصع بالجواهر ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ أي لمن جاءنا بالمكيال وردّه إلينا حمل بعير من الطعام كجائزة له ﴿وأنا به زعيم﴾ أي أنا كفيل وضامن بذلك ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾ قسم فيه معنى التعجب أي قالوا متعجبين: والله لقد علمتم أيها القوم ما جئنا بقصد أن نفسد في أرضكم ﴿وما كنا سارقين﴾ أي ولسنا ممن يوصف بالسرقة قط لأننا أولاد أنبياء ولا نفعل مثل هذا الفعل القبيح قال البيضاوي: استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم من فرط أمانتهم، كردّ البضاعة التي جعلت في رحالهم، وكمم أفواه الدواب لثلاث تناول زرعاً أو طعاماً لأحد^(١) ﴿قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾ أي ما عقوبة السارق في شريعتكم إن كنتم كاذبين في ادعاء البراءة ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾ أي جزاء السارق الذي يوجد الصاع في متاعه أن يُسرق ويصبح مملوكاً لمن سرق منه ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ أي كذلك نجازي من تعدى حدود الله بالسرقة وأمثالها، وهذا القول منهم هو الحكم في شريعة يعقوب وقد نسخ بقطع الأيدي في الشريعة الإسلامية ﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه﴾ أي بدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه بنيامين قال المفسرون: هذا من تمام الحيلة ودفع التهمة فإنهم لما ادعوا البراءة قالوا لهم: لا بد من تفتيش أوعيتكم واحداً واحداً فانطلقوا بهم إلى يوسف فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء «بنيامين» قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر وعاء إلا استغفر الله مما قد فهم به، حتى بقي أخوه - وكان أصغر القوم فقال: ما أظن هذا أخذ شيئاً فقالوا: والله لا نتركك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه فذلك قوله تعالى ﴿ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾ أي استخرج الصواع من متاع أخيه بنيامين، فلما أخرجها منه نكس الإخوة رؤوسهم من الخياء، وأقبلوا عليه يلومونه ويقولون له فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ أي كذلك صنعنا ودبرنا ليوسف وألهمناه الحيلة ليستبقي أخاه عنده ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ أي ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين ملك مصر، لأن جزاء السارق عنده أن يضرب ويغرّم ضعف ما سرق ﴿إلا أن يشاء الله﴾ أي إلا بمشيئته تعالى وإذنه، وقد دلّت الآية على أن تلك الحيلة كانت بتعليم الله وإلهامه له

كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ ﴿٧٨﴾ * قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَلَعْنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا الظَّالِمُونَ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٢﴾ أَرْجِعُوا إِلَيَّ

﴿نرفع درجاتٍ من نشاء﴾ أي نرفع بالعلم منازل من نشاء من عبادنا كما رفعنا يوسف ﴿وفوق كل ذي علمٍ عليم﴾ أي فوق كل عالمٍ من هو أعلم منه حتى ينتهي إلى ذي العلم البالغ وهو ربُّ العالمين قال الحسن : ليس عالمٌ إلا فوَّقه عالم حتى ينتهي العلم إلى الله وقال ابن عباس : الله العليم الخبير فوق كل عالم^(١) ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ أي إن سرق فقد سرق أخوه الشقيق من قبله يعنون يوسف ، تنصلوا من السرقة ورموا بها يوسف وأخاه ﴿فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم﴾ أي أخفى تلك القولة في نفسه وكتمها ولم يظهرها لإخوته تطفأ معهم ﴿قال أنتم شرُّ مكاناً﴾ أي أنتم شرُّ منزلةٍ حيث سرقتم أحاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البريء ، ولم يواجههم بهذا الكلام وإنما قاله في نفسه ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ أي أعلم بما تتقولون وتفترون ﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً﴾ استرحاماً واستعطافاً أي قالوا مستعطفين يا أيها السيد المبجل إن أباه شيخ كبير في السن لا يكاد يستطيع فراقه ﴿فخذ أحدنا مكانه﴾ أي خذ بدله واحداً منا فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ أي أتمم إحسانك علينا فقد عودتنا الجميل والإحسان ﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ أي نعوذ بالله من أن نأخذ أحداً بجرم غيره ﴿إنا إذا لظالمون﴾ أي نكون ظالمين إن فعلنا ذلك قال الألوسي : والتعبير بقوله ﴿من وجدنا متاعنا عنده﴾ بدل « من سرق » لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب^(٢) ﴿فلما استياسوا منه خلصوا نجياً﴾ أي ولما يسوا من إجابة طلبهم بأساً تاماً ، وعرفوا أن لا جدوى من الرجاء ، اعتزلوا جانباً عن الناس يتناجون ويتشاورون ﴿قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم ميثاقاً من الله﴾ أي قال أكبرهم سناً وهو « روبيل » أليس قد أعطيتم أباكم عهداً وثيقاً برء أخيكم ؟ ﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ أي ومن قبل هذا ألا تذكرون تفريطكم في يوسف ؟ فكيف ترجعون إليه الآن ؟ ﴿فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي﴾ أي فلن أفارق أرض مصر حتى يسمح لي أبي بالخروج منها ﴿أو يحكم الله لي﴾ أي يحكم لي بخلاص أخي ﴿وهو خير الحاكمين﴾ أي وهو سبحانه أعدل الحاكمين لأنه لا يحكم إلا بالعدل والحق ﴿إرجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق﴾ أي ارجعوا إلى أبيكم فأخبروه بحقيقة ما جرى

أَيْكُمْ فَقُولُوا يَا بَنَاتَا إِنْ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَعَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبِرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْنَى عَلَى يَوْسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنُوا تَذَكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ

وقولوا له إن ابنك بنيامين سرق ﴿وما شهدنا إلا بما علمنا﴾ أي ولسنا نشهد إلا بما تيقنا وعلمنا فقد رأينا الصاع في رحله ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ أي ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق ﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ أي واسأل أهل مصر عن حقيقة ما حدث قال البيضاوي : أي أرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة ^(١) ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ أي واسأل أيضاً القافلة التي جئنا معهم وهم قوم من كنعان كانوا بصحبتهم في هذه السفرة ﴿وإننا لصادقون﴾ أي صادقون فيما أخبرناك من أمره ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ أي زينت وسهلت لكم أنفسكم أمراً ومكيدة فنذقموها ، اتهمهم بالتأمر على «بنيامين» لما سبق منهم في أمر يوسف ﴿فصبر جميل﴾ أي لا أجد سوى الصبر محتسباً أجري عند الله ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ أي عسى أن يجمع الله شملي بهم ، ويقر عيني برؤيتهم جميعاً ﴿إنه هو العليم الحكيم﴾ أي العالم بحالي الحكيم في تدبيره وتصريفه ﴿وتولى عنهم﴾ أي أعرض عن أولاده كراهة لما سمع منهم ﴿وقال يا أسفى على يوسف﴾ أي يالهفي ويا حسرتي وحزني على يوسف ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ أي فقد بصره وعشي ^(٢) من شدة البكاء حزناً على ولديه ﴿فهو كظيم﴾ أي مملوء القلب كمداً وغيظاً ولكنه يكتم ذلك في نفسه ، وهو مغموم ومكروب لتلك الداهية الدهياء قال أبو السعود : وإنما تأسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخويه لأن ذكر يوسف كان آخذاً بمجامع قلبه لا ينساه ولأنه كان واثقاً بحياتها طامعاً في إياها وأما يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله وفضله ^(٣) وقال الرازي : الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن في النفس ، والأسى يبعث الأسى ويثير الأحزان قال الشاعر :

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى فدعني فهذا كله قبر مالك ^(٤)

﴿قالوا تالله تفتنوا تذكر يوسف﴾ أي لا تفتأ ولا تزال تذكر يوسف وتفتجع عليه ﴿حتى تكون حرَضاً أو تكون من الهالكين﴾ أي حتى تكون مريضاً مشرفاً على الهلاك أو تهلك أسى وحسرة وتموت ﴿قال إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله﴾ أي قال لهم يعقوب : لست أشكو غمي وحزني إليكم وإنما أشكو ذلك إلى الله فهو الذي

(١) البيضاوي ٢٦٨ . (٢) عشي البصر ضعف حتى كاد لا يرى من شدة البكاء كان غشاوة صارت عليه قال الشاعر : عشت عيني من طول البكا . قال المفسرون : إن يعقوب فقد بصره من شدة حزنه على يوسف وبقي لا يبصر ست سنوات حتى كشف الله عنه الضر بقميص يوسف واستدلوا بقوله تعالى ﴿القاء على وجهه فارتد بصيراً . . .﴾ . (٣) أبو السعود ٨٨ / ٣ . (٤) الفخر الرازي ١٨ / ١٩٣ .

إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرَيِّ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَلْبَنِي آذَهُبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أُوَيْنَكَ لِأَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَقِ وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾

تنفع الشكوى إليه ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي أعلم من رحمة وإحسانه ما لا تعلمون أنتم فأرجو أن يرحمني ويلطف بي ويأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب ﴿يا بني آذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾ أي اذهبوا إلى الموضع الذي جئتم منه فالتمسوا يوسف وتعرفوا على خبره وخبر أخيه بحواسكم ﴿ولا تيأسوا من رَوْحِ اللَّهِ﴾ أي لا تقنطوا من رحمة الله وفرجه وتنفيسه ﴿إنه لا يياس من رَوْحِ اللَّهِ إلا القوم الكافرون﴾ أي فإنه لا يقنط من رحمة تعالى إلا الجاحدون المنكرون لقدرته جلَّ وعلا ﴿فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر﴾ في الكلام محذوف أي فخرجوا راجعين إلى مصر فدخلوا على يوسف فلما دخلوا قالوا يا أيها العزيز أصابنا وأهلنا الشدة من الجذب والقحط ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ أي وجئنا ببضاعة رديئة مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً قال ابن عباس: كانت دراهمهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام^(١) ، أظهروا له الذل والانكسار استرحاماً واستعطافاً ﴿فأوف لنا الكيل﴾ أي أتمم لنا الكيل ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا ﴿وتصدق علينا﴾ أي بردأخيها إلينا^(٢) أو بالمساحة عن رداءة البضاعة ﴿إن الله يجزي المتصدقين﴾ أي يثيب المحسنين أحسن الجزاء . . ولما بلغ بهم الأمر إلى هذا الحد من الاسترحام والضييق والانكسار أدركته الرأفة فباح لهم بما كان يكتمه من أمره ﴿قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾ ؟ أي هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه حال شبابكم وطيشكم ؟ والغرض تعظيم الواقعة كأنه يقول : ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه ! قال أبو السعود : وإنما قاله نصحاً لهم ، وتحريضاً على التوبة ، وشفقة عليهم^(٣) ﴿قالوا أنك لأنت يوسف﴾ أي قال إخوته متعجبين مستغربين : أنت يوسف حقاً ؟ ﴿قال أنا يوسف وهذا أخي﴾ أي قال : نعم أنا يوسف وهذا أخي الشقيق ﴿قد من الله علينا﴾ أي من الله علينا بالخلاص من البلاء ، والاجتماع بعد الفرقة ، والعزة بعد الذلة ﴿إنه من يتق ويصبر﴾ أي إنه من يتق الله فيراقبه ويصبر على البلايا والمحن ﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ أي لا يبطل أجرهم ولا يضيع إحسانهم بل يجزيهم عليه أوفى الجزاء قال البيضاوي : ووضع المحسنين موضع الضمير للتنبه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر^(٤) ﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا﴾ اعتراف بالخطيئة وإقرار بالذنب

(١) الرازي ٢٠١/١٨ . (٢) هذا قول ابن جريج واختار الطبري أن المراد المساحة لرداءة البضاعة . (٣) أبو السعود ٣/ ٩٠ .

(٤) البيضاوي ٢٦٩ .

قَالُوا تَأَلَّهَ لَقَدْ أَتَرَكُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِطِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيْرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

أي والله لقد فضلك الله علينا بالتقوى والصبر ، والعلم والحلم ﴿ وإن كنا لخاطنين ﴾ أي وحالنا وشأننا أننا كنا مذنبين بصنيعنا الذي صنعنا بك ، ولذلك أعزك الله وأذلنا ، وأكرمك وأهاننا ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم ﴾ أي قال لهم يوسف : لا عتب عليكم اليوم ولا عقوبة بل أصفح وأعفو ﴿ يغفر الله لكم ﴾ دعاء لهم بالمغفرة وهذا زيادة تكريم منه لما فرط منهم ﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ أي هو جل وعلا المتفضل على التائب بالمغفرة والرحمة ، أرحم بعباده من كل أحد ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي ﴾ قال الطبري : ذكر أن يوسف لما عرف نفسه إخوته سألمهم عن أبيهم فقالوا : ذهب بصره من الحزن فعند ذلك أعطاهم قميصه ^(١) ، وأراد يوسف تبشير أبيه بحياته ، وإدخال السرور عليه بذلك ﴿ يأت بصيراً ﴾ أي يرجع إليه بصره ﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ أي وجيئوني بجميع الأهل والذرية من أولاد يعقوب .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿ ولما جهزهم بجهازهم ﴾ فيه جناس الاشتقاق وكذلك في ﴿ أذن مؤذن ﴾ .

٢ - ﴿ فأسرهما . . ولم يدها ﴾ بينهما طباق .

٣ - ﴿ شيخاً كبيراً ﴾ فيه إطناب للاستعطاف .

٤ - ﴿ وأسأل القرية ﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية .

٥ - ﴿ يا أسفى على يوسف ﴾ بين لفظتي الأسف ويوسف جناس الاشتقاق .

٦ - ﴿ تالله تفتأ ﴾ إيجاز بالحذف أي تالله لا تفتأ .

٧ - ﴿ ولا تياسوا من روح الله ﴾ فيه استعارة استعير الرُّوح وهو تنسيم الريح التي يلدُّ شميمها ويطيب نسيمها ، للفرج الذي يأتي بعد الكربة ، واليسر الذي يأتي بعد الشدة .

لطيفة : ذكر القاضي عياض في كتابه « الشفا » أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿ فلما استياسوا منه خلصوا نجياً ﴾ فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام ^(٢) . وذلك أن الآية ذكرت صفة اعتزالهم لجميع الناس ، وانفرادهم من غيرهم ، وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن ، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودهم إليه ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث ، فتضمنت تلك الآية القصيرة ، معاني القصة الطويلة .

قال الله تعالى : ﴿ ولما فصلت العير قال أبوهم . . . إلى . . . وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾

من آية (٩٤) إلى نهاية السورة الكريمة .

المناسكة : تتحدث الآيات عن مجيء أسرة يعقوب بأسرهم إلى مصر ، ودخولهم على يوسف وهو في عز السلطان وعظمة الملك ، وتحقيق الرؤيا بسجود إخوته الأحد عشر له مع أبيه وأمه ، واجتماع الشمل بعد الفرقة ، وحلول الأنس بعد الكدر ، ثم تختم السورة الكريمة بتوجيه الأنظار إلى عجائب الكون الدالة على القدرة والوحدانية ، وما في قصص القرآن من العبر والعظات ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ !!

اللغز : ﴿تفندون﴾ تنسبوني إلى الخرف قال الأصمعي : إذا كثُر كلام الرجل من خرف فهو المفند وقال الزمخشري : التفنيد النسبة إلى الفند وهو الخرف وإنكار العقل من هرم يقال : شيخ مُفند ولا يقال عجوز مُفندة ، لأنها لم تكن في شببتها ذات رأي فتفند في كبرها^(١) ﴿ضلالك﴾ ذهابك عن الصواب ﴿البدو﴾ البادية ﴿نزغ﴾ أفسد وأغوى وأصله من نزغ الراكب الدابة إذا نخسها ليحملها على الجري ﴿فاطر﴾ مبدع ومخترع وأصله من فطر إذا شق ثم صار عبارة عن الخلق والإيجاد ﴿غاشية﴾ عذاب يغشاهم ﴿بغته﴾ فجأة ﴿بأسنا﴾ عذابنا ﴿عبرة﴾ عظة وتذكرة .

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٤٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٤٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ

النفسير : ﴿ولما فصلت العير﴾ أي خرجت منطلقاً من مصر إلى الشام ﴿قال أبوهم إنني لأجد ريح يوسف﴾ أي قال يعقوب لمن حضر من قرابته إنني لأشم رائحة يوسف قال ابن عباس : هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف وبينهما مسيرة ثمان ليال^(٢) ﴿لولا أن تفندون﴾ أي تسفهوني وتنسبوني إلى الخرف وهو ذهاب العقل وجواب ﴿لولا﴾ محذوف تقديره لأخبرتكم أنه حي ﴿قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ أي قال حفدته ومن عنده : والله إنك لفي خطأ وذهاب عن طريق الصواب قديم ، بإفراطك في محبة يوسف ، ولهجك بذكره ، ورجائك للقائه قال المفسرون : وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات ﴿فلما أن جاء البشير﴾ أي فلما جاء المبشر بالخبر السار قال مجاهد : كان البشير أخاه يهوذا الذي حمل قميص الدم فقال : أفرحه كما أحزنته^(٣) ﴿ألقاه على وجهه﴾ أي طرح البشير القميص على وجه يعقوب ﴿فارتد بصيراً﴾ أي عاد بصيراً لما حدث له من السرور والانتعاش ﴿قال ألم أقل لكم إنني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي قال يعقوب لأبنائه : ألم أخبركم بأني أعلم ما لا تعلمونه من حياة يوسف وأن الله سيرده عليّ لتتحقق الرؤيا؟ قال المفسرون : ذكرهم بقوله ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ روي أنه سأل البشير كيف يوسف؟ فقال : هو ملك مصر ، قال ما أصنع بالملك ! على أي دين تركته؟ قال : على دين الإسلام ، قال : الآن تمت النعمة^(٤) ﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا﴾ طلب أبناؤه أن يستغفر لهم لما فرط منهم ثم اعترفوا بخطأهم بقولهم ﴿إننا كنا خاطئين﴾ أي مخطئين فيما ارتكبنا مع يوسف

مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴿١٠٠﴾ وَقَالَ يَتَّابِتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلِ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴿١٠١﴾ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٢﴾ * رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ

﴿قال سوف استغفر لكم ربي﴾ وعدهم بالاستغفار قال المفسرون: أخر ذلك إلى السحر ليكون أقرب إلى الإجابة وقيل: أخرهم إلى يوم الجمعة ليتحرى ساعة الإجابة ^(١) ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي السائر للذنوب الرحيم بالعباد ﴿فلما دخلوا على يوسف أوى إليه أبوه﴾ أي فلما دخل يعقوب وأبناؤه وأهلهم على يوسف ضم إليه أبوه واعتنقها ﴿وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾ أي ادخلوا بلدة مصر آمين من كل مكروه ، وإنما قال ﴿إن شاء الله﴾ تبركاً وتيمناً ﴿ورفع أبوه على العرش﴾ أي أجلسها على سرير الملك بجانبه ﴿وخرؤا له سجداً﴾ أي سجد له أبوه وأمه وإخوته حين دخولهم عليه قال المفسرون: كان السجود عندهم تحية وكرامة لا عبادة ﴿وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ أي هذا تفسير الرؤيا التي رأيتها في منامي وأنا صغير ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ أي صدقاً حيث وقعت كما رأيتها في النوم ﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن﴾ أي أنعم عليّ بإخراجه من السجن قال المفسرون: ولم يذكر قصة الحب تكريماً منه لثلاثي إخوته ويذكرهم صنيعهم بعد أن عفا عنهم ﴿وجاء بكم من البدو﴾ أي جاء بكم من البادية لأنهم كانوا أهل إيل وغنم ببادية فلسطين ، ذكرهم بنعمة الله على آل يعقوب حيث نقلهم من البادية إلى الحضرة واجتمع شمل الأسرة بمصر قال الطبري: ذكر أن يعقوب دخل مصر هو ومن معه من أولاده وأهاليهم وأبنائهم وهم أقل من مائة ، وخرجوا منها يوم خرجوا وهم زيادة على ستمائة ألف ^(٢) ﴿من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي﴾ أي أفسد ما بيني وبين إخوتي بالإغواء قال أبو حيان: وذكر هذا القدر من أمر إخوته لأن النعمة إذا جاءت إثر بلاءٍ وشدة كانت أحسن موقعاً ^(٣) ﴿إن ربي لطيف لما يشاء﴾ أي لطيف التدبير يحقق مشيئته بلطفٍ ودقةٍ خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها ﴿إنه هو العليم الحكيم﴾ أي العليم بخلقه الحكيم في صنعه قال المفسرون: إن يعقوب عليه السلام أقام مع يوسف في مصر أربعاً وعشرين سنة ثم مات وكان قد أوصى أن يُدفن بالشام إلى جنب أبيه إسحق ، فمضى يوسف بنفسه ودفنه ثمة ، ثم لما عاد إلى مصر عاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة ، فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم تاقت نفسه إلى الملك الدائم الخالد ، واشتاق إلى لقاء الله وإلى آبائه الصالحين إبراهيم وإسحق فقال ﴿رب قد آتيتني من الملك﴾ أي

(١) يقول سيد قطب عليه الرحمة: وحكاية عبارته بكلمة ﴿سوف﴾ لا تخلو من إشارة إلى قلب إنساني مكلوم فإنه يعدهم بالاستغفار بعد

الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ

أعطيتني العزَّ والجاه والسلطان ، وذلك من نعمة الدنيا ﴿وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾ أي علمتني تفسير الرؤيا ، وذلك من نعمة العلم ﴿فاطر السموات والأرض﴾ أي يا مبدع السموات والأرض وخالقهما على غير مثال سابق ﴿أنت وليي في الدنيا والآخرة﴾ أي أنت يا رب متولي أموري وشئوني في الدارين ﴿توفني مسلماً وألحقتني بال صالحين﴾ أي اقبضني إليك مسلماً ، واجعل لحاقي بال صالحين ، ابتهل إلى ربه أن يحفظ عليه إسلامه حتى يموت عليه ، وإلى هنا تنتهي قصة يوسف الصديق ، ثم يأتي التعقيب بعد ذلك بإقامة البرهان على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ أي ذلك الذي أخبرناك عنه يا محمد من أمر يوسف وقصته ، من الأخبار المغيبة التي لم تكن تعلمها قبل الوحي ، وإنما نُعلمك نحن بها على أبلغ وجه وأدق تصوير ، ليظهر صدقك في دعوى الرسالة ﴿وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ أي وما كنت حاضراً مع إخوة يوسف حين تأمروا على أخيهم وأجمعوا أمرهم على إلقاءه في الجب وهم يحتالون ويمكرون به وبأبيه ليرسله معهم ، فإنك يا محمد لم تشاهدهم حتى تقف على حقيقة القصة وإنما جاءتك بوحي من العليم الخبير ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ أي ليس أكثر الخلق ولو حرصت على إيمانهم وبالغت في إرشادهم بمصدقين لك لتصميمهم على الكفر ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾ أي وما تطلب منهم على هذا النصح ، والدعاء إلى الخير والرشد أجرة حتى يتقبل عليهم ﴿إن هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظة وتذكير للعالمين ، وأنت لا تطلب في تلاوته عليهم مالاً ، فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا ﴿وكأين من آية في السموات والأرض﴾ أي كم من الآيات والعلامات الدالة على وجود الله جل وعلا ووحدانيته ، الكائنة في السموات والأرض كالشمس والقمر والنجوم ، والجبال والبحار والأشجار ، وسائر ما فيها من العجائب ﴿يمرون عليها﴾ أي يشاهدونها ليل نهار ، ويمرون عليها بالعشي والإيكار ﴿وهم عنها معرضون﴾ أي لا يفكرون فيها ولا يعتبرون ، فلا تتعجب من إعراضهم عنك فإن إعراضهم عن هذه الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته أغرب وأعجب ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ أي لا يؤمن أكثر هؤلاء المكذبين من قومك إلا إذا أشركوا مع الله غيره ، فإنهم يقرّون بأن الله هو الخالق الرازق ويعبدون معه الأصنام قال ابن عباس : ومن ذلك قولهم في تلبيتهم : «لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك» ^(١) ﴿أفأمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ

عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيهِمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٧٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِيَ مِنَ النَّسَاءِ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ

عذاب الله ﴿﴾ أفمن هؤلاء المكذوبون عقوبة من عذاب الله تغشاهم وتشملهم ؟ ﴿﴾ أو تأتيتهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ﴿﴾ أي أو تأتيتهم القيامة بأهوالها فجأة من حيث لا يشعرون ولا يتوقعون ؟ والاستفهام إنكاري وفيه معنى التوبيخ ﴿﴾ قل هذه سبيلي ﴿﴾ أي قل يا محمد هذه طريقي ومنهاجي واضحة مستقيمة لا عوج فيها ولا شك ولا شبهة ﴿﴾ ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴿﴾ أي ادعوا إلى عبادة الله وطاعته ، على بيان وحجة واضحة أنا ومن آمن بي ﴿﴾ وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴿﴾ أي وأنزهه سبحانه عن الشركاء والأنداد ، فأنا مؤمن موحد ولست من المشركين ﴿﴾ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم ﴿﴾ أي وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً من البشر لا ملائكة من السماء قال الطبري : أي رجالاً لا نساءً ولا ملائكة نوحى إليهم آياتنا للدعاء إلى طاعتنا^(١) ، والآية ردُّ على من أنكر أن يكون النبي من البشر ، أو زعم أن في النساء نبيات ﴿﴾ من أهل القرى ﴿﴾ أي من أهل المدن والأمصار لا من أهل البوادي قال الحسن : لم يبعث الله نبياً من أهل البادية قط ولا من النساء ولا من الجن^(٢) قال المفسرون : وإنما كانوا من أهل الأمصار لأنهم أعلم وأحلم ، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة ﴿﴾ أفلم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴿﴾ أي أفلم يسر هؤلاء المكذوبون في الأرض فينظروا نظر تفكر وتدبر ما حل بالأمم السابقين ومصارع المكذبين فيعتبرون بذلك ؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿﴾ ولدار الآخرة خيرٌ للذين اتقوا ﴿﴾ أي الدار الآخرة خير للمؤمنين المتقين من هذه الدار التي ليس فيها قرار ﴿﴾ أفلا تعقلون ﴿﴾ أي أفلا تعقلون فتؤمنون !! ﴿﴾ حتى إذا استيأس الرسل ﴿﴾ أي يسئ الرسل من إيمان قومهم ﴿﴾ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴿﴾ أي أيقن الرسل أن قومهم كذبوهم ﴿﴾ جاءهم نصرنا ﴿﴾ أي أتاهم النصر عند اشتداد الكرب ، ففي اللحظة التي تستحکم فيها الشدة ، ويأخذ فيها الكرب بالمخائق ، ولا يبقى أمل في غير الله ، في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً ﴿﴾ فنجى من نساء ﴿﴾ أي فنجينا الرسل والمؤمنين بهم دون الكافرين ﴿﴾ ولا يُردُّ بأسنا عن القوم المجرمين ﴿﴾ أي ولا يُردُّ عذابنا وبطشنا عن المجرمين إذا نزل بهم ﴿﴾ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الأبواب ﴿﴾ أي لقد كان في قصة يوسف وإخوته عظة وتذكرة لأولي العقول النيرة ﴿﴾ ما كان حديثاً يُفترى ﴿﴾ أي ما كان هذا القرآن أخباراً تُروى أو أحاديث تختلق ﴿﴾ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴿﴾ أي ولكن كان هذا القرآن مصداقاً لما

تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

سبقة من الكتب السماوية المنزلة من قبل ﴿وتفصيل كل شيء﴾ أي تبيان كل ما يُحتاج إليه من أحكام الحلال والحرام ، والشرائع والأحكام ﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي هداية من الضلالة ورحمة من العذاب لقوم يصدقون به ويعملون بأوامره ونواهيه .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿تالله إنك لفي ضلالك﴾ أكدوا كلامهم بالقسم وإنَّ واللام وهذا الضرب يسمى ﴿إنكارياً﴾ لتتابع أنواع المؤكدات .

٢ - ﴿أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ جملة ﴿إن شاء الله﴾ دعائية جيء بها للتبرك وفي الآية تقديم وتأخير تقديره : ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله .

٣ - ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً﴾ أبواه المراد به الأب والأم فهو من باب التغليب ، والرفع مؤخر عن الخورور وإن تقدم لفظاً للاهتمام بتعظيمه لهما أي سجدوا له ثم اجلس أبويه على عرش الملك .

٤ - ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ جملة ﴿ولو حرصت﴾ اعتراضية بين اسم ﴿ما﴾ الحجازية وخبرها ، وجيء بهذا الاعتراض لإفادة أن الهداية بيد الله جل وعلا وحده .

٥ - ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾ هذا على حذف مضاف أي وما تسألهم على تبليغ القرآن من أجر .

٦ - ﴿وهم عنها معرضون﴾ ﴿إلا وهم مشركون﴾ فيه من المحسنات البديعية «السجع» وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير .

تَبْيِيْهُ : دلَّ قوله تعالى ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ على أن الغرض من ذكر هذه القصص والأخبار ، العظة والاعتبار ، ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إخراج يوسف من الحب بعد إلقاءه فيه ، وإخراجه من السجن ، وتمليكه مصر بعد العبودية ، وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع ، قادرٌ على إعزاز محمد ﷺ ، وإعلاء شأنه ، وإظهار دينه ، وأن الإخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الإخبار عن الغيوب ، فكان ذلك معجزة لرسول الله ﷺ .

« انتهى بعون الله وتوفيقه تفسير سورة يوسف »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة الرعد من السور المدنية، التي تتناول المقاصد الأساسية للسور المدنية، من تقرير «الوحدانية» و«الرسالة» و«البعث والجزاء» ودفع الشبه التي يثيرها المشركون .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقضية الكبرى ، قضية الإيمان بوجود الله ووحدانيته ، فمع سطوع الحق ووضوحه ، كذب المشركون بالقرآن ، وجحدوا وحادانية الرحمن ، فجاءت الآيات تقرر كمال قدرته تعالى ، وعجيب خلقه ، في السموات والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والزروع والشمار ، وسائر ما خلق الله في هذا الكون الفسيح البديع .

* ثم تلتها الآيات في إثبات البعث والجزاء ، ثم بعد ذكر الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة على انفراده جل وعلا بالخلق والإيجاد ، والإحياء والإماتة ، والنفع والضرر ، ضرب القرآن مثلين للحق والباطل أحدهما : في الماء ينزل من السماء ، فتسيل به الأودية والشعاب ، ثم هو يجرف في طريقه الغطاء ، فيطفو على وجهه الزبد الذي لا فائدة فيه والثاني : في المعادن التي تُذاب لتصاغ منها الأواني وبعض الحلية كالذهب والفضة ، وما يعلو هذه المعادن من الزبد والخبث ، الذي لا يلبث أن يذهب جفاءً ويضمحل ويتلاشى ، ويبقى المعدن النقي الصافي ﴿ أنزل من السماء ماءً فسالت أوديةً بقدرها فاحتمل السيلُ زبداً رابياً . . ﴾ الآيات فذلك مثل الحق والباطل .

* وذكرت السورة الكريمة أوصاف أهل السعادة وأهل الشقاوة ، وضربت لهم المثل بالأعمى والبصير ، وبينت مصير كل من الفريقين ، ثم ختمت بشهادة الله لرسوله بالنبوة والرسالة وأنه مرسل من عند الله .

التسمية : سميت ﴿سورة الرعد﴾ لتلك الظاهرة الكونية العجيبة ، التي تتجلى فيها قدرة الله وسلطانه ، فالماء جعله الله سبباً للحياة ، وأنزله بقدرته من السحاب ، والسحابُ جمع الله فيه بين الرحمة والعذاب ، فهو يحمل المطر ويحمل الصواعق ، وفي الماء الإحياء ، وفي الصواعق الإفناء ، وجمع النقيضين من العجائب كما قال القائل : جمع النقيضين من أسرار قدرته : هذا السحاب به ماء به نار .
فما أجلُّ وأعظم قدرة الله !!

اللغز : ﴿عمد﴾ العمد : الدعائم وهو اسم جمع وقيل : جمع عمود ﴿صينوان﴾ جمع صنو

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾
 اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ
 مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا

وهو الغصن الخارج عن أصل الشجرة وأصله المثل ومنه قيل للعم صينو لماثلته للأب ، فإذا كان للشجرة عدة فروع فهي صنوان ﴿الأغلال﴾ جمع غل وهو طوق تُشدُّ به اليد إلى العنق ﴿المثلات﴾ جمع مثلة وهي العقوبة وسميت بذلك لما بين العقاب والمعاقب من المائلة ﴿تغيض﴾ غاض الماء نقص أو غار ﴿سارب﴾ السارب : الذاهب في سرِّه أي طريقه بوضوح النهار لا يستخفي عن الأنظار ﴿معقبات﴾ ملائكة يعقب بعضهم بعضاً أي يأتي بعضهم عقب بعض ﴿المحال﴾ القوة والإهلاك والنقمة .

سبب النزول : عن أنس أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً إلى جبار من فراعنة العرب فقال : اذهب فادعه لي فقال يا رسول الله : إنه جبارٌ عاتٍ قال : اذهب فادعه لي ، فذهب إليه فقال : يدعوك رسول الله ﷺ فقال : أخبرني عن إله محمد أمن ذهب هو ؟ أو من فضة ؟ أو من نحاس ؟ فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما قال الرجل وقال له : ألم أخبرك أنه أعتى من ذلك ؟ فقال : ارجع إليه الثانية فادعه لي ، فرجع إليه فأعاد عليه ذلك الكلام ، فبينما هو يجادل إله بعث الله عليه سحابة حيال رأسه فرعدت فوقعت منها صاعقة فذهبت بحفف رأسه فأنزل الله ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال﴾^(١)

التفسير : ﴿المر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن^(٢) وقال ابن عباس معناه : أنا الله أعلم وأرى^(٣) ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي هذه آيات القرآن المعجز ، الذي فاق كل كتاب ﴿والذي أنزل إليك من ربك الحق﴾ أي والذي أوحى إليك يا محمد في هذا القرآن هو الحق الذي لا يلتبس بالباطل ، ولا يحتمل الشك والتردد ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ أي ومع وضوحه وجلائه كذب به أكثر الناس ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي خلقها مرتفعة البناء ، قائمة بقدرته لا تستند على شيء حال كونكم تشاهدونها وتنظرونها بغير دعائم ، وذلك دليل وجود الخالق المبدع الحكيم ﴿ثم استوى على العرش﴾ أي علا فوق العرش علواً يليق بجلاله من غير تجسيم ولا تكييف ولا تعطيل^(٤) ﴿وسخَّرَ الشمس والقمر كلٌّ يجرى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ذلَّلَ الشمس والقمر لمصالح العباد ، كلٌّ يسير بقدرته تعالى إلى زمنٍ معيَّن هو زمن فناء الدنيا ﴿يدبر الأمر﴾ أي يصرف بحكمته وقدرته أمور الخلق وشئون الملكوت من إيجاد وإعدام ، وإحياء وإماتة وغير ذلك

(١) أسباب النزول ١٥٦ . (٢) انظر توضيح الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة .

(٣) الطبري ٩١/١٣ (٤) انظر أقوال السلف في سورة الأعراف من هذا الكتاب .

رَوَّسِيَّ وَأَنْهَرًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَلِّوْرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ * وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ

﴿يفصل الآيات﴾ أي بيئتها ويوضحها ﴿لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾ أي لتصدقوا بلقاء الله ، وتوقنوا بالمعاد إليه ، لأن من قدر على ذلك كله فهو قادرٌ على إحياء الإنسان بعد موته ﴿وهو الذي مدَّ الأرض﴾ أي هو تعالى بقدرته بسط الأرض وجعلها ممدودة فسيحة ، وهذا لا ينافي كرويتها فإن ذلك مقطوعٌ به ، والغرضُ أنه تعالى جعلها واسعة فسيحة ممتدة الأفاق ليستقر عليها الإنسان والحيوان ، ولو كانت كلها جبلاً وودياناً لما أمكن العيش عليها قال في التسهيل : ولا يتنافى لفظُ البسط والمدُّ مع التكوير ، لأن كل قطعةٍ من الأرض ممدودةٌ على حدِّتها ، وإنما التكوير لجملة الأرض ^(١) ﴿وجعل فيها رواسي﴾ أي وخلق في الأرض جبلاً ثوابت رواسخ لثلاث تضطرب بأهلها كقوله ﴿أن تميد بكم﴾ ﴿وأنهاراً﴾ أي وجعل فيها الأنهار الجارية ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ أي جعل فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين اثنين ذكراً وأنثى ل يتم بينهما أسباب الإخصاب والتكاثر طبق سنته الحكيمه ^(٢) وقال أبو السعود : أي جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضربين وصنفين ، إمّا في اللون كالأبيض والأسود ، أو في الطعم كالخلو والحامض ، أو في القدر كالصغير والكبير ، أو في الكيفيّة كالحرّ والبارد وما أشبه ذلك ^(٣) ﴿يغشي الليل النهار﴾ أي يلبسه إياه فيصير الجو مظلماً بعد ما كان مضيئاً ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ أي إن في عجائب صنع الله لدلالات وعلامات باهرة على قدرته ووحدانيته لمن تأمل وتفكّر ، وخصّ « المتفكرون » بالذكر لأن ما احتوت عليه هذه الآيات من الصنيع العجيب لا يدرك إلا بالتفكر ﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾ أي في الأرض بقاعٌ مختلفة متلاصقات قريب بعضها من بعض قال ابن عباس : أرض طيبة ، وأرض سبخة تُنبت هذه ، وهذه إلى جنبها لا تُنبت ^(٤) ﴿وجنات من أعناب﴾ أي بساتين كثيرة من أشجار العنب ﴿وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان﴾ أي وفي هذه القطع المتجاورة أنواع الزروع والحبوب والنخيل والرطب ، منها ما يُنبت منه من أصل واحدٍ شجرتان فأكثر ، ومنها ما ينبت منه شجرة واحدة ﴿يُسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ أي الكل يسقى بماء واحدٍ ، والتربة واحدة ، ولكن الثمار مختلفات الطعم قال الطبري : الأرض الواحدة يكون فيها الخوخ ، والكمثرى ، والعنب الأبيض والأسود ، بعضها حلو ، وبعضها حامض ، وبعضها أفضل من بعض مع اجتماع جميعها على شرب واحد ^(٥) ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ أي علامات باهرة ظاهرة لمن عقل وتدبّر ، وفي ذلك ردٌّ على

(١) التسهيل في علوم التنزيل ١٣٠/٢ . (٢) قال في الظلال : هذه حقيقة لم يعرفها البشر من طريق علمهم وبحنهم إلا قريباً وهي أن كل الأحياء تتألف من ذكر وأنثى ، حتى النباتات التي كان مظهرها أن ليس لها من جنسها ذكورتين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر ، فتمضم أعضاء الذكر وأعضاء الأنثى مجتمعاً في زهرة أو متفرقة في العود . الظلال ٧٢/٥ . (٣) أبو السعود ٩٧/٣ . (٤) الطبري ٩٧/١٣ . (٥) نفس المرجع السابق ٩٨/١٣ .

قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٠﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٠١﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿١٠٢﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدُّ

القائلين بالطبيعة ﴿وإن تعجب فاعجب قولهم أنذا كنا تراباً أننا لنألفي خلقاً جديداً﴾ أي إن تعجب يا محمد من شيء فليس ما هو أعجب من قول الكفار أنذا متنا وأصبحنا رفاتاً هل سنبعث من جديد؟ فإن إنكارهم للبعث حقيق أن يتعجب منه، فإن الذي قدر على إنشاء ما ذكرنا من السموات والأرض، والأشجار والشمار، والبحار والأنهار قادر على إعادتهم بعد موتهم ﴿أولئك الذين كفروا بربهم﴾ أي هؤلاء الذين أنكروا البعث هم الجاحدون لقدرة الله ﴿وأولئك الأغلال في أعناقهم﴾ أي يُغْلَوْنَ بالسلاسل في أعناقهم يوم القيامة ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي وهم في جهنم مخلدون فيها أبداً لا يموتون فيها ولا يُخرجون ﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة﴾ أي يستعجلك المشركون يا محمد بالبلاء والعقوبة قبل الرخاء والعافية، استعجلوا ما هُددوا به من عذاب الدنيا استهزاء ﴿وقد خلت من قبلهم المثالات﴾ أي وقد مضت عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لا يعتبرون ولا يتعظون؟ ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ أي وإن ربك لذو صفحٍ عظيم للناس، لا يعجل لهم العقوبة وإن كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها ﴿وإن ربك لشديد العقاب﴾ أي شديد العقاب لمن أصرَّ على المعاصي ولم يتب من ذنوبه. قرن تعالى بين سعة حلمه وشدة عقابه ليبقى العبد بين الرغبة والرغبة، والرجاء والخوف ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ أي ويقول المشركون من كفار قريش هلاً أنزل على محمد معجزة تدل على صدقه مثل معجزات موسى وعيسى !! قال في البحر: لم يعتدوا بالآيات الخارقة المنزلة كانشقاق القمر، وانقياد الشجر، ونبع الماء من بين الأصابع وأمثال هذه المعجزات فاقترحوا عناداً آيات أخرى (١) ﴿إنما أنت منذرٌ ولكل قوم هاد﴾ جواب لما اقترحوا أي لست أنت يا محمد إلا محذّر ومبصّر، شأنك شأن كل رسول قبلك، فلكل قوم نبي يدعوهم إلى الله وأما الآيات الخارقة فأمرها إلى مدبر الكون والعباد ﴿الله يعلم ما تحمّل كل أنثى﴾ أي الله وحده الذي يعلم ما تحمله كل أنثى في بطنها هل هو ذكر أم أنثى؟ تام أم ناقص؟ حسن أو قبيح ﴿وما تغيض الأرحام﴾ أي وما تنقصه الأرحام بالبقاء الجنين قبل تمامه ﴿وما تزداد﴾ أي وما تزداد على الأشهر التسعة قال ابن عباس: ما تغيض بالوضع لأقل من تسعة أشهر، وما تزداد بالوضع لأكثر من تسعة أشهر، وعنه المراد بالغيض: السقط الناقص، وبالازدياد: الولد التام (٢) ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ أي كل شيء من الأشياء عند الله تعالى بقدر محدود لا يتجاوزه حسب المصلحة والمنفعة ﴿عالمٌ

وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ؕ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ؕ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ؕ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ أَفْلًا مَرَدَّ لَهُ ؕ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ ؕ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ؕ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

الغيب والشهادة ﴿٨﴾ أي ما غاب عن الحسّ وما كان مشاهداً منظوراً ، فعلمه تعالى شاملٌ للخفيّ والمرئي لا يخفى عليه شيء ﴿٩﴾ الكبير المتعال ﴿١٠﴾ أي العظيم الشأن الذي كل شيء دونه المستعلي على كل شيء بقدرته المنزهة عن المشابهة والمماثلة ﴿١١﴾ سواء منكم من أسرأ القول ومن جهر به ﴿١٢﴾ أي يستوي في علمه تعالى ما أضمرته القلوب وما نطقت به الألسنة ﴿١٣﴾ ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴿١٤﴾ أي ويستوي عنده كذلك من هو مستتر بأعماله في ظلمات الليل وهو في غاية الاختفاء ، ومن هو ذاهب في طريقه بوضوح النهار مستعلن لا يستخفي فيما يعمل وهو في غاية الظهور ﴿١٥﴾ له معقبات ﴿١٦﴾ أي لهذا الإنسان ملائكة موكلّة به تتعقب في حفظه يأتي بعضهم بعقب بعض كالحرس في الدوائر الحكومية ﴿١٧﴾ من بين يديه ومن خلفه ﴿١٨﴾ أي من أمام الإنسان ومن ورائه ﴿١٩﴾ يحفظونه من أمر الله ﴿٢٠﴾ أي يحفظونه من الأخطار والمضارّ بأمره تعالى قال مجاهد : ما من عبد إلا وملكٌ موكلٌ به يحفظه في نومه ويقظته من الجنّ والإنس والهوام ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴿٢٣﴾ أي لا يزيل نعمته عن قومٍ ولا يسلبهم إياها إلا إذا بدّلوا أحوالهم الجميلة بأحوال قبيحة ، وهذه من سنن الله الاجتماعية أنه تعالى لا يبدل ما بقومٍ من عافيةٍ ونعمة ، وأمنٍ وعزةٍ إلا إذا كفروا تلك النعم وارتكبوا المعاصي وفي الأثر « أوحى الله إلى نبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل أن قلّ لقومك : إنه ليس من أهل قرية ، ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حول الله عنهم ما يجنون إلى ما يكرهون » ﴿٢٤﴾ ﴿٢٥﴾ وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً ﴿٢٦﴾ أي وإذا أراد تعالى هلاك قومٍ أو عذابهم ﴿٢٧﴾ فلا مردّ له ﴿٢٨﴾ أي لا يقدر على ردّ ذلك أحد ﴿٢٩﴾ وما لهم من دونه من والٍ ﴿٣٠﴾ أي ليس لهم من دون الله وليٌّ يدفع عنهم العذاب والبلاء ﴿٣١﴾ هو الذي يريكم البرق ﴿٣٢﴾ هذا بيانٌ لآثار قدرته تعالى المنبئة في الكون أي يريكم أيها الناس البرق الخاطف من خلال السحاب ﴿٣٣﴾ خوفًا وطمعًا ﴿٣٤﴾ قال ابن عباس : خوفًا من الصواعق وطمعًا في الغيث ﴿٣٥﴾ ، فإن البرق غالباً ما يعقبه صواعق مدمرة ، وقد يكون وراءه المطر المدرار الذي به حياة البلاد والعباد ﴿٣٦﴾ وينشئ السحاب الثقال ﴿٣٧﴾ أي بقدرته كذلك يخلق السحب الكثيفة المحمّلة بالماء الكثير ﴿٣٨﴾ ويسبغ الرعد بحمده والملائكة من خيفته ﴿٣٩﴾ أي يسبغ الرعد له تسبيحاً مقترناً بحمده والثناء عليه ، وتسبغ له الملائكة خوفًا من عذابه ، وتسبغ الرعد حقيقةً دلّ عليها القرآن فتوّ من بها وإن لم نفهم تلك الأصوات فهو تعالى لا يخبر

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ
 بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا
 وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
 لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ

إلا بما هو حق كما قال ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾ أي يرسل الصواعق المدمرة نقمة يهلك بها من شاء ﴿وهم يجادلون في الله﴾ أي وكفار مكة يجادلون في وجود الله ووحدانيته وفي قدرته على البعث ﴿وهو شديد المحال﴾ أي وهو تعالى شديد القوة والبطش والنكال ، القادر على الانتقام ممن عصاه ﴿له دعوة الحق﴾ أي لله تعالى تتجه الدعوة الحق فهو الحقيق بأن يُعبد وحده بالدعاء والالتجاء ﴿والذين يدعون من دونه﴾ أي والآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون الله ﴿لا يستجيبون لهم بشيء﴾ أي لا يستجيبون لهم دعاء، ولا يسمعون لهم نداء ﴿إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه﴾ أي إلا كمن يبسط كفيه للماء من بعيد يدعو ويناديه ليصل الماء إلى فمه ، والماء جماد لا يحس ولا يسمع قال أبو السعود: شبه حال المشركين في عدم حصولهم عند دعاء آلهتهم على شيء أصلاً بحال عطشان هائم لا يدري ما يفعل ، قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغى وصوله إلى فمه وليس الماء ببالغ فمه أبداً لكونه جماداً لا يشعر بعطشه (١) ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أي مادعاؤهم والتجاؤهم لآلهتهم إلا في ضياع وخسار لأنه لا يُجدي ولا يفيد ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض﴾ أي ولله وحده يخضع وينقاد أهل السموات وأهل الأرض ﴿طوعاً وكرهاً﴾ أي طائعين وكارهين قال الحسن: المؤمن يسجد طوعاً، والكافر يسجد كرهاً (٢) أي في حالة الفزع والاضطرار ﴿وظلالهم بالغدو والآصال﴾ أي وتسجد ظلالمهم أيضاً لله في أول النهار وأواخره ، والغرض الإخبار عن عظمة الله تعالى وسلطانه الذي قهر كل شيء ، ودان له كل شيء ، بأنه ينقاد لجلاله جميع الكائنات حتى ظلال الأدميين ، والكل في نهاية الخضوع والاستسلام لأمره تعالى ﴿قل من رب السموات والأرض﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من خالق السموات والأرض ومدبر أمرها ؟ والسؤال للتهكم والسخرية بما عبدوا من دون الله ﴿قل الله﴾ أي قل لهم تقريباً وتبكيئاً : الله خالقهما ﴿قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً﴾ أي قل لهم - إلزاماً لإقامة الحجة عليهم - أجمعتم لله شركاء وعبدتموهم من دونه وهم لا يقدرُونَ على نفع أنفسهم ، ولا على دفع الضرر عنها ، فكيف يستطيعونه لغيرهم ؟ ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور﴾ هذا تمثيل لضلالهم في عبادة غير الله ، والمراد بالأعمى الكافر وبالْبصير المؤمن ، وبالظلمات الضلال وبالنور

أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلُقُهُ فَتَشَبِهَ الْخَالِقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾

الهدى أي كما لا يستوي الأعمى والبصير ، وكما لا تستوي الظلمات والنور ، كذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر ضياء الحق ، والمشرك الذي عمي عن رؤية ذلك الضياء ، فالفارق بين الحق والباطل واضح وضوح الفارق بين الأعمى والبصير ، والفارق بين الإيمان والضلال ظاهر ظهور الفارق بين النور والظلام ﴿أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم﴾ هذا من تمام الاحتجاج عليهم والتهكم بهم أي أم اتخذ هؤلاء المشركون آلهة خلقوا مخلوقات كالتي خلقها الله فالتبس الأمر عليهم فلا يدرون خلق الله من خلق ألهتهم ؟ وهو تهكم لاذع فإنهم يرون كل شيء من خلق الله ، ويرون هذه الآلهة المزعومة لم تخلق شيئاً ثم بعد هذا كله يعبدونها من دون الله ، وذلك أسخف وأحط ما تصل إليه عقول المشركين ، ولما أقام الحججة عليهم جاء بهذا البيان الواضح ﴿قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾ أي الله الخالق لجميع الأشياء لا خالق غيره ، وهو المنفرد بالألوهية والربوبية ، الغالب لكل شيء ، وجميع الأشياء تحت قدرته وقهره .

البَلاغَةُ : في الآيات الكريمة من وجوه الفصاحة والبيان والبدیع ما يلي :

١ - الإشارة بالبعيد عن القريب في ﴿تلك آيات الكتاب﴾ تنزيلاً لها منزلة البعيد للدلالة على علو شأنها ورفعة منزلتها و﴿أل﴾ في الكتاب للتفخيم أي الكتاب العجيب الكامل في إعجازه وبيانه .

٢ - الاستعارة التبعية في ﴿يغشي الليل النهار﴾ شبه إزالة نور النهار بواسطة ظلمة الليل بالغطاء الكثيف واستعار لفظ ﴿يغشي﴾ المشير إلى تغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية الحسية للأمر المعنوية .

٣ - الطباق في ﴿تغيضُ . . وتزداد﴾ وفي ﴿الغيب والشهادة﴾ وفي ﴿أسرَّ . . وجهر﴾ وفي ﴿مستخفٍ . . وسارب﴾ لأن السارب الظاهر وفي ﴿خوفاً وطمعاً﴾ وفي ﴿طوعاً وكرهاً﴾ وكلها من المحسنات البديعية اللفظية .

٤ - الإيجاز بالحذف في ﴿قل الله﴾ أي الله خالق السموات والأرض .

٥ - التشبيه التمثيلي في ﴿كباسط كفيه﴾ شبه عدم استجابة الأصنام للداعين لها بعدم استجابة الماء لباسط كفيه إليه من بُعد فوجه الشبه منتزع من متعدد .

٦ - الاستعارة في ﴿هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور﴾ استعار لفظ الظلمات والنور للكفر والإيمان وكذلك لفظ الأعمى للمشرك الجاهل والبصير للمؤمن العاقل .

تَبْيِيهُ : سميت الملائكة معقبات لأنهم يتعاقبون على أعمال العباد بالليل والنهار كما في البخاري (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة الفجر والعصر . .) الحديث .

فَكَايِدَةٌ : روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد يقول : (سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير) وكان أبو هريرة يقول من قالها فأصابته صاعقة فعلي ديبته^(١) .

قال الله تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماءً .. إلى .. وما لهم من الله من واق ﴾

من آية (١٧) إلى نهاية آية (٣٤) .

المناسكة : لما ذكر تعالى في الآيات السابقة أن في الأرض دعوتين : دعوة الحق ، ودعوة الباطل ، وذكر أن دعوة الله هي دعوة الحق ، ودعوة ما يعبدون من دونه هي دعوة الباطل .. ذكر تعالى هنا مثلين ضربهما للحق وأهله ، والباطل وحزبه ، ليتضح الفرق بين الهدى والضلال ، والرشد والغى ، ثم أعقبه بذكر مال المؤمنين في دار النعيم ، والكافرين في دار الجحيم .

اللغز : ﴿ زبداء ﴾ الزبد : الغشاء الذي يحمله السيل ﴿ رابياً ﴾ عالياً منتفخاً ﴿ جفء ﴾ مضمحلاً متلاشياً لا منفعة فيه ولا بقاء له^(٢) يقال : جفا الماء بالزبد إذا قذفه ورمى به ﴿ المهاد ﴾ الفراش وأصله المكان الممهّد الموطأ للنوم والراحة ﴿ يدرءون ﴾ يدفعون والدرء : الدفع ﴿ عقبى ﴾ العاقبة ويسمى الجزاء على الفعل عقبى لأنه يكون عقب الفعل ﴿ عدن ﴾ استقرار وثبات وخلود يقال : عدن بالمكان إذا أقام به ﴿ يبسط ﴾ يوسع ﴿ يقدر ﴾ يضيق ﴿ متاع ﴾ كل شيء يتمتع به إلى أجل ثم ينتهي ويفنى ﴿ طوبى ﴾ فرح وقرّة عين قال الزمخشري : مصدر من طاب كبشري وزلفى ومعناه أصبت خيراً وطيباً^(٣) ﴿ يئأس ﴾ اليأس : القنوط من الشيء ﴿ أمليت ﴾ أمهلت يقال : أملى الله له إذا أمهله وطوّل له المدة ﴿ واق ﴾ اسم فاعل من وقى إذا دفع الأذى والضرعنه .

سبب النزول : قال ابن عباس : نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ : اسجدوا للرحمن قالوا : وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ فأنزل الله ﴿ وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾^(٤) .

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ نَفْسِيرٍ : ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ أي أنزل تعالى من السماء مطراً ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ أي فجرت مياه الأودية بمقدار سعتها كل بحسبه ، فالكبير بمقدار كبره ، والصغير بمقدار صغره ﴿ فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ أي حمل السيل الذي حدث من الأمطار زبداً عالياً فوقه وهو ما يحمله السيل من غشاء ، ورغوة تظهر على وجه الماء قال الطبري : هذا مثل ضربه الله للحق والباطل ، والإيمان والكفر ، فمثل الحق في ثباته ، والباطل في اضمحلاله ، مثل الماء الذي أنزله الله من السماء إلى الأرض ، فاحتمل السيل زبداً عالياً ، فالحق هو الماء الباقي الذي يمكث في الأرض ، والزبد الذي لا ينتفع به هو الباطل ، وهذا أحد مثلي الحق

(١) القرطبي ٢٩٨/٩ . (٢) البحر ٣٨٢/٥ . (٣) الكشاف ٥٢٨/٢ . (٤) أسباب النزول ١٥٧ والقرطبي ٣١٨/٩ .

مَتَّعَ زَبْدٌ مِّثْلَهُ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحَسَنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

الْمِهَادُ ﴿١٨﴾ * أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾
 والباطل، والمثل الآخر^(١) قوله تعالى ﴿ومما يُوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبدٌ مثله﴾ أي ومن الذي يوقد عليه الناس من المعادن كالذهب والفضة والنحاس ، مما يُسبك في النار طلب الزينة أو الأشياء التي يُتَّفع بها كالأواني زبدٌ مثل زبد السيل ، لا يُتَّفع به كما لا يُتَّفع بزبد السيل ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾ أي كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴿أي كذلك يضرب الله المثل للحق والمثل للباطل ، فمثل الحق في ثباته واستقراره كمثل الماء الصافي الذي يستقر في الأرض فينتفع منه الناس ، ومثل الباطل في زواله واضمحلاله كمثل الزبد والغثاء الذي يقذف به الماء يتلاشى ويضمحل ﴿فأما الزبدُ فيذهب جُفَاءً﴾ أي فأما الزبد الذي لا خير فيه مما يطفو على وجه الماء والمعادن فإنه يرمي به السيل ويقذفه ويتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ﴿وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ أي وأما ما ينفع الناس به من الماء الصافي ، والمعدن الخالص فيبقى ويثبت في الأرض ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ أي مثل المثلين السابقين بين الله الأمثال للحق والباطل ، والهدى والضلال ليعتبر الناس ويتعظوا^(٢) ﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى﴾ أي للمؤمنين الذين استجابوا لله بالإيمان والطاعة المثوبة الحسنى وهي الجنة دار النعيم ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ أي لم يجيبوا ربه إلى الإيمان به وهم الكافرون ﴿لو أن لهم ما في الأرض جميعاً﴾ أي لو كان لهم جميع ما في الدنيا من الأموال ﴿ومثله معه﴾ أي ومثل جميع ما في الدنيا ﴿لافتدوا به﴾ أي لبذلوا كل ذلك فداءً لأنفسهم ليتخلصوا من عذاب الله ﴿أولئك لهم سوء الحساب﴾ أي لهم الحساب السيء قال الحسن : يُحاسبون بذنوبهم كلها لا يُغفر لهم منها شيء ﴿ومأواهم جهنم﴾ أي المكان الذي يأوون إليه يوم القيامة نار جهنم ﴿وبئس المهاد﴾ أي بئس هذا المستقر والفراش المهد لهم في النار ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾
 الهمزة للاستفهام الإنكاري أي هل يستوي من آمن وصدق بما نزل عليك يا محمد ومن بقي يتخبط في ظلمات الجهل والضلال لا لبَّ له كالأعمى ؟ والمراد به عمى البصيرة قال ابن عباس نزلت في حمزة وأبي جهل ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ أي إنما يتعظ بآيات الله ويعتبر بها ذوو العقول السليمة ، ثم عدد تعالى

(١) الطبري ١٣٤/١٣ . (٢) يقول الشهيد « سيد قطب » في تفسيره الضلال ما نصه : « ثم غمضي مع السياق يضرب مثلاً للحق والباطل ، للدعوة الباقية والدعوة الذاهبة مع الريح ، إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية ، وهو يلم في طريقه غثاءً يطفو على وجهه في صورة الزبد ، وهو نافس رابٍ منتفخ ولكنه بعد غثاء ، والماء من تحته سارب ساكن هاديء ولكنه هو الماء الذي يحمل الخير والحياة ، كذلك يقع في المعادن التي تُذاب لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة أو آنية كالحديد والرصاص ، فإن الخبث يطفو ولكنه بعد خبث يذهب ويبقى المعدن في نقاء ، ذلك مثل الحق والباطل ، فالباطل يطفو ويعلو ويبدو رايياً منتفخاً ولا يلبث أن يذهب جفاءً مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك ، والحق يظل هادئاً ساكناً ولكنه الباقي في الأرض كالماء المحيي ، والمعدن الصريح . »

وَالَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ

صفتهم فقال ﴿الذين يؤفون بعهد الله﴾ أي يتمون عهد الله الذي وصاهم به وهي أوامره ونواهيته التي كلف بها عباده ﴿ولا ينقضون الميثاق﴾ أي لا يخالفون ما وثقوه على أنفسهم من العهود المؤكدة بينهم وبين الله ، وبين العباد ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ أي يصلون الأرحام التي أمر الله بصلتها ﴿ويخشون ربهم﴾ أي يهابون ربهم إجلالاً وتعظيماً ﴿ويخافون سوء الحساب﴾ أي يخافون الحساب السيء المؤدي لدخول النار ، فهم لرهبتهم جادون في طاعة الله ، محافظون على حدوده ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم﴾ أي صبروا على المكارة طلباً لمرضاة الله ﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي أدوا الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾ أي أنفقوا بعض أموالهم التي أوجبها الله عليهم في الخفاء والعلانية ﴿ويدرءون بالحسنة السيئة﴾ أي يدفعون الجهل بالحلم والأذى بالصبر وقال ابن عباس : يدفعون بالعمل الصالح السيء من الأعمال^(١) بمعنى يفعلون الحسنات ليدرءوا بها السيئات وفي الحديث (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) ﴿أولئك لهم عقبى الدار﴾ أي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة وهي الجنة وقد جاء تفسيرها في قوله ﴿جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ أي جنات إقامة خالدة يدخلها أولئك الأبرار ومن كان صالحاً من آبائهم ونسائهم وأولادهم ، ليأنسوا بلقائهم ويتم بهم سرورهم ، وإن لم يكونوا يستحقون هذه المنازل العالية بأعمالهم ، فترفع منازل هؤلاء إكراماً لأولئك وذلك فضل الله ، ثم إنهم إكراماً آخر بيّنه بقوله ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ أي والملائكة تدخل عليهم للتهنئة من كل باب من أبواب الجنة يقولون لهم ﴿سلام عليكم بما صبرتم﴾ أي سلمتم من الآفات والمحن بصبركم في الدنيا ، ولئن تعبتم فيما مضى فلقد استرحتم الساعة ، وهذه بشارة لهم بدوام السلامة ﴿فنعم عقبى الدار﴾ أي نعمت هذه العاقبة الحميدة عاقبتكم وهي الجنة بدل النار ، ولما ذكر تعالى أوصاف المؤمنين التسع أعقبه بذكر أوصاف الكافرين الذميمة فقال ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ أي ينقضون عهودهم بعدما وثقوا على أنفسهم لله أن يعملوا بما عهد إليهم من طاعته والإيمان به ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ أي يقطعون الرحم التي أمر الله بوصلها ﴿ويفسدوا في الأرض﴾ ﴿أولئك لهم اللعنة﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح لهم البعد

لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا عَابَ ﴿٢٩﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَالطَّرْدُ مِنْ جَنَّتِهِ ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أَي لَهْمُ مَا يَسُوءُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ وَهُوَ عَذَابُ جَهَنَّمَ عَلَى عَكْسِ الْمُتَّقِينَ ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أَي يُوَسِّعُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ حَسَبَ الْحِكْمَةِ وَالْمَصْلِحَةِ ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَي وَفَرِحَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا فَرِحَ أَشْرَ وَبَطَرَ ، وَهُوَ إِخْبَارٌ فِي ضَمْنِهِ ذَمٌّ وَتَسْفِيهِ لِمَنْ فَرِحَ بِالدُّنْيَا وَلِذَلِكَ حَقَّرَهَا بِقَوْلِهِ ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ أَي قَلِيلٌ وَشَيْءٌ حَقِيرٌ بِالنَّظَرِ إِلَى الْآخِرَةِ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أَي وَيَقُولُ كُفَّارُ مَكَّةَ هَلَّا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ مَعْجِزَةٌ مِنْ رَبِّهِ مِثْلَ مَعْجِزَةِ مُوسَى فِي فُلُقِ الْبَحْرِ ، وَمَعْجِزَةِ عِيسَى فِي إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ أَي قُلْ لَهْمُ يَا مُحَمَّدُ أَمْرٌ بِيَدِ اللَّهِ وَلَيْسَ إِلَيَّ ، يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ إِضْلَالَهُ فَلَا تَغْنِي عَنْهُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ شَيْئًا ، وَيُرْشِدُ إِلَى دِينِهِ مَنْ أَرَادَ هِدَايَتَهُ لِأَنَّهُ رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ قَالَ فِي التَّسْهِيلِ : خَرَجَ بِالكَلَامِ مَخْرَجَ التَّعْجَبِ حِينَ طَلَبُوا آيَةَ وَالْمَعْنَى قَدْ جَاءَكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالقُرْآنِ وَآيَاتٍ كَثِيرَةٍ فَعَمِيَتْ عَنْهَا ، وَطَلَبْتُمْ غَيْرَهَا ، وَتَمَادَيْتُمْ عَلَى الكُفْرِ فَإِنَّهُ تَعَالَى يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ مَعَ ظَهْوَرِ الْآيَاتِ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ دُونَ ذَلِكَ ^(١) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ هَذَا بَدَلٌ وَالْمَعْنَى يَهْدِي أَهْلَ الْإِنَابَةِ وَهُمْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَسْكُنُ وَتَسْتَأْنَسُ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ ، وَجِيءَ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ لِإِفَادَةِ دَوَامِ الاطمئنانِ وَاسْتِمْرَارِهِ ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أَي أَلَا فَانْتَبَهُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ فَإِنَّ بِذِكْرِ اللَّهِ تَسْتَأْنَسُ وَتَسْكُنُ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَلَا يَشْعُرُونَ بِقَلْقٍ وَاضْطِرَابٍ مِنْ سُوءِ الْعِقَابِ ، عَلَى عَكْسِ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ اشْمَأَزَتْ قُلُوبُهُمْ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا عَابَ﴾ أَي أَمَا الْمُؤْمِنُونَ أَهْلُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَفَرَّةٌ عَيْنٌ لَهُمْ وَنَعْمٌ مَا يَلْقَوْنَ مِنَ الْهَنَاءِ وَالسَّعَادَةِ فِي الْمَرْجِعِ وَالْمُنْقَلَبِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ فَرِحُوا وَقَرَّةٌ عَيْنٌ ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أَي كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَنْبِيَاءَ مِنْ قَبْلِكَ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ فِي أُمَّةٍ قَدْ مَضَتْ قَبْلَهَا أُمَّةٌ كَثِيرَةٌ ، فَهِيَ آخِرُ الْأُمَمِ وَأَنْتَ خَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ ﴿لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أَي لِتَبْلُغَهُمْ هَذَا الْوَحْيَ الْعَظِيمَ وَالذِّكْرَ الْحَكِيمَ ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أَي وَالْحَالُ أَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ الَّذِي وَسَّعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَي قُلْ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِنْ الرَّحْمَنِ الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهِ

وإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٤٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَ سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلِ اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْيَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلِ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٤٢﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَأَنْكُرْتُمْ مَعْرِفَتَهُ هُوَ رَبِّي الَّذِي آمَنْتُ بِهِ لَا مَعْبُودَ لِي سِوَاهُ ﴿٤٣﴾ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٤٤﴾ أَي عَلَيْهِ وَحْدَهُ اعْتَمَدْتُ ، وَإِلَيْهِ تَوْبَتِي وَمَرْجِعِي فَيُثَبِّتُنِي عَلَى مَجَاهَدَتِكُمْ ، وَالْغَرَضُ تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ مِمَّا يَلْقَاهُ مِنْ كِفَارِ قَرِيشٍ مِنَ الْجُحُودِ وَالْعِنَادِ فَقَدْ كَذَّبَ قَبْلَهُمُ الْأُمَمُ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَ سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ أَي لَوْ كَانَ كِتَابُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُنزَلَةِ سُيِّرَتْ بِتَلَاوَتِهِ الْجِبَالُ وَزَعَزَعَتْ عَنْ أَمَاكِنِهَا ﴿٤٧﴾ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ ﴿٤٨﴾ أَي شَقِقَتْ بِهِ الْأَرْضُ حَتَّى تَتَصَدَّعَ وَتُصِيرَ قِطْعًا ﴿٤٩﴾ أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴿٥٠﴾ أَي خَوَّطَبَتْ بِهِ الْمَوْتَى حَتَّى أَجَابَتْ وَتَكَلَّمَتْ بَعْدَ أَنْ أَحْيَاهَا اللَّهُ بِتَلَاوَتِهِ عَلَيْهَا ، وَجَوَابُ ﴿لَوْ﴾ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ : لَكَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ ، لِكَوْنِهِ غَايَةً فِي الْهُدَايَةِ وَالتَّذْكِيرِ ، وَنَهَايَةً فِي الْإِنذَارِ وَالتَّخْوِيفِ (١) وَقَالَ الزَّجَّاجُ : تَقْدِيرُهُ «لَمَا آمَنُوا» لَغْلُوهُمْ فِي الْمَكَابِرَةِ وَالْعِنَادِ ، وَتَمَادِيهِمْ فِي الضَّلَالِ وَالْفِسَادِ ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بَلِ لِلْإِضْرَابِ وَالْمَعْنَى : لَوْ أَنَّ قُرْءَانَ فَعُلَ بِهِ مَا ذُكِرَ لَكَانَ ذَلِكَ هَذَا الْقُرْءَانُ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجِبْهُمُ إِلَى مَا اقْتَرَحُوا مِنَ الْآيَاتِ ، لِأَنَّهُ هُوَ الْمَالِكُ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ وَالْفَاعِلُ لِمَا يَشَاءُ مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ تَحَكُّمٌ أَوْ اقْتِرَاحٌ ﴿أَفَلَمْ يَبْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أَي أَفَلَمْ يَقْنَطُ وَيَبْأَسِ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ إِيمَانِ الْكُفَرَاءِ ، وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ تَعَالَى لَوْ شَاءَ هَدَايَتَهُمْ لَهْدَاهُمْ لِأَنَّ الْأَمْرَ لَهُ ، وَلَكِنْ قَضَتْ الْحِكْمَةُ أَنْ يَكُونَ بِنَاءُ التَّكْلِيفِ عَلَى الْإِخْتِيَارِ (٢) ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ أَي وَلَا يَزَالُ كِفَارُ مَكَّةَ يُصِيبُهُمْ بِسُوءِ أَعْمَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ دَاهِيَةً تَقْرَعُ أَسْمَاعَهُمْ وَتَقْلُقُ بَالَهُمْ مِنْ صُنُوفِ الْبَلَايَا وَالْمَصَائِبِ ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾ أَي أَوْ تَحُلُّ الْقَارِعَةُ وَالدَاهِيَةُ قَرِيبًا مِنْ دِيَارِهِمْ فَيَفْزَعُونَ مِنْهَا وَيَتَطَايَرُ إِلَيْهِمْ شَرُّهَا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ بِإِظْهَارِ الْإِسْلَامِ وَانْتِصَارِكُمْ عَلَيْهِمْ بِفَتْحِ مَكَّةَ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أَي لَا يُخْلَفُ وَعْدَهُ لِرُسُلِهِ وَأَوْلِيَائِهِ بِنُصْرَتِهِمْ عَلَى أَعْدَائِهِ ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلِ مِّن قَبْلِكَ﴾ تَسْلِيَةً وَتَأْنِيسًا لِلنَّبِيِّ ﷺ أَي كَمَا اسْتَهْزَأَ بِكَ الْمُشْرِكُونَ فَقَدْ اسْتَهْزَأَ الْمُجْرِمُونَ بِرُسُلِهِمْ وَأَنْبِيَائِهِمْ ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أَي أَمَهَلْتُهُمْ وَتَرَكْتُهُمْ فِي أَمْنٍ وَدَعَا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ بِالْعَذَابِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أَي فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي لَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ ؟ ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أَي أَفَمَن هُوَ رَقِيبٌ حَفِيفٌ عَلَى عَمَلِ كُلِّ إِنْسَانٍ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَالْخَبِيرُ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ : كَمَنْ لَيْسَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَسْمَعُ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَمْلِكُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا قَالَ الْفَرَاءُ : وَتُرِكَ جَوَابُهُ لِأَنَّ

(١) هذا اختيار الزمخشري واختار الزجاج أن التقدير «لما آمنوا» .

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى «أفلم يبأس الذين آمنوا» أفلم يعلم ويتبين وهي لغة هوازن وهذا منقول عن بعض السلف ، ولكن لا ضرورة لإخراج الكلمة عن معناها الأصلي طالما يمكن فهمها على الوجه المتبادر كما بينا .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا سَمَوْهُمْ^١ أَمْ تَتَّبِعُونَ^٢ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ^٣ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ^٤ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ^٥ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَشَقُّ^٦ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ^٧

المعنى معلومٌ وقد بيَّنه بعد هذا بقوله ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ كأنه قيل : هل الله كشركا لهم؟^(١) وقال الزمخشري : هذا احتجاجٌ عليهم في إشراكهم بالله يعني أفالله الذي هو قائم رقيب على كل نفسٍ صالحة أو طالحة بما كسبت من خير أو شر وقد أعدَّ لكلِّ جزاءه كمن ليس كذلك^(٢) ﴿وجعلوا لله شركاء قلوبهم﴾ أي وجعل المشركون آلهة عبدها معه من أصنام وأنداد في منتهى العجز والحقارة والجهالة ، قل لهم يا محمد : سموهم لنا وصفوهم لننظر هل لهم ما يستحقون به العبادة والشركة مع الله؟ ﴿أم تنبؤونه بما لا يعلم في الأرض﴾ أي أم تخبرون الله بشركاء لا يعلمهم سبحانه وهو استفهام للتوبيخ ﴿أم بظاهر من القول﴾ أي أم تسموهم شركاء بظنٍ باطلٍ فاسدٍ لا حقيقة له ، لفرط الجهل وسخافة العقل ﴿بل زينٌ للذين كفروا مكرهم﴾ أي زينٌ لهم الشيطان ذلك الكفر والضلال ﴿وصدوا عن السبيل﴾ أي منعوا عن طريق الهدى ﴿ومن يضلل الله فماله من هادٍ﴾ أي ومن يضلله الله فماله أحدٌ يهديه ﴿لهم عذابٌ في الحياة الدنيا﴾ أي لهؤلاء الكفرة عذاب عاجل في هذه الحياة الدنيا بالقتل والأسر وسائر المحن ﴿ولعذاب الآخرة أشقُّ﴾ أي ولعذابهم في الآخرة أثقل وأشد إيلاماً من عذاب الدنيا ﴿وما لهم من الله من واقٍ﴾ أي وليس لهم من يحميهم من عذاب الله أو يدفع عنهم سخطه وانتقامه .

البلاغَة : ١ - ﴿أنزل من السماء ماءً فسالت أودية . . .﴾ الآية شبه تعالى الحق والباطل بتشبيهه رائع يسمى « التشبيه التمثيلي » لأن وجه الشبه فيه متنوعٌ من متعدد ، فمثل الحق بالماء الصافي الذي يستقر في الأرض ، والجوهر الصافي من المعادن الذي به ينتفع العباد ، ومثل الباطل بالزبد والرغوة التي تظهر على وجه الماء ، والخبث من الجوهر الذي لا يلبث أن يتلاشى ويضمحل ، والصورة التي توحي بها الآية « صورة الحق والباطل » وهما في صراع كالزبد الذي تتقاذفه الأمواج ﴿فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ وهو تمثيل في منتهى الروعة والجمال .

٢ - ﴿فسالت أوديةً بقدرها﴾ مجاز عقلي من إسناد الشيء لمكانه والأصل فسالت مياه الأودية .

٣ - ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾ فيه إيجاز بالحذف أي أمثال الحق وأمثال الباطل .

٤ - ﴿للذين استجابوا . . . والذين لم يستجيبوا﴾ بينهما طباق السلب .

٥ - ﴿كمن هو أعمى﴾ شبه الجهل والكفر بالعمى على سبيل الاستعارة التبعية لأن المراد بالأعمى الجاهل الكافر .

٦- ﴿سراً وعلانية﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿الحسنة والسيئة﴾ و﴿يسيطر ويقدر﴾ و﴿يضل ويهدي﴾ للتضاد بين اللفظين .

٧- ﴿إلا متاع﴾ أي إلا مثل المتاع الذي يستمتع به الإنسان في الحاجات الموقته ففيه تشبيه بليغ لحذف الأداة ووجه الشبه .

فكائدَة : بينَ تعالى في قوله ﴿ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ أن النسب لا ينفع إذا لم يحصل معه العمل الصالح ، وفيه قطع للأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب .

تنبيه : قال الإمام الطيبي في قوله تعالى ﴿أفمن هو قائم على كل نفس . .﴾ في هذه الآية احتجاج بليغ مبني على فنون من علم البيان أولها : التوبيخ لهم على قياسهم الفاسد في عبادة غير الله ثانيها : وضع الظاهر موضع الضمير ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ تنبيهاً على ضلالهم في جعل شركاء لمن هو فرد واحد لا يشاركه أحد في اسمه ثالثها : إنكار لوجود الشركاء على وجه برهاني ﴿قل سمّوهم﴾ رابعها : نفي الشيء بنفي لازمه ﴿أم تنبئونه بما لا يعلم﴾ خامسها : الاحتجاج عليهم بطريق التدرج لبعثهم على التفكير ﴿أم بظاهر من القول﴾ أي أتقولون بأفواهكم من غير روية ولا تفكير ببطلان ما تقولون ؟ فكان هذا الاحتجاج منادياً على نفسه بالاعجاز وأنه ليس من كلام البشر^(١) .

قال الله تعالى : ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار . . إلى . . ومن عنده علم الكتاب﴾ من آية (٣٥) إلى نهاية السورة الكريمة .

المناسكة : لما ذكر تعالى ما أعد للكفار في الآخرة ذكر ما أعد للمؤمنين في جنات النعيم ، ثم توعد المشركين بالعذاب الأليم ، وختم السورة الكريمة ببيان صدق رسالته عليه السلام بشهادة الله تعالى وشهادة المؤمنين من أهل الكتاب .

اللغات : ﴿الأحزاب﴾ الطوائف المتفرقة من أحزاب اليهود والنصارى سموا بذلك لأنهم جماعات متفرقة لا تجمعهم عقيدة واحدة ﴿مأب﴾ أي مأبى بمعنى مرجعي ﴿يمحو﴾ المحو : إزالة الأثر من كتابة أو غيرها وعكسه الإثبات ﴿أم الكتاب﴾ أصل كل الكتب والمراد منه علم الله أو اللوح المحفوظ ﴿البلاغ﴾ اسم بمعنى التبليغ ﴿مكر﴾ المكر : تدبير أمر في خفاء ، وقد يكون في الخير وقد يكون في الشر .

سبب النزول : قال الكلبي : عيرت اليهود رسول الله ﷺ وقالت : ما نرى لهذا الرجل مهمة إلا النساء والنكاح ولو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء ، فأنزل الله تعالى ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلناهم أزواجاً وذرية﴾ (٢) .

(١) نقلاً عن حاشية الصاوي على الجلالين . (٢) أسباب النزول ١٥٨ .

* مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٤٥﴾ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابِدٌ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِعَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٤٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ

التفسير : ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار﴾ أي صفة الجنة العجيبة الشأن التي وعد الله بها عباده المتقين أنها تجري من تحت قصورها وغرفها الأنهار ﴿أكلها دائم وظلها﴾ أي ثمرها دائم لا ينقطع ، وظلها دائم لا تنسخه الشمس ﴿تلك عقبى الذين اتقوا﴾ أي تلك الجنة عاقبة المتقين ومآلهم ﴿وعقبى الكافرين النار﴾ أي وأما عاقبة الكفار الفجار فهي النار ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك﴾ أي والذين أنزلنا إليهم التوراة والإنجيل - ممن آمن بك واتبعك يا محمد - كعبد الله بن سلام والنجاشي وأصحابه يفرحون بهذا القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به ﴿ومن الأحزاب من ينكروا بعضه﴾ أي ومن أهل الملل المتحزبين عليك وهم أهل أديان شتى من ينكروا بعض القرآن مكابرة مع يقينهم بصدقه لأنه موافق لما معهم ﴿قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به﴾ أي قل يا محمد إنما أمرت بعبادة الله وحده لا أشرك معه غيره ﴿إليه أَدْعُوا وإليه مآب﴾ أي إلى عبادته أَدْعُوا الناس وإليه مرجعي ومصيري ﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾ أي ومثل إنزال الكتب السابقة أنزلنا هذا القرآن بلغة العرب لتحكم به بين الناس ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم﴾ أي ولئن اتبعت المشركين فيما يدعونك إليه من الأهواء والآراء بعدما أتاك الله من الحجج والبراهين ﴿ما لك من الله من وليٍّ ولا واقٍ﴾ أي ليس لك ناصرٌ ينصرك أو يقيك من عذاب الله ، والمقصود تحذير الأمة من اتباع أهواء الناس لأن المعصوم إذا خوطب بمثل ذلك كان الغرض تحذير الناس قال القرطبي : الخطاب للنبي ﷺ والمراد الأمة ^(١) ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك﴾ أي أرسلنا قبلك الرسل الكرام ﴿وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾ أي وجعلنا لهم النساء والبنين ، وهو ردٌ على من عاب على الرسول ﷺ كثرة النساء وقالوا : لو كان مسلماً حقاً لكان مشتغلاً بالزهد وترك الدنيا والنساء ، فردَّ الله مقالتهم وبين أن محمداً ﷺ ليس ببدعٍ في ذلك ، بل هو كمن تقدم من الرسل ﴿وما كان لرسولٍ أن يأتي بآيةٍ إلا بإذن الله﴾ أي لم يكن لرسولٍ أن يأتي قومه بمعجزةٍ إلا إذا أذن الله له فيها ، وهذا ردٌ على الذين اقترحوا الآيات ﴿لكل أجلٍ كتاب﴾ أي لكل مدةٍ مضروبة كتابٌ كتبه الله في اللوح المحفوظ، وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار قال الطبري : لكل أمرٍ قضاه الله كتابٌ قد كتبه فهو عنده ^(٢) ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾

مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٤١﴾ وَإِنْ مَا نُزِينَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّنِكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
 الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٢﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَا نَاتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ
 لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤٣﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ
 وَسِعَعِلْمُ الْكُفْرِ لِمَنْ عَقَّبَى الدَّارِ ﴿٤٤﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
 وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٥﴾

أي ينسخ الله ما يشاء نسخه من الشرائع والأحكام وصحف الملائكة الكرام ، وثبت ما يشاء منها دون
 تغيير قال ابن عباس : بيدك الله ما يشاء فينسخه إلا الموت والحياة والشقاء والسعادة فإنه قد فرغ منها^(١)
 وقيل : إن المحو والإثبات عام في جميع الأشياء لما روي أن عمر بن الخطاب كان يطوف بالبيت ويكي
 ويقول : اللهم إن كنت كتبت علي شقوة أو ذنباً فاحمه ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ،
 واجعله سعادة ومغفرة^(٢) ، وقد رجحه أبو السعود وهو قول ابن مسعود أيضاً ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أي أصل
 كل كتاب وهو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الأشياء كلها ﴿وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ أي
 وإن أريناك يا محمد بعض الذي وعدناهم من العذاب ﴿أو نتوفينك﴾ أي نقبضك قبل أن نقر عينك بعذاب
 هؤلاء المشركين ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ الرسالة وعلينا حسابهم
 وجزاؤهم ﴿أولم يروا أنا ناتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ أي أولم يروا هؤلاء المشركون أننا نمكن للمؤمنين
 من ديارهم ونفتح للرسول الأرض بعد الأرض حتى تنقص دار الكفر وتزيد دار الإسلام ؟ وذلك من أقوى
 الأدلة على أن الله منجز وعده لرسوله عليه السلام^(٣) ﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾ أي ليس يتعقب حكمه
 أحد بنقض ولا تغيير ﴿وهو سريع الحساب﴾ أي سريع الانتقام ممن عصاه ﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ أي
 مكر الكفار الذين خلوا بأنبيائهم كما مكر كفار قريش بك ﴿فله المكر جميعاً﴾ أي له تعالى أسباب المكر جميعاً
 لا يضر مكرهم إلا بإرادته ، فهو يوصل إليهم العذاب من حيث لا يعلمون ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ أي
 من خير وشر فيجازي عليه ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾ أي لمن تكون العاقبة الحسنة في الآخرة
 ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلًا﴾ أي يقول كفار مكة لست يا محمد مرسلًا من عند الله ﴿قل كفى بالله
 شهيداً بيني وبينكم﴾ أي حسي شهادة الله بصدقي بما أيدني من المعجزات ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ أي
 وشهادة المؤمنين من علماء أهل الكتاب .

البَلَاغَةُ : في الآيات الكريمة من وجوه البيان والبدیع ما يلي :

(١) وهذا قول مجاهد أيضاً حيث قال : إلا الحياة والموت والشقاوة والسعادة فإنها لا يتغيران . (٢) الطبري ١٣/١٦٧ . (٣) قال سيد
 قطب : أن يد الله القوية تأتي الأمم الغنية حين تبطر وتكفر وتفسد فتنقص من قوتها وقدرها وثراتها وتحصرها في رقعة ضيقة من الأرض بعد
 أن كانت ذات امتداد وسلطان أقول : هذا التفسير جديد وفيه إشراقة من إشراقات النور ، ونفحة من نفحات الجمال .

- ١ - التشبيه في قوله ﴿كذلك أرسلناك﴾ وفي ﴿وكذلك أنزلناه﴾ ويسمى مرسلأً مجملاً .
 - ٢ - الإيجاز بالحذف في ﴿أكلها دائم وظلها﴾ أي وظلها دائم حذف منه الخبر بدليل السابق .
 - ٣ - المقابلة في ﴿تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾ وهو من المحسنات البديعية .
 - ٤ - جناس الاشتقاق في ﴿أرسلنا رسلاً﴾ .
 - ٥ - الطباق في ﴿يمحو . . ويثبت﴾ .
 - ٦ - القصر في ﴿إنما أمرت أن أعبد الله﴾ وفي ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ وكلاهما قصر إضافي من باب قصر الموصوف على الصفة أي ليس لك من الصفات إلا صفة التبليغ .
 - ٧ - التهيج والإلهاب ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ .
 - ٨ - المجاز المرسل في ﴿نأتي الأرض﴾ أي يأتيها أمرنا وعذابنا .
- لطيفة :** فسر بعضهم قوله تعالى ﴿ننقصها من أطرافها﴾ أن نقصانها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير والصلاح ، وهذا مروى عن مجاهد وابن عباس في رواية عنه وأنشد بعضهم :
- | | |
|-------------------------------------|--|
| الأرضُ تحيا إذا ما عاشَ عالمُها | متى يمُتُ عالمٌ منها يمُتُ طرفُ |
| كالأرضِ تحيا إذا ما الغيثُ حلَّ بها | وإن أبى عادَ في أكنافها التَّلَفُ ^(١) |

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الرعد »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* تناولت السورة الكريمة موضوع العقيدة في أصولها الكبيرة « الإيمان بالله ، الإيمان بالرسالة ، الإيمان بالبعث والجزاء » ويكاد يكون محور السورة الرئيسي « الرسالة والرسول » فقد تناولت دعوة الرسل الكرام بشيء من التفصيل ، وبيّنت وظيفة الرسول ، ووضحت معنى وحدة الرسالات السماوية ، فالأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين جاءوا لتشييد صرح الإيمان ، وتعريف الناس بالإله الحق الذي تعنوله الوجوه ، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور ، فدعوتهم واحدة ، وهدفهم واحد ، وإن كان بينهم اختلاف في الفروع .

* وقد تحدثت السورة عن رسالة موسى عليه السلام ، ودعوته لقومه إلى أن يعبدوا الله ويشكروه ، وضربت الأمثال بالمكذبين للرسل ، من الأمم السابقة كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، ثم تناولت الآيات موضوع الرسل مع أقوامهم على مر العصور والدهور ، وحكت ما جرى بينهم من محاورات ومناورات انتهت بإهلاك الله للظالمين ﴿ وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لنعودنَّ في ملتنا ، فأوحى إليهم ربهم لنهلكنَّ الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ .

* وتحدثت السورة عن مشهد من مشاهد الآخرة ، حيث يلتقي الأشقياء المجرمون بأتباعهم الضعفاء ، وذكرت ما يدور بينهم من حوار طويل ، ينتهي بتكديس الجميع في نار جهنم يصطلون سعيها ، فلم ينفع الأتباع تلك اللعنات والشتائم التي وجهوها إلى الرؤساء فالكل في السعير ، ثم ضربت الآيات مثلاً لكلمة الإيمان ، وكلمة الضلال ، بالشجرة الطيبة ، والشجرة الخبيثة ، وختمت السورة ببيان مصير الظالمين يوم الجزاء والدين .

التسمية : سميت السورة الكريمة «سورة إبراهيم» تخليداً لماثر أب الأنبياء ، وإمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام ، الذي حطم الأصنام ، وحمل راية التوحيد ، وجاء بالحنيفية السمحة ودين الإسلام الذي بعث به خاتم المرسلين ، وقد قص علينا القرآن الكريم دعواته المباركات بعد انتهائه من بناء البيت العتيق ، وكلها دعوات إلى الإيمان والتوحيد .

اللفظة : ﴿ويل﴾ هلاكٌ ودمارٌ ﴿يستحبون﴾ يختارون ويفضّلون ﴿يسومونكم﴾ يذيقونكم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾
 اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا
 مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُبَيِّنَ لَهُمْ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾

يقال : سامه الذلّ أي أذاقه الذلّ ﴿تأذّن﴾ أعلم إعلماً لا شبهة فيه ﴿نبأ﴾ النبا : الخبر وجمعه أنباء
 ﴿سلطان﴾ حجة وبرهان ﴿فاطر﴾ مبدع ومخترع ﴿استفتحوا﴾ استنصروا على أعدائهم ﴿جبار﴾ الجبار :
 المتكبر الذي لا يرى لأحدٍ عليه حقاً ﴿عنيد﴾ العنيد : المعاند للحق والمجانب له الذي يذهب عن طريق
 الحق ، تقول العرب : شرّ الأبل العنود ﴿صديد﴾ الصديد : القيح الذي يسيل من أجساد أهل النار
 ﴿يتجرعه﴾ أي يتحسّاه ويتكلف بلعه بمرارة ﴿يُسيغُهُ﴾ يتلعه .

النفسير : ﴿الر﴾ هذا الكتاب المعجز مؤلف من جنس هذه الحروف المقطعة فاتوا بمثله إن
 استطعتم ﴿كتاب أنزلناه إليك﴾ أي هذا القرآن كتاب أنزلناه عليك يا محمد ، لم تنشئه أنت وإنما
 أوحيناه نحن إليك ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ أي لتخرج البشرية من ظلمات الجهل
 والضللال إلى نور العلم والإيمان ﴿بإذن ربهم﴾ أي بأمره وتوفيقه ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ أي
 لتهدبهم إلى طريق الله العزيز الذي لا يُغالب ، المحمود بكل لسان ، الممجّد في كل مكان ﴿الله الذي له
 ما في السموات وما في الأرض﴾ أي المالك لما في السموات والأرض ، الغني عن الناس ، المسيطر على
 الكون وما فيه ﴿وويلٌ للكافرين من عذاب شديد﴾ قال الزجاج : ﴿ويلٌ﴾ كلمة تُقال للعذاب
 والهلكة ^(١) ، أي هلاك ودمارٌ للكافرين ويا ويلهم من عذاب الله الأليم ، ثم وضّح صفات أولئك الكفار
 بقوله ﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة﴾ أي يفضلون ويؤثرون الحياة الفانية على الحياة
 الآخرة الباقية ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ أي يصدون الناس ويمنعونهم عن دين الإسلام
 ﴿ويبغونها عوجاً﴾ أي يطلبون أن تكون دين الله معوجة لتوافق أهواءهم ﴿أولئك في ضلالٍ
 بعيد﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة في ضلالٍ عن الحق مبين ، لا يرجى لهم صلاح ولا
 نجاح ﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه﴾ أي وما أرسلنا في الأمم الخالية رسولاً من الرسل إلا
 بلغة قومه ﴿ليبين لهم﴾ أي ليبين لهم شريعة الله ويفهمهم مراده ، لتتم الغاية من الرسالة ﴿فيضلُّ
 الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي وليست وظيفة الرسل إلا التبليغ وأما أمر الهداية والإيمان فذلك بيد

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٦٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٦٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ

الله يضلُّ من يشاء إضلاله ، ويهدي من يشاء هدايته على ما سبق به قضاؤه المحكم ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي وهو العزيز في ملكه ، الحكيم في صنعه ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ أي أرسلنا موسى بالمعجزات الباهرات الدالة على صدقه ﴿أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور﴾ أن تفسيرية بمعنى أي والمعنى أي أخرج بني إسرائيل من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الإيمان والتوحيد قال أبو حيان : وفي قوله ﴿قومك﴾ خصوص لرسالة موسى إلى قومه بخلاف قوله لمحمد ﴿لتخرج الناس﴾ مما يدل على عموم الرسالة (١) ﴿وذكّرهم بأيام الله﴾ أي ذكرهم بأياديه ونعمه عليهم ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي في التذكير بأيام الله لعبراً ودلالات لكل عبد منيب صابر على البلاء ، شاكراً للنعماء ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي اذكروا نعم الله الجليلة عليكم ﴿إذ أنجاكم من آل فرعون﴾ أي حين نجاكم من الذل والاستعباد من فرعون وزبانيته ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ أي يذيقونكم أسوأ أنواع العذاب ﴿ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ أي يذبحون الذكور ويستبقون الإناث على قيد الحياة مع الذل والصغار ﴿وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم﴾ أي وفي تلك المحنة ابتلاءٌ واختبار لكم من ربكم عظيم قال المفسرون : وكان سبب قتل الذكور أن الكهنة قالوا لفرعون إن مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون ذهاب ملكك على يديه ، فأمر بقتل كل مولود ﴿وإذ تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ هذا من تنمة كلام موسى أي واذكروا أيضاً حين أعلم ربكم إعلاماً لا شبهة فيه لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي ﴿ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ أي ولئن جحدتم نعمتي بالكفر والعصيان فإن عذابي شديد ، وعدّ بالعذاب على الكفر ، كما وعدّ بالزيادة على الشكر ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً﴾ أي وقال موسى لبني إسرائيل بعد أن أيس من إيمانهم لئن كفرتم أنتم وجميع الخلائق فلن تضروا الله شيئاً ﴿فإن الله لغني حميد﴾ أي هو غني عن شكر عباده ، مستحق للحمد في ذاته وهو المحمود وإن كفره من كفره ﴿ألم يأتكم نبؤا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود﴾ أي ألم يأتكم أخبار من قبلكم من الأمم المكذبة كقوم نوح وعاد وثمود ماذا حلّ بهم لما كذبوا بآيات الله ؟ ﴿والذين من بعدهم﴾ أي والأمم الذين جاءوا بعدهم لا يعلمهم إلا

بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا
 أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَلِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا
 عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتُونَا بُسُلْتَيْنِ مُبِينَيْنِ ﴿١٥﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ
 مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا

الله ﴿١٤﴾ أي لا يحصي عددهم إلا الله ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي بالحجج الواضحات ، والدلائل
 الباهرات ﴿فردوا أيديهم في أفواههم﴾ أي وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم وقال ابن مسعود :
 عضوا أصابعهم غيظاً^(١) ﴿وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به﴾ أي كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به
 ﴿وإننا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾ أي في شك عظيم من دعوتكم ، وقلق واضطراب من
 دينكم ﴿قالت رسلهم ألي الله شك﴾ أي أجابهم الرسل بقولهم : أفي وجود الله ووحدايته شك؟
 والاستفهام للإنكار والتوبيخ لأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة ولهذا الفتوا الانتباه إلى براهين وجوده بقولهم
 ﴿فاطر السموات والأرض﴾ أي خالقهما ومبدعها على غير مثال سابق ﴿يدعوكم ليغفر لكم من
 ذنوبكم﴾ أي يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم ذنوبكم ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ أي إن أمتهم أمدٌ
 في أعماركم إلى منتهى آجالكم ولم يعاقبكم في العاجل فيهلككم ﴿قالوا إن أنتم إلا بشرٌ مثلنا﴾ أي
 ما أنتم إلا بشر مثلنا لا فضل لكم علينا ﴿تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا﴾ أي تريدون أن
 تصرفونا عن عبادة الأوثان التي كان عليها آباؤنا ﴿فاتونا بسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي فاتونا بحجة ظاهرة على
 صدقكم ﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشرٌ مثلكم﴾ أي قالت الرسل : نحن كما قلتم بشرٌ مثلكم
 ﴿ولكن الله يمنُّ على من يشاء من عباده﴾ أي يتفضل على من يشاء بالنبوة والرسالة قال الزمخشري :
 لم يذكروا فضلهم تواضعاً منهم وسلّموا لقولهم وأنهم بشرٌ مثلهم في البشرية وحدها ، فأما ما وراء ذلك
 فما كانوا مثلهم^(٢) ﴿وما كان لنا أن نأتيكم بسلطانٍ إلا بإذن الله﴾ أي وما ينبغي لنا أن نأتيكم بحجة
 وآية مما اقترحتموه علينا إلا بمشيئة الله وإذنه ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي على الله وحده فليعتمد
 المؤمنون في جميع أمورهم ﴿وما لنا ألا نتوكل على الله﴾ أي قالت الرسل : أي شيء يمنعنا من التوكل
 على الله ؟ ﴿وقد هدانا سبيلنا﴾ أي والحال أنه قد بصرنا طريق النجاة من عذابه ﴿ولنصبرنَّ على
 ما أذيتونا﴾ أي ولنصبرنَّ على أذاكم قال ابن الجوزي : وإنما قُصَّ هذا وأمثاله على نبينا ﷺ ليقنتدي بمن

(١) مبنى القول الثاني على المجاز ومثله ﴿عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ والقول الأول محمول على الحقيقة وتوضيحه أنهم لما سمعوا كلام
 الأنبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فوضع يده على فيه .

لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾
 وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدَنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
 الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٩﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ
 كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٠﴾ مِّنْ وَّرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿٢١﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ
 كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَّرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿٢٢﴾

قبله في الصبر وليعلم ما جرى لهم (١) ﴿وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ ليس هذا تكراراً وإنما معناه الثبات على التوكل أي فليدوموا وليثبتوا على التوكل عليه وحده ، وهنا يسفر الطغيان عن وجهه متبجحاً بالقوة المادية التي يملكها المتجبرون ﴿وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا﴾ أي قال الكفار للرسول الأطهار والله لنطردنكم من ديارنا أو لترجعن إلى ديننا ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ أي أوحى الله إلى الرسول لأهلكن أعداءكم الكافرين المتجبرين ﴿ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾ أي ولأمنحنكم سكنى أرضهم بعد هلاكهم ﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ أي ذلك النصر للرسول وإهلاك الظالمين لمن خاف مقامه بين يدي وخاف عذابي ووعيدي قال في البحر : ولما أقسموا على إخراج الرسول أو العودة في ملتهم أقسم تعالى على إهلاكهم ، وأي إخراج أعظم من الإهلاك بحيث لا يكون لهم عودة إليها أبداً (٢) ﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد﴾ أي واستنصر الرسول بالله على قومهم وخسر وهلك كل متجبر معاند للحق ﴿من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد﴾ أي من وراء ذلك الكافر جهنم ويسقى فيها من ماء صديد هو من قيح ودم ﴿يتجرعه ولا يكاد يسيغه﴾ أي يتلعه مرة بعد مرة لمرارته ، ولا يكاد يستسيغه لقبحه وكرهته ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾ أي يأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان ، ولكنه لا يموت ليستكمل عذابه ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ أي ومن بين يديه عذاب أشد مما قبله وأغلظ .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة أنواعاً من البلاغة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الاستعارة في ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ حيث استعار الظلمات للكفر والضلال ، والنور للهدى والإيمان ، وكذلك ﴿ويأتيه الموت﴾ استعارة عن غواشي الكروب وشدائد الأمور ، فقد يوصف المغموم بأنه في غمرات الموت مبالغة في عظيم ما يغشاه وأليم ما يلقاه .

٢ - الطباق بين ﴿يضل ويهدي﴾ وبين ﴿شكرتم وكفرتم﴾ وبين ﴿نخرجن وتعودن﴾ .

٣ - صيغة المبالغة في ﴿صَبَّارٌ شَكُورٌ﴾ وفي ﴿جَبَّارٌ عَنِيدٌ﴾ .

٤ - جناس الاشتقاق في ﴿أرسلنا من رسول﴾ وفي ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ .

٥ - السجع في ﴿شديد ، بعيد ، عنيد﴾ الخ .

فَكَايِدَةٌ : ذكر تعالى في البقرة ﴿يَذْبَحُونَ﴾ بغير واوٍ وهنا ﴿ويذبحون﴾ بالواو ، والسرُّ في ذلك أنه في سورة البقرة جاء اللفظ تفسيراً لما سبق من قوله ﴿سوء العذاب﴾ فكأنه قال يسومونكم سوء العذاب ثم فسره بقوله ﴿يَذْبَحُونَ أبناءكم﴾ أما في هذه السورة فهو غير تفسير لأن المعنى أنهم يعذبونهم بأنواع من العذاب وبالتذبيح أيضاً فهو نوع آخر من العذاب غير الأول والله أعلم .

قال الله تعالى : ﴿مثل الذين كفروا بربههم أعمالهم كرماد .. إلى .. إن الإنسان لظلوم كفار﴾ من آية (١٨) إلى نهاية آية (٣٤) .

المناسكبة : لما حكى تعالى استهزاء الكفار بالرسول ، وما أعدَّ لهم من العذاب والنكال في الآخرة ، ضرب مثلاً لأعمالهم ، ثم ذكر المناظرة بين الرؤساء والأتباع ، وعقبها بالتذكير بنعم الله على العباد ليعبدوه ويشكروه .

اللغز : ﴿عاصف﴾ شديد الريح ﴿برزوا﴾ البروز : الظهور بعد الخفاء ، والبراز المكان الواسع لظهوره ، وامرأة برزة أي تظهر للناس ﴿محيص﴾ منجى ومهرب يقال : حاص عن كذا أي فرَّ وأراد الهرب منه ﴿جزعنا﴾ الجزع : عدم احتمال الشدة وهو نقيض الصبر ﴿مُصرخكم﴾ مُغيثكم الصارخ المستغيث ، والمُصرخ المغيث قال أمية :

فلا تجزعوا إني لكم غير مُصرخٍ وليس لكم عندي غناء ولا نصر^(١)

﴿اجتثت﴾ اقتلعت من أصلها ﴿البوار﴾ الهلاك ﴿خلال﴾ جمع خلة وهي الصحبة والصدّاقة قال امرؤ القيس :

صرفتُ الهوى عنهنّ من خشية الردى فلستُ بمقلّي الخلال ولا قالي^(٢)

﴿دائبن﴾ الدؤب في اللغة : مرور الشيء في العمل على عادة مطردة يقال دأب دؤباً .

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ

التفسير : ﴿مثل الذين كفروا بربههم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح﴾ أي مثل أعمال الكفار التي عملوها في الدنيا يبتغون بها الأجر من صدقة وصله رحم وغيرها مثل رمادٍ عصفت به الريح فجعلته هباءً منثوراً ﴿في يوم عاصف﴾ أي في يومٍ شديد هبوب الريح قال القرطبي : ضرب الله هذه الآية

هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾
 وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرُّوْا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ
 مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَدْنَا اللَّهَ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ
 مَحْصِنٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ

مثلاً لأعمال الكفار في أنه يحققها كما تحقق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى (١) ﴿ لا يقدرُونَ مَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ أي لا يقدر الكفار على تحصيل ثواب ما عملوا من البر في الدنيا لإحباطه بالكفر ، كما لا يستطيع أن يحصل الإنسان على شيء من الرماد الذي طيرته الريح ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ أي الخسران الكبير ﴿ ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أي ألم تر أيها المخاطب بعين قلبك وتأمل ببصيرتك أن الله العظيم الجليل انفرد بالخلق والإيجاد ، وأنه خلق السموات والأرض ليُستدلَّ بهما على قدرته ؟ قال المفسرون : أي لم يخلقهن عبثاً وإنما خلقهن لأمر عظيم ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ أي هو قادر على الإفناء كما قادر على الإيجاد والإحياء قال ابن عباس يريد : يميئتم يا معشر الكفار ويخلق قوماً غيركم خيراً منكم وأطوع (٢) ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أي ليس ذلك بصعب أو متعذر على الله ، فإن القوي القادر لا يصعب عليه شيء ﴿ وبرزوا لله جميعاً ﴾ أي خرجوا من قبورهم يوم البعث ، وظهروا للحساب لا يسترهم عن الله ساتر قال الإمام الفخر : ورد بلفظ الماضي ﴿ وبرزوا ﴾ وإن كان معناه الاستقبال لأن كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو صدقٌ وحقٌ ، فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود ونظيره ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ (٣) ﴿ فقال الضعفاء للذين استكبروا ﴾ أي قال الأتباع والعوام للسادة الكبراء والقادة الذين أضلّوهم في الدنيا ﴿ إنا كنا لكم تبعاً ﴾ أي كنا أتباعاً لكم نأتمر بأمركم ﴿ فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ﴾ أي هل أنتم دافعون عنا شيئاً من عذاب الله ؟ والاستفهام للتوبيخ والتفريع ﴿ قالوا لو هدانا الله لهديناكم ﴾ أي قال القادة معتذرين : لو هدانا الله للإيمان لهديناكم إليه ، ولكن حصل لنا الضلال فأضللناكم فلا ينفعنا العتاب ولا الجزع ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ أي يستوي علينا الجزع والصبر قال الطبري : إن أهل النار يجتمعون فيقول بعضهم لبعض : إنما أدرك أهل الجنة بيكائهم وتضرعهم إلى الله فتعالوا نبكي ونتضرع إلى الله ، فبكوا فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا : تعالوا نصبر فصبروا صبراً لم يُر مثله ، فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ (٤) وقال مقاتل : جزعوا خمسمائة عام ، وصبروا خمسمائة عام (٥) ﴿ ما لنا من محيص ﴾ أي ليس لنا من مهرب أو ملجأ ﴿ وقال الشيطان لما قُضِيَ الأمر ﴾ هذه هي الخطبة البتراء التي يُخطب بها إبليس في محفل

(١) القرطبي ٣٥٣/٩ . (٢) زاد المسير ٣٥٥/٤ . (٣) الفخر الرازي ١٩/١٠٧ . (٤) الطبري ١٣/٢٠٠ . (٥) زاد المسير ٤/٣٥٦ .

مَنْ سُلْطٰنٍ اِلَّا اَنْ دَعَوْتُمْ فَاَسْتَجِبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُوْنِي وَلَوْمُواْ اَنْفُسَكُمْ مَا اَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا اَنْتُمْ بِمُصْرِخِيْ اِنِّيْ كَفَرْتُ بِمَا اَشْرَكْتُمْ مِنْ قَبْلِ اِنَّ الظَّالِمِيْنَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ ﴿٢٣﴾ وَاَدْخَلَ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهٰرُ خٰلِدِيْنَ فِيْهَا بِاِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيْهَا سَلٰمٌ ﴿٢٤﴾ اَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ اَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٥﴾ تُوْتِيْ اُكْلَهَا كُلَّ حِيْنَ بِاِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّٰهُ الْاَمْثَالَ لِلنَّاسِ

الأشقياء في جهنم أي لما فرغ من الحساب ودخل أهل الجنة وأهل النار ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعْدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ أي وعدكم وعداً حقاً بإثابة المطيع وعقاب العاصي فوقى لكم وعده ﴿ووعدتكم فأخلفتكم﴾ أي وعدتكم إلا بعث ولا ثواب ولا عقاب فكذبتكم وأخلفتكم الوعد ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ أي لم يكن لي قدرة وتسلط وقهر عليكم فأقهركم على الكفر والمعاصي ﴿إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ أي إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بالوسوسة والتزوين فاستجبتم لي باختياركم ﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ أي لا ترجعوا باللوم علي اليوم ولكن لوموا أنفسكم فإن الذنب ذنبكم ﴿ما أنا بمُصْرِخِكُمْ وما أنتُمْ بِمُصْرِخِي﴾ أي ما أنا بمغيثكم ولا أنتُمْ بمغيثي من عذاب الله ﴿إني كُفرتُ بما أشركتمون من قبل﴾ أي كُفرتُ بإشراككم لي مع الله في الطاعة ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي إن المشركين لهم عذاب مؤلم قال المفسرون : هذه الخطبة إنما تكون إذا استقر أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، فيأخذ أهل النار في لوم إبليس وتقريعه فيقوم فيما بينهم خطيباً بما أخبر عنه القرآن^(١) وقال الحسن : يقف إبليس يوم القيامة خطيباً في جهنم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعاً^(٢) ﴿وَأَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ لما ذكر تعالى أحوال الأشقياء ، ذكر بعده أحوال السعداء ، ليقى العبد بين الرغبة والرغبة ، وبين الخوف والرجاء أي أدخلهم الله تعالى جنات تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ماكثين فيها أبداً بأمره تعالى وتوفيقه وهدايته ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي تُحِيَّتُهُم الملائكة بالسلام مع الإجلال والإكرام ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ هذا مثلُ ضربه الله لكلمة الإيمان وكلمة الإِشْرَاق ، فمثلُ لكلمة الإيمان بالشجرة الطيبة ، ولكلمة الإِشْرَاق بالشجرة الخبيثة قال ابن عباس : الكلمة الطيبة « لا إله إلا الله » والشجرة الطيبة « المؤمن »^(٣) ﴿أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾ أي أصلها راسخ في الأرض وأغصانها ممتدة نحو السماء ﴿تُوْتِيْ اُكْلَهَا كُلَّ حِيْنَ بِاِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي تعطي ثمرها كل وقت بتيسير الخالق وتكوينه ، كذلك كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن ، وعمله يصعد إلى السماء ويناله بركته وثوابه في كل وقت ﴿ويضربُ اللهُ الأمثالَ للناسِ لعلهم يتذكرون﴾ أي يبيِّن لهم الأمثال لعلهم يتعظون فيؤمنون ﴿ومثلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ﴾ أي ومثل كلمة الكفر الخبيثة كشجرة الخنظل الخبيثة ﴿اجتثتُ من فوق

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِثْلُ كَلِمَةِ خَيْبَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْبَةٍ أَجْنَتَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يَثْبُتُ
 اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾
 * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَسَّ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾
 وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا
 الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ

الأرض ﴿٣١﴾ أي استؤصلت من جذورها واقتلعت من الأرض لعدم ثبات أصلها ﴿ ما لها من قرار ﴾ أي ليس لها استقرار وثبات ، كذلك كلمة الكفر لا ثبات لها ولا فرع ولا بركة قال ابن الجوزي : شبه ما يكسبه المؤمن من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت بثمرتها المجتناة في كل حين ، فالؤمن كلما قال « لا إله إلا الله » سعدت إلى السماء ثم جاء خيرها ومنفعتها ، والكافر لا يقبل عمله ولا يصعد إلى الله تعالى ، لأنه ليس له أصل في الأرض ثابت ، ولا فرع في السماء ^(١) ﴿ يثبتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا ﴾ أي يثبتهم على كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » وعلى الإيمان في هذه الحياة فلا يزيغون ولا يُفْتَنُونَ ﴿ وفي الآخرة ﴾ أي عند سؤال الملكين في القبر كما في الحديث الشريف (المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله تعالى ﴿ يثبتُ الله الذين آمنوا ﴾ . . .) ^(٢) الآية ﴿ ويضلُّ الله الظالمين ﴾ أي لا يهديهم في الحياة ولا عند سؤال الملكين وقت الممات ﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ أي من هداية المؤمن وإضلال الكافر لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ استفهام للتعجب أي ألا تعجب أيها السامع من أولئك الذين غيروا نعمة الله بالكفر والتكذيب؟ قال المفسرون : هم كفار مكة فقد أسكنهم الله حرمة الأمن ، وجعل عيشهم في السعة ، وبعث فيهم محمداً ﷺ فلم يعرفوا قدر هذه النعمة ، وكفروا به وكذبوه ، فابتلاهم الله بالقحط والجذب ﴿ وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ أي أنزلوا قومهم دار الهلاك بكفرهم وطغيانهم ثم فسرها بقوله ﴿ جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ أي أحلوهم في جهنم يذوقون سعيها وبئس جهنم مستقراً ﴿ وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله ﴾ أي جعلوا لله شركاء مماثلين عبودهم كعبادته ليضلوا الناس عن دين الله ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ أي استمتعوا بنعيم الدنيا فإن مردكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم ، وهو وعيد وتهديد ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾ أي قل يا محمد لعبادي الذين آمنوا فليقيموا الصلاة المفروضة عليهم ويؤدوها على الوجه الأكمل ﴿ وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ﴾ أي ولينفقوا مما أنعمنا عليهم به من الرزق خفية وجهرًا ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه

(١) زاد المسير ٤ / ٣٦٠ . (٢) أخرجه البخاري وهذا الرأي هو اختيار الطبري .

وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .
 وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٣﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٤﴾ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ
 وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٥﴾

ولا خلال ﴿ أي من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا انتفاع فيه بمبايعة ولا صداقة ، ولا فداء ولا شفاعة . .
 ولما أطال الكلام في وصف أحوال السعداء والأشقياء ختم ذلك بذكر الدلائل الدالة على وجود الخالق الحكيم فقال ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض ﴾ أي أبدعها واخترعها على غير مثال سبق ﴿ وأنزل من السماء ماء ﴾ أي أنزل من السحاب المطر ﴿ فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ (١) أي أخرج بالمطر من أنواع الزروع والثمار رزقاً للعباد يأكلونه ﴿ وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ﴾ أي ذلل السفن الكبيرة لتسير بمشيئته ، تركيبها وتحملون فيها أمتعتكم من بلد إلى بلد ﴿ وسخر لكم الأنهار ﴾ أي الأنهار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ أي وذلل لكم الشمس والقمر يجريان بانتظام لا يفران ، لصالح أنفسكم ومعاشكم ﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ أي لتسكنوا في الليل ، ولتبتغوا من فضله بالنهار ، هذا لمنامكم وذاك لمعاشكم ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ أي أعطاكم كل ما تحتاجون إليه ، وما يصلح أحوالكم ومعاشكم ، مما سألتموه بلسان الحال أو المقال ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ أي وإن تعدوا نعم الله عليكم لا تطيقوا حصرها وعدّها ، فهي أكبر وأكثر من أن يحصوها عدد ﴿ إن الإنسان لظالم لظلوم كفار ﴾ الإنسان اسم جنس أي إن الإنسان لمبالغ في الظلم والجحود ، ظالمٌ نفسه بتعديه حدود الله ، جحودٌ لنعم الله ، وقيل : ظلوم في الشدة يشكرو ويجزع ، كفار في النعمة يجمع ويمنع .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبدیع ما يلي :

١ - التشبيه التمثيلي ﴿ أعماهم كرماد اشتدت به الريح ﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد .

٢ - التشبيه المرسل المجمل ﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ﴾ ومثلها ﴿ ومثل كلمة طيبة ﴾ .

(١) يقول سيد قطب رحمه الله : « وهنا يُفتح كتاب الكون على مصراعيه ، فتنتطق سطور الهائلة بنعم الله التي لا تُحصى : السموات والأرض ، الشمس والقمر ، الليل والنهار ، البحار والأنهار ، الأمطار والثمار ، هذه الصفحات الكونية المعروضة على الأنظار ، ولكن البشر لا ينظرون ولا يقرعون ، ولا يتدبرون ولا يشكرون ، إن الإنسان لظلوم كفار ، يجعل لله أنداداً وهو الخالق الرازق مسخر الكون لهذا الإنسان ، والمشهد الهائل المعروض هنا لأيدي الله وآلائه ، تسير فيه خطوط الريشة المبدعة : أفكل هذا الكون الهائل مسخر لذلك المخلوق الصغير؟ السموات ينزل منها الماء ، والأرض تتلقاه ثم تخرج به الثمار ، والبحر تجري فيه الفلك بأمر الله مسخرة ، والأنهار تجري بالحياة والأرزاق في مصلحة الإنسان ، والشمس والقمر دائبان لا يفران ، والليل والنهار يتعاقبان ، أفكل ذلك للإنسان ثم لا يشكر ولا يذكر؟! »

- ٣ - الطباق في ﴿أصلها .. وفرعها﴾ وفي ﴿طيبة .. وخبيثة﴾ وفي ﴿يذهب .. ويأتي﴾ وفي ﴿سراً .. وعلانية﴾ وفي ﴿جزعنا .. وصبرنا﴾ .
- ٤ - طباق السلب في ﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ .
- ٥ - التعجيب ﴿ألم تتركب ضرب الله مثلاً﴾ .
- ٦ - التهديد والوعيد ﴿قل تمتعوا﴾ .
- ٧ - صيغة المبالغة ﴿ظلموا كفاراً﴾ لأن فعول وفعال من صيغ المبالغة .
- ٨ - السجع المرصع دون تكلف مثل ﴿البوار .. القرار .. النار﴾ الخ .

قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ .. إِلَى .. وَلِيَذَّكَّرَ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾
من آية (٣٥) إلى آية (٥٢) نهاية السورة الكريمة .

المناسكة : لما ذكر تعالى بالدلائل الحسية والسمعية انفراده بالألوهية وأن لا معبود إلا الله ، ذكر هنا أبا الأنبياء « إبراهيم » عليه السلام حصن التوحيد ، ومبالغته في هدم الشرك والأوثان ، ثم ذكر موقف الظالمين يوم الدين ، وما يعتر بهم من الذل والهوان في يوم الحشر الأكبر .

اللغة : ﴿اجنبي﴾ أبعدني ونحني يقال : جنّب وجنّب وأصله جعل الشيء في جانب آخر ﴿تشخص﴾ شخّص البصر : إذا بقيت العين مفتوحة لا تغمض من هول ما ترى ﴿مهطعين﴾ مسرعين يقال أهطع إهطاعاً إذا أسرع قال الشاعر :

بدجلة دارهم ولقد أراهم بدجلة مهطعين إلى السماع^(١)

﴿مقنعي﴾ المقنع : الرفع رأسه المقبل يبصره على ما بين يديه ﴿هواء﴾ خالية ﴿مقرنين﴾ مشدودين ﴿الأصفاد﴾ الأغلال والقيود واحداً صنف ﴿سرايلهم﴾ جمع سربال وهو القميص والثوب ﴿تغشى﴾ تجلّ وتغطي .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي

النفيس : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ أي اجعل مكة بلد آمن يأمن أهله وساكنته ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ أي احمني يارب وجنبني وأولادي عبادة الأصنام ، والغرض تشيته على ملة التوحيد والإسلام ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أي يارب إن هذه الأصنام أضلت كثيراً من الخلق عن الهداية والإيمان ﴿فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي فمن أطاعني وتبعني على التوحيد فإنه

زَرَعَ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمَ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ

من أهل ديني ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ أي ومن خالف أمري فإنك يا رب غفار الذنوب رحيم بالعباد ﴿ربنا إنني أسكنت من ذريتي﴾ كرر النداء رغبة في الإجابة وإظهاراً للتذلل والالتجاء إلى الله تعالى أي يا ربنا إنني أسكنت من أهلي - ولدي إسماعيل وزوجي هاجر- ﴿بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ أي بوادٍ ليس فيه زرع في جوار بيتك المحرم ، وهو وادي مكة شرفها الله تعالى ﴿ربنا ليقوموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ أي يا ربنا لكي يعبدوك ويقوموا الصلاة أسكتهم بهذا الوادي فاجعل قلوب الناس تحن وتسرع إليهم شوقاً قال ابن عباس : لو قال (أفئدة الناس) لاذحمت عليه فارس والروم والناس كلهم ، ولكن قال ﴿من الناس﴾ فهم المسلمون (١) ﴿وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ أي وارزقهم في ذلك الوادي القفر من أنواع الثمار ليشكروك على جزيل نعمك، وقد استجاب الله دعاءه فجعل مكة حراماً آمناً يجبي إليها ثمرات كل شيء رزقاً من عند الله ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ أي يا ربنا إنك العالم لما في القلوب تعلم ما نسر وما نظهر ﴿وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ أي لا يغيب عليه تعالى شيء في الكائنات ، سواء منها ما كان في الأرض أو في السماء ، فكيف تخفى عليه وهو خالقها وموجدها ؟ ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ أي الحمد لله الذي رزقني على كبر سني وشيخوختي إسماعيل وإسحاق قال ابن عباس : ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين ، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة (٢) ﴿إن ربي لسميع الدعاء﴾ أي مجيب لدعاء من دعاه ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي﴾ هذه هي الدعوة السادسة من دعوات الخليل عليه السلام أي يا رب اجعلني ممن حافظ على الصلاة واجعل من ذريتي من يقيمها أيضاً ، وهذه خير دعوة يدعوها المؤمن لأولاده فلا أحب له من أن يكون مقبلاً للصلاة هو وذريته لأنها عماد الدين ﴿ربنا وتقبل دعاء﴾ أي تقبل واستجب دعائي فيما دعوتك به ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ هذه هي الدعوة السابعة وبها ختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بالاستغفار له ولوالديه ولجميع المؤمنين ، يوم يقوم الناس لرب العالمين قال المفسرون : استغفر لوالديه قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله قال القشيري : ولا يبعد أن تكون أمه

(١) روي أن هاجر لما ولدت إسماعيل غارت منها «سارة» زوجة إبراهيم فأمره الله تعالى أن يحمل ولده إسماعيل مع أمه من الشام إلى مكة فوضعها عند دوحه مكان زمزم كما في الحديث . (٢) القرطبي ٣٧٣/٩ . (٣) زاد المسير ٣٦٨/٤ .

الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾
 مُهْطِعِينَ مُقْنَعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْعَدْتُهُمْ هَوَاءً ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَا تَيْهَمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ ۖ أُولَٰئِكَ تَكُونُوا آقِسْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ
 مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ
 الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ

مسلمة لأن الله ذكر عذره في استغفاره لأبيه دون أمه . . .^(١) وينتقل السياق إلى مشاهد القيامة وما فيها من الأهوال حين تنزل القلوب والأقدام ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾ أي لا تظنن يا محمد أن الله ساه عن أفعال الظلمة ، فإن سنة الله إمهال العصاة ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، قال ميمون بن مهران : هذا وعيد للظالم ، وتعزية للمظلوم^(٢) ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ أي إنما يؤخرهم ليوم رهيب عصيب ، تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع ، فتظل مفتوحة مبهوتة لا تطرف ولا تتحرك قال أبو السعود : تبقى أبصارهم مفتوحة لا تتحرك أجفانهم من هول ما يرونه^(٣) ﴿مهطعين مقنعي رؤوسهم﴾ أي مسرعين لا يلتفتون إلى شيء رافعين رؤوسهم مع إدامة النظر قال الحسن : وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد^(٤) ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ أي لا يطفون بعيونهم من الخوف والجزع ﴿وأفعدتهم هواء﴾ أي قلوبهم خالية من العقل لشدة الفزع ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب﴾ أي خوف يا محمد الكفار من هول يوم القيامة حين يأتيهم العذاب الشديد ﴿فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب﴾ أي فيتوجه الظالمون يومئذ إلى الله بالرجاء يقولون يا ربنا أمهلنا إلى زمن قريب لنستدرك ما فات ﴿نحب دعوتك وتتبع الرسل﴾ أي نحب دعوتك لنا إلى الإيمان وتتبع رسلك فيما جاءونا به ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ أي يقال لهم توبيخاً وتبكيئاً : ألم تحلفوا أنكم باقون في الدنيا لا تنتقلون إلى دار أخرى ؟ والمراد إنكارهم للبعث والنشور ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ أي سكنتم في ديار الظالمين بعد أن أهلكناهم ، فهلاً اعتبرتم بمساكنهم ؟ ﴿وتبين لكم كيف فعلنا بهم﴾ أي تبين لكم بالإخبار والمشاهدة كيف أهلكناهم وانتقمنا منهم ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ أي بينا لكم الأمثال في الدنيا فلم تعتبروا ﴿وقد مكروا مكْرَهُمْ﴾ أي مكر المشركون بالرسول وبالْمؤمنين حين أرادوا قتله ﴿وعند الله مكْرَهُمْ﴾ أي وعند الله جزاء هذا المكر فإنه محيط بهم وبمكرهم ﴿وإن كان مكْرَهُمْ لتزول منه الجبال﴾ أي وإن كان مكْرَهُمْ من القوة والتأثير حتى ليؤدي إلى زوال الجبال ولكن الله عصم ووقى منه ﴿فلا تحسبن

مُخَلَّفَ وَعَدِهِ ۖ رُسُلَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبُرُوزًا
 لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّن قَطْرَانٍ وَتَعَشَىٰ وَجُوهُهُمْ
 النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ۚ وَلِيَعْلَمُوا
 أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَاحِدُ وَلِيُنذِرَ كَرُّ أُولَئِكَ الْآلِبَابِ ﴿٥٢﴾

الله مُخَلَّفَ وَعَدِهِ رُسُلَهُ ﴿٤٧﴾ أي لا تظننَّ أيها المخاطب أن الله يخلِّف رسله ما وعدهم به من النصر وأخذ
 الظالمين المكذبين ﴿٤٨﴾ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٩﴾ أي إنه تعالى غالبٌ لا يعجزه شيء منتقم ممن عصاه
 ﴿٥٠﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴿٥١﴾ أي ينتقم من أعدائه يوم الجزاء ، يوم تبدل هذه الأرض
 أرضاً أخرى ، وتبدل السماوات سموات أخرى قال ابن مسعود : تُبَدَّلُ الْأَرْضُ بِأَرْضٍ كَالْفِضَّةِ نَقِيَّةٍ ، لم
 يسفك فيها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة ^(١) ﴿٥٢﴾ وَبُرُوزًا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٥٣﴾ أي خرجت الخلائق جميعها
 من قبورهم ، ومثلوا أمام أحكم الحاكمين ، لا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واقٍ ، ليسوا في دورهم ولا في
 قبورهم ، وإنما هم في أرض المحشر أمام الواحد القهار ﴿٥٤﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقْرَنِينَ فِي
 الْأَصْفَادِ ﴿٥٥﴾ أي وفي ذلك اليوم الرهيب تبصر المجرمين مشدودين مع شياطينهم بالقيود والأغلال قال
 الطبري : أي مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد وهي الأغلال والسلاسل ﴿٥٦﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّن
 قَطْرَانٍ ﴿٥٧﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران وهي مادة يسرع فيها اشتعال النار ، تُطلى بها الإبل الجربى
 فيحرق الجرب بحرَّة وحدته ، وهو أسود اللون منتن الريح ﴿٥٨﴾ وَتَعَشَىٰ وَجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٥٩﴾ أي تعلقوها وتحيط
 بها النار ، جزاء المكر والاستكبار ﴿٦٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ﴿٦١﴾ أي برزوا يوم القيامة لأحكام
 الحاكمين ليجازيهم الله على أعمالهم ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ﴿٦٢﴾ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٦٣﴾
 أي لا يشغله شأن عن شأن ، يحاسب جميع الخلق في أعجل ما يكون من الزمان ، في مقدار نصف نهار من
 أيام الدنيا كما ورد به الأثر ﴿٦٤﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ﴿٦٥﴾ أي هذا القرآن بلاغٌ لجميع الخلق من إنس
 وجان ، أنزل لتبليغهم بما فيه من فنون العبر والعظات ﴿٦٦﴾ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ﴿٦٧﴾ أي لكي يُنصَحُوا بِهِ وَيَخَوْفُوا مِنْ
 عِقَابِ اللَّهِ ﴿٦٨﴾ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَاحِدِ ﴿٦٩﴾ أي ولكي يتحققوا بما فيه من الدلائل الواضحة والبراهين
 القاطعة ، على أنه تعالى واحد أحد ، فردٌ صمد ﴿٧٠﴾ وَلِيُذَكِّرَ أُولَئِكَ الْآلِبَابِ ﴿٧١﴾ أي وليتعض بهذا القرآن أصحاب
 العقول السليمة ، وهم السعداء أهل النهي والصلاح .

(١) الطبري ١٣/٢٥٠ وعن ابن عباس هي تلك الأرض وإنما تغير صفاتها فتسوى الجبال وتقلع الأشجار وتنشق الأنهار ، وتتناثر الكواكب
 وأنشد :

وما الناس بالناس الذين عهدتهم وما الدار بالدار التي كنت تعلم

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ - التشبيه البليغ ﴿وأفندتهم هواء﴾ حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه أي قلوبهم كالهواء لفراغها من جميع الأشياء فأصبح التشبيه بليغاً .

٢ - الإيجاز بالحذف ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ حذف منه والسموات تبدل غير السموات لدلالة ما سبق .

٣ - الطباق في ﴿تبعني .. وعصاني﴾ وفي ﴿نخفي .. ونعلن﴾ وفي ﴿الأرض .. والسماء﴾ .

٤ - جناس الاشتقاق في ﴿مكروا مكروهم﴾ .

٥ - العدول عن المضارع إلى الماضي ﴿وبرزوا﴾ بدل ﴿ويبرزون﴾ للدلالة على تحقق الوقوع مثل ﴿أتى أمر الله﴾ فكأنه حدث ووقع فأخبر عنه بصيغة الماضي .

٦ - الاستعارة في ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ قال الشريف الرضي : وهذه من محاسن الاستعارة وحقيقة الهوي النزول من علو إلى انخفاض كالهبوط والمراد تسرع إليهم شوقاً وتطير إليهم حباً ، ولو قال «تحن إليهم» لم يكن فيه من الفائدة ما في التعبير بـ ﴿تهوي إليهم﴾ لأن الحنين قد يكون من المقيم بالمكان^(١) .

لطيفة : حكمة تعريف البلد هنا ﴿اجعل هذا البلد آمناً﴾ وتنكيره في البقرة ﴿اجعل هذا بلداً آمناً﴾ أنه تكرر الدعاء من الخليل ، ففي البقرة كان قبل بنائها فطلب من الله أن تجعل بلداً ، وأن تكون آمناً ، وهنا كان بعد بنائها فطلب من الله أن تكون آمناً أي بلد آمن واستقرار^(٢)، وهذا هو السر في التفريق بين الآيتين ، اللهم ارزقنا فهم أسرار كتابك العظيم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة إبراهيم »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الحجّر من السور المكية ، التي تستهدف المقاصد الأساسية للعقيدة الإسلامية «الوحدانية ، النبوة ، البعث والجزاء» ومحور السورة يدور حول مصارع الطغاة والمكذّبين لرسول الله في شتّى الأزمان والعصور ، ولهذا ابتدأت السورة بالإنذار والتهديد ، ملفعاً بظل من التهويل والوعيد ﴿ربما يؤدّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين * ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾ .

* عرضت السورة لدعوة الأنبياء ، وبينت موقف أهل الشقاوة والضلالة من الرسل الكرام ، فما من نبيٍّ إلا سخر منه قومه الضالون ، من لدن بعثة شيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام ، إلى بعثة خاتم المرسلين ، وقد بينت السورة أن هذه سنة المكذّبين ، في كل زمان وحين ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيعٍ الأولين * وما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزئون . . .﴾ الآيات .

* وعرضت السورة إلى الآيات الباهرات ، المنبثة في صفحة هذا الكون العجيب ، الذي ينطق بأثار اليد المبدعة ، ويشهد بجلال عظمة الخالق الكبير ، بدءاً بمشهد السماء ، فمشهد الأرض ، فمشهد الرياح اللواقيح ، فمشهد الحياة والموت ، فمشهد الحشر والنشر ، وكلّها ناطقة بعظمة الله وجلاله ، وشاهدة بوحدانيته وقدرته ﴿ولقد جعلنا في السماء بروحاً وزيناها للنظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم . . .﴾ الآيات .

* وعرضت السورة إلى قصة «البشرية الكبرى» قصة الهدى والضلال ممثلة في خلق آدم عليه السلام ، وعدوه اللدود إبليس اللعين ، وما جرى من سجود الملائكة لآدم ، واستكبار إبليس عن السجود ، واعتراضه على أمر الله وتوعده لذرية آدم ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرٍ من صلصالٍ من حمأ مسنون . . .﴾ الآيات .

* ومن قصة آدم تنتقل السورة إلى قصص بعض الأنبياء ، تسليّة لرسول الله عليه السلام ، وتشبيهاً لقلبه الشريف لثلا يتسرب إليه اليأس والقنوط ، فتذكر قصة لوط ، وشعيب ، وصالح عليهم السلام ، وما حل بأقوامهم المكذّبين .

* وتختتم السورة الكريمة بتذكير الرسول ﷺ بالنعمة العظمى عليه ، بإنزال هذا الكتاب المجيد المعجز ، وتأمره بالصبر والسلوان على ما يلقيه من أذى المشركين ، وتبشره بقرب النصر له وللمؤمنين ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم . . ﴾ إلى آخر السورة الكريمة .

التسمية : سميت السورة الكريمة « سورة الحجر » لأن الله تعالى ذكر ما حدث لقوم صالح ، وهم قبيلة ثمود - وديارهم في الحجر بين المدينة والشام - فقد كانوا أشداء ينحتون الجبال ليسكنوها ، وكانهم مخلدون في هذه الحياة ، لا يعترهم موت ولا فناء ، فبينما هم آمنون مطمئنون جاءتهم صيحة العذاب في وقت الصباح ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

اللغات : ﴿ رَبُّمَا ﴾ رب للتقليل و ﴿ مَا ﴾ نكره موصوفة أي رب شيء ﴿ لوما ﴾ للتخصيص كلولا وهلاً ﴿ شيع ﴾ جمع شيعة وهي الفرقة والطائفة من الناس ﴿ نسلكه ﴾ ندخله ، والسلك : إدخال الشيء في الشيء ﴿ يعرجون ﴾ عرج : صعد ، والمعارج المصاعد ﴿ سكرت ﴾ سدت ومنعت ﴿ بروجاً ﴾ البروج : منازل الكواكب السيارة وأصله الظهور ومنه تبرج المرأة وهو إظهار زينتها ﴿ لواقح ﴾ جمع لاقح وهي الرياح التي تحمل المطر ، والتي لا تأتي بخير تسمى الرياح العقيم ، أو ملقحة للشجر أي تحمل اللقاح له ﴿ صلصال ﴾ طين يابس يسمع له صلصلة إذا يبس ﴿ حمأ ﴾ الحمأ : الطين الأسود ﴿ مسنون ﴾ متن متغير قال الفراء : هو المتغير وأصله من سنتت الحجر إذا حكته به ﴿ السموم ﴾ الرياح الحارة القاتلة .

سبب النزول : عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن الناس ، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لثلا يراها ، ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت إبطه فأنزل الله ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾ (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رَبَّمَا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا

التفسير : ﴿ الر ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن أي هذا الكتاب العجيب المعجز كلام الله تعالى وهو منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية الألف واللام والراء ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ أي هذه آيات الكتاب ، الكامل في الفصاحة والبيان ، المتعالي عن الطاقة البشرية ، ﴿ وقرآن مبين ﴾ أي قرآن عظيم الشأن ، واضح بين ، لا خلل فيه ولا اضطراب ﴿ ربما يود الذين كفروا ﴾ أي ربما تمنى الكفار ﴿ لو كانوا مسلمين ﴾ أي لو كانوا في الدنيا مسلمين ، وذلك عند معاينة أهوال الآخرة ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾

وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ اللَّهُمُّ الْأَمَلَ فُسُوفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴿١٧﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿١٨﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٢٠﴾ إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٢﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٣﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٤﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ؕ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا

أي دَعَّهم يا محمد يأكلوا كما تأكل البهائم ، ويستمتعوا بديناهم الفانية ﴿ ويُلْهِمُهُمُ الْأَمَلَ ﴾ أي يشغلهم الأمل بطول الأجل ، عن التفكير فيما ينجيهم من عذاب الله ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أي عاقبة أمرهم إذا رأوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا ، وهو وعيد وتهديد ﴿ وما أهلكنا من قرية ﴾ أي وما أهلكنا أهل قرية من القرى الظالمة التي كذبت رسل الله ﴿ إلا ولها كتاب معلوم ﴾ أي إلا لها أجل محدود لا يهلكها ﴿ ما تسبق من أمة أجَلها ﴾ أي لا يتقدم هلاك أمة قبل مجيء أوانه ﴿ وما يستأخرون ﴾ أي ولا يتأخر عنهم قال ابن كثير : وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من العناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك ^(١) ﴿ وقالوا يا أيها الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ قال كفار قريش لمحمد ﷺ على جهة الاستهزاء والتهكم : يا من تزعم وتدعي أن القرآن نزل عليك ﴿ إنك لمجنون ﴾ أي إنك حقاً لمجنون ، أكدوا الخبر بإن واللام مبالغة في الاستخفاف والاستهزاء بمقامه الشريف عليه السلام ﴿ لو ما تأتينا بالملائة إن كنت من الصادقين ﴾ أي هلاً جتتنا بالملائة لتشهد لك بالرسالة إن كنت صادقاً في دعواك أنك رسول الله !! قال تعالى رداً عليهم ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾ أي ما ننزل ملائكتنا إلا بالعذاب لمن أردنا إهلاكه ﴿ وما كانوا إذاً منظرين ﴾ أي وفي هذه الحالة وعندئذٍ لا إمهال ولا تأجيل ، والغرض أن عادة الله تعالى قد جرت في خلقه أنه لا ينزل الملائكة إلا لمن يريد إهلاكهم بعذاب الاستئصال ، وهو لا يريد ذلك مع أمته ﷺ لعلمه تعالى أنه يخرج من أصلابهم من يعبد الله ، ففيه ردٌ عليهم فيما اقترحوا ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ أي نحن بعظمة شأننا نزلنا عليك القرآن يا محمد ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أي ونحن الحافظون لهذا القرآن ، نصونه عن الزيادة والنقصان ، والتبديل والتغيير ، قال المفسرون : تكفل الله بحفظ هذا القرآن ، فلم يقدر أحد على الزيادة فيه ولا النقصان ، ولا على التبديل والتغيير كما جرى في غيره من الكتب فإن حفظها موكولٌ إلى أهلها لقوله تعالى ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ وانظر الفرق بين هذه الآية ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ حيث ضمن حفظه وبين الآية السابقة حيث وكل حفظه إليهم فبدلوا وغيروا ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك في شِعَابِ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً في طوائف و فرق الأمم الأولين ﴿ وما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزءون ﴾ أي وما جاءهم رسولٌ إلا سخرُوا منه واستهزءوا به ، وهذا تسلية للنبي ﷺ والمعنى كما فعل

عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾
 وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ
 أَلْسَمَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾
 وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِقَدَرٍ

بك هؤلاء المشركون فكذلك فعل بمن قبلك من الرسل فلا تحزن ﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين﴾ أي كذلك نسلك الباطل والضلال والاستهزاء بأنبياء الله في قلوب المجرمين ، كما سلكناه وأدخلناه في قلوب أولئك المستهزئين ﴿لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين﴾ أي لا يؤمنون بهذا القرآن وقد مضت سنة الله بإهلاك الكفار ، فما أقرب هؤلاء من الهلاك والدمار ؟ ثم بين تعالى أن كفار مكة لا ينقصهم توافر براهين الإيمان فهم معاندون مكابرون ، وفي ضلالهم وعنادهم سائررون فقال ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلُّوا فيه يعرجون﴾ أي لو فرض أننا أضعدهم إلى السماء ، وفتحنا لهم باباً من أبوابها ، فظلُّوا يصعدون فيه حتى شاهدوا الملائكة والملوك ﴿لقالوا إنما سُكِّرَتْ أَبصارنا﴾ أي لقالوا - لفرط مكابرتهم وعنادهم - إنما سُدَّتْ أَبصارنا وخُدعت بهذا الارتقاء والصعود ﴿بل نحن قوم مسحورون﴾ أي سحرنا محمد وخيَّلَ إلينا ذلك وما هو إلا سحر مبین قال الرازي : لو ظل المشركون يصعدون في تلك المعارج ، وينظرون إلى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه ، وإلى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون لشكوا في تلك الرؤية ، وبقوا مصرين على الكفر والعناد كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر ، والقرآن المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله (١) ، ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على وحدانيته وقدرته فقال ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً﴾ أي جعلنا في السماء منازل تسير فيها الأفلاك والكواكب ﴿وزيناها للناظرين﴾ أي زيناها بالنجوم ليسر الناظر إليها ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ أي حفظنا السماء الدنيا من كل شيطان لعين مطرود من رحمة الله ﴿إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾ أي إلا من اختلس شيئاً من أخبار السماء فأدرکه ولحقه شهاب ثاقب فأحرقه ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي﴾ أي بسطانها ووسعناها وجعلنا فيها جبالاً ثوابت (٢) ﴿وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾ أي أنبتنا في الأرض من الزروع والثمار من كل شيء موزون بميزان الحكمة ، بدقة وإحكام وتقدير ﴿وجعلنا لكم فيها معيشة﴾ أي ما تعيشون به من المطاعم والمشارب ﴿ومن لستم له برازقين﴾ أي وجعلنا لكم من العيال والماليك والأنعام من لستم له برازقين ، لأننا نخلق طعامهم وشرابهم لا أنتم ﴿وإن من

(١) الفخر الرازي ١٦٧/١٩ (٢) قال الفخر الرازي : إن الأرض كرة في غاية العظمة ، والكرة العظيمة تكون كل قطعة صغيرة منها إذا نُظِرَ إليها كالسطح المستوي فلا إشكال في بسطها مع أنها كرة والدليل قوله تعالى ﴿والجبال أوتاداً﴾ سهاها أوتاداً مع أنه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية فكذا هنا . الرازي ١٧٠/١٩ .

مَعْلُومٌ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحِحَ فَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ
نُحْيِي ۖ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَعْرِثِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ
يُحْشِرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَنَّ خَلَقْنَاهُ
مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا

شيء إلا عندنا خزائنه ﴿٢١﴾ أي ما من شيء من أرزاق الخلق والعباد ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ومستودعاته
﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ أي ولكن لا ننزله إلا على حسب حاجة الخلق إليه ، وعلى حسب المصالح ،
كما نشاء ونريد ﴿وأرسلنا الرياح لواحح﴾ أي تلقح السحاب فيدر ماءً ، وتلقح الشجر فيفتح عن أوراقه
وأكمامه ، فالريح كالفحل للسحاب والشجر ﴿فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه﴾ أي فأنزلنا من السحاب
ماءً عذباً ، جعلناه لسقيكم ولشرب أرضكم ومواشيكم ﴿وما أنتم له بخازنين﴾ أي لستم بقادرين على
خزنه بل نحن بقدرتنا نحفظه لكم في العيون والآبار والأنهار ، ولو شئنا لجعلناه غائراً في الأرض فهلكتم
عطشاً كقوله ﴿قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾؟ ﴿وإننا لنحن نحيي ونميت ونحن
الوارثون﴾ أي الحياة والموت بيدنا ونحن الباقون بعد فناء الخلق ، نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون
﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ أي أحطنا علماً بالخلق أجمعين ، الأموات منهم
والأحياء قال ابن عباس : المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام والمستأخرون من هوجي ومن
سيأتي إلى يوم القيامة ^(١) وقال مجاهد : المستقدمون : الأمم السابقة ، والمستأخرون أمة محمد ﷺ ، والغرض
أنه تعالى محيطٌ بعلمه بمن تقدم وبمن تأخر ، لا يخفى عليه شيء من أحوال العباد ، وهو بيان لكمال علمه بعد
الاحتجاج على كمال قدرته ﴿وإن ربك هو يحشركم﴾ أي وإن ربك يا محمد هو يجمعهم للحساب والجزاء
﴿إنه حكيمٌ عليمٌ﴾ أي حكيمٌ في صنعه عليمٌ بخلقه ، ولما ذكر تعالى الموت والفناء ، والبعث والجزاء ،
نبههم إلى مبدأ أصلهم وتكوينهم من نفسٍ واحدة ، ليشير إلى أن القادر على الإحياء قادر على الإفناء
والإعادة ، وذكرهم بعداوة إبليس لأبيهم آدم ليحذروه فقال : ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال﴾ أي
خلقنا آدم من طين يابس يسمع له صلصلة أي صوت إذا نُقر ﴿من حملاً مسنوناً﴾ أي من طين أسود متغير
﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾ أي ومن قبل آدم خلقنا الجن - أي الشياطين ورئيسهم إبليس -
من نار السموم وهي النار الحارة الشديدة التي تنفذ في المسام فتقتل بحرهما قال المفسرون : عني بالجان هنا
«إبليس» أبا الجن لأن منه تناسلت الجن فهو أصل لها كما أن آدم أصل للإنس ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني
خالق بشراً من صلصال من حملاً مسنوناً﴾ أي اذكر يا محمد وقت قول ربك للملائكة إني خالق بشراً من

(١) هذا اختيار الطبري ، وقد فسرت الآية بشان تأويلات ذكرها في البحر ثم قال : الأولى حمل هذه الأقوال على التمثيل لا على الحصر

سَوِيَّتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٣٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٤٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى
 أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ يَا بَلِيسُ مَا لَكَ أَلا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَمَ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ
 خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمِيمٍ مَسْنُونٍ ﴿٤٣﴾ قَالَ فَاتَّخِذْ مِنْهَا فِئْتًا رَاجِمٌ ﴿٤٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٥﴾
 قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٤٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٤٨﴾ قَالَ

طين يابس ، أسود متغير قال ابن كثير : فيه تنويه بذكر آدم في الملائكة قبل خلقه له ، وتشريفه إياه بأمر
 الملائكة بالسجود له ، وامتناع إبليس عدوه عن السجود له حسداً وكفراً^(١) ﴿فإذا سويته﴾ أي سويت
 خلقه وصورته ، وجعلته إنساناً كاملاً معتدلاً بالأعضاء ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ أي أفضت عليه من
 الروح التي هي خلق من خلقي فصار بشراً حياً ﴿فقعوا له ساجدين﴾ أي خروا له ساجدين ، سجد تحية
 وتكريم لا سجد عبادة ، قال المفسرون : وإنما أضاف الروح إليه تعالى على سبيل التشريف والتكريم
 كقوله « بيت الله ، ناقة الله ! شهر الله » وهي من إضافة الملك إلى المالك ، والصنعة إلى الصانع
 ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ أي سجد لآدم جميع الملائكة لم يمتنع منهم أحد ﴿إلا إبليس أبى أن
 يكون مع الساجدين﴾ الاستثناء منقطع لأن إبليس خلق آخر غير الملائكة^(٢) ، فهو من نار وهم من نور ،
 وهم لا يعصون الله ما أمرهم وهو أبى وعصى ، فليس هو من الملائكة بيقين ، ولكنه كان بين صفوفهم
 فتوجه إليه الخطاب والمعنى : سجد جميع الملائكة لكن إبليس امتنع من السجود بعد أن صدر له الأمر
 الإلهي ﴿قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين﴾ أي ما المانع لك من السجود ؟ وأي داعٍ دعاك إلى
 الإياء والامتناع ؟ وهو استفهام تبيكيت وتوبيخ ﴿قال لم أكن لأسجد لبشرٍ خلقته من صلصالٍ من حمأٍ
 مسنون﴾ أي قال إبليس : لا ينبغي ولا يليق لمثلي أن يسجد لآدم وهو مخلوق من طينٍ يابسٍ متغير ، فهو
 من طينٍ وأنا من نار فكيف يسجد العظيم للحقير ، والفاضل للمفضول ؟ رأى عدو الله نفسه أكبر من أن
 يسجد لآدم ، ومنعه كبره وحسده عن امتثال أمر الله ﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم﴾ أي اخرج من
 السموات فإنك مطرود من رحمتي ﴿وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾ أي وإن عليك لعنتي إلى يوم الجزاء
 والعقوبة ﴿قال رب فأنظرنني إلى يوم يُبعثون﴾ أي قال للعين : أمهلني وأخرني إلى يوم البعث ﴿قال
 فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ أي قال له الله : إنك من المؤجلين إلى حين موت الخلائق قال
 القرطبي : أراد بسؤاله الإنظار- إلى يوم يبعثون - ألا يموت ، لأن البعث لا موت بعده ، فأجابه المولى
 بالإنظار إلى يوم الوقت المعلوم وهو يوم موت الخلائق ، فموت إبليس ثم يُبعث^(٣) ﴿قال رب بما
 أغويتني﴾ أي بسبب إغوائك وإضلالك لي ﴿لأزينن لهم في الأرض﴾ أي لأزينن لذرية آدم المعاصي

(١) المختصر ٣١١ / ٢ . (٢) قد حققنا ذلك في سورة البقرة والأعراف ، وتقدم قول الحسن البصري : « والله ما كان إبليس من الملائكة طرفة

عين » وانظر كتابنا « النبوة والأنبياء » ص ١٢٨ فيه البيان الشافي . (٣) القرطبي ٢٧ / ١٠ .

رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَزِينَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا تُغْوِينَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٨﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤١﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٢﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٣﴾

والآثام ﴿ولأغوينهم أجمعين﴾ أي ولأضلنهم عن طريق الهدى أجمعين ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ أي إلا من استخلصته من عبادك لطاعتك ومرضاتك فلا قدرة لي على إغوائه ﴿قال هذا صراطٌ عليّ مستقيم﴾ أي قال تعالى : هذا طريق مستقيم واضح ، وسنة أزلية لا تتخلف وهي ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ أي إن عبادي المؤمنين لا قوة لك على إضلالهم ﴿إلا من أتبعك من الغاوين﴾ استثناء منقطع لأن الغاوين ليسوا من عباد الله المخلصين والمعنى لكن من غوى وضل من الكافرين فلك عليهم تسلط ، لأن الشيطان إنما يتسلط على الشاردين عن الله ، كما يتسلط الذئب على الشاردة من القطيع ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ أي موعده إبليس وأتباعه جميعاً ﴿لها سبعة أبواب﴾ أي لجهنم سبعة أبواب يدخلون منها لكثرتهم وروي عن علي أنها أطباق ، طبق فوق طبق وأنها دركات بعضها أشد من بعض ﴿لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ أي لكل جماعة من أتباع إبليس باب معين معلوم ، قال ابن كثير : كل يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر في دركٍ بقدر عمله^(١) .

البَلاغة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

- ١ - المجاز المرسل في ﴿وما أهلكنا من قرية﴾ المراد أهلها وهو من باب إطلاق المحل وإرادة الحال .
- ٢ - الاستعارة التخيلية في ﴿عندنا خزائنه﴾ فهو تمثيل لكمال قدرته ، شبه قدرته على كل شيء بالخزائن المودوعة فيها الأشياء، وإخراج كل شيء بحسب ما اقتضته حكمته على طريق الاستعارة .
- ٣ - الطباق بين ﴿نحيمي . . ونميت﴾ وبين ﴿المستقدمين . . والمستأخرين﴾ .
- ٤ - جناس الاشتقاق في ﴿خزائنه . . وخازنين﴾ .
- ٥ - السجع الذي له وقع على السمع مثل ﴿المجرمين ، الأولين ، المنظرين﴾ الخ .

لطيفة : ذكر أن رجلاً أراد أن يمتحن الأديان أيها أصح وأحسن ؟ فعمد إلى التوراة والإنجيل والقرآن - وكان خطأً - فنسخ من كل كتاب نسخة بخط جميل وزاد فيها ونقص ، ثم عرض التوراة على علماء اليهود فقبلوها وتصفحوها وأكرمواه بالمال ، ثم عرض الإنجيل الذي نسخه بيده على القسس فاشتروه

بثمن كبير وأكرموه ، ثم عرض نسخة القرآن على شيوخ المسلمين فنظروا فيه فلما رأوا فيه بعض الزيادة والنقص أمسكوا به فضربوه ثم رفعوا أمره إلى السلطان فحكم بقتله ، فلما أراد قتله أشهر إسلامه وأخبرهم بقصته وأنه امتحن الأديان فعرف أن الإسلام دين حق . انظر تفسير القرطبي ٦ / ١٠ .

قال الله تعالى : ﴿إن المتقين في جناتٍ وعيونٍ .. إلى .. واعبدُ ربك حتى يأتيك اليقين﴾
من آية (٤٥) إلى نهاية آية (٩٩) .

المناسكَة : لما ذكر تعالى حال الأشقياء من أهل الجحيم ، أعقبهم بذكر حال السعداء من أهل النعيم ، ثم ذكر قصص بعض الرسل مع أقوامهم «لوط ، وشعيب ، وصالح» تسلياً لرسول الله ﷺ ليتأسى بهم في الصبر ، ثم ذكر الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين ، وختم السورة ببشارته عليه السلام بإهلاك أعدائه المستهزئين .

اللغز : ﴿نَصَبٌ﴾ تعب وإعياء ﴿وجلون﴾ خائفون فزعون ﴿الغابرين﴾ الباقين في العذاب ﴿القانتين﴾ القنوط: كمال اليأس ﴿تفضحون﴾ الفضيحة: أن يظهر من أمره ما يلزمه به العار، يقال : فضحه الصبح إذا أظهره للناس قال الشاعر :

ولاح ضوءُ هلالٍ كاد يفضحنا مثلُ القلامَةِ قد قُصَّتْ من الظُّفْرِ^(١)

﴿لعمرك﴾ قسمٌ بحياة محمد ﷺ أي وحياتك ﴿سكرتهم﴾ السكرة : الغواية والضلالة ﴿يعمّهون﴾ يترددون تحيراً أو يعمون عن الرشيد، والعَمَمه للقلب مثل العمى للبصر ﴿التوسمين﴾ التوسم من الوَسْم وهي العلامة التي يستدل بها على المطلوب يقال : توسم في الخير إذا رأى فيه أثراً منه قال ابن رواحة في رسول الله ﷺ :
إني توسمْتُ فيك الخيرَ أعرفه والله يعلمُ أني ثابتُ البصر^(٢)

وأصله التثبُّ والتفكر مثل التفرس وفي الحديث (اتقوا فِرَاسَةَ المُو من فإنه ينظر بنور الله) ^(٣) ﴿الأيكة﴾ الشجرة الملتفة وجمعها أَيْكٌ ﴿الحجر﴾ اسم واد كانت تسكنه ثمود ﴿عضين﴾ أجزاء متفرقة من التعضية وهي التجزئة والتفريق ﴿اليقين﴾ الموت لأنه أمر متيقن .

سَبَبُ الزَّوَلِ : روي أن النبي ﷺ خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال : أتضحكون وبين أيديكم الجنة والنار؟ فشق ذلك عليهم فنزلت ﴿تَبَّىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾^(٤) .

(١) البحر ٤٥٦/٥ . (٢) القرطبي ٤٣/١٠ .

(٣) رواه الترمذي . (٤) القرطبي ٣٤/١٠ .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٦﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمَنِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٨﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٩﴾ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٠﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥١﴾ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥٢﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٤﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٥﴾ قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٦﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٧﴾ قَالَ فَا

التفسير : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي إن الذين اتقوا الفواحش والشرك لهم في الآخرة البساتين الناضرة ، والعيون المتفجرة بالماء والسلسيل والخمر والعسل ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمَنِينَ﴾ أي يقال لهم : أدخلوا الجنة سالمين من كل الآفات ، آمنين من الموت ومن زوال هذا النعيم ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ أي أزلنا ما في قلوب أهل الجنة من الحقد والبغضاء والشحناء ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ أي حال كونهم إخوة متحابين لا يكدر صفوهم شيء ، على سرر متقابلين وجهاً لوجه قال مجاهد : لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض زيادة في الإنس والإكرام ، وقال ابن عباس : على سرر من ذهب مكللة بالدر والياقوت والزبرجد^(١) ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي لا يصيبهم في الجنة إعياء وتعب ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا يُطْرَدُونَ ، نعيمهم خالد ، وبقاؤهم دائم ، لأنها دار الصفاء والسرور ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي أخبر يا محمد عبادي المؤمنين بأني واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ أي وأخبرهم أن عذابي شديد لمن أصرَّ على المعاصي والذنوب قال أبو حيان : وجاء قوله ﴿وَأَنَّ عَذَابِي﴾ في غاية اللطف إذ لم يقل على وجه المقابلة (وأنني المعذب المؤلم) وكل ذلك ترجيح لجهة العفو والرحمة^(٢) ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي وأخبرهم عن قصة ضيوف إبراهيم ، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط ، وكانوا عشرة على صورة غلمان حسان معهم جبريل ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي حين دخلوا على إبراهيم فسلموا عليه ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي قال إبراهيم إننا خائفون منكم ، وذلك حين عرض عليهم الأكل فلم يأكلوا ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي قالت الملائكة لا تخف فإننا نبشرك بغلام واسع العلم ، عظيم الذكاء ، هو إسحاق ﴿قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي قال إبراهيم أشبشرونني بالولد على حالة الكبر والهرم ، فبأي شيء تبشرونني ؟ قال ذلك على وجه التعجب والاستبعاد ﴿قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ أي بشرناك باليقين الثابت فلا تستبعده ولا تيأس من رحمة الله ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ استفهام إنكاري أي لا يقنط من رحمة الله إلا المخطئون طريق المعرفة والصواب ، الجاهلون برب الأرباب ، أما القلب العامر بالإيمان ، المتصل بالرحمن ، فلا ييأس ولا يقنط قال البيضاوي : وكان تعجب إبراهيم عليه السلام باعتبار

خَطَبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾
 إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدَرْنَا إِنهَذَا لِمَنْ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُونَ ﴿٦٢﴾
 قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِبَاهُكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الْبَلِّ
 وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ
 هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾

العادة دون القدرة فإن الله تعالى قادرٌ على أن يخلق بشراً من غير أبوين ، فكيف من شيخٍ فانٍ وعجوزٍ عاقرٍ ؟ ولذلك أجابهم بذلك الجواب (١) ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ أي قال إبراهيم ما شأنكم وما أمركم الذي جئتم من أجله أيها الملائكة الكرام ؟ ﴿ قالوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ أي أرسلنا ربنا إلى قومٍ مشركين ضالين لإهلاكهم يعنون قوم لوط ﴿ إلا آءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي إلا أتباع لوط وأهله المؤمنين ، فسننجيهم من ذلك العذاب أجمعين ﴿ إلا أَمْرَاتُهُ قَدَرْنَا إِنهَذَا لِمَنْ الْغَابِرِينَ ﴾ أي إلا امرأة لوط فقد قدر الله بقاءها في العذاب مع الكفرة الهالكين قال القرطبي : استثنى من آل لوط امرأته وكانت كافرة فالتحقت بالمجرمين في الهلاك (٢) ﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون ﴾ أي فلما أتى رسلُ الله لوطاً عليه السلام ﴿ قال إنكم قومٌ مُّكَرُونَ ﴾ أي قال لهم إنكم قوم لا أعرفكم فماذا تريدون ؟ ﴿ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾ أي قالوا له بل نحن رسل الله ، جئناك بما كان فيه قومك يشكون فيه وهو نزول العذاب الذي وعدتهم به ﴿ وأتيناك بالحق وإنا لصادقون ﴾ أي أتيناك بالحق اليقين من عذابهم وإنا لصادقون فيما نقول ﴿ فأسرِبَاهُكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الْبَلِّ ﴾ أي سرّب بأهلك في طائفة من الليل ﴿ واتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ﴾ أي كن من ورائهم وسرّ خلفهم لتطمئن عليهم ﴿ ولا يلتفت منكم أحدٌ ﴾ أي لا يلتفت أحد منكم ورائه لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم فيرتاع ﴿ وامضوا حيث تؤمرون ﴾ أي سيروا حيث يأمركم الله عز وجل قال ابن عباس : يعني الشام ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاءِ مقطوعٌ ﴾ أي أوحينا إلى لوط ذلك الأمر العظيم أن أولئك المجرمين سيستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحدٌ ﴿ مصبحين ﴾ أي إذا دخل الصباح تمّ هلاكهم واستئصالهم ﴿ وجاء أهلُ المدينة يستبشرون ﴾ أي جاء أهل مدينة سدوم - وهم قوم لوط - مسرعين يستبشرون بأضيافه ، طمعاً في ارتكاب الفاحشة بهم ، ظناً منهم أنهم أناسٌ أمثالهم قال المفسرون : أخبر أولئك السفهاء أن في بيت لوطٍ شباناً مردداً حسناً فأسرعوا فرحين يبشرون بعضهم بعضاً بأضياف لوط (٣) ﴿ قال إن

(١) البيضاوي ٢٨٦ . (٢) القرطبي ١٠ / ٣٦ .

(٣) يقول سيد قطب عليه الرحمة والرضوان : « تسمع القوم بأن في بيت لوطٍ شباناً صباح الوجهة ففرحوا بأن هناك صيداً ﴾ وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴿ والتعبير على هذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة التي وصل إليها القوم في الدنس والفجور ، يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة مستبشرين بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرةً وعلانيةً ، هذه العلانية التي يترفع عنها الحيوان بيننا أولئك =

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا أَوْلَٰئِكَ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧٨﴾ لَعَمْرُكَ
 إِنَّهُمْ لِنَفْسِكَ يَكْفُرُونَ ﴿٧٩﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ
 سَبِيلِ ﴿٨١﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٨٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِنْ كَانَ
 أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٨٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مَّبِينٍ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ

هؤلاء ضيفي فلا تفضحون ﴿٧٦﴾ أي هؤلاء ضيوفي فلا تقصدوهم بسوء فتلحقوا بي العار وتفضحوني أمامهم ﴿واتقوا الله ولا تخزون﴾ أي خافوا الله أن يحل بكم عقابه ، ولا تهينوني بالتعرض لهم بالمكروه ﴿قالوا أَوْلَم نُنْهَكُ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي قالوا ألم نمنعك عن ضيافة أحد ؟ قال الرازي : المعنى ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة (١) ؟ ﴿قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾ أي هؤلاء النساء فتزوجوهن ولا تركنوا إلى الحرام إن كنتم تريدون قضاء الشهوة قال المفسرون : المراد بقوله ﴿بناتي﴾ بنات أمته لأن كل نبي يعتبر أباً لقومه ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ أي وحياتك يا محمد إن قوم لوط لفي ضلالهم وجهلهم يتخطون ويترددون ، وهذه جملة اعتراضية جاءت ضمن قصة لوط قسماً بحياة الرسول ﷺ تكريماً له وتشريفاً قال ابن عباس : «ما خلق الله وما ذراً وما برأ نفساً أكرم على الله من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحدٍ غيره (٢)﴾ ﴿فأخذتهم الصيحة مشرقين﴾ أي أخذتهم صيحة العذاب المهلكة المدمرة وقت شروق الشمس ﴿فجعلنا عاليها سافلها﴾ أي قلبناها بهم فجعلنا أعالي المنازل أسافلها قال المفسرون : حمل جبريل عليه السلام قريتهم واقتلعها من جذورها ، حتى رأوا الأفلاك وسمعوا تسبيح الأملأك ثم قلبها بهم ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة كالمطر من طين طبخ بنار جهنم ﴿إن في ذلك لآياتٍ للمتوسمين﴾ أي فيما حل بهم من الدمار والعذاب للدلالات وعلامات للمعتبرين ، المتأملين بعين البصر والبصيرة ﴿وإنها لسبيلٍ مقيم﴾ أي وإن هذه القرى المهلكة ، وما ظهر فيها من آثار قهر الله وغضبه ، لطريق ثابت لم يندرس ، يراها المجتازون في أسفارهم أفلا يعتبرون ؟ ﴿إن في ذلك لآيةً للمؤمنين﴾ أي لعبرة للمصدقين ﴿وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين﴾ أي وإنه الحال والشأن كان قوم شعيب - وهم أصحاب الأيكة أي الشجر الكثير الملتف - لظالمين بتكذيبهم شعيباً ، وقطعهم الطريق ، ونقصهم المكيال والميزان ﴿فانتقمنا منهم﴾ أي أهلكتناهم بالرجفة وعذاب يوم الظلة قال المفسرون : اشتد الحر عليهم سبعة أيام حتى قربوا من الهلاك ، فبعث الله عليهم سحابة كالظلة ، فالتجئوا إليها واجتمعوا تحتها للتظلل بها ، فبعث الله عليهم منها ناراً فأحرقتهم

= القوم المجرمون مجاهرون بها ويتلمظون عليها ، وهي حالة من الارتكاس معدومة النظر ، فأما لوط فوقف مكروباً يحاول أن يدفع عن ضيوفه وعن شرفه ، وقف يستثير النخوة الأدمية فيهم ، ويستجيش وجدان التقوى لله وهو يعلم أن هذه النفوس المرتكسة الطموسة لم يعد فيها نخوة ولا شعور إنساني ، ولكنه في كربته وشدته يحاول ما يستطيع . «الظلال ٣١/١٤ .
 (١) الفخر الرازي ٢٠٢/١٩ . (٢) الطبري ٤٤/١٤ .

الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٣﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨٤﴾ وَكَانُوا يُخْتَنُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٥﴾
 فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴿٨٦﴾ فَآغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ
 الْعَلِيمُ ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٩٠﴾ لَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ
 أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا
 جميعاً ﴿٩٣﴾ وإنيهما لبيمام مبین ﴿٩٤﴾ أي وإن قرى قوم لوط وشعيب لطريق واضح أفلا تعتبرون بهم يا أهل
 مكة ؟ ﴿٩٥﴾ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴿٩٦﴾ هذه هي القصة الرابعة وهي قصة صالح عليه السلام أي
 كذبت ثمود نبيهم صالحاً - والحجر وإد بين المدينة والشام وآثاره باقية يمر عليها المسافرون - قال
 البيضاوي : ومن كذب واحداً من الرسل فكأنما كذب الجميع ولذا قال ﴿ المرسلين ﴾ (٩٧) ﴿ وآتيناهم آياتنا
 فكانوا عنها معرضين ﴾ أي وأريناهم معجزاتنا الدالة على قدرتنا مثل الناقة وما فيها من العجائب فكانوا لا
 يعتبرون بها ولا يتعظون قال ابن عباس : كان في الناقة آيات : خروجها من الصخرة ، ودنو ولادتها عند
 خروجها ، وعظم خلقها فلم تشبهها ناقة ، وكثرة لبنها حتى كان يكفيهم جميعاً فلم يتفكروا فيها ولم
 يستدلوا بها (٩٨) ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ﴾ أي كانوا ينقبون الجبال فينبون فيها بيوتاً آمنين
 يحسبون أنها تحميهم من عذاب الله ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين ﴾ أي أخذتهم صيحة الهلاك حين
 أصبحوا ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ أي ما دفع عنهم عذاب الله ما كانوا يشيدونه من القلاع
 والحصون ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ أي وما خلقنا الخلائق كلها ساءها وأرضها
 وما بينهما إلا خلقاً ملتبساً بالحق ، فلذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء المكذبين لئلا يعم الفساد
 ﴿ وإن الساعة لآتية فاصفح الجميل ﴾ أي وإن القيامة لآتية لا محالة فيجزي المحسن بإحسانه ،
 والمسيء بإساءته ، فأعرض يا محمد عن هؤلاء السفهاء وعاملهم معاملة الحليم ﴿ إن ربك هو الخلاق
 العليم ﴾ أي الخالق لكل شيء ، العليم بأحوال العباد ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني ﴾ أي ولقد أعطيناك يا
 محمد سبع آيات هي الفاتحة لأنها تشتم أي تكرر قراءتها في الصلاة وفي الحديث (الحمد لله رب العالمين هي
 السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته) (٩٩) وقيل : هي السور السبع الطوال ، والأول أرجح
 ﴿ والقرآن العظيم ﴾ أي وآتيناك القرآن العظيم الجامع لكمالات الكتب السماوية ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما
 متعنا به أزواجا منهم ﴾ أي لا تنظر إلى ما متعنا به بعض هؤلاء الكفار ، فإن الذي أعطيناك أعظم منها
 وأشرف وأكرم ، وكفى بإنزال القرآن عليك نعمة ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أي لا تحزن لعدم إيمانهم
 ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ أي تواضع لمن آمن بك من المؤمنين وضعفائهم ﴿ وقل إني أنا النذير

عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾
 فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ
 إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ
 مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

المبين ﴿٩٠﴾ أي قل لهم يا محمد أنا المنذر من عذاب الله ، الواضح البين في الإنذار لمن عصى أمر الجبار ﴿٩١﴾ كما
 أنزلنا على المقتسمين ﴿٩٢﴾ الكاف للتشبيه والمعنى أنزلنا عليك القرآن كما أنزلنا على أهل الكتاب وهم اليهود
 والنصارى الذين آمنوا ببعض كتابهم وكفروا ببعضه ، فانقسموا إلى قسمين ﴿٩٣﴾ الذين جعلوا القرآن
 عِضِينَ ﴿٩٤﴾ أي جعلوا القرآن أجزاءً متفرقة وقالوا فيه أقوالاً مختلفة قال ابن عباس : آمنوا ببعض وكفروا
 ببعض ، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم له بقولهم سحر ، وشعر ،
 وأساطير ، بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب مثل فعل كفار مكة ﴿٩٥﴾ فوركبك لنسألنهم أجمعين عما
 كانوا يعملون ﴿٩٦﴾ أي فأقسمُ بربك يا محمد لنسألن الخلائق أجمعين عما كانوا يعملون في الدنيا ﴿٩٧﴾ فاصدع بما
 تؤمرُ وأعرض عن المشركين ﴿٩٨﴾ أي فاجهر بتبليغ أمر ربك ، ولا تلتفت إلى ما يقول المشركون ﴿٩٩﴾ إنا
 كفيناك المستهزئين ﴿٩٠﴾ أي كفيناك شرَّ أعدائك المستهزئين بإهلاكنا إياهم وكانوا خمسة من صناديد قريش
 ﴿٩١﴾ الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ﴿٩٢﴾ أي الذين أشركوا مع الله غيره من الأوثان والأصنام ﴿٩٣﴾ فسوف
 يعلمون ﴿٩٤﴾ وعيدٌ وتهديدٌ أي سوف يعلمون عاقبة أمرهم في الدارين ﴿٩٥﴾ ولقد نعلم أنك يضيقُ صدرك بما
 يقولون ﴿٩٦﴾ أي يضيقُ صدرك بالاستهزاء والتكذيب ﴿٩٧﴾ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴿٩٨﴾ أي فافزع
 فيما نالك من مكروه إلى التسييح والصلاة والإكثار من ذكر الله ﴿٩٩﴾ واعبدُ ربك حتى يأتيك اليقين ﴿٩٠﴾ أي
 اعبد ربك يا محمد حتى يأتيك الموت ، سمي يقيناً لأنه متيقن الوقوع والنزول .

البلاغه : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

- ١ - الإيجاز بالحذف في ﴿أدخلوها بسلام﴾ أي يقال لهم أدخلوها .
- ٢ - المقابلة اللطيفة في ﴿نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم﴾ مع الآية بعدها ﴿وأن عذابي﴾
 فقد قابل بين العذاب والمغفرة وبين الرحمة الواسعة والعذاب الأليم، وهذا من المحسنات البديعية .
- ٣ - الكناية في ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع﴾ كنى به عن عذاب الاستئصال .
- ٤ - المجاز في ﴿قدرنا إنها لمن الغابرين﴾ أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم مجازاً وهو لله وحده
 وذلك لما لهم من القرب والاختصاص لأنهم رسل الله أرسلوا بأمره تعالى .

- ٥ - الجناس الناقص في ﴿الصيحة مصبحين﴾ وجناس الاشتقاق في ﴿فاصفح الصفح﴾ .
- ٦ - صيغة المبالغة في ﴿الغفور الرحيم﴾ وفي ﴿الخلق العليم﴾ .
- ٧ - الطباق في ﴿عاليها سافلها﴾ .
- ٨ - السجع بلا تكلف في مواطن عديدة مثل ﴿أمين ، مصبحين ، معرضين﴾ .
- ٩ - عطف العام على الخاص في ﴿سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ .
- ١٠ - الاستعارة التبعية في ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ حيث شبه إلانة الجانب بخفض الجناح بجامع العطف والرقّة في كلِّ واستعير اسم المشبّه به للمشبّه ، وهذا من بليغ الاستعارات لأن الطائر إذا كف عن الطيران خفض جناحيه .
- تنبية** : الجمع بين هذه الآية ﴿فوربك لنسألهم أجمعين﴾ وبين قوله ﴿ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ وقوله ﴿فيومثّل لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ أن القيامة مواطن ، فموطن يكون فيه سؤال وكلام ، وموطن لا يكون ذلك فيه ، هذا قول عكرمة ، وقال ابن عباس : لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا ، لأن الله عالم بكل شيء ، ولكن يسألهم سؤال تقرّيع وتوبيخ فيقول لهم : لم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه^(١) ؟

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجر »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة النحل من السور المكية التي تعالج موضوعات العقيدة الكبرى « الألوهية ، والوحي ، والبعث والنشور » وإلى جانب ذلك تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية في ذلك العالم الفسيح في السموات والأرض ، والبحار والجبال ، والسهول والوديان ، والماء الهائل ، والنبات النامي ، والفلك التي تجري في البحر ، والنجوم التي يهتدي بها السالكون في ظلمات الليل ، إلى آخر تلك المشاهد التي يراها الإنسان في حياته ، ويدركها بسمعه وبصره ، وهي صورٌ حيةٌ مشاهدة ، دالةٌ على وحدانية الله جلّ وعلا ، وناطقةٌ بآثار قدرته التي أبدع بها الكائنات .

* تناولت السورة الكريمة في البدء أمر الوحي الذي كان مجال إنكار المشركين واستهزائهم ، فقد كذبوا بالوحي واستبعدوا قيام الساعة ، واستعجلوا الرسول ﷺ أن يأتيهم بالعذاب الذي خوفهم به ، وكلما تأخر العذاب زادوا استعجالاً وزادوا استهزاءً واستهتاراً .

* ولقد هدفت السورة الكريمة إلى تقرير مبدأ « وحدانية الله » جلّ وعلا بلفت الأنظار إلى قدرة الله الواحد القهار ، فخطبت كل حاسة في الإنسان ، وكل جارحة في كيانه البشري ، ليتجه بعقله إلى ربه ، ويستتير بما يرى من آثار صنع الله على عظمة الله سبحانه .

* ثم تتابعت السورة الكريمة تذكّر الناس بنتيجة الكفر بنعم الله ، وعدم القيام بشكرها ، وتحذّرهم تلك العاقبة الوخيمة التي يثول إليها مصير كل معاندٍ وجاحد .

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والصبر والعفو عما يلقاه من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله .

التسمية: سميت هذه السورة الكريمة « سورة النحل » لاشتغالها على تلك العبرة البليغة التي تشير إلى عجب صنع الخالق ، وتدلّ على الألوهية بهذا الصنع العجيب .

اللفظة: ﴿نُطْفَةٌ﴾ النطفة الماء المهين الذي يتكون منه الإنسان ، من نطف إذا قطر ﴿دَفءٌ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفْعٌ

الدفء : ما يستدفء به الإنسان من البرد ﴿ثريحون﴾ الرِّواح : رجوع المواشي بالعشي من المرعى ﴿تسرحون﴾ السَّراح : الخروج بها صباحاً إلى المرعى ﴿أثقالكم﴾ الأثقال : الأمتعة جمع ثقل سميت أثقالاً لأنها ثقيلة الحمل ﴿جائر﴾ مائل عن الحق ﴿تُسيمون﴾ أسام الماشية تركها ترعى ، وسامت هي إذا رعت حيث شاءت فهي سائمة ﴿ذراً﴾ خلق وأبدع ﴿مواخر﴾ أصل المخرشق الماء عن يمين وشمال يقال : مخرت السفينة إذا جرت تشق الماء مع صوت ﴿تميد﴾ تضطرب .

سَبَبُ النَّزُولِ : قال ابن عباس : لما نزل قوله تعالى ﴿اقتربت الساعة﴾ قال الكفار بعضهم لبعض : إنَّ محمداً يزعم أن القيامة قد اقتربت فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ، فلما امتدت الأيام قالوا يا محمد : ما نرى شيئاً مما تُخوفنا به فأنزل الله تعالى ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه . . .﴾ (١) الآية .

النَّفْسِيرُ : ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ أي قرب قيام الساعة فلا تستعجلوا العذاب الذي أوعدكم به محمد ، وإنما أتى بصيغة الماضي لتحقق وقوع الأمر وقربه ، قال الرازي : لما كان واجب الوقوع لا محالة عبر عنه بالماضي كما يقال للمستغيث : جاءك الغوثُ فلا تجزع (٢) ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي تنزه الله عما يصفه به الظالمون ، وتقصد عن إشراكهم به غيره من الأنداد والأوثان ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ وَالنَّبُوَّةَ بِإِرَادَتِهِ وَأَمْرِهِ ﴿على من يشاء من عباده﴾ أي على الأنبياء والمرسلين ، وسمي الوحي روحاً لأنه تحيا به القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان ﴿أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾ أي بأن أنذروا أهل الكفر أنه لا معبود إلا الله فخافوا عذابي وانتقامي ، ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على وحدانيته وقدرته فقال ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾ أي خلقها بالحق الثابت ، والحكمة الفائقة ، لا عبثاً ولا جزافاً ﴿تعالى عما يشركون﴾ أي تجدد وتقديس عن الشريك والنظير ﴿خلق الإنسان من نطفة﴾ أي خلق هذا الجنس البشري من نطفة مهينة ضعيفة هي المنى ﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ أي فإذا به بعد تكامله بشراً مخلصاً لخلقه ، واضح الخصومة ، يكابر ويعاند ، وقد خلق ليكون عبداً لا ضداً قال ابن الجوزي : لقد خلق من نطفة وهو مع ذلك يخاصم وينكر البعث ، أفلا يستدل بأوله على آخره ، وبأن من قدر على إيجاد أولاً قادر على إعادته ثانياً (٣) ؟ ﴿والأنعام خلقها﴾ أي وخلق الأنعام لمصالحكم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿لكم فيها دفء﴾

(١) زاد المسير ٤/٤٢٦ . (٢) الرازي ١٩/٢١٨ . (٣) زاد المسير ٤/٤٢٩ .

وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٧﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بَشِقَ الْأَنْفُسِ ۗ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٨﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ ۗ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٠﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١١﴾ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴿١٢﴾

أي لكم فيها ما تستدفئون به من البرد مما تلبسون وتفترشون من الأصواف والأوبار ﴿٦﴾ ومنافع ومنها تأكلون ﴿٧﴾ أي ولكم فيها منافع عديدة من النسل والدر وركوب الظهر ، ومن لحومها تأكلون وهو من أعظم المنافع لكم ﴿٨﴾ ولكم فيها جمالٌ حين تُريحون وحين تَسرحون ﴿٩﴾ أي ولكم في هذه الأنعام والمواشي زينةٌ وجمالٌ حين رجوعها عشياً من المرعى ، وحين غدوها صباحاً لترعى ، جمال الاستمتاع بمنظرها صحيحةً سميئةً فارهة ﴿١٠﴾ وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ﴿١١﴾ أي وتحمل أحمالكم الثقيلة وأمتعتكم التي تعجزون عن حملها إلى بلدٍ بعيد لم تكونوا لتصلوا إليه إلا بجهدٍ ومشقة ﴿١٢﴾ إن ربكم لرؤفٌ رحيمٌ ﴿١٣﴾ أي إن ربكم أيها الناس الذي سخَّر لكم هذه الأنعام لعظيم الرأفة والرحمة بكم ﴿١٤﴾ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينةٌ ﴿١٥﴾ أي وخلق الخيل والبغال والحمير للحمل والركوب وهي كذلك زينة وجمال ﴿١٦﴾ ويخلق ما لا تعلمون ﴿١٧﴾ أي ويخلق في المستقبل ما لا تعلمونه الآن كوسائل النقل الحديث : القاطرات ، والسيارات ، والطائرات النفاثة وغيرها مما يجدُّ به الزمان وهو من تعليم الله للإنسان ﴿١٨﴾ وعلى الله قصد السبيل ﴿١٩﴾ أي وعلى الله جل وعلا بيان الطريق المستقيم ، الموصل لمن يسلكه إلى جنات النعيم ﴿٢٠﴾ ومنها جائز ﴿٢١﴾ أي ومن هذه السبيل طريقٌ مائلٌ عن الحق منحرفٌ عنه ، لا يوصل سالكه إلى الله وهو طريق الضلال ، كاليهودية والنصرانية والمجوسية ﴿٢٢﴾ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴿٢٣﴾ أي لو شاء أن يهديكم إلى الإيمان لهداكم جميعاً ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن يدع للإنسان حرية الاختيار ﴿٢٤﴾ فمن شاء فليؤم من ومن شاء فليكفر ﴿٢٥﴾ ليرتب عليه الثواب والعقاب ، ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام ، شرع في ذكر سائر النعم العظام وآياته المنبئة في الكائنات فقال ﴿٢٦﴾ هو الذي أنزل من السماء ماءً ﴿٢٧﴾ أي أنزل المطر بقدرته القاهرة من السحاب ﴿٢٨﴾ لكم منه شراب ﴿٢٩﴾ أي أنزله عذباً فراتاً لتشربوه فتسكن حرارة العطش ﴿٣٠﴾ ومنه شجرٌ فيه تُسيمون ﴿٣١﴾ أي وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم ﴿٣٢﴾ يُنبِتُ لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ﴿٣٣﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها ﴿٣٤﴾ ومن كل الثمرات ﴿٣٥﴾ أي ومن كل الفواكه والثمار يخرج لكم أطيب

(١) قال في الظلال : « لقد جدت وسائل للحمل والركوب لم يكن يعلمها أهل الزمان ، والقرآن يبيء لها القلوب والأذهان بلا جحود ولا تحجر ﴿١٧﴾ ويخلق ما لا تعلمون ﴿١٧﴾ حتى لا يقول الناس : إنما استخدم آباؤنا الخيل والبغال والحمير فلا نستخدم سواها ، ولهذا هيا القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال ما يتمخض عنه العلم ويتمخض عنه المستقبل . »

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأْنَا كَلُومًا مِنْهُ لِحِمَاتٍ طَرِيبًا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبًّا وَتَبَسُّونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالَّتِي فِي الْأَرْضِ رَوَّسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا

الطعام ﴿إن في ذلك آية لقوم يتفكرون﴾ أي إن في إنزال الماء وإخراج الثمار لدلالة واضحة على قدرة الله ووحدانيته لقوم يتدبرون في صنعه فيؤمنون قال أبو حيان : ختم الآية بقوله ﴿يتفكرون﴾ لأن النظر في ذلك يحتاج إلى فضل تأمل ، واستعمال فكر ، ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وضعت في الأرض ومر عليها زمن معين لحقها من نداوة الأرض ما تنتفخ به فيشق أعلاها فتصعد منه شجرة إلى الهواء ، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرة أخرى وهي العروق ، ثم ينمو الأعلى ويقوى وتخرج الأوراق والأزهار ، والأكمام والثمار ، المشتملة على أجسام مختلفة الطبائع والألوان والأشكال والمنافع وذلك بتقدير قادر مختار وهو الله تعالى ﴿١١﴾ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ﴿أي دلل الليل والنهار يتعاقبان لنامكم ومعاشكم ، والشمس والقمر يدوران لمصالحكم ومنافعكم﴾ والنجوم مسخرات بأمره ﴿أي والنجوم تجري في فلكها بأمره تعالى لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ إن في ذلك آيات لقوم يعقلون ﴿أي إن في ذلك الخلق والتسخير لدلائل باهرة عظيمة ، لأصحاب العقول السليمة﴾ وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ﴿أي وما خلق لكم في الأرض من الأمور العجيبة ، من الحيوانات والنباتات ، والمعادن والجمادات ، على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وخواصها ومنافعها﴾ إن في ذلك آية لقوم يذكرون ﴿أي لعبرة لقوم يتعظون﴾ وهو الذي سخر البحر ﴿أي وهو تعالى - بقدرته ورحمته - دلل لكم البحر المتلاطم الأمواج للركوب فيه والغوص في أعماقه﴾ لتأكلوا منه لحماً طرياً ﴿أي لتأكلوا من البحر السمك الطري الذي تصطادونه﴾ وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ﴿أي وتخرجوا منه الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان﴾ وترى الفلك مواخر فيه ﴿أي وترى السفن العظيمة تشق عباب البحر جارية فيه وهي تحمل الأمتعة والأقوات﴾ ولتبتغوا من فضله ﴿أي سخر لكم البحر لتنتفعوا بما ذكر ولتطلبوا من فضل الله ورزقه سبل معاشكم بالتجارة﴾ ولعلكم تشكرون ﴿أي ولتشكروا ربكم على عظيم إنعامه وجليل إفضاله﴾ وألقى في الأرض رواسي أن تُميد بكم ﴿أي نصب فيها جبالاً ثوابت راسيات لثلا تضرب بكم وتميل قال أبو السعود : إن الأرض كانت كرة خفيفة قبل أن تُخلق فيها الجبال ، وكان من حقها أن تتحرك كالأفلاك بأدنى سبب فلما خلقت الجبال توجهت بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد لها ﴿١٢﴾ وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون﴾ أي وجعل فيها أنهاراً وطرقاً

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهُهُ وَاحِدٌ فَأَلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَاجِرٌ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ

ومسالك لكي تهتدوا إلى مقاصدكم ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ أي وعلامات يستدلون بها على الطرق كالجبال والأنهار ، وبالنجوم يهتدون ليلاً في البراري والبحار قال ابن عباس : العلامات معالم الطرق بالنهار وبالنجم هم يهتدون بالليل (١) ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ الاستفهام إنكاري أي أتسوون بين الخالق لتلك الأشياء العظيمة والنعم الجليلة ، وبين من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فضلاً عن غيره ؟ أتشركون هذا الصنم الحقير مع الخالق الجليل ؟ وهو تبكيت للكفرة وإبطال لعبادتهم الأصنام ﴿أفلا تذكرون﴾ أي أفلا تتذكرون فتعرفون خطأ ما أنتم فيه من عبادة غير الله ؟ وهو توبيخ آخر ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ أي إن تعدوا نعم الله الفائضة عليكم لا تضبطوا عددها فضلاً عن أن تطبقوا شكرها ﴿إن الله لغفور رحيم﴾ أي غفور لما صدر منكم من تقصير رحيم بالعباد حيث ينعم عليهم مع تقصيرهم وعصيانهم ﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ أي يعلم ما تخفونه وما تظهرونه من النوايا والأعمال وسيجازيكم عليها ﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون﴾ أي والذين يعبدونهم من دون الله كالأوثان والأصنام لا يقدر على خلق شيء أصلاً والحال أنهم مخلوقون صنعهم البشر بأيديهم ، فكيف يكونون آلهة تعبد من دون الله ؟ ﴿أموات غير أحياء﴾ أي وتلك الأصنام أموات لا أرواح فيها ، لا تسمع ولا تبصر لأنها جمادات لا حياة فيها ، فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها لما فيكم من الحياة ؟ ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ أي ما تشعر هذه الأصنام متى يبعث عابدها ، وفيه تهكم بالمشركين لأنهم عبدوا جماداً لا يحس ولا يشعر ﴿إلهكم إله واحد﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة إله واحد لا شريك له ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة﴾ أي فالذين لا يصدقون بالبعث والجزاء قلوبهم تنكر وحدانية الله عز وجل ﴿وهم مستكبرون﴾ أي متكبرون متعظمون عن قبول الحق بعدما سطعت دلائله ﴿لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي حقاً إن الله تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوالهم يعلم ما يخفون وما يظهرون ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾ أي المتكبرين عن التوحيد والإيمان ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم﴾ أي وإذا سئل هؤلاء الجاحدون أي شيء أنزل ربكم على رسوله ﷺ ؟ ﴿قالوا أساطير الأولين﴾ أي قالوا على سبيل الاستهزاء : ما أنزله

كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾
ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُسْتَقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ
وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّوهُمْ الْمَلٰٓئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ
بَلَىٰ إِنْ أَنْتَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾

ليس إلا خرافات وأباطيل الأمم السابقين ليس بكلام رب العالمين قال المفسرون : كان المشركون يجلسون على مداخل مكة ينفرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحاج ماذا أنزل على محمد؟ قالوا أباطيل وأحاديث الأولين^(١) ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة﴾ أي قالوا ذلك البهتان ليحملوا ذنوبهم كاملة من غير أن يكفر منها شيء ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ أي وليحملوا ذنوب الأتباع الذين أضلوهم بغير دليل أو برهان ، فقد كانوا رؤساء يقتدى بهم في الضلالة ولذلك حملوا أوزارهم وأوزار من أضلوهم ﴿ألا ساء ما يزررون﴾ ألا للتنبية أي فانتبهوا أيها القوم بشس الحمل الذي حملوه على ظهورهم ، والمقصود المبالغة في الزجر ﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾ أي مكر المجرمون بأنبيائهم وأرادوا إطفاء نور الله من قبل كفار مكة ، وهذا تسلية له ﷺ ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ أي قلع بنيانهم من قواعده وأساسه ، وهذا تمثيل لإفساد ما أبرموه من المكر بالرسول ﴿فخر عليهم السقف من فوقهم﴾ أي فسقط عليهم سقف بنيانهم فتهدم البناء وماتوا ﴿وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ أي جاءهم الهلاك والدمار من حيث لا يخطر على بالهم ، والآية مشهد كامل للدمار والهلاك ، وللسخرية من مكر الماكرين ، وتدبير المدبرين ، الذين يقفون لدعوة الله ويحسبون مكرهم لا يُرد ، وتدبيرهم لا يخيب ، والله من ورائهم محيط ﴿ثم يوم القيامة يخزيهم﴾ أي يفضحهم بالعذاب ويذلهم ويبيئهم ﴿ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم﴾ أي يقول تعالى لهم على سبيل التقرير والتوبيخ : أين هؤلاء الشركاء الذين كنتم تخاصمون وتعادون من أجلهم الأنبياء؟ أحضروهم ليشفعوا لكم ، والأسلوب استهزاء وتهكم ﴿قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين﴾ أي يقول الدعاة والعلماء شامة بأولئك الأشقياء إن الذل والهوان والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله ﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ أي تقبض الملائكة أرواحهم الخبيثة حال كونهم ظالمي أنفسهم بالكفر والإشراك بالله ﴿فألقيوا السلم ما كنا نعمل من سوء﴾ أي استسلموا وانقادوا عند الموت على خلاف عادتهم في الدنيا من العناد والمكابرة ، وقالوا ما أشركنا ولا عصينا كما يقولون يوم المعاد ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ ﴿بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ أي يكذبهم الله ويقول : بلى قد كذبتهم وعصيتهم

فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۗ فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

وكنتم مجرمين ﴿فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها﴾ أي أدخلوا جهنم ماكثين فيها أبداً ﴿فلبئس مَثْوًى المتكبرين﴾ أي بثست جهنم مقراً ومقاماً للمتكبرين عن طاعة الله .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

- ١ - الالتفات في ﴿فاتقون﴾ فهو خطاب للمستعجلين بطريق الالتفات .
- ٢ - أسلوب الإطناب في ﴿أموات غير أحياء﴾ تأكيداً لسفاهة من عبد الأصنام ومثله ﴿لا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقون﴾ .
- ٣ - الطباق بين ﴿يسرون ويعلنون﴾ وبين ﴿تريجون وتسرحون﴾ .
- ٤ - صيغة المبالغة في ﴿خصيمٌ مبين﴾ وفي ﴿غفور رحيم﴾ .
- ٥ - طباق السلب في ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ .
- ٦ - الجناس الناقص في ﴿لا يخلقون .. وهم يُخلَقون﴾ .

٧ - الاستعارة التمثيلية في ﴿قد مكر الذين من قبلهم .. فخرّ عليهم السقف من فوقهم﴾ شبهت حال أولئك الماكرين بحال قوم بنوا بنياناً شديداً الدعائم فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم فأهلكهم بطريق الاستعارة التمثيلية ، ووجه الشبه أن ما عدوه سبباً لبقائهم ، عاد سبباً لفنائهم كقولهم « من حفر حفرة لأخيه سقط فيها » .

فكائِدَة : قال القرطبي : تسمى سورة النحل سورة النعم لكثرة ما عدّد الله فيها من نعمه على عباده^(١) .

قال الله تعالى : ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم .. إلى .. يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾

المناسِبة : لما أخبر تعالى عن حال الأشقياء الذين كفروا نعمة الله ، وطعنوا في القرآن فزعموا أنه أساطير الأولين ، وبيّن ما يكونون عليه في الآخرة من الفضيحة والذل والهوان ، ذكر هنا ما أعدّه للمتقين من وجوه التكريم في دار النعيم ، ليظهر الفارق بين حال أهل السعادة وحال أهل الشقاوة ، وبين الأبرار

والفجار على طريقة القرآن في المقارنة بين الفريقين .

اللغز : ﴿الزُّبُرُ﴾ الكتب السماوية جمع زُبُور من زبرت الكتاب إذا كتبه ﴿يُخَسَفُ﴾ يخسف المكانُ خسوفاً إذا ذهب وغاب في الأرض ﴿يَتَفَيَّأُ﴾ يميل من جانب إلى جانب ومنه قيل للظل فيء لأنه يفيء أي يرجع من جهة إلى أخرى ﴿داخرون﴾ صاغرون ذليلون ، والدخور الصغار والذل قال ذو الرمة :

فلم يبقَ إلا داخِرٌ في مُحيسٍ ومنجحرٌ في غير أرضك في جحر^(١)

* وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ

النفسير : ﴿وقيل للذين اتقوا﴾ أي قيل للفريق الثاني وهم أهل التقوى والإيمان ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾ أي ماذا أنزل ربكم على رسوله ؟ قالوا أنزل خيراً قال المفسرون : هذا كان في أيام الموسم يأتي الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره فيقولون : إنه ساحر وكاهن وكذاب ، فيأتي المؤمنون ويسألهم عن محمد وعن ما أنزل الله عليه فيقولون : أنزل الله عليه الخير والهدى والقرآن^(٢) ، قال تعالى بياناً لجزائهم الكريم ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ أي هؤلاء المحسنين مكافأة في الدنيا بإحسانهم ﴿ولدار الآخرة خيراً﴾ أي وما ينالونه في الآخرة من ثواب الجنة خيراً وأعظم من دار الدنيا لفنائها وبقاء الآخرة ﴿ولنعيم دار المتقين﴾ أي ولنعم دار المتقين دار الآخرة وهي ﴿جنات عدن﴾ أي جنات إقامة ﴿يدخلونها تجري من تحتها الأنهار﴾ أي يدخلون تلك الجنان التي تجري من بين أشجارها وقصورها الأنهار ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾ أي لهم في تلك الجنات ما يشتهون بدون كد ولا تعب ، ولا انقطاع ولا نصب ﴿كذلك يجزي الله المتقين﴾ أي مثل هذا الجزاء الكريم يجزي الله عباده المتقين لمحارمه ، المتمسكين بأوامره ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين﴾ أي هم الذين تقبض الملائكة أرواحهم حال كونهم أبراراً ، قد تطهروا من دنس الشرك والمعاصي ، طيبة نفوسهم بقاء الله ﴿يقولون سلام عليكم﴾ أي تسلم عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة قال ابن عباس : الملائكة يأتونهم بالسلام من قبل الله ، ويجبرونهم أنهم من أصحاب اليمين^(٣) ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ أي هنيئاً لكم الجنة بما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك﴾ عاد الكلام إلى تفرغ المشركين وتوبيخهم على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا والمعنى ما ينتظر

كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ

هؤلاء إلا أحد أمرين : إما نزول الموت بهم ، أو حلول العذاب العاجل ، أو ليس في مصير المكذبين قبلهم عبرة وغناء ؟ ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ أي كذلك صنع من قبلهم من المجرمين حتى حل بهم العذاب ﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي ما ظلمهم الله بتعذيبهم وإهلاكهم ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي ﴿ فأصابهم سيئات ما عملوا ﴾ أي أصابهم عقوبات كفرهم وجزاء أعمالهم الخبيثة ﴿ وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي أحاط ونزل بهم جزاء استهزائهم وهو العذاب الأليم في دركات الجحيم ﴿ وقال الذين أشركوا ﴾ أي قال أهل الكفر والإشراك وهم كفار قريش ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء ﴾ أي لو شاء الله ما عبدنا الأصنام لا نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا ما حرمنا من البحائر والسوائب وغيرها ، قالوا هذا على سبيل الاستهزاء لا على سبيل الاعتقاد ، وغرضهم أن إشراكهم وتحريمهم لبعض الذبائح والأطعمة واقع بمشيئة الله ، فهو راضٍ به وهو حقٌ وصوابٌ ^(١) ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ أي مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل من قبلهم من المجرمين ، واحتجوا مثل احتجاجهم الباطل ، وتناسوا كسبهم لكفرهم ومعاصيهم ، وأن كل ذلك كان بمحض اختيارهم بعد أن أنذرتهم رسالهم عذاب النار وغضب الجبار ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ أي ليس على الرسل إلا التبليغ ، وأما أمر الهداية والإيمان فهو إلى الله جلَّ وعلا ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ أي أرسلنا الرسل إلى جميع الخلق بأن اعبدوا الله ووحده ، واتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم ، وكل من دعا إلى الضلال ﴿ فمنهم من هدى الله ﴾ أي فمنهم من أرشده الله إلى عبادته ودينه فأمن ﴿ ومنهم من حقَّتْ عليه الضلالة ﴾ أي ومنهم من وجبت له الشقاوة والضلالة فكفر ، أعلمَ تعالى انه أرسل الرسل لتبليغ الناس دعوة الله فمنهم من استجاب فهداه الله ، ومنهم من كفر فأضله الله ﴿ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة

(١) قال في الضلال « وهذه مقولة جديدة من مقولات المشركين في علة إشراكهم بالله ، فقد أحالوا إشراكهم لبعض الذبائح والأطعمة ، على إرادة الله ومشيئته ، فلو شاء الله - في زعمهم - ألا يفعلوا شيئاً من هذا المنعهم من فعله . . وهذا وهمٌ وخطأٌ في فهم معنى المشيئة الإلهية ، فالله سبحانه لا يريد لعباده الشرك ، ولا يرضى لهم أن يجرموا ما أحله لهم من الطيبات ، وإرادته هذه ظاهرة منصوص عليها في شرائعها على السنة الرسل الذين كلفوا بالتبليغ ولهذا قال تعالى بعده ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ فهذا أمره ، وهذه إرادته لعباده ، وقد شاءت إرادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى والضلال ، وأن يدع لهم مشيئة الاختيار »

عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ بَلَى وَعَدَّ عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

المكذبين ﴿٤١﴾ أي سيروا يا معشر قريش في أكناف الأرض ثم انظروا ماذا حلَّ بالأمم المكذبين لعلكم تعتبرون ! ﴿٤٢﴾ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل ﴿٤٣﴾ الخطاب للرسول ﷺ أي إن تحرص يا محمد على هداية هؤلاء الكفار فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهداية جبراً وقسراً فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره ﴿٤٤﴾ وما لهم من ناصرين ﴿٤٥﴾ أي ليس لهم من ينقذهم من عذابه تعالى ﴿٤٦﴾ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴿٤٧﴾ أي حلف المشركون جاهدين في أيمانهم مبالغين في تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت ، استبعدوا البعث ورأوه أمراً عسيراً بعد البلى وتفرق الأشلاء والذرات ، قال تعالى رداً عليهم ﴿٤٨﴾ بلى وعداً عليه حقاً ﴿٤٩﴾ أي بلى ليعتثهم ، وعد بذلك وعداً قاطعاً لا بد منه ﴿٥٠﴾ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٥١﴾ أي ولكن أكثرهم لا يعلمون قدرة الله فينكرون البعث والنشور ﴿٥٢﴾ ليبيِّن لهم الذي يختلفون فيه ﴿٥٣﴾ أي سببعتهم ليكشف ضلالهم في إنكارهم البعث ، وليظهر لهم الحق فيما اختلفوا فيه ، وليحقق العدل وهو التمييز بين المطيع والعاصي ، وبين المحق والمبطل ، وبين الظالم والمظلوم ﴿٥٤﴾ وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴿٥٥﴾ أي وليعلم الجاحدون للبعث ، والمكذبون لوعد الله الحق أنهم كانوا كاذبين فيما يقولون ﴿٥٦﴾ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴿٥٧﴾ أي لا يحتاج الأمر إلى كبير جهد وعناء فإننا نقول للشيء كن فيكون قال المفسرون : هذا تقريب للأذهان ، والحقيقة أنه تعالى لو أراد شيئاً لكان بغير احتياج إلى لفظ ﴿كن﴾ ﴿٥٨﴾ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا ﴿٥٩﴾ أي تركوا الأوطان والأهل والقرابة في شأن الله وابتغاء رضوانه من بعد ما عذبوا في الله قال القرطبي : هم صهيب وبلال وخبَّاب وعَمَّار ، عذبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أردادوا ، فلما خلَّوهم هاجروا إلى المدينة ^(١) ﴿٦٠﴾ لنبوتنهم في الدنيا حسنة ﴿٦١﴾ أي لنسكنهم داراً حسنة خيراً مما فقدوا قال ابن عباس : بوأهم الله المدينة فجعلها لهم دار هجرة ﴿٦٢﴾ ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴿٦٣﴾ أي ثواب الآخرة أعظم وأشرف وأكبر لو كان الناس يعلمون ﴿٦٤﴾ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴿٦٥﴾ أي هم الذين صبروا على الشدائد والمكاره ، فهجروا الأوطان ، وفارقوا الإخوان ، واعتمدوا على الله وحده يبتغون أجره

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ
يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَهُمْ
بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ
يَتَفَيَّؤُا ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

ومثوبته ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم﴾ أي وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلى الأمم الماضية إلا بشراً نوحى إليهم كما أوحينا إليك قال المفسرون : أنكر مشركو قريش نبوة محمد ﷺ وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، فهلاً بعث إلينا ملكاً فنزلت ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ أي اسألوا يا معشر قريش العلماء بالتوراة والإنجيل يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشراً إن كنتم لا تعلمون ذلك ﴿بالبينات والزبر﴾ أي أرسلناهم بالحجج والبراهين الساطعة الدالة على صدقهم وبالزبر أي الكتب المقدسة ﴿وأنزلنا إليك الذكر﴾ أي القرآن المذكور الموقظ للقلوب الغافلة ﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ أي لتعرف الناس الأحكام ، والحلال والحرام ﴿ولعلهم يتفكرون﴾ أي ولعلهم يتفكرون في هذا القرآن فيتعظون ﴿أفأمن الذين مكرروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض﴾ أي هل أمن هؤلاء الكفار الذين مكرروا برسول الله ﷺ واحتالوا لقتله في دار الندوة ، هل آمنوا أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون ؟ ﴿أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ أي يأتيهم العذاب بغتة في حال أمنهم واستقرارهم ، من حيث لا يخطر ببالهم ومن جهة لا يعلمون بها ﴿أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين﴾ أي يهلكهم في أثناء أسفارهم للتجارة واشتغالهم بالبيع والشراء فإنهم على أي حال لا يعجزون الله ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾ أي يهلكهم الله حال كونهم خائفين مترقبين لنزول العذاب قال ابن كثير : فإنه يكون أبلغ وأشد فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد ﴿فإن ربكم لرهوف رحيم﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء﴾ أي أولم يعتبر هؤلاء الكافرون ويروا آثار قدرة الله وأنه ما من شيء من الجبال والأشجار والأحجار ومن سائر ما خلق الله ﴿يتفياً ظلاله عن اليمين والشمال سجداً لله﴾ أي تميل ظلالها من جانب إلى جانب ساجدة لله سجود خضوع لمشيئته تعالى وانقياد ، لا تخرج عن إرادته ومشيئته ﴿وهم داخرون﴾ أي خاضعون صاغرون فكل هذه الأشياء منقادة لقدرة الله وتدييره فكيف يتعالى ويتكبر على طاعته أولئك الكافرون ؟ ﴿ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون﴾ أي

مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

له تعالى وحده يخضع وينقاد جميع المخلوقات بما فيهم الملائكة فهم لا يستكبرون عن عبادته ﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ أي يخافون جلال الله وعظمته ، ويمثلون أوامره على الدوام .

البالغة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

- ١ - الإيجاز بالحذف ﴿قالوا خيراً﴾ أي قالوا أنزل خيراً .
- ٢ - الإطناب في قوله ﴿ما عبدنا من دونه من شيء . . . ولا حرمننا من دونه من شيء﴾ .
- ٣ - الطباق في ﴿هدى الله . . . وحقَّتْ عليه الضلالة﴾ وفي ﴿لا يهدي من يُضل﴾ وفي ﴿اليمين والشمال﴾ .
- ٤ - صيغة المبالغة في ﴿لرءوفٌ رحيم﴾ لأن فعول وفعيل من صيغ المبالغة .
- ٥ - ذكر الخاص بعد العام في ﴿يسجد ما في السموات وما في الأرض . . . والملائكة﴾ زيادة في التعظيم والتكريم للملائكة الأطهار .
- ٦ - السجع في ﴿يتفكرون ، داخرون ، يشعرون﴾ .

فكائِدَةٌ : استنبط بعض العلماء من قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ أن النبوة لا تكون إلا في الرجال ، وأما النساء فليس فيهن نبية ، وهو استنباط دقيق .

تنبية : قال ابن تيمية في منهاج السنة : « والاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة ، باتفاق كل ذي عقلٍ ودين من جميع العالمين ، ولهذا لما قال المشركون ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آبؤنا﴾ ردَّ الله عليهم بقوله ﴿قل هل عندكم من علمٍ فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظنَّ وإن أنتم إلا تخرصون﴾ والمشركون يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة باطلة ، فإنَّ أحدهم لو ظلم الآخر ، أو أراد قتل ولده ، أو الزنى بزوجه ، أو كان مصرأً على الظلم فهناك الناس عن ذلك فقال : لو شاء الله لم أفعل هذا ، لم يقبلوا منه هذه الحجة ولا يقبلها هو من غيره ، وإنما يحتج بها المحتج دفعاً للوم عن نفسه بلا وجه . . . » (١) .

قال الله تعالى : ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين . . . إلى . . . إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾

من آية (٥١) إلى نهاية آية (٧٤) .

(١) عن محاسن التأويل الجزء العاشر بإيجاز .

المناسكة : لما ذكر تعالى أن كل ما في الكون منقادٌ لأمر الله ، خاضعٌ لسلطانه ، أمر هنا بإفراجه بالعبادة لأنه الخالق الرازق ، ثم ضرب الأمثال في ضلالات أهل الجاهلية ، وذكر الناس بنعمه الجليلة ليعبدوه ويشكروه .

اللغز : ﴿واصباً﴾ دائماً ولازماً قال الجوهري : وصب الشيء وصوباً أي دام ومنه ﴿وله من عذاب واسب﴾ أي دائم وقال الشاعر : « وهزيم رعه واسب »^(١) ﴿تجارون﴾ الجوار : رفع الصوت بالدعاء والتضرع يقال : جأر أي صاح قال الأعشى يصف بقرة :

فطافت ثلاثاً بين يومٍ وليلةٍ وكان النكيرُ أن تُطيف وتجاراً^(٢)

﴿كظيم﴾ ممتلئ غماً وغيظاً ، والكظم أن يطبق الفم فلا يتكلم من الغيظ ﴿يتواري﴾ يختفي ﴿هون﴾ هوانٍ وذُلٌّ ﴿فرث﴾ الفرث : الزبل الذي ينزل إلى الكرش أو المعى ﴿سائغاً﴾ لذيداً هيناً لا يغصُّ به من شربه ﴿ذلاً﴾ جمع ذلول وهو المنقاد المسخر بلا عناء ﴿حفدة﴾ الحفدة : قال الأزهري أولاد الأولاد ، والحفدة : الخدم والأعوان .

* وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارِهِبُونَ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَأَلَيْهِ تَجْعَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ

النفسير : ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ أي لا تعبدوا إلهين فإن الإله الحق لا يتعدد ﴿إنما هو إله واحد﴾ أي إلهكم واحد أحد فردٌ صمد ﴿فإياي فارهبون﴾ أي خافون دون سواي ﴿وله ما في السموات والأرض﴾ أي ملكاً وخلقاً وعبداً ﴿وله الدين واسباً﴾ أي له الطاعة والالتقياد واجباً ثابتاً فهو الإله الحق ، وله الطاعة خالصة ﴿أفغير الله تتقون﴾ الهمة للإنكار والتوبيخ أي كيف تتقون وتخافون غيره ، ولا نفع ولا ضر إلا بيده ؟ ﴿وما بكم من نعمَةٍ فمن الله﴾ أي ما تفضل عليكم أيها الناس من رزقٍ ونعمةٍ وعافيةٍ ونصرٍ فمن فضل الله وإحسانه ﴿ثم إذا مسَّكم الضُّرُّ فإليه تجأرون﴾ أي ثم إذا أصابكم الضُّرُّ من فقرٍ ومرضٍ وبأساءٍ فإليه وحده ترفعون أصواتكم بالدعاء ، والغرض أنكم تلجأون إليه وحده ساعة العسرة والضيق ، ولا تتوجهون إلا إليه دون الشركاء ﴿ثم إذا كشف الضُّرُّ عنكم إذا فريقٌ منكم بربهم يشركون﴾ أي إذا رفع عنكم البلاء رجع فريق منكم إلى الإشراف بالله قال القرطبي : ومعنى الكلام التعجب من الإشراف بعد النجاة من الهلاك^(٣) ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ أي ليجحدوا نعمته تعالى من كشف الضر والبلاء ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ أي تمتعوا بدار الفناء فسوف تعلمون عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب ، وهو أمرٌ

(١) البيت لحسان والهزيم : السحاب المشفق بالمطر كذا في الطبري ١٤/١١٨ . (٢) القرطبي ١٠/١١٥ . (٣) القرطبي ١٠/١١٥ .

تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْعَنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٧﴾ وَيَجْعَلُونَ
لِللَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَ، وَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٩﴾
يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٦٠﴾
لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦١﴾ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ
مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَعِجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦٢﴾
للتهديد والوعيد ﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم﴾ أي يجعلون للأصنام التي لا يعلمون ربوبيتها ببرهان ولا بحجة (١) نصيباً من الزرع والأنعام تقرباً إليها ﴿تالله لتسألن عما كنتم تفترون﴾ أي والله أيها المشركون لتسألن عما كنتم تخلقونه من الكذب على الله ، والمراد سؤال توبيخ وتقريع ﴿ويجعلون لله البنات﴾ أي ومن جهل هؤلاء المشركين وسفاهتهم أن جعلوا الملائكة بنات الله ، فنسبوا إلى الله البنات وجعلوا لهم البنين ﴿سبحانه﴾ أي تنزه الله وتعظم عن هذا الإفك والبهتان ﴿ولهم ما يشتهون﴾ أي ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين مع كراهتهم أنهم يأنفون من البنات ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى﴾ أي إذا أخبر أحدهم بولادة بنت ﴿ظل وجهه مسوداً﴾ أي صار وجهه متغيراً من الغم والحزن قال القرطبي : وهو كناية عن الغم والحزن وليس يريد السواد ، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسودَّ وجهه (٢) ﴿وهو كظيم﴾ أي مملوء غيظاً وغماً ﴿يتوارى من القوم من سوء ما بشر به﴾ أي يخفي من قومه خوفاً من العار الذي يلحقه بسبب البنت ، كأنها بليَّة وليست هبة إلهية ، ثم يفكر فيما يصنع ﴿أيمسكه على هونٍ أم يدسه في التراب﴾ أي أيمسك هذه الأنثى على ذلٍ وهوان أم يدفنها في التراب حية ؟ ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ أي ساء صنيعهم وساء حكمهم ، حيث نسبوا لخالقهم البنات - وهي عندهم بتلك الدرجة من الذل والحقارة - وأضافوا البنين إليهم ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء﴾ أي هؤلاء الذين لم يصدقوا بالآخرة ونسبوا لله البنات سفهاً وجهلاً ، صفة السوء القبيحة التي هي كالمثل في القبح ، فالنقص إنما ينسب إليهم لا إلى الله ﴿ولله المثل الأعلى﴾ أي له جل وعلا الوصف العالي الشأن ، والكمال المطلق ، والتنزه عن صفات المخلوقين ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي العزيز في ملكه ، الحكيم في تدبيره ثم أخبر تعالى عن حلمه بالعباد مع ظلمهم فقال ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم﴾ أي لو يؤاخذهم بكفرهم ومعاصيهم ويعاجلهم بالعقوبة ﴿ما ترك عليها من دابة﴾ أي ما ترك على الأرض أحداً يدب على ظهرها من إنسان وحيوان ﴿ولكن يؤخرهم إلى أجلٍ مسمى﴾ أي ولكن يؤخرهم إلى وقتٍ معينٍ تقتضيه الحكمة ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ أي فإذا جاء الوقت المحدد

(١) وقيل المعنى يجعلون لأهتهم التي لا علم لها لأنها جماد نصيباً مما أعطاهم الله . (٢) القرطبي ١٠/١١٦ .

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَسْنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿١٧﴾
 تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا
 عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
 فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم
 مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ
 لَهَاكِهِمْ لَا يَتَّخِرُونَ بِرَهَةٍ سِيرَةً مِنَ الزَّمَنِ وَلَا يَتَّقِدُونَ عَلَيْهَا كَقَوْلِهِ ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾
 ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أَي يَجْعَلُونَ لَهُ تَعَالَى الْبِنَاتِ مَعَ كِرَاهَتِهِمْ لَهَا ، وَهُوَ تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ
 لِلتَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ ﴿وَتَصِفُ أَسْنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ أَي يَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَجْعَلُونَ وَمَعَ ذَلِكَ
 يَزْعَمُونَ أَنَّ لَهُمُ الْعَاقِبَةَ الْحُسْنَى عِنْدَ اللَّهِ وَأَنَّهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أَي حَقًّا إِنَّ لَهُمْ مَكَانَ مَا
 أَمَلُوا نَارَ جَهَنَّمَ الَّتِي لَيْسَ وَرَاءَ عَذَابِهَا عَذَابٌ ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ أَي مَعْجَلُونَ إِلَيْهَا وَمُقَدَّمُونَ^(١) ، ثُمَّ
 ذَكَرَ تَعَالَى نِعْمَتَهُ فِي إِسْرَالِ الرِّسْلِ لِتَأْسَى صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِهَمْ فِي الصَّبْرِ عَلَى تَحْمِلِ الْأَذَى فَقَالَ ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ
 أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَّمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ أَي وَاللَّهِ لَقَدْ بَعَثْنَا قَبْلَكَ يَا مُحَمَّدُ رِسَالًا إِلَىٰ
 أَقْوَامِهِمْ فَحَسَّنَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمُ الْقَبِيحَةَ حَتَّى كَذَبُوا الرِّسْلَ وَرَدُّوا عَلَيْهِمْ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الْبِنَاتِ
 ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أَي فَالشَّيْطَانُ نَاصِرُهُمُ الْيَوْمَ فِي الدُّنْيَا وَبِئْسَ النَّاصِرُ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَي
 وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ مُّؤَلَّمٌ ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أَي مَا
 أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ يَا مُحَمَّدُ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الدِّينِ وَالْأَحْكَامِ لِتَقُومَ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ﴿وَهُدًى
 وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أَي وَأَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ هُدًى لِّلْقُلُوبِ ، وَرَحْمَةً وَشِفَاءً لِمَنْ آمَنَ بِهِ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى
 عَظِيمَ قُدْرَتِهِ الدَّالَّةَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ فَقَالَ ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أَي
 أَنْزَلَ بِقُدْرَتِهِ الْمَاءَ مِنَ السَّحَابِ فَأَحْيَا بِذَلِكَ الْمَاءِ النَّبَاتَ وَالزَّرْعَ بَعْدَ جَدْبِ الْأَرْضِ وَبُيْسِهَا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أَي إِنَّ فِي هَذَا الْإِحْيَاءِ لَدَلَالَةً بَاهِرَةً عَلَى عَظِيمِ قُدْرَتِهِ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ التَّذْكِيرَ
 فَيَتَدَبَّرُونَهُ وَيَعْقِلُونَهُ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ أَي وَإِنَّ لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ فِي هَذِهِ الْأَنْعَامِ «الْإِبِلِ
 وَالْبَقَرِ وَالضَّأْنِ وَالْمَعْزِ» لَعِظَةً وَعِبْرَةً يَعْتَبِرُ بِهَا الْعُقَلَاءُ ، فَفِي خَلْقِهَا وَتَسْخِيرِهَا دَلَالَةٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ
 وَعَظَمَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أَي نُسْقِيكُمْ مِنْ بَعْضِ الَّذِي فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ
 ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ أَي مِنْ بَيْنِ الرُّوثِ وَالدَّمِ ذَلِكَ الْحَلِيبُ الْخَالِصُ وَاللَّبَنِ النَّافِعُ^(٢)

(١) هذا قول قتادة والحسن من الفرط وهو السابق إلى طلب الماء ، وقال مجاهد : « مُفْرَطُونَ » متروكون منسيون في النار .

(٢) قال الزمخشري : والآية بيانٌ للعبرة فإن الله سبحانه يخلق اللبن وسطاً بين الفَرْثِ وَالدَّمِ يكتنفانه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي أحدهما عليه بلون ، ولا طعم ، ولا رائحة ، فسبحان الله ما أعظم قدرته ، وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل . الكشاف ٦١٥/٢ .

مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ
 الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا
 شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ
 وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْعًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

﴿سائغاً للشاربين﴾ أي سهل المرور في حلقهم ، لذيداً هيناً لا يغصُّ به من شربه ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا﴾ أي ولكم مما أنعم الله به عليكم من ثمرات النخيل والأعناب ما تجعلون منه خمرًا يسكر قال الطبري : وإنما نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ثم حرمت بعد ﴿ورزقاً حسناً﴾ كالتمر والزبيب قال ابن عباس : الرزق الحسن : ما أحلَّ من ثمرتها ، والسُّكر : ما حرَّم من ثمرتها . ﴿إن في ذلك لآيةً لقومٍ يعقلون﴾ أي لآيةً باهرة ، ودلالة قاهرة على وحدانيته سبحانه لقومٍ يتدبرون بعقولهم قال ابن كثير : وناسب ذكر العقل هنا لأنه أشرف ما في الإنسان ، ولهذا حرَّم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانةً لعقولها^(١) ، ولما ذكر تعالى ما يدل على باهر قدرته ، وعظيم حكمته من إخراج اللبن من بين فرثٍ ودمٍ ، وإخراج الرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، ذكر إخراج العسل الذي جعله شفاءً للناس من النحل ، وهي حشرة ضعيفة وفيها عجائب بديعة وأمور غريبة ، وكل هذا يدل على وحدانية الصانع وقدرته وعظمته فقال تعالى ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون﴾ المراد من الوحي : الإلهام والهداية أي أهمها مصالحها وأرشدتها إلى بناء بيوتها المسدسة العجيبة تأوي إليها في ثلاثة أمكنة : الجبال ، والشجر ، والأكوار التي يبنها الناس ﴿ثم كلي من كل الثمرات﴾ أي كلي من كل الأزهار والثمار التي تشتبهينها من الخلو ، والمر ، والحامض ، فإن الله بقدرته يحيلها إلى عسلٍ ﴿فاسلكي سبل ربك ذللاً﴾ أي أدخلني الطرق في طلب المرعى حال كونها مسخرةً لك لا تضلين في الذهاب أو الإياب ﴿يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه فيه شفاءً للناس﴾ أي يخرج من بطون النحل عسلٌ متنوعٌ منه أحمر ، وأبيض ، وأصفر ، فيه شفاءً للناس من كثيرٍ من الأمراض قال الرازي فإن قالوا : كيف يكون شفاءً للناس وهو يضر بالصفراء ؟ فالجواب أنه تعالى لم يقل : إنه شفاءً لكل الناس ، ولكل داء ، وفي كل حال ، بل لما كان شفاءً للبعض ومن بعض الأدوية صلح بأن يوصف بأن فيه شفاءً^(٢) ﴿إن في ذلك لآيةً لقومٍ يتفكرون﴾ أي لعبرة لقومٍ يتفكرون في عظيم قدرة الله ، وبديع صنعه ﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم﴾ أي خلقكم بقدرته بعد أن لم تكونوا شيئاً ثم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم ﴿ومنكم من يردُّ إلى أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾ أي يردُّ إلى أردء وأضعف العمر وهو الهرم والخرف ﴿لكي لا يعلم بعد علمٍ شيئاً﴾ أي لينسى ما يعلم فيشبهه الطفل في نقصان القوة والعقل ﴿إن الله عليمٌ قديرٌ﴾ أي عليمٌ بتدبير خلقه ،

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۖ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَىٰ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۗ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرِزْقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ۗ أَفِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْعًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

قديرٌ على ما يريد ، فكما قدر على نقل الإنسان من العلم إلى الجهل ، فإنه قادر على إحيائه بعد إماتته قال عكرمة : من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر^(١) ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾ أي فاوت بينكم في الأرزاق فهذا غني وذاك فقير ، وهذا مالك وذاك مملوك ﴿فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء﴾ أي ليس هؤلاء الأغنياء بمشركين لعبيدهم المماليك فيما رزقهم الله من الأموال حتى يستوا في ذلك مع عبيدهم ، وهذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين قال ابن عباس : لم يكونوا ليشرکوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني^(٢) ؟ ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ الاستفهام للإنكار أي أيشركون معه غيره وهو المنعم المتفضل عليهم ؟ ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي هو تعالى بقدرته خلق النساء من جنسكم وشكلكم ليحصل الائتلاف والمودة والرحمة بينكم ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ أي جعل لكم من هؤلاء الزوجات الأولاد وأولاد الأولاد ، سموا حفدة لأنهم يخدمون أجدادهم ويسارعون في طاعتهم ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أي رزقكم من أنواع اللذائذ من الثمار والحبوب والحيوان ﴿أفالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون﴾ أي أبعد تحقق ما ذكر من نعم الله يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن ؟ وهو استفهام للتوبيخ والتفريع ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً﴾ أي ويعبد هؤلاء المشركون أوثاناً لا تقدر على إنزال مطر ، ولا على إخراج زرع أو شجر ، ولا تقدر أن ترزقهم قليلاً أو كثيراً ﴿ولا يستطيعون﴾ أي ليس لها ذلك ولا تقدر عليه لو أرادت ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ أي لا تمثلوا لله الأمثال ، ولا تشبهوا له الأشباه ، فإنه تعالى لا مثل له ولا نظير ولا شبيه ﴿إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي يعلم كل الحقائق ، وأنتم لا تعلمون قدر عظمة الخالق .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة من صنوف البيان والبدیع ما يلي :

١ - الالتفات من التكلم إلى الغيبة من الغيبة إلى المتكلم ﴿فإياي فارهبون﴾ لتربية المهابة والرهبة في القلوب مع إفادة القصر أي لا تخافوا غيري .

(١) زاد المسير ٤/٤٦٨ . (٢) المختصر ٢/٣٣٨ .

- ٢ - الطباقي في ﴿يستقدمون﴾ . . . ويستأخرون ﴿ وفي ﴿أحيا الأرض بعد موتها﴾ وفي ﴿يؤمنون﴾ . . . ويكفرون﴾ .
- ٣ - الجناس الناقص بين ﴿كلي من كل﴾ .
- ٤ - الاعتراض ﴿ويجعلون لله البنات - سبحانه - ولهم ما يشتهون﴾ فلفظة (سبحانه) معترضة لتعجيب الخلق من هذا الجهل القبيح .
- ٥ - صيغة المبالغة في ﴿العزیز الحكيم﴾ و﴿عليمٌ قدير﴾ .
- ٦ - السجع ﴿يعقلون ، يعرشون ، يجحدون ، يكفرون﴾ .
- ٧ - التهديد والوعيد ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ .
- ٨ - قوله تعالى ﴿وتصف ألسنتهم الكذب﴾ قال الشهاب : هذا من بليغ الكلام وبديعه أي ألسنتهم كاذبة كقولهم ﴿عينها تصفُ السحر﴾ أي ساحرة ، وقدها يصف الهيف أي هيفاء .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً . . . إلى . . . يعظكم لعلم تذكرون﴾

من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٩٠)

المناسكة : لما ذكر تعالى سفاهة المشركين في عبادتهم لغير الله ، أعقبه بذكر مثلين توضيحاً لبطلان عبادة الأوثان التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تستجيب ولا تسمع ، ثم ذكّر الناس ببعض النعم التي أفاضها عليهم ليعبدوه ويشكروه ، ويخلصوا له العمل طائعين منيبين .

اللغز : ﴿أبكم﴾ الأبكم : الأخرس الذي لا ينطق ﴿كل﴾ الكَل : الثقل الذي هو عيال على الغير وقد يسمى اليتيم كلاً لثقله على من يكفله قال الشاعر :

أقولُ لِمَالِ الكَلِّ قَبْلَ شِبابِهِ إِذَا كَانَ عَظْمُ الكَلِّ غَيْرَ شَدِيدٍ^(١)

﴿لمح﴾ اللّمح : النظر بسرعة مثل الخطفة يقال لمحّه لمحاً ولمحاناً ﴿ظعنكم﴾ الظّعنُ : السفر والرحيل لطلب الكلاً ، والظعينة المرأة المسافرة ﴿أوبارها﴾ الوبر للابل كالصوف للغنم ﴿ظلالاً﴾ الظلال : كل ما يستظلُّ به من البيوت والشجر ﴿أكناناً﴾ جمع كنّ مثل حمل وأحمال وهو كل ما يحفظ ويقي من الريح والمطر

* ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ
 مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبٌ

وغيرهما ﴿سراويل﴾ جمع سربال قال الزجاج : كلُّ ما لبسته من قميصٍ أو درعٍ فهو سربال^(١) .

النفسير : ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً﴾
 هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام التي أشركوها مع الله جل وعلا أي مثلٌ هؤلاء في إشراكهم مثلٌ
 من سوئ بين عبدٍ مملوكٍ عاجزٍ عن التصرف ، وبين حرٍّ مالكٍ يتصرف في أمره كيف يشاء ، مع أنها سيئات
 في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى ، فما الظنُّ بربِّ العالمين حيث يشركون به أعجز المخلوقات ؟
 ﴿فهو يُنفق منه سراً وجهراً﴾ أي ينفق ماله في الخفاء والعلانية ابتغاء وجه الله ﴿هل يستوون﴾ ؟ أي
 هل يستوي العبيد والأحرار الذين ضُرب لهم المثل ، فالأصنام كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ،
 والله تعالى له الملك ، وبيده الرزق ، وهو المتصرف في الكون كيف يشاء ، فكيف يُسوَّى بينه وبين
 الأصنام ؟ ﴿الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي شكراً لله على بيان هذا المثل ووضوح الحق فقد
 ظهرت الحجة مثل الشمس الساطعة ، ولكنَّ المشركين بسفهمهم وجهلهم يسوون بين الخالق والمخلوق ،
 والمالك والمملوك ﴿وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء﴾ هذا هو المثل الثاني
 للتفريق بين الإله الحق والأصنام الباطلة قال مجاهد : هذا مثلٌ مضروبٌ للوثن والحق تعالى^(٢) ، فالوثنُ
 أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ، ولا يقدر على شيء بالكلية لأنه إما حجرٌ أو شجر ، ﴿وهو كَلٌّ على
 مولاه﴾ أي ثقل عالٍ على وليه أو سيده ﴿أينما يوجهه لا يأت بخير﴾ أي حيثما أرسله سيده لم ينجح في
 مسعاه لأنه أخرس ، بليد ، ضعيف ﴿هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم﴾
 أي هل يتساوى هذا الأخرس ، وذلك الرجل البليغ المتكلم بأفصح بيان ، وهو على طريق الحق
 والاستقامة ، مستنيرٌ بنور القرآن ؟ وإذا كان العاقل لا يسوَّى بين هذين الرجلين ، فكيف تمكن التسوية
 بين صنمٍ أو حجرٍ^(٣) ، وبين الله سبحانه وهو القادر العليم ، الهادي إلى الصراط المستقيم ؟ ﴿ولله غيبٌ

(١) قال الإمام ابن القيم : ذكر الله تعالى مثلين : فالمثل الأول ضربه لنفسه سبحانه والأوثان ، فالله هو المالك لكل شيء ، ينفق كيف يشاء على عبده سراً وجهراً ، وليلاً ونهاراً ، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء ، فكيف يجعلونها شركاء إلهي ويعبدونها من دوني مع التفاوت العظيم والفرق المبين ؟ وأما المثل الثاني فالصنم الذي يُعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم ، لا يعقل ولا ينطق ، بل هو أبكم القلب واللسان ، ومع هذا لا يقدر على شيء البتة ، أينما أرسلته لا يأتك بخير ، ولا يقضي لك حاجة ، والله سبحانه حيٌّ قادر ، متكلم ، يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم ، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد . أعلام الموقعين لابن القيم . (٢) الرازي ٢٠/٩٣ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/٣٤٠ .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ
 أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾
 أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ
 لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ
 أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ

السموات والأرض ﴿أي هو سبحانه المختص بعلم الغيب ، يعلم ما غاب عن الأبصار في السموات والأرض﴾ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴿أي ما شأن الساعة في سرعة المجيء إلا كنظرة سريعة بطرف العين ، بل هو أقرب لأنه تعالى يقول للشيء : كن فيكون ، وهذا تمثيل لسرعة مجيئها ولذلك قال ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على كل الأشياء ومن جعلتها القيامة التي يكذب بها الكافرون ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ أي أخرجكم من أرحام الأمهات لا تعرفون شيئاً أصلاً ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ أي خلق لكم الحواس التي بها تسمعون وتبصرون وتعقلون لتشكروه على نعمه وتحمده على آياته ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء﴾ هذا من الأدلة على قدرة الله تعالى ووحدانيته والمعنى : ألم يشاهدوا الطيور مذلات للطيран في ذلك الفضاء الواسع بين السماء والأرض ﴿ما يمسكهن إلا الله﴾ أي ما يسكنهن عن السقوط عند قبض أجنحتهن وبسطها إلا هو سبحانه ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي إن في ذلك لآيات ظاهرة ، وعلامات باهرة على وحدانيته تعالى لقوم يصدقون بما جاءت به رسل الله ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾ هذا تعداد لنعم الله على العباد أي جعل لكم هذه البيوت من الحجر والمدر لتسكنوا فيها أيام مقامكم في أوطانكم ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً﴾ أي وجعل لكم بيوتاً أخرى وهي الخيام والقباب المتخذة من الشعر والصوف والوبر ﴿تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم﴾ أي تستخفون حملها ونقلها في أسفاركم ، وهي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثناً﴾ أي وجعل لكم من صوف الغنم ، ووبر الإبل ، وشعر المعز ما تلبسون وتفرضون به بيوتكم ﴿ومتاعاً إلى حين﴾ أي تنتفعون وتمتعون بها إلى حين الموت ^(١) ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً﴾ أي جعل لكم من الشجر والجبل والأبنية وغيرها ظلالاً تتقون بها حر الشمس ﴿وجعل لكم من الجبال أكنناً﴾ أي وجعل لكم في الجبال مواضع تسكنون فيها كالكهوف والحصون قال الرازي : لما كانت بلاد العرب شديدة الحر ، وحاجتهم إلى الظل ودفع الحر شديدة ، فلهذا ذكر تعالى هذه المعاني في معرض

(١) هذا قول ابن عباس ومجاهد ، وقال مقاتل : تنتفعون بها إلى أن تبلى .

عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ * إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

أي استسلم أولئك الظالمون لحكم الله تعالى بعد الإياء والاستكبار في الدنيا ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي بطل ما كانوا يؤملون من أن آلهتهم تشفع لهم عند الله ، ثم أخبر تعالى عن ما لهم بعد أن أخبر عن حالهم فقال ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾ أي كفروا بالله ومنعوا الناس عن الدخول في دين الإسلام ﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب﴾ أي زدناهم عذاباً في جهنم فوق عذاب الكفر ، لأنهم ارتكبوا جريمة صد الناس عن الهدى فوق جريمة الكفر ، فضوعف لهم العذاب جزاءً وفاقاً ﴿بما كانوا يفسدون﴾ أي بسبب إفسادهم في الدنيا بالكفر والمعصية ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم﴾ أي اذكر للناس ذلك اليوم وهو له حين نبعث في كل أمة نبيها ليشهد عليها ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ أي وجئنا بك يا محمد شهيداً على أمتك ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ أي ونزلنا عليك القرآن المنير بياناً شافياً بليغاً لكل ما يحتاج الناس إليه من أمور الدين فلا حجة لهم ولا معذرة قال ابن مسعود : قد بين لنا في هذا القرآن كل علم ، وكل شيء ^(١) ﴿وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ أي هداية للقلوب ، ورحمة للعباد ، وبشارة للمسلمين المهتدين ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ أي يأمر بمكارم الأخلاق بالعدل بين الناس ، والإحسان إلى جميع الخلق ﴿وإيتاء ذي القربى﴾ أي مواساة الأقرباء ، وخصه بالذكر اهتماماً به ﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾ أي ينهى عن كل قبيح من قول ، أو فعل ، أو عمل قال ابن مسعود : هذه أجمع آية في القرآن لخير يمتثل ، ولشر يجتنب ^(٢) والفحشاء كل ما تنهى قبحه كالزنى والشرك ، والمنكر كل ما تنكره الفطرة ، والبغى هو الظلم وتجاوز الحق والعدل ﴿يعظكم لعلكم تذكرون﴾ أي يؤدبكم بما شرع من الأمر والنهي لتتعظوا بكلام الله .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ - الاستعارة التمثيلية في ﴿وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم . .﴾ الآية تمثيل للوثن بالأبكم الذي لا ينتفع منه بشيء أصلاً ، مع القادر السميع البصير وشتان بين الرب والصنم .

٢ - التشبيه المرسل المجمل في ﴿كلمح البصر﴾ .

- ٣ - الطباق بين ﴿سراً وجهراً﴾ وبين ﴿يعرفون . . وينكرون﴾ وبين ﴿ظعنكم . . وإقامتكم﴾ .
- ٤ - الإيجاز بالحذف في ﴿سراييل تقيكم الحر﴾ أي والبرد حذف الثاني استغناءً بذكر الأول .
- ٥ - المقابلة اللطيفة ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾ أمر بثلاثة ونهى عن ثلاثة وهو من المحسنات البديعية .
- ٦ - ذكر الخاص بعد العام للاهتمام بشأنه ﴿وإيتاء ذي القربى﴾ بعد لفظ الإحسان الذي هو عام .

لطيفة : ذكر أن « أكثم بن صيفي » لما بلغه خبر الرسول ﷺ انتدب رجلين فأتياه فقالا : من أنت ؟ وما أنت ؟ فقال أنا محمد بن عبد الله ، وأنا رسول الله ثم تلا علينا هذه الآية ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان . .﴾ الآية فرجعنا إلى أكثم فلما قرأ عليه الآية قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن مساوئها ، فكونوا في هذا الأمر رؤساء ، ولا تكونوا فيه أذناناً^(١) .

قال تعالى : ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم . . . إلى . . إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيم﴾
من آية (٩١) إلى نهاية آية (١١٠) .

المناسبة : لما استقصى تعالى في الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، وذكر جملة المكارم والفضائل ، حذر تعالى هنا من نقض العهود والمواثيق وعصيان أوامر الله تعالى ، لأن العصيان سبب البلاء والحرمان ، ثم ذكر تعالى ما أعده لأهل الإيمان من الحياة الطيبة الكريمة .

اللغة : ﴿تنقضوا﴾ النقض ضد الإبرام ، وهو فك أجزاء الشيء بعضها من بعض ﴿توكيدها﴾ التوكيد التثيت يقال : توكيد وتأكيد ﴿أنكاثاً﴾ أنقاضاً والنكث : النقض بعد الفتل ﴿دخلاً﴾ الدخل : الدغل والخديعة والغش قال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحاً فهو دخل ﴿ينفذ﴾ نفذ الشيء ينفذ فني ﴿أعجمي﴾ الأعجمي الذي لا يتكلم العربية وقال الفراء : الأعجم الذي في لسانه عجمة وإن كان من العرب ، والعجمي الذي أصله من العجم ﴿يلحدون﴾ الإلحاد : الميل يقال لحد وألحد إذا مال عن القصد والاستقامة .

سبب النزول : أ - روي أن النبي ﷺ كان يجلس عند المروة إلى غلام نصراني يقال له « جبر » وكان يقرأ الكتب فقال المشركون : والله ما يعلمه ما يأتي به إلا جبر الرومي فأنزل الله عز وجل ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . .﴾^(٢) الآية .

ب - عن ابن عباس أن المشركين أخذوا عمار بن ياسر وأباه ياسراً وأمه سميةً وصهيياً وبلالاً

فعدبوهم ، ورُبِطت « سُمِيَّة » بين بعيرين وُوجيء قُبِلها بحربة فقتلت ، وقُتِل زوجها ياسر - وهما أول قتيلين في الإسلام - وأما عَمَار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال له الرسول الكريم : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئنٌ بالإيمان ، فقال رسول الله ﷺ : فإن عادوا فعُدْ وأنزل الله ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان . . ﴾ (١) الآية .

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَاهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ

تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ ۖ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَلَتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ

النَّفْسِيرُ : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾ أي حافظوا على العهود التي عاهدتم عليها

الرسول أو الناس وأدوها على الوفاء والتمام ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ أي ولا تنقضوا أيمان البيعة

بعد توثيقها بذكر الله تعالى ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ أي جعلتم الله شاهداً ورقيباً على

تلك البيعة ﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ أي عليم بأفعالكم وسيجازيكم عليها ﴿ ولا تكونوا كالتي

نقضت غزوها من بعد قوّة أنكاثاً ﴾ هذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده (٢) ، شبهت الآية الذي يحلف

ويعاهد ويبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلاً ثم تنقضه ، وكان الناس يقولون : ما أحق هذه ! ﴿ تتخذون أيمانكم دخلاً

بينكم ﴾ أي تتخذون أيمانكم خديعة ومكراً تتخدعون بها الناس ﴿ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾

أي لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وأوفر مالاً من غيرها قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر

منهم وأعز ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك (٣) ﴿ إنما يبُلُوكُم اللهُ به ﴾ أي إنما يختبركم الله بما

أمركم به من الوفاء بالعهد لينظر المطيع من العاصي ﴿ وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾

أي ليجازي كل عامل بعمله من خير وشر ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ أي لو شاء الله لخلق

الناس باستعداد واحد ، وجعلهم أهل ملة واحدة ، لا يختلفون ولا يفترون ﴿ ولكن يضل من يشاء

ويهدي من يشاء ﴾ أي ولكن اقتضت حكمته أن يتركهم لاختيارهم ، ناس للسعادة وناس للشقاوة ،

فيضل من يشاء بخذلانه إياهم عدلاً ، ويهدي من يشاء بتوفيقه إياهم فضلاً ﴿ ولتسألن عَمَّا كنتم

تعملون ﴾ أي ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم على الفتيل والقطمير ﴿ ولا تتخذوا

أيمانكم دخلاً بينكم ﴾ كرره تأكيداً ومبالغة في تعظيم شأن العهود أي لا تعقدوا الأيمان وتجعلوها خديعة

(١) القرطبي ١٨٠ / ١٠ وأسباب النزول ١٦٢ . (٢) هذا قول مجاهد وقتادة . (٣) مختصر ابن كثير ١٧١ / ١٠ .

عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَسْتُرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا ﴿٩٥﴾ إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٩﴾

ومكراً تغرون بها الناس لتحصلوا على بعض منافع الدنيا الفانية (١) ﴿فتزل قدم بعد ثبوتها﴾ أي فتزل أقدامكم عن طريق الاستقامة وعن محجة الحق بعد رسوخها فيه قال ابن كثير: هذا مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها ، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحائثة ، المشتملة على الصدق عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين ، فيصد بسببه عن الدخول في الإسلام (٢) ولهذا قال ﴿وتذوقوا السوء بما صدقتم عن سبيل الله﴾ أي يصيبكم العقاب الدنيوي العاجل الذي يسوءكم لصدكم غيركم عن اعتناق الإسلام بسبب نقض العهود ﴿ولكم عذاب عظيم﴾ أي ولكم في الآخرة عذاب كبير في نار جهنم ﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً﴾ أي لا تستبدلوا عهد الله وعهد رسوله بحطام الدنيا الفاني ﴿إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي ما عند الله من الأجر والثواب خير لكم من متاع الدنيا العاجل إذا كنتم تعلمون الحقيقة ، ثم علل ذلك بقوله ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ أي ما عندكم أيها الناس فإنه فان زائل ، وما عند الله فإنه باق دائم ، لا انقطاع له ولا نقاد ، فأثروا ما يبقى على ما يفنى ﴿ولنجزيَن الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ أي ولنثيب الصابرين بأفضل الجزاء ، ونعطيهم الأجر الوافي على أحسن الأعمال مع التجاوز عن السيئات ، وهذا وعد كريم بمنح أفضل الجزاء على أفضل العمل ، ليكون الجزاء على أحسن العمل دون سواه ، وكل ذلك بفضل الله ﴿من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن﴾ أي من فعل الصالحات ذكراً كان أو أنثى بشرط الإيمان ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾ أي فلنحيينه في الدنيا حياة طيبة بالقناعة والرزق الحلال ، والتوفيق لصالح الأعمال وقال الحسن : لا تطيب الحياة لأحدٍ إلا في الجنة لأنها حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر ، وصحة بلا سقم ، وسعادة بلا شقاوة (٣) ﴿ولنجزيَنهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ أي ولنجزيَنهم في الآخرة بجزاء أحسن أعمالهم ، وما أكرمهم من جزاء ! ﴿فإذا قرأت القرآن﴾ أي إذا أردت تلاوة القرآن ﴿فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ أي فاسأل الله أن يحفظك من وساوس الشيطان وخطراته ، كيلا يوسوس لك عند القراءة

(١) قال في الظلال : « واتخاذ الأيمان غشاً وخداعاً يزعم العقيدة في الضمير ، ويشوه صورتها في ضمائر الآخرين ، فالذي يقسم وهو يعلم انه خادع في قسمه ، لا يمكن أن تثبت له عقيدة ولا أن تثبت له قدم على صراطها ، وهو في الوقت نفسه يشوه صورة العقيدة عند من يقسم لهم ثم ينكث ، ويعلمون أن أقسامه كانت للغش والدخل ، ومن ثم يصددهم عن سبيل الله بهذا المثل السيء الذي يضره للمؤمنين بالله » .

(٢) المختصر ٢/٣٤٥ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/٣٢٧ . والقول الأول لابن عباس وهو الأظهر .

إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٤١﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٤٢﴾ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤٣﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤٦﴾

فيصدك عن تدبر القرآن والعمل بما فيه ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا﴾ أي ليس له تسلط وقدرة على المؤمنين بالإغواء والكفر لأنهم في كنف الرحمن ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي يعتمدون على الله فيما نابهم من شدائد ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه﴾ أي إنما تسلطه وسيطرته على الذين يطيعونه ويتخذونه لهم ولياً ﴿والذين هم به مشركون﴾ أي بسبب إغوائه أصبحوا مشركين في عبادتهم وذبائحهم ، ومطاعمهم ومشاربهم ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية﴾ أي وإذا أنزلنا آية مكان آية وجعلناها بدلاً منها بأن ننسخ تلاوتها أو حكمها ﴿والله أعلم بما ينزل﴾ جملة اعتراضية سيقت للتوبيخ أي والله أعلم بما هو أصلح للعباد وبما فيه خيرهم ، فإن مثل آيات هذا الكتاب كمثل الدواء يُعطى منه للمريض جرعات حتى يماثل الشفاء ، ثم يستبدل بما يصلح له من أنواع أخرى من الأطعمة ﴿قالوا إنما أنت مفتر﴾ أي قال الكفرة الجاهلون إنما أنت يا محمد متقول كاذب على الله ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي أكثرهم جهلة لا يعلمون حكمة الله فيقولون ذلك سفهاً وجهلاً قال ابن عباس : كان إذا نزلت آية فيها شدة ثم نسخت قال كفار قريش : والله ما محمد إلا يسخر من أصحابه ، يأمرهم اليوم بأمر ، وينهاهم غداً عنه ، وإنه لا يقول : ذلك إلا من عند نفسه فنزلت (١) ﴿قل نزلته روح القدس من ربك بالحق﴾ أي قل لهم يا محمد : إنما نزلته جبريل الأمين من عند أحكم الحاكمين بالصدق والعدل ﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ أي ليثبت المؤمنين بما فيه من الحجج والبراهين فيزدادوا إيماناً ويقيناً ﴿وهدى وبشرى للمسلمين﴾ أي وهداية وبشارة لأهل الإسلام الذين انقادوا لحكمه تعالى ، وفيه تعريض بالكفار الذين لم يستسلموا لله تعالى ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر﴾ أي قد علمنا مقالة المشركين الشنيعة ودعواهم أن هذا القرآن من تعليم « جبر الرومي » وقد ردّ تعالى عليهم بقوله ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي﴾ أي لسان الذي يزعمون أنه علمه وينسبون إليه التعليم أعجمي ﴿وهذا لسان عربي مبين﴾ أي وهذا القرآن عربي في غاية الفصاحة ، فكيف يمكن لمن لسانه أعجمي أن يعلم محمداً هذا الكتاب العربي المبين ؟ ومن أين للأعجمي أن يذوق بلاغة هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه !! ﴿إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله﴾ أي إن الذين لا يصدقون بهذا القرآن لا يوفقههم

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَايَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٦٦﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ
 إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ
 وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الْكَافِرِينَ ﴿١٦٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ ﴿١٦٩﴾ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٠﴾
 لَاجِرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧١﴾

الله لإصابة الحق ، ولا يهديهم إلى طريق النجاة والسعادة ﴿ولههم عذاب أليم﴾ أي لهم في الآخرة
 عذابٌ موجه مؤلم ، وهذا تهديدٌ لهم ووعيد على كفرهم وافتراءهم ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا
 يؤمنون بآيات الله﴾ أي لا يكذب على الله إلا من لم يؤمن بالله ولا بآياته ، لأنه لا يخاف عقاباً يردعه ،
 فالكذب جريمة فاحشة لا يقدم عليها مؤمن ، وهذا ردٌ لقولهم ﴿إنما أنت مفتر﴾ ﴿وأولئك هم
 الكاذبون﴾ أي وأولئك هم الكاذبون على الحقيقة لا محمد الرسول الأمين ﴿من كفر بالله من بعد
 إيمانه﴾ أي من تلفظ بكلمة الكفر وارتد عن الدين بعد ما دخل فيه ﴿إلا من أكرهه وقلبه مطمئنٌ
 بالإيمان﴾ أي إلا من تلفظ بكلمة الكفر مكرهاً والحال أن قلبه مملوءٌ إيماناً و يقيناً ، والآية تغليظُ لجرمة المرتد
 لأنه عرف الإيمان وذاقه ثم ارتدَّ إيثراً للحياة الدنيا على الآخرة قال المفسرون : نزلت في عمار بن ياسر أخذه
 المشركون فعذبوه حتى أعطاهم ما أرادوا مكرهاً فقال الناس : إنَّ عماراً كفر فقال رسول الله ﷺ : إنَّ
 عماراً ملئء إيماناً من فرقه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي
 فقال له رسول الله ﷺ : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئناً بالإيمان قال : إن عادوا فعُدُّوا^(١) ﴿ولكن من
 شرح بالكفر صدراً﴾ أي طابت نفسه بالكفر وانشرح صدره له ﴿فعل عليهم غضبٌ من الله ولههم
 عذابٌ عظيم﴾ أي ولههم غضبٌ شديد مع عذاب جهنم ، إذ لا جرم أعظم من جرمهم ﴿ذلك بأنهم
 استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم آثروا الدنيا واختاروها على الآخرة
 ﴿وأنَّ الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي لا يوفقههم إلى الإيمان ولا يعصمهم من الزيغ والضلال
 ﴿وأولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم﴾ أي ختم على قلوبهم وأسماعهم
 وأبصارهم فجعل عليها غلافاً بحيث لا تُدعن للحق ولا تسمعه ولا تبصره ﴿وأولئك هم الغافلون﴾
 أي الكاملون في الغفلة إذ أغفلتهم الدنيا عن تدبر العواقب ﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾
 أي حقاً ولا شك ولا ريب في أنهم الخاسرون في الآخرة لأنهم ضيعوا أعمارهم في غير منفعة تعود عليهم قال
 المفسرون :^(٢) وصفهم تعالى بست صفات هي : الغضب من الله ، والعذاب العظيم ، واختيارهم الدنيا

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَنَسُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١)

على الآخرة ، وحرمانهم من الهدى ، والطبع على قلوبهم ، وجعلهم من الغافلين ﴿ثم إن ربك للمشركين هاجروا من بعد ما فتنوا﴾ أي ثم إن ربك يا محمد للذين هاجروا في سبيل الله بعد ما فتنهم المشركون الطغاة عن دينهم بالعذاب ﴿ثم جاهدوا وصبروا﴾ أي ثم جاهدوا في سبيل الله وصبروا على مشاق الجهاد ﴿إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ أي إن ربك بعد تلك الهجرة والجهاد والصبر سيغفر لهم ويرحمهم .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ - التشبيه التمثيلي ﴿ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها﴾ الآية شبه تعالى من يحلف ثم لا يفي بعهده بالمرأة التي تغزل غزلاً ثم تنقضه .

٢ - الاستعارة في ﴿فتزل قدم بعد ثبوتها﴾ استعار القدم للرسوخ في الدين والتمكن فيه لأن أصل الثبات يكون بالقدم ولما كان الزلل عن محجة الحق يشبه زلل القدم وانزلاقها عبر به عن الانزلاق الحسي بطريق الاستعارة .

٣ - الطباق بين ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ وبين ﴿أعجمي . . وعربي﴾ وبين ﴿ينفذ . . وياق﴾

٤ - جناس الاشتقاق ﴿قرأت القرآن﴾ وفيه مجاز مرسل من إطلاق اسم المسبب على السبب أي إذا أردت قراءة القرآن .

٥ - الاعتراض ﴿والله أعلم بما يُنزل﴾ الجملة اعتراضية لبيان الحكمة الإلهية في النسخ ، وفيه التفات من المتكلم إلى الغائب ، وذكر الاسم الجليل لتربية المهابة في النفس .

٦ - الاستعارة اللطيفة ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي﴾ استعار اللسان للغة والكلام كقول الشاعر :

لسانُ السُّوءِ تُهدِيها إلينا وخُنْتُ وما حَسَبْتُكَ أنْ تُخوننا^(١)

والعرب تستعمل اللسان بمعنى اللغة كقوله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه﴾

لطيفة : السر في الاستعاذة قبل قراءة القرآن أن القرآن هو الذكر الحكيم ، والحق المبين ، ولما كان الشيطان يثير الشبهات بوساوسه ، ويفسد القلوب بدسائسه ، أمر ﷺ بأن يستعيذ بالله ويلتجئ إليه عند تلاوة القرآن ، لأن قوة الإنسان تضعف عن دفعه بسهولة فيحتاج إلى الاستعاذة بالله العلي الكبير .

قال الله تعالى : ﴿يوم تأتي كل نفس . . إلى . . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾

من آية (١١١) إلى نهاية السورة الكريمة

المناسِبة : لما ذكر تعالى حال من كفر بلسانه ، وحال من كفر بلسانه وجنانه ، ذكر هنا الجزاء

العادل الذي يلقاه كل إنسان في الآخرة ، وما أعدّه من العقاب العاجل في الدنيا لبعض المكذبين ، ثم ذكر قصة إبراهيم الأواه النبي ، وأمر الرسول ﷺ باقتفاء آثاره المجيدة .

اللغز : ﴿تجادل﴾ تخاصم وتجادج ﴿رغداً﴾ واسعاً هنيئاً بلا كلفةٍ ولا تعب ﴿أنعم﴾ جمع نعمة كالأشد جمع الشدة ﴿أمة﴾ إماماً جامعاً لخصال الخير ﴿قانتاً﴾ مطيعاً خاضعاً من القنوت وهو الطاعة والخضوع ﴿اجتباها﴾ اصطفاها واختاره ﴿حنيفاً﴾ الحنيف : المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الإسلام ، من الحنف وهو الميل .

سَبَبُ النُّزُولِ : لما قُتِلَ حمزة ومثّل به المشركون في غزوة أحد قال ﷺ حين رآه (والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك) فنزلت الآية الكريمة ﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . .﴾ (١) الآية .

* **يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ**

مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ

الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ

النَّفْسِيرُ : ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ أي ذكّرهم يوم القيامة حين تخاصم

كل نفس عن ذاتها سعياً في خلاصها ، لا يهمها شأن غيرها ﴿وتوفى كل نفس ما عملت﴾ أي تُعطى

جزاء ما عملت من غير بحس ولا نقصان ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي لا ينقصون أجورهم

بل يُعطونها كاملةً وافيةً ﴿وضرب الله مثلاً قرية﴾ هذا مثل ضربه الله لأهل

مكة وغيرهم ، بقوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فعصوا وتمردوا ، فبدّل الله نعمتهم بنقمة

﴿كانت آمنة مطمئنة﴾ أي كان أهلها في أمنٍ واستقرار ، وسعادة ونعيم ﴿يأتيها رزقها رغداً من

كل مكان﴾ أي تأتيها الخيرات والأرزاق بسعة وكثرة من كل الجهات ﴿فكفرت بأنعم الله﴾ أي لم

يشكروا الله على ما آتاهم من خير ، وما وهبهم من رزق ﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف﴾ أي

سلبهم الله نعمة الأمن والاطمئنان ، وأذاقهم آلام الخوف والجوع والحرمات ﴿بما كانوا يصنعون﴾ أي

بسبب كفرهم ومعاصيهم ، قال الرازي : وهذا مثل أهل مكة لأنهم كانوا في الأمن والطمأنينة والخصب ،

ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد ﷺ فكفروا به ، وبالغوا في إيذائه ، فعذبهم الله بالقحط

والجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام (١) ﴿ولقد جاءهم رسولٌ منهم فكذبوه﴾ أي ولقد

جاءهم محمد بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة وهو رسولٌ منهم يعرفون أصله ونسبه فلم يصدقوه ولم

يؤمنوا برسالته ، والآية دالة على أن المراد بهم أهل مكة وهو قول ابن عباس ﴿فأخذهم العذاب وهم

ظالمون﴾ أي فأصابتهم الشدائد والنكبات وهم ظالمون بارتكاب المعاصي والآثام ﴿فكلوا مما

ظَلِمُونَ ﴿١١٦﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٧﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٨﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٩﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢٠﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٢﴾

رزقكم الله حلالاً طيباً ﴿١١٦﴾ أي كلوا من نعم الله التي أباحها لكم حال كونها حلالاً طيباً ﴿١١٧﴾ واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون ﴿١١٧﴾ أي واشكروا الله على نعمه الجليلة إن كنتم مخلصين في إيمانكم لا تعبدون أحداً سواه ، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم فقال ﴿١١٨﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ ﴿١١٨﴾ أي لم يجرم ربكم عليكم أيها الناس إلا ما فيه أذى لكم كالميتة والدم ولحم الخنزير ﴿١١٨﴾ وما أهل لغير الله به ﴿١١٨﴾ أي وما ذبح على اسم غير الله تعالى فإن فيه أذى للنفس والعقيدة ﴿١١٨﴾ فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم ﴿١١٨﴾ أي فمن اضطر لأكل ما حرم الله من المذكورات من غير بغيٍ ولا عدوانٍ فإن الله واسع المغفرة عظيم الرحمة لا يؤاخذ من كان مضطراً ، ثم وبخ تعالى المشركين الذين حللوا وحرموا من تلقاء أنفسهم فقال ﴿١١٩﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴿١١٩﴾ أي لا تقولوا أيها المشركون في شأن ما تصفه ألسنتكم من الكذب هذا حلالٌ وهذا حرام من غير دليلٍ ولا برهانٍ ﴿١١٩﴾ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴿١١٩﴾ أي لتكذبوا على الله بنسبة ذلك إليه ﴿١١٩﴾ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٩﴾ أي إن الذين يختلقون الكذب على الله لا يفوزون ولا يظفرون بمطلوبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿١١٩﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢٠﴾ أي انتفاعهم واستمتاعهم في الدنيا قليل لأنه زائل ، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم ، ثم ذكر تعالى ما حرم على اليهود فقال ﴿١٢١﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴿١٢١﴾ أي وعلى اليهود خاصة حرمانا عليهم ما قصصنا عليك يا محمد مما سبق ذكره في سورة الأنعام عقوبة لهم وهي شحوم البقر والغنم وكل ذي ظفر ﴿١٢١﴾ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿١٢١﴾ أي وما ظلمناهم بذلك التحريم ولكن ظلموا أنفسهم فاستحقوا ذلك كقوله ﴿١٢١﴾ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيباتٍ أحلت لهم ﴿١٢١﴾ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ﴿١٢١﴾ أي ثم إن ربك يا محمد للذين ارتكبوا تلك القبائح بجهلٍ وسفه ﴿١٢١﴾ ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴿١٢١﴾ أي ثم رجعوا إلى ربهم وأتابوا وأصلحوا العمل بعد ذلك الزلل ﴿١٢١﴾ إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيم ﴿١٢١﴾ أي إنه تعالى واسع المغفرة عظيم الرحمة ، والآية

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٨﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٩﴾ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٣٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ

تأنيسٌ لجميع الناس وفتحٌ لباب التوبة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ إِمَامًا قَدْوَةً جَامِعًا لِحُصَالِ الْخَيْرِ وَلِذَلِكَ اخْتَارَهُ اللَّهُ لِحَلَّتْهُ ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ أَي مُطِيعًا لِرَبِّهِ قَانِتًا بِأَمْرِهِ ﴿حَنِيفًا﴾ أَي مَائِلًا عَنِ كُلِّ دِينٍ بَاطِلٍ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ ، دِينِ الْإِسْلَامِ ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ وَرَدَّ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ﴾ أَي قَانِتًا بِشُكْرِ نِعْمِ اللَّهِ ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَي اخْتَارَهُ وَاصْطَفَاهُ لِلنُّبُوَّةِ وَهَدَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَإِلَى عِبَادَةِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أَي جَعَلْنَا لَهُ الذِّكْرَ الْجَمِيلَ فِي الدُّنْيَا ﴿وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أَي وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ أَصْحَابِ الدَّرَجَاتِ الرَّفِيعَةِ ، وَفِي أَعْلَى مَقَامَاتِ الصَّالِحِينَ ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾^(١) لَمَّا وَصَفَ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ بِتِلْكَ الْأَوْصَافِ الشَّرِيفَةِ أَمْرَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَتَّبِعْ مِلَّتَهُ وَالْمَعْنَى ثُمَّ أَمْرُنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِاتِّبَاعِ دِينِ إِبْرَاهِيمَ وَمِلَّتِهِ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أَي وَمَا كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا ، وَإِنَّمَا كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ، وَهُوَ تَأْكِيدٌ آخَرَ لِرَدِّ مَزَاعِمِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَنَّهُمْ عَلَى دِينِهِ ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أَي لَمْ يَكُنْ تَعْظِيمُ يَوْمِ السَّبْتِ وَتَرْكُ الْعَمَلِ فِيهِ مِنْ شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ وَلَا مِنْ شَعَائِرِ دِينِهِ ، وَإِنَّمَا جُعِلَ تَغْلِيظًا عَلَى الْيَهُودِ لِاخْتِلَافِهِمْ فِي الدِّينِ وَعَصْيَانِهِمْ أَمْرَ اللَّهِ ، حَيْثُ نَهَاهُمْ عَنِ الْإِصْطِيَادِ فِيهِ فَاصْطَادُوا فَمَسَخَهُمْ قَرْدَةً وَخَنَازِيرَ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أَي وَسَيَفْصِلُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَجَازِي كُلًّا بِمَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الثَّوَابِ أَوِ الْعِقَابِ ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ أَي أَدْعُ يَا مُحَمَّدُ النَّاسَ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَشَرِيعَتِهِ الْقُدْسِيَّةِ بِالْأَسْلُوبِ الْحَكِيمِ ، وَاللُّطْفِ وَاللِّينِ ، بِمَا يُوَثِّرُ فِيهِمْ وَيَنْجِعُ ، لَا بِالزُّجْرِ وَالتَّأْنِيبِ وَالْقَسْوَةِ وَالشَّدَةِ ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أَي وَجَادِلِ الْمُخَالَفِينَ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنْ طَرُقِ الْمُنَازَعَةِ وَالْمُجَادَلَةِ بِالْحُجُجِ وَالْبُرَاهِينِ ، وَالرَّفْقِ وَاللِّينِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أَي إِنَّ رَبَّكَ يَا مُحَمَّدُ هُوَ الْعَالِمُ بِحَالِ الضَّالِّينَ وَحَالِ الْمُهْتَدِينَ ،

(١) قال المفسرون : العطف بشم ﴿ثم أوحينا إليك﴾ فيه تعظيم منزلة الرسول ﷺ وإجلال محله فكانه بعد أن عدد مناقب الخليل عليه السلام قال : وههنا ما هو أعلى من ذلك كله قدرًا ، وأرفع رتبة ، وهو أن النبي ﷺ الأمي الذي هو سيد البشر متبعٌ لملة إبراهيم ، مستمسكٌ بشريعته وكفى بذلك فخراً .

فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوِقْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٦٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٦٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٦٨﴾

فعليك أن تسلك الطريق الحكيم في دعوتهم ومناظرتهم ، وليس عليك هدايتهم ، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿ وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ أي وإن عاقبتهم أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم فعاملوه بالمثل ولا تزيدوا قال المفسرون : نزلت في شأن « حمزة بن عبد المطلب » لما بقر المشركون بطنه يوم أحد ، فقال النبي ﷺ : لئن أظفرتني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم ﴿ ولئن صبرتُمْ لهو خيرٌ للصابرين ﴾ أي ولئن عفوتهم وتركتهم القصاص فهو خير لكم وأفضل ، وهذا ندبٌ إلى الصبر ، وترك عقوبة من أساء ، فإن العقوبة مباحة وتركها أفضل ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ أي واصبر يا محمد على ما ينالك من الأذى في سبيل الله ، فما تنال هذه المرتبة الرفيعة إلا بمعونة الله وتوفيقه ﴿ ولا تحزنْ عليهم ﴾ أي لا تحزن على الكفار إن لم يؤمنوا ﴿ ولاتكُ في ضيقٍ مما يمكرون ﴾ أي ولا يضقْ صدرك بما يقولون من السُّفَه والجهل ، ولا بما يدبرون من المكر والكيد ﴿ إنَّ الله مع الذين اتَّقوا والذين هم محسنون ﴾ أي مع المتقين بمعونته ونصره ، ومع المحسنين بالحفظ والرعاية ، ومن كان الله معه فلن يضره كيد الكائدين .

البلاغَة : تضمنت الآيات من صنوف البيان والبديع ما يلي :

١ - الاستعارة المكنية ﴿ فأذاقها الله لباسَ الجوعِ والخوفِ ﴾ شبه ذلك اللباس من حيث الكراهية بالطعم المر البشع وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الإذاعة على طريق الاستعارة المكنية .

٢ - الطباق بين ﴿ حلال .. وحرام ﴾ .

٣ - الالتفات ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾ التفت عن الغيبة إلى التكلم إشارة إلى زيادة الاعتناء بشأنه وتفخيم أمره .

٤ - التشبيه البليغ ﴿ كان أمة ﴾ أي كان بمفرده كالأمة والجماعة الكثيرة لجمعه أوصاف الكمالات التي تفرقت في الخلق كما قال الشاعر :

« وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد » .

تبيينه : دل قوله تعالى ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ على الحث على الإنصاف في المناظرة ، واتباع الحق ، والرفق والمداراة ، على وجه يظهر منه أن القصد إثبات الحق وإزهاق الباطل ، لا نصرة الرأي وهزيمة الرأي الآخر .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النحل ولله الحمد والمنة »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة الإسراء من السور المكية التي تهتم بشئون العقيدة ، شأنها كشأن سائر السور المكية من العناية بأصول الدين «الوحدانية ، والرسالة ، والبعث» ولكنَّ العنصر البارز في هذه السورة الكريمة هو «شخصية الرسول ﷺ» ، وما أيده الله به من المعجزات الباهرة ، والحجج القاطعة ، الدالة على صدقه عليه الصلاة والسلام .

* تعرضت السورة الكريمة لمعجزة الإسراء ، التي كانت مظهراً من مظاهر التكريم الإلهي ، لخاتم الأنبياء والمرسلين ، وآية باهرة تدل على قدرة الله جل وعلا في صنع العجائب والغرائب .

* وتحدثت عن بني إسرائيل ، وما كتب الله عليهم من التشرّد في الأرض مرتين ، بسبب طغيانهم وفسادهم وعصيانهم لأوامر الله ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنَّ في الأرض مرتين . . .﴾ الآيات .

* وتحدثت عن بعض الآيات الكونية ، التي تدل على العظمة والوحدانية ، وعن النظام الدقيق الذي يحكم الليل والنهار ، ويسير وفق ناموسٍ ثابت لا يتبدل ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل . . .﴾ الآيات .

* وتعرضت السورة إلى بعض الآداب الاجتماعية ، والأخلاق الفاضلة الكريمة ، فحثت عليها ، ودعت إلى التحلي بها ليكون هناك المجتمع المثالي الفاضل بدءاً من قوله تعالى ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه . . .﴾ الآيات .

* وتحدثت عن ضلالات المشركين حيث نسبوا إلى الله تعالى الصاحبة والولد ، والعجيب في أمرهم أنهم يكرهون البنات ، ثم ينسبونها إلى العلي الكبير ، المنزه عن الشبيه والنظير ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً؟ إنكم لتقولون قولاً عظيماً . . .﴾ الآيات .

* وتحدثت عن البعث والنشور ، والمعاد والجزاء ، الذي كثر حوله الجدل ، وأقامت الأدلة والبراهين على إمكانه ، ثم تحدثت عن القرآن العظيم ، معجزة محمد ﷺ الخالدة ، وذكرت تعنت المشركين في اقتراحاتهم ، حيث طلبوا معجزة أخرى غير القرآن ، أن يفجر لهم الأنهار ، ويجعل مكة حدائق وبساتين

﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . . .﴾ الآيات .

* ثم ختمت السورة بتنزيه الله عن الشريك والولد ، وعن صفات النقص ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليٌ من الذل وكبره تكبيراً﴾ .
التسمية : سميت السورة الكريمة «سورة الإسراء» لتلك المعجزة الباهرة معجزة الإسراء التي خص الله تعالى بها نبيه الكريم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا
اللغة : ﴿سبحان﴾ اسمٌ للتسبيح ومعناه تنزيه الله تعالى من كل سوء ونقص وهو خاصٌ به سبحانه ﴿أسرى﴾ الإسراء : السيرُ ليلًا يقال : أسرى وسرى لغتان قال الشاعر :

سريت من حرمٍ ليلًا إلى حرمٍ كما سرى البدرُ في داجٍ من الظلم

﴿فجاسوا﴾ قال الزجاج : طافوا ، والجوسُ : الطواف بالليل والتردد والطلب مع الاستقصاء وقال الواحدي : الجوسُ هو التردد والطلب ﴿الكرة﴾ الدولة والغلبة ﴿تتبرأ﴾ هلاكاً ودماراً ﴿محوناً﴾ طمسنا قال علماء اللغة : المحوُ إذهاب الأثر يقال محوته فأنحى أي ذهب أثره ﴿طائرته﴾ عمله المقدر عليه سمي الخير والشر بالطائر لأن العرب كانوا يتفاءلون ويتشاءمون بالطير إذا طار جهة اليمين أو الشمال ﴿مترفياً﴾ المترفُ : المتنعّم الذي أبطرته النعمة وسعة العيش ﴿يصلهاها﴾ يدخلها ويذوق حرّها ﴿مدحوراً﴾ مطروداً مبعداً من رحمة الله .

التفسير : ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ أي تنزهه وتقدهس عما لا يليق بجلاله ، الله العليُّ الشأن ، الذي انتقل بعبده ونبيه محمد ﷺ في جزءٍ من الليل ﴿من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ أي من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ، وسمي بالأقصى لبعده المسافة بينه وبين المسجد الحرام قال المفسرون : وإنما قال ﴿ليلاً﴾ بلفظ التنكير لتقليل مدة الإسراء ، وأنه قطع به المسافات الشاسعة البعيدة في جزءٍ من الليل وكانت مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أبلغ في القدرة والإعجاز ولهذا كان بدء السورة بلفظ ﴿سبحان﴾ الدال على كمال القدرة ، وبالغ الحكمة ، ونهاية تنزهه تعالى عن صفات المخلوقين ، وكان الإسراء بالروح والجسد ، يقظة لا مناماً ﴿الذي باركنا حوله﴾ أي الذي باركنا ما حوله بأنواع البركات الحسية والمعنوية ، بالثمار والأثمار التي خصَّ الله بها بلاد الشام ، وبكونه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة الأطهار ﴿لنريه من آياتنا﴾ أي لنري محمدًا ﷺ آياتنا العجيبة العظيمة ، ونطلعه على ملكوت السموات

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي
وَكَيْلًا ﴿١٧﴾ ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿١٨﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ
لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ فإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ
شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٢٠﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ

والأرض، فقد رأى صلوات الله عليه السموات العلى والجنة والنار، وسدرة المنتهى، والملائكة والأنبياء وغير ذلك من العجائب والآيات التي تدل على قدرة الله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي إنه تعالى هو السميع لأقوال محمد، البصير بأفعاله، ولهذا خصه بهذه الكرامات والمعجزات احتفاءً وتكريماً ﴿وَأَتَيْنَا موسى الكتاب وجعلناه هدىً لبني إسرائيل﴾ أي أعطينا موسى التوراة هدايةً لبني إسرائيل يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان ﴿أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا﴾ أي لا تتخذوا لكم رباً تكلون إليه أموركم سوى الله الذي خلقكم قال المفسرون: لما ذكر المسجد الأقصى وهو قلب الأرض المقدسة التي أسكنها الله بني إسرائيل جاء الحديث عنهم في مكانه المناسب من سياق السورة ﴿ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي يا ذرية ويا أبناء المؤمنين الذين كانوا مع نوح في السفينة، لقد نجينا آباءكم من الغرق فاشكروا الله على إنعامه ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ أي إن نوحاً كان كثير الشكر يحمد الله على كل حال فاقتدوا به، وفي النداء لهم تطفؤ وتذكير بنعمة الله ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾ أي أخبرناهم وأعلمناهم وأوحينا إليهم في التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ أي ليحصلن منكم الإفساد في أرض فلسطين وما حولها مرتين^(١) قال ابن عباس: أول الفساد قتل زكريا والثاني قتل يحيى عليها السلام ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي تطغون في الأرض المقدسة طغياناً كبيراً بالظلم والعدوان وانتهاك محارم الله ﴿فإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي أولى المرتين من الإفساد ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا﴾ أي سلطنا عليكم من عبيدنا أناساً جبارين للانتقام منكم ﴿أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي أصحاب قوة وبطش في الحرب شديد قال المفسرون: إن بني إسرائيل لما استحلوا المحارم وسفكوا الدماء سلط الله عليهم بختنصر ملك بابل فقتل منهم سبعين ألفاً حتى كاد يفنيهم هو وجنوده، وذلك أول الفسادين ﴿فجاسوا خلال الديار﴾ أي طافوا وسط البيوت يروحون ويغدون للتفتيش عنكم واستئصالكم بالقتل والسلب والنهب لا يخافون من أحد ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾ أي كان ذلك التسليط والانتقام قضاءً جزماً لا يقبل النقص والتبديل ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾ أي ثم لما تبتم وأنبتم أهلكننا أعداءكم ورددنا لكم الدولة والغلبة عليهم بعد ذلك البلاء الشديد ﴿وأمددناكم بأموالٍ وبنيين﴾ أي أعطيناكم الأموال الكثيرة والذرية

(١) قضاء الله على بني إسرائيل بالإفساد مرتين ليس قضاء قهر وإلزام، وإنما هو إخبار من الله تعالى بما سيكون منهم حسب ما وقع في علمه الإلهي الأزلي فتنبؤ.

وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿١٧﴾ إِنَّ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴿١٨﴾ فإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ لِيُسْئِرُوا
 وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿١٩﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ
 وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ
 الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٢﴾
 وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوْنًا آيَةً

الوفيرة، بعد أن نهبت أموالكم وسببت أولادكم ﴿وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ أي جعلناكم أكثر عدداً ورجالاً من
 عدوكم لتستعيدوا قوتكم وتبنوا دولتكم ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾ أي إن أحسنتم يا بني إسرائيل
 فإحسانكم لأنفسكم ونفعه عائد عليكم لا ينتفع الله منها بشيء ﴿وإن أسأتم فلها﴾ أي وإن أسأتم فعليها
 لا يتضرر الله بشيء منها ، فهو الغني عن العباد ، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ﴿فإذا جاء وعد
 الآخرة﴾ أي فإذا جاء وعد المرة الأخيرة من إفسادكم بقتل يحيى وانتهاك محارم الله بعثنا عليكم أعداءكم مرة
 ثانية ﴿ليسوءوا وجوهكم﴾ أي بعثناهم ليهينوكم ويجعلوا آثار المساءة والكتابة بادية على وجوهكم بالإذلال
 والقهر ﴿وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة﴾ أي وليدخلوا بيت المقدس فيخربوه كما خربوه أول مرة
 ﴿وليتبئروا ما علواً تتبيرا﴾ أي وليدمروا ويهلكوا ما غلبوا عليه تدميراً ، فقد سلط الله عليهم مجوس
 الفرس فشردوهم في الأرض وقتلوهم ودمروا مملكتهم تدميراً ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ أي لعل الله
 يرحمكم ويعفو عنكم إن تبتم وأنبتم ، وهذا وعدٌ منه تعالى بكشف العذاب عنهم إن رجعوا إلى الله
 و﴿عسى﴾ من الله واجبة ﴿وإن عدتم عدنا﴾ أي وإن عدتم إلى الإفساد والإجرام عدنا إلى العقوبة
 والانتقام ﴿١٧﴾ ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ أي وجعلنا جهنم محبساً وسجناً للكافرين ، لا يقدر
 على الخروج منها أبداً الأبدية ، ثم بين تعالى مزية التنزيل الكريم الذي فاق بها سائر الكتب السماوية فقال
 ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ أي إن هذا القرآن العظيم يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل ، ولما
 هو أعدل وأصوب ﴿ويبشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي ويبشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ
 يعملون بمقتضاه بالأجر العظيم في جنات النعيم ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾
 أي ويبشِّرهم بأن أعدائهم الذين لا يصدقون بالآخرة العقاب الأليم في دار الجحيم ، وقد جمعت الآية بين
 الترغيب والترهيب ﴿ويدعُ الإنسان بالشرِّ دعاءهُ بالخير﴾ أي يدعو بالشر على نفسه كدعائه لها بالخير ،

(١) قال في الظلال : « ولقد عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها ، ثم عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم
 عبداً آخرين ، حتى كان العصر الحديث فسلط الله عليهم « هتلر » ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة « إسرائيل » وليسلطن الله عليهم
 من يسومهم سوء العذاب تصديقاً لوعد الله القاطع ، وفاقاً لسنته التي لا تتخلف ، وإنَّ عدداً لناظره قريب » .

الَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكُنِّي بِرَبِّكَ بُذُوبٌ

ولو استجيب له في الشركما يستجاب له في الخير لهلك قال ابن عباس : هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له : اللهم أهلكه اللهم دمه ونحوه^(١) وكان الإنسان عجولاً أي ومن طبيعة الإنسان العجلة ، يتعجل بالدعاء على نفسه ويسارع لكل ما يخطر بباله ، دون النظر في عاقبته ، ثم أشار تعالى إلى آيات الله الكونية في هذا الوجود ، التي كل منها برهان نير على وحدانية الله فقال ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ﴾ أي علامتين عظيمتين على وحدانيتنا وكما ل قدرتنا ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ أي طمسنا الليل فجعلناه مظلماً لتسكنوا فيه ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ أي جعلنا النهار مضيئاً مشرقاً بالنور ليحصل به الإبصار ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ أي لتطلبوا في النهار أسباب معاشكم ﴿ ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ أي ولتعلموا عدد الأيام والشهور والأعوام ، بتعاقب الليل والنهار ، فالليل للراحة والسكون ، والنهار للكسب والسعي ﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ أي وكل أمر من أمور الدنيا والدين ، بيّناه أحسن تبين ، وليس شيء من أمر هذا الوجود متروكاً للمصادفة والجُزاف ، وإنما هو بتقديرٍ وتدبيرٍ حكيم ﴿ وكل إنسان أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ أي أن الإنسان مرهون بعمله مجزي به ، وعمله ملازم له لزوم القلادة للعنق لا ينفك عنه أبداً ﴿ ونُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ أي نظهر له في الآخرة كتاب أعماله مفتوحاً فيه حسناته وسيئاته فيرى عمله مكشوفاً لا يملك إخفاءه أو تجاهله ﴿ إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ أي إقرأ كتاب عملك كفى أن تكون اليوم شهيداً بما عملت ، لا تحتاج إلى شاهد أو حسيب ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها ﴾ أي من اهتدى فثواب اهتدائه له ، ومن ضلَّ فعقاب كفره وضلاله عليها ﴿ ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى ﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ أي وما كنا معذبين أحداً من الخلق حتى نبعث لهم الرسل مذكرين ومنذرين فتقوم عليهم الحجة ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ﴾ أي وإذا أردنا هلاك قوم من الأقوام أمرنا المتعتمين فيها والقادة والرؤساء بالطاعة على لسان رسلنا فعصوا أمرنا وخرجوا عن طاعتنا وفسقوا وفجروا ﴿ فحقَّ عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾

عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا تُمِدُّ هُنُوًا وَهَنُورًا وَمِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴿٢٢﴾

أي فوجب عليهم العذاب بالفسق والطغيان فأهلكناهم إهلاكاً مريعاً قال ابن عباس : ﴿أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ أي سلطنا أشرارها فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب ^(١) ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾ أي وكثير من الأمم الطاغية المكذبين للرسول أهلكناهم من بعد نوح كقوم عاد وثمود وفرعون قال ابن كثير : والآية إنذار لكفار قريش والمعنى إنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذبتهم أشرف الرسل وأكرم الخلائق فعقوبتكم أولى وأحرى ^(٢) ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خيراً بصيراً﴾ أي كفى يا محمد أن يكون ربك رقيباً على أعمال العباد يدرك بواطنها وظواهرها ويمجزي عليها ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ أي من كان يريد بعمله الدنيا فقط ولها يعمل ويسعى ليس له هم إلا الدنيا عجلنا له فيها ما نشاء تعجيله من نعيمها لا كل ما يريد ﴿ثم جعلنا له جهنم يصلها مذموماً مدحوراً﴾ أي ثم جعلنا له في الآخرة جهنم يدخلها مهاناً حقيراً مطروداً من رحمة الله ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن﴾ أي ومن أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم ، وعمل لها عملها الذي يليق بها من الطاعات وهو مؤمن صادق الإيمان ﴿فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ أي فأولئك الجامعون للخصال الحميدة من الإخلاص ، والعمل الصالح ، والإيمان . كان عملهم مقبولاً عند الله أحسن القبول ، مثاباً عليه ﴿كلاً تُمِدُّ هُنُوًا وَهَنُورًا﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا ، والذين أرادوا الآخرة نعطيهم من عطائنا الواسع تفضلاً منا وإحساناً ، فنعطي المؤمن والكافر والمطيع والعاصي ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ أي ما كان عطاؤه تعالى محبوساً ممنوعاً عن أحد ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ أي أنظر يا محمد كيف فواتنا بينهم في الأرزاق والأخلاق في هذه الحياة الدنيا فهذا غني وذاك فقير ، وهذا شريف وذاك حقير ﴿وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً﴾ أي ولتفاوتهم في الدار الآخرة أعظم من التفاوت في هذا الدار لأن الآخرة دار القرار وفيها ما لا عين رأت ، ولا أُذُن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ أي لا تجعل مع الله شريكاً ولا تتخذ غيره إلهاً تعبده ﴿فتقعد مذموماً مخذولاً﴾ أي فتصير ملوماً عند الله مخذولاً منه لا ناصر لك ولا معين .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - براعة الاستهلال ﴿سبحان الذي أسرى﴾ لأنه لما كان أمراً خارقاً للعادة بدأه بلفظ يشير إلى كمال القدرة وتنزه الله عن صفات النقص .
- ٢ - إضافة التكريم والتشريف ﴿بعده﴾ .
- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿ولتعلن علواً﴾ ﴿تزر وازرة﴾ .
- ٤ - الطباق بين ﴿أحستم .. وأسأتم﴾ وبين ﴿ضل .. واهتدى﴾ .
- ٥ - إيجاز بالحذف ﴿اقرأ كتابك﴾ أي يقال له يوم القيامة اقرأ كتابك ﴿أمرنا مترفيها﴾ أي أمرناهم بطاعة الله فعصوا وفسقوا فيها .
- ٦ - المجاز العقلي ﴿آية النهار مبصرة﴾ لأن النهار لا يبصر بل يبصر فيه فهو من إسناد الشيء إلى زمانه .
- ٧ - الاستعارة اللطيفة ﴿طائره في عنقه﴾ استعير الطائر لعمل الإنسان ، ولما كان العرب يتفاءلون ويتشاءمون بالطير سموا نفس الخير والشر بالطائر بطريق الاستعارة .

لطيفة : الحكمة في إسرائه إلى بيت المقدس ثم عروجه من بيت المقدس إلى السموات العلى أنه جمع أرواح الأنبياء ، وموطن تنزل الوحي الإلهي على الرسل الكرام ، ولما كانت هذه الرحلة رحلة تكريم أراد تعالى أن يشرفهم بزيارته . ولهذا صلى بهم إماماً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

تنبية : وصفه تعالى في هذه السورة بالعبودية ﴿أسرى بعده﴾ لأنه أشرف المقامات وأسمى المراتب العلية ، كما وصفه في مقام الوحي كذلك ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ وفي مقام الدعوة ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾ ولهذا قال القاضي عياض :

ومما زادني شرفاً وتيهاً وكدت بأخصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أهد لي نبياً

قال الله تعالى : ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً .. إلى .. فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾
من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٤٨) .

المناسبة : لما جعل تعالى الإيمان والعمل الصالح أساساً للفوز بالسعادة الأبدية ، وبين حال المؤمن الذي أراد بعمله الدار الآخرة ، ذكر هنا طائفة من الأوامر والزواجر التي يقوم عليها بنيان المجتمع الفاضل ، ثم ذكر تعالى موقف المشركين المكذبين من هذا القرآن العظيم .

اللغز: ﴿أف﴾ كلمة تضجر وتبرم قال ابن الأعرابي الأف: الضجر ، وأصلها أنه إذا سقط تراب أو رماد فنفخ الإنسان ليزيله ، فالصوت الحاصل هو أف ثم توسعوا في الكلمة حتى أصبحت تقال لكل مكروه ﴿تنهرهما﴾ النهر: الزجر والغلظة ﴿الأوابين﴾ جمع أواب وهو كثير التوبة والإجابة من الأوب بمعنى الرجوع ﴿محسوراً﴾ منقطعاً عن النفقة والتصرف قال الفراء: تقول العرب للبعير هو محسور إذا انقطع سيره ، وحسرت الدابة إذا انقطعت عن المسير لذهاب قوتها ، فشبّه حال من أنفق كل ماله بمن انقطع في سفره بسبب انقطاع مطيته^(١) ﴿إملاق﴾ فقر وفاقة ، أملق الرجل إذا افتقر ﴿خطأ﴾ قال الأزهري: خطيء يخطئ خطأ إذا تعمّد الخطأ ، وأخطأ إذا لم يتعمّد^(٢) ﴿القسطاس﴾ الميزان مأخوذ من القسط وهو العدل ﴿تقف﴾ تتبّع مأخوذ من قفوت أثر فلان إذا اتبعت أثره وأصله البهت والقذف بالباطل ﴿مرحاً﴾ المرح: شدة الفرح والمراد به هنا التكبر والخيلاء ﴿صرّفنا﴾ بينا ﴿أكنة﴾ جمع كنان وهو الغطاء الذي يستر الشيء ﴿وقراً﴾ صمماً وثقلاً .

* وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٣٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٣٤﴾ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٣٥﴾

النفسير: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ أي حكم تعالى وأمر بأن لا تعبدوا إلهاً غيره وقال مجاهد: ﴿وقضى﴾ يعني وصّى بعبادته وتوحيده ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي وأمر بأن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً قال المفسرون: قرن تعالى بعبادته بر الوالدين لبيان حقها العظيم على الولد لأنها السبب الظاهر لوجوده وعيشه ، ولما كان إحسانها إلى الولد قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسان الولد إليهما كذلك ﴿إمّا يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما﴾ أي قد أوصيناك بهما وبخاصة إذا كبرا أو كبر أحدهما ، وإنما خصّ حالة الكبر لأنها حينئذٍ أحوج إلى البر والقيام بحقوقها لضعفها ومعنى ﴿عندك﴾ أي في كنفك وكفالتك ﴿فلا تقل لها أف﴾ أي لا تقل للوالدين أقل كلمة تظهر الضجر ككلمة أف ولا تسمعها قولاً سيئاً حتى ولو بكلمة التأفف ﴿ولا تنهرهما﴾ أي لا تزجرهما بإغلاظٍ فيما لا يعجبك منهما ﴿وقل لها قولاً كريماً﴾ أي قل لها قولاً حسناً ليناً طيباً بأدبٍ ووقارٍ وتعظيمٍ ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ أي ألن جانبك وتواضع لهما بتذلّل وخضوع من فرط رحمتك وعطفك عليهما ﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ أي أدع لهما بالرحمة وقل في دعائك يا رب ارحم والدي برحمتك الواسعة كما أحسنا إلي في تربيتها حالة الصغر ﴿ربكم أعلم بما نفوسكم﴾ أي ربكم أيها الناس أعلم بما في نفوسكم من إرادة البر أو العقوق ﴿إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً﴾ أي إن تكونوا قاصدين للبر والصلاح دون

وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۗ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۗ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ

العقوق والفساد فإنه جلّ وعلا يتجاوز عن سيئاتكم ويغفر للأوابين وهم الذين كلما أخطأوا عادوا إلى ربهم مستغفرين قال الرازي : والمقصود من هذه الآية أن الأولى لما دلّت على وجوب تعظيم الوالدين ثم إن الولد قد يظهر منه ما يخلّ بتعظيمهما فإن كانت تلك الهفوة ليست لأجل العقوق بل ظهرت بمقتضى الجبلة البشرية كانت في محل الغفران (١) ، وبمناسبة الإحسان إلى الوالدين يأمر تعالى بالإحسان إلى الأقارب والضعفاء والمساكين ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ أي أعط كلّ من له قرابة بك حقّه من البر والإحسان ﴿والمسكين وابن السبيل﴾ أي وأعط المسكين المحتاج والغريب المنقطع في سفره حقّه أيضاً ﴿ولا تبذر تبذيراً﴾ أي لا تنفق مالك في غير طاعة الله فتكون مبذراً ، والتبذير الإنفاق في غير حق قال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كلّ في الحق لم يكن مبذراً ، ولو أنفق مuddاً في غير حق كان مبذراً وقال قتادة : التبذير النفقة في معصية الله تعالى وفي غير الحق والفساد (٢) ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ هذا تعليل للنهي وهو غاية في الذم والتقيح أي إن المبذرين كانوا أمثال الشياطين وأشباههم في الإفساد ، لأنهم ينفقون في الباطل وينفقون في الشر والمعصية فهم أمثالهم ﴿وكان الشيطان لربه كفوراً﴾ أي مبالغاً في كفران نعمة الله لا يؤدي حقّ النعمة كذلك إخوانه المبذرون لا يؤدون حقّ النعمة ، وحقّها أن ينفقوها في الطاعات والحقوق غير متجاوزين ولا مبذرين ﴿وإمّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ أي إن أعرضت عن ذوي القربى والمساكين وابن السبيل إذا لم تجد ما تعطيههم فقل لهم قولاً سهلاً ليناً وعدّهم وعداً جميلاً ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ تمثيل للبخل أي لا تكن بخيلاً منوعاً لا تعطي أحداً شيئاً كمن حبست يده عن الإنفاق وشدّت إلى عنقه ﴿ولا تبسطها كلّ البسط﴾ تمثيل للتبذير أي ولا تتوسع في الإنفاق توسعاً مفرطاً بحيث لا يبقى في يدك شيء ، والغرض من الآية لا تكن بخيلاً ولا مسرفاً ﴿فتقعد ملوماً محسوراً﴾ أي فتصير مذموماً من الخلق والخالق ، منقطعاً من المال كمن انقطع في سفره بانقطاع مطيته ﴿إن ربك ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يوسع الرزق على من يشاء ويضيق على من يشاء ، وهو القابض ، الباسط المتصرف في خلقه ، بما يشاء حسب الحكمة ﴿إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ أي إنه عالم بمصالح العباد ، والتفاوت في الأرزاق ليس لأجل البخل بل لأجل رعاية المصالح فهو تعالى يعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾ أي لا تقدّموا على قتل أولادكم مخافة الفقر ﴿نحن نرزقهم

إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطٰنًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ۗ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۗ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۗ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ ۗ إِذَا كَلِمَةٌ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ ۗ السُّبْحٰنَ ۗ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۗ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۗ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ

وإياكم ﴿٣١﴾ أي رزقهم علينا لا عليكم فنحن نرزقهم ونرزقكم فلا تخافوا الفقر بسببهم ﴿٣٢﴾ إن قتلهم كان خطأ كبيراً ﴿٣٣﴾ أي قتلهم ذنبٌ عظيم وجرمٌ خطير قال المفسرون : كان أهل الجاهلية يثدون البنات مخافة الفقر أو العار فنهاهم الله عن ذلك وضمن أرزاقهم ﴿٣٤﴾ ولا تقربوا الزنى ﴿٣٥﴾ أي لا تدنوا من الزنى وهو أبلغ من «لا تزنوا» لأنه يفيد النهي عن مقدمات الزنى كاللمس ، والقُبلة ، والنظرة ، والغمز وغير ذلك مما يجزئ إلى الزنى فالنهي عن القرب أبلغ من النهي عن الفعل ﴿٣٦﴾ إنه كان فاحشة ﴿٣٧﴾ أي إن الزنى كان فعلة قبيحة متناهية في القبح ﴿٣٨﴾ وساء سبيلاً ﴿٣٩﴾ أي ساء طريقاً موصلاً إلى جهنم ﴿٤٠﴾ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴿٤١﴾ أي لا تقتلوا نفساً حرم الله قتلها بغير حقٍ شرعي موجب للقتل كالمرتد ، والقاتل عمداً ، والزاني المحصن ﴿٤٢﴾ ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليِّه سلطاناً ﴿٤٣﴾ أي ومن قُتل ظلماً بغير حقٍ يوجب قتله فقد جعلنا لوارثه سلطةً على القاتل بالقصاص منه ، أو أخذ الدية ، أو العفو ﴿٤٤﴾ فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ﴿٤٥﴾ أي فلا يتجاوز الحدَّ المشروع بأن يقتل غير القاتل أو يمثّل به أو يقتل اثنين بواحد كما كان أهل الجاهلية يفعلون ، فحسبه أن الله قد نصره على خصمه فليكن عادلاً في قصاصه ﴿٤٦﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴿٤٧﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالطريقة التي هي أحسن وهي حفظه واستثماره ﴿٤٨﴾ حتى يبلغ أشده ﴿٤٩﴾ أي حتى يبلغ اليتيم سن الرشد ويحسن التصرف في ماله ﴿٥٠﴾ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ﴿٥١﴾ أي وفوا بالعهد سواء كانت مع الله أو مع الناس لأنكم تُسألون عنها يوم القيامة ﴿٥٢﴾ وأوفوا الكيل إذا كلمتم ﴿٥٣﴾ أي أتموا الكيل إذا كلمتم لغيركم من غير تطفيفٍ ولا بخس ﴿٥٤﴾ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴿٥٥﴾ أي زنوا بالميزان العدل السوي بلا احتيالٍ ولا خديعة ﴿٥٦﴾ ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً ﴿٥٧﴾ أي وفاء الكيل وإقامة الوزن خيرٌ في الدنيا وأحسن مآلاً في الآخرة ﴿٥٨﴾ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴿٥٩﴾ أي لا تتبع ما لا تعلم ولا يعنيك بل تثبت من كل خبر ، قال قتادة : لا تقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم ، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله ﴿٦٠﴾ ﴿٦١﴾ إن السمع والبصر والفؤاد كلٌ أولئك كان عنه مسئولاً ﴿٦٢﴾ أي إن الإنسان يُسأل يوم القيامة عن حواسه : عن سمعه ، وبصره ، وقلبه وعمّا اكتسبته جوارحه ﴿٦٣﴾ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴿٦٤﴾ أي

الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ

لا تمش في الأرض مختلاً مشية المعجب المتكبر ﴿إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾ هذا تعليل للنهي عن التكبر والمعنى أنك أيها الإنسان ضئيل هزيل لا يليق بك التكبر؟ كيف تتكبر على الأرض ولن تجعل فيها خرقاً أو شقاً؟ وكيف تتناول وتتعظم على الجبال ولن تبلغها طولاً؟ فأنت أحقر وأضعف من كل واحد من الجهادين فكيف تتكبر وتتعالى وتختال وأنت أضعف من الأرض والجبال؟ وفي هذا تهكم وتقريع للمتكبرين ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أي كل ذلك المذكور الذي نهى الله عنه كان عمله قبيحاً ومحرمًا عند الله تعالى ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ أي ذلك الذي تقدم من الآداب والقصص والأحكام بعض الذي أوحاه إليك ربك يا محمد من المواعظ البليغة ، والحكم الفريدة ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾ أي لا تشرك مع الله غيره من وثن أو بشر فتلقى في جهنم ملوماً تلوم نفسك ويلومك الله والخلق مطروداً مبعداً من كل خير قال الصاوي : ختم به الأحكام كما ابتدأها إشارة إلى أن التوحيد مبدأ الأمور ومنتهاها ، وهو رأس الأشياء وأساسها ، والأعمال بدونه باطلة لا تفيد شيئاً^(١) ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إنثاً؟﴾ خطاب على وجه التوبيخ للعرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله والمعنى أفخصكم ربكم وأخلصكم بالذكور واختار لنفسه - على زعمكم - البنات؟ كيف يجعل لكم الأعلى من النسل ويختار لنفسه الأدنى! ﴿إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾ أي إنكم لتقولون قولاً عظيماً في شناعته وبشاعته حيث تنسبون إليه البنات وتجعلون لله ما تكروهون ﴿ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليدذكروا﴾ أي ولقد بينا للناس في هذا القرآن العظيم الأمثال والمواعظ ، والوعد والوعيد ، ليتذكروا بما فيه من الحجج النيّرة والبراهين الساطعة ، فينزعروا عما هم فيه من الشرك والضلال ﴿وما يزيدهم إلا نفوراً﴾ أي وما يزيدهم هذا البيان والتذكير إلا تباعداً عن الحق ، وغفلة عن النظر والاعتبار ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ أي لو فرضنا أن مع الله آلهة أخرى كما يزعم هؤلاء المشركون إذا لطلبوا طريقاً إلى مغالبة ذي العزة والجلال ليسلبوا ملكه كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض^(٢) ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً﴾ أي تنزه

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٣٥٠.

(٢) هذا أحد وجهين في تفسير الآية الكريمة والوجه الآخر أن المعنى : لو كان الأمر كما تقولون لكان أولئك المعبودون يبتغون سبيلاً إلى التقرب إليه بعبادته وطاعته ويطلبون الزلفى لديه ، وهذا اختيار ابن جرير وابن كثير ، والوجه الأول أظهر كما يقول العلامة أبو السعود وهو المناسب للآية لقوله تعالى بعدها ﴿سبحانه﴾ فإنه صريح في الإنكار وأن قولهم فيه محذور عظيم .

عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ
وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴿٤٦﴾ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ
فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّأَ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٧﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى

تعالى وتقدس عما يقول أولئك الظالمون ، وتعالى ربنا عما نسبوه إليه من الزور والبهتان تعالياً كبيراً ، فإن
مثل هذه الفرية مما يتنزه عنه مقامه الأسمى قال الشهاب : وذكر العلو بعد عنوانه بـ ﴿ذي العرش﴾ في
أعلى مراتب البلاغة لأنه المناسب للعظمة والجلال ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن﴾ أي
تسبح له الكائنات ، وتنزهه وتقدهسه الأرض والسموات ، ومن فيهن من المخلوقات ﴿وإن من شيء إلا
يسبح بحمده﴾ أي وما من شيء في هذا الوجود إلا ناطق بعظمة الله ، شاهد بوحدانيته جلّ وعلا^(١) ،
السموات تسبح الله في زرقتها ، والحقول في خضرتها ، والبساتين في نضرتها ، والأشجار في حفيفها ،
والمياه في خريرها ، والطيور في تغريدها ، والشمس في شروقها وغروبها ، والسحب في إمطارها ، والكل
شاهد بالوحدانية لله .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ أي ولكن لا تفقهون تسبيح هذه الأشياء لأنها ليست بلغاتكم ﴿إنه كان
حليماً غفوراً﴾ أي إنه تعالى حليم بالعباد لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ، غفور لمن تاب وأناب ، ولولا
حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيز مقتدر ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة
حجاباً مستوراً﴾ أي وإذا قرأت يا محمد القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالآخرة جعلنا بينك
وبينهم حجاباً خفياً يحجب عنهم فهم القرآن وإدراك أسرارهِ وحكمه ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنةً أن
يفقهوه﴾ أي وجعلنا على قلوب هؤلاء الكفار أغطيةً لئلا يفهموا القرآن ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي صمماً
يمنعهم من استماعه ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولَوَّأَ على أدبارهم نفوراً﴾ أي وإذا وحدت الله
وأنت تتلو القرآن فر المشركون من ذلك هرباً من استماع التوحيد ﴿نحن أعلم بما يستمعون به﴾ أي نحن
أعلم بالغاية التي يستمعون من أجلها للقرآن وهي الاستهزاء والسخرية قال المفسرون : كان المشركون
يجلسون عند النبي ﷺ مظهرين الاستماع وفي الواقع قاصدين الاستهزاء فنزلت الآية تسلياً للرسول ﷺ
وتهديداً للمشركين ﴿إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى﴾ أي حين يستمعون إلى قراءتك يا محمد ثم

(١) قال في الظلال : « وإنه لمشهد كوني فريد حين يتصور القلب كل حصاة وكل حجر ، كل حبة وكل ورقة ، كل زهرة وكل ثمرة ، كل نبتة
وكل شجرة ، كل حشرة وكل زاحفة ، كل حيوان وكل إنسان ، كل دابة على الأرض ، وكل سابحة في الماء والهواء ومعها سكان السماء ، كلها
تسبح الله وتتوجه إليه في علاه ، وحين تشف الروح وتصفو تدرك من أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون » . الظلال ١٥ / ٣٩ .

إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

يتناجون ويتحدثون بينهم سراً ﴿٤٧﴾ إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴿٤٧﴾ أي حين يقول أولئك الفجرة ما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً فاجتهدت كلامه ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا﴾ أي انظر يا محمد وتعجب كيف يقولون تارة عنك إنك ساحر ، وتارة إنك شاعر ، وتارة إنك مجنون ! وقد ضلوا بهذا البهتان والزور ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾ أي لا يجدون طريقاً إلى الهدى والحق المبين .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ - الاستعارة المكنية ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ شبه الذل بطائر له جناح وحذف الطائر ورمز له بشيء من لوازمه وهو الجناح على سبيل الاستعارة المكنية .

٢ - الاستعارة التمثيلية ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ مثل للبخيل بالذي حبست يده عن الإعطاء وشدت إلى عنقه بحيث لا يقدر على مداها ، وشبه السرف ببسط الكف بحيث لا تحفظ شيئاً .

٣ - اللف والنشر المرتب ﴿فتتعد ملوماً محسوراً﴾ عاد لفظ ﴿ملوماً﴾ إلى البخل ولفظ ﴿محسوراً﴾ إلى الإسراف أي يلومك الناس إن بخلت ، وتصبح مقطوعاً إن أسرفت .

٤ - الطباق بين ﴿يسط . . ويقدر﴾ .

٥ - جناس الاشتقاق ﴿قرأت القرآن﴾ .

٦ - التوبيخ ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين﴾ ؟ .

٧ - الفرض والتقدير ﴿لو كان معه آلهة كما يقولون﴾ .

لطيفة : نقف هنا أمام مثل من دقائق التعبير القرآني العجيبة ففي هذه السورة قدم تعالى رزق الأبناء على رزق الآباء ﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾ وفي سورة الأنعام قدم رزق الآباء ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ والسرف في ذلك أن قتل الأولاد هنا كان خشية وقوع الفقر بسببهم فقدم تعالى رزق الأولاد ، وفي الأنعام كان قتلهم بسبب فقر الآباء فعلاً فقدم رزق الآباء ، فلهذا در التنزيل ما أروع أسراره !

قال الله تعالى : وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً . . إلى . . ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً

من آية (٤٩) إلى نهاية آية (٦٩) .

المَنَاسِبَةُ : لما ذكر تعالى موقف المشركين من القرآن العظيم ، وذكر تعاميمهم عن فهم آياته البينات ، أردفه بذكر شبهاتهم في إنكار البعث والنشور وكرَّ عليها بالإبطال والتفنيد ، ثم ذكر قصة آدم وإبليس للعظة والاعتبار ، وأعقبها بذكر نعمه العظيمة على العباد ثم بالوعيد والتهديد إن أصرَّوا على الكفر والجحود .

اللغز : ﴿رفاتاً﴾ الرفات : ما تكسَّرَ وبلي من كل شيء كالفُتات والحُطام والرُضاض ﴿يُنغضون﴾ قال الفراء : يقال أنغض فلانُ رأسه إذا حرَّكه إلى فوق وأسفل كالمتعجب من الشيء^(١) قال الراجز : « أنغض نحوي رأسه وأقنعا » ﴿ينزغ﴾ يفسد ويبيح الشر والنزغ : الإفساد والإغراء ﴿لاحتكن﴾ الاحتناك الأخذ بالكلية والاستئصال يقال : احتنك الجرأذ الزرع إذا ذهب به كلُّه ﴿واستفزز﴾ اخدغ واستخفَّ يقال : أفزّه الخوف واستفزّه إذا أزعجه واستخفّه ﴿وأجلب﴾ أصل الإجلاب السوقُ بجلبةٍ من السائق وهو الصياح ، والجلب والجلبة الأصوات ﴿ورجلك﴾ الرجلُ جمع راجل وهو الذي يمشي على قدميه ﴿يُزجي﴾ يسوق ﴿حاصباً﴾ الحاصب والحصاء هي الحصى الصغار ﴿قاصفاً﴾ القاصف ما يقصف الشيء أي يكسره والريح الشديدة التي تكسر بشدة من قصف الشيء يقصفه أي كسره بشدة ، ورعد قاصف شديد الصوت ﴿تبعاً﴾ طالباً يقال تابع وتبع وهو النصير والمطالب .

سَبَبُ النُّزُولِ : أ - عن ابن عباس أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن يُنحى عنهم الجبال فيزرعوا فليل له : إن شئت أن تستأني بهم لعلنا نجتبي منهم ، وإن شئت نعطيهم الذي سألوا فإن كفروا أهلكوا ، فقال : لا بل أستأني بهم فنزلت ﴿وما منعنا أن نُرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون . . .﴾^(٢) الآية .

ب - لما ذكر تعالى شجرة الزقوم في القرآن قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمداً يخوفكم بشجرة الزقوم ، ألستم تعلمون أن النار تُحرق الشجر ؟ ومحمد يزعم أن النار تُنبت الشجر ، فهل تدرون ما الزقوم ؟ هو التمر والزُّبد ، يا جارية ابغينا تمراً وزُبداً ، فجاءته به فقال : تزقموا من هذا الذي يخوفكم به محمد فأنزل الله تعالى ﴿والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾^(٣) .

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفُنًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾

التفسير : ﴿وقالوا أنذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ استفهام تعجب وإنكار أي قال المشركون المكذبون بالبعث أنذا أصبحنا عظاماً نخرة ، وذرات متفتتة كالتراب ﴿أنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي هل سنبعث ونُخلق خلقاً جديداً بعد أن نبلى ونفنى ؟ ﴿قل كونوا حجارةً أو حديداً﴾ أي قل لهم يا محمد لو كنتم حجارةً

أَوْ خَلَقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ
وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ۖ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا
مُبِينًا ﴿٥٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِنَّ يَسَاءَ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنَّ يَسَاءَ يُعَذِّبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ

أو حديداً لقدرة الله على بعثكم وإحيائكم فضلاً عن أن تكونوا عظماً ورفاتاً فإن الله لا يعجزه شيء ،
فالحجارة والحديد أبعد عن الحياة وهي أصلب الأشياء ولو كانت أجسامكم منها لأعادها الله فكيف لا يقدر
على إعادتكم إذا كنتم عظماً ورفاتاً ؟ ﴿أو خَلَقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي أو كونوا خلقاً آخر أو غل في
البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يصعب في نفوسكم تصور الحياة فيه فسيبعثكم الله قال مجاهد :
المعنى كونوا ما شئتم فستعادون ﴿فسيقولون من يعيدنا﴾ ؟ أي من الذي يردنا إلى الحياة بعد فنائنا ﴿قل
الذي فطركم أول مرة﴾ أي قل لهم يعيدكم القادر العظيم الذي خلقكم وأنشأكم من العدم أول مرة
﴿فسيغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو﴾ ؟ أي يجركون رؤوسهم متعجبين مستهزئين ويقولون
استنكاراً واستبعاداً متى يكون البعث والإعادة ؟ ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾ أي لعله يكون قريباً فإن كل ما
هو آت قريب ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ أي سيكون بعثكم يوم الحشر
الأكبر يوم يدعوكم الرب جل وعلا للاجتماع في المحشر فتجيبون لأمره ، وتظنون لهول ما ترون أنكم ما
أتمتم في الدنيا إلا زمناً قليلاً ﴿وقل لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي قل لِعِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُوا فِي
مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلمة الطيبة ويختاروا من الكلام ألطفه وأحسنه وينطقوا دائماً بالحسنى ﴿إن
الشیطان ينزع بينهم﴾ أي إن الشيطان يُفسد ويبيح بين الناس الشرَّ ويُشعل نار الفتنة بالكلمة الخسنة
يُقلت بها اللسان ﴿إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾ أي ظاهر العداوة للإنسان من قديم الزمان يتلمس
سقطات لسانه ليحدث العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِنَّ يَسَاءَ يَرْحَمُكُمْ أَوْ إِنَّ يَسَاءَ
يُعَذِّبُكُمْ﴾ أي ربكم أيها الناس أعلم بدخائل نفوسكم إن يسأ يرحمكم بالتوفيق للإيمان ، وإن يسأ يعذبكم
بالإماتة على الكفر والعصيان ﴿وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾ أي وما جعلناك يا محمد حفيظاً على أعمال الكفار
كفياً عنهم لتقصرهم على الإيمان إنما أرسلناك نذيراً فمن أطاعك دخل الجنة ، ومن عصاك دخل النار
﴿وربك أعلم بمن في السموات والأرض﴾ إنتقال من الخصوص إلى العموم أي ربك جل وعلا أعلم بعباده
بأحوالهم ومقاديرهم فيخص بالنبوة من شاء من خلقه ، وهو أعلم بالسعداء والأشقياء ، والآية رد على
المشركين حيث استبعدوا النبوة على رسول الله وقالوا : كيف يكون يتيم أبي طالب نبياً ؟ وكيف يكون
هؤلاء الفقراء الضعفاء أصحابه دون الأكابر والرؤساء ؟ ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾ أي
فضلنا بعض الأنبياء على بعض حسب علمنا وحكمتنا وخصصناهم بمزايا فريدة ، فاصطفينا إبراهيم

بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۚ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

بالخلة ، وموسى بالتكليم ، وسليمان بالملك العظيم ، ومحمداً بالإسراء والمعراج وجعلناه سيد الأولين والآخرين ، وكل ذلك فعل الحكيم العليم الذي لا يصدر شيء إلا عن حكمته ﴿ وآتيناه داود زبوراً ﴾ أي وأنزلنا الزبور على داود المشتمل على الحكمة وفصل الخطاب ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دونه تعالى قال الحسن : يعني الملائكة وعيسى وعزيراً فقد كانوا يقولون إنهم يشفعون لنا عند الله ﴿ فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾ أي فلا يستطيعون رفع البلاء عنكم ولا تحويله إلى غيركم ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ أي أولئك الآلهة الذين يدعونهم من دون الله هم أنفسهم يبتغون القرب إلى الله ، ويتوسلون إليه بالطاعة والعبادة ، فكيف تعبدونهم معه ؟ ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ أي يرجون بعبادتهم رحمته تعالى ويخافون عقابه ويتسابقون إلى رضاه ﴿ إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ أي عذابه تعالى شديد ينبغي أن يُحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله ﴿ وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً ﴾ أي ما من قرية من القرى الكافرة التي عصت أمر الله وكذبت رسله إلا وسيهلكها الله إما بالاستئصال الكلي أو بالعذاب الشديد لأهلها ﴿ كان ذلك في الكتاب مسطوراً ﴾ أي كان ذلك حكماً مسطراً في اللوح المحفوظ لا يتغير ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ قال المفسرون : اقترح المشركون على رسول الله ﷺ معجزات عظيمة منها أن يقلب لهم الصفا ذهباً ، وأن يزيد عنهم الجبال فأخبره تعالى أنه إن أجابهم إلى ما طلبوا ثم لم يؤمنوا استحقوا عذاب الاستئصال ، وقد اقتضت حكمته تعالى إِمهالهم لأنه علم أن منهم من يؤمن وأن من أولادهم من يؤمن فلهذا السبب ما أجابهم إلى ما طلبوا^(١) أو المعنى ما منعنا من إرسال المعجزات والخوارق التي اقترحها قومك إلا تكذيب من سبقهم من الأمم حيث اقترحوا ثم كذبوا فأهلكهم الله ودمرهم ﴿ وآتيناه ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ أي وأعطينا قوم صالح الناقة آية بينة ومعجزة ساطعة واضحة فكفروا بها وجحدوا بعد أن سألوها فأهلكهم الله ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ أي وما نرسل بالآيات الكونية كالزلازل والرعذ والحسوف والكسوف إلا تخويفاً للعباد

(١) انظر سبب النزول المذكور سابقاً .

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿١٠١﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿١٠٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لِنِ ائْخَرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠٣﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿١٠٤﴾ وَأَسْتَفْزِرُّ مِنْ

من المعاصي قال قتادة : إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلمهم يعتبرون ويرجعون^(١) ﴿١٠١﴾ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴿١٠٢﴾ أي واذكر يا محمد حين أخبرناك أن الله أحاط بالناس علماً في الماضي والحاضر والمستقبل فهو تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالهم وقد علم أنهم لن يؤمنوا ولو جتتهم بما طلبوا من الآيات والمعجزات ﴿١٠٣﴾ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴿١٠٤﴾ أي وما جعلنا الرؤية التي أريناها عياناً ليلة المعراج من عجائب الأرض والسماء إلا امتحاناً وابتلاءً لأهل مكة حيث كذبوا وكفروا وارتد بعض الناس لما أخبرهم بها قال البخاري عن ابن عباس : هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به وليست برؤيا منام^(٢) ﴿١٠٥﴾ والشجرة الملعونة في القرآن ﴿١٠٦﴾ أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن وهي شجرة الزقوم إلا فتنة أيضاً للناس قال ابن كثير : لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار ورأى شجرة الزقوم كذبوا بذلك حتى قال أبو جهل متهاكماً : هاتوا لنا تمراً وزُبْداً وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول : ترقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا^(٣) ﴿١٠٧﴾ ونحوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ﴿١٠٨﴾ أي ونحوف هؤلاء المشركين بأنواع العذاب والآيات الزاجرة فما يزيدهم تخويفنا إلا تمادياً وغياً واستمراراً على الكفر والضلال ، فماذا تنفع معهم الخوارق ؟ ما زادتهم خارقة الإسراء والمعراج ، ولا خارقة التخويف بشجرة الزقوم إلا استهزاء وإمعاناً في الضلال ، ثم أشار تعالى إلى أن هذا الطغيان سببه إغواء الشيطان ولهذا ذكر قصته عقب ذلك فقال ﴿١٠٩﴾ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ﴿١١٠﴾ أي أذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى افتخاراً على آدم واحتقاراً له ﴿١١١﴾ قال أسجد لمن خلقت طيناً ﴿١١٢﴾ استفهام إنكاري أي أسجد أنا العظيم الكبير لهذا الضعيف الحقير الذي خلقت من الطين ؟ كيف يصح للعالي أن يسجد للذاني ؟ ﴿١١٣﴾ قال أرايتك هذا الذي كرمت علي ﴿١١٤﴾ أي قال إبليس اللعين جراءة على الرب وكفراً به : أترى هذا المخلوق الذي فضلتني علي وجعلته أكرم مني عندك ؟ ﴿١١٥﴾ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذرئته إلا قليلاً ﴿١١٦﴾ أي لئن أنظرتني وأبقيتني حياً إلى يوم القيامة لأستأصلن ذرئته بالإغواء والإضلال قال الطبري : أقسم عدو الله فقال لربه : لئن أخرت إهلاكه إلى يوم القيامة لأستأصلنهم ولأستميلنهم وأصلنهم إلا قليلاً منهم^(٤) ﴿١١٧﴾ قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً ﴿١١٨﴾ أي قال الرب جلّ وعلا : اذهب فقد أنظرتك وابدل جهدك فيهم فمن أطاعك من

(١) الطبري ١٥/١٠٩ . (٢) الطبري ١٥/١١٠ . (٣) المختصر ٢/٣٨٦ .

(٤) الطبري ١٥/١١٦ والمراد بالقليل: المخلصون الذين عصمهم الله .

أَسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٠﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿١١﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ

ذرية آدم فإن جزاءك وجزاءهم نار جهنم جزاء كاملاً وافرأ لا ينقص لكم منه شيء قال القرطبي : والأمر في ﴿أذهب﴾ أمر إهانة والمعنى اجهد اجهدك فقد أنظرتك^(١) ﴿واستفز من استطعت منهم بصوتك﴾ أي استخفف واستجهل وحرّك من أردت أن تستفزه فتخذه بدعائك إلى الفساد قال ابن عباس : صوته كل داع يدعو إلى معصية الله تعالى وقال مجاهد : صوته الغناء والمزامير واللهو^(٢) ﴿وأجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾ أي صحح عليهم بأعوانك وجنودك من كل راكب وراجل قال الطبري : المعنى اجمع عليهم من ركبان جنديك ومشاتهم من يصيح عليهم بالدعاء إلى طاعتك ، والصرف عن طاعتي قال ابن عباس : خيله ورجله كل راكب وماش في معصية الله تعالى^(٣) وقال الزمخشري : الكلام وارد مورد التمثيل ، مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بفارس مغوار أوقع على قوم فصوت بهم صوتاً يستفزه عن أماكنهم ، ويقلقهم عن مراكزهم ، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم^(٤) ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ أي اجعل لنفسك شركة في أموالهم وأولادهم ، أما الأموال فبكسبها من الحرام وإنفاقها في المعاصي ، وأما الأولاد فبتحسين اختلاط الرجال بالنساء حتى يكثر الفجور ويكثر أولاد الزنى ﴿وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ أي عدّهم بالوعد المغرية الخادعة والأمانى الكاذبة ، كالوعد بشفاة الأصنام ، والوعد بالغني من المال الحرام ، والوعد بالعمو والمغفرة وسعة رحمة الله ، والوعد باللذة والسرور في ارتكاب الموبقات كقول الشاعر :

خذوا بنصيب من سرور ولذة فكل وإن طال المدى يتصرم

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ أي إن عبادي المخلصين ليس لك عليهم تسلط بالإغواء لأنهم في حفظي وأماني ﴿وكفى بربك وكيلًا﴾ أي كفى بالله تعالى عاصماً وحافظاً لهم من كيدك وشرك ، ثم ذكّر تعالى العباد بإحسانه ونعمه عليهم وبآثار قدرته ووحدانيته فقال ﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله﴾ أي ربكم أيها الناس هو الذي يسير لكم السفن في البحر لتطلبوا من رزقه في أسفاركم وتجارركم ﴿إنه كان بكم رحيمًا﴾ أي هو تعالى رحيم بالعباد ولهذا سهل لهم أسباب ذلك ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾ أي وإذا أصابكم الشدة والكرب في البحر وخشيتم من الغرق ذهب

(١) القرطبي ٢٨٨/١٠ . (٢) القرطبي ٢٨٨/١٠ . (٣) الطبري ١١٨/١٥ . (٤) الكشاف ٦٧٨/٢ . ويقول سيد قطب في الظلال : « إنه تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة ، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول ، فهي المعركة الصاخبة تُستخدم فيها الأصوات والحيل والرجال على طريقة المعارك والمبارزات ، يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، أو يستدرجهم للفتح المنصوب والمكيدة المدبّرة ، فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الحيل ، وأحاطت بهم الرجال » الظلال ٥١/١٥ .

إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كُفُورًا ﴿١٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿١٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَ كُفْرَ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿١٩﴾

عن خاطركم من كنتم تعبدونه من الآلهة ولم تجدوا غير الله مغنياً يغيثكم ، فالإنسان في تلك الحالة لا يتضرع إلى الصنم والوثن ، والمَلَكُ والفَلَكُ وإنما يتضرع إلى الله تعالى ﴿ فلما نجاكم إلى البرِّ أعرضتم ﴾ أي فلما نجاكم من الغرق وأخرجكم إلى البرِّ أعرضتم عن الإيمان والإخلاص ﴿ وكان الإنسان كفوراً ﴾ أي ومن طبيعة الإنسان جحود نعم الرحمن ، ثم خوفهم تعالى بقدرته العظيمة فقال ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البرِّ ﴾ أي أفأمنتم أيها الناس حين نجوتهم من الغرق في البحر أن يخسف الله بكم الأرض فيخفيكم في باطنها ؟ إنكم في قبضة الله في كل لحظة فكيف تأمنون بطش الله وانتقامه بزلزالٍ أو رجفةٍ أو بركان ؟ ﴿ أو يرسل عليكم حاصباً ﴾ أي يمطركم بحجارة من السماء تقتلكم كما فعل بقوم لوط ﴿ ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ﴾ أي لا تجدوا من يقوم بأموركم ويحفظكم من عذابه تعالى ﴿ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ﴾ أي يعيدكم في البحر مرةً أخرى ﴿ فيرسل عليكم قاصفاً من الريح ﴾ أي يرسل عليكم وأنتم في البحر ريحاً شديدة مدمرة ، لا تمرُّ بشيءٍ إلا كسرته ودمرتة ﴿ فيغرقكم بما كفرتم ﴾ أي يغرقكم بسبب كفركم ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ أي لا تجدوا من يأخذ لكم بالثأر منا أو يطالبنا بتبعة إغراقكم .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبدیع ما يلي :

١ - الاستفهام الإنكاري ﴿ أنذا كنا عظاماً ﴾ وتكرير الهمزة في ﴿ أننا لمبعوثون ﴾ لتأكيد النكير وكذلك تأكيده بإن واللام للإشارة إلى قوة الإنكار .

٢ - التعجيز والإهانة في الأمر ﴿ قل كونوا حجارةً أو حديداً ﴾ .

٣ - الطباق بين ﴿ يرحمكم ﴾ . . . و﴿ يعذبكم ﴾ وبين لفظ ﴿ البر . . . والبحر ﴾ .

٤ - الإيجاز بالحذف ﴿ ولا تحويلاً ﴾ أي ولا تحويل الضر عنكم حذف للدلالة ما سبق .

٥ - المقابلة اللطيفة بين الجملتين ﴿ يرجون رحمته ﴾ ، ﴿ ويخافون عذابه ﴾ .

٦ - الإسناد المجازي ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات ﴾ المنع محالٌ في حقه تعالى لأن الله لا يمنعه عن إرادته شيء فالمنع مجاز عن الترك أي ما كان سبب ترك إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين .

٧ - المجاز العقلي ﴿ الناقة مبصرة ﴾ لما كانت الناقة سبباً في إبصار الحق والهدى نسب إليها الإبصار

ففيه مجاز عقلي علاقته السببية .

٨ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ﴾ مُثِّلَتْ حال الشيطان في تسلطه على من يغويه بالفارس الذي يصيح بجنده للهجوم على الأعداء لاستئصالهم .

٩ - التذييل ﴿إِنَّهُ كَانَ بَكُمْ رَحِيماً﴾ لأنه كالتعليل لما سبق من تسيير السفن وتسخيرها في البحر .

تَبْيِيهُ : الغالب في لفظ ﴿الرؤيا﴾ أن تكون منامية وإذا كانت بالعين يقال ﴿رؤية﴾ بالياء ، وقوله تعالى ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ جاءت على غير الغالب لأن المراد بها الرؤية البصرية التي رآها رسول الله ﷺ في الإسراء والمعراج وقد تقدم قول ابن عباس : «هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به» ولو كانت رؤيا منام لما كانت فتنة للناس ولما ارتد بعضهم عن الاسلام .

قال الله تعالى : ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر . . . إلى . . . فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ من آية (٧٠) إلى نهاية آية (٨٩) .

المناسكة : لما ذكر تعالى ما امتنَّ به على الناس من تسيير السفن في البحر ، ومن تنجيتهم من الغرق ، تمَّ ذكر المنَّة بما أنعم به على النوع الإنساني من تكريمهم ، ورزقهم ، وتفضيلهم على سائر المخلوقات ، ثم ذكر أحوال الناس ودرجاتهم في الآخرة ، ثم حذر الرسول ﷺ من اتباع أهواء المشركين .

اللغز : ﴿بإمامهم﴾ الإمام في اللغة : كل من يأتي به غيره سواء كان على هدى أو ضلال ويطلق الإمام على كتاب الأعمال لأن الإنسان يكون تابعاً لكتاب أعماله يقوده إلى الجنة أو النار ﴿فتيلاً﴾ الفتيل : القشرة التي في شق النواة ويضرب مثلاً للشيء الحقيق التافه ومثله القطمير والنقير ﴿تركن﴾ تميل ﴿ليستفزونك﴾ الاستفزاز : الإزعاج بسبب من الأسباب للحمل على الخروج من الوطن وغيره ﴿وتحويلاً﴾ تغييراً وتبديلاً ﴿للدلوك﴾ الدلوك : الغروب يقال دلكت الشمس أي غابت قال أبو عبيد وابن قتيبة : الدلوك الغروب وأنشد لذي الرمة :

مصاييحُ ليستُ باللواتي تقودها نجومٌ ولا بالآفلاتِ الدوَالِكِ

وقال الأزهري : أصل الدلوك الميل يقال : مالت الشمس للزوال ، ومالت للغروب ﴿غَسَقٌ﴾ غَسَقُ الليل : سواده وظلمته يقال : غسق الليل إذا اشتدت ظلمته ﴿فتهجد﴾ التهجد : صلاة الليل بعد الاستيقاظ من النوم ، والهجودُ : النوم ، قال الشاعر :

أَلَا طَرَقْتَنَا وَالرِّفَاقُ هُجُودٌ فَبَاتَتْ بَعَلَاتِ النَّوَالِ تَجُودٌ ﴿١﴾
 ﴿زهق﴾ زال وبطل ﴿نأى﴾ تباعد والنأي : البعد ﴿ظهيراً﴾ مُعِيناً وَنَصِيراً .

سَبَبُ النُّزُولِ : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ! فقالوا : سلوه عن الروح فأنزل الله ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي . . ﴾ ﴿٢﴾ الآية .

* وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٥٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ رَيْمِيْنِهِ فَأُوْلَئِكَ يَتْلَوْنَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٥١﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٥٢﴾ وَإِنْ كَادُوا

التفسير : ﴿ولقد كرّمنا بني آدم﴾ أي لقد شرفنا ذرية آدم على جميع المخلوقات بالعقل ، والعلم ، والنطق ، وتسخير جميع ما في الكون لهم ﴿وحملناهم في البرّ والبحر﴾ أي وحملناهم على ظهور الدواب والسفن ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي من لذيذ المطاعم والمشارب قال مقاتل : السمن والعسل والزبد والتمر والحلوى وجعلنا رزق الحيوان التبن والعظام وغيرها ﴿وفضّلناهم على كثيرٍ ممّن خلقنا تفضيلاً﴾ أي وفضّلناهم على جميع من خلقنا من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات من الجن والبهائم والدواب والوحش والطيور وغير ذلك ﴿يوم ندعو كلّ أناسٍ بإمامهم﴾ أي اذكر يوم الحشر حين ننادي كل إنسان بكتاب عمله ليسلم له وينال جزاءه ، والإمام الكتاب الذي سجل فيه عمل الإنسان ويقوّيه ﴿وكلّ شيءٍ أحصيناه في إمامٍ مبين﴾ قال ابن عباس : الإمام ما عمل وأملي فكتب عليه ، فمن بعث متقياً لله جعل كتابه بيمينه فقراه واستبشر ﴿٣﴾ ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه﴾ أي فمن أعطى كتاب عمله بيمينه وهم السعداء أولو البصائر والنهي المتقون لله ﴿فأولئك يقرءون كتابهم﴾ أي يقرءون حسناتهم بفرح واستبشار لأنهم أخذوا كتبهم بأيمانهم ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ أي ولا يُنقصون من أجور أعمالهم شيئاً ولو كان بمقدار الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة ﴿ومن كان في هذه أعمى﴾ أي ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب ، لا يهتدي إلى الحق ولا إلى الخير ﴿فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً﴾ أي فهو في الآخرة أشدّ عمى وأشدّ ضلالاً ﴿٤﴾ عن طريق السعادة والنجاة قال قتادة : من كان في هذه الدنيا أعمى عمّاً عاين من نعم الله وخلقه

(١) القرطبي ٣٠٨/١٠ . (٢) أسباب النزول للواحدي ص ١٦٨ . (٣) الطبري ١٥/١٢٦ وهذا ما رجحه ابن كثير وقيل : إمام هدى أو إمام ضلالة وقيل : نبيهم . (٤) هذا كله من عمى القلب وقيل المراد أنه يحشر يوم القيامة أعمى البصر لقوله تعالى ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً . . ﴾ الآية .

لِيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ، وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٦﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كَدَتَّ
 تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٧﴾ إِذَا لَأَذْنُوكَ ضِعْفَ الْحَبِيزَةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٨﴾
 وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٩﴾ سُنَّةً مِنْ قَدْ
 أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴿٨٠﴾ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٨١﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ

وعجائبه ، فهو فيما يغيب عنه من أمر الآخرة أشد عمى وأضلُّ طريقاً ﴿٧٦﴾ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي
 أوحينا إليك ﴿٧٧﴾ أي وإن كان الحال والشأن أن المشركين قاربوا أن يصرفوك عن الذي أوحينا إليك يا محمد
 من بعض الأوامر والنواهي ﴿٧٨﴾ لتفتري علينا غيره ﴿٧٩﴾ أي لتأتي بغير ما أوحاه الله إليك وتخالف تعاليمه ﴿٨٠﴾ وإذا
 لا تأخذوك خليلاً ﴿٨١﴾ أي لو فعلت ما أرادوا لا تأخذوك صاحباً وصديقاً قال المفسرون : حاول المشركون
 محاولات كثيرة ليثنوا رسول الله ﷺ عن المضي في دعوته منها : مساومتهم له أن يعبدوا إلهه مقابل أن يترك
 التنديد بألھتهم وما كان عليه أبائهم ، ومنها مساومة بعضهم أن يجعل أرضهم حراماً كالبيت العتيق الذي
 حرّمه الله ، ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس الفقراء ، فعصمه الله من شرهم
 وأخبر أنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره ﴿٨١﴾ ﴿٧٦﴾ ولولا أن ثبتناك ﴿٧٧﴾ أي لولا أن ثبتناك
 على الحق بعصمتنا إياك ﴿٧٨﴾ لقد كدت تتركن إليهم شيئاً قليلاً ﴿٧٩﴾ أي كدت تميل إليهم وتسايرهم على ما طلبوا
 ﴿٨٠﴾ إذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ﴿٨١﴾ أي لو ركنت إليهم لضاعفنا لك عذاب الدنيا وعذاب
 الآخرة ، لأن الذنب من العظيم جرمٌ كبير يستحق مضاعفة العذاب ، والغرض من الآية بيان فضل الله
 على الرسول في تثبيته على الحق ، وعصمته من الفتنة ، ولو تخلى عن عصمته لمال إليهم بعض الشيء
 و ﴿٧٦﴾ لولا ﴿٧٧﴾ حرف امتناع لوجود أي امتنع الركون إليهم لعصمته تعالى وتثبيته له ، فليس في الآية ما ينقص
 من قدر الرسول ﷺ وإنما هي بيان لفضل الله العظيم على نبيه الكريم ﴿٧٨﴾ ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴿٧٩﴾ أي لا
 تجد من ينصرك منا أو يدفع عنك عذابنا ﴿٨٠﴾ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴿٨١﴾ أي وإن كاد
 المشركون بمكرهم وإزعاجهم أن يخرجوك يا محمد من أرض مكة ﴿٨٢﴾ وإذا لا يلبثون خلافاً إلا قليلاً ﴿٨٣﴾ أي لو
 أخرجوك لم يلبثوا بعد خروجك إلا زمناً يسيراً وفق سنة الله التي لا تتبدل مع الذين يخرجون رسلكم من
 أوطانهم قال قتادة : هم أهل مكة بإخراج النبي ﷺ من مكة ولو فعلوا ذلك ما أمهلوا ولكن الله تعالى
 منعهم من إخراجه حتى أمره بالخروج ﴿٨٤﴾ ﴿٨٥﴾ سُنَّةً مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴿٨٦﴾ أي هذه عادة الله مع رسلكم
 في إهلاك كل أمة أخرجت رسولها من بين أظهرهم ﴿٨٧﴾ ولا تجد لسنننا تحويلاً ﴿٨٨﴾ أي لن تجد لها تبديلاً أو تغييراً
 ﴿٨٩﴾ أقم الصلاة لذلوك الشمس إلى غسق الليل ﴿٩٠﴾ أي حافظ يا محمد على الصلاة في أوقاتها من وقت زوال

(١) قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ معصوماً ، ولكن هذا تعريف للامة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى

الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿١٨٠﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحْهُ بِهِنَّ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿١٨١﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿١٨٢﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿١٨٣﴾ وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ

الشمس عند الظهيرة إلى وقت ظلمة الليل ﴿وقرآن الفجر﴾ أي وأقم صلاة الفجر ، وإنما عبر عنها بقرآن الفجر لأنه تطلب إطالة القراءة فيها ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ أي تشهده ملائكة الليل والنهار كما في الحديث (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة العصر ، وصلاة الفجر . .) الحديث، قال المفسرون : في الآية الكريمة إشارة إلى الصلوات المفروضة ، فدلوك الشمس زوالها وهو إشارة إلى الظهر والعصر ، وغسق الليل ظلمته وهو إشارة إلى المغرب والعشاء ، وقرآن الفجر صلاة الفجر ، فالآية رمزٌ إلى الصلوات الخمس^(١) ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ أي وقم من الليل بعد النوم متهجداً بالقرآن فضيلةً وتطوعاً لك ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ أي لعل ربك يا محمد يقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الأولون والآخرون وهو مقام « الشفاعة العظمى » قال المفسرون : ﴿عسى﴾ في كلام الله للتحقيق لأنه وعد كريم وهو لا يتخلف ولهذا قال ابن عباس : عسى من الله واجبة أي تنفيذ القطع ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق﴾ أي قل يا رب أدخلني قبري مدخل صدق أي إدخالاً حسناً ﴿وأخرجني مخرج صدق﴾ أي أخرجني من قبري عند البعث إخراجاً حسناً هذا قول ابن عباس ، وقال الحسن والضحاك : المراد دخوله المدينة المنورة ، وخروجه من مكة المكرمة وذلك حين أخرجه المشركون بعد أن تأمروا على قتله صلوات الله وسلامه عليه^(٢) ﴿واجعل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً﴾ أي اجعل لي من عندك قوةً ومنعةً تنصرنني بها على أعدائك وتُعزُّبها دينك ، وقد استجاب الله دعاءه فنصره على الأعداء ، وأعلا دينه على سائر الأديان ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾ أي سطع نور الحق وضياؤه وهو الإسلام ، وزهق الباطل وأنصاره وهو الكفر وعبادة الأصنام ، فلا شرك ولا وثنية بعد إشراق نور الإيمان ﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ أي إن الباطل لا بقاء له ولا ثبوت لأنه يضمحل ويتلاشى ، وإن كانت له صولةً وجولة فسرعان ما تزول كشمعة الهشيم ترتفع عالياً ثم تجبوسريعاً ، روي أن النبي ﷺ لما دخل مكة عام الفتح كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعورده في يده ويقول : ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ فما بقي منها صنمٌ إلا خرَّ لوجهه ثم أمر بها فكسرت^(٣) ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين﴾ أي وننزل من آيات القرآن العظيم ما يشفي القلوب من أمراض الجهل والضلال ، ويذهب صدأ النفس من الهوى والدنس ، والشح والحسد ، وما هو رحمة للمؤمنين بما فيه من الإيمان

(١) قال القرطبي : وهذه الآية إشارة إلى الصلوات المفروضة بإجماع من المفسرين .

(٢) اختار هذا القول الطبري وهو المشهور ، والمعنى الأول أظهر لأنه سبقه لفظ البعث والغرض الدعاء بالموت على الإيمان والبعث على الإيمان.

(٣) التفسير الكبير للرازي ٢١/٢٣ وأصل الحديث أخرجه البخاري .

وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٧﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِنَجَابِهِ ۗ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٨﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ۗ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٩﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٩٥﴾ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٩٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ۗ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٩٧﴾ قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ۗ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا

والحكمة والخير المبين ﴿ولا يزيد الظالمين إلا خسار﴾ أي ولا يزيد هذا القرآن الكافرين به عند سماعه إلا هلاكاً ودماراً لأنهم لا يصدقون به فيزدادون كفراً وضلالاً ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونسى بجانبه﴾ أي وإذا أنعمنا على الإنسان بأنواع النعم من صحة ، وأمن ، وغنى أعرض عن طاعة الله وعبادته ، وابتعد عن ربه غروراً وكبراً ﴿وإذا مسه الشر كان يئوساً﴾ أي وإذا أصابته الشدائد والمصائب أصبح يائساً قانطاً من رحمة الله ، والآية تمثيل لطغيان الإنسان فإن أصابته النعمة بطر وتكبر ، وإن أصابته الشدة أيس وقنط كقوله ﴿إن الإنسان خلق هلوياً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً﴾ ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ أي كل واحد يعمل على نهجه وطريقته في الهدى والضلال ، فإن كانت نفس الإنسان مشرقة صافية صدرت عنه أفعال كريمة فاضلة ، وإن كانت نفسه فاجرة كافرة صدرت عنه أفعال سيئة شريرة ﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ أي ربكم أعلم بمن اهتدى إلى طريق الصواب وبمن ضل عنه وسيجزي كل عامل بعمله ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمري ربي﴾ أي يسألك يا محمد الكفار عن الروح ما هي ؟ وما حقيقتها ؟ فقل لهم إنها من الأسرار الخفية التي لا يعلمها إلا رب البرية ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ أي وما أوتيتم أيها الناس من العلم إلا شيئاً قليلاً لأن علمكم قليل بالنظر إلى علم الله ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾ أي لو أردنا لمحوها هذا القرآن الذي هو ميثه الرحمن من صدرك يا محمد فإن ذلك في قدرتنا ﴿ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً﴾ أي لا تجد من يتوكل علينا باسترداده ، وردّه إليك بعد ذهابه ﴿إلا رحمة من ربك﴾ أي لكن رحمة من ربك تركناه محفوظاً في صدرك وصدرك أصحابك ﴿إن فضله كان عليك كبيراً﴾ أي فضل الله عليك عظيم حيث أنزل عليك القرآن ، وأعطاك المقام المحمود ، وجعلك خاتم المرسلين وسيد الأولين والآخرين ، والمقصود بالآية الامتنان على الرسول بالقرآن والتحذير له عن التفريط فيه ، والخطاب له عليه السلام والمراد أمته ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ أي لو اتفق واجتمع أرباب الفصاحة والبيان من الإنس والجان وأرادوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن لما أطاقوا ذلك ولو تعاونوا وتساعدوا على ذلك جميعاً فإن هذا أمر لا يستطيع وليس بمقدور أحد ﴿ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة ، ووضحنا لهم الحق بالآيات والعيبر ، والترغيب

الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٧٤﴾

والترهيب ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ أي ومع البراهين القائمة والحجج الواضحة أبى أكثر الناس إلا جحوداً للحق وتكديباً لله ورسوله .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

- ١ - الاستعارة ﴿كل أناسٍ بآمهم﴾ الإمام الذي يتقدم الناس في الصلاة وقد استعير هنا لكتاب الأعمال لأنه يرافق الإنسان ويتقدمه يوم القيامة .
- ٢ - الاستعارة التمثيلية ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ يضرب مثلاً للقلة أي لا ينقصون من ثواب أجورهم ولا بمقدار الخيط الذي في شق النواة .
- ٣ - الطباق ﴿ضعف الحياة وضعف الممات﴾ .
- ٤ - المجاز المرسل ﴿وقرآن الفجر﴾ أطلق الجزء على الكل أي قراءة الفجر والمراد بها الصلاة لأن القراءة جزء منها فالعلاقة الجزئية .
- ٥ - الإظهار في مقام الإضمار لمزيد الاهتمام والعناية ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ بعد قوله ﴿وقرآن الفجر﴾ .
- ٦ - التفصيل بعد الإجمال ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه . . ومن كان في هذه أعمى﴾ بعد ذكر كتاب الأعمال .
- ٧ - المقابلة اللطيفة بين ﴿أدخلني مدخل صدق﴾ و﴿وأخرجني مخرج صدق﴾ وبين ﴿جاء الحق﴾ و﴿وزهق الباطل﴾ .
- ٨ - إسناد الخير إلى الله والشر لغيره ﴿أنعمنا على الإنسان . . وإذا مسه الشر﴾ لتعليم الأدب مع الله تعالى .

لطيفة : ذكر أن عالماً ممن ينكر المجاز والاستعارة في القرآن الكريم جاء إلى شيخٍ فاضل عالم منكرًا عليه دعوى المجاز - وكان ذلك السائل المنكر أعمى - فقال له الشيخ ما تقول في قوله تعالى ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾ هل المراد بالعمى الحقيقة وهو عمى البصر ، أم المراد به المجاز وهو عمى البصيرة ؟ فبهت السائل وانقطعت حجته .

قال الله تعالى : ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . . . إلى . . . ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً﴾ من آية (٩٠) إلى آية (١١١) نهاية السورة الكريمة

المناسبة : لما ذكر تعالى القرآن وما فيه من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة على صدق النبي الأمي ، وتحداهم فظهر عجزهم بوضوح إعجازه ، ذكر هنا نماذج عن تعنت الكفار وضلالهم باقتراح خوارق مادية غير القرآن العظيم ، ثم ذكر قصة موسى وتكذيب فرعون له مع كثرة الخوارق والمعجزات التي ظهرت على يديه تسلياً لرسول الله ﷺ عن تكذيب المشركين ، ثم ختم السورة الكريمة بدلائل القدرة والوحدانية .

اللفظة : ﴿كِسْفًا﴾ قطعاً جمع كِسْفَةٍ كدمية ودمن يقال : كسفت الثوب أكسفته كسفاً إذا قطعته قطعاً قال الفراء : سمعت أعرابياً يقول للبرزاز أعطني كِسْفَةً يريد قطعة^(١) ﴿قبيلًا﴾ معاينة ﴿ترقى﴾ تصعد ﴿خبثت﴾ خبت النار : سكن لها ، وخمدت : سكن جمرها ، وهمدت : طفئت جملة^(٢) ﴿قتورًا﴾ بخيلاً ﴿مشبورًا﴾ الشبور : الهلاك يقال : ثبر الله العدو أهلكه ﴿لفيفًا﴾ اللفيف : الجمع من القوم من أخلاط شتى قال الجوهري : اللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى يقال : جاء القوم بلففهم ولفيفهم ﴿مكث﴾ المكث : التطاول في المدة يقال مكث إذا أطال الإقامة ﴿تحافت﴾ خافت في الكلام أسره بحيث لا يكاد يسمع أحد ﴿الأذقان﴾ جمع ذقن وهو مجتمع اللحيين قال الشاعر :

فخروا لأذقان الوجوه تنوشهم
سباع من الطير العوادي وتنتف

سبب النزول : أ - عن ابن عباس أن رؤساء قريش اجتمعوا عند الكعبة فقالوا : ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه إن أشرف قومك قد اجتمعوا ليكلّموك فجاءهم سريعاً - وكان حريصاً على رُشدهم - فقالوا يا محمد : إنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفّهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فإن كنت إنما جئت بهذا لتطلب مالاً جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك ربيّاً - أي تابعاً من الجن - بذلنا أموالنا في طلب الطيب حتى نبرئك منه أو نُعذرك فيك ، فقال رسول الله ﷺ : ما بي ما تقولون ، ما جئكم أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً فإن تقبلوا مني ما جئكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ، فقالوا يا محمد إن كنت غير قابل منا ما عرضنا فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيّق بلاداً ، ولا أشدّ عيشاً منا ، فسل ربك يُسير لنا هذه الجبال ، ويجري لنا أنهاراً ، ويبعث من مضي من آبائنا حتى نسألهم أحقّ ما تقول ؟ وسله أن يجعل لك جناحاً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة تغنيك عنا فأنزل الله ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . . .﴾^(٣) الآية .

(١) التفسير الكبير للرازي ٥٦/٢١ . (٢) البحر ٦٨/٦ . (٣) زاد المسير ٨٥/٥ .

ب - عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ مخفياً بمكة ، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ، ومن أنزله ومن جاء به ، فقال الله عز وجل لنبيه ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾ (١١) .

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩١﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩٢﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِنَا اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا ﴿٩٣﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا نَقْرًا نَّقُرُّهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزَلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٦﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا

التفسير : ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ لما تبين إعجاز القرآن ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعللون باقتراح الآيات والخوارق والمعنى قال المشركون لن نصدقك يا محمد حتى تشقق لنا من أرض مكة عيناً غزيرة لا ينقطع منها الماء ﴿أو تكون لك جنة من نخيل وعنب﴾ أي يكون لك بستان فيه أنواع النخيل والأعناب ﴿فتفجر الأنهار خلالها تَفْجِيرًا﴾ أي تجعل الأنهار تتفجر فيها وتسير وسطها بقوة وغازاة ﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا﴾ هذا هو الاقتراح الثالث أي تجعل السماء تتساقط علينا قطعاً قطعاً كما كنت تخوفنا وترعم أن الله سيعذبنا إن لم نؤمن بك قال المفسرون : أشاروا إلى قوله تعالى ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾ أي تحضر لنا الله وملائكته مقابلةً وعياناً فنراهم ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ أي يكون لك قصرٌ مشيدٌ عظيم من ذهبٍ لا من حجرٍ أو طينٍ ﴿أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾ هذا هو الاقتراح السادس والأخير ، وكلها تدل على سفه وجهل كبير ، بسنة الله في خلقه وبحكمته وجلاله أي أو تصعد يا محمد إلى السماء بسلمٍ ولن نصدقك لمجرد صعودك حتى تعود ومعك كتاب من الله تعالى منشور أنك عبده ورسوله نقرؤه بأنفسنا ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ أي قل لهم يا محمد تعجباً من فرط كفرهم وعنادهم : سبحان الله هل أنا إله حتى تطلبوا مني أمثال هذه المقترحات ؟ ما أنا إلا رسولٌ من البشر بعثني الله إليكم فلم هذا الجحود والعناد ؟ ! ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً﴾ ؟ أي إن السبب الذي منع المشركين من الإيمان بعد وضوح المعجزات هو استبعاد أن يبعث الله رسولاً إلى الخلق من البشر ، فلماذا يكون بشراً ولا يكون ملكاً ؟ وقد ردّ تعالى عليهم بقوله ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين﴾ أي قل لهم يا

بَنِي وَيَبْنِكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ﴿١٧٧﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبِهِدِّ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ
 أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَمِيَآ وَبُكْمًا ۖ وَصَمَا مَاوَلَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتْ زِدْنَهُمْ
 سَعِيرًا ﴿١٧٨﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٧٩﴾
 * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّارِيبَ فِيهِ

محمد : لو كان أهل الأرض ملائكة يمشون على أقدامهم كما يمشي الناس ساكنين في الأرض مستقرين فيها ﴿لَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ أي لنزلنا عليهم رسولاً من الملائكة ولكن أهل الأرض بشرٌ فالرسول إليهم بشرٌ من جنسهم ، إذ جرت حكمة الله أن يرسل إلى كل قوم رسولاً من جنسهم ليمكنهم الفهم عنه ومخاطبته ، وهذا تسفيهٌ وتجهيل لمنطق المشركين ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ أي كفى الله شاهداً على صدقي ﴿إنه كان بعبادو خبيراً بصيراً﴾ أي هو تعالى العالم بأحوال العباد وسيجازيهم عليها ﴿ومن يهد الله فهو المهتد﴾ أي من يهده الله إلى الحق فهو السعيد الرشيد ﴿ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه﴾ أي ومن يضلله الله عن الحق بسبب سوء اختياره فلن تجد لهم أنصاراً يعصمونهم من عذاب الله ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم﴾ أي يسحبون يوم القيامة على وجوههم تجرهم الزبانية من أرجلهم إلى جهنم كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه ﴿عمياً وبكماً وصماً﴾ أي يُحشرون حال كونهم عمياً وبكماً وصماً يعني فاقد الحواس لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون ثم يرد الله إليهم أسماهم وأبصارهم ونطقهم فيرون النار ويسمعون زفيرها وينطقون بما حكى الله عنهم ، عن أنس قيل يا رسول الله : كيف يُحشر الناس على وجوههم ؟ قال : الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ^(١) ﴿ماواهم جهنم كَمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي مستقرهم ومقامهم في جهنم كلما سكن لهاها وخذت نارها زدناهم ناراً ملتتهبه ووهجاً وجمراً ^(٢) ﴿ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أنذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي ذلك العذاب جزاء كفرهم بآيات الله وتكذيبهم بالبعث والنشور وقولهم أنذا أصبحنا عظاماً نخرة، وذرات متفتتة سنخلق ونبعث مرة ثانية؟ وقد ردَّ تعالى عليهم بقوله ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادرٌ على أن يخلق مثلهم﴾ أي أولم يروا أن الله العظيم الجليل الذي خلق هذا الكون الهائل بسمواته وأرضه قادرٌ على إعادة جسد الإنسان بعد فئاته؟ فإن القادر على الإحياء قادر على الإعادة بطريق الأحرى قال في البحر: نبههم تعالى على عظيم قدرته وباهر حكيمته بقوله ﴿أولم يروا﴾ وهو استفهام إنكارٍ وتوبيخ على استبعادهم الإعادة، واحتجاجٌ عليهم بأنهم قد رأوا قدرة الله على خلق هذه الأجرام العظيمة التي بعض ما تحويه البشر، فكيف يقرون بخلق هذا المخلوق العظيم

(١) أخرجه الشيخان . (٢) قال في التسهيل : المراد كلما أكلت لحومهم فسكن لهاها بدلوا أجساداً أخر ، ثم صارت ملتتهبه أكثر مما كانت .

فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٩﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ
 الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَعَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ
 إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴿٢١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلْ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ
 وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿٢٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْزِمَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿٢٣﴾ وَقُلْنَا
 مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿٢٤﴾ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ
 ثُمَّ يَنْكُرُونَ إِعَادَتَهُ (١) ﴿وَجَعَلْ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَي جَعَلَ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مَوْعِدًا مُحَدَّدًا لِمَوْتِهِمْ
 وَبِعَيْتِهِمْ ، لَا شَكَّ وَلَا رَيْبَ فِي جِيئِهِ ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أَي أَبَى هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ الظَّالِمُونَ - مَعَ
 وَضُوحِ الْحَقِّ وَسَطْوَعِهِ - إِلَّا جُحُودًا وَتَمَادِيًا فِي الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ أَي
 قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمُعَانِدِينَ الْمَكَابِرِينَ ، الْمُقْتَرِحِينَ لِلخَوَارِقِ وَالْمُعْجَزَاتِ : لَوْ كُنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رِزْقِ
 اللَّهِ وَنِعَمِهِ الَّتِي أَفَاضَهَا عَلَى الْعِبَادِ ﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ أَي إِذَا لَبَخَلْتُمْ بِهِ وَامْتَنَعْتُمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ
 خَوْفًا مِنْ نَفَادِهَا ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أَي وَكَانَ الْإِنْسَانُ شَحِيحًا مَبَالِغًا فِي الْبَخْلِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ :
 ﴿قَتُورًا﴾ أَي بِخِيلًا مَنُوعًا وَقَالَ الزَّمخَشَرِيُّ : وَلَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْوَصْفَ بِالشُّحِّ الْغَايَةَ الَّتِي لَا يَبْلُغُهَا الْوَهْمُ (٢) ،
 ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ كَثْرَةَ الْخَوَارِقِ لَا تُنْشِئُ الْإِيمَانَ فِي الْقُلُوبِ الْجَاهِدَةِ ، وَهِيَ هُوَذَا مُوسَى قَدْ أُوتِيَ تِسْعَ آيَاتٍ
 بَيِّنَاتٍ ثُمَّ كَذَّبَ بِهَا فِرْعَوْنُ وَمَلَأَهُ فَحْلٌ بِهِمُ الْهَلَاكُ جَمِيعًا ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أَي وَاللَّهِ لَقَدْ
 أَعْطَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ وَاضِحَاتِ الدَّلَالَةِ عَلَى نُبُوته وَصَحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَهِيَ « الْعَصَا ، وَالْيَدِ ،
 وَالطُّوفَانِ ، وَالْجُرَادِ ، وَالْقُمَّلِ ، وَالضَّفَادِعُ ، وَالْدَمُّ ، وَانْفِلاقِ الْبَحْرِ ، وَالسِّنِينَ » خَمْسٌ مِنْهَا فِي سُورَةِ
 الْأَعْرَافِ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ وَبِالْبَاقِي مُتَفَرِّقَاتٍ
 ﴿فَأَسْأَلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ أَي فَاسْأَلْ يَا مُحَمَّدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَمَّا جَرَى بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ فَإِنَّهُمْ
 يَعْلَمُونَهَا مِمَّا لَدَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ قَالَ الرَّازِيُّ : وَليْسَ الْمَطْلُوبُ مِنْ سؤَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَسْتَفِيدَ هَذَا الْعِلْمَ
 مِنْهُمْ بَلِ الْمَقْصُودُ أَنْ يَظْهَرَ لِعَامَّةِ الْيَهُودِ وَعُلَمَائِهِمْ صِدْقُ مَا ذَكَرَهُ الرَّسُولُ فَيَكُونُ هَذَا السُّؤَالُ سؤَالِ
 اسْتِشْهَادٍ (٣) ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ أَي إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى قَدْ سُحِرْتَ فَتَخَبَّطَ
 عَقْلُكَ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلْ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ أَي قَالَ لَهُ مُوسَى تَوْبِيخًا
 وَتَبْكِيتًا : لَقَدْ تَبَيَّنَتْ يَا فِرْعَوْنُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ التَّسْعَ مَا أَنْزَلَهَا إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَاهِدَةٌ عَلَى
 صِدْقِي ، تَبَصَّرُ النَّاسُ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ وَلَكِنَّكَ مَكَابِرٌ مُعَانِدٌ ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أَي
 وَإِنِّي لَأَعْتَقِدُكَ يَا فِرْعَوْنَ هَالِكًا خَاسِرًا ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْزِمَهُ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أَي أَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَخْرِجَ مُوسَى
 وَقَوْمَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ أَي فَأَغْرَقْنَا فِرْعَوْنَ وَجُنْدَهُ أَجْمَعِينَ فِي الْبَحْرِ ﴿وَقُلْنَا مِنْ

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٦﴾
 قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحٰنَ
 رَبِّنَا ۚ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا
 الرَّحْمٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿٢٠﴾

بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض ﴿١٥﴾ أي وقلنا لبني إسرائيل من بعد إغراق فرعون وجنده اسكنوا أرض مصر ﴿١٦﴾ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيقاً ﴿١٧﴾ أي فإذا جاء يوم القيامة جئنا بكم من قبوركم إلى المحشر مختلطين فيكم المؤمن والكافر ، والبرُّ والفاجر ، ثم نفصل بينكم ونمیز السعداء من الأشقياء ، ثم عاد إلى تعظيم حال القرآن وجلالة قدره فقال ﴿وبالحق أنزلناه وبحق نزل﴾ أي وأنزلنا هذا القرآن متلبساً بالحق ، لا يعتريه شك أو ريب ، فيه الحكم والمواعظ والأمثال التي اشتمل عليها القرآن وهكذا أنزل من عند الله ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾ أي وما أرسلناك يا محمد إلا مبشراً بالجنة لمن أطاع ، ومنذراً بالنار لمن عصى ﴿وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث﴾ أي وقرآنًا نزلناه مفرقاً منجماً لتقرأه على الناس على تودة ومهل ، ليكون حفظه أسهل ، والوقوف على دقائقه أيسر ﴿ونزلناه تنزيلاً﴾ أي نزلناه شيئاً بعد شيء على حسب الأحوال والمصالح ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ خطاب للمشركين الذين اقترحوا المعجزات على وجه التهديد والوعيد أي آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا فإن إيمانكم به لا يزيده كمالاً ، وتكذيبكم له لا يورثه نقصاً ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾ أي العلماء الذين قرءوا الكتب السالفة من صالحى أهل الكتاب إذا سمعوا القرآن تأثروا فخرّوا ساجدين لله رب العالمين ، والجملة تعليل لما تقدم والمعنى : إن لم تؤمنوا به أنتم فقد آمن به من هو خير منكم وأعلم ﴿ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ أي يقولون تنزه الله عن إخلاف وعده إنه كان وعده كائناً لا محالة ﴿ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾ أي ويخرون لناحية الأذقان ساجدين على وجوههم باكين عند استماع القرآن ويزيدهم تواضعاً لله قال الرازي : والفائدة في هذا التكرير اختلاف الحالين وهو خروهم للسجود وفي حال كونهم باكين عند استماع القرآن ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ أي نادوا ربكم الجليل باسم ﴿الله﴾ أو باسم ﴿الرحمن﴾ ﴿أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ أي بأي هذين الإسمين ناديتموه فهو حسن لأن أسماء جميعها حسنى وهذان منها قال المفسرون : سببها أن الكفار سمعوا النبي ﷺ يدعو (يا الله ، يا رحمن) فقالوا إن كان محمد ليأمرنا بدعاء إله واحدٍ وما هو يدعو إلهين فنزلت الآية مبينة أنها لمسمى واحد ﴿ولا تجهر بصلواتك ولا تخافت بها﴾ أي لا تجهر يا محمد بقراءتك في الصلاة فيسمعك المشركون فيسبوا القرآن ومن أنزله ولا تُسرَّ بقراءتك بحيث لا تسمع من خلفك ﴿وابتغ بين ذلك

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبْرَهُ تَكْبِيراً ﴿١١١﴾

سبيلاً ﴿ أي اقصد طريقاً وسطاً بين الجهر والمخافتة قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يرفع صوته بالقراءة فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله فنزلت ﴾ (١) ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ أي الحمد لله الذي تنزه عن الولد ﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾ أي ليس له شريك في ألوهيته ﴿ولم يكن له ولي من الذل﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى الولي والنصير ﴿وكبره تكبيراً﴾ أي عظم ربه عظمة تامة واذكره بصفات العز والجلال ، والعظمة والكمال ، ختمت السورة كما بدأت بحمد الله وتقرير وحدانيته بلا ولد ولا شريك ، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولي والنصير ، وهو العلي الكبير .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستفهام الإنكاري ﴿أبعث الله بشراً رسولا﴾ ؟ .
- ٢ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿ونحشرهم يوم القيامة﴾ اهتماماً بأمر الحشر .
- ٣ - الطباق بين ﴿من يهد .. ومن يضل﴾ وبين ﴿مبشراً .. ونذيراً﴾ وبين ﴿تجهر .. وتخافت﴾ .
- ٤ - الجناس الناقص بين ﴿محسوراً﴾ و ﴿مبوراً﴾ لتغير بعض الحروف .
- ٥ - المقابلة اللطيفة ﴿وإني لأظنك يا فرعون مبوراً﴾ مقابل قوله فرعون ﴿وإني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ .
- ٦ - السجع الرصين الذي يزيد في جمال الأسلوب مثل ﴿فتفجر الأنهار خلالها تَفْجِيراً مبشراً ونذيراً﴾ ومثل ﴿إني لأظنك يا موسى مسحوراً .. وإني لأظنك يا فرعون مبوراً﴾ .

« تم بحمده تعالى تفسير سورة الإسراء »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الكهف من السور المكية ، وهي إحدى سور خمس بُدئت بـ « الحمد لله » وهذه السور هي « الفاتحة ، الأنعام ، الكهف ، سبأ ، فاطر » وكلها تبتدىء بتمجيد الله جل وعلا وتقديسه ، والاعتراف له بالعظمة والكبرياء ، والجلال والكمال .

* تعرضت السورة الكريمة لثلاث قصص من روائع قصص القرآن ، في سبيل تقرير أهدافها الأساسية لتثبيت العقيدة ، والإيمان بعظمة ذي الجلال . . أما الأولى فهي قصة « أصحاب الكهف » وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة ، وهم الفتية المؤمنون الذين خرجوا من بلادهم فراراً بدينهم ، ولبثوا في غارٍ في الجبل ، ثم مكثوا فيه نياماً ثلاثمائة وتسع سنين ، ثم بعثهم الله بعد تلك المدة الطويلة .

* والقصة الثانية : قصة موسى مع الخضر ، وهي قصة التواضع في سبيل طلب العلم ، وما جرى من الأخبار الغيبية التي أطلع الله عليها ذلك العبد الصالح « الخضر » ولم يعرفها موسى عليه السلام حتى أعلمه بها الخضر كقصة السفينة ، وحادثة قتل الغلام ، وبناء الجدار .

* والقصة الثالثة : قصة « ذي القرنين » وهو ملك مكن الله تعالى له بالتقوى والعدل أن يبسط سلطانه على المعمورة ، وأن يملك مشارق الأرض ومغاربها ، وما كان من أمره في بناء السد العظيم .

* وكما استخدمت السورة - في سبيل هدفها - هذه القصص الثلاث ، استخدمت أمثلة واقعية ثلاثة ، لبيان أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان ، وإنما هو مرتبط بالعقيدة ، المثل الأول : للغني المزهو بماله ، والفقير المعترز بعقيدته وإيمانه ، في قصة أصحاب الجنتين . والثاني : للحياة الدنيا وما يلحقها من فناء وزوال ، والثالث : مثل التكبر والغرور مصوراً في حادثة امتناع إبليس عن السجود لأدم ، وما ناله من الطرد والحرمان ، وكل هذه القصص والأمثال بقصد العظة والاعتبار .

التسمية : سميت « سورة الكهف » لما فيها من المعجزة الربانية ، في تلك القصة العجيبة الغريبة قصة أصحاب الكهف .

قال الله تعالى : ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب . . . إلى . . . ولا يُشرك في حكمه أحداً ﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (٢٦) .

اللغز : ﴿ باخع ﴾ قاتل ومهلك قال الليث : باخع الرجل نفسه إذا قتلها غيظاً وأصل البخع الجهد كما قال الفراء ﴿ جُرْزَأَ ﴾ الجُرْزُ : الأرض التي لا نبات عليها ﴿ الكهف ﴾ النقب المتسع في الجبل وإذا لم يكن متسعاً فهو غار ﴿ الرقيم ﴾ اللوح الذي كتبت فيه أسماء أصحاب الكهف ﴿ شططاً ﴾ الشطط : الجور والغلو وتعدي الحد قال الفراء : اشتط في الأمر جاوز الحد ، وشطَّ المنزل بعدَ ﴿ تزاور ﴾ تنتحى وتميل من الأزوار بمعنى الميل قال عنتره « وأزور من وقع القنا بلبانه » ﴿ الوصيد ﴾ الفناء أي فناء الكهف ﴿ فجوة ﴾ متسع من المكان ﴿ ورقكم ﴾ الورق : اسم للفضة سواء كانت مضروبة أم لا ﴿ أعثرنا ﴾ أطلعنا ﴿ تمار ﴾ تجادل والمرء : المجادلة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكَثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

التفسير : ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ﴾ أي الشاء الكامل مع التعظيم والإجلال لله الذي أنزل على رسوله محمد القرآن نعمةً عليه وعلى سائر الخلق ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ أي لم يجعل فيه شيئاً من العوج لا في ألفاظه ولا في معانيه ، وليس فيه أي عيب أو تناقض ﴿ قيماً ﴾ أي مستقيماً لا اختلاف فيه ولا تناقض قال الطبري : هذا من المقدم والمؤخر أي أنزل الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً يعني مستقيماً لا اختلاف فيه ولا تفاوت ، ولا اعوجاج ولا ميل عن الحق ^(١) ، ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ أي لينذر بهذا القرآن الكافرين عذاباً شديداً من عنده تعالى ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ﴾ أي ويبشر المصدقين بالقرآن الذين يعملون الأعمال الصالحة ﴿ أن لهم أجراً حسناً ﴾ أي أن لهم الجنة وما فيها من النعيم المقيم ﴿ ماكثين فيه أبداً ﴾ أي مقيمين في ذلك النعيم الذي لا انتهاء له ولا انقضاء ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ أي ويخوف أولئك الكافرين الذين نسبوا لله الولد عذابه الأليم قال البيضاوي : خصهم بالذكر وكرّر الإنذار استعظاماً لكفرهم ، وإنما لم يذكر المنذر به استغناءً بتقدم ذكره ^(٢) ﴿ ما لهم به من علم ﴾ أي ما لهم بذلك الافتراء الشنيع شيء من العلم أصلاً ﴿ ولا لآبائهم ﴾ أي ولا لأسلافهم الذين قلّدوهم فتأهوا جميعاً في

فَلَعَلَّكَ بَدِخٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِن آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ

بيداء الجهالة والضلالة ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ أي عظمت تلك المقالة الشنيعة كلمة قبيحة ما أشنعها وأفظعها؟ خرجت من أفواه أولئك المجرمين ، وهي في غاية الفساد والبطلان ﴿إن يقولون إلا كذباً﴾ أي ما يقولون إلا كذباً وسفهاً وزوراً ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم﴾ أي فلعلك قاتل نفسك يا محمد ومهلكها غمًا وحزنًا على فراقهم وتوليهم وإعراضهم عن الإيمان ﴿إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا﴾ أي إن لم يؤمنوا بهذا القرآن حسرةً وأسفًا عليهم ، فما يستحق هؤلاء أن تحزن وتأسف عليهم ، والآية تسلية للنبي عليه السلام ﴿إننا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ أي جعلنا ما عليها من زخارف ورياش ومتاع وذهب وفضة وغيرها زينة للأرض كما زينا السماء بالكواكب ﴿لنبلوهم أيهم أحسن عملًا﴾ أي لنختبر الخلق أيهم أطوع لله وأحسن عملاً لآخرفته ﴿وإننا لجاعلون ما عليها صعيداً جرُزاً﴾ أي سنجعل ما عليها من الزينة والنعيم حطاماً وركاماً حتى تصبح كالأرض الجرداء التي لا نبات فيها ولا حياة بعد أن كانت خضراء بهجة قال القرطبي : الآية وردت لتسلية النبي ﷺ والمعنى : لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإننا إنما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لأهلها ، فمنهم من يتدبر ويؤمن ومنهم من يكفر ، ثم إن يوم القيامة بين أيديهم ، فلا يعظمن عليك كفرهم فإننا سنجازيهم ﴿١١﴾ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً؟ بدء قصة أصحاب الكهف ، والكهف الغار المتسع في الجبل ، والرقيم اللوح الذي كتب فيه أسماء أصحاب الكهف على المشهور والمعنى : لا تظنن يا محمد أن قصة أهل الكهف - على غرابتها - هي أعجب آيات الله ، ففي صفحات هذا الكون من العجائب والغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف قال مجاهد : أحسبت أنهم كانوا أعجب آياتنا؟ قد كان في آياتنا ما هو أعجب ﴿١٢﴾ منهم ﴿إذ أوى الفتية إلى الكهف﴾ ﴿١٣﴾ أي اذكر حين التجأ الشبان إلى الغار في الجبل وجعلوه مأواهم ﴿فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة﴾ أي أعطنا من خزائن رحمتك

(١) القرطبي ٣٥٤/١٠ . (٢) زاد المسير ١٠٨/٥ . (٣) خلاصة قصة أصحاب الكهف كما ذكرها المفسرون أن ملكاً جباراً يسمى دقيانوس ظهر على بلدٍ من بلاد الروم تدعى « طرطوس » بعد زمن عيسى عليه السلام ، وكان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ويقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته الضالة ، حتى عظمت الفتنة على أهل الإيمان ، فلما رأى الفتية ذلك حزنوا حزناً شديداً وبلغ خبرهم الملك الجبار فبعث في طلبهم فلما مثلوا عند الملك توعدهم بالقتل إن لم يعبدوا الأوثان ويذبحوا للطواغيت ، فوقفوا في وجهه وأظهروا إيمانهم وقالوا ﴿ربنا رب السموات والأرض لن ندعوك من دونه إلهاً﴾ فقال لهم : إنكم فتیان حديثة أسنانكم وقد أخرتكم إلى الغد لتروا رأيكم فهربوا ليلاً ومرّوا براع معه كلب فتبعهم فلما كان الصباح أروا إلى الكهف وتبعهم الملك وجنده فلما وصلوا إلى الكهف هاب الرجال وفرزوا من الدخول عليهم فقال الملك : سدوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً ، وألقى الله على أهل الكهف النوم فبقوا نائمين وهم لا يدرون ثلاثمائة وتسع =

لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٧﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۖ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ
 وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٨﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ۖ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوا مِن دُونِهِ
 إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٩﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ
 أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٢٠﴾ وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْ قَوْمِهِمْ ۖ وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْ قَوْمِهِمْ ۖ وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْ قَوْمِهِمْ ۖ

الخاصة مغفرة ورزقاً ﴿وهي﴾ لنا من أمرنا رشداً ﴿أي أصلح لنا أمرنا كله واجعلنا من الراشدين المهتدين﴾ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ﴿أي ألقينا عليهم النوم في الغار سنين عديدة﴾ ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً ﴿أي ثم أيقظناهم من بعد نومهم الطويل لنرى أي الفريقين أدق إحصاءً للمدة التي ناموها في الكهف؟ قال في التسهيل: والمراد بالحزبين: أصحاب الكهف، والذين بعثهم الله إليهم حتى رأوهم﴾ وقال مجاهد: الحزبان من أصحاب الكهف لما استيقظوا اختلفوا في المدة التي لبثوها في الكهف فقال بعضهم: يوماً أو بعض يوم وقال آخرون: ربكم أعلم بما لبثتم ﴿٢١﴾، والقول الأول مروى عن ابن عباس ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾ أي نحن نقص عليك يا محمد خبرهم العجيب على وجه الصدق دون زيادة ولا نقصان ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾ أي إنهم جماعة من الشبان آمنوا بالله فثبتناهم على الدين وزدناهم يقيناً ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ أي قوينا عزمهم وأهمناهم الصبر حتى أصبحت قلوبهم ثابتة راسخة، مطمئنة إلى الحق معتزةً بالإيمان ﴿إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض﴾ أي حين قاموا بين يدي الملك الكافر الجبار من غير مبالاة فقالوا ربنا هو خالق السموات والأرض لا ما تدعوننا إليه من عبادة الأوثان والأصنام ﴿لن ندعوا من دونه إلهاً﴾ أي لن نشرك معه غيره فهو واحد بلا شريك ﴿لقد قلنا إذا شططاً﴾ أي لئن عبدنا غيره نكون قد تجاوزنا الحق، وحُدنا عن الصواب، وأفرطنا في الظلم والضلال ﴿هؤلاء قومنا

= سنين ثم أيقظهم الله وظنوا أنهم أقاموا يوماً أو بعض يوم، وشعروا بالجوع فبعثوا أحدهم ليشتري لهم طعاماً وطلبوا منه التخفي والحذر فسار حتى وصل البلدة فوجد معلمها قد تغيرت ولم يعرف أحداً من أهلها فقال في نفسه: لعلني أخطأت الطريق إلى البلدة ثم اشتري طعاماً ولما دفع النقود للبائع جعل يقلبها في يده ويقول: من أين حصلت على هذه النقود؟ واجتمع الناس وأخذوا ينظرون لتلك النقود ويعجبون، ثم قالوا من أنت يا فتى لعلك وجدت كنزاً؟ فقال لا والله ما وجدت كنزاً إنها دراهم قومي، قالوا له إنها من عهد بعيد ومن زمن الملك دقيانوس، قال: وما فعل دقيانوس؟ قالوا مات من قرون عديدة، قال والله ما يصدقني أحد بما أقوله: لقد كنا فتيةً وأكرهنا الملك على عبادة الأوثان فهربنا منه عشية أمس فأوينا إلى الكهف فأرسلني أصحابي اليوم لأشتري لهم طعاماً، فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي، فتعجبوا من كلامه ورفعوا أمره إلى الملك - وكان مؤمناً صالحاً - فلما سمع خبره خرج الملك والجند وأهل البلدة وحين وصلوا إلى الغار سمعوا الأصوات وجليه الخليل فظنوا أنهم رسل دقيانوس فقاموا إلى الصلاة فدخل الملك عليهم فرأهم يصلون فلما انتهوا من صلاتهم عانقهم الملك وأخبرهم أنه رجل مؤمن وأن دقيانوس قد هلك من زمن بعيد وسمع كلامهم وقصتهم وعرف أن الله بعثهم ليكون أمرهم آية للناس ثم ألقى الله عليهم النوم وقبض أرواحهم فقال الناس: لتتخذن عليهم مسجداً.

مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾ * وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيِقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلِّبُهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ

اتخذوا من دونه آلهة ﴿ أي هؤلاء أهل بلدنا عبدوا الأصنام تقليداً من غير حجة ﴾ ﴿لولا يأتون عليهم بسطانين بينين ﴾ أي هلاً يأتون على عبادتهم لها ببرهان ظاهر ، والغرض من التحضيض ﴿لولا ﴾ التعجيز كأنهم قالوا إنهم لا يستطيعون أن يأتوا بحجة ظاهرة على عبادتهم للأصنام فهم إذاً كذبة على الله ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشريك إليه تعالى ﴿ وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾ أي وإذا اعتزلتم أيها الفتية قومكم وما يعبدون من الأوثان غير الله تعالى ﴿ فأووا إلى الكهف ﴾ أي التجئوا إلى الكهف ﴿ ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾ أي يبسط ربكم ويوسع عليكم رحمته ﴿ ويهيء لكم من أمركم مرفقاً ﴾ أي يسهل عليكم أسباب الرزق وما ترتفقون به من غداء وعشاء في هذا الغار ﴿ وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ﴾ أي ترى أيها المخاطب الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم جهة اليمين ﴿ وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ﴾ أي وإذا غربت تقطعهم وتبعد عنهم جهة الشمال والغرض أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها ولا عند غروبها كرامة لهم من الله لثلاث توذيبهم بحرهما ﴿ وهم في فجوة منه ﴾ أي في متسع من الكهف وفي وسطه بحيث لا تصيبهم الشمس لا في ابتداء النهار ، ولا في آخره ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ أي ذلك الصنيع من دلائل قدرة الله الباهرة قال ابن عباس : لو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم ، ولو أنهم لا يقبلون لأكلتهم الأرض ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ أي من يوفقه الله للإيمان ويرشده إلى طريق السعادة فهو المهتدي حقاً ﴿ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ أي ومن يضلله الله بسوء عمله فلن تجد له من يهديه ﴿ وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ﴾ أي لو رأيتم أيها الناظر لظننتهم أيقاظاً لفتح عيونهم وتقلبهم والحال أنهم نيام ﴿ وتقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ أي وتقلبهم من

(١) يقول الشهيد « سيد قطب » في الظلال : « وإلى هنا يبدو موقف الفتية واضحاً صريحاً حاسماً ، لا تردد فيه ولا تلغيم ، إنهم فتية أشداء في أجسامهم ، أشداء في إيمانهم ، أشداء في استنكار ما عليه قومهم ، ولقد تبين الطريقان فلا سبيل إلى الإلتقاء ، ولا بد من الفرار بالعقيدة . . إنهم فتية تبين لهم الهدى في وسط ظالم كافر ، ولا حياة لهم في هذا الوسط ؟ إن هم أعلنوا عقيدتهم وجأروا بها ، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبادتهم لله . والأرجح أن أمرهم قد كشف ، فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة ، وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم ثم يأوون إلى الكهف الضيق المظلم يستروحون فيه رحمة الله ، فإذا الكهف فسيح تنتشر فيه الرحمة وتمتد ظلها فتشملهم بالرفق والرخاء واللين . الظلال ١٥ / ١٣ .

رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا
 رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ
 وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا
 أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَرْيَبُ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ

جانب إلى جانب لثلاثا تأكل الأرض أجسامهم ﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالصيد﴾ أي وكلبهم الذي
 تبعهم باسط يديه بفناء الكهف كأنه يحرسهم ﴿لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملت منهم رعباً﴾
 أي لو شاهدتهم وهم على تلك الحالة لفررت منهم هارباً رعباً منهم ، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة ،
 فرويتهم تثير الرعب إذ يراهم الناظر نيماً كالأيقاظ ، يتقلبون ولا يستيقظون ﴿وكذلك بعثناهم
 ليتساءلوا بينهم﴾ أي كما أئمناهم كذلك بعثناهم من النوم وأيقظناهم بعد تلك الرقدة الطويلة التي تشبه
 الموت ليسأل بعضهم بعضاً عن مدة مكثهم وإقامتهم في الغار ﴿قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا
 يوماً أو بعض يوم﴾ أي قال أحدهم : كم مكثنا في هذا الكهف ؟ فقالوا مكثنا فيه يوماً أو بعض اليوم
 قال المفسرون : إنهم دخلوا في الكهف صباحاً وبعثهم الله في آخر النهار فلما استيقظوا ظنوا أن الشمس قد
 غربت فقالوا لبثنا يوماً ، ثم رأوها لم تغرب فقالوا أو بعض يوم ، وما دروا أنهم ناموا ثلاثمائة وتسع سنين
 ﴿قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾ أي قال بعضهم ، الله أعلم بمدة إقامتنا ولا طائل وراء البحث عنها فخذوا
 بما هو أهم وأنفع لكم فنحن الآن جياع ﴿فابعثوا أحداكم بورقكم هذه إلى المدينة﴾ أي فأرسلوا واحداً
 منكم إلى المدينة بهذه النقود الفضية ﴿فليظنر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه﴾ أي فليختر لنا
 أحل وأطيب الطعام فليشتر لنا منه ﴿وليتلطّف ولا يُشعِرَنَّ بكم أحداً﴾ أي وليتلطّف في دخول المدينة
 وشراء الطعام حتى لا يشعر بأمرنا أحد ﴿إنهم إن يظهروا عليكم يرموكم أو يعيدوكم في ملتهم﴾ أي إن
 يظفروا يقتلوكم بالحجارة أو يردوكم إلى دينهم الباطل ﴿ولن تفلحوا إذا أبدأ﴾ أي وإن عدتم إلى دينهم
 ووافقتموهم على كفرهم فلن تفوزوا بخير أبداً ، وهكذا يتناجى الفتية فيما بينهم خائفين حذرين أن يظهر
 عليهم الملك الجبار فيقتلهم أو يردهم إلى عبادة الأوثان فيوصون صاحبهم بالتلطف بالدخول والخروج
 وأخذ الحيطه والحذر ﴿وكذلك أعرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها﴾ أي وكما
 بعثناهم من نومهم كذلك أطلعنا الناس عليهم ليستدلوا بذلك على صحة البعث ويوقنوا أن القيامة لا
 شك فيها ، فتكون قصة أصحاب الكهف حجة واضحة ودلالة قاطعة على إمكان البعث والنشور فإن
 القادر على بعث أهل الكهف بعد نومهم ثلاثمائة عام قادر على بعث الخلق بعد مماتهم ﴿إذ يتنازعون
 بينهم أمرهم﴾ أي حين تنازع القوم في أمر أهل الكهف بعد أن أطلعهم الله عليهم ثم قبض أرواحهم

أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رَهِيمٌ أَلَمْ يَكُن لَكُمْ آيَاتٌ أَن يَقُولُوا لَئِن كُنَّا رَبُّهُمْ لَنَنزِّلَنَّ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَخْتَضِبْنَ بِهِ لُجُجَكُمْ فَتَكُونُنَّ أَجْزَاءً يُسْفَلُونَ ﴿٢١﴾
 سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ
 كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ
 أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ
 وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشْدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا

﴿فقالوا ابنوا عليهم بيوتاً﴾ أي قال بعض الناس : ابنوا على باب كهفهم بيوتاً ليكون علماً عليهم
 ﴿رهم أعلم بهم﴾ أي الله أعلم بحالهم وشأنهم ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم
 مسجداً﴾ أي قال الفريق الآخر وهم الأكثرية الغالبة : لنتخذن على باب الكهف مسجداً نصلي فيه ونعبد
 الله فيه ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم﴾ أي سيقول هؤلاء القوم الخائضون في قصتهم في عهد
 الرسول ﷺ من أهل الكتاب هم ثلاثة رجال يتبعهم كلبهم ﴿ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً
 بالغيب﴾ أي ويقول البعض : إنهم خمسة سادسهم الكلب قذفاً بالظن من غير يقين ولا علم كمن يرمي
 إلى مكان لا يعرفه ﴿ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾ أي ويقول البعض إنهم سبعة والثامن هو الكلب
 ﴿قل ربي أعلم عدتهم﴾ أي الله أعلم بحقيقة عددهم ﴿ما يعلمهم إلا قليل﴾ أي لا يعلم عدتهم
 إلا قليل من الناس قال ابن عباس : أنا من ذلك القليل ، كانوا سبعة إن الله عددهم حتى انتهى إلى
 السبعة^(١) قال المفسرون : إن الله تعالى لما ذكر القول الأول والثاني أردفه بقوله ﴿رجماً بالغيب﴾ ولما ذكر
 القول الأخير لم يقدح فيه بشيء فكانه أقر قائله ثم نبه رسوله إلى الأفضل والأكمل وهو رد العلم إلى علام
 الغيوب ﴿فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً﴾ أي فلا تجادل أهل الكتاب في عدتهم إلا جدال متيقن عالم
 بحقيقة الخبر ﴿ولا تستفت فيهم منهم أحداً﴾ أي لا تسأل أحداً عن قصتهم فإن فيا أوحى إليك الكفاية
 ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾ أي لا تقولن لأمر عزمت عليه إني سأفعله غداً
 إلا إذا قرنته بالمشيئة فقلت إن شاء الله قال ابن كثير : سبب نزول الآية أن النبي ﷺ لما سئل عن قصة
 أصحاب الكهف قال : (غداً أجييكم) فتأخر الوحي عنه خمسة عشر يوماً^(٢) ﴿واذكر ربك إذا
 نسيت﴾ أي إذا نسيت أن تقول إن شاء الله ثم تذكرت فقلها لتبقى نفسك مستشعرةً عظمة الله ﴿وقل
 عسى أن يهدينني ربي لأقرب من هذا رشداً﴾ أي لعل الله يوفقني ويرشدني إلى ما هو أصلح من أمر
 ديني ودنياي ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً﴾ أي مكثوا في الكهف نائمين ثلاثمائة
 وتسع سنين ، وهذا بيان لما أجمل في قوله تعالى ﴿سنين عدداً﴾ ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ أي الله أعلم

تَسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ
وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

بمدة لبثهم في الكهف على وجه اليقين ﴿له غيب السموات والأرض﴾ أي هو تعالى المختص بعلم الغيب وقد أخبرك بالخبر القاطع عن أمرهم الحكيم الخبير ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي ما أبصره بكل موجود ، وما أسمع له لكل مسموع ، يدرك الخفيات كما يدرك الجليات ﴿ما لهم من دونه من ولي﴾ أي ليس للخلق ناصرٌ ولا معين غيره تعالى ﴿ولا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أي ليس له شريك ولا مثيل ولا نظير ، ولا يقبل في قضائه وحكمه أحداً لأنه الغني عما سواه .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين ﴿بيشر . . وينذر﴾ وبين ﴿يهدي . . ويضل﴾ وبين ﴿أيقاظاً . . وورقوداً﴾ وبين ﴿ذات اليمين . . وذات الشمال﴾ .
٢ - الطباق المعنوي بين ﴿فضربنا على آذانهم . . ثم بعثناهم﴾ لأن معنى الأول أغناهم والثاني أيقظناهم .

٣ - الجناس الناقص بين ﴿قاموا . . وقالوا﴾ .

٤ - الإطناب بذكر الخاص بعد العام ﴿لينذر بأساً شديداً﴾ ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ لشناعة دعوى الولد لله ، وفيه من بديع الحذف وجليل الفصاحة حذف المفعول الأول أي لينذر الكافرين بأساً شديداً ، ثم ذكر المفعول الأول وحذف الثاني في قوله ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ عذاباً شديداً فحذف العذاب لدلالة الأول عليه وحذف من الأول المنذرين لدلالة الثاني عليه ، وهذا من أطف الفصاحة .

٥ - صيغة التعجب ﴿أسمع به وأبصر﴾ .

٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿باخع نفسك على آثارهم﴾ شبه حاله عليه السلام مع المشركين بحال من فارقت الأحباب فهم بقتل نفسه أو كاد يهلك نفسه حزناً ووجداً عليهم .

٧ - الاستعارة التبعية ﴿فضربنا على آذانهم﴾ شبهت الإنامة الثقيلة بضرب الحجاب على الأذان كما تضرب الخيمة على السكان وكذلك يوجد استعارة في ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ لأن الربط هو الشد والمراد شددنا على قلوبهم كما تشد الأوعية بالأوكية .

قال الله تعالى : ﴿واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك . . إلى قوله . . ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ من آية (٢٧) إلى نهاية آية (٥٣) .

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى قصة أهل الكهف وهي تمثل صور التضحية والبطولة في سبيل العقيدة والإيمان ، أعقبها بذكر قصة صاحب الجنتين وهي نموذج آخر للعقيدة المثلة في قصة الأخوين من بني إسرائيل : المؤمن المعتز بإيمانه ، والكافر وهو صاحب الجنتين ، وما فيها من عبر وعظات ، وفي ثنايا

الآيات جاءت بعض التوجيهات القرآنية الكريمة .

اللغز : ﴿ملتحداً﴾ ملجأ وأصله من لحد إذا مال ، ومن لجأت إليه فقد ملت إليه هكذا قال أهل اللغة ﴿فُرطاً﴾ مجاوزاً للحد من قولهم فرسٌ فُرط إذا كان متقدماً للخيل ، قال الليث : الفُرط الأمر الذي يفرط فيه قال الشاعر :

لقد كلفتني شطاً وأمراً خائباً فُرطاً^(١)

﴿سرادقها﴾ السُرادق : السور والحائط ﴿المهل﴾ كل ما أذيب من المعادن قال أبو عبيدة : كل شيء أذبت من ذهب أو نحاسٍ أو فضة فهو المهل ﴿سندس﴾ السندس : الرقيق من الحرير ﴿استبرق﴾ الاستبرق : الغليظ من الحرير وهو الديباج قال الشاعر :

تراهنّ يلبسن المشاعر مرةً واستبرق الديباج طوراً لباسها^(٢)
﴿الأرائك﴾ جمع أريكة وهي السرير المزيّن بالثياب والستور كسرير العروس ﴿حساناً﴾ جمع حسبانة وهي الصاعقة ﴿هشياً﴾ الهشيم : اليابس المتكسر من النبات ﴿نغادر﴾ نترك .

سبب النزول : روى أن أشرف قريش اجتمعوا عند رسول الله ﷺ وقالوا له : إن أردت أن تؤمن بك فاطرد هؤلاء الفقراء من عندك يعنون « بلائاً ، وخباباً ، وصهيباً » وغيرهم فإننا نأنف أن نجتمع بهم ، وتعيّن لهم وقتاً يجتمعون فيه عندك فأنزل الله ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم . . .﴾^(٣) الآية .

وَأْتَلْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن نَّجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٧٧﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ

التفسير : ﴿واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك﴾ أي اقرأ يا محمد ما أوحاه إليك ربك من آيات الذكر الحكيم ﴿لا مبدل لكلماته﴾ أي لا يقدر أحد أن يغير أو يبدل كلام الله ﴿ولن تجد من دونه ملتحداً﴾ أي لن تجد ملجأ غير الله تعالى أبداً ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ أي احبس نفسك مع الضعفاء والفقراء من المسلمين الذين يدعون ربهم بالصباح والمساء ﴿يريدون وجهه﴾ أي يبتغون بدعائهم وجه الله تعالى ﴿ولا تعد عينك عنهم﴾ أي لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوي الغنى والشرف قال المفسرون : كان عليه السلام حريصاً على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم ولم يكن مريداً لزينة الدنيا قط ، فأمر أن يجعل إقباله على فقراء المؤمنين وأن يعرض عن أولئك العظماء والأشراف من المشركين ﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾ أي تبتغي بمجالستهم الشرف والفخر قال ابن

مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقِيلَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَنَ شَاءَ فَلْيُؤْمِنِ
 وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ۗ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ
 يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ۚ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ
 مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ

عباس : لا تجاوزهم إلى غيرهم تطلب بدلم أصحاب الشرف والثروة^(١) ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ أي لا تطع كلام الذين سألك طرد المؤمنين فقلوبهم غافلة عن ذكر الله ، وقد شغلوا عن الدين وعبادة ربهم بالدنيا قال المفسرون : نزلت في عيينة بن حصن وأصحابه أتى النبي ﷺ وعنده جماعة من الفقراء منهم « سلمان الفارسي » وعليه شملة صوف قد عرق فيها فقال عيينة للنبي ﷺ : أما يؤذك ربح هؤلاء ؟ ونحن سادة مضر وأشرافها إن أسلمنا يسلم الناس ، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحهم عنك حتى نتبعك ، أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلس ، فهم رسول الله ﷺ أن يجيبهم إلى ما طلبوا فلما نزلت الآية خرج رسول الله ﷺ يلتمس هؤلاء الفقراء فلما رأهم جلس معهم وقال (الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني ربي أن أصبر نفسي معهم) ﴿واتبع هواه﴾ أي سار مع هواه وترك أمر الله ﴿وكان أمره فرطاً﴾ أي كان أمره ضياعاً وهلاكاً ودماراً ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ ظاهره أمرٌ وحقيقته وعيدٌ وإنذار أي قل يا محمد هؤلاء الغافلين لقد ظهر الحق وبان بتوضيح الرحمن فإن شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا كقوله ﴿اعملوا ما شئتم﴾ ﴿إننا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها﴾ أي هيأنا للكافرين بالله ورسوله ناراً حامية شديدة أحاط بهم سورها كإحاطة السوار بالمعصم ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ أي وإن استغاثوا من شدة العطش فطلبوا الماء أغيثوا بماء شديد الحرارة كالنحاس المذاب أو كعكر الزيت المحمي يشوي وجوههم إذا قرب منهم من شدة حره وفي الحديث (ماء كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه)^(٢) أي سقطت جلدة وجهه فيه أعادنا الله من جهنم ﴿بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ أي بئس ذلك الشراب الذي يغاثون به وساءت جهنم منزلاً ومقيلاً يرتفق به أهل النار ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إننا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾ لما ذكر تعالى حال الأشقياء أعقبه بذكر حال السعداء ، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب ، أي إننا لا نضيع ثواب من أحسن عمله وأخلص فيه بل نزيده وننميه ﴿أولئك لهم جنات عدن﴾ أي لهم جنات إقامة ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ أي تجري من تحت غرفهم ومنازلهم أنهار الجنة ﴿يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أي يُجْلُونَ فِي الْجَنَّةِ بِأَسَاوِرِ الذَّهَبِ قَالَ الْمَفْسُرُونَ : لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَّا فِي يَدِهِ ثَلَاثَةُ أَسَاوِرَ : سَوَارٌ مِنْ ذَهَبٍ ، وَسَوَارٌ مِنْ فِضَّةٍ ، وَسَوَارٌ

وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خَضْرَاءَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسَنَتٍ مَرْتَفَقًا ﴿٣١﴾
 * وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٢﴾
 كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْهُمَا أَكْلُهُمَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ

من لؤلؤ ، لأن الله تعالى قال ﴿وحلوا أساور من فضة﴾ وقال ﴿ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾ وفي الحديث (تبلغ حلية المؤمن من حيث يبلغ الضوء) ﴿ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق﴾ أي وهم رافلون في ألوان من الحرير ، برقيق الحرير وهو السندس ، وبغليظه وهو الاستبرق قال الطبري : معنى الآية أنهم يلبسون من الحلبي أساور من ذهب ، ويلبسون من الثياب السندس وهو ما رق من الديباج ، والاستبرق وهو ما غلظ فيه وثخن^(١) ﴿متكئين فيها على الأرائك﴾ أي متكئين في الجنة على السرر الذهبية المزينة بالثياب والستور قال ابن عباس : الأرائك الأسرة من ذهب وهي مكللة بالدر والياقوت عليها الحجال ، الأريكة ما بين صنعاء إلى أيلة ، وما بين عدن إلى الجابية^(٢) ﴿نعم الثواب وحسنت مرتفقاً﴾ أي نعم ذلك جزاء المتقين ، وحسنت الجنة منزلاً ومقيلاً لهم ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين﴾ أي اضرب لهؤلاء الكفار الذين طلبوا منك أن تطرد الفقراء هذا المثل قال المفسرون : هما أخوان من بني إسرائيل ، أحدهما مؤمن ، والآخر كافر ، ورثا مالاً عن أبيهما فاشتري الكافر بما له حديقتين ، وأنفق المؤمن من ماله في مرضاة الله حتى نفذ ماله فعيّره الكافر بفقره ، فأهلك الله مال الكافر ، وضرب هذا مثلاً للمؤمن الذي يعمل بطاعة الله ، والكافر الذي أبطرته النعمة ﴿جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب﴾ أي جعلنا لأحدهما - وهو الكافر - بستانين من شجر العنب ، مثمريين بأنواع العنب اللذيذ ﴿وحففناهما بنخل﴾ أي أحطناهما بسياج من شجر النخيل ﴿وجعلنا بينهما زرعاً﴾ أي جعلنا وسط هذين البستانين زرعاً ويتفجر بينهما نهر ، وإنه لمنظرٌ بهيجٌ يصوره القرآن أروع تصوير ، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الكرم ، المحفوفتين بأشجار النخيل ، تتوسطهما الزروع وتتفجر بينهما الأنهار ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً﴾ أي كل واحدة من الحديقتين أخرجت ثمرها يانعاً في غاية الجودة والطيب ولم تنقص منه شيئاً ﴿وفجّرنا خلفهما نهراً﴾ أي جعلنا النهر يسير وسط الحديقتين ﴿وكان له ثمر﴾ أي وكان للأخ الكافر من جنتيه أنواع من الفواكه والثمار ﴿فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ أي قال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن وهو يجادله ويخاصمه ويفتخر عليه ويتعالى : أنا أغنى منك وأشرف ، وأكثر أنصاراً وخداماً ﴿ودخل جنته وهو

أَبْدَأُ ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ
يُحَاوِرُهُ يَا كَافِرَةٌ بَالِدِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّيْتُكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي
أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرِنًا أَقْلٌ مِّنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾
فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ
مَاؤُهَا غُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾

ظالم لنفسه ﴿٣٥﴾ أي أخذ بيد أخيه المؤمن ودخل الحديقة يطوف به فيها ويريه ما فيها من أشجار وثمار
وأثمار وهو ظالم لنفسه بالعجب والكفر ﴿٣٦﴾ قال ما أظنُّ أن تبید هذه أبدأ ﴿٣٧﴾ أي ما أعتقد أن تفنى هذه
الحديقة أبدأ ﴿٣٨﴾ وما أظن الساعة قائمة ﴿٣٩﴾ أي وما أعتقد القيامة كائنة وحاصلة ، أنكر فناء جنته وأنكر
البعث والنشور ﴿٤٠﴾ ولئن رددتُ إلى ربِّي لأجدنَّ خيراً منها ﴿٤١﴾ أي ولئن كان هناك بعثٌ - على سبيل
الفرض والتقدير كما تزعم - فسوف يعطيني الله خيراً من هذا وأفضل ﴿منقلباً﴾ أي مرجعاً وعاقبة ،
فكما أعطاني هذا في الدنيا فسيعطيني في الآخرة لكرامتي عليه ﴿٤٢﴾ قال له صاحبه وهو يحاوره ﴿٤٣﴾ أي قال
ذلك المؤمن الفقير وهو يراجع أخاه ويمجده ﴿٤٤﴾ أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك
رجلاً ﴿٤٥﴾ أي أجدت الله الذي خلق أصلك من تراب ثم من مني ثم سواك إنساناً سوياً ؟ الاستفهام
للتقريع والتوبيخ ﴿٤٦﴾ لكننا هو الله ربِّي ﴿٤٧﴾ أي لكن أنا أعترف بوجود الله فهو ربِّي وخالقي ﴿٤٨﴾ ولا أشرك
بربِّي أحداً ﴿٤٩﴾ أي لا أشرك مع الله غيره ، فهو المعبود وحده لا شريك له ﴿٥٠﴾ ولولا إذ دخلت جنتك قلت
ما شاء الله ﴿٥١﴾ أي فهلاً حين دخلت حديقتك وأعجبت بما فيها من الأشجار والثمار قلت : هذا من
فضل الله ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ﴿٥٢﴾ لا قوة إلا بالله ﴿٥٣﴾ أي لا قدرة لنا على طاعته إلا بتوفيقه
ومعونته ﴿٥٤﴾ إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً ﴿٥٥﴾ أي قال المؤمن للكافر : إن كنت ترى أنني أفقر منك وتعتر
علي بكثرة مالك وأولادك ﴿٥٦﴾ فعسى ربِّي أن يؤتيني خيراً من جنتك ﴿٥٧﴾ جواب الشرط أي إنني أتوقع من صنع
الله تعالى وإحسانه أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني جنة خيراً من جنتك لإيماني به ،
ويسلب عنك نعمته لكفرك به ويجزب بستانك ﴿٥٨﴾ ويرسل عليها حسباناً من السماء ﴿٥٩﴾ أي يرسل عليها
آفةً تجتاحها أو صواعق من السماء تدمرها ﴿٦٠﴾ فتصبح صعيداً زلقاً ﴿٦١﴾ أي تصبح الحديقة أرضاً ملساء لا
تثبت عليها قدم ، جرداء لا نبات فيها ولا شجر ﴿٦٢﴾ أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً ﴿٦٣﴾ أي
يغور ماؤها في الأرض فيتلف كل ما فيها من الزرع والشجر ، وحينئذ لا تستطيع طلبه فضلاً عن إعادته
ورده ، وينتهي الحوار هنا وتكون المفاجأة المدهشة فيتحقق رجاء المؤمن بزوال النعيم عن الكافر ،

وَأَحِيطَ بِشِمْرِهِ ۖ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي
 أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ
 ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
 فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ أَمْالٌ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَالْبَاقِيَاتُ
 الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا ﴿٤٦﴾

وفجأة ينقلنا السياق من مشهد البهجة والازدهار الى مشهد البوار والدمار ﴿وأحيط بشمره﴾ أي هلكت
 جنته بالكلية واستولى عليها الخراب والدمار في الزروع والثمار ﴿فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق
 فيها﴾ أي يقلب كفيه ظهراً لبطن أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب قال القرطبي : أي يضرب
 إحدى يديه على الأخرى ندماً لأن هذا يصدر من الندام ﴿وهي خاوية على عروشها﴾ أي مهشمة
 محطمة قد سقطت السقوف على الجدران فأصبحت خراباً يباباً ﴿ويقول يا ليتني لم أشرك بربي
 أحداً﴾ أي وهو نادم على إشراكه بالله يتمنى أن لم يكن قد كفر النعمة ، ندم حين لا ينفع الندم قال تعالى
 ﴿ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله﴾ أي لم تكن له جماعة تنصره وتدفع عنه الهلاك ﴿وما كان
 منتصراً﴾ أي وما كان بنفسه ممتنعاً عن انتقام الله سبحانه ، فلم تنفعه العشيرة والولد حين اعتزّ وافترخ
 بهم وما استطاع بنفسه أن يدفع عنه العذاب ﴿هنالك الولاية لله الحق﴾ أي في ذلك المقام وتلك الحال
 تكون النصرة لله وحده لا يقدر عليها أحد فهو الولي الحق الذي ينصر أوليائه ﴿هو خيرٌ ثواباً وخيرٌ
 عُقْباً﴾ أي الله خير ثواباً في الدنيا والآخرة لمن آمن به ، وهو خيرٌ عاقبة لمن اعتمد عليه ورجاه ﴿واضرب
 لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾ هذا مثل آخر للدنيا وبهرجها
 الخادع يشبه مثل الجنتين في الفناء والزوال والمعنى اضرب يا محمد للناس مثل هذه الحياة في زوالها وفنائها
 وانقضائها بماء نزل من السماء فخرج به النبات وافياً غزيراً وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه
 ﴿فأصبح هشيماً تذروه الرياح﴾ أي صار النبات متكسراً من اليبس متفتتاً تنسفه الرياح ذات اليمين
 وذات الشمال ﴿وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ أي قادراً على الإفناء والإحياء لا يعجزه شيء في
 الأرض ولا في السماء ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ أي الأموال والأولاد زينة هذه الحياة
 الفانية ، ذاك مثلها وهذه زينتها والكل إلى فناء وزوال لا يغتر بها إلا الأحمق الجهول ﴿والباقيات
 الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً﴾ أي أعمال الخير تبقى ثمرتها أبد الأباد فهي خير ما يؤمله
 الإنسان ويرجوه عند الله قال ابن عباس : الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس وعنه أيضاً أنها كل
 عمل صالح من قول أو فعل يبقى للأخرة^(١) وفي الحديث (سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا

(١) هذا ما رجحه الطبري قال القرطبي : وهو الصحيح إن شاء الله .

وَيَوْمَ نُسِرِ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا
لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابُ فَتَرَى
الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُبَوِّلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا
وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ
مِنَ الْإِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ لَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بَشَرٌ

الله ، والله أكبر ، هن الباقيات الصالحات) ﴿ويوم نسير الجبال﴾ لما ذكر الدنيا ومآلها ذكر القيامة وأهوالها أي واذكر يوم نزيل الجبال من أماكنها ونسيرها كما نسير السحاب فنجعلها هباءً منبثاً ﴿وترى الأرض بارزة﴾ أي وترى الأرض ظاهرة للعيان ليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان ، قد قلعت جبالها وهدم بنيانها فهي بارزة ظاهرة ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾ أي جمعنا الأولين والآخرين لموقف الحساب فلم تترك أحداً منهم ﴿وعرضوا على ربك صفاً﴾ أي عرضوا على رب العالمين مصطفين ، لا يجب أحدٌ أحداً وفي الحديث (يجمع الله الأولين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ صفوفاً) قال مقاتل : يعرضون صفاً بعد صف كالصفوف في الصلاة كل أمةٍ وزمرة صفاً^(١) ﴿لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾ أي يقال للكفار على وجه التوبيخ والتقريع : لقد جئتمونا حفاةً عراةً لا شيء معكم من المال والولد كهيئتكم حين خلقناكم أول مرة ﴿بل زعتم أَلَّنْ نجعل لكم موعداً﴾ أي زعتم أن لا بعث ولا جزاء ، ولا حساب ولا عقاب ﴿ووضع الكتاب﴾ أي وضعت صحائف أعمال البشر وعرضت عليهم ﴿فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ أي ترى المجرمين خائفين مما فيه من الجرائم والذنوب ﴿ويقولون يا ويلتنا﴾ أي يا حسرتنا ويا هلاكنا على ما فرطنا في حياتنا الدنيا ﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ أي ما شأن هذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ضبطها وأحاط بها ؟ قال تعالى ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ أي مكتوباً مثبثاً في الكتاب ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ أي لا يعاقب إنساناً بغير جرم ، ولا يُنقص من ثواب المحسن ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ أي اذكر حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة ﴿فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ أي سجد جميع الملائكة لكن إبليس الذي هو من الجن خرج عن طاعة ربه ، والآية صريحة في أن إبليس من الجن لا من الملائكة^(٢) ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو﴾ أي أفتتخذونه يا بني آدم هو وأولاده الشياطين أولياء من دون الله وهم لكم

(١) القرطبي ٤١٧/١٠ .

(٢) انظر التحقيق الذي ذكرناه في كتابنا « النبوة والأنبياء » على أن إبليس لم يكن من الملائكة ص ١٢٨ .

لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا * ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

أعداء ﴿بئس للظالمين بدلاً﴾ أي بئس عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الرحمن ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾ أي ما أشهدت هؤلاء الشياطين الذين عبدتموهم من دوني خلق السموات والأرض ﴿ولا خلق أنفسهم﴾ أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض فهم عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ أي وما كنت متخذ الشياطين أعواناً في الخلق فكيف تطيعونهم من دوني؟ ﴿ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم﴾ أي ويوم يقول الله للمشركين : ادعوا شركائي ليمنعوكم من عذابي ويشفعوا لكم كما كنتم تزعمون ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ أي فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم ﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾ أي جعلنا بين العابدين والمعبودين مهلكة لا يجتازها هؤلاء وهي النار ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾ أي عاينوها وهي تنغيظ حنقاً عليهم فأيقنوا أنهم داخلوها ﴿ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ أي لم يجدوا عنها معدلاً وذلك لأنها أحاطت بهم من كل جانب فلم يقدرُوا على الهرب منها .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿الغداة .. والعشي﴾ وبين ﴿فليؤ من .. فليكفر﴾ .
- ٢ - المقابلة البديعة بين الجنة ﴿نعم الثواب وحسنت مرتفقاً﴾ والنار ﴿بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ .
- ٣ - التشبيه ﴿بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ ويسمى مرسلأ مفصلاً لذكر الأداة ووجه الشبه .
- ٤ - التشبيه التمثيلي ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد وكذلك يوجد التشبيه التمثيلي في ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه﴾ .
- ٥ - المبالغة بإطلاق المصدر على اسم الفاعل ﴿أو يصبح ماؤها غوراً﴾ أي غائراً .
- ٦ - الكناية ﴿يقلب كفيه﴾ كناية عن التحسر والندم لأن النادم يضرب بيمينه على شماله .
- ٧ - الإنكار والتعجب ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء﴾ ؟ .

تَبْيِيْهُ : الجمهور على أن الباقيات الصالحات هن الكلمات المأثور فضلها « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » وقد ورد بذلك حديث تقدم ذكره وفي الترمذي أن رسول الله ﷺ قال : لقيت إبراهيم ليلة أُسري بي فقال يا محمد :

أقرىء أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر» رواه الترمذي .

قال الله تعالى : ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل . . . إلى . . . ما لم تسطع عليه صبراً﴾

المُنَاسِكَةُ : لما ضرب تعالى المثل في قصة صاحب الجنتين ، وضرب المثل للحياة الدنيا وما فيها من نعيم خادع ومتاع زائل ، نبّه تعالى إلى الغاية من ذكر هذه الأمثال وهي « العظة والاعتبار » ثم ذكر القصة الثالثة « قصة موسى مع الخضر » وما فيها من أمور غيبية عجيبة .

اللُغْزَى : ﴿قُبلاً﴾ مقابلةً وعياناً ﴿موثلاً﴾ ملجأً ومنجى قال ابن قتيبة : وأل فلان إلى كذا لجأ إليه وألاً ووءولاً والموئل : الملجأ قال الأعشى :

وقد أحاليسُ ربَّ البيت غفلته
وقد يحاذِرُ مني ثم لا يثُلُ^(١)
﴿حُقْباً﴾ جمع حقبة وهي السنة والمراد بالحقْب هنا الزمان الطويل ﴿سَرَباً﴾ السَّرب : المسلك في جوف الأرض ﴿نُصْباً﴾ النُّصب : التعب والمشقة ﴿إمراً﴾ أمراً عظيماً يقال : أمير الأمر إذا عظم ﴿نُكْرَماً﴾ منكرأً فظيعاً جداً .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرِ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأُولِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا

التفسير : ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل﴾ أي بينا في هذا القرآن الأمثال وكررنا الحجج والمواعظ ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾ أي وطبيعة الإنسان الجدل والخصومة لا ينيب لحق ولا ينزجر لموعظة ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى﴾ أي ما منع الناس من الإيمان حين جاءهم الهدى من الله ﴿ويستغفروا ربهم﴾ أي ومن الاستغفار من الذنوب والآثام ﴿إلا أن تأتيهم سنة الأولين﴾ أي إلا انتظارهم أن تأتيهم سنة الأولين وهي الإهلاك ﴿أو يأتيهم العذاب قبلاً﴾ أي يأتيهم عذاب الله عياناً ومقابلة ومعنى الآية أنه ما منعهم من الإيمان والاستغفار إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً ومواجهة كقولهم ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾^(٢) ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ أي ما نرسل الرسل إلا لغرض التبشير والإنذار لا للإهلاك والدمار ، مبشرين لأهل الإيمان ومنذرين لأهل العصيان ﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل

(١) البحر المحيط ٦/١٣٢ . (٢) هذا خلاصة المعنى الذي اختاره ابن كثير ، كذا في المختصر ٢/٤٢٥ .

هُزُوا ﴿٥٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِعَايَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٨﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٥٩﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا أَرِحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا

ليُدحضوا به الحق ﴿٥٧﴾ أي ومع وضوح الحق يجادل الكفار بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه فهم حين يطلبون الخوارق ويستعجلون العذاب لا يريدون الإيمان وإنما يستهزئون ويسخرون ﴿٥٨﴾ واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا ﴿٥٩﴾ أي اتخذوا القرآن وما خوقوا به من العذاب سخرية واستهزاء ﴿٦٠﴾ ومن أظلم ممن ذكر آيات ربه فأعرض عنها ﴿٦١﴾ أي لا أحد أظلم ممن وعظ بآيات الله البينة ، وحججه الساطعة ، فتعامى عنها وتناساها ولم يلق لها بالاً ﴿٦٢﴾ ونسي ما قدمت يداه ﴿٦٣﴾ أي نسي ما عمله من الجرائم الشنيعة ، والأفعال القبيحة ، ولم يتفكر في عاقبتها ﴿٦٤﴾ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ﴿٦٥﴾ أي جعلنا على قلوبهم أغطية تحول دون فقه هذا القرآن وإدراك أسراره ، والانتفاع بما فيه من المواعظ والأحكام ﴿٦٦﴾ وفي آذانهم وقراً ﴿٦٧﴾ أي وفي آذانهم صمماً معنوياً يمنعهم أن يسمعه سماع تفهم وانتفاع ﴿٦٨﴾ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴿٦٩﴾ أي وإن دعوتهم إلى الإيمان والقرآن فلن يستجيبوا لك أبداً لأنهم لا يفقهون ولا يسمعون ، فللهدى قلوب متفتحة مستعدة لقبول الإيمان وهؤلاء كالأنعام ﴿٧٠﴾ وربك الغفور ذو الرحمة ﴿٧١﴾ أي وربك يا محمد واسع المغفرة عظيم الرحمة بالعباد مع تقصيرهم وعصيانهم ﴿٧٢﴾ لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ﴿٧٣﴾ أي لو يعاقبهم بما اقترفوا من المعاصي والإجرام لعجل لهم عذاب الدنيا ، ولكنه تعالى يمهلهم ويؤخر عنهم العذاب الذي يستعجلونه به رحمة بهم ، وقد جرت سنته بأن يمهل الظالم ولكن لا يمهله ﴿٧٤﴾ بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ﴿٧٥﴾ أي لهم موعد آخر في القيامة يرون فيه الأهوال لن يجدوا لهم فيه ملجأ ولا منجى ﴿٧٦﴾ وتلك القرى أهلكتناهم لما ظلموا ﴿٧٧﴾ أي تلك هي أخبار الأمم السالفة والقرون الخالية كقوم هود وصالح ولوط وشعيب أهلكتناهم حين ظلموا ﴿٧٨﴾ وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴿٧٩﴾ أي جعلنا لهلاكهم وقتاً محدداً معلوماً ، أفلا يعتبر هؤلاء المكذبون المعاندون ؟ والآية وعيد وتهديد لكفار قريش قال ابن كثير : والمعنى احذروا أيها المشركون أن يصيبكم ما أصابهم فقد كذبتهم أعظم نبي وأشرف رسول ، ولستم بأعز علينا منهم فخافوا عذابي ونذري ﴿٨٠﴾ وإذ قال موسى لفتهاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ﴿٨١﴾ هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة الكريمة والمعنى اذكر حين قال

قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا غَدَاءٌ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿١٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أُوِينَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿١٧﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿١٨﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿١٩﴾

موسى الكليم لفتاه « يوشع بن نون » لا أزال أسير وأتابع السير حتى أصل الى ملتقى بحر فارس وبحر الروم مما يلي جهة المشرق وهو مجمع البحرين^(١) ﴿أو أمضي حُبًّا﴾ أي أسير زماناً إلى أن أبلغ ذلك المكان ﴿فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما﴾ أي فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين نسي « يوشع » أن يخبر موسى بأمر الحوت وما شاهده منه من الأمر العجيب ، روي أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن يأخذ معه حوتاً فيجعله في ميكتل فحيثما فقد الحوت فهناك الرجل الصالح ﴿فاتخذ سبيله في البحر سرّباً﴾ أي اتخذ الحوت سبيله في البحر مسلكاً قال المفسرون : كان الحوت مشوياً فخرج من الميكتل ودخل في البحر وأمسك الله جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه وجمد الماء حوله وكان ذلك آيةً من آيات الله الباهرة لموسى عليه السلام ﴿فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا﴾ أي فلما قطعنا ذلك المكان وهو مجمع البحرين الذي جعل موعداً للملاقة قال موسى لفتاه أعطنا طعام الغداء ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ أي لقينا في هذا السفر العناء والتعب ، وكان قد سار ليلة وجزءاً من النهار بعد أن جاوز الصخرة ﴿قال رأيت إذ أُوينا إلى الصخرة فإنني نسيت الحوت﴾ أي قال الفتى « يوشع بن نون » حين طلب موسى منه الحوت للغداء رأيت حين التجأنا إلى الصخرة التي نمت عندها ماذا حدث من الأمر العجيب ؟ لقد خرج الحوت من الميكتل ودخل البحر وأصبح عليه مثل الكوة وقد نسيت أن أذكر لك ذلك حين استيقظت ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ أي وقد أنساني الشيطان أن أخبرك عن قصته الغريبة ﴿واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ أي واتخذ الحوت طريقه في البحر وكان أمره عجباً ، يتعجب الفتى من أمره لأنه كان حوتاً مشوياً فذبّت فيه الحياة ودخل البحر ﴿قال ذلك ما كنا نبغ﴾ أي قال موسى هذا الذي نطلبه ونريده لأنه علامة على غرضنا وهو لُقياً الرجل الصالح فارتدا على آثارهما قصصاً أي رجعا في طريقهما الذي جاء منه يتبعان أثرهما الأول لثلاثي يخرجا عن الطريق ﴿فوجدنا عبداً من عبادنا﴾ أي وجدنا الخضر عليه السلام عند الصخرة التي فقد عندها الحوت ، وفي الحديث أن موسى وجد الخضر مسجياً بثوبه مستلقياً على الأرض فقال له : السلام عليك فرفع رأسه وقال : وأنى بأرضك السلام^(٢) ؟ ﴿آتيناه رحمةً من عندنا﴾ أي وهبناه نعمة عظيمة وفضلاً كبيراً وهي الكرامات التي أظهرها الله على يديه^(٣) ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾ أي علماً خاصاً بنا لا يعلم إلا بتوفيقنا وهو علم الغيوب قال العلماء :

(١) هكذا نقل الطبري عن قتادة ١٥ / ٢٧١ . (٢) الحديث سيأتي مفصلاً إن شاء الله . (٣) الصحيح أن الخضر عليه السلام ليس بنبي وإنما هو من عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين وقد أظهر الله على يديه هذه الكرامات والأمور الغيبية تعليماً للخلق فضل العبودية .

قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَيَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٧٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٧﴾
 وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَيَّ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٧٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٧٩﴾
 قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٠﴾ فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ
 خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٨١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذَا أَوَّلْتَنِي لِي صَبْرًا
 ﴿٨٢﴾ قَالَ لَا تَأْخُذْ بِلِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٨٣﴾ فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ

هذا العلم الرباني ثمرة الإخلاص والتقوى ويسمى « العلم اللدني » يورثه الله لمن أخلص العبودية له ، ولا ينال بالكسب والمشقة وإنما هو هبة الرحمن لمن خصه الله بالقرب والولاية والكرامة ﴿قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا﴾ أي هل تأذن لي في مرافقتك لأقتبس من علمك ما يرشدني في حياتي ؟ قال المفسرون : هذه مخاطبة فيها ملاطفة وتواضع من نبي الله الكريم وكذلك ينبغي أن يكون الإنسان مع من يريد أن يتعلم منه ﴿قال إنك لن تستطيع معي صبرا﴾ أي قال الخضر : إنك لا تستطيع الصبر على ما ترى قال ابن عباس : لن تصبر على صنعي لأنني علمت من غيب علم ربي ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا﴾ أي كيف تصبر على أمر ظاهره منكر وأنت لا تعلم باطنه ؟ ﴿قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا﴾ أي قال موسى ستراني صابرا ولا أعصي أمرك إن شاء الله ﴿قال فإن اتبعتنني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا﴾ شرط عليه قبل بدء الرحلة ألا يسأله ولا يستفسر عن شيء من تصرفاته حتى يكشف له سرها ، فقبل موسى شرطه رعاية لأدب المتعلم مع العالم ، والمعنى لا تسألني عن شيء مما أفعله حتى أبينه لك بنفسني ﴿فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها﴾ أي انطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر حتى مرت بهما سفينة فعرفوا الخضر فحملوها بدون أجر فلما ركبا السفينة عمد الخضر إلى فأس فقلع لوحاً من ألواح السفينة بعد أن أصبحت في لجة البحر ﴿قال أخرجتها لتغرق أهلها﴾ أي قال له موسى مستنكراً : أخرجت السفينة لتغرق الركاب ؟ ﴿لقد جئت شيئاً إمراً﴾ أي فعلت شيئاً عظيماً هائلاً ، يروى أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فجعله مكان الخرق ثم قال للخضر : قوم حملونا بغير أجر عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهل السفينة لقد فعلت أمراً منكراً عظيماً !! ﴿قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا﴾ أي ألم أخبرك من أول الأمر أنك لا تصبر على ما ترى من صنيعي ؟ ذكره بلطف في مخالفته الشرط ﴿قال لا تأخذني بما نسيت﴾ أي لا تأخذني بمخالفتي الشرط ونسياني العهد ﴿ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ أي لا تكلفني مشقة في صحبتي إياك وعاملني باليسر لا بالعسر ﴿فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله﴾ أي قبل عذره وانطلقا بعد نزولهما من السفينة يمشيان فرماً بغلمان يلعبون وفيهم غلام وضيء الوجه جميل

قَالَ أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكِرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّقُوهُمَا فُجَدًا فَبَدَأَ بِهَا جَدَارًا يُرِيدُ أَنْ يُنْقِضَ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

الصورة فأمسكه الخضر واقتلع رأسه بيده ثم رماه في الأرض ﴿قال أقتلت نفساً زكيةً بغير نفس﴾ أي قال موسى : أقتلت نفساً طاهرة لم ترتكب جرماً ولم تقتل نفساً حتى تقتل به ﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾ أي فعلت شيئاً منكرًا عظيمًا لا يمكن السكوت عنه . . لم يكن موسى ناسياً في هذه المرة ولا غافلاً ولكنه قاصدٌ أن ينكر المنكر الذي لا يصبر على وقوعه بالرغم من تذكره لوعده ، وقال هنا ﴿نكراً﴾ أي منكرًا فظيعاً وهو أبلغ من قوله ﴿إمراً﴾ في الآية السابقة ، ذكر القرطبي أن موسى عليه السلام لما قال للخضر ﴿أقتلت نفساً زكيةً﴾ غضب واقتلع كتف الصبي الأيسر وقشر اللحم عنه فإذا مكتوب في عظم كتفه كافر لا يؤمن بالله أبداً ﴿١﴾ ﴿قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ أي ألم أقل لك أنت على التعيين والتحديد لن تستطيع الصبر على ما ترى مني ؟ قال المفسرون : وقَّره في الأول فلم يواجهه بكاف الخطاب فلما خالف في الثاني واجهه بقوله ﴿لك﴾ لعدم العذر هنا ، ويعود موسى لنفسه ويجد أنه خالف وعده مرتين ، فيندفع ويقطع على نفسه الطريق ويجعلها آخر فرصة أمامه ﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني﴾ أي إن أنكرت عليك بعد هذه المرة واعترضتُ على ما يصدر منك فلا تصاحبني معك ﴿قد بلغت من لدني عُذراً﴾ أي قد أعذرت إلي في ترك مصاحبتي فانت معذورٌ عندي لمخالفتي لك ثلاث مرات ﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيّقوهما﴾ أي مشيا حتى وصلا إلى قرية قال ابن عباس : هي انطاكية فطلبها طعاماً وكان أهلها لثاماً لا يطعمون جائعاً ، ولا يستضيفون ضيفاً ، فامتنعوا عن إضافتهما أو إطعامهما ﴿فوجدوا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾ أي وجدوا في القرية حائطاً مائلاً يوشك أن يسقط ويقع ﴿فأقامه﴾ أي مسح الخضر بيده فاستقام ، وقيل إنه هدمه ثم بناه وكلاهما مروى عن ابن عباس ﴿قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ أي قال له موسى لو أخذت منهم أجراً نستعين به على شراء الطعام ! ! أنكر عليه موسى صنيع المعروف مع غير أهله ، روي أن موسى قال للخضر : قوم استطعمناهم فلم يطعمونا ، وضيّفناهم فلم يضيّقونا ثم قعدت تبني لهم الجدار لو شئت لاتخذت عليه أجراً ! ﴿قال هذا فراق بيني وبينك﴾ أي قال الخضر : هذا وقت الفراق بيننا حسب قولك ﴿سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ أي سأخبرك بحكمة هذه المسائل الثلاث التي أنكرتها عليّ ولم تستطع عليها وفي الحديث (رحم الله

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾
 وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ
 زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
 صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ
 تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

أخي موسى لوددت أنه صبر حتى يقص الله علينا من أمرهما ولوليت مع صاحبه لأبصر العجب (١) ﴿٧٩﴾ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ﴿٨٠﴾ هذا بيان وتفصيل للأحداث العجيبة التي رآها موسى ولم يطق لها صبراً والمعنى أما السفينة التي خرقتها فكانت لأناس ضعفاء لا يقدرّون على مدافعة الظلمة يشتغلون بها في البحر بقصد التكسب ﴿فأردت أن أعيبها﴾ أي أردت بخرقها أن أجعلها مغيبة لكلا يغتصبها الملك الظالم ﴿وكان وراءهم ملك﴾ أي كان أمامهم ملك كافر ظالم ﴿يأخذ كل سفينة غصباً﴾ أي يغتصب كل سفينة صالحة لا عيب فيها ﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين﴾ أي وأما الغلام الذي قتلته فكان كافراً فاجراً وكان أبواه مؤمنين وفي الحديث (إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً ، ولو عاش لأرهب أبويه طغياناً وكفراً) ﴿٧٩﴾ ﴿فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً﴾ أي فخشنا أن يحملها حبه على اتباعه في الكفر والضلال ﴿فأردنا أن يبدهما ربهما خيراً منه زكاةً وأقرب رُحماً﴾ أي فأردنا بقتله أن يرزقهما الله ولدأ صالحاً خيراً من ذلك الكافر وأقرب برأ ورحمة بوالديه ﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنزٌ لهما﴾ أي وأما الجدار الذي بنيته دون أجر والذي كان يوشك أن يسقط فقد خبيء تحته كنزٌ من ذهب وفضة لغلامين يتيمين ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ أي وكان والدهما صالحاً تقياً فحفظ الله لهما الكنز لصالح (٢) الوالد قال المفسرون : إن صلاح الآباء ينفع الأبناء ، وتقوى الأصول تنفع الفروع ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما﴾ أي فأراد الله بهذا الصنيع أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار ﴿رحمةً من ربك﴾ أي رحمةً من الله بهما لصالح أبيهما ﴿وما فعلته عن أمري﴾ أي ما فعلت ما رأيت من خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار عن رأيي واجتهادي ، بل فعلته بأمر الله وإلهامه ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ أي ذلك تفسير الأمور التي لم تستطع الصبر عليها وعارضت فيها قبل أن أخبرك عنها .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ - الطباق بين ﴿مبشرين .. ومنذرين﴾ وبين ﴿نسيت .. وأذكر﴾ .

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الشيخان . (٢) رواه مسلم . (٣) قيل إنه الأب السابع ، وظاهر اللفظ أنه أبوهما مباشرة وهو الأرجح .

- ٢ - اللف والنشر المرتب ﴿أما السفينة﴾ ﴿وأما الغلام﴾ ﴿وأما الجدار﴾ فقد جاء بها مرتبة بعد ذكر ركوب السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار بطريق اللف والنشر المرتب وهو من المحسنات البديعية.
- ٣ - الحذف بالإيجاز ﴿كل سفينة﴾ أي صالحة حذف لدلالة لفظ «أعيبها» وكذلك حذف لفظ كافر من ﴿وأما الغلام﴾ لدلالة قوله تعالى ﴿فكان أبواه مؤمنين﴾ .
- ٤ - التغليب ﴿أبواه﴾ المراد باللفظ أبوه وأمه .
- ٥ - الاستعارة ﴿يريد أن ينقض﴾ لأن الإرادة من صفات العقلاء وإسنادها إلى الجدار من لطيف الاستعارة وبلغ المجاز كقول الشاعر :

يريد الريحُ صدر أبي براءٍ ويرغب عن دمء بني عقيل^(١)

- ٦ - التكرير للتفخيم والإضافة للتشريف ﴿عبداً من عبادنا﴾ .
- ٧ - السجع مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿نصباً ، سرباً ، عجباً﴾ .
- ٨ - تعليم الأدب ﴿فأردت أن أعيبها﴾ وهناك قال ﴿فأراد ربك﴾ حيث أسند ما ظاهره شر لنفسه وأسند الخير إلى الله تعالى ، وذلك لتعليم العباد الأدب مع الله جل وعلا .
- « قصة موسى والخضر كما في الصحيحين »

عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عز وجل عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى يا رب فكيف لي به ؟ قال : تأخذ حوتاً فتجعله في مكثل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ، فانطلق موسى : ومعه فتاه « يوشع بن نون » حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكثل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتها حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً - قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به - فقال فتاه ﴿أرأيت إذ أؤينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ قال فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً فقال موسى ﴿ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ قال رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا هو مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر : وأنتي بأرضك السلام^(١) ! من أنت ؟ قال : أنا موسى ، قال موسى بني إسرائيل ؟ قال نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً ﴿قال إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ . يا موسى إني على علم من علم الله لا تعلمه علمنيه ،

(١) الطبري ٢٨٩/١٥ . (٢) يعني من أين السلام في هذه الأرض التي لا يعرف فيها السلام ؟

وأنت على علمٍ من علم الله علمك لا أعلمه ، فقال موسى ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾ فقال له الخضر ﴿ فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ فانطلقا يمسيان على الساحل فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول - أي بدون أجر - فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قوم قد حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرأاً ﴾ وقال رسول الله ﷺ : وكانت الأولى من موسى نسياناً ، وجاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر : ما علمي وعلمك من علم الله تعالى إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمسيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله ، فقال له موسى ﴿ أقتلت نفساً زكيةً بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً ﴾ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً قال سُفيان : وهذه أشدُّ من الأولى ﴿ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ﴾ فانطلقا ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية استطعا أهلها فأبوا أن يضيّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴾ فقال الخضر بيده هكذا - أي أشار بيده - فأقامه فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ، ولم يضيّفونا ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ قال الخضر : ﴿ هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ قال رسول الله ﷺ : يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص الله علينا من أخبارهما !! أخرجها الشيخان .

تنبية : قال العلامة القرطبي : « كرامات الأنبياء ثابتة على ما دلت عليه الأخبار والآيات المتواترة ، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد أو الفاسق الحائد ، فالآيات ما أخبر الله تعالى في حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية في الصيف ، والصيفية في الشتاء ، وما ظهر على يدها حيث هزّت النخلة وكانت يابسة فأثمرت ، وهي ليست بنبية ، ويدل أيضاً ما ظهر على يد الخضر من خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار » أ هـ . القرطبي ٢٨/١١ .

قال الله تعالى : ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين .. إلى .. فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾

المناسبة : لما ذكر تعالى قصة الخضر أعقبها بقصة ذي القرنين ورحلاته الثلاث إلى الغرب ، والشرق ، وإلى السدين ، وبنائوه للسد في وجه «بأجوج ومأجوج» وهي القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة ، وجميعها ترتبط بالعقيدة والإيمان ، وهو الهدف الأصيل للسورة الكريمة .

اللغز : ﴿ ذو القرنين ﴾ هو الاسكندر المقدوني^(١) وهو ملك صالح أعطي العلم والحكمة ، سمي بذي القرنين لأنه ملك مشارق الأرض ومغاربها وكان مسلماً عادلاً قال الشاعر :

قد كان ذو القرنين قبلي مسلماً ملكاً
علا في الأرض غير مفند

(١) الراجع أن ذا القرنين ملك مسلم من ملوك اليمن .

بلغ المشارق والمغرب يتغيي أسباب ملكٍ من كريمٍ سيد^(١)
 ﴿حمئة﴾ كثرة الحمأة وهي الطينة السوداء ﴿سداً﴾ السدُّ : الحاجز والحائل بين الشيئين ﴿ردماً﴾ الرَّدْم .
 السدُّ المنيع وهو أكبر من السدِّ لأن الرَّدْم ما جعل بعضه على بعض حتى يصبح كالحجاب المنيع فالردم
 الحاجز الحصين المتين ﴿زبر الحديد﴾ قطع الحديد مفردة زبرة وهي القطعة ﴿الصدفين﴾ جانباً الجبل قال
 أبو عبيدة : الصدف كل بناء عظيم مرتفع ﴿قطراً﴾ القَطْر : النحاس المذاب ﴿نقباً﴾ خرقاً وثقباً
 ﴿دكاء﴾ مدكوكاً مسوياً بالأرض قال الأزهري : دكته أي دققته ﴿يموج﴾ يختلط ويضطرب
 ﴿الفردوس﴾ قال الفراء : البستان الذي فيه العنب وقال ثعلب : كل بستان يجوِّط عليه فهو فردوس^(٢) .
 سَبَبُ النَّزُولِ : أ - قال قتادة : إن اليهود سألوا النبي ﷺ عن ذي القرنين فأنزل الله ﴿ويسألونك عن
 ذي القرنين . . الآية^(٣) .

ب - قال مجاهد : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : إني أتصدق ، وأصلُ الرحم ، ولا
 أصنع ذلك إلا لله تعالى ، فيذكر ذلك مني وأحمد عليه فيسرنني ذلك وأعجب به ، فسكت رسول الله ﷺ
 ولم يقل شيئاً فأنزل الله ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾^(٤) .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّالَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
 سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَاتَّبَعِ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا

التفسير : ﴿ويسألونك عن ذي القرنين﴾ أي يسألك اليهود يا محمد عن ذي القرنين ما شأنه ؟
 وما قصته ؟ ﴿قل سأتلوا عليكم منه ذكراً﴾ أي قل لهم سأقص عليكم من نبأه وخبره قرآناً ووحياً ﴿إننا
 مكّالاه في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً﴾ أي يسرنا له أسباب الملك والسلطان والفتح والعمران ،
 وأعطيناه كل ما يحتاج إليه للوصول إلى غرضه من أسباب العلم والقدرة والتصرف قال المفسرون : ذو
 القرنين هو «الاسكندر اليوناني» ملك المشرق والمغرب فسمي ذا القرنين ، وكان ملكاً مؤمناً مكن الله له
 في الأرض فعدل في حكمه وأصلح ، وكان في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما روي أن الذين
 ملكوا الأرض أربعة : مؤمنان وكافران ، أما المؤمنان فإسليمان وذو القرنين ، وأما الكافران فتمرود
 وبختنصر^(٥) ﴿فاتبع سبباً﴾ أي سلك طريقه الذي يسره الله له وسار جهة المغرب ﴿حتى إذا بلغ
 مغرب الشمس﴾ أي وصل المغرب ﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾ أي وجد الشمس تغرب في ماء
 وطين- حسب ما شاهد لا حسب الحقيقة- فإن الشمس أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض قال
 الرازي : إن ذا القرنين لما بلغ أقصى المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في
 عين وهدة مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا

(١) التفسير الكبير للرازي ١٦٤/٢١ . (٢) البحر ١٥٧/٦ . (٣) أسباب النزول ١٧٢ .

(٤) القرطبي ٧٠/١١ . (٥) البحر ١٥٧/٦ .

قُلْنَا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ اِمَّا اَنْ تُعَذِّبَ وَاِمَّا اَنْ تَنْخُدَ فِيْهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ اَمَّا مِنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ اِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَاَمَّا مَنْ اٰمَنَ وَعَمِلَ صٰلِحًا فَلَهُ جَزَاؤُ الْحُسْنٰى وَسَنَقُوْلُ لَهُ مِنْ اَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتّٰى اِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلٰى قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُوْنِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذٰلِكَ وَقَدْ اَحْطٰنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتّٰى اِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُوْنِهِمَا

لم ير الشطّ وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر^(١) ﴿ووجد عندها قوما﴾ أي وجد عند تلك العين الحارة ذات الطين قوماً من الأقوام ﴿قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً﴾ أي قلنا له بطريق الإلهام : إما أن تقتلهم أو تدعوهم بالحسنى إلى الهداية والإيمان قال المفسرون : كانوا كفاراً أخيره الله بين أن يعذبهم بالقتل ، أو يدعوهم إلى الإسلام فيحسن إليهم ﴿قال أما من ظلم فسوف نعذبه﴾ أي من أصرّ على الكفر فسوف نقتله ﴿ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً﴾ أي ثم يرجع إلى ربه فيعذبه عذاباً منكرًا فظليعاً في نار جهنم ﴿وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى﴾ أي وأما من آمن بالله وأحسن العمل في الدنيا وقدم الصالحات فجزاؤه الجنة يتنعم فيها ﴿وسنقول له من أمرنا يسراً﴾ أي نيسر عليه في الدنيا فلا نكلفه بما هو شاق بل بالسهل الميسر. اختار الملك العادل دعوتهم بالحسنى فمن آمن فله الجنة ، والمعاملة الطيبة ، والمعونة والتيسير ، ومن بقي على الكفر فله العذاب والنكال في الدنيا والآخرة ﴿ثم أتبع سبباً﴾ أي سلك طريقاً بجنده نحو المشرق ﴿حتى إذا بلغ مطلع الشمس﴾ أي حتى إذا وصل أقصى المعمورة من جهة الشرق حيث مطلع الشمس في عين الرائي ﴿وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ أي وجد الشمس تشرق على أقوام ليس لهم من اللباس والبناء ما يسترهم من حر الشمس فإذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب تحت الأرض ، وإذا غربت خرجوا لمكاسبهم قال قتادة : مضى ذو القرنين يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل الرجال إلا من آمن حتى أتى مطلع الشمس فأصاب قوماً في أسراب عراء ، ليس لهم طعام إلا ما أنضجته الشمس إذا طلعت ، حتى إذا زالت عنهم الشمس خرجوا من أسرابهم في طلب معاشهم ، وذكر لنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان ويقال إنهم الزنج^(٢) ﴿كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً﴾ أي كذلك فعل بأهل المشرق من آمن تركه ومن كفر قتله كما فعل بأهل المغرب وقد أحطنا علماً بأحواله وأخباره ، وعتاده وجنوده ، فأمره من العظمة وكثرة الرجال بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير ﴿ثم أتبع سبباً﴾ أي سلك طريقاً ثالثاً بين المشرق والمغرب يوصله جهة الشمال حيث الجبال الشاهقة ﴿حتى إذا بلغ بين السدين﴾ أي حتى إذا وصل إلى منطقة بين حاجزين عظيمين ، بمنقطع أرض بلاد الترك مما يلي أرمينية وأذربيجان قال الطبري : والسد : الحاجز بين الشيتين وهما هنا

(١) التفسير الكبير ٢١/١٦٦ . (٢) زاد المسير ٥/١٨٧ والطبري ١٦/١٤ .

قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٤٣﴾ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ
 نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٤٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ
 وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٤٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ
 ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٤٦﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٤٧﴾

جبلان سد ما بينهما ، فردم ذو القرنين حاجزاً بين يأجوج ومأجوج من ورائهم ليقطع مادة غوائلهم
 وشرهم عنهم^(١) ﴿وجد من دونها قوماً لا يكادون يفقهون قولاً﴾ أي وجد من وراء السدين قوماً
 متخلفين لا يكادون يعرفون لساناً غير لسانهم إلا بمشقة وعسر قال المفسرون : إنما كانوا لا يفقهون القول
 لغرابة لغتهم ، وبطء فهمهم ، وبعدهم عن مخالطة غيرهم ، وما فهم كلامهم إلا بواسطة ترجمان ﴿قالوا
 يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض﴾ أي قال القوم لذي القرنين : إن يأجوج
 ومأجوج - قبيلتان من بني آدم في خلقهم تشويه ، منهم مفرط في الطول ، ومنهم مفرط في القصر^(٢) - قوم
 مفسدون بالقتل والسلب والنهب وسائر وجوه الشر قال المفسرون : كانوا من أكلة لحوم البشر ، يخرجون
 في الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ، ولا يابساً إلا احتملوه ﴿فهل نجعل لك خرجاً﴾ أي هل نفرض
 لك جزءاً من أموالنا كضريبة وخراج ﴿على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾ أي لتجعل سداً يحمينا من شر
 يأجوج ومأجوج قال في البحر : هذا استدعاء منهم لقبول ما يبذلونه على جهة حسن الأدب^(٣) ﴿قال ما
 مكنتي فيه ربي خيراً﴾ أي ما بسطه الله علي من القدرة والملك خير مما تبذلونه لي من المال ﴿فأعينوني
 بقوة﴾ أي لا حاجة لي إلى المال فأعينوني بالأيدي والرجال ﴿أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾ أي أجعل
 بينكم وبينهم سداً منيعاً ، وحاجزاً حصيناً ، وهذه شهامة منه حيث رفض قبول المال وتطوع ببناء السد
 واكتفى بعون الرجال ﴿آتوني زبر الحديد﴾ أي أعطوني قطع الحديد واجعلوها لي في ذلك المكان
 ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ أي حتى إذا ساوى البناء بين جانبي الجبلين ﴿قال انفخوا﴾ أي
 انفخوا بالمنافخ عليه ﴿حتى إذا جعله ناراً﴾ أي جعل ذلك الحديد المتراكم كالنار بشدة الإجماع ﴿قال
 آتوني أفرغ عليه قطراً﴾ أي أعطوني أصب عليه النحاس المذاب قال الرازي : لما أتوه بقطع الحديد
 وضع بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسد ما بين الجبلين إلى أعلاهما ثم وضع المنافخ عليها حتى
 إذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمي فالتصق ببعضه ببعض وصار جبلاً صلداً^(٤)
 ﴿فما استطاعوا أن يظهروه﴾ أي فما استطاع المفسدون أن يعلوه ويتسوروه لعلوه وملاسته ﴿وما
 استطاعوا له نقباً﴾ أي وما استطاعوا نقبه من أسفل لصلابته وثخانتها ، وهذا السد المنيع أغلق ذو

(١) الطبري ١٥/١٦ . (٢) روى ذلك عن علي وابن عباس . (٣) البحر ٦/١٦٤ . (٤) التفسير الكبير ٢١/١٧٢ .

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءُ ۗ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿١٨﴾ * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿١٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿٢١﴾ أَحْسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ۗ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿٢٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿٢٤﴾

القرنين الطريق على يأجوج ومأجوج ﴿قال هذا رحمة من ربي﴾ أي قال ذو القرنين : هذا السدُّ نعمة من الله ورحمة على عباده ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ أي فإذا جاء وعد الله بخروج يأجوج ومأجوج وذلك قرب قيام الساعة ﴿جعله دكاء﴾ أي جعله الله مستويًا بالأرض وعاد متهدماً كأن لم يكن بالأمس ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾ أي كان وعده تعالى بخراب السدِّ وقيام الساعة كائناً لا محالة . . وههنا تنتهي قصة ذي القرنين ثم يأتي الحديث عن أهوال الساعة وشدائد القيامة قال تعالى ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾ أي تركنا الناس يوم قيام الساعة يضطرب بعضهم ببعض - لكثرتهم - كاضطراب موج البحر ﴿ونُفِخَ في الصور فجمعناهم جمعاً﴾ أي ونفخ في الصور النفخة الثانية فجمعناهم للحساب والجزاء في صعيد واحد جمعاً لم يتخلف منهم أحد ﴿وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً﴾ أي أبرزنا جهنم وأظهرناها للكافرين يوم جمع الخلائق حتى شاهدها بأهوالها عرضاً مخيفاً مفرعاً ﴿الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري﴾ أي هم الذين كانوا في الدنيا عمياً عن دلائل قدرة الله ووحدايته فلا ينظرون ولا يتفكرون ﴿وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾ أي لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله تعالى لظلمة قلوبهم قال أبو السعود : وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية ، وتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار فكأنهم عمي صم^(١) ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي أظن الكافرون أن يتخذوا بعض عبادي آلهة يعبدونهم دوني كالملائكة وعزير والمسيح ابن مريم ، وأن ذلك ينفعهم أو يدفع عنهم عذابي ؟ قال القرطبي : جواب الاستفهام محذوف تقديره أفحسبوا أن ذلك ينفعهم ، أو لا أعاقبهم^(٢) ﴿إننا أعتدنا جهنم للكافرين نُزُلًا﴾ أي هيأنا جهنم وجعلناها ضيافة لهم كالنزل المعد للضيف قال البيضاوي : وفيه تهكم بهم وتنبية على أن لهم وراءها من العذاب ما تستحق جهنم دونه^(٣) ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكافرين هل نخبركم بأخسر الناس عند الله ؟ ﴿الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا﴾ أي بطل عملهم وضاع في هذه الحياة الدنيا لأن الكفر لا تنفع معه طاعة قال الضحاك : هم القسيسون والرهبان يتعبدون ويظنون أن عبادتهم تنفعهم وهي لا تقبل منهم ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ أي يظنون أنهم يحسنون

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٨﴾ قُلْ لَوْ كَانُ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا ﴿٢٠﴾

بأفعالهم ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم﴾ أي كفروا بالقرآن وبالبعث والنشور فبطلت أعمالهم ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ أي ليس لهم عند الله قيمة ولا وزن ، ولا قدرٌ ولا منزلة وفي الحديث (يُؤتى بالرجل الطويل الأكل الشروب فلا يزن جناح بعوضة) ﴿ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هُزُوًا﴾ أي ذلك جزاؤهم وعقوبتهم نارُ جهنم بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله ورسله ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنوا بالله وعملوا بما يرضيه ﴿كانت لهم جنات الفردوس نُزُلًا﴾ أي لهم أعلى درجات الجنة وهي الفردوس منزلاً ومستقراً ﴿خالدين فيها لا يبغيون عنها حِوَلًا﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يطلبون عنها تحولاً قال ابن رواحة : في جنان الفردوس ليس يخافون : خُروجاً عنها ولا تحويلاً ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾ هذا تمثيل لسعة علم الله والمعنى لو كانت بحار الدنيا حبراً ومداداً وكتبت به كلمات الله وحكمه وعجائبه ﴿لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي﴾ أي لفني ماء البحر على كثرته وانتهى ، وكلامُ الله لا ينفد لأنه غير متناهٍ كعلمه جل وعلا ﴿ولو جئنا بمثله مدداً﴾ أي ولو أتينا بمثل ماء البحر وزدناه به حتى يكثر فإن كلام الله لا يتناهى ﴿قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾ أي قل لهم يا محمد إنما أنا إنسان مثلكم أكرمني الله بالوحي، وأمرني أن أخبركم أنه واحدٌ أحد لا شريك له ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ أي فمن كان يرجو ثواب الله ويخاف عقابه ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ أي فليخلص له العبادة ﴿ولا يُشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي لا يرثي بعمله ولا يتبغى بما يعمل غير وجه الله ، فإن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين ﴿مطلع . . ومغرب﴾ .

٢ - التشبيه البليغ ﴿ جعله ناراً ﴾ أي كالنار في الحرارة وشدة الإحمرار حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

٣ - الاستعارة ﴿ يموج في بعض ﴾ شبههم لكثرتهم وتداخل بعضهم في بعض بموج البحر المتلاطم واستعار لفظ يموج لذلك ففيه استعارة تبعية .

٤ - الاستعارة أيضاً ﴿ كانت أعينهم في غطاءٍ عن ذكرى ﴾ أي كانوا ينظرون فلا يعتبرون وتعرض عليهم الآيات الكونية فلا يؤمنون، ولم تكن أعينهم حقيقةً في غطاء وحجاب وإنما هو بطريق التمثيل .

٥ - الجناس الناقص ﴿ يحسبون أنهم يُحسنون ﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف، ويسمى أيضاً جناس التصحيف .

٧ - الاستفهام الذي يراد به التوبيخ والتقريع ﴿ أفحسب الذين كفروا ﴾ ؟

٨ - المقابلة اللطيفة ﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ﴾ مقابل ﴿ وأما من ظلم فسوف نعذبه .. ﴾ الآية .

لطيفة : كثيراً ما يرد في القرآن لفظ « حبط » وأصل الحبوط هو انتفاخ بطن الدابة حين تأكل نوعاً ساماً من الكلال ثم تلتقي حتفها ، وهذا اللفظ أنسب شيء لوصف الأعمال فإنها تنتفخ وأصحابها يظنونها صالحة ناجحة رابحة ثم تنتهي إلى البوار .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الكهف »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة مريم مكية ، وغرضها تقرير التوحيد ، وتنزيه الله جل وعلا عما لا يليق به ، وتثبيت عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء ، ومحور هذه السورة يدور حول التوحيد ، والإيمان بوجود الله ووحدانيته ، وبيان منهج المهتدين ، ومنهج الضالين .

* عرضت السورة الكريمة لقصص بعض الأنبياء مبتدئةً بقصة نبي الله « زكريا » وولده « يحيى » الذي وهبه على الكبر من امرأة عاقرة لا تلد ، ولكن الله قادرٌ على كل شيء ، يسمع دعاء المكروب ، ويستجيب لنداء الملهوف ، ولذلك استجاب الله دعاءه ورزقه الغلام النبيه .

* وعرضت السورة لقصة أعجب وأغرب ، تلك هي قصة « مريم العذراء » وإنجابه لطفلٍ من غير أب ، وقد شاعت الحكمة الإلهية أن تبرز تلك المعجزة الخارقة بميلاد عيسى من أم بلا أب ، لتظل آثار القدرة الربانية ماثلةً أمام الأبصار ، بعظمة الواحد القهار .

* وتحدثت كذلك عن قصة إبراهيم مع أبيه ، ثم ذكرت بالثناء والتبجيل رسل الله الكرام : « إسحاق ، يعقوب ، موسى ، هارون ، إسماعيل ، إدريس ، نوحا » وقد استغرق الحديث عن هؤلاء الرسل الكرام حوالي ثلثي السورة ، والهدف من ذلك إثبات « وحدة الرسالة » وأن الرسل جميعاً جاءوا لدعوة الناس إلى توحيد الله ، ونبذ الشرك والأوثان .

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد القيامة ، وعن أهوال ذلك اليوم الرهيب ، حيث يجثو فيه الكفرة المجرمون حول جهنم ليقذفوا فيها ، ويكونوا وقوداً لها .

* وختمت السورة الكريمة بتنزيه الله عن الولد ، والشريك ، والنظير ، وردت على ضلالات المشركين بأنصح بيان ، وأقوى برهان .

التَّسْمِيَةُ : سميت « سورة مريم » تخليداً لتلك المعجزة الباهرة ، في خلق إنسانٍ بلا أب ، ثم إنطاق الله للوليد وهو طفل في المهد ، وما جرى من أحداث غريبة رافقت ميلاد عيسى عليه السلام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْعَصَ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾

اللغات: ﴿وهن﴾ ضعف يقال وهن بين فهو وهنٌ والوهنُ ضعفُ القوة ﴿اشتعل﴾ الاشتعال انتشار شعاع النار ﴿عاقراً﴾ العاقر: التي لا تلد لكبر سنها ﴿عتياً﴾ العتي: النهاية في الكبر واليبس والجفاف يقال: عتا الشيخ كبر ووتى قال الشاعر:

إنما يُعذر الوليدُ ولا يُعذر من كان في الزمان عتياً^(١)
﴿حناناً﴾ الحنان: الشفقة والرحمة والمحبة، وأصله من حين الناقة على ولدها وحنانك تريد رحمتك قال طرفة:

أبا منذر أفنيت فاستبقت بعضنا
حنانك بعض الشر أهون من بعض^(٢)
﴿انتبذت﴾ ابتعدت وتنحّت ﴿سويًا﴾ مستوي الخلقه ﴿المخاض﴾ اشتداد وجع الولادة والطلق ﴿سرياً﴾ السري: النهر والجدول لأن الماء يسري فيه ﴿فرياً﴾ الفري: العظيم من الأمر.

التفسير: ﴿كهيعص﴾ حروف مقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن^(٣) وتقرأ: «كاف، ها، يا، عيّن، صاد» ﴿ذكرُ رحمة ربك عبده زكريا﴾ أي هذا ذكرُ رحمة ربك لعبده زكريا نخصه عليك يا محمد ﴿إذ نادى ربه نداءً خفياً﴾ أي حين ناجى ربه ودعاه بصوتٍ خفي لا يكاد يسمع قال المفسرون: لأن الإخفاء في الدعاء أدخل في الإخلاص وأبعد من الرياء ﴿قال رب إني وهن العظم مني﴾ أي دعا في ضراعة فقال يا رب: لقد ضعف عظمي، وذهبت قوتي من الكبر ﴿واشتعل الرأسُ شيباً﴾ أي انتشر الشيب في رأسي انتشار النار في الهشيم ﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ أي لم تخيب دعائي في وقت من الأوقات بل عودتني الإحسان والجميل فاستجب دعائي الآن كما كنت تستجيبه فيما مضى قال البيضاوي: هذا توسل بما سلف له من الاستجابة، وأنه تعالى عودته بالإجابة وأطمعه فيها، ومن حقّ الكريم أن لا يخيب من أطمعه^(٤) ﴿وإني خفتُ الموالي من ورائي﴾ أي خفت بني العم والعشيرة من بعد موتي أن يضيعوا الدين ولا يحسنوا وراثته العلم والنبوة ﴿وكانت امرأتي عاقراً﴾ أي لا تلد لكبر سنها أو لم تلد قط ﴿فهب لي من لدنك ولياً﴾ أي فارزقني من محض فضلك ولداً صالحاً

(١) القرطبي ٨٣/١١ . (٢) البحر ١٧٧/٦ . (٣) انظر ما كتبه في أول سورة البقرة . (٤) البيضاوي ١٤/٢ .

يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿١٩﴾ يَنْزَكِرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٢١﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ ۖ وَقَدْ خَلَقْتكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۗ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿٢٣﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً

يتولاني ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ أي يرثني ويرث أجداده في العلم والنبوة قال البيضاوي : المراد وراثته الشرع والعلم فإن الأنبياء لا يورثون المال^(١) ﴿واجعله ربّ رضيعاً﴾ أي اجعله يارب مرضياً عندك قال الرازي : قدّم زكريا عليه السلام على طلب الولد أموراً ثلاثة : أحدها : كونه ضعيفاً، والثاني : أن الله ماردّ دعاءه البتة، والثالث : كون المطلوب بالدعاء سبباً للمنفعة في الدين ثم صرح بسؤال الولد وذلك مما يزيد الدعاء توكيداً لما فيه من الاعتماد على حول الله وقوته والتبري عن الأسباب الظاهرة^(٢) ﴿يا زكريا إِنَّا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾ أي نبشرك بواسطة الملائكة بغلام يسمى يحيى كما في آل عمران ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى﴾ ﴿لم نجعل له من قبل سميّاً﴾ أي لم يسم أحد قبله بيحيى فهو اسم فذ غير مسبوق سّماه تعالى به ولم يترك تسميته لوالديه وقال مجاهد : ليس له شبيه في الفضل والكمال ﴿قال ربّ أنسى يكون لي غلام﴾ أي كيف يكون لي غلام ؟ وهو استفهام تعجب وسرور بالأمر العجيب ﴿وكانت امرأتي عاقراً﴾ أي والحال أن امرأتي كبيرة السن لم تلد في شبابه فكيف وهي الآن عجوز !! ﴿وقد بلغت من الكبر عتياً﴾ أي بلغت في الكبر والشيوخوخة نهاية العمر قال المفسرون : كان قد بلغ مائة وعشرين سنة ، وامرأته ثمان وتسعين سنة ، فأراد أن يطمئن ويعرف الوسيلة التي يرزقه بها هذا الغلام ﴿قال كذلك قال ربك هو عليّ هين﴾ أي قال الله لزكريا : هكذا الأمر أخلقه من شيخين كبيرين ، وخلقته وإيجاده سهل يسير عليّ ﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾ أي كما خلقتك من العدم ولم تك شيئاً مذكوراً فأنا قادر على خلق يحيى منكما قال المفسرون : ليس في الخلق هين وصعب على الله ، فوسيلة الخلق للصغير والكبير ، والجليل والحقير واحدة ﴿كن فيكون﴾ وإنما هو أهون في اعتبار الناس ، فإن القادر على الخلق من العدم قادر على الخلق من شيخين هرمين ﴿قال ربّ اجعل لي آية﴾ أي اجعل لي علامة تدل على حمل امرأتي ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً﴾ أي علامتك ألا تستطيع تكليم الناس ثلاثة أيام بلياليهن وأنت سوي الخلق ليس بك خرس ولا علة قال ابن عباس : اعتقل لسانه من غير مرض وقال ابن زيد : حبس لسانه فكان لا يستطيع أن يكلم أحداً وهو مع ذلك يسبح ويقرأ التوراة لم يكن الإنجيل ظهر بعد لأن هذا قبل ولادة عيسى عليه السلام فإذا أراد كلام الناس لم يستطع أن يكلمهم^(٣) ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ أي أشرف عليهم من المصلى وهو بتلك

وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَلْحَقِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾
 وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَأَذْكُرِي
 الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا
 فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ ۖ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾

الصفة ﴿فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وأصيلاً﴾ أي أشار إلى قومه بأن سبحوا الله في أوائل النهار وأواخره ، وكان كلامه مع الناس بالإشارة لقوله تعالى في آل عمران ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾ ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ في الكلام حذف والتقدير فلما ولد يحيى وكبر وبلغ السن الذي يؤمر فيه قال الله له : يا يحيى خذ التوراة بجد واجتهاد ﴿وآتيناها الحكم صبياً﴾ أي أعطيناها الحكمة ورجاحة العقل منذ الصغر ، روي أن الصبيان قالوا ليحيى : اذهب بنا نلعب فقال لهم : ما للعب خلقت ، وقيل : أعطيت النبوة منذ الصغر والأول أظهر قال الطبري : المعنى أعطيناها الفهم لكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه سن الرجال ^(١) ﴿وحناناً من لدنا وزكاة﴾ أي فعلنا ذلك رحمة منا بأبويه وعظفاً عليه وتزكية له من الخصال الذميمة ﴿وكان تقياً﴾ أي عبداً صالحاً متقياً لله ، لم يهمل بمعضية قط قال ابن عباس : طاهراً لم يعمل بذنوب ﴿وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً﴾ أي جعلناه باراً بأبيه وأمه محسناً إليهما ولم يكن متكبراً عاصياً لربه ﴿وسلاماً عليه يوم وُلِدَ ويوم يموت ويوم يُبعثُ حياً﴾ أي سلام عليه من الله من حين مولده إلى حين مبعثه ، في يوم ولادته وفي يوم موته ويوم يُبعث من قبره قال ابن عطية : حيّاه في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف ، والحاجة ، والافتقار إلى الله ^(٢) ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ هذه هي القصة الثانية في هذه السورة وهي أعجب من قصة «ميلاد يحيى» لأنها ولادة عذراء من غير بعل ، وهي أغرب من ولادة عاقر من بعلها الكبير في السن والمعنى اذكر يا محمد قصة مريم العجبية الغريبة الدالة على كمال قدرة الله ﴿إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ أي حين تنحّت واعتزلت أهلها في مكان شرقي بيت المقدس لتتفرغ لعبادة الله ﴿فاتخذت من دونهم حجاباً﴾ أي جعلت بينها وبين قومها ستراً وحاجزاً ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ أي أرسلنا إليها جبريل عليه السلام ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ أي تصوّر لها في صورة البشر التام الخلقة قال ابن عباس : جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جعد الشعر مستوى الخلقة ^(٣) قال المفسرون : إنما تمثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على السماع لكلامه ، ودلّ على عفائها وورعها أنها تعوذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفاتكة في الحسن ^(٤) ﴿قالت إنني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ أي فلما رآته فرعت وخشيت أن يكون إنما أرادها بسوء فقالت : إنني أحتمي

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ
 بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيُّ هِينٌ ﴿٢١﴾ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢٢﴾
 * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٣﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا
 وَكُنتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٤﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٥﴾ وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ بِجِذْعِ
 النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٦﴾

والتجىء إلى الله منك ، وجواب الشرط محذوف تقديره إن كنت تقياً فاتركني ولا تؤذني ﴿قال إنما أنا
 رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾ أي قال لها جبريل مزيلاً لما حصل عندها من الخوف : ما أنا إلا
 ملكٌ مرسلٌ من عند الله إليك ليهب لك غلاماً طاهراً من الذنوب ﴿قالت أنسى يكون لي غلام﴾ أي
 كيف يكون لي غلام ؟ وعلى أي صفة يوجد هذا الغلام مني ؟ ﴿ولم يمسنني بشرٌ ولم أكُ بغياً﴾ أي
 ولست بذات زوج حتى يأتيني ولد ولست بزانية ﴿قال كذلك قال ربك هو علي هين﴾ أي كذلك الأمر
 حكم ربك بمجيء الغلام منك وإن لم يكن لك زوج ، فإن ذلك على الله سهل يسير ﴿ولنجعله آية
 للناس ورحمةً منا﴾ أي وليكون مجيئه دلالةً للناس على قدرتنا العجيبة ورحمة لهم ببعثته نبياً يهتدون
 بإرشاده ﴿وكان أمراً مقضياً﴾ أي وكان وجوده أمراً مفروغاً منه لا يتغير ولا يتبدل لأنه في سابق علم
 الله الأزلي ﴿فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً﴾ انتهى الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء قال
 المفسرون : إن جبريل نفخ في جيب درعها فدخلت النفخة في جوفها فحملت به وتنحت إلى مكان بعيد
 ومعنى الآية أنها حملت بالجنين فاعتزلت - وهو في بطنها - مكاناً بعيداً عن أهلها خشية أن يعيروها بالولادة
 من غير زوج ﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة﴾ أي فأجأها ألم الطلق وشدة الولادة إلى ساق نخلة
 يابسة لتعتمد عليه عند الولادة ﴿قالت يا ليتني ميتٌ قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ أي قالت يا ليتني
 كنت قد ميتٌ قبل هذا اليوم وكنت شيئاً تافهاً لا يُعرف ولا يُذكر^(١) قال ابن كثير : عرفت أنها سبّلتى وتمتحن
 بهذا المولود فتمنت الموت لأنها عرفت أن الناس لا يصدقونها في خبرها ، وبعدها كانت عندهم عابدةً
 ناسكة تصبح عاهرة زانية ولذلك قالت ما قالت^(٢) ﴿فناداها من تحتها ألا تحزني﴾ أي فناداها الملك من
 تحت النخلة قائلاً لها : لا تحزني لهذا الأمر ﴿قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ أي جعل لك جدولاً صغيراً
 يجري أمامك قال ابن عباس : ضرب جبريل برجله الأرض فظهرت عين ماءٍ عذب فجرى جدولاً
 ﴿وهزي إليك بجذع النخلة﴾ أي حركي جذع النخلة اليابسة ﴿تساقط عليك رطباً جنياً﴾ أي
 يتساقط عليك الرطب الشهي الطري قال المفسرون : أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء
 موات الجذع بعد رؤيتها عين الماء العذب الذي جرى جدولاً ، وذلك ليسكن ألمها وتعلم أن ذلك كرامة

(١) هذا قول قتادة وقال ابن عباس ﴿وكنت نسياً منسياً﴾ أي لم أخلق ولم أك شيئاً . (٢) مختصر ابن كثير ٤٤٨/٢ .

فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ
 إِنْسِيًّا ﴿٣٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۗ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٣٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ
 امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٣٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٣٩﴾ قَالَ
 إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٤٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ
 حَيًّا ﴿٤١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٤٢﴾

من الله لها ﴿فكلي واشربي﴾ أي كلي من هذا الرطب الشهي ، واشربي من هذا الماء العذب السلسيل ﴿وقري عينا﴾ أي طيبي نفساً بهذا المولود ولا تحزني ﴿فأما ترين من البشر أحدا﴾ أي فإن رأيت أحداً من الناس وسألك عن شأن المولود ﴿فقولي إنني نذرت للرحمن صوما﴾ أي نذرت السكوت والصمت لله تعالى ﴿فلن أكلم اليوم إنسيا﴾ أي لن أكلم أحداً من الناس . . أمرت بالكف عن الكلام ليكفيها ولدها ذلك فتكون آية باهرة ﴿فأتت به قوماً تحمله﴾ أي أتت قوماً بعد أن طهرت من النفاس تحمل ولدها عيسى على يديها ﴿قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً﴾ أي فلما رأوها وابنها أعظموا أمرها واستنكروه وقالوا لها : لقد جئت شيئاً عظيماً منكراً ﴿يا أخت هارون ما كان أبوك امرء سوء﴾ أي يا شبيهة هارون في الصلاح والعبادة ما كان أبوك رجلاً فاجراً ﴿وما كانت أمك بغياً﴾ أي وما كانت أمك زانية فكيف صدر هذا منك وأنت من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة ؟ قال قتادة : كان هارون رجلاً صالحاً في بني إسرائيل مشهوراً بالصلاح فشبهاها^(١) به ، وليس بهارون أخي موسى لأن بينهما ما يزيد على ألف عام وقال السهيلي : هارون رجل من عباد بني إسرائيل المجتهدين كانت مريم تُشبه به في اجتهادها وليس بهارون أخي موسى بن عمران فإن بينهما دهماً طويلاً^(٢) ﴿فأشارت إليه﴾ أي لم تجهم وأشار إلى عيسى ليكلموه ويسألوه ﴿قالوا كيف نكلم من كان في المهدي صبياً﴾ أي قالوا متعجبين : كيف نكلم طفلاً رضيعاً لا يزال في السرير يغتذي بلبان أمه ؟ قال الرازي : روي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وكلمهم ، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان^(٣) ﴿قال إنني عبد الله﴾ أي قال عيسى في كلامه حين كلمهم : أنا عبد لله خلقتني بقدرته من دون أب ، قدام ذكر العبودية ، ليبطل قول من ادعى فيه الربوبية ﴿أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ أي قضى ربي أن يؤتيني الإنجيل ويجعلني نبياً ، وإنما جاء بلفظ الماضي لإفادة تحققه فإن ما حكم به الله أولاً لا بد إلا أن يقع ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾ أي جعل في البركة والخير والنفع للعباد حيثما كنت وأينما حللت ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ أي أوصاني بالمحافظة على الصلاة والزكاة مدة حياتي ﴿وبراً بوالدتي﴾ أي وجعلني باراً بوالدتي محسناً لها ﴿ولم يجعلني جباراً شقياً﴾ أي ولم يجعلني

وَأَسَلَّمُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمٍ أَمُوتُ وَيَوْمٍ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُ تَوْنًا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾

متعظماً متكبراً على أحد شقياً في حياتي ﴿والسلام عليّ يومُ ولدتُ ويومُ أموتُ ويومُ أُبعثُ حياً﴾ أي سلام الله عليّ في يوم ولادتي ، وفي يوم مماتي ، وفي يوم خروجي حياً من قبري ، هذا ما نطق به المسيح عليه السلام وهو طفل رضيع في المهد . . وهكذا يعلن عيسى عبوديته لله ، فليس هو إلهاً ، ولا ابن إله ، ولا ثالث ثلاثة كما يزعم النصارى ، إنما عبدٌ ورسول ، يحيا ويموت كسائر البشر ، خلقه الله من أم دون أب ليكون آية على قدرة الله الباهرة ، ولهذا جاء التعقيب المباشر ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾ أي ذلك هو القول الحق في عيسى بن مريم لا ما يصفه النصارى من أنه ابن الله ، أو اليهود من أنه ابن زنى ويشكون في أمره ويمترون ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾ أي ما ينبغي لله ولا يجوز له أن يتخذ ولداً ﴿سبحانه﴾ أي تنزه الله عن الولد والشريك ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي إذا أراد شيئاً وحكم به قال له كن فكان ، ولا يحتاج إلى معاناة أو تعب ، ومن كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد ؟ قال المفسرون : وهذا كالدليل لما سبق كأنه قال : إن اتخاذ الولد شأن العاجز الضعيف المحتاج الذي لا يقدر على شيء ، وأما القادر الغني الذي يقول للشيء ﴿كن فيكون﴾ فلا يحتاج في اتخاذ الولد إلى إجهال الأنثى وحيث أوجده بقوله ﴿كن﴾ لا يسمى ابناً له بل هو عبده ، فهو تكبيت وإلزام لهم بالحجج الباهرة ﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ أي ومما أمر به عيسى قومه وهو في المهد أن أخبرهم أن الله ربه وربهم فليفردوه بالعبادة هذا هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ أي اختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى وصاروا أحزاباً متفرقين ، فمنهم من يزعم أنه ابن الله ، ومنهم من يزعم أنه ابن زنى ﴿فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ أي ويل لهم من المشهد الهائل ومن شهود هول الحساب والجزاء ﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم في ذلك اليوم الرهيب ﴿لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾ أي لكن الظالمون في هذه الدنيا في بعدٍ وغفلة عن الحق واضح جلي ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ أي أنذر الخلائق وخوفهم يوم القيامة يوم يتحسر المسيء إذ لم يحسن ، والمقصر إذ لم يزد من الخير ﴿إذ قضى الأمر﴾ أي قضى أمر الله في الناس ، فريق في الجنة وفريق في السعير ﴿وهم في غفلة﴾ أي وهم اليوم في غفلة سادرون ﴿وهم لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون بالبعث والنشور ﴿إننا نحن

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤١﴾

نرث الأرض ومن عليها ﴿٤١﴾ أي نحن الوارثون للأرض وما عليها من الكنوز والبشر ﴿وإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي مرجع الخلائق ومصيرهم إلينا للحساب والجزاء .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

- ١ - الكناية ﴿وهن العظم مني﴾ كناية عن ذهاب القوة وضعف الجسم .
- ٢ - الاستعارة ﴿اشتعل الرأس شيباً﴾ شبه انتشار الشيب وكثرته باشتعال النار في الحطب واستعير الاشتعال للانتشار واشتق منه اشتعل بمعنى انتشر ففيه استعارة تبعية .
- ٣ - الطباق بين ﴿ولد .. ويموت﴾ .
- ٤ - جناس الاشتقاق ﴿نادى .. نداء﴾ .
- ٥ - الكناية اللطيفة ﴿ولم يمسنني بشر﴾ كناية عن المعاشرة الزوجية بالجماع .
- ٦ - صيغة التعجب ﴿أسمع .. وأبصر﴾ .
- ٧ - السجع ﴿سرياً ، بغياً ، صبياً ، نبياً﴾ وهو من المحسنات البديعة .

تبنيته : في يوم القيامة تشتد الحسرات حتى لكأن اليوم محض للحسرة لا شيء فيه سواها ، وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن الرسول ﷺ قال : (إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال يا أهل الجنة : هل تعرفون هذا؟ فيشربون - أي يمدون أعناقهم - وينظرون ويقولون نعم هذا الموت ، ثم يقال يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشربون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت ، فيؤمر به فيذبح ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ ﴿وأُنذِرهم يوم الحسرة ..﴾ الآية) .

قال الله تعالى : ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً .. إلى .. هل تعلم له سويّاً﴾

من آية (٤١) إلى نهاية آية (٦٥) .

المناسكبة : لما ذكر تعالى « قصة مريم » واختلاف النصارى في شأن عيسى حتى عبده من دون الله ، أعقبها بذكر « قصة إبراهيم » وتحطيمه الأصنام لتذكير الناس بما كان عليه خليل الرحمن من توحيد

الربّ الديان ، وسواء في الضلال من عبد بشراً أو عبد حجراً ، فالنصارى عبدوا المسيح ، ومشركو العرب عبدوا الأوثان .

اللغة : ﴿صديقاً﴾ من أبنية المبالغة ومعناه كثير الصدق ﴿ملياً﴾ دهنراً طويلاً من قولهم أمليتُ لفلان في الأمر إذا أطلت له قال الشاعر :

فتصدّعت شُمُّ الجبال لموته وبكتُ عليه الرُمُلاتُ ملياً^(١)
﴿حفيماً﴾ الحفيُّ : المبالغ في البر واللطف به ﴿خلف﴾ الخلف : بسكون اللام الذي يخلف سلفه بالشر وبفتحها الذي يخلفه بالخير يقال جعلك الله خير خلفٍ لخير سلف وقال الشاعر :

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيتُ في خُلف كجلد الأجرِب^(٢)
﴿غياً﴾ : شراً وضللاً قال أهل اللغة : كل شر عند العرب فهو غي ، وكل خير فهو رشاد .

سببُ النزول : عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت الآية ﴿وما ننزل إلا بأمر ربك . . . الآية﴾^(٣) .

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾

التفسير : ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم﴾ أي اذكر يا محمد في الكتاب العزيز خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ﴿إنه كان صديقاً نبياً﴾ أي ملازماً للصدق مبالغاً فيه ، جامعاً بين الصديقية والنبوة والغرضُ تنبيه العرب إلى فضل إبراهيم الذي يزعمون الانتساب إليه ثم يعبدون الأوثان مع أنه إمام الحنفاء وقد جاء بالتوحيد الصافي الذي دعاهم إليه خاتم المرسلين ﴿إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ أي ناداه متلطفاً بخطابه ، مستميلاً له نحو الهداية والإيمان ، يا أبت لم تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر ، ولا يجلب لك نفعاً أو يدفع عنك ضرراً ؟ ﴿يا أبت إنني قد جاءني من العلم ما لم يأتك﴾ كرر النصح باللطف ولم يصف أباه بالجهل الشنيع في عبادته للأصنام وإنما ترفق وتلطف في كلامه أي جاءني من العلم بالله ومعرفة صفاته القدسية ما لا تعلمه أنت ﴿فاتبعني أهدك صراطاً سويماً﴾ أي اقبل نصيحتي وأطعني أرشدك إلى طريق مستقيم فيه النجاة من المهالك وهو دين الله الذي لا عوج فيه ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾ أي لا تطع أمر الشيطان في الكفر وعبادة الأوثان ﴿إن الشيطان كان للرحمن عصياً﴾ أي إن الشيطان عاصٍ للرحمن ، مستكبر على عبادة ربه ، فمن

يَأْتِي إِتِي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ
 إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَنْ لَدَّتْهُ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرُنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي
 حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا
 اعْتَرَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴿٤٩﴾ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٥٠﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا

أطاعه أغواه ، قال القرطبي : وإنما عبّر بالعبادة عن الطاعة لأن من أطاع شيئاً في معصية الله فقد عبده (١)
 ﴿يا أبتِ إنني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً﴾ تحذير من سوء العاقبة والمعنى
 أخاف أن تموت على كفرك فيحل بك عذاب الله الأليم وتكون قريناً للشيطان بالخلود في النيران قال الإمام
 الفخر : وإيراد الكلام بلفظ ﴿يا أبت﴾ في كل خطاب دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن
 العقاب ، وإرشاده إلى الصواب ، وقد رتب إبراهيم الكلام في غاية الحسن ، لأنه نبهه أولاً إلى بطلان
 عبادة الأوثان ، ثم أمره باتباعه في الاستدلال وترك التقليد الأعمى ، ثم ذكره بأن طاعة الشيطان غير
 جائزة في العقول ، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام مع رعاية الأدب والرفق ، وقوله ﴿إنني
 أخاف﴾ دليل على شدة تعلق قلبه بمصالحه قضاء لحق الأبوة (٢) ﴿قال أراغب أنت عن إلهي يا
 إبراهيم﴾ أي قال له أبوه أزر : أترك يا إبراهيم عبادة إلهي ومنصرفاً عنها ؟ استفهام فيه معنى التعجب
 والإنكار لإعراضه عن عبادة الأوثان كأن ترك عبادتها لا يصدر عن عاقل قال البيضاوي : قابل أبوه
 استعطافه ولطفه في الإرشاد بالفظاظه وغلظة العناد ، فناداه باسمه ولم يقابل قوله ﴿يا أبت﴾ بـ « يا
 ابني » وقدم الخبر وصدّره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة كأنها مما لا يرغب عنها عاقل (٣) ، ثم هدّده بقوله
 ﴿لئن لم تنته لأرجمك﴾ أي لئن لم تترك شتم وعيب إلهي لأرجمك بالحجارة ﴿واهجرني ملياً﴾ أي
 اهجرني دهماً طويلاً قال السدي : أبداً . . هذه الجهالة تلقى « أزر » الدعوة إلى الهدى ، وبهذه القسوة
 قابل القول المؤدّب المهذّب ، وكذلك شأن الكفر مع الإيمان ، وشأن القلب الذي هدّبه الإيمان ، والقلب
 الذي أفسده الطغيان ﴿قال سلام عليك سأستغفر لك ربي﴾ أي قال إبراهيم في جوابه : أمّا أنا فلا
 ينالك مني أذى ولا مكروه ، ولا أقول لك بعد ما يؤذيك لحرمة الأبوة ، وسأسال الله أن يهديك ويغفر
 لك ذنبك ﴿إنه كان بي حفيماً﴾ أي مبالغاً في اللطف بي والاعتناء بشأني ﴿وأعتزلكم وما تدعون
 من دون الله﴾ أي أترككم وما تعبدون من الأوثان وأرتحل عن دياركم ﴿وأدعو ربي﴾ أي وأعبد ربي
 وحده مخلصاً له العبادة ﴿عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيماً﴾ أي راجياً بسبب إخلاصي العبادة له ألا
 يجعلني شقيماً ، وفيه تعريض بشقاوتهم بدعاء إلهتهم . . وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم
 للأوثان ، وهجر الأهل والأوطان ، فلم يتركه الله وحيداً بل وهب له ذريةً وعوضه خيراً ﴿فلما اعترههم

وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ﴿٥١﴾ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٢﴾
 وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَأَذْكُرُ فِي
 الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٥﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ

وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب ﴿٥٠﴾ قال المفسرون : لما هاجر إبراهيم إلى أرض الشام ، واعتزل أباه وقومه في الله ، أبدله الله من هو خيرٌ منهم ، فوهب له إسحق ويعقوب أولاداً أنبياء ، فأنس الله بهما وحشته عن فراق قومه بأولئك الأولاد الأطهار ، ويعقوب ابن اسحق ، وهما شجرتا الأنبياء فقد جاء من نسلهما أنبياء بني إسرائيل قال ابن كثير : المعنى جعلنا له نسلًا وعقباً أنبياء ، أقر الله بهم عينه في حياته بالنبوة^(١) ولهذا قال ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ أي كل واحدٍ منهما جعلناه نبياً ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ أي أعطينا الجميع - إبراهيم وإسحق ويعقوب - كل الخير الديني والديني ، من المال والولد والعلم والعمل ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي جعلنا لهم ذكراً حسناً في الناس ، لأن جميع أهل الملل والأديان يشنون عليهم لما لهم من الخصال المرضية ، ويصلون على إبراهيم وعلى آله إلى قيام الساعة ، قال الطبري : أي رزقناهم الثناء الحسن ، والذكر الجميل في الناس^(٢) ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ﴾ أي اذكر يا محمد لقومك في القرآن العظيم خبر موسى الكليم ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ أي استخلصه الله لنفسه ، واصطفاه من بين الخلق لكلامه ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ أي من الرسل الكبار ، والأنبياء الأطهار ، جمع الله له بين الوصفين الجليلين ، وإنما أعاد لفظ « كان » لتفخيم شأن النبي المذكور ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي نادينا موسى من جهة جبل الطور من ناحية اليمين حين كلمناه بلا واسطة ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ أي أذنينا للمناجاة حين كلمناه قال ابن عباس : أدني موسى من الملكوت ورفعت له الحُجُبَ حتى سمع صريف الأقلام^(٣) قال الزمخشري : شبهه بمن قرَّبه بعض العظماء للمناجاة حيث كلمه بغير واسطة ملك ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ أي وهبنا له من نعمتنا عليه أخاه هارون فجعلناه نبياً إجابة لدعائه حين قال ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي﴾ جعلناه له عضداً وناصرًا ومعيناً ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ أي اذكر يا محمد في القرآن العظيم خبر جدك « إسماعيل » الذبيح ابن إبراهيم ، وهو أبو العرب جميعاً ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ أي كان صادقاً في وعده ، لا يعد بوعده إلا وفي به قال المفسرون : وذكر بصدق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً وإكراماً ، ولأنه عانى في الوفاء بالوعد ما لم يعاناه غيره من الأنبياء ، فمن مواعيده الصبر وتسليم نفسه للذبح فلذلك أثنى الله عليه ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ أي جمع الله له بين الرسالة والنبوة قال ابن كثير : وفي الآية دليل على شرف إسماعيل على أخيه إسحق لأنه إنما وُصف بالنبوة فقط ، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة^(٤) ، ومن إسماعيل جاء خاتم المرسلين محمد ﷺ ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ أي كان

رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾
 أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ
 وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ * نَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ
 أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ
 يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾

يحث أهله على طاعة الله ، وبخاصة الصلاة التي هي عماد الدين ، والزكاة التي بها تتحقق سعادة المجتمع ﴿وكان عند ربه مرضياً﴾ أي نال رضى الله قال الرازي : وهذا نهاية المدح لأن المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات ^(١) ﴿واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً﴾ أي اذكر يا محمد في الكتاب الجليل خبر إدريس إنه كان ملازماً للصدق في جميع أحواله ، موحياً إليه من الله قال المفسرون : إدريس هو جد نوح ، وأول مرسل بعد آدم ، وأول من خط بالقلم ولبس المخيط ، وكانوا من قبل يلبسون الجلود ، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ أي رفعنا ذكره وأعلينا قدره ، بشرف النبوة والزلفى عند الله ^(٢) ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾ أي أولئك المذكورون هم أنبياء الله ورسله الكرام ، الذين قصصنا عليك خبرهم في هذه السورة - وهم عشرة أولهم زكريا وآخرهم إدريس - وهم الذين أنعم الله عليهم بشرف النبوة ﴿من ذرية آدم﴾ أي من نسل آدم كإدريس ﴿وممن حملنا مع نوح﴾ كإبراهيم فإنه من ذرية سام بن نوح ﴿وممن ذرية إبراهيم﴾ كإسماعيل وإسحق ويعقوب ﴿وإسرائيل﴾ أي ومن ذرية إسرائيل وهو « يعقوب » كموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ﴿وممن هدينا واجتبتنا﴾ أي ومن هديناهم للإيمان واصطفيناهم لرسالتنا ووحينا ﴿إذا تلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أي إذا سمعوا كلام الله سجدوا وبكوا من خشية الله مع ما لهم من علو الرتبة ، وسمو النفس ، والزلفى من الله تعالى ، قال القرطبي : وفي الآية دلالة على أن آيات الرحمن تأثيراً في القلوب ^(٣) ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾ أي جاء من بعد هؤلاء الأتقياء قوم أشقياء ، تركوا الصلوات وسلكوا طريق الشهوات ﴿فسوف يلقون غيًّا﴾ أي سوف يلقون كل شر وخسار ودمار ، قال ابن عباس : غيٌّ وادٍ في جهنم ، وإن أودية جهنم لتستعبد بالله من حره ^(٤) ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ أي إلا من تاب وأناب وأصلح عمله ﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً﴾ أي فأولئك يسعدون في الجنة ولا يُنقصون من جزاء أعمالهم شيئاً ﴿جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب﴾ أي هي جنات إقامة التي وعدهم بها

(١) الفخر الرازي ٢٣٢/٢١ . (٢) وقيل المراد رفعه إلى السماء الرابعة .

(٣) القرطبي ١٢٠/١١ . (٤) القرطبي ١٢٥/١١ .

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١٧﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ
كَانَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿١٩﴾
رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٢٠﴾

رَبِّهِمْ فَأَمَّنُوا بِهَا بِالْغَيْبِ قَبْلَ أَنْ يَرَوْهَا تَصَدِيقًا بوعده تعالى ﴿إنه كان وعده مأتياً﴾ أي إن وعده تعالى
بالجنة أتٍ وحاصل لا يُخْلَفُ ﴿لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً﴾ أي لا يسمعون في الجنة شيئاً من فضول
الكلام ، لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم على وجه التحية والإكرام ، والاستثناء منقطع ﴿ولهم
رزقهم فيها بكرةً وعشيًّا﴾ أي ولهم ما يشتهون في الجنة من أنواع المطاعم والمشارب بدون كدٍ ولا
تعب ، ولا تنغصٍ ولا انقطاع ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيًّا﴾ أي هذه الجنة التي
وصفنا أحوال أهلها هي التي نورثها لعبادنا المتقين ﴿وما ننزل إلا بأمر ربك﴾ هذا من كلام جبريل
لرسول الله ﷺ حين احتبس عنه فترة من الزمن والمعنى : ما ننزل إلى الدنيا إلا بأمر الله وإذنه ﴿له ما
بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك﴾ أي لله جل وعلا جميع الأمر ، أمر الدنيا والآخرة ، وهو المحيط
بكل شيء لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة ، فكيف نقدم على فعل شيء إلا بأمره وإذنه ؟
﴿وما كان ربك نسياً﴾ أي لا ينسى شيئاً من أعمال العباد ﴿ربُّ السموات والأرض وما بينهما
فاعبده﴾ أي هو ربُّ العوالم علويها وسفليها فاعبده وحده ﴿واصطبرْ لعبادته﴾ أي اصبر على تكاليف
العبادة ﴿هل تعلم له سمياً﴾ أي هل تعلم له شبيهاً ونظيراً ؟

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الكناية اللطيفة ﴿وجعلنا لهم لسان صدقٍ علياً﴾ كتنى عن الذكر الحسن والثناء الجميل باللسان
لأن الثناء يكون باللسان فلذلك قال ﴿لسان صدق﴾ كما يكنى عن العطاء باليد .

٢ - الاستعارة ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ شبه المكانة العظيمة والمنزلة السامية بالمكان العالي بطريق
الاستعارة .

٣ - المبالغة ﴿صديقاً نبياً﴾ أي مبالغاً في الصدق .

٤ - الإشارة بالبعيد لعلو الرتبة ﴿أولئك الذين أنعم﴾ فما فيه من معنى البعد للإشادة بعلو رتبهم
وبعد منزلتهم في الفضل .

٥ - الجناس الناقص ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ لتغير الحركات والشكل .

٦ - الطباق ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا﴾ وبين ﴿بكرةً .. وعشياً﴾ .

٧ - السجع الحسن الرصين ﴿علياً ، حفيماً ، نبياً﴾ .

فكائِدَة : في قول إبراهيم عليه السلام « يا أبتِ » تَلَطَّفُ واستدعاء ، والتاء عوضٌ عن ياء الإضافة لأن أصله « يا أبي » ولهذا لا يُجمع بينهما .

تَبْدِيهٌ : ذكر السيوطي في التحبير أن إبراهيم عليه السلام عاش من العمر مائة وخمسة وسبعين سنة ، وبينه وبين آدم ألفاً سنة ، وبينه وبين نوح ألف سنة ، ومنه تفرعت شجرة الأنبياء .

قال الله تعالى : ﴿ويقول الإنسان أتذا ما متُّ لسوف أُخرج حياً .. إلى .. أو تسمع لهم ركزاً﴾ من آية (٦٦) إلى آية (٩٨) نهاية السورة .

المناسِكة : لما ذكر تعالى طائفةً من قصص الأنبياء للعظة والاعتبار ، وكان الغرض الأساسي للسورة الكريمة إثبات قدرة الله على الإحياء والإفناء ، وإثبات يوم المعاد ، ذكر تعالى هنا بعض شبهات المكذبين للبعث والنشور وردَّ عليها بالحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ، وختم السورة الكريمة ببيان مآل السعداء والأشقياء .

اللغْكَرُ : ﴿جثياً﴾ جمع جاثٍ يقال : جثا إذا قعد على ركبتيه من شدة الهول وهي قعدة الخائف الدليل قال الكُميت :

هُمُو تركوا سراثهم جثياً وهم دُونَ السَّراة مقرئينا^(١)

﴿عِتياً﴾ عصباناً وتمرداً عن الحق ﴿ندياً﴾ الندي والنادي : الذي يجتمع فيه القوم للحدث والمشورة قال الجوهري : الندي مجلس القوم ومحدثهم وكذلك الندوة والنادي فإن تفرقوا فليس بندي^(٢) ﴿أثاثاً﴾ الأثاث : متاع البيت ﴿رثياً﴾ منظرًا حسنًا ﴿تؤزهم﴾ الأزُّ : التهيج والإغراء ، قال أهل اللغة : الأزُّ والهزُّ والاستفزاز متقاربة ومعناها التهيج وشدة الإزعاج ومنه أزيز الرجل وهو غليانه وحركته ﴿وفدأ﴾ جمع وافد وهو الذي يقدم على سبيل التكرمة معززاً مكرماً ﴿وردأ﴾ مشاةً عطاشاً قال الرازي : والورد اسم للعطاش لأن من يرد الماء لا يرده إلا للتعطش^(٣) ﴿إدأ﴾ منكرًا عظيمًا قال الجوهري : الإدُّ : الداهية والأمر الفظيع ﴿ركزاً﴾ الركز : الصوت الخفي .

سَبَبُ النَّزُولِ : عن خباب بن الأرت قال : كنتُ رجلاً قيناً - أي حداداً - وكان لي على العاص بن وائل دينٌ فأتيتُهُ أتقاضاه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

حتى تموت ثم تبعث - أي تموت الآن وتبعث أمامي وهذا من باب المستحيل - قال : فإني إذا مت ثم تبعث جثتي ولي ثم مال فأعطيتك فأنزل الله ﴿أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالا وولدا﴾ (١) .

النفسير : ﴿ويقول الإنسان أنذا ما ميت لسوف أخرج حياً﴾ أي يقول الكافر الذي لا يصدق بالبعث بعد الموت على وجه الإنكار والاستبعاد : أنذا مت وأصبحت تراباً ورفاتاً فسوف أخرج من القبر حياً ؟ قال ابن كثير : يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته (٢) ، واللام « لسوف » للمبالغة في الإنكار ، وهو إنكار منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى ، أين كان ؟ وكيف كان ؟ ولو تذكر لعلم أن الأمر أيسر مما يتصور ﴿أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا﴾ أي أولاً يتذكر هذا المكذب الجاحد أول خلقه فيستدل بالبداة على الإعادة ؟ ويعلم أن الله الذي خلقه من العدم قادر على أن يعيده بعد الفناء وتشتت الأجزاء ؟ قال بعض العلماء : لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها ، إذ لا شك أن الإعادة ثانياً أهون من الإيجاد أولاً (٣) ، ونظيره قوله ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ ﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين﴾ أي فوربك يا محمد لنحشرن هؤلاء المكذبين بالبعث مع الشياطين الذين أغوهم قال المفسرون : يُحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة ﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً﴾ أي نحضر هؤلاء المجرمين حول جهنم قعوداً على الركب من شدة الهول والفرع ، لا يطيقون القيام على أرجلهم لما يدهمهم من شدة الأمر ﴿ثم لننزعن من كل شيعة﴾ أي لناخذن ولننزعن من كل فرقة وجماعة ارتبطت بمذهب ﴿أيهم أشد على الرحمن عتياً﴾ أي من منهم أعصى لله وأشد تمرداً ، والمراد أنه يؤخذ من هؤلاء المجرمين ليقدف في جهنم الأعتى فالأعتى قال ابن مسعود : يبدأ بالأكابر جرماً ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾ أي نحن أعلم بمن هم أحق بدخول النار والاصطلاء بحرهما وبمن يستحق تضعيف العذاب فنبداً بهم ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ أي ما منكم أحد من بر أو فاجر ألا وسيرد على النار ، المؤمن للعبور والكافر للقرار ﴿كان على ربك حتماً مقضياً﴾ أي كان ذلك الورود (٤) قضاءً لازماً لا يمكن خلفه ﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾ أي ننجي

(١) البخاري ومسلم وانظر سبب النزول ص ١٧٣ . (٢) المختصر ٢ / ٤٦٠ . (٣) الفخر الرازي ٢١ / ٢٤١ .

(٤) اختلف علماء السلف في معنى الورود فقال ابن عباس : الورود الدخول ، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ، وقال ابن مسعود وقتادة : الورود : المرور عليها حين اجتياز الصراط ، ولعل هذا القول أصح أجازنا الله من جهنم .

وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾
 وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيعًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَدًا
 حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾
 وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَلَقِيَّتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ
 الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَا لَمْ أُؤَلَدُوا وَلَوْلَا

من جهنم المتقين بعد مرور الجميع عليها ﴿ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ أي وترك الظالمين في جهنم
 قعوداً على الركب قال البيضاوي : والآية دليل على أن المراد بالورود الجثو حوالها ، وأن المؤمنين يفارقون
 الفجرة إلى الجنة بعد نجاتهم ، ويبقى الفجرة فيها على هيئاتهم ^(١) ﴿وإذا تلى عليهم آياتنا بينات﴾ أي
 وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين ، واضحات الإعجاز ، بينات المعاني ﴿قال الذين كفروا
 للذين آمنوا أي الفريقين خيراً مقاماً وأحسن ندياً﴾ أي قال الكفرة المترفون لفقراء المؤمنين أي الفريقين :
 - نحن أو أنتم - أحسن مسكناً ، وأطيب عيشاً ، وأكرم منتدى ومجلساً ؟ قال البيضاوي : إن المشركين لما
 سمعوا الآيات الواضحات وعجزوا عن معارضتها ، أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا ،
 والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم لقصور نظرهم ^(٢) ، فرد الله عليهم بقوله
 ﴿وكم أهلكننا قبلهم من قرن هم أحسن أثناً ورئياً﴾ أي وكثير من الأمم المكذبين بآياتنا أهلكناهم
 بكفرهم كانوا أكثر من هؤلاء متاعاً ، وأجل صورةً ومنظراً ، فكما أهلكننا السابقين نهلك اللاحقين ، فلا
 يغتر هؤلاء بما لديهم من النعيم والمتاع ﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدداً﴾ أي قل يا
 محمد هؤلاء المشركين الزاعمين أنهم على حق : من كان في الضلالة منا ومنكم فليمهله الرحمن فيما هو
 فيه ، وليدعه في طغيانه ، حتى يلقي ربه وينقضي أجله قال القرطبي : وهذا غاية في التهديد والوعيد ^(٣)
 ﴿حتى إذا رآوا ما يوعدون﴾ أي حتى يروا ما يحل بهم من وعد الله ﴿إمّا العذاب وإمّا الساعة﴾ أي
 إمّا عذاب الدنيا بالقتل والأسر ، أو عذاب الآخرة بما ينالهم يوم القيامة من الشدائد والأهوال
 ﴿فسيعلمون من هو شرّ مكاناً وأضعف جنداً﴾ أي فسيعلمون عندئذ حين تنكشف الحقائق أي الفريقين
 شرّ منزلة عند الله ، وأقل فئة وأنصاراً ، هل هم الكفار أم المؤمنون ؟ وهذا في مقابلة قولهم ﴿خير مقاماً
 وأحسن ندياً﴾ ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾ أي ويزيد الله المؤمنين المهتدين ، بصيرةً وإيماناً
 وهدايةً ﴿والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً﴾ أي والأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها ذخراً في
 الآخرة خير عند الله من كل ما يتباهى به أهل الأرض من حيث الأجر والثواب ﴿وخير مرداً﴾ أي وخير
 رجوعاً وعاقبة ، فإن نعيم الدنيا زائل ونعيم الآخرة باقٍ دائم ﴿أفأريت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين

أَطَّلَعَ الْغَيْبِ أَمْ آتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾
 وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَآتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ
 وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا
 نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا ﴿٨٦﴾
 لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ آتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

مألاً وولداً ﴿﴾ نزلت في العاص بن وائل (١) ، والاستفهام للتعجب أي تعجب يا محمد من قصة هذا الكافر الذي جحد بآيات الله وزعم أن الله سيعطيه في الآخرة المال والبنين ﴿﴾ اطلع الغيب ﴿﴾ أي هل اطلع على الغيب الذي تفرّد به علام الغيوب ؟ ﴿﴾ أم اتّخذ عند الرحمن عهداً ﴿﴾ أي أم أعطاه الله عهداً بذلك فهو يتكلم عن ثقةٍ ويقين ؟ ﴿﴾ كلاً سنكتب ما يقول ﴿﴾ ردّ عليه ، ولفظة « كلاً » للردع والزجر أي ليرتدع ذلك الفاجر عن تلك المقالة الشنيعة فسنكتب ما يقول عليه ﴿﴾ ونمدّ له من العذاب مدّاً ﴿﴾ أي سنزيد له في العذاب ونطيله عليه جزاء طغيانه واستهزائه ، ونضاعف له مدد العذاب مكان الإمداد بالمال والولد ﴿﴾ ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً ﴿﴾ أي ونرثه ما يخلفه من المال والولد بعد إهلاكه ، ويأتينا وحيداً لا مال معه ولا ولد ، ولا نصير له ولا سند ﴿﴾ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزّاً ﴿﴾ أي واتخذ المشركون أصناماً عبدوها من دون الله لينالوا بها العزّ والشرف ﴿﴾ كلاً سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدّاً ﴿﴾ أي ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا فإن الآلهة التي عبدوها ستبرأ من عبادتهم ويكونون لهم أعداء يوم القيامة ﴿﴾ ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزّاً ﴿﴾ أي ألم تر يا محمد أننا سلطنا الشياطين على الكافرين تغريمهم إغراءً بالشر ، وتهيجهم تهيجاً حتى يركبوا المعاصي قال الرازي : أي تغريمهم على المعاصي وتحثهم وتهيجهم لها بالوساوس والتسويات (٢) ﴿﴾ فلا تعجل عليهم إنما نعدّ لهم عدّاً ﴿﴾ أي لا تتعجل يا محمد في طلب هلاكهم فإنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس نعدّها عليهم عدّاً ثم يصيرون إلى عذاب شديد قال ابن عباس : نعدّ أنفاسهم في الدنيا كما نعدّ عليهم سنينهم (٣) ﴿﴾ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴿﴾ أي يوم نحشر المتقين إلى ربهم معزّزين مكرّمين ، راكبين على النوق كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم ﴿﴾ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴿﴾ أي ونسوق المجرمين كما تُساق البهائم مشاةً عطاشاً كأنهم إبلٌ عطاش تُساق إلى الماء وفي الحديث (يُحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق : راغبين ، وراهبين ، واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، ونحشّر بقيتهم إلى النار ، تقبل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا) (٤) ﴿﴾ لا يملكون الشفاعة ﴿﴾ أي لا يشفعون ولا يُشفع لهم ﴿﴾ إلا من اتّخذ عند الرحمن عهداً ﴿﴾ الاستثناء منقطع أي لكن من تحلّى بالإيمان

(١) انظر سبب النزول المتقدم . (٢) التفسير الكبير ٢١/٢٥٢ . (٣) القرطبي ١١/١٥٠ . (٤) أخرجه الشيخان .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَرَّهْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِصُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

والعمل الصالح فإنه يملك الشفاعة قال ابن عباس : العهد « شهادة أن لا إله إلا الله » وقالوا اتخذ الرحمن ولداً أي اليهود والنصارى ومن زعم أن الملائكة بنات الله ﴿لقد جئتم شيئاً إدًّا﴾ أي لقد أتيتم أيها المشركون بقول منكر عظيم تناهى في القبح والشناعة ﴿تكاد السموات يتفطرن منه﴾ أي تكاد السموات تتشقق من هول هذا القول ﴿وتنشق الأرض وتخضر الجبال هداً﴾ أي وتنشق كذلك الأرض وتندك الجبال وتهد هداً استعظاماً للكلمة الشنيعة ﴿أن دعوا للرحمن ولداً﴾ أي ما يليق به سبحانه اتخاذ الولد ، لأن الولد يقتضي المجانسة ويكون عن حاجة ، وهو المنزه عن الشبيه والنظير ، والغني عن المعين والنصير ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً﴾ أي ما من مخلوق في العالم العلوي والسفلي إلا وهو عبد لله ، دليل خاضع بين يديه ، منقاد مطيع له كما يفعل العبيد ﴿لقد أحصاهم وعددهم عدداً﴾ أي علم عددهم وأحاط علمه بهم فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ﴿وكلهم آتية يوم القيامة فرداً﴾ أي وكل فرد يأتي يوم القيامة وحيداً فريداً ، بلا مال ولا نصير ، ولا معين ولا خفير ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ لما ذكر أحوال المجرمين ذكر أحوال المؤمنين والمعنى سيحدث لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة قال الربيع : يحبهم ويحبهم إلى الناس ﴿فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتذر به قوماً لداً﴾ أي فإنما يسرنا يا محمد هذا القرآن بلسانك العربي تقرأه ، وجعلناه سهلاً سيراً لمن تدبره ، لتبشر به المؤمنين المتقين ، وتخوف به قوماً معاندين شديدي الخصومة والجدال ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾ أي كم من الأمم الماضية أهلكناهم بتكذيبهم الرسل ، و « كم » للتكثير ﴿هل تحس منهم من أحد﴾ أي هل ترى منهم أحداً ؟ ﴿أو تسمع لهم ركزاً﴾ أي أو تسمع لهم صوتاً خفياً ؟ والمعنى أنهم بادوا وهلكوا وخلت منهم الديار ، وأوحشت منهم المنازل ، فكما أهلكنا أولئك نهلك هؤلاء .

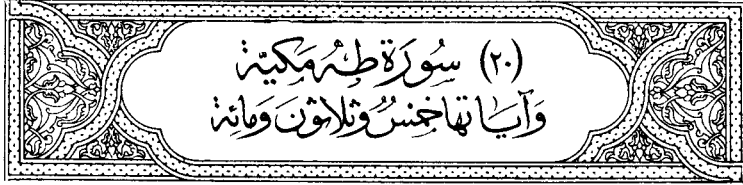
البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ - ذكر العام وإرادة الخاص ﴿ويقول الإنسان﴾ المراد به الكافر لأنه هو المنكر للبعث .

٢ - الطباق بين ﴿مت . . وحيأ﴾ وبين ﴿تبشر . . وتذرع﴾ .

- ٣ - الاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿أولا يذكر الإنسان﴾ .
- ٤ - المقابلة اللطيفة بين المتقين والمجرمين وبين حال الأبرار والأشرار ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ .
- ٥ - الجناس غير التام ﴿وفداً . . ورداً﴾ لتغير الحرف الثاني .
- ٦ - اللف والنشر المرتب في ﴿شرُّ مكاناً وأضعف جنداً﴾ حيث رجع الأول إلى ﴿خيرٌ مقاماً﴾ والثاني إلى ﴿وأحسن ندياً﴾ كما يوجد بين ﴿خيرٌ . . وشرُّ﴾ طباق .
- ٧ - المجاز العقلي ﴿سنكتب ما يقول﴾ أي تأمر الملائكة بالكتابة فهو من إسناد الشيء إلى سببه .
- ٨ - السجع الرصين مثل ﴿عبداً . عدداً، فرداً، ودأ﴾ وهو من المحسنات البديعية .
- فكأيدة : أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : إني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه أهل السماء . .) الحديث وهو مصداق قوله تعالى ﴿سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ .
- لطيفة : روي أن المأمون قرأ هذه الآية ﴿فلا تعجل عليهم إنما نعدُّ لهم عدداً﴾ وعنده جماعة من الفقهاء فيهم ابن السماك فأشار إليه المأمون أن يعظه فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفذ قال الشاعر :
- حياتك أنفاسٌ تُعدُّ فكلما مضى نفس منك انتقصت به جزءاً

« تم بعونه تعالى تفسير سورة مريم »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة طه مكية ، وهي تبحث عن نفس الأهداف للسور المكية ، وغرضها تركيز أصول الدين « التوحيد ، والنبوة ، والبعث والنشور » .

* في هذه السورة الكريمة تظهر شخصية الرسول ﷺ ، في شدّ أزره ، وتقوية روحه ، حتى لا يتأثر بما يُلقى إليه من الكيد والعناد ، والاستهزاء والتكذيب ، ولا يرشده إلى وظيفته الاساسية ، وهي التبليغ والتذكير ، والإنذار والتبشير ، وليس عليه أن يجبر الناس على الإيمان .

* عرضت السورة لقصص الأنبياء ، تسلياً لرسول الله ﷺ وتطميناً لقلبه الشريف ، فذكرت بالتفصيل قصة « موسى وهارون » مع فرعون الطاغية الجبار ويكاد يكون معظم السورة في الحديث عنها وبالأخص موقف المناجاة بين موسى وربه ، وموقف تكليفه بالرسالة ، وموقف الجدال بين موسى وفرعون ، وموقف المبارزة بينه وبين السحرة ، وتتجلى في ثنايا تلك القصة رعاية الله لموسى ، نبيه وكليمه ، وإهلاك الله لأعدائه الكفرة المجرمين .

* وعرضت السورة لقصة آدم بشكل سريع خاطف ، برزت فيه رحمة الله لأدم بعد الخطيئة ، وهدايته لذريته بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، ثم ترك الخيار لهم لاختيار طريق الخير أو الشر .

* وفي ثنايا السورة الكريمة تبرز بعض مشاهد القيامة ، في عبارات يرتجف لها الكون ، وتهتز لها القلوب هلعاً وجزعاً ، ويعتري الناس الدهولُ والسكونُ ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾ .

* وعرضت السورة ليوم الحشر الأكبر ، حيث يتم الحساب العادل ، ويعود الطائعون إلى الجنة ، ويذهب العصاة إلى النار ، تصديقاً لوعد الله الذي لا يتخلف ، بإثابة المؤمنين وعقاب المجرمين .

* وختمت ببعض التوجيهات الربانية للرسول ﷺ في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي نصر الله .

التسمية : سميت « سورة طه » وهو اسم من أسمائه الشريفة عليه الصلاة والسلام ، تطيباً لقلبه ،

وتسلياً لفقده عما يلقاه من صدود وعناد ، ولهذا ابتدأت السورة بملاطفته بالنداء ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ .

اللغات : ﴿ بقبس ﴾ القبسُ : شعلة من نار ﴿ المقدس ﴾ المطهر والمبارك ﴿ طوى ﴾ اسم للوادي ﴿ فتردى ﴾ تهلك والردى : الهلاك ﴿ أهش ﴾ أخبط بها الشجر ليسقط الورق ﴿ مارب ﴾ جمع ماربة وهي الحاجة ﴿ جناحك ﴾ الجناح : الجنب وجناحا الإنسان جنباه لأن يدي الإنسان يشبهان جناحي الطائر ﴿ أزرى ﴾ الأزر : القوة يقال : أزره أي قواه ومنه ﴿ فازره فاستغلظ ﴾ قال الشاعر :

ليس أبونا هاشمٌ شدَّ أزره وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب^(١)
﴿ اليم ﴾ البحر ﴿ تقرأ عينها ﴾ تُسرُّ بلقائك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ

التفسير : ﴿ طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ الحروف المقطعة للتنبية إلى إعجاز القرآن^(٢) وقال ابن عباس : معناها يا رجل ، ومعنى الآية : ما أنزلنا عليك يا محمد القرآن لتشقى به إنما أنزلناه رحمة وسعادة ، روي أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه القرآن صلى هو وأصحابه فأطال القيام فقالت قريش : ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى فنزلت هذه الآية^(٣) ﴿ إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ أي ما أنزلناه إلا عظة وتذكيراً لمن يخشى الله ويخاف عقابه ، وهو المؤمن المستنير بنور القرآن ﴿ تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى ﴾ أي أنزله خالق الأرض ، ومبدع الكون ، ورافع السموات الواسعة العالية ، والآية إخبار عن عظمته وجبروته وجلاله قال في البحر : ووصف السموات بالعلو دليل على عظمة قدرة من اخترعها إذ لا يمكن وجود مثلها في علوها من غيره تعالى^(٤) ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ أي ذلك الرب الموصوف بصفات الكمال والجمال هو الرحمن الذي استوى على عرشه استواء يليق بجلاله من غير تجسيم ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، ولا تمثيل كما هو مذهب السلف^(٥) ﴿ له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾ أي له سبحانه ما في الوجود كله : السموات السبع ، والأرضون وما بينهما من المخلوقات وما تحت التراب من معادن ومكونات ، الكل ملكه وتحت تصرفه وقهره وسلطانه أي وإن تجهر يا محمد بالقول أو ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾

(١) البيت لأبي طالب وانظر القرطبي ١١/١٩٣ . (٢) انظر أول سورة البقرة . (٣) هذا قول الضحاك وانظر زاد المسير ٥/٢٦٨ .

(٤) البحر ٦/٢٢٦ . (٥) انظر أقوال السلف الصالح في سورة الأعراف والرعء .

حَدِيثُ مُوسَى ❶ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ❷ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَى ❸ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ❹ وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ❺ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ❻

تخفه في نفسك فسوءاً عند ربك ، فإنه يعلم السرّ وما هو أخفى منه كالسوسة والهاجس والخطر . . والغرض من الآية طمأنينة قلبه عليه السلام بأن ربه معه يسمعه ، ولن يتركه وحيداً يواجه الكافرين بلا سند فإذا كان يدعو جهراً فإنه يعلم السرّ وما هو أخفى ، والقلب حين يستشعر قرب الله منه ، وعلمه بسرّه ونجواه يطمئن ويرضى ويأنس بهذا القرب الكريم ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي ربكم هو الله المتفرد بالوحدانية ، لا معبود بحق سواه ، ذو الأسماء الحسنة التي هي في غاية الحسن وفي الحديث (إن لله تسعة وتسعين اسماً ، من أحصاها دخل الجنة)^(١) ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ الاستفهام للتقرير وغرضه التشويق لما يلقي إليه أي هل بلغك يا محمد خبر موسى وقصته العجيبة الغريبة ؟ ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي حين رأى ناراً فقال لامرأته أقيمي مكانك فإني أبصرتُ ناراً قال ابن عباس : هذا حين قضى الأجل وسار بأهله من مدين يريد مصر ، وكان قد أخطأ الطريق وكانت ليلة مظلمة شاتية فجعل يقدح بالزناد فلا يخرج منها شرراً فبينما هو كذلك إذ بصر بناراً من بعيد على يسار الطريق ، فلما رآها ظنها ناراً وكانت من نور الله ﴿لعلني آتيكم منها بقبس﴾ أي لعلني آتيكم بشعلة من النار تستدفنون بها ﴿أو أجد على النار هدى﴾ أي أجد هادياً يدلني على الطريق ﴿فلما أتاه نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك﴾ أي فلما أتى النار وجدها ناراً بيضاء تتقد في شجرة خضراء وناداه ربّه يا موسى^(٢) : إني أنا ربك الذي أكلمك فاخلع النعلين من قدميك رعايةً للأدب وأقبل ﴿إنك بالواد المقدس طوى﴾ أي فإنك بالوادي المطهر المبارك المسمى طوى ﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يُوحى﴾ أي اصطفتيك للنبوّة فاستمع لما أوحى إليك قال الرازي : فيه نهاية الهيبة والجلالة فكأنه قال : لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفاً إليه^(٣) ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ أي أنا الله المستحق للعبادة لا إله غيري فأفردني بالعبادة والتوحيد ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ أي أقم الصلاة لتذكركني فيها قال مجاهد : إذا صلى ذكر ربه لاشتأها على الأذكار^(٤) وقال الصاوي : خصّ الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة في جملة العبادات لعظم شأنها ، واحتوائها على الذكر ، وشغل القلب واللسان والجوارح ، فهي أفضل أركان الدين بعد التوحيد^(٥) ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها﴾ أي إن الساعة قادمة وحاصلة لا محالة أكاد أخفيها عن نفسي فكيف

(١) أخرجه الترمذي . (٢) قال سيد قطب نغمه الله بالرحمة ، وجعل قاتليه باللعنة : إن القلب ليحجف ، وإن الكيان ليرتجف ، وهو يتصور ذلك المشهد . . موسى فريد في تلك الفلاة ، والليل دامس ، والظلام شامل ، والصمت نجيم ، وهو ذاهب يلتبس النار التي آتتها من جانب الطور ، ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب بذلك النداء العلوي ﴿إني أنا ربك فاخلع نعليك﴾ إنك بالواد المقدس طوى ﴿الظلال الساعة آتية أكاد أخفيها﴾ أي إن الساعة قادمة وحاصلة لا محالة أكاد أخفيها عن نفسي فكيف . (٣) الرازي ١٩/٢٢ . (٤) الرازي ١٩/٢٢ . (٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٥٠ .

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ
هُوَ فَتَرَدَّىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّوْا عَلَيْهَا وَاهْبُتْ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا
مَعَارِبٌ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا

أطلعكم عليها^(١)؟ قال المبرد: وهذا على عادة العرب فإنهم يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء: كتمته حتى من نفسي أي لم أطلع عليه أحداً ﴿لَتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أي لتنال كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر قال المفسرون: والحكمة من إخفائها وإخفاء وقت الموت أن الله تعالى حكم بعدم قبول التوبة عند قيام الساعة وعند الاحتضار، فلو عرف الناس وقت الساعة أو وقت الموت، لاشتغلوا بالمعاصي ثم تابوا قبل ذلك، فيتخلصون من العقاب، ولكن الله عمى الأمر، ليظل الناس على حذر دائم، وعلى استعداد دائم، من أن تبغتهم الساعة أو يفاجئهم الموت ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ أي لا يصرفنك يا موسى عن التأهب للساعة والتصديق بها من لا يوقن بها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي مال مع الهوى وأقبل على اللذائذ والشهوات ولم يحسب حساباً لآخرته ﴿فَتَرَدَّىٰ﴾ أي فتهلك فإن الغفلة عن الآخرة مستلزمة للهلاك ﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ أي وما هذه التي بيمينك يا موسى؟ أليست عصا؟ والغرض من الاستفهام التقرير والإيقاظ والتنبيه إلى ما سيبدو من عجائب صنع الله في الخشبة اليابسة بانقلابها إلى حية، لتظهر لموسى القدرة الباهرة، والمعجزة القاهرة قال ابن كثير: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها؟ فسترى ما نصنع بها الآن^(٢)؟ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّوْا عَلَيْهَا﴾ أي أعتمد عليها في حال المشي ﴿وَاهْبُتْ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أي اهزها الشجرة وأضرب بها على الأغصان ليتساقط ورقها فترعاه غنمي ﴿وَلِي فِيهَا مَعَارِبٌ أُخْرَىٰ﴾ أي ولي فيها مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك قال المفسرون: كان يكفي أن يقول هي عصاي ولكنه زاد في الجواب لأن المقام مقام مباسطة وقد كان ربه يكلمه بلا واسطة، فأراد أن يزيد في الجواب ليزداد تلذذاً بالخطاب، وكلام الحبيب مريح للنفس ومذهب للعناء ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ﴾ أي اطرح هذه العصا التي بيدك يا موسى لترى من شأنها ما ترى! ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ أي فلما ألقاها صارت في الحال حية عظيمة تنتقل وتتحرك في غاية السرعة قال ابن عباس: انقلبت ثعباناً ذكراً يبتلع الصخر والشجر، فلما رآه يبتلع كل شيء خافه ونفر منه وولّى هارباً^(٣) قال المفسرون: لما رأى هذا الأمر العجيب الهائل، لحقه ما يلحق البشر عند رؤية الأهوال والمخاوف، لا سيما هذا الأمر الذي يذهب بالعقول، وإنما أظهر له هذه الآية وقت المناجاة تأنيساً له بهذه المعجزة الهائلة حتى لا يفزع إذا ألقاها عند فرعون لأنه يكون قد تدرّب وتعود ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ أي قال له ربه: خذها يا موسى ولا تخف منها ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ أي سنعيدها إلى حالتها الأولى كما كانت عصا لا حية، فأمسكها

(١) هذا خلاصة قول مجاهد وابن عباس واختاره الطبري وهو الأرجح في تفسير الآية وهناك أقوال أخرى لا تخلو من ضعف وانظر البحر المحيط ٦/٢٣٢ . (٢) المختصر ٢/٤٧٢ . (٣) القرطبي ١١/١٩٠ .

سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيِّضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِنُرْيِكَ مِنْ
 ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾
 وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ
 بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُنسِجَكَ كَثِيْرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيْرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيْرًا ﴿٣٥﴾
 قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾
 فعادت عصا ﴿واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ أي أدخل يدك تحت إبطك ثم
 أخرجها تخرج نيرة مضيئة كضوء الشمس والقمر من غير عيب ولا برص قال ابن كثير : كان إذا أدخل يده
 في جيبه ثم أخرجها تخرج تتلألاً كأنها فلقة قمر من غير برص ولا أذى^(١) ﴿آية أخرى﴾ أي معجزة ثانية
 غير العصا ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ أي لنريك بذلك بعض آياتنا العظيمة . . أراه الله معجزتين
 « العصا ، واليد » وهي بعض ما أيده الله به من المعجزات الباهرة ، ثم أمره أن يتوجه إلى فرعون رأس
 الكفر والطغيان ﴿إذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي إذهب بما معك من الآيات إلى فرعون إنه تكبر
 وتجبر وجاوز الحد في الطغيان حتى ادعى الألوهية ﴿قال رب اشرح لي صدري﴾ أي وسعه ونوره
 بالإيمان والنبوة ﴿ويسر لي أمري﴾ أي سهل علي القيام بما كلفتنني من أعباء الرسالة والدعوة
 ﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾ أي حل هذه اللكنة الحاصلة في لساني حتى يفهموا كلامي
 قال المفسرون : عاش موسى في بيت فرعون فوضعه فرعون مرة في حجره وهو صغير فجر لحية فرعون بيده
 فهم بقتله ، فقالت له آسية : إنه لا يعقل وسأريك بيان ذلك ، قدم إليه جمرتين ولؤلؤتين ، فإن أخذ
 اللؤلؤة عرفت أنه يعقل ، وإن أخذ الجمرة عرفت أنه طفل لا يعقل ، فقدم إليه فأخذ الجمرة فجعلها في
 فيه فكان في لسانه حبسة^(٢) ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي﴾ أي اجعل لي معيناً يساعطني
 ويكون من أهلي وهو أخي هارون ﴿أشدد به أزري﴾ أي لتقوي به يا رب ظهري ﴿وأشركه في
 أمري﴾ أي اجعله شريكاً لي في النبوة وتبليغ الرسالة ﴿كي نسبحك كثيراً * ونذكرك كثيراً﴾ أي
 كي نتعاون على تنزيهك عما لا يليق بك ونذكرك بالدعاء والثناء عليك ﴿إنك كنت بنا بصيراً﴾ أي
 عالماً بأحوالنا لا يخفى عليك شيء من أفعالنا ، طلب موسى من ربه أن يعينه بأخيه يشد به أزره ، لما يعلم
 منه من فصاحة اللسان ، وثبات الجنان ، وأن يشركه معه في المهمة لما يعلم من طغيان فرعون وتكبره
 وجبروته ﴿قال قد أوتيت سؤالك يا موسى﴾ أي أعطيت ما سألت وما طلبت ، ثم ذكره تعالى بالمنن
 العظام عليه ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾ أي أنعمنا عليك يا موسى بمنة أخرى غير هذه المنة ﴿إذ
 أوحينا إلى أمك ما يوحى﴾ أي ألهمناها ما يلهم مما كان سبباً في نجاتك ﴿أن اقدفيه في التابوت

(١) المختصر ٤٧٣/٢ . (٢) انظر الطبري ١٥٩/١٦ وقيل كان ذلك خلقة فسأل الله تعالى لإزالته .

أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّهُ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾

فاقذفيه في اليم ﴿٣٩﴾ أي ألقها في البحر ؟ ﴿فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدوِّي وعدوُّه﴾ أي يلقيه النهر على شاطئه ويأخذه فرعون عدوي وعدوه قال في البحر : ﴿فليلقه﴾ أمر معناه الخبر جاء بصيغة الأمر مبالغة إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها^(١) ﴿والقيت عليك محبة مني﴾ أي زرعت في القلوب محبتك بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك حتى أحبك فرعون قال ابن عباس : أحبه الله وحبه إلى خلقه ﴿ولتصنع على عيني﴾ أي ولتربى بعين الله بحفظي ورعايتي ﴿إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله﴾ أي حين تمشي أختك وتتبع أثرك فتقول لآل فرعون حين طلبوا لك المراضع : هل أدلكم على من يضمن لكم حضانتهم ورضاعتهم ؟ قال المفسرون : لما التقطه آل فرعون جعل لا يقبل ثدي امرأة لأن الله حرم عليه المراضع وبقيت أمه بعد قذفه في اليم مغمومة فأمرت أخته أن تتبع خبره ، فلما وصلت إلى بيت فرعون ورأته قالت : هل أدلكم على امرأة أمينة فاضلة تتعهد لكم رضاع هذا الطفل ؟ فطلبوا منها إحضارها فأنت بأم موسى فلما أخرجت ثديها التقمه ففرحت زوجة فرعون فرحاً شديداً وقالت لها : كوني معي في القصر فقالت : لا أستطيع أن أترك بيتي وأولادي ولكن أخذه معي وأتي لك به كل حين فقالت نعم وأحسنست إليها غاية الإحسان فذلك قوله تعالى ﴿فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن﴾ أي رددناك إلى أمك لكي تُسر بلقائك ، وتطمئن بسلامتك ونجاتك ، ولكيلا تحزن على فراقك ﴿وقتلته نفساً فنجيناك من الغم﴾ أي قتلت القبطي حين أصيبت شاباً فنجيناك من غم القتل وصرفنا عنك شر فرعون وزبانيته ، وفي صحيح مسلم : وكان قتله خطأ ﴿وفتنناك فتوناً﴾ أي ابتليناك ابتلاءً عظيماً بأنواع من المحن ﴿فلبثت سنين في أهل مدين﴾ أي مكثت سنين عديدة عند شعيب في أرض مدين ﴿ثم جئت على قدر يا موسى﴾ أي جئت على موعدي ووقت مقدر للرسالة والنبوة .

البلاغه : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - التشويق والحث على الإصغاء ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ ؟
- ٢ - الإطناب ﴿قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾ وكان يكفي أن يقول : هي عصاي ولكنه توسع في الجواب تلذذاً بالخطاب .

٣ - الاستعارة التصريحية ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ أصل الجناح للطائر ثم استعير لجنب الإنسان لأن كل جنب في موضع الجناح للطائر فسميت الجهتان جناحين بطريق الاستعارة .

٤ - الاحتراس وهو عند علماء البيان أن يؤتى بشيء يرفع توهم غير المراد مثل قوله ﴿بيضاء من غير سوء﴾ فلو اقتصر على قوله ﴿بيضاء﴾ لأوهم أن ذلك من برص أو بهق ولذلك احترس بقوله ﴿من غير سوء﴾ .

٥ - الاستعارة التمثيلية ﴿ولتصنع على عيني﴾ تمثيل لشدة الرعاية وفرط الحفظ والكلاءة بمن يصنع بمرأى من الناظر لأن الحافظ للشيء في الغالب يديم النظر إليه فمثل لذلك بمن يصنع على عين الآخر .

٦ - السجع الحسن الذي يزيد الكلام جمالاً وبهاءً في أواخر الآيات ﴿فتشقى ، يخشى ، أخفى ، تسعى﴾ الخ .

فكائدَة : قال العلماء : ما نفع أخ أخاه كما نفع موسى هرون فقد طلب له من ربه أن يجعله وزيراً له ويكرمه بالرسالة فاستجاب الله دعاءه وجعله نبياً مرسلأ .

تنبية : ذكر تعالى بعض المنن على موسى وعدد منها ستاً :

المنة الأولى : إلهام أمه صنع الصندوق وإلقاءه في النيل ليربى في بيت فرعون ﴿إذ أوحينا إلى أمك ما يوحي أن اذفيه في التابوت﴾ .

الثانية : إلقاء المحبة عليه من الله تعالى بحيث لا يراه أحد إلا أحبه ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾ .

الثالثة : حفظ الله ورعايته له بالكلاءة والعناية ﴿ولتصنع على عيني﴾ .

الرابعة : رده إلى أمه مع الإينعام والإكرام ﴿فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها﴾ .

الخامسة : إنجاء موسى من القتل بعد قتله القبطي ﴿ونجيناك من الغم﴾ .

السادسة : تكليم الله له بعد عودته من أرض مدين وتكليفه بالرسالة ﴿ثم جئت على قدر يا موسى﴾

قال الله تعالى : ﴿واصطنعتك لنفسي . . إلى . . وذلك جزاء من تزكى﴾

من آية (٤١) إلى نهاية آية (٧٦) .

المناسكة : لما ذكر تعالى نعمته على موسى باستجابة دعائه وإعطائه سؤله ، ذكر هنا ما خصه به من الاصطفاء والاجتباء ، وأمره بالذهاب إلى فرعون مع أخيه هارون لتبليغه دعوة الله ، ثم ذكر ما دار من الحوار بين موسى وفرعون وما كان من أمر السحرة وسجودهم لله رب العالمين .

اللفتر: ﴿اصطنعتك﴾ اصطفتيك واخترتك ، وأصل الاصطناع : اتخاذ الصنعة وهو الخير تُسديه إلى إنسان ﴿تنبيا﴾ الونى : الضعف والفتور قال العجاج :

فما وئى محمدٌ مُذُّ أنْ عَفَرُ له الإلهُ ما مضى وما غَبَرُ^(١)
﴿يَفْرُطُ﴾ يتعجل ويبادر إلى عقوبتنا ، ومنه الفارط الذي يتقدم القوم إلى الماء ﴿يُسْحَتِكُمْ﴾ يستأصلكم ويبيدكم وأصله استقصاء الحلق للشعر قال الفرزدق :

وعضُ زمانٍ يا ابن مروانٍ لم يدعُ من المال إلا مُسْحَتٌ أو مُجْلَفٌ^(٢)
ثم استعمل في الإهلاك والإذهاب ، والسحت : المال الحرام لأنه يهلك الإنسان ويدمره ﴿النجوى﴾ التناجي وهو الإسرار بالكلام ﴿أوجس﴾ أضمِر واستشعر الخوف في نفسه .

وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِعَايَتِي وَلَا تَنبِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾
فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾ فَاتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعْذِْبُهُمْ^ط

النفسير: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ أي اخترتك لرسالتني ووحبي ﴿إذهب أنت وأخوك بآياتي﴾ أي اذهب مع هارون بحججي وبراهيني ومعجزاتي قال المفسرون : المراد بالآيات هنا اليد والعصا التي أيد الله بها موسى ﴿ولا تنبيا في ذكري﴾ أي لا تفترا وتقصرا في ذكر الله وتسيحه قال ابن كثير : والمراد ألا يفتر عن ذكر الله بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه ، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له^(٣) ﴿إذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي تجبر وتكبر وبلغ النهاية في العتو والطغيان ﴿فقولا له قولاً لينا﴾ أي قولاً لفرعون قولاً لطيفاً رقيقاً ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ أي لعله يتذكر عظمة الله أو يخاف عقابه فيرتدع عن طغيانه ﴿قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾ أي قال موسى وهارون : يا ربنا إننا نخاف إن دعوانه إلى الإيثار أن يعجل علينا العقوبة ، أو يجاوز الحد في الإساءة إلينا ﴿قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾ أي لا تخافا من سطوته إنني معكما بالنصرة والعون أسمع جوابه لكما ، وأرى ما يفعل بكما ﴿فاتياه فقولا إننا رسولا ربك﴾ أي إنا رسولان من عند ربك أرسلنا إليك ، وتخصيص الذكر بلفظ ﴿ربك﴾ لإعلامه أنه مربوب وعبد مملوك لله إذ كان يدعي الربوبية ﴿فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم﴾ أي أطلق سراح بني إسرائيل ولا تعذبهم بتكليفهم بالأعمال الشاقة ﴿قد جئناك من ربك﴾ أي قد جئناك بمعجزة تدل على صدقنا ﴿والسلام على من أتبع الهدى﴾ أي والسلامة من عذاب الله لمن اهتدى وآمن بالله قال المفسرون : لم يقصد به التحية لأنه ليس بابتداء الخطاب وإنما قصد به السلام من عذاب

قَدْ جِئْنَاكَ بِغَايَةِ مَن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مَنْ كَذَّبَ
 وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾ قَالَ فَنَنْبَأُكَ يَا مُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ
 الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ
 مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا
 أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً

الله وسخطه ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ أي قد أخبرنا الله فيما أوحاه
 إلينا أن العذاب الأليم على من كذب أنبياء الله وأعرض عن الإيمان ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى ﴾
 أي قال فرعون : ومن هذا الرب الذي تدعوني إليه يا موسى ؟ فإني لا أعرفه ؟ ولم يقل : من ربي لغاية
 عتوه ونهاية طغيانه بل أضافه إلى موسى وهارون ﴿ مَنْ رَبُّكُمْ ﴾ ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ
 خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ أي ربنا هو الذي أبدع كل شيء خلقه ثم هداه لمنافعه ومصالحه ، وهذا جواب في غاية
 البلاغة والبيان لاختصاره ودلالته على جميع الموجودات بأسرها ، فقد أعطى العين الهيئة التي تطابق
 الإبصار ، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع ، وكذلك اليد والرجل والأنف واللسان قال الزمخشري :
 ولله در هذا الجواب ما أخصره وأجمعه وأبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ
 الْأُولَى ﴾ أي ما حال من هلك من القرون الماضية ؟ لِمَ لَمْ يُعِشُوا وَلِمَ يُجَاسَبُوا إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا ؟ قال
 ابن كثير : لما أخبر موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق ، وقدر فهدى ، شرع فرعون يحتج
 بالقرون الأولى كأنه يقول : ما بالهم إذ كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره ؟ ﴿ قَالَ عَلِمَهَا
 عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ﴾ أي قال موسى : علم أحوالها وأعمالها عند ربي مسطر في اللوح المحفوظ ﴿ لَا يَضِلُّ
 رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ أي لا يخطيء ربي ولا يغيب عن علمه شيء منها . ثم شرع موسى يبين له الدلائل
 على وجود الله وأثار قدرته الباهرة فقال ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ أي جعل الأرض كالمهد
 تمتهدونها وتستقرون عليها رحمة بكم ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أي جعل لكم طرقاً تسلكونها فيها
 لقضاء مصالحكم ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أي أنزل لكم من السحاب المطر عذباً فراتاً ﴿ فَأَخْرَجْنَا
 بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ أي فأخرج بذلك الماء أنواعاً من النباتات المختلفة الطعم والشكل والرائحة
 كل صنف منها زوج ، وفيه التفات من الغيبة إلى المتكلم تنبيهاً على عظمة الله ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا
 أَنْعَامَكُمْ ﴾ أي كلوا من هذه النباتات والثمار وارتكوا أنعامكم تسرح وترعى من الكلال الذي أخرجه الله ،
 والأمر للإباحة تذكيراً لهم بالنعم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي إن فيما ذكر لعلامات واضحة
 لأصحاب العقول السليمة على وجود الله ووحدانيته ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أي من الأرض

أُخْرَى ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٨﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٥٩﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٦٠﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٦١﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ بِجَمْعٍ كَيْدِهِ ثُمَّ أْتَى ﴿٦٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ آلَ اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴿٦٣﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٤﴾ قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى ﴿٦٥﴾

خلقناكم أيها الناس وإليها تعودون بعد مماتكم فتصيرون تراباً ﴿٥٧﴾ ومنها نُخرجكم تارة أُخرى ﴿٥٨﴾ أي ومن الأرض نخرجكم مرة أُخرى للبعث والحساب . . ثم أخبر تعالى عن عتو فرعون وعناده فقال ﴿٥٩﴾ ولقد أريناه آياتنا كلها ﴿٥٩﴾ أي والله لقد بصرنا فرعون بالمعجزات الدالة على نبوة موسى من العصا ، واليد ، والظوفان ، والجراد ، وسائر الآيات التسع ﴿٦٠﴾ فكذب وأبى ﴿٦٠﴾ أي كذب بها مع وضوحها وزعم أنها سحر ، وأبى الإيمان والطاعة لعتوه واستكباره ﴿٦١﴾ قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ﴿٦١﴾ أي قال فرعون : أجئتنا يا موسى بهذا السحر لتخرجنا من أرض مصر ؟ ﴿٦٢﴾ فلنأتينك بسحرٍ مثله ﴿٦٢﴾ أي فلنعارضنك بسحرٍ مثل الذي جئت به ليظهر للناس أنك ساحر ولست برسول ﴿٦٣﴾ فاجعل بيننا وبينك موعداً ﴿٦٣﴾ أي عيّن لنا وقت اجتماع ﴿٦٤﴾ لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سُوياً ﴿٦٤﴾ أي لا نخلف ذلك الوعد لا من جهتنا ولا من جهتك ويكون بمكان معين ووقت معين ^(١) ﴿٦٥﴾ قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشَرَ الناس ضُحًى ﴿٦٥﴾ أي قال موسى : موعدنا للاجتماع يوم العيد - يوم من أيام أعيادهم - وأن يجتمع الناس في ضحى ذلك النهار قال المفسرون : وإنما عيّن ذلك اليوم للمبارزة ليظهر الحق ويزهق الباطل على رءوس الأشهاد ، ويشيع ذلك في الأقطار بظهور معجزته للناس ﴿٦٦﴾ فتوَلَّى فرعونُ فجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٦﴾ أي انصرف فرعون فجَمَعَ السِّحْرَةَ ثُمَّ أَتَى المَوْعِدَ وَمَعَهُ السِّحْرَةُ وَأَدْوَاتُهُمْ وَمَا جَمَعَهُ مِنْ كَيْدٍ لِيُطْفِئَ نَوْرَ اللَّهِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانُوا اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ سَاحِرًا مَعَ كُلِّ سَاحِرٍ مِنْهُمْ حِبَالٌ وَعَصِيٌّ ^(٢) ﴿٦٧﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ آلَ اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ ﴿٦٧﴾ أي قال موسى للسحرة لما جاء بهم فرعون : ويلكم لا تختلقوا على الله الكذب فيهلككم ويستأصلكم بعذاب هائل ﴿٦٨﴾ وقد خاب من افتري ﴿٦٨﴾ أي خسر وهلك من كذب على الله . . قَدَّمَ لَهُمُ النَّصِيحَ وَالْإِنذَارَ لَعَلَّهُمْ يَتُوبُونَ إِلَى الْهُدَى ، وَلَمَّا سَمِعَ السِّحْرَةَ مِنْهُ هَذِهِ الْمَقَالَةَ هَالَهُمْ ذَلِكَ وَوَقَعَتْ فِي نَفْسِهِمْ مَهَابَتُهُ وَلِذَلِكَ تَنَازَعُوا فِي أَمْرِهِ ﴿٦٩﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٩﴾ أي اختلفوا في أمر موسى فقال بعضهم : ما هذا بقول ساحر وأخفوا ذلك عن الناس وأخذوا يتناجون سرّاً ﴿٧٠﴾ قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا ﴿٧٠﴾ أي قالوا بعد التناظر والتشاور ما هذان إلا ساحران يريدان الاستيلاء على أرض مصر وإخراجكم منها بهذا السحر

(١) هذا ما اختاره ابن كثير في تفسير ﴿مكاناً سُوياً﴾ واختار الطبري أن المراد مكاناً تستوي مسافته على الفريقين . (٢) القرطبي ١١/٢١٤ .

فَأَجْمَعُوا كَيْدَ كُرْتُمْ أَتُّوا صَفَاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴿٤٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ
أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٤٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٤٦﴾
فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٤٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٤٨﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا
صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٤٩﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا

﴿ويذهبها بطريقتكم المثلى﴾ أي غرضها إفساد دينكم الذي أنتم عليه والذي هو أفضل المذاهب والأديان قال الزمخشري : والظاهر أنهم تشاوروا في السرِّ وتجادبوا أهداب القول ثم قالوا ﴿إن هذان لساحران﴾ فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفاً من غلبة موسى وهارون لهما وتثيلاً للناس من اتباعها (١) ﴿فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفاً﴾ أي أحكموا أمركم واعزموا عليه ولا تتنازعا وارموا عن قوسٍ واحدة ، ثم اتوا إلى الميدان مصطفين ليكون أهيب في صدور الناظرين ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ أي فاز اليوم من علا وغلب قال المفسرون : أرادوا بالفلاح ما وعدهم به فرعون من الإنعامات العظيمة والهدايا الجزيلة مع التقريب والتكريم كما قال تعالى ﴿قالوا أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين؟ قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين﴾ ﴿قالوا يا موسى إمّا أن تلقى وإمّا أن نكون أول من ألقى﴾ أي قال السحرة لموسى : إمّا أن تبدأ أنت بالإلقاء أو نبدا نحن؟ خيروه ثقةً منهم بالغلبة لموسى لأنهم كانوا يعتقدون أن أحداً لا يقاومهم في هذا الميدان ﴿قال بل ألقوا﴾ أي قال لهم موسى : بل ابدءوا أنتم بالإلقاء قال أبو السعود : قال ذلك مقابلةً للأدب بأحسن من أدبهم حيث بت القول بإلقائهم أولاً ، وإظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم ليبرزوا ما معهم ، ويستفرغوا أقصى جهدهم وقصارى وسعهم ، ثم يُظهر الله سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه (٢) ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ في الكلام حذف دل عليه المعنى أي ألقوا فإذا تلك الحبال والعصي التي ألقوها يتخيلها موسى ويظنّها - من عظمة السحر - أنها حيات تتحرك وتسعى على بطونها ، والتعبير يوحى بعظمة السحر حتى إن موسى فزع منها واضطرب ﴿فأوجس في نفسه خيفةً موسى﴾ أي أحسَّ موسى الخوف في نفسه بمقتضى الطبيعة البشرية لأنه رأى شيئاً هائلاً ﴿قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ أي قلنا لموسى لا تخف ممّا توهمت (٣) فإنك أنت الغالب المنتصر ﴿وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا﴾ أي ألق عصاك التي يمينك تبتلع بمفها ما صنعوه من السحر ﴿إنما صنعوا كيد ساحر﴾ أي إن الذي اخترعوه وافتعلوه هو من باب الشعوذة والسحر ﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ أي لا يسعد الساحر حيث كان ولا يفوز بمطلوبه لأنه كاذب مضلل ﴿فألقي السحرة سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بربِّ هارون وموسى﴾ أي فألقي موسى عصاه فابتلعت ما صنعوا فخر السحرة حينئذٍ سجداً لله رب العالمين لما رأوا من الآية الباهرة قال ابن كثير : لما ألقى موسى العصا صارت ثعباناً عظيماً هائلاً ، ذا قوائم وعنق ورأس

(١) الكشاف ٣ . (٢) أبو السعود ٣/٣١٣ . (٣) أوحى الله تعالى له في تلك الساعة الراهنة بهذا القول .

رَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى ﴿٧٥﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ؕ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ؕ فَلَا قِطْعَانَ
 أَيَدِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَا صُلْبِنَكُمُ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلِتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧٦﴾ قَالُوا لَنْ
 نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ؕ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٧﴾
 إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ؕ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٨﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ
 وَأَضْرَاسَ ، فجعلت تتبّع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق شيئاً إلا ابتلعتة ، والناس ينظرون إلى ذلك
 عياناً نهاراً ، فلما عين السحرة ذلك وشاهدوه علموا علم اليقين أن هذا ليس من قبيل السحر والحيل وأنه
 حقٌ لا مرية فيه ، فعند ذلك وقعوا سجداً لله ، فقامت المعجزة واتضح البرهان ، ووقع الحق وبطل
 السحر ، قال ابن عباس : كانوا أول النهار سحرة ، وفي آخر النهار شهداء بررة (١) ﴿ قال آمنتهم له
 قبل أن آذن لكم ﴾ أي قال فرعون للسحرة : آمنتهم بموسى وصدقتموه بما جاء به قبل أن أسمح لكم بذلك
 وقبل أن تستأذنونني ؟ ﴿ إنه لكبيركم الذي علّمكم السحر ﴾ أي إنه رئيسكم الذي علّمكم السحر
 فاتفقتم معه لتذهبوا بملكي قال القرطبي : وإنما أراد فرعون بقوله هذا أن يلبس على الناس حتى لا يتبعوهم
 فيؤمنوا كما يمانهم (٢) ، ثم توعدّهم وهدّهم بالقتل والتعذيب فقال ﴿ فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من
 خلاف ﴾ أي فوالله لأقطعن الأيدي والأرجل منكم مختلفات بقطع اليد اليمنى ، والرجل اليسرى أو
 بالعكس ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ أي لأعلقنكم على جذوع النخل وأقتلنكم شرّ قتلته ﴿ ولتعلمن
 أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾ أي ولتعلمن أيها السحرة من هو أشدّ منا عذاباً وأدوم ، هل أنا أم ربُّ
 موسى الذي صدقتم به وآمنتهم ﴿ قالوا لن نُؤثرَكَ على ما جاءنا من البينات ﴾ أي قال السحرة : لن
 نختارك ونفضلك على الهدى والإيمان الذي جاءنا من الله على يد موسى ولو كان في ذلك هلاكنا ﴿ والذي
 فطرنا ﴾ قسم بالله أي مقسمين بالله الذي خلقنا ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ أي فاصنع ما أنت صانع
 ﴿ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ أي إنما ينفذ أمرك في هذه الحياة الدنيا وهي فانية زائلة ورجبتنا في
 النعيم الخالد قال عكرمة : لما سجدوا أراهم الله في سجودهم منازلهم في الجنة فلذلك قالوا ما قالوا (٣)
 ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا ﴾ أي آمنا بالله ليغفر لنا الذنوب التي اقترفناها وما صدر منا
 من الكفر والمعاصي ﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ أي ويغفر لنا السحر الذي عملناه لإطفاء نور
 الله ﴿ والله خيرٌ وأبقى ﴾ أي والله خيرٌ منك ثواباً وأبقى عذاباً ، وهذا جوابُ قوله ﴿ ولتعلمن أينا
 أشدّ عذاباً وأبقى ﴾ ﴿ إنه من يأتِ رَبَّهُ مجرماً فإنَّ له جهنم ﴾ هذا من تتمّة كلام السحرة عظةً لفرعون
 أي من يلقي ربه يوم القيامة وهو مجرّمٌ باقترافه المعاصي وموته على الكفر ، فإن له نار جهنم ﴿ لا يموت فيها
 ولا يحيى ﴾ أي لا يموت في جهنم فينقضي عذابه ، ولا يحيا حياة طيبة هنيئة (٤) ﴿ ومن يأتِه مؤمناً قد عمل

(١) المختصر ٤٨٦/٢ . (٢) القرطبي ٢٢٤/١١ . (٣) القرطبي ٢٢٥/١١ .

(٤) أنشد ابن الأنباري في هذا المعنى : أَلَا مَنْ لِنَفْسٍ لَا تُمُوتُ فَيُنْقَضِي شَقَاهَا وَلَا تُحْيَا حَيَاةَ هَا

مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾

الصالحات ﴿٧٤﴾ أي ومن يلقي ربه مؤمناً موحداً وقد عمل الطاعات وترك المنهيات ﴿فأولئك لهم الدرجات العلى﴾ أي فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات لهم المنازل الرفيعة عند الله ﴿جنات عدن﴾ بيان للدرجات العلى أي جنات إقامة ذات الدرجات العاليات ، والغرف الآمات ، والمسكن الطيبات ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري من تحت غرفها وسرورها أنهار الجنة من الخمر والعسل ، واللبن ، والماء ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي ماكثين في الجنة دوماً لا يخرجون منها أبداً ﴿وذلك جزاء من تزكى﴾ أي وذلك ثواب من تطهر من دنس الكفر والمعاصي ، وفي الحديث (الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس) (١) .

البالغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستعارة ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ شبه ما خوَّله به من القرب والاصطفاء بحال من يراه الملك أهلاً للكرامة وقرب المنزلة لما فيه من الخلال الحميدة فيصطنعه لنفسه ، ويختاره لخلته ، ويصطنعه لأموره الجليلة واستعار لفظ اصطنع لذلك ، ففيه استعارة تبعية .
- ٢ - المقابلة اللطيفة ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾ حيث قابل بين ﴿منها﴾ و﴿فيها﴾ وبين الخلق والإعادة وهذا من المحسنات البديعية .
- ٣ - إيجاز حذف ﴿بل ألقوا فإذا جبالهم﴾ أي ألقوا فإذا جبالهم حذف لدلالة المعنى عليه ومثله ﴿فألقي السحرة سجداً﴾ بعد قوله ﴿وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ حذف منه كلام طويل وهو فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا من السحر فألقى السحرة سجداً ، وإنما حسن الحذف لدلالة المعنى عليه ويسمى إيجاز حذف .
- ٤ - الطباق بين ﴿يموت .. ويحيا﴾ وبين ﴿نعيد .. ونخرج﴾ .
- ٥ - المقابلة بين ﴿إنه من يأت ربه مجرماً﴾ وبين ﴿ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات﴾ الخ والمقابلة هي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك .
- ٦ - السجع الحسن غير المتكلف في مثل ﴿سوى ، ضحى ، افترى ، يحيا ، تزكى﴾ الخ .
- ٧ - المؤكدات ﴿إنك أنت الأعلى﴾ أكد الخبر بعدة مؤكدات وهي ﴿إن﴾ المفيدة للتأكيد ، وتكرير الضمير ﴿أنت﴾ وتعريف الخبر ﴿الأعلى﴾ ولفظ العلو الدال على الغلبة ، وصيغة التفضيل ﴿الأعلى﴾ ولله

در التنزيل ما أبلغه وأروعه ، وهذا من خصائص علم المعاني .

تبيينه : لم تذكر الآيات الكريمة أن فرعون فعل بالسحرة ما هددهم به ، وقد ذكر المفسرون أنه أنفذ فيهم وعيده فقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم فماتوا على الإيمان ولهذا قال ابن عباس : كانوا في أول النهار سحرة ، وفي آخر النهار شهداء برة .

قال الله تعالى : ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى .. إلى .. إلا هو وسع كل شيء علماً ﴾

من آية (٧٧) إلى نهاية آية (٩٨) .

المناسبة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن قصة موسى وفرعون ، وتشير الآيات هنا إلى عناية الله تعالى بموسى وقومه ، وإنجائهم وإهلاك عدوهم ، وتذكركم بنعم الله العظيم ومننه الكبرى على بني إسرائيل ، وما وصّاهم به من المحافظة على شكرها وتحذيرهم من التعرض لغضب الله بكفرها ، ثم تذكر الآيات انتكاس بني إسرائيل بعبادتهم العجل ، وقد طوى هنا ما فصل في آيات آخر .

اللغة : ﴿ دركاً ﴾ لحاقاً مصدر أدركه إذا لحقه ﴿ تطغوا ﴾ الطغيان : مجاوزة الحد إلى ما لا ينبغي ﴿ هوى ﴾ صار إلى الهاوية وهي قعر النار من هوى يهوى إذا سقط من علو إلى سفلى ﴿ يملكنا ﴾ الملك : بفتح الميم وسكون اللام : الطاقة والقدرة ومعناه بأمر كنا نملكه من جهتنا ﴿ أوزاراً ﴾ أثقالاً ومنه سمي الذنب وزراً لأنه يثقل الإنسان ﴿ خوار ﴾ الخوار : صوت البقر ﴿ يا ابن أم ﴾ أي يا ابن أُمي واللفظة تدل على الاستعطف ﴿ سوكت ﴾ حسنت وزينت .

﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخف دركاً ولا تخشى ﴾

﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ ﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ ﴿ يلبني إسرائيل ﴾

التفسير : ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ﴾ أي أوحينا إلى موسى بعد أن تمادى فرعون في الطغيان أن سر بني إسرائيل ليلاً من أرض مصر ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً ﴾ أي اضرب البحر بعصاك ليصبح لهم طريقاً يابساً يمشون عليه ﴿ لا تخف دركاً ولا تخشى ﴾ أي لا تخاف لحاقاً من فرعون وجنوده ، ولا تخشى الغرق في البحر ﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ أي فلحقهم فرعون مع جنوده ليقتلهم فأصابهم من البحر ما أصابهم ، وغشيهم من الأحوال ما لا يعلم كنهه إلا الله ، والتعبير يفيد التهويل لما دهاهم عند الغرق ﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ أي أضلهم عن الرشدها وما هداهم إلى خير ولا نجاة ، وفيه تهكم بفرعون في قوله ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ ﴿ يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ﴾ خطاب لبني إسرائيل بعد خروجهم من البحر وإغراق فرعون وجنوده والمعنى اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي العظيمة عليكم حين نجيتكم من فرعون وقومه الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب ﴿ وواعدناكم جانب طور الأيمن ﴾ أي وعدنا موسى للمناجاة وإنزال التوراة عليه جانب طور سيناء الأيمن ، وإنما نسبت المواعدة إليهم لكون

قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴿٨٣﴾ كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨٤﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٥﴾ * وَمَا أَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴿٨٦﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثْرَى وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٧﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٨﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ

منفعتها راجعة إليهم إذ في نزول التوراة صلاح دينهم ودنياهم ﴿ونزلنا عليكم المن والسلوى﴾ أي رزقناكم وأنتم في أرض التيه بالمن وهو يشبه العسل ، والسلوى وهو من أجود الطيور لحماً تفضلاً منا عليكم . . وفي هذا الترتيب غاية الحسن حيث بدأ بتذكيرهم بنعمة الإنجاء ، ثم بالنعمة الدينية ، ثم بالنعمة الدنيوية ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي وقلنا لكم كلوا من الحلال اللذيذ الذي أنعمت به عليكم ﴿ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي﴾ أي لا تحملنكم السعة والعافية على العصيان لأمرى فينزل بكم عذابي ﴿ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾ أي ومن ينزل عليه غضبي وعقابي فقد هلك وشقي ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ أي وإني لعظيم المغفرة لمن تاب من الشرك وحسن إيمانه وعمله ، ثم استقام على الهدى والإيمان ، وفي الآية ترغيب لمن وقع في وهدة العصيان ببيان المخرج كيلاً يأس ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾ أي أي شيء عجل بك عن قومك يا موسى ؟ قال الزمخشري : كان موسى قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه ^(١) ﴿قال هم أولاء على أثري﴾ أي قومي قريبون مني لم أتقدمهم إلا بشيء يسير وهم يأتون بعدي ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ أي وعجلت إلى الموضع الذي أمرتني بالمجيء إليه لتزداد رضى عني . . اعتذر موسى أولاً ثم بين السبب في إسرعه قبل قومه وهو الشوق إلى مناجاة الله ابتغاءً لرضى الله ﴿قال فإننا قد فتنا قومك من بعدك﴾ أي ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم ﴿وأضلهم السامري﴾ أي وأوقعهم السامري في الضلالة بسبب تزيينه لهم عبادة العجل ، وكان السامري ساحراً منافقاً من قوم يعبدون البقر قال المفسرون : كان موسى حين جاء لمناجاة ربه قد استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون ، وأمره أن يتعهدهم بالإقامة على طاعة الله ، وفي أثناء غيبة موسى جمع السامري الحلي ثم صنع منها عجلاً ودعاهم إلى عبادته فعكفوا عليه وكانت تلك الفتنة وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوماً ﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا﴾ أي رجع موسى من الطور بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة غضبان شديد الحزن على ما صنع قومه من عبادة العجل ﴿قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً﴾

مَنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٢٧﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا
فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٢٨﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٢٩﴾
أَفَلَا يَرُونَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَتَقَوْمِ
إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٣١﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا

أي ألم يعدكم بإنزال التوراة فيها الهدى والنور؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتكم موعدي﴾ أي هل طال عليكم الزمن حتى نسيتم العهد أم أردتم بصنيعكم هذا أن ينزل عليكم سخط الله وغضبه فأخلفتكم وعدي؟ قال أبو حيان: وكانوا وعدوه بأن يتمسكوا بدين الله وسنة موسى عليه السلام، ولا يخالفوا أمر الله أبداً، فأخلفوا مواعده بعبادتهم العجل ﴿٢٧﴾ قالوا ما أخلفنا موعداً بملكنا ﴿٢٨﴾ أي ما أخلفنا العهد بطاقتنا وإرادتنا واختيارنا بل كنا مكرهين ﴿ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها﴾ أي حملنا أثقالاً وأحمالاً من حلي آل فرعون فطرحناها في النار بأمر السامري قال مجاهد: أوزاراً: أثقالاً وهي الحلي التي استعاروها من آل فرعون ﴿فكذلك ألقى السامري﴾ أي كذلك فعل السامري ألقى ما كان معه من حلي القوم في النار قال المفسرون: كان بنو إسرائيل قد استعاروا من القبط الحلي قبل خروجهم من مصر، فلما أبطأ موسى في العودة إليهم قال لهم السامري: إنما احتبس عليكم لأجل ما عندكم من الحلي فجمعوه ودفعوه إلى السامري، فرمى به في النار وصاغ لهم منه عجلاً، ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس جبريل عليه السلام فجعل يخور ﴿٢٩﴾ فذلك قوله تعالى ﴿فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار﴾ أي صاغ لهم السامري من تلك الحلي المذابة عجلاً جسداً بلا روح له خوار وهو صوت البقر ﴿٣٠﴾ فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴿٣١﴾ أي هذا العجل إلهكم وإله موسى ففسي إلهه هنا وذهب يطلبه في الطور، قال قتادة: نسي موسى ربه عندكم، فعكفوا عليه يعبدونه، قال تعالى رداً عليهم وبياناً لسخافة عقولهم في عبادة العجل ﴿أفلا يرون ألا يرجع إليهم قَوْلاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً﴾ أي أفلا يعلمون أن العجل الذي زعموا أنه إلههم لا يرد لهم جواباً، ولا يقدر أن يدفع عنهم ضراً أو يجلب لهم نفعاً فكيف يكون إلهاً؟ والاستفهام للتوبيخ والتفريع ﴿ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتهم به﴾ أي قال لهم هارون ناصحاً ومذكراً من قبل رجوع موسى إليهم: ﴿إنما ابتليتكم وأضللتم بهذا العجل﴾ وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري ﴿٣١﴾ أي وإن ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن لا العجل، فاقصدوا بي فيما أدعوكم إليه من عبادة الله، وأطيعوا أمري بترك عبادة العجل ﴿قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا

(١) البحر ٦/٢٦٨ . (٢) هذا خلاصة قول ابن عباس وقاتدة ومجاهد كذا في الطبري ١٦/٢٠٠ . (٣) قال الرازي: قيل إنه صار حياً وخار، وقيل: لم تحل الحياة وإنما جعل فيه منافذ تدخل فيه الريح فيخرج له صوت يشبه صوت العجل . الرازي ٢٢/١٠٣ .

مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ
بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ
يَسْمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي
نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ

موسى ﴿٩١﴾ أي قالوا لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يعود إلينا موسى فننظر في الأمر (١) ﴿٩٢﴾ قال يا
هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألاً تتبعين ﴿٩٣﴾ في الكلام حذف أي فلما رجع موسى ووجدهم
عاكفين على عبادة العجل امتلاً غضباً لله وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه وقال له : أي شيء منعك حين
رأيتهم كفروا بالله أن لا تتبعني في الغضب لله والإنكار عليهم والزجر لهم عن ذلك الضلال ؟
﴿٩٤﴾ أفعصيت أمري ﴿٩٥﴾ أي أخالفتني وتركت أمري ووصيتي ؟ قال المفسرون : وأمره هو ما كان أوصاه به
فيما حكاه تعالى عنه ﴿٩٦﴾ وقال موسى لأخيه هرون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴿٩٧﴾ قال
يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ﴿٩٨﴾ أي قال له هارون استعطافاً وترقيقاً : يا ابن أمي - أي يا أخي - لا
تأخذ بلحيتي ولا بشعر رأسي قال ابن عباس : أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله من شدة غيظه وفطرت
غضبه لأن الغيرة في الله ملكته ﴿٩٩﴾ إنني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ﴿١٠٠﴾ أي إنني خفت إن
زجرتهم بالقوة أن يقع قتال بينهم فتلومني على ذلك وتقول لي : لقد أشعلت الفتنة بينهم ﴿١٠١﴾ ولم ترقب
قولي ﴿١٠٢﴾ أي لم تنتظر أمري فيهم ، فمن أجل ذلك رأيت ألاً أفعل شيئاً حتى ترجع إليهم لتتدارك الأمر
بنفسك قال ابن عباس : وكان هارون هائباً مطيعاً له ﴿١٠٣﴾ قال فما خطبك يا سامري ﴿١٠٤﴾ أي ما شأنك فيما
صنعت ؟ وما الذي حملك عليه يا سامري ؟ ﴿١٠٥﴾ قال بصرت بما لم يبصروا به ﴿١٠٦﴾ أي قال السامري :
رأيت ما لم يروه وهو أن جبريل جاءك على فرس الحياة فألقي في نفسي أن أقبض من أثره قبضة فما ألقىته
على شيء إلا دببت فيه الحياة ﴿١٠٧﴾ فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ﴿١٠٨﴾ أي قبضت شيئاً من أثر فرس
جبريل فطرحتها على العجل فكان له حوار ﴿١٠٩﴾ وكذلك سولت لي نفسي ﴿١١٠﴾ أي وكذلك حسنت وزينت
لي نفسي ﴿١١١﴾ قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا ميساس ﴿١١٢﴾ أي قال موسى للسامري : عقوبتك في
الدنيا ألاً تمس أحداً ولا يمسك أحد قال الحسن : جعل الله عقوبة السامري ألا يماس الناس ولا يمسه
عقوبة له في الدنيا وكان الله عز وجل شدد عليه المحنة ﴿١١٣﴾ وإن لك موعداً لن تخلفه ﴿١١٤﴾ أي وإن لك

(١) قال سيد قطب عليه الرحمة في تفسير الظلال « ما كاد بنو إسرائيل يرون عجلاً من ذهب يخور حتى نسوا ربهم الذي أنقذهم من أرض الذل
وعكفوا على عجل الذهب ، وفي بلاهة فكر ، وبلاهة روح قالوا ﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾ راح يبحث عنه على الجبل وهو هنا معنا وقد نسي
موسى الطريق إلى ربه وضل عنه ، وهي قولة تضيف إلى معنى البلاهة والتفاهة اتهامهم لنبيهم بأنه غير موصول بربه حتى ليضل الطريق إليه
فلا هو يهتدي ولا ربه يهديه ، وهذا العجل لم يكن حياً يسمع قوهم ويستجيب نداءهم لأنه جسد لا حياة فيه فهو في درجة أقل من درجة
الحيوانية ، ولقد نصحهم هارون ولكنهم بدلاً من الاستجابة التوا وتقلصوا من نصحه».

الَّذِي ظَلَّتْ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحْرُقَتْهُ، ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

موعداً للعذاب في الآخرة لن يتخلف ﴿وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً﴾ أي انظر إلى هذا العجل الذي أقمت ملازماً على عبادته ﴿لنحرقته ثم لننصفه في اليم نسفاً﴾ أي لنحرقه بالنار ثم لنطيرنه رماداً في البحر لا يبقى منه عين ولا أثر ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو﴾ أي يقول موسى لبني إسرائيل : إنما معبودكم المستحق للعبادة هو الله الذي لا رب سواه ﴿وسع كل شيء علماً﴾ أي وسع علمه كل شيء فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

- ١ - التهويل ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ .
- ٢ - الطباق بين ﴿وأضل . . وما هدى﴾ .
- ٣ - الاستعارة ﴿فقد هوى﴾ استعار لفظ الهوي وهو السقوط من علو إلى سفلى للهلاك والدمار .
- ٤ - صيغة المبالغة ﴿وإني لغفار﴾ أي كثير المغفرة للذنوب .
- ٥ - الطباق ﴿ضراً ولا نفعاً﴾ .
- ٦ - الإيجاز بالحذف في مواطن عديدة بينها في التفسير .
- ٧ - السجع الحسن غير المتكلف مثل ﴿أمري ، قولي ، نفسي﴾ و﴿نفعاً ، علماً ، نسفاً﴾ الخ .

تنبية : إنما عبد بنو إسرائيل العجل بسبب فتنة السامري وقد كانت بذور الوثنية راسخة في قلوبهم ولذلك لما نجأهم الله من طغيان فرعون طلبوا من موسى أن يصنع لهم تمثالاً ليعبدوه كما قال تعالى ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾ فلا عجب إذاً أن يعكفوا على عبادة عجل من ذهب له خوار !

قال الله تعالى : ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق . . إلى . . من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى﴾

المناسبة : لما ذكر تعالى قصة موسى بالتفصيل ، أعقبها بذكر أن هذا القصص وحي من الله ، وأن محمداً ﷺ ما كان له علم بهذه الأخبار والأنباء العجيبة لولا أن الله تعالى أوحى إليه ، وذلك من أكبر الدلائل والبراهين على صدق الرسالة .

اللغز: ﴿قاعاً﴾ القاع : الأرض الملساء التي لا نبات فيها ولا بناء ﴿صفتاً﴾ الصفت : المستوي من الأرض كأنه على صف واحد في استوائه ﴿أمتاً﴾ الأمت : المكان المرتفع كالتل والهضبة ﴿همساً﴾ صوتاً خفياً ﴿عنت﴾ ذلت وخضعت قال أمية : «لعزته تعنو الوجوه وتسجد» قال الجوهري : عنا يعنو خضع وذل وأعناه غيره ومنه الآية ﴿وعنت الوجوه﴾ ﴿هضمًا﴾ الهضم : النقص يقال : هضمه حقه إذا أنقصه والفرق بين الظلم والهضم أن الظلم المنع من الحق كله ، والهضم المنع من بعضه^(١) ﴿تضحى﴾ ضحى للشمس برز لها حتى يصيبه حرها قال ابن أبي ربيعة :

رأت رجلاً أياً إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشي فينحصر^(٢)
﴿ضنكاً﴾ الضنك : الضيق والشدة يقال : منزل ضنك وعيش ضنك إذا كان شديداً ضيقاً ﴿سواتهما﴾ عوراتهما ﴿فتربصوا﴾ انتظروا ﴿الصراط السوي﴾ الطريق المستقيم .

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ^ج وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿٢٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿٢٠١﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿٢٠٢﴾ يَخْخَفُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿٢٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ

النفسير : ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق﴾ أي كما قصصنا عليك يا محمد خبر موسى مع فرعون وما فيه من الأنباء الغريبة كذلك نقص عليك أخبار الأمم المتقدمين ﴿وقد آتيناك من لدنا ذكراً﴾ أي أعطيناك من عندنا قرآناً يتلى منظوياً على المعجزات الباهرة قال في البحر : امتن تعالى عليه بإتيائه الذكر المشتمل على القصص والأخبار ، الدال على معجزات أوتيتها عليه السلام^(٣) ﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً﴾ أي من أعرض عن هذا القرآن فلم يؤمن به ولم يتبع ما فيه ، فإنه يحمل يوم القيامة حملاً ثقيلاً ، وذنباً عظيماً يثقله في جهنم ﴿خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾ أي مقيمين في ذلك العذاب بأوزارهم ، وبس ذلك الحمل الثقيل حملاً لهم ، شبه الوزر بالحمل لثقله ﴿يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زُرْقاً﴾ أي يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية، ونحشر المجرمين إلى أرض المحشر زُرْق العيون سود الوجوه قال القرطبي : تشوه خلقتهم بزرقه العيون وسواد الوجوه^(٤) ﴿يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً﴾ أي يتهامسون بينهم ويسر بعضهم إلى بعض قائلين : ما مكثتم في الدنيا إلا عشر ليال قال أبو السعود : استقصروا مدة لبثهم فيها لما عاينوا الشدائد والأحوال^(٥) ﴿نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً﴾ أي نحن أعلم بما يتناجون بينهم إذ يقول أعقلهم وأعد لهم قولاً ما لبثتم إلا يوماً واحداً

(١) القرطبي ٢٤٩/١١ . (٢) البحر ٢٧١/٦ . (٣) البحر المحيط ٢٧٨/٦ . (٤) القرطبي ٢٤٤/١١ . (٥) أبو السعود ٣٢٤/٣ .

أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٤٣﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٤٤﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٤٥﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٤٦﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَعِوَجٍ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٤٧﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفْعَةُ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٤٨﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١٤٩﴾ * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١٥٠﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١٥٢﴾ فَتَعَالَى

﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا﴾ أي ويسألونك عن حال الجبال يوم القيامة فقل لهم : إن ربي يفتتها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فيطيرها ﴿فيذرها قاعاً صفصفا﴾ أي فيتركها أرضاً ملساء مستوية لا نبات فيها ولا بناء ﴿لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾ أي لا ترى فيها انخفاصاً ولا ارتفاعاً ﴿يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له﴾ أي في ذلك اليوم العصيب يتبع الناس داعي الله الذي يدعوهم لأرض المحشر يأتونه سراعاً لا يزيغون عنه ولا ينحرفون ﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾ أي ذلت وسكنت أصوات الخلائق هيبةً من الرحمن جل وعلا ﴿فلا تسمع إلا همساً﴾ أي لا تسمع إلا صوتاً خفياً لا يكاد يُسمع وعن ابن عباس : هو همس الأقدام في مشيها نحو المحشر^(١) ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب لا تنفع الشفاعة أحداً إلا لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له ، ورضي لأجله شفاعة الشافع ، وهو الذي كان في الدنيا من أهل لا إله إلا الله ، قاله ابن عباس ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي يعلم تعالى أحوال الخلائق فلا تخفى عليه خافية من أمور الدنيا وأمور الآخرة ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ أي لا تحيط علومهم بمعلوماته جل وعلا^(٢) ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾ أي ذلت وخضعت وجوه الخلائق للواحد القهار جبار السموات والأرض الذي لا يموت قال الزمخشري : المراد بالوجوه وجوه العصاة وأنهم إذا عاينوا يوم القيامة الخيبة والشقوة وسوء الحساب ، صارت وجوههم عانية أي ذليلة خاضعة مثل وجوه العناة وهم الأسارى كقوله ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾^(٣) ﴿وقد خاب من حمل ظلماً﴾ أي خسر من أشرك بالله ، ولم ينجح ولا ظفر بمطلوبه ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن﴾ أي من قدم الأعمال الصالحة بشرط الإيمان ﴿فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ أي فلا يخاف ظلماً بزيادة سيئاته ، ولا بخساً ونقصاً لحسناته ﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً﴾ أي مثل إنزال الآيات المشتملة على القصص العجيبة أنزلنا هذا الكتاب عليك يا

(١) الطبري ٢١٤/١٦ . (٢) وقيل المراد : لا يحيطون بمعرفة ذاته إذ لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله واختاره في التسهيل .

(٣) الكشاف ٩٢/٣ .

اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٦﴾
 وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا
 إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٨﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٩﴾ إِنَّ
 لَكَ الْأَتْجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١٢٠﴾ وَأَنْتَ لَا تَنْظُمُونَ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١٢١﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ

محمد بلغة العرب ليعرفوا أنه في الفصاحة والبلاغة خارج عن طوق البشر ﴿وصرفنا فيه من الوعيد﴾ أي كررنا فيه الإنذار والوعيد ﴿لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً﴾ أي كي يتقوا الكفر والمعاصي أو يحدث لهم موعظة في القلوب ينشأ عنها امتثال الأوامر واجتناب النواهي ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ أي جلَّ الله وتقدَّس الملك الحق الذي قهر سلطانه كل جبار عما يصفه به المشركون من خلقه ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه﴾ أي إذا أقرأك جبريل القرآن فلا تتعجل بالقراءة معه ، بل استمع إليه واصبر حتى يفرغ من تلاوته وحينئذٍ تقرأه أنت قال ابن عباس : كان عليه السلام يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً على حفظ القرآن ومخافة النسيان فهناه الله عن ذلك قال القرطبي : وهذا كقوله تعالى ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾^(١) ﴿وقل رب زدني علماً﴾ أي سلَّ الله عز وجل زيادة العلم النافع قال الطبري : أمره بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم^(٢) ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل﴾ أي وصيناه أن لا يأكل من الشجرة من القديم ﴿فنسي ولم نجد له عزماً﴾ أي نسي أمرنا ولم نجد له حزمًا وصبراً عما نهيناه عنه ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى﴾ يذكر تعالى تشریف آدم وتكريمه وما فضله به على كثير من الخلق أي واذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم فامثلوا الأمر إلا إبليس فإنه أبى السجود وعصى أمر ربه قال الصاوي : كررت هذه القصة في سبع سور من القرآن تعليماً للعباد امتثال الأوامر ، واجتناب النواهي وتذكيراً لهم بعداوة إبليس لأبيهم آدم^(٣) ﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك﴾ أي ونهينا آدم فقلنا له إن إبليس شديد العداوة لك ولحواء ﴿فلا يخرجكما من الجنة فتشقى﴾ أي لا تطيعاه فيكون سبباً لإخراجكما من الجنة فتشقيان ، وإنما اقتصر على شقائه مراعاة للفواصل ولاستلزام شقائه لشقائهما قال ابن كثير : المعنى إياك أن تسعى في إخراجك من الجنة فتتعب وتشقى في طلب رزقك ، فإنك ههنا في عيش رغيد ، بلا كلفة ولا مشقة^(٤) ﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى﴾ أي إن لك يا آدم ألا ينالك في الجنة الجوع ولا العري ﴿وأنت لا تطمأ فيها ولا تضحى﴾ أي ولك أيضاً ألا يصيبك العطش فيها ولا حر الشمس ، لأن الجنة دار السرور والحبور ، لا تعب فيها ولا نصب ، ولا حر ولا ظمأ بخلاف دار الدنيا ﴿فوسوس إليه الشيطان﴾ أي حدثه خفية بطريق

هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴿١٠١﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْءُ نُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا
 مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٠٣﴾ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا
 بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلِمَا يَا تَيْتَكُمْ مَنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٠٤﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ
 عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٠٥﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ

الوسوسة ﴿قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ أي قال له إبليس اللعين : هل أدلك يا آدم على شجرة من أكل منها خلد ولم يميت أصلاً ، ونال الملك الدائم الذي لا يزول أبداً ؟ وهذه مكيدة ظاهرها النصيحة ومتى كان اللعين ناصحاً ؟ ﴿فأكلا منها فبدت لهما سواتهما﴾ أي أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عنها فظهرت لهما عوراتهما قال ابن عباس : عريا عن النور الذي كان الله تعالى قد ألبسهما إياه حتى بدت فروجهما^(١) ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ أي شرعا يأخذان من أوراق الجنة ويغطيان بها عوراتهما ليستترا بها ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ أي خالف آدم أمر ربه بالأكل من الشجرة فضل عن المطلوب الذي هو الخلود في الجنة حيث اغتر بقول العدو قال أبو السعود : وفي وصفه بالعصيان والغواية - مع صغر زلته - تعظيم لها وزجرٌ بليغ لأولاده عن أمثالها^(٢) ﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ أي ثم اصطفاه ربه فقرّبه إليه وقبل توبته وهداه إلى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب الطاعة ﴿قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو﴾ أي قال الله لآدم وحواء : إنزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين بعض ذريتكما لبعض عدو بسبب الكسب والمعاش واختلاف الطبائع والرغبات قال الزمخشري : لما كان آدم وحواء أصلي البشر جعلاً كأنهما البشر في أنفسهما فخطبنا مخاطبتهم^(٣) ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ أي فإن جاءكم من جهتي الكتب والرسل هدايتكم ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ أي فمن تمسك بشريعتي واتبع رسلي فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة قال ابن عباس : ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة وتلا الآية^(٤) ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً﴾ أي ومن أعرض عن أمري وما أنزلته على رسلي من الشرائع والأحكام فإن له في الدنيا معيشة قاسية شديدة وإن تنعم ظاهره ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ أي ونحشره في الآخرة أعمى البصر قال ابن كثير : من أعرض عن أمر الله وتناساه فإن له حياة ضنكاً في الدنيا ، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيقٌ حرج لضلّاله وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه في قلقٍ وحيرةٍ وشك ، وقيل : يُضيق عليه قبره حتى تختلف أضلّاعه فيه^(٥) ﴿قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً﴾ أي قال الكافر : يا رب بأي ذنب عاقبتني بالعمى وقد كنت في الدنيا بصيراً ؟ ﴿قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها

(١) أبو السعود ٣/٣٢٧ . (٢) نفس المرجع السابق والصفحة . (٣) الكشاف ٣/٩٣ . (٤) القرطبي ١١/٢٥٨ . (٥) المختصر ٢/٤٩٧ .

بَصِيرًا ﴿١٦٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ إِيْتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٦٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ
يُؤْمِنْ بِعَاقِبَتِ رَبِّهِ ۗ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٦٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِي مَسْكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٦٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ
مُّسَمًّى ﴿١٦٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ
فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٧٠﴾ وَلَا تُمَدِّدْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ

وكذلك اليوم تُنسى ﴿١٦٥﴾ أي قال الله تعالى له : لقد أتتك آياتنا واضحة جلية فتعاميت عنها وتركتها ،
وكذلك تُترك اليوم في العذاب جزاءً وفاقاً ﴿١٦٦﴾ وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن
بآيات ربه ﴿١٦٧﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الموافق للخيانة والتكذيب بآيات الله نعاقب من
أسرف بالانهاك في الشهوات ، ولم يصدق بكلام ربه وآياته البينات ﴿١٦٨﴾ وللعذاب الآخرة أشدُّ
وأبقى ﴿١٦٩﴾ أي عذاب جهنم أشدُّ من عذاب الدنيا لأنَّ عذابها أدوم وأثبت لأنه لا
ينقطع ولا ينقضي ﴿١٧٠﴾ أفلم يهد لهم كم أهلكتنا قبلهم من القرون ﴿١٦٥﴾ أي
أفلم يتبين لكفار مكة الذين كذبوك كم أهلكتنا قبلهم من الأمم الخالية المكذبين لرسولهم ﴿١٦٦﴾ يمشون في
مساكنهم ﴿١٦٧﴾ أي يرون مساكن عاد وثمود ويعاينون آثار هلاكهم أفلا يتعظون ويعتبرون ؟ ﴿١٦٨﴾ إنَّ في ذلك
لآياتٍ لأولي النُّهَى ﴿١٦٩﴾ أي إنَّ في آثار هذه الأمم البائدة للدلالات وعيراً لذوي العقول السليمة ﴿١٧٠﴾ ولولا
كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجلٌ مسمى ﴿١٦٥﴾ أي لولا قضاء الله بتأخير العذاب عنهم ووقت مسمى
لهلاكهم لكان العذاب واقعاً بهم قال الفراء : في الآية تقديم وتأخير والمعنى ولولا كلمة وأجلٌ مسمى لكان
لزماً أي لكان العذاب لازماً لهم ، وإنما أخره لتعتدل رءوس الآي (١) ﴿١٦٦﴾ فاصبر على ما يقولون ﴿١٦٧﴾ أي
فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء المكذبون من قومك ﴿١٦٨﴾ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل
غروبها ﴿١٦٩﴾ أي صلِّ وأنت حامد لربك قبل طلوع الشمس صلاة الصبح ، وقبل غروبها صلاة العصر
﴿١٧٠﴾ ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار ﴿١٦٥﴾ أي وصلِّ لربك في ساعات الليل وفي أول النهار وآخره
﴿١٦٦﴾ لعلك ترضى ﴿١٦٧﴾ أي لعلك تُعطي ما يرضيك قال القرطبي : أكثر المفسرين أن هذه الآية إشارة إلى
الصلوات الخمس ﴿١٦٨﴾ قبل طلوع الشمس ﴿١٦٩﴾ صلاة الصبح ﴿١٧٠﴾ وقبل غروبها ﴿١٦٥﴾ صلاة العصر ﴿١٦٦﴾ ومن آناء
الليل ﴿١٦٧﴾ صلاة العشاء ﴿١٦٨﴾ وأطراف النهار ﴿١٦٩﴾ صلاة المغرب والظهر ، لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول ،
وغروب الشمس آخر طرف النهار الأخير (٢) ﴿١٧٠﴾ ولا تُمدد عينيكَ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴿١٦٥﴾ أي لا تنظر
إلى ما متعنا به أصنافاً من الكفار من نعيم الدنيا وبهرجها الخادع ﴿١٦٦﴾ زهرة الحياة الدنيا ﴿١٦٧﴾ أي زينة الحياة
الدنيا ﴿١٦٨﴾ لنفتنهم فيه ﴿١٦٩﴾ أي لنبتليهم ونختبرهم بهذا النعيم حتى يستوجبوا العذاب بكفرهم ﴿١٧٠﴾ وورق

الَّذِينَ لِنَفْسِهِمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٤٦﴾ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرَ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا
نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٤٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوْلَمَ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٤٨﴾
وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنزِّلَ
وَنُخْزِي ﴿١٤٩﴾ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا ﴿١٥٠﴾ فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٥١﴾

ربك خير وأبقى ﴿ أي ثواب الله خير من هذا النعيم الفاني وأدوم قال المفسرون : الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أمته لأنه عليه السلام كان أزهد الناس في الدنيا وأشدَّ رغبة فيما عند الله ﴾ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴿ أي وأمر يا محمد أهلك وأمتك بالصلاة واصبر أنت على أدائها بخشوعها وآدابها ﴾ لا نسألك رزقاً نحن نرزقك ﴿ أي لا نكلفك أن ترزق نفسك وأهلك بل نحن نتكفل برزقك وإياهم ﴾ والعاقبة للتقوى ﴿ أي العاقبة الحميدة لأهل التقوى قال ابن كثير : أي حسن العاقبة وهي الجنة لمن اتقى الله ﴾ ﴿ وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ﴾ أي قال المشركون هلاً يأتينا بمعجزة تدل على صدقه ؟ ﴿ أولم تأتيم بيئة ما في الصحف الأولى ﴾ أي أولم يكتفوا بالقرآن المعجزة الكبرى لمحمد عليه السلام المحتوي على أخبار الأمم الماضية ؟ والاستفهام للتوبيخ والتفريع قال في البحر : اقترح المشركون ما يختارون على ديدهم في التعنت فأجيبوا بأن هذا القرآن الذي سبق التبشير به في الكتب الإلهية السابقة أعظم الآيات في الإعجاز وهو الآية الباقية إلى يوم القيامة ﴿ ولو أننا أهلكناهم بعذاب من قبله ﴾ أي لو أننا أهلكنا كفار مكة من قبل نزول القرآن وبعثة محمد عليه السلام ﴿ لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ﴾ أي لقالوا يا ربنا هلاً أرسلت إلينا رسولا حتى تؤمن به وتتبعه ﴿ فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزي ﴾ أي فنتمسك بآياتك من قبل أن نذل بالعذاب ونفتضح على رءوس الأشهاد قال المفسرون : أراد تعالى أن يبين أنه لا حجة لأحد على الله بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب فلم يترك لهم حجة ولا عذراً ﴿ قل كل متربص ﴾ أي قل يا محمد هؤلاء المكذبين كل منا ومنكم منتظر دوائر الزمان ولن يكون النصر ﴿ فتربصوا ﴾ أمر تهديد أي فانظروا العاقبة والنتيجة ﴿ فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ﴾ أي فستعلمون عن قريب من هم أصحاب الطريق المستقيم هل نحن أم أنتم ؟ ﴿ ومن اهتدى ﴾ أي اهتدى إلى الحق وسبيل الرشاد ومن بقي على الضلال قال القرطبي : وفي هذا ضرب من الوعيد والتخويف والتهديد ختمت به السورة الكريمة (٣) .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه الفصاحة والبيان والبديع ما يلي :

١ - التشبيه ﴿ كذلك نقص عليك ﴾ وهو تشبيه مرسل مجمل .

٢ - الاستعارة ﴿وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾ شبه الوزر بالحمل الثقيل بطريق الاستعارة التصريحية .

٣ - الكناية ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ كناية عن أمر الدنيا وأمر الآخرة .

٤ - الطباق بين ﴿أعمى .. وبصيراً﴾ .

٥ - التشبيه التمثيلي ﴿زهرة الحياة الدنيا﴾ مثل لنعم الدنيا بالزهر وهو النوار لأن الزهر له منظر حسن ثم يذبل ويضمحل وكذلك نعيم الدنيا .

٦ - الوعيد والتهديد ﴿فتربصوا﴾ .

٧ - جناس الاشتقاق ﴿أرسلت إلينا رسولاً﴾ .

٨ - السجع اللطيف غير المتكلف مثل ﴿ظلماً ، هضماً ، علماً﴾ ومثل ﴿تشقى ، تعرى ، ترضى﴾ الخ ...

لطيْفَة : قال الناصر : في الآية سرٌّ بديع من البلاغة يسمى قطع النظر عن النظر ، وذلك أنه قطع الظماً عن الجوع ، والضحو عن الكسوة مع ما بينهما من التناسب ، والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها ، ولو قرن كلاً بشكله لتوهم أن المعدودات نعمة واحدة ، على أن في الآية سرّاً آخر وهو قصد تناسب الفواصل ، ولو قرن الظماً بالجوع لانتثر سلك رءوس الآي^(١) .

فكائِدَة : قال الشهاب : ليس المراد بحكاية قول من قال ﴿عشراً﴾ أو ﴿يوماً﴾ أو ﴿ساعة﴾ حقيقة اختلافهم في مدة اللبث ، ولا الشك في تعيينه ، بل المراد أنه لسرعة زواله عبّر عن قلته بما ذكر ، فتنفنن في الحكاية وأتى في كل مقام بما يليق به^(٢) .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة طه » .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

هذه السورة مكية وهي تعالج موضوع العقيدة الإسلامية في ميادينها الكبيرة « الرسالة ، الوحدانية ، البعث والجزاء » وتتحدث عن الساعة وشدائدها، والقيامة وأهوالها ، وعن قصص الأنبياء المرسلين .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن غفلة الناس عن الآخرة ، وعن الحساب والجزاء ، بينما القيامة تلوح لهم وهم في غفلةٍ عن ذلك اليوم الرهيب ، وقد شغلتهم مغريات الحياة عن الحساب المرقوب .

* ثم انتقلت إلى الحديث عن المكذبين ، وهم يشهدون مصارع الغابرين ، ولكنهم لا يعتبرون ولا يتعظون ، حتى إذا ما فاجأهم العذاب ، رفعوا أصواتهم بالتضرع والاستغاثة ولكن هيهات .

* وتناولت السورة دلائل القدرة في الأنفس والآفاق ، لتنبه على عظمة الخالق المدبر الحكيم ، فيما خلق وأبدع ، ولتربط بين وحدة الكون ، ووحدة الإله الكبير .

* وبعد عرض الأدلة والبراهين ، الشاهدة على وحدانية رب العالمين ، تذكر السورة حال المشركين وهم يتلقون الرسول عليه السلام بالاستهزاء والسخرية والتكذيب ، وتعقب على ذلك بسنة الله الكونية في إهلاك الطغاة المجرمين .

* ثم تناولت السورة الكريمة قصص بعض الرسل ، وتتحدث بالإسهاب عن قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه الوثنيين ، في أسلوب مشوق ، فيه من نصاعة البيان ، وقوة الحججة والبرهان ما يجعل الخصم يقر بالهزيمة في خنوعٍ واستسلام ، وفي قصته عبر وعظات .

* وتتابع السورة الحديث عن الرسل الكرام فتتحدث عن « إسحاق ، ويعقوب ، ولوط ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، وإسماعيل ، وإدريس ، وذو الكفل ، وذو النون ، وزكريا ، وعيسى » بإيجاز مع بيان الأهوال والشدائد التي تعرضوا لها ، وتختتم ببيان رسالة سيد المرسلين محمد بن عبد الله المرسل رحمة للعالمين .

التسمية : سميت «سورة الأنبياء» لأن الله تعالى ذكر فيها جملة من الأنبياء الكرام في استعراضٍ

سريع ، يطول أحياناً ويقصر أحياناً ، وذكر جهادهم وصبرهم وتضحيتهم في سبيل الله ، وتفانيهم في تبليغ الدعوة لإسعاد البشرية .

اللغز : ﴿أضغاث﴾ أخلاط جمع ضغث وهي الأهاويل التي يراها الإنسان في منامه ﴿قصمنا﴾ القصم : كسر الشيء الصلب يقال : قصمت ظهره وانقصمت سنه إذا انكسرت ﴿يركضون﴾ الركض : العدو بشدة والركض ضرب الدابة بالرجل حثاً على العدو ﴿خامدين﴾ خمدت النار طفئت والخمود الهمود ويراد به الموت تشبيهاً بخمود النار ﴿فدمغه﴾ دمغته : أصاب دماغه نحو كبده ورأسه أصاب كبده ورأسه ﴿يستحسرون﴾ يعيون مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَاءَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ

النفسير : ﴿اقترب للناس حسابهم﴾ أي قرب ودنا وقت حساب الناس على أعمالهم ﴿وهم في غفلة معرضون﴾ أي وهم مستغرقون في الشهوات ، غافلون عن ذلك اليوم الرهيب ، لا يعملون للأخرة ولا يستعدون لها كقول القائل : الناس في غفلاتهم : ورَحَى المنيَّة تطحن^(١) ، وإنما وصف الآخرة بالاقتراب لأن كل ما هو آت قريب ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾ أي ما يأتيهم شيء من الوحي والقرآن من عند الله متجدد في النزول فيه عظة لهم وتذكير ﴿إلا استمعوه وهم يلعبون﴾ أي إلا استمعوا القرآن مستهزئين قال الحسن : كلما جدد لهم الذكر استمروا على الجهل^(٢) ﴿لاهيئة قلوبهم﴾ أي ساهية قلوبهم عن كلام الله ، غافلة عن تدبر معناه ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾ أي تناجى المشركون فيما بينهم سراً ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم﴾ أي قالوا فيما بينهم خفية هل محمد الذي يدعى الرسالة إلا شخص مثلكم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ ﴿أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾ أي أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر ؟ قال الألوسي : أرادوا أن ما أتى به محمد عليه السلام من قبيل السحر ، وذلك بناء على ما ارتكز في اعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكاً وأن كل ما جاء به من الخوارق من قبيل السحر وعنوا بالسحر القرآن^(٣) ﴿قال ربي يعلم القول في السماء والأرض﴾ أي قال محمد ﷺ إن ربي لا يخفى عليه شيء مما يقال في السماء والأرض ﴿وهو السميع العليم﴾ أي السميع بأقوالكم ، العليم بأحوالكم ، وفي هذا تهديد لهم ووعد ﴿بل قالوا أضغاث

(١) البيت لأبي العنابية كذا في ابن كثير ٥٠١/٢ . (٢) القرطبي ٢٦٨/١١ . (٣) الألوسي ٩/١٧ .

أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ ﴿٦٦﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٧﴾
 وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا
 لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٦٩﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٧٠﴾
 لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧١﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا
 قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٧٢﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿٧٣﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ

أحلام ﴿٦٦﴾ هذا إضرابٌ من جهته تعالى وانتقال إلى ما هو أشنع وأقبح حيث قالوا عن القرآن إنه أخلاق منامات ﴿٦٧﴾ بل افتراه ﴿٦٨﴾ أي اختلقه محمد من تلقاء نفسه ﴿٦٩﴾ بل هو شاعر ﴿٧٠﴾ أي بل محمد شاعر وما أتى به شعر يخيل للسامع أنه كلام رائع مجيد قال في التسهيل : حكى عنهم هذه الأقوال الكثيرة ليظهر اضطراب أمرهم وبطلان أقوالهم فهم متحIRON لا يستقرون على شيء ^(١) ﴿٧١﴾ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴿٧٢﴾ أي فليأتنا محمد بمعجزة خارقة تدل على صدقه كما أرسل موسى بالعصا وصالح بالناقة ﴿٧٣﴾ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكتها أفهم يؤمنون ﴿٧٤﴾ أي ما صدق قبل مشركي مكة أهل القرى الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات بل كذبوا فأهلكهم الله أفصدق هؤلاء بالآيات لو رأوها ؟ كلا قال أبو حيان : وهذا استبعاد وإنكار أي هؤلاء أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات فلو أعطيناهم ما اقترحوا لكانوا أضل من أولئك واستحقوا عذاب الاستئصال ولكن الله تعالى حكم بإيقائهم لعلمه أنه سيخرج منهم مؤمنون ^(٢) ﴿٧٥﴾ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم ﴿٧٦﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رسلاً من البشر لا ملائكة فكيف ينكر هؤلاء المشركون رسالتك ويقولون : ما هذا إلا بشر مثلكم ؟ ﴿٧٧﴾ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴿٧٨﴾ أي فاسألوا يا أهل مكة العلماء بالتوراة والإنجيل هل كان الرسل الذين جاءوهم بشراً أم ملائكة ؟ إن كنتم لا تعلمون ذلك ﴿٧٩﴾ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ﴿٨٠﴾ أي ما جعلنا الأنبياء أجساداً لا يأكلون ولا يشربون كالملائكة بل هم كسائر البشر يأكلون ويشربون ، وينامون ويموتون ﴿٨١﴾ وما كانوا خالدين ﴿٨٢﴾ أي ما كانوا مخلدين في الدنيا لا يموتون ﴿٨٣﴾ ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء ﴿٨٤﴾ أي ثم صدقنا الأنبياء ما وعدناهم به من نصرهم وإهلاك مكذبيهم وإنجائهم مع أتباعهم المؤمنين ﴿٨٥﴾ وأهلكنا المسرفين ﴿٨٦﴾ أي وأهلكنا المكذبين للرسل ، المجاوزين الحد في الكفر والضلال ، وهذا تخويف لأهل مكة ﴿٨٧﴾ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴿٨٨﴾ اللام للقسم أي والله لقد أنزلنا إليكم يا معشر العرب كتاباً عظيماً مجيداً لا يماثله كتاب فيه شرفكم وعزكم لأنه بلغتكم ﴿٨٩﴾ أفلا تعقلون ﴿٩٠﴾ أي أفلا تعقلون هذه النعمة فتؤمنون بما جاءكم به محمد عليه السلام ؟ ﴿٩١﴾ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ﴿٩٢﴾ أي وكثيراً أهلكتنا من أهل القرى الذين كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿٩٣﴾ وأنشأنا بعدهم قوماً آخرين ﴿٩٤﴾

وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا يَتُوبُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٥﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَلْمِدينَ ﴿١٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنِ ﴿١٧﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آيَةً لَتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٨﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٩﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿٢٠﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢١﴾

أي وخلقنا أمة أخرى بعدهم ﴿ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ﴾ أي فلما رأوا عذابنا بحاسة البصر وتيقنوا نزوله إذا هم يهربون فارين منهزمين قال أبو حيان: لما أدركتهم مقدمة العذاب ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين^(١) ﴿ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ﴾ أي تقول لهم الملائكة استهزاءً: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور ولين العيش ﴿ ومساكنكم ﴾ أي ارجعوا إلى مساكنكم الطيبة ﴿ لعلكم تُسألون ﴾ أي لعلكم تُسألون عما جرى عليكم ، وهذا كله من باب الاستهزاء والتوبيخ ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ أي قالوا يا هلاكنا ودمارنا إنا كنا ظالمين بالإشراك وتكذيب الرسل ، اعترفوا وندموا حين لا ينفعهم الندم ﴿ فما زالت تلك دعواهم ﴾ أي فما زالت تلك الكلمات التي قالوها يكررونها ويرددونها ﴿ حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾ أي حتى أهلكناهم بالعذاب وتركناهم مثل الحصيد موتى كالزروع المحصود بالمناجل ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ أي لم نخلق ذلك عبثاً وباطلاً وإنما خلقناها دلالة على قدرتنا ووحدانيتنا ليعتبر الناس ويستدلوا بالخلق على وجود الخالق المدبر الحكيم ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهم آية لآخذنا من لدنا ﴾ أي لآخذنا من عندنا من الحور العين أو الملائكة ﴿ إن كنا فاعلين ﴾ أي لو أردنا فعل ذلك لآخذنا من لدنا ولكنه منافٍ للحكمة فلم نفعله ﴿ بل نقذف بالباطل فيدمغه ﴾ أي بل نرمي بالحق المبين على الباطل المتزعزع فيقمعه ويبطله ﴿ فإذا هو زاهق ﴾ أي هالك تالف ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ أي ولكم يا معشر الكفار العذاب والدمار من وصفكم الله تعالى بما لا يجوز من الزوجة والولد ﴿ وله من في السموات والأرض ﴾ أي وله جلٌ وعلا جميع المخلوقات ملكاً وخلقاً وتصرفاً فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبدٌ ومخلوق له ؟ ﴿ ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ﴾ أي والملائكة الذين عبدتموهم من دون الله لا يتكبرون عن عبادة مولاهم ولا يعيون ولا يملون ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ أي هم في عبادة دائمة ينزهون الله عما لا يليق به

أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

ويصلون ويذكرون الله ليل نهار لا يضعفون ولا يسأمون ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُشرون﴾ لما ذكر الدلائل على وحدانيته وأن من في السموات والأرض ملك له وأن الملائكة المقربين في طاعته وخدمته عاد إلى ما كان عليه من توبيخ المشركين وذمهم وتسفيه أحلامهم ، ﴿أم﴾ منقطعة بمعنى بل والهمزة فيها استفهام معناه التعجب والإنكار والمعنى هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض قادرين على إحياء الموتى ؟ كلا بل اتخذوا آلهة جماداً لا تتصف بالقدرة على شيء فهي ليست بآلهة على الحقيقة لأن من صفة الإله القدرة على الإحياء والإماتة ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ هذا برهان على وحدانيته تعالى أي لو كان في الوجود آلهة غير الله لفسد نظام الكون كله لما يحدث بين الآلهة من الاختلاف والتنازع^(١) في الخلق والتدبير وقصد المغالبة ، ألا ترى أنه لا يوجد ملكان في مدينة واحدة ، ولا رئيسان في دائرة واحدة ؟ ﴿فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ أي تنزه الله الواحد الأحد خالق العرش العظيم عما يصفه به أهل الجهل من الشريك والزوجة والولد ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾ أي لا يسأل تعالى عما يفعل لأنه مالك كل شيء والمالك يفعل في ملكه ما يشاء ، ولأنه حكيم فأفعاله كلها جارية على الحكمة ، وهم يُسألون عن أعمالهم لأنهم عبيد ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة﴾ كرر هذا الإنكار استعظاماً للشرك ومبالغة في التوبيخ أي هل اتخذوا آلهة من دون الله تصلح للعبادة والتعظيم ؟ ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ أي قل يا محمد لأولئك المشركين اثبتوني بالحجة والبرهان على ما تقولون ﴿هذا ذكرٌ من معي وذكرٌ من قبلي﴾ أي هذا الكتاب الذي معي والكتب التي من قبلي كالتوراة والإنجيل ليس فيها ما يقتضي الإشراك بالله ، ففي أي كتاب نزل هذا ؟ في القرآن أم في الكتب المنزلة على سائر الأنبياء ؟ ! فما زعمتموه من وجود الآلهة لا تقوم عليه حجة لا من جهة العقل ولا النقل ، بل كتب الله السابقة شاهدة بتنزیهه عن الشركاء والأنداد ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾ أي بل أكثر المشركين لا يعلمون التوحيد فهم معرضون عن النظر والتأمل في دلائل الإيمان .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي :

١ - التنكير في غفلة للتعظيم والتفخيم ﴿وهم في غفلة﴾ .

(١) قال المفسرون : في الآية دليل على التامع الذي أورده الأصوليون وذلك أنا لو فرضنا إلهين فأراد أحدهما شيئاً وأراد الآخر نقيضه ، فإما أن تنفذ إرادة كل منهما وذلك محال لاستحالة اجتماع النقيضين ، وإما أن تنفذ إرادة واحد منهما دون الآخر فيكون الأول الذي تنفذ إرادته هو الإله ، والثاني عاجز فلا يصلح أن يكون إلهاً .

٢ - صيغة المبالغة ﴿السميع العليم﴾ .

٣ - الإضراب الترقى ﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر﴾ وهذا الاضطراب في وصف القرآن يدل على التردد والتحير في تزويرهم للحق الساطع المنير فقولهم الثاني أفسد من الأول ، والثالث أفسد من الثاني .

٤ - الإنكار التويخي ﴿أفلا تعقلون﴾؟

٥ - التشبيه البليغ ﴿حصيداً خامدين﴾ أي جعلناهم كالزرع المحصود وكالنار الخامدة .

٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾ شبه الحق بشيء صلب والباطل بشيء رخو واستعير لفظ القذف والدمغ لغلبة الحق على الباطل بطريق التمثيل فكأنه رمي بجرم صلب على رأس دماغ الباطل فشقه وفي هذا التعبير مبالغة بديعة في إزهاق الباطل .

٧ - طباق السلب ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾ .

٨ - التبكيت وإلزام الحجر للخصم ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ .

فَكَايِدَةٌ : سئل كعب عن الملائكة كيف يسبحون الليل والنهار لا يفترون ؟ أما يشغلهم شأن ، أما تشغلهم حاجة ؟ فقال للسائل : يا ابن أخي جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس ، ألسنت تأكل وتشرب ، وتقوم وتجلس ، وتحيء وتذهب وأنت تتنفس ؟ فكذلك جعل لهم التسبيح^(١) .

قال الله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي . . إلى . . أفأنتم له منكرون﴾

من آية (٢٥) إلى نهاية آية (٥٠) .

المناسبة : لما بين تعالى أحوال المشركين وأقام الأدلة والبراهين على وحدانية الله وبطلان تعدد الآلهة ، ذكر هنا أن دعوة الرسل جميعاً إنما جاءت لبيان التوحيد ثم ذكر بقية الأدلة على قدرة الله ووحدانيته في هذا الكون العجيب .

اللغز : ﴿رثقاً﴾ الرثق : الضم والالتحام وهو ضد الفتق يقال رثقت الشيء فأرثقت أي التأم ومنه الرثقاء للمنظمة الفرج ﴿تميد﴾ تتحرك وتضطرب ﴿فجاجاً﴾ جمع فج وهو المسلك والطريق الواسع ﴿يسبحون﴾ يجرون ويسرون بسرعة كالسباح في الماء ﴿فتبهتهم﴾ تدهشهم وتحيرهم قال الجوهري : بهته بهتاً أخذه بغته وقال الفراء : بهته إذا واجهه بشيء يحيره^(٢) ﴿يكلائكم﴾ يحرسكم ويحفظكم والكلاءة : الحراسة والحفظ .

سَبَبُ النَّزُولِ : مرَّ النبي ﷺ على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان : هذا نبي بني عبد مناف ! فغضب أبو سفيان وقال : ما تنكر أن يكون لبني عبد مناف نبي ؟ فرجع رسول الله ﷺ إلى أبي جهل وقال له : ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك الوليد بن المغيرة فنزلت ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا . . ﴾ (١) الآية .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَسْمَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصِتَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِي جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَتَا

التفسير : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ﴾ أي وما بعثنا قبلك يا محمد رسولا من الرسل ﴿ إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا ﴾ أي إلا أوحينا إليه أنه لا رب ولا معبود بحق سوى الله ﴿ فاعبدون ﴾ أي فاعبدوني وحدي وخصوني بالعبادة ولا تشركوا معي أحداً ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾ أي قال المشركون اتخذ الله من الملائكة ولداً قال المفسرون : هم حي من خزاعة قالوا : الملائكة بنات الله ﴿ سبحانه ﴾ أي تنزهه الله وتقدس عما يقول الظالمون ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ أي بل هم عباد مبدلون اصطفاهم الله فهم مكرمون عنده في منازل عالية ، ومقامات سامية وهم في غاية الطاعة والخضوع ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ أي لا يقولون شيئاً حتى يقوله شأنهم شأن العبيد المؤدبين وهم بطاعته وأوامره يعملون لا يخالفون ربه في أمر من الأوامر ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي علمه تعالى محيط بهم لا يخفى عليه منهم خافية ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ أي لا يشفعون يوم القيامة إلا لمن رضي الله عنه وهم أهل الإيمان كما قال ابن عباس : هم أهل شهادة لا إله إلا الله ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ أي وهم من خوف الله ورهبته خائفون حذرون لأنهم يعرفون عظمة الله قال الحسن : يرتعدون من خشية الله ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه ﴾ أي ومن يقل من الملائكة إني إله ومعبود مع الله ﴿ فذلك نجزيه جهنم ﴾ أي فعقوبته جهنم قال المفسرون : هذا على وجه التهديد وعلى سبيل الفرض والتقدير لأن هذا شرط والشرط لا يلزم وقوعه والملائكة معصومون ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الشديد نجزي من ظلم وتعدي حدود الله ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففقتناهما ﴾ استفهام توبيخ لمن ادعى مع الله آلهة ورد على عبدة الأوثان أي أولم يعلم هؤلاء الجاحدون أن السموات والأرض كانتا

رَتَقًا فَفَتَقْنَهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَلَا يَنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾

شيئاً واحداً ملتصقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هي وأقر الأرض كما هي ؟ قال الحسن وقتادة : كانت السموات والأرض ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء^(١) وقال ابن عباس : كانت السموات رتقاً لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاً لا تثبت ففتق هذه بالمطر ، وهذه بالنبات^(٢) ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ أي جعلنا الماء أصل كل الأحياء وسبباً للحياة فلا يعيش بدونه إنسان ولا حيوان ولا نبات ﴿أفلا يؤمنون﴾ أي أفلا يصدقون بقدرة الله ؟ ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تُميد بهم﴾ أي جعلنا في الأرض جبالاً ثوابت لئلا تتحرك وتضطرب فلا يستقر لهم عليها قرار ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سُبُلًا لعلهم يهتدون﴾ أي جعلنا في هذه الجبال مسالك وطرقاً واسعة كي يهتدوا إلى مقاصدهم في الأسفار قال ابن كثير : جعل في الجبال ثغراً يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه فيجعل الله فيها فجوةً ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا^(٣) ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ أي جعلنا السماء كالسقف للأرض محفوظة من الوقوع والسقوط وقال ابن عباس : حفظت بالنجوم من الشياطين ﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ أي الكفار عن الآيات الدالة على وجود الصانع وقدرته من الشمس والقمر والنجوم وسائر الأدلة والعبير معرضون لا يتفكرون فيما أبدعته يد القدرة من الخلق العجيب والتنظيم الفريد الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة قال القرطبي : بين تعالى أن المشركين غفلوا عن النظر في السموات وآياتها ، من ليلها ونهارها ، وشمسها وقمرها ، وأفلاكها ورياحها ، وما فيها من القدرة الباهرة إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صناعاً قادراً واحداً يستحيل أن يكون له شريك^(٤) ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر﴾ أي وهو تعالى بقدرته نوع الحياة فجعل فيها ليلاً ونهاراً هذا في ظلامه وسكونه ، وهذا بضياءه وأنسه ، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وبالعكس ، وخلق الشمس والقمر آيتين عظيمتين دالتين على وحدانيته ﴿كل في فلك يسبحون﴾ أي كل من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار يجرون ويسرون بسرعة كالسباح في الماء ﴿وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخلد﴾ أي وما جعلنا لأحدٍ من البشر قبلك يا محمد البقاء الدائم والخلود في الدنيا ﴿أفئنم ميت فهم الخالدون﴾ أي فهل إذا مت يا محمد سيخلدون بعدك في هذه الحياة ؟ لا لن يكون لهم ذلك بل كل إلى الفناء قال المفسرون : هذا ردٌ لقول

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا
يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذًا الَّذِي بِذِكْرِهِ الْهَتَكُمْ وَهُمْ يَدِّكِرُ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ
سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً

المشركين ﴿شاعرٌ تتربص به ريب المنون﴾ فأعلم تعالى بأن الأنبياء قبله ماتوا وتولى الله دينه بالنصر والحيطة ، فهكذا نحفظ دينك وشرعك ﴿كلُّ نفسٍ ذائقة الموت﴾ أي كل مخلوقٍ إلى الفناء ولا يدوم إلا الحيُّ القيوم ﴿ونبلوكم بالشرِّ والخيرِ فتنة﴾ أي ونختبركم بالمصائب والنعم لنرى الشاكر من الكافر ، والصابر من القانط قال ابن عباس : نبتليكم بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلال^(١) وقال ابن زيد : نختبركم بما تحبون لنرى كيف شكركم ، وبما تكرهون لنرى كيف صبركم^(٢) ! ! ﴿وإلينا تُرجعون﴾ أي وإلينا مرجعكم فنجازيكم بأعمالكم ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً﴾ أي إذا رآك كفار قريش كأبي جهل وأشياعه ما يتخذونك إلا مهزواً به يقولون ﴿أهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ الْهَتَكُمْ﴾ استفهام فيه إنكار وتعجب أي هذا الذي يسب آهتكم ويُسفه أحلامكم ؟ ﴿وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ أي وهم كافرون بالله ومع ذلك يستهزئون برسول الله قال القرطبي : كان المشركون يعيرون من جحد إلهية أصنامهم وهم جاحدون لإلهية الرحمن ، وهذا غاية الجهل^(٣) ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ أي ركب الإنسان على العجلة فخلق عجولاً يستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مضرّة قال ابن كثير : والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلوا ذلك^(٤) ولهذا قال ﴿سأورِيكم آياتي فلا تستعجلون﴾ أي سأورِيكم انتقامي واقتداري على من عصاني فلا تتعجلوا الأمر قبل أوامره ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ أي ويقول المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية : متى هذا العذاب الذي يعدنا به محمد إن كنتم يا معشر المؤمنين صادقين فيما أخبرتمونا به قال تعالى ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾ أي لو عرف الكافرون فظاعة العذاب حين لا يستطيعون دفع العذاب عن وجوههم وظهورهم لأنه محيط بهم من جميع جهاتهم لما استعجلوا الوعيد قال في البحر : وجواب ﴿لو﴾ محذوف لأنه أبلغ في الوعيد وأهيب وقدره الزمخشري بقوله : لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم هو الذي هوّنهم عندهم^(٥) ﴿ولا هم يُنصرون﴾ أي لا ناصر لهم من عذاب الله ﴿بل تأتِيهم بغتةً فتبهتهم﴾ أي بل تأتِيهم الساعة فجأة فتدهشهم وتحيرهم ﴿فلا يستطيعون ردّها ولا هم يُنظرون﴾

(١) المختصر ٥٠٨/٢ . (٢) ابن الجوزي ٣٥٠/٥ . (٣) القرطبي ٢٨٨/١١ . (٤) المختصر ٥٠٨/٢ . (٥) البحر ٣١٣/٦ .

فَتَبَهُتُّمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤٣﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ مَن يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُم عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٥﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٦﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ

أي فلا يقدرُونَ على صرفها عنهم ولا يُمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار ﴿ولقد استهزى برسول من قبلك﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ عن استهزاء المشركين أي والله لقد استهزى برسول أولي شأن خطير وذوي عدد كثير من قبلك يا محمد ﴿فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي فتزل وحلّ بالساخرين من الرسل العذاب الذي كانوا يستهزئون به قال أبو حيان : سلاه تعالى بأن من تقدّمه من الرسل وقع من أمهم الاستهزاء بهم ، وأن ثمرة استهزائهم جنّوها هلاكاً وعقاباً في الدنيا والآخرة فكذلك حال هؤلاء المستهزئين ^(١) ﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن﴾ أي قل يا محمد هؤلاء المستهزئين من يحفظكم من بأس الرحمن في أوقاتكم ؟ ومن يدفع عنكم عذابه وانتقامه إن أراد إنزاله بكم ؟ وهو سؤال تقرّيع وتنبية كيلا يغتروا بما نالهم من نعم الله ﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ أي بل هؤلاء الظالمون معرضون عن كلام الله ومواعظه لا يتفكرون ولا يعتبرون ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾ أي لهم آلهة تمنعهم من العذاب غيرنا ؟ ﴿لا يستطيعون نصر أنفسهم﴾ أي لا يقدرُونَ على نصر أنفسهم ، فكيف ينصرون عابديهم ؟ ﴿ولا هم منا يُصحبون﴾ أي وليست هذه الآلهة تستطيع أن تجير نفسها من عذاب الله لأنها في غاية العجز والضعف قال ابن عباس : يُصحبون : يُجارون أي لا يُجيرهم منا أحد لأن المجير صاحب لجاره ^(٢) ﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر﴾ أي متعنا هؤلاء المشركين وآباءهم من قبلهم بما رزقناهم من حطام الدنيا حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة وحسبوا أن ذلك يدوم فاعتروا بذلك ﴿أفلا يرون أنّا نأتي الأرض نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي أفلا ينظرون فيعتبرون بأننا نأتي أرضهم فننقصها من أطرافها بالفتح على النبي وتسليط المسلمين عليها؟ ﴿أفهم الغالبون﴾ استفهام بمعنى التقرّيع والإنكار أي أفهم الغالبون والحالة هذه أم المغلوبون ؟ بل هم المغلوبون الأخسرون الأذليون ﴿قل إنّما أنذركم بالوحي﴾ أي قل لهم يا محمد إنّما أخوفكم وأحذركم بوحى من الله لا من تلقاء نفسي ، فأنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ﴿ولا يسمع الصمّ الدعاء إذا ما يُنذرون﴾ أي ولكنكم أيها المشركون لشدة جهلكم وعنادكم كالصمّ الذين لا يسمعون الكلام والإنذار فلا يتعظون ولا ينزجرون ﴿ولئن مسّتهم نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أي

لَيَقُولَنَّ يَوْمَئِذٍ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٥٠﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥١﴾

ولئن أصابهم شيء خفيف مما أُنذروا به من عذاب الله ولو كان يسيراً ﴿ليقولنَّ يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ أي ليعترفنَّ بجريمتهم ويقولون: يا هلاكنا لقد كنا ظالمين لأنفسنا بتكدينا رسل الله ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ أي ونقيم الموازين العادلة التي توزن بها الأعمال في يوم القيامة ﴿فلا تظلم نفس شيئاً﴾ أي فلا ينقص محسن من إحسانه ، ولا يزداد مسيء على إساءته ﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها﴾ أي وإن كان العمل الذي عملته زنة حبة من خردل جئنا بها وأحضرناها قال أبو السعود : أي وإن كان في غاية القلة والحقارة ، فإن حبة الخردل مثل في الصغر^(١) ﴿وكفى بنا حاسبين﴾ أي كفى بربك أن يكون محصياً لأعمال العباد مجازياً عليها قال الخازن : والغرض منه التحذير فإن المحاسب إذا كان في العلم بحيث لا يمكن أن يشبهه عليه شيء ، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء فحقيق بالعاقل أن يكون على أشد الخوف منه^(٢) ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكرًا للمتقين﴾ أي ولقد أعطينا موسى وهارون التوراة الفارقة بين الحق والباطل والهدى والضلال نوراً وضياءً وتذكيراً للمؤمنين المتقين ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ أي هم الذين يخافون الله ولم يروه لأنهم عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم رباً عظيماً قادراً يجازي على الأعمال فهم يخشونه وإن لم يروه ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾ أي وهم من أهوال القيامة وشدائدها خائفون وجلون ﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه﴾ أي وهذا القرآن العظيم كتاب عظيم الشأن فيه ذكر لمن تذكر ، وعظة لمن اتعظ ، كثير الخير أنزلناه عليكم بلغتكم ﴿أفأنتم له منكرون﴾ أي أفأنتم يا معشر العرب منكرون له وهو في غاية الجلاء والظهور؟ قال الكرخي : الاستفهام للتوبيخ والخطاب لأهل مكة فإنهم من أهل اللسان يدركون مزايا الكلام ولطائفه ، ويفهمون من بلاغة القرآن ما لا يدركه غيرهم مع أن فيه شرفهم وصيتهم فلو أنكره غيرهم لكان لهم مناصبته وعداؤه^(٣) .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

- ١ - جناس الاشتقاق ﴿أرسلنا . . رسول﴾ .
- ٢ - الاستفهام الذي معناه التعجب والإنكار ﴿أولم ير الذين كفروا﴾ .

(١) أبو السعود ٣/ ١٢٤ . (٢) حاشية الجمل ٣/ ١٣١ . (٣) انظر البحر المحيط ٦/ ٣١٢ .

- ٣ - الطباق بين الرتق والفتق في قوله ﴿كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ .
- ٤ - التنكير للتعميم ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ ﴿وما جعلنا لبشر﴾ .
- ٥ - الالتفات من المتكلم إلى الغائب ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار﴾ بعد قوله ﴿وجعلنا من الماء﴾ وذلك لتأكيد الاعتناء بالنعم الجليلة التي أنعم بها على العباد .
- ٦ - الطباق بين الشر والخير ﴿ونبلوكم بالشر والخير﴾ .
- ٧ - المبالغة ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من نفس العجل كقول العرب لمن لازم اللعب : هو من لعب وكوصف بعضهم قوماً بقوله «نساؤهم لُعْب ورجالهم طرب» .
- ٨ - الاستعارة ﴿ولا يسمع الصم الدعاء﴾ استعار الصم للكفار لأنهم كالبهائم التي لا تسمع الدعاء ولا تفقه النداء .
- ٩ - الكناية ﴿حبة من خردل﴾ كناية عن العمل ولو كان في غاية القلة والحقارة .
- ١٠ - السجع اللطيف ﴿يهتدون ، يسبحون ، يُنصرون﴾ الخ .

تنبية : سئل ابن عباس : هل الليل كان قبل أو النهار؟ فقال : أرأيتم إلى السموات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار^(١) .

لطيفة : عن ابن عمر أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما فقال له : إذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ثم تعال فأخبرني بما قال لك - يريد ابن عباس - فذهب إليه فسأله فقال ابن عباس : كانت السموات رتقاً لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاً لا تثبت ، فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر ، وفتق هذه بالنبات ، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال ابن عمر : قد كنت أقول : ما يعجبني جراءة ابن عباس في تفسير القرآن ، فالآن علمت بأنه قد أوتي في القرآن علماً^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . . إلى . . وكنا لهم حافظين﴾

من آية (٥١) إلى نهاية آية (٨٢) .

المناسبة : لما ذكر تعالى الدلائل على التوحيد والنبوة والمعاد أتبع ذلك بذكر قصص الأنبياء ، وما نال كثيراً منهم من الابتلاء تسلياً للرسول الأعظم ﷺ ليتأسى بهم في الصبر واحتمال الأذى في سبيل الله تعالى ، وتوطين النفس على مجابهة المشركين أعداء الله .

(١) مختصر ابن كثير ٥٠٦/٢ . (٢) نفس المرجع السابق والصفحة .

الغتر : ﴿رشده﴾ هداه إلى وجوه الصلاح ﴿التماثيل﴾ جمع تماثل وهو الصورة المصنوعة مشبهة بمخلوق من مخلوقات الله تعالى يقال : مثلت الشيء بالشيء أي شبهته به واسم ذلك الممثل تماثل ﴿جذاذاً﴾ فتاتاً والجذذ : الكسر والقطع قال الشاعر :

بنو المهلب جذد الله دابرهـم أمسوا رماداً فلا أصل ولا طرف^(١)

﴿نكسوا﴾ النكس : قلب الشيء بحيث يصير أعلاه أسفل ﴿نافلة﴾ زيادة ومنه النفل لأنه زيادة على ما فرض الله ويقال لولد الولد نافلة لأنه زيادة على الولد ﴿الكرب﴾ الغم الشديد ﴿نفشت﴾ النفش : الرعي بالليل بلا راع يقال : نفشت بالليل ، وهملت بالنهار إذا رعت بلا راع .

* وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥٥﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٧﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٨﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٩﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٦١﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا

التفسير : ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده﴾ أي والله لقد أعطينا إبراهيم هداه وصلاحه إلى وجوه الخير في الدين والدنيا ﴿من قبل﴾ أي من صغره حيث وفقناه للنظر والاستدلال إلى وحدانية ذي الجلال ﴿وكننا به عالمين﴾ أي عالين أنه أهل لما آتينا من الفضل والنبوة ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾ هذا بيان للرشد الذي أوتيته إبراهيم من صغره أي حين قال لأبيه آزر وقومه المشركين ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها ؟ وفي قوله ﴿ما هذه التماثيل﴾ تحقير لها وتصغير لشأنها وتجاهل بها مع علمه بتعظيمهم لها ﴿قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين﴾ أي نعبدتها تقليداً لأسلافنا قال ابن كثير : لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال^(٢) ﴿قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ أي لقد كنتم وأسلافكم الذين عبدوا هذه الأصنام في خطأ بين بعبادتكم إياها إذ هي جمادات لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ﴿قالوا أجتنا بالحق أم أنت من اللاعبين﴾ أي هل أنت جاد فيما تقول أم لاعب ؟ وهل قولك حق أم مزاح ؟ استعظمو إنكاره عليهم ، واستبعدوا أن يكون ما هم عليه ضلالاً ، وجوزوا أن ما قاله على سبيل المزاح لا الجد فأضرب عن قولهم وأخبر أنه جاد فيما قال غير لاعب ﴿قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن﴾ أي ربكم الجدير بالعبادة هو رب السموات والأرض الذي خلقهن وأبدعهن لا هذه الأصنام المزعومة ﴿وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ أي وأنا شاهد لله بالوحدانية بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة كالشاهد الذي تقطع به الدعوى ﴿وتالله لاكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾ أي وأقسم بالله لأمكرن بأهتكم وأحتالن في وصول الضر

إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٥﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِعَالِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ وَابِرَاهِيمُ ﴿٥٧﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِعَالِهَتِنَا يَا ابِرَاهِيمُ ﴿٥٩﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٠﴾ فَارْجِعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦١﴾

إليها بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم قال المفسرون : كان لهم عيد يخرجون إليه في كل سنة ويجتمعون فيه فقال أزر لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا ! ! فخرج معهم إبراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال إني سقيم أشتكى رجلي فتركوه ومضوا ثم نادى في آخرهم ﴿وتالله لا كيدن أصنامكم﴾ فسمعها رجل فحفظها^(١) ﴿فجعلهم جذاذا﴾ أي كسر الأصنام حتى جعلها فتاتاً وحطاماً ﴿إلا كبيراً لهم﴾ أي إلا الصنم الكبير فإنه لم يكسره قال مجاهد : ترك الصنم الأكبر وعلق الفأس الذي كسره به الأصنام في عنقه ليحتج به عليهم^(٢) ﴿لعلهم إليه يرجعون﴾ أي لعلهم يرجعون إلى الصنم فيسألونه عمن كسر الأصنام فيتبين لهم عجزه وتقوم الحجة عليهم ﴿قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين﴾ في الكلام محذوف تقديره : فلما رجعوا من عيدهم ونظروا إلى آلهتهم ورأوا ما فعل بها قالوا على جهة البحث والإنكار والتشنيع والتوبيخ : إن من حطم هذه الآلهة لشديد الظلم عظيم الجرم لجراته على الآلهة المستحقة للتعظيم والتوقير ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ أي قال من سمع إبراهيم يقول ﴿وتالله لا كيدن أصنامكم﴾ سمعنا فتى يذكرهم بالذم ويسبهم ويعيبهم يسمى إبراهيم فعله هو الذي حطم الآلهة ! ﴿قالوا فأتوا به على أعين الناس﴾ أي قال عمرو وأشرف قومه أحضروا إبراهيم بمرأى من الناس حتى يروه ، والغرض أن تكون محاكمته على رءوس الأشهاد بحضرة الناس كلهم ليكون عقابه عبرة لمن يعتبر ﴿لعلهم يشهدون﴾ أي لعلهم يحضرون عقابه ويرون ما يصنع به ﴿قالوا أأنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم﴾ أي هل أنت الذي حطمت هذه الآلهة يا إبراهيم ؟ ﴿قال بل فعله كبيرهم هذا﴾ أي قال إبراهيم بل حطمتها الصنم الكبير لأنه غضب أن تعبدوا معه هذه الصغار فكسرها ، والغرض تبكيته وإقامة الحجة عليهم ولهذا قال ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ أي اسألوا هذه الأصنام من كسرها؟ إن كانوا يقدرون على النطق قال القرطبي : والكلام خرج مخرج التعريض وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله كما قال إبراهيم لأبيه ﴿لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ فقال إبراهيم ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ ليقولوا إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضررون فيقول لهم فلم تعبدونهم ؟ فتقوم عليهم الحجة منهم كما يجوز فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من نفسه فإنه أقرب في الحجة وأقطع للشبهة^(٣) ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي رجعوا إلى عقولهم وتفكروا بقلوبهم ﴿فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾ أي

ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾

أنتم الظالمون في عبادة ما لا ينطق ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾ أي انقلبوا من الإذعان إلى المكابرة والطينان ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ أي قالوا في لجاجهم وعنادهم : لقد علمت يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تتكلم ولا تحب فكيف تأمرنا بسؤالها ؟ وهذا إقرار منهم بعجز الآلهة ، وحينئذ توجهت لإبراهيم الحجة عليهم فأخذ يوبخهم ويعتقهم ﴿قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾ أي أتعبدون جمادات لا تضر ولا تنفع ؟ ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ أي قبلاً لكم ونتاجاً لكم وللأصنام التي عبدتموها من دون الله ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفلا تعقلون قبح صنيعكم ؟ ﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم﴾ لما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب عدلوا إلى البطش والتنكيل فقالوا : احرقوا إبراهيم بالنار انتقاماً لأهتكم ونصرة لها ﴿إن كنتم فاعلين﴾ أي إن كنتم ناصرها حقاً ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ أي ذات برد وسلامة وجاءت العبارة هكذا للمبالغة قال المفسرون : لما أرادوا إحراق إبراهيم جمعوا له خطاباً مدة شهر حتى كانت المرأة تمرض فتندر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحرق إبراهيم ، ثم جعلوه في حفرة من الأرض وأضرموها ناراً فكان لها هب عظيم حتى إن الطائر ليمر من فوقها فيحترق من شدة وهجها وحرها ، ثم أوثقوا إبراهيم وجعلوه في منجنيق ورموه في النار ، فجاء إليه جبريل فقال : ألك حاجة ؟ قال أما إليك فلا ، فقال جبريل : فاسأل ربك ، فقال : «حسبي من سؤالي علمه بحالي» فقال الله : يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم^(١) ، ولم تحرق النار منه سوى وثاقه وقال ابن عباس : لو لم يقل الله ﴿وسلاماً﴾ لأذى إبراهيم بردها^(٢) ﴿وأرادوا به كيداً﴾ أي أرادوا تحريقه بالنار ﴿فجعلناهم الأخسرين﴾ أي أخسر الناس وأخسر من كل خاسر حيث كادوا لنبي الله فرداً الله كيدهم في نحورهم ﴿ونجيناه ووطياً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ أي ونجينا إبراهيم مع ابن أخيه لوط حيث هاجرا من العراق إلى الشام التي بارك الله فيها بالخصب وكثرة الأنبياء ووفرة الأنهار والأشجار قال ابن الجوزي : وبركتها أن الله عز وجل بعث أكثر الأنبياء منها وأكثر فيها الخصب والأنهار^(٣) ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾ أي أعطينا إبراهيم - بعدما سأل ربه الولد - إسحاق وأعطيناه كذلك يعقوب نافلة أي زيادة وفضلاً من غير سؤال قال المفسرون : سأل إبراهيم ربه ولداً فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة زيادة على ما سأل لأن ولد الولد كالولد ﴿وكلاً جعلنا

وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا
عَبِيدِينَ ﴿٧٢﴾ وَلَوْ طَاءَ آتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ
سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٣﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٤﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٥﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ
فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٦﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ

صالحين ﴿٧٢﴾ أي وكلاً من إبراهيم وإسحاق ويعقوب جعلناه من أهل الخير والصلاح ﴿٧٣﴾ وجعلناهم أئمةً
يهدون بأمرنا ﴿٧٤﴾ أي جعلناهم قدوة ورؤساء لغيرهم يرشدون الناس إلى الدين بأمر الله ﴿٧٥﴾ وأوحينا إليهم
فعل الخيرات ﴿٧٦﴾ أي أوحينا إليهم أن يفعلوا الخيرات ليجمعوا بين العلم والعمل ﴿٧٧﴾ وإقام الصلاة وإيتاء
الزكاة ﴿٧٨﴾ أي وأمرناهم بطريق الوحي بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وإنما خصهما بالذكر لأن الصلاة أفضل
العبادات البدنية ، والزكاة أفضل العبادات المالية ﴿٧٩﴾ وكانوا لنا عابدين ﴿٨٠﴾ أي موحدين مخلصين في
العبادة ﴿٨١﴾ ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ﴿٨٢﴾ أي وأعطينا لوطاً النبوة والعلم والفهم السديد قال ابن كثير :
كان لوط قد آمن بإبراهيم عليه السلام وأتبعه وهاجر معه كما قال تعالى ﴿فأمن له لوط وقال إني مهاجر إلى
ربي﴾ فاتاه الله حكماً وعلماً وأوحى إليه وجعله نبياً وبعثه إلى « سدوم » فكذبوه فأهلكهم الله ودمر
عليهم كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز (١) ﴿٨٣﴾ ونجينا من القرية التي كانت تعمل الخبائث ﴿٨٤﴾
أي خلصناه من أهل قرية سدوم الذين كانوا يعملون الأعمال الخبيثة كاللواط وقطع السبيل وغير ذلك
﴿٨٥﴾ إنهم كانوا قوم سَوْءٍ فاسقين ﴿٨٦﴾ أي كانوا أشراً خارجين عن طاعة الله ﴿٨٧﴾ وأدخلناه في رحمتنا إنه من
الصالحين ﴿٨٨﴾ أي أدخلناه في أهل رحمتنا لأنه من عبادنا الصالحين ﴿٨٩﴾ ونوحاً إذ نادى من قبل ﴿٩٠﴾ أي
واذكر قصة نوح حين دعا على قومه من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين ، دعا عليهم بالهلاك حين كذبوه بقوله
﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ ﴿٩١﴾ فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴿٩٢﴾ أي
استجبنا دعاءه فأنقذناه ومن معه من المؤمنين - ركاب السفينة - من الطوفان والغرق الذي كان كرباً وغماً
شديداً يكاد يأخذ بالأنفاس ﴿٩٣﴾ ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴿٩٤﴾ أي منعناه من شر قومه
المكذبين فنجيناه وأهلكناهم ﴿٩٥﴾ إنهم كانوا قوم سَوْءٍ فأغرقناهم أجمعين ﴿٩٦﴾ أي كانوا منهمكين في الشر
فأغرقناهم جميعاً ولم نبق منهم أحداً ﴿٩٧﴾ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث ﴿٩٨﴾ أي واذكر قصة داود وسليمان
حين يحكمان في شأن الزرع ﴿٩٩﴾ إذ نفست فيه غنم القوم ﴿١٠٠﴾ أي وقت رعت فيه غنم القوم ليلاً فأفسدته
﴿١٠١﴾ وكنا لحكمهم شاهدين ﴿١٠٢﴾ أي كنا مطلعين على حكم كل منهما عالين به ﴿١٠٣﴾ ففهمناها سليمان ﴿١٠٤﴾ أي

شَهِيدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ
 وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكَرٍ لِنُحْصِنَکُمْ مِّنْ بَّاسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ
 عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن
 يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾

علمنا وأهمننا سليمان الحكم في القضية ﴿وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾ أي وكلاً من داود وسليمان أعطيناها
 الحكمة والعلم الواسع مع النبوة قال المفسرون : تخاصم إلى داود رجلان دخلت غنم أحدهما على زرع
 الآخر بالليل فأفسدته فلم تُبق منه شيئاً ، فقاضى بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم ، فخرج الرجلان على
 سليمان وهو بالباب فأخبراه بما حكم به أبوه فدخل عليه فقال : يا نبي الله لو حكمت بغير هذا كان أرفق
 للجميع ! قال : وما هو ؟ قال : يأخذ صاحب الغنم الأرض فيصلحها ويذرهما حتى يعود زرعهما كما
 كان ، ويأخذ صاحب الزرع الغنم وينتفع بألبانها وصفوفها ونسلها ، فإذا خرج الزرع رُدَّت الغنم إلى
 صاحبها والأرض إلى ربهما فقال له داود : وقفت يا بني وقضى بينهما بذلك فذلك قوله تعالى ﴿ففهمناها
 سليمان﴾ ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير﴾ أي جعلنا الجبال والطير تسبح مع داود إذا سبَّح
 قال ابن كثير : وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور فكان إذا ترتَّم بها تقف الطير في الهواء فتجاوبه وتردُّ عليه
 الجبال تأويباً^(١) وإنما قدَّم ذكر الجبال على الطير لأن تسخيرها وتسييحها أعجب وأغرب وأدخل في الإعجاز
 لأنها جماد ﴿وكنا فاعلين﴾ أي وكنا قادرين على فعل ذلك ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم﴾ أي علمنا
 داود صنع الدروع بالإنه الحديد له قال قتادة : أول من صنع الدروع داود وكانت صفائح فهو أول من
 سردها وحلقها^(٢) ﴿لنُحْصِنَکُمْ مِّنْ بَّاسِكُمْ﴾ أي لتقيکم في القتال شر الأعداء ﴿فهل أنتم شاکرون﴾
 استفهام يراد به الأمر أي اشكروا الله على ما أنعم به عليكم ، ولما ذكر تعالى ما خصَّ به نبيه داود عليه
 السلام ذكر ما خصَّ به ابنه سليمان فقال ﴿ولسليمان الريح عاصفة﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفةً
 أي شديدة الهبوب ﴿تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها﴾ أي تسير بمشيئته وإرادته إلى أرض
 الشام المباركة بكثرة الأشجار والأنهار والثمار ، وكانت مسكنه ومقر ملكه ﴿وكنا بكل شيء عالمين﴾ أي
 وكنا عالمين بجميع الأمور فما أعطيناها تلك المكانة إلا لما نعلمه من الحكمة ﴿ومن الشياطين من
 يغوصون له﴾ أي وسخرنا لسليمان بعض الشياطين يغوصون في الماء ويدخلون أعماق البحار
 ليستخرجوا له الجواهر واللآلئ ﴿ويعملون عملاً دون ذلك﴾ أي ويعملون أعمالاً أخرى سوى
 الغوص كبناء المدن والقصور الشاهقة والأمور التي يعجز عنها البشر ﴿وكنا لهم حافظين﴾ أي
 نحفظهم عن الزيغ عن أمره أو الخروج عن طاعته .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات من وجوه الفصاحة والبديع ما يلي :

- ١ - الاستعارة اللطيفة ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾ شبه رجوعهم عن الحق إلى الباطل بانقلاب الشخص حتى يصبح أسفله أعلاه بطريق الاستعارة .
- ٢ - الطباق بين ﴿ينفعكم ويضركم﴾ .
- ٣ - المبالغة ﴿كوني برداً﴾ أطلق المصدر وأراد اسم الفاعل أي باردة أو ذات برد .
- ٤ - عطف الخاص على العام ﴿فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ لأن الصلاة والزكاة من فعل الخيرات وإنما خصهما بالذكر تنبيهاً لعلو شأنهما وفضلهما .
- ٥ - الاحتراس ﴿وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾ دفعاً لتوهم انتقاص مقام داود عليه السلام .
- ٦ - المجاز المرسل ﴿وأدخلناه في رحمتنا﴾ أي في الجنة لأنها مكان تنزل الرحمة فالعلاقة المحلية .
- ٧ - السجع غير المتكلف ﴿العابدين الصابرين ، الصالحين﴾ الخ .

تَبْيِيهُ : وصف تعالى الريح ههنا بقوله ﴿عاصفة﴾ ووصفها في مكان آخر بقوله ﴿رخاء﴾ والعاصفة هي الشديدة ، والرخاء هي اللينة ، ولا تعارض بين الوصفين لأن الريح كانت لينة طيبة وكانت تسرع في جريها كالعاصف فجمعت الوصفين فتدبر .

قال الله تعالى : ﴿وأيوب إذ نادى ربه أي مسني الضر . . إلى . . وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ من آية (٨٣) إلى نهاية السورة الكريمة .

النَّاسِبَةُ : لما ذكر تعالى جملة من الأنبياء « ابراهيم ، نوح ، لوط ، داود ، سليمان » وما نال كثيراً منهم من الابتلاء ، ذكر هنا قصة أيوب وابتلاء الله له بأنواع المحن ثم أعقبها بذكر محنة يونس وزكريا وعيسى وكل ذلك بقصد التسلية للرسول ﷺ ليتأسى بهم .

اللغز : ﴿ذا النون﴾ النون : الحوت وذا النون لقب ليونس بن متى لابتلاع النون له ﴿أحصنت﴾ الإحصان : العفة يقال : رجل محصنٌ وامرأة محصنة أي عفيفة ﴿رغباً ورهباً﴾ الرغب : الرجاء ، والرهب : الخوف ﴿كفران﴾ الكفر والكفران : الجحود وأصله الستر لأن الكافر يستر نعمة الله ويحدها ﴿حذب﴾ الحذب : ما ارتفع من الأرض مأخوذ من حذبة الظهر قال عنترة :

فما رعشت يداي ولا ازدهاني تواترهم إلي من الحذاب^(١)

﴿ينسلون﴾ يسرعون يقال : نسل الذئب ينسل نسلاناً أي أسرع ﴿حصب﴾ الحصب : ما توقد به النار

كالخطب وغيره ﴿زفير﴾ أنين وتنفس شديد ﴿حسيسها﴾ الحسيس : الصوت والحس والحركة الذي يُحس به من حركة الأجرام ﴿السجل﴾ الصحيفة لأن بها يُسجل المطلوب .

سَبَبُ الزَّوَلِ : عن ابن عباس قال : لما نزل قوله تعالى ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ شق ذلك على كفار قريش وقالوا : شتم ألهتنا وأتوا ابن الزُّبَيْرِي وأخبروه فقال : لو حضرته لرددت عليه قالوا : وما كنت تقول له ؟ قال أقول له : هذا المسيح تعبدته النصراني ، وهذا عزيز تعبدته اليهود ؛ أفهما من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أن محمداً قد خصم فأنزل الله ﴿إن الذين سبقوا لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾^(١) .

* وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الضَّرَّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلِّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾

النُّصَيْرُ : ﴿وأيوب إذ نادى ربه﴾ أي واذكر قصة نبي الله أيوب حين دعا ربه بتضرع وخشوع ﴿أنني مسني الضر﴾ أي نالني البلاء والكرب والشدة قال المفسرون : كان أيوب نبياً من الروم ، وكان له أولاد ومال كثير ، فأذهب الله ماله فصبر ، ثم أهلك الأولاد فصبر ، ثم سلط البلاء والمرض على جسمه فصبر فمر عليه ملاء من قومه فقالوا : ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم فعند ذلك تضرع إلى الله فكشف عنه ضره ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ أي أكثرهم رحمة فارحمني ، ولم يصرح بالدعاء ولكنه وصف نفسه بالعجز والضعف ، ووصف ربه بغاية الرحمة ليرحمه ، فكان فيه من حسن التلطف ما ليس في التصريح بالطلب ﴿فاستجبنا له﴾ أي أجبنا دعاءه وتضرعه ﴿فكشفنا ما به من ضر﴾ أي أزلنا ما أصابه من ضر وبلاء ﴿وآتيناه أهله ومثلهم معهم﴾ قال ابن مسعود : مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فلما عوفي أحيوا له وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات^(٢) . والمعنى أعطينا أهله في الدنيا ورزقناه من زوجته مثل ما كان له من الأولاد والأتباع ﴿رحمة من عندنا﴾ أي من أجل رحمتنا إياه ﴿وذكري للعابدين﴾ أي وتذكروا لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر قال القرطبي : أي وتذكروا للعباد لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب ومحنته وصبره وطنوا أنفسهم على الصبر على شدايد الدنيا مثل ما فعل أيوب وهو أفضل أهل زمانه^(٣) ، يُروى أن أيوب مكث في البلاء ثمان عشرة سنة فقالت له امرأته يوماً : لودعوت الله عز وجل فقال لها : كم لبثنا في الرخاء ؟ فقالت : ثمانين سنة فقال : إنني أستحي من الله أن أدعوه وما مكثت في بلائي المدة التي مكثتها في رخائي^(٤) ﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل﴾ أي

(١) القرطبي ٣٢٧/١١ . (٢) هذا الأثر عن ابن مسعود أن الله أحيا أولاده بعد موتهم فيه نظر ، لأنه لا يرجع أحد إلى الدنيا بعد انتقاله منها إلا ما كان من معجزة المسيح عليه السلام والصحيح أن الله عوضه من زوجته أولاداً مثل من فقدهم . (٣) القرطبي ٣٢٧/١١ . (٤) النسفي

وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا^ط إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ^ج وَكَذَلِكَ نُجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾

واذكر لقومك قصة إسماعيل بن إبراهيم وإدريس بن شيث وذا الكفل ﴿كل من الصابرين﴾ أي كل من هؤلاء الأنبياء من أهل الإحسان والصبر ، جاهدوا في الله وصبروا على ما نالههم من الأذى ﴿وأدخلناهم في رحمتنا﴾ أي أدخلناهم بصبرهم وصلاتهم الجنة دار الرحمة والنعيم ﴿إنهم من الصالحين﴾ أي لأنهم من أهل الفضل والصلاح ﴿وذا النون﴾ أي واذكر لقومك قصة يونس الذي ابتلعه الحوت ، والنون هو الحوت نُسب إليه لأنه التقمه ﴿إذ ذهب مغاضباً﴾ أي حين خرج من بلده مغاضباً لقومه إذ كان يدعوهم إلى الإيمان فيكفرون حتى أصابه ضجر منهم فخرج عنهم ولذلك قال الله تعالى ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ ولا يصح قول من قال : مغاضباً لربه قال أبو حيان : وقول من قال مغاضباً لربه يجب طرحه إذ لا يناسب منصب النبوة^(١) وقال الرازي : لا يجوز صرف المغاضبة إلى الله تعالى لأن ذلك صفة من يجهل كون الله مالكا للأمر والنهي ، والجاهل بالله لا يكون مؤمناً فضلاً عن أن يكون نبياً ، ومغاضبته لقومه كانت غضباً لله ، وأنفة لدينه ، وبغضاً للكفر وأهله^(٢) ﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾ أي ظن يونس أن لن نصيق عليه بالعقوبة كقوله ﴿ومن قدر عليه رزقه﴾ أي ضيق عليه فهو من القدر لا من القدرة قال الإمام الفخر : من ظن عجز الله فهو كافر ، ولا خلاف أنه لا يجوز نسبة ذلك إلى أحاد المؤمنين فكيف إلى الأنبياء عليهم السلام ! روي أنه دخل ابن عباس على معاوية فقال له معاوية : لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لي خلاصاً إلا بك ، فقال : وما هي ؟ قال : يظن نبي الله يونس أن لن يقدر الله عليه ؟ فقال ابن عباس : هذا من القدر لا من القدرة^(٣) ﴿فنادى في الظلمات﴾ أي نادى ربه في ظلمة الليل وهو في بطن الحوت قال ابن عباس : جمعت الظلمات لأنها ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ﴿أن لا إله إلا أنت﴾ أي نادى بأن لا إله إلا أنت يا رب ﴿سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ أي تزهدت يا رب عن النقص والظلم ، وقد كنت من الظالمين لنفسي وأنا الآن من التائبين النادمين فاكشف عني المحنة وفي الحديث (ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له)^(٤) ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم﴾ أي استجبنا لتضرعه واستغاثته ونجيناه من الضيق والكره الذي ناله حين التقمه الحوت ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾ أي كما نجينا يونس من تلك المحنة ننجي المؤمنين من الشدائد والأحوال إذا استغاثوا بنا ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فرداً﴾ أي واذكر يا محمد خبر رسولنا زكريا حين دعا ربه دعاء مخلص منيب قائلاً : رب لا تتركني وحيداً بلا ولد ولا وارث قال ابن عباس : كان سنه مائة وسن زوجته تسعاً وتسعين^(٥) ﴿وأنت خير الوارثين﴾

(١) البحر ٦/٣٣٥ . (٢) تفسير الفخر الرازي ٢٢/٢١٤ . (٣) الفخر الرازي ٢٢/٢١٥ . (٤) أصل الحديث في سنن أبي داود .

(٥) الرازي ٢٢/٢١٧ .

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا
وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩١﴾ وَالَّتِي أَحْصَنْتَ فَرَجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً
لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٢﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٣﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا
رَاجِعُونَ ﴿٩٤﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٥﴾

أي وأنت يا رب خير من يبقى بعد كل من يموت قال الألوسي : وفيه مدح له تعالى بالبقاء ، وإشارة إلى فناء
من سواه من الأحياء ، واستمطاراً لسحائب لطفه عز وجل^(١) ﴿فاستجبنا له﴾ أي أجبنا دعاءه
﴿ووهبنا له يحيى﴾ أي رزقناه ولداً اسمه يحيى على شيخوخته ﴿وأصلحنا له زوجه﴾ أي جعلناها
ولوداً بعد أن كانت عاقراً وقال ابن عباس : كانت سيئة الخلق طويلة اللسان فأصلحها الله تعالى فجعلها
حسنة الخلق^(٢) ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾ أي إنما استجبنا دعاء من ذكر من الأنبياء لأنهم
كانوا صالحين يجدون في طاعة الله ويتسابقون في فعل الطاعات وعمل الصالحات ﴿ويدعوننا رغباً
ورهباً﴾ أي طمعاً ورجاءً في رحمتنا وخوفاً وفزعاً من عذابنا ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾ أي كانوا متذللين
خاضعين لله يخافونه في السر والعلن ﴿والتي أحصنت فرجها﴾ أي واذكر مريم البتول التي أعفت
نفسها عن الفاحشة وعن الحلال والحرام كقوله ﴿لم يمسنني بشرٌ ولم أكُ بغياً﴾ قال ابن كثير : ذكر تعالى
قصة مريم وابنها عيسى مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى لأن تلك مربوطة بهذه فإنها إيجاد ولدٍ من شيخ كبير قد
طعن في السن وامرأة عجوز لم تكن تلد في حال شبابها ، وهذه أعجب فإنها إيجاد ولدٍ من أنثى بلا ذكر
ولذلك ذكر قصة مريم بعدها^(٣) ﴿ففنفخنا فيها من روحنا﴾ أي أمرنا جبريل فنفخ في فتحة درعها -
قميصها - فدخلت النفخة إلى جوفها فحملت بعيسى ، وأضاف الروح إليه تعالى على جهة التشريف
﴿وجعلناها وابنها آيةً للعالمين﴾ أي وجعلنا مريم مع ولدها عيسى علامةً وأعجوبةً للخلق تدل على
قدرتنا الباهرة ليعتبر بها الناس ﴿إن هذه أمتكم أمةً واحدة﴾ أي دينكم وملتكم التي يجب ان تكونوا عليها
أيها الناس ملةً واحدة غير مختلفة وهي ملة الإسلام ، والأنبياء كلهم جاءوا برسالة التوحيد قال ابن عباس :
معناه دينكم دينٌ واحد^(٤) ﴿وأنا ربكم فاعبدون﴾ أي وأنا إلهكم لا ربَّ سواي فأفردوني بالعبادة
﴿وتقطَّعوا أمرهم بينهم﴾ أي اختلفوا في الدين وأصبحوا فيه شيعاً وأحزاباً فمن موحد ، ومن يهودي ،
ونصراني ومجوسِّي ﴿كلُّ إلينا راجعون﴾ أي رجوعهم إلينا وحسابهم علينا قال الرازي : معنى الآية
جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما تتوزع الجماعة الشيء ويقتسمونه تمثيلاً لاختلافهم في الدين
وصيورتهم فرقاً وأحزاباً شتى^(٥) ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن﴾ أي من يعمل شيئاً من
الطاعات وأعمال البرِّ والخير بشرط الإيمان ﴿فلا كُفران لسعيه﴾ أي لا بطلان لثواب عمله ولا يضيع

(١) روح المعاني ١٧/٨٧ . (٢) القول الأول قول قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين كذا في القرطبي ١١/٣٣٦ .

(٣) المختصر ٢/٥٢٠ . (٤) نفس المرجع السابق والصفحة . (٥) تفسير الرازي ٢٢/٢١٩ .

وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٤٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٤٦﴾
 وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُويلِنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٧﴾
 إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٤٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿٥٠﴾

شيء من جزائه ﴿ وإناله كاتبون ﴾ أي نكتب عمله في صحيفته والمراد أمر الملائكة بكتابة أعمال الخلق ﴿ وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ قال ابن عباس : أي ممتنعٌ على أهل قريةٍ أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا مرة ثانية وفي رواية عنه ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ أي لا يتوبون قال ابن كثير : والأول أظهر^(١) وقال في البحر : المعنى وممتنع على أهل قريةٍ قدرنا إهلاكهم لكفرهم رجوعهم في الدنيا إلى الإيمان إلى أن تقوم الساعة فحينئذ يرجعون^(٢) ﴿ حتى إذا فُتحت يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ أي حتى إذا فتح سدُّ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴿ وهم من كل حدبٍ ينسلون ﴾ أي وهم لكثرتهم من كل مرتفع من الأرض ومن كل أكمةٍ وناحيةٍ يسرعون النزول والمراد أن يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ لكثرتهم يخرجون من كل طريق للفساد في الأرض ﴿ واقترب الوعدُ الحقُّ ﴾ أي اقترب وقت القيامة قال المفسرون : جعل الله خروج يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ علماً على قرب الساعة قال ابن مسعود : الساعةُ من الناس بعد يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ كالحامل المتمم لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولدها ليلاً أو نهاراً^(٣) ﴿ فإذا هي شاخصةٌ أبصار الذين كفروا ﴾ الضمير للقصة والشأن أي فإذا شأن الكافرين أن أبصارهم شاخصة من هول ذلك اليوم لا تكاد تطرف من الحيرة وشدة الفزع ﴿ يا ويلنا قد كنا في غفلة ﴾ أي ويقولون يا ويلنا أي يا حسرتنا وهلاكنا قد كنا في الدنيا في غفلةٍ تامة عن هذا المصير المشئوم واليوم الرهيب ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ أضربوا عن القول السابق وأخبروا بالحقيقة المؤلمة والمعنى لم تكن في غفلةٍ حيث ذكّرنا الرسلُ ونبّهتنا الآيات بل كنا ظالمين لأنفسنا بالتكذيب وعدم الإيمان ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله ﴾ أي إنكم أيها المشركون وما تعبدونه من الأوثان والأصنام ﴿ حصبُ جهنم ﴾ أي حطب جهنم ووقودها قال أبو حيان : الحصب ما يحصب به أي يُرمى به في نار جهنم ، وقبل أن يُرمى به لا يُطلق عليه حصبٌ إلا مجازاً^(٤) ﴿ أنتم لها واردون ﴾ أي أنتم داخلوها مع الأصنام ، وإنما جمع الله الكفار مع معبوداتهم في النار لزيادة غمهم وحسرتهم برؤيتهم الآلهة التي عبدوها معهم في عذاب الجحيم ﴿ لو كان هؤلاء آلهةً ما وردوها ﴾ أي لو كانت هذه الأصنام التي عبدتموها آلهةً ما دخلوا جهنم ﴿ وكلٌّ فيها خالدون ﴾ أي العابدون والمعبدون كلهم في جهنم مخلّدون ﴿ لهم فيها زفير ﴾ أي هؤلاء الكفرة في النار زفير وهو صوت النفس الذي يخرج من قلب المغموم وهو يشبه أنين المحزون والمكلم ﴿ وهم فيها لا يسمعون ﴾ أي لا يسمعون في

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١١١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١١٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّهِمُ الْمَلَائِكَةُ ۖ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١١٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١١٦﴾

جهنم شيئاً لأنهم يُحشرون صُماً كما قال تعالى ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبُكماً وصُماً﴾ قال القرطبي : وسامعُ الأشياء فيها روح وأنس ، فمنع الله الكفار ذلك في النار (١) وقال ابن مسعود : إذا بقي من يُخلد في نار جهنم جعلوا في توايت من نار ، فيها مسامير من نار فلا يسمعون شيئاً ، ولا يرى أحد منهم أنه يُعذب في النار غيره ثم تلا الآية (٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي سبقت لهم السعادة ﴿أولئك عنها مبعدون﴾ أي هم عن النار مبعدون لا يصلون حرماً ولا يذوقون عذابها قال ابن عباس : أولئك أولياء الله يمرون على الصراط مرأً أسرع من البرق ويبقى الكفار فيها جثياً (٣) ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ أي لا يسمعون حسَّ النار ولا حركة لها وصوتها ﴿وهم فيما اشتهدت أنفسهم خالدون﴾ أي وهم في الجنة دائمون ، لهم فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ أي لا تصيبهم أهوال يوم القيامة والبعث لأنهم في مأمنٍ منها ﴿وتتلقاهم الملائكة﴾ أي تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهتئونهم قائلين ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ أي هذا يوم الكرامة والنعيم الذي وعدكم الله به فأبشروا بالهناء والسرور ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ أي اذكر يوم نطوي السماء طياً مثل طي الصحيفة على ما كتب فيها قال ابن عباس : كطي الصحيفة على ما فيها ، فاللام بمعنى « على » ﴿كما بدأنا أول خلقٍ نُعيدُهُ﴾ أي نحشرهم حفاةً عراً عراً على الصورة التي بدأنا خلقهم فيها وفي الحديث (إنكم محشورون إلى الله حفاةً عراً عراً) ﴿كما بدأنا أول خلقٍ نُعيدُهُ وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام (٤) . . . الحديث ﴿وعداً علينا﴾ أي وعداً مؤكداً لا يُخلف ولا يبدل لازم علينا إنجازه والوفاء به ﴿إنا كنا فاعلين﴾ أي قادرين على ما نشاء ، وهو تأكيد لوقوع البعث ﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾ أي سجلنا وطرنا في الزبور المنزل على داود ﴿من بعد الذكر﴾ أي من بعد ما سطرنا في اللوح المحفوظ أولاً ﴿أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ أي أن الجنة يرثها المؤمنون الصالحون قال ابن كثير : أخبر سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض ويدخلهم الجنة وهم الصالحون (٥) وقال القرطبي : أحسن ما قيل فيها أنه يراد بها أرض

(١) القرطبي ٣٤٥/١١ . (٢) القرطبي ٣٤٥/١١ . (٣) مختصر ابن كثير ٥٢٣/٢ . (٤) رواه مسلم عن ابن عباس .

(٥) مختصر ابن كثير ٥٢٤/٢ .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ أُمَّةٍ إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٨﴾
 فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِن أُدْرِىَ أَقْرَبُ ۖ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ
 وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِن أُدْرِىَ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢١﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ۖ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ
 الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿٢٢﴾

الجنة لأن الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم وهو قول ابن عباس ومجاهد ويدل عليه قوله تعالى ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض﴾ وأكثر المفسرين على أن المراد بالعباد الصالحين أمة محمد ﷺ^(١) ، وقال مجاهد : الزبور : الكتب المنزلة ، والذكر أم الكتاب عند الله^(٢) ﴿إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين﴾ أي إن في هذا المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة لكفاية لقوم خاضعين متذللين لله جل وعلا ، المؤثرين لطاعة الله على طاعة الشيطان ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ أي وما أرسلناك يا محمد إلا رحمة للخلق أجمعين وفي الحديث ﴿إنما أنا رحمة مهداة﴾^(٣) فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة^(٤) ﴿قل إنما يوحى إليّ أنما الهكُم إله واحد﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إنما أوحى إليّ ربي أن إلهكم المستحق للعبادة إله واحد أحد فرد صمد ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ استفهام ومعناه الأمر أي فأسلموا له وانقادوا لحكمه وأمره ﴿فإن تولّوا﴾ أي فإن أعرضوا عن الإسلام ﴿فقل آذنتكم على سواء﴾ أي فقل لهم أعلمتكم بالحق على استواء في الإعلام لم أخصّ أحداً دون أحد ﴿وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون﴾ أي وما أدري متى يكون ذلك العذاب ؟ ولا متى يكون أجل الساعة ؟ فهو واقع لا محالة ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده ﴿إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون﴾ أي الله هو العالم الذي لا يخفى عليه شيء ، يعلم الظواهر والضائير ، ويعلم السرّ وأخفى ، وسيجازي كلاً بعمله ﴿وإن أدري لعله فتنة لكم﴾ أي وما أدري لعل هذا الإمهال وتأخير عقوبتكم امتحان لكم لنرى كيف صنعكم ﴿ومتاع إلى حين﴾ أي ولعلّ هذا التأخير لتستمتعوا إلى زمن معين ثم يأتيكم عذاب الله الأليم ﴿قال رب احكم بالحق﴾ أي احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين وافصل بيننا بالحق ﴿وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ أي أستعين بالله على الصبر على ما تصفونه من الكفر والتكذيب . . . ختم السورة الكريمة بأمر النبي ﷺ بتفويض الأمر إليه وتوقع الفرج من عنده ، فهو نعم الناصر ونعم المعين .

(١) القرطبي ١١/٣٤٩ . (٢) اختار هذا القول ابن جرير الطبري وهو قريب مما ذكرناه . (٣) أخرجه الحافظ ابن عساکر .

(٤) لم يقل الله تعالى : رحمة للمؤمنين وإنما قال ﴿رحمة للعالمين﴾ فإن الله سبحانه وتعالى رحم الخلق بإرسال سيد المرسلين ﷺ لأنه جاءهم بالسعادة الكبرى ، والنجاة من الشقاوة العظمى ، ونالوا على يديه الخيرات الكثيرة في الآخرة والأولى ، وعلمهم بعد الجهالة ، وهدهم بعد الضلالة فكان رحمة للعالمين ، حتى الكفار رُحِموا به حيث أحر عقوبتهم ولم يستأصلهم بالعذاب كالمنسوخ والخسف والفرق .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

- ١ - التعرض للرحمة بطريق التلطف ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ ولم يقل : ارحمني .
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿أرحم الراحمين﴾ .
- ٣ - الجناس الناقص ﴿الصابرين .. والصالحين﴾ .
- ٤ - الطباق بين ﴿رغباً .. ورهباً﴾ وبين ﴿بدأنا .. ونعيده﴾ وبين ﴿قريب أم بعيد﴾ .
- ٥ - التشريف ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾ أضاف الروح إليه تعالى على جهة التشريف كقوله ﴿ناقة الله﴾ .
- ٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿وتقطّعوا أمرهم بينهم﴾ مثل اختلافهم في الدين وتفرقهم فيه إلى شيع وأحزاب بالجماعة تتوزع الشيء لهذا نصيب ولهذا نصيب ، وهذا من لطيف الاستعارة .
- ٧ - الإيجاز بالحذف ﴿يا ويلنا﴾ أي ويقولون يا ويلنا ، ومثله قوله ﴿وتلقاهم الملائكة هذا يومكم﴾ أي تقول لهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون .
- ٨ - التشبيه المرسل المفصل ﴿نطوي السماء كطي السجّل للكتب﴾ أي طياً مثل طي الصحيفة على ما كتب فيها .
- ٩ - الاستفهام الذي يراد به الأمر ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أي أسلموا .
- ١٠ - السجع ﴿فاعبدون ، راجعون ، كاتبون﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنبياء »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة الحج مدنية وهي تتناول جوانب التشريع ، شأنها شأن سائر السور المدنية التي تُعنى بأمر التشريع ، ومع أن السورة مدنية إلا أنه يغلب عليها جو السور المكية ، فموضوع الإيمان ، والتوحيد ، والإنذار والتخويف ، وموضوع البعث والجزاء ، ومشاهد القيامة وأهوالها ، هو البارز في السورة الكريمة ، حتى ليكاد يُحِيل للقارئ أنها من السور المكية ، هذا إلى جانب الموضوعات التشريعية من الإذن بالقتال ، وأحكام الحج والهدي ، والأمر بالجهاد في سبيل الله ، وغير ذلك من المواضيع التي هي من خصائص السور المدنية ، حتى لقد عدّها بعض العلماء من السور المشتركة بين المدني والمكي .

* ابتدأت السورة الكريمة بمطلع عنيف مخيف ، ترتجف له القلوب ، وتطيش لهوله العقول ، ذلكم هو الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة ، ويزيد في الهول على خيال الإنسان ، لأنه لا يدرك الدور والقصور فحسب ، بل يصل هوله إلى المرضعات الذاهلات عن أطفالهن ، والحوامل المسقطات حملهن ، والناس الذين يترنحون كأنهم سكرى من الخمر ، وما بهم شيء من السكر والشراب ، ولكنه الموقف المرهوب ، الذي تنزل له القلوب ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ..﴾ الآيات .

* ومن أهوال الساعة إلى أدلة البعث والنشور ، تنتقل السورة لتقيم الأدلة والبراهين على البعث بعد الفناء ، ثم الانتقال إلى دار الجزاء ، لينال الإنسان جزاءه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد القيامة ، حيث يكون الأبرار في دار النعيم ، والفجار في دار الجحيم .

* ثم انتقلت للحديث عن الحكمة من الإذن بقتال الكفار ، وتناولت الحديث عن القرى المدمرة بسبب ظلمها وطغيانها ، وذلك لبيان سنة الله في الدعوات ، وتطميناً للمسلمين بالعاقبة التي تنتظر الصابرين .

* وفي ختام السورة ضربت مثلاً لعبادة المشركين للأصنام ، وبيّنت أن هذه المعبودات أعجز وأحققر

من ان تخلق ذبابة فضلاً عن أن تخلق إنساناً سمياً بصيراً ، ودعت إلى اتباع ملة الخليل إبراهيم كهف الإيمان ، وركن التوحيد .

التسمية : سميت « سورة الحج » تخليداً للدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام ، حين انتهى من بناء البيت العتيق ونادى الناس لحج بيت الله الحرام ، فتواضعت الجبال حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأسمع نداؤه من في الأصلاب والأرحام وأجابوا النداء « لبيك اللهم لبيك » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن اللفظة : ﴿زلزلة﴾ الزلزلة : شدة الحركة وأصل الكلمة من زل عن الموضع أي زال عنه وتحرك ، وزلزل الله قدمه أي حركها ، وهذه اللفظة تستعمل في تهويل الشيء ﴿تذهل﴾ ذهل عن الشيء اشتغل عنه بشاغل من هم أو وجع أو غيره ﴿مضغة﴾ المضغة : اللحم الصغيرة قدر ما يُمضغ ﴿مخلقة﴾ تامة الخلقة ﴿بهيج﴾ حسن سار للناظر ﴿عطفه﴾ العطف : الجانب ومنه قولهم : فلان ينظر في أعطافه أي في جوانبه ويسمى الرداء العطف والمعطف لأنه يوضع على الجانبين ﴿العشير﴾ الصاحب والخليل .

التفسير : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ خطاب لجميع البشر أي خافوا عذاب الله وأطيعوه بامثال أوامره واجتنب نواهيه ، وجماع القول في التقوى هو : طاعة الله واجتنب محارمه ولهذا قال بعض العلماء : التقوى أن لا يراك حيث نهاك ، وأن لا يفقدك حيث أمرك ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ تعليل للأمر بالتقوى أي إن الزلزال الذي يكون بين يدي الساعة أمر عظيم وخطب جسيم لا يكاد يتصور لهوله ﴿يوم ترونها﴾ أي في ذلك اليوم العصيب الذي تشاهدون فيه تلك الزلزلة وترون هول مطلعها ﴿تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾ أي تغفل وتذهل - مع الدهشة وشدة الفزع - كل أنثى مرضعة عن رضيعها ، إذ تنزع ثديها من فم طفلها وتنشغل - لهول ما ترى - عن أحب الناس إليها وهو طفلها الرضيع ﴿وترى الناس سكارى﴾ أي تراهم كأنهم سكارى يترنحون ترنح السكران من هول ما يدركهم من الخوف والفزع ﴿وما هم بسكارى﴾ أي وما هم على الحقيقة بسكارى من الخمر ﴿ولكن عذاب الله شديد﴾ استدراك لما دهاهم أي ليسوا بسكارى ولكن أهوال الساعة وشدائدها أطارت عقولهم وسلبت أفكارهم فهم من خوف عذاب الله مشفقون ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ أي وبعض من الناس من يخاصم وينازع في قدرة الله وصفاته بغير دليل ولا برهان ويقول ما لا خير فيه من الأباطيل قال المفسرون : نزلت في النضر بن الحارث وكان جدلاً يقول الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، ولا بعث بعد الموت قال أبو السعود : والآية عامة له ولأضرابه من العتاة المتمردين^(١) ﴿ويتبع كل شيطان

يُجَدِّدُ فِي اللَّهِ بَغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٢﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَانَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ
السَّعِيرِ ﴿٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن
مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِنَبْلُغُوا
أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ

مريد ﴿٢﴾ أي يطيع ويقتدي بكل عاتٍ متمرد كروء ساء الكفر الصادقين عن الحق ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ ﴿٤﴾ أي حكم الله وقضى أنه من تولى الشيطان واتخذة ولياً ﴿٥﴾ فَانَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ أي فأن الشيطان يغويه ويسوقه إلى عذاب جهنم المستعرة ، وعبر بلفظ ﴿ويهديه﴾ على سبيل التهكم ، ولما ذكر تعالى المجادلين في قدرة الله ، المنكرين للبعث والنشور ذكر دليلين واضحين على إمكان البعث أحدهما في الإنسان ، والثاني في النبات فقال ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب﴾ أي إن شككتم في قدرتنا على إحيائكم بعد موتكم فانظروا في أصل خلقكم ليزول ريبيكم فقد خلقنا أصلكم « آدم » من التراب ، ومن قدر على خلقكم أول مرة قادر على أن يعيدكم ثاني مرة ، والذي قدر على إخراج النبات من الأرض ، بعد موتها قادر على أن يخرجكم من قبوركم ﴿ثم من نطفة﴾ أي ثم جعلنا نسله من المنى الذي ينطف من صلب الرجل قال القرطبي : والنطف : القطر سمي نطفة لقلته ^(١) ﴿ثم من علقة﴾ وهو الدم الجامد الذي يشبه العلقة التي تظهر حول الأحواض والمياه ﴿ثم من مضغة﴾ أي من قطعة من لحم مقدار ما يمضغ ﴿مخلقة وغير مخلقة﴾ أي مستبينة الخلق مصورة وغير مصورة قال ابن زيد : المخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين ، وغير مخلقة التي لم يخلق فيها شيء ﴿لنبيين لكم﴾ أي خلقناكم على هذا النموذج البديع لنبيين لكم أسرار قدرتنا وحكمتنا قال الزمخشري : أي لنبيين لكم بهذا التدريج قدرتنا ، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً ، ثم من نطفة ثانياً ، ولا تناسب بين التراب والماء ، وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر ، ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاماً ، قادر على إعادة ما بدأه ، بل هذا أدخل في القدرة وأهون في القياس ^(٢) ﴿ونقر في الأرحام ما نشاء﴾ أي ونشبت من الحمل في أرحام الأمهات من أردنا أن نُقره فيها حتى يتكامل خلقه ﴿إلى أجل مسمى﴾ أي إلى زمن معين هو وقت الوضع ﴿ثم نخرجكم طفلاً﴾ أي ثم نخرج هذا الجنين طفلاً ضعيفاً في بدنه وسمعته وبصره وحواسه ، ثم نعطيه القوة شيئاً فشيئاً ﴿ثم لتبلغوا أشدكم﴾ أي كما حال قوتكم وعقلكم ﴿ومنكم من يتوفى﴾ أي ومنكم من يموت في ريعان شبابه ﴿ومنكم من يرد إلى أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾ أي ومنكم من يعمر حتى يصل إلى الشيخوخة والهرم وضعف القوة والخرف ﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾ أي ليعود إلى ما كان عليه في أوان الطفولة من ضعف البنية ، وسخافة العقل ، وقلة الفهم ، فينسى ما علمه وينكر ما عرفه

هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥١﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٥٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٥٣﴾ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٤﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ

ويعجز عما قدر عليه كما قال تعالى ﴿ومن نعمه ننكسه في الخلق﴾ وترى الأرض هامة ﴿هذه هي الحجة الثانية على إمكان البعث أي وترى أيها المخاطب أو أيها المجادل الأرض يابسة ميتة لا نبات فيها﴾ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴿أي فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات وانتفخت وزادت وحييت بعد موتها﴾ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴿أي وأخرجت من كل صنف عجيب ما يسر الناظر ببهائه وروفته﴾ ذلك بأن الله هو الحق ﴿أي ذلك المذكور من خلق الإنسان والنبات لتعلموا أن الله هو الخالق المدبر وأن ما في الكون من آثار قدرته وشاهد بأن الله هو الحق﴾ وأنه يحيي الموتى ﴿أي وبأنه القادر على إحياء الموتى كما أحيا الأرض الميتة بالنبات﴾ وأنه على كل شيء قدير ﴿أي وبأنه قادر على ما أراد﴾ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴿أي وليعلموا أن الساعة كائنة لا شك فيها ولا مرية﴾ وأن الله يبعث من في القبور ﴿أي يحيي الأموات ويعيدهم بعدما صاروا رمماً ، ويعيئهم أحياء إلى موقف الحساب﴾ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴿أي يجادل في شأنه تعالى من غير تمسك بعلم صحيح يهدي إلى المعرفة ولا كتاب نير بين الحجة بل بمجرد الرأي والهوى قال ابن عطية : كرر هذه على وجه التوبيخ فكأنه يقول : هذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان ومن الناس مع ذلك من يجادل في الله بغير دليل ولا برهان﴾ ثانياً عطفه ﴿أي معرضاً عن الحق لاوياً عنقه كقراً قال ابن عباس : مستكبراً عن الحق إذا دُعي إليه قال الزمخشري : وثني العطف عبارة عن الكبر والخيلاء فهو كتصغير الخد﴾ ليضل عن سبيل الله ﴿أي ليصد الناس عن دين الله وشرعه﴾ له في الدنيا خزي ﴿أي له هوان وذل في الحياة الدنيا﴾ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴿أي ونذيقه في الآخرة النار المحرقة﴾ ذلك بما قدمت يدك ﴿أي ذلك الخزي والعذاب بسبب ما اقترفته من الكفر والضلال﴾ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿أي وأن الله عادل لا يظلم أحداً من خلقه﴾ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴿أي ومن الناس من يعبد الله على جانب وطرف من الدين ، وهذا تمثيل للمذنبين الذين لا يعبدون الله عن ثقة ويقين بل عن قلق واضطراب كالذي يكون على طرف من الجيش فان أحس بظفر أو غنيمة استقر وإلا فرّ قال الحسن : هو المنافق يعبده بلسانه دون قلبه وقال ابن عباس : كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً وأنتجت خيله قال : هذا دين صالح ،

عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١٣﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ
 ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١١٤﴾ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَيْسِ الْمَوْلَىٰ وَلِبَيْسِ الْعَشِيرِ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ
 يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١١٦﴾ مَنْ كَانَ يَظُنُّ
 أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١١٧﴾

وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء^(١) ﴿فإن أصابه خير اطمأن به﴾ أي فإن ناله خير في حياته من صحة ورخاء وأقام على دينه ﴿وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه﴾ أي وإن ناله شيء يفتتن به من مكروه وبلاء ارتد فرجع إلى ما كان عليه من الكفر ﴿خسر الدنيا والآخرة﴾ أي أضاع دنياه وآخرته فشقي الشقاوة الأبدية ﴿ذلك هو الخسران المبين﴾ أي ذلك هو الخسران الواضح الذي لا خسران مثله ﴿يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه﴾ أي يعبد الصنم الذي لا ينفع ولا يضر ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾ أي ذلك هو نهاية الضلال الذي لا ضلال بعده ، شبه حالهم بحال من أبعده في التيه ضالاً عن الطريق ﴿يدعو لمن ضره أقرب من نفعه﴾ أي يعبد وثناً أو صنماً ضره في الدنيا بالخزي والذل أسرع من نفعه الذي يتوقعه بعبادته وهو الشفاعة له يوم القيامة ، وقيل : الآية على الفرض والتقدير : أي لو سلمنا نفعه أو ضره لكان ضره أكثر من نفعه^(٢) ، والآية سبقت تسفيهاً وتجهيلاً لمن يعتقد أنه ينتفع بعبادة غير الله حين يستشفع بها ﴿لبئس المولى ولبيس العشير﴾ أي بئس الناصر وبئس القريب والصاحب ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ لما ذكر حال المشركين وحال المنافقين المذبذبين ذكر حال المؤمنين في الآخرة والمعنى إن الله يدخل المؤمنين الصادقين جنات تجري من تحت قصورها وغرفها أنهار اللبن والخمر والعسل وهم في روضات الجنات يجرون ﴿إن الله يفعل ما يريد﴾ أي يثيب من يشاء ويعذب من يشاء لا معقب لحكمه ، فللمؤمنين الجنة بفضلهم ، وللكافرين النار بعدله ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة﴾ أي من كان يظن أن لن ينصر الله رسوله ﷺ في الدنيا والآخرة^(٣) ﴿فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع﴾ أي فليمدد بحبل إلى السقف ثم ليقطع عنقه وليختنق به ﴿فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ﴾ أي فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ ؟ قال ابن كثير : وهذا القول قول ابن عباس وهو أظهر في المعنى وأبلغ في التهكم فإن المعنى : من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه فإن الله ناصره لا محالة ﴿وكذلك أنزلناه آيات بينات﴾ أي ومثل ذلك الإنزال البديع المنطوي على الحكم البالغة أنزلنا القرآن الكريم كله آيات واضحات

(١) القرطبي ١٧/١٢ ، (٢) البحر ٦/٣٥٦ .

(٣) للمفسرين في معنى الآية قولان : الأول أن الضمير في « ينصره » للرسول ﷺ والمعنى على هذا : من كان من الكفار يظن أن لن ينصر الله محمداً فليختنق بحبل فإن الله ناصره لا بد ، وهذا ما رجحه ابن كثير ، والثاني أن الضمير يعود على الإنسان نفسه والمعنى : من ظن بسبب ضيق صدره وكثرة غمه أن لن ينصره الله فليختنق وليمت بغيظه ، وهذا ما رجحه صاحب التسهيل .

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ
وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ
وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكثيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴿١٨﴾ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾

الدلالة على معانيها الرائقة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَن يُرِيدُ﴾ أي وأن الله هو الهادي لا هادي سواه يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدقوا الله ورسوله وهم أتباع محمد عليه السلام ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ أي اليهود وهم المنتسبون إلى موسى عليه السلام ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ هم قوم يعبدون النجوم ﴿وَالنَّصَارَى﴾ هم المنتسبون إلى ملة عيسى عليه السلام ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ هم عبدة النيران ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ هم العرب عبدة الأوثان ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يقضي بين المؤمنين وبين الفرق الخمسة الضالة فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي شاهد على أعمال خلقه عالم بكل ما يعملون ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً ، الملائكة في أقطار السموات ، والإنس والجن وسائر المخلوقات في العالم الأرضي ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ أي وهذه الأجرام العظمية مع سائر الجبال والأشجار والحيوانات تسجد لعظمته سجود انقياد وخضوع ، قال ابن كثير : وخص الشمس والقمر والنجوم بالذكر لأنها قد عبدت من دون الله ، فبيّن أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة^(١) . والغرض من الآية : بيان عظمته تعالى وانفراده بألوهيته وربوبيته بانقياد هذه العوالم العظمية له وجرها على وفق أمره وتدييره ﴿وَكثيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ﴿وَكثيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي وكثير من الناس وجب له العذاب بكفره واستعصائه ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ أي من أهانه الله بالشقاء والكفر فلا يقدر أحد على دفع الهوان عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يعذب ويرحم ، ويعز ويذل ، ويُغني ويُفقّر ، ولا اعتراض لأحد عليه .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - التشبيه البليغ المؤكد ﴿وترى الناس سكارى﴾ أي كالكسكارى من شدة الهول ، حذف أداة التشبيه والشبه .
- ٢ - الاستعارة ﴿شيطان مريد﴾ استعار لفظ الشيطان لكل طاغية متمرد على أمر الله .
- ٣ - الطباق بين ﴿يُضِلُّهُ... ويهديه﴾ .

- ٤ - أسلوب التهكم ﴿ويهديه إلى عذاب السعير﴾ .
- ٥ - طباق السلب ﴿مخلقة وغير مخلقة﴾ .
- ٦ - الاستعارة اللطيفة ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ شبه الأرض بنائم لا حركة له ثم يتحرك وينتعش وتدب فيه الحياة بنزول المطر عليه ففيها استعارة تبعية .
- ٧ - الكناية ﴿ثاني عطفه﴾ كناية عن التكبر والخيلاء .
- ٨ - المجاز المرسل ﴿بما قدمت يدك﴾ علاقته السببية لأن اليد هي التي تفعل الخير أو الشر .
- ٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿من يعبد الله على حرف﴾ مثل للمنافقين وما هم فيه من قلق واضطراب في دينهم بمن يقف على شفا الهاوية يريد العبادة والصلاة ، ويا له من تمثيل رائع !
- ١٠ - المقابلة البديعة بين ﴿فإن أصابه خير اطمان به . . . وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه﴾ .
- ١١ - الطباق بين ﴿يضره . . . وينفعه﴾ وبين ﴿يهن . . . فما له من مكرم﴾ .
- ١٢ - السجع اللطيف بين كثير من الآيات .

فَكَايِدَةٌ : المُرْضِعُ التي شأنها أن ترضع ، والمرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها لطفلها ولهذا قال ﴿تذهل كل مرضعة﴾ ولم يقل : مرضع ليكون ذلك أعظم في الذهول إذ تنزع ثديها من فم الصبي - أحب الناس إليها - وذلك غاية في شدة الهول والفرع .

تَبْيِيَهُ : روى ابن أبي حاتم أنه قيل لعلي : « إن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة فاستدعاه فقال له ، يا عبد الله : خلقت كما يشاء أو كما تشاء ؟ قال بل كما شاء ، قال : فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ، قل : بل إذا شاء ، قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء ؟ قال : بل حيث يشاء ، قال والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي بين عينيك بالسيف »^(١) .

قال الله تعالى : ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم . . . إلى . . . لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين﴾

المناسكة : لما ذكر تعالى أهل السعادة وأهل الشقاوة ، ذكر هنا ما دار بينهم من الخصومة في دينه وعبادته ، ثم ذكر عظم حرمة البيت العتيق وبناء الخليل له ، وعظم كفر هؤلاء المشركين الذين يصدون الناس عن سبيل الله والمسجد الحرام .

اللغز: ﴿يُصْهَرُ﴾ الصهر: الإذابة صهرت الشيء فانصهر أي أذبته فذاب ﴿مقامع﴾ المقامع: السياط جمع مقمعة سميت بذلك لأنها تقمع الفاجر ﴿العاكف﴾ المقيم الملازم ﴿الباد﴾ القادم من البادية ﴿بوانا﴾ أنزلنا وهياناً وأرشدنا ﴿رجالاً﴾ جمع راجل وهو الماشي على قدميه ﴿ضامر﴾ الضامر: البعير المهزول الذي أتعبه السفر ﴿تفتهم﴾ التفت في اللغة: الوسخ والقذر قال الشاعر^(١):

حفوا رءوسهم لم يخلقوا تفتاً ولم يسألوا لهم قملاً وصئباناً

قال الثعلبي: أصل التفت في اللغة الوسخ، تقول العرب للرجل تستقذره: ما أتفتك أي ما أوسخك وأقذك^(٢) ﴿المخبين﴾ المخبت: المتواضع الخاشع لله.

* هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا

النفسير: ﴿هذان خصمان﴾ أي هذان فريقان مختصمان فريق المؤمنين المتقين، وفريق الكفرة المجرمين ﴿اختصموا في ربهم﴾ أي اختلفوا وتنازعوا من أجل الله ودينه قال مجاهد: هم المؤمنون والكافرون، فالمؤمنون يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الله ﴿فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار﴾ أي فصلت لهم ثياب من نار على قدر أجسادهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار قال القرطبي: شبهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب ومعنى ﴿قطعت﴾ خيطة وسويت، وذكر بلفظ الماضي لأن الموعد منه كالواقع المحقق^(٣) ﴿يصب من فوق رءوسهم الحميم﴾ أي يصب على رءوسهم الماء الحار المغلي بنار جهنم ﴿يصهر به ما في بطونهم والجلود﴾ أي يذاب به ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء مع الجلود قال ابن عباس: لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها وفي الحديث (إن الحميم ليصب على رءوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر، ثم يعاد كما كان)^(٤) قال الإمام الفخر: والغرض أن الحميم إذا صب على رءوسهم كان تأثيره في الباطن مثل تأثيره في الظاهر، فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم وهو أبلغ من قوله ﴿وسقوا ماء حمياً فقطع أمعاءهم﴾^(٥) ﴿وله مقامع من حديد﴾ أي وله مطارق وسياط من الحديد يضربون بها ويدفعون وفي الحديث (لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها)^(٦) ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها﴾ أي كلما أراد أهل النار الخروج من النار من شدة غمها ردوا إلى أماكنهم فيها قال الحسن: إن النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهوا فيها سبعين خريفاً^(٧) ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ أي يقال لهم: ذوقوا عذاب جهنم المحرق الذي

(١) البيت لامية بن أبي الصلت كذا في القرطبي ٥٠/١٢ . (٢) القرطبي ٥٠/١٢ . (٣) القرطبي ٢٦/١٢ . (٤) أخرجه الترمذي وقال:

حسن صحيح غريب . (٥) تفسير الرازي ٢٢/٢٣ . (٦) أخرجه أحمد . (٧) تفسير الرازي ٢٢/٢٣ .

مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجَلِّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤَاءٍ لِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٣٠﴾

وَمَا ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْدَّمَارِ ، ذَكَرَ مَا أَعَدَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الثَّوَابِ وَالنَّعِيمِ فَقَالَ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَي يَدْخُلُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ فِي الْآخِرَةِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا وَقُصُورِهَا الْأَنْهَارُ الْعَظِيمَةُ الْمُنْتَوِعَةُ ﴿يَجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أَي تَلْبَسُهُمُ الْمَلَائِكَةُ فِي الْجَنَّةِ الْأَسَاوِرَ الذَّهَبِيَّةَ كَحَلِيَّةٍ وَزِينَةٍ يَتَزَيَّنُونَ بِهَا ﴿وَلَوْلُؤَاءٍ﴾ أَي وَيَجْلُونَ بِاللُّؤْلُؤِ كَذَلِكَ إِكْرَامًا مِنَ اللَّهِ لَهُمْ ﴿وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أَي وَلِبَاسَهُمْ فِي الْجَنَّةِ الْحَرِيرِ ، وَلَكِنَّهُ أَعْلَى وَأَرْفَعُ مِمَّا فِي الدُّنْيَا بِكَثِيرٍ ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أَي أُرْشِدُوا إِلَى الْكَلَامِ الطَّيِّبِ وَالْقَوْلِ النَّافِعِ إِذْ لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ لَعْنٌ وَلَا كَذِبٌ ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أَي إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ وَهُوَ الْجَنَّةُ دَارُ الْمُتَّقِينَ ، ثُمَّ عَدَّدَ تَعَالَى بَعْضَ جَرَائِمِ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أَي جَعَلُوا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيَمْنَعُونَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ إِيْتَانِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لِأَدَاءِ الْمَنَاسِكِ فِيهِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَذَلِكَ حِينَ صَدَّوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عَامَ الْحَدِيثِ (١) ، وَإِنَّمَا قَالَ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ بِصِيغَةِ الْمُضَارَعِ لِيَدُلَّ عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ فَكَأَنَّ الْمَعْنَى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ شَأْنِهِمُ الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ أَي الَّذِي جَعَلْنَاهُ مَنْسَكًا وَمَتَعْبَدًا لِلنَّاسِ جَمِيعًا سَوَاءً فِيهِ الْمُقِيمُ الْحَاضِرُ ، وَالَّذِي يَأْتِيهِ مِنْ خَارِجِ الْبِلَادِ ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ﴾ أَي وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ سَوْءًا أَوْ مِيلًا عَنِ الْقَصْدِ أَوْ يَهْمُ فِيهِ بِمَعْصِيَةِ ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أَي نُذِقْهُ أَشَدَّ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ الْمَوْجِعِ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : لَوْ أَنَّ رَجُلًا بَعَدَنَ هَمًّا بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً عِنْدَ الْبَيْتِ أَذَاقَهُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا وَقَالَ مُجَاهِدٌ : تُضَاعَفُ السَّيِّئَاتُ فِيهِ كَمَا تُضَاعَفُ الْحَسَنَاتُ (٢) ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أَي وَادَّكَرَ حِينَ أُرْشِدُنَا إِبْرَاهِيمَ وَأَلْهَمْنَاهُ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ أَي أَمْرُنَا بِنَاءِ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ خَالِصًا لِلَّهِ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَي ابْنَهُ عَلَى اسْمِي وَحَدِي (٣) ﴿وَطَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أَي طَهَّرَ بَيْتِي مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَقْدَارِ لِمَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ فِيهِ بِالطَّوَّافِ وَالصَّلَاةِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَالْقَائِمُونَ هُمُ الْمُصَلُّونَ ، ذَكَرَ تَعَالَى مِنْ أَرْكَانِ الصَّلَاةِ أَعْظَمُهَا وَهُوَ الْقِيَامُ وَالرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ (٤) ﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أَي وَنَادَى فِي النَّاسِ دَاعِيًا لَهُمْ لِحَجِّ بَيْتِ اللَّهِ الْعَتِيقِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَمَّا فَرَّغَ إِبْرَاهِيمُ

يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ
 عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَاتٍ الْأَنْعَمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفْتَهُمْ وَلِيُؤْفُوا نَذْرَهُمْ
 وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَمُ

من بناء البيت قيل له : أذن في الناس بالحج ، قال يا رب : وما يبلغ صوتي ؟ قال : أذن وعلي الإيلاج
 فصعد إبراهيم على جبل أبي قبيس وصاح : يا أيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليشيكم به
 الجنة ، ويجيركم من عذاب النار فحجوا ، فأجابه من كان في أصلاب الرجال ، وأرحام النساء : لبيك
 اللهم لبيك ^(١) ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي يأتوك مشاة على أقدامهم أو ركبانا على كل جبل هزيل
 قد أتعبه وأنهكه بعد المسافة ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي تأتي الإبل الضامرة من كل طريق بعيد قال
 القرطبي : ورد الضمير إلى الإبل ﴿يَأْتِينَ﴾ تكرمة لها لقصدتها الحج مع أربابها كما قال ﴿والعاديات
 ضبحاً﴾ في خيل الجهاد تكرمة لها حين سعت في سبيل الله ^(٢) ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ أي ليحضروا منافع
 لهم كثيرة دينية وديوية قال الفخر الرازي : وإنما نكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية
 وديوية لا توجد في غيرها من العبادات ^(٣) ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بيمات
 الأنعام﴾ أي ويذكروا عند ذبح الهدايا والضحايا اسم الله في أيام النحر شكراً لله على نعمائه وعلى ما رزقهم
 وملكهم من الأنعام وهي : الإبل والبقر والغنم والمعز قال الرازي : وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي ذكر
 اسمه تعالى عند الذبح وأن يخالف المشركين في ذلك فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان ^(٤) ﴿فكلوا
 منها﴾ أي كلوا من لحوم الأضاحي ﴿وأطعموا البائس الفقير﴾ أي أطعموا منها البائس الذي أصابه بؤس
 وشدة ، والفقير الذي أضعفه الإعسار قال ابن عباس : البائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه ،
 والفقير الذي لا يكون كذلك ، ثيابه نقيه ووجهه وجه غني ﴿ثم ليقضوا تفتهم﴾ أي ثم بعد الذبح ليزيلوا
 وسخهم الذي أصابهم بالإحرام وذلك بالحلق والتقصير وإزالة الشعث وقص الشارب والأظافر ﴿وليؤفوا
 نذورهم﴾ أي ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر طاعة لله ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ أي ليطوفوا حول
 البيت العتيق طواف الإفاضة وهو طواف الزيارة الذي به تمام التحلل ، والعتيق : القديم سمي به لأنه أول
 بيت وضع للناس ﴿ذلك﴾ أي الأمر والشأن ذلك قال الزمخشري : كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض
 المعاني ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال : هذا وقد كان كذا ^(٥) ﴿ومن يعظم حرمات الله﴾ أي من يعظم
 ما شرعه الله من أحكام الدين ويجتنب المعاصي والمحارم ﴿فهو خير له عند ربه﴾ أي ذلك التعظيم خير له
 ثواباً في الآخرة ﴿وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم﴾ أي أحللنا لكم جميع الأنعام إلا ما استثنى في
 الكتاب المجيد كالميتة والمنخنقة وما ذبح لغير الله وغير ذلك ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ أي اجتنبوا
 الرجس الذي هو الأوثان كما تجتنب الأنجاس ، وهو غاية المبالغة في النهي عن عبادتها وتعظيمها

إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣١﴾ حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۗ
 وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣٢﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّم
 شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٣﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٤﴾
 وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهَا كَالْبَهْمِ الْعَظِيمِ ۗ فَذُكِّرُوا
 وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٥﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا

﴿واجتنبوا قول الزور﴾ أي واجتنبوا شهادة الزور ﴿حنفاء لله غير مشركين به﴾ أي مائلين إلى الحق مسلمين لله غير مشركين به أحداً ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير﴾ تمثيل للمشرك في ضلاله وهلاكه أي ومن أشرك بالله فكأنما سقط من السماء فتخطفه الطير وتمزقه كل ممزق ﴿أو تهوي به الريح في مكانٍ سحيق﴾ أي أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة ﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله﴾ أي ذلك ما وضحه الله لكم من الأحكام والأمثال ومن يعظم أمور الدين ومنها أعمال الحج والأضاحي والهدايا ﴿فإنها من تقوى القلوب﴾ أي فإن تعظيمها من أفعال المتقين لله قال القرطبي : أضاف التقوى إلى القلوب لأن حقيقة التقوى في القلب وفي الحديث (التقوى ههنا) وأشار إلى صدره^(١) ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾ أي لكم في الهدايا منافع كثيرة من الدر والنسل والركوب إلى وقت نحرها ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ أي ثم مكان ذبحها في الحرم بمكة أو منى ، وخص البيت بالذكر لأنه أشرف الحرم كقوله تعالى ﴿هدياً بالغ الكعبة﴾ ﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً﴾ أي شرعنا لكل أمة من الأمم السابقة من عهد إبراهيم مكاناً للذبح تقرباً لله قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل ﴿ليذكروا اسم الله﴾ أي أمرناهم عند الذبح أن يذكروا اسم الله وأن يذبحوا لوجهه تعالى ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ أي شكراً لله على ما أنعم به عليهم من بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم ، بين تعالى أنه يجب أن يكون الذبح لوجهه تعالى وعلى اسمه لأنه هو الخالق الرازق لا كما كان المشركون يذبحون للأوثان ﴿فإلهكم إله واحد﴾ أي فربكم أيها الناس ومعبودكم إله واحد لا شريك له ﴿فله أسلموا﴾ أي فأخلصوا له العبادة واستسلموا لحكمه وطاعته ﴿وبشر المخبتين﴾ أي بشر المطيعين المتواضعين الخاشعين بجنات النعيم ، ثم وصف تعالى المخبتين بأربع صفات فقال ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي إذا ذكر الله خافت وارتعشت لذكره قلوبهم لإشراق أشعة جلاله عليها فكأنهم بين يديه واقفون ، وجلاله وعظمته مشاهدون ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾ أي يصبرون في السراء والضراء على الأمراض والمصائب والمحن وسائر المكارِه ﴿والمقيمي الصلاة﴾ أي الذين يؤدونها في أوقاتها مستقيمة كاملة مع الخشوع والخضوع ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي ومن بعض الذي رزقناهم من

رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ
فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ
يُنَالَ اللَّهُ لَحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يِنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُمْ وَبَشِّرِ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

فضلنا ينفقون في وجوه الخيرات ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله﴾ أي والإيل السمينه - سميت بدناً لبدانتها وضخامة أجسامها - جعلناها من أعلام الشريعة التي شرعها الله لعباده قال ابن كثير : وكونها من شعائر الدين أنها تُهدى إلى بيته الحرام بل هي أفضل ما يهدي^(١) ﴿لكم فيها خير﴾ قال ابن عباس : نفع في الدنيا وأجر في الآخرة ﴿فاذكروا اسم الله عليها صواف﴾ أي اذكروا عند ذبحها اسم الله الجليل عليها حال كونها صواف أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ﴿فاذا وجبت جنوبها﴾ أي فإذا سقطت على الأرض بعد نحرها ، وهو كناية عن الموت ﴿فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر﴾ أي كلوا من هذه الهدايا وأطعموا القانع أي المتعفف والمعتري السائل قاله ابن عباس^(٢) ، وقال الرازي : الأقرب أن القانع هو الراضي بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح ، والمعتر هو الذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالاً بعد حال^(٣) ﴿كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون﴾ أي مثل ذلك التسخير البديع جعلناها منقاداً لكم مع ضخامة أجسامها لكي تشكروا الله على إنعامه ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها﴾ أي لن يصل إليه تعالى شيء من لحومها ولا دماؤها ﴿ولكن يناله التقوى منكم﴾ أي ولكن يصل إليه التقوى منكم بامثالكم أو امره وطلبكم رضوانه ﴿كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم﴾ أي كرهه للتأكيد أي كذلك ذللها لكم وجعلها منقاداً لرغبتكم لتكبروا الله على ما أرشدكم إليه من أحكام دينه ﴿وبشر المحسنين﴾ أي بشر المحسنين في أعمالهم بالسعادة والفوز بدار النعيم .

البلاغه : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الإيجاز ﴿اختصموا في ربهم﴾ أي في دين ربهم فهو على حذف مضاف .
- ٢ - الاستعارة ﴿قطعت لهم ثياب من نار﴾ استعارة عن إحاطة النار بهم كما يحيط الثوب بلباسه .
- ٣ - الطباق بين ﴿العاكف . . والباد﴾ لأن العاكف المقيم في المدينة والباد القادم من البادية .
- ٤ - التأكيد بإعادة الفصل ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾ للعناية بشأن كل استقلالاً ، ويسمى في علم البديع الإطناب .

(١) المختصر ٢/ ٥٤٤ . (٢) وهو قول قتادة والنخعي ومجاهد وكثير من السلف . (٣) الرازي ٢٣/ ٣٦ .

٥ - التشبيه التمثيلي ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير﴾ لأن وجه الشبه متزَع من متعدد .

٦ - الجناس الناقص ﴿وجبت جنوبها﴾ .

٧ - الطباق بين ﴿القانع والمعتز﴾ لأنه القانع المتعفف والمعتز السائل .

٨ - السجع اللطيف مثل ﴿عميق ، سحيق ، العتيق﴾ ومثل ﴿المحسنين ، المخبتين﴾ .

تنبية : لم يؤخذ الله تعالى أحداً من خلقه على اهم بالمعصية إلا في المسجد الحرام ﴿ومن يرد فيه بإلحادٍ بظلم نذقه من عذاب اليم﴾ لأنه المكان المقدس الذي يجب أن يكون فيه الإنسان نقي القلب ، طاهر النفس ، صافي السريرة ، خالصاً بكليته لله ، فمن ينتهك حرمة الملك في حماه جدير بالجحيم والعذاب الأليم .

قال الله تعالى : ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا . . إلى . . وإن الله هو العلي الكبير﴾

من آية (٣٨) إلى نهاية آية (٦٢) .

المناسكة : لما بين تعالى مناسك الحج وما فيه من منافع الدنيا والآخرة ، وذكر أن الكفار صدوا المؤمنين عن دين الله وعن دخول مكة ، بين هنا أنه يدافع عن المؤمنين وذكر الحكمة من مشروعية القتال ومنها الدفاع عن المقدسات ، وحماية المستضعفين ، وتمكين المؤمنين من عبادة الله تعالى .

اللغز : ﴿صوامع﴾ جمع صومعة وهي البناء المرتفع وهي مختصة بالرهبان ﴿بيع﴾ جمع بيعة وهي كنيسة النصارى ﴿وصلوات﴾ كنائس اليهود وقال الزجاج : وهي بالعبرانية صلّوتا ﴿نكير﴾ مصدر بمعنى الإنكار قال الجوهري : النكيرُ والإنكارُ تغيير المنكر ﴿معطلة﴾ متروكة وتعطيل الشيء إبطال منافعه ﴿مشيد﴾ مرفوع البنيان .

* **إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾** أذن للذين يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ

النفيس : ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ أي ينصر المؤمنين ويدفع عنهم بأس المشركين ، وهذه بشارة للمؤمنين بإعلانهم على الكفار وكف كيدهم عنهم ﴿إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾ أي إنه تعالى يبغض كل خائن للأمانة جاحدٍ نعمة الله ﴿أذن للذين يُقاتلون بأنهم ظلموا﴾ فيه محذوف تقديره : أذن لهم في القتال بسبب أنهم ظلموا قال ابن عباس : هذه أول آية نزلت في الجهاد قال المفسرون : هم أصحاب رسول الله ﷺ كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديداً وكانوا يأتون رسول الله ﷺ بين مضروب ومشجوح ويتظلمون إليه فيقول لهم : اصبروا فاني لم أؤمر بقتالهم حتى هاجروا فأنزلت هذه الآية وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعدما نهي عنه في أكثر من سبعين آية ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ أي هو تعالى قادر على نصر عباده من غير قتال ولكنه يريد منهم أن يبذلوا جهدهم في طاعته لينالوا أجر الشهداء ﴿الذين

اللَّهُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ
 النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ
 مَنْ يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
 بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ
 وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ
 أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ أَي أَخْرَجُوا مِنْ أوطانهم ظلماً وعدواناً بغير سبب موجب للإخراج قال ابن
 عباس : يعني محمداً وأصحابه أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي ما كان
 لهم إساءة ولا ذنب إلا أنهم وحدوا الله ولم يشركوا به أحداً ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ أي
 لولا ما شرعه الله من الجهاد وقاتال الأعداء لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان وتعطلت الشعائر ولكنه
 تعالى دفع شرهم بأن أمر بقتالهم ﴿لهدمت صوامع وبيع﴾ أي لتهدمت معابد الرهبان وكنائس النصارى
 ﴿وصلوات﴾ أي كنائس اليهود ﴿ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ أي ومساجد المسلمين التي يعبد
 فيها الله بكرة وأصيلاً ، ومعنى الآية أنه لولا كفه تعالى المشركين بالمسلمين ، وإذنه بمجاهدة المسلمين
 للكافرين لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمانهم فهدموا موضع عباداتهم ، ولم يتركوا
 للنصارى بيعاً ، ولا لرهبانهم صوامع ، ولا لليهود كنائس ، ولا للمسلمين مساجد ، ولغلب المشركون
 أهل الأديان ، وإنما خص المساجد بهذا الوصف ﴿يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ تعظيماً لها وتشريفاً لأنها
 أماكن العبادة الحقة ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ قسم أي والله سينصر الله من ينصر دينه ورسوله ﴿إن
 الله لقوي عزيز﴾ أي إنه تعالى قادر لا يعجزه شيء ، عزيز لا يقهر ولا يغلب قال ابن كثير : وصف نفسه
 بالقوة والعزة ، فبقوته خلق كل شيء ، وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب ﴿الذين إن مكناهم في
 الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ قال ابن عباس : هم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان ،
 والمعنى : هؤلاء الذين يستحقون نصره الله هم الذين إن جعلنا لهم سلطاناً في الأرض وتملكاً واستعلاء
 عبدوا الله وحافظوا على الصلاة وأداء الزكاة ﴿وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ أي دعوا إلى الخير ونهوا
 عن الشر ﴿ولله عاقبة الأمور﴾ أي مرجع الأمور إلى حكمه تعالى وتقديره ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم
 قوم نوح وعاد وثمود﴾ تسلية للرسول ﷺ ووعيد للمشركين أي إن كذبك أهل مكة فاعلم أنك لست
 أول رسول يكذبه قومه فقد كان قبلك أنبياء كذبوا فصبروا إلى أن أهلك الله المكذبين ، فاقصد بهم واصبر
 ﴿وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين﴾ أي وكذب كذلك قوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب
 ﴿وكذب موسى﴾ أي وكذب موسى أيضاً مع وضوح آياته ، وعظم معجزاته فما ظنك بغيره ؟ ﴿فأملت

فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ

للكافرين ثم أخذتهم ﴿ أي أمهلتهم ثم أخذتهم بالعقوبة ﴾ فكيف كان نكير ﴿ استفهام تقريرى أى فكيف كان إنكارى عليهم بالعذاب ألم يكن أليماً ؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمة ، وبالكثره قلة ، وبالعمارة خراباً ؟ كذلك أفعل بالمكذبين من أهل مكة ﴾ فكأين من قرية أهلكناها ﴿ أى كم من قرية أهلكنا أهلها بالعذاب الشامل ﴾ وهي ظالمة ﴿ أى وهي مشركة كافرة ﴾ فهي خاوية على عروشها ﴿ أى خرت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف فهي مخربة مهدمة ﴾ وبئر معطلة ﴿ أى وكم من بئر عطلت فتركت لا يستقى منها هلاك أهلها ﴾ وقصر مشيد ﴿ أى وكم من قصر مرفوع البنيان أصبح خالياً بلا ساكن ، أليس فى ذلك عبرة للمعتبر ؟ ﴾ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴿ أى أفلم يسافر أهل مكة ليشاهدوا مصارع الكفار فيعتبروا بما حل بهم من النكال والدمار !! وهلاً عقلوا ما يجب ان يعقل من الإيمان والتوحيد ! ﴾ أو آذان يسمعون بها ﴿ أى أو تكون لهم آذان يسمعون بها المواعظ والزواجر ﴾ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور ﴿ أى ليس العمى على الحقيقة عمى البصر ، وإنما العمى عمى البصيرة فمن كان أعمى القلب لا يعتبر ولا يتدبر ، وذكر الصدور للتأكيد ونفي توهم المجاز ﴾ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ﴿ أى ويستعجلك يا محمد هؤلاء المشركون بالعذاب استهزاءً ، وإن ذلك واقع لا محالة ، لكن لوقوعه أجل لا يتعداه لأنه تعالى لا يخلف الميعاد ﴾ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴿ أى هو تعالى حليم لا يعجل فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حلمه فلم إذا يستبعدونه ويستعجلون العذاب ؟ ولهذا قال بعد ذلك ﴾ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ﴿ أى وكثير من أهل قرية أخرت إهلاكهم وأمهلتهم مع استمرارهم على الظلم فاغتروا بذلك التأخير ﴾ ثم أخذتها وإلى المصير ﴿ أى ثم أخذتهم بالعذاب بعد طول الإمهال وإلى المرجع والمآب قال فى البحر : لما كان تعالى قد أمهل قريشاً حتى استعجلت بالعذاب ذكر الآية تنبيهاً على أن السابقين أمهلوا ثم أهلكوا وأن قريشاً وإن أملى تعالى لهم وأمهلهم فإنه لا بد من عذابهم فلا يفرحوا بتأخير العذاب عنهم ﴿١﴾ قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ﴿ أى قل يا محمد هؤلاء المستعجلين للعذاب إنما أنا منذر لكم أخوفكم عذاب الله وأنذركم إنذاراً بيناً من غير أن يكون لي دخل في تعجيل العذاب أو

وَرَزَقَ كَرِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

تأخيره ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي فالمؤمنون الصادقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح لهم عند ربهم مغفرة لذنوبهم ورزق كريم في جنات النعيم قال الرازي : بين سبحانه أن من جمع بينهما فالله تعالى يجمع له بين المغفرة والرزق الكريم^(١) وقال القرطبي : إذا سمعت الله تعالى يقول ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فاعلم أنه الجنة^(٢) ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ أي كذبوا بآياتنا وسعوا في إبطالها مغالين مشاقين يريدون إطفاء نور الله ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي فأولئك هم أصحاب النار الحارة الموجهة ، الشديد عذابها ونكالها ، شبههم من حيث الدوام بالصاحب قال الرازي : فإن قيل : إنه عليه السلام بشر المؤمن أولاً ، وأندر الكافرين ثانياً في هذه الآية فكان القياس أن يقال ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ والجواب أن الكلام مسوق إلى المشركين وهم الذين استعجلوا العذاب و﴿أَيُّهَا النَّاسُ﴾ نداء لهم ، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم زيادة لغيظهم وإذائهم^(٣) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمداً رسولاً ولا نبياً ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ أي إلا إذا أحب شيئاً وهويته نفسه ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي ألقى الشيطان فيما يشتهي ويتمناه بعض الوسواس التي توجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه السلام (إنه ليُغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة) قال الفراء : تمنى إذا حدثت نفسه وفي البخاري : قال ابن عباس : «إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ» إلا إذا حدثت ألقى الشيطان في حديثه فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته ، ويقال : أمنيته : قراءته^(٤) قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل في الآية وأجله ، ومعنى الآية : وما أرسلنا رسولاً ولا نبياً فحدثت نفسه بشيء وتمنى لأتمته الهداية والإيمان إلا ألقى الشيطان الوسواس والعقبات في طريقه بتزيين الكفر لقومه وإلقائه في نفوسهم مخالفةً لأمر الرسول وكأن الآية تسلية للرسول ﷺ تقول له : لا تخزن يا محمد على معاداة قومك لك فهذه سنة المرسلين^(٥) ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي يزيل ويبطل الله ما يلقيه الشيطان من الوسواس والأوهام ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ أي يثبت في نفس الرسول آياته الدالة على

(١) الرازي ٤٧/٢٣ . (٢) المختصر ٥٥٠/٢ . (٣) الرازي ٤٧/٢٣ . (٤) انظر صحيح البخاري كتاب التفسير . (٥) هذا أصح ما قيل في تفسير الآية وهو اختيار المحققين من المفسرين ، وأما قصة الغرائق التي أولع بذكرها بعض المفسرين فهي باطلة مردودة ، وهي أن الرسول عليه السلام قرأ سورة ﴿والنجم إذا هوى﴾ بمحض من المشركين والمسلمين فلما بلغ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ومنة الثالثة الأخرى ألقى الشيطان على لسانه « تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترجى » ففرح بذلك المشركون ولما انتهى من السورة سجد وسجد معه المشركون الخ قال ابن العربي : إن جميع ما ورد في هذه القصة باطل لا أصل له وقال ابن إسحاق : هي من وضع الزنادقة وقال البيهقي : رواها مطعون فيهم وقال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين قصة الغرائق وهي روايات ومرسلات ومنقطعات لا تصح وقال القاضي عياض : هذا حديث لم يخرج أحد من أهل الصحة ولا رواه أحد بسند متصل سليم ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون ، المولعون بكل غريب ، المتلفون من الصحف كل صحيح وسقيم . أقول : مما يدل على بطلان القصة قوله تعالى في نفس السورة ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ إن هو إلا وحي يوحى ﴿ فكيف نطق المعصوم بمثل هذا الذي يزعمونه ! سبحانه هذا بهتان عظيم وانظر الرد القاطع في تفسير الفخر الرازي .

حَكِيمٌ ﴿٥٦﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٧﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٩﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا

الوحدانية والرسالة ﴿والله عليم حكيم﴾ أي مبالغ في العلم حكيم يضع الأشياء في مواضعها قال أبو السعود : وفي الآية دلالة على جواز السهو من الأنبياء عليهم السلام ، وتطرق الوسوسة إليهم ^(١) ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان﴾ أي ليجعل تلك الشبه والوساوس التي يلقيها الشيطان ﴿فتنة للذين في قلوبهم مرض﴾ أي فتنة للمنافقين الذين في قلوبهم شك وارتياب ﴿والقاسية قلوبهم﴾ أي وفتنة للكافرين الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله ، وهم خواص من الكفار عتاة كأبي جهل ، والنضر ، وعتبة ﴿وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾ أي وإن هؤلاء المذكورين من المنافقين والمشركين لفي عداوة شديدة لله ولرسوله ، ووصف الشقاق بلفظ ﴿بعيد﴾ لأنه في غاية الضلال والبعده عن الخير ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك﴾ أي وليعلم أهل العلم أن القرآن هو الحق النازل من عند الله تعالى ﴿فيؤمنوا به﴾ أي يؤمنوا بهذا القرآن ﴿فتخبت له قلوبهم﴾ أي تخشع وتسكن له قلوبهم بخلاف من في قلبه مرض ﴿وإن الله هادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ أي مرشد المؤمنين إلى الصراط المستقيم ومنقذهم من الضلالة والغواية ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه﴾ أي ولا يزال هؤلاء المشركون في شك وريب من هذا القرآن ﴿حتى تأتيهم الساعة بغتة﴾ أي حتى تأتيهم الساعة فجأة دون أن يشعروا قال قتادة : ما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وعرثهم ونعمتهم فلا تغتروا بالله إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ أي أو يأتيهم عذاب يوم القيامة وسمي عقيماً لأنه لا يوم بعده قال أبو السعود : كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام ، فما لا يوم بعده يكون عقيماً ، والمراد به الساعة أيضاً كأنه قيل : أو يأتيهم عذابها ، ووضع ذلك موضع الضمير لمزيد التهويل ^(٢) ﴿الملك يومئذ لله﴾ أي الملك يوم القيامة لله وحده لا منازع له فيه ولا مدافع ﴿يحكم بينهم﴾ أي يفصل بين عباده بالعدل ، فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار ولهذا قال ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم﴾ أي فالذين صدقوا الله ورسوله وفعلوا صالح الأعمال لهم النعيم المقيم في جنات الخلد ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين﴾ أي والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله لهم العذاب المخزي مع الإهانة والتحقير في دار الجحيم ﴿والذين هاجروا في سبيل الله﴾ أي تركوا الأوطان والديار ابتغاء مرضاة الله وجاهدوا لإعلاء كلمة الله ﴿ثم قتلوا أو

لِيرِزْقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾
 * ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ
 يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ
 مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

ماتوا ﴿٥٩﴾ أي قتلوا في الجهاد أو ماتوا على فرشهم ﴿٥٨﴾ ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ﴿٥٩﴾ أي يعطينهم نعيماً خالداً لا ينقطع أبداً وهو نعيم الجنة ﴿٥٨﴾ وإن الله هو خير الرازقين ﴿٥٩﴾ أي هو تعالى خير من أعطى فإنه يرزق بغير حساب ﴿٥٨﴾ ليدخلنهم مدخلاً يرضونه ﴿٥٩﴾ أي ليدخلنهم مكاناً يرضونه وهو الجنة التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿٥٨﴾ وإن الله لعليم حلیم ﴿٥٩﴾ أي عليم بدرجات العاملين حلیم عن عقابهم ﴿٥٨﴾ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ﴿٥٩﴾ أي جازى الظالم بمثل ما ظلمه ﴿٥٩﴾ ثم بُغِيَ عليه لينصرنه الله ﴿٥٩﴾ أي ثم اعتدى الظالم عليه ثانياً لينصرن الله ذلك المظلوم ﴿٥٩﴾ إن الله لعفو غفور ﴿٥٩﴾ أي مبالغ في العفو والغفران ، وفيه تعريض بالحث على العفو والصفح ، فإنه تعالى مع كمال قدرته على الانتقام يعفو ويغفر لغيره أولى بذلك ﴿٥٨﴾ ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴿٥٩﴾ أي ذلك النصر بسبب أن الله قادر ، ومن آيات قدرته إيلاج الليل في النهار أي أنه يدخل كلاً منهما في الآخر . بأن ينقص من الليل فيزيد في النهار وبالعكس وهذا مشاهد ملموس في الصيف والشتاء ﴿٥٩﴾ وأن الله سميع بصير ﴿٥٩﴾ أي سميع لأقوال عباده بصير بأحوالهم لا تخفى عليه خافية ﴿٥٩﴾ ذلك بأن الله هو الحق ﴿٥٩﴾ أي ذلك بأن الله هو الإله الحق ﴿٥٩﴾ وأن ما يدعون من دونه الباطل ﴿٥٩﴾ أي وأن الذي يدعو المشركون من الأصنام والأوثان هو الباطل الذي لا يقدر على شيء ﴿٥٩﴾ وأن الله هو العلي الكبير ﴿٥٩﴾ أي هو العالي على كل شيء ذو العظمة والكبرياء فلا أعلى منه ولا أكبر .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي :

- ١ - صيغة المبالغة ﴿خوآن كفور﴾ لأن فعال وفعل من صيغ المبالغة .
- ٢ - الحذف لدلالة السياق عليه ﴿أذن للذين يقاتلون﴾ أي أذن بالقتال للذين يقاتلون .
- ٣ - تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ أي لا ذنب لهم إلا هذا .
- ٤ - المقابلة اللطيفة بين ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم﴾ وبين ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم﴾ .
- ٥ - جناس الاشتقاق ﴿وما أرسلنا من رسول﴾ .

٦ - الطباق بين ﴿ينسخ .. ثم يحكم﴾ .

٧ - الاستعارة البديعة ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ وهذا من أحسن الاستعارات لأن العقيم المرأة التي لا تلد ، فكأنه سبحانه وصف ذلك اليوم بأنه لا ليل بعده ولا نهار لأن الزمان قد مضى ، والتكليف قد انقضى ، فجعلت الأيام بمنزلة الولدان لليالي ، وجعل ذلك اليوم من بينها عقياً على طريق الاستعارة .

قال الله تعالى : ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً .. إلى .. فنعم المولى ونعم النصير﴾

من آية (٦٣) إلى آية (٧٨) نهاية السورة الكريمة .

المناسكة : لما ذكر تعالى ما دلّ على قدرته الباهرة من إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل ونبه به على نعمه ، أتبعه هنا بأنواع أخر من الدلائل على قدرته وحكمته ، وجعلها كالمقدمة لإثبات البعث والمعاد ، وختم السورة بدعوة المؤمنين إلى عبادة الله الواحد الأحد .

اللفتر : ﴿سلطاناً﴾ حجة وبرهاناً ﴿يسطون﴾ يبطشون ، والسطوة : القهر وشدة البطش يقال : سطا يسطو إذا بطش به ﴿يسلبهم﴾ سلب الشيء : اختطفه بسرعة ﴿قدروا﴾ عظموا ﴿يصطفي﴾ يجتبي ويختار ﴿حرج﴾ ضيق ﴿ملة﴾ الملة : الدين .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ

وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي

فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ؕ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؕ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ

النصير : ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء﴾ استفهام تقريرى أي ألم تعلم أيها السامع أن

الله بقدرته أنزل من السحاب المطر ؟ ﴿فتصبح الأرض مخضرة﴾ أي فأصبحت الأرض منتعشة خضراء بعد

يبسها ومحوها ، وجاء بصيغة المضارع ﴿فتصبح﴾ لاستحضار الصورة وإفادة بقائها كذلك مدة من الزمن

﴿إن الله لطيف خبير﴾ قال ابن عباس : لطيف بأرزاق عباده خبير بما في قلوبهم من القنوط ، والغرض من

الآية إقامة الدليل على كمال قدرته وعلى البعث والنشور فمن قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت

ولهذا قال ﴿وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي جميع ما

في الكون ملكه جل وعلا ، خلقاً وملكاً وتصرفاً ، والكل محتاج إلى تدبيره وإتقانه ﴿وإن الله هو الغني الحميد﴾ أي هو تعالى غني عن الأشياء كلها لا يحتاج لأحد ، وهو المحمود في كل حال ﴿ألم تر أن الله سخر

لكم ما في الأرض﴾ تذكير بنعمة أخرى أي ألم تر أيها العاقل أن الله سخر لعباده جميع ما يحتاجون إليه من

الحيوانات والأشجار والأنهار والمعادن ﴿والفلك تجري في البحر بأمره﴾ أي وسخر السفن العظيمة المثقلة بالأحمال والرجال تسير في البحر لمصالحكم بقدرته ومشيبته ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ أي ويمسك

الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ
فَلَا يَنْزِرُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ

بقدرته السماء كي لا تقع على الأرض فيهلك من فيها ﴿إلا بإذنه﴾ أي إلا إذا شاء وذلك عند قيام الساعة
﴿إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾ أي وذلك من لطفه بكم ورحمته لكم حيث هيا لكم أسباب المعاش
فاشكروا الآءه ﴿وهو الذي أحياكم﴾ أي أحياكم بعد أن كنتم عدماً ﴿ثم يميتكم﴾ أي يميتكم عند انتهاء
آجالكم ﴿ثم يحييكم﴾ أي بعد موتكم للحساب والثواب والعقاب ﴿إن الإنسان لكفور﴾ أي مبالغ في
الجهود لنعم الله قال ابن عباس : المراد بالإنسان الكافر والغرض من الآيات توبيخ المشركين كأنه يقول :
كيف تجعلون لله أنداداً وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف !! ﴿لكل أمة جعلنا
منسكاً﴾ أي لكل نبي من الأنبياء وأمة من الأمم السابقين وضعنا لهم شريعة ومتعبداً ومنهاجاً^(١) كقوله
﴿لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً﴾ ﴿هم ناسكوه﴾ أي هم عاملون به أي بذلك الشرع ﴿فلا ينازعنك
في الأمر﴾ أي لا ينازعك أحد من المشركين فيما شرعت لك ولأمتك فقد كانت الشرائع في كل عصر
وزمان ، وهو نهي يراد به النفي أي لا ينبغي منازعة النبي ﷺ لأن الحق قد ظهر بحيث لا يسع النزاع فيه
﴿وادع إلى ربك﴾ أي ادع الناس إلى عبادة ربك وإلى شريعته السمحة المطهرة ﴿إنك لعلى هدى مستقيم﴾
أي فإنك على طريق واضح مستقيم ، موصل إلى جنات النعيم ﴿وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون﴾
أي وإن خصموك بعد ظهور الحق وقيام الحججة عليهم فقل لهم : الله أعلم بأعمالكم القبيحة وبما
تستحقون عليها من الجزاء ، وهذا وعيد وإنذار ﴿الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾ أي
الله يفصل في الآخرة بين المؤمنين والكافرين فيما كانوا فيه يختلفون من أمر الدين ، فيعرفون حينئذ الحق
من الباطل ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض﴾ الاستفهام تقرير يري أي لقد علمت يا محمد أن الله
أحاط علمه بما في السماء والأرض فلا تخفى عليه أعمالهم ﴿إن ذلك في كتاب﴾ أي إن ذلك كله مسطر في
اللوح المحفوظ ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي إن حصر المخلوقات تحت علمه وإحاطته سهل عليه يسير لديه ثم
بين سبحانه ما يقدم عليه الكفار مع عظيم نعمه ، ووضوح دلائله فقال ﴿ويعبدون من دون الله﴾ أي
ويعبد كفار قريش غير الله تعالى أصناماً لا تنفع ولا تسمع ﴿ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي ما لم يرد به حجة
ولا برهان من جهة الوحي والشرع ﴿وما ليس لهم به علم﴾ أي وما ليس عندهم به علم من جهة العقل
وإنما هو مجرد التقليد الأعمى للأباء ﴿وما للظالمين من نصير﴾ أي ليس لهم ناصر يدفع عنهم عذاب الله

(١) قال ابن عباس : المنسك : الشريعة والمنهاج ، قال الرازي : وهو الأقرب هنا .

لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ ذُكِّرُوا النَّارَ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُبْسِ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۚ وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

﴿وإذا تُتلى عليهم آياتنا بينات﴾ أي وإذا تليت على هؤلاء المشركين آيات القرآن الواضحة الساطعة وما فيها من الحجج القاطعة على وحدانية الله ﴿تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾ أي ترى في وجوه الكفار الإنكار بالعبوس والكرهة ﴿يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾ أي يكادون يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم القرآن ﴿قل أفأنبيئكم بشر من ذلكم النار﴾ أي قل لهم : هل أخبركم بما هو أسوأ أو أشنع من تخويفكم للمؤمنين وبطشكم بهم ؟ إنه نار جهنم وعذابها ونكالها ﴿وعدها الله الذين كفروا﴾ أي وعدها الله للكافرين المكذبين بآياته ﴿وبئس المصير﴾ أي بئس الموضع الذي يصيرون إليه ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له﴾ أي يا معشر المشركين ضرب الله مثلاً لما يعبد من دون الله من الأوثان والأصنام فتدبروه حق التدبر واعقلوا ما يقال لكم ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾ أي إن هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها وإن اجتمعت على ذلك ، فكيف يليق بالعاقل جعلها آلهة وعبادتها من دون الله ! قال القرطبي : وخص الذباب لأربعة أمور : لمهانتة ، وضعفه ، ولاستقذاره ، وكثرته ، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبودهم من دون الله على خلق مثله ودفن أذيته ، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين ، وأرباباً مطاعين ؟ وهذا من أقوى الحجج وأوضح البرهان^(١) ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾ أي لو اختطف الذباب وسلب شيئاً من الطيب الذي كانوا يضمخون به الأصنام لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه منه رغم ضعفه وحقارته ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ أي ضعف العابد الذي يطلب الخير من الصنم ، والمطلوب الذي هو الصنم ، فكل منهما حقير ضعيف^(٢) ﴿ما قدروا الله حق قدره﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه حيث جعلوا الأصنام - على حقارتها - شركاء للقوي العزيز ولهذا قال ﴿إن الله لقوي عزيز﴾ أي هو تعالى قادر لا يعجزه شيء ، غالب لا يغلب ، فكيف يسوون بين القوي العزيز والعاجز الحقير ؟ ! ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ أي الله يختار رسلاً من الملائكة ليكونوا وسطاء لتبليغ الوحي إلى أنبيائه ، ويختار رسلاً من البشر لتبليغ شرائع الدين لعباده ، والآية رد على من أنكر أن يكون الرسول

(١) القرطبي ٩٧/١٢ . (٢) قال ابن عباس : الطالب الصنم ، والمطلوب الذباب ، وقال السدي : الطالب العابد ، والمطلوب الصنم نفسه وهذا هو الراجح وهو الذي اخترناه .

بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا
وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ
عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا
عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى
وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

من البشر ﴿إن الله سميع بصير﴾ أي يسمع ما يقولون ويرى ما يفعلون ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي يعلم ما قدموا وما أخرؤا من الأفعال والأقوال والأعمال ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي إليه وحده جل وعلا ترد أمور العباد فيجازيهم عليها ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا﴾ أي صلوا لربكم خاشعين ، وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنها أشرف أركان الصلاة ﴿واعبدوا ربكم﴾ أي أفردوه بالعبادة ولا تعبدوا غيره ﴿وافعلوا الخير﴾ أي افعلوا ما يقربكم من الله من أنواع الخيرات والمبرات كصلة الأرحام ، ومواساة الأيتام ، والصلاة بالليل والناس نيام ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي لتفوزوا وتظفروا بنعيم الآخرة ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ أي جاهدوا بأموالكم وأنفسكم لإعلاء كلمة الله حق الجهاد باستفراغ الوسع والطاقة ﴿هو اجتباكم﴾ أي هو اختاركم من بين الأمم لنصرة دينه ، وخصكم بأكمل شرع وأكرم رسول ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ أي وما جعل عليكم في هذا الدين من ضيق ولا مشقة ، ولا كلفكم ما لا تطيقون بل هي الحنيفة السمحة ولهذا قال ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ أي دينكم الذي لا حرج فيه هو دين إبراهيم فالزموه لأنه الدين القيم كقوله ﴿ديناً قياً ملة إبراهيم حنيفاً﴾ ﴿هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا﴾ أي الله ﴿سماكم المسلمين في الكتب المتقدمة وفي هذا القرآن ، ورضي لكم الإسلام ديناً قال الإمام الفخر : المعنى أنه سبحانه في سائر الكتب المتقدمة على القرآن ، وفي القرآن أيضاً بين فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم ، لأجل الشهادة المذكورة ، فلما خصكم بهذه الكرامة فاعبدوه ولا تردوا تكاليفه ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ أي ليشهد عليكم الرسول بتبليغه الرسالة لكم وتشهدوا أنتم على الخلائق أن رسلهم قد بلغتهم ﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي وإذ قد اختاركم الله لهذه المرتبة الجليلة فاشكروا الله على نعمته بأداء الصلاة ودفع الزكاة ﴿واعتصموا بالله﴾ أي استمسكوا بحبله المتين وثقوا واستعينوا بالله في جميع أموركم ﴿فنعم المولى ونعم النصير﴾ أي نعم هو تعالى الناصر والمعين .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

(١) هذا قول ابن عباس ومجاهد وهو الظاهر ، وقال الحسن : الضمير يعود على إبراهيم ، وهذا قول مرجوح والله أعلم .

- ١ - الامتنان بتعداد النعم ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض ، والفلك تجري . . ﴾ الخ وكذلك الاستفهام الذي يفيد التقرير .
- ٢ - الطباق ﴿يُمَيِّتْكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ .
- ٣ - صيغة المبالغة ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَفُورٍ﴾ أي مبالغ في الجحود .
- ٤ - النهي الذي يراد منه نفي الشيء ﴿فَلَا يَنَازِعُنكَ﴾ أي لا ينبغي لهم منازعتك فقد ظهر الحق وبان .
- ٥ - الاستعارة اللطيفة ﴿تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾ أي تستدل من وجوههم على المكروه وإرادة الفعل القبيح مثل قولهم : عرفت في وجه فلان الشر .
- ٦ - التمثيل الرائع ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً﴾ أي مثل الكفار في عبادتهم لغير الله كمثل الأصنام التي لا تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة قال الزمخشري : سميت القصة الرائقة المتلقاة بالاستحسان مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال .
- ٧ - المجاز المرسل ﴿اركعوا واسجدوا﴾ من إطلاق الجزء على الكل أي صلوا لأن الركوع والسجود من أركان الصلاة .
- ٨ - ذكر العام بعد الخاص لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاص ﴿اركعوا واسجدوا وابدؤا ربكم وافعلوا الخير﴾ بدأ بخاص ، ثم بعام ، ثم بأعم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحج » .



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة « المؤمنون » من السور المكية التي تعالج أصول الدين من « التوحيد والرسالة ، والبعث » سميت بهذا الاسم الجليل « المؤمنون » تخليداً لهم وإشادةً بمآثرهم وفضائلهم الكريمة التي استحقوا بها ميراث الفردوس الأعلى في جنات النعيم .

* عرضت السورة الكريمة لدلائل القدرة والوحدانية مصورة في هذا الكون العجيب ، في الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، ثم في خلق السموات البديعة ذات الطرائق ، وفي الآيات الكونية المنبثة فيما يشاهده الناس في العالم المنظور من أنواع النخيل والأعنان ، والزيتون والرمان ، والفواكه والشمار ، والسفن الكبيرة التي تمخر عباب البحار ، وغير ذلك من الآيات الكونية الدالة على وجود الله جل وعلا .

* وقد عرضت السورة لقصص بعض الأنبياء تسلياً لرسول الله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين ، فذكرت قصة نوح ، ثم قصة هود ، ثم قصة موسى ، ثم قصة مريم البتول وولدها عيسى ، ثم عرضت لكفار مكة وعنادهم ومكابرتهم للحق بعدما سطع سطوع الشمس في رابعة النهار ، وأقامت الحجج والبراهين على البعث والنشور ، وهو المحور الذي تدور عليه السورة ، وأهم ما يجادل فيه المبطلون ، فقصمت ببيانها الساطع ظهر الباطل .

* وتحدثت السورة عن الأهوال والشدائد التي يلقاها الكفار وقت الاحتضار وهم في سكرات الموت ، وقد تمنوا العودة الى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من صالح العمل ، ولكن هيهات فقد انتهى الأجل ، وضاع الأمل . وختمت السورة بالحديث عن يوم القيامة حيث ينقسم الناس الى فريقين : سعداء ، وأشقياء ، وينقطع الحسب والنسب فلا ينفع إلا الايمان والعمل الصالح ، وسجلت المحاوراة بين الملك الجبار وبين أهل النار وهم يصطرخون فيها فلا يغاثون ولا يجابون !!

قال الله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون .. إلى .. وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾

من آية (١) إلى نهاية آية (٢٢) .

اللغز : ﴿ سلالة ﴾ السلالة : الخلاصة مشتقة من السَّل وهو استخراج الشيء من الشيء ، تقول : سللت الشعر من العجين ، والسيف من الغمد قال أمية :

خلق البرية من سلالة متتن وإلى السلالة كلها ستعود^(١) ويقال : الولد سلالة أبيه لأنه انسل من ظهر أبيه ﴿مكين﴾ ثابت راسخ تقول : هذا شيء مكين أي متمكن في الثبوت والرسوخ ﴿طرائق﴾ جمع طريقة والمراد بالطرائق السموات السبع سميت بذلك لكون بعضها فوق بعض ، ومنه قولهم : طارق النعل إذا جعل إحداها على الأخرى ﴿صبغ﴾ الصبغ : الإدام وأصله الصباغ وهو الذي يلون به الثوب قال الهروي : كل إدام يؤتدم به فهو صبغ ﴿الأنعام﴾ الحيوانات المأكولة « الإبل ، والبقر ، والغنم » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾
وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾

التفسير : ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ أي فاز وسعد وحصل على البغية والمطلوب المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف الجليلة ، و﴿قد﴾ للتأكيد والتحقيق فكأنه يقول لقد تحقق ظفرهم ونجاحهم بسبب الإيمان والعمل الصالح ، ثم عدد تعالى مناقبهم فقال ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ قال ابن عباس : خاشعون : خائفون ساكنون أي هم خائفون متدللون في صلاتهم لجلال الله وعظمته لاستيلاء الهيبة على قلوبهم ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ أي عن الكذب والشتم والهزل قال ابن كثير: اللغو: الباطل وهو يشمل الشرك، والمعاصي، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال^(٢) ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ أي يؤدون زكاة أموالهم للفقراء والمساكين، طيبة بها نفوسهم طلباً لرضى الله ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ هذا هو الوصف الرابع أي عفا عن الحرام وصانوا فروجهم عما لا يحل من الزنا واللواط وكشف العورات ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ أي هم حافظون لفروجهم في جميع الأحوال إلا من زوجاتهم وإمائهم المملوكات ﴿فإنهم غير ملومين﴾ أي فإنهم غير مؤاخذين ﴿فمن ابتغى وراء ذلك﴾ أي فمن طلب غير الزوجات والمملوكات ﴿فأولئك هم العادون﴾ أي هم المعتدون المجاوزون الحد في البغي والفساد ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي قائمون عليها بحفظها وإصلاحها ، لا يخونون إذا ائتمنوا ، ولا ينقضون عهدهم إذا عاهدوا قال أبو حيان : والظاهر عموم الأمانات فيدخل فيها ما ائتمن الله تعالى عليه العبد من قول وفعل واعتقاد ، وما ائتمنه الإنسان من الودائع والأمانات^(٣) ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ هذا هو الوصف السادس أي يواظبون على الصلوات الخمس

(١) البحر المحيط ٣٩٣/٦ . (٢) ابن كثير المختصر ٥٥٩/٢ . (٣) البحر ٣٩٧/٦ .

أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠٩﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١١١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١١٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١١٣﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ

ويؤدونها في أوقاتها قال في التسهيل : فإن قيل كيف كرر ذكر الصلوات أولاً وآخرها ؟ فالجواب أنه ليس بتكرار ، لأنه قد ذكر أولاً الخشوع فيها ، وذكر هنا المحافظة عليها فيها مختلفان ^(١) ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ أي أولئك الجامعون لهذه الأوصاف الجليلة هم الجديرون بوراثة جنة النعيم ﴿ الذين يرثون الفردوس ﴾ أي الذين يرثون أعالي الجنة التي تتفجر منها أنهار الجنة وفي الحديث (إذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة) ^(٢) ﴿ هم فيها خالدون ﴾ أي هم دائمون فيها لا يخرجون منها أبداً ، ولا يبغون عنها حولاً . . ثم ذكر تعالى الأدلة والبراهين على قدرته ووحدانيته فقال ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ اللام جواب قسم أي والله لقد خلقنا جنس الإنسان من صفوة وخلصة استلت من الطين قال ابن عباس : هو آدم لأنه انسل من الطين ﴿ ثم جعلناه نطفة ﴾ أي ثم جعلنا ذرية آدم وبنه منياً ينطف من أصلاب الرجال ﴿ في قرار مكين ﴾ أي في مستقر متمكن هو الرحم ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ أي ثم صيرنا هذه النطفة - وهي الماء الدافق - دماً جامداً يشبه العلقة ﴿ فخلقنا العلقة مضغة ﴾ أي جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أي قطعة لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿ فخلقنا المضغة عظاماً ﴾ أي صيرنا قطعة اللحم عظماً صلبة لتكون عموداً للبدن ﴿ فكسونا العظام لحماً ﴾ أي سترنا تلك العظام باللحم وجعلناه كالكسوة لها ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ أي ثم بعد تلك الأطوار نفخنا فيه الروح فصيرناه خلقاً آخر في أحسن تقويم قال الرازي : أي جعلناه خلقاً مابيناً للخلق الأول حيث صار إنساناً وكان جماداً ، وناطقاً وكان أبكم ، وسميماً وكان أصم ، وبصيراً وكان أكمه ، وأودع كل عضو من أعضائه عجائب فطرة ، وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفين ^(٣) ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ أي فتعالى الله في قدرته وحكمته أحسن الصانعين صنعا ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴾ أي ثم إنكم أيها الناس بعد تلك النشأة والحياة لصائرون الى الموت ﴿ ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون ﴾ أي تبعثون من قبوركم للحساب والمجازاة ، ولما ذكر تعالى الأطوار في خلق الإنسان وبدايته ونهايته ذكر خلق السموات والأرض وكلها أدلة ساطعة على وجود الله فقال ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴾ أي والله لقد خلقنا فوقكم سبع سموات ، سميت طرائق لأن بعضها فوق بعض ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ أي وما كنا مهملين أمر الخلق بل نحفظهم وندبر أمرهم ﴿ وأنزلنا من السماء

غَفِيلِينَ ﴿١٧٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ^ط وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٧٨﴾
فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ
سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِللَّاكِلِينَ ﴿١٨٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّئَسْقِيَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا
مَنْفَعٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٨١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿١٨٢﴾

ماءً بقدر ﴿١٧٧﴾ أي أنزلنا من السحاب القطر والمطر بحسب الحاجة ، لا كثيراً فيفسد الأرض ، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار ﴿فأسكنناه في الأرض﴾ أي جعلناه ثابتاً مستقراً في الأرض لتنتفعوا به وقت الحاجة ﴿وإننا على ذهابٍ به لقادرون﴾ وعيدٌ وتهديدٌ أي ونحن قادرون على إذهابه بالتغوير في الأرض فتهلكون عطشاً أنتم ومواشيكم قال ابن كثير : لو شئنا لجعلناه إذا نزل يغور في الأرض إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا ، ولكن بلطفه تعالى ورحمته ينزل عليكم المطر من السحاب عذبةً فراتاً ، فيسكنه في الأرض ، ويسلكه ينابيع فيها فيفتح العيون والأنهار ، ويسقى الزروع والثمار ، فتشربون منه أنتم ودوابكم وأنعامكم ﴿١﴾ ﴿فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب﴾ أي فأخرجنا لكم بذلك الماء حداثق وبساتين فيها النخيل والأعناب ﴿لكم فيها فواكه كثيرة﴾ أي لكم في هذه البساتين أنواع الفواكه والثمار تتفكهون بها ﴿ومنها تأكلون﴾ أي ومن ثمر الجنات تأكلون صيفاً وشتاءً كالرطب والعنب والتمر والزبيب ، وإنما خصَّ النخيل والأعناب بالذكر لكثرة منافعها فإنها يقومان مقام الطعام ، ومقام الإدام ، ومقام الفواكه رطباً ويابساً وهما أكثر فواكه العرب ﴿وشجرة تخرج من طور سيناء﴾ أي ومما أنشأنا لكم بالماء أيضاً شجرة الزيتون التي تخرج حول جبل الطور وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ﴿تنبت بالدهن﴾ أي تنبت الدهن أي الزيت الذي فيه منافع عظيمة ﴿وصبغ للاكلين﴾ أي وإدام للاكلين سمي صبغاً لأنه يلون الخبز اذا غمس فيه ، جمع الله في هذه الشجرة بين الأدم والدهن ، وفي الحديث (كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة) ﴿٢﴾ ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾ أي وإن لكم أيها الناس فيما خلق لكم ربكم من الأنعام وهي « الإبل والبقر والغنم » لعظةً بالغةً تعتبرون بها ﴿نسقيكم مما في بطونها﴾ أي نسقيكم من ألبانها من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴿ولكم فيها منافع كثيرة﴾ أي ولكم في هذه الأنعام منافع عديدة : تشربون من ألبانها ، وتلبسون من أصوافها وتركبون ظهورها ، وتحملون عليها الأحمال الثقيل ﴿ومنها تأكلون﴾ أي وتأكلون لحومها كذلك ﴿وعليها على الفلك تحملون﴾ أي وتحملون على الإبل في البر كما تحملون على السفن في البحر ، فإن الإبل سفائن البر كما أن الفلك سفائن البحر .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الإخبار بصيغة الماضي لإفادة الثبوت والتحقق ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ كما أن ﴿قد﴾ لإفادة التحقيق أيضاً .

٢ - التفصيل بعد الإجمال ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون . .﴾ الخ .

٣ - إنزال غير المنكر منزلة المنكر ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ الناس لا ينكرون الموت ولكن غفلتهم عنه وعدم استعدادهم له بالعمل الصالح يعدّان من علامات الإنكار ولذلك نزلوا منزلة المنكرين وألقي الخبر مؤكداً بمؤكدين « إنَّ واللام » .

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿سبع طرائق﴾ شبهت السموات السبع بطرائق النعل التي يجعل بعضها فوق بعض بطريق الاستعارة .

٥ - التهديد ﴿وإنا على ذهاب به لقادرون﴾ .

٦ - السجع غير المتكلف ﴿خاشعون ، حافظون ، عادون﴾ وكذلك ﴿طين ، مكين ، الخالقين﴾ وهو من المحسنات البديعية .

تَبْيِيْهُ : ذكر تعالى في هذه الآيات من قوله ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ إلى قوله ﴿وعلى الفلك تحملون﴾ أربعة أنواع من دلائل قدرته تعالى ، الأول : تقلب الإنسان في أطوار الخلق وهي تسعة آخرها البعث بعد الموت ، الثاني : خلق السموات السبع ، الثالث : إنزال الماء من السماء ، الرابع : منافع الحيوانات وذكر منها أربعة أنواع « الانتفاع بالألبان ، وبالصوف ، وباللحوم ، وبالركوب » .

فَكَايْدَةٌ : روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل ، فلبثنا ذات يوم ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال (اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا ، وأثرتنا ولا تؤثرت علينا ، وأرضنا وارض عنا) ثم قال : لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنة ثم قرأ ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر^(١) .

قال الله تعالى : ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه . . إلى . . وأنا ربكم فاتقون﴾

من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٥٢) .

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى دلائل التوحيد في خلق الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، وفي خلق السموات والأرض ، وعدّد نعمه على عباده ، ذكر هنا أمثالاً لكفار مكة من المكذبين من الأمم السابقة وما

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي .

نالهم من العذاب ، فابتدأ بقصة نوح ، ثم بقصة هود ، ثم بقصة موسى وفرعون ، ثم بقصة عيسى بن مريم ، وكلها عبر وعظات للمكذبين بالرسول والآيات .

اللفظ : ﴿جَنَّةٌ﴾ بكسر الجيم أي جنون ﴿فتربصوا﴾ فانظروا والتربص : الانتظار ﴿مبتلين﴾ مختبرين ﴿هيهات﴾ اسم فعل ماض بمعنى بُعد قال الشاعر :

تذكرت أياماً مضين من الصبا و هيهات هيهاتاً إليك رجوعها^(١)

﴿غشاء﴾ الغشاء : العشب إذا يبس ، وغشاء السيل : ما يحمله من الحشيش والقصب اليابس ونحوه ﴿بعداً﴾ هلاكاً قال الرازي : بعداً وسُحْقاً ودماراً ونحوها مصادر موضوعة مواضع أفعالها قال سيبويه وهي منصوبة بأفعال لا يستعمل إظهارها ومعنى ﴿بعداً﴾ بعدوا بعداً أي هلكوا^(٢) ﴿قروناً﴾ أمماً ﴿تتري﴾ تتابع يأتي بعضهم إثر بعض ﴿أحاديث﴾ جمع أحذوثة كأعجوبة وهي ما يتحدث به عجباً وتسلية ﴿معين﴾ ماء جار ظاهر للعيون ﴿ربوة﴾ الربوة : المكان المرتفع من الأرض .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَرَبَّصُوا بِهِ ۚ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٢٦﴾

التفسير : ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ أي والله لقد أرسلنا رسولنا نوحاً إلى قومه داعياً لهم إلى الله قال المفسرون : هذه تعزية لرسول الله ﷺ بذكر هذا الرسول ، ليتأسى به في صبره ، وليعلم أن الرسل قبله قد كذبوا ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي اعبدوه وحده فليس لكم رب سواه ﴿أفلا تتقون﴾ زجرٌ ووعيد أي أفلا تخافون عقوبته بعبادتكم غيره ؟ ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أي فقال أشراف قومه ورؤساؤهم الممعنون في الكفر والضلال ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾ أي ما هذا الذي يزعم أنه رسول إلا رجل من البشر يريد أن يطلب الرياسة والشرف عليكم بدعواه النبوة لتكونوا له أتباعاً . واعجب بضلال هؤلاء استبعدوا أن تكون النبوة لبشر ، وأثبتوا الربوبية لحجر ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ أي لو أراد الله أن يبعث رسولاً لبعث ملكاً ولم يكن بشراً ﴿ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ أي ما سمعنا بمثل هذا الكلام في الأمم الماضية ، والدهور الخالية ﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾ أي ما هو إلا رجل به جنون ﴿فتربصوا به حتى حين﴾ أي انتظروا واصبروا عليه مدة حتى يموت ﴿قال رب انصُرني بما كذبون﴾ أي قال نوح بعد ما يش من

فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحِينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورَ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلِ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ إِيمَانِهِمْ : رَبُّ انصرنى عليهم باهلاكمهم عامةً بسبب تكذيبهم إياي ﴿فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا﴾ أي فأوحينا إليه عند ذلك ان اصنع السفينة بمرأى منا وحفظنا ﴿ووحينا﴾ أي بأمرنا وتعليمنا ﴿فإذا جاء أمرنا﴾ أي فإذا جاء أمرنا بإنزال العذاب ﴿وفار التنور﴾ أي فار الماء في التنور الذي يجذب فيه قال المفسرون : جعل الله ذلك علامة لنوح على هلاك قومه ﴿فاسلك فيها من كل زوجين اثنين﴾ أي فأدخل في السفينة من كل صنفٍ من الحيوان زوجين « ذكر وأنثى » لكلا ينقطع نسل ذلك الحيوان ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم﴾ أي واحمل أهلك أيضاً إلا من سبق عليه القول بالهلاك ممن لم يؤمن بزوجه وابنه ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُعْرَقُونَ﴾ أي ولا تسألني الشفاعة للظالمين عند مشاهدة هلاكهم فقد قضيت أنهم معرَقون محكوم عليهم بالغرق ﴿فإذا استويت أنتَ ومن معكَ على الفلك﴾ أي فإذا علوت أنتَ ومن معكَ من المؤمنين على السفينة ﴿فقل الحمد لله الذي نجَّانا من القوم الظالمين﴾ أي احمداوا الله على تخليصه إياكم من الغرق وإنما قال ﴿فقل﴾ ولم يقل فقولوا لأن نوحاً كان نبياً لهم وإماماً فخطابه خطابٌ لهم ﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً﴾ أي أنزلني إنزالاً مباركاً يحفظني من كل سوء وشر قال ابن عباس : هذا حين خرج من السفينة ﴿وأنت خير المنزّلين﴾ أي أنت يا رب خير المنزّلين لأوليائك والحافظين لعبادك ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ﴾ أي إنَّ فيما جرى على أمة نوح للدلائل وعبر يستدل بها أولوا الأبصار ﴿وإن كنا لمبتلين﴾ أي وإنَّ الحال والشأن كنا مختبرين للعباد بإرسال المرسلين ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ أي ثم أوجدنا من بعد قوم نوح قومًا آخرين يخلفونهم وهم قوم عاد ﴿فأرسلنا فيهم رسولاً منهم﴾ أي أرسلنا إليهم رسولاً من عشيرتهم هو هود عليه السلام ﴿أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي اعبدوه وحده ولا تشركوا به أحداً لأنه ليس لكم ربٌ سواه ﴿أفلا تتقون﴾ أي أفلا تحافون عذابه وانتقامه إن كفرتم ؟ ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلىء الآخرة﴾ أي قال أشرف قومه الكفرة المكذبون بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب ﴿وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾ أي وسعنا عليهم نعم الدنيا حتى بطروا ونعمناهم في هذه الحياة ﴿ما هذا إلا بشرٌ مثلكم﴾ أي قالوا لأتباعهم مضلين لهم : ما هذا الذي يزعم أنه رسول إلا إنسان مثلكم ﴿يأكل مما

وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنِ اطَّعْتُمْ بِشْرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيْعِدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ
وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ * هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا
نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ
رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبْتَنِي ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَعَلَعَلْنَهُمْ غُثَاءً^ع
فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾

تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴿٣٣﴾ أي يأكل مثلكم ويشرب مثلكم فلا فضل له عليكم لأنه محتاج إلى
الطعام والشراب ﴿٣٤﴾ ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون ﴿٣٥﴾ أي ولئن أطعتموه وصدقتموه فإنكم
لخاسرون حقاً حيث أذلتكم أنفسكم باتباعه قال أبو السعود : انظر كيف جعلوا اتباع الرسول الحق الذي
يوصلهم إلى سعادة الدارين خسراناً دون عبادة الأصنام التي لا خسران وراءها ؟ قاتلهم الله أنى
يؤفكون (١) ﴿٣٦﴾ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً ﴿٣٧﴾ استفهام على وجه الاستهزاء والاستبعاد أي
أيعدكم بالحياة بعد الموت بعد أن تصبحوا رفاتاً وعظاماً بالية ؟ ﴿٣٨﴾ أنكم ستخرجون ﴿٣٩﴾ أي أنكم ستخرجون
أحياء من قبوركم وكرّر لفظ ﴿أنكم﴾ تأكيداً لأنه لما طال الكلام حسن التكرار ﴿هيات هيات لما
توعدون﴾ أي بعد بعد هذا الذي توعدونه من الإخراج من القبور ، وغرضهم بهذا الاستبعاد أنه لا
يكون أبداً ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ أي لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا ﴿نموت ونحيا﴾ أي يموت
بعضنا ويولد بعضنا إلى انقراض العصر ﴿وما نحن بمبعوثين﴾ أي لا بعث ولا نشور ﴿إن هو إلا رجل
افتري على الله كذباً﴾ أي ما هو إلا رجل كاذب يكذب على الله فيما جاءكم به من الرسالة ، والإخبار
بالمعاد ﴿وما نحن له بمؤمنين﴾ أي ولسنا له بمصدقين فيما يقوله ﴿قال رب انصُرني بما كذبتون﴾ لما يش
نبيهم من إيمانهم ورأى إصرارهم على الكفر دعا عليهم بالهلاك والمعنى رب انصُرني عليهم بسبب تكذيبهم
إياي ﴿قال عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أي عن قريب من الزمان سيصيرون نادمين على كفرهم
﴿فأخذتهم الصيحة بالحق﴾ أي أخذتهم صيحة العذاب المدمر عدلاً من الله لا ظملاً ﴿فجعلناهم
غثاء﴾ أي هلكى كغثاء السيل قال المفسرون : صاح بهم جبريل صيحة رجفت لها الأرض من تحتهم
فصاروا لشدها غثاءً كغثاء السيل وهو الشيء التافه الحقيق الذي لا ينتفع منه بشيء ﴿فبعداً للقوم
الظالمين﴾ أي فسحقاً وهلاكاً لهم بكفرهم وظلمهم ، وهي جملة دعائية كأنه قال : بعداً لهم من رحمة الله
وهلاكاً ودماراً لهم ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرونًا آخرين﴾ أي أوجدنا من بعد هلاك هؤلاء أمماً وخلائق
آخرين كقوم صالح وإبراهيم وقوم لوط وشعيب قال ابن عباس : هم بنو إسرائيل ، وفي الكلام حذف
تقديره : فكذبوا أنبياءهم فأهلكناهم دل عليه قوله ﴿ما تسبق من أمةٍ أجلها وما يستأخرون﴾ أي ما

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبِعَدَا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنْؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾

تتقدم أمة من الأمم المهلكة عن الوقت الذي عيّن هلاكهم ولا تتأخر عنه ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترًا﴾ أي بعثنا الرسل متتالين واحداً بعد واحد قال ابن عباس : يتبع بعضهم بعضاً ﴿كلما جاء أمة رسولها كذبوه﴾ تشنيع عليهم بكمال ضلالهم أي أنهم سلكوا في تكذيب أنبيائهم مسلك من سبقهم من الضالين المكذبين ولهذا قال ﴿فاتبعنا بعضهم بعضاً﴾ أي ألحقنا بعضهم في إثر بعض بالهلاك والدمار ﴿وجعلناهم أحاديث﴾ أي أخباراً تُروى وأحاديث تُذكر ، يتحدث الناس بما جرى عليهم تعجباً وتسليّة ﴿فبعداً لقومٍ لا يؤمنون﴾ أي فهلاكاً ودماراً لقومٍ لا يصدقون الله ورسله ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا﴾ أي أرسلناهما بآياتنا البينات قال ابن عباس : هي الآيات التسع «العصا ، اليد ، الجراد» الخ ﴿وسلطان مبین﴾ أي وحجة واضحة ملزمة للخصم ﴿إلى فرعون وملئه﴾ أي أرسلناهما إلى فرعون الطاغية وأشراف قومه المتكبرين ﴿فاستكبروا﴾ أي عن الإيمان بالله وعبادته ﴿وكانوا قوماً عالين﴾ أي متكبرين متمردين ، قاهرين لغيرهم بالظلم ﴿فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ أي أنصدق رجلين مثلنا ونتبّعهما ؟ ﴿وقومهما لنا عابدون﴾ أي والحال أن قوم موسى وهارون منقادون لنا كالخدم والعبيد ؟ ﴿فكذبوهما فكانوا من المهلكين﴾ أي فكذبوا رسولينا فكانوا من المغرّقين في البحر ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون﴾ أي أعطينا موسى التوراة بعد غرق فرعون وملائته ليهتدي بها بنو إسرائيل ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ أي وجعلنا قصة مريم وابنها عيسى معجزة عظيمة تدل على كمال قدرتنا ﴿وآويناها إلى ربوة﴾ أي وجعلنا منزلها ومأواها إلى مكان مرتفع من أرض بيت المقدس قال ابن عباس : الربوة المكان المرتفع من الأرض ، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ﴿ذات قرارٍ ومعين﴾ أي مستوية يستقر عليها وماء جارٍ ظاهر للعيون قال الرازي : القرار : المستقر كل أرض مستوية مبسوطة ، والمعين : الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض ، وعن قتادة : ذات ثمارٍ وماء ، يعني أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها^(١) ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ أي قلنا يا أيها الرسل كلوا من الحلال وتقربوا إلى الله بالأعمال الصالحة ، والنداء لكل رسولٍ في زمانه وصي به كل رسولٍ إرشاداً لأمته كما تقول تخاطب تاجراً : يا تاجر اتقوا الربا ﴿إني بما تعملون علیم﴾ وعيدٌ وتحذيرٌ أي إني عالم بما

وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾

تعملون لا يخفى عليّ شيء من أمركم ، قال القرطبي : شمل الكل في الوعيد وإذا كان هذا مع الرسل والأنبياء ، فما ظن كل الناس بأنفسهم^(١) ؟ ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد ، وملتكم ملة واحدة وهي دين الإسلام ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ أي وأنا ربكم لا شريك لي فخافوا عذابي وعقابي .

البالغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الاستعارة البديعة ﴿ اصنع الفلك بأعيننا ﴾ عبّر عن المبالغة في الحفظ والرعاية بالصنع على الأعين لأن الحافظ للشيء في الأغلب يديم مراعاته بعينه فلذلك جاء بذكر الأعين بدلاً من ذكر الحفظ والحراسة على طريق الاستعارة .

٢ - الكناية ﴿ وفار التنور ﴾ كناية عن الشدة كقولهم حمي الوطيس ، وأطلق بعض العلماء التنور على وجه الأرض مجازاً .

٣ - جناس الاشتقاق ﴿ أنزلني منزلاً ﴾ و﴿ تعملون عليم ﴾ .

٤ - الطباق بين ﴿ نموت ونحيا ﴾ وكذلك بين ﴿ تسبق . . ويستأخرون ﴾ .

٥ - الجناس الناقص ﴿ أرسلنا رُسُلنا ﴾ لتغيير بعض الحروف مع الشكل .

٦ - التشبيه البليغ ﴿ فجعلناهم غشاء ﴾ أي كالغشاء في سرعة زواله ومهانة حاله ، حذف وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغاً .

٧ - أسلوب الإطناب ﴿ الذين كفروا ، وكذبوا بقاء الآخرة ، وأترفناهم في الحياة الدنيا ﴾ ذمّ لهم وتسجيلاً عليهم القبائح والشناعات .

٨ - السجع اللطيف مثل ﴿ تتقون ، تشربون ، مخرجون ﴾ ومثل ﴿ عالين ، المهلكين ، قرار ومعين ﴾ .

فكائِدَة : لفظ البشر يطلق على الواحد والجمع ، فمن إطلاقه على الواحد ﴿ فتمثّل لها بشراً سوياً ﴾ ﴿ أنؤ من لبشرين مثلنا ﴾ ؟ ومن إطلاقه على الجمع ﴿ فإما ترين من البشر أحداً ﴾ ﴿ وما هي إلا ذكري للبشر ﴾ أفاده صاحب الكشاف .

قال الله تعالى : ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زُبُراً . . إلى . . وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ﴾
من آية (٥٣) إلى نهاية آية (٧٤) .

المناسكة : لما ذكر تعالى قصص الأنبياء والمرسلين ، أتبعه بذكر أخبار الكفرة المتمردين من أقوامهم واختلافهم وتفرقهم في الدين حتى أصبحوا فرقاً وأحزاباً ، ليجتنب الإنسان طرق أهل الضلال .

اللغز : ﴿زُبْرًا﴾ قطعاً جمع زبور وهي القطعة من الفضة أو الحديد ﴿غمرتهم﴾ الغمرة : الحيرة والضلالة وأصله في اللغة : الماء الذي يغمر القامة ﴿يجارون﴾ يضجون ويستغيثون وأصل الجوار رفع الصوت بالتضرع كما يفعل الثور ﴿تنكصون﴾ النكوص : الرجوع الى الوراء ﴿ناكبون﴾ نكب عن الطريق نكوباً إذا عدل عنه ومال الى غيره .

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْرًا كُلِّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٧﴾ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٨﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٩﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِعِبَائَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ

النفسير : ﴿فتقطّعوا أمرهم بينهم زُبْرًا﴾ أي تفرقت الأمم في أمر دينهم فرقاً عديدة وأدياناً مختلفة هذا مجوسي ، وهذا يهودي ، وهذا نصراني بعدما أمروا بالاجتماع ﴿كلّ حزب بما لديهم فرحون﴾ أي كل فريق منهم مغتبط بما اتخذة ديناً لنفسه معجب به ، يرى أنه المحقُّ الرابع ، وأن غيره المبطل الخاسر ﴿فذرهم في غمرتهم﴾ الخطاب للرسول ﷺ والضمير لكفار مكة أي فاترك يا محمد هؤلاء المشركين في غفلتهم وجهلهم وضلالهم ﴿حتى حين﴾ أي إلى حين موتهم ، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للمشركين ﴿أيحسبون أنّما نمدهم به من مال وبنين﴾ أي أيقظ هؤلاء الكفار أنّ الذي نعطيهم في الدنيا من الأموال والأولاد ﴿نسارع لهم في الخيرات﴾ أي هو تعجيل ومسارة لهم في الإحسان ؟ كلاً ليس الأمر كما يظنون بل هو استدراج لهم ، واستجراز إلى زيادة الإثم ولهذا قال ﴿بل لا يشعرون﴾ أي بل هم أشباه البهائم ، لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتفكروا في الأمر ، أهو استدراج أم مسارة في الخير؟ والآية ردُّ على المشركين في زعمهم أن أموالهم وأولادهم دليلٌ رضى الله عنهم كما حكى الله عنهم ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ وفي الحديث (إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب) (١) ، ولما ذمَّ المشركين وتوعدهم عقب ذلك بمدح المؤمنين وذكرهم بأبلغ صفاتهم فقال ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ أي هم من جلال الله وعظمته خائفون ، ومن خوف عذابه حذرون ﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون﴾ أي يصدقون بآيات الله القرآنية ، وآياته الكونية وهي الدلائل والبراهين الدالة على وجوده سبحانه

وفي كل شيء له آيةٌ تدلُّ على أنه واحد
﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ أي لا يعبدون معه غيره ، بل يوحدونه ويخلصون العمل لوجهه قال

يُؤْتُونَ مَاءَ آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿١٦﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٧﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿١٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا

الإمام الفخر : وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشريك لله فإن ذلك داخل في الآية السابقة ، بل المراد منه نفي الشرك الخفي وذلك بأن يخلص في العبادة لوجه الله وطلباً لرضوانه ^(١) ﴿والذين يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ هذه هي الصفة الرابعة من أوصاف المؤمنين أي يعطون العطاء من زكاةٍ وصدقة ، ويتقربون بأنواع القربات من أفعال الخير والبر وهم يخافون أن لا تقبل منهم أعمالهم قال الحسن : إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة ، وإن المنافق جمع إساءةً وأمناً ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي لخوفهم أن يكونوا قد قصرُوا في القيام بشروط الطاعات والأعمال الصالحة ولاعتقادهم أنهم سيرجعون إلى ربهم للحساب ، روي أن عائشة سألت رسول الله ﷺ عن الآية الكريمة فقالت ﴿والذين يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ أهو الذي يزني ، ويسرق ، ويشرب الخمر وهو يخاف الله عزَّ وجلَّ ؟ فقال لها : (لا يا بنت الصديق ! ولكنه الذي يصلي ، ويصوم ، ويتصدق وهو مع ذلك يخاف الله عز وجل) ^(٢) ﴿أُولَٰئِكَ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين يسابقون في الطاعات لنيل أعلى الدرجات لا أولئك الكفرة المجرمون ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أي هم الجديرون بها والسابقون إليها قال الإمام الفخر : واعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن ، فالصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد ، الموجب للاحتراز عما لا ينبغي ، والثانية: دلت على التصديق بوحدانية الله ، والثالثة: دلت على ترك الرياء في الطاعات ، والرابعة: دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير ، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين رزقنا الله الوصول إليها ^(٣) ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا نكلف أحداً من العباد ما لا يطيق تفضلاً منا ولطفاً . أتى بهذه الآية عقب أوصاف المؤمنين إشارةً إلى أن أولئك المخلصين لم يكلفوا بما ليس في قدرتهم وأن جميع التكليف في طاقة الإنسان ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ أي وعندنا صحائف أعمال العباد التي سطر فيها ما عملوا من خير أو شر نجازيهم في الآخرة عليها ولهذا قال ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يظلمون من أعمالهم شيئاً بنقص الثواب أو زيادة العقاب قال القرطبي : والآية تهديد وتأمين من الحيف والظلم ^(٤) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي بل قلوب الكفرة المجرمين في غطاءٍ وغفلةٍ وعماية عن هذا القرآن ﴿وَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي ولهم أعمال سيئة كثيرة غير الكفر والإشراك ﴿هُم لَهَا عَامِلُونَ﴾ أي سيعملونها في المستقبل لتحقق عليهم الشقاوة فقد جمعوا بين الكفر وسوء الأعمال فحققت عليهم كلمة العذاب ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب﴾ أي حتى إذا أخذنا أغنياءهم وكبراءهم المتنعمين في هذه الحياة بالعذاب العاجل

(١) التفسير الكبير ١٠٧/٢٣ . (٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد . (٣) التفسير الكبير ١٠٧/٢٣ . (٤) القرطبي ١٢/١٣٤ .

هُم يَجْرُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَجْرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تَنْصُرُونَ ﴿٦٦﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ
 تَنْكِبُونَ ﴿٦٧﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٨﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ
 الْأُولِينَ ﴿٦٩﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٧٠﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ
 لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧١﴾

كالجوع والقتل والأسر ﴿إذا هم يجأرون﴾ أي إذا هم يصيحون ويرفعون أصواتهم بالاستغاثة قال ابن عباس : هو الجوع الذي عذبوا به سبع سنين ﴿لا تجأروا اليوم﴾ أي لا تستغيثوا اليوم من العذاب ﴿إنكم منا لا تنصرون﴾ أي لا تمنعون من عذابنا فلا ينفعكم صراخ ولا استغاثة ﴿قد كانت آياتي تُتلى عليكم﴾ أي لقد كنتم تسمعون آيات القرآن تقرأ عليكم ﴿فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾ أي كنتم تنفرون عن تلك الآيات كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع إلى ورائه ، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الحق بالراجع إلى الخلف ﴿مستكبرين به﴾ أي مستكبرين بسبب القرآن عن الإيمان قال ابن كثير : الضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام يقولون إنه سحر ، شعر ، كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة^(١) وقال ابن الجوزي : الضمير عائد إلى البيت الحرام وهي كناية عن غير المذكور لشهرة الأمر والمعنى : إنكم تستكبرون وتفتخرون بالبيت والحرم لأنكم فيه مع خوف سائر الناس في مواطنهم ، تقولون : نحن أهل الحرم فلا نخاف أحداً ، ونحن أهل بيت الله وولاته ، هذا مذهب ابن عباس وغيره^(٢) ﴿سامراً تهجرون﴾ أي متحدثين ليلاً تسمرون تقولون في سمركم الهجر وهو القول الفاحش من الطعن في القرآن ، وسب النبي عليه السلام ﴿أفلم يدبّروا القول﴾ أي أفلم يتدبّروا هذا القرآن العظيم ليعرفوا بما فيه من إعجاز النظم أنه كلام الله فيصدقوا به ؟ ﴿أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾ أي أم جاءهم من الله بشيء مبتدع لم يأت مثله في آبائهم السابقين ؟ قال أبو السعود : يعني أن مجيء الكتب من جهته تعالى إلى الرسل سنة قديمة لا يكاد يتسنى إنكاره ، وأن مجيء القرآن على طريقته فمن أين ينكرونه^(٣) ؟ ﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾ توبيخ آخر لهم أي أم لم يعرفوا محمداً ﷺ بالأمانة والصدق وحسن الأخلاق؟ وببُخهم أولاً بترك الانتفاع بالقرآن، وثانياً بأن ما جاءهم قد جاء مثله لآبائهم الأولين وثالثاً بأنهم يعرفون محمداً ﷺ ونسبه وصدقته وأمانته ورابعاً اتهامهم له بالجنون وقد علموا أنه عليه السلام أرجحهم عقلاً وأثقبهم ذهنًا ولهذا قال بعده ﴿أم يقولون به جنة﴾ أي أم يقولون إن محمداً مجنون ، وهذا توبيخ آخر وتعجيب من تفننهم في العناد ، وتلونهم في الجحود ﴿بل جاءهم بالحق﴾ ﴿بل﴾ للإضراب أي ليس الأمر كما زعموا بل جاءهم محمد بالحق الساطع الذي لا مدخل فيه للباطل بوجه من الوجوه ، وبالقرآن المشتمل على التوحيد وشرائع الإسلام ﴿وأكثرهم للحق كارهون﴾ أي ومع

وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ^٤ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ
مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا نَحْرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ^٥ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبِّوتَ ﴿٧٤﴾

وضوح الدعوة فإن أكثر المشركين يكرهون الحق لما في قلوبهم من الزيغ والانحراف ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم﴾ أي لو كان ما كرهوه من الحق - الذي هو التوحيد والعدل - موافقاً لأهوائهم الفاسدة ، وتمشياً مع رغباتهم الزائغة ﴿لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾ أي لفسد نظام العالم أجمع علويّه وسفليّه ، وفسد من فيه من المخلوقات لفساد أهوائهم واختلافهم قال ابن كثير : وفي هذا كله تبين عجز العباد ، واختلاف آرائهم وأهوائهم ، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وتدبيره لخلقه^(١) ﴿بل أتيناهم بذكرهم﴾ أي بل أتيناهم بما فيه فخرهم وشرفهم ، وهو هذا القرآن العظيم الذي أكرمهم الله تعالى به ﴿فهم عن ذكرهم معرضون﴾ أي فهم معرضون عن هذا القرآن وكان اللائق بهم الانقياد له وتعظيمه لأنه شرفهم وعزهم ، وأعاد لفظ «الذكر» تعظيماً للقرآن ﴿أم تسألهم خرجاً﴾ أي أم تسألهم يا محمد أجراً على تبليغ الرسالة فلاجل ذلك لا يؤمنون ، وفي هذا تشنيع عليهم لعدم الإيمان فمحمد لا يطلب منهم أجراً فلماذا إذاً يكذبونه ويعادونه؟ ﴿فخراج ربك خير﴾ أي رزق الله وعطاؤه خير لك يا محمد ﴿وهو خير الرازقين﴾ أي هو تعالى أفضل من أعطى ورزق لأنه يعطي لا حاجة ، وغيره يعطي حاجة ﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾ أي وإنك يا محمد لتدعوهم إلى الطريق المستقيم وهو الإسلام الموصل إلى جنات النعيم ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ أي وإن الذين لا يصدقون بالبعث والثواب والعقاب لعادلون عن الطريق المستقيم منحرفون عنه .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الاستعارة اللطيفة ﴿فذرهم في غمرتهم﴾ أصل الغمرة الماء الذي يغمر القامة ، شبه ما هم فيه من الجهالة والضلالة بالماء الذي يغمر الإنسان من فرقه إلى قدمه على سبيل الاستعارة .

٢ - الاستفهام الإنكاري ﴿أيحسبون أنما نمدهم﴾ ؟

٣ - حذف الرابط في ﴿نسارع لهم في الخيرات﴾ حذف «به» أي نسارع لهم به في الخيرات ، وحسن حذفه لاستطالة الكلام مع أمن اللبس .

٤ - الطباق بين ﴿يؤمنون . . ويشركون﴾ .

٥ - الاستعارة البديعة ﴿ولدينا كتابٌ ينطق بالحق﴾ النطق لا يكون إلا بمن يتكلم بلسانه ، والكتاب ليس له لسان، فوصف سبحانه الكتاب بالنطق مبالغة في وصفه بإظهار البيان وإعلان البرهان ، وتشبيهاً باللسان الناطق بطريق الاستعارة .

٦ - جناس الاشتقاق ﴿يؤتون ما أتوا﴾ ﴿أعمال هم لها عاملون﴾ .

٧ - الاستعارة الفائقة ﴿فكتتم على أعقابكم تنكصون﴾ شبه إعراضهم عن الحق بالراجع القهقري الى الخلف وهو من قبيل الاستعارة التمثيلية .

٨ - السجع الرصين ﴿مشفقون ، يؤمنون ، يشركون ، سابقون﴾ الخ .

قال الله تعالى: ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر . . إلى . . اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ من آية (٧٥) إلى نهاية آية (١١٨) .

المناسكة : لما ذكر تعالى إعراض المشركين عن دعوة الإيمان ، ذكر هنا سبب الإعراض وهو العناد والطغيان ، ثم أردفه بإقامة الأدلة على التوحيد ، ثم ذكر أحوال الآخرة وانقسام الناس إلى سعداء وأشقياء ، وختم السورة ببيان الحكمة من حشر الناس إلى دار الجزاء وأنه لولا القيامة لما تميز المطيع من العاصي ولا البر من الفاجر .

اللغز : ﴿مبلسون﴾ يائسون متحIRON ، والإيلاس : اليأس من كل خير ﴿يجير﴾ يمنع ويحمي من استغاث به يقال : أجرت فلاناً على فلان إذا أغثته ومنعته منه ﴿همزات﴾ جمع همزة وهي الدفع والتحريك الشديد وهو كالهز والأز ، وهمزات الشيطان : كيده بالوسوسة ﴿برزخ﴾ حاجز ومانع قال الجوهري : البرزخ : الحاجز بين الشيئين^(١) ﴿كالخون﴾ الكلوح : أن تتقلص الشفتان وتتباعد عن الأسنان ، وذلك نهاية القبح لوجه الإنسان .

سبب النزول : عن ابن عباس قال : نزلت في قصة « ثمامة بن أثال » لما أسرته السرية وأسلم وخلي رسول الله ﷺ سبيله ، حال بين مكة وبين الميرة وقال : والله لا يأتيكم من اليامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ ، وأخذ الله قريشاً بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعلهز قيل وما العلهز؟ قال كانوا يأخذون الصوف والوبر فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه فقال أبو سفيان : أنشدك الله والرحم ، أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين؟ قال : بلى ، قال فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف ، وقتلت الأبناء بالجوع فتزل قوله تعالى ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون﴾^(٢) الآيات .

* وَلَوْ رَحِمْنَهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ اللِّجْوَاءِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا النَّفْسِيرُ : ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضرر﴾ أي لو رحمنا هؤلاء المشركين الذين كذبوك وعاندوك ورفعنا عنهم ما أصابهم من قحطٍ وجذب وكشفنا عنهم البلاء ﴿للجأوا في طغيانهم يعمهون﴾ أي لاستمروا وتمادوا في ضلالتهم وتجاوزهم الحدَّ يترددون ويتخبطون حيارى ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد ، وبالقحط والجوع ﴿فما استكانوا لربهم﴾ أي ما خضعوا لله ولا تواضعوا لجلاله ﴿وما يتضرعون﴾ أي وما دعوا ربهم لكشف البلاء بل استمروا على العتو والاستكبار ، والغرض أنه لم يحصل منهم تواضع ورجوع إلى الله في الماضي ، ولا التجاء إلى الله في المستقبل لشدة جبروتهم وطغيانهم ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذابٍ شديد﴾ أي حتى إذا جاءتهم أهوال الآخرة وأتاهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴿إذا هم فيه مبلسون﴾ أي إذا هم آيسون من كل خير قال أبو السعود : المراد بالعذاب عذاب الآخرة كما نبىء عنه التهويل والوصف بالشدة والمعنى أنا مخناهم بكل محنة من القتل ، والأسر ، والجوع وغير ذلك فما رؤي منهم لين ولا توجه إلى الإسلام إلى أن يروا عذاب الآخرة فحينئذ يبلسون وتخضع رقابهم^(١) ثم ذكَّروهم تعالى بنعمه ودلائل وحدانيته فقال ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي خلق لكم هذه الحواس لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا ، وفيه توبيخ للمشركين حيث لم يصرفوا النعم في مصارفها ، لأن السمع خلق لسمع به ما يرشده ، والبصر ليشاهد به الآيات على كمال أوصاف الله ، والعقل ليتأمل به في مصنوعات الله وباهر قدرته فمن لم يصرف تلك النعم في مصارفها فهو بمنزلة عادمها كما قال تعالى ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾ وخص هذه الثلاثة بالذكر لعظم المنافع التي فيها ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي قليلاً تشكرون ربكم ، و﴿ما﴾ لتأكيد القلة أي ما أقل شكركم لله على كثرة إفضاله وإنعامه عليكم ؟ ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض﴾ أي خلقكم وبثكم في الأرض بطريق التناسل ﴿وإليه تُحشرون﴾ أي وإليه وحده تجمعون للجزاء والحساب ﴿وهو الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي يُحْيِي الرَّمَم^(٢) ويميت الخلائق والأمم ﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾ أي إن اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان بفعله سبحانه وحده ليقيم الدليل على وجوده وقدرته ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفليس لكم عقول تدركون بها دلائل قدرته ، وآثار قهره ، فتعلمون أن من قدر على ذلك ابتداءً ، قادرٌ على إعادة الخلق بعد الفناء ؟ ﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون﴾ ﴿بل﴾ للإضراب أي ليس لهم عقل ولا نظر في هذه الآيات والعيبر ، بل قال هؤلاء

(١) أبو السعود ٤/٤٠ . (٢) إشارة إلى قوله تعالى ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ ؟

أَوْذَانَنَا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ
 الْأَوَّلِينَ ﴿٨٨﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ
 السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٩١﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٩٢﴾ قُلْ مَنْ مِنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ
 شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٩٤﴾

المشركون - من كفار مكة - مثل ما قال الأمم المتقدمون ﴿قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾ ؟ أي أئذا بلينا وصرنا ذرات ناعمة ، وعظاماً نخرة أئنا لمخلوقون ثانية ؟ هذا لا يتصور ولا يكون أبداً ﴿لقد وعدنا نحن وآبائنا هذا من قبل﴾ أي لقد وعدنا بهذا نحن ومن سبقنا فلم نر له حقيقة ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي ما هذا إلا أكاذيب وأباطيل المتقدمين ولما أنكروا البعث والشور أمر تعالى رسوله أن يفحمهم بالحجة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل فقال ﴿قل لمن الأرض ومن فيها﴾ ؟ أي قل يا محمد جواباً لهم عما قالوه : لمن الأرض ومن فيها من المخلوقات ؟ ومن مالكتها والمتصرف فيها بالإيجاد والإفناء ؟ ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي إن كان عندكم علم فأخبروني بذلك ، وفيه استهانة بهم وتقرير لجهلهم قال القرطبي : يخبر تعالى في الآية بربوبيته ووحدانيته ، ومملكه الذي لا يزول ، وقدرته التي لا تحول ، ودلت هذه الآيات - وما بعدها - على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم ، ونبّهت على أن من ابتداء بالخلق والإيجاد ، والإيداع ، هو المستحق للألوهية والعبادة^(١) ﴿سيقولون لله﴾ أي فسيقولون الله خالقها وموجدها ولا بد لهم من الاعتراف بذلك ﴿قل أفلا تذكرون﴾ ؟ أي أفلا تعتبرون فتعلمون أن من ابتداء ذلك قادر على إعادته ؟ ﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم﴾ ؟ أي من هو خالق السموات الطباق بما فيها الشمس ، والكواكب والأقمار ، ومن هو خالق العرش الكبير الذي تحمله الملائكة الأطهار ؟ ﴿سيقولون لله﴾ أي سيقولون : الله خالقه وهو لله ﴿قل أفلا تتقون﴾ أي أفلا تخافون من عذابه فتوحدونه وتركون عبادة غيره من الأوثان والأصنام ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾ الملكوت من صفات المبالغة أي من بيده الملك الواسع التام ؟ ومن بيده خزائن كل شيء ؟ ومن هو المتصرف في هذه الأكوان بالخلق والإيجاد والتدبير ؟ ﴿وهو يجير ولا يجار عليه﴾ أي يحمي من استجار به والتجأ إليه ، ولا يغيث أحداً منه أحداً ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي إن كنتم تعلمون فأخبروني عن ذلك ﴿سيقولون لله﴾ أي سيقولون : الملك كله والتدبير لله جلّ وعلا ﴿قل فأئسى تسحرون﴾ أي قل لهم : فكيف تُخدعون وتُصرفون عن طاعته وتوحيده مع اعترافكم وعلمكم بأنه وحده المتصرف المالك ؟ قال أبو حيان : والسحر هنا مستعار وهو تشبيه لما يقع منهم من التخليط ، ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها بما يقع للمسحور من التخبط والتخليط^(٢) رَبُّ

بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ
بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلَّمَ الْغَيْبَ وَالشَّهَادَةَ فَتَعَلَّى عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ
نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾

هذه التوبيخات الثلاثة بالتدرج فقال أولاً ﴿أفلا تذكرون﴾ ؟ ثم قال ثانياً ﴿أفلا تتقون﴾ ؟ وذلك
أبلغ لأن فيه زيادة تخويف ، ثم قال ثالثاً ﴿فأنى تُسحرون﴾ وفيه من التوبيخ ما ليس في غيره (١)
﴿بل أتيناهم بالحق﴾ أي بل جئناهم بالقول الصدق في أمر التوحيد والبعث والجزاء ﴿وإنهم
لكاذبون﴾ أي كاذبون فيما ينسبون لله من الشركاء والأولاد . لما بالغ في الحجاج عليهم بالآيات السابقة
أعقبها بهذه الآية كالوعيد والتهديد ، ثم بين بطلان الشرك والولد بالبرهان القاطع فقال ﴿ما اتخذ الله
من ولد﴾ أي ما اتخذ الله ولداً مطلقاً لا من الملائكة ولا من البشر ﴿وما كان معه من إله﴾ أي وليس
معه من يشاركه في الألوهية والربوبية ﴿إذا لذهب كل إله بما خلق﴾ أي لو كان معه إله - كما زعم عبدة
الأوثان - لانفرد كل إله بخلقه الذي خلق واستبدَّ به ، وتميَّز ملك كل واحد عن ملك الآخر ﴿ولعلنا
بعضهم على بعض﴾ أي ولغلب بعضهم على بعض كحال ملوك الدنيا قال ابن كثير : المعنى لو قدر تعدد
الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق ، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض وما
كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق غاية الكمال فدل على تنزه الله عن الولد والشريك (٢)
ولهذا قال ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ أي تنزه الله وتقدس عما يصفه به الظالمون ﴿عالم الغيب
والشهادة﴾ أي هو تعالى العالم بما غاب عن الأنظار ، وبما تدركه الأبصار ، لا تخفى عليه خافية من
شؤون الخلق ﴿فتعالى عما يشركون﴾ أي تقدس وتنزه عن الشرك والولد ﴿قل رب إماما تريني ما
يُوعدون﴾ أي قل يا رب إن كان ولا بد من أن تُريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا ﴿رب فلا تجعلني في
القوم الظالمين﴾ هذا جواب الشرط ﴿إمما﴾ وكرر قوله ﴿رب﴾ مبالغة في الدعاء والتضرع أي رب فلا
تجعلني في جملة الظالمين فأهلك بهلاكهم قال أبو حيان : ومعلوم أنه عليه السلام معصوم مما يكون سبباً
لجعله مع الظالمين ولكنه أمر أن يدعو بذلك إظهاراً للعبودية وتواضعاً لله (٣) ﴿وإننا على أن نريك ما
نعدهم لقادرون﴾ أي ونحن قادرون على أن نريك العذاب الذي وعدناهم به ولكن نؤخره لحكمة
﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾ أي ادفع إساءتهم بالصفح عنهم وتجميل بمكارم الأخلاق قال ابن
كثير : أرشده الى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان الى من يسيء إليه ليستجلب خاطره ،
فتعود عدواته صداقةً ، وبغضه محبةً (٤) ﴿نحن أعلم بما يصفون﴾ أي نحن أعلم بحالهم وبما يكون منهم

(١) نقلًا عن التسهيل ٥٥/٣ . (٢) مختصر ابن كثير ٥٧٣/٢ . (٣) البحر ٤٢٠/٦ . (٤) ابن كثير المختصر ٥٧٤/٢ .

وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾

من التكذيب والاستهزاء وسنجازيمهم عليه ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ أي أعصم بك من نزغات الشياطين ووساوسهم المغرية على الباطل والمعاصي ﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ أي وأعتصم وأحتمي بك يا رب من أن يصيبوني بسوء أو يكونوا معي في أموري ، كرر ذلك للمبالغة والاعتناء بشأن الاستعاذة ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت﴾ عاد الكلام عن المشركين أي حتى إذا حضر الموت أحدهم وعابن أهواله وشدائده ﴿قال رب أرجعون﴾ أي قال تحسراً على ما فرط منه : رب ردني الى الدنيا ، وصيغة الجمع للتعظيم ﴿لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ أي لكي أعمل صالحاً فيما ضيعت من عمري ﴿كلاً إنها كلمة هو قائلها﴾ ﴿كلاً﴾ كلمة ردع وزجر أي لا رجوع إلى الدنيا فليتردع عن ذلك فإن طلبه للرجعة كلام لا فائدة فيه ولا جدوى منه وهو ذاهب أدراج الرياح ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون﴾ أي وأمامهم حاجز يمنعهم عن الرجوع إلى الدنيا - هو عالم البرزخ - الذي يحول بينهم وبين الرجعة يلبثون فيه إلى يوم القيامة قال مجاهد : البرزخ : الحاجز ما بين الدنيا والآخرة ﴿فإذا نفخ في الصور﴾ أي فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية وهي نفخة البعث والنشور ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ﴾ أي فلا قرابة ولا نسب ينفعهم يوم القيامة لزوال التراحم والتعاطف من شدة الهول والدهشة بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴿ولا يتساءلون﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن شأنه لاشتغال كل واحد بنفسه ، ولا تنافي بينها وبين قوله ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ لأن يوم القيامة طويل وفيه مواقف ومواطن ، ففي بعضها يتكلمون وفي بعضها لا ينطقون ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ أي فمن رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ أي فهم السعداء الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة ﴿ومن خفت موازينه﴾ أي زادت سيئاته على حسناته ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ أي فهم الأشقياء الذين خسروا سعادتهم الأبدية بتضييع أنفسهم وتدنيسها بالكفر والمعاصي ﴿في جهنم خالدون﴾ أي هم مقيمون في جهنم لا يخرجون منها أبداً ﴿تلفح وجوههم النار﴾ أي تحرقها بشدة حرها ، وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء ﴿وهم فيها كالحون﴾ أي وهم في جهنم عابسون مشوهو المنظر قال ابن مسعود : قد بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم كالرأس المشيطة بالنار ، وفي الحديث (تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٥٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٥٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٥٧﴾ قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٥٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥٩﴾ فَأَخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١٦٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١٦١﴾ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١٦٢﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

شفته السفلى حتى تبلغ سُرَّتَه) (١) ﴿ألم تكن آياتي تُتلى عليكم﴾ أي يقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً : ألم تكن آيات القرآن الساطع تقرأ عليكم في الدنيا ؟ ﴿فكنتم بها تكذبون﴾ أي فكنتم لا تصدقون بها مع وضوحها ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا﴾ أي غلبت علينا شقاوتنا ﴿وكننا قوماً ضالين﴾ أي وكننا ضالين عن الهدى بسبب اتباعنا للملذات والأهواء ﴿ربنا أخرجنا منها﴾ أي أخرجنا من النار وردنا الى الدنيا ﴿فإن عدنا فإننا ظالمون﴾ أي فإن رجعنا الى الكفر والمعاصي بعد ذلك نكون قد تجاوزنا الحد في الظلم والعدوان . أقرؤا أولاً بالأجرام ثم تدرجوا من الإقرار الى الرغبة والتضرع فجاء الجواب بالتيئيس والزجر ﴿قال اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ أي ذلوا في النار وانزجروا كما تُزجر الكلاب ولا تكلموني في رفع العذاب قال في التسهيل : اخسئوا : كلمة تستعمل في زجر الكلاب ففيها إهانة وإبعاد (٢) ﴿إنه كان فريقٌ من عبادي يقولون ربنا آمنة فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين﴾ قال مجاهد : هم بلال ، وخباب ، وصهيب وغيرهم من ضعفاء المسلمين كان أبو جهل وأصحابه يهزءون بهم (٣) ﴿فأخذتوهم سخرياً﴾ أي فسخرتم منهم واستهزأتم بهم ﴿حتى أنسوكم ذكري﴾ أي حتى نسيتم بتشاغلكم بهم واستهزائكم عليهم عن طاعتي وعبادتي ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾ أي وكنتم تضحكون عليهم في الدنيا ﴿إنني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾ أي جزيتهم بسبب صبرهم على أذاكم أحسن الجزاء ﴿أنهم هم الفائزون﴾ أي أنهم هم الفائزون بالنعيم المقيم ﴿قال كم لبئتم في الأرض عدد سنين﴾ أي قال تعالى للكفار على سبيل التبكيت والتوبيخ : كم مكثتم في الدنيا وعمرتم فيها من السنين ؟ ﴿قالوا لبئنا يوماً أو بعض يوم﴾ أي مكثنا يوماً أو أقل من يوم ﴿فأسأل العادين﴾ أي الحاسبين المتمكنين من العدا قال ابن عباس : أنساهم ما كانوا فيه من العذاب المدة التي لبثوها ﴿قال إن لبئتم إلا قليلاً﴾ أي ما أقمتم حقاً في الدنيا إلا قليلاً قال الرازي : كأنه قيل لهم : صدقتم ما لبثتم فيها إلا قليلاً فقد انقضت ومضت ، والغرض تعريفهم قلة أيام الدنيا في مقابلة أيام الآخرة (٤) ﴿لو أنكم كنتم تعلمون﴾ أي لو كان لكم علم وفهم لعرفتم حقايرة الدنيا ومتاعها الزائل ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾ أي أظنتم - أيها الناس - أنما

(١) أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب . (٢) التسهيل ٥٧/٣ . (٣) القرطبي ١٥٤/١٢ . (٤) التفسير الكبير ١٢٧/٢٣ .

خَلَقْنَاكُمْ عَبْنًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ ﴿١١٦﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٧﴾
 وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾
 وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

خلقناكم باطلاً وهملاً بلا ثواب ولا عقاب كما خلقت البهائم ﴿ وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ أي وأنه لا رجوع لكم إلينا للجزاء؟ لا ليس الأمر كما تظنون وإنما خلقناكم للتكليف والعبادة ثم الرجوع إلى دار الجزاء ﴿ فتعالى الله ﴾ أي فتزّه وتقدّس الله الكبير الجليل ﴿ الملك الحق ﴾ أي صاحب السلطان ، المتصرف في ملكه بالإيجاد والإعدام ، والإحياء والإفناء ، تنزّه عن العيب والنقائص وعن أن يخلق شيئاً سفهاً لأنه حكيم ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي لا ربّ سواه ولا خالق غيره ﴿ ربّ العرش الكريم ﴾ أي خالق العرش العظيم وصفه بالكريم لأن الرحمة والخير والبركة تنزل منه ، ولنسبته إلى أكرم الأكرمين ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر ﴾ أي ومن يجعل لله شريكاً ويعبد معه سواه ﴿ لا برهان له به ﴾ أي لا حجة له به ولا دليل ﴿ فإنما حسابه عند ربه ﴾ أي جزاؤه وعقابه عند الله ﴿ إنه لا يفلح الكافرون ﴾ أي لا يفوز ولا ينجح من جحد وكذب بالله ورسله ، افتتح السورة بقوله ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ وختمها بقوله ﴿ إنه لا يفلح الكافرون ﴾ ليظهر التفاوت بين الفريقين فستان ما بين البدء والختام . ﴿ وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ أمر رسوله بالاستغفار والاسترحام تعليماً للأمة طريق الثناء والدعاء ، اللهم اغفر لنا وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء ، يا أرحم الراحمين ، اللهم آمين .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الامتتان ﴿ وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ .
- ٢ - التفنن ﴿ السمع والأبصار ﴾ أفرد السمع وجمع الأبصار تفنناً .
- ٣ - التنكير للتقليل ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ و﴿ ما ﴾ تأكيد للقلة المستفادة من التنكير والمعنى شكراً قليلاً وهو كناية عن عدم الشكر .
- ٤ - الاستفهام الذي غرضه الإنكار والتوبيخ ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ؟ ﴿ أفلا تذكرون ﴾ ؟ ﴿ أفلا تتقون ﴾ ؟
- ٥ - الطباق بين ﴿ يُحْيِي وَيُمِيت ﴾ .
- ٦ - حذف جواب الشرط ثقةً بدلالة اللفظ عليه ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أي إن كنتم تعلمون ذلك فأخبروني عنه

- ٧ - طباق السلب ﴿وهو يُجبر ولا يُجَار عليه﴾ .
- ٨ - تأكيد الكلام بذكر حرف الجر الزائد ﴿ما اتخذ الله من ولد﴾ أي ما اتخذ ولداً وكذلك ﴿وما كان معه من إله﴾ ذكر ﴿من﴾ في الجملتين تأكيداً وتثبيتاً للنفي .
- ٩ - الطباق في ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ .
- ١٠ - التأكيد بإن واللام ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ لإنكار المخاطبين لذلك .
- ١١ - الطباق المعنوي ﴿ادفعْ بالتي هي أحسن السيئة﴾ لأن المعنى ادفع بالحسنة السيئة فهو طباق بالمعنى لا باللفظ .
- ١٢ - واو الجمع للتعظيم ﴿ربّ ارجعون﴾ ولم يقل ارجعني تعظيماً لله جل وعلا .
- ١٣ - المجاز المرسل ﴿إنها كلمة هو قائلها﴾ أطلق الكلمة على الجملة وهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل .
- ١٤ - المقابلة اللطيفة بين ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ وبين ﴿ومن خفت موازينه . .﴾ الآيتان .
- ١٥ - القصر ﴿أنهم هم الفائزون﴾ .
- ١٦ - جناس الاشتقاق ﴿اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ .
- ١٧ - السجع الموزون الخالي من التكلف وهو كثير مشهور .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المؤمنون »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة النور من السور المدنية ، التي تتناول الأحكام التشريعية ، وتُعنَى بأُمور التشريع ، والتوجيه والأخلاق ، وتهتم بالقضايا العامة والخاصة التي ينبغي أن يُربى عليها المسلمون أفراداً وجماعات ، وقد اشتملت هذه السورة على أحكام هامة وتوجيهات عامة تتعلق بالأسرة ، التي هي النواة الأولى لبناء المجتمع الأكبر .

* وضَّحت السورة الآداب الاجتماعية التي يجب أن يتمسك بها المؤمنون في حياتهم الخاصة والعامة ، كالأستئذان عند دخول البيوت ، وغض الأبصار ، وحفظ الفروج ، وحرمة اختلاط الرجال بالنساء الأجنيات ، وما ينبغي أن تكون عليه الأسرة المسلمة و« البيت المسلم » من العفاف والستر ، والنزاهة والطهر ، والاستقامة على شريعة الله ، صيانةً لحرمتها ، وحفاظاً عليها من عوامل التفكك الداخلي ، والانهيار الخلقي ، الذي يهدم الأمم والشعوب .

* وقد ذكرت في هذه السورة الكريمة بعض الحدود الشرعية التي فرضها الله كحد الزنى ، وحد القذف ، وحد اللعان ، وكل هذه الحدود إنما شرعت تطهيراً للمجتمع من الفساد والفوضى ، واختلاط الأنساب ، والانحلال الخلقي ، وحفظاً للأمة من عوامل التردّي في بؤرة الإباحية والفساد ، التي تُسبب ضياع الأنساب ، وذهاب العرض والشرف .

* وباختصار فإن هذه السورة الكريمة عاجلت ناحية من أخطر النواحي الاجتماعية هي « مسألة الأسرة » وما يحفها من مخاطر ، وما يعترض طريقها من عقبات ومشاكل ، تؤدي بها إلى الانهيار ثم الدمار ، هذا عدا عما فيها من آداب سامية ، وحكم عالية ، وتوجيهات رشيدة ، إلى أسس الحياة الفاضلة الكريمة ، ولهذا كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة يقول لهم : علّموا نساءكم سورة النور .

التَّسْمِيَةُ : سُميت سورة النور لما فيها من إشعاعات النور الرباني ، بتشريع الأحكام والآداب ، والفضائل الإنسانية التي هي قيسٌ من نور الله على عباده ، وفيضٌ من فيوضات رحمته وجوده ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ اللهم نور قلوبنا بنور كتابك المبين يا رب العالمين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ

اللفظة: ﴿سورة﴾ السورة في اللغة : المنزلة السامية والمكانة الرفيعة قال النابغة :

ألم ترَ أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

وسميت المجموعة من الآيات لها بدءٌ ونهاية سورة لشرفها وارتفاعها كما يسمى السور للمرتفع من الجدار ﴿الزاني﴾ الزنى : الوطء المحرم ويسمى الفاحشة لتناهي قبحة وهو مقصور وقد يمد على لغة أهل نجد فيقال الزناء قال الفرزدق :

أبا طاهر من يزن يعرف زناؤه
ومن يشرب الخرطوم يصبح مسكراً

﴿رأفة﴾ شفقة وعطف مأخوذ من رؤف إذا رق ورحم ﴿المحصنات﴾ العفيفات وأصل الإحصان المنع سميت العفيفة محصنة لأنها منعت نفسها عن القبيح ، ومنه الحصن لأنه يمنع من الأعداء ﴿يدرأ﴾ يدفع والدرء : الدفع ﴿تشيع﴾ شاع الأمر شيوعاً إذا فشا وظهر وانتشر ﴿عصبة﴾ العصابة : الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض .

سَبَبُ النَّزُولِ : أ - روي أن امرأةً تُدعى « أم مهزول » كانت من البغايا فكانت تُسافح الرجل وتشرط أن تنفق عليه ، فأراد رجل من المسلمين أن يتزوجها فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿الزانية لا ينكحها الا زانٍ أو مشرك﴾^(١) الآية .

ب - عن ابن عباس أن « هلال بن أمية » قذف امرأته عند النبي ﷺ بـ « شريك بن سحاء » فقال النبي ﷺ : (البينة أو حُدِّي ظهرك) فقال يا رسول الله : إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟ والذي بعثك بالحق إني لصادق ، ولينزلن الله ما يبرىء ظهري من الحد فنزلت ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾^(٢) . . . الآية .

النَّفْسِيرُ : ﴿سورة أنزلناها﴾ أي هذه سورة عظيمة الشأن من جوامع سور القرآن أوحينا بها إليك يا محمد ﴿وفرضناها﴾ أي أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً ﴿وأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي أنزلنا فيها آياتٍ تشريعية ، واضحات الدلالة على أحكامها ، لتكون لكم - أيها المؤمنون - قبساً ونبراساً ، وتكرير لفظ الإنزال لإبراز كمال العناية بشأنها فكانه يقول : ما أنزلتها عليكم لمجرد التلاوة وإنما أنزلتها للعمل والتطبيق ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي لكي تعتبروا وتتعضوا بهذه الأحكام وتعملوا بموجبها ، ثم شرع تعالى بذكر الأحكام وبدأ بحد الزنى فقال ﴿والزانية والزاني فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائة جلدة﴾ أي فيما

(١) رواه أحمد والنسائي . (٢) رواه البخاري وانظر تنمة القصة في كتابنا روائع البيان ٨٠ / ٢ .

مِنْهُمَا مِائَةٌ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ
 شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٢﴾

شرعت لكم وفرضت عليكم أن تجلدوا كل واحدٍ من الزانيين - غير المحصنين - مائة ضربة بالسوط عقوبة لها على هذه الجريمة الشنيعة ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ أي لا تأخذكم بهما رقة ورحمة في حكم الله تعالى فتخففوا الضرب أو تنقصوا العدد بل أوجعوهما ضرباً قال مجاهد : لا تعطلوا حدود الله ولا تركوا إقامتها شفقة ورحمة ^(١) ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ هذا من باب الإلهاب والتهييج أي إن كنتم مؤمنين حقاً تصدقون بالله وباليوم الآخر ، فلا تعطلوا الحدود ولا تأخذكم شفقة بالزناة ، فإن جريمة الزنى أكبر من أن تستدر العطف أو تدفع إلى الرحمة ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ أي وليحضر عقوبة الزانيين جماعة من المؤمنين ، ليكون أبلغ في زجرهما ، وأنجع في ردعها ، فإن الفضيحة قد تنكل أكثر مما ينكل التعذيب ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾ أي الزاني لا يليق به أن يتزوج العفيفة الشريفة ، إنما ينكح مثله أو أحسن منه كالبغي الفاجر ، أو المشركة الوثنية ﴿والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك﴾ أي والزانية لا يليق أن يتزوج بها المؤمن العفيف ، إنما يتزوجها من هو مثلها أو أحسن منها ، كالزاني الخبيث أو المشرك الكافر ، فإن النفوس الطاهرة تأبى الزواج بالفواجر الفاسقات ، قال الإمام الفخر : «من أحسن ما قيل في تفسير هذه الآية : أن الفاسق الخبيث - الذي من شأنه الزنى والفسق - لا يرغب في نكاح الصالح من النساء ، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة مثله أو في مشركة ، والفاسقة الخبيثة لا يرغب في نكاحها الصالح من الرجال وينفرون عنها ، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة والمشركين ، وهذا على الأعم الأغلب كما يقال : لا يفعل الخير إلا الرجل التقي ، وقد يفعل بعض الخير من ليس بتقي فكذا هنا ^(٢)» ﴿وحرّم ذلك على المؤمنين﴾ أي وحرّم الزنى على المؤمنين لشناعته وقبحه ، أو حرّم نكاح الزواني على المؤمنين لما فيه من الأضرار الجسيمة ^(٣) . . ثم شرع تعالى في بيان حد القذف فقال ﴿والذين يرمون المحصنات﴾ أي يقذفون بالزنى العفيفات الشريفات ﴿ثم لم يأتوا بأربعة شهداء﴾ أي ثم لم يأتوا على دعواهم بأربعة شهود عدول يشهدون عليهن بما نسبوا إليهن من الفاحشة ﴿فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾ أي اضربوا كل واحدٍ من الرامين ثمانين ضربة بالسوط ونحوه ، لأنهم كذبة يتهمون البريئات ، ويخوضون في أعراض الناس ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾ أي وزيدوا لهم في العقوبة بإهدار كرامتهم الإنسانية فلا تقبلوا شهادة أي واحدٍ منهم ما دام مصراً على كذبه وبهتانه ﴿وأولئك هم الفاسقون﴾

(١) التفسير الكبير ٢٣/١٤٨ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٢٣/١٥٠ . (٣) قولان للمفسرين اختار الأول صاحب التسهيل واختار الثاني أبو السعود والقرطبي .

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٠﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ
شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠١﴾ وَالْخَمِيسَةَ أَنْ لَعَنَتَ اللَّهُ
عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٠٢﴾ وَيَدْرُؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٠٣﴾
وَالْخَمِيسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ
اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٥﴾

أي هم الخارجون عن طاعة الله عز وجل لإتيانهم بالذنب الكبير ، والجرم الشنيع قال ابن كثير : أوجب
تعالى على القاذف إذا لم يُقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام : أحدها أن يجلد ثمانين جلدة الثاني : أن
ترد شهادته أبداً الثالث : أن يكون فاسقاً ليس يعدل لا عند الله ولا عند الناس ^(١) ﴿١٠٠﴾ إلا الذين تابوا من بعد
ذلك ﴿١٠١﴾ أي إلا الذين تابوا وأنابوا وندموا على ما فعلوا من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم ﴿وأصلحوا﴾
أي أصلحوا أعمالهم فلم يعودوا إلى قذف المحصنات قال ابن عباس : أي أظهروا التوبة ﴿فإن الله غفور
رحيم﴾ أي فاعفوا عنهم واصفحوا وردُّوا إليهم اعتبارهم بقبول شهادتهم ، فإن الله غفور رحيم يقبل
توبة عبده إذا تاب وأناب وأصلح سيرته وحاله . . ثم ذكر تعالى حكم من قذف زوجته وهو المعروف
باللعان فقال ﴿والذين يرمون أزواجهن﴾ أي يقذفون زوجاتهم بالزنى ﴿ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم﴾
أي وليس لهم شهود يشهدون بما رموهن به من الزنى سوى شهادة أنفسهم ﴿فشهادة أحدهم أربع شهادات
بالله﴾ أي فشهادة أحدهم التي تزيل عنه حدَّ القذف أربع شهادات بالله تقوم مقام الشهداء الأربعة ﴿إنه
لمن الصادقين﴾ أي إنه صادق فيما رمى به زوجته من الزنى ﴿والخامسة أن لعنة الله عليه﴾ أي وعليه أيضاً
أن يحلف في المرة الخامسة بأن لعنة الله عليه ﴿إن كان من الكاذبين﴾ أي إن كان كاذباً في قذفه لها بالزنى
﴿ويدرأ عنها العذاب﴾ أي ويدفع عن الزوجة المقذوفة حدَّ الزنى الذي ثبت بشهادة الزوج ﴿أن تشهد
أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين﴾ أي أن تحلف أربع مرات إنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنى
﴿والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين﴾ أي وتحلف في المرة الخامسة بأن غضب الله
وسخطه عليها إن كان زوجها صادقاً في اتهامه لها بالزنى ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ أي ولولا
فضل الله عليكم ورحمته بكم بالستر في ذلك ، وجواب ﴿لولا﴾ محذوف لتحويل الأمر تقديره : هلكتم أو
لفضحكم أو عاجلكم بالعقوبة ، ورب مسكوت عنه أبلغ من المنطوق ﴿وأن الله تواب حكيم﴾ أي وأنه
تعالى مبالغ في قبول التوبة ، حكيم في ما شرع من الأحكام ومن جملتها حكم اللعان قال أبو السعود :
وجواب لولا محذوف لتحويله كأنه قيل : ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته بكم لكان ما كان مما لا يحيط به
نطاق البيان ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حدَّ القذف مع أن الظاهر صدقه

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسِبُهُمْ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَوَلَّتْكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٣﴾

لاشترাকে في الفضيحة ، ولو جعل شهاداته موجبةً لحد الزنى عليها لفات النظر لها ، ولو جعل شهاداتها موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له ، فسبحانه ما أعظم شأنه ، وأوسع رحمته ، وأدق حكمته^(١) . . ثم بين تعالى « قصة الإفك »^(٢) التي اتهمت فيها العفيفة البريئة الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالكذب والبهتان فقال ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك ﴾ أي جاءوا بأسوء الكذب وأشنع صور البهتان وهو قذف عائشة بالفاحشة قال الإمام الفخر : الإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء ، وقد أجمع المسلمون على أن المراد ما أفك به علي عائشة وهي زوجة الرسول المعصوم^(٣) ﴿ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ أي جماعة منكم أيها المؤمنون وعلى رأسهم « ابن سلول » رأس النفاق ﴿ لا تحسبوه شرًّا لكم ﴾ أي لا تظنوا هذا القذف والاتهام شرًّا لكم يا آل أبي بكر ﴿ بل هو خير لكم ﴾ لما فيه من الشرف العظيم بنزول الوحي ببراءة أم المؤمنين ، وهذا غاية الشرف والفضل قال المفسرون : والخير في ذلك من خمسة أوجه : تبرئة أم المؤمنين ، وكرامة الله لها بإنزال الوحي في شأنها ، والأجر الجزيل لها في الفرية عليها ، وموعظة المؤمنين ، والانتقام من المفترين^(٤) ﴿ لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ﴾ أي لكل فردٍ من العصابة الكاذبة جزاء ما اجترح من الذنب على قدر خوضه فيه ﴿ والذي تولى كبره منهم ﴾ أي والذي تولى معظمه وأشاع هذا البهتان وهو « ابن سلول » رأس النفاق ﴿ له عذابٌ عظيم ﴾ أي له في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم ﴿ لولا إذ سمعتموه ﴾ أي هلاً حين سمعتم يا معشر المؤمنين هذا الافتراء وقذف الصديقة عائشة ﴿ ظنَّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ أي هلاً ظنوا الخير ولم يسرعوا إلى التهمة فيمن عرفوا فيها النزاهة والطهارة ؟ فإن مقتضى الإيمان ألا يصدق مؤمنٌ على أخيه قولة عائب ولا طاعن قال ابن كثير : هذا تأديبٌ من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء ، وهلا قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى ، روي أن امرأة « أبي أيوب » قالت له : أما تسمع ما يقول الناس في عائشة ! قال : نعم وذلك الكذب ، أكنت فاعلةً ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله قال فعائشة والله خير منك^(٥) ، وقالوا هذا إفك مبين ﴿ أي قالوا في ذلك الحين هذا كذبٌ ظاهر مبين ﴾ لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ﴿ أي هلاً جاء أولئك المفترون بأربعة شهود يشهدون على ما قالوا ﴾ فإذا لم يأتوا بالشهداء ﴿ أي فإن عجزوا ولم يأتوا على دعواهم بالشهود ﴾ فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴿ أي فأولئك هم

(١) إرشاد العقل السليم ٤/ ٤٨ . (٢) انظر القصة مفصلة في كتابنا « روائع البيان » ٢/ ١١٧ . (٣) التفسير الكبير ٢٣/ ١٧٢ .

(٤) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ٦١ . (٥) مختصر ابن كثير ٢/ ٥٩١ .

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤٦﴾ إِذْ تَلَقَّوهُ
بِالسِّنِّكَرِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٤٧﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ
قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٤٨﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٩﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ

المفسدون الكاذبون في حكم الله وشرعه ، وفيه توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك ولم ينكروه أول وهلة ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة ﴾ أي لولا فضله تعالى عليكم - أيها الخائضون في شأن عائشة - ورحمته بكم في الدنيا والآخرة حيث أمهلكم ولم يعاجلكم بالعقوبة ﴿ لمسكم فيما أفضتم فيه ﴾ أي لأصابتكم ونالكم بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك ﴿ عذاب عظيم ﴾ أي عذاب شديد هائل يستحقر دونه الجلد والتعنيف قال القرطبي : هذا عتاب من الله بليغ لمن خاضوا في الإفك ، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا ، ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً ﴿ إذ تلقونه بالسنتكم ﴾ أي وذلك حين تلتقونه ويأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه قال مجاهد : أي يرويه بعضكم عن بعض ، يقول هذا سمعته من فلان ، وقال فلان كذا (٣) ﴿ وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ﴾ أي تقولون ما ليس له حقيقة في الواقع ، وإنما هو محض كذب وبهتان ﴿ وتحسبونه هيناً ﴾ أي وتظنونه ذنباً صغيراً لا يلحقكم فيه إثم ﴿ وهو عند الله عظيم ﴾ أي والحال أنه عند الله من أعظم الموبقات والجرائم لأنه وقوع في أعراض المسلمين قال في التسهيل : عاتبهم تعالى على ثلاثة أشياء : الأول : تلقيه بالألسنة أي السؤال عنه والثاني : التكلم به والثالث : استصغاره حيث حسبوه هيناً وهو عند الله عظيم ، وفائدة قوله بالسنتكم وبأفواهكم الإشارة إلى أن ذلك الحديث كان باللسان دون القلب لأنهم لم يعلموا حقيقته بقلوبهم (٣) ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ﴾ عتاب لجميع المؤمنين أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه أول سماعكم له وتقولوا لا ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسول الله الطاهرة البريئة فإن هذا الافتراء كذب واضح ، عظيم الجرم قال الزمخشري : هو بمعنى التعجب من عظيم الأمر والاستبعاد له ، والأصل في ذلك أن يسبح الله عند رؤية العجائب (٤) ﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً ﴾ أي يذكركم الله ويعظكم بالمواعظ الشافية لكي لا تعودوا إلى مثل هذا العمل أبداً ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي إن كنتم حقاً مؤمنين فإن الإيمان وازع عن مثل هذا البهتان ، وفيه حث لهم على الاتعاظ وتهيب ﴿ ويبين الله لكم الآيات ﴾ أي ويوضح لكم الآيات الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب ، لتتعضوا وتتأدبوا بها ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي عالم بما يصلح العباد ، حكيم في تدبيره وتشريعہ ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ﴾ أي يريدون أن ينتشر الفعل القبيح المفرط في القبح

فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾

كإشاعة الرذيلة والزنى وغير ذلك من المنكرات ﴿في الذين آمنوا﴾ أي في المؤمنين الأطهار ﴿لهم عذاب أليم﴾ في الدنيا والآخرة ﴿أي لهم عذاب موجه مؤلم في الدنيا بإقامة الحد﴾ ، وفي الآخرة بعذاب جهنم قال الحسن : عنى بهذا الوعيد واللعن المنافقين فإنهم أحبوا وقصدوا إيذاء الرسول ﷺ وذلك كفرٌ وملعون صاحبه ^(١) ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي هو تعالى عالمٌ بالخفايا والنوايا وأنتم لا تعلمون ذلك قال الإمام الفخر : وهذه الجملة فيها حسنُ الموقع بهذا الموضع ، لأن محبة القلب كاملةٌ ونحن لا نعلمها إلاّ بالأمارات أما الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شيء ، فصار هذا الذكر نهايةً في الزجر لأن من أحبَّ إشاعة الفاحشة وإن بالغ في إخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه ويعلم قدر الجزاء عليه ^(٢) ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوفٌ رحيم﴾ جواب ﴿لولا﴾ محذوف لتحويل الأمر أي لولا فضله تعالى على عباده ورحمته بهم لأهلكهم وعذبهم ، وكان ما كان مما لا يكاد يتصوره الإنسان لأنه فوق الوصف والبيان .

البالغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - التنكير للتفخيم ﴿سورة أنزلناها﴾ أي هذه سورة عظيمة الشأن ، جليلة القدر أنزلها الله .
- ٢ - الإطناب بتكرير لفظ ﴿أنزلنا﴾ في قوله ﴿وأنزلنا فيها آيات بينات﴾ لإبراز كمال العناية بشأنها ، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام للعناية والاهتمام .
- ٣ - الاستعارة ﴿يرمون المحصنات﴾ أصل الرمي القذف بالحجارة أو بشيء صلب ثم استعير للقذف باللسان لأنه يشبه الأذى الحسي فيه استعارة لطيفة .
- ٤ - التهيج والإلهاب ﴿إن كنتم تؤمنون بالله﴾ كقولهم إن كنت رجلاً فأقدم .
- ٥ - صيغة المبالغة ﴿غفور رحيم﴾ و ﴿تواب حكيم﴾ فإن « فعول ، وفعل ، وفعليل » من صيغ المبالغة وكلها تفيد بلوغ النهاية في هذه الصفات .
- ٦ - الطباق بين ﴿الصادقين﴾ و ﴿الكاذبين﴾ .
- ٧ - حذف جواب ﴿لولا﴾ للتحويل في ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ وذلك حتى يذهب الوهم في تقديره كل مذهب فيكون أبلغ في البيان وأبعد في التحويل والزجر .

٨ - الطباق ﴿ لا تحسبوه شراً لكم بل هو خيرٌ لكم ﴾ وكذلك ﴿ وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾ فقد طابق بين الشر والخير ، وبين الهين والعظيم .

٩ - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون ﴾ والأصل أن يقال ظنتم وإنما عدل عنه مبالغة في التوبيخ وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظناً خيراً بالمؤمنين .

١٠ - التحضيض ﴿ لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ﴾ أي هلاً جاءوا وغرضه التوبيخ واللوم .

١١ - التعجب ﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ فيه تعجب ممن يقول ذلك والأصل في ذكر هذه الكلمة ﴿ سبحانك ﴾ أن يُسبح الله تعالى عند رؤية العجيب من صنائعه ، تنزيهاً له من أن يخرج مثله عن قدرته ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه^(١) .

فكائِدَة : لماذا بدأ الله في الزنى بالمرأة ، وفي السرقة بالرجل ؟ والجواب أن الزنى من المرأة أقبح ، وجرمه أشنع فبدأ بها ، وأما السرقة فالرجل عليها أجرأ وهو عليها أقدر ولذلك بدأ به ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ .

تبئيه : في التعبير بالإحصان ﴿ والذين يرمون المحصنات ﴾ إشارة دقيقة إلى أن كذب العفيف من الرجال أو النساء موجب لحد الكذب ، وأما إذا كان الشخص معروفاً بفجوره أو اشتهر بالاستهتار والمجون فلا حد على قاذفه ، لأنه لا كرامة للفاسق الماجن . فتدبر السر الدقيق .

لطيفة : لماذا عدل عن قوله ﴿ توأب رحيم ﴾ إلى قوله ﴿ توأب حكيم ﴾ مع أن الرحمة تناسب التوبة ؟ والجواب أن الله عز وجل أراد الستر على العباد بتشريع اللعان بين الزوجين ، فلو لم يكن اللعان مشروعاً لوجب على الزوج حد الكذب مع أن الظاهر صدقه ، ولو اكتفى بلعانه لوجب على الزوجة حد الزنى ، فكان من الحكمة وحسن النظر لهما جميعاً أن شرع هذا الحكم ، ودرأ عنها العذاب بتلك الشهادات ، فسبحانه ما أوسع رحمته ، وأجل حكمته !!^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان .. إلى .. وموعظةً للمتقين ﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣٤) .

المناسكة : لما ذكر تعالى حادثة الإفك ، أتبعها بالتحذير من سلوك طريق الشيطان المتربص بالإنسان الذي يدعو إلى السوء والشر والفساد ، ثم ذكر تعالى آداب الاستئذان والزيارة لأن أهل الإفك إنما وجدوا السبيل إلى بهتانهم من حيث اتفقت الخلوة فصارت طريقاً للتهمة ، فأوجب تعالى ألا يدخل إنسان بيت غيره إلا بعد الاستئذان والسلام ، ثم أتبعها بآيات غض البصر .

(١) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٤١٩/٣ .

(٢) انظر الحكمة التشريعية في الحدود الإسلامية بالتفصيل في كتابنا « تفسير آيات الأحكام » ٥٢/٢ .

اللغة: ﴿يأتل﴾ يحلف والألية: اليمين ومنه ﴿يؤلون من نسائهم﴾ أي يحلفون ﴿المحصنات﴾ العفاف الشريقات الطاهرات جمع محصنة وهي العفيفة ﴿مبرءون﴾ منزهون والبراءة: النزاهة مما نسب للإنسان من تهمة ﴿تستأنسوا﴾ تستأذنون وأصله في اللغة: طلب الأنس بالشيء قال الشاعر:

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطيرو
﴿يغضوا﴾ غضاً بصره: خفضه ونكسه وأصله إطباق الجفن على الجفن قال جرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

﴿خمرهن﴾ جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها ، وخرروا الأنية أي غطوها ﴿جيوهين﴾ جمع جيب وهو الصدر ﴿الإربة﴾ الحاجة إلى النساء .

سَبَبُ التَّزْوِيلِ: أ - كان أبو بكر الصديق ينفق على « مسطح بن أثاثة » لمسكته وقربته ، فلما وقع أمر الإفك وقال فيه مسطح ما قال ، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبداً فأنزل الله ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة . .﴾ الآية فقال أبو بكر : والله إنني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً^(١) .

ب - عن علي كرم الله وجهه قال : مرَّ رجل على عهد رسول الله ﷺ في طريقٍ من طرقات المدينة ، فنظر إلى امرأةٍ ونظرت إليه ، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجاباً به ، فبينما الرجل يمشي إلى جانب حائط ينظر إليها إذ استقبله الحائط « أي صدمه الحائط » فشق أنفه فقال : والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله ﷺ فأعلمه أمري ، فأتاه فقص عليه قصته فقال النبي ﷺ : هذا عقوبة ذنبك فأنزل الله ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم . .﴾^(٢) الآيات .

* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ

التفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي يا من صدقتم بالله ورسوله لا تتبعوا آثار الشيطان ولا تسلكوا مسالكه بإشاعة الفاحشة، والإصغاء إلى الإفك والقول به ﴿ومن يتبع خطوات الشيطان﴾ أي ومن يتبع سيرة الشيطان وطريقته ﴿فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾ أي فإن الشيطان يضل الإنسان ويغويه لأنه يأمر بالفحشاء وهي ما أفرط قبحه، والمنكر وهو ما ينكره الشرع وتنفر منه العقول السليمة ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ أي لولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون بالتوفيق للتوبة الماحية للذنوب ، وبشرع الحدود المكفرة للخطايا ﴿ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ أي ما تطهر أحد منكم من الأوزار أبد الدهر ﴿ولكن الله يزكي من يشاء﴾ أي ولكن الله بفضله ورحمته يطهر من يشاء بتوفيقه للتوبة

عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ السَّيِّئَاتُ وَيَأْتِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ

النصوح وقبولها منه قال القرطبي : والغرض أن تزكيتهم لكم ، وتطهيره وهدايته إنما هي بفضلها لأعمالكم (١) ﴿والله سميعٌ عليمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم عليم بنياتكم وضما تركم ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة﴾ أي لا يحلف أهل الفضل في الدين وأصحاب الغنى واليسار ﴿أن يؤتوا أولى القربى والمسكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ أي أن لا يؤتوا أقاربهم من الفقراء والمهاجرين ما كانوا يعطونهم إياه من الإحسان لذنب فعلوه ﴿وليُعْفُوا وليصْفَحُوا﴾ أي وليعفوا عما كان منهم من جرم ، وليصفحوا عما بدر منهم من إساءة ، وليعودوا إلى ما كانوا عليه من الإنعام والإحسان ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ أي ألا تحبون أيها المؤمنون أن يغفر الله لكم على عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم ؟ روي أن أبا بكر لما سمع الآية قال : بلى أحب أن يغفر الله لي وأعاد النفقة إلى مسطح وكفر عن يمينه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً !! قال المفسرون : والآية دالة على فضل أبي بكر فإن الله تعالى امتدحه بقوله ﴿ولا يأتل أولوا الفضل﴾ وكفى به دليلاً على فضل الصديق رضي الله عنه وأرضاه ﴿والله غفور رحيم﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على العقاب ، ثم توعد تعالى الذين يرمون العفاف الطاهرات فقال ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات﴾ أي يقذفون بالزنى العفيفات ، السليات الصدور ، النقيات القلوب عن كل سوء وفاحشة ﴿المؤمنات﴾ أي المتصفات بالإيمان مع طهارة القلب ﴿لعنوا في الدنيا والآخرة﴾ أي طردوا وأبعدوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة قال ابن عباس : هذا اللعن فيمن قذف زوجات النبي ﷺ إذ ليس له توبة ، ومن قذف مؤمنة جعل الله له توبة (٢) وقال أبو حمزة : نزلت في مشركي مكة ، كانت المرأة إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة قذفوها وقالوا خرجت لتفجر (٣) ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ أي ولهم مع اللعنة عذاب هائل لا يكاد يوصف بسبب ما ارتكبوا من إثم وجريمة ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ أي وذلك العذاب الشديد في ذلك اليوم الرهيب - يوم القيامة - حين تشهد على الإنسان جوارحه فتنتطق الألسنة والأيدي والأرجل بما اقترف من سيء الأعمال ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق﴾ أي يوم القيامة ينالهم حسابهم وجزاؤهم العادل من أحكم الحاكمين ﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ أي ويعلمون حينئذ أن الله هو العادل الذي لا يظلم أحداً ، الظاهر عدله في تشريعه وحكمه . . ثم ذكر تعالى بالدليل القاطع ، والبرهان الساطع براءة عائشة ونزاهتها ، فهي زوجة رسول الله الطيب الطاهر وقد

الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾

جرت سنة الله أن يسوق الجنس إلى جنسه ، فلو لم تكن عائشة طيبة لما كانت زوجة لأفضل الخلق ﷺ ولهذا قال ﴿الخبيثات للخبِيثين والخبِيثون للخبِيثات ، والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾ أي الخبيثات من النساء للخبِيثين من الرجال ، والخبِيثون من الرجال للخبِيثات من النساء ، وكذلك الطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء^(١) ، وهذا كالدليل على براءة عائشة لأنها زوجة أشرف رسول وأكرم مخلوق على الله ، وما كان الله ليجعلها زوجة لأحب عباده لو لم تكن عفيفة طاهرة شريفة ﴿أولئك مبرءون مما يقولون﴾ أي أولئك الفضلاء منزهون مما تقوله أهل الإفك في حقهم من الكذب والبهتان ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ أي لهم على ما نالهم من الأذى مغفرة لذنوبهم ، ورزق كريم في جنات النعيم قال ابن كثير : وفيه وعدٌ بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم﴾ لما حذر تعالى من قذف المحصنات وشدد العقاب فيه ، وكان طريق هذا الاتهام مخالطة الرجال للنساء ، ودخولهم عليهن في أوقات الخلوآت أرشد تعالى إلى الآداب الشرعية في دخول البيوت فأمر بالاستئذان قبل الدخول والتسليم بعده ﴿حتى تستأذِنُوا وتسلمُوا على أهلها﴾ أي لا تدخلوا بيوت الغير حتى تستأذِنُوا وتسلمُوا على أهل المنزل ﴿ذلكم خير لكم﴾ أي ذلك الاستئذان والتسليم خير لكم من الدخول بغتة ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي لتتعضوا وتعملوا بموجب هذه الآداب الرشيدة قال القرطبي : المعنى إن الاستئذان والتسليم خير لكم من الهجوم بغير إذن ومن الدخول على الناس بغتة أو من تحية الجاهلية فقد كان الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته قال : **حَيْتِم** صباحاً ، و**حَيْتِم** مساءً ودخل فرمبا أصاب الرجل مع امرأته في الحاف ، وروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ **أستأذن على أمي ؟ قال نعم ، قال ليس لها خادمٌ غيري ، أستأذن عليها كلما دخلت ؟ قال : أتحب أن تراها عريانة ؟ قال لا ، قال فاستأذن عليها**^(٢) ﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً﴾ أي فإن لم تجدوا في البيوت أحداً يأذن لكم بالدخول إليها ﴿فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم﴾ أي فاصبروا ولا تدخلوها حتى يسمح لكم بالدخول ، لأن للبيوت حرمة ولا يجلب دخولها إلا بإذن أصحابها ﴿وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا﴾ أي وإن لم يؤذن لكم وطلب منكم الرجوع فارجعوا ولا تلحوا ﴿هو أزكى لكم﴾ أي الرجوع أطهر وأكرم لنفوسكم وهو خير لكم من اللجاج والانتظار على الأبواب ﴿والله بما تعملون عليم﴾ أي هو تعالى عالم

(١) هذا قول ابن زيد وهو الأظهر وقال مجاهد : الخبيثات من القول للخبِيثين من الرجال وبالعكس ومراده أن كل كلام إنما يحسن في حق أهله

فسيء الكلام إنما يليق بالأشرار والفجار الخ وما ذكرناه أوضح بياناً ، وأقرب مثلاً . (٢) البيضاوي ٥٧/٢

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ
لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ
لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ

بالخفايا والنوايا وبجميع أعمالكم فيجازيكم عليها قال القرطبي : وفيه توعداً لأهل التجسس على البيوت ، ثم إنه تعالى لما ذكر حكم الدور المسكونة ذكر بعده حكم الدور غير المسكونة فقال ﴿ليس عليكم جناح﴾ أي ليس عليكم إثمٌ وحرَجٌ ﴿أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة﴾ أي أن تدخلوا بغير استئذان بيوتاً لا تختص بسكنى أحد كالرباطات والفنادق والخانات قال مجاهد : هي الفنادق التي في طرق السابلة لا يسكنها أحد بل هي موقوفة لياوي إليها كل ابن سبيل^(١) ﴿فيها متاعٌ لكم﴾ أي فيها منفعة لكم أو حاجة من الحاجات كالأستظلال من الحر ، وإيواء الأمتعة والرحال ﴿والله يعلم ما تُبدون وما تكتُمون﴾ أي يعلم ما تظهرون وما تُسرون في نفوسكم فيجازيكم عليه قال أبو السعود : وهذا وعيدٌ لمن يدخل مدخلاً لفسادٍ أو اطلاع على عورات^(٢) ، ثم أرشد تعالى إلى الآداب الرفيعة من غض البصر ، وحفظ الفروج فقال ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾ أي قل يا محمد لأتباعك المؤمنين يكفوا أبصارهم عن النظر إلى الأجنبية من غير المحارم ، فإن النظرة تزرع في القلب الشهوة ، ورُبَّ شهوة أورت حزنًا طويلاً

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر

﴿ويحفظوا فروجهم﴾ أي يصونوا فروجهم عن الزنى وعن الإيذاء والكشف ﴿ذلك أزكى لهم﴾ أي ذلك الغضُّ والحفظ أظهر للقلوب ، وأتقى للدين ، وأحفظ من الوقوع في الفجور ﴿إنَّ الله خبيرٌ بما يصنعون﴾ أي هو تعالى رقيبٌ عليهم ، مطلعٌ على أعمالهم ، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم ، فعليهم أن يتقوا الله في السر والعلن قال الإمام الفخر : فإن قيل فلم قدم غضُّ الأبصار على حفظ الفروج ؟ قلنا : لأن النظر يريد الزنى ، ورائد الفجور ، والبلوى فيه أشدُّ وأكثر ، ولا يكاد يُحترس منه^(٣) ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن﴾ أي وقل أيضاً للمؤمنات يكففن أبصارهن عن النظر إلى ما لا يحل لهن النظر إليه ، ويحفظن فروجهن عن الزنى وعن كشف العورات ، قال المفسرون : أكد تعالى الأمر للمؤمنات بغض البصر وحفظ الفروج ، وزادهن في التكليف على الرجال بالنهي عن إيذاء الزينة إلا للمحارم والأقرباء فقال ﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾ أي ولا يكشفن زينتهن للأجانب إلا ما ظهر منها بدون قصدٍ ولا نية سيئة قال ابن كثير : أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه ، كما قال ابن مسعود : الزينة زينتان : فزينة لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار ، وزينة يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب^(٤) ، وقيل : المراد به الوجه والكفان فإنها ليسا بعورة قال البيضاوي : والأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر ، فإن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء

بُخْمَرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ
بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ
أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ
مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

منها إلا لضرورة كالمعالجة وتحمل الشهادة^(١) ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ أي وليلقين الخمار وهو
غطاء الرأس على صدورهن لثلا يبدو شيء من النحر والصدر ، وفي لفظ الضرب مبالغة في الصيانة
والتستر ، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يرحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل الله
﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ شققن مروطن فاختمرن بها^(٢) قال المفسرون : كانت المرأة في
الجاهلية - كما هي اليوم في الجاهلية الحديثة - تمر بين الرجال مكشوفة الصدر ، بادية النحر ، حاسرة
الذراعين ، وربما أظهرت مفاتن جسمها وذوائب شعرها لتغري الرجال ، وكن يسدلن الخمر من ورائهن
فتبقى صدورهن مكشوفة عارية ، فأمرت المؤمنات بأن يلقينها من قدامهن حتى يغطينها ويدفعن عنهن شر
الأشرار ﴿ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن﴾ أي ولا يظهرن زينتهن الخفية التي حرم الله كشفها إلا
لأزواجهن ﴿أو آبائهن أو آباء بعولتهن﴾ أي أو لأبائهن أو آباء أزواجهن وهو العم أبو الزوج فإنهما من
المحارم ، فإن الأب يصون عرض ابنته ، ووالد الزوج يحفظ على ابنه ما يسوءه ، ثم عدد بقية المحارم فقال
﴿أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن﴾ فذكر تعالى الأبناء ، وأبناء
الأزواج ، والإخوة ، وأبناء الإخوة ، وأبناء الأخوات وكلهم من المحارم الذين يحرم الزواج بهم لما جبل
الله في الطباع من النفرة من مماسة القريبات ونكاحهن ﴿أو نسائهن﴾ أي المسلمات وخرج بذلك النساء
الكافرات قال مجاهد : المراد نساءهن المسلمات ، ليس المشركات من نسائهن ، وليس يحل للمرأة المسلمة
أن تنكشف بين يدي مشركة وقال ابن عباس : هن المسلمات ولا تبدي زينتها أمام يهودية أو نصرانية^(٣) ﴿أو
ما ملكت أيمانهن﴾ أي من الإماء المشركات قال ابن جرير : يعني من نساء المشركين فيجوز لها أن تظهر
زينتها لها وإن كانت مشركة لأنها أمتها ﴿أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾ أي الخدام غير أولي الميل
والشهوة والحاجة إلى النساء كالبهائم والحمقى والمغفلين الذين لا يدركون من أمور الجنس شيئاً قال مجاهد :
هو الأبله الذي يريد الطعام ولا يريد النساء ولا يهيمه إلا بطنه ﴿أو الطفل الذي لم يظهرهوا على عورات
النساء﴾ أي الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا حد الشهوة ، ولا يعرفون أمور الجماع لصغرهم فلا حرج أن
تظهر المرأة زينتها أمامهم ﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾ أي ولا يضربن بأرجلهن
الأرض لثلا يسمع الرجال صوت الخللخال فيطمع الذي في قلبه مرض قال ابن عباس : كانت المرأة تمر

(١) البيضاوي ٥٨/٢ (٢) أخرجه البخاري . (٣) مختصر ابن كثير ٦٠١/٢ وهذا قول أكثر السلف أن المراد بالنساء المؤمنات قال الفخر

الرازي : وقيل المراد بالنساء جميع النساء فإنهن سواء في حل نظر بعضهن إلى بعض ، وقول السلف محمول على الاستحباب .

وَأَنْكَحُوا الْأَيَّامِيَّ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ^١ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلَيْسَتَعَفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۗ وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتُغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ

بالناس وتضرب برجلها لسمع صوت خلخالها ، فهى الله تعالى عن ذلك لأنه من عمل الشيطان ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ أي ارجعوا أيها المؤمنون إلى ربكم بامثال الطاعات ، والكف عن الشهوات ، لتنالوا رضاه وتفوزوا بسعادة الدارين ﴿وأنكحوا الأيامي منكم﴾ أي زوجوا أيها المؤمنون من لا زوج له من الرجال والنساء من أحرار رجالكم ونسائكم قال الطبري : الأيامي جمع أيام ، يوصف به الذكر والأنثى يقال : رجل أيام وامرأة أيمة إذا لم يكن لها زوج^(١) ﴿والصالحين من عبادكم وإيمانكم﴾ أي وأنكحوا كذلك أهل التقى والصلاح من عبيدكم وجواريكم قال البيضاوي : وتخصيص الصالحين لأن إحصان دينهم والاهتمام بشأنهم أهم^(٢) ، وفيه إشارة إلى مكانة التقى والصلاح في الإنسان ﴿إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله﴾ أي إن يكن هؤلاء الذين تزوجونهم أهل فاقة وفقر فلا يمنعكم فقرهم من إنكاحهم ، ففي فضل الله ما يغنيهم ﴿والله واسعٌ عليم﴾ أي واسع الفضل ، جواد كريم ، يعطي الرزق من يشاء وهو عليم بمصالح العباد قال القرطبي : وهذا وعدٌ بالغنى للمتزوجين طلباً لرضى الله ، واعتصاماً من معاصيه وقال ابن مسعود : التمسوا الغنى في النكاح وتلا هذه الآية^(٣) وفي الحديث (ثلاثة حقٌ على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازي في سبيل الله)^(٤) ﴿وليستعفیف الذين لا يجدون نكاحاً﴾ أي وليجتهد في العفة وقمع الشهوة الذين لا تيسر لهم سبل الزواج لأسباب مادية ﴿حتى يغنيهم الله من فضله﴾ أي حتى يوسع الله عليهم ويسهل لهم أمر الزواج ، فإن العبد إذا اتقى الله جعل له من أمره فرجاً ومخرجاً ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم﴾ أي والذين يريدون أن يتحرروا من رقِّ العبودية بمكاتبة أسيادهم من العبيد والأرقاء ﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ أي فكاتبوهم على قدر من المال إن عرفتم منهم الأمانة والرشد ليصيروا أحراراً ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ أي أعطوهم مما أعطاكم الله من الرزق ليكون لهم عوناً على فكك أنفسهم ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء﴾ أي لا تجبروا إماءكم على الزنى ﴿إن أردن تحصناً﴾ أي إن أردن التعفف عن مقارفة الفاحشة ، وليس هذا للقيد أو الشرط وإنما هو لبيان فظاعة الأمر وشناعته ، فالأصل في المملوكة أن يُحصنها سيدها أما أن يأمرها بالزنى وتمتنع وتريد العفة فذلك منتهى الخسة والدناءة منه قال المفسرون: نزلت في « عبد الله بن سلول » المنافق كان له جاريتان إحداهما تسمى « مَسِيكَة » والثانية تسمى « أميمة » فكان يأمرها بالزنى للكسب ويضربها على ذلك فشكتا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية ﴿لتبتغوا عرض

(١) الطبري ٩٨/١٨ (٢) البيضاوي ٥٨/٢ (٣) القرطبي ٢٤١/١٢ (٤) أخرجه أحمد والترمذي

إِكْرَاهِينَ غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

الحياة الدنيا) أي لأجل أن تنالوا حطام هذه الحياة الزائل ، وتحصلوا على المال بطريق الفاحشة والرذيلة ﴿ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ أي ومن يجبرهن على الزنى فإن الله غفور لمن رحيم بهن لا يؤاخذهن بالزنى لأنهن أكرهن عليه وسيستقم ممن أكرهن شر انتقام ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾ أي والله لقد أنزلنا إليكم أيها المؤمنون آيات واضحة وأحكاماً مفصلات ﴿ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم﴾ وضررنا لكم الأمثال بمن سبقكم من الأمم لتتعظوا وتعتبروا ﴿وموعظة للمتقين﴾ أي وعظة وذكرى للمتقين .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستعارة اللطيفة ﴿لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ شبه سلوك طريق الشيطان والسير في ركابه بمن يتتبع خطوات الآخر خطوة خطوة بطريق الاستعارة .
- ٢ - الإيجاز بالحذف ﴿أن يؤتوا﴾ أي أن لا يؤتوا حذف منه ﴿لا﴾ لدلالة المعنى وهو كثير في اللغة .
- ٣ - صيغة الجمع للتعظيم ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ والمراد به أبو بكر الصديق .
- ٤ - الجناس الناقص بين ﴿يعملون﴾ و﴿يعلمون﴾ .
- ٥ - المقابلة اللطيفة بين ﴿الخبثات للخبثين . . والطيبات للطيبين﴾ .
- ٦ - الطباق بين ﴿تبدون . . وتكتمون﴾ .
- ٧ - الإيجاز بالحذف ﴿يغضوا من أبصارهم﴾ لأن المراد غض البصر عما حرم الله لا عن كل شيء فحذف ذلك اكتفاءً بفهم المخاطبين .
- ٨ - المجاز المرسل ﴿ولا يبيدين زينتهن﴾ المراد مواقع الزينة وهو من باب إطلاق اسم الحال على المحل قال الزمخشري : وذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة في الأمر بالتستر والتصون .

فكائِدَة : قال بعض المحققين : إن يوسف لما رمي بالفاحشة برآه الله على لسان صبي في المهدي ، وإن مريم لما رميت بالفاحشة برآها الله على لسان ابنها عيسى عليه السلام ، وإن عائشة لما رميت بالفاحشة برآها الله في كتابه العزيز ، فما رضي الله لها ببراءة صبي ولا نبي حتى برآها الله في القرآن من القذف والبهتان^(١) .

تَبْيَهُ : السرُّ في تقديم غرض البصر على حفظ الفروج ﴿يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ هو أن النظر بريد الزنى ورائد الفجور ، وهو مقدمة للوقوع في الخطر كما قال الشاعر :

وكنْتَ إذا أرسلتَ طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيتَ الذي لا كلُّه أنتَ قادرٌ عليه وعلى عن بعضه أنتَ صابر

لطيفة : ذكر أن قسيماً أراد أن ينال من المسلمين بالطعن في أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها ، فقال : إن الناس رموها بالإفك ولا ندري أهي بريئة أم متهمة ؟ فأجابه بعض الحاضرين بقوله : إسمع يا هذا ، هناك امرأتان اتهمتتا بالزنى وقد برأهما القرآن الكريم ، إحداهما ليس لها زوج وقد جاءت بولد ، والأخرى لها زوج ولم يأتها ولد - يقصد مريم وعائشة - فأيتهما أخرى بالتهمة ؟ فخرس القسيس .

قال الله تعالى : ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . . إلى . . فأولئك هم الفائزون﴾

المناسكة : لما وصف تعالى نفسه بأنه أنزل آياتٍ مبيّنات ، وأقام دلائل واضحات على وحدانيته ، واختصاصه بتشريع الأحكام التي بها سعادة المجتمع ، عقبه بذكر مثلين : أحدهما في بيان أن دلائل الوحداية والإيمان في غاية الظهور والثاني : في بيان أن أديان الكفرة في نهاية الظلمة والخفاء ، وبالمقارنة بين المثلين يتضح الصبح لذي عينين .

اللغز : ﴿مشكاة﴾ المشكاة : الكوة في الحائط غير النافذة ، وأصلها الوعاء يجعل فيه الشيء ﴿دُرِّي﴾ متلألئ وقاد يشبه الدر في صفائه ولمعانه ﴿سراب﴾ السراب : ما يترأى للعين وسط النهار عند اشتداد الحر يشبه الماء الجاري وليس بماء ، سمي سراباً لأنه يسرب أي يجري كالماء قال الشاعر :

فلما كففتنا الحرب كانت عهدكم كلمع سراب بالفلا متألّق^(١)

﴿قبة﴾ قال الفراء : هو جمع قاع مثل جار وجيرة ، والقاع المنبسط المستوي من الأرض وقال الزمخشري : القبة بمعنى القاع وليس جمعاً^(٢) ، وهكذا قال أبو عبيدة ﴿لجّي﴾ اللجّي : الذي لا يدرك قعره لعمقه ، واللجة معظم الماء ، والجمع لجج ، والتجّ البحر : تلاطمت أمواجه ﴿يزجي﴾ الإزجاء : سوق الشيء برفق وسهولة ﴿ركاماً﴾ مجتمعاً يركب بعضه بعضاً ﴿الودق﴾ : المطر قال الليث : الودق المطر كله شديده وهينه^(٣) ﴿سنا﴾ : السنا الضوء واللمعان قال الشياخ :

وما كادت إذا رفعت سناها ليبصر ضوءها إلا البصير^(٤)

﴿مدعين﴾ خاضعين منقادين ، أذعن للأمر خضع له ﴿يحيف﴾ يجور ويظلم .

* اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ ۚ كَمَشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ۖ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ ۗ

التفسير : ﴿الله نور السموات والأرض﴾ أي الله جلّ وعلا منور السموات والأرض ، أنار السموات بالكواكب المضيئة ، والأرض بالشرائع والأحكام وبعثة الرسل الكرام قال الطبري : أي هادي أهل السموات والأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون ، ويهداه من حيرة الضلالة يعتصمون^(١) وقال القرطبي : النور عند العرب : الضوء المدرك بالبصر واستعمل مجازاً في المعاني فيقال كلامٌ له نور قال الشاعر :

نسبُ كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عموداً

وقال جرير « وأنت لنا نورٌ وغيثٌ وعصمة » والناس يقولون : فلان نور البلد ، وشمسُ العصر وقمره ، فيجوز أن يقال : الله نور على جهة المدح لأن جميع الأشياء منه ابتداءؤها ، وعنه صدورها ، وبقدرته استقامت أمورها^(٢) ، وقال ابن عطاء الله : « الكون كله ظلّمة أناره ظهور الحق فيه ، إذ لولا وجود الله ما وجد شيء من العالم »^(٣) وفي الحديث (اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن) وقال ابن مسعود : « ليس عند ربكم ليلٌ ولا نهار ، نور السموات والأرض نور وجهه » وقال ابن القيم : سمى الله سبحانه نفسه نوراً ، وجعل كتابه نوراً ، ورسوله نوراً ، واحتجب عن خلقه بالنور ، وقد فسرت الآية بأنه منور السموات والأرض ، وهادي أهل السموات والأرض ، وما قاله ابن مسعود أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادي أهل السموات والأرض ، وأما من فسرها بأنه منور السموات والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود^(٤) ﴿مثل نوره﴾ أي مثل نور الله سبحانه في قلب عبده المؤمن ﴿كمشكاة فيها مصباح﴾ أي ككوة في الحائط لا منفذ لها ليكون أجمع للضوء وضع فيها سراج ثاقب ساطع قال في التسهيل : المعنى صفة نور الله في وضوحه كصفة مشكاة فيها مصباح على أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة والإنارة ، وإنما شبه بالمشكاة - وإن كان نورُ الله أعظم - لأن ذلك هو ما يدركه الناس من الأنوار ضرب لهم به المثل^(٥) ﴿المصباح في زجاجة﴾ أي في قنديل من الزجاج الصافي ﴿الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ أي تشبه الكوكب الدرّي في صفائها وحسنها ﴿يوقد من شجرة مباركة﴾ أي يشعل ذلك المصباح من زيت شجرة مباركة ﴿زيتونة﴾ أي هي من شجر الزيتون الذي خصه الله بمنافع عديدة ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ أي ليست في جهة الشرق ولا في جهة الغرب ، وإنما هي في صحراء منكشفة تصيبها الشمس طول النهار لتكون ثمرتها أنضج ، وزيتها أصفى قال ابن عباس : هي شجرة بالصحراء لا يظللها شجر ، ولا جبل ، ولا كهف ، ولا يوارى بها شيء وهو أجود لزيتها^(٦) ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار﴾ مبالغة في وصف صفاء الزيت وحسنه وجودته أي يكاد زيت هذه الزيتون يضيء من صفائه.

(١) الطبري ١٨/١٠٥ وهذا قول ابن عباس ومجاهد واختاره الطبري . (٢) القرطبي ١٢/٢٥٦ . (٣) الحكم لابن عطاء الله السكندري .

(٤) نقلاً عن محاسن التأويل . (٥) التسهيل ٣/٦٧ . (٦) مختصر ابن كثير ٢/٦٠٦ .

يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ^ق وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا اسْمَهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٢٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٢٧﴾

وحسن ضيائه ولولم تمسه نار ، فكيف إذا مسته النار ؟ ﴿نور على نور﴾ أي نور فوق نور فقد اجتمع نور السراج ، وحسن الزجاجاة ، وصفاء الزيت ، فاكتمل النور الممثل به ﴿يهدى الله لنوره من يشاء﴾ أي يوفق الله لاتباع نوره - وهو القرآن - من يشاء من عباده ﴿ويضرب الله الأمثال للناس﴾ أي يبين لهم الأمثال تقريباً لأفهامهم ليعتبروا ويتعظوا بما فيها من الأسرار والحكم ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي هو سبحانه واسع العلم لا يخفى عليه شيء من أمر الخلق ، وفيه وعد ووعد قال الطبري : ذلك مثل ضرب به الله للقرآن في قلب أهل الإيمان به فقال : مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد مثل كوة في الحائط لا منفذ لها فيها مصباح أي سراج ، وجعل السراج مثلاً لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات البينات ثم قال ﴿المصباح في زجاجة﴾ وذلك مثل للقرآن في قلب المؤمن الذي أنار الله صدره فخلص من الكفر والشك ، ثم قال ﴿الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ أي كأن الزجاجاة في صفائها وضيائها كوكب يشبه الدر في الصفاء والضياء والحسن ﴿يوقد من شجرة مباركة لا شرقية ولا غربية﴾ أي توقد هذا المصباح من دهن شجرة مباركة هي شجرة الزيتون ، ليست شرقية تطلع عليها الشمس بالعشي دون الغداة ، ولكن الشمس تشرق عليها وتغرب فيكون زيتها أجود وأصفى وأضوأ ﴿يكاد زيتها يضيء ولولم تمسه نار﴾ أي يكاد زيت هذه الزيتون يضيء من صفائه وحسن ضيائه وعنى بها أن حجج الله على خلقه تكاد من بيانها ووضوحها تضيء لمن فكر فيها ونظر ولولم يزلها الله بياناً ووضوحاً بنزول هذا القرآن ، فكيف وقد نبههم به وذكرهم بآياته فزادهم به حجة ! وذلك بيان من الله ونور على البيان (١) . ثم لما ذكر تعالى هدايته لمن يشاء من عباده ، ذكر مواطن هذه العبادة وهي المساجد أحب البقاع إلى الله فقال ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع﴾ أي أمر تعالى أن تبنى وتشاد على اسمه خاصة ، وان تعظم ويرفع شأنها لتكون منارات للهدى ومراكز للإشعاع الروحي قال ابن عباس : المساجد بيوت الله في الأرض ، تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض (٢) ﴿ويذكر فيها اسمه﴾ أي يعبد فيها الله بتوحيده ، وذكره ، وتلاوة آياته ﴿يسبح له فيها بالغدو والآصال﴾ أي يصلي لله تعالى في هذه المساجد في الصباح والمساء المؤمنون قال ابن عباس : كل تسبيح في القرآن فهو صلاة (٣) ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ أي لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها عن ذكر ربهم ، ولا يلهيهم البيع والشراء عن طاعة الله قال المفسرون : نزلت هذه الآية في أهل الأسواق من الصحابة رضوان الله عليهم ، كانوا إذا سمعوا النداء تركوا كل شغل وبادروا لطاعة الله ﴿وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ أي ولا تشغلهم الدنيا عن إقامة الصلاة في أوقاتها ، ودفع الزكاة للفقراء

لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
 أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَّحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْعًا وَّوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ
 وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَّغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ
 بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٣٠﴾

وللمستحقين بحدودها وشروطها ﴿يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ أي يخافون يوماً رهيباً
 تضطرب من شدة هوله وفزعه قلوب الناس وأبصارهم ﴿ليجزئهم الله أحسن ما عملوا﴾ أي ليكافئهم على
 أعمالهم في الدنيا بأحسن الجزاء ، ويجزيهم على الإحسان إحساناً ، وعلى الإساءة عفواً وغفراناً ﴿ويزيدهم
 من فضله﴾ أي يتفضل عليهم فوق ذلك الجزاء بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر
 ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي يعطي من شاء من خلقه عطاءً واسعاً بدون حدٍّ ولا عدٍّ يقال فلان
 ينفق بغير حساب أي يوسع كأنه لا يحسب ما ينفقه قال الإمام الفخر : نبه به على كمال قدرته ، وكمال
 جوده ، وسعة إحسانه ، فإنه سبحانه يعطيهم الثواب العظيم على طاعتهم ، ويزيدهم الفضل الذي لا
 حد له في مقابلة خوفهم^(١) ، ولما ذكر تعالى حال المؤمن وسعادته ، ذكر حال الكافر وخسارته ، وضرب
 لذلك مثلين : الأول لعمله والثاني لاعتقاده وتجبته في الظلمات فقال ﴿والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ
 بقيعة﴾ أي إن أعمال الكفار التي عملوها في الدنيا وظنوها أعمالاً صالحة نافعة لهم في الآخرة كالسراب الذي
 يرى في القيعان وهو ما يرى في الفلوات من ضوء الشمس في الهجيرة حتى يظهر كأنه ماء يجري على وجه
 الأرض ﴿يحسبه الظمان ماء﴾ أي يظنه العطشان من بعيد ماءً جارياً ﴿حتى إذا جاءه﴾ أي حتى إذا وصل
 إليه ﴿لم يجده شيئاً﴾ أي لم يرماءً ولا شرباً ، وإنما رأى سراباً فعظمت حسرته ﴿ووجد الله عنده فوفاه
 حساباً﴾ أي وجد الله له بالمرصاد فوفاه جزاء عمله ، فكذلك الكافر يحسب أن عمله ينفعه حتى إذا مات
 وقدم على ربه لم يجد شيئاً من الأعمال لأنها ذهبت هباءً منثوراً ﴿والله سريع الحساب﴾ أي يعجل الحساب
 لأنه لا يشغله محاسبة واحد عن آخر ﴿أو كظلمات في بحرٍ لجي﴾ هذا المثل الثاني لضلال الكفار والمعنى أو
 مثلهم كظلمات متكاثفة في بحرٍ عميق لا يدرك قعره ﴿يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحاب كثيف
 وظلمات بعضها فوق بعض﴾ أي هي ظلمات متكاثفة متراكمة بعضها فوق بعض قال قتادة : الكافر
 يتقلب في خمسٍ من الظلم : فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى
 الظلمات يوم القيامة إلى النار^(٢) ﴿إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾ هذا من تنمة التمثيل أي إذا أخرج ذلك
 الإنسان الواقع في هذه الظلمات يده لم يقارب رؤيتها فإن ظلمة البحر ، وظلمة الموج ، وظلمة السحاب

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجَعُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَوْتٌ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ
 عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا
 ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ
 فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾

قد تكاثفت حتى حجبت عنه رؤية أقرب شيء إليه من شدة الظلمة فكذلك شأن الكافر يتخبط في ظلمات الكفر والضلال ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ أي ومن لم يهده الله للإيمان وينور قلبه بنور الإسلام لم يهتد أبداً الدهر ، ذكر تعالى لعمل الكافر مثالين : الأول لعمله الصالح ومثل له بالسراب الخادع ، والثاني لاعتقاده السيء ومثل له بالظلمات المتراكم بعضها فوق بعض ثم ختم الآية الكريمة ذلك الختام الرائع ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ مقابل قوله في المؤمن ﴿نور على نور﴾ فكان هذا التمثيل والبيان في غاية الحسن والجمال ، فله ما أروع تعبير القرآن !! ولما وصف سبحانه أنوار قلوب وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد فقال ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض﴾ أي ألم تعلم يا محمد علماً يقيناً أن الله العظيم الكبير يسبح له كل من في الكون من ملك ، وإنس ، وجن ، ينزهه ويقده ساكنوها ؟ ﴿والطير صافات﴾ أي والطير باسطات أجنحتهن حال الطيران تسبح ربها وتعبده كذلك بتسبيح ألهما وأرشدتها إليه تعالى ﴿كلُّ قد علم صلاته وتسبيحه﴾ أي كلُّ من الملائكة والإنس والجن والطير قد أرشد وهدى إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله ، وما كلف به من الصلاة والتسبيح ﴿والله عليم بما يفعلون﴾ أي لا تخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم ﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ أي هو المالك والمتصرف في الكون ، وجميع المخلوقات تحت ملكه يتصرف فيهم تصرف القاهر الغالب ﴿وإلى الله المصير﴾ أي وإليه مرجع الخلائق فيجازيهم على أعمالهم وهو تذكير يتضمن الوعيد ، ثم أشار تعالى إلى ظاهرة كونية تدل على قدرته ووحدانيته فقال ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً﴾ أي يسوق بقدرته السحاب إلى حيث يشاء ﴿ثم يؤلف بينه﴾ أي يجمعه بعد تفرقه ﴿ثم يجعله ركاماً﴾ أي يجعله كثيفاً متراكماً بعضه فوق بعض ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ أي فتري المطر يخرج من بين السحاب الكثيف ﴿وينزل من السماء من جبالٍ فيها من برد﴾ أي وينزل من السحاب الذي هو كأمثال الجبال برداً ﴿فيصيب به من يشاء﴾ أي فيصيب بذلك البرد من شاء من العباد فيضره في زرعه وثمرته وماشيته ﴿ويصرفه عمن يشاء﴾ أي ويدفعه عمن يشاء فلا يضره قال الصاوي : كما ينزل المطر من السماء وهو نفع للعباد كذلك ينزل منها البرد وهو ضرر للعباد ، فسبحان من جعل السماء منشأ للخير والشر^(١) ﴿يكاد سنا بركه﴾ أي يقرب ضوء برق السحاب ﴿يذهب بالأبصار﴾ أي يخطف أبصار الناظرين من شدة

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ ۚ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۚ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ۚ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ۚ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ۚ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ۚ وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ۚ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ

إضاءته وقوة لمعانه ﴿يقلب الله الليل والنهار﴾ أي يتصرف فيهما بالطول والقصر ، والظلمة والنور ، والبرد والبرد ﴿إن في ذلك لعبرة﴾ أي إن فيما تقدم ذكره لدلالة واضحة ، وعظة بليغة على وجود الصانع المبدع ﴿لأولي الأبصار﴾ أي لذوي البصائر المستتيرة ، وخصهم بالذكر لأنهم المنتفعون حيث يتأملون فيجدون الماء والبرد ، والظلمة والنور تخرج من شيء واحد ، فسبحان القادر على كل شيء ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ استدل على وحدانيته بتسبيح أهل السماء والأرض ، ثم بتصريف السحاب وإنزال المطر ، ثم بأحوال الحيوانات قال ابن كثير : يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد^(١) ﴿فمنهم من يمشي على بطنه﴾ أي فمنهم من يزحف على بطنه كالحية والزواحف ﴿ومنهم من يمشي على رجلين﴾ كالإنسان والطير ﴿ومنهم من يمشي على أربع﴾ كالأنعام وسائر الدواب قال أبو حيان : قدم ما هو أظهر في القدرة وأعجب وهو الماشي بغير آلة من رجل وقوائم ، ثم الماشي على رجلين ، ثم الماشي على أربع^(٢) ﴿يخلق الله ما يشاء﴾ أي يخلق تعالى بقدرته ما يشاء من المخلوقات ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي هو قادر على ما يشاء لا يمنعه مانع ، ولا يدفعه دافع قال الفخر : واعلم أن العقول قاصرة عن الإحاطة بأحوال أصغر الحيوانات على الكمال ، والاستدلال بها على الصانع ظاهر ، لأنه لو كان الأمر بتركيب الطبائع الأربع لكان في الكل على السوية ، فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات بأعضائها وأعمارها ومقادير أبدانها لا بد وأن يكون بتدبير قاهر حكيم ، سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون^(٣) ﴿لقد أنزلنا آيات بينات﴾ أي لقد أنزلنا إليكم أيها الناس آيات واضحة ، دلالات على طريق الحق والرشاد ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي يرشد من يشاء من خلقه إلى الدين الحق وهو الإسلام ، ولما ذكر دلائل التوحيد حذر من النفاق والمنافقين فقال ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا﴾ أي يقول المنافقون صدقنا بالله وبالرسول وأطعنا الله ورسوله ﴿ثم يتولى فريق منهم﴾ أي ثم يعرض جماعة منهم عن قبول حكمه ﴿من بعد ذلك﴾ أي من بعدما صدر منهم ما صدر من دعوى الإيمان ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ أي وليس أولئك الذين يدعون الإيمان والطاعة بمؤمنين على الحقيقة قال الحسن : نزلت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يظهرن الإيمان ويسرون الكفر ﴿وإذا دعوا إلى الله

لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مَّعْرُضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُنْ لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ آرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أَوْلَيْتَ لَهُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾

ورسوله ليحكم بينهم ﴿٤٨﴾ أي وإذا دعوا إلى حكم الله أو حكم رسوله ﴿٤٩﴾ إذا فريق منهم معرضون ﴿٤٩﴾ أي استنكفوا وأعرضوا عن الحضور إلى مجلس الرسول ﴿٥٠﴾ وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴿٥٠﴾ أي وإن كان الحق بجانبهم جاءوا إلى رسول الله طائعين منقادين لعلمهم أنه عليه السلام يحكم بالحق قال الفخر : نبه تعالى على أنهم إنما يعرضون متى عرفوا أن الحق لغيرهم ؛ أما إذا عرفوه لأنفسهم عدلوا عن الإعراض وأذعنوا ببذل الرضا^(١) ﴿٥١﴾ أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا ﴿٥١﴾ أي هل في قلوبهم نفاق ؟ أم شكوا في نبوته عليه السلام ؟ ﴿٥٢﴾ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ﴿٥٢﴾ أي أم يخافون أن يظلمهم رسول الله في الحكم ، والاستفهام للمبالغة في التوبيخ والذم كقول الشاعر :

أست من القوم الذين تعاهدوا
على اللؤم والفحشاء في سالف الدهر

﴿بل أولئك هم الظالمون﴾ أي بل هم الكاملون في الظلم والعناد لإعراضهم عن حكم رسول الله ﴿٥٠﴾ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴿٥١﴾ أي كان الواجب عليهم عندما يدعون إلى رسول الله للفصل بينهم وبين خصومهم أن يسرعوا ويقولوا سمعاً وطاعة ، فلو كان هؤلاء مؤمنين لفعلوا ذلك قال الطبري : ولم يقصد به الخبر ولكنه تأنيب من الله للمنافقين وتأديب منه لآخرين^(٢) ﴿٥١﴾ وأولئك هم المفلحون ﴿٥١﴾ أي وأولئك المسارعون إلى مرضاة الله هم الفائزون بسعادة الدارين ﴿٥٢﴾ ومن يطع الله ورسوله ﴿٥٢﴾ أي ومن يطع أمر الله وأمر رسوله في كل فعل وعمل ﴿٥٢﴾ ويخشى الله ويتقته ﴿٥٢﴾ أي يخاف الله تعالى لما فرط منه من الذنوب ، ويمتثل أوامره ويجتنب زواجره ﴿٥٢﴾ فأولئك هم الفائزون ﴿٥٢﴾ أي هم السعداء الناجون من عذاب الله الفائزون برضوانه . ذكر أن بعض بطارقة الروم سمع هذه الآية فأسلم وقال : إنها جمعت كل ما في التوراة والإنجيل .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - إطلاق المصدر على إسم الفاعل للمبالغة ﴿الله نور السموات﴾ بمعنى منور لكل شيء بحيث كأنه عين نوره قال الشريف الرضي : وفي الآية إستعارة - على تفسير بعض العلماء - والمراد عندهم أنه هادي أهل السموات والأرض بصوادع برهانه ، ونواضع بيانه كما يهتدى بالأنوار الثاقبة والشهب اللامعة .

٢ - التشبيه التمثيلي ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾ شبه نور الله الذي وضعه في قلب عبده المؤمن بالمصباح الوهاج في كوة داخل زجاجة تشبه الكوكب الدرّي في الصفاء والحسن الخ سمي تمثيلاً لأن وجه الشبه منتزع من متعدد ، وهو من روائع التشبيه .

٣ - الإطناب بذكر الخاص بعد العام تنويهاً بشأنه ﴿عن ذكر الله وإقام الصلاة﴾ لأن الصلاة من ذكر الله .

٤ - جناس الاشتقاق ﴿تقلب فيه القلوب﴾ .

٥ - التشبيه التمثيلي الرائع ﴿والذين كفروا أعماهم كسراب﴾ الخ وكذلك في قوله ﴿أو كظلماتٍ في بحرٍ لجي﴾ وهذا من روائع التشبيه وبدائع التمثيل .

٦ - الطباق بين ﴿يصيب به . . ويصرفه﴾ .

٧ - الاستعارة اللطيفة ﴿يقلّب الله الليل والنهار﴾ إذ ليس المراد التقلب المادي للأشياء الذاتية وإنما استعير لتعاقب الليل والنهار .

٨ - الجناس التام ﴿يذهب بالأبصار﴾ ﴿لأولي الأبصار﴾ المراد بالأولى العيون وبالثانية الألباب .

لطيفة : سمع بعض علماء الطبيعة من غير المسلمين هذه الآية ﴿أو كظلماتٍ في بحرٍ لجيٍ يغشاه موج . . .﴾ الآية فسأل هل ركب محمد البحر؟ فقالوا : لا فقال أشهد أنه رسول الله قالوا : وكيف عرفت؟ فقال : إن هذا الوصف للبحر لا يعرفه إلا من عاش عمره في البحار ، ورأى الأهوال والأخطار ، فلما أخبرت أنه لم يركب البحر عرفت أنه كلام الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن . . . إلى . . . والله بكل شيء عليم﴾ من آية (٥٣) إلى آية (٦٤) نهاية السورة الكريمة .

المناسكة : لما ذكر تعالى المنافقين وما هم عليه من صفاتٍ قبيحة ، أعقبه بذكر ما انطوت عليه نفوسهم من المكر والإحتيال والحلف الكاذب بأغلظ الأيمان ، وختم السورة الكريمة بالتحذير من سلوك طريق المنافقين .

اللغز : ﴿الحلم﴾ : الاحتلام في المنام قال في القاموس : الحلم : الرؤيا جمعه أحلام ، والحلم والاحتلام : الجماع في النوم^(١) وقال الراغب : هو زمان البلوغ سمي به لكون صاحبه جديراً بالحلم أي الأناة وضبط النفس^(٢) ﴿القواعد﴾ جمع قاعد بغير تاء لأنه خاصٌ بالنساء كحائض وطامث وهي المرأة التي قعدت عن الزواج وعن الولد ﴿أشتاتاً﴾ متفرقين جمع شت وهو الافتراق ، والشتات : الفرقة

(١) القاموس المحيط . (٢) المفردات للراغب الأصفهاني

﴿يتسللون﴾ التسلل : الخروج خفية يقال : انسلّ وتسلل إذا خرج مستتراً بطريق الخفية ﴿لوإذا﴾ اللواذ : أن يستتر بشيء مخافة من يراه .

سَبَبُ الزُّوْلِ : روي أن رسول الله ﷺ بعث غلاماً من الأنصار يقال له : مُدْلَج إلى عمر بن الخطاب وقت الظهر ليدعوه فوجده نائماً ، فدقَّ عليه الغلام الباب ودخل ، فاستيقظ عمر وجلس فانكشف منه شيء فقال : وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول في هذه الساعات إلا بإذن ، ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ فوجد الآية قد أنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم . .﴾ فخرَّ ساجداً شكراً لله تعالى (٣)

* وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِيَنْ أَمْرَتِهِمْ لِيُخْرِجَنَّ قُلَّ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلَّ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَحْمِلٌ وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ وَإِن تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ

النَّفْسِيرُ : ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ أي حلف المنافقون بغاية الأيمان المغلظة ﴿لئن أمرتهم ليخرجن﴾ أي لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن معك قال مقاتل : لما بين الله إعراض المنافقين وامتناعهم عن قبول حكمه عليه السلام أتوه فقالوا : لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا ، وإن أمرتنا بالجهاد لجاهدنا فنزلت (١) ﴿قل لا تقسموا﴾ أي لا تحلفوا فإن أيمانكم كاذبة ﴿طاعة معروفة﴾ أي طاعتكم لله ورسوله معروفة فإنها باللسان دون القلب ، وبالقول دون العمل ﴿إن الله خير بما تعملون﴾ أي بصير لا يخفى عليه شيء من خفاياكم ونواياكم ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ أي أطيعوا الله بإخلاص النية وترك النفاق ، وأطيعوا الرسول بالاستجابة لأمره والتمسك بهديه ﴿فإن تولَّوا﴾ أي فإن تولَّوا وتعرضوا عن طاعته ﴿فإنما عليه ما حمل﴾ أي على الرسول ما كلف به من تبليغ الرسالة ﴿وعليكم ما حملتم﴾ أي وعليكم ما كلفتم به من السمع والطاعة واتباع أمره عليه السلام ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ أي وإن أطعتم أمره فقد اهتديتم إلى طريق السعادة والفلاح ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ أي ليس عليه إلا التبليغ الواضح للأمة ، ولا ضرر عليه إن خالفتم وعصيتم فإنه قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ﴿وعدَّ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات﴾ أي وعد الله المؤمنين المخلصين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ أي وعدهم بميراث الأرض وأن يجعلهم فيها خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك في ممالكهم ، كما استخلف المؤمنين قبلهم فملكهم ديار الكفار قال المفسرون : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة رمتهم العرب عن قوس واحدة ، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ، ولا يصبحون إلا في لأمتهم - أي سلاحهم - فقالوا أترون أنا نعيش حتى نبني

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمْكِنَ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ
بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَعِذِّنْكُمْ اللَّهُ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ
صَلَاةُ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ
أَمْنِينَ مَطْمَئِنِينَ لَا تَخَافُوا اللَّهَ عِزَّ وَجَلَّ!! فنزلت الآية (١) ، وهذا وعدٌ ظهر صدقُه بفتح مشارق الأرض
ومغاربها لهذه الأمة وفي الحديث بشارة كذلك فقد قال ﷺ : (إنَّ الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها
ومغاربها ، وإن ملك أمتي سيبليغ ما زوي لي منها) (٢) ﴿ وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾ أي
وليجعلنَّ دينهم - الإسلام - الذي ارتضاه لهم عزيزاً مكيناً عالياً على كل الأديان ﴿ وليبدلنَّهم من بعد
خوفهم أمناً ﴾ أي وليغيرن حالهم التي كانوا عليها من الخوف والفرع إلى الأمن والاستقرار كقوله ﴿ وأمنهم
من خوف ﴾ ﴿ يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ استئنافٌ بطريق الشاء عليهم كالتعليل للاستخلاف في
الأرض أي يوحدونني ويخلصون لي العبادة ، لا يعبدون إلهاً غيري ﴿ ومن كفر بعد ذلك ﴾ أي فمن جحد
شكر هذه النعمة ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ هم الخارجون عن طاعة الله ، العاصون أمر الله قال أبو
العالية : أي من كفر بهذه النعمة وليس يعني الكفر بالله قال الطبري : وهو أشبه بتأويل الآية لأن الله
وعد الإنعام على هذه الأمة بما أخبر في هذه الآية بأنه منعم به عليهم ثم قال ﴿ ومن كفر ﴾ أي كفر هذه
النعمة ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ (٣) ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أي أقيموا أيها المؤمنون الصلاة وأدوا
الزكاة على الوجه الأكمل الذي يرضي الله ﴿ وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ﴾ أي أطيعوا الرسول في سائر
ما أمركم به رجاء الرحمة ﴿ لا تحسبنَّ الذين كفروا معجزين في الأرض ﴾ تسليةٌ للنبي ﷺ ووعدهُ بالنصرة أي
لا تظننَّ يا محمد الكافرين الذين عاندوك وكذبوك معجزين لله في هذه الحياة بل الله قادرٌ عليهم في كل حين
وأن ﴿ وماؤاهم النار ﴾ أي مرجعهم نار جهنم ﴿ وللبئس المصير ﴾ أي بشس المرجع والمآل الذي يصيرون إليه
﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ أي يا أيها المؤمنون الذين صدقوا الله ورسوله
وأيقنوا بشريعة الإسلام نظاماً وحكماً ومنهاجاً ليستأذنكم في الدخول عليكم العبيدُ والإماء الذين تملكونهم
ملك اليمين ﴿ والذين لم يبلغوا الحلم منكم ﴾ أي والأطفال الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال الأحرار ليستأذنوا
أيضاً ﴿ ثلاث مرات ﴾ أي في ثلاثة أوقات ﴿ من قبل صلاة الفجر ﴾ أي في الليل وقت نومكم وخلودكم إلى
الراحة ﴿ وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ﴾ أي وقت الظهر حين تخلعون ثيابكم للقلولة ﴿ ومن بعد صلاة
العشاء ﴾ أي وقت إرادتكم النوم واستعدادكم له ﴿ ثلاث عورات لكم ﴾ أي هي ثلاثة أوقات يختل فيها

وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوْفُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾
وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذْنَ بِكَمَا اسْتَعِذْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ
مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ
وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ
تَسْتَرْكَبُوا الْعُورَاتُ فِيهَا بَادِيَةٌ وَالتَّكْشِيفُ فِيهَا غَالِبٌ ، فَعَلَّمُوا عِبِيدَكُمْ وَخَدَمَكُمْ وَصَبِيَانَكُمْ أَلَّا يَدْخُلُوا
عَلَيْكُمْ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ إِلَّا بَعْدَ الِاسْتِئْذَانِ ﴿٦١﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴿٦٢﴾ أَي لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا
عَلَى الْمَالِكِ وَالصَّبِيَانِ حَرْجٌ فِي الدَّخُولِ عَلَيْكُمْ بَعْدَ اسْتِئْذَانِ بَعْدَ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ ﴿٦٣﴾ طَوْفُونَ عَلَيْكُمْ
بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿٦٤﴾ أَي لِأَنَّهُمْ خَدَمُكُمْ يَطُوفُونَ عَلَيْكُمْ لِلخِدْمَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ قَالَ أَبُو حَيَّانَ : أَي يَمْضُونَ
وَيَجِئُونَ وَيَدْخُلُونَ عَلَيْكُمْ فِي الْمَنَازِلِ غَدَوَةً وَعَشِيَّةً بَعْدَ إِذْنٍ إِلَّا فِي تِلْكَ الْأَوْقَاتِ (٦٥) ﴿٦٦﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
الْآيَاتِ ﴿٦٧﴾ أَي مِثْلَ ذَلِكَ التَّوْضِيحِ وَالْبَيَانِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ لِتَتَأَدَّبُوا بِهَا ﴿٦٨﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٩﴾
أَي عَالِمٌ بِأُمُورِ خَلْقِهِ ، حَكِيمٌ فِي تَدْبِيرِهِ لَهُمْ ﴿٧٠﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ ﴿٧١﴾ أَي وَإِذَا بَلَغَ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالُ
الصِّغَارِ مَبْلَغَ الرِّجَالِ وَأَصْبَحُوا فِي سِنِّ التَّكْلِيفِ ﴿٧٢﴾ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿٧٣﴾ أَي فَعَلِمُوهُمْ
الْأَدَبَ السَّامِيَّ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ كَمَا يَسْتَأْذِنُ الرِّجَالُ الْبَالِغُونَ ﴿٧٤﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴿٧٥﴾ أَي
يَفْصَلُ لَكُمْ أُمُورَ الشَّرِيعَةِ وَالدِّينِ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧٧﴾ أَي عَلِيمٌ بِخَلْقِهِ حَكِيمٌ فِي تَشْرِيْعِهِ قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ :
كُرِّرَ تَأْكِيدًا وَمِبَالِغَةً فِي الْأَمْرِ بِالِاسْتِئْذَانِ (٧٨) ﴿٧٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴿٨٠﴾ أَي وَالنِّسَاءُ الْعَجَائِزُ اللَّوَاتِي قَعَدْنَ عَنِ
التَّصْرِيفِ وَطَلَبِ الزَّوْجِ لِكِبَرِ سِنِّهِنَّ ﴿٨١﴾ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴿٨٢﴾ أَي لَا يَطْمَعْنَ فِي الزَّوْجِ وَلَا يَرْغَبْنَ فِيهِ
لِانْعِدَامِ دَوَافِعِ الشَّهْوَةِ فِيهِنَّ ﴿٨٣﴾ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴿٨٤﴾ أَي لَا حَرْجَ وَلَا إِثْمَ عَلَيْهِنَّ فِي أَنْ
يَضَعْنَ بَعْضَ ثِيَابِهِنَّ كَالرِّدَاءِ وَالْجَلْبَابِ ، وَيُظْهِرْنَ أَمَامَ الرِّجَالِ بِمَلَابِسِهِنَّ الْمَعْتَادَةَ الَّتِي لَا تَلْفِتُ انْتِبَاهًا ، وَلَا
تُثِيرُ شَهْوَةً ﴿٨٥﴾ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴿٨٦﴾ أَي غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِالزَّيْنَةِ لِيَنْظُرَ إِلَيْهِنَّ قَالَ أَبُو حَيَّانَ : وَحَقِيقَةُ التَّبَرُّجِ
إِظْهَارُ مَا يَجِبُ إِخْفَاؤُهُ ، وَرَبُّ عَجُوزٍ شَمَطَاءٍ يَبْدُو مِنْهَا الْحَرَصُ عَلَى أَنْ يَظْهَرَ بِهَا جَمَالٌ (٨٧) ﴿٨٨﴾ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ
خَيْرٌ لَهُنَّ ﴿٨٩﴾ أَي وَأَنْ يَسْتَرْنَ بَارْتِدَاءَ الْجَلْبَابِ وَلبَسِ الثِّيَابِ كَمَا تَلْبَسُهُ الشَّابَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ، مِبَالِغَةً فِي التَّسْتَرِ
وَالتَّعْفُفِ خَيْرٌ لَهُنَّ وَأَكْرَمُ ، وَأَزْكَى عِنْدَ اللَّهِ وَأَطْهَرُ ﴿٩٠﴾ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩١﴾ أَي يَعْلَمُ خَفَايَا النُّفُوسِ وَيَجَازِي
كُلَّ إِنْسَانٍ بِعَمَلِهِ ، وَفِيهِ وَعْدٌ وَتَحْذِيرٌ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ ﴿٩٣﴾
أَي لَيْسَ عَلَى أَهْلِ الْأَعْذَارِ « الْأَعْمَى ، وَالْأَعْرَجُ ، وَالْمَرِيضُ » حَرْجٌ وَلَا إِثْمٌ فِي الْقَعُودِ عَنِ الْغَزْوِ وَلِضَعْفِهِمْ
وَعَجْزِهِمْ (٩٤) ﴿٩٥﴾ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴿٩٦﴾ أَي وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِثْمٌ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِ

(١) البحر ٤٧٢/٦ . (٢) البيضاوي ٦٢/٢ . (٣) البحر ٤٧٣/٦ . (٤) هذا قول الحسن وابن زيد وهو الظاهر واختاره صاحب البحر
والكشاف وقيل المراد نفي الحرج عن أهل الأعذار أن يأكلوا مع الأصحاء واختاره الطبري والرازي .

بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ
 أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ، أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا
 عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ إِنَّمَا
 الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ

أزواجكم وعيالكم قال البيضاوي : فيدخل فيها بيوت الأولاد لأن بيت الولد كبيته لقوله عليه السلام : إن
 أطيب ما يأكل المرء من كسبه ، وإن ولده من كسبه (١) ﴿ أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت
 إخوانكم أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم ﴾
 أي لا حرج في الأكل من بيوت هؤلاء الأقارب قال الرازي : والظاهر أن إباحة الأكل لا تتوقف على
 الاستئذان لأن العادة أن هؤلاء القوم تطيب أنفسهم بأكل الأقارب (٢) ﴿ أو ما ملكتم مفاتيحه ﴾ أي البيوت
 التي توكلون عليها وتملكون مفاتيحها في غياب أهلها قالت عائشة : كان المسلمون يذهبون مع رسول الله
 في الغزو ويدفعون مفاتيحهم إلى ضمانتهم ويقولون : قد أحللنا لكم الأكل منها فكانوا يقولون : إنه لا
 يحل لنا أن نأكل ، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم وإنما نحن أمناء فأنزل الله ﴿ أو ما ملكتم مفاتيحه ﴾ (٣)
 ﴿ أو صديقكم ﴾ أي أو بيوت أصدقائكم وأصحابكم قال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل
 بغير إذنه ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً وأشتاتاً ﴾ أي ليس عليكم إثم أو حرج أن تأكلوا مجتمعين أو
 متفرقين قال المفسرون : نزلت في حي من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده ، يمكث يومه فإن لم يجد
 من يؤاكله لم يأكل شيئاً : وربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه فأخبرهم
 تعالى بأن الرجل إذا أكل وحده لا حرج عليه ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ﴾ أي إذا دخلتم بيوتاً
 مسكونة فسلموا على من فيها من الناس ﴿ تحية من عند الله مباركة طيبة ﴾ أي حيّوهم بتحية الإسلام
 « السلام عليكم » وهي التحية المباركة الطيبة التي شرعها الله لعباده المؤمنين قال القرطبي : وصفها
 بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب المودة ، ووصفها بالطيب لأن سامعها يستطيبها (٤) ﴿ كذلك بيّن الله لكم
 الآيات لعلكم تعقلون ﴾ قال ابن كثير : لما ذكر تعالى في هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة ،
 والشرائع المبرمة ، نبّه عباده على أنه يبين لهم الآيات بياناً شافياً ليتدبروها ويتعقلوها لعلهم يعقلون (٥) ﴿ إنما
 المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ﴾ أي إنما المؤمنون الكاملون في الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله
 تصديقاً جازماً لا يخالجه شك ﴿ وإذا كانوا معه على أمر جامع ﴾ أي وإذا كانوا مع الرسول في أمر هام فيه
 مصلحة للمسلمين ﴿ لم يذهبوا حتى يستأذنه ﴾ أي لم يتركوا مجلسه حتى يستأذنه فيأذن لهم قال

(١) البيضاوي ٢/ ٦٣ . (٢) التفسير الكبير ٢٤/ ٣٦ . (٣) ابن كثير ٢/ ٦١٩ المختصر

(٤) القرطبي ١٢/ ٣١٩ . (٥) ابن كثير ٢/ ٦٢٠ المختصر

يَسْتَعِذُّونَكَ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَعِذُّوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٠﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤١﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٤٢﴾

المفسرون : نزلت هذه الآية في وقت حفر الخندق ، فإن بعض المؤمنين كانوا يستأذنون في الانصراف لضرورة ، وكان المنافقون يذهبون بغير استئذان فنزلت تمدح المؤمنين الخالصين ، وتعرض بدم المنافقين ﴿إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله﴾ هذا توكيد لما تقدم ذكره تفخياً وتعظيماً لشأن الرسول ﷺ أي إن الذين يستأذنونك يا محمد أولئك هم المؤمنون حقاً قال البيضاوي : أعاده مؤكداً على أسلوب أبلغ فإن جعل المستأذنين هم المؤمنين عكس الأسلوب الأول وفيه تأكيد للأول بذكر لفظ الله ورسوله فيكون مصداقاً ودليلاً على صحة الإيمان ^(١) ﴿فإذا استأذنتك لبعض شأنهم﴾ أي فإذا استأذنتك هؤلاء المؤمنون لبعض شئونهم ومهامهم ^(٢) ﴿فأذن لمن شئت منهم﴾ أي فاسمح لمن أحببت بالانصراف إن كان فيه حكمة ومصالحة ﴿واستغفر لهم الله﴾ أي وادع الله لهم بالعفو والمغفرة فإن الاستئذان ولو لعذر قصوراً لأنه تقديم لأمر الدنيا على أمر الدين ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي عظيم العفو واسع الرحمة ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ أي لا تنادوا الرسول باسمه كما ينادي بعضكم بعضاً باسمه بل قولوا : يا نبي الله ويا رسول الله تفخياً لمقامه وتعظيماً لشأنه قال أبو حيان : لما كان التداعي بالأسماء على عادة البدواة أمروا بتوقير رسول الله ﷺ ودعائه بأحسن ما يدعى به نحو يا رسول الله ، يا نبي الله ، ألا ترى إلى بعض جفاة من أسلم كان يقول يا محمد فهوا عن ذلك ^(٣) قال قتادة : أمرهم تعالى أن يفخموه ويشرفوه ﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً﴾ أي قد علم الله الذين ينسلون قليلاً قليلاً ويخرجون من الجماعة في خفية يستتر بعضهم ببعض قال الطبري : واللواذ هو أن يلوذ القوم بعضهم ببعض ، يستتر هذا بهذا وهذا بهذا ^(٤) ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾ أي فليحذر الذين يخالفون أمر الرسول ويتركون سبيله ومنهجه وسنته ﴿أن يصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ أي تنزل بهم محنة عظيمة في الدنيا أو ينالهم عذاب شديد في الآخرة ﴿ألا إن لله ما في السموات والأرض﴾ أي له جل وعلا ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبداً ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ أي قد علم ما في نفوسكم من الإيمان أو النفاق ،

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٤٤٠/٣

(٢) قال ابن عباس : « إن عمر استأذن النبي ﷺ في العمرة فأذن له ثم قال : (يا أبا حفص لا تنسنا من صالح دعائك)»

(٣) البحر ٤٧٦/٦ (٤) الطبري ١٣٥/١٨

والإخلاص أو الرياء ﴿ويومَ يرجعون إليه فينبتهم بما عملوا﴾ أي ويوم القيامة يرجعون إليه فيخبرهم بما فعلوا في الدنيا من صغيرٍ وكبيرٍ ، وجليلٍ وحقيرٍ ويجازي كلا بعمله ﴿والله بكل شيءٍ عليم﴾ أي لا يخفى عليه خافية لأن الكل خلقه وملكه .

البلاغة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبيان نوجزها فيما يلي :

١ - الاستعارة اللطيفة ﴿جهدَ أيمانهم﴾ شبه الأيمان التي يحلف بها المنافقون بالغين فيها أقصى المراتب في الشدة والتوكيد بمن يجهد نفسه في أمر شاق لا يستطيعه ويبدل أقصى وسعه وطاقته بطريق الاستعارة .

٢ - المشاكلة ﴿عليه ما حملٌ وعليكم ما حملتم﴾ أي عليه أمرُ التبليغ وعليكم وزر التكذيب .

٣ - الطباق بين الخوف والأمن ﴿من بعد خوفهم أمناً﴾ وكذلك بين الجميع والأشتات ﴿جميعاً أو أشتاتاً﴾ لأن المعنى مجتمعين ومتفرقين .

٤ - الإطناب بتكرير لفظ الحرج لترسيخ الحكم في الأذهان ﴿ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج﴾ .

٥ - صيغة المبالغة ﴿غفور رحيم﴾ .

فكائدة : قال بعض السلف : من أمر السُّنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لقوله تعالى ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾^(١) .

لطيفة : قيل لبعضهم : من أحبُّ إليك أخوك أم صديقك ؟ فقال : لا أحب أخي إذا لم يكن صديقي . وقال ابن عباس : « الصديق أوكد من القريب ألا ترى استغاثة الجهنميِّين حين قالوا ﴿فما لنا من شافعين﴾ ولا صديقٍ حميمٍ ﴿ ولم يستغيثوا بالأباء والأمهات ﴾ »^(٢) .

تنبية : كان بعض العرب يرى أحدهم أن عاراً وخزياً عليه أن يأكل وحده ويبقى جائعاً حتى يجد من يؤاكله ويشاربه واشتهر هذا عن حاتم فكان يقول :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له أكيلاً فإنسي لست آكله وحدي

وهذا من مآثر العرب ومفاخرهم ، فقد اشتهروا بالجوود والكرم ، وقرى الضيف .

« تم بحمد الله تفسير سورة النور »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الفرقان مكية وهي تعنى بشئون العقيدة ، وتعالج شبهات المشركين حول رسالة محمد ﷺ ، وحول القرآن العظيم ، ومحور السورة يدور حول إثبات صدق القرآن ، وصحة الرسالة المحمدية ، وحول عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء ، وفيها بعض القصص للعتبة والاعتبار .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن الذي تفنن المشركون بالطعن فيه ، والتكذيب بآياته ، فتارة زعموا أنه أساطير الأولين ، وأخرى زعموا أنه من اختلاق محمد أعانه عليه بعض أهل الكتاب ، وثالثة زعموا أنه سحرٌ مبین ، فردَّ الله تعالى عليهم هذه المزاعم الكاذبة ، والأوهام الباطلة ، وأقام الأدلة والبراهين على أنه تنزيل رب العالمين ، ثم تحدثت عن موضوع الرسالة التي طالما خاض فيها المشركون المعاندون ، واقترحوا أن يكون الرسول ملكاً لا بشراً ، وأن تكون الرسالة - على فرض تسليم الرسول من البشر - خاصة بذوي الجاه والثراء ، فتكون لإنسان غني عظيم ، لا لفقر يتيماً ، وقد ردَّ الله تعالى شبهتهم بالبرهان القاطع ، والحجة الدامغة ، التي تقصم ظهر الباطل .

* ثم ذكرت الآيات فريقاً من المشركين عرفوا الحقَّ وأقرّوا به ، ثم انتكسوا إلى جحيم الضلال ، وذكرت منهم « عقبه بن أبي معيط » الذي أسلم ثم ارتد عن الدين بسبب صديقه الشقي « أبي بن خلف » وقد سماه القرآن الكريم بالظالم ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه ﴾ الآية وسمى صديقه بالشیطان .

* وفي ثنايا السورة الكريمة جاء ذكر بعض الأنبياء إجمالاً وجاء الحديث عن أقوامهم المكذبين ، وما حلَّ بهم من النكال والدمار نتيجة لطغيانهم وتكذيبهم لرسول الله كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وأصحاب الرسّ وقوم لوط ، وغيرهم من الكافرين الجاحدين ، كما تحدثت السورة عن دلائل قدرة الله ووحدانيته ، وعن عجائب صنعه وأثار خلقه في هذا الكون البديع ، الذي هو أثر من آثار قدرة الله ، وشاهد من شواهد العظمة والجلال .

* وختمت السورة ببيان صفات عباد الرحمن ، وما أكرمهم الله به من الأخلاق الحميدة التي استحقوا بها الأجر العظيم في جنات النعيم .

التسمية : سميت السورة الكريمة «سورة الفرقان» لأن الله تعالى ذكر فيها هذا الكتاب المجيد الذي أنزله على عبده محمد ﷺ ، وكان النعمة الكبرى على الإنسانية لأنه النور الساطع والضياء المبين ، الذي فرق الله به بين الحق والباطل ، والنور والظلام ، والكفر والإيمان ، ولهذا كان جديراً بأن يسمى الفرقان .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ

اللغات : ﴿تبارك﴾ من البركة وهي كثرة الخير وزيادته ويأتي بمعنى التمجيد والتعظيم قال الشاعر :

تباركت لا معطٍ لشيء منعته وليس لما أعطيت يا رب مانع^(١)

﴿نذيراً﴾ النذير : المحذّر من الهلاك ﴿نشوراً﴾ النشور : الإحياء بعد الموت ﴿مقرنين﴾ مربوطين بالسلاسل قال عمرو بن كلثوم :

فأبوا بالنهب وبالسبايا وأبنا بالملوك مقرّنين^(٢)

﴿ثبوراً﴾ هلاكاً ودماراً ﴿بوراً﴾ مأخوذ من البوار وهو الهلاك قال أبو عبيدة : يقال رجلٌ بور ورجال بور ومعناه هالك ، والبوار الهلاك^(٣) .

التفسير : ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده﴾ أي تمجّد وتعظّم وتكاثّر خير الله الذي نزل القرآن العظيم الفارق بين الحق والباطل على عبده محمد ﷺ ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ أي ليكون محمد نبياً للخلق أجمعين مخوفاً لهم من عذاب الله ﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾ أي هو تعالى المالك لجميع ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً وعبيداً ﴿ولم يتخذ ولداً﴾ أي وليس له ولد كما زعم اليهود والنصارى ﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾ أي وليس معه إله كما قال عبدة الأوثان ﴿وخلق كل شيء بقدرته تقديرًا﴾ أي أوجد كل شيء بقدرته مع الإتيان والإحكام قال في التسهيل : الخلق عبارة عن الإيجاد بعد العدم ، والتقدير عبارة عن اتقان الصنعة وتخصيص كل مخلوق بمقداره وصنعتة ، وزمانه ومكانه ، ومصالحته وأجله وغير ذلك^(٤) وقال الرازي : وصف سبحانه ذاته بأربع أنواع من صفات الكبرياء : الأول : أنه المالك للسموات والأرض وهذا كالتنبيه على وجوده والثاني : أنه هو المعبود أبداً والثالث : أنه المنفرد بالالوهية والرابع : أنه الخالق لجميع الأشياء مع الحكمة والتدبير^(٥) ﴿واتخذوا من دونه آلهة﴾ أي

(١) البيت للطرماح وانظر البحر ٤٨٠/٦ . (٢) القرطبي ٨/١٣ . (٣) التفسير الكبير ٦٣/٢٤ . (٤) التسهيل ٧٤/٣ . (٥) التفسير الكبير

شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٧﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٨﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩﴾ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿١٠﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿١١﴾

عبد المشركون غير الله من الأوثان والأصنام ﴿لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون﴾ أي لا يقدرُونَ على خلق شيء أصلاً بل هم مصنوعون بالنحت والتصوير فكيف يكونون آلهة مع الله ؟ ﴿ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً﴾ أي لا يستطيعون دفع ضرر عنهم ولا جلب نفع لهم ﴿ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً﴾ أي لا تملك أن تميت أحداً ، ولا أن تُحيي أحداً ولا أن تبعث أحداً من الأموات قال الزمخشري : المعنى أنهم آثروا على عبادة الله عبادة آلهة لا يقدرُونَ على شيء ، وإذا عجزوا عن دفع الضرر وجلب النفع الذي يقدر عليه العباد كانوا عن الموت والحياة والنشور الذي لا يقدر عليها إلا الله أعجز^(١) ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه﴾ أي وقال كفار قريش ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد من تلقاء نفسه ﴿وأعانه عليه قوم آخرون﴾ أي وساعده على هذا الاختلاق قومٌ من أهل الكتاب ﴿فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾ أي جاءوا بالظلم والبهتان حيث جعلوا العربي يتلقن من العجمي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب فكان كلامهم فيه محض الكذب والزور ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها﴾ أي وقالوا في حق القرآن أيضاً إنه خرافات الأمم السابقين أمر أن تكتب له ﴿فهي تُملى عليه بكرةً وأصيلاً﴾ أي فهي تُلقى وتقرأ عليه ليحفظها صباحاً ومساءً قال ابن عباس : والقائل هو «النضر بن الحارث» وأتباعه والإفك أسوأ الكذب^(٢) ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾ هذا رد عليهم في تلك المزاعم أي قل لهم يا محمد أنزله الله العليم القدير الذي لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض ﴿إنه كان غفوراً رحيماً﴾ أي إنه تعالى لم يعجل لكم العقوبة بل أمهلكم رحمة بكم لأنه واسع المغفرة رحيم بالعباد ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ أي وقال المشركون ما لهذا الذي يزعم الرسالة يأكل الطعام كما نأكل ، ويمشي في الأسواق لطلب المعاش كما نمشي ؟ إنه ليس بملك ولا ملك ، لأن الملائكة لا تأكل ، والملوك لا تتبدل في الأسواق ، وفي قولهم ﴿ما لهذا الرسول﴾ مع إنكارهم لرسالته تهكم واستهزاء ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ أي هلاً بعث الله معه ملكاً ليكون له شاهداً على صدق ما يدعيه ! ﴿أو يُلقى إليه كنز﴾ أي يأتيه كنزٌ من السماء فيستعين به ويستغني عن طلب المعاش ﴿أو تكون له جنة يأكل منها﴾ أي يكون له بستان يأكل من ثماره ﴿وقال الظالمون إن

أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿١١﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٢﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١٣﴾
إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴿١٤﴾

تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿١٥﴾ أي وقال الكافرون ما تتبعون أيها المؤمنون إلا إنساناً سحر فغلب على عقله
فهو يزعم أنه رسول الله ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا﴾ أي انظر كيف قالوا في حقك يا محمد
تلك الأقاويل العجيبة ، الجارية لغرابتها مجرى الأمثال ! وكيف اخترعوا تلك الصفات والأحوال الشاذة
فضلوا بذلك عن الهدى ! ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾ أي فلا يجدون طريقاً الى الحق بعد أن ضلوا عنه
بتكذيبك وإنكار رسالتك ، ذكروا له عليه الصلاة والسلام خمس صفات وزعموا أنها تخل بالرسالة زعماً
منهم أن فضيلة الرسول على غيره تكون بأمور جسمانية وهي غاية الجهالة والسفاهة فرد الله عليهم
بأمرين : الأول : تعجيب الرسول ﷺ من تناقضهم فتارة يقولون عنه شاعر ، وتارة ساحر ، وأخرى
يقولون إنه مجنون حتى أصبحت تلك الأقوال الغريبة الشاذة ، والأمور العجيبة جارية مجرى الأمثال
والثاني : أن الله تعالى لو أراد لأعطى نبياً خيراً مما اقترحوا وأفضل مما يتصورون وهو المراد بقوله ﴿تبارك
الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ أي تمجد وتعظم الله الكبير الجليل الذي لو أراد لجعل لك خيراً
من ذلك الذي ذكره من نعيم الدنيا ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي لو شاء لأعطاك بساتين
وحداث تسير فيها الأنهار لا جنة واحدة كما قالوا ﴿ويجعل لك قصوراً﴾ أي ويجعل لك مع الحداث القصور
الرفيعة المشيدة كما هو حال الملوك قال الضحاك : لما عبر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة حزن عليه السلام
فنزل جبريل معزياً له فبينما النبي وجبريل يتحدثان إذ فتح باب من السماء فقال جبريل : أبشر يا محمد هذا
رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضى من ربك فسلم عليه وقال : ربك يخبرك بين أن تكون نبياً ملكاً ، وبين أن
تكون نبياً عبداً - ومعه سفظ من نور يتلألأ - ثم قال : هذه مفاتيح خزائن الأرض فنظر رسول الله ﷺ إلى
جبريل كالمستشير فأوماً بيده أن تواضع فقال رسول الله ﷺ «بل نبياً عبداً» فكان عليه السلام بعد ذلك لا
يأكل متكاً حتى فارق الدنيا ﴿١٦﴾ ﴿بل كذبوا بالساعة﴾ أي بل كذبوا بالقيامة ﴿واعتدنا لمن كذب بالساعة
سعيراً﴾ أي وهياناً لمن كذب بالآخرة ناراً شديدة الاستعار قال الطبري : المعنى ما كذب هؤلاء المشركون
بالله وأنكروا ما جنتهم به من الحق من أجل أنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق ولكن من أجل أنهم لا
يوقنون بالمعاد تكذيباً منهم بالقيامة وأعدنا لمن كذب بالبعث ناراً تُسعر عليهم وتتقد ﴿١٧﴾ ﴿إذا رأتهم من
مكان بعيد﴾ أي إذا رأت جهنم هؤلاء المشركين من مسافة بعيدة وهي خمسمائة عام ﴿سمعوا لها تغيظاً
وزفيراً﴾ أي سمعوا صوت لهيها وغليناها كالغضبان إذا غلا صدره من الغيظ وسمعوا لها صوتاً كصوت
الحمار وهو الزفير قال ابن عباس : إن الرجل ليجر إلى النار فتشوق إليه النار شهوق البغلة الى الشعر ،

وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٤﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٥﴾ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٦﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٧﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَآبَاءَهُمْ حَتَّى

وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف^(١) ، وتقيد الرؤية بالبعد ﴿من مكان بعيد﴾ فيه مزيد تهويل لأمرها ﴿وإذا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ أي وإذا أُلْقُوا فِي جَهَنَّمَ فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : تَضْيِقُ عَلَيْهِمْ ضَيْقَ الزُّجِّ فِي الرُّمْحِ^(٢) - الزُّجُّ : الْحَدِيدَةُ الَّتِي فِي أَسْفَلِ الرَّمْحِ - ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أي مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي دَعَوْا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْوَيْلِ وَالْهَلَاكِ يَقُولُونَ : يَا هَلَاكُنَا ، نَادَوْهُ نِدَاءَ الْمُتَمَنِّي لِلْهَلَاكِ لَيْسَلْمُوا مِمَّا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ كَمَا قِيلَ : أَشَدُّ مِنَ الْمَوْتِ مَا يَتَمَنَّى مَعَهُ الْمَوْتُ ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي يُقَالُ لَهُمْ : لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ بِالْهَلَاكِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً بَلْ ادْعُوا مَرَاتٍ وَمَرَاتٍ ، فَإِنَّ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ يَسْتَوْجِبُ تَكَرُّرَ الدَّعَاءِ فِي كُلِّ حِينٍ وَأَنْ ، وَفِيهِ إِقْنَاطٌ لَهُمْ مِنْ اسْتِجَابَةِ الدَّعَاءِ وَتَخْفِيفِ الْعَذَابِ ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾؟ أي قل لهم يا محمد على سبيل التفرغ والتهمك أذلك السعير خير أم جنة الخلود التي وعدتها المتقون؟ قال ابن كثير : يقول الله تعالى يا محمد : هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء الذين تتلقاهم جهنم بوجه عبوسٍ وتغيظٍ وزفير ، ويلقون في أماكنها الضيقة مقرنين لا يستطيعون حراكاً ولا فكاً كما هم فيه ، أهذا خير أم جنة الخلود التي وعدتها الله المتقين من عباده^(٣)؟ قال الإمام الفخر : فإن قيل كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلود؟ وهل يجوز أن يقول العاقل : السكر أحلى أم الصبر؟ قلنا : هذا يحسن في معرض التفرغ كما إذا أعطى السيد عبده مالا فتمرد وأبى واستكبر فيضربه ضرباً وجيعاً ويقول على سبيل التوبيخ : أهذا أطيب أم ذاك^(٤)؟ ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ أي كانت لهم ثواباً ومرجعاً ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي لهم في الجنة ما يشاءون من النعيم ﴿خَالِدِينَ﴾ أي ما كثرين فيها أبداً سرمداً بلا زوال ولا انقضاء ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ أي كان ذلك الجزاء وعداً على ذي الجلال حقيقة بأن يُسأل ويُطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون ، وهو وعدٌ واجبٌ ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي واذكر ذلك اليوم الرهيب - يوم القيامة - حين يجمع الله الكفار والأصنام وكل من عبد من دون الله كالملائكة والمسيح قال مجاهد : هو عيسى وعزير والملائكة ﴿فَيَقُولُ أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي فيقول تعالى للمعبودين تفرغاً لعبدتهم : أنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم؟ أم هم ضلوا السبيل؟ أي أم هم ضلوا الطريق فعبدوكم من تلقاء أنفسهم؟ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي قال

نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢١﴾

المعبودون تعجباً مما قيل لهم : تنزهت يا الله عن الأنداد ﴿ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء﴾ أي ما يحق لنا ولا لأحد من الخلق أن يعبد غيرك ، ولا أن يشرك معك سواك ﴿ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر﴾ أي ولكن أكثرت عليهم وعلى آبائهم النعمة - وكان يجب عليهم شكرها والإيمان بما جاءت به الرسل - فكان ذلك سبباً للإعراض عن ذكرك وشكرك ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ أي وكانوا قوماً هالكين ، قال تعالى توبيخاً للكفرة ﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾ أي فقد كذبكم هؤلاء المعبودون في قولكم إنهم آلهة ﴿فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً﴾ أي فما تستطيعون أيها الكفار دفعاً للعذاب عنكم ولا نصراً لأنفسكم من هذا البلاء ﴿ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً﴾ أي ومن يشرك منكم بالله فيظلم نفسه نذقه عذاباً شديداً في الآخرة ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد أحداً من الرسل إلا وهم يأكلون ويشربون ويتجولون في الأسواق للتكسب والتجارة ، فتلك هي سنة المرسلين من قبلك فلم ينكروا ذلك عليك ؟ وهو جواب عن قولهم ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام﴾ ؟ ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾ أي جعلنا بعض الناس بلاءً لبعض ومحنة ، ابتلى الله الغني بالفقر ، والشريف بالوضيع ، والصحيح بالمرضى ليختبر صبركم وإيمانكم أتشكرون أم تكفرون ؟ قال الحسن : يقول الأعمى لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان ، ويقول الفقير لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان ، ويقول السقيم : لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان^(١) ﴿وكان ربك بصيراً﴾ أي عالماً بمن يصبر أو يجزع ، ومن يشكر أو يكفر .

البلاغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الإضافة للتشريف ﴿على عبده﴾ ولم يذكره باسمه تشريفاً له وتكريماً .

٢ - الاكتفاء بأحد الوصفين ﴿ليكون للعلمين نذيراً﴾ أي ليكون بشيراً ونذيراً واكتفى بالإنداز لمناسبته للكفار .

٣ - الجناس الناقص ﴿يُخْلِقُونَ . . وَيُخْلَقُونَ﴾ سمي ناقصاً لتغايره في الشكل .

٤ - الطباق بين ﴿ضراً . . ونفعاً﴾ وبين ﴿موتاً . . وحياة﴾ .

٥ - الاستفهام للتهكم والتحقير ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام﴾ ؟

٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ شبه صوت غليانها بصوت المغناط وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه وهو تمثيل وصف النار بالاهتياج والاضطراب على عادة المغيظ والغضبان .

٧ - جناس الاشتقاق ﴿أرسلنا .. المرسلين﴾ .

٨ - الجناس غير التام ﴿تصبرون .. بصيراً﴾ لتقديم بعض الحروف وتأخير البعض .

لطيفة : نبه تعالى بقوله ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ على أنه تعالى يعطي العباد على حسب المصالح ، ويفتح على واحد أبواب المعارف والعلوم ويسد عليه أبواب الدنيا ، ويفتح على آخر أبواب الرزق ويحرمه لذة الفهم والعلم ، ولا اعتراض عليه لأنه فعال لما يريد .

قال الله تعالى : ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا .. إلى .. بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾

من آية (٢١) إلى نهاية آية (٤٠) .

المناسكة : لما حكى تعالى إنكار المشركين لنبوة محمد عليه السلام وتكذيبهم للقرآن ، أعقبه بذكر بعض جرائمهم الأخرى ، ثم ذكر قصص بعض الأنبياء وما حلَّ بأقوامهم المكذبين تسلية لرسول الله عليه الصلاة والسلام .

اللغز : ﴿حجراً﴾ بكسر الحاء حراماً من حجّره إذا منعه قال الشاعر :

« ألا أصبحت أسماء حجراً محرماً »

أي حراماً محرماً ﴿هباء﴾ قال أبو عبيدة : الهباء مثل الغبار يدخل من الكوة مع ضوء الشمس ﴿منثوراً﴾ المنثور : المتفرق ﴿مقيلاً﴾ المقييل : زمان القيلولة وهي الاستراحة نصف النهار إذا اشتدَّ الحر ﴿تبرناً﴾ التبير : التدمير والتكسير قال الزجاج : كلُّ شيء كسّرتَه وفتّته فقد تبرّته .

سبب النزول : روي أن «عقبة بن أبي معيط» وكان صديقاً لأبي بن خلف صنع وليمة فدعا إليها قريشاً ودعا رسول الله ﷺ فلما قُدم الطعام قال رسول الله ﷺ ما أنا بأكل طعامك حتى تشهد أنني رسول الله ففعل فأكل رسول الله من طعامه فلما بلغ «أبي بن خلف» ذلك قال لصديقه عقبة صبأت قال : لا ولكن دخل علي رجل عظيم فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له بالرسالة فقال له أبي : وجهي من وجهك حرام إن رأيت محمداً حتى تبرز في وجهه وتطأ على عنقه وتقول كيت وكيت ، ففعل عدو الله ما أمره به خليله فأنزل الله ﴿ويوم يعرض الظالم على يديه .. الآية﴾ (١) .

* وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا

النفسير : ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي قال المشركون الذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يخشون عقابه لتكذيبهم بالبعث والنشور ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ أي هلاً نزلت الملائكة علينا فأخبرونا بصدق محمد ﴿أونرى ربنا﴾ أي أونرى الله عياناً فيخبرنا أنك رسوله قال أبو حيان : وهذا

كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرُونَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ
 فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ
 وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ
 كَلَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّعْنَتِ وَإِلَّا فَمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ كَافٍ لَوْ وَقَفُوا^(١) ﴿٢٧﴾ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ
 أَي تَكْبَرُوا فِي شَأْنِ أَنْفُسِهِمْ حِينَ تَفَوَّهُوا بِمِثْلِ هَذِهِ الْعَظِيمَةِ ، وَطَلَبُوا مَا لَا يَنْبَغِي ﴿٢٨﴾ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴿٢٩﴾ أَي
 تَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي الظُّلْمِ وَالطَّغْيَانِ ، حَتَّى بَلَغُوا أَقْصَى الْعَتْوِ وَغَايَةَ الْاسْتِكْبَارِ ﴿٣٠﴾ يَوْمَ يَرُونَ الْمَلَائِكَةَ لَا
 بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ أَي يَوْمَ يَرَى الْمُشْرِكُونَ الْمَلَائِكَةَ حِينَ تَنْزِلُ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ وَقْتَ الْإِحْتِضَارِ لَنْ
 يَكُونَ لِلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ بَشَارَةٌ تَسْرَهُمْ بَلْ لَهُمُ الْخِيبَةُ وَالْخُسْرَانُ ﴿٣٢﴾ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٣٣﴾ أَي تَقُولُ
 الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ : حَرَامٌ وَمَحْرَمٌ عَلَيْكُمْ الْجَنَّةُ وَالْبُشْرَى وَالْغُفْرَانُ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : وَذَلِكَ يَصْدُقُ عَلَى وَقْتِ
 الْإِحْتِضَارِ حِينَ تَبْشُرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِالنَّارِ ، فَتَقُولُ لِلْكَافِرِ عِنْدَ خُرُوجِ رُوحِهِ : أُخْرِجِي أَيْتَهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ فِي
 الْجَسَدِ الْخَبِيثِ ، أُخْرِجِي إِلَى سُمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظَلٍ مِنْ يَحْمُومٍ فَتَأْبَى الْخُرُوجَ وَتَتَفَرَّقُ فِي الْبَدَنِ فَيَضْرِبُونَهُ
 بِمَقَامِعِ الْحَدِيدِ ، بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ حَالَ إِحْتِضَارِهِمْ فَإِنَّهُمْ يُبْشِرُونَ بِالْخَيْرَاتِ وَحُصُولِ الْمَسْرَاتِ ﴿٣٤﴾ تَنْزِلُ
 عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٦﴾ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ
 عَمَلٍ ﴿٣٧﴾ أَي عَمَدْنَا إِلَى أَعْمَالِ الْكُفَّارِ الَّتِي يَعْتَقِدُونَهَا بَرًّا كَأَطْعَامِ الْمَسَاكِينِ وَصَلَةِ الْأَرْحَامِ وَيُظَنُّونَ أَنَّهَا تَقْرِبُهُمْ
 إِلَى اللَّهِ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٣٩﴾ أَي جَعَلْنَاهُ مِثْلَ الْغُبَارِ الْمَنْثُورِ فِي الْجَوِّ ، لِأَنَّهُ لَا يَعْتَمِدُ عَلَى أُسَاسٍ وَلَا
 يَسْتَنْدُ عَلَى إِيمَانٍ قَالَ الطَّبْرِيُّ : أَي جَعَلْنَاهُ بَاطِلًا لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوهُ لِلَّهِ ، وَإِنَّمَا عَمِلُوهُ لِلشَّيْطَانِ ، وَالهَبَاءُ هُوَ
 الَّذِي يُرَى كَهَيْئَةِ الْغُبَارِ إِذَا دَخَلَ ضَوْءُ الشَّمْسِ مِنْ كُوَّةٍ ، وَالْمَنْثُورُ الْمَتَفَرِّقُ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : إِنْ اللَّهُ أَحْبَطَ
 أَعْمَالَهُمْ بِسَبَبِ الْكُفْرِ حَتَّى صَارَتْ بِمَنْزِلَةِ هَبَاءِ الْمَنْثُورِ ﴿٤١﴾ ﴿٤٢﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ﴿٤٣﴾ لَمَّا بَيَّنَّ
 تَعَالَى حَالَ الْكُفْرِ وَأَنَّ فِي الْخُسْرَانِ الْكَلِي وَالْخِيبَةَ التَّامَةَ ، شَرَحَ وَصَفَ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَأَنَّ فِي غَايَةِ السَّرُورِ
 وَالْحُبُورِ ، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ السَّعَادَةَ كُلَّ السَّعَادَةِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ ، وَمَعْنَى الْآيَةِ : أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ خَيْرٌ مِنَ الْكُفَّارِ مُسْتَقَرًّا وَمَنْزِلًا وَمَأْوَى ﴿٤٤﴾ وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٤٥﴾ أَي وَأَحْسَنُ مَكَانًا لِلتَّمَتُّعِ وَقَدْ
 الْقِيَلُوهُ وَهِيَ الْإِسْتِرَاحَةُ نِصْفَ النَّهَارِ ، فَالْمُؤْمِنُونَ فِي الْآخِرَةِ فِي الْفِرْدَوْسِ وَالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ ، وَالْكَفَّارُ فِي
 دَرَكَاتِ الْجَحِيمِ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : « لَا يَنْتَصِفُ النَّهَارُ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقِيلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ ،
 وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ » ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ﴿٤٧﴾ أَي وَادَكَرَ ذَلِكَ الْيَوْمَ الرَّهيبِ يَوْمَ تَشَقُّقِ السَّمَاءِ
 وَتَنْفَطَرِ عَنِ الْغَمَامِ الَّذِي يُسْوَدُ الْجَوَّ وَيُظْلِمُهُ وَيَغْمُ الْقُلُوبَ مَرَأَةً لِكَثْرَتِهِ وَشِدَّةِ ظُلْمَتِهِ ﴿٤٨﴾ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ
 تَنْزِيلًا ﴿٤٩﴾ أَي وَنَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ فَأَحَاطَتْ بِالْخَلَائِقِ فِي الْمَحْشَرِ ﴿٥٠﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴿٥١﴾ أَي الْمَلِكُ فِي

(١) البحر المحيط ٤٩١/٦ . (٢) ابن كثير ٦٢٨/٢ المختصر .

(٣) الطبري ٣/١٩ . (٤) القرطبي ٢٢/١٣ . (٥) كلمة «خير» ليست على بابها للمفاضلة وإنما هي لبيان حال أهل الجنة وأنها في أحسن

حال وخير مكان ، ولا ضرورة للتأويل بأنهم خير من الكافرين المترفين في الدنيا .

عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلِيْتَنِي أَنْخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَوَلِيْتَنِي لِيْتَنِي لَمْ أَنْخَذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي
عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا
الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَاللَّوَالِيَّا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ

ذلك اليوم لله الواحد القهار ، الذي تخضع له الملوك ، وتعنوله الوجوه ، وتذل له الجبابرة ، لا مالك يومئذٍ
سواه كقوله ﴿لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار﴾ ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ أي وكان
ذلك اليوم صعباً شديداً على الكفار قال أبو حيان : ودل قوله ﴿على الكافرين﴾ على تيسيره على المؤمنين
ففي الحديث (إنه يهون حتى يكون على المؤمن أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا)^(١)
﴿ويوم يعرض الظالم على يديه﴾ أي واذكر يوم يندم ويتحسر الظالم على نفسه لما فرط في جنب الله ،
وعرض اليدين كناية عن الندم والحسرة ، والمراد بالظالم «عقبة بن أبي معيط» كما في سبب النزول ، وهي
تعم كل ظالم قال ابن كثير : يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ وسلك سبيلاً غير
سبيل الرسول ، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم ، وعرض على يديه حسرة وأسفاً ، وسواء كان
نزولها في «عقبة بن معيط» أو غيره من الأشقياء فإنها عامة في كل ظالم^(٢) ﴿يقول يا ليتني اتخذت مع
الرسول سبيلاً﴾ أي يقول الظالم يا ليتني اتبعت الرسول فاتخذت معه طريقاً إلى الهدى ينجيني من
العذاب ﴿يا ويلتاليتني لم أخخذ فلاناً خليلاً﴾ أي يا هلاكي وحسرتي يا ليتني لم أصاحب فلاناً واجعله
صديقاً لي ، ولفظ ﴿فلان﴾ كناية عن الشخص الذي أضله وهو «أبي بن خلف» قال القرطبي : وكفى
عنه ولم يصرح باسمه ليتناول جميع من فعل مثل فعله^(٣) ﴿لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني﴾ أي لقد
أضلني عن الهدى والإيمان بعد أن اهتديت وأمنت ثم قال تعالى ﴿وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ أي
يُضله ويُغويه ثم يتبرأ منه وقت البلاء فلا ينقذه ولا ينصره ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا
القرآن مهجوراً﴾ لما أكثر المشركون الطعن في القرآن ضاق صدر الرسول ﷺ وشكاهم إلى الله والمعنى : قال
محمد يا رب إن قريشاً كذبت بالقرآن ولم تؤمن به وجعلته وراء ظهورها متروكاً وأعرضوا عن استماعه قال
المفسرون : وليس المقصود من حكاية هذا القول الإخبار بما قال المشركون بل المقصود منها تعظيم
شكايته ، وتخويف قومه ، لأن الأنبياء إذا التجأوا إلى الله وشكوا قومهم حل بهم العذاب ولم يمهلوا^(٤)
﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين﴾ أي كما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك جعلنا لكل
نبي عدواً من كفار قومه ، والمراد تسلية النبي ﷺ بالتأسي بغيره من الأنبياء ﴿وكفى بربك هادياً
ونصيراً﴾ أي وكفى أن يكون ربك يا محمد هادياً لك وناصراً لك على أعدائك فلا تبال بمن عاداك ﴿وقال

(١) البحر ٤٩٥/٦ والحديث أخرجه أحمد بلفظ «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن» الحديث . (٢) مختصر ابن كثير ٢/٢٣٠ .

(٣) القرطبي ٢٦/١٢ . (٤) نقلاً عن حاشية زاده على البيضاوي ٣/٤٥١ .

بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٥﴾ الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءَ مَكَانًا
 وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٧﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ
 الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٨﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً
 وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٩﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٤٠﴾

الذين كفروا ﴿٣٥﴾ أي وقال كفار مكة ﴿لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ أي هلاً نزل هذا القرآن على محمد دفعة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل ؟ قال تعالى رداً على شبهتهم التافهة ﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾ أي كذلك أنزلناه مفرقاً لنقوي قلبك على تحمله فتحفظه وتعمل بمقتضى ما فيه ﴿ورتلناه ترتيلاً﴾ أي فصلنا تفصيلاً بديعاً قال قتادة : أي بيناه وقال الرازي : الترتيل في الكلام أن يأتي بعضه على إثر بعض على تودة وتمهل ، وأصل الترتيل في الأسنان وهو تفلجها^(١) وقال الطبري : الترتيل في القراءة الترسُّل والتثبُّت يقول : علمناكه شيئاً بعد شيء حتى تحفظه^(٢) ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق﴾ أي ولا يأتيك هؤلاء الكفار بحجة أو شبهة للقدح فيك أو في القرآن إلا أتيناك يا محمد بالحق الواضح ، والنور الساطع لندمغ به باطلهم ﴿وأحسن تفسيراً﴾ أي أحسن بياناً وتفصيلاً ، ثم ذكر تعالى حال هؤلاء المشركين المكذبين للقرآن فقال ﴿الذين يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي يُسْحَبُونَ وَيُجْرُونَ إِلَى النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴿أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً﴾ أي هم شر منزلاً ومصيراً ، وأخطأ ديناً وطريقاً وفي الحديث « قيل يا رسول الله : كيف يُحْشِرُ الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : إن الذي أمشاه على رجله قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة^(٣) »، ثم ذكر تعالى قصص الأنبياء تسلياً لرسول الله ﷺ وإرهاباً للمكذبين فقال ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي والله لقد أعطينا موسى التوراة ﴿وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً﴾ أي وأعناه بأخيه هارون فجعلناه وزيراً له يناصره ويؤازره ﴿فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي اذهبا إلى فرعون وقومه بالآيات الباهرات ، والمعجزات الساطعات ﴿فدمرناهم تدميراً﴾ أي فأهلكناهم إهلاكاً لما كذبوا رسلنا ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية﴾ أي وأغرقنا قوم نوح بالطوفان لما كذبوا رسولهم نوحاً وجعلناهم عبرة لمن يعتبر قال أبو السعود : وإنما قال الرسل بالجمع مع أنهم كذبوا نوحاً وحده لأن تكذيبه تكذيب للجميع لاتفاقهم على التوحيد والإسلام^(٤) ﴿وأعدنا للظالمين عذاباً أليماً﴾ أي وأعدنا لهم في الآخرة عذاباً شديداً مؤلماً سوى ما حل بهم في الدنيا ﴿وعاداً وثمود وأصحاب الرس﴾ أي وأهلكنا عاداً وثمود وأصحاب البئر الذين انهارت بهم قال البيضاوي : وأصحاب الرس قوم كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعبياً فكذبوه فبينما هم حول الرس - وهي البئر غير المطوية - انهارت فحسفت بهم وبديارهم^(٥) ﴿وقرُوناً بين ذلك كثيراً﴾ أي وأما

(١) التفسير الكبير ٢٤/٧٩ . (٢) الطبري ١٩/٨ . (٣) أخرجه أصحاب السنن . (٤) أبو السعود ٤/٩ . (٥) البيضاوي ٢/٦٨ .

وَكَلَّا ضَرْبَنَا لَهُ الْأَمْثَلُ وَكَلَّا تَبَرْنَا تَبِيرًا ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطْرَ السَّوءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٣٧﴾

وخلائق كثيرين لا يعلمهم إلا الله بين أولئك المكذبين أهلكتناهم أيضاً ﴿وكَلَّا ضَرْبَنَا لَهُ الْأَمْثَلُ﴾ أي وكَلَّا من هؤلاء بيننا لهم الحجج ، ووضحنا لهم الأدلة إعداراً وإنذاراً ﴿وكَلَّا تَبَرْنَا تَبِيرًا﴾ أي أهلكتنا إهلاكاً ، ودمرناه تدميراً ، لما لم تنجع فيهم المواعظ ﴿ولَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطْرَ السَّوءِ﴾ أي ولقد مرت قريش مراراً في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء وهي قرية « سدوم » عظمى قري قوم لوط ﴿أفلم يكونوا يرونها﴾ ؟ توبيخ لهم على تركهم الاتعاظ والاعتبار أي أفلم يكونوا في أسفارهم يرونها فيعتبروا بما حلَّ بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم لرسولهم ومخالفتهم لأوامر الله ؟ قال ابن عباس : كانت قريش في تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط كقوله تعالى ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين﴾ ﴿بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾ أي إنهم لا يعتبرون لأنهم لا يرجون معاداً يوم القيامة .

البلاغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الترجي ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ لأن لولا بمعنى هلاً للترجي .
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿عتوا عتوا﴾ و﴿حجراً محجوراً﴾ .
- ٣ - المبالغة بنفي الجنس ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ ومعناها لا يبشر يومئذ المجرمون وإنما عدل عنه للمبالغة .
- ٤ - التشبيه البليغ ﴿فجعلناه هباءً منثوراً﴾ أي كالغبار المنثور في الجو في حقارته وعدم نفعه ، حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .
- ٥ - الكناية اللطيفة ﴿يعض الظالم على يديه﴾ كناية عن الندم والحسرة ، كما أن لفظة ﴿فلان﴾ كناية عن الصديق الذي أضله .
- ٦ - الإسناد المجازي ﴿شر مكاناً﴾ لأن الضلال لا ينسب إلى المكان ولكن إلى أهله .

لطيفة : قال ابن القيم رحمه الله : هجر القرآن أنواع :

أحدها : هجر سماعه والإيمان به . والثاني : هجر العمل به وإن قرأه وآمن به . والثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه . والرابع : هجر تدبره وتفهم معانيه . والخامس : هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وكل هذا داخل في قوله تعالى ﴿إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ وإن كان بعض المهجر أهون من بعض (١) .

قال الله تعالى: ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلهزواً . . إلى . . أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً﴾

من آية (٤١) إلى نهاية آية (٦٠) .

المناسكبة : لما ذكر تعالى شبهات المشركين حول القرآن والرسول ، ورد عليهم بالحجج الدامغة ، والبراهين القاطعة ، ذكر هنا طرفاً من استهزائهم وسخريتهم بالرسول فلم يقتصروا على تكذيبه بل زادوا عليه بالاستهزاء والاحتقار ، ثم ذكر الأدلة على وحدانيته تعالى وقدرته .

اللفظة : ﴿سُبَاتًا﴾ السُّبَات : الراحة جعل النوم سُبَاتًا لأنه راحة للأبدان وأصل السبت : القطع ومنه السبت لليهود لانقطاعهم فيه عن الأعمال ﴿نشوراً﴾ النشور : الانتشار والحركة ، والنهار سبب للانتشار من أجل طلب المعاش ﴿أناسي﴾ جمع إنسي مثل كراسي وكرسي قال الفراء : الإنسي والأناسي اسم للبشر وأصله انسان ثم أبدلت من النون ياء فصار إنسي ﴿مرج﴾ حَلَى وأرسل وخلط يقال مرجه إذا خلطته ﴿وأمر مريج﴾ أي مضطرب مختلط ﴿فرات﴾ شديد العذوبة ﴿أجاج﴾ شديد الملوحة ﴿برزخاً﴾ حاجزاً .

وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ ءَاهِتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

التفسير : ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا﴾ أي وإذا رأك المشركون يا محمد ما يتخذونك إلا موضع هزاء وسخرية ﴿أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ أي قائلين بطريق التهكم والاستهزاء : أهذا الذي بعثه الله إلينا رسولا ؟ ﴿إن كاد ليضلنا عن آهتنا لولا أن صبرنا عليها﴾ أي إن كاد ليصرفنا عن عبادة آهتنا لولا أن ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها قال تعالى رداً عليهم ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً﴾ وعيد وتهديد أي سوف يعلمون في الآخرة عند مشاهدة العذاب من أخطأ طريقاً وأضل ديناً أمهم أم محمد؟ ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ تعجب من ضلال المشركين أي أرأيت من جعل هواه إلهاً كيف يكون حاله ؟ قال ابن عباس : كان الرجل من المشركين يعبد حجراً فإذا رأى حجراً أحسن منه رماه وأخذ الثاني فعبده ﴿أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ أي حافظاً تحفظه من اتباع هواه ؟ ليس الأمر لك قال أبو حيان : وهذا تئيس من إيمانهم ، وإشارة للرسول عليه السلام ألا يتأسف عليهم ، وإعلام أنهم في الجهل بالمنافع وقلة النظر في العواقب مثل البهائم ^(١) ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون﴾ ؟ أي أنظن أن هؤلاء المشركين يسمعون ما تقول لهم سماع قبول ؟ أو يعقلون ما تورده عليهم من الحجج والبراهين الدالة على الوحدانية فتهتم بشأنهم وتطمع في إيمانهم ؟ ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾ أي ما هم إلا كالبهائم بل هم أشبع حالاً ، وأسوأ مآلاً من الأنعام السارحة ، لأن البهائم تهتدي لمراعيتها ، وتنقاد لأربابها وتعرف من يحسن إليها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ ۖ فَمَا خَلَقْنَا أَنْعَمًا

إِحسانه إليهم ، ثم ذكر تعالى أنواعاً من الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل﴾ أي ألم تنظر إلى بديع صنع الله وقدرته كيف بسط تعالى الظل ومدّه وقت النهار حتى يستروح الإنسان بظل الأشياء من حرارة الشمس المتوهجة ؟ إذ لولا الظل لأحرقت الشمس الإنسان وكدرت حياته ﴿ولو شاء لجعله ساكناً﴾ أي لو أراد سبحانه لجعله دائماً ثابتاً في مكان لا يزول ولا يتحول عنه ، ولكنه بقدرته ينقله من مكان إلى مكان ، ومن جهة إلى جهة ، فتارة يكون جهة المشرق ، وتارة جهة المغرب ، وأخرى من أمام أو خلف ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾ أي جعلنا طلوع الشمس دليلاً على وجود الظل ، فلولا وقوع ضوئها على الأجرام لما عرف أن للظل وجوداً ، ولما ظهرت آثار هذه النعمة الجليلة للعباد ، والأشياء إنما تُعرف بأضدادها فلولا الظلمة ما عُرف النور ، ولولا الشمس ما عرف الظل «وبضدها تتميز الأشياء» ﴿ثم قبضناه إينا قبضاً يسيراً﴾ أي أزلنا هذا الظل شيئاً فشيئاً ، وقليلًا قليلًا لا دفعة واحدة لثلاث تخطل المصالح قال ابن عباس : الظل من وقت طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس^(١) قال المفسرون : الظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة ، وهو يحدث على وجه الأرض منسبطاً فيما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس ، ثم إن الشمس تنسخه وتزيله شيئاً فشيئاً ، إلى الزوال ، ثم هو ينسخ ضوء الشمس من وقت الزوال إلى الغروب ويسمى فيئاً ، ووجه الاستدلال به على وجود الصانع الحكيم أن وجوده بعد العدم ، وعدمه بعد الوجود ، وتغير أحواله بالزيادة والنقصان ، والانبساط والتقلص ، على الوجه النافع للعباد لا بدّ له من صانع قادر ، مدبر حكيم ، يقدر على تحريك الأجرام العلوية ، وتدبير الأجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الأحسن ، والترتيب الأكمل وما هو إلا الله رب العالمين^(٢) . ثم أشار تعالى إلى آثار قدرته ، وجليل نعمته الفائضة على الخلق فقال ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباساً﴾ أي هو سبحانه الذي جعل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس بزينته قال الطبري : وصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث يستر الأشياء فصار لهم ستراً يستترون به كما يستترون بالثياب التي يكسونها^(٣) ﴿والنوم سباتاً﴾ أي وجعل النوم راحةً لأبدانكم بانقطاعكم عن أعمالكم ﴿وجعل النهار نُشُوراً﴾ أي وقتاً لانتشار الناس فيه لمعايشهم ، ومكاسبهم ، وأسباب رزقهم ﴿وهو الذي أرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته﴾ أي أرسل الرياح مبشرة بنزول الغيث والمطر

(١) الطبري ١٢/١٩ هذا القول منقول عن مجاهد وإليه ذهب كثير من المفسرين وقالوا إنه أطيب الأحوال ولذلك وصف به الجنة ﴿وظل عمدود﴾ وما أثبتناه هو الراجح لأنه الظل المعروف ولفظ الشمس يرجحه وهو اختيار العلامة أبي السعود . (٢) انظر تفسير الرازي ٨٨/٢٤ ففيه كلام

جيد نفيس . (٣) الطبري ١٤/١٩ .

وَأَنَاسِي كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٤٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٤٣﴾ فَلَا تَطْعَمُ الْكُفْرِينَ وَجَهْدَهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٤٤﴾ * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٤٥﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا جَعَلَهُ

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أي أنزلنا من السحاب الذي ساقته الرياح ماءً طاهراً مطهراً تشربون وتتطهرون به قال القرطبي : وصيغة ﴿طهور﴾ بناء مبالغة في «طاهر» فاقضى أن يكون طاهراً مطهراً^(١) ﴿لنحیی به بلدة ميتاً﴾ أي لنحیی بهذا المطر أرضاً ميتة لا زرع فيها ولا نبات ﴿ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً﴾ أي وليشرب منه الحيوان والإنسان لأن الماء حياة كل حي ، والناس محتاجون إليه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم وسقي مواشيهم قال الإمام الفخر : وتنكير الأنعام والأناسي لأن حياة البشر بحياة أرضهم وأنعامهم ، وأكثر الناس يجتمعون في البلاد القريبة من الأودية والأنهار ، فهم في غنية عن شرب مياه المطر ، وكثير منهم نازلون في البوادي فلا يجدون المياه للشرب إلا عند نزول المطر ولهذا قال ﴿أنعاماً وأناسي كثيراً﴾ أي بشراً كثيراً لأن «فعليل» يراد به الكثرة^(٢) ﴿ولقد صرفناه بينهم ليدذكروا﴾ أي ضربنا الأمثال في هذا القرآن^(٣) للناس وبيئنا فيه الحجج والبراهين ليتفكروا ويتدبروا ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ أي أبى الكثير من البشر إلا الجحود والتكذيب ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً﴾ أي لو أردنا لخففنا عنك أعباء النبوة فبعثنا في كل أهل قرية نبياً ينذرهم ، ولكننا خصصناك بالبعثة الى جميع أهل الأرض إجلالاً لك ، وتعظيماً لشأنك ، فقابل هذا الإجلال بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق ﴿فلا تطعم الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ أي فلا تطعم الكفار فيما يدعونك إليه من الكف عن آلهتهم ، وجاهدهم بالقرآن جهاداً كبيراً بالغاً نهايته لا يصاحبه فتور ﴿وهو الذي مرج البحرين أي هو تعالى بقدرته خلى وأرسل البحرين متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان ﴿هذا عذب فرات﴾ أي شديد العذوبة قاطع للعطش من فرط عذوبته ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي بليغ الملوحة ، مرٌ شديد المرارة ﴿وجعل بينهما برزخاً﴾ أي جعل بينهما حاجزاً من قدرته لا يغلب أحدهما على الآخر ﴿وحجراً محجوراً﴾ أي ومنعاً من وصول أثر أحدهما إلى الآخر وامتزاجه به قال ابن كثير : معنى الآية انه تعالى خلق المائين : الحلو والمالح ، فالخلو كالأنهار والعيون والآبار، والمالح كالبهار الكبار التي لا تجري ، وجعل بين العذب والمالح حاجزاً وهو اليابس من الأرض ، ومانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر ، وهذا اختيار ابن جرير^(٤) وقال الرازي : ووجه الاستدلال ههنا بين لأن الحلاوة والملوحة إن كانت بسبب طبيعة الارض أو الماء فلا بد من الاستواء ، وإن لم يكن كذلك فلا بد من قادر حكيم يخص كل واحد بصفة معينة^(٥) ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً﴾ أي خلق من النطفة إنساناً سميعاً بصيراً

(١) القرطبي ٣٩ / ١٣ . (٢) التفسير الكبير ٩١ / ٢٤ . (٣) الضمير في ﴿صرفناه﴾ عائد على القرآن وإن لم يتقدم له ذكر لوضوح الأمر ويؤيده قوله ﴿وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ وقيل إنه عائد على المطر وهو كما قال في التسهيل بعيد . (٤) ابن كثير ٦٣٥ / ٢ المختصر .

(٥) التفسير الكبير ١٠١ / ٢٤ .

نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ
ظَهِيرًا ﴿٤٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِلَّا مِن شَاءِ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ
سَبِيلًا ﴿٤٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٤٨﴾ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٤٩﴾

﴿فجعل له نسباً وصهراً﴾ أي قسمهم من نطفة واحدة قسمين : ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم لأن النسب إلى الآباء كما قال الشاعر :

فإنما أمهاتُ الناس أوعيةٌ مستودعات وللاباء أبناء
وإنائاً يُصاهر بهن ، فبالنسب يتعارفون ويتواصلون ، وبالمصاهرة تكون المحبة والمودة واجتماع الغريب
بالقريب ﴿وكان ربك قديراً﴾ أي مبالغاً في القدرة حيث خلق من النطفة الواحدة ذكراً وأنثى . . ولما
شرح دلائل التوحيد عاد إلى تهجين سيرة المشركين في عبادة الأوثان فقال ﴿ويعبدون من دون الله ما لا
ينفعهم ولا يضرهم﴾ أي يعبدون الأصنام التي لا تنفع ولا تضر لأنها جمادات لا تحس ولا تبصر ولا تعقل
﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ أي معيناً للشيطان على معصية الرحمن ، لأنَّ عبادته للأصنام معاونة
للشيطان قال مجاهد : يظاهر الشيطان على معصية الله ويُعينه ^(١) ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾ أي
مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم ، ومنذراً للكافرين بعذاب الجحيم ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر﴾ أي
قل لهم يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً ﴿إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي لكن من شاء
أن يتخذ طريقاً يقربه إلى الله بالإيمان والعمل الصالح فليفعل كأنه يقول : لا أسألكم مالاً ولا أجراً وإنما
أسألكم الإيمان بالله وطاعته وأجري على الله ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ أي اعتمد في جميع
أمورك على الواحد الأحد ، الدائم الباقي الذي لا يموت أبداً ، فإنه كافيك وناصرك ومظهر دينك على سائر
الأديان ﴿وسبح بحمده﴾ أي نزهة الله تعالى عما يصفه هؤلاء الكفار مما لا يليق به من الشركاء والأولاد
﴿وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾ أي حسبك أن الله مطلع على أعمال العباد لا يخفى عليه شيء منها قال
الإمام الفخر : وهذه الكلمة يراد بها المبالغة كقولهم : كفى بالعلم جمالاً ، وكفى بالأدب مالاً ، وهي بمعنى
حسبك أي لا تحتاج معه إلى غيره لأنه خبيرٌ بأحوالهم ، قادر على مجازاتهم ، وذلك وعيدٌ شديد ^(٢) ﴿الذي
خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ أي هذا الإله العظيم الذي ينبغي أن تتوكل عليه هو
القادر على كل شيء ، الذي خلق السموات السبع في ارتفاعها واتساعها ، والأرضين في كثافتها وامتدادها
في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا قال ابن جبير : الله قادر على أن يخلقها في لحظة ولكن علم خلقه الرفق
والتثبت ^(٣) ﴿ثم استوى على العرش﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تعطيل ﴿الرحمن﴾ أي هو

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٢٥﴾

الرحمن ذو الجود والإحسان ﴿فاسأل به خبيراً﴾ أي فسل عنه من هو خير عارف بجلاله ورحمته ، وقيل : الضمير يعود إلى الله أي فاسأل الله الخبير بالأشياء ، العالم بحقائقها يطلعك على جليّة الأمر ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن﴾ أي وإذا قيل للمشركين اسجدوا لربكم الرحمن الذي وسعت رحمته الأكوان ﴿قالوا وما الرحمن﴾ ؟ أي من هو الرحمن ؟ استفهما عنه استفهام من يجهله وهم عالمون به ﴿أنسجد لما تأمرنا﴾ أي أنسجد لما تأمرنا بالسجود له من غير أن نعرفه ؟ ﴿وزادهم نفوراً﴾ أي وزادهم هذا القول بعداً عن الدين ونفوراً منه .

البلاغة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستفهام للتهكم والاستهزاء ﴿أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ ؟
- ٢ - التعجب ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ وفيه تقديم المفعول الثاني على الأول اعتناءً بالأمر المتعجب منه والأصل « اتخذ هواه إلهاً له » .
- ٣ - التشبيه البليغ ﴿جعل الليل لباساً﴾ أي كاللباس الذي يغطي البدن ويستتره حذف منه الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغاً .
- ٤ - المقابلة اللطيفة بين الليل والنهار والنوم والانتشار ﴿جعل الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً﴾ .
- ٥ - الاستعارة البديعة ﴿بين يدي رحمته﴾ استعار اليدين لما يكون أمام الشيء وقدّامه كما تقول : بين يدي الموضوع او السورة .
- ٦ - الالتفات من الغيبة الى التكلم للتعظيم ﴿وأنزّلنا من السماء﴾ بعد قوله ﴿أرسل الرياح﴾ .
- ٧ - المقابلة اللطيفة ﴿هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج﴾ أي نهاية في الحلاوة ونهاية في الملوحة .

تبنيّه : الفرق بين ﴿ميت﴾ بالتخفيف و﴿ميت﴾ بالتشديد أن الأول لمن مات حقيقة والثاني لمن سيموت قال الشاعر :

أيا سائلي تفسير ميّتٍ وميّتٍ فدوتك قد فسرتُ ما عنه تسأل
فما كان ذا روحٍ فذلك ميّتٌ وما الميّتُ إلا من إلى القبر يجمل^(٢)

قال الله تعالى : ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروحاً . . إلى . . فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً﴾

(١) القول الأول أظهر ، والثاني روي عن مجاهد . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ١٦١ / ٣ .

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ

المناسكة : لما ذكر إعراض المشركين عن عبادة الرحمن أعقبها بذكر آياته الكونية الدالة على الوحدانية ، ثم ختم السورة الكريمة بذكر صفات عباد الرحمن التي استحقوا بها دخول الجنان .

اللفظ : ﴿بروجاً﴾ البروج : منازل الكواكب السيارة سميت بالبروج لأنها تشبه القصور العالية وهي للكواكب كالمنازل للسكان وقيل : هي الكواكب العظيمة ﴿غراماً﴾ لازماً دائماً غير مفارق ومنه الغريم ملازمته ﴿العُرْفَة﴾ الدرجة الرفيعة في الجنة وهي في اللغة العلية ، وكل بناء عالٍ فهو غرفة ﴿يعبأ﴾ يبالي ويهتم قال أبو عبيدة : ما أعبا به أي وجوده وعدمه عندي سواء ، والعبء في اللغة الثقل ﴿لزاماً﴾ ملازماً لكم .

التفسير : ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾ أي تجدد وتعظم الله الذي جعل في السماء تلك الكواكب العظام المنيرة (١) ﴿وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾ أي وجعل فيها الشمس المتوهجة في النهار ، والقمر المضيء بالليل ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خِلْفَةً﴾ أي يخلف كل منهما الآخر ويتعاقبان ، فيأتي النهار بضيائه ثم يعقبه الليل بظلامه ﴿لمن أراد أن يذكر﴾ أي لمن أراد أن يتذكر آلاء الله ، ويتفكر في بدائع صنعه ﴿أو أراد شكوراً﴾ أي أراد شكر الله على إفضاله ونعمائه قال الطبري : جعل الله الليل والنهار يخلف كل واحد منهما الآخر ، فمن فاته شيء من الليل أدركه بالنهار ، ومن فاته شيء من النهار أدركه بالليل (٢) ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً﴾ الإضافة للتشريف أي العباد الذين يحبهم الله وهم جديرون بالانتساب إليه هم الذين يمشون على الأرض في لين وسكينة ووقار ، لا يضربون بأقدامهم أشراً ولا بطراً ، ولا يتبخثون في مشيتهم ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ أي وإذا خاطبهم السفهاء بغلظة وجفاء قالوا قولاً يسلمون من الإثم قال الحسن : لا يجهلون على أحد ، وإن جهل عليهم حلموا ﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً﴾ أي يُحْيُونَ الليل بالصلاة ساجدين لله على جباههم ، أو قائمين على أقدامهم كقوله ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ قال الرازي : لما ذكر سيرتهم في النهار من وجهين : ترك الإيذاء ، وتحمل الأذى بين هنا سيرتهم في الليالي وهو اشتغالهم بخدمة الخالق (٣) ﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم﴾ أي يدعون ربهم أن ينجيهم من عذاب النار ، ويبتهلون إليه أن يدفع عنهم عذابها ﴿إن عذابها كان غراماً﴾ أي لازماً دائماً

(١) قال مجاهد والحسن : البروج هي الكواكب العظام وقال ابن عباس وعلي : هي منازل الكواكب ، قال ابن كثير : والقول الأول أظهر .

(٢) الطبري ٢٠ / ١٩ . (٣) التفسير الكبير ١٠٨ / ٢٤ .

عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَعَّفَ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَحْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ

غير مفارق ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ أي بثست جهنم منزلاً ومكان إقامة قال القرطبي : المعنى بشس المستقر وبشس المقام ، فهم مع طاعتهم مشفقون خائفون من عذاب الله ^(١) ، وقال الحسن : خشعوا بالنهار وتعبوا بالليل فرقاً من عذاب جهنم ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ هذا هو الوصف الخامس من أوصاف عباد الرحمن والمعنى : ليسوا مبذرين في إنفاقهم في المطاعم والمشارب والملابس ، ولا مقصرين ومضيقين بحيث يصبحون بخلاء ﴿وكان بين ذلك قواماً﴾ أي وكان إنفاقهم وسطاً معتدلاً بين الإسراف والتقتير كقوله تعالى ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ الآية وقال مجاهد : « لو أنفقت مثل جبل أبي قبيس ذهباً في طاعة الله ما كان سرفاً ، ولو أنفقت صاعاً في معصية الله كان سرفاً » ^(٢) ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ أي لا يعبدون معه تعالى إلهاً آخر ، بل يوحّدونه مخلصين له الدين ﴿ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ أي لا يقتلون النفس التي حرم الله قتلها إلا بما يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان ، أو زنى بعد إحصان ، أو القتل قصاصاً ﴿ولا يزنون﴾ أي لا يرتكبون جريمة الزنى التي هي من أفحش الجرائم ﴿ومن يفعل ذلك يلق أثاماً﴾ أي ومن يقترب تلك الموبقات العظيمة من الشرك والقتل والزنى يجد في الآخرة النكال والعقوبة ثم فسرها بقوله ﴿يضاعف له العذاب يوم القيامة﴾ أي يضاعف عقابه ويُغلظ بسبب الشرك وبسبب المعاصي ﴿ويحلد فيه مهاناً﴾ أي يحلد في ذلك العذاب حقيراً ذليلاً أبد الأبدين ﴿إلا من تاب وعمل عملاً صالحاً﴾ أي إلا من تاب في الدنيا التوبة النصوح وأحسن عمله ﴿فأولئك يبديل الله سيئاتهم حسنات﴾ أي يكرمهم الله في الآخرة فيجعل مكان السيئات حسنات وفي الحديث (إنني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها ، رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها ، فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال : عملت يوم كذا وكذا وكذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يا رب : قد عملت أشياء لا أراها ههنا ، قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ^(٣) ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي واسع المغفرة كثير الرحمة ﴿ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ أي ومن تاب عن المعاصي وأصلح سيرته فإن الله يتقبل توبته ويكون مرضياً عند الله تعالى ﴿والذين لا يشهدون

(١) القرطبي ٧٢/١٣ . (٢) الطبري ٢٣/١٩ . وهذا على قول من فسّر الإسراف بأنه الإنفاق في معصية الله ، وإليه ذهب بعض المفسرين

وهو منقول عن ابن عباس أيضاً والقول الأول أظهر . (٣) أخرجه مسلم .

وَعَمَلٌ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾
 وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا
 قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾
 خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ
 يَكُونُ لَكُمْ لَزَامًا ﴿٧٧﴾

الزور ﴿٧١﴾ هذا هو الوصف السابع من أوصاف عباد الرحمن أي لا يشهدون الشهادة الباطلة - شهادة الزور - التي فيها تضييع لحقوق الناس ﴿وإذا مرُّوا باللغو مرُّوا كرامًا﴾ أي وإذا مرُّوا بمجالس اللغو - وهي الأماكن التي يكون فيها العمل القبيح كمجالس اللهو، والسينا، والقمار، والغناء المحرّم - مرُّوا معرضين مكرمين أنفسهم عن أمثال تلك المجالس قال الطبري: واللغو كل كلام أو فعل باطل وكل ما يُستقبح كسب الإنسان، وذكر النكاح باسمه في بعض الأماكن، وسماع الغناء مما هو قبيح، كل ذلك يدخل في معنى اللغو الذي يجب أن يجتنبه المؤمن ^(١) ﴿والذين إذا دُكِّروا بآيات ربهم﴾ أي إذا وُعظوا بآيات القرآن وخوفوا بها ﴿لم يخروا عليها صمًّا وعميانًا﴾ أي لم يُعرضوا عنها بل سمعوا بأذان واعية وقلوب وجلة ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين﴾ أي اجعل لنا في الأزواج والبنين مسرةً وفرحاً بالتمسك بطاعتك، والعمل بمرضاتك ﴿واجعلنا للمتقين إمامًا﴾ أي اجعلنا قُدوة يقتدي بنا المتقون، دعاءً إلى الخير هُداة مهتدين قال ابن عباس: أي أئمة يقتدى بنا في الخير ^(٢) ﴿أولئك يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي أولئك المتصفون بالأوصاف الجليلة السامية ينالون الدرجات العالية، بصبرهم على أمر الله وطاعتهم له سبحانه ﴿ويُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أي ويُلَقَّوْنَ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية ﴿خالدين فيها﴾ أي مقيمين في ذلك النعيم لا يموتون ولا يُخْرَجُونَ مِنَ الْجَنَّةِ لِأَنَّهَا دَارُ الْخُلُودِ ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي ما أحسنها مقراً وأطيبها منزلاً لمن اتقى الله ﴿قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم﴾ أي قل لهم يا محمد: لا يكثرث ولا يحفل بكم ربي لولا تضرعكم إليه واستغاثتكم إياه في الشدائد ﴿فقد كذبتهم فسوف يكون لزاماً﴾ أي فقد كذبتهم أيها الكافرون بالرسول والقرآن فسوف يكون العذاب ملازماً لكم في الآخرة .

البلاغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الإضافة للتشريف والتكريم ﴿وعباد الرحمن﴾ .

(١) الطبري ٣٢/١٩ . (٢) ابن كثير ٦٤٢/٢ المختصر .

٢ - الطباق بين السجود والقيام ﴿سُجِّدًا وَقِيَامًا﴾ وكذلك بين الإسراف والتقتير ﴿لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ .

٣ - المقابلة اللطيفة بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ﴿حَسُنْتَ مُسْتَقْرَأً وَمُقَامًا﴾ مقابل قوله عن أهل النار ﴿سَاءتْ مُسْتَقْرَأً وَمُقَامًا﴾ .

٤ - الاستعارة البديعة ﴿لَمْ يَخْرُوا عَلَيْهَا صُومًا وَعَمِيَانًا﴾ أي لم يتغافلوا عن قوارع النذر حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر وهذا من أحسن الاستعارات .

٥ - الكناية ﴿قِرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ كناية عن الفرحة والمسرة كما أن ﴿الْغُرْفَةَ﴾ كناية عن الدرجات العالية في الجنة .

تَبْيِيْهُ : قال القرطبي : وصف تعالى « عباد الرحمن » بإحدى عشرة خصلة هي أوصافهم الحميدة من التحلِّي ، والتخلِّي وهي « التواضع ، والحلم ، والتهجد ، والخوف ، وترك الإسراف والإقتار ، والبعد عن الشرك ، والنزاهة عن الزنى والقتل ، والتوبة ، وتجنب الكذب ، وقبول المواعظ ، والابتهاج إلى الله » ثم بين جزاءهم الكريم وهو نيل الغرفة أي الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الفرقان »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

- * سورة الشعراء مكية وقد عاجلت أصول الدين من « التوحيد ، والرسالة ، والبعث » شأنها شأن سائر السور المكية ، التي تهتم بجانب العقيدة وأصول الإيمان .
- * ابتدأت السورة الكريمة بموضوع القرآن العظيم الذي أنزله الله هدايةً للخلق ، وبلسماً شافياً لأمراض الإنسانية ، وذكرت موقف المشركين منه ، فقد كذبوا به مع وضوح آياته ، وسطوع براهينه ، وطلبوا معجزة أخرى غير القرآن الكريم عناداً واستكباراً .
- * ثم تحدثت السورة عن طائفة من الرسل الكرام ، الذين بعثهم الله لهداية البشرية ، فبدأت بقصة الكليم « موسى » مع فرعون الطاغية الجبار ، وما جرى من المحاوراة والمداوراة بينهما في شأن الإله جلّ وعلا ، وما أيد الله به موسى من الحجة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل ، وقد ذكرت في القصة حلقات جديدة ، انتهت ببيان العظة والعبرة من الفارق الهائل ، بين الإيمان والطغيان .
- * ثم تناولت قصة الخليل إبراهيم عليه السلام ، وموقفه من قومه وأبيه في عبادتهم للأوثان والأصنام ، وقد أظهر لهم بقوة حجته ، ونصاعة بيانه ، بطلان ما هم عليه من عبادة ما لا يسمع ولا ينفع ، وأقام لهم الأدلة القاطعة على وحدانية رب العالمين ، الذي بيده النفع والضرر ، والأحياء والإماتة .
- * ثم تحدثت السورة عن المتقين والغاوين ، والسعداء والأشقياء ، ومصير كل من الفريقين يوم الدين .
- * وبعد أن تابعت السورة في ذكر قصص الأنبياء « نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب » عليهم الصلاة والسلام ، وبيّنت سنة الله في معاملة المكذبين لرسله ، عادت للتنبؤ بشأن الكتاب العزيز ، تفخياً لشأنه ، وبياناً لمصدره ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ * نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسانٍ عربي مبين﴾ .
- * ثم ختمت السورة بالرد على افتراء المشركين ، في زعمهم أن القرآن من تنزل الشياطين ، ليتناسق البدء مع الختام في أروغ تناسق والتثام ! .

التَّسْمِيَةِ : سميت « سورة الشعراء » لأن الله تعالى ذكر فيها أخبار الشعراء ، وذلك للرد على المشركين في زعمهم أن محمداً كان شاعراً ، وأن ما جاء به من قبيل الشعر ، فردّ الله عليهم ذلك الكذب والبهتان بقوله ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ وبذلك ظهر الحق وبان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَخْعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ

اللغز : ﴿ باخع ﴾ مهلك وقاتل وأصل البخع : أن يبلغ بالمذبوح البخاع وهو الخرم النافذ في ثقب الفقرات وهو أقصى حدّ الذبح ﴿ فعلتكَ ﴾ الفعلة بفتح الفاء المرة من الفعل ﴿ تلقف ﴾ تبتلع ﴿ يافكون ﴾ من الإفك وهو الكذب ﴿ لا ضير ﴾ لا ضرر ، والضرُّ والضير بمعنى واحد قال الجوهري : ضاره يضوره ضيراً أي ضره قال الشاعر :

فإنك لا يضورك بعد حولٍ أظبيُّ كان أمك أم حمار^(١)

﴿ منقلبون ﴾ راجعون ﴿ من خلاف ﴾ أي يخالف بين الأعضاء فيقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى .

التفسير : ﴿ طسم ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم وأنه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية^(٢) ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي هذه آيات القرآن الواضح الجلي ، الظاهر إعجازه لمن تأمله ﴿ لعلك باخع نفسك أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي لعلك يا محمد مهلك نفسك لعدم إيمان هؤلاء الكفار ، فيه تسلية للرسول عليه السلام حتى لا يجزن ولا يتأثر على عدم إيمانهم ﴿ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ ﴾ أي لو شئنا لأنزلنا آية من السماء تضطرهم إلى الإيمان قهراً ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ أي فتظل أعناقهم منقادة خاضعة للإيمان قسراً وقهراً ، ولكن لا نفعل لأننا نريد أن يكون الإيمان اختياراً لا اضطراراً قال الصاوي : المعنى لا تحزن على عدم إيمانهم فلو شئنا إيمانهم لأنزلنا معجزة تأخذ بقلوبهم فيؤمنون قهراً عليهم ، ولكن سبق في علمنا شقاؤهم فأرح نفسك من التعب^(٣) ﴿ وما يأتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ أي ما يأتي هؤلاء الكفار شيء من القرآن أو الوحي منزل من عند الرحمن ﴿ مُحَدَّثٍ ﴾ أي جديد في النزول^(٤) ، ينزل وقتاً بعد وقت ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ أي إلا كذبوا به

(١) البيت لخداش بن زهير ضرب مثلاً لمن ينتسب إليه الإنسان من شريف أو وضع . (٢) انظر ما كتبه في أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة فيه الغنية والكفاية .

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ١٦٧/٣ . (٤) معنى « محدث » أي محدث في نزوله وإلا فكلام الله قديم لا يوصف بالحدوث كما لا يوصف بأنه مخلوق .

مُعْرِضِينَ ﴿١٠٦﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠٧﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا
 مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١٠﴾
 وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١١﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۗ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ
 يُكَذِّبُونِ ﴿١١٣﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١١٤﴾

واستهزءوا ولم يتأملوا بما فيه من المواعظ والعبر ﴿فقد كذبوا فسياتهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾
 أي فقد بلغوا النهاية في الإعراض والتكذيب فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا واستهزءوا به ، ثم نبه تعالى
 على عظمة سلطانه ، وجلالة قدره في مخلوقاته ومصنوعاته ، الدالة على وحدانيته وكهال قدرته فقال
 ﴿أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ أي أولم ينظروا إلى عجائب الأرض كم
 أخرجنا فيها من كل صنف حسن محمود ، كثير الخير والمنفعة ؟ والاستفهام للتوبيخ على تركهم الاعتبار
 ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي إن في ذلك الإنبات لآية باهرة تدل على وحدانية الله وقدرته ﴿وما كان
 أكثرهم مؤمنين﴾ أي وما كان أكثرهم يؤمن في علم الله تعالى ، فمع ظهور الدلائل الساطعة يستمر
 أكثرهم على كفرهم ﴿وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾ أي هو سبحانه الغالب القاهر ، القادر على الانتقام
 ممن عصاه ، الرحيم بخلقته حيث أمهلهم ولم يعجل لهم العقوبة مع قدرته عليهم قال أبو العالية :
 العزيز في نعمته ممن خالف أمره وعبد غيره ، الرحيم بمن تاب إليه وأتاب وقال الفخر الرازي : إنما قدم ذكر
 ﴿العزيز﴾ على ﴿الرحيم﴾ لأنه ربما قيل : إنه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم ، فأزال هذا الوهم بذكر
 العزيز وهو الغالب القاهر ، ومع ذلك فإنه رحيم بعباده ، فإن الرحمة إذا كانت مع القدرة الكاملة كانت
 أعظم وقعا^(١) ﴿وإذ نادى ربك موسى﴾ أي واذكر يا محمد لأولئك المعرضين المكذبين من قومك حين
 نادى ربك نبيه موسى من جانب الطور الأيمن أمراً له أن يذهب إلى فرعون وملئه ﴿أن أنتِ القوم
 الظالمين﴾ أي بأن أنت هؤلاء الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي ، واستعباد الضعفاء من
 بني إسرائيل ﴿قوم فرعون﴾ أي هم قوم فرعون ، وهو عطف بيان كأن القوم الظالمين وقوم فرعون شيء
 واحد ﴿ألا يتقون﴾ ؟ أي ألا يخافون عقاب الله ؟ وفيه تعجب من غلوهم في الظلم وإفراطهم في
 العدوان ﴿قال رب إنني أخاف أن يكذبون﴾ أي قال موسى يا رب إنني أخاف أن يكذبوني في أمر
 الرسالة ﴿ويضيق صدري﴾ أي ويضيق صدري من تكذبيهم أيائي ﴿ولا ينطق لساني﴾ أي ولا
 ينطق لساني بأداء الرسالة على الوجه الكامل ﴿فأرسل إلى هارون﴾ أي فأرسل إلى هارون ليعينني
 على تبليغ رسالتك قال المفسرون : التمس موسى العذر بطلب المعين بثلاثة أعذار كل واحد منها مرتب
 على ما قبله وهي : خوف التكذيب ، وضيق الصدر ، وعدم انطلاق اللسان ، فالتكذيب سبب لضيق
 القلب ، وضيق القلب سبب لتعسر الكلام ، وبالأخص على من كان في لسانه حبسة كما في قوله

وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٥﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا
 إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عَمْرِكَ
 سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾
 فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ

﴿واحللُّ عقدةً من لساني يفقهوا قولي﴾ ثم زاد اعتذاراً آخر بقوله ﴿ولهـم علي ذنب فأخاف أن يقتلون﴾ أي وفرعون وقومه علي دعوى ذنب وهو أني قتلت منهم قبطياً فأخاف أن يقتلوني به ﴿قال كلاً﴾ أي قال الله تعالى له : كلاً لن يقتلوك قال القرطبي : وهو ردعٌ وزجر عن هذا الظن ، وأمر بالثقة بالله تعالى أي ثق بالله وانزجر عن خوفك منهم فإنهم لا يقدرون على قتلك ^(١) ﴿فاذهبا بآياتنا﴾ أي اذهب أنت وهارون بالبراهين والمعجزات الباهرة ﴿إننا معكم مستمعون﴾ أي فأنا معكما بالعون والنصرة أسمع ما تقولان وما يجيبكما به ، وصيغة الجمع « معكم » أريد به التثنية فكانها لشرفها عند الله عاملها في الخطاب معاملة الجمع تشريفاً لهما وتعظيماً ^(٢) ﴿فأتيا فرعون فقولا إننا رسول رب العالمين﴾ أي فأتيا فرعون الطاغية وقولا له : إنا مرسلان من عند رب العالمين إليك لندعوك إلى الهدى ﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾ أي أطلق بني إسرائيل من إسارك واستعبادك وخل سبيلهم حتى يذهبوا معنا إلى الشام ﴿قال ألم نربك فينا وليداً﴾ في الكلام حذف يدل عليه المعنى تقديره : فأتياه فبلغاه الرسالة فقال فرعون لموسى عندئذٍ : ألم نربك في منازلنا صبيهاً صغيراً ؟ قصد فرعون بهذا الكلام المن على موسى والاحتقار له كأنه يقول : ألسنت أنت الذي ربيناك صغيراً وأحسننا إليك فمتى كان هذا الأمر الذي تدعيه ؟ ﴿ولبثت فينا من عمرك سنين﴾ أي ومكثت بين ظهرانينا سنين عديدة نحسن إليك ونرعاك ؟ قال مقاتل : ثلاثين سنة ﴿وفعلت فعلتك التي فعلت﴾ أي فجازيتنا على أن ربيناك أن كفرت نعمتنا وقتلت منا نفساً ؟ والتعبيرُ بالفعل لتحويل الواقعة وتعظيم الأمر ، ومراده قتل القبطي ﴿وأنت من الكافرين﴾ أي وأنت من الجاحدين لانعامنا الكافرين بإحساننا قال ابن عباس : من الكافرين لنعمتي إذ لم يكن فرعون يعلم ما الكفر ^(٣) ﴿قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين﴾ أي قال موسى : فعلت تلك الفعل وأنا من المخطئين لأنني لم أتعمد قتله ولكن أردت تأديبه ، ولم يقصد عليه السلام الضلال عن الهدى لأنه معصوم منذ الصغر وقال ابن عباس : ﴿وأنا من الضالين﴾ أي الجاهلين ﴿ففررت منكم لما خفتكم﴾ أي فهربت إلى أرض مدين حين خفت على نفسي أن تقتلوني وتؤاخذوني بما لا أستحقه ﴿فوهب لي ربي حكماً﴾ أي فأعطاني الله النبوة والحكمة ﴿وجعلني من المرسلين﴾ أي واختارني رسولاً إليك ، فإن أمنت سلمت ، وإن جحدت هلكت ﴿وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني

(١) القرطبي ٩٢/١٣ . (٢) هذا ما خرَّج به سيويه رحمه الله الآية نقلاً عن البحر المحيط ٨/٧ .

(٢) وقال الحسن : يريد إنك من الكافرين بالوهيتي ورجح الطبري قول ابن عباس وهو الأظهر .

بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ إِن كُنتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ ۗ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لِيِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾

إسرائيل ﴿٢٢﴾ أي كيف تمنُّ عليَّ بإحسانك إليَّ وقد استعبدت قومي (١) ؟ فما تعدُّه نعمة ما هو إلا نعمة قال ابن كثير : المعنى ما أحسنت إليَّ وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخداماً ، أفيني إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم (٢) ؟ وقال الطبري : أي أتمنُّ عليَّ أن اتخذت بني إسرائيل عبيداً (٣) ؟ ﴿قال فرعون وما رب العالمين﴾ أي قال فرعون متعالياً متكبراً : من هو هذا الذي تزعم أنه رب العالمين ؟ هل هناك إلهٌ غيري ؟ لأنه كان يجحد الصانع ويقول لقومه ﴿ما علمت لكم من إلهٍ غيري﴾ ﴿قال رب السموات والأرض وما بينهما﴾ أي قال موسى : هو خالق السموات والأرض ، والمتصرف فيهما بالإحياء والإعدام ، وهو الذي خلق الأشياء كلها من بحار وقفار ، وجبال وأشجار ، ونبات وثمار ، وغير ذلك من المخلوقات البديعة ﴿إن كنتم موقنين﴾ أي إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة ، فهذا أمر ظاهر جلي ﴿قال لمن حوله ألا تستمعون﴾ أي قال فرعون لمن حوله من أشرف قومه على سبيل التهكم والاستهزاء : ألا تسمعون جوابه وتعجبون من أمره ؟ أسأله عن حقيقة الله فيجيبني عن صفاته ، فأجاب موسى وزاد في البيان والحجة ﴿قال ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ أي هو خالقكم وخالق آبائكم الذين كانوا قبلكم ، فوجودكم دليل على وجود القادر الحكيم ، عدل عن التعريف العام إلى التعريف الخاص لأن دليل الأنفس أقرب من دليل الآفاق ، وأوضح عند التأمل ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ فعند ذلك غضب فرعون ونسب موسى إلى الجنون ﴿قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ سمَّاه رسولاً استهزأً وأضافه إلى المخاطبين استنكافاً من نسبته له أي إن هذا الرسول لمجنون لا عقل له ، أسأله عن شيء فيجيبني عن شيء ، فلم يحفل موسى بسخرية فرعون وعاد إلى تأكيد الحجة بتعريف ثالث أوضح من الثاني ﴿قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ أي هو تعالى الذي يطلع الشمس من المشرق ويجعلها تغرب من المغرب ، وهذا مشاهد كل يوم يبصره العاقل والجاهل ولهذا قال ﴿إن كنتم تعقلون﴾ أي إن كان لكم عقول أدركتم أن هذا لا يقدر عليه إلا رب العالمين ، وهذا من أبلغ الحجج التي تقصم ظهر الباطل كقول إبراهيم في مناظرة النمرود ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فائت بها من المغرب فبهت الذي كفر﴾ ولما انقطع فرعون وأبلس في الحجة رجع إلى الاستعلاء متوعداً بالبطش والعنف ﴿قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ أي لئن اتخذت رباً غيري لألقينك في غياهب السجن قال المفسرون : وكان

قَالَ أَوْلَوْجِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَاتِّبِعْنِي إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تَوَكُّلْ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

سجنه شديداً يجبس الشخص في مكان تحت الأرض وحده لا يبصر ولا يسمع فيه أحداً حتى يموت ولهذا لم يقل « لأسجننك » وإنما قال لأجعلنك من المسجونين لأن سجنه كان أشد من القتل قال في التسهيل : لما أظهر فرعون الجهل بالله فقال ﴿ وما رب العالمين ﴾ أجابه موسى بقوله ﴿ رب السموات والأرض ﴾ فقال ﴿ ألا تستمعون ﴾ ؟ تعجباً من جوابه ، فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ لأن وجود الإنسان وآبائه أظهر الأدلة عند العقلاء ، وأعظم البراهين ، فإن أنفسهم أقرب الأشياء إليهم فيستدلون بها على وجود خالقهم ، فلما ظهرت هذه الحجة حاد فرعون عنها ونسب موسى إلى الجنون مغالطة منه ، وأيده بالازدراء والتهمك في قوله ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ لأن طلوع الشمس وغروبها آية ظاهرة لا يمكن أحداً جحدها ولا أن يدعيها لغير الله ، فلما انقطع فرعون بالحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فهده باللسان ، فأقام موسى عليه الحجة بالمعجزة وذكرها له بتلطف طمعاً في إيمانه ^(١) ﴿ قال أولو جئتكم بشيء مبين ﴾ أي أتسجنني ولو جئتكم بأمر ظاهر ، وبرهان قاطع تعرف به صدقي ؟ ﴿ قال فانت به إن كنت من الصادقين ﴾ أي فانت بما تقول إن كنت صادقاً في دعواك ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ أي رمى موسى عصاه فإذا هي حية عظيمة في غاية الجلاء والوضوح ، ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مزعج ﴿ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ أي وأخرج يده من جيبه فإذا هي تتلألأ كالشمس الساطعة ، لها شعاع يكاد يعشي الأبصار ويسد الأفق ﴿ قال للملأ حوله إن هذا لساحر مبين ﴾ أي قال فرعون لأشرف قومه الذين كانوا حوله : إن هذا لساحر عظيم بارع في فن السحر . . أراد أن يعمي على قومه تلك المعجزة برميه بالسحر خشية أن يتأثروا بما رأوا ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾ أي يريد أن يستولي على بلادكم بسحره العظيم ﴿ فماذا تأمرون ﴾ أي فبأي شيء تأمرونني وبما تشيرون علي أن أصنع به ؟ لما رأى فرعون تلك الآيات الباهرة خاف على قومه أن يتبعوه ، فتنزل إلى مشاورتهم بعد أن كان مستبداً بالرأي والتدبير ﴿ قالوا أرجه وأخاه ﴾ أي أخر أمرهما ﴿ وابعث في المدائن حاشرين ﴾ أي وأرسل في أطراف مملكتك من يجمع لك السحرة من كل مكان ﴿ يأتوك بكل سحر عليم ﴾ أي يجيئوك بكل ساحر ماهر ، عليهم بضروب السحر قال ابن كثير : وكان هذا من تسخير الله تعالى ليجتمع الناس في صعيد واحد ، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة ^(٢)

(١) ابن كثير ٢/٦٤٦ المختصر . (١) الطبري ١٩/٤٦ . (٢) ابن كثير ٢/٦٤٧ المختصر .

جُمِعَ السَّحْرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ
 الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا لَمِنَ
 الْمُقْرَبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مَلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقُوا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
 الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا
 ءَأَمْنَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كَرَّ الَّذِي عَلَّمَكُمُ

﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴾ أي فاجتمع السحرة للموعد المحدد وهو وقت الضحى من يوم الزينة ، وهو الوقت الذي حدده موسى ، ليظهر الحق ويزهق الباطل على رءوس الأشهاد كما قال تعالى ﴿قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشرناس ضحى﴾ ﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾ أي قيل للناس : بادروا إلى الإجتاع لكي نتبع السحرة في دينهم إن غلبوا موسى ﴿فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ أي إن غلبنا بسحرنا موسى فهل تكرمنا بالمال والأجر الجزيل ؟ ﴿قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين﴾ أي قال لهم فرعون : نعم أعطيك ما تريدون وأجعلكم من المقربين عندي ومن خاصة جلسائي ﴿قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾ في الكلام إيجاز دل عليه السياق تقديره : فقالوا لموسى عند ذلك إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملحقين كما ذكر في الأعراف فأجابهم موسى بقوله ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾ أي ابدعوا بإلقاء ما تريدون فأن لا أخشاكم ، قاله ثقةً بنصرة الله له وتوسلاً لإظهار الحق ﴿فألقوا حباهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ أي فألقوا ما بأيديهم من الحبال والعصي وقالوا عند الإلقاء نقسم بعظمة فرعون وسلطانة إنا نحن الغالبون لموسى ﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ أي فألقى موسى العصى فانقلبت حية عظيمة فإذا هي تبتلع وتزرد الحبال والعصي التي اختلقوها باسم السحر حيث خيلوها للناس حياتٍ تسعى ، وسمى تلك الأشياء إفكاً مبالغةً ﴿فألقى السحرة ساجدين﴾ أي سجدوا لله رب العالمين ، بعدما شاهدوا البرهان الساطع ، والمعجزة الباهرة ﴿قالوا أمنا برب العالمين﴾ * رب موسى وهارون ﴿أي وقالوا عند سجودهم أمنا بالله العزيز الكبير الذي يدعونا إليه موسى وهارون قال الطبري : لما تبين للسحرة أن الذي جاءهم به موسى حق لا سحر ، وأنه مما لا يقدر عليه غير الله الذي فطر السموات والأرض ، خرّوا لوجوههم سجداً لله مذعنين له بالطاعة قائلين : أمنا برب العالمين الذي دعانا موسى لعبادته ، دون فرعون وملئه^(١)﴾ قال أنتم له قبل أن آذن لكم ﴿أي قال فرعون للسحرة : أنتم لموسى قبل أن تستأذنوني ؟﴾ ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ أي إنه

السِّحْرِ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبِينَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٤﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٦﴾

رئيسكم الذي تعلمتم منه السحر وتواطأتم معه ليظهر أمره ، أراد فرعون بهذا الكلام التلبيس على قومه لئلا يعتقدوا أن السحرة آمنوا عن بصيرة وظهور حق قال ابن كثير : وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لا يقوله عاقل (١) ، ثم توعدهم بقوله ﴿فلسوف تعلمون﴾ أي سوف تعلمون عند عقابي وبال ما صنعتهم من الإيمان به ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلف﴾ أي لأقطعن يد كل واحد منكم اليمنى ورجله اليسرى ﴿ولأصلبنكم أجمعين﴾ أي ولأصلبن كل واحد منكم على جذع شجرة وأتركه حتى الموت ﴿قالوا لا ضير إننا إلى ربنا منقلبون﴾ أي لا ضرر علينا في وقوع ما أوعدتنا به ، ولا نبالي به لأننا نرجع إلى ربنا مؤملين غفرانه ﴿إننا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا﴾ أي إننا نرجو أن يغفر لنا الله ذنوبنا التي سلفت منا قبل إيماننا به فلا يعاقبنا بها ﴿أن كنا أول المؤمنين﴾ أي بسبب أن بادرنا قومنا إلى الإيمان وكنا أول من آمن بموسى .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الكناية اللطيفة ﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ كنى به عن الذل والهوان الذي يلحقهم بعد العز والكبرياء .
- ٢ - الوعيد والتهديد ﴿فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ .
- ٣ - التوبيخ ﴿أولم يروا إلى الأرض﴾ الاستفهام للتوبيخ على تركهم النظر بعين الاعتبار .
- ٤ - المقابلة اللطيفة بين ﴿ويضيق صدري﴾ و﴿ولا ينطلق لساني﴾ .
- ٥ - جناس الاشتقاق ﴿رسول . . وأرسل﴾ .
- ٦ - الجناس الناقص ﴿وفعلت فعلتك﴾ فقد اتفقت الحروف بين ﴿فعلت وبين فعلة﴾ واختلف الشكل فأصبح جناساً غير تام .
- ٧ - الإيجاز بالحذف ﴿قال ألم نربك فينا وليداً﴾ دل على هذا الحذف السياق تقديره فأتيا فرعون فقال له ذلك فقال لموسى ﴿ألم نربك﴾ وكذلك هناك إيجاز في ﴿فأرسل إلى هارون﴾ قال الزمخشري : أصله أرسل جبريل إلى هارون واجعله نبياً وأزرنى به واشدد به عضدي فأحسن في الاختصار غاية الإحسان (١) .

٨ - صيغة التعجيب ﴿ألا تستمعون﴾ .

- ٩ - التأكيد بإن واللام لأن السامع متشكك ومتردد ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ ومثله قول السحرة في بدء المناظرة ﴿إنا لنحن الغالبون﴾ وهذا من خصائص علم البيان .
١٠ - الطباق بين ﴿المشرق . . والمغرب﴾ ثم توافق الفواصل وهو من السجع البديع .

لطيفة : إن قيل كيف قال موسى في بدء مناظرته لفرعون وقومه ﴿إن كنتم موقنين﴾ ثم قال آخرًا ﴿إن كنتم تعقلون﴾ فالجواب أنه تَلَطَّفَ ولاين أولاً طمعاً في إيمانهم ، فلما رأى منهم العناد والمغالطة وبخهم بقوله ﴿إن كنتم تعقلون﴾ وجعل ذلك في مقابلة قول فرعون ﴿إن رسولكم لمجنون﴾ فسلك موسى طريق الحكمة .

قال الله تعالى : ﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي . . إلى . . وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾ من آية (٥٢) إلى نهاية آية (١٠٤) .

المناسبة : ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة سبع قصص : أولها قصة موسى وهارون ، وثانيها قصة إبراهيم ، وثالثها قصة نوح ، ورابعها قصة هود ، وخامسها قصة صالح وسادسها قصة لوط وسابعها قصة شعيب ، وكل تلك القصص لتسلية الرسول ﷺ عما يلقيه من المشركين ، ولا تزال الآيات تتحدث عن قصة موسى عليه السلام .

اللغة : ﴿أسر﴾ من الإسرائء وهو السير ليلاً فلا يقال لمن سار نهاراً أسرى وإنما هو خاص بالليل ﴿شرذمة﴾ الشرذمة : الجمع القليل الحقير والجمع شراذم قال الجوهري : الشرذمة الطائفة من الناس ، والقطعة من الشيء ، وثوب شراذم أي قطع^(١) ﴿أزلفنا﴾ قَرَّبْنَا ومنه ﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾ أي قَرَّبْت قال الشاعر :

وكلُّ يوم مضي أو ليلةٍ سلفتُ
فيها النفوسُ إلى الأجالِ تزدلفُ^(٢)

﴿فككبوا﴾ كَبَّكَبَ الشيء : قلبَ بعضه على بعض قال ابن عطية : وهو مضاعف من كب وهذا قول الجمهور مثل صر ، وصرصر ، وقال الزمخشري : الككببة : تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى كأنه إذا ألقى في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها^(٣) ﴿حميم﴾ الحميم : الصديق الخالص الذي يهيم ما أهمك ﴿كرة﴾ الكرة : العودة والرجوع مرة أخرى .

* وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ۖ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾

النفيس : ﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي﴾ أي أمرنا موسى بطريق الوحي أن يسير ليلاً إلى جهة البحر ببني إسرائيل قال القرطبي : أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً ، وسماهم عباده لأنهم آمنوا بموسى^(٤) ﴿إنكم متبعون﴾ أي يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم إلى أرض مصر ويقتلوكم

فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَاَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزَلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾

﴿فأرسل فرعون في المدائن حاشرين﴾ أي أرسل فرعون في طلبهم حين أخبر بمسيرهم وأمر أن يجمع له الجيش من كل المدن قائلاً لهم ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي طائفة قليلة قال الطبري : كان بنو إسرائيل ستمائة وسبعين ألفاً^(١) ولكنه قللهم بالنسبة إلى كثرة جيشه ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ أي وإنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ﴾ أي ونحن قوم متيقظون منتبهون ، من عادتنا التيقظ والحذر ، واستعمال الحزم في الأمور قال الزمخشري : وهذه معاذير اعتذر بها إلى قومه لثلا يُظنُّ به ما يكسر من قهره وسلطانه^(٢) ، قال تعالى ﴿فأخرجناهم من جناتٍ وعيون﴾ أي أخرجنا فرعون وقومه من بساتين كانت لهم وأنهار جارية ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي وأخرجناهم من الأموال التي كنزوها من الذهب والفضة ، ومن المنازل الحسنة والمجالس البهية ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي مثل ذلك الإخراج الذي وضعناه فعلنا بهم ، وأورثنا بني إسرائيل ديارهم وأموالهم بعد إغراق فرعون وقومه ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ أي فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانَ﴾ أي فلما رأى كلُّ منهما الآخر ، والمراد جمع موسى وجمع فرعون ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ أي ملحقون يلحقنا فرعون وجنوده فيقتلوننا ، قالوا ذلك حين رأوا فرعون الجبار وجنوده وراءهم ، والبحر أمامهم ، وساءت ظنونهم ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي قال موسى كلاً لن يدركوكم فارتدعوا عن مثل هذا الكلام وانزجروا ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ إنَّ ربي معي بالحفظ والنصرة ، وسيهديني إلى طريق النجاة والخلاص قال الرازي : قوَى نفوسهم بأمرين : أحدهما أن ربه معه وهذا دلالة النصره والتكفل بالمعونة والثاني قوله ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي إلى طريق النجاة والخلاص ، وإذا دلَّه على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية في النصره^(٣) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ أي أمرنا موسى بطريق الوحي أن يضرب البحر بعصاه ﴿فَاَنْفَلَقَ﴾ أي فضربه فانشق وانفلق ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي فكان كل جزء منه كالجبل الشامخ الثابت قال ابن عباس : صار فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبطٍ منهم طريق^(٤) ﴿وَأَزَلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ﴾ أي وقربنا هناك فرعون وجماعته حتى دخلوا البحر على إثر دخول بني إسرائيل ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أي أنجينا موسى والمؤمنين معه جميعاً ﴿ثُمَّ

(١) الطبري ٤٦/١٩ . (٢) الكشاف ٢٤٨/٣ . (٣) التفسير الكبير ١٣٨/٢٤ . (٤) ابن كثير المختصر ٦٤٩/٢ .

ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾
 وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَلَكَيْنِ ﴿٧١﴾
 قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يُضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾
 قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي
 خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾

أغرقنا الآخرين ﴿٦٦﴾ أي أغرقنا فرعون وقومه قال المفسرون : لما انفلق البحر جعله الله يبساً لموسى وقومه ، وصار فيه اثنا عشر طريقاً ووقف الماء بينها كالطود العظيم ، فلما خرج أصحاب موسى وتكامل دخول أصحاب فرعون أمر الله البحر أن يطبق عليهم فغرقوا فيه ، فقال بعض أصحاب موسى : ما غرق فرعون ! فنبت على ساحل البحر حتى نظروا إليه ﴿٦٧﴾ في ذلك آية ﴿٦٨﴾ أي إن في إغراق فرعون وقومه لعبرة عظيمة على إنجاء الله لأوليائه ، وإهلاكه لأعدائه ﴿٦٩﴾ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿٧٠﴾ أي ومع مشاهدة هذه الآية العظمى لم يؤمن أكثر البشر ، وفيه تسلية للنبي ﷺ ووعيد لمن عصاه ﴿٧١﴾ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿٧٢﴾ أي المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه ﴿٧٣﴾ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴿٧٤﴾ هذه بداية قصة إبراهيم أي اقصص عليهم يا محمد خبر إبراهيم الهام وشأنه العظيم ﴿٧٥﴾ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ﴿٧٦﴾ أي حين قال لأبيه وعشيرته أي شيء تعبدون ؟ سألمهم مع علمه بأنهم يعبدون الأصنام ليبين لهم سفاهة عقولهم في عبادة ما لا ينفع ، ويقيم عليهم الحجة ﴿٧٧﴾ قالوا نعبد أصناماً فنظّلها عاكفين ﴿٧٨﴾ أي نعبد أصناماً فنبتى مقيمين على عبادتها لا نتركها ، قالوا ذلك على سبيل الابتهاج والافتخار ، وكان يكفهم أن يقولوا : نعبد الأصنام ولكنهم زادوا في الوصف كالمفتخر بما يصنع ﴿٧٩﴾ قال هل يسمعونكم إذ تدعون ﴿٨٠﴾ أي قال لهم إبراهيم على سبيل التبكيت والتوبيخ : هل يسمعون دعاءكم حين تلجأون إليهم بالدعاء ؟ ﴿٨١﴾ أو ينفعونكم أو يضرونكم ﴿٨٢﴾ أي وهل يبذلون لكم منفعة ، أو يدفعون عنكم مضرة ؟ ﴿٨٣﴾ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴿٨٤﴾ أي وجدنا آباءنا يعبدونهم ففعلنا مثلهم قال أبو السعود : اعترفوا بأنها لا تنفع ولا تضر بالمرّة ، واضطروا إلى إظهار الحقيقة وهي أنه لا سند لهم سوى التقليد ﴿٨٥﴾ ، وهذا من علامات انقطاع الحجة ﴿٨٦﴾ قال أفرايتم ما كنتم تعبدون ﴿٨٧﴾ أنتم وآباؤكم الأقدمون ﴿٨٨﴾ أي قال إبراهيم : أفرايتم هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله أنتم وآباؤكم الأولون ؟ ﴿٨٩﴾ فإنهم عدوئي إلا رب العالمين ﴿٩٠﴾ أي فإن هذه الأصنام أعداء لي لا أعبدهم ، ولكن أعبد الله رب العالمين فهو وليي في الدنيا والآخرة ، أسند العداوة لنفسه تعريضاً بهم وهو أبلغ في النصيحة من التصريح ﴿٩١﴾ الذي خلقني فهو يهدين ﴿٩٢﴾ أي الله

(١) قال الفخر الرازي : ذكر تعالى في أول السورة حزن النبي ﷺ بسبب كفر قومه ، ثم ذكر قصة موسى ليعرف محمد أن مثل تلك المحنة كانت حاصلة لموسى ، ثم ذكر عقبها قصة إبراهيم ليعرف محمد أيضاً أن حزن إبراهيم بهذا السبب كان أشد من حزنه ، لأن من عظيم المحنة على إبراهيم أن يرى أباه وقومه في النار وهو لا يتمكن من إنقاذهم إلا بالدعاء والتنبه . التفسير الكبير ١٤٢/٢٤ (٢) أبو السعود ١٠٩/٤ .

وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِي ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ
 أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنَ بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي
 الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ
 يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَزْلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾
 وَبُرُزْتِ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾

الذي خلقني هو الذي يهديني إلى طريق الرشاد لا هذه الأصنام ﴿والذي هو يطعمني ويسقيني﴾ أي هو تعالى الذي يرزقني الطعام والشراب فهو الخالق الرازق الذي ساق المُرْن ، وأنزل المطر ، وأخرج به أنواع الثمرات رزقاً للعباد ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ أي وإذا أصابني المرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره ، وإنما أسند المرض إلى نفسه ﴿مرضت﴾ وأسند الشفاء إلى الله رعاية للأدب ، وإلا فالمرض والشفاء من الله جل وعلا فاستعمل في كلامه حسن الأدب ﴿والذي يميتني ثم يحييني﴾ أي وهو تعالى المحيي المميت لا يقدر على ذلك أحد سواه ، يميتني إذا شاء ثم يحييني إذا أراد بعد مماتي ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ أي أرجو من واسع رحمته أن يغفر لي ذنبي يوم الحساب والجزاء حيث يجازي العباد بأعمالهم ، وفيه تعليم للأمة أن يستغفروا من ذنوبهم ويقرؤا بخطاياهم ﴿رب هب لي حكماً والحقني بالصالحين﴾ أي هب لي الفهم والعلم والحقني في زمرة عبادك الصالحين ﴿واجعل لي لسان صدق﴾ أي اجعل لي ذكراً حسناً وثناءً عاطراً ﴿في الآخريين﴾ أي فيمن يأتي بعدي إلى يوم القيامة ، أذكر به ويقتدى بي^(١) قال ابن عباس : هو اجتماع الأمم عليه ، فكل أمة تتمسك به وتعضمه ﴿واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ أي من السعداء في الآخرة الذين يستحقون ميراث جنات الخلد ﴿واغفر لأبي﴾ أي اصفح عنه واهده إلى الإيمان ﴿إنه كان من الضالين﴾ أي ممن ضل عن سبيل الهدى قال الصاوي : وقد أجابه الله تعالى في جميع دعواته سوى الدعاء بالغفران لأبيه^(٢) وقال القرطبي : كان أبوه وعده أن يؤمن به فلذلك استغفر له ، فلما بان له أنه لا يفي تبرأ منه^(٣) ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾ أي لا تذلني ولا تهني يوم تبعث الخلائق للحساب ، وهذا تواضع منه أمام عظمة الله وجلاله وإلا فقد أتى الله عليه بقوله ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ الآية ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾ أي في ذلك اليوم العصيب لا ينفع أحداً فيه مال ولا ولد ﴿إلا من أتى الله﴾ أي إلا من جاء ربّه في الآخرة ﴿بقلب سليم﴾ أي بقلب نقي طاهر ، سليم من الشرك والنفاق ، والحسد والبغضاء ، وإلى هنا تنتهي دعوات الخليل إبراهيم ثم قال تعالى ﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾ أي قُرِبَت الجنة للمتقين لربهم ليدخلوها قال الطبري : وهم الذين اتقوا عقاب الله بطاعتهم إياه في الدنيا^(٤) ﴿وبُرُزَتِ الجحيم للغاوين﴾ أي

(١) قال بعض العلماء : في الآية دليل على استحباب كسب الذكر الجميل إذ هو الحياة الثانية وأنشدوا « قدم مات قوم وهم في الناس أحياء » .

(٢) الصاوي على الجلالين ٣/ ١٧٥ . (٣) القرطبي ١٣/ ١١٤ . (٤) الطبري ١٩/ ٥٥ .

وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبَّوْا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾
 وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لِنَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نَسُواكُمْ
 رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ
 لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
 الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

وأظهرت النار للمجرمين الضالين حتى رأوها بارزة أمامهم مكشوفة للعيان ، فالؤمنون يرون الجنة فتحصل لهم البهجة والسرور ، والغاؤون يرون جهنم فتحصل لهم المساءة والأحزان ﴿وقيل لهم﴾ أي قيل للمجرمين على سبيل التقرير والتوبيخ ﴿أين ما كنتم تعبدون من دون الله﴾ أي أين ألهتكم الذين عبدتموهم من الأصنام والأنداد ؟ ﴿هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾ أي هل ينقذونكم من عذاب الله ، أو يستطيعون أن يدفعوه عن أنفسهم ؟ وهذا كله توبيخ ﴿فككبوا فيها﴾ أي ألقوا على رؤوسهم في جهنم قال مجاهد : ذهروا في جهنم وقال الطبري : رمي بعضهم على بعض ، وطرح بعضهم على بعض منكبين على وجوههم^(١) ﴿هم والغاؤون﴾ أي الأصنام والمشركون والعابدون والمعبودون كقوله ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ ﴿وجنود إبليس أجمعون﴾ أي وأتباع إبليس قاطبة من الإنس والجن ﴿قالوا وهم فيها يختصمون﴾ أي قال العابدون لمعبودهم وهم في الجحيم يتنازعون ويتخاصمون ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين﴾ أي نقسم بالله لقد كنا في ضلال واضح وبعده عن الحق ظاهر ﴿إذ نسويكم رب العالمين﴾ أي حين عبدناكم مع رب العالمين وجعلناكم مثله في استحقاق العبادة ﴿وما أضلنا إلا المجرمون﴾ أي وما أضلنا عن الهدى إلا الرؤساء والكبراء الذين زينوا لنا الكفر والمعاصي ﴿فما لنا من شافعين﴾ أي ليس لنا من يشفع لنا من هول هذا اليوم ﴿ولا صديق حميم﴾ أي ولا صديق خالص الود ينقذنا من عذاب الله ﴿فلو أن لنا كرة﴾ أي لو أن لنا رجعة إلى الدنيا ﴿فנקون من المؤمنين﴾ أي فنؤمن بالله ونحسن عملنا ونطيع ربنا ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي إن فيما ذكر من نبي إبراهيم وقومه لبرة يعتبر بها أولو الأبصار ﴿وما كان أكثر هؤلاء المشركين الذين تدعوهم إلى الإسلام بمؤمنين﴾ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿أي المنتقم من أعدائه ، الرحيم بأوليائه .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبدیع نوجزها فيما يلي :

١ - الإيجاز بالحذف ﴿فانفلق﴾ أي فضرب البحر فانفلق .

٢ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كالطود العظيم﴾ أي كالجبل في رسوخه وثباته ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه .

٣ - الطباق بين ﴿ينفعونكم أو يضرون﴾ وكذلك بين ﴿يميتني ثم يُحيين﴾ .

٤ - مراعاة الأدب ﴿وإذا مرضتُ فهو يشفين﴾ لم يقل : وإذا أمرضني بل أسند المرض لنفسه تأدباً مع الله لأنَّ الشرَّ لا يُنسب إليه تعالى أديباً ، وإن كان المرضُ والشفاء كلاهما من الله .

٥ - الاستعارة اللطيفة ﴿واجعل لي لسان صدق﴾ استعار اللسان للذكر الجميل والثناء الحسن وهو من أطف الاستعارات .

٦ - المقابلة البديعة ﴿وبُرزت الجحيم للغاوين﴾ مقابل قوله عن السعداء ﴿وأزلقت الجنة للمتقين﴾ .

٧ - مراعاة الفواصل في أواخر الآيات مثل ﴿المتقين ، والغاوين ، وضلال ميين﴾ وهو من السجع الحسن الذي يزيد في جمال البيان .

تنبية : « روي أن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترَةٌ وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ! فيقول أبوه : فالיום لا أعصيك فيقول إبراهيم يا رب : إنك وعدتني ألا تخزني يوم يُبعثون ، فأبي خزبي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقول يا إبراهيم : انظر تحت رجلك فينظر فإذا هو بذيخ - ذكر من الضباع - متلطح فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار » رواه البخاري .

قال الله تعالى : ﴿كذبت قوم نوح المرسلين . . إلى . . وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾
من آية (١٠٥) إلى نهاية آية (١٩١) .

المناسكة : لما قصَّ تعالى على نبيه محمد ﷺ خبر موسى وإبراهيم أتبعه بذكر قصة نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وكلُّ ذلك تسليةً لرسول الله ﷺ فيما يلقاه من قومه ، وبياناً لسنة الله في عقاب المكذبين .

اللغز : ﴿المشحون﴾ المملوء يقال : شحنت السفينة أي ملأها بالناس والدواب والطعام ﴿رريع﴾ الرريع : ما ارتفع من الأرض ، والرريعُ : الطريق ﴿مصانع﴾ المراد بها الحصون المشيدة وهو قول ابن عباس قال الشاعر :

تركنا ديارهم منهم قفاراً وهدمنا المصانع والبروجا^(١)

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا ﴿١٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنِ اجْتَرَىٰ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٢٠﴾
* قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿٢١﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ إِنِ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَو
تَشْعُرُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾

﴿بطشتم﴾ البطش : السطوة والأخذ بالعنف يقال : بطش يبطش إذا أخذه بشدة وعنف ﴿الجبلة﴾ الخليفة قال الهروي : الجبلة والجبيل : الجمع ذو العدد الكثير من الناس ومنه قوله ﴿ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً﴾ أي ناساً كثيرين ويقال : جبيل فلان على كذا أي خلق ﴿كسفاً﴾ جمع كسفة وهي القطعة من الشيء .

التفسير : ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ أي كذب قوم نوح رسولهم نوحاً ، وإنما قال ﴿المرسلين﴾ لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل ﴿إذ قال لهم أخوهم نوح﴾ أي أخوهم في النسب لا في الدين لأنه كان منهم قال الزمخشري : وهذا من قول العرب : يا أبا بني تميم يريدون يا واحداً منهم ومنه بيت الحماسة « لا يسألون أخاهم حين يندبهم »^(١) ﴿ألا تتقون﴾ أي ألا تخافون عقاب الله في عبادة الأصنام ؟ ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي إني لكم ناصح ، أمين في نصحي لا أخون ولا أكذب ﴿فاتقوا الله وأطيعوا﴾ أي خافوا عذاب الله وأطيعوا أمري ﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾ أي لا أطلب منكم جزاءً على نصحي لكم ﴿إن اجترى إلا على رب العالمين﴾ أي ما أطلب ثوابي وأجري إلا من الله تعالى ﴿فاتقوا الله وأطيعوا﴾ كرره تأكيداً وتنبهياً على أهمية الأمر الذي دعاهم إليه ﴿قالوا أنؤمن لك﴾ أي أنصدقك يا نوح فيما تقول ﴿واتبعك الأردلون﴾ أي والحال أن أتباعك هم السفلة والفقراء والضعفاء ؟ قال البيضاوي : وهذا من سخافة عقولهم ، وقصور رأيهم فقد قصروا الأمر على حطام الدنيا حتى جعلوا اتباع الفقراء له مانعاً عن اتباعهم وإيمانهم بدعوة نوح^(٢) ﴿قال وما علمي بما كانوا يعملون﴾ أي ليس عليّ أن أبحث عن خفايا ضمائرهم ، وأن أنقب عن أعمالهم هل اتبعوني إخلاصاً أو طمعاً ؟ قال القرطبي : كأنهم قالوا : إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعاً في العزة والمال فقال في جوابهم : إني لم أقف على باطن أمرهم وإنما إليّ ظاهرهم^(٣) ﴿إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون﴾ أي ما حسابهم وجزاؤهم إلا على الله فإنه المطلع على السرائر والضمائر لو تعلمون ذلك ﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾ أي لست بمبعد هؤلاء المؤمنين الضعفاء عني ، ولا بطاردهم عن مجلسي قال أبو حيان : وهذا مشعرٌ بأنهم طلبوا منه ذلك كما طلب رؤساء قريش من رسول الله ﷺ أن يطرد من آمن من الضعفاء^(٤) ﴿إن أنا إلا نذير مبين﴾ أي ما أنا إلا نذير لكم من عذاب الله ، أخوفكم بأسه وسطوته

(١) الكشاف ٣/٢٥٤ . (٢) البيضاوي ٢/٧٦ . (٣) القرطبي ١٣/١٢٠ . (٤) البحر ٧/٣٢ .

قَالُوا لَيْنَ لَدُنَّتِهِ يَنْوُحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا
وَنَجَّيْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادُ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٧﴾
وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٨﴾

فمن أطاعني نجا سواء كان شريفاً أو وضيعاً ، أو جليلاً أو حقيراً ﴿قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾ أي لئن لم تنته عن دعوى الرسالة وتقييح ما نحن عليه لتكونن من المرجومين بالحجارة ، خوفوه بالقتل بالحجارة فعند ذلك حصل اليأس لنوح من فلاحهم فدعا عليهم ﴿قال رب إن قومي كذبون﴾ أي قال نوح يا رب إن قومي كذبوني ولم يؤمنوا بي ﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ أي فاحكم بيني وبينهم بما تشاء ، واقض بيننا بحكمك العادل ﴿ونجني ومن معي من المؤمنين﴾ أي أنقذني والمؤمنين معي من مكرهم وكيدهم ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون﴾ أي فأنجيننا نوحاً ومن معه من المؤمنين في السفينة المملوءة بالرجال والنساء والحيوان ﴿ثم أغرقنا بعد الباقيين﴾ أي أغرقنا بعد إنجائهم الباقيين من قومه ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي لعبرة عظيمة لمن تفكر وتدبر ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي وما أكثر الناس بمؤمنين ﴿وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾ أي وإن ربك يا محمد هو الغالب الذي لا يقهر ، الرحيم بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة ، ثم شرع تعالى في ذكر قصة « هود » فقال ﴿كذبت عاد المرسلين﴾ أي كذبت قبيلة عاد رسولهم هوداً ، ومن كذب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين ﴿إذ قال لهم أخوهم هودٌ ألا تتقون﴾ أي ألا تخافون عذاب الله وانتقامه في عبادتكم لغيره ! ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي أمين على الوحي ناصح لكم في الدين ﴿فاتقوا الله وأطيعوا﴾ أي فخافوا عذاب الله وأطيعوا أمري ﴿وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلا على رب العالمين﴾ أي لا أطلب منكم على تبليغ الدعوة شيئاً من المال إنما أطلب أجري من الله ، كررت الآيات للتنبية إلى أن دعوة الرسل واحدة ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون﴾ ؟ استفهام إنكار أي أتبنون بكل موضع مرتفع من الطريق بناءً شامخاً كالعلم لمجرد اللهو والعبث ؟ قال ابن كثير : الريع المكان المرتفع كانوا يبنون عند الطرق المشهورة بنياناً محكماً هائلاً باهراً لمجرد اللهو واللعب وإظهار القوة ، ولهذا أنكر عليهم نبئهم عليه السلام ذلك لأنه تضييع للزمان ، وإتعب للأبدان ، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة ^(١) ﴿وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾ أي وتتخذون قصوراً مشيدة محكمة

(١) ابن كثير ٦٥٣/٢ المختصر .

وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣٦﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٧﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ
وَبَنِينَ ﴿١٣٨﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٩﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤٠﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوَعِّتَ أَمْ
لَرَّتْكُمْ مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٤١﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأُولِينَ ﴿١٤٢﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٤٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٥﴾

ترجون الخلود في الدنيا كأنكم لا تموتون ؟ ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ أي وإذا اعتديتم على أحد فعلتم فعل الجبارين من البطش دون رافة أو رحمة ، وإنما أنكر عليهم ذلك لأنه صادر عن ظلم عادة الجبابة المتسلطين قال الفخر : وصفهم بثلاثة أمور : اتخاذ الأبنية العالية وهو يدل على السرف وحب العلو ، واتخاذ المصانع - القصور المشيدة والحصون - وهو يدل على حب البقاء والخلود ، والجبارية وهي تدل على حب التفرد بالعلو ، وكل ذلك يشير على أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه حتى خرجوا عن حد العبودية ، وحاموا حول دعاء الربوبية ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة ^(١) ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ أي خافوا الله واتركوا هذه الأفعال وأطيعوا أمري ، ثم شرع يذكرهم نعم الله فقال ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أنعم عليكم بأنواع النعم والخيرات ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي أعطاكم أصول الخيرات من المواشي ، والبنيان ، والبساتين ، والأنهار ، وأغدق عليكم النعم فهو الذي يجب أن يُعبد ويُشكر ولا يُكفر ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي أخشى عليكم إن لم تشكروا هذه النعم وأشركتم وكفرتم عذاب يوم هائل تشيب لهوله الولدان .. دعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب ، وبلغ في دعائهم بالوعظ والتخويف النهاية القصوى في البيان فكان جوابهم ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوَعِّتَ أَمْ لَرَّتْكُمْ مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ أي يستوي عندنا تذكيرك لنا وعدمه ، فلا نبالي بما تقول ، ولا نرعوي عما نحن عليه قال أبو حيان : جعلوا قوله وعظاً على سبيل الاستخفاف وعدم المبالاة بما خوفهم به إذ لم يعتقدوا صحة ما جاء به ، وأنه كاذب فيما ادَّعاه ^(٢) ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأُولِينَ ﴾ أي ما هذا الذي جئنا به إلا كذب وخرافات الأولين ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ أي لا بعث ولا جزاء ولا حساب ولا عذاب ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ أي فكذبوا رسولهم هوداً فأهلكناهم بريح صرصر عاتية قال ابن كثير : وكان إهلاكهم بالريح الشديدة الهبوب ، ذات البرد الشديد وهي الريح الصرصر العاتية ، وكان سبب إهلاكهم من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره ، فسلب الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد ، فحصب الريح كل شيء حتى كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه ، وترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه ، فتشدخ رأسه ودماعه ^(٣) ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أي إن في إهلاكهم لعظة وعبرة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي وما آمن أكثر الناس مع رؤيتهم للآيات الباهرة ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أي وإن ربك يا محمد هو العزيز في انتقامه من أعدائه ، الرحيم

(١) التفسير الكبير بشيء من الاختصار ١٥٧/٢٤ . (٢) البحر ٣٣/٧ . (٣) مختصر ابن كثير ٦٥٤/٢ بشيء من الإيجاز .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا أَمْرًا عَلَيْهِ مِنْكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٤﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُنَّاءَ أَمِينٍ ﴿١٤٥﴾
فِي جَنَّتٍ وَعَيْونٍ ﴿١٤٦﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هُضِيمٌ ﴿١٤٧﴾ وَتَحْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا أَمْرًا الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤٩﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٠﴾

بعباده المؤمنين ، ثم شرع تعالى في ذكر قصة « صالح » فقال ﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴾ أي كذبت قبيلة ثمود نبيهم « صالحاً » ومن كذب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين ﴿ إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ﴾ ؟ ألا تخافون عذاب الله وانتقامه في عبادتكم غيره ! ﴿ اني لكم رسول أمين ﴾ فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴿ كررت الآيات للتنبيه على أن دعوة الرسل واحدة ، فكل رسول يذكر قومه بالغاية من بعثته ورسالته ، وأنها لصالح البشر ﴾ أتركون فيما ههنا آمين ﴾ أي أترككم ربكم في هذه الدنيا آمين ، مخلدين في النعيم ، كأنكم باقون في الدنيا بلا موت ؟ قال ابن عباس : كانوا معمرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم ، قال القرطبي : ودل على هذا قوله تعالى ﴿ واستعمركم فيها ﴾ فقرعهم صالح ووبخهم وقال : أتظنون أنكم باقون في الدنيا بلا موت ^(١) ﴿ في جنات وعيون ﴾ أي في بساتين وأنهار جاريات ﴿ وزروع ونخل طلعها هضيم ﴾ أي وسهول فسيحة فيها من أنواع الزروع والنخل الرطب اللين ؟ أتركون في كل ذلك النعيم دون حساب ولا جزاء قال المفسرون : كانت أرض ثمود كثيرة البساتين والماء والنخل فذكرهم صالح بنعم الله الجليلة من إنبات البساتين والجنات ، وتفجير العيون الجاريات ، وإخراج الزروع والثمرات ، ومعنى « الهضيم » اللطيف الدقيق وهو قول عكرمة ، وقال ابن عباس معناه : اليانع النضيج ^(٢) ﴿ وتحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ أي وتبنون بيوتاً في الجبال أشرف بطرين من غير حاجة لسكانها قال الرازي : وظاهر هذه الآيات يدل على أن الغالب على قوم « هود » هو اللذات الخيالية وهي الاستعلاء ، والبقاء ، والتجبر ، والغالب على قوم « صالح » هو اللذات الحسية وهي طلب المأكول ، والمشروب ، والمسكن الطيبة ^(٣) وقال الصاوي : كانت أعمارهم طويلة فإن السقوف والأبنية كانت تبنى قبل فناء أعمارهم ، لأن الواحد منهم كان يعيش ثلاثمائة سنة إلى ألف ^(٤) ﴿ فاتقوا الله وأطيعوا ﴾ أي فاتقوا عقاب الله وأطيعوا نصيحتي لكم ﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين ﴾ أي ولا تطيعوا أمر الكبراء المجرمين ﴿ الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ أي الذين عادتهم الفساد في الأرض لا الإصلاح قال الطبري : وهم الرهط التسعة الذين وصفهم الله بقوله ﴿ وكان في المدينة تسعة رهط

(١) القرطبي ١٢٧/١٣ . (٢) حكي القرطبي في معنى « الهضيم » اثني عشر قولاً كذا في تفسيره ١٢٨/١٣ . (٣) التفسير الكبير ١٥٩/٢٤ . (٤) حاشية الصاوي على الجلالين ١٧٩/٣ .

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٥٦﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٨﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٩﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٦٠﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٢﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ لوطَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ۖ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾

يُفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴿١٥٦﴾ ﴿قالوا إنما أنت من المسحورين﴾ أي من المسحورين سُحرت حتى غلب على عقلك قال المفسرون : والمُسحَرُ مبالغة من المسحور ﴿ما أنت إلا بشر مثلنا﴾ أي لست يا صالح إلا رجلاً مثلنا ، فكيف تزعم أنك رسول الله ؟ ﴿فانتِ آية إن كنت من الصادقين﴾ أي فانتنا بمعجزة تدل على صدقك ﴿قال هذه ناقة﴾ أي هذه معجزتي إليكم وهي الناقة التي تخرج من الصخر الأصم بقدره الله قال المفسرون : روي أنهم اقترحوا عليه ناقة عُشراء - حامل - تخرج من صخرة معينة وتلد أمامهم ، فقعد صالح عليه السلام يتفكر فجاءه جبريل فقال : صل ركعتين وسل ربك الناقة ففعل ، فخرجت الناقة وولدت أمامهم وبركت بين أيديهم فقال لهم هذه ناقة يا قوم ﴿١﴾ ﴿لها شربٌ ولكم شربٌ يوم معلوم﴾ أي تشرب ماءكم يوماً ، ويوماً تشربون أنتم الماء قال قتادة : إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كلّه ، وشربهم في اليوم الذي لا تشرب هي فيه ، وتلك آية أخرى ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ أي لا تنالوها بأي ضرر بالعقر أو بالضرب ﴿فياخذكم عذاب يومٍ عظيم﴾ أي فيصيبكم عذاب من الله هائل لا يكاد يوصف قال ابن كثير : حذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ، ترد الماء وتاكل الورق والمرعى ، ويتنفعون بلبنها يلعبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً ، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تمالثوا على قتلها وعقرها ﴿٢﴾ ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ أي فقتلوا رميةً بالسهم ، رماها أشقاهم - قُدار بن سالف - بأمرهم ورضاهم فأصبحوا نادمين على قتلها خوف العذاب قال الفخر : لم يكن ندمهم ندم التائبين ، لكن ندم الخائفين من العذاب العاجل ﴿٣﴾ ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي العذاب الموعود ، وكان صيحةً خمدت لها أبدانهم ، وانشقت لها قلوبهم ، وزلزلت الأرض تحتهم زلزلاً شديداً ، وصبّت عليهم حجارة من السماء فماتوا عن آخرهم ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي لعظة وعبرة لمن عقل وتدبر ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿تقدم تفسيرها فيما سبق ، ثم شرع تعالى في ذكر قصة « لوط » فقال ﴿كذبت قوم لوط المرسلين﴾ أي كذبوا رسولهم لوطاً ﴿إذ قال لهم أخوهم لوطُ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تحافون عقاب الله وانتقامه في عبادتكم غيره ! ﴿إني لكم رسول أمين﴾ فاتقوا الله وأطيعوا * وما أسألكم عليه

(١) الطبري ٦٣/١٩ . (٢) انظر حاشية زادة على البيضاوي ٤٧٧/٣ . (٣) مختصر ابن كثير ٦٥٦/٢ . (٤) تفسير الرازي ٦٠/٢٤

أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذُرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾
 قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَه يَنْلُوطُ لَنْتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي
 مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَجِنَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
 مَطَرًا فَسَاءً مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ
 الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ﴿﴾ نفس الكلمات والألفاظ التي قالها من قبل صالح ، وهود ، ونوح مما يؤكد أن دعوة الرسل واحدة ، وغايتها واحدة ، وأن منشأها هو الوحي السماوي ، ثم قال لهم لوط ﴿أتأتون الذكور من العالمين﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع أي أتتكحون الذكور في أدبارهم ، وتفردون بهذا الفعل الشنيع من بين سائر الخلق ؟ ﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم﴾ أي وتتركون ما أباح لكم ربكم من الاستمتاع بالإناث ؟ قال مجاهد : تركتم فروج النساء إلى أدبار الرجال (١) ﴿بل أنتم قوم عادون﴾ أي بل أنتم قوم مجاوزون الحد في الإجماع والفساد ، وبسخهم على إتيانهم الذكور ، ثم أضرب عنه إلى ما هو أبلغ في التوبيخ كأنه يقول خرجتم عن حدود الإنسانية إلى مرتبة البهيمية بعدوانكم وارتكابكم هذه الجريمة الشنيعة ، فالذكر من الحيوان يأنف عن إتيان الذكر ، وأنتم فعلتم ما يتورع عنه الحيوان ﴿قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين﴾ أي لئن لم تترك تقبيح ما نحن عليه لنخرجنك من بين أظهرنا وننفيك من بلدنا كما فعلنا بمن قبلك ، توعده بالنفي والطرده ﴿قال إنني لعملك من القالين﴾ أي إنني لعملكم القبيح من المبغضين غاية البغض وأنا بريء منكم ﴿رب نجني وأهلي مما يعملون﴾ أي نجني من العذاب الذي يستحقونه بعملهم القبيح أنا وأهلي قال تعالى ﴿فنجيناه وأهله أجمعين﴾ * إلا عجوزاً في الغابرين ﴿أي نجيناه مع أهله جميعاً إلا امرأته كانت من الهالكين ، الباقيين في العذاب قال ابن كثير : والمراد بالعجوز امرأته فقد كانت عجوز سوء ، بقيت فهلكت مع من بقي من قومها حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته (٢) ﴿ثم دمرنا الآخرين﴾ أي أهلكتناهم أشد إهلاكاً وأفظعه بالخسف والحصب ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي أمطرنا عليهم حجارة من السماء كالمنظر الزاخر ﴿فساء مطر المُنذرين﴾ أي بئس هذا المطر القوم المُنذرين الذين أنذرهم نبينهم فكذبوه ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي إن في ذلك لعبرة وعظة لأولي البصائر ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ * وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿تقدم تفسيره ، ثم شرع تعالى في ذكر قصة « شعيب » فقال : ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾ أي كذب أصحاب مدين نبينهم شعيباً قال الطبري : والأيكة : الشجر الملتف وهم أهل مدين (٣) ﴿إذ قال لهم شعيب ألا تتقون﴾ * إنني لكم رسول أمين ﴿فاتقوا

(١) زاد المسير ٦/١٤٠ . (٢) ابن كثير ٢/٦٥٧ . (٣) الطبري ١٩/٦٥ .

إِنِّي لَكُرُّ رَسُولٍ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لِمَنِ الْكَلْبِدِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾

الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجرى إلا على رب العالمين * سبق تفسيره ﴿أوفوا الكيل﴾ أي أوفوا الناس حقوقهم في الكيل والوزن ﴿ولا تكونوا من المخسرين﴾ أي من المتقصين المطففين في المكيال والميزان ﴿وزنوا بالقسط المستقيم﴾ أي وزنوا بالميزان العدل السوي ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ أي لا تنقصوا حقوق الناس بأي طريق كان بالهضم أو الغبن أو الغصب ونحو ذلك ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ أي لا تفسدوا في الأرض بأنواع الفساد من قطع الطريق ، والغارة ، والسلب والنهب ﴿واتقوا الذي خلقكم والجيلَّة الأولين﴾ أي خافوا الله الذي خلقكم وخلق الخليقة المتقدمين قال مجاهد : الجليلَّة : الخليفة ويعني بها الأمم السابقين^(١) ﴿قالوا إنما أنت من المسحورين﴾ أي ما أنت إلا من المسحورين ، سُحِرَتْ كثيراً حتى غلب على عقلك ﴿وما أنت إلا بشر مثناً﴾ أي أنت إنسان مثلاً ولست برسول ﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ أي ما نظنك يا شعيب إلا كاذباً ، تكذب علينا فتقول أنا رسول الله ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء﴾ أي أنزل علينا العذاب قطعاً من السماء ، وهو مبالغة في التكذيب ﴿إن كنت من الصادقين﴾ أي إن كنت صادقاً فيما تقول قال الرازي : وإنما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه ، فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبه^(٢) فعندها أجابهم شعيب ﴿قال ربي أعلم بما تعملون﴾ أي الله أعلم بأعمالكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جزاكم به وهو غير ظالم لكم ، وإن كنتم تستحقون عقاباً آخر فإليه الحكم والمشئمة ، قال تعالى ﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾ أي فكذبوا شعيباً فأخذهم ذلك العذاب الرهيب عذاب يوم الظلة وهي السحابة التي أظلتهم قال المفسرون : بعث الله عليهم حراً شديداً فأخذ بأنفاسهم ، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابةً أظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها برداً ونادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم ناراً فاحترقوا جميعاً ، وكان ذلك من أعظم العذاب ولهذا قال ﴿إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ أي كان عذاب يوم هائل ، عظيم في الشدة والهول ﴿إن في ذلك لآية وما كان

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

أكثرهم مؤمنين * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وإلى هنا ينتهي آخر القصص السبع التي أوحيت لرسول الله ﷺ لصفه عن الحرص على إسلام قومه ، وقطع رجائه ودفع تحسره عليهم كما قال في أول السورة ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ ففيها تسلية لرسول الله وتخفيف عن أحزانه وآلامه ، وإنما كرر في نهاية كل قصة قوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ليكون ذلك أبلغ في الاعتبار ، وأشدّ تنبيهاً لذوي القلوب والأبصار .

البلاغة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - إطلاق الكل وإرادة البعض ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ أراد بالمرسلين نوحاً وإنما ذكره بصيغة الجمع تعظيماً له وتنبيهاً على أن من كذب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين .

٢ - الاستفهام الإنكاري ﴿أَنْتُمْ مِنْ لَدُنِّي وَأَتَّبِعْكَ الْأَرْضُونَ؟﴾

٣ - الاستعارة اللطيفة ﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ أي احكم بيننا وبينهم بحكمك العادل ، استعار الفتح للحاكم والفتح للحكم لأنه يفتح المغلق من الأمر ففيه استعارة تبعية .

٤ - الطباق ﴿يفسدون .. ولا يصلحون﴾ .

٥ - الجناس غير التام ﴿قال .. القالين﴾ الأول من القول والثاني من قلى إذا أبغض .

٦ - الإطناب ﴿أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين﴾ لأن وفاء الكيل هو في نفسه نهى عن الخسران ، وفائدته زيادة التحذير من العدوان .

٧ - المبالغة ﴿إنما أنت من المسحّرين﴾ والمسحّر مبالغة عن المسحور .

٨ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿يفسدون ، يصلحون ، الأَرْضُونَ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ .. إِلَى .. وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ من آية (١٩٢) إلى آية (٢٢٧) نهاية السورة الكريمة .

المناسبة : لما ذكر تعالى قصص الأنبياء لرسوله ﷺ أتبعه بذكر ما يدل على نبوته من تنزيل هذا القرآن المعجز على قلب خاتم الأنبياء والمرسلين .

اللغات : ﴿زُبُرٌ﴾ الزُّبُرُ : الكتُب جمع زُبور كرسول ورُسُل ﴿الأعجمين﴾ جمع أعجمي وهو الذي لا يُحسن العربية ، يقال : رجل أعجمي إذا كان غير فصيح وإن كان عربياً ، ورجلٌ عجمي أي غير عربي وإن كان فصيح اللسان ﴿بغتة﴾ فجأة ﴿مُنظرون﴾ مؤخرون وممهلون يقال : أنظره أي أمهله ﴿أفأك﴾ كذاب ﴿منقلب﴾ مصير .

وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٧﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٨﴾ بِلسانٍ
عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٠٠﴾ أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٠١﴾ وَلَوْ
نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿٢٠٢﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٠٣﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٤﴾
لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠٥﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٦﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٧﴾
أَفِعْدَابِنَا يُسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٨﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٩﴾

التفسير : ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ أي وإن هذا القرآن المعجز لتنزيل رب الأرباب
﴿نزل به الروح الأمين﴾ أي نزل به أمين السماء جبريل عليه السلام ﴿على قلبك لتكون من
المنذرين﴾ أي أنزله على قلبك يا محمد لتحفظه وتذخره بآياته المكذبة ﴿بلسان عربي مبين﴾ أي بلسان
عربي فصيح هو لسان قريش ، لثلا يبقى لهم عذر فيقولوا : ما فائدة كلام لا نفهمه ؟ قال ابن كثير :
أنزلناه باللسان العربي الفصيح ، الكامل الشامل ، ليكون بيناً واضحاً ، قاطعاً للعذر مقياً للحجة ،
دليلاً إلى المحجة^(١) ﴿وإنه لفي زبور الأولين﴾ أي وإن ذكر القرآن وخبره لموجود في كتب الأنبياء
السابقين ﴿أولم يكن لهم آية﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي أولم يكن لكفار مكة علامة على صحة
القرآن ﴿أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ أي أن يعلم ذلك علماء بني إسرائيل الذين يجدون ذكر هذا
القرآن في كتبهم كعبد الله بن سلام وأمثاله ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾ أي لو نزلنا هذا
القرآن بنظمه الرائق المعجز على بعض الأعجمين الذين لا يقدر على التكلم بالعربية ﴿فقرأه عليهم
ما كانوا به مؤمنين﴾ أي فقرأه على كفار مكة قراءة صحيحة فصيحة ، وانضم إعجاز القراءة إلى
إعجاز المقروء ما آمنوا بالقرآن لفرط عنادهم واستكبارهم^(٢) ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين﴾
أي كذلك أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين ، فسمعوا به وفهموه ، وعرفوا فصاحته وبلاغته ، وتحققوا من
إعجازه ثم لم يؤمنوا به وجحدوه ﴿لا يؤمنون به﴾ أي لا يصدقون بالقرآن مع ظهور إعجازه ﴿حتى
يروا العذاب الأليم﴾ أي حتى يشاهدوا عذاب الله المؤلم فيؤمنوا حيث لا ينفع الإيمان ﴿فيأتيهم
بغتة﴾ أي فيأتيهم عذاب الله فجأة ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي وهم لا يعلمون بمجيئه ولا يدرون
﴿فيقولوا هل نحن منظرُونَ﴾ أي فيقولوا حين يفجأهم العذاب - تحسراً على ما فاتهم من الإيمان وتمنياً
للإمهال - هل نحن مؤخرون لنؤمن ونصدق ﴿أبعذابنا يستعجلون﴾ إنكار وتوبيخ أي كيف يستعجل
العذاب هؤلاء المشركون ويقولون ﴿أنتنا بعذاب أليم﴾ ؟ وحالهم عند نزول العذاب أنهم يطلبون
الإمهال والنظرة ؟ ﴿أفأرأيت إن متعناهم سنين﴾ أي أخبرني يا محمد إن متعناهم سنين طويلة ، مع وفور

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٥٩ . (٢) قال في التسهيل ومعنى الآية : أن القرآن لو نزل على من لا يتكلم ، ثم قرأه عليهم لم يؤمنوا لفرط
عنادهم ، ففي ذلك تسلية للنبي ﷺ على كفرهم به مع وضوح برهانه أ . هـ التسهيل ٣/ ٩٠ .

ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾
ذَكَرْنَا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ
السَّمْعِ لَمَعزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾

الصحة ورغد العيش ﴿ثم جاءهم ما كانوا يوعدون﴾ أي ثم جاءهم العذاب الذي وُعدوا به ﴿ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾؟ أي ماذا ينفعهم حينئذٍ ما مضى من طول أعمارهم ، وطيب معاشهم ؟ هل ينفعهم ذلك النعيم في تخفيف الحزن ، أو دفع العذاب ؟ ﴿وما أهلكنا من قرية﴾ أي وما أهلكنا أهل قرية من القرى ، ولا أمة من الأمم ﴿إلا لها منذر﴾ أي إلا بعدما أزمناهم الحجة بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ﴿ذكرى﴾ أي ليكون إهلاكهم تذكراً وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وما كنا ظالمين﴾ أي وما كنا ظالمين في تعذيبهم ، لأننا أقمنا الحجة عليهم وأعدنا إليهم . . ثم إنه تعالى بعد أن نبه على إعجاز القرآن وصدق نبوة محمد عليه السلام رد على قول من زعم من الكفار أن القرآن من إلقاء الجن والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة فقال ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ أي وما تنزلت بهذا القرآن الشياطين ، بل نزل به الروح الأمين ﴿وما ينبغي لهم وما يستطيعون﴾ أي وما يصح ولا يستقيم أن يتنزل بهذا القرآن الشياطين ، ولا يستطيعون ذلك أصلاً ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ أي لأنهم منعوا من استراق السمع منذ بعث محمد عليه السلام ، وحيل بينهم وبين السمع بالملائكة والشهب ، فكيف يستطيعون أن يتنزلوا به ؟ قال ابن كثير : ذكر تعالى أنه يمتنع ذلك عليهم من ثلاثة أوجه : أحدها أنه ما ينبغي لهم لأن سجايهم الفساد ، وإضلال العباد ، وهذا فيه نورٌ وهدى وبرهان عظيم ، الثاني : أنه لو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك ، وهذا من حفظ الله لكتابه وتأييده لشرعه الثالث : أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك لأنهم بمعزلٍ عن استماع القرآن ، لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً ، فلم يخلص أحد من الشياطين لاستماع حرفٍ واحد منه لثلاثي الأمر^(١) ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمراد غيره أي لا تعبد يا محمد مع الله معبوداً آخر ﴿فتكون من المعذبين﴾ أي فيعذبك الله بنار جهنم قال ابن عباس : يحذر به غيره يقول : أنت أكرم الخلق علي ، ولو اتخذت من دوني إلهاً لعذبتك^(٢) ، ثم أمر تعالى رسوله بتبليغ الرسالة فقال ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ أي خوفاً أقاربك الأقرب منهم فالأقرب من عذاب الله إن لم يؤمنوا ، روي أنه ﷺ قام حين نزلت عليه ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ فقال : « يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عممة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً^(٣) » قال المفسرون : وإنما أمر ﷺ بإنذار

(١) ابن كثير ٢/٦٦٠ المختصر . (٢) زاد المسير ٦/١٤٧ . (٣) أخرجه الشيخان .

وَآخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾
 وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرِيكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
 الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ
 كَذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا

أقاربه أولاً لثلاثا يظن أحدٌ به المحاباة واللطف معهم فإذا تشدَّد على نفسه وعلى أقاربه كان قوله أنفع ،
 وكلامه أنجع ﴿واخفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تواضع وألن جانبك لأتباعك
 المؤمنين ﴿فإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي فإن لم يطيعوك وخالفوا أمرك فتبرأ منهم ومن
 أعمالهم قال أبو حيان : لما كان الإنذار يترتب عليه الطاعة أو العصيان جاء التقسيم عليهما فكان المعنى :
 من اتبعك مؤمناً فتواضع له ، ومن عصاك فتبرأ منهم ومن أعمالهم ^(١) ﴿وتوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾
 أي فوَضِّ جميع أمورك إلى الله العزيز ، الذي يقهر أعداءك بعزته ، وينصرك عليهم برحمته ﴿الذي
 يراك حين تقوم﴾ أي يراك حين تكون وحدك تقوم من فراشك أو مجلسك وقال ابن عباس : حين تقوم
 إلى الصلاة ﴿وتقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ أي ويرى تقلبك مع المصلين في الركوع والسجود والقيام ^(٢) ،
 والمعنى يراك وحدك ويراك في الجماعة ﴿إنه هو السميع العليم﴾ أي إنه تعالى السميع لما تقوله ،
 العليم بما تخفيه ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين﴾ ؟ أي قل يا محمد لكفار مكة : هل أخبركم
 على من تنزل الشياطين ؟ وهذا ردٌ عليهم حين قالوا إنما يأتيه بالقرآن الشياطين ﴿تنزل على كل أفَّاكٍ
 أثيم﴾ أي تنزل على كل كذَّابٍ فاجر ، مبالغٍ في الكذب والعدوان ، لا على سيِّد ولد عدنان ﴿يلقون
 السَّمْعَ وأكثرهم كاذبون﴾ أي تلقى الشياطين ما استرقوه من السمع إلى أوليائهم الكهنة ، وأكثرهم
 يكذبون فيما يوحون به إليهم وفي الحديث (تلك الكلمة من الحق يُخطفها الجنى فيقرقها - أي يلقيها - في
 أذن وليه كقرقرة الدجاج ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة) ^(٣) قال الزمخشري : ﴿يلقون السَّمْعَ﴾
 هم الشياطين كانوا قبل أن يُحجِّبوا بالرجم يسمعون إلى الملاء الأعلى ، فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما
 اطلعوا عليه من الغيوب ، ثم يوحون به إلى أوليائهم من الكهنة والمنتبهة « وأكثرهم كاذبون » فيما يوحون به
 إليهم ، لأنهم يُسمعونهم ما لم يسمعوا ^(٤) ، ثم ردَّ تعالى على من زعم أن محمداً شاعر فقال ﴿والشُّعْرَاءُ
 يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ أي يتبعهم الضالون لا أهل البصيرة والرشاد ﴿ألم تر أنهم في كلِّ وادٍ يَمِيمُونَ﴾
 أي ألم تر أيها السامع العاقل أنهم يسلكون في المديح والهجاء كل طريق ، يمدحون الشيء بعد أن ذمَّوه ،
 ويعظِّمون الشخص بعد أن احتقروه قال الطبري : وهذا مثلٌ ضرب به الله لهم في افتتانهم في الوجوه التي
 يُقتنون فيها بغير حق ، فيمدحون بالباطل قوماً ويهجون آخرين ^(٥) ﴿وأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾

(١) البحر ٤٦/٧ . (٢) وهذا اختيار ابن جرير الطبري وقيل المراد تقلبه في أصلاب الأنبياء .

(٣) رواه البخاري . (٤) الكشاف ٣/٢٦٩ . (٥) الطبري ٧٨/١٩ .

يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذُكِّرُوا بِاللَّهِ كَثِيرًا وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

أي يكذبون فينسبون لأنفسهم ما لم يعملوه قال أبو حيان : أخبر تعالى عن الشعراء بالأحوال التي تخالف حال النبوة ، إذ أمرهم كما ذكر من اتباع الغواية لهم ، وسلوكهم أفانين الكلام من مدح الشيء وذمه ، ونسبة ما لا يقع منهم إليهم ، وهذا يخالف لحال النبوة فإنها طريقة واحدة لا يتبعها إلا الراشدون^(١) ، ثم استثنى تعالى فقال ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي صدقوا في إيمانهم وأخلصوا في أعمالهم ﴿وذكروا الله كثيراً﴾ أي لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله ولم يجعلوه همهم وديندهم ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ أي هجوا المشركين دفاعاً عن الحق ونصرة للإسلام ﴿وسيعلم الذين ظلموا﴾ وعيد عام في كل ظالم ، تنفتت له القلوب وتتصدع لهولة الأكباد أي وسيعلم الظالمون المعادون لدعوة الله ومعهم الشعراء الغاؤون ﴿أي منقلب ينقلبون﴾ ؟ أي أي مرجع يرجعون إليه ، وأي مصير يصيرون إليه ؟ فإن مرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع ، ومصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير .

البلاغة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - التأكيد بإن واللام ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ لأن الكلام مع المتشككين في صحة القرآن فناسب تأكيده بأنواع من المؤكدات .
- ٢ - الاستفهام للتوبيخ والتبكيت ﴿أبعذابنا يستعجلون﴾ ؟
- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿يعلمه علماء﴾ .
- ٤ - المجاز المرسل ﴿وما أهلكنا من قرية﴾ المراد به أهلها .
- ٥ - أسلوب التهيج والإلهاب ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر﴾ الخطاب للرسول بطريق التهيج لزيادة إخلاصه وتقواه .
- ٦ - الاستعارة التصريحية ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ شبه التواضع ولين الجانب بخفض الطائر جناحه عند إرادة الانحطاط فأطلق على المشبه اسم الخفض بطريق الاستعارة المكنية .
- ٧ - صيغة المبالغة ﴿أفأك أثيم﴾ لأن فعّال وفعل من صيغ المبالغة أي كثير الكذب كثير الفجور .
- ٨ - الطباق بين ﴿يقولون . . ويفعلون﴾ وبين ﴿انتصروا . . وظلموا﴾ .
- ٩ - الاستعارة التمثيلية البديعة ﴿في كل وادٍ يهيمون﴾ مثل لذهابهم عن سنن الهدى وإفراطهم في

المديح والهجاء بالتائه في الصحراء الذي هام على وجه فهو لا يدري أين يسير ، وهذا من أطف الاستعارات ، ومن أرشقها وأبدعها .

١٠ - جناس الاشتقاق ﴿منقلب ينقلبون﴾ .

١١ - مراعاة الفواصل مما يزيد في جمال الكلام ورونقه مثل ﴿يهيمون ، ينقلبون ، يقولون ما لا يفعلون﴾ الخ .

لطيفة : ذكر أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ قوله تعالى ﴿أفأريت إن متعناهم سنين* ثم جاءهم ما كانوا يوعدون* ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ ؟ ثم يبكي وينشد :

نهارك يا مغرور سهوً وغفلة
تسرُّ بما يقنى وتفرح بالئني
وتسعى إلى ما سوف تكره غبًة
وليلك نومٌ والردي لك لازم
كما سرُّ باللذات في النوم حالمٌ
كذلك في الدنيا تعيشُ البهائم^(١)

تنبية : الشعر باب من الكلام حسنه حسنٌ ، وقبيحه قبيحٌ ، وإنما ذمَّ تعالى الشعر لما فيه من المغالاة والإفراط في المديح أو الهجاء ، ومجازة حدِّ القصد فيه حتى يفضلوا أجبن الناس على عنتره ، وأشحهم على حاتم ، ويبهتوا البريء ويفسقوا التقى ، وربما رفعوا شخصاً إلى الأوج ثم إذا غضبوا عليه أنزلوه إلى الحضيض ، وهذا مشاهد ملموس في أكثر الشعراء إلا من استثناهم الله عز وجل ، والشاعر قد يمدح الشيء ويذمه بحلاوة لسانه وقوة بيانه ، ومن أطف ما سمعتُ من بعض شيوخه ما قاله بعض الشعراء في العسل :

تقولُ : هذا مُجاجُ النَّحلِ تمدحُه
مدحاً وذمّاً وما جاوزت وصفهما
وإنَّ تعب قلت : ذاقيءُ الزنابير
سحرُ البيان يرى الظلماء كالنور

لطيفة : ذكر أن الفرزدق أنشد أبياتاً عند « سليمان بن عبد الملك » وكان في ضمنها قوله في النساء العذارى :

فبتن كأنهنَّ مُصرَّعاتُ
وبتُ أفضُّ أغلاقَ الختام
فقال له سليمان : قد وجب عليك الحد ، فقال يا أمير المؤمنين إن الله قد درأ عني الحد بقوله ﴿ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون* وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ فعفا عنه^(١) .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الشعراء »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة النمل من السور المكية التي تهتم بالحديث عن أصول العقيدة « التوحيد ، والرسالة ، والبعث » وهي إحدى سور ثلاث نزلت متتالية ، ووضعت في المصحف متتالية وهي « الشعراء ، والنمل ، والقصاص » ويكاد يكون منهاجها واحداً ، في سلوك مسلك العظة والعبرة ، عن طريق قصص الغابرين .

* تناولت السورة الكريمة القرآن العظيم ، معجزة محمد الكبرى ، وحجته البالغة إلى يوم الدين ، فوضحت أنه تنزيل من حكيم عليم ، ثم تحدثت عن قصص الأنبياء بإيجاز في البعض ، وإسهاب في البعض ، فذكرت بالإجمال قصة « موسى » وقصة « صالح » وقصة « لوط » وما نال أقوامهم من العذاب والنكال ، بسبب إعراضهم عن دعوة الله ، وتكذيبهم لرسله الكرام .

* وتحدثت بالتفصيل عن قصة « داود » وولده « سليمان » وما أنعم الله عليهما من النعم الجليلة ، وما خصهما به من الفضل الكبير بالجمع بين النبوة والملئك الواسع ، ثم ذكرت قصة « سليمان مع بلقيس » ملكة سبأ .

* وفي هذه القصة مغزى دقيق لأصحاب الجاه والسلطان ، والعطاء والملوك ، فقد اتخذ سليمان الملك وسيلةً للدعوة إلى الله ، فلم يترك حاكماً جائراً ولا ملكاً كافراً إلا دعاه إلى الله ، وهكذا كان شأنه مع « بلقيس » حتى تركت عبادة الأوثان ، وأتت مع جندها خاضعةً مسلمةً ، مستجيبةً لدعوة الرحمن .

* وتناولت السورة الكريمة الدلائل والبراهين على وجود الله ووحدانيته ، من آثار مخلوقاته وبدائع صنعه ، وسأقت بعض الأهوال والمشاهد الرهيبة ، التي يراها الناس يوم الحشر الأكبر ، حيث يفرعون ويرهبون ، وينقسمون إلى قسمين : السعداء الأبرار ، والذين يكبون على وجوههم في النار .

التسمية : سميت سورة النمل ، لأن الله تعالى ذكر فيها قصة النملة ، التي وعظت بني جنسها وذكرت ثم اعتذرت عن سليمان وجنوده ، ففهم نبي الله كلامها وتبسم من قولها ، وشكر الله على ما منحه من الفضل والإنعام ، وفي ذلك أعظم الدلالة على علم الحيوان ، وأن ذلك من إلهام الواحد الديان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ نِتْكَ ءَايَتْ الْقُرْءَانَ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾

اللغات: ﴿يعمهون﴾ يترددون ويتحiron ، والعمّة: التحير والتردد كما هو حال الضال
عن الطريق قال الراجز: «أعمى الهدى بالحاءين العمّه» ﴿قبس﴾ القبس: النار المقبوسة من جمر
وغيره ﴿تصطلون﴾ اصطلي يصطلي إذا استدفا من البرد قال الشاعر:

النارُ فاكهةُ الشتاءِ فمن يُرد
أكلَ الفواكهَ شاتياً فليصْطَلِ^(١)

﴿بورك﴾ من البركة وهي زيادة الخير والنماء قال الثعلبي: العرب تقول: باركك الله، وبارك فيك،
وبارك عليك، وبارك لك، أربع لغات قال الشاعر:

فبوركتَ مولوداً وبوركتَ ناشئاً
وبوركتَ عندَ الشيبِ إذ أنتَ أشيب^(٢)

﴿يؤزعون﴾ أصل الوزع الكف والمنع يقال: وزعه يزعه إذا كفه عن الشيء ومنعه ومنه قول عثمان «إن
الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» قال النابغة:

على حين عابتُ المشيبَ على الصبّا
وقلتُ ألمأُ أصحُ والشيبُ وازع

النفسير: ﴿طس﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وقد تقدم الكلام عليها^(٣)
﴿تلك آيات القرآن﴾ أي هذه الآيات المنزلة عليك يا محمد هي آيات القرآن المعجز في بيانه، الساطع في
برهانه ﴿وكتاب مبين﴾ أي وآيات كتاب واضح مبين لمن تفكر فيه وتدبر، أبان الله فيه الأحكام،
وهدى به الأنام ﴿هدى وبشرى للمؤمنين﴾ أي تلك آيات القرآن الهادي للمؤمنين إلى صراط
مستقيم، والمبشر لهم بجنات النعيم، خص المؤمنين بالذكر لانتفاعهم به ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾
أي يؤدونها على الوجه الأكمل بخشوعها، وأداها، وأركانها ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي يدفعون زكاة
أموالهم طيبة بها نفوسهم ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ أي يصدقون بالآخرة تصديقاً جازماً لا يخالجه
شك أو ارتياب قال الإمام الفخر: والجملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات
هم الموقنون بالآخرة، فما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح،
لأن خوف العقابة يحملهم على تحمل المشاق^(٤) وقال أبو حيان: ولما كان ﴿يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾
مما يتجدد ولا يستغرق الأزمان جاءت الصلة فعلاً، ولما كان الإيمان بالآخرة بما هو ثابت ومستقر جاءت
الجملة إسمية وأكدت بتكرار الضمير ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ وجاء خبر المبتدأ فعلاً ليدل على

(١) القرطبي ١٣/١٥٧. (٢) البحر ٧/٥٥. (٣) انظر تفصيل القول والتحقيق الدقيق في اول سورة البقرة. (٤) التفسير الكبير ٢٤/١٧٨

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لَّهُمْ أَعْمَلُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ
وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ
إِنِّي آنستُ ناراً سَعَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ أَوْ أْتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ
بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾ يَمْوَسِي إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾
الديومة^(١) ، ولما ذكر تعالى المؤمنين الموقنين بالبعث ، ذكر بعدها المنكرين المكذبين بالآخرة فقال ﴿إن
الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي لا يصدقون بالبعث ﴿زينا لهم أعمالهم﴾ أي زينا لهم أعمالهم القبيحة
حتى رأوها حسنة قال الرازي : والمراد من التزين هو أن يخلق في قلبه العلم بما فيها من المنافع واللذات ،
ولا يخلق في قلبه العلم بما فيها من المضار والآفات^(٢) ﴿فهم يعمهون﴾ أي فهم في ضلال أعمالهم
القبيحة يترددون حيارى لا يميزون بين الحسن والقبيح ﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ أي لهم أشد
العذاب في الدنيا بالقتل والأسر والتشريد ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ أي وخسارتهم في الآخرة
أشد من خسارتهم في الدنيا لمصيرهم إلى النار المؤبدة والجحيم والأغلال ﴿وإنك لتلقى القرآن﴾ أي
وإنك يا محمد لتلقى هذا القرآن العظيم وتُعطاه ﴿من لدن حكيمٍ عليم﴾ أي من عند الله الحكيم بتدبير
خلقه ، العليم بما فيه صلاحهم وسعادتهم قال الزمخشري : وهذه الآية بسط وتمهيد لما يريد أن يسوق
بعدها من الأفاصيص ، وما في ذلك من لطائف حكمته ، ودقائق علمه^(٣) ﴿إذ قال موسى لأهله إنني
آنستُ ناراً﴾ أي اذكر يا محمد حين قال موسى لأهله - أي زوجته - إنني أبصرتُ ورأيتُ ناراً قال
المفسرون : وهذا عندما سار من مدين إلى مصر ، وكان في ليلة مظلمة باردة ، وقد ضلَّ عن الطريق وأخذ
زوجته الطلقُ ﴿سأتَيْكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ﴾ أي سأتَيْكُمْ بِخَبْرٍ عَنِ الطَّرِيقِ إِذَا وَصَلْتُ إِلَيْهَا ﴿أَوْ أْتِيكُمْ
بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي أَوْ أْتِيكُمْ بِشِعْلَةٍ مَقْتَبَسَةٍ مِنَ النَّارِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي لكي تستدفئوا بها
﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أي فلما وصل إلى مكان النار رأى منظراً هائلاً عظيماً ، حيث رأى النار تضطرم في شجرة
خضراء ، لا تزداد النار إلا توقداً ولا تزداد الشجرة إلا خضرةً ونضرةً ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصلٌ
بعنان السماء قال ابن عباس : لم تكن ناراً وإنما كانت نوراً يتوهج^(٤) فوق موسى متعجباً مما رأى وجاءه
النداء العلوي ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي نُودِيَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ بِأَنْ بُورِكَتْ يَا
مُوسَى وَبُورِكَ مَنْ حَوْلِكَ وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَعْنَى ﴿بُورِكَ﴾ تَقَدَّسَ ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الْمَلَائِكَةُ قَالَ
أَبُو حِيَانَ : وَبَدُوهُ بِالنِّدَاءِ تَبْشِيرٌ لِمُوسَى وَتَأْنِيسٌ لَهُ وَمَقْدَمَةٌ لِمُنَاجَاتِهِ ، وَجَدِيدٌ أَنْ يَبَارِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ
حَوْلَهَا إِذْ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ وَهُوَ تَكْلِيمُ اللَّهِ لِمُوسَى وَتَنْبِيئُهُ^(٥) ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي
تَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ رَبُّ الْعِزَّةِ ، الْعَلِيِّ الشَّانِ ، الَّذِي لَا يَشْبَهُهُ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ لَا فِي ذَاتِهِ ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ ،
وَلَا فِي أَعْمَالِهِ ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي أَنَا اللَّهُ الْقَوِيُّ الْقَادِرُ ، الْعَزِيزُ الَّذِي لَا

وَأَلَّتِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يٰمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ يُقْهَرُ ، الحكيم الذي يفعل كل شيء بحكمة وتدبير ﴿وَأَلَّتِ عَصَاكَ﴾ عطف على السابق أي ونودي أن ألق عصاك لترى معجزتك بنفسك فتأنس بها ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان﴾ أي فلما رآها تتحرك حركة سريعة كأنها ثعبان خفيف سريع الجري ﴿ولَّى مدبراً ولم يعقب﴾ أي ولَّى الأدبار منهزماً ولم يرجع لما دهاه من الخوف والفرع قال مجاهد : « لم يعقب » لم يرجع ، وقال قتادة : لم يلتفت ، لحقه ما لحق طبع البشر إذ رأى أمراً هائلاً جداً وهو انقلاب العصا حية تسعى ولهذا ناداه ربه ﴿يا موسى لا تخف﴾ أي أقبل ولا تخف لأنك بحضرتي ومن كان فيها فهو آمن ﴿إنه لا يخاف لدي المرسلون﴾ أي فأنت رسولي ورسلي الذين اصطفتيهم للنبوة لا يخافون غيري قال ابن الجوزي : نبهه على أن من آمنه الله بالنبوة من عذابه لا ينبغي أن يخاف من حية ﴿١١﴾ «إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء» الاستثناء منقطع أي لكن من ظلم من سائر الناس لا من المرسلين فإنه يخاف إلا إذا تاب وبدل عمله السيء إلى العمل الحسن ﴿فإنني غفور رحيم﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة قال ابن كثير : وفيه بشارة عظيمة للبشر وذلك أن من كان على عمل سيء ، ثم ألقى ورجع وتاب وأناب فإن الله يتوب عليه كقوله ﴿وإنني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ ﴿٢﴾ ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ هذه معجزة أخرى لموسى تدل على باهر قدرة الله والمعنى أدخل يا موسى يدك في فتحة ثوبك ثم أخرجها تخرج مضيئة ساطعة بيضاء تتلألأ كالبرق الخاطف دون مرض أو برص ﴿في تسع آيات إلى فرعون وقومه﴾ أي هاتان المعجزتان «العصا واليد» ضمن تسع معجزات أيدتك بها وجعلتها برهاناً على صدقك لتذهب بها إلى فرعون وقومه ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ أي خارجين عن طاعتنا ، معنيين في الكفر والضلال ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة﴾ أي فلما رأوا تلك المعجزات الباهرة ، واضحة بينة ظاهرة ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾ أي أنكروها وزعموا أنها سحر واضح ﴿وجحدوا بها﴾ أي كفروا وكذبوا بتلك الخوارق ﴿واستيقنتها أنفسهم﴾ أي وقد أيقنوا بقلوبهم أنها من عند الله وليست من قبيل السحر ﴿ظلماً وعلواً﴾ أي جحدوا بها ظلماً من أنفسهم ، واستكباراً عن اتباع الحق ، وأي ظلم أفحش ممن يعتقد ويستيقن أنها آيات بينة واضحة جاءت من عند الله ، ثم يكابر بتسميتها سحراً؟ ولهذا قال ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي انظر أيها السامع وتدبر بعين الفكر والبصيرة ماذا كان مآل أمر الطاغين ، من الإغراق في الدنيا ، والإحراق في الآخرة؟ قال ابن كثير : وفحوى الخطاب كأنه يقول :

الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾

احذروا أيها المكذبون لمحمد ، الجاحدون لما جاء به من ربه ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى ، فإن محمداً ﷺ أشرف وأعظم من موسى ، وبرهائه أدل وأقوى من برهان موسى ، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم (١) ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً ﴾ هذه هي القصة الثانية في السورة الكريمة وهي قصة « داود وسليمان » والمعنى والله لقد أعطينا داود وابنه سليمان علماً واسعاً من علوم الدنيا والدين ، وجمعنا لها بين سعادة الدنيا والآخرة قال الطبري : وذلك علم كلام الطير والدواب وغير ذلك مما خصهم الله بعلمه (٢) ﴿ وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ أي وقالوا شكراً لله الحمد لله الذي فضلنا بما آتانا من النبوة ، والعلم ، وتسخير الإنس والجن والشياطين ، على كثير من عباده المؤمنين ﴿ وورث سليمان داود ﴾ أي ورث سليمان أباه في النبوة ، والعلم ، والملئك دون سائر أولاده قال الكلبي : كان لداود تسعة عشر ولداً فورث سليمان من بينهم نبوته وملكه ، ولو كانت وراثته مال لكان جميع أولاده فيه سواء (٣) ﴿ وقال يا أيها الناس علمنا منظر الطير ﴾ أي وقال تحدثاً بنعمة الله : يا أيها الناس لقد أكرمنا الله فعلمنا منظر الطير وأصوات جميع الحيوانات ﴿ وأوتينا من كل شيء ﴾ أي وأعطانا الله من كل شيء من خيرات الدنيا يعطاها العظماء والملوك ﴿ إن هذا هو الفضل المبين ﴾ أي إن ما أعطيناه وما خصنا الله به من أنواع النعم هو الفضل الواضح الجلي ، قاله على سبيل الشكر والمحمدة لا على سبيل العلو والكبرياء ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ﴾ أي جمعت له جيوشه وعساكره وأحضرت له في مسيرة كبيرة فيها طوائف الجن والإنس والطير ، يتقدمهم سليمان في أبهة وعظمة كبيرة ﴿ فهم يُوزعون ﴾ أي فهم يَكْفُون ويمنعون عن التقدم بين يديه قال ابن عباس : جعل على كل صنف من يرد أولاه على أخراها لثلاث يتقدموا في المسير كما تصنع الملوك (٤) ﴿ حتى إذا أتوا على وادي النمل ﴾ أي حتى إذا وصلوا إلى وادٍ بالشام كثير النمل ﴿ قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ أي قالت إحدى النملات لرفيقاتها ادخلوا بيوتكم ، خاطبتهم مخاطبة العقلاء لأنها أمرتهم بما يؤمر به العقلاء ﴿ لا يحطمنكم سليمان وجنوده ﴾ أي لا يكسرنكم سليمان وجيوشه بأقدامهم ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي وهم لا يشعرون بكم ولا يريدون حطمكم عن عمد حذرت ثم اعتذرت لأنها علمت أنه

(١) مختصر ابن كثير ٢/٢٦٧ . (٢) الطبري ١٩/٨٧ . (٣) القرطبي ١٣/١٦٤ . (٤) الطبري ١٩/٨٨ .

فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١١﴾

نبي رحيم ، فسمع سليمان كلامها وفهم مرامها ﴿فتبسّم ضاحكاً من قولها﴾ أي فتبسّم سروراً بما سمع من ثناء النملة عليه وعلى جنوده ، فإن قولها ﴿وهم لا يشعرون﴾ وصف لهم بالتقوى والتحفظ من مضرة الحيوان ﴿وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي﴾ أي ألهمني ووفقني لشكر نعمائك وأفضالك التي أنعمت بها عليّ وعلى أبيي ﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ أي ووفقني لعمل الخير الذي يقربني منك والذي تحبه وترضاه ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ أي وأدخلني الجنة دار الرحمة مع عبادك الصالحين .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الإشارة بالبعيد عن القريب ﴿تلك آيات القرآن﴾ للإيدان ببعده منزلته في الفضل والشرف .
- ٢ - التنكير للتفخيم والتعظيم ﴿وكتاب مبين﴾ أي كتاب عظيم الشأن رفيع القدر .
- ٣ - ذكر المصدر بدل اسم الفاعل للمبالغة ﴿هدى وبشرى﴾ أي هادياً ومبشراً .
- ٤ - تكرير الضمير لإفادة الحصر والاختصاص ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ ومثله ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ وفيه المقابلة اللطيفة بين الجملتين .
- ٥ - التأكيد بإن واللام ﴿وإنك لتلقى القرآن﴾ لوجود المتشككين في القرآن .
- ٦ - إيجاز الحذف ﴿وألقي عصاك فلما رآها تهتز﴾ حذف جملة فألقاها فانقلبت الى حية الخ وذلك لدلالة السياق عليه .
- ٧ - الطباق ﴿حسناً بعد سوء﴾ . وبين ﴿ولّى مدبراً . . ولم يعقب﴾ .
- ٨ - الاستعارة ﴿آياتنا مبصرة﴾ استعار لفظ الإيصار للوضوح والبيان لأن بالعينين يبصر الإنسان الأشياء .
- ٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كأنها جان﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه فصار مرسلًا مجملًا .
- ١٠ - حسن الاعتذار ﴿وهم لا يشعرون﴾ .

لطيفة : قال بعض العلماء هذه الآية ﴿قالت غملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم . .﴾ من

عجائب القرآن لأنها بلفظة « يا » نادى « أيها » نُهت « النمل » عَيَّنت « ادخلوا » أمرت « مساكنكم » نصَّت « لا يحطمنكم » حذرت « سليمان » خصت « وجنوده » عمَّت « وهم لا يشعرون » اعتذرت ، فيا لها من غلظة ذكية !!

**

قال الله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ . . إِلَى . . وَأَسَلْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

من آية (٢٠) إلى نهاية آية (٤٤) .

المناسكة : لا تزال الآيات تتحدث عن « سليمان بن داود » الذي جمع الله له بين « النبوة والملوك » فكان نبياً ملكاً ، وسخر له الإنس والجن وعلمه منطق الطير ، وتذكر الآيات هنا قصته مع « بلقيس » ملكة سبأ وما كان من الأمور العجيبة التي حدثت في زمانه .

اللغز : ﴿ تَفَقَّدَ ﴾ التفقد : طلب ما غاب عن الإنسان ﴿ الخبء ﴾ : الشيء المخبوء من خبأت الشيء أخبؤه خبأً إذا سترته ﴿ صاغرون ﴾ أذلاء مهانون من الصغار وهو الذل ﴿ عفريت ﴾ العفريت : القوي المارد من الشياطين ومن الإنس ، والخبيث الماكر ﴿ الصرح ﴾ القصر ، وكل بناء عال مرتفع يسمى صرحاً ومنه قول فرعون « يا هامان ابن لي صرحاً » ﴿ ممرّد ﴾ الممرّد : المملّس ، والأمرد الذي لم تخرج لحيته بعد إدراكه ، وشجرة مرداء : لا ورق عليها ﴿ قوارير ﴾ جمع قارورة وهي الزجاجية .

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَا عَذِيبَ لَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ -

أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَكَيْفَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ نَبِيًّا يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾

النفسير : ﴿ وتفقد الطير ﴾ أي بحث سليمان وفتش عن جماعة الطير ﴿ فقال ما لي لا أرى الهدهد ﴾ أي لم لا أرى الهدهد ههنا ؟ قال المفسرون : كانت الطير تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها ، فلما فصل سليمان عن وادي النمل ونزل في قفر من الأرض ، عطش الجيش فسألوه الماء ، وكان الهدهد يدهله ، على الماء فإذا قال : ههنا الماء شقت الشياطين وفجرت العيون ، فطلبه في ذلك اليوم فلم يجده فقال ما لي لا أراه ﴿ أم كان من الغائبين ﴾ أم منقطعة بمعنى « بل » أي بل هو غائب ، ذهب دون إذنٍ مني ﴿ لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطانٍ مبين ﴾ أي لأعاقبه عقاباً أليماً بالسجن أو ننف الريش أو الذبح أو ليأتيني بحجة واضحة تبين عذره ﴿ فكيف غير بعيد ﴾ أي فأقام الهدهد زماناً يسيراً ثم جاء إلى سليمان ﴿ فقال أحطت بما لم تحط به ﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه وعرفت ما لم تعرفه ﴿ وجاتك من سبيلٍ نبياً يقين ﴾ أي وأتيتك من مدينة سبأ - باليمن - بخبر هام ، وأمر صادقٍ خطير ﴿ إنني وجدت امرأة تملكهم ﴾ أي من عجائب ما رأيت أن امرأة - تسمى بلقيس - هي ملكة لهم ، وهم

وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ * قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ بِكِنْتِي
 هَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

يدينون بالطاعة لها^(١) ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ أي وأعطيت من كل شيء من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك من أسباب الدنيا من سعة المال وكثرة الرجال ووفرة السلاح والعتاد ﴿ولها عرش عظيم﴾ أي ولها سرير كبير مكلل بالدر والياقوت قال قتادة : كان عرشها من ذهب ، قوائمه من جوهر ، مكلل باللؤلؤ قال الطبري : وعنى بالعظيم في هذا الموضع العظيم في قدره وخطره ، لا عظمه في الكبر والسعة ، ولهذا قال ابن عباس : ﴿عرش عظيم﴾ أي سرير كريم حسن الصنعة ، وعرشها سرير من ذهب قوائمه من جوهر ولؤلؤ^(٢) ، ثم أخذ يحدثه عما هو أعظم وأخطر فقال ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾ أي وجدتهم جميعاً مجوساً يعبدون الشمس ويتركون عبادة الواحد الأحد ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ أي حسّن لهم إبليس عبادتهم الشمس وسجودهم لها من دون الله ﴿فصدّهم عن السبيل﴾ أي منعهم بسبب هذا الضلال عن طريق الحق والصواب ﴿فهم لا يهتدون﴾ أي فهم بسبب إغواء الشيطان لا يهتدون إلى الله وتوحيده ، ثم قال الهدهد متعجباً ﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض﴾ أي يسجدون للشمس ولا يسجدون لله الخالق العظيم ، الذي يعلم الخفايا ويعلم كل مجبوء في العالم العلوي والسفلي^(٣)؟ قال ابن عباس : يعلم كل خبيثة في السماء والأرض ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ أي ويعلم السرّ والعلن ، ما ظهر وما بطن ﴿الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ أي هو تعالى المتفرد بالعظمة والجلال ، رب العرش الكريم المستحق للعبادة والسجود ، وخص العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات ، وإلى هنا انتهى كلام الهدهد ﴿قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ أي قال سليمان : سننظر في قولك ونثبت هل أنت صادق أم كاذب فيه ؟ قال ابن الجوزي : وإنما شك في خبره لأنه أنكر أن يكون لغيره سلطان ، ثم كتب كتاباً وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهدهد وقال ﴿إذهب بكتابي هذا فألقه إليهم﴾ أي اذهب بهذا الكتاب وأوصله إلى ملكة سبأ وجندها ﴿ثم تول عنهم﴾ أي تنح إلى مكان قريب مستتراً عنهم ﴿فانظر ماذا يرجعون﴾ أي فانظر ماذا يردون من الجواب ؟ قال المفسرون : أخذ الهدهد الكتاب وذهب إلى بلقيس وقومها ، فرفرف فوق رأسها ثم

(١) وجه العجب أن الملوك عادة من الرجال وأن النساء لا يصلحن لإدارة الممالك ويؤيده حديث (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) هذا هو منطلق الفطرة . (٢) الطبري ٩٢/١٩ . (٣) هذا ما انقذ في ذهني من معنى الآية الكريمة ، ولعله هو الأقرب إلى فهم روح النص القرآني فإن المجال مجال تعجب وإنكار ، لا مجال حديث وإخبار ، فما ذهب إليه بعض المفسرين من أن « لا » زائدة وأن المعنى فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله أو أن المعنى ألا يا هؤلاء فاسجدوا . الخ غير ظاهر والله أعلم .

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴿٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٢﴾ أَلَّا تَعْلَمُوْا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُوْنَ ﴿٣٤﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةً وَأَوْلُوْا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوْا قَرْيَةً أَفْسَدُوْهَا وَجَعَلُوْا أَعْرَآةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُوْنَ ﴿٣٦﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُوْنَ ﴿٣٧﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّوْنَ بِمَالٍ فَا ءَاتِنِي ءَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ أَتَانِي الْكِتَابَ فِي حَجْرِهَا ﴿٣٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴿٣٩﴾ أَي قَالَتْ لِأَشْرَافِ قَوْمِهَا إِنَّهُ أَتَانِي كِتَابٌ عَظِيمٌ جَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٤١﴾ أَي إِنْ هَذَا الْكِتَابُ مَرْسَلٌ مِنْ سُلَيْمَانَ ثُمَّ فَتَحْتَهُ فَإِذَا فِيهِ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَهُوَ اسْتِفْتَا حُ شَرِيفٌ بَارِعٌ فِيهِ إِعْلَانُ الرَّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ ثُمَّ الدَّعْوَةُ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْإِنْقِيَادَ لِأَمْرِهِ ﴿٤٢﴾ أَلَّا تَعْلَمُوْا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٤٣﴾ أَي لَا تَكْبُرُوْا عَلَيَّ كَمَا يَفْعَلُ الْمُلُوكُ وَجِيئُونِي مُؤْمِنِينَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَي مُوَحِّدِينَ ، وَقَالَ سَفِيَّانُ : طَائِعِينَ ﴿٤٤﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴿٤٥﴾ أَي أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي الْأَمْرِ ﴿٤٦﴾ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُوْنَ ﴿٤٧﴾ أَي مَا كُنْتُ لِأَقْضِي أَمْرًا بَدُونَ حُضُورِكُمْ وَمَشُورَتِكُمْ ﴿٤٨﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةً وَأَوْلُوْا بِأَسْ شَدِيدٍ ﴿٤٩﴾ أَي نَحْنُ أَصْحَابُ كَثْرَةِ فِي الرِّجَالِ وَالْعِتَادِ ، وَأَصْحَابُ شِدَّةٍ فِي الْحَرْبِ ﴿٥٠﴾ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٥١﴾ ؟ أَي وَأَمَرْنَا إِلَيْكِ فَمَرِينَا بِمَا شِئْتِ نَمَثَلُ أَمْرِكَ ، وَقَوْلُهُمْ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى الطَّاعَةِ الْمَفْرُطَةِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَخَذْتُ فِي حَسَنِ الْأَدَبِ مَعَ قَوْمِهَا وَمَشَاوَرَتِهِمْ فِي أَمْرِهَا فِي كُلِّ مَا يَعْضُرُ لَهَا ، فَرَأَجَعَهَا الْمَلَأُوْا بِمَا يُقْرَعُ عَيْنُهَا مِنْ إِعْلَامِهِمْ إِيَّاهَا بِالْقُوَّةِ وَالْبَأْسِ ، ثُمَّ سَلَّمُوا الْأَمْرَ إِلَى نَظَرِهَا ، وَهَذِهِ مَحَاوِرَةٌ حَسَنَةٌ مِنَ الْجَمِيعِ (١) قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : فَوَضُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى عِلْجَةٍ يَضْطَرُّ بِثَدْيِهَا ، فَلَمَّا قَالُوا لَهَا مَا قَالُوا كَانَتْ هِيَ أَحْزَمَ مِنْهُمْ رَأْيًا وَأَعْلَمَ (٢) ﴿٥٢﴾ قَالَتْ إِنْ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴿٥٣﴾ أَي إِذَا عَادَ الْمُلُوكُ أَنَّهُمْ إِذَا اسْتَوْلُوا عَلَى بَلَدَةٍ عَنُودًا وَقَهْرًا خَرَبُوهَا ﴿٥٤﴾ وَجَعَلُوا أَعْرَآةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴿٥٥﴾ أَي أَهَانُوا أَشْرَافَهَا وَأَذَلُّوهُمْ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالتَّشْرِيدِ ﴿٥٦﴾ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُوْنَ ﴿٥٧﴾ أَي وَهَذِهِ عَادَتُهُمْ وَطَرِيقَتُهُمْ فِي كُلِّ بَلَدٍ يَدْخُلُونَهَا قَهْرًا ، ثُمَّ عَدَلَتْ إِلَى الْمَهَادَنَةِ وَالْمَسَالِمَةِ فَقَالَتْ ﴿٥٨﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٩﴾ أَي وَإِنِّي سَأُبْعَثُ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ عَظِيمَةٍ تَلِيْقُ بِمَثَلِهِ ، فَانظُرْ هَلْ يَقْبَلُهَا أَمْ يَرُدُّهَا ؟ قَالَ قَتَادَةُ : مَا كَانَ أَعْقَلُهَا فِي إِسْلَامِهَا وَشُرْكِهَا ! ! عَلِمْتُ أَنَّ الْهَدِيَّةَ تَقَعُ مَوْقِعًا مِنَ النَّاسِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَتْ لِقَوْمِهَا إِنْ قَبِلَ الْهَدِيَّةَ فَهُوَ مَلِكٌ يَرِيدُ الدُّنْيَا فَفَاتَلَوْهُ ، وَإِنْ لَمْ يَقْبَلُهَا فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ فَاتَّبَعُوهُ (٣) ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّوْنَ بِمَالٍ ﴿٦١﴾ ؟ أَي فَلَمَّا جَاءَ رَسُلٌ بَلْقَيْسٍ إِلَى سُلَيْمَانَ بِالْهَدِيَّةِ الْعَظِيمَةِ قَالَ مِنْكَرًا عَلَيْهِمْ : أَتَصَانَعُونَنِي بِالْمَالِ وَالْهَدَايَا لِأَتُرَكِّبَكُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ وَمَلِكِكُمْ ؟ ﴿٦٢﴾ فَمَا أَتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا أَتَاكُمْ ﴿٦٣﴾ أَي فَمَا أَعْطَانِي اللَّهُ مِنَ النَّبُوءَةِ وَالْمُلْكِ الْوَاسِعِ خَيْرٌ مِّمَّا أَعْطَاكُمْ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ

تَفْرَحُونَ ﴿٤٧﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٤٩﴾ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْخِنِّ أَنَاءَ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ ﴿٥٠﴾ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٥١﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَاءَ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴿٥٣﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٥٤﴾

فلا حاجة لي بهديتكم ﴿٥١﴾ بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴿٥٢﴾ أي أنتم تفرحون بالهدايا لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا ، ثم قال لرئيس الوفد ﴿إرجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قيل لهم بها﴾ أي ارجع إليهم بهديتهم فوالله لنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بمقابلتها ، ولا قدرة لهم على مقاتلتها ﴿ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ أي ولنخرجهم من أرضهم ومملكتهم أذلاء حقيرين إن لم يأتوني مسلمين قال ابن عباس : لما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان وأخبروها الخبر قالت قد عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ، وبعثت إلى سليمان إني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك ، وما تدعو إليه من دينك ثم ارتحلت إلى سليمان في اثني عشر ألف قائد ﴿٥١﴾ قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ﴿٥٢﴾ ؟ أي قال سليمان لأشرف من حضره من جنده : أيكم يأتيني بسريرها المرصع بالجواهر قبل أن تصل إلي مع قومها مسلمين ؟ قال البيضاوي : أراد بذلك أن يريها بعض ما خصه الله به من العجائب ، الدالة على عظيم القدرة ، وصدقه في دعوى النبوة ، ويختبر عقلها بأن ينكر عرشها فينظر أتعرفه أم تنكره ﴿٥٣﴾ ؟ ﴿قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ أي قال مارداً من مردة الجن : أنا أحضره إليك قبل أن تقوم من مجلس الحكم - وكان يجلس من الصبح إلى الظهر في كل يوم - وغرضه أنه يأتيه به في أقل من نصف نهار ﴿وإني عليه لقوي أمين﴾ أي وإني على حمله لقادر ، وأمين على ما فيه من الجواهر والدر وغير ذلك ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ قال المفسرون : هو «أصف بن برخيا» كان من الصديقين يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب ، وهو الذي أتى بعرش بلقيس وقال لسليمان : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك أي آتيك به بلمح البصر فدعا الله فحضر العرشُ حالاً ﴿فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي﴾ أي فلما نظر سليمان ورأى العرش - السرير - حاضراً لديه قال : هذا من فضل الله علي ، وإحسانه إلي ﴿ليبلوني أشكر أم أكفر﴾ ؟ أي ليختبرني أشكر إنعامه ، أم أجدد فضله وإحسانه ؟ ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾ أي ومن شكر فمففعة الشكر لنفسه ، لأنه يستزيد من فضل الله ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ ﴿ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾ أي ومن لم يشكر وجد فضل الله

قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

فإن الله مستغن عنه وعن شكره ، كريمٌ بالإنعام على من كفر نعمته . . ولما قُرب وصولُ ملكة سبأ إلى بلاده أمر بأن تُغير بعضُ معالم عرشها امتحاناً لها ﴿قال نكروا لها عرشها﴾ أي غيروا بعض أوصافه وهيبته كما يتنكر الإنسان حتى لا يُعرف ﴿تنظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون﴾ أي للنظر إذا رآته هل تهتدي إلى أنه عرشها وتعرفه أم لا ؟ أراد بذلك اختبار ذكائها وعقلها ﴿فلما جاءت قيل أهكذا عرشك﴾ ؟ أي أمثل هذا العرش الذي رأيتيه عرشك ؟ ولم يقل : أهذا عرشك ؟ لثلا يكون تلقيناً لها ﴿قالت كأنه هو﴾ أي يشبهه ويقاربه ولم تقل : نعم هو ، ولا ليس هو قال ابن كثير : وهذا غاية في الذكاء والحزم ^(١) ﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ هذا من قول سليمان أي قال سليمان تحدثاً بنعمة الله : لقد أوتينا العلم من قبل هذه المرأة بالله وبقدرته وكنا مسلمين لله من قبلها ، فنحن أسبقُ منها علماً وإسلاماً ﴿وصدّها ما كانت تعبد من دون الله﴾ أي منعها عن الإيمان بالله عبادتها القديمة للشمس والقمر ﴿إنها كانت من قوم كافرين﴾ أي بسبب كفرها ونشوتها بين قوم مشركين ﴿قيل لها ادخلي الصرح﴾ أي ادخلي القصر العظيم الفخم ﴿فلما رآته حسبته لجة وكشفت عن ساقها﴾ أي فلما رأت ذلك الصرح الشامخ ظنته لجة ماء - أي ماءً غمرأ كثيراً - وكشفت عن ساقها لتخوض فيه ﴿قال إنه صرح مُّمَرَّدٌ من قوارير﴾ أي قال سليمان : إنه قصر مملّس من الزجاج الصافي ﴿قالت ربّ إنني ظلمت نفسي﴾ أي قالت بلقيس حينئذٍ : ربّ إنني ظلمت نفسي بالشرك وعبادة الشمس ﴿وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ أي وتابعت سليمان على دينه فدخلت في الإسلام مؤمنةً برب العالمين ، قال ابن كثير : والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصرأ عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة ، ليرىها عظمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره ، انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبيُّ كريم ، ومليكٌ عظيم ، وأسلمت لله عز وجل ^(٢) .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي :

١ - أسلوب التعجب ﴿مالي لا أرى الهدهد﴾ ؟

٢ - التأكيد المكرر ﴿لأعذبه . . أو لأذبحنه . . أو ليأتيني﴾ لتأكيد الأمر .

(١) ابن كثير ٢/٦٧٣ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/٦٧٤ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/٦٧١ .

٣ - طباق السلب ﴿أحطتُ بما لم تُحط به﴾ وكذلك ﴿تهتدي .. لا يهتدون﴾ .

٤ - الجناس اللطيف ﴿وجئتك من سبأ نبياً﴾ ويسمى الجناس الناقص لتبدل بعض الحروف (١) .

٥ - الطباق في اللفظ ﴿تُخفون .. وتعلنون﴾ وكذلك ﴿أشكر أم أكفر﴾ .

٦ - الطباق في المعنى ﴿أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ .

قال علماء البيان : والمطابقة هنا بالمعنى أبلغ من اللفظ لأنه عدول عن الفعل إلى الإسم فيفيد الثبات فلو قال «أصدقت أم كذبت» لما أدّى هذا المعنى لأنه قد يكذب في هذا الأمر ولا يكذب في غيره ، وأما قوله ﴿أم كنت من الكاذبين﴾ فإنه يفيد أنه إذا كان معروفاً بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذباً لا محالة فلا يوثق به أبداً .

٧ - جناس الاشتقاق ﴿تقوم من مقامك﴾ وكذلك ﴿أسلمت مع سليمان﴾ .

٨ - التشبيه ﴿كأنه هو﴾ أي كأنه عرشي في الشكل والوصف ويسمى «مرسلاً مجملاً» .

٩ - الاستعارة البديعة ﴿قبل أن يرتدَّ إليك طرفك﴾ شبه سرعة مجيئه بالعرش برجوع الطرف للإنسان ، وارتداد الطرف معناه التقاء الجفنين وهو أبلغ ما يمكن أن يوصف به في السرعة ومثله «وما أمرُ الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب» فاستعار للسرعة الفائقة ارتداد الطرف (٢) .

١٠ - توافق الفواصل في كثير من الآيات ، ولها وقع في النفس رائع مثل ﴿أم كان من الغائبين﴾ ﴿أو ليأتيني بسلطانٍ مبين﴾ ﴿وجئتك من سبأ نبياً يمين﴾ إلى آخر ما هنالك .

لطيفة : أخذ بعض العلماء من قوله تعالى ﴿وتفقد الطير﴾ استحباب تفقد الملك لأحوال الرعية ، وكذلك تفقد الأصدقاء ، والإخوان ، والخلان وأنشد بعضهم :

سنُّ سليمانُ لنا سنَّةٌ وكان فيما سنَّه مُقتدى
تفقد الطيرَ على ملكه فقال : مالي لا أرى الهدهدا؟

قال الله تعالى : ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً .. إلى .. بل هم منها عمون﴾ من آية (٤٥) إلى نهاية آية (٦٦) .

المناسكة : لما ذكر تعالى في أول السورة قصة موسى ، ثم أعقبها بقصة داود وسليمان وما فيها من العجائب والغرائب ، ذكر هنا قصة «صالح» ثم قصة «لوط» وكلُّ هذه القصص غرضها التذكير

(١) قال صاحب الكشاف : وهذا من محاسن الكلام بشرط أن يجيء مطبوعاً غير متكلف أو يصنعه عالم بجوهر الكلام ، ولقد حسن في الآية وبدع لفظاً ومعنى ، ألا ترى أنه لو وضع مكان «نبأ» لفظة «بخبر» لكان المعنى صحيحاً ولكن يفوت ما في النبأ من الزيادة التي معناها الخبر الهام والتي يطابقها وصف الحال . (٢) انظر تلخيص البيان ص ٢٦١ .

والاعتبار ، وبيان سنة الله في إهلاك المكذبين ، ثم أتبعها بذكر البراهين الدالة على الوحدانية ، والعلم ، والقدرة .

اللغز : ﴿اطيرنا﴾ من التطير وهو التشاؤم قال الزجاج : أصلها تطيرنا فأدغمت التاء في الطاء واجتلبت الألف لسكون الطاء ﴿خاوية﴾ خالية من خوى البطن إذا خلى ، وخوى النجم إذا سقط ﴿الفاحشة﴾ الفعلة القبيحة الشنيعة ﴿حداثق﴾ جمع حديقة وهي البستان الذي عليه سور قال الفراء : الحديقة البستان الذي عليه حائط ، فإن لم يكن عليه حائط فهو البستان^(١) ﴿قراراً﴾ مستقراً يثبت عليه الشيء ﴿حاجزاً﴾ الحاجز : الفاصل بين الشيئين .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٥٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا اطيرنا بك وبمن معك قال تطير كرم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ﴿٥٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٥٨﴾

النفسير : ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله﴾ اللام جواب قسم محذوف أي والله لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم - في النسب لا في الدين - صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته ﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾ أي فإذا هم جماعتان : مؤمنون وكافرون يتنازعون في شأن الدين قال مجاهد : «فريقان : مؤمن ، وكافر» واختصامهم : اختلافهم وجدالهم في الدين ، وجاء الفعل بالجمع ﴿يختصمون﴾ حملاً على المعنى ﴿قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة﴾ أي قال لهم صالح بطريق التلطف والرفق : يا قوم لم تطلبون العذاب قبل الرحمة ؟ ولأي شيء تستعجلون بالعذاب ولا تطلبون الرحمة ؟ ﴿لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون﴾ أي هلاً تتوبون إلى الله من الشرك لكي يتوب الله عليكم ويرحمكم ؟ قال المفسرون : كان الكفار يقولون لفرط الإنكار : يا صالح ائتنا بعذاب الله فقال لهم : هلاً تستغفرون الله قبل نزول العذاب ، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر !! ﴿قالوا اطيرنا بك وبمن معك﴾ أي تشاء منا بك يا صالح وباتباعك المؤمنين فإنكم سبب ما حل بنا من بلاء ، وكانوا قد أصابهم القحط وجاعوا ﴿قال طائرکم عند الله﴾ أي حظكم في الحقيقة من خير أو شر هو عند الله وبقضائه ، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم . . لما لطفهم في الخطاب أغلظوا له في الجواب وقالوا تشاء منا بك وبمن معك ، فأخبرهم أن شؤمهم بسبب عملهم لا بسبب صالح والمؤمنين ﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ أي بل الحقيقة أنكم جماعة يفتنكم الشيطان بوسوسته وإغوائه ولذلك تقولون ما تقولون ﴿وكان في المدينة تسعة رهط﴾ أي وكان في مدينة صالح - وهي الحجر - تسعة رجال من أبناء أشرافهم قال الضحاك : كان هؤلاء التسعة عظماء أهل المدينة ﴿يُفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ أي شأنهم الإفساد ، وإيذاء العباد بكل طريق ووسيلة قال ابن عباس :

قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا
 وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾
 فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأُنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾
 وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ءَاتَاؤُنَّ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَتُنْكِرُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ
 أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ءِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ
 يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾

وهم الذين عقروا الناقة ﴿قالوا تقاسموا بالله﴾ أي قال بعضهم لبعض : احلفوا بالله ﴿لنبيئته وأهله﴾ أي لنقتلن صالحاً وأهله ليلاً ﴿ثم لنقولن لولييه ما شهدنا مهلك أهله﴾ أي ثم نقول لولي دمه ما حضرنا مكان هلاكه ولا عرفنا قاتله ولا قاتل أهله ﴿وإننا لصادقون﴾ أي ونحلف لهم إننا لصادقون قال ابن عباس : أتوا دار صالح شاهرين سيوفهم ، فرمتهم الملائكة بالحجارة فقتلتهم^(١) قال تعالى ﴿ومكروا مكراً﴾ أي دبّروا مكيدةً لقتل صالح ﴿ومكروا مكراً﴾ أي جازيناهم على مكروهم بتعجيل هلاكهم ، سماءه مكراً بطريق المشاكلة^(٢) ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي من حيث لا يدرون ولا يعلمون قال أبو حيان : ومكروهم ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح وأهله ، ومكروا الله إهلاكهم من حيث لا يشعرون^(٣) ﴿فانظر كيف كان عاقبة مكروهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾ أي فتأمل وتفكر في عاقبة أمرهم ونتيجة كيدهم ، كيف أتت أهلكتناهم أجمعين وكان ما لهم الخراب والدمار ! ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾ أي فتلك مساكنهم ودورهم خالية بسبب ظلمهم وكفرهم لأن أهلها هلكوا ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾ أي إن في هذا التدمير العجيب لعبرة عظيمة لقوم يعلمون قدرة الله فيتعظون ﴿وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي وأنجينا من العذاب المؤمنين المتقين الذين آمنوا مع صالح ﴿ولوطاً إذ قال لقومه﴾ أي واذكر رسولنا « لوطاً » حين قال لقومه أهل سدوم ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي أتفعلون الفعل القبيحة الشنيعة وهي اللواط ﴿وأنتم تبصرون﴾ أي وأنتم تعلمون علماً يقيناً أنها فاحشة وأنها عمل قبيح ؟ ﴿أتنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ تكرير للتوبيخ أي أتنكم أيها القوم لفرط سفهكم تشتهون الرجال وتتركون النساء ؟ ويكتفي الرجال بالرجال بطريق الفاحشة القبيحة ﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾ أي بل أنتم قوم سفهاء ماجنون ولذلك تفضلون العمل الشنيع على ما أباح الله لكم من النساء ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم﴾ أي فما كان جواب أولئك المجرمين إلا أن قالوا أخرجوا لوطاً وأهله من بلدتكم ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ أي إنهم

(١) زاد المسير ١٨٢/٦ . (٢) المشاكلة هي الاتفاق في اللفظ دون المعنى . (٣) البحر ٨٥/٧ .

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿٥٨﴾
 قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمْنَ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُدَايِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أُولَٰئِكَ مَعَ اللَّهِ بَلِّ
 هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلْقَهَا أَنْهْرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًّا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ

قوم ينتزهون عن القاذورات ويعدون فعلنا قدراً ، وهو تعليلٌ لوجوب الطرد والإخراج قال قتادة :
 عابوهم والله بغير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السوء وقال ابن عباس : هو استهزاء يستهزئون بهم
 بأنهم يتطهرون عن أدبار الرجال^(١) ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ﴾ أي فخلصناه هو وأهله من العذاب
 الواقع بالقوم إلا زوجته ﴿قَدَرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي جعلناها بقضائنا وتقديرنا من المهلكين ، الباقيين
 في العذاب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة من السماء كالمطر فأهلكتهم ﴿فَسَاءَ
 مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾ أي بشس هذا العذاب الذي أمطروا به وهو الحجارة من سجيل منضود ، ولما ذكر تعالى
 قصص الأنبياء أتبعه بذكر دلائل القدرة والوحدانية فقال ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ
 اصْطَفَىٰ﴾ أي قل يا محمد الحمد لله على إفضاله وإنعامه ، وسلامٌ على عباده المرسلين الذين اصطفاهم
 لرسالته ، واختارهم لتبليغ دعوته قال الزمخشري : أمر الله رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الدالة على
 وحدانيته ، الناطقة بالبراهين على قدرته وحكمته ، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه ، وفيه
 تعليمٌ حسن ، وتوقيفٌ على أدبٍ جميل ، وهو حمد الله والصلاة على رسله ، ولقد توارث العلماء والخطباء
 والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب ، فحمدوا الله وصلوا على رسوله أمام كل علم ، وقبل كل عظة
 وتذكرة^(٢) ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ﴾ تبيكت للمشركين وتهكم بهم أي هل الخالق المبدع الحكيم خيرٌ أم
 الأصنام التي عبدوها وهي لا تسمع ولا تستجيب ؟ ﴿أَمْنَ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ برهان آخر على
 وحدانية الله أي أمّن أبداع الكائنات فخلق تلك السموات في ارتفاعها وصفائها ، وجعل فيها الكواكب
 المنيرة ، وخلق الأرض وما فيها من الجبال والسهول والأنهار والبحار ، خيرٌ أمّا يشركون ؟ ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ
 مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُدَايِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي وأنزل لكم بقدرته المطر من السحاب فأخرج به الحدائق
 والبساتين ، ذات الجمال والخضرة والنضرة ، والمنظر الحسن البهيج ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾
 أي ما كان للبشر ولا يتهيأ لهم ، وليس بمقدورهم ومستطاعهم أن ينبتوا شجرها فضلاً عن ثمرها ﴿أُولَٰئِكَ
 مَعَ اللَّهِ﴾ استفهام إنكار أي هل معه معبود سواه حتى تسووا بينهما وهو المتفرد بالخلق والتكوين ؟ ﴿بَلِّ
 هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي بل هم قوم يشركون بالله فيجعلون له عديلاً ومثيلاً ، ويسوون بين الخالق الرازق
 والوثن ﴿أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ برهان آخر أي جعل الأرض مستقراً للإنسان والحيوان ، بحيث

حَاجِزًا أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَّرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿١١٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١١٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٤﴾

يمكنكم الإقامة بها والاستقرار عليها ﴿وجعل خلالها أنهاراً﴾ أي وجعل في شعابها وأوديتها الأنهار العذبة الطيبة ، تسير خلالها شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ﴿وجعل لها رواسي﴾ أي وجعل جبلاً شاهجة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد وتضطرب بكم ﴿وجعل بين البحرين حاجزاً﴾ أي وجعل بين المياه العذبة والمالحة فاصلاً ومانعاً يمنعها من الاختلاط ، لئلا يفسد ماء البحار المياه العذبة (١) ﴿أإله مع الله﴾ أي أيع الله معبوداً سواه ؟ ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي أكثر المشركين لا يعلمون الحق فيشركون مع الله غيره ﴿أمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَّرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ برهان ثالث أي أَمَّنْ يجيب المكروب المجهود الذي مسه الضر فيستجيب دعاءه ويلبي نداءه ؟ ﴿ويكشف السوء﴾ أي ويكشف عنه الضر والبأساء ؟ ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أي ويجعلكم سكان الأرض تعمرونها جيلاً بعد جيل ، وأمة بعد أمة ﴿أإله مع الله﴾ ؟ أي إله مع الله يفعل ذلك حتى تعبدوه ؟ ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ أي ما أقل تذكركم واعتباركم فيما تشاهدون ؟ ﴿أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر﴾ ؟ برهان رابع أي أم من يرشدكم إلى مقاصدكم في أسفاركم في الظلام الدامس ، في البراري ، والقفار ، والبحار ؟ والبلاد التي تتوجهون إليها بالليل والنهار ؟ ﴿ومن يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته﴾ ؟ أي ومن الذي يسوق الرياح مبشرةً بنزول المطر الذي هو رحمة للبلاد والعباد ؟ ﴿أإله مع الله﴾ ؟ أي إله مع الله يقدر على شيء من ذلك ؟ ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ أي تعظم وتمجد الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق ﴿أمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ برهان خامس أي أَمَّنْ يبدأ خلق الإنسان ثم يعيده بعد فئاته ؟ قال الزمخشري : كيف قال لهم ذلك وهم منكرون للإعادة ؟ والجواب أنه قد أزيحت عنهم بالتمكين من المعرفة والإقرار ، فلم يبق لهم عذر في الإنكار (٢) ﴿ومن يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي ومن ينزل عليكم من مطر السماء ، ويُنبت لكم من بركات الأرض الزروع والثمار ؟ قال أبو حيان : لما كان إيجاد بني آدم إنعاماً إليهم وإحساناً عليهم ، ولا تتم النعمة إلا بالرزق قال ﴿ومن يرزقكم من السماء﴾ أي بالمطر ﴿والأرض﴾ أي بالنبات (٣) ﴿أإله مع الله﴾ ؟ أي إله مع الله يفعل ذلك ؟ ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ أي أحضروا حجتكم ودليلكم على ما تزعمون إن كنتم صادقين في أن مع

(١) هذا قول الحسن واختاره ابن كثير وهو الأظهر وقيل : المراد بحر فارس والروم .

(٢) الكشف ٣ / ٢٩٧ . (٣) البحر ٧ / ٩٠ .

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ أَدَارِكُهُمْ فِي
الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٢٦﴾

الله إلهاً آخر^(١) ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ أي هو سبحانه وحده المختص بعلم الغيب ، فلا يعلم أحدٌ من ملك أو بشر الغيب إلا الله علام الغيوب قال القرطبي : نزلت في المشركين حين سألو النبي ﷺ عن قيام الساعة ﴿وما يشعرون أيان يُبعثون﴾ ؟ أي وما يدري ولا يشعر الخلائق متى يُبعثون بعد موتهم ؟ ﴿بل أدرك علمهم في الآخرة﴾ أي هل تتابع وتلاحق علمُ المشركين بالآخرة وأحوالها حتى يسألوا عن الساعة وقيامها ؟ إنهم لا يصدقون بالآخرة فلماذا يسألون عن قيام الساعة ؟ ﴿بل هم في شكٍ منها﴾ إضراب عن السابق أي هم شاكون في الآخرة لا يصدقون بها ولذلك يعاندون ويكابرون ﴿بل هم منها عمون﴾ أي بل هم في عمى عنها ، ليس لهم بصيرة يدركون بها دلائل وقوعها لأن اشتغالهم باللذات النفسانية من شهوة البطن والفرج صيرهم كالبهائم والأنعام لا يتدبرون ولا يبصرون قال ابن كثير : هم شاكون في وقوعها ووجودها ، بل هم في عماية وجهل كبير في أمرها .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق ﴿يفسدون .. ولا يصلحون﴾ .
- ٢ - التحضيض ﴿لولا تستغفرون الله﴾ أي هلاً تستغفرون الله .
- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿اطيرنا .. طائرکم﴾ .
- ٤ - المشاكلة ﴿ومكروا .. ومكرنا﴾ سُمي تعالى إهلاكهم وتدميرهم مكرأ على سبيل المشاكلة .
- ٥ - الطباق ﴿لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة﴾ ؟
- ٦ - الاستفهام التوبيخي ﴿أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون﴾ ؟
- ٧ - أسلوب التبكيت والتهكم ﴿الله خيرٌ أمَّا يشركون﴾ ؟
- ٨ - الاستعارة اللطيفة ﴿بين يدي رحمته﴾ أي أمام نزول المطر فاستعار اليدين للأمام .

(١) قال في البحر : وناسب ختم كل استفهام بما تقدمه ، فلما ذكر خلق العالم العلوي والسفلي وما امتن به من إنزال المطر ختمه بقوله ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ أي يعدلون به غيره مما هو مخلوق ، ولما ذكر جعل الأرض مستقراً وتفجير الأنهار ، وكان فيه التنبيه على الكفر والتعقل ختمه بقوله ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ولما ذكر إجابة المضر وكشف سوء ختمه بقوله ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ لأن الإنسان يتوالى عليه النسيان عندما يزول عنه اضطرابه ، ولما ذكر الهداية في الظلمات وإرسال الرياح مبشرات ، ومعبوداتهم لا تهدي ولا تسعف وهم يشركون بها ختمه بقوله ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ البحر ٩١/٧ .

٩- الطباقي ﴿يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ .

١٠- الاستعارة ﴿بل هم منها عمون﴾ استعار العمى للتعامي عن الحق وعدم التفكير والتدبر في آلاء الله .

١١- مراعاة الفواصل مما يزيد في رونق الكلام وجماله ، وله على السمع وقع خاص مثل ﴿وما يشعرون أياں يُبعثون﴾ ﴿أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً﴾ ومثل ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ . وأمثاله كثير ، وفي القرآن روائع بيانية يعجز عن التعبير عنها اللسان ، فسبحان من خصَّ نبيّه الأمي بهذا الكتاب المعجز !

قال الله تعالى : ﴿وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وأبائنا . . إلى . . وما ربك بغافل عما تعملون﴾

المناسكة : لما ذكر تعالى الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين ، ذكر هنا شبهات المشركين في الإيمان بالآخرة والبعث والنشور ، وأردفها بذكر الدلائل القاطعة ، وذكر بعض الأهوال التي تكون بين يدي الساعة .

اللفظة : ﴿ردف﴾ اقتراب ودنا ﴿تكن﴾ تُسرُّ وتخفي ﴿داخرين﴾ ذليلين صاغرين ﴿فوجاً﴾ الفوج : الجماعة ﴿جامدة﴾ الجمود : سكون الشيء وعدم حركته ﴿أتقن﴾ الاتقان : الإتيان بالشيء على أحسن حالاته من التام والكمال والإحكام ﴿كُتبت﴾ الكتب : الطرح والإلقاء يقال : كتبت الرجل ألقىته على وجهه ، وكتبت الإناء قلبته .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ كُنَّا تَرَابًا وَءَابَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ
إِنْ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٧٩﴾

النفسير : ﴿وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وأبائنا أننا لمخرجون﴾ أي قال مشركو مكة المنكرون للبعث : أئذا متنا وأصبحنا رفاتاً وعظاماً بالية ، فهل سنخرج من قبورنا ونحيا مرة ثانية ؟ ﴿لقد وعدنا هذا نحن وأبائنا من قبل﴾ أي لقد وعدنا محمد بالبعث كما وعد من قبله آباءنا الأولين ، فلو كان حقاً لحصل ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي ما هذا إلا خرافات وأباطيل السابقين . ينكرون البعث وينسون أنهم خلِّقوا من العدم ، وأن الذي خلقهم أولاً قادر على أن يعيدهم ثانياً ! ﴿قل سيروا في الأرض﴾ أي قل لهؤلاء الكفار : سيروا في أرجاء الأرض ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ أي فانظروا - نظر اعتبار - كيف كان مآل المكذبين للرسول ؟ ألم يهلكهم الله ويدمرهم ؟ فما حدث للمجرمين

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٥﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٦﴾
 قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
 لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٨٠﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ
 يَخْتَلِفُونَ ﴿٨١﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٢﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٨٣﴾

من قبل ، يحدث للمجرمين من بعد ، والآية وعيدٌ وتهديدٌ ﴿ ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون ﴾ تسلية للرسول عليه السلام أي لا تحزن يا محمد ولا تأسف على هؤلاء المكذبين إن لم يؤمنوا ، ولا يضق صدرك من مكربهم فإن الله يعصمك منهم ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ أي يقولون استهزاءً : متى يجيئنا العذاب إن كنتم صادقين فيما تقولون ؟ والخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين ﴿ قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون ﴾ أي لعل الذي تستعجلون به من العذاب قد دنا وقرب منكم بعضه قال المفسرون : هو ما أصابهم من القتل والأسر يوم بدر ﴿ وإن ربك لذو فضل على الناس ﴾ أي لذو إفضال وإنعام على الناس بترك تعجيل عقوبتهم على معاصيهم وكفرهم ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ أي ولكن أكثرهم لا يعرفون حق النعمة ، ولا يشكرون ربهم ﴿ وإن ربك ليعلم ما تكئن صدورهم وما يعلنون ﴾ أي وإنه تعالى ليعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة الرسول وكيدهم له وسيجازيهم عليه ﴿ وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين ﴾ أي ليس من شيء في غاية الخفاء على الناس والغيوبة عنهم إلا وقد علمه الله وأحاط به ، وأثبتته في اللوح المحفوظ عنده ، فلا تخفى عليه سبحانه خافية قال ابن عباس : معناه ما من شيء سر في السموات والأرض أو علانية إلا وعند الله علمه ^(١) ﴿ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾ لما ذكر تعالى أمر المبدأ والمعاد والنبوة ، وكان القرآن من أعظم الدلائل والبراهين على صدق محمد وصدق ما جاء به ، أعقبه هنا بذكر القرآن المجيد وذكر أوصافه والمعنى : إن هذا القرآن المنزل على خاتم الرسل هو الكتاب الحق الذي يبين لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه من أمر الدين ، ومن جملة اختلافهم في أمر المسيح وتفرقهم فيه فرقا كثيرة حتى لعن بعضهم بعضاً ، فلو كانوا منصفين لأسلموا ، لأن القرآن جاءهم بالرأي الساطع ، والخبر القاطع ﴿ وإنه هدى ورحمة للمؤمنين ﴾ أي وإنه هداية لقلوب المؤمنين من الضلالة ، ورحمة لهم من العذاب ، قال القرطبي : وإنما خص المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون به ^(٢) ﴿ إن ربك يقضي بينهم بحكمه ﴾ أي إن ربك يا محمد يفصل بين بني إسرائيل يوم القيامة بحكمه العادل ، وقضائه المبرم ، فيجازي المحق والمبطل ﴿ وهو العزيز ﴾ أي المنيع الغالب الذي لا يرد أمره ﴿ العليم ﴾ أي العليم

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٨﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا
 مُدْبِرِينَ ﴿٧٩﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۗ إِن تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾
 * وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨١﴾

بأفعال العباد فلا يخفى عليه شيء منهم ﴿فتوكل على الله﴾ أي فوض إليه أمرك ، واعتمد عليه في جميع شئونك فإنه ناصرك ﴿إنك على الحق المبين﴾ أي إنك يا محمد على الدين الحق ، الواضح المنير ، فالعاقبة لك بالنصر على الكفار ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ أي لا تسمع الكفار لتركهم التدبر والاعتبار ، فهم كالموتى لا حس لهم ولا عقل ﴿ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولّوا مدبرين﴾ أي ولا تسمعهم دعاءك ونداءك إذا ذكرتهم بالله أو دعوتهم إلى الإيمان ، لأنهم كالصم الذين في آذانهم قر ، فلا يستجيبون الدعاء ، لا سيما إذا تولّوا عنك معرضين ، فإن الأصم إذا تولى مدبراً ثم ناديته كان أبعد عن السماع حيث انضم إلى صممه بعد المسافة ﴿وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم﴾ أي وليس بوسعك يا محمد أن تصرف عمى القلوب عن كفرهم وضلالتهم ﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ أي ما تسمع - سماع تدبر وإفهام - إلا المؤمنين ، ولا يستجيب لدعوتك إلا أهل الإيمان ، وهم الذين انقادوا وأسلموا وجوههم للرحمن . شبهه من لا يسمع ولا يعقل بالموتى في أنهم لا يسمعون وإن كانوا أحياء ، ثم شبههم ثانياً بالصم وبالعمى وإن كانوا سليمي الحواس ، وأكد عدم سماعهم بقوله ﴿إذا ولّوا مدبرين﴾ لأن الأصم إذا أدبر زاد صممه أو عدم سماعه بالكلية ، والغرض من الآية أن هؤلاء الكفار كالموتى ، وكالصم ، وكالعمى ، لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ، ولا يلتفتون إلى شيء من الدلائل الكونية ، أو الآيات القرآنية ﴿وإذا وقع القول عليهم﴾ هذا بيان لما يكون بين يدي الساعة أي وإذا قرب نزول العذاب وقيام الساعة ، وحين وقت عذاب الكفار ﴿أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ أي أخرجنا للكفار هذه الآية الكبيرة «دابة الأرض» تكلم الناس وتناظرهم وتقول من جملة كلامها : ألا لعنة الله على الظالمين ، الذين لا يصدقون ولا يؤمنون بآيات الله ، وخروج الدابة من أشراط الساعة وفي الحديث (لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات . . . وعد منها طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة . . .)^(١) الحديث قال ابن كثير : هذه الدابة تخرج في آخر الزمان ، عند فساد الناس وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق ، فتكلم الناس وتخطبهم مخاطبة قال ابن عباس وعطاء : تكلمهم كلاماً فتقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون^(٢) ، وروي أن خروجها حين ينقطع الخير ، ولا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر ، ولا يبقى منيب ولا تائب ، وهي آية خاصة

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ، وفي صحيح مسلم (إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وإيتها كانت قبل صاحبها فالأخرى على إثرها قريباً) .

(٢) مختصر ابن كثير ٦٨٢ / ٢ .

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ وَقَالَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلَيَّا أَمَا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾

خارقة للعادة ، ثم ذكر تعالى بعض مشاهد القيامة فقال ﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجاً﴾ أي واذكر يوم نجمع للحساب والعقاب من كل أمة من الأمم جماعة وزمرة ﴿ممن يكذب بآياتنا﴾ أي من الجاحدين المكذبين بآياتنا ورسلنا ﴿فهم يوزعون﴾ أي فهم يجمعون ثم يساقون بعنف ﴿حتى إذا جاءوا قال أكذبتهم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً﴾ أي حتى إذا حضروا موقف الحساب والسؤال قال لهم تعالى مؤبخاً ومقرعاً : أكذبتهم بآياتي المنزلة على رسلي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها ، أو معرفة صدقها ؟ ﴿أمأذا كنتم تعملون﴾ تقريع وتوبيخ آخر أي شيء كنتم تعملون في الدنيا ؟ وبخهم أولاً بقوله ﴿أكذبتهم بآياتي﴾ ثم اضرب عنه إلى استفهام تقرير وتبكيته كأنه قيل : دعوا ما نسبته إليكم من التكذيب وقولوا لي : أي شيء كنتم تعملونه في الدنيا غير التكذيب ؟ ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا﴾ أي بهتوا فلم يكن لهم جواب ، وقامت عليهم الحجة وحق عليهم العذاب ، بسبب ظلمهم وهو تكذيبهم بآيات الله ﴿فهم لا ينطقون﴾ أي فهم لا يتكلمون لأنه ليس لهم عذر ولا حجة ، وقد شغلوا بالعذاب عن الجواب . . ثم لما ذكر تعالى أهوال القيامة ذكر الأدلة والبراهين على التوحيد والحشر والنشر مبالغة في الإرشاد إلى الإيمان فقال : ﴿ألم يروا أننا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾ أي ألم يروا قدرة الله فيعتبروا أنه تعالى جعل الليل مظلاً ليناموا ويستريحوا من تعب الحياة ، وجعل النهار منيراً مشرقاً ليتصرفوا فيه في طلب المعاش والرزق ؟ ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي إن في قلب الليل والنهار من نور إلى ظلمة ، ومن ظلمة إلى نور لآيات باهرة ، ودلائل قاطعة على قدرة الله لقوم يصدقون فيعتبرون ، ثم أشار تعالى إلى أحوال الناس في الآخرة فقال ﴿ويوم يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أي واذكر يوم ينفخ إسرافيل في الصور «نفخة الفرع» فلا يبقى أحدٌ من أهل السموات والأرض إلا خاف وفرع إلا من شاء الله من الملائكة والأنبياء والشهداء قال المفسرون : هذه نفخة الفرع ، ثم تتلوها نفخة الصعق - وهو الموت - ثم بعد ذلك نفخة النشور من القبور وهي نفخة القيام لرب العالمين ، قال أبو هريرة : إن الملك له في الصور ثلاث نفخات : نفخة الفرع - وهو فرع الحياة الدنيا - وليس بالفرع الأكبر ، ونفخة الصعق ، ونفخة القيام من القبور (١) ﴿وكل أتوه داخرين﴾ أي وكل من الأموات الذين أحيوا أتوا ربهم صاغرين مطيعين لم

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٤٧﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٤٨﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٩﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَ أَوْلَاهُ كُلَّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ أَنْ قَدْ اهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٥١﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِ يَوْمَئِذٍ إِلَيْهِ

يتخلف منهم أحد ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة﴾ أي وترى أيها المخاطب الجبال وقت النفخة الأولى تظنها ثابتة في مكانها وواقفة ﴿وهي تمر مر السحاب﴾ أي وهي تسير سيرا سريعا كالسحاب قال الإمام الفخر : ووجه حسابهم أنها جامدة أن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد ظن الناظر إليها أنها واقفة مع أنها تمر مرأ سريعا ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي ذلك صنع الله البديع ، الذي أحكم كل شيء خلقه ، وأودع فيه من الحكمة ما أودع ﴿إنه خبير بما تفعلون﴾ أي هو عليم بما يفعل العباد من خير وشر ، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء . ثم بيّن تعالى حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم الرهيب فقال ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ أي من جاء يوم القيامة بحسنة من الحسنات ، فإن الله يضاعفها له إلى عشر حسنات ، ويعطيه بالعمل القليل الثواب الأبدي ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾ أي وهم من خوف ذلك اليوم العصيب آمنون كما قال تعالى ﴿لا يجزيهم الفزع الأكبر﴾ ﴿ومن جاء بالسئنة فكُتِبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ قال ابن عباس : السئنة : الإشراف بالله أي ومن جاء يوم القيامة مسيئا لا حسنة له أو مشركا بالله فإنه يكب في جهنم على وجهه منكوسا ، ويلقى فيها مقلوبا ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ أي يقال لهم توبيخا : هل تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من سيء الأعمال ؟ ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها﴾ أي قل لهم يا محمد : لقد أمرت أن أحص الله وحده بالعبادة رب البلد الأمين الذي جعل مكة حرما آمنا لا يسفك فيها دم ، ولا يُظلم فيها أحد ، ولا يصاد صيدها ولا يُحتلى خلاها ﴿كما جاء في الحديث الصحيح﴾ ﴿وله كل شيء﴾ أي هو تعالى الخالق والمالك لكل شيء فهو رب كل شيء ومليكه ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أي وأمرت أن أكون من المخلصين لله بالتوحيد ، المنقادين لأمره ، المستسلمين لحكمه ﴿وأن أتلو القرآن﴾ أي وأمرت أيضا بتلاوة القرآن لتكشف لي حقائقه الرائعة ، وأن أقرأه على الناس ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ أي فمن اهتدى بالقرآن ، واستنار قلبه بالإيمان ، فإن ثمرة هدايته راجعة إليه ﴿ومن ضلّ فقل إنما أنا من المُنذرين﴾ أي ومن ضلّ عن طريق الهدى ، فوبال ضلاله مختص به ، إذ ما على الرسول إلا البلاغ وقد بلغتكم رسالة الله ﴿وقل الحمد لله﴾ أي قل يا محمد : الحمد لله على ما خصني

فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

به من شرف النبوة والرسالة ، وما أكرمني من رفيع المنزلة والمقام ﴿سيريكم آياته فتعرفونها﴾ تهديد ووعيد أي سيريكم آياته الباهرة الدالة على عظيم قدرته وسلطانه في الأنفس والآفاق فتعرفونها حين لا تنفعكم المعرفة ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ أي وما ربك بغافل عن أعمال العباد بل هو على كل شيء شهيد ، وفيه وعد ووعيد .

البالغة : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستفهام الإنكاري ﴿أئذا كنا تراباً أئنا لَمُخْرَجُونَ﴾ وتكرير الهمزة ﴿أئنا﴾ للمبالغة في التعجب والإنكار .
- ٢ - الوعيد والتهديد ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ .
- ٣ - التأكيد بإن واللام ﴿وإن ربك لذو فضل﴾ ﴿وإن ربك ليعلم﴾ ﴿وإنه لهدى﴾ .
- ٤ - الطباق ﴿ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾ لأن معنى ﴿تكن﴾ تخفي .
- ٥ - الاستعارة البديعة ﴿إن هذا القرآن يقصُّ﴾ لأن القصص لا يوصف به إلا الناطق المميز ، ولكن القرآن لما تضمن نبا الأولين، كان كالشخص الذي يقصُّ على الناس الأخبار ففيه استعارة تبعية.
- ٦ - المبالغة ﴿العزیز العليم﴾ لأن صيغة فعيل من صيغ المبالغة .
- ٧ - الاستعارة التمثيلية ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ التعبير بالموتى ، والصم ، والعمي ، جاء كله بطريق الاستعارة ، وهو تمثيل لأحوال الكفار في عدم انتفاعهم بالإيمان بأنهم كالموتى والصم والعمي .
- ٨ - أسلوب التوبيخ والتأنيب ﴿أمأذا كنتم تعملون﴾ ؟
- ٩ - الطباق ﴿من جاء بالحسنة . . ومن جاء بالسيئة﴾ .
- ١٠ - التشبيه البليغ ﴿وهي تمرُّ مرَّ السحاب﴾ أي تمرُّ كمرَّ السحاب في السرعة ، حذف الأداة ووجه الشبه فأصبح تشبيهاً بليغاً مثل محمد قمر .
- ١١ - الإحتباك ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾ حذف من أوله ما أثبت في آخره وبالعكس، أصله جعلنا الليل مظلماً لتسكنوا فيه ، والنهار مبصراً لتتصرفوا فيه فحذف «مظلماً» لدلالة «مبصراً» عليه ، وحذف «لتتصرفوا فيه» لدلالة «ليسكنوا فيه» وهذا النوع يسمى الإحتباك وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النمل »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

- * سورة القصص من السور المكية التي تهتم بجانب العقيدة « التوحيد ، والرسالة ، والبعث » وهي تتفق في منهجها وهدفها مع سورتي « النمل ، والشعراء » كما اتفقت في جو النزول ، فهي تكمل أو تُفصل ما أجمل في السورتين قبلها .
- * محور السورة الكريمة يدور حول فكرة الحق والباطل ، ومنطق الإذعان والطغيان ، وتصور قصة الصراع بين جند الرحمن ، وجند الشيطان ، وقد ساق في سبيل ذلك قصتين : أولاها قصة الطغيان بالحكم والسلطان ، ممثلة في قصة فرعون الطاغية المتجبر الذي أذاق بني إسرائيل سوء العذاب ، فذبح الأبناء ، واستحيا النساء ، وتعالى على الله حتى تجرأ على ادعاء الربوبية ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ والثانية : قصة الاستعلاء والطغيان بالثروة والمال ممثلة في « قارون مع قومه » وكلا القصتين رمزاً إلى طغيان الإنسان في هذه الحياة ، سواءً بالمال ، أو الجاه ، أو السلطان .
- * ابتدأت السورة بالحديث عن طغيان فرعون وعلوه وفساده في الأرض ، ومنطق الطغيان في كل زمان ومكان .
- * ثم انتقلت إلى الحديث عن ولادة موسى وخوف أمه عليه من بطش فرعون ، وإلهام الله تعالى لها بإلقائه في البحر ليعيش معزراً مكرماً في حجر فرعون كريحانة زكية تنبت وسط الأشواك والأوحال .
- * ثم تحدثت عن بلوغ موسى سن الرشد ، وعن قتله للقبطي ، وعن هجرته إلى أرض مدين وتزوجه بابنة شعيب ، وتكليف الله له بالعودة إلى مصر لدعوة فرعون الطاغية إلى الله ، وما كان من أمر موسى مع فرعون بالتفصيل إلى أن أغرقه الله ، وتحدثت عن كفار مكة ووقوفهم في وجه الرسالة المحمدية ، وبيّنت أن مسلك أهل الضلال واحد .
- * ثم انتقلت إلى الحديث عن قصة قارون ، وبيّنت الفارق العظيم بين منطق الإيمان ، ومنطق الطغيان .
- * وختمت السورة الكريمة بالإرشاد إلى طريق السعادة وهو طريق الإيمان الذي دعى إليه الرسل الكرام .
- التسمية :** سميت سورة « القصص » لأن الله تعالى ذكر فيها قصة موسى مفصلة موضحة من

حين ولادته الى حين رسالته ، وفيها من غرائب الأحداث العجيبة ما يتجلى فيه بوضوح عناية الله بأوليائه
وخذلانه لأعدائه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبِيِّ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾
إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ

اللفظة: ﴿شيعاً﴾ فرقاً وأصنافاً ﴿يستحي﴾ يتركه حياً ولا يقتله ﴿ثمن﴾ نتفضل وننعم
﴿اليم﴾ البحر ﴿فارغاً﴾ خالياً ﴿المراضع﴾ جمع مريض ، وأما المرصعة فجمعها مرضعات وهي التي
ترضع الطفل اللبن ﴿عن جنب﴾ عن بعد ومنه الأجنبي للبعيد غير القريب ﴿وكزه﴾ الوكر : الضرب
بجمع الكف أي بكفه مجموعة قال أهل اللغة : الوكر واللكز كلاهما بمعنى واحد وهو الضرب بجمع
الكف على الصدر ، وقيل : الوكر في الصدر ، واللكز في الظهر ، وجمع الكف : الكف المقبوضة
الأصابع ^(١) ﴿ظهيراً﴾ عوناً ﴿يستصرخه﴾ يستغيثه والاستصراخ الاستغاثة وهو من الصراخ لأن المستغيث
يصرخ ويرفع صوته طلباً للغوث قال الشاعر :

كنا إذا ما أتانا صارخ فرغ
كان الصراخ له قرع الظنابيب ^(٢)

﴿بيطش﴾ البطش : الأخذ بالشدة والعنف ، بطش وبيطش وبيطش بالكسر والضم .

التفسير: ﴿طَسَمَ﴾ الحروف المقطعة للتنبية على إعجاز القرآن الكريم ، والإشارة إلى أن هذا
الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية ^(٣) ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾
أي هذه آيات القرآن الواضح الجلي ، الظاهر في إعجازه ، الواضح في تشريعه وأحكامه ﴿تتلوا عليك من نبأ
موسى وفرعون بالحق﴾ أي نقرأ عليك يا محمد بواسطة الروح الأمين من الأخبار الهامة عن موسى وفرعون
من الحق الذي لا يأتيه الباطل ، والصدق الذي لا ريب فيه ولا كذب ﴿لقوم يؤمنون﴾ أي لقوم يصدقون
بالقرآن فينتفعون . . ثم بدأ بذكر قصة فرعون الطاغية فقال ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ أي استكبر
وتجبر ، وجاوز الحد في الطغيان في أرض مصر ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾ أي جعل أهلها فرقاً وأصنافاً في
استخدامه وطاعته ﴿يستضعف طائفة منهم﴾ أي يستعبد ويستذل فريقاً منهم وهم بنو إسرائيل فيسومهم
سوء العذاب ﴿يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم﴾ أي يقتل أبناءهم الذكور ويترك الإناث على قيد الحياة
لخدمته وخدمة الأقباط قال المفسرون : سبب تقتيله الذكور أن فرعون رأى في منامه أن ناراً عظيمة أقبلت
من بيت المقدس وجاءت إلى أرض مصر فأحرقت القبط دون بني إسرائيل ، فسأل عن ذلك
المنجمين والكهنة ، فقالوا له : إن مولوداً يولد في بني إسرائيل ، يذهب ملكك على يديه ، ويكون
هلاكك بسببه فأمر أن يقتل كل ذكر من أولاد بني إسرائيل ﴿إنه كان من المفسدين﴾ أي من الراسخين في

(١) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/٥٠٧ . (٢) القرطبي ١٣/٢٦٤ . (٣) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة حول أوائل السور .

مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾
 وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ
 أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾
 فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾

الفساد ، المتجبرين في الأرض ، ولذلك ادعى الربوبية وأمعن في القتل وإذلال العباد ﴿ ونريد أن نمُنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ﴾ أي ونريد برحمتنا أن نتفضل وننعم على المستضعفين من بني إسرائيل فننجيهم من بأس فرعون وطغيانه ﴿ ونجعلهم أئمة ﴾ أي ونجعلهم أئمة يقتدى بهم في الخير بعد أن كانوا أذلاء مسخرين قال ابن عباس : ﴿ أئمة ﴾ قادة في الخير ، وقال قتادة : ولاية وملوكاً ﴿ ونجعلهم الوارثين ﴾ أي ونجعل هؤلاء الضعفاء وارثين لملك فرعون وقومه ، يرثون ملكهم ويسكنون مساكنهم بعد أن كان القبط أسياد مصر وأعزتها ﴿ ونمكِّن لهم في الأرض ﴾ أي ونملكهم بلاد مصر والشام يتصرفون فيها كيف يشاءون قال البيضاوي : أصل التمكين أن تجعل للشيء مكاناً يتمكن فيه ثم استعيد للتسليط وإطلاق الأمر^(١) ﴿ ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ أي ونري فرعون الطاغية ، ووزيره « هامان » والأقباط من أولئك المستضعفين ما كانوا يخافونه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود من بني إسرائيل ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ أي قذفنا في قلبها بواسطة الإلهام قال ابن عباس : هو وحي إلهام وقال مقاتل : أخبرها جبريل بذلك قال القرطبي : فعلى قول مقاتل هو وحي إلهام لا إلهام ، وأجمع الكل على أنها لم تكن نبيه ، وإنما إرسال الملك إليها على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى كما في الحديث المشهور ، وكذلك تكليم الملائكة للناس من غير نبوة ، وقد سلَّمت على « عمران بن حصين » فلم يكن نبياً^(٢) ﴿ فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ﴾ أي فإذا خفت عليه من فرعون فاجعليه في صندوق وألقيه في البحر - بحر النيل - ﴿ ولا تخافي ولا تحزني ﴾ أي لا تخافي عليه الهلاك ولا تحزني لفراقه ﴿ إننا رآدوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ أي فإننا سنرده إليك ونجعله رسولاً نرسله إلى هذا الطاغية لننجي بني إسرائيل على يديه ﴿ فاللتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ أي فأخذه وأصابه أعوان فرعون لتكون عاقبة الأمر أن يصبح لهم عدواً ومصدر حزن وبلاء وهلاك قال القرطبي : اللام في « ليكون » لام العاقبة ولام الصيرورة ، لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرّة عين ، فكان عاقبة ذلك أن صار لهم عدواً وحزناً ، فذكر الحال بالمآل كما قال الشاعر :

وللمنايا تُرْبِي كُلُّ مَرْضَعَةٍ ودورنا لخراب الدهر نبيها^(٣)

﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ أي كانوا عاصين مشركين آثمين ، قال العلماء : الخاطيء

وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠﴾
 وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۚ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾
 وَقَالَتِ لَأُخَيِّطُهُ قُصْبَهُ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ * وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ
 فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٣﴾

من تعمد الذنب والإثم ، والمخطيء من فعل الذنب عن غير تعمد ﴿وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك﴾ أي قالت زوجة فرعون لفرعون: هذا الغلام فرحة ومسرة لي ولك لعلنا نسر به فيكون قرة عين لنا قال الطبري : ذكر أن المرأة لما قالت هذا القول لفرعون قال لها : أمأ لك فنعم ، وأما لي فليس بقرّة عين^(١) ، وقال ابن عباس : لو قال قرة عين لي هداة الله به ولأمن ولكنه أبي ﴿لا تقتلوه﴾ أي لا تقتله يا فرعون ، خاطبته بلفظ الجمع كما يخاطب الجبارون تعظيماً له ليساعدها فيما تريد ﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا﴾ عسى أن ينفعنا في الكبير، أو نتبناه فنجعله لنا ولداً تقرُّ به عيوننا قال المفسرون : وكانت لا تلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها قال تعالى ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي وهم لا يشعرون أن هلاك فرعون وزبانيته سيكون على يديه وبسببه ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾ أي صار قلبها خالياً من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى^(٢) ، وقيل المعنى : طار عقلها من فرط الجزع والغم حين سمعت بوقوعه في يد فرعون ﴿إن كادت لتبدي به﴾ أي إنها كادت أن تكشف أمره وتظهر أنه ابنها من شدة الوجد والحزن قال ابن عباس : كادت تصيح وإبناه ، وذلك حين سمعت بوقوعه في يد فرعون ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ أي لولا أن ثبتناها وألهمناها الصبر ﴿لتكون من المؤمنين﴾ أي لتكون من المصدقين بوعد الله برده عليها ﴿وقالت لأخته قصيه﴾ أي قالت أم موسى لأخت موسى : إتبعني أثره حتى تعلمي خبره قال مجاهد : قصي أثره وانظري ماذا يفعلون به ؟ ﴿فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾ أي فأبصرته عن بعد وهم لا يشعرون أنها أخته ، لأنها كانت تمشي على ساحل البحر حتى وصل الصندوق إلى بيت فرعون وهي ترقبه مستخفية عنهم ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾ أي ومنعنا موسى أن يقبل ثدي أي مرضعة من المرضعات اللاتي أحضروهن لإرضاعه من قبل مجيء أمه قال المفسرون : بقي أياماً كلها أتي بمرضع لم يقبل ثديها ، فأهمهم ذلك واشتد عليهم الأمر فخرجوا به يبحثون له عن مرضعة خارج القصر فرأوا أخته ﴿فقال هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم﴾ أي هل أدلكم على مرضعة له تكفله وترعاه ؟ ﴿وهم له ناصحون﴾ أي لا يقصرون في إرضاعه وتربيته قال السدي : فدلتهم على أم موسى فانطلقت إليها بأمرهم فجاءت بها ، والصبي على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكي يطلب الرضاع ، فدفعه إليها فلما وجد ريح أمه قبل ثديها ، فقال فرعون : من أنت منه فقد أبي كل ثدي إلا ثديك ؟ فقالت : إني امرأة طيبة الريح ، طيبة

(١) الطبري ٢٠/٢٢.

(٢) هذا قول ابن عباس ومجاهد والضحاك وجهور المفسرين ، والقول الثاني ذكره القرطبي عن ابن القاسم عن مالك ، ولعله الأظهر .

فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۗ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

اللبن ، لا أكاد أوتى بصبي إلا قبلني فدفعه إليها ، فرجعت إلى بيتها من يومها ولم يبق أحد من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالهدايا والجواهر فذلك قوله تعالى ﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن﴾ أي أعدناه إليها تحقيقاً للوعد كي تسعد وتهنأ ببقائه ولا تحزن على فراقه ﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾ أي ولتتحقق من صدق وعد الله برده عليها وحفظه من شر فرعون ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي ولكن أكثر الناس يرتابون ويشكون في وعد الله القاطع ﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾ أي ولما بلغ كمال الرشد ، ونهاية القوة ، وتمام العقل والاعتدال قال مجاهد : هو سن الأربعين ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾ أي أعطيناه الفهم والعلم والتفقه في الدين مع النبوة ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي ومثل هذا الجزاء الكريم نجازي المحسنين على إحسانهم ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾ أي دخل مصر وقت الظهيرة والناس يخلدون للراحة عند القيلولة ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه﴾ أي فوجد شخصين يتقاتلان : أحدهما من بني إسرائيل من جماعة موسى ، والآخر قبطي من جماعة فرعون ﴿فاستغناه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾ أي فاستنجد الإسرائيلي بموسى وطلب غوثه ليدفع عنه شر القبطي ﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾ أي ضربه موسى بجمع كفه فقتله ، قال القرطبي : فعل موسى ذلك وهو لا يريد قتله إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه وكانت القاضية^(١) ﴿قال هذا من عمل الشيطان﴾ أي هذا من إغواء الشيطان فهو الذي هيج غضبي حتى ضربت هذا ﴿إنه عدو مضل مبين﴾ أي إن الشيطان عدو لابن آدم ، مضل له عن سبيل الرشاد ، ظاهر العداوة قال الصاوي : نسبة إلى الشيطان من حيث إنه لم يؤمر بقتل القبطي ، وظهر له أن قتله خلاف الأولى لما يترتب عليه من الفتن ، والشيطان تفرحه الفتن ولذلك ندم على فعله^(٢) ﴿قال رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾ أي إنني ظلمت نفسي بقتل النفس فاعف عني ولا تؤاخذني بخطيئتي ﴿فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي إنه تعالى المبالغ في المغفرة للعباد ، الواسع الرحمة لهم ﴿قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ أي بسبب إنعامك علي بالقوة وبحق ما أكرمتني به من الجاه والعز ، فلن أكون عوناً لأحد من المجرمين^(٣) ، وهذه معاهدة عاهد موسى ربه عليها وقيل : هو

(١) القرطبي ١٣/٢٦١ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/١١٢

(٣) قال الرازي : وفي الآية دلالة على أنه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة .

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ، قَالَ لَهُ، مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٧٨﴾
 فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا
 أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلِحِينَ ﴿١٧٩﴾

قسم وهو ضعيف ﴿فأصبح في المدينة خائفاً يترقب﴾ أي فأصبح موسى في المدينة التي قتل فيها القبطي خائفاً على نفسه يتوقع ويبتظر المكروه ، ويخاف أن يؤخذ بجريته ﴿فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه﴾ أي فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي خلّصه بالأمس يقاتل قبطياً آخر فلما رأى موسى أخذ يصيح به مستغيثاً لينصره من عدوه ﴿قال له موسى إنك لغويٌّ مبين﴾ أي قال موسى للإسرائيلي : إنك لبين الغواية والضلال ، فإنني وقعت بالأمس فيما وقعت فيه من قتل رجل بسببك وتريد أن توقعني اليوم في ورطةٍ أخرى ؟ ﴿فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدوُّهما﴾ أي فحين أراد موسى أن يبطش بذلك القبطي الذي هو عدوُّه وللإسرائيلي ﴿قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾ أي قال القبطي : أتريد قتلي كما قتلت غيري بالأمس^(١) ؟ ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض﴾ أي ما تريد يا موسى إلا أن تكون من الجبابرة المفسدين في الأرض ﴿وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ أي وما تريد أن تكون من الذين يصلحون بين الناس .

البالغة : تضمنت الآيات من وجوه البيان والبديع ما يلي :

- ١ - الإشارة بالبعيد عن القريب لبعده مرتبته في الكمال ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ .
- ٢ - حكاية الحالة الماضية ﴿ونريد أن نؤمن﴾ لاستحضار تلك الصورة في الذهن .
- ٣ - إثارة الجملة الإسمية على الفعلية ﴿إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ ولم يقل سنرده ونجعله رسولاً وذلك للاعتناء بالبشارة لأن الجملة الإسمية تفيد الثبوت والاستمرار .
- ٤ - الاستعارة ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ شبه ما قذف الله في قلبها من الصبر بربط الشيء المنفلت خشية الضياع واستعار لفظ الربط للصبر .
- ٥ - صيغة التعظيم ﴿لا تقتلوه﴾ تحاطب فرعون ولم تقل لا تقتله تعظيماً له .
- ٦ - صيغة المبالغة ﴿جبار ، غوي ، مبين﴾ لأن فعال وفعل من صيغ المبالغة .
- ٧ - الطباق المعنوي ﴿جباراً . . وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ لأن الجبار المفسد المخرب ، المكثّر للقتل وسفك الدماء ففيه طباق في المعنى .

(١) هذا هو الظاهر أن القاتل هو القبطي لا الإسرائيلي لأن قوله ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً﴾ لا يصدر من المؤمن وإنما من الكافر .

٨ - الاستعطاف ﴿ربِّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ .

٩ - توافق الفواصل في كثير من الآيات مثل ﴿وهم لا يشعرون﴾ ﴿وهم له ناصحون﴾ ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وهو من المحسنات البديعية .

لطيفة : «حكى العلامة القرطبي عن الأصمعي أنه قال سمعت جارية أعرابية تنشد :

أستغفر الله لذنبي كله قتلتُ إنساناً بغير حلّه
مثل الغزال ناعماً في دله انتصف الليل ولم أصلّه

فقلت : قاتلك الله ما أفصحك ؟ فقالت : ويحك أويعد هذا فصاحة مع قول الله عز وجل ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ فقد جمع في آية واحدة بين أمرين ، ونهين ، وخبرين وبشارتين^(١) .

قال الله تعالى : ﴿وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى . . إلى . . ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ من آية (٢٠) إلى نهاية آية (٤٢) .

المناسبة : لا تزال الآيات تتحدث عن قصة موسى ، وقد تناولت الآيات السابقة قصة ولادته وإرضاعه ، وتربيته في بيت فرعون إلى أن شبَّ وبلغ سنَّ الرشد والكمال ، ثم قتله للفرعوني ، وتحدثت الآيات هنا عن هجرته إلى أرض مدين وتزوجه بابنة شعيب ، ثم عودته إلى مصر ، ونزول النبوة عليه ، وهلاك فرعون على يديه .

اللفت : ﴿يأتمرون﴾ يتشاورون قال الأزهري : ائتمر القوم وتأمروا أي أمر بعضهم بعضاً ﴿تذودان﴾ ذاد يذود إذا حبس ومنع ، وذاد طرد قال الشاعر :

لقد سلبت عصاك بنو تميم فما تدري بأبي عصى تذود^(٢)

﴿خطبكما﴾ الخطب : الشأن قال رؤية : «يا عجباً ما خطبه وخطبي» ﴿الرعاء﴾ جمع راعٍ مثل صاحب وصحاب وهو الذي يرعى الغنم ﴿حجج﴾ جمع حجة بكسر الحاء وهي السنة ﴿جذوة﴾ الجذوة : الجمرة الملتهبة ﴿ردءاً﴾ عوناً قال الجوهري : أردأته أعتته ، وكنتُ له رداءً أي عوناً ﴿المقبوحين﴾ الهالكين المبعدين أو القبيحين في الصورة يقال : قبحه الله وقبحه إذا جعله قبيحاً .

(١) تفسير القرطبي ٢٥٢/١٣ . (٢) البيت لجرير يهجو الفرزدق كذا في القرطبي ٢٦٨/١٣ .

وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

التفسير : ﴿وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى﴾ أي وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يكتنم إيمانه من أبعاد أطراف المدينة يشتد ويسرع في مشيه قال ابن عباس : هذا الرجل هو مؤمن من آل فرعون ﴿قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾ أي قال له يا موسى : إن أشرف فرعون ، ووجوه دولته يتشاورون فيك بقصد قتلك ﴿فاخرج إني لك من الناصحين﴾ أي فاخرج قبل أن يدركوك فأنا ناصح لك من الناصحين ﴿فاخرج منها خائفاً يترقب﴾ أي فخرج من مصر خائفاً على نفسه يترقب ويتنظر الطلب أن يدركه فيأخذه ، ثم التجأ إلى الله سبحانه بالدعاء لعلمه بأنه لا ملجأ سواه ﴿قال رب نجني من القوم الظالمين﴾ أي خلصني من الكافرين واحفظني من شرهم - والمراد بهم فرعون وملؤه - ﴿ولما توجه تلقاء مدين﴾ أي قصد بوجهه ناحية مدين وهي بلدة شعيب عليه السلام ﴿قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ أي لعل الله يرشدني إلى الطريق السوي الذي يوصلني إلى مقصودي قال المفسرون : خرج خائفاً بغير زاد ولا ظهر - مركب - وكان بين مصر ومدين مسيرة ثمانية أيام ، ولم يكن له علم بالطريق سوى حسن ظنه بربه ، فبعث الله إليه ملكاً فأرشده إلى الطريق ، ويروى أنه لما وصل مدين كانت خضرة البقل تترأى من بطنه من الهزال ، لأنه كان في الطريق يتقوت ورق الشجر ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمةً من الناس يسقون﴾ أي ولما وصل إلى مدين بلدة شعيب وجد على البئر الذي يستقي منه الرعاة جمعاً كثيراً من الناس يسقون مواشيهم ﴿ووجد من دونهم امرأتين تذودان﴾ أي ووجد سوى الجماعة الرعاة امرأتين تكفان غنمهما عن الماء ﴿قال ما خطبكما﴾ ؟ أي ما شأنكما تمنعان الغنم عن ورود الماء ؟ ولم لا تسقيان مع السقاة ؟ ﴿قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير﴾ أي من عادتنا التاني حتى ينصرف الرعاة مع أغنامهم عن الماء ، ولا طاقة لنا على مزاحمة الأقوياء ، ولا نريد مخالطة الرجال ، وأبونا رجل مسن لا يستطيع لضغفه أن يياشر سقاية الغنم ، ولذلك اضطررنا إلى أن نسقي بأنفسنا قال أبو حيان : فيه اعتذار لموسى عن مباشرتها السقي بأنفسها ، وتنبية على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخوخته وكبره، واستعطاف لموسى في إعانتها^(١) ﴿فسقى لها ثم تولى إلى الظل﴾ أي فسقى لها غنمها رحمة بهما ، ثم تنحى جانباً فجلس تحت ظل شجرة ﴿فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ أي إني يا رب محتاج إلى فضلك

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٤٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَعِجْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَعَجَرَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٤٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي تَمَنِّي حِجَجًا فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٤٧﴾

وإحسانك ، وإلى الطعام الذي أسدُّ به جوعي ، طلب من الله ما يأكله وكان قد اشتد عليه الجوع قال الضحاك : مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاماً إلا بقل الأرض^(١) وقال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى « مدين » ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه ، وجلس في الظل - وهو صفوة الله من خلقه - وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاج إلى شق تمر^(٢) ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء﴾ في الكلام اختصار تقديره : فذهبتا إلى أبيهما سريعتين ، وكان من عاداتهما الإبطاء فحدثناه بما كان من أمر الرجل ، فأمر إحداها أن تدعوه له فجاءته تمشي . . الخ أي جاءته حال كونها تمشي مشية الحرائر بحياء وخجل قد سترت وجهها بثوبها قال عمر : لم تكن بسلفع من النساء خراجة ولاجة^(٣) ﴿قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ أي إن أبي يطلبك ليعوضك عن أجر السقاية لغنمنا قال ابن كثير : وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لثلا يومهم ريبة^(٤) ﴿فلما جاءه وقص عليه القصة قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ أي فلما جاءه موسى وذكر له ما كان من أمره وسبب هربه من مصر قال له شعيب : لا تخف فأنت في بلد آمن لا سلطان لفرعون عليه وقد نجاك الله من كيد المجرمين ﴿قالت إحداها يا أبت استأجره﴾ أي استأجره لرعي أغنامنا وسقايتهما ﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ أي إن أفضل من تستأجره من كان قوياً أميناً قال أبو حيان : وقولها كلام حكيم جامع لأنه إذا اجتمعت الكفاية والأمانة في القائم بأمر من الأمور فقد تم المقصود^(٥) ، روي أن شعيباً قال لها : وما أعلمك بقوته وأمانته ؟ فقالت : إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي : كوني من ورائي ودليني على الطريق ، ولما أتيت به خفض بصره فلم ينظر إلي ، فرغب شعيب في مصاهرته وتزويجه بإحدى بناته ﴿قال إنني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين﴾ أي إنني أريد أن أزوجك إحدى بنتي هاتين الصغرى أو الكبرى ﴿على أن تأجرني ثمانين حجج﴾ أي بشرط أن تكون أجيراً لي ثمانين سنين ترعى فيها غنمي ﴿فإن أتممت عشراً فمن عندك﴾ أي فإن أكملتها عشر سنين فذلك تفضل منك ، وليس بواجب عليك ﴿وما أريد أن أسألك عليك﴾ أي وما أريد أن أوقعك في المشقة باشتراط العشر ﴿ستجدني إن شاء الله

(١) الرازي ٢٤٠/٢٤ . (٢) ابن كثير المختصر ١٠/٣ . (٣) الطبري ٣٩/٢٠ والسلفع : الجرينة السليطة الجسور أفاده الجوهري .

(٤) ابن كثير ١١/٣ . (٥) البحر ١١٤/٧ .

قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ * فَلَمَّا قَضَىٰ
 مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم
 مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ
 الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ
 وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَىٰ أَقْبَلَ وَلَا تَحْفَ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾

من الصالحين ﴿٢٨﴾ أي ستجدني إن شاء الله حسن المعاملة ، لين الجانب ، وفياً بالعهد قال القرطبي : في
 الآية عرض الولي ابنته على الرجل ، وهذه سنة قائمة ، وعرض شعيب ابنته على موسى ، وعرض عمر ابنته
 حفصة على أبي بكر وعثمان ، وعرضت الموهوبة نفسها على النبي ﷺ ، فمن الحُسْن عرض الرجل وليته على
 الرجل الصالح ، اقتداءً بالسلف الصالح ﴿٢٩﴾ قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيتُ فلا عدوان علي ﴿٢٨﴾
 أي قال موسى : إن ما قلته وعاهدتني عليه قائم بيننا جميعاً لا نخرج عنه ، وأي المدين الثماني أو العشر
 أديتها لك فلا إثم ولا حرج علي ﴿٢٩﴾ والله على ما نقول وكيل ﴿٣٠﴾ أي والله شاهد على ما تعاهدنا وتوالتنا عليه
 ﴿٣١﴾ فلما قضى موسى الأجل ﴿٣١﴾ أي فلما أتم موسى المدة التي اتفقا عليها قال ابن عباس : قضى أتم الأجلين
 وأكملها وأوفاهما وهو عشر سنين ﴿٣١﴾ وسار بأهله ﴿٣١﴾ أي ومشى بزوجته مسافراً بها إلى مصر ﴿٣١﴾ آنس من جانب
 الطور ناراً ﴿٣١﴾ أي أبصر من بعيد ناراً تتوهج من جانب جبل الطور ﴿٣١﴾ قال لأهله امكثوا إنني آنست ناراً ﴿٣١﴾ أي
 قال لزوجته امكثي هنا فقد أبصرت ناراً عن بعد قال المفسرون : كانت ليلة باردة وقد أضلوا الطريق ،
 وهبت ريح شديدة فرقت ماشيته ، وأخذ أهله الطلق فعند ذلك أبصر ناراً بعيدة فسار إليها لعله يجد من
 يدلّه على الطريق فذلك قوله تعالى ﴿لعلِّي آتيكم منها بخبر﴾ أي لعلِّي آتيكم بخبر الطريق وأرى من يدلني
 عليه ﴿أو جذوة من النار لعلكم تصطلون﴾ أي أو آتيكم بشعلة من النار لعلكم تستدفئون بها ﴿فلما أتاهَا
 نُودِيَ من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة﴾ أي فلما وصل إلى مكان النار لم يجدها ناراً
 وإنما وجدها نوراً ، وجاء النداء من جانب الوادي الأيمن في ذلك المكان المبارك من ناحية الشجرة ﴿أن يا
 موسى إنني أنا الله رب العالمين﴾ أي نودي يا موسى إن الذي يخاطبك ويكلمك هو أنا الله العظيم
 الكبير ، المنزه عن صفات النقص ، رب الإنس والجن والخلائق أجمعين ﴿وأن ألق عصاك﴾ أي ونودي بأن
 اطرح عصاك التي في يدك ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب﴾ أي فألقاها فانقلبت إلى حية فلما
 رآها تتحرك كأنها ثعبان خفيف سريع الحركة انهزم هارباً منها ولم يلتفت إليها قال ابن كثير : انقلبت
 العصى إلى حية وكانت كأنها جانٌّ في حركتها السريعة مع عظم خلقتها ، واتساع فمها ، واصطكاك أنيابها
 بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعته تنحدر في فمها تتقعقع كأنها حادة في واد ، فعند ذلك ولى مدبراً ولم

أَسَلَّكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَنِكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ
إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾
وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۗ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنُنْذِرُ

يلتفت ، لأن طبع البشرية ينفر من ذلك (١) ﴿يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين﴾ أي فنودي يا موسى :
إرجع إلى حيث كنت ولا تخف فأنت آمن من المخاوف ، فرجع وأدخل يده في فم الحية فعادت عصا ﴿أَسَلَّكَ
يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ أي أدخل يدك في جيب قميصك - وهو فتحة الثوب مكان دخول
الرأس - ثم أخرجها تخرج مضيئة منيرة تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق من غير أذى ولا برص
﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾ قال ابن عباس : اضمم يدك إلى صدرك من الخوف يذهب عنك
الرعب قال المفسرون : المراد بالجناح اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر ، وإذا أدخل يده اليمنى
تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه إليه وبذلك يذهب عنه الخوف من الحية ومن كل شيء ﴿فذلك برهانان
من ربك إلى فرعون وملئه﴾ أي فهذان - العصا واليد - دليلان قاطعان ، وحجتان نيرتان واضحتان من
الله تعالى تدلان على صدقك ، وهما آيتان إلى فرعون وأشراف قومه الطغاة المتجبرين ﴿إنهم كانوا قوماً
فاسقين﴾ أي خارجين عن طاعتنا ، مخالفين لأمرنا ﴿قال رب إنني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون﴾ أي
قال موسى يا رب إنني قتلت قبطياً من آل فرعون وأخشى إن أتيتهم أن يقتلوني به قال المفسرون : هو القبطي
الذي وكزه فمات ، فطلب من ربه ما يزداد به قوة على مجابهة فرعون بإرسال أخيه هارون معه فقال ﴿وأخي
هارون هو أفصح مني لساناً﴾ أي هو أوضح بياناً ، وأطلق لساناً ، لأن موسى كان في لسانه حُبسة من أثر
الجمرة التي تناوها في صغره ﴿فأرسله معي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ أي فأرسله معي معيناً يبين لهم عني ما أكلهم
به بتوضيح الحجج والبراهين ﴿إنني أخاف أن يكذبون﴾ أي أخاف إن لم يكن لي وزير ولا معين أن
يكذبوني لأنهم لا يكادون يفقهون عني ، قال الرازي : والمعنى أرسل معي أخي هارون حتى يعاضدني
على إظهار الحجة والبيان ، وليس الغرض بتصديق هارون أن يقول له : صدقت ، أو يقول للناس :
صدق موسى ، وإنما هو أن يُلخِّص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل ، ويحجب عن الشبهات ، ويجادل به
الكفار (٢) ﴿قال سننذرك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً﴾ أي أجابه تعالى إلى طلبه وقال له : سننوبك

(١) يقول سيد قطب عليه الرحمة والرضوان «وألقي موسى عصاه إطاعةً لأمر مولاه ، ولكن ماذا حدث ؟ إنها لم تعد عصاه التي صاحبها
طويلاً والتي يعرفها معرفة اليقين ، ولكنها حية تدب في سرعة ، وتتحرك في خفة ، وتلوى كصغار الحيات وهي حية كبرى ، إنها المفاجأة التي
لم يستعد لها ولذلك ولّى مديراً ولم يعقب ، لم يفكر في العودة إليها ليتبين ماذا بها ، وليتأمل هذه العجبية الضخمة ، ثم يستمع إلى ربه الأعلى
﴿يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين﴾ وكيف لا يأمن من ترعاه عين الله ؟ ثم يأتيه النداء مرة أخرى ﴿أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء
من غير سوء﴾ وأطاع موسى الأمر ، وأدخل يده في فتحة ثوبه عند صدره ثم أخرجها ، فإذا هي المفاجأة الثانية في اللحظة الواحدة ، إنها بيضاء
لامعة مشعة من غير مرض ، وقد عهدا آدماء تضرب إلى السمرة ، إنها إشارة إلى إشراق الحق ، ووضوح الآية ، ونصاعة الدليل ، من
الظلال . (٢) التفسير الكبير للرازي ٢٤٩ / ٣٤٩ .

عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ بِآيٰتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ الْغٰلِبُونَ ﴿٤٥﴾ فَلَمَّا
جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيٰتِنَا بَيِّنٰتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي ءَابَآئِنَا الْآوَلِينَ ﴿٤٦﴾ وَقَالَ
مُوسَىٰ رَبِّيٰ أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِآلِهٰدِيٍّ مِّنْ عِنْدِهِ ۖ وَمَن تَكُونُ لَهُ عٰقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾
وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيَّبٰنَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلٰهٍ غَيْرِي ۖ فَأَوْقِدْ لِي يَهْمٰنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صِرَٰحًا لَّعَلِّي
أُطَّلِعُ إِلَىٰ إِلٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِّنَ الْكٰذِبِينَ ﴿٤٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ
وَوٰظَنُوا أَنَّهُم إِلٰهِنَا لَا يَرْجِعُونَ ﴿٤٩﴾

بأخيك ونعينك به ، ونجعل لكما غلبةً وتسلطاً على فرعون وقومه ﴿ فلا يصلون إليكما بآياتنا ﴾ أي لا
سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب ما أيدتكما به من المعجزات الباهرات ﴿ أنتما ومن اتبعكما
الغالبون ﴾ أي العاقبة لكما ولأتباعكما في الدنيا والآخرة ، وأنتم الغالبون على القوم المجرمين كقوله تعالى
﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرَسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات ﴾ أي فلما جاءهم
موسى بالبراهين الساطعة ، والمعجزات القاطعة ، الدالة على صدقه وأنه رسولٌ من عند الله ﴿ قالوا ما هذا
إلا سحرٌ مفترى ﴾ أي ما هذا الذي جئنا به من العصا واليد إلا سحرٌ مكذوبٌ مخلوق ، افتريته من قبل
نفسك وتنسبه إلى الله ﴿ وما سمعنا بهذا في آباتنا الأولين ﴾ أي وما سمعنا بمثل هذه الدعوى - دعوى
التوحيد - في آباتنا وأجدادنا السابقين ﴿ وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبةُ
الدار ﴾ أجمل موسى في جوابهم تطفأً في الخطاب ، وإيثاراً لأحسن الوجوه في المجادلة معهم والمعنى : إن
ما جئتكم به حقٌ وهدى وليس بسحر ، وربِّي عالمٌ بذلك يعلمُ أي محقٌ وأنتم مبطلون ، ويعلم من
تكون له العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي لا يسعد ولا ينجح من كان ظالماً
فاجراً ، كاذباً على الله ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمتُ لكم من إلهٍ غيري ﴾ أي قال فرعون لأشرف
قومه وسادتهم : ما علمتُ لكم إلهاً غيري قال ابن عباس : كان بين هذه القولة الفاجرة وبين قوله ﴿ أنا
ربكم الأعلى ﴾ أربعون سنة ، وكذب عدوُّ الله بل علم أن له رباً هو خالقه وخالق قومه ﴿ فأوقد لي يا
هامان على الطين فاجعل لي صرحاً ﴾ أي فاطبخ لي يا هامان الأجر فاجعل لي منه قصراً شاهجاً رفيعاً ﴿ لعلي
اطلعُ إلى إله موسى ﴾ أي لعلي أرى وأشاهد إله موسى الذي زعم أنه أرسله ، قال ذلك على سبيل التهكم
ولهذا قال بعده ﴿ وإني لأظنه من الكاذبين ﴾ أي وإني لأظن موسى كاذباً في ادعائه أن في السماء رباً قال
تعالى ﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق ﴾ أي وتكبر وتعظم فرعون وقومه عن الإيمان بموسى في
أرض مصر بالباطل والظلم ﴿ ووظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾ أي واعتقدوا أن لا بعث ولا نشور ، ولا

فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى
النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٣﴾

حساب ولا جزاء ﴿فأخذناه وجنوده فنبدناهم في اليم﴾ أي فأخذناه مع جنوده فطرحناهم في البحر ، وأغرقناهم فلم يبق منهم أحد ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ أي فانظر يا محمد بعين قلبك نظر اعتبار كيف كان مال هؤلاء الظالمين الذين بلغوا من الكفر والطغيان أقصى الغايات ؟ ﴿وجعلناهم أمة يدعون إلى النار﴾ أي وجعلناهم في الدنيا قادة وزعماء في الكفر يقتدي بهم أهل الضلال ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ أي ويوم القيامة ليس لهم ناصر يدفع عنهم العذاب ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي جعلنا اللعنة تلحقهم في هذه الحياة الدنيا من الله والملائكة والمؤمنين ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ أي وفي الآخرة هم من المبعدين المطرودين من رحمة الله عز وجل .

البلاغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - التأكيد بإن واللام ﴿إن الملائكة يأترون بك ليقتلوك﴾ مناسبة لمقتضى الحال .

٢ - الاستعطاف والترحم ﴿رب إنني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ .

٣ - جناس الاشتقاق ﴿وقص عليه القصص﴾ .

٤ - التشبيه المرسل المجمل ﴿تهتز كأنها جان﴾ حذف وجه الشبه فأصبح مجملاً .

٥ - الطباق بين ﴿يصدقني . . ويكذبون﴾ .

٦ - الكناية ﴿واضمم إليك جناحك﴾ كنى عن اليد بالجناح ، لأنها للإنسان كالجناح للطائر .

٧ - المجاز المرسل ﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ من إطلاق السبب وإرادة المسبب لأن شد العضد يستلزم شد اليد ، وشد اليد مستلزم للقوة ، قال الشهاب ؛ ويمكن أن يكون من باب الاستعارة التمثيلية ، شبه حال موسى في تقويته بأخيه بحال اليد في تقويتها بيد شديدة .

لطيفة : قال الزمخشري : إنما قال ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين﴾ أي أوقد لي النار فأخذ منه آجرًا ولم يقل «أطبخ لي الآجر» لأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلو طبقته ، وأشبه بكلام الجابرة ، وهامان وزيره ومدبر رعيته .

قال الله تعالى : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى . . إلى . . وله الحكم

من آية (٤٣) إلى نهاية آية (٧٠) .

وإليه ترجعون﴾

المناسكبة : بعد أن ذكر تعالى نعمته على بني إسرائيل بإهلاك فرعون رأس الطغيان وتخليصهم من شره ، ذكر هنا ما أنعم به عليهم من إنزال التوراة التي فيها الهدى والنور ، كما ذكر نعمته على العرب بإنزال القرآن العظيم خاتمة الكتب السماوية .

اللفتر : ﴿ثاويًا﴾ مقيماً وثوى بالمكان أقام به قال الشاعر :

« لقد كان في حول ثواء ثويته »^(١)

﴿يدرءون﴾ يدفعون ، والدرءُ : الدفع وفي الحديث (إدرءوا الحدود بالشبهات) ﴿يجبى﴾ يجمع ، جبي الماء في الحوض جمعه ، والجابية : الحوض العظيم ﴿بطرت﴾ البطر : الطغيان في النعمة ﴿الأنباء﴾ الأخبار جمع نبا وهو الخبر الهام .

سبب النزول : لما حضرت أبا طالب الوفاة قال له رسول الله ﷺ : يا عم قل « لا إله إلا الله » أشهد لك بها يوم القيامة فقال أبو طالب : لولا أن تعيرني قريش يقولون : إنما حملة على ذلك الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٢) .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنَّا

النفيسير : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾ اللام موثقة للقسم أي والله لقد أعطينا موسى التوراة من بعد ما أهلكنا الأمم التي كانت قبله كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم من المكذبين لرسولهم ﴿بصائر للناس﴾ أي ضياءً لبني إسرائيل ونوراً لقلوبهم يتبصرون بها الحقائق ، ويميزون بها بين الحق والباطل ﴿وهدى ورحمةً لعلهم يتذكرون﴾ أي وهدى من الضلالة ، ورحمة لمن آمن بها ليتعظوا بما فيها من المواعظ والإرشادات الإلهية ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ أي وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي ، وهو المكان الذي كلم الله تعالى به موسى ﴿إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ أي حين أوحينا إلى موسى بالنبوة وأرسلناه إلى فرعون وقومه ﴿وما كنت من الشاهدين﴾ أي وما كنت من الحاضرين في ذلك المكان ، ولكن الله أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهاناً على صدقك قال ابن كثير : يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم ، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك ، والمعنى ما كنت حاضراً لذلك ولكن الله أوحاه إليك لتخبرهم بتلك المغيبات^(٣) ﴿ولكننا أنشأنا قروناً فتناول عليهم العمر﴾ أي ولكننا خلقنا أمماً وأجيالاً

(١) البحر المحيط ١٠٣/٧ . (٢) أخرجه مسلم وانظر زاد المسير ٦/٢٣١ . (٣) ابن كثير ١٥/٣ المختصر .

أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾
 وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ
 يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ
 ءَايَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَّلَ

من بعد موسى ، فتطاول عليهم الزمان ، وطالت الفترة فنسوا ذكر الله ، وبدلوا وحرفوا الشرائع فأرسلناك يا محمد لتجدد أمر الدين قال أبو السعود : والمعنى ولكننا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونًا كثيرة ، فتأدى عليهم الأمر ، فتغيرت الشرائع والأحكام ، وعميت عليهم الأنباء فأوحينا إليك ، فحذف المستدرک اكتفاءً بذكر الموجب^(١) ﴿وما كنت ثاويًا في أهل مدين يتلوا عليهم آياتنا﴾ أي وما كنت يا محمد مقيمًا في أهل مدين فتعلم خبر موسى وشعيب وابنتيه فتتلو ذلك على أهل مكة ﴿ولكننا كنا مرسلين﴾ أي ولكننا أرسلناك في أهل مكة وأخبرناك بتلك الأخبار ، ولولا ذلك لما علمتها ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ أي وما كنت أيضاً بجانب جبل الطور وقت ندائنا لموسى وتكليمنا إياه ﴿ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك﴾ أي لم تشهد شيئاً من أخبار وقصص الأنبياء ، ولكننا أوحيناها إليك ، وقصصناها عليك ، رحمة من ربك لتخوف قوماً ما جاءهم رسول قبلك يا محمد ﴿لعلهم يتذكرون﴾ أي لعلهم يتعظون بما جتتهم به من الآيات البينات ، فيدخلوا في دينك قال المفسرون : المراد بالقوم الذين كانوا في زمن الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما وهي نحو من ستمائة سنة ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ أي ولولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ﴿فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين﴾ أي فيقولوا عند ذلك ربنا هلاً أرسلت إلينا رسولا يبلغنا آياتك فتتبعها ونكون من المصدقين بها !! قال القرطبي : وجواب ﴿لولا﴾ محذوف تقديره لما بعثنا الرسل^(٢) ، وقال في التسهيل : ﴿لولا﴾ الأولى حرف امتناع ، و﴿لولا﴾ الثانية عرض وتخصيص ، والمعنى : لولا أن تصيبهم مصيبة بكفرهم لم نرسل الرسل ، وإنما أرسلناهم على وجه الإعذار وإقامة الحجة عليهم لثلا يقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين^(٣) ، ثم أخبر تعالى عن عناد المشركين وتعتنهم في رد الحق فقال ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ أي فلما جاء أهل مكة الحق المبين وهو محمد بالقرآن المعجز من عندنا قالوا - على وجه التعتن والعناد - هلاً أعطي محمد من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة مثل ما أعطي موسى من العصا واليد !! قال تعالى رداً عليهم ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل؟﴾ أي أولم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات الباهرة ؟ ! قال مجاهد : أمرت اليهود قريشاً أن يقولوا لمحمد : اثتنا بمثل ما جاء به موسى من المعجزات ، فرد الله عليهم

يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ نَّكِرٍ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

بأنهم كفروا بآيات موسى^(١) ، فالضمير في ﴿أو لم يكفروا﴾ لليهود ، وهذا اختيار ابن جرير وقال أبو حيان : ويظهر عندي أن الضمير عائد على قريش الذين قالوا لولا أوتي محمد مثل ما أوتي موسى ، وذلك أن تكذيبهم لمحمد ﷺ تكذيب لموسى ، ونسبتهم السحر للرسول نسبة السحر لموسى ، إذ الأنبياء من وادٍ واحدٍ فمن نسب إلى أحدٍ من الأنبياء ما لا يليق كان ناسباً ذلك إلى جميع الأنبياء ، وتتناسق حينئذ الضمائر كلها^(٢) ﴿قالوا سحران تظاهرا﴾ أي وقال المشركون ما التوراة والقرآن إلا من قبيل السحر ، فهما سحران تعاونتا بتصديق كل واحدٍ منهما الآخر قال السدي : صدق كل واحدٍ منهما الآخر ﴿وقالوا إننا بكل كافرين﴾ أي إننا بكل من الكتابين كافرين قال أبو السعود : وهذا تصريح بكفرهم بهما وذلك لغاية عتوهم وتماديهم في الكفر والطغيان^(٣) ﴿قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه﴾ أمر على وجه التعجيز أي قل لهم يا محمد إنكم إذ كفرتم بهذين الكتابين مع ما تضمنتا من الشرائع والأحكام ومكارم الأخلاق فائتوني بكتاب منزل من عند الله أهدى منهما وأصلح أتمسك به ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي في أنها سحران قال ابن كثير : وقد علم بالضرورة لذوي الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم من الكتاب الذي أنزله على محمد ﷺ وهو القرآن ، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى ، وهو الكتاب الذي قال فيه ﴿إننا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ والإنجيل إنما أنزل متمماً للتوراة ومخلاً لبعض ما حُرِّم على بني إسرائيل^(٤) ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾ أي فإن لم يجيبوك إلى ما طلبته منهم فاعلم أن كفرهم عنادٌ واتباع للأهواء لا بحجة وبرهان ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾ أي لا أحد أضل ممن اتبع هواه بغير رشادٍ ولا بيانٍ من الله ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يوفق للحق من كان معانداً ظالماً ، بالانهاك في اتباع الهوى ، والإعراض عن سبيل الهدى ﴿ولقد وصلناهم القول لعلهم يتذكرون﴾ أي ولقد تابعنا ووالينا لقريش القرآن يتبع بعضه بعضاً ، وعداً ووعيداً ، وقصصاً وعبراً ، ونصائح ومواعظ ليتعظوا ويتذكروا بما فيه قال ابن الجوزي : المعنى أنزلنا القرآن يتبع بعضه بعضاً ، ويجبر عن الأمم الخالية كيف عذبوا لعلهم يتعظون^(٥) ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ أي الذين أعطيناهم التوراة والإنجيل من قبل هذا القرآن - من مسلمي أهل الكتاب - هم بهذا القرآن يصدقون قال ابن عباس : يعني من آمن بمحمد ﷺ

(١) مختصر ابن كثير ١٧/٣ . (٢) البحر ١٢٣/٧ . (٣) تفسير أبو السعود ١٥٦/٤ . (٤) مختصر ابن كثير ١٧/٣ . (٥) زاد المسير

وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ ؕ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّنَا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْلَيْكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ
مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ
وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمُ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٨﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ
يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٩﴾

من أهل الكتاب^(١) ﴿٥٦﴾ وإذا يُتلى عليهم قالوا أمنا به إنه الحق من ربنا ﴿٥٧﴾ أي وإذا قرئ عليهم القرآن قالوا صدقنا بما فيه ﴿٥٨﴾ إنا كنا من قبله مسلمين ﴿٥٩﴾ أي كنا من قبل نزوله موحدين لله ، مستسلمين لأمره ، مؤمنين بأنه سيعت محمد وينزل عليه القرآن قال تعالى ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الجميلة يعطون ثوابهم مضاعفاً ، مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن وفي الحديث (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبية ثم آمن بي . . .) (٢) الحديث ﴿بما صبروا﴾ أي بسبب صبرهم على اتباع الحق ، وتحملهم الأذى في سبيل الله قال قتادة : نزلت في أناس من أهل الكتاب ، كانوا على شريعة من الحق يأخذون بها ويبتغون إليها ، حتى بعث الله محمداً ﷺ فأمنوا به وصدقوه ، فأعطاهم الله أجرهم مرتين بما صبروا ، وذكر أن منهم سلمان وعبد الله بن سلام (٣) ﴿ويدرءون بالحسنة السيئة﴾ أي ويدفعون الكلام القبيح كالسب والشتم بالحسنة أي الكلمة الطيبة الجميلة قال ابن كثير : لا يقابلون السيء بمثله ولكن يعفون ويصفحون (٤) ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي ومن الذي رزقناهم من الحلال ينفقون في سبيل الخير ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾ أي وإذا سمعوا الشتم والأذى من الكفار وسمعوا ساقط الكلام ، لم يلتفتوا إليه ولم يردوا على أصحابه ﴿وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ أي لنا طريقنا ولكم طريقكم ﴿سلام عليكم﴾ أي سلام متاركة ومباعدة قال الزجاج : لم يريدوا التحية وإنما أرادوا بيننا وبينكم المتاركة ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ أي لا نطلب صحبتهم ولا نريد مخالطتهم قال الصاوي : كان المشركون يسبون مؤمني أهل الكتاب ويقولون : تبا لكم أعرضتم عن دينكم وتركتموه ! فيعرضون عنهم ويقولون لنا أعمالنا ولكم أعمالكم (٥) . مدحهم تعالى بالإيمان ، ثم مدحهم بالإحسان ، ثم مدحهم بالعفو والصفح عن أهل العدوان ، ثم قال تعالى مخاطباً رسوله ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ أي إنك يا محمد لا تقدر على هداية أحد ، مهما بذلت فيه من مجهود ، وجاوزت في السعي كل حدٍّ معهود ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ أي ولكنه تعالى بقدرته يهدي من قدر له الهداية ، فسلم أمرك إليه فإنه أعلم بأهل السعادة والشقاوة ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ أي هو تعالى العالم بمن فيه استعداد للهداية والإيمان فيهديه قال المفسرون : نزلت في عمه «أبي طالب» حين عرض عليه الإسلام عند موته فأبى قال أبو حيان : ومعنى ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ أي لا تقدر على خلق الهداية فيه ، ثم قال : ولا تنافي بين هذا وبين

(١) الطبري ٥٦/٢٠ . (٢) أخرجه مسلم . (٣) الطبري ٥٦/٢٠ . (٤) مختصر ابن كثير ١٨/٣ . (٥) حاشية الصاوي على الجلالين

وَقَالُوا إِن نَّبَعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِطْفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبِّئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

قوله ﴿وإنك لتهدى إلى صراطٍ مستقيم﴾ لأن معنى هذا : وإنك لترشد ، وقد أجمع المسلمون على أنها نزلت في «أبي طالب»^(١) ثم ذكر تعالى شبهةً من شبهات المشركين ورداً عليها بالبيان الواضح فقال ﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ أي وقال كفار قريش : إن اتبعناك يا محمد على دينك وتركنا ديننا نخاف أن تتخطفنا العرب فيجتمعون على محاربتنا ، ويخرجوننا من أرضنا ، قال المبرد : والتخطف الانزاع بسرعة ، قال تعالى رداً عليهم ﴿أولم نمكن لهم حرماً آمناً﴾ أي أولم نعصم دماءهم ونجعل مكانهم حرماً ذا أمن ، بحرمة البيت العتيق ؟ فكيف يكون الحرم آمناً لهم في حال كفرهم ، ولا يكون آمناً لهم في حال إسلامهم ؟ ﴿يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا﴾ أي تجلب إليه الأرزاق من كل مكان مع أنه بوادٍ غير ذي زرع رزقاً لهم من عندنا ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي ولكن أكثرهم جهلة لا يتفكرون في ذلك ولا يتفطنون قال أبو حيان : قطع الله حجبتهم بهذا البيان الناصح إذ كانوا وهم كفاراً بالله ، عباد أصنام قد آمنوا في حرمهم ، والناس في غيره يتقاتلون وهم مقيمون في بلدٍ غير ذي زرع ، يجيء إليهم ما يحتاجون من الأقوات ، فكيف إذا آمنوا واهتدوا؟^(٢) ﴿وكم أهلكتنا من قرية بطرت معيشتها﴾ أي وكثير من أهل قرية طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فدمر الله عليهم وخرب ديارهم ﴿فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً﴾ أي فتلك مساكنهم خاوية بما ظلموا لم تسكن من بعد تدميرهم إلا زماناً قليلاً إذ لا يسكنها إلا المارة والمسافرون يوماً أو بعض يومٍ ﴿وكنا نحن الوارثين﴾ أي وكنا نحن الوارثين لأملاكهم وديارهم قال في البحر : والآية تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم ، من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن ، وخفض العيش ، فكفروا النعمة وقابلوها بالاشرب والبطر فدمرهم الله وخرب ديارهم^(٣) ﴿وما كان ربك مهلك القرى﴾ أي ما جرت عادة الله جل شأنه أن يهلك أهل القرى الكافرة ﴿حتى يبعث في أممها رسولاً يتلوا عليهم آياتنا﴾ أي حتى يبعث في أصلها وعاصمتها رسولاً يبلغهم رسالة الله لقطع الحجج والمعاذير ﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ أي وما كنا لنهلك القرى إلا وقد استحق أهلها الإهلاك ، لإصرارهم على الكفر بعد الإغذار إليهم ببعثة المرسلين قال القرطبي : أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الإهلاك بظلمهم ، وفي هذا بيان لعدله وتقديسه عن الظلم ، ولا يهلكهم - مع كونهم ظالمين - إلا بعد تأكيد الحججة والإلزام ببعثة الرسل ، ولا

(١) البحر المحيط ١٢٦/٧ وانظر سبب النزول الذي ذكرناه سابقاً . (٢) البحر المحيط ١٢٦/٧ . (٣) نفس المرجع السابق والصفحة .

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُم فلم يستجيبوا يجعل علمه تعالى بأحوالهم حجة عليهم ^(١) ﴿وما أُوتِيتُمْ من شيءٍ فمتَّعُ الحياة الدنيا وزينتها﴾ أي وما أعطيتُم أيها الناس من مالٍ وخيرٍ فهو متاعٌ قليل تتمتعون به في حياتكم ثم ينقضني ويفنى قال ابن كثير : يخبر تعالى عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة ، والزهرة الفانية ، بالنسبة إلى ما أعدده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة ، من النعيم العظيم المقيم ^(٢) ﴿وما عند الله خيرٌ وأبقى﴾ أي وما عنده من الأجر والثواب ، والنعيم الدائم الباقي خير وأفضل من هذا النعيم الزائل ﴿أفلا تعقلون﴾ ؟ توبيخٌ لهم أي أفلا تعقلون أن الباقي أفضل من الفاني ؟ قال الإمام الفخر : بيّن تعالى أن منافع الدنيا مشوبة بالمضار ، بل المضار فيها أكثر ، ومنافع الآخرة غير منقطعة ، بينما منافع الدنيا منقطعة ، ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدماً ، فكيف ونصيب كل أحدٍ من الدنيا كالذرة بالقياس إلى البحر ، فمن لم يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا يكون كأنه خارجٌ عن حدِّ العقل ^(٣) ﴿أفمن وعدناه وعدًّا حسناً فهو لاقية﴾ أي أفمن وعدناه وعدًّا قاطعاً بالجنة وما فيها من النعيم المقيم الخالد ، فهو لا محالة مدركه لأن وعد الله لا يتخلف ﴿كمن متعناه متاع الحياة الدنيا﴾ ؟ أي كمن متعناه بمتاع زائل ، مشوب بالأكدار ، مملوء بالملاعب ، مستتبع للحسرة على انقطاعه ؟ ﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ أي ثم هو في الآخرة من المحضرين للعباب ، فهل يساوي العاقل بينهما ؟ قال ابن جزى : والآية ايضاحٌ لما قبلها من البون الشاسع بين الدنيا والآخرة ، والمراد بمن وعدناه المؤمنين ، وبمن متعناه الكافرين ^(٤) ﴿ويوم يناديهم فيقول أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي واذكر حال المشركين يوم يناديهم الله فيقول لهم على سبيل التوبيخ والتفريع : أَيْنَ هؤُلاءِ الشركاء والآلهة من الأصنام والأنداد الذين عبدتموهم من دوني ، وزعتمتم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم ؟ ﴿قال الذين حقَّ عليهم القول﴾ أي قال رؤساؤهم وكبرائؤهم الذين وجب عليهم العذاب لضلالهم وطغيانهم ﴿ربنا هؤلاء الذين أغوينا﴾ أي هؤلاء أتباعنا الذين أضللناهم عن سبيلك ﴿أغويناهم كما غوينا﴾ أي أضللناهم كما ضللنا ، لا بالقسر والإكراه ولكن بطريق الوسوسة وتزيين القبيح فضلوا كما ضللنا نحن ﴿تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾ أي تبرأنا إليك يا الله من عبادتهم إيانا ، فما كانوا يعبدوننا وإنما كانوا يعبدون أهواءهم وشهواتهم ﴿وقيل ادعوا شركاءكم﴾ أي وقيل للكفار استغيثوا بالتهكم التي عبدتموها في الدنيا لتنصركم وتدفع عنكم عذاب الله ، وهذا على سبيل التهكم بهم ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ أي فاستغاثوا بهم فلم يجيبوهم ولم ينتفعوا بهم ، وهذا من

لَهُمْ وَرَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ ينادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

سخافة عقولهم ﴿ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون﴾ أي وتمنوا حين شاهدوا العذاب لو كانوا مهتدين قال الطبري : أي فودوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين للحق^(١) ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتهم المرسلين﴾ توبيخ آخر للمشركين أي ويوم يناديهم الله ويسألهم : ماذا أجبتهم رسلي ؟ هل صدقتموهم أم كذبتموهم ؟ ﴿فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ أي فخفيت عليهم الحجج ، وأظلمت عليهم الأمور ، فلم يعرفوا ما يقولون ، فهم حيارى واجمون ، لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة والحيرة ﴿فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفlichen﴾ أي فأما من تاب من الشرك ، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح فعسى أن يكون من الفائزين بجنت النعيم قال الصاوي : والترجي في القرآن بمنزلة التحقق ، لأنه وعد كريم من رب رحيم ، ومن شأنه تعالى أنه لا يخلف وعده^(٢) ﴿وربُّك يخلق ما يشاء ويختار﴾ أي هو تعالى الخالق المتصرف ، يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد ، فلا اعتراض لأحد على حكمه قال مقاتل : نزلت في «الوليد بن المغيرة» حين قال ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم﴾ ﴿ما كان لهم الخيرة﴾ أي ما كان لأحدٍ من العباد اختيار ، إنما الاختيار والإرادة لله وحده ﴿سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ أي تنزه الله العظيم الجليل وتقديسه أن ينازعه أحدٌ في ملكه ، أو يشاركه في اختياره وحكمته قال القرطبي : المعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه ، ويختار من يشاء لنبوته ، والخيرة له تعالى في أفعاله ، وهو أعلم بوجوه الحكمة ، فليس لأحدٍ من خلقه أن يختار عليه^(٣) ﴿وربُّك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾ أي هو تعالى العالم بما تخفيه قلوبهم من الكفر والعداوة للرسول والمؤمنين ، وما يظهره على ألسنتهم من الطعن في شخص رسوله الكريم حيث يقولون : ما أنزل الله الوحي إلا على يتيم أبي طالب ! ﴿وهو الله لا إله إلا هو﴾ أي هو جل وعلا الله المستحق للعبادة ، لا أحد يستحقها إلا هو ﴿له الحمد في الأولى والآخرة﴾ أي له الثناء الكامل في الدنيا والآخرة ، لأنه تعالى المتفضل على العباد بالنعم كلها في الدارين ﴿وله الحكم﴾ أي وله القضاء النافذ والفصل بين العباد ﴿وإليه ترجعون﴾ أي إليه وحده مرجع الخلائق يوم القيامة ، فيجازي كل عاملٍ بعمله .

(١) الطبري ٦٣/٢٠ وهذا على أن ﴿لو﴾ للتمني ، وهو الذي أثبتناه وهو اختيار الطبري ، وقال الزجاج : جواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره : لو كانوا يهتدون لما تبعوهم ولما رأوا العذاب . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٢٢٣ . (٣) القرطبي ١٣/٣٠٥ بشيء من الاختصار .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - التشبيه البليغ ﴿بصائر للناس﴾ أي أعطيناها التوراة كأنها أنوار لقلوب الناس ، حذف أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً قال في حاشية البيضاوي : أي مشبهاً بأنوار القلوب من حيث إن القلوب لو كانت خالية عن أنوار التوراة وعلومها لكانت عمياء لا تستبصر ، ولا تعرف حقاً من باطل^(١) .
- ٢ - المجاز العقلي ﴿أنشأنا قروناً﴾ المراد به الأمم لأنهم يخلقون في تلك الأزمنة فنسب إلى القرون بطريق المجاز العقلي .
- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿تصيبهم مصيبة﴾ .
- ٤ - المجاز المرسل ﴿بما قدمت أيديهم﴾ والمراد بما كسبوا وهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل قال الزمخشري : ولما كانت أكثر الأعمال تزاوُل بالأيدي جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدي^(٢) .
- ٥ - حذف الجواب لدلالة السياق ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة﴾ حذف منه الجواب وتقديره : ما أرسلناك يا محمد رسولاً إليهم وهو من باب الإيجاز بالحذف .
- ٦ - التحضيض ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ أي هلاً أوتي فهي للتحضيض وليست حرف امتناع لوجود .
- ٧ - التعجيز ﴿قل فائتوا بكتاب﴾ فالأمر خرج عن حقيقته إلى معنى التعجيز .
- ٨ - طباق السلب ﴿إنك لا تهدي . . ولكن الله يهدي﴾ .
- ٩ - المجاز العقلي ﴿حرماً آمناً﴾ نسب الأمن إلى الحرم وهو لأهله .
- ١٠ - أسلوب السخرية والتهكم ﴿أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ ؟ .
- ١١ - التشبيه المرسل ﴿أغويناهم كما غوينا﴾ .
- ١٢ - الاستعارة التصريحية التبعية ﴿فعميت عليهم الأنبياء﴾ قال الشهاب : استعير العمى لعدم الاهتداء ، فهم لا يهتدون للأنبياء ، ثم قلب للمبالغة فجعل الأنبياء لا تهتدي إليهم وأصله «فعموا عر الأنبياء» وضُمّن معنى الخفاء فعدي بـ ﴿على﴾ فيه أنواعٌ من البلاغة : الاستعارة ، والقلب ، والتضمين^(٣) .
- ١٣ - الطباق بين ﴿تكنُ . . ويعلنون﴾ وبين ﴿الأولى . . والآخرة﴾ وهو من المحسنات البديعية .

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٥١٥ . (٢) الكشاف ٣/ ٣٢٠ . (٣) نقلاً عن محاسن التأويل للقاسمي .

تَنْبِيْهِهٖ : ما ذكر أن «أبا طالب» مات على غير الإيمان هو الصحيح الذي دلّ عليه الكتاب والسنة ، ونقل عن بعض شيوخ الصوفية أنه أسلم قبل موته ، وهو معارضٌ للنصوص الكريمة ولعلمهم أخذوه من بعض أشعار أبي طالب حيث يقول :

ولقد علمتُ بأنَّ دين محمدٍ
والله لن يصلوا إليك بجمعهم
من خير أديان البرية ديناً
حتى أُوسِّد في التراب دفيناً

أقول : ماذا يعني هذا الكلام بعد امتناعه عن الدخول في الإسلام والنطق بالشهادة ؟

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ سَرْمَدًا . . . إِلَى . . . لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

من آية (٧١) إلى آية (٨٨) نهاية السورة .

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى أنه هو الخالق المختار ، وسفّه المشركين في عبادتهم لغير الله ، عقبه بذكر بعض الأدلة والبراهين الدالة على عظمته وسلطانه ، تذكيراً للعباد بوجوب شكر المنعم ، ثم ذكر قصة «قارون» وهي قصة الطغيان بالمال ، وما كان من نهايته المشئومة حيث خسف الله به وبكنوزه الأرض ، وهذه هي نتيجة الاستعلاء والغرور والطغيان .

اللَّفْكَرُ : ﴿سَرْمَدًا﴾ السرمد : الدائم الذي لا ينقطع ومنه قول طرفه :

لعمرك ما أمري عليٌّ بغمةٍ
نهارى ولا ليلى عليٌّ بسرمد^(١)

﴿مفاتيحه﴾ جمع مفتاح بالكسر وهو ما يفتح به ، وأما المفتاح فجمعه مفاتيح . ﴿تنوء﴾ ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله قال ذو الرمة :

تنوء بأخراها فلاياً قيامها
وتمشي الهوينى عن قريبٍ فتبهر^(٢)

﴿العصبة﴾ الجماعة الكثيرة ومثلها العصابة ومنه قوله تعالى ﴿ونحن عصبة﴾ سميت الجماعة عصابة لأن بعضهم يتعصب لبعض ويتقوى به ﴿ويكأن﴾ قال الجوهري : «وي» كلمة تعجب وقد تدخل على «كأن» فتقول : ويكأن ، وقيل إنها كلمة تستعمل عند التنبه للخطأ وإظهار الندم قال الخليل ، إن القوم تنبهوا وقالوا نادمين على ما سلف منهم وي^(٣) ﴿ظهيراً﴾ معيناً ومساعداً .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ آلِيلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾

النَّفْسِيرُ : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ آلِيلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين من كفار مكة : أخبروني لو جعل الله عليكم الليل دائماً مستمراً بلا انقطاع إلى يوم القيامة ﴿من إله غير الله يأتيكم بضياء﴾ ؟ أي من هو الإله الذي يقدر على أن يأتيكم بالنور الذي تستضيئون به في حياتكم غير الله تعالى ؟ ﴿أفلا تسمعون﴾ أي أفلا تسمعون سماع فهمٍ وقبول فتستدلوا

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٦﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٨﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴿٧٩﴾ * إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٨٠﴾

بذلك على وحدانية الله تعالى ؟ ﴿قل أرايتم إن جعل الله عليكم النهار سمرداً إلى يوم القيامة﴾ أي أخبروني لو جعل الله عليكم النهار دائماً مستمراً بلا انقطاع ﴿من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه﴾ أي من هو الإله القادر على أن يأتيكم بليل تستريحون فيه من الحركة والنصب غير الله تعالى ؟ ﴿أفلا تبصرون﴾ أي أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلال ؟ ثم نبه تعالى إلى كمال رحمته بالعباد فقال ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار﴾ أي ومن آثار قدرته ، ومظاهر رحمته أن خلق لكم الليل والنهار يتعاقبان بدقة وإحكام ﴿لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ أي لتستريحوا بالليل من نصب الحياة وهمومها وأكدارها ، ولتلتمسوا من رزقه بالمعاش والكسب في النهار ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولتشكروا ربكم على نعمه الجليلة التي لا تحصى ، ومنها نعمة الليل والنهار قال الإمام الفخر : نبه تعالى بهذه الآية على أن الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان ، لأن المرء في الدنيا مضطر إلى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه ، ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار ، ولولا الراحة والسكون بالليل ، فلا بدّ منهما في الدنيا ، وأما في الجنة فلا نصب ولا تعب فلا حاجة بهم إلى الليل ، فلذلك يدوم لهم الضياء واللذات ^(١) ﴿ويوم يناديهم أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ قال ابن كثير : هذا نداء ثانٍ على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلهاً آخر ، يناديهم الرب على رءوس الأشهاد : أين شركائي الذين زعمتموهم في الدنيا ^(٢) ؟ ﴿ونزعنا من كل أمة شهيداً﴾ أي أخرجنا من كل أمة شهيداً منهم يشهد عليهم بأعمالهم وهو نبيهم ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾ أي هاتوا حججتكم على ما كنتم عليه من الكفر ، وهذا إعداء لهم وتوبيخ وتعجيز ﴿فعلموا أن الحق لله﴾ أي فعلموا حينئذ أن الحق لله ولرسله ، وأنه لا إله إلا هو ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ما كانوا يتخرونه في الدنيا من الشركاء والأنداد ، ثم ذكر تعالى قصة « قارون » ونتيجة الغرور والطغيان فقال ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ أي من عشيرته وجماعته قال ابن عباس : كان ابن عم موسى ﴿فبغى عليهم﴾ أي تجبر وتكبر على قومه ، واستعلى عليهم بسبب ما منحه الله من الكنوز والأموال قال الطبري : أي تجاوز حدّه في الكبر والتجبر عليهم ^(٣) ﴿وآتينا من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة﴾ أي أعطينا من الأموال الوفيرة ، والكنوز الكثيرة ما يثقل على الجماعة أصحاب القوة حمل مفاتيح

وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ
 الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۗ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ
 أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ ۗ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ
 قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۗ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾

خزائنه لكثرتها وثقلها فضلاً عن حمل الخزائن والأموال والآية تصويراً لما كان عليه قارون من كثرة المال والغنى والثراء ﴿إذ قال له قومه لا تفرح﴾ أي لا تأثر ولا تبطر ﴿إن الله لا يحب الفرحين﴾ أي لا يحب البطرين الذين لا يشكرون الله على إنعامه ، ويتكبرون بأموالهم على عباد الله ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ أي اطلب فيما أعطاك الله من الأموال رضى الله ، وذلك بفعل الحسنات والصدقات والإنفاق من الطاعات ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ قال الحسن : أي لا تضع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه^(١) ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ أي أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ أي لا تطلب بهذا المال البغي والتطاول على الناس ، والإفساد في الأرض بالمعاصي ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ أي لا يحب من كان مجرمًا باغياً مفسداً في الأرض ﴿قال إنما أُوتيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ لما وعظه قومه أجابهم بهذا على وجه الرد عليهم والتكبر عن قبول الموعظة والمعنى : إنما أُعطيْتُ هذا المال على علمٍ عندي بوجوه المكاسب ، ولولا رضى الله عني ومعرفته بفضلي واستحقاقي له ما أعطاني هذا المال ! قال تعالى رداً عليه ﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوةً وأكثر جمعاً﴾ أي أولم يعلم هذا الأحمق المغرور أن الله قد أهلك من قبله من الأمم الخالية من هو أقوى منه بدنًا وأكثر مالا ؟ ! قال البيضاوي : والآية تعجب وتوبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله ، مع علمه بذلك لأنه قرأه في التوراة ، وسمعه من حفاظ التواريخ^(٢) ﴿ولا يُسأل عن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا حاجة أن يسألهم الله عن كيفية ذنوبهم وكميتها لأنه عالمٌ بكل شيء ، ولا يتوقف إهلاكه إياهم على سؤالهم بل متى حق عليهم العذاب أهلكهم بغته ، ثم أشار تعالى إلى أن قارون لم يعتبر بنصيحة قومه ، بل تمادى في غطرسته وغيه فقال تعالى ﴿فخرج على قومه في زينته﴾ أي فخرج قارون على قومه في أظهر زينةٍ وأكملها قال المفسرون : خرج ذات يوم في زينةٍ عظيمةٍ بأتباعه الكثيرين ، ركبناً متحلين بملابس الذهب والحرير ، على خيولٍ موشحةٍ بالذهب ، ومعه الجوارى والغلمان في موكبٍ حافلٍ باهر ﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾ أي فلما رآه ضعفاء الإيمان ممن تخدعهم الدنيا بيريقها وزخرفها وزينتها قالوا : يا ليت لنا مثل هذا الثراء والغنى الذي أعطيه قارون ﴿إنه لذو حظٍ عظيمٍ﴾ أي ذو نصيب وافٍ من الدنيا

(١) وقيل معناه : لا تضع عمرك بترك الأعمال الصالحات وهو مروى عن ابن عباس ومجاهد ، وما قاله الحسن وقتادة أظهر وهو اختيار ابن

كثير . (٢) البيضاوي ٣/٩٥ .

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٦﴾ فَخَسَفْنَا بِهِه
 وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ
 تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَفِّرُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا
 لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَفِّرُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٨﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ

﴿وقال الذين أوتوا العلم﴾ أي وقال لهم العقلاء من أهل العلم والفهم والاستقامة ﴿ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾ أي ارتدعوا وانزجروا عن مثل هذا الكلام فإن جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين خير مما ترون وتمنون من حال قارون قال الزمخشري : أصل ﴿ويلك﴾ الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع ، والبعث على ترك ما لا يرتضى^(١) ﴿ولا يلقاها إلا الصابرون﴾ أي ولا يعطى هذه المرتبة والمنزلة في الآخرة إلا الصابرون على أمر الله قال تعالى تنبيهاً لنهايته المشثومة ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ أي جعلنا الأرض تغور به وبكنوزه ، جزاءً على عتوه وبطره ﴿فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله﴾ أي ما كان له أحد من الأنصار والأعوان يدفعون عنه عذاب الله ﴿وما كان من المنتصرين﴾ أي وما كان من المنتصرين بنفسه بل كان من الهالكين ﴿وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس﴾ أي وصار الذين تمنوا منزلته وغناه بالأمس القريب بعد أن شاهدوا ما نزل به من الخسف ﴿يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾ أي يقولون ندماً وأسفاً على ما صدر منهم من التمني : اعجبوا أيها القوم من صنع الله ، كيف أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده - بحسب مشيئته وحكمته - لا لكرامته عليه ، ويضيّق الرزق على من يشاء - لحكمته وقضائه ابتلاءً - لا لهوانه عليه !! قال الزمخشري : ﴿ويكأن﴾ كلمتان «وي» مفصولة عن «كأن» وهي كلمة تنبيه على الخطأ وتندم ، ومعناه أن القوم تبهوا على خطئهم في تمنيههم منزلة قارون وتندموا^(٢) وقالوا ﴿لولا أن من الله علينا﴾ أي لولا أن الله لطف بنا ، وتفضل علينا بالإيمان والرحمة ، ولم يعطنا ما تمنيناها ﴿لخسف بنا﴾ أي لكان مصيرنا مصير قارون ، وخسف بنا الأرض كما خسفها به ﴿ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ أي أعجب من فعل الله حيث لا ينجح ولا يفوز بالسعادة الكافرون لا في الدنيا ، ولا في الآخرة . . . وإلى هنا تنتهي «قصة قارون» وهي قصة الطغيان بالمال ، بعد أن ذكر تعالى قصة الطغيان بالجاه والسلطان في قصة فرعون وموسى ، ثم يأتي التعقيب المباشر في قوله تعالى ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فساداً﴾ الإشارة للتفخيم والتعظيم أي تلك الدار العالية الرفيعة التي سمعت خبرها ، وبلغك وصفها هي دار النعيم الخالد السرمدي ، التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، نجعلها للمتقين الذين لا يريدون التكبر

(١) الكشاف ٣/ ٣٤١ . (٢) الكشاف ٣/ ٢٤٢ وهذا الذي قاله الزمخشري هو مذهب الخليل وسيبويه واختاره الجمهور ، قال في الجلالين «وي» اسم فعل بمعنى عجب أنا ، والكاف بمعنى اللام والمعنى أعجب لأن الله يبسط ونقل الطبري عن قتادة أن معنى «ويكأن» ألم تر أن ، وأنها كلمة واحدة ، وهو اختيار الطبري ، والله أعلم .

وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٤﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ الَّذِي فَضَّضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٦﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٨﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٩﴾

والطغيان ، ولا الظلم والعدوان في هذه الحياة الدنيا ﴿والعاقبة للمتقين﴾ أي العاقبة المحمودة للذين يخشون الله ويراقبونه ، ويتبعون رضوانه ويحذرون عقابه ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ أي من جاء يوم القيامة بحسنة من الحسنات فإن الله يضاعفها له أضعافاً كثيرة ﴿ومن جاء بالسئنة فلا يجزي الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾ أي ومن جاء يوم القيامة بالسيئات فلا يجزي إلا بمثلها ، وهذا من فضل الله على عباده أنه يضاعف لهم الحسنات ولا يضاعف لهم السيئات ﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾ أي إن الذي أنزل عليك يا محمد القرآن وفرض عليك العمل به ﴿لرادك إلى معاد﴾ أي لرادك إلى مكة كما أخرجك منها ، وهذا وعد من الله بفتح مكة ورجوعه عليه السلام إليها بعد أن هاجر منها قال ابن عباس : معناه لرادك إلى مكة ، وقال الضحاك : لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله عليه هذه الآية (١) ﴿قل رببي أعلم من هو في ضلال مبين﴾ أي قل يا محمد هؤلاء المشركين : رببي أعلم بالمهتدي والضال هل أنا أو أنتم؟ فهو جلّ وعلا الذي يعلم المحسن من المسيء ، ويجازي كلاً بعمله ، وهو جواب لقول كفار مكة : إنك يا محمد في ضلال مبين ﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك﴾ أي وما كنت تطمع أن تنال النبوة ، ولا أن ينزل عليك الكتاب ولكن رحمك الله بذلك ورحم العباد ببعثتك قال الفراء : وهذا استثناء منقطع والمعنى إلا أن ربك رحمك فأنزله عليك ﴿فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾ أي لا تكن عوناً لهم على دينهم ، ومساعداً لهم على ضلالهم ، بالمداورة والمجاملة ولكن نابذهم وخالفهم قال المفسرون : دعا المشركون الرسول إلى دين آبائهم ، فأمر بالتحرز منهم وأن يصدع بالحق ، والخطاب بهذا وأمثاله له عليه السلام ، والمراد أمته لثلا يظاهروا الكفار ولا يوافقوهم ﴿ولا يصدتكم عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾ أي ولا تلتفت إلى هؤلاء المشركين ، ولا تركز إلى قولهم فيصدوك عن اتباع ما أنزل الله إليك من الآيات البينات ﴿وادع إلى ربك﴾ أي وادع الناس إلى توحيد ربك وعبادته ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ أي بمسايرتهم على أهوائهم ، فإن من رضي بطريقتهم كان منهم ﴿ولا تدع مع الله

إلهاً آخر ﴿ أي لا تعبد إلهاً سوى الله ﴾ ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي لا معبود بحقٍ إلا الله تعالى قال البيضاوي : وهذا وما قبله للتهييج وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم ^(١) ﴿ كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه ﴾ أي كل شيء يفنى وتبقى ذاته المقدسة ، أطلق الوجه وأراد ذات الله جلَّ وعلا قال ابن كثير : وهذا إخبار بأنه تعالى الدائم الباقي ، الحي القيوم ، الذي تموت الخلائق ولا يموت ، فعبر بالوجه عن الذات كقوله ﴿ كلُّ من عليها فان ﴾ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴿ له الحكم وإليه ترجعون ﴾ أي له القضاء النافذ في الخلق ، وإليه مرجعهم جميعاً يوم المعاد لا إلى أحدٍ سواه .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - التبكيت والتوبيخ ﴿ مَنْ إلهٌ غير الله يأتيكم بضياء ﴾ ؟ ومثله ﴿ يأتيكم بليل ﴾ ؟ .
- ٢ - اللَّف والنشر المرتب ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ﴾ جمع الليل والنهار ثم قال ﴿ لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ فأعاد السكن إلى الليل ، والابتغاء لطلب الرزق إلى النهار ، ويسمى هذا عند علماء البديع اللف والنشر المرتب ، لأن الأول عاد على الأول ، والثاني عاد على الثاني وهو من المحسنات البديعية .
- ٣ جناس الاشتقاق ﴿ لا تفرح .. الفرحين ﴾ ومثله ﴿ الفساد .. والمفسدين ﴾ .
- ٤ - تأكيد الجملة بـ ﴿ إن ﴾ و ﴿ اللام ﴾ ﴿ إنه لذو حظٍ عظيم ﴾ لأن السامع شك ومتردد .
- ٥ - الكناية ﴿ تمنوا مكانه بالأمس ﴾ كنى عن الزمن الماضي القريب بلفظ الأمس .
- ٦ - الطباق ﴿ يبسط الرزق .. ويقدر ﴾ .
- ٧ - المقابلة اللطيفة ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ ﴿ ومن جاء بالسيئة فلا يجزي .. ﴾ الآية .
- ٨ - المجاز المرسل ﴿ إلا وجهه ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي ذاته المقدسة ففيه مجاز مرسل .

لطيفة : قال بعض العلماء : من لم تشعبه القناعة لم يكفه ملك قارون وأنشدوا :

هي القناعة لا تبغي بها بدلاً فيها النعيم وفيها راحةً البدن
انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن ؟

« تم بعونه تعالى تفسير سورة القصص » .



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة العنكبوت مكية وموضوعها العقيدة في أصولها الكبرى «الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء» ومحور السورة الكريمة يدور حول الإيمان و«سنة الابتلاء» في هذه الحياة لأن المسلمين في مكة كانوا في أقسى أنواع المحنة والشدة ، ولهذا جاء الحديث عن موضوع الفتنة والابتلاء في هذه السورة مطولاً مفصلاً وبوجه خاص عند ذكر قصص الأنبياء .

* تبتدىء السورة الكريمة بهذا البدء الصريح ﴿السم﴾ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴿؟ وتمضي السورة تتحدث عن فريق من الناس يحسبون الإيمان كلمةً تقال باللسان ، فإذا نزلت بهم المحنة والشدة انتكسوا إلى جحيم الضلال ، وارتدوا عن الإسلام تخلصاً من عذاب الدنيا ، كأن عذاب الآخرة أهون من عذاب الدنيا ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله . . .﴾ الآيات .

* وتمضي السورة تتحدث عن «محنة الأنبياء» وما لاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله ، بدءاً بقصة نوح ، ثم إبراهيم ، ثم لوط ، ثم شعيب ، وتحدث عن بعض الأمم الطغاة المتجبرين كعاد ، وثمود ، وقارون ، وهامان وغيرهم وتذكر ما حلَّ بهم من الهلاك والدمار ﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ الآيات .

* وفي قصص الأنبياء دروسٌ من المحن والابتلاء ، تتمثل في ضخامة الجهد وضآلة الحصيلة ، فهذا نوح عليه السلام يمكث في قومه تسعائة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله فما يؤمن معه إلا قليل ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ وهذا أبو الأنبياء إبراهيم الخليل يحاول هداية قومه بكل وسيلة ، ويجادلهم بالحجة والبرهان فما تكون النتيجة إلا العلو والطغيان ﴿قالوا اقتلوه أو حرِّقوه فأنجاه الله من النار . . .﴾ الآيات .

* وفي قصة لوط يظهر التبجح بالرديلة دون خجل أو حياء ﴿ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ الآيات وبعد ذلك الاستعراض السريع لمحنة الأنبياء ، تمضي

السورة الكريمة تبين صدق رسالة محمد ﷺ فهو رجل أُمِّي لم يقرأ ولم يكتب ثم جاءهم بهذا الكتاب المعجز ، وهذا من أعظم البراهين على أنه كلام رب العالمين ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك إذا لارتاب المبتلون﴾ وتنتقل السورة للحديث عن الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية منبثقة من هذا الكون الفسيح ، ثم تختتم ببيان جزاء الذين صبروا أمام المحن والشدائد وجاهدوا بأنواع الجهاد النفسي والمالي ، ووقفوا في وجه المحنة والابتلاء ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين﴾ .

التسمية : سميت «سورة العنكبوت» لأن الله ضرب العنكبوت فيها مثلاً للأصنام المنحوتة ، والآلهة المزعومة ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً . .﴾ الآيات .

اللغز : ﴿فتنة﴾ الفتنة : الابتلاء والاختبار ﴿أنقاهم﴾ جمع ثقل وهو الحمل الثقيل الذي ينوء به الإنسان ، والمراد بالأنقال هنا الذنوب والأوزار ﴿لبث﴾ أقام ومكث ﴿إفكاً﴾ كذباً وزوراً ﴿تقلبون﴾ تُرجعون ويُردون .

سبب النزول : عن سعد بن أبي وقاص قال : « كنت رجلاً باراً بأمي فلما أسلمتُ ، قالت : ما هذا الدين الذي أحدثت يا سعد ؟ لتدعن دينك هذا أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي فيقال : يا قاتل أمه ، قلتُ : لا تفعلي يا أمه ، فإني لا أدع ديني هذا لشيء أبداً ، قال : فمكثت يوماً وليلة لا تأكل ، فأصبحت قد جُهدت ، ثم مكثت يوماً آخر وليلة لا تأكل ، فلما رأيت ذلك قلت : تعلمين والله يا أمه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء أبداً ، فإن شئت فكلي ، وإن شئت فدعي ، فلما رأت ذلك أكلت فأنزل الله هذه الآية ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما . .﴾ الآية (١) »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

التفسير : ﴿الْم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن (٢) ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ ؟ الهمزة للاستفهام الإنكاري أي أظن الناس أن يتركوا من غير افتتان لمجرد قولهم باللسان آمنا ؟ لا ليس كما ظنوا بل لا بد من امتحانهم لتمييز الصادق من المنافق قال ابن جزي : نزلت في قوم من المؤمنين كانوا بمكة مستضعفين ، منهم «عمار بن ياسر» وغيره ، وكان كفار قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، فضاقت صدورهم بذلك فأنسهم الله بهذه الآية ووعظهم وأخبرهم أن ذلك اختبار ، ليوطنوا أنفسهم على الصبر على الأذى ، والثبات على الإيمان ، وأعلمهم أن تلك سيرته في

(١) أسباب النزول للواحي ١٩٥ وفي بعض الروايات كان أولادها إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فإياها أي ادخلوا فيه عوداً ليفتحوه .

(٢) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤١﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤٢﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِبَادَةٌ يَسْلُطْ الْكُفَّارُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ لِيَمْحَقَهُمْ بِذَلِكَ ، وَيُظْهِرُ الصَّادِقَ فِي إِيمَانِهِ مِنَ الْكَاذِبِ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿٤٦﴾ أَيُّ وَلَقَدْ اخْتَبَرْنَا وَامْتَحَنَّا مِنْ سَبْقِهِمْ بِأَنْوَاعِ التَّكَالِيفِ وَالْمَصَائِبِ وَالْمَحَنِّ قَالَ الْبِيضَاوِيُّ : وَالْمَعْنَى أَنَّ ذَلِكَ سَنَةٌ قَدِيمَةٌ ، جَارِيَةٌ فِي الْأُمَّمِ كُلِّهَا ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَوَقَّعَ خِلَافَهُ ﴿٤٧﴾ ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ أَيُّ فَيُمَيِّزُنَا اللَّهُ بَيْنَ الصَّادِقِينَ فِي دَعْوَى الْإِيمَانِ ، وَبَيْنَ الْكَاذِبِينَ فِيهِ ، وَعَبَّرَ عَنِ الصَّادِقِينَ بِلَفْظِ الْفِعْلِ ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ وَعَنِ الْكَاذِبِينَ بِاسْمِ الْفَاعِلِ ﴿الْكَاذِبِينَ﴾ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الْكَاذِبِينَ وَصَفَهُمْ مُسْتَمِرٌّ وَأَنَّ الْكُذْبَ رَاسِخٌ فِيهِمْ بِخِلَافِ الصَّادِقِينَ فَإِنَّ الْفِعْلَ يَفِيدُ التَّجَدُّدَ ، قَالَ الْإِمَامُ الْفَخْرُ : إِنَّ اسْمَ الْفَاعِلِ يَدُلُّ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ عَلَى ثُبُوتِ الْمَصْدَرِ وَرَسُوخِهِ فِيهِ ، وَالْفِعْلُ الْمَاضِي لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ كَمَا يَقَالُ : فَلَانَ شَرِبَ الْخَمْرَ ، وَفَلَانَ شَارَبُ الْخَمْرِ ، فَإِنَّهُ لَا يَفْهَمُ مِنْ صِيغَةِ الْفِعْلِ الثُّبُوتَ وَالرَّسُوخَ ﴿٤٨﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ أَيُّ أَيُّظُنُّ الْمَجْرُمُونَ الَّذِينَ يَرْتَكِبُونَ الْمَعَاصِيَ وَالْمَوْبِقَاتِ أَنَّهُمْ يَفُوتُونَ مِنْ عِقَابِنَا وَيَعْجِزُونَ نَا ؟ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أَيُّ أَيُّ بَشَرٍ مَا يَظُنُّونَ قَالَ الصَّادِقُ : وَالآيَةُ انْتِقَالَ مِنْ تَوْبِيخٍ إِلَى تَوْبِيخٍ أَشَدَّ ، فَالْأَوَّلُ تَوْبِيخٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظَنِّهِمْ أَنَّهُمْ يَفُوتُونَ عَذَابَ اللَّهِ وَيَفِرُّونَ مِنْهُ مَعَ دَوَامِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ ﴿٤٩﴾ ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَتْرَكَ فِي الدُّنْيَا سُدًى ، بَيَّنَّ هُنَا أَنَّ مَنْ اعْتَرَفَ بِالْآخِرَةِ وَعَمِلَ لَهَا لَا يَضِيعُ عَمَلُهُ ، وَلَا يَنْجِيبُ أَمَلُهُ وَالْمَعْنَى مَنْ كَانَ يَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ فَلْيَصْبِرْ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْمَجَاهِدَةِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ فَيَجَازِيَهُ ، فَإِنَّ لِقَاءَ اللَّهِ قَرِيبٌ الْإِتْيَانِ ، وَكُلُّ مَا هُوَ أَتَى قَرِيبٌ ، وَالآيَةُ تَسْلِيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَوَعْدٌ لَهُمْ بِالْخَيْرِ فِي دَارِ النِّعَمِ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَيُّ هُوَ تَعَالَى السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ الْعِبَادِ ، الْعَلِيمُ بِأَحْوَالِهِمُ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ أَيُّ وَمَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى الطَّاعَاتِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الشَّهَوَاتِ ، فَمَنْفَعَةٌ جِهَادُهُ إِغْمَا هِيَ لِنَفْسِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ مُسْتَغْنٍ عَنِ الْعِبَادِ ، لَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ الطَّائِعِينَ ، وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ الْعَاصِينَ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَيُّ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أَيُّ لَنُمَحِّوْنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمُ الَّتِي سَلَفَتْ مِنْهُمْ بِسَبَبِ إِيمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ وَنَجْزِيَهُمْ بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ وَهِيَ الطَّاعَاتُ ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أَيُّ أَمْرُنَاهُ أَمْرًا مَوْكَدًّا بِالْإِحْسَانِ إِلَى وَالِدَيْهِ غَايَةَ الْإِحْسَانِ ، لِأَنَّهَا سَبَبُ وَجُودِهِ وَلَهَا عَلَيْهِ غَايَةُ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ ، الْوَالِدِ

عَلِمَ فَلَا تُطْعِمَاهُمَا إِلَىٰ مَرَجِعِكُمْ فَأَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ
فِي الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ
جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ

بالإنفاق والوالدة بالإشفاق قال الصاوي : وإنما أمر الله الأولاد ببر الوالدين دون العكس ، لأن الأولاد
جبلوا على القسوة وعدم طاعة الوالدين ، فكلفهم الله بما يخالف طبعهم ، والآباء مجبولون على الرحمة
والشفقة بالأولاد فوكلهم لما جبلوا عليه ^(١) ﴿وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾
أي وإن بذلا كل ما في وسعهما ، وحرصا كل الحرص على أن تكفر بالله وتشرك به شيئا لا يصح أن يكون
إلهاً ولا يستقيم ، فلا تطعهما في ذلك لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله ﴿إلى مرجعكم فأنبئكم بما
كنتم تعملون﴾ أي إلى مرجع الخلائق جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم ، برهم وفاجرهم ، فأجازي كلأ بما
عمل ، وفيه وعد حسن لمن برّ والديه واتبع الهدى ، ووعد لمن عقر والديه واتبع سبيل الردى ﴿والذين
آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين﴾ أي لندخلنهم في زمرة الصالحين في الجنة قال
القرطبي : كرّر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحريك النفوس الى نيل مراتبهم ، وفي
﴿الصالحين﴾ مبالغة أي الذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته ^(٢) ، ولما ذكر تعالى ما أعده للمؤمنين
الخالص ذكر حال المنافقين المذبذبين فقال ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ
فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي ومن الناس فريق يقولون بألسنتهم آمنا بالله ، فإذا أُوذِيَ أحدهم بسبب
إيمانه ارتد عن الدين وجعل ما يصيبه من أذى الناس سبباً صارفاً له عن الإيمان كعذاب الله الشديد الذي
يصرف الإنسان عن الكفر قال المفسرون : والتشبيه ﴿كعذاب الله﴾ من حيث إن عذاب الله مانع
للمؤمنين من الكفر ، فكذلك المنافقون جعلوا أذاهم مانعاً لهم من الإيمان ، وكان مقتضى إيمانهم أن
يصبروا ويتشجعوا ، ويروا في العذاب عذوبة ، وفي المحنة منحة ، فإن العاقبة للمتقين قال الامام
الفخر : أقسام المكلفين ثلاثة : مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده ، وكافر مجاهر بكفره وعناده ، ومذبذب بينهما
يظهر الإيمان بلسانه ويضم الكفر في فؤاده ، فلما ذكر تعالى القسمين بقوله ﴿فليعلمنَّ الله الذين
صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين﴾ ذكر القسم الثالث هنا ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾ واللطفية في الآية
أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر ، وخسة المنافق الكافر ، فقال هناك : أُوذِيَ المؤمن في سبيل الله
ليترك سبيله ولم يتركه ، وأُوذِيَ المنافق الكافر فترك الله بنفسه ، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم ويكون قلبه
مطمئناً بالإيمان ، ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية ^(٣) ﴿ولئن جاء نصر من ربك ليقولنَّ إِنَّا كُنَّا
مَعَكُمْ﴾ أي ولئن جاء نصر قريب للمؤمنين ، وفتح ومغانم قال أولئك المذبذبون : إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ نَنْصُرُكُمْ
على أعدائكم ، فقاسمونا فيما حصل لكم من الغنائم قال تعالى رداً عليهم ﴿أوليس الله بأعلم بما في

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣ / ٢٣١ . (٢) القرطبي ١٣ / ٣٢٩ . (٣) التفسير الكبير ٢٥ / ٣٧ .

ءَامَنُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَاهُمْ بِمُحْمِلِينَ
مِنَ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ءِإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلِيَحْمِلْنَ ءَأَثْقَالًا مَعَ ءَأَثْقَالِهِمْ وَلِيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا
كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ءَفَلَيْتَ فِيهِمْ ءَأَلْفَ سَنَةٍ ءِإِلَّا نَحْمِسِينَ ءَعَمَّا فَآخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ

ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾

صدور العالمين ﴿؟ استفهام تقرير أي أوليس الله هو العالم بما انطوت عليه الضمائر من خير وشر ، وبما في قلوب الناس من إيمان ونفاق ؟ بلى إنه بكل شيء عليم ، ثم أكد تعالى ذلك بقوله ﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ أي وليظهرن الله لعباده حال المؤمنين وحال المنافقين حتى يتميزوا فينتضح المنافق ، ويظهر شرف المؤمن الصادق قال المفسرون : والمراد ﴿وليعلمن الله﴾ إظهار علمه للناس حتى يصبح معلوماً لديهم ، وإلا فالله عالم بما كان ، وما يكون ، وما هو كائن لا تخفى عليه خافية ، فهو إذاً علم إظهار وإيداء ، لا علم غيب وخفاء بالنسبة لله تعالى ، وقد فسر ابن عباس العلم بمعنى الرؤية ^(١) ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾ أي قال الكفار للمؤمنين اكفروا كما كفرنا ، واتبعوا ديننا ونحن نحمل عنكم الإثم والعقاب ، إن كان هناك عقاب قال ابن كثير : كما يقول القائل : افعل هذا وخطيئتك في عنقي ^(٢) ، فإن قيل ﴿ولنحمل﴾ صيغة أمر ، فكيف يصح أمر النفس من الشخص ؟ فنقول : الصيغة أمر والمعنى شرط وجزاء أي إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ أي وما هم حاملين شيئاً من خطاياهم ، لأنه لا يحمل أحد وزر أحد ﴿إنهم لكاذبون﴾ أي وإنهم لكاذبون في ذلك ، ثم قال تعالى ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ أي وليحملن أوزارهم وأوزار من أضلوهم دون أن ينقص من أوزار أولئك شيء كما في الحديث (ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه من غير أن ينقص من آثامهم شيء) ^(٣) ﴿وليسألن يوم القيامة﴾ أي وليسألن سؤال توبيخ وتقريع ﴿عما كانوا يفترون﴾ أي عما كانوا يخلقونه من الكذب على الله عز وجل ، ثم ذكر تعالى لرسوله ﷺ قصة نوح تسلياً له عما يلقاه من أذى المشركين فقال ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ أي ولقد بعثنا نوحاً إلى قومه فمكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى توحيد الله جلّ وعلا ، وكانوا عبدة أصنام فكذبوه ﴿فآخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ أي فأهلكهم الله بالطوفان وهم مصرّون على الكفر والضلال قال أبو السعود : والطوفان : كل ما يطوف بالشيء على كثرة وشدة ، من السيل والريح والظلام ، وقد غلب على طوفان الماء ^(٤) قال الرازي : وفي قوله ﴿وهم ظالمون﴾ إشارة إلى لطيفة ، وهي أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم ، وإنما يعذب على الإصرار على الظلم ولهذا قال ﴿وهم ظالمون﴾ يعني أهلكتهم وهم على

(١) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير في هذا الشأن ٢٨/٣ من المختصر . (٢) ابن كثير المختصر ٣٠/٣ . (٣) الحديث في الصحيحين .

(٤) أبو السعود ١٦٦/٤ .

فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ

ظلمهم^(١) ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾ أي فأنجينا نوحاً من الغرق ومن ركب معه في السفينة من أهله وأولاده وأتباعه المؤمنين ﴿وجعلناها آية للعالمين﴾ أي وجعلنا تلك الحادثة الهائلة عظة وعبرة للناس بعدهم يتعظون بها ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه﴾ قال ابن كثير: يخرج تعالى عن عبده ورسوله وخليله «إبراهيم» إمام الحنفاء، أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده، وتوحيده في الشكر فإنه المشكور على النعم لا مُسدي لها غيره^(٢) ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي عبادة الله وتقواه خير لكم من عبادة الأوثان إن كنتم تعلمون الخير من الشر وتفرقون بينهما ﴿إنما تعبدون من دون الله آثاناً﴾ أي أنتم لا تعبدون شيئاً ينفع أو يضر، وإنما تعبدون أصناماً من حجارة صنعتموها بأيديكم ﴿وتخلقون إفكاً﴾ أي وتصنعون كذباً وباطلاً قال ابن عباس: تتحوتون وتصورون إفكاً^(٣) ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً﴾ أي إن هؤلاء الذين تعبدونهم لا يقدر على أن يرزقكم ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾ أي فاطلبوا الرزق من الله وحده، فإنه القادر على ذلك ﴿واعبدوه واشكروا له﴾ أي وخصوه وحده بالعبادة واخشعوا واخضعوا له، واشكروه على نعمه التي أنعم بها عليكم ﴿إليه ترجعون﴾ أي إليه لا إلى غيره مرجعكم يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله ﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم﴾ لما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد أي وإن تكذبوني فلن تضروني بتكذيبكم وإنما تضرون بأنفسكم فقد سبق قبلكم أمم كذبوا رسلهم فحل بهم عذاب الله، وسيحل بكم ما حل بهم^(٤) ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ أي وليس على الرسول إلا تبليغ أوامر الله، وليس عليه هداية الناس قال الطبري: ومعنى ﴿البلاغ المبين﴾ أي الذي يبين لمن سمعه ما يراد به، ويفهم منه ما يعني به^(٥) ﴿أوكم يروا كيف يُبدئُ الله الخلق ثم يُعيده﴾ الاستفهام للتوبيخ لمنكري الحشر أي أولم ير المكدبون بالدلائل الساطعة كيف خلق تعالى الخلق ابتداءً من العدم، فيستدلون بالخلقة الأولى على الإعادة في الحشر؟ قال قتادة: المعنى أولم يروا بالدلائل والنظر كيف يجوز أن يعيد الله الأجسام بعد الموت؟ ﴿إن ذلك على الله

(١) التفسير الكبير ٤٢/٢٥ . (٢) مختصر ابن كثير ٣٢/٣ . (٣) هذا هو الظاهر أنها من الخلق وهو قول مجاهد والحسن واختاره ابن جرير، وقيل أنه من الاختلاق أي تخلقون وتقولون الكذب . (٤) قال ابن كثير: والظاهر من السياق ان كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام، يحتج به عليهم لإثبات المعاد، لقوله بعد هذا كله ﴿فما كان جواب قومه﴾ وذهب الإمام الطبري إلى أن هذا من كلام الله تعالى لكفار مكة ويراد به تسلية النبي ﷺ وليس من كلام إبراهيم، وما ذهب إليه ابن كثير أظهر والله أعلم . (٥) الطبري ٨٩/٢٠ .

يُعِيدُهُ ۖ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۗ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يُسَوِّئُ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۖ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾

يسير ﴿١٩﴾ أي سهل عليه تعالى فكيف ينكرون البعث والنشور؟ فإن من قدر على البدء قدر على الإعادة ، قال القرطبي : ومعنى الآية على ما قاله البعض : أولم يروا كيف بيدي الله الثمار فتحيا ثم تفتنى ثم يعيدها أبداً ، وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً ، وخلق من الولد ولداً ، وكذلك سائر الحيوان ، فإذا رأيت قدرته على الإيداء والإيجاد ، فهو القادر على الإعادة لأنه إذا أراد أمراً قال له كن فيكون ﴿٢٠﴾ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴿٢١﴾ أي قل لهؤلاء المنكرين للبعث سيروا في أرجاء الأرض فانظروا كيف أن الله العظيم القدير خلق الخلق على كثرتهم وتفاوت هياتهم ، واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم ، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم الله ، لتعلموا بذلك كمال قدرة الله عز وجل ! ﴿٢٢﴾ ثم الله يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴿٢٣﴾ أي ثم هو تعالى ينشئهم عند البعث نشأةً أخرى ﴿٢٤﴾ إن الله على كل شيء قدير ﴿٢٥﴾ أي لا يعجزه تعالى شيء ومنه البدء والإعادة ﴿٢٦﴾ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ﴿٢٧﴾ أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، فله الخلق والأمر ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿٢٨﴾ وإليه تُقْلَبُونَ ﴿٢٩﴾ أي وإليه تُرجعون يوم القيامة ﴿٣٠﴾ وما أنتم بمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣١﴾ أي لا تفوتون من عذاب الله ، وليس لكم مهرب في الأرض ولا في السماء قال القرطبي : والمعنى لو كنتم في السماء ما أعجزتم الله كقوله ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ أي ليس لكم غير الله ولي يُحميكم من بلائه ، ولا نصير ينصركم من عذابه ﴿والذين كفروا بآياتِ الله ولقائه﴾ أي كفروا بالقرآن والبعث ﴿أولئك يسوا من رحمتي﴾ أي أولئك المنكرون الجاحدون قَطُّوا من رحمتي قال ابن جرير : وذلك في الآخرة عند رؤية العذاب ﴿٣٣﴾ ﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾ أي لهم عذاب موجه مؤلم ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه﴾ أي فما كان ردُّ قومه عليه حين دعاهم إلى الله ونهاهم عن الأصنام إلا أن قال كبراًؤهم المجرمون : اقتلوه لتستريحوا منه أو حرقوه بالنار ﴿فأنجاه الله من النار﴾ أي فألقوه في النار فجعلها برداً وسلاماً عليه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في إنجاننا لإبراهيم من النار لدلائل وبراهين ساطعة على قدرة الله لقوم يصدقون بوجود الله وكمال قدرته وجلاله

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ
وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٤٥﴾ * فَأَمَّن لَّهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ
إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ
أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٧﴾

﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً﴾ أي قال إبراهيم لقومه توبيخاً لهم وتقريعاً : إنما عبدتم هذه الأوثان والاصنام وجعلتموها آلهة مع الله ﴿مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾ أي من أجل أن تدوم المحبة والألفة بينكم في هذه الحياة باجتماعكم على عبادتها ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾ أي ثم في الآخرة ينقلب الحال فتصبح هذه الصداقة والمودة عداوة وبغضاء حيث يقع التناكر ويتبرأ القادة من الأتباع ويلعن الأتباع القادة ، لأن صداقتهم في الدنيا لم تكن من أجل الله ﴿ومأواكم النار ومالكم من ناصرين﴾ أي ومصيركم جميعاً جهنم وليس لكم ناصر أو معين يخلصكم منها ﴿فأمن له لوط﴾ أي فأمن معه لوط وصدقه وهو ابن أخيه وأول من آمن به لما رأى من الآيات الباهرة ﴿وقال إني مهاجر إلى ربي﴾ أي وقال الخليل إبراهيم ، إني تارك وطني ومهاجر من بلدي رغبة في رضى الله قال المفسرون : هاجر من سواد العراق الى فلسطين والشام ابتغاء إظهار الدين والتمكن من نشره ﴿إنه هو العزيز الحكيم﴾ أي هو العزيز الذي لا يذل من اعتمد عليه ، الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها ﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ أي وهبنا لإبراهيم - لما فارق قومه في الله - ولداً صالحاً هو إسحق وولد ولدٍ وهو يعقوب بن اسحاق ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ أي خصصناه بهذا الفضل العظيم حيث جعلنا كل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته ، وجعلنا الكتب السماوية نازلة على الأنبياء من بنيه قال ابن كثير : وهذه خصلة سنوية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً ، وجعله إماماً للناس ، أن جعل الله في ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم إلا وهو من سلالة ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة ولده « يعقوب » ولم يوجد نبي من سلالة « إسماعيل » سوى النبي العربي عليه أفضل الصلاة والتسليم ﴿وآتيناها أجره في الدنيا﴾ أي وتركنا له الثناء الحسن في جميع الأديان ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي وهو في الآخرة في عداد الكاملين في الصلاح ، وهذا ثناء عظيم على أب الأنبياء إبراهيم عليه السلام .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً﴾ .
- ٢ - الطباق بين ﴿صدقوا .. والكاذبين﴾ وبين ﴿آمناً .. والمنافقين﴾ وبين ﴿يعذب .. ويرحم﴾ وبين ﴿يبدىء ويعيد﴾ .

٣ - التأكيد بإنَّ واللام ﴿فإنَّ أجل الله لآتٍ﴾ لأن المخاطب منكر .

٤ - صيغة المبالغة ﴿السميع العليم﴾ .

٥ - الجناس غير التام ﴿يسير . . وسيروا﴾ .

٦ - التشبيه المرسل المجمل ﴿فتنة الناس كعذاب الله﴾ حذف منه وجه الشبه فهو مجمل .

٧ - التفتن في التعبير ﴿ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ لم يقل إلا خمسين سنة تفتناً لأن التكرار في الكلام

الواحد مخالف للبلاغة إلا إذا كان لغرض من تفخيم أو تهويل مثل ﴿القارعة ما القارعة﴾ .

٨ - أسلوب الإطناب ﴿إنما تعبدون من دون الله آوثاناً . . إن الذين تعبدون من دون الله﴾ لغرض

التشنيع عليهم في عبادة الاوثان .

٩ - أسلوب الإيجاز ﴿اقتلوه أو حرقوه﴾ أي حرقوه في النار ثم قال ﴿فأنجاه الله﴾ أي ففعلوا فأنجاه

الله من النار .

١٠ - الاستعارة اللطيفة ﴿وليحملن أثقالهم﴾ شبه الذنوب بالأثقال لأنها تثقل كاهل الانسان .

قال الله تعالى : ﴿ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة . . إلى . . والله يعلم ما تصنعون﴾

من آية (٢٨) إلى نهاية آية (٤٥) .

المَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى قصة نوح وإبراهيم ، وما فيهما من مواطن العظة والعبرة ، ذكر هنا

قصص الأنبياء « لوط ، شعيب ، هود ، صالح » على سبيل الاختصار لبيان عاقبة الله في المكذبين . .

وكل ذلك لتأكيد ما ورد في صدر السورة الكريمة من أن الابتلاء سنة الحياة ، وأنه من السنن الكونية على مر

العصور والدهور .

اللُغَاةُ : ﴿الفاحشة﴾ الفعلة المتناهية في القبح قال أهل اللغة : الفاحشةُ : القبيح الظاهر

قبحه ، وكل فعل زاد في القبح والشناعة فهو فاحشة ﴿ناديكم﴾ النادي : المجلس الذي يجتمع فيه القوم

للسمر أو المشورة أو غيرها ﴿تعثوا﴾ العُثُوُّ والعُثْيُ أشدُّ الفساد يقال : عثي يعثي ، وعثا يعثو بمعنى

واحد^(١) ﴿رجزاً﴾ عذاباً ﴿جانمين﴾ جثم : إذا قعد على ركبتيه ﴿سابقين﴾ فائتين من عذابنا ﴿أوهن﴾

أضعف ، والوهنُ : الضعف .

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الرِّجَالَ

النَّفْسِيَّ : ﴿ولوطاً إذ قال لقومه﴾ أي واذكر رسولنا لوطاً عليه السلام حين قال لقومه ﴿إنكم

لتأتون الفاحشة﴾ أي إنكم يا معشر القوم لترتكبون الفعلة المتناهية في القبح ﴿ما سبقكم بها من أحدٍ

من العالمين﴾ أي لم يسبقكم بهذه الشنيعة ، والفعلة القبيحة - وهي اللواط - أحدٌ من الخلق ، ثم فسر

تلك الشنيعة فقال ﴿إنكم لتأتون الرجال﴾ أي إنكم لتأتون الذكور في الأدبار وذلك منتهى القذارة

والخسة قال المفسرون : لم يقدم أحد قبلهم عليها اشمئزازاً منها في طباعهم لإفراط قبحها حتى أقدم عليها

وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ مَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۖ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَاتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا

قوم لوط ، ولم ينز ذكرٌ على ذكر قبل قوم لوط^(١) ﴿وتقطعون السبيل﴾ أي وتقطعون الطريق على المارة بالقتل وأخذ المال ، وكانوا قطاع الطريق قال ابن كثير : كانوا يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم^(٢) ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ أي وتفعلون في مجلسكم ومنتداكم ما لا يليق من أنواع المنكرات علناً وجهاراً ، أما كفاكم قبح فعلكم حتى ضمتم إليه قبح الإظهار ! ؟ قال مجاهد : كانوا يأتون الذكور أمام الملائكة يرى بعضهم بعضاً ، وقال ابن عباس : كانوا يجذفون بالحصى من مر بهم مع الفحش في المزاح ، وحل الإزار ، والصفير وغير ذلك من القبائح ﴿فما كان جواب قومه﴾ أي فما كان رد قومه عليه حين نصحهم وذكروهم وحذروهم ﴿إلا أن قالوا اتتنا بعذاب الله﴾ أي إلا أن قالوا على سبيل الاستهزاء : اتتنا يا لوط بالعذاب الذي تعدنا به ﴿إن كنت من الصادقين﴾ أي إن كنت صادقاً فيما تهددنا به من نزول العذاب قال الإمام الفخر : فإن قيل إن الله تعالى قال ههنا ﴿إلا أن قالوا اتتنا﴾ وقال في موضع آخر ﴿إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم﴾ فكيف وجه الجمع بينهما ؟ فنقول : إن لوطاً كان ثابتاً على الإرشاد ، مكرراً عليهم النهي والوعيد ، فقالوا أولاً : اتتنا بعذاب الله ، ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا أخرجوا آل لوط^(٣) ، ثم إن لوطاً لما يشس منهم طلب النصرة من الله ﴿قال رب انصُرني على القوم المفسدين﴾ أي قال لوط رب أهلكهم وانصُرني عليهم فإنهم سفهاء مفسدون لا يرجي منهم صلاح وقد أغرقوا في الغي والفساد قال الرازي : واعلم أن نبياً من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم كما قال نوح ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك﴾ فكذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون في الحال ، ولا يرجي منهم صلاح في المال طلب لهم العذاب^(٤) ﴿ولما جاءت رُسُلنا إبراهيم بالبُشْرَى﴾ المراد بالرسول هنا « الملائكة » والبشْرَى هي تبشير إبراهيم بالولد ، أي لما جاءت الملائكة تبشّر إبراهيم بغلام حليم ﴿قالوا إِنَّا مهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أي جئنا لنهلك قرية قوم لوط ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي لأن أهلها معنونون في الظلم والفساد ، طبيعتهم البغي والعناد قال المفسرون : لما دعا لوط على قومه ، استجاب الله دعاءه ، وأرسل ملائكته لإهلاكهم ، فمروا بطريقهم على إبراهيم أولاً فبشروه بغلامٍ وذريةٍ صالحة ، ثم أخبروه بما أرسلوا من أجله ، فجادلهم بشأن ابن أخيه لوط ﴿قال إن فيها لوطاً﴾ أي كيف تهلكون أهل القرية وفيهم هذا النبي الصالح « لوط » ؟ ﴿قالوا نحن أعلم بمن فيها﴾ أي نحن أعلم به وبمن فيها من المؤمنين قال الصاوي : وهذا بعد المجادلة التي تقدمت في سورة هود ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ حيث قال لهم : أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ؟ قالوا لا ، إلى أن

(١) نقلاً عن البحر المحيط ٧/ ١٤٩ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٥ . (٣) التفسير الكبير ٢٥/ ٥٩ . (٤) التفسير الكبير ٢٥/ ٥٩ .

لَنُنَجِّيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَاتُهُ وَكَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوْمِ آعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

قال : أفأريتم إن كان فيها مؤمن واحد ؟ قالوا لا فقال لهم ﴿ إن فيها لوطاً ﴾ فأجابوه بقولهم ﴿ نحن أعلم بمن فيها ﴾ ^(١) ثم بشروه بإنجاء لوط والمؤمنين ﴿ لننجيَّنه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ أي سوف ننجيه مع أهله من العذاب ، إلا امرأته فستكون من الهالكين لأنها كانت تمالئهم على الكفر ، ثم ساروا من عنده فدخلوا على « لوط » في صورة شبان حسان ﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ﴾ أي ولما دخلوا على لوط حزن بسببهم ، وضاق صدره من مجيئهم لأنهم حسان الوجوه في صورة أضياف ، فخاف عليهم من قومه ، فأعلموه أنهم رسل ربه ﴿ وقالوا لا تخف ولا تحزن ﴾ أي لا تخف علينا ولا تحزن بسبينا ، فلن يصل هؤلاء المجرمون إلينا ﴿ إننا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ﴾ أي كانت من الهالكين الباقين في العذاب ﴿ إننا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ أي منزلون عليهم عذاباً من السماء بسبب فسقهم المستمر قال ابن كثير : وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها الى عنان السماء ثم قلبها عليهم ، وأرسل عليهم حجارة من سجيل منضود ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثةً منتنة ، وجعلهم عبرةً الى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد ^(٢) ﴿ ولقد تركنا منها آيةً بينة ﴾ أي ولقد تركنا من هذه القرية علامةً بينةً واضحةً ، هي آثار منازلهم الخربة ﴿ لقوم يعقلون ﴾ أي لقوم يتفكرون ويتدبرون ويستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار ، ثم أخبر تعالى عن قصة شعيب فقال ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ أي وأرسلنا الى قوم مدين أخاهم شعيباً ﴿ فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ﴾ أي فقال لقومه ناصحاً ومذكراً : يا قوم وحدوا الله وخافوا عقابه الشديد في اليوم الآخر ﴿ ولا تعشوا في الأرض مفسدين ﴾ أي لا تسعوا بالإفساد في الأرض بأنواع البغي والعدوان ﴿ فكذبوه فأخذتهم الرجفة ﴾ أي فكذبوا رسولهم شعيباً فأهلكهم الله برجفةً عظيمة مدمرة زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحة هائلة أخرجت القلوب من حناجرها ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ أي فأصبحوا هلكى باركين على الركب ميتين ﴿ وعاداً وثموداً وقد تبين لكم من مساكنهم ﴾ أي وأهلكنا عاداً وثمود ، وقد ظهر لكم يا أهل مكة من منازلهم بالحجاز واليمن آيتنا في هلاكهم أفلا تعتبرون ؟ ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾

أَعْمَلُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكَلَّمْنَا بَدْنَهُ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَلْبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ

أي وحسن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة من الكفر والمعاصي حتى رأوها حسنة ﴿فصدَّهُم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾ أي فمنعهم عن طريق الحق ، وكانوا عقلاء متمكنين من النظر والاستدلال ، لكنهم لم يفعلوا تكبراً وعناداً ﴿وقارون وفرعون وهامان﴾ أي وأهلكنا كذلك الجبابرة الظالمين ، ﴿قارون﴾ صاحب الكنوز الكثيرة ﴿وفرعون﴾ صاحب الملك والسلطان ، ووزيره ﴿هامان﴾ الذي كان يُعينه على الظلم والطغيان ﴿ولقد جاءهم موسى بالبينات﴾ أي ولقد جاءهم موسى بالحجج الباهرة ، والآيات الظاهرة ﴿فاستكبروا في الأرض﴾ أي فاستكبروا عن عبادة الله وطاعة رسوله ﴿وما كانوا سابقين﴾ أي وما كانوا ليفلتوا من عذابنا قال الطبري : أي ما كانوا ليفوتونا بل كنا مقتدرين عليهم ^(١) ﴿فكلاماً أخذنا بذنبه﴾ أي فكلاماً من هؤلاء المجرمين أهلكناه بسبب ذنبه وعاقبناه بجنايته قال ابن كثير : أي وكانت عقوبته بما يناسبه ^(٢) ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ أي ريحاً عاصفة مدمرة فيها حصباء «حجارة» كقوم لوط ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ أي ومنهم من أخذته صيحة العذاب مع الرجفة كشمود ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ أي خسفنا به وبأملأكه الأرض حتى غاب فيها كقارون وأصحابه ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ أي أهلكناه بالغرق كقوم نوح وفرعون وجنده ﴿وما كان الله ليظلمهم﴾ أي وما كان الله ليعذبهم من غير ذنب فيكون لهم ظالماً ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم فاستحقوا العذاب والدمار ، ثم ضرب تعالى مثلاً للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله فقال ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾ أي مثل الذين اتخذوا من دون الله أصناماً يعبدونها في اعتمادهم عليها ورجائهم نفعها كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتاً لا يغني عنها في حر ولا برد ، ولا مطر ولا أذى قال القرطبي : هذا مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره ، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حراً ولا برداً ^(٣) ﴿وإن أوهن البيوت لبیت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ أي وإن أضعف البيوت لبیت العنكبوت لتفاهته وحقارته ، لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم ما عبدوها ﴿إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء﴾ أي هو تعالى عالم بما عبدوه من دونه لا يخفى عليه ذلك ، وسيجازيهم على كفرهم ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي وهو جل وعلا العزيز في ملكه ، الحكيم في

الْأَمْثَلُ نُضْرِبَهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٤﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٥﴾ أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ
اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

صنعه ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس﴾ أي وتلك الأمثال نبينها للناس في القرآن لتقريبها الى أذهانهم ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾ أي وما يدركها ويفهمها إلا العالمون الراسخون ، الذين يعقلون عن الله عز وجل مراده ﴿خلق الله السموات والأرض بالحق﴾ أي خلقها بالحق الثابت لا على وجه العبث واللعب ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي إن في خلقها بذلك الشكل البديع ، والصنع المحكم لعلامة ودلالة للمصدقين بوجود الله ووحدانيته ﴿أتل ما أوحى إليك من الكتاب﴾ أي اقرأ يا محمد هذا القرآن المجيد الذي أوحاه إليك ربك ، وتقرّب إليه بتلاوته وترداده ، لأن فيه محاسن الآداب ومكارم الأخلاق ﴿واقم الصلاة﴾ أي دم على إقامتها بأركانها وشروطها وآدابها فإنها عماد الدين ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ أي إن الصلاة الجامعة لشروطها وآدابها ، المستوفية لخشوعها وأحكامها ، إذا أداها المصلي كما ينبغي ، وكان خاشعاً في صلاته ، متذكراً لعظمة ربه ، متدبراً لما يتلو ، نهته عن الفواحش والمنكرات ﴿ولذكر الله أكبر﴾ أي ولذكر الله أكبر من كل شيء في الدنيا ، وهو أن تتذكر عظمته وجلاله ، وتذكره في صلاتك وفي بيعك وشرائك ، وفي أمور حياتك ولا تغفل عنه في جميع شؤونك ﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ أي يعلم جميع أعمالكم وأفعالكم فيجازيكم عليها أحسن المجازاة ، قال أبو العالية : إن الصلاة فيها ثلاث خصال : الإخلاص ، والخشية ، وذكر الله ؛ فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهيه عن المنكر ، وذكر الله - القرآن - يأمره وينهاه فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخصال فليست بصلاة (١) .

البلاغة : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - التأكيد بعدة مؤكدات والاطناب بتكرار الفعل تهجيناً لعملهم القبيح وتوبيخاً ﴿إنكم لتأتون الفاحشة . . أئنكم لتأتون الرجال﴾ الآية .
- ٢ - الاستهزاء والسخرية ﴿أئننا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ وجواب الشرط محذوف دل عليه السابق أي إن كنت صادقاً فائتنا به .
- ٣ - التنكير لإفادة التهويل ﴿رجزاً من السماء﴾ أي رجزاً عظيماً هائلاً .
- ٤ - تقديم المفعول للعناية والاهتمام ، والإجمال ثم التفصيل ﴿فكلاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة﴾ الخ .

٥ - التشبيه التمثيلي ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾ شبه الله الكافرين في عبادتهم للأصنام بالعنكبوت في بنائها بيتاً ضعيفاً واهياً يتهاوى من هبة نسيم أو من نفخة فم ، وسمي تمثيلاً لأن وجه الشبه صورة منتزعة من متعدد .

٦ - توافق الفواصل في الحرف الاخير وما فيه من جرس عذب بديع مثل ﴿انصرني على القوم المفسدين .. إن أهلها كانوا ظالمين﴾ ومثل ﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾ ومثل ﴿بما كانوا يفسقون .. وآية بينة لقوم يعقلون﴾ الخ وهو من خصائص القرآن .

تنبية : أفادت الآية أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وقد ثبت ان رسول الله ﷺ لما قيل له : إن فلاناً يصلي الليل فإذا أصبح سرق فقال : (ستمعه صلواته) رواه البزار ، يريد عليه السلام أن الصلاة إذا كانت على الوجه الأكمل ، تنهى صاحبها عن الفحشاء ، ولا تزيده بعداً بل تزيده قرباً .

قال الله تعالى : ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ... إلى .. وإن الله لمع المحسنين﴾ .

المناسكة : لما بين تعالى ضلال من اتخذ أولياء من دون الله ، وضرب المثل ببيت العنكبوت ، أمر هنا بالتلطف في دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان ، ثم ذكر البراهين القاطعة على صدق محمد ﷺ وصحة القرآن ، وختم السورة الكريمة ببيان المانع من التوحيد وهو اغترار الناس بالحياة الدنيا الفانية ، وبين أن المشركين يوحدون الله وقت الشدة ، وينسونه وقت الرخاء .

اللغز : ﴿بغته﴾ فجأة يقال : بَعَثَهُ إذا دهمه على حين غفلة ﴿يغشاهم﴾ يجللهم ويغطيهم من فوقهم ، والغشاء : الغطاء ﴿لنبوثئهم﴾ بؤاه : أنزله في المكان على وجه الإقامة ﴿غرفاً﴾ منازل رفيعة عالية في الجنة ﴿يؤفكون﴾ يُصرفون عن الحق إلى الباطل ﴿يبسط﴾ يوسع ﴿يقدر﴾ يضيق ﴿مشوى﴾ المكان الذي يقيم فيه الإنسان .

سبب النزول : عن ابن عباس أن النبي ﷺ أمر المؤمنين بالهجرة حين آذاهم المشركون فقال لهم : اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ، ولا تجاوروا الظلمة ، قالوا : ليس لنا بها دار ولا عقار ، ولا من يطعمنا ولا من يسقينا فنزلت ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم ..﴾^(١) الآية .

* وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ

التفسير : ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ أي لا تدعو أهل الكتاب إلى الإسلام وتناقشهم في أمر الدين إلا بالطريقة الحسنى كالدعاء إلى الله بآياته ، والتنبية على حججه وبياناته ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ أي إلا من كان ظالماً ، محارباً لكم ، مجاهداً في عداوتكم ، فجادلوهم بالغلظة

إِلَيْكُمْ وَإِلَيْنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ
قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ آلَا رَبَّاتِ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا

والشدة قال الإمام الفخر : إن المشرك لما جاء بالمنكر الفظيع كان اللائق أن يجادل بالأحسن ، ويبالغ في
توهين شبهه وتهجين مذهبه ، وأما أهل الكتاب فإنهم آمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرسل إلا الاعتراف
بالنبي عليه السلام ، فلمقابلة إحسانهم يجادلون بالأحسن إلا الذين ظلموا منهم بإثبات الولد لله ،
والقول بثالث ثلاثة فإنهم يجادلون بالأحسن من تهجين مقالتهم ، وتبيين جهالتهم^(١) ﴿وقولوا آمنا بالذي
أنزل إلينا وأنزل إليكم﴾ أي وقولوا لهم : آمنا بالقرآن الذي أنزل إلينا وبالتوراة والإنجيل التي أنزلت
إليكم ، قال أبو هريرة : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ،
فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل
إليكم^(٢) ﴿ وإلهنا وإلهكم واحدٌ ونحن له مسلمون ﴾ أي ربنا وربكم واحد لا شريك له في الألوهية ،
ونحن له مطيعون ، مستسلمون لحكمه وأمره ﴿ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب ﴾ أي وكما أنزلنا الكتاب على من
قبلك يا محمد أنزلناه عليك ﴿ فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ﴾ أي فالذين أعطيناهم الكتاب كعبد الله
ابن سلام وأمثاله ممن أسلم من اليهود والنصارى يؤمنون بالقرآن ﴿ ومن هؤلاء من يؤمن به ﴾ أي ومن أهل
مكة من يؤمن بالقرآن كذلك ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾ أي وما يكذب بآياتنا وينكرها مع ظهورها
وقيام الحجة عليها إلا المتوغلون في الكفر ، المصرون على العناد قال قتادة : وإنما يكون الجحود بعد
المعرفة^(٣) ﴿ وما كنت تتلوا من قبله من كتابٍ ولا تخطه بيمينك ﴾ أي وما كنت يا محمد تعرف القراءة ولا
الكتابة قبل نزول هذا القرآن لأنك أمي^(٤) قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ أمياً لا يقرأ شيئاً ولا يكتب^(٥)
﴿ إذا لارتاب المبطلون ﴾ أي لو كنت تقرأ أو تكتب إذا لشك الكفار في القرآن وقالوا ؛ لعله التقطه من كتب
الأوائل ونسبه إلى الله ، والآية احتجاج على أن القرآن من عند الله ، لأن النبي أمي وجاءهم بهذا الكتاب
المعجز ، المتضمن لأخبار الأمم السابقة ، والأمور الغيبية ، وذلك أكبر برهان على صدقه ﷺ قال ابن
كثير : المعنى قد لبثت في قومك يا محمد - من قبل أن تأتي بهذا القرآن - عمراً لا تقرأ كتاباً ، ولا تحسن
الكتابة ، بل كل أحد من قومك يعرف أنك أمي لا تقرأ ولا تكتب ، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى
يوم الدين لا يحسن الكتابة ، ولا يخط حرفاً ولا سطرأ بيده ، بل كان له كتاب يكتبون له الوحي^(٥) ﴿ بل هو
آياتٌ بيناتٌ في صدور الذين أُوتوا العلم ﴾ ﴿ بل ﴾ للإضراب أي ليس الأمر كما حسب الظالمون والمبطلون بل
هو آياتٌ واضحاتٌ الإعجاز ، ساطعاتٌ الدلالة على أنها من عند الله ، محفوظة في صدور العلماء ، قال

(١) التفسير الكبير ٢٥/٧٥ . (٢) أخرجه البخاري كذا في القرطبي ١٣/٣٥١ . (٣) الطبري ٢١/٤ . (٤) نفس المرجع السابق

والصفحة . (٥) مختصر ابن كثير ٣/٤٠ .

الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً

المفسرون : من خصائص القرآن العظيم أن الله حفظه من التبديل والتغيير بطريقتين : الأولى : الحفظ في السطور ، والثاني : الحفظ في الصدور ، بخلاف غيره من الكتب فإنها مسطرة لديهم غير محفوظة في صدورهم ولهذا دخلها التحريف ، وقد جاء في صفة هذه الأمة « أنا جيلهم في صدورهم » وقال الحسن : أعطيت هذه الأمة الحفظ ، وكان من قبلها لا يقرءون كتابهم إلا نظراً ، فإذا أطبقوه لم يحفظ ما فيه إلا النبيون ^(١) ﴿وما يجحدُ بآياتنا إلا الظالمون﴾ أي وما يكذب بها إلا المتجاوزون الحد في الكفر والعناد ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه﴾ أي وقال كفار مكة : هلاً أنزل على محمد آيات خارقة من ربه تدل على صدقه مثل ناقة صالح ، وعصا موسى ، ومائدة عيسى !! ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ أي قل لهم يا محمد : إنما أمر هذه الخوارق والمعجزات لله وليست بيدي ، إن شاء أرسلها ، وإن شاء منعها .، وليس لأحدٍ دخل فيها ﴿وإنما أنا نذيرٌ مبين﴾ أي وإنما أنا منذر أخوفكم عذاب الله ، وليس من شأنى أن أتى بالآيات ﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ ؟ الاستفهام للتوبيخ أي أولم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي لا يزال يقرع أسماعهم ؟ وكيف يطلبون آيةً والقرآن أعظم الآيات وأوضحها دلالة على صحة نبوتك ؟ قال ابن كثير : بين تعالى كثرة جهلهم ، وسخافة عقولهم ، حيث طلبوا آيات تدل على صدق محمد ﷺ ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الذي هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة سورة منه ، أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ، وجنتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ^(٢) ؟ ولهذا قال بعده ﴿إن في ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يؤمنون﴾ أي إن في إنزال هذا القرآن لنعمة عظيمة على العباد بإنقاذهم من الضلالة ، وتذكرة بليغة لقوم غرضهم الإيمان لا التعنت ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ أي قل لهم : كفى أن يكون الله جلّ وعلا شاهداً على صدقي ، يشهد لي أني رسولُه ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أمر العباد ، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني ﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ أي والذين آمنوا بالأوثان وكفروا بالرحمن ، أولئك هم الكاملون في الخسران حيث اشتروا الكفر بالإيمان ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ أي يستعجلك يا محمد المشركون بالعذاب يقولون ﴿أمطر علينا حجارة من السماء﴾ وهو

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَلْعَبُدِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

استعجال على جهة التكذيب والاستهزاء ﴿ولولا أجلٌ مسمى لجاءهم العذاب﴾ أي لولا أن الله قدر لعذابهم وهلاكهم وقتاً محدوداً لجاءهم العذاب حين طلبوه ﴿وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي وليأتينهم فجأة وهم ساهون لاهون لا يشعرون بوقت مجيئه ﴿يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطَةٌ بالكافرين﴾ تعجبٌ من قلة فطنتهم ومن تعنتهم وعنادهم والمعنى : كيف يستعجلون العذاب والحال أن جهنم محيطَةٌ بهم يوم القيامة كإحاطة السوار بالمعصم ، لا مفرٌ لهم منها ؟ ثم ذكر كيفية إحاطة جهنم بهم فقال ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ أي يوم يجللهم العذاب ويحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم ، ومن جميع جهاتهم ﴿ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ أي ويقول الله عز وجل لهم : ذوقوا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا من الاستهزاء والإجرام ، وسيء الأعمال ، ثم لما بين تعالى حال المكذبين الجاحدين ، أعقبه بذكر حال الأبرار المتقين فقال ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ خطابٌ تشریفٍ للتحريض على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام أي يا من شرفكم الله بالعبودية له هاجروا من مكة إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان فيها ، ولا تجاوروا الظلمة فأرض الله واسعة قال مقاتل : نزلت في ضعفاء مسلمي مكة ^(١) ﴿فإياي فاعبدون﴾ أي فخصوني بالعبادة ولا تعبدوا أحداً سواي ﴿كلُّ نفسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي أينما كنتم يدرككم الموت ، فكونوا دائماً وأبداً في طاعة الله ، وحيث أمرتم فهاجروا فإن الموت لا بد منه ولا محيد عنه ، ثم إلى الله المرجع والمآب ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي جمعوا بين إخلاص العقيدة وإخلاص العمل ﴿لنبوئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ أي لننزلنهم أعالي الجنة ولنسكننهم منازل رفيعة فيها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها إلى غير نهاية لا يخرجون منها أبداً ﴿نعم أجرُ العاملين﴾ أي نعمت تلك المساكن العالية في جنات النعيم أجرٌ للعاملين ﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ هذا بيان للعاملين أي هم الذين صبروا على تحمل المشاق من الهجرة والأذى في سبيل الله ، وعلى ربهم يعتمدون في جميع أمورهم قال في البحر : وهذان جماع الخير كله : الصبر ، وتفويض الأمر إليه تعالى ^(٢) ﴿وكأين من دابةٍ لا تحمل رزقها﴾ أي كم من دابة ضعيفة لا تقدر على كسب رزقها ولكن الله يرزقها مع ضعفها ﴿الله يرزقها

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَنَحَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنِّي يُؤْفِكُونَ ﴿١١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ فَإِذَا رَكَبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

وإياكم ﴿١١﴾ أي الله تعالى يرزقها كما يرزقكم ، وقد تكفل برزق جميع الخلق ، فلا تخافوا الفقر إن هاجرتم ، فالرازق هو الله قال في التسهيل : والقصد بالآية التقوية لقلوب المؤمنين إذا خافوا الفقر والجوع في الهجرة من أوطانهم ، فكما يرزق الله الحيوانات الضعيفة كذلك يرزقكم إذا هاجرتم من بلدكم ﴿١١﴾ وهو السميع العليم ﴿١٢﴾ أي هو السميع لأقوالكم ، العليم بأحوالكم ، ثم عاد الحديث إلى توبيخ المشركين في عبادة غير الله فقال ﴿١٣﴾ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولنَّ الله ﴿١٣﴾ أي ولئن سألت المشركين من خلق العالم العلوي والسفلي وما فيهما من العجائب والغرائب ؟ ومن ذلَّ الشمس والقمر وسخرهما لمصالح العباد يجريان بنظام دقيق؟ ليقولون : الله خالق ذلك ﴿١٤﴾ فأتى يؤفكون ﴿١٤﴾ أي فكيف يُصرفون عن توحيد بعد إقرارهم بذلك ؟ ﴿١٤﴾ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴿١٤﴾ أي هو جلَّ وعلا الخالق وهو الرازق ، يوسع الرزق لمن يشاء من عباده امتحاناً ، ويضيِّق الرزق على من يشاء ابتلاءً ، ليظهر الشاكر والصابر ﴿١٤﴾ إن الله بكل شيء عليم ﴿١٤﴾ أي إنه تعالى واسع العلم يفعل ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿١٤﴾ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولنَّ الله ﴿١٤﴾ توبيخ آخر وإقامة حجة أخرى عليهم أي ولئن سألت المشركين من الذي أنزل المطر من السماء فأخرج به أنواع الزروع والثمار بعد جذب الأرض وبيسها ؟ ليقولون : الله فاعل ذلك ﴿١٤﴾ قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴿١٤﴾ أي قل يا محمد : حمداً لله على ظهور الحجة ، بل أكثرهم لا يعقلون ، حيث يقرون بأن الله هو الخالق الرازق ويعبدون غيره ﴿١٤﴾ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهوٌ ولعبٌ ﴿١٤﴾ أي وما الحياة في هذه الدنيا إلا غرور ينقضي سريعاً ويزول ، كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون ﴿١٤﴾ وإن الدار الآخرة هي الحيوان ﴿١٤﴾ أي وإن الآخرة هي دار الحياة الحقيقية التي لا موت فيها ولا تنغيص ﴿١٤﴾ لو كانوا يعلمون ﴿١٤﴾ أي لو كان عندهم علم لم يؤثروا دار الفناء على دار البقاء ، لأن الدنيا حقيرة لا تزن عند الله جناح بعوضة ﴿١٤﴾ ، ولقد أحسن من قال :

تأمل في الوجود بعين فكر ترى الدنيا الدنية كالحيال
ومن فيها جميعاً سوف يفنى ويبقى وجه ربك ذو الجلال

﴿١٤﴾ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴿١٤﴾ إقامة حجة ثالثة على المشركين في دعائهم الله عند

(١) التسهيل ١١٩/٣ . (٢) في الحديث الشريف (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً جرة ماء) .

الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ أَوْلَىٰ يَرُوا
 أَنَّا جَعَلْنَا حُرْمًا آمِنًا وَيُخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِئَابُ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ
 عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ
 سُبُلَنَا ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٩﴾

الشدائد ، ثم يشركون به في حال الرخاء والمعنى إذا ركبوا في السفن وخافوا الغرق دعوا الله مخلصين له الدعاء ، لعلمهم أنه لا يكشف الشدائد عنهم إلا هو ، وفي لفظ ﴿مخلصين﴾ ضربٌ من التهكم ﴿فلما نجَّاهم﴾ إلى البر إذا هم يشركون ﴿أي فلما خلَّصهم من أهوال البحر ، ونجاهم إلى جانب البر إذا هم يعودون إلى كفرهم وإشراكهم ، ناسين ربهم الذي أنقذهم من الشدائد والأهوال﴾ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون ﴿أمرٌ على وجه التهديد أي فليكفروا بما أعطيناهم من نعمة الإنجاء من البحر ، وليتمتعوا في هذه الحياة الدنيا بباقي أعمارهم ، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم﴾ ﴿أولم يروا أننا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾ أي أولم يروهؤلاء الكفار ، رؤية تفكر واعتبار ، أننا جعلنا بلدهم « مكة » حرماً مصنوعاً عن السلب والنهب ، آمناً أهله من القتل والسي ، والناس حولهم يُسبون ويقتلون ؟ قال الضحاك : ﴿ويتخطف الناس من حولهم﴾ أي يقتل بعضهم بعضاً ، ويسبي بعضهم بعضاً^(١) ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ أي أفبعد هذه النعم الجليلة يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن ؟ ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ أي لا أحد أظلم ممن عبد غير الله وكذَّبَ بِالْقُرْآنِ حين جاءه ﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ ؟ أي أليس في جهنم مأوى وموضع إقامة للكافرين بآيات الله جزاء افتراءهم وكفرهم ؟ ﴿والذين جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي والذين جاهدوا النفس والشيطان والهوى والكفرة أعداء الدين ابتغاء مرضاتنا لنهدينهم طريق السير إلينا ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ أي مع المؤمنين بالنصر والعون .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - التحضيض ﴿لولا أنزل عليه آياتٌ من ربه﴾ .
- ٢ - الطباق ﴿آمنا بالباطل وكفروا بالله﴾ .
- ٣ - إفادة القصر ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ أي لا غيرهم .
- ٤ - الإطناب بذكر العذاب مراتٍ للتشجيع على المشركين ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل

﴿مسمى﴾ ﴿يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم﴾ ﴿يوم يغشاهم العذاب﴾ الخ .

٥ - الإضافة للتشريف والتكريم ﴿يا عبادي الذين آمنوا﴾ .

٦ - الطباق ﴿يسط الرزق . . ويقدر﴾ ومثله ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ .

٧ - المجاز العقلي ﴿حرماً آمناً﴾ أي آمناً أهله .

٨ - التشبيه البليغ ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب﴾ أي كاللهو وكاللعب حذف أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً على حد قولهم : « زيدٌ أسد » .

٩ - الإيجاز بحذف جواب الشرط لدلالة السياق عليه ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي لو كانوا يعلمون لما آثروا الدنيا على الآخرة ، ولا الفانية على الباقية .

١٠ - مراعاة الفواصل لما لها من وقع عظيم على السمع يزيد الكلام رونقاً وجمالاً مثل ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ﴿إذا هم يشركون﴾ الخ .

تنبية : لا ينبغي لمسلم أن يبقى بأرض لا يتيسر له فيها عبادة الله ، فأرض الله واسعة ، وقد أشارت الآيات إلى وجوب الهجرة إلى دار الإسلام وكما قيل « وكل مكان يُنبت العزْطِيب » .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة العنكبوت »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الروم مكية ، وأهدافها نفس أهداف السور المكية ، التي تعالج قضايا العقيدة الإسلامية في إطارها العام وميدانها الفسيح « الإيمان بالوحدانية ، وبالرسالة ، وبالبعث والجزاء » .

* ابتدأت السورة الكريمة بالتنبؤ عن حدثٍ غيبي هام ، أخبر عنه القرآن الكريم قبل حدوثه ، ألا وهو انتصار الروم على الفرس في الحرب التي ستقع قريباً بينهما ، وقد حدث كما أخبر عنه القرآن ، وبذلك تحققت النبوءة ، وذلك من أظهر الدلائل على صدق محمد ﷺ فيما جاء به من الوحي ، ومن أعظم معجزات القرآن .

* ثم تحدثت السورة عن حقيقة المعركة بين حزب الرحمن ، وحزب الشيطان ، وأنها معركة قديمة قدم هذه الحياة ، فالحرب لا تهدأ ما دام هناك حقٌّ وباطل ، وخير وشرٌّ ، وما دام الشيطان يحشد أعوانه وأنصاره لإطفاء نور الله ، ومحاربة دعوة الرسل الكرام ، وقد ساقَت الآيات دلائل وشواهد على انتصار الحق على الباطل ، في شتَّى العصور والدهور ، وتلك هي سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

* ثم تناولت السورة الحديث عن الساعة والقيامة ، وعن المصير المشؤم لأهل الكفر والضلال في ذلك اليوم العصيب ، حيث يكون المؤمنون في روضاتٍ يُحسبون ، ويكون المجرمون في العذاب محضرين ، وتلك نهاية المطاف للأبرار والفجار ، والعاقبة المؤكدة للمحسنين والمجرمين .

* وتناولت السورة بعد ذلك بعض المشاهد الكونية ، والدلائل الغيبية ، الناطقة بقدرة الله ووحدانيته لإقامة البرهان على عظمة الواحد الديان ، الذي تخضع له الرقاب ، وتعنوله الوجوه ، وضربت بعض الأمثلة للتفريق والتمييز بين من يعبد الرحمن ، وبين من يعبد الأوثان .

* وختمت السورة بالحديث عن كفار قريش ، إذ لم تفعمهم الآيات والنذر ومهما رأوا من الآيات الباهرة ، والبراهين الساطعة ، لا يعتبرون ولا يتعظون ، لأنهم كالموتى لا يسمعون ولا يبصرون ، وكلُّ ذلك بقصد التسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين ، والصبر حتى يأتي النصر .

التسمية : سميت «سورة الروم» لذكر تلك المعجزة الباهرة ، التي تدل على صدق أنباء

القرآن العظيم ﴿آلَمَ﴾ غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ﴿وتلك هي بعض معجزات القرآن .

قال الله تعالى : ﴿آلَمَ . غلبت الروم في أدنى الأرض . . إلى . . وكذلك تُخرجون﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (١٩) .

اللغز: ﴿يُغلبون﴾ يهزمون ويُقهرون ﴿أثاروا الأرض﴾ حرثوها وقلبوها للزراعة ﴿السُّوءى﴾ تأنيث الأسوء وهو الأقبح كما أن الحسنى تأنيث الأحسن ، والسُّوءى : العقوبة المتناهية في السوء ﴿يُحبرون﴾ يُسرون يقال : حبره إذا سره سروراً تهللاً له وجهه وظهر عليه أثره قال الجوهري : الحبور : السرور ، ويحبرون : يُنعمون ويُسرون ﴿عشياً﴾ العشي : من صلاة المغرب إلى العتمة ﴿تُظهِرون﴾ تدخلون وقت الظهر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

آلَمَ ﴿١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾

التفسير: ﴿آلَمَ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن^(١) ﴿غلبت الروم في أدنى الأرض﴾ أي هُزم جيش الروم في أقرب أرضهم إلى فارس ﴿وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ أي وهم من بعد انهزامهم وغلبة فارس لهم سيغلبون الفرس ويتنصرون عليهم ﴿في بضع سنين﴾ أي في فترة لا تتجاوز بضعة أعوام ، والبضع : ما بين الثلاث إلى التسع قال المفسرون : كان بين فارس والروم حربٌ ، فغلبت فارس الروم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فشق ذلك عليهم ، وفرح المشركون بذلك لأن أهل فارس كانوا مجوساً ولم يكن لهم كتاب ، والروم أصحاب كتاب فقال المشركون لأصحاب رسول الله ﷺ إنكم أهل كتاب ، والروم أهل كتاب ، ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ، فلنظهِرَنَّ عليكم فقال أبو بكر : لا يقرُّ الله أعينكم فأنزل الله ﴿وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾ وقد التقى الجيشان في السنة السابعة من الحرب ، وغلبت الروم فارس وهزمتهم ، وفرح المسلمون بذلك قال أبو السعود : وهذه الآيات من البينات الباهرة ، الشاهدة بصحة النبوة ، وكون القرآن من عند الله عز وجل حيث أخبر عن الغيب الذي لا يعلمه إلا العليم الخبير ، ووقع كما أخبر^(٢) ، وقال البيضاوي : والآية من دلائل النبوة لأنها إخبارٌ عن الغيب^(٣) ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ أي لله عز وجل الأمر أولاً وآخرأ ، من قبل الغلبة ومن بعد الغلبة ، فكل ذلك بأمر الله وإرادته ، ليس شيء منها إلا بقضائه قال ابن الجوزي : المعنى إن غلبة الغالب ، وخذلان المغلوب ، بأمر الله وقضائه^(٤) ﴿ويومئذٍ يفرح المؤمنون

(١) انظر ما كتبه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة من كتابنا هذا . (٢) أبو السعود ٤/١٧٦ . (٣) البيضاوي ٢/١٠٣ .

يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾
يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا

بنصر الله ﴿٥﴾ أي ويوم يهزم الروم الفرس ويتغلبون عليهم ، ويجل ما وعده الله من غلبتهم يفرح المؤمنون بنصر الله لأهل الكتاب على المجوس ، لأن أهل الكتاب أقرب الى المؤمنين من المجوس ، وقد صادف ذلك اليوم يوم غزوة بدر قال ابن عباس : كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان ، وعبدة النيران ﴿٦﴾ ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴿٥﴾ أي ينصر من يشاء من عباده ، وهو العزيز بانتقامه من أعدائه ، الرحيم بأوليائه وأحبابه ﴿٦﴾ وعد الله لا يخلف الله وعده ﴿٥﴾ أي ذلك وعد مؤكد وعد الله به فلا يمكن أن يتخلف ، لأن وعده حق وكلامه صدق ﴿٥﴾ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٦﴾ أي لا يعلمون ذلك لجهلهم وعدم تفكيرهم ﴿٦﴾ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴿٦﴾ أي يعلمون أمور الدنيا ومصالحها وما يحتاجون إليه فيها من أمور الحياة كالزراعة والتجارة والبناء ونحو ذلك قال ابن عباس : يعلمون أمر معاشهم متى يزرعون ، ومتى يحصدون ، وكيف يفرسون ، وكيف بينون ^(١) ﴿٦﴾ وهم عن الآخرة هم غافلون ﴿٦﴾ أي وهم عمي عن أمر الآخرة ، ساهون غافلون عن التفكير فيها والعمل لها قال الإمام الفخر : ومعنى الآية أن علمهم منحصر في الدنيا ، وهم مع ذلك لا يعلمون الدنيا كما هي وإنما يعلمون ظاهرها ، وهي ملاذها وملاعبها ، ولا يعلمون باطنها وهي مضارها ومتاعبها ، ويعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها وهم عن الآخرة غافلون ^(٢) ، ولعل في التعبير بقوله ﴿٦﴾ ظاهراً ﴿٦﴾ إشارة الى أنهم عرفوا القشور ، ولم يعرفوا اللباب فكان علومهم إنما هي علوم البهائم ﴿٦﴾ أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ﴿٦﴾ أي أولم يتفكروا بعقولهم فيعلموا أن الله العظيم الجليل ما خلق السموات والأرض عبثاً ، وإنما خلقها بالحكمة البالغة لإقامة الحق لوقت ينتهيان إليه وهو يوم القيامة ؟ قال القرطبي : وفي هذا تنبيه على الفناء ، وعلى أن لكل مخلوق أجلاً ، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء ^(٣) ﴿٦﴾ وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون ﴿٦﴾ أي وأكثر الناس منكرون جاحدون للبعث والجزاء ﴿٦﴾ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴿٦﴾ أي أولم يسافروا فينظروا مصارع الأمم قبلهم كيف أهلكوا بتكذيبهم رسلهم فيعتبروا !! ﴿٦﴾ كانوا أشد منهم قوة ﴿٦﴾ أي كانوا أقوى منهم أجساداً ، وأكثر أموالاً وأولاداً ﴿٦﴾ وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ﴿٦﴾ أي وحرثوا الأرض للزراعة ، وحفروها لاستخراج المعادن ، وعمروها بالأبنية المشيدة ، والصناعات الفريدة أكثر مما

أَكْثَرِ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ
 الَّذِينَ أَسْتَوُوا السُّوْءَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
 تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ
 كَافِرِينَ ﴿١٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ
 يُحْبَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٧﴾ فَسُبْحَانَ

عمرها هؤلاء قال البيضاوي : وفي الآية تهكم بأهل مكة من حيث إنهم مغترون بالدنيا ، مفتخرون بها ،
 وهم أضعف حالاً فيها ، إذ مدار أمرها على السعة في البلاد ، والتسلط على العباد ، والتصرف في أقطار
 الأرض بأنواع العمارة ، وهم ضعفاء ملجئون الى دار لا نفع فيها^(١) ﴿وجاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي
 وجاءتهم الرسل بالمعجزات الواضحات والآيات البينات فكذبوهم ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ أي فما
 كان الله ليهلكهم بغير جرم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر
 والتكذيب فاستحقوا الهلاك والدمار ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السُّوْءَى﴾ أي ثم كان عاقبة المجرمين
 العقوبة التي هي أسوأ العقوبات وهي نار جهنم ﴿أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾ أي
 لأجل أنهم كذبوا بآياتنا المنزلة على رسلنا واستهزءوا بها ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي الله جل وعلا
 بقدرته ينشئ خلق الناس ثم يعيد خلقهم بعد موتهم ﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي ثم إليه مرجعكم
 للحساب والجزاء ﴿ويوم تقوم الساعة يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي ويوم تقوم القيامة ويُحْشَرُ النَّاسُ
 للحساب يسكت المجرمون وتقطع حجتهم ، فلا يستطيعون أن ينسوا بينت شفة قال ابن عباس :
 ﴿يبلس المجرمون﴾ يبأس المجرمون ، وقال مجاهد : يفتضح المجرمون قال القرطبي : والمعروف في
 اللغة : أبلس الرجل إذا سكت وانقطعت حجته^(٢) ﴿ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء﴾ أي ولم يكن
 لهم من الأصنام التي عبدوها شفعاء يشفعون لهم ﴿وكانوا بشركائهم كافرين﴾ أي تبرءوا منها وتبرأت
 منهم ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذٍ يتفرقون﴾ كرر لفظ قيام الساعة للتهويل والتخويف لأن قيام الساعة
 أمر هائل أي ويوم تقوم القيامة يومئذٍ يتفرق المؤمنون والكافرون ، ويصبحون فريقين : فريق في الجنة ،
 وفريق في السعير ، ولهذا قال ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي فأما المؤمنون المتقون الذين
 جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فهم في روضةٍ يُحْبَرُونَ﴾ أي فهم في رياض الجنة يُسْرُونَ
 وينعمون ﴿وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة﴾ أي وأما الذين جحدوا بالقرآن وكذبوا بالبعث بعد
 الموت ﴿فأولئك في العذاب محضرون﴾ أي فأولئك في عذاب جهنم مقيمون على الدوام ﴿فسبحان الله
 حين تمسون وحين تصبحون﴾ أي سبحوا الله ونزهوه عما لا يليق به من صفات النقص ، حين تدخلون

اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿٨﴾
يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُونَ ﴿٩﴾

في المساء ، وحين تدخلون في الصباح ﴿وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون﴾ أي وهو جل وعلا المحمود في السموات والأرض قال ابن عباس : يحمده أهل السموات وأهل الأرض ويصلون له^(١) ، قال المفسرون : ﴿وله الحمد في السموات والأرض﴾ جملة اعتراضية وأصل الكلام : ﴿فسبحان الله حين تُمسون وحين تصبحون * وعشياً وحين تظهرون﴾ والحكمة في ذلك الإشارة الى أن التوفيق للعبادة نعمة ينبغي أن يحمد عليها ، والعشي : من صلاة المغرب الى العتمة ، ﴿وتظهرون﴾ أي تدخلون وقت الظهر ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والنبات من الحب ، والحب من النبات ، والحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي ويحيي الأرض بالنبات بعد يبسها وجدبها ﴿وكذلك نُخْرِجُونَ﴾ أي كما يخرج الله النبات من الأرض كذلك يخرجكم من قبوركم للبعث يوم القيامة ، قال القرطبي : بين تعالى كمال قدرته ، فكما يحيي الأرض بإخراج النبات بعد همودها كذلك يحييكم بالبعث^(٢) .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿غلبت .. ويغلبون﴾ وبين ﴿قبل .. وبعد﴾ .
- ٢ - طباق السلب ﴿لا يعلمون .. يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ .
- ٣ - صيغة المبالغة ﴿وهو العزيز الرحيم﴾ أي المبالغ في العزة ، والمبالغ في الرحمة .
- ٤ - تكرير الضمير لإفادة الحصر ﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ ووردوها اسمية للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها .
- ٥ - الإنكار والتوبيخ ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا﴾ الآية .
- ٦ - جناس الاشتقاق ﴿أساءوا السوءى﴾ .
- ٧ - الطباق بين ﴿بيديء .. ويعيد﴾ وبين ﴿تُمسون .. وتصبحون﴾ .
- ٨ - المقابلة بين حال السعداء والأشقياء ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضةٍ يُحْبَرُونَ . وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون﴾ .
- ٩ - الاستعارة اللطيفة ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ استعار الحي للمؤمن ، والميت للكافر ، وهي استعارة في غاية الحسن والإبداع والجمال .

١٠ - مراعاة الفواصل في الحرف الأخير لما له من أجمل الوقع على السمع مثل ﴿ثم إليه ترجعون﴾
﴿في روضة يجبرون﴾ ﴿في العذاب محضرون﴾ .

لطيفة : قال الزمخشري : دلّ قوله تعالى ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ على أن للدنيا ظاهراً وباطناً ، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها ، والتنعم بملاذها ، وباطنها وحقيقتها أنها معبرٌ للأخرة ، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة^(١) . ولقد أحسن من قال :

أبنيّ إن من الرجال بهيمةً في صورة الرجل السميع المبصر
فطنٌ بكل مصيبةٍ في ماله فإذا أُصيب بدينه لم يشعر

قال الله تعالى : ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب .. إلى .. سبحانه وتعالى عما يُشركون﴾
من آية (٢٠) إلى نهاية آية (٤٠) .

المناسبة : لما ذكر تعالى أحوال الناس في الآخرة ، وقدرته على البدء والإعادة ، ذكر هنا الأدلة على الربوبية والوحدانية ، في خلق البشر ، واختلاف الألسنة والصور ، وإحياء الأرض بالمطر ، وفي قيام الناس ومنامهم ، ثم ضرب الأمثال للمشركين في عبادتهم لغير الله مع أنه وحده الخالق الرازق .

اللغة : ﴿آياته﴾ جمع آية وهي العلامة على الربوبية والوحدانية ﴿تنتشرون﴾ تتصرفون في شؤون معاشكم ﴿لتسكنوا إليها﴾ لتميلوا إليها وتألّفوها ﴿قانتون﴾ مطيعون منقادون لإرادته ﴿المثل الأعلى﴾ الوصف الأعلى في الكمال والجلال ﴿القيم﴾ المستقيم الذي لا عوج فيه ﴿منيبين﴾ الإجابة : الرجوع بالتوبة والإخلاص .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ

النفسير : ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾ أي ومن آياته الباهرة الدالة على عظمته وكمال قدرته أن خلق أصلكم « آدم » من تراب ، وإنما أضاف الخلق إلى الناس ﴿خلقكم﴾ لأن آدم أصل البشر ﴿ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرون﴾ أي ثم أنتم تتطورون من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى بشر عقلاء ، تتصرفون فيما هو قوام معاشكم قال ابن كثير : فسبحان من خلقهم وسيّرهم وسخرهم وصرّهم في فنون المعاش والمكاسب ، وفاوت بينهم في العلوم والفكر ، والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة^(٢) ! ! ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي من آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته أن خلق لكم من صنفكم وجنسكم نساءً آدميات مثلكم ، ولم يجعلهن من جنسٍ آخر قال ابن كثير : ولو أنه تعالى جعل الإناث من جنسٍ آخر ، من جان أو حيوان ، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين

أَزْوَاجًا لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ ۗ
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفُ الْأَسْنَتِكُمْ وَالْوَأْنِكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ ۗ
مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ ۗ يُرِيكُمُ
الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ ۗ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۗ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ

الأزواج ، بل كانت تحصل النفرة ، وذلك من تمام رحمته ببني آدم ^(١) ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ أي لتميلوا إليهن وتألفوهن ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ أي وجعل بين الأزواج والزوجات محبة وشفقة قال ابن عباس : المودة : حب الرجل امرأته ، والرحمة شفقة عليه أن يصيبها بسوء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾ أي إن فيما ذكر لعبراً عظيمة لقوم يتفكرون في قدرة الله وعظمته ، فيدركون حكمته العلية ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ أي ومن آياته العظيمة الدالة على كمال قدرته خلق السموات في ارتفاعها واتساعها ، وخلق الأرض في كثافتها وانخفاضها ، واختلاف اللغات من عربية وعجمية ، وتركية ، ورومية ، واختلاف الألوان من أبيض وأسود وأحمر ، حتى لا يشبه شخص بشخص ، ولا إنسان بإنسان ، مع أنهم جميعاً من ذرية آدم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ للعالمين﴾ أي لمن كان من ذوي العلم والفهم والبصيرة ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار﴾ أي ومن آياته الدالة على كمال قدرته نومكم في ظلمة الليل ، ووقت الظهيرة بالنهار راحة لأبدانكم ﴿وابتغواكم من فضله﴾ أي وطلبكم للرزق بالنهار ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لقوم يسمعون﴾ أي يسمعون سماع تفهم واستبصار ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ أي ومن آياته العظيمة الدالة على قدرته ووحدانيته أنه يريكم البرق خوفاً من الصواعق ، وطمعاً في الغيث والمطر قال قتادة : خوفاً للمسافر ، وطمعاً للمقيم ^(٢) ﴿وينزل من السماء ماءً فيحیی به الأرض بعد موتها﴾ أي وينزل المطر من السماء فينبت به الأرض بعد أن كانت هامدة جامدة لا نبات فيها ولا زرع ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لقوم يعقلون﴾ أي إن في ذلك المذكور لعبراً وعظات لقوم يتدبرون بعقولهم آلاء الله ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾ أي ومن آياته الباهرة الدالة على عظمته أن تستمسك السموات بقدرته بلا عمد ، وأن تثبت الأرض بتدبيره وحكمته فلا تنكفيء بسكانها ولا تنقلب بأهلها ﴿ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ أي ثم إذا دعيتم إلى الخروج من القبور ، إذا أنتم فوراً تخرجون للجزاء والحساب ، لا يتأخر خروجكم طرفة عين قال المفسرون : وذلك حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية ويقول : يا أهل القبور قوموا ، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين ، إلا قامت تنظر ^(٣) ﴿وله من في السموات والأرض﴾ أي وله جل

﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ
 وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ
 مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَارْزَقِنَاكُمْ فَآتَمَّ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ تَخِيفَتَكُمْ أَنفُسُكُمْ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ
 لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾

وعلا كل من في السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن ملكاً وخلقاً وتصرفاً لا يشاركه فيها أحد ﴿كل له قانتون﴾ أي جميعهم خاشعون خاضعون منقادون لأمره تعالى ﴿وهو الذي بدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي وهو تعالى ينشئ الخلق من العدم ، ثم يعيدهم بعد موتهم للحساب والجزاء ﴿وهو أهون عليه﴾ أي إعادة الخلق أهون عليه من بدئه قال ابن عباس : يعني أيسر عليه ، وقال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البداية ، والبداة عليه هيئة^(١) قال المفسرون : خاطب تعالى العباد بما يعقلون ، فإذا كانت الإعادة أسهل من الابتداء في تقديركم وحكمكم ، فإن من قدر على الإنشاء كان البعث أهون عليه حسب منطقتكم وأصولكم^(٢) ﴿وله المثل الأعلى﴾ أي له الوصف الأعلى الذي ليس لغيره ما يدانيه فيه من الجلال والكمال ، والعظمة والسلطان ﴿في السموات والأرض﴾ أي يصفه به من فيهما وهو أنه الذي ليس كمثل شيء ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي القاهر لكل شيء الحكيم الذي كل أفعاله على مقتضى الحكمة والمصلحة ، ثم وضَّح تعالى بطلان عبادتهم للأوثان بمثل فقال : ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم﴾ أي ضرب لكم أيها القوم ربكم مثلاً واقعياً من أنفسكم ﴿هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم﴾ أي هل يرضى أحدكم أن يكون عبده ومملوكه شريكاً له في ماله الذي رزقه الله تعالى ؟ فإذا لم يرض أحدكم لنفسه ذلك فكيف ترضون لله شريكاً له وهو في الأصل مخلوق وعبد لله ؟ ﴿فأنتم فيه سواء تخافونهم كما تخافون الأحرار مثلكم ، وأنتم لا ترضون أن يكون عبيدكم شركاء لكم في أموالكم ، فكيف رضيتم لله شريكاً في خلقه وملكه ؟﴾ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴿أي مثل ذلك البيان الواضح نبين الآيات لقوم يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال﴾ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ﴿بل للإضراب أي ليس لهم حجة ولا معذرة في إشراكهم بالله بل ذلك بمجرد هوى النفس بغير علم ولا برهان قال القرطبي : لما قامت عليهم الحجة ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم في عبادتها ، وتقليد الأسلاف في ذلك^(٣) ﴿فمن يهدي من أضل الله﴾ أي لا أحد يستطيع أن يهدي من أراد الله إضلاله ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ليس لهم من عذاب الله منقذ ولا ناصر ﴿فأقم وجهك

(١) مختصر ابن كثير ٥٢/٣ . (٢) هذا قول، وذهب بعض المفسرين إلى أن الفعل التفضيل ليس على بابه فيكون معنى «أهون» أي وهو هين عليه . (٣) القرطبي ٢٣/١٤ .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ لِلدِّينِ ﴿٣٤﴾ أَي أَخْلَصَ دِينَكَ لِلَّهِ وَأَقْبَلَ عَلَى الْإِسْلَامِ بِهَيْمَةٍ وَنَشَاطٍ ﴿حَنِيفًا﴾ أَي مَائِلًا عَنْ كُلِّ دِينٍ بَاطِلٍ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ وَهُوَ الْإِسْلَامُ ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أَي هَذَا الدِّينُ الْحَقُّ الَّذِي أَمْرُنَاكَ بِالْإِسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ هُوَ خَلْقَةُ اللَّهِ الَّتِي خَلَقَ النَّاسَ عَلَيْهَا وَهُوَ فِطْرَةُ التَّوْحِيدِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ) ^(١) الْحَدِيثُ ﴿لَا تَبْدِيلَ لِمَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ أَي لَا تَغْيِيرَ لِتِلْكَ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ مِنْ جِهَتِهِ تَعَالَى قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ : لَفْظُهُ لَفْظُ النَّفْسِيِّ وَمَعْنَاهُ النَّهْيُ أَي لَا تَبْدَلُوا خَلْقَ اللَّهِ فَتَغْيِرُوا النَّاسَ عَنْ فِطْرَتِهِمُ الَّتِي فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا ^(٢) ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أَي ذَلِكَ هُوَ الدِّينُ الْمُسْتَقِيمُ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَي أَكْثَرَ النَّاسِ جَهْلَةٌ لَا يَتَفَكَّرُونَ فَيَعْلَمُونَ أَنَّ لَهُمْ خَالِقًا مَعْبُودًا ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أَي أَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ حَالِ كُونِكُمْ مُنِيبِينَ إِلَى رَبِّكُمْ أَي رَاجِعِينَ إِلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ ، وَخَافُوهُ وَرَاقِبُوهُ فِي أَقْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِي اللَّهُ ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أَي وَلَا تَكُونُوا مِمَّنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَعَبَدَ غَيْرَهُ ثُمَّ فَسَّرَهُمْ بِقَوْلِهِ ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾ أَي مِنَ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي دِينِهِمْ وَغَيَّرُوهُ وَبَدَّلُوهُ فَأَصْبَحُوا شِيعًا وَأَحْزَابًا ، كُلُّ يَتَعَصَّبُ لِدِينِهِ ، وَكُلُّ يَعْجَبُ بِهَوَاهُ ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أَي كُلُّ جَمَاعَةٍ وَفِرْقَةٍ مَتَمَسِّكُونَ بِمَا أَحْدَثُوهُ ، مَسْرُورُونَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ الْمَعْوَجِّ ، يَحْسِبُونَ بِاطْلَهُمْ حَقًّا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَي لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ أَي بَدَّلُوهُ وَغَيَّرُوهُ ، وَأَمَّنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ ، كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، وَسَائِرِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ - مِمَّا عَدَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ - فَأَهْلُ الْأَدْيَانِ قَبْلَنَا اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى آرَاءٍ وَمَذَاهِبٍ بَاطِلَةٍ ، وَكُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ تَزْعُمُ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ^(٣) ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ أَي وَإِذَا أَصَابَ النَّاسَ شِدَّةٌ وَفَقْرٌ وَمَرَضٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ ﴿دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أَي أَفْرَدُوهُ تَعَالَى بِالتَّضَرُّعِ وَالدَّعَاءِ لِيَنْجُوا مِنْ ذَلِكَ الضَّرِّ ، وَتَرَكَوْا أَصْنَافَهُمْ لِعَلْمِهِمْ أَنَّهُ لَا يَكْشِفُ الضَّرَّ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِتَابَةٌ وَخُضُوعٌ ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أَي ثُمَّ إِذَا أَعْطَاهُمُ السَّعَةَ وَالرِّخَاءَ وَالصَّحَّةَ وَخَلَّصَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الضَّرِّ وَالشَّدَّةِ ، إِذَا جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَالْغَرَضُ مِنَ الْآيَةِ التَّشْنِيعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، فَإِنَّهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ فِي الشَّدَائِدِ ، وَيُشْرِكُونَ بِهِ فِي الرِّخَاءِ ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَمْرٌ عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ أَي لِيَكْفُرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ ، وَلِيَتَمَتَّعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ عَاقِبَةُ

تَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأَوْلَىٰكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لَّيْرُبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرُبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٢٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يَرْجِعْكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ إِنَّ رَبَّكُمْ لَخَبِيرٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٠﴾

تمتعكم بزيينة الحياة ونعيمها الفاني ﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى : هل أنزلنا على هؤلاء المشركين حجة واضحة قاهرة على شركهم ، أو كتاباً من السماء فهو ينطق ويشهد بشركهم وبصحة ما هم عليه ؟ ليس الأمر كما يتصورون ، والمراد ليس لهم حجة بذلك ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها﴾ أي وإذا أنعمنا على الناس بالخصب والسعة والعافية استبشروا وسروا بها ﴿وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾ أي وإن أصابهم بلاء وعقوبة بسبب معاصيهم إذا هم يياسون من الرحمة والفرج قال ابن كثير : وهذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ، إذا أصابته نعمة بطر ، وإذا أصابته شدة قنط وأيس^(١) ﴿أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي أولم يروا قدرة الله في البسط والقبض ، وأنه تعالى يوسع الخير في الدنيا لمن يشاء ويضيّق على من يشاء ؟ فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط من رحمته تعالى ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون﴾ أي إن في المذكور لدلالة واضحة على قدرة الله لقوم يصدقون بحكمة الخالق الرازق ﴿فآت ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أي فأعط القريب حقه من البر والصلة وكذلك المسكين والمسافر الذي انقطع في سفره اعطه من الصدقة والإحسان قال القرطبي : لما تقدم أنه سبحانه يبسط الرزق ويقدر ، أمر من وسّع عليه الرزق أن يعطي الفقير كفايته ، ليمتحن شكر الغني ، والخطاب للنبي عليه السلام والمراد هو وأمته^(٢) ﴿ذلك خيرٌ للذين يريدون وجه الله﴾ أي ذلك الإيتاء والإحسان خيرٌ للذين يتغنون بعملهم وجه الله ويريدون ثوابه ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية ﴿وما آتيتم من ربٍّ ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله﴾ أي وما أعطيتم من أموالكم يا معشر الأغنياء على وجه الربا ليزيد مالكم ويكثر به ، فلا يزيد ولا يركو ولا يضاعف عند الله لأنه كسبٌ خبيث لا يبارك الله فيه قال الزمخشري : هذه الآية كقوله تعالى ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ سواءً بسواء^(٣) ﴿وما آتيتم من زكاةٍ تريدون وجه الله﴾ أي وما أعطيتم من صدقةٍ أو إحسان خالصاً لوجه الله الكريم ﴿فأولئك هم المضعفون﴾ أي فأولئك هم الذين لهم الضعف من الأجر والثواب ، الذين تضاعف لهم الحسنات ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي الله جل وعلا هو الخالق الرازق

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٥٥ (٢) القرطبي ١٤/ ٣٥ (٣) الكشاف ٣/ ٣٧٩ .

ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾

للعباد ، يُخْرِجُ الْإِنْسَانَ مِنْ بطن أمه عُرْيَانًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا سَمْعَ وَلَا بَصَرَ ، ثم يرزقه بعد ذلك المال والمتاع والأُمَلَاكُ ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي ثم يميتكم بعد هذه الحياة ، ثم يحييكم يوم القيامة ، ليجازيكم على أعمالكم ﴿هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء؟﴾ أي هل يستطيع أحد ممن تعبدونهم من دون الله أن يفعل شيئاً من ذلك ؟ بل الله تعالى هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي تنزهه جل وعلا وتقدس عن أن يكون له شريك أو مثيل ، أو ولد أو والد ، وتعالى عما يقول المشركون علواً كبيراً .

البلاغه : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين قوله ﴿خَوْفًا .. وطمعاً﴾ وبين ﴿ييسط .. ويقدر﴾ وبين ﴿يميتكم .. ويحييكم﴾ وبين ﴿يبدء .. ويعيد﴾ .

٢ - جناس الاشتقاق ﴿دعاكم دعوة﴾ ﴿فطرة الله التي فطر﴾ .

٣ - المقابلة بين قوله ﴿وإذا أذقنا الناس رحمةً فرحوا بها﴾ وبين ﴿وإن نُصِيبهم سيئةً بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾ .

٤ - المجاز المرسل ﴿فأقم وجهك﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي توجه إلى الله بكتلتك .

٥ - السجع المرصع كأنه الدر المنظوم مثل ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم .. الخ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس .. إلى .. ولا يستخفنك

الذين لا يوقنون﴾

من آية (٤١) إلى نهاية آية (٦٠) .
المناسكة : لما شنع على المشركين في عبادتهم لغير الله ، ذكر في هذه الآيات الأسباب الموجبة للمحنة والابتلاء وهي الكفر ، وانتشار المعاصي ، وكثرة الفجور والموبقات ، التي بسببها تقل الخيرات وترتفع البركات ، وضرب الأمثال بهلاك الأمم السابقة ، تنبيهاً لقريش وأمرأهم بالاعتبار بمن سبقهم من المشركين المكذبين كيف أهلكهم الله بسبب طغيانهم وإجرامهم .

اللغز : ﴿يصدعون﴾ يتفرقون يقال : تصدع القوم إذا تفرقوا ومنه الصداع لأنه يفرق شعب الرأس ﴿يمهدون﴾ يجعلون لهم مهذاً ويوطنون لهم مسكناً ، والمهاد : الفراش ﴿كسفاً﴾ جمع كسفة وهي القطعة ﴿الودق﴾ المطر ﴿مبلسين﴾ يائسين مكتئبين قد ظهر الحزن عليهم من شدة اليأس ﴿يؤفكون﴾ يصرفون ، والإفك : الكذب ﴿يستعقبون﴾ يقال : استعقبته فأعقبني أي استرضيته فأرضاني .

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾
 قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
 الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا
 فَلَا نَفْسَهُ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ؕ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾
 وَمِنْ ءَايَاتِهِ ؕ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ؕ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ ؕ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ؕ

النَّفْسِيرُ : ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ أي ظهرت البليات والنكبات في بر الأرض وبحرها بسبب معاصي الناس وذنوبهم قال البيضاوي : المراد بالفساد الجذب وكثرة الحرق والغرق ، ومحق البركات ، وكثرة المضار بشؤم معاصي الناس أو بكسبهم إياه^(١) وقال ابن كثير : أي انّ النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة^(٢) ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾ أي ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بها جميعاً في الآخرة ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي لعلهم يتوبون ويرجعون عما هم عليه من المعاصي والآثام ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين : سيروا في البلاد فانظروا الى مساكن الذين ظلموا كيف كان آخر أمرهم وعاقبة تكذيبهم للرسل ، ألم يخرب الله ديارهم ويجعلهم عبرة لمن يعتبر ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ أي كانوا كافرين بالله فأهلكوا ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ أي فتوجه بكليتك الى الدين المستقيم دين الإسلام ، واستقم عليه في حياتك قال القرطبي : أي أقم قصدك واجعل جهتك اتباع الدين القيم يعني الإسلام^(٣) ﴿من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾ أي من قبل أن يأتي ذلك اليوم الرهيب ، الذي لا يقدر أحد على رده ، لأن الله قضى به وهو يوم القيامة ﴿يومئذ يصدعون﴾ أي يومئذ يتفرقون ، فريق في الجنة وفريق في السعير ﴿من كفر فعليه كفره﴾ أي من كفر بالله فعليه أوزار كفره مع خلوده في النار المؤبدة ﴿ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾ أي ومن فعل خيراً وأطاع الله فلأنفسهم يقدمون الخير ويلقون ما تقربه أعينهم في دار النعيم قال القرطبي : أي يوطنون لأنفسهم في الآخرة فراشاً ومسكناً وقراراً بالعمل الصالح ، ومهدت الفراش أي بسطته ووطأته^(٤) ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله﴾ أي يمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله الذي وعد به عباده المتقين ﴿إنه لا يحب الكافرين﴾ أي لا يحب الكافرين بل يمتقهم ويغضهم ، يجازي المؤمنين بفضله ، والكافرين بعدله ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾ أي ومن آياته الدالة على كمال قدرته أن يرسل الرياح تسوق السحاب مبشرة بنزول المطر والإنبات والرزق ﴿وليذيقكم من رحمته﴾ أي ولينزل عليكم من رحمته الغيث الذي يحيي به البلاد والعباد ﴿ولتجري

(١) البيضاوي ١٠٦/٢ . (٢) مختصر ابن كثير ٥٧ . (٣) القرطبي ٤٢/١٤ . (٤) نفس المرجع السابق والصفحة .

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمْوٓآ
وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ
وَيَجْعَلُهُ كَسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۚ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ ۖ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ ۖ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾
وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ ۖ لُمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

الفلك بأمره ﴿٤٦﴾ أي ولتسير السفن في البحر عند هبوب الرياح بإذنه وإرادته ﴿٤٧﴾ ولتبتغوا من فضله ﴿٤٨﴾ أي
ولتطلبوا الرزق بالتجارة في البحر ﴿٤٩﴾ ولعلكم تشكرون ﴿٥٠﴾ أي ولتشكروا نعم الله الجليلة عليكم ﴿٤٦﴾ ولقد
أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم ﴿٤٧﴾ تسلياً للرسول وتأنيس له بقرب النصر أي ولقد أرسلنا من قبلك
يا محمد رسلاً كثيرين إلى قومهم المكذبين كما أرسلناك رسولاً إلى قومك ﴿٤٨﴾ فجاءهم بالبينات ﴿٤٩﴾ أي
جاءهم بالمعجزات الواضحات والحجج الساطعات الدالة على صدقهم ﴿٥٠﴾ فانتقمنا من الذين
أجروا ﴿٤٦﴾ أي فكذبوهم فانتقمنا من الكفرة المجرمين ﴿٤٧﴾ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴿٤٨﴾ أي كان حقاً
واجباً علينا أن نصر المؤمنين على الكافرين ، والآية اعتراضية جاءت بين الآيات المفصلة لأحكام الرياح
تسلياً للنبي عليه السلام قال أبو حيان: والآية اعتراض بين قوله ﴿٤٧﴾ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ﴿٤٨﴾
وبين قوله ﴿٤٩﴾ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً ﴿٥٠﴾ جاءت تأنيساً للرسول ﷺ وتسلياً له ، ووعداً له
بالنصر ، ووعداً لأهل الكفر^(١) ثم ذكر تعالى الحكمة من هبوب الرياح وهي إثارة السحب وإخراج الماء منه
فقال ﴿٤٩﴾ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً ﴿٥٠﴾ أي يبعث الرياح فتحرك السحاب وتسوقه أمامها
﴿٤٧﴾ فيبسطه في السماء كيف يشاء ﴿٤٨﴾ أي فينشره في أعالي الجو كيف يشاء خفيفاً أو كثيفاً ، مطبقاً أو غير
مطبق ﴿٤٩﴾ ويجعله كسفاً ﴿٥٠﴾ أي ويجعله أحياناً قطعاً متفرقة ﴿٤٧﴾ فتسرى الودق يخرج من خلاله ﴿٤٨﴾ أي فتري
المطر يخرج من بين السحاب ﴿٤٩﴾ فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴿٥٠﴾ أي فإذا أنزل ذلك
الغيث على من يشاء من خلقه إذا هم يسرون ويفرحون بالمطر ﴿٤٧﴾ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من
قبله لمبلسين ﴿٤٨﴾ أي وإن كانوا قبل نزول المطر عليهم يائسين قانطين ، قال البيضاوي : والتكرير للتأكيد
والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر واستحكام بأسهم^(٢) ﴿٤٩﴾ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض
بعد موتها ﴿٥٠﴾ أي فانظر أيها العاقل نظر تدبر واستبصار إلى ما ينشأ عن آثار نعمة الله بالمطر من خضرة
الأشجار ، وفتح الأزهار ، وكثرة الثمار ، وكيف أن الله يجعل الأرض تنبت بعد أن كانت هامدة جامدة ؟
﴿٤٧﴾ إن ذلك لمحيي الموتى ﴿٤٨﴾ أي إن ذلك القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد
موتهم ﴿٤٩﴾ وهو على كل شيء قدير ﴿٥٠﴾ أي مبالغ في القدرة على جميع الأشياء ، لا يعجزه شيء ﴿٤٧﴾ ولئن

وَلَيْنِ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ
الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾
* اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ ۗ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۗ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾
وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ

أرسلنا ريحاً فأراه مصفراً ﴿٥١﴾ أي ولئن أرسلنا على الزرع بعد خضرته وغموه ريحاً ضارة مفسدة فأراه الزرع مصفراً من أثر تلك الرياح ﴿لظلوا من بعده يكفرون﴾ أي لمكثوا بعد اصفراره يجحدون النعمة ، فشأنهم أنهم يفرحون عند الخصب ، فإذا جاءتهم مصيبة في زرعهم جحدوا سابق نعمة الله عليهم ، ثم نبه تعالى إلى أن هؤلاء الكفار كالأموات لا ينفع معهم نصيح ولا تذكير فقال ﴿فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولّوا مدبرين﴾ أي فإنك يا محمد لا تسمع الأموات ولا تسمع من كان في أذنيه صمم تلك المواعظ المؤثرة ، ولو أن أصم ولى عنك مدبراً ثم ناديته لم يسمع فكذلك الكافر لا يسمع ، ولا ينتفع بما يسمع قال المفسرون : هذا مثل ضربه الله للكفار فشبهم بالموتى وبالصم والعمى ﴿وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم﴾ أي ولست بمرشد من أعماه الله عن الهدى ﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ أي ما تسمع إلا من يصدق بآياتنا فهم الذين ينتفعون بالموعظة لخضوعهم وانقيادهم لطاعة الله ﴿اللله الذي خلقكم من ضعف﴾ أي الله الذي خلقكم أيها الناس من أصل ضعيف وهو النطفة ، وجعلكم تتقلبون في أطوار « الجنين ، الوليد ، الرضيع ، المفظوم » وهي أحوال في غاية الضعف ، فصار كأن الضعف مادة خلقتكم ﴿ثم جعل من بعد ضعف قوة﴾ أي ثم جعل من بعد ضعف الطفولة قوة الشباب ﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة﴾ أي ثم جعل من بعد قوة الشباب ضعف الهرم والشيخوخة ، ﴿يخلق ما يشاء﴾ أي يخلق ما يشاء من ضعف وقوة ، وشباب وشيب وهو العليم القدير ﴿أي وهو العليم بتدبير الخلق ، القدير على ما يشاء قال أبو حيان : وجعل الخلق من ضعف لكثرة ضعف الإنسان أول نشأته وطفولته ، ثم حال الشيخوخة والهرم ، والترداد في هذه الهيئات شاهد بقدرة الصانع وعلمه﴾ (١) ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ أي ويوم تقوم القيامة ويُبعث الناس للحساب يحلف الكافرون المجرمون بأنهم ما مكثوا في الدنيا غير ساعة قال البيضاوي : وإنما استقلوا مدة لبثهم في الدنيا بالنسبة الى مدة عذابهم في الآخرة أو نسياناً منهم (٢) ﴿كذلك كانوا يُؤفكون﴾ أي كذلك كانوا في الدنيا يصرفون من الحق الى الباطل ، ومن الصدق الى الكذب ﴿وقال الذين أُوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾ أي وقال العقلاء من أهل الإيمان

لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكُمْ إِذَا مَبْطُلُونَ ﴿٦٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٧٠﴾

والعلم رداً عليهم وتكذيباً لهم : لقد مكثتم فيما كتبه الله في سابق علمه إلى يوم البعث الموعود ﴿فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ أي فهذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه ، ولكنكم لم تصدقوا به لتفريطكم في طلب الحق واتباعه ، قال تعالى ﴿فيومئذٍ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾ أي ففي ذلك اليوم لا ينفع الظالمين اعتذارهم ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة أو طاعة ، لأنه قد ذهب أوان التوبة ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي ولقد بينا في هذا القرآن العظيم ما يحتاج الناس إليه من المواعظ والأمثال والأخبار والعبر عما يوضح الحق ويزيل اللبس ﴿ولئن جئتهم بآية ليقولنَّ الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾ أي والله لئن جئتهم يا محمد بما اقترحوا من الآيات كالعصا والناقة واليد ليقولنَّ المشركون من قومك لفرط عنادهم ما أنت وأصحابك إلا قوم مبطلون ، تُدجلون علينا وتكذبون ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾ أي مثل ذلك الطبع على قلوب الجهلة المجرمين ، يحتم الله على قلوب الكفرة الذين لا يعلمون توحيد الله ولا صفاته ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ أي فاصبر يا محمد على تكذبيهم وأذاهم فإن وعد الله بنصرتك وإظهار دينك حق لا بد من إنجازهِ ﴿ولا يستخفَّنك الذين لا يوقنون﴾ أي لا يحملنك على الخفة والقلق جزعاً عما يقوله أولئك الضالون الشاكون ، ولا تترك الصبر بسبب تكذبيهم وإيذائهم .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين ﴿البر . . والبحر﴾ .

٢ - المجاز المرسل باطلاق الجزء وإرادة الكل ﴿بما كسبت أيدي الناس﴾ .

٣ - جناس الاشتقاق ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ .

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿فلأنفسهم يمهدون﴾ شبه من قدم الأعمال الصالحة بمن يمهده فراشه ويوطئه للنوم عليه لثلا يصيبه في مضجعه ما يؤذيه وينغص عليه مرقده .

٥ - أسلوب الإطناب ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ، وليذيقكم من رحمته . .﴾ الآية وذلك لتعداد النعم الكثيرة وكان يكفي أن يقول : ﴿لتبتغوا من فضله﴾ ولكنه أسهب تذكيراً للعباد بالنعم

٦ - جناس الاشتقاق ﴿أرسلنا من قبلك رسلاً﴾ .

- ٧ - الإيجاز بالحذف ﴿فجاءوهم بالبينات فانتقمنا﴾ حذف منه فكذبوهم واستهزءوا بهم .
- ٨ - الاستعارة التصريحية ﴿فإنك لا تسمع الموتى﴾ شبه الكفار بالموتى وبالصم في عدم إحساسهم وسماعهم للمواعظ والبراهين بطريق الاستعارة التصريحية .
- ٩ - الطباق بين ﴿ضعف .. وقوة﴾ .
- ١٠ - صيغة المبالغة ﴿العليم القدير﴾ لأن معناه المبالغ في العلم والقدرة .
- ١١ - الجناس التام ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ المراد بالساعة أولاً القيامة وبالثانية المدة الزمنية فيبينها جناس كامل ، وهذا من المحسنات البديعية .
- تنبية** : الصحيح أن الميت يسمع لقوله ﷺ (ما أنتم بأسمع منهم) وقوله (وإن الميت ليسمع قرع نعالهم) وأما قوله تعالى ﴿فإنك لا تسمع الموتى﴾ المراد منه سماع التدبير والاتعاظ ، والله أعلم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الروم »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

✽ هذه السورة الكريمة «سورة لقمان» من السور المكية ، التي تعالج موضوع العقيدة ، وتعنى بالتركيز على الأصول الثلاثة لعقيدة الإيمان وهي «الوحدانية ، والنبوة ، والبعث والنشور» كما هو الحال في السور المكية .

✽ ابتدأت السورة الكريمة بذكر الكتاب الحكيم ، معجزة محمد الخالدة ، الباقية الدائمة على مدى الزمان ، وأقامت الحجج والبراهين على وحدانية رب العالمين ، وذكرت دلائل القدرة الباهرة ، والإبداع العجيب ، في هذا الكون الفسيح ، المحكم النظام المتناسق في التكوين ، في سمائه وأرضه ، وشمسه وقمره ، ونهاره وليله ، وفي جباله وبحاره ، وأمواجه وأمطاره ، ونباته وأشجاره ، وفي سائر ما يشاهده المرء من دلائل القدرة والوحدانية ، مما يأخذ بالقلب ، ويبهز العقل ، ويواجه الإنسان مواجهةً جاهرة لا يملك معها إلا التسليم بقدرة الخالق العظيم .

✽ كما لفتت أنظار المشركين إلى دلائل القدرة والوحدانية منبثة في هذا الكون البديع ، وهزت كيانهم هزاً ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ؟ بل الظالمون في ضلال مبين ﴾ .

✽ وختمت السورة الكريمة بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جازر عن والده شيئاً . . ﴾ الآية .

التسمية : سميت سورة لقمان لاشتغالها على قصة «لقمان الحكيم» التي تضمنت فضيلة الحكمة وسر معرفة الله تعالى وصفاته ، وذم الشرك ، والأمر بمكارم الأخلاق ، والنهي عن القبائح والمنكرات وما تضمنته كذلك من الوصايا الثمينة التي أنطقه الله بها ، وكانت من الحكمة والرشاد بمكان ! .

اللغات : ﴿الحكيم﴾ المحكم الذي لا خلل فيه ولا تناقض ﴿يوقنون﴾ اليقين : التصديق الجازم ﴿هو الحديث﴾ الباطل الملهي عن الخير والعبادة ﴿وقراً﴾ ثقلاً وصمماً يمنع من السماع ﴿عمد﴾ جمع عماد وهو الدعامة التي يرتكز عليها الشيء ﴿رواسي﴾ جبالاً ثوابت ، ورسد السفينة : إذا ثبتت واستقرت ﴿تميد﴾ تتحرك وتضطرب ﴿بث﴾ نشر وفرق .

سبب النزول : روي أن «النضر بن الحارث» كان يشتري المغنيات ، فلا يظفر بأحدٍ يريد الإسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ
 الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ
 مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

إلا انطلق به إلى قينته « المغنية » فيقول لها : أطعميه ، واسقيه الخمر ، وغنيه ، ويقول : هذا خير مما
 يدعوك إليه محمد ، من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه فأنزل الله ﴿ومن الناس من يشتري هو
 الحديث ليصل عن سبيل الله . . .﴾ (١) الآية .

النفسير : ﴿الم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن ، وللإشارة إلى أن هذا الكتاب
 المعجز الذي أفحم العلماء والأدباء والفصحاء والبلغاء منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية (ألف ، لام ،
 ميم) وهي في متناول أيدي الناطقين بالعربية ، وهم عاجزون أن يؤلفوا منها كتاباً مثل هذا الكتاب بعد
 التحدي والإفحام ، وهذا من أظهر الدلائل وأوضح البراهين على أنه تنزيل الحكيم العليم ﴿تلك آياتُ
 الكتاب﴾ أي هذه آيات الكتاب البديع ، الذي فاق كل كتاب في بيانه ، وتشريعه ، وأحكامه
 ﴿الحكيم﴾ أي ذي الحكمة الفائقة ، والعجائب الرائقة ، الناطق بالحكمة والبيان ، والإشارة بالبعيد عن
 القريب « تلك » للإيدان ببعده منزله في الفضل والشرف ﴿هدى ورحمة للمحسنين﴾ أي هداية ورحمة
 للمحسنين الذين أحسنوا العمل في الدنيا ، وإنما خصصوا بالذكر لأنهم هم المتفعون بما فيه ، ثم وضع تعالى
 صفاتهم فقال ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بأركانها وخشوعها وأدائها
 ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي يدفعونها إلى مستحقيها طيبة بها نفوسهم ابتغاء مرضاة الله ﴿وهم بالآخرة هم
 يوقنون﴾ أي يصدقون بالدار الآخرة ويعتقدون بها اعتقاداً جازماً لا يخالطه شك ولا ارتياب ، وكرر
 الضمير « هم » للتأكيد وإفادة الحصر ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ أي أولئك الموصوفون بتلك
 الصفات الجليلة على نور وبصيرة ، ومنهج واضح سديد ، من الله العزيز الحميد ﴿وأولئك هم
 المفلحون﴾ أي هم الفائزون السعداء في الدنيا والآخرة قال أبو حيان : وكرر الإشارة ﴿وأولئك﴾ تنبيهاً
 على عظم قدرهم وفضلهم (٢) ، ولما ذكر تعالى حال السعداء ، الذين اهتدوا بكتاب الله وانتفعوا بسماعه ،
 عطف عليهم بذكر حال الأشقياء ، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع الغناء
 والمزامير فقال ﴿ومن الناس من يشتري هو الحديث﴾ أي ومن الناس من يشتري ما يلهي عن طاعة
 الله ، ويصد عن سبيله ، مما لا خير ولا فائدة فيه قال الزمخشري : واللهم كل باطل ألهى عن الخير ، نحو

(١) انظر أسباب النزول للواحي ، وتفسير القرطبي والبحر المحيط . (٢) البحر ٧/١٨٣ .

وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا

السمر بالأساطير ، والتحدث بالخرافات المضحكة ، وفضول الكلام وما لا ينبغي^(١) ، وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه سئل عن الآية فقال : والله الذي لا إله إلا هو - يكررها ثلاثاً - إنما هو الغناء^(٢) ، وقال الحسن البصري : نزلت هذه الآية في الغناء والمزامير^(٣) ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي ليُضِلَّ الناس عن طريق الهدى ، ويُبعدهم عن دينه القويم ، بغير حجة ولا برهان ﴿وَيَتَّخِذَهَا مَزْوَأً﴾ أي ويتخذ آيات الكتاب المجيد سخرية واستهزاء ، وهذا أدخل في القبح ، وأغرق في الضلال ﴿وَأَوْلَتْكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي لهم عذاب شديد مع الذلة والهوان ﴿وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتِنَا﴾ أي وإذا قرئت عليه آيات القرآن ﴿وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي أعرض وأدبر متكبراً عنها كأنه لم يسمعها ، شأن المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام ، ويجعل نفسه كأنها غافلة ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أي كأن في أذنيه ثقلاً وصمماً يمنعانه عن استماع آيات الله ﴿فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي أنذره يا محمد بعذاب مؤلم ، مفرط في الشدة والإيلام ، ووضع البشارة مكان الإنذار تهكم وسخرية قال في البحر : تضمنت هذه الآية ذم المشتري من وجوه : التولية عن الحكمة ، ثم الاستكبار عن الحق ، ثم عدم الالتفات إلى سماع الآيات ، ثم الإيغال في الأعراض مشبهاً حال من لم يسمعها ، لكونه لا يلقي لها بالاً ولا يلتفت إليها ، ثم التهكم به بالبشارة بأشد العذاب^(٤) . . ولما ذكرنا وعد به الكفار من العذاب الأليم ، ذكرنا وعد به المؤمنين من جنات النعيم فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، وبين حسن النية وإخلاص العمل ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أي لهم على إيمانهم واستقامتهم على شريعة الله جنات الخلد يتنعمون فيها بأنواع الملاذ ، من المأكول والمشرب والملابس ، والنساء والخور العين ، وسائر ما أكرمهم الله به من الفضل والإنعام ، مما لا عين رأت ولا أُذُن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي دائمين في تلك الجنات ، لا يخرجون منها أبداً ، ولا يبغون عنها حولاً ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي وعداً من الله قاطعاً ، كائناً لا محالة ، لا خلف فيه لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هو تعالى العزيز الذي لا يغلبه شيء ليمنعه عن إنجاز وعده ، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة . . ثم نبه تعالى إلى دلائل قدرته ، وأثار عظمتة وجلاله لإقامة البراهين على وحدانيته فقال ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي خلق السموات في سعتها وعظمتها وإحكامها بدون دعائم ترتكز عليها ، حال كونكم تشاهدونها كذلك واقفة من غير أن

(١) الكشاف (٢) الطبري ٣٩/٢١ . (٣) ابن كثير ١٦٣/٣ المختصر وانظر أسباب النزول في بدء السورة الكريمة .

(٤) البحر المحيط ١٨٤/٧ .

فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠١﴾ هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٠٢﴾

تستند على شيء ، ولا تمسكها إلا قدرة الله العليّ الكبير ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي جعل فيها جبالات ثابتة لئلا تتحرك وتضطرب بكم فتهلككم بأن تقلبكم عن ظهرها ، أو تهدم بيوتكم بتزلزها قال الإمام الفخر : واعلم أن الأرض ثباتها بسبب ثقلها ، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح ، ولو خلقها تعالى مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة ، كما نرى الأراضي الرملية ينتقل الرمل الذي فيها من موضع الى موضع ، فهذه هي حكمة إرسائها بالجبالات^(١) ، فسبحان الكبير المتعال ﴿وَبِثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي ونشر وفرّق في أرجاء الأرض من كل أنواع الحيوانات والدواب من مأكول ومركوب ، مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي وأنزلنا لحفظكم وحفظ دوابكم المطر من السحاب ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي فأنبتنا في الأرض من كل نوع من النبات ، ومن كل صنف من الأغذية والأدوية ﴿كَرِيمٍ﴾ أي كثير المنافع ، بديع الخلق والتكوين^(٢) ﴿هَذَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ أي هذا الذي تشاهدونه وتعاينونه أيها المشركون هو من مخلوقات الله ، فانظروا في السموات والأرض ، والإنسان ، والنبات ، والحيوان ، وسائر ما خلق الله ثم تفكروا في آثار قدرته ، وبديع صنعته ، ثم أخبروني ﴿مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ ؟ أي أي شيء خلقته ألهتكم التي عبدتموها من دون الله من الأوثان والأصنام ؟ وهو سؤال على جهة التهكم والسخرية بهم وبألهتهم المزعومة ، ثم أصرب عن تبكيتهم الى التسجيل عليهم بالضلال الواضح فقال ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي بل المشركون في خسران ظاهر ، وضلال واضح ما بعده ضلال ، لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها ، وعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر ، فهم أضل من الحيوان الأعجم ، لأن من عبد صنماً جامداً ، وترك خالقاً عظيماً مدبراً ، يكون أخطأ شأناً من الحيوان .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - وضع المصدر للمبالغة ﴿هدى ورحمة للمحسنين﴾
- ٢ - الإشارة بالبعيد ﴿تلك آيات﴾ عن القريب ﴿هذه﴾ لبيان علو الرتبة ورفعة القدر والشأن .
- ٣ - الإطناب بتكرار الضمير واسم الإشارة ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم ﴿لزيادة الثناء عليهم والتكريم لهم ، كما أن الجملة تفيد الحصر أي هم المفلحون لا غيرهم .
- ٤ - الاستعارة التصريحية ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ شبه حالهم بحال من يشتري سلعة

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٤٣/٢٥ . (٢) يقول سيد قطب تغمده الله برحمته في تفسيره الظلال : « والنص القرآني يقرر أن الله أنبت النبات أزواجاً ﴿من كل زوج كريم﴾ وهي حقيقة ضخمة اهتدى إليها العلم قريباً جداً ، فكل نبات له خلايا ذكر، وخلايا أنثى ، إما مجتمع في زهرة واحدة ، أو في زهرتين في العود الواحد ، وإما منفصلة في عودين أو شجرتين ولا توجد الثمرة إلا بعد التقاء وتلقيح بين زوج النبات ، كما هو الشأن في الإنسان والحيوان على السواء . »

وهو خاسر فيها ، واستعار لفظ يشترى لمعنى يستبدل بطريق الاستعارة التصريحية .

٥ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كأنَّ في أذنيه قرأ﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه فهو تشبيه « مرسل مجمل » .

٦ - أسلوب التهكم ﴿فبشره بعذاب أليم﴾ لأن البشارة إنما تكون في الخير ، واستعمالها في الشر سخريه وتهكم .

٧ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿وأنزلنا من السماء﴾ بعد قوله ﴿خلق﴾ ، وألقى ، وبث ﴿ وكلها بضمير الغائب ، ثم التفت فقال ﴿وأنزلنا﴾ تعظيماً لشأن الرحمن ، وتوفيةً لمقام الامتنان ، وهذا من المحسنات البديعية^(١) .

٨ - إطلاق المصدر على اسم المفعول مبالغة ﴿هذا خلق الله﴾ أي مخلوقه .

٩ - الاستفهام للتوبيخ والتبكيت ﴿ماذا خلق الذين من دونه﴾ ؟

١٠ - وضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التوبيخ ، وللتسجيل عليهم بغاية الظلم والجهل ﴿بل الظالمون في ضلال مبين﴾ وكان الأصل أن يقال : بل هم في ضلال مبين .

١١ - مراعاة الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿عذاب أليم ، جنات النعيم ، زوج كريم ، الكتاب الحكيم﴾ ويسمى هذا النوع في علم البديع « سجعاً » وأفضله ما تساوت فقره ، وكان سليماً من التكلف ، خالياً من التكرار ، وهو كثير في القرآن الكريم في نهاية الآيات الكريمة .

فكأئدة : وصف الكتاب بالحكمة في هذه السورة ﴿الكتاب الحكيم﴾ مناسب لجو السورة الكريمة لأن موضوع الحكمة قد تكرر فيها ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ فناسب أن يختار هذا الوصف من أوصاف الكتاب المجيد ، على طريقة القرآن في التنسيق بين الألفاظ والمواضيع .

قال الله تعالى : ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة . . . إلى . . . إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾

من آية (١٢) إلى نهاية آية (١٩) .

المناسكة : لما بيّن تعالى فساد اعتقاد المشركين ، بسبب عنادهم وإشراكهم من لا يخلق شيئاً بمن هو خالق كل شيء ، ذكر هنا وصايا « لقمان » الحكيم ، وهي وصايا ثمينة في غاية الحكمة والدعوة إلى طريق الرشاد ، وقد جاءت هذه الوصايا مبدوءةً بالتحذير من الشرك الذي هو أقبح الذنوب ، وأعظم الجرائم عند الله .

اللغات : ﴿الحكمة﴾ الإصابة في القول والعمل ، وأصلها وضع الشيء في موضعه قال في اللسان : أحكم الأمر أتقنه ويُقال للرجل إذا كان حكيماً : قد أحكمته التجارب ، والحكيم : المتقن

(١) قال الفخر الرازي : وفي هذا الالتفات فصاحة وحكمة ، أما الفصاحة فهي أن السامع إذا سمع كلاماً طويلاً من مخطو واحد ، ثم ورد عليه مخط آخر يستطيه ، ألا ترى أنك إذا قلت : قال زيد كذا ، وقال خالد كذا ، وقال عمرو كذا ، ثم إن بكراً قال قولاً حسناً . . . يستطاب لما قد تكرر القول مراراً ، وأما الحكمة فهو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان ومكان ، فأسند الإنزال الى نفسه صريحاً ليتنبه الإنسان لشكر النعمة ، فيزيد له في الرحمة . التفسير الكبير ١٤٤/٢٥ .

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٧﴾
وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ

للأمور^(١) ﴿يعظه﴾ ينصحه ويذكره ، والعظة والموعظة : النصح والإرشاد ﴿وهناً﴾ الوهن : الضعف ومنه ﴿وهن العظم مني﴾ أي ضعف ﴿فصاله﴾ الفصال : الطعام وهو لفظ يستعمل في الرضاع خاصة ، وأما الفصل فهو أعم ، وفصلت المرأة ولدها أي فطمته وتركت إرضاعه ﴿أناب﴾ رجع ، والمنيب الراجع إلى ربه بالتوبة والاستغفار ﴿تصعّر﴾ الصعر : بفتحين في الأصل داءٌ يصيب البعير فيلوي منه عنقه ثم استعمل في ميل العنق كبراً وافتخاراً قال عمرو التغلبي :

وكنّا إذا الجبار صعّر خدّه أقمنا له من ميله فتقوم^(٢)

﴿مرحاً﴾ فرحاً وبطراً وخيلاء ﴿مختالاً﴾ متبختر في مشيته ﴿اقصد﴾ توسّط ، والقصد : التوسط بين الإسراع والبطء ﴿اغضض﴾ غضّ الصوت خفضه قال جرير :

فغضّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

التفسير : ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ أي والله لقد أعطينا لقمان الحكمة وهي الإصابة في القول ، والسداد في الرأي ، والنطق بما يوافق الحق ، قال مجاهد : الحكمة : الفقه والعقل ، والإصابة في القول ، ولم يكن نبياً إنما كان حكيماً^(٣) ﴿أن اشكر لله﴾ أي وقلنا له : اشكر الله على إنعامه وإفضاله عليك حيث خصّك بالحكمة وجعلها على لسانك قال القرطبي : والصحيح الذي عليه الجمهور أن «لقمان» كان حكيماً ولم يكن نبياً وفي الحديث (لم يكن لقمان نبياً ، ولكن كان عبداً كثير التفكير، حسن اليقين ، أحبّ الله تعالى فأحبّه ، فمنّ عليه بالحكمة)^(٤) ﴿ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه﴾ أي ومن يشكر ربه فثواب شكره راجع لنفسه ، وفائدته إنما تعود عليه ، لأن الله تعالى لا ينفعه شكر من شكر ، ولا يضره كفر من كفر ولهذا قال بعده ﴿ومن كفر فإن الله غنيٌّ حميد﴾ أي ومن جحد نعمة الله فإنما أساء إلى نفسه ، لأن الله مستغن عن العباد ، محمود على كل حال ، مستحق للحمد لذاته وصفاته قال الرازي : المعنى أن الله غير محتاج إلى شكر حتى يتضرّر بكفر الكافر ، فهو في نفسه محمود سواء شكره الناس أم لم يشكروه^(٥) ، ثم ذكر تعالى بعض نصائح لقمان لابنه وبدأ بالتحذير له من الشرك ، الذي هو نهاية القبح والشناعة فقال ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أي واذكر لقومك موعظة لقمان الحكيم لولده ، حين قال له واعظاً ناصحاً مرشداً : يا بني كن عاقلاً ولا تشرك بالله أحداً ، بشراً أو صنماً أو ولداً ﴿إنّ الشرك لظلمٌ عظيم﴾ أي إن الشرك قبيح ، وظلم صارخ لأنه وضع للشيء في غير موضعه ، فمن سوى بين الخالق والمخلوق ، وبين الإله والصنم فهو - بلا شك - أحمق الناس ، وأبعدهم عن منطق العقل والحكمة ، وحري به أن يوصف بالظلم ويجعل في عداد البهائم ﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ أي

(١) لسان العرب مادة حكم . (٢) القرطبي ١٤ / ٦٩ . (٣) الطبري ٢١ / ٤٣ . (٤) القرطبي ١٤ / ٥٩ . (٥) التفسير الكبير ٢٥ / ١٤٥ .

حَمَلْتُهُ أُمًّا، وَهَنَا عَلَيَّ وَهْنٌ وَفِصَالُهُ، فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنِيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

أمرناه بالإحسان إليهما لا سيما الوالدة ﴿حملته أمه وهناً علي وهن﴾ أي حملته جنيناً في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف ، من حين الحمل إلى حين الولادة ، لأن الحمل كلما ازداد وعظم ، إزدادت به ثقلاً وضعفاً ﴿وفصاله في عامين﴾ أي وفطامه في تمام عامين ﴿أن أشكر لي ولوالديك﴾ أي وقلنا له : اشكر ربك على نعمة الإيمان والإحسان ، واشكر والديك على نعمة التربية ﴿إلي المصير﴾ أي إلي المرجع والمآب فأجازي المحسن على إحسانه ، والمسيء على إساءته قال ابن جزري : وقوله ﴿أن اشكر﴾ تفسير للوصية ، واعترض بينها وبين تفسيرها بقوله ﴿حملته أمه وهناً علي وهن وفصاله في عامين﴾ لبيان ما تكابده الأم بالولد مما يوجب عظيم حقها ، ولذلك كان حقها أعظم من حق الأب ﴿١٤﴾ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴿أي وإن بذلا جهدهما ، وأقصى ما في وسعهما ، ليحملاك على الكفر والإشراك بالله فلا تطعهما ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق﴾ وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴿أي وصاحبهما في الحياة الدنيا بالمعروف والإحسان إليهما - ولو كانا مشركين - لأن كفرهما بالله لا يستدعي ضياع المتاعب التي تحملاها في تربية الولد ، ولا التنكر بالجميل﴾ واتبع سبيل من أناب إلي ﴿أي واسلك طريق من رجع الى الله بالتوحيد والطاعة والعمل الصالح﴾ ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴿أي مرجع الخلق إلى الله فيجازيهم على أعمالهم ، والحكمة من ذكر الوصية بالوالدين - ضمن وصايا لقمان - تأكيد ما أفادته الآية الأولى من تقييد أمر الشرك ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ فكانه تعالى يقول : مع أننا وصينا الإنسان بوالديه ، وأمرناه بالإحسان إليهما والعطف عليهما ، وألزمناه طاعتها بسبب حقها العظيم عليه ، مع كل هذا فقد نهيناه عن طاعتها في حالة الشرك والعصيان ، لأن الإشراك بالله من أعظم الذنوب ، وهو في نهاية القبح والشناعة . . ثم رجع الكلام إلى وصايا لقمان فقال تعالى ﴿يا بني﴾ إنها إن تك مثقال حبة من خردل ﴿أي يا ولدي إن الخطيئة والمعصية مهما كانت صغيرة حتى ولو كانت وزن حبة الخردل في الصغر﴾ فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ﴿أي فتكن تلك السيئة - مع كونها في أقصى غايات الصغر - في أخفى مكان وأحرزه ، كجوف الصخرة الصماء ، أو في أعلى مكان في السماء أو في الأرض يحضرها الله سبحانه ويحاسب عليها ، والغرض التمثيل بأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد ﴿إن الله لطيف خبير﴾ أي هو سبحانه لطيف بالعباد خبير

يَبْنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾
 وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ
 وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

أي عالم ببواطن الأمور ﴿يا بني أقم الصلاة﴾ أي حافظ على الصلاة في أوقاتها وبخشوعها وأداها
 ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر﴾ أي وأمر الناس بكل خير وفضيلة ، وانهم عن كل شر ورذيلة
 ﴿واصبر على ما أصابك﴾ أي اصبر على المحن والبلايا ، لأن الداعي إلى الحق معرض لا يصل الأذى
 إليه قال أبو حيان : لما نهاه أولاً عن الشرك ، وأخبره ثانياً بعلمه تعالى وباهر قدرته ، أمره بما يتوسل به إلى
 الله من الطاعات ، فبدأ بأشرفها وهي الصلاة ، ثم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم بالصبر على ما
 يصيبه من المحن بسبب الأمر بالمعروف ، فكثيراً ما يؤذى فاعل ذلك^(١) ﴿إن ذلك من عزم الأمور﴾ أي
 إن ذلك المذكور مما عزمه الله وأمر به قال ابن عباس : من حقيقة الإيمان الصبر على المكاره وقال الرازي :
 معناه إن ذلك من الأمور الواجبة المعزومة أي المقطوعة ، فالمصدر بمعنى المفعول^(٢) ﴿ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ
 لِلنَّاسِ﴾ أي لا تمل وجهك عنهم تكبراً عليهم قال القرطبي : أي لا تمل خدك للناس كبراً عليهم
 وإعجاباً ، وتحقيراً لهم ، وهو قول ابن عباس^(٣) ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ أي لا تمش متبختراً متكبراً
 ﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾ تعليل للنهي أي لأن الله يكره المتكبر الذي يرى العظمة لنفسه ،
 ويتكبر على عباد الله ، المتبختر في مشيته ، والفخور الذي يفتخر على غيره ، ثم لما نهاه عن الخلق الذميمة ،
 أمره بالخلق الكريم فقال ﴿واقصد في مشيك﴾ أي توسّط في مشيتك واعتدل فيها بين الإسراع والبطء
 ﴿واغضض من صوتك﴾ أي اخفض من صوتك فلا ترفعه عالياً فإنه قبيح لا يجمل بالعاقل ﴿إن أنكر
 الأصوات لصوت الحمير﴾ أي إن أوحش الأصوات صوت الحمير فمن رفع صوته كان ممانلاً لهم ، وأتى
 بالمنكر القبيح قال الحسن : كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات فرد عليهم بأنه لو كان خيراً لفضلتهم
 به الحمير ، وقال قتادة : أقبح الأصوات صوت الحمير ، أوله زفير وآخره شهيق .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿شكر . . وكفر﴾ .
- ٢ - صيغة المبالغة ﴿غني حميد﴾ وكذلك ﴿لطيف خبير﴾ و﴿فخور﴾ لأن فاعيل وفعل من صيغ
 المبالغة ومعناه كثير الحمد وكثير الفخر .
- ٣ - ذكر الخاص بعد العام ﴿بوالديه حملته أمه﴾ وذلك لزيادة العناية والاهتمام بالخاص .
- ٤ - تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر مثل ﴿إلى المصير﴾ ﴿إلى مرجعكم﴾ أي لا إلى غيري .

(١) البحر المحيط ٧/ ١٨٨ . (٢) التفسير الكبير ٢٥/ ١٤٩ . (٣) القرطبي ١٤/ ٧٠ .

- ٥ - التمثيل ﴿إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة﴾ مثل ذلك لسعة علم الله وإحاطته بجميع الأشياء صغيرها وكبيرها ، جليلها وحقيقتها فإنه تعالى يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة .
- ٦ - التتميم ﴿فتكن في صخرة﴾ تمَّ خفاءها في نفسها بخفاء مكانها وهذا من البديع .
- ٧ - المقابلة ﴿وأمر بالمعروف﴾ ثم قال ﴿وأنه عن المنكر﴾ فقابل بين اللفظين .
- ٨ - الاستعارة التمثيلية ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ شبه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وأصواتهم بالنهيق ، ولم يذكر أداة التشبيه بل أخرجه مخرج الاستعارة للمبالغة في الذم ، والتنفير عن رفع الصوت .

تَبْيِيْهُ : حين أمر تعالى بشكر الوالدين قدّم شكره تعالى على شكرهما فقال ﴿أن اشكر لي﴾ ثم أردفه بقوله ﴿ولوالديك﴾ وذلك لإشعارنا بأن حق الله أعظم من حق الوالدين ، لأنه سبحانه هو السبب الحقيقي في خلق الإنسان ، والوالدان سبب في الصورة والظاهر ، ولهذا حرمَّ تعالى طاعتها على الإنسان إذا أراد إجباره على الكفر .

قال الله تعالى : ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات . . إلى . . إن الله عليم خبير﴾
من آية (٢٠) إلى آية (٣٤) نهاية السورة الكريمة

الْمَنَاسِكَةُ : لما حذّر تعالى من الشرك ، وأكدّه بوصايا لقمان الحكيم في الإيمان ومكارم الأخلاق ، ذكر هنا الأدلة الساطعة ، والبراهين القاطعة على وحدانيته تعالى ، ونبّه بالصنعة على الصانع ، وما له من نعمٍ لا تُحصى من تسخير السموات بما فيها من الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والسحاب ، وتسخير الأرض وما فيها من الحيوان ، والنبات ، والمعادن ، والبحار ، وغير ذلك من الأدلة الشاهدة بوحدانيته ، وختم السورة الكريمة ببيان « المغيبات الخمس » .

اللَّفْكَرُ : ﴿أسبغ﴾ أتم وأكمل يقال : سبغت النعمة سبوغاً إذا تمت ﴿استمسك﴾ تمسك وتعلق واعتصم ﴿نفدت﴾ ففيت وفرغت ﴿يولج﴾ يدخل والإيلاج : الإدخال ومنه ﴿حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ ﴿الفلك﴾ السفن ﴿كالظلل﴾ الظلل : جمع ظلّة وهي كل ما أظلك من جبل أو سحاب ﴿ختار﴾ الختار : الغدار ، والختار : أسوء الغدر قال الشاعر :

فإنك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدر وختار^(١)
﴿الغرور﴾ ما يغرُّ ويخدع من شيطان وغيره ، وغرّه الأمل : خدعه .

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ
الْمُفْسِرُ : ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض﴾ أي ألم تعلموا أيها الناس أن الله العظيم الجليل سخر لكم ما في السموات من شمس وقمر ونجوم لتنتفعوا بها ، وسخر لكم ما في الأرض من جبال وأشجار وثمار وأنهار وغير ذلك مما لا تُحصى ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً

مَنْ يُجَادِلْ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿١٠١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠٢﴾ * وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١٠٣﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۗ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠٤﴾

وباطنة ﴿١٠١﴾ أي وأتم عليكم أيها الناس نعمه العديدة ، الظاهرة المرئية كنعمة السمع والبصر والصحة والإسلام ، والباطنة الخفية كالقلب والعقل والفهم والمعرفة وما أشبه ذلك قال البيضاوي : أي أسبغ عليكم نعمه المحسوسة والمعقولة ، ما تعرفونه وما لا تعرفونه^(١) ﴿١٠٢﴾ ومن الناس من يجادل في توحيد الله وصفاته علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴿١٠٣﴾ أي ومن الناس فريق جاحدون يخاصمون ويجادلون في توحيد الله وصفاته بغير علم ولا فهم ، ولا حجة ولا برهان ، ولا كتاب منزل من عند الله قال القرطبي : نزلت في يهودي جاء إلى النبي ﷺ فقال يا محمد : أخبرني عن ربك من أي شيء هو ؟ فجاءت صاعقة فأخذته^(٢) ، والمنير : الواضح البين المنقذ من ظلمة الجهل والضلال ﴿١٠٤﴾ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ﴿١٠٤﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المجادلين بالباطل اتبعوا ما أنزل الله على رسوله ، وصدقوا به فإنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ﴿١٠٤﴾ قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴿١٠٤﴾ أي قالوا نسير على طريقة آباءنا ونقتدي بهم في عبادة الأوثان والأصنام ﴿١٠٤﴾ أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴿١٠٤﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتبعونهم ولو كانوا ضالين ، حتى ولو كان الشيطان يدعوهم إلى النار المستعرة ذات العذاب الشديد ؟ ﴿١٠٤﴾ ومن يسلم وجهه إلى الله ﴿١٠٤﴾ أي ومن يقبل على طاعة الله وينقاد لأوامره ، ويخلص قصده وعبادته لله ﴿١٠٤﴾ وهو محسن ﴿١٠٤﴾ أي وهو مؤمن موحد قال القرطبي : لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا ترفع^(٣) ، ونظير الآية ﴿١٠٤﴾ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ﴿١٠٤﴾ فلا بد من الإيمان والإحسان ﴿١٠٤﴾ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴿١٠٤﴾ أي تمسك بحبل لا انقطاع له ، وتعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب قال صاحب الكشاف : هذا من باب التمثيل ، مثلت حال المتوكل بحال من تدلى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة ، من حبل متين مأمون انقطاعه^(٤) وقال الرازي : أوثق العرى جانب الله ، لأن كل ما عداه هالك منقطع ، وهو باق لا انقطاع له^(٥) ﴿١٠٤﴾ وإلى الله عاقبة الأمور ﴿١٠٤﴾ أي إلى الله وحده - لا إلى أحدٍ سواه - مرجع ومصير الأمور كلها فيجازي العامل عليها أحسن الجزاء ﴿١٠٤﴾ ومن كفر فلا يحزنك كفره ﴿١٠٤﴾ تسلياً للرسول ﷺ أي لا يهمنك يا محمد كفر من كفر ، ولا ضلال من ضل ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فإننا سنتقم منهم إن عاجلاً أو آجلاً ﴿١٠٤﴾ إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ﴿١٠٤﴾ أي إلينا

(١) البيضاوي ١٠٩/٢ (٢) القرطبي ٧٤/١٤ وقيل : نزلت في « النضر بن الحارث » و« أبي بن خلف » وأشباههما الذين كانوا يجادلون النبي

ﷺ في وحدانيته تعالى وصفاته ، من غير علم عقلي ولا دليل شرعي .

(٣) القرطبي ٧٤/١٤ . (٤) الكشاف ٣/٣٩٥ . (٥) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٥٤/٢٥ .

نَمَتَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً ﴿٢٨﴾ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٩﴾

رجوعهم ، فنخبرهم بأعمالهم التي عملوها في الدنيا ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي عليم بما في قلوبهم من المكر والكفر والتكذيب فيجازيهم عليها ﴿نمتهم قليلاً﴾ أي نبقهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها ﴿ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ أي ثم نلجئهم في الآخرة إلى عذاب شديد هو عذاب النار ، الفظيع الشاق على النفس ، ثم لما بين تعالى استحقاقهم للعذاب ، بين تناقضهم في الدنيا وهو اعترافهم بأن الله خالق السموات والأرض ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها ملك له وأنها مخلوقاته فقال ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنَّ الله﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين من كفار مكة من خلق السموات والأرض ؟ ليقولنَّ - لغاية وضوح الأمر - الله خلقهن فقد اضطروا إلى الاعتراف به ﴿قل الحمد لله﴾ أي قل لهم : الحمد لله على ظهور الحجة عليكم ، وعلى أن دلائل الإيمان ظاهرة للعيان ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي بل أكثر هؤلاء المشركين لا يفكرون ولا يتدبرون فلذلك لا يعلمون ، ثم قال تعالى ﴿لله ما في السموات والأرض﴾ أي له جلّ وعلا ما في الكائنات ملكاً وخلقاً وتدبيراً ﴿إن الله هو الغني الحميد﴾ أي المستغني عن خلقه وعن عبادتهم ، المحمود في صنعه والآثه ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ أي ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً ﴿والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر﴾ أي وجعل البحر بسعته حبراً ومداداً وأمدّه سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله ﴿ما نفدت كلمات الله﴾ أي لانتهت وفتت تلك الأقلام والبحار وما انتهت كلمات الله ، لأن الأشجار والبحار متناهية ، وكلمات الله غير متناهية قال القرطبي : لما ذكر تعالى أنه سخر لهم ما في السموات وما في الأرض ، وأنه أسبغ النعم ، نبّه على أن الأشجار لو كانت أقلاماً ، والبحار لو كانت مداداً ، فكتب بها عجائب صنع الله ، الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفذ تلك العجائب^(١) وقال ابن الجوزي : وفي الكلام محذوف تقديره : فكتب بهذه الأقلام وهذه البحور كلمات الله ، لتكسرت الأقلام ونفدت البحور ولم تنفذ كلمات الله أي لم تنقطع^(٢) ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي غالب لا يعجزه شيء ، حكيم لا يخرج عن علمه وحكمته أمر ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ أي ما خلقكم أيها الناس ابتداءً ، ولا بعثكم بعد الموت انتهاءً إلا كخلق نفس واحدة وبعثها ، لأنه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون ، قال الصاوي : المعنى أن الله لا يصعب عليه شيء ، بل

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتَسْخَرُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٦٦﴾ ذَلِكَ بِيَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٦٨﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْأَكْلُ

خلق العالم وبعثه برمته كخلق نفس واحدة وبعثها^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي سميع لأقوال العباد ، بصير بأعمالهم ، ثم أشار تعالى الى دلائل قدرته في الآفاق فقال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب علماً قوياً جارياً مجرى الرؤية ، أن الله العظيم الجليل يدخل ظلمة الليل على ضوء النهار ، ويدخل ضوء النهار على ظلمة الليل ، ويزيد في هذا ويُتقص من هذا حسب الحكمة الأزلية ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ذلّلها بالطلوع والأفول تقديراً للأجال ، وإتماماً للمنافع ، كل منهما يسير في فلكه إلى غاية محدودة هي يوم القيامة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي وأنه تعالى عالم بأحوالكم وأعمالكم لا تخفى عليه خافية ، فإن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق ، والتدبير الفائق ، لا يكاد يغفل عن كون صانعه جل وعلا محيطاً بكل أعماله ﴿ذَلِكَ بِيَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي ذلك الذي شاهدتموه من عجائب الصنع وباهر القدرة ، لتتأكدوا أن الله هو الإله الحق الذي يجب أن يعبد وحده ﴿وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ أي وأن كل ما يعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام باطل لا حقيقة له كما قال لبيد «ألا كل شيء ما خلا الله باطل» فالجميع خلقه وعبيده ، ولا يملك أحد منهم تحريك ذرة إلا بإذنه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي وأنه تعالى هو العليُّ في صفاته ، الكبير في ذاته ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ تذكير بنعمة أخرى أي ألم ترأيها العاقل أن السفن العظيمة تسير في البحر بقدرة الله ، وتسخيره ولطفه بالناس وإحسانه إليهم ، لتهيئة أسباب الحياة قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه هو الذي سخّر البحر لتجري فيه الفلك بأمره أي بلطفه وتسخيره ، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن ما جرت^(٢) ، ولهذا قال بعده ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ أي ليريكم عجائب صنعه ، ودلائل قدرته ووحدانيته ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن في تسخير هذه السفن وما تحملها من الطعام والأرزاق والتجارات ، آيات باهرة ، وعبراً جلية لكل عبد منيب ، صَبَّارٌ فِي الضَّرَاءِ ، شَكُورٌ فِي الرِّخَاءِ . ولفظة «صَبَّارٌ» و«شَكُورٌ» مبالغة في الصبر والشكر ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ﴾ أي وإذا علا المشركين وغطّاهم وهم في البحر موج كثيف كالجبال ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي أخلصوا دعاءهم لله حين علموا أنه لا منجى لهم غيره فلا يدعون لخلاصهم سواه ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ أي فلما أنقذهم من شدائد البحر ، وأخرجهم إلى شاطئ النجاة

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٥٩ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٦٩ .

خَتَارِ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا ۗ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

في البر ﴿فمنهم مقتصد﴾ في الآية حذف تقديره فمنهم مقتصد ، ومنهم جاحد ، ودل عليه قوله ﴿وما يحجد بآياتنا﴾ والمقتصد : المتوسط في العمل قال ابن كثير : وهذا من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال ، والأمور العظام ، ورأى الآيات الباهرة في البحر ، ثم بعدما أنعم الله عليه بالخلاص كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والمبادرة إلى الخيرات ، والدؤوب في العبادات ، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً^(١) ﴿وما يحجد بآياتنا إلا كلُّ ختار كفور﴾ أي وما يكذب بآياتنا إلا كلُّ غدار ، مبالغ في كفران نعم الله تعالى ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ أي اتقوا ربكم بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ﴿واخشوا يوماً

لا يجزي والد عن ولده﴾ أي وخافوا يوماً رهيباً عصيباً لا ينفع والد فيه ولده ، ولا يدفع عنه مضرة ، أو يقضي عنه شيئاً مما تحمله ﴿ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً﴾ أي ولا ولدٌ يغني أو يدفع عن والده شيئاً ، أو يقضي عنه شيئاً من جنائته ومظالمه قال الطبري : المعنى لا يغني ولا تنفع عنده الشفاعة والوسائل ، إلا وسيلة من صالح الأعمال التي أسلفها في الدنيا^(٢) ﴿إن وعد الله حق﴾ أي وعده بالثواب والعقاب ، والبعث والجزاء حق لا يتخلف ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ أي لا تخدعنكم الحياة الدنيا بمفاتنها ولذاتها فتركنا إليها ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ أي ولا يخدعنكم الشيطان الماكر الذي يغر الخلق ويمنيهم بأباطيله ويلهيمهم عن الآخرة ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ هذه هي مفاتيح الغيب التي اختص الله بعلمها وهي خمس كما جاء في الحديث الصحيح (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله وتلا الآية)^(٣) أي عنده تعالى معرفة وقت قيام الساعة التي تقوم فيها القيامة ﴿ويُنزل الغيث﴾ أي وعنده معرفة وقت نزول المطر ومحل نزوله ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ أي من ذكر أو أنثى ، شقي أو سعيد ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾ أي ما تدري أحد ماذا يحدث له في غد ، وماذا يفعل من خير أو شر ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ أي كما لا يدري أحد أين يموت ، ولا في أي مكان يُقبر ﴿إن الله عليم خبير﴾ أي مبالغ في العلم ، يعلم كل الأمور ، خبير بظواهر الأشياء وبواطنها .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين قوله ﴿ظاهرة .. وباطنة﴾ وكذلك بين لفظ ﴿الحق .. والباطل﴾ .

(١) مختصر ابن كثير ٣ / ٧٠ . (٢) الطبري ٢١ / ٥٥ . (٣) أخرجه البخاري .

- ٢ - الإنكار والتوبيخ مع الحذف ﴿أولو كان الشيطان يدعوهم﴾ أي أيتبعونهم ولو كان الشيطان الخ .
- ٣ - المجاز المرسل ﴿ومن يسلم وجهه﴾ أطلق الجزء وأراد الكل ففيه مجاز مرسل .
- ٤ - التشبيه التمثيلي ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ شبه من تمسك بالإسلام بمن أراد أن يرقى إلى شاهق جبل فتمسك بأوثق جبل ، وحذف أداة التشبيه للمبالغة .
- ٥ - المقابلة بين ﴿ومن يُسلم وجهه إلى الله وهو محسن﴾ وبين ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره﴾ الآية .
- ٦ - الاستعارة ﴿عذابٍ غليظ﴾ استعار الغلظ للشدة لأنه إنما يكون للاجرام فاستعير للمعنى .
- ٧ - تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر ﴿وإلى الله عاقبة الأمور﴾ أي إليه لا إلى أحدٍ غيره .
- ٨ - صيغ المبالغة في التالي ﴿صَبَّارٌ شَكُورٌ﴾ و﴿خَتَّارٌ كَفُورٌ﴾ و﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ و﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ كما أنَّ فيها توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية ويسمى بالسجع .

« تم تفسير سورة لقمان ولله الحمد والمنة »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة السجدة مكية ، وهي كسائر السور المكية تعالج أصول العقيدة الإسلامية « الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والكتب والرسول ، والبعث والجزاء » والمحور الذي تدور عليه السور الكريمة هو موضوع « البعث بعد الفناء » الذي طالما جادل المشركون حوله ، واتخذوه ذريعةً لتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام .

* تبتدىء السورة الكريمة بدفع الشك والارتياب عن القرآن العظيم ، المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ ، الذي لا تحوم حول ساحته الشبهات والأباطيل ، ومع وضوح إعجازه ، وسطوع آياته ، وإشراقه بيانه ، وسمو أحكامه ، اتهم المشركون الرسول بأنه افتري هذا القرآن ، واختلقه من تلقاء نفسه ، فجاءت السورة الكريمة تردُّ هذا البهتان ، بروائع الحجة والبرهان .

* ثم تحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية ، ببيان آثار قدرة الله في الكائنات العلوية والسفلية ، على طريقة القرآن في لفت الأنظار إلى إيداع الواحد القهار .

* ثم ذكر القرآن شبهة المشركين السخيفة في إنكارهم للبعث والنشور ، وردَّ عليها بالحجج القاطعة ، والأدلة الساطعة ، التي تنتزع الحجة من الخصم الجاحد العنيد ، فلا يلبث أن يقر على نفسه بالهزيمة أمام قوارع القرآن ، وروائع الحجة والبيان .

* وختمت السورة بالحديث عن يوم الحساب ، وما أعدَّ الله فيه للمؤمنين المتقين من النعيم الدائم في جنات الخلد ، وما أعدّه للمجرمين من العذاب والنكال في دار الجحيم .

التَّسْمِيَةُ : سميت « سورة السجدة » لما ذكر تعالى فيها من أوصاف المؤمنين الأبرار ، الذين إذا سمعوا آيات القرآن العظيم ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ ألم ﴾ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . . . إلى . . . جزاء بما كانوا يعملون ﴿

(من آية ١ إلى آية ١٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
لِنُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَنْتُمْ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٣﴾ قَلِيلٌ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴿٥﴾ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴿٦﴾ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٧﴾

اللغز: ﴿افتراه﴾ اختلق القرآن من تلقاء نفسه ﴿يعرج﴾ يصعد ويرتفع إليه ﴿يدبر﴾
التدبير: رعاية شئون الغير ﴿سئلة﴾ خلاصة^(١) ﴿مهين﴾ ضعيف حقير ﴿سواه﴾ قومه بتصوير أعضائه
وتكميلها ﴿ضللنا﴾ ضعنا وهلكنا وأصله من قول العرب: ضلَّ اللبن في الماء إذا ذهب وضاع ﴿ناكسوا﴾
مطرقوا يقال: نكس رأسه إذا أطرقه ﴿الجِنَّة﴾ الجن .

التفسير: ﴿الْم﴾ الحروف المقطعة للتنبية على إعجاز القرآن^(٢) ﴿تنزيل الكتاب لا ريب
فيه من رب العالمين﴾ أي هذا الكتاب الموحى به إليك يا محمد هو القرآن الذي لا شك أنه من عند الله
عز وجل ، تنزيل من رب العالمين ﴿أم يقولون افتراه﴾ الضمير يعود لكفار قريش و﴿أم﴾ بمعنى بل
والهمزة أي بل أيقول المشركون اختلق محمد القرآن وافتراه من تلقاء نفسه؟ لا ليس الأمر كما يدعون ﴿بل
هو الحق من ربك﴾ أي بل هو القول الحق ، والكلام الصدق المنزل من ربك قال البيضاوي: أشار أولاً
إلى إعجازه ، ثم رتب عليه أنه تنزيل من رب العالمين ، وقرر ذلك بنفي الريب عنه ، ثم أضرب عن ذلك
إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك ، إنكاراً له وتعجباً منه ، ثم بين المقصود من إنزاله^(٣) بقوله ﴿لتنذر
قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك﴾ أي أنزله إليك لتنذر به قوماً ما جاءهم رسول قبلك يا محمد ، قال
المفسرون: هم أهل الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام ، وقد جاء الرسل قبل ذلك كإبراهيم وهود
وصالح ، ولكن لما طالت الفترة على هؤلاء أرسل الله إليهم محمداً ﷺ لينذرهم عذاب الله ، ويقيم
عليهم الحجة بذلك ﴿لعلهم يهتدون﴾ أي كي يهتدوا إلى الحق ويؤمنوا بالله العزيز الحميد ، ثم شرع
تعالى في ذكر أدلة التوحيد فقال ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي الله
جلّ وعلا هو الذي خلق السموات في ارتفاعها وإحكامها ، والأرض في عجائبها وإبداعها ، وما بينهما من
المخلوقات في مقدار ستة أيام قال الحسن: من أيام الدنيا ولو شاء لخلقها بلمح البصر ولكن أراد أن يعلم
عباده الثاني في الأمور قال القرطبي: عرفهم تعالى كمال قدرته ليسمعوا القرآن ويتأملوه ، ومعنى
﴿خلق﴾ أبداع وأوجد بعد العدم ، وبعد أن لم تكن شيئاً^(٤) ﴿ثم استوى على العرش﴾ استواءً يليق

(١) انظر معنى السئلة بالتوضيح في سورة المؤمنون . (٢) انظر ما كتبه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة ففيه غنية وكفاية .

(٣) البيضاوي ١١١/٢ . (٤) القرطبي ٨٦/١٤ .

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ
 عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾
 ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ
 وَالْأَفْئِدَةَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل (١) ﴿ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع﴾ أي ليس لكم أيها الناس من غير الله ناصر يمنعكم من عذابه ، ولا شفيع يشفع لكم عنده إلا بإذنه ، بل هو الذي يتولى مصالحكم ويدبر أموركم ﴿أفلا تتذكرون﴾ ؟ أي أفلا تتدبرون هذا فتؤمنون ؟ ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي يدبر أمر الخلائق جميعاً في العالم العلوي والسفلي ، لا يهمل شأن أحد قال ابن عباس : أي ينزل القضاء والقدر من السماء إلى الأرض ، وينزل ما دبره وقضاه ﴿ثم يعرج إليه﴾ أي ثم يصعد إليه ذلك الأمر كله يوم القيامة ليفصل فيه ﴿في يومٍ كان مقداره ألف سنةٍ مما تعدون﴾ أي في يومٍ عظيم - هو يوم القيامة - طوله ألف سنة من أيام الدنيا لشدة أهواله ﴿ذلك عالم الغيب والشهادة﴾ أي ذلك المدبر لأموال الخلق هو العالم بكل شيء ، يعلم ما هو غائب عن المخلوقين ، وما هو مشاهد لهم قال القرطبي : وفي الآية معنى التهديد والوعيد ، كأنه يقول : أخلصوا أعمالكم وأقوالكم فإنني مجازيكم عليها ، ومعنى « الغيب والشهادة » ما غاب عن الخلق وما حضرهم (٢) ﴿العزيز الرحيم﴾ أي الغالب على أمره ، الرحيم بعباده في تدبيره لشئونهم ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ أي أتقن وأحكم كل شيء أوجده وخلقته قال أبو حيان : وهذا أبلغ في الامتنان ومعناه أنه وضع كل شيء في موضعه ، ولهذا قال ابن عباس : ليست القردة بحسنة ، ولكنها متقنة محكمة (٣) قال بعض العلماء : لو تصورت مثلاً أن للفيل مثل رأس الجمل ، وأن للأرنب مثل رأس الأسد ، وأن للإنسان مثل رأس الحمار ، لوجدت في ذلك نقصاً كبيراً ، وعدم تناسب وانسجام ، ولكنك إذا علمت أن طول عنق الجمل ، وشق شفته ليسهل تناوله الكلاً عليه أثناء السير ، وأن الفيل لولا خرطوم الطويل لما استطاع أن يبرك بجسمه الكبير لتناول طعامه وشرابه ، لو علمت كل هذا لتيقنت أنه صنع الله الذي أتقن كل شيء ، ولقلت : تبارك الله أحسن الخالقين (٤) . ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ أي خلق أبا البشر آدم من طين ﴿ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ أي جعل ذريته يتناسلون من خلاصة من ماء ضعيف حقير هو المنى ﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه﴾ أي قوم أعضائه ، وعدل خلقته في رحم أمه ، ونفخ بعد ذلك فيه الروح ، فإذا هو في أكمل صورةٍ وأحسن تقويم قال أبو السعود : وأضاف الروح إليه تعالى تشرifaً للإنسان ، وإيداناً بأنه خلق عجب ، وصنع بديع ، وأن له شأناً جليلاً مناسبةً إلى حضرة الربوبية (٥) ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي

(١) انظر تفصيل معنى الاستواء وأقوال السلف في سورة الأعراف . (٢) القرطبي ١٤/٨٩ . (٣) البحر ٧/١٩٩ .

(٤) نقلاً عن أوضح التفاسير . (٥) أبو السعود ٤/١٩٦ .

وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَنُفُورُونَ ﴿١١﴾ * قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ
الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسَ وُجُوهِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا
فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٤﴾

وخلق لكم هذه الحواس : السمع لتسمعوا به الأصوات ، والبصر لتبصروا به الأشخاص ، والعقل لتدركوا به الحق والهدى ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي قليلاً شكركم لربكم و﴿ ما ﴾ لتأكيد القلة ﴿ وقالوا أتذا ضللنا في الأرض ﴾ أي وقال كفار مكة المنكرون للبعث والنشور : أتذا هلكننا وصارت عظامنا ولحومنا تراباً مختلطاً بتراب الأرض حتى غابت فيه ولم تتميز عنه ﴿ أننا لفي خلقٍ جديد ﴾ أي سوف نخلق بعد ذلك خلقاً جديداً ، ونعود إلى الحياة مرة ثانية ؟ وهو استبعاد للبعث مع الاستهزاء ولهذا قال تعالى ﴿ بل هم بلىء ربهم كافرين ﴾ أي بل هناك ما هو أبلغ وأشنع من الاستهزاء ، وهو كفرهم وجحودهم بلىء الله في دار الجزاء ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم ﴾ أي قل لهم رداً على مزاعمهم الباطلة : يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بقبض أرواحكم هو وأعوانه ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ أي ثم مرجعكم إلى الله يوم القيامة للحساب والجزاء قال ابن كثير : والظاهر أن ملك الموت شخص معين ، وقد سُمي في بعض الآثار بـ « عزرائيل » وهو المشهور ، وله أعوان - كما ورد في الحديث - ينتزعون الأرواح من سائر الجسد ، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت (١) وقال مجاهد : جُمِعت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء (٢) ، ثم أخبر تعالى بحال المجرمين يوم القيامة وما هم فيه من الذل والهوان فقال ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ﴾ أي ولو ترى أيها المخاطب حال المجرمين يوم القيامة وهم مطرقو رؤوسهم أمام ربهم من الخجل والحياء لرأيت العجب العجائب قال أبو السعود : وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف تقديره لرأيت أمراً فظيماً لا يُقادر قدره من هولته وفضاعته (٣) ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا ﴾ أي يقولون ربنا أبصرنا حقيقة الأمر وسمعنا ما كنا ننكر من أمر الرسل ، وكنا عمياً وصماً ﴿ فارجعنا نعمل صالحاً ﴾ أي فردنا إلى دار الدنيا لنعمل صالحاً ﴿ إنا موقنون ﴾ أي فنحن الآن مصدقون تصديقاً جازماً ، وموقنون أن وعدك حق ، ولقاءك حق قال الطبري : أي أيقنا الآن بوحدانيتك ، وأنه لا يصلح أن يُعبد سواك ، ولا ينبغي أن يكون رب سواك ، وأنتك تحيي وتميت وتفعل ما تشاء (٤) ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ أي لو أردنا هداية جميع الخلق لفعلنا ولكن ذلك ينافي حكمتنا ، لأننا نريد منهم الإيمان بطريق الاختيار ، لا بطريق الإكراه والإجبار ﴿ ولكن حق القول مني ﴾ أي ولكن ثبت ووجب قولي بعذاب المجرمين ، وتقرر وعيدي ﴿ لأملأن جهنم من الجنّة والناس أجمعين ﴾ أي لأملأن جهنم بالعصاة من الجنّ والإنس جميعاً ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم

(١) مختصر ابن كثير ٧٣/٣ . (٢) الطبري ٦٢/٢١ . (٣) أبو السعود ١٩٧/٤ . (٤) الطبري ٦٢/٢١ .

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

هذا ﴿١٤﴾ أي يقال لأهل النار على سبيل التقرير والتوبيخ : ذوقوا - بسبب نسيانكم الدار الآخرة وانهاكم في الشهوات - هذا العذاب المخزي الأليم ﴿١٥﴾ إننا نسيناكم ﴿١٦﴾ أي نترككم اليوم في العذاب كما تركتم العمل بآياتنا ﴿١٧﴾ وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴿١٤﴾ أي وذوقوا العذاب الدائم الخالد في جهنم بسبب كفركم وتكذيبكم ، ثم لما ذكر حال الأشقياء وعاقبتهم الوحيمة ، أتبعه بذكر حال السعداء وما أعدّه لهم من النعيم المقيم في دار الجزاء ، ليظل العبد بين الرهبة والرغبة فقال ﴿١٥﴾ إننا يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً ﴿١٦﴾ أي إنما يصدق بآياتنا المؤمنون المتقون الذين إذا عظوا بآياتنا سقطوا على وجوههم ساجدين لله تعظيماً لآياته ﴿١٧﴾ وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ﴿١٤﴾ أي وسبحوا ربهم على نعمائه وهم لا يستكبرون عن طاعته وعبادته ﴿١٥﴾ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴿١٦﴾ أي تتحنى وتتباعد أطرافهم عن الفرش ومواضع النوم ، والغرض أن نومهم بالليل قليل لانقطاعهم للعبادة كقوله ﴿١٥﴾ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴿١٦﴾ وبالأسحار هم يستغفرون ﴿١٧﴾ قال مجاهد : يعني بذلك قيام الليل ﴿١٤﴾ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴿١٥﴾ أي يدعون ربهم خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته وثوابه ﴿١٦﴾ وممّا رزقناهم ينفقون ﴿١٧﴾ أي وما أعطيناهم من الرزق ينفقون في وجوه البر والحسنات ﴿١٤﴾ فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قُرّة أعين ﴿١٥﴾ أي فلا يعلم أحد من الخلق مقدار ما يعطيهم الله من النعيم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿١٦﴾ جزاءً بما كانوا يعملون ﴿١٧﴾ أي ثواباً لما قدموه في الدنيا من صالح الأعمال .

قال الله تعالى : ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوتون... إلى... وانتظر إنهم منتظرون﴾ من آية (١٨) إلى آية (٣٠) نهاية السورة .

المناسكبة : لما ذكر تعالى حال المجرمين في الآخرة ، وحال المؤمنين المتقين ، وما أعدّه لهم من الكرامة في دار النعيم ، ذكر هنا أنه لا يتساوى الفريقان : فريق الأبرار ، وفريق الفجار لأن عدالة الله تقتضي التمييز بين المؤمن الصالح ، والفاسق الفاجر .

اللفكتر : ﴿فاسقاً﴾ الفاسق : الخارج عن طاعة الله ﴿نزلًا﴾ ضيافةً وعطاءً ، والنزل ما يهبأ للنازل والضيف قال الشاعر :

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلًا

﴿الجرز﴾ اليابسة الجرداء التي لا نبات فيها ، والجرز : القطع قال الزمخشري : الجرز : الأرض التي جرز

أَفْمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿٥٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِء تَكْذِبُونَ ﴿٦٠﴾ وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ نَبَاتَهَا أَي قَطْع ، إِمَّا لَعْدَمِ الْمَاءِ أَوْ لِأَنَّهُ رُعِي وَأَزِيل ، وَلَا يُقَالُ لِلتِّي لَا تَنْبَتُ كَالسَّبَاخِ جُرْزٌ (١) ﴿الفتح﴾ الْحُكْمُ وَيُقَالُ لِلْحَاكِمِ : فَاتِحٌ وَفَاتِحٌ لِأَنَّهُ يَفْصَلُ بَيْنَ النَّاسِ بِحُكْمِهِ ﴿يُنْظَرُونَ﴾ يَمْهَلُونَ وَيُؤْخَرُونَ .

سَبَبُ النَّزُولِ : رَوَى أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ «عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» وَ«عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ» تَنَازَعٌ وَخِصُومَةٌ ، فَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ لِعَلِيِّ : أَسَكَتَ فَإِنَّكَ صَبِيٌّ ، وَأَنَا وَاللَّهِ أَبْسَطُ مِنْكَ لِسَانًا ، وَأَشْجَعُ مِنْكَ جَنَانًا ، وَأَمْلَأُ مِنْكَ حَشَوًا فِي الْكُتَيْبَةِ ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ : اسَكَتَ فَإِنَّكَ فَاسِقٌ فَتَزَلْتُ ﴿أَفْمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ (٢) .

الْفُضَيْرُ : ﴿أَفْمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ ؟ أَي أَفْمَن كَانَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُؤْمِنًا مُتَّقِيًا لِلَّهِ ، كَمَن كَانَ فَاسِقًا خَارِجًا عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ ؟ ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ أَي لَا يَسْتَوُونَ فِي الْآخِرَةِ بِالشُّوَابِ وَالْكَرَامَةِ ، كَمَا لَمْ يَسْتَوُوا فِي الدُّنْيَا بِالطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ ؟ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : يَجْبُرُ تَعَالَى عَنِ عَدْلِهِ وَكَرَمِهِ ، أَنَّهُ لَا يَسَاوِي فِي حُكْمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِآيَاتِهِ مُتَّبِعًا لِرِسَالِهِ ، بِمَنْ كَانَ فَاسِقًا أَي خَارِجًا عَنِ طَاعَةِ رَبِّهِ ، مَكْذِبًا رَسَلَ اللَّهِ (٣) ، ثُمَّ فَصَّلَ تَعَالَى جَزَاءَ الْفَرِيقَيْنِ فَقَالَ ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَي أَمَّا الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ أَي لَهُمُ الْجَنَّاتُ الَّتِي فِيهَا الْمَسَاكِنُ وَالِدُورُ وَالْغُرُفُ الْعَالِيَةُ يَأْوُونَ إِلَيْهَا وَيَسْتَمْتَعُونَ بِهَا قَالَ الْبِيضَاوِيُّ : فَالْجَنَّةُ هِيَ الْمَأْوَى الْحَقِيقِيُّ ، وَالدُّنْيَا مَنْزِلٌ مَرْتَحِلٌ عَنْهُ لَا مَحَالَةَ (٤) ﴿نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَي ضِيَافَةٌ مَهِيئَةٌ وَمَعْدَةٌ لِإِكْرَامِهِمْ كَمَا تَهَيُّأُ التَّحْفِ لِلضَّيْفِ وَذَلِكَ بِسَبَبِ مَا قَدَّمُوهُ مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أَي وَأَمَّا الَّذِينَ خَرَجُوا عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ فَمَلَجَوْهُمْ وَمَنْزَلَهُمْ نَارَ جَهَنَّمَ ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أَي إِذَا دَفَعَهُمْ لَهَبُ النَّارِ إِلَىٰ أَعْلَاهَا رَدُّوا إِلَىٰ مَوْضِعِهِمْ فِيهَا قَالَ الْفُضَيْلِيُّ بْنُ عِيَاضٍ : وَاللَّهِ إِنْ الْأَيْدِي لَمَوْثِقَةٌ ، وَإِنَّ الْأَرْجُلَ لَمَقِيدَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَبَ لِيرْفَعُهُمُ وَالْمَلَائِكَةَ تَقْمَعُهُمْ (٥) ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ أَي وَتَقُولُ لَهُمْ خِزْنَةُ جَهَنَّمَ تَقْرِيحًا وَتَوْبِيخًا : ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الْمُخْزِي الَّذِي كُنتُمْ تَكْذِبُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَتَهْزَعُونَ مِنْهُ ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ بِعَذَابٍ عَاجِلٍ فِي الدُّنْيَا فَقَالَ ﴿وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ أَي وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَقْرَبِ وَهُوَ عَذَابُ الدُّنْيَا مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالْبَلَايَا وَالْمِحْنِ قَالَ الْحَسَنُ : الْعَذَابُ الْأَدْنَى : مَصَائِبُ الدُّنْيَا وَأَسْقَامُهَا مِمَّا يُبْتَلَىٰ بِهِ الْعَبِيدُ حَتَّى يَتُوبُوا وَقَالَ أَبُو مَجَاهِدٍ : الْقَتْلُ وَالْجُوعُ (٦) ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾

(١) الكشاف ٤٠٨/٣ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٢٦٥/٣ وانظر القرطبي ١٠٥/١٤ وزاد المسير ٣٤٠/٦ .

(٣) مختصر ابن كثير ٧٦/٣ . (٤) البيضاوي ١١٢/٢ . (٥) المختصر ٧٦/٣ .

(٦) قال المفسرون : أصاب أهل مكة القحط والجذب سبع سنين حتى أكلوا فيها الجيف والعظام والكلاب .

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾
 وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ
 أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا
 كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

أي قبل العذاب الأكبر الذي ينتظرهم وهو عذاب الآخرة ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي لعلهم يتوبون عن الكفر والمعاصي ، ثم بعد أن توعدهم وهددهم بين استحقاقهم للعذاب فقال ﴿ومن أظلم ممن ذكر آيات ربه ثم أعرض عنها﴾ أي لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ وذكر آيات الرحمن ، ثم ترك الإيمان وتناساها ؟ ﴿إننا من المجرمين منتقمون﴾ أي سأنتقم من كذب آياتي أشد الانتقام ، ووضع الاسم الظاهر مكان الضمير لتسجيل الإجماع عليهم ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي أعطينا موسى التوراة ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ أي فلا تكن يا محمد في شك من تلقي القرآن^(١) كما تلقى موسى التوراة ، والمقصود تقرير رسالته عليه السلام ، وتحقيق أن ما معه من الكتاب وحي ساوي وكتاب إلهي ﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ أي جعلنا التوراة هداية لبني إسرائيل من الضلالة ﴿وجعلنا منهم أئمة﴾ أي جعلنا منهم قادة وقادة يقتدى بهم في الخير ﴿يهدون بأمرنا﴾ أي يدعون الخلق إلى طاعتنا ويرشدونهم إلى الدين بأمرنا وتكليفنا ﴿لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ أي حين صبروا على تحمل المشاق في سبيل الله ، وكانوا يصدقون بآياتنا أشد التصديق وأبلغه قال ابن الجوزي : وفي هذا تنبيه لقريش أنكم إن أطعتم وأمتتم جعلت منكم أئمة^(٢) ﴿إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي إن ربك يا محمد يقضي ويحكم بين المؤمنين والكفار ، فيميز بين المحق والمبطل يوم القيامة ، ويجازي كلا بما يستحق ، فيما اختلفوا فيه من أمور الدين قال الطبري : فيما كانوا فيه يختلفون من أمور الدين ، والبعث ، والثواب والعقاب^(٣) ، ثم نبه تعالى على آثار قدرته في مخلوقاته ، وأقام الحجة على الكفار بالأمم السالفة الذين كفروا فأهلكوا فقال ﴿أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون﴾ أي أغفل هؤلاء المشركون ولم يتبين لهم كثرة من أهلكناهم من الأمم الماضية الذين كذبوا رسل الله ؟ ﴿يمشون في مساكنهم﴾ أي حال كون أهل مكة يسيرون في دورهم ، ويشاهدون في أسفارهم منازل هؤلاء المهلكين أفلا يعتبرون ؟ قال ابن كثير : أي هؤلاء المكذوبون يمشون في مساكن أولئك الظالمين ، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها^(٤) ﴿إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون﴾ أي إن في إهلاكهم لدلالات عظيمة على قدرتنا ،

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير يعود إلى موسى أي فلا تكن في شك من لقاء موسى ، وما ذكرناه أرجح وهو اختيار البيضاوي وأبو

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٣٧﴾
 وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ
 يُنظَرُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٤٠﴾

أفلا يسمعون سماع تدبر واتعاظ؟ ثم ذكر تعالى دلائل الوحداية فقال ﴿أولم يروا أننا نسوق الماء إلى الأرض الجُرُزِ﴾ أي أولم يشاهدوا كمال قدرتنا في سوقنا الماء إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها من شدة العطش لنحييها؟ ﴿فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم﴾ أي فنخرج بذلك الماء أنواع الزروع والثمار، تأكل منه دوابهم من الكلاً والحشيش، وأنفسهم من الحب والخضر والفواكه والبقول ﴿أفلا يبصرون﴾ أي أفلا يبصرون ذلك فيستدلون به على كمال قدرته تعالى وفضله، ويعلمون أن الذي أحيا الأرض الميتة قادر على إعادتهم بعد وفاتهم؟ ﴿ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين﴾ أي ويقول كفار مكة للمسلمين على سبيل السخرية والتهكم: متى ستنصرون علينا ويكون لكم الغلبة والفتح علينا؟ إن كنتم صادقين في دعوكم قال الصاوي: كان المسلمون يقولون إن الله سيفتح لنا على المشركين، ويفصل بيننا وبينهم، وكان أهل مكة إذا سمعوهم يقولون بطريق الاستعجال تكذيباً واستهزاءً: متى هذا الفتح فنزلت^(١) ﴿قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخاً وتبكيماً: إن يوم القيامة هو يوم الفتح الحقيقي الذي يفصل تعالى فيه بيننا وبينكم، ولا ينفع فيه الإيمان ولا الاعتذار فلماذا تستعجلون؟ ﴿ولا هم يُنظرون﴾ أي ولا هم يؤخرون ويمهلون للتوبة قال البيضاوي: ويوم الفتح هو يوم القيامة فإنه يوم نصر المؤمنين على الكافرين والفصل بينهم، وقيل هو يوم بدر^(٢) ﴿فأعرض عنهم﴾ أي فأعرض يا محمد عن هؤلاء الكفار ولا تبال بهم ﴿وانتظر إنهم منتظرون﴾ أي وانتظر ما يحل بهم من عذاب الله، إنهم منتظرون كذلك ما يحل بكم قال القرطبي: أي ينتظرون بكم حوادث الزمان^(٣).

الْبَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - جناس الاشتقاق مثل ﴿تُنذر.. ونذير﴾ وكذلك مثل ﴿انتظر.. إنهم منتظرون﴾.
- ٢ - الطباق بين ﴿الغيب.. والشهادة﴾ وبين ﴿خوفاً.. وطمعاً﴾.
- ٣ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وجعل لكم﴾ والأصل «وجعل له» والنكته أن الخطاب إنما يكون مع الحي فلما نفخ تعالى الروح فيه حسن خطابه مع ذريته.

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٢٦ . (٢) البيضاوي ٢/ ١١٣ . (٣) القرطبي ١٤/ ١١٢ .

- ٤ - الاستفهام الإنكاري وغرضه الاستهزاء ﴿أثذا ضللنا في الأرض أننا لفي خلقٍ جديد﴾ ؟
- ٥ - الإضمار ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾ أي يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا .
- ٦ - الاختصاص ﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾ أي إليه لا إلى غيره مرجعكم يوم القيامة .
- ٧ - حذف جواب لو للتهويل ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم﴾ أي لرأيت أمراً مهولاً .
- ٨ - المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى ﴿نسيتم لقاء يومكم . . إنا نسيناكم﴾ فإن الله تعالى لا ينسى وإنما المراد نترككم في العذاب ترك الشيء المنسي .
- ٩ - المقابلة اللطيفة بين جزاء الأبرار وجزاء الفجار ﴿أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى . . ﴾ ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ وهو من المحسنات البديعية .
- ١٠ - الكناية عن كثرة العبادة والتبتل ليلاً ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ .
- ١١ - الاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿أولم يهد لهم﴾ ؟ ﴿أولم يروا أننا نسوق الماء﴾ ؟ ﴿أفلا يسمعون﴾ ؟ ﴿أفلا يبصرون﴾ وكلها بقصد الزجر والتوبيخ .
- ١٢ - السجع مراعاةً للفواصل ورءوس الآيات مثل ﴿إنا موقنون﴾ وهم لا يستكبرون﴾ لعلمهم يرجعون﴾ أفلا يسمعون﴾ وهذا من المحسنات البديعية وهو كثير في القرآن الكريم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة السجدة »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة الأحزاب من السور المدنية ، التي تناول الجانب التشريعي لحياة الأمة الإسلامية ، شأن سائر السور المدنية ، وقد تناولت حياة المسلمين الخاصة والعامة ، وبالأخص أمر الأسرة فشرعت الأحكام بما يكفل للمجتمع السعادة والهناء ، وأبطلت بعض التقاليد والعادات الموروثة مثل « التبني ، والظهار ، واعتقاد وجود قلبين للإنسان » وطهرت من رواسب المجتمع الجاهلي ، ومن تلك الخرافات والأساطير الموهومة التي كانت متفشية في ذلك الزمان .

* ويمكن أن نلخص المواضيع الكبرى لهذه السورة الكريمة في نقاط ثلاث :

أولاً : التوجيهات والآداب الإسلامية .

ثانياً : الأحكام والتشريعات الإلهية .

ثالثاً . الحديث عن غزوتي « الأحزاب ، وبني قريظة » .

* أما الأولى : فقد جاء الحديث عن بعض الآداب الاجتماعية كأداب الوليمة ، وآداب الستر والحجاب وعدم التبرج ، وآداب معاملة الرسول ﷺ واحترامه إلى آخر ما هنالك من آداب اجتماعية .

* وأما الثانية : فقد جاء الحديث عنها في بعض الأحكام التشريعية مثل حكم الظهار والتبني ، والإرث ، وزواج مطلقة الإين من التبني ، وتعدد زوجات الرسول الطاهرات والحكمة منه ، وحكم الصلاة على الرسول ﷺ وحكم الحجاب الشرعي ، والأحكام المتعلقة بأمور الدعوة إلى الوليمة إلى غير ما هنالك من أحكام تشريعية .

* وأما الثالثة : فقد تحدثت السورة بالتفصيل عن غزوة الخندق التي تسمى « غزوة الأحزاب » وصورتها تصويراً دقيقاً بتالك قوى البغي والشر على المؤمنين ، وكشفت عن خفايا المنافقين ، وحذرت من طرقهم في الكيد والتخذيل والتشبيط ، وأطالت الحديث عنهم في بدء السورة وفي ختمها ، حتى لم يُبق لهم

سترأ ، ولم تخف لهم مكرأ ، وذكرت المؤمنين بنعمة الله العظمى عليهم في رد كيد أعدائهم بإرسال الملائكة والريح ، كما تحدثت عن غزوة بني قريظة ونقض اليهود عهدهم مع الرسول ﷺ .

التسمية : سميت سورة الأحزاب لأن المشركين تحزبوا على المسلمين من كل جهة ، فاجتمع كفار مكة مع غطفان وبني قريظة وأوباش العرب على حرب المسلمين ، ولكن الله ردَّهم مدحورين وكفى المؤمنين القتال بتلك المعجزة الباهرة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين .. إلى .. ما قاتلوا إلا قليلاً﴾

من آية (١) إلى نهاية آية (٢٠) .

الفكرة : ﴿أدعياءكم﴾ جمع دعى وهو الولد المتبني من أبناء الغير قال في اللسان : والدعوى : المنسوب إلى غير أبيه قال الشاعر :

دعى القوم ينصر مدعیه ليُحقه بذي النسب الصميم
أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

﴿أقسط﴾ أعدل يقال : أقسط الرجل إذا عدل ، وقسط إذا ظلم ، والقسط : العدل ﴿مسطوراً﴾ أي مسطراً مكتوباً لا يُمحي ﴿ميثاقهم﴾ الميثاق : العهد المؤكد بيمين أو نحوه ﴿الحناجر﴾ جمع حنجرة وهي نهاية الحلقوم مدخل الطعام والشراب ﴿يثرب﴾ اسم المدينة المنورة وسمّاها رسول الله ﷺ طيبة ﴿عورة﴾ خالية من الرجال غير محصنة يقال : دارٌ معورة إذا كان سهل دخولها قال الجوهري : العورة كلُّ خلل يُتخوف منه في ثغر أو حرب^(١) ﴿أقطارها﴾ جمع قَطْر وهو الناحية والجانب ﴿يعصمكم﴾ يمنعكم ﴿المعوقين﴾ المثبتين مشتق من عاقه إذا صرفه .

سبب النزول : أ- روي أن رجلاً من قريش يدعى (جميل بن معمر) كان لبيباً حافظاً لما يسمع فقالت قريش : ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان في جوفه فأنزل الله ﴿ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه ..﴾^(٢) الآية .

ب- وروي أن النبي ﷺ لما أراد غزوة تبوك أمر الناس بالتجهز والخروج لها ، فقال أناس : نستأذن آبائنا وأمهاتنا فأنزل الله ﴿النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ..﴾^(٣) الآية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا

التفسير: ﴿يا أيها النبي اتق الله﴾ النداء على سبيل التشريف والتكرمة لأن لفظ النبوة مشعر بالتعظيم والتكريم أي اثبت على تقوى الله ودمٌ عليها قال أبو السعود: في ندائه ﷺ بعنوان النبوة تنويه بشأنه، وتنبيه على سمو مكانه، والمراد بالتقوى المأمور به الثبات عليه والازدياد منه، فإن له باباً واسعاً ومكاناً عريضاً لا يُنال مداه^(١) ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ أي ولا تطع أهل الكفر والنفاق فيما يدعونك إليه من اللين والتساهل، وعدم التعرض لأهتهم بسوء، ولا تقبل أقوالهم وإن أظهروا أنها نصيحة قال المفسرون: دعا المشركون رسول الله ﷺ أن يرفض ذكر أهتهم بسوء، وأن يقول إن لها شفاعة فكره ﷺ ذلك ونزلت الآية^(٢) ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ أي إنه تعالى عالم بأعمال العباد وما يضمرونه في نفوسهم، حكيم في تدبير شئونهم ﴿وأتبع ما يوحي إليك من ربك﴾ أي واعمل بما يوحيه إليك ربك من الشرع القويم، والدين الحكيم، واستمسك بالقرآن المنزل عليك ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي خبيراً بأعمالكم لا تخفى عليه خافية من شئونكم، وهو مجازيكم عليها ﴿وتوكل على الله﴾ أي اعتمد عليه، والجا في جميع أمورك إليه ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ أي وحسبك أن يكون الله حافظاً وناصراً لك ولأصحابك، ثم رد تعالى مزاعم الجاهليين ببيان الحق الساطع فقال ﴿ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه﴾ أي ما خلق الله لأحدٍ من الناس أياً كان قلبين في صدره، قال مجاهد: نزلت في رجلٍ من قريش كان يدعى «ذا القلبين» من دهائه، وكان يقول: إن في جوفي قلبين أعقل بكل واحدٍ منهما أفضل من عقل محمد^(٣) ﴿وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن أمهاتكم﴾ أي وما جعل زوجاتكم اللواتي تظاهرون منهن أمهاتكم قال ابن الجوزي: أعلم تعالى أن الزوجة لا تكون أماً، وكانت الجاهلية تطلق بهذا الكلام وهو أن يقول لها: أنت علي كظهر أمي^(٤) ﴿وما جعل أديعاءكم أبناءكم﴾ أي وما جعل الأبناء من التبني الذين ليسوا من أصلابكم أبناء لكم حقيقة ﴿ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ أي دعاؤهم أبناء مجرد قول بالفم لا حقيقة له من الواقع ﴿والله يقول الحق﴾ أي والله تعالى يقول الحق الموافق للواقع،

(١) أبو السعود ٢٠١/٤ . (٢) انظر القرطبي ١١٥/١٤ وزاد السير ٣٤٧/٦ . (٣) القرطبي ١١٦/١٤ . (٤) زاد السير ٣٥٠/٦ .

ءَابَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ
أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي

والمطابق له من كل الوجوه ﴿وهو يهدي السبيل﴾ أي يرشد إلى الصراط المستقيم ، والغرض من الآية التنبية على بطلان مزاعم الجاهلية ، فكما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، فكذلك لا يمكن أن تصبح الزوجة المظاهر منها أمًا ، ولا الولد المتبني ابنًا ، لأن الأم الحقيقية هي التي ولدتها ، والابن الحقيقي هو الذي وُلد من صلب الرجل ، فكيف يجعلون الزوجات المظاهر منهن أمهات ؟ وكيف يجعلون أبناء الآخرين أبناء لهم مع أنهم ليسوا من أصلابهم ؟ ثم أمر تعالى بردّ نسب هؤلاء إلى آبائهم فقال ﴿أدعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله﴾ أي انسبوا هؤلاء الذين جعلتموهم لكم أبناء لأبائهم الأصلاء ﴿هو أقسط عند الله﴾ أي هو أعدل وأقسط في حكم الله وشرعه^(١) قال ابن جرير : أي دعاؤكم إياهم لأبائهم هو أعدل عند الله وأصدق وأصوب من دعائكم إياهم لغير آبائهم^(٢) ﴿فإن لم تعلموا آباءهم فأخوانكم في الدين﴾ أي فإن لم تعرفوا آباءهم الأصلاء فتنسبوا إليهم فهم إخوانكم في الإسلام ﴿ومواليكم﴾ أي أولياؤكم في الدين ، فليقل أحدكم : يا أخي ويا مولاي يقصد أخوة الدين وولايته قال ابن كثير : أمر تعالى بردّ أنساب الأعداء إلى آبائهم إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم ، عوضاً عما فاتهم من النسب ، ولهذا قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « أنت أخونا ومولانا »^(٣) وقال ابن عمر : ما كنا ندعو « زيد بن حارثة » إلا زيد بن محمد حتى نزلت ﴿أدعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله﴾^(٤) ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به﴾ أي وليس عليكم أيها المؤمنون ذنب أو إثم فيمن نسبتموهم إلى غير آبائهم خطأً ﴿ولكن ما تعمدت قلوبكم﴾ أي ولكن الإثم فيما تقصدتم وتعمدتم نسبته إلى غير أبيه ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة ، يعفو عن المخطيء ويرحم المؤمن التائب ، ثم بيّن تعالى شفقة الرسول ﷺ على أمته ونصحه لهم فقال ﴿النبيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي هو عليه السلام أرفأ بهم وأعطف عليهم ، وأحقُّ بهم من أنفسهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا ، وحكمه أنفذ وطاعته أوجب ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ أي وزوجاته الطاهرات أمهات للمؤمنين في وجوب تعظيمهن واحترامهن ، وتحريم نكاحهن قال أبو السعود : أي منزلات منزلة الأمهات ، في التحريم واستحقاق التعظيم ، وأما فيما عدا ذلك فهن كالأجنبيات^(٥) ﴿وأولوا الأرحام﴾ أي أهل القربان ﴿بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾ أي أحقُّ بالآرث من المهاجرين والأنصار في شرع الله ودينه

(١) نقلًا عن كتابنا تفسير آيات الأحكام ٢/ ٢٥٤ . (٢) الطبري ٢١/ ٧٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٧٩ ابن كثير ٣/ ٨١ . (٤) أخرجه البخاري . (٥) أبو السعود ٤/ ٢٠٣ .

الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿١٠﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۗ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١١﴾ لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ

﴿إلا أن تفعلوا إلى أولياتكم معروفاً﴾ أي إلا أن تحسنوا إلى إخوانكم المؤمنين والمهاجرين في حياتكم ، أو توصوا إليهم عند الموت فإن ذلك جائز ، وبسط اليد بالمعروف مما حث الله عباده عليه قال المفسرون : وهذا نسخ لما كان في صدر الإسلام من توارث المسلمين من بعضهم بالأخوة الإيمانية وبالهجرة ونحوها^(١) ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ أي كان حكم التوارث بين ذوي الأرحام مكتوباً مسطوراً في الكتاب العزيز لا يبدل ولا يُغير قال قتادة : أي مكتوباً عند الله عز وجل ألا يرث كافر مسلماً^(٢) ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم﴾ أي اذكر وقت أخذنا من النبيين عهدهم المؤكد باليمين ، أن يفوا بما التزموا ، وأن يصدق بعضهم بعضاً ، وأن يؤمنوا برسالة محمد ﷺ ورسالاتهم ﴿ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى﴾ بن مريم ﴿أي وأخذنا منك يا محمد الميثاق ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، وهؤلاء هم أولو العزم ومشاهير الرسل ، وإنما قدمه ﷺ في الذكر لبيان مزيد شرفه وتعظيمه قال البيضاوي : خصهم بالذكر لأنهم مشاهير أرباب الشرائع ، وقدم نبينا عليه الصلاة والسلام تعظيماً له وتكريماً لشأنه^(٣) وقال ابن كثير : بدأ بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه ، وبياناً لعظم مكاتته ، ثم رتبهم بحسب وجودهم في الزمان^(٤) ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ أي وأخذنا من الأنبياء عهداً وثيقاً عظيماً على الوفاء بما التزموا به من تبليغ الرسالة ﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم﴾ أي ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الصادقين عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم قال الصاوي : والحكمة في سؤال الرسل مع علمه تعالى بصدقهم هو التقيح على الكفار يوم القيامة وتبكيتهم^(٥) وقال القرطبي : وفي الآية تنبيه على أن الأنبياء إذا كانوا يُسألون يوم القيامة فكيف بمن سواهم ؟ وفائدة سؤالهم توبيخ الكفار كما قال تعالى لعيسى ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين﴾^(٦) ؟ ﴿وأعد للكافرين عذاباً أليماً﴾ أي وأعد الله للكافرين عذاباً مؤلماً موجعاً ، بسبب كفرهم وإعراضهم عن قبول الحق ، ثم شرع تعالى في ذكر « غزوة الأحزاب » وما فيها من نعم فائضة ، وآيات باهرة للمؤمنين فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي اذكروا فضله وإنعامه عليكم ﴿إذ جاءكم جنود﴾ أي وقت مجيء جنود الأحزاب وتآلبهم عليكم قال أبو السعود : والمراد بالجنود الأحزاب وهم قريش ، وخطفان ، ويهود قريظة وبني النضير ، وكانوا زهاء اثني عشر ألفاً ، فلما سمع رسول الله ﷺ بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة بإشارة «سلمان الفارسي» ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين ، فضرب معسكره والخندق بينه وبين المشركين ، واشتد الخوف وظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق في المنافقين

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٦/٣٥٤ . (٢) القرطبي ١٤/١٢٦ . (٣) البيضاوي ١/١١٤ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/٨٣ .

(٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٢٦٩ . (٦) القرطبي ١٤/١٢٨ .

بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩١﴾ إِذْ جَاءَ وَكُرْمٍ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿٩٢﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿٩٣﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَآ وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٩٤﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ

حتى قال « معتب بن قشير » يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط^(١) ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾ أي فأرسلنا على الأحزاب ريحاً شديدة وجنوداً من الملائكة لم تروهم وكانوا قرابة ألف قال المفسرون : بعث الله عليهم ريحاً عاصفاً وهي ريح الصبا في ليلة شديدة البرد والظلمة ، فقلعت بيوتهم ، وكفأت قدورهم ، وصارت تلقي الرجل على الأرض ، وأرسل الله الملائكة فزلزلتهم - ولم تقاتل - بل ألقيت في قلوبهم الرعب^(٢) ﴿وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ أي وهو تعالى مطلع على ما تعملون من حفر الخندق ، والثبات على معاونة النبي ﷺ في ذلك الوقت ﴿إذ جاءكم من فوقكم﴾ أي حين جاءتكم الأحزاب من فوق الوادي يعني من أعلاه قبل المشرق ، ومنه جاءت أسد وغطفان ﴿ومن أسفل منكم﴾ أي ومن أسفل الوادي يعني أدناه قيل المغرب ، ومنه جاءت قريش وكنانة وأوباش العرب ، والغرض أن المشركين جاءوهم من جهة المشرق والمغرب ، وأحاطوا بالمسلمين إحاطة السوار بالمعصم ، وأعانهم يهود بني قريظة فنقضوا العهد مع الرسول وانضموا إلى المشركين ، فاشتد الخوف ، وعظم البلاء ولهذا قال تعالى ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ أي وحين مالت الأبصار عن سننها ومستوى نظرها حيرةً وشخصوا لشدة الهول والرعب^(٣) ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ أي زالت عن أماكنها من الصدور حتى كادت تبلغ الحناجر ، وهذا تمثيل لشدة الرعب والفرع الذي دهامهم ، حتى كأن أحدهم قد وصل قلبه إلى حنجرتة من شدة ما يلاقي من الهول^(٤) ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ أي وكنتم في تلك الحالة الشديدة تظنون الظنون المختلفة قال الحسن البصري : ظن المنافقون أن المسلمين يُستأصلون ، وظن المؤمنون أنهم يُنصرون^(٥) ، فالمؤمنون ظنوا خيراً ، والمنافقون ظنوا شراً وقال ابن عطية : كاد المؤمنون يضطربون ويقولون : ما هذا الخلف للوعد ؟ وهذه عبارة عن خواطر خطرت للمؤمنين لا يمكن للبشر دفعها ، وأما المنافقون فتعجلوا ونطقوا وقالوا : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً^(٦) ﴿هنالك ابتلي المؤمنون﴾ أي في ذلك الزمان والمكان امتحن المؤمنون واختبروا ، لتمييز المخلص الصادق من المنافق قال القرطبي : وكان هذا الابتلاء بالخوف والقتال ، والجوع والحصر والنزال^(٧) ﴿وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ أي وحرگوا تحريكاً عنيفاً من شدة ما دهامهم ، حتى لكأن الأرض تتزلزل بهم وتضطرب تحت أقدامهم قال ابن جزى : وأصل الزلزلة شدة التحريك وهو هنا عبارة عن اضطراب القلوب وتزعزعها^(٨) ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي واذكر حين يقول المنافقون ، والذين في قلوبهم مرض النفاق ،

(١) أبو السعود ٤/٣٠٤ . (٢) الصاوي على الجلالين ٣/٢٧١ . (٣) تفسير الكشاف ٣/٤٢٦ . (٤) قال القرطبي : وهذا القول منقول معناه

عن عكرمة ، والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضرباته حتى كأنه لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة . ا هـ . (٥) القرطبي ١٤/١٤٥ .

(٦) نقلاً عن البحر المحيط ٧/٢١٧ . (٧) القرطبي ١٤/١٤٦ . (٨) التسهيل ٣/١٣٤ .

يَتَأَهَّلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَعِذُّنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٤﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأْتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ^ع وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٦﴾ قُلْ لَن يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٧﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ

لأن الإيمان لم يخالط قلوبهم ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ أي ما وعدنا الله ورسوله إلا باطلاً وخداعاً قال الصاوي : والقائل هو « معتب بن قشير » الذي قال : يعدنا محمدٌ بفتح فارس والروم ، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً ، ما هذا إلا وعد غرور^(١) ، يغرنا به محمد ﴿وإذ قالت طائفة منهم﴾ أي واذكر حين قالت جماعة من المنافقين وهم : أوس بن قضيي وأتباعه ، وأبي بن سلول وأشياعه ﴿يا أهل يثرب لا مقام لكم﴾ أي يا أهل المدينة لا قرار لكم ههنا ولا إقامة ﴿فارجعوا﴾ أي فارجعوا إلى منازلكم واركبوا محمداً وأصحابه ﴿ويستأذن فريق منهم النبي﴾ ويستأذن جماعة من المنافقين النبي ﷺ في الإنصراف متعللين بعلل واهية ﴿يقولون إن بيوتنا عورة﴾ أي غير حصينة فنخاف عليها العدو والسراق ﴿وما هي بعورة﴾ تكذيب من الله تعالى لهم أي ليس الأمر كما يزعمون ﴿إن يريدون إلا فراراً﴾ أي ما يريدون بما طلبوا من الرسول ﷺ إلا الهرب من القتال ، والفرار من الجهاد ، والتعبير بالمضارع ﴿ويستأذن﴾ لاستحضار الصورة في النفس ، فكأن السامع يبصرهم الآن وهم يستأذنون ، ثم فضحهم تعالى وبين كذبهم ونفاقهم فقال ﴿ولو دخلت عليهم من أقطارها﴾ أي ولو دخل الأعداء على هؤلاء المنافقين من جميع نواحي المدينة وجوانبها ﴿ثم سألوا الفتنة لآتوها﴾ أي ثم طلب إليهم أن يكفروا وأن يقاتلوا المسلمين لأعطوها من أنفسهم ﴿وما تلبثوا بها إلا يسيراً﴾ أي لفعلوا ذلك مسرعين ، ولم يتأخروا عنه لشدة فسادهم ، وذهاب الحق من نفوسهم ، فهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع^(٢) ، وهذا ذم لهم في غاية الذم ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار﴾ أي ولقد كان هؤلاء المنافقون أعطوا ربهم العهود والمواثيق من قبل غزوة الخندق وبعد بدر ألا يفروا من القتال ﴿وكان عهد الله مسئولا﴾ أي وكان هذا العهد منهم جديراً بالوفاء لأنهم سيسألون عنه ، وفيه تهديد ووعد قال قتادة : لما غاب المنافقون عن بدر ، ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر ، قالوا لئن شهدنا الله قتالاً لنقاتلن^(٣) ﴿قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل﴾ أي قل يا أيها النبي لهؤلاء المنافقين ، الذين يفرون من القتال طمعاً في البقاء وحرصاً على الحياة ، إن فراركم لن يطول أعماركم ولن

(١) حاشية الصاوي ٢٧٢/٣ . (٢) هذا قول قتادة وابن زيد واختيار ابن جرير قال القرطبي : وقال السدي والحسن والفراء المعنى : ما لبثوا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلاً حتى يهلكوا ، والأول قول أكثر المفسرين ، وذلك لضعف نياتهم وفرط نفاقهم ، فلو اختلط بهم الأعداء لأظهروا الكفر . اهـ « القرطبي ١٥٠/١٤ » . (٣) القرطبي ١٥٠/١٤ .

إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ
 الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشْحَةٌ عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ
 الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ
 بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ ۗ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

يؤخر آجالكم ، ولن يدفع الموت عنكم أبداً ﴿١٧﴾ وإذلاً لا تثتمعون إلا قليلاً﴾ أي ولئن هربتم وفرتم فإذا لا تمتعون بعده إلا زمناً يسيراً ، لأن الموت مأل كل حي ، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ﴿١٧﴾ قل من ذا الذي يعصمكم من الله ﴿١٧﴾ أي من يستطيع أن يمنعكم منه تعالى ﴿١٧﴾ إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ﴿١٧﴾ أي إن قدر هلاككم ودماركم ، أو قدر بقاءكم ونصركم ؟ ﴿١٧﴾ ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴿١٧﴾ أي وليس لهم من دون الله مجير ولا مغيث ، فلا قريب ينفعهم ولا ناصر ينصرهم ﴿١٧﴾ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴿١٧﴾ أي لقد علم الله تعالى ما كان من أمر أولئك المنافقين ، المثبتين للعزائم ، الذين يعوقون الناس عن الجهاد ، ويصدونهم عن القتال ﴿١٧﴾ والقائلين لإخوانهم هلمم إلينا ﴿١٧﴾ أي والذين يقولون لإخوانهم في الكفر والنفاق : تعالوا إلينا واركبوا محمداً وصحبه يهلكوا ولا تقاتلوا معهم ، قال تعالى ﴿١٧﴾ ولا يأتون البأس إلا قليلاً ﴿١٧﴾ أي ولا يحضرون القتال إلا قليلاً منهم رياءً وسمعة ، قال الصاوي : لأن شأن من يشبط غيره عن الحرب ألا يفعله إلا قليلاً لغرضٍ خبيث^(١) وقال في البحر : المعنى : لا يأتون القتال إلا إتياناً قليلاً ، يخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم ، ولا تراهم يقاتلون إلا شيئاً قليلاً إذا اضطروا إليه ، فقتلهم رياءً ليس بحقيقة^(٢) ﴿١٧﴾ أشحة عليكم ﴿١٧﴾ أي بخلاء عليكم بالمودة والشفقة والنصح لأنهم لا يريدون لكم الخير ﴿١٧﴾ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت ﴿١٧﴾ أي فإذا حضر القتال رأيت أولئك المنافقين في شدة رعب لا مثيل لها ، حتى إنهم لتدور أعينهم في أحداقهم كحال المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حذراً وخوراً قال القرطبي : وصفهم بالجن ، وكذا سبيل الجبان ينظر يميناً وشمالاً محذراً بصره ، وربما غشي عليه من شدة الخوف^(٣) ﴿١٧﴾ فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ﴿١٧﴾ أي فإذا ذهب الخوف عنهم وانجلت المعركة آذوكم بالكلام بألسنة سليطة ، وبالغوا فيكم طعناً وذماً قال قتادة : إذا كان وقت قسمة الغنيمة بسطوا ألسنتهم فيكم يقولون : أعطونا أعطونا فإننا قد شهدنا معكم ، ولستم أحق بها منا ، فأما عند البأس فأجبن قوم وأخذلهم للحق ، وأما عند الغنيمة فأشح قوم وأبسطهم لساناً^(٤) ﴿١٧﴾ أشحة على الخير ﴿١٧﴾ أي خاطبوكم بما خاطبوكم به حال كونهم أشحة أي بخلاء على المال والغنيمة ﴿١٧﴾ أولئك لم يؤمنوا ﴿١٧﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من صفات السوء ، لم يؤمنوا حقيقةً بقلوبهم وإن

(١) حاشية الصاوي ٣/ ٢٧٣ . (٢) البحر ٧/ ٢٢٠

(٣) تفسير القرطبي ١٤/ ١٥٣ . (٤) زاد المسير ٦/ ٣٦٦ والقرطبي ١٤/ ١٥٤ .

يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوِ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ
وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

أسلموا ظاهراً ﴿فأحبط الله أعمالهم﴾ أي أبطلها بسبب كفرهم ونفاقهم ، لأن الإيمان شرط في قبول الأعمال ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي وكان ذلك الإحباط سهلاً هيناً على الله ، ثم أخبر تعالى عنهم بما يدل على جبنهم فقال ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي يحسب المنافقون من شدة خوفهم وجبنهم أن الأحزاب - وهم كفار قريش ومن تحزب معهم - بعد انهزامهم لم ينصرفوا عن المدينة وهم قد انصرفوا ﴿وإن يأتِ الأحزاب يودُّوا لو أنهم بادون في الأعراب﴾ أي وإن يرجع إليهم الكفار كرة ثانية للقتال يتمنوا لشدة جزعهم أن يكونوا في البادية مع الأعراب - لا في المدينة معكم - حذراً من القتل وتربصاً للدوائر ﴿يسألون عن أنباءكم﴾ أي يسألون عن أخباركم وما وقع لكم فيقولون : أهلك المؤمنون ؟ أغلب أبو سفيان ؟ ليعرفوا حالكم بالاستخبار لا بالمشاهدة ﴿ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً﴾ أي ولو أنهم كانوا بينكم وقت القتال واحتدام المعركة ما قاتلوا معكم إلا قتلاً قليلاً لجبنهم وذلتهم وحرصهم على الحياة .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - التوكيد لإفادة الاستغراق والشمول ﴿ما جعل الله لرجلٍ من قَلِيلين﴾ وإدخال حرف الجر الزائد لتأكيد الاستغراق ، وذكر الجوف ﴿في جوفه﴾ لزيادة التصوير في الإنكار .
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا﴾ .
- ٣ - الطباق بين ﴿أخطأتم . . وتعمدت قلوبكم﴾ وبين ﴿سوءً . . ورحمة﴾ لأن المراد بالسوء الشر ، وبالرحمة الخير .
- ٤ - التشبيه البليغ ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ حُذِفَ منه وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغاً ، وأصل الكلام وأزواجه مثل أمهاتهم في وجوب الاحترام والتعظيم ، والإجلال والتكريم .
- ٥ - المجاز بالحذف ﴿أولى ببعض﴾ أي أولى بميرات بعض .
- ٦ - ذكر الخاص بعد العام للتشريف ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح﴾ فقد دخل هؤلاء المذكورون في جملة النبيين ولكنه خصهم بالذكر تنويهاً بشأنهم وتشريفاً لهم .
- ٧ - الاستعارة ﴿ميثاقاً غليظاً﴾ استعار الشيء الحسي - وهو الغلظُ الخاص بالأجسام - للشيء المعنوي وهو بيان حرمة الميثاق وعظمه وثقل حمله .
- ٨ - الالتفات ﴿ليسأل الصادقين﴾ وغرضه التبكيت والتقييح للمشركين .

٩ - الطباق بين ﴿من فوقكم . . وأسفل منكم﴾ .

١٠ - التشبيه التمثيلي ﴿تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد .

١١ - المبالغة في التمثيل ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ صور القلوب في خفقاتها واضطرابها كأنها وصلت إلى الحلقوم .

١٢ - الكناية ﴿لا يولون الأدبار﴾ كناية عن الفرار من الزحف .

١٣ - الاستعارة المكنية ﴿سلقوكم بألسنة حداد﴾ شبه اللسان بالسيف المصلت وحذف ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو السلق بمعنى الضرب على طريق الاستعارة المكنية ، ولفظ ﴿حداد﴾ ترشيح .

١٤ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً . . ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ ونحوه وهو يزيد في رونق الكلام وجماله ، لما له من وقع رائع ، وجرس عذب^(١) .

تنبية : خاطب الله تعالى الأنبياء بأسمائهم فقال ﴿يا نوح اهبط بسلامٍ منا﴾ ﴿يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ ﴿يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ ولم يخاطب الرسول إلا بلفظ النبوة والرسالة ﴿يا أيها النبي حسبك الله﴾ ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك﴾ الخ ولا نجد في القرآن العظيم كله نداءً له باسمه ، وإنما النداء بلفظ النبوة والرسالة ، وفي هذا تفخيم لشأنه ، وتعظيم لمقامه ، وإشارة إلى أنه سيد الأولين والآخرين ، وإمام الأنبياء والمرسلين ، وتعليم لنا الأدب معه ﷺ ، فلا نذكره إلا مع الإجلال والإكرام ، ولا نصفه إلا بالوصف الأكمل ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً . .﴾ ﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى . .﴾^(٢) الآية .

لطفة : إن قيل : ما الفائدة بأمر الله رسوله بالتقوى وهو سيد المتقين ؟ فالجواب أنه أمرٌ بالثبات والاستدامة على التقوى كقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾ أي اثبتوا على الإيمان وكقول المسلم ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ وهو مهتد إليه وغرضه ثبتنا على الصراط المستقيم ، أو نقول : الخطاب للرسول والمراد أمته .

* * *

(١) ذكرنا الأمثلة البلاغية بإيجاز على سبيل المثال لا الحصر ، ليتذوق القارئ بعض الروائع البيانية وإلا فكلام الله معجز وفيه من الصور البلاغية والأسرار البيانية ما يتذوقها الإنسان ويعجز عن وصفها اللسان . (٢) انظر ما كتبه أبو حيان في البحر المحيط ٧/٢١٠ وما كتبه القاضي عياض في كتابه الشفاء فقد أجاد كل منهما وأفاد .

قال الله تعالى : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة . . إلى . . أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾
من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣٥) .

المناسكة : لما ذكر تعالى غزوة الأحزاب ، وموقف المنافقين المذبذبين منها ، بالعودة عن الجهاد ، وتثييط العزائم ، أمر المؤمنين في هذه الآيات بالاعتداء بالرسول الكريم في صبره وثباته ، وتضحيته وجهاده ، ثم جاء الحديث عن زوجات رسول الله الطاهرات ، وأمرهن بالاعتداء برسول الله ﷺ في زهده ، وعدم التطلع إلى زهرة الدنيا لأنهن قدوة لسائر نساء المؤمنين .

اللغز : ﴿أسوة﴾ الأسوة : القدوة وفيها لغتان كسر الهمزة وضمها يقال اثسى فلان بفلان أي اقتدى به ﴿نحبه﴾ النحب : النذر والعهد يقال : نحب ينحب من باب قتل نذر ، ومن باب ضرب بكى قال لبيد :

ألا تسألان المرء ماذا يُحاول
أنحب فيُفضى أم ضلال وباطل^(١) ؟
ويقال : قضى نحبه إذا مات ، وعبر به عن الموت لأن كل حي لا بد أن يموت ، فكأنه نذر لازم في رقبته فإذا مات فقد قضى نحبه أي نذره^(٢) ﴿صياصيمهم﴾ حصونهم جمع صيصية وهو ما يتحصن به قال الشاعر :

فأصبحت الثيرانُ صرعى
وأصبحت نساء تميم يبتدرن الصياصيا^(٣)

﴿أمتعنن﴾ متعة الطلاق ، وأصل المتاع ما يُتبلَّغ به من الزاد ، ومنه متعة المطلقة لأنها تنتفع وتمتع به^(٤) ﴿وأسرحكن﴾ أطلقكن ، وأصل التسريح في اللغة : الإرسال والإطلاق^(٥) ﴿تبرجنن﴾ تبرجت المرأة : أظهرت زينتها ومحاسنها للأجانب^(٦) ، وأصله من الظهور ومنه سمي البرج لسعته وظهوره ﴿وقرن﴾ إلزمن بيوتكن من قولهم : قررت بالمكان أقرُّ به إذا بقيت فيه ولزمته ، والقرار : مصدر ، وأصل « قرن » اقررن حذف الراء وألقيت فتحتها على ما قبلها ، واستغني عن ألف الوصل لتحرك القاف^(٧) ﴿الرجس﴾ في اللغة : القدر والنجاسة ، وعبر به هنا عن الآثام لأن عرض المقترف للقبائح يتلوث بها ويتدنس ، كما يتلوث بدنه بالنجاسات^(٨) .

سبب النزول : أ - أخرج ابن جرير الطبري عن أنس بن مالك قال : غاب عمي « أنس بن النضر » عن قتال يوم بدر ، فقال : غبت عن أول قتال مع رسول الله ﷺ ؟ لئن أشهدني الله قتالاً ليرين الله ما أصنع ؟ فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون - انهزموا - فقال : اللهم إني أبرأ إليك مما فعل هؤلاء - يعني المشركين - وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - ثم مشى بسيفه فلقبه « سعد بن معاذ » فقال : أي سعد والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد ! ثم قاتل حتى قتل ، فقال سعد يا رسول الله : ما استطعت أن أصنع ما صنع ، قال أنس بن مالك : فوجدناه بين القتلى وبه بضع وثمانون جراحة بين ضربة بسيف ،

(١) تفسير القرطبي ١٥٨/١٤ . (٢) تفسير الكشاف ٤٢١/٣ . (٣) القرطبي ١٦١/١٤ . (٤) المصباح المنير ٢٢٦/٢ . (٥) المعجم الوسيط ٤٢٧/١ . (٦) المصباح المنير ٤٨/١ . (٧) القرطبي ١٧٨/١٤ . (٨) الكشاف ٤٢٥/٣ .

أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، فما عرفناه حتى جاءت أخته فعرفته بينانه - رءوس الأصابع - قال أنس : فكننا نتحدث أن هذه الآية ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر . . ﴾ نزلت فيه وفي أصحابه (١) .

ب - وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال : أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن رسول الله ﷺ - والناسُ ببابه جلوس - فلم يُؤذن له ، ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فلم يُؤذن له ، ثم أذن لأبي بكرٍ وعمر فدخلوا والنبي ﷺ جالسٌ وحوله نسائه وهو ساكت ، فقال عمر : لأكلمنَّ النبي ﷺ لعله يضحك ! فقال يا رسول الله : لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة أنفأ فوجأت عنقها ، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال : « هُنَّ حولي يسألنني النفقة » ! فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقولان : تسألان رسول الله ما ليس عنده ؟ فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن : والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، وأنزل الله آية الخيار ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعننَّ وأسرحنن سراحاً جميلاً ﴾ فبدأ بعائشة رضي الله عنها فقال لها : إني أذكر لكِ أمراً ما أحبُّ أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك ، قالت : وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها الآية فقالت : أفيك أستأمرُ أبوي ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألكِ ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت ، فقال : إن الله لم يعثني معنفاً ولكن بعثني معلماً وميسراً ، لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها (٢) .

ج - عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ يا نبي الله : مالي أسمع الرجال يذكرون في القرآن ، والنساء لا يُذكرن ! ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات . . ﴾ (٣) الآية .

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾

النَّفْسِيرُ : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ أي لقد كان لكم أيها المؤمنون في هذا الرسول العظيم قدوة حسنة ، تقتدون به ﷺ في إخلاصه ، وجهاده ، وصبره ، فهو المثل الأعلى الذي يجب أن يُقتدى به ، في جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، لأنه لا ينطق ولا يفعل عن هوى ، بل عن وحيٍ وتنزيل ، ولذلك وجب عليكم تتبع نهجه ، وسلوك طريقه ﴿ لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر ﴾ أي لمن كان مؤمناً مخلصاً يرجو ثواب الله ، ويخاف عقابه ﴿ وذكر الله كثيراً ﴾ أي وأكثر من ذكر ربه ، بلسانه وقلبه قال ابن كثير : أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ في صبره ومصابرته ، ومجاهدته ومرابطته ، ولهذا قال للذين تضجروا وتزلزلوا ، واضطربوا يوم الأحزاب ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾

(١) تفسير ابن جرير الطبري ٢٠ / ٨٥ وأسباب النزول للواحي ٢٣٧ . (٢) أخرجه الإمام أحمد كذا في ابن كثير ٩٢ / ٣ . (٣) رواه النسائي في سننه عن أم سلمة .

وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا
وَتَسْلِيمًا ﴿٢١﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا
تَبْدِيلًا ﴿٢٢﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٤﴾
والمعنى : هلاً اقتديتم به وتأسيتم بشأئله ﷺ (١) !! ثم حكى تعالى موقف المؤمنين الصادقين في غزوة
الأحزاب أثناء رؤيتهم جنود قريش ومن تحزب معهم ، وما صدر عن المؤمنين من إخلاص و يقين ، تُظهر
بوضوح روح الإيمان والتضحية فقال ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾ أي
ولما رأى المؤمنون الكفار قادمين نحوهم ، وقد أحاطوا بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم ،
قالوا : هذا ما وعدنا به الله ورسوله ، من المحنة والابتلاء ، ثم النصر على الأعداء ﴿وصدق الله
ورسوله﴾ أي صدق الله في وعده ، ورسوله فيما بشرنا به قال المفسرون : لما كان المسلمون يحفرون الخندق
اعترضتهم صخرة عظيمة عجزوا عن تكسيرها ، فأخبروا الرسول ﷺ بها فجاء وأخذ المعول وضربها
ثلاث ضربات أضاعت له منها مدائن كسرى ، وقصور الروم ، فقال أبشروا بالنصر ، فلما أقبلت جموع
المشركين ورأوهم قالوا ﴿هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله﴾ (٢) ﴿وما زادهم إلا إيماناً
وتسليماً﴾ أي وما زادهم ما رأوه من كثرة جند الأحزاب ، ومن شدة الضيق والحصار ، إلا إيماناً قوياً
عميقاً بالله ، واستسلاماً وانقياداً لأوامره ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ أي ولقد كان
من أولئك المؤمنين رجالاً صادقون ، نذروا أنهم إذا أدركوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا حتى
يستشهدوا ﴿فمنهم من قضىٰ نجبه﴾ أي فمنهم من وفىٰ بنذره وعهده حتى استشهد في سبيل الله كأنس
ابن النضر وحمة ﴿ومنهم من ينتظر﴾ أي ومنهم من ينتظر الشهادة في سبيل الله ﴿وما بدلوا تبديلاً﴾
أي وما غيروا عهدهم الذي عاهدوا عليه ربهم أبداً ﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم﴾ أي ليجزي الله
الصادقين بسبب صدقهم وحسن صنيعهم أحسن الجزاء في الآخرة ﴿ويُعذب المنافقين إن شاء أو يتوب
عليهم﴾ أي ويعذب المنافقين الناقضين للعهود بأن يميتهم على النفاق فيعذبهم ، أو يتوب عليهم فيرحمهم
﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي واسع المغفرة رحماً بالعباد قال ابن كثير : ولما كانت رحمته ورأفته تبارك
وتعالى هي الغالبة لغضبه ختم بها الآية الكريمة (٣) ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم﴾ أي ورد الله
الأحزاب الذين تألبوا على غزو المدينة خائبين خاسرين ، مغيظين محنقين ، لم يشف صدورهم بنيل ما
أرادوا ﴿لم ينالوا خيراً﴾ أي حال كونهم لم ينالوا أي خيراً لا في الدنيا ولا في الآخرة ، بل قد اكتسبوا
الآثام في مبارزة الرسول عليه السلام وهمهم بقتله ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ أي كفاهم شر أعدائهم
بأن أرسل عليهم الريح والملائكة حتى ولوا الأدبار منهزمين ﴿وكان الله قوياً عزيزاً﴾ أي قادراً على

(١) مختصر ابن كثير ٨٨/٣ . (٢) انظر حاشية الصاوي ٢٧٠/٣ . (٣) مختصر ابن كثير ٨٩/٣ .

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتِعْكَنَّ وَأَسْرِحْنَ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

الانتقام من أعدائه ، عزيزاً غالباً لا يُقهر ، ولهذا كان عليه السلام يقول : (لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده) (١) ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ أي وأنزل اليهود - وهم بنو قريظة - الذين أعانوا المشركين ونقضوا عهدهم وانقلبوا على النبي وأصحابه ، أنزلهم من حصونهم وقلاعهم التي كانوا يتحصنون فيها ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ أي ألقى الله في قلوبهم الخوف الشديد حتى فتحوا الحصون واستسلموا قال ابن جزري : نزلت الآية في يهود « بني قريظة » وذلك أنهم كانوا معاهدين لرسول الله ﷺ فنقضوا عهده وصاروا مع قريش ، فلما انهزم المشركون وانصرفت قريش عن المدينة حاصر رسول الله ﷺ بني قريظة حتى نزلوا على حكم « سعد بن معاذ » فحكم بأن يُقتل رجالهم ، ويُسبى نساؤهم وذريتهم (٢) فذلك قوله تعالى ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ يعني الرجال وقتل منهم يومئذ ما بين الثمانمائة والتسعمائة ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ يعني النساء والذرية ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ أي وأورثكم يا معشر المؤمنين أرض بني قريظة وعقارهم وخيلهم ومنازلهم وأموالهم التي تركوها ﴿ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها ﴾ أي وأرضاً أخرى لم تطؤوها بعد بأقدامكم ، وهي خير لأنها أخذت بعد قريظة ، وكل أرض فتحها المسلمون بعد ذلك ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ أي قادراً على كل ما أراد ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء قال أبو حيان : ختم تعالى هذه الآية ببيان قدرته على كل شيء ، وكان في ذلك إشارة إلى فتحه على المسلمين الفتوح الكثيرة ، فكما ملكهم هذه الأراضي فكذلك هو قادر على أن يملكهم غيرها من البلاد (٣) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ ﴾ أي قل لزوجاتك اللاتي تأذيت منهن بسبب سؤاهن إياك الزيادة في النفقة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ أي إن رغبتن في سعة الدنيا ونعيمها ، وبهرجها الزائل ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمْتِعْكَنَّ ﴾ أي فتعالين حتى أدفع لكن متعة الطلاق ﴿ وَأَسْرِحْنَ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ أي وأطلقكن طلاقاً من غير ضرار ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ ﴾ أي وإن كنتن ترغبن في رضوان الله ورسوله ، والفوز بالنعيم الوافر في الدار الآخرة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ جواب الشرط أي فإن الله تعالى قد هيا للمحسنات منكن بمقابلة إحسانهن ثواباً كبيراً لا يوصف ، وهو الجنة التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر قال في البحر : لما نصر الله نبيه ، وفرق عنه الأحزاب ، وفتح عليه قريظة والنضير ، ظن أزواجه

(١) أخرجه الشيخان . (٢) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٣٦ وانظر تفصيل القصة في زاد المسير ٦/ ٣٧٣ .

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٢٥ .

يُنِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣١﴾
 * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣٢﴾ يَنْسَاءَ
 النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا

أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم ، فقعدهن حوله وقلن يا رسول الله : بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل ، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق !! وآلن قلبه بمطالبتهم له بتوسعة الحال ، وأن يعاملهن بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم ، فأمره الله أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن ، وأزواجه إذ ذاك تسع زوجات^(١) ﴿يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة﴾ أي من تفعل منكن كبيرة من الكبائر ، أو ذنباً تجاوز الحد في القبح ، قال ابن عباس : يعني النشوز وسوء الخلق^(٢) ﴿يضعف لها العذاب ضعفين﴾ أي يكون جزاؤها ضعف جزاء غيرها من النساء ، لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة^(٣) ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي كان ذلك العقاب سهلاً يسيراً على الله ، لا يمنعه منه كونهن أزواج نساء النبي ﷺ ، وفي الآية تلوين للخطاب ، فبعد أن كانت المخاطبة هن على لسان رسول الله ﷺ وجه الخطاب إليهن هنا مباشرة لإظهار الاعتناء بأمرهن ونصحهن قال الصاوي : وهذه الآيات خطاب من الله لأزواج النبي ﷺ إظهاراً لفضلهن ، وعظم قدرهن عند الله تعالى ، لأن العتاب والتشديد في الخطاب مشعر برفعة رتبتهن ، لشدة قربهن من رسول الله ﷺ ولأنهن أزواجه في الجنة ، فبقدر القرب من رسول الله يكون القرب من الله^(٤) ﴿ومن يقنت منكن لله ورسوله﴾ أي ومن تواظب منكن على طاعة الله وطاعة رسوله ﴿وتعمل صالحاً﴾ أي وتتقرب إلى الله بفعل الخير وعمل الصالحات ﴿نؤتها أجرها مرتين﴾ أي نعطيها الثواب مضاعفاً ونشبهها مرتين : مرة على الطاعة والتقوى ، وأخرى على طلبهن رضاه رسول الله ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة ﴿وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ أي وهبنا لها في الجنة - زيادة على ما لها من أجر - رزقاً حسناً مرضياً لا ينقطع ، ثم أظهر فضيلتهن على النساء فقال ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء﴾ أي أنتن تختلفن عن سائر النساء من جهة أنكن أفضل وأشرف من غيركن ، لكونكن زوجات خاتم الرسل ، وأفضل الخلق محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم ، فليست الواحدة منكن كالواحدة من آحاد النساء ﴿إن اتقيتن﴾ شرط حذف جوابه لدلالة ما قبله أي إن اتقيتن الله فأتين بأعلى المراتب قال القرطبي : بين تعالى أن الفضيلة إنما تتم هن بشرط التقوى ، لما منحهن الله من صحبة رسوله سيد الأولين والآخرين^(٥) ، وقال ابن عباس : يريد في هذه الآية : ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات ، أنتن أكرم علي وثوابكن أعظم إن اتقيتن ، فشرط عليهن التقوى بياناً أن فضيلتهن إنما تكون بالتقوى ، لا بنفس اتصاهن برسول الله ﷺ^(٦) ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ أي فلا ترققن الكلام عند

(١) نفس المرجع السابق ٢٢٧/٧ . (٢) زاد المسير ٣٧٨/٦ . (٣) الكشاف ٤٢٤/٣ . (٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٢٧٦/٣ .

(٥) القرطبي ١٧٧/١٤ . (٦) زاد المسير ٣٧٨/٦ .

مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۗ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۗ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ

مخاطبة الرجال ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ أي فيطمع من كان في قلبه فجور وريبة ، وحب لمحادثة النساء ﴿وقلن قولاً معروفاً﴾ أي وقلن قولاً حسناً عفيفاً لا ريبة فيه ، ولا لين ولا تكسر عند مخاطبتكن للرجال^(١) قال ابن كثير : ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، ولا تخاطب الأجنبي كما تخاطب زوجها ﴿وقرن في بيوتكن﴾ أي الزمن بيوتكن ولا تخرجن لغير حاجة ، ولا تفعلن كما تفعلن الغافلات ، المتسكعات في الطرقات لغير ضرورة ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ أي لا تظهرن زينتكن ومحاسنكن للأجانب مثل ما كان نساء الجاهلية يفعلن ، حيث كانت تخرج المرأة إلى الأسواق مظهرة لمحاسنها ، كاشفة ما لا يليق كشفه من بدنها قال قتادة : كانت لهن مشية فيها تكسر وتغنج فنهى الله تعالى عن ذلك ﴿واقمن الصلاة وآتين الزكاة﴾ أي حافظن على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة قال ابن كثير : نهاهن أولاً عن الشر ، ثم أمرهن بالخير ، من إقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده ، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين^(٢) ﴿وأطعن الله ورسوله﴾ أي أطعن الله ورسوله في جميع الأوامر والنواهي لتتلن مرتبة المتقيات ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس﴾ أي إنما يريد الله أن يخلصكن من دنس المعاصي ، ويطهركن من الآثام ، التي يتدنس بها عرض الإنسان كما يتلوث بدنه بالنجاسات ﴿أهل البيت﴾ أي يا أهل بيت النبوة ﴿ويطهركم تطهيراً﴾ أي ويطهركم من أضرار الذنوب والمعاصي تطهيراً بليغاً ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ أي وقرأن آيات القرآن ، وسنة النبي عليه الصلاة والسلام ، فإن فيهما الفلاح والنجاح قال الزمخشري : ذكرهن أن بيوتهن مهابط الوحي ، وأمرهن ألا ينسين ما يتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين : آيات بينات تدل على صدق النبوة ، وحكمة وعلوم وشرائع سماوية^(٣) ﴿إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ أي عالماً بما يصلح لأمر العباد ، خبيراً بمصالحهم ولذلك شرع للناس ما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم ، ثم أخبر تعالى أن المرأة والرجل في الجزاء والثواب سواء فقال ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ هم المتمسكون بأوامر الإسلام المتخلقون بأخلاقه رجالاً ونساءً ﴿والمؤمنين والمؤمنات﴾ أي المصدقين بالله وآياته ، وما أنزل على رسله وأنبياؤه ﴿والقانتين والقانتات﴾ أي العابدين الطائعين ،

(١) أقول: إذا كان القرآن يمنع المرأة أن تتلاين في كلامها مع الرجال الأجانب لئلا يطمع بها الفساق والفسجار، فكيف بمن تثير الكوامن والشجون بالغناء الماجن الذي كله ميوعة وانحلال، وتختلط فيه أصوات المغنين مع المغنيات في الحفلات الساهرة الدائرة وتنقله الإذاعات، ثم نسمع بعض أدياء العلم يجذون هذا بحجة أن صوت المرأة ليس بعورة؟ اللهم إنا نعوذ بك من شر هذا الزمان الذي فسق فيه الشبان، وطفط في النساء وأصبح المنكر معروفاً. والمعروف منكراً، ولا حول ولا قوة إلا بالله!! (٢) ابن كثير ٩٤/٣ المختصر ر. (٣) الكشف

وَالْحَشِيعَتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَتِ وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَتِ
وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٥﴾

المداميين على الطاعة ﴿والصادقين والصادقات﴾ أي الصادقين في إيمانهم ، ونياتهم ، وأقوالهم ،
وأعمالهم ﴿والصابرين والصابرات﴾ أي الصابرين على الطاعات وعن الشهوات في المكروه والمنشط
﴿والخاشعين والخاشعات﴾ أي الخاضعين الخائفين من الله جل وعلا ، المتواضعين له بقلوبهم
وجوارحهم ﴿والمتصدقين والمتصدقات﴾ أي المتصدقين بأموالهم على الفقراء ، بالإحسان وأداء الزكوات
﴿والصائمين والصائمات﴾ أي الصائمين لوجه الله شهر رمضان وغيره من الأيام ، فالصوم زكاة البدن
يزكيه ويطهره ﴿والحافظين فروجهم والحافظات﴾ أي عن المحارم والآثام ، وعمما لا يحل من الزنى وكشف
العورات ﴿والذاكرين الله كثيرا والذاكرات﴾ أي المديمين ذكر الله بألسنتهم وقلوبهم في كل الأوقات
والأمكنة ﴿أعدَّ الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾ أي أعدَّ هؤلاء المتقين الأبرار ، المتصفين بالصفات الجليلة
أعظم الأجر والثواب وهو الجنة ، مع تكفير الذنوب بسبب ما فعلوه من الأعمال الحسنة .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الإطناب بتكرار الاسم الظاهر ﴿هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله﴾ كرر الاسم
الكريم للتشريف والتعظيم .
- ٢ - الاستعارة ﴿قضى نجبه﴾ النجب : النذر ، واستعير للموت لأنه نهاية كل حي ، فكأنه نذر
لازم في رقبة الإنسان^(١) .
- ٣ - الجملة الاعتراضية ﴿ويعذب المنافقين - إن شاء - أو يتوب عليهم﴾ للتنبية على أن أمر العذاب
أو الرحمة موكل لمشيئته تعالى .
- ٤ - المقابلة بين ﴿إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها﴾ وبين ﴿وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار
الآخرة﴾ .
- ٥ - التشبيه البليغ ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية﴾ أي كتبرج أهل الجاهلية حذف أداة التشبيه ووجه
الشبه فصار بليغاً .
- ٦ - عطف العام على الخاص ﴿وأطعن الله ورسوله﴾ بعد قوله ﴿أقمن الصلاة وآتين الزكاة﴾ فإن

(١) انظر البيضاوي ١١٦/٢ والكشاف ٤٢١/٣ .

إطاعة الله ورسوله تشمل كل ما تقدم من الأوامر والنواهي .

٧ - الاستعارة ﴿يذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيراً﴾ استعمار الرجس للذنوب ، والطهر للتقوى لأن عرض المرتكب للمعاصي يتدنس ، وأما الطاعة فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر .

٨ - الإيجاز بالحذف ﴿والحافظات﴾ حذف المفعول لدلالة السابق عليه أي والحافظات فروجهن .

٩ - التغليب ﴿أعد الله لهم﴾ غلب الذكور وجمع الإناث معهم ثم أدرجهم في الضمير .

١٠ - توافق الفواصل مثل ﴿يسيراً ، قديراً ، كثيراً﴾ وهو من المحسنات البديعية .

قال الله تعالى : ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أمراً . . . إلى . . . وكان الله على كل شيء رقيباً﴾

المناسبة : لما ذكر تعالى صفات المؤمنين وما نالوه من الدرجات الرفيعة ، أعقبها ببيان أن طاعة الرسول من طاعة الله ، وأمر الرسول من أمر الله ، ثم ذكرهم تعالى بالنعمة العظمى وهي بعثة السراج المنير ، المبعوث رحمة للعالمين ﷺ .

اللفظة : ﴿الخيرة﴾ مصدر بمعنى الاختيار من تخيير على غير قياس مثل الطيرة من تطير^(١) ﴿مبديه﴾ أبدى الشيء : أظهره ﴿وطراً﴾ الوطر : الحاجة التي هي في النفس قال الزجاج : الوطر الحاجة التي لك فيها همة فإذا بلغها الإنسان يقال : قضى وطره ، وقال المبرد : الوطر : الشهوة يقال : ما قضيت من لقاءك وطراً أي ما استمتعت بك كما تشتهي نفسي وأنشد :

وكيف نَوَّائي بالمدينة بعدما قَضَى وطراً منها جميل بن معمر^(٢)
﴿حرج﴾ ضيق وإثم ﴿خلوا﴾ مضوا وذهبوا ﴿قدراً مقدوراً﴾ قضاءً مقضياً في الأزل ﴿بكرة﴾ البكرة : هي أول النهار ﴿أصيلاً﴾ الأصيل : آخر النهار ﴿ترجي﴾ تؤخر يقال أرجيت الأمر وأرجأته إذا أخرته^(٣) ﴿تؤوي﴾ تضم ومنه «أوى إليه أخاه» .

سَبَبُ النَّزُولِ : عن ابن عباس قال : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لمولاه «زيد بن حارثة» فاستنكفت منه وكرهت وأبت فنزلت الآية ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . . .﴾ الآية فأذعن زينب حينئذٍ وتزوجته . . . وفي رواية «فامتعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قريش فلما نزلت الآية جاء أخوها فقال يا رسول الله مرني بما شئت قال : فزوجها من زيد ، فرضي وزوجها»^(٤) .

(١) البحر المحيط ٧/٢٣٣ . (٢) نفس المرجع ٧/٢٠٩ . (٣) القرطبي ١٤/٢١٤ . (٤) القرطبي ١٤/١٨٧ .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا ﴿٦٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَحْشَى فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا

التفسير : ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة﴾ أي لا ينبغي ولا يصح ولا يليق بأي واحد من المؤمنين والمؤمنات ﴿إذا قضى الله ورسوله أمراً﴾ أي إذا أمر الله عز وجل وأمر رسوله بشيء من الأشياء قال الصاوي : ذكر اسم الله للتعظيم وللإشارة إلى أن قضاء رسول الله هو قضاء الله لكونه لا ينطق عن الهوى (١) ﴿أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ أي أن يكون لهم رأي أو اختيار ، بل عليهم الانقياد والتسليم قال ابن كثير : وهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد ولا رأي ولا قول (٢) ، ولهذا شدد النكير فقال ﴿ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾ أي ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله فقد حاد عن الطريق السوي ، وأخطأ طريق الصواب ، وضلّ ضلالاً مبيناً واضحاً ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه﴾ أي اذكر أيها الرسول وقت قولك للذي أنعم الله عليه بالهداية للإسلام ﴿وأنعمت عليه﴾ بالتحريم من العبودية والإعتاق قال المفسرون : هو «زيد بن حارثة» كان من سبي الجاهلية اشترته «خديجة» وهبته لرسول الله ﷺ فكان مملوكاً عنده ثم أعتقه وتبناه (٣) ، وزوجه ابنة عمته «زينب بنت جحش» رضي الله عنها ﴿أمسك عليك زوجك واتق الله﴾ أي أمسك زوجتك زينب في عصمتك ولا تطلقها ، واتق الله في أمرها ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ أي وتضمري يا محمد في نفسك ما سيظهره الله وهو إرادة الزواج بها (٤) قال في التسهيل : الذي أخفاه رسول الله ﷺ أمر جائز مباح لا إثم فيه ولا عتب ، ولكنه خاف أن

(١) حاشية الصاوي ٢٧٨/٣ . (٢) ابن كثير ٩٧/٣ من المختصر (٣) انظر قصة زيد في كتابنا روائع البيان ٣٣٤/٢ .

(٤) يتشبه بعض أعداء الإسلام بروايات ضعيفة واهية ، لا زمام لها خطام ، للطعن في الرسول الكريم والنيل من مقامه العظيم ، وجدت في بعض كتب التفسير !! من هذه الروايات الباطلة التي تلقفها «المستشرقون» وخبوا فيها وأوضعوا ، أن الرسول ﷺ رأى «زينب» وهي متزوجة بزید بن حارثة فأحبها ووقعت في قلبه فقال «سبحان مقلب القلوب» فسمعتها زينب فأخبرت بها زيداً ، فأراد أن يطلقها فقال له الرسول ﴿أمسك عليك زوجك﴾ حتى نزل القرآن يعاتبه على إخفائه ذلك . الخ وهذه روايات باطلة لم يصح فيها شيء كما قال العلامة «أبو بكر بن العربي» رحمه الله ، والآية صريحة في الرد على هذا البهتان ، فإن الله سبحانه أخبر بأنه سيظهر ما أخفاه الرسول ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ فإذا أظهر الله تعالى ؟ هل أظهر حب الرسول وعشقه لزينب ، أم أن الذي أظهره هو أمره عليه السلام بالزواج بها لحكمة عظيمة جليلة هي إبطال «حكم التبني» الذي كان شائعاً في الجاهلية ولهذا صرح تعالى بذلك وأبداه علناً وجهاراً ﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾ يا قوم اعقلوا وفكروا ، وتفهموا الحق لوجه الحق بلا تلبيس ولا تشويش وتبصروا فيما تقولون فمن غير المعقول أن يعاتب الشخص لأنه لم يهاجر بحبه لزوجة جاره ؟ وحاشا الرسول الطاهر الكريم أن يتعلق قلبه ، بامرأة هي في عصمة رجل ، وأن يخفي هذا الحب حتى ينزل القرآن يعاتبه على إخفائه ، فإن مثل هذا لا يليق بأي رجل عادي ، فضلاً عن أشرف الخلق عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وغاية ما في الأمر - كما نقل في البحر - عن علي بن الحسين أنه قال : «أعلم الله نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد يشكوها إليه وقال له : اتق الله وأمسك عليك زوجك ، عاتبه الله وقال له : أخبرتك أنني مزوجتها وتخفي في نفسك ما الله مبديه» !!! انظر رد القرية في كتابنا النبوة والأنبياء ص ٩٩ .

زَوْجَانِكَمَا لَكِي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجٍ أَدْعِيَا بِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٢٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ يَبْلَغُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ وَيَحْشَوْنَهُ وَلَا يَحْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٢٩﴾

يقول الناس تزوج امرأة ابنه إذ كان قد تنبأه ، فأخفاه حياءً وحشمةً وصيانةً لعرضه من ألسنتهم ، فالذي أخفاه ﷺ هو إرادة تزوجها ليبطل حكم التبني فأبدى الله ذلك بأن قضى له بتزوجها ﴿وتحشى الناس والله أحق أن تحشاه﴾ أي تهاب أن يقول الناس تزوج محمد حليلة ابنه ، والله أحق أن تحشاه وحده ، وأن تجهر بما أوحاه إليك من أنك ستزوج بها بعد أن يطلقها زيد قال ابن عباس : خشي أن يقول المنافقون : تزوج محمد امرأة ابنه ﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها﴾ أي فلما قضى زيد حاجته من نكاحها وطلقها زوجناك إياها يا محمد ، وهذا نص قاطع صريح على أن الذي أخفاه رسول الله ﷺ هو إرادة الزواج بها بعد تطليق زيد لها تنفيذاً لأمر الوحي ، لا حبه لها كما زعم الأفاكون ، ومعنى ﴿زوجناكها﴾ جعلناها زوجة لك قال المفسرون : إن الذي تولى تزويجها هو الله جل وعلا ، فلما انقضت عدتها دخل عليها رسول الله ﷺ بلا إذن ولا عقد ولا مهر ولا شهود ، وكان ذلك خصوصية للرسول ﷺ روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ وتقول : زوَّجكُنَّ أهاليكُنَّ ، وزوَّجني ربي من فوق سبع سموات » ثم ذكر تعالى الحكمة من هذا الزواج فقال ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً﴾ أي لئلا يكون في تشريع الله على المؤمنين ضيق ومشقة وتأثم في حق تزوج مطلقات الأبناء من التبني ، إذا لم يبق لأزواجهن حاجة فيهن قال ابن الجوزي : المعنى زوجناك زينب - وهي امرأة زيد الذي تنبئته - لكيلا يُظن أن امرأة المتبني لا يحل نكاحها ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ أي وكان أمر الله لك ، ووحيه إليك بتزوج زينب مقدراً محتملاً كائناً لا محالة ، ولما نفى الحرج عن المؤمنين ، نفى الحرج عن سيد المرسلين بخصوصه على سبيل التكريم والتشريف فقال ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له﴾ أي لا حرج ولا إثم ولا عتاب على النبي فيما أباح الله له وقسم من الزوجات قال الضحاک : كان اليهود عابوه بكثرة النكاح ، فرد الله عليهم بقوله ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ أي هذه سنة الله في جميع الأنبياء السابقين حيث وسع عليهم فيما أباح لهم ، قال القرطبي : أي سن لمحمد ﷺ في التوسعة عليه في النكاح ، سنة الأنبياء الماضية كداود وسليمان ، فكان لداود مائة امرأة وسليمان ثلاثمائة امرأة ، عدا السريات (١) ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ أي قضاءً مقضياً ، وحكماً مقطوعاً به من الأزل ، لا يتغير ولا يتبدل ، ثم أثنى تعالى على جميع الأنبياء والمرسلين بقوله ﴿الذين يبلغون رسالات الله﴾ أي هؤلاء الذين أخبرتك عنهم يا محمد ، وجعلت لك قدوة بهم ،

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَقَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤٢﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٣﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٤﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ؕ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٥﴾

هم الذين يبلغون رسالات الله إلى من أرسلوا إليه ﴿ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله﴾ أي يخافون الله وحده ولا يخافون أحداً سواه ، فاقتد يا محمد بهم ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي يكفي أن يكون الله محاسباً على جميع الأعمال والأفعال ، فينبغي أن لا يُخشى غيره ، ثم أبطل تعالى حكم التبني الذي كان شائعاً في الجاهلية فقال ﴿ما كان محمد أباً أحدي من رجالكم﴾ قال المفسرون : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب قال الناس : إن محمداً قد تزوج امرأة ابنه فنزلت هذه الآية ^(١) قال الزمخشري : أي لم يكن أباً رجل منكم على الحقيقة ، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ^(٢) ﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ أي ولكنه عليه السلام آخر الأنبياء والمرسلين ، ختم الله به الرسالات السماوية ، فلا نبي بعده قال ابن عباس : يريد : لو لم أختم به النبيين لجعلت له ولداً يكون بعده نبياً ^(٣) ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾ أي هو العالم بأقوالكم وأفعالكم ، لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾ أي اذكروا الله بالتهليل والتحميد ، والتمجيد والتقديس ذكراً كثيراً ، بالليل والنهار ، والسفر والحضر ﴿وسبحوه بكرةً وأصيلاً﴾ أي وسبحوا ربكم في الصباح والمساء قال العلماء : خصهما بالذكر لأنها أفضل الأوقات بسبب تنزل الملائكة فيها ^(٤) ﴿هو الذي يصلي عليكم﴾ أي هو جل وعلا يرحمكم على الدوام ، ويعتني بأمركم ، وبكل ما فيه صلاحكم وفلاحكم ﴿وملائكته﴾ أي وملائكته يصلون عليكم أيضاً بالدعاء والاستغفار وطلب الرحمة قال ابن كثير : والصلاة من الله سبحانه ثناؤه على العبد عند الملائكة ، وقيل : الصلاة من الله الرحمة ، ومن الملائكة : الدعاء والاستغفار ^(٥) ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ أي لينقذكم من الضلالة إلى الهدى ، ومن ظلمات العصيان إلى نور الطاعة والإيمان ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ أي واسع الرحمة بالمؤمنين ، حيث يقبل القليل من أعمالهم ، ويعفو عن الكثير من ذنوبهم ، لإخلاصهم في إيمانهم ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ أي تحية هؤلاء المؤمنين يوم يلقون ربهم السلام والإكرام في الجنة من الملك العلام كقوله تعالى ﴿سلاماً قولاً من رب رحيم﴾ ﴿وأعد لهم أجراً كريماً﴾ أي وهياً لهم أجراً حسناً وهو الجنة وما فيها من النعيم المقيم قال ابن كثير : المراد بالأجر الكريم الجنة وما فيها من المأكول والمشرب ، والملابس والمسكن ، والملاذ والمناظر ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ^(٦) ، ثم لما بين تعالى أنه أخرج المؤمنين من ظلمات

(١) رواه الترمذي عن عائشة . (٢) الكشاف ٣ / ٤٣٠ . (٣) زاد المسير ٦ / ٣٩٣ . (٤) حاشية الصاوي ٣ / ٢٨١ . (٥) ابن كثير المختصر

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٦﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٧﴾ وَبَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
 بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٨﴾ وَلَا تَطْعُ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ
 وَكِيلًا ﴿٤٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ
 عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَّرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٥٠﴾

الكفر والضلال إلى أنوار الهداية والإيمان ، عقبه بذكر أوصاف السراج المنير الذي أضاء الله به الأكوان فقال ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً﴾ أي شاهداً على أمتك وعلى جميع الأمم بأن أنبياءهم قد بلغوهم رسالة ربهم ﴿ومبشراً﴾ أي مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم ﴿ونذيراً﴾ أي ومنذراً للكافرين من عذاب الجحيم ﴿وداعياً إلى الله بإذنه﴾ أي وداعياً للخلق إلى توحيد الله وطاعته وعبادته ، بأمره جل وعلا لا من تلقاء نفسك ﴿وسراجاً منيراً﴾ أي وأنت يا محمد كالسراج الوهاج المضيء للناس ، يهتدى بك في الدهماء ، كما يهتدى بالشهاب في الظلماء قال ابن كثير : أي أنت يا محمد كالشمس في إشراقها وإضائها لا يجحدها إلا معانداً^(١) وقال الزمخشري : شبهه بالسراج المنير لأن الله جلي به ظلمات الشرك ، واهتدى به الضالون ، كما يُجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به^(٢) ، وصفه تعالى بخمسة أوصاف كلها كمالٌ وجمال ، وثناءٌ وجلال ، وختمها بأنه صلوات الله عليه هو السراج الوضاء الذي بدد الله به ظلمات الضلال ، فصلواتُ ربي وسلامه عليه في كل حين وأن ﴿وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ أي وبشر يا محمد المؤمنين خاصة بأن لهم من الله العطاء الواسع الكبير في جنات النعيم ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ أي لا تطعهم فيما يطلبونه منك من المساهلة والملاينة في أمر الدين ، بل اثبت على ما أوحى إليك ﴿ودع أذاهم﴾ أي ولا تكترث بإذابتهم لك ، وصددهم الناس عنك ﴿وتوكل على الله﴾ أي واعتمد في جميع أمورك وأحوالك على الله ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ أي إن الله يكفي من توكل عليه في أمور الدنيا والآخرة قال الصاوي : وفي الآية إشارة إلى أن التوكل أمره عظيم ، فمن توكل على الله كفاه ما أهمه من أمور الدنيا والدين^(٣) ، ولما كان الحديث عن نساء النبي ﷺ وقصة زيد وتطبيقه لزينب ، جاء الحديث عن نساء المؤمنين والطريقة المثلى في تطبيقهن فقال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات﴾ أي يا أيها المؤمنون الذين صدقوا بالله ورسوله إذا عقدتم عقد الزواج على المؤمنات وتزوجتموهن ﴿ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ أي ثم طلقتموهن من قبل أن تجامعهن ، وإنما خص المؤمنات بالذكر مع أن الكتابيات يدخلن في الحكم ، للتنبيه على أن الأليق بالمسلم أن يتخير لنطفته ، وألا ينكح إلا مؤمنة عفيفة^(٤) ﴿فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾ أي فليس لكم عليهم حق

(١) ابن كثير ١٠٢/٣ المختصر . (٢) نفس المرجع السابق ١٠٣/٣ . (٣) الكشاف ٤٣٢/٣ . (٤) حاشية الصاوي على الجلالين

٢٨٢/٣ . (٥) انظر الكشاف ٤٣٣/٣ .

يُنَابِهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ
عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا
لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠﴾

في العدة تستوفون عددها عليهن ، لأنكم لم تعاشرهن فليس هناك احتمال للحمل حتى تحتبسوا المرأة من أجل صيانة نسبكم ﴿فمتعهن﴾ أي فالواجب عليكم إكرامهن بدفع المتعة بما تطيب نفوسكم به من مالٍ أو كسوة ، تطيباً لخاطرهن ، وتخفيفاً لشدة وقع الطلاق عليهن ﴿وسرحوهن سراحاً جميلاً﴾ أي وخلّوا سبيلهن تخليةً بالمعروف^(١) ، من غير إضرار ولا إيذاء ، ولا هضمٍ لحقوقهن قال أبو حيان : والسراح الجميل هو كلمة طيبة دون أذى ولا منع واجب^(٢) ، ثم ذكر تعالى ما يتعلق بأحوال زوجات الرسول ﷺ فقال ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾ أي إنا قد أبحنا لك يا محمد أنواعاً من النساء ، توسعة عليك وتيسيراً لك في تبليغ الدعوة ، فمن ذلك أننا أبحنا لك زوجاتك اللاتي تزوجتهن بصداقٍ مُسمّى ، وهُنَّ في عصمتك^(٣) ﴿وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك﴾ أي وأبحنا لك أيضاً النساء اللاتي تملكهن في الحرب بطريق الانتصار على الكفار ، وإنما قيدهن بطريق الغنائم لأنهن أفضل من اللاتي يملكن بالشراء ، فقد بدل في إحرازهن جهداً ومشقة لم يكن في الصنف الثاني ﴿وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك﴾ أي وأبحنا لك قريباتك من بنات الأعمام والعمات ، والأخوال والخالات بشرط الهجرة معك ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي﴾ أي وأحللنا لك النساء المؤمنات الصالحات اللواتي وهبن أنفسهن لك ، حباً في الله ورسوله وتقرباً لك ﴿إن أراد النبي أن يستنكحها﴾ أي إن أردت يا محمد أن تتزوج من شئت منهن بدون مهر ﴿خالصةً لك من دون المؤمنين﴾ أي خاصة لك يا محمد دون سائر المؤمنين ، فإنه لا يحل لهم التزوج بدون مهر ، ولا تصح الهبة ، بل يجب مهر المثل ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيماهم﴾ أي قد علمنا ما أوجبنا على المؤمنين من نفقة ، ومهر ، وشهود في العقد ، وعدم تجاوز أربع من النساء ، وما أبحنا لهم من ملك اليمين عدا الحرائر ، وأما أنت فقد خصصناك بخصائص تيسيراً لك ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ أي لئلا يكون عليك مشقة أو ضيق ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿ترجي

(١) الطبري ١٤/٢٢ . (٢) البحر المحيط ٧/٢٤٠ . (٣) هذا أحد قولين للمفسرين ، والآخر أن المراد جميع النساء فقد أباح الله لرسوله ﷺ أن يتزوج كل امرأة يعطيها مهرها ، وهذا أوسع من الأول واختاره القرطبي واستدل بحديث عائشة « ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء » انظر القرطبي ١٤/٢٠٧ .

* تُرْجَى مِنْ نِسَاءٍ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَىٰ إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ وَمِنْ ابْتِغْيَاتٍ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ
 أَنْ تَقْرَأَ عَيْنَهُنَّ وَلَا يُحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥٤﴾
 لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ
 كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٥﴾

من تشاء منهنَّ وتؤوي إليك من تشاء ﴿ أي ولك - أيها النبي - الخيار في أن تطلق من تشاء من زوجاتك ،
 وتمسك من تشاء منهن ﴾ (٥٤) ﴿ ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾ أي وإذا أحببت أن تؤوي إليك
 امرأة ممن عزلت من القسمة فلا إثم عليك ولا عتب ﴿ ذلك أدنى أن تقر أعينهنَّ ولا يحزننَّ ويرضين بما
 آتيتهنَّ كلهنَّ ﴾ أي ذلك التخيير الذي خيرناك في أمرهنَّ أقرب أن ترتاح قلوبهن فلا يحزننَّ ، ويرضين
 بصنيعك ، لأنهن إذا علمن أن هذا أمر من الله ، كان أطيب لأنفسهن فلا يشعرن بالحزن والألم ﴿ والله
 يعلم ما في قلوبكم ﴾ خطاب للنبي على جهة التعظيم أي يعلم ما في قلبك يا محمد وما في قلب كل
 إنسان ، من عدل أو ميل ، ومن حب أو كراهية ، وإنما خيرناك فيهن تيسيراً عليك فيما أردت ﴿ وكان الله
 عليماً حلماً ﴾ أي واسع العلم يعلم جميع ما تظهرون وما تخفون ، حليماً يضع الأمور في نصابها ولا
 يعاجل بالعقوبة ، بل يؤخر ويمهل لكنه لا يهمل ، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت
 « كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما نزلت ﴿ تُرْجَى مِنْ نِسَاءٍ
 مِنْهُنَّ وَتُؤْوَىٰ إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ ، وَمِنْ ابْتِغْيَاتٍ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ قلت : ما أرى ربك إلا يسارع في
 هواك » ثم قال تعالى ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ أي لا يحل لك أيها النبي النساء من بعد هؤلاء التسع
 اللاتي في عصمتك ﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ أي ولا يحل لك أن تطلق واحدة منهن وتنكح مكانها
 أخرى ﴿ وَلَوْ أَجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ أي ولو أعجبك جمال غيرهن من النساء ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ أي إلا ما
 كان من الجواري والإماء فلا بأس في ذلك لأنهن لسن زوجات ﴿ وكان الله على كل شيء رقيباً ﴾ أي
 مطلعاً على أعمالكم شاهداً عليها ، وفيه تحذير من مجاوزة حدوده ، وتخطي حلاله وحرامه . قال
 المفسرون : أباح الله لرسوله أصنافاً أربعة « المهورات ، المملوكات ، المهاجرات ، الواهبات أنفسهن »
 توسعة عليه ﷺ وتيسيراً له في نشر الرسالة وتبليغ الدعوة ، ولما نزلت آية التخيير ﴿ قل لأزواجك إن كنتنَّ
 تُردن الحياة الدنيا . . ﴾ الآية وخيرهن عليه السلام ، واخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، أكرمهن الله
 تعالى بأن قصره عليهن ، وحرَّم عليه أن يتزوج بغيرهن .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

(١) هذا قول ابن عباس ، وقال مجاهد والضحاك تقسم لمن شئت وتؤخر عنك من شئت ، وتقلل لمن شئت وتكثر لمن شئت ، لا حرج عليك
 في ذلك ، كذا في البحر ٧/٢٤٧ .

- ١ - التنكير لإفادة العموم ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ﴾ لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم ، أي ليس لواحدٍ منهم أن يريد غير ما أَرادَه الله ورسوله .
- ٢ - الطباق بين ﴿تخفى . . ومبديه﴾ وبين ﴿الظلمات . . والنور﴾ وبين ﴿مبشراً . . ونذيراً﴾ وهو من المحسنات البديعية .
- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿قدراً مقدوراً﴾ .
- ٤ - طباق السلب ﴿ويخشونه ولا يخشون أحداً﴾ .
- ٥ - التشبيه البليغ ﴿وسراجاً منيراً﴾ أصل التشبيه : أنت يا محمد كالسراج الوضاء في الهداية والإرشاد، حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً على حد قولهم : علي أسدٌ ، ومحمدٌ قمر .
- ٦ - الكناية ﴿من قبل أن تمسوهن﴾ كُنِيَ عن الجماع بالمسِّ وهي من الكنايات المشهورة ، ومن الآداب القرآنية الحميدة لأن القرآن يتحاشى الألفاظ البذيئة .
- ٧ - الطباق بين ﴿بكرةً . . وأصيلاً﴾ وبين ﴿تُرْجِي . . وتؤوي﴾ وبين ﴿ابتغيت . . وعزلت﴾ .
- ٨ - توافق الفواصل مما يزيد في الجمال والإيقاع على السمع مثل ﴿مبشراً ونذيراً . . وسراجاً منيراً﴾ ومثل ﴿سراجاً جميلاً . . علياً حليماً . . غفوراً رحيماً﴾ وهذا من خصائص القرآن العظيم ، وهو من المحسنات البديعية .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي . . إلى . . وكان الله غفوراً رحيماً﴾ من آية (٥٣) إلى آية (٧٣) نهاية السورة .

المناسكة : لما ذكر تعالى أحوال النبي ﷺ مع أزواجه ، ذكر هنا الآداب التي ينبغي أن يتحلّى بها المؤمنون عند دخولهم بيوت النبي ﷺ من الاستئذان وعدم الإيقاع ، ثم بيّن شرف الرسول بصلاة الله والملائكة عليه ، وختم السورة الكريمة بالحديث عن الساعة وما يعقبها من أهوال أهل الكفر والضلال ، وحال الأشقياء والسعداء في دار البقاء .

اللفظ : ﴿إناه﴾ نضجه قال في اللسان : إنسى الشيء بلوغه وإدراكه والإنسى بكسر الهمزة والقصر : النضج^(١) ﴿مستأنسين﴾ الاستئناس : طلب الأُنس بالحديث ، تقول استأنست بحديثه أي طلبت الأُنس والسُرور به ، وما بالدار من أنيس أي ليس بها أحد يؤانسك أو يسليك ﴿متاعاً﴾ المتاع : الغرض والحاجة كالماعون وغيره ﴿بهتاناً﴾ البهتان : الافتراء والكذب الواضح ، وأصله من البهت وهو

(١) انظر لسان العرب .

القذف بالباطل^(١) ﴿جلايبهن﴾ جمع جلاب وهو الثوب الذي يستر جميع البدن وهو يشبه الملاء « الملحفة » في زماننا، قال الشاعر :

تمشي النسورُ إليه وهي لاهيةٌ مشي العذارى عليهن الجلايب^(٢)
﴿المرجفون﴾ جمع مرجف وهو الذي يشيع الكذب والباطل لإخافة الناس به قال الشاعر :

وإننا وإن عيرتمونا بقتله وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسد^(٣)
﴿نغريتك﴾ أغراه به : حثه وسلطه عليه ﴿سعيراً﴾ ناراً شديدة الاستعار .

سَبَبُ الزَّوْلِ : أ - روي عن أنس أن النبي ﷺ لما تزوج « زينب بنت جحش » أولمَ عليها ، فدعا الناس فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ وزوجته مولىة وجهها إلى الحائط ، فنقلوا على رسول الله ﷺ قال أنس : فما أدري أنا أخبرت النبي ﷺ أن القوم قد خرجوا أو أخبرني ، قال فانطلق حتى دخل البيت فذهبتُ أدخلُ معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب ، ووعظ الناس بما وعظوا به وأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم . . .﴾^(٤) .

ب - وقال ابن عباس : كان ناسٌ من المؤمنين يتحییون طعام النبي ﷺ فيدخلون قبل أن يُدرك الطعام ، ويقعدون إلى أن يُدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون فنزلت^(٥) .

ج - وعن عائشة أن عمر رضي الله عنه قال يا رسول الله : إن نساءك يدخلُ عليهن البرُّ والفاجرُ ، فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب ﴿وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن . . .﴾^(٦) الآية .

د - عن السدي أن الفساق كانوا يؤذون النساء إذا خرجن بالليل ، فإذا رأوا المرأة عليها قناع تركوها وقالوا : هذه حرة ، وإذا رأوها بغير قناع قالوا : أمة فأذوها فأنزل الله ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن . . .﴾^(٧) الآية .

يَأْيَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَبْظِيرِنَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ

النَّفْسِيرُ : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾ الإضافة للتشريف والتكريم ، والآية توجيه للمؤمنين لهذا الأدب السامي العظيم والمعنى لا تدخلوا بيوت النبي في حال من الأحوال إلا في حال الإذن لكم منه عليه السلام ، مراعاةً لحقوق نسائه ، وحرصاً على عدم إيذائه والإثقال

(١) المصباح المنير ١/ ٧١ . (٢) لسان العرب لابن منظور . (٣) القرطبي ١٤/ ٢٤٦ . (٤) القرطبي ١٤/ ٢٢٤ وانظر كمال القصة في الصحيحين ، وفيها معجزة لرسول الله ﷺ باهرة . (٥) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٤٢ قال ابن جزي : والقول الأول المنقول عن أنس أشهر ، وقول ابن عباس بما في الآية من النهي عن الدخول حتى يؤذن لهم . (٦) أخرجه البخاري . (٧) زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٤٢٢ .

فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِيهِ مِنْكُمْ
وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِيهِ مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ
وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾
إِنْ تَبَدُّوا شَيْعًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءَ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا
إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

عليه ﴿إلى طعام غير ناظرين إناه﴾ أي إلا حين يدعوكم إلى طعام غير منتظرين نُضْجَه ﴿ولكن إذا
دُعيتم فادخلوا﴾ أي ولكن إذا دُعيتم وأذن لكم في الدخول فادخلوا ﴿فإذا طعمتم فانتشروا﴾ أي فإذا
انتهيتم من الطعام فتفرقوا إلى دوركم ولا تمكثوا ﴿ولا مستأنسين لحديث﴾ معطوف على « غير ناظرين » أي
لا تدخلوا بيوته منتظرين للطعام ، ولا مستأنسين لحديث بعضكم بعضاً قال أبو حيان : نهوا أن يطيلوا
الجلوسَ يستأنس بعضهم ببعض لحديث يحدثه به ^(١) ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ أي إن صنيعكم هذا
يؤذي الرسول ، ويضايقه ويثقل عليه ، ويمنعه من قضاء كثير من مصالحه وأموره ﴿فَيَسْتَحْيِيهِ مِنْكُمْ﴾
أي فيستحيي من إخراجكم ، ويمنعه حياة أن يأمركم بالانصراف ، لحُلقه الرفيع ، وقلبه الرحيم ﴿والله
لا يستحيي من الحق﴾ أي والله جل وعلا لا يترك بيان الحق ، ولا يمنعه مانع من إظهار الحق وتبينه لكم
قال القرطبي : هذا أدب أدب الله به الثقلاء ، وفي كتاب الثعلبي : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم
يحتلمهم ^(٢) ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي وإذا أردتم حاجةً من أزواجه
الطاهرات فاطلبوه من وراء حاجزٍ وحجابٍ ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي سؤ الكم إياهن المتاع
من وراء حجاب أزكى لقلوبكم وقلوبهن وأطهر ، وأنقى للريبة وسوء الظن ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا
رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي وما ينبغي لكم ولا يليق بكم أن تؤذوا رسولكم الذي هداكم الله به في حياته ﴿ولا أن
تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾ أي ولا أن تتزوجوا زوجاته من بعد وفاته أبداً ، لأنهن كالأمهات لكم ،
وهو كالوالد فهل يليق بكم أن تؤذوه في نفسه أو أهله ؟ ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي إن إيذاءه
ونكاح أزواجه من بعده أمر عظيم ، وذنب كبير لا يغفره الله لكم قال أبو السعود : وفيه من تعظيمه تعالى
لشأن رسوله ﷺ وإيجاب حرمة حياً وميتاً ما لا يخفى ^(٣) ثم قال تعالى ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْعًا أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ أي إن
تظهروا أمراً من الأمور أو تخفوه في صدوركم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ أي فإن الله عالم به وسيجازيكم
عليه قال البيضاوي : وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل ومبالغة في الوعيد ^(٤) ، ثم لما
أنزل تعالى الحجاب استثنى المحارم فقال ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٦﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾

إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن ﴿٥٦﴾ أي لا حرج ولا إثم على النساء في ترك الحجاب أمام المحارم من الرجال قال القرطبي : لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء لرسول الله ﷺ : ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت هذه الآية (١) ، والمراد بـ ﴿نسائهن﴾ نساء المؤمنين قال ابن عباس ، لأن نساء اليهود والنصارى يصفن لأزواجهن النساء المسلمات ، فلا يحل للمسلمة أن تُبدي شيئاً منها لثلاث تصفها لزوجها الكافر (٢) ﴿واتقين الله﴾ أي اتقين يا معشر النساء الله ، واخشينه في الخلوة والعلانية ﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أموركن ، يعلم خطرات القلوب كما يعلم حركات الجوارح قال الرازي : وهذا في غاية الحسن في هذا الموضع ، لأن ما سبق إشارة إلى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم ، فختمها بأن الله شاهد عند اختلاء بعضهم ببعض ، فالخلوة عنده مثل الجلوة فعليهم أن يتقوا الله (٣) ، ثم بيّن تعالى قدر الرسول العظيم فقال ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ أي إن الله جل وعلا يرحم نبيه ، ويعظم شأنه ، ويرفع مقامه ، وملائكته الأبرار يدعون للنبي ويستغفرون له ، ويطلبون من الله أن يمجد عبده ورسوله ويُنبئه أعلى المراتب قال القرطبي : والصلاة من الله رحمته ورضوانه ، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره (٤) وقال الصاوي : وهذه الآية فيها أعظم الدليل على أنه ﷺ مهبط الرحمات ، وأفضل الأولين والآخرين على الإطلاق ، إذ الصلاة من الله على نبيه رحمته المقرونة بالتعظيم ، ومن الله على غير النبي مطلق الرحمة كقوله ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ فانظر الفرق بين الصلاتين ، والفضل بين المقامين ، وبذلك صار منبع الرحمات ، ومنع التجليات (٥) ﴿يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ أي فأنتم أيها المؤمنون أكثروا من الصلاة عليه والتسليم ، فحقه عليكم عظيم ، فقد كان المنقذ لكم من الضلالة إلى الهدى ، والمخرج لكم من الظلمات إلى النور ، فقولوا كلما ذكر اسمه الشريف « اللهم صل على محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً » عن كعب بن عجرة قلنا يا رسول الله : قد عرفنا التسليم عليك فكيف الصلاة عليك ؟ فقال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم . . . » (٦) الحديث قال الصاوي : وحكمة صلاة الملائكة والمؤمنين على النبي ﷺ تشریفهم بذلك ، حيث اقتدوا بالله جل وعلا في الصلاة عليه وتعظيمه ، ومكافأة لبعض حقوقه على الخلق ، لأنه الواسطة العظمى في كل نعمة وصلت لهم ، وحق على من وصل له نعمة من شخص أن يكافئه ، ولما كان الخلق عاجزين عن مكافأته ﷺ طلبوا من القادر الملك أن يكافئه ، وهذا هو السر في قولهم « اللهم صل على محمد » (٧) ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾ أي يؤذون الله بالكفر ونسبة صاحبة والولد له ، ووصفه بما لا يليق به جل وعلا كقول اليهود ﴿يد الله

(١) القرطبي ٢٣١/١٤ . (٢) انظر حاشية الصاوي ٢٨٧/٣ . (٣) التفسير الكبير ٢٥/٢٢٧ . (٤) القرطبي ١٤/٢٣٢ .

(٥) حاشية الصاوي ٢٨٧/٣ . (٦) (٧) حاشية الصاوي على الجلالين ٢٨٧/٣ .

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كَتَبْنَا فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًّا لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ اللَّهُ غُفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ * لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ

مغلولة ﴿٥٨﴾ وقول النصارى « المسيح بن الله » ويؤذون الرسول بالتكذيب برسالته ، والطعن في شريعته ، والاستهزاء بدعوته قال ابن عباس : نزلت في الذين طعنوا على الرسول ﷺ حين اتخذ صفية بنت حبي (١) ﴿لعنهم الله في الدنيا والآخرة﴾ أي طردهم من رحمته ، وأحل عليهم سخطه وغضبه في الدنيا بالهوان والصغار ، وفي الآخرة بالخلود في عذاب النار ﴿وأعد لهم عذاباً مهيناً﴾ أي وهياً لهم عذاباً شديداً ، بالغ الغاية في الإهانة والتحقير ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا﴾ أي يؤذون أهل الإيمان بغير ما فعلوه ، وبغير جنابة واستحقاقٍ للأذى ﴿فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ أي فقد حملوا أنفسهم البهتان والكذب ، والزور ، والذنب الواضح الجلي قال القرطبي : أطلق إيذاء الله ورسوله ، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبداً ، وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه ومنه (٢) ولما حرم تعالى الإيذاء ، أمر نبيه الكريم أن يوجه النداء إلى الأمة جمعاء ، للتمسك بالإسلام وتعاليمه الرشيدة ، وبالأخص في أمر اجتماعي خطير وهو « الحجاب » الذي يصون للمرأة كرامتها ، ويحفظ عليها عفافها ، ويحميها من النظرات الجارحة ، والكلمات اللاذعة ، والنوايا الخبيثة لثلاث تعرض لأذى الفساق فقال ﴿يا أيها النبي قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾ أي قل يا محمد لزوجاتك الطاهرات - أمهات المؤمنين - وبنتك الفضليات الكريمات ، وسائر نساء المؤمنين ، قل لهنَّ يلبسن الجلباب الواسع ، الذي يستر محاسنهن وزينتتهن ، ويدفع عنهن السنة السوء ، ويميزهن عن صفات نساء الجاهلية ، روى الطبري : عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبدن عينا واحدة (٣) ، وروى ابن كثير عن محمد بن سيرين قال : سألت عبيدة السلماني عن قول الله عز وجل ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى (٤) ﴿ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذنين﴾ أي ذلك التستر أقرب بأن يعرفن بالعفة والتستر والصيانة ، فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد ، وقيل : أقرب بأن يعرفن أنهن حرائر ، ويتميزن عن الإماء ، ﴿وكان الله غفورا رحيماً﴾ أي إنه تعالى غفور لما سلف منهن من تفریط ، رحيم بالعباد حيث راعى مصالحهم وشئونهم تلك الجزئيات . . ثم هدّد المولى جل وعلا كل المؤذنين من جميع الأصناف بأنواع العقاب فقال ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ أي لئن

(١) زاد المسير ٦/ ٤٢٠ . (٢) القرطبي ١٤/ ٢٣٨ . (٣) هذا النص عن ابن عباس صريح في وجوب ستر الوجه ، وكذا رواية ابن كثير عن محمد ابن سيرين ، وغيرهما من الروايات الصحيحة والصريحة بوجوب ستر المرأة للوجه ، فأين أقوال السلف الصالح وأئمة علماء التفسير الأجلء ، من أقوال أديعاء العلم في هذا العصر والزمان ، الذين يبيحون للمرأة أن تكشف وجهها أمام الأجانب !! وانظر أقوال المفسرين في كتابنا « روائع البيان » ٢/ ٣٨٢ . (٤) ابن كثير ٣/ ١١٤ .

لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أَخَذُوا وَقْتَلُوا تَقْتِيلًا ﴿١١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١٢﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٤﴾ خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٥﴾ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿١٦﴾

لم يترك هؤلاء المنافقون - الذين يُظهرون الإيمان ويبطنون الكفر - نفاقهم ، والزناة - الذين في قلوبهم مرض فجور - فجورهم ﴿والمرجفون في المدينة﴾ أي الذين ينشرون الأراجيف والأكاذيب لبلبله الأفكار ، وخلخلة الصفوف ، ونشر أخبار السوء ﴿لنغرينك بهم﴾ أي لنسلطنك عليهم يا محمد ﴿ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾ أي ثم يخرجون من المدينة فلا يعودون إلى مجاورتك فيها إلا زمناً قليلاً ، ريثما يتأهبوا للخروج قال الرازي : وعد الله نبيه أن يخرج أعداءه من المدينة وينفيهم على يده ، إظهاراً لشوكته (١) ﴿ملعونين﴾ أي مبعدين عن رحمته تعالى ﴿أينما ثُقِفُوا أَخَذُوا وَقْتَلُوا تَقْتِيلًا﴾ أي أينما وجدوا وأدركوا أخذوا على وجه الغلبة والقهر ثم قتلوا لكفرهم بالله تقيلاً ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي هذه سنة الله في المنافقين وعادته فيمن سبق منهم أن يفعل بهم ذلك قال القرطبي : أي سنَّ الله عز وجل فيمن أرفج بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويُقتل (٢) ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي ولن تتغير أو تتبدل سنة الله ، لكونها بُنيت على أساسٍ متين ، قال الصاوي : وفي الآية تسلية للنبي ﷺ أي فلا تحزن على وجود المنافقين يا محمد ، فإن ذلك سنة قديمة لم يخل منهم زمن من الأزمان (٣) ثم ذكر تعالى الساعة وأهوالها فقال ﴿يسألك الناس عن الساعة﴾ أي يسألك يا محمد المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية عن وقت قيام الساعة ﴿قل إنما علمها عند الله﴾ أي قل لهم : لست أعرف وقتها وإنما يعلم ذلك علام الغيوب ، فإن الله أخفاها لحكمة ولم يُطلع عليها ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلًا ﴿وما يُدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾ أي وما يُعلمك أن الساعة تكون في وقت قريب ؟ قال أبو السعود : وفيه تهديدٌ للمستعجلين ، وتبكيته للمتعنتين ، والإظهارُ في موضع الإضمار للتهويل وزيادة التقرير (٤) ﴿إنَّ الله لعن الكافرين﴾ أي طرد الكافرين وأبعدهم عن رحمته ﴿وأعدَّ لهم سعيراً﴾ أي وهياً لهم ناراً شديدة مستعرة ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي مقيمين في السعير أبداً الأبدية ﴿لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ أي لا يجدون لهم من ينجيهم وينقذهم من عذاب الله ﴿يومَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي يوم تتقلب وجوههم من جهة إلى جهة كاللحم يُشوى بالنار ﴿يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول﴾ أي يقولون متحسرين على ما فاتهم :

(١) التفسير الكبير ٢٥/٢٣١ . (٢) القرطبي ١٤/٢٤٧ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٢٨٨ .

(٤) تفسير أبي السعود ٤/٢٢٠ .

وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿٧٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنِيمَ
لَعْنَا كَبِيرًا ﴿٧٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ
وَجِيهًا ﴿٧٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٨٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٨١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٨٢﴾

يا ليتنا أطعنا الله ورسوله حتى لا نبتي لهذا العذاب المهين ﴿٧٧﴾ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا
السبيلا ﴿٧٨﴾ أي أطعنا القادة والأشراف فينا فأضلونا طريق الهدى والإيمان ﴿٧٩﴾ ربنا آتتهم ضعفين من العذاب
أي اجعل عذابهم ضعفي عذابنا ، لأنهم كانوا سبب ضلالنا ﴿٨٠﴾ والعنهم لعناً كبيراً ﴿٨١﴾ أي والعنهم أشد أنواع
اللعن وأعظمه ، ثم حذر تعالى من إيذاء الرسول كما آذى اليهود نبيهم فقال ﴿٨٢﴾ يا أيها الذين آمنوا لا
تكونوا كالذين آذوا موسى فبراه الله مما قالوا ﴿٨٣﴾ أي لا تكونوا أمثال بني إسرائيل الذين آذوا نبيهم موسى
واتهموه ببرص في جسمه أو أذرة لفرط تستره وحيائه ، فأظهر الله براءته وأكذبهم فيما اتهموه به روى
البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً ، لا يرى من جلده
شيء استحياء منه ، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما
برص وإما أذرة - انتفاخ الخصية - وإما آفة ، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا للموسى ، فخلا يوماً وحده فوضع
ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه
وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر ، حتى مر على ملاء من بني إسرائيل فرأوه أحسن ما
خلق الله عرياناً ، وأبرأه مما يقولون) الحديث (١) ﴿٨٤﴾ وكان عند الله وجهاً ﴿٨٥﴾ أي وكان موسى ذا وجهة
ورفعة ومكانة عند ربه قال ابن كثير : أي له وجهة وجاه عند ربه ، لم يسأل شيئاً إلا أعطاه (٢) ﴿٨٦﴾ يا أيها
الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴿٨٧﴾ أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم ، وقولوا قولاً مستقيماً
مرضياً لله قال الطبري : أي قولاً قاصداً غير جائر ، حقاً غير باطل (٣) ﴿٨٨﴾ يصلاح لكم أعمالكم ﴿٨٩﴾ أي
يوفقكم لصلاح الأعمال ويتقبلها منكم قال ابن عباس : يتقبل حسناتكم ﴿٩٠﴾ ويغفر لكم ذنوبكم ﴿٩١﴾ أي
يمحو عنكم الذنوب والأوزار ﴿٩٢﴾ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴿٩٣﴾ أي ومن أطاع الله
والرسول فقد نال غاية مطلوبه ، ثم لما أرشدهم إلى مكارم الأخلاق ، نبههم على قدر التكاليف الشرعية
التي كلف الله بها البشرية فقال ﴿٩٤﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴿٩٥﴾ أي عرضنا الفرائض والتكاليف الشرعية على السموات والأرض والجبال الراسيات فأعرضن
عن حملها وخفن من ثقلها وشدتها ، والغرض تصوير عظم الأمانة وثقل حملها قال أبو السعود : والمعنى أن

(١) البخاري ٣١٢/٦ وانظر ابن كثير ١١٦/٣ من المختصر . (٢) مختصر ابن كثير ١١٦/٣ . (٣) الطبري ٣٨/٢٢ .

لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

تلك الأمانة في عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام - التي هي مثل في القوة والشدة - وكانت ذا شعور وإدراك على مراعاتها لأبين قبولها وأشفقن منها^(١) وقال ابن جزري : الأمانة هي التكاليف الشرعية من التزام الطاعات ، وترك المعاصي ، وقيل : هي الأمانة في الأموال ، والصحيح العموم في التكاليف ، وعرضها يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون الله خلق لها إدراكاً فعرضت عليها الأمانة حقيقة فأشفقت منها وامتنعت من حملها ، والثاني : أن يكون المراد تعظيم شأن الأمانة وأنها من الثقل بحيث لو عرضت على السموات والأرض والجبال ، لأبين من حملها وأشفقن منها ، فهذا ضرب من المجاز كقولك : عرضت الحمل العظيم على الدابة فأبت أن تحمله ، والمراد أنها لا تقدر على حمله^(٢) ﴿وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ أي وتحملها الإنسان إنه كان شديد الظلم لنفسه ، مبالغاً في الجهل بعواقب الأمور قال ابن الجوزي : لم يرد بقوله ﴿أبين﴾ المخالفة ، وإنما أبين للخشية والمخافة ، لأن العرض كان تخييراً لا إلزاماً^(٣) ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات﴾ قال ابن كثير : أي إنما حمل بني آدم الأمانة وهي التكاليف ليعذب الله المنافقين الذين يظهرن الإيمان ويبطنون الكفر ، والمشركين الذين ظاهرهم وباطنهم على الكفر ﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ أي ويرحم أهل الإيمان ، ويعود عليهم بالتوبة والمغفرة والرضوان ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي واسع المغفرة للمؤمنين حيث عفا عما سلف منهم ، رحماً بهم حيث أثابهم وأكرمهم بأنواع الكرامات .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الإضافة للتشريف ﴿لا تدخلوا بيوت النبي﴾ لأنها لما نسبت للنبي تشرفت .
- ٢ - الطباق بين ﴿ادخلوا .. وانتشروا﴾ وبين ﴿تبدوا .. وتحفوا﴾ وبين ﴿ثقفوا .. وأخذوا﴾ .
- ٣ - طباق السلب ﴿فيستحي منكم ، والله لا يستحي من الحق﴾ .
- ٤ - ذكر الخاص بعد العام ﴿لئن لم ينته المنافقون .. والمرجعون﴾ والمرجعون هم من المنافقين ، فعمم ثم خصص زيادة في التقييح والتشنيع عليهم .
- ٥ - ذكر اللفظ بصيغة « فعول » و « فعيل » للمبالغة مثل ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ ﴿بكل شيء عليماً﴾ ﴿على كل شيء شهيداً﴾ الخ .
- ٦ - الإتيان بالمصدر مع الفعل للتأكيد ﴿وقتلوا تقتيلاً﴾ ﴿وسلموا تسليماً﴾ .

(١) أبو السعود ٢٢١/٤ . (٢) التسهيل في علوم التنزيل ١٤٥/٣ . (٣) زاد المسير ٤٢٨/٦ .

- ٧- التحسر والتفجع بطريق التمني ﴿يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول﴾ .
- ٨- التشبيه ﴿لا تكونوا كالذين آذوا موسى﴾ ويسمى التشبيه المرسل المجمل .
- ٩- الاستعارة التمثيلية ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال﴾ مثل للأمانة في ضخامتها وعظمتها وتفخيم شأنها بأنها من الثقل بحيث لو عرضت على السموات والأرض والجبال وهي من القوة والشدة بأعلى المنازل لأبت عن حملها وأشفقت منها ، وهو تمثيل رائع لتحويل شأن الأمانة .
- ١٠- المقابلة اللطيفة بين ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات﴾ وبين ﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ وفي ختم السورة بهذه الآية من البدائع ما يسميه علماء البديع «رد العجز على الصدر» لأن بدء السورة كان في ذم المنافقين ، وختامها كان في بيان سوء عاقبة المنافقين ، فحسن الكلام في البدء والختام .
- ١١- الثناء على الرسول ﴿إن الله وملائكته يصلون﴾ ورد بهذه الصيغة وفيه دقائق بيانية :
- أ- جاء الخبر مؤكداً بـ «إن» اهتماماً به .
- ب- وجيء بالجملة إسمية لإفادة الدوام .
- ج- وكانت الجملة إسمية في صدرها «إن الله» فعلية في عجزها « يصلون» للإشارة إلى أن هذا الثناء من الله تعالى على رسوله يتجدد وقتاً فوقتاً على الدوام ، فتدبر هذا السر الدقيق .
- ١٢- مراعاة الفواصل لماله من الوقع الحسن على السمع مثل ﴿أعدّ لهم سعيراً . . لا يجدون لهم ولياً ولا نصيراً . . والعنهم لعناً كبيراً﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية .
- لطيفة** : أشارت الآية الكريمة ﴿قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين﴾ إلى لطيفة وهي أن الدعوة لا تثمر إلا إذا بدأ الداعي بها في نفسه وأهله ، وهذا هو السر في البدء بالحجاب الشرعي بنساء الرسول وبناته .

« الردُّ على من أباح كشف الوجه ،

وطائفة من أقوال المفسرين في وجوب ستره »

١- قال ابن كثير : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن لحاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب .

٢- وقال ابن الجوزي : في قوله تعالى ﴿يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ أي يغطين رءوسهن وجوههن ليعلم أنهن حرائر .

٣ - وقال أبو السعود : ومعنى الآية أي يغطين بها وجوههن وأبدانهن إذا برزن لداعية من الدواعي .

٤ - وقال الطبري : أي لا تتشبهن بالإماء في لباسهن إذا خرجن لحاجتهن فكشفن شعورهن ووجوههن لثلا يعرض لهن فاسق .

٥ - وقال في البحر : والمراد بقوله ﴿عليهن﴾ أي على وجوههن ، لأن الذي كان يبدو منهن في الجاهلية هو الوجه .

٦ - وقال الجصاص : وفي الآية دلالة على أن المرأة الشابة مأمورة بستر وجهها عن الأجانب لثلا يطمع فيها أهل الريب . فهذه جملة من أقوال أئمة التفسير في وجوب ستر وجه المرأة ، والله يقول الحق ويهدي السبيل^(١) .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحزاب »

(١) انظر شروط الحجاب الشرعي وكيفيته والحكمة التشريعية منه في كتابنا « روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن » ٣٨٧/٢ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

- * سورة سبأ من السور المكية ، التي تهتم بموضوع العقيدة الإسلامية ، وتتناول أصول الدين ، من إثبات الوحدانية ، والنبوة ، والبعث والنشور .
 - * ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد الله جل وعلا ، الذي أبدع الخلق ، وأحكم شئون العالم ، ودبر الكون بحكمته ، فهو الخالق المبدع الحكيم ، الذي لا يغيب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وهذا من أعظم البراهين على وحدانية رب العالمين .
 - * وتحدثت السورة عن قضية هامة ، هي إنكار المشركين للآخرة ، وتكذيبهم بالبعث بعد الموت ، فأمرت الرسول ﷺ أن يقسم بربه العظيم ، على وقوع المعاد ، بعد فناء الأجساد ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم . . .﴾ الآية .
 - * وتناولت السورة قصص بعض الرسل ، فذكرت « داود » وولده « سليمان » عليهما السلام ، وما سخر الله لهما من أنواع النعم ، كتسخير الريح لسليمان ، وتسخير الطير والجبال تسبيح مع « داود » إظهاراً لفضل الله عليهما في ذلك العطاء الواسع .
 - * وتناولت السورة بعض شبهات المشركين ، حول رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ، ففندتها بالحجة الدامغة والبرهان الساطع ، كما أقامت الأدلة والبراهين على وجود الله ووحدانيته .
 - * وختمت السورة بدعوة المشركين إلى الإيمان بالواحد القهار ، الذي بيده تدبير أمور الخلق أجمعين .
- التَّسْمِيَةُ :** سميت سورة « سبأ » لأن الله تعالى ذكر فيها قصة سبأ ، وهم ملوك اليمن ، وقد كان أهلها في نعمة ورخاء ، وسرور وهناء ، وكانت مساكنهم حدائق وجنات ، فلما كفروا النعمة دمرهم الله بالسيل العرم ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ
مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾

اللغات: ﴿يلج﴾ يدخل والولوج الدخول ومنه « حتى يلج الجمل في سم الخياط » ﴿يعرج﴾ يصعد ومنه المعراج لأنه صعود إلى السموات ﴿يعزب﴾ يغيب يقال : عزب عن عينه أي غاب عنها ﴿مثقال﴾ وزن ومقدار ﴿جِنَّةٌ﴾ بكسر النون بمعنى الجنون وبضمها بمعنى الوقاية والحجاب ﴿كسفاً﴾ قطعاً ﴿أوبي﴾ سبحي والتأويب : التسييح ﴿سابغات﴾ واسعات كاملات يقال : سبغ الدرع والثوب إذا غطى كل البدن وفضل منه شيء قال أبو حيان : السابغات : الدروع وأصله الوصف بالسبوغ وهو التمام والكمال ، وغلب على الدروع فصار كالأبطح قال الشاعر :

عليها أسودٌ ضارياتٌ لبوسهم سوابغٌ بيضٌ لا يخرقها النبل^(١)
﴿السرد﴾ النسيج ، وهو نسج حلق الدروع قال القرطبي : وأصله من الإحكام قال لبيد :

صنع الحديد مضاعفاً أسراده لينال طول العيش غير مروم^(٢)
﴿القطر﴾ النحاس المذاب ﴿جفان﴾ جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة ﴿الجوابي﴾ جمع جابية وهي الحوض الكبير يجمع فيه الماء قال الأعشى :

نفي الذم عن آل المحلق جفنةً كجابية الشيخ العراقي تفهوق^(٣)
﴿منساته﴾ المنسأة : العصا سميت بذلك لأنه يُنسأ بها أي يُطرد ويزجر قال الشاعر :

إذا دببتَ على المنسأة من كبر فقد تباعد عنك اللهو والغزل^(٤)

التفسير: ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي الثناء الكامل على جهة التعظيم والتبجيل لله الذي له كل ما في الكون خلقاً وملكاً وتصرفاً ، الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه ، فله الحمد في الدنيا لكمال قدرته ، وفي الآخرة لواسع رحمته ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ أي وله الحمد بأجمعه لا يستحقه أحد سواه ، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ﴿وهو الحكيم الخبير﴾ أي الحكيم في صنعه ، الخبير بخلقه ، فلا اعتراض عليه في فعلٍ من أفعاله ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها﴾ تفصيل لبعض معلوماته جلّ وعلا أي يعلم ما يدخل في جوف الأرض من المطر والكنوز

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزَبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي
السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١٠٠﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١٠١﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ
أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿١٠٢﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ

والأموات ، وما يخرج من الأرض من الزروع والنباتات وماء العيون والآبار ﴿وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾ أي وما ينزل من السماء من المطر والملائكة والرحمة ، وما يصعد إليها من الأعمال الصالحات ، والدعوات الزاقيات ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ أي الرحيم بعباده ، الغفور عن ذنوب التائبين حيث لا يعاجلهم بالعقوبة ، ثم حكى تعالى مقالة المنكرين للبعث والقيامة فقال ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ أي وقال المشركون من قومك لا قيامة أبداً ولا بعث ولا نشور قال البيضاوي : وهو إنكار لمجيئها أو استبطاء استهزاء بالوعد به ^(١) ﴿قل بلى وربى لتأتينكم﴾ أي قل لهم يا محمد : أقسم بالله العظيم لتأتينكم الساعة ، فإنها واقعة لا محالة قال ابن كثير : هذه إحدى الآيات الثلاث التي أمر الله رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوعها ، والثانية في يونس ﴿قل إي ربى إنه لحق﴾ والثالثة في التغابن ﴿قل بلى وربى لتبعثن﴾ ^(٢) ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾ أي هو جل وعلا العالم بما خفي عن الأبصار ، وغاب عن الأنظار ، لا يغيب عنه مقدار وزن الذرة في العالم العلوي أو السفلي ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ أي ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها ﴿إلا في كتاب مبين﴾ أي إلا ويعلمه الله تعالى وهو في اللوح المحفوظ ، والغرض أن الله تعالى لا تخفى عليه ذرة في الكون فكيف يخفى عليه البشر وأحوالهم ؟ فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو تعالى عالم أين ذهبت وتفرقت ، ثم يعيدها يوم القيامة ﴿ليجزى الذين آمنوا و عملوا الصالحات﴾ أي أثبت ذلك في الكتاب المبين لكي يثيب المؤمنين الذين أحسنوا في الدار الدنيا بأحسن الجزاء ﴿أولئك لهم مغفرةٌ ورزق كريم﴾ أي لهم مغفرة لذنوبهم ، ورزق حسن كريم في دار النعيم ﴿والذين سعو في آياتنا معاجزين﴾ أي وأما الذين بذلوا جهدهم وجدوا لإبطال القرآن مغالين لرسولنا ، يظنون أنهم يعجزونه بما يثرونه من شبهات حول رسالته والقرآن ﴿أولئك لهم عذابٌ من رجز أليم﴾ أي فهؤلاء المجرمون لهم عذاب من أسوأ العذاب ، شديد الأيلام قال قتادة : الرجز : سوء العذاب ﴿ويرى الذين أوتوا العلم﴾ أي ويعلم أولوا العلم من أصحاب النبي عليه السلام ومن جاء بعدهم من العلماء العاملين ﴿الذي أنزل إليك من ربك هو الحق﴾ أي يعلمون أن هذا القرآن الذي أنزل عليك يا محمد هو الحق

الْحَقِّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يَنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ
 كُلَّ مُمْرِقٍ إِنَّكُمْ لَنِ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١١﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي
 الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿١٢﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشَأَ نُحُوفِهِمْ
 الْأَرْضِ أَوْ نُسِقَطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿١٣﴾

الذي لا يأتيه الباطل ﴿ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ أي ويرشد من تمسك به إلى طريق الله
 الغالب الذي لا يقهر ، الحميد أي المحمود في ذاته وصفاته وأفعاله ، ثم ذكر تعالى أساليب المشركين في
 الصد عن دين الله ، والسخرية برسول الله فقال ﴿وقال الذين كفروا﴾ أي وقال الكافرون من مشركي
 مكة المنكرون للبعث والجزاء ﴿هل ندلكم على رجل ينبئكم﴾ أي هل نرشدكم إلى رجل يحدثكم
 بأعجب الأعاجيب ؟ - يعنون محمداً ﷺ - ﴿إذا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمْرِقٍ﴾ أي إذا بليتكم في القبور ، وتفرقت
 أجسادكم في الأرض ، وذهبت كل مذهب بحيث صرتم تراباً ورفاتاً ﴿إنكم لفي خلق جديد﴾ ؟ أي
 إنكم ستخلقون خلقاً جديداً بعد ذلك التمزيق والتفريق ؟ والغرض من هذا المقال هو السخرية
 والاستهزاء قال أبو حيان : والقائلون هم كفار قريش قالوه على جهة التعجب والاستهزاء ، كما يقول
 الرجل لمن يريد أن يعجبه : هل أدلك على قصة غريبة نادرة ؟ ولما كان البعث عندهم من المحال جعلوا من
 يخبر عن وقوعه في حيز من يتعجب منه ، ونكروا اسمه عليه ﴿هل ندلكم على رجل﴾ مع أن اسمه
 أشهر علم في قريش بطريق الاستهزاء^(١) ﴿أفتري على الله أم به جِنَّةٌ﴾ أي هل اختلق الكذب على
 الله ، أم به جنون فهو يتكلم بما لا يدري ؟ قال تعالى رداً عليهم ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾
 ﴿بل﴾ للإضراب أي ليس الأمر كما يزعمون من الكذب والجنون ، بل الذين يحددون البعث ولا
 يصدقون بالآخرة ﴿في العذاب والضلال البعيد﴾ أي بل هؤلاء الكفار في ضلالٍ وحيرةٍ عن الحق
 توجب لهم عذاب النار ، فهم واقعون في الضلال وهم لا يشعرون وذلك غاية الجنون والحماقة ، ولما ذكر
 تعالى ما يدل على إثبات الساعة ، ذكر دليلاً آخر يتضمن التوحيد مع التهديد فقال ﴿أفلم يروا إلى ما
 بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾ أي ألم يشاهدوا ما هو محيط بهم من جميع جوانبهم من
 السماء والأرض ؟ فإن الإنسان أينما توجه وحيثما نظر رأى السماء والأرض أمامه وخلفه ، وعن يمينه
 وشماله ، وهما يدلان على وحدانية الصانع ، أفلا يتدبرون ذلك فيعلمون أن الذي خلقهما قادر على بعث
 الناس بعد موتهم ؟ ثم هددهم بقوله ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نُسِقَطَ عليهم كسفاً من السماء﴾
 أي لو شئنا لخسفنا بهم الأرض كما فعلنا بقارون ، أو أسقطنا عليهم قطعاً من السماء كما فعلنا بأصحاب
 الأيكة ، فمن أين لهم المهرب ؟ قال ابن الجوزي : المعنى أنهم أين كانوا فأرضي وسماي محيطة بهم ، وأنا

* وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يٰجِبَالُ أُوبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ الْحَدِيدُ ﴿١١﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢﴾ وَاسْلَيْمَنْ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ وَأَسْلَنَّا لَهُ

القادر عليهم ، إن شئتُ خسفتُ بهم الأرض ، وإن شئتُ أسقطتُ عليهم قطعة من السماء^(١) ﴿١١﴾ إن في ذلك لآية لكل عبد منيب ﴿١٢﴾ أي إن فيما يشاهدون من آثار القدرة والوحدانية لدلالة وعبرة لكل عبد تائب رجّاع إلى الله ، متأمل فيما يرى قال ابن كثير : يريد أن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها ، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها ، قادر على إعادة الأجسام ، ونشر الرميم من العظام^(٢) ، ثم ذكر تعالى قصة داود وما خصّه الله به من الفضل العظيم فقال ﴿١٢﴾ ولقد آتينا داود منا فضلاً ﴿١٣﴾ اللام موطئة لقسم محذوف تقديره وعزة الله وجلاله لقد أعطينا داود منا فضلاً عظيماً واسعاً لا يقدر قال المفسرون : الفضل هو النبوة ، والزبور ، وتسخير الجبال ، والطير ، وإلانة الحديد ، وتعليمه صنع الدروع إلى غير ذلك ﴿١٤﴾ يا جبال أوبي معه والطير ﴿١٥﴾ أي وقلنا يا جبال سبّحي معه ورجّعي التسبيح إذا سبّح وكذلك أنت يا طيور قال ابن عباس : كانت الطير تسبح معه إذا سبّح ، وكان إذا قرأ لم تبق دابة إلا استمعت لقراءته وبكت لبكائه^(٣) ﴿١٦﴾ والنار له الحديد ﴿١٧﴾ أي جعلنا الحديد ليناً بين يديه حتى كان كالعجين ، قال قتادة : سخر الله الحديد فكان لا يحتاج أن يدخله ناراً ، ولا يضره بمطرقة ، وكان بين يديه كالشمع والعجين ﴿١٨﴾ أن اعمل سابغات ﴿١٩﴾ أي اعمل منه الدروع السابغة التي تقي الإنسان شر الحرب قال المفسرون : كان يأخذ الحديد بيده فيصير كأنه عجين يعمل به ما يشاء ، ويصنع الدرع في بعض يوم يساوي ألف درهم فيأكل ويتصدق^(٤) ، والسابغات صفة لموصوف محذوف تقديره دروعاً سابغات ، وهي الدروع الكوامل التي تغطي لابسها حتى تفضل عنه فيجرها على الأرض ﴿٢٠﴾ وقدّر في السرد ﴿٢١﴾ أي وقدر في نسج الدروع بحيث تتناسب حلقاتها قال الصاوي : أي اجعل كل حلقة مساوية لأختها ضيقة لا ينفذ منها السهم لغلظها ، ولا تثقل حاملها واجعل الكل بنسبة واحدة^(٥) ﴿٢٢﴾ واعملوا صالحاً ﴿٢٣﴾ أي واعملوا يا آل داود عملاً صالحاً ولا تتكلوا على عز أبيكم وجاهه ﴿٢٤﴾ إنني بما تعملون بصير ﴿٢٥﴾ أي إنني مطلع على أعمالكم مراقب لها وسأجازيكم بها قال الامام الفخر : ألان الله لداود الحديد حتى كان في يده كالشمع وهو في قدرة الله يسير ، فإنه يلين بالنار حتى يصبح كالمداد الذي يكتب به ، فأني عاقل يستبعد ذلك على قدرة الله^(٦) ؟ وهو أول من صنع الدروع حلقاتاً وكانت قبل ذلك صفائح ثقلاً كما قال تعالى ﴿٢٦﴾ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ﴿٢٧﴾ ، ثم ذكر تعالى ما أنعم به على ولده « سليمان » من النبوة والملك والجاه العظيم فقال ﴿٢٨﴾ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ﴿٢٩﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح تسير بأمره ، وسيرها من الصباح إلى الظهر مسيرة شهر للسائر المجد ، ومن الظهر إلى الغروب مسيرة شهر قال المفسرون : سخر

(١) زاد المسير ٤٣٥/٦ . (٢) ابن كثير ١٢٢/٣ . (٣) زاد المسير ٤٣٦/٦ . (٤) القرطبي ٢٦٦/١٤ . (٥) حاشية الصاوي على

الجلالين ٢٩٤/٣ . (٦) التفسير الكبير ٢٤٥/٢٥ .

عَيْنَ الْقَطْرِ^ط وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ^ط وَمَنْ يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٧﴾
يَعْمَلُونَ لَهُ^ط مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرَبٍ^ط وَمَتَّئِيلٍ^ط وَجِفَانٍ^ط كَالْجَوَابِ^ط وَقُدُورٍ^ط رَاسِيَتٍ^ط أَعْمَلُوا^ط آلَ دَاوُدَ^ط شُكْرًا^ط وَقَلِيلٌ^ط
مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ^ط إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ^ط
فَلَمَّا خِرَّ تَبَيَّنَتْ^ط إِلَيْنَ^ط أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٩﴾

الله له الريح تقطع به المسافات الشاسعة في ساعات معدودات ، تحمله مع جنده فتنتقل به من بلد الى بلد ، تغدو به مسيرة شهر إلى نصف النهار ، وترجع به مسيرة شهر إلى آخر النهار ، فتقطع به مسيرة شهرين في نهار واحد ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ﴾ أي وأذبنا له النحاس حتى كان يجري كأنه عين ماء متدفقة من الأرض قال المفسرون : أجرى الله لسليمان النحاس ، كما ألان داود الحديد ، آية باهرة ، ومعجزة ظاهرة ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي وسخرنا له الجن تعمل بأمره وإرادته ما شاء مما يعجز عنه البشر ، وكل ذلك بأمر الله وتسخيره ﴿وَمَنْ يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي ومن يعدل منهم عما أمرناه به من طاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي نذقه النار المستعرة في الآخرة ، ثم أخبر تعالى عما كلف به الجن من الأعمال فقال ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ﴾ أي يعمل هؤلاء الجن لسليمان ما يريد من القصور الشاخحة ﴿وَمَتَّئِيلٍ﴾ أي والتماثيل العجيبة من النحاس والزجاج قال الحسن : ولم تكن يومئذ محرمة ، وقد حرمت في شريعتنا سداً للذريعة لئلا تُعبد من دون الله ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ أي وقصاع ضخمة تشبه الأحواض قال ابن عباس : « كالجواب » أي كالحياض ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ أي وقذور كبيرة ثابتات لا تتحرك لكبرها وضخامتها قال ابن كثير : والقذور الراسيات أي الثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمتها^(١) ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ أي وقلنا لهم اشكروا يا آل داود ربكم على هذه النعم الجليلة ، فقد خصكم بالفضل العظيم والجاه العريض ، واعملوا بطاعة الله شكراً له جل وعلا ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي وقليل من العباد من يشكر الله على نعمه قال ابن عطية : وفيه تنبيه وتحريض على شكر الله^(٢) ، ثم أخبر تعالى عن كيفية موت سليمان فقال ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أي حكمنا على سليمان بالموت ونزل به الموت ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ أي ما دل الجن على موته إلا تلك الحشرة وهي الأرضة - السوسة التي تأكل الخشب - تأكل عصا سليمان ﴿فَلَمَّا خِرَّ تَبَيَّنَتْ إِلَيْنَ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ أي فلما سقط سليمان عن عصاه ظهر للجن واتضح لهم أنهم لو كانوا يعرفون الغيب كما زعموا ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي ما مكثوا في الأعمال الشاقة تلك المدة الطويلة ، قال المفسرون : كانت الإنس تقول : إن الجن يعلمون الغيب الذي يكون في المستقبل ، فوقف سليمان في محرابه يصلي متوكئاً على عصاه ، فمات ومكث على ذلك سنة والجن

تعمل تلك الأعمال الشاقة ولا تعلم بموته ، حتى أكلت الأرضة عصا سليمان فسقط على الأرض فعلموا موته ، وعلم الإنس أن الجن لا تعلم الغيب لأنهم لو علموه لما أقاموا هذه المدة الطويلة في الأعمال الشاقة وهم يظنون أنه حي وهو عليه السلام ميت .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان نوحها فيما يلي :

- ١ - تعريف الطرفين لإفادة الحصر ﴿ الحمد لله ﴾ ومعناه لا يستحق الحمد الكامل إلا الله .
- ٢ - الطباق بين ﴿ يلج .. ويخرج ﴾ وبين ﴿ ينزل .. ويعرج ﴾ وبين ﴿ أصغر .. وأكبر ﴾ .
- ٣ - صيغة فعيل وفعول للمبالغة ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ ﴿ وهو الرحيم الغفور ﴾ ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ .
- ٤ - المقابلة بين ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. ﴾ الآية وبين ﴿ والذين سعوا في آياتنا معاجزين ﴾ فقد جعل المغفرة والرزق الكريم جزاء المحسنين ، وجعل العذاب والرجز الأليم جزاء المجرمين .
- ٥ - الاستفهام للسخرية والاستهزاء ﴿ هل ندلكم على رجلٍ ينشكم ﴾ وغرضهم الاستهزاء بالرسول ولم يذكروا اسمه إمعاناً في التجهيل كأنه إنسان مجهول .
- ٦ - التنكير للتفخيم ﴿ آتينا داود منا فضلاً ﴾ أي فضلاً عظيماً ، وتقديم داود على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر .
- ٧ - الإيجاز بالحذف ﴿ غدوها شهرٌ ورواحها شهر ﴾ أي غدوها مسيرة شهر ورواحها مسيرة شهر .
- ٨ - التشبيه ﴿ وجفان كالجواب ﴾ ويسمى التشبيه المرسل المجمل لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه .

قال الله تعالى : ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية .. إلى .. هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾

من آية (١٥) إلى نهاية آية (٣٣) .

المناسكة : لما بينَّ تعالى حال الشاكرين لنعمه بذكر « داود » و « سليمان » بينَّ حال الكافرين لأنعمه بقصة سبأ ، موعظةً لقريش وتحذيراً وتنبهاً على ما جرى من المصائب والنكبات على من كفر بأنعم الله ، ثم ذكَّر كفار مكة بنعمه ليعبدوه ويشكروه .

اللغات : ﴿ سبأ ﴾ قبيلة من العرب سكنت اليمن سميت باسم جددهم « سبأ بن يشجب بن قحطان » ﴿ العرم ﴾ الحاجز بين الشيثين قال النحاس : وما يجتمع من مطر بين جبلين وفي وجهه مُسناة - أي

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سَدْرِ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾

حاجز - فهو العرم^(١) ﴿خَمْطٌ﴾ الخمط : المرُّ البشع قال الزجاج : كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله فهو خمط وقال المبرد : هو كل ما تغير الى ما لا يشتهي ، واللبن إذا حمض فهو خمط ﴿أَثَلٌ﴾ الأثل : شجر لا ثمر له قال الفراء : وهو شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولاً ومنه اتخذ منبر رسول الله ﷺ والواحدة أثلة ﴿سدر﴾ قال الفراء : هو السرو ، وقال الأزهري : السدر نوعان : سدر لا يتفتح به ولا يصلح ورقه للغسل وله ثمرة عصفة لا تؤكل ، وسدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول^(٢) ﴿ظهير﴾ معين ﴿الفتاح﴾ القاضي والحاكم بالحق .

الضَّيْرُ : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ اللام موثقة للقسم أي والله لقد كان لقوم سبأ في موضع سكناهم باليمن آية عظيمة دالة على الله جل وعلا وعلى قدرته على مجازاة المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، فإن قوم سبأ لما كفروا نعمة الله حرب الله ملكهم ، وشتت شملهم ، ومزقهم شر ممزق ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر ، ثم بين تعالى وجه تلك النعمة فقال ﴿جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي حديقتان عظيمتان فيها من كل أنواع الفواكه والثمار عن يمين الوادي بساتين ناضرة ، وعن شماله كذلك قال قتادة : كانت بساتينهم ذات أشجار وثمار ، تسرُّ الناس بظلالها ، وكانت المرأة تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أوزنبيل ، فيتساقط من الأشجار ما يملؤه من غير كلفة ولا قطاف لكثرتة ونضجه^(٣) وقال البيضاوي : ولم يرد بستانين اثنين فحسب ، بل أراد جماعتين من البساتين ، جماعة عن يمين بلدهم ، وجماعة عن شماله سميت كل جماعة منها جنة لكونها في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة^(٤) ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي وقلنا لهم على لسان الرسل : كلوا من فضل الله وإنعامه واشكروا ربكم على هذه النعم ﴿بلدٌ طيبة ورب غفور﴾ أي هذه بلدتكم التي تسكنونها بلد طيبة ، كريمة التربة ، حسنة الهواء ، كثيرة الخيرات ، وربكم الذي رزقكم وأمركم بشكره رب غفور لمن شكره ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم﴾ أي فأعرضوا عن طاعة الله وشكره ، واتباع أوامر رسله ، فأرسلنا عليهم السيل المدمر المخرب الذي لا يطاق لشدته وكثرتة ، فغرقت بساتينهم ودورهم قال الطبري : وحين أعرضوا عن تصديق الرسل ، ثقب ذلك السد الذي كان يجبس عنهم السيول ، ثم فاض الماء على جناتهم فغرقتها ، وخرّب أرضهم وديارهم^(٥) ﴿وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط﴾ أي وأبدلناهم بتلك البساتين الغناء ، بساتين قاحلة جرداء ، ذات أكل مر بشع ﴿وأثل وشيء من سدر قليل﴾

(١) القرطبي ٢٨٦/١٤ . (٢) البحر المحيط ٢٥٦ . (٣) مختصر ابن كثير ١٢٦/٣ . (٤) حاشية زاده على البيضاوي ٨٥/٣ والكشاف

ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَلِيمَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

وشيء من الأشجار التي لا ينتفع بثمرها كشجر الأثل والسدر قال الرازي : أرسل الله عليهم سيلاً غرق أموالهم ، وخرّب دورهم ، والحمط كل شجرة لها شوك وثمرتها مرة ، والأثل نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمرة إلا في بعض الأوقات ، يكون عليه شيء كالعفص أو أصغر منه في طعمه وطبعه ، والسدر معروف وقال فيه ﴿قليل﴾ لأنه كان أحسن أشجارهم ، وقد بين تعالى بالآية طريقة الخراب ، وذلك لأن البساتين التي فيها الناس تكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة ، فإذا تركت سنين تصبح كالغيضة والأجمة تلتف الأشجار بعضها ببعض وتنبت المفسدات فيها ، فتقل الثمار وتكثر الأشجار^(١) قال المفسرون : وتسمية البذل «جتين» فيه ضرب من التهكم ، لأن الأثل والسدر وما كان فيه خمط لا يسمى جنة ، لأنها أشجار لا يكاد ينتفع بها ، وإنما جاء التعبير على سبيل المشاكلة ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا﴾ أي ذلك الجزاء الفظيع الذي عاقبناهم به إنما كان بسبب كفرهم ﴿وهل نجازي إلا الكفور﴾ ؟ أي وما نجازي بمثل هذا الجزاء الشديد إلا الكافر المبالغ في كفره قال مجاهد : أي ولا يعاقب إلا الكفور ، لأن المؤمن يكفر الله عنه سيئاته ، والكافر يُجازي بكل سوء عمله^(٢) ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة﴾ هذا من تنمة ذكر ما أنعم الله به عليهم أي وجعلنا بين بلاد سبأ وبين القرى الشامية التي باركنا فيها للعالمين قرى متواصلة من اليمن إلى الشام ، يرى بعضها من بعض لتقاربها ، ظاهرة لأبناء السبيل ﴿وقدرنا فيها السير﴾ أي جعلنا السير بين قراهم وبين قرى الشام سيراً مقدراً من منزل إلى منزل ، ومن قرية إلى قرية ﴿سيروا فيها ليالي وأياماً آمينين﴾ أي وقلنا لهم سيروا بين هذه القرى متى شئتم لا تخافون في ليل ولا في نهار قال الزمخشري : كان الغادي منهم يقبل في قرية ، والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام ، لا يخاف جوعاً ولا عطشاً ولا عدواً ، ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، وكانوا يسرون آمينين لا يخافون شيئاً^(٣) ﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا﴾ إخبار بما قابلوا به النعم من الكفران أي أنهم حين بطروا النعمة ، وملوا العافية ، وسئمو الراحة طلبوا من الله أن يباعد بين قراهم المتصلة ليمشوا في المفاوز ويتزودوا للأسفار ، فعجل الله إجابتهم بتخريب تلك القرى وجعلها مفاوز قفاراً ﴿وظلموا أنفسهم﴾ أي وظلموا أنفسهم بكفرهم وجحودهم النعمة ﴿فجعلناهم أحاديث﴾ أي جعلناهم أخباراً تُروى للناس بعدهم ﴿ومزقناهم كل ممزق﴾ أي وفرقناهم في البلاد شذر مذر ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي إن فيما ذكر من قصتهم لعبراً وعظات لكل عبد صابر على البلاء ، شاكراً في النعماء ، والمقصود من ذكر قصة سبأ تحذير الناس من كفران النعمة لئلا يحل بهم ما حل بمن قبلهم ، ولهذا

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْمٍ
 مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿١٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿١٦﴾

أصبحت قصتهم يضرب بها المثل فيقال: «ذهبوا أيدي سبأ» ثم ذكر تعالى سبب ضلال المشركين فقال ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ أي تحقق ظن إبليس اللعين في هؤلاء الضالين ، حيث ظن أنه يستطيع أن يغويهم بتزيين الباطل لهم ، وأقسم بقوله ﴿لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فتحقق ما كان يظنه قال مجاهد : ظن ظناً فكان كما ظن فصدق ظنه^(١) ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فاتبعه الناس فيما دعاهم إليه من الضلالة إلا فريقاً هم المؤمنون فإنهم لم يتبعوه قال القرطبي : أي ما سلم من المؤمنين إلا فريق ، وعن ابن عباس أنهم المؤمنون كلهم فتكون ﴿مَنْ﴾ على هذا للتبيين لا للتبعيض ، وإنما علم إبليس صدق ظنه وهو لا يعلم الغيب ، لأنه لما نفذ له في آدم ما نفذ ، غلب على ظنه أنه ينفذ له مثل ذلك في ذريته وقد وقع له تحقيق ما ظن^(٢) ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي وما كان لإبليس تسلط واستيلاء عليهم بالسوسنة والإغواء ﴿إِلَّا لِنَعْمٍ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أي إلا لحكمة جليلة وهي أن يظهر علمنا للعباد بمن هو مؤمن بالآخرة ، ومن هو شك مرتاب في أمرها ، فنجازي كلاً بعمله قال القرطبي : أي لم يقهرهم إبليس على الكفر ، وإنما كان منه الدعاء والتزيين^(٣) وقال الحسن : والله ما ضربهم بعضاً ، ولا أكرههم على شيء ، وما كان إلا غروراً وأمانياً دعاهم إليها فأجابوه^(٤) ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾ أي وربك يا محمد على كل شيء رقيب ، لا تخفى عليه خافية من أفعال العباد ، فهو الذي يحفظ عليهم أعمالهم ، ويعلم نياتهم وأحوالهم قال الصاوي : الشيطان سبب الإغواء لا خالق الإغواء ، فمن أراد الله حفظه منع الشيطان عنه ، ومن أراد إغواءه سلط عليه الشيطان ، والكل فعل الله تعالى^(٥) ، وإنما سبقت حكمته بتسليط الشيطان على الإنسان ابتلاءً وامتحاناً ليميز الله الخبيث من الطيب ، والمراد بقوله ﴿لِنَعْمٍ﴾ أي لنظير للخلق علمنا ، وإلا فالله تعالى عالم بما كان وما يكون ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين ادعوا شركاءكم الذين عبدتموهم من الأصنام ، وزعتم أنهم آلهة من دون الله ، أدعوهم ليجلبوا لكم الخير ، ويدفعوا عنكم الضر قال أبو حيان : والأمر بدعاء الآلهة للتعجيز وإقامة الحجة عليهم^(٦) ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي لا يملكون وزن ذرة من خير أو نفع أو ضر ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي في العالم العلوي أو السفلي ، وليسوا بقادرين على أمر من الأمور في الكون بأجمعه ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍ﴾ أي وليس لتلك الآلهة شركة مع الله لا خلقاً ولا ملكاً ولا تصرفاً ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي وليس له تعالى من الآلهة معين يعينه في

(١) الطبري ٦٠/٢٢ . (٢) القرطبي ٢٩٢/١٤ .

(٣) القرطبي ٢٩٣/١٣ . (٤) مختصر ابن كثير ١٢٨/٣ .

(٥) حاشية الصاوي ٢٩٨/٣ . (٦) البحر المحيط ٢٧٥/٧ .

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ * قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْسَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾

تدبير أمرهما ، بل هو وحده الخالق لكل شيء ، المنفرد بالإنجاد والإعدام ، ثم لما نفى عنها الخلق والملك ، نفى عنها الشفاعة أيضاً فقال ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ أي لا تكون الشفاعة لأحدٍ عند الله من ملكٍ أو نبي ، حتى يؤذن له في الشفاعة ، فكيف يزعمون أن آلهتهم يشفعون لهم ؟ قال ابن كثير : أي أنه تعالى لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترئ أحدٌ أن يشفع عنده في شيءٍ إلا بعد إذنه له في الشفاعة كقوله ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ وقوله ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وإنما كانت الشفاعة لسيد ولد آدم إظهاراً لمقامه الشريف ، فهو أكبر شافع عند الله ، وذلك حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم ^(١) ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ أي حتى إذا زال الفزع والخوف عن قلوب الشفعاء ، من الملائكة والأنبياء ﴿قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق﴾ أي قال بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم في أمر الشفاعة ؟ فأجابوهم بقولهم : قد أذن فيها للمؤمنين قال القرطبي : إن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة ، وهم على غاية الفزع من الله ، لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل ، والخوف الشديد أن يقع منهم تقصير ، فاذا سُرِّي عنهم قالوا للملائكة فوقهم : ماذا قال ربكم ؟ أي بماذا أمر الله ؟ قالوا الحق أي إنه أذن لكم في الشفاعة للمؤمنين ^(٢) ﴿وهو العليُّ الكبير﴾ أي هو تعالى المنفرد بالعلو والكبرياء ، العظيم في سلطانه وجلاله قال أبو السعود : وهذا من تمام كلام الشفعاء ، قالوه اعترافاً بغاية عظمة جناب الله عز وجل ، فليس لأحدٍ أن يتكلم إلا بإذنه ^(٣) ، ثم وبخ تعالى المشركين في عبادتهم غير الخالق الرازق فقال ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض﴾ أي قل لهم يا محمد من الذي يرزقكم من السموات بإنزال المطر ، ومن الأرض بإخراج النبات والثمار ؟ ﴿قل الله﴾ أي قل لهم : الله الرازق لا آلهتكم قال ابن الجوزي : وإنما أمر عليه السلام أن يسأل الكفار عن هذا احتجاجاً عليهم بأن الذي يرزق هو المستحق للعبادة ، وهم لا يشبتون رازقاً سواه ، ولهذا جاء الجواب ﴿قل الله﴾ لأنهم لا يجيبون بغير هذا ^(٤) ﴿وإننا أو إياكم لعلی هدیٰ أو في ضلالٍ مبين﴾ أي وأحد الفريقين منا أو منكم لعلی هدیٰ أو ضلالٍ مبين ، وهذا نهاية الإنصاف مع الخصم قال أبو حيان : أخرج الكلام مخرج الشك ، ومعلوم أن من عبد الله وحده كان مهتدياً ، ومن عبد غيره من جماد كان ضالاً ، وفي هذا إنصاف وتلطف في الدعوى ، وفيه تعريضٌ بضلالهم وهو أبلغ من الرد بالتصريح ، ونحوه قول العرب : أخزى الله الكاذب مني ومنك ، مع تيقن أن صاحبه هو الكاذب ^(٥) ﴿قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾ أي لا

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٢٩ . (٢) القرطبي ١٤/ ٢٩٥ . (٣) أبو السعود ٤/ ٢٣١ .

(٤) تفسير ابن الجوزي ٦/ ٤٥٤ . (٥) البحر المحيط ٧/ ٢٧٩ .

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أُحَقِّمُ بِهِ شُرَكَاءَ
 كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
 يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٩﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ
 سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ
 مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا وَالْوَالَا أَنتُمْ
 تَوَاحِدُونَ عَلَى مَا ارْتَكَبْنَا مِنْ إِجْرَامٍ ، وَلَا نُوَاحِدُ نَحْنُ بِمَا اقْتَرَفْتُمْ ، وَإِنَّمَا يَعاقِبُ كُلُّ إِنْسَانٍ بِجَرِيرَتِهِ ، وَهَذِهِ
 مَلَاظِفَةٌ وَتَنْزِيلٌ فِي الْمِجَادِلَةِ إِلَى غَايَةِ الْإِنصَافِ قَالَ الزَّمخَشَرِيُّ : وَهَذَا أَدْخَلَ فِي الْإِنصَافِ وَأَبْلَغَ مِنَ الْأَوَّلِ ،
 حَيْثُ أَسَدَ الْإِجْرَامِ لِأَنفُسِهِمْ وَالْعَمَلَ إِلَى الْمُخَاطَبِينَ (١) ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾
 أَي يَجْمَعُ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَحْكُمُ بَيْنَنَا وَيَفْصِلُ بِالْحَقِّ ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ أَي وَهُوَ
 الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَظْلِمُ أَحَدًا ، الْعَالَمُ بِأَحْوَالِ الْخَلْقِ ، فَيَدْخُلُ الْمَحَقَّ الْجَنَّةَ ، وَالْمَبْطَلُ النَّارَ ﴿قُلْ
 أَرُونِي الَّذِينَ أُحَقِّمُ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ تَوَيْخُ آخَرَ عَلَى إِشْرَاكِهِمْ وَإِظْهَارُ لِحُطْثِهِمْ الْعَظِيمِ أَي أَرُونِي هَذِهِ الْأَصْنَامَ
 الَّتِي أُحَقِّمْتُمُوهَا بِاللَّهِ وَجَعَلْتُمُوهَا شُرَكَاءَ مَعَهُ فِي الْأُلُوهِيَّةِ ، لِأَنظَرَ بِأَي صِفَةٍ اسْتَحَقَّتِ الْعِبَادَةَ مَعَ الَّذِي لَيْسَ
 كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ؟ قَالَ أَبُو السَّعُودِ : وَفِيهِ مَزِيدٌ تَبَكَّيْتُ لَهُمْ بَعْدَ الْإِزَامِ الْحِجَّةَ عَلَيْهِمْ (٢) ﴿كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ رَدُّهُ لَمْ يَزَجِرْ أَي لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ مِنْ اعْتِقَادِ شَرِيكَ لَهُ ، بَلْ هُوَ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ
 الْأَحَدُ ، الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ ، الْحَكِيمُ فِي تَدْبِيرِهِ لَخَلْقِهِ ، فَلَا يَكُونُ لَهُ شَرِيكَ فِي مَلِكِهِ أَبَدًا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
 كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أَي وَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدٌ لِلْعَرَبِ خَاصَّةً وَإِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ لِعَمُومِ الْخَلْقِ ، مُبَشِّرًا
 لِلْمُؤْمِنِينَ بِجَنَاتِ النَّعِيمِ ، وَمَنْذِرًا لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَي
 وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ فَيَحْمِلُهُمْ جَهْلُهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ ﴿وَيَقُولُونَ
 مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَي وَيَقُولُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتَهْزَاءِ وَالسَّخَرِيَّةِ : مَتَى هَذَا
 الْعَذَابُ الَّذِي تَخَوَّفُونَا بِهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ فَمَا تَقُولُونَ ؟ وَالْخُطَابُ لِلنَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ
 لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أَي لَكُمْ زَمَانٌ مَعِيَّنٌ لِلْعَذَابِ يَجِيءُ فِي أَجَلِهِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ لَهُ ،
 لَا يَسْتَأْخِرُ لِرِغْبَةِ أَحَدٍ ، وَلَا يَتَقَدَّمُ لِرِجَاءِ أَحَدٍ ، فَلَا تَسْتَعْجِلُوا عَذَابَ اللَّهِ فَهِيَ آتٍ لَا مَحَالَةَ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى
 عَنْ تَمَادِي الْمُشْرِكِينَ فِي الْعِنَادِ وَالتَّكْذِيبِ فَقَالَ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ
 يَدَيْهِ﴾ أَي لَنْ نَصَدِّقَ بِالْقُرْآنِ وَلَا بِمَا سَبَقَهُ مِنَ الْكُتُبِ السَّاهِيَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ
 الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَي وَلَوْ شَاهَدْتَ يَا مُحَمَّدُ حَالَ الظَّالِمِينَ الْمُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ فِي مَوْقِفِ
 الْحِسَابِ ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ أَي يَلُومُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيُؤْنَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَجَوَابُ

لَكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

﴿لو﴾ محذوف للتهويل تقديره لرأيت أمراً فظيماً مهولاً ﴿يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكننا مؤمنين﴾ أي يقول الأتباع للرؤساء : لولا إضلالكم لنا لكننا مؤمنين مهتدين ﴿قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم﴾ ؟ أي قال الرؤساء جواباً للمستضعفين : أنحن منعناكم عن الإيمان بعد أن جاءكم ؟ لا ، ليس الأمر كما تقولون ﴿بل كنتم مجرمين﴾ أي بل أنتم كفرتم من ذات أنفسكم ، بسبب أنكم كنتم مجرمين راسخين في الإجرام ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار﴾ أي وقال الأتباع للرؤساء : بل مكرم بنا في الليل والنهار هو الذي صدنا عن الإيمان ﴿إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ أي وقت دعوتكم لنا إلى الكفر بالله ، وأن نجعل له شركاء ، ولولا تزيينكم لنا الباطل ما كفرنا ﴿وأسرنا الندامة لما رأوا العذاب﴾ أي أخفى كل من الفريقين الندامة على ترك الإيمان حين رأوا العذاب ، أخفوها مخافة التعبير ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾ أي وجعلنا السلاسل في رقاب الكفار زيادة على تعذيبهم بالنار ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ أي لا يجزون إلا بأعمالهم التي عملوها ولا يعاقبون إلا بكفرهم وإجرامهم .

البالغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين لفظ ﴿يمين . . وشمال﴾ وبين ﴿بشير . . ونذير﴾ وبين ﴿تستقدمون . . وتستأخرون﴾ وبين ﴿استضعفوا . . واستكبروا﴾ وهو من المحسنات البديعية .
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿وقدرنا فيها السير سيروا﴾ فإن كلمة ﴿سيروا﴾ مشتقة من السير .
- ٣ - التعجيز بدعاء الجهاد الذي لا يسمع ولا يحس ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله﴾ .
- ٤ - التوييح والتبكيث ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض﴾ ؟
- ٥ - حذف الخبر لدلالة السياق عليه ﴿قل الله﴾ أي قل الله الخالق الرازق للعباد ودل على المحذوف سياق الآية .
- ٦ - المبالغة بذكر صيغ المبالغة ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ فإن فعلاً وفعليل وفِعُول من

صاغ المبالغة ومثلها ﴿وهو الفتح العليم﴾ .

٧ - حذف الجواب للتهويل والتفريع ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم﴾ حذف الجواب للتهويل أي لو ترى حالهم لرأيت أمراً فظيماً مهولاً .

٨ - المجاز العقلي ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ أسند المكر إلى الليل والمراد مكر المشركين بهم في الليل ففيه مجاز عقلي .

٩ - الاستعارة ﴿لن تؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه﴾ ليس للقرآن يدان ولكنه استعارة لما سبقه من الكتب السماوية المنزلة من عند الله .

١٠ - مراعاة الفواصل لما لها من وقع حسن على السمع مثل ﴿وهل نجازي إلا الكفور؟.. إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ الخ .

قال الله تعالى : ﴿وما أرسلنا في قريةٍ .. إلى .. إنهم كانوا في شكٍ مريبٍ﴾

من آية (٣٤) إلى آية (٥٤) نهاية السورة .

المناسكبة : لما ذكر تعالى قصة أهل سبأ وكفرهم بنعم الله ، وما أعقب ذلك من تبديل النعمة الى النقمة ، ذكر هنا اغترار المشركين بالمال والبنين ، وتكذيبهم لرسول الله عليه السلام ، وختم السورة الكريمة ببيان مصراع الغابرين ، تسلياً لرسول الله ﷺ وتخويفاً وتحذيراً للمشركين .

اللغز : ﴿مترفوها﴾ المترف : المنعم المتقلب في الغنى والعز والجاه ﴿يسسط﴾ يوسع ﴿يقدر﴾ يقتر ﴿زلفى﴾ قربي ﴿إفك﴾ كذب مختلق ﴿معشار﴾ المعشار : العُشْر قال الجوهري : ومعشار الشيء عشره^(١) ، فهما لغتان ﴿نكير﴾ أصلها نكيري حذفت الياء لمراعاة الفواصل قال الزجاج : النكير : اسم بمعنى الإنكار ﴿جنة﴾ بكسر الجيم أي جنون (فوت) نجاة ومهرب ﴿التناوش﴾ التناول قال الزمخشري : والتناوش والتناول أخوان ، إلا أن التناوش تناول سهل لشيء قريب^(٢) ، ومنه المناوشة في القتال وذلك عند تداني الفريقين ، قال ابن السكيت : يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذه ناشه .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِءٌ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا

الفسير : ﴿وما أرسلنا في قريةٍ من نذير﴾ أي لم نبعث في أهل قريةٍ رسولاً من الرسل ينذرهم عذابنا ﴿إلا قال مترفوها﴾ أي إلا قال أهل الغنى والتنعم في الدنيا ﴿إنا بما أرسلتم به كافرين﴾ أي لا تؤمن برسالتكم ولا نصدقكم بما جئتم به قال قتادة : المترفون هم جابرتهم وقادتهم ورؤساؤهم في الشر^(٣) ، وهم الذين يبادرون إلى تكذيب الأنبياء ، والقصد بالآية تسلياً للنبي ﷺ على تكذيب أكابر قريش له ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾ أي وقال مشركو مكة : نحن أكثر أموالاً

وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ

وأولاداً من هؤلاء الضعفاء المؤمنين ﴿وما نحن بمعذبين﴾ أي إن الله لا يعذبنا لأنه راضٍ عنا ، ولولم يكن راضياً عنا لما بسط لنا في الرزق ، قاسوا أمر الدنيا على الآخرة ، وظنوا أن الله كما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا لا يعذبهم في الآخرة قال أبو حيان : نصَّ تعالى على المترفين لأنهم أول المكذبين للرسول ، لما شغلوا به من زخرف الدنيا ، وما غلب على عقولهم منها ، فقلوبهم أبداً مشغولة منهمكة ، بخلاف الفقراء فإنهم خالون من مستلذات الدنيا ، فقلوبهم أقبل للخير ولذلك كانوا أكثر أتباع الأنبياء ^(١) ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي قل لهم يا محمد : إن توسعة الرزق وتضييقه ليس دليلاً على رضى الله ، فقد يوسع الله على الكافر والعاصي ، ويضييق على المؤمن والمطيع ابتلاءً وامتحاناً ، فلا تظنوا أن كثرة الأموال والأولاد دليل المحبة والسعادة ، بل هي تابعة للحكمة والمشئمة ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي ولكن أكثر هؤلاء الكفرة لا يعلمون الحقيقة ، فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة ، وكثيراً ما يكون للاستدراج ^(٢) كما قال تعالى ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ ولهذا أكد ذلك بقوله ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى﴾ أي ليست أموالكم ولا أولادكم التي تفتخرون بها وتكاثرون هي التي تقرّبكم من الله قربي ، وإنما يقرب الإيمان والعمل الصالح قال الطبري : الزلفى : القربي ، ولا يعتبر الناس بكثرة المال والولد ^(٣) ، ولهذا قال تعالى بعده ﴿إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ أي إلا المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله ، ويعلم ولده الخير ويربيه على الصلاح فإن هذا الذي يقرب من الله ^(٤) ﴿فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا﴾ أي تضاعف حسناتهم ، الحسنة بعشر أمثالها وبأكثر إلى سبعمائة ضعف ﴿وهم في الغرفات آمنون﴾ أي وهم في منازل الجنة العالية آمنون من كل عذاب ومكروه ، ولما ذكر جزاء المؤمنين ، ذكر عقاب الكافرين ، ليظهر التباين بين الجزاءين فقال ﴿والذين يسعون في آياتنا معاجزين﴾ أي يسعون في الصد عن سبيل الله ، واتباع آياته ورسله ، معاندين لنا يظنون أنهم يفوتوننا بأنفسهم ﴿أولئك في العذاب محضرون﴾ أي فهم مقيمون في العذاب ، محضرون يوم القيامة للحساب ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾ أي قل يا محمد : إن ربي يوسع الرزق لمن يشاء من خلقه ، ويقتّر على من يشاء ، فلا تغتروا بالأموال التي رزقكم الله إياها قال في التسهيل : كررت الآية لاختلاف القصد ، فإن القصد بالأول

(١) البحر المحيط ٧/٢٨٥ . (٢) البيضاوي ٢/١٢٦ . (٣) تفسير الطبري ٢٢/٦٨ . (٤) البيضاوي ٢/١٢٦ .

شَيْءٌ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۗ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَأُولَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ ۗ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا ۗ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿٤٢﴾

الكفار ، والقصد هنا ترغيب المؤمنين بالإِنْفَاق^(١) ﴿وما أنفقتم من شيءٍ فهو يُخْلِفُهُ﴾ أي وما أنفقتم في سبيل الله قليلاً أو كثيراً فإن الله تعالى يعوّضه عليكم إما عاجلاً أو آجلاً ﴿وهو خيرُ الرازقين﴾ أي هو تعالى خير المعطين^(٢) ، فإنَّ عطاء غيره بحساب ، وعطاؤه تعالى بغير حساب قال المفسرون : لما بيّن أن الإيمان والعمل الصالح هو الذي يقرب العبد إلى ربه ، ويكون مؤدياً إلى تضعيف حسناته ، بيّن أن نعيم الآخرة لا ينافي سعة الرزق في الدنيا ، بل الصالحون قد يبسط لهم الرزق في الدنيا ، مع ما لهم في الآخرة من الجزاء الأوفى والثوبة الحسنى بمقتضى الوعد الإلهي^(٣) ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ أي واذكر يوم يحشر الله المشركين جميعاً من تقدم ومن تأخر للحساب والجزاء ﴿ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ ؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ للمشركين أي أهؤلاء عبدوكم من دوني وأنتم أمرتموهم بذلك ؟ قال الزمخشري : هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار ، وارد على المثل السائر «إياك أعني واسمعي يا جارة» ونحوه قوله تعالى ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ ؟ وقد علم سبحانه أن الملائكة وعيسى منزهون عما تُسب إليهم ، والغرض من السؤال والجواب أن يكون تقريع المشركين أشد ، وخجلهم أعظم^(٤) ﴿قالوا سبحانك أنت وليّنا من دونهم﴾ أي تعاليت وتقدست يا ربنا عن أن يكون معك إله ، أنت ربنا ومعبودنا الذي نتولاه ونعبده ونخلص له العبادة ، ونحن نتبرأ إليك منهم ﴿بل كانوا يعبدون الجن﴾ أي بل كانوا يعبدون الشياطين لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة غير الله فأطاعوهم ﴿أكثرهم بهم مؤمنون﴾ قال الطبري : أي أكثرهم بالجنّ مصدقون يزعمون أنهم بنات الله ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً^(٥) قال تعالى رداً على مزاعم المشركين ﴿فالיום لا يملك بعضكم لبعضٍ نفعاً ولا ضراً﴾ أي ففي هذا اليوم - يوم الحساب - لا ينفع العابدون ولا المعبودون بعضهم لبعضٍ ، لا بشفاعة ونجاة ، ولا بدفع عذاب وهلاك ، قال أبو السعود : يخاطبون بذلك على رءوس الأشهاد إظهاراً لعجزهم وقصورهم عن نفع عابديهم ، وإظهاراً لخبية رجائهم بالكلية ، ونسبة عدم النفع والضرر إلى البعض للمبالغة في المقصود ، كأن نفع الملائكة لعبدتهم في الاستحالة كنفع العبدة لهم^(٦) ﴿ونقول للذين ظلموا﴾ أي ونقول للظالمين الذين عبدوا غير الله ﴿ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أي ذوقوا عذاب جهنم التي كذبت بها في الدنيا فما قد وردتموها ، ثم بيّن تعالى لوناً آخر من

(١) التسهيل ١٥٢/٣ . (٢) زاد المسير ٦٤٢/٦ . (٣) حاشية زاده على الفيضوي ٩٣/٣ .

(٤) الكشف ٤٦٣/٣ . (٥) الطبري ٦٩/٢٢ . (٦) تفسير أبي السعود ٢٣٤/٤ .

وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا
 مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَىٰ ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مَّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ
 كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا
 آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۚ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ * قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ
 وَفَرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا

كفرهم وضلالهم فقال : ﴿وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي وإذا تليت على هؤلاء المشركين آيات
 القرآن واضحات المعاني ، بينات الإعجاز ، وسمعوها غضة طرية من لسان رسولنا محمد ﷺ ﴿قَالُوا مَا
 هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ﴾ أي ما هذا الذي يزعم الرسالة إلا رجلٌ مثلكم
 يريد أن يمنعكم عما كان يعبد أسلافكم من الأوثان والأصنام ﴿وقالوا ما هذا إلا إفكٌ مفترى﴾ أي ما
 هذا القرآن إلا كذبٌ مختلق على الله ﴿وقال الذين كفروا للحقِّ لما جاءهم إن هذا إلا سحرٌ مبين﴾ أي
 وقال أولئك الكفرة المتوردون بجرائمهم على الله ومكابرتهم للحقِّ النير: ما هذا القرآن إلا سحرٌ واضح
 ظاهر لا يخفى على لبيب قال الزمخشري : وفيه تعجيب من أمرهم بليغ ، حيث بتوا القضاء على أنه سحر ،
 ثم بتوه على أنه بين ظاهر ، كل عاقلٍ تأمله سمّاه سحراً وفي قوله ﴿لما جاءهم﴾ المبادهة بالكفر من غير
 تأمل (١) ، ثم بين تعالى أنهم لم يقولوا ذلك عن بيته ، ولم يكذبوا محمداً عن يقين ، بل عن ظنٍّ وتخمين
 فقال ﴿وما آتيناهم من كتبٍ يدرسونها﴾ أي وما أنزلنا على أهل مكة كتاباً قبل القرآن يقرءون فيه
 ويتدارسونه ﴿وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ أي وما بعثنا إليهم قبلك يا محمد رسولاً ينذرهم عذاب
 الله ، فمن أين كذبوك ؟ قال الطبري : أي ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن ، ولا بعث إليهم نبياً
 قبل محمد ﷺ (٢) ﴿وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم﴾ أي وكذب قبلهم أقوام من
 الأمم السابقين وما بلغ كفار مكة عشر ما آتينا الأمم التي كانت قبلهم من القوة والمال وطول العمر قال ابن
 عباس : ﴿معشار ما آتيناهم﴾ أي من القوة في الدنيا (٣) ﴿فكذبوا رسلي فكيف كان نكير﴾ أي
 وحيث كذبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال ، ولم يغن عنهم ما كانوا فيه من القوة ، فكيف
 حال هؤلاء إذا جاءهم العذاب والهلاك ؟ وفيه تهديدٌ لقريش ﴿قل إنما أعظكم بواحدة﴾ أي قل يا
 محمد هؤلاء المشركين إنما أنصحكم وأوصيكم بخصلة واحدة ثم فسرنا بقوله ﴿أن تقوموا لله مثنى
 وفرادى﴾ أي هي أن تتحرروا الحق لوجه الله والتقرب له مجتمعين ووحداً ، أو اثنين اثنين وواحدًا واحدًا
 قال القرطبي : وهذا القيام معناه القيام إلى طلب الحق ، لا القيام الذي هو ضدُّ القعود (٤) ﴿ثم تتفكروا ما
 بصاحبكم من جنة﴾ أي ثم تتفكروا في أمر محمد لتعلموا أن من ظهر على يديه هذا الكتاب المعجز لا يمكن

(١) الكشاف ٤٦٤/٣ . (٢) الطبري ٧٠/٢٢ وهذه رواية قتادة (٣) مختصر ابن كثير ١٣٥/٣ . (٤) القرطبي ٣١١/١٤ .

سَأَلْتُمْ مَنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ
عَلَّمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَلِمَا أَضَلُّ عَلَىٰ
نَفْسِي ۖ وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فَمَا يُوحِي إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأَخَذُوا

أن يكون به مس^١ من الجنون أو يكون مجنوناً قال أبو حيان : ومعنى الآية : إنما أعظكم بواحدة فيها
إصابتكم الحق^٢ وهي أن تقوموا لوجه الله متفرقين اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ، ثم تفكروا في أمر محمد
وما جاء به ، وإنما قال ﴿مثنى وفرادى﴾ لأن الجماعة يكون مع اجتماعهم تشويش الخاطر والمنع من
التفكير ، كما يكون في الدروس التي يجتمع بها الجماعة ، وأما الاثنان إذا نظرا نظراً إنصاف وعرض كل
واحدٍ منهما على صاحبه ما ظهر له فلا يكاد الحق^٣ أن يعدوهما ، وإذا كان الواحد جيد الفكر عرف الحق ،
فإذا تفكروا عرفوا أن نسبته عليه السلام للجنون لا يمكن ، ولا يذهب إلى ذلك عاقل^(١) ﴿إن هو إلا نذير^٤
لكم بين يدي عذاب شديد﴾ أي ما هو إلا رسول منذر لكم إن كفرتم من عذاب شديد في الآخرة ﴿قل ما
سألتكم من أجرٍ فهو لكم﴾ أي لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرأ قال الطبري : المعنى إني لم أسألكم
على ذلك جعلاً ففتهموني وتظنوا أنني إنما دعوتكم إلى اتباعي لمأخذ منكم^(٢) ﴿إن أجري إلا على
الله﴾ أي ما أجري وثوابي إلا على الله رب العالمين ﴿وهو على كل شيء شهيد﴾ أي هو تعالى رقيب
وحاضر على أعمالي وأعمالكم ، لا يخفى عليه شيء وسيجازي الجميع قال أبو السعود : أي هو مطلع يعلم
صدقني وخلوص نيتي^(٣) ﴿قل إن ربي يقذف بالحق﴾ أي يبين الحجة ويظهرها قال ابن عباس : يقذف
الباطل بالحق كقوله ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ ﴿علام الغيوب﴾ أي هو
تعالى الذي أحاط علماً بجميع الغيوب التي غابت وخفيت عن الخلق ﴿قل جاء الحق﴾ أي جاء نور الحق
وسطع ضياؤه وهو الإسلام ﴿وما يبدي الباطل وما يعيد﴾ أي ذهب الباطل بالمرّة فليس له بدء ولا
عود قال الزمخشري : إذا هلك الإنسان لم يبق له إبداء ولا إعادة ، فجعلوا قولهم ﴿لا يبدي ولا يعيد﴾
مثلاً في الهلاك والمعنى : جاء الحق وهلك الباطل كقوله تعالى ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾^(٤) ﴿قل
إن ضللت فلما أضل على نفسي﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين إن حصل لي ضلال - كما زعمتم - فإن
إنم ضلالي على نفسي لا يضر غيري ﴿وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي﴾ أي وإن اهتديت إلى الحق
فبهداية الله وتوفيقه ﴿إنه سميع قريب﴾ أي سميع لمن دعاه ، قريب الإجابة لمن رجاه قال أبو السعود :
يعلم قول كل من المهتدي والضال وفعله وإن بالغ في إخفائها^(٥) ﴿ولو ترى إذ فرغوا﴾ أي ولو ترى يا
محمد حال المشركين عند فرغهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿فلا فوت﴾ أي فلا مخلص لهم ولا مهرب

(١) البحر المحيط ٧/٢٠١ يشيء من الاختصار. (٢) الطبري ٧١/٢٢ . (٣) أبو السعود ٤/٢٣٥ .

(٤) الكشاف ٣/٤٦٧ . (٥) أبو السعود ٤/٢٣٥ .

مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنْتَ لَهُمُ التَّنَاوُسُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ
وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ
إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾

﴿وأخذوا من مكان قريب﴾ أي أخذوا من الموقف - أرض المحشر - إلى النار ، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره : لرأيت أمراً عظيماً وخطباً جسيماً ترتعد له الفرائص ﴿وقالوا آمنا به﴾ أي وقالوا عندما عاينوا العذاب آمنا بالقرآن وبالرسول ﴿وأنتى لهم التناوش من مكان بعيد﴾ أي ومن أين لهم تناول الإيمان وهم الآن في الآخرة ومحل الإيمان في الدنيا ، وقد ذهبت الدنيا فصارت منهم بمكان بعيد ؟ قال أبو حيان : مثل حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من بعد كما يتناوله الآخر من قرب ^(١) ﴿وقد كفروا به من قبل﴾ أي والحال أنهم قد كفروا بالقرآن وبالرسول من قبل ذلك في الدنيا ، فكيف يحصل لهم الإيمان بهما في الآخرة ! ﴿ويقدفون بالغيب من مكان بعيد﴾ أي يرمون بظنونهم في الأمور المغيبة فيقولون : لا بعث ولا حساب ، ولا جنة ولا نار قال القرطبي : والعرب تقول لكل من تكلم بما لا يعرف هو يقذف ويرجم بالغيب ، على جهة التمثيل لمن يرمي ولا يصيب ^(٢) ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ أي وحيل بينهم وبين الإيمان ودخول الجنان ﴿كما فعل بأشياءهم من قبل﴾ أي كما فعل بأشياءهم في الكفر من الأمم السابقة ﴿إنهم كانوا في شكٍ مرِيبٍ﴾ أي كانوا في الدنيا في شك وارتياب من أمر الحساب والعذاب ، وقوله ﴿مرِيبٍ﴾ من باب التأكيد كقولهم عجبٌ عجيبٌ .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿يسط . . ويقدر﴾ وبين ﴿نفعاً . . وضراً﴾ وبين ﴿مثنى . . وفردى﴾ .
- ٢ - المقابلة بين عاقبة الأبرار والفجار ﴿إلا من آمن وعمل صالحاً . . والذين يسعون في آياتنا معاجزين﴾ .
- ٣ - الالتفات من الغائب الى المخاطب ﴿وما أموالكم ولا أولادكم﴾ والغرض المبالغة في تحقيق الحق .
- ٤ - أسلوب التقرير والتوبيخ ﴿أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ ؟ الخطاب للملائكة تقريراً للمشركين .
- ٥ - وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل جريمة الكفر عليهم ﴿وقال الذين كفروا للحق﴾ والأصل وقالوا .

٦ - الإيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى﴾
حذف خبر الأول لدلالة الثاني عليه أي ما أموالكم بالتي تقرّبكم ولا أولادكم بالذين يقربونكم
عندنا .

٧ - الاستعارة ﴿بين يدي عذابٍ شديد﴾ استعار لفظ اليدين لما يكون من الأهوال والشدائد أمام
الإنسان .

٨ - الكناية اللطيفة ﴿وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾ كناية عن زهوق الباطل ومحو أثره .

٩ - الاستعارة التصريحية ﴿ويقدفون بالغيّب من مكان بعيد﴾ شبه الذي يقول بغير علم ، ويظن
ولا يتحقق ، بالإنسان يرمي غرضاً وبينه وبينه مسافة بعيدة فلا يكون سهمه صائباً واستعار لفظ
القدف للقول .

١٠ - توافق الفواصل لما له من جميل الوقع على السمع مثل ﴿إنا بما أرسلتم به كافرون * أكثر الناس
لا يعلمون * وهم في الغرفات آمنون﴾ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة سبأ »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

❖ سورة فاطر مكية نزلت قبل هجرة رسول الله ﷺ ، فهي تسير في الغرض العام الذي نزلت من أجله الآيات المكية ، والتي يرجع أغلبها إلى المقصد الأول من رسالة كل رسول ، وهو قضايا العقيدة الكبرى « الدعوة إلى توحيد الله ، وإقامة البراهين على وجوده ، وهدم قواعد الشرك ، والحث على تطهير القلوب من الرذائل ، والتحلي بمكارم الأخلاق » .

❖ تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الخالق المبدع ، الذي فطر الأكوان ، وخلق الملائكة والإنس والجان ، وأقامت الأدلة والبراهين على البعث والنشور ، في صفحات هذا الكون المنظور ، بالأرض تحيا بعد موتها، بنزول الغيث ، وبخروج الزروع والفواكه والثمار ، وبتعاقب الليل والنهار ، وفي خلق الإنسان في أطوار ، وفي إيلاج الليل في النهار ، وغير ذلك من دلائل القدرة والوحدانية .

❖ وتحدثت عن الفارق الكبير بين المؤمن والكافر ، وضربت لهما الأمثال بالأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والظل والحرور .

❖ ثم تحدثت عن دلائل القدرة في اختلاف أنواع الثمار ، وفي سائر المخلوقات من البشر والدواب والأنعام ، وفي اختلاف أشكال الجبال والأحجار ، وتنوعها ما بين أبيض وأسود وأحمر ، وكلها ناطقة بعظمة الواحد القهار .

❖ وتحدثت بعد ذلك عن ميراث هذه الأمة المحمدية لأشرف الرسالات السماوية ، بإنزال هذا الكتاب المجيد الجامع لفضائل كتب الله ، ثم انقسام الأمة إلى ثلاثة أنواع : « المقصر ، والمحسن ، والسابق بالخيرات » .

❖ وختمت السورة بتفريع المشركين للأوثان والأصنام والأحجار .

التَّسْمِيَةُ : سميت « سورة فاطر » لذكر هذا الاسم الجليل ، والنعمة الجميل في طليعتها ، لما في هذا الوصف من الدلالة على الإبداع والاختراع والإيجاد لا على مثال سابق ، ولما فيه من التصوير الدقيق ،

المشير إلى عظمة ذي الجلال ، وباهر قدرته ، وعجيب صنعه ، فهو الذي خلق الملائكة وأبدع تكوينهم بهذا الخلق العجيب .

اللغز : ﴿فاطر﴾ الفاطر : الخالق ، وأصل الفطر الشق يقال : فطره فانفطر أي انشق ومنه « السماء منفطر به » وفطر الله الخلق : خلقهم وبرأهم ﴿تؤفكون﴾ تُصرفون من الإفك بمعنى الكذب سمي إفكاً لأنه مصروف عن الحق والصواب ﴿حسرات﴾ جمع حسرة وهي الغم الذي يلحق النفس على فوات الأمر ، وفي المختار : الحسرة أشدُّ التلهف على الشيء الفاقد^(١) ﴿النشور﴾ مصدر نشر الميت إذا حيي قال الأعشى :

حتى يقول الناس ممَّا رأوا يا عجباً للميت الناشر

﴿بيور﴾ يهلك يقال : بار بيور أي هلك وبطل ، والبوار : الهلاك ﴿فرات﴾ حلوشديد الحلاوة ﴿أجاج﴾ شديد الملوحة قال في القاموس : أجَّ الماء أجوجاً إذا اشتدت ملوحته^(٢) ﴿قطمير﴾ القطمير : القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِّثْنَىٰ وَتِلْكَ رُبْعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ

التفسير : ﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض﴾ أي الثناء الكامل ، والذكر الحسن ، مع التعظيم والتبجيل لله جلّ وعلا ، خالق السموات والأرض ومنشئها ومخترعها من غير مثال سبق قال البيضاوي : ﴿فاطر السموات والأرض﴾ أي مبدعها وموجدتها على غير مثال^(٣) ﴿جاعل الملائكة رسلاً﴾ أي جاعل الملائكة وسائط بين الله وأنبيائه لتبليغهم أوامر الله قال ابن الجوزي : يرسلهم إلى الأنبياء وإلى ما شاء من الأمور^(٤) ﴿أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع﴾ أي أصحاب أجنحة قال قتادة : بعضهم له جناحان ، وبعضهم له ثلاثة ، وبعضهم له أربعة ، ينزلون بها من السماء إلى الأرض ، ويعرجون بها إلى السماء^(٥) ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ أي يزيد في خلق الملائكة كيف يشاء ، من ضخامة الأجسام ، وتفاوت الأشكال ، وتعدد الأجنحة ، وقد رأى رسول الله ﷺ جبريل ليلة الإسراء وله ستائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب^(٦) وقال قتادة : ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ : الملاحظة

(١) مختار الصحاح مادة حسر . (٢) القاموس المحيط مادة أجاج . (٣) حاشية زاده على البيضاوي ٩٨/٣ . (٤) زاد المسير ٤٧٣/٦ .

(٥) القرطبي ٣١٩/١٤ . (٦) الحديث أخرجه مسلم عن ابن مسعود قال الزخشي : « رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته له ستائة جناح » .

مَا يَسْأَلُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٠﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠١﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ

في العينين ، والحسن في الأنف ، والحلاوة في الفم^(١) ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي هو تعالى قادر على ما يريد ، له الأمر والقوة والسلطان ، لا يمتنع عليه فعل شيء أراد ، ولا يتأبى عليه خلق شيء أراد ، وصف تعالى نفسه في هذه الآيات بصفتين جليلتين تحمل كل منهما صفة القدرة وكمال الإنعام الأولى : أنه فاطر السموات والأرض أي خالقها ومبدعها من غير مثال يحتذيه ، ولا قانون ينتحيه ، وفي ذلك دلالة على كمال قدرته ، وشمول نعمته ، فهو الذي رفع السماء بغير عمد ، وجعلها مستوية من غير أود ، وزينها بالكواكب والنجوم ، وهو الذي بسط الأرض ، وأودعها الأرزاق والأقوات ، وبث فيها البحار والأنهار ، وفجر فيها العيون والآبار ، إلى غير ما هنالك من آثار قدرته العظيمة ، وآثار صنعته البديعة ، وعبر عن ذلك كله بقوله ﴿فاطر السموات والأرض﴾ والثانية : اختيار الملائكة ليكونوا رسلاً بينه وبين أنبيائه ، وقد أشار إلى طرف من عظمته وكمال قدرته جل وعلا بأن خلق الملائكة بأشكال عجيبة ، وصور غريبة ، وأجنحة عديدة ، فمنهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له ستائة جناح ، ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ، كما هو وصف جبريل عليه السلام ، ومنهم من لا يعلم حقيقة خلقته وضخامة صورته إلا الله جل وعلا ، فقد روى الزهري أن جبريل قال للنبي ﷺ : (يا محمد كيف لو رأيت إسرافيل ! إن له لاثني عشر ألف جناح ، منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب ، وإن العرش لعلى كاهله)^(٢) ولو كشف لنا الحجاب لرأينا العجب العجيب ، فسبحان الله ما أعظم خلقه ، وما أبدع صنعه !! ثم بيّن تعالى نفاذ مشيئته ، ونفوذ أمره في هذا العالم الذي فطره ومن فيه ، وأخضعه لإرادته وتصرفه فقال : ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها﴾ أي أي شيء يمنحه الله لعباده ويتفضل به عليهم من خزائن رحمته ، من نعمة ، وصحة ، وأمن ، وعلم ، وحكمة ، ورزق ، وإرسال رسل هداية الخلق ، وغير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحيط بها عد ، فلا يقدر أحد على إمساكه وحرمان خلق الله منه ، فهو الملك الوهاب الذي لا مانع لما أعطى ، ولما معطي لما منع ﴿وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾ أي وأي شيء يمسه ويجسه عن خلقه من خيري الدنيا والآخرة ، فلا أحد يقدر على منحه للعباد بعد أن أمسكه جل وعلا ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي هو تعالى الغالب على كل شيء ، الحكيم في صنعه ، الذي يفعل ما يريد على مقتضى الحكمة والمصلحة قال المفسرون : والفتح والإمساك عبارة عن العطاء والمنع ، فهو الذي يضر وينفع ، ويعطي ويمنع ، وفي الحديث «أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد : اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(٣) ثم ذكّرهم تعالى بنعمه الجليّة عليهم فقال ﴿يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي اشكروا ربكم على

(١) القرطبي ١٤ / ٣٢٠ والآية عامة تتناول كل زيادة في الخلق ، من طول قامته ، واعتدال صورة ، وحصافة في العقل ، وذلاقة في اللسان ، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف . (٢) الكشاف ٣ / ٤٧٠ . (٣) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه .

يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنِّي تُؤْفِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٣٦﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تُغْنِيكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْنَمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٧﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمُ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٣٨﴾

نعمه التي لا تُعدُّ ولا تُحصى التي أنعم بها عليكم قال الزمخشري : ليس المراد بذكر النعمة ذكرها باللسان فقط ، ولكن المراد حفظها من الكفران ، وشكرها بمعرفة حقها ، والاعتراف بها ، وإطاعة موليتها ، ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه : أذكر أياديَّ عندك^(١) ﴿هل من خالقٍ غير الله﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا خالق غيره تعالى ، لا ما تعبدون من الأصنام ﴿يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي حال كونه تعالى هو المنعم على العباد بالرزق والعطاء ، فهو الذي ينزل المطر من السماء ، ويخرج النبات من الأرض ، فكيف تشركون معه ما لا يخلق ولا يرزق من الأوثان والأصنام ؟ ولهذا قال تعالى بعده ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا رب ولا معبود إلا الله الواحد الأحد ﴿فإِنِّي تُؤْفِكُونَ﴾ أي فكيف تُصرفون بعد هذا البيان ، ووضوح البرهان ، إلى عبادة الأوثان ؟ والغرض : تذكير الناس بنعم الله ، وإقامة الحججة على المشركين قال ابن كثير : نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى الاستدلال على توحيده ، بوجوب أفراد العبادة له ، فكما أنه المستقل بالخلق والرزق ، فكذلك يجب أن يُفرد بالعبادة ، ولا يُشرك به غيره من الأصنام والأوثان^(٢) ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت رسلٌ من قبلك﴾ تسلية للنبي ﷺ على تكذيب قومه له والمعنى : وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون فلا تحزن لتكذيبهم ، فهذه سنة الله في الأنبياء من قبلك ، فقد كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، فلك بهم أسوة ، ولا بد أن ينصرك الله عليهم ﴿وإلى الله تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي إلى الله تعالى وحده مرجع أمرهم وأمركم ، وسيجازي كلًّا بعمله ، وفيه وعيد وتهديد للمكذبين . ثم ذكَّره تعالى بذلك الموعد المحقق فقال ﴿يا أيها الناسُ إنَّ وعدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي إنَّ وعدَه لكم بالبعث والجزاء حقٌّ ثابتٌ لا محالة لا خُلف فيه ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ أي فلا تلهكم الحياة الدنيا بزخرفها ونعيمها عن الحياة الآخرة قال ابن كثير : أي لا تتلهوا عن تلك الحياة الباقية ، بهذه الزهرة الفانية^(٣) ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ أي ولا يخذعنكم الشيطان المبالغ في الغرور فيطمعكم في عفو الله وكرمه ، ويمينكم بالمغفرة مع الإصرار على المعاصي . ثم بيَّن تعالى عداوة الشيطان للإنسان فقال : ﴿إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي إنَّ الشيطان لكم أيها الناس عدوٌّ لودود ، وعداوته قديمة لا تكاد تزول فعادوه كما عاداكم ولا تطيعوه ، وكونوا على حذرٍ منه قال بعض العارفين : يا عجباً لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ، وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ أي إنما غرضه أن

(١) الكشاف ٤٧١/٣ . (٢) مختصر ابن كثير ١٣٩/٣ . (٣) مختصر ابن كثير ١٣٩/٣ .

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ
سُوْءُ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِسِحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ
مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾

يقذف باتباعه في نار جهنم المستعرة التي تشوي الوجوه والجلود ، لا غرض له إلا هذا ، فهل يليق بالعاقل أن يستجيب لنداء الشيطان اللعين ؟ قال الطبري : أي إنما يدعو شيعة ليكونوا من المخلدن في نار جهنم التي تتوقد على أهلها^(١) ﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد﴾ أي الذين جحدوا بالله ورسله لهم عذاب دائم شديد لا يقادر قدره ، ولا يوصف هوله ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿لهم مغفرة وأجر كبير﴾ أي لهم عند ربهم مغفرة لذنوبهم ، وأجر كبير وهو الجنة ، وإنما قرن الإيمان بالعمل الصالح ليشير إلى أنهما لا يفترقان ، فالإيمان تصديق ، وقول ، وعمل ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ الاستفهام للإنكار وجوابه محذوف والتقدير أفمن زين له الشيطان عمله السيء حتى رآه حسناً^(٢) واستحسن ما هو عليه من الكفر والضلال ، كمن استقبحه واجتنبه واختار طريق الإيمان ؟ ودل على هذا الحذف قوله تعالى ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي الكل بمشيئة الله ، فهو تعالى الذي يصرف من يشاء عن طريق الهدى ، ويهدي من يشاء بتوفيقه للعمل الصالح والإيمان ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ أي فلا تغتم يا محمد ولا تهلك نفسك حسرة على تركهم الإيمان ﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾ أي هو جل وعلا العالم بما يصنع هؤلاء من القبائح ومجازيهم عليها ، وفيه وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم ﴿والله الذي أرسل الرياح﴾ أي والله تعالى بقدرته هو الذي أرسل الرياح مبشرة بنزول المطر ﴿فتشير سحاباً﴾ أي فحركت السحاب وأهاجته ، والتعبير بالمضارع عن الماضي ﴿فتشير﴾ لاستحضار تلك الصورة البديعة ، الدالة على كمال القدرة والحكمة^(٣) ﴿فسقناه إلى بلد ميت﴾ أي فسقنا السحاب الذي يحمل الغيث إلى بلد مجذب قاحل ﴿فأحيينا به الأرض بعد موتها﴾ فيه حذف تقديره فأنزلنا به الماء فأحيينا به الأرض بعد جدها وبيسها ﴿كذلك النشور﴾ أي كما أحيا الله الأرض الميتة بالماء ، كذلك يحيي الموتى من قبورهم ، روى الإمام أحمد عن أبي رزين العقيلي قال قلت يا رسول الله : كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال : (أما مررت بوادي أهلك ممحلاً ، ثم مررت به يهتز خضراً ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : فكذلك يحيي الله الموتى ، وتلك آيته في خلقه)^(٤) قال ابن كثير : كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها ، فإذا أرسل الله إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها

(١) تفسير الطبري ٧٨/٢٢ . (٢) انظر الكشاف ٤٧٤/٣ . (٣) أبو السعود ٢٣٩/٤ . (٤) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۖ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۗ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ
السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ ﴿٣٥﴾ ۖ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۗ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَلِكَ

﴿اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ كذلك الأجساد إذا أراد الله بعثها ونشورها^(١) ، ثم نبه تعالى عباده إلى السبيل الذي تُنال به العزة فقال ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾ أي من كان يطلب العزة الكاملة ، والسعادة الشاملة ، فليطلبها من الله تعالى وحده ، فإن العزة كلها لله جل وعلا قال بعض العارفين : من أراد عز الدارين فليطع العزيز^(٢) ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ أي إليه جلّ وعلا يرتفع كل كلام طيب من ذكر ، ودعاء ، وتلاوة قرآن ، وتسبيح وتمجيد ونحوه قال الطبري : إلى الله يصعد ذكر العبد إياه وثناؤه عليه ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ أي والعمل الصالح يتقبله الله تعالى ويثيب صاحبه عليه قال قتادة : لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ، من قال وأحسن العمل قبل الله منه ، نقله الطبري ﴿والذين يكررون السيئات لهم عذاب شديد﴾ هذا بيان للكلم الخبيث بعد بيان حال الكلام الطيب أي والذين يحتالون بالمكر والخديعة لإطفاء نور الله ، والكيد للإسلام والمسلمين ، لهم في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم ﴿ومكراً ولئك هو يبور﴾ أي ومكر أولئك المجرمين هالك وباطل ، لأنه ما أسراً أحد سوءاً ودبره إلا أباده الله وأظهره ﴿ولا يحيق المكر السوء إلا بأهله﴾ قال المفسرون : والإشارة هنا إلى مكر قريش برسول الله ﷺ حين اجتمعوا في دار الندوة وأرادوا أن يقتلوه ، أو يجسوه ، أو يخرجوه كما حكى القرآن الكريم ﴿وإذ يكرهون بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يُخْرِجوك﴾^(٣) ثم ذكّرهم تعالى بدلائل التوحيد والبعث ، بعد أن ذكّرهم بآيات قدرته وعزته فقال ﴿والله خلقكم من تراب﴾ أي خلق أصلكم وهو آدم من تراب ﴿ثم من نطفة﴾ أي ثم خلق ذريته من ماء مهين وهو المنى الذي يُصب في الرحم ﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ أي خلقكم ذكوراً وإناثاً ، وزوج بعضكم من بعض ليتم البقاء في الدنيا إلى انقضائها^(٤) قال الطبري : أي زوج منهم الأنثى من الذكر^(٥) ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ أي وما تحمل أنثى في بطنها من جنين ، ولا تلد إلا بعلمه تعالى ، يعلم أذكر هو أو أنثى ، ويعلم أطوار هذا الجنين في بطن أمه ، لا يخفى عليه شيء من أحواله ﴿وما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي وما يطول عمر أحدٍ من الخلق فيصبح هرمًا ، ولا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِ أَحَدٍ فَيَمُوتَ وهو صغير أو شاب إلا وهو مسجّل في اللوح المحفوظ ، لا يُزَادُ فِيهَا كِتَابَ اللَّهِ وَلَا يُنْقَصُ ۗ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿أي سهل هين﴾ ، لأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، ثم ضرب تعالى مثلاً للمؤمن والكافر

(١) مختصر ابن كثير ٣/١٤٠ . (٢) القرطبي ١٤/٣٢٩ . (٣) انظر الكشاف ٣/٤٧٦ . (٤) القرطبي ١٤/٣٣٢ . (٥) الطبري

عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ

فقال : ﴿وما يستوي البحرين﴾ أي وما يستوي ماء البحر وماء النهر^(١) ﴿هذا عذب فرات سائغ شرابه﴾ أي هذا ماء حلو شديد الحلاوة يكسر وهج العطش ، ويسهل انحداره في الخلق لعذوبته ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي وهذا ماء شديد الملوحة ، يُحرق حلق الشارب لمرارته وشدة ملوحته ، فكما لا يتساوى البحرين : العذب ، والملح ، فكذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر ، ولا البرُّ مع الفاجر قال أبو السعود : هذا مثل ضرب للمؤمن والكافر ، والفرات الذي يكسر العطش ، والسائغ الذي يسهل انحداره لعذوبته ، والأجاج الذي يُحرق بملوحته^(٢) ﴿ومن كل تأكلون منه لحماً طرياً﴾ أي ومن كل واحدٍ منها تأكلون سمكاً غضاً طرياً ، مختلف الأنواع والطعوم والأشكال ﴿وتستخرجون حلية تلبسونها﴾ أي وتستخرجون منها اللؤلؤ والمرجان للزينة والتحلي ﴿وترى الفلك مواخر فيه﴾ أي وترى أيها المخاطب السفن العظيمة ، تمخرُ عُبَابَ البحر مقبلة ومدبرة ، تحمل على ظهرها الأثقال والبضائع والرجال ، وهي لا تغرق فيه لأنها بتسخير الله جل وعلا^(٣) ﴿لتبتغوا من فضله﴾ أي لتطلبوا بركوبكم هذه السفن العظيمة من فضل الله بأنواع التجارات ، والسفر إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولكي تشكروا ربكم على إنعامه وإفضاله في تسخيره ذلك لكم ، ثم انتقل إلى آية أخرى من آيات قدرته وسلطانه في الآفاق فقال ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي يدخل الليل في النهار ، ويدخل النهار في الليل ، فيضيف من هذا إلى هذا وبالعكس ، فيتفاوت بذلك طول الليل والنهار بالزيادة والنقصان ، حسب الفصول والأمصار ، حتى يصل النهار صيفاً - في بعض البلدان - إلى ست عشرة ساعة ، وينقص الليل حتى يصل إلى ثماني ساعات - آية من آيات الله تُشاهد لا يستطيع إنكارها جاحد أو مؤمن ، ويحس بآثارها الأعمى والبصير . . آية شاهدة على قدرة الله ، ودقة تصرفه في خلقه ، وهذه الظاهرة الكونية دستور لا يتغير ، ونظام محكم لا يأتي بطريق الصدفة ، وإنما هو من صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه ، فسبحان المدبر الحكيم العليم !! ﴿وسخَّر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مسمى﴾ أي ذلَّلها لمصالح العباد ، كل منهما يسير ويدور في مداره الذي قدره الله له لا يتعداه ، إلى أجلٍ معلوم هو يوم القيامة^(٤) ﴿ذلكم الله ربكم له الملك﴾ أي ذلكم الفاعل لهذه الأمور

(١) سمي النهر بحراً من باب التغليب . (٢) تفسير أبي السعود ٤ / ٢٤١ . (٣) راجع نظرية طفو الأجسام والإعجاز العلمي للقرآن الكريم . (٤) كان المظنون أن الشمس ثابتة في موضعها ولكن أثبت العلم الحديث أنها تجري في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثني عشر ميلاً في الثانية ، والله الخبير العليم يخبر بسيرها وجريانها « والشمس تجري لمستقر لها » . وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف حجم أرضنا هذه ، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء لا يسندها شيء إلا هو ، ندرك طرفاً من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم . تفسير الجوهري .

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُونَ دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۗ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

البديعة ، هو ربكم العظيم الشأن ، الذي له الملك والسلطان والتصرف الكامل في الخلق ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾ أي والذين تعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام لا يملكون شيئاً ولو بمقدار القطمير ، وهو القشرة الرقيقة التي بين التمرة والنواة قال المفسرون : وهو مثل يضرب في القلة والحقارة ، والأصنام لضعفها، وهوان شأنها وعجزها عن أي تصرف صارت مضرب المثل في حقارتها بأنها لا تملك فتيلاً ولا قطميراً ، ثم أكد تعالى ذلك بقوله ﴿إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم﴾ أي إن دعوتهم هذه الأصنام لم يسمعون دعاءكم ولم يستجيبوا لندائكم ، لأنها جمادات لا تسمع ولا تفهم ﴿ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾ أي ولو سمعوا لدعائكم - على الفرض والتسليم - ما استجابوا لكم لأنها ليست ناطقة فتجيب ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ أي وفي الآخرة حين ينطقهم الله يتبرءون منكم ومن عبادتكم إياهم ﴿ولا ينبيئك مثل خبير﴾ أي ولا يخبرك يا محمد على وجه اليقين أحداً إلا أنا - الله - الخالق العليم الخبير قال قتادة : يعني نفسه عز وجل .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستعارة التمثيلية ﴿ما يفتح الله للناس من رحمةٍ فلا ممسك لها﴾ شبه فيه إرسال النعم بفتح الخزائن للإعطاء وكذلك حبس النعم بالإمسك ، واستعير الفتح للإطلاق والإمسك للمنع .
- ٢ - الطباق بين ﴿يفتح .. ويمسك﴾ وكذلك بين ﴿يضل .. ويهدي﴾ وبين ﴿تحمل .. وتضع﴾ وبين ﴿يُعمَّر .. وينقص من عمره﴾ .
- ٣ - المقابلة بين جزاء الأبرار والفجار ﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد .. والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير﴾ وكذلك بين قوله ﴿هذا عذب فرات .. وهذا ملح أجاج﴾ وكل من الطباق والمقابلة من المحسنات البديعية إلا أن الأول يكون بين شيئين والثاني بين أكثر .
- ٤ - حذف الجواب لدلالة اللفظ عليه ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ ؟ حذف منه ما يقابله أي كمن لم يُزين له سوء عمله ؟ ودل على هذا المحذوف قوله ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ .

٥ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا . ثم قال . ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ .

٦ - الكناية ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ كناية عن الهلاك لأن النفس إذا ذهبت هلك

الإنسان .

٧ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم للإشعار بالعظمة ﴿أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه﴾ .

٨ - السجع لماله من وقع حسن على السمع مثل ﴿ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ﴿لهم مغفرة وأجر كبير﴾ وأمثال ذلك وهو من المحسنات البديعية .

المناسكة : لما عدّد تعالى نعمه على العباد ، وأقام الأدلة والبراهين على قدرته وعزته وسلطانه ، ذكّرهم هنا بحاجتهم إليه ، واستغناؤه جل وعلا عن جميع الخلق ، وضرب الأمثال للتفريق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، بالأعمى والبصير ، والظلام والنور ، « فبضدّها تتميز الأشياء » .

اللغز : ﴿وزر﴾ الوزر : الجبل المنيع الذي يعتصم به ومنه « كلا لا وزر » ثم قيل للثقل وزرٌ تشبيهاً له بالجبل ، ثم استعير للذنب لما فيه من إثقال كاهل الإنسان ﴿تنذر﴾ تخوف ، والإنذار التخويف ﴿الغيب﴾ ما غاب عن الإنسان ولم تدركه حواسه قال الشاعر :

وبالغيب آمنة وقد كان قوماً يُصلُّون للأوثان قبل محمد
﴿الحرور﴾ شدة حر الشمس قال في المصباح : الحرُّ خلاف البرد والاسم الحرارة ، وحرّت النار : توقّدت واستعرت ، والحَرور : الريح الحارة^(١) ﴿جدد﴾ جمع جدّة بالضم وهي الطريقة والعلامة قال الجوهري : والجدّة : الخطّة التي في ظهر الحمار تخالف لونه ، والجدّة الطريقة والجمع جدد وهي الطرائق المختلفة الألوان^(٢) ، قال القرطبي : قال الأخفش : لو كان جمع جديد لقال « جدّد » بضم الجيم والبدال نحو سرر ﴿غرايب﴾ جمع غريب وهو الشديد السواد ، يقال : أسود غريب أي شديد السواد قال امرؤ القيس :

العينُ طامحةٌ ، واليدُ سابعةٌ والرجلُ لافحةٌ ، والوجهُ غريب^(٣)

* يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ

النفسير : ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله﴾ الخطاب لجميع البشر لتذكيرهم بنعم الله الجليلة عليهم أي أنتم المحتاجون إليه تعالى في بقائكم وكل أحوالكم ، وفي الحركات والسكنات ﴿والله هو الغني الحميد﴾ أي وهو جل وعلا الغني عن العالم على الإطلاق ، المحمود على نعمه التي لا تحصى قال أبو حيان : هذه آية موعظة وتذكير ، وأن جميع الناس محتاجون إلى إحسان الله تعالى وإنعامه ، في جميع أحوالهم ، لا يستغني أحدٌ عنه طرفة عين ، وهو الغني عن العالم على الإطلاق ، المحمود على ما يسديه من النعم ، المستحق للحمد والثناء^(٤) ، ثم قرر استغناؤه عن الخلق بقوله ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي لو شاء تعالى لأهلككم وأفناكم وأتى بقوم آخرين غيركم ، وفي هذا وعيد وتهديد

(١) المصباح المنير . (٢) الصحاح للجوهري . (٣) تفسير القرطبي ٣٤٣/١٤ . (٤) البحر المحيط ٣٠٧/٧ .

جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۗ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾

﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ أي وليس ذلك بصعب أو ممتنع على الله ، بل هو سهل يسير عليه سبحانه ، لأنه يقول للشيء كن فيكون ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي لا تحمل نفس أئمة إثم نفس أخرى ، ولا تعاقب بذنب غيرها كما يفعل جبابرة الدنيا من أخذ الجار بالجار ، والقريب بال قريب (١) ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ أي وإن تدع نفس مثقلة بالأوزار أحداً ليحمل عنها بعض أوزارها لا يتحمل عنها ولو كان المدعو قريباً لها كالأب والابن ، فلا غياث يومئذ لمن استغاث ، وهو تأكيد لما سبق في أن الإنسان لا يتحمل ذنب غيره قال الزمخشري : فإن قلت فما الفرق بين الآيتين ؟ قلت : الأول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه ، وأنه تعالى لا يؤخذ نفساً بغير ذنبها ، والثاني في أنه لا غياث يومئذ لمن استغاث (٢) ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ أي إنما تنذر يا محمد بهذا القرآن الذين يخافون عقاب ربهم يوم القيامة ﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي وأدوا الصلاة على الوجه الأكمل ، فضموا إلى طهارة نفوسهم طهارة أبدانهم بالصلاة المفروضة في أوقاتها ﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه﴾ أي ومن طهر نفسه من أدناس المعاصي فإنما ثمره ذلك التطهر عائدة عليه ، فصلاحه وتقواه مختص به ولنفسه ﴿والسلي الله المصير﴾ أي إليه تعالى وحده مرجع الخلائق يوم القيامة فيجازي كلأ بعمله ، وهو إخبار متضمن معنى الوعيد ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر (٣) أي كما لا يتساوى الأعمى مع البصير فكذلك لا يتساوى المؤمن المستنير بنور القرآن ، والكافر الذي يتخبط في الظلام ، ﴿ولا الظلمات ولا النور﴾ أي لا يتساوى كذلك الكفر والإيمان ، كما لا يتساوى النور والظلام ﴿ولا الظل ولا الحرور﴾ أي وكذلك لا يستوي الحق والباطل ، والهدى والضلال كما لا يستوي الظل الظليل مع شدة حر الشمس المتوهجة قال المفسرون : ضرب الله الظل مثلاً للجنة وظلها الظليل ، وأشجارها اليانعة تجري من تحتها الأنهار ، كما جعل الحرور مثلاً للنار وسعيرها ، وشدة أوارها وحرها ، وجعل الجنة مستقراً للأبرار ، والنار مستقراً للفجار كما قال تعالى ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ ثم أكد ذلك فقال ﴿وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾ أي كما لا يستوي العقلاء والجهلاء قال أبو حيان : وترتيب هذه الأشياء في بيان عدم الاستواء جاء في غاية الفصاحة ، فقد ذكر الأعمى والبصير مثلاً للمؤمن والكافر ، فذكر ما عليه الكافر من ظلمة الكفر ، وما عليه المؤمن من نور الإيمان ، ثم ذكر مألها وهو الظل والحرور ، فالؤمن بإيمانه في ظل وراحة ، والكافر

(١) نفس المرجع السابق والصفحة . (٢) الكشاف ٣/ ٤٧٩ . (٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٨ .

وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾
 إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ
 فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

بكفره في حر وتعب ، ثم ذكر مثلاً آخر على أبلغ وجه وهو الحي والميت ، فالأعمى قد يكون فيه بعض النفع بخلاف الميت ، وجمع الظلمات لأن طرق الكفر متعددة ، وأفرد النور لأن التوحيد والحق واحد لا يتعدد ، وقدم الأشرف في المثلين الأخيرين وهما « الظل ، والحي » وقدم الأوضح في المثلين الأولين وهما « الأعمى ، والظلمات » ليظهر الفرق جلياً ، ولا يقال ذلك لأجل السجع لأن معجزة القرآن ليست في مجرد اللفظ ، بل في المعنى أيضاً ، فله سر القرآن^(١) ، ثم زاد في الإيضاح والبيان فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي إن الله يسمع من يشاء إسماعه دعوة الحق ، فيحبه بالإيمان ويشرح صدره للإسلام ، وما أنت يا محمد بمسمع هؤلاء الكفار ، لأنهم أموات القلوب لا يدركون ولا يفقهون قال ابن الجوزي : أراد بمن في القبور الكفار ، وشبههم بالموتى^(٢) ، أي فكما لا يقدر أن يسمع من في القبور كتاب الله وينتفع بمواعظه ، فكذلك من كان ميت القلب لا ينتفع بما يسمع^(٣) ﴿إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي ما أنت إلا رسول منذر ، تخوف هؤلاء الكفار من عذاب النار ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي بعثناك بالهدى ودين الحق ، بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي ما من أمة من الأمم في العصور والأزمنة الخالية إلا وقد جاءها رسول ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تسلياً للنبي ﷺ للتأسي بالأنبياء في الصبر على تحمل الأذى والبلاء قال الطبري : أي وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون من قومك فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم السابقة رسلهم ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءتهم الرسل بالمعجزات البينات ، والحجج الواضحات فكذبوهم وأنكروا ما جاءوا به من عند الله^(٤) ﴿وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي وجاءوهم بالزُّبُر أي الصحف المنزلة على الأنبياء ، وبالكتب السماوية المقدسة المنيرة الموضحة وهي أربعة « التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان » ومع ذلك كذبوهم وردوا عليهم رسالتهم فاصبر كما صبروا ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ثم بعد إمهالهم أخذت هؤلاء الكفار بالهلاك والدمار ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي فكيف كانت عقوبتي لهم وإنكاري عليهم ؟ ألم آخذهم أخذ عزيز مقتدر ؟ ألم أبدل نعمتهم نقمة ، وسعادتهم شقاوة ، وعمارتهم خراباً ؟ وهكذا أفعل بمن كذب رسلي ، ثم عاد إلى تقرير وحدانية الله بالأدلة السماوية والأرضية فقال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي ألم تر أيها

(١) البحر المحيط ٧/٣٠٩ بشيء من الإيجاز والتصرف . (٢) تفسير ابن الجوزي ٦/٤٨٤ . (٣) تفسير الطبري ٢٢/٨٥ .

(٤) تفسير الطبري ٢٢/٨٦ .

الْمَرْتَانَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا^٤ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ
مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٣٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا
يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ^٥ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٣٨﴾

المخاطب أن الله العظيم الكبير الجليل أنزل من السحاب المطر بقدرته^(١) ؟ ﴿فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها﴾ أي فأخرجنا بذلك الماء أنواع النباتات والفواكه والثمار ، المختلفات الأشكال والألوان والطعوم قال الزمخشري : أي مختلف أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر، أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها^(٢) ﴿ومن الجبال جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي وخلق الجبال كذلك فيها الطرائق المختلفة الألوان - وإن كان الجميع حجراً أو تراباً - فمن الجبال جُدَدٌ - أي طرائق - مختلفة الألوان ، بيضٌ مختلفة البياض ، وحمرة مختلفة في حمرتها ﴿وغرابيبُ سودٌ﴾ أي وجبال سودٌ غرابيب أي شديدة السواد ، قال ابن جزي : قدّم الوصف الأبلغ وكان حقه أن يتأخر ، وذلك لقصد التأكيد وكثيراً ما يأتي مثل هذا في كلام العرب^(٣) ، والغرض بيان قدرته تعالى ، فليس اختلاف الألوان قاصراً على الفواكه والثمار بل إن في طبقات الأرض وفي الجبال الصلبة ما هو أيضاً مختلف الألوان^(٤) ، حتى لتجد الجبل الواحد ذا ألوانٍ عجيبة ، وفيه عروق تشبه المرجان ، ولا سيما في صخور « المرمر » فسبحان القادر على كل شيء ﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك﴾ أي وخلق من الناس ، والدواب ، والأنعام ، خلقاً مختلفاً ألوانه كاختلاف الثمار والجبال ، فهذا أبيض ، وهذا أحمر ، وهذا أسود ، والكل خلق الله فتبارك الله أحسن الخالقين . . ثم لما عدد آيات الله ، وأعلام قدرته ، وآثار صنعه ، وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس أتبع ذلك بقوله ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ أي إنما يخشاه تعالى العلماء لأنهم عرفوه حق معرفته ، قال ابن كثير : أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم ، والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر^(٥) ﴿إن الله عزيزٌ غفور﴾ أي غالب على كل شيء بعظمته ، غفور لمن تاب وأناب من عباده ، ثم أخبر عن صفات هؤلاء الذين يخافون الله ويرجون رحمته فقال ﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾ أي

(١) الآية سبقت للحث والتحريض على النظر في عجائب صنعه تعالى ، وآثار قدرته ليؤدي ذلك إلى العلم بعظمة الله وجلاله ، ويؤدي العلم إلى خشيته ولذلك ختمها بقوله ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فتدبر سرّ القرآن . (٢) تفسير الكشاف ٤٨١/٣ . (٣) التسهيل ١٥٨/٣ . (٤) يقول شهيد الإسلام في تفسيره الظلال : هذه لفظة كونية عجيبة من اللفظات الدالة على مصدر هذا الكتاب ، تبدأ بإنزال الماء من السماء ، وإخراج الثمرات المختلفة الألوان ، ثم تنتقل إلى ألوان الجبال ، ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددتها ، واللفظة إلى ألوان الصخور وتنوعها داخل اللون الواحد ، تهز القلب هزاً ، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي بما يستحق النظر والالتفات ، ثم ألوان الناس - وهي لا تقف عند حد - وكذلك ألوان الدواب والأنعام ، والدابة كل حيوان ، والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز ، ذات الألوان والأصباغ العجيبة ، كلها معروضة للأنظار في هذا الكتاب الكوني ، الجميل الصفحات ، العجيب في التكوين والتلوين . (٥) مختصر ابن كثير ١٤٦/٣ .

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

يداومون على تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار ﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي أدوها على الوجه الأكمل في أوقاتها ، بخشوعها وآدابها ، وشروطها وأركانها ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾ أي وأنفقوا بعض أموالهم في سبيل الله وابتغاء رضوانه في السر والعلن ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ أي يرجون بعملهم هذا تجارة رابحة ، لن تكسد ولن تهلك بالخسران أبداً ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ أي ليوفيهم الله جزاء أعمالهم ، وثواب ما فعلوا من صالح الأعمال ، ويزيدهم - فوق أجورهم - من فضله وإنعامه وإحسانه قال في التسهيل : توفية الأجور هو ما يستحقه المطيع من الثواب ، والزيادة : التضعيف فوق ذلك أو النظر إلى وجه الله ^(١) ﴿إنه غفور شكور﴾ أي مبالغ في الغفران لأهل القرآن ، شاکر لطاعتهم قال ابن كثير : كان مطرف إذا قرأ هذه الآية قال : هذه آية القراء ^(٢) ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق﴾ أي والذي أوحيناه إليك يا محمد من الكتاب المنزل - القرآن العظيم - هو الحق الذي لا شك فيه ، ولا ريب في صدقه ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ أي حال كونه مصدقاً لما سبقه من الكتب الإلهية المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور قال أبو حيان : وفي الآية إشارة إلى كونه وحياً ، لأنه عليه السلام لم يكن قارئاً ولا كاتباً وأتى ببيان ما في كتب الله ، ولا يكون ذلك إلا من الله ^(٣) ﴿إن الله بعباده لخبير بصير﴾ أي هو جل وعلا خبير بعباده محيط ببواطن أمورهم وظواهرها ، بصيرٌ بهم لا تخفى عليه خافية من شئونهم .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين ﴿يذهب .. ويأت﴾ وبين ﴿الأعمى .. والبصير﴾ و﴿الظلمات .. والنور﴾ و﴿الظل .. والحروور﴾ و﴿الأحياء .. والأموات﴾ وبين ﴿نذيراً .. وبشيراً﴾ وبين ﴿سراً .. وعلانية﴾ .

٢ - جناس الاشتقاق ﴿ولا تزر وازرة﴾ ﴿حملها لا يحمل منه شيء﴾ .

٣ - الاستعارة التصريحية ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ..﴾ الآية شبه الكافر بالأعمى ، والمؤمن بالبصير بجامع ظلام الطريق وعدم الاهتداء على الكافر ، ووضوح الرؤية والاهتداء للمؤمن ، ثم استعار المشبه به ﴿الأعمى﴾ للكافر ، واستعار ﴿البصير﴾ للمؤمن بطريق الاستعارة التصريحية .

- ٤ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿ أنزل من السماء ماءً فأخرجنا ﴾ بدل فأخرج لما في ذلك من الفخامة ولبيان كمال العناية بالفعل ، لما فيه من الصنع البديع ، النبيء عن كمال قدرة الله وحكمته .
- ٥ - قصر صفة على موصوف ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ فقد قصر الخشية على العلماء .
- ٦ - الاستفهام التقريري وفيه معنى التعجب ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً . . ﴾ الآية .
- ٧ - الاستعارة ﴿ يرجون تجارة لن تبور ﴾ استعار التجارة للمعاملة مع الله تعالى لنيل ثوابه ، وشبهها بالتجارة الدنيوية وهي معاملة الخلق بالبيع والشراء لنيل الربح ثم رشحها بقوله ﴿ لن تبور ﴾ .
- ٨ - توافق الفواصل مما يزيد في جمال الكلام ورونقه ووقعه في النفس مثل ﴿ يرجون تجارة لن تبور ﴾ ﴿ إنه غفور شكور ﴾ ومثل ﴿ وبالكتاب المنير ﴾ ﴿ فكيف كان نكير ﴾ وهكذا .

قال الله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذي اصطفينا . . إلى فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾

من آية (٣٢) إلى آية (٤٥) نهاية السورة

المناسكة : لما أثنى تعالى على الذين يتلون كتاب الله ، ذكر هنا انقسام الأمة الإسلامية أمام هذا الكنز الثمين إلى ثلاثة أقسام : الظالم لنفسه ، والمقتصد ، والسابق بالخيرات ، ثم ذكر مآل الأبرار والفجار ، ليظل العبد بين الخوف والرجاء ، والرغبة والرغبة .

اللغز : ﴿ نَصَب ﴾ تعب ومشقة جسمانية ﴿ لُغُوب ﴾ اللُّغُوب : الإعياء والضعف والفتور ومنه ﴿ وما مسنا من لُغُوب ﴾ ﴿ بصطرخون ﴾ من الصراخ وهو الصياح بصوت عال ، والصارخ : المستغيث ، والمُصْرَخ : المغيث قال سلامة بن جندب :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع
كان الصراخ له قرع الظنائب^(١)

﴿ النذير ﴾ المنذر الذي يخوف الناس من عذاب الله ﴿ خلائف ﴾ جمع خليفة وهو الذي يخلف غيره في أمر من الأمور ﴿ مقتاً ﴾ المقت : أشد البغض والغضب ﴿ خساراً ﴾ هلاكاً وضللاً ﴿ يحيق ﴾ حاق به الشيء : نزل وأحاط .

﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ﴾

التفسير : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ أي ثم أورثنا هذا القرآن العظيم لأفضل الأمم - وهم أمة محمد عليه السلام - الذين اخترناهم على سائر الأمم ، وخصصناهم بهذا الفضل العظيم ، القرآن المعجز خاتمة الكتب السماوية قال الزمخشري : والذين اصطفاهم الله هم أمة محمد من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة^(٢) . . ثم قسمهم إلى ثلاثة أصناف فقال ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ أي فمن هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب من هو مقصّر في عمل الخير ، يتلو القرآن ولا يعمل به وهو الظالم لنفسه ، ومنهم من هو متوسط

بِإِذْنِ اللَّهِ ^ج ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٣﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا
وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ^ط إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٥﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا
دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ۗ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٦﴾

في فعل الخيرات والصلحات ، يعمل بالقرآن في أغلب الأوقات ، ويقصّر في بعض الفترات وهو
المقتصد ، ومنهم من هو سباق في العمل بكتاب الله ، يستبق الخيرات وقد أحرز قصب السبق في فعل
الطاعات بتوفيق الله وتيسيره وهو السابق بالخيرات بإذن الله قال ابن جزري : وأكثر المفسرين أن هذه
الأصناف الثلاثة في أمة محمد ﷺ فالظالم لنفسه : العاصي ، والسابق : التقي ، والمقتصد : بينهما (١)
وقال الحسن البصري : السابق من رجحت حسناته على سيئاته ، والظالم لنفسه من رجحت سيئاته ،
والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته ، وجميعهم يدخلون الجنة (٢) ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ أي
ذلك الإيثار والاصطفاء لأمة محمد عليه السلام لحمل أشرف الرسالات والكتب السماوية هو الفضل
العظيم الذي لا يدانيه فضل ولا شرف ، فقد تفضل الله عليهم بهذا القرآن المجيد ، الباقي مدى الدهر ،
وأنعم به من فضل ! ثم أخبر تعالى عما أعدده للمؤمنين في جنات النعيم فقال ﴿جناتٌ عدنٍ يدخلونها﴾
أي جنات إقامة ينعمون فيها بأنواع النعيم ، وهي مراتب ودرجات متفاوتة حسب تفاوت الأعمال ، وإنما
جمع ﴿الجنات﴾ لأنها جنات كثيرة وليست جنة واحدة ، فهناك جنة الفردوس ، وجنة عدن ، وجنة
النعيم ، وجنة المأوى ، وجنة الخلد ، وجنة السلام ، وجنة عليين ، وفي كل جنة مراتب وتُزَلُّ بحسب
مراتب العاملين ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي يزينون في الجنة بأساور من ذهب
مرصعة باللؤلؤ ﴿ولباسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي وجميع ما يلبسونه في الجنة من الحرير ، بل فرشهم
وستورهم كذلك قال القرطبي : لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان ، جعل الله ذلك لأهل
الجنة ، وليس أحد من أهل الجنة إلا في يده ثلاثة أسورة : سوار من ذهب ، وسوار من فضة ، وسوار من
لؤلؤ (٣) ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ أي وقالوا عند دخولهم الجنة الحمد لله الذي
أذهب عنا جميع الهموم والأكدار والأحزان قال المفسرون : عبر بالماضي ﴿وقالوا﴾ لتحقيق وقوعه ،
والحزن يعم كل ما يكدر صفو الإنسان من خوف المرض ، والفقر ، والموت ، وأهوال القيامة ،
وعذاب النار وغير ذلك (٤) ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي واسع المغفرة للمذنبين ، شكور لطاعة
المطيعين ، وكلا اللفظتين للمبالغة أي واسع الغفران عظيم الشكر والإحسان ﴿الذي أحلنا دار المقامة
من فضله﴾ أي أنزلنا الجنة وأسكننا فيها ، وجعلها مقراً لنا وسكناً ، لا نتحول عنها أبداً ، وكل ذلك من
إنعامه وتفضله علينا ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي لا يصيبنا فيها تعب ولا مشقة ﴿ولا يمسنا فيها

(١) التسهيل في علوم التنزيل ١٥٨/٣ . (٢) زاد المسير ٤٩٠/٦ . والقول بأن هذه الأصناف الثلاثة من أمة محمد ﷺ هو الراجح وهو اختيار

ابن جرير وقد أورد العلامة ابن كثير أحاديث تدل على ذلك . (٣) القرطبي ٥٢/١٢ . (٤) انظر تفسير أبي السعود ٢٤٥/٤ والطبري

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۖ أُولَٰئِكَ نُعَذِّبُكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ وَجَاءَ كُرُّ النَّذِيرِ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾

لغوب ﴿أي ولا يصيبنا فيها إعياء ولا فتور قال ابن جزى : وإنما سميت الجنة ﴿دار المقامة﴾ لأنهم يقومون فيها ويمكثون ولا يخرجون منها ، والنَّصَبُ تعبُ البدن ، واللغوبُ تعبُ النفس الناشئ عن تعب البدن﴾ . . . ولما ذكر تعالى حال السعداء الأبرار ، ذكر حال الأشقياء الفجار فقال ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم﴾ أي والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله فإنَّ لهم نار جهنم المستعرة جزاءً وفاقاً على كفرهم ﴿لا يُقْضَىٰ عليهم فيموتوا﴾ أي لا يحكم عليهم بالموت فيها حتى يستريحوا من عذاب النار ﴿ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابها﴾ أي ولا يخفف عنهم شيء من العذاب ، بل هم في عذاب دائم مستمر لا ينقطع كقوله ﴿كلما خبت زدهم سعيراً﴾ ﴿كذلك نجزي كل كفور﴾ أي مثل ذلك العذاب الشديد الفظيع ، نجازي ونعاقب كل مبالغ في الكفر والعصيان ﴿وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ أي وهم يتصارخون في جهنم ويستغيثون برفع أصواتهم قائلين : ربنا أخرجنا من النار وردنا إلى الدنيا لنعمل عملاً صالحاً يقربنا منك ، غير الذي كنا نعمله قال القرطبي : أي تؤمن بدل الكفر ، ونطيع بدل المعصية ، ونمثل أمر الرسل ﴿١﴾ . . . وفي قولهم ﴿غير الذي كنا نعمل﴾ اعترافٌ بسوء عملهم ، وتندُّمٌ عليه وتحسرٌ ﴿٣﴾ ، قال تعالى رداً عليهم وموبخاً لهم ﴿أولم نُعمرْكم ما يتذكَّرُ فيه من تذكَّرٍ﴾ أي أولم نترككم ونهلكم في الدنيا عمراً مديداً يكفي لأن يتذكر فيه من يريد التذكر والتفكير ؟ فماذا صنعتكم في هذه المدة التي عشتموها ؟ وما لكم تطلبون عمراً آخر ؟ وفي الحديث «أعذر الله إلى امرئٍ آخر أجله حتى بلغ ستين سنة» ﴿٤﴾ ومعنى «أعذر» أي بلغ به أقصى العذر ﴿وجاءكم النذير﴾ أي وجاءكم الرسول المنذر وهو محمد عليه السلام الذي بعث بين يدي الساعة ، وقيل : ﴿النذير﴾ هو الشيب ، والأول أظهر ﴿٥﴾ ﴿فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ أي فذوقوا العذاب يا معشر الكافرين ، فليس لكم اليوم ناصر ولا معين يدفع عنكم عذاب الله قال الإمام الفخر : والأمرُ أمرُ إهانة ﴿فذوقوا﴾ وفيه إشارة إلى الدوام ﴿٦﴾ ، وإنما وضع الظاهر للظالمين ﴿موضع الضمير﴾ لكم « لتسجيل الظلم عليهم ، وأنهم بكفرهم وظلمهم ليس لهم نصير أصلاً لا من الله ولا

(١) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٥٩ .

(٢) القرطبي ٣٥٢/١٤ . (٣) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٥٩ . (٤) أخرجه البخاري وترجم له بقوله «باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر وذكر الآية ، قال ابن كثير وهذا هو الصحيح في مقدار العمر» .

(٥) ترجم الإمام البخاري ﴿وجاءكم النذير﴾ يعني الشيب ، وروي هذا عن ابن عباس وعكرمة قال ابن كثير : وما روي عن قتادة أن النذير هو رسول الله ﷺ هو الصحيح وهو اختيار ابن جرير وهو الأظهر . (٦) التفسير الكبير ٢٦/ ٣٠ .

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي
 الْأَرْضِ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ
 كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ
 أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا
 مِنَ الْعِبَادِ ، ثم قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو تعالى العالم الذي أحاط
 علمه بكل ما خفي في الكون من غيب السموات والأرض ، لا يخفى عليه شأن من شئونها ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ
 بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي يعلم جلُّ وعلا مضمرات الصدور ، وما تخفيه من الهواجس والوساوس ، فكيف
 لا يعلم أعمالهم الظاهرة ؟ قال المفسرون : والجملة لتأكيد ما سبق من دوام عذاب الكفار في النار ، لأن
 الله تعالى يعلم من الكافر أنه تمكَّن الكفر في قلبه بحيث لو دام في الدنيا إلى الأبد ما آمن بالله ولا عبده ،
 فالعذاب الأبدي مساوٍ لكفرهم الأبدي ، فلا ظلم ولا زيادة ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ قال القرطبي :
 والمعنى في الآية علم أنه لو ردكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً كما قال تعالى ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا
 عَنْهُ﴾^(١) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي هو تعالى جعلكم أيها الناس خلائف في
 الأرض ، بعد عاد وثمود ومن مضى قبلكم من الأمم ، تخلفوهم في مساكنهم جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد
 قرن ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي فمن كفر بالله فعليه وبال كُفْرُهُ ، لا يضر بذلك إلا نفسه ﴿وَلَا يَزِيدُ
 الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي ولا يزيدهم كفرهم إلا طرداً من رحمة الله وبعداً وبغضاً
 شديداً من الله ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي ولا يزيدهم كفرهم إلا هلاكاً وضلالاً
 وخسران العمر الذي ما بعده شر وخسار ! قال أبو حيان : وفي الآية تنبيه على أنه تعالى استخلفهم بدل
 من كان قبلهم ، فلم يتعظوا بحال من تقدمهم من المكذبين للرسول وما حلَّ بهم من الهلاك ، ولا اعتبروا
 بمن كفر ، ولا اتعظوا بمن تقدم ، والمقت أشد الاحتقار والبغض ، والخسارُ خسارُ العمر ، كأنَّ العمر
 رأس مال الإنسان فإذا انقضى في غير طاعة الله فقد خسره ، واستعاض به بدل الربح سخط الله
 وغضبه ، بحيث صار إلى النار المؤبدة^(٢) ، ثم وبَّخ تعالى المشركين في عبادتهم ما لا يسمع ولا ينفذ فقال
 ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ؟ قال الزمخشري : ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ معناها
 أخبروني كأنه قال : أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة^(٣) ، ومعنى الآية : قل
 يا محمد تبكيتاً لهؤلاء المشركين : أخبروني عن شأن آلهتكم - الأوثان والأصنام - الذين عبدتموهم من دون
 الله ، وأشركتموهم معه في العبادة ، بأي شيء استحقوا هذه العبادة ؟ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ
 الْأَرْضِ﴾ أي أروني أي شيء خلقوه في هذه الدنيا من المخلوقات حتى عبدتموهم من دون الله ؟ ﴿أَمْ لَهُمْ
 شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي أم شاركوا الله في خلق السموات فاستحقوا بذلك الشركة معه في الألوهية ؟

غُرُورًا ﴿٤٣﴾ * إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أُمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ع
 إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ط
 فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٥﴾

﴿أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه﴾ أي أم أنزلنا عليهم كتاباً ينطق بأنهم شركاء الله فهم على بصيرة وحجة وبرهان في عبادة الأوثان ﴿بل إن بعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾ إضراب عن السابق وبيان للسبب الحقيقي أي إنما اتخذوهم آلهة بتضليل الرؤساء للاتباع بقولهم : الأصنام تشفع لهم ، وهو غرور باطل وزور قال أبو السعود : لما نفى أنواع الحجج أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه ، وهو تغيير الأسلاف للأخلاف ، وإضلال الرؤساء للاتباع بأنهم يشفعون لهم عند الله (١) . . ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانته فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أي هو جل وعلا بقدرته وبديع حكمته ، يمنع السموات والأرض من الزوال ، والسقوط ، والوقوع كما قال تعالى ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ قال القرطبي : لما بين أن آلهتهم لا تقدر على خلق شيء من السموات والأرض ، بين أن خالقها وممسكها هو الله ، فلا يوجد حادث إلا بإيجاده ، ولا يبقى إلا ببقائه (٢) ﴿ولئن زالتا إن أمسكتهما من أحدٍ من بعده﴾ أي ولئن زالتا عن أماكنها - فرضاً - ما أمسكها أحدٌ بعد الله ، بمعنى أنه لا يستطيع أحدٌ على إمساكها ، إنما هما قائمتان بقدرة الواحد القهار ﴿إنه كان حلماً غفوراً﴾ أي إنه تعالى حلیم لا يعاجل العقوبة للكفار مع استحقاقهم لها ، واسع المغفرة والرحمة لمن تاب منهم وأتاب ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ أي حلف المشركون بالله أشد الأيمان وأبلغها قال الصاوي : كانوا يملفون بأبائهم وأصنامهم فإذا أرادوا التأكيد والتشديد حلفوا بالله (٣) ﴿لئن جاءهم نذيرٌ﴾ أي لئن جاءهم رسول منذر ﴿ليكوننَّ أهدى من إحدى الأمم﴾ أي ليكوننَّ أهدى من جميع الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من أهل الكتاب قال أبو السعود : بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا : لعن الله اليهود والنصارى ، أتتهم الرسل فكذبوهم ، فوالله لئن أتانا رسول لنكوننَّ أهدى من اليهود والنصارى وغيرهم (٤) ﴿فلما جاءهم نذيرٌ﴾ أي فلما جاءهم محمد ﷺ أشرف المرسلين ﴿ما زادهم إلا نفوراً﴾ أي ما زادهم مجيئه إلا تباعداً عن الهدى والحق وهرباً منه ﴿استكباراً في الأرض ومكراً سيئاً﴾ أي نفروا منه بسبب استكبارهم عن اتباع الحق ، وعتوهم وطغيانهم في الأرض ، ومن أجل المكر السيء بالرسول وبالؤمنين ، ليفتنوا ضعفاء الإيمان عن دين الله قال أبو حيان : أي سبب النفور هو الاستكبار والمكر السيء يعني أن الحامل لهم على

(١) تفسير أبي السعود ٤/٢٤٦ . (٢) تفسير القرطبي ١٤/٣٥٦ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٣١٥ .

(٤) تفسير أبي السعود ٤/٢٤٦ .

أَسْتَجْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن نَّجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٤﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٥﴾ وَلَوْ يَوَازِخُدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

الابتعاد من الحق هو الاستكبار ، والمكر السيء وهو الخداع الذي يرمونه برسول الله ﷺ والكيد له (١) ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ أي ولا يحيط وبال المكر السيء إلا بمن مكره ودبره كقولهم «من حفر حفرة لأخيه وقع فيها» ﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء المشركون إلا عادة الله وسنته في الأمم المتقدمة ، من تعذيبهم وإهلاكهم بتكذيبهم للرسول ؟ ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي لن تتغير ولن تتبدل سنته تعالى في خلقه ﴿ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ أي ولا يستطيع أحد أن يحول العذاب عنهم إلى غيرهم قال القرطبي : أجرى الله العذاب على الكفار ، فلا يقدر أحد أن يبدل ذلك ، ولا أن يحول العذاب عن نفسه إلى غيره ، والسنة هي الطريقة (٢) . . ثم حثهم تعالى على مشاهدة آثار من قبلهم من المكذبين ليعتبروا فقال ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ ؟ أولم يسافروا ويمروا على القرى المهلكة فيروا آثار دمار الأمم الماضية حين كذبوا رسلهم ماذا صنع الله بهم ؟ ﴿وكانوا أشد منهم قوة﴾ أي وكانوا أقوى من أهل مكة أجساداً ، وأكثر منهم أموالاً وأولاداً ﴿وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض﴾ أي أنه سبحانه لا يفوته شيء ، ولا يصعب عليه أمر في هذا الكون ﴿إنه كان عليماً قديراً﴾ أي بالغ العلم والقدرة ، عالم بشئون الخلق ، قادر على الانتقام ممن عصاه ﴿ولو يواخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ بيان لحلم الله ورحمته بعباده أي لو أخذهم بجميع ذنوبهم ما ترك على ظهر الأرض أحداً يدب عليها من إنسان أو حيوان قال ابن مسعود : يريد جميع الحيوان مما دب ودرج (٣) ﴿ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ أي ولكنه تعالى من رحمته بعباده ، ولطفه بهم ، يمهلهم إلى زمن معلوم وهو يوم القيامة فلا يعجل لهم العذاب ﴿فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً﴾ أي فإذا جاء ذلك الوقت جازاهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، لأنه تعالى العالم بشئونهم المطلع على أحوالهم قال ابن جرير : بصيراً بمن يستحق العقوبة ، وبمن يستوجب الكرامة (٤) ، وفي الآية وعيد للمجرمين ووعد للمتقين .

البالغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿لا يمسن﴾ فيها نصب ، ولا يمسن فيها لغوب ﴿للمبالغة في انتفاء كل منهما استقلالاً ، وكذلك الإطناب في قوله ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾ لزيادة التشنيع والتقبيح على من كفر بالله .
- ٢ - التهكم في صيغة الأمر ﴿فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ مثل ﴿ذق أنك أنت العزيز الكريم﴾ .
- ٣ - المبالغة مثل ﴿غفور ، شكور ، كفور﴾ ومثل ﴿حليماً ، عليماً ، قديراً﴾ فإنها من صيغ المبالغة .
- ٤ - الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ ؟ وكذلك ﴿أم لهم شرك في السموات﴾ ؟
- ٥ - الاستعارة المكنية ﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾ شبه الأرض بدابة تحمل على ظهرها أنواع المخلوقات ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الظهر بطريق الاستعارة المكنية .
- ٦ - السجع غير المتكلف ، البالغ نهاية الروعة والجمال مثل ﴿وجاءكم النذير﴾ فذوقوا فما للظالمين من نصير وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة فاطر »

فهرس الأحاديث الشريفة - المجلد الثاني

الراوي	** أطراف الحديث **	الصفحة
الشيخان	«رحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد»	٢٧
مسلم والترمذي	«الصلوات الخمس كفارة لما بينها ما اجتنبت الكبائر»	٣٦
أصحاب السنن	«ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له»	٣٦
البخاري	«كان ﷺ إذا سمع الرعد قال: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته»	٧٩
الترمذي	«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»	١١١
البخاري	«الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»	١١٥
الطبري	«كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان، قال فإن عادوا فعد»	١٤٤
البخاري	«لما دخل ﷺ مكة كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فحطّمها . . .»	١٧٢
الشيخان	«سئل ﷺ كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال: الذي أمشاهم على وجوههم قادر. . . الخ	١٧٧
أحمد	«سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هن الباقيات الصالحات»	١٩٤
الترمذي	«لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال يا محمد: أقرئ أمتك مني السلام. . . الخ	١٩٦
الشيخان	«إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم. . . الخ	٢٠٢
مسلم	«إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت يوم القيامة. . .»	٢١٧
البخاري	«ما يمنعك يا جبريل أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزل ﴿وما ننزل إلا بأمر ربك . . .﴾ الخ	٢١٨
الشيخان	«قال خباب: كنت رجلاً قيناً حداداً وكان لي على العاص بن وائل دين. . . الخ	٢٢٣
مسلم	«إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه. . .»	٢٢٨
الترمذي	«إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة. . .»	٢٣١
أحمد والترمذي	«الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. . . الخ	٢٤١
أبو داود	«ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ إلا استجيب له»	٢٧٣
مسلم	«أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة، عراة، غرلاً. . . الخ	٢٧٦
ابن عساکر	«إنما أنا رحمة مهداة»	٢٧٧
الترمذي	«إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه. . .»	٢٨٦
أحمد	«لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها»	٢٨٦
أحمد	«إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولئن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب»	٣١٢

الراوي	** أطراف الحديث **	الصفحة
أحمد	«أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟..»	٣١٢
الترمذي	«تسويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه..» الخ	٣٢٠
أحمد والنسائي	«البينة أو حدٌ في ظهره..» الخ	٣٢٥
البخاري	«يرحم الله النساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾..» الخ	٣٣٦
أحمد والترمذي	«ثلاثة حقٌ على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء..» الخ	٣٣٧
مسلم	«إن الله زوى لي الأرض- أي جمعها- فرأيت مشارقها ومغاربها..» الخ	٣٤٨
أحمد	«والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة..» الخ	٣٦١
مسلم	«إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً من النار..» الخ	٣٧٠
البخاري	«يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترَةٌ وعَبْرَةٌ..» الخ	٣٨٦
الشيخان	«يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً..» الخ	٣٩٦
البخاري	«تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاج..» الخ	٣٩٧
البخاري	«لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»	٤٠٧
أحمد	«لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات.. وعدٌ منها طلوع الشمس من مغربها..» الخ	٤١٩
مسلم	«لما حضرت أبا طالب الوفاة قال له الرسول ﷺ يا عم: قل لا إله إلا الله..» الخ	٤٣٦
مسلم	«ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنية ثم آمن بي..» الخ	٤٣٩
الشيخان	«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه..»	٤٧٨
البخاري	«ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت ﴿أدعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله﴾..» الخ	٥١٢
أحمد	«أقبل أبو بكر يستأذن رسول الله ﷺ والناس يبابه جلوسٌ..» الخ	٥٢٠
النسائي	«مالي أسمع الرجال يذكرون في القرآن والنساء لا يذكرن..» الخ	٢٥٠
الترمذي	«لما تزوج رسول الله ﷺ زينب قال الناس: إن محمداً تزوج امرأة ابنه..» الخ	٥٢٩
البخاري	«إن نساءك يدخل عليهن البرُّ والفاجر ولو أمرتهن أن يحتجبن!!» الخ	٥٣٤

الراوي	** أطراف الحديث **	الصفحة
	«إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياءً منه . . الخ	٥٣٩
البخاري	«رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته له ستمائة جناح . . .»	٥٦٤
مسلم	«أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد: لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت»	٥٦٥
مسلم	«أما مررت بوادي أهلك ممحلاً، ثم مررت به يهتز خضراً . . الخ	٥٦٧
أحمد وابن ماجه		

وَقَفُّ لِّلَّهِ تَعَالَى

طُبِعَ عَلَى نَفَقَةٍ

المحسين الكبير

معالي السيد حسن عباس الشيرتلي

وجعله وقفاً لله تعالى

بخزاه الله كل خير

يوزع مجاناً ولا يباع

صَفْوَةُ النَّفْسِ الْكَلِيمَةِ

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين الأثر والعقول ، مستمد من أوثق كتب التفسير
« الطبري ، الكشاف ، القرطبي ، الألوسي ، ابن كثير ، البحر المحيط » وغيرها
بأسلوب مبسّط ، وتنظيم حديث ، مع العناية بالوجه البليغ واللفظية

المجلد الثالث

تأليف

محمد علي الصّابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

دار القرآن الكريم

بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَفْوَةُ النَّفْسِ الْبَرِّ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ"

"وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ.."
"اليسراء"

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

"أَشْرَافُ أُمَّتِي حَمَلَةُ الْقُرْآنِ" "الترمذی"

"مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ حَسَنَةٌ وَحَسَنَةٌ وَحَسَنَةٌ بَعْشَرٌ
أَمْثَالَهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلامٌ حَرْفٌ
وَمِيمٌ حَرْفٌ." "البخاری"

"اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ"
"البخاری"

إِلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ..

يُرِيدُ الْعَمَادَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي الْأَخْزَرَةِ..

أَهْدِي كِتَابَ اللَّهِ وَتَفْسِيرَهُ..

لِيَكُونَ عَوْنًا عَلَيَّ فِي فَرْهَمِ الْقُرْآنِ وَالْعَمَلِ بِهِ..

وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

"تُرِكَتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضَلُّوا بَعْدِي أَبَدًا
كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي." "متفق عليه"

السَّيِّدُ حَسَنُ بْنُ عِبَادِ بْنِ شَرَبِيلٍ

الطبعة الرابعة
(منقحة)

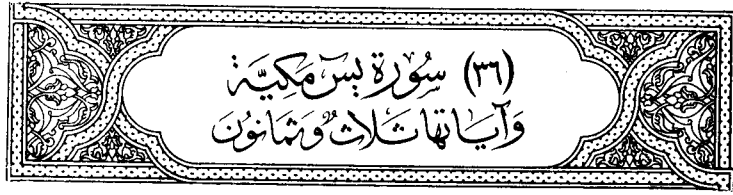
جميع الحقوق محفوظة

١٤٠٢ هـ = ١٩٨١ م

طُبِعَ عَلَى نَفَقَتِهِ
المحسِن الكَبِير
معالي السِّيدِ حَسَنِ عِبَّاسِ الشَّرِيفِيِّ
وَجَعَلَهُ وَقْفًا لِلَّهِ تَعَالَى
فجزاهُ اللهُ كُلَّ خَيْرٍ
يُوزَعُ مَجَّانًا وَلَا يُبَاعُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا
الله لولم يكن الله ذو فضل
لما كنا لنهتدي لولا فضل
الله العظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة يس مكية وقد تناولت مواضيع أساسية ثلاثة وهي : « الإيمان بالبعث والنشور ، وقصة أهل القرية ، والأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين » .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن العظيم على صحة الوحي ، وصدق رسالة محمد ﷺ ثم تحدثت عن كفار قريش ، الذين تمادوا في الغي والضلال ، وكذبوا سيد الرسل محمد بن عبد الله ، فحق عليهم عذاب الله وانتقامه .

* ثم ساقَت قصة أهل القرية « إنطاكية » الذين كذبوا الرسل ، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة ، على طريقة القرآن في استخدام القصص للعظة والاعتبار .

* وذكرت موقف الداعية المؤمن « حبيب النجار » الذي نصح قومه فقتلوه فأدخله الله الجنة ، ولم يمهل المجرمين بل أخذهم بصيحة الهلاك والدمار .

* وتحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية ، في هذا الكون العجيب ، بدءاً من مشهد الأرض الجرداء تدب فيها الحياة ، ثم مشهد الليل ينسلخ عنه النهار ، فإذا هو ظلامٌ دامسٌ ، ثم مشهد الشمس الساطعة تدور بقدرة الله في فلكٍ لا تتخطاه ، ثم مشهد القمر يتدرج في منازلها ، ثم مشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين ، وكلها دلائل باهرة على قدرة الله جل وعلا .

* وتحدثت عن القيامة وأهوالها ، وعن نفخة البعث والنشور ، التي يقوم الناس فيها من القبور ، وعن أهل الجنة وأهل النار ، والتفريق بين المؤمنين والمجرمين في ذلك اليوم الرهيب ، حتى يستقر السعداء في روضات النعيم ، والأشقياء في دركات الجحيم .

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن الموضوع الأساسي ، وهو موضوع « البعث والجزاء » وأقامت الأدلة والبراهين على حدوثه .

التسمية : سميت السورة « سورة يس » لأن الله تعالى افتتح السورة الكريمة بها ، وفي الافتتاح بها

إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم .

فضلها : قال ﷺ (إن لكل شيء قلباً وقلبُ القرآن يس ، وددت أنها في قلب كل أنسانٍ من أمتي)^(١)

قال الله تعالى : ﴿يس . والقرآن الحكيم . . إلى . . وإن كل لما جميع لدينا محضرون﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (٣٢) .

اللغز : ﴿أغلالاً﴾ جمع غُلّ وهو القيد الذي يوضع في اليد ، وقد تشدُّ به اليد مع العنق
﴿مقمحون﴾ رافعو الرؤوس مع غض البصر ، قال أهل اللغة : الإقحاح : رفع الرأس وغض البصر
يقال : أقمح البعير إذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب^(٢) ، قال بشر يصف سفينة :

ونحن على جوانبها قعودٌ
نغض الطرف كالإيل القمّاح^(٣)
﴿سداً﴾ السد : الحاجز والمانع بين الشيئين ﴿فعرزنا﴾ عززه قواه وشد من أزره ﴿تطيننا﴾ تشاءمنا ،
والتطين التشاؤم ، وأصله من الطير إذا طار الى جهة اليسار تشاءموا به ﴿خامدون﴾ ميتون لا حراك بهم
كما تحمد النار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾

التفسير : ﴿يس﴾ الحروف المقطعة في أوائل بعض السور الكريمة للتنبيه على إعجاز القرآن ،
وأنه مصوغ من جنس هذه الحروف الهجائية التي يعرفونها ويتكلمون بها ، ولكن نظمها البديع المعجز آية
على كونه من عند الله^(٤) وقال ابن عباس : معنى «يس» يا إنسان في لغة طيء ، وقيل : هو اسم من
أسماء النبي ﷺ بدليل قوله بعده ﴿إنك لمن المرسلين﴾ وقيل معناه : يا سيد البشر قاله أبو بكر الوراق^(٥)
﴿والقرآن الحكيم﴾ قسم من الله تعالى بالقرآن ، والحكيم معناه المحكم ، الذي لا يلحقه تغيير ولا
تبديل ، ولا يعتريه تناقض أو بطلان قال القرطبي : أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل^(٦) وقال
أبو السعود : أي المتضمن للحكمة أو الناطق بالحكمة من حيث نظم المعجز ، المنظوي على بدائع
الحكم^(٧) . . والخلاصة فقد أقسم تعالى بهذا الكتاب المحكم ، المعجز في نظمه ، وبديع معانيه ، المتقن
في تشريعه وأحكامه ، الذي بلغ أعلى طبقات البلاغة ، على أن محمداً رسوله ، وفي هذا القسم من
التعظيم والتفخيم لشأن الرسول ما فيه ﴿إنك لمن المرسلين﴾ جواب القسم أي إنك يا محمد لمن المرسلين

(١) أخرجه البزار . (٢) انظر القاموس المحيط مادة قمح . (٣) تفسير الطبري ٨/١٥ . (٤) انظر تفصيل البحث حول الحروف المقطعة
في أوائل البقرة من هذا التفسير . (٥) القرطبي ٤/١٥ . (٦) تفسير القرطبي ٥/١٥ . (٧) تفسير أبي السعود ٤/٢٤٧ .

عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾
 لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ
 مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾

من رب العالمين هداية الخلق قال ابن عباس: قالت كفار قريش: لست يا محمد مرسلًا، وما أرسلك الله إلينا، فأقسم الله بالقرآن العظيم المحكم أن محمداً ﷺ من المرسلين^(١) ﴿٤﴾ على صراط مستقيم ﴿٥﴾ أي على طريق ونهج مستقيم، لا انحراف فيه ولا اعوجاج، هو الإسلام دين الرسل قبلك، الذين جاءوا بالإيمان والتوحيد قال الطبري: أي على طريق لا اعوجاج فيه من الهدى وهو الإسلام كما قال قتادة^(٢)، والتكثير للتفخيم والتعظيم^(٣) ﴿٦﴾ تنزيل العزيز الرحيم ﴿٧﴾ أي هذا القرآن الهادي المنير، تنزيل من رب العزة جل وعلا، العزيز في ملكه، الرحيم بخلقه ﴿٨﴾ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ﴿٩﴾ أي لتنذر يا محمد بهذا القرآن العرب، الذين ما جاءهم رسول ولا كتاب، لتناول زمن الفترة عليهم، والمراد بالإنذار تخويفهم من عذاب الله ﴿١٠﴾ فهم غافلون ﴿١١﴾ أي فهم بسبب ذلك غافلون عن الهدى والإيمان، يتخبطون في ظلمات الشرك وعبادة الأوثان.. ثم بين تعالى استحقاقهم للعذاب بإصرارهم على الكفر والتكذيب فقال ﴿١٢﴾ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴿١٣﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد وجب عذاب النار على أكثر هؤلاء المشركين، بسبب إصرارهم على الكفر والإنكار، وعدم تأثرهم بالتذكير والإنذار، فهم لذلك لا يؤمنون بما جئتهم به يا محمد.. ثم بين تعالى سبب تركهم الإيمان فقال ﴿١٤﴾ إنا جعلنا في أعناقهم أغللاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ﴿١٥﴾ تمثيل وتصوير لحال المشركين في ضلالهم بحال الذي جعل في يده غلٌ وجمعت يده إلى عنقه، فبقي رافعاً رأسه لا يخفضه قال في الجلالين: وهذا تمثيل والمراد أنهم لا يُدْعون للإيمان، ولا يخفضون رؤوسهم له^(٤) قال ابن كثير: ومعنى الآية: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء، كمن جعل في عنقه غلٌ، وجمعت يده مع عنقه تحت ذقنه^(٥)، فارتفع رأسه فصار مقمحا، والمقمح هو الرافع رأسه، واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين، لأن الغل إنما يُعرف فيما جمع اليدين مع العنق^(٦) وقال أبو السعود: مثل حالهم بحال الذين غلَّت أعناقهم ﴿١٦﴾ فهي إلى الأذقان ﴿١٧﴾ أي فالأغلال منتهية إلى أذقانهم، فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رؤوسهم، غاضون أبصارهم، بحيث لا يكادون يرون الحق، أو ينظرون إلى جهته^(٧) ﴿١٨﴾ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً ﴿١٩﴾ قال أبو السعود: وهذا تنمة للتمثيل وتكميل له أي وجعلنا من أمامهم سداً عظيماً، ومن ورائهم سداً كذلك ﴿٢٠﴾ فأغشيناهم

(١) تفسير القرطبي ٥/١٥ وقد نقله القرطبي عن القشيري . (٢) تفسير الطبري ٩٧/٢٢ . (٣) الانتصاف على الكشاف ٢/٤ .

(٤) تفسير الجلالين ٣/٣١٨ . (٥) الذقن: مفرد الأذقان قال الطبري: والذقن مجمع للحيين . (٦) مختصر تفسير ابن كثير

١٥٥/٣ . (٧) تفسير أبي السعود ٤/٢٤٨ .

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ
فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي
إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

فهم لا يبصرون ﴿١٠﴾ أي فغطينا بهما أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يبصرون شيئاً أصلاً ، لأنهم أصبحوا محصورين بين سدين هائلين ، وهذا بيان لكمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغي والجهالات ، محرومين عن النظر في الأدلة والآيات ^(١) ، قال المفسرون : وهذا كله تمثيل لسد طرق الإيمان عليهم ، بمن سُدَّت عليه الطرق فهو لا يهتدي لمقصوده ^(٢) ﴿وسواءٌ عليهم ءأنذرتهم أم لم تُنذِرهم﴾ أي يستوي عندهم إنذارك يا محمد وتخويفك لهم وعدمه ، لأن من خيَّم على عقله ظلام الضلال ، وعشعشت في قلبه شهوات الطغيان ، لا تنفعه القوارع والزواجر ﴿لا يؤمنون﴾ أي فهم بسبب ذلك لا يؤمنون ، لأن الإنذار لا يخلق القلوب الميتة ، إنما يوقظ القلب الحي المستعد لتلقي الإيمان ، وهذا تسلية له ﷺ وكشف لحقيقة ما انطوت عليه قلوبهم من الطغيان ﴿إنما تُنذِر من اتَّبَعَ الذِّكْر﴾ أي إنما ينفع إنذارك يا محمد من آمن بالقرآن وعمل بما فيه ﴿وخشي الرحمن بالغيب﴾ أي وخاف الله دون أن يراه قال أبو حيان : ﴿وخشي الرحمن﴾ أي المتصف بالرحمة ، والرحمة تدعو إلى الرجاء ، لكنه مع علمه برحمته يخشاه جل وعلا ، خوفاً من أن يسلبه ما أنعم به عليه ومعنى « بالغيب » أي بالخلوة عند مغيب الإنسان عن عيون البشر ^(٣) ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ لما انتفع بالإنذار كان جديراً بالبشارة أي فبشره يا محمد بمغفرة عظيمة من الله لذنوبه ، وأجر كريم في الآخرة في جنات النعيم قال ابن كثير : الأجر الكريم هو الكثير الواسع ، الحسن الجميل وذلك إنما يكون في الجنة . . ^(٤) ولما ذكر تعالى أمر الرسالة ذكر بعدها أمر البعث والنشور فقال ﴿إننا نحن نحْيِي الموتى﴾ أي نبعثهم من قبورهم بعد موتهم للحساب والجزاء ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ قال الطبري : أي ونكتب ما قدموا في الدنيا من خير وشر ، ومن صالح الأعمال وسيئها ﴿وآثارهم﴾ أي وآثار خطاهم بأرجلهم إلى المساجد ^(٥) ، وفي الحديث عن جابر قال « أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد - والباق خالية - فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم » فقالوا : ما كان يسرنا أننا كنا تحولنا ^(٦) » ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ أي وكل شيء من الأشياء أو أمر من الأمور جمعناه وضبطناه في كتاب مسطور هو صحائف الأعمال كقوله تعالى ﴿يوم ندعو كل أناسٍ بإمامهم﴾ أي بكتاب أعمالهم ، الشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر ، وقال مجاهد وقتادة : هو اللوح المحفوظ ^(٧) وقال أبو حيان : « ونكتب ما قدموا » أي ونحصى ، فعبّر عن إحاطة علمه جل وعلا بأعمالهم بالكتابة التي تُضبط بها الأشياء ^(٨) . . ثم ذكر تعالى

(١) تفسير أبي السعود ٤/٢٤٩ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٣١٩ . (٣) تفسير البحر المحيط ٧/٣٢٥ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/١٥٦ . (٥) تفسير الطبري ٢٢/٩٩ . (٦) أخرجه مسلم في صحيحه . (٧) الأرجح ما ذكرناه أنه صحائف الأعمال وهو اختيار ابن كثير . (٨) البحر المحيط ٧/٣٢٥ .

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٩﴾

للمشركين قصة أهل القرية الذين كذبوا الرسل فأهلكهم الله بصيحة من السماء فقال ﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية﴾ أي واذكر يا محمد لقومك الذين كذبوك قصة أصحاب القرية «إنطاكية» التي هي في الغرابة كالمثل السائر والقول العجيب ﴿إذ جاءها المرسلون﴾ أي حين جاءهم رسلنا الذين أرسلناهم لهدايتهم قال القرطبي : وهذه القرية هي «إنطاكية» في قول جميع المفسرين أرسل الله إليهم ثلاثة رسل وهم «صديق» و«مصدق» و«شمعون» أمر ﷺ بإنذار هؤلاء المشركين أن يحل بهم ما حل بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل من الله ، وقيل : هم رسل عيسى^(١) ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما﴾ أي حين بعثنا إليهم رسولين فبادروهما بالتكذيب ﴿فعززنا بثالث﴾ أي قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث ﴿فقالوا إنا إليكم مرسلون﴾ أي نحن رسل الله مرسلون لهدايتكم ﴿قالوا ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا﴾ أي ليس لكم فضلٌ علينا وما أنتم إلا بشرٌ مثلنا ، فكيف أوحى الله إليكم دوننا ؟ ﴿وما أنزل الرحمن من شيء﴾ أي لم ينزل الله شيئاً من الوحي والرسالة ﴿إن أنتم إلا تكذبون﴾ أي ما أنتم إلا قوم تكذبون في دعوى الرسالة ﴿قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون﴾ أي أجابهم الرسل بقولهم الله يعلم أننا رسله إليكم ، ولو كنا كذبة لانتقم منا أشد الانتقام قال ابن جزري : أكدوا الخبر هنا باللام ﴿لمرسلون﴾ لأنه جواب المنكرين ، بخلاف الموضع الأول فإنه إخبارٌ مجرد^(٢) ﴿وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ أي وليس علينا إلا أن نبلغكم رسالة الله بلاغاً واضحاً جليلاً لا غموض فيه ، فإن أنتم فلکم السعادة ، وإن كذبتم فلکم الشقاوة قال أبو حيان : وفي هذا وعيدٌ لهم ، ووصف البلاغ بـ ﴿المبين﴾ لأنه الواضح بالآيات الشاهدة بصحة الإرسال ، كما روي في هذه القصة من المعجزات الدالة على صدق الرسل ، من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الميت^(٣) ﴿قالوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي قال لهم أهل القرية : إِنَّا تَشَاءُ مِنَّا بِكُمْ وَبَدَعْتُمْ الْقَبِيحَةَ لَنَا إِلَى الْإِيمَانِ ، وَتَرَكْنَا عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ قَالَ الْمَفْسُورُونَ : وَوَجْهٌ تَشَاءُ مِنْهُمْ بِالرَّسْلِ أَنَّهُمْ دَعَوْهُمْ إِلَى دِينٍ غَيْرِ مَا يَدِينُونَ بِهِ ، فَاسْتَغْرَبُوهُ وَاسْتَقْبَحُوهُ وَنَفَرَتْ عَنْهُ طَبِيعَتُهُمُ الْمَعُوجَةُ ، فَتَشَاءُ مَوَا بَيْنَ دَعَا إِلَيْهِ كَأَنَّهُمْ قَالُوا : أَعَاذَنَا اللَّهُ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ^(٤) ، ثُمَّ تَوَعَّدُوا الرِّسْلَ بِقَوْلِهِمْ ﴿لئن لم تنتهوا﴾ أي والله لئن لم تمتنعوا عن قولكم ، ودعوتكم لنا إلى التوحيد ، ورفض ديننا ﴿لنرجمنكم ولیمسنکم منا عذاب أليم﴾ أي لنرجمنکم بالحجارة حتى تموتوا ،

(١) تفسير القرطبي ١٤/١٥ وما ذكره من أنهم رسل عيسى قول مرجوح لأن قوله تعالى ﴿ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا﴾ إنما يقال لمن ادعى أن الله أرسله كذا في التسهيل . (٢) التسهيل في علوم التنزيل ٣/١٦١ (٣) تفسير البحر المحیط ٧/٣٢٧ . (٤) حاشية شيخ زادة على البيضاوي ٣/١٢٥

قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِن ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٢١﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٢﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٥﴾

ولنقتلنكم شرًّا قتلة ﴿قالوا طائركم معكم﴾ أي قالت الرسل لهم : ليس شؤمكم بسببنا ، وإنما شؤمكم بسببكم ، وبكفركم ، وعصيانكم ، وسوء أعمالكم ﴿أئن ذكركم﴾ ؟ شرط جوابه محذوف لدلالة السياق عليه أي أئن ذكرناكم ووعظناكم ودعوناكم إلى توحيد الله ، تشاءتمم بنا وتوعدتمونا بالرجم والتعذيب ؟ ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في العصيان والإجرام ، وهو توبيخ لهم مع الزجر والتفريع ﴿وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى﴾ أي وجاء من أبعد أطراف المدينة رجل يعدو ، يسرع في مشيه وهو « حبيب النجار » قال ابن كثير : إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم ، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى لينصرهم من قومه ، وهو - حبيب النجار - كان يعمل الحرير وهو الحباك ، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه^(١) وقال القرطبي : كان حبيب مجذوماً ومنزله عند أقصى أبواب المدينة ، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم لعلمهم يرحمونه ويكشفون ضره ، فما استجابوا له ، فلما أبصر الرسل ودعوه إلى الله قال : هل من آية ؟ قالوا نعم نحن ندعو ربنا القادر فيفرج عنك ما بك ! فقال إن هذا للعجيب ، إني أدعو هذه الآلهة سبعين سنة لتفرج عني فلم تستطع فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة ؟ قالوا نعم ربنا على ما يشاء قدير ، وهذه لا تنفع شيئاً ولا تضر ، فأمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به ، فلما هم قومه بقتل الرسل جاءهم مسرعاً وقال ما قصه القرآن^(٢) ﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ أي اتبعوا الرسل الكرام الداعين إلى توحيد الله ، وإنما قال ﴿يا قوم﴾ تأليفاً لقلوبهم واستمالة لها لقبول النصيحة ، ثم كرر القول تأكيداً وبياناً للسبب فقال ﴿اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾ أي اتبعوا هؤلاء الرسل الصادقين المخلصين ، الذين لا يسألونكم أجره على الإيمان ، وهم على هدى وبصيرة فيما يدعونكم إليه من توحيد الله ﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون﴾ تلطف في الإرشاد لهم كأنه ينصح نفسه ، ويختار لهم ما يختار لنفسه ، وفيه نوع تفريع على ترك عبادة خالقهم والمعنى أي شيء يمنعني من أن أعبد خالقي الذي أبداع خلقي ؟ وإليه مرجعكم بعد الموت فيجازي كلاً بعمله ؟ ﴿أأخذ من دونه آلهة﴾ استفهام إنكاري أي كيف أتخذ من دون الله آلهة لا تسمع ولا تنفع ولا تغني عن عابدها شيئاً ؟ ﴿إن يردن الرحمن بضرٍ لا تغن عني شفاعتكم شيئاً﴾ أي هي في المهانة والحقارة بحيث لو أراد الله أن ينزل بي شيئاً من الضر والأذى وشفعت لي لم تنفع شفاعتكم ولم يقدروا على إنقاذي ، فكيف وهي أحجار لا تسمع ولا تنفع ولا تشفع ؟

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٥٩ والقول بأن اسم الرجل « حبيب النجار » مروى عن ابن عباس . (٢) تفسير القرطبي ١٥/ ١٨ وهذه رواية وهب ذكرها القرطبي .

إِنِّي إِذَا لَنِي ضَلَلْتُ مُبِينٌ ﴿٢٤﴾ إِنِّي ءَأَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَحْسَرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ولا يُنْقِذُونَ﴾ أي ولا يقدرُونَ على إنقاذي من عذاب الله ﴿إني إذا لفي ضلالٍ مبين﴾ أي إني إن عبدت غير الله واتخذت الأصنام آلهة لفي خسران ظاهر جلي . . وبعد النصيح والتذكير أعلن إسلامه ، وأشهر إيمانه فقال ﴿إني آمنتُ بربكم فاسمعون﴾ أي إني آمنت بربكم الذي خلقكم ، فاسمعوا قولي واعملوا بنصيحتي قال المفسرون : لما قال لهم ذلك ونصحهم وأعلن إيمانه ، وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ، ولم يكن له أحد يمنع عنه أذاهم^(١) قال الطبري : وثبوا عليه فوطئوه بأقدامهم حتى مات ، وقيل : رموه بالحجارة حتى مات^(٢) ﴿قيل ادخل الجنة﴾ أي فلما مات قال الله له : ادخل الجنة مع الشهداء الأبرار ، جزاءً على صدق إيمانك وفوزك بالشهادة قال ابن مسعود : إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرجت أمعاؤه من دبره ، وقال الله له ﴿ادخل الجنة﴾ فدخلها فهو يُرزق فيها ، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصّبها^(٣) ﴿قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾ أي فلما دخل الجنة وعان ما أكرمه الله بها لإيمانه وصبره تمنى أن يعلم قومه بحاله ، ليعلموا حسن ماله أي ياليتهم يعلمون بالسبب الذي من أجله غفر لي ربي ذنوبي ، وأكرمني بدخول جنات النعيم قال ابن عباس : نصح قومه في حياته ، ونصحهم بعد مماته^(٤) قال أبو السعود : وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب الثواب والأجر ، بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان ، جرياً على سنن الأولياء في الترحم على الأعداء^(٥) ﴿وما أنزلنا على قومه من بعدو من جندٍ من السماء﴾ هذا تحقيرٌ لهم وتصغيرٌ لشأنهم ﴿إن كانت إلا صيحةً واحدةً فإذا هم خامدون﴾ أي ما كانت عقوبتهم إلا صيحةً واحدةً صاح بهم جبريل ، فإذا هم ميتون لا حراك بهم ، قد أخمدت أنفاسهم حتى صاروا كالنار الخامدة قال المفسرون : وفي الآية استحقاق لإهلاكهم فإنهم أذل وأهون على الله من أن يرسل الملائكة لإهلاكهم ، وقد روي أنه لما قتل «حبيب النجار» غضب الله تعالى له ، فعجل لهم النعمة فأمر جبريل فصاح بهم صيحة واحدة ، فماتوا عن آخرهم ، فجعل طريق استئصالهم بالصيحة ، ثم قال تعالى ﴿يا حسرة على العباد ما يأتِيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزئون﴾ أي يا أسفاً على هؤلاء المكذبين لرسول الله المنكرين لآياته ويا حسرةً عليهم ، ما جاءهم رسولٌ إلا كذبوه واستهزءوا به ، وهكذا عادة المجرمين في كل زمان ومكان قال في حاشية البيضاوي : إنهم أحقاء بأن يتحسروا

(١) انظر مختصر ابن كثير ٣/ ١٥٩ . (٢) تفسير القرطبي ٢٢/ ١٠٤ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ١٦٠ . (٤) هذا قول ابن عباس وقيل صاحب الكشاف : وفي حديث مرفوع : «نصح قومه حياً وميتاً» أقول . والمشهور أنه من كلام ابن عباس . (٥) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٥٢ .

الرَّيُّوَا كَرَّ أَهْلَكَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٧﴾

على أنفسهم أو يُتَحَسَّرَ عليهم، فإن الأمر لفخامته وشدته، بلغ إلى حيث إن كل من يتأتى منه التلهف إذا نظر إلى حال استهزائهم بالرسول تحسّر عليهم، وقال: يا لها من حسرةٍ وخيبة على هؤلاء المحرومين، حيث بدّلوا الإيمان بالكفر، والسعادة بالشقاوة^(١)، وفي الآية تعريضٌ بكفار قريش حيث كذبوا سيد المرسلين. ولما مثل حال كفار مكة بحال أصحاب القرية وبخ المشركين على عدم اعتبارهم بمن سبقهم فقال ﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون﴾ أي ألم يتعظ هؤلاء المشركون بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسول، ويعلموا أن هؤلاء المهلكين لا عودة لهم إلى الدنيا بعد هلاكهم^(٢)؟ ﴿وإن كلُّ لَمَّا جميع لدينا محضرون﴾ أي وأن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب والجزاء يوم القيامة بين يدي أحكم الحاكمين، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها؟ قال أبو حيان: وجاءت هذه الجملة بعد ذكر الإهلاك تبييناً إلى أن الله تعالى لا يترك المهلكين بل بعد الهلاك جمعٌ وحساب، وثواب وعقاب^(٣).

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - التأكيد بأكثر من مؤكد لأن المخاطب منكر مثل ﴿إنك لمن المرسلين ، إنا إليكم مرسلون﴾ فقد أكد كل منهما بـ « إن » و « اللام » ويسمى هذا الضرب إنكارياً .
- ٢ - الاستعارة التمثيلية ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً . . ﴾ الآية شبّه حال الكفار في امتناعهم من الهدى والإيمان بمن غلت يده إلى عنقه بالسلاسل والأغلال فأصبح رأسه مرفوعاً لا يستطيع خفضاً له ولا التفاتاً ، وبمن سدّت الطرُق في وجهه فلم يهتد لمقصوده ، وذلك بطريق الاستعارة التمثيلية .
- ٣ - الطباق ﴿من بين أيديهم . . ومن خلفهم﴾ .
- ٤ - طباق السلب ﴿أنذرتهم أم لم تُنذرهم﴾ .
- ٥ - الجناس الناقص ﴿نحن نُحيي﴾ لتغير بعض الحروف .
- ٦ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجراً﴾ .
- ٧ - الاستفهام للتوبيخ ﴿أأخذ من دونه آلهة﴾ ؟
- ٨ - الحذف لدلالة السياق عليه ﴿قيل ادخل الجنة﴾ أي فلما أشهر إيمانه قتلوه فقيل له ادخل الجنة .
- ٩ - جناس الاشتقاق بين ﴿تطيرنا . . وطائرکم﴾ وبين ﴿أرسلنا . . والمرسلون﴾ .

(١) حاشية زادة على البيضاوي ٣/ ١٢٨ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ١٦١ . (٣) البحر المحيط ٧/ ٣٣٥ .

١٠ - مراعاة الفواصل وهو من خصائص القرآن لما فيه من روعة البيان ، وحسن الوقع على السمع ، وهو كثير مشهور .

تَبْيِيهِ : من محاسن التنزيل الكريم وبلاغته الخارقة ، هو الإيجاز في القصص والأنباء ، والإشارة إلى روحها وسرّها ، لأن القصد من القصص التذكير والاعتبار ، ولهذا لم يذكر في القصة اسم البلدة ، ولا اسم الشخص الذي دعاهم إلى الله ، ولا اسم الرسل الكرام ، لأن كل ذلك ليس هو الهدف من القصة ، وقس على هذا سائر قصص القرآن .

قال الله تعالى : ﴿وَأَيُّ لَهْمِ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ أَحْيَيْنَاهَا . . . إِلَى . . . سَلَامًا قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾
من آية (٣٣) إلى نهاية آية (٥٨) .

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى قصة أهل القرية ، وإهلاك الله لهم بالصيحة بسبب تكذيبهم المرسلين ، ذكر هنا الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية ، في إخراج الزروع والثمار ، وتعاقب الليل والنهار ، وفي الشمس والقمر يجريان بقدرة الواحد القهار ، ثم ذكر شبهات المشركين حول البعث ، وردّها عليها بالأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة .

اللغز : ﴿آية﴾ علامة لأنها دالة على وجود الله قال أبو العتاهية :

فيا عجباً كيف يُعصى الإلهُ	أم كيف يُجحدُه الجاحِدُ؟
ولله في كل تحريكة	وتسكينه أبدأ شاهد
وفي كل شيء له آية	تدل على أنه واحد

﴿الأزواج﴾ الأصناف والأنواع ﴿نسلخ﴾ السَّلَخ : الكشط والنزاع قال تعالى « فانسلخ منها » ويقال : سلخ الجزار جلد الشاة أي نزع الجلد عن اللحم ﴿العرجون﴾ من الانعراج وهو الانعطاف ، والعرجون : عود عذق النخلة الذي فيه عناقيد الرطب قال الجوهري : هو أصل العذق الذي يعوج وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابساً^(١) ﴿المشحون﴾ المملوء الموقر بالأشياء الثقيلة ﴿صريخ﴾ مغيث ﴿يخصمون﴾ يختصمون في أمورهم غافلين عما حولهم ﴿الأجداث﴾ جمع جدث وهو القبر ﴿ينسلون﴾ يسرعون في الخروج ، يقال : عسل الذئب ونسل أي أسرع في المشي^(٢) .

وَأَيُّ لَهْمِ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾

التفسير : ﴿وَأَيُّ لَهْمِ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ أَحْيَيْنَاهَا﴾ أي ومن الآيات الباهرة ، والعلامات الظاهرة الدالة على كمال قدرة الله ووحدانيته هذه الآية العظيمة ، وهي الأرض اليابسة الهامدة التي لا نبات فيها ولا زرع ، أحييناها بالمطر قال المفسرون : موت الأرض جدها ، وإحيائها بالغيث ، فإذا أنزل الله عليها الماء اهترت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ولهذا قال تعالى بعده ﴿وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون﴾

(١) انظر القرطبي ٣١/١٥ والقاموس المحيط والصالح . (٢) تفسير القرطبي ٤٠/١٥ .

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرَانًا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ۚ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾
وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَلِكَ تَقْدِيرُ

أي وأخرجنا بهذا الماء أنواع الحبوب ليتغذوا به ويعيشوا قال القرطبي : نبههم تعالى بهذا على إحياء الموتى ، وذكرهم على توحيده وكمال قدرته ، بالأرض الميتة أحيائها بالنبات ، وإخراج الحب منها ، فمن الحب يأكلون وبه يتغذون ^(١) ﴿جعلنا فيها جناتٍ من نخيلٍ وأعنابٍ﴾ أي وجعلنا في الأرض بساتين ناضرة فيها من أنواع النخيل والعنب ﴿وفجرنا فيها من العيون﴾ أي وجعلنا فيها ينابيع من الماء العذب ، والأنهار السارحة في بلدان كثيرة ﴿ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم﴾ أي ليأكلوا من ثمرات ما ذكر من الجنات والنخيل التي أنشأها لهم ، ومما عملته أيديهم مما غرسوه وزرعوه بأنفسهم قال ابن كثير : لما امتنَّ على خلقه بإيجاد الزروع لهم ، عطف بذكر الثمار وأنواعها وأصنافها ، وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم ، لا بسعيهم وكدهم ، ولا بحولهم وقوتهم ولهذا قال ﴿أفلا يشكرون﴾ ؟ أي أفلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم ؟ واختار ابن جرير أن « ما » بمعنى الذي أي ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم أي من الذي غرسوه ونصبوه ^(٢) ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها﴾ أي تنزه وتقدس الله العلي الجليل الذي خلق الأصناف كلها ، المختلفة الألوان والطعوم والأشكال من جميع الأشياء ﴿مما تُنبت الأرضُ ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ أي مما تُخرج الأرضُ من النخيل والأشجار ، والزروع والثمار ، ومن أنفسهم من الذكور والإناث ، ومما لا يعلمون من المخلوقات العجيبة والأشياء ^(٣) الغريبة كما قال تعالى ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مُظلمون﴾ أي وعلامة أخرى لهم على كمال قدرتنا الليل نزيل عنه الضوء ونفصله عن النهار فإذا هم داخلون في الظلام ، وفي الآية رمزٌ إلى أن الأصل هو الظلام والنور عارض ، فإذا غربت الشمس ينسلخ النهار من الليل ويكشف ويزول فيظهر الأصل وهو الظلمة ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾ أي وآية أخرى لهم الشمس تسير بقدره الله في فلك لا تتجاوزه ولا تتخطاه لزمناً تستقر فيه ، ولوقت تنتهي إليه وهو يوم القيامة حيث ينقطع جريانها عند خراب العالم قال ابن كثير : وفي قوله تعالى ﴿لمستقر لها﴾ قولان : أحدهما : أن المراد مستقرها المكاني وهو تحت العرش مما يلي الأرض لحديث البخاري أن النبي

(١) تفسير القرطبي ٢٥ / ١٥ . (٢) مختصر ابن كثير ١٦٢ / ٣ . (٣) سبحان الله ما أعظم قدرة الله لقد كان السائد أن الزوجية إنما تكون بين الإنسان والحيوان فقط ، وجاء القرآن بالمعجزة الباهرة المثبتة لما اكتشفه العلم الحديث منذ زمن قريب وهي أن الزوجية بين الإنسان والحيوان والنبات والذرة وسائر الكائنات ، فقد ثبت أن الذرة - وهي أصغر أجزاء المادة - مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربائي « سالب وموجب » يتزاوجان يتحدان ، وأن بين النبات أعضاء مذكرة وأعضاء مؤنثة ، فسبحان العلي القدير القائل ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ .

الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٤٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٤٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٥٠﴾

ﷺ قال: (يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش...). الحديث. والثاني: أن المراد بمسئرها هو منتهى سيرها وهو يوم القيامة، حيث يبطل سيرها، وتسكن حركتها، وتكور وينتهي هذا العالم إلى غايته، وقرىء ﴿لا مستقر لها﴾ أي لا قرار لها ولا سكون، بل هي سائرة ليلاً ونهاراً، لا تقف ولا تقف^(١) ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ أي ذلك الجري^(٢) والدوران بانتظام وبحساب دقيق هو تقدير الإله العزيز في ملكه، العليم بخلقه ﴿والقمر قدرناه منازل﴾ أي والقمر قدرنا مسيره في منازل يسير فيها لمعرفة الشهور، وهي ثمانية وعشرون منزلاً في ثمانية وعشرين ليلة، ينزل كل ليلة في واحد منها لا يتخطاها ولا يتعدها، فإذا كان في آخر منزله دق واستقوس ﴿حتى عاد كالعرجون القديم﴾ أي حتى صار كغصن النخل اليابس، وهو عنقود التمر حين يجف ويصفر ويتقوس قال ابن كثير: جعل الله القمر لمعرفة الشهور، كما جعل الشمس لمعرفة الليل والنهار، وفاوت بين سير الشمس وسير القمر، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره، وتنتقل في مطالعها ومغارها صيفاً وشتاءً، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وهي كوكب نهاري، وأما القمر فقدرة منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياؤه حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم قال مجاهد: أي العذق اليابس وهو عنقود الرطب إذا عتق ويس وانحنى، ثم يبدأ جديداً في أول الشهر الآخر^(٣) ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾ أي لا يمكن للشمس ولا يصح لها أن تجتمع مع القمر بالليل فتمحو نوره، لأن ذلك يُجِلُّ بتلوين النبات، ومصلحة العباد قال الطبري: أي لا الشمس يصلح لها إدراك القمر، فيذهب ضوءها نوره فتكون الأوقات كلها نهاراً لا ليل فيها ﴿ولا الليل سابق النهار﴾ أي ولا الليل يسبق النهار حتى يدركه فيذهب بضيائه فتكون الأوقات كلها ليلاً^(٤) ﴿وكل في فلک يسبحون﴾ أي وكل من الشمس والقمر والنجوم تدور في فلک السماء قال الحسن: الشمس والقمر والنجوم في فلک بين السماء والأرض، غير ملصقة بشيء ولو كانت ملصقة ما جرت^(٥) والغرض من الآية: بيان قدرة الله في

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١٦٢/٣. (٢) يقول الشهيد سيد قطب في تفسيره الظلال: «والشمس تدور حول نفسها وكان المظنون أنها ثابتة في موضعها الذي تدور فيه، ولكن عرف أخيراً أنها ليست مستقرة في مكانها إنما هي تجري فعلاً في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثني عشر ميلاً في الثانية، والله ربهما الخبير بها ويجريانها وبصيرها يقول إنها «تجري لمستقر لها» هذا المستقر الذي تنتهي إليه لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى... وحين تصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء لا يسندها شيء، ندرك طرفاً من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم، وصدق الله ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾». (٣) مختصر ابن كثير ١٦٣/٣. (٤) تفسير الطبري ٦/٢٣.

وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

تسيير هذا الكون بنظام دقيق ، فالشمس لها مدار ، والقمر له مدار ، وكل كوكب من الكواكب له مدار لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه ، ولا يطغى أحدهما على الآخر - كما قال قتادة : « لكل حدٌ وعلمٌ لا يعدوه ، ولا يقصر دونه » - حتى يأتي الأجل المعلوم بخراب العالم ، فيجمع الله بين الشمس والقمر كما قال تعالى ﴿وجمع الشمس والقمر﴾ فيختل نظام الكون ، وتقوم القيامة ، وتنتهي حياة البشرية عن سطح هذا الكوكب الأرضي ^(١) ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ أي وعلامة أخرى واضحة للناس على كمال قدرتنا أننا حملنا آباءهم الأقدمين - وهم ذرية آدم - في سفينة نوح عليه السلام التي أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين قال في التسهيل : وإنما خص ذريتهم بالذكر ، لأنه أبلغ في الامتنان عليهم ، ولأن فيه إشارة إلى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة ^(٢) ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ أي وخلقنا لهم من مثل سفينة نوح السفن العظيمة التي يركبونها ويبلغون عليها أقصى البلدان ، وإنما نسب الخلق إليه لأنها بتعليم الله جل وعلا للإنسان وقال ابن عباس : هي الإيل وسائر المركوبات ، فهي في البر مثل السفن في البحر ^(٣) ﴿وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم﴾ ولو أردنا لأغرقناهم في البحر فلا مغيث لهم ﴿ولا هم يُنقذون﴾ أي ولا أحد يستطيع أن ينقذهم من الغرق ﴿إلا رحمةً منا ومتاعاً إلى حين﴾ أي لا ينقذهم أحد إلا نحن لأجل رحمتنا إياهم ، وتمتعنا لهم إلى انقضاء آجالهم . . . بين تعالى أن ركوبهم السفن في البحر من الآيات العظيمة ، فإن سير السفينة بما فيها من الرجال والأثقال فوق سطح الماء آية باهرة فقد حملتهم قدرة الله ونواميسه التي تحكم الكون وتصرفه بحكم خواص السفن ، وخواص الماء ، وخواص الرياح ، وكلها من أمر الله وخلقته وتقديره ، والسفينة في البحر الخضم كالريشة في مهبّ الهواء ، وإلا تدركها رحمة الله فهي هالكة في لحظة من ليل أو نهار ، والذين ركبوا البحار ، وشاهدوا الأخطار ، يدركون هول البحر المخيف ، ويحسون معنى رحمة الله وأنها وحدها هي المنجي لهم من بين العواصف والتيارات ، في هذا الخضم الهائل الذي تمسكه يد الرحمة ويعرفون معنى قوله تعالى ﴿إلا رحمةً منا﴾ فسبحان الله القدير الرحيم !! ﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون﴾ لما ذكروهم تعالى بدلائل قدرته ، وأثار رحمته ، أخبر هنا عن تعاميمهم عن الحق ، وإعراضهم

(١) تفسير القرطبي ٣٣/١٥ .

(٢) يقول سيد قطب رحمه الله « المسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة وقد قدر الله خالق هذا الكون أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم ليحفظه معرفته من التصادم والتصدع ، وحركة هذه الأجرام في الفضاء الهائل أشبه بحركة السفين في الخضم الفسيح ، فهي - على ضخامتها - لا تزيد على أن تكون نقطاً سابحة في ذلك الفضاء المرهوب !! »

(٣) التسهيل في علوم التنزيل ١٦٤/٣ .

(٤) تفسير القرطبي ٣٥/١٥ وهناك قول آخر عن عباس أن المراد بقوله ﴿من مثله﴾ السفن أي خلق لهم سفناً أمثال سفينة نوح يركبونها وهو الأظهر لقوله بعده ﴿وإن نشأ نغرقهم﴾ .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمَهُ - إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾

عن الهدى والإيمان ، مع كثرة الآيات الواضحات ، والشواهد الباهرات والمعنى وإذا قيل للمشركين احذروا سخط الله وغضبه ، واعتبروا بما حلَّ بالأمم السابقين قبلكم من العذاب بسبب تكذيبهم الرسل ، واحذروا ما وراءكم من عذاب الآخرة لكي تُرحموا ، وجواب الشرط محذوف تقديره أعرضوا واستكبروا ودلَّ عليه قوله تعالى ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ قال القرطبي : والجواب محذوف والتقدير : إذا قيل لهم ذلك أعرضوا ، ودليله الآية التي بعدها ﴿وما تأتيهم من آية . . .﴾ فاكتمى بهذا عن ذلك^(١) ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾ أي وما تأتي هؤلاء المشركين علامة من العلامات الواضحة الدالة على صدق الرسول - كالمعجزات الباهرة التي أيده الله بها - إلا أعرضوا عنها على وجه التكذيب والاستهزاء قال أبو السعود : وإضافة الآيات إلى اسم الرب جل وعلا لتفخيم شأنها ، المستتبع لتحويل ما اجترعوا عليه في حقتها ، والمراد بالآيات إما الآيات التنزيلية التي من جملتها الآيات الناطقة ببدايع صنع الله وسوايغ آلائه ، أو الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات ، التي من جملتها ما ذكر من شئونه الشاهدة بوحدانيته تعالى ، وتفردته بالألوهية^(٢) ﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله﴾ أي وإذا قيل هؤلاء الكفار بطريق النصيحة أنفقوا بعض ما أعطاكم الله من فضله على الفقراء والمساكين ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾ أي قال الكفار للمؤمنين تهكماً بهم : أنفق أموالنا على هؤلاء المساكين الذين أفقرهم الله ؟ ﴿إن أنتم إلا في ضلال مبين﴾ أي ما أنتم أيها المؤمنون إلا في ضلال ظاهر واضح حيث تأمروننا أن ننفق أموالنا على من أفقرهم الله قال ابن عباس : كان بمكة زنادقة فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا : لا والله لا نفعل ، أفقره الله ونطعمه نحن^(٣) ؟ وغرضهم الرد على المؤمنين فكأنهم يقولون : لو كان الأمر كما تزعمون أن الله قادر ، وأن الله رازق لأطعم هؤلاء الفقراء ، فما بالكم تطلبون إطعامهم منا ؟ وما علم هؤلاء السفهاء أن خزائن الأرزاق بيد الخلاق ، وأنه تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعض الخلق ابتلاءً ، لينظر كيف عطف الغني ، وكيف صبر الفقير ، فقد منع الدنيا عن الفقير لا بخلاً ، وأمر الغني بالإنفاق عليه لا حاجة إلى ماله ، ولكن للإبتلاء والله يفعل ما يشاء ، لا اعتراض لأحد في مشيئته ولا في حكمه ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ ثم أخبر عن إنكار المشركين للآخرة ، واستبعادهم لقيام الساعة فقال ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ أي متى يوم القيامة الذي تتوعدوننا به ؟ ومتى

(١) تفسير القرطبي ٣٦/١٥ . (٢) تفسير أبي السعود ٢٥٥/٤ . (٣) تفسير القرطبي ٣٧/١٥ قال القرطبي : وإنما أخرجوا هذا الجواب

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾
 فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
 يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا بُولَاقَ بَلَدِنَا يَا بَعْثَنَا مِن بَعْثِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا
 صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾

هذا العذاب الذي تخوفوننا به إن كنتم صادقين في دعوكم أن هناك بعثاً ونشوراً وحساباً وعذاباً؟ قال تعالى رداً عليهم ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم مفاجأة من حيث لا يشعرون ﴿وهم يخصمون﴾ أي وهم يتخاصمون في معاملاتهم وأسواقهم ، فلا يشعرون إلا بالصيحة قد أخذتهم ، فيموتون في أماكنهم قال ابن كثير : وهذه - والله أعلم - نفخة الفزع ، ينفخ إسرافيل في الصور والناس في أسواقهم ومعاشهم يختصمون ويتشاجرون على عاداتهم ، فبينما هم كذلك إذ أمر الله إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطوؤها ويمدّها ، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا حنى عنقه يتسمع الصوت من قبل السماء^(١) فذلك قوله تعالى ﴿فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون﴾ أي فلا يستطيع بعضهم أن يوصي بعضاً بأمر من الأمور ، ولا يستطيعون أن يرجعوا إلى أهلهم ومنازلهم لأن الأمر أسرع منه ذلك وفي الحديث : (لتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة وهو يُلِيط حوضه - أي يصلحه بالطين - فلا يسقي فيه ، ولتقوم الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها)^(٢) ثم تكون هناك النفخة الثانية وهي « نفخة الصعق » التي يموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم ، ثم تكون النفخة الثالثة وهي « نفخة البعث والنشور » التي يخرج الناس بها من القبور ، وهي التي أشارت إليها الآية الكريمة ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾ أي ونفخ في الصور فإذا هؤلاء الأموات يخرجون من قبورهم يسرعون المشي قال الطبري : ﴿ينسلون﴾ يخرجون سراعاً ، والنسلان : الإسراع في المشي^(٣) ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ ؟ أي يقولون يا هلاكنا من الذي أخرجنا من قبورنا التي كنا فيها ؟ قال ابن كثير : وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم ، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد ، فإذا قالوا ذلك أجابتهم الملائكة أو المؤمنون^(٤) ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ أي هذا الذي وعدكم الله به من البعث بعد الموت والحساب والجزاء ، وصدق رسله الكرام فيما أخبرونا به عن الله ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ أي ما كان أمر بعثهم إلا صيحة واحدة يصيح بهم فيها إسرافيل فإذا هم جميع عندنا حاضرون قال الصاوي : وهذه الصيحة هي قول إسرافيل : أيتها العظام النخرة ،

(١) مختصر ابن كثير ٣/١٦٥ وهذا الذي قاله ابن كثير هو اختيار الطبري وأن المراد بها نفخة الفزع وقال القرطبي : هي نفخة الصعق التي يموت بها جميع الأحياء . (٢) أخرجه البخاري . (٣) الطبري ١١/٢٣ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/١٦٦ .

فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ
فَاكِهِونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِفُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾
سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾

والأوصال المتقطعة ، والأجزاء المتفرقة ، والشعور المتمزقة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء ثم
ينفخ في الصور فإذا هم مجموعون في موقف الحساب^(١) ﴿فاليوم لا تُظلم نفس شيئاً ولا تُجزون إلا ما
كنتم تعملون﴾ أي ففي هذا اليوم - يوم القيامة - لا تُظلم نفس شيئاً ، سواء كانت هذه النفس برّة أو
فاجرة ، ولا يُحمّل الإنسان وزر غيره وإنما يُجازى كلُّ بعمله قال أبو السعود : وهذه حكاية لما سيقال لهم في
الآخرة ، حين يرون العذاب المُعدَّ لهم تحقيقاً للحق ، وتقريباً لهم^(٢) . . . ولما أخبر عن مآل المجرمين
أخبر عن حال الأبرار المتقين فقال ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغلٍ فاكهون﴾ أي إن أصحاب الجنة
في ذلك اليوم - يوم الجزاء - مشغولون بما هم فيه من اللذات والنعيم عن التفكير بأهل النار ، يتفكهون
ويتلذذون بالخور العين ، وبالأكل والشرب والسماح للأوتار قال أبو حيان : والظاهر أن الشغل هو النعيم
الذي قد شغلهم عن كل ما يخطر بالبال وقال ابن عباس : شُغلوا بافتضاض الأبقار ، وسماح الأوتار عن
أهاليهم من أهل النار ، لا يذكر ونهم لثلا يتنغصوا^(٣) ﴿هم وأزواجهم في ظلالٍ على الأرائك
متكثون﴾ أي هم وزوجاتهم في ظلال الجنان الوارفة ، حيث لا شمس فيها ولا زمهرير ، متكثون على
السُرر المزينة بالثياب والستور ﴿لهم فيها فاكهة﴾ أي لهم في الجنة فاكهة كثيرة من كل أنواع الفواكه
﴿ولهم ما يدعون﴾ أي ولهم فيها ما يتمنون ويشتهون كقوله تعالى ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذذ
الاعين﴾ ﴿سلامٌ قولاً من رب رحيم﴾ أي لهم سلامٌ كريم من ربهم الرحيم ، وفي الحديث (بينا أهل
الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور ، فرفعوا رءوسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم
فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله تعالى ﴿سلامٌ قولاً من رب رحيم﴾ قال : فينظر إليهم
وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره
وبركته عليهم في ديارهم^(٤) .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - التنكيرُ للتفخيم والتعظيم ﴿وآيةٌ لهم﴾ أي آية عظيمة باهرة على قدرة الله .

٢ - الطباق بين الموت والإحياء ﴿الأرض الميتة أحييناها﴾ وبين الليل والنهار .

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٣٢٨ . (٢) أبو السعود ٤/٢٥٧ . (٣) البحر المحيط ٧/٣٤٢ . (٤) أخرجه ابن أبي حاتم قال ابن

كثير : وفي إسناده نظر كذا في المختصر لابن كثير ٣/١٦٧ ، ورواه ابن ماجه في سننه .

٣ - الاستعارة التصريحية ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار﴾ شبه إزالة ضوء النهار وانكشاف ظلمة الليل بسلخ الجلد عن الشاة ، واستعار اسم السلخ للإزالة والإخراج واشتق منه نسلخ بمعنى نخرج منه النهار بطريق الاستعارة التصريحية ، وهذا من بليغ الاستعارة ، وبين الليل والنهار طباق .

٤ - التشبيه المرسل المجمل ﴿حتى عاد كالعرجون القديم﴾ وجه الشبه مركب من ثلاثة أشياء : الرقة ، والانحناء ، والصفرة ، ولما لم يذكر سمي مجملاً .

٥ - تقديم المسند إليه لتقوية الحكم المنفي ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾ فإنه أبلغ من أن يقول ﴿لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر﴾ وأكد في إفادة أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها فإن قولك « أنت لا تكذب » بتقديم المسند إليه أبلغ من قولك « لا تكذب » فإنه أشد لنفي الكذب من العبارة الثانية فتدبر أسرار القرآن^(١) .

٦ - تنزيل غير العاقل منزلة العاقل ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ بدل يسبح ، فقد عبر عن الشمس والقمر والكواكب بضمير جمع المذكر ، والذي سوغ ذلك وصفهم بالسباحة لأنها من صفات العقلاء^(٢) .

٧ - الاستعارة اللطيفة ﴿من بعثنا من مرقدنا﴾ المرقد هنا عبارة عن المات ، فشبها حال موتهم بحال نومهم لأنها أشبه الأشياء بها وأبلغ من قوله : من بعثنا من مماتنا .

٨ - الإيجاز بالحذف ﴿هذا ما وعد الرحمن﴾ أي تقول لهم الملائكة هذا ما وعدكم به الرحمن .

٩ - الطباق ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا﴾ والاستفهام الذي يراد منه التهكم ﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾ .

١٠ - السجع غير المتكلف في ختام الآيات الكريمة مثل ﴿وأخرجنا منها حباً فمنه ياكلون﴾ و﴿وفجرنا فيها من العيون﴾ و﴿من أنفسهم وما لا يعلمون﴾ و﴿فإذا هم مظلمون﴾ ومثل ذلك تقدير العزيز العليم و﴿حتى عاد كالعرجون القديم﴾ وهو من المحسنات البديعة^(٣) .

قال الله تعالى : ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون . . إلى . . ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾

من آية (٥٩) إلى آية (٨٣) نهاية السورة .

المناسكة : لما ذكر تعالى حال السعداء الأبرار وما لهم في الجنة من النعيم المقيم ، أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجار وما لهم من الخزي والدمار ، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب ، وختم

(١) انظر حاشية الشيخ زادة على البيضاوي ١٣٢/٣ (٢) انظر حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٢٢٦

(٣) ذكرنا بعض الأمثلة البلاغية على سبيل المثال لا الحصر ، حتى يتذوق الإنسان بعض روائع القرآن ، وإلا فكلام الله معجز وفيه من

الروائع البيانية ما يعجز عن وصفه اللسان ، فسيحان منزل القرآن ! !

وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنِيءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ
 عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾
 هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾

السورة الكريمة بيان أدلة البعث بعد الموت ، والحساب والجزاء .

اللغات : ﴿امتازوا﴾ تميزوا وانفصلوا ، والتمييز : التفريق بين أمرين ﴿جبلًا﴾ بكسر الجيم
 خلقاً جمع جبلة ومنه « والجبله الأولين » مشتق من جبل الله الخلق أي خلقهم ﴿طمسنا﴾ الطمس :
 إذهاب الشيء وأثره جملة كأنه لم يوجد ﴿اصلوها﴾ ادخلوها وذوقوا سعيها ﴿مسخناهم﴾ المسخ :
 التحويل من صورة إلى صورة منكرة ﴿نعمره﴾ التعمير : إطالة العمر حتى يبلغ سن الشيخوخة
 ﴿ننكسه﴾ التنكيس : قلب الشيء رأساً على عقب يقال : نكست الشيء نكساً إذا قلبته على رأسه ومنه
 ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾ ﴿رميم﴾ الرميم : البالي المفتت يقال رمَّ العظم أي بلي فهو رميم .

سبب النزول : روي أن « أبي بن خلف » من صناديد كفار قريش جاء بعظم بال إلى النبي ﷺ ففتنه
 بيده ثم قال : أتزعم يا محمد أن الله يُحيي هذا بعدما رمَّ؟ فقال له النبي ﷺ نعم يحييه ، ثم يبعثك
 ويدخلك النار فأنزل الله تعالى ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا
 مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾^(١) .

النفيس : بعد أن بيَّن تعالى حال السعداء ذكر حال الأشقياء فقال ﴿وامتازوا اليوم أيها
 المجرمون﴾ أي تميزوا وانفصلوا يا معشر الكفرة المجرمين عن عبادي المؤمنين ، انفردوا عنهم وكونوا جانباً
 قال القرطبي : يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال ، وحين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة^(٢) ﴿ألم أعهد
 إليكم يا بني آدم﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع ، وهو توبيخ للكفرة المجرمين أي ألم أوصكم وأمركم يا
 بني آدم على السنة رسلي ﴿أن لا تعبدوا الشيطان﴾ أي ألا تطيعوا الشيطان فيما دعاكم إليه من معصيتي ؟
 ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ تعليل للنهي أي لأنه عدو لكم ظاهر العداوة ، فكيف يطيع الإنسان عدوه ؟
 ﴿وأن اعبدوني﴾ أي وأمرتكم بأن تعبدوني وحدي ، بنوحيدي وطاعتي وامثال أمري ﴿هذا صراط
 مستقيم﴾ أي هذا هو الدين الصحيح ، والطريق الحق المستقيم ﴿ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً﴾
 تأكيد للتعليل أي ولقد أضل الشيطان خلقاً منكم كثيرين ، وأغواهم عن سلوك طريق الحق قال
 الطبري : أي صد الشيطان منكم خلقاً كثيراً عن طاعتي حتى عبده^(٣) ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ أي
 أفما كان لكم عقل يردعكم عن طاعة الشيطان ومخالفة أمر ربكم ؟ وهو توبيخ آخر للكفرة الفجار . ثم
 بشرهم بما ينتظرهم من العذاب فقال ﴿هذه جهنم التي كنتم تُوعدون﴾ أي هذه نار جهنم التي

(١) انظر تفسير القرطبي ٥٨/١٥ والبحر المحيط ٣٤٨/٧ . (٢) تفسير القرطبي ٤٦/١٥ . (٣) تفسير الطبري ١٦/٢٣ .

أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾

أوعدكم بها الرسل وكذبتهم بها قال الصاوي : هذا خطاب لهم وهم على شفير جهنم ، والمقصود منه زيادة التبكيت والتقريع ^(١) ﴿أصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾ أي ذوقوا حرارتها وقاسوا أنواع عذابها اليوم بسبب كفركم في الدنيا ، وهو أمر إهانة وتحقير مثل قوله ﴿ذوق إنك أنت العزيز الكريم﴾ ثم أخبر تعالى عن فضيحتهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد فقال ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾ أي في هذا اليوم - يوم القيامة - نختم على أفواه الكفار ختماً يمنعها عن الكلام ﴿وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ أي تنطق عليهم جوارحهم أيديهم وأرجلهم بأعمالهم القبيحة روى ابن جرير الطبري عن أبي موسى الأشعري أنه قال « يدعى الكافر والمنافق يوم القيامة للحساب فيعرض عليه ربه عمله فيججده ويقول : أي رب وعزتك لقد كتب عليّ هذا الملك ما لم أعمل ، فيقول الملك : أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا فيقول : لا وعزتك أي رب ما عملته ، فإذا فعل ذلك ختم على فيه وتكلمت أعضاؤه ثم تلا ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾ ^(٢) وفي الحديث (يقول العبد يا رب ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول العبد فإني لا أجزى على نفسي إلا شاهداً مني ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، ثم يختم على فيه ويقال لجوارحه انطقي ، فتنتطق بأعماله ثم يُحلى بينه وبين الكلام فيقول : بعداً لكنّ وسحقاً فعنكنّ كنت أناضل) ^(٣) ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون﴾ أي لو شئنا لأعميناهم فابتدروا طريقهم ذاهبين كعادتهم فكيف يبصرون حينئذٍ ؟ قال ابن عباس : المعنى لو نشاء لأعميناهم عن الهدى فلا يهتدون أبداً إلى طريق الحق ^(٤) ، وهو تهديد لقريش ﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم﴾ أي لو نشاء لمسخناهم مسخاً يقعدهم في مكانهم ﴿فما استطاعوا مُضياً ولا يرجعون﴾ أي إذا مسخوا في مكانهم لم يقدرُوا أن يذهبوا ولا أن يرجعوا ، وهو تهديد آخر للكفرة المجرمين ، ثم ذكر تعالى دلائل قدرته على مسخ الكفار بتطاول الأعمار فقال ﴿ومن نُعمره نُكسِّسه في الخلق﴾ أي ومن نُطيل عمره نقلبه في أطوار منتكساً في الخلق فيصير كالطفل لا يعلم شيئاً قال قتادة : يصير إلى حال الهرم الذي يشبه حال الصبا ، فطولُ العمر يصير الشباب هَرَمًا ، والقوة ضعفاً ، والزيادة نقصاً ﴿أفلا يعقلون﴾ ؟ أي أفلا يعقلون أن من قدر على ذلك قادر على إعائتهم أو مسخهم ؟ قال ابن جزى : والقصدُ من ذلك الاستدلال على قدرته تعالى على مسخ الكفار ، كما قدر

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣٢٩ . (٢) الطبري ١٧/ ٢٣ .

(٣) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم . (٤) تفسير القرطبي ٤٩/ ١٥ .

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

على تنكيس الإنسان إذا هرم^(١) ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ أي وما علمنا محمداً الشعر ، ولا يصح ولا يليق به أن يكون شاعراً قال القرطبي : هذا ردُّ على الكفار في قولهم إنه شاعر ، وإن ما أتى به من قبيل الشعر ، فالرسول ﷺ ليس بشاعر ، والقرآن ليس بشعر ، لأن الشعر كلام مزخرف موزون ، مبني على خيالات وأوهام واهية ، حتى قيل « أعذبه أكذبه » فأين ذلك من القرآن العزيز الذي تنزه عن مماثلة كلام البشر ! وقد أكثر الناس في ذم الشعر ومدحه ، وإنما الإنصاف ما قاله الشافعي رحمه الله « الشعر كلامٌ ، والكلام منه حسنٌ ، ومنه قبيحٌ » ﴿إن هو إلا ذكرٌ وقرآن مبين﴾ أي ما هذا الذي يتلوه محمد إلا عظة وتذكيرٌ من الله جل وعلا لعباده ، وقرآن واضح ساطع لا يلتبس به الشعر بحالٍ من الأحوال ﴿لينذر من كان حياً﴾ أي لينذر بهذا القرآن من كان حي القلب مستنير البصيرة ، وهم المؤمنون لأنهم المنتفعون به ﴿ويحِقُّ القول على الكافرين﴾ أي وتجب كلمة العذاب على الكافرين^(٢) لأنهم كالأموات لا يعقلون ما يخاطبون به قال البيضاوي : وجعلهم في مقابلة من كان حياً إشعاراً بأنهم لكفرهم ، وسقوط حجبتهم ، وعدم تأملهم ، أمواتٌ في الحقيقة^(٣) . . ثم ذكَّره تعالى بنعمه ، وأعاد ذكر دلائل القدرة والوحدانية ليستدلوا على وجوده جلَّ وعلا من آثاره فقال ﴿أولم يروا أننا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً﴾ الهمزة للإنكار والتعجيب أي أولم ينظروا نظر اعتبار ، ويتفكروا فيما أبدعته أيدينا - من غير واسطة ، وبلا شريك ولا معين - مما خلقناه لهم ولأجلهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم ، فيستدلوا بذلك على وحدانيتنا وكمال قدرتنا ؟ ! ﴿فهم لها مالكون﴾ أي فهم متصرفون فيها كيف يشاءون تصرف المالك بماله ﴿وذللناها لهم﴾ قال ابن كثير : المعنى جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم لا تمتنع منهم ، بل لوجاء صغير إلى بعيرٍ لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه وهو ذليل منقاد معه ، وكذا لو كان القطار مائة بعير لسار الجميع بسير الصغير ، فسبحان من سخر هذا لعباده^(٤) ! ! ﴿فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾ أي فمن هذه الأنعام ما يركبونه في الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال كالإبل التي هي سفن البر ، ومنها ما يأكلون لحمه كالبقر والغنم ﴿ولهم فيها منافعٌ ومشاربٌ﴾ أي ولهم فيها منافع عديدة - غير الأكل والركوب - كالجلود والأصواف والأوبار ، ولهم فيها مشارب أيضاً يشربون من ألبانها ﴿من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾ ﴿أفلا يشكرون﴾ أي أفلا يشكرون ربهم على هذه النعم الجليلة ؟ والغرض من الآيات تعديدُ النعم وإقامةُ الحجة عليهم . . ثم وبخهم وعنفهم في عبادة ما لا

(١) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٦٦ . (٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٦١ .

(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١٣٦ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ١٧٠ .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾
 فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا
 هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾

يسمع ولا ينفع من الأوثان والأصنام ، وذلك نهاية الغي والضلال فقال ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون﴾ أي وعبد المشركون آلهة من الأحجار رجاء أن ينصروا بها وهي صماء بكفاء ، لا تسمع الدعاء ولا تستجيب للنداء ﴿لا يستطيعون نصرهم﴾ أي لا تستطيع هذه الآلهة المزعومة نصرهم بحال من الأحوال ، لا بشفاة ولا بنصرة أو إعانة ﴿وهم لهم جند محضرون﴾ أي وهؤلاء المشركون كالجند والخدم لأصنامهم في التعصب لهم ، والذب عنهم ، وفدائهم بالروح والمال ، مع أنهم لا ينفعونهم أي نفع قال قتادة : المشركون يغضبون للآلهة في الدنيا ، وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم شراً ، إنما هي أصنام والمشركون كأنهم خدام^(١) وقال القرطبي : المعنى إنهم قد رأوا هذه الآيات من قدرتنا ، ثم اتخذوا من دوننا آلهة لا قدرة لها على فعل شيء أصلاً ، والكفار يمنعون منهم ويدفعون عنهم ، فهم لهم بمنزلة الجند ، والأصنام لا تستطيع أن تنصرهم^(٢) . ﴿فلا يحزنك قولهم﴾ أي لا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك ، واتهامهم بأنك شاعر أو ساحر ، وهذه تسلية للنبي عليه السلام ، وهنا تم الكلام ثم قال تعالى ﴿إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي نحن أعلم بما يخفونه في صدورهم ، وما يظهره من أقوالهم وأفعالهم ، فنجازيهم عليه ، وكفى بربك أنه على كل شيء شهيد . . ثم أقام الدليل القاطع ، والبرهان الساطع ، على البعث والنشور فقال ﴿أولم ير الإنسان أنَّا خلقناه من نطفة﴾ استفهام إنكاري للتوبيخ والتقريع أي أولم ينظر هذا الإنسان الكافر نظر اعتبار ، ويتفكر في قدرة الله فيعلم أنَّا خلقناه من شيء مهين حقير هو النطفة «المني» الخارج من مخرج النجاسة ؟ ﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ أي فإذا هو شديد الخصومة والجدال بالباطل ، يخاصم ربه وينكر قدرته ، ويكذب بالبعث والنشور ، أفليس الإله الذي قدر على خلق الإنسان من نطفة ، قادر على أن يخلقه مرة أخرى عند البعث ؟ قال المفسرون : نزلت في «أبي بن خلف» جاء بعظم رميم ، وفته في وجه النبي الكريم وقال ساحراً : أتزعم يا محمد أن الله يحيينا بعد أن نصبح رفاتاً مثل هذا؟ فقال ﷺ له : نعم يبعثك ويدخلك النار^(٣) ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه﴾ أي وضرب لنا هذا الكافر المثل بالعظم الرميم ، مستبعداً على الله إعادة خلق الإنسان بعد موته وفنائه ، ونسي أنَّا أنشأناه من نطفة ميتة وركبنا فيه الحياة ، نسي خلقه العجيب وبدأه الغريب ، وجوابه من نفسه حاضر ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ أي وقال هذا الكافر : من يحيي العظام وهي بالية أشد البلى ، متفتتة متلاشية ؟ قال الصاوي : أي أورد كلاماً

(١) وهذا القول هو الذي اختاره الطبري ورجحه انظر تفسير الطبري ٢٣ / ٢٠ .

(٢) تفسير القرطبي ١٥ / ٥٦ بشيء من الاختصار . (٣) قال في البحر : وقيل إنها نزلت في «العاص بن وائل» والأصح أنها في «أبي بن خلف» وانظر سبب النزول المتقدم في هذا التفسير .

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا
 أَنتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٧٩﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ
 الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ
 شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

عجيباً في الغرابة هو كالمثل ، حيث قاسَ قدرتنا على قدرة الخلق^(١) ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾
 أي قل يا محمد تخريصاً وتبكيئاً لهذا الكافر وأمثاله : يخلقها ويحييها الذي أوجدها من العدم ، وأبدع
 خلقها أول مرة من غير شيء ، فالذي قدر على البداية ، قادر على الإعادة ﴿وهو بكل خلقٍ عليم﴾ أي
 يعلم كيف يخلق ويبدع ، فلا يصعب عليه بعث الأجساد بعد الفناء ﴿الذي جعل لكم من الشجر
 الأخضر ناراً﴾ أي الذي جعل لكم بقدرته من الشجر الأخضر ناراً تحرق الشجر ، لا يمتنع عليه فعل ما
 أراد ، ولا يعجزه إحياء العظام البالية وإعادتها خلقاً جديداً^(٢) وقال أبو حيان : ذكر تعالى لهم ما هو أغرب
 من خلق الإنسان من النطفة ، وهو إبراز الشيء من ضده ، وذلك أبدع شيء وهو اقتداح النار من الشيء
 الأخضر ، ألا ترى الماء يطفىء النار ومع ذلك خرجت مما هو مشتمل على الماء ، والأعراب تُوري النار من
 المرخ والعُقار ، وفي أمثالهم « في كل شيء نار ، واستمجد المرخ والعُقار »^(٣) ولقد أحسن القائل :

جمعُ النقيضين من أسرار قدرته هذا السَّحابُ به ماءً به نارُ

﴿فإذا أنتم منه توقدون﴾ أي فإذا أنتم تقدحون النار من هذا الشجر الأخضر ﴿أو ليس الذي خلق
 السموات والأرض بقادرٍ على أن يخلق مثلهم﴾ ؟ أي أو ليس الذي خلق السموات والأرض مع كبر
 جرمهما ، وعظم شأنهما قادر على أن يخلق أجساد بني آدم بعد فنائها ؟ ﴿بلى وهو الخلاق العليم﴾ أي
 بلى هو القادر على ذلك ، فهو الخلاق المبدع في الخلق والتكوين ، العليم بكل شيء ﴿إنما أمره إذا أراد
 شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ أي لا يصعب عليه جل وعلا شيء لأن أمره بين الكاف والنون ، فمتى
 أراد تعالى شيئاً وجد ، بدون تعب ولا جهد ، ولا كلفة ولا عناء ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل
 شيء﴾ أي تنزهه وتمجد عن صفات النقص الإله العظيم الجليل ، الذي بيده الملك الواسع ، والقدرة التامة
 على كل الأشياء ﴿وإليه تُرجعون﴾ أي وإليه وحده مرجع الخلائق للحساب والجزاء . . ختم تعالى
 السورة الكريمة بهذا الختم الرائع ، الدال على كمال القدرة ، وعظمة الملك والسلطان ، الذي تفرد به
 خالق الأكوان .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣ / ٣٣١ . (٢) تفسير الطبري ٢٣ / ٢١ . (٣) البحر المحيط ٧ / ٣٤٨ .

- ١ - طباق السلب ﴿أن لا تعبدوا الشيطان . . . وأن اعبدوني﴾ فالأول سلب ، والآخر إيجاب .
- ٢ - الاستفهام الإنكاري للتوبيخ والتقريع ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ ؟ ﴿أفلا يشكرون﴾ ؟ .
- ٣ - الطباق بين ﴿مضياً . . . ويرجعون﴾ ﴿يُسرون . . . ويعلنون﴾ وهو من المحسنات البديعية .
- ٤ - التشبيه البليغ ﴿وهم لهم جند محضرون﴾ أي كالجند في الخدمة والدفاع ، حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .
- ٥ - ذكر العام بعد الخاص ﴿ولهم فيها منافع ومشارب﴾ بعد قوله ﴿فمنها ركوبهم﴾ الآية وفائدته تفخيم النعمة ، وتعظيم المنة .
- ٦ - المقابلة ﴿لينذر من كان حياً﴾ الآية قابل بين الإنذار والإعذار ، وبين المؤمنين والكفار ﴿ويحقّ القول على الكافرين﴾ وهو من اللفظ التعبيري .
- ٧ - الاستعارة التمثيلية ﴿مما عملت أيدينا أنعاماً﴾ الأنعام تخلق ولا تعمل ، ولكنه شبه اختصاصه بالخلق والتكوين بمن يعمل أمراً بيديه ويصنعه بنفسه ، واستعار لفظ العمل للخلق بطريق الاستعارة التمثيلية^(١) .
- ٨ - صيغة المبالغة ﴿خصيم ميين﴾ . . ﴿الخلق العليم﴾ .
- ٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿أن يقول له كن فيكون﴾ شبه سرعة تأثير قدرته تعالى ونفاذها في الأشياء بأمر المطاع من غير توقف ولا امتناع ، فإذا أراد شيئاً وجد من غير إبطاء ولا تأخير ، وهو من لطائف الاستعارة^(٢) .
- فكائدَة** : الملكوت صيغة مبالغة من المُلْك ، ومعناه الملك الواسع التام مثل الجبروت والرحموت للمبالغة .
- تنبية** : قال العلامة ابن كثير : « ما ثبت عنه ﷺ أنه تمثل يوم الخندق بأبيات ابن رواحة « اللهم لولا أنت ما اهتدينا » وما ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب على بغلته « أنا النبي لا كذب : أنا ابن عبد المطلب » وقوله « هل أنت إلا أصعبُ دميت : وفي سبيل الله ما لقيت » الخ إنما وقع اتفاقاً من غير قصد إلى قول الشعر ، بل جرى هذا على لسانه ﷺ عفواً وكل هذا لدينا في قوله تعالى ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ (٣) اهـ . فتدبره فإنه نفيس .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة يس »

(١) انظر حاشية شيخ زاده على البيضاوي ١٤٠/٣ .

(٢) انظر تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ١٩٢/١ . (٣) مختصر ابن كثير ١٧٦/٣ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الصافات من السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة الإسلامية « التوحيد ، الوحي ، البعث والجزاء » شأنها كشأن سائر السور المكية التي تهدف إلى تثبيت دعائم الإيمان .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن الملائكة الأبرار ، الصافات قوائمها في الصلاة ، أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله ، الزاجرين للسحاب يسوقونه حيث شاء الله . . ثم تحدثت عن الجنّ وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة ، رداً على أساطير أهل الجاهلية في اعتقادهم بأن هناك قرابة بين الله سبحانه وبين الجن ، وتحدثت السورة عن البعث والجزاء وإنكار المشركين له ، واستبعادهم للحياة مرة ثانية بعد أن يصبحوا عظاماً ورفاتاً .

* وتأكيداً لعقيدة الإيمان بالبعث ذكرت السورة قصة « المؤمن والكافر » والحوار الذي دار بينهما في الدنيا ، ثم النتيجة التي آل إليها أمر كلٍ منهما بخلود المؤمن في الجنة ، وخلود الكافر في النار .

* واستعرضت السورة الكريمة قصص بعض الأنبياء ، بدءاً بنوح ، ثم إبراهيم ، ثم إسماعيل ، ثم قصة موسى وهارون ، ثم إلياس ولوط ، وذكرت بالتفصيل قصة « الإيمان والإيتلاء » في حادثة الذبيح إسماعيل ، وما جرى من أمر الرؤيا للخليل إبراهيم حين أمر بذبح ولده ثم جاءه الفداء ، تعليماً للمؤمنين كيف يكون أمر الانقياد والاستسلام لأمر أحكم الحاكمين .

* وختمت السورة الكريمة ببيان نصره الله لأنبيائه وأوليائه في الدنيا والآخرة ، وأنّ العاقبة للمتقين .

التسمية : سميت السورة « سورة الصافات » تذكيراً للعباد بالملا الأعلى من الملائكة الأطهار ، الذين لا ينفكون عن عبادة الله ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ وبيان وظائفهم التي كلفوا بها .

قال الله تعالى : ﴿ والصافات صفاً ﴾ فالزاجرات زجراً * فالتاليات ذكراً . . إلى . . لمثل هذا

من آية (١) إلى نهاية آية (٦١) .

فليعمل العاملون ﴿

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّفَاتِ صَفًا ﴿١﴾ فَأَلْزَجَرَتْ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالْتَلَيْتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾

اللغات: ﴿الزاجرات﴾ الزجر: الدفع عن الشيء بقوة أو صياح، والزجرة: الصيحة من قولك: زجر الراعي الغنم إذا صاح عليها فرجعت لصوته ﴿مارد﴾ عاتي متمرّد ﴿ثاقب﴾ محرق شديد النفاذ ﴿واصب﴾ دائم لا ينقطع ﴿لازب﴾ ملتزق بعضه ببعض ﴿معين﴾ شراب نابع من العيون ﴿غول﴾ الغول: كل ما يغتال العقل ويفسده قال أبو عبيدة: الغول ما يغتال العقل ويذهبه وأنشد قول ابن إياس:

وما زالت الخمر تغتالنا وتذهب بالأول فالأول^(١)
﴿كأس﴾ قال أهل اللغة: العرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر كأس، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا: إناء وقدح قال الشاعر:

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ وأخرى تداويتُ منها بها^(٢)
﴿يُنزفون﴾ يسكرون يقال: نُزِفَ الرجل فهو نزيف ومنزوف إذا سكر قال الشاعر:
لعمري لئن أنزفتمو أو صحوتمو لبئس الندامى كنتم آل أبجرا^(٣)

التفسير: ﴿والصافات صفا﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالقسم ببعض مخلوقاته، إظهاراً لعظم شأنها، وكبر فوائدها، وتنبيهاً للعباد على جلاله قدرها والمعنى: أقسم بهذه الطوائف من الملائكة، الصافات قوائمها في الصلاة، أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله قال ابن مسعود: هم الملائكة تصف في السماء في العبادة والذكر صفوفاً، وفي الحديث (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم؟ قلنا: وكيف يا رسول الله؟ قال: يُتمون الصفوف المتقدمة، ويتراصون في الصف)^(٤) أقسم تعالى بالملائكة تنبيهاً على جلاله قدرهم، وكثرة عبادتهم، فهم مع عظيم خلقهم ورفعة شأنهم لا ينفكون عن عبادة الله، يصطفون للعبادة كاصطفاف المؤمنين في الصلاة، مع الخشوع والخضوع للعزيز الجبار، الذي دانت له الخلائق، وخضعت لجلال هيئته الرقاب، بما فيهم حملة العرش والملائكة الأطهار ﴿فألزجرات زجراً﴾ أي الملائكة التي تزجر السحاب، يسوقونه إلى حيث شاء الله، من الزجر بمعنى السوق والحث ﴿فالتليات ذكراً﴾ وصف ثالث للملائكة الأبرار، إشادةً بذكر محاسنهم ومناقبهم العلوية أي وأقسم بالملائكة التالين لآيات الله على أنبيائه وأوليائه، مع التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد ﴿إن إلهكم لواحد﴾ هذا هو المقسم عليه أي إن إلهكم الذي تعبدونه - أيها الناس - إله واحد

(١) البحر المحيط ٣٥٠/٧ . (٢) تفسير الفخر الرازي ١٣٧/٢٦ . (٣) البحر ٣٥٠/٧ .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه وانظر مختصر ابن كثير ١٧٤/٣ .

رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿٦٦﴾ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴿٦٧﴾ وَحِفْظًا
 مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٦٨﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٦٩﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ
 وَأَصِيبٌ ﴿٧٠﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿٧١﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا
 إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿٧٢﴾

لا شريك له ، قال مقاتل : إن الكفار بمكة قالوا : أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ وكيف يسع هذا الخلق إله فرد؟ فأقسم الله بهؤلاء تشريفاً^(١) ، ثم بين تعالى معنى وحدانيته وألوهيته فقال ﴿ربُّ السموات والأرض وما بينهما﴾ أي هو تعالى خالق السموات والأرض ومالكهما وما بينهما من المخلوقات والموجودات ، فإن وجودهما وانتظامهما على هذا النمط البديع ، من أوضح الدلائل على وجود الله وحدانيته ﴿وربُّ المشارق﴾ أي وهو رب مشارق الشمس ومغارها في الشتاء والصيف قال الطبري : واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالة الكلام عليه^(٢) ثم أخبر عن قدرته بتزيين السماء بالكواكب ، بعد أن أخبر عن وحدانيته فقال ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ أي زينا السماء القريبة منكم بالكواكب المنيرة المضيئة ، التي تبدو وكأنها جواهر تتلأأ ﴿وحفظاً من كل شيطانٍ ماردٍ﴾ أي وللحفظ من كل شيطان عاتٍ متمرد ، خارج عن طاعة الله قال قتادة : خلقت النجوم لثلاث : رجوماً للشياطين ، ونوراً يهتدى بها ، وزينةً للسماء الدنيا^(٣) وقال أبو حيان : خصَّ السماء الدنيا بالذكر لأنها هي التي تُشاهد بالأبصار ، وفيها وحدها يكون الحفظ من الشياطين^(٤) ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ أي لا يقدر أن يستمعوا إلى الملائكة الذين هم في العالم العلوي ، وقيل المعنى : لثلاث يتسمعون إلى الملأ الأعلى ﴿ويُقذَّفون من كل جانب﴾ أي ويرجمون بالشهب من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿دحوراً﴾ أي طرداً لهم عن السماع لأخبار السماء قال الطبري : أي مطرودين ، من الدحر وهو الدفْعُ والإبعاد^(٥) ﴿ولهم عذابٌ واصبٌ﴾ أي وهم في الآخرة عذاب موصول لا ينقطع ﴿إلا من خطف الخطفة﴾ أي إلا من اختلس شيئاً مسارقةً ﴿فأتبعه شهاب ثاقبٌ﴾ أي فلحقه شهاب مضيء ، نافذ بضوئه وشعاعه فأحرقه قال المفسرون : قد يخطف الشيطان المارد خطفةً سريعةً مما يدور في الملأ الأعلى ، فيتبعه شهابٌ يلاحقه في هبوطه فيصيبه ويحرقه حرقاً قال القرطبي : وليست الشهب التي يرجم بها الشياطين من الكواكب الثابتة ، لأن الثابتة تجري ولا تُرى حركاتها ، وهذه الشهب تُرى حركاتها^(٦) ﴿فاستفتهم﴾ أي فسل يا محمد هؤلاء المنكرين للبعث ﴿أهم أشدُّ خلقاً أم من خلقنا؟﴾ أي أيهم أقوى بُنيةً وأشدُّ خلقاً هل هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والمخلوقات العظيمة العجيبة؟ ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ أي من طينٍ رخوٍ لزج لا قوة فيه قال الطبري : وإنما وصفه

(١) تفسير القرطبي ٦٢/١٥ . (٢) تفسير الطبري ٢٤/٢٣ . (٣) تفسير القرطبي ٦٤/١٥ .

(٤) البحر المحيط ٣٥٢/٧ . (٥) تفسير الطبري ٢٧/٢٣ . (٦) تفسير القرطبي ٦٨/١٥ .

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾ أءَأْذًا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أءَأْنَا لِمَبْعُوثُونَ ﴿٢٠﴾ أَوْءَأْبَاءُؤْنَا الْأَوْلُونَ ﴿٢١﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَارِحُونَ ﴿٢٢﴾ فإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا يَا بُولَاقَ هَذَا بَإِذْنِ رَبِّنَا لَمَّا كُنْتُمْ صَاحِبِينَ ﴿٢٤﴾ هَذَا يَوْمُ الْقِيَامِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٥﴾ * أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾

باللزوب لأنه ترابٌ مخلوطٌ بماء ، وكذلك خلقُ ابنِ آدم من ترابٍ وماء ، ونارٌ وهواء ، والترابُ إذا خلطُ بماءٍ صار طيناً لازباً^(١) ، والغرضُ من الآية إقامة البرهان على إعادة الإنسان ، فالذي خلقه من العدم وخلق هذه الخلائق ، قادرٌ على إعادة الأجسام بعد الفناء ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أي بل عجبت يا محمد من تكذيبهم للبعث مع رؤيتهم آثار قدرة الله الباهرة ، وهم يسخرون منك وما تقول لهم في ذلك قال أبو السعود : المعنى عجبت من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم للبعث ، وهم يسخرون من تعجبك وتقيرك للبعث^(٢) ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ أي وإذا وعظوا بالقرآن وخوفوا به ، لا يتعظون ولا يتدبرون ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي وإذا رأوا آية باهرة ، أو معجزة قاهرة تدل على صدقك كانشقاق القمر ، وتكليم الشجر والحجر ، يبالغون في السخرية أو يدعون غيرهم للسخرية والاستهزاء ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به يا محمد إلا سحر واضح بين قال في البحر : والإشارة بـ « هذا » إلى ما ظهر على يديه عليه السلام من الخارق المعجز^(٣) ﴿أءَأْذًا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أءَأْنَا لِمَبْعُوثُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والاستهزاء أي أئذا أصبحت أجسادنا بالية ، وتفتت أجزاءها إلى تراب وعظام سوف نبعث ؟ ﴿أَوْءَأْبَاءُؤْنَا الْأَوْلُونَ﴾ أي أو أبأؤنا الأولون كذلك سيبعثون ؟ قال الزمخشري : أي أيبعث أيضاً أبأؤنا ؟ وهذا زيادة في استبعاد الأمر ، يعنون أنهم أقدم ، فبعثهم أبعد وأبطل^(٤) ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَارِحُونَ﴾ أي قل لهم نعم تبعثون وأنتم صاغرون ﴿فإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي وما هي إلا صيحة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور للقيام من القبور ﴿فإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي فإذا هم قيامٌ في أرض المحشر ينظر بعضهم إلى بعض قال القرطبي : الزجرة : الصيحة وهي النفخة الثانية ، وسميت زجرة لأن مقصودها الزجر ، كزجر الإبل ، والخليل عند السوق^(٥) . . ثم أخبر تعالى عن حسرتهم وندامتهم عند معاينتهم أهوال القيامة فقال ﴿وَقَالُوا يَا بُولَاقَ هَذَا بَإِذْنِ رَبِّنَا لَمَّا كُنْتُمْ صَاحِبِينَ﴾ أي يا هلاكنا وخسارتنا هذا هو يوم الجزاء والحساب ! ! فتقول لهم الملائكة على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿هَذَا يَوْمُ الْقِيَامِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ أي هذا يوم الفصل بين الخلائق الذي كنتم تنكرونه وتكذبون به قال البيضاوي : الفصل : القضاء والتفريق بين المحسن والمسيء^(٦) ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي اجمعوا الظالمين وأشباههم من العصاة والمجرمين ،

(١) تفسير الطبري ٢٨/٢٣ . (٢) تفسير أبي السعود ٢٦٦/٤ . (٣) تفسير البحر المحيط ٣٥٥/٧ .

(٤) تفسير الكشاف ٣٠/٤ . (٥) تفسير القرطبي ٧٢/١٥ . (٦) تفسير البيضاوي ١٣٨/٢ .

مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ
 الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا
 بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾

كل إنسان مع نظرائه قال القرطبي : الزاني مع الزاني ، وشارب الخمر مع شارب الخمر ، والسارق مع السارق^(١) وقال ابن عباس : اجمعوا الظالمين ونساءهم الكافرات ، وعنه المراد به أشباههم من العصاة^(٢) ﴿وما كانوا يعبدون من دون الله﴾ أي وما كانوا يعبدون من الأوثان والأصنام ، وذلك زيادة في تحسيرهم وتنجيلهم ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ أي ففروهم طريق الجحيم ووجهوهم إليها ، وفي لفظ ﴿اهدوهم﴾ تهكم وسخرية ، فإذا لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم ، فليهدوا اليوم إلى صراط الجحيم ﴿وقفوهم إنهم مسئولون﴾ أي احبسوهم عند الصراط لأنهم سيسألون عن جميع أقوالهم وأفعالهم ، ثم يقال لهم على سبيل التقرير والتوبيخ ﴿ما لكم لا تناصرون﴾ أي ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً وأنتم هنا جميعاً ؟ وكلكم في حاجة إلى الناصر والمعين ؟ قال المفسرون : هذا إشارة إلى قول أبي جهل يوم بدر « نحن جميع منتصر »^(٣) وأصل ﴿تناصرون﴾ تتناصرون حذفت إحدى التاءين تخفيفاً ، قال تعالى ﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾ أي بل هم اليوم أذلاء منقادون ، عاجزون عن الانتصار ، سواء منهم العابدون والمعبودون ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ أي أقبل الرؤساء والأتباع يتلاومون ويتخاصمون قال أبو السعود : وسؤالهم إنما هو سؤال توبيخ بطريق الخصومة والجدال^(٤) ﴿قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾ أي قال الأتباع منهم للمتبعين : إنكم كنتم تأتوننا من قبل الحق ، وتزنيون لنا الباطل ، وتصدوننا عن اتباع طريق الهدى^(٥) قال الطبري : أي كنتم تأتوننا من قبل الدين والحق ، فتخذعوننا بأقوى الوجوه ، قال : واليمين في كلام العرب : القوة والقدرة كقول الشاعر :

إذا ما راية رفعت لمجدٍ تلقاها عرابة باليمين^(٦)

وقيل : المراد تأتوننا بطريق الوسوسة عن يميننا كما هو المعتاد في حالة الوسوسة بالأسرار غالباً^(٧) ﴿قالوا بل لم تكونوا مؤمنين﴾ أي يقول لهم الرؤساء : لم نحملكم نحن على الضلال ولم نمنعكم من الإيمان ، بل كفرتم ولم تؤمنوا باختياركم قال ابن كثير : أي ليس الأمر كما تزعمون ، بل كانت قلوبكم منكراً للإيمان ، قابلة للكفر والعصيان^(٨) ﴿وما كان لنا عليكم من سلطان﴾ أي ما كان لنا عليكم من قوة وقدرة نقهركم بها على متابعتنا ﴿بل كنتم قوماً طاغين﴾ أي بل كان فيكم فجور وطغيان واستعداد

(١) تفسير القرطبي ٧٣/١٥ وعزاه إلى عمر بن الخطاب (٢) نقلها عنه صاحب البحر المحيط ٧/٣٥٦ . (٣) تفسير القرطبي ١٥/٧٤ .

(٤) تفسير أبي السعود ٤/٢٦٨ . (٥) هذا القول حكاه ابن كثير عن السدي وهو الأظهر . (٦) تفسير الطبري ٢٣/٣٢ .

(٧) هذا المعنى ذكره في الظلال وهو معنى لطيف لكن ليس له ما يعضده من جهة اللغة . (٨) مختصر ابن كثير ٣/١٧٧ .

فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ

للعصيان ، ولذلك استجبتم لنا واتبعتمونا ﴿فحق علينا قول ربنا﴾ أي فوجب علينا جميعاً وعيد الله لنا بالعذاب ﴿إننا لذائقون﴾ أي فإننا لذائقو هذا العذاب لا محالة ﴿فأعويناكم إننا كنا غاوين﴾ أي فزينا لكم الباطل ، ودعوناكم إلى الغي لأننا كنا على غي وضلال ، قال تعالى مخبراً عن حالهم ﴿فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون﴾ أي فإنهم يوم القيامة مشتركون في العذاب ، كما كانوا مشتركين في الغواية ، ولكن كما قال تعالى ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾ ﴿إننا كذلك نفعل بالمجرمين﴾ أي مثل هذا الفعل بهؤلاء نفعل بالأشقياء المجرمين ، ثم بين تعالى السبب فقال ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾ أي إذا قيل لهم قولوا ﴿لا إله إلا الله﴾ يتكبرون ويتعظمون ﴿ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ ؟ أي ويقولون عندما يدعون إلى التوحيد : أنترك عبادة الأوثان لقول شاعر مجنون ؟ يعنون بذلك رسول الله ﷺ قال تعالى رداً عليهم ﴿بل جاء بالحق وصدق المرسلين﴾ أي ليس الأمر كما يفترون بل جاءهم محمد بالتوحيد والإسلام الذي هو الحق الأبلج ، وجاء بمثل ما جاء به الرسل قبله قال أبو حيان : جمع المشركون بين إنكار الوجدانية ، وإنكار الرسالة ، ثم خلطوا في كلامهم بقولهم « شاعر مجنون » فإن الشاعر عنده من الفهم والحدق ما ينظم به المعاني الغريبة ، ويصوغها في قالب الألفاظ البديعة ، ومن كان مجنوناً لا يصل إلى شيء من ذلك ، فكلامهم تحليط وهذيان^(١) ﴿إنكم لذائقوا العذاب الأليم﴾ أي إنكم أيها المجرمون لمعذبون أشد العذاب ﴿وما تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ أي لا تعاقبون إلا جزاء مثل عملكم قال الصاوي : لأن الشر يكون جزاؤه بقدره ، بخلاف الخير فجزاؤه بأضعاف مضاعفة^(٢) . . ولما ذكر شيئاً من أحوال الكفار وعذابهم ، ذكر شيئاً من أحوال المؤمنين ونعيمهم ، على طريقة القرآن في الموازنة بين الفريقين ترغيباً وترهيباً فقال ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ الاستثناء منقطع أي لكن عباد الله المخلصين الموحدين ، فإنهم لا يذوقون العذاب ، ولا يناقشون الحساب ، بل يتجاوز الله عن سيئاتهم ، يُجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . . ثم أخبر عن جزائهم فقال ﴿أولئك لهم رزقٌ معلوم﴾ أي أولئك الأخيار الأبرار لهم رزقهم في الجنة صباحاً ومساءً كما قال تعالى ﴿ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشيّاً﴾ وقال أبو السعود : معلوم الخصائص من حسن المنظر ، ولذة الطعم ، وطيب الرائحة^(٣) ،

(١) البحر المحيط ٣٥٧/٧ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٣٣٧ . (٣) تفسير أبي السعود ٤/٢٦٨ .

مَعْلُومٌ ﴿٤٤﴾ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٥﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٦﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿٤٨﴾ بَيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٩﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٥٠﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ ﴿٥١﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٥٢﴾

ثم فسر الرزق بقوله ﴿فواكه وهم مكرمون﴾ أي فواكه متنوعة من جميع ما يشتهون ، وهم في الجنة معززون مكرمون ، وخص الفواكه بالذكر لأن كل ما يؤكل في الجنة إنما هو على سبيل التفكه والتلذذ ﴿في جنات النعيم﴾ أي في رياضٍ وبساتين يتنعمون فيها ﴿على سُرُرٍ متقابلين﴾ أي على أسرة مكللة بالدر والياقوت ، تدور بهم كيف شاءوا قال مجاهد : ﴿متقابلين﴾ أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض توأصلاً وتحابياً^(١) ﴿يطاف عليهم بكأسٍ من ميعين﴾ لما ذكر الطعام أعقبه بذكر الشراب أي يطوف عليهم خدم الجنة بكأسٍ من الخمر من نهر جارٍ خارج من عيون الجنة قال الصاوي : وصف به خمر الجنة لأنه يجري كالماء النابع^(٢) وقال ابن عباس : كل كأسٍ في القرآن فهي الخمر ، والمعين هي الجارية^(٣) ﴿بيضاء لذة للشاربين﴾ أي هذه الخمر بيضاء ذات لذة للشاربين ، يلتذ بها من شربها قال الحسن : خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ﴿لا فيها غولٌ ولا هم عنها ينزفون﴾ أي ليس فيها ما يغال عقولهم فيفسدها ، ولا هم يسكرون بشرها كما تفعل خمر الدنيا قال ابن كثير : نزه الله سبحانه خمر الجنة عن الآفات التي هي في خمر الدنيا ، من صداع الرأس ، ووجع البطن ، وذهاب العقل ، فخمر الجنة طعمها طيب كلونها ، والمراد بالغول هنا صداع الرأس قاله ابن عباس ، وقال قتادة : هو صداع الرأس ووجع البطن^(٤) وتلك أجمل أوصاف الشراب ، التي تحقق لذة الشرب ، وتنفي أكارهه وأضراره ، فلا خمار يصدع الرءوس ، ولا سكر ولا عريضة يذهب لذة الاستمتاع كما هي الحال في خمر الدنيا ﴿وعندهم قاصرات الطرف﴾ أي وعندهم الحور العين ، العفيفات اللواتي قصرن أعينهن على النظر إلى أزواجهن ، فلا ينظرن إلى غيرهم حياءً وعفةً ، قال ابن عباس : ﴿قاصرات الطرف﴾ أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن^(٥) ﴿عينٌ﴾ أي وهن مع العفة واسعات جميلات العيون قال الطبري : أي نُجِّل العيون جمع عينا وهي المرأة الواسعة العين مع الحسن والجمال ، وهي أحسن ما تكون من العيون^(٦) ﴿كأنهن بيضٌ مكنون﴾ أي كأنهن اللؤلؤ المكنون في أصدافه قاله ابن عباس واستشهد بقوله تعالى ﴿وحورٌ عينٌ كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾^(٧) وقال الحسن : ﴿المكنون﴾ المصون الذي لم تمسه الأيدي . . والغرض أنهن مع هذا الجمال الباهر ، مصونات كالدر في أصدافه ، مع رقة ولطفٍ ونعومة ﴿كأنهن بيضٌ مكنون﴾ لا تتذله الأيدي ولا العيون ، والعرب تشبه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها قال أبو حيان : ذكر تعالى في هذه الآيات أولاً الرزق وهو ما تتلذذ به الأجسام ، وثانياً الإكرام وهو ما تتلذذ به

(١) تفسير القرطبي ٧٧/١٥ . (٢) حاشية الصاوي ٣٣٧/٣ . (٣) تفسير الطبري ٣٤/٢٣ . (٤) مختصر ابن كثير ١٧٩/٣ .

(٥) مختصر ابن كثير ١٧٩/٣ . (٦) تفسير الطبري ٣٦/٢٣ . (٧) تفسير القرطبي ٨١/١٥ .

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٥﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٦﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ
 الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٧﴾ أءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٨﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٩﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ
 فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٦٠﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لِتُرَدِّينِ ﴿٦١﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦٢﴾ أَفَأَمَّا
 نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴿٦٣﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٦٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٥﴾ لِمِثْلِ هَذَا
 فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦٦﴾

النفوس ، ثم ذكر المحل وهو جنات النعيم ، ثم لذة التأنس والاجتماع ﴿على سررٍ متقابلين﴾ وهو أتم
 للسرور وأنس ، ثم ذكر المشروب وهو الخمر التي تدار عليهم بالكؤوس ولا يتناولونها بأنفسهم ، ثم
 ختم باللذة الجسدية - أبلغ الملاذ - وهي التأنس بالنساء^(١) ثم أخبر تعالى عما يتحدث به أهل الجنة للأنس
 والسرور ، وهم على موائد الشراب يتلذذون بكل ممتع ، وينعمون بتجاذب أطراف الحديث فقال
 ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ أي جلسوا يتحدثون عما جرى لهم في الدنيا ، يتذاكرون
 نعيمهم وحال الدنيا وثمره الإيمان ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين﴾ أي قال قائل من أهل الجنة
 إني كان لي في الدنيا صديق وجليس ينكر البعث ﴿يقول أئنك لمن المصدقين﴾ أي يقول لي أتصدق
 بالبعث والجزاء ؟ ﴿أئنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئننا لمدينون﴾ ؟ أي هل إذا متنا وأصبحنا ذرات من
 التراب وعظاماً نخرة ، أئننا لمحاسبون ومجزيون بأعمالنا ؟ يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب
 والاستبعاد ﴿قال هل أنتم مطلعون﴾ ؟ أي قال ذلك المؤمن لإخوانه في الجنة : هل أنتم مطلعون إلى
 النار لنتظر كيف حال ذلك القرين ؟ قال تعالى ﴿فاطلع فرآه في سواء الجحيم﴾ أي فنظر فأبصر
 صاحبه الكافر في وسط الجحيم يتلظى سعيرها ﴿قال تالله إن كدت لتردين﴾ أي فخاطبه المؤمن شامتاً
 وقال له : والله لقد قاربت أن تهلكني بإغوائك ﴿ولولا نعمة ربِّي لكنت من المحضرين﴾ أي ولولا
 فضل الله عليّ بثبتي على الإيمان ، لكنت معك في النار محضراً ومعذباً في الجحيم ، ثم يخاطبه
 مستهزئاً ساخراً كما كان ذلك الكافر يستهزئ به في الدنيا ﴿أفما نحن بمبتلين إلا موتنا الأولى وما
 نحن بمعذبين﴾ ؟ أي هل لا تزال على اعتقادك بأننا لن نموت إلا موتة واحدة ، وأنه لا بعث ولا جزاء ولا
 حساب ولا عذاب ؟ وهو أسلوب ساخر لاذع يظهر فيه التشفي من ذلك القرين الكافر ، والتحدث بنعمة
 الله عليه قال تعالى ﴿إن هذا هو الفوز العظيم﴾ أي إن هذا النعيم الذي ناله أهل الجنة هو الفوز
 العظيم ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ أي لمثل هذا الجزاء الكريم يجب أن يعمل العاملون ويجتهد
 المجتهدون . قال المفسرون : أشارت الآيات الكريمة إلى قصة شريكين كان لهما ثمانية آلاف درهم ،
 فكان أحدهما يعبد الله ويقصر في التجارة والنظر إلى أمور الدنيا ، وكان الآخر مقبلاً على تكثير ماله ،

فانفصل من شريكه لتقصيره ، وكان كلما اشترى داراً أو جارية أو بستاناً أو نحو ذلك عرضه على المؤمن وفخر عليه بكثرة ماله ، وكان المؤمن إذا سمع ذلك يتصدق بنحو من ذلك ليشتري له به قصراً في الجنة ، فإذا لقيه صديقه قال ما صنعت بمالك ؟ قال : تصدقت به لله ! فكان يسخر منه ويقول : أئنك لمن المصدقين ؟ فكان أمرهما ما قص الله علينا في كتابه العزيز^(١) .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق ﴿بل عجبت ويسخرون﴾ لأن السخرية في مقابلة التعجب .
- ٢ - التأكيد بإن واللام ﴿إن إلهكم لواحد﴾ ومقتضى الكلام يقتضيه لإنكار المخاطبين للوحدانية .
- ٣ - الأسلوب التهكمي ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ وردت الهداية بطريق التهكم ، لأن الهداية تكون إلى طريق النعيم لا الجحيم .
- ٤ - الإيجاز بالحذف ﴿إذا قيل لهم لا إله إلا الله﴾ أي قولوا لا إله إلا الله ، وحذف لدلالة السياق عليه .
- ٥ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿إنكم لذائقوا العذاب الأليم﴾ والأصل إنهم لذائقوا وإنما التفت لزيادة التوبيخ والتشنيع عليهم .
- ٦ - الكناية ﴿قاصرات الطرف﴾ كنى بذلك عن الحور العين لأنهن عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن .
- ٧ - التشبيه المرسل والمجمل ﴿كأنهن بيضٌ مكنون﴾ حذف منه وجه الشبه فأصبح مجملاً .
- ٨ - مراعاة الفواصل وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿شهاب ثاقب ، عذاب واصب ، طين لازب﴾ إلى آخره .

قال الله تعالى : ﴿أذلك خيرٌ نُزلاً أم شجرة الزقوم . . . إلى . . . ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ من آية (٦٢) إلى آية (١١٣)

المناسِبة : لما ذكر تعالى ما أعدّه للأبرار في دار النعيم ، ذكر ما أعدّه للأشرار في دار الجحيم ، ليظهر التمييز بين الفريقين ، ثم ذكر قصة «نوح» وقصة «إبراهيم» وما فيها من العظات والعبر للمعتبرين .

اللغة : ﴿نُزلاً﴾ التَّنَزُّلُ : الضيافة والتكرمة ، وأصله ما يُعد لسلاضياف من الطعام والشراب وغيرها ﴿طلعتها﴾ ثمرها ، سُمي طلعاً لطلوعه ﴿شوباً﴾ خلطاً ومزاجاً من شاب الطعام يشوبه

(١) انظر الطبري ٢٣/٣٨ ومختصر ابن كثير ٣/١٨١ ففيها تفصيل للقصة .

أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ إِنهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾
 طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿١٩﴾ فَإِنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا فَمَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ
 حَمِيمٍ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٢٢﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٢٣﴾

إذا خلطه بشيء آخر ﴿يهرعون﴾ يُسرعون قال الفراء : الإهرع : الإسراع مع رعدة ، وقال المبرد :
 المهرع : المستحثُّ يقال : جاء فلان يهرعون إلى النار ، إذا استحثته البرد إليها ^(١) ﴿شيعته﴾ شيعه الرجل
 أعوانه وأنصاره ، ومن سار على طريقته ومنهاجه ﴿إفكاً﴾ كذباً وباطلاً ﴿سقيم﴾ مريض وعليل ﴿راغ﴾
 راغ إليه : أقبل عليه ومال نحوه خفية وأصله من الميل قال الشاعر :
 وَيُرِيكَ مِنْ طَرْفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً
 وَيُرْوِغُ فِيكَ كَمَا يُرْوِغُ الثَّعْلَبُ ^(٢)
 ﴿يزفون﴾ يُسرعون في مشيهم ﴿تلّه﴾ صرعه وكبّه على وجهه .

التفسير : ﴿أذلك خيرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ أي أنعيم الجنة خيرٌ ضيافةً وعطاءً أم شجرة
 الزقوم التي في جهنم ؟ أيها خيرٌ وأفضل ؟ فالفواكه والثمار طعام أهل الجنة ، وشجرة الزقوم طعام أهل
 النار ، والغرض منه توبيخ الكفار ﴿إنا جعلناها فتنَةً للظالمين﴾ أي إنا جعلنا شجرة الزقوم فتنَةً
 وابتلاءً لأهل الضلالة قال المفسرون : لما سمع الكفارُ ذكر شجرة الزقوم قالوا : كيف يكون في النار
 شجرة ، والنار تحرق الشجر؟ وكان أبو جهل يقول لأصحابه : أتدرون ما الزقوم ؟ إنه الزُّبْدُ والتمر ،
 ثم يأتيهم به ويقول : ترقموا ، هذا الذي يخوفنا به محمد ^(٣) ﴿إنها شجرةٌ تخرجُ في أصل الجحيم﴾
 أي تنبت في قعر جهنم ثم هي متفرعة فيها ﴿طلعها كأنه رءوسُ الشياطين﴾ أي ثمرها وحملها كأنه
 رءوس الشياطين في تناهي القبح والبشاعة قال ابن كثير : وإنما شبهها برءوس الشياطين ، وإن لم تكن
 معروفة عند المخاطبين ، لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر ^(٤) ﴿فإنهم لاكلون منها
 فمالئون منها البطون﴾ أي فإن هؤلاء الكفار لشدة جوعهم مضطرون إلى الأكل منها حتى تمتلئ منها
 بطونهم ، فهي طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة ، وفي الحديث (لو أن قطرةً من الزقوم قطرت في
 بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم ، فكيف بمن تكون طعامه) ^(٥) ؟ ﴿ثم إن لهم عليها
 لشوباً من حميم﴾ أي ثم إن لهم بعدما شبعوا منها وغلبهم العطش لمزاجاً من ماء حار قد انتهت حرارته
 يشاب به الطعام - أي يخلط - ليجمع لهم بين مرارة الزقوم ، وحرارة الحميم ، تغليظاً لعذابهم ﴿ثم إن
 مرجعهم لإلى الجحيم﴾ أي ثم مصيرهم ومرجعهم إلى دركات الجحيم قال مقاتل : الحميم خارج
 الجحيم ، فهم يوردون الحميم لشربه ثم يردون إلى الجحيم وقال أبو السعود : الزقوم والحميم نُزْلٌ يُقدَّمُ
 إليهم قبل دخولها ^(٦) ﴿إنهم ألقوا آباءهم ضالين﴾ أي وجدوهم على الضلالة فاقتدوا بهم ﴿فهم على

(١) القرطبي ١٥/٨٨ . (٢) نفس المرجع السابق ١٥/٩٤ . (٣) انظر تفسير الطبري ٢٣/٤١ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/١٨٢ .

(٥) أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح . (٦) تفسير أبي السعود ٤/٢٧١ .

فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ ﴿٧٢﴾
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾
وَتَجَنَّبَنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾
سَلَّمَ عَلَىٰ نُوْحٍ فِي الْعَلِيِّينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ
أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾

آثارهم يُهرعون ﴿٧٠﴾ أي فهم يُسرعون في اتباع خطاهم من غير دليل ولا برهان قال مجاهد : شبهه بالهرولة كمن يُسرع إسرعاً نحو الشيء ﴿٧١﴾ ولقد ضلَّ قبلهم أكثر الأولين ﴿٧١﴾ أي ضلَّ قبل قومك أكثر الأمم الماضية ﴿٧٢﴾ ولقد أرسلنا فيهم مُنذرين ﴿٧٢﴾ أي أرسلنا فيهم رسلاً كثيرين يخوفونهم من عذاب الله ولكنهم تمادوا في الغي والضلال ﴿٧٣﴾ فانظر كيف كان عاقبة المُنذرين ﴿٧٣﴾ أي فانظر يا محمد كيف كان مصير أمر هؤلاء المكذبين ؟ ألم نهلكهم فنصيرهم عبرة للعباد ؟ ﴿٧٤﴾ إلا عباد الله المُخلصين ﴿٧٤﴾ أي لكن عباد الله المؤمنين الذين أخلصهم تعالى لطاعته فإنهم نجوا من العذاب . . ثم شرع في بيان قصة نوح فقال ﴿٧٥﴾ ولقد نادانا نوحٌ فلنعم المجيبون ﴿٧٥﴾ اللام موطئة للقسم أي وباللله لقد استغاث بنا نوحٌ لما كذبه قومه فلنعم المجيبون نحن له ، وصيغة الجمع ﴿المجيبون﴾ للعظمة والكبرياء قال الصاوي : ذكر تعالى في هذه السورة سبع قصص : قصة نوح ، وقصة إبراهيم ، وقصة الذبيح اسماعيل ، وقصة موسى وهارون ، وقصة إيلياس ، وقصة لوط ، وقصة يونس ، وكل ذلك تسلية له ﷺ وتحذيراً لمن كفر من أمته ^(١) ﴿٧٦﴾ ونجيناها وأهلها من الكرب العظيم ﴿٧٦﴾ أي ونجيناها ومن آمن معه - أهلها وأتباعه - من الغرق قال المفسرون : وكانوا ثمانين ما بين رجل وامرأة ﴿٧٧﴾ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴿٧٧﴾ أي وجعلنا ذرية نوح هم الذين بقوا في الأرض بعد هلاك قومه قال ابن عباس : أهل الأرض كلُّهم من ذرية نوح ^(٢) قال في التسهيل : وذلك لأنه لما غرق الناس في الطوفان ، ونجا نوح ومن كان معه في السفينة ، تناسل الناس من أولاده الثلاثة « سام ، وحام ، ويافث » ^(٣) ﴿٧٨﴾ وتركنا عليه في الآخريين ﴿٧٨﴾ أي تركنا عليه ثناءً حسناً في كل أمة إلى يوم القيامة ﴿٧٩﴾ سلامٌ على نوحٍ في العالمين ﴿٧٩﴾ أي سلام عاطر من الله تعالى والخلائق على نوح باقٍ على الدوام بدون انقطاع ﴿٨٠﴾ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴿٨٠﴾ أي هكذا نحزي من أحسن من العباد ، نبقي له الذكر الجميل إلى آخر الدهر ﴿٨١﴾ إنه من عبادنا المؤمنين ﴿٨١﴾ أي كان مخلصاً في العبودية لله ، كامل الإيمان واليقين قال في حاشية البيضاوي : علَّل هذه التكرمة السنوية بكونه من أولي الإحسان ، ثم علَّل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً ، إظهاراً لجلالة قدر الإيمان وأصالته أمره ، وجعل الدنيا مملوءة من ذريته تبقية لذكره الجميل في السنة العالمين ^(٤) ﴿٨٢﴾ ثم أغرقنا الآخريين ﴿٨٢﴾ أي أغرقنا الكافرين الذين لم يؤمنوا بنوح عن

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣٤٠ . (٢) تفسير البحر المحيط ٧/ ٣٦٤ . (٣) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٧٢ .

(٤) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ١٥٧ .

* وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٢﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾
 أَيَفْكَاءَ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي
 سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَيَّ الْهَيْهَتُمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ
 عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾

آخرهم ، فلم تبق منهم عينٌ تطرف ولا ذكرٌ ولا أثر . . ثم شرع تعالى في بيان قصة إبراهيم فقال ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ أي وإن من أنصار نوح واعوانه وممن كان على منهاجه وسنته إبراهيم الخليل ، قال البيضاوي : وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستائة وأربعون سنة ، وكان بينهما نبيان هما « هود » و « صالح » صلوات الله عليهم أجمعين^(١) ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي حين جاء ربه بقلبٍ نقي طاهر ، مخلص من الشك والشرك ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أي حين قال لأبيه آزر وقومه موبخاً لهم : ما الذي تعبدونه من الأوثان والأصنام ؟ وهو إنكار لهم وتوبيخ ﴿أَتَفْكَاءَ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ؟ أي أتعبدون آلهة من دون الله من أجل الإفك والكذب والزور ؟ وإنما قدّم المفعول لأجله ﴿أَتَفْكَاءَ﴾ على المفعول به لأجل التقيح عليهم بأنهم على إفكٍ وباطل في شركهم والأصل : أتريدون آلهة من دون الله إفكاً ؟ قال القرطبي : والإفكُ أسوأ الكذب وهو الذي لا يثبت ويضطرب^(٢) ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ استفهام توبيخ وتحذير أي أي شيء تظنون برب العالمين ؟ هل تظنون أنه يترككم بلا عقاب وقد عبدتم غيره ؟ قال الطبري : المعنى أي شيء تظنون أيها القوم أنه يصنع بكم إن لقيتموه وقد عبدتم غيره^(٣) ؟ ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ فقال إني سقيم ﴿لما وبخهم على عبادة غير الله أراد أن يريهم أن أصنامهم لا تضر ولا تنفع ، وأراد أن يخلو بها حتى يكسرها ، فاحتال للبقاء وعدم الخروج معهم إلى العيد ، فنظر في السماء - على عادتهم حيث كانوا نجامين - وأوهمهم أن النجوم تدل على أنه سيسقم غداً فقال : إني سقيم أي سأمرض إن خرجت معكم ، وهذا ليس بكذب وإنما هو من المعاريض الجائزة لمقصد شرعي كما ورد (إن في المعاريض لمنفعة عن الكذب) أو أراد أنه سقيم القلب من عبادتهم للأوثان^(٤) ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي فتركوه إعراضاً عنه وخرجوا إلى عيدهم ﴿فَرَاغَ إِلَى إِلَهُهِمْ﴾ أي فلما ذهبوا وتركوه توجه إلى الأصنام ومال إليها في خفية قال ابن كثير : أي ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعة واختفاء^(٥) ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ؟ أي ألا تأكلون من هذا الطعام ؟ قال ابن كثير : وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً لتبارك لهم فيه^(٦) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ ؟ أي ما لكم لا تجيبوني على سؤالي قال أبو حيان : وعرض الأكل عليها واستفهامها عن النطق وإنما هو على سبيل الهزء ، لأنها منحطة عن رتبة عابديها إذ هم يأكلون وينطقون بخلافها^(٧) ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أي

(١) تفسير البيضاوي ١٤١/٢ . (٢) تفسير القرطبي ٩٢/١٥ . (٣) تفسير الطبري ٤٥/٢٣ . (٤) انظر أقوال المفسرين في القرطبي

٩٣/١٥ . (٥) مختصر ابن كثير ١٨٥/٣ . (٦) مختصر ابن كثير ١٨٥/٣ . (٧) البحر المحيط ٣٦٦/٧ .

فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ تَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ
فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ
هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾

فأقبل على الأصنام مستخفياً يحطمها بيمينه بفأسٍ كان معه قال البيضاوي : وتقييده باليمين للدلالة على قوته ، وقوة الآلة تستدعي قوة الفعل^(١) وقال القرطبي : خصَّ الضرب باليمين لأنها أقوى والضرب بها أشد^(٢) ﴿فأقبلوا إليه يزفون﴾ أي أقبلوا نحوه مسرعين كأن بعضهم يدفع بعضاً ، فلما أدركوه قالوا : ويحك نحن نعبدها وأنت تكسرها ؟ فأجابهم موبخاً ﴿قال تعبدون ما تحتون﴾ ؟ أي تعبدون أصناماً نحتموها بأيديكم ، وصنعتموها بأنفسكم ؟ ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ أي والله جل وعلا خلقكم وخلق عملكم ، وكل الأشياء مخلوقة له ، فكيف تعبدون المخلوق وتتركون الخالق ، أليس لكم عقل أيها الناس ؟ قال ابن جزري : ذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿ما﴾ مصدرية والمعنى : الله خلقكم وأعمالكم ، وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أفعال العباد ، وذهب بعضهم إلى أن ﴿ما﴾ موصولة بمعنى الذي والمعنى : خلقكم وخلق أصنامكم التي تعملونها ، وهذا أليقُ بسياق الكلام ، وأقوى في قصد الاحتجاج على الذين عبدوا الأصنام^(٣) . ﴿قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم﴾ أي ابنوا له مكاناً وأضرموه ناراً ثم ألقوه في تلك النار المتأججة المستعرة قال المفسرون : لما غلبهم إبراهيم عليه السلام في الحجة ، مالوا إلى الغلبة بقوة البطش والشدة ، وتشاوروا فيما بينهم ثم قرروا أن يطرحوه في النار انتصاراً لأصنامهم وأهتهم ﴿فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين﴾ أي أرادوا المكر بإبراهيم واحتالوا لإهلاكه ، فنجيناه من النار وجعلناها برداً وسلاماً عليه ، وجعلناهم الأذلين المقهورين لأنه لم ينفذ فيه مكرهم ، ولا كيدهم ﴿وقال إنني ذاهبٌ إلى ربي سيهدين﴾ لما نجاه الله من النار ، وخلّصه من كيد الفجار ، هجر قومه واعتزلهم والمعنى إنني مهاجر من بلد قومي إلى حيث أمرني ربي قال مقاتل : هو أول من هاجر من الخلق مع سارة إلى أرض الشام^(٤) ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ أي ارزقني ولداً من الصالحين يؤنسني في غربتي قال ابن كثير : يريد أولاداً مطيعين يكونون عوضاً عن قومه وعشيرته الذين فارقهم^(٥) ﴿فبشرناه بغلامٍ حلِيمٍ﴾ أي فاستجبنا دعاءه وبشرناه بغلامٍ يكون حليماً في كبره قال أبو السعود : جمع الله له فيه بشارات ثلاث : بشارة أنه غلام ، وأنه يبلغ أوان الحلم ، وأنه يكون حليماً ، لأن الصغير لا يوصف بذلك ، وأيُّ حلم يعادل حلمه عليه السلام حين عرض عليه أبوه الذبيح فقال ﴿يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾^(٦) !! وجمهور المفسرين على أن هذا الغلام المبشر به هو « اسما عيل » لأن الله تعالى قال بعد تمام قصة الذبيح ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً

(١) البيضاوي ١٤٢/٢ . (٢) القرطبي ٩٤/١٥ . (٣) التسهيل في علوم التنزيل ١٧٣/٣ .

(٤) القرطبي ٩٧/١٥ . (٥) مختصر ابن كثير ١٨٦/٣ . (٦) تفسير أبي السعود ٢٧٣/٤ .

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يُبْنَىٰ إِلَيَّ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبُحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۗ قَالَ يَتَأْتٍ بِكُفْرٍ مِّمَّا أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ
 سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٧﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٨﴾ قَدْ صَدَّقْتَ
 الرُّيَا ۗ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿٢٠﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾

من الصالحين ﴿١٦﴾ فدل ذلك على أن الذبيح هو إسماعيل (١) ﴿فلما بلغ معه السعي﴾ أي فلما ترعرع وشبَّ وبلغ السن الذي يمكنه أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه قال المفسرون : وهو سن الثالثة عشرة ﴿قال يا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبُحُكَ﴾ أي إِنِّي أَمَرْتُ فِي الْمَنَامِ أَنْ أَذْبُحَكَ ، قال ابن عباس : رَوَى الْأَنْبِيَاءُ وَحْيٌ وَتَلَا آيَةَ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ : كَانَتْ الرِّسَالُ يَأْتِيهِمُ الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ أَيْقَظًا وَرَقُودًا ، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ تَنَامُ عَيُونُهُمْ وَلَا تَنَامُ قُلُوبُهُمْ (٢) ﴿فانظر ماذا ترى﴾ ؟ أي فانظر في الأمر ، ما رأيك فيه ؟ قال ابن كثير : وَإِنَّمَا أَعْلَمَ ابْنَهُ بِذَلِكَ لِيَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ ، وَلِيُخْتَبِرَ صَبْرَهُ وَجَلْدَهُ وَعِزْمَهُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَطَاعَةِ أَبِيهِ (٣) . فإِنْ قِيلَ : لِمَ شَاوَرَهُ فِي أَمْرِهِ هُوَ حَتْمٌ مِنَ اللَّهِ ؟ فَالْجَوَابُ : أَنَّهُ لَمْ يَشَاوِرْهُ لِيَرْجِعَ إِلَى رَأْيِهِ ، وَلَكِنْ لِيَعْلَمَ مَا عِنْدَهُ فَيُثَبِّتَ قَلْبَهُ وَيُوطِّنَ نَفْسَهُ عَلَى الصَّبْرِ ، فَأَجَابَهُ بِأَحْسَنِ جَوَابٍ ﴿قال يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ أي امض لما أمرك الله به من ذبحي ، فستجدني صابراً إن شاء الله ، وهو جواب من أوتي الحلم والصبر وامثال الأمر ، والرضا بقضاء الله ﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾ أي فلما استسلما - الأب والابن - لأمر الله ، وصرعه على وجهه ليذبحه قال ابن عباس : ﴿تله للجبين﴾ أكبه على وجهه ﴿وناديناها أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ هذه جواب «لما» والواو مقحمة أي ناديناها يا إبراهيم قد نفذت ما أمرت به ، وحصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح ، روي أنه أمر السكين بقوته على حلقه مراراً فلم يقطع قال الصاوي : والحكمة في هذه القصة أن إبراهيم اتخذ الله تعالى خليلاً ، فلما سأل ربه الولد ووجه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبة ولده ، فأمر بذبح المحبوب لتظهر صفاء الخلة ، فامتثل أمر ربه وقدم محبته على محبة ولده ، قال ابن عباس : فلما عزم على ذبح ولده ورماه على شقه قال الإبن : يا أبتِ اشدد رباطي حتى لا أضطرب ، واكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أُمِّي فتحزن ، وأحد شفرتك وأسرع بها على حلقي ليكون الموت أهون علي ، وإذا أتيت أُمِّي فأقرئها مني السلام ، وإن رأيت أن ترد قميصي عليها فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني ، فقال له إبراهيم : نعم العون أنت يا بني على أمر الله (٤) ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ تعليل لتفريج الكربة أي كما فرجنا شدتك كذلك نجزي المحسنين بتفريج الشدة عنهم ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً ﴿إن هذا هو البلاء المبين﴾ أي إن هذا هو الابتلاء والامتحان الشاق الواضح ، الذي يتميز فيه المخلص من المنافق ﴿وفديناها بذبح﴾

(١) انظر تفصيل الموضوع في كتابنا « النبوة والأنبياء » والأدلة على ذلك ص ١٧٣ وانظر ابن كثير ١٨٦/٣ ففيه بحث لطيف ونفيس .

(٢) القرطبي ١٠٢/١٥ . (٣) مختصر ابن كثير ١٨٦/٣ . (٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٣٤٣/٣ .

وَتَرَكَّا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾
وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿٢٣﴾

- عظيم ﴿ أي وفديناه بكبشٍ عظيم من الجنة فداءً عنه قال ابن عباس : كبش عظيم قد رعى في الجنة أربعين خريفاً ﴾ ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ أي وأبقينا عليه ثناءً حسناً إلى يوم الدين ﴿ سلام على إبراهيم ﴾ أي سلام منا على إبراهيم عاطر كريم ﴿ كذلك نجزي المحسنين ﴾ * إنه من عبادنا المؤمنين ﴿ كرر ذكر الجزاء مبالغة في الثناء ثم علل ذلك بأنه كان من الراسخين في الإيمان مع الايقان والاطمئنان وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾ أي وبشرناه بغلام آخر بعد تلك الحادثة هو إسحاق الذي سيكون نبياً قال ابن عباس : بَشَّرَ بنبوته حين وُلِدَ ، وحين نُبِئَ ﴿ ٢١ ﴾ ، وتكاد تكون الآية صريحة في أن الذبيح هو « إسماعيل » لا « إسحاق » ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ﴾ أي أفضنا على إبراهيم وإسحاق بركات الدنيا والدين ﴿ ومن ذريتهما محسنٌ وظالمٌ لنفسه مبينٌ ﴾ أي ومن ذريتهما محسنٌ ومسيءٌ قال الطبري : المحسنُ هو المؤمن ، والظالمُ لنفسه هو الكافر ﴿ ٢٣ ﴾ وقال أبو حيان : وفي الآية وعيدٌ لليهود ومن كان من ذريتهما ممن لم يؤمن بمحمد ﷺ وفيها دليل على أن البرّ قد يلد الفاجر ولا يلحقه من ذلك عيب ولا منقصة ﴿ ٤ ﴾ .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الأسلوب التهكمي ﴿ أذلك خيرٌ نزلًا أم شجرة الزقوم ﴾ ؟ التعبير بـ « خيرٌ » تهكم بهم .
- ٢ - الجناس الناقص ﴿ المنذرين .. والمنذرين ﴾ لأن المراد بالأول الرسل ، وبالثاني الأمم .
- ٣ - التشبيه ﴿ طلعتها كأنه رءوس الشياطين ﴾ أي في الهول والشناعة ويسمى تشبيهاً مرسلًا مجملًا .
- ٤ - الاستعارة التبعية ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ شبه إقباله على ربه مخلصاً بقلبه بمن قدم على الملك بتحفة ثمينة جميلة ففاز بالرضى والقبول ففيه استعارة تبعية .
- ٥ - الطباق بين ﴿ محسن .. وظالم ﴾ .
- ٦ - جناس الاشتقاق بين ﴿ ابنوا .. بنياناً ﴾ .
- ٧ - الكناية اللطيفة ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ كنى به عن الثناء الحسن الجميل .
- ٨ - مراعاة الفواصل مثل ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ * إذ جاء ربه بقلب سليم ﴿ الخ وهو من المحسنات البديعية ، وهو من خصائص القرآن وفيه من الروعة والجمال ، وحسن الوقع على السمع ما يزيده روعةً وجمالاً .

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ١٨٧ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ١٨٩ . (٣) تفسير الطبري ٥٧/ ٢٣ . (٤) البحر المحيط ٧/ ٣٧٢ .

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكْفَرُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾

المناسكة : لما ذكر قصة الخليل إبراهيم ، وقصة الذبيح والفداء ، أعقبها بذكر قصص بعض الأنبياء ، كموسى وهارون ، ويونس ولوط ، وما في هذه القصص من العظات والعبر ، وختم السورة الكريمة ببيان أن النصر والغلبة للرسول وأتباعهم المؤمنين .

اللغز : ﴿أبق﴾ هرب ﴿المشحون﴾ المملوء ﴿ساهم﴾ قارع أي ضرب القرعة قال المبرد : وأصله من السهام التي تُجال ﴿المدحضين﴾ المغلوبين ، وأصله من الزلق ، يُقال : دَحَضت حجته وأدحضها الله أي غلب وهزم قال الشاعر :

قتلنا المدحضين بكل فج فقد قرّت بقتلهم العيون^(١)
 ﴿مليم﴾ أت بما يُلام عليه ﴿العراء﴾ الأرض الفيحاء لا شجر فيها ، ولا معلم ، قال الفراء : العراء المكان الخالي ﴿يقطين﴾ القرع المعروف والمسمى بالدباء ، قال الجوهري : اليقطين ما لا ساق له كشجر القرع ونحوه^(٢) ﴿ساحتهم﴾ الساحة : الفناء .

التفسير : ﴿ولقد مَنَّا على موسى وهارون﴾ اللام موطئة للقسم أي وعزتنا وجلالنا لقد أنعمنا على موسى وهارون بأنواع النعم والمنافع الدينية والدينية ومنها نعمة النبوة والرسالة ﴿ونجيناها وقومهما من الكرب العظيم﴾ أي ونجيناها وقومها - بني إسرائيل - من الغم والمكروه العظيم ، وهو استعباد فرعون إياهم مع التعذيب بقتل الأبناء ، واستحياء النساء ﴿ونصرناهم فكانوا هم الغالبين﴾ الضمير يعود على موسى وهارون وبني إسرائيل أي ونصرناهم على أعدائهم - الأقباط - فكانوا الغالبين عليهم بعد أن كانوا تحت أيديهم مقهورين ﴿وآتيناها الكتاب المستبين﴾ أي أعطيناها الكتاب البليغ في بيانه ، الكامل في حدوده وأحكامه ، وهو التوراة ﴿وهديناهما الصراط المستقيم﴾ أي وهديناهما الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه قال الطبري : وهو الإسلام دين الله الذي ابتعث به أنبياءه^(٣) ﴿وتركنا عليهما في الآخرين﴾ أي تركنا عليهما الثناء الجميل ، والذكر الحسن ﴿سلام على موسى وهارون﴾ أي سلام منا على موسى وهارون ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ إنهما من عبادنا المؤمنين ﴿أي كذلك نفعل بمن أحسن وأخلص العبودية لله﴾ وإن إلياس لمن المرسلين ﴿أي وإن إلياس - أحد أنبياء بني إسرائيل - لمن الرسل الكرام الذين أرسلتهم هداية الخلق قال أبو السعود : هو إلياس بن ياسين

(١) تفسير القرطبي ١٥/١٢٣ . (٢) انظر الصحاح للجوهري والقاموس المحيط . (٣) تفسير الطبري ٢٣/٥٨ .

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَالَأَنْتَقُونَ ﴿١١٤﴾ أَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذُرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١١٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ
 الْأُولِينَ ﴿١١٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١١٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكَآ عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمَ
 عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُم مِّنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا
 لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٢٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٢٦﴾
 وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿١٢٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفْلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٢٨﴾

من سبط هارون أخي موسى ^(١) ﴿إذ قال لقومه ألا تتقون﴾ أي حين قال لقومه من بني إسرائيل ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟ ﴿أدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين﴾ أتعبدون هذا الصنم - المسمى بعلاً - وتتركون عبادة ربكم أحسن الخالقين؟ ﴿الله ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ أي تتركون عبادة أحسن الخالقين ، الذي هو ربكم ورب آبائكم السابقين قال القرطبي : و « بعل » اسم صنم لهم كانوا يعبدونه وبذلك سميت مدينتهم بعليك ، والمعنى : أدعون رباً اختلقتموه وهو هذا الصنم ، وتتركون أحسن من يقال له خالق وهو « الله » ربكم ورب آبائكم الأولين ^(٢) ؟ ﴿فكذبوه فإنهم لمحضرون﴾ أي فكذبوا نبيهم فإنهم لمحضرون في العذاب ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أي لكن عباد الله المؤمنين فإنهم نجوا من العذاب ﴿وتركنا عليه في الآخريين﴾ أي تركنا على إلياس الشفاء الحسن الجميل إلى يوم الدين ﴿سلام﴾ على آل ياسين ﴿أي سلام منا عليه وعلى آل ياسين قال المفسرون : المراد بـ ﴿إلياسين﴾ هو إلياس ومن آمن معه جمعوا معه تغليياً كما قالوا للمهلب وقومه المهلبون ^(٣) ، واختار الطبري أنه اسم لإلياس فيقال : إلياس ، وإل ياسين مثل ميكال وميكائيل ، وأن له اسمين فيسمى «إلياس» و﴿إلياسين﴾ ^(٤) ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ إنه من عبادنا المؤمنين ﴿تقدم تفسيره ، وإنما ختم الآيات بعد ذكر كل رسول بالسلام عليه ، وبهاتين الآيتين الكريميتين لبيان فضل الإحسان والإيمان ، وأن هؤلاء الرسل الكرام كانوا جميعاً من المتصفين بهذه الصفات ، فلذلك استحقوا التحية والسلام ، والذكر الحسن بين الأنام ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين﴾ وإن لوطاً لمن المرسلين ﴿أي وإن لوطاً لأحد رسلنا هداية قومه﴾ إذ نجيناه وأهله أجمعين ﴿أي اذكر حين خلصناه من العذاب هو ومن آمن معه من أهله وأولاده﴾ إلا عجوزاً في الغابرين ﴿أي إلا امرأته الكافرة فإنها لم تؤمن فكانت من الباقين في العذاب ومن الهالكين﴾ ثم دمّرنا الآخريين ﴿أي ثم أهلكنا المكذبين من قومه أشد إهلاك وأفظعه ، وذلك بقلب قراهم حيث جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ، ولهذا عبر بـ ﴿دمّرنا﴾ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل﴾ أي وإنكم يا أهل مكة لتمرون على منازلهم في أسفاركم وتشاهدون آثار هلاكهم صباحاً ومساءً ، وليلاً ونهاراً ﴿أفلا تعقلون﴾ ؟ أي أتشاهدون ذلك ثم لا تعتبرون ؟ ألا تخافون أن يصيبكم

(١) تفسير أبي السعود ٢٧٦/٤ . (٢) تفسير القرطبي ١١٦/١٥ . (٣) انظر تفسير الجلالين ٣/٣٤٦ . (٤) تفسير الطبري ٢٣/٦١ .

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٨﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٣٩﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤٠﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤١﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٢﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٣﴾ * فَنبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٤﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٥﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٦﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

مثل ما أصابهم ؟ ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ أي وإن يونس لأحد رسلنا المرسلين لهداية قومه ﴿ إذ أبق إلى الفلك المشحون ﴾ أي اذكر حين هرب إلى السفينة المملوءة بالرجال ﴿ فساهم فكان من المدحضين ﴾ أي فقارع أهل السفينة فكان من المغلوبين بالقرعة فألقوه في البحر قال المفسرون : إن يونس ضاق صدرأ بتكذيب قومه ، فأنذرهم بعذاب قريب ، وغادرهم مغضباً لأنهم كذبوه ، فقاده الغضب إلى شاطئ البحر حيث ركب سفينة مشحونة ، فناوأها الرياح والأمواج ، فقال الملاحون : ههنا عبد أبق من سيده ، ولا بد لنجاة السفينة من إلقائه في الماء لتنجو من الغرق ، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس فألقوه في البحر ﴿ فالتقمه الحوت وهو مليم ﴾ أي فابتلعه الحوت وهو آت بما يلام عليه من تحليه عن المهمة التي أرسله الله بها ، وترك قومه مغاضباً لهم ، وخروجه بغير إذن من ربه ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ أي لولا أنه كان من الذاكرين الله كثيراً في حياته ﴿ للبث في بطنه إلى يوم يُبعثون ﴾ أي لبقى في بطن الحوت إلى يوم القيامة ، وأصبح بطنه قبراً له فلم ينج أبداً ، ولكنه سبح الله واستغفره وناداه وهو في بطن الحوت بقوله ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فاستجاب الله تضرعه ونداءه ﴿ فنبدناه بالعراء وهو سقيم ﴾ أي فألقيناه من بطن الحوت على الساحل ، بالأرض الفضاء التي لا شجر فيها ولا ظل ، وهو سقيم مريض مما ناله من الكرب قال عطاء : أوحى الله تعالى إلى الحوت إني قد جعلت بطنك له سجناً ، ولم أجعله لك طعاماً ، فلذلك بقي سالماً لم يتغير منه شيء^(١) ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ أي وأنبتنا فوقه شجرة لتظله وتقيه حر الشمس ، وهي شجرة القرع ذات الأوراق العريضة قال ابن جزى : وإنما خص القرع بالذكر لأنه يجمع كبر الورق ، وبرد الظل ، والذباب لا يقربه ، فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب^(٢) ، وكان هذا من تدبير الله ولطفه ، فلما استكمل قوته وعافيته رده الله إلى قومه ولهذا قال ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ أي وأرسلناه بعد ذلك إلى قومه الذين هرب منهم وهم مائة ألف بل يزيدون قال المفسرون : كانوا مائة وعشرين ألفاً وقيل : وسبعين ألفاً ، وهم أهل نينوى بجهة الموصل ، و « أو » بمعنى بل أي بل يزيدون ﴿ فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ أي فآمنوا بعد أن شاهدوا أمارات العذاب الذي وعدوا به فأبقيناهم ممتعين في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم قال في التسهيل : روي أنهم خرجوا بالأطفال وأولاد البهائم ، وفرقوا بينهم وبين الأمهات ، وناحوا وتضرعوا إلى الله ، فرفع الله العذاب عنهم^(٣) . . ولما

(١) تفسير أبي السعود ٢٧٧/٤ . (٢) التسهيل في علوم التنزيل ١٧٦/٣ . (٣) تفسير التسهيل في علوم التنزيل ١٧٦/٣ .

فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٤﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٤٥﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكَهِمْ
 لَيَقُولُونَ ﴿١٤٦﴾ وَلَدَ اللَّهِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٤٧﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٤٨﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٤٩﴾ أَفَلَا
 تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٠﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُبِينٌ ﴿١٥١﴾ فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٢﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا
 وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٣﴾

انتهى من الحديث عن الرسل الكرام رجوع إلى الحديث عن المكذبين من كفار مكة فقال ﴿فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون﴾؟ أي أسأل يا محمد واستخبر كفار مكة - على سبيل التوبيخ والتقريع لهم - كيف زعموا أن الملائكة بنات الله ، فجعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور؟ إنهم يكرهون البنات ولا يرضون نسبتهن لأنفسهم ، فكيف يرضونها لله عز وجل ويختصون بالبنيين؟ ﴿أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون﴾ توبيخ آخر على بهتانهم واستهزاء بهم وتجهيل أي بل أخلقنا الملائكة الأطهار حين خلقناهم ، وجعلناهم إناثاً وهم شاهدون لذلك حتى يقولوا مثل هذا البهتان؟ ﴿ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس إن هؤلاء المشركين من كذبهم وافترائهم ينسبون إلى الله الذرية والولد ﴿وإنهم لكاذبون﴾ أي وهم كاذبون قطعاً في قولهم الملائكة بنات الله قال أبو السعود : والآية استئناف مسوق لإبطال أصل مذهبهم الفاسد ، ببيان أن مبناه ليس إلا الإفك الصريح ، والافتراء القبيح ، من غير أن يكون لهم دليل قطعاً^(١) ﴿اصطفى البنات على البنين﴾؟ توبيخ وتقريع أي هل اختار جل وعلا البنات وفضلهن على البنين؟ ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾؟ تسفيه لهم وتجهيل أي أي شيء حصل لكم حتى حكمتم بهذا الحكم الجائر؟ كيف يختار لنفسه أحسن الجنسين على زعمكم؟ ﴿أفلا تذكرون﴾؟ أي أفليس لكم تمييز وإدراك تعرفون به خطأ هذا الكلام؟ قال أبو السعود : أي أفلا تتذكرون بطلان هذا ببديهية العقل ، فإنه مركز في عقل كل ذكي وغبي^(٢) ﴿أم لكم سلطان مبين﴾ توبيخ آخر أي أم لكم برهان بين وحقرة واضحة على أن الله اتخذ الملائكة بنات له؟ ﴿فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾ أي فأتوا بهذا الكتاب الذي يشهد بصحة دعوكم فيما تزعمون . . والغرض تعجيزهم وبيان أنهم لا يستندون - في أقوالهم الباطلة - على دليل شرعي ، ولا منطق عقلي . . وينتقل إلى أسطورة أخرى لفقهها المشركون ، حيث زعموا أن هناك صلة بين الله سبحانه وبين الجن ، وأنه من التزاوج بين الله تعالى والجنَّة ولدت الملائكة فيقول ﴿وجعلوا بينه وبين الجنَّة نسباً﴾ أي جعل المشركون بين الله وبين الجن قرابة ونسباً ، حيث قالوا إنه نكح من الجن فولدت له الملائكة ﴿سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً﴾ ثم زعموا أن الملائكة إناث ، وأنهن بنات الله ﴿ولقد علمت الجنَّة أنهم لمحضرون﴾ أي لقد علمت الشياطين أنهم محضرون في العذاب قال الصاوي : وهذا زيادة في تبييتهم وتكذيبهم كأنه قيل : هؤلاء الذين عظمتموهم وجعلتموهم بنات الله ، أعلم بحالكم وما يتول إليه

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٦٥﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٦﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦٧﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٨﴾
 إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٩﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٧٠﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ
 الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٧٣﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧٤﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٧٥﴾
 فَكَفَرُوا بِهِ ۗ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٦﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٧﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٨﴾
 وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٩﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٨٠﴾

أمركم^(١) ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ أي تنزهه وتقدس الله عما يصفه به هؤلاء الظالمون ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ استثناء منقطع أي لكن عباد الله المخلصين فإنهم ينزهون الله تعالى عما يصفه به هؤلاء ﴿فإنكم وما تعبدون﴾ ما أنتم عليه بفاتنين * إلا من هو صال الجحيم ﴿أي فإنكم أيها الكفار وكل ما تعبدونه من الأصنام والشياطين لستم بقادرين على أن تخلصوا أحداً من عباد الله ، إلا من قضى الله عليه الشقاوة ، وقدراً أنه يدخل النار ويصلاها ، ثم ذكر تعالى اعتراف الملائكة بالعبودية لله فقال ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ أي وما منا ملك إلا له مرتبة ومنزلة ووظيفة لا يتعدها ، فمنها المؤكل بالأرزاق ، ومنها المؤكل بالأجال ، ومنها من ينتزل بالوحي ، ولكل منزلة من العبادة ، والتقريب ، والتشريف ﴿وإننا نحن الصّافون﴾ أي الواقفون في العبادة صفاً ﴿وإننا نحن المسبحون﴾ أي المنزهون الله سبحانه عن كل ما لا يليق بعظمته وكبريائه ، نسبح الله في كل وقت وحين قال في التسهيل : وفي هذا الكلام الذي قالته الملائكة رد على من قال إنهم بنات الله ، وشركاء الله ، لأنهم اعترفوا على أنفسهم بالعبودية والطاعة لله ، والتنزيه له جل وعلا^(٢) ﴿وإن كانوا ليقولون﴾ لو أن عندنا ذكراً من الأولين * لكننا عباد الله المخلصين ﴿الضمير لكفار قريش﴾ ﴿إن﴾ هي المخففة من «إن» الثقيلة أي وإن كان الحال والشأن أن كفار مكة كانوا - قبل أن ينزل عليهم القرآن - يقولون لو نزل علينا كتاب من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل لكنا أعظم إيماناً منهم ، وأكثر عبادة وإخلاصاً لله منهم ، فلما جاءهم القرآن كفروا به ولهذا قال ﴿فكفروا به﴾ أي فكفروا وكذبوا بالقرآن أشرف الكتب السماوية ﴿فسوف يعلمون﴾ أي فسوف يرون عاقبة كفرهم بآيات الله ، وهو وعيد وتهديد ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ أي سبق وعدنا وقضائنا للرسول الكرام ﴿إنهم لهم المنصورون﴾ أي إنهم هم المنصورون على أعدائهم ، والإشارة إلى قوله تعالى ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ أي وإن جندنا المؤمنين لهم الغالبون في الدنيا والآخرة ، في الدنيا بالحجة والبرهان ، وفي الآخرة بدخول الجنان قال المفسرون : نصر الله للمؤمنين محقق ، ولا يقدر في ذلك انهزامهم في بعض المعارك ، فإن القاعدة هي بالظفر والنصرة ، وإنما يغلبون في بعض الأحيان بسبب تقصير منهم أو ابتلاءً ومحنة ﴿فتول عنهم حتى

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٤٤٨ . (٢) التسهيل في علوم التنزيل ٣/١٧٧ .

وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾
 وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ
 عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

حين ﴿ أي أعرض عنهم يا محمد إلى مدة يسيرة ، إلى أن تؤمر بقتالهم ﴾ وأبصرهم فسوف يبصرون ﴿ أي أبصرهم حين ينزل بهم العذاب ، فسوف يبصرون عاقبة كفرهم ﴾ أفبعذابنا يستعجلون ﴿ ؟ استفهام إنكاري للتهديد أي أيستعجلون بعذاب الله ؟ روي أنه لما نزل ﴿ فسوف يبصرون ﴾ استهزءوا وقالوا متى هذا يكون ؟ فنزلت الآية ثم قال تعالى ﴿ فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ﴾ أي لا يستبعدوا ذلك فإن العذاب إذا نزل بفناء المكذبين فبئس هذا الصباح صباحهم ، شبهه بجيش هجم عليهم وقت الصباح فقطع دابرتهم ﴿ وتولى عنهم حتى حين ﴾ وأبصر فسوف يبصرون ﴿ كرره تأكيداً للتهديد وتسلياً للرسول ﷺ ﴾ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴿ أي تنزهه وتقدس ذو العزة والجبروت عما يصفه به المشركون ﴾ وسلام على المرسلين ﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ أي وسلام منا على الرسل الكرام ، والحمد لله في البدء والختام لله رب الخلائق أجمعين. نزهة تعالى نفسه عما وصفه به الكفار مما لا يليق به سبحانه ، فإنه حكى عنهم في هذه السورة أقوالاً كثيرة شنيعة ، وختم بتعميم السلام على الرسل الكرام وبحمده سبحانه ، وهو تعليم للعباد .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿ تدعون .. وتذرون ﴾ وبين ﴿ البنات .. والبنين ﴾ .
- ٢ - تتابع التوبيخ وتكراره مثل ﴿ أربك البنات ﴾ ؟ ﴿ أم خلقنا الملائكة إناثاً ﴾ ؟ ﴿ مالكم كيف تحكمون ﴾ ؟ ﴿ أفلا تذكرون ﴾ ؟ ﴿ أم لكم سلطان مبين ﴾ ؟ وكلها للتوبيخ والتبكيث .
- ٣ - التأكيد بعدة مؤكدات لتحقيق المعنى وتقريره مثل ﴿ إنهم لهم المنصورون ﴾ * وإن جندنا لهم الغالبون ﴿ فقد أكدت كل من الجملتين بإن واللام .
- ٤ - الاستعارة التصريحية ﴿ إذ أبق إلى الفلك المشحون ﴾ شبه خروجه بغير إذن ربه بإيق العبد من سيده .
- ٥ - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ الأصل وتجعلون ، والالتفات للإشارة إلى أنهم ليسوا أهلاً للخطاب ، وهم بعيدون من رحمة رب الأرباب .
- ٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿ فإذا نزل بساحتهم ﴾ مثل للعذاب النازل بهم بجيش هجم عليهم فأناخ

بفنائهم بغتة ، ونصحهم بعض النصح فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم ، حتى اجتاحتهم الجيش . قال الزمخشري : وما فصحت هذه الجملة ولا كانت لها الروعة التي يروك موردها إلا لمجيئها على طريقة التمثيل^(١) .

فَكَايْدَة : روى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال قال رسول الله ﷺ : (من سره أن يكتال بالكيال الأوفى فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ وسلام على المرسلين ﴾ والحمد لله رب العالمين ﴿ (٢) .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الصافات »

(١) الكشاف ٥٢/٤ . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم مرسلأً، وروي موقوفاً عن علي رضي الله عنه .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة ص مكية ، وهدفها نفس هدف السور المكية ، التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن المعجز المنزل على النبي الأمي ، المشتمل على المواعظ البليغة ، والأخبار العجيبة - على أن القرآن حق ، وأن محمداً نبي مرسل .

* ثم تحدثت عن الوحدانية وإنكار المشركين لها ، ومبالغتهم في العجب من دعوة الرسول ﷺ لهم إلى توحيد الله ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجاب﴾ .

* وانتقلت السورة لتضرب الأمثال لكفار مكة بمن سبقهم من الطغاة المتجبرين ، الذين أسرفوا بالتكذيب والضلال ، وما حل بهم من العذاب والنكال ، بسبب إفسادهم وإجرامهم .

* ثم تناولت قصص بعض الرسل الكرام ، تسلياً للنبي عليه الصلاة والسلام عما يلقاه من كفار مكة من الاستهزاء والتكذيب ، وتخفيفاً لآلامه وأحزانه ، فذكرت قصة نبي الله داود ، وولده سليمان ، الذي جمع الله له بين النبوة والملك ، وما نال كلاً منهما من الفتنة والابتلاء ، ثم أعقبها بذكر فتنة أيوب ، وإسحاق ويعقوب ، وإسماعيل وذا الكفل ، هكذا في عرض سريع لبيان سنة الله ، في ابتلاء أنبيائه وأصفياه .

* وأشارت السورة الكريمة إلى دلائل القدرة والوحدانية ، في هذا الكون المنظور وما فيه من بدائع الصنعة ، للتنبه على أن هذا الكون لم يخلق عبثاً ، وأنه لا بد من دار ثانية يجازى فيها المحسن والمسيء .

* وختمت السورة الكريمة ببيان وظيفة الرسول ومهمته الأساسية التي هي مهمة جميع الرسل الكرام .

التسمية : تسمى السورة الكريمة «سورة ص» وهو حرف من حروف الهجاء للإشادة بالكتاب المعجز الذي تحدى الله به الأولين والآخرين ، وهو المنظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا
وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

اللغة: ﴿عِزَّةٌ﴾ تكبر وامتناع عن قبول الحق ، وأصلها الغلبة والقهرُ ومنه قولهم « من عزَّبْنا » يعني من غلب سلب ﴿شِقَاقٌ﴾ مخالفة ومباينة ﴿مَنَاصٍ﴾ المناص : الملجأ والغوث والخلاص ﴿عِجَابٌ﴾ بالغ الغاية في العجب قال الخليل : العجيب : العجب ، والعُجَابُ الذي قد تجاوز حدَّ العجب^(١) ﴿اِخْتِلاقٌ﴾ كذب وافتراء ﴿فُوقٌ﴾ الفُوقُ : الاستراحة والإفاقة قال الجوهري : الفُوقُ والفُوقُ : ما بين الحلبتين من الوقت ، لأنها تحلب ثم تترك ساعة يرضعها الفصيل لتدرُّ ثم تُحلب وقوله تعالى ﴿ما لها من فُوقٍ﴾ أي ما لها من نظرة وراحة وإفاقة^(٢) ﴿قِطْناً﴾ القِطُّ : الحظُّ والنصيب ﴿الأيدُ﴾ القوة في العبادة والطاعة ﴿تسوروا﴾ تسور الحائط علا أعلاه وتسلقه ، والسور : الحائط ﴿تشطط﴾ قال علماء اللغة : الشَطَطُ : مجاوزة الحد وتخطي الحق ، يقال : شَطَّ في الحكم أي جار فيه ولم يعدل ، والأصل فيه : البعدُ من شَطَّت الدار بمعنى بعدت .

التفسير: ﴿ص﴾ تقدم الكلام على الحروف الهجائية ، وبيننا أن فيها الإشارة إلى إعجاز القرآن^(٣) ﴿والقرآن ذي الذكر﴾ قسم أقسم به الباري جل وعلا أي والقرآن ذي الشرف الرفيع ، وذو الشأن والمكانة ، وجواب القسم محذوف تقديره إن هذا القرآن لمعجز وإن محمداً لصادق قال ابن عباس : ﴿ذي الذكر﴾ أي ذي الشرف^(٤) ﴿بل الذين كفروا في عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أي بل الكافرون في حميةٍ وتكبرٍ عن الإيمان ، وفي خلافٍ وعداوةٍ للرسول عليه السلام قال البيضاوي : أي ما كفر من كفر بالقرآن لخللٍ وجده فيه بل الذين كفروا به ﴿في عِزَّةٍ﴾ أي استكبار عن الحق ﴿وشِقَاقٍ﴾ أي خلافٍ لله ولرسوله ولذلك كفروا به^(٥) ﴿كم أهلكننا من قبلهم من قَرْنٍ﴾ أي كم أهلكننا قبل أهل مكة من أمم كثيرة من القرون الخالية ، لكبرهم عن الحق ومعاداتهم لرسولهم ، قال أبو السعود : والآية وعيد لأهل مكة على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب من قبلهم من المستكبرين^(٦) ﴿فنادواً ولاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي فاستغاثوا واستجاروا عند نزول العذاب طلباً للنجاة ، وليس الحين حين فرارٍ ومهرب ونجاة قال ابن جزري : المعنى أن القرون الذين هلكوا دعوا واستغاثوا حين لم ينفعهم ذلك ، إذ ليس الحين الذي دعوا فيه حين مناص أي مفر ونجاة من ناص ينوص إذا فرَّ ، ولات بمعنى ليس وأصلها لا النافية زيدت عليها علامة

(١) القرطبي ١٥٠/١٥ (٢) انظر الصحاح للجوهري . (٣) انظر أول سورة البقرة من هذا التفسير

(٤) مختصر ابن كثير ٣/١٩٦ (٥) تفسير البيضاوي ٢/١٤٦ (٦) أبو السعود ٤/٢٨١

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٤١﴾ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٤٢﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ الْهَيْكَلِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٤٣﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خَيْطَلٌ ﴿٤٤﴾ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ

التأنيث^(١) ﴿وعجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم﴾ أي وعجب المشركون من بعثة محمد ﷺ واستبعدوا أن يبعث الله رسولا من البشر ﴿وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾ أي وقال كفار مكة : إن محمداً ساحرٌ فيما يأتي به من المعجزات ﴿كذاب﴾ أي مبالغ في الكذب في دعوى أنه رسول الله ، وإنما وضع الاسم الظاهر ﴿الكافرون﴾ مكان الضمير « وقالوا » غضباً عليهم ، وذمّاً لهم وتسجيلاً لجرمة الكفر عليهم ، فإن هذا الاتهام لا يقوله إلا المتوغلون في الكفر والفسوق ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾ ؟ أي أزعم أن الرب المعبود واحد لا إله إلا هو ؟ ﴿إن هذا لشيءٌ عجاب﴾ أي إن هذا الذي يقوله محمد - ان الإله واحد - شيء بليغ في العجب قال ابن كثير : أنكر المشركون ذلك - قبحهم الله - وتعجبوا من ترك الشرك بالله ، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربت قلوبهم ، فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى خلع الأوثان وإفراد الإله بالوحدانية ، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا : ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾^(٢) قال المفسرون : إن قريشاً اجتمعوا وقالوا لأبي طالب : كُفَّ ابن أخيك عنا ، فإنه يعيب ديننا ، ويذم آلهتنا ، ويسفّه أحلامنا ، فدعاه أبو طالب وكلمه في ذلك ، فقال ﷺ يا عم : إنما أريد منهم كلمة واحدة ، يملكون بها العجم ، وتدين لهم بها العرب ، فقال أبو جهل والمشركون : نعم نعطيكها وعشر كلمات معها !! فقال قولوا « لا إله إلا الله » فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم ويقولون ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً . . . ؟﴾ فنزلت الآيات^(٣) ﴿وانطلق الملائم منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم﴾ أي وانطلق أشراف قريش ورؤساء الضلال فيهم ، وخرجوا من عند الرسول ﷺ يقول بعضهم لبعض : امشوا واصبروا على عبادة آلهتكم ، ولا تطيعوا محمداً فيما يدعوكم إليه من عبادة الله الواحد الأحد ﴿إن هذا لشيءٌ يُراد﴾ أي هذا أمرٌ مدبرٌ ، يريد من ورائه محمد أن يصرفكم عن دين آبائكم لتكون له العزة والسيادة عليكم ، فاحذروا أن تطيعوه^(٤) ﴿ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة﴾ أي ما سمعنا بمثل هذا القول في ملة النصرانية التي هي آخر الملل ، فإنهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد ، فكيف يزعم محمد أن الله واحد ؟ قال ابن عباس : يعنون بالملة الآخرة دين النصرانية وقال مجاهد وقتادة : يعنون دين قريش أي ليس هذا في الدين الذي أدركنا عليه آباءنا ﴿إن هذا إلا اختلاق﴾ أي ما هذا الذي يدعيه محمد إلا كذب وافتراء ، ثم أنكروا اختصاصه عليه السلام بالوحي من بينهم فقالوا ﴿أنزل عليه الذكر من بيننا﴾ ؟ الاستفهام للإنكار أي هل تنزل القرآن على محمد دوننا ، مع أن فينا من هو أكثر منه مالاً ، وأعلى رياسةً ؟

(١) التسهيل في علوم التنزيل ١٧٩/٣ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ١٩٧/٣ (٣) انظر تفسير الطبري ٧٩/٢٣ والبحر المحيط ٧/٣٨٢

(٤) هذا معنى ما قاله ابن جرير وهو الأظهر ، وهناك أقوال أخرى تنظر في تفسير أبي السعود ٢٨٣/٤

لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
 بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ
 وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٤﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ

قال الزمخشري : أنكروا أن يختص ﷺ بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم ، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم ^(١) ﴿بل هم في شك من ذكرى﴾ إضراب عن مقدر تقديره : إنكارهم للذكر ليس عن علم بل هم في شك منه فلذلك كفروا ﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾ إضراب انتقالي وغرضه التهديد والمعنى سبب شكهم أنهم لم يذوقوا العذاب إلى الآن ، ولو ذاقوه لأيقنوا بالقرآن وآمنوا به ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب﴾ ؟ هذا رد على المشركين فيما أنكروا من اختصاص محمد ﷺ بالنبوة والمعنى هل عندهم خزائن رحمته تعالى حتى يعطوا النبوة من شاءوا ، ويمنعوها من شاءوا ؟ قال البيضاوي : يريد أن النبوة عطية من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده ، فإنه ﴿العزيز﴾ أي الغالب الذي لا يغلب ﴿الوهاب﴾ أي الذي له أن يهب ما يشاء لمن يشاء ^(٢) ﴿أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ ؟ أي هل لهم شيء من ملك السموات والأرض ؟ وهو إنكار وتوبيخ ﴿فليرتقوا في الأسباب﴾ أي ان كان لهم شيء من ذلك فليصعدوا في المراقي التي توصلهم إلى السماء ، وليدبروا شئون الكون ؟ وهو تهكم بهم واستهزاء قال الزمخشري : تهكم بهم غاية التهكم فقال : إن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق ، والتصرف في قسمة الرحمة ، وكان عندهم من الحكمة ما يميزون بها بين من هو حقيق بالنبوة من غيره ، فليصعدوا في المعارج التي يتوصلون بها إلى العرش ، حتى يستوا عليه ويدبروا أمر العالم ، وينزلوا الوحي على من يختارون ، وهو غاية التهكم بهم ^(٣) ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ التنكير للتقليل والتحقير ، و﴿ما﴾ لتأكيد القلة أي ما هم إلا جند من الكفار ، المتحزبين على رسل الله ، هم عما قليل يهزمون ويولون الأدبار ، فلا تبال بما يقولون ، ولا تكترث بما يهدون . . ثم أخبر تعالى عما نال أسلافهم الكفار من العذاب والدمار فقال ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد﴾ أي كذب قبل كفار قريش أمم كثير من قوم نوح ، وقوم هود وهم قبيلة «عاد» وفرعون الجبار ذو الملك الثابت بالأوتاد أو ذو الجموع الكثيرة ، قال بعض المفسرين : سمي بذي الأوتاد لأنه كان يوتد من يريده تعذيبه بأربعة أوتاد في يديه ورجليه ويتركه حتى يموت وقيل : لأنه صاحب الإهرامات والمباني العظيمة الثابتة التي تقوم في الأرض كالأوتاد ^(٤) ﴿وتمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة﴾ أي وكذبت تمود وهم قوم صالح وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة أي الشجر الكثير الملتف وهم قوم

(١) تفسير الكشاف ٥٦/٤ . (٢) تفسير البيضاوي ١٤٦/٢

(٣) تفسير الكشاف ٥٧/٤ . (٤) نقل عن الضحاك أن المراد بالأوتاد المباني العظيمة الثابتة ورجحه ابن عطية ، وقال الزمخشري : إن ذلك

استعارة في ثبات الملك كقول الأسود : في ظل ملك ثابت الأوتاد .

الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّاهَا مِنْ فَوْاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَآ قَبْلَ
يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ﴿١٧﴾ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٨﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ
يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٩﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿٢٠﴾

شعيب ﴿أولئك الأحزاب﴾ أي أولئك هم الكفار الذين تحزبوا على رسلهم فأهلكهم الله ، فليحذر هؤلاء المكذبون لرسول الله أن يصيبهم ما أصاب أسلافهم ﴿إن كل إلا كذب الرسل﴾ أي ما كل من هؤلاء الأحزاب والأمم إلا كذب رسوله الذي أرسل إليه ﴿فحق عقاب﴾ أي فثبت ووجب عليهم عقابي ، وحذفت الياء مراعاة لرءوس الآيات ﴿وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة﴾ أي وما ينتظر هؤلاء المشركون كفار مكة إلا نفخة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور فيصعقون ﴿ما لها من فواق﴾ أي ليس لها من توقف ولا تكرار ، قال ابن عباس : أي ما لها من رجوع^(١) قال المفسرون : أي أن هذه الصيحة إذا جاءت لا تستأخر ولو فترة قصيرة مقدار فواق ناقة وهي المسافة بين الحلبتين لأنها تجيء في موعدها المحدد ، الذي لا يتقدم ولا يتأخر قال الزمخشري : يريد أنها نفخة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد^(٢) ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطننا قبل يوم الحساب﴾ أي وقال كفار مكة على سبيل الاستهزاء والسخرية : عجل لنا يا ربنا نصيبنا من العذاب الذي وعدته لنا ، قبل أن يجيء يوم القيامة إن كان الأمر كما يقول محمد قال المفسرون : وإنما قالوا هذا على سبيل الاستهزاء كقوله تعالى ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ ﴿اصبر على ما يقولون﴾ أي اصبر يا محمد على تكذيبهم فإن الله ناصرهم قال الصاوي : وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد للكفار^(٣) ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد﴾ أي وتذكر عبدنا داود ذلك النبي الشاكر الصابر ، ذا القوة في الدين ، والقوة في البدن ، فقد كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وكان يقوم نصف الليل ﴿إنه أواب﴾ أي كثير الرجوع والإنابة إلى الله ، والأواب : الرجاع إلى الله قال أبو حيان : لما كانت مقالة المشركين تقتضي الاستخفاف بالدين ، أمر تعالى نبيه بالصبر على أذاهم ، وذكر قصصاً للأنبياء «داود ، وسليمان ، وأيوب» وغيرهم ، وما عرض لهم فصبروا حتى فرج الله عنهم ، وصارت عاقبتهم أحسن عاقبة ، فكذلك أنت تصبر ويثول أمرك إلى أحسن مآل^(٤) ﴿إننا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق﴾ أي سخرنا الجبال لداود تسبح معه في المساء والصبح ، وتسبح الجبال حقيقة وكان معجزة لداود عليه السلام كما قال تعالى ﴿يا جبال أوبي معه والطير﴾ ﴿والطير محشورة كل له أواب﴾ أي وسخرنا له الطير مجموعة إليه نسبح معه ، كل من الجبال والطير رجاع إلى طاعته تعالى بالتسبيح والتقديس قال ابن كثير : كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجع بترجيعه ، إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه يترنم بقراءة الزبور يقف في الهواء ويسبح معه ، وكذلك الجبال الشامخات كانت ترجع معه وتسبح تبعاً له ، قال

(١) الطبري ٨٤/٢٣ . (٢) الكشاف ٥٩/٤ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣٥٣/٣ . (٤) البحر المحيط ٧/٣٩٠ .

وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢١﴾ * وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢٢﴾
 إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُسْطِطْ
 وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً ۖ وَإِلَى نَعَجَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي

قتادة : ﴿أواب﴾ أي مطيع ^(١) ﴿وشددنا ملكه﴾ أي قويننا ملكه وثبتناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود ﴿وأتيناه الحكمة﴾ أي أعطيناه النبوة والفهم والإصابة في الأمور ﴿وفصل الخطاب﴾ أي الكلام البين الذي يفهمه من يُخاطب به ^(٢) قال مجاهد : يعني إصابة القضاء وفهمه وقال القرطبي : البيان الفاصل بين الحق والباطل ^(٣) قال المفسرون : كان ملك داود قوياً عزيزاً ، وكان يسوسه بالحكمة والحزم معاً ، ويقطع ويجزم برأي لا تردد فيه مع الحكمة والقوة ، وذلك غاية الكمال في الحكم والسلطان ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوَّروا المحراب﴾ هذا الاستفهام للتعجب وتشويق السامع إلى ما يلقي إليه كما تقول لجليسك : هل تعلم ما وقع اليوم ؟ تريد تشويقه لسماع كلامك والمعنى هل أتاك يا محمد خبر الجماعة المتنازعين الذين تسوَّروا على داود مسجده في وقت اشتغاله بالعبادة والطاعة ؟ ﴿إذ دخلوا على داود ففزع منهم﴾ أي حين دخلوا عليه من أعلى السور فخاف وارتعد منهم قال المفسرون : وإنما فزع داود منهم لأنهم دخلوا عليه بغير إذن ، ودخلوا من غير الباب ، في وقت كان قد خصصه للعبادة ﴿قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض﴾ أي لا تخف منا فنحن فوجان مختصمان تعدى بعضنا على بعض ﴿فاحكم بيننا بالحق ولا تُسْطِطْ﴾ أي فاحكم بيننا بالعدل ، ولا تجر ولا تظلم في الحكم ﴿واهدنا إلى سواء الصراط﴾ أي وأرشدنا إلى وسط الطريق يعني إلى الطريق الحق الواضح ﴿إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ۖ ولي نعجة واحدة﴾ هذه بداية قصة الخصمين ^(٤) أي قال أحدهما : إن صاحبي هذا يملك تسعة وتسعين

(١) مختصر ابن كثير ٣ . (٢) هذا قول الزمخشري واختاره ابن عطية واستدل بقوله تعالى ﴿إنه لقول فصل﴾ واختار الطبري أنه الفصل في الكلام والحكم والمحاورة والخطب . (٣) تفسير القرطبي ١٦٢/١٥ .

(٤) وقع بعض المفسرين في خطأ فاحش حين نقلوا بعض الأقوال الواهية في تفاسيرهم اعتماداً على ما جاء عند أهل الكتاب من غير تحقيق ولا تمحيص ، مما لم يصح سنده ولا يجوز اعتياده ، لأنه من القصص الاسرائيلية التي تتنافى مع العقيدة الإسلامية في «عصمة الأنبياء» . من هذه الأباطيل المدسوسة ما روي من أمر عشقه لزوجته قائد جيشه وخلصتها «أن داود كان يمشي على سطح داره فنظر إلى امرأة تستحم فأعجبته وعشقها ، وكانت زوجة أحد قواده ويسمى «أوريا» فأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها ، فأرسله في إحدى المعارك وحمله الراية وأمره بالتقدم فانتصر ، فأرسله مراراً ليتخلص منه حتى قتل فتزوجها . . . الخ ما هنالك من الكذب والبهتان قال ابن كثير : وقد ذكر كثير من المفسرين هنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات ، ومنها ما هو مكذوب لا محالة ، تركنا إيرادها في كتابنا قصداً ، اكتفاءً بمجرد تلاوة القصة من القرآن الكريم ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . وقال البيضاوي : وما قيل إنه أرسل «أوريا» مراراً إلى الحرب ، وأمره أن يتقدم حتى قتل فتزوجها داود ، فزوروا افتراء ، ولذلك قال علي رضي الله عنه «من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة» وهو حد الفرية على الأنبياء . والصحيح في موضوع هذه القصة ما ذكره المحققون من أئمة التفسير وعلمائه الأعلام ، وبيان هذه القصة أن داود عليه السلام كان يخصص بعض وقته لتصرف شؤون الملك ، وللقضاء بين الناس ، ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل الزبور تسييحاً لله في المحراب ، وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس، وفي =

فِي الْخُطَابِ ﴿٣٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ^ط وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ^ط وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٣٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ^ط وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّعَآبٍ ﴿٣٥﴾ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي

نعجة - وهي أنثى الضأن - وأملك أنا نعجة واحدة قال المفسرون : وقد يكنى بها عن المرأة فيكون الغرض أن عنده تسعاً وتسعين امرأة وعندني امرأة واحدة ﴿فقال أكفنيها﴾ أي ملكنيها واجعلها تحت كفالتي ﴿وعزني في الخطاب﴾ أي غلبنى في الخصومة ، وشدد علي في القول وأغلظ ﴿قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾ أي قال له داود لقد ظلمك بهذا الطلب حين أراد انتزاع نعجتك منك ليكمل ما عنده إلى مائة ﴿وإن كثيراً من الخلقاء ليبغي بعضهم على بعض﴾ أي وإن الكثيرين من الشركاء ليتعدى بعضهم على بعض ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم﴾ أي إلا المؤمنين الذين يعملون الصالحات فإنهم لا يبيغون وهم قليل ﴿وظن داود أنما فتناه﴾ أي علم وأيقن أنما اختبرناه بهذه الحادثة وتلك الحكومة ﴿فاستغفر ربه وخرّ راکعاً وأناب﴾ أي طلب المغفرة من الله وخرّ ساجداً لله تعالى ، ورجع إليه بالتوبة والندم على ما فرط منه قال أبو حيان : وذكر المفسرون في هذه القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء ، ضربنا عن ذكرها صفحاً ، والذي يدل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس ، دخلوا عليه من غير المدخل وفي غير وقت جلوسه للحكم ، وأنه فزع منهم ظناً منه أنهم يغتالونه إذ كان منفرداً في محرابه لعبادة ربه ، فلما اتضح له أنهم جاءوا في حكومة ، وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قص الله تعالى فاستغفر من ذلك الظن ، وخرّ ساجداً لله عز وجل ، ونحن نعلم قطعاً أن الأنبياء معصومون من الخطايا ، إذ لو جوزنا عليهم شيئاً من ذلك لبطلت الشرائع ولم تثق بشيء مما يذكر ، فما حكى الله في كتابه يُمرُّ على ما أَرَادَهُ اللهُ ، وما حكى القصص مما فيه غض من منصب النبوة طرحناه^(١) ثم قال تعالى ﴿فغفرنا له ذلك﴾ أي فسامحناه وعفونا عنه ذلك الظن السيء بالرجلين قال ابن كثير : أي غفرنا له ما كان منه مما يقال فيه : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » ﴿وإن له عندنا لزلفى﴾ وإن له لقربة وكرامة

= ذات يوم فوجيء بشخصين يتسوران المحراب الذي يتعبد فيه ، ففزع منهما وأضر في نفسه أن يبطن بهما ، فبادرا بطمثانه أنه خصمان اختلفا في أمر بينهما ، وبدأ أحدهما فعرض خصومته - كما قصها القرآن الكريم - في آياته البينات . والقضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلماً صارخاً مشيراً لا يحتمل التأويل ، ومن ثم أندفع داود يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة ، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً ، ولم يطلب إليه بياناً ، ولم يسمع له حجة ، ولكنه مضى بحكم بقوله : ﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه . . .﴾ إلى آخر الآيات فعاتبه الله على ذلك ونهجه إلى ضرورة تثبت القاضي من حكمه وسامعه للخصم الآخر . . . أمّا ما قاله البعض اعتماداً على بعض الروايات الإسرائيلية مما ذكرناه وحذرنا منه ، فإنه لا يصح بالنسبة إلى عوام المسلمين وجهلة الفساق ، فما بالك بالأنبياء بل بخواص الأنبياء « فليتدبر هذا من له عقل سليم ودين قوي » .

(١) تفسير البحر المحیط ٣٩٣/٧ بشيء من الاختصار ، وهذا هو الحق الأبلج الذي ندين الله عز وجل به والذي يجب أن يعتقد المسلم في الأنبياء والمرسلين ، وانظر كتابنا النبوة والأنبياء ففيه بيان أوسع لهذه القصة وانظر التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي فقد رد تلك الفرية من عشرة وجوه فاجاد وأفاد . . . التفسير الكبير ٢٦ / ١٨٩ .

الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٣٦﴾

بعد المغفرة ﴿وحسن مآب﴾ أي وحسن مرجع في الآخرة ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ أي استخلفناك على الناس لتدبير شئونهم ومصالحهم ﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾ أي فاحكم بينهم بالعدل وبشرية الله التي أنزلها عليك ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ أي لا تتبع هوى النفس في الحكومات وغيرها فيضلك اتباع الهوى عن دين الله القويم ، وشرعه المستقيم ﴿إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد﴾ أي إن الذين ينحرفون عن دين الله وشرعه لهم عذاب شديد يوم القيامة ﴿بما نسؤا يوم الحساب﴾ أي بسبب نسيانهم وتركهم سلوك سبيل الله ، وعدم إيمانهم بيوم الحساب ، لأنهم لو آمنوا به لأعدوا الزاد ليوم المعاد ، قال أبو حيان : وجعله تعالى داود خليفة في الأرض يدل على مكانته عليه السلام واصطفائه له ، ويدفع في صدر من نسب إليه شيئاً مما لا يليق بمنصب النبوة .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - المجاز المرسل ﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ القرن مائة عام والهلاك لأهله ففيه مجاز .
- ٢ - وضع الظاهر مكان الضمير ﴿وقال الكافرون﴾ بدل وقالوا لتسجيل جريمة الكفر عليهم .
- ٣ - صيغة المبالغة في كل من ﴿كذاب ، العزيز ، الوهاب ، أواب﴾ .
- ٤ - التنوين للتقليل والتحقير وزيادة ﴿ما﴾ لتأكيد القلة ﴿جند ما هنالك﴾ .
- ٥ - تأكيد الجملة الخبرية بإن واللام لزيادة التعجب والإنكار ﴿إن هذا لشيء عجاب﴾ .
- ٦ - الاستعارة البليغة ﴿وفرعون ذو الأوتاد﴾ شبه الملوك بخيمة عظيمة شدت أطناها بالأوتاد لتثبت وترسخ ولا تقتلعها الرياح ففيه استعارة مكنية وذكر الأوتاد تخييل .
- ٧ - الطباق ﴿يسبحن بالعشي والإشراق﴾ لأن المراد المساء والصباح .
- ٨ - أسلوب التشويق ﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾ ورد الأسلوب بطريق التشويق .
- ٩ - أسلوب الإطناب ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله﴾ الخ .
- ١٠ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿إن هذا لشيء عجاب . . فليرتسوا في الأسباب . . جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ مما يزيد في روعة الكلام وجماله .

لطيفة : روى ابن كثير أن أبا زرعة دخل على الوليد بن عبد الملك فقال له الوليد أخبرني أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت القرآن وفقهت ! فقال يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال : قل في أمان الله ، قال يا أمير المؤمنين : أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام ؟ إن الله تعالى جمع له بين الخلافة والنبوة ثم توعده في كتابه فقال ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . . . ﴾ الآية ، فكانت موعظة بليغة .

قال الله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما . . . إلى . . . إن هذا لرزقنا ما له من نفاد ﴾ .

من آية (٢٧) إلى نهاية آية (٥٤)

المناسبة : لما ذكر تعالى إنكار المشركين للقرآن والرسالة والحشر والنشر ، وأعقبها بذكر قصة داود تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام ، ذكر هنا بعض البراهين على البعث والنشور ، ثم بين الحكمة من نزول القرآن ، ثم تابع الحديث عن قصة سليمان بن داود تكميلاً وتكميلاً للهدف السامي من ذكر قصص القرآن .

اللغة : ﴿ الألباب ﴾ العقول واحدها لب ، ولب الشيء صفوته وخلاصته ولذلك سمي العقل لباً ﴿ الصافنات ﴾ الخيول الواقفة على ثلاثة قوائم وطرف حافر الرابعة جمع صافن قال الفراء : الصافن في كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها قال الشاعر :

تركنا الخيل عاكفةً عليه مقلدة أعتتها صُفونا^(١)

﴿ الجياد ﴾ السراع السوابق في العدو قال المبرد : الجياد جمع جواد وهو الشديد الجري كما أن الجواد من الناس هو السريع البذل^(٢) ﴿ توارت ﴾ اختفت ﴿ رخاء ﴾ لينة أو منقادة حيث أراد ﴿ الأصفاد ﴾ سلاسل الحديد والأغلال واحدها صغد وفي الحديث « صُفدت الشياطين » أي ربطت بالسلاسل قال الشاعر :

فآبوا بالنهب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدنا
﴿ صغثاً ﴾ الضغث : حزمة من الحشيش أو غيره مختلطة الرطب باليابس ، وأصله : الشيء المختلط ومنه « أضغاث أحلام » للرؤيا المختلطة .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾

التفسير : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ﴾ أي ما خلقنا هذا الكون البديع بما فيه من المخلوقات العجيبة عبثاً وسدى ﴿ ذلك ظن الذين كفروا ﴾ أي خلق ما ذكر لا لحكمة هو ظن الكفار الفجار الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور ﴿ فويل للذين كفروا من النار ﴾ أي فويل للكفار من عذاب

كُنْتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٦﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفْنَائُ الْجِيَادُ ﴿١٨﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ

النار ، ثم وبخهم تعالى على هذا الظن السيء فقال ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض﴾ ؟ أي هل نجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين ؟ ﴿أم نجعل المتقين كالفجار﴾ ؟ أي أم نجعل الأخيار الأبرار كالأشرار الفجار ؟ والغرض : أنه لا يتساوى في حكمته تعالى المحسن مع المسيء ، ولا البرُّ مع الفاجر ، ففي الآية استدلال على الحشر والجزاء ، وفيها أيضاً وعدٌ ووعيد قال ابن كثير : بين تعالى أنه ليس من عدله وحكمته أن يساوي بين المؤمنين والكافرين ، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من جزاء يُثاب فيها المطيع ، ويعاقب فيها الفاجر ، وقد دلت العقول السليمة على أنه لا بد من جزاء ومعاد ، فإننا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت دون عقاب ، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده ، فلا بد في حكمة الحكيم العليم إنصاف هذا من هذا ، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار ، فتعيّن أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة وهي الدار الآخرة^(١) . . ثم بين تعالى الغاية من نزول القرآن وهي العمل والتفكير فقال ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك﴾ أي هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك يا محمد كتابٌ عظيم جليل ، كثير الخيرات والمنافع الدنيوية والدنيوية ﴿ليدبروا آياته﴾ أي أنزلناه ليتدبروا آياته ويتفكروا بما فيها من الأسرار العجيبة ، والحكم الجليلة ﴿وليتذكروا أولوالألباب﴾ أي وليتعض بهذا القرآن أصحاب العقول السليمة قال الحسن البصري : والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول : والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً ، وقد أسقطه والله كله ، ما يرى للقرآن عليه أثرٌ في خلق ولا عمل^(٢) . . اللهم اجعلنا ممن قرأه وتدبره وعمل بما فيه ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾ شروعٌ في بيان قصة سليمان بن داود عليهما السلام أي رزقنا عبدنا داود بالولد الصالح المسمّى سليمان وأعطيناه النبوة قال المفسرون : المراد بالهبة هنا هبة النبوة كما قال تعالى ﴿وورث سليمان داود﴾ أي في النبوة ، وإلا فقد كان له أولاد كثيرون غيره ﴿نعمة العبد إنه أواب﴾ أي نعم العبد سليمان فإنه كان كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة ﴿إذ عُرِضَ عليه بالعشي الصافنات الجياد﴾ أي اذكر حين عُرِضَ على سليمان عشية يوم من الأيام - أي بعد العصر - الخيل الواقفة على طرف الحافر ، السريعة الجري قال الرازي : وُصفت تلك الخيل بوصفين : الأول : الصفون وهو صفة دالة على فضيلة الفرس ، والثاني : الجياد وهي الشديدة الجري ، والمراد وصفها بالفضيلة والكمال في حالي الوقوف والحركة ، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقعها ، وإذا جرت كانت سراعاً في جريها^(٣) ﴿فقال إنسي أحببت حب الخير عن ذكر ربي﴾ أي أثرت حب الخيل حتى شغلتنني عن ذكر الله قال المفسرون : عُرِضت عليه آلاف من الخيل تركها له أبوه ، فأجريت بين يديه عشياً فتشاغل بحسنها وجريها ومحبتها عن

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٢٠٢ . (٢) تفسير الكشاف ٤/٧٠ . (٣) التفسير الكبير للرازي ٢٦/٢٠٤ .

رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٢٣﴾ رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٢٦﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٢٧﴾

ذكر له خاص حتى غابت الشمس ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ أي حتى غابت الشمس واختفت عن الأنظار ﴿ردوها علي﴾ أي قال سليمان ردوا هذه الخيل علي ﴿فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾ أي فشرع يذبحها ويقطع أرجلها تقرباً إلى الله ، لتكون طعاماً للفقراء لأنها شغلته عن ذكر الله قال الحسن : لما رُدَّت عليه قال : لا والله لا تشغليني عن طاعة ربي ثم أمر بها فعقرت وكذلك قال السدي (١) ، وأما قول من قال : إنها شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس فضعيف ، لأنه لا يتصور من نبي أن يترك صلاة العصر من أجل اشتغاله بالدنيا ، والنص صريح ﴿عن ذكر ربي﴾ ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسية جسدًا ثم أناب﴾ هذه إشارة إلى ابتلاء آخر لسليمان ابتلي به ، ثم تاب وأناب من تلك الهفوة والزلة ، ولعل هذه الفتنة ما روي في الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : (قال سليمان : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله - ولم يقل : إن شاء الله - فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذي نفسي بيده : لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون) (٢) قال ابن كثير : « وقد أورد بعض المفسرين آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف ، وأكثرها أوكلها متلقاة من الإسرائيليات ، وفي كثير منها نكارة شديدة » (٣) واختار الإمام الفخر أن الفتنة المذكورة في الآية الكريمة يقصد بها فتنته في جسده ، حيث إن سليمان ابتلي بمرض شديد نحل منه وضعف ، حتى صار لشدة المرض كأنه جسد ملقى على كرسي ، قال والعرب تقول في الضعيف : إنه لحم على وضم ، وجسم بلا روح ، ثم أناب أي رجع إلى حالة الصحة (٤) ﴿قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ أي اغفر لي ما صدر مني وأعطني ملكاً واسعاً لا يكون لأحد غيري ليكون دلالة على نبوتي ﴿إنك أنت الوهاب﴾ أي واسع الفضل كثير العطاء ﴿فسخرنا له الريح﴾ أي فذلنا الريح لطاعته إجابة لدعوته ﴿تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾ أي تسير بأمره ليناً طيبة حيث

(١) روي عن ابن عباس أنه قال : جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حباً لها وتكرمة ، وهذا القول اختاره ابن جرير ، والأظهر قول الحسن البصري والسدي أنه ضرب أعناقها بالسيف ونحرها لأنها شغلته عن طاعة ، ولهذا عوضه الله ما هو خير منها الريح التي هي أسرع من الخيل . (٢) الحديث أخرجه البخاري ولكنه لم يذكر فيه أنه تفسير للآية فيحتمل أن يكون تفسيراً ويحتمل غيره .

(٣) أشار ابن كثير إلى ما ذكره بعض المغرمن بالروايات الضعيفة ، والحكايات الإسرائيلية المصطنعة ، حول فتنة سليمان التي أشار إليها القرآن الكريم هذه الإشارة الخاطفة ﴿ولقد فتنا سليمان﴾ ومن أغربها وأنكرها ما رواه ابن أبي حاتم أن سليمان عليه السلام أراد أن يدخل الخلا ، فأعطى الجراد - زوجته - خاتمه ، وكانت أحب نسائه إليه فجاءها الشيطان في صورة سليمان فقال لها : هاتي خاتمي فظنته سليمان فأعطته إياه ، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين . الخ وكل هذه الروايات خرافات وأباطيل ردها المحققون من العلماء كابن كثير ، والفخر الرازي والبيضاوي والنسفي وغيرهم . (٤) انظر التفسير الكبير للرازي ٢٦ / ٢٠٨ فقد أجاد فيه وأفاد ، وكتابتنا « النبوة والأنبياء » .

وَالشَّيْطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَأَخْرَيْنَ مُقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّعَابٍ ﴿٤٠﴾ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ
بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ
رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْنًا فَاصْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَقْ إِنَّآ وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ

قصد وأراد ﴿والشياطين كل بناء وغواص﴾ أي وسخرنا له الشياطين كذلك تعمل بأمره ، منهم من
يستخدمه لبناء الأبنية الهائلة العجيبة ، ومنهم من يغوص في البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان
﴿وأخرين مقرنين في الأصفاد﴾ أي وآخرين من الشياطين - وهم المردة - موثوقون في الأغلال ،
مربوطون بالقيود والسلاسل لكفرهم وتمردهم عن طاعة سليمان ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير
حساب﴾ أي وقلنا له : هذا عطاؤنا الواسع لك ، فأعط من شئت وامنع من شئت ، لا حساب عليك في
ذلك ، لأنك مطلق اليد فيما وهب الله لك من سلطة ومن نعمة ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ أي
وإن له عندنا لمكانة رفيعة في الدنيا ، وحسن مرجع في الآخرة ﴿واذكر عبدنا أيوب﴾ هذه هي القصة
الثالثة في هذه السورة ، والإضافة للتشريف أي اذكر يا محمد عبدنا الصالح أيوب عليه السلام ، الذي
ابتلي بأنواع البلاء فصبر . ﴿إذ نادى ربّه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾ أي حين نادى ربه
متضرعاً إليه قائلاً إني مسني الشيطان بتعب ومشقة ، وألم شديد في بدني قال المفسرون : وإنما نسب ذلك
إلى الشيطان تادباً مع الله تعالى ، وإن كانت الأشياء كلها خيرها وشرها من الله تعالى ، وكان أيوب قد
أصيب في ماله وأهله وبدنه ، وبقي في البلاء ثمان عشرة سنة ، وقد تقدمت قصته (١) ﴿أركض
برجلك﴾ أي وقلنا له اضرب برجلك الأرض فضر بها فنبعت له عين ماء صافية ﴿هذا مغتسل بارد
وشراب﴾ أي وقلنا له هذا ماء تغتسل به ، وشراب تشرب منه ، فاغتسل منها فذهب ما كان بظاهر
جسده ، وشرب منها فذهب كل مرض كان داخل جسده قال أبو حيان : ﴿هذا مغتسل﴾ أي ما
يغتسل به ﴿وشراب﴾ أي ما يشرب منه ، فباغتسالك ييراً ظاهرك ، وبشربك ييراً باطنك ، والجمهور
على أنه نبعت له عينان ، شرب من إحداها واغتسل من الأخرى فشفي (٢) ﴿ووهبنا له أهله ومثلهم
معهم﴾ أي أحيا الله من مات من أولاده ورزقه مثلهم قال الرازي : الأقرب أن الله تعالى متعه بصحته
وبماله وقواه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك وعن الحسن أنه أحياهم بعد أن هلكوا (٣)
وقال أبو حيان : الجمهور على أنه تعالى أحيا له من مات من أهله ، وعافى المرضى ، وجمع عليه من شئت
منهم (٤) ﴿رحمة منا﴾ أي رحمة منا به لصبره وإخلاصه ﴿وذكرى لأولى الألباب﴾ أي وعبرة لذوي
العقول المستنيرة قال ابن كثير : أي وذكرى لذوي العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج (٥) ﴿وخذ بيدك

(١) انظر قصته في سورة الأنبياء من هذا التفسير . (٢) البحر المحيط ٤٠١/٧ .

(٣) التفسير الكبير ٢٦/٢١٥ . (٤) البحر المحيط ٤٠١/٧ . (٥) مختصر ابن كثير ٣/٢٠٥ .

العبد ^{عليه} إنه **أواب** ﴿٤٤﴾ واذكر عبدنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ﴿٤٥﴾ إنا أخلصناهم
بخالصة ذكركم الدار ﴿٤٦﴾ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴿٤٧﴾ واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل
وكل من الأخيار ﴿٤٨﴾ هذا ذكروا إن للمتقين لحسن مآب ﴿٤٩﴾ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ﴿٥٠﴾
متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ﴿٥١﴾ * وعندهم قلصرت الطرف أتراب ﴿٥٢﴾ هذا

ضيغثاً فاضرب به ولا تحنث ﴿٤٤﴾ أي وقلنا له خذ بيدك حزمة من القضبان الرفيعة فاضرب بها زوجتك لتبرئ
بيمينك ولا تحنث قال المفسرون : كان أيوب قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوط إذا برىء من مرضه ،
وسبب ذلك أنها كانت تخدمه في حالة مرضه ، فلما اشتد به البلاء وطالت به المدة وسوس إليها الشيطان :
إلى متى تصبرين ؟ فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجر فقالت له : إلى متى هذا البلاء ؟ فغضب من
هذا الكلام وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط ، فأمره الله أن يأخذ حزمة من قضبان خفيفة فيها مئة
عود ويضربها بها ضربة واحدة ويبرئ في يمينه ، ورحمة من الله به وبزوجته التي قامت على رعايته ،
وصبرت على بلائه ، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولهذا قال تعالى ﴿إنا وجدناه
صابراً﴾ أي ابتليناه فوجدناه صابراً على الضراء ﴿نعم العبد إنه أواب﴾ أي نعم العبد أيوب إنه كثير
الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة والعبادة ﴿واذكر عبدنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولي الأيدي
والأبصار﴾ أي اذكر يا محمد هؤلاء الأنبياء الأخيار وتأس بهم ، الذين جمعوا بين القوة في العبادة ،
والبصائر في الدين قال الطبري : أي أهل القوة في عبادة الله ، وأهل العقول المبصرة ﴿إنا
أخلصناهم بخالصة ذكركم الدار﴾ أي خصصناهم بخالصة عظيمة الشأن ، هي عدم
التفاتهم إلى الدنيا وتذكرهم للدار الباقية قال مجاهد : جعلناهم يعملون للأخرة ليس لهم هم غيرها ﴿٥١﴾
﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾ أي وهم عندنا المختارون المجتوبون على سائر الناس لأنهم
أخيار أبرار ﴿واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار﴾ أي واذكر يا محمد هؤلاء الرسل
أيضاً وكل من خيرة الله فاقتد بهم في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله ﴿هذا ذكروا﴾ أي هذا الذي
قصصناه عليك يا محمد من سيرة الرسل الكرام ذكر جميل لهم في الدنيا ، وشرف يذكرون به أبداً ﴿وإن
للمتقين لحسن مآب﴾ أي وإن لكل متقٍ لله مطيع لرسله لحسن مرجع ومنقلب ، ثم فسره بقوله ﴿جنات
عدن مفتحة لهم الأبواب﴾ أي جنات إقامة في دار الخلد والنعيم قد فتحت لهم أبوابها انتظاراً لقدومهم
قال الرازي : إن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا المؤمنين فتحوا لهم أبوابها ، وحيوهم بالسلام ،
فيدخلون كذلك محفوفين بالملائكة على أعز حال ، وأجل هيئة ﴿٥٢﴾ ﴿متكئين فيها﴾ أي متكئين في الجنة
على الأرائك وهي السرر الوثيرة ﴿يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب﴾ أي وهم متكئون على الأسرة

مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٤﴾ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٥﴾

يطلبون أنواع الفواكه ، وألوان الشراب كعادة الملوك في الدنيا قال ابن كثير : أي مهما طلبوا وجدوا ، ومن أي أنواعه شاءوا أتتهم به الخدام^(١) قال الصاوي : والاقتصار على دعاء الفاكهة للإيدان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذي لأنه لا جوع في الجنة^(٢) ﴿وعندهم قاصراتُ الطرفُ أترابُ﴾ أي وعندهم الحور العين اللواتي لا ينظرن إلى غير أزواجهن أتراب أي في سنٍّ واحدة ﴿هذا ما توعدون ليوم الحساب﴾ أي هذا جزاؤكم الذي وعدتم به في الدنيا ﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ أي هذا النعيم عطاؤنا لأهل الجنة لا زوال له ولا انقطاع ولا انتهاء أبداً قال في الظلال : يبدأ هذا المشهد بمنظرين متقابلين تمام التقابل في المجموع والأجزاء ، وفي السمات والهيئات : منظر المتقين لهم ﴿حسن مآب﴾ ومنظر الطاغين لهم ﴿شر مآب﴾ فأما الأولون فلهم جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، ولهم فيها راحة الاتكاء ، ومتعة الطعام والشراب ، ولهم كذلك متعة الحوريات الشواب ، وهن مع شباهن ﴿قاصرات الطرف﴾ لا يتطلعن ولا يمددن بأبصارهن ، وكلهن شواب أتراب ، وهو متاع دائم ، ورزق من عند الله ما له من نفاذ^(٣) .

قال الله تعالى : ﴿ هذا وإن للطاغين .. إلى .. ولتعلمنَّ نبأه بعد حين ﴾ .

من آية (٥٥) إلى آية (٨٨) نهاية السورة .

المناسكة : لما ذكر تعالى مال السعداء المتقين ، ثنى بذكر حال الأشقياء المجرمين ، ثم ذكر بعض الأدلة على صدق رسالة محمد ﷺ وختم السورة الكريمة بذكر قصة آدم وإبليس وامتناعه عن السجود لآدم ، تحذيراً للبشر من عدوهم الأكبر ومن وساوسه وإغوائه .

اللغز : ﴿ غساق ﴾ الغساق : ما يخرج من لحوم الكفرة من الصديد والقيح والتنن ﴿ زاغت ﴾ مالت ﴿ سحرياً ﴾ بكسر السين وهو الهزء والسخرية ﴿ مقتحم ﴾ الاقتحام : ركوب الشدة والدخول فيها ومنه اقتحام المخاطر ﴿ سويته ﴾ أتممت خلقه على أكمل الوجوه ﴿ العالين ﴾ المتكبرين ، وعلا في الأرض : تكبر وتجبج ﴿ رجيم ﴾ مرجوم بالكواكب والشهب .

هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَأْبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾

النفسير : ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب ﴾ ﴿ هذا ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره الأمر هذا وهي بمنزلة أما بعد ، ثم قال ﴿ وإن للطاغين لشر مآب ﴾ أي وإن للكافرين الذين كذبوا الرسل ، لشر منقلب يصيرون إليه في الآخرة ، ثم فسّر هذا المصير بقوله ﴿ جهنم يصلونها فبئس المهاد ﴾ أي جهنم يذوقونها ويصلون سعيها ، وبئس جهنم فراشاً ومهاداً لهم قال ابن جزى : لما تم ذكر أهل الجنة ختمه

هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَأَمْحَجُونَكُمْ بِكُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبئسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾

بقوله ﴿هذا﴾ ثم ابتداء بذكر وصف أهل النار ، وعنى بالطاغين الكفار ^(١) ﴿هذا فليذوقوه حميمٌ وغساقٌ﴾ أي هذا هو العذاب الأليم فليذوقوه وهو الحميم أي الماء الحار المحرق ، والغساق وهو ما يسيل من صديد أهل النار قال الطبري : في الآية تقديم وتأخير أي هذا حميم وغساق فليذوقوه ، والحميم الذي أغلي حتى انتهى حره ، والغساق ما يسيل من جلودهم من الصديد والدم ^(٢) ﴿وأخر من شكله أزواج﴾ أي وعذاب آخر من مثل هذا العذاب المذكور كالزهرير ، والسموم ، وأكل الزقوم لهم منه أنواع وأصناف . . ثم حكى ما يقال للرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار فقال ﴿هذا فوجٌ مقتحم معكم لا مرحباً بهم﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم : هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار ، ودخلوها بصحبتكم كما اقتحموا معكم في الجهل والضلال ، لا أهلاً ولا مرحباً بهم ﴿إنهم صالوا النار﴾ أي إنهم ذائقو النار ، وداخلوها كما دخلتموها أنتم قال الرازي : والافتحام ركوب الشدة والدخول فيها ، وهذا من كلام خزنة جهنم لرؤساء الكفرة عن أتباعهم ، والعرب تقول لمن يدعون له : مرحباً أي أتيت رحباً في البلاد لا ضيقاً ، ثم يدخلون عليها كلمة « لا » في دعاء السوء ^(٣) ﴿قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم﴾ أي قال الأتباع للرؤساء الطغاة الذين أضلّوهم بل أنتم لا أهلاً بكم ولا مرحباً قال المفسرون : عندما يدخل الأتباع جهنم تتلقاهم الرؤساء بقولهم ﴿لا مرحباً بكم﴾ أي لا تلقون هنا رحباً ولا خيراً - وهذه تحية أهل النار - كما قال تعالى ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾ فعند ذلك يقول لهم الداخلون ﴿بل أنتم لا مرحباً بكم﴾ وهذا على حد قول القائل « تحية بينهم ضربٌ وجيع » فكذلك أهل النار يتلقون بعضهم باللعنات والشتائم بدل التحايا والسلام ، ثم يعلل الأتباع ذلك بقولهم ﴿أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار﴾ أي أنتم قدمتم لنا هذا العذاب وكنتم السبب في ضلالتنا ، فبئس المنزل والمستقر لنا ولكم نار جهنم ﴿قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار﴾ وقال أيضاً من دعوا الله أن يضاعف العذاب لرؤسائهم الذين أوجبوا لهم العذاب فهو كقولهم ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً في النار﴾ والضعف زيادة المثل ^(٤) قال البيضاوي : وقال الأتباع أيضاً ﴿ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً﴾ أي مضاعفاً وذلك أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين ^(٥) ﴿وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار﴾ ؟ أي وقال الطغاة من رؤساء الكفر وأئمة الضلال : ما لنا لا نرى في النار هؤلاء الذين كنا نعدهم في الدنيا من الأشرار ؟ يعنون بهم المؤمنين قال ابن عباس : يريدون

(١) التسهيل في علوم التنزيل ١٨٧/٣ . (٢) تفسير الطبري ١١٣/٢٣ . (٣) التفسير الكبير للرازي ٢٦/٢٢٢ .

(٤) التسهيل في علوم التنزيل ١٨٨/٣ . (٥) تفسير البيضاوي ١٥١/٢ .

أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لِحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ
وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبِيُّ
عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾

أصحاب محمد ﷺ يقول أبو جهل : أين بلال ، أين صهيب ، أين عمار ؟ أولئك في الفردوس ! واعجباً لأبي جهل ! مسكين ، أسلم ابنه عكرمة ، وابنته جويرية ، وأسلمت أمه ، وأسلم أخوه وكفر هو^(١) قال ابن كثير : هذا إخبار عن الكفار في النار ، أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون ، يقول أبو جهل : ما لي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً ؟ وهذا ضربٌ مثل وإلا فكل الكفار هذا حالهم ، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار ، فلما دخلها الكفار افتقدوهم فلم يجدوهم^(٢) ، ثم قالوا ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴾ ؟ أي يؤنبون أنفسهم قائلين : أ جعلنا هؤلاء المؤمنين في الدنيا هزءاً وسخرية ؟ أم هم معنا في النار ولكن لا نراهم ؟ قال البيضاوي : إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسحار من المؤمنين ، كأنهم قالوا : ليسوا ههنا في النار ؟ أم مالت عنهم أبصارنا فلا نراهم^(٣) ؟ قال تعالى ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لِحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ أي إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أقوال أهل النار وتخاصمهم ، هو الحق الذي لا بد وأن يتكلموا به ، فنحن نخبرك عن تخاصمهم في جهنم ، وعن أقوالهم وهم فيها قال الرازي : وإنما سمى الله تعالى تلك الكلمات تخاصماً لأن قول الرؤساء ﴿ لا مرحباً بهم ﴾ وقول الأتباع ﴿ بل أنتم لا مرحباً بكم ﴾ من باب الخصومة^(٤) ﴿ قل إنما أنا منذر ﴾ هذا شروع في بيان مهمة الرسول ﷺ وفي إثبات الوجدانية ، والمعاد ، والجزاء أي قل يا محمد هؤلاء المشركين : إنما أنا رسولٌ من رب العالمين ، أُنذركم وأخوفكم من عذابه إن لم تؤمنوا ، ولستُ بساحرٍ ولا شاعرٍ ولا كاهنٍ ﴿ وما من إله إلا الله الواحد القهار ﴾ أي وليس لكم ربٌ ولا معبود إلا الواحد الأحد ، الغالب على خلقه ، القاهر لكل شيء ﴿ ربُّ السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي خالق جميع ما في الكون من الخلائق والعجائب ، والمتصرف فيها بالإيجاد والإعدام ﴿ العزيز الغفار ﴾ أي الغالب على أمره الذي لا يُغلب ، المبالغ في المغفرة لمن شاء من العباد قال الرازي : لما ذكر أنه ﴿ قهار ﴾ وهذا مشعر بالترهيب والتخويف ، أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب وذكر ثلاث صفات دالة على الرحمة ، والفضل والكرم وهي : « الرب ، العزيز ، الغفار » فكونه رباً مشعر بالترهيب والإحسان ، وكونه عزيزاً مشعر بأنه قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء ، وكونه غفراً مشعر بالترغيب وأنه يرجي فضله وثوابه ، فلو بقي الإنسان على الكفر سبعين سنة ، ثم تاب فإن الله سبحانه يغفر له برحمته جميع ذنوبه ، ويمحو اسمه من ديوان المذنبين ، ويوصله إلى درجات الأبرار^(٥) ﴿ قل هو نبياً عظيماً ﴾ * أنتم عنه معرضون ﴿ أي قل لهم يا محمد : إن هذا القرآن الذي جئتكم به هو نبأ هام وأمر عظيم

(١) تفسير القرطبي ١٥ / ٢٢٤ . (٢) مختصر ابن كثير ٣ / ٢٠٧ . (٣) تفسير البيضاوي ٢ / ١٥١ .

(٤) التفسير ٢٦ / ٢٢٣ . (٥) التفسير الكبير ٢٦ / ٢٢٤ .

مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ يُوْحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٨٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٨١﴾ قَالَ يَا بَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٨٢﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ

الشأن ، أنتم عنه غافلون لا تلتفتون إليه ولا تعلمون قدره ﴿ ما كان لي من علمٍ بالملأ الأعلى إذ يختصمون ﴾ أي من أين لي العلم باختلاف الملائكة في شأن خلق آدم لولا الوحي المنزل عليّ ؟ قال ابن جزري : والقصد الاحتجاج على نبوة محمد ﷺ لأنه أخبر بأمور لم يكن يعلمها قبل ذلك ، والإشارة إلى اختصاص الملائكة هو ما جاء في قصة آدم حين قال تعالى لهم ﴿ اني جاعل في الأرض خليفة ﴾ حسبما تضمنته قصته في مواضع من القرآن ^(١) ﴿ إن يُوحىٰ إليّ إلا أنما أنا نذير مبين ﴾ أي ما يوحىٰ إليّ إلا لأنني رسولٌ مرسل إليكم لأنذركم عذاب الله ، ومعنى النذير المنذر المخوف من عذاب الله ، ثم شرع تعالى في ذكر قصة آدم فقال ﴿ إذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرًا من طين ﴾ أي اذكر حين أعلم ربك الملائكة أنه سيخلق إنساناً من طين وهو آدم عليه السلام ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ أي فإذا أتمت خلقه ونفخت فيه الروح فاسجدوا إكراماً له وإعظماً قال القرطبي : وهذا سجود تحية لا سجود عبادة ^(٢) ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ أي فسجد جميع الملائكة خضوعاً له وتعظيماً لأمر الله بالسجود له ﴿ إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾ أي لكن إبليس استكبر عن طاعة الله وأبى السجود لآدم فصار من الكافرين قال ابن كثير : امثل الملائكة كلهم سوى إبليس ، ولم يكن منهم جنساً كان من الجن ^(٣) ، فخانه طبعه وجبلته فاستنكف عن السجود لآدم ، وخاصم ربه عز وجل فيه ، وادعى أنه خيرٌ من آدم ، فكفر بذلك وطرده الله عن باب رحمته ، ومحل أنسه ، وحضرة قدسه ﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ ؟ أي قال له ربه : ما الذي صرفك وصدك عن السجود لمن خلقتك بذاتي من غير واسطة أب وأم ؟ قال القرطبي : أضاف خلقه إلى نفسه تكريماً لآدم وإن كان خالق كل شيء ، كما أضاف إلى نفسه الروح ، والبيت ، والناقة ، والمساجد ، فخاطب الناس بما يعرفونه ﴿ استكبرت أم كنت من العالين ﴾ ؟ أي استكبرت الآن عن السجود أم كنت قديماً من المتكبرين على ربك ؟ وهذا على جهة التوبيخ له لاستنكافه عن السجود ﴿ قال أنا خيرٌ منه ﴾ أي قال اللعين أنا خير من آدم وأشرف وأفضل ﴿ خلقتني من نارٍ وخلقته من طين ﴾ أي لأنني مخلوق من

(١) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٨٩ .

(٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٢٧ . (٣) هذا هو الرأي الصحيح أن إبليس من الجن وليس من الملائكة وقد تقدم قول الحسن البصري « لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين » وهذا هو الذي تطمئن إليه النفس وترتاح وتدل عليه النصوص الكريمة كقوله تعالى « كان من الجن ففسق عن أمر ربه » وانظر الأدلة في كتابنا النبوة والأنبياء ١/ ١٢٨ .

وَحَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَانْجِرْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَا مَلَائِنَ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأُ رَبِّكَ حِينَ ﴿٨٨﴾

النار ، وأدم مخلوق من الطين ، والنار خيرٌ من الطين ، فكيف يسجد الفاضل للمفضول ؟ ﴿ قال فخرج منها فإنك رجيم ﴾ أي اخرج من الجنة فإنك لعين مطرود من كل خيرٍ وكرامة ﴿ وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ﴾ أي وأنت مبعثٌ عن رحمتي إلى يوم الجزاء والعقوبة ثم تلقى ما هو أفظع وأشنع من اللعنة ﴿ قال رب فأنظرنى إلى يوم يُبعثون ﴾ أي أخرني وأمهلني إلى اليوم الذي تبعث فيه الخلائق من القبور قال أبو السعود : أراد بذلك أن يجد فسحةً لإغوائهم ، ويأخذ منهم ثأره ، وينجو من الموت بالكلية إذ لا موتَ بعد البعث فأجابه الله بأنه مؤخر إلى وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذي طلبه ﴿ قال فإنك من المنظرين ﴾ إلى يوم الوقت المعلوم ﴿ أي إنك من المهملين إلى وقت النفخة الأولى حيث يموت الناس وتنتهي مهمتك ﴾ قال فبعزتكم لأغوينهم أجمعين ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ أي قال اللعين : أقسم بعزتكم لأضلن بني آدم أجمعين ، إلا الذين أخلصتهم لعبادتك وعصمتهم مني ﴿ قال فالحقُّ والحقُّ أقول ﴾ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴿ أي قال تعالى أقسم بالحقِّ ولا أقول إلا الحقُّ لأملأن جهنم منك وممن أتباعك قال السُّدي : هو قسم أقسم الله به ﴿٣﴾ ، وجملة « والحقُّ أقول » اعتراضية لتأكيد القسم ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجرٍ وما أنا من المتكلفين ﴾ أي قل لهم يا محمد : لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا ، ولست من الذين يتصنعون ويتحيلون حتى انتحل النبوة وأنقول القرآن ﴿ إن هو إلا ذكرٌ للعالمين ﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظة وذكرى للإنس والجن والعقلاء ﴿ ولتعلمنَّ نبأه بعد حين ﴾ أي ولتعلمنَّ خبره وصدقه عن قريب ، وهذا وعيدٌ وتهديد قال الحسن البصري : يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين .

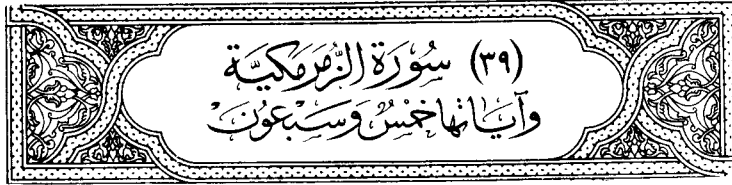
البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - المقابلة بين المؤمنين والمفسدين ، وبين المتقين والفجار ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ وهذه من أطف أنواع البديع .

٢ - الكناية ﴿ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ كنى عن العقر والذبح بالمسح وهي كناية بليغة ،

- ٣ - الطباق بين ﴿فامنن أو أمسك﴾ لأنها بمعنى أعط من شئت ، وامنع من شئت .
- ٤ - مراعاة الأدب ﴿أني مسني الشيطان﴾ أسند الضرر إلى الشيطان أدباً ، واخبر والشر بيد الله تعالى .
- ٥ - الاستعارة التصريحية ﴿أولي الأيدي والأبصار﴾ استعار الأيدي للقوة في العبادة والأبصار للبصيرة في الدين .
- ٦ - المقابلة الرائعة ﴿هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب﴾ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب﴾ ثم قابل ذلك بقوله ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب﴾ جهنم يصلونها فبئس المهاد﴾ وياله من تصوير رائع !
- ٧ - التأكيد بمؤكدين ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ فقد أكده أولاً بلفظ كل ثم بلفظ أجمعون .
- ٨ - مراعاة الفواصل وهي من خصائص القرآن ﴿وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار﴾ اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار﴾ إن ذلك لحقٌ تخاصم أهل النار﴾ فمثل هذا البيان الرائع والجرس العذب ، يسري في النفس سريان الروح في الجسد ، وأقسم بالله أنني أشعر بهزة في نفسي كلما قرأت القرآن ، لما له من وقع عذب على السمع ، وأحياناً أجدني أتمايل طرباً بدون شعور ، أكثر مما يتمايل المغرمون بالأنغام ، وما ذلك إلا لروعة البيان في هذا القرآن ، وصدق رسول الله حين قال (إن من البيان لسحراً) .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة ص ولله الحمد والمنة »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

- * سورة الزمر مكية ، وقد تحدثت عن « عقيدة التوحيد » بالإسهاب ، حتى لتكاد تكون هي المحور الرئيسي للسورة الكريمة لأنها أصل الإيمان ، وأساس العقيدة السليمة ، وأصل كل عمل صالح .
- * ابتدأت السورة بالحديث عن القرآن « المعجزة الكبرى » الدائمة الخالدة لمحمد بن عبد الله ، وأمرت الرسول بإخلاص الدين لله ، وتنزيهه جل وعلا عن مشابهة المخلوقين ، وذكرت شبهة المشركين في عبادتهم للأوثان واتخاذهم شفعاء ، وردت على ذلك بالدليل القاطع .
- * ثم ذكرت الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين ، في إبداعه لخلق السموات والأرض ، وفي ظاهرة الليل والنهار ، وفي تسييره للشموس والأقمار ، وفي خلق الإنسان في أطوار في ظلمات الأرحام ، وكلها براهين ساطعة على قدرة الله ووحدانيته .
- * وتناولت السورة موضوع العقيدة بوضوح وجلاء ، وكشفت عن مشهد الخسران المبين للكفرة المجرمين في دار الجزاء ، حيث يذوقون ألوان العذاب ، وتغشاهم ظلمة النار من فوقهم ومن تحتهم .
- * وذكرت السورة مثلاً يوضح الفارق الكبير بين من يعبد إلهاً واحداً ، ومن يعبد آلهة متعددة لا تسمع ولا تستجيب ، وهو مثل للعبد الذي يملكه شركاء متخاصمون ، والعبد الذي يملكه سيد واحد ، ثم ذكرت حالة المشركين النفسية عندما يسمعون توحيد الله تنقبض قلوبهم ، وإذا سمعوا ذكر الطواغيت هسوا وبشوا .
- * ثم جاءت الآيات طريئةً نديّةً تدعو العباد إلى الإنابة لربهم ، والرجوع إليه ، قبل أن يداهمهم الموت بغتة ، أو يفاجئهم العذاب من حيث لا يشعرون ، وحينئذ يتوبون ويندمون في وقت لا ينفع فيه توبة ولا ندم .

* وختمت السورة الكريمة بذكر نفخة الصعق ، ثم نفخة البعث والنشور ، وما يعقبها من أهوال الآخرة وشدائدها ، وتحدثت عن يوم الحشر الأكبر ، حيث يساق المتقون الأبرار إلى الجنة زمراً ، ويساق

المجرمون الأشرار إلى جهنم زمراً ، في مشهد هائل يحضره الأنبياء والصديقون والشهداء الأبرار ، والوجود كله يتجه إلى ربه بالحمد والثناء في خشوع واستسلام .

التسمية : سميت « سورة الزمر » لأن الله تعالى ذكر فيها زمرة السعداء من أهل الجنة ، وزمرة الأشقياء من أهل النار ، أولئك مع الإجلال والإكرام ، وهؤلاء مع الهوان والصغار .

قال الله تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . . . إلى . . . وعد الله لا يخلف الله الميعاد ﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (٢٠)

اللغات : ﴿ زلفى ﴾ قربي ومنه ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ أي قربت لهم ﴿ يكور ﴾ التكوير : اللّف واللفي يقال : كور العمامة أي لفها ﴿ خوّلها ﴾ أعطاه وملّكها ﴿ قانت ﴾ مطيع خاضع عابد ﴿ أنداداً ﴾ أوثاناً وأصناماً ﴿ ظلل ﴾ جمع ظلّة وهي ما يُظل الإنسان من سقف ونحوه ﴿ الطاغوت ﴾ من الطغيان وهو مجاوزة الحد والمراد بالطاغوت كل ما عبّد من دون الله من وثن أو بشر أو حجر ﴿ أنابوا ﴾ رجعوا ﴿ غرف ﴾ منازل رفيعة عالية في الجنة ، والغرفة : المنزلة والمكانة السامية ومنه ﴿ أولئك يُجزون العُرفة بما صبروا ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾
أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ

التفسير : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ أي هذا القرآن تنزيل من الله جل وعلا ﴿ العزيز ﴾ أي القادر الذي لا يُغلب ﴿ الحكيم ﴾ أي الذي يفعل كل شيء بحكمة وتقدير وتدبير ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ أي نحن أنزلنا عليك يا محمد القرآن العظيم متضمناً الحق الذي لا مرية فيه ، والصدق الذي لا يشوبه باطل أو هزل ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ أي فاعبد الله وحده مخلصاً له في عبادتك ، ولا تقصد بعملك ونتيك غير ربك ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس : إن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم لأنه المتفرد بصفات الألوهية ، المطّلع على السرائر والضمائر ، ومعنى « الخالص » الصافي من شوائب الشرك والرياء ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ أي وهؤلاء المشركون الذين عبدوا من دونه الأوثان يقولون ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ أي ما نعبد هذه الآلهة والأصنام إلا ليقربونا إلى الله قربي ويشفعوا لنا عنده قال الصاوي : كان المشركون إذا قيل لهم : من خلقكم ؟ ومن خلق السموات والأرض ؟ ومن ربكم ورب آبائكم الأولين ؟

فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣٩﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۗ سُبْحَانَهُ ۗ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤٠﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۗ يَكُونُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۗ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٤١﴾

فيقولون : الله ، فيقال لهم : فما معنى عبادتكم الأصنام ؟ فيقولون : لتقربنا إلى الله زلفى وتشفع لنا عنده^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي يحكم بين الخلائق يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين ، فيدخل المؤمنين الجنة ، والكافرين النار ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي لا يوفق للهدى ، ولا يرشد للدين الحق من كان كاذباً على ربه ، مبالغاً في كفره ، وفي الآية إشارة إلى كذبهم في تلك الدعوى ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي لو شاء الله اتخاذ ولد على سبيل الفرض والتقدير ﴿لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي لاختار من مخلوقاته ما يشاء ولداً على سبيل التبني - إذ يستحيل أن يكون ذلك في حقه تعالى بطريق التوالد المعروف - ولكنه لم يشأ ذلك لقوله ﴿وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً﴾ وقوله ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أي من المخلوقات التي أنشأها وابتدعها ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي تنزهه جل وعلا وتقده عن الشريك والولد ، لأنه هو الإله الواحد الأحد ، المنزه عن النظير والمثيل ، القاهر لعباده بعظمته وجلاله قال في التسهيل : نزّه تعالى نفسه من اتخاذ الولد ، ثم وصف نفسه بالواحد لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد ، لأنه لو كان له ولد لكان من جنسه ولا جنس له لأنه واحد ، ووصف نفسه بالقهار ليدل على نفي الشركاء والأنداد ، لأن كل شيء مقهور تحت قهره تعالى ، فكيف يكون شريكاً له^(٢) ؟ ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووجدانيته وعظمته ، فقال : ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي خلقهما على أكمل الوجوه وأبدع الصفات ، بالحق الواضح والبرهان الساطع ﴿يَكُونُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي يغشي الليل على النهار ، ويغشي النهار على الليل ، وكأنه يلف عليه لفة اللباس على اللباس قال القرطبي : وتكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوءه ، ويغشي النهار على الليل فيذهب ظلمته وهذا منقول عن قتادة وهو معنى قوله تعالى : يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا^(٣) ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي ذللهما لمصالح العباد ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي كل منهما يسير إلى مدة معلومة عند الله تعالى ، ثم ينقضي يوم القيامة حين تكور الشمس وتنكدر النجوم ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أي هو جل وعلا كامل القدرة لا يغلبه شيء ، عظيم الرحمة والمغفرة والإحسان قال الصاوي : صُدِّرَتِ الْجُمْلَةُ بِحَرْفِ التَّنْبِيهِ «أَلَا» للدلالة على كمال الاعتناء بمضمونها كأنه قال : تنبهوا يا عبادي فإنني أنا الغالب على أمري ، الستار لذنوب خلقي

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٣٦٦ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٣/١٩١ . (٣) تفسير القرطبي ١٥/٢٣٥ .

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجًا يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ
 أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقِ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦١﴾
 إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ

فأخلصوا عبادتكم ولا تشركوا بي أحداً^(١) . ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ أي خلقكم أيها الناس من نفس واحدة هي آدم ، وهذا من جملة أدلة وحدانيته ، وانفراده بالعزة والقهر ، وجميع صفات الألوهية ﴿ثم جعل منها زوجها﴾ أي ثم خلق من آدم حواء ليحصل التجانس والتناسل قال الطبري : المعنى : ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ يعني آدم ﴿ثم خلق منها زوجها﴾ يعني حواء خلقها من ضلع من أضلاعه^(٢) ﴿وأنزّل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ أي وأوجد لكم من الأنعام المأكولة وهي - الإبل ، والبقر ، والغنم ، والمعز ، ثمانية أزواج من كل نوع ذكرًا وأنثى قال قتادة : من الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين ، ومن الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ، كل واحد زوج^(٣) ، وسميت أزواجاً لأن الذكر زوج الأنثى ، والأنثى زوج الذكر قال المفسرون : والإنزال عبارة عن نزول أمره وقضائه ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق﴾ أي يخلقكم في بطون أمهاتكم أطواراً ، فإن الإنسان يكون نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة إلى أن يتم خلقه ، ثم ينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر ﴿في ظلمات ثلاث﴾ هي البطن ، والرحم ، والمشيمة^(٤) وهو - الكيس الذي يغلف الجنين - ﴿ذلكم الله ربكم﴾ أي ذلكم الخالق المبدع المصور هو الله رب العالمين ، ربكم ورب آبائكم الأولين ﴿له الملك﴾ أي له الملك والتصرف التام ، في الإيجاد والإعدام ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا معبود بحق إلا الله ولا رب لكم سواه ﴿فأنسى تصرفون﴾ ؟ أي فكيف تنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟ ثم بعد أن ذكرهم بآياته ونعمه ، حذرهم من الكفر والجحود لفضله وإحسانه فقال ﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم﴾ أي إن تكفروا أيها الناس بعدما شاهدتم من آثار قدرته وفنون نعمائه ، فإن الله مستغن عنكم وعن إيمانكم وشكركم وعبادتكم ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ أي لا يرضى الكفر لأحد من البشر قال الرازي : أشار تعالى إلى أنه وإن كان لا ينفعه إيمان ، ولا يضره كفران ، إلا أنه لا يرضى بالكفر بمعنى أنه لا يمدح صاحبه ولا يشبهه عليه وإن كان واقعاً بمشيئته وقضائه^(٥) ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ أي وإن تشكروا ربكم يرض هذا الشكر منكم ، لأجلكم ومنفعتكم لا لانتفاعه بطاعتكم قال أبو السعود : عدم رضائه بكفر عباده لأجل منفعتهم ودفع مضرّتهم ، رحمة بهم لا لتضرره تعالى بذلك ، ورضاه بشكرهم لأجلهم ومنفعتهم لأنه

(١) حاشية الصاوي ٣/٣٦٦ . (٢) تفسير الطبري ٢٣/١٢٤ . (٣) تفسير القرطبي ١٥/٢٣٥ . (٤) يقول سيد قطب في الظلال : « في ظلمات ثلاث » هي ظلمة الكيس الذي يغلف الجنين ، وظلمة الرحم الذي يستقر فيه الجنين ، وظلمة البطن الذي يستقر فيه الرحم ، ويدّ الله تخلق هذه الخلية الصغيرة ، وعين الله ترعى هذه الخلية وتودعها القدرة على النمو ، والقدرة على التطور ، والقدرة على الارتقاء ، كما قدر لها بارئها » الظلال ٩/٣٠٣ . (٥) التفسير الكبير ٢٦/٢٤٦ .

أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧٠﴾ * وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ
 ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًّا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ
 عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۗ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٧١﴾ ۖ أَمَّنْ هُوَ قَائِلٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا
 يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰؤَ

الْأَلْبَابِ ﴿٧٢﴾

سبب فوزهم بسعادة الدارين ، ولهذا فرَّق بين اللفظين فقال « ولا يرضى لعباده الكفر » وقال هنا « يرضه لكم » لأن المراد بالأول تعميم الحكم ثم تعليقه بكونهم عباده (١) « ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى » أي ولا تحمل نفسٌ ذنب نفسٍ أخرى ، بل كلُّ يؤاخذ بذنبه « ثم إلى ربكم مرجعكم » أي ثم مرجعكم ومصيركم إليه تعالى « فينبئكم بما كنتم تعملون » أي فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم « إنه عليم بذات الصدور » أي يعلم ما تكنه السرائر وتخفيه الضمائر ، وفيه تهديدٌ وبشارةٌ للمطيع « وإذا مسَّ الإنسان ضرراً » أي وإذا أصاب الإنسان الكافر شدة من فقر ومرضٍ وبلاءٍ « دعا ربه منيباً إليه » أي تضرع إلى ربه في إزالة تلك الشدة ، مقبلاً إليه محبباً مطيعاً « ثم إذا خولَّه نعمة منه » أي ثم إذا أعطاه نعمةً منه وفرَّج عنه كربته « نسي ما كان يدعو إلى ربه من قبل » أي نسي الضر الذي كان يدعو ربه لكشفه وتمردٌ وطغى « وجعل لله أنداداً ليضلَّ عن سبيله » أي وجعل لله شركاء في العبادة ليصد عن دين الله وطاعته « قل تمتع بكفرِكَ قليلاً » أمرٌ للتهديد أي تمتع بهذه الحياة الدنيا الفانية ، وتلذَّذ فيها وأنت على كفرِكَ ، عمراً قليلاً وزمناً يسيراً « إنك من أصحاب النار » أي فمصيرك إلى نار جهنم ، وأنت من المخلدين فيها « أمَّن هو قائلٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا » استفهام حذف جوابه لدلالة الكلام عليه أي أم من هو مطيع عابد في ساعات الليل يتعبد ربه في صلاته ساجداً وقائماً كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً ؟ قال القرطبي : بيّن تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضى ذكره (٢) « يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » أي حال كونه خائفاً من عذاب الآخرة ، راجياً رحمة ربه وهي الجنة ، هل يستوي هذا المؤمن التقي مع ذلك الكافر الفاجر ؟ لا يستوون عند الله ، ثم ضرب مثلاً فقال « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ؟ أي هل يتساوى العالم والجاهل ؟ فكما لا يستوي هذان كذلك لا يستوي المطيع والعاصي (٣) « إنما يتذكر أولوا الألباب » أي إنما يعتبر ويتعظ أصحاب العقول السليمة قال الإمام الفخر : واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة ، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل ، وختم فيها بذكر العلم ، أما العمل فهو القنوت ، والسجود ، والقيام ، وأما العلم ففي قوله « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ؟ وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصورٌ في هذين المقصودين ، فالعمل هو

(١) تفسير أبي السعود ٣٠٢/٤ . (٢) تفسير القرطبي ٢٣٨/١٥ . (٣) انظر حاشية زادة على البيضاوي ١٩٤/٣ .

قُلْ يٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١١﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١٢﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٣﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٥﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ

البداية ، والعلم والمكاشفة هو النهاية ، وفي الكلام حذف تقديره أمن هو قانت كغيره ؟ وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه ، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر ، ثم مثل بالذين يعلمون ، وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم^(١) ﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم﴾ أي قل يا محمد لعبادي المؤمنين يجمعوا بين الإيمان وتقوى الله وهي البعد عن محارم الله قال المفسرون : نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة والغرض منها التأنيس لهم والتنشيط إلى الهجرة^(٢) ومعنى التقوى : امتثال الأوامر ، واجتناب النواهي ، وكان العبد بذلك يجعل بينه وبين النار وقاية^(٣) ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة عظيمة في الآخرة وهي الجنة دار الأبرار ﴿وأرض الله واسعة﴾ أي وأرض الله فسيحة فهاجروا من دار الكفر إلى دار الإيمان ، ولا تقيموا في أرض لا تتمكنون فيها من إقامة شعائر الله ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ أي إنما يعطى الصابرون جزاءهم بغير حصر ، وبدون عدد أو وزن قال الأوزاعي : ليس يوزن لهم ولا يكال إنما يغرف غرافاً^(٤) ﴿قل إنني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أي قل يا محمد أُمِرْتُ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ قَالَ الْمَفْسُرُونَ : وَإِنَّمَا خَصَّ اللَّهُ تَعَالَى الرَّسُولَ بِهَذَا الْأَمْرِ لِئِنَّهُ عَلَىٰ أَنْ يَغِيْرَهُ بِذَلِكَ أَحَقُّ فَهُوَ كَالْتَرغِيبِ لِلْغَيْرِ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي وأُمِرْتُ أَيْضًا بِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَكَذَلِكَ كَانَ ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ خَالَفَ دِينَ آبَائِهِ وَخَلَعَ الْأَصْنَامَ وَحَطَّمَهَا ، وَأَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَآمَنَ بِهِ وَدَعَا إِلَيْهِ^(٥) ﴿قل إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ أي وأخاف إن عصيت أمره أن يعذبني يوم القيامة بنار جهنم قال الصاوي : والمقصود منها زجر الغير عن المعاصي ، لأنه ﷺ إذا كان خائفًا مع كمال طهارته وعصمته وغيره أولى ، وذلك سنة الأنبياء والصالحين حيث يخبرون غيرهم بما اتصفوا به ليكونوا مثلهم^(٦) ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾ أي قل لهم يا محمد لا أعبد إلا الله وحده ، مخلصاً له طاعتي وعبادتي من كل شائبة ، وليس هذا بتكرار لأن الأول إخبار بأنه ﷺ مأمور بالعبادة ، والثاني إخبار بخوفه من عذاب الله إن عصى أمره ، والثالث إخبار بامتثاله الأمر مع إفادة الحصر كأنه يقول : أعبد الله ولا أعبد أحداً سواه ﴿فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾ صيغة أمر على جهة التهديد

(١) التفسير الكبير ٢٦/٢٥٠ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٣/١٩٢ . (٣) حاشية الصاوي ٣/٣٦٨ .

(٤) مختصر ابن كثير ٣/٢١٥ . (٥) تفسير القرطبي ١٥/٢٤٢ . (٦) حاشية الصاوي ٣/٣٦٩ .

الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُونَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالَّذِينَ آجْتَنَبُوا الظُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَنْ حَقَّ عَلَيْهِ

والوعيد أي اعبدوا ما شئتم من دون الله من الأوثان والأصنام فسوف ترون عاقبة كفركم كقوله ﴿اعملوا ما شئتم﴾ ﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ أي حقيقة الخسران الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ، حيث صاروا إلى نار مؤبدة يصلون سعيها يوم القيامة ، فهو لاء هم الخاسرون كل الخسران قال ابن عباس : إن لكل رجل منزلاً وأهلاً وخدماء في الجنة ، فإن أطاع الله أُعطي ذلك ، وإن كان من أهل النار حُرِم ذلك ، فخرس نفسه وأهله ومنزله^(١) ﴿الآن ذلك هو الخسران المبين﴾ أي ألا فاتتبهوا أيها القوم ذلك هو الخسران الواضح الذي ليس بعده خسران ! قال أبو حيان : بالغ في بيان الخسران بأداة التنبيه « الآن » وبالإشارة إليه « ذلك » وتأكيد به أداة الحصر « هو » وتعريفه بأل ووصفه بأنه بين ﴿الخسران المبين﴾ أي الواضح لمن تأمله أدنى تأمل^(٢) ، ثم لما ذكر خسراهم في الدنيا ذكر حالهم ومآلهم في الآخرة فقال ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾ أي تغشاهم نار جهنم من فوقهم ومن تحتهم ، وتحيط بهم من جميع جوانبهم ، ومعنى الظلل أطباق من نار جهنم ، وتسميتها ظللاً تهكم بهم ، لأنها محرقة والظلة تقي من الحر ﴿ذلك يخوف الله به عباده﴾ أي ذلك العذاب الشديد الفطيع ، إنما يقصه تعالى ليخوف به عباده ، لينزجروا عن المحارم والمآثم ﴿يا عباد فاتقون﴾ أي يا أوليائي خافوا عذابي ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي ، قال الزمخشري : وهذه عظة من الله تعالى لعباده ونصيحة بالغة^(٣) . . والحكمة من ذكر أحوال النار تخويف المؤمنين منها ليتقوها بطاعة ربهم ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها﴾ لما ذكر وعيد عبدة الأوثان ، ذكر وعد أهل الفضل والإحسان ، ممن احترز عن الشرك والعصيان ، ليكون الوعد مقروناً بالوعيد ، فيحصل كمال الترغيب والترهيب والمعنى : والذين انتهوا عن عبادة الأوثان وطاعة الشيطان ، وتباعدوا عنها كل البعد قال أبو السعود : « الطاغوت » البالغ أقصى غاية الطغيان كالرحموت والعظموت ، والمراد به الشيطان وصف به للمبالغة^(٤) ﴿وأنابوا إلى الله﴾ أي رجعوا إلى طاعة الله وعبادته ﴿لهم البشرى﴾ أي لهم البشرى السارة من الله تعالى بالفوز العظيم بجنات النعيم ﴿فبشّر عباده﴾ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴿أي فبشّر عبادي المتقين الذين يستمعون الحديث والكلام فيتبعون أحسن ما فيه قال ابن عباس : هو الرجل يسمع الحسن والقبیح ، فيتحدث بالحسن وينكف عن القبیح فلا يتحدث به^(٥) . . وهذا ثناء من الله تعالى عليهم بنفوذ بصائرهم ، وتمييزهم الأحسن من الكلام ، فإذا سمعوا قولاً تبصروه وعملوا بما فيه ، وأحسن الكلام كلام

(١) التفسير الكبير ٢٦/٢٥٦ . (٢) البحر المحيط ٧/٤٢٠ .

(٣) تفسير الكشاف ٤/٩٣ . (٤) تفسير أبي السعود ٤/٣٠٥ . (٥) تفسير القرطبي ١٥/٢٤٤ .

كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١١﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَةٌ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ ﴿١٢﴾

الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وإنما وضع الظاهر ﴿فبشر عباد﴾ بدل الضمير ﴿فبشرهم﴾ تشريفاً لهم وتكريماً بالإضافة إليه سبحانه ﴿أولئك الذين هداهم الله﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين هداهم الله لما يرضاه ، ووفقهم لنيل رضاه ﴿وأولئك هم أولوا الألباب﴾ أي وأولئك هم أصحاب العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ﴿أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب﴾ أي أفمن وجبت له الشقاوة من الله تعالى ، وجوابه محذوفٌ دلَّ عليه ما بعده أي هل تقدر على هدايته ؟ لا ثم قال تعالى ﴿أفأنت تنقذ من في النار﴾ ؟ أي هل تستطيع يا محمد أن تنقذ من هو في الضلال والهلاك ؟ قال القرطبي : كان النبي ﷺ يحرص على إيمان قومه وقد سبقت لهم من الله الشقاوة فنزلت الآية ، وقال ابن عباس : يريد «أبأهب» وولده ومن تخلف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان ، وكرر الاستفهام «أفأنت» تأكيداً لطول الكلام والمعنى : أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه (١) ؟ ﴿لكن الذين اتقوا ربهم﴾ أي لكن المؤمنون الأبرار ، المتقون لله في الدنيا ، المتمسكون بشريعته وطاعته ﴿لهم غرفٌ من فوقها غرفٌ مبنية﴾ أي لهم في الجنة درجات عالية وقصورٌ شاهقة بعضها فوق بعض مبنية من زبرجد وياقوت (٢) ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار الجنة من غير أخدود ﴿وعد الله لا يخلف الله الميعاد﴾ أي وعدهم الله بذلك وعداً مؤكداً لا يمكن أن يتخلف لأنه وعد العزيز القدير .

تبيينه : قال الزمخشري : أفاد قوله تعالى ﴿يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ أن المؤمنين ينبغي أن يكونوا نقاداً في الدين ، يميزون بين الحسن والأحسن ، والفاضل والأفضل ، ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها دليلاً ، وأبينها أمانة ، وألا يكونوا في مذهبهم كما قال القائل «ولا تكن مثل عيرٍ قيد فانقادا» (٣) .

قال الله تعالى : ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع . . إلى . . عند ربكم تختصمون﴾

من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣١)

المناسكة : لما ذكر تعالى أحوال المشركين وضلالتهم في عبادة غير الله ، أردفه بذكر دلائل الوحدةانية ، ثم ذكر القرآن العظيم أشرف الكتب السماوية المنزلة ، ومع إقرارهم بفصاحته وإعجازه كذب به المكذبون ، ثم ضرب للمشرك والموحد مثلاً في غاية الوضوح .

(١) تفسير القرطبي ١٥/٢٤٤ وهذا القول الثاني رجحه صاحب التسهيل . (٢) هذا قول ابن عباس . (٣) تفسير الكشاف ٤/٩٣ .

الرَّ تَرَانَّ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَهُ مُضْفَرًا ثُمَّ يُجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾

اللفظة: ﴿سلكه﴾ أدخله ﴿ينابيع﴾ جمع ينبوع وهو عين الماء النابع من الأرض ﴿يهيج﴾ يبس قال الأصمعي: هاجت الأرض تهيج إذا أدبر نبتها وولّى^(١) وقال الجوهري: هاج النبت هياجاً إذا يبس، وأرض هائجة إذا يبس بقلها أو اصفر^(٢) ﴿حطاماً﴾ فتاتاً وهشياً، من تحطّم العود إذا تفتت من اليبس ﴿شرح﴾ فتح ووسّع ﴿قاسية﴾ قسا القلب: إذا صلب وكذلك عتا وعسا، وقلب قاس أي صلب لا يرق ولا يلين ﴿مثاني﴾ مكرراً فيه الحكم والمواعظ والأمثال ﴿تقشعر﴾ تضطرب وتتحرك من الخوف ﴿الخزي﴾ الذل والهوان ﴿متشاكسون﴾ متنازعون ومختلفون، ورجل شكس: شرس الخلق والطباع.

التفسير: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء﴾ أي ألم تر أيها الإنسان العاقل أن الله بقدرته أنزل المطر من السحاب ﴿فسلكه ينابيع في الأرض﴾ أي أدخله مسالك وعيوناً في الأرض وأجراه فيها قال المفسرون: وهذا دليل على أن ماء العيون من المطر، تحبسه الأرض ثم ينبع شيئاً فشيئاً قال ابن عباس: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره^(٣) ﴿ثم يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أي ثم يخرج بهذا الماء النازل من السماء والنابع من الأرض أنواع الزروع، المختلفة الأشكال والألوان، من أحمر وأبيض وأصفر، والمختلفة الأصناف من قمح وأرز وعدس وغير ذلك قال البيضاوي: ﴿مختلفاً ألوانه﴾ أي أصنافه من بر وشعير وغيرهما، أو كفيافته من خضرة وحمرة وغيرهما^(٤) ﴿ثم يهيج فتراه مضفراً﴾ أي ثم يبس فتراه بعد خضرته مضفراً ﴿ثم يجعله حطاماً﴾ أي ثم يصبح فتاتاً وهشياً متكسراً ﴿إن في ذلك لذكراً لأولي الأبواب﴾ أي إن فيما ذكر لعظة وعبرة، ودلالة على قدرة الله ووحديته لذوي العقول المستتيرة... والآية فيها تمثيل لحياة الإنسان بالحياة الدنيا، فمهما طال عمر الإنسان فلا بد من الانتهاء، إلى أن يصير مضفراً اللون، متحطماً الأعضاء، متكسراً كالزروع بعد نضرتة، ثم تكون عاقبته الموت قال ابن كثير: هكذا الدنيا تكون خضرة ناضرة حسنة، ثم تعود عجوزاً شوهاء، وكذلك الشاب يعود شيخاً هرمًا، كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير^(٥) ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾ أي وسّع صدره للإسلام، واستضاء قلبه بنوره حتى ثبت ورسخ فيه ﴿فهو على نورٍ من ربه﴾ أي فهو على بصيرة ويقين من أمر دينه، وعلى هدى من ربه بتنوير الحق في قلبه، وفي الآية محذوف دلٌّ عليه سياق الكلام تقديره كمن هو أعمى القلب،

(١) القرطبي ٢٤٦/١٥ . (٢) انظر الصحاح والقاموس المحيط . (٣) مختصر ابن كثير ٢١٧/٣ .

(٤) تفسير البيضاوي ١٥٤/٢ . (٥) مختصر ابن كثير ٢١٧/٣ .

اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

معرضٌ عن الإسلام؟ قال الطبري: وترك الجواب اجتزاءً بمعرفة السامعين وبدلالة ما بعده وتقديره: كمن أقسى الله قلبه وأخلاه من ذكره حتى ضاق عن استماع الحق، واتباع الهدى^(١)؟ ﴿فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ أي فويلٌ للذين لا تلين قلوبهم ولا تخشع عند ذكر الله، بـ «ذكر الله» القرآن الذي أنزله الله تذكرة لعباده ﴿أولئك في ضلال مبين﴾ أي أولئك الذين قست قلوبهم في بعدٍ عن الحق ظاهر... ولما بين تعالى ذلك أردفه بما يدل على أن القرآن سبب لحصول النور والهداية والشفاء فقال ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ أي الله نزل القرآن العظيم أحسن الكلام قال أبو حيان: والابتداء باسم «الله» وإسناد «نزل» لضميره، فيه تفخيم للمُنزل، ورفع من قدره كما تقول: الملك أكرم فلاناً، فإنه أفخم من أكرم الملك فلاناً، وحكمة ذلك البداء بالأشرف^(٢) ﴿كتاباً متشابهاً﴾ أي قرآناً متشابهاً يشبه بعضه بعضاً في الفصاحة، والبلاغة، والتناسب، وبدون تعارضٍ ولا تناقضٍ ﴿مثنى﴾ أي تُثنى وتكرر فيه المواعظ والأحكام، والحلال والحرام، وتُرَدَّدُ فيه القصص والأخبار دون سأم أو ملل قال الطبري: تُثنى - أي تكرر - فيه الأنباء والأخبار والقضاء والأحكام والحجج^(٣) ﴿تقشعُ منه جلود الذين يخشون ربهم﴾ أي تعتري هؤلاء المؤمنین خشيةٌ، وتأخذهم قشعريرة عند تلاوة آيات القرآن، هيبة من الرحمن وإجلالاً لكلامه ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ أي تطمئن وتسكن قلوبهم وجلودهم إلى ذكر الله قال المفسرون: إنهم عند سماع آيات الرحمة والإحسان تلين جلودهم وقلوبهم وقال العارفون: إذا نظروا إلى عالم الجلال طاشوا، وإن لاح لهم أثرٌ من عالم الجمال عاشوا^(٤) قال ابن كثير: هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار، إذا قرءوا آيات الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشع جلودهم من الخشية والخوف وإذا قرءوا آيات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم، لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه^(٥) ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء﴾ أي ذلك القرآن الذي تلك صفته هو هدى الله يهدي به من شاء من خلقه ﴿ومن يضلل الله فما له من هادٍ﴾ أي ومن يخذله الله فيجعل قلبه قاسياً مظلماً، فليس له مرشدٌ ولا هادٍ بعد الله ﴿أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة﴾ أي فمن يجعل وجهه وقاية من عذاب جهنم الشديد، وخبره محذوف تقديره كمن هو آمنٌ من العذاب؟ قال المفسرون: الوجه أشرف الأعضاء فإذا وقع الإنسان في شيء من المخاوف فإنه يجعل يده وقاية لوجهه، وأيدي الكفار

(١) تفسير الطبري ٢٣/١٣٤ . (٢) البحر المحيط ٧/٤٢٢ . (٣) الطبري ٢٣/١٣٥ .

(٤) التفسير الكبير ٢٦/٢٧٢ . (٥) مختصر ابن كثير ٣/٢١٧ .

فَأْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ
 أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾
 قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا
 لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾

مغلولة يوم القيامة ، فإذا ألقوا في النار لم يجدوا شيئاً يتقونها به إلا وجوههم ﴿٢٥﴾ وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴿٢٦﴾ أي وتقول خزنة جهنم للكافرين : ذوقوا وبال ما كنتم تكسبون في الدنيا من الكفر والمعاصي ﴿٢٧﴾ كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴿٢٨﴾ أي كذب من قبلهم من الأمم السالفة فأتاهم العذاب من جهة لا تخطر ببالهم ﴿٢٩﴾ فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ﴿٣٠﴾ أي فأذاقهم الله الذل والصغار والهوان في الدنيا ﴿٣١﴾ ولعذاب الآخرة أكبر ﴿٣٢﴾ أي ولعذاب الآخرة الذي أعد لهم أعظم بكثير من عذاب الدنيا ﴿٣٣﴾ لو كانوا يعلمون ﴿٣٤﴾ أي لو كان عندهم علم وفهم ما كذبوا ﴿٣٥﴾ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴿٣٦﴾ أي ولقد بينا ووضحنا للناس في هذا القرآن من كل الأمثال النافعة ، والأخبار الواضحة ما يحتاجون إليه ﴿٣٧﴾ لعلهم يتذكرون ﴿٣٨﴾ أي لعلهم يتعظون ويعتبرون بتلك الأمثال والزواجر ﴿٣٩﴾ قرآناً عربياً غير ذي عوج ﴿٤٠﴾ أي حال كونه قرآناً عربياً لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه ، ولا تعارض ولا تناقض ﴿٤١﴾ لعلهم يتقون ﴿٤٢﴾ أي لكي يتقوا الله ويجتنبوا محارمه . . ثم ذكر تعالى مثلاً لمن يشرك بالله ولمن يوحد فقال ﴿٤٣﴾ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ﴿٤٤﴾ أي ضرب الله لكم أيها الناس هذا المثل : رجل من المماليك اشترك فيه ملك سيئو الأخلاق ، بينهم اختلاف وتنازع ، يتجادبون في حوائجهم ، هذا يأمره بأمر وذاك يأمره بمخالفته ، وهو متحير موزع القلب ، لا يدري لمن يرضي ؟ ﴿٤٥﴾ ورجلاً مسلماً لرجل ﴿٤٦﴾ هذا من تنمة المثل أي ورجلاً آخر لا يملكه إلا شخص واحد ، حسن الأخلاق ، فهو عبد مملوك لسيد واحد ، يخدمه بإخلاص ويتفانى في خدمته ، ولا يلقي من سيده إلا إحساناً ﴿٤٧﴾ هل يستويان مثلاً ﴿٤٨﴾ أي هل يستوي هذا وهذا في حسن الحال ، وراحة البال ؟ وكذلك لا يتساوى المؤمن الموحد مع المشرك الذي يعبد آلهة شتى . قال ابن عباس : هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص ^(١) وقال الرازي : وهذا مثل ضرب في غاية الحسن في تقبيح الشرك ، وتحسين التوحيد ^(٢) ﴿٤٩﴾ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴿٥٠﴾ لما كان المثل بيناً واضحاً في غاية الجلاء والوضوح ختم به الآية والمعنى : الحمد لله على إقامة الحجة عليهم بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الحق فهم لفرط جهلهم يشركون بالله ﴿٥١﴾ إنك ميت وإنهم ميتون ﴿٥٢﴾ أي إنك يا محمد ستموت كما يموت هؤلاء ، ولا يخلد

(١) مختصر ابن كثير ٣/٢١٩ . (٢) التفسير الكبير ٢٦/٢٧٧ .

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

أحد في هذه الدار ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ أي ثم تجتمعون عند الله في الدار الآخرة ، وتختصمون فيما بينكم من المظالم وأمر الدنيا والدين ويفصل بينكم أحكم الحاكمين .

قال الله تعالى : ﴿فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق . . إلى . . لآيات لقوم يؤمنون﴾
من آية (٣٢) إلى نهاية آية (٥٢) .

المناسكة : لما ذكر تعالى أن الخلق صائرون إلى الموت ، وأن المؤمنين والكافرين سيختصمون عند ربهم في أمر التوحيد والشرك ، وأنه تعالى يفصل بينهم ، ذكر هنا جزاء كل من الفريقين ، ثم أتبعه بذكر قبائح المشركين واعتدادهم بشفاعة الأوثان والأصنام .

اللفتر : ﴿مشوى﴾ مأوى ومقام ، مشتق من ثوى بالمكان إذا أقام به ﴿يخزيه﴾ يهينه ويؤذله ﴿اشمأزت﴾ نفرت وانقبضت ﴿فاطر﴾ خالق ومبدع ﴿يحتسبون﴾ يظنون ويؤملون يقال : جاءه الأمر من حيث لا يحتسب أي من حيث لا يظن ﴿حاق﴾ نزل وأحاط بهم من كل جانب ﴿خولناه﴾ منحناه وأعطيناه تفضلاً وكرماً ﴿معجزين﴾ فائتين من العذاب ﴿يقدر﴾ يضيق ويقتصر .

* فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾

النفسير : ﴿فمن أظلم ممن كذب على الله﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشريك له والولد ﴿وكذب بالصدق إذ جاءه﴾ أي وكذب بالقرآن والشريعة وقت مجيئه من غير تدبر ولا تأمل ؟ أي لا أحد أظلم ممن حاله ذلك ، فإنه أظلم من كل ظالم ﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ ؟ أي أليس في جهنم مقام ومأوى لهؤلاء الكافرين المكذبين ؟ والاستفهام هنا تقرير أي بلى لهم مأوى ومكان ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به﴾ أي وأما الذين جاءوا بالصدق وهم الأنبياء ، والذين صدقوا به وهم المؤمنون أتباع الرسل ﴿أولئك هم المتقون﴾ أي فأولئك الموصوفون بالصفات الحميدة هم أهل التقوى والصلاح الذين يستحقون كل إحسان وإكرام ﴿لهم ما يشاءون عند ربهم﴾ أي لهم كل ما يشتهون في الجنة من الحور ، والقصور ، والملاذ ، والنعيم ﴿ذلك جزاء المحسنين﴾ أي ذلك الذي ينالونه هو ثواب كل محسن ، أحسن في هذه الحياة قال بعض

لِيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٤٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ

المفسرين : « الذي جاء بالصدق » هو محمد ﷺ « وصدق به » هو أبو بكر رضي الله عنه (١) ، والاختيار أن يكون على العموم حتى يشترك في هذه الصفة كل الرسل الكرام ، وكل من دعا إلى هذا الصدق عن عقيدة وإيمان من أتباع الرسل ، ويدل عليه ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ بصيغة الجمع ، وهذا اختيار ابن عطية ﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ﴾ أي هؤلاء الذين صدقوا الأنبياء سيغفر الله لهم ما أسلفوا من الأعمال السيئة فلا يعاقبهم بها ﴿ ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ أي ويشيهم على طاعتهم في الدنيا بحساب الأحسن الذي عملوه فضلاً منه وكرماً قال المفسرون : العدل أن تحسب الحسنات وتحسب السيئات ، ثم يكون الجزاء ، والفضل هو الذي يتجلى به الله على عباده المتقين ، فيكفر عنهم أسوأ أعمالهم ، فلا يبقى لها حساب في ميزانهم ، وأن يجزيهم أجرهم بحساب أحسن الأعمال ، فتزيد حسناتهم وتعلو وترجح كفة الميزان ، وهذا من زيادة الكرم والإحسان ﴿ أليس الله بكافٍ عبده ﴾ ؟ الهمزة للتقرير أي أليس الله كافياً عبده ورسوله محمداً ﷺ من شر من يريده بسوء ؟ قال أبو السعود : هذه تسلية لرسول الله ﷺ عما قالت له قريش : لتكفن عن شتم أهلكنا ، أو ليصينك منها خبل أو جنون (٢) وقال أبو حيان : قالت قريش : لئن لم ينته محمد عن سب أهلكنا وتعييننا لنسلطننا عليه فتصيبه بخبل وتعتربه بسوء ، فأنزل الله ﴿ أليس الله بكافٍ عبده ﴾ أي هو كافٍ عبده ، وإضافته إليه شريف عظيم لنبيه (٣) ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ أي ويخوفونك يا محمد بهذه الأوثان التي لا تضر ولا تنفع ﴿ ومن يضلل الله فما له من هادٍ ﴾ أي ومن أشقاه الله وأضلّه فلن يهديه أحد كائناً من كان ﴿ ومن يهد الله فما له من مضل ﴾ أي ومن أراد الله سعاده فهداه إلى الحق ، ووقفه لسلك طريق المهتدين ، فلن يقدر أحد على إضلاله ﴿ أليس الله بعزيز ذي انتقام ﴾ ؟ أي هو تعالى منيع الجنب لا يضام من لجأ إلى بابه ، وهو القادر على أن ينتقم من أعدائه لأولياته ، لأنه غالب لا يُغلب ، ذو انتقام من أعدائه ، وفي الآية وعيد للمشركين ، ووعد للمؤمنين ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنَّ الله ﴾ هذه الآية إقامة برهان على تزييف طريقة عبدة الأوثان أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين عمّن خلق السموات والأرض ليقولنَّ الله خالقهما ، لوضوح الدليل على تفرده تعالى بالخالقية قال الرازي : إن العلم بوجود الإله القادر الحكيم ، لا نزاع فيه بين جمهور الخلائق ، وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم ، فإن من تأمل في عجائب أحوال السموات والأرض ، وفي عجائب أحوال النبات

(١) روي هذا عن مجاهد وقتادة ، والراجح أن الآية على العموم في الرسل والمؤمنين .

(٢) تفسير أبي السعود ٤ / ٣١٠ . (٣) البحر المحيط ٧ / ٤٢٩ .

مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَدِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلْ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾

والحيوان ، وفي عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحكيم الغريبة ، والمصالح العجيبة ، علم أنه لا بد من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم ، ولهذا أقر المشركون بوجود الله (١) ﴿قُلْ أفرأيتم ما تدعون من دون الله﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخاً وتبكيماً : أخبروني - بعد أن تحققتم أن خالق العالم هو الله - عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله ﴿إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ ؟ أخبروني لو أراد الله أن يصيبني بشدة أو بلاء ، هل تستطيع هذه الأصنام أن تدفع عني ذلك السوء والضرر ؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ﴾ ؟ أي ولو أراد الله بي نفعاً من نعمة ورخاء هل تستطيع أن تمنع عني هذه الرحمة ؟ والجواب محذوف لدلالة الكلام عليه يعني فيقولون : لا ، لا تكشف السوء ، ولا تمنع الرحمة (٢) ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي الله كافيي فلا ألتفت إلى غيره ، وعليه وحده يعتمد المعتمدون ، والغرض الاحتجاج على المشركين في عبادة ما لا يضر ولا ينفع ، وإقامة البرهان على الوحداية ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي اعملوا على طريقتكم من المكر والكيد والخداع ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي إني عامل على طريقتي ، من الدعوة إلى الله وإظهار دينه ﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي فسوف تعلمون لمن سيكون العذاب الذي يذل ويخزي الإنسان ﴿ويحمل عليه عذابٌ مُّهِمٌ﴾ أي وينزل عليه عذاب دائم لا ينقطع وهو عذاب النار ، هل هذا العذاب سيصيبني أو يصيبكم ؟ والغرض التهديد والتخويف قال أبو السعود : وفي الآية مبالغة في الوعيد ، وإشعار بأن حاله عليه السلام لا تزال تزداد قوة بنصر الله وتأيبه ، وفي خزي أعدائه دليل غلبته عليه الصلاة والسلام ، وقد عذبهم الله وأخزاهم يوم بدر (٣) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي نحن أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن المعجز في بيانه ، الساطع في برهانه ، لجميع الخلق ، بالحق الواضح الذي لا يلتبس به الباطل ﴿فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها﴾ أي فمن اهتدى فنفعه يعود عليه ، ومن ضلَّ فضرر ضلاله لا يعود إلا عليه ﴿وما أنتَ عليهم بوكيل﴾ أي لست بموكل عليهم حتى تجبرهم على الإيمان قال الصاوي : وفي هذا تسلية له ﷺ والمعنى : ليس هداهم بيدك حتى تقهرهم وتجبرهم عليه ، وإنما هو بيدنا ، فإن شئنا هديناهم وإن شئنا أبقيناهم على ما هم عليه من الضلال (٤)

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٨٢ . (٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٥٩ .

(٣) تفسير أبي السعود ٤/ ٣١٠ . (٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣٧٤ .

اللَّهُ يُتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانَ أَوْلَا لِيُمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ۚ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ ثُمَّ إِلَيْهِ

﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ أي يقبضها من الأبدان عند فناء آجالها وهي الوفاة الكبرى ﴿والتي لم تمت في منامها﴾ أي ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها وهي الوفاة الصغرى قال في التسهيل : هذه الآية للاعتبار ومعناها أن الله يتوفى النفوس على وجهين : أحدهما : وفاة كاملة حقيقية وهي الموت ، والآخر : وفاة النوم لأن النائم كالميت ، في كونه لا يُبصر ولا يسمع ، ومنه قوله تعالى ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ وفي الآية عطف والتقدير : ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها^(١) وقال ابن كثير : أخبر تعالى بأنه المتصرف في الوجود كما يشاء ، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى ، بما يرسل من الحفظة - الملائكة - الذين يقبضونها من الأبدان ، والوفاة الصغرى عند المنام^(٢) ﴿فيمسك التي قضى عليها الموت﴾ أي فيمسك الروح التي قضى على صاحبها الموت فلا يردها إلى البدن ﴿ويُرسل الأخرى إلى أجلٍ مسمى﴾ أي ويرسل الأنفس النائمة إلى بدنها عند اليقظة إلى وقت محدود ، هو أجل موتها الحقيقي قال ابن عباس : إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام ، فتتعارف ما شاء الله لها ، فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها ، أمسك الله أرواح الأموات عنده ، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها^(٣) قال القرطبي : وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته تعالى ، وانفراده بالألوهية ، وأنه يحيي ويميت ، ويفعل ما يشاء ، لا يقدر على ذلك سواه^(٤) ، ولهذا قال ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون﴾ أي إن في هذه الأفعال العجيبة لعلامات واضحة قاطعة ، على كمال قدرة الله وعلمه ، لقومٍ يجيلون أفكارهم فيها فيعتبرون ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء﴾ أم للإضراب أي لم يتفكروا بل اتخذوا لهم شفعاء من الأوثان والأصنام ، فانظر إلى فرط جهالتهم حيث اتخذوا من لا يملك شيئاً أصلاً شفعاء لهم عند الله قال ابن كثير : هذا ذمٌ للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله - وهي الأصنام - والأوثان التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم ، بلا دليل ولا برهان ، وهي لا تملك شيئاً من الأمر ، وليس لها عقل تعقل به ، ولا سمعٌ تسمع به ، ولا بصرٌ تبصر به ، بل هي جمادات أسوأ حالاً بكثير من الحيوانات^(٥) ﴿قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون﴾ الاستفهام توبيخي أي قل لهم يا محمد : أتخذونهم شفعاء ولو كانوا على هذه الصفة جمادات لا تقدر على شيء ، ولا عقل لها ولا شعور ؟ ﴿قل لله الشفاعةُ جميعاً﴾ أي قل لهم : الشفاعةُ لله وحده ، لا يملكها أحدٌ إلا الله تعالى ، ولا يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه ﴿له ملك السموات والأرض﴾ أي هو المتصرف في الملك والملكوت قال البيضاوي : أي هو تعالى مالك الملك كله ، لا يملك

(١) التسهيل ٣/ ١٩٦ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٢٢ . (٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٦٠ . (٤) القرطبي ١٥/ ٢٦٣ . (٥) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٢٢ .

تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَالٌ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

أحد أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه^(١) ﴿ثم إليه تُرجعون﴾ أي ثم مصيركم إليه يوم القيامة ، فيحكم بينكم بعدله ، ويجازي كلاً بعمله . . ثم ذكر تعالى نوعاً آخر من أفعالهم القبيحة فقال ﴿وإذا ذكر الله وحده﴾ أي وإذا أفرد الله بالذكر ، ولم يذكر معه آهنتهم وقيل أمام المشركين : لا إله إلا الله ﴿اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي نفرت وانقبضت من شدة الكراهة لقلوب هؤلاء المشركين ﴿وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾ أي وإذا ذكرت الأوثان والأصنام إذا هم يفرحون ويُسرون قال الإمام الفخر : هذا نوع آخر من قبائح المشركين ، فإنك إذا ذكرت الله وحده وقلت : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ظهرت آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم ، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة في قلوبهم وصدورهم ، وذلك يدل على الجهل والحماسة ، لأن ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات ، وذكر الأصنام الجمادات رأس الجهالات والحماقات ، فنفرتهم عن ذكر الله ، واستبشارهم بذكر الأصنام ، من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ ، والحمق الشديد^(٢) ﴿قل اللهم فاطر السموات والأرض﴾ أي قل يا الله يا خالق ومبدع السموات والأرض ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي يا عالم السر والعلانية ، يا من لا تخفى عليه خافية ، مما هو غائب عن العين أو مشاهد بالأبصار ﴿أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي أنت تفصل بين الخلائق بعدلك وقضائك ، فافصل بيني وبين هؤلاء المشركين قال في البحر : لما أخبر عن سخافة عقولهم باشمئزازهم من ذكر الله ، واستبشارهم بذكر الأصنام أمر رسوله أن يدعو بأسائه العظمى من القدرة والعلم ليفصل بينه وبين أعدائه ، وفي ذلك وعيد للمشركين وتسلية للرسول عليه الصلاة والسلام^(٣) وقال الصاوي : أي التجيء إلى ربك بالدعاء والتضرع فإنه القادر على كل شيء^(٤) ﴿ولو أن للذين ظلموا﴾ أي ولو أن هؤلاء المشركين الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب القرآن والرسول ﴿ما في الأرض جميعاً ومثله معه﴾ أي لو ملكوا كل ما في الأرض من أموال ، وملكوا مثل ذلك معه ﴿لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة﴾ أي لجعلوا كل ما لديهم من أموال وذخائر ، فدية لأنفسهم من ذلك العقاب الشديد يوم القيامة ﴿وبدأ لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ أي وظهر له من أنواع العقوبات ما لم يكن في حسابهم قال أبو السعود : وهذه غاية من الوعيد لا غاية وراءها ، ونظيرها في الوعد ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ١٥٤ . (٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٨٦ . (٣) البحر المحيط ٧/ ٤٣٢ . (٤) حاشية الصاوي ٣/ ٣٧٥ .

وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

لهم من قُرَّةِ أعين ﴿١﴾ ﴿وبدأ لهم سيئات ما كسبوا﴾ أي وظهر لهم في ذلك اليوم المفرع سيئات أعمالهم التي اكتسبوها ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي وأحاط ونزل بهم من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزئون به قال ابن كثير : أي أحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدنيا ﴿٢﴾ ﴿فإذا مسَّ الإنسان ضرُّ دعانا﴾ أي فإذا أصاب هذا الإنسان الكافر شيء من الشدة والبلاء ، تضرع إلى الله وأتاب إليه ﴿ثم إذا خولناه نعمةً منا﴾ أي ثم إذا أعطيناه نعمةً منا تفضلاً عليه وكرماً ﴿قال إنما أُوتيته على علم﴾ أي قال ذلك الإنسان الكافر الجاحد إنما أعطيته على علمٍ مني بوجوه المكاسب والمتاجر ﴿بل هي فتنة﴾ أي ليس الأمر كما زعم بل هي اختبارٌ وامتحانٌ له ، لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطع أم يعصي ؟ ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن إعطاءهم المال اختبارٌ وابتلاءٌ فلذلك يبطلون ﴿قد قالها الذين من قبلهم﴾ أي قال تلك الكلمة والمقالة الكفار قبلهم كقارون وغيره حيث قال ﴿إنما أُوتيته على علمٍ عندي﴾ ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ أي فما نفعهم ما جمعوه من الأموال ، ولا ما كسبوه من الحطام ﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا﴾ أي فأنهم جزاء أعمالهم السيئة ﴿والذين ظلموا من هؤلاء﴾ أي والذين ظلموا من هؤلاء المشركين - كفار قريش - ﴿سيصيبهم سيئات ما كسبوا﴾ أي سيأنهم جزاء أعمالهم القبيحة كما أصاب أولئك قال البيضاوي : وقد أصابهم ذلك فإنهم قد قُحطوا سبع سنين حتى أكلوا الجيف وقُتل بيدرٍ صناديدهم ﴿٣﴾ ﴿وما هم بمعجزين﴾ أي وليسوا بفاتنين من عذابنا ، لا يعجزوننا هرباً ولا يفوتوننا طلباً . . ثم ردَّ عليهم زعمهم فيما أوتوا من المال وسعة الحال فقال ﴿أولم يعلموا أن الله يبسطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويقدر﴾ ؟ أي أولم يعلم هؤلاء المشركون أن الله يوسعُ الرزقَ على قوم ، ويضيِّقه على آخرين ؟ فليس أمر الرزق تابعاً لذكاء الإنسان أو غبائه ، إنما هو تابعٌ للقسمة والحكمة ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون﴾ أي إن في الذي ذكر لعبراً وحججاً لقومٍ يصدقون بآيات الله قال القرطبي : وخصَّ المؤمن بالذكر ، لأنه هو الذي يتدبر الآيات وينتفع بها ، ويعلم أن سعة الرزق قد يكون استدرجاً ، وأن تقيره قد يكون إعظماً ﴿٤﴾ .

(١) تفسير أبي السعود ٣١١/٤ . (٢) مختصر ابن كثير ٢٢٤/٣ . (٣) تفسير البيضاوي ١٥٦/٢ . (٤) تفسير القرطبي ٢٦٧/١٥ .

* قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِبُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا
أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنِي

قال الله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم.. إلى . . وقيل الحمد لله رب العالمين﴾
من آية (٥٣) إلى آية (٧٥) نهاية السورة

المناسبة: لما ذكر تعالى أحوال الفجرة المشركين، وذكر ما يكونون عليه في الآخرة من الذل والهوان، دعا المؤمنين إلى الإجابة والتوبة قبل فوات الأوان، وختم السورة بذكر عظمة الله وجلاله يوم الحشر الأكبر، حيث يكون العدل الإلهي والقسطاس المستقيم، ويساق السعداء إلى الجنة زمراً، والأشقياء إلى النار زمراً ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً..﴾ الآية .

اللغة: ﴿بغته﴾ فجأة ﴿مثوى﴾ مكان إقامة يقال: ثوى بالمكان أقام فيه ﴿مقاليد﴾ خزائن ومفاتيح ﴿زمرًا﴾ جماعات جماعات جمع زمرة وهي الجماعة ﴿خزنتها﴾ حُرَّاسها الموكلون عليها ﴿نتبوا﴾ تبوا المكان حلَّ ونزل فيه ﴿حافين﴾ محيطين به من أطرافه وجهاته .

التفسير: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ أخبر يا محمد عبادي المؤمنين الذين أفرطوا في الجنابة على أنفسهم بالمعاصي والآثام ﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾ أي لا تيأسوا من مغفرة الله ورحمته ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ أي إنه تعالى يعفو عن جميع الذنوب لمن شاء، وإن كانت مثل زبد البحر ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة، وظاهر الآية أنها دعوة للمؤمنين إلى عدم اليأس من رحمة الله لقوله ﴿قل يا عبادي﴾ وقال ابن كثير: هي دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإجابة، وإخباراً بأن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها مهما كثرت^(١) ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾ أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له بالطاعة والخضوع والعمل الصالح ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب﴾ من قبل حلول نعمته تعالى بكم ﴿ثم لا تنصرون﴾ أي ثم لا تجدون من يمنعكم من عذابه ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ أي اتبعوا القرآن العظيم، بامثال أوامره واجتناب نواهيه، والزمو أحسن كتاب أنزل إليكم فيه سعادتكم وفلاحكم ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب بغتةً وأنتم لا تشعرون﴾ أي من قبل أن ينزل بكم العذاب فجأة وأنتم غافلون، لا تدرون بمجيئه لتتداركوا وتتأهبوا ﴿أن تقول نفس﴾ أي لثلاث تقول بعض النفوس التي أسرفت في العصيان ﴿يا حسرتا على

(١) حاشية الصاوي ٣/٣٧٦ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٢٢٧ . (٣) الكشف ٤/١٠٥ .

(٤) القرطبي ١٥/٢٨٣ . (٥) نفس المرجع السابق ١٥/٢٦٨ .

عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٨﴾
 أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٩﴾ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا
 وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي
 جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦١﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ اللَّهُ خَلَقَ
 كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٣﴾

ما فرطت في جنب الله أي يا حسرتي وندامتني على تفريطي وتقصيري في طاعة الله وفي حقه قال مجاهد: يا حسرتا على ما ضيعت من أمر الله^(١) ﴿وإن كنت لمن الساخرين﴾ أي وإنَّ الحال والشأن أني كنت من المستهزئين بشريعة الله ودينه قال قتادة: لم يكفه أن ضييع طاعة الله حتى سخر من أهلها ﴿أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين﴾ «أو» للتنويع أي يقول الكافر والفاجر هذا أو هذا والمعنى لو أن الله هداني لاهتديت إلى الحق ، وأطعت الله ، وكنت من عباده الصالحين قال ابن كثير : يتحسر المجرم ويود لو كان من المحسنين المخلصين ، المطيعين لله عز وجل^(٢) ﴿أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين﴾ أي أو تقول تلك النفس الفاجرة حين مشاهدتها العذاب لو أن لي رجعة إلى الدنيا لأعمل بطاعة الله ، وأحسن سيرتي وعملي ﴿بلى قد جاءتك آياتي﴾ هو جواب قوله ﴿لو أن الله هداني﴾ والمعنى بلى قد جاءك الهدى من الله بإرساله الرسل ، وإنزاله الكتب ﴿فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾ أي فكذبت بالآيات ، وتكبرت عن الإيمان ، وكنت من الجاحدين قال الصاوي : إن الكافر أولاً يتحسر ، ثم يحتج بحجج واهية ، ثم يتمنى الرجوع إلى الدنيا^(٣) ، ولو ردَّ لعاد إلى ضلاله كما قال تعالى ﴿ولو ردُّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾ أي ويوم القيامة ترى أيها المخاطب الذين كذبوا على الله بنسبة الشريك له والولد وجوههم سوداء مظلمة بكذبهم وافترائهم ﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾ استفهام تقرير أي أليس في جهنم مقام ومأوى للمستكبرين عن الإيمان ، وعن طاعة الرحمن ؟ بلى إنَّ لهم منزلاً ومأوى في دار الجحيم . . ولما ذكر حال الكاذبين على الله ، ذكر حال المتقين لله فقال ﴿وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم﴾ أي وينجي الله المتقين بسبب سعادتهم وفوزهم بمطلوبهم وهو الجنة دار الأبرار ﴿لا يمسُّهم السُّوءُ ولا هم يحزنون﴾ أي لا يnalهم هلع ولا جزع ، ولا هم يحزنون في الآخرة ، بل هم آمنون ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ ثم عاد إلى دلائل الألوهية والتوحيد ، بعد أن أفاض في الوعد والوعيد فقال ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي الله جل وعلا خالق جميع الأشياء وموجد جميع المخلوقات ، والمتصرف فيها كيف يشاء ، لا إله غيره ولا رب سواه ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ أي هو القائم بتدبير كل شيء ﴿له

(١) القرطبي ٢٧١/١٥ . (٢) مختصر ابن كثير ٢٢٧/٣ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣٧٧/٣ .

لَهُمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي
 أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ
 الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا
 قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴿١٧﴾ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٧﴾

مقاليد السموات والأرض أي بيده جل وعلا مفاتيح خزائن كل الأشياء ، لا يملك أمرها ولا يتصرف فيها غيره قال ابن عباس : « مقاليد » مفاتيح ، وقال السدي : خزائن السموات والأرض بيده (١) ﴿والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون﴾ أي والذين كذبوا بآيات القرآن الظاهرة ، والمعجزات الباهرة ، أولئك هم الخاسرون أشد الخسران ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ ؟ أي قل يا محمد تأمروني أن أعبد غير الله بعد سطوع الآيات والدلائل على وحدانيته يا أيها الجاهلون ؟ قال ابن كثير : إن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ، ويعبدوا معه إلهه فنزلت الآية (٢) ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك﴾ اللام موثقة للقسم أي والله لقد أوحى إليك وإلى الأنبياء قبلك ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ أي لئن أشركت يا محمد ليطلن ويفسدن عملك الصالح ﴿ولتكونن من الخاسرين﴾ أي ولتكونن في الآخرة من جملة الخاسرين بسبب ذلك . . وهذا على سبيل الفرض والتقدير ، وإلا فالرسول ﷺ قد عصمه الله ، وحاشا له أن يشرك بالله ، وهو الذي جاء لإقامة صرح الإيمان والتوحيد قال أبو السعود : والكلام وارد على طريقة الفرض لتهييج الرسل ، وإقنات الكفرة ، والإيذان بغاية شناعة الإشراف وقبحه (٣) ﴿بل الله فاعبد﴾ أي أخلص العبادة لله وحده ، ولا تعبد أحداً سواه . ﴿وكن من الشاكرين﴾ أي وكن من الشاكرين لإيثار ربك ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ أي وما عرفوا الله حق معرفته ، ولا عظموه حق تعظيمه قال أبو حيان : أي ما عظموه حق تعظيمه ، وما قدروه في أنفسهم حق تقديره ، إذ أشركوا معه غيره ، وساواوا بينه وبين الحجر والخشب في العبادة (٤) . . ثم نبههم على عظمتهم وجلالة شأنه فقال ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾ الجملة حالية والمعنى ما عظموه حق تعظيمه والحال أنه موصوف بهذه القدرة الباهرة ، التي هي غاية العظمة والجلال ، فالأرض مع سعتها وبسطها في قبضة الرحمن يوم القيامة . ﴿والسّموات مطويات بيمينه﴾ والسّموات على سعتها وعظمتها مطويات بيمينه ، قال سفيان بن عيينة : كل ما وصف الله به نفسه في كتابه ، فتفسيره تلاوته والسكوت عليه وقال ابن كثير : وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية ، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف ، وفي الحديث «يقبض الله تعالى الأرض ، ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض؟» (٥)

(١) القرطبي ١٥/٢٧٤ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٢٢٨ . (٣) تفسير أبي السعود ٤/٣١٤ .

(٤) البحر المحيط ٧/٤٣٩ . (٥) الكشف ٤/١١٠ . (٦) أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري .

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَوَقَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٥٨﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ

﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي تنزهه الله وتقدس عما يصفه به المشركون من صفات العجز والنقص ، ثم ذكر تعالى أهوال الآخرة فقال ﴿ونُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هو قرن يُنفخ فيه إسرافيل عليه السلام بأمر الله ، والمراد بالنفخة هنا « نفخة الصُّعق » التي تكون بعد نفخة الفزع قال ابن كثير : وهي النفخة الثانية التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض ^(١) ﴿فصعق من في السموات ومن في الأرض﴾ أي فحُر ميتاً كل من في السموات والأرض ﴿إلا من شاء الله﴾ أي إلا من شاء الله بقاءه كحملة العرش ، والخور العين والولدان ﴿ثم نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ أي نُفِخَ فِيهِ نَفْخَةٌ أُخْرَى وهي نفخة الأحياء ﴿فإذا هم قيامٌ ينظرون﴾ أي فإذا جميع الخلائق الأموات يقومون من القبور ينظرون ماذا يُومرون ﴿وأشْرقتِ الأرضُ بنور ربِّها﴾ أي وأضاءت أرض المحشر بنور الله يوم القيامة ، حين تجلي الباري جل وعلا لفصل القضاء بين العباد ﴿ووضع الكتاب﴾ أي أحضرت صحائف أعمال الخلائق للحساب ﴿وجيء بالنبيين والشهداء﴾ أي وجيء بالأنبياء ليسألهم رب العزة عما أجابتهم به أمهم ، وبالشهداء وهم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم ^(٢) ، وقال السدي : هم الذين استشهدوا في سبيل الله ﴿وقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي وقُضِيَ بَيْنَ الْعِبَادِ جَمِيعاً بِالْقِسْطِ وَالْعَدْلِ ﴿وهم لا يُظلمون﴾ أي وهم في الآخرة لا يظلمون شيئاً من أعمالهم ، لا بنقص ثواب ، ولا بزيادة عقاب قال ابن جبير : لا يُنقص من حسناتهم ولا يزداد على سيئاتهم ﴿ووقَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي جوزي كل إنسان بما عمل من خيرٍ أو شرٍ ﴿وهو أعلم بما يفعلون﴾ أي هو تعالى أعلم بما عمل كل إنسان ، ولا حاجة به إلى كتاب ولا إلى شاهد ، ومع ذلك تشهد الكتب إلزاماً للحجة . . ثم فصلَّ تعالى مآل كل من الأشقياء والسعداء فقال ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زُمَرًا﴾ أي وسيق الكفرة المجرمون إلى نار جهنم جماعات جماعات ، كما يساق الأشقياء في الدنيا إلى السجون ﴿حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها﴾ أي حتى إذا وصلوا إليها فتحت أبواب جهنم فجأة لتستقبلهم ﴿وقال لهم خزناتها ألم يأتكم رسلٌ منكم يتلون عليكم آيات ربكم﴾ ؟ أي وقال لهم خزنة جهنم تقريباً وتوبيخاً : ألم يأتكم رسلٌ من البشر يتلون عليكم الكتب المنزلة من السماء ؟ ﴿ويُنذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ ؟ أي ويخوفونكم من شر هذا اليوم العصيب ؟ ﴿قالوا بلى

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٢٩ . (٢) هذا قول ابن زيد وهو الأظهر كما في قوله تعالى ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ فالسائق يسوقها إلى الحساب ، والشاهد يشهد عليها وهو الملك الموكل بالإنسان .

رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ
 ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا
 حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ
 لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُونَ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾

ولكن حَقَّتْ كلمة العذاب على الكافرين ﴿٧١﴾ أي قالوا بلى قد جاءونا وأنذرونا ، وأقاموا علينا الحجج والبراهين ، ولكننا كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقاوة قال القرطبي : وهذا اعتراف منهم بقيام الحجة عليهم ، والمراد بكلمة العذاب قوله تعالى ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾^(١) ﴿قِيلَ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها﴾ أي قيل لهم ادخلوا جهنم لتصلوا سعيها ماكثين فيها أبداً ، بلا زوال ولا انتقال ﴿فبئس مَثْوَى المتكبرين﴾ أي فبئس المقام والمأوى جهنم للمتكبرين عن الإيمان بالله وتصديق رسله ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زُمَرًا﴾ أي وسيق الأبرار المتقون لله إلى الجنة جماعات جماعات راكبين على النجائب قال القرطبي : سوق أهل النار طردهم إليها بالخزي والهوان ، كما يفعل بالمجرمين الخارجين على السلطان ، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان ، لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين ، كما يفعل بالوافدين على الملوك ، فشتان ما بين السوقين^(٢) ﴿حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها﴾ أي حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها كقوله تعالى ﴿جنات عدن مفتحة لهم الأبواب﴾ قال الصاوي : والحكمة في زيادة الواو هنا « وفتحت » دون التي قبلها ، أن أبواب السجون تكون مغلقة إلى أن يجيئها أصحاب الجرائم ، فتفتح لهم ثم تُغلق عليهم ، بخلاف أبواب السرور والفرح فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها فناسب دخول الواو هنا دون التي قبلها^(٣) ﴿وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ أي وقال لهم حراس الجنة : سلام عليكم أيها المتقون الأبرار ﴿طبتم﴾ أي طهرتم من دنس المعاصي والذنوب ، فادخلوا الجنة دار الخلود ، قال البيضاوي : وجواب « إذا » محذوف ، للدلالة على أن لهم من الكرامة والتعظيم ، ما لا يحيط به الوصف والبيان^(٤) قال ابن كثير : وتقديره إذا كان هذا سَعِدُوا ، وطابوا ، وسُرُّوا وفرحوا بقدر ما يكون لهم من النعيم^(٥) ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ أي وقالوا عند دخولهم الجنة واستقرارهم فيها : الحمد لله الذي حقق لنا ما وعدنا به من دخول الجنة قال المفسرون : والإشارة إلى وعده تعالى لهم بقوله ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾ ﴿وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء﴾ أي وملئنا أرض الجنة نتصرف فيها تصرف المالك في ملكه ونزل فيها حيث نشاء ، لا ينازعنا فيها أحد ﴿فنعم أجر العاملين﴾ أي فنعم أجر

(١) تفسير القرطبي ٢٨٤/١٥ . (٢) تفسير القرطبي ٢٨٥/١٥ .

(٣) حاشية الصاوي ٣٨١/١٣ . (٤) تفسير البيضاوي ١٤٧/٢ . (٥) مختصر ابن كثير ٣٣٢/٣ .

وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

العاملين بطاعة الله الجنة ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش﴾ أي وترى يا محمد الملائكة محيطين بعرش الرحمن ، محققين به من كل جانب ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ أي يسبحون الله ويمجدونه تليذاً لا تعبداً ﴿وقضى بينهم بالحق﴾ أي وقضى بين العباد بالعدل ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ أي وقيل الحمد لله على عدله وقضائه قال المفسرون : القائل هم المؤمنون والكافرون ، المؤمنون يمدون الله على فضله ، والكافرون يمدونه على عدله قال ابن كثير : نطق الكون أجمعه ، ناطقه وبهيمه ، لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله ، ولهذا لم يسند القول إلى قائل ، بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد^(١) .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿تكفروا .. وتشكروا﴾ وبين ﴿يرجو .. ويحذر﴾ وبين ﴿فوقهم .. وتحتهم﴾ وبين ﴿ضر .. ورحمة﴾ وبين ﴿الغيب .. والشهادة﴾ وبين ﴿يسط .. ويقدر﴾ وبين ﴿اهتدى .. وضل﴾ الخ .
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿يتوكل المتوكلون﴾ وكذلك في قوله ﴿أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ .
- ٣ - الأسلوب التهكمي ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار﴾ إطلاق الظلة عليها تهكم لأنها محرقة ، والظلة تقي من الحر .
- ٤ - المقابلة الرائعة ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ..﴾ الآية فقد قابل بين الله والأصنام ، وبين السرور والاشمئزاز ، وكذلك توجد مقابلة بين آيتي السعداء والأشقياء ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً﴾ وقابل ذلك بقوله ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ..﴾ والمقابلة أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب وهو من المحسنات البديعية .
- ٥ - الإيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾ ؟ حذف خبره وتقديره كمن طبع الله على قلبه ؟ ومثله ﴿أمن هو قانت آناء الليل﴾ ؟ أي كمن هو كافرٌ جاحدٌ لربه ؟
- ٦ - الأمر الذي يراد منه التهديد ﴿قل تمتع بكفرك﴾ ومثله ﴿اعملوا على مكاتكم﴾ للمبالغة في الوعيد .
- ٧ - المجاز المرسل ﴿أفأنت تنقذ من في النار﴾ ؟ أطلق المسبب وأراد السبب ، لأن الضلال سبب لدخول النار .

- ٨ - الاستعارة ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ أي مفاتيح خيراتها ، ومعادن بركاتها فشبّه الخيرات والبركات بخزائن واستعار لها لفظ المقاليد ، بمعنى المفاتيح ، ومعنى الآية خزائن رحمته وفضله بيده تعالى .
- ٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾ مثل لعظمته وكمال قدرته ، وحقارة الأجرام العظام التي تتحير فيها الأوهام بالنسبة لقدرته تعالى بمن قبض شيئاً عظيماً بكفه ، وطوى السموات بيمينه بطريق الاستعارة التمثيلية ، قال في تلخيص البيان : وفي الآية استعارة ومعنى ذلك أن الأرض في مقدوره كالذي يقبض عليه القابض ، فتستولي عليه كفه ، ويجوزه ملكه ، ولا يشاركه غيره ، والسموات مجموعات في ملكه ، ومضمومات بيمينه .
- ١٠ - الكناية ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾ جنبُ الله كنايةٌ عن حقِّ الله وطاعته ، وهذا من لطيف الكنايات .
- ١١ - الالتفات من التكلم إلى الغيبة ﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾ والأصل : لا تقنطوا من رحمتي قال علماء البيان : وفي الآية الكريمة ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم . .﴾ الآية من أنواع المعاني والبيان أمور حسان : منها إقباله تعالى على خلقه ونداؤه لهم ، ومنها إضافتهم إليه إضافة تشريف ، ومنها الالتفات من المتكلم إلى الغيبة ﴿من رحمة الله﴾ ومنها إضافة الرحمة للفظ الجلالة الجامع لجميع الأسماء والصفات ، ومنها الإتيان بالجملة المعرفة الطرفين المؤكدة بأن وضمير الفصل ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ .
- ١٢ - توافق الفواصل في الحرف الأخير ، وهو نهاية في الروعة والجمال اقرأ مثلاً قوله تعالى ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون . وأشرقَت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون . . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾ ألا تأخذك روعة هذا البيان ، برونقه ، وجماله ، وأدائه ، فينطلق لسانك بذكر الرحمن ؟ !

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الزمر »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة غافر مكية ، وهي تُعنى بأمور العقيدة كشأن سائر السور المكية ، ويكاد يكون موضوع السورة البارز هو المعركة بين « الحق والباطل » و« الهدى والضلال » ولهذا جاء جوُّ السورة مشحوناً بطابع العنف والشدة ، وكأنه جو معركة رهيبية يكون فيها الطعن والنزال ، ثم تسفر عن مصارع الطغاة فإذا بهم حطام وركام .

* ابتدأت السورة الكريمة بالإشادة بصفات الله الحسنى ، وآياته العظمى ، ثم عرضت لمجادلة الكافرين في آيات الله ، فمع وضوح الحق وسطوعه ، جادل فيه المجادلون ، وكابر فيه المكابرون .

* وعرضت السورة لمصارع الغابرين وقد أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فلم يفلت منهم إنسان .

* وفي ثنايا هذا الجو الرهيب ، يأتي مشهد حملة العرش ، في دعائهم الخاشع المنيب .

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد الآخرة وأهوالها ، فإذا العباد واقفون للحساب ، بارزون أمام الملك الديان ، يغمرهم رهبة وخشوع ، وإذا القلوب لدى الحناجر تكاد لشدة الفزع والهول تنخلع ، وفي ذلك الموقف الرهيب ، واليوم العصيب ، يلقي الإنسان جزاءه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

* ثم يأتي الحديث عن قصة الإيمان والطغيان ، ممثلة في دعوة موسى عليه السلام لفرعون الطاغية الجبار ، ففرعون يريد - بكبريائه وجبروته - أن يقضي على موسى وأتباعه خشية أن ينتشر الإيمان بين الأقوام ، وتبرز في ثنايا هذه القصة حلقة جديدة ، لم تُعرض في قصة موسى من قبل ، ألا وهي ظهور رجلٍ مؤمنٍ من آل فرعون يُخفي إيمانه ، يصدع بكلمة الحق في تَلَطُّفٍ وحذر ، ثم في صراحةٍ ووضوح ، وتنتهي القصة بهلاك فرعون الطاغية الجبار بالغرق في البحر مع أعوانه وأنصاره ، وبنجاة الداعية المؤمن وسائر المؤمنين .

* ثم تعرض السورة إلى بعض الآيات الكونية ، الشاهدة بعظمة الله ، الناطقة بوحدايته وجلاله ، الذي يشركون به ويكفرون بآياته ، وتضرب مثلاً للمؤمن والكافر بالبصير والأعمى ، فالؤمن على نور من الله وبصيرة ، والكافر يتخبط في الظلام .

* وتختتم السورة الكريمة بالحديث عن مصارع المكذبين ، والطغاة المتجبرين ، ومشهد العذاب يأخذهم وهم في غفلتهم سادرون .

التَّسْمِيَةُ : سميت «سورة غافر» لأن الله تعالى ذكر هذا الوصف الجليل - الذي هو من صفات الله الحسنی - في مطلع السورة الكريمة ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ وكرر ذكر المغفرة في دعوة الرجل المؤمن ﴿وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾ وتسمى سورة المؤمن لذكر قصة مؤمن آل فرعون .

اللُّغَاتُ : ﴿غافر﴾ الغفر : السترُ والمحو والتكفير ﴿الطُّوْلُ﴾ الإِنْعَامُ والتفضل ﴿يُدْحَضُوا﴾ يبطلوا ويزيلوا ، يقال : الباطلُ داحضٌ ، لأنه يزلق ويزل فلا يستقر ﴿حقت﴾ وجبت ولزمت ﴿مقت﴾ المقت : شدة البغض ﴿الرُّوحُ﴾ الوحيُ والنبوة سمي رُوحاً لأن القلوب تحيا به كما تحيا الأبدان بالأرواح ﴿التَّلَاقُ﴾ الاجتماع في الحشر ﴿بارزون﴾ ظاهرون لا يستترهم شيء ﴿الأزفة﴾ اسم للقيامة سميت أزفة لقربها ، يقال أزف الشيء إذا اقترب ﴿واق﴾ دافع يدفع عنهم العذاب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ ﴿٣﴾
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٤﴾

التَّفْسِيرُ : ﴿حَمْ﴾ الحروف المقطعة للتنبية على إعجاز القرآن ، وللإرشاد على أن هذا القرآن المعجز منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية^(١) ﴿تنزيل الكتاب من الله﴾ أي هذا القرآن تنزيل من الله ﴿العزيز العليم﴾ أي العزيز في ملكه ، العليم في خلقه ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ أي الذي يعفو عن ذنوب العباد ، ويقبل توبة العصاة لمن تاب منهم وأتاب ﴿شديد العقاب﴾ أي شديد العقاب لمن تكبر وطغى ، وأعرض عن طاعة المولى ﴿ذي الطول﴾ أي ذي الفضل والإنعام ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا معبود بحق إلا الله ، ولا رب في الوجود سواه ﴿إليه المصير﴾ أي إليه وحده مرجع الخلائق فيجازيهم بأعمالهم ، وإنما قدم المغفرة والتوبة على العقاب ، للإشارة إلى سعة الفضل وأن رحمته سبقت

(١) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقرة ، وهذه السورة واحدة من سبع سور كلها تبدأ بالحرفين (حاميم) وتسمى الحواميم السبع أو

مَا يَجِدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤٠﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٤١﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٢﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً

عذابه ، ثم لما ذكر أن القرآن هداية الله للعالمين ، أعقبه بذكر المجادلين المعاندين فقال ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ أي ما يدفع الحق ويجادل في هذا القرآن - بعد وضوح آياته وظهور إعجازه - إلا الجاحدون لآيات الله ، المعاندون لرسوله ﴿ فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ أي فلا تغتر أيها العاقل بتصرفهم وتقلبهم في هذه الدنيا ، بالمساكن والمزارع ، والممالك والتجارات ، فإنهم أشقى الناس ، وما هم عليه من النعيم متاع قليل ، وظل زائل ، فإني وإن أهملتهم لا أهملهم ، بل أخذهم بعد ذلك النعيم أخذ عزيز مقتدر قال في التسهيل : والآية تسلية للنبي ﷺ ووعيد شديد للكفار^(١) ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ﴾ أي كذب قبل كفار مكة أقوام كثيرون ، منهم قوم نوح والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم ولم يقبلوا ما جاءوا به من عند الله كقوم عاد وثمود وفرعون وأمثالهم ﴿ وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ﴾ أي وهمت كل أمة من الأمم المكذبين أن يقتلوا رسولهم ويبطشوا به قال ابن كثير : أي حرصوا على قتله بكل ممكن ومنهم من قتل رسوله^(٢) ﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ أي جادلوا رسولهم بالباطل ليزيلوا ويبطلوا به الحق الواضح الجلي ﴿ فأخذتهم ﴾ أي فأهلكتهم إهلاكاً مريعاً ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ استفهام تعجيب أي فكيف كان عقابي لهم ؟ ألم يكن شديداً فظيلاً ؟ ﴿ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا ﴾ أي وكذلك وجبت كلمة العذاب على هؤلاء المكذبين من قومك ، كما وجبت لمن سبقهم من الكفار ﴿ أنهم أصحاب النار ﴾ أي لأنهم أهل النار ، قال الطبري : أي كما حق على الأمم التي كذبت رسولها وحل بها عقابي ، كذلك وجبت كلمة العذاب على الذين كفروا بالله من قومك لأنهم أصحاب النار^(٣) . ثم ذكر تعالى حال الملائكة الأطهار ، المؤمنين الأبرار ، بعد أن ذكر الكفار والفجار فقال ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ﴾ أي هؤلاء العباد المقربون - حملة العرش - ومن حول العرش - ومن حوله العرش من أشرف الملائكة وأكابرهم ، ممن لا يُحصى عددهم إلا الله ، هم في عبادة دائبة لله ، ينزهونه عن صفات النقص ، ويشنون عليه بصفات الكمال ﴿ ويؤمنون به ﴾ أي ويصدقون بوجوده تعالى ، وبأنه لا إله لهم سواه ، ولا يستكبرون عن عبادته قال الزمخشري : فإن قلت : ما فائدة قوله ﴿ ويؤمنون به ﴾ ولا يخفى أن حملة العرش وجميع الملائكة يؤمنون بالله ؟ فالجواب أن ذلك إظهار لفضيلة الإيمان وشرفه والترغيب فيه^(٤) ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ أي وهم مع عبادتهم واستغراقهم في تسبيح الله وتمجيده ، يطلبون من

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٢/٤ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٢٣٥ . (٣) تفسير الطبري ٤٣/٢٤ . (٤) تفسير الكشاف ٤/١١٨ .

وَعَلِمَا فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾

الله المغفرة للمؤمنين قائلين ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً﴾ أي يا ربنا وسعت رحمتك وعلمك كل شيء قال المفسرون: وفي وصف الله تعالى بالرحمة والعلم - وهو ثناءٌ قبل الدعاء - تعليمُ العباد أدب السؤال والدعاء ، فهم يبدأون دعاءهم بأدب ويستمطرون إحسانه وفضله وإنعامه ^(١) ﴿فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك﴾ أي فاصفح عن المسيئين المذنبين ، التائبين عن الشرك والمعاصي ، المتبعين لسبيل الحق الذي جاء به أنبيأؤك ورسلك ﴿وقهم عذاب الجحيم﴾ أي واحفظهم من عذاب جهنم ﴿ربنا وأدخلهم جناتٍ عدنٍ التي وعدتهم﴾ أي أدخلهم جنات النعيم والإقامة التي وعدتهم إياها ﴿ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ أي وأدخل الصالحين من الآباء والأزواج والأولاد في جنات النعيم أيضاً ليتم سرورهم بهم قال ابن كثير: أي اجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في الجنة بمنازل متجاوزة ^(٢) ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي العزيز الذي لا يُغلب ولا يمتنع عليه شيء ، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة ﴿وقهم السيئات﴾ هذا من تمام دعاء الملائكة أي احفظهم يا رب من فعل المنكرات والفواحش التي توبق أصحابها ﴿ومن تق السيئات يومئذٍ فقد رحمته﴾ أي ومن حفظته من نتائجها وعواقبها يوم القيامة ، فقد لطفت به ونجته من العقوبة ﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾ أي وذلك الغفران ودخول الجنان ، هو الظفر العظيم الذي لا ظفر مثله . . . ولما تحدث عن أحوال المؤمنين ، ذكر شيئاً من أحوال الكافرين فقال ﴿إن الذين كفروا يُنادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم﴾ أي تناديهم الملائكة يوم القيامة على جهة التوبيخ والتقريع : لبغض الله الشديد لكم في الدنيا أعظم من بغضكم اليوم لأنفسكم ﴿إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾ أي حين كنتم تدعون إلى الإيمان فتكفرون كبراً وعتواً قال قتادة : بغضُ الله لأهل الضلالة حين عُرض عليهم الإيمان في الدنيا فأبوا أن يقبلوه ، أكبرُ مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله ^(٣) ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ أي قال الكفار لما رأوا الشدائد والأحوال ربنا أمتنا مرتين ، وأحييتنا مرتين ﴿فاعترفنا بذنوبنا﴾ أي فاعترفنا بما جيناه من الذنوب في الدنيا ﴿فهل إلى خروجٍ من سبيل﴾ أي فهل تردنا إلى الدنيا لنعمل بطاعتك ؟ وهل تخرجنا من النار لنسلك طريق الأبرار ؟ قال المفسرون : الموتة

(١) انظر البحر المحيط ٧/٤٥١ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٢٣٦ . (٣) نفس المرجع ٣/٢٣٧ .

ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكُ بِهِ تُؤْمِنُونَ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٣﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٤﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٥﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

الأولى حين كانوا في العدم ، والموتة الثانية حين ماتوا في الدنيا ، والحياة الأولى حياة الدنيا ، والحياة الثانية حياة البعث يوم القيامة ، فهاتان موتتان وحياتان (١) ، وإنما قالوا ذلك على سبيل التعطف والتوسل إلى رضى الله ، بعد أن عاينوا العذاب ، وقد كانوا يكفرون وينكرون ، ولهذا جاء الجواب ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ أي ذلكم العذاب والخلود في جهنم بسبب كفركم وعدم إيمانكم بالله ، فإذا دعيتم إلى التوحيد كفرتم ﴿وَإِنْ يُشْرَكُ بِهِ تُؤْمِنُونَ﴾ وإن دعيتم إلى اللات والعزى وأمثالهما من الأصنام ، آمنتكم وصدقتم بالوهيتها ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أي فالقضاء لله وحده ، لا للأوثان والأصنام ، ولا سبيل إلى نجاتكم ، لأن الله هو المتعالى على خلقه ، العظيم في ملكه الذي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد . . . ولما ذكر تعالى ما يوجب التهديد الشديد للمشركين ، أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته ليصير بمنزلة البرهان على عدم جواز عبادة الأوثان فقال ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي الله جل وعلا هو الذي يريكم أيها الناس العلامات الدالة على قدرته الباهرة في مخلوقاته ، في العالم العلوي والسفلي الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أي وينزل لكم من السماء المطر الذي هو سبب للرزق ، وبه تخرج الزروع والثمار ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ أي وما يعتبر ويتعظ بهذه الآيات الباهرة ، إلا من يرجع إلى الله بالتوبة والإيتابة ، والعمل الصالح البعيد عن الرياء والنفاق ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي فاعبدوا الله أيها المؤمنون مخلصين له العبادة والطاعة ولا تعبدوا معه غيره ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ هذا للمبالغة أي اعبدوه وأخلصوا له قلوبكم ، حتى ولو كره الكافرون ذلك ، وغازتهم إخلاصكم وقتلوكم عليه ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ أي عظيم الشأن والسلطان ، صاحب الرفعة والمقام العالى ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي صاحب العرش العظيم ، الذي هو أعظم المخلوقات ، ولا شيء يشبهه من مخلوقات الله قال ابن كثير : أخبر تعالى عن عظمتهم وكبريائهم ، وارتفاع عرشه العظيم العالى على جميع مخلوقاته كالسقف لها ، وقد ذكر أن العرش من ياقوته حمراء ولا يعلم سعته إلا الله (٢) وقال أبو السعود : وكون العرش العظيم المحيط بأكناف العالم العلوي والسفلي ، تحت ملكوته وقبضة قدرته ، مما يقضي بكون علو شأنه وعظم سلطانه ، في غاية لا غاية وراءها (٣) ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي ينزل الوحي على من شاء من خلقه ، ويختص بالرسالة والنبوة من أراد من عباده ، وإنما سمى الوحي روحاً لأنه يسري في القلوب كسريان الروح في الجسد قال القرطبي : سمأه روحاً لأن

(١) هذا قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة ، قالوا وهذه مثل قوله تعالى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمُوتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾

الآية ؟ (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٣٨ . (٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٥ .

لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴿١٦﴾ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٧﴾
 الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ
 الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينٌ ﴿١٩﴾ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿٢٠﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي

الناس يحبون به من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح^(١) ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ أي ليخوف الرسول الموحى إليه يوم القيامة الكبرى ، حيث يلتقي العباد جميعاً ليحاسبوا على أعمالهم ، ويلتقي الخلق بالخالق في ساعة الحساب قال قتادة : يلتقي فيه أهل السماء بأهل الأرض ، والخالق والخلق^(٢) ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ أي يوم هم ظاهرون بادون للعيان ، لا شيء يكتهم ولا يظلمهم ولا يسترهم من جبل أو أكمة أو بناء ، لأنهم في أرض مستوية هي أرض المحشر ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي لا يخفى على الله شيء من أحوالهم وأعمالهم ولا من سرائرهم وبواطنهم قال الصاوي : والحكمة في تخصيص ذلك اليوم - مع أن الله لا يخفى عليه شيء في سائر الأيام - أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا أنهم إذا استتروا بالحيطان مثلاً لا يراهم الله ، وفي هذا اليوم لا يتوهمون هذا التوهم^(٣) ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أي ينادي الله سبحانه والناس بارزون في أرض المحشر : لمن الملك اليوم ؟ ويسكت الخلائق هيبةً لله تعالى وفزعاً ، فيجيب تعالى نفسه قائلاً ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي لله المتفرد بالملك ، الذي قهر بالغبلة كل ما سواه قال الحسن : هو تعالى السائل وهو المجيب ، لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه ، فيجيب نفسه^(٤) ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي في ذلك اليوم - يوم القضاء والفصل بين العباد - تُجازى كل نفس بما عملت من خير أو شر ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ أي لا يُظلم أحد شيئاً ، لا بنقص ثواب ، ولا بزيادة عقاب ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي سريع حسابه ، لا يشغله شأن عن شأن ، فيحاسب الخلائق جميعاً في وقت واحد قال القرطبي : كما يرزقهم في ساعة واحدة ، يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة ، وفي الخبر : « لا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار »^(٥) ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ﴾ أي خوفهم ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة قال ابن كثير : « الأزفة » اسم من أساء القيامة ، سميت بذلك لقربها كقوله تعالى ﴿أَزْفَتِ الْأَزْفَةَ﴾^(٦) ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ أي تكاد قلوبهم لشدة الخوف والجزع تبلغ الحناجر - وهي الحلق - مكان البلعوم ﴿كَاطْمِينَ﴾ أي ممتلئين غماً وحسرة شأن المكروب قال في التسهيل : معنى الآية أن القلوب قد صعدت من الصدور لشدة الخوف حتى بلغت الحناجر ، ويحتمل أن يكون ذلك حقيقة أو مجازاً عبر به عن شدة الخوف والحنجرة هي الحلق^(٧) ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي ليس للظالمين صديق ينفعهم ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي ولا شفيع يشفع لهم لينقذهم من شدة العذاب ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ أي يعلم جلّ وعلا العين الخائنة بمسارقتها النظر إلى محرم قال ابن

(١) تفسير القرطبي ٢٩٩ / ١٥ . (٢) مختصر ابن كثير ٢٣٨ / ٣ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٥ / ٤ .

(٤) تفسير القرطبي ٣٠٠ / ١٥ . (٥) تفسير القرطبي ٣٠١ / ١٥ . ومعنى « يقيل » من القيلولة وهي الاستراحة وقت الظهر .

(٦) مختصر ابن كثير ٢٣٩ / ٣ . (٧) التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ٤ .

الْصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾
 * أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا
 فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
 فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

عباس : هو الرجل يكون جالساً مع الناس ، فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها ﴿وما تخفي الصدور﴾ أي ويعلم السرّ المستور تخفيه الصدور ﴿والله يقضي بالحق﴾ أي يقضي ويحكم بالعدل ﴿والذين يدعون من دونه﴾ أي والذين يعبدونهم من دون الله من الأوثان والأصنام ﴿لا يقضون بشيء﴾ أي لا يحكم لهم أصلاً فكيف يكونون شركاء لله ؟ قال أبو السعود : وهذا تهكم بهم لأن الجهاد لا يقال في حقه يقضي أو لا يقضي ^(١) ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ أي هو السميع لأقوال العباد ، البصير بأفعالهم ﴿أولم يسيروا في الأرض﴾ ؟ أي أولم يعتبر هؤلاء المشركون في أسفارهم بما يرون من آثار المكذبين ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ أي فينظروا ما حلّ بالمكذبين من العذاب والنكال ؟ فإنّ العاقل من اعتبر بغيره ﴿كانوا هم أشدّ منهم قوة﴾ أي كانوا أشدّ قوةً من هؤلاء الكفار من قومك ﴿وآثاراً في الأرض﴾ أي أقوى آثاراً في الأرض من الحصون والقصور والجند الأشداء ، ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أهلكهم الله لما كذبوا الرسل ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي أهلكهم الله إهلاكاً فظيماً بسبب إجرامهم وتكذيبهم رسل الله ﴿وما كان لهم من الله من واقٍ﴾ أي وما كان لهم أحد يدفع عنهم عذاب الله ، ولا يقيهم من عقابه . . ثم ذكر تعالى سبب عقابه لهم فقال ﴿ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات الباهرات ، والآيات الساطعات الواضحات ﴿فكفروا فأخذهم الله﴾ أي فكفروا مع هذا البيان والبرهان فأهلكهم الله ودمرهم ﴿إنه قوي﴾ أي إنه تعالى قوي لا يقهر ، ذو قوة عظيمة وبأس شديد ﴿شديد العقاب﴾ أي عقابه شديد لمن عصاه ، وعذابه أليم وجيع ، أعاذنا الله من عقابه وأجارنا من عذابه .

قال الله تعالى : ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبين . . إلى . . أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾
 من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٤٦) .

المناسكة : لما ذكر تعالى ما حلّ بالكفار من العذاب والدمار ، أردفه بذكر قصة موسى مع فرعون تسلياً لرسول الله ﷺ عما يلقاه من الأذى والتكذيب ، وبياناً لسنة الله تعالى في إهلاك الظالمين ، ثم ذكر

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقُرُونًا فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ

موقف مؤ من آل فرعون ونصيحته لقومه ، وهي مواقف بطولية مشرقة في وجه الطغيان .

اللفظة : ﴿استحيوا﴾ استبقوا بناتهم على قيد الحياة ﴿ضلال﴾ ضياع وبطلان ﴿عذت﴾ اعتصمت وتحصنت والتجأت ﴿ظاهرين﴾ غالبين مستعلين ﴿بأس الله﴾ عذابه وانتقامه ﴿دأب﴾ عادة وشأن ﴿التناد﴾ يوم القيامة للنداء فيه إلى المحشر ، أو لمناداة الناس بعضهم بعضاً قال أمية بن الصلت :

وبث الخلق فيها إذ دحأها فهم سكأنها حتى التناد^(١)
 ﴿عاصم﴾ مانع ودافع ﴿صرحاً﴾ قصرأ وبناءً عظيماً عالياً ﴿تباب﴾ خسران وهلاك ﴿لا جرم﴾ حقاً ولا محالة ﴿حاق﴾ نزل وأحاط .

التفسير : ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد بعثنا رسولنا موسى بالآيات البينات ، والدلائل الواضحات ، وبالبرهان البين الظاهر وهو معجزة اليد والعصا ﴿إلى فرعون وهامان وقارون﴾ أي إلى فرعون الطاغية الجبار ، ووزيره هامان ، وقارون صاحب الكنوز والأموال قال في البحر : وخص قارون وهامان بالذكر لمكانتهما في الكفر ، ولأنهما أشهر أتباع فرعون^(٢) ﴿فقالوا ساحر كذاب﴾ أي فقالوا عن موسى إنه ساحر فيما أظهر من المعجزات ، كذاب فيما ادعاه أنه من عند الله ، وصيغة كذاب للمبالغة ﴿فلما جاءهم بالحق من عندنا﴾ أي فلما جاءهم بالمعجزات الباهرة التي تدل على صدقه ، والتي أيده الله بها ﴿قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم﴾ أي اقتلوا الذكور لثلاث يتناسلوا ، واستبقوا الإناث للخدمة قال الصاوي : وهذا القتل غير الأول ، لأن فرعون بعد ولادة موسى أمسك عن قتل الأولاد ، فلما بُعث موسى وعجز عن معارضته أعاد القتل في الأولاد ليمتنع الناس من الإيمان ، ولثلاث يكثر جمعهم فيكيده ، فأرسل الله عليهم أنواع العذاب كالضفادع والقمل والدم والطوفان ، إلى أن خرجوا من مصر فأغرقهم الله تعالى وجعل كيدهم في نحورهم^(٣) ﴿وما كيد الكافرين إلا في ضلال﴾ أي وما تدبيرهم ومكرهم إلا في خسران وهلاك ، لأن الله لا يُنجح سعيهم ﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى﴾ أي قال فرعون الجبار : اتركوني حتى أقتل لكم موسى ﴿وليدع ربّه﴾ أي وليناد ربه حتى يخلصه مني ، وإنما ذكره على سبيل الاستهزاء وكأنه يقول : لا يهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى ، وغرضه أن يوهمهم بأنه إنما امتنع عن قتله رعاية لقلوب أصحابه قال أبو حيان : والظاهر أن فرعون لعنه الله كان قد

(١) القرطبي ٣١٠/١٥ . (٢) البحر المحيط ٧/٤٥٩ . (٣) حاشية الصاوي ٦/٤ .

وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٧٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٧٨﴾

استيقن أنه نبي ، وأن ما جاء به آيات باهرة وما هو بسحر ، ولكن الرجل كان فيه خبث وجبروت وكان قتالاً سفاكاً للدماء لأهون شيء ، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه يثل عرشه ويهدم ملكه ، ولكنه يخاف إن هم يقتله أن يعاجل بالهلاك ، وكان كلامه للتمويه على قومه وإيهامهم أنهم هم الذين يكفونه ، وما كان يكفه إلا شدة الخوف والفرع^(١) ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم﴾ أي إني أخشى أن يغير ما أنتم عليه من عبادتكم لي إلى عبادة ربه ﴿أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ أي أو أن يثير الفتن والقتال في بلدكم ، ويكون بسببه الهرج ، وهذا كما قال المثل « صار فرعون واعظاً »^(٢) ﴿وقال موسى إني عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي إني استجرت بالله واعتصمت به ليحفظني ﴿من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ أي من شر كل جبار عنيد متكبر عن الإيمان بالله ، لا يصدق بالآخرة قال في التسهيل : وإنما قال ﴿من كل متكبر﴾ ولم يذكره باسمه ليشمل فرعون وغيره ، وليكون فيه وصف لغير فرعون بذلك الوصف القبيح^(٣) ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه﴾ قال المفسرون : كان هذا الرجل ابن عم فرعون وكان قبطياً يخفي إيمانه عن فرعون ، فلما سمع قول الجبار متوعداً موسى بالقتل نصحهم بقوله ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾ استفهام إنكاري للتبكيث عليهم أي أتقتلون رجلاً لا ذنب له إلا لأجل أن قال : ربي الله من غير تفكير ولا تأمل في أمره ؟ ﴿وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾ أي والحال أنه قد أتاكم بالمعجزات الظاهرة التي شاهدتموها من عند ربكم ﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه﴾ أي إن كان كاذباً في دعوى الرسالة فضرر كذبه لا يتعداه قال القرطبي : ولم يكن ذلك لشك منه في رسالته وصدقه ، ولكن تلطفاً في الاستكفاف ، واستنزاه عن الأذى^(٤) ﴿وإن يك صادقاً يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ أي وإن كان صادقاً في دعواه أصابكم بعض ما وعدكم به من العذاب ﴿إن الله لا يهدي من هو مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي لا يوفق للهداية والإيمان من هو مسرف في الضلال ، مبالغ في الكذب على الله قال الإمام الفخر : وفي هذا إشارة إلى رفع شأن موسى لأن الله هداه وأيده بالمعجزات ، وتعريض فرعون في أنه مسرف في عزمه على قتل موسى ، كذاب في إقدامه على ادعاء الإلهية ، والله لا يهدي من هذا شأنه

(١) البحر المحيط ٧/٤٥٩ . (٢) قال في الظلال « هل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال عن موسى تلك المقالة ؟ أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح ؟ أليست هي كلمة الباطل الكالغ في وجه الحق الجميل ؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث ، لإثارة الشبهات في وجه الإيمان الهاديء ؟ إنه منطوق واحد يتكرر كلما التقى الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والصالح والطغيان ، على توالي الزمان واختلاف المكان ، والقصة قديمة تعرض بين الحين والحين » . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٥ . (٤) تفسير القرطبي ٣٠٧/١٥ .

يَنْقُومَ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٢٢﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٢٣﴾ وَيَنْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٢٤﴾

وصفته ، بل يبطله ويهدم أمره^(١) وقال في البحر : هذا نوعٌ من أنواع علم البيان يسميه علماءنا « استدراج المخاطب » وذلك أنه لما رأى فرعون قد عزم على قتل موسى ، وقومه على تكذيبه ، أراد الانتصار له بطريق يُخفي عليهم بها أنه متعصبٌ له ، وأنه من أتباعه ، فجاءهم بطريق النصيح والملاطفة فقال ﴿ أتقتلون رجلاً ﴾ ولم يذكر اسمه بل قال رجلاً ليوهمهم أنه لا يعرفه ، ثم قال ﴿ أن يقول ربي الله ﴾ ولم يقل رجلاً مؤمناً بالله أو هو نبيُّ الله ، إذ لو قال ذلك لعلموا أنه متعصب ولم يقبلوا قوله ، ثم أتبعه بقوله ﴿ وإن يك كاذباً ﴾ فقدّم الكذب على الصدق موافقةً لرأيهم فيه ثم تلاه بقوله ﴿ وإن يك صادقاً ﴾ ولم يقل هو صادق وكذلك قال ﴿ يُصِيبُكُمْ بِعَضِّ الَّذِي يَعِدْكُمْ ﴾ ولم يقل كلُّ ما يعدكم ولو قال ذلك لعلموا أنه متعصب له ، وأنه يزعم نبوته وأنه يصدّقه ، ثم أتبعه بكلام يفهم منه أنه ليس بمصدق له وهو قوله ﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرفٌ كذّابٌ ﴾ وفيه تعريضٌ بفرعون ، إذ هو في غاية الإسراف والكذب على الله ، إذ ادعى الألوهية والربوبية^(٢) ﴿ يا قوم لكم الملكُ اليومَ ظاهرين في الأرض ﴾ كرر النصيح مع التلطف والمعنى : أنتم غالبون عالون على بني إسرائيل في أرض مصر قد قهرتموهم واستعبدتموهم اليوم ﴿ فمن ينصرنا من بأسِ الله إن جاءنا ﴾ أي فمن ينقذنا من عذاب الله وينجيننا منه إن قتلتم رسوله قال الرازي : وإنما قال ﴿ ينصرنا ﴾ و﴿ جاءنا ﴾ لأنه كان يُظهر لهم أنه منهم ، وأن الذي ينصحهم به هو مشارك لهم فيه^(٣) . . . وهنا تأخذ فرعون العزة بالإثم ، ويستبدُّ به الجبروت والطغيان ﴿ قال فرعونُ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ أي ما أشير عليكم برأيي سوى ما ذكرته من قتل موسى حسماً لمادة الفتنة ﴿ وما أهديكُم إلا سبيلَ الرشاد ﴾ أي وما أهديكُم بهذا الرأي إلا طريق الصواب والصلاح ﴿ وقال الذي آمن يا قوم إنني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ أي أخشى عليكم مثل أيام العذاب التي عذّب بها المتحزبون على الأنبياء ﴿ مثل دابِ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمود ﴾ هذا تفسير للأحزاب أي مثل عادة قوم نوح وعاد وثمود وما أصابهم من العذاب والدمار بتكذيبهم لرسولهم ﴿ والذين من بعدهم ﴾ أي والمكذبين بعد أولئك كقوم لوط ﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ أي لا يعاقب العباد بدون ذنب قال الزمخشري : أي إن تدميرهم كان عدلاً وقسطاً لأنهم استوجبوه بأعمالهم ، وفيه مبالغة حيث جعل المنفي إرادة الظلم ، ومن كان بعيداً عن إرادة الظلم ، كان عن الظلم أبعد^(٤) ﴿ ويا قوم إنني أخاف عليكم يومَ التَّنَادِ ﴾ خوفهم بعذاب الآخرة بعد أن خوفهم بعذاب الدنيا والمعنى إنني أخاف عليكم من ذلك

(١) التفسير الكبير للرازي ٥٩/٢٧ . (٢) البحر المحيط ٤٦١/٧ . (٣) التفسير الكبير للرازي ٥٩/٢٧ . (٤) تفسير الكشاف ١٢٨/٤ .

يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَ كُرَيْسُ يَوْمَ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبْرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ

اليوم الرهيب يوم الحشر الأكبر ، حيث ينادي المجرمون بالويل والثبور ﴿دعوا هنالك ثبوراً﴾ ﴿يوم تولون مدبرين﴾ أي تولون منهزمين من هول عذاب جهنم قال المفسرون : إن الكفار إذا سمعوا زفير النار أدبروا هاربين ، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة يتلقونهم يضربون وجوههم ، فيرجعون إلى مكانهم فتلقفهم جهنم ﴿ما لكم من الله من عاصم﴾ أي ليس لكم مانع ولا دافع يصرف عنكم عذاب الله ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ أي ومن يضلله الله فليس له من يهديه إلى طريق النجاة ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾ أي ووالله لقد جاءكم يوسف بن يعقوب من قبل موسى بالمعجزات الظاهرات ﴿فما زلتهم في شك مما جاءكم به﴾ أي فلم تزالوا شاكين في رسالته كافرين بما جاء به من عند الله قال المفسرون : المراد أبأؤكم وأصولكم ﴿حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا﴾ أي حتى إذا مات قلتم على سبيل التشهّي والتمني من غير حجة ولا برهان لن يأتي أحد يدعي الرسالة بعد يوسف قال أبو حيان : وليس هذا تصديقاً لرسالة يوسف ، كيف وما زالوا في شك منه ، وإنما المعنى لا رسول من عند الله فيبعثه إلى الخلق ، ففيه نفي الرسول ونفي بعثته ^(١) ﴿كذلك يضلُّ الله من هو مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ أي مثل ذلك الضلال الفظيع يضلُّ الله كل مسرف في العصيان ، شاك في الدين ، بعد وضوح الحجج والبراهين ﴿الذين يجادلون في آياتِ الله بغير سلطانِ آتاهم﴾ هذا من تنمة كلام الرجل المؤمن والمعنى الذين يجادلون في شريعة الله بغير حجة وبرهان جاءهم من عند الله ﴿كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا﴾ أي عظم بغضاً عند الله وعند المؤمنين جدالهم بغير برهان قال في البحر : عدل الواعظ عن مخاطبتهم إلى الإسم الغائب ، لحسن محاورته لهم واستجلاب قلوبهم ، لئلا يفجأهم بالخطاب ، وفي قوله ﴿كبر مقتاً﴾ ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم ، كأنه خارج عن حد أمثاله من الكبائر ^(٢) ﴿كذلك يطمعُ الله على كلِّ قلبٍ متكبرٍ جبارٍ﴾ أي كما ختم على قلوب هؤلاء المجادلين كذلك يختم بالضلال على قلب كل متكبر عن الإيمان ، متجبر على العباد ، حتى لا يعقل الرشاد ، ولا يقبل الحق ، وإنما وصف القلب بالتكبر والجبروت لكونه مركزهما ومنبعهما ، وهو سلطان الأعضاء ، فمتى فسد فسدت ﴿وقال فرعونُ يا هامان ابن لِي صِرْحاً﴾ أي قال فرعون لوزيره هامان ابن لي قصرأ عالياً ، وبناءً شامخاً منيفاً قال القرطبي : لما قال مؤ من آل فرعون ما

(١) البحر المحيط ٧ / ٤٦٤ .

(٢) نفس المرجع السابق ٧ / ٤٦٥ .

الْأَسْبَبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ
سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ
الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا
مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

قال ، وخاف فرعون أن يتمكن كلامه في قلوب القوم ، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد ، فأمر وزيره هامان ببناء الصرح^(١) ﴿لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السموات﴾ أي لعلي أصل وأنتهي إلى طرق السموات وما يؤدي إليها ، وكررها للتفخيم والبيان^(٢) ﴿فأطلع إلى إله موسى﴾ أي فأنظر إلى إله موسى نظر عيان ﴿وإني لأظنه كاذباً﴾ أي وإني لأعتقد موسى كاذباً في ادعائه أن له إلهاً غيري قال أبو حيان : وبلوغ أسباب السموات غير ممكن ، لكن فرعون أبرزه في صورة الممكن تمويهاً على سامعيه ، ولما قال ﴿فأطلع إلى إله موسى﴾ كان ذلك إقراراً بالآله فلذلك استدرك هذا الإقرار بقوله ﴿وإني لأظنه كاذباً﴾^(٣) وكذلك زين لفرعون سوء عمله ﴿أي ومثل ذلك التزيين زين لفرعون عمله السيء حتى رآه حسناً﴾ وصد عن السبيل ﴿أي ومنع بضلاله عن طريق الهدى﴾ وما كيد فرعون إلا في تباب ﴿أي وما تدبير فرعون ومكره إلا في خسارة وهلاك ، خسر ملكه في الدنيا بالغرق ، وفي الآخرة بالخلود في النار﴾ وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴿كرّر مؤمن آل فرعون نصحه لهم بعد تلك المراوغة التي لقيها من فرعون ، ودعا قومه إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ، وكشف لهم عن قيمة الحياة الزائلة ، وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية ، وحذّرهم من عذاب الله ومعنى الآية : امتثلوا يا قوم أمري واسلكوا طريقي أرشدكم إلى طريق الفوز والنجاة - طريق الجنة - ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾ أي ليست الدنيا إلا متاعاً زائلاً ، لا ثبات له ولا دوام ﴿وإن الآخرة هي دار القرار﴾ أي وإن الدار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود ، التي لا زوال لها ولا انتقال منها ، فإما خلود في النعيم ، أو خلود في الجحيم قال القرطبي : ومراده بالدار الآخرة الجنة والنار لأنها لا يفنيان^(٤) ﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ أي من عمل في هذه الدنيا سيئة فلا يعاقب في الآخرة إلا بمقدارها دون زيادة ، رحمة منه تعالى بالعباد ﴿ومن عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن﴾ أي ومن فعل في الدنيا العمل الصالح سواء كان ذكراً أو أنثى بشرط الإيمان ﴿فأولئك يدخلون الجنة يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ أي فأولئك المحسنون يدخلون جنات النعيم ، ويعطون جزاءهم بغير تقدير ، بل أضعافاً مضاعفة فضلاً من الله وكرماً ، فقد اقتضى فضله تعالى أن تضاعف الحسنات دون السيئات قال ابن كثير : ﴿بغير حساب﴾

(١) القرطبي ٣١٤/١٥ . (٢) قال صاحب الكشاف : إذا أهب الشيء ثم أوضح كان تفخيماً لشأنه ، فلما أراد تفخيماً أسباب السموات أهبها ثم أوضحها . إهـ الكشاف ٦٦/٤ .

(٣) البحر المحيط ٤٦٥/٧ . (٤) تفسير القرطبي ٣١٧/١٥ .

* وَيَقَوْمٍ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ لَنَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفِوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَآكِرُوهًا وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

أي لا يتقدر بجزاء ، بل يشبهه الله ثواباً كثيراً عظيماً ، لا انقضاء له ولا نفاذ ^(١) ﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار﴾ ؟ أي ما لي أدعوكم إلى الإيمان الموصل إلى الجنان ، وتدعونني إلى الكفر الموصل إلى النار ؟ والاستفهام للتعجب كأنه يقول : أنا أتعجب من حالكم هذه ، أدعوكم إلى النجاة والخير ، وتدعونني إلى النار والشر ؟ ثم وضَّح ذلك بقوله ﴿تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم﴾ أي تدعونني للكفر بالله ، وأن أعبد ما ليس لي علمٌ بربوبيته ، وما ليس بالله كفرعون ﴿وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾ أي وأنا أدعوكم إلى عبادة الله الواحد الأحد ، العزيز الذي لا يُغلب ، الغفار لذنوب العباد ﴿لا جرم لنا تدعونني إليه﴾ أي حقاً إنما تدعونني لعبادته ﴿ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾ أي لا يصلح أن يُعبد لأنه لا يستجيب لنداء داعيه ، ولا يقدر على تفریح كربته لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وأن مردنا إلى الله﴾ أي وأن مرجعنا إلى الله وحده فيجازي كلاً بعمله ﴿وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾ أي وأن المسرفين في الضلال والطغيان سيخلدون في النار ﴿فستذكرون ما أقول لكم﴾ أي فستذكرون صدق كلامي عندما يحل بكم العذاب ، وهو تهديد ووعيد ﴿وأفوضُ أمري إلى الله﴾ أي أتوكل على الله ، وأسلم أمري إليه قال القرطبي : وهذا يدل على أنهم هدّوه وأرادوا قتله ^(٢) ﴿إن الله بصير بالعباد﴾ أي مطلع على أعمالهم ، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾ أي فنجاه الله من شذائد مكروهم ، ومن أنواع العذاب الذي أرادوا إلحاقه به ﴿وحاق بال فرعون سوء العذاب﴾ أي ونزل بفرعون وجماعته أسوأ العذاب ، وهو الغرق في الدنيا ، والخرق في الآخرة ، ثم فسره بقوله ﴿النار يُعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا﴾ أي النار يُحرقون بها صباحاً ومساءً قال المفسرون : المراد بالنار هنا نار القبر وعذابهم في القبور بدليل قوله بعده ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ أي ويوم القيامة يقال للملائكة : ادخلوا فرعون وقومه نار جهنم التي هي أشد من عذاب الدنيا .

قال الله تعالى : ﴿وإذ يتحاجون في النار . . إلى . . وأمرت أن أسلم لرب العالمين﴾
من آية (٤٧) إلى نهاية آية (٦٦)

وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿١٧﴾
 قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿١٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا
 رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿١٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَأَدْعُوا

المناسكة : لما ذكر تعالى ما حلَّ بال فرعون من العذاب والدمار ، ذكر بعده النزاع والخصام الذي يكون بين أهل النار ، واستغاثة المجرمين ، وهم في عذاب الجحيم يصلون سعيها فلا يجابون ، ثم ذكر الأدلة والبراهين على قدرة الله ووحديته ، لإقامة الحجة على المشركين .

اللغات : ﴿يتحاجون﴾ يختصمون ﴿خزنة﴾ جمع خازن وهو المتكفل بحفظ الشيء وحراسته ﴿الأشهاد﴾ جمع شاهد وهو الذي يشهد بالحجة على غيره ﴿داخرين﴾ أذلاء صاغرین ﴿تؤفكون﴾ تُصرفون عن الإيمان إلى الكفر ﴿قراراً﴾ مستقراً ﴿أسلم﴾ أذل وأخضع .

التفسير : ﴿وإذ يتحاجون في النار﴾ أي واذكر حين يختصم الرؤساء والأتباع في نار جهنم ﴿فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً﴾ أي فيقول الأتباع الضعفاء للرؤساء المستكبرين عن الإيمان واتباع الرسل ، إنا كنا لكم في الدنيا أتباعاً كالخادم ننفاد لأوامركم ، ونطيعكم فيما تدعوننا إليه من الكفر والضلال ﴿فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾ ؟ أي فهل أنتم دافعون عنا جزءاً من هذا العذاب الذي نحن فيه ؟ قال الرازي : علموا أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف ، وإنما مقصودهم من هذا الكلام المبالغ في تحجيل الرؤساء ، وإيلام قلوبهم ، لأنهم سعوا في إيقاعهم في أنواع الضلالات (١) ﴿قال الذين استكبروا إنا كلُّ فيها﴾ أي قال الرؤساء جواباً لهم : إنا جميعاً في نار جهنم ، فلو قدرنا على إزالة العذاب عنكم لدفعناه عن أنفسنا ﴿إن الله قد حكم بين العباد﴾ أي قضى قضاءً مبرماً لا مردَّ له ، بدخول المؤمنين الجنة ، والكافرين النار ، فلا نستطيع أن نفعل لكم شيئاً ﴿وقال الذين في النار لخزنة جهنم﴾ لما يئس أهل النار بعضهم من بعض التجأوا إلى حراس جهنم يطلبون منهم التخفيف قال البيضاوي : وإنما وضع جهنم موضع الضمير ﴿لخزنة جهنم﴾ بدلاً من «لخزنتها» للتهويل والتفطيع (٢) ﴿أدعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾ أي ادعوا لنا الله أن يخفف عنا ولو مقدار يوم واحد من هذا العذاب ﴿قالوا أولم تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ؟ أي أجابتهم الملائكة على سبيل التوبيخ والتقريع : ألم تأتكم الرسل بالمعجزات الظاهرات فكفرتم بهم وكذبتموهم ؟ ﴿قالوا بلى﴾ أي قال الكفار بلى جاءونا ﴿قالوا فادعوا﴾ أي قالت لهم الملائكة : فادعوا الله أنتم فإننا لا نجترئ على ذلك قال الرازي : وليس قولهم ﴿فادعوا﴾ لرجاء المنفعة ، ولكن للدلالة على الخيبة ، فإن الملائكة المقربين إذا لم يُسمع دعاؤهم ، فكيف يسمع دعاء الكفار (٣) ؟ ثم يصرِّحون لهم

(١) التفسير الكبير ٢٧/٧٤ . (٢) تفسير البيضاوي ٣/١٥٤ . (٣) التفسير الكبير للرازي ٢٧/٧٤ .

وَمَا دُعُوا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
 الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذرتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
 الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ
 حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ
 بآنه لا أثر لدعائهم فيقولون ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أي دعاؤكم لا ينفع ولا يجدي لأن
 دعاء الكافرين ما هو إلا في خسار وتبار ﴿إننا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ أي نصر
 الرسل والمؤمنين بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة المجرمين في هذه الحياة الدنيا ﴿ويوم يقوم
 الأشهاد﴾ أي وفي الآخرة يوم يحضر الأشهاد الذين يشهدون بأعمال العباد ، من ملك ونبي ومؤمن قال
 الرازي : الآية وعد من الله تعالى لرسوله بأن ينصره على أعدائه في الحياة الدنيا وفي الآخرة ^(١) ﴿يوم لا
 ينفع الظالمين معذرتهم﴾ أي لا ينفع المجرمين اعتذارهم قال ابن جرير : لا ينفع أهل الشرك
 اعتذارهم ، لأنهم لا يعتذرون إلا بباطل ^(٢) ﴿ولهلم اللعنة﴾ أي الطرد من رحمة الله ﴿ولهلم سوء
 الدار﴾ أي وهم جهنم أسوأ مرجع ومصير قال ابن عباس : ﴿سوء الدار﴾ سوء العاقبة ﴿ولقد آتينا
 موسى الهدى﴾ أي والله لقد أعطينا «موسى بن عمران» ما يهتدى به في الدين ، من المعجزات والصحف
 والشرائع ^(٣) ﴿وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ أي أورثناهم العلم النافع والكتاب الهادي وهو
 «التوراة» ﴿هدى وذكرى لأولي الأبواب﴾ أي هادياً وتذكراً لأصحاب العقول السليمة ﴿فاصبر إن
 وعد الله حق﴾ أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين ، فإن وعد الله لك ولأتباعك بالنصر على
 الأعداء ، حق لا يمكن أن يتخلف ، لأن الله لا يخلف الميعاد قال الإمام الفخر : لما بين تعالى أنه ينصر
 رسله ، وضرب المثال في ذلك بحال موسى ، خاطب بعده رسوله بقوله ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾
 والمراد أن الله ناصر كما نصرهم ، ومنجز وعده لك كما أنجزه في حقهم ^(٤) ﴿واستغفر لذنبك﴾ أي
 واطلب المغفرة من ربك على ما فرط منك من ترك الأولى والأفضل ، قال الصاوي : والمقصود من هذا
 الأمر تعليم الأمة ذلك ، وإلا فرسول الله ﷺ معصوم من الذنوب جميعاً ، صفائر وكبائر قبل النبوة
 وبعدها على التحقيق ^(٥) وقال ابن كثير : وهذا تهيج للأمة على الاستغفار ^(٦) ﴿وسبح بحمد ربك
 بالعشي والإيكار﴾ أي ودم على تسبيح ربك في المساء والصبح قال الرازي : والمراد منه الأمر بالمواظبة
 على ذكر الله ، والأيفتر اللسان عنه ، حتى يصبح في زمرة الملائكة الأبرار ، الذين ﴿يسبحون الليل
 والنهار لا يفترون﴾ والمراد بالتسبيح تنزيه الله عن كل ما لا يليق به ^(٧) ، ثم نبه تعالى إلى السبب الدافع
 للكفار إلى المجادلة بالباطل فقال ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله﴾ أي يخاصمون في الآيات المنزلة

(١) التفسير الكبير ٢٧/٧٥ . (٢) تفسير الطبري ٢٤/٥٢ . (٣) تفسير أبي السعود ٥/١٢ . (٤) التفسير الكبير ٢٧/٧٧ .

(٥) حاشية الصاوي ٤/١١ . (٦) مختصر ابن كثير ٣/٢٤٨ . (٧) التفسير الكبير ٢٧/٧٨ .

أَتَنَّهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَاهُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلَقُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمَسِيءُ قَلِيلًا مَا تَدْرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ
جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿بغير سلطان أتاهاهم﴾ أي بلا برهان ولا حجة من الله ﴿إن في صدورهم إكبر﴾ أي ما في قلوبهم
إلا تكبر وتعظم يمنعهم من اتباعك والانقياد إليك ﴿ما هم ببليغيه﴾ أي ما هم بواصلين إلى مرادهم
من إطفاء نور الله ، ولا بمؤملين مقصودهم بالعلو عليك ﴿فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير﴾
أي فالتجىء وتحصن بالله من كيدهم ، فإن الله يدفع عنك شرهم ، لأنه هو السميع لأقوالهم العليم
بأحوالهم . . ثم ذكر تعالى الدلائل الدالة على قدرته ووحدانيته فقال ﴿لخلق السموات والأرض أكبر
من خلق الناس﴾ اللام لام الابتداء أي لخلق الله للسموات والأرض وإنشأؤها وابتداعها من غير
شيء أعظم من خلق البشر ، فمن قدر على خلقها مع عظمها كيف يعجز عن خلق ما هو أحقر وأهون ؟
قال في التسهيل : والغرض الاستدلال على البعث ، لأن الإله الذي خلق السموات والأرض على كبرها ،
قادر على إعادة الأجسام بعد فنائها^(١) ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يعلمون
ذلك ، لأنهم لا يتأملون لغلبة الجهل عليهم ، وفرط غفلتهم واتباعهم لأهوائهم ﴿وما يستوي الأعمى
والبصير﴾ أي لا يتساوى المؤمن والكافر ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء﴾ أي ولا البر
والفاجر ﴿قليلاً ما تتذكرون﴾ أي لا تتعظون بهذه الأمثال إلا قليلاً قال ابن كثير : والمراد أنه كما لا
يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً ، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره ، كذلك لا يستوي المؤمنون
الأبرار ، والكفرة الفجرة ، ما أقل ما يتذكر كثير من الناس^(٢) ؟ ﴿إن الساعة لآتية لا ريب فيها﴾ أي
إن القيامة آتية لا محالة ، لا شك في ذلك ولا مرية ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ أي ولكن أكثر
الناس لا يصدقون بمجيئها ، ولذلك ينكرون البعث والجزاء قال الرازي : والمراد بأكثر الناس الكفار
الذين ينكرون البعث والقيامة^(٣) ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ أي ادعوني أجيبكم فيما
طلبتم ، وأعطكم ما سألتهم قال ابن كثير : ندب تعالى عباده إلى دعائه ، وتكفل لهم بالإجابة فضلاً منه
وكرماً^(٤) ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ أي إن الذين يتكبرون عن
دعاء الله سيدخلون جهنم أدلاء صاغرين . . ثم ذكر تعالى من آثار قدرته ووحدانيته ، ما يلزم منه إفراده

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٨/٤ . (٢) ابن كثير ٣/٢٤٩ من المختصر . (٣) التفسير الكبير ٢٧/٨٠ . (٤) ذهب أكثر المفسرين إلى أن
المراد بالدعاء العبادة قال القرطبي والمعنى : وحدوني وعبدوني أتقبل عبادتكم وأغفر لكم . . الخ وما أثبتناه هو اختيار ابن كثير وهو الأظهر
وكذلك قال الشهاب ورجحه الرازي .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
 يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا إِلَهًا إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا
 بِعِبَادَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ
 مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾

بالعبادة والشكر فقال ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي الله جل وعلا
 بقدرته وحكمته هو الذي جعل لكم الليل مظلاً لتستريحوا فيه من تعب وعناء العمل بالنهار ، وجعل
 النهار مضيئاً لتصرفوا فيه بأسباب الرزق وطلب المعاش ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي إنه
 تعالى متفضل على العباد ، وهو صاحب الجود والإحسان إليهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي
 ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على إحسانه ، ويجحدون فضله وإنعامه ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ
 كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي ذلكم المتفرد بالخلق والإنعام هو الله ربكم ، خالق كل الأشياء ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا
 معبود في الوجود سواه ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادة الخالق المالك إلى عبادة الأوثان ؟
 ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي كذلك يُصرف عن الهدى والحق الذين جحدوا
 آيات الله وأنكروها قال الصاوي : وهذه تسلية للنبي ﷺ والمعنى لا تحزن يا محمد على إنكار قومك فإن
 من قبلهم فعل ذلك^(١) ، ثم زاد في البيان ودلائل القدرة فقال ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾
 أي جعلها مستقراً لكم في حياتكم وبعد مماتكم قال ابن عباس : جعلها منزلاً لكم في حال الحياة وبعد
 الموت^(٢) ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي وجعل السماء سقفاً محفوظاً ، كالقبة المبنية مرفوعة فوقكم ﴿وَصَوَّرَكُمْ
 فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ أي صوركم أحسن تصوير ، وخلقكم في أحسن الأشكال ، متناسبي الأعضاء ،
 ولم يجعلكم كالبهائم منكوسين تمشون على أربع قال الزمخشري : لم يخلق تعالى حيواناً أحسن صورةً من
 الإنسان^(٣) ، وهذه مثل قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ
 الطَّيِّبَاتِ﴾ أي ورزقكم من أنواع اللذائذ ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي ذلكم الفاعل لهذه الأشياء والمنعم
 بهذه النعم هو ربكم لا إله إلا هو ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي فتعالى وتمجد وتقدس رب جميع
 المخلوقات الذي لا تصلح الربوبية إلا له ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو تعالى المتفرد بالحياة الذاتية
 الحقيقية ، الباقي الذي لا يموت ، لا إله سواه ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي فاعبدوه وحده مخلصين
 له العبادة والطاعة ظاهراً وباطناً قائلين ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي الثناء والشكر لله مالك جميع
 المخلوقات ، لا للأوثان التي لا تملك شيئاً ، ولما بيّن صفات الجلال والعظمة ، نهى عن عبادة غير الله

* قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ
لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾

فقال ﴿قل إنني نهيتُ أن أعبد الذين تدعون من دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل يا محمد إن ربي العظيم الجليل نهاني أن أعبد هذه الألهة التي تعبدونها من الأوثان والأصنام قال الصاوي : أمر تعالى نبيه أن يخاطب قومه بذلك زجراً لهم ، حيث استمروا على عبادة غير الله ، بعد ظهور الأدلة العقلية والنقلية^(١) ﴿لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ أي حين جاءني الآيات الواضحات من عنده ، الدالة على وحدانيته قال الرازي : والبيِّناتُ هي أن إله العالم قد ثبت كونه موصوفاً بصفات الجلال والعظمة ، وصريح العقل يشهد بأن العبادة لا تليق إلا به ، وأن جعل الحجارة المنحوتة والأخشاب المصورة ، شركاء له في العبودية مستنكرٌ في بديهة العقل^(٢) ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وأمرت أن أذل وأخضع لله وحده ، وأن أخلص له ديني ، وأطهر نفسي من عبادة غيره .

قال الله تعالى : ﴿هو الذي خلقكم .. إلى .. وخسر هنالك الكافرون﴾

من آية (٦٦) إلى آية (٨٥) نهاية السورة

الْمَنَاسِكَةُ : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية ، فبعد أن ذكر تعالى دلائل القدرة في الآفاق أردفها بدلائل القدرة في الأنفس ، ثم تحدث عن أحوال المشركين يوم القيامة ، وختم السورة الكريمة بالوعيد والتهديد لأهل الكفر والضلال .

اللِّغْطُ : ﴿الأغلال﴾ القيود جمع غُلٌّ وهو القيد يجمع اليد إلى العنق ﴿الحميم﴾ الماء الحار البالغ نهاية الحرارة ﴿يُسْجَرُونَ﴾ توقد بهم النار يقال : سجر التنور أوقده ﴿تَمْرَحُونَ﴾ تبطرون وتأشرون ﴿مَثْوَى﴾ مأوى ومكان إقامة ، من ثوى بالمكان إذا أقام فيه ﴿خَلَّتْ﴾ مضت .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ يَجْرِحُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ

النَّفْسِيرُ : ﴿هو الذي خلقكم من ترابٍ ثم من نطفة ثم من علقة﴾ هذا بيان للأطوار التي مرَّ بها خلقُ الإنسان أي هو جل وعلا بقدرته الذي أوجدكم أيها الناس من العدم ، فخلق أصلكم آدم من تراب ، ثم خلق ذريته من النطفة وهي المنى ، ثم من علقة وهي الدم الغليظ ، إلى آخر تلك الأطوار ﴿ثم يخرجكم طفلاً﴾ أي ثم بعد أن ينفصل الجنين من بطن الأم يكون طفلاً ﴿ثم لتبلغوا أشدكم﴾ أي ثم لتبلغوا كما لكم في القوة والعقل، وهو سنُّ الأربعين ﴿ثم لتكونوا شيوخاً﴾ أي ثم لتصبحوا في سنِّ الهرم والشيخوخة قال الإمام الفخر : ربَّ تعالى عمر الإنسان على ثلاث مراتب : الطفولة ، وبلوغ الأشد ، والشيخوخة ، وهذا ترتيب مطابق للعقل ، فإن الإنسان في أول عمره يكون في النماء والنشوء وهو المسمى

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ١٣/٤ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٨٥/٢٧ .

لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْعًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ بِالطُّفُولَةِ ، إِلَى أَنْ يَبْلُغَ إِلَى كِمَالِ النُّشُوءِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْصَلَ لَهُ ضَعْفٌ ، وَهَذَا بَلُوغُ الْأَشَدِّ ، ثُمَّ يَبْدَأُ بِالتَّرَاجُعِ وَيَبْدَأُ فِيهِ الضَّعْفُ وَالتَّقْصُصُ ، وَهَذِهِ مَرْتَبَةُ الشَّيْخُوخَةِ (١) ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ﴾ أَي وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْعَالَمِ وَهُوَ السَّقْطُ وَقَالَ مُجَاهِدٌ : مِنْ قَبْلِ سَنِّ الشَّيْخُوخَةِ ﴿ وَالتَّبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى ﴾ أَي وَالتَّبْلُغُوا إِلَى الزَّمَانِ الَّذِي حُدِّدَ لِكُلِّ شَخْصٍ وَهُوَ الْمَوْتُ ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أَي وَلِكِي تَعْقِلُوا دَلَالَتِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى وَتَوَقُّوا بِأَنَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أَي هُوَ الْقَادِرُ جَلَّ وَعَلَا عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ ﴿ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أَي فَإِذَا أَرَادَ أَمْرًا مِنَ الْأُمُورِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَعَبٍ وَعِنَاءٍ ، وَإِنَّمَا يَوْجَدُ فَوْرًا دُونَ تَأْخِيرٍ قَالَ أَبُو السَّعُودِ : وَهَذَا تَمَثُّلٌ لِكِمَالِ قُدْرَتِهِ ، وَتَصْوِيرٌ لِسُرْعَةِ وَجُودِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ أَمْرٌ وَمَأْمُورٌ (٢) . . . ثُمَّ عَادَ إِلَى ذَمِّ الْمُجَادِلِينَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِالْبَاطِلِ فَقَالَ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ الْإِسْتِفْهَامُ لِلتَّعْجِيبِ أَي أَلَا تَرَىٰ أَيُّهَا السَّمَاعُ وَتَعْجَبُ مِنْ حَالِ هَؤُلَاءِ الْمُكَابِرِينَ ، الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ الْوَاضِحَةِ ، كَيْفَ تُصْرَفُ عَقُولُهُمْ عَنِ الْهُدَىٰ إِلَى الضَّلَالِ ؟ ثُمَّ بَيَّنَّهُمْ بِقَوْلِهِ ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ أَي الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ ، وَبِسَائِرِ الْكُتُبِ وَالشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَةِ ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ أَي سَوْفَ يَعْلَمُونَ عَاقِبَةَ تَكْذِيبِهِمْ ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ ﴾ أَي حِينَ يَدْخُلُونَ النَّارَ ، وَتَرْتَبُ أَيْدِيهِمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ بِالْأَغْلَالِ وَالسَّلَاسِلِ ﴿ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ أَي يُسْحَبُونَ بِتِلْكَ السَّلَاسِلِ فِي الْمَاءِ الْحَارِّ الْمَسْحُونِ بِنَارِ جَهَنَّمَ ، ثُمَّ يُوقَدُونَ وَيَحْرَقُونَ فِيهَا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : وَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ السَّلَاسِلَ مُتَّصِلَةٌ بِالْأَغْلَالِ وَهِيَ بِأَيْدِي الزَّبَانِيَةِ ، يُسْحَبُونَ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ تَارَةً إِلَى الْحَمِيمِ ، وَتَارَةً إِلَى الْجَحِيمِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آناً ﴾ (٣) ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أَي ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ تَبْكِيئًا : أَيْنَ هُمُ الْأَوْثَانُ وَالْأَصْنَامُ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا وَتَجْعَلُونَهَا شُرَكَاءَ لِلَّهِ ؟ ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ أَي يَقُولُونَ : غَابُوا عَنِ عْيُونِنَا فَلَا نَرَاهُمْ وَلَا نَسْتَشْفَعُ بِهِمْ ﴿ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ أَي بَلْ لَمْ نَكُنْ نَعْبُدُ شَيْئًا قَالَ الْمَفْسُورُونَ : جَحَدُوا عِبَادَتَهُمْ ، وَإِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ لِحَيْرَتِهِمْ وَاضْطِرَابِهِمْ ﴿ كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ أَي مِثْلُ إِضْلَالِ هَؤُلَاءِ الْمُكْذِبِينَ يَضِلُّ اللَّهُ كُلَّ كَافِرٍ ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ

(١) التفسير الكبير للرازي ٨٥/٢٧ . (٢) تفسير أبي السعود ١٤/٥ . (٣) مختصر ابن كثير ٢٥١/٣ .

تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴿٧٥﴾ وَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوَى
 الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّيكَ بِعِصَّيَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ
 أَرْسَلْنَا رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِحَايَةٍ
 إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ

تفرحون في الأرض بغير الحق ﴿٧٥﴾ أي ذلكم العذاب بما كنتم تظرونه في الدنيا من السرور بالمعصية وكثرة المال وإنفاقه في المحرمات ﴿٧٦﴾ وبما كنتم تفرحون ﴿٧٧﴾ أي وبسبب بطركم وأشركم وخيلائكم قال الصاوي : وهذا وإن كان ذمًا في الكفار ، إلا أنه يجزئ بذيله على كل من توسع في معاصي الله ، فله من هذا الوعيد نصيب ^(١) ﴿٧٥﴾ أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴿٧٦﴾ أي ادخلوا من أبواب جهنم السبعة المقسومة لكم ماكنين فيها أبداً ﴿٧٧﴾ فبئس مَثْوَى المتكبرين ﴿٧٨﴾ أي بثست جهنم مقراً وسكناً للمستكبرين عن آيات الله ، المعرضين عن دلائل الإيمان والتوحيد ، وإنما قال ﴿٧٧﴾ مَثْوَى المتكبرين ﴿٧٨﴾ ولم يقل فبئس مدخل المتكبرين وهو مقتضى النظم ، لأن الدخول لا يدوم ، وإنما يدوم المَثْوَى ولذا خصه بالذم ﴿٧٥﴾ فاصبر إن وعد الله حق ﴿٧٦﴾ أي فاصبر يا محمد على تكذيب قومك لك ، فإن وعد الله بتعذيبهم كائن لا محالة قال الصاوي : هذا تسليية من الله لنبيه ﷺ ووعده حسن بالنصر له على أعدائه ^(٢) ﴿٧٦﴾ فإمَّا نُرَبِّيكَ بِعِصَّيَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴿٧٧﴾ أي إن أُرَبِّيكَ بعض الذي نعدهم من العذاب ، وجواب الشرط محذوف تقديره فذلك هو المطلوب ، أو لتقرَّ به عينك ﴿٧٧﴾ أو نتوفينك فإلينا يرجعون ﴿٧٨﴾ أي أو نتوفينك يا محمد قبل إنزال العذاب عليهم ، فإلينا مرجعهم يوم القيامة فننتقم منهم أشدَّ الانتقام ، ثم أخبره تعالى بأنباء الرسل تسليية له عليه السلام فقال ﴿٧٥﴾ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ﴿٧٦﴾ أي والله لقد بعثنا يا محمد رسلاً كثيراً قبلك ، وأيدناهم بالمعجزات الباهرة فجادهم قومهم وكذبوهم فتأس بهم في الصبر على ما ينالك قال القرطبي : عزاه تعالى بما لقيت الرسل من قبله ^(٣) ﴿٧٥﴾ منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴿٧٦﴾ أي من هؤلاء الرسل من أخبرناك عن قصصهم مع قومهم ، ومنهم من لم نخبرك عن قصصهم وأخبارهم ﴿٧٧﴾ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴿٧٨﴾ أي وما صحَّ ولا استقام لرسول من الرسل أن يأتي قومه بشيء من المعجزات إلا بأمر الله ، وهذا ردُّ على قريش حيث قالوا للنبي ﷺ اجعل لنا الصفا ذهباً وغير ذلك من مقترحاتهم ﴿٧٥﴾ فإذا جاء أمر الله قُضِيَ بِالْحَقِّ ﴿٧٦﴾ أي فإذا جاء الوقت المسمى لعذابهم أهلكتهم الله ﴿٧٧﴾ وخسر هنالك المبطلون ﴿٧٨﴾ أي خسر في ذلك الحين المعاندون الذين يجادلون في آيات الله ، ويقترحون المعجزات على سبيل التعنت ، ثم ذكَّروهم تعالى بنعمه فقال ﴿٧٥﴾ الله الذي جعل لكم الأنعام ﴿٧٦﴾ أي الله جلَّ وعلا الذي لا تصلح الألوهية إلا له ، هو الذي سحرَّ لكم هذه الأنعام « الإبل والبقر والغنم » وخلقها لكم

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ١٤/٤ . (٢) حاشية الصاوي ١٥/٤ . (٣) تفسير القرطبي ١٥/٣٣٤ .

لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٨﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَآيَ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مَشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَا لِكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

ولمصلحتكم ﴿لتركبوا منها ، ومنها تأكلون﴾ أي لتركبوا على ظهور بعض هذه الحيوانات ، وتأكلوا من لحومها وألبانها ، ﴿ولكم فيها منافع﴾ أي ولكم في هذه الأنعام منافع عديدة في الوبر والصوف والشعر ، واللبن والزبد والسمن ﴿ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم﴾ أي بحمل الأثقال في الأسفار البعيدة ﴿وعليها وعلى الفلك تحمّلون﴾ أي وعلى هذه الإبل في البر ، وعلى السفن في البحر تحمّلون ، وإنما قرن بين الإبل والسفن لما بينهما من شدة المناسبة حتى سميت الإبل سفن البر ﴿ويُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي ويريكم أيها الناس حججه وأدلته على وحدانيته في الآفاق والأنفس ﴿فأي آيات الله تُنكرون﴾ توبيخ لهم على إنكارهم لوحدانيته مع ظهور آياته الكثيرة والمعنى أي آية من تلك الآيات الباهرة والدلائل الكثيرة الساطعة تنكرون مع وضوحها وجلالتها وكثرتها ؟ فإن هذه الدلائل لظهورها لا تقبل الإنكار ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ الاستفهام إنكاري أي أفلم يسيروا في أطراف الأرض ليعرفوا عاقبة المتكبرين المتمردين ، وآثار الأمم السالفة قبلهم ، ماذا حل بهم من العذاب والدمار بسبب كفرهم وتكذيبهم ؟ ﴿كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض﴾ أي كانوا أكثر عدداً من أهل مكة ، وأقوى منهم قوة ، وآثارهم لا تزال باقية بعدهم من الأبنية والقصور والمباني الضخمة ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ أي فلم ينفعهم ما كانوا يكسبونه من الأبنية والأموال شيئاً ، ولا دفع عنهم العذاب ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي فلما جاءتهم الرسل بالمعجزات الظاهرات ، والآيات الواضحات ﴿فرحوا بما عندهم من العلم﴾ أي فرح الكفار بما هم عليه من العلم الدنيوي ، الخالي عن نور الهداية والوحي ، فرح بظنٍ وأثر ، وأغتروا بذلك العلم ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي نزل بهم جزاء كفرهم واستهزائهم بالرسول والآيات ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده﴾ أي فلما رأوا شدة العذاب وعابنوا أهواله وشدائده قالوا آمنا بالله الواحد الأحد ﴿وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ أي كفرنا بالأصنام والأوثان التي أشركناها في العبادة مع الله ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ أي فلم يكن ينفعهم ذلك الإيمان حين شاهدوا العذاب ،

لأنه إيمانٌ عن قسر وإجاء ﴿سنةَ الله التي قد خلت في عباده﴾ أي سنَّ الله ذلك سنةً ماضيةً في العباد ، أنه لا ينفع الإيمان إذا رأوا العذاب ﴿وخسر هنالك الكافرون﴾ أي وخسر في ذلك الوقت الكافرون برهم ، الجاحدون لتوحيد خالقهم .

البلاغة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿الذنب .. والتوب﴾ وبين ﴿أمتنا .. وأحييتنا﴾ وبين ﴿صادقاً .. وكاذباً﴾ وبين ﴿غدواً .. عشياً﴾ وبين ﴿يحيي .. ويميت﴾ وبين ﴿الأعمى .. والبصير﴾ .
- ٢ - المقابلة ﴿ذلكم بأنه إذا دُعي الله وحده كفرتم ، وإن يُشرك به تؤمنوا﴾ فقد قابل بين التوحيد والإشراك ، والكفر والإيمان وكذلك توجد المقابلة بين قوله تعالى ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هي دار القرار﴾ وهذه من المحسنات البديعية .
- ٣ - المجاز المرسل ﴿وينزل لكم من السماء رزقاً﴾ أطلق الرزق وأراد المطر لأن الماء سبب في جميع الأرزاق ، فهو من إطلاق المسبب وإرادة السبب .
- ٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ استعار الأعمى للكافر ، والبصير للمؤمن .

٥ - المجاز العقلي ﴿والنهار مبصراً﴾ من إسناد الشيء إلى زمانه ، لأن النهار زمنٌ للإبصار .

٦ - الكناية ﴿يلقي الروح من أمره﴾ الروح هنا كناية عن الوحي ، لأنه كالروح للجسد .

٧ - صيغ المبالغة مثل : « كذَّاب ، جبَّار ، سميع ، بصير ، عليم » الخ .

٨ - الجناس الناقص ﴿تَفْرَحُونَ .. تَمْرَحُونَ﴾ وكذلك ﴿صُورَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ .

٩ - التأكيد بـ «إن» واللام ﴿إن الساعة لآتية﴾ .

١٠ - صيغة الحصر ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا﴾ .

١١ - جناس الاشتقاق ﴿أرسلنا رسلاً﴾ .

١٢ - طباق السلب ﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ .

١٣ - توافق رءوس الآيات مع السجع البديع ، والكلام الذي يأخذ بالألباب ، انظر روعة

البيان ، وتمعن قول القرآن وهو يتحدث عن مؤمن آل فرعون بذلك البيان الإلهي المعجز ﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار . تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ..﴾ الخ الآيات الكريمة التي هي أجلى من عقود الجمان .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة غافر »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

هذه السورة الكريمة مكية ، وهي تتناول جوانب العقيدة الإسلامية « الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء » وهي الأهداف الأساسية لسائر السور المكية التي تهتم بأركان الإيمان .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن ، المنزل من عند الرحمن ، بالحجج الواضحة ، والبراهين الساطعة ، الدالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام ، فهو المعجزة الدائمة الخالدة للنبي الكريم .

* وتحدثت السورة عن أمر « الوحي والرسالة » فقررت حقيقة الرسول ، وأنه بشرٌ خصَّه الله تعالى بالوحي ، وأكرمه بالنبوة ، واختاره من بين سائر الخلق ليكون داعياً إلى الله ، مرشداً إلى دينه المستقيم .

* ثم انتقلت السورة للحديث عن مشهد الخلق الأول للحياة ، خلق السموات والأرض ، بذلك الشكل الدقيق المحكم ، الذي يلفت أنظار المعرضين عن آيات الله ، للنظر والتفكير والتدبر ، ولكن ظلمات الكفر هي التي تحول بينهم وبين الإيمان ، فالكون كله ناطق بعظمة الله ، شاهد بوحدانيته جل وعلا .

* وعرضت السورة للتذكير بمصارع المكذبين ، وضربت على ذلك الأمثلة بأقوى الأمم وأعتها ، قوم عاد الذين بلغ من جبروتهم أن يقولوا ﴿ من أشدُّ منا قوة ﴾ ؟ وذكرت ما حلَّ بهم وبشمود من الدمار الشامل ، والهلاك المبين ، حين تمادوا في الطغيان وكذبوا رسل الله .

* وبعد الحديث عن المجرمين يأتي الحديث عن المؤمنين المتقين ، الذين استقاموا على شريعة الله ودينه ، فأكرمهم الله بالأمن والأمان في دار الجنان ، مع النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين .

* ثم تحدثت السورة عن الآيات الكونية المعروضة للأنظار ، في هذا الكون الفسيح ، الزاخر بالحكم والعجائب ، وموقف الملحددين بآيات الله ، المتعامين عن كل تلك الآيات الظاهرة الباهرة .

* وختمت السورة بوعد الله للبشرية ، بأن يطلعهم على بعض أسرار هذا الكون في آخر الزمان ،

ليستدلوا على صدق ما أخبر عنه القرآن ﴿سريهم آياتنا في الآفاق ، وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾

التسمية : سميت «سورة فصلت» لأن الله تعالى فصل فيها الآيات ، ووضح فيها الدلائل على قدرته ووحدانيته ، وأقام البراهين القاطعة على وجوده وعظمته ، وخلقه لهذا الكون البديع الذي ينطق بجلال الله وعظيم سلطانه !!

قال الله تعالى : ﴿حمّ * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته . . إلى . . ونجين الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (١٨) .

اللغات : ﴿فصلت﴾ بُيئت ووضّحت ﴿أكنة﴾ جمع كنان وهو الغطاء ﴿وقر﴾ صمم وثقل يمنع سماع الكلام ﴿ممنون﴾ مقطوع من منت الحبل إذا قطعه قال الشاعر :

إني لعمرُك ما بابي بذي غلقٍ على الصديق ولا خيرٍ بممنون^(١)
﴿صرصر﴾ الصرصر: الريح الباردة العاصفة مع الصوت الشديد ﴿نحسات﴾ مشثومات من النحس بمعنى الشؤم وهو ضدُّ السعد قال الشاعر :

سواءٌ عليه أيّ حينٍ أتيته أساعة نحسٍ تُتقى أم بأسعد^(٢)
﴿أخزى﴾ أشد إهانةً وإذلالاً من الخزي بمعنى الإهانة ﴿الهون﴾ الإهانة والذل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمّ ﴿١﴾ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴿٢﴾ كتب فصلت آياته ﴿٣﴾ قرأنا عريباً لقوم يعلمون ﴿٤﴾

التفسير : ﴿حمّ﴾ الحروف المقطعة للتنبية على إعجاز القرآن^(٣) ﴿تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ أي هذا القرآن المجيد منزل من الرحمن الرحيم ، أنزله جل وعلا رحمة بعباده ، وإنما خصّ هذين الإسمين ﴿الرحمن الرحيم﴾ إشارة إلى أن نزوله من أكبر النعم ، ولا شك أن القرآن نعمة باقية إلى يوم القيامة ﴿كتاب فصلت آياته﴾ أي كتاب جامع للمصالح الدينية والدينيوية ، بُيئت معانيه ، ووضّحت أحكامه ، بطريق القصص والمواعظ والأحكام والأمثال ، في غاية البيان والكمال ﴿قرآناً عربياً﴾ أي في حال كونه قرآناً عربياً ، واضحاً جلياً نزل بلسان العرب ﴿لقوم يعلمون﴾ أي لقوم يفهمون تفاصيل آياته ، ودلائل إعجازه ، فإنه في أعلى طبقات البلاغة ، ولا يتذوق أسراره إلا من كان

(١) تفسير القرطبي ٣٤١ / ١٥ . (٢) البحر المحيط ٤٨١ / ٧ . (٣) انظر أول سورة البقرة .

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤١﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْ آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا مَا نَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٤٣﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٤٤﴾

عالمًا بلغة العرب ﴿بشيراً ونذيراً﴾ أي مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم ، ومنذراً للكافرين بعذاب الجحيم ﴿فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ أي فأعرض أكثر المشركين عن تدبر آياته مع كونه نزل بلغتهم ، فهم لا يسمعون سماع تفكر وتأمل قال أبو حيان : المعنى أعرض أكثر أولئك القوم مع كونهم من أهل العلم ، ولكن لم ينظروا النظر التام بل أعرضوا ، فهم لإعراضهم لا يسمعون ما احتوى عليه من الحجج والبراهين^(١) وقال القرطبي : السورة نزلت تقريراً وتوبيخاً لتقريش في إعجاز القرآن ، فهم لا يسمعون سماعاً ينتفعون به^(٢) ، ثم أخبر تعالى عن عتوهم وضلالهم فقال ﴿وقالوا قلوبنا في أكِنَّةٍ مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ أي وقالوا للرسول ﷺ حين دعاهم إلى الإيمان : قلوبنا في أغطية متكاثفة ، لا يصل إليها شيء مما تدعوننا إليه من التوحيد والإيمان ﴿وفي آذاننا وقْرٌ﴾ أي وفي آذاننا صممٌ وثقلٌ يمنعنا من فهم ما تقول قال الصاوي : شبهوا أسماعهم بأذانٍ فيها صممٌ ، من حيث إنها تمجُّ الحقَّ ولا تميل إلى استماعه^(٣) ﴿ومن بيننا وبينك حِجَابٌ﴾ أي وبيننا وبينك يا محمد حاجز يمنع أن يصل إلينا شيء مما تقول ، فنحن معذورون في عدم اتباعك ، لوجود المانع من جهتنا وجهتك ﴿فاعملنا ما نعملون﴾ أي اعمل أنت على طريقتك ، ونحن على طريقتنا ، واستمر على دينك فإننا مستمرين على ديننا ﴿قل إنما بشرٌ مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾ أي قل يا محمد لأولئك المشركين : لست إلا بشراً مثلكم خصني الله بالرسالة والوحي ، وأنا داعٍ لكم إلى توحيد خالقكم وموجدكم ، الذي قامت الأدلة العقلية والشرعية على وحدانيته ووجوده ، فلا داعي إلى تكذيبي ﴿فاستقيموا إليه واستغفروه﴾ أي توجهوا إليه بالاستقامة على التوحيد والإيمان ، والإخلاص في الأعمال ، واسألوه المغفرة لسالف الذنوب ﴿ووَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي دمارٌ وهلاكٌ للمشركين الذين لا يفعلون الخير ، ولا يتصدقون ولا ينفقون في طاعة الله قال القرطبي : قرَّعهم بالشح الذي يأنف منه الفضلاء ، وفي الآية دلالة على أن الكافر يُعذَّب بمنع الزكاة مع عذابه على كفره^(٤) وقال ابن عباس : المراد زكاة الأنفس والمعنى : لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد ، ولا يقولون لا إله إلا الله^(٥) ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أي كفروا بالبعث والنشور ، وكذبوا بالحساب والجزاء قال الصاوي : وإنما خصَّ منع الزكاة وقرنه بالكفر بالآخرة ، لأن المال شقيق الروح فإذا بذله الإنسان في سبيل الله كان دليلاً على قوته وثباته في الدين^(٦) ﴿إن الذين

(١) البحر المحيط ٧/٤٨٣ . (٢) تفسير القرطبي ١٥/٣٣٨ .

(٣) حاشية الصاوي ٤/١٧ . (٤) تفسير القرطبي ١٥/٣٤٠ .

(٥) هذا القول ذكره ابن كثير ونسبه لابن عباس أن المراد به طهارة النفس من الشرك وهو قول مرجوح ، والصحيح ما ذكره المفسرون أن

المراد زكاة المال وهو اختيار ابن جرير . (٦) حاشية الصاوي ٤/١٧ .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿١٨﴾ * قُلْ إِن كُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ۜ أَنْدَادًا ۚ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْاسِيًا مِّن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ۖ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٢١﴾ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا ۚ وَزَيْنًا

آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴿١٨﴾ لما ذكر حال الكفار ووعيدهم ، أردفه بذكر حال المؤمنين وما لهم من الوعد الكريم والمعنى الذين صدقوا الله ورسوله ، وجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، لهم في الآخرة أجر غير مقطوع عند ربهم ، بل هو دائم مستمر بدوام الجنة ، ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته فقال ﴿١٩﴾ قُلْ إِن كُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴿١٩﴾ الاستفهام للتوبيخ والتعجب أي كيف تكفرون بالله وهو الإله العليُّ الشان ، القادر على كل شيء ، خالق الأرض في يومين ؟ ﴿٢٠﴾ وتجعلون له أندادا ﴿٢٠﴾ أي تجعلون له شركاء وأمثالا تعبدونها معه ﴿٢١﴾ ذلك رب العالمين ﴿٢١﴾ أي ذلك الخالق المبدع هو رب العالمين كلهم ، فكيف يجوز جعل الأصنام الخسيسة شركاء له في الإلهية والمعبودية ؟ قال الصاوي : الاستفهام ﴿٢٠﴾ أنكم ﴿٢٠﴾ للإنكار والتشنيع عليهم والمعنى : أنتم تعلمون أنه لا شريك له في العالم العلوي والسفلي ، فكيف تجعلون له شريكاً ﴿٢١﴾ ؟ ﴿٢١﴾ وجعل فيهارواسي من فوقها ﴿٢١﴾ أي جعل في الأرض جبلاً ثوابت لثلا تميد بالبشر ﴿٢١﴾ وبارك فيها ﴿٢١﴾ أي أكثر خيرها بما جعل فيها من المياه ، والزرع ، والضروع ﴿٢١﴾ وقدَّرَ فيها أقواتها ﴿٢١﴾ أي قدر أرزاق أهلها ومعاشهم قال مجاهد : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها ﴿٢١﴾ في أربعة أيامٍ سواءً للسائلين ﴿٢١﴾ أي في تمام أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان ﴿٢١﴾ ، للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها ﴿٢١﴾ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴿٢١﴾ أي عمد إلى خلقها وقصد إلى تسويتها وهي بهيئة الدخان قال ابن كثير : والمراد بالدخان بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض ﴿٢١﴾ ﴿٢١﴾ فقال لها وللأرض ائتيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴿٢١﴾ أي استجبيا لأمري طائعتين أو مكرهتين ﴿٢١﴾ قالتا أتينا طائعتين ﴿٢١﴾ أي قالت السموات والأرض أتينا أمرك طائعتين قال الزمخشري : وهذا على التمثيل أي أنه تعالى أراد تكوينها فلم يمتنع عليه ، وكاننا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الأمر المطاع ، والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات من غير أن يكون هناك خطاب وجواب ، ومثله قول القائل : قال الحائطُ للمسار لم تشقني ؟ قال : سل من يدقني ﴿٢١﴾ ، وروي عن ابن عباس قال قال الله تعالى للسماء : أطلعي شمسا وقمرًا ونجومك ، وقال للأرض : شققي أنهارك وأخرجي شجرًا وثمارك طائعتين أو كارهتين « قالتا أتينا أمرك طائعتين » ﴿٢١﴾ واختاره ابن جرير ﴿٢١﴾ فقضاهنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴿٢١﴾ أي صنعهنَّ وأبدع خلقهنَّ سبع سمواتٍ في وقتٍ مقدرٍ

(١) حاشية الصاوي ١٨/٤ . (٢) الكشاف ١٤٧/٤ . (٣) مختصر ابن كثير ٢٥٧/٣ .

(٤) الكشاف ١٤٨/٤ . (٥) القرطبي ٣٤٣/١٥ .

السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْدِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣٧﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٣٨﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٣٩﴾

بيومين ، فتم خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ولو شاء لخلقهن بلمح البصر ، ولكن أراد أن يعلم عباده الحلم والأناة ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ أي أوحى في كل سماء ما أراده ، وما أمر به فيها قال ابن كثير : أي رتب في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ﴾ أي وزينا السماء الأولى القريبة منكم ، بالكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ، وحرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملائكة الأعلى ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ أي ذلك المذكور من الخلق والإيداع هو صنع الله ، العزيز في ملكه ، العليم بمصالح خلقه ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقة عادٍ وثمرود ﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان بعد هذا البيان ، فقل لهم : إني أخوفكم عذاباً هائلاً وهلاكاً مثل هلاك عادٍ وثمرود^(١) ، وعبر بالماضي إشارة إلى تحققه وحصوله ﴿ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ أي حين جاءتهم الرسل من كل جوانبهم ، واجتهدوا في هدايتهم من كل جهة ، وأعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ أي بأن لا تعبدوا إلا الله وحده ﴿ قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴾ أي لو شاء ربنا إرسال رسول ل جعله ملكاً لا بشراً ﴿ فإنما أرسلتكم به كافرون ﴾ أي فإنما كافرون برسالتكم ، لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا ، وفي قولهم ﴿ بما أرسلتكم ﴾ ضرب من التهكم والسخرية بهم ﴿ فأمّا عادٌ فاستكبروا في الأرض بغير الحق ﴾ هذا تفصيل لما حلّ بعاد وثمرود من العذاب أي فأمّا عادٌ فبغوا وعتوا وعصوا ، وتكبروا على عبادة الله « هود » ومن آمن منهم معه ، بغير استحقاقٍ للتعظيم والاستعلاء ﴿ وقالوا من أشدُّ منّا قوة ﴾ ؟ أي وقالوا اغتراراً بقوتهم لما خوفوا بالعذاب : لا أحد أقوى منا فنحن نستطيع أن ندفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا قال أبو السعود : كانوا ذوي أجسام طوال ، وخلق عظيم ، وقد بلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده^(٢) ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشدُّ منهم قوة ﴾ جملة اعتراضية للتعجب من مقالتهم الشنيعة والمعنى أغفلوا عن قدرة الله ولم يعلموا أن الله العظيم الجليل الذي خلقهم وخلق الكائنات ، هو أعظم منهم قوةً وقدرةً ؟ ﴿ وكانوا بآياتنا يجدون ﴾ أي وكانوا بمعجزاتنا يجدون قال

(١) قال في الكشاف : أي عذاباً شديداً وقع كأنه صاعقة . (٢) تفسير أبي السعود ٢١/٥ .

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ
 الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ
 الْعَذَابِ أَلْوَنٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

الرازي : إنهم كانوا يعرفون أنها حق ولكنهم جحدوا كما يجحد المودع الوديعة^(١) ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ أي فأرسلنا على عاد ريحاً باردة شديدة البرد ، وشديدة الصوت والهبوب ، تُهلك بشدة صوتها وبردها ﴿في أيام نحسات﴾ أي في أيام مشثومات غير مباركات ﴿لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾ أي لكي نذيقهم العذاب المخزي المذل في الدنيا قال الرازي : ﴿عذاب الخزي﴾ أي عذاب الهوان والذل ، والسبب أنهم استكبروا عن الإيمان ، فقابل الله ذلك الاستكبار بإيصال الذل والهوان إليهم^(٢) ﴿ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون﴾ أي ولعذابهم في الآخرة أعظم وأشدُّ إهانةً وخزياً من عذاب الدنيا ، وليس لهم ناصر يدفع عنهم ذلك العذاب ﴿وأما ثمودُ فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ أي وأما ثمود فيينا لهم طريق الهدى ، ودللناهم على سبيل السعادة ، فاختاروا الضلالة على الهداية ، والكفر على الإيمان ﴿فأخذتهم صاعقة العذاب الهون﴾ أي فأخذتهم قارعة العذاب الموقع في الإهانة والذل ﴿بما كانوا يكسبون﴾ أي بسبب إجرامهم وطغيانهم وتكذيبهم لنبي الله « صالح » قال ابن كثير : بعث الله عليهم صيحةً ورجفةً وذلاً وهواناً ، وعذاباً ونكالاً ، بتكذيبهم صالح وعقرهم الناقة^(٣) ﴿ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي ونجينا صالحاً ومن آمن به من ذلك العذاب .

قال الله تعالى : ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . . إلى . . وهم لا

يسأمون﴾ من آية (١٩) إلى نهاية آية (٣٨) .

المناسكة : لما ذكر تعالى قصة عاد وثمود ، وما أصابهم من العقوبة في الدنيا بطغيانهم وإجرامهم ، ذكر هنا ما يصيب الكفار عامةً في الآخرة من العذاب والدمار ، ليحصل منه تمام الاعتبار ، في الزجر والتحذير عن ارتكاب المعاصي والكفر بنعم الله .

اللغات : ﴿يوزعون﴾ يُجس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ﴿تسترون﴾ تستخفون ، من الاستتار بمعنى الاختفاء عن الأعين ﴿أرداكم﴾ أهلككم وأوقعكم في المهالك ﴿يستعتبوا﴾ يطلبوا رضاء الله ﴿المعتبين﴾ جمع معتب وهو المقبول عتابه قال النابغة :

فإن أكُ مظلوماً فعبدٌ ظلمته وإن تكُ ذا عتبي فمثلك يُعتب^(٤)

(١) التفسير الكبير ٢٧/١١٢ . (٢) نفس المرجع السابق ٢٧/١١٣ . (٣) المختصر ٣/٢٥٩ . (٤) تفسير القرطبي ١٥/٣٥٤ .

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ
 وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا جَلُودُهُمْ لَمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ
 وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا
 جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ
 ﴿قِيضْنَا﴾ هِيَآنَا ﴿نُزُلًا﴾ ضِيَافَةٌ وَكَرَامَةٌ ﴿يَسَامُونَ﴾ يَمْلُونَ .

سَبَبُ الزَّوْلِ : عن ابن مسعود قال : اجتمع عند البيت ثلاثة نفر : قرشيان وثقفي ، قليل فقهه قلوبهم ، كثير شحم بطونهم ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع ما نقول ؟ فقال أحدهم : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا ، وقال الآخر : إن كان يسمع إن جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا ، فأنزل الله عز وجل ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم . . .﴾ (١) الآية .

التفسير : ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار﴾ أي واذكر يوم يجمع أعداء الله المجرمون في أرض المحشر لسوقهم إلى النار ﴿فهم يوزعون﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجمعوا قال ابن كثير : تجمع الزبانية أولهم على آخرهم حتى يجمعوا (٢) ﴿حتى إذا جاءوها﴾ أي حتى إذا وقفوا للحساب ﴿شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾ أي نطقت جوارحهم وشهدت عليهم بما اقترفوه من إجرام وأثام ، وفي الحديث (فيختم على فيه - أي فمه - ثم يقال لجوارحه انطقي ، فتتطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بعداً لكن وسحقاً ، فعنكن كنت أناضل) (٣) ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا﴾ أي وقالوا لأعضائهم وجلودهم توبيخاً وتعجباً من هذا الأمر الغريب : لم أقررتم علينا وشهدتم بما فعلنا وإنما كنا نجادل وندافع عنكم ؟ ﴿قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾ أي قالوا معتذرين : ليس الأمر بيدنا وإنما أنطقنا الله بقدرته ، الذي ينطق الجهاد والإنسان والحيوان ، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح ﴿وهو خلقكم أول مرة﴾ أي هو أوجدكم من العدم ، وأحياكم بعد أن لم تكونوا شيئاً ، فمن قدر على هذا قدر على إنطقنا ﴿وإليه ترجعون﴾ أي وإليه وحده تُردون بالبعث قال أبو السعود : المعنى ليس نطقنا بعجب من قدرة الله ، الذي أنطق كل حي ، فإن من قدر على خلقكم وإنشاءكم أولاً ، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه ثانياً ، لا يتعجب من إنطقه لجوارحكم (٤) ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم﴾ أي وما كنتم تستخفون من هؤلاء الشهود في الدنيا حين مباشرتكم الفواحش ، لأنكم لم تظنوا أنها تشهد عليكم

(١) الحديث أخرجه مسلم كذا في القرطبي ٣٥١ / ١٥ .

(٢) مختصر ابن كثير ٢٦٠ / ٣ . (٣) هذا جزء من حديث طويل أخرجه مسلم ، وفيه دلالة على أن أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة ،

والله على كل شيء قدير . (٤) تفسير أبي السعود ٢٢ / ٥ .

فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا مِنْ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾
 * وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَّتْ مِنْ
 قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ
 لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾
 ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾

قال البيضاوي : أي كنتم تستترون عن الناس عند ارتكاب الفواحش مخافة الفضيحة ، وما ظننتم أن أعضاءكم تشهد عليكم فما استخفيتم منها ، وفيه تنبيه على أن المؤمن ينبغي ألا يمر عليه حال إلا وعليه رقيب ^(١) ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون أي ولكن ظننتم أن الله تعالى لا يعلم كثيراً من القبائح المخفية ، ولذلك اجترأتم على المعاصي والآثام وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم أي وذلكم الظن القبيح برب العالمين - أنه لا يعلم كثيراً من الخفايا - هو الذي أوقعكم في الهلاك والدمار فأوردكم النار فأصبحتم من الخاسرين أي فخرستم سعادتكم وأنفسكم وأهليكم ، وهذا تمام الخسران والشقاء فإن يصبروا فالنار مَثْوًى لَهُمْ أي فإن يصبروا على العذاب فالنار مقامهم ومنزلهم ، لا محيد ولا محيص لهم عنها وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين أي وإن يطلبوا إرضاء الله ، فما هم من المرضي عليهم ، قال القرطبي : والعتبي : رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب ، تقول : استعتبته فأعتبني أي استرضيته فأرضاني ^(٢) وقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ أي هيأنا للمشركين ويسرنا لهم قرناء سوء من الشياطين ، ومن غواة الإنس ^(٣) فزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ أي حسَّنوا لهم أعمالهم القبيحة ، الحاضرة والمستقبلة قال ابن كثير : حسَّنوا لهم أعمالهم فلم يروا أنفسهم إلا محسنين ^(٤) وحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ أي ثبت وتحقق عليهم كلمة العذاب ، وهو القضاء المحتم بشقائهم ^(٥) في أُمِّ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أي في جملة أمم من الأشقياء المجرمين قد مضت من قبلهم ، ممن فعلوا كفعالهم من الجن والإنس ^(٦) إنهم كانوا خاسرين ^(٧) تعليل لاستحقاقهم العذاب أي لأنهم كانوا من الخاسرين في الدنيا والآخرة ، فلذلك استحقوا العذاب الأبدي ^(٨) وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ^(٩) لما أخبر تعالى عن كفر عاد وثمود وغيرهم ، أخبر عن مشركي قريش وأنهم كذبوا القرآن والمعنى قال الكافرون بعضهم لبعض لا تسمعوا لمحمد إذا قرأ القرآن ، وتشاغلوا عنه ^(١٠) والغوا فيه لعلكم تغلبون أي ارفعوا أصواتكم عند قراءته حتى لا يسمعه أحد لكي تغلبوه على دينه قال ابن عباس : قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول ^(١١) فلنذيقن الذين كفروا

(١) تفسير البيضاوي ١٥٦/٢ . (٢) تفسير القرطبي ٣٥٤/١٥ .

(٣) مختصر ابن كثير ٢٦١/٣ . (٤) القرطبي ٣٥٦/١٥ .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أقدامنا لِيَكُونَا مِنَ
 الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا نَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا
 بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ

عذاباً شديداً﴾ أي فوالله لندينقن هؤلاء الكفار المستهزئين بالقرآن عذاباً شديداً لا يخف ولا ينقطع ﴿ولنجزيَنهم أسوأ الذي كانوا يعملون﴾ أي ولنجازينهم بشر أعمالهم ، وسيء أفعالهم ، أسوأ وأقبح الجزاء ﴿ذلك جزاء أعداء الله النار﴾ أي ذلك العذاب الشديد - الذي هو أسوأ الجزاء - هو نار جهنم جزاء المجرمين ، أعداء الله ورسوله ﴿لهم فيها دار الخلد﴾ أي لهم في جهنم دار الإقامة ، لا يخرجون منها أبداً ﴿جزاء بما كانوا بآياتنا يمحذون﴾ أي جزاء لهم على كفرهم بالقرآن ، واستهزائهم بآيات الرحمن قال الرازي : وسمى لغوهم بالقرآن جحوداً لأنهم لما علموا أن القرآن بالغ إلى حد الإعجاز ، خافوا إن سمعه الناس أن يؤمنوا به ، فاخترعوا تلك الطريقة الفاسدة ، وذلك يدل على أنهم علموا كونه معجزاً إلا أنهم جحدوه حسداً^(١) ﴿وقال الذين كفروا ربنا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ أي ويقول الكفار إذا دخلوا جهنم ربنا أَرْنَا كل من أغوانا وأضلنا من الجن والإنس ، وإنما جاء بلفظ الماضي « وقال » لتحقيقه ومعناه المستقبل قال أبو حيان : والظاهر أن المراد بـ ﴿الَّذِينَ﴾ يراد بها الجنس أي كل مغوٍ من هذين النوعين^(٢) ﴿نجعلهما تحت أقدامنا﴾ أي نطأهما بأقدامنا انتقاماً وتشفيماً ﴿ليكونا من الأسفلين﴾ أي ليكونا في الدرك الأسفل من النار ، وهي أشد عذاب جهنم لأنها درك المنافقين ، ولما ذكر تعالى حال الأشقياء المجرمين ، أردفه بذكر حال السعداء المؤمنين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي آمنوا بالله إيماناً صادقاً وأخلصوا العمل له ، ثم استقاموا على توحيد الله وطاعته ، وثبتوا على ذلك حتى الممات ، عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر بعد أن تلا الآية الكريمة : « استقاموا والله على الطريقة لطاعته ، ثم لم يروغوا وروغان الثعالب »^(٣) والغرض : أنهم استقاموا على شريعة الله ، في سلوكهم ، وأخلاقهم وأقوالهم ، وأفعالهم ، فكانوا مؤمنين حقاً ، مسلمين صدقاً ، وقد سئل بعض العارفين عن تعريف الكرامة فقال : الاستقامة عين الكرامة ، وعن الحسن أنه كان يقول : اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة ﴿تنزل عليهم الملائكة أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي تنزل عليهم ملائكة الرحمة عند الموت بأن لا تخافوا ممّا تقدمون عليه من أحوال القيامة ، ولا تحزنوا على ما خلفتموه في الدنيا من أهلٍ ومالٍ وولد فنحن نخلفكم فيه ﴿وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ أي وأبشروا بجنة الخلد التي وعدكم الله بها على لسان الرسل قال شيخ زاده : إن الملائكة تنزل حين الاحتضار على المؤمنين بهذه البشارة أن لا تخافوا من هول الموت ، ولا من هول القبر ، وشدائد يوم القيامة ، وإن المؤمن ينظر إلى حافظيه قائمين على رأسه يقولان له : لا تخف اليوم ولا تحزن ، وأبشر بالجنة التي كنت توعد ،

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ١٢٠ . (٢) البحر المحيط ٧/ ٤٩٥ . (٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٥٨ .

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزْلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ

وإنك ستري اليوم أموراً لم تر مثلها فلا تهولنك فإنما يراد بها غيرك^(١) ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ أي تقول لهم الملائكة : نحن أنصاركم وأعوانكم في الدنيا والآخرة ، نرشدكم إلى ما فيه خيركم وسعادتكم في الدارين ﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾ أي ولكم في الجنة ما تشتهي نفوسكم ، وتقرُّ به عيونكم من أنواع اللذائذ والشهوات ، ولكم فيها ما تطلبون وتتمنون ﴿ نزلًا من غفور رحيم ﴾ أي ضيافة وكرامة من رب واسع المغفرة ، عظيم الرحمة لعباده المتقين ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴾ أي دعا إلى توحيد الله وطاعته ، بقوله وفعله وحاله ، وفعل الصالحات ، وجعل الإسلام دينه ومذهبه قال ابن كثير: وهذه الآية عامة في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتدي^(٢) وقال الزمخشري: والآية عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث: أن يكون مؤمناً معتقداً لدين الإسلام، عاملاً بالخير، داعياً إليه ، وما هم إلا طبقة العلماء العاملين^(٣) ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ﴾ أي لا يتساوى فعل الحسنة مع فعل السيئة ، بل بينهما فرق عظيم في الجزاء وحسن العاقبة ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ أي ادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن ، مثل أن تدفع الغضب بالصبر ، والجهل بالحلم ، والإساءة بالعفو قال ابن عباس : ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك^(٤) ﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ أي فإذا فعلت ذلك صار عدوك كالصديق القريب ، الخالص الصداقة في مودته ومحبه لك ﴿ وما يلقيها إلا الذين صبروا ﴾ أي وما ينال هذه المنزلة الرفيعة ، والخصلة الحميدة ، إلا من جاهد نفسه بكظم الغيظ واحتمال الأذى ﴿ وما يلقيها إلا ذو حظ عظيم ﴾ أي وما يصل إليها وينالها إلا ذو نصيب وافر من السعادة والخير ﴿ وإمّا ينزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ أي وإن وسوس إليك الشيطان بترك ما أمرت به من الدفع بالتي هي أحسن ، وأراد أن يملكك على البطش والانتقام ، فاستعد بالله من كيده وشره ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ أي هو السميع لأقوال العباد ، العليم بأفعالهم وأحوالهم ، ثم ذكر تعالى دلائل قدرته الباهرة ، وحكمته البالغة فقال ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ أي ومن علاماته الدالة على وحدانيته وقدرته تعاقب الليل والنهار ، وتذليل الشمس والقمر ، مسخرين لمصالح

(١) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٢٦١ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٦٤ . (٣) الكشاف ٤/ ١٥٦ . (٤) القرطبي ١٥/ ٣٦١ .

وَالْقَمَرَ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾
 فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٨﴾

البشر ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن ﴾ أي لا تسجدوا للمخلوق واسجدوا للخالق ، الذي خلق هذه الأشياء وأبدعها ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ أي إن كنتم تفرّدونه بالعبادة فلا تسجدوا لأحدٍ سواه ﴿ فإن استكبروا ﴾ أي فإن استكبر الكفار عن السجود لله ﴿ فالذين عند ربك يسبحونه بالليل والنهار ﴾ أي فلللائكة الأبرار يعبدونه بالليل والنهار ﴿ وهم لا يسمعون ﴾ أي لا يملّون عبادته .

قال الله تعالى : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة . . إلى . . ألا إنه بكل شيء محيط ﴾ من آية (٣٩) إلى نهاية آية (٥٤) .

المناسكة : لما ذكر تعالى صفات المؤمنين الأبرار ، وأردفها بذكر الدلائل الدالة على وجوده سبحانه ووحدانيته ، وكمال علمه وحكمته ، ذكر هنا ما يدل على البعث والنشور ، من صفحات هذا الكون المنظور ، ثم أعقبه بذكر الملحدّين في آياته ، المكذّبين برسله وأنبياؤه ، وختم السورة الكريمة ببيان حال الأشقياء المجرمين ، المنكرين للقرآن العظيم .

اللفظ : ﴿ يُلحِدُونَ ﴾ يميلون عن الحق والاستقامة ، والإلحاد : الميل والعدول يقال : أُلحِد في دين الله أي حاد عنه وعدل ﴿ أعجمياً ﴾ بلغة العجم ﴿ وقرء ﴾ صمم مانع من سماعه ﴿ أكمامها ﴾ جمع كُم وهو وعاء الثمرة بضم الكاف وكسرهما ﴿ محيص ﴾ فرار ومهرب من حاص يحيص حيصاً إذا هرب ﴿ نأى ﴾ تباعد وأعرض ﴿ الأفاق ﴾ أقطار السموات والأرض ﴿ مرية ﴾ شك وارتباب عظيم .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنِّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

التفسير : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ﴾ أي ومن البراهين والعلامات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته ، أنك ترى الأرض يابسة جرداء لا نبات فيها ، تشبه الرجل الخاضع الذليل ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ أي فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت حركة شديدة وانفتحت وعلت بالنبات ، وأخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار ﴿ إن الذي أحياها لمحيي الموتى ﴾ أي إن الإله الذي أحيا الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الأموات ويبعثهم من القبور ﴿ إنه على كل شيء قدير ﴾ أي

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْتَقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا
مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤٥﴾ لَا يَأْتِيهِ
الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٦﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ
إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٧﴾

لا يعجزه جل وعلا شيء ، فكما أخرج الزروع والثمار من الأرض المجذبة ، فإنه قادر على إحياء الموتى . . ثم توعد تعالى من يلحد في آياته بعد ظهور الأدلة والبراهين على وجوده فقال ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا﴾ أي إن الذين يطعنون في آياتنا ، بالتحريف والتكذيب والإنكار لها لا يغيب أمرهم عنا فحن لهم بالمرصاد ، وفيه وعيد وتهديد قال قتادة : الإلحاد الكفر والعناد وقال ابن عباس : هو تبديل الكلام ووضع في غير موضعه ^(١) ﴿أفمن يلقى في النار خيراً أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾ أي أفمن يطرح في جهنم مع الخوف والفرع أفضل أم من يكون في الجنة آمناً من عذاب الله يوم القيامة ؟ قال الرازي : والغرض التنبيه على أن الملحدين في آيات الله يلقون في النار ، وأن المؤمنين بآيات الله يكونون آمنين يوم القيامة ، وشتان ما بينهما ^(٢) ﴿اعملوا ما شئتم﴾ أي افعلوا ما تشاءون في هذه الحياة ، وهو تهديد لا إباحة ملفع بظل الوعيد ، بدليل قوله تعالى ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ أي هو تعالى مطلع على أعمالكم ، لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ، وسيجازيكم عليها ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ أي إن الذين كذبوا بالقرآن حين جاءهم من عند الله ، وخبر « إن » محذوف لتهويل الأمر كأنه قيل : سيجازون بكفرهم جزاءً لا يكاد يوصف لشدة بشاعته وفضاعته ^(٣) ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ أي وإنه لكتاب غالب بقوة الحجة ، لا نظيره لما احتوى عليه من الإعجاز ، يدفع كل جاحد ، ويقمع كل معاند ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ أي لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات ، ولا مجال للطعن فيه قال ابن كثير : أي ليس للبطلان إليه سبيل ، لأنه منزل من رب العالمين ^(٤) ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾ أي هو تنزيل من إله حكيم في تشريعه وأحواله وأفعاله ، محمود من خلقه بسبب كثرة نعمه . . ثم سأل تعالى نبيه على ما يصيبه من أذى الكفار فقال ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ أي ما يقول لك كفار قومك ، إلا ما قد قال الكفار للرسل قبلهم من الكلام المؤذي ، والطعن فيما أنزل الله قال القرطبي : يعزّي نبيه ويسلّيه من أذى وتكذيب قومه ^(٥) ﴿إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم﴾ أي إن ربك يا محمد هو الغفور لذنوب المؤمنين ، ذو العقاب الشديد للكافرين ، ففوض أمرك إليه فإنه ينتقم لك من أعدائك ، ثم ذكر تعالى تعنت الكافرين ومكابرتهم للحق بعد سطوعه وظهوره

(١) تفسير القرطبي ٣٦٦/١٥ . (٢) التفسير الكبير ١٣١/٢٧ . (٣) هذا رأي أكثر المفسرين واختار أبو حيان في البحر المحيط أن الخبر المذكور وهو ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه﴾ ولكنه حذف منه العائد ، والأول أظهر .

(٤) مختصر ابن كثير ٢٦٥/٣ . (٥) تفسير القرطبي ٣٦٧/١٥ .

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فِصْلَتُ آيَاتِهِ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۚ
وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنْ

فقال ﴿ولو جعلناه قرآناً أَعْجَمِيًّا﴾ أي لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم ﴿لقالوا لولا فِصْلَتُ آيَاتِهِ﴾ أي لقال المشركون : هلاً بَيَّنْتَ آياته بلسانِ نفهمه وهلاً نزل بلغتنا ﴿أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ ؟ استفهام إنكاري أي قرآن أَعْجَمِيٌّ ونبيُّ عربي ؟ قال الرازي : ذكروا أن الكفار كانوا يقولون لتعتهم : هلاً نزل القرآن بلغة العجم ؟ ! فأجيبوا بأن الأمر لو كان كما تقترحون لم تتركوا الاعتراض ، ثم قال : والحقُّ عندي أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد متعلق ببعضه ببعض ، وقد حكى تعالى عنهم في أول السورة أنهم قالوا ﴿قلوبنا في أكنةٍ مما تدعوننا إليه﴾ فردَّ تعالى عليهم هنا بأنه لو أنزل هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا : كيف أرسلت الكلام العجمي إلى القوم العرب !! ولصحَّ لهم أن يقولوا ﴿قلوبنا في إكنةٍ مما تدعوننا إليه﴾ لأننا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه !! أما وقد نزل بلغة العرب ، وهم من أهل هذه اللغة ، فكيف يمكنهم أن يقولوا ذلك ؟ فظهر أن الآية على أحسن وجوه النظم ^(١) ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ أي قل لهم يا محمد : إن هذا القرآن هدى للمؤمنين من الضلالة ، وشفاء لهم من الجهل والشك والريب ﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقرء﴾ أي والذين لا يصدّقون بهذا القرآن ، في آذانهم صممٌ عن سماعه ، ولذلك تواصلوا باللغو فيه ﴿وهو عليهم عمى﴾ أي كما أن هذا القرآن رحمة للمؤمنين ، هو شقاء وتعاسة على الكافرين كقوله تعالى ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ قال في حاشية البيضاوي : إن القرآن لوضوح آياته ، وسطوع براهينه ، هادٍ إلى الحق ، ومزيل للريب والشك ، وشفاء من داء الجهل والكفر والارتياب ، ومن ارتاب فيه ولم يؤمن به ، فارتبابه إنما نشأ عن توغله في اتباع الشهوات ، وتقاعده عن تفقد ما يسعده وينجيهِ ^(٢) ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي أولئك الكافرون بالقرآن ، كمن يُنادي من مكان بعيد ، فإنه لا يسمع ولا يفهم ما يُنادي به ، وهذا على سبيل التمثيل قال ابن عباس : يريد مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاءً ونداءً ^(٣) ﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ فاختلَفَ فيه﴾ أي والله لقد أعطينا موسى التوراة فاختلَفَ فيها قومه ما بين مصدقٍ لها ومكذّب ، هكذا حال قومك بالنسبة للقرآن قال القرطبي : وهذا تسلية للنبي ﷺ أي لا يحزنك اختلاف قومك في كتابك ، فقد اختلف من قبلهم في كتابهم ، فأمن به

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ١٣٣ وهذا الذي ذكره الإمام الفخر هو الأظهر ، فإنهم لم يقترحوا أن ينزل بلغة العجم وإنما هو على سبيل الفرض بدليل ﴿ولو أنزلناه قرآناً أَعْجَمِيًّا لقالوا﴾ وهذا الذي رجحناه هو ما ذهب إليه العلامة القرطبي حيث قال في تفسير الآية : المعنى لو جعلنا هذا القرآن بلغة غير العرب لقالوا لولا بَيَّنْتَ آياته بلغتنا فإننا عرب لا نفهم الأعجمية ، فبيّن تعالى أنه أنزل بلسانهم ليتقرر به معنى الإعجاز ، إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظماً ونثراً ، وإذا عجزوا عن معارضته فذلك أدل دليل على أنه من عند الله . (٢) حاشية زاده على البيضاوي

عَمَلٍ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٨﴾ * إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۖ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۖ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مَنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٩﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ حَاجِبٍ ﴿٥٠﴾ لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ

الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَعُوْثُ قَنُوطٌ ﴿٥١﴾ وَلَئِنْ أَدْنَاكَ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّهُ لَيَقُولُنَّ هَذَا لِي

قوم وكذب به قوم^(١) ﴿٥١﴾ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ﴿٥٢﴾ أي ولولا أن الله حكم بتأخير الحساب والجزاء للخلائق إلى يوم القيامة لعذبهم وأهلكهم في الدنيا ﴿٥٣﴾ وإنيهم لفي شك منه مريب ﴿٥٤﴾ أي وإن هؤلاء الكفار لفي شك من القرآن ، لتبلد عقولهم وعمى بصائرهم ، موقع لهم في أشد الريبة والاضطراب ﴿٥٥﴾ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴿٥٦﴾ أي من عمل شيئاً من الصالحات في هذه الدنيا فإنما يعود نفع ذلك على نفسه ، ومن أساء في الدنيا فإنما يرجع وبال ذلك وضرره عليه ﴿٥٧﴾ وما ربك بظلامٍ للعبيد ﴿٥٨﴾ أي وليس الله منسوباً إلى الظلم حتى يعذب بغير إساءة ، فهو تعالى لا يعاقب أحداً إلا بذنبه ، ولا يعاقبه إلا بجرمه قال المفسرون : ليست صيغة « ظلام » هنا للمبالغة ، وإنما هي صيغة نسبة مثل عطار ، ونجار ، وتمار ، ولو كانت للمبالغة لأوهم أنه تعالى ليس كثير الظلم ولكنه يظلم أحياناً ، وهذا المعنى فاسد لأنه يستحيل عليه الظلم جل وعلا ﴿٥٩﴾ إليه يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴿٦٠﴾ أي إليه تعالى وحده علم وقت الساعة لا يعلمه غيره قال الإمام الفخر : أي لا يعلم وقت الساعة بعينه إلا الله ، ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما هدد الكفار بقوله ﴿٦١﴾ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴿٦٢﴾ ومعناه أن جزاء كل أحد يصل إليه في يوم القيامة ، فكأن سائلاً قال : ومتى يكون ذلك اليوم ؟ فبين تعالى أن معرفة ذلك اليوم لا يعلمه إلا الله ﴿٦٣﴾ ﴿٦٤﴾ وما تخرج من ثمرات من أكمامها ﴿٦٥﴾ أي وما تخرج ثمرة من الثمرات من غلافها ووعائها ﴿٦٦﴾ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴿٦٧﴾ أي ولا تحمل أنثى جنيناً في بطنها . ولا تلده إلا ملتبساً بعلمه تعالى ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ﴿٦٨﴾ ﴿٦٩﴾ ويوم يُناديهم أين شركائي ﴿٧٠﴾ ؟ أي ويوم القيامة ينادي الله المشركين أين شركائي الذين زعمتم أنهم آلهة ؟ وفيه تقريرٌ وتهكمٌ بهم ﴿٧١﴾ قالوا أدناك ما منا من شهيد ﴿٧٢﴾ أي قال المشركون : أعلمناك وأخبرناك الآن بالحقيقة ما منا من يشهد اليوم بأنك شريكاً قال المفسرون : لما عاينوا القيامة تبرءوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم ، وأعلنوا إيمانهم وتوحيدهم في وقت لا ينفع فيه إيمان ﴿٧٣﴾ وفضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ﴿٧٤﴾ أي وغاب عنهم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من الآلهة المزعومة ﴿٧٥﴾ وظنوا ما لهم من محيص ﴿٧٦﴾ أي وأيقنوا أنه لا مهرب ولا مخلص لهم من عذاب الله ﴿٧٧﴾ لا يسألم الإنسان من دعاء الخير ﴿٧٨﴾ أي لا يمل الإنسان من سؤاله

(١) تفسير القرطبي ٣٧٠/١٥ . (٢) التفسير الكبير ٢٧/١٣٦ . (٣) قال في الظلال : « ويذهب القلب يتبع الثمرات في أكمامها ، والأجنة في أرحامها ، ويطوف في جنات الأرض يرقب الأكام التي لا تحصى ، ويتصور الأجنة التي لا يحصرها خيال ، وترتسم في الضمير صورة رائعة لعلم الله ، بقدر ما يطيق القلب البشري أن يتصور من الحقيقة التي ليس لها حدود » ظلال القرآن ٢٤/١٤٠ .

وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا
وَلَنُنذِرَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥١﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۗ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ
فَذُودَعَا ۗ عَرِيضٌ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ۗ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ
بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ

ودعائه بالخير لنفسه ، كالمال والصحة والعز والسلطان ﴿ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤَسُّ قَنُوطٌ ﴾ أي وإن أصابه فقر أو مرض فهو عظيم اليأس ، قانطٌ من روح الله ورحمته ﴿ ولئن أذقناه رحمةً منا من بعد ضراء مسته ﴾ أي ولئن أعطيناه غنى وصحة من بعد شدة وبلاء ﴿ ليقولنَّ هذا لي ﴾ أي ليقولنَّ هذا بسعبي واجتهادي قال أبو حيان : سمى النعمة رحمة إذ هي من آثار رحمة الله ^(١) ﴿ وما أظنُّ الساعة قائمة ﴾ أي وما أعتقد أن القيامة ستكون ﴿ ولئن رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ أي وعلى فرض أن القيامة حصلت ، فليحسننَّ إليَّ ربي كما أحسن إليَّ في هذه الدنيا قال ابن كثير : يتمنى على الله عز وجل مع إساءته العمل وعدم اليقين ^(٢) ﴿ فلننبئنَّ الذين كفروا بما عملوا ﴾ أي فوالله لنعلمنَّ هؤلاء الكافرين بحقيقة أعمالهم ، ولنبصرنَّهم بإجرامهم ﴿ ولنذيقنَّهم من عذابٍ غليظٍ ﴾ أي ولنعذبنَّهم أشد العذاب ، وهو الخلود في نار جهنم ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ﴾ أي وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض عن شكر ربه ، واستكبر عن الانقياد لأوامره ، وشمخ بأنفه تكبراً وترفعاً ﴿ وإذا مَسَّهُ الشَّرُّ فذودعَا عريضٌ ﴾ أي وإذا أصابه المكروه فهو ذو دعاء كثير ، يديم التضرع ويكثر من الابتهاج ، وهكذا طبيعة الإنسان الجحود والنكران ، يعرف ربه في البلاء وينساه في الرخاء قال الرازي : استعير العرض لكثرة الدعاء ، كما استعير الغلظ لشدة العذاب ^(٣) ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ أي قل لهم يا محمد : أخبروني يا معشر المشركين ، إن كان هذا القرآن من عند الله ، وكفرتُم به من غير تأمل ولا نظر ، كيف يكون حالكم ؟ ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أحد أضلُّ منكم لفرط شقاقكم وعداوتكم ، قال أبو السعود : وضع الموصول « من أضلُّ » موضع الضمير « منكم » شرحاً لحالهم ، وتعليلاً لمزيد ضلالهم ^(٤) ﴿ سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أي سنظهر لهؤلاء المشركين دالاتنا وحججنا على أن القرآن حقٌ منزل من عند الله ﴿ فِي الْأَفَاقِ ﴾ أي في أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم ، والأشجار والنبات وغير ذلك من العجائب العلوية والسفلية ﴿ وفي أنفسهم ﴾ أي وفي عجائب قدرة الله في خلقهم وتكوينهم قال القرطبي : المراد ما في أنفسهم من لطيف الصنعة ، وبديع الحكمة ، حتى سبيل الغائط والبول ، فإن الرجل يأكل ويشرب من مكان واحد ، ويتميز ذلك من مكانين ، ومن بديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء ، ينظر بهما من

(١) البحر المحيط ٧/٥٠٤ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٢٦٧ . (٣) التفسير الكبير ٢٧/١٣٨ . (٤) تفسير أبي السعود ٥/٢٧ .

كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾

الأرض إلى السماء ، مسيرة خمسمائة عام ، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة ، وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه (١) ﴿حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ أي حتى يظهر لهم أن هذا القرآن حق ﴿أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ ؟ أي أولم يفهم برهاناً على صدقك أن ربك لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء ؟ وأنه مطلع على كل شيء لا تخفى عليه خافية ؟ ﴿ألا إنهم في مريئة من لقاء ربهم﴾ ألا استفتاح لتنبه السامع إلى ما يقال أي ألا فانتبهوا أيها القوم إن هؤلاء المشركين في شك من الحساب والبعث والجزاء ، ولهذا لا يتفكرون ولا يؤمنون ﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾ أي ألا فانتبهوا فإنه تعالى قد أحاط علمه بكل الأشياء جملة وتفصيلاً ، فهو يجازيهم على كفرهم .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين ﴿بشيراً .. ونذيراً﴾ وبين ﴿طوعاً .. وكرهاً﴾ وبين ﴿ما بين أيديهم .. وما خلفهم﴾ وبين ﴿الحسنة .. والسيئة﴾ وبين ﴿مغفرة .. وعقاب﴾ وبين ﴿أعجمي .. وعربي﴾ وبين ﴿تحمل .. وتضع﴾ وبين ﴿الخير .. والشر﴾ .

٢ - طباق السلب ﴿لا تسجدوا للشمس .. واسجدوا لله﴾ وكذلك ﴿آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون﴾ .

٣ - الالتفات ﴿فإن أعرضوا﴾ بعد قوله ﴿قل ائنكم لتكفرون﴾ وهو التفات من الخطاب الى الغيبة ، وناسب الإعراض عن مخاطبتهم لكونهم أعرضوا عن الحق ، وهو تناسب حسن .

٤ - الاستعارة التمثيلية ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً﴾ مثل تأثير قدرته تعالى في السموات والأرض بأمر السلطان لأحد رعيته أو عبده بأمر من الأمور وامثال الأمر سريعاً .

٥ - الاستعارة التصريحية ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر﴾ ليس هناك على الحقيقة شيء مما قالوه ، وإنما أخرجوا هذا الكلام مخرج الدلالة على استنقاهم ما يسمعون من قوارع القرآن ، وجوامع البيان ، فكأنهم من شدة الكراهية له قد صمّت أسماعهم عن فهمه ، وقلوبهم عن علمه .

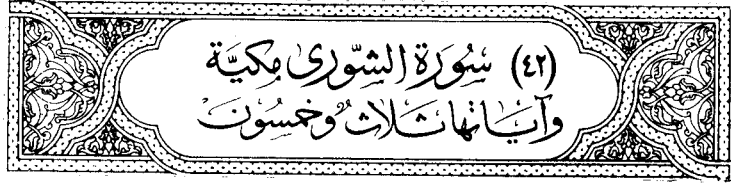
٦ - الاستعارة أيضاً ﴿أولئك يُنادون من مكان بعيد﴾ شبه حالهم في عدم قبول المواعظ ، وإعراضهم عن القرآن وما فيه بحال من يُنادى من مكان بعيد ، فلا يسمع ولا يفهم ما يُنادى به ، والجامع عدم الفهم في كل .

٨ - الأمر التهديدي ﴿اعملوا ما شئتم﴾ خرج الأمر عن صيغته الأصلية إلى معنى الوعيد والتهديد .

٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كأنه ولي حميم﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه فهو مرسل مجمل .

١٠ - إن اللسان عاجز عن تصوير البلاغة في جمال الأسلوب القرآني ، فتأمل الروعة البيانية في قوله تعالى ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ وتصور التناسق الفني في التعبير والأداء ، وتأمل لفظ الخشوع والاهتزاز والانتفاخ للأرض الميتة يبعثها الله كما يبعث الموتى من القبور ، إنه جو بعث وإخراج وإحياء ، وباله من تصوير رائع يأخذ بالألباب .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة فصلت »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* هذه السورة الكريمة مكية ، وموضوعها نفس موضوع السور المكية التي تعالج أمور العقيدة « الوجدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء » والمحور الذي تدور عليه السورة هو « الوحي والرسالة » وهو الهدف الأساسي للسورة الكريمة .

* تبتدىء السورة بتقرير مصدر الوحي ، ومصدر الرسالة ، فالله رب العالمين هو الذي أنزل الوحي على الأنبياء والمرسلين ، وهو الذي اصطفى لرسالاته من شاء من عباده ، ليخرجوا الإنسانية من ظلمات الشرك والضلال ، إلى نور الهداية والإيمان .

* ثم تعرض لحالة بعض المشركين ، ونسبتهم لله الذرية والولد ، حتى إن السموات ليكدن يتفطرن من هول تلك المقالة الشنيعة ، وبينما هؤلاء المشركون في ضلالهم يتخبطون ، إذا بالملائ الأعلى في تسبيحهم وتمجيدهم لله يستغرقون ، وذلك للمقارنة بين كفر أهل الأرض وطغيانهم ، وإيمان أهل السماء وإدعائهم .

* ثم تعود السورة للحديث عن حقيقة الوحي والرسالة ، فتقرر أن الدين واحد أرسل الله تعالى به جميع المرسلين ، وأن شرائع الأنبياء وإن اختلفت إلا أن دينهم واحد ، وهو الإسلام الذي بعث به نوحاً وموسى وعيسى وسائر الرسل الكرام ﴿ شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ .

* وتنتقل السورة للحديث عن المكذبين بالقرآن ، المنكرين للبعث والجزاء ، وتذّرههم بالعذاب الشديد في يوم تشيب له الرءوس وتطير لهوله الأفئدة ، بينما هم في الدنيا يهزءون ويسخرون ، ويستعجلون قيام الساعة .

* وبعد أن تتحدث السورة عن دلائل الإيمان في هذا العالم المنظور ، الذي هو أثر من آثار صنع الله الباهر وحكمته وقدرته ، تدعو الناس إلى الاستجابة لدعوة الله والانقياد والاستسلام لحكمه قبل أن يفاجئهم ذلك اليوم العصيب ، الذي لا ينفع فيه مال ولا قريب ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله ﴾ .

* وتختتم السورة بالحديث عن الوحي وعن القرآن ، كما بدأت به في مطلع السورة الكريمة ،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَقٌ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

ليتناسق الكلام في البدء والختام ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان . . . الآية .

التسمية : سميت « سورة الشورى » تنويهاً بمكانة الشورى في الإسلام ، وتعليماً للمؤمنين أن يقيموا حياتهم على هذا المنهج الأمثل الأكمل « منهج الشورى » لئلا يفتروا من أثر عظيم جليل في حياة الفرد والمجتمع كما قال تعالى ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ .

اللغات : ﴿ يتفطرن ﴾ يتشققن ، والفطور : الشقوق ومنه ﴿ وما لها من فطور ﴾ ﴿ فاطر ﴾ خالق ومبدع ومخترع ﴿ يوم الجمع ﴾ يوم القيامة لاجتماع الخلائق فيه ﴿ أم القرى ﴾ مكة المكرمة ﴿ يذروكم ﴾ ينشئكم ويكثركم ﴿ مقاليد ﴾ مفاتيح جمع إقليد على غير قياس ﴿ شرع ﴾ بين وسن وأوضح ﴿ كبر ﴾ عظم وشق ﴿ ينب ﴾ يرجع ويتوب من ذنبه ﴿ مريب ﴾ موقع في الريبة والقلق ﴿ داحضة ﴾ باطلة وزائلة يقال : دحضت حجته أي بطلت ، ودحضت رجله أي زلقت .

التفسير : ﴿ حم * عسق ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن^(١) ، وإثارة انتباه الإنسان بحروف أولية ، وبدء غير مألوف ﴿ كذلك يُوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ أي مثل ما أوحى إليك ربك يا محمد هذا القرآن ، أوحى إلى الرسل من قبلك في الكتب المنزلة ، الله العزيز في ملكه ، الحكيم في صنعه ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي له ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبداً ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ أي هو المتعالي فوق خلقه ، المنفرد بالكبرياء والعظمة ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ﴾ أي تكاد السموات يتشققن من عظمة الله وجلاله ، ومن شناعة ما يقوله المشركون من اتخاذ الله الولد ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ أي والملائكة الأبرار دائبون في تسبيح الله ، ينزهونه عما لا يليق به ﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ أي ويطلبون المغفرة لذنوب من في الأرض من المؤمنين قال في التسهيل : والآية عمومٌ يراد به الخصوص لأن الملائكة إنما يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض ، فهي كقوله تعالى ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾^(٢) ﴿ ألا إن الله

(١) انظر تفصيل القول في أول سورة البقرة . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١٧/٤ .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٧٠﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿١٧١﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٧٢﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧٣﴾

هو الغفور الرحيم ﴿١٧٠﴾ أي ألا فاتتبهوا أيها القوم إن الله هو الغفور لذنوب عباده ، الرحيم بهم حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وعصيانهم قال القرطبي : هيب وعظم جل وعلا في الابتداء ، وألطف وبشر في الانتهاء^(١) ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ أي جعلوا له شركاء وأنداداً ﴿اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي الله تعالى رقيب على أحوالهم وأعمالهم ، لا يفوته منها شيء ، وهو محاسبهم عليها ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي وما أنت يا محمد بموكل على أعمالهم حتى تقسره على الإيمان ، إنما أنت منذر فحسب ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً﴾ أي وكما أوحينا إلى الرسل قبلك أوحينا إليك يا محمد قرآناً عربياً معجزاً ، بلسان العرب لا لبس فيه ولا غموض ﴿لتنذيراً أم القرى ومن حولها﴾ أي لتنذير بهذا القرآن أهل مكة ومن حولها من البلدان قال الإمام الفخر : وأم القرى أصل القرى وهي مكة ، وسميت بهذا الاسم إجلالاً لها ، لأن فيها البيت ومقام إبراهيم ، والعرب تسمى أصل كل شيء أمه ، حتى يقال : هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان^(٢) ﴿وتنذير يوم الجمع﴾ أي وتخوف الناس ذلك اليوم الرهيب ، يوم اجتماع الخلائق للحساب في صعيد واحد ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك في وقوعه ، ولا محالة من حدوثه ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ أي فريق منهم في جنات النعيم وهم المؤمنون ، وفريق منهم في دركات الجحيم وهم الكافرون ، حيث ينقسمون بعد الحساب إلى أشقياء وسعداء كقوله تعالى ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾ ﴿ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة﴾ أي لو شاء الله لجعل الناس كلهم مهتدين ، أهل دين واحد وملة واحدة وهي الإسلام قال الضحاك : أهل دين واحد ، أهل ضلالة أو أهل هدى^(٣) ﴿ولكن يدخل من يشاء في رحمة﴾ أي ولكنه تعالى حكيم لا يفعل إلا ما فيه المصلحة ، فمن علم منه اختيار الهدى يهديه فيدخله بذلك في جنته ، ومن علم منه اختيار الضلال يضلُّه فيدخله بذلك السعير ولهذا قال ﴿والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾ أي والكافرون ليس لهم ولي يتولاهم يوم القيامة ، ولا نصير ينصرهم من عذاب الله قال أبو حيان : والآية تسلية للرسول ﷺ عما كان يقاسيه من كفر قومه ، وتوقيف على أن ذلك راجع إلى مشيئته جل وعلا ، ولكن من سبقت له السعادة أدخله في رحمة يعني دين الإسلام^(٤) ﴿أم اتخذوا من دونه أولياء﴾ استفهام على سبيل الإنكار أي بل اتخذ المشركون من دون الله آلهة ، يستعينون بهم ، ويطلبون نصرهم وشفاعتهم ؟ ﴿فالله هو الوكيل﴾ أي فالله وحده هو

(١) تفسير القرطبي ٥/١٦ . (٢) التفسير الكبير ١٤٧/٢٧ .

(٣) تفسير القرطبي ٦/١٦ . (٤) البحر المحيط ٥٠٩/٧ .

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠١﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ﴿١٠٢﴾

الوليُّ الحقُّ ، الناصرُ للمؤمنين ، لا وليَّ سواه ﴿وهو يُحيي الموتى﴾ أي هو تعالى القادر على إحياء
الموتى ، لا تلك الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ﴿وهو على كُلِّ شيءٍ قدير﴾ أي لا يعجزه شيء فهو
الحقيق بأن يتخذ ولياً دون من سواه ﴿وما اختلفتم فيه من شيءٍ فحكمه إلى الله﴾ أي وما اختلفتم فيه
أيها المؤمنون من شيءٍ من أمر الدنيا أو الدين ، فالحكم فيه إلى الله جل وعلا ، هو الحاكم فيه بكتابه أو
بسنة نبيه عليه السلام ﴿ذلكم الله ربِّي﴾ أي الموصوف بهذه الصفات هو ربي وحده ، وليِّي ومالك
أمري قال القرطبي : وفيه إضمار أي قل لهم يا محمد : ذلكم الذي يحيي الموتى ، ويحكم بين المختلفين هو
ربِّي ﴿عليه توكلت﴾ أي عليه وحده اعتمدت في جميع أموري ﴿وإليه أُنِيبُ﴾ أي وإليه وحده أرجع
في كل ما يعرض عليَّ من مشكلاتٍ ومعضلات ، لا إلى أحدٍ سواه قال الرازي : والعبارة تفيد الحصر أي
لا أتوكل إلا عليه ، ولا أُنِيب إلا إليه ، وهو إشارة إلى تزييف طريقة من اتخذ غير الله ولياً ﴿... ثم بيَّن
تعالى صفاته الجليلة القدسية ، التي هي من آثار ومظاهر الربوبية فقال ﴿فاطر السموات والأرض﴾
أي هو جل وعلا خالقهما ومبدعهما على غير مثالٍ سابق ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي أوجد
لكم بقدرته من جنسكم نساءً من الأدميات ﴿ومن الأنعام أزواجاً﴾ أي وخلق لكم كذلك من الإبل
والبقر والضأن والمعز أصنافاً ، ذكوراً وإناثاً ﴿يذُرُّكُمْ فِيهِ﴾ أي يكثركم بسببه بالتوالد ، ولولا أنه خلق
الذكر والأنثى لما كان ثمة تناسلٌ ولا توالدٌ ﴿ليس كمثله شيء﴾ أي ليس له تعالى مثلٌ ولا نظير ، لا في
ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد والغرض : تنزيهُ الله تعالى عن
مشابهة المخلوقين ، والكاف هنا لتأكيد النفي أي ليس مثله شيء ، قال ابن قتيبة : العربُ تقيم المثل مقام
النفوس فتقول : مثلي لا يُقال له هذا أي أنا لا يُقال لي هذا ، ومعنى الآية ليس كالله جل وعلا شيء ﴿٣﴾ وقال
القرطبي : والذي يُعتقد في هذا الباب أن الله - جلَّ اسمُه - في عظمتِه وكبريائه ، وملوكته وحُسنى
أسمائه ، لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ، ولا يُشبهه به أحد ، وما أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق فلا تشابه
بينهما في المعنى الحقيقي ، إذ صفات القديم - عزَّ وجلَّ - بخلاف صفات المخلوق ، وإذ صفاتهم لا تنفك
عن الأعراض والأغراض ، وهو تعالى منزَّه عن ذلك ، وقد قال بعض المحققين : التوحيدُ إثباتُ ذاتٍ غير
مشبهةٍ للذوات ، ولا معطلةٍ من الصفات ، وزاد الواسطيُّ فقال : ليس كذاته ذات ، ولا كاسمه اسم ،
ولا كفعله فعل ، وهذا مذهب أهل الحق ، أهل السنة والجماعة ﴿٤﴾ ﴿وهو السميع البصير﴾ أي وهو

(١) تفسير القرطبي ٧/١٦ . (٢) التفسير الكبير للرازي ١٤٩/٢٧ .

(٣) انظر حاشية الجمل على الجلالين ٥٥/٤ . (٤) تفسير القرطبي ٨/١٦ .

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ * شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٧﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى

تعالى السميع لأقوال العباد ، البصير بأفعالهم ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ أي بيده جل وعلا مفاتيح خزائنها من المطر والنبات وسائر الحاجات ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي يوسع الرزق على من يشاء ، ويضيق على من يشاء ، حسب الحكمة الإلهية ﴿ إنه بكل شيء عليم ﴾ تعليل لما سبق أي لأن علمه تعالى محيط بكل الأشياء ، فهو واسع العلم ، يعلم إذا كان الغنى خيراً للعبد أو الفقر ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ﴾ أي سنّ وبينّ لكم أيها المؤمنون من الشريعة السمحة والدين الحنيف ، ما وصى به الرسل ، وأرباب الشرائع من مشاهير الأنبياء ، كنوح ومحمد عليه السلام ﴿ وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ أي وما أمرنا به بطريق الإلزام إبراهيم وموسى وعيسى من أصول الشرائع والأحكام قال الصاوي : خصّ هؤلاء بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء ، وأولوا العزم ، وأصحاب الشرائع المعظمة ، فلكل واحد من هؤلاء الرسل شرع جديد ، وأمّا من عداهم ، فإنما كان يبعث بتبليغ شرع من قبله ، ولم يزل الأمر يتأكد بالرسول ، ويتناصر بالأنبياء ، واحداً بعد واحد ، وشريعة إثر شريعة ، حتى ختمها الله بخير الممل ، ملة أكرم الرسل نبينا محمد ﷺ ، فتبيّن أن شرعنا- معشر الأمة المحمدية- قد جمع جميع الشرائع المتقدمة في أصول الاعتقادات ، وأصول الأحكام^(١) ولهذا قال تعالى ﴿ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ أي وصيناهم بأن أقيموا الدين الحق - دين الإسلام - الذي هو توحيد الله وطاعته ، والإيمان بكتبه ورسله ، وبالبعث والجزاء قال القرطبي : المراد اجعلوا الدين قائماً مستمراً محفوظاً من غير خلاف فيه ولا اضطراب ، في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة وهي : التوحيد ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، وغيرها ، فهذا كله مشروع ديناً واحداً وملة متحدة^(٢) . ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ أي عظم وشقّ على الكفار ما تدعوهم إليه من عبادة الله ، وتوحيد الواحد القهار ﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ أي الله يصطفي ويختار للإيمان والتوحيد من يشاء من عباده ، ويهدي إلى دينه الحق من يرجع إلى طاعته ، فيوفقه له ويقربه إليه رحمة وإكراماً ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أي وما تفرق أهل الأديان المختلفة من اليهود والنصارى وغيرهم إلا من بعد ما قامت عليهم الحجج والبراهين من النبي المرسل إليهم ﴿ بغياً بينهم ﴾ أي ظمناً وتعدياً ، وحسداً وعناداً ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى ﴾ أي ولولا أن الله قضى بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة ﴿ لقضي بينهم ﴾ أي لعجل لهم

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٣٢ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/١١ .

لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ^{١٤} وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْرثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَنِي شِكِّ مِنْهُ مَرِيْبٌ ﴿١٤﴾ فَلذَلِكَ فَادَعُ^{١٥} وَأَسْتَقِمْ كَمَا
 أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ^{١٦} وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا
 وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا لَأُحِجَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ
 يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ رُجَّتْهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

العقوبة في الدنيا سريعاً باستصالحهم قال ابن كثير : أي لولا الكلمة السالفة من الله تعالى بإنظار العباد إلى يوم المعاد لعجل لهم العقوبة سريعاً^(١) ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْرثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي وإن بقيت أهل الكتاب الذين عاصروا رسول الله ﷺ من بعد أسلافهم السابقين ﴿لَفِي شِكِّ مِنْهُ مَرِيْبٌ﴾ أي لفي شك من التوراة والإنجيل ، موقع لهم في أشد الحيرة والريبة ، لأنهم ليسوا على يقين من أمر دينهم وكتابهم ، وإنما هم مقلدون لأبائهم وأسلافهم ، بلا دليل ولا برهان قال البيضاوي : لا يعلمون كتابهم كما هو ولا يؤمنون به حق الإيمان ، فهم في شك مقلق^(٢) ﴿فَلذَلِكَ فَادَعُ وَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ﴾ أي فلاجل ذلك التفرق الذي حدث لأهل الكتاب ، أمرناك يا محمد أن تدعو الناس إلى دين الحنيفية السمحة ، الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك ، فادع يا محمد إليه والزم النهج القويم مع الاستقامة كما أمرك ربك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي ولا تتبع أهواء المشركين الباطلة فيما يدعونك إليه من ترك دعوة التوحيد ﴿وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي صدقت بكل كتاب أنزله الله تعالى قال الرازي : يعني الإيمان بجميع الكتب السماوية ، لأن أهل الكتاب المتفرقين في دينهم آمنوا ببعض وكفروا ببعض^(٣) ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي وأمرني ربي بأن أعدل بينكم في الحكم قال ابن جزري : يعني العدل في الأحكام إذا تخاصموا إليه^(٤) ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي الله خالقنا جميعاً ومتولي أمورنا فيجب أن نفرده بالعبادة ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا﴾ أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم ، من خير أو شر ، لا نستفيد من حسناتكم ولا نتضرر من سيئاتكم قال ابن كثير : هذا تبرؤ منهم أي نحن برآء منكم كقوله تعالى ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيْثُونَ مِمَّا عَمِلُ وَأَنَا بَرِيْءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٥) ﴿لَأُحِجَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي لا جدال ولا مناظرة بيننا وبينكم ، فإن الحق قد ظهر وبان ، كالشمس في رابعة النهار ، وأنتم تعاندون وتكابرون ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي الله يجمع بيننا يوم القيامة لفصل القضاء ، وإليه المرجع والمآب فيجازي كل أحد بعمله من خير وشر قال الصاوي : والغرض أن الحق قد ظهر ، والحجج قد قامت ، فلم يبق إلا العناد ، وبعد العناد لا حجة ولا جدل ، والله يفصل بين الخلائق يوم المعاد ، ويجازي كلأ بعمله^(٦) ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ أي يخاصمون في دينه لصد الناس عن الإيمان ﴿مَنْ بَعْدَ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ﴾ أي من بعد ما استجاب الناس له ودخلوا في دينه ﴿حُجَّتْهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ

(١) مختصر ابن كثير ٢٧٢/٣ . (٢) تفسير البيضاوي ١٧٣/٢ .

(٣) التفسير الكبير ١٥٨/٢٧ . (٤) التسهيل لعلوم التنزيل ١٩/٤ . (٥) مختصر ابن كثير ٢٧٣/٣ . (٦) حاشية الصاوي ٣٣/٤ .

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

رهم ﴿ أي حجتهم باطلة لا ثبوت لها عند الله قال ابن عباس : نزلت في طائفة من بني إسرائيل همّت برد الناس عن الإسلام وإصلاحهم ومحاجتهم بالباطل ﴾ (١) ﴿ وعليهم غضبٌ ولهم عذابٌ شديدٌ ﴾ أي وعليهم غضب عظيم في الدنيا ، وعذابٌ شديد في الآخرة ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق ﴾ أي نزل القرآن وسائر الكتب الإلهية متلبساً بالصدق القاطع ، والحق الساطع ، في أحكامه وتشريعاته وأخباره ﴿ والميزان ﴾ أي ونزل الميزان أي العدل والإنصاف قاله ابن عباس قال المفسرون : وسمي العدل ميزاناً لأن الميزان يحصل به العدل والإنصاف ، فهو من تسمية الشيء باسم السبب ﴿ وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ أي وما ينبئك أيها المخاطب لعل وقت الساعة قريب ؟ فإن الواجب على العاقل أن يحذر منها ، ويستعد لها قال أبو حيان : ووجه اتصال الآية بما سبق أن الساعة يوم الحساب فكأنه قيل : أمركم الله بالعدل والتسوية قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم ﴾ (٢) ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ أي يستعجل بالقيامة المشركون الذين لا يصدقون بها فيقولون على سبيل الاستهزاء : متى تكون ؟ ﴿ والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ أي والمؤمنون المصدقون بها خائفون وجلون من قيامها ﴿ ويعلمون أنها الحق ﴾ أي ويعلمون أنها كائنة وحاصلة لا محالة ﴿ ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد ﴾ أي الذين يجادلون في أمر القيامة في ضلال بعيد عن الحق ، لإنكارهم عدل الله وحكمته .

قال الله تعالى : ﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء .. إلى .. وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾

من آية (١٩) إلى نهاية آية (٣١) .

المناسكة : لما ذكر تعالى الساعة وما يلقاه عند قيامها المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار من الحساب والجزاء ، ذكر هنا أنه لطيف بالعباد لا يعاجل العقوبة للعصاة مع استحقاتهم للعذاب ، ثم ذكر مال المتقين ، ومال المجرمين في الآخرة ، دار العدل والجزاء .

اللغز : ﴿ لطيف ﴾ بر رفيق رحيم ﴿ حرث الآخرة ﴾ الحرث في الأصل : إلقاء البذور في الأرض ، ويطلق على الزرع الحاصل منه ، ثم استعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة ﴿ الفصل ﴾ القضاء السابق ﴿ يقترف ﴾ يكتسب ﴿ روضات ﴾ جمع روضة وهو الموضع الكثير الأزهار والأشجار والثمار كالمنتزه وغيره ﴿ يقترف ﴾ يكتسب ﴿ الغيث ﴾ المطر سمي غيثاً لأنه يُغيث الخلق ﴿ قنطوا ﴾ يتسوا ﴿ بث ﴾ فرّق ونشر ﴿ معجزين ﴾ فائتين من عذاب الله بالهرب .

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿١٧﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ۗ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ

التفسير : ﴿الله لطيف بعباده﴾ أي بارٌ رحيم بالخلق كثير الإحسان بهم ، يفيض عليهم من الخيرات والبركات مع عصيانهم قال مقاتل : لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم (١) ﴿يرزق من يشاء﴾ أي يوسع الرزق على من يشاء قال القرطبي : وفي تفضيل قومٍ بالمال حكمة ، ليجتاج البعض إلى البعض ، وهذا من لطفه بالعباد ، وأيضاً ليمتحن الغني بالفقير ، والفقير بالغني كقوله تعالى ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾ (٢) ؟ ﴿وهو القوي﴾ أي القادر على كل ما يشاء ﴿العزیز﴾ أي الغالب الذي لا يُغالب ولا يُدافع ثم لما بيّن كونه لطيفاً بالعباد ، كثير الإحسان إليهم ، أشار إلى أن الإنسان ما دام في هذه الحياة فعليه أن يسعى في طلب الخيرات لأسباب السعادة فقال ﴿من كان يريد حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أي من كان يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها ، نَزِدْ لَهُ فِي أَجْرِهِ وَثَوَابِهِ ، بمضاعفة حسناته ﴿ومن كان يريد حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي ومن كان يريد بعمله متاع الدنيا ونعيمها فقط ، نعته بعض ما يطلبه من المتاع العاجل ممَّا قُدِّرَ لَهُ ﴿وما له في الآخرة من نصيب﴾ أي وليس له في الآخرة حظٌ من الثواب والنعيم قال الزمخشري : سُمِّيَ ما يعملُه العاملُ ممَّا يبتغي به الفائدة حَرْثاً على سبيل المجاز ، وفرَّقَ بينها بأن من عمل للآخرة ضوعفت حسناته ، ومن عمل للدنيا أُعطي شيئاً منها لا ما يريدُه وِيبْتغِيه (٣) وقال في التسهيل : حَرْثُ الآخرة عبارة عن العمل لها ، وكذلك حَرْثُ الدنيا ، وهو مستعارٌ من حَرْثِ الأَرْضِ ، لأن الحَرَثَ يعمل وينتظر المنفعة بما عمل (٤) ، ثم أخذ ينكر على الكفار عبادتهم لغير الله ، مع أنه الخالق المتفضل على العباد فقال ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ ؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي أهؤلاء الكفار شركاء من الشياطين أو آلهة من الأوثان ، شرعوا لهم الشرك والعصيان الذي لم يأمر به الله ؟ قال شيخ زاده : وإسنادُ الشرع إلى الأوثان وهي جمادات إسنادٌ مجازي ، من إسناد الفعل إلى السبب ، وسمَّاه ديناً للمشكلة والتهمك (٥) ﴿ولولا كلمة الفصل لفضي بينهم﴾ أي لولا أن الله حكم وقضى في سابق أزله أن الثواب والعقاب يكونان يوم القيامة لحكم بين الكفار والمؤمنين ، بتعجيل العقوبة للظالم ، وإثابة المؤمن ﴿وإن الظالمين لهم عذابٌ أليم﴾ أي وإن الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان لهم عذابٌ موجه مؤلم ﴿ترى الظالمين مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي ترى أيها المخاطب الكافرين يوم القيامة

(١) البحر المحيط ٧/٥١٤ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/١٨ .

(٣) تفسير الكشاف ٤/١٧١ . (٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١٧١ . (٥) حاشية البيضاوي ٣/٢٧٥ .

عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ
لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٢٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَيِّقُ

خائفين خوفاً شديداً من جزاء السيئات التي ارتكبوها في الدنيا ﴿وهو واقع بهم﴾ أي والجزاء عليها نازل بهم يوم القيامة لا محالة ، سواءً خافوا أو لم يخافوا ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات﴾ أي والمؤمنون الصالحون في رياض الجنة يتمتعون ، في أطيب بقاعها ، وفي أعلى منازلها ﴿لهم ما يشاءون عند ربهم﴾ أي لهم في الجنات ما يشتهونه من أنواع اللذائذ والنعيم والثواب العظيم عند رب كريم قال ابن كثير : فأين هذا من هذا ؟ أين من هو في الذل والهوان ، ممن هو في روضات الجنان ؟ فيما يشاء من مآكل ومشرب وملاذ ؟ ولهذا قال تعالى ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ أي ذلك النعيم والجزاء هو الفوز الأكبر الذي لا يوازيه شيء قال القرطبي : أي الفضل الذي لا يوصف ، ولا تهتدي العقول إلى حقيقة صفته ، لأن الحق جل وعلا إذا قال «كبير» فمن ذا الذي يقدر قدره (٢) ؟ ﴿ذلك الذي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي ذلك الإكرام والإينام هو الذي يبشر الله به عباده المؤمنين المتقين ، ليتعجلوا السرور ويزدادوا شوقاً إلى لقائه ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ أي قل لهم يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة شيئاً من الأجر والمال ، إلا أن تحفظوا حق القربى ولا تؤذوني حتى أبلغ رسالة ربي قال ابن كثير : أي لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح مآلاً ، وإنما أطلب أن تذكروني حتى أبلغ رسالات ربي ، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القربة (٣) قال ابن عباس : يقول إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القربة ، وتؤذوني في نفسي لقرباتي منكم ﴿ومن يقترف حسنةً نزد له فيها حسناً﴾ أي ومن يكتسب ويفعل طاعةً من الطاعات نضاعف له ثوابها ﴿إن الله غفور شكور﴾ أي غفور للذنوب شاكر لإحسان المحسن ، لا يضيع عنده عمل العامل ، ولهذا يغفر الكثير من السيئات ، ويكثر القليل من الحسنات ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً﴾ ؟ أي بل يقول كفار قريش إن محمداً اختلق الكذب على الله بنسبة القرآن إليه ؟ قال أبو حيان : وهذا استفهام إنكار وتوبيخ للمشركين على هذه المقالة أي مثله لا يُنسب إلى الكذب على الله مع اعترافكم له قبل بالصدق والأمانة (٤) ﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ أي لو افتريت على الله الكذب كما يزعم هؤلاء المجرمون لختم على قلبك فأنسأك هذا القرآن ، وسلبه من صدرك ، ولكنك لم تفتري على الله كذباً ولهذا أيدك وسدّدك قال ابن كثير : وهذه كقوله جل وعلا ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾ وقال أبو السعود : والآية استشهادٌ على بطلان ما قالوا ببيان أنه عليه السلام

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٧٥ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٠ .

(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٧٥ . (٤) البحر المحيط ٧/ ٥١٦ .

الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ^ج إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ^ج وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ * وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَّوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ^ج إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ^ج وَهُوَ الْوَلِيُّ

لو افترى على الله تعالى لمنعه من ذلك قطعاً ، بالختم على قلبه بحيث لا يخطر بباله معنى من معانيه ، ولم ينطق بحرفٍ من حروفه^(١) ﴿وَيَمِحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ أي يزيل الله الباطل بالكلية ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي ويثبت الله الحق ويوضحه بكلامه المنزل ، وقضائه المبرم وقال ابن كثير : بكلماته أي بحججه وبراهينه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي عالم بما في القلوب ، يعلم ما تكنه الضمائر ، وتنطوي عليه السرائر وقال القرطبي : والمراد أنك لو حدثت نفسك أن تفتري الكذب لعلمه الله وطبع على قلبك^(٢) ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ هذا امتنان من الرحمن على العباد أي هو جل وعلا بفضلهم وكرمه يتقبل التوبة من عباده ، إذا أقلعوا عن المعاصي وأنابوا بصدق وإخلاص نيّة ﴿ويعفوا عن السيئات﴾ أي يصفح عن الذنوب صغيرها وكبيرها لمن يشاء ﴿ويعلم ما تفعلون﴾ أي يعلم جميع ما تصنعون من خيرٍ أو شرٍ ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي ويستجيب الله دعاء المؤمنين الصالحين قال الرازي : أي ويستجيب الله للمؤمنين إلا أنه حذف اللام كما حذف في قوله ﴿وإذا كالوهم﴾ أي كالوا لهم^(٣) ﴿ويزيدهم من فضله﴾ أي ويزيدهم من جوده وكرمه فوق ما سألوا واستحقوا لأنه الجواد الكريم ، البر الرحيم ﴿والكافرون لهم عذابٌ شديد﴾ أي وأما الكافرون بالله فلهم العذاب الموجه الأليم في دار الجحيم ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ أي ولو وسّع الله الرزق على عباده لطفوا وبغوا وأفسدوا في الأرض بالمعاصي والآثام ، لأن الغنى يوجب الطغيان قال ابن كثير : أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق ، لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً ، وقال قتادة : خير العيش ما لا يُلْهيك ولا يُطْغيك^(٤) ﴿ولكن يُنزل بقدرٍ ما يشاء﴾ أي ولكنه تعالى يُنزل أرزاق العباد بما تقتضيه الحكمة والمصلحة كما جاء في الحديث القدسي (إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه)^(٥) ﴿إنه بعباده خبيرٌ بصير﴾ أي عالم بأحوالهم وما يصلحهم ، فيعطي ويمنع ، ويبسط ويقبض ، حسبما تقتضيه الحكمة الربانية ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا﴾ تعديداً لنعمه على العباد أي هو تعالى الذي ينزل المطر ، الذي يغيثهم

(١) تفسير ابي السعود ٣٤/٥ . (٢) تفسير القرطبي ٢٥/١٦ . (٣) التفسير الكبير ٢٧/١٦٩ .

(٤) مختصر ابن كثير ٣/٢٧٧ . (٥) كذا ذكره ابن كثير عن أنس مرفوعاً .

الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ۗ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

من الجذب ، من بعد ما يتسوا من نزوله ﴿وينشر رحمته﴾ أي ويسط خيراته وبركاته على العباد ﴿وهو الوليُّ الحميد﴾ أي وهو الوليُّ الذي يتولى عبادته ، المحمود بكل لسان على ما أسدى من النعماء ﴿ومن آياته خلقُ السموات والأرض﴾ أي ومن دلائل قدرته ، وعجائب حكمته ، الدالة على وحدانيته ، خلقُ السموات والأرض بهذا الشكل البديع ﴿وما بثَّ فيهما من دابة﴾ أي وما نشر وفرَّق في السموات والأرض من مخلوقات قال ابن كثير : وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن ، وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم وأجناسهم وأنواعهم^(١) وقال مجاهد : هم الناسُ والملائكة ﴿وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ أي وهو تعالى قادر على جمع الخلائق للحشر والحساب والجزاء ، في أي وقت شاء ﴿وما أصابكم من مصيبةٍ فيما كسبت أيدىكم﴾ أي وما أصابكم أيها الناس مصيبة من المصائب في النفس أو المال فإنما هي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها قال الجلال : وعبر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تُزاول بها^(٢) ﴿ويعفوا عن كثير﴾ أي ويصفح عن كثير من الذنوب فلا يعاقبكم عليها ، ولو أخذكم بكل ما كسبتم لهلكتم وفي الحديث (لا يصيب ابن آدم خدش عود ، أو عثرة قدم ، ولا اختلاجُ عرقٍ إلا بذنب ، وما يعفو عنه أكثر)^(٣) ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض﴾ أي ولستم أيها المشركون فائتين من عذاب الله ، ولا هارين من قضائه ، وإن هربتم من أقطارها كل مهرب ﴿وما لكم من دون الله من وليٍّ ولا نصير﴾ أي وليس لكم غير الله وليٌّ يتولى أموركم ويتعهد مصالحكم ، ولا نصير يدفع عنكم عذابه وانتقامه .

فَكَايِدَةٌ : المصائب التي تُصيب الناس لتكفير السيئات ، وأما الأنبياء فإنما هي لرفع الدرجات لأنهم معصومون عن الذنوب والآثام .

تَبْيِيهِ : قال بعض العلماء : لا يستبعد أن يكون في الكواكب السيارة ، والعوالم العلوية مخلوقات - غير الملائكة - تشبه مخلوقات الأرض ، وأن يكون فيها حيوانات تشبه الحيوانات التي على أرضنا كما تدل الدلائل الفلكية على وجود حياة في المريخ ، واستدلوا بهذه الآية ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض وما بثَّ فيهما من دابة﴾ الآية ، أقول : يحتمل أن يوجد في هذا الفضاء الواسع ، مخلوقات حية غير الإنسان ، أما الإنسان فإننا نقطع بأنه لا يوجد إلا فوق سطح هذا الكوكب الأرضي لقوله تعالى : ﴿قال فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تُخرجون﴾ .

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٧٨ . (٢) تفسير الجلالين ٤/ ٣٨ . (٣) كذا في البحر المحيط ٧/ ٥١٨ وذكر ابن كثير أن الحديث من رواية ابن أبي حاتم عن الحسن مرسلًا .

قال الله تعالى : ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام . . . إلى . . . ألا إلى الله تصير الأمور﴾ .

من آية (٣٢) إلى آية (٥٣) نهاية السورة .

المناسكة : لما ذكر تعالى بعض الدلائل على وحدانيته في خلق السموات والأرض ، وما بثَّ فيها من مخلوقات لأتحدى ، أتبعه بذكر آية أخرى تدل على وجود الإله القادر الحكيم ، وهي السفن الضخمة التي تشبه الجبال تسير بقدرته تعالى فوق سطح البحر ، محملة بالأقوات والأرزاق ، وختم السورة الكريمة ببيان إثبات الوحي وصدق القرآن .

اللغز : ﴿الجوار﴾ جمع جارية وهي السفينة سميت جارية لأنها تجري في الماء ﴿كالأعلام﴾ جمع علم وهو الجبل العظيم الشاهق قالت الخنساء :

وإنَّ صخرًا لتأتمُّ الهداةُ به كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ
﴿رواكد﴾ ثوابت ساكنة لا تسير ، من ركذ الماء إذا سكن ووقف عن الجري ﴿محيص﴾ مهرب ومخلص من العذاب ﴿يوبقهن﴾ يهلكهن يقال : أوبقه أي أهلكه ﴿الفواحش﴾ جمع فاحشة وهي ما تنهى قبحه كالزنى والقتل والشرك وغيرها ﴿نكير﴾ منكر يُنكر ما ينزل بكم من العذاب ﴿عقيماً﴾ لا تلد .

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنَّ يَسَاءَ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

التفسير : ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾ أي ومن علاماته الدالة على قدرته الباهرة ، وسلطانه العظيم ، السفن الجارية في البحر كأنها الجبال من عظمها وضخامتها ﴿إن يسأ يسكن الرياح فيظللن رواكد على ظهره﴾ أي لو شاء تعالى لأسكن الرياح وأوقفها فتبقى السفن سواكن وثوابت على ظهر البحر لا تجري ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي إن في تسيرها لعبراً وعظات لكل مؤمن صابر في البأساء ، شاكراً في الرخاء قال الصاوي : أي كثير الصبر على البلايا ، عظيم الشكر على العطايا^(١) وقال أبو حيان : وإنما ذكر السفن الجارية في البحر ، لما فيها من عظيم دلائل القدرة ، من جهة أن الماء جسم لطيف شفاف ، يغوص فيه الثقيل ، والسفن تحمل الأجسام الثقيلة الكثيفة ومع ذلك جعل الله تعالى في الماء قوة يحملها بها ويمنعها من الغوص ، ثم جعل الرياح سبباً لسيورها فإذا أراد أن ترسو أسكن الرياح فلا تبرح عن مكانها^(٢) ﴿أو يوبقهن بما كسبوا﴾ أي وإن يسأ يجعل الرياح عواصف فيغرق هذه السفن وأهلها بسبب ما اترفوا من جرائم ﴿ويعف عن كثير﴾ أي ويتجاوز عن كثير من الذنوب فينجيهم الله من الهلاك ﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص﴾ أي وليعلم الكفار المجادلون في آيات الله بالباطل ، أنه لا ملجأ لهم ولا مهرب من عذاب الله

(١) حاشية الصاوي ٣٩/٤ . (٢) البحر المحيط ٧/٥٢٠ .

فَأُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَفَتِنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾
 وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ
 وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ
 يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ۗ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾

قال القرطبي : أي ليعلم الكفار إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان أنه لا ملجأ لهم سوى الله، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم فيخلصون له العبادة^(١) ﴿فما أوتيتم من شيءٍ فمتاع الحياة الدنيا﴾ أي فما أعطيتم أيها الناس من شيء من نعيم الدنيا وزهرتها الفانية ، فإنما هو نعيم زائل ، تتمتعون به مدة حياتكم ثم يزول ﴿وما عند الله خيرٌ وأبقى﴾ أي وما عند الله من الثواب والنعيم ، خيرٌ من الدنيا وما فيها ، لأن نعيم الآخرة دائم مستمر ، فلا تُقدِّموا الفاني على الباقي ﴿للذين آمنوا﴾ أي للذين صدَّقوا الله ورسوله وصبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي واعتمدوا على الله وحده في جميع أمورهم ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم﴾ أي وهؤلاء المؤمنون هم الذين يجتنبون كبائر الذنوب كالشرك والقتل وعقوق الوالدين ﴿والفواحش﴾ قال ابن عباس : يعني الزنى ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ أي إذا غضبوا على أحدٍ ممن اعتدى عليهم عفوا وصفحوا قال الصاوي : من مكارم الأخلاق التجاوز والحلم عند حصول الغضب ، ولكن يشترط أن يكون الحلم غير مخلٍ بالمروءة ، ولا واجباً كما إذا انتهكت حرمة الله فالواجب حينئذٍ الغضب لا الحلم ، وعليه قول الشافعي « من استغضب ولم يغضب فهو حمار » وقال الشاعر : « وحلمُ الفتى في غير موضعه جهل »^(٢) ﴿والذين استجابوا لربهم﴾ أي أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة قال البيضاوي : نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان فاستجابوا^(٣) ﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي أدوها بشروطها وأدائها ، وحافظوا عليها في أوقاتها ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ أي يتشاورون في الأمور ولا يعجلون ، ولا يُبرمون أمراً من مهمات الدنيا والدين إلا بعد المشورة ﴿ومما رزقناهم يُنْفِقُونَ﴾ أي وينفقون مما أعطاهم الله في سبيل الله بالإحسان إلى خلق الله ﴿والذين إذا أصابهم البغي هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أي ينتقمون ممن بغى عليهم ، ولا يستسلمون لظلم المعتدي قال إبراهيم النخعي : كانوا يكرهون أن يُذَلُّوا أنفسهم فتجترى عليهم الفساق^(٤) قال أبو السعود : وهو وصفٌ لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر الفضائل ، وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران فإن كلاً في موضعه محمود^(٥) ﴿وجزاء سيئة سيئةً مثلها﴾ أي وجزاء العدوان أن ينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدي عليه بالزيادة قال الإمام الفخر : لما قال تعالى ﴿والذين إذا أصابهم البغي هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيداً بالمثل دون زيادة ، وإنما سُمِّي

(١) القرطبي ٣٣/١٦ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤٠/٤ . (٣) تفسير البيضاوي ١٧٥/٢ .

(٤) القرطبي ٣٩/١٦ . (٥) أبو السعود ٣٦/٥ .

وَلَمَنِ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾

ذلك سيئة لأنها تسوء من تنزل به ^(١) ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ أي فمن عفا عن الظالم ، وأصلح بينه وبين عدوه ، فإن الله يشبهه على ذلك الأجر الجزيل قال ابن كثير : شرع تعالى العدل وهو القصاص ، وندب إلى الفضل وهو العفو ، فمن عفا فإن الله لا يضيع له ذلك كما جاء في الحديث (وما زاد الله تعالى عبداً بعفوٍ إلا عزاً) ^(٢) ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ أي إنه جل وعلا يبغض البادئين بالظلم ، والمعتدين في الانتقام ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه﴾ أي انتصر ممن ظلمه دون عدوان ﴿فأولئك ما عليهم من سبيل﴾ أي فليس عليهم عقوبة ولا مؤاخذه ، لأنهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار ﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس﴾ أي إنما العقوبة والمؤاخذه على المعتدين الذين يظلمون الناس بعدوانهم ﴿ويبغون في الأرض بغير الحق﴾ أي ويتكبرون في الأرض تجبراً وفساداً ، بالمعاصي والاعتداء على الناس في النفوس والأموال ﴿أولئك لهم عذاب أليم﴾ أي أولئك الظالمون الباغون لهم عذاب مؤلم موجه بسبب ظلمهم وبغيهم ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ أي ولمن صبر على الأذى ، وترك الانتصار لوجه الله تعالى ، فإن ذلك الصبر والتجاوز من الأمور الحميدة التي أمر الله بها وأكد عليها قال الصاوي : كرر الصبر اهتماماً به وترغيباً فيه وللإشارة إلى أنه محمود العاقبة ^(٣) ﴿ومن يضلل الله فما له من وليٍّ من بعده﴾ أي ومن يضلله الله فليس له ناصر ولا هادٍ يهديه إلى الحق ﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب﴾ أي وترى الكافرين حين شاهدوا عذاب جهنم ﴿يقولون هل إلى مَرَدٍّ من سبيل﴾ أي يطلبون الرجوع إلى الدنيا لهول ما يشاهدون من العذاب ويقولون : هل هناك طريق لعودتنا إلى الدنيا ؟ قال القرطبي : يطلبون أن يُردُّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله عز وجل فلا يجابون ^(٤) ﴿وتراهم يُعرضون عليها﴾ أي وتراهم أيها المخاطب يُعرضون على النار ﴿خاشعين من الذل﴾ أي متضائلين صاغرين مما يلحقهم من الذل والهوان ﴿ينظرون من طرفٍ خفيٍّ﴾ أي يسارقون النظر خوفاً منها وفزعاً كما ينظر من قُدِّم ليقتل بالسيف ، فإنه لا يقدر أن ينظر إليه بملء عينه قال ابن عباس : ينظرون بطرفٍ ذليلٍ وقال قتادة والسدي : يسارقون النظر من شدة الخوف ^(٥) ﴿وقال

(١) مختصر ابن كثير ٢٨٠/٣ . (٢) حاشية الصاوي ٤١/٤ .

(٣) تفسير القرطبي ٤٥/١٦ . (٤) تفسير القرطبي ٤٦/١٦ . (٥) التفسير الكبير ١٧٨/٢٧ .

وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٧﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٨﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَفَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٩﴾

الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴿٤٧﴾ أي يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حلَّ بالكفار : إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء ، فإنهم خسروا أنفسهم وأهليهم بخلودهم في نار جهنم ﴿٤٨﴾ إلا إن الظالمين في عذابٍ مقيم ﴿٤٩﴾ أي ألا إنهم في عذاب دائم لا ينقطع ﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾ أي وما كان لهم من أعوان ونصراء ينصرونهم من عذاب الله كما كانوا يرجون ذلك في الدنيا ﴿ومن يضل الله فما له من سبيل﴾ أي ومن يضلله الله فليس له طريق يصل به إلى الحق في الدنيا ، وإلى الجنة في الآخرة ، لأنه قد سُدَّتْ عليه طريق النجاة قال ابن كثير : من يضلله الله فليس له خلاص ^(١) ﴿استجيبوا لربكم﴾ أي استجيبوا أيها الناس إلى ما دعاكم إليه ربكم من الإيمان والطاعة ﴿من قبل أن يأتي يوم لا مردَّ له من الله﴾ أي من قبل أن يأتي ذلك اليوم الرهيب الذي لا يقدر أحدٌ على رده ، لأنه ليس له دافع ولا مانع ﴿ما لكم من ملجأ يومئذ﴾ أي ليس لكم مفر تلتجئون إليه ﴿وما لكم من نكير﴾ أي وليس لكم منكر يُنكر ما ينزل بكم من العذاب وقال أبو السعود : أي ما لكم إنكار لما اقترتموه لأنه مدوّن في صحائف أعمالكم وتشهد عليه جوارحك ^(٢) ﴿فإن أعرضوا﴾ أي فإن أعرض المشركون عن الإيمان ولم يقبلوا هداية الرحمن ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ أي فما أرسلناك يا محمداً رقيباً على أعمالهم ولا محاسباً لهم ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ أي ما عليك إلا أن تبلغهم رسالة ربك وقد فعلت قال أبو حيان : والآية تسلية للرسول ﷺ وتأنيس له ، وإزالة لهممهم ^(٣) ، ثم أخبر تعالى أن طبيعة الإنسان الكفران لنعم الله فقال ﴿وإننا إذا أذقنا الإنسان منا رحمةً فرح بها﴾ المراد بالإنسان الجنس بدليل قوله ﴿وإن تصبهم﴾ والمعنى إننا إذا أكرمنا الإنسان بنعمة من نعم من صحة وغنى وأمنٍ وغيرها بطر وتكبر ﴿وإن تصبهم سيئةً بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ أي وإن أصاب الناس جُذبٌ ونقمة ، وبلاءٌ وشدة ، بسبب ما اقترفوه من آثام فإن الإنسان مبالغٌ في الجحود والكفران ، ينسى النعمة ويذكر البلية قال الصاوي : والحكمة في تصدير النعمة بـ « إذا » والبلاء بـ « إن » هو الإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول بخلاف البلاء ، لأن رحمة الله تغلب غضبه ^(٤) وقال الإمام الفخر : نعمُ الله في الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر فلذلك سمّاها ذوقاً ، فبيّن تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقيق في الدنيا

(١) مختصر ابن كثير ٣/١٨٢ . (٢) تفسير أبي السعود ٥/٣٧ . (٣) البحر المحيط ٧/٥٢٥ . (٤) حاشية الصاوي ٤/٤١ .

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ^ج يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ^ج إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ^ج الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾
 أَوْ يَزْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا^ط وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ * وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا
 وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ^ج إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

فإنه يفرح بها ويعظم غروره بسببها ويقع في العجب والكبر ، ويظن أنه فاز بكل المنى ، وذلك لجهله بحال الدنيا وبحال الآخرة^(١) ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي هو تعالى المالك للكون كله ، علويه وسفليته ، والمتصرف فيه بالخلق والإيجاد ، كيفما شاء ، والمقصود من الآية أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه ، وأن يعلم أن الكل ملك الله وحده ، وبيده مقاليد التصرف في السموات والأرض ، يعطي ويمنع ، لا راداً لقصائمه ولا معقباً لحكمه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا﴾ أي يخص من شاء من عباده بالإناث دون البنين ﴿ويهب لمن يشاء الذكور﴾ أي ويخص من شاء بالذكور دون الإناث ﴿أو يزوجهم ذكراً وإنثاً﴾ أي يجعلهم إن شاء من النوعين فيجمع للإنسان بين البنين والبنات ﴿ويجعل من يشاء عقيماً﴾ أي ويجعل بعض الرجال عقيماً فلا يولد له ، وبعض النساء عقيماً فلا تلد قال البيضاوي : والمعنى يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة ، على مقتضى المشيئة ، فيهب لبعض إماً صنفاً واحداً من ذكر أو أنثى ، أو الصنفين جمعاً ، ويُعقم آخرين^(٢) ، والمراد من الآية بيان نفاذ قدرته تعالى في الكائنات كيف يشاء ، ولهذا قال ﴿إنه عليمٌ قديرٌ﴾ أي مبالغ في العلم والقدرة ، يفعل ما فيه مصلحة وحكمة قال ابن كثير : جعل تعالى الناس أربعة أقسام : منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه النوعين الذكور والإناث ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيماً لا نسل له ولا ولد ، فسبحان العليم القدير^(٣) . . ثم ذكر تعالى الوحي وأقسامه وأنواعه فقال : ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً﴾ أي وما صح لأحد من البشر أياً كان أن يكلمه الله إلا بطريق الوحي في المنام أو بالإلهام ، لأن رؤيا الأنبياء حق كما وقع للخليل إبراهيم عليه السلام ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ ﴿أو من وراء حجاب﴾ أي أو يكلمه من وراء حجاب كما كلم موسى عليه السلام ﴿أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء﴾ أي أو يرسل ملكاً فيبلغ الوحي إلى الرسول بأمره تعالى ما يشاء تبليغه كما نزل جبريل بالوحي على الأنبياء قال في التسهيل : بين تعالى في الآية أن كلامه لعباده على ثلاثة أوجه : أحدها الوحي بطريق الإلهام أو المنام ، والآخر أن يُسمع كلامه من وراء حجاب ، والثالث : الوحي بواسطة الملك ، وهذا خاص بالأنبياء ، والثاني خاص بموسى وبمحمد إذ كلمه الله ليلة الإسراء ، وأما الأول فيكون للأنبياء والأولياء^(٤) وقال الصاوي : وقد يقع الإلهام لغير الأنبياء كأولياء ، غير أن إلهام الأولياء قد يختلط به الشيطان لأنهم غير معصومين ، بخلاف الأنبياء فالهامهم محفوظ منه^(٥) ﴿إنه عليٌّ

(١) التفسير الكبير للرازي ١٨٤/٢٧ . (٢) تفسير البيضاوي ١٧٦/٢ .

(٣) مختصر ابن كثير ٢٨٣/٣ . (٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٢٤/٤ .

(٥) حاشية الصاوي ٤٢/٤ .

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا
نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

حكيم ﴿٥٢﴾ أى إنه تعالى متعالٍ عن صفات المخلوقين ، حكيم في أفعاله وصنعه ، تجري أفعاله على موجب الحكمة ﴿٥٣﴾ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴿٥٢﴾ أى وكما أوحينا إلى غيرك من الرسل أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن ، وسمّاه روحاً لأن فيه حياة النفوس من موت الجهل ، وكان مالك بن دينار يقول : يا أهل القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم ؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض ﴿٥١﴾ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴿٥٢﴾ أى ما كنت يا محمد تعرف قبل الوحي ما هو القرآن ، ولا كنت تعرف شرائع الإيمان ومعالله على وجه التفصيل ﴿٥٣﴾ ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴿٥٢﴾ أى ولكن جعلنا هذا القرآن نوراً وضياءً نهدي به عبادنا المتقين ﴿٥٣﴾ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴿٥٢﴾ أى وإنك يا محمد لترشد إلى دين قيم مستقيم هو الإسلام ﴿٥٣﴾ صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴿٥٢﴾ أى هذا الدين الذي لا اعوجاج فيه هو دين الله الذي له كل ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبداً ﴿٥٣﴾ ألا إلى الله تصير الأمور ﴿٥٣﴾ أى ألا إلى الله وحده ترجع الأمور فيفصل فيها بين العباد بحكمه العادل وقضائه المبرم .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - المجاز المرسل ﴿لتنذر أم القرى﴾ أى لتنذر أهل مكة لأن الإنذار لأهل القرية لا لها . وفي الآية احتباك حيث حذف من كل نظير ما أثبتته في الآخر وتقديره : لتنذر أم القرى العذاب ، وتنذر الناس يوم الجمع .
- ٢ - توالي المؤكدات مع صيغة المبالغة ﴿ألا إن الله هو الغفور الرحيم﴾ وهي ألا ، وإن ، وضمير الفصل .
- ٣ - الطباق بين ﴿الجنة .. والسعير﴾ وبين ﴿بيسط .. ويقدر﴾ وبين ﴿ذكراناً .. وإناثاً﴾ .
- ٤ - طباق السلب ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها﴾ .
- ٥ - الاستعارة ﴿من كان يريد حرث الآخرة﴾ الآية شبه العمل للآخرة بالزراع يزرع الزرع ليحني منه الثمرة والحب ، بطريق الاستعارة التمثيلية وهي من لطائف الاستعارة .
- ٦ - المقابلة ﴿ويمحو الله الباطل ، ويحق الحق بكلماته﴾ .

- ٧ - عطف العام على الخاص ﴿ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته﴾ فالغيث خاص والرحمة عام .
- ٨ - التشبيه المرسل المجمل ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾ أي كالجبال في الضخامة والعظم .
- ٩ - التقسيم ﴿يب لمن يشاء إنثاءً ، ويب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراً وإنثاءً﴾ .
- ١٠ - جناس الاشتقاق ﴿وما أصابكم من مصيبة﴾ .
- ١١ - صيغة المبالغة ﴿لكل صبار شكور﴾ أي عظيم الصبر ، كبير الشكر .
- ١٢ - المشاكلة ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ سميت الثانية سيئة لمشابتها للأولى في الصورة .
- ١٣ - توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية وهو كثير في القرآن العظيم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الشورى »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

- * سورة الزخرف مكية ، وقد تناولت أسس العقيدة الإسلامية وأصول الإيمان ، « الإيمان بالوحدانية ، وبالرسالة ، وبالبعث والجزاء » كشأن سائر السور المكية .
- * عرضت السورة لإثبات مصدر الوحي ، وصدق هذا القرآن ، الذي أنزله الله على النبي الأمي بأفصح لسانٍ ، وأنصح بيان ، ليكون معجزة واضحة للنبي العربي .
- * ثم عرضت إلى دلائل قدرته تعالى ووحدانيته ، منبثّة في هذا الكون الفسيح ، في السماء والأرض ، والجبال والوهاد ، والبحار والأنهار ، والماء الهاطل من السماء ، والسفن التي تسير فوق سطح الماء ، والأنعام التي سخرها الله للبشر ليأكلوا لحومها ويركبوا ظهورها .
- * ثم تناولت السورة ما كان عليه المجتمع الجاهلي من الخرافات والوثنيات فقد كانوا يكرهون البنات ، ومع ذلك اختاروا لله البنات سفهاً وجهلاً ، فزعموا أن الملائكة بنات الله ، فجاءت الآيات لتصحيح تلك الانحرافات ، وردّ النفوس إلى الفطرة ، وإلى الحقائق الأولى القطعية .
- * وتحدثت السورة بإيجاز عن دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام ، الذي يزعم المشركون أنهم من سلالته وعلى ملته ، فكذبتهم في تلك الدعوى ، وبينت الآيات أن إبراهيم أول من تبرأ من الأوثان .
- * ثم انتقلت إلى تفنيد تلك الشبهة السقيمة ، التي أثارها المشركون حول رسالة محمد عليه السلام ، فقد اقترحوا أن تنزل الرسالة على رجلٍ من أهل الجاه والثراء ، لا على يتيم فقير كمحمد ﷺ فجاءت الآيات لتقرير أن الجاه والثراء ليسا ميزاناً لكرامة الإنسان واستحقاقه المناصب الرفيعة ، وأن الدنيا من الحقارة والمهانة بحيث لو شاء الله لأغدقها على الكافرين ومنعها عباده المؤمنين .
- * وذكرت السورة قصة « موسى وفرعون » لتأكيد تلك الحقيقة السابقة ، فها هو فرعون الجبار يعتز ويفخر على موسى بملكه وسلطانه ، كما يعتز الجاهلون من رؤساء قريش على النبي ﷺ ثم تكون نتيجة الغرق والدمار .
- * وختمت السورة الكريمة ببيان بعض أحوال الآخرة وشدائدها وأهوالها ، وبيان حال الأشقياء

المجرمين ، وهم يتقلبون في غمرات الجحيم .

التسمية : سميت « سورة الزخرف » لما فيها من التمثيل الرائع - لمتاع الدنيا الزائل وبريقها الخادع - بالزخرف اللامع، الذي ينخدع به الكثيرون ، مع أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، ولهذا يعطيها الله للأبرار والفجار ، وينالها الأخيار والأشرار ، أما الآخرة فلا يمنحها الله إلا لعباده المتقين ، فالدنيا دار الفناء ، والآخرة دار البقاء .

قال الله تعالى : ﴿ حَمَّ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . . إلى . فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾

من آية (١) إلى نهاية آية (٢٥) .

اللغات : ﴿ صفحاً ﴾ إعراضاً يقال : ضربت عنه صفحاً إذا عرضت عنه وتركته ﴿ بطشاً ﴾ قوة وانتقاماً ، ويطش به أخذه بشدة وعنف ﴿ مهداً ﴾ فراشاً وبساطاً ﴿ أنشراً ﴾ أحيينا ، والنشور ، الإحياء بعد الموت ﴿ تستووا ﴾ تستقروا وتركبوا ﴿ مقرنين ﴾ مطيقين ﴿ كظيم ﴾ مملوء غماً وغيظاً ﴿ يخرسون ﴾ يكذبون ﴿ أمة ﴾ دين وطريقة ﴿ مترفوها ﴾ المترف : المتنعم المنغمس في الشهوات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ③ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ④ أفضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ⑤

النفسير : ﴿ حم ﴾ الحروف المقطعة للتبنيه على إعجاز القرآن^(١) ﴿ والكتاب المبين ﴾ قسم أقسم الله به أي أقسم بالقرآن البين الواضح الجلي ، المظهر طريق الهدى من طريق الضلال ، المبين للبشرية ما تحتاج إليه من الأحكام والدلائل الشرعية ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ هذا هو المقسم عليه أي أنزلناه بلغة العرب ، مشتملاً على كمال الفصاحة والبلاغة ، بأسلوب محكم ، وبيان معجز ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي لكي تفهموا أحكامه ، وتدبروا معانيه ، وتعقلوا أن أسلوبه الحكيم خارج عن طوق البشر قال البيضاوي : أقسم تعالى بالقرآن على أنه جعله قرآناً عربياً ، وهو من البدائع البلاغية لتناسب القسم والمقسم عليه ، تنبيهاً على أنه لا شيء أعلا منه فيقسم به ، وهذا يدل على شرف القرآن وعزته بأبلغ وجه وأدقه^(٢) ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا ﴾ أي وإنه في اللوح المحفوظ عندنا ﴿ لعلي حكيم ﴾ أي رفيع الشأن عظيم القدر ، ذو حكمة بالغة ومكانة فائقة قال ابن كثير : بين شرف القرآن في الملأ الأعلى ، ليشرفه ويعظمه أهل الأرض أي وإن القرآن في اللوح المحفوظ عندنا ذو مكانة عظيمة ، وشرف وفضل^(٣) ﴿ أفضرب عنكم الذكر صفحاً ﴾ الاستفهام إنكاري أي أنترك تذكيركم إعراضاً عنكم ، ونعتبركم

(١) انظر تفصيل القول في أو سورة البقرة . (٢) حاشية زاده على البيضاوي ٢٨٨/٣ . (٣) مختصر ابن كثير ٢٨٤/٣ .

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا
وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٤﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٥﴾

كالبهائم فلا نعظكم بالقرآن ؟ ﴿ أن كنتم قوماً مسرفين ﴾ أي لأجل أنكم مسرفون في التكذيب والعصيان ؟ لا ، بل نذكركم ونعظكم به إلى أن ترجعوا إلى طريق الحق قال قتادة : لو أن هذا القرآن رُفِع حين رده الأوائل هلكوا ، ولكن الله برحمته كرّره عليهم ، ودعاهم إليه عشرين سنة ^(١) قال ابن كثير : وقول قتادة لطيف المعنى جداً وحاصله أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير ، وإلى الذكر الحكيم ، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه ، بل يأمر به ليهتدي به من قدر هدايته ، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته ^(٢) ﴿ وكم أرسلنا من نبي في الأولين ﴾ ؟ تسلية للنبي عليه السلام أي ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم الأولين ؟ ﴿ وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون ﴾ أي ولم يكن يأتيهم نبي إلا سخروا منه واستهزءوا به قال الصاوي : وهذا تسلية له ﷺ والمعنى تسل يا محمد ولا تحزن فإنه وقع للرسول قبلك ما وقع لك ^(٣) ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشاً ﴾ أي فأهلكنا قوماً كانوا أشد قوة من كفار مكة وأعتى منهم وأطغى ﴿ ومضى مثل الأولين ﴾ أي وسبق في القرآن أحاديث إهلاكهم ، ليكونوا عظة وعبرة لمن بعدهم من المكذبين قال الإمام الفخر : إن كفار مكة سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم ، فليحذروا أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك فقد ضربنا لهم مثلهم ^(٤) ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين من خلق السموات والأرض بهذا الشكل البديع ﴿ ليقولنَّ خلقهنَّ العزيزُ العليم ﴾ أي ليقولنَّ خلقهنَّ الله وحده ، العزيز في ملكه ، العليم بخلقه قال القرطبي : أقرؤا له بالخلق والإيجاد ، ثم عبدوا معه غيره جهلاً منهم وسفهاً ^(٥) . . ثم بين تعالى لهم صفاته الجليلة ، الدالة على كمال القدرة والحكمة فقال ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهدياً ﴾ أي بسط الأرض وجعلها كالفراش لكم ، تستقرون عليها وتقومون وتنامون ﴿ وجعل لكم فيها سبلاً ﴾ أي وجعل لكم فيها طرقاً تسلكونها في أسفاركم ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أي لكي تهتدوا إلى قدرة الخالق الحكيم ، مودع هذا النظام العجيب ﴿ والذي نزل من السماء ماءً بقدر ﴾ أي نزل بقدرته الماء من السماء بمقدار ووزن معلوم ، بحسب الحاجة والكفاية قال البيضاوي : أي بمقدار ينفع ولا يضر ^(٦) ﴿ فأنشرنا به بلدة ميتاً ﴾ أي فأحيينا به أرضاً ميتة مفرقة من النبات ﴿ كذلك تُخْرَجُونَ ﴾ أي كذلك نخرجكم من قبوركم كما تُخرج النبات من الأرض الميتة ﴿ والذي خلق الأزواج كلها ﴾ أي خلق جميع الأصناف من الحيوان والنبات وغير

(١) التفسير الكبير للرازي ١٩٥/٢٧ . (٢) المختصر ٢٨٥/٣ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤٤/٤ .

(٤) التفسير الكبير للرازي ١٩٥/٢٧ . (٥) تفسير القرطبي ٦٤/١٦ . (٦) تفسير البيضاوي ١٧٧/٢ .

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٦﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِّنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٢١﴾

ذلك قال ابن عباس : « الأزواج » الأصناف والأنواع كلها كالخلو والحامض ، والأبيض والأسود ، والذكر والأنثى (١) ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ أي وسخر لكم من السفن في البحر ، والإيل في البر ما تركبونه في أسفاركم قال ابن كثير : أي ذللها وسخرها ويسرها لكم ، لتأكلوا لحومها وتركبوا ظهورها (٢) ﴿لتستووا على ظهوره﴾ أي لتستقروا على ظهور هذا المركب ، سفينة كانت أو جملاً ﴿ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾ أي وتذكروا نعمة ربكم الجليلة عليكم حين تستقرون فوقها فتشكروه بقلوبكم ﴿وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا﴾ أي وتقولوا بالستكم عند ركوبكم : سبحان الله الذي ذلل ويسر لنا ركوب هذا المركب ﴿وما كنا له مقرنين﴾ أي وما كنا قادرين ولا مطيقين لركوبه لولا تسخيره تعالى لنا ﴿وإننا إلى ربنا لمنقلبون﴾ أي وإننا إلى ربنا لراجعون ، وصائرون إليه بعد الموت قال في حاشية البيضاوي : وليس المراد من ذكر النعمة تصورها وإخطارها في البال ، بل المراد تذكر أنها نعمة حاصلة بتدبير القادر العليم الحكيم ، مستدعية لطاعته وشكره ، فإن من تفكر في أن ما يركبه الإنسان من الفلك والأنعام ، أكثر قوة وأكبر جثة من راحته ، ومع ذلك كان مسخرًا لراكبه يتمكن من تصريفه إلى أي جانب شاء ، وتفكر أيضاً في خلق البحر والرياح وفي كونها مسخرين للإنسان مع ما فيها من المهابة والأهوال ، استغرق في معرفة عظمة الله تعالى وكبريائه ، وكمال قدرته وحكمته ، فيحمله ذلك الاستغراق على أن يقول متعجباً من عظمة الله ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ (٣) . . . ولما ذكر تعالى اعتراف المشركين بأن خالق السموات والأرض هو رب العالمين ، ذكر بعده ما يدل على سفههم وجهلهم في عبادة غير الله فقال ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾ أي جعل المشركون لله ولداً حيث قالوا : الملائكة بنات الله ﴿إن الإنسان لكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أي إن القائل لهذا المبالغ في الكفر ، عظيم الجحود والطغيان قال البيضاوي : أي ظاهر الكفران لأن نسبة الولد إليه تعالى من فرط الجهل به والتحقير لشأنه (٤) ﴿أم اتخذ مما يخلق بناتٍ وأصفاكم بالبنيين﴾ إنكارٌ وتعجبٌ من حالهم أي هل اتخذ تعالى لنفسه البنات ، وخصكم واختار لكم البنين ؟ قال ابن كثير : وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار (٥) ، ثم ذكر تعالى تمام الإنكار فقال ﴿وإذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ أي وإذا بُشِّرَ أحد المشركين بالأنثى التي جعلها مثلاً لله بنسبة البنات له ﴿ظلَّ وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ أي صار

(١) حاشية الجمل على الجلالين ٧٧/٤ . (٢) مختصر ابن كثير للصابوني ٣/٢٨٥ .

(٣) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/٢٩١ . (٤) تفسير البيضاوي ٢/١٧٧ . (٥) مختصر ابن كثير ٣/٢٨٦ .

أَوْ مَنْ يُنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ

وجهه كأنه أسود من الكآبة والحزن، وهو ممتلئ غيظاً وغمماً من سوء ما بُشِّر به قال الإمام الفخر: والمقصود من الآية التنبية على قلة عقولهم وسخافة تفكيرهم، فإن الذي بلغ حاله في النقص إلى هذا الحد كيف يجوز للعاقل إثباته لله تعالى؟ وقد روي عن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة (١) ﴿أَوْ مَنْ يُنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ﴾ أي يجعلون لله من يُرَبَّى في الزينة وينشأ ويكبر عليها وهن الإناث؟ ﴿وهو في الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي ومن هو في الجدال غير مظهر لحجته لضعف رأيه؟ أو مَنْ يَكُونُ هَكَذَا يُنْسَبُ إِلَى جَنَابِ اللَّهِ الْعَظِيمِ؟ قال في التسهيل: والمقصود الرد على الذين قالوا للملائكة بنات الله، كأنه قال: أ جعلتم لله من ينشأ في الحلية؟ يعني يكبر وينبت في استعمالها، وذلك صفة النقص، ثم أتبعها بصفة نقص أخرى فقال ﴿وهو في الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ يعني أن الأنثى إذا خاصمت أو تكلمت لم تقدر أن تبين حجتها لنقص عقلها، وقلما تجد امرأة إلا تفسد الكلام، وتخلط المعاني، فكيف يُنسب لله من يتصف بهذه النقائص (٢)؟ وقال ابن كثير: المرأة ناقصة في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض الشعراء:

وما الحلي إلا زينة من نقيصة يتمم من حُسن إذا الحُسنُ قصراً

وأما نقص معناها فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار، كما قال بعض العرب وقد بُشِّرَ بنت «ما هي بنعم الولد، نصرها بكاء، وبرها سرقة» (٣) ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنثاً﴾ كفر آخر تضمنه قولهم الشنيع أي واعتقد كفار العرب بأن الملائكة الذين هم أكمل العباد وأكرمهم على الله - إناثٌ وحكموا عليهم بذلك ﴿أشهدوا خلقهم﴾ أي أحضروا وقت خلق الله لهم حتى عرفوا أنهم إناث؟ وهذا تجهيل وتهكم بهم ﴿ستُكْتَبُ شهادتهم ويُسألون﴾ أي سنأمر الملائكة بكتابة شهادتهم الكاذبة في ديوان أعمالهم ويُسألون عنها يوم القيامة، وهو وعيدٌ شديدٌ مع التهديد قال المفسرون: حكى تعالى عن كفار العرب ثلاثة أقوال شنيعة: الأول: أنهم نسبوا إلى الله الولد، الثاني: أنهم نسبوا إليه البنات دون البنين، الثالث: أنهم حكموا على الملائكة المكرمين بالأنوثة بلا دليل ولا برهان، فكذبهم القرآن الكريم في تلك الأقوال، ثم زادوا ضلالاً وهتاناً فزعموا أن ذلك برضى الله ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ أي قالوا على سبيل السخرية والاستهزاء: لو شاء الله ما عبدنا هؤلاء الملائكة ولا الأصنام، ولما كانت عبادتنا واقعة بمشيئته فهو راضٍ بها قال القرطبي: وهذا منهم كلمة حق أريد بها باطل، فكل شيء بإرادة الله، والمشيئة غير الرضى، ولا يصح الاحتجاج بالمشيئة، فإنهم لو عبدوا الله بدل الأصنام لعلمنا أن الله أراد منهم ذلك (٤)، وقد كذبهم الله بقوله ﴿ما لهم بذلك من علم﴾ أي ما لهم بذلك

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٧/٢٠١ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٢٦ .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٢٨٧ . (٤) تفسير القرطبي ١٦/٧٣ .

إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢١﴾ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَمُهِمَّ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢٢﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٦﴾

القول حجة ولا برهان ﴿إن هم إلا يخرصون﴾ أي ما هم إلا يكذبون ويتقولون على الله كذباً وزوراً ﴿أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون﴾ رد آخر عليهم أي أم أنزلنا على هؤلاء المشركين كتاباً من قبل القرآن فهم بذلك الكتاب متمسكون يعملون بتوجيهاته؟ قال الإمام الفخر: والمعنى: هل وجدوا ذلك الباطل في كتاب منزل قبل القرآن حتى يعولوا عليه ويتمسكوا به^(١)؟ ﴿بل قالوا إننا وجدنا آباءنا على أمة﴾ بل للإضراب وهو الانتقال من كلام إلى آخر أي لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية على ما زعموا بل اعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة قال أبو السعود: والأمة: الدين والطريقة سميت أمة لأنها تؤم وتقصد^(٢) ﴿وإننا على آثارهم مهتدون﴾ أي ونحن ماشون على طريقتهم مهتدون بآثارهم ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير﴾ أي وكما تبع هؤلاء الكفار آباءهم بغير حجة ولا برهان كذلك فعل من قبلهم من المكذبين، فما بعثنا قبلك رسولاً في أمة من الأمم ﴿إلا قال مترفوها إننا وجدنا آباءنا على أمة وإننا على آثارهم مقتدون﴾ أي إلا قال المنتعمون فيها الذين أبطرتهم النعمة، وأعمتهم الشهوات والملاهي عن تحمل المشاق في طلب الحق: إننا وجدنا أسلافنا على ملّة ودين، وإننا مقتدون بهم في طريقتهم قال البيضاوي: والآية تسلية لرسول الله ﷺ ودلالة على أن التقليد في نحو هذا ضلال قديم، وأسلافهم لم يكن لهم سند منظور يعتد به، وإنما خصص المترفين بالذكر للإشعار بأن التعم وحب البطالة صرفهم عن النظر إلى التقليد الأعمى^(٣)، وذكر هنا ﴿مقتدون﴾ وهناك ﴿مهتدون﴾ تفنناً لأن معناهما واحد ﴿قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم﴾ أي قال كل نبي لقومه حين أنذرهم عذاب الله: أنتقدون بآبائكم ولو جئتكم بدين أهدى وأرشد مما كانوا عليه؟ ﴿قالوا إننا بما أرسلتم به كافرون﴾ أي قالوا إننا كافرون بكل ما أرسلتم به من التوحيد والإيمان والبعث والنشور ﴿فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي فانتقمنا من الأمم المكذبة بأنواع العذاب فانظر كيف صار حالهم ومآلهم !!

قال الله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون . . إلى . من دون الرحمن لآلهة يعبدون﴾

من آية (٢٦) إلى نهاية آية (٤٥)

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٧/٢٠٦ . (٢) تفسير أبي السعود ٥/٤٢ . (٣) تفسير البيضاوي ٢/١٧٨ .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا
كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾
وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾

المناسكة : لما حكى عن المشركين تقليدهم الأعمى للآباء ، ذكر هنا إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام ، الذي يفتخر به العرب وينتسبون إليه ، وتبرء من قومه ومن عبادة الأوثان ، للمقارنة بين الهدى والضلال ، وبين منطق العقل السديد ، ومنطق الهوى والتقليد .

اللفظة : ﴿براء﴾ مصدر بمعنى بريء أي متبرئ يقال : تبرأت من الأمر أي تخلت عنه بالكلية ﴿عقبه﴾ ذريته ونسله قال ابن شهاب : العقب : الولد وولد الولد ﴿سُخْرِيًّا﴾ أي مسخراً في العمل مستخدماً فيه ﴿معارج﴾ مصاعد ومراقي جمع معراج وهو ما يصعد عليه الإنسان كالدرج ونحوه ﴿يظهرون﴾ يرتقون ويصعدون ﴿زخرف﴾ زينة من ذهب وفضة وغيرها ﴿يعش﴾ يعرض وأصله من عشي البصر إذا ضعف قال الخليل : العشو هو النظر يبصر ضعيف .

التفسير : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي واذكر يا محمد حين قال إبراهيم الخليل لأبيه وقومه المشركين إنني بريء من هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ أي لكن ربي الذي خلقتني وأنشأني من العدم فإنه يرشدني إلى الدين الحق ، ويهديني إلى طريق السعادة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ أي وجعل إبراهيم هذه الكلمة - كلمة التوحيد - باقية في ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي رجاء أن يرجع إلى الإيمان من أشرك منهم قال مجاهد : « وجعلها كلمة » يعني « لا إله إلا الله » لا يزال في ذريته من يقوها إلى يوم الدين (١) ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ أي بل متعت أهل مكة وآباءهم - وهم من عقب إبراهيم - بالإمداد في العمر والنعمة ، فاغتروا بالمهلة واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات عن كلمة التوحيد ﴿حتى جاءهم الحقُّ ورسولٌ مبينٌ﴾ أي حتى جاءهم القرآن ورسولٌ ظاهر الرسالة ، مؤيدٌ بالمعجزات الباهرة من عند الله قال الإمام الفخر : وجه نظم الآية أنهم لما عوگوا على تقليد الآباء ، ولم يتفكروا في الحجة ، اغتروا بطول الإمهال وإمتاع الله إياهم بنعيم الدنيا فأعرضوا عن الحق (٢) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾ أي ولما جاءهم القرآن لينبهم من غفلتهم ، ويرشدهم إلى التوحيد ، ازدادوا عتواً وضلالاً فقالوا عن القرآن إنه سحر ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي ونحن كافرون به ، لا نصدق أنه كلام الله قال أبو السعود : سموا القرآن سحراً وكفروا به واستحقروا الرسول عليه السلام ، فضموا إلى كفرهم السابق

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٨٨ .

(٢) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٠٨ .

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ ﴿٤٣﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا
بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا

معاندة الحق والاستهانة به^(١) ﴿وقالوا لولا أنزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم﴾ أي وقال
المشركون : هلاً أنزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير في مكة أو الطائف !! قال المفسرون : يعنون
« الوليد بن المغيرة » في مكة أو « عروة بن مسعود الثقفي » في الطائف . . استبعدت قريش نزول القرآن
على محمد وهو فقير يتيم ، واقترحوا أن ينزل على أحد الرؤساء والعظماء ، ظناً منهم أن العظيم هو الذي
يكون له مال وجاه ، وفاتهم أن العظيم هو الذي يكون عند الله تعالى عظيماً ، وهم يعتبرون مقياس
العظمة : الجاه والمال ، وهذا رأي الجاهلين في كل زمان ومكان ، أما مقياسُ العظمة الحقيقية عند الله
تعالى وعند العقلاء ، فإنما هو عظمة النفس ، وسُمُوُّ الروح ، ومن أعظمُ نفساً وأسمى روحاً من محمد
ابن عبد الله عليه الصلاة والسلام !! ولهذا ردَّ تبارك وتعالى عليهم بقوله ﴿أهم يقسمون رحمة
ربك﴾ ؟ أي أهم يمنحون النبوة ويخصُّون بها من شاءوا من العباد ، حتى يقترحوا أن تكون لفلان
الغني ، أو فلان الكبير من الناس ؟ ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾ أي نحن بحكمتنا
جعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً ، وفاوتنا بينهم في الأموال والأرزاق ، وإذا كان أمر المعيشة - وهو تافه حقير -
لم نتركه لهم بل تولينا قسمته بأنفسنا ، فكيف نترك أمر النبوة - وهو عظيم وخطير - لأهوائهم
ومشتهياتهم !! قال في التسهيل : كما قسمنا المعاش في الدنيا كذلك قسمنا المواهب الدينية ، وإذا كنا لم
نهمل الحظوظ الخفية الفانية ، فأولى وأحرى ألا نهمل الحظوظ الشريفة الباقية^(٢) ﴿ورفعنا بعضهم فوق
بعض درجات﴾ أي فاضلنا بين الخلق في الرزق والعيش ، وجعلناهم مراتب : هذا غني ، وهذا فقير ،
وهذا متوسط الحال ﴿ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا﴾ أي ليكون كلُّ منهم مسخراً للآخر ، ويخدم
بعضهم بعضاً ، لينتظم أمر الحياة قال الصاوي : إن القصد من جعل الناس متفاوتين في الرزق ، لينتفع
بعضهم ببعض ، ولو كانوا سواءً في جميع الأحوال لم يخدم أحدٌ أحداً ، فيفضي إلى خراب العالم وفساد
نظامه^(٣) وقال أبو حيان : وقوله تعالى ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين من التسخير بمعنى الاستخدام ، لا من
السخرية بمعنى الهزء ، والحكمة هي أن يرتفق بعضهم ببعض ، ويصلوا إلى منافعهم ، ولو تولى كل
واحدٍ جميع أشغاله بنفسه ما أطاق ذلك ، وضاع وهلك ، وفي قوله ﴿نحن قسمنا﴾ تزهيدٌ في الإكباب
على طلب الدنيا ، وعونٌ على التوكل على الله^(٤) ، وقال قتادة : تلقى ضعيف القوة ، قليل الحيلة ، عيي
اللسان وهو موسع عليه في الرزق ، وتلقى شديد الحيلة ، بسيط اللسان وهو مقتدر عليه في الرزق ، وقال
الشافعي :

ومن الدليل على القضاء وكونه
بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق^(٥)

(١) تفسير أبي السعود ٤٣/٥ (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٢٨ .

(٣) حاشية الصاوي ٤٨/٤ . (٤) تفسير البحر المحيط ٨/١٣ . (٥) البحر المحيط ٨/١٣ .

وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ
سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٤﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُررًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٥﴾ وَزَخْرَفًا وَإِنْ
كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ
شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٧﴾

﴿ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ أي وإنعامه تعالى عليك بالنبوة خير مما يجمع الناس من حطام الدنيا
الفاني ، ثم بيّن تعالى حقارة الدنيا ودناءة قدرها عند الله فقال ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة
لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبُيوتهم سُقْفًا من فضة﴾ أي ولولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في
سعة من الرزق ، ويصيروا أمة واحدة في الكفر ، لخصصنا هذه الدنيا بالكفار ، وجعلنا لهم القصور
الشاهقة المزخرفة بأنواع الزينة والنقوش ، سقفها من الفضة الخالصة ﴿ومعارج عليها يظهرون﴾ أي
وجعلنا لهم مصاعد وسلالم من فضة عليها يرتقون ويصعدون ﴿ولبُيوتهم أبواباً وسُرراً﴾ أي ولبُيوتهم
أبواباً من فضة وسرراً من فضة ، زيادة في الرفاهية والنعيم ﴿عليها يتكئون﴾ أي على تلك الأسرة
الفضية يتكئون ويجلسون ﴿وزخرفاً﴾ أي وجعلنا لهم زينة من ستور وثمارق ونقوش وقال ابن عباس :
﴿زخرفاً﴾ ذهباً أي جعلنا لهم سقفاً وأبواباً وسرراً من فضة وذهب^(١) ﴿وإن كل ذلك لما متاع الحياة
الدنيا﴾ أي وما كل ذلك النعيم العاجل الذي نعطي للكفار ، إلا شيء يُتمتع به في الحياة الدنيا الزائلة
الحقيرة ﴿والآخرة عند ربك للمتقين﴾ أي والجنة وما فيها من أنواع الملاذ والنعيم التي يقصر عنها
البيان ، هي خاصة بالمتقين لا يشاركون فيها أحد قال المفسرون : والآيات سبقت لبيان حقارة الدنيا وقلة
شأنها ، وأنها من الهوان بحيث لولا الفتنة لخص بها الكافرين ، فجعل بيوت الكفرة ودرجها وسقوفها من
ذهب وفضة ، وأعطى الكافر كل ذلك النعيم في الدنيا لعدم حظه في الآخرة ، ولكنه تعالى رحيم بالعباد
فلذلك أغنى بعض الكفار وأفقر بعضهم ، وأغنى بعض المؤمنين وأفقر بعضهم وفي الحديث (لو كانت
الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها جرة ماء)^(٢) قال الرمخشري : فإن قلت : فحين لم
يوسّع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم ، من إطباق الناس على الكفر لحبهم
الدنيا وتهالكهم عليها ، فهلاً وسّع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟ قلت التوسعة عليهم
مفسدة أيضاً لما تؤدي إليها من دخول الناس في الإسلام لأجل الدنيا وذلك من دين المنافقين ، فكانت
الحكمة فيما دبّر ، حيث جعل الفريقين أغنياء وفقراء ، وغلب الفقير على الغني^(٣) ﴿ومن يعش عن ذكر
الرحمن﴾ أي ومن يعرض ويتعام ويتغافل عن القرآن وعبادة الرحمن ﴿تقيض له شيطاناً﴾ أي نهيء
ونيسر له شيطاناً لا ينفك عن الوسوسة له والإغواء كقوله تعالى ﴿ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على
الكافرين تؤزهم أزاً﴾ ﴿فهو له قرين﴾ أي فهو ملازم ومصاحب له لا يفارقه ﴿وإنهم ليصدونهم

(١) القرطبي ٨٧/١٦ . (٢) أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح . (٣) تفسير الكشاف ٤/١٩٧ .

وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ
 الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ
 تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٤١﴾
 أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَدِكُّكَ لِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾

عن السبيل ﴿٣٧﴾ أي وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الكفار الضالين عن طريق الهدى ﴿٣٨﴾ ويحسبون أنهم مهتدون ﴿٣٩﴾ أي ويحسب الكفار أنهم على نور وبصيرة وهداية من أمرهم ﴿حتى إذا جاءنا﴾ أي حتى إذا جاء الكافر مع قرينه وقد ربطا بسلسلة واحدة ﴿قال يا ليت بيني وبينك بعد المشريقين﴾ أي قال الكافر لقرينه : يا ليت بيني وبينك مثل بعد ما بين المشرق والمغرب قال الطبري : وهذا من باب التغليب كما يقال : القمران ، والعمران ، والأبوان ، فغلب ههنا المشرق على المغرب ^(١) ﴿فبئس القرين﴾ أي فبئس صاحب أنت ، لأنك كنت سبباً في شقائي بتزنيك الباطل لي قال أبو سعيد الخدري : إذا بعث الكافر زوج بقريته من الشياطين ، فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾ أي ولن ينفعكم ويفيدكم اشتراككم في العذاب ، ولن يخفف ذلك عنكم شيئاً بسبب ظلمكم ، فإن لكل واحد نصيبه الأوفر منه قال في التسهيل : المراد أنه لا ينفعهم اشتراكهم في العذاب ، ولا يجدون راحة التأسي التي يجدها المكروب في الدنيا إذا رأى غيره قد أصابه مثل ما أصابه ^(٢) لأن المصيبة إذا عمّت هانت ، فدفع تعالى ذلك التوهم بأن اشتراكهم في العذاب ، لا يخفف عنهم البلاء ﴿أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين﴾ أي فأنت يا محمد تقدر أن تسمع هؤلاء الكفار الذين هم كالصم والعمي ، ومن كان في ضلال واضح ؟ ليس لك ذلك فلا يضيّق صدرك إن كفروا قال المفسرون : والآية تسلية للنبي ﷺ فقد كان يجتهد في دعائهم إلى الإيمان ، ولا يزدادون إلا تعامياً عن الحق وطغياناً وضلالاً ﴿فإمّا نذهب بك فإننا منهم منتقمون﴾ أي إن عجلنا وفاتك قبل الانتقام منهم ، فإننا سنتقم منهم بعد وفاتك ﴿أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون﴾ أي أو نرينك يا محمد العذاب الذي وعدناهم به في حياتك فإننا قادرون عليهم فهم في قبضتنا لا يفوتونا قال ابن عباس : قد أراه الله ذلك يوم بدر وقال ابن كثير : المعنى لا بد أن نتقم منهم ونعاقبهم في حياتك أو بعد وفاتك ، ولم يقبض الله تعالى رسوله حتى أقر عينه من أعدائه ، وحكمه في نواصيهم ^(٣) ﴿فاستمسك بالذي أوحى إليك﴾ أي فتمسك يا محمد بالقرآن الذي أوحيناه لك ﴿إنك على صراط مستقيم﴾ أي فإنك على الحق الواضح والطريق المستقيم ، الموصل إلى جنات النعيم ﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾ أي وإن هذا القرآن لشرف عظيم لك ولقومك من قريش ، إذ أنزل بلغتهم وعلى رجل منهم

(١) تفسير الطبري . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٢٩ / ٤ (٣) مختصر ابن كثير ٢٩٠ / ٣ .

وَسَعَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبُدُونَ ﴿٤٥﴾

وسوف تسألون عن شكر هذه النعمة قال في التسهيل : والذكرُ هنا بمعنى الشرف ، وقومُ النبي ﷺ هم قريشٌ وسائر العرب ، فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة ، ويكفيك أن فتحوا مشارق الدنيا ومغاربها وصارت فيهم الخلافة والملك^(١) ، وهذا القرآن شرفٌ لكل من تبعه ، وهذه الآية نظير قوله تعالى ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾ ؟ ﴿واسألُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ هذا على سبيل الفرض ، وفي الكلام محذوف أي إن كنت يا محمد شاكاً في أمر التوحيد فسل من سبقك من الرسل ﴿أجعلنا من دون الرحمنِ إلهةً يُعبدون﴾ ؟ أي هل هناك أحدٌ من الرسل دعا لعبادة غير الله ؟ والآية كقوله تعالى ﴿فإن كنتَ في شكٍ ممَّا أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾ قال أبو السعود : والمراد بالآية الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد ، والتنبيه على أنه ليس ببدع ابتدعه حتى يكذب ويُعادى^(٢) وقال أبو حيان : ويظهر أن الخطاب للسامع ، والسؤال هنا مجاز عن النظر في أديان الأنبياء ، هل جاءت عبادة الأوثان في ملةٍ من مللهم ؟ وهذا كما يسأل الشعراء الديار والأطلال ، ومنه قولهم : سل الأرض من شقِّ أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ؟ فإنها إن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً ، وهذا كله من باب المجاز^(٣) .

قال الله تعالى : ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه . . إلى . هذا صراط مستقيم﴾ من آية (٤٦) إلى نهاية آية (٦٤) .

المناسكة : لما طعنت قريش على الرسول ﷺ في أمر النبوة ، بسبب أنه فقيرٌ عديم المال والجاه ، واختاروا أن يتنزَّل القرآن على رجلٍ كثير المال عظيم الجاه ، ذكر تعالى قصة «موسى مع فرعون» ليشير إلى أن منطق العناد والطغيان واحد ، فقد سبقهم فرعون إلى التجبر بجماله وسلطانه ، ورفض قبول دعوة الحق بحجة أنه أكثر مالاً وجاهاً من موسى ، فردت الآيات الكريمة هذه الشبهة السقيمة بالحجة والبرهان .

اللغز : ﴿ينكثون﴾ نكث العهد : نقضه ﴿مهين﴾ حقير لا قدر له ولا مكانة ﴿أسفونا﴾ أغضبونا وغازبونا ﴿سلفاً﴾ قُدوة ﴿يصيّدون﴾ بكسر الصاد بمعنى يضجّون ويصيحون ، وبضمها بمعنى الإيعراض ومنع الناس عن الإيمان قال الجوهري : صدٌّ يصدُّ صديداً أي ضجٌّ ، وقيل إنه بالضم من الصدود وهو الإيعراض ، وبالكسر من الضجيج^(٤) ، وقال الفراء : هما سواء ﴿تمترن﴾ الامتراء : الشك ، امترى في الأمر شكٌ فيه ، والمرية : الشك .

سبب النزول : عن مجاهد قال : إن قريشاً قالت إن محمداً يريد أن نعبده كما عبد النصارى عيسى ابن

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٢٩/٤ . (٢) تفسير أبي السعود ٤٥/٥ .

(٣) البحر المحيط ١٩/٨ . (٤) انظر الصحاح ولسان العرب والقاموس المحيط .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ ادَّعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ۖ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾

مريم فأنزل الله ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾ (١).

التفسير : ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملأه﴾ أي والله لقد أرسلنا موسى بالمعجزات الباهرة الدالة على صدقه إلى فرعون وقومه الأقباط ﴿فقال إني رسول رب العالمين﴾ أي فقال له موسى : إني رسول الله إليك ، أرسلني لأدعوك وقومك إلى عبادة الله وحده ﴿فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون﴾ أي فلما جاءهم بتلك الآيات الباهرة الدالة على رسالته ضحكوا سخرياً واستهزاءً به قال القرطبي : إنما ضحكوا منها ليوهموا أتباعهم أن تلك الآيات سحرٌ ، وأنهم قادرون عليها (٢) ، قال تعالى ﴿وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾ أي وما نريهم آية من آيات العذاب كالطوفان ، والجراد ، والقمل إلا وهي في غاية الكبر والظهور ، بحيث تكون أوضح من سابقتها قال الصاوي : والمعنى إلا وهي بالغة الغاية في الإعجاز ، بحيث يظن الناظر إليها أنها أكبر من غيرها (٣) ﴿وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون﴾ أي عاقبناهم بأنواع العذاب الشديد ، لعلهم يرجعون عما هم عليه من الكفر والتكذيب ﴿وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك﴾ أي وقالوا لما عاينوا العذاب يا أيها الساحر ادع لنا ربك ليكشف عنا هذا البلاء والعذاب ﴿بما عهد عندك﴾ أي بالعهد الذي أعطاك إياه من استجابة دعائك ﴿إننا لمهتدون﴾ أي لنؤمنن بك إن كشف عنا العذاب بدعائك قال المفسرون : ليس قولهم ﴿يا أيها الساحر﴾ على سبيل الانتقاص ، وإنما هو تعظيم في زعمهم ، لأن السحر كان علم زمانهم ، ولم يكن مذموماً ، فنادوه بذلك على سبيل التعظيم قال ابن عباس : معناه يا أيها العالم ، وكان الساحر فيهم عظيماً يوقرونه ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾ أي فلما رفعنا عنهم العذاب بدعوة موسى ، إذا هم ينقضون العهد ويصرون على الكفر والعصيان ﴿ونادى فرعون في قومه﴾ أي نادى فرعون رؤساء القبط وعظماءهم ، لما رأى الآيات الباهرة من موسى وخاف أن يؤمنوا ﴿قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ أي قال مفتخراً متبجحاً : أليست بلاد مصر

(١) تفسير القرطبي ١٠٢/١٦ . (٢) تفسير القرطبي ٩٧/١٦ .

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٥١/٤ .

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ
 الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ
 فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ * وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ
 مِنْهُ يَصُدُّونَ ﴿٥٧﴾

الواسعة الشاسعة ملكاً لي؟ وهذه الخُلجان والأنهار المتفرعة من نهر النيل تجري من تحتي قصوري؟ قال
 القرطبي: ومعظمها أربعة: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تينس وكلها من النيل^(١) وقال
 قتادة: كانت جناها وأنهاها تجري من تحت قصره^(٢) ﴿أفلا تبصرون﴾؟ أي أفلا تبصرون عظمتي
 وسعة ملكي، وقلة موسى وذلته؟ ﴿أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهين﴾ أي بل أنا خيرٌ من هذا
 الضعيف الحقير الذي لا عزَّ له ولا جاه ولا سلطان، فهو يمتهن نفسه في حاجاته لحقارته وضعفه؟ يعني
 بذلك موسى عليه السلام ﴿ولا يكادُ يُبين﴾ أي لا يكاد يفصح عن كلامه، ويوضح مقصوده، فكيف
 يصلح للرسالة؟ قال أبو السعود: قال فرعون ذلك افتراءً على موسى، وتنقيصاً له عليه السلام في أعين
 الناس، باعتبار ما كان في لسانه من عُقْدَةٍ، ولكنَّ الله أذهبها عنه بدعائه ﴿واحللُّ عُقْدَةً من لساني
 يفقهوا قولي﴾^(٣) ﴿فلولا ألقى عليه آسورةٌ من ذهب﴾؟ أي فهلاً ألقى الله إليه آسورةٌ من ذهب
 كرامةً له ودلالة على نبوته!! قال مجاهد: كانوا إذا أرادوا أن يجعلوا رجلاً رئيساً
 عليهم سوروه بسوارين وطوقوه بطوق من ذهب علامة لسيادته^(٤) ﴿أو جاء معه الملائكةُ مقترنين﴾ أي
 أو جاءت معه الملائكةُ يكتفونه خدمةً له وشهادة بصدقه قال أبو حيان: لما وصف فرعون نفسه بالعزة
 والملك، ووازن بينه وبين موسى عليه السلام، ووصفه بالضعف وقلة الأعوان، اعترض فقال: إن كان
 صادقاً فهلاً ملكه ربه وسوره وجعل الملائكة أنصاره^(٥) !! ﴿فاستخفَّ قومه فاطاعوه﴾ أي فاستخفَّ
 بعقول قومه واستجهلهم لخفة أحلامهم، فاطاعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة ﴿إنهم كانوا قوماً
 فاسقين﴾ أي إنما أجابوه لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم﴾ أي فلما
 أغضبونا وغازبونا انتقمنا منهم بأشد أنواع العقاب ﴿فأغرقتناهم أجمعين﴾ أي فأغرقتنا فرعون وقومه في
 البحر أجمعين فلم نبق منهم أحداً قال المفسرون: اغتر فرعون بالعظمة والسلطان والأنهار التي تجري من
 تحته، فأهلكه الله بجنس ما تكبر به هو وقومه وذلك بالغرق بماء البحر، وفيه إشارة إلى أن من تعزَّز
 بشيء أهلكه الله به ﴿فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين﴾ أي جعلنا قوم فرعون قُدوةً لمن بعدهم من
 الكفار في استحقاق العذاب والدمار، ومثلاً يعتبرون به لئلا يصيبهم مثل ذلك قال مجاهد: سلفاً لكفار
 قريش يتقدمونهم إلى النار، وعظة وعبرة لمن يأتي بعدهم^(٦) ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه

(١) نفس المرجع السابق ٩٨/١٦ . (٢) البحر المحيط ٢٢/٨ . (٣) تفسير أبي السعود ٤٦/٥ .

(٤) تفسير القرطبي ١٠٠/١٦ . (٥) البحر المحيط ٢٢/٨ . (٦) تفسير القرطبي ١٠٢/١٦ .

وَقَالُوا أَأَلْهِنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ
 وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ
 فَلَا تَمْتَرْنَ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

يَصِيدُونَ ﴿٦٢﴾ أي ولما ذكر عيسى بن مريم في القرآن وضرب المثل بالآلهة التي عبّدت من دون الله إذا مشركو قريش يضحجون وترتفع أصواتهم بالصياح قال المفسرون : لما قرأ رسول الله ﷺ : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ قال ابن الزبيري : أهذا لنا ولأهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه السلام : هو لكم ولأهتكم ولجميع الأمم فقال : قد خصمتك ورب الكعبة ؟ أليست النصراني يعبدون المسيح ، واليهود يعبدون عزيزاً ؟ وبنو فلان يعبدون الملائكة ! ! فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وأهتنا معهم ، فسكت عليه الصلاة والسلام انتظاراً للوحي ، فظنوا أنه ألزم الحجة فضحك المشركون وضجوا وارتفعت أصواتهم^(١) فأنزل الله ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ قال القرطبي : ولو تأمل ابن الزبيري الآية ما اعترض عليها ، لأنه تعالى قال ﴿إنكم وما تعبدون﴾ ولم يقل «ومن تعبدون» وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل ، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودين^(٢) ﴿وقالوا أهتنا خير أم هو﴾ أي أهتنا خير أم عيسى ؟ فإن كان عيسى في النار فلتكن أهتنا معه ﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً﴾ أي ما قالوا هذا القول لك إلا على وجه الجدل والمكابرة لا لطلب الحق ﴿بل هم قوم خصمون﴾ أي بل هم قوم شديدي الخصومة واللجاج بالباطل قال في التسهيل : أي ما ضربوا لك هذا المثل إلا على وجه الجدل ، وهو أن يقصد الإنسان أن يغلب من يناظره ، سواء غلبه بحق أو بباطل ، فإن ابن الزبيري وأمثاله ممن لا يخفى عليه أن عيسى لم يدخل في قوله تعالى ﴿حصب جهنم﴾ ولكنهم أرادوا المغالطة فوصفهم الله بأنهم قوم خصمون^(٣) ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه﴾ أي ما عيسى إلا عبد كسائر العبيد أنعمنا عليه بالنبوة وشرفناه بالرسالة ، وليس هو إلهاً ولا ابن إله كما زعم النصراني ﴿وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾ أي وجعلناه آية وعبرة لبني إسرائيل ، يستدلون بها على قدرة الله تعالى ، حيث خلق من أم بلا أب قال الرازي : أي صيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر حيث خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم^(٤) ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلقون﴾ أي لو أردنا لجعلنا بدلاً منكم ملائكة يسكنون في الأرض يكونون خلفاً عنكم قال مجاهد : ملائكة يعمرون الأرض بدلاً منكم^(٥) ﴿وإنه لعلم للساعة﴾ أي وإن عيسى علامة على قرب الساعة قال ابن عباس وقتادة : إن خروج عيسى عليه السلام من أعلام الساعة لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة ، ﴿فلا تمترن بها﴾ أي فلا تشكوا في أمر الساعة فإنها آتية لا محالة وفي الحديث (يوشك أن ينزل فيكم عيسى بن مريم حكماً مقسطاً . . .)^(٦) الحديث ﴿واتبعون هذا صراط مستقيم﴾ أي وقل لهم يا محمد : اتبعوا هداي

(١) حاشية الصاوي ٥٢/٤ وانظر تفسير أبي السعود ٤٧/٥ . (٢) القرطبي ١٦/١٠٣ .

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٣٢ . (٤) التفسير الكبير ٢٧/٢٢٢ . (٥) القرطبي ١٦/١٠٥ . (٦) هذا جزء من حديث رواه البخاري .

وَلَا يَصِدَّنَا الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٦﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٨﴾

وشرعي ، فإن هذا الذي أدعوكم إليه دينٌ قيسم وطريق مستقيم ﴿ولا يصدتكم الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ أي لا تغتروا بوساوس الشيطان ، واحذروا أن يصدكم عن اتباع الحق ، فإنه لكم عدو ظاهر العداوة ، حيث أخرج أباكم من الجنة ، ونزع عنه لباس النور ﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة﴾ أي ولما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع البينات الواضحات ، قال قد جئتكم بما تقتضيه الحكمة الإلهية من الشرائع ﴿ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ أي وجئتكم لأبين لكم ما اختلفتم فيه من أمور الدين قال ابن جزري : وإنما قال ﴿بعض الذي تختلفون فيه﴾ دون الكل ، لأن الأنبياء إنما يبينون أمور الدين لا أمور الدنيا^(١) وقال الطبري : يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية^(٢) ﴿فاتقوا الله وأطيعوا﴾ أي فاتقوا الله بامثال أوامره واجتنب نواهيه ، وأطيعوا أمري فيما أبلغه إليكم من التكليف ﴿إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه﴾ أي إن الله جل وعلا هو الرب المعبود لا رب سواه فأخلصوا له الطاعة والعبادة قال ابن كثير : أي أنا وأنتم عبيد له ، فقراء إليه ، مشتركون في عبادته وحده^(٣) ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي هذا التوحيد والتعبد بالشرائع ، طريق مستقيم موصل إلى جنات النعيم .

قال الله تعالى : ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم . . . إلى . . . فسوف يعلمون﴾

المناسكة : لما ذكر تعالى أمر عيسى ودعوته إلى الدين الحق ، أتبعه بذكر ضلال أهل الكتاب حيث تفرقوا شيعاً وأحزاباً في شأنه ، فقال بعضهم إنه إله ، وقال بعضهم إنه ابن الإله ، وقال آخرون إنه ثالث ثلاثة ، ثم ذكر تعالى أحوال القيامة وأهوالها ، وختم السورة الكريمة ببيان صفات المعبود الحق ، الواحد الأحد جل وعلا .

اللفظة : ﴿الأخلاء﴾ جمع خليل وهو الصديق الحميم ﴿تجبرون﴾ تُسرون وتفرحون ، والخبور : السرور والفرح ﴿أكواب﴾ جمع كوب وهو القدح الذي لا عروة له ﴿مبلسون﴾ آيسون من الرحمة ، وحزينون من شدة اليأس ﴿أبرموا﴾ أحكموا الشيء يقال : أبرم القوم أمرهم أحكموه ، والإبرام : الإحكام ﴿يؤفكون﴾ يُقلبون ويُصرفون ، أفكه أفكاً أي قلبه وصرفه عن الشيء .

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٣٢/٤ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٢٩٥ قال ابن كثير : وهذا الذي قاله ابن جرير حسن جيد . (٣) مختصر ابن كثير ٣/٢٩٥ .

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ^ط فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْيَمِّ ﴿٥٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ يَعْبَادُ لَخَوْفٍ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٥٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٦٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ^ط وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ^ط وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦١﴾

سَبَبُ النَّزُولِ : عن مقاتل قال : مكر المشركون بالنبي ﷺ في دار الندوة ، وتأمرؤا على قتله حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم ، وهو أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا في قتله وتضعف المطالبة بدمه فنزلت : ﴿ أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون ﴾^(١) .

النَّفْسِيرُ : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ أي اختلفت فرق النصارى في شأن عيسى وصاروا شيعاً وأحزاباً فيه قال ابن كثير : صاروا شيعاً فيه ، منهم من يُقرُّ بأنه عبدُ الله ورسولُهُ - وهو الحقُّ - ، ومنهم من يدعي أنه ولد الله ، ومنهم من يقول إنه الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً^(٢) ﴿ فويلٌ للذين ظلموا من عذاب يومٍ أليمٍ ﴾ أي فهلاكٌ ودمارٌ هؤلء الكفرة الظالمين من عذاب يومٍ مؤلمٍ وهو يوم القيامة ﴿ هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ﴾ أي هل ينتظر هؤلء المشركون المكذبون إلا إتيان الساعة ومجيئها فجأة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي وهم غافلون عنها مشغولون بأمور الدنيا ، وحينئذٍ يندمون حيث لا ينفعهم الندم ، ثم ذكر تعالى أحوال القيامة فقال ﴿ الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدوٌّ إلا المتقين ﴾ أي الأصدقاء والأحباب يوم القيامة يصبحون أعداءً إلا من كانت صداقته ومحبته لله قال ابن كثير : كلُّ خلةٍ وصداقةٍ غير الله ، فإنها تنقلب يوم القيامة عداوةً إلا ما كان لله عز وجل فإنه دائم بدوامه^(٣) قال ابن عباس : صارت كل خلةٍ عداوةً يوم القيامة إلا المتقين تشريفاً وتطييباً لقلوبهم فيقول : يا عباد المؤمنين الذين تحققتم في العبودية لرب العالمين ، لا خوفٌ عليكم في هذا اليوم العصيب ، ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم من الدنيا ، ثم وضَّحهم بقوله ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾ أي هم الذين صدَّقوا بالقرآن ، واستسلموا لحكم الله وأمره ، وانقادوا لطاعته ﴿ ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبَّرون ﴾ أي يقال لهم : ادخلوا الجنة أنتم ونسائكم المؤمنات ، تُعَمَّون فيها وتُسْرُونَ سروراً يظهر أثره على وجوهكم ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أي يُطَافُ على أهل الجنة بأوانٍ من الذهب فيها الطعام ، وأقداحٍ من ذهب فيها الشراب قال المفسرون : آنية أهل الجنة التي يأكلون فيها الطعام ، والكئوس التي يشربون فيها الشراب كلُّها من ذهب وفضة كما قال تعالى ﴿ ويُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴾ وفي الحديث (لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا في صحافها ، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة)^(٤) ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفسُ

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٥ . (٢) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة . (٣) الحديث من رواية الشيخين .

وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٨﴾ لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٩﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٨٠﴾

وتلذُّ الأعين ﴿٧٦﴾ أي وفي الجنة كل ما تشتهي النفوس من أنواع اللذائذ والمشتهيات ، وتُسْرُّ به الأعين من فنون المناظر الجميلة ، والمشاهد اللطيفة ﴿وأنتم فيها خالدون﴾ أي وأنتم في الجنة باقون دائمون ، لا تخرجون منها أبداً قال أبو السعود : وهذا إتمامٌ للنعمة وإكمالٌ للسرور ، فإن كل نعيم زائل موجبٌ لخوف الزوال^(١) . . لما ذكر الجنة وأنها موضع الحبور ، ذكر ما فيها من النعم ، فذكر أولاً المطاعم ، ثم ذكر المشرب ، ثم بعد ذلك التفصيل ذكر بياناً كلياً بقوله ﴿وفيها ما تشتهي الأَنْفُسُ وتلذُّ الأعين﴾ ثم ذكر تمام النعمة بالخلود في دار النعيم ، وهذا حصرٌ لأنواع النعم ، لأنها إمّا مشتهاة في القلوب ، أو مستلذة في العيون^(٢) ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ أي وتلك الجنة الموصوفة بتلك الأوصاف الجليلة أعطيتُموها بسبب أعمالكم الصالحة التي قدمتموها في الدنيا قال ابن كثير : أي أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم ، فإنه لا يدخل أحد الجنة بعمله ، ولكن برحمة الله وفضله ، وإنما الدرجات يُنال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات^(٣) وفي الحديث (ما من أحدٍ إلا وله منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار ، الكافر يرث المؤمن منزله في النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة ، وذلك قوله تعالى ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾^(٤) ﴿لكم فيها فاكهةٌ كثيرةٌ منها تأكلون﴾ أي لكم في الجنة من أنواع الفواكه والثمار الشيء الكثير - سوى الطعام والشراب - من هذه الفواكه تأكلون تفكهاً وتلذذاً قال المفسرون : يأكل أهل الجنة من بعض الثمار ، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام ، لا ترى فيها شجرةٌ تخلو عن ثمرها لحظة ، فهي مزينةٌ بالثمار أبداً ، لأن كل ما يؤكل يخلف بدله وفي الحديث (لا ينزع رجلٌ في الجنة من ثمرها إلا نبت مثلاًها مكانها)^(٥) . . ولما ذكر حال السعداء الأبرار أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجار فقال ﴿إنَّ المجرمينَ في عذابِ جهنمِ خالدون﴾ أي إن الكافرين الراسخين في الإجرام في العذاب الشديد في جهنم دائمون فيها أبداً قال الصاوي : والمراد بالمجرمين الكفار لأنهم ذكروا في مقابلة المؤمنين^(٦) ﴿لا يُفْتَرُ عَنْهُمْ﴾ أي لا يخفف عنهم العذاب لحظة ﴿وهم فيه مُبْلِسُونَ﴾ أي وهم في ذلك العذاب يائسون من كل خير ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾ أي وما ظلمناهم بعقابنا لهم ، ولكن كانوا هم الظالمين لتعريضهم أنفسهم للعذاب الخالد ﴿ونادوا يا مالِك ليقبض علينا ربُّك﴾ أي ونادى الكفار مالِكاً خازن النار قائلين : ليمثنا الله حتى نستريح من العذاب قال ابن كثير : أي ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه قال ابن عباس : فلم يجبههم إلا بعد ألف سنة^(٧)

(١) تفسير أبي السعود ٤٩/٥ . (٢) حاشية زاده على البيضاوي ٣/٤٠٤ .

(٣) مختصر ابن كثير ٣/٢٩٦ . (٤) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم . (٥) تفسير أبي السعود ٥٩/٥ .

(٦) حاشية الصاوي ٤/٥٤ . (٧) مختصر ابن كثير ٣/٢٩٦ .

وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۗ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَادِرُونَ ﴿٧٨﴾
 أَمْ أُرْمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرَمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۗ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾
 قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ۗ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا
 يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٣﴾

﴿قال إنكم ماكثون﴾ أي أجابهم إنكم مقيمون في العذاب أبداً ، لا خلاص لكم منه بموت ولا غيره
 ﴿لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كادرون﴾ خطاب توبيخ وتقريع أي لقد جئناكم أيها الكفار
 بالحق الساطع المبين ، ولكنكم كنتم كارهين لدين الله مشمئز من لكونه مخالفاً لأهوائكم وشهواتكم
 قال الرازي : هذا كالعلة لما ذكر والمراد نفرتهم عن محمد وعن القرآن ، وشدة بغضهم لقبول الدين
 الحق ^(١) ﴿أم أرموا أمراً فإننا مبرمون﴾ الكلام عن كفار قريش أي أم أحكم هؤلاء المشركون أمراً في كيد
 محمد ﷺ فإننا محكمون أمرنا في نصرته وحمايته ، وإهلاكهم وتدميرهم قال مقاتل : نزلت في تدبيرهم المكر
 بالنبي ﷺ في دار الندوة ^(٢) ﴿أم يحسبون أننا لا نسمع سرهم ونجواهم﴾ أي أم يظنون أننا لا نسمع ما
 حدثوا به أنفسهم ، وما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجي قال في التسهيل : السر ما يحدث به الإنسان
 نفسه أو غيره في خفية ، والنجوى ما تكلموا به بينهم ^(٣) ﴿بلى ورسُلنا لديهم يكتبون﴾ أي بلى إنا
 نسمع سرهم وعلانيتهم ، وملائكتنا الحفظة يكتبون عليهم أعمالهم، روي أنها نزلت في « الأخنس بن
 شريق » و « الأسود بن عبد يغوث » اجتماعاً فقال الأخنس : أتري الله يسمع سرنا ! ! فقال الآخر :
 يسمع نجوانا ولا يسمع سرنا ^(٤) ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ أي قل يا محمد هؤلاء
 المشركين : لو فرض أن لله ولداً لكنت أنا أول من يعبد ذلك الولد ، ولكنه جل وعلا منزّه عن الزوجة
 والولد قال القرطبي : وهذا كما تقول لمن تناظره : إن ثبت ما قلت بالدليل فأنا أول من يعتقده ، وهذا
 مبالغة في الاستبعاد ، وترقيق في الكلام ^(٥) وقال الطبري : هو ملاحظة في الخطاب وقال البيضاوي : ولا
 يلزم من هذا الكلام صحة وجود الولد وعبادته له ، بل المراد نفيها على أبلغ الوجوه ، وإنكاره للولد ليس
 للعناد والمراء ، بل لو كان لكان أولى الناس بالاعتراف به ، فإن النبي يكون أعلم بالله وبما يصح له وما لا
 يصح ^(٦) ﴿سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون﴾ أي تنزهه وتقدس الله العظيم
 الجليل ، رب السموات والأرض ، ورب العرش العظيم ، عما يصفه به الكافرون من نسبة الولد إليه
 ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾ أي اترك كفار مكة في جهلهم وضلالهم ، يخوضوا في باطلهم ويلعبوا
 بدنياهم ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ أي إلى ذلك اليوم الرهيب الذي وعده - وهو يوم

(١) التفسير الكبير ٢٧/٢٢٧ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/١١٨ . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٣٣ . (٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٣٣ .
 (٥) تفسير القرطبي ١٦/١١٩ . (٦) هذا قول جيد وهو الصحيح في معنى الآية وقيل « إن » بمعنى « ما » أي ما كان للرحمن ولد وتم الكلام
 ثم ابتداء فقال : « فأنا أول العابدين » ، وهذا قول ضعيف .

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ
إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ
يَرْبِّ إِنَّا هَنُؤَلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَّمَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

القيامة - فسوف يعلمون حينئذ كيف يكون حالهم ومصيرهم ومآلهم وهو الذي في السماء إله وفي
الأرض إله أي هو جل وعلا معبود في السماء ومعبود في الأرض ، لأنه هو الإله الحق ، المستحق للعبادة
في السماء والأرض قال في التسهيل : أي هو الإله لأهل الأرض وأهل السماء^(١) وقال ابن كثير : أي هو إله
من في السماء وإله من في الأرض ، يعبداه أهلها وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه^(٢) وهو الحكيم
العليم أي هو الحكيم في تدبير خلقه ، العليم بمصالحهم ، وهذا كالدليل على وحدانيته تعالى وتبارك
الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما أي تجدد وتعظم الله الذي له ملك السموات والأرض
وما بينهما من المخلوقات ، من الإنس والجن والملائكة ، فهو الخالق والمالك والمتصرف في الكائنات بلا
مانعة ولا مدافعة وعنده علم الساعة أي وعنده وحده علم زمان قيام الساعة وإليه ترجعون
أي وإليه لا إلى غيره مرجع الخلائق للجزاء ، فيجازي كلاً بعمله ولا يملك الذين يدعون من دونه
الشفاعة أي ولا يملك أحد ممن يعبدونهم من دون الله أن يشفع عند الله لأحد ، لأنه لا شفاعة إلا بإذنه
إلا من شهد بالحق أي إلا لمن شهد بالحق ، وآمن عن علم وبصيرة ، فإنه تنفع شفاعته عند الله
وهم يعلمون أي وهم يعلمون أن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه قال المفسرون : والمراد بـ ﴿من شهد
بالحق﴾ عيسى وعزير والملائكة ، فإنهم يشهدون بالحق والوحدانية لله ، فهو لا تنفع شفاعتهم
للمؤمنين وإن كانوا قد عبدوا من دون الله ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنَّ الله﴾ أي ولئن سألت يا
محمد كفار مكة من الذي خلقهم وأوجدهم ؟ ليقولنَّ الله خلقنا ، فهم يعترفون بأنه الخالق ثم يعبدون
غيره ممن لا يقدر على شيء ﴿فأنسى يؤفكون﴾ أي فكيف ينصرفون عن عبادة الرحمن إلى عبادة
الأوثان ؟ فهم في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقول ﴿وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ أي
وقول محمد في شكواه لربه يا رب إن هؤلاء قوم معاندون جبارون لا يصدقون برسالتي ولا بالقرآن قال
قتادة : هذا قول نبيكم ﷺ يشكو قومه إلى ربه عز وجل^(٣) ﴿فاصفح عنهم وقل سلام﴾ أي فأعرض
عنهم يا محمد وساعهم ولا تقابلهم بمثل ما يقابلونك به قال الصاوي : وهو تباعد وتبرؤ منهم ، وليس في
الآية مشروعية السلام على الكفار^(٤) وقال قتادة : أمر بالصفح عنهم ثم أمر بقتالهم ، فصار الصفح
منسوخاً بالسيف^(٥) ﴿فسوف يعلمون﴾ أي فسوف يعلمون عاقبة إجرامهم وتكذيبهم ، وهو وعيد

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٣٣/٤ . (٢) المختصر ٢٩٨/٣ . (٣) نفس المرجع السابق .

(٤) حاشية الصاوي ٥٦/٤ . (٥) تفسير القرطبي ١٢٤/١٦ .

وتهديد للمشركين ، وتسلية لرسول الله ﷺ^(١)

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - التشبيه البليغ ﴿جعل لكم الأرض مهدياً﴾ أي كالمهد والفراش حذفت منه الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغاً .
- ٢ - الاستعارة التبعية ﴿فأنشرنا به بلدة ميتاً﴾ شبه الأرض قبل نزول المطر بالإنسان الميت ثم أنشرها الله أي أحيها بالمطر ففيه استعارة تبعية .
- ٣ - التأكيد بإنّ واللام مع صيغة المبالغة ﴿إنّ الانسان لكفورٌ مبين﴾ لأن فعول وفعيل من صيغ المبالغة .
- ٤ - الأسلوب التهكمي للتوبيخ والتقريع ﴿أم اتخذ مما يخلق بناتٍ وأصفاكم بالبنين﴾ ؟ وبين لفظ البنات والبنين طباقاً .
- ٥ - المجاز المرسل ﴿وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه﴾ المراد بالكلمة الجملة التي قالها ﴿إنني براءٌ مما تعبدون﴾ ففي اللفظ مجاز .
- ٦ - الاستعارة ﴿أفأنت تسمع الصمُّ أو تهدي العمي﴾ شبه الكفار بالصم والعمي بطريق الاستعارة التمثيلية .
- ٧ - جناس الاشتقاق ﴿أرسلنا من قبلك من رُسُلنا﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف بينهما .
- ٨ - حذف الإيجاز ﴿بصحافٍ من ذهبٍ وأكواب﴾ أي أكواب من ذهب وحذف لدلالة السابق عليه .
- ٩ - ذكر العام بعد الخاص ﴿وفيها ما تشتهيهِ الأنفس﴾ بعد قوله ﴿يُطاف عليهم بصحافٍ﴾ الآية .
- ١٠ - الطباق ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم﴾ لأن المراد سرهم وعلانيتهم .
- ١١ - السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿كذلك تُخرجون﴾ ﴿من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ ﴿وإنّا إلى ربنا لمنقلبون﴾ وغير ذلك وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الزخرف »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الدخان مكية وهي تتناول أهداف السور المكية « التوحيد ، الرسالة ، البعث » لترسيخ العقيدة وتثبيت دعائم الإيمان .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم - المعجزة الخالدة - الباقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون ، وقد تحدثت عن إنزال الله تعالى له في ليلة مباركة من أفضل ليالي العمر هي « ليلة القدر » وبينت شرف تلك الليلة العظيمة التي تُفصّل وتدبّر فيها أمور الخلق ، والتي اختارها الله لإنزال خاتمة الكتب السماوية على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ .

* ثم تحدثت عن موقف المشركين من هذا القرآن العظيم ، وأنهم في شكٍ وارتياب من أمره ، مع وضوح آياته ، وسطوع براهينه ؛ وأنذرتهم بالعذاب الشديد .

* ثم تحدثت عن قوم فرعون ، وما حلّ بهم من العذاب والنكال نتيجة الطغيان والإجرام ، وعن الآثار التي تركوها بعد هلاكهم ، من قصور ودور ، وحدائق وبساتين ، وأنهار وعيون ، وعن ميراث بني إسرائيل لهم ، ثم ما حدث لهم من تشرد وضياع بسبب عصيانهم لأوامر الله .

* وتناولت السورة الكريمة مشركي قريش ، وإنكارهم للبعث والنشور ، واستبعادهم للحياة مرة أخرى ولذلك كذبوا الرسول ، وبينت أن هؤلاء المكذبين ليسوا بأكرم على الله ممن سبقهم من الأمم الطاغية ، وأن سنة الله لا تتخلف في إهلاك الطغاة المجرمين .

* وختمت السورة الكريمة ببيان مصير الأبرار ومصير الفجار ، بطريق الجمع بين الترغيب والترهيب ، والتبشير والإنذار .

التسمية : سميت « سورة الدخان » لأن الله تعالى جعله آية لتخويف الكفار ، حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ وبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكوا ، ثم نجّاهم بعد ذلك ببركة دعاء النبي ﷺ .

قال الله تعالى: ﴿حَمَّ﴾ والكتاب المبين ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ . إلى . وما كانوا منظرين ﴿

من آية (١) إلى نهاية آية (٢٩) .

اللغز : ﴿يُفْرَقُ﴾ يُبَيِّنُ وَيُفْصَلُ ﴿ارْتَقِبْ﴾ انتظر ﴿يَغْشَى﴾ يغطي ويحيط ﴿نَبْطِشُ﴾ نأخذ بشدة وعنق ﴿فَتَنَّا﴾ ابتلينا وامتحننا ﴿تَعْلُوا﴾ تتكبروا وتتطاولوا ﴿عُدْتُ﴾ استجرتُ والتجأتُ إلى الله ﴿أَسْرُ﴾ سر ليلاً ﴿رَهْوًا﴾ ساكناً ، والرهو عند العرب الساكن قال الشاعر :

والخيلُ تمزَعُ رهواً في أعنتها كالطير تنجو من الشُّبُوبِ ذي البرد^(١)
قال الجوهري : رها البحر أي سكن ، وجاءت الخيل رهواً أي برفق وسكينة ﴿منظرين﴾ مؤخرين ﴿نعمة﴾ النعمة بفتح النون من التنعيم وهو سعة العيش والراحة ، وبالكسر من المنة وهي العطية والإفضال .

سَبَبُ النَّزُولِ : عن ابن مسعود قال : إن قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم قحطٌ وجهدٌ حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر الى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، فأنزل الله تعالى ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ فأتى رسول الله ﷺ فقيل يا رسول الله : استسق لمضر فإنها قد هلكت ، فاستسقى فسُقوا فنزلت ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمَبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴿٣﴾ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٤﴾

التفسير : ﴿حَمَّ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وقد تقدم^(٣) ﴿والكتاب المبين﴾ أي أقسم بالقرآن البين الواضح ، الفارق بين طريق الهدى والضلال ، البين في إعجازه ، الواضح في أحكامه ، وجوابه ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ أي أنزلنا القرآن في ليلة فاضلة كريمة هي ليلة القدر من شهر رمضان المبارك ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ قال ابن جزي : وكيفيته إنزاله فيها أنه أنزل الى السماء الدنيا جملة واحدة ، ثم نزل به جبريل على النبي ﷺ شيئاً بعد شيء^(٤) ، وقيل : المعنى ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر ، قال القرطبي : ووصف الليلة بالبركة لما يُنزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب^(٥) ﴿إنا كنا منظرين﴾ أي لننذر به الخلق ، لأن من شأننا وعادتنا ألا نترك

(١) البيت للناطقة الذبياني كذا في القرطبي ١٣٧/١٦ ومعنى الشؤوب : السحاب العظيم القطر .

(٢) الحديث أخرجه البخاري عن عبد الله بن مسعود . (٣) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقرة .

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٣٤/٤ . (٥) تفسير القرطبي ١٢٦/١٦ .

فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

الناس دون إنذار وتحذير من العقاب ، لتقوم الحجة عليهم ﴿فيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي في ليلة القدر يُفصل وَيُبين كلُّ أمرٍ محكم من أرزاق العباد وأجالهم وسائر أحوالهم فلا يُبدل ولا يُغيّر قال ابن عباس : يحكم الله أمر الدنيا الى السنة القابلة ما كان من حياة ، أو موت ، أو رزق قال المفسرون : إن الله تعالى ينسخ من اللوح المحفوظ في ليلة القدر ، ما يكون في تلك السنة من أرزاق العباد وأجالهم وجميع أمورهم من خير وشر ، وصالح وطالح ، حتى إن الرجل ليمشي في الأسواق وينكح ويولد له وقد وقع اسمه في الموتى ^(١) ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا﴾ أي جميع ما تقدّره في تلك الليلة وما نوحى به إلى الملائكة من شؤون العباد ، هو أمرٌ حاصل من جهتنا ، بعلمنا وتدبيرنا ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي نرسل الأنبياء إلى البشر بالشرائع الإلهية لهدايتهم وإرشادهم ﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ أي من أجل الرأفة والرحمة بالعباد قال في البحر : وضع الظاهر ﴿رَبِّكَ﴾ موضع الضمير «رحمة منا» إيداناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المرئيين ^(٢) ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال العباد ، العليم بأفعالهم وأحوالهم ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي الذي أنزل القرآن هو ربُّ السموات والأرض وخالقهما ومالكهما ومن فيها ، إن كنتم من أهل الإيمان واليقين ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي لا ربٌ غيره ، ولا معبود سواه ، لأنه المتصف بصفات الجلال والكمال ، يُحيي الأموات ، ويميت الأحياء ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ أي هو خالقكم وخالق من سبقكم من الأمم الماضين قال الرازي : والمقصود من الآية أن المنزل إذا كان موصوفاً بهذه الجلالة والكبرياء ، كان المنزل - الذي هو القرآن - في غاية الشرف والرفعة ^(٣) ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي ليسوا موقنين فيما يظهره من الإيمان في قولهم : الله خالقنا ، بل هم في شكٍ من أمر البعث ، فهم يلعبون ويسخرون ويهزءون قال شيخ زاده : التفت من الخطاب للغيبة فقال ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ تحقيراً لشأنهم ، وإيعاداً لهم عن موقف الخطاب ، لكونهم من أهل الشك والامتراء ، وكون أفعالهم الهزل واللعب لعدم التفاتهم إلى البراهين القاطعة ، وعدم تمييزهم بين الحق والباطل ، والضار والنافع ^(٤) ، ثم لما بيّن أن شأنهم الحماقة والطغيان التفت إلى حبيبه ﷺ تسلياً له ، وإقناتاً من إيمانهم فقال ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي فانتظر يا محمد عذابهم يوم تأتي السماء بدخانٍ كثيف ، بيّن واضح يراه كل أحد قال ابن مسعود : إن قريشاً لما عصت الرسول ﷺ دعا عليهم فقال : « اللهم اشدّد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/٣١٠ . (٢) البحر المحيط ٨/٣٣ .

(٣) التفسير الكبير ٢٧/٢٤١ . (٤) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/٣١١ .

يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَلَيْسَ لِمَنْ دَرَسَ وَعَدَّ وَدَبَّرَ وَقَدَّ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِثْلُ مَجْنُونٍ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

يوسف « فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف ، وكان الرجل يُحدثُ أخاه فيسمع صوته ولا يراه لشدة الدخان المنتشر بين السماء والأرض ، ثم قال ابن مسعود : خمسٌ قد مضين : « الدخانُ ، والروم ، والقمر ، والبطشة ، واللزام »^(١) وقال ابن عباس : لم يمضِ الدخان بل هو من أمارات الساعة ، وهو يأتي قبيل القيامة ، يصيبُ المؤمن منه مثلُ الزكام ، ويُضجُ رءوس الكافرين والمنافقين ، حتى يصبح رأس الواحد كالرأس المشوي ، ويغدو كالسكران فيملاً الدخان جوفه ويخرج من منخرية وأذنيه ودبره^(٢) ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يشمل كفار قريش ويعمهم من كل جانب ويقولون حين يصيبهم الدخان : هذا عذاب أليم ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي ويقولون مستغيثين : رَبَّنَا ارفع عنا العذاب فإننا مؤمنون بمحمد وبالقرآن إن كشفتته عنا قال البيضاوي : وهذا وعدٌ بالإيمان إن كشف العذاب عنهم^(٣) ﴿أَلَيْسَ لِمَنْ دَرَسَ وَعَدَّ وَدَبَّرَ وَقَدَّ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ أي والحال أنه قد أتاهم رسولٌ بين الرسالة ، مؤيدٌ بالبينات الباهرة ، والمعجزات القاهرة ، ومع هذا لم يؤمنوا به ولم يتبعوه ؟ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِثْلُ مَجْنُونٍ﴾ أي ثم أعرضوا عنه وبهتوه ، ونسبوه إلى الجنون - وحاشاه - فهل يُتوقع من قومٍ هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير ؟ ! قال الإمام الفخر : إن كفار مكة كان لهم في ظهور القرآن على محمد ﷺ قولان : منهم من كان يقول : إن محمداً يتعلم هذا الكلام من بعض الناس ، ومنهم من كان يقول : إنه مجنون والجنُّ تلقي عليه هذا الكلام حال تخبطه^(٤) ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ أي سنكشف عنكم العذاب زمناً قليلاً ثم تعودون إلى ما كنتم عليه من الشرك والعصيان قال الرازي : والمقصودُ التنبيه على أنهم لا يوفون بعهدهم ، وأنهم في حال العجز يتضرعون إلى الله تعالى ، فإذا زال الخوف عادوا إلى الكفر وتقليد الأسلاف^(٥) قال ابن مسعود : لما كشف عنهم العذاب باستسقاء النبي ﷺ عادوا إلى تكذيبه ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ أي واذكر يوم نبطش بالكفار بطشتنا الكبرى انتقاماً منهم ، والبطشُ : الأخذُ بقوة وشدة قال ابن مسعود : « البطشة الكبرى » يوم « بدر » وقال ابن عباس : هي يوم القيامة قال ابن كثير : والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً^(٦) وقال الرازي : القول الثاني أصح لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف به هذا الوصف

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٤ . (٢) قول ابن مسعود هو الأظهر وقد اختاره أبو السعود وقال : هو الذي يستدعيه مساق النظم الكريم ، وذكر ابن كثير الرأيين ثم رجح رأي ابن عباس وقال : إن ما أوردوه فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن .

أه ابن كثير ٣/ ٣٠٠ .

(٣) تفسير البيضاوي ٣/ ٣١٢ . (٤) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٢٤٤ . (٥) نفس المرجع السابق (٦) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٠٢ .

* وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدْوَأْ إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِزُوا لِي فَعَزَّزْتُ لَهُمْ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَيُّؤَلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢١﴾ فَأَسْرَبِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٢٢﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٣﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٤﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٥﴾

العظيم ، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة ، ولما وصف بكونها « كبرى » وجب أن تكون أعظم أنواع البطش على الإطلاق ، وذلك إنما يكون في القيامة (١) ، ثم ذكّر كفار قريش بما حلّ بالطاغين من قوم فرعون فقال ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ﴾ أي ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون وهم أقباط مصر ﴿ وجاءهم رسول كريم ﴾ أي وجاءهم رسول شريف الحسب والنسب ، من أكرم عباد الله وهو موسى الكليم عليه أفضل الصلاة والتسليم ﴿ أن أدوا إلي عباد الله ﴾ أي فقال لهم موسى : اذهبوا إليّ عباد الله وأطلقوهم من العذاب ، يريد بني إسرائيل (٢) كقوله تعالى ﴿ فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ﴾ ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ أي إني رسول مؤتمن على الوحي غير متهم ، وأنا لكم ناصح فاقبلوا نصحي ﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ أي لا تتكبروا على الله ولا تترفعوا عن طاعته ﴿ إني آتيكم سلطان مبين ﴾ أي قد جئتكم بحجة واضحة ، وبرهان ساطع ، يعترف بهما كل عاقل ﴿ وإني عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴾ أي التجأت إليه تعالى واستجرت به من أن تقتلوني قال القرطبي : كأنهم توعدوه بالقتل فاستجار بالله (٣) ﴿ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلوني ﴾ أي وإن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل ما آتيتكم به من الحجة ، فكفوا عن أذاي وخلوا سبيلي قال ابن كثير : أي لا تتعرضوا لي ودعوا الأمر مسألة إلى أن يقضي الله بيننا (٤) ﴿ فدعا ربّه أن هؤلأء قوم مجرمون ﴾ أي فدعا عليهم لما كذبوه قائلاً : يا رب إن هؤلاء قوم مجرمون فانتقم منهم ﴿ فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون ﴾ في الكلام حذف تقديره فأوحينا إليه وقتلنا له : أسر بعبادي أي اخرج ببني إسرائيل ليلاً فإن فرعون وقومه يتبعونكم ، ويكون ذلك سبباً لهلاكهم ﴿ واترك البحر رهوا ﴾ أي واترك البحر ساكناً منفرجاً على هيئته بعد أن تجاوزه ﴿ إنهم جند مغرقون ﴾ أي إن فرعون وقومه سيفرقون فيه قال في التسهيل : لما جاوز موسى البحر أراد أن يضربه بعضاه فينطبق كما ضربه فانفلق ، فأمره الله بأن يتركه ساكناً كما هو ليدخله فرعون وقومه فيغرقوا فيه (٥) ، وإنما أخبره تعالى بذلك ليبقى فارغ القلب من شرهم وإيذائهم ، مطمئناً إلى أنهم لن يدرکوا بني إسرائيل ، ثم أخبر تعالى عن هلاكهم فقال ﴿ كم تركوا من جنات وعيون ﴾ كم للكثير أي لقد تركوا كثيراً من البساتين والحدائق الغناء والأنهار والعيون الجارية ﴿ وزروع ومقام كريم ﴾ أي ومزارع عديدة

(١) التفسير الكبير ٢٧/٢٤٤ . (٢) هذا قول مجاهد واختاره في التسهيل ، وروي عن ابن عباس أن معناه : أن أدوا إلي الطاعة والإيمان

يا عباد الله .

(٣) تفسير القرطبي ١٦/١٣٥ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/٣٠٢ . (٥) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٣٥ .

وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينِ ﴿٣٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٣٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ
وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٣٩﴾

فيها أنواع المزروعات ومجالس ومنازل حسنة قال قتادة : ﴿ومقام كريم﴾ هي المواضع الحسان من المجالس والمسكن وغيرها^(١) ﴿وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينِ﴾ أي وتنعم بالعيش مع الحسن والنضارة كانوا فيها ناعمين بالرفاهية وكمال السرور قال الإمام الفخر : بيّن تعالى أنهم بعد غرقهم تركوا هذه الأشياء الخمسة وهي : الجنات ، والعيون ، والزروع ، والمقام الكريم - وهو المجالس والمنازل الحسنة - ونعمة العيش بفتح النون وهي حسنة ونضارته^(٢) ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي كذلك فعلنا بهم حيث أهلكناهم وأورثنا ملكهم وديارهم لقوم آخرين ، كانوا مستعبدين في يد القبط وهم بنو إسرائيل قال ابن كثير : والمراد بهم بنو إسرائيل فقد استولوا - بعد غرق فرعون وقومه - على الممالك القبطية ، والبلاد المصرية كما قال تعالى ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾ وقال تعالى في مكان آخر ﴿وأورثناها بني إسرائيل﴾^(٣) ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أي فما حزن على فقدهم أحد ، ولا تأثر بموتهم كائن من الخلق ﴿وما كانوا منظرين﴾ أي وما كانوا مؤخرين وممهلين إلى وقت آخر . بل عَجَّل عقابهم في الدنيا قال القرطبي : تقول العرب عند موت السيد منهم : بكت له السماء والأرض ، أي عمّت مصيبتُهُ الأشياء حتى بكته الأرض والسماء ، والريح والبرق قال الشاعر :

فيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع لموت طريف

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه والمعنى أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ولم يوجد لهم فقد ، وقيل هو على حذف مضاف أي ما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض^(٤) .

قال الله تعالى : ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين . . . إلى . . . فارتقب إنهم

مرتقبون﴾ من آية (٣٠) إلى آية (٥٩) نهاية السورة .

المناسكة : لما ذكر تعالى إهلاك فرعون وقومه ، أردفه بذكر إحسانه لبني إسرائيل ، ليشكروا ربهم على إنعامه وإحسانه ، ثم حذر كفار مكة من بطش الله وانتقامه ، وختم السورة الكريمة ببيان حال الأشقياء والسعداء في يوم الفصل والجزاء .

اللغز : ﴿عالياً﴾ متكبراً جباراً ﴿بلاء﴾ اختبار وامتحان ﴿منشرين﴾ مبعوثين بعد الموت ، وأنشر الله الموتى أحياءهم ﴿قوم تُبَع﴾ ملوك اليمن ، وكانوا يسمون ملوكهم التبابعة قال الجوهري :

(١) البحر المحيط ٨/٣٦ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٢٧/٢٤٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/٣٠٣ . (٤) تفسير القرطبي ١٦/١٣٩ .

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٤٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ آخَرْنَا نَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَلْبِينَ ﴿٤٢﴾ وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ﴿٤٤﴾
 إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٤٥﴾ فَأَتَوْا بِعَابِئِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٦﴾

التبابعة ملوك اليمن ، واحدهم تُبع^(١) ، وقال أهل اللغة : تُبع لقب للملك منهم كالقيصرة للروم ، والأكاسرة للفرس ، والخلفاء للمسلمين^(٢) ﴿يوم الفصل﴾ يوم القيامة ﴿مولى﴾ قريب وناصر ﴿المهل﴾ النحاس المذاب ﴿الأثيم﴾ الفاجر من أثم الرجل يأثم إذا وقع في الإثم والفجور ﴿اعتلوه﴾ جرّوه وسوقوه بعنفٍ وشدة ﴿سُنْدُس﴾ رقيق الديباج ﴿استبرق﴾ غليظ الديباج ﴿عين﴾ واسعات الأعين جمع عيناء ﴿ارتقب﴾ انتظر .

التفسير : ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين﴾ أي والله لقد أنقذنا بني إسرائيل من العذاب الشديد ، المفرط في الإذلال والإهانة ، وهو قتل آبائهم واستخدام نسائهم ، وإرهابهم في الأعمال الشاقة ﴿من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين﴾ أي من طغيان فرعون وجبروته إنه كان متكبراً جباراً ، متجاوزاً الحد في الطغيان والإجرام قال الصاوي : هذا من جملة تعداد النعم على بني إسرائيل ، والمقصود من ذلك تسليته ﷺ وتبشيره بأنه سينجي وقومه المؤمنين من أيدي المشركين ، فإنهم لم يبلغوا في التجبر مثل فرعون وقومه^(٣) ﴿ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾ أي اصطفياناهم وشرفناهم على علم منا باستحقاقهم لذلك الشرف على جميع الناس في زمانهم قال قتادة : على أهل زمانهم ، لا على أمة محمد لقوله تعالى ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ ﴿وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين﴾ أي وآتيناهم من الحجج والبراهين وخوارق العادات ما فيه اختبار وامتحان ظاهر جلي لمن تدبّر وتبصّر قال الرازي : والآيات مثل فلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى وغيرها من الآيات الباهرة ، التي ما أظهر الله مثلها على أحد سواهم^(٤) ﴿إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى﴾ أي إن كفار قريش ليقولون : لن نموت إلا موتة واحدة وهي موتتنا الأولى في الدنيا ، وفي قوله تعالى ﴿هؤلاء﴾ تحقير لهم وازدراء بهم قال المفسرون : لما كان الحديث في أول السورة عن كفار مكة ، وجاءت قصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة والكفر ، رجع إلى الحديث عن كفار قريش ، والغرض من قولهم ﴿إن هي إلا موتتنا الأولى﴾ إنكار البعث كأنهم قالوا : إذا متنا فلا بعث ولا حياة ولا نشور ، ثم صرحوا بذلك بقولهم ﴿وما نحن بمُنشَرِينَ﴾ أي وما نحن بمبعوثين ﴿فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ خطاباً للرسول ﷺ والمؤمنين على وجه التعجيز أي أحيوا لنا آباءنا ليخبرونا بصدقكم إن كنتم صادقين في أن هناك حياة بعد هذه الحياة قال الإمام الفخر : إن الكفار احتجوا على نفي الحشر والنشر بأن

(١) الصحاح للجوهري مادة تبع . (٢) تفسير القرطبي ١٦ / ١٤٤ .

(٣) حاشية الصاوي على الخلائين ٤٨ / ٦٠ . (٤) التفسير الكبير للرازي ٢٧ / ٢٤٨ .

أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تَبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ

قالوا : إن كان البعث والنشور ممكناً معقولاً ففعلوا لنا إحياء من مات من آبائنا ليصير ذلك دليلاً عندنا على صدق دعواكم في البعث يوم القيامة^(١) وقال القرطبي : قائل هذا أبو جهل ، قال يا محمد : إن كنت صادقاً في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا أحدهما : قُصي بن كلاب فإنه كان رجلاً صادقاً ، لئسأله عما يكون بعد الموت^(٢) ﴿أهم خيرٌ أم قومٌ تبع﴾ استفهام انكار مع التهديد أي أهؤلاء المشركون أقوى وأشدُّ أم أهل سبأ ملوك اليمن ؟ الذين كانوا أكثر أموالاً ، وأعظم نعيماً من كفار مكة ؟ ﴿والذين من قبلهم أهلكناهم﴾ أي والذين سبقوهم من الأمم العاتية أهلكناهم ، وخربنا بلادهم ، وفرقناهم شذر مذر قال أبو السعود : والمراد بهم عاد وثمود وأضرابهم من كل جبار عنيد ، أولي بأسٍ شديد ، فأولئك كانوا أقوى من هؤلاء ، وقد أهلكتهم الله مع ما كانوا عليه من غاية القوة والشدة ، فإهلاك هؤلاء أولى^(٣) ﴿إنهم كانوا مجرمين﴾ تعليل للإهلاك أي أهلكناهم ودمرناهم بسبب إجرامهم ، وفيه وعيد وتهديد لقريش أن يفعل الله بهم ما فعل بقوم تبع والمكذبين . . ثم نبه تعالى إلى دلائل البعث وهو خلق العالم بالحق فقال ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لأعين﴾ أي وما خلقنا هذا الكون وما فيه من المخلوقات البديعة لعباً وعبثاً ﴿ما خلقناهما إلا بالحق﴾ أي ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات إلا بالعدل والحق المبين ، لنجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك فينكرون البعث والجزاء قال المفسرون : إن الله تعالى خلق النوع الإنساني ، وخلق ما ينتظم به أسباب معاشهم ، من السقف المرفوع ، والمهاد المفروش ، وما بينهما من عجائب المصنوعات ، وبدائع المخلوقات ، ثم كلفهم بالإيمان والطاعة ، فأمن البعض وكفر البعض ، فلا بدأ من دار جزاء يثاب فيها المحسن ، ويعاقب فيها المسيء ، لتجزى كل نفس بما كسبت ، ولولم يحصل البعث والجزاء لكان هذا الخلق لهواً وعبثاً ، وتزّه الله عن ذلك ، ولهذا قال بعده ﴿إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين﴾ أي إن يوم القيامة موعد حساب الخلائق أجمعين ، سُمي ﴿يوم الفصل﴾ لأن الله تعالى يفصل فيه بين الخلق كما قال تعالى ﴿يوم القيامة يفصل بينكم﴾ ﴿يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب ، لا يدفع قريب عن قريبه ، ولا صديق عن صديقه ، ولا ينفع أحدٌ أحداً ولا ينصره ولو كان قريبه كقوله ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والدٌ عن ولده ، ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً﴾ ﴿إلا من رحم الله﴾ استثناء متصل أي لا يغني قريبٌ عن قريب إلا المؤمن فإنّه يؤذن لهم في شفاععة بعضهم لبعض^(٤) وقيل : منقطع أي لكن من رحم الله

(١) التفسير الكبير ٢٧ / ٢٤٩ . (٢) تفسير القرطبي ١٦ / ١٤٤ . (٣) تفسير أبي السعود ٥ / ٥٥ . (٤) البحر المحيط ٨ / ٣٩ .

الرَّحِيمُ ﴿٤٦﴾ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَلِّبِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾

فإنه يشفع وينفع قال ابن عباس : يريد المؤمن فإنه تشفع له الأنبياء والملائكة^(١) فإنه هو العزيز الرحيم ﴿٤٦﴾ أي هو المنتقم من أعدائه ، الرحيم بأوليائه . . ولما ذكر الأدلة على القيامة ، أردفه بوصف ذلك اليوم العصيب ، فذكر وعيد الكفار أولاً ثم وعد الأبرار ثانياً للجمع بين الترهيب والترغيب فقال ﴿٤٦﴾ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٦﴾ أي إن هذه الشجرة الخبيثة - شجرة الزقوم - التي تنبت في أصل الجحيم ، طعام كل فاجر ، ليس له طعام غيرها قال أبو حيان : الأثيم صفة مبالغة وهو الكثير الآثام ، وفُسر بالمشرك^(٢) ﴿كالمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ أي هي في شناعتها وفضاعتها إذا أكلها الإنسان كالنحاس المذاب الذي تنهى حره ، فهو يُجرجر في البطن ﴿كغلي الحميم﴾ أي كغليان الماء الشديد الحرارة قال القرطبي : وشجرة الزقوم هي الشجرة التي خلقها الله في جهنم ، وسمّاها الشجرة الملعونة ، فإذا جاع أهل النار التجثوا إليها فأكلوا منها ، فغلت في بطونهم كما يغلي الماء الحار ، وشبهه تعالى ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهْلِ وهو النحاس المذاب ، والمراد بالأثيم الفاجر ذو الإثم وهو أبو جهل ، وذلك أنه كان يقول : يعدنا محمد أن في جهنم الزقوم ، وإنما هو الثريد بالزبد والتمر^(٣) ، ثم يأتي بالزبد والتمر ويقول لأصحابه : تزقموا ، سخرية واستهزاءً بكلام الله ، قال تعالى ﴿خُذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي يُقال للزبانية : خذوا هذا الفاجر اللثيم فسوقوه وجروه من تلابيبه بعنف وشدة إلى وسط الجحيم ﴿ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ أي ثم صبوا فوق رأس هذا الفاجر عذاب ذلك الحميم الذي تنهى حره ﴿ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي يقال له على سبيل الاستهزاء والإهانة : ذُوقْ هَذَا الْعَذَابَ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْمَعَزُّ الْمَكْرَمُ قَالَ عِكْرَمَةُ : التقى النبي ﷺ بأبي جهل فقال النبي ﷺ : إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقُولَ لَكَ ﴿أُولَى لَكَ فَأُولَى﴾ فقال : بأي شيء تهددني ! واللّه ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلوا بي شيئاً ، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه ، فقتله الله يوم بدر وأذله ونزلت هذه الآية^(٤) ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي إن هذا العذاب هو ما كنتم تشكّون به في الدنيا ، فذوقوه اليوم ﴿أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ والجمع في الآية باعتبار المعنى لأن المراد جنس الأثيم . . ولما ذكر تعالى أحوال أهل النار أتبعه بذكر أحوال أهل الجنة فقال ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي الذين اتقوا الله في الدنيا بامثال أوامره واجتتاب نواهيه ، هم اليوم في موضع إقامة يأمنون فيه من الآفات والمنغصات والمكآره ، وهو الجنة ولهذا قال بعده ﴿فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي في حدائق وبساتين ناضرة ، وعيون جارية ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ

(١) التفسير الكبير ٢٧/٢٥١ . (٢) البحر المحيط ٨/٣٩ . (٣) تفسير القرطبي ١٦/١٤٩ . (٤) القرطبي ١٦/١٥١ .

يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ^{٥٥} ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهُمْ عَذَابَ
 الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَّامِن رَّبِّكَ ﴿٥٦﴾ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ لِبَلْسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾
 فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

سُنْدَسٍ وَاسْتَبْرَقٍ ﴿٥٥﴾ أي يلبسون ثياب الحرير ، الرقيق منه وهو السندس ، والسميك منه وهو الاستبرق ﴿٥٥﴾
 ﴿٥٥﴾ متقابلين في المجالس ليستأنس بعضهم ببعض ﴿٥٥﴾ كذلك وزوجناهم بحور عِينٍ ﴿٥٥﴾ أي
 كذلك أكرمناهم بأنواع الإكرام ، وزوجناهم أيضاً بالخور الحسان في الجنان قال البيضاوي : أي قرناهم
 بالخور العين ، والخوراء : البيضاء ، والعيناء : عظيمة العينين ^(١) ، وإنما وصف تعالى نعيمهم بذلك لأن
 الجنات والأنهار من أقوى أسباب نزهة الخاطر ، وانفراجه عن الغم ، ثم ذكر الخور الحسان لأن بها اكتمال
 سعادة الإنسان كما قيل « ثلاثة تنفي عن القلب الحزن : الماء ، والخضرة ، والوجه الحسن » ثم زاد في
 بيان النعيم فقال ﴿٥٥﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ أي يطلبون من الخدم إحضار جميع أنواع الفواكه في
 الجنة ، لأجل أنهم آمنون من التخم والأمراض ، فلا تعب في الجنة ولا وَصَبٌ ﴿٥٥﴾ لا يذوقون فيها الموت
 إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ﴿٥٥﴾ استثناء منقطع أي لا يذوقون في الجنة الموت لكنهم قد ذاقوا الموتة الأولى في الدنيا فلم
 يعد ثمة موت ، بل خلود أبد الأبدية ﴿٥٥﴾ ووقاهم عذاب الجحيم ﴿٥٥﴾ أي خلصهم ونجّاهم من عذاب
 جهنم الشديد الأليم ﴿٥٥﴾ فضلاً من ربك ﴿٥٥﴾ أي فعل ذلك بهم تفضلاً منه تعالى عليهم ﴿٥٥﴾ ذلك هو الفوز
 العظيم ﴿٥٥﴾ أي ذلك الذي أعطوه من النعيم ، هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه ﴿٥٥﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ لِبَلْسَانِكَ
 لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٥﴾ أي فَإِنَّمَا سَهَّلْنَا الْقُرْآنَ بِلِغَتِكَ - وهي لسان العرب - لعلهم يتعظون وينزجرون
 ﴿٥٥﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٥﴾ أي فانتظر يا محمد ما يحل بهم ، إنهم منتظرون هلاكك ، وسيعلمون لمن
 تكون النصرة والظفر في الدنيا والآخرة ، وفيه وعد للرسول ﷺ ووعيد للمشركين .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - صيغة المبالغة ﴿السميع العليم﴾ ﴿العزیز الرحيم﴾ ﴿العزیز الكريم﴾ .
- ٢ - الطباق ﴿لا إله إلا هو يحيي ويميت﴾ وكذلك ﴿إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين﴾ .
- ٣ - تحريك الهمزة للإيمان والتبصر ﴿إن كنتم موقنين﴾ .
- ٤ - الإيجاز بحذف بعض الكلام ﴿أن أسر بعبادي﴾ أي وقلنا له بأن أسر .
- ٥ - الاستعارة اللطيفة ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ أي لم يتغير بهلاكهم شيء ولم تحزن
 عليهم السماء والأرض بعد انقطاع آثارهم ، والعرب يقولون في التعظيم : بكت عليه السماء والأرض ،

وأظلمت له الدنيا ويقولون في التحقير : مات فلان فلم تخشع له الجبال .

٦ - أسلوب التعجيز ﴿فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ .

٧ - أسلوب التهكم والسخرية ﴿ذقْ إنك أنت العزيز الكريم﴾ .

٨ - التفجع وإظهار الأسى والحسرة ﴿كم تركوا من جنات وعميون وزروع ومقام كريم﴾ ؟

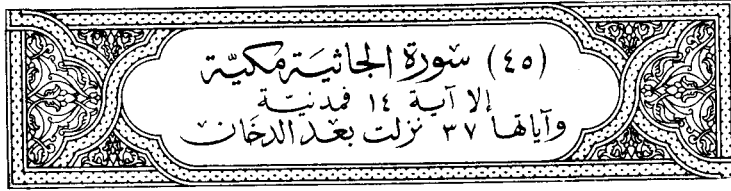
٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كالمهل يغلي في البطون . كغلي الحميم﴾ .

١٠ - السجع الرصين غير المتكلف الذي يزيد في رونق الكلام وجماله إقرأ مثلاً قوله تعالى ﴿إن

شجرة الزقوم طعام الأثيم . كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم

صبوا فوق رأسه من عذاب الجحيم . ذقْ إنك أنت العزيز الكريم﴾ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الدخان »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الجاثية مكية ، وقد تناولت العقيدة الإسلامية في إطارها الواسع « الإيمان بالله تعالى ووحدانيته ، الإيمان بالقرآن ونبوة محمد عليه السلام ، الإيمان بالآخرة والبعث والجزاء » ويكاد يكون المحور الذي تدور حوله السورة الكريمة هو إقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين .

* تبتدىء السورة الكريمة بالحديث عن القرآن ومصدره ، وهو الله العزيز في ملكه ، الحكيم في خلقه ، الذي أنزل كتابه المجيد رحمةً بعباده ، ليكون نبزاً مضيئاً ينير للبشرية طريق السعادة والخير .

* ثم ذكرت الآيات الكونية المنبثة في هذا العالم الفسيح ، ففي السموات البديعة آياتٌ ، وفي الأرض الفسيحة آياتٌ ، وفي خلق البشر وسائر الأنعام والمخلوقات آياتٌ ، وفي تعاقب الليل والنهار ، وتسخير الرياح والأمطار آياتٌ ، وكلها شواهد ناطقة بعظمة الله وجلاله ، وقدرته ووحدانيته ، ثم تحدثت عن المجرمين المكذبين بالقرآن ، الذين يسمعون آياته المنيرة ، فلا يزدادون إلا استكباراً وطغياناً ، وأندرتهم بالعذاب الأليم في دركات الجحيم .

* وتحدثت السورة عن نعم الله الجليلة على عباده ليشكروه ، ويتفكروا في آلائه التي أسبغها عليهم ، ويعلموا أن الله وحده هو مصدر هذه النعم ، الظاهرة والباطنة ، وأنه لا خالق ولا رازق إلا الله .

* وتحدثت عن إكرام الله لبني إسرائيل بأنواع التكريم ، ومقابلتهم ذلك الفضل والإحسان بالجحود والعصيان ، وذكرت موقف الطغاة المجرمين من دعوة الرسل الكرام ، وبيّنت أنه لا يتساوى في عدل الله وحكمته أن يجعل المجرمين كالمحسنين ، ولا أن يجعل الأشرار كالأبرار ، ثم بيّنت سبب ضلال المشركين ، وهو إجرامهم واتخاذهم الهوى لهاً ومعبوداً حتى طمست بصيرتهم فلم يهتدوا إلى الحق أبداً .

* وختمت السورة بذكر الجزاء العادل يوم الدين ، حيث تنقسم الإنسانية الى فريقين : فريق في الجنة ، وفريق في السعير .

التسمية: سميت «سورة الجاثية» للأهوال التي يلقاها الناس يوم الحساب ، حيث تجثو الخلائق من الفزع على الركب في انتظار الحساب ، ويعشى الناس من الأهوال ما لا يخطر على البال ﴿وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تُدعى إلى كتابها اليوم تُجزون ما كنتم تعملون﴾ وحقاً إنه ليوم رهيب يشيب له الولدان !!

قال الله تعالى : ﴿حمّ * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . . إلى . . وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾

اللغات: ﴿بيث﴾ ينشر ويفرق ﴿تصريف﴾ تقلب ، صرف الله الريح قلبها من جهة إلى جهة ﴿ويل﴾ كلمة تستعمل في العذاب والدمار ﴿أفأك﴾ كذاب ، والإفك : الكذب ﴿أثيم﴾ كثير الإثم والإجرام ﴿رجز﴾ أشد العذاب ﴿يُصِرُّ﴾ أصرَّ على الشيء : عزم على البقاء عليه بقوة وشدة ﴿يغني﴾ ينفع أو يدفع ومنه ﴿ما أغنى عني ماليه﴾ ﴿بصائر﴾ دلائل ومعالم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ

التفسير: ﴿حمّ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن^(١) ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾ أي هذا القرآن تنزيل من الله ، العزيز في ملكه ، الحكيم في صنعه ، الذي لا يصدر عنه إلا كل ما فيه حكمة ومصالحة للعباد ، ثم أخبر تعالى عن دلائل الوجدانية والقدرة فقال ﴿إن في السموات والأرض آيات للمؤمنين﴾ أي إن في خلق السموات والأرض وما فيها من المخلوقات العجيبة ، والأحوال الغريبة ، والأمور البديعة ، لعلامات باهرة على كمال قدرة الله وحكمته ، لقوم يصدقون بوجود الله ووجدانيته ﴿وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون﴾ أي وفي خلقكم أيها الناس من نطفة ثم من علقه ، متقلبة في أطوار مختلفة إلى تمام الخلق ، وفيما ينشره تعالى ويفرقه من أنواع المخلوقات التي تدب على وجه الأرض ، آيات باهرة أيضاً لقوم يصدقون عن إذعان ويقين بقدرة رب العالمين ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ أي وفي تعاقب الليل والنهار ، دائنين لا يفتران ، هذا بظلامه وذاك بضياءه ، بنظام محكم دقيق ﴿وما أنزل الله من السماء من رزق﴾ أي وفيما أنزله الله تبارك وتعالى من السحاب ، من المطر الذي به حياة البشر في معاشهم وأرزاقهم قال ابن كثير : وسمى

(١) انظر تفصيل البحث في الحروف المقطعة في أول سورة البقرة من هذا التفسير .

رَزَقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ؕ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ
بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعَدَ اللَّهُ وَآيَاتِهِ ؕ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيَلُّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ
عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا
أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن رَّأْيِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ
تعالى المطر رزقاً لأن به يحصل الرزق^(١) ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ أي فأحيا بالمطر الأرض بعدما
كانت هامدة يابسة لا نبات فيها ولا زرع ، فأخرج فيها من أنواع الزروع والثمار والنبات
﴿وتصريف الرياح﴾ أي وفي تغليب الرياح جنوباً وشمالاً ، باردة وحارة ﴿آيات لقوم يعقلون﴾
أي علامات ساطعة واضحة على وجود الله و وحدانيته ، لقوم لهم عقول نيرة وبصائر مشرقة قال
الصاوي: ذكر الله سبحانه وتعالى من الدلائل ستة في ثلاث آيات، ختم الأولى بـ ﴿للمؤمنين﴾ ، والثانية
بـ ﴿يوقنون﴾ والثالثة بـ ﴿يعقلون﴾ ووجه التغير بينها في التعبير أن الإنسان إذا تأمل في السموات
والأرض ، وأنه لا بدّ لهما من صانع آمن ، وإذا نظر في خلق نفسه ونحوها ازداد إيماناً فأيقن ، وإذا نظر في
سائر الحوادث كمل عقله واستحکم علمه^(٢) ﴿تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق﴾ أي هذه آيات الله
وحججه وبراهينه ، الدالة على وحدانيته وقدرته ، نقضها عليك يا محمد بالحق المبين الذي لا غموض فيه
ولا التباس ﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾ ؟ أي وإذا لم يصدق كفار مكة بكلام الله ، ولم
يؤمنوا بحججه وبراهينه ، فبأي كلام يؤمنون ويصدقون ؟ والغرض استعظام تكذيبهم للقرآن بعد
وضوح بيانه وإعجازه ﴿ويل لكل أفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي هلاك ودمار لكل كذاب مبالغ في اقتراف الآثام قال
الرازي : وهذا وعيدٌ عظيم ، والأفَّاك الكذاب ، والأثيم المبالغ في اقتراف الآثام^(٣) ﴿يسمع آيات الله
تُتلى عليه﴾ أي يسمع آيات القرآن تُقرأ عليه ، وهي في غاية الوضوح والبيان ﴿ثم يُصرُّ مستكبراً كأن
لم يسمعها﴾ أي ثم يدوم على حاله من الكفر ، ويتأدى في غيّه وضلاله ، مستكبراً عن الإيمان بالآيات
كأنه لم يسمعها ﴿فبشره بعذاب أليم﴾ أي فبشره يا محمد بعذاب شديد مؤلم ، وسمّاه « بشارة »
تهكماً بهم ، لأن البشارة هي الخبر السارُّ قال في التسهيل : وإنما عطفه بـ « ثم » لاستعظام الإصرار على
الكفر بعد سماعه آيات الله ، واستبعاد ذلك في العقل والطبع^(٤) قال المفسرون : نزلت في « النضر بن
الحارث » كان يشتري أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن ، والآية عامة في كل من كان
موصوفاً بالصفة المذكورة ﴿وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هُزُوًا﴾ أي إذا بلغه شيء من الآيات التي
أنزلها الله على محمد ، سخر واستهزأ بها ﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾ أي أولئك الأفاكون المستهزءون
بالقرآن لهم عذاب شديد مع الذل والإهانة ﴿من ورائهم جهنم﴾ أي أمامهم جهنم تنتظرهم لما كانوا فيه

(١) مختصر ابن كثير ٣/٣٠٨ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٦٣ .

(٣) التفسير الكبير ٢٧/٢٦١ . (٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٣٨ .

اللَّهُ أَوْلِيَاءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ
 أَلِيمٍ ﴿١٤﴾ * اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ۖ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٥﴾
 وَتَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ قُلِ لِلَّذِينَ
 ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾

من التعزز في الدنيا والتكبر عن الحق ﴿ولا يُغني عنهم ما كسبوا شيئاً﴾ أي لا ينفعهم ما ملكوه في الدنيا من المال والولد ﴿ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء﴾ أي ولا تنفعهم الأصنام التي عبدوها من دون الله ﴿ولهـم عذاب عظيم﴾ أي ولهـم عذاب دائم مؤلم قال أبو السعود : وتوسيط النفي ﴿ولا ما اتخذوا﴾ مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد ، مبني على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم ، وفيه تهكم بهم ^(١) ﴿هذا هدى﴾ أي هذا القرآن كامل في الهداية لمن آمن به واتبعه ﴿والذين كفروا بآيات ربهم﴾ أي جحدوا بالقرآن مع سطوعه ، وفيه زيادة تشنيع على كفرهم به ، وتفضيح حالهم ﴿لهم عذاب من رجز أليم﴾ أي لهم عذاب من أشد أنواع العذاب مؤلم موجه قال الزمخشري : والرجز أشد العذاب ، والمراد بـ ﴿آيات ربهم﴾ القرآن ^(٢) . . ثم لما توعددهم بأنواع العذاب ذكرهم تعالى بنعمه الجليلة ليذكروه ويوحّدوه فقال ﴿الله الذي سخّر لكم البحر﴾ أي الله تعالى بقدرته وحكمته هو الذي ذلّل لكم البحر على ضخامته وعظمه ﴿لتجري الفلك فيه بأمره﴾ أي لتسير السفن على سطحه بمشيئته وإرادته ، دون أن تغوص في أعماقه قال الإمام الفخر : خلق وجه الماء على الملاسة التي تجري عليها السفن ، وخلق الخشبة على وجهه تبقى طافية على وجه الماء دون أن تغوص فيه ، وذلك لا يقدر عليه أحد إلا الله ^(٣) ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي ولتطلبوا من فضل الله بسبب التجارة ، والغوص على اللؤلؤ والمرجان ، وصيد الأسماك وغيرها ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولأجل أن تشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم وتفضل قال القرطبي : ذكر تعالى كمال قدرته ، وتمام نعمته على عباده ، وبين أنه خلق ما خلق لمنافعهم ، وكل ذلك من فعله وخلق ، وإحسان منه وإنعام ^(٤) ﴿وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ أي وخلق لكم كل ما في هذا الكون ، من كواكب ، وجبال ، وبحار ، وأنهار ، ونبات ، وأشجار ، الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه ، من عنده وحده جلّ وعلا ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ أي إن فيما ذكر لغيراً وعظمت لقوم يتأملون في بدائع صنع الله فيستدلون على قدرته ووحدانيته ويؤمنون ، ثم لما بين تعالى دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ، أردفه بتعليم فضائل الأخلاق ، ومحاسن الأفعال فقال ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾ أي قل يا محمد للمؤمنين يصفحوا عن الكفار ، ويتجاوزوا عما يصدر عنهم من الأذى والأفعال

(١) تفسير أبي السعود ٥٨/٥ . (٢) الكشاف ٤/٢٢٧ . (٣) التفسير الكبير ٢٧/٢٦٢ . (٤) تفسير القرطبي ١٦/١٦٠ .

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ
مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فِيمَا كَانُوا
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٧﴾

الموحشة قال مقاتل : شتم رجلٌ من الكفار عمر بمكة فهم أن يبطش به ، فأمر الله بالعتفو والتجاوز وأنزل هذه الآية (١) ، والمراد من قوله ﴿ لا يرجون أيام الله ﴾ أي لا يخافون بأس الله وعقابه لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ولا ببقاء الله قال ابن كثير : أمر المسلمون أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ، ليكون ذلك تأليفاً لهم ، ثم لما أصرُّوا على العناد ، شرع الله للمؤمنين الجلال والجهاد (٢) ﴿ ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ وعيدٌ وتهديدٌ أي ليجازي الكفرة المجرمين بما اقترفوه من الإثم والإجرام ، والتنكير للتحقير ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ أي من فعل خيراً في الدنيا فنفعه لنفسه ، ومن ارتكب سوءاً وشراً فضرره عائد عليها ، ولا يكاد يسري عملٌ إلى غير عامله ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ أي ثم مرجعكم يوم القيامة إلى الله وحده ، فيجازي كلاً بعمله ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته . . ولما ذكّر بالنعم العامة أردفه بذكر النعم الخاصة على بني إسرائيل فقال ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ﴾ أي والله لقد أعطينا بني إسرائيل التوراة ، وفصل الحكومات بين الناس ، وجعلنا فيهم الأنبياء والمرسلين ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أي ورزقناهم من أنواع النعم الكثيرة من المأكول والمشرب ، والأقوات والثمار ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ أي وفضلناهم على سائر الأمم في زمانهم قال الصاوي : والمقصود من ذلك تسليته ﷺ كأنه قال : لا تحزن يا محمد على كفر قومك ، فإننا آتينا بني إسرائيل الكتاب والنعم العظيمة ، فلم يشكروا بل أصرُّوا على الكفر ، فكذلك قومك (٣) ﴿ وآتيناهم بيّنات من الأمر ﴾ أي وبيننا لهم في التوراة أمر الشريعة وأمر محمد ﷺ على أكمل وجه قال ابن عباس : يعني أمر النبي ﷺ وشواهد نبوته بأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب وينصره أهلها (٤) ﴿ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أي فما اختلفوا في ذلك الأمر ، إلا من بعد ما جاءتهم الحجج والبراهين والأدلة القاطعة على صدقه ﴿ بغياً بينهم ﴾ أي حسداً وعناداً وطلباً للرياسة قال الإمام الفخر : والمقصود من الآية التعجب من هذه الحالة ، لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف ، وههنا صار العلم سبباً لحصول الاختلاف ، لأنه لم يكن مقصودهم نفس العلم وإنما المقصود منه طلب الرياسة والتقدم ، فلذلك علموا وعاندوا (٥) ﴿ إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي هو جل وعلا الذي يفصل بين العباد يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين ، وفي الآية زجرٌ للمشركين

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٧/٢٦٣ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٣٠٩ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٦٥ .

(٤) حاشية الجمل ٤/١١٦ . (٥) التفسير الكبير ٢٧/٢٦٥ .

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْعًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

أن يسلكوا مسلك من سبقهم من الأمم العاتية الطاغية ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها﴾ أي ثم جعلناك يا محمد على طريقة واضحة ، ومنهاجٍ شديد رشيد من أمر الدين ، فاتبع ما أوحى إليك ربك من الدين القيم ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ أي لا تتبع ضلالات المشركين قال البيضاوي : لا تتبع آراء الجهال التابعة للشهوات ، وهم رؤساء قريش حيث قالوا : ارجع إلى دين آبائك ^(١) ﴿إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً﴾ أي لن يدفعوا عنك شيئاً من العذاب إن سايرتهم على ضلالهم ﴿وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض﴾ أي وإن الظالمين يتولى بعضهم بعضاً في الدنيا ولا ولي لهم في الآخرة ﴿والله ولي المتقين﴾ أي وهو تعالى ناصر ومعين المؤمنين المتقين في الدنيا والآخرة ﴿هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾ أي هذا القرآن نور وضيء للناس بمنزلة البصائر في القلوب ، وهو رحمة لمن آمن به وأيقن .

قال الله تعالى : ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا . . . إلى . . . وهو العزيز الحكيم﴾

من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣٧)

المناسكة : لما حكى تعالى ضلالات بني إسرائيل ، وبيّن أن القرآن نور وهداية لمن تمسك به ، أعقبه بيان أنه لا يتساوى المؤمن مع الكافر ، ولا البر مع الفاجر ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ثم ذكر الأدلة على البعث والنشور .

اللغز : ﴿اجترحوا﴾ اكتسبوا والاجتراحُ الاكتساب ومنه الجوارح ﴿غشاوة﴾ غطاء وغشى الشيء غطاه ﴿جائية﴾ باركة على الركب لشدة الهول جثا - يجثو إذا قعد على ركبته ﴿نستسخ﴾ استنسخ الشيء أمر بكتابته وتدوينه ﴿حاق﴾ نزل وأحاط ﴿يُستعتبون﴾ يُطلب منهم إرضاء ربهم يقال : استعتبتُه فأعتبني أي استرضيته فقبل مني عذري ﴿الكبرياء﴾ العظمة والمُلك والجلال .

سبب النزول : روي أن أبا جهل طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة ، فتحدثا في شأن النبي ﷺ فقال أبو جهل : والله إنني لأعلم أنه لصادق ، فقال له : مه ، وما ذلك على ذلك ؟ فقال يا أبا عبد شمس : كنا نسميه في صباه الصادق الأمين ، فلما تمَّ عقله وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن ! والله إنني لأعلم أنه لصادق ، قال : فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به ؟ قال : تتحدث عني بنات قريش

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ
غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

أني اتبعت يقيم أبي طالب من أجل كسرة، واللوات والعزى لا أتبعه أبداً فنزلت ﴿أفأريت من اتخذ إلهه
هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه . . .﴾ (١) الآية .

النفسير : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الاستفهام للإنكار والمعنى هل يظن الكفار
الفجار الذين اكتسبوا المعاصي والآثام ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي أن نجعلهم
كالمؤمنين الأبرار ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ﴾ أي نساوي بينهم في المحيا والممات ؟ لا يمكن أن نساوي بين
المؤمنين والكفار ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فإن المؤمنين عاشوا على التقوى والطاعة ، والكفار عاشوا
على الكفر والمعصية ، وشتان بين الفريقين كقوله ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ ؟
قال مجاهد : المؤمن يموت مؤمناً ويُبعث مؤمناً ، والكافر يموت كافراً ويُبعث كافراً (٢) ﴿سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ﴾ أي ساء حكمهم في تسويتهم بين أنفسهم وبين المؤمنين قال ابن كثير : ساء ما ظنوا بنا
وبعدلنا أن نساوي بين الأبرار والفجار ، فكما لا يُجتنى من الشوك العنب ، كذلك لا ينال الفجار منازل
الأبرار (٣) ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي وخلق الله السموات والأرض بالعدل والأمر الحق
ليدل بهما على قدرته ووحدانيته ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي ولكي يُجزى كل
إنسان بعمله ، وبما اكتسب من خير أو شر ، دون أن ينقص في ثواب المؤمن أو يُزاد في عذاب الكافر قال
شيخ زاده : لما خلق تعالى السموات الأرض لأجل إظهار الحق ، وكان خلقها من جملة حكمته وعدله ،
لزم من ذلك أن ينتقم من الظالم لأجل المظلوم ، فبث بذلك حشر الخلائق للحساب (٤) ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ
اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي أخبرني يا محمد عن حال من ترك عبادة الله وعبد هواه !! قال في البحر : أي هو
مطواع لهوى نفسه يتبع ما تدعوه إليه ، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه (٥) قال ابن عباس : ذلك الكافر
اتخذ دينه ما يهواه ، فلا يهوى شيئاً إلا ركبه ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي وأضل الله ذلك الشقي في
حال كونه عالماً بالحق غير جاهل به ، فهو أشد قبحاً وشناعة ممن يضل عن جهل ، لأنه يُعرض عن الحق
والهدى عناداً كقوله تعالى ﴿وَجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾
أي وطبع على سمعه وقلبه بحيث لا يتأثر بالمواعظ ، ولا يتفكر في الآيات والنذر ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ
غِشَاوَةً﴾ أي وجعل على بصره غطاء حتى لا يبصر الرشد ، ولا يرى حجة يستضيء بها ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مَنْ

(١) رواه مقاتل كذا في القرطبي ١٦/ ١٧٠ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ١٦٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٣١١ .

(٤) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٣٢٥ . (٥) البحر المحيط ٨/ ٤٨ .

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ
 إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعُوا بِآبَاءِنَا إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
 يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

بعد الله ﴿؟ أي فمن الذي يستطيع أن يهديه بعد أن أضله الله ؟ لا أحد يقدر على ذلك ﴿أفلا تذكرون﴾ أي أفلا تعتبرون أيها الناس وتتظنون ؟ قال الصاوي : وصف تعالى الكفار بأربعة أوصاف :
 الأول: عبادة الهوى ، الثاني: ضلالهم على علم الثالث: الطبع على أسماعهم وقلوبهم الرابع: جعل الغشاوة
 على أبصارهم ، وكل وصفٍ منها مقتضٍ للضلالة ، فلا يمكن إيصال الهدى إليهم بوجهٍ من
 الوجوه . . . ﴿١﴾ ثم حكى تعالى عن المشركين شبهتهم في إنكار القيامة ، وفي إنكار الإله القادر العليم فقال
 ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾ أي وقال المشركون : لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا ،
 يموت بعضها ويحيا بعضها ، ولا آخرة ، ولا بعث ، ولا نشور قال ابن كثير : هذا قول الدهرية من الكفار
 ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ، ومرادهم ما ثمَّ إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش
 آخرون ، وليس هناك معاد ولا قيامة ، وهذا قول الفلاسفة الدهريين ، المنكرين للصانع ، المعتقدين أن
 في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه ﴿٢﴾ ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾ أي وما يهلكنا إلا
 مرورُ الزمان ، وتعاقبُ الأيام قال الرازي : يريدون أن الموجب للحياة والموت تأثيراتُ الطبائع وحركاتُ
 الأفلاك ، ولا حاجة إلى إثبات الخالق المختار ، فهذه الطائفة جمعوا بين إنكار الإله وبين إنكار البعث
 والقيامة ﴿٣﴾ ، قال تعالى رداً عليهم ﴿وما لهم بذلك من علم﴾ أي وليس لهم مستندٌ من عقل أو نقل ،
 ولذلك أنكروا وجود الله من غير حجة ولا بينة ﴿إن هُم إلاَّ يظنون﴾ أي ما هم إلا قوم يتوهمون
 ويتخيلون ، يتكلمون بالظن من غير يقين ﴿وإذا تُتلىٰ عليهم آياتنا بيِّناتٍ﴾ أي وإذا قرئت آياتُ
 القرآن على المشركين ، واضحات الدلالة على البعث والنشور ﴿ما كان حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعُوا بِآبَائِنَا
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي ما كان متمسكهم في دفع الحق الصريح إلا أن يقولوا : أحيوا لنا آباءنا الأولين ،
 إن كان ما تقولونه حقاً ، سُمِّيَ قولهم الباطل حجةً على سبيل التهكم ﴿قلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾
 أي قل لهم يا محمد : الله الذي خلقكم ابتداءً حين كنتم نُطفأً هو الذي يُمِيتُكم عند انقضاء آجالكم ، لا
 كما زعمتم أنكم تَحْيَوْنَ وتموتون بحكم الدهر ﴿ثمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي ثم بعد
 الموت يبعثكم للحساب والجزاء كما أحياكم في الدنيا ، فإنَّ من قدر على البدء قدر على الإعادة ، والحكمة
 اقتضت الجمع للجزاء في يوم القيامة ، الذي لا شك فيه ولا ارتياب ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾
 أي ولكن أكثر الناس لجهلهم وقصورهم في النظر والتفكير ، لا يعلمون قدرة الله فينبكرون البعث

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٦٧ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٣١١ . (٣) التفسير الكبير ٢٧/٢٧٥ .

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ
تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾
وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ

والجزاء . . ثم بيّن إمكان الحشر والنشر ذكر تفاصيل أحوال يوم القيامة فقال ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ أي هو جل وعلا المالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يحسر
المبطلون﴾ أي ويوم القيامة يحسر الكافرون الجاحدون بآيات الله ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ أي وترى
أيها المخاطب كل أمة من الأمم جالسة على الركب من شدة الهول والفرع ، كما يجثوا الخصوم بين يدي
الحاكم بهيئة الخائف الذليل قال ابن كثير : وهذا إذا جيء بهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا على
ركبته (١) ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ أي كل أمة من تلك الأمم تدعى إلى صحائف أعمالها ﴿اليوم
تُحْزَرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم : في هذا اليوم الرهيب تنالون جزاء أعمالكم من خير أو شر
﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ أي هذا كتاب أعمالكم يشهد عليكم بالحق من غير زيادة ولا
نقصان قال في التسهيل : فإن قيل : كيف أضاف الكتاب تارة إليهم وتارة إلى الله تعالى ؟ فالجواب أنه
أضافه إليهم لأن أعمالهم ثابتة فيه ، وأضافه إلى الله تعالى لأنه مالكة وأنه هو الذي أمر الملائكة أن يكتبوه (٢)
﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي كنا نأمر الملائكة بكتابة أعمالكم ، وإثباتها عليكم قال
المفسرون : تنسخ هنا بمعنى تكتب ، وحقيقة النسخ هو النقل من أصل إلى آخر ، وقال ابن عباس :
تكتب الملائكة أعمال العباد ثم تصعد بها إلى السماء ، فيقابل الملائكة الموكلون بديوان الأعمال ما كتبه
الحفظة ، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر ، مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن
يخلقهم ، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً ، فذلك هو الاستنساخ ، وكان ابن عباس يقول : أستم
عرباً ، هل يكون الاستنساخ إلا من أصل (٣) ؟ ثم بيّن تعالى أحوال كل من المطيعين والعاصين فقال
﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي فأما المؤمنون الصالحون المتقون
لله في الحياة الدنيا ، فيدخلهم الله في الجنة ، سُميت الجنة رحمةً لأنها مكان تنزل رحمة الله ﴿ذلك هو
الفوزُ المبين﴾ أي ذلك هو الفوز العظيم ، البيّن الظاهر الذي لا فوز وراءه ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ
تَكُنْ ءَايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي وأمّا الكافرون فيقال لهم توبيخاً وتقريراً : أفلم تكن الرسل تتلو عليكم
آيات الله ؟ ﴿فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين﴾ أي فتكبرتم عن الإيمان بها ، وأعرضتم عن سماعها ،
وكنتم قوماً مغرقيين في الإجماع ﴿وإذا قيل إن وعد الله حق﴾ أي وإذا قيل لكم إن البعث كائن لا محالة

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣١٢ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٤٠ . (٣) انظر البحر المحيط ٨/٥١ ومختصر ابن كثير ٣/٢١٣ .

حَقُّ وَالسَّاعَةُ لَارِيبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ
 سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا
 وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
 فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ
 الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿والساعة لا ريب فيها﴾ أي والقيامة آتية لا شك في ذلك ولا ريب
 ﴿قلتم ما ندري ما الساعة﴾ أي قلتم لغاية عتوكم : أي شيء هي ؟ أحق أم باطل ؟ قال البيضاوي :
 قالوا هذا استغراباً واستبعاداً وإنكاراً لها^(١) ﴿إن نظنُّ إلا ظناً﴾ أي لا نصدِّق بها ولكن نسمع الناس
 يقولون : إنَّ هناك آخرة فتتوهم بها توهماً ﴿وما نحن بمُتَّبِعِينَ﴾ أي ولسنا مصدِّقين بالآخرة يقيناً ،
 وهذا تأكيد منهم لإنكار القيامة ﴿وبدأ لهم سيئات ما عملوا﴾ أي وظهر لهم في الآخرة قبائح أعمالهم
 ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي ونزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به في الدنيا
 ﴿وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي ويقال لهم : اليوم نترككم في العذاب ونعاملكم
 معاملة الناسي ، كما تركتم الطاعة التي هي الزاد ليوم المعاد فلم تعملوا لآخرتكم ﴿ومأواكم النار﴾ أي
 ومستقركم في نار جهنم ﴿وما لكم من ناصرين﴾ أي وليس لكم من ينصركم ويخلصكم من عذاب الله
 ﴿ذلكم بأنكم اتخذتم آياتِ الله هُزُوعًا﴾ أي إنما جازيناكم هذا الجزاء ، بسبب أنكم سخرتُم من كلام
 الله واستهزأتم به ﴿وغرَّتكم الحياةُ الدنيا﴾ أي خدعتكم الدنيا بزخارفها وأباطيلها ، حتى ظننتم ألا
 حياة سواها ، وألاً بعث ولا نشور ﴿فاليوم لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي فاليوم لا يُخْرَجُونَ
 من النار ، ولا يُطلبُ منهم أن يرضوا ربَّهم بالتوبة والطاعة لعدم نفعها يومئذٍ
 ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي فله الحمد خاصة لا يستحق الحمد أحدٌ
 سواه لأنه الخالق والمالك لجميع المخلوقات والكائنات ﴿وله الكبرياءُ في السموات والأرض﴾ أي وله
 العظمة والجلال ، والبقاء والكمال في السموات والأرض ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي الغالب الذي لا
 يغلب ، الحكيم في صنعه وفعله وتدبيره .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - التأكيد بأنَّ واللام ﴿إن في السموات والأرض لايات﴾ لأن المخاطبين منكرون لوحداية

الله .

- ٢ - صيغة المبالغة ﴿ويلٌ لكل أفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ لأن فعَّال وفعيل من صيغ المبالغة .
- ٣ - الأسلوب التهكمي ﴿فبشره بعذاب أليم﴾ لأن البشارة تكون بالخير واستعمالها بالشر تهكمٌ .
- ٤ - المجاز المرسل ﴿وما أنزل الله من السماء من رزقٍ﴾ أي مطر ، مجاز مرسل علاقته المسببية لأن الرزق لا ينزل من السماء ، ولكن ينزل المطر الذي ينشأ عنه النبات والرزق .
- ٥ - التشبيه المرسل ﴿يصرُّ مستكبراً كأن لم يسمعها﴾ أي كأنه لم يسمع آيات القرآن .
- ٦ - المبالغة بذكر المصدر ﴿هذا هُدًى﴾ كأن القرآن لوضوح حجته عين الهدى .
- ٧ - الإطناب بتكرار اللفظ ﴿سَحَّرَ لكم البحر . . وسَحَّرَ لكم ما في السموات وما في الأرض﴾ لإظهار الامتنان .
- ٨ - طباق السلب ﴿فَاتَّبَعَهَا وَلَا تَتَّبِعْ أهواء الذين لا يعلمون﴾ .
- ٩ - المجاز المرسل ﴿فيدخلهم في رحمته﴾ أي في الجنة لأنها مكان تنزل رحمة الله .
- ١٠ - الطباق بين ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها﴾ وبين ﴿نموت ونحيا﴾ وبين ﴿يحييكم ثم يميتكم﴾ .
- ١١ - الاستعارة التصريحية ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ أي يشهد عليكم ، والاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة ، لأن شهادة الكتاب ببيانه أقوى من شهادة الإنسان بلسانه .
- ١٢ - الالتفات ﴿فاليوم لا يُخْرَجُونَ منها﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة لإسقاطهم من رتبة الخطاب .
- ١٣ - الاستعارة التمثيلية ﴿فاليوم نساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ مثل تركهم في العذاب بمن حُبس في مكانٍ ثم نسيه السَّجَّان من الطعام والشراب حتى هلك بطريق الاستعارة التمثيلية ، والمراد من الآية نترككم في العذاب ونعاملكم معاملة الناسي ، لأن الله تعالى لا ينسى ولا يعرض عليه النسيان .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الجاثية »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* هذه السورة مكية وأهدافها نفس أهداف السور المكية ، العقيدة في أصولها الكبرى « الوجدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء » ومحور السورة الكريمة يدور حول « الرسالة والرسول » لإثبات صحة رسالة محمد ﷺ وصدق القرآن .

* تحدثت السورة في البدء عن القرآن العظيم المنزل من عند الله بالحق ، ثم تناولت الأوثان التي عبدها المشركون وزعموا أنها آلهة مع الله تشفع لهم عنده ، فبيّنت ضلالهم وخطأهم في عبادة ما لا يسمع ولا ينفع ، ثم تحدثت عن شبهة المشركين حول القرآن ، فردّت على ذلك بالحجة الدامغة ، والبرهان الناصع .

* ثم تناولت نموذجين من نماذج البشرية في هدايتها وضلالها ، فذكرت نموذج الولد الصالح ، المستقيم في فطرته ، البارّ بالديه ، الذي كلما زادت سنه وتقدم في العمر ازداد تقىً وصلاًحاً وإحساناً لوالديه . . ونموذج الولد الشقي ، المنحرف عن الفطرة ، العاق لوالديه ، الذي يهزأ ويسخر من الإيمان والبعث والنشور ومآل كل منهما .

* ثم تحدثت السورة عن قصة « هود » عليه السلام مع قومه الطاغين « عاد » الذين طغوا في البلاد واغتروا بما كانوا عليه من القوة والجبروت ، وما كان من نتيجتهم حيث أهلكهم الله بالريح العقيم ، تحذيراً لكفار قريش في طغيانهم واستكبارهم على أوامر الله وتكذيبهم للرسول ﷺ .

* وختمت السورة الكريمة بقصة النفر من الجن الذين استمعوا إلى القرآن وآمنوا به ثم رجعوا منذرين إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان ، تذكيراً للمعاندين من الإنس بسبق الجن لهم إلى الإسلام .

التسمية : سميت « سورة الأحقاف » لأنها مساكن عاد الذين أهلكهم الله بطغيانهم وجبروتهم ، وكانت مساكنهم بالأحقاف من أرض اليمن ﴿ واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومه بالأحقاف . . ﴾ الآية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾

اللغة: ﴿شرك﴾ شركة ونصيب ﴿أثارة﴾ بقية من الشيء ﴿تفيضون﴾ الإفاضة في الشيء : الخوض فيه والاندفاع يقال : أفاضوا في الحديث اندفعوا فيه ، وأفاض الناس من عرفات أي دفعوا منها ﴿بدعاً﴾ البدع بالكسر الشيء المبتدع قال الرازي : والبدعُ والبديع من كل شيء المبدع ، والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجوداً قبله بحكم السنة^(١) ﴿إفك﴾ كذب ﴿كرهاً﴾ بكره ومشقة ﴿فصاله﴾ فطامه ﴿أوزعني﴾ ألهمني ﴿أف﴾ كلمة تضرّج وتبرم ﴿خلت﴾ مضت .

النفس: ﴿حم﴾ الحروف المقطعة للتنبية على إعجاز القرآن وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية^(٢) ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾ أي هذا الكتاب المجيد منزل من عند الإله العزيز في ملكه ، الحكيم في صنعه ﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ أي ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات عبثاً ، وإنما خلقناها خلفاً متلبساً بالحكمة ، لندل على وحدانيتنا وكمال قدرتنا ﴿وأجل مسمى﴾ أي وإلى زمن معين هو زمن فنائها يوم القيامة ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار﴾ ﴿والذين كفروا عما أُنذروا معرضون﴾ أي وهؤلاء الكفار معرضون عما خُوفوه من العذاب ومن أهوال الآخرة، لا يتفكرون فيه ولا يستعدون له . ثم لما بيّن وجود الإله العزيز الحكيم ردّ على عبدة الأصنام فقال ﴿قل أرايتم ما تدعون من دون الله﴾ أي قل يا محمد هؤلاء المشركين : أخبروني عن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله ، وترعمون أنها آلهة ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ ؟ أي أرشدوني وأخبروني أي شيء خلقوا من أجزاء الأرض ، ومما على سطحها من إنسان أو حيوان ؟ ﴿أم لهم شرك في السموات﴾ ؟ أي أم لهم مشاركة ونصيب مع الله في خلق السموات ؟ ﴿أتونني بكتاب من قبل هذا﴾ أي هاتوا كتاباً من الكتب المنزلة من عند الله قبل هذا القرآن يأمركم بعبادة هذه الأصنام ؟ وهو أمر تعجيز لأنهم ليس لهم كتاب يدل على الإشراف بالله ، بل الكتب كلها ناطقة بالتوحيد ﴿أو أثارة من علم﴾ أي أو بقية من علم من علوم الأولين شاهدة بذلك ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم أنها شركاء مع الله قال في البحر : طلب منهم أن يأتوا بكتاب واحد يشهد بصحة ما هم عليه من عبادة غير الله ، أو بقية من علوم الأولين ، والغرض

(١) التفسير الكبير ٧/٢٨ . (٢) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقرة .

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٨﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَمَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٦٠﴾

توبيخهم لأن كل كتب الله المنزلة ناطقة بالتوحيد وإبطال الشرك ، فليس لهم مستند من نقل أو عقل (١) . . ثم أخبر تعالى عن ضلال المشركين فقال ﴿ومن أضلُّ ممن يدعو من دُونِ اللَّهِ من لا يستجيبُ له إلى يوم القيامة﴾ ؟ أي لا أحد أضلُّ وأجهل ممن يعبد أصناماً لا تسمع دعاء الداعين ، ولا تعلم حاجات المحتاجين ، ولا تستجيب لمن نادها أبداً لأنها جمادات لا تسمع ولا تعقل ﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾ أي وهم لا يسمعون ولا يفهمون دعاء العابدين ، وفيه تهكم بها وبعبتها ، وإنما ذكر الأصنام بضمير العقلاء ، لأنهم لما عبدوها ونزّلوها منزلة من يضر وينفع ، صح أن توصف بعدم الاستجابة وبعدم السمع والنفع ، مجازة لزعم الكفار ﴿وإذا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أي وإذا جمع الناس للحساب يوم القيامة كانت الأصنام أعداءً لعبديها يضرّونهم ولا ينفعونهم ﴿وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ أي وتبتراً الأصنام من الذين عبدوها قال المفسرون : إن الله تعالى يحیی الأصنام يوم القيامة فتبتراً من عابديها وتقول ﴿تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾ وهذه الآية كقوله تعالى ﴿كلاً سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ والله على كل شيء قدير (٢) ﴿وإذا تُتلى عليهم آياتنا بينات﴾ أي وإذا قرئت عليهم آيات القرآن ووضحت ظاهرات أنها من كلام الله ﴿قال الذين كفروا للحق لما جاءهم﴾ أي قال الكافرون عن القرآن الحق لما جاءهم من عند الله ﴿هذا سحر مبين﴾ أي هذا سحر لا شبهة فيه ظاهر كونه سحراً ، وإنما وضع الظاهر ﴿الذين كفروا﴾ موضع الضمير تسجيلاً عليهم بكمال الكفر والضلالة قال في البحر : وفي قوله ﴿لما جاءهم﴾ تنبيه على أنهم لم يتأملوا ما يتلى عليهم ، بل بادروا أول سماعه إلى نسبتة إلى السحر عناداً وظلماً ، ووصفوه بأنه ﴿مبين﴾ أي ظاهر أنه سحر لا شبهة فيه (٣) ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي يقولون اختلق محمد هذا القرآن وافتراه من تلقاء نفسه ؟ وهو إنكار توبيخي ﴿قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً﴾ أي قل إن افتريته - على سبيل الفرض - فالله حسبي في ذلك وهو الذي يعاقبني على الافتراء عليه ، ولا تقدرون أنتم على أن تردوا عني عذاب الله ، فكيف افتريه من أجلكم وأعرض لعقابه ؟ ﴿هو أعلم بما تفيضون فيه﴾ أي هو جل وعلا أعلم بما تخوضون في القرآن وتقدحون به من قولكم هو شعر ، هو سحر ، هو افتراء ، وغير ذلك من وجوه الطعن ﴿كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾ أي كفى أن يكون تعالى شاهداً بيني وبينكم ، يشهد لي بالصدق والتبليغ ، ويشهد عليكم بالجحود والتكذيب ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ أي وهو الغفور لمن تاب ، الرحيم بعباده المؤمنين قال أبو حيان : وفيه

قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنَّا نَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ
 مُّبِينٌ ﴿١٠٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مَن عِندَ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ۖ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ ۖ فَعَامَنَ
 وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ
 وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ۖ فَسَيَقُولُونَ هَذَا آفِكٌ قَدِيمٌ ﴿١٠٢﴾

وعدّ لهم بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر ، وإشعاراً بحلمه تعالى عليهم إذ لم يعاجلهم بالعقوبة (١) ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي لست أول رسول طرق العالم ، ولا جئت بأمر لم يجيء به أحد قبلي ، بل جئت بما جاء به ناسٌ كثيرون قبلي ، فلا شيء تنكرون ذلك عليّ؟ والبدعُ والبديعُ من الأشياء هو الذي لم ير مثله قال ابن كثير : أي ما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكرونني وتستبعدوا بعثتي إليكم ، فقد أرسل الله قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ أي ولا أدري بما يقضي الله عليّ وعليكم ، فإن قدر الله مغيباً ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ أي لا أتبع إلا ما ينزله الله عليّ من الوحي ، ولا أبتدع شيئاً من عندي ﴿وما أنا إلا نذيرٌ مبين﴾ أي وما أنا إلا رسولٌ منذرٌ لكم من عذاب الله ، بين الإنذار بالشواهد الظاهرة ، والمعجزات الباهرة ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به﴾ أي قل يا محمد : أخبروني يا معشر المشركين إن كان هذا القرآن كلام الله حقاً وقد كذبتهم به وجحدتموه وجوابه محذوف تقديره : كيف يكون حالكم ؟ ﴿وشهد شاهدٌ من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم﴾ أي وقد شهد رجل من علماء بني إسرائيل على صدق القرآن ، فآمن به واستكبرتم أنتم عن الإيمان ، كيف يكون حالكم ، ألستم أضل الناس وأظلم الناس ؟ قال الزمخشري : وجواب الشرط محذوف تقديره : إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين ؟ ودلّ على هذا المحذوف قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢) أي لا يوفق للخير والإيمان من كان فاجراً ظالماً قال المفسرون : والشاهد من بني إسرائيل هو « عبد الله بن سلام » وذلك حين قدم رسول الله ﷺ المدينة جاء إليه ابن سلام ليتمتحنه ، فلما نظر إلى وجهه علم أنه ليس بوجه كذاب ، وتأمّله فتحقق أنه هو النبي المنتظر ، فقال له : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول أشرط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فلما أجابه ﷺ قال : أشهد أنك رسول الله حقاً (٤) . . الخ ثم ردّ تعالى على شبهة أخرى من شبه المشركين فقال ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ أي وقال كفار مكة في حق المؤمنين : لو كان هذا القرآن والدين خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء الفقراء الضعفاء !! وقال ابن كثير : يعنون « بلالاً » و « عماراً » و « صهيياً » و « خباباً » وأشباههم من المستضعفين والعبيد والإماء ممن أسلم وأمن بالنبي ﷺ (٥) ﴿وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا آفك قديم﴾

(١) البحر المحيط ٥٦/٨ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣١٦/٣ .

(٣) تفسير الكشاف ٢٣٦/٤ . (٤) قصة إسلام عبد الله بن سلام مفصلة في صحيح البخاري . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣١٨/٣ .

وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۖ وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ
لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا
وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
أَي وَلَمَّا لَمْ يَهْتَدُوا بِالْقُرْآنِ مَعَ وَضُوحِ إِعْجَازِهِ ، قَالُوا هَذَا كَذِبٌ قَدِيمٌ مَأْتُورٌ عَنِ الْأَقْدَمِينَ ، أَتَى بِهِ مُحَمَّدٌ
وَنَسَبَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ﴿ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ أَي وَمَنْ قَبْلَ الْقُرْآنِ التَّوْرَةُ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ
عَلَى مُوسَى قَدْوَةً يُؤْتِمُّ بِهَا فِي دِينِ اللَّهِ وَشَرَائِعِهِ كَمَا يُؤْتِمُّ بِالْإِمَامِ ، وَرَحْمَةً لِمَنْ آمَنَ بِهَا وَعَمِلَ بِمَا فِيهَا قَالَ الْإِمَامُ
الْفَخْرُ : وَوَجْهٌ تَعَلَّقَ الْآيَةَ بِمَا قَبْلَهَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ طَعَنُوا فِي صِحَّةِ الْقُرْآنِ ، وَقَالُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقْنَا إِلَيْهِ
هَؤُلَاءِ الضَّعَفَاءُ الصَّعَالِيكُ ، فَردَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّكُمْ لَا تَنَازِعُونَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى ، وَجَعَلَ
هَذَا الْكِتَابَ - التَّوْرَةَ - إِمَامًا يَقْتَدَى بِهِ ، ثُمَّ إِنَّ التَّوْرَةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْبَشَارَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَإِذَا سَلِمْتُمْ كَوْنَهَا
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَاقْبَلُوا حُكْمَهَا بِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولٌ حَقًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ^(١) ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا
عَرَبِيًّا ﴾ أَي وَهَذَا الْقُرْآنُ كِتَابٌ عَظِيمُ الشَّانِ ، مُصَدِّقٌ لِّلْكِتَابِ قَبْلَهُ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ فَصِيحٍ ، فَكَيْفَ يَنْكُرُونَهُ
وَهُوَ أَفْصَحُ بَيَانًا ، وَأَظْهَرُ بَرَهَانًا ، وَأَبْلَغُ إِعْجَازًا مِنَ التَّوْرَةِ ؟ ﴿ لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾
أَي لِيَخَوْفَ كُفَّارِ مَكَّةَ الظَّالِمِينَ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ ، وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُحْسِنِينَ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ . . . وَلَمَّا بَيَّنَّ
تَعَالَى أَحْوَالَ الْمُشْرِكِينَ الْمَكْذِبِينَ بِالْقُرْآنِ ، أَرَدَفَهُ بِذِكْرِ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَقِيمِينَ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ فَقَالَ ﴿ إِنَّ
الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ أَي جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ وَالتَّسْتَقَامَةِ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ ﴿ فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أَي فَلَا يَلْحَقُهُمْ مَكْرُوهٌ فِي الْآخِرَةِ يَخَافُونَ مِنْهُ ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أَي وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا
خَلَّفُوا فِي الدُّنْيَا ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَي أُولَٰئِكَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْتَقِيمُونَ فِي دِينِهِمْ ، هُمْ
أَهْلُ الْجَنَّةِ مَا كَثُرَ فِيهَا أَبَدًا ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أَي نَالُوا ذَلِكَ النَّعِيمَ جَزَاءً لِمَا عَمِلُوا الصَّالِحَةَ
﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾ لَمَّا كَانَ رِضَا اللَّهِ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ ، وَسَخَطُهُ فِي سَخَطِهَا حَتَّى
تَعَالَى الْعِبَادَةُ عَلَيْهِ وَالمَعْنَى أَمَرْنَا الْإِنْسَانَ أَمْرًا جَازِمًا مُؤَكَّدًا بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ ، ثُمَّ بَيَّنَّ السَّبَبَ فَقَالَ
﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ أَي حَمَلَتْهُ بَكْرًا وَمَشَقَّةً وَوَضَعَتْهُ بَكْرًا وَمَشَقَّةً ﴿ وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ
ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ أَي وَمُدَّةُ حَمَلِهِ وَرِضَاعِهِ عَامَانِ وَنِصْفُ ، فَهِيَ لَا تَزَالُ تَعَانِي التَّعَبَ وَالمَشَقَّةَ طِيلَةَ هَذِهِ الْمُدَّةِ
قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَي قَاسَتْ بِسَبَبِهِ فِي حَالِ حَمَلِهِ مَشَقَّةً وَتَعَبًا مِنْ وَحْمٍ ، وَغَثِيَانٍ ، وَثِقَلٍ ، وَكُرْبٍ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ
مِمَّا تَنَالُ الْحَوَامِلُ مِنَ التَّعَبِ وَالمَشَقَّةِ ، وَوَضَعَتْهُ بِمَشَقَّةٍ أَيْضًا مِنْ الطَّلُقِ وَشِدَّتِهِ ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ الْعُلَمَاءُ بِهَذِهِ
الْآيَةِ مَعَ الَّتِي فِي لِقْمَانَ ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ عَلَى أَنَّ أَقْلَ مُدَّةِ الْحَمْلِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، وَهُوَ اسْتِنْبَاطُ قَوِيٍّ
صَحِيحٍ ^(٢) ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أَي حَتَّىٰ إِذَا عَاشَ هَذَا الطِّفْلُ وَبَلَغَ كَمَا لِقُوتِهِ وَعَقْلَهُ ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ

(١) التفسير الكبير للرازي ١٢/٢٨ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣١٩ .

نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ
وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ
الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمْ مَا اتَّعَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ
الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِغِيَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَأَمِنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿١٧﴾
أَوْلَيْكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾

سنة ﴿١﴾ أي واستمر في الشباب والقوة حتى بلغ أربعين سنة وهو نهاية اكتمال العقل والرشد ﴿١﴾ قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ ﴿٢﴾ أي قال ربّ ألهمني شكر نعمتك التي أنعمت بها عليّ وعلى والديّ حتى ربياني صغيراً ﴿٣﴾ وأنّ أعمل صالحاً ترضاه ﴿٤﴾ أي ووفقني لكي أعمل عملاً صالحاً يرضيك عني ﴿٥﴾ وأصلح لي في ذريتي ﴿٦﴾ أي اجعل ذريتي ونسلي صالحين قال شيخ زاده : طلب هذا الداعي من الله ثلاثة أشياء : الأول : أن يوفقه الله للشكر على النعمة والثاني : أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله والثالث : أن يصلح له في ذريته ، وهذه كمال السعادة البشرية ﴿٧﴾ ﴿إني تبتُ إليك وإني من المسلمين﴾ أي إني يا رب تبت إليك من جميع الذنوب ، وإني من المستمسكين بالإسلام قال ابن كثير : وفي الآية إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ويعزم عليها ﴿٨﴾ ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر نتقبل منهم طاعتهم ونجازيمهم على أعمالهم بأفضلها ﴿٩﴾ ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ﴿١٠﴾ أي ونصفح عن خطيئاتهم وزلاتهم ، في جملة أصحاب الجنة الذين نكرمهم بالعفو والغفران ﴿١١﴾ وعدّ الصّدق الذي كانوا يُوعدون ﴿١٢﴾ أي بذلك الوعد الصادق الذي وعدناهم به على ألسنة الرسل ، بأن نتقبل من محسنهم ونتجاوز عن سيئتهم . . ولما مثل تعالى لحال الإنسان البار بوالديه وما آل إليه حاله من الخير والسعادة ، مثل لحال الإنسان العاق لوالديه وما يتول إليه أمره من الشقاوة والتعاسة فقال ﴿١٣﴾ والذي قال لوالديه أفٍ لكم ﴿١٤﴾ أي وأمّا الولد الفاجر الذي يقول لوالديه إذا دعواه إلى الإيمان أفٍ لكم أي قبحاً لكم على هذه الدعوة ﴿١٥﴾ أتعدانسي أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي ﴿١٦﴾ ؟ أي أتعدانني أن أبعث بعد الموت وقد مضت قرون من الناس قبلي ولم يُبعث منهم أحد ؟ ﴿١٧﴾ وهما يستغِيثان الله ويَلْسك آمن ﴿١٨﴾ أي وأبواه يسألان الله أن يغيبه ويهديه للإسلام قائلين له : ويَلْسك آمن بالله وصدّق بالبعث والنشور وإلا هلكت ﴿١٩﴾ إن وعد الله حق ﴿٢٠﴾ أي وعد الله صدق لا خُلف فيه ﴿٢١﴾ فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين ﴿٢٢﴾ أي فيقول ذلك الشقي : ما هذا الذي تقولان من أمر البعث إلا خرافات وأباطيل سطرها الأولون في الكتب مما لا أصل له قال تعالى ﴿٢٣﴾ أولئك الذين حقّ عليهم القول ﴿٢٤﴾ أي أولئك المجرمون هم الذين حقّ عليهم قول الله بأنهم أهل النار

(١) قال العلماء : ولذلك لم يبعث نبي قبل أربعين . (٢) حاشية البيضاوي ٣/٣٣٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/٣٢٠ .

وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا^١ وَلِيُوقِيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ ﴿١٥﴾

قال القرطبي : أي وجب عليهم العذاب وهي كلمة الله كما في الحديث (هؤلاء في النار ولا أبالي)^(١) ﴿ في أممٍ قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ﴾ أي في جملة أمم من أصحاب النار قد مضت قبلهم من الكفرة الفجار من الجن والإنس ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ أي كانوا كافرين لذلك ضاع سعيهم وخسروا آخرتهم ، وهو تعليل لدخولهم جهنم قال الإمام الفخر : قال بعضهم : إن الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قبل إسلامه ، والصحيح أنه لا يراد بالآية شخص معين ، بل المراد منها كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ، وهو كل من دعاه أبواه إلى الدين الحق فأباه وأنكره ، ويدل عليه أن الله تعالى وصف هذا الذي قال لوالديه ﴿ أف لكما ﴾ بأنه من الذين حق عليهم القول بالعذاب ، ولا شك أن عبد الرحمن آمن وحسن إسلامه وكان من سادات المسلمين فبطل حمل الآية عليه^(٢) ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ أي لكل من المؤمنين والكافرين مراتب ومنازل بحسب أعمالهم ، فمراتب المؤمنين في الجنة عالية ، ومراتب الكافرين في جهنم سافلة ﴿ وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ أي وليعطيهم جزاء أعمالهم وافية كاملة، المؤمنون بحسب الدرجات، والكافرون بحسب الدرجات، من غير نقصان بالثواب ولا زيادة في العقاب .

قال الله تعالى : ﴿ ويوم يُعرض الذين كفروا على النار ... إلى ... فهل يُهلك إلا القوم

الفاسقون ﴾

من آية (٢٠) إلى آية (٣٩) نهاية السورة

المناسكة : لما ذكر تعالى أحوال بعض الأشقياء ، أعقبه بذكر حال الكفار الفجار في الآخرة ، ثم ذكر قصة عاد الذين أهلكهم الله بطغيانهم مع ما كانوا عليه من القوة والشدة ، تذكيراً لكفار قريش بعاقبة التكذيب والطغيان ، وختم السورة الكريمة بقصة النفر من الجن الذين آمنوا بالقرآن حين سمعوه ودعوا قومهم إلى الإيمان .

اللفتر : ﴿ الهون ﴾ الهوان والذل ﴿ الأحقاف ﴾ الرمال العظيمة جمع حَقْف وهو ما استطال من الرمل العظيم واعوجج ، والأحقاف ديار عاد^(٣) ﴿ لتأفكنا ﴾ لتصرفنا وتزيلنا ، والإفك : الكذب ﴿ عارضاً ﴾ سحاباً يعرض في الأفق ﴿ تدمر ﴾ تهلك ، والتدميرُ الهلاك وكذلك الدمار ﴿ صرفنا ﴾ بعثنا ووجهنا ﴿ يعي ﴾ يضعف ويعجز من الإعياء وهو التعب والعجز .

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طِبَابْتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ

النفسير : ﴿ ويوم يُعرضُ الذين كفروا على النار ﴾ أي وذكرهم يا محمد يوم يكشف الغطاء عن نار جهنم ، وتبرز للكافرين فيقرَّبون منها وينظرون إليها ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ﴾ في

(١) تفسير القرطبي ١٦/١٩٨ . (٢) التفسير الكبير ٢٨/٢٣ وهذا اختيار المحققين من المفسرين كابن كثير والقرطبي وأبي السعود وصاحب

البحر المحيط . (٣) تفسير القرطبي ١٦/٢٠٣ .

أَهْوَنَ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٥﴾ * وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ
 أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
 عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٦﴾

الكلام حذف أي ويقال لهم تقيراً وتوبيخاً أذهبت طيباتكم أي لقد نلتم وأصبتم لذائد الدنيا وشهواتها فلم يبق لكم نصيب اليوم في الآخرة قال في البحر : والطيبات هنا المستلذات من المأكّل والمشارب ، والملابس والمفارش ، والمراكب والمواطيء ، وغير ذلك مما يتنعم به أهل الرفاهية (١) ﴿واستمتعتم بها﴾ أي وتمتعتم بتلك اللذائد والطيبات في الدنيا قال المفسرون : المراد بالآية إنكم لم تؤمنوا حتى تنالوا نعيم الآخرة ، بل اشتغلتم بشهوات الدنيا ولذائدها عن الإيمان والطاعة ، وأفنيتم شبابكم في الكفر والمعاصي ، وآثرتم الفاني على الباقي ، فلم يبق لكم بعد ذلك شيء من النعيم ، ولهذا قال بعده ﴿فاليوم تُجزون عذاب الهون﴾ أي ففي هذا اليوم - يوم الجزاء - تنالون عذاب الذلّ والهوان ﴿وبما كنتم تستكبرون في الأرضِ بغير الحق﴾ أي بسبب استكباركم في الدنيا عن الإيمان وعن الطاعة ﴿وبما كنتم تفسقون﴾ أي وبسبب فسقكم وخروجكم عن طاعة الله ، وارتكاب الفجور والآثام قال الإمام الفخر : وهذه الآية لا تدل على المنع من التنعم ، لأن هذه الآية وردت في حق الكافر ، وإنما وبّخ الله الكافر لأنه يتمتع بالدنيا ولا يؤدي شكر المنعم بطاعته والإيمان به ، وأما المؤمن فإنه يؤدي بإيمانه شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه ودليله ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ !! نعم لا ينكر أن الاحتراز عن التنعم أولى ، وعليه يحمل قول عمر «لو شئت لكنت أطيبيكم طعاماً ، وأحسنكم لباساً ، ولكنني أستبقي طيباتي لحياتي الآخرة» (٢) وقال في التسهيل : الآية في الكفار بدليل قوله تعالى ﴿ويوم يعرض الذين كفروا﴾ وهي مع ذلك واعظة لأهل التقوى من المؤمنين ، ولذلك قال عمر لجابر ابن عبد الله - وقد رآه اشترى لحماً - أو كلما اشتهى أحدكم شيئاً جعله في بطنه ! أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية ممن قال الله فيهم ﴿أذهبت طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ (٣) !! ﴿واذكر أخا عاد﴾ أي اذكر يا محمد لهؤلاء المشركين قصة نبي الله هود عليه السلام مع قومه عادٍ ليعتبروا بها ﴿إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾ أي حين حذر قومه من عذاب الله إن لم يؤمنوا وهم مقيمون بالأحقاف - وهي تلالٌ عظيمة من الرمل في بلاد اليمن - قال ابن كثير : الأحقاف جمع حِقْف وهو الجبل من الرمل ، قال قتادة : كانوا حياً باليمن أهل رملٍ مشرفين على البحر بأرضٍ يُقال لها : الشَّحْر (٤) ﴿وقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي وقد مضت الرسل بالإنذار من قبل هودٍ ومن بعده ، والجملّة اعتراضية وهي إخبار من الله تعالى أنه قد بعث رسلاً متقدمين قبل هودٍ وبعده ﴿الأتعبدوا إلا الله﴾ أي حذرهم هود عليه السلام قائلاً لهم : بأن لا تعبّدوا إلا الله ﴿إني أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيمٍ﴾ أي إني أخاف عليكم إن عبدتم غير الله عذاب يومٍ

(١) البحر المحيط ٦٣ / ٨ . (٢) التفسير الكبير ٢٨ / ٢٥ . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤٤ / ٤ . (٤) مختصر ابن كثير ٣ / ٣٢٢ .

قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَفَكَّكَ عَنْ ءِالِهَتِنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا

هائل وهو يوم القيامة ﴿قالوا أجتنا لتأفكنا عن آلهتنا﴾ أي قالوا جواباً لإنداره : أجتنا يا هود لتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟ وهو استفهام ، يراد منه التسفيه والتجهيل لما دعاهم إليه ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ أي فأتنا بالعذاب الذي وعدتنا به إن كنت صادقاً فيما تقول قال ابن كثير : استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعاداً منهم لوقوعه (١) ﴿قال إنما العلم عند الله﴾ أي قال لهم هود : ليس علم وقت العذاب عندي إنما علمه عند الله ﴿وأبلغكم ما أرسلت به﴾ أي وإنما أنا مبلغ ما أرسلني به الله إليكم ﴿ولكنني أراكم قوماً تجهلون﴾ أي ولكنني أجدكم قوماً جهلة في سوء الحكم استعجال العذاب ﴿فلما رأوه عارضاً مستقبلاً أوديتهم﴾ أي فلما رأوا السحاب معترضاً في أفق السماء متجهاً نحو أوديتهم استبشروا به ﴿قالوا هذا عارض مطرنا﴾ أي وقالوا هذا السحاب يأتينا بالمطر قال المفسرون : كانت عاد قد أبطأ عنهم المطر ، وفحطوا مدةً طويلةً من الزمن ، فلما رأوا ذلك السحاب العارض ظنوا أنه مطر ففرحوا به واستبشروا وقالوا : هذا عارض مطرنا ﴿بل هو ما استعجلتم به﴾ أي قال لهم هود : ليس الأمر كما زعمتم أنه مطر ، بل هو ما استعجلتم به من العذاب ثم فسره بقوله ﴿ريح فيها عذاب أليم﴾ أي هو ريح عاصفة مدمرة فيها عذاب فظيع مؤلم ﴿تدمر كل شيء بأمر ربها﴾ أي تخرب وتهلك كل شيء أتت عليه من رجال ومواش وأموال ، بأمره تعالى وإذنه قال ابن عباس : أول ما جاءت الريح على قوم عاد ، كانت تأتي على الرجال والمواشي فترفعهم من الأرض وتطير بهم إلى السماء حتى يصبح الواحد منهم كالريشة ، ثم تضربهم على الأرض ، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم ، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم ، فهي التي قال الله فيها ﴿تدمر كل شيء بأمر ربها﴾ أي تدمر كل شيء مرت عليه من رجال عاد وأموالها ، والتدمير الهلاك (٢) ، وفي الحديث عن عائشة قالت : (كان ﷺ إذا رأى غياً أو ريحاً عرف في وجهه ، فقلت يا رسول الله : الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية ؟ فقال يا عائشة : ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ، عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا ﴿هذا عارض مطرنا﴾ (٣) ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ أي فأصبحوا هلكى لا ترى إلا مساكنهم ، لأن الريح لم تبق منهم إلا الآثار والديار خاوية ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ أي بمثل هذه العقوبة الشديدة نعاقب من كان عاصياً مجرمًا قال الرازي : والمقصود منه تخويف أهل مكة (٤) ، ولهذا قال بعده ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾ « إن » نافية بمعنى « ما » أي ولقد مكنا عاداً في

(١) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة . (٢) انظر تفسير القرطبي ٢٠٦ / ١٦ (٣) أخرجه البخاري . (٤) التفسير الكبير للرازي ٢٨ / ٢٩ .

وَأَفْعِدَةٌ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حولَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَوْلَا
نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٤٠﴾
وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم

الذي لم تمكنكم فيه يا أهل مكة من القوة ، والسعة ، وطول الأعمار^(١) ، وهو خطاب لكفار مكة على وجه التهديد ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة﴾ أي وأعطيناهم الأسعاع والأبصار والقلوب ، ليعرفوا تلك النعم ويستدلوا بها على الخالق المنعم ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾ أي فما نفعتهم تلك الحواس أي نفع ، ولا دفعت عنهم شيئاً من عذاب الله قال الإمام الفخر : المعنى أنا فتحنا عليهم أبواب النعم : أعطيناهم سمعاً فما استعملوه في سماع الدلائل ، وأعطيناهم أبصاراً فما استعملوها في تأمل العبر ، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله ، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها ، فلا جرم أنها لم تغن عنهم من عذاب الله شيئاً ﴿إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾ تعليل لما سبق أي لأنهم كانوا يكفرون وينكرون آيات الله المنزلة على رسله ويكذبون رسله ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي ونزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلون به بطريق الاستهزاء ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى﴾ تخويف آخر لكفار مكة أي ولقد أهلكنا القرى المجاورة لكم يا أهل مكة والمحيطة بكم ، كقرى عاد وثمود وسبأ وقوم لوط ، والمراد بإهلاك القرى إهلاك أهلها ﴿وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾ أي وكررنا الحجج والدلالات ، والمواعظ والبيانات ، أوضحناها وبيناها لهم لعلهم يرجعون عن كفرهم وضلالهم ﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أي فهلاً نصرتهم آلهتهم التي تقربوا بها إلى الله بزعمهم ، وجعلوها شفعاءهم لتدفع عنهم العذاب ؟ ! و «لولا» تحضيضية بمعنى هلاً ومعناها النفي أي لم تنصرهم آلهتهم ولم تدفع عنهم عذاب الله ﴿بل ضلوا عنهم﴾ أي غابوا عن نصرتهم وهم أحوج ما يكونون إليهم ، فإن الصديق وقت الضيق قال أبو السعود : وفي الآية تهكم بهم كأن عدم نصرهم كان لغيتهم^(٢) ﴿وذلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾ أي وذلك الذي أصابهم هو كذبهم وافترائهم على الله ، حيث زعموا أن الأصنام شركاء لله وشفعاء لهم عند الله ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾ أي واذكر يا محمد حين وجهنا إليك وبعثنا جماعة من الجن ليستمعوا القرآن قال البيضاوي : والنفر دون العشرة ، روي أنهم وافوا رسول الله ﷺ بوادي النخلة عند منصرفه من الطائف يقرأ في تهجده القرآن^(٣) ﴿فلما حضروه قالوا أنصتوا﴾ أي فلما

(١) ذهب بعض المفسرين الى أن « إن » زائدة والمعنى ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه أي في مثل الذي مكناكم فيه ، والأول أرجح لأن المقصود أنهم كانوا أقوى منكم ومع ذلك ما نجوا من عقاب الله فكيف يكون حالكم ؟ وإنما لم يؤت بـ « ما » فيقال: فيما مكناكم فيه ، دفعاً لتقل التكرار ؟

(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٦٩ . (٣) حاشية البيضاوي ٣/ ٣٤١ .

مُنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۗ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوْلَمْ يَرَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْصِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدْرِ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا

حضروا القرآن عند تلاوته قال بعضهم لبعض : اسكتوا لاستماع القرآن قال القرطبي : هذا توبيخ لمشركي قريش ، أي إن الجن سمعوا القرآن فأمنوا به وعلموا أنه من عند الله ، وأنتم معرضون مصرّون على الكفر ﴿١﴾ ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلُوا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنذِرِينَ﴾ أي فلما فرغ من قراءة القرآن رجعوا إلى قومهم مخوفين لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا قال الرازي : وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم ، لأنهم لا يدعون غيرهم إلى استماع القرآن والتصديق به إلا وقد آمنوا ﴿٢﴾ ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أي سمعنا كتاباً رائعاً مجيداً منزلاً على رسول من بعد موسى قال ابن عباس : إن الجن لم تكن قد سمعت بأمر عيسى عليه السلام ﴿٣﴾ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مصدقاً لما قبله من التوراة ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي هذا القرآن يرشد إلى الحق المبين ، وإلى دين الله القويم ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ أي أجيبوا محمداً ﷺ فيما يدعوكم إليه من الإيمان وصدقوا برسالته ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي يمحو الله عنكم الذنوب والآثام ﴿وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي ويخلصكم وينجكم من عذاب شديد مؤلم ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ هذا ترهيب بعد الترغيب أي ومن لم يؤمن بالله ويستجب لدعوة رسوله ، فإنه لا يفوت الله طلباً ، ولا يعجزه هرباً ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أي وليس له أنصار يمينونه من عذاب الله ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي أولئك الذين لا يستجيبون لدعوة الله في خسران واضح ، وإلى هنا آخر كلام الجن الذين سمعوا القرآن ، ثم ذكر تعالى الأدلة على قدرته ووحدانيته فقال ﴿أَوَلَمْ يَرَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي أولم يعلم هؤلاء الكفار المنكرون للبعث والنشور أن الله العظيم القدير الذي خلق السموات والأرض ابتداءً من غير مثال سابق ﴿وَلَمْ يَعْصِ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي ولم يضعف ولم يتعب بخلقهن ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ أي أي قادر على أن يعيد الموتى بعد الفناء ، ويحييهم بعد تمزق الأشلاء ؟ ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي بلى إنه تعالى قادر لا يعجزه شيء ، فكما خلقهم يعيدهم ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي واذكر يا محمد هؤلاء المشركين الأهوال والشدائد التي يرونها في الآخرة ، وذكرهم يوم يعرضون على النار فيقال لهم ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ ؟ أي أليس هذا العذاب الذي تذوقونه حق ؟ ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا

الْعَذَابِ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٥﴾

تبصرون ﴿٤٤﴾ قالوا بلى وربنا ﴿٤٤﴾ أي قالوا بلى وعزة ربنا ، أكدوا كلامهم بالقسم طمعاً في الخلاص قال الفخر الرازي : والمقصود بالآية التهكمُ بهم ، والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم : ﴿وما نحن بمعذبين﴾ (١) ﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي فيقال لهم : ذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين كما صبر مشاهير الرسل الكرام وهم « نوح وإبراهيم وموسى وعيسى » ﴿ولا تستعجل لهم﴾ أي ولا تدع على كفر قريش بتعجيل العذاب فإنه نازل بهم لا محالة ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار﴾ أي كأنهم حين يعاينون العذاب في الآخرة لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعةً واحدةً من النهار ، لما يشاهدون من شدة العذاب وطوله ﴿بلاغ﴾ أي هذا بلاغ وإنذار ﴿فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ أي لا يكون الهلاك والدمار إلا للكافرين الخارجين عن طاعة الله .

تبييه : قال المفسرون : « إن الجن كانوا يسترقون السمع ، فلما حُرست السماء بالشهب ، قال إبليس : إن هذا الذي حدث بالسماء من أمر حدث في الأرض ، فبعث سراياه ليعرف الخبر ، فذهب ركبٌ من نصيين - وهم أشراف الجن - إلى تهامة ، فلما بلغوا بطن نخلة سمعوا النبي ﷺ يصلي ويتلو القرآن ، فاستمعوا له وقالوا : أنصتوا ثم لما انتهى ﷺ من القراءة آمنوا ثم رجعوا إلى قومهم منذرين فدعوهم إلى الإيمان ، وجاءوا بعد ذلك جماعات جماعات إلى النبي ﷺ فذلك سبب قوله تعالى ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن﴾

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - التعجيز ﴿أتوني بكتاب من قبل هذا﴾ أمرٌ يراد منه التعجيز .
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿يدعو . . وهم عن دعائهم﴾ ومثله ﴿وشهد شاهد﴾ .
- ٣ - الطباق بين ﴿آمن . . وكفرتم﴾ وبين ﴿ينذر . . وبشرى﴾ .
- ٤ - ذكر الخاص بعد العام ﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ ثم قال ﴿حملته أمه كرهاً﴾ فذكر الخاص بعد العام لزيادة العناية والاهتمام بشأن الأم لحقها العظيم .
- ٥ - الطباق بين ﴿حملته . . ووضعته﴾ .
- ٦ - صيغة الحصر ﴿ما هذا إلا أساطير الأولين﴾ .
- ٧ - الاستعارة ﴿ولكل درجاتٌ مما عملوا﴾ استعار الدرجات للمراتب ، للسعداء والأشقياء .

- ٨ - الإيجاز بالحذف مع التوبيخ والتقرير ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ أي يقال لهم أذهبتم .
- ٩ - الإطناب بتكرار اللفظ ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة﴾ ثم قال ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم﴾ لزيادة التفتيح والتشنيع عليهم .
- ١٠ - توافق الفواصل مما يزيد في جمال الكلام وحسن تناسقه وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿وحاق بهم ما كانوا يستهزئون﴾ ﴿وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾ ﴿وذلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾ الخ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحقاف »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة محمد من السور المدنية ، وهي تُعنى بالأحكام التشريعية ، شأن سائر السور المدنية ، وقد تناولت السورة أحكام القتال ، والأسرى ، والغنائم ، وأحوال المنافقين ، ولكن المحور الذي تدور عليه السورة هو موضوع « الجهاد في سبيل الله » ؟

* ابتدأت السورة الكريمة بدءاً عجيباً ، بإعلان حربٍ سافرة على الكفار أعداء الله ، وأعداء رسوله ، الذين حاربوا الإسلام ، وكذبوا الرسول ﷺ ، ووقفوا في وجه الدعوة المحمدية ، ليصدوا الناس عن دين الله ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم . . ﴾ الآيات .

* ثم أمرت المؤمنين بقتال الكافرين ، وحصدتهم بسيوف المجاهدين ، لتطهير الأرض من رجسهم ، حتى لا تبقى لهم شوكة ولا قوة ، ثم دعت إلى أسرهم بعد إكثار القتل فيهم والجراحات ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق . . ﴾ الآيات .

* ثم بيّنت طريق العزة والنصر ، ووضعت الشروط لنصرة الله لعباده المؤمنين ، وذلك بالتمسك بشريعته ، ونصرة دينه ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . . ﴾ الآيات .

* وضربت لكفار مكة الأمثال بالطغاة المتجبرين من الأمم السابقة ، وكيف دمّر الله عليهم بسبب إجرامهم وطغيانهم ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ .

* وتحدثت السورة بإسهاب عن صفات المنافقين ، باعتبارهم الخطر الداهم على الإسلام والمسلمين ، فكشفت عن مساوئهم ومخازيهم ليحذر الناس مكرهم وخبثهم ﴿ ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم . . ﴾ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بدعوة المؤمنين إلى سلوك طريق العزة والنصر ، بالجهاد في سبيل الله

وعدم الوهن والضعف أمام قوى الشر والبغي ، وحذرت من الدعوة إلى الصلح مع الأعداء ، حرصاً على الحياة والبقاء ، فإن الحياة الدنيا زائلة فانية ، وما عند الله خيرٌ للأبرار ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم . إنما الحياة الدنيا لعبٌ وهوٌ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم . . ﴾ إلى نهاية السورة الكريمة .

وهكذا ختمت السورة بالدعوة إلى الجهاد ، كما بدأت بالدعوة إليه ، حفزاً لعزائم المؤمنين ، وليتناسق البدء مع الختام ألطف التثام !!

قال الله تعالى : ﴿الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم . . إلى . . والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾

من آية (١) إلى نهاية آية (١٩) .

اللغة: ﴿كفّر﴾ أزال ومحا ﴿أثخنتموهم﴾ أكثرتم فيهم القتل والجراح والأسر قال في المصباح : أثخن في الأرض إثخاناً ، سار إلى العدو وأوسعهم قتلاً ، وأثخنته الجراحة أوهنته وأضعفته^(١) ﴿الوثاق﴾ القيد والحبل الذي يربط به ﴿منأ﴾ إطلاق الأسير من غير فدية ﴿أوزارها﴾ آلاتها وأثقالها وهي الأسلحة والعتاد يقال : وضعت الحرب أوزارها أي انقضت الحرب وانتهت ، وأصل الأوزار الأثقال من السلاح والحيل قال الشاعر :

وأعددتُ للحرب أوزارها رماحاً طوالاً وخيلاً ذكوراً^(٢)
 ﴿نعساً﴾ شقاءً وهلاكاً ﴿أسن﴾ متغيّر ومنتن ﴿حمياً﴾ حاراً شديداً الحرارة ﴿أنفا﴾ الآن ، من قوهم ، استأنف الأمر إذا ابتدأ به ﴿أشراط﴾ أمارات وعلامات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿١﴾

النفيس: ﴿الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله﴾ هذا إعلان حربٍ من الله تعالى على أعدائه وأعداء دينه والمعنى الذين جحدوا بآيات الله وأعرضوا عن الإسلام ، ومنعوا الناس عن الدخول فيه ﴿أضلّ أعمالهم﴾ أي أبطلها وأحبطها وجعلها ضائعة لا ثواب لها لأنها لم تكن لله فبطلت ، والمراد أعمالهم الصالحة كإطعام الطعام ، وصلة الأرحام ، وقرى الضيف قال الزمخشري : وحقيقة إضلال الأعمال جعلها ضالةً ضائعةً ، ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها كالضالة من الإبل ، التي لا رب لها يحفظها ويعتني بامرئها ، والمراد أعمالهم التي عملوها في كفرهم بما كانوا يسمونه «مكارم الأخلاق» ، من صلة

(١) المصباح النير مادة ثخن . (٢) البيت للأعشى كذا في القرطبي ١٦ / ٢٢٩ .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بَأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتَمُوهُم فَشَدُّوا الوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ

الأرحام ، وفك الأسارى ، وقرى الأضياف ، وحفظ الجوار^(١) ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي جمعوا بين الإيمان الصادق ، والعمل الصالح ﴿وآمنوا بما نُزِّلَ على محمد﴾ أي صدقوا بما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ تصديقاً جازماً لا يخالجه شك ولا ارتياب وهو عطف خاص على عام ، والنكتة فيه تعظيم أمره والاعتناء بشأنه ، إشارة إلى أن الإيمان لا يتم بدونه^(٢) ، ولذا أكد بقوله ﴿وهو الحق من ربهم﴾ أي وهو الثابت المؤكد المقطوع بأنه كلام الله ووحية المنزل من عند الله ، والجملته اعتراضية لتأكيد السابق ﴿كفر عنهم سيئاتهم﴾ أي أزال ومحا عنهم ما مضى من الذنوب والأوزار ﴿وأصلح بالهم﴾ أي أصلح شأنهم وحالهم ، في دينهم ودنياهم ، ثم بيّن تعالى سبب ضلال الكفار ، واهتداء المؤمنين فقال ﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل﴾ أي ذلك الإضلال لأعمال الكفار بسبب أنهم سلكوا طريق الضلال ، واختاروا الباطل على الحق ﴿وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم﴾ أي وأن المؤمنين سلكوا طريق الهدى ، وتمسكوا بالحق والإيمان المنزل من عند الرحمن ﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح ، بيّن الله أمر كل من الفريقين - المؤمنين والكافرين - بأوضح بيان ، وأجلى برهان ليعتبر الناس ويتعظوا . . وبعد إعلان هذه الحرب السافرة على الكافرين أمر تعالى المؤمنين بجهادهم فقال ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾ أي فإذا أدركتم الكفار في الحرب فاحصدوهم حصداً بالسيوف قال في التسهيل : وأصله فاضربوا الرقاب ضرباً ثم حذف الفعل وأقام المصدر مقامه والمراد : اقتلوهم ، ولكن عبّر عنه بضرب الرقاب لأنه الغالب في صفة القتل^(٣) ﴿حتى إذا أثختموهم فشددوا الوثاق﴾ أي حتى إذا هزمتهم وأكثرتم فيهم القتل والجراحات ولم تبق لهم قوة للمقاومة فأسروهم وكفؤوا عن قتلهم قال الزمخشري : وفي هذه العبارة ﴿فضرب الرقاب﴾ من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل ، لما فيها من تصوير القتل بأشنع صورة ، وهو حز العنق وإطارة رأس البدن ، ولقد زاد في هذه الغلظة في قوله ﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ ومعنى ﴿أثختموهم﴾ أكثرتم قتلهم وأغلظتموه ﴿فشددوا الوثاق﴾ أي فأسروهم ، والوثاق اسم لما يربط من حبل وغيره^(٤) ﴿فإمّا منّا بعد وإمّا فداء﴾ أي ثم أنتم مخيرون بعد أسرهم إمّا أن تمّنوا عليهم وتطلقوا سراحهم بلا مقابل من مال ، أو تأخذوا منهم مالا فداء لأنفسهم ، ولكن بعد أن تكونوا قد كسرتهم شوكتهم ،

(١) الكشاف / ٤ / ٢٥٠ . (٢) حاشية الصاوي / ٤ / ٨١ . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل / ٤ / ٤٦ . (٤) الكشاف / ٤ / ٢٥١ .

بَعْضِ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمْ
الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَتَأَيَّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنَصَرُوا اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
فَتَعَسَا لَهُمُ الْوُضَلُ أَعْمَلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ ﴿٩﴾

وأعجزتموهم بكثرة القتل والجراح ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ أي حتى تنقضي الحرب وتنتهي بوضع
آلاتها وأثقالها، وتنتهي الحرب بين المسلمين والمناوئين له، وذلك بعزة الإسلام واندحار المشركين ﴿ذلك ولو
يشاء الله لانتصر منهم﴾ أي الأمر فيهم ما ذكر ، ولو أراد الله لانتصر منهم وأهلكهم بقدرته ، دون أن
يكلفكم - أيها المؤمنون - إلى قتالهم قال ابن كثير : أي لو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من
عنده ^(١) ﴿ولكن ليبلوا بعضكم ببعض﴾ أي ولكنه أمركم بجهادهم ليختبر إيمانكم وثباتكم ، فيظهر
حال الصادق في الإيمان من غيره كما قال تعالى ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾
وليبتلي المؤمنين بالكافرين والكافرين بالمؤمنين ، فيصير من قُتل من المؤمنين إلى الجنة ، ومن قتل من
الكافرين إلى النار ولهذا قال ﴿والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي والذين
استشهدوا في سبيل الله فلن يُبطل الله عملهم ، بل يكثره ويضاعفه وينميه ﴿سيهديهم﴾ أي سيهديهم
إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة ، بتوفيقهم إلى العمل الصالح وإرشادهم إلى الجنة دار الأبرار ﴿ويُصْلِحُ
بَالَهُمْ﴾ أي ويُصْلِحُ حالهم وشأنهم ﴿ويُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ أي ويدخلهم الجنة دار النعيم بينها
لهم بحيث يعلم كل واحد منزله ويهتدي إليه قال مجاهد : يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم لا يخطئون
كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ^(٢) وفي الحديث (والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله
الذي كان في الدنيا) ^(٣) ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم﴾ أي إن تنصروا دينه ينصركم
على أعدائكم ﴿ويثبت أقدامكم﴾ أي ويثبتكم في مواطن الحرب ﴿والذين كفروا فتعسوا لهم﴾ أي
والذين كفروا بالله وآياته فهلاكاً وشقاءً لهم ، وهو دعاء عليهم بالتعاسة والخيبة والخذلان ﴿وأضلَّ
أعمالهم﴾ أي أبطلها وأحبطها لأنها كانت في طاعة الشيطان ﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله﴾ أي ذلك
التعس والإضلال بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله من الكتب والشرائع قال الزمخشري : أي كرهوا القرآن
وما أنزل الله فيه من التكليف والأحكام ، لأنهم قد ألقوا الإهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملذذ
فشقَّ عليهم ذلك وتعاضمهم ^(٤) ﴿فأحبط أعمالهم﴾ أي أذهبها وأضاعها لأن الإيمان شرط لقبول الأعمال ،
والشرك محبط للعمل ^(٥) ، ثم خوفهم تعالى عاقبة الكفر فقال ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٣٠ . (٢) البحر المحيط ٨/ ٧٥ . (٣) جزء من حديث رواه البخاري .

(٤) الكشاف ٤/ ٢٥٣ . (٥) قال في الظلال : « وإحباط الأعمال تعبير تصويري على طريقة القرآن في التصوير ، فالحبوط انتفاخ بطون
الماشية عند أكلها نوعاً من المرعي أو النبات السام ، ينتهي بها إلى الهلاك والموت ، وكذلك هؤلاء الكفار انتفخت أعمالهم وورمت ثم انتهت
إلى الهلاك والضياع ، إنها صورة وحركة مطابقة لحال من كرهوا ما أنزل الله ، ثم تباهاوا بالأعمال الضخام المنتفخة كبطون الأنعام ، حين
ترعى ذلك النبات السام » الظلال ٢٥/ ٦٠ .

* أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوَىٰ لَهُمْ ﴿١١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيْتِنَا مِّن رَّبِّهِ كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١١٤﴾

كان عاقبة الذين من قبلهم ﴿١١٠﴾ أي أفلم يسافر هؤلاء ليروا ما حلَّ بمن سبقهم من الأمم الطاغية كعاد وشمود وقوم لوط وغيرهم من المجرمين ، كيف كان ما لهم ؟ وماذا حلَّ بهم من العذاب ؟ فإن آثار ديارهم تنبئ عن أخبارهم ﴿١١١﴾ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴿١١١﴾ أي أهلكهم الله ، واستأصل كل ما يخصهم من مالٍ وبين ومتاع ، فإذا هو أنقاض متراكمة وإذا هم تحت هذه الأنقاض «ودمَّر عليهم» أبلغ من دمَرهم لأن معناها أهلكهم مع أموالهم ودورهم وأولادهم وأطبق عليهم الهلاك إطباقاً فلم يبق شيء إلا شمله الدمار ﴿١١٢﴾ ولللكافرين أمثالها ﴿١١٢﴾ أي ولكفار مكة أمثال تلك العاقبة الوخيمة والعذاب المدمر ﴿١١٢﴾ ذلك بأنَّ الله مولى الذين آمنوا ﴿١١٢﴾ أي وليُّهم وناصرهم ﴿١١٢﴾ وأنَّ الكافرين لا مولى لهم ﴿١١٢﴾ أي لا ناصر لهم ولا معين ولا مغيث ، ثم بيَّن تعالى مال كلِّ من الفريقين - المؤمنين والكافرين - في الآخرة فقال ﴿١١٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿١١٢﴾ أي يدخل المؤمنين جنات النعيم ، التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿١١٢﴾ والذين كفروا يمتتعون ويأكلون كما تأكلُ الأنعام ﴿١١٢﴾ أي والكافرون في الدنيا ينتفعون بشهواتها ولذائذها ، ويأكلون كما تأكل البهائم ، ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم ﴿١١٢﴾ والنَّارُ مَثْوَىٰ لَهُمْ ﴿١١٢﴾ أي وجههم مقامهم ومنزلهم في الآخرة قال الزمخشري : المراد أنهم ينتفعون بمتاع الدنيا أياماً قلائل ، ويأكلون غافلين غير مفكرين في العاقبة كما تأكل الأنعام في مسارحها ومعالفها غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح ، والنار منزل ومقام لهم في الآخرة . . (١) ثم سلَّى تعالى رسوله ﷺ فقال ﴿١١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ (٢) عاتية ظالمة كانوا أقوى من أهل مكة الذين أخرجوك منها ﴿١١٢﴾ أهلكتناهم فلا ناصر لهم ﴿١١٢﴾ أي أهلكتناهم بأنواع العذاب فلم ينصرهم أحد فكذلك نفعل بهؤلاء قال ابن عباس : لما خرج النبي ﷺ من مكة واختفى بالغار ثم خرج مهاجراً إلى المدينة ، التفت إلى مكة ثم قال (إنك لأحب البلاد إلى الله ، وأحب البلاد إليّ ، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت فنزلت الآية (٣) ﴿١١٢﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيْتِنَا مِّن رَّبِّهِ ﴿١١٢﴾ أي هل من كان على حجة وبصيرة ، وثبات ويقين من أمر دينه ﴿١١٢﴾ كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ ﴿١١٢﴾ ؟ أي كمن زَيْنَ له عمله التبيح فراه حسناً ؟ ﴿١١٢﴾ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١١٢﴾ أي انهمكوا في الضلال حتى

(١) تفسير الكشاف ٤/٢٥٣. (٢) الكلام على حذف مضاف أي من أهل قرية وهو مجاز مشهور . (٣) حاشية الجمل على الجلالين ٤/١٤٥ .

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا

عبدوا الهوى؟ ليس هذا كهذا، وإنما جاء بصيغة الجمع مراعاةً للمعنى قال المفسرون: يريد بـ ﴿من كان على بينة﴾ رسول الله ﷺ، وبمن ﴿زَيْنٌ له سوء عمله﴾ أبا جهل وكفار قريش. واللفظ أعم لأن الغرض المباشرة بين من يعبد الله، وبين من يعبد هواه، ولذلك مثل بعده بالفارق الكبير بين الجنة والنار فقال ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ أي صفة الجنة الغريبة العجيبة الشأن، التي وعد الله بها عباده الأبرار وأعدّها للمتقين الأخيار ﴿فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسِنٍ﴾ أي فيها أنهارٌ جاريات من ماءٍ غير متغير الرائحة قال ابن مسعود: أنهار الجنة تفجر من جبلٍ من مسك^(١) ﴿وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغير طعمه﴾ أي وأنهار جاريات من حليبٍ في غاية البياض والحلاوة والدسامة، لم يحمض بطول المقام ولم يفسد كما تفسد ألبان الدنيا وفي حديث مرفوع (لم يخرج من ضرورع الماشية)^(٢) ﴿وأنهارٌ من خمرٍ لذةٍ للشاربين﴾ أي وأنهار جاريات من خمرٍ لذيدة الطعم يتلذذ بها الشاربون لأنه ﴿لا فيها غولٌ ولا هم عنها ينزفون﴾ وإنما قيدها بأنها لذة للشاربين، لأن الخمر كريمة الطعم في الدنيا لا يلتذ بها إلا فاسد المزاج، وأما خمر الآخرة فهي طيبة الطعم والرائحة، يشربها أهل الجنة لمجرد الالتذاذ ﴿وأنهارٌ من عسلٍ مُصَفًّى﴾ أي وأنهار جاريات من عسل في غاية الصفاء وحسن اللون والريح، لم يخرج من بطون النحل قال أبو السعود: ﴿عسلٍ مصفًى﴾ أي لم يخالطه الشمع وفضلات النحل^(٣) ﴿ولهم فيها من كل الثمرات﴾ أي ولهم في الجنة أنواعٌ متعددة من جميع أصناف الفواكه والثمار قال في حاشية البيضاوي: وفي ذكر الثمرات بعد المشروب إشارة إلى أن مأكول أهل الجنة للذة لا للحاجة^(٤) ﴿ومغفرةٌ من ربهم﴾ أي ولهم فوق ذلك النعيم الحسن نعيمٌ روحي وهو المغفرة من الله مع الرحمة والرضوان وفي الحديث (أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً) قال الصاوي: في الجنة ترفع عنهم التكاليف فيما يأكلونه ويشربونه، بخلاف الدنيا فإن مأكولها ومشروبها يترتب عليه الحساب والعقاب، ونعيم الآخرة لا حساب عليه ولا عقاب فيه^(٥) ﴿كمن هو خالدٌ في النار﴾ أي كمن هو مخلدٌ في الجحيم؟ والاستفهام للإنكار أي لا يستوي من هو في ذلك النعيم المقيم، بمن هو خالد في الجحيم؟ ﴿وسقوا ماءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ أي وسقوا مكان تلك الأشربة ماءً حاراً شديد الغليان، فقطع أحشاءهم من فرط حرارته؟ قال المفسرون: بلغ الماء الغاية في الحرارة، إذا دنا منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رءوسهم، فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم^(٦) ولما بين تعالى حال الكافرين، ذكر حال المنافقين فقال: ﴿ومِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين جماعة يستمعون إلى حديثك يا

(١) مختصر ابن كثير ٣/٣٣٢. (٢) نفس المرجع السابق والصفحة. (٣) تفسير أبي السعود ٥/٧٤.

(٤) حاشية زاده على البيضاوي ٣/٣٤٨. (٥) حاشية الصاوي ٤/٨٤. (٦) تفسير القرطبي ١٦/٢٣٧.

أَلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أَوْلَيْكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً طَيِّبَةً فَمَا تَأْتِيَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفَرَ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾

محمد ﴿حتى إذا خرجوا من عندك﴾ أي حتى إذا خرجوا من مجلسك ﴿قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا﴾ أي قالوا العلماء الصحابة - كابن عباس وابن مسعود - ماذا قال محمد قريباً في تلك الساعة ؟ قال ابن كثير : أخبر تعالى عن المنافقين في بلادهم وقلة فهمهم ، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه ، فلا يفهمون منه شيئاً ، فإذا خرجوا من عنده قالوا لأهل العلم من الصحابة : ماذا قال محمد ﴿آنفا﴾ أي الساعة ، لا يعقلون ما قال ولا يكثرثون به^(١) ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾ أي ختم على قلوبهم بالكفر ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي ساروا وراء أهوائهم الباطلة ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ أي وأما المؤمنون المتقون فقد زادهم الله هدى وأهمهم رشدهم قال الإمام الفخر : لما بيّن تعالى أن المنافق يستمع ولا يتتفع ، ويستعيد ولا يستفيد ، بيّن أن حال المؤمن المهتدي بخلافه ، فإنه يستمع فيفهم ، ويعمل بما يعلم ، وفيه فائدة وهو قطع عذر المنافق ، فإنه لو قال ما فهمت كلامه لغموضه ، يُردّ عليه بأن المؤمن فهم واستنبط ، فذلك لعناء القلوب لا لخباء المطلوب^(٢) ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة﴾ أي فهل ينتظرون إلا قيام الساعة فجأة فتبغتهم وهم سادرون غارون غافلون ؟ ﴿فقد جاء أشراتها﴾ أي فقد جاءت أماراتها وعلاماتها ، ومنها بعثة خاتم الرسل ﷺ ﴿فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ أي فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة ، حيث لا ينفع ندم ولا توبة ؟ ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ أي قدم يا محمد على ما أنت عليه من العلم بوحداية الله ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ أي اطلب من الله المغفرة لك وللمؤمنين والمؤمنات ﴿والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ أي يعلم تصرفكم في الدنيا ، ومصيركم في الآخرة ، فأعدوا الزاد ليوم المعاد .

قال الله تعالى : ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة . . إلى . . ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ من آية (٢٠) إلى آية (٣٨) نهاية السورة .

المناسكة : كان بدء السورة في الحديث عن الكافرين ، ثم جاء عن المؤمنين ، وهنا يأتي الحديث عن المنافقين ، وقد استغرق الجانب الأكبر من السورة باعتبارهم الخطر الداهم على الإسلام والمسلمين ، والآيات الكريمة تتحدث عن الجهاد وعن موقف المنافقين منه .

(١) مختصر ابن كثير ٣/٣٣٣ . (٢) التفسير الكبير ٥٨/٢٨ .

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
 مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴿٣٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ
 فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٣١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٣٢﴾
 أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٣٣﴾

اللغة: ﴿سَوَّلَ﴾ زَيَّنَ وَسَهَّلَ ﴿أَضْغَانُهُمْ﴾ أَحْقَادُهُمْ الدَّفِينَةُ قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : الضَّغْنُ
 وَالضَّغِينَةُ : الْحَقْدُ ، وَتَضَاغَنَ الْقَوْمُ أَبْطَنُوا عَلَى الْأَحْقَادِ (١) ﴿سِيَاهُمْ﴾ عَلَامَتُهُمْ ﴿السَّلْمُ﴾ الصَّلْحُ
 وَالْمَوَادِعَةُ ﴿يُحْفَكُمْ﴾ يَلْحُ عَلَيْكُمْ يُقَالُ : أَحْفَى بِالْمَسْأَلَةِ وَالْحَفُّ وَالْحَفُّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ ﴿يَتَرَكَمُ﴾ يَنْقَصُكُمْ
 يُقَالُ : وَتَرَهُ حَقَّهُ أَيْ نَقَصَهُ .

التفسير: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ﴾ أَي وَيَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ الْمَخْلُصُونَ شَوْقًا
 إِلَى الْجِهَادِ وَحِرْصًا عَلَى ثَوَابِهِ : هَلَّا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فِيهَا الْأَمْرُ بِالْجِهَادِ ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ
 فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أَي فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ صَرِيحَةٌ ظَاهِرَةٌ الدَّلَالَةَ عَلَى الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : ﴿مُحْكَمَةٌ﴾
 أَي لَمْ تَتَسَخَّرْ وَقَدْ قَالَ قَتَادَةُ : كُلُّ سُورَةٍ ذَكَرَ فِيهَا الْجِهَادَ فَهِيَ مُحْكَمَةٌ ، وَهِيَ أَشَدُّ الْقُرْآنِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ (٢)
 ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أَي رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ شَكٌّ وَنِفَاقٌ ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ
 نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أَي يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ تَشْخِصُ أَبْصَارَهُمْ جِبْنًا وَهَلْعًا ، كَمَا يَنْظُرُ
 مَنْ أَصَابَتْهُ الْعَشْيَةُ مِنْ حُلُولِ الْمَوْتِ ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ أَي فَوَيْلٌ لَهُمْ قَالَ فِي التَّسْهِيلِ : وَهِيَ كَلِمَةٌ مَعْنَاهَا
 التَّهْدِيدُ وَالِدَعَاءُ عَلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ (٣) ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ مَبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ
 الْخَبْرُ أَي طَاعَةٌ لَكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَقَوْلٌ جَمِيلٌ طَيِّبٌ خَيْرٌ لَهُمْ وَأَفْضَلُ وَأَحْسَنُ ، قَالَ الرَّازِيُّ : وَهُوَ كَلَامٌ
 مُسْتَأْنَفٌ مَحْذُوفٌ الْخَبْرُ تَقْدِيرُهُ خَيْرٌ لَهُمْ أَي أَحْسَنُ وَأَمْتَلُ ، وَإِنَّمَا جَازَ الْإِبْتِدَاءَ بِالنَّكْرَةِ لِأَنَّهَا مَوْصُوفَةٌ وَيَدُلُّ
 عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﴿وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ كَأَنَّهُ قَالَ : طَاعَةٌ مُخْلِصَةٌ ، وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ خَيْرٌ لَهُمْ (٤) ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أَي
 فَإِذَا جَدَّ الْجِدُّ وَفُرِضَ الْقِتَالُ ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أَي فَلَوْ أَخْلَصُوا نِيَاتَهُمْ وَجَاهَدُوا
 بِصِدْقٍ وَيَقِينٍ لَكَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُمْ مِنَ التَّقَاعِصِ وَالْعَصِيَانِ ، وَالجُمْلَةُ جَوَابُ الشَّرْطِ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ
 تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أَي فَلَعَلَّكُمْ إِنْ أَعْرَضْتُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ أَنْ تَرْجِعُوا إِلَى
 مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، مِنْ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ بِالْمَعَاصِي ، وَقَطْعِ الْأَرْحَامِ !! قَالَ قَتَادَةُ : كَيْفَ رَأَيْتُمْ
 الْقَوْمَ حِينَ تَوَلَّوْا عَنْ كِتَابِ اللَّهِ ، أَلَمْ يَسْفِكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ ، وَيَقْطَعُوا الْأَرْحَامَ ، وَيَعْصُوا الرَّحْمَنَ ؟ ! قَالَ
 أَبُو حِيَانَ : يَرِيدُ مَا جَرَى مِنَ الْفِتْرَِةِ بَعْدَ زَمَانِ الرَّسُولِ ﷺ (٥) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أَي طَرَدَهُمْ

(١) الصَّحَاحُ لِلْجَوْهَرِيِّ مَادَّةُ ضَغْنٍ . (٢) تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ ١٦/٢٤٣ .

(٣) التَّسْهِيلُ لِعُلُومِ التَّنْزِيلِ ٤/٤٩ وَذَهَبَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ إِلَى أَنَّ مَعْنَى ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ أَي أَحَقُّ وَأَجْدَرُ بِهِمْ وَخَيْرُهُ ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ وَمَا ذَكَرْنَاهُ أَظْهَرَ وَهُوَ اخْتِيَارُ الْقُرْطُبِيِّ . (٤) التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ ٢٨/٦٢ . (٥) الْبَحْرُ الْمَحِيطُ ٨/٨٢ .

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالًا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ آرْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ
 الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ
 وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
 اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطْ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٨﴾

وأبعدهم من رحمته ﴿فَأَصْمَهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾ أي فأصمهم عن استماع الحق ، وأعمى قلوبهم عن طريق الهدى فلا يهتدون إلى سبيل الرشاد قال القرطبي : أخبر تعالى أن من فعل ذلك حقت عليه اللعنة ، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره ، حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه ، فجعله كالبهيمة التي لا تعقل ^(١) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ ؟ الاستفهام توبيخي أي أفلا يتفهمون القرآن ويتصفحونه ليروا ما فيه من المواعظ والزواجر ، حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات ! ؟ ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالًا﴾ « أم » بمعنى « بل » وهو انتقال من توبيخهم على عدم التدبر إلى توبيخهم على ظلمة القلوب وقسوتها حتى لا تقبل التفكير والتدبر والمعنى : بل قلوبهم قاسية مظلمة كأنها مكبلّة بالأقفال الحديدية فلا ينفذ إليها نور ولا إيمان قال الرازي : إن القلب خلق للمعرفة فإذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه غير موجود ، وهذا كما يقول القائل في الإنسان المؤذي : هذا ليس بإنسان هذا وحش ، وهذا ليس بقلب هذا حجر ^(٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آرْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي رجعوا إلى الكفر بعد الإيمان ، وبعد أن وضح لهم طريق الهدى بالدلائل الظاهرة والمعجزات الواضحة ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي الشيطان زين لهم ذلك الأمر ، وغرهم وخدعهم بالأمل ، وطول الأجل ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي ذلك الإضلال بسبب أنهم قالوا لليهود الذين كرهوا القرآن الذي نزل الله حسداً وبغياً ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ﴾ أي سنطيعكم في بعض ما تأمروننا به كالقعود عن الجهاد ، وتشبيط المسلمين عنه وغير ذلك ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي وهو جل وعلا يعلم خفاياهم ، وما يبتنونه من الكيد والدرس والتآمر على الإسلام والمسلمين قال المفسرون : قال المنافقون لليهود ذلك سراً فأظهره الله تعالى وفضحهم ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أي فكيف يكون حالهم حين تحضرهم ملائكة العذاب لقبض أرواحهم ومعهم مقامع من حديد يضربون بها وجوههم وظهورهم ؟ قال القرطبي : والمعنى على التخويف والتهديد أي إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر ^(٣) قال ابن عباس : لا يتوفى أحد على معصية إلا تضرب الملائكة في وجهه وفي دبره ^(٤) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم سلكوا طريق النفاق وكرهوا ما يرضي الله من الإيمان والجهاد وغيرها من الطاعات ﴿فَاحْبَطْ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي أبطل ما عملوه حال إيمانهم

(١) تفسير القرطبي ٢٤٦/١٦ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٦٦/٢٨ .

(٣) القرطبي ٢٥٠/١٦ . (٤) البحر المحيط ٨٤/٨ .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنْهُمْ ﴿٢١﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتُمُ
بِسِيمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٢٢﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ
وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٢٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ
أَهْدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ ﴿٢٤﴾ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا
تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٢٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٢٦﴾

من أعمال البر ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم﴾ ؟ أي أيعتقد المنافقون
الذين في قلوبهم شك ونفاق أن الله لن يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ؟ وأنه لن يظهر بغضهم وأحقادهم
على الإسلام والمسلمين ؟ لا بد أن يفضحهم ويكشف أمرهم ﴿ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتكم بسيماهم﴾
أي لو أردنا لأريناك يا محمد أشخاصهم فعرفتكم عياناً بعلامتهم ولكن الله ستر عليهم إيتاءً عليهم وعلى
أقاربهم من المسلمين لعلهم يتوبون ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ أي ولتعرفن يا محمد المنافقين من
فحوى كلامهم وأسلوبه ، فيما يعرضونه بك من القول الذي ظاهره إيمان وإسلام وباطنه كفر ومسبة قال
الكلبي : لم يتكلم بعد نزولها عند النبي ﷺ منافق إلا عرفه ^(١) ﴿والله يعلم أعمالكم﴾ أي لا يخفى عليه
شيء من أعمالكم فيجازيكم بحسب قصدكم ، ففيه وعد ووعد ﴿ولنبلوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ
مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ أي ولنختبرنكم أيها الناس بالجهاد وغيره من التكليف الشاقة حتى نعلم - علم
ظهور - المجاهدين في سبيل الله ، والصابرين على مشاق الجهاد ﴿ونبلوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي ونختبر أعمالكم
حسنها وقبيحها قال في التسهيل : المراد بقوله ﴿حتى نعلم﴾ أي نعلمه علماً ظاهراً في الوجود تقوم به الحجة
عليكم ، وقد علم الله الأشياء قبل كونها ، ولكنه أراد إقامة الحجة على عباده بما يصدر منهم ، وكان
الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لا تبتلنا فإنك إذا ابتليتنا فضحتنا وهتكت
أستارنا ^(٢) ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾ أي جحدوا بآيات الله ومنعوا الناس عن الدخول
في الإسلام ﴿وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى﴾ أي عادوا الرسول وخرجوا عن طاعته من
بعد ما ظهر لهم صدقه وأنه رسول الله بالحجج والآيات ﴿لن يضرروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم﴾ أي
لن يضرروا الله بكفرهم وصددهم شيئاً من الضرر ، وسيبطل أعمالهم من صدقة ونحوها فلا يرون لها في
الآخرة ثواباً ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ أي امتثلوا أوامر الله وأوامر رسوله
﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ أي ولا تبطلوا أعمالكم بما أبطل به هؤلاء أعمالهم من الكفر والنفاق ، والعجب
والرياء ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾ أي جحدوا بآيات الله وصدوا الناس عن طريق
الهدى والإيمان ﴿ثم ماتوا وهم كفار﴾ أي وماتوا على الكفر ﴿فلن يغفر الله لهم﴾ أي فلن يغفر الله

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَهَوٌّ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمْ مَوَالِيكُمْ فِيمَنْكُمْ تَبَخَّلُوا وَبِخْرَجِ اضْغَنْكُمْ ﴿٣٧﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَن نَّفْسِهِ ۗ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ۗ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا

لهم بحال من الأحوال ، وهذا قطع بأن من مات على الكفر لا يغفر الله له لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ قال أبو السعود : وهذا حكم يعم كل من مات على الكفر ، وإن صح نزوله في أصحاب القلب (١) ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أي فلا تضعفوا وتدعوا إلى المهادنة والصلح مع الكفار إذا لقيتموهم ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي وأنتم الأعزة الغالبون لأنكم مؤمنون ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي والله معكم بالعون والنصر ﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم قال ابن كثير : وفي قوله ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء (٢) ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَهَوٌّ﴾ أي ما الحياة الدنيا إلا زائلة فانية ، لا قرار لها ولا ثبات ، كاللعب والهوى الذي يتلهى به الأولاد قال شيخ زاده : بين تعالى أن الدنيا وما فيها من الحظوظ العاجلة ، لا يصلح مانعاً من الإقدام إلى الجهاد ، وما يؤدي إلى ثواب الآخرة ، لكونها بمنزلة اللهو واللعب في سرعة زوالها ، وأن الآخرة هي الحياة الباقية ، فلا ينبغي أن يكون حب الدنيا والحرص على ما فيها من اللذات والشهوات سبباً للجبين عن الغزو والتخلف عن الجهاد (٣) ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ﴾ أي وإن تؤمنوا بالله وتتقوه حق تقواه ، يعطكم ثواب أعمالكم كاملاً ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي ولا يطلب منكم أن تنفقوا جميع أموالكم ، بل الزكاة المفروضة فيها قال ابن كثير : أي هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً ، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساةً لإخوانكم الفقراء ، ليعود نفع ذلك وثوابه عليكم (٤) ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْ مَوَالِيكُمْ فِيمَنْكُمْ تَبَخَّلُوا﴾ أي إن يسألكم جميع أموالكم ويبالغ في طلبها ، ويلح عليكم في إنفاقها تبخلوا ﴿وَيُخْرِجِ اضْغَانَكُمْ﴾ أي ويخرج ما في قلوبكم من البخل وكراهة الإنفاق قال في التسهيل : وذلك لأن الإنسان جبل على محبة الأموال ، ومن نوزع في حبيبه ظهرت سرائره ، فمن رحمته تعالى على عباده عدم التشديد عليهم في التكاليف (٥) ﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ها أنتم معشر المخاطبين تدعون للإنفاق في سبيل الله ، وقد كلفتم ما تطيقون ﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ﴾ أي فمنكم من يشح عن الإنفاق ويمسك عنه ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي ومن بخل عن الإنفاق في سبيل الله فإنما يعود ضرر بخله على نفسه ، لأنه يمنعها الأجر والثواب قال الصاوي : وبخل يتعدى بـ «على» إذا ضمَّن معنى شح ، وبـ «عن» إذا ضمَّن معنى أمسك (٦) ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ أي والله مستغن عن إنفاقكم ليس محتاج إلى أموالكم ،

(١) أبو السعود ٧٨/٥ . (٢) مختصر ابن كثير ٣٣٨/٣ . (٣) حاشية زاده على البيضاوي ٣٥٢/٣ .

(٤) مختصر ابن كثير ٣٣٨/٣ . (٥) التسهيل ٥٠/٤ . (٦) حاشية الصاوي ٨٩/٤ .

أَمْثَلَكُمْ ﴿٢٨﴾

وأنتم محتاجون إليه ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم﴾ أي وإن تعرضوا عن طاعته واتباع أوامره ، يخلف مكانكم قوماً آخرين يكونون أطوع لله منكم ﴿ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ أي لا يكونون مثلكم في البخل عن الإنفاق بل يكونوا كرماء أسخياء .

البلاغة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - المقابلة بين الآية الأولى والثانية ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضلّ أعماهم﴾ وبين ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات . . .﴾ الآية وهو من المحسنات البديعية .
- ٢ - ذكر الخاص بعد العام ﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾ والنكته تعظيمه والاعتناء بشأنه .
- ٣ - الاستعارة التبعية ﴿تضع الحرب أوزارها﴾ شبه ترك القتال بوضع آله ، واشتق من الوضع « تضع » بمعنى تنتهي وتترك بطريق الاستعارة التبعية .
- ٤ - المجاز المرسل ﴿ويثبت أقدامكم﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي يثبتكم ، وعبر بالأقدام لأن الثبات والتزلزل يظهران فيها وهو مثل ﴿بما كسبت أيديكم﴾ .
- ٥ - الطباق بين ﴿منأ . . . وفداء﴾ وبين ﴿آمنوا . . . وكفروا﴾ وبين ﴿الغني . . . والفقراء﴾ .
- ٦ - المجاز العقلي ﴿فإذا عزم الأمر﴾ نسب العزم إلى الأمر وهو لأهله مثل نهاره صائم .
- ٧ - الالتفات ﴿فهل عسيتم إن توليتم﴾ وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب لتأكيد التوبيخ وتشديد التقرير .
- ٩ - الاستعارة التصريحية ﴿أم على قلوب أفاها﴾ شبه قلوبهم بالأبواب المقفلة ، فإنها لا تنفتح لوعظ واعظ ، ولا يفيد فيها عدل عادل ، وهي من لطائف الاستعارات .
- ١٠ - الإطناب بتكرار ذكر الأنهار ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين . . .﴾ الآية وذلك لزيادة التشويق إلى نعيم الجنة .
- ١١ - الكناية ﴿ارتدوا على أدبارهم﴾ كناية عن الكفر بعد الإيمان .
- ١٢ - السجع الرصين غير المتكلف ﴿أضلّ أعماهم . واتبعوا أهواءهم . وأعمى أبصارهم﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة محمد »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* هذه السورة الكريمة مدنية ، وهي تُعنى بجانب التشريع شأن سائر السور المدنية التي تعالج الأسس التشريعية في المعاملات ، والعبادات ، والأخلاق ، والتوجيه .

* تحدثت السورة الكريمة عن « صلح الحديبية » الذي تمَّ بين الرسول ﷺ وبين المشركين سنة ست من الهجرة ، والذي كان بدايةً للفتح الأعظم « فتح مكة » وبه تمَّ العزُّ والنصر والتمكين للمؤمنين ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . . . ﴾ الآيات .

* وتحدثت السورة عن جهاد المؤمنين ، وعن « بيعة الرضوان » التي بايع فيها الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ على الجهاد في سبيل الله حتى الموت ، وكانت بيعةً جليلة الشأن ولذلك باركها الله ، ورضي عن أصحابها ، وسجلها في كتابه العظيم في سطور من نور ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ . . . ﴾ الآية .

* وتحدثت عن الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ من الأعراب الذين في قلوبهم مرض ، ومن المنافقين الذين ظنوا الظنون السيئة برسول الله ﷺ وبالمؤمنين فلم يخرجوا معهم ، فجاءت الآيات تفضحهم وتكشف سرائرهم ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا . . . ﴾ الآيات .

* وتحدثت السورة عن الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ في منامه - في المدينة المنورة - وحدثت بها أصحابه ففرحوا واستبشروا ، وهي دخول الرسول ﷺ والمسلمين مكة آمنين مطمئنين ، وقد تحققت تلك الرؤيا الصادقة فدخلها المؤمنون معتمرين مع الأمن والطمأنينة ﴿ لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِالرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسِهِمْ وَمُقَصِّرِينَ . . . ﴾ .

* وختمت السورة الكريمة بالثناء على الرسول ﷺ وأصحابه الأطهار الأخيار ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ . . . ﴾ الآية .

التَّسْمِيَةُ : سميت سورة الفتح لأن الله تعالى بشر المؤمنين بالفتح المبين ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . . . ﴾ الآيات .

فضأها : نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية ، ولما نزلت هذه السورة قال صلوات الله عليه : (لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحبُّ إلي من الدنيا وما فيها) ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ أخرجه الإمام أحمد .

قال الله تعالى : ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . . إلى . . ومن يتولّ يعذبه عذاباً أليماً﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (١٧) .

اللفظة : ﴿السكينة﴾ السكونُ والطمأنينة والثباتُ ﴿السوء﴾ المساءة والحزن والألم قال الجوهري : ساءه سوءاً بالفتح ومساءةً نقيضُ سرّه ، والإسْمُ السُّوءُ بالضم ، ودائرة السُّوءِ يعني الهزيمة والشر ، ومن فتح فهو من المساءة^(١) ﴿تعزروه﴾ تعظّموه وتنصروه وتمنعوا الأذى عنه ، وسمي التعزيزُ في الحدود تعزيراً لأنه مانع من فعل القبيح ﴿نكث﴾ نقض البيعة والعهد ﴿بوراً﴾ هلكى قال الجوهري : البورُ : الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه ، و « قوماً بوراً » جمع بائر ، وبار فلان أي هلك^(٢) ﴿حرج﴾ إثم وذنب .

سببُ النزول : عن ابن عباس قال : تخلف عن رسول الله ﷺ أعراب المدينة حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح ، بعد أن كان استنفرهم معه حذراً من قريش ، وأحرم بعمرةٍ وساق معه الهدي ليعلم الناسُ أنه لا يريد حرباً ، فثاقلوا عنه واعتلوا بالشغل فنزلت ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا . .﴾ الآية^(٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا

التفسير : ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ أي قد فتحنا لك يا محمد مكة فتحاً بيناً ظاهراً ، وحكمنا لك بالفتح المبين على أعدائك ، والمراد بالفتح فتح مكة ، وعده الله به قبل أن يكون ، وذكره بلفظ الماضي لتحققه ، وكانت بشارة عظيمة من الله تعالى لرسوله وللمؤمنين قال الزمخشري : هو فتح مكة ، وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية ، وهو وعدُّه بالفتح ، وجيء به بلفظ الماضي على عادة ربّ العزة سبحانه في أخباره ، لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة ، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن الفتح ما لا يخفى^(٣) ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾

(١) الصحاح للجوهري . (٢) نفس المرجع السابق . (٣) تفسير القرطبي ١٦/٢٦٨ (٣) الكشاف ٤/٢٦٢ وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالفتح « صلح الحديبية » لما ترتب عليه من الآثار العظيمة ، من بيعة الرضوان ، ومن الصلح الذي عقده رسول الله مع قريش ، ومن دخول كثير في الإسلام ، إلى غير ما هنالك ، وإلى هذا ذهب ابن كثير .

مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۗ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ

أي ليغفر لك ربك يا محمد جميع ما فرط منك من ترك الأولى قال أبو السعود : وتسميته ذنباً بالنظر إلى منصبه الجليل^(١) وقال ابن كثير : هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره ، وفيه تشریف عظيم لرسول الله ﷺ إذ هو أكمل البشر على الإطلاق ، وسيدهم في الدنيا والآخرة ، وهو في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه ، لا من الأولين ولا من الآخرين ، ولما كان أطوع خلق الله بشره الله بالفتح المبين ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر^(٢) ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أي ويكمل نعمته عليك بإعلاء الدين ورفع مناره ﴿ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أي ويرشدك إلى الطريق القويم ، الموصل إلى جنات النعيم ؛ بما يشرعه لك من الدين العظيم ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴾ أي وينصرك الله على أعدائك نصراً قوياً منيعاً ، فيه عزة وغلبة ، يجمع لك به بين عز الدنيا والآخرة ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي هو جل وعلا الذي جعل السكون والطمأنينة في قلوب المؤمنين ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ أي ليزدادوا يقيناً مع يقينهم ، وتصديقاً مع تصديقهم ، برسوخ العقيدة في القلوب ، والتوكل على علام الغيوب ﴿ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي ولله - جلَّت عظمته - كل جنود السموات والأرض ، من الملائكة والجن ، والحيوانات ، والصواعق المدمرة ، والزلازل ، والحسف ، والغرق ، جنود لا تُحصى ولا تُغلب ، يسلمها على من يشاء قال ابن كثير : ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم ، ولكنه تعالى شرع لعباده الجهاد ، لماله في ذلك من الحجة القاطعة والحكمة البالغة^(٣) ولذلك قال ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي علماً بأحوال خلقه ، حكماً في تقديره وتديبره قال المفسرون : أراد بإنزال السكينة في قلوب المؤمنين « أهل الحديبية » حين بايعوا رسول الله ﷺ على مناجزة الحرب مع أهل مكة ، بعد أن حصل لهم ما يزعج النفوس ويزيغ القلوب ، من صد الكفار لهم عن دخول مكة ، ورجوع الصحابة دون بلوغ مقصود ، فلم يرجع منهم أحد عن الإيمان ، بعد أن هاج الناس وماجوا ، وزلزلوا حتى جاء عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ وقال : ألسنت نبي الله حقاً ؟ قال : بلى ، قال : ألسنا على الحق وعدوُّنا على الباطل ؟ قال : بلى ، قال : فلم نعط الدين في ديننا إذن ؟ قال : إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري^(٤) . . الخ . ﴿ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ليدخلهم - على طاعتهم وجهادهم - حدائق وبساتين ناضرة ، تجري من تحتها أنهار الجنة ماكثين فيها أبداً ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي ويمحو عنهم خطاياهم وذنوبهم ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ

(١) أبو السعود ٥/ ٨٠ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٤٠ .

(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٤١ . (٤) انظر تفصيل القصة في صحيح البخاري وفي سيرة ابن هشام .

الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٧٢﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فِيمَا

عند الله فوزاً عظيماً ﴿٧٣﴾ أي وكان ذلك الإدخال في الجنات والتكفير عن السيئات ، فوزاً كبيراً وسعادةً لا مزيد عليها ، إذ ليس بعد نعيم الجنة نعيم ﴿٧٠﴾ ويُعذَّبُ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴿٧١﴾ أي وليعذَّبُ الله أهل النفاق والإشراك ، وقدمهم على المشركين لأنهم أعظم خطراً وأشد ضرراً من الكفار المجاهرين بالكفر ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أي الظالمين بربهم أسوأ الظنون ، ظنوا أن الله تعالى لن ينصر رسوله والمؤمنين ، وأن المشركين يستأصلونهم جميعاً كما قال تعالى ﴿٧٢﴾ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ﴿٧٣﴾ قال القرطبي : ظنوا أن النبي ﷺ لا يرجع إلى المدينة ولا أحد من أصحابه حين خرج إلى الحديبية (١) ﴿عليهم دائرة السوء﴾ دعاء عليهم أي عليهم ما يظنونونه ويتربصونه بالمؤمنين من الهلاك والدمار ﴿وغضب الله عليهم ولعنهم﴾ أي سخط تعالى عليهم بكفرهم ونفاقهم ، وأبعدهم عن رحمته ﴿وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾ أي وهياً لهم في الآخرة ناراً مستعرة هي نار جهنم ، وساءت مرجعاً ومنقلباً لأهل النفاق والضلال ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ تأكيد للانتقام من الأعداء أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين قال الرازي : كرر اللفظ لأن جنود الله قد يكون إنزالهم للرحمة ، وقد يكون للعذاب ، فذكرهم أولاً لبيان الرحمة بالمؤمنين وثانياً لبيان إنزال العذاب على الكافرين (٢) ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ أي عزيزاً في ملكه وسلطانه ، حكيماً في صنعه وتدبيره قال الصاوي : ذكر هذه الآية أولاً في معرض الخلق والتدبير فذيلها بقوله ﴿عليماً حكيماً﴾ وذكرها ثانياً في معرض الانتقام فذيلها بقوله ﴿عزيزاً حكيماً﴾ (٣) وهو في منتهى الترتيب الحسن ، لأنه تعالى ينزل جنود الرحمة لنصرة المؤمنين ، وجنود العذاب لإهلاك الكافرين . . ثم امتن تعالى على رسوله الكريم بتشريفه بالرسالة ، وبعثه إلى كافة الخلق فقال ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ أي إنا أرسلناك يا محمد شاهداً على الخلق يوم القيامة ، ومبشراً للمؤمنين بالجنة ، ومنذراً للكافرين من عذاب النار ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله﴾ أي أرسلنا الرسول لتؤمنوا أيها الناس بربكم ورسولكم حق الإيمان ، إيماناً عن اعتقاد ويقين ، لا يخالطه شك ولا ارتياب ﴿وتعزروه﴾ أي ثفخموه وتعضمموه ﴿وتوقروه﴾ أي تحترموا وتجلوا أمره مع التعظيم والتكريم ، والضمير فيهما للنبي ﷺ ﴿وتسبحوه بكرةً وأصيلاً﴾ أي تسبحوا ربكم في الصباح والمساء (٤) ، ليكون القلب متصلاً بالله في كل آن ، ثم قال تعالى ﴿إن الذين يبائعونك إنما يبائعون الله﴾ أي إن الذين

(١) تفسير القرطبي ١٦ / ٢٦٥ . (٢) التفسير الكبير ٢٨ / ٨٤ . (٣) حاشية الصاوي ٤ / ٩٢ . (٤) الضمير هنا عائد على الله تعالى وقيل إن الضمائر كلها راجعة على الله سبحانه وهو اختيار البيضاوي وأبي السعود ، وما ذكرناه منقول عن الضحاك وهو اختيار القرطبي .

يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ۗ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيَسُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ
شَغَلْتْنَا أَموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ۗ يَقُولُونَ بِالْإِسْتِثْمَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ
أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٧﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ

يباعونك يا محمد في الحديبية « بيعة الرضوان » إنما يبايعون في الحقيقة الله ، وهذا تشريف للنبي ﷺ حيث جعل مبايعته بمنزلة مبايعة الله ، لأن الرسول ﷺ سفيرٌ ومعبرٌ عن الله قال المفسرون : المراد بالبيعة هنا بيعة الرضوان بالحديبية ، حين بايع الصحابة رسول الله ﷺ على الموت كما روى الشيخان عن سلمة ابن الأكوع أنه قال : « بايعنا رسول الله ﷺ على الموت » وسميت « بيعة الرضوان » لقول الله فيها ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ قال ابن كثير : أي هو تعالى حاضر معهم ، يسمع أقوالهم ، ويرى مكانهم ، ويعلم ضمايرهم وظواهرهم ، فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله ﷺ (١) وقال الزمخشري : يريد أن يد رسول الله ﷺ التي تعلو أيدي المبايعين هي يدُ الله ، والمعنى أن من بايع الرسول فقد بايع الله كقوله تعالى ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ (٢) ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ أي فمن نقض البيعة فإنما يعود ضرر نكثه عليه ، لأنه حرم نفسه الثواب وألزمها العقاب بنقضه العهد والميثاق الذي عاهد به ربه ﴿ ومن أوفى بما عاهد عليه الله ﴾ أي ومن وفى بعهده ﴿ فسيؤتیه أجراً عظيماً ﴾ أي فسيعطيه الله ثواباً جزيلاً ، وهو الجنة دار الأبرار ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب ﴾ أي سيقول لك يا محمد المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج معك عام الحديبية من أعراب المدينة ﴿ شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ﴾ أي شغلنا عن الخروج معك بالأموال والأولاد ، فاطلب لنا من الله المغفرة ، لأن تخلفنا لم يكن باختيار بل عن اضطرار قال في التسهيل : سألهم تعالى بالمخلفين لأنهم تخلفوا عن غزوة الحديبية ، - والأعراب هم أهل البوادي من العرب - لما خرج رسول الله ﷺ إلى مكة يعتمر ، رأوا أنه يستقبل عدواً كثيراً من قريش وغيرهم فقعدها عن الخروج معه ، ولم يكن إيمانهم متمكناً فظنوا أنه لا يرجع هو والمؤمنون من ذلك السفر ، ففضحهم الله في هذه السورة وأعلم تعالى رسوله ﷺ بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم ، وأعلمهم أنهم كاذبون في اعتذارهم (٣) ﴿ يقولون بالأسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ أي يقولون خلاف ما يبطنون وهذا هو النفاق المحض ، فهم كاذبون في الاعتذار وطلب الاستغفار ، لأنهم قالوه رياءً من غير صدق ولا توبة ﴿ قل فمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ ؟ أي قل لهم : مَنْ يمنعكم من مشيئة الله وقضائه ، إن أراد أن يلحق بكم أمراً يضركم كالهزيمة ، أو أمراً ينفعكم كالنصر والغنيمة ؟ قال القرطبي : وهذا ردٌ عليهم حين ظنوا أن التخلف عن الرسول ﷺ يدفع عنهم الضرر ، ويُعجل لهم النفع (٤) ﴿ بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم بل الله مطلع على ما في قلوبكم من

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣٤٢ . (٢) الكشاف ٤/٢٦٥ . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٥٢ . (٤) تفسير القرطبي ١٦/٢٦٩ .

وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَ السَّوِّءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ
 بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ
 مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ
 يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُل لَّن نَتَّبِعُونَ كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا
 لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ

الكذب والنفاق، ثم أظهر تعالى ما يخفونه في نفوسهم فقال ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبدا﴾ أي بل ظننتم أيها المنافقون أن محمداً وأصحابه لن يرجعوا إلى المدينة أبداً ﴿وزين ذلك في قلوبكم﴾ أي وزين ذلك الضلال في قلوبكم ﴿وظننتم ظن السوء﴾ أي ظننتم أنهم يستأصلون بالقتل، ولا يرجع منهم أحد ﴿وكنتم قوماً بوراً﴾ أي وكنتم قوماً هالكين عند الله، مستوجبين لسخطه وعقابه ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله﴾ لما بين حال المتخلفين عن رسول الله، وبين حال ظنهم الفاسد، وأنه يفضي بصاحبه إلى الكفر، حرصهم على الإيمان والتوبة على سبيل العموم والمعنى من لم يؤمن بالله ورسوله بطريق الإخلاص والصدق ﴿فإننا أعتدنا للكافرين سعيراً﴾ أي فإننا هيأنا للكافرين ناراً شديدة مستعرة، وهو وعيد شديد للمنافقين ﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ أي له جل وعلا جميع ما في السموات والأرض، يتصرف في الكل كيف يشاء ﴿يفغر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ أي يرحم من يشاء من عباده ويعذب من يشاء، وهذا قطع لطمعهم في استغفار رسول الله ﷺ لهم ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة ﴿سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها﴾ أي سيقول الذين تخلّفوا عن الخروج مع رسول الله في عمرة الحديبية، عند ذهابكم إلى مغانم خيبر لتحصلوا عليها ﴿ذرونا نتبعكم﴾ أي اتركونا نخرج معكم إلى خيبر لنقاتل معكم ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ أي يريدون أن يغيروا وعد الله الذي وعده لأهل الحديبية من جعل غنائم خيبر لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد قال القرطبي: إن الله تعالى جعل لأهل الحديبية غنائم خيبر عوضاً عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح^(١) ﴿قل لن تتبعونا﴾ أي قل لهم لا تتبعونا فلن يكون لكم فيها نصيب ﴿كذلك قال الله من قبل﴾ أي كذلك حكم الله تعالى بأن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية، ليس لغيرهم فيها نصيب قبل رجوعنا منها ﴿فسيقولون بل تحسدوننا﴾ أي فسيقولون ليس هذا من الله بل هو حسد منكم لنا على مشاركتكم في الغنيمة، قال تعالى رداً عليهم ﴿بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾ أي لا يفهمون إلا فهماً قليلاً وهو حرصهم على الغنائم وأمور الدنيا ﴿قل للمخلفين من الأعراب سُدُّعُونَ إلى قومٍ أولي

يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يَطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

بأسٍ شديدٍ ﴿﴾ أي قل هؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية - كرر وصفهم بهذا الاسم إظهاراً لشناعته ومبالغةً في ذمهم - ستدعون إلى حرب قوم أشداء ، هم بنو حنيفة - قوم مسيلمة الكذاب - أصحاب الردة ﴿تقاتلونهم أو يسلمون﴾ أي إما أن تقتلوهم أو يدخلوا في دينكم بلا قتال ﴿فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً﴾ أي فإن تستجيبوا وتخرجوا لقتالهم يعطكم الله الغنيمة والنصر في الدنيا ، والجنة في الآخرة ﴿وإن تولَّوْا كما تولَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وإن تتخلفوا عن الخروج كما تخلفتم زمن الحديبية ، يعذبكم الله عذاباً شديداً مؤلماً في نار جهنم . . ثم ذكر تعالى الأعداء في ترك الجهاد فقال ﴿ليس على الأعمى حرجٌ ولا على الأعرج حرجٌ ولا على المريض حرجٌ﴾ أي ليس على هؤلاء إثم أو ذنب في ترك الخروج للجهاد لما بهم من الأعداء الظاهرة ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي من يطع أمر الله وأمر الرسول يدخله جنات النعيم خالداً فيها ﴿ومن يتولَّ يعذبهُ عذاباً أليماً﴾ أي ومن ينكل عن الجهاد لغير عذر يعذبهُ الله عذاباً شديداً ، في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار .

قال الله تعالى : ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة . . إلى . . مغفرةً وأجرًا عظيماً﴾

المُنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى حال المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ، ذكر تعالى حال المؤمنين المجاهدين الذين بايعوا الرسول « بيعة الرضوان » تسجيلاً لرضى الله تعالى عنهم ، وتخليداً لمآثرهم الكريمة ، وختم السورة الكريمة بالثناء على الصحابة الأبرار ، بأبلغ ثناء وأكرم تمجيد .

اللِّغْطُ : ﴿أظفركم﴾ أظهركم وأعلامكم ، ظفر بالشيء غلب عليه ، وأظفره غلبه (١) ﴿معكوفاً﴾ محبوساً ومنه الاعتكاف ﴿معرّة﴾ المعرّة : العيب والمشقة اللاصقة بالإنسان من العُرِّ وهو الجرب ﴿تزيلوا﴾ تميزوا ﴿الحمية﴾ الأنفة والغضب الشديد ﴿سياهم﴾ علامتهم ﴿شطأه﴾ الشطء : الفراخ قال الجوهري : شطء الزرع والنبات فراخه والجمع أشطاء (٢) ﴿آزره﴾ قوّاه وأعانه وشده .

سَبَبُ النَّزُولِ : عن أنس رضي الله عنه أن ثمانين من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ من التنعيم متسلحين يريدون الغدر به وبأصحابه فأخذناهم أسرى فأنزل الله تعالى ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة . . الآية (٣)﴾ .

* لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾

التفسير : ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ اللام موثقة لقسم محذوف أي والله لقد رضي الله عن المؤمنين حين بايعوك يا محمد «بيعة الرضوان» تحت ظل الشجرة بالحديبية قال المفسرون : كان سبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ لما بلغ الحديبية أرسل عثمان بن عفان إلى أهل مكة يخبرهم أنه إنما جاء معتمراً ، وأنه لا يريد حرباً ، فلما ذهب عثمان حبسوه عندهم ، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل ، فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة على أن يدخلوا مكة حرباً ، وبايعوه على الموت ، فكانت بيعة الرضوان ، فلما بلغ المشركين ذلك أخذهم الرعب وأطلقوا عثمان وطلبوا الصلح من رسول الله ﷺ على أن يأتي في العام القابل ، ويدخلها ويقيم فيها ثلاثة أيام ، وكانت هذه البيعة تحت شجرة سمرة بالحديبية وقد سميت «بيعة الرضوان» ولما رجع المسلمون يعلوهم الحزن والكآبة، أراد الله تسليتهم وإذهاب الحزن عنهم فانزل هذه السورة على رسوله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ وكان عدد الذين بايعوا رسول الله ﷺ ألفاً وأربعمائة رجل ، وفيهم نزلت الآية الكريمة ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ ولم يتخلف عن البيعة إلا «الجد ابن قيس» من المنافقين ، وحضر هذه البيعة روح القدس جبريل الأمين ، ولهذا سطرت في الكتاب المبين^(١) ﴿فعلّم ما في قلوبهم﴾ أي فعلّم تعالى ما في قلوبهم من الصدق والوفاء ، عند مبايعتهم لك على حرب الأعداء ﴿فأنزل السكينة عليهم﴾ أي رزقهم الطمأنينة وسكون النفس عند البيعة ﴿وأثابهم فتحاً قريباً﴾ أي وجازاهم على بيعة الرضوان بفتح خير ، وما فيها من النصر والغنائم ، زيادةً على ثواب الآخرة ﴿ومغانم كثيرة يأخذونها﴾ أي وجعل لهم الغنائم الكثيرة التي غنموها من خير قال ابن كثير : هو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم ، وما حصل بذلك من الخير العام بفتح خير ، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم ، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة^(٢) ، ولهذا قال تعالى ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ أي غالباً على أمره ، حكماً في تديبه وصنعه ، ولهذا نصركم عليهم وغنمكم أرضهم وديارهم وأموالهم ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾ أي وعدكم الله معشر المؤمنين - على جهادكم وصبركم - الفتوحات الكثيرة ، والغنائم الوفيرة تأخذونها من أعدائكم ، قال ابن عباس : هي المغانم التي تكون إلى يوم القيامة^(٣) قال في البحر : ولقد اتسع نطاق الإسلام ، وفتح المسلمون فتوحاً لا تحصى ، وغنموا مغانم لا تعدُّ وذلك في شرق البلاد وغربها ، حتى في الهند والسودان - تصديقاً لوعده تعالى - وقدم علينا أحد ملوك غانة من بلاد التكرور ، وقد فتح أكثر من

(١) انظر تفصيل القصة في تفسير القرطبي ٢٧٤/١٦ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٣٤٥ . (٣) تفسير القرطبي ١٦/٢٧٨ .

وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا
الْأُدْبُرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

خمسة وعشرين مملكة من بلاد السودان ، وأسلموا معه وقدم علينا ببعض ملوكهم يحج معه ^(١) ﴿فَعَجَّلْ لَكُمْ هَذِهِ﴾ أي فعجل لكم غنائم خيبر بدون جهد وقتال ﴿وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أي ومنع أيدي الناس أن تمتد إليكم بسوء قال المفسرون : المراد أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان ، حين جاءوا لنصرتهم فقذف الله في قلوبهم الرعب ﴿وَلَتَكُونَ آيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولتكون الغنائم ، وفتح مكة ، ودخول المسجد الحرام علامة واضحة تعرفون بها صدق الرسول فيما أخبركم به عن الله ﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي ويهديكم تعالى إلى الطريق القويم ، الموصل إلى جنات النعيم بجهادكم وإخلاصكم قال الإمام الفخر : والآية للإشارة إلى أن ما أعطاهم من الفتح والمغانم ، ليس هو كل الثواب ، بل الجزاء أمامهم ، وإنما هي شيء عاجل عجله لهم لينتفعوا به ، ولتكون آية لمن بعدهم من المؤمنين ، تدل على صدق وعد الله في وصول ما وعدهم به كما وصل إليكم ^(٢) ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ أي وغنيمة أخرى يسرها لكم ، لم تكونوا بقدرتكم تستطيعون عليها ، ولكن الله بفضله وكرمه فتحها لكم ، والمراد بها فتح مكة ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي قد استولى الله عليها بقدرته ووهبها لكم ، فهي كالشيء المحاط به من جوانبه محبوس لكم لا يفوتكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي قادراً على كل شيء ، لا يعجزه شيء أبداً ، فهو القادر على نصره أوليائه ، وهزم أعدائه قال ابن كثير : المعنى أي وغنيمة أخرى وفتحاً آخر معيناً ، لم تكونوا تقدرون عليها ، قد يسرها الله عليكم وأحاط بها لكم ، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين من حيث لا يحتسبون والمراد بها في هذه الآية «فتح مكة» وهو اختيار الطبري ^(٣) ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأُدْبَارُ﴾ تذكير لهم بنعمة أخرى أي ولو قاتلكم أهل مكة ولم يقع الصلح بينكم وبينهم ، لغلبوا وانهمزوا أمامكم ولم يثبتوا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي ثم لا يجدون من يتولى أمرهم بالحفظ والرعاية ، ولا من ينصرهم من عذاب الله ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي تلك طريقة الله وعادته التي سنّها فيمن مضى من الأمم ، من هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين قال في البحر : أي سنّ الله لأنبيائه ورسله سنة قديمة وهي قوله ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ ^(٤) ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي وسنته تعالى لا تبدل ولا تتغير ﴿وَهُوَ

(١) التفسير الكبير ٩٦/٢٨ . (٢) ما ذكره ابن كثير هو الراجح وهو اختيار الطبري وأبي حيان ، وهو منقول عن قتادة والحسن ، ويؤيده أن الله تعالى قال ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وهذا يدل على تقدم محاولة لفتحها وهو منطبق على «فتح مكة» وقيل إن المراد : فتح فارس والروم ، وقيل هوازن في حنين ، وما ذكرناه أرجح .

(٣) البحر المحيط ٩٧/٨ . (٤) البحر المحيط ٩٧/٨ .

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَرَّ تَعْلُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيْبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي

الذي كفف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة ﴿٢٤﴾ أي وهو تعالى بقدرته وتديره صرف أيدي كفار مكة عنكم كما صرف عنهم أيديكم بالحديبية التي هي قرية من البلد الحرام قال ابن كثير : هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين ، حين كفف أيدي المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكفف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً ، فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة (١) ﴿من بعد أن أظفركم عليهم﴾ أي من بعد ما أخذتموهم أسارى وتمكنتم منهم قال الجلال : وذلك أن ثمانين من المشركين طافوا بعسكر المؤمنين ليصيبوا منهم ، فأخذوا وأتى بهم إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخلق سبيلهم ، فكان ذلك سبب الصلح (٢) وقال في التسهيل : وروي في سببها أن جماعة من فتيان قريش خرجوا إلى الحديبية ، ليصيبوا من عسكر رسول الله ﷺ ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في جماعة من المسلمين فهزموهم وأسروا منهم قوماً ، وساقوهم إلى رسول الله ﷺ فأطلقهم ، فكفف أيدي الكفار هو هزيمتهم وأسرههم ، وكفف أيدي المؤمنين عن الكفار هو إطلاقهم من الأسر وسلامتهم من القتل (٣) ﴿وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ أي هو تعالى بصير بأعمالكم وأحوالكم ، يعلم ما فيه مصلحة لكم ، ولذلك حجزكم عن الكافرين رحمة بكم ، وحرمة لبيته العتيق لثلاث سفك فيه الدماء . . ثم ذكر تعالى استحقاق المشركين للعذاب والدمار فقال ﴿هم الذين كفروا وصدؤكم عن المسجد الحرام﴾ أي هم كفار قريش المعتدون الذين كفروا بالله والرسول ، ومنعوا المؤمنين عن دخول المسجد الحرام لأداء مناسك العمرة عام الحديبية ﴿والهدي معكوفاً أن يبلغ محله﴾ أي وصدؤا الهدي أيضاً - وهو ما يهدي لبيت الله لفقراء الحرم - معكوفاً أي محبوساً عن أن يبلغ مكانه الذي يذبح فيه وهو الحرم قال القرطبي : يعني قريشاً منعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام عام الحديبية ، حين أحرم رسول الله ﷺ مع أصحابه بالعمرة ، ومنعوا الهدي وحبسوه عن أن يبلغ محله ، وهذا كانوا لا يعتقدونه ، ولكنه حملتهم الأنفة ودعتهم الحمية الجاهلية على أن يفعلوا ما لا يعتقدونه ديناً ، فوبخهم الله على ذلك وتوعدهم عليه ، وأدخل الأنس على رسول الله ﷺ بيانه ووعده (٤) ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾ أي ولولا أن في مكة رجالاً ونساءً من المؤمنين المستضعفين ، الذين يخفون إيمانهم خوفاً من المشركين ﴿لم تعلموهم﴾ أي لا تعرفونهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين ﴿أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم﴾ أي كراهة أن توقعوا بهم وتقتلوا منهم دون علم منكم بإيمانهم ، فينالكم بقتلهم إثم وعيب وجواب « لولا » محذوف تقديره : لأذن لكم في

(١) مختصر ابن كثير ٣/٣٤٦ . (٢) تفسير الجلالين ٩٧/٤ . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٥٤/٤ . (٤) تفسير القرطبي ١٦/٢٨٣ .

رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ
الْحِمِيَةَ حِمِيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَاَنْزَلَ اللَّهُ سُكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ
بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لِنَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ

دخول مكة ، ولسلطتكم على المشركين قال الصاوي : والجواب محذوف قدره الجلال بقوله : لأذن لكم في
الفتح ، ومعنى الآية : لولا كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين بين أظهر الكفار ، حال كونكم جاهلين بهم
فيصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كف أيديكم عنهم^(١) ، ولأذن لكم في فتح مكة ﴿ليدخل الله في رحمة
من يشاء﴾ أي إنما فعل ذلك ليخلص المؤمنين من بين أظهر المشركين ، ويرجع كثير منهم إلى الإسلام
قال القرطبي : أي لم يأذن الله لكم في قتال المشركين ، ليسلم بعد الصلح من قضى أن يسلم من أهل
مكة ، وكذلك كان ، أسلم الكثير منهم وحسن إسلامه ، ودخلوا في رحمة وجنته^(٢) ﴿لو تزايروا لعذبنا
الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ أي لو تفرقوا وتميز بعضهم عن بعض ، وانفصل المؤمنون عن الكفار ،
لعذبنا الكافرين منهم أشد العذاب ، بالقتل والسبي والتشريد من الأوطان ﴿إذ جعل الذين كفروا في
قلوبهم الحمية﴾ أي حين دخل إلى قلوب الكفار الأنفة والكبرياء بالباطل ، فرفضوا أن يكتبوا في كتاب
الصلح «بسم الله الرحمن الرحيم» ورفضوا أن يكتبوا «محمد رسول الله» وقولهم : لو نعلم أنك
رسول الله لا تبعناك ولكن أكتب اسمك واسم أبيك ﴿حمية الجاهلية﴾ أي أنفة وغطرسة وعصبية جاهلية
﴿فأنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين﴾ أي جعل الطمأنينة والوقار في قلب الرسول
والمؤمنين ، ولم تلحقهم العصبية الجاهلية كما لحقت المشركين^(٣) ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ أي اختار
لهم كلمة التقوى - إزام تكريم وتشريف - وهي كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» هذا قول الجمهور ،
والظاهر : أن المراد بكلمة التقوى هي إخلاصهم وطاعتهم لله ورسوله ، وعدم شق عصا الطاعة عندما
كُتبت بنود الصلح ، وكانت مجحفةً بحقوق المسلمين في الظاهر ، فثبت الله المؤمنين على طاعة رسول الله
ﷺ وكان في هذا الصلح كل الخير للمسلمين^(٤) ﴿وكانوا أحق بها وأهلها﴾ أي وكانوا أحق بهذه
الفضيلة من كفار مكة ، لأن الله اختارهم لدينه وصحبه نبيه ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾ أي عالماً بمن
هو أهل للفضل ، فيخصه بمزيد من الخير والتكريم . . ثم أخبر تعالى عن رؤيا رسول الله ﷺ في المنام -
وهي رؤيا حق - لأنها جزء من الوحي فقال ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ اللام موطئة

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٩٨/٤ . (٢) تفسير القرطبي ٢٨٦/١٦ .

(٣) يقول سيد قطب رحمه الله في تفسيره الظلال ما نصه « وهذه الحمية إنما هي حمية الكبر والفخر ، والبطر والتعنت ، الحمية الجاهلية التي
جعلتهم يقفون في وجه رسول الله ﷺ والمؤمنين ، يمنعهم من المسجد الحرام ، ويجسسون الهدى الذي ساقوه أن يبلغ محله الذي ينحرف فيه ،
مخالفين بذلك كل عرف وكل عقيدة ، كي لا تقول العرب : إن محمداً دخلها عليهم عنوة ، ففي سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكون هذه
الكبرية الكريمة في كل عرف ودين ، وينتهكون حرمة البيت الحرام الذي يعيشون على حساب قداسته ، وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التي
لم تنتهك في جاهلية ولا إسلام» . ١ هـ . الظلال ١١٥/٢٦ . (٤) هذا ما ألهمني الله إياه عند تفسير الآيات الكريمة من واقعة صلح
الحديبية ولعله واضح لمن تمعن فيه .

شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ^ط فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا بِجَعَلٍ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ

للقسم ، و « قد » للتحقيق أي والله لقد جعل الله رؤيا رسوله صادقة محققة لم يدخلها الشيطان لأنها رؤيا حق قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ قد رأى في منامه أنه دخل مكة هو وأصحابه وطافوا بالبيت ، ثم حلق بعضهم وقصّر بعضهم ، فحدث بها أصحابه ففرحوا واستبشروا ، فلما خرج إلى الحديبية مع الصحابة ، وصدّه المشركون عن دخول مكة ، ووقع ما وقع من قضية الصلح ، ارتاب المنافقون وقالوا : والله ما حلقنا ولا قصّرنا ولا رأينا البيت ، فأين هي الرؤيا ؟ ووقع في نفوس بعض المسلمين شيء فنزلت الآية ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ فأعلم تعالى أن رؤيا رسوله حق ، وأنه لم يكذب فيما رأى ، ولكنه ليس في الرؤيا أنه يدخلها عام ست من الهجرة ، وإنما أراه مجرد صورة الدخول ، وقد حقق الله له ذلك بعد عام فذلك قوله تعالى ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله ﴾ أي لتدخلن يا محمد أنت وأصحابك المسجد الحرام بمشيئة الله ﴿ آمينين مخلّقين رؤوسكم ومقصرين ﴾ أي تدخلونها آمينين من العدو ، تؤدون مناسك العمرة ثم يلحق بعضكم رأسه ، ويقصّر بعض ﴿ لا تخافون ﴾ أي غير خائفين ، وليس فيه تكرار لأن المراد آمينين وقت دخولكم ، وحال المكث ، وحال الخروج ﴿ فعلم ما لم تعلموا ﴾ أي فعلم تعالى ما في الصلح من الحكمة والخير والمصلحة لكم ما لم تعلموه أنتم قال ابن جزري : يريد ما قدره تعالى من ظهور الإسلام في تلك المدة ، فإنه لما انعقد الصلح وارتفعت الحرب ، رغب الناس في الإسلام ، فكان رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية في ألف وأربعمائة ، وغزا « غزوة الفتح » بعدها بعامين ومعه عشرة آلاف ^(١) ﴿ فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ أي فجعل قبل ذلك فتحاً عاجلاً لكم وهو « صلح الحديبية » وسُمي فتحاً لما ترتّب عليه من الآثار الجليلة ، والعواقب الحميدة ، ولهذا روى البخاري عن البراء رضي الله عنه : « تعدّون أنتم الفتح « فتح مكة » وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعدّ الفتح « بيعة الرضوان » يوم الحديبية . . » ^(٢) الحديث ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ﴾ أي هو جلّ وعلا الذي أرسل محمداً بالهداية التامة الشاملة الكاملة ، والدين الحق المستقيم دين الإسلام ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ أي ليعليه على جميع الأديان ، ويرفعه على سائر الشرائع السماوية ﴿ وكفى باللّه شهيداً ﴾ أي وكفى باللّه شاهداً على أن محمداً رسوله . . ثم أثنى تعالى على أصحاب رسول الله بالثناء العاطر ، وشهد لرسوله بصدق الرسالة فقال ﴿ محمدٌ رسول الله ﴾ أي هذا الرسول المسمّى محمداً هو رسول الله حقاً لا كما يقول المشركون ﴿ والذين معه أشداءُ

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٥٦ . (٢) الحديث أخرجه البخاري وتتمته « كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة والحديبية بئر فترحنها فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء ، فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها ، فتركناها غير بعيد ثم انها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا » .

وَرِضْوَانًا سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

على الكفار رحماً بينهم ﴿٢٩﴾ أي وأصحابه الأبرار الأخيار غلاظ على الكفار متراحون فيما بينهم كقوله تعالى ﴿أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين﴾ قال أبو السعود : أي يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة ، ولن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة ^(١) قال المفسرون : وذلك لأن الله أمرهم بالغلظة عليهم ﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾ وقد بلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تمس أبدانهم ، وكان الواحد منهم إذا رأى أخاه في الدين صافحه وعانقه ﴿تراهم رُغماً سجداً﴾ أي تراهم أيها السامع راكعين ساجدين من كثرة صلاتهم وعبادتهم ، رهبان بالليل أسود بالليل ﴿يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ أي يطلبون بعبادتهم رحمة الله ورضوانه قال ابن كثير : وصفهم بكثرة الصلاة وهي خير الأعمال ، ووصفهم بالإخلاص لله عزوجل والاحتساب عنده بجزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله ورضاه ^(٢) ﴿سياهم في وجوههم من أثر السجود﴾ أي علامتهم وسمتهم كائنة في جباههم من كثرة السجود والصلاة قال القرطبي : لاحت في وجوههم علامات التهجد بالليل وأمارات السهر ، قال ابن جريج : هو الوقار والبهاء ، وقال مجاهد : هو الخشوع والتواضع ، قال منصور سألت مجاهداً عن قوله تعالى ﴿سياهم في وجوههم﴾ أهو أثر يكون بين عيني الرجل ؟ قال : لا ، ربما يكون بين عيني الرجل مثل ركبة العنز وهو أقرى قلباً من الحجارة ، ولكنه نور في وجوههم من الخشوع ^(٣) ﴿ذلك مثلهم في التوراة﴾ أي ذلك وصفهم في التوراة : الشدة على الكفار ، والرحمة بالمؤمنين ، وكثرة الصلاة والسجود ﴿ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه﴾ أي ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج فراخه وفروعه ﴿فأزره فاستغلظ﴾ أي فقواه حتى صار غليظاً ﴿فاستوى على سوقه﴾ أي فقام الزرع واستقام على أصوله ﴿يعجب الزرع ليغيظهم الكفار﴾ أي يعجب هذا الزرع الزرع ، بقوته وكثافته وحسن منظره ، ليغتاظ بهم الكفار قال الضحاك : هذا مثل في غاية البيان ، فالزرع محمد ﷺ ، والشطأ أصحابه ، كانوا قليلاً فكثروا ، وضعفاء فقوا ، وقال القرطبي : وهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي ﷺ يعني أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون ، فكان النبي ﷺ حين بدأ بالدعوة ضعيفاً ، فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي أمره ، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفاً فيقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ نباته ، وأفراخه ، فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾ أي وعدهم تعالى بالآخرة بالمغفرة التامة والأجر العظيم والرزق الكريم في

(١) أبو السعود ٨٦/٥ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٣٥٥ . (٣) تفسير القرطبي ١٦/٢٩٣ . (٤) القرطبي ١٦/٢٩٥ .

جنات النعيم ، اللهم ارزقنا محبتهم يا رب العالمين .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين ﴿ما تقدّم .. وما تأخر﴾ وبين ﴿مبشراً .. ونذيراً﴾ وبين ﴿بكرة .. وأصيلاً﴾ وبين ﴿نكث .. وأوفى﴾ وبين ﴿أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً﴾ وبين ﴿يعذب﴾ وبين ﴿محلّقين .. ومقصرين﴾ وبين ﴿أشداء .. ورحماء﴾ .

٢ - المقابلة بين ﴿ليدخل المؤمن والمؤمنات ..﴾ الآية وبين ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات﴾ الآية .

٣ - الاستعارة التصريحية المكنية ﴿إن الذين يباعدونك إنما يباعدون الله ، يدُ الله فوق أيديهم﴾ شبه المعاهدة على التضحية بالأنفس في سبيل الله طلباً لمرضاته بدفع السلّع في نظير الأموال ، واستعير اسم المشبه به للمشبه واشتق من البيع يباعدون بمعنى يعاهدون على دفع أنفسهم في سبيل الله ، والمكنية في قوله ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ شبه اطلاع الله على مبايعتهم ومجازاته على طاعتهم بملكٍ وضع يده على يد أميره ورعيته ، وطوى ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو اليد على طريق الاستعارة المكنية ، ففي الآية استعارتان .

٤ - الكناية ﴿ولّوا الأدبار﴾ كناية عن الهزيمة لأن المنهزم يدير ظهره لعدوه للهرب .

٥ - التعبير بصيغة المضارع لاستحضار صورة المبايعة ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يباعدونك ..﴾ .

٦ - الالتفات من ضمير الغائب إلى الخطاب ﴿وعدكم الله مغانم﴾ بعد قوله تعالى ﴿فعلّم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم﴾ وذلك لتشريف المؤمنين في مقام الامتنان .

٧ - الإطناب بتكرار الحرج ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ لتأكيد نفي الإثم عن أصحاب الأعدار .

٨ - التشبيه التمثيلي ﴿كزرعٍ أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ..﴾ الآية لأن وجه الشبه منتزَعٌ من متعدد .

٩ - مراعاة الفواصل في نهاية الآيات وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الفتح »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* هذه السورة الكريمة مدنية ، وهي على وجازتها سورة جليلةٌ ضخمة ، تتضمن حقائق التربية الخالدة ، وأسس المدنية الفاضلة ، حتى سماها بعض المفسرين « سورة الاخلاق » .

* ابتدأت السورة الكريمة بالأدب الرفيع الذي أدب الله به المؤمنين ، تجاه شريعة الله وأمر رسوله ، وهو ألا يُبرموا أمراً ، أو يُبدوا رأياً ، أو يقضوا حكماً في حضرة الرسول ﷺ حتى يستشيره ويستمسكوا بإرشاداته الحكيمة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾ .

* ثم انتقلت إلى أدبٍ آخر وهو خفض الصوت إذا تحدثوا مع الرسول ﷺ تعظيماً لقدره الشريف ، واحتراماً لمقامه السامي ، فإنه ليس كعامة الناس بل هو رسول الله ، ومن واجب المؤمنين أن يتأدبوا معه في الخطاب مع التوقير والتعظيم والإجلال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي . . ﴾ .
* ومن الأدب الخاص إلى الأدب العام تنتقل السورة لتقرير دعائم المجتمع الفاضل ، فتأمر المؤمنين بعدم السماع للإشاعات ، وتأمر بالتثبت من الأنباء والأخبار ، لا سيما إن كان الخبر صادراً عن شخص غير عدل أو شخص متهم ، فكم من كلمة نقلها فاجر فاسق سببت كارثةً من الكوارث ، وكم من خبر لم يتثبت منه سامعه جرّ وبالأ ، وأحدث إنقساماً ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبينوا . . ﴾ .

* ودعت السورة إلى الإصلاح بين المتخاصمين ، ودفع عدوان الباغين ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . . ﴾ الآيات .

* وحذرت السورة من السخرية والهمز واللمز ، ونفرت من الغيبة والتجسس والظن السيء بالمؤمنين ، ودعت إلى مكارم الاخلاق ، والفضائل الاجتماعية ، وحين حذرت من الغيبة جاء النهي في تعبير رائع عجيب ، أبدعه القرآن غاية الإبداع ، صورة رجل يجلس إلى جنب أخ له ميت ينهش منه ويأكل لحمه ﴿ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيجبُ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً !! فكرهتموه . . ﴾ الآية ويا له من تنفير عجيب !!

* وختمت السورة بالحديث عن الأعراب الذين ظنوا الإيمان كلمةً تقال باللسان ، وجاءوا يمينون على الرسول إيمانهم ، فتيين حقيقة الإيمان ، وحقيقة الإسلام ، وشروط المؤمن الكامل وهو الذي جمع الإيمان والإخلاص والجهاد والعمل الصالح ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون . . ﴾ إلى آخر السورة الكريمة .

التسمية : سميت « سورة الحجرات » لأن الله تعالى ذكر فيها حرمة بيوت النبي ﷺ وهي الحجرات التي كان يسكنها أمهات المؤمنين الطاهرات رضوان الله عليهن .

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله . . إلى . . إن الله تواب رحيم ﴾

من آية (١) إلى نهاية آية (١٢) .

اللغز : ﴿ يغضون ﴾ غضٌ صوته خفضه وخافت به ﴿ فاسق ﴾ الفاسق : الخارج من حدود الشرع ، وهو في أصل الاشتقاق موضوع لما يدل على معنى الخروج ، مأخوذ من قولهم : فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها ، وسمي فاسقاً لخروجه عن الطاعة ﴿ نبأ ﴾ النبأ : الخبر الهام قال الراغب : لا يقال للخبير في الأصل نبأ حتى يكون ذا فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن^(١) ﴿ عنتم ﴾ وقعتم في العنت وهو المشقة والهلاك قال في اللسان : العنت : الهلاك وأعنته أوقعه في الهلكة^(٢) ﴿ الراشدون ﴾ جمع راشد وهو المهتدي إلى محاسن الأمور ﴿ تفيء ﴾ ترجع ﴿ بغت ﴾ اعتدت واستطالت وأصله مجاوزة الحد في الظلم والظغيان ﴿ تلمزوا ﴾ تعيبوا .

سبب النزول : أ - روي أن بعض الأعراب الجفأة جاءوا إلى حجرات أزواج النبي ﷺ فجعلوا ينادونه : يا محمد أخرج إلينا ، يا محمد أخرج إلينا ، يا محمد أخرج إلينا فأنزل الله ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ .

ب - وروي أن النبي ﷺ بعث « الوليد بن عقبة » إلى الحارث بن ضرار ليقبض ما كان عنده من الزكاة التي جمعها من قومه ، فلما سار الوليد واقترب منهم خاف وفرغ ، فرجع إلى رسول الله ﷺ وقال يا رسول الله : إنهم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة ، فهمم بعض الصحابة بالخروج إليهم وقتالهم فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا . . ﴾ الآية^(٣) .

ج - عن أنس قال : قيل للنبي ﷺ لو أتيت « عبد الله بن أبي » - وهو رأس المنافقين - فانطلق إليه وركب حماراً ، وانطلق معه المسلمون يمشون ، فلما أتاه النبي ﷺ قال له : إليك عني - أي تنح وابتعد عني - فوالله لقد آذاني نتن حمارك ، فقال رجل من الأنصار والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب للأنصاري آخرون من قومه ، فكان بينهم ضرب بالجرید والأيدي والنعال ، فأنزل الله ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . . ﴾ الآية^(٤) .

(١) مفردات القرآن للراغب . (٢) لسان العرب مادة عنت .

(٣) انظر تفصيل الرواية في مختصر ابن كثير ٣/ ٣٥٨ . (٤) أخرجه الشيخان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ أي يا أيها المؤمنون ، يا من اتصفتم بالإيمان ، وصدقتم بكتاب الله ، لا تقدموا أمراً أو فعلاً بين يدي الله ورسوله ، وحذف المفعول للتعميم ليذهب ذهن السامع إلى كل ما يمكن تقديمه من قول أو فعل ، كما إذا عرضت مسألة في مجلسه ﷺ لا يسبقونه بالجواب ، وإذا حضر الطعام لا يبتدئون بالأكل ، وإذا ذهبوا معه إلى مكان لا يمشون أمامه ونحو ذلك قال ابن عباس : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ﷺ وقال الضحاك : لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم ^(١) وقال البيضاوي : المعنى لا تقطعوا أمراً قبل أن يحكم الله ورسوله به ، وقيل : المراد بين يدي رسول الله ، وذكر الله تعظيماً له وإشعاراً بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله ^(٢) ﴿واتقوا الله إن الله سميعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واتقوا الله فيما أمركم به ، إن الله سميعٌ لأقوالكم ، عَلِيمٌ بنياتكم وأحوالكم ، وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والروعة في النفس . ثم أرشد تعالى المؤمنين إلى وجوب توقير الرسول وإجلاله واحترامه فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ أي إذا كلمتم رسول الله ﷺ فاحفضوا أصواتكم ولا ترفعوها على صوت النبي ﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾ أي ولا تبلغوا حد الجهر عند مخاطبته ﷺ كما يجهر بعضكم في الحديث مع البعض ، ولا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً فتقولوا : يا محمد ، ولكن قولوا يا نبي الله ، ويا رسول الله ، تعظيماً لقدرة ، ومراعاةً للأدب قال المفسرون : نزلت في بعض الأعراب الجفأة الذين كانوا ينادون رسول الله باسمه ، ولا يعرفون توقير الرسول الكريم ﴿أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ أي خشية أن تبطل أعمالكم من حيث لا تشعرون ولا تدرون ، فإن في رفع الصوت والجهر بالكلام في حضرته ﷺ استخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحبط للعمل قال ابن كثير : روي أن ثابت بن قيس كان رفيع الصوت ، فلما نزلت الآية قال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أنا من أهل النار ، حبط عملي ، وجلس في أهله حزيناً ، فافتقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له : تفقدك رسول الله ﷺ ما لك ؟ فقال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ حبط عملي أنا من أهل

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٥٧ . (٢) البيضاوي ٣/ ٣٦٥ من الحاشية .

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٣٤﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ

النار ، فاتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال ، فقال النبي ﷺ : لا بل هو من أهل الجنة (١) وفي رواية « أترضى أن تعيش حميداً ، وتقتل شهيداً ، وتدخل الجنة ؟ فقال : رضيتُ بيشري الله تعالى ورسوله ﷺ ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ » (٢) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ أي إن الذين يخفون أصواتهم في حضرة الرسول ﷺ أولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى ومرئها عليها وجعلها صفة راسخة فيها قال ابن كثير : أي أخلصها للتقوى وجعلها أهلاً ومحلاً ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي لهم في الآخرة صفحٌ عن ذنوبهم ، وثواب عظيم في جنات النعيم . . ثم ذمَّ تعالى الأعراب الجفأة الذين ما كانوا يتأدبون في ندائهم للرسول ﷺ فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾ أي يدعونك من وراء الحجرات ، منازل أزواجك الطاهرات ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي أكثر هؤلاء غير عقلاء ، إذ العقل يقتضي حسن الأدب ، ومراعاة العظماء عند خطابهم ، سيما لمن كان بهذا المنصب الخطير قال البيضاوي : قيل إن الذي ناداه « عيينة بن حُصين » و « الأقرع بن حابس » وفدا على رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالوا يا محمد أخرج إلينا (٣) ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ أي ولو أن هؤلاء المنادين لم يزعجوا الرسول ﷺ بمناداتهم وصبروا حتى يخرج إليهم لكان ذلك الصبر خيراً لهم وأفضل عند الله وعند الناس ، لما فيه من مراعاة الأدب في مقام النبوة ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي الغفور للذنوب العباد ، الرحيم بالمؤمنين حيث اقتصر على نصحهم وتقريعهم ، ولم يُنزل العقاب بهم . . ثم حذر تعالى من الاستعجال للأخبار بغير تثبت فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ ﴾ أي إذا أتاكم رجل فاسق - غير موثوق بصدقه وعدالته - بخبرٍ من الأخبار ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ أي فتبينوا من صحة الخبر ﴿ أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ أي لئلا تصيبوا قوماً وأنتم جاهلون حقيقة الأمر ﴿ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ أي فتصيروا نادمين أشد الندم على صنيعكم (٤) ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ أي واعلموا - أيها المؤمنون - أن بينكم الرسول المعظم ، والنبي المكرم ، المعصوم عن اتباع الهوى ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أي لو يسمع وشاياتكم ، ويصغي بسمعه لإرادتكم ، ويطيعكم في غالب ما تشيرون عليه من الأمور ، لوقعتم في الجهد والهلاك قال ابن كثير : أي اعلموا أن بين أظهركم

(١) الحديث أخرجه أحمد . (٢) ذكر هذه الرواية ابن جرير الطبري . (٣) تفسير البيضاوي ٣/٣٦٧ . (٤) انظر سبب النزول .

وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧٧﴾ فَضَلًّا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧٨﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ ت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ

رسول الله فعظموه ووقروه ، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ، ولو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدب ذلك الى عنتكم وحرجمكم (١) ﴿ولكن الله حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ﴾ أي ولكنه تعالى - بمنه وفضله - نور بصائرهم فحبب إلى نفوسكم الإيمان ﴿وزينهُ في قلوبكم﴾ أي وحسنه في قلوبكم ، حتى أصبح أعلى عندكم من كل شيء ﴿وكرههُ إليكم الكفر والفُسوق والعِصيان﴾ أي وبغض إلى نفوسكم أنواع الضلال ، من الكفر والمعاصي والخروج عن طاعة الله قال ابن كثير : والمراد بالفُسوق الذنوب الكبار ، وبالعِصيان جميع المعاصي (٢) ﴿أولئك هم الراشدون﴾ أي أولئك المتصفون بالنعوت الجليلة هم المهتدون ، الراشدون في سيرتهم وسلوكهم ، والجملة تفيد الحصر أي هم الراشدون لا غيرهم ﴿فضلاً من الله ونعمة﴾ أي هذا العطاء تفضل منه تعالى عليكم وإنعام ﴿والله عليمٌ حكيمٌ﴾ أي عليمٌ بمن يستحق الهداية ، حكيم في خلقه وصنعه وتدييره . . ثم عقب تعالى على ما يترتب على سماع الأنباء المكذوبة من تخاصم وتباغض وتقاتل فقال ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ أي وإن حدث أن فئتين وجماعتين من إخوانكم المؤمنين جنحوا إلى القتال فأصلحوا بينهما ، واسعوا جهدكم للإصلاح بينهما ، والجمع ﴿اقتتلوا﴾ باعتبار المعنى ، والتثنية ﴿بينهما﴾ باعتبار اللفظ ﴿فإن بغت إحداهما على الأخرى﴾ أي فإن بغت إحداهما على الأخرى ، وتجاوزت حدّها بالظلم والطغيان ، ولم تقبل الصلح وصممت على البغي ﴿فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله﴾ أي فقاتلوا الفئة الباغية حتى ترجع إلى حكم الله وشرعه ، وتقلع عن البغي والعدوان ، وتعمل بمقتضى أخوة الإسلام ﴿فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا﴾ أي فإن رجعت وكفت عن القتال فأصلحوا بينهما بالعدل ، دون حيفٍ على إحدى الفئتين ، واعدلوا في جميع أموركم ﴿إن الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي يحبُّ العادلين الذين لا يجورون في أحكامهم قال البيضاوي : والآية نزلت في قتال حدث بين «الأوس» و«الخزرج» في عهده ﷺ كان فيه ضرب بالسَّعف والنعال ، وهي تدلُّ على أن الباغي مؤمن ، وأنه إذا كف عن الحرب ترك ، وأنه يجب تقديم النصح والسعي في المصالحة (٣) ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ أي ليس المؤمنون إلا إخوة ، جمعهم رابطة الإيمان ، فلا ينبغي أن تكون بينهم عداوة ولا

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣٦١ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣٦٢ . (٣) تفسير البيضاوي ٣/٣٧١ .

أَخْوِيكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ بئسَ ٱلْأَسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا

شحناء ، ولا تباغضُ ولا تقاتل قال المفسرون : ﴿ إِنَّمَا ﴾ للحصر فكأنه يقول : لا أخوة إلا بين المؤمنين ، ولا أخوة بين مؤمن وكافر ، وفي الآية إشارة إلى أن أخوة الإسلام أقوى من أخوة النسب ، بحيث لا تعتبر أخوة النسب إذا خلت عن أخوة الإسلام ﴿ فأصلحوا بين أخويكم ﴾ أي فأصلحوا بين إخوانكم المؤمنين ، ولا تتركوا الفرقة تدب ، والبغضاء تعمل عملها ﴿ وأتقوا الله لعلكم تُرحمون ﴾ أي اتقوا الله تعالى بامثال أوامره واجتناب نواهيه ، لتنالكم رحمته ، وتسعدوا بجنته ومرضاته ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم ﴾ أي يا معشر المؤمنين ، يا من اتصفتم بالإيمان ، وصدقتم بكتاب الله وبرسوله ، لا هزأ جماعة بجماعة ، ولا يسخر أحد من أحد ، فقد يكون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر ، ورب أشعث أغبر ذو طمرين لو أقسم على الله لأبره^(١) ﴿ ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكنَّ خيراً منهنَّ ﴾ أي ولا يسخر نساء من نساء فعسى أن تكون المحتقر منها خيراً عند الله وأفضل من الساخرة ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ أي ولا يعب بعضكم بعضاً ، ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب السوء ، وإنما قال ﴿ أنفسكم ﴾ لأن المسلمين كأنهم نفسٌ واحدة ﴿ بئسَ ٱلْأَسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ ﴾ أي بئسَ أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن صار مؤمناً قال البيضاوي : وفي الآية دلالة على أن التناز فسقٌ ، والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح^(٢) ﴿ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ أي ومن لم يتب عن اللّمز والتناز فأولئك هم الظالمون بتعريض أنفسهم للعذاب ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ﴾ أي ابتعدوا عن التهمة والتخون وإساءة الظن بالأهل والناس ، وعبر بالكثير ليجتاط الإنسان في كل ظن ولا يسارع فيه بل يتأمل ويتحقق ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾ أي إن في بعض الظن إثم وذنب يستحق صاحبه العقوبة عليه قال عمر رضي الله عنه : « لا تظننَّ بكلمةٍ خرجت من أحيك المؤ من إلا خيراً ، وأنت تجد لها في الخير محملاً »^(٣) ﴿ ولا تجسسوا ﴾ أي لا تبحثوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوا معايبهم^(٤) ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته بما يكرهه ﴿ أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ﴾ تمثيل لشناعة

(١) هذا حديث صحيح . (٢) تفسير البيضاوي ٣/٣٧٣ .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣٦٤ . (٤) وفي الحديث (يا معشر من آمن بلسانه ولم يفيض الإيمان الى قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته) أخرجه الحافظ أبو يعلى .

فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٣﴾

الغيبة وقبحها بما لا مزيد عليه من التقييح أي هل يجب الواحد منكم أن يأكل لحم أخيه المسلم وهو ميت ؟ ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي فكما تكرهون هذا طبعاً فآكروها الغيبة شرعاً ، فإن عقوبتها أشد من هذا . . شَبَّهَ تعالى الغيبة بأكل لحم الأخ حال كونه ميتاً ، وإذا كان الإنسان يكره لحم الإنسان - فضلاً عن كونه أخاً ، وفضلاً عن كونه ميتاً وجب عليه أن يكره الغيبة بمثل هذه الكراهة أو أشد ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي خافوا الله واحذروا عقابه ، بامثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أي إنه تعالى كثير التوبة ، عظيم الرحمة ، لمن اتقى الله وتاب وأناب ، وفيه حث على التوبة ، وترغيب بالمسارعة إلى الندم والاعتراف بالخطأ لئلا يقنط الإنسان من رحمة الله .

قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ . . إِلَىٰ . . وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا

تَعْمَلُونَ﴾

من آية (١٣) إلى آية (١٨) نهاية السورة .

الْمَنَاسِبَةُ : لما دعا تعالى إلى مكارم الأخلاق ونهى عن مساوئها ، وحذّر المؤمنين من بعض الأفعال القبيحة ، دعا الناس هنا جميعاً للتعارف والتآلف ونهاهم عن التفاخر بالأنساب ، ثم بيّن صفات المؤمن الكامل

اللُّغَاة : ﴿يَلْتَكِمُ﴾ ينقصكم ﴿قَبَائِلُ﴾ جمع قبيلة وهي الجماعة التي يربطها حسب أو نسب ، وهي أخص من الشعب ، لأن الشعب الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد ، فالشعب يجمع القبيلة ، والقبيلة تجمع البطون والأفخاذ ﴿يُرْتَابُوا﴾ يشكوا والريب : الشك ﴿يَمْنُونُ﴾ المن : الامتنان على الشخص والاعتداد عليه بفعل المعروف ، وأصله في اللغة القطع ومنه ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ .

سَبَبُ النُّزُولِ : عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسدٍ إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله : أسلمنا ، وقاتلتك العرب ولم نقاتلك ، وأخذوا يمنون عليه فنزلت الآية الكريمة ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا . .﴾^(١) الآية .

يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ

التَّفْسِيرُ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾ الخطاب لجميع البشر أي نحن بقدرتنا خلقناكم من أصل واحد ، وأوجدناكم من أب وأم فلا تفاخر بالآباء والأجداد ، ولا اعتداد بالحسب والنسب ، كلكم لأدم وآدم من تراب ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ أي وجعلناكم شعوباً شتى وقبائل متعددة ، ليحصل بينكم التعارف والتآلف ، لا التناحر والتخالف قال مجاهد : ليعرف الإنسان نسبه فيقال فلان بن فلان من قبيلة كذا^(٢) ، وأصل تعارفوا تعارفوا حذف إحدى التاءين تخفيفاً

(١) مختصر ابن كثير ٣/٣٦٩ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٣٦٧ .

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣٧﴾ * قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُلْ لَمْ تَتُومِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٨﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٣٩﴾

قال شيخ زاده : والمعنى إن الحكمة التي من أجلها جعلكم على شعوب وقبائل هي أن يعرف بعضكم نسب بعض ولا ينسبه إلى غير آبائه ، لا أن تتفاخر بالأباء والأجداد ، والنسب وإن كان يُعتبر عرفاً وشرعاً ، حتى لا تزوج الشريفة بالنبطي ، إلا أنه لا عبرة به عند ظهور ما هو أعظم قدراً منه وأعز ، وهو الإيمان والتقوى ، كما لا تظهر الكواكب عند طلوع الشمس (١) ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أي إنما يتفاضل الناس بالتقوى لا بالأحساب والأنساب ، فمن أراد شرفاً في الدنيا ومنزلةً في الآخرة فليتق الله كما قال ﷺ : (من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله) (٢) وفي الحديث (الناس رجلان : رجل برّ تقي كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر شقي هين على الله تعالى) (٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي عليم بالعباد ، مطلع على ظواهرهم وبواطنهم ، يعلم التقي والشقي ، والصالح والطالح ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾ . ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُلْ لَمْ تَتُومِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي زعم الأعراب أنهم آمنوا قل لهم يا محمد : إنكم لم تؤمنوا بعد ، لأن الإيمان تصديق مع ثقة واطمئنان قلب ، ولم يحصل لكم ، وإلا لما منتتم على الرسول بالإسلام وترك المقاتلة ، ولكن قولوا استسلمنا خوف القتل والسبي قال المفسرون : نزلت في نفر من بني أسد ، قدموا المدينة في سنة مجدبة ، وأظهروا الشهادتين ، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وفلان ، يريدون الصدقة ويمتنون على الرسول ، وقد دلت الآية على أن الإيمان مرتبة أعلى من الإسلام ، الذي هو الاستسلام والانقياد بالظاهر ولهذا قال تعالى ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي ولم يدخل الإيمان إلى قلوبكم ولم تصلوا إلى حقيقته بعد ، ولفظة «لَمَّا» تفيد التوقع كأنه يقول : وسيحصل لكم الإيمان عند اطلاعكم على محاسن الإسلام ، وتذوقكم لحلاوة الإيمان قال ابن كثير : وهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه الآية ليسوا منافقين ، وإنما هم مسلمون لم يستحکم الإيمان في قلوبهم ، فادّعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه فأدبوا في ذلك ، ولو كانوا منافقين - كما ذهب إليه البخاري - لعنفوا وفُضحوا (٤) ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي وإن أطعتم الله ورسوله بالإخلاص الصادق ، والإيمان الكامل . وعدم المنّ على الرسول لا ينقصكم من أجوركم شيئاً ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي عظيم المغفرة ، واسع الرحمة ، لأن صيغة «فعول» و«فعليل» تفيد المبالغة . ثم ذكر تعالى صفات المؤمنين الكُمَّل الصادقين في إيمانهم فقال ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي إنما المؤمنون الصادقون في دعوى الإيمان ، الذين صدّقوا الله ورسوله ، فأقروا لله بالوحدانية ، ولرسوله

(١) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٣٧٥ . (٢) البيضاوي ٣/ ٣٧٥ .

(٣) جزء من خطبة قالها ﷺ عند فتح مكة وخطب الناس بها . (٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٩ .

قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يُمْنُونَ عَلَيْكَ
 أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾
 إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

بالرسالة ، عن يقين راسخ وإيمان كامل ﴿ثم لم يرتابوا﴾ أي ثم لم يشكوا ويتزلزلوا في إيمانهم بل ثبتوا على التصديق واليقين ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ أي وبذلوا أموالهم ومهجهم في سبيل الله وابتغاء رضوانه ﴿وأولئك هم الصادقون﴾ أي أولئك الذين صدقوا في ادعاء الإيمان . . وصف تعالى المؤمنين الكاملين بثلاثة أوصاف : الأول : التصديق الجازم بالله ورسوله الثاني : عدم الشك والارتياب الثالث : الجهاد بالمال والنفس ، فمن جمع هذه الأوصاف فهو المؤمن الصادق ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي قل لهم يا محمد : أتخبرون الله بما في ضمائركم وقلوبكم ؟ ﴿والله يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ أي وهو جل وعلا العليم بأحوال جميع العباد ، لا تخفى عليه خافية لا في السموات ولا في الأرض ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي واسع العلم رقيب على كل شيء ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿يُمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ أي يعدون إسلامهم عليك يا محمد منة ، يستوجبون عليها الحمد والثناء ﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾ أي قل لهم لا تمتنوا عليّ بإسلامكم ، فإن نفع ذلك عائد عليكم ﴿بل الله يمنُّ عليكم﴾ إن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ﴿أي بل لله المنَّة العظمى عليكم ، بالهداية للإيمان والتثبيت عليه ، إن كنتم صادقين في دعوى الإيمان﴾ إن الله يعلم غيب السموات والأرض ﴿أي يعلم ما غاب عن الأبصار في السموات والأرض﴾ والله بصيرٌ بما تعملون ﴿أي مطلع على أعمال العباد ، لا تخفى عليه خافية . . كرر تعالى الإخبار بعلمه بجميع الكائنات ، وإحاطته بجميع المخلوقات ، ليدل على سعة علمه ، وشموله لكل صغيرة وكبيرة ، في السر والعلن ، والظاهر والباطن .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستعارة التمثيلية ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ شبه حالهم في إبداء الرأي وقطع الأمر في حضرة الرسول بحال ملكٍ عظيمٍ تقدّم للسير أمامه بعض الناس وكان الأدب يقضي أن يسيروا خلفه لا أمامه ، وهذا بطريق الاستعارة التمثيلية .
- ٢ - التشبيه المرسل المجمل ﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض﴾ لوجود أداة التشبيه .
- ٣ - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿أولئك هم الراشدون﴾ بعد قوله ﴿حَبِّبْ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ وهذا من المحسنات البديعية .

٤ - المقابلة بين ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وبين ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ .

٥ - الطباق ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ .

٦ - جناس الاشتقاق ﴿أقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ .

٧ - التشبيه التمثيلي ﴿أيجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً﴾ مثل اللغية بمن يأكل لحم الميت ، وفيه مبالغات عديدة لتصوير الاغتياب بأقبح الصور وأفحشها في الذهن .

٨ - طباق السلب ﴿أما قل لم تؤمنوا﴾ .

٩ - الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿أتعلمون الله بدينكم﴾ ؟

١٠ - التشبيه البليغ ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ أصل الكلام المؤمنون كالأخوة في وجوب التراحم والتناصر ، فحذف وجه الشبه وأداة التشبيه فأصبح بليغاً مع إفادة الجملة الحصر .

تنبية : سورة الحجرات تسمى سورة « الأخلاق والآداب » فقد أرشدت إلى مكارم الأخلاق ، وفضائل الأعمال ، وجاء فيها النداء بوصف الإيمان خمس مرات ، وفي كل مرة إرشاد إلى مكرمة من المكارم وفضيلة من الفضائل ، وهذه الآداب الرفيعة نستعرضها في فقرات :
أولاً : وجوب الطاعة والانقياد لأوامر الله ورسوله وعدم التقدم عليه بقول أو رأي ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ .

ثانياً : احترام الرسول وتعظيم شأنه ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ .

ثالثاً : وجوب الثبوت من الأخبار ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ .

رابعاً : النهي عن السخرية بالناس ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾ .

خامساً : النهي عن التجسس والغيبة وسوء الظن ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن﴾ .

الآية .

لطيفة : سئل بعض العلماء عما وقع بين الصحابة من قتال فقال « تلك دماء قد طهر الله منها أيدينا فلا نلوث بها ألسنتنا ، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته » .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجرات »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* هذه السورة مكية وهي تعالج أصول العقيدة الإسلامية «الوحدانية، الرسالة، البعث» ولكن المحور الذي تدور حوله هو موضوع «البعث والنشور» حتى ليكاد يكون هو الطابع الخاص للسورة الكريمة، وقد عالج القرآن بالبرهان الناصع، والحجة الدامغة. وهذه السورة رهيبة، شديدة الوقع على الحس، تهز القلب هزاً، وترج النفس رجاً، وتثير فيها روعة الإعجاب، ورعشة الخوف بما فيها من الترغيب والترهيب.

* ابتدأت السورة بالفضية الأساسية التي أنكرها كفار قريش، وتعجبوا منها غاية العجب، وهي قضية الحياة بعد الموت، والبعث بعد الفناء ﴿ق﴾ والقرآن المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب * أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد . . ﴿ الآيات .

* ثم لفتت السورة أنظار المشركين - المنكرين للبعث - إلى قدرة الله العظيمة، المتجلية في صفحات هذا الكون المنظور، في السماء والأرض، والماء والنبت، والثمر والطلع، والنخيل والزرع وكلها براهين قاطعة على قدرة العلي الكبير ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها . . ﴿ الآيات .

* وانتقلت السورة الكريمة للحديث عن المكذبين من الأمم السالفة، وما حلَّ بهم من الكوارث وأنواع العذاب، تحذيراً لكفار مكة أن يحلَّ بهم ما حلَّ بالسابقين ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود . . ﴿ الآيات .

* ثم انتقلت السورة للحديث عن سكرة الموت، ووهلة الحشر، وهول الحساب، وما يلقيه المجرم في ذلك اليوم العصيب من أهوال وشدائد تنتهي به بإلقائه في الجحيم ﴿ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد . . ﴿ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن «صيحة الحق» وهي الصيحة التي يخرج الناس بها من القبور كأنهم جراد منتشر، ويساقون للحساب والجزاء لا يخفى على الله منهم أحد، وفيه إثبات للبعث

والنشور الذي كذب به المشركون ﴿واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب﴾ يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . . ﴿الآيات .

قال الله تعالى : ﴿قَ * والقرآن المجيد . . إلى . . فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (٢٢) .

اللغز : ﴿مريج﴾ مختلط قال ابن قتيبة : مرج الأمر ومرج الدين اختلط ، وأصله أن يقلق الشيء ولا يستقر يقال : مرج الخاتم في يدي إذا قلق للهزال ﴿فروج﴾ شقوق وصدوع جمع فرج وهو الشق ﴿باسقات﴾ طوال بسق الشيء بسوقاً إذا طال ﴿نضيد﴾ متراكب بعضه فوق بعض ﴿لبس﴾ حيرة وشك واضطراب ﴿عيينا﴾ عجزنا يقال : عيي به يعيا أي عجز عنه ﴿رقيب﴾ حافظ شاهد على أعمال الإنسان ﴿عتيد﴾ حاضر مهياً قال الجوهري : العتيد الشيء الحاضر المهياً ومنه ﴿وأعتدت لهن متكأ﴾ وفرس عتد معداً للجري^(١) ﴿حديد﴾ حاد نافذ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ دَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾

النفيس : ﴿قَ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن ، وللإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية^(٢) ﴿والقرآن المجيد﴾ قسم حذف جوابه أي أقسم بالقرآن الكريم ، ذي المجد والشرف على سائر الكتب السأوية لتبعثن بعد الموت قال ابن كثير : وجواب القسم محذوف وهو مضمون الكلام بعده وهو إثبات النبوة ، وإثبات المعاد وتقديره إنك يا محمد لرسول وإن البعث لحق^(٣) ، وهذا كثير في القرآن وقال أبو حيان : والقرآن مقسم به ، والمجيد صفته وهو الشريف على غيره من الكتب ، والجواب محذوف يدل عليه ما بعده تقديره : لقد جئتهم منذراً بالبعث فلم يقبلوا^(٤) ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم﴾ أي تعجب المشركون من إرسال رسول إليهم من البشر يخوفهم من عذاب الله ﴿فقال الكافرون هذا شيءٌ عجيب﴾ أي فقال كفار مكة : هذا شيءٌ في منتهى الغرابة والعجب، والإظهار في موضع الإضمار لتسجيل جريمة الكفر عليهم ، والآية إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب ، فإنهم قد عرفوا صدق الرسول وأمانته ونصحته ، فكان الواجب عليهم أن يسارعوا إلى الإيمان لا أن يعجبوا ويستهزئوا ، ثم أخبر تعالى عن وجه تعجبهم فقال ﴿أئذا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ أي أئذا متنا

(١) الصحاح مادة عتد . (٢) انظر أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة . (٣) هذا خلاصة قول ابن كثير وانظر المختصر ٣/ ٣٧١ .

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٢٠ .

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةٌ وَذِكْرٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾

واستحالت أجسادنا إلى تراب هل سنحيا ونرجع كما كنا؟ ﴿ذلك رجع بعيد﴾ أي ذلك رجوع بعيد غاية البعد ، مستحيل حصوله ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ أي قد علمنا ما تنقصه الأرض من أجسادهم ، وما تأكله من لحومهم وأشعارهم ودمائهم إذا ماتوا ، فلا يضل عنا شيء حتى تتعذر علينا الإعادة ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾ أي ومع علمنا الواسع عندنا كتاب حافظ لعدددهم وأسمائهم وما تأكله الأرض منهم ، وهو اللوح المحفوظ الذي يحصي تفصيل كل شيء ﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم﴾ إضراب إلى ما هو أفظع وأشنع من التعجب وهو التكذيب بالقرآن العظيم أي كذبوا بالقرآن حين جاءهم ، مع سطوع آياته ، ووضوح بيانه ﴿فهم في أمر مريح﴾ أي فهم في أمر مختلط مضطرب ، فتارة يقولون عن الرسول إنه ساحر ، وتارة يقولون إنه شاعر ، وتارة يقولون إنه كاهن ، وهكذا قالوا أيضاً عن القرآن إنه سحر ، أو شعر ، أو أساطير الأولين إلى غير ذلك . ثم ذكر تعالى دلائل القدرة والوحدانية الدالة على عظمة رب العالمين فقال ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم﴾ أي أفلم ينظروا نظر تفكير واعتبار ، إلى السماء في ارتفاعها وإحكامها ، فيعلموا أن القادر على إيجادها قادر على إعادة الإنسان بعد موته؟ ﴿كيف بنيناها وزيناها﴾ أي كيف رفناها بلا عمد وزيناها بالنجوم ﴿وما لها من فروج﴾ أي ما لها من شقوق وصدوع ﴿والأرض مددناها﴾ أي والأرض بسطناها ووسعناها ﴿والقينا فيها رواسي﴾ أي وجعلنا فيها جبالاً ثوابت تمنعها من الاضطراب بسكانها ﴿وانبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ أي وانبتنا فيها من كل نوع من النبات حسن المنظر ، يبهج ويسر الناظر إليه ﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾ أي فعلنا ذلك تبصيراً منا وتذكيراً على كمال قدرتنا ، لكل عبد راجع إلى الله متفكر في بديع مخلوقاته ﴿ونزلنا من السماء ماءً مباركاً﴾ أي ونزلنا من السحاب ماءً كثير المنافع والبركة ﴿فانبتنا به جنات وحب الحصيد﴾ أي فأخرجنا بهذا الماء البساتين الناضرة ، والأشجار المثمرة ، وحب الزرع المحصود ، كالحنطة والشعير وسائر الحبوب التي تحصد ﴿والنخل باسقات﴾ أي وأخرجنا شجر النخيل طوياً مستويات ﴿لها طلع نضيد﴾ أي لها طلع منضود ، منظم بعضه فوق بعض ، قال أبو حيان : يريد كثرة الطلع وتراكمه وكثرة ما فيه من الثمر ، وأول ظهور الثمر يكون منضداً كحب الرمان ، فما دام ملتصقاً ببعضه ببعض فهو نضيد ، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد^(١) ﴿رزقاً للعباد﴾ أي أنبتنا كل

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ
 وَقَوْمُ تَبَعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾
 وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا تَوْسُوسٍ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾

ذلك رزقاً للخلق لينتفعوا به ﴿وأحيينا به بلدة ميتاً﴾ أي وأحيينا بذلك الماء أرضاً جديبة لا ماء فيها ولا
 زرع فأنبتنا فيها الكلاً والعشب ﴿كذلك الخروج﴾ أي كما أحييناها بعد موتها كذلك نخرجكم أحياء
 بعد موتكم قال ابن كثير : وهذه الأرض الميتة كانت هامدة ، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت
 من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك مما يحار الطرف في حسنها ، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها
 فأصبحت تهتز خضراء ، فهذا مثال للبعث بعد الموت ، فكما أحيانا الله الأرض الميتة كذلك يحيي الله
 الموتى . . . (١) ثم ذكر تعالى كفار مكة بما حلَّ بمن سبقهم من المكذبين إنذاراً لهم وإعذاراً فقال ﴿كذبت
 قبلهم قوم نوح﴾ أي كذب قبل هؤلاء الكفار قوم نوح ﴿وأصحاب الرس﴾ أي وأصحاب البئر وهم
 بقية من ثمود رسوا نبيهم فيها أي دسوه فيها ﴿وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط﴾ سمأهم إخوانه لأنه
 صاهرهم وتزوج منهم ﴿وأصحاب الأيكة﴾ أي وأصحاب الشجر الكثير الملتف وهم قوم شعيب ،
 نُسبوا إلى الأيكة لأنهم كانت تحيط بهم البساتين والأشجار الكثيرة ، الملتف بعضها على بعض ﴿وقوم
 تبَع﴾ قال المفسرون : هو ملك كان باليمن أسلم ودعا قومه إلى الإسلام فكذبوه وهو تبَع الجاني (٢)
 ﴿كل كذب الرسل﴾ أي جميع هؤلاء المذكورين كذبوا رسولهم قال ابن كثير : وإنما جمع الرسل لأن من
 كذب رسولاً فإنما كذب جميع الرسل كقوله تعالى ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ (٣) ﴿فحق وعيد﴾ أي
 فوجب عليهم وعيدي وعقابي ، والآية تسلية للنبي ﷺ وتهديد للكفرة المجرمين ﴿أفعيينا بالخلق
 الأول﴾ أي أفعجزنا عن ابتداء الخلق حتى نعجز عن إعادتهم بعد الموت ؟ قال القرطبي : وهو توبيخ
 لمنكري البعث ، وجواب لقولهم ﴿ذلك رجع بعيد﴾ (٤) ومراده أن ابتداء الخلق لم يعجزنا ، والإعادة
 أسهل منه فكيف يتوهم عجزنا عن البعث والإعادة ؟ ﴿بل هم في لبس من خلق جديد﴾ أي بل
 هم في خلطٍ وشبهةٍ وحيرة من البعث والنشور قال الألوسي : وإنما نكر الخلق ووصف بجديد ، ولم يقل :
 من الخلق الثاني تنبيهاً على استبعادهم له وأنه خلق عظيم يجب أن يهتم بشأنه فله نبأ عظيم (٥) ثم نبه تعالى
 على سعة علمه وكمال قدرته فقال ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ أي خلقنا جنس
 الإنسان ونعلم ما يجول في قلبه وخاطره ، لا يخفى علينا شيء من خفاياه ونواياه ﴿ونحن أقرب إليه من
 حبل الوريد﴾ أي ونحن أقرب إليه من حبل وريده ، وهو عرق كبير في العنق متصل بالقلب قال أبو
 حيان : ونحن أقرب إليه قرب علم ، نعلم به وبأحواله لا يخفى علينا شيء من خفاياه ، فكان ذاته تعالى

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣٧٢ . (٢) انظر حاشية الجمل على الجلالين ٤/٩١ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣٧٢ .

(٤) تفسير القرطبي ١٧/٨ . (٥) تفسير روح المعاني ٢٦/١٧٨ .

إِذْ يَتَلَقَى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ
وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٨﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿١٩﴾
وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾

قريبة منه ، وهو تمثيل لفرط القرب كقول العرب : هو مني معقد الإزار^(١) وقال ابن كثير : المراد ملائكتنا أقرب إلى الإنسان من جبل وريده إليه ، والحلول والاتحاد منفيان بالإجماع تعالى الله وتقدس ، وهذا كما قال في المختصر ﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ يريد به الملائكة^(٢) ، ويدل عليه قوله بعده ﴿إِذْ يَتَلَقَى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي حين يتلقى الملكان الموكلان بالإنسان ، ملك عن يمينه يكتب الحسنات ، وملك عن شماله يكتب السيئات ، وفي الكلام حذف تقديره عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فحذف الأول للدلالة الثاني عليه قال مجاهد : وكَّل الله بالإنسان - مع علمه بأحواله - ملكين بالليل وملكين بالنهار يحفظان عمله ويكتبان أثره إلزاماً للحجة ، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات ، والآخر عن شماله يكتب السيئات فذلك قوله تعالى ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾^(٣) وقال الألوسي : والمراد أنه سبحانه أعلم بحال الإنسان من كل رقيب ، حين يتلقى المتلقيان الحفيظان ما يتلفظ به ، وفيه إيذان بأنه عز وجل غني عن استحفاظ الملكين ، فإنه تعالى أعلم منهما ومطلع على ما يخفى عليهما ، لكن الحكمة اقتضت كتابة الملكين لعرض صحائفهما يوم يقوم الأشهاد ، فإذا علم العبد ذلك - مع علمه بإحاطة الله تعالى بعلمه - ازداد رغبة في الحسنات ، وانتهاءً عن السيئات^(٤) ﴿ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ﴾ أي ما يتلفظ كلمةً من خيرٍ أو شر ، إلا وعنده ملك يرقب قوله ويكتبه ﴿عتيدٌ﴾ أي حاضر معه أينما كان مهياً لكتابة ما أمر به قال ابن عباس : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر^(٥) وقال الحسن : فإذا مات ابن آدم طويت صحيفته وقيل له يوم القيامة ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾^(٦) ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾ أي وجاءت غمرة الموت وشدته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله ، بالأمر الحق من أهوال الآخرة حتى يراها المنكر لها عياناً ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ أي ذلك ما كنت تفر منه وتميل عنه وتهرب منه وتفزع وفي الحديث عن عائشة أن النبي ﷺ لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : « سبحان الله إن للموت لسكرات »^(٧) ﴿ونُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ أي ونُفِخَ فِي الصُّورِ نفخة البعث ذلك هو اليوم الذي وعد الله الكفار به بالعذاب ﴿وجاءت كل نفسٍ معها سائقٌ وشهيدٌ﴾ أي وجاء كل إنسان برأ كان أو فاجراً ومعه ملكان : أحدهما يسوقه إلى المحشر ، والآخر يشهد عليه بعمله قال ابن عباس : السائق من الملائكة ، والشهيد من أنفسهم وهي الأيدي والأرجل ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ وقال مجاهد :

(١) تفسير البحر المحیط ٨/١٢٣ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٣٧٣ . (٣) تفسير القرطبي ٩/١٧ .

(٤) تفسير روح المعاني ٢٦/١٧٩ . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣٧٤ .

(٦) تفسير البحر المحیط ٨/١٢٤ . (٧) رواه البخاري .

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

السائق والشهيد ملكان ، ملكٌ يسوقه وملكٌ يشهد عليه^(١) ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ أي لقد كنت أيها الإنسان في غفلةٍ من هذا اليوم العصيب ﴿فكشفتنا عنك غطاءك﴾ أي فأزلنا عنك الحجاب الذي كان على قلبك وسمعك وبصرك في الدنيا ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ أي فبصرك اليوم قويٌ نافذ ، ترى به ما كان محجوباً عنك لزوال الموانع بالكلية .

قال الله تعالى: ﴿وقال قرينه هذا ما لديّ عتيد . . إلى . . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ من آية (٢٣) إلى آية (٤٥) نهاية السورة .

الْمَنَاسِكَةُ : لما حكى تعالى في الآيات السابقة إنكار المشركين للبعث ، وأقام الأدلة والبراهين على البعث والنشور ، ذكر هنا الأحوال والشدائد التي يلقاها الكافر في الآخرة ، والنعيم الذي أعدّه للمؤمنين الأبرار في الجنة ، وختم السورة الكريمة ببيان دلائل البعث وأحواله وأطواره .

اللِّغْزُ : ﴿أزلفت﴾ قُرِبَتْ يقال : زلف يزلف أي قرب ، وأزلفه قربه ﴿أواب﴾ رجّاع إلى الله من آب يثوب أوباً إذا رجع ﴿بطشاً﴾ البطش : الأخذ بالشدّة والعنف ﴿نقّبوا﴾ طوفوا وساروا وأصل التنقيب التنقيب عن الشيء والبحث عنه قال الشاعر :

نقّبوا في البلاد من حذر الموت وجالوا في الأرض كلّ مجال^(٢)
﴿محيص﴾ مفر ومهرب من حاصٍ يحيص حيصاً إذا أراد الهرب ﴿لغوب﴾ تعب .

سَبَبُ الزُّنُوقِ : عن قتادة أن اليهود قالوا إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ، وأنه تعب فاستراح يوم السبت وسمّوه يوم الراحة فكذبهم تعالى فيما قالوا فنزلت ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾^(٣) .

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾

الْمُنْفِسِيُّرُ : ﴿وقال قرينه هذا ما لديّ عتيد﴾ أي وقال الملك الموكل به : هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرت وأحضرت ديوان عمله ﴿ألقيَا في جهنّم كل كفار عنيد﴾ أي يقول تعالى للملكين « السائق والشهيد » إقذفا في جهنم كل كافر معاند للحق لا يؤمن بيوم الحساب ﴿منّاعٍ للخير﴾ أي مبالغ في المنع لكل حق واجب عليه في ماله ﴿معتدٍ مرّيب﴾ أي ظالم غاشم شاكٍ في

(١) اخترنا قول مجاهد هنا ، لأنه الظاهر من الآية الكريمة ، وهو ما رجحه الطبري وابن كثير .

(٢) تفسير القرطبي ١٧/٢٢ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/٣٧٨ .

الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٣٦﴾ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٣٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٣٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٤٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٤١﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أُوَابٍ حَفِيظٍ ﴿٤٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٤٣﴾

الدين ﴿الذي جعل مع الله إلهاً آخر﴾ أي أشرك بالله ولم يؤمن بوحدهانيته ﴿فألقياه في العذاب الشديد﴾ أي فألقياه في نار جهنم ، وكرر اللفظ ﴿فألقياه﴾ للتوكيد ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته﴾ أي قال قرينه وهو الشيطان المقيض له ربنا ما أضللتني ﴿ولكن كان في ضلالٍ بعيد﴾ أي ولكنه ضل باختياريه ، وأثر العمى على الهدى من غير إكراه أو إجبار ، وفي الآية محذوف دل عليه السياق كأن الكافر قال يا رب إن شيطاني هو الذي أطغاني ، فيقول قرينه : ربنا ما أطغيته بل كان هو نفسه ضالاً معانداً للحق فأعنته عليه ﴿قال لا تختصموا لدي﴾ وقد قدمت إليكم بالوعيد ﴿أي فيقول الله عز وجل للكافرين وقرنائهم من الشياطين : لا تتخاصموا هنا فما ينفع الخصام ولا الجدل ، وقد سبق أن أنذرتكم على السنة الرسل بعذابي ، وحذرتكم شديد عقابي ، فلم تنفعكم الآيات والنذر﴾ ما يُبدلُ القولُ لدي ﴿أي ما يُغيّرُ كلامي ، ولا يُبدلُ حكمي بعقاب الكفرة المجرمين قال المفسرون : المراد وعده تعالى بعذاب الكافر وتحليده في النار بقوله تعالى ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾^(١) ﴿وما أنا بظالمٍ للعبيد﴾ أي ولست ظالماً حتى أعذب أحداً بدون استحقاق ، وأعاقبه بدون جرم ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ ؟ أي اذكر ذلك اليوم الرهيب يوم يقول الله تعالى لجهنم هل امتلأت ، وتقول هل هناك من زيادة ؟ وفي الحديث (لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد ، حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فتقول : قَطُ ، قَطُ وعزتك وكرمك - أي قد اكتفيت - وينزوي بعضها إلى بعض)^(٢) والظاهر أن السؤال والجواب على حقيقتيهما ، والله على كل شيء قدير ، فإن إنطاق الجهاد والشجر والحجر جائز عقلاً ، وحاصلُ شرعاً ، وقد أخبر القرآن الكريم أن نملة تكلمت ، وأن كل شيء يسبح بحمد الله ، وورد في صحيح مسلم أن المسلمين في آخر الزمان يقاتلون اليهود ، حتى يختبئ اليهودي وراء الشجر والحجر ، فينطق الله الشجر والحجر . الخ وقيل : إن الآية على التمثيل وأنها تصويرٌ لسعة جهنم وتباعد أقطارها بحيث لو ألقى فيها جميع الكفرة والمجرمين فإنها تتسع لهم^(٣) ، وهو كقولهم « قال الحائط للمسار لم تشقني ؟ قال : سل من يدقني » ثم أخبر تعالى عن حال السعداء بعد أن ذكر حال الأشقياء فقال ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾ أي قُرِبت وأدנית الجنة من المؤمنين المتقين مكاناً غير بعيد ، بحيث تكون بمرأى منهم مبالغة في إكرامهم ﴿هذا ما توعدون لكل أواب

(١) انظر حاشية الجمل ٩٦/٤ والقرطبي ١٧/١٧ . (٢) الحديث من رواية البخاري ومسلم .

(٣) هذا القول أنه ليس نمة قول وإنما هو على طريق التمثيل قول الخلف ، ونقل القرطبي أن هذا هو تفسير مجاهد ، والقول الأول قول السلف .

أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٢٦﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٢٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٠﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣١﴾

حفيظ ﴿٣١﴾ أي يقال لهم : هذا الذي ترونه من النعيم هو ما وعده الله لكل عبدٍ أوَّابٍ أي رجَّاعٍ إلى الله ، حافظٍ لعهدِهِ وأمره ﴿٣٠﴾ من خشية الرحمن بالغيب وجاء بقلبٍ منيبٍ ﴿٢٩﴾ أي خاف الرحمن فأتاعه دون أن يراه لقوة يقينه ، وجاء بقلبٍ تائبٍ خاضعٍ خاشعٍ ﴿٢٨﴾ أدخلوها بسلامٍ ذلك يومُ الخُلُودِ ﴿٢٦﴾ أي يقال لهم : أدخلوا الجنة بسلامة من العذاب والهموم والأكدار ، ذلك هو يوم البقاء الذي لا انتهاء له أبداً ، لأنه لا موت في الجنة ولا فناء ﴿٢٧﴾ لهم ما يشاءون فيها ﴿٢٦﴾ أي لهم في الجنة من كل ما تشتهيهِ أنفسهم ، وتلذ به أعينهم ﴿٢٧﴾ ولدينا مزيدٌ ﴿٢٨﴾ أي وعندنا زيادة على ذلك الإِنعام والإِكرام ، وهو النظر إلى وجه الله الكريم (١) . . ثمَّ خَوْفٌ تعالَى كِفَارِ مَكَّةَ بِمَا حَدَثَ لِلْمَكْذِبِينَ قَبْلَهُمْ فَقَالَ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي وأهلكنا قبل كفار قريش أَمْماً كَثِيراً مِنْ الْكُفَّارِ الْمُجْرِمِينَ ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي هم أقوى من كفار قريش قوة ، وأعظم منهم فتكاً وبطشاً ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي فساروا في البلاد ، وطوفوا فيها وجالوا في أقطارها ، فهل كان لهم من الموت مهرب ؟ وهل كان لهم من عذاب الله مخلص ؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي إن فيما ذُكِرَ مِنْ إِهْلَاكِ الْقُرَى الظالمة ، لتذكرة وموعظة لمن كان له عقل يتدبر به ، أو أصغى إلى الموعظة وهو حاضر القلب ليتذكر ويعتبر قال سفيان : لا يكون حاضرأً وقلبه غائب وقال الضحاك : العرب تقول : ألقى فلان سمعه إذا استمع بأذنيه وهو شاهد بقلب غير غائب (٢) ، وعبر عن العقل بالقلب لأنه موضعه كما قال تعالى ﴿فَإِنهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ هذه الآية ردُّ على اليهود حيث زعموا أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة وأنه تعب فاستراح يوم السبت واستلقى على ظهره فوق العرش ، فكذبهم الله تعالى (٣) والمعنى والله خلق السموات السبع في ارتفاعها وعظمتها ، والأرض في كثافتها وسعتها ، وما بينها من المخلوقات البديعة في ستة أيام ، وما مسنا من إعياء وتعب ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ أي فاصبر يا محمد على ما يقوله اليهود وغيرهم من كفار قريش ، واهجرهم هجراً جميلاً ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾ أي ونزه ربك عما

(١) هذا القول مروى عن أنس وجابر بن عبد الله قال : المزيد هو أن يتجلى الله تعالى لهم حتى يرونه وذلك في كل جمعة ، انظر روح المعاني ١٩٠/٢٦ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٣٧٨ . (٣) هذا قول قتادة والكلبي كذا في القرطبي ٢٤/١٧ .

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْنَا بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

لا يليق به ، وصل له واعبده وقتي الفجر والعصر ، وخصَّهما بالذكر لزيادة فضلها وشرفها ﴿ومن الليل فسبحه وأدبر السُّجُود﴾ أي ومن الليل فصل لله تهجداً وأعقاب الصلوات المفروضة قال ابن كثير : كانت الصلاة المفروضة قبل الإسرائ ثنتان قبل طلوع الشمس ، وثنتان قبل الغروب ، وكان قيام الليل واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حولاً ثم نسخ في حق الأمة وجوبه ، ثم بعد ذلك نسخ كل ذلك ليلة الإسرائ بخمس صلوات ، وبقي منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب (١) ﴿واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب﴾ أي واستمع يا محمد النداء والصوت حين ينادي إسرأيل بالحشر من موضع قريب يصل صوته إلى الكل على السواء قال أبو السعود : وفيه تهويل وتفظيع لشأن المخبر به ، والنادي هو إسرأيل عليه السلام يقول : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء (٢) ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق﴾ أي يوم يسمعون صيحة البعث التي تأتي بالحق - وهي النفخة الثانية في الصور - ﴿ذلك يوم الخروج﴾ أي ذلك هو يوم الخروج من القبور ﴿إننا نحن نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أي نُحْيِي الخلائق ونُمِيتُهُم في الدنيا ، وإلينا رجوعهم للجزاء في الآخرة ، لا إلى غيرنا ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعا﴾ أي يوم تشقق الأرض عنهم فيخرجون من القبور مسرعين إلى موقف الحساب استجابة لنداء المنادي ﴿ذلك حشر علينا يسير﴾ أي ذلك جمع وبعث سهل هين علينا لا يحتاج إلى عناء ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ أي نحن أعلم بما يقول كفار قريش من إنكار البعث والسخرية والاستهزاء بك ورسالتك ، وفيه تسلية للنبي ﷺ وتهديد لهم ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ أي وما أنت يا محمد بمسلط عليهم تجبرهم على الإسلام ، إنما بعثت مذكراً ﴿فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ أي عظم هذا القرآن من يخاف وعيدي . . ختم السورة الكريمة بالتذكير بالقرآن كما افتتحها بالقسم بالقرآن ليتناسق البدء مع الختام .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الإظهار في موطن الإضمار ﴿فقال الكافرون﴾ بدل فقالوا للتسجيل عليهم بالكفر .

٢ - الاستفهام الإنكاري لاستبعاد البعث ﴿أنذا متنا وكنا تراباً﴾ ؟

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٨ . (٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٩٦ .

٣ - الإضراب عن السابق لبيان ما هو أفظع وأشنع من التعجب ﴿بل كذبوا بالحق﴾ وهو التكذيب بآيات الله وبرسوله المؤيد بالمعجزات .

٤ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كذلك الخروج﴾ شبه إحياء الموتى بإخراج النبات من الأرض الميتة .

٥ - الاستعارة التمثيلية ﴿ونحن أقرب إليه من جبل الوريد﴾ مثل علمه تعالى بأحوال العبد ، وبخطرات النفس ، بجبل الوريد القريب من القلب ، وهو تمثيل للقرب بطريق الاستعارة كقول العرب : هو مني مقعد القابلة ، وهو مني مقعد الإزار .

٦ - الحذف بالإيجاز ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ أصله عن اليمين قعيد ، وعن الشمال قعيد ، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه ، وبين اليمين والشمال طباق وهو من المحسنات البديعية .

٧ - الاستعارة التصريحية ﴿وجاءت سكرة الموت﴾ استعار لفظ السكرة للهول والشدة التي يلقاها المحتضر عند وفاته .

٨ - الجناس الناقص بين ﴿عنيد﴾ و﴿عتيد﴾ لتغاير حرفي النون والتاء .

٩ - الطباق بين ﴿نحيي﴾ و﴿نميت﴾ .

١٠ - توافق الفواصل والسجع اللطيف غير المتكلف مثل ﴿ذلك يوم الوعيد﴾ ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ ومثل ﴿إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير .. ذلك حشر علينا يسير﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية ، لما فيه من جميل الوقع على السمع .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة ق »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* هذه السورة الكريمة من السور المكية التي تقوم على تشييد دعائم الإيمان ، وتوجيه الأبصار إلى قدرة الله الواحد القهار ، وبناء العقيدة الراسخة على أسس التقوى والإيمان .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن الرياح التي تذر الغبار ، وتسير المراكب في البحار ، وعن السحب التي تحمل مياه الأمطار ، وعن السفن الجارية على سطح الماء بقدرة الواحد الأحد ، وعن الملائكة الأطهار المكلفين بتدبير شئون الخلق ، وأقسمت بهذه الأمور الأربعة على أن الحشر كائن لا محالة ، وأنه لا بد من البعث والجزاء .

* ثم انتقلت إلى الحديث عن كفار مكة ، المكذبين بالقرآن وبالدار الآخرة ، فبينت حالهم في الدنيا ، ومآلهم في الآخرة ، حيث يعرضون على نار جهنم فيصلون عذابها ونكاتها .

* ثم تحدثت عن المؤمنين المتقين ، وما أعد الله لهم من النعيم والكرامة في الآخرة ، لأنهم كانوا في الدنيا محسنين ، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب ، والإعذار والإنذار .

* ثم تحدثت عن دلائل القدرة والوحدانية في هذا الكون الفسيح ، في سوائه وأرضه ، وجباله ووهاده ، وفي خلق الإنسان في أبداع صورة وأجل تكوين ، وكلها دلائل على قدرة رب العالمين .

* ثم انتقلت للحديث عن قصص الرسل الكرام ، وعن موقف الأمم الطاغية من أنبيائهم وما حل بهم من العذاب والدمار ، فذكرت قصة إبراهيم ولوط ، وقصة موسى ، وقصة الطغاة المتجبرين من قوم عاد وثمود وقوم نوح ، وفي ذكر القصص وتكراره في القرآن تسلياً للرسل الكرام ، وعبرة لأولى الأبصار ، يعتبر بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

* وختمت السورة الكريمة ببيان الغاية من خلق الإنس والجن ، وهي معرفة الله جل وعلا ، وعبادته وتوحيده ، وإفراده بالإخلاص والتوجه لوجهه الكريم بأنواع القربات والعبادات .

قال الله تعالى : ﴿والذاريات ذرواً * فالحاملات وقرأاً . . . إلى . . . للذين يخافون العذاب الأليم﴾

من آية (١) إلى نهاية آية (٣٧) .

اللفظة : ﴿الحُبْكُ﴾ الطرائق جمع حبيكة كطريقة وزناً ومعنى قال الزجاج : الحُبْكُ الطرائق الحسنة ، والمحبوكة في اللغة ما أُجيد عمله^(١) وقال ابن الأعرابي : كلُّ شيءٍ أحكمته وأحسنه عمله فقد حبكته^(٢) ﴿الخراصون﴾ جمع خراص وهو الكذاب ﴿غمرة﴾ الغمرة ما ستر الشيء وغطاه ومنه نهر غمر ﴿يهجعون﴾ ينامون والهجوع النوم ليلاً ﴿أوجس﴾ أحسّ وشعر ﴿صرّة﴾ صيحة وضجة ﴿مسومة﴾ معلّمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الْدِينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَنِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكِّ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾

التفسير : ﴿والذاريات ذوراً﴾ هذا قسمٌ أقسم تعالى به أي أقسم بالرياح التي تذر التراب فتفرقه ، وتحمل الرمال من مكان إلى مكان ﴿فالحاملات وقرأاً﴾ أي وأقسم بالسحب التي تحمل أثقال الأمطار ، وهي محملة بالماء الذي فيه حياة البشر ﴿فالجاريات يسراً﴾ أي وأقسم بالسفن التي تجري على وجه الماء جرياً سهلاً يسيراً وهي تحمل ذرية بني آدم ﴿فالمقسمات أمراً﴾ أي وأقسم بالملائكة التي تقسم الأرزاق والأمطار بين العباد ، وكل ملك مخصص بأمر ، فجبريل صاحب الوحي إلى الأنبياء ، وميكائيل صاحب الرزق والرحمة ، وإسرافيل صاحب الصور ، وعزرائيل صاحب قبض الأرواح^(٣) قال المفسرون : أقسم الله تعالى بهذه الأشياء لشرفها ولما فيها من الدلالة على عجيبة صنعه وقدرته ، ثم ذكر جواب القسم فقال ﴿إنما تُوعدون لصادق﴾ أي إن الذي تُوعدون من الثواب والعقاب ، والحشر والنشر ، لأمرٌ صادقٌ محققٌ لا كذب فيه ﴿وإن الدين لواقع﴾ أي وإن الجزاء لكائنٌ لا محالة ، ثم ذكر تعالى قسماً آخر فقال ﴿والسماوات ذات الحُبكِ﴾ أي وأقسم بالسماوات الطرائق المحكمة والبنیان المتقن قال ابن عباس : ذات الخلق الحسن المستوي^(٤) ﴿إنكم لفي قولٍ مختلفٍ﴾ جواب القسم أي إنكم أيها الكفار لفي قولٍ مضطربٍ في أمر محمد ، فمنكم من يقول إنه ساحر ، ومنكم من يقول إنه شاعر ، وبعضكم يقول إنه مجنون إلى غير ما هنالك من أقوالٍ مختلفةٍ ﴿يؤفكُ عنه من أفك﴾ أي يُصرف عن الإيمان بالقرآن وبمحمد عليه السلام ، من صرفٍ عن الهداية في علم الله تعالى وحرم السعادة ﴿قتل الخراصون﴾ أي لعن الكذابين الذين قالوا إن النبي ﷺ ساحر وكذاب وشاعر قال ابن الأنباري : والقتلُ

(١) زاد المسير ٢٩/٨ . (٢) البحر المحيط ١٣٢/٨ . (٣) حاشية الجمل ٢٠١/٤ . (٤) تفسير الخازن ٢٠٠/٤ .

الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا
فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ
إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾
وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا

إذا أخبر عن الله به فهو بمعنى اللعنة ، لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك (١) ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ أي الذين هم غافلون لاهون عن أمر الآخرة ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي يقولون تكذيباً واستهزاءً : متى يوم الحساب والجزاء ؟ قال تعالى رداً عليهم ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي هذا الجزاء كائن يوم يدخلون جهنم ويحرقون بها ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي تقول لهم خزنة النار : ذوقوا تعذيبكم وجزاءكم ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي هذا الذي كنتم تستعجلونه في الدنيا استهزاءً . . ولما ذكر حال الكفار ذكر المؤمنين الأبرار فقال ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي هم في بساطين فيها عيون جارية ، تجري فيها على نهاية ما يتنزّه به ﴿ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي راضين بما أعطاهم ربهم من الكرامة والنعيم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي كانوا في دار الدنيا محسنين في الأعمال ، ثم ذكر طرفاً من إحسانهم فقال ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي كانوا ينامون قليلاً من الليل ويصلون أكثره قال الحسن : كابدوا قيام الليل لا ينامون منه إلا قليلاً (٢) ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي وفي أواخر الليل يستغفرون الله من تقصيرهم ، فهم مع إحسانهم يعدّون أنفسهم مذنبين ، ولذلك يكثر الاستغفار بالأسحار قال أبو السعود : أي هم مع قلة نومهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار بالأسحار ، كأنهم أسلفوا ليلهم باقتراف الجرائم (٣) ، وهو مدح ثانٍ للمحسنين ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ مدح ثالث أي وفي أموالهم نصيب معلوم قد أوجبه على أنفسهم بمقتضى الكرم للسائل المحتاج ، وللمتعطف الذي لا يسأل لتعطفه (٤) ﴿وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي وفي الأرض دلائل واضحة على قدرة الله سبحانه ووجدانيته للموقنين بالله وعظمته ، الذين يعرفونه بصنعه قال ابن كثير : أي وفي الأرض من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة ، مما فيها من صنوف النباتات والحيوانات ، والجبال والقفار ، والبحار ، والأنهار ، واختلاف أسنة الناس وألوانهم ، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم ، والسعادة والشقاوة ، وما في تركيبهم من الخلق البديع (٥) ، ولهذا قال بعده ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي وفي أنفسكم آياتٌ وعبرٌ من مبدأ خلقكم إلى منتهاه ، أفلا تبصرون قدرة الله في خلقكم لتعرفوا قدرته على البعث ؟ قال ابن عباس : يريد اختلاف

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٣٠ / ٨ . (٢) البحر المحيط ١٣٥ / ٨ . (٣) إرشاد العقل السليم ٢٤٠ / ٥

(٤) هذا هو المشهور عن ابن عباس أنه حق سوى الزكاة ، يقري به ضعيفاً ، ويصل به رحماً ، ويحمل به كلاً ، وقيل : إنه الزكاة وهو قول

قتادة وابن سيرين . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣٨٤ / ٣ .

تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِجَاءٍ يَعْجَلُ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ

الصور ، والألسنة ، والألوان ، والطبائع ، والسمع والبصر والعقل^(١) إلى غير ذلك من العجائب المودعة في ابن آدم وقال قتادة : من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولئنت مفاصله للعبادة ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ أي وفي السماء أسباب رزقكم ومعاشكم وهو المطر الذي به حياة البلاد والعباد ، وما توعدون به من الثواب والعقاب مكتوب كذلك في السماء قال الصاوي : والآية قصد بها الامتنان والوعد والوعيد^(٢) ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ أي أقسم برب السماء والأرض إن ما توعدون به من الرزق والبعث والنشور لحق كائن لا محالة مثل نطقكم ، فكما لا تشكون في نطقكم حين تنطقون فكذلك يجب ألا تشكوا في الرزق والبعث قال المفسرون : وهذا على سبيل التشبيه والتمثيل أي رزقكم مقسوم في السماء كنطقكم فلا تشكوا في ذلك ، وهذا كقول القائل : هذا حق كما أنك ههنا ، وهذا حق كما أنك ترى وتسمع^(٣) ، فالرزق مثل النطق لا يفارق الشخص في حال من الأحوال وفي الحديث (لو أن أحدكم فر من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت)^(٤) . . ثم ذكر تعالى قصة ضيف إبراهيم تسلية لقلب النبي الكريم فقال ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ ؟ الاستفهام للتشويق ولتفخيم شأن تلك القصة كما يقول القائل : هل بلغك الخبر الفلاني ؟ يريد تشويقه إلى استماعه والمعنى هل وصل إلى سمعك يا محمد خبر ضيوف إبراهيم المعظمين ؟ قال ابن عباس : يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام^(٥) ، سُمُوا مكرمين لكرامتهم عند الله عز وجل ﴿ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ﴾ أي حين دخلوا على إبراهيم فقالوا : نسلم عليك سلاماً ﴿ قال سلام قوم منكرون ﴾ أي قال عليكم سلام أتم قوم غرباء لا نعرفكم فمن أنتم ؟ قال ابن كثير : وإنما أنكرهم لأنهم قدموا عليه في صورة شبان حسان عليهم مهابة عظيمة ولهذا أنكرهم^(٦) وقال أبو حيان : والذي يناسب حال إبراهيم عليه السلام أنه لا يخاطبهم بذلك ، إذ فيه من عدم الإنس ما لا يخفى ، وإنما قال ذلك في نفسه ، أو لمن كان معه من أتباعه وعلماؤه ، بحيث لا يسمع ذلك الأضياف^(٧) ﴿ فراغ إلى أهله ﴾ أي فمضى إلى أهله في سرعة وخفية عن ضيفه ، لأن من أدب المضيف أن يبادر بإحضار الضيافة من غير أن يشعر به الضيف ، حذراً من أن يمنعه الضيف ، أو يُثقل عليه في التأخير قال ابن قتيبة : عدل إليهم في خفية ولا يكون الرواغ إلا أن تخفي ذهابك ومجيئك^(٨) ﴿ فجاء بعجل سمين ﴾ أي فجاءهم بعجل سمين مشوي ، والعجل ولد البقرة وكان عامة ما له البقر ، واختاره لهم سميماً زيادة في إكرامهم ﴿ فقرَّبَهُ إِلَيْهِمْ

(١) تفسير الخازن ٤ - ٢٠٣ . (٢) حاشية الصاوي ٤/١٢٥ . (٣) انظر البحر المحيط ٨/١٣٧ . (٤) ذكره القرطبي في تفسيره ١٧/٤٣ وأسنده إلى الثعلبي . (٥) تفسير القرطبي ١٧/٤٤ . (٦) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣٨٥ . (٧) البحر المحيط ٨/١٣٩ . (٨) تفسير ابن الجوزي ٨/٣٦ .

خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِنُعْمٍ عَلَيْهِ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فقال ألا تأكلون ﴿٣٥﴾ أي فأدناه منهم ووضع بين أيديهم فلم يأكلوا فقال لهم في تلطف وبشاشة : ألا تأكلون هذا الطعام ؟ قال ابن كثير : وفي الآية تلطف في العبارة وعرض حسن ، وقد انتظمت الآية آداب الضيافة ، فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة ، ولم يمتن عليهم أولاً فقال نأتيكم بطعام بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجل فتي سمين مشوي ، فقربه إليهم ولم يضعه وقال اقتربوا بل وضعه بين أيديهم ، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال : ألا تأكلون ؟ على سبيل العرض والتلطف كما يقول القائل : إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل ^(١) ﴿فأوجس منهم خيفة﴾ أي فأضمر في نفسه الخوف منهم لما رأى إعراضهم عن الطعام ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ أي قالوا له لا تخف إنا رسل ربك ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ أي وبشروه بولد يولد له من زوجته سارة يكون عالماً عند بلوغه قال أبو حيان : وفيه تبشير بحياته حتى يكون من العلماء ^(٢) ، والجمهور على أن المبرر به هو إسحاق لقوله تعالى في سورة هود ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ ﴿فأقبلت امرأته في صرة﴾ أي فأقبلت سارة نحوهم حين سمعت البشارة في صيحة وضجة قال المفسرون : لما سمعت بالبشارة وكانت في زاوية من زوايا البيت جاءت نحوهم في صيحة عظيمة تريد أن تستفسر الخبر ﴿فصكَّت وجهها﴾ أي فلطمت وجهها على عادة النساء عند التعجب قال ابن عباس : لطمت وجهها تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر الغريب ^(٣) ﴿وقالت عجوز عقيم﴾ أي قالت أنا عجوز عقيم فكيف ألد ؟ والعقيم هي التي لم تلد قط لأنقطاع حبلها قال الإمام الجلال : كان عمرها تسعاً وتسعين سنة ، وعمر إبراهيم مائة وعشرين ^(٤) ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ أي الأمر كما أخبرناك هكذا حكم وقضى ربك من الأزل فلا تعجبي ولا تشكّي فيه ﴿إنه هو الحكيم العليم﴾ أي الحكيم في صنعه ، العليم بمصالح خلقه ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾ أي ما شأنكم الخطير الذي لأجله أرسلتم أيها الملائكة الأبرار ؟ قال البيضاوي : لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون مجتمعين إلا لأمر عظيم سأل عنه ^(٥) ﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ أي قالوا إن الله أرسلنا لإهلاك قوم لوط الذين ارتكبوا أفحش الجرائم « اللواط » وكانوا ذوي جرائم متعددة ، وهي كبار المعاصي من كفر وعصيان ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾ أي لنهلكهم بحجارة من طين متحجر مطبوخ بالنار وهو السجيل قال أبو حيان : والسجيل طين يطبخ كما يطبخ الأجر حتى يصبح في صلابة الحجارة ^(٦) ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي معلّمة من عند الله بعلامة ، على كل واحدة منها اسم صاحبها الذي يهلك بها ﴿للمسرفين﴾ أي

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٥ . (٢) البحر المحيط ٨/ ١٣٩ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٨٥ .

(٤) حاشية تفسير الجلالين ٤/ ١٢٦ . (٥) تفسير البيضاوي ٤/ ١٦٧ . (٦) البحر المحيط ٨/ ١٤٠ .

فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٤٨﴾

المجاوزين الحدّ في الفجور قال الصاوي : كان في قرى لوط ستمائة ألف فأدخل جبريل جناحه تحت الأرض فاقتلع قراهم ، ورفعها حتى سمع أهل السماء أصواتهم ثم قلبها ، ثم أرسل الحجارة على من كان خارجاً عنها^(١) ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فأخرجنا من كان في قرى أهل لوط من المؤمنين لثلاثي يهلكوا ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي فما كان فيها بعد البحث والتفتيش غير أهل بيت واحد من المسلمين قال مجاهد : هم لوط وأبنتاه ، والغرض من الآية بيان قلة المؤمنين الناجين من العذاب ، وكثرة الكافرين المستحقين للهلاك قال الإمام الجلال : وصفوا بالإيمان والإسلام أي هم مصدقون بقلوبهم ، عاملون بجوارحهم الطاعات^(٢) ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ أي أبقينا في تلك القرى المهلكة بعد إهلاك الظالمين علامة على هلاكهم بجعل عاليها سافلها ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي للذين يخافون عذاب الله فإنهم المعتبرون به قال ابن كثير : ومعنى الآية ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ أي جعلناها عبرة بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال ، وجعلنا محلّتهم بحيرةً منتنة خبيثة ففي ذلك عبرة للمؤمنين الذين يخافون العذاب الأليم^(٣) .

تَبْيِيْهُ : قال الإمام الرازي : في قصة ضيف إبراهيم تسليّة لقلب النبي الكريم ﷺ بيان أن غيره من الأنبياء عليهم السلام كان مثله ، واختار تعالى إبراهيم لكونه شيخ المرسلين ، وكون النبي ﷺ على سنته في بعض الأشياء ، وفيها إنذار لقومه بما جرى من الضيف ومن إنزال الحجارة على المذنبين المضلين^(٤) .

قال الله تعالى : ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . . . إِلَى . . . مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ من آية (٣٨) إلى آية (٦٠) نهاية السورة .

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى قصة ضيف إبراهيم الذين أرسلوا لهلاك قوم لوط ، أتبعه بذكر قصص الأمم الطاغية ، فذكر منهم فرعون وجنوده ، وعاداً ، وثمود ، وقوم نوح ، تسليّة للنبي عليه السلام ، وتذكيراً للأنام بانتقام الله من أعدائه وأعداء رسله ، ثم ذكر دلائل القدرة والوحدانية ، وختم السورة الكريمة بإنذار المكذبين الضالين .

اللَّفْكَرُ : ﴿نَبَذْنَاهُمْ﴾ طرحناهم ﴿الْيَمِّ﴾ البحر ﴿مَلِيمٍ﴾ آت بما يلام عليه ﴿الرَّمِيمِ﴾ الشيء الهالك البالي قال الزجاج : الرميم : الورق الجاف المتحطم مثل الهشيم^(٥) ، ورمّ العظم إذا بلى فهو رمة

(١) حاشية الصاوي ٤/ ١٢٦ . (٢) تفسير الجلالين ٤/ ٢٠٥ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٥ .

(٤) التفسير الكبير ٧/ ٦٦٦ . (٥) زاد المسير ٨/ ٣٩ .

وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ رُكْنَهُ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾

ورميم قال جرير يرثي ابنه :

تركتني حين كفَّ الدهر من بصري
 ﴿الماهدون﴾ مهدتُ الفراش مهداً بسطته ووطأته ، والتمهيد تسوية الشيء وإصلاحه ﴿ذنوباً﴾
 الذنوب : بفتح الذال النصيب من العذاب .

التفسير : ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون﴾ أي وجعلنا في قصة موسى أيضاً آيةً وعبرة وقت إرسالنا له إلى فرعون ﴿بسلطان مبين﴾ أي بحجة واضحة ودليل باهر ﴿فتولى ركنه﴾ أي فأعرض عن الإيمان بموسى بجموعه وأجناده ، وقوته وسلطانه قال مجاهد : تعزز عدو الله بأصحابه ﴿والغرض أن فرعون أعرض عن الإيمان بسبب ما كان يتقوى به من جنوده لأنهم كانوا له كالركن الذي يعتمد عليه البنيان﴾ وقال ساحر أو مجنون ﴿وقال ساحر أو مجنون﴾ أي وقال اللعين في شأن موسى إنه ساحر ولذلك أتى بهذه الخوارق ، أو مجنون ولذلك ادعى الرسالة ، وإنما قال ذلك تمويهاً على قومه لا شكاً منه في صدق موسى ﴿فأخذناه وجنوده﴾ أي فأخذنا فرعون مع أصحابه وجنوده ﴿فنبدناهم في اليم﴾ أي فطرحناهم في البحر لما أغضبونا وكذبوا رسولنا ﴿وهو ملِيم﴾ أي وهو أتى بما يلام عليه من الكفر والطغيان . . ثم لما انتهى من قصة فرعون أعقبها بذكر قصة عاد فقال ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ أي وجعلنا في قصة عاد كذلك آية لمن تأمل حين أرسلنا عليهم الريح المدمرة ، التي لا خير فيها ولا بركة ، لأنها لا تحمل المطر ولا تلقح الشجر ، وإنما هي للإهلاك ، وهي الريح التي تسمى الدبور وفي الصحيح «نصرت بالصبا وأهلك عاد بالذبور» قال المفسرون : سميت ﴿الريح العقيم﴾ تشبيهاً لها بعقم المرأة التي لا تحمل ولا تلد ، ولما كانت هذه الريح لا تلقح سحابةً ولا شجراً ، ولا خير فيها ولا بركة لأنها لا تحمل المطر شبهت بالمرأة العقيم ﴿ما تذر من شيء أنت عليه﴾ أي ما تترك شيئاً مرت عليه في طريقها مما أراد الله تدميره وإهلاكه ﴿الإ جعلته كالرميم﴾ أي إلا جعلته كالهشيم المتفتت البالي قال ابن عباس : ﴿الرميم﴾ الشيء الهالك البالي وقال السدي : هو التراب والرماد المدقوق^(١) كقوله تعالى ﴿تدمر كل شيء بأمر ربها﴾ قال المفسرون : كانت الريح التي أرسلها الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، استمرت عليهم

(١) تفسير القرطبي ٥١/١٧ . (٢) المختصر ٣/٣٨٦ . ونقل عن ابن عباس أن المراد «بركنه» أي بقوته وسلطانه ، وقد جمعنا بين القولين في التفسير . (٣) لفظه «أو» للشك ، وذهب بعض المفسرين إلى أنها بمعنى الواو أي ساحر ومجنون لأن اللعين قال الأمرين معاً فقال ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ وقال ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ وهو اختيار القرطبي ، وقال الألوسي : لا ضرورة إلى ذلك التأويل لأن اللعين كان يتلون تلون الحرباء . (٤) تفسير الخازن ٤/٢٠٥ . (٥) حاشية الجمل ٤/٢٠٧ .

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ مَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٥﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٦﴾ قَا
 اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا
 بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيَّدُونَ ﴿٤٨﴾

ثمانية أيام متتابعة ، فكانت تهدم البنيان وتنتزع الرجال فترفعهم إلى السماء حتى يرى الواحد منهم كالطير ثم ترمي به إلى الأرض جثة هامدة ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ . ثم أخبر تعالى عن هلاك ثمود فقال ﴿وفي ثمود﴾ أي وجعلنا في ثمود أيضاً آية وعبرة ﴿إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين﴾ أي حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا إلى وقت الهلاك بعد عقربهم للناقة ، وهو ثلاثة أيام كما في هود ﴿قال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ ﴿فعتوا عن أمر ربهم﴾ أي فاستكبروا عن امتثال أمر الله ، وعصوا رسولهم فعقروا الناقة ﴿فأخذتهم الصاعقة﴾ أي فأخذتهم الصيحة المهلكة - صيحة العذاب - ﴿وهم ينظرون﴾ أي وهم يشاهدونها ويعاينونها لأنها جاءتهم في وضوح النهار قال ابن كثير : وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار^(١) وقال الألوسي : إن صالحاً عليه السلام وعدهم بالهلاك بعد ثلاثة أيام وقال لهم : تصبح وجوهكم غداً مصفرة ، وبعد غد حمرة ، وفي اليوم الثالث مسودة ، ثم يصبحكم العذاب ، فلما رأوا الآيات التي بينها عليه السلام عمدوا إلى قتله فنجاه الله ، وفي اليوم الرابع أتتهم الصاعقة وهي نار من السماء وقيل صيحة فهلكوا^(٢) ﴿فما استطاعوا من قيام﴾ أي ما قدروا على الهرب والنهوض من شدة الصيحة ، بل أصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿وما كانوا منتصرين﴾ أي وما كانوا ممن ينتصر لنفسه فيدفع عنها العذاب . . ثم أخبر تعالى عن هلاك قوم نوح فقال : ﴿وقوم نوح من قبل﴾ أي وأهلكنا قوم نوح بالطوفان من قبل إهلاك هؤلاء المذكورين ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ تعليلٌ للهلاك أي لأنهم كانوا فسقةً خارجين عن طاعة الرحمن بارتكابهم الكفر والعصيان . . ولما انتهى من أخبار هلاك الأمم الطاغية المكذبة ، شرع في بيان دلائل القدرة والوحدانية فقال ﴿والسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أي وشيدنا السماء وأحكمنا خلقها بقوة وقدرة قال ابن عباس : ﴿بأيدي﴾ بقوة^(٣) ﴿وإننا لموسعون﴾ أي وإننا لموسعون في خلق السماء ، فإن الأرض وما يحيط بها من الهواء والماء بالنسبة لها كحلقة صغيرة في فلاة كما ورد في بعض الأحاديث^(٤) وقال ابن عباس : ﴿لموسعون﴾ أي لقادرون ، من الوسع بمعنى الطاقة ﴿والأرض فرشناها﴾ أي والأرض مهدناها لتستقروا عليها ، وبسطناها لكم ومددنا فيها لتنتفعوا بها بالطرقات وأنواع المزروعات ، ولا ينافي ذلك كرويتها ، فذلك أمرٌ مقطوع به ، فإنها مع كرويتها واسعة ممتدة ، فيها السهول الفسيحة ، والبقاع الواسعة ، مع الجبال والهضاب ولهذا قال تعالى

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٨٦ . (٢) روح المعاني ٢٧/ ١٦ .

(٣) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٤٠ . (٤) انظر إلى عظمة الكون بعين البصيرة والعقل ، لترى عظمة الخالق الكبير المتعال ، فإن هذه الأرض التي نعيش فوق سطحها ما هي إلا ذرة أو نقطة تسبح في هذا الكون الفسيح ، الذي لا يعلم سعته وعظمته إلا الله رب العالمين ، منشىء الأكوان وخالق الإنسان ، وتغنن وأنت تقرأ هذه الآية الكريمة ﴿وإننا لموسعون﴾ عظمة الكون لتسبح الله مع المسبحين بقلبك ولسانك .

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

﴿فنعم الماهدون﴾ أي فنعم الباسطون الموسعون لها نحن ، وصيغة الجمع للتعظيم ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ أي ومن كل شيء خلقنا صنفين ونوعين مختلفين ذكراً وأنثى ، وحلوا وحامضاً ونحو ذلك ^(١) ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي كي تتذكروا عظمة الله فتؤمنوا به ، وتعلموا أن خالق الأزواج واحد أحد ﴿ففرّوا إلى الله﴾ أي الجأوا إلى الله ، وأهرعوا إلى توحيدهِ وطاعته قال أبو حيان : والأمر بالفرار إلى الله أمرٌ بالدخول في الإيمان وطاعة الرحمن ، وإنما ذكر بلفظ الفرار لينبه على أن وراء الناس عقاباً وعذاباً ، وأمرُ حقّه أن يُقرّ منه ، فقد جمعت اللفظة بين التحذير والاستدعاء ، ومثله قول النبي ﷺ : (لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك) ^(٢) وقال ابن الجوزي : المعنى اهربوا مما يوجب العقاب من الكفر والعصيان ، إلى ما يوجب الثواب من الطاعة والإيمان ^(٣) ﴿إني لكم منه نذير﴾ أي إني أنذركم عذاب الله وأخوفكم انتقامه ﴿مبين﴾ أي واضحٌ أمرى فقد أيدني الله بالمعجزات الباهرات ﴿ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر﴾ أي لا تشركوا مع الله أحداً من بشر أو حجر ﴿إني لكم منه نذير مبين﴾ كرر اللفظ للتأكيد والتنبية إلى خطر الإشراف بالله قال الخازن : وإنما كرر اللفظ عند الأمر بالطاعة ، والنهي عن الشرك ، ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل ، كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان ، وأنه لا يفوز وينجو عند الله إلا الجامع بينهما ^(٤) ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسولٍ إلا قالوا ساحرٌ أو مجنون﴾ هذه تسليّة للنبي ﷺ أي كما كذبت قومك يا محمد ، وقالوا عنك إنك ساحرٌ أو مجنون ، كذلك قال المكذبون الأولون لرسولهم ، فلا تحزن لما يقول المجرمون ﴿أتواصوا به﴾ أي هل أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب ؟ وهو استفهام للتعجب من إجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة ، ثم أضرب عن هذا النفي والتوبيخ فقال ﴿بل هم قومٌ طاغون﴾ أي لم يوص بعضهم بعضاً بذلك ، بل حملهم الطغيان على التكذيب والعصيان فلذلك قالوا ما قالوا ﴿فتولّ عنهم﴾ أي فأعرض يا محمد عنهم ﴿فما أنت بملوم﴾ أي فلا لوم عليك ولا عتاب ، لأنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ، وبذلت الجهد في النصح والإرشاد ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ أي لا تدع التذكير والموعظة فإن القلوب المؤمنة تنتفع وتتأثر بالموعظة الحسنة . . ثم ذكر تعالى الغاية من خلق الخلق فقال ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا

(١) هذا قول ابن زيد ، وقال مجاهد : يعني به المقابلات كالذكر والأنثى ، والساء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنور والظلام ، والخير والشر وأمثال ذلك كذا في القرطبي ٥٣/١٧ وهو اختيار الطبري لأنه أدل على العظمة والقدرة . (٢) البحر المحيط ١٤٢/٨ . (٣) تفسير ابن الجوزي ٤١/٨ .

مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

ليعبُدون ﴿٥٧﴾ أي وما خلقت الثقلين الإنس والجن إلا لعبادتي وتوحيدي ، لا لطلب الدنيا والانهماك بها قال ابن عباس : ﴿إلا ليعبدون﴾ إلا ليقرؤا لي بالعبادة طوعاً أو كرهاً وقال مجاهد : إلا ليعرفوني ^(١) قال الرازي : لما بين تعالى حال المكذبين ذكر هذه الآية لبيّن سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الله مع أن خلقهم لم يكن إلا للعبادة ^(٢) ﴿ما أريد منهم من رزق﴾ أي لا أريد منهم أن يرزقوني أو يرزقوا أنفسهم أو غيرهم بل أنا الرزاق المعطي ﴿وما أريد أن يطعمون﴾ أي ولا أريد منهم أن يطعموا خلقتي ولا أن يطعموني فأنا الغني الحميد قال البيضاوي : والمراد أن يبين أن شأنه مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم ، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم ^(٣) ، فكأنه سبحانه يقول : ما أريد أن أستعين بهم كما يستعين السادة بعبيدهم ، فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي ﴿إن الله هو الرزاق﴾ أي إنه جل وعلا هو الرزاق ، المتكفل بأرزاق العباد وحاجاتهم ، أتى باسم الجلالة الظاهر للتفخيم والتعظيم ، وأكد الجملة بإن والضمير المنفصل لقطع أوهام الخلق في أمور الرزق ، وليقوي اعتمادهم على الله ﴿ذو القوة﴾ أي ذو القدرة الباهرة ﴿المتين﴾ أي شديد القوة لا يطرأ عليه عجز ولا ضعف قال ابن كثير : أخبر تعالى أنه غير محتاج إليهم ، بل هم الفقراء إلى الله في جميع أحوالهم فهو خالقهم ورازقهم ، وفي الحديث القدسي (يا ابن آدم تفرغ لعبادتي مملأاً صدرك غنى ، وإلا تفعل ملاءت صدرك شغلاً ولم أسد فترك) ^(٤) ﴿فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم﴾ أي فإن هؤلاء الكفار الذين كذبوا الرسول ﷺ نصيباً من العذاب مثل نصيب أسلافهم الذين أهلكوا كقوم نوح وعاد وثمود ﴿فلا يستعجلون﴾ أي فلا يتعجلوا عذابي فإنه واقع لا محالة إن عاجلاً أو آجلاً ﴿فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾ أي هلاك ودمار وشدة عذاب هؤلاء الكفار في يوم القيامة الذي وعدهم الله به .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق ﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ لأن السائل الطالب ، والمحروم المتعفف .
- ٢ - تأكيد الخبر بالقسم وإن واللام ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق﴾ ويسمى هذا الضرب إنكارياً ، لأن المخاطب منكر لذلك .
- ٣ - أسلوب التشويق والتفخيم ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ ؟
- ٤ - الاستعارة ﴿فتولى بركنه﴾ استعار الركن للجنود والجموع لأنه يحصل بهم التقوى والاعتماد كما

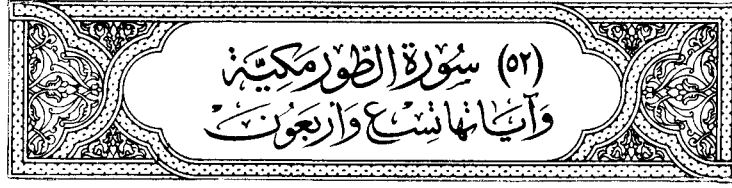
(١) تفسير القرطبي ١٧/٥٥ . (٢) تفسير الفخر الرازي ٧/٦٨٥ .

(٣) تفسير البيضاوي ٤/١٦٨ . (٤) أخرجه الترمذي وأحمد وانظر المختصر ٣/٣٨٧ .

يعتمد على الركن في البناء أو استعارة للقوة والشدة .

- ٥ - المجاز العقلي ﴿وهو ملهم﴾ أطلق اسم الفاعل على اسم المفعول أي ملام على طغيانه .
 - ٦ - الاستعارة التبعية ﴿الريح العقيم﴾ شبه إهلاكهم وقطع دابرهم بعقم النساء وعدم حملهن ثم أطلق المشبه به على المشبه واشتق منه العقيم بطريق الاستعارة .
 - ٧ - حذف الإيجاز ﴿قوم منكرون﴾ أي أنتم قوم منكرون ومثلها ﴿عجوز عقيم﴾ أي أنا عجوز .
 - ٨ - التشبيه المرسل المجمل ﴿ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم﴾ أي نصيباً من العذاب مثل نصيب أسلافهم المكذبين في الشدة والغلظة ، حذف منه وجه الشبه فهو مجمل .
 - ٩ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾ للمبالغة والتأكيد .
 - ١٠ - السجع الرصين غير المتكلف الذي يزيد في جمال الأسلوب ورونقه مثل ﴿والسواء بينها بأيدي وإنا لموسعون . . والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾ وهو من المحسنات البديعية .
- لطيفة** : ذكر أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾ فقال : يا سبحان الله من الذي أغضب الجليل حتى حلف ! ألم يصدقوه في قوله حتى أُلجئوه إلى اليمين ؟ يا ويح الناس ! !

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الذاريات »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة الطور من السور المكية التي تعالج موضوع العقيدة الإسلامية ، وتبحث في أصول العقيدة وهي « الوجدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء » .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن أهوال الآخرة وشدائدها ، وعمّا يلقاه الكافرون في ذلك الموقف الرهيب « موقف الحساب » وأقسمت على أن العذاب نازل بالكفار لا محالة ، لا يمنعه مانع ولا يدفعه دافع ، وكان القسم بأمر خمسة تنبيهاً على أهمية الموضوع .

* ثم تناولت الحديث عن المتقين وهم في جنات النعيم ، على سرر متقابلين ، وقد جمع الله لهم أنواع السعادة « الحور العين ، واجتماع الشمل بالذرية والبنين ، والتنعم والتلذذ بأنواع المأكّل والمشرب من فواكه وثمار ، ولحوم متنوعة مما يشتهي ويستطاب » إلى غير ما هنالك من أنواع النعيم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

* ثم تحدثت عن رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، وأمرته بالتذكير والإنذار للكفرة الفجار ، غير عابىء بما يقوله المشركون وما يفتره المفترون حول الرسالة والرسول ، فليس محمد ﷺ بإنعام الله عليه بالنبوة وإكرامه بالرسالة بكاهن ولا مجنون كما زعم المجرمون .

* ثم أنكرت السورة على المشركين مزاعمهم الباطلة في شأن نبوة محمد ﷺ ، وردت عليهم بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل ، وأقامت الدلائل على صدق رسالة محمد عليه السلام .

* وختمت السورة الكريمة بالتهكم بالكافرين وأوثانهم بطريق التوبيخ والتقريع ، وبينت شدة عنادهم ، وفرط طغيانهم ، وأمرت الرسول ﷺ بالصبر على تحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي نصر الله .

التسمية : سميت « سورة الطور » لأن الله تعالى بدأ السورة الكريمة بالقسم بجبل الطور الذي

كَلَّمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَنَالَ ذَلِكَ الْجَبَلَ مِنَ الْأَنْوَارِ وَالتَّجْلِيَّاتِ وَالفِيوضَاتِ الإِلهِيَّةِ مَا جَعَلَهُ مَكَانًا وَبِقَعَةً مُشْرِفَةً عَلَى سَائِرِ الْجِبَالِ فِي بَقَاعِ الْأَرْضِ .

قال الله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ ﴾ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ . . . إِلَى . . . إِنَّهُ هُوَ الْبُرُّ الرَّحِيمُ ﴿
من آية (١) إلى نهاية آية (٢٨) .

اللغز : ﴿ رَقٌّ ﴾ الرِّقُّ بالفتح والكسر جلد رقيق يكتب فيه وقال أبو عبيدة : الرِّقُّ الورق وفي الصحاح : الرِّقُّ بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق^(١) ﴿ المسجور ﴾ الموقد ناراً يقال : سجرت النار أي أوقدتها ﴿ تمور ﴾ مار الشيء يمور موراً إذا تحرك واضطرب ، وجاء وذهب ، قال جرير :
وما زالت القتلى تمور دماؤها
بدجلة حتى ماء دجلة أشكل^(٢)
﴿ يدعون ﴾ يدفعون بشدة وعنف ، والدَّعُ : الدفع بشدة وإهانة ﴿ ألتناهم ﴾ أنقصناهم ﴿ رهين ﴾ محبوس ﴿ السموم ﴾ الريح الحارة النافذة في المسام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾

التفسير : ﴿ وَالطُّورِ ﴾ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿ أقسم تعالى بجبل الطور الذي كَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ مُوسَى ، وَأَقْسَمَ بِالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى خَاتَمِ رَسَلِهِ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الْمَكْتُوبُ ﴾ ﴿ فِي رَقٍّ ﴾ أي في أديمٍ من الجلد الرقيق ﴿ منشور ﴾ أي مبسوط غير مطوي وغير مختوم عليه قال القرطبي : أقسم الله تعالى بالطور - وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى - تشریفاً له وتكريماً ، وتذكيراً لما فيه من الآيات ، وأقسم بالكتاب المسطور أي المكتوب وهو القرآن يقرأه المؤمنون من المصاحف ، ويقراه الملائكة من اللوح المحفوظ ، وقيل يعني بالكتاب سائر الكتب المنزلة على الأنبياء لأن كل كتاب في رق ينشره أهله لقراءته ، والرقُّ ما رُقِّق من الجلد ليكتب فيه^(٣) ﴿ والبيت المعمور ﴾ أي وأقسم بالبيت المعمور الذي تطوف به الملائكة الأبرار ، وهو لأهل السماء كالكعبة المشرفة لأهل الأرض ، وفي حديث الإسراء (ثم رفع إلي البيت المعمور ، فقلت يا جبريل ما هذا ؟ قال : هذا البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخر ما عليهم)^(٤) وقال ابن عباس : هو بيت في السماء السابعة حيال الكعبة - أي مقابلها وحذاءها - تعمه الملائكة ، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه^(٥) ﴿ والسقف المرفوع ﴾ أي والسماء العالية المرتفعة ، الواقعة بقدرة الله بلا عمد ، سمى السماء سقفاً لأنها للأرض كالسقف للبيت ودليله ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾ وقال ابن عباس : هو العرش

(١) الصحاح مادة رق . (٢) تفسير القرطبي ١٧/٦٣ .

(٣) تفسير القرطبي ١٧/٥٨ . (٤) أخرجه مسلم في صحيحه . (٥) مختصر ابن كثير ٣/٣٨٨ .

وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾
وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ
جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾

وهو سقف الجنة ﴿والبحر المسجور﴾ أي والبحر المسجور الموقد ناراً يوم القيامة كقوله ﴿وإذا البحار
سُجرت﴾ أي أضمرت حتى تصير ناراً ملتهبة تتأجج تحيط بأهل الموقف ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ هذا
جواب القسم أي إن عذاب الله لنازل بالكافرين لا محالة قال ابن الجوزي : أقسم تعالى بهذه الأشياء
الخمسة للتنبية على ما فيها من عظيم قدرته على أن عذاب المشركين حق ^(١) ﴿ماله من دافع﴾ أي ليس
له دافع يدفعه عنهم قال أبو حيان : والواو الأولى للقسم وما بعدها للعطف ، والجمله المقسم عليها هي
﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ وفي إضافة العذاب للرب لطيفة إذ هو المالك والناظر في مصلحة العبد ،
فإضافته إلى الرب وإضافته لكاف الخطاب أمان له ﷺ وأن العذاب واقع بمن كذبه ، ولفظ واقع أشد من
كائن ، كأنه مهياً في مكان مرتفع فيقع على من حلَّ به ^(٢) ﴿يوم تُمور السماء مورا﴾ أي تتحرك السماء
وتضطرب اضطراباً شديداً من هول ذلك اليوم ﴿وتسير الجبال سيراً﴾ أي تنسف نسفاً عن وجه الأرض
فتكون هباءً منثوراً كقوله ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ قال الخازن : والحكمة في مور
السماء وسير الجبال ، الإندار والإعلام بأن لا رجوع ولا عود إلى الدنيا ، وذلك لأن الأرض والسماء وما
بينهما من الجبال والبحار وغير ذلك إنما خلقت لعمارة الدنيا وانتفاع بني آدم بذلك ، فلما لم يبق لهم عود
إليها أزالتها الله تعالى وذلك لخراب الدنيا وعمارة الآخرة ^(٣) ﴿فويل يومئذ للمكذبين﴾ أي هلاك ودمار
وشدة عذاب للمكذبين أرسل الله في ذلك اليوم الرهيب ﴿الذين هم في خوضٍ يلعبون﴾ أي الذين
هم في الدنيا يخوضون في الباطل غافلون ساهون عما يراد بهم ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعواً﴾ أي
يوم يدعون إلى نار جهنم دعواً بشدة وعنق قال في البحر : وذلك أن خزنة جهنم يغلون أيدي الكفار إلى
أعناقهم ، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ، ويدفعون بهم دعواً إلى النار على وجوههم وزجاً في أفقيتهم
حتى يردوا إلى النار ^(٤) ، فإذا دنوا منها قال لهم خزنتها ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أي هذه نار
جهنم التي كنتم تهزءون وتكذبون بها في الدنيا ﴿أفسحراً هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ أي وتقول لهم
الزبانية تقريراً وتوبيخاً : هل هذا الذي ترونه بأعينكم من العذاب سحراً ، أم أنتم اليوم عمي كما كنتم
في الدنيا عمياً عن الخير والإيمان ؟ قال أبو السعود : وقوله تعالى ﴿أفسحراً هذا﴾ توبيخ لهم وتقريع
حيث كانوا يسمون القرآن الناطق بالحق سحراً فكأنه قيل لهم : كنتم تقولون عن القرآن إنه سحر أفهدا

(١) زاد المسير ٤٨/٨ . (٢) البحر المحيط ١٤٧/٨ والآية فيها أهوال وشدائد ينخلع لها قلب المؤمن ، روي عن جبير بن مطعم أنه قال :
قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر ، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب ﴿والطور﴾ وكتاب مسطور . . إلى إن عذاب ربك لواقع .
ماله من دافع﴾ فكأنما صدع قلبي ، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب .

(٣) تفسير الخازن ١٠٧/٤ . (٤) البحر المحيط ١٤٧/٨ .

أَصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّتِ
وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهَهُم رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُّوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَكِبِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ
أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ ﴿٢١﴾

العذاب أيضاً سحر أم سُدَّتْ أبصاركم كما سُدَّتْ في الدنيا^(١) ؟ ﴿إصلوها فاصبروا أو لا تصبروا﴾ أي قاسوا شدتها فاصبروا على العذاب أو لا تصبروا ، وهو توبيخ آخر ﴿سواءً عليكم﴾ أي يتساوى عليكم الصبر والجزع لأنكم مخلدون في جهنم أبداً ﴿إنما تحزون ما كنتم تعملون﴾ أي إنما تنالون جزاء أعمالكم القبيحة من الكفر والتكذيب ، ولا يظلم ربك أحداً . . ولما ذكر حال الكفرة الأشقياء ذكر حال المؤمنين السعداء على عادة القرآن الكريم في الجمع بين التهيب والترغيب فقال ﴿إن المتقين في جناتٍ ونعيم﴾ أي إن الذين اتقوا ربهم في الدنيا بامثال أوامره واجتناب نواهيه ، هم في الآخرة في بساتين عظيمة ونعيم مقيم خالد ﴿فاكهيين بما آتاهم ربهم﴾ أي متنعمين ومتلذذين بما أعطاهم ربهم من الخير والكرامة وأصناف الملاذ من مآكل ومشارب ، وملابس ومراكب ، وغير ذلك من ملاذ الجنة ﴿ووقاهم ربهم عذاب الجحيم﴾ أي وقد نجاهم ربهم من عذاب جهنم وصرف عنهم أهوالها قال ابن كثير : وتلك نعمة مستقلة بذاتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة ، التي فيها من السرور ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر^(٢) ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾ أي يقال لهم : كلوا واشربوا أكلاً وشرباً هنيئاً ، لا تنغيص فيه ولا كدر ، بسبب ما قدمتم من صالح الأعمال . . ثم أخبر تعالى عن حالهم عند أكلهم وشربهم فقال ﴿متكبين على سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي جالسين على هيئة المضطجع على سرر من ذهب مكللة بالدر والياقوت ، مصطفة بعضها إلى جانب بعض ، قال ابن كثير : ﴿مصفوفة﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض كقوله ﴿على سررٍ متقابلين﴾^(٣) وفي الحديث (إن الرجل ليتكوى التكاؤ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يملؤه ، يأتيه ما اشتتهت نفسه ولذت عينه)^(٤) ﴿وزوجناهم بحورٍ عِينٍ﴾ أي وجعلنا لهم قرينات صالحات ، وزوجات حسناً من الحور العين ، وهن نساء بيض واسعات العيون - من الحور وهو شدة البياض ، والعين جمع عينا وهي كبيرة العين - والبياض مع سعة العين نهاية الحسن والجمال ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان﴾ أي كانوا مؤمنين وشاركهم أولادهم في الإيمان ﴿ألحقتنا بهم ذريتهم﴾ أي ألحقتنا بالأبناء بالآباء لتقرَّبهم أعينهم وإن لم يبلغوا عملهم قال ابن عباس : إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم

(١) تفسير أبي السعود على هامش الرازي ٦٩٧/٧ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٢٩٠ .

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة . (٤) أخرجه ابن أبي حاتم .

وَأَمَدَدْنَهُمْ بِفِكَهَةِ وَحَمِيمًا يَسْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ ﴿٢٣﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾

يبلغها بعمله لتقرَّبهم عينه وتلا الآية^(١) قال الزمخشري : فيجمع الله لأهل الجنة أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم ، وبمزاوجة الحور العين ، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين ، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم^(٢) ﴿وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾ أي وما نقصنا الآباء من ثواب عملهم شيئاً قال في البحر : المعنى أنه تعالى يلحق المقصّر بالمحسن ولا ينقص المحسن من أجره شيئاً^(٣) ﴿كلُّ امرئ بما كسب رهين﴾ أي كل إنسان مرتتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره سواء كان أباً أو ابناً وقال ابن عباس : ارتتهن أهل جهنم بأعمالهم ، وصار أهل الجنة إلى نعيمهم^(٤) وقال الخازن : المراد بالآية الكافر أي كل كافر بما عمل من الشرك مرتتهن بعمله في النار ، والمؤمن لا يكون مرتتهناً بعمله لقوله تعالى ﴿كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين﴾^(٥) . . ثم ذكر ما وعدهم به من الفضل والنعمة فقال ﴿وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون﴾ أي وزدناهم - فوق ما لهم من النعيم - بفواكه ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويُسْتَهَى ﴿يتنازعون فيها كأساً﴾ أي يتعاطون في الجنة كأساً من الخمر ، يتجادبها بعضهم من بعض تلذذاً وتانساً قال الألوسي : أي يتجادبونها تجاذب ملاعبة كما يفعل ذلك الندامي في الدنيا لشدة سرورهم^(٦) ﴿لا لغو فيها ولا تأتيم﴾ أي لا يقع بينهم بسبب شربها هذيان حتى يتكلموا بساقط الكلام ، ولا يلحقهم إثم كما يلحق شارب الخمر في الدنيا قال قتادة : نزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها ، فنفي عنها صداع الرأس ، ووجع البطن ، وإزالة العقل ، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام الفارغ الذي لا فائدة فيه ، المتضمن للهذيان والفحش ، ووصفها بحسن منظرها ، وطيب طعمها ، فقال ﴿بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غولٌ ولا هم عنها يُنزفون﴾^(٧) ثم قال تعالى ﴿ويطوف عليهم غلمان لهم﴾ أي يطوف عليهم للخدمة غلمان مماليك خصصهم تعالى لخدمتهم ﴿كأنهم لؤلؤ مكنون﴾ أي كأنهم في الحسن ، والبياض ، والصفاء اللؤلؤ المصون في الصدف قال القرطبي : وهؤلاء الغلمان قيل هم أولاد المشركين وهم خدم أهل الجنة ، وليس في الجنة نصب ولا حاجة إلى خدمة ، ولكنه أخبر بأنهم على غاية النعيم^(٨) ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ أي أقبل أهل الجنة يسأل بعضهم بعضاً عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا ، تلذذاً بالحديث ، واعتراضاً بالنعمة ﴿قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين﴾ أي قال المسئولون : إنا كنا في دار الدنيا خائفين من ربنا ، مشفقين من عذابه وعقابه

(١) تفسير القرطبي ١٧/٦٦ . (٢) تفسير الكشاف ٤/٢٧٢ .

(٣) البحر المحيط ٨/١٤٩ وهذا تأويل ابن عباس . (٤) القرطبي ١٧/٦٨ .

(٥) تفسير الخازن ٤/٢٠٨ . (٦) روح المعاني ٢٧/٣٤ .

(٧) مختصر ابن كثير ٣/٣٩١ . (٨) تفسير القرطبي ١٧/٦٩ .

فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أي فأكرمنا الله بالمغفرة والجنة ، وأجارنا مما نخاف ، وحمانا من عذاب جهنم النافذة في المسام نفوذ الريح الحارة الشديدة وهي التي تسمى ﴿السوم﴾ قال الفخر الرازي : والآية إشارة إلى أن أهل الجنة يعلمون ما جرى عليهم في الدنيا ويذكرونه ، وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم في الدنيا ، فتزداد لذة المؤمن حيث يرى نفسه انتقلت من الضيق إلى السعة ، ومن السجن إلى الجنة ، ويزداد الكافر ألماً حيث يرى نفسه انتقلت من النعيم إلى الجحيم^(١) ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي قال أهل الجنة : إنا كنا في الدنيا نعبد الله ونتضرع إليه ، فاستجاب الله لنا فأعطانا سؤالنا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ أي إنه تعالى هو المحسن ، المتفضل على عباده بالرحمة والغفران ، وهو كالتعليل لما سبق ، عن مسروق أن عائشة رضي الله عنها قرأت هذه الآية ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴿فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ مَنْ عَلَيْنَا وَقْنَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّكَ أَنْتَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ . . . إِلَى . . . فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾

من آية (٢٩) إلى آية (٤٩) نهاية السورة .

الْمَنَاسِكَةُ : لما تقدم إقسام الله تعالى على وقوع العذاب بالكافرين ، وذكر أشياء من أحوال المعذبين والناجين ، أمر تعالى رسوله بالتذكير ، إنذاراً للكافرين وتبشيراً للمؤمنين ، وختم السورة الكريمة ببيان عاقبة المكذبين ، وحفظ الله ورعايته لرسوله الكريم ﷺ

اللَّفْكَرُ : ﴿رِبِّ الْمُنُونِ﴾ حوادث الدهر وصروفه ، والمنون هو الدهر قال أبو ذؤيب :

أَمِنْ الْمُنُونِ وَرَبِّهِ تَتَوَجَّعُ
وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمَعْتَبٍ مِنْ يَجْزَعُ^(٣)
والمنون أيضاً الموتُ من المنِّ بمعنى القطع لأنه يقطع الأعمار ﴿أَحْلَامُهُمْ﴾ عقولهم جمع حلم وهو العقل ﴿الْمَسِيطَرُونَ﴾ المسيطر : المتسلط على الشيء ﴿كَسْفًا﴾ قطعة يقال : كسف بسكون السين وكسفة أي قطعة وجمعه كسف بفتح السين ﴿مَرْكُومٌ﴾ متجمع ومتراكم بعضه فوق بعض .

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾

الْفَيْسِيرُ : ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي فذكر يا محمد بالقرآن قومك وعظهم به ، فما أنت بإنعام الله عليك بالنبوة وإكرامه لك بالرسالة ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي لست كاهناً تخبر بالأمور الغيبية من غير وحي ، ولا مجنوناً كما زعم المشركون ، إنما تنطق بالوحي . . ثم أنكر عليهم

(١) التفسير الكبير للرازي ٧/٧٠٥ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٣٩٢ . (٣) زاد المسير ٨/٥٤ وانظر الصحاح للجوهري .

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴿٣١﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمْتَرَبِّصِينَ ﴿٣٢﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٤﴾ فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين ﴿٣٥﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٧﴾

مزاعمهم الباطلة في شأن الرسول فقال ﴿أم يقولون شاعرٌ نتربص به ريب المنون﴾ أي بل يقول المشركون هو شاعر ينتظر به حوادث الدهر وصروفه حتى يهلك فنستريح منه ؟ قال الخازن : وريب المنون حوادث الدهر وصروفه ، وغرضهم أنه يهلك ويموت كما هلك من كان قبله من الشعراء ، والمنون اسم للموت وللدهر وأصله القطع ، سمي بذلك لأنها يقطعان الأجل^(١) ﴿قل تربصوا فإنني معكم من المتربصين﴾ أي قل لهم يا محمد : انظروا بي الموت فإنني منتظر هلاككم كما تنتظرون هلاكي ، وهو تهكم بهم مع التهديد والوعيد ﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا﴾ ؟ أي أم تأمرهم عقولهم بهذا الكذب والبهتان ؟ قال الخازن : وذلك أن عظماء قريش كانوا يوصفون بالأحلام والعقول ، فأزرى الله بعقولهم حين لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل^(٢) ، وهو تهكم آخر بالمشركين ﴿أم هم قوم طاغون﴾ أي بل هم قوم مجاوزون الحد في الكفر والطغيان ، والمكابرة والعناد ﴿أم يقولون تقوله﴾ أي أم يقولون إن محمداً اختلق القرآن وافتراه من عند نفسه قال القرطبي : والتقوُّل تكلف القول ، وإنما يستعمل في الكذب في غالب الأمر ، يقال : قوَّلتني ما لم أقل أي ادعيته علي ، وتقوُّل عليه أي كذب عليه^(٣) ﴿بل لا يؤمنون﴾ أي ليس الأمر كما زعموا بل لا يصدقون بالقرآن استكباراً وعناداً ثم ألزمهم تعالى الحجة فقال ﴿فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين﴾ أي فليأتوا بكلامٍ مماثل للقرآن في نظمه وحسنه وبيانه ، إن كانوا صادقين في قولهم إن محمداً افتراه ، وهو تعجيزٌ لهم مع التوبيخ ﴿أم خلقوا من غير شيء﴾ أي هل خلقوا من غير رب ولا خالق ؟ قال ابن عباس : من غير رب خلقهم وقدرهم^(٤) ﴿أم هم الخالقون﴾ أي أم هم الخالقون لأنفسهم ، حتى تجرؤوا فأنكروا وجود الله جل وعلا ؟ ﴿أم خلقوا السموات والأرض﴾ أي أم هم خلقوا السموات والأرض ؟ وإنما خص السموات والأرض بالذكر من بين سائر المخلوقات لعظمتها وشرفها ، ثم بيّن تعالى السبب في إنكارهم لوحداية الله فقال ﴿بل لا يوقنون﴾ أي بل لا يصدقون ولا يؤمنون بوحدانية الله وقدرته على البعث ولذلك ينكرون الخالق قال الخازن : ومعنى الآية هل خلقوا من غير شيء خلقهم فوجدوا بلا خالق وذلك مما لا يجوز أن يكون ، لأن تعلق الخلق بالخالق ضروري ، فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق ، أم هم الخالقون لأنفسهم ؟ وذلك في البطلان أشد ، لأن ما لا وجود له كيف يخلق ؟ فإذا بطل الوجهان قامت الحجة

(١) تفسير الخازن ٢٠٩/٤ . (٢) نفس المرجع السابق والصفحة . (٣) تفسير القرطبي ٧٣/١٧ . (٤) تفسير القرطبي ٧٤/١٧ .

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمَصِيطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ فَلَیَاتٍ مُسْتَمِعِهِمْ بِسُلْطَنِ
مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ
فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾

عليهم بأن لهم خالقاً فليؤمنوا به ، وليوحده ، وليعبده ، وليوقنوا أنه ربهم وخالقهم ^(١) ﴿ أم عندهم خزائن ربك ﴾ ؟ أي عندهم خزائن رزق الله ورحمته حتى يعطوا النبوة من شاءوا ويمنعوها عن من شاءوا ؟ قال ابن عباس : ﴿ خزائن ربك ﴾ المطر والرزق وقال عكرمة : النبوة ^(٢) ﴿ أم هم المصيطرون ﴾ ؟ أي أم هم الغالبون القاهرون حتى يتصرفوا في الخلق كما يشاءون ؟ لا بل الله عز وجل هو الخالق المالك المتصرف وقال عطاء : ﴿ أم هم المصيطرون ﴾ أم هم الأرباب فيفعلون ما يشاءون ولا يكونون تحت أمر ولا نهي ^(٣) ؟ ﴿ أم لهم سلْمٌ يستمعون فيه ﴾ ؟ أي أم لهم مرقى ومصعد إلى السماء يستمعون فيه كلام الملائكة والوحي فيعلمون أنهم على حق فهم به مستمسكون ؟ ﴿ فليأت مستمعهم بسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي فليأت من يزعم ذلك بحجة بينة واضحة على صدق استماعه كما أتى محمد بالبرهان القاطع . . ثم وبخهم تعالى على ما هو أشنع وأقبح من تلك المزاعم الباطلة وهو نسبتهم إلى الله البنات ، وجعلهم لله جل وعلا ما يكرهون لأنفسهم فقال ﴿ أم له البنات ولكم البنون ﴾ ؟ أي كيف تجعلون لله البنات - مع كراهتكم هن - وتجعلون لأنفسكم البنين ؟ أهذا هو المنطق والإيصال ؟ قال القرطبي : سفه أحلامهم توبيخاً لهم وتقريعاً والمعنى أتضيفون إلى الله البنات مع أنفتمك منهن ، ومن كان عقله هكذا فلا يستبعد منه إنكار البعث ^(٤) وقال أبو السعود : تسفيه لهم وتركيبك لعقولهم ، وإيدان بأن من هذا رأيه لا يكاد يُعد من العقلاء ، فضلاً عن الترقى إلى عالم الملكوت ، والاطلاع على الأسرار الغيبية ، والاتفات إلى الخطاب لتشديد الإنكار والتوبيخ ^(٥) ﴿ أم تسألهم أجراً ﴾ أي هل تسألهم يا محمد أجراً على تبليغ الرسالة وتعليم أحكام الدين ؟ ﴿ فهم من مغرم مثقلون ﴾ أي فهم بسبب ذلك الأجر والغرم الثقيل الذي أوجبه عليهم مجهدون ومتعبون فلذلك يزهدون في اتباعك ، ولا يدخلون في الإسلام ؟ فإن العادة أن من كلف إنساناً مالا وضرب عليه جُعلاً يصير مثقلاً وغارماً بسببه فيكرهه ولا يسمع قوله ولا يمثله ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ ؟ أي عندهم علم الغيب حتى يعلموا أن ما يخبرهم به الرسول ﷺ من أمور الآخرة والحشر والنشر باطلٌ فلذلك يكتبون هذه المعلومات عن معرفةٍ ويقين ؟ قال قتادة : هو رد لقولهم ﴿ شاعر ترتبص به ريب المنون ﴾ والمعنى أعلموا أن محمداً يموت قبلهم حتى يحكموا بذلك ^(٦) ؟ وقال ابن عباس : أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ، ويخبرون الناس بما فيه ^(٧) ؟ ليس الأمر كذلك فإنه لا يعلم أحدٌ من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله ﴿ أم يريدون كيداً ﴾ ؟ أي يريد

(١) تفسير الخازن ٤/ ٢١٠ . (٢) تفسير القرطبي ١٧/ ٧٤ . (٣) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٥٧ . (٤) تفسير القرطبي ١٧/ ٧٦ .

(٥) تفسير أبي السعود ٥/ ١٧٥ . (٦) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٥٨ . (٧) تفسير القرطبي ١٧/ ٧٦ .

أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾
 فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾
 وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ
 بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾

هؤلاء المجرمون أن يتأمروا عليك يا محمد؟ قال المفسرون: والآية إشارة إلى كيدهم في دار الندوة وتآمرهم على قتل الرسول ﷺ كما قال تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُجْرِحُوكَ﴾ فالذين كفروا هم المكيدون أي فالذين جحدوا رسالة محمد هم المجزيون بكيدهم لأن ضرر ذلك عائد عليهم، ووباله راجع على أنفسهم كقوله ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ قال الصاوي: وأوقع الظاهر ﴿فالذين كفروا﴾ موقع المضمرة تشنيعاً وتقبيحاً عليهم بتسجيل وصف الكفر^(١) ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾؟ أي لهم إله خالق رازق غير الله تعالى حتى يلجأوا إليه وقت الضيق والشدة؟ ويستنجدوا به لدفع الضرر والعذاب عنهم؟ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزهه وتقدس الله عما يشركون به من الأوثان والأصنام قال الإمام الجلال: والاستفهام بـ «أم» في مواضعها الخمسة عشر للتوبيخ والتفريع والابتكار^(٢). ثم أخبر تعالى عن شدة طغيانهم وفرط عنادهم فقال ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أي لو عذبناهم بسقوط قطع من السماء نزلت عليهم لم ينتهوا ولم يرجعوا، ولقالوا في هذا النازل عناداً واستهزاء: إنه سحاب مركوم ﴿ويقولوا سحابٌ مركوم﴾ أي إنه سحاب تراكم بعضه فوق بعض قد سقط علينا قال أبو حيان: كانت قریش قد اقترحت على رسول الله ﷺ فيما اقترحت من قولهم ﴿أَوْ تُسْقِطِ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ فأخبر تعالى أنهم لو رأوا ذلك عياناً حسب اقتراحهم لبلغ بهم عتوهم وجهلهم أن يغالطوا أنفسهم فيما عاينوه ويقولوا: هو سحابٌ مركوم أي سحاب تراكم بعضه فوق بعض ممطرنا، وليس بكسفٍ ساقطٍ للعذاب^(٣) ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي اتركهم يا محمد يتأدون في غيهم وضلالهم، حتى يلاقوا ذلك اليوم الرهيب - يوم القيامة - الذي يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم ويسلب ألبابهم ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي يوم لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا ولا يدفع عنهم شيئاً من العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ولا هم يُمنعون من عذاب الله في الآخرة ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي وإن للذين كفروا عذاباً شديداً في الدنيا قبل الآخرة قال ابن عباس: هو عذاب القبر وقال مجاهد: هو الجوع والقحط سبع سنين^(٤) ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون أن العذاب نازل بهم ﴿وأصبر لحكم ربك﴾ أي اصبر يا محمد على قضاء ربك وحكمه، فيما حملك به من أعباء الرسالة ﴿فإنك بأعيننا﴾ أي فإنك بحفظنا وكلاءتنا نحرسك ونرعاك ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ أي ونزهه ربك

(١) حاشية الصاوي ١٣٤/٤ . (٢) تفسير الجلالين ٢٢١/٤ . (٣) تفسير البحر المحيط ١٥٣/٨ . (٤) البحر المحيط ١٥٣/٨ .

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤١﴾

عما لا يليق به من صفات النقص حين تقوم من منامك ومن كل مجلس بأن تقول : سبحان الله وبحمده قال ابن عباس : أي صلِّ لله حين تقوم من منامك ^(١) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي ومن الليل فاذكره واعبده بالتلاوة والصلاة والناسُ نيام كقوله ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ أي وصلِّ له في آخر الليل حين تدبر وتغيب النجوم بضوء الصبح قال ابن عباس : هما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر وفي الحديث (ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها) ^(٢) .

البَلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - جناس الاشتقاق ﴿تمور السماء موراً﴾ و﴿تسير الجبال سيراً﴾ .
 - ٢ - الإهانة والتوبيخ ﴿إِصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ وبين قوله ﴿اصبروا﴾ وقوله ﴿أولا تصبروا﴾ طباق السلب وهو من المحسنات البديعية .
 - ٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كأنهم لؤلؤٌ مكنون﴾ حذف منه وجه الشبه فهو مجمل .
 - ٤ - الاستعارة التبعية ﴿ريب المنون﴾ شبهت حوادث الدهر بالريب الذي هو الشك بجامع التحير وعدم البقاء على حالة واحدة في كلٍ منهما واستعير لفظ الريب لصروف الدهر ونوائبه بطريق الاستعارة التبعية .
 - ٥ - الأسلوب التهكمي ﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا﴾ ؟ هذا بطريق التهكم والسخرية بعقولهم .
 - ٦ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التوبيخ والتقرير لهم ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾ ؟ .
 - ٧ - أسلوب الفرض والتقدير ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ أي لو رأوا ذلك لقالوا ما قالوا .
 - ٨ - السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿والطور وكتاب مسطور في رق منشور﴾ ومثل ﴿إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع﴾ وهلم جراً .
- فكأيدة :** عن جبير بن مطعم قال : قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر ، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب ﴿والطور وكتاب مسطور . .﴾ فلما قرأ ﴿إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع﴾ فكأنما صدع قلبي ، فأسلمتُ خوفاً من نزول العذاب ، فلما انتهى إلى هذه الآية ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴿كاد قلبي أن يطير .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الطور »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة النجم مكية وهي تبحث عن موضوع الرسالة في إطارها العام ، وعن موضوع الإيمان بالبعث والنشور شأن سائر السور المكية .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن موضوع « المعراج » الذي كان معجزة لرسول الإنسانية محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، والذي رأى فيه الرسول الكريم عجائب وغرائب في ملكوت الله الواسع مما يدهش العقول ويحير الألباب ، وذُكرت الناس بما يجب عليهم من الإيمان والتصديق، وعدم المجادلة والمهارة في مواضع الغيب والوحي .

* ثم تلاها الحديث عن الأوثان والأصنام التي عبدها المشركون من دون الله ، وبينت بطلان تلك الآلهة المزعومة ، وبطلان عبادة غير الله ، سواء في ذلك عبادة الأصنام أو عبادة الملائكة الكرام .

* ثم تحدثت عن الجزاء العادل يوم الدين ، حيث تجزى كل نفس بما كسبت ، فينال المحسن جزاء إحسانه ، والمسيء جزاء إساءته ، ويتفرق الناس إلى فريقين : أبرار ، وفجار .

* وقد ذكرت برهاناً على الجزاء العادل بأن كل إنسان ليس له إلا عمله وسعيه ، وأنه لا تحمل نفسٌ وزر أخرى ، لأن العقوبة لا تتعدى غير المجرم ، وهو شرع الله المستقيم ، وحكمه العادل الذي بينه في القرآن العظيم ، وفي الكتب السماوية السابقة .

* وذكرت السورة الكريمة آثار قدرة الله جل وعلا في الإحياء والإماتة ، والبعث بعد الفناء ، والإغناء والإفقار ، وخلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى .

* وختمت السورة الكريمة بما حلَّ بالأمم الطاغية كقوم عاد ، وثمود ، وقوم نوح ولوط ، من أنواع العذاب والدمار ، تذكيراً لكفار مكة بالعذاب الذي ينتظرهم بتكذيبهم لرسول الله ﷺ ، وزجراً لأهل البغي والطغيان عن الاستمرار في التمرد والعصيان .

قال الله تعالى : ﴿والنجم إذا هوى ﴾ * ما ضل صاحبكم وما غوى . . إلى . . هو أعلم بمن اتقى ﴿
من آية (١) إلى نهاية آية (٣٢) .

اللفك: ﴿هوى﴾ هوى يهوى إذا سقط إلى أسفل ﴿ميرة﴾ الميرة بكسر الميم القوة قال قطرب :
تقول العرب لكل جزل الرأي حصيف العقل : ذو ميرة^(١) ﴿تدلّى﴾ التدلي : الامتداد من أعلى إلى أسفل
يقال : تدلّى الغصن إذا امتد نحو الأسفل ﴿قاب﴾ قدر قال في البحر : القاب والقاد والقيد : المقدار^(٢)
﴿ضيضى﴾ جائزة ماثلة عن الحق يقال : ضاز في الحكم أي جار ، وضازه حقه أي بخسه قال الشاعر :

ضازت بنو أسدٍ بحكمهم إذ يجعلون الرأس كالذنب
﴿اللّم﴾ الصغائر من الذنوب قال الزجاج : أصل اللّم ما يعمله الإنسان المرة بعد المرة ولا يقيم عليه
يقال : ما فعلته إلا للمأ وللمأ ﴿أجنة﴾ جمع جنين وهو الولد ما دام في البطن سمي جنيناً لاستتاره .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾
عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾

التفسير: ﴿والنجم إذا هوى﴾ أي أقسم بالنجم وقت سقوطه من علو قال ابن عباس :
أقسم سبحانه بالنجوم إذا انقضت في إثر الشياطين حين استراقها السمع^(٣) وقال الحسن : المراد في الآية
النجوم إذا انثرت يوم القيامة كقوله ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ قال ابن كثير : الخالق يُقسم بما شاء من
خلقه ، والمخلوق لا ينبغي أن يُقسم إلا بالخالق^(٤) ﴿ما ضل صاحبكم﴾ أي ما ضل محمد عن طريق
الهداية ، ولا حاد عن نهج الاستقامة ﴿وما غوى﴾ أي وما اعتقد باطلاً قط بل هو في غاية الهدى
والرشد قال أبو السعود : والخطاب لكفار قريش ، والتعبير بلفظ ﴿صاحبكم﴾ للإيدان بوقوفهم على
تفاصيل أحواله ، فإن طول صحبتهم له ، ومشاهدتهم لمحاسن أوصافه العظيمة مقتضية ذلك^(٥) ﴿وما
ينطق عن الهوى﴾ أي لا يتكلم ﷺ عن هوى نفسي ورأي شخصي ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ أي لا
يتكلم إلا عن وحي من الله عز وجل قال البيضاوي : أي ما القرآن إلا وحي يوحى الله إليه^(٦) ﴿علمه
شديد القوى﴾ أي علمه القرآن ملك شديد قواه وهو جبريل الأمين قال المفسرون : وما يدل على شدة
قوته أنه قلع قرى قوم لوط وحملها على جناحه حتى بلغ بها السماء ثم قلبها ، وصاح بشمود فأصبحوا
خامدين ، وكان هبوطه بالوحي على الأنبياء أو صعوده في أسرع من رجعة الطرف ﴿ذو ميرة فاستوى﴾

(١) تفسير القرطبي ١٧/٨٦ . (٢) البحر المحيط ٨/١٥٤ . (٣) هذه إحدى الروايات عن ابن عباس ، وعنه أن المراد بالنجم الثريا إذا سقطت مع الفجر . (٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣٩٦ . (٥) تفسير أبي السعود ٥ . (٦) تفسير البيضاوي ٤/١٧١ .

وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى ﴿١٠﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿١١﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿١٢﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٣﴾
مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١٤﴾ أَفَتُمَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٦﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٧﴾

أي ذو حصافة في العقل ، وقوة في الجسم ، فاستقرَّ جبريل على صورته الحقيقية ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ أي وهو بأفق السماء حيث تطلع الشمس جهة المشرق قال ابن عباس : المراد بالأفق الأعلى مطلع الشمس^(١) قال الخازن : كان جبريل يأتي رسول الله ﷺ في صورة الأدميين كما كان يأتي الأنبياء قبله ، فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورته التي جبل عليها ، فأراه نفسه مرتين مرة في الأرض ، ومرة في السماء ، فأما التي في الأرض فبالأفق الأعلى أي جانب المشرق حيث كان رسول الله ﷺ بحراء فطلع عليه جبريل من ناحية المشرق وفتح جناحيه فسدَّ ما بين المشرق والمغرب ، فخرَّ رسول الله ﷺ مغشياً عليه ، فنزل جبريل في صورة الأدميين فضمَّه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه وهو قوله ﴿ثم دنا فتدلى﴾ وأما التي في السماء فعند سدرة المنتهى ، ولم يره أحد من الأنبياء على صورته الملكية التي خلق عليها إلا نبينا محمد ﷺ^(٢) ﴿ثم دنا فتدلى﴾ أي ثم اقترب جبريل من محمد وزاد في القرب منه ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ أي فكان منه على مقدار قوسين أو أقل قال الألوسي : والمراد إفادة شدة القرب فكأنه قيل : فكان قريباً منه^(٣) ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ أي فأوحى جبريل إلى عبد الله ورسوله محمد ﷺ ما أوحى إليه من أوامر الله عز وجل ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ أي ما كذب قلب محمد ما رآه ببصره من صورة جبريل الحقيقية قال ابن مسعود : رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستائة جناح ، كل جناح منها قد سدَّ الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم^(٤) ﴿أفتأرونه على ما يرى﴾ أي أفتجادلونه يا معشر المشركين على ما رأى ليلة الإسراء والمعراج ؟ قال في البحر : كانت قريش حين أخبرهم ﷺ بأمره في الإسراء كذبوا واستخفوا حتى وصف لهم بيت المقدس ، والجمهور على أن المرثي مرتين هو جبريل ، وعن ابن عباس وعكرمة أن الرسول ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ، وأنكرت ذلك عائشة وقالت إنه رأى جبريل في صورته مرتين ثم قال أبو حيان : والصحيح أن جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل بدليل قوله تعالى ﴿ولقد رآه نزلةً أخرى﴾ فإنه يقتضي مرة متقدمة^(٥) ﴿ولقد رآه نزلةً أخرى﴾ أي رأى الرسول جبريل في صورته الملكية مرةً أخرى ﴿عند سدرة المنتهى﴾ أي عند سدرة المنتهى التي هي في السماء السابعة قرب العرش قال المفسرون : والسدرة شجرة النبق تنبع من أصلها الأنهار ، وهي عن يمين العرش ، وسميت سدرة المنتهى لأنه ينتهي إليها علم الخلائق وجميع الملائكة ، ولا يعلم أحد ما وراءها إلا الله جل وعلا وفي الحديث (ثم صعد بي إلى السماء السابعة ، ورفعت إليَّ سدرة المنتهى ، فإذا نبقتها - أي ثمرها - مثل قلال هجر ، وإذا

(١) تفسير القرطبي ١٧/٨٨ . (٢) تفسير الخازن ٤/٢١٣ . (٣) تفسير الألوسي ٢٧/٤٨ . (٤) أخرجه الإمام أحمد .

(٥) البحر المحيط ٨/١٥٨ أقول : ما ذكره صاحب البحر قوي من حيث الدلالة ، ومذهب أهل السنة أن النبي ﷺ رأى ربه ليلة المعراج في السموات العلى رؤية بصرية ، وهم أدلة من السنة النبوية ، أما الآيات الكريمة فالراجح ما قاله الجمهور ، والله أعلم .

عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾

أوراقها كأذان الفيلة . .) (١) ﴿عندها جنة المأوى﴾ أي عند سدرة المنتهى الجنة التي تأوي إليها الملائكة وأرواح الشهداء والمتقين ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ أي رآه وقت ما يغشى السدرة ما يغشى من العجائب قال الحسن : غشيها نور رب العالمين فاستنارت وقال ابن مسعود : غشيها فراش من ذهب (٢) وفي الحديث (لما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها) (٣) قال المفسرون : رأى عليه السلام شجرة سدرة المنتهى وقد غشيتها سبحات أنوار الله عز وجل ، حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها ، وغشيتها الملائكة أمثال الطيور يعبدون الله عندها ، يجتمعون حولها مسبحين وزائرين كما يزور الناس الكعبة وفي الحديث (رأيت السدرة يغشاها فراش من ذهب ، ورأيت على كل ورقة ملكاً قائماً يسبح الله تعالى) (٤) ﴿ما زاغ البصر﴾ أي ما مال بصر النبي ﷺ في ذلك المقام وفي تلك الحضرة يميناً وشمالاً ﴿وما طغى﴾ أي وما جاوز الحد الذي رأى قال القرطبي : أي لم يمد بصره إلى غير ما رأى من الآيات ، وهذا وصف أدب النبي ﷺ في ذلك المقام إذ لم يلتفت يميناً ولا شمالاً (٥) وقال الخازن : لما تجلّى رب العزة وظهر نوره ، ثبت ﷺ في ذلك المقام العظيم الذي تحار فيه العقول ، وتزل فيه الأقدام ، وتميل فيه الأبصار (٦) ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ أي والله لقد رأى محمد - ليلة المعراج - عجائب ملكوت الله ، رأى سدرة المنتهى ، والبيت المعمور ، والجنة والنار ، ورأى جبريل في صورته التي يكون عليها في السموات له ستائة جناح ، ورأى رفرفاً أخضر من الجنة قد سد الأفق (٧) ، وغير ذلك من الآيات العظام قال الفخر : وفي الآية دليل على أن النبي ﷺ رأى ليلة المعراج آيات الله ولم ير الله كما قال البعض ، ووجهه أن الله ختم قصة المعراج برؤية الآيات ، وقال في الإسرائء ﴿لنريه من آياتنا﴾ ولو كان رأى ربه لكان ذلك أعظم ما يمكن ولأخبر تعالى به (٨) ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ أي أخبرونا يا معشر الكفار عن هذه الآلهة التي تعبدونها « اللات والعزى ومناة » هل لها من القدرة والعظمة التي وُصف بها رب العزة شيء حتى زعمتم أنها آلهة ؟ قال الخازن : هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يعبدونها ، واشتقوا لها أسماء من أسماء الله عز وجل فقالوا من الله اللات ، ومن العزيز العزى ، وكانت اللات بالطائف ، والعزى بغطفان وقد حطمها خالد بن الوليد ، ومناة صنم لخزاعة يعبده أهل مكة (٩) ﴿الكم الذكر وله الأنثى﴾ ؟ توبيخ وتقرير أي ألكم يا معشر المشركين النوع المحبوب من الأولاد وهو الذكر ، وله تعالى النوع المذموم بزعمكم وهو الأنثى ؟

(١) جزء من حديث أخرجه الشيخان . (٢) الحديث رواه مسلم . (٣) أخرجه مسلم أيضاً .

(٤) تفسير أبي السعود ١٥٧/٥ (٥) تفسير القرطبي ٩٨/١٧ . (٦) تفسير الخازن ٢١٦/٤ .

(٧) رؤيته ﷺ للرفرف الأخضر الذي سد الأفق أخرجه البخاري عن ابن مسعود .

(٨) التفسير الكبير ٧/٧٤٠ . (٩) تفسير الخازن ٢١٨/٤ .

تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿٢٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴿٢٥﴾ أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٦﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٧﴾ * وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنْ بَعَدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ

لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْاُنْتَى ﴿٢٩﴾ وَمَا لَهُمْ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿٣٠﴾ أي تلك القسمة قسمة جائزة غير عادلة حيث جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم قال الرازي : إنهم ما قالوا لنا البنون وله البنات ، وإنما نسبوا إلى الله البنات وكانوا يكرهونها كما قال تعالى ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾ فلما نسبوا إلى الله البنات حصل من تلك النسبة قسمة جائزة (١) ﴿إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم﴾ أي ما هذه الأوثان إلا أسماء مجردة لا معنى تحتها لأنها لا تضر ولا تنفع ، سميتوها آهة أنتم وآباؤكم وهي مجرد تسميات ألقيت على جمادات ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ أي ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ أي ما يتبعون في عبادتها إلا الظنون والأوهام ، وما تشتهي أنفسهم مما زينه لهم الشيطان ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ أي والحال أنه قد جاءهم من ربهم البيان الساطع ، والبرهان القاطع على أن الأصنام ليست بأهة ، وأن العبادة لا تصلح إلا لله الواحد القهار قال ابن الجوزي : وفيه تعجب من حالهم إذ لم يتركوا عبادتها بعد وضوح البيان (٢) ﴿أم للإنسان ما تمنى﴾ أي ليس للإنسان كل ما يشتهي حتى يطمع في شفاعة الأصنام قال الصاوي : والمراد بالإنسان الكافر ، وهذه الآية تجر بذيلها على من يلتجئ لغير الله طلباً للفاني ، ويتبع هوى نفسه فيما تطلبه فليس له ما يشتهي ، واتباع الهوى هوان (٣) ﴿فليل الآخرة والأولى﴾ أي فالملك كله لله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، لأنه مالك الدنيا والآخرة ، وليس الأمر كما يشتهي الإنسان ، بل هو تعالى يعطي من اتبع هداه وترك هواه . . ثم أكد هذا المعنى بقوله ﴿وكم من ملك في السموات﴾ أي وكثير من الملائكة الأبرار الأطهار المنبئين في السموات ﴿لا تغني شفاعتهم شيئاً﴾ أي أن الملائكة مع علو منزلتهم ورفعة شأنهم لا تنفع شفاعتهم أحداً إلا بإذن الله ، فكيف تشفع الأصنام مع حقارتها ؟ ! ﴿إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ أي إلا من بعد أن يأذن تعالى في الشفاعة لمن يشاء من أهل التوحيد والإيمان ويرضى عنه كقوله تعالى ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ قال ابن كثير : فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين ، فكيف ترجون أنها الجاهلون شفاعة الأصنام والأنداد عند الله تعالى (٤) ؟ ثم أخبر تعالى عن ضلالات المشركين فقال ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي لا يصدقون بالبعث والحساب ﴿ليُسْمُونِ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْاُنْتَى﴾ أي ليزعمون أنهم إناث وأنهم بنات الله ﴿وما لهم به من علم﴾ أي لا علم لهم بما

(١) التفسير الكبير ٧/٧٤٣ . (٢) تفسير ابن الجوزي ٨/٧٤ .

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/١٣٩ . (٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٠١ .

بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ
ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عملُوا وَيَجْزِيَ
الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٣٢﴾

يقولون أصلاً ، لأنهم لم يشاهدوا خلق الملائكة ، ولا جاءهم عن الله حجة أو برهان ﴿إن يتبعون إلا
الظن﴾ أي ما يتبعون في هذه الأقوال الباطلة إلا الظنون والأوهام ﴿وإن الظن لا يغني من الحق
شيئاً﴾ أي وإن الظن لا يجدي شيئاً ، ولا يقوم أبداً مقام الحق ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا﴾ أي
فأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين الذين استنكفوا عن الإيمان والقرآن ﴿ولم يرد إلا الحياة الدنيا﴾
أي وليس له هم إلا الدنيا وما فيها من النعيم الزائل ، والمتعة الفانية قال أبو السعود : والمراد النهي عن
دعوة المعرض عن كلام الله وعدم الاعتناء بشأنه ، فإن من أعرض عما ذكر ، وانهمك في الدنيا بحيث
صارت منتهى همته وقصارى سعيه ، لا تزيده الدعوة إلا عناداً وإصراراً على الباطل (١) ﴿ذلك مبلغهم
من العلم﴾ أي ذلك نهاية علمهم وغاية إدراكهم أن آثروا الدنيا على الآخرة ﴿إن ربك هو أعلم بمن
ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ أي هو عالم بالفريقين : الضالين والمهتدين ويجازيهم بأعمالهم
﴿ولله ما في السموات والأرض﴾ أي له كل ما في الكون خلقاً وملكاً وتصرفاً ليس لأحد من ذلك شيء
أصلاً ﴿ليجزى الذين أساءوا بما عملوا﴾ أي ليجازي المسيء بإساءته ﴿ويجزى الذين أحسنوا
بالحسنى﴾ أي وليجازي المحسن بالجنة جزاء إحسانه قال ابن الجوزي : والآية إخبار عن قدرته وسعة
ملكه ، وهو كلام معترض بين الآية الأولى وبين قوله ﴿ليجزى الذين أساءوا﴾ لأنه إذا كان أعلم بالمسيء
وبالمحسن جازى كلاهما بما يستحقه ، وإنما يقدر على مجازاة الفريقين إذا كان واسع الملك (٢) . ثم ذكر تعالى
صفات المتقين المحسنين فقال ﴿الذين يجتنبون كباثراً الإثم﴾ أي يبتعدون عن كباثرات الذنوب كالشرك
والقتل وأكل مال اليتيم ﴿والفواحش﴾ أي ويبتعدون عن الفواحش جمع فاحشة وهي ما تنهى قبورها
عقلاً وشرعاً كالزنى ونكاح زوجة الأب لقوله تعالى ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة﴾ وقوله ﴿ولا
تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً﴾ ﴿إلا اللمم﴾ أي
إلا ما قل وصغر من الذنوب قال القرطبي : وهي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله
كالقبلة والغمزة والنظرة (٣) وفي الحديث (إن الله عز وجل كتب على ابن آدم حفظه من الزنى ،
أدرك ذلك لا محالة ، فزنى العينين النظر ، وزنى اللسان النطق ، والنفس تتهنى وتشتهى ، والفرج
يصدق ذلك أو يكذبه) (٤) فإذا اجتنب العبد كباثرات الذنوب غفر الله بفضله وكرمه الصغائر لقوله تعالى

(١) تفسير أبي السعود ١٦٠/٥ . (٢) تفسير ابن الجوزي ٧٥/٨ . (٣) تفسير القرطبي ١٠٦/١٧ . (٤) أخرجه البخاري ومسلم .

هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأْتُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٣﴾

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ يعني الصغائر^(١) ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي هو تعالى غفار الذنوب ستار العيوب ، يغفر لمن فعل ذلك ثم تاب قال ابن كثير : أي رحمته وسعت كل شيء ، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها^(٢) قال البيضاوي : ولعله عقَّب به وعيد المسيئين ووعد المحسنين ، لثلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته ، ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى^(٣) ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأْتُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي هو جل وعلا أعلم بأحوالكم منكم قبل أن يخلقكم ، ومن حين أن خلق أباكم آدم من التراب ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي ومن حين أن كنتم مستترين في أرحام أمهاتكم ، فهو تعالى يعلم التقي والشقي ، والمؤمن والكافر ، والبرِّ والفاجر ، علم ما تفعلون وإلى ماذا تصيرون ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا تمدحوها على سبيل الإعجاب ، ولا تشهدوا لها بالكمال والتقى ، فإن النفس خسيصة إذا مدحت اغترت وتكبرت قال أبو حيان : أي لا تنسبها إلى الطهارة عن المعاصي ، ولا تثنوا عليها ، فقد علم الله منكم الزكي والتقي قبل إخراجكم من صلب آدم ، وقبل إخراجكم من بطون أمهاتكم^(٤) ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ أي هو تعالى العالم بمن أخلص العمل ، واتقى ربه في السر والعلن .

قال الله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى . . . إِلَى . . . فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ من آية (٣٣) إلى آية (٦٢) نهاية السورة .

المناسكة : لما ذكر تعالى في الآيات السابقة سفاهات المشركين وضلالاتهم في عبادتهم للأصنام ، وميَّز بين المؤمنين والمجرمين ، ذكر هنا نوعاً خاصاً من أهل الإجماع ، وختم السورة الكريمة ببيان ما حلَّ بالمكذبين من أنواع العذاب والدمار ، تذكيراً للمشركين بانتقام الله من أعدائه المكذبين لرسوله .

اللغز : ﴿أَكْدَى﴾ قطع العطاء مأخوذ من الكُدية يقال لمن حفر بئراً ثم وجد صخرة تمنعه من إتمام الحفر قد أكدى ، ثم استعمله العرب لمن أعطى ولم يتمم ، ولمن طلب شيئاً فلم يبلغ آخره قال الخطيئة :

فأعطى قليلاً ثم أكدى عطاءه ومن يبذل المعروف في الناس يُحمد^(٥)
﴿أقنى﴾ أعطاه الكفاية من المال ورضاه بما أعطاه قال الجوهري : فني الرجل يقنى مثل غني يغنى أي

(١) قال الخازن : روي عن عمر وابن عباس أنها قالا : لا كبيرة في الإسلام ومعناه لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار ، فالكبيرة تمحى الاستغفار والتوبة ، والصغيرة تصير كبيرة بالإصرار عليها . (٢) مختصر ابن كثير ٤٠٣/٣ . (٣) تفسير البيضاوي ١٧٣/٤ . (٤) تفسير البحر المحیط ١٦٥/٨ . (٥) البحر المحیط ١٥٥/٨ .

أَفْرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾

أعطاه الله ما يقتنى من المال والنشب ، وأقناه الله رضاه^(١) ﴿الشعري﴾ الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء في شدة الحر ﴿أزفت﴾ قربت قال كعب بن زهير :

بان الشباب وهذا الشيبُ قد أزفا
ولا أرى لشبابٍ بائنٍ خلفاً^(٢)
والآزفة القيامة سميت بذلك لقربها ودنوها ﴿سامدون﴾ لاهون لاعبون ، والسمودُ اللهب .

سَبَبُ النَّزُولِ : روي أن « الوليد بن المغيرة » جلس عند النبي ﷺ وسمع وعظه ، فتأثر قلبه بما سمع وكاد أن يسلم ، فعيّره رجلٌ من المشركين وقال : تركت دين آبائك وضللتهم وزعمت أنهم في النار ؟ ! فقال الوليد : إني خشيتُ عذاب الله ، فضمن له الرجل إن هو أعطاه شيئاً من ماله ، ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله عز وجل ، فأعطاه بعض الذي ضمن له ثم بخل ومنعه الباقي فأنزل الله ﴿أفرايت الذي تولى * وأعطى قليلاً وأكدى﴾^(٣) الآيات .

التفسير : ﴿أفرايت الذي تولى﴾ أي أخبرني يا محمد عن هذا الفاجر الأثيم الذي أعرض عن الإيمان واتباع الهدى ؟ ﴿وأعطى قليلاً وأكدى﴾ أي وأعطى لصاحبه الذي عيّره قليلاً من المال المشروط ثم بخل بالباقي قال مجاهد : نزلت في الوليد بن المغيرة^(٤) ﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ أي أعنده علمٌ بالأمور الغيبية حتى يعلم أن صاحبه يتحمل عنه العذاب ؟ ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى﴾ أي لم يُخبر بما في التوراة المنزلة على موسى ﴿وإبراهيم الذي وقى﴾ أي وبما في صحف إبراهيم الذي تمم ما أمر به من طاعة الله وتبليغ رسالته ، على وجه الكمال والتمام قال الحسن : ما أمره الله بشيء إلا وقى به كقوله تعالى ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن﴾ ﴿ألا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى﴾ أي أن لا تحمل نفسٌ ذنب غيرها ، ولا يؤاخذ أحدٌ بجريرة غيره ، والآية ردٌ على من زعم أنه يتحمل العذاب عن غيره كقوله تعالى ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾ ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ أي وأنه ليس للإنسان إلا عمله وسعيه قال ابن كثير : أي كما لا يُحمل عليه وزرٌ غيره ، كذلك لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه^(٥) ﴿وأن سعيه سوف يُرى﴾ أي وأن عمله سيُعرض عليه يوم القيامة ، ويراه في ميزانه قال الخازن : وفي الآية بشارة للمؤمن ، وذلك أن الله تعالى يريه أعماله الصالحة ليفرح بها ، ويحزن الكافر بأعماله الفاسدة فيزداد غماً^(٦) ﴿ثم يُجزاهُ الجزاء

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ١١٩ . (٢) البحر المحيط ٨/ ١٥٥ . (٣) التفسير الكبير للرازي ٧/ ٧٦٤ .

(٤) انظر سبب النزول السابق . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٠٤ . (٦) تفسير الخازن ٤/ ٢٢٣ .

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ
وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٩﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٥٠﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٥١﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٥٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ
الشَّعْرَىٰ ﴿٥٣﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٤﴾ وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمُ
أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٦﴾

الأوفى ﴿٤٦﴾ أي ثم يُجزى بعمله الجزاء الأتم الأكمل ، وهو وعيد للكافر ووعد للمؤمن ﴿٤٧﴾ وأن إلى ربك المنتهى ﴿٤٨﴾ أي إليه جل وعلا المرجع والمآب والمصير فيعاقب ويثيب . . ثم شرع تعالى في بيان آثار قدرته فقال ﴿٤٩﴾ وأنه هو أضحك وأبكى ﴿٥٠﴾ أي هو الذي خلق الفرح والحزن ، والسرور والغم ، فأضحك في الدنيا من أضحك ، وأبكى من أبكى قال مجاهد : أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار^(١) ﴿٥١﴾ وأنه أمات وأحيا ﴿٥٢﴾ أي خلق الموت والحياة فهو جل وعلا القادر على الإماتة والإحياء لا غيره ، ولهذا كرر الإسناد « هو » لبيان أن هذا من خصائص فعل الله ﴿٥٣﴾ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴿٥٤﴾ أي أوجد الصنفين الذكر والأنثى من أولاد آدم ومن كل حيوان قال الخازن : والغرض أنه تعالى هو القادر على إيجاد الضدين في محل واحد : الضحك والبكاء ، والإحياء والإماتة ، والذكر والأنثى ، وهذا شيء لا يصل إليه فهم العقلاء ولا يعلمونه ، وإنما هو بقدرة الله تعالى وخلق لا بفعل الطبيعة ، وفيه تنبيه على كمال قدرته ، لأن النطفة شيء واحد خلق الله منها أعضاء مختلفة ، وطباعاً متباينة ، وخلق منها الذكر والأنثى ، وهذا من عجيب صنعته وكمال قدرته^(٢) ، ولهذا قال ﴿٥٥﴾ من نطفة إذا تمنى ﴿٥٦﴾ أي خلق الذكر والأنثى من نطفة إذا تدفقت من صلب الرجل ، وصبت في رحم المرأة ﴿٥٧﴾ وأن عليه النشأة الأخرى ﴿٥٨﴾ أي وأن عليه جل وعلا إعادة خلق الناس للحساب والجزاء ، وإحيائهم بعد موتهم قال في البحر : لما كانت هذه النشأة ينكرها الكفار بولغ فيها بقوله تعالى ﴿٥٩﴾ عليه ﴿٦٠﴾ كأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه^(٣) ﴿٦١﴾ وأنه هو أغنى وأقنى ﴿٦٢﴾ أي أغنى من شاء ، وأفقر من شاء^(٤) وقال ابن عباس : أعطى فأرضى ، أغنى الإنسان ثم رضاه بما أعطاه ﴿٦٣﴾ وأنه هو رب الشعري ﴿٦٤﴾ أي هو رب الكوكب المضيء المسمى بالشعري الذي كانوا يعبدونه قال أبو السعود : أي هو رب معبودهم وكانت خزاعة تعبدونها، سن لهم ذلك رجل من أشرافهم هو « أبو كبشة »^(٥) ﴿٦٥﴾ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴿٦٦﴾ أي أهلك قوم عاد القدماء الذين بعث لهم نبي الله « هود » عليه السلام ، وكانوا من أشد الناس وأقواهم ، وأعتاهم على الله وأطغاهم ، فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية قال البيضاوي : سميت عاداً الأولى أي القدماء لأنهم أولى الأمم هلاكاً بعد قوم نوح عليه السلام^(٦) ﴿٦٧﴾ وثمود فما أبقي ﴿٦٨﴾ أي وثمود دمرهم فلم يبق منهم أحداً ﴿٦٩﴾ وقوم نوح من قبل ﴿٧٠﴾ أي وقوم نوح قبل عاد وثمود أهلكناهم ﴿٧١﴾ إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴿٧٢﴾ أي كانوا أظلم من الفريقين ، وأشد تمرداً

(١) البحر المحيط ٨/١٦٨ . (٢) تفسير الخازن ٤/٢٢٤ . (٣) البحر المحيط ٨/١٦٨ . (٤) هذا قول ابن زيد ثم قرأ ﴿يسيطر الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ . (٥) تفسير أبي السعود ٥/١٦٣ . (٦) تفسير البيضاوي ٤/١٧٤ .

وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَى ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُتَمَارَى ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾
 أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ
 وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

وطغياناً ممن سبقهم ، قال في البحر : كانوا في غاية العتو والأيذاء لنوح عليه السلام ، يضربونه حتى لا يكاد يتحرك ، ولا يتأثرون بشيء مما يدعوهم إليه قال قتادة : دعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كلما هلك قرن نشأ قرن ، حتى كان الرجل يأخذ بيد ابنه يتمشى به إلى نوح ليحذره منه ويقول له : يا بني إن أبي مشى بي إلى هذا وأنا مثلك يومئذٍ فاياك أن تصدقه ، فيموت الكبير على الكفر ، وينشأ الصغير على بغض نوح^(١) ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ أي وقرى قوم لوط أهواها فأسقطها على الأرض بعد أن انقلبت بهم فصار عاليها سافلها ، وذلك أن جبريل رفعها إلى السماء ثم أهوى بها ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَى﴾ أي فغطاها من فنون العذاب ما غطى ، وفيه تهويلٌ للعذاب وتعميمٌ لما أصابهم منه قال في البحر : والمؤتفكة هي مدائن قوم لوط ، سميت بذلك لأنها انقلبت بأهلها ، رفعها جبريل عليه السلام ثم أهوى بها إلى الأرض ، ثم أمطرت عليهم حجارة من سجيل منضود فذلك قوله ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَى﴾^(٢) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُتَمَارَى﴾ أي فبأي نعم الله الدالة على وحدانيته وقدرته تتشكك أيها الإنسان وتكذب !! ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ أي هذا هو محمد رسول منذر كسائر الرسل ومن جنس المنذرين الأولين وقد علمتم ما حلَّ بالمكذبين ﴿أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ﴾ أي دنت الساعة واقتربت القيامة قال القرطبي : سميت أرفة لدنوها وقرب قيامها^(٣) ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي لا يقدر على كشفها وردها إذا غشيت الخلق بأهواها وشدائدها إلا الله تعالى ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ ؟ استفهامٌ للتوبيخ أي أفمن هذا القرآن تعجبون يا معشر المشركين سخرية واستهزاء ؟ ﴿وتضحكون ولا تبكون﴾ أي وتضحكون عند سماعه ، ولا تبكون من زواجه وآياته ؟ وقد كان حقكم أن تبكوا الدم بدل الدمع حزناً على ما فرطتم ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ أي وأنتم لاهون غافلون ؟ ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ أي فاسجدوا لله الذي خلقكم وأفردوه بالعبادة ، ولا تعبدوا اللات والعزى ، ومناة والشعري ، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي لا يليق السجود والعبادة إلا له جل وعلا .

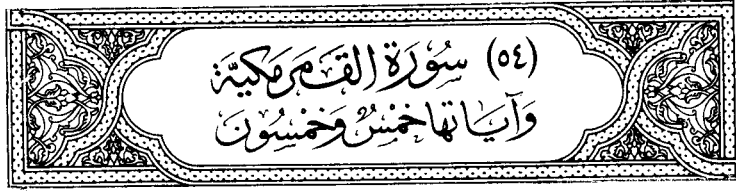
الْبَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الإيهام للتعظيم والتهويل ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ ومثله ﴿إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ وكذلك ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَى﴾ .
- ٢ - الجناس والنجم إذا هوى . . . وما ينطق عن الهوى ﴿فَالأول هوى بمعنى خراً وسقطاً والثاني بمعنى هوى النفس .

(١) البحر المحيط ٨/ ١٧٠ . (٢) نفس المرجع السابق والصفحة . (٣) تفسير القرطبي ١٧/ ١٢٢ .

- ٣ - الطباق بين ﴿أضحك وأبكى﴾ وبين ﴿أمات وأحيا﴾ وبين ﴿ضلّ وأهتدى﴾ وبين ﴿الأخرة والأولى﴾ وبين ﴿تضحكون ولا تبكون﴾ وهي من المحسنات البديعية .
- ٤ - المقابلة ﴿ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾ كما فيه إطناب في تكرار لفظ يجزي وكلاهما من المحسنات البديعية .
- ٥ - الاستفهام التوبيخي مع الإزراء بعقولهم ﴿ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذا قسمة ضيزى﴾ .
- ٦ - الجناس الناقص بين ﴿أغنى . . وأقنى﴾ لتغير بعض الحروف .
- ٧ - جناس الاشتقاق ﴿أزفت الأزفة﴾ .
- ٩ - عطف العام على الخاص ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ .
- ١٠ - مراعاة الفواصل ورعوس الآيات، مما له أجل الوقع على السمع مثل ﴿أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى * ألكم الذكر وله الأنثى﴾؟ ومثله ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون ولا تبكون * وأنتم سامدون﴾؟ ويسمى بالسجع .
- تنبیه:** كانت الأصنام التي عبدها المشركون كثيرة تقرب من ثلاثائة وستين صنماً ومعظمها حول الكعبة وقد حطمها ﷺ عند فتحه لمكة ، وأشهر هذه الأصنام « اللات ، والعزى ، ومناة » وقد أرسل ﷺ عام الفتح خالد بن الوليد ليحطم العزى فحطمها وهو يقول :
- يا عز كفرانك لا سبحانك
إني رأيتُ الله قد أهانك
وانتهت بفتح مكة عبادة الأوثان والأصنام ، ودخل الناس في دين الإسلام أفواجاً أفواجاً .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النجم »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة القمر من السور المكية ، وقد عاجلت أصول العقيدة الإسلامية ، وهي من بدئها إلى نهايتها حملةً عنيفةً مفزعة على المكذبين بآيات القرآن ، وطابع السورة الخاص ، هو طابع التهديد والوعيد ، والإعذار والإنذار ، مع صور شتى من مشاهد العذاب والدمار .

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر تلك « المعجزة الكونية » معجزة انشقاق القمر ، التي هي إحدى المعجزات العديدة لسيد البشر ﷺ ، وذلك حين طلب المشركون منه معجزة جلية تدل على صدقه ، وخصصوا بالذكر أن يشق لهم القمر ليشهدوا له بالرسالة ، ومع ذلك عاندوا وكابروا ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ وإن يروا آيةً يعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمر . . . ﴿ الآيات .

* ثم انتقلت للحديث عن أهوال القيامة وشدائدها ، بأسلوب مخيف يهز المشاعر هزاً ، ويحرك في النفس الرعب والفرع من هول ذلك اليوم العصيب ﴿ فتولّ عنهم يوم يدع الداع إلى شيءٍ نكر ﴾ خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جرادٌ منتشر ﴾ مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴿ .

* وبعد الحديث عن كفار مكة ، يأتي الحديث عن مصارع المكذبين ، وما نالهم في الدنيا من ضروب العذاب والدمار بدءاً بقوم نوح ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنونٌ وازدرج . . . ﴾

* ثم تلاه الحديث عن الطغاة المتجبرين من الأمم السالفة ، الذين كذبوا الرسل فأهلكهم الله إهلاكاً فظيماً ، ودمرهم عن بكرة أبيهم ، وقد تحدّثت الآيات عن قوم « عاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وقوم فرعون » وغيرهم من الطغاة المتجبرين بشيءٍ من الإسهاب ، مع تصوير أنواع العذاب .

* وبعد عرض هذه المشاهد الأليمة - مشاهد العذاب والنكال - الذي حلّ بالمكذبين لرسول الله صلى الله عليهم وسلم توجهت السورة إلى مخاطبة قريش ، وحذرتهم مصرعاً كهذه المصارع بل ما هو أشد وأنكى ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر . . . ﴿ الآيات .

* وختمت السورة ببيان مآل السعداء المتقين ، بعد ذكر مآل الأشقياء المجرمين ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ، بأسلوبه العجيب ﴿إن المتقين في جناتٍ ونهرٍ* في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿اقتربت الساعةُ وانشقَّ القمرُ . . إلى . . فهل من مُدْكرٍ﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (٣٢) .

اللغات : ﴿الأحداث﴾ جمع حدث وهو القبر ﴿مهطعين﴾ مسرعين يقال : أهطع في سيره أي أسرع ﴿منهمر﴾ انهمر الماء نزل بقوة غزيراً ﴿دُسُر﴾ الدُسُر : المسامير التي تُشدُّ بها السفينة جمع دَسار ككتاب وكتب قال في الصحاح : الدَّسار واحد الدُسُرُ وهي خيوط تشدُّ بها ألواح السفينة ويقال هي المسامير^(١) ﴿مُدْكرٍ﴾ متعظ خائف وأصله مذتكر قلبت التاء دالاً ثم أدغمت الذال فيها فصارت مدْكر ﴿صرصراً﴾ الصرصر : الشديدة الصوت مع البرد مأخوذ من صرير الباب وهو تصويته ﴿أعجاز﴾ جمع عجز وهو مؤخر الشيء ﴿منقعر﴾ المنقعر : المنقلع من أصله يقال : قعرت الشجرة قعراً قلعناها من أصلها فانقعرت ﴿سُعْر﴾ جنون من قولهم ناقة مسعورة كأنها من شدة نشاطها مجنونة قال الشاعر :

تخالُّ بها سُعراً إذا السُّقر هزَّها^(٢)

﴿أشير﴾ الأشير : البطر ورجلٌ أشر أي بطر أبطرته النعمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾

التفسير : ﴿اقتربت الساعةُ وانشقَّ القمرُ﴾ أي دنت القيامة وقد انشق القمر ﴿وإن يروا آيةً يُعرضوا﴾ أي وإن يركف قريش علامة ، واضحة ومعجزة ساطعة ، تدل على صدق محمد ﷺ يعرضوا عن الإيمان ﴿ويقولوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ أي ويقولوا هذا سحرٌ دائم ، سحر به محمدٌ أعيننا قال المفسرون : إن كفار مكة قالوا للرسول ﷺ : إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين ، ووعده بالآيمان إن فعل ، وكانت ليلة بدر ، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما طلبوا ، فانشقَّ القمر نصف على جبل الصفا ، ونصف على جبل قيععان المقابل له ، حتى رأوا حراء بينهما ، فقالوا : سحرنا محمد ، ثم قالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم !! فقال أبو جهل : اصبروا حتى تأتينا أهل البوادي فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح ، وإلا فقد سحر محمد أعيننا ، فجاءوا فأخبروا بانشقاق القمر فقال أبو

وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٥﴾
حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٦﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نَّكَرٍ ﴿٧﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ
مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٨﴾

جهل والمشركون : هذا سحر مستمر أي دائم فأنزل الله ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ وإن يروا آيةً يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴿^(١) قال الخازن : وانشقاق القمر من آيات رسول الله ﷺ الظاهرة ، ومعجزاته الباهرة ، يدل عليه ما أخرجه الشيخان عن أنس « أن أهل مكة سألو رسول الله ﷺ أنه يُريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر مرتين » وما روي عن ابن مسعود قال « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا » ^(٢) وما روي عن جبير بن مطعم قال « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين ، فقالت قريش : سحر محمد أعيننا فقال بعضهم : لئن كان سحرنا فما يستطيع أن يسحر الناس كلهم ، فكانوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم قد رأوه فيكذبونهم » ^(٣) فهذه الأحاديث الصحيحة ، قد وردت بهذه المعجزة العظيمة ، مع شهادة القرآن العظيم بذلك ، فإنه أدل دليل وأقوى مثبت له وإمكانه لا يشك فيه مؤمن ، وقيل في معنى الآية : ينشق القمر يوم القيامة ، وهذا قول باطل لا يصح ، وشاذ لا يثبت ، لإجماع المفسرين على خلافه ، ولأن الله ذكره بلفظ الماضي ﴿ وانشق القمر ﴾ وحمل الماضي على المستقبل بعيد ^(٤) ﴿ وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾ أي وكذبوا النبي ﷺ وما عاينوه من قدرة الله تعالى في انشقاق القمر ، واتبعوا ما زين لهم الشيطان من الباطل ﴿ وكل أمر مستقر ﴾ أي وكل أمر من الأمور منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر قال مقاتل : لكل حديث منتهى وحقيقة ينتهي إليها وقال قتادة : إن الخير يستقر بأهل الخير ، والشر يستقر بأهل الشر ، وكل أمر مستقر بأهله ^(٥) ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴾ أي ولقد جاء هؤلاء الكفار من أخبار الأمم الماضية المكذبين للرسول ، ما فيه واعظ لهم عن التادي في الكفر والضلال ﴿ حكمة بالغة ﴾ أي هذا القرآن حكمة بالغة ، بلغت النهاية في الهداية والبيان ﴿ فما تُغني النُّذُر ﴾ أي أي شيء تُغني النُّذُر عن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على سمعه وقلبه ؟! قال المفسرون : المعنى لقد جاءهم القرآن وهو حكمة تامة قد بلغت الغاية ، فماذا تنفع الإنذارات والمواعيد لقوم أصموا أذانهم عن سماع كلام الله ؟ كقوله تعالى ﴿ وما تُغني الآيات والنُّذُر عن قوم لا يؤمنون ﴾ ﴿ فتولَّ عنهم ﴾ أي فأعرض يا محمد عن هؤلاء المجرمين وانتظرهم ﴿ يوم يدعُ الدَّاعِ إلى شيء نكراً ﴾ أي يوم يدعو إسرافيل إلى شيء منكر فظيع ، تنكره النفوس لشدته وهوله ، وهو يوم القيامة وما فيه من البلاء والأهوال ﴿ خُشْعاً أَبْصَرُهُمْ ﴾ أي ذليلةً أبصارهم لا يستطيعون رفعها من شدة الهول ﴿ يخرجون من الأجداث ﴾ أي يخرجون من

(١) هذا قول جمهور المفسرين وهو مروي عن ابن عباس وأنس وابن عمر ، وذهب بعضهم إلى أن القمر سينشق يوم القيامة قال ابن الجوزي : وهو قول شاذ لا يقاوم الإجماع .

(٢) رواه البخاري ومسلم . (٣) أخرجه الترمذي وغيره . (٤) تفسير الخازن ٤/ ٢٢٦ . (٥) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٨٩ .

مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسْرٍ ﴿٨﴾ * كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ
وَأَزْدِجِرٍ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرُ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ
عَيْونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾

القبور ﴿كأنهم جرادٌ منتشر﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة إجابتهم للداعي جرادٌ منتشر في الأفق ، لا يدرون أين يذهبون من الخوف والحيرة قال ابن الجوزي : وإنما شبههم بالجراد المنتشر ، لأن الجراد لا جهة له يقصدها ، فهم يخرجون من القبور فزعين ليس لأحدٍ منهم جهة يقصدها ، والداعي هو إسرأفيل (١) ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ أي مسرعين مادي أعناقهم إلى الداعي لا يتلكئون ولا يتأخرون ﴿يقول الكافرون هذا يومٌ عسر﴾ أي يقول الكافرون هذا يوم صعبٌ شديد قال الخازن : وفيه إشارة إلى أن ذلك اليوم يومٌ شديد على الكافرين لا على المؤمنين (٢) كقوله تعالى ﴿على الكافرين غير يسير﴾ . . ثم ذكر تعالى وقائع الأمم المكذبين وما حلَّ بهم من العذاب والنكال تسلياً لرسول الله ﷺ وتحذيراً لكفار مكة فقال ﴿كذبت قبلهم قومُ نوح﴾ أي كذب قبل قومك يا محمد قومُ نوح ﴿فكذبوا عبدنا وقالوا مجنونٌ وازْدَجِر﴾ أي فكذبوا عبدنا نوحاً وقالوا إنه مجنون ، وانتهروه وزجره عن دعوى النبوة بالسب والتخويف والوعيد بقولهم ﴿لئن لم تنته يا نوح لتكوننَّ من المرجومين﴾ قال في البحر : لم يقنعوا بتكذيبه حتى نسبوه إلى الجنون أي أنه يقول ما لا يقبله عاقل وذلك مبالغة في تكذيبهم ، وإنما قال ﴿عبدنا﴾ تشريفاً له وخصوصية بالعبودية (٣) ﴿فدعا ربّه أني مغلوبٌ فانتصر﴾ أي فدعا نوح ربه وقال يا ربّ إني ضعيف عن مقاومة هؤلاء المجرمين ، فانتقم لي منهم وانتصر لدينك قال أبو حيان : وإنما دعا عليهم بعدما يسئ منهم وتفاقم أمرهم ، وكان الواحد من قومه يخنقه إلى أن يخجر مغشياً عليه وهو يقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون (٤) ﴿ففتحننا أبواب السماء بماءٍ منهمر﴾ أي فأرسلنا المطر من السماء منصباً بقوة وغزارة قال أبو السعود : وهو تمثيلٌ لكثرة الامطار وشدة انصبابها (٥) ﴿وفجّرنا الأرض عيوناً﴾ أي جعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة بالماء ﴿فاللتقى الماء على أمرٍ قد قُدر﴾ أي فاللتقى ماء السماء وماء الأرض على حالٍ قد قدرها الله في الأزل وقضاها بإهلاك المكذبين غرقاً قال قتادة : قضى عليهم في أم الكتاب إذا كفروا أن يُغرقوا ﴿وحملناه على ذات ألواحٍ ودُسر﴾ أي وحملنا نوحاً على السفينة ذات الألواح الخشبية العريضة المشدودة بالمسامير قال في البحر : وذات الألواح والدُسر هي السفينة التي أنشأها نوح عليه السلام ، ويفهم من هذين الوصفين أنها « السفينة » فهي صفة تقوم مقام الموصوف وتنوب عنه ونحوه : قميصي مسرودة من حديد أي درع ، وهذا من فصيح الكلام وبديعه ، ولو جمعت بين الصفة

(١) تفسير ابن الجوزي ٩١/٨ . (٢) تفسير الخازن ٢٢٨/٤ .

(٣) تفسير البحر المحيط ١٧٦/٨ .

(٤) البحر المحيط ١٧٦/٨ . (٥) تفسير أبي السعود ٧٨٦/٧ .

تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٨﴾
إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٢١﴾

والموصوف لم يكن بالفصيح ، والدُّسُرُ : المسامير^(١) ﴿تجري بأعيننا﴾ أي تسير على وجه الماء بحفظنا
وكلاءتنا وتحت رعايتنا ﴿جزاء لمن كان كُفِرَ﴾ أي أغرقنا قوم نوح انتصاراً لعبدنا نوح لأنه كان قد كُذِّبَ
وجُحِدَ فضلُه قال الألوسي : أي فعلنا ذلك جزاءً لنوح لأنه كان نعمةً أنعمها الله على قومه فكفروها ،
وكذلك كلُّ نبيٍّ نعمةً من الله تعالى على أمته^(٢) ﴿ولقد تركناها آية﴾ أي تركنا تلك الحادثة « الطوفان »
عبرة ﴿فهل من مُدَكِّرٍ﴾ أي فهل من معتبر ومتعظ ؟ ﴿فكيف كان عذابي ونُذْرٍ﴾ استفهام تهويل
وتعجيب أي فكيف كان عذابي وإنذاري لمن كذب رسلي ، ولم يتعظ بآياتي ؟ ﴿ولقد يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ﴾ أي والله لقد سهلنا القرآن للحفظ والتدبر والاعتاظ ، لما اشتمل عليه من أنواع المواعظ والعبر
﴿فهل من مُدَكِّرٍ﴾ أي فهل من متعظٍ بمواعظه ، معتبرٍ بقصصه وزواجه ؟ قال الخازن : وفيه الحث
على تعليم القرآن والاشتغال به ، لأنه قد يسره الله وسهله على من يشاء من عباده ، بحيث يسهل حفظه
للصغير والكبير ، والعربي والعجمي قال سعيد بن جبير : يسرناه للحفظ والقراءة ، وليس شيء من كُتُبِ
الله تعالى يُقرأ كلُّه ظاهراً إلا القرآن^(٣) ، وبالجمله فقد جعل الله القرآن مهيباً ومسهلاً لمن أراد حفظه
وفهمه أو الاعتاظ به ، فهو رأس سعادة الدنيا والآخرة ﴿كذَّبت عَادٌ فكيف كان عذابي ونُذْرٍ﴾ أي
كذبت عادٌ رسولهم هوداً فكيف كان إنذاري لهم بالعذاب ؟ ثم شرع في بيان ما حلَّ بهم من العذاب
القطيع المدمر فقال ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي أرسلنا عليهم ريحاً عاصفة باردة شديدة
الهبوب والصوت قال ابن عباس : الصرصر : الشديدة البرد وقال السدي : الشديدة الصوت^(٤) ﴿ففي
يوم نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ أي في يومٍ مشثوم دائم الشؤم ، استمر عليهم بشؤمه فلم يبق منهم أحدٌ إلا هلك
فيه قال ابن كثير : استمر عليهم نحسه ودماره ، لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي
﴿تنزعُ الناسُ﴾ أي تفلعُ الريح القوم ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتدقُّ رقابهم وتتركهم ﴿كأنهم أُعْجَازُ
نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ أي كأنهم أصول نخلٍ قد انقلعت من مغارسها وسقطت على الأرض ، شبهوا بالنخل
لطولهم وضخامة أجسامهم قال الخازن : كانت الريح تقلعهم ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتدقُّ رقابهم ،
وتفصل رؤوسهم من أجسامهم فتبقى أجسامهم بلا رؤوس كعجز النخلة الملقاة على الأرض^(٥) ﴿فكيف
كان عذابي ونُذْرٍ﴾ تهويل لما حلَّ بهم من العذاب وتعجيب من أمرهم أي كيف كان عذابي وإنذاري

(١) البحر المحيط ١٧٧/٨ . (٢) روح المعاني ٨٣/٢٧ . (٣) تفسير الخازن ٢٢٨/٤ .

(٤) قال ابن كثير بعد أن نقل الأقوال : والحق أنها متصفة بجميع ذلك ، فقد كانت ريحاً شديدة قوية ، وكانت باردة شديدة البرد ، وكانت

ذات صوت مزعج اهـ . وهذا القول هو الذي اخترناه . (٥) تفسير الخازن ٢٢٩/٤ .

وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَبِئْنَا ضَلَّلِيًّا وَسُعْرِيًّا ﴿٢٤﴾ أَتَلْقَى الدِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرِ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسَلُونَ النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَأَنْتَقِبُهُمْ وَاصْطَبِرُوا ﴿٢٧﴾

لهم ؟ ألم يكن هائلاً فظيماً ؟ ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ ؟ كرره للتنبية على فضل الله على المؤمنين بتيسير حفظ القرآن أي ولقد سهلنا القرآن للحفظ والفهم ، فهل من متعظٍ ومعتبر بزواجر القرآن ؟! ثم أخبر تعالى عن قوم ثمود المكذبين لرسولهم صالح عليه السلام فقال ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾ أي كذبت ثمود بالإنذارات والمواعظ التي أنذرهم بها نبيهم صالح ﴿ فقالوا أبشراً منّا واحداً نتبعه ﴾ أي أتتبع إنساناً مثلنا من آحاد الناس ، ليس من الأشراف ولا العظماء ، ونحن جماعة كثيرون ؟ قال في البحر : قالوا ذلك حسداً منهم واستبعاداً أن يكون نوع البشر يفضل بعضه بعضاً هذا الفضل ، فتالوا : أنكون جمعاً وتتبع واحداً منا ؟ ولم يعلموا أن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء ، ويفيض نور الهدى على من رضيهِ ^(١) ﴿ إِنَّا إِذَا لَقِيْنَا ضَلَالًا وَسُعْرًا ﴾ أي إنا إذا اتبعناه لفي خطأٍ وذهابٍ عن الحق واضح ، وجنون دائم قال ابن عباس : سَعُرُ أي جنون من قولهم ناقة مسعورة كأنها من شدة نشاطها مجنونة ^(٢) ﴿ أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ استفهام إنكاري أي هل خصّ بالوحي والرسالة وحده دوننا ، وفينا من هو أكثر منه مالاً وأحسن حالاً ؟ قال الإمام الفخر : وفي الآية إشارة إلى ما كانوا ينكرونه بطريق المبالغة ، وذلك لأن الإلقاء إنزالٌ بسرعة ، فكأنهم قالوا : الملك جسيم والسماء بعيدة فكيف ينزل عليه الوحي في لحظة ؟ وقولهم « عليه » إنكارٌ آخر كأنهم قالوا : ما ألقى عليه ذكرٌ أصلاً ، وعلى فرض نزوله فلا يكون عليه من بيننا وفينا من هو فوقه في الشرف والذكاء ؟ وقولهم ﴿ أَلْقَى ﴾ بدلاً من قولهم ﴿ أَلْقَى اللَّهَ ﴾ إشارة إلى أن الإلقاء من السماء غير ممكن فضلاً عن أن يكون من الله تعالى ^(٣) ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴾ أي بل هو كاذب في دعوى النبوة ، متجاوز في حد الكذب ، متكبرٌ بطرٌ يريد العلو علينا ، وإنما وصفوه بأنه ﴿ أشرٌّ ﴾ مبالغة منهم في رفض دعواه كأنهم قالوا إنه كذب لا لضرورةٍ وحاجةٍ إلى الخلاص كما يكذب الضعيف ، وإنما تكبرٌ واطرٍ وطلب الرياسة عليكم وأراد أن تتبعوه فكذب على الله ، فلا يلتفت إلى كلامه لأنه جمع بين رذيلتين : الكذب والتكبر ، وكلٌ منهما مانع من اتباعه ، قال تعالى تهديداً لهم ورداً لبهتانهم ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرِ ﴾ أي سيعلمون في الآخرة من هو الكذاب الأشر ، هل هو صالح عليه السلام أم قومه المكذبون المجرمون ؟ قال الألوسي : المراد سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون ، لكن أورد ذلك مورد الإيهام إيماءً إلى أنه مما لا يكاد يخفى ^(٤) ﴿ إِنَّا مُرْسَلُونَ النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ ﴾ أي مخرجوا الناقة من الصخرة الصماء محنة لهم واختباراً كما شاءوا وطلبوا قال ابن كثير : أخرج الله لهم ناقة عظيمة عشاء ، من صخرة صماء طبق ما سألوا ، لتكون حجة الله عليهم

(١) تفسير البحر المحيط ٨/ ١٨٠ . (٢) تفسير القرطبي ١٧/ ١٣٨ . (٣) التفسير الكبير للرازي ٧/ ٧٩٩ . (٤) روح المعاني ٢٧/ ٨٨ .

وَنَبِّئِهِمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّحْتَضَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبِهِمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٣٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٢﴾

في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به^(١) ﴿فارتقبهم واصطبر﴾ أي فانتظرهم وتبصّر ما يصنعون وما يُصنع بهم ، واصبر على أذاهم فإن الله ناصرك عليهم ﴿وَنَبِّئِهِمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي وأعلمهم أن الماء الذي يمرُّ بواديهم مقسومٌ بين ثمود وبين الناقة كقوله تعالى ﴿لها شربٌ ولكم شربٌ يوم معلوم﴾ قال ابن عباس : إذا كان يوم شربهم لا تشرب الناقة شيئاً من الماء وتسقيهم لبناً وكانوا في نعيم ، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تُبق لهم شيئاً^(٢) ، وإنما قال تعالى ﴿بَيْنَهُمْ﴾ تغليياً للعقلاء ﴿كُلُّ شَرْبٍ مُّحْتَضَرٌّ﴾ أي كل نصيب وحصّة من الماء يحضرها من كانت نوبته ، فإذا كان يوم الناقة حضرت شربها ، وإذا كان يومهم حضروا شربهم ﴿فَنَادَوْا صَاحِبِهِمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ أي فنادت قبيلة ثمود أشقى القوم واسمه « قدار بن سالف » لقتل الناقة فتناول الناقة بسيفه فقتلها غير مكترث بالأمر العظيم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ أي فكيف كان عقابي وإنذاري لهم ؟ ألم يكن فظيماً شديداً ؟! ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي أهلكناهم بصيحة واحدة صاح بها جبريل عليه السلام فلم تبق منهم عين تطرف ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أي فصاروا هشيماً متفتتاً كيابس الشجر إذا بلي وتحطّم وداسته الأقدام قال الإمام الجلال : المحتظر هو الذي يجعل لغنمه حظيرةً من يابس الشجر والشوك يحفظهن فيها من الذئاب والسباع ، وما سقط من ذلك فداسته فهو الهشيم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي يسرناه للحفظ والاتعاظ فهل من معتبر ؟

قال الله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمٌ لوطٍ بالنذر . . إلى . . عند مليكٍ مقتدرٍ﴾

من آية (٣٣) إلى آية (٥٥) نهاية السورة .

المناسكبة : لما ذكر تعالى المكذبين من قوم « عاد و ثمود » ذكر هنا قوم لوط وقوم فرعون وما حل بهم من العذاب والدمار ، تذكيراً لكفار مكة بانتقام الله من أعدائه وأعداء رسله ، وختم السورة الكريمة ببيان سنة الله في عقاب الكفرة المجرمين .

اللفظة : ﴿حاصباً﴾ الحاصب : الحجارة وقيل : هي الريح الشديد التي تثير الحصباء وهي الحصى ﴿بطشنا﴾ عقابنا الشديد ﴿الزُّبُرُ﴾ الكتب السماوية جمع زبور وهو الكتاب الإلهي ﴿أدهى﴾ أفضع من الداهية وهي الأمر المنكر العظيم ﴿سُعْرٌ﴾ خسرانٍ وجنون ﴿سقر﴾ اسم من أسماء جهنم أعادنا الله منها .

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٤١١/٣ . (٢) تفسير القرطبي ١٧/١٤٠ .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحْرِ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا
كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا
أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾

سَبَبُ النُّزُولِ : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في
القدر فنزلت ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ (١) .

التفسير : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ﴾ أي كذبوا بالإنذارات التي أنذرهم بها نبيهم لوط عليه
السلام ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي أرسلنا عليهم حجارة قذفوا بها من السماء قال ابن كثير : أمر
تعالى جبريل فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم وأرسلها وأتبع بحجارة
من سجيل منضود ، والحاصب هي الحجارة (٢) ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ أي غير لوط وأتباعه المؤمنين ﴿نَجَّيْنَاهُمْ
بِسَحْرِ﴾ أي نجيناهم من الهلاك قبيل الصبح وقت السحر ﴿نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي إنعاماً منا
عليهم نجيناهم من العذاب ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكريم ، نجزي من
شكر نعمتنا بالإيمان والطاعة ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا﴾ أي ولقد خوفهم لوط عقوبتنا الشديدة ، وانتقامنا
منهم بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ﴾ أي فتشككوا وكذبوا بالإنذار والوعيد ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ أي
طلبوا منه أن يسلم لهم أضيافه وهم الملائكة ليفجروا بهم بطريق اللواط ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ أي أعمينا
أعينهم وأزلنا أثرها حتى فقدوا أبصارهم قال المفسرون : لما جاءت الملائكة إلى لوط في صورة شباب مرد
حسان ، أضافهم لوط عليه السلام ، فجاء قومه يهرعون إليه لقصده الفاحشة بهم ، فأغلق لوط دونهم
الباب ، فجعلوا يحاولون كسر الباب ، فخرج عليهم جبريل فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست
أعينهم وعموا (٣) ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ أي فذوقوا عذابي وإنذاري الذي أنذركم به لوط ﴿وَلَقَدْ
صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ أي جاءهم وقت الصبح عذاب دائم متصل بعذاب الآخرة قال
الصاوي : وذلك أن جبريل قلع بلادهم فرفعها ثم قلبها بهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل ، واتصل
عذاب الدنيا بعذاب الآخرة فلا يزول عنهم حتى يصلوا إلى النار (٤) ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ أي
فذوقوا أيها المجرمون عذابي الأليم ، وإنذاري لكم على لسان رسولي ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ
مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي ولقد يسرنا القرآن للحفظ والتدبر فهل من متعظٍ ومعتبر ؟ قال المفسرون : حكمة تكرار
ذلك في كل قصة ، التنبيه على الاتعاظ والتدبر في أنباء الغابرين ، وللإشارة إلى أن تكذيب كل رسول

(١) أخرجه مسلم والترمذي . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٤١٢/٣ .

(٣) انظر تفسير الخازن ٢٣٠/٤ وتفسير الرازي ٨٠٨/٧ . (٤) حاشية الصاوي ١٥٠/٤ .

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَّكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾

مقتضى لنزول العذاب كما كرر قوله ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقريراً للنعم المختلفة المعدودة ، فكلما ذكر نعمةً وبَّخ على التكذيب بها^(١) ﴿ولقد جاء آل فرعون النذر﴾ أي جاء فرعون وقومه الإنذارات المتكررة فلم يعتبروا قال أبو السعود : صُدِّرت قصتهم بالقسم المؤكد لإيراز كمال الاعتناء بشأنها ، لغاية عظم ما فيها من الآيات وكثرتها ، وهول ما لاقوه من العذاب ، وفرعون رأس الطغيان^(٢) ﴿كذبوا بآياتنا كلها﴾ أي كذبوا بالمعجزات التسع التي أعطيتها موسى^(٣) ﴿فأخذناهم أخذ عزيز مُّقْتَدِرٍ﴾ أي فانتقمنا منهم بإغراقهم في البحر ، وأخذناهم بالعذاب أخذ إله غالب في انتقامه ، قادر على إهلاكهم لا يعجزه شيء . . ثم خوف تعالى كفار مكة فقال ﴿أكفاركم خيرٌ من أولئكم﴾ ؟ الاستفهام إنكاري للتقريع والتوبيخ أي أكفاركم يا معشر العرب خيرٌ من أولئكم الكفار الذين أحللت بهم نعمتي مثل قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وقوم فرعون ، حتى لا أعذبهم ؟ قال القرطبي : استفهام إنكار ومعناه النفي أي ليس كفاركم خيراً من كفار من تقدم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم^(٤) ﴿أم لكم براءة في الزُّبُرِ﴾ أي أم لكم يا كفار قريش براءة من العذاب في الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء ؟ ﴿أم يقولون نحن جميع مُنتصرون﴾ أي بل يقولون نحن جمع كثير ، واثقون بكثرتنا وقوتنا ، منتصرون على محمد ؟ قال تعالى رداً عليهم ﴿سيهزم الجمع ويولِّون الدُّبُرَ﴾ أي سيهزم جمع المشركين ويولِّون الأدبار منهزمين قال ابن الجوزي : وهذا مما أخبر الله به نبيه من علم الغيب ، فكانت الهزيمة يوم بدر^(٥) ﴿بل السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي ليس هذا تمام عقابهم بل القيامة موعد عذابهم ﴿والسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرٌ﴾ أي أعظم داهيةً وأشدُّ مرارةً من القتل والأسر ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ أي إن المجرمين في حيرةٍ وتخبُّطٍ في الدنيا ، وفي نيرانٍ مسعرةٍ في الآخرة قال ابن عباس : في خسرانٍ وجنون^(٦) ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي يوم يُجْرُونَ في النار على وجوههم عقاباً وإذلالاً لهم ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي يقال لهم : ذوقوا أيها المكذبون عذاب جهنم قال أبو السعود : وسقر علمٌ لجهنم ولذلك لم يُصرف^(٧) ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ أي إنا خلقنا كل شيءٍ مقدراً مكتوباً في اللوح المحفوظ من الأزل ﴿وما أمرنا إلاً واحدةً كلمح بالبصر﴾ أي وما شأننا في الخلق والإيجاد إلا مرة واحدة كلمح البصر في السرعة

(١) انظر التفسير الكبير للرازي ٨١٠/٧ . (٢) تفسير أبي السعود ١٧٨/٥ . (٣) قال القرطبي : المراد المعجزات الدالة على توحيد الله ونبوة موسى وهي : «العصا ، واليد ، والسنون ، والطمس ، والظوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم» .
(٤) تفسير القرطبي ١٧/١٤٥ . (٥) تفسير ابن الجوزي ١٠٠/٨ . (٦) روح المعاني ٩٣/٢٧ . (٧) تفسير أبي السعود ١٧٩/٥ .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾
 إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

نقول للشيء : كن فيكون قال ابن كثير : أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيد بثانية ، فيكون ذلك موجوداً كلمح البصر لا يتأخر طرفة عين^(١) ﴿ولقد أهلكنا أشياعكم﴾ أي ووالله لقد أهلكنا أشباهكم ونظراءكم في الكفر والضلال من الأمم السالفة ﴿فهل من مدكر﴾ أي فهل من يتذكر ويتعظ ؟ ﴿وكلُّ شيءٍ فعلوه في الزُّبُرِ﴾ أي وجميع ما فعلته الأمم المكذبة من خير وشر مكتوب عليهم ، مسجل في كتب الحفظة التي بأيدي الملائكة قال ابن زيد : ﴿في الزُّبُرِ﴾ أي في دواوين الحفظة ﴿وكلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ أي وكل صغيرٍ وكبيرٍ من الأعمال مسطورٌ في اللوح المحفوظ ، مثبت فيه ﴿إنَّ المتقين في جناتٍ ونهرٍ﴾ أي في جناتٍ وأنهارٍ قال القرطبي : يعني أنهار الماء ، والخمر ، والعسل ، واللبن ﴿في مقعد صدقٍ﴾ أي في مكانٍ مرضيٍّ ، ومقام حسنٍ ﴿عند ملكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ أي عند ربٍ عظيمٍ جليل ، قادرٍ في ملكه وسلطانه ، لا يعجزه شيء ، وهو الله رب العالمين .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستعارة التمثيلية ﴿ففتحننا أبواب السماء﴾ شبه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء ، وانشق بها أديم الخضراء بطريق الاستعارة التمثيلية .
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿يدعو الداع﴾ .
- ٣ - الكناية ﴿وحملناه على ذات ألواحٍ ودسر﴾ كناية عن السفينة التي تحوي الأخشاب والمسامير .
- ٤ - التشبيه المرسل والمجمل ﴿كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية﴾ ومثله ﴿فكانوا كهشيم المحتظر﴾ .
- ٥ - صيغة المبالغة ﴿بل هو كذابٍ أشر﴾ أي كثير الكذب العظيم البطر لأن فعَّال وفعل للمبالغة .
- ٦ - الإطناب بتكرار اللفظ ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى﴾ لزيادة التخويف والتهويل .
- ٧ - المقابلة بين المجرمين والمتقين ﴿إن المجرمين في ضلالٍ وسُعُرٍ﴾ و ﴿إن المتقين في جناتٍ ونهرٍ﴾ .

٨ - الطباق بين ﴿صغيرٍ وكبيرٍ﴾ .

- ٩ - السجع المرصع غير المتكلف الذي يزيد في جمال اللفظ وموسيقاه إقرأ مثلاً قوله تعالى ﴿ذوقوا مسَّ سقرٍ﴾ إنا كل شيء خلقناه بقدر * وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ الخ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة القمر »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الرحمن من السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية ، وهي كالعروس بين سائر السور الكريمة ، ولهذا ورد في الحديث الشريف (لكل شيء عروس ، وعروس القرآن سورة الرحمن) .

* ابتدأت السورة بتعديد آلاء الله الباهرة ، ونعمه الكثيرة الظاهرة على العباد ، التي لا يحصيها عدٌ ، وفي مقدمتها نعمة « تعليم القرآن » بوصفه المنَّة الكبرى على الإنسان ، تسبق في الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه البيان ﴿ الرحمن * علَّم القرآن * خلق الإنسان * علَّمه البيان ﴾ .

* ثم فتحت السورة صحائف الوجود ، الناطقة بآلاء الله الجليلة ، وأثاره العظيمة التي لا تحصى ، الشمس والقمر ، والنجم والشجر ، والسماء المرفوعة بلا عمد ، وما فيها من عجائب القدرة وغرائب الصنعة ، والأرض التي بثَّ فيها من أنواع الفواكه ، والزرورع ، والثمار ، رزقاً للبشر ﴿ الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان . . ﴾ الآيات .

* وتحدثت السورة عن دلائل القدرة الباهرة في تسيير الأفلاك ، وتسخير السفن الكبيرة تمخر عباب البحار وكأنها الجبال الشاهقة عظمةً وضخامةً ، وهي تجري فوق سطح الماء ﴿ وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام . . ﴾ الآيات .

* ثم بعد ذلك الاستعراض السريع لصفحة الكون المنظور ، تطوى صفحات الوجود ، وتتلأشى الخلائق بأسرها ، فيلفها شبح الموت الرهيب ، ويطويها الفناء ، ولا يبقى إلا الحي القيوم متفرداً بالبقاء ﴿ كلُّ من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ .

* وتناولت السورة أهوال القيامة . فتحدثت عن حال الأشقياء المجرمين ، وما يلاقونه من الفرع والشدائد في ذلك اليوم العصيب ﴿ يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام . . ﴾ الآيات .

* وبعد الحديث عن مشهد العذاب للمجرمين ، تناولت السورة مشهد النعيم للمتقين في شيء من

الإسهاب والتفصيل ، حيث يكونون في الجنان مع الحور والولدان ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان . . ﴾ الآيات .

* وختمت السورة بتمجيد الله جل وعلا والثناء عليه ، على ما أنعم على عباده من فنون النعم والإكرام ، وهو أنسب ختام لسورة الرحمن ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ وهكذا يتناسق البدء مع الختام في أروع صور البيان !!

قال الله تعالى : ﴿الرحمن * عَلَّمَ الْقُرْآنَ . . إِلَى . . فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (٤٥) .

اللغز : ﴿بحسبان﴾ الحُسابان بضم الحاء مصدر مثل العُفْران والكُفْران ومعناه الحساب ﴿الأنام﴾ الخلق وكلُّ ما دبَّ على وجه الأرض ﴿العصف﴾ ورق الزرع الأخضر إذا يبس ﴿الريحان﴾ كل نبات طيب الريح ، سمي ريحاناً لرائحته الطيبة ﴿مارج﴾ المارج : اللهب الذي يعلو النار قال الليث : هو الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد^(١) ﴿الجوار﴾ جمع جارية وهي السفينة سميت جارية لأنها تمشي على سطح الماء ﴿الأعلام﴾ الجبال جمع علم وهو الجبل الطويل قال الشاعر : « إذا قطعن علماً بدا علمٌ » ﴿تنفذوا﴾ النفوذ : الخروج من الشيء بسرعة ﴿شواظ﴾ الشواظ : اللهب الذي لا دخان له ﴿الدهان﴾ الجلد الأحمر ﴿آن﴾ نهاية في الحرارة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾

التفسير : ﴿الرحمن * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أي الله الرحمن عَلَّمَ الْقُرْآنَ ، ويسره للحفظ والفهم قال مقاتل : لما نزل قوله تعالى ﴿اسجدوا للرحمن﴾ قال كفار مكة : وما الرحمن ؟ فأنكروه وقالوا لا نعرف الرحمن فقال تعالى ﴿الرحمن﴾ الذي أنكروه هو الذي ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾^(٢) وقال الخازن : إن الله عز وجل عدّد نعمه على عباده ، فقدم أعظمها نعمة ، وأعلىها رتبة ، وهو القرآن العزيز لأنه أعظم وحي الله إلى أنبيائه ، وأشرفه منزلة عند أوليائه وأصفيائه ، وأكثره ذكراً ، وأحسنه في أبواب الدين أثراً ، وهو سنام الكتب السماوية المنزلة على أفضل البرية^(٣) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ أي خلق الإنسان السميع البصير الناطق ، والمراد بالإنسان الجنس ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أي ألهمه النطق الذي يستطيع به أن يُبين عن مقاصده ورغباته ، ويتميّز به عن سائر الحيوان قال البيضاوي : والمقصودُ تعداد ما أنعم الله به على نوع الإنسان ، حتّى على

(١) تفسير القرطبي ١٧/١٦١ . (٢) زاد المسير ٨/١٠٥ . (٣) تفسير الخازن ٤/٢٤٦ .

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥٦﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٥٧﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٥٨﴾
 أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٥٩﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٦٠﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا
 لِلْأَنَامِ ﴿٦١﴾ فِيهَا فَكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿٦٢﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿٦٣﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ الرَّبِّ كَمَا

شكره ، وتنبهها على تقصيرهم فيه ، وإنما قدّم تعليم القرآن على خلق الإنسان ، لأنه أصل النعم الدينية فقدّم الأهم^(١) ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي الشمس والقمر يجريان بحساب معلوم في بروجها ، ويتقلان في منازلها لمصالح العباد قال ابن كثير : أي يجريان متعاقبين بحساب مقنن لا يختلف ولا يضطرب^(٢) ﴿والنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ أي والنجم والشجر ينقادان للرحمن فيما يريده منها ، هذا بالتقل بالبروج ، وذلك بإخراج الثمار^(٣) ﴿والسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي والسماء خلقها عالية محكمة البناء رفيعة القدر والشأن ، وأمر بالميزان عند الأخذ والإعطاء لينال الإنسان حقه وافيّاً ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي لثلاث تبخسوا في الميزان ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي اجعلوا الوزن مستقيماً بالعدل والإنصاف ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي لا تطففوا الوزن ولا تُنقصوه كقوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ ﴿والأرض وضعتها للأنام﴾ أي والأرض بسطها لأجل الخلق ، ليستقروا عليها ، وينتفعوا بما خلق الله على ظهرها قال ابن كثير : أي أرساها بالجبال الشامخات لتستقر بما على وجهها من الأنام وهم الخلائق ، المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم في سائر أرجائها^(٤) ﴿فيها فاكهة﴾ أي فيها من أنواع الفواكه المختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿والنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أي وفيها النخل التي يطلع فيها أوعية الثمر قال ابن كثير : أفرد النخل بالذكر لشرفه ونفعه رطباً ويابساً ، والأكمام هي أوعية الطلع كما قال ابن عباس ، وهو الذي يطلع فيه القنو ، ثم ينشق عنه العنقود فيكون بُسراً ثم رطباً ، ثم ينضج ويتناهى ينعه واستواؤه^(٥) ﴿والحبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ أي وفيها أنواع الحب كالحنطة والشعير وسائر ما يتغذى به ، ذو التبن الذي هو غذاء الحيوان ﴿والريحان﴾ أي وفيها كل مشموم طيب الريح من النبات كالورد ، والفُلّ ، والياسمين وما شاكلها قال في البحر : ذكر تعالى الفاكهة أولاً ونكّر لفظها لأن الانتفاع بها نفسها ، ثم ثنّى بالنخل فذكر الأصل ولم يذكر ثمرها وهو التمر ، لكثرة الانتفاع بها من ليف ، وسعف ، وجريد ، وجذوع ، وجمار ، وثمر ، ثم ذكر الحب الذي هو قوام عيش الإنسان وهو البر والشعير وكل ما له سنبل وأوراق ، ووصفه بقوله ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ تنبيهاً على إنعامه عليهم بما يقوتهم به من الحب ، وما يقوت بهائمهم من ورقه وهو التبن ، وبدأ بالفاكهة وختم بالمشموم ليحصل ما به يتفكه ، وما به يتقوت ، وما به تقع اللذادة من الرائحة الطيبة^(٦) ، ولما عدّد نعمه خاطب الإنس والجن بقوله ﴿فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكَمَا

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٤٢٧/٣ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٤١٥/٣ . (٣) الأظهر أن المراد بالنجم هو النجم الذي في السماء ، وهو قول مجاهد واختيار ابن كثير ، وروي عن ابن عباس أن المراد بالنجم هو كل نبات ينجم من الأرض وليس له ساق لمقابلته بالشجر الذي له ساق ، واختار هذا القول ابن جرير ، والأول أظهر . (٤) مختصر تفسير ابن كثير ٤١٦/٣ . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٤١٦/٣ . (٦) البحر المحيط ١٩٠/٨ .

تُكذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٥﴾ فَبَأَى آءِ الْآءِ رَبِّكَمَا
تُكذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبَأَى آءِ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ
يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبَأَى آءِ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكذِّبَانِ ﴿٢١﴾

تُكذِّبَانِ ﴿١٣﴾ أي فبأى نعم الله يا معشر الإنس والجن تُكذِّبَانِ ؟ أليست نعم الله عليكم كثيرة لا تُحصى ؟ عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا ، فقال : مالي أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم ؟ ما أتيتُ على قول الله تعالى ﴿ فَبَأَى آءِ رَبِّكَمَا تُكذِّبَانِ ﴾ إلا قالوا : لا بشيءٍ من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد (١) . . ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته فقال ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ أي خلق أباكم آدم من طين يابسٍ يسمع له صلصلة أي صوتٌ إذا نُقِرَ قال المفسرون : ذكر تعالى في هذه السورة أنه خلق آدم ﴿ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ وفي سورة الحجر ﴿ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ أي من طين أسود متغير ، وفي الصفات ﴿ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ أي يلتصق باليد ، وفي آل عمران ﴿ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ﴾ ولا تنافي بينهما ، وذلك لأن الله تعالى أخذه من تراب الأرض ، فعجنه بالماء فصار طيناً لازباً أي متلاصقاً يلصق باليد ، ثم تركه حتى صار حمماً مسنوناً أي طيناً أسود منتناً ، ثم صورَه كما تُصوِّرُ الأواني ثم أبيضه حتى صار في غاية الصلابة كالفخار إذا نُقِرَ صوتٌ ، فالمذكور ههنا آخر الأطوار (٢) ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ أي وخلق الجن من لهبٍ خالصٍ لا دخان فيه من النار قال ابن عباس : ﴿ مِنْ مَّارِجٍ ﴾ أي لهبٍ خالصٍ لا دخان فيه وقال مجاهد : هو اللهب المختلط بسواد النار (٣) ، وفي الحديث (خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجن من نار ، وخلق آدم مما وُصف لكم) (٤) ﴿ فَبَأَى آءِ رَبِّكَمَا تُكذِّبَانِ ﴾ أي فبأى نعم الله يا معشر الإنس والجن تُكذِّبَانِ ؟ قال أبو حيان : والتكرار في هذه الفواصل للتأكيد والتنبيه والتحريك ، وقال ابن قتيبة : إن هذا التكرار إنما هو لاختلاف النعم ، فكلما ذكر نعمةً كرر قوله ﴿ فَبَأَى آءِ رَبِّكَمَا تُكذِّبَانِ ﴾ (٥) وقد ذُكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة ، والاستفهام فيها للتقريع والتوبيخ ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ أي هو جل وعلا ربُّ مشرق الشمس والقمر ، وربُّ مغربها ، ولما ذكر الشمس والقمر في قوله ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ ذكر هنا أنه ربُّ مشرقها ومغربها ﴿ فَبَأَى آءِ رَبِّكَمَا تُكذِّبَانِ ﴾ أي فبأى نعم الله التي لا تُحصى تُكذِّبَانِ ؟ ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ أي أرسل البحر الملح والبحر العذب يتجاوران ويلتقيان ولا يمتزجان ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ أي بينهما حاجزٌ من قدرة الله تعالى لا يطفئ أحدهما على الآخر بالممازجة قال ابن كثير : والمراد بالبحرين : الملح والحلو ، فالمالح هذه البحار ، والحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، وجعل الله بينهما بَرْزَخاً وهو الحاجز من الأرض لثلا يبغي هذا على هذا فيفسد كل واحد منهما الآخر (٦) ﴿ فَبَأَى آءِ رَبِّكَمَا تُكذِّبَانِ ﴾

(١) أخرجه الترمذي وصححه الحاكم . (٢) انظر حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤٣٠ وحاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٥٤ .

(٣) روح المعاني ٢٧/ ١٠٥ . (٤) أخرجه مسلم وأحمد . (٥) البحر المحيط ٨/ ١٩٠ . (٦) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٧ .

يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ
 كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ
 وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي

تكذبان ﴿٢٢﴾ أي فبأي نعم الله تكذبان ؟ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أي يُخْرَجُ لَكُمْ مِنَ الْمَاءِ اللَّؤْلُؤُ
 وَالْمَرْجَانُ ، كما يخرج من التراب الحب والعصف والريحان ، قال الأوسمي : واللؤلؤ صغار الدر ،
 والمرجان كباره قاله ابن عباس ، وعن ابن مسعود أن المرجان الخرز الأحمر (١) ، والآية بيان لعجائب صنع
 الله حيث يخرج من الماء المالح أنواع الحلية كالدر والياقوت والمرجان ، فسبحان الواحد المتأن ﴿فَبِأَيِّ آيَاتِ
 رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله تكذبان ؟ ﴿لَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾
 أي وله جل وعلا السفن المرفوعات الجاريات في البحر كالجبال في العظم والضحامة قال القرطبي :
 ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ أي كالجبال ، والعلم الجبل الطويل ، فالسفن في البحر كالجبال في البر (٢) ، ووجه الامتتان
 بها أن الله تعالى سير هذه السفن الضخمة التي تشبه الجبال على وجه الماء ، وهو جسم لطيف مائع يحمل
 فوقه هذه السفن الكبار المحملة بالأرزاق والمكاسب والمتاجر من قطر إلى قطر ، ومن إقليم إلى إقليم قال
 شيخ زاده : واعلم أن أصول الأشياء أربعة : التراب ، والماء ، والهواء ، والنار ، فبين تعالى بقوله
 ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ﴾ أن التراب أصل لمخلوق شريف مكرم ، وبين بقوله ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ
 مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ أن النار أيضاً أصل لمخلوق آخر عجيب الشأن ، وبين بقوله ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ
 وَالْمَرْجَانُ﴾ أن الماء أيضاً أصل لمخلوق آخر له قدرٌ وقيمة ، ثم ذكر أن الهواء له تأثير عظيم في جري السفن
 المشابهة للجبال فقال ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ وخص السفن بالذكر لأن جريها في
 البحر لا صنع للبشر فيه ، وهم معترفون بذلك حيث يقولون : « لك الفلك ولك الملك » وإذا خافوا
 الغرق دعوا الله تعالى خاصة ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٣) ﴿فَبِأَيِّ آيَاتِ
 رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله تكذبان ؟ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي كل من على وجه
 الأرض من الإنسان والحيوان هالك وسيموت ﴿وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي ويبقى ذات
 الله الواحد الأحد ، ذو العظمة والكبرياء والإنعام والإكرام كقوله ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قال ابن
 عباس : الوجه عبارة عن الله جل وعلا الباقي الدائم قال القرطبي : ووجه النعمة في فناء الخلق التسوية
 بينهم في الموت ومع الموت تستوي الأقدام ، والموت سبب النقلة من دار الفناء إلى دار الثواب والجزاء (٤)
 ﴿فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله تكذبان ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ﴾ أي يفتقر إليه تعالى كل من في السموات والأرض ، ويطلبون منه العون والرزق بلسان المقال أو
 بلسان الحال ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أي كل ساعة ولحظة هو تعالى في شأن من شئون الخلق ، يغفر

(١) روح المعاني ٢٧/١٠٦ . (٢) تفسير القرطبي ١٧/١٦٤ . (٣) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/٤٣٠ . (٤) تفسير القرطبي

شَانَ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آءِ الرَّبِّ كُتِبَ عَلَيْكُمُ اتَّقِ اللَّهَ يَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آءِ الرَّبِّ كُتِبَ عَلَيْكُمُ اتَّقِ اللَّهَ يَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٣٢﴾ يَمْعَشَرِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آءِ الرَّبِّ كُتِبَ عَلَيْكُمُ اتَّقِ اللَّهَ يَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٣٤﴾ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ وَغُحَّاسٍ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾

ذنباً ، ويفرّج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين قال المفسرون : هي شئون يُبديها ولا يتبديها أي يظهرها للخلق ولا ينشئها من جديد لأن القلم جفّ على ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة ، فهو تعالى يرفع من يشاء ويضع من يشاء ، ويشفي سقيماً ويمرض سليماً ، ويعز ذليلاً ويذل عزيزاً ، ويفقر غنياً ويغني فقيراً قال مقاتل : إن الآية نزلت في اليهود قالوا : إن الله تعالى لا يقضي يوم السبت شيئاً ، فردّ الله عليهم بذلك ^(١) ﴿فَبِأَيِّ آءِ الرَّبِّ كُتِبَ عَلَيْكُمُ اتَّقِ اللَّهَ يَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي فَبِأَيِّ نعم الله الجليلة تكذبان أيها الإنس والجان ؟ ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ أي سنحاسبكم على أعمالكم يا معشر الإنس والجن قال ابن عباس : هذا وعيد من الله تعالى للعباد ، وليس بالله تعالى شغل وهو فارغ ^(٢) قال في البحر : أي نظر في أموركم يوم القيامة ، لا أنه تعالى كان له شغل فيفرغ فيه ، وجرى هذا على كلام العرب يقول الرجل لمن يتهدده : سأفرغ لك أي سأتجرّد للانتقام منك من كل ما شغلني ^(٣) وقال البيضاوي : أي سنتجرّد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة ، وفيه تهديد مستعار من قولك لمن تهده : سأفرغ لك ، فإن المتجرّد للشيء يكون أقوى عليه ، وأجدّ فيه ، والثقلان : الإنس والجن سميّا بذلك لثقلهما على الأرض ^(٤) ﴿فَبِأَيِّ آءِ الرَّبِّ كُتِبَ عَلَيْكُمُ اتَّقِ اللَّهَ يَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هارين من الله ، فارين من قضائه فخرجوا منها ، وخلصوا أنفسكم من عقابه ، والأمر للتعجيز ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي لا تقدرون على الخروج إلا بقوة وقهر وغلبة ، وأتى لكم ذلك ؟ قال ابن كثير : معنى الآية أنكم لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره ، بل هو محيط بكم لا تقدرون على التخلص من حكمه ، أينما ذهبتم أحيط بكم ، وهذا في مقام الحشر حيث الملائكة محدة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب ، فلا يقدر أحد على الذهاب إلا بسُلطان أي بإمر الله وإرادته ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفرُّ﴾ ^(٥) ؟ وهذا إنما يكون في القيامة لا في الدنيا بدليل قوله تعالى بعده ﴿يرسل عليكم شواظ من نار﴾ ^(٦) ﴿فَبِأَيِّ آءِ الرَّبِّ كُتِبَ عَلَيْكُمُ اتَّقِ اللَّهَ يَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ؟ تقدم تفسيره ﴿يرسل عليكم شواظ من نار﴾ أي يرسل عليكم يوم القيامة هب النار الحامية ﴿ونحاس﴾ أي ونحاس مذاب يصب فوق

(١) تفسير الألوسي ١١١/٢٧ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٤١٩/٣ . (٣) البحر المحيط ١٩٤/٨ .

(٤) تفسير البيضاوي ٤٣٢/٣ . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٤١٩/٣ . (٦) جنح بعض المتأخرين في هذه الأيام إلى تفسير الآية تفسيراً خاطئاً فزعموا أن الإنسان يمكنه الصعود إلى السموات وإلى الكواكب وفَسَّرُوا «السُلطان» بالعلم وهو مخالف لأقوال المفسرين ويرده سياق الآية وسباقها ، فإن الآية سبقت لبيان أهوال الآخرة وشدائدها بدليل قوله تعالى قبلها ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ وقوله بعدها ﴿يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس﴾ وقد اتفق المفسرون على أنها في الآخرة ، ونحن لا نستنكر إمكان وصول الإنسان - بالصواريخ والمخترعات الحديثة - إلى القمر أو بعض الكواكب ، فإن ذلك في مقدور الإنسان ويستطيع بواسطة العلم أن يدور حول الأرض ويعلو في الأجواء ولكنه لا يستطيع

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يُطوفُونَ فِيهَا بَيْنَ أُبُيَّاتٍ مِنْ بَيْنِ أُبُيَّاتٍ مِثْلِ الْقُبُورِ أُولَٰئِكَ فِيهَا فِي سَرَابٍ مُنْتَهَى ﴿٤٤﴾

رءوسكم قال مجاهد : هو الصفر المعروف يصب على رءوسهم يوم القيامة وقال ابن عباس : ﴿نحاس﴾ هو الدخان الذي لا لب فيه ، وقول مجاهد أظهر ﴿فلا تنتصران﴾ أي فلا ينصر بعضكم بعضاً ، ولا يخلصه من عذاب الله قال ابن كثير : ومعنى الآية لو ذهبتم هاريين يوم القيامة لردتكم الملائكة وزبانية جهنم ، بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا فلا تجدون لكم ناصرًا^(١) ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿فإذا انشقت السماء﴾ أي فإذا انصدعت يوم القيامة لتنزل الملائكة منها لتحيط بالخلائق من كل جانب ﴿فكانت وردة كالدّهان﴾ أي فكانت مثل الورد الأحمر من حرارة النار ، ومثل الأديم الأحمر أي الجلد الأحمر قاله ابن عباس ، وذلك من شدة الهول ، ومن رهبة ذلك اليوم العظيم ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ أي ففي ذلك اليوم الرهيب يوم تنشق السماء ، لا يسأل أحد من المذنبين من الإنس والجن عن ذنبه ، لأن للمذنب علامات تدل على ذنبه كاسوداد الوجوه ، وزرقة العيون قال الإمام الفخر : لا يسأل أحد عن ذنبه ، فلا يقال له : أنت المذنب أو غيرك ؟ ولا يقال : من المذنب منكم ؟ بل يعرفون بسواد وجوههم وغيره^(٢) ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿يعرف المجرمون بسيماهم﴾ أي يعرف يوم القيامة أهل الإجماع بعلامات تظهر عليهم وهي ما يغشاهم من الكآبة والحزن قال الحسن : سواد الوجه وزرقة الأعين كقوله تعالى ﴿ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً﴾ وقوله ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾^(٣) ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ أي فتأخذ الملائكة بنواصيهم أي بشعور مقدم رءوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في جهنم قال ابن عباس : يؤخذ بناصية المجرم وقدميه فيكسر كما يكسر الخطب ثم يلقي في النار ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ أي يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً : هذه النار التي أخبرتم بها فكذبتم قال ابن كثير : أي هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ، ها هي حاضرة تشهدونها عياناً^(٤) ﴿يطوفون بينها وبين حميم أن﴾ أي يترددون بين نار جهنم وبين ماء حار

أن يصل إلى السماء ، فقد جعلها الله سقفاً محفوظاً ، أما القمر وسائر الكواكب فهي دون السماء الدنيا ويمكن الوصول إليها ، - ولكننا نستنكر ونتعجب ممن يتهم على القرآن بدون علم ولا فهم ، ويقول في كتاب الله برأيه دون الرجوع إلى أقوال المفسرين المعتمدين ، وانظر ما كتبناه في مجلة رابطة العالم الإسلامي سنة ١٣٨٧ حول الوصول إلى القمر .

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٤١٩/٣ . (٢) التفسير الكبير للرازي ١١٨/٢٩ . (٣) تفسير القرطبي ١٧/١٧٥ . (٤) مختصر ابن كثير

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

بلغ النهاية في الحرارة قال قتادة : يطوفون مرةً بين الحميم ، ومرة بين الجحيم ، والجحيم النار ، والحميم الشراب الذي انتهى حره ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ أي فبأي نعم الله تكذبان يا معشر الإنس والجان ؟

قال الله تعالى : ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان .. إلى .. تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾
من آية (٤٦) إلى آية (٧٨) نهاية السورة .

المناسكة : لما ذكر تعالى أحوال أهل النار ، ذكر ما أعدّه للمؤمنين الأبرار من الجنان والولدان والخور الحسان ، لتمييز الفارق الهائل بين منازل المجرمين ومراتب المتقين ، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب .

اللفظة : ﴿أفنان﴾ جمع فنن وهو الغصن قال الشاعر يصف حمامة :

ربّ ورقاء هتوف في الضحى ذات شدو صدحت في فنن
ذكرت إلفاً ودهراً خالياً فبكت شوقاً فهاجت حزني
﴿استبرق﴾ ما غلظ من الديباج وحشن ﴿وجنى﴾ الجنى : ما يُجتنى من الشجر ويقطف ﴿يطمهن﴾
الطمث : الجماع المؤدي إلى خروج دم البكر ثم أطلق على كل جماع ، ومعنى ﴿لم يطمهن﴾ أي لم
يصبهن بالجماع قبل أزواجهن أحد قال الفراء : الطمث الافتضاض وهو النكاح بالتدمية^(١) ﴿مدهامتان﴾
سوداوان من شدة الخضرة ، والدهمة في اللغة السواد ﴿نضاختان﴾ فوارتان بالماء لا تنقطعان ﴿عبقري﴾
طنافس جمع عبقرية أي طنفسة ثخينة فيها أنواع النقوش قال الفراء : العبقرية الطنافس الثخان منها وقال
أبو عبيد : كل ثوب وشي عند العرب فهو عبقرية منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشي قال ذو الرمة :
حتى كأن رياض القف ألبسها من وشي عبقر تجليل وتنجيد^(٢)

وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾

التفسير : ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ أي وللعبد الذي يخاف قيامه بين يدي ربه للحساب جنتان : جنة لسكنه ، وجنة لأزواجه وخدمه ، كما هي حال ملوك الدنيا حيث يكون له قصرٌ ولأزواجه قصر^(٣) قال القرطبي :

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ١٨١ . (٢) البحر ٨/ ١٨٦ .

(٣) قال الفخر الرازي : لما قال تعالى في حق المجرم إنه يطوف بين نار ، وبين حميم آن ، قال في حق المؤمن الخائف ﴿ولمن خاف مقام ربه

فَبِأَيِّ آءِ آءٍ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آءِ آءٍ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آءِ آءٍ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آءِ آءٍ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّانِيهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾

الزمخشري : جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المعاصي وفي الحديث (جنتان من فضة آتيتها وما فيها ، وجنتان من ذهب آتيتها وما فيها ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن)^(١) ﴿فبأي آء ربكما تكذبان﴾ ثم وصف تعالى الجنتين فقال ﴿ذواتا أفنان﴾ أي ذواتا أغصان متفرعة وثمار متنوعة قال في البحر : وخص الأفنان - وهي الغصون - بالذكر لأنها التي تورق وتثمر ، ومنها تمتد الظلال وتُجنى الثمار ﴿فبأي آء ربكما تكذبان﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن ﴿فيهما عينان تجريان﴾ أي في كل واحدة من الجنتين عين جارية ، تجري بالماء الزلال كقوله تعالى ﴿فيها عين جارية﴾ قال ابن كثير : أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان ، فتثمر من جميع الألوان^(٢) قال الحسن : تجريان بالماء الزلال إحداهما التسنيم ، والأخرى السلسيل ﴿فبأي آء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ أي فيهما من جميع أنواع الفواكه والثمار صنفان : معروف ، وغريب لم يعرفوه في الدنيا قال ابن عباس : ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل ، إلا أنه حلو ، وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء ﴿فبأي آء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره قال الفخر الرازي : إن قوله تعالى ﴿ذواتا أفنان﴾ و ﴿فيهما عينان تجريان﴾ و ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ كلها أوصاف للجنتين المذكورتين ، وإنما فصل بين الأغصان والفواكه بذكر العينين الجاريتين على عادة المتعممين ، فإنهم إذا دخلوا البستان لا يبادرون إلى أكل الثمار ، بل يقدمون التفرج على الأكل ، مع أن الإنسان في بستان الدنيا لا يأكل حتى يجوع ويشتهي شهوة شديدة فكيف في الجنة !! فذكر تعالى ما يتم به النزهة وهو خضرة الأشجار ، وجريان الأنهار ، ثم ذكر ما يكون بعد النزهة وهو أكل الثمار ، فسبحان من يأتي بالآيات بأحسن المعاني في أبين المباني^(٣) ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّانِيهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أي مضطجعين في جنان الخلد على فرشٍ وثيرة بطائنهما من ديباج - وهو الحرير السميك - المزين بالذهب ، وهذا يدل على نهاية شرفها لأن البطانة إذا كانت بهذا الوصف فما بالك بالظاهرة ؟ قال ابن مسعود : هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر ؟ وقال ابن عباس : لما سئل عن الآية : ذلك مما قال الله تعالى ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾^(٤) ﴿وجنسى الجنتين دان﴾ أي ثمرها قريب يناله القاعد والقائم والنائم ، بخلاف ثمار الدنيا فإنها لا تنال إلا بكدي وتعبد قال ابن عباس :

جنتان ﴿وقد ذكر تعالى الجنة ، والجنتين ، والجنات فقال ﴿إن المتقين في جنات﴾ وقال ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ فهي لاتصال أشجارها ومسكنها وعدم وقوع الفاصل بينها كمهامه وقفار صارت كجنة واحدة ، ولسعتها وتنوع أشجارها وكثرة مساكنها كأنها جنات ، ولاشتمالها على ما تلتذ به الروح والجسم كأنها جنتان انتهى من التفسير الكبير ١٢٣/٢٩ . (١) أخرجه البخاري . (٢) مختصر ابن كثير ٤٢٢/٣ . (٣) التفسير الكبير ١٢٥/٢٩ . (٤) روح المعاني ١١٨/٢٧ .

فَبَيَّءَ الْآءَ رَبِّكََا تُكْذِبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٥٦﴾ فَبَيَّءَ الْآءَ رَبِّكََا
 تُكْذِبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبَيَّءَ الْآءَ رَبِّكََا تُكْذِبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا
 الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبَيَّءَ الْآءَ رَبِّكََا تُكْذِبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبَيَّءَ الْآءَ رَبِّكََا تُكْذِبَانِ ﴿٦٣﴾
 مُدْهَامَتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبَيَّءَ الْآءَ رَبِّكََا تُكْذِبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبَيَّءَ الْآءَ رَبِّكََا تُكْذِبَانِ ﴿٦٧﴾

تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولي الله إن شاء قائماً ، وإن شاء قاعداً ، وإن شاء مضطجعاً^(١) ﴿فبأي آء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ أي في تلك الجنان نساء قاصرات الطرف قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم ، كما هو حال المخدرات العفاف ﴿لم يطمئئن إنس قبلهم ولا جان﴾ أي لم يمسهن ولم يجامعهن أحد قبل أزواجهن لا من الإنس ولا من الجن ، بل هن أبكار عذارى قال الألوسي : وأصل الطمث خروج الدم ولذلك يقال للحيض طمث ، ثم أطلق على جماع الأبكار لما فيه من خروج الدم ، ثم على كل جماع وإن لم يكن فيه خروج دم^(٢) ﴿فبأي آء ربكما تكذبان﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن ؟ ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ أي كأنهن يشبهن الياقوت والمرجان في صفائهن وحرتهن قال قتادة : كأنهن في صفاء الياقوت وحرمة المرجان ، لو أدخلت في الياقوت سلكاً ثم نظرت إليه لرأيت من ورائه^(٣) وفي الحديث (إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير ، حتى يرى نحرها^(٤)) ﴿فبأي آء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة قال أبو السعود : أي ما جزاء الإحسان في العمل ، إلا الإحسان في الثواب^(٥) والغرض أن من قدم المعروف والإحسان استحق الإنعام والإكرام ﴿فبأي آء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿ومن دونهما جنتان﴾ أي ومن دون تلك الجنتين في الفضيلة والقدر جنتان أخريان قال المفسرون : الجنتان الأوليان للسابقين ، والأخريان لأصحاب اليمين ولا شك أن مقام السابقين أعظم وأرفع لقوله تعالى ﴿فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ؟ وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة ؟ والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾ ﴿فبأي آء ربكما تكذبان﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن ؟ ﴿مدهامتان﴾ أي سوداوان من شدة الخضرة والري قال الألوسي : والمراد أنهما شديدتا الخضرة ، والخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد وذلك من كثرة الري بالماء^(٦) ﴿فبأي آء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ﴿فيهما عينان نضاختان﴾ أي فوارتان بالماء لا تنقطعان وقال ابن مسعود وابن عباس : تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنة كزخ المطر^(٧) ﴿فبأي آء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره

(١) تفسير الخازن ١٠/٤ . (٢) تفسير الألوسي ١١٩/٢٧ . (٣) البحر المحيط ٨/١٩٨ .

(٤) أخرجه الترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً ، قال ابن كثير والموقوف أصح . (٥) تفسير أبي السعود ٥/١٢٧ . (٦) روح المعاني

١٢١/٢٧ . (٧) تفسير القرطبي ١٧/١٨٥ .

فِيهِمَا فَكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ
 آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ
 قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾

﴿فِيهِمَا فَكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ أي في الجنة من أنواع الفواكه كلها وأنواع النخل والرمان ، وإنما ذكر
 النخل والرمان تنبيهاً على فضلها وشرفها على سائر الفواكه ولأنهما غالب فاكهة العرب قال الألوسي : ثم
 إن نخل الجنة ورمانها وراء ما نعرفه^(١) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ أي في تلك الجنة نساء صالحات كريمات الأخلاق ، حسان الوجوه ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ أي هنَّ الحورُ العين المخدرات المستورات لا
 يخرجن لكرامتهن وشرفهن ، قد قصرن في خدورهن في خيام اللؤلؤ المجوف ، قال أبو حيان : والنساء
 تُمدح بذلك إذ ملازمتهن البيوت تدل على صيانتهم قال الحسن : لسن بطوافات في الطرق ، وخيام الجنة
 بيوت اللؤلؤ^(٢) ، وفي الحديث (إنَّ في الجنة خيمةً من لؤلؤةٍ مجوفة ، عرضها ستون ميلاً ، في كل زاويةٍ
 منها أهلٌ ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون)^(٣) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره
 ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أي لم يجامعهن ولم يغشهن أحد قبل أزواجهن لا من الإنس ولا
 من الجن قال في التسهيل : الجنة المذكورتان أولاً للسابقين ، والجنة المذكورتان ثانياً لأصحاب اليمين ،
 وانظر كيف جعل أوصاف الجنة الأوليين أعلى من أوصاف الجنة اللتين بعدهما ، فقال هناك ﴿فِيهِمَا
 عَيْنَانُ تَجْرِيَانِ﴾ وقال هنا ﴿فِيهِمَا عَيْنَانُ نَضَاحَتَانِ﴾ والجري أشدُّ من النضخ ، وقال هناك ﴿فِيهِمَا مِنْ
 كُلِّ فَكِهَةٍ زَوْجَانٌ﴾ وقال هنا ﴿فِيهِمَا فَكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ والأول أعم وأشمل ، وقال في صفة الحور
 هناك ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وقال هنا ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ وليس كل حُسنٍ كحسن الياقوت
 والمرجان فالوصف هناك أبلغ ، وقال هناك في وصف الفرش ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فَرْشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ أَسْتَبْرَقٍ﴾
 وهو الديباج وقال هنا ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ ولا شك أن الفرش المعدة للاتكاء أفضل من فضل
 الخباء^(٤) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن ؟
 ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ أي مستندين على وسائد خضر من وسائد الجنة^(٥) ﴿وَعَبْقَرِيٍّ
 حِسَانٍ﴾ أي وطفانس ثخينة مزخرفة ، محلاة بأنواع الصور والزينة قال الصاوي : وهي نسبة إلى
 « عبقر » قرية بناحية اليمن ، يُنسج فيها بسط منقوشة بلغت النهاية في الحسن ، فقرب الله لنا فرش
 الجنة بتلك البسط المنقوشة^(٦) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله تعالى تكذبان يا

(١) روح المعاني ١٢٢/٢٧ . (٢) البحر المحيط ١٩٨/٨ . (٣) أخرجه البخاري .

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٨٦/٤ والقريطي ١٨٣/١٧ . (٥) هذا قول الحسن وقال ابن عباس :

الرفر : فضول المحاسن وهي ما يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه . (٦) حاشية الصاوي ١٦٠/٤ .

تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

معشر الإنس والجن ﴿تبارك اسمُ ربك﴾ أي تنزهه وتقدّس الله العظيم الجليل ، وكثرت خيراته وفاضت بركاته ﴿ذي الجلال والإكرام﴾ أي صاحب العظمة والكبرياء ، والفضل والإنعام قال في البحر : لما ختم تعالى نعم الدنيا بقوله ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ ختم نعم الآخرة بقوله ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ وناسب هناك ذكر البقاء والديمومة له تعالى بعد ذكر فناء العالم ، وناسب هنا ذكر البركة وهي النماء والزيادة عقب امتنانه على المؤمنين في دار كرامته وما آتاهم من الخير والفضل في دار النعيم^(١)

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - المقابلة اللطيفة بين ﴿والسماء رفعها﴾ وبين ﴿والأرض وضعها﴾ وكذلك المقابلة بين ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾ و﴿خلق الجنّ من نار﴾ .

٢ - التشبيه المرسل المجمل ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام﴾ أي كالجبال في العظم .

٣ - المجاز المرسل ﴿ويبقى وجه ربك﴾ أي ذاته المقدسة وهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل .

٤ - الاستعارة التمثيلية ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ شبه انتهاء الدنيا وما فيها من تدبير شئون الخلق ومجيء الآخرة وبقاء شأن واحد وهو محاسبة الإنس والجن بفراغ من يشغله أمور فتفرغ لأمر واحد ، والله تعالى لا يشغله شأن عن شأن وإنما هو على سبيل التمثيل .

٥ - الأمر التعجيزي ﴿إن استطعتم أن تنفذوا . . فانفذوا﴾ فالأمر هنا للتعجيز .

٦ - التشبيه البليغ ﴿فإذا انشقت السماء فكانت وردة﴾ أي كالوردة في الحمرة حذف وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغاً .

٧ - الجناس الناقص ﴿وجنا الجنّتين﴾ لتغير الشكل والحروف ، ويسمى جناس الاشتقاق .

٨ - الإيجاز بحذف الموصوف وإبقاء الصفة ﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ أي نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم .

٩ - السجع المرصع غير المتكلف كأنه حبات در منظومة في سلك واحد اقرأ قوله تعالى ﴿الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان﴾ وأمثاله في السورة كثير .

فائدة : تسمى سورة الرحمن « عروس القرآن » لما ورد « لكل شيء عروس » ، وعروس القرآن سورة الرحمن^(٢) .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الرحمن »

(١) البحر المحيط ٨/٢٠٠ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/١٥٢ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* تشمل هذه السورة الكريمة على أحوال يوم القيامة ، وما يكون بين يدي الساعة من أهوال ، وانقسام الناس إلى ثلاث طوائف (أصحاب اليمين ، أصحاب الشمال ، السابقون) .

* وقد تحدثت السورة عن مآل كل فريق ، وما أعدّه الله تعالى لهم من الجزاء العادل يوم الدين ، كما أقامت الدلائل على وجود الله ووحدانيته ، وكمال قدرته في بديع خلقه وصنعه ، في خلق الإنسان ، وإخراج النبات ، وإنزال الماء ، وما أودعه الله من القوة في النار . . ثم نوهت بذكر القرآن العظيم ، وأنه تنزيل رب العالمين ، وما يلقاه الإنسان عند الاحتضار من شدائد وأهوال .

* وختمت السورة بذكر الطوائف الثلاث وهم أهل السعادة ، وأهل الشقاوة ، والسابقون إلى الخيرات من أهل النعيم ، وبيّنت عاقبة كل منهم ، فكان ذلك كالتفصيل لما ورد في أول السورة من إجمال ، والإشادة بذكر مآثر المقربين في البدء والختام .

فضّلها : أ - عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً)^(١) .

ب - وأخرج الحافظ ابن عساكر في ترجمة (عبد الله بن مسعود) بسنده عن أبي ظبية قال : «مرض عبد الله مرضه الذي توفي فيه ، فعاده عثمان بن عفان فقال : ما تشتهي ؟ قال : ذنوبي ، قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي ، قال : ألا أمر لك بطبيب ؟ قال : الطبيبُ أمرضني ، قال : ألا أمر لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لي فيه ، قال : يكون لبناتك من بعدك ، قال : أتخشى على بناتي الفقر ؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً) فكان أبو ظبية لا يدعها^(٢) .»

قال الله تعالى : ﴿ إذا وقعت الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة . . إلى . . هذا نزلهم يوم الدين ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٥٦) .

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى وابن عساكر . (٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٨١ .

اللغز: ﴿رُجَّتْ﴾ زلزلت وحركت تحريكاً شديداً ﴿بَسَّتْ﴾ فُتت حتى صارت كالدقيق المسوس ﴿هباء﴾ الهباء ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة ﴿ثُلَّة﴾ جماعة من ثلثت الشيء أي قطعته قاله الزجاج فمعنى ثُلَّة كمعنى فرقة وزناً ومعنى ﴿موضونة﴾ منسوجة محكمة النسج كأن بعضها أدخل في بعض قال الأعشى :

ومن نسج داود موضونة تُساق مع الحيّ عيراً فغيراً^(١)
﴿يُصدِّعون﴾ صدع القوم بالخمير لحقهم الصداع في رءوسهم منها ﴿يَنزفون﴾ يسكرون فتذهب عقولهم
﴿مخضود﴾ خضد شوكة أي قطع قال أمية بن أبي الصلت :

إن الحدائق في الجنان ظليلةٌ فيها الكواعبُ سدرها مخضود^(٢)
﴿طلح﴾ الطلح : شجر الموز ﴿منضود﴾ متراكب بعضه فوق بعض ﴿عرباً﴾ جمع عروب وهي المتحبة إلى زوجها ﴿سموم﴾ ريح حارة تدخل في مسام البدن ﴿يحموم﴾ اليحموم الشديد السواد ﴿الحميم﴾ الماء المغلي ﴿الهميم﴾ الإيل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ

التفسير : ﴿إذا وقعت الواقعة﴾ أي إذا قامت القيامة التي لا بد من وقوعها ، وحدثت الدهاية الطامة التي ينخلع لها قلب الإنسان ، كان من الأهوال ما لا يصفه الخيال قال البيضاوي : سميت واقعة لتحقق وقوعها^(٣) وقال ابن عباس : الواقعة اسم من أسماء القيامة كالصاخة والأزفة والطامة ، وهذه الأشياء تقتضي عظم شأنها^(٤) ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ أي لا يكون عند وقوعها نفس كاذبة تكذب بوقوعها كحال المكذبين اليوم ، لأن كل نفس تؤمن حينئذ لأنها ترى العذاب عياناً كقوله تعالى ﴿فلمّا رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده﴾^(٥) ﴿خافضة رافعة﴾ أي هي خافضة لأقوام رافعة لآخرين ، تخفض أعداء الله في النار ، وترفع أولياء الله في الجنة قال الحسن : تخفض أقواماً إلى الجحيم وإن كانوا في الدنيا أعزة ، وترفع آخرين إلى أعلى عليين وإن كانوا في الدنيا وضعاء^(٦) . . ثم بيّن تعالى متى يكون ذلك فقال ﴿إذا رجّت الأرض رجاً﴾ أي زلزلت زلزالاً عنيفاً ، واضطربت اضطراباً شديداً ، بحيث ينهدم كل ما فوقها من بناء شامخ ، وطودٍ راسخ قال المفسرون : تُرَجُّ كما يَرُجُّ الصبي في المهد حتى ينهدم كل ما عليها من بناء ، وينكسر كل ما فيها من جبال وحصون^(٧) ﴿وبُسَّتِ الجبالُ بسّاً﴾ أي فُتَّت تفتيتاً حتى

(١) تفسير القرطبي ٢٠١/١٧ . (٢) البحر المحيط ٢٠١/٨ . (٣) تفسير البيضاوي ٤٣٧/٣ . (٤) تفسير المحيط ٢٠٢/٨ . (٥) هذا القول هو الأرجح في تفسير الآية الكريمة وهو اختيار البيضاوي وأبي السعود والألوسي ، واختيار ابن كثير أن المعنى ليس لوقوعها - إذا أراد الله - صارف يصرّفها ولا دافع يدفعها ، وروي نحو هذا عن الحسن وقتادة : والأول أدق وأظهر والله أعلم . (٦) مختصر ابن كثير ٤٢٨/٣ . (٧) تفسير القرطبي ١٧/١٩٦ .

بَسًا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾
وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّةٍ
النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾

صارت كالدقيق المبسوس - وهو المبلول - بعد أن كانت شاذخة ﴿فكانت هباءً منبثاً﴾ أي فصارت غباراً متفرقاً متطيراً في الهواء ، كالذي يُرى في شعاع الشمس إذا دخل النافذة فهذا هو الهباء (١) ، والمنبث المتفرق ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ وقوله ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾ ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾ أي وكنتم - أيها الناس - أصنافاً وفاقاً ثلاثة « أهل اليمين ، وأهل الشمال ، وأهل سبق » فأما السابقون فهم أهل الدرجات العلى في الجنة ، وأما أصحاب اليمين فهم سائر أهل الجنة ، وأما أصحاب الشمال فهم أهل النار ، وهذه مراتب الناس في الآخرة قال ميمون بن مهران : اثنان في الجنة وواحد في النار (٢) ، ثم فصلهم تعالى بقوله ﴿فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة﴾ ؟ استفهام للتفخيم والتعظيم أي هل تدري أي شيء أصحاب الميمنة ؟ من هم وما هي حالهم وصفتهم ؟ إنهم الذين يؤتون صحائفهم في إيمانهم ، فهو تعجيب لحالهم ، وتعظيم لشأنهم في دخولهم الجنة وتنعمهم بها ﴿وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة﴾ ؟ أي هل تدري من هم ؟ وما هي حالهم وصفتهم ؟ إنهم الذين يؤتون صحائفهم بشألم ، ففيه تعجيب لحالهم في دخولهم النار وشقائهم قال القرطبي : والتكرير في ﴿ما أصحاب الميمنة﴾ و ﴿ما أصحاب المشأمة﴾ للتفخيم والتعجيب كقوله ﴿الحاقة ما الحاقة﴾ وقوله ﴿القارعة ما القارعة﴾ (٣) وقال الألوسي : والمقصود التفخيم في الأول ، والتفضيع في الثاني ، وتعجيب السامع من شأن الفريقين في الفخامة والفضاعة كأنه قيل : فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال ، وأصحاب المشأمة في غاية سوء الحال (٤) ﴿والسابقون السابقون﴾ هذا هو الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة أي والسابقون إلى الخيرات والحسنات ، هم السابقون إلى النعيم والجنات ، ثم أثنى عليهم بقوله ﴿أولئك المقربون﴾ أي أولئك هم المقربون من الله ، في جواره ، وفي ظل عرشه ، ودار كرامته ﴿في جنات النعيم﴾ أي هم في جنات الخلد يتنعمون فيها قال الخازن : فإن قلت : لم أحر ذكر السابقين وكانوا أولى بالتقديم على أصحاب اليمين ؟ قلت : فيه لطيفة وذلك أن الله ذكر في أول السورة الأمور الهائلة عند قيام الساعة تحويها لعباده ، فإما محسنٌ فيزداد رغبةً في الثواب ، وإماماً مسيء فيرجع عن إساءته خوفاً من العقاب ، فلذلك قدّم أصحاب اليمين ليسمعوا ويرغبوا ، ثم ذكر أصحاب الشمال ليرهبوا ، ثم ذكر السابقين وهم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ليجدوا ويجهدوا (٥) ﴿ثلاثة من الأولين﴾ أي السابقون المقربون جماعة كثيرة من الأمم السالفة ﴿وقليل من الآخرين﴾

(١) هذا قول ابن عباس . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٤٢٨/٣ . (٣) تفسير القرطبي ١٧/١٩٩ .

(٤) تفسير الألوسي ٢٧/١٣١ . (٥) تفسير الخازن ٤/١٥ .

عَلَى سُرْرِ مَوْضُونَةٍ ﴿٥٥﴾ مُتَكِينِينَ عَلَيْهَا مُتَقَدِّلِينَ ﴿٥٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلِدَانٌ مُخْلَدُونَ ﴿٥٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ
وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿٥٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ ﴿٥٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٦٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٦١﴾

أي وهم قليل من هذه الأمة قال القرطبي : وسموا قليلاً بالإضافة إلى من كان قبلهم ، لأن الأنبياء المتقدمين كانوا كثرة ، فكثر السابقون إلى الإيمان منهم ، فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا ، قال الحسن : سابقوا من مضى أكثر من سابقينا ثم تلا الآية ^(١) وقيل : إن المراد بقوله ﴿والسابقون السابقون﴾ أول هذه الأمة ، والآخرون المتأخرون من هذه الأمة ، فيكون كلا الفريقين من أمة محمد ﷺ ^(٢) ﴿على سُرْرِ مَوْضُونَةٍ﴾ أي جالسين على أسترٍ منسوجة بقضبان الذهب ، مرصعة بالدر والياقوت قال ابن عباس : ﴿مَوْضُونَةٍ﴾ أي مرمولة بالذهب يعني منسوجة به ^(٣) ﴿مُتَكِينِينَ عَلَيْهَا﴾ أي حال كونهم مضطجعين على تلك الأستر شأن المنعمين المترفين ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض ، ليس أحد وراء أحد ، وهذا أدخل في السرور ، وأكمل في أدب الجلوس ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلِدَانٌ مُخْلَدُونَ﴾ أي يدور عليهم للخدمة أطفال في نضارة الصبا ، لا يموتون ولا يهرمون قال أبو حيان : وُصِفُوا بِالْخُلْدِ - وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْ فِي الْجَنَّةِ مُخْلَدًا - ليدل على أنهم يبقون دائماً في سنِّ الولدان ، لا يتحولون ولا يكبرون كما وصفهم جل وعلا ^(٤) ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ أي بأقداح كبيرة مستديرة لا عُرى لها ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع إبريق أي وبأباريق لها عُرى تبرق من صفاء لونها ﴿وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾ أي وكأسٍ من خمر لذة جارية من العيون قال ابن عباس : لم تعصر كخمر الدنيا بل هي من عيون سارحة قال القرطبي : والمعين الجاري من ماء أو خمر ، غير أن المراد في هذا الموضع الخمر الجارية من العيون ، ليست كخمر الدنيا التي تستخرج بعصرٍ وتكلف ومعالجة ^(٥) ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي لا تنصدع رءوسهم من شربها ﴿وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ أي ولا يسكرون فتذهب بعقولهم كخمر الدنيا قال ابن عباس : في الخمر أربع خصال : السُّكْرُ، وَالصُّدَاعُ ، وَالْقَيْءُ ، وَالْبَوْلُ ، وقد ذكر تعالى خمر الجنة ونزَّهها عن هذه الخصال الذميمة ^(٦) ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي ولهم فيها فاكهة كثيرة يختارون ما تشتهيه نفوسهم لكثرتها وتنوعها ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي ولحم طير مما يحبون ويشتهون قال ابن عباس : يخطر على قلب أحدهم لحم الطير فيطير حتى يقع بين يديه على ما اشتهى مقلباً أو مشويماً وفي الحديث (إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويماً) ^(٧) قال الرازي : وقدم الفاكهة على اللحم لأن أهل الجنة يأكلون لا عن جوع بل

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٠٠ . (٢) القول الأول الذي أسلفناه هو اختيار جمهور المفسرين ، كابن جرير ، وأبي السعود ، والقرطبي ، والبيضاوي ، والألوسي ، واختار ابن كثير القول الثاني فقال : القول الذي اختاره ابن جرير فيه نظر بل هو ضعيف ، لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن ، فبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها . الخ أقول : قد علمت أن الأنبياء كثرة كثيرة وكلهم من السابقين ، فإذا انضم إليهم أتباعهم من الخواص كانوا أكثر من خواص هذه الأمة ، وتبقى أمة محمد ﷺ أكثر الأمم دخولاً الجنة وأفضل الأمم بمجموعها لا بخواصها ، فيندفع بذلك الإشكال والله أعلم . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٣٠ . (٤) البحر المحيط ٨/ ٢٠٥ . (٥) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٠٣ . (٦) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٣٠ . (٧) أخرجه ابن أبي حاتم كذا في ابن كثير ٣/ ٤٣١ .

وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْثِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٥﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٦﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٧﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَظِلِّ مَّدُودٍ ﴿٢٩﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣٠﴾

للتفكه ، فميلهم إلى الفكاهة أكثر كحال الشبان في الدنيا فلذلك قدمها ^(١) ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴿﴾ أي ولهم مع ذلك النعيم نساء من الحور العين ، الواسعات العيون ، في غاية الجمال والبهاء ، كأنهن اللؤلؤ في الصفاء والنقاء ، الذي لم تمسه الأيدي قال في التسهيل : شبههن باللؤلؤ في البياض ، ووصفه بالمكنون لأنه أبعد عن تغيير حسنه ، وحين سألت « أم سلمة » رسول الله ﷺ عن هذا التشبيه قال « صفاؤهن كصفاء الدر في الأصداف الذي لم تمسه الأيدي » ^(٢) ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي جعلنا لهم ذلك كله جزاءً لعملهم الصالح في الدنيا . . ثم أخبر تعالى عن كمال نعيمهم في الجنة فقال ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا﴾ أي لا يترق آذانهم فاحش الكلام ، ولا يلحقهم إثم مما يسمعون قال ابن عباس : لا يسمعون باطلاً ولا كذباً ^(٣) ﴿إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا﴾ أي إلا قول بعضهم لبعض سلاماً سلاماً ، يُحَيِّي به بعضهم بعضاً ويفشون السلام فيما بينهم قال في البحر : والظاهر أنه استثناء منقطع لأنه لم يندرج في اللغو ولا التأتيم ^(٤) وقال أبو السعود : والمعنى أنهم يفشون السلام فيسلمون سلاماً بعد سلام ، أو لا يسمع كل منهم إلا سلام الآخر بدءاً أو رداً ^(٥) . . ثم شرع في تفصيل أحوال الصنف الثاني وهم أصحاب اليمين فقال ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ؟ استفهام للتعظيم والتعجب من حالهم أي ما أدراك من هم ، وما هي حالهم ؟ ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ أي هم تحت أشجار النبق الذي قطع شوكة قال المفسرون : والسدر : شجر النبق ، والمخضود الذي خُضد أي قُطِع شوكه ، وفي الحديث : (أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : إن الله تعالى ذكر في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، فقال : وما هي ؟ قال : السدر فإن له شوكة ، فقال رسول الله ﷺ : أليس الله يقول ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ ؟ خُضدَ اللهُ شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، وإن الثمرة من ثمره تفتق عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ، ما فيها لون يشبه الآخر) ^(٦) ﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ هو شجر الموز ومعنى ﴿مَّنْضُودٍ﴾ أي متراكم قد نُضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه ﴿وَظِلِّ مَّدُودٍ﴾ أي وظل دائم باق لا يزول ولا تنسخه الشمس ، لأن الجنة ظل كلها لا شمس فيها ﴿لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ وفي الحديث (إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها واطرقوا إن شئتم ﴿وَظِلِّ مَّدُودٍ﴾ ^(٧) وقال الرازي : ومعنى ﴿ممدود﴾ أي لا زوال له فهو دائم ﴿أَكُلُهَا دَائِمًا وَظِلُّهَا﴾ أي دائم ، والظل ليس ظل الأشجار ، بل ظل يخلقه الله تعالى ^(٨) ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أي وماء جارٍ دائماً لا

(١) التفسير الكبير ١٥٣/٢٩ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٨٩/٤ . (٣) تفسير القرطبي ٢٠٦/١٧ . (٤) البحر المحيط ٢٠٦/٨ . (٥) تفسير أبي السعود ١٣٠/٥ . (٦) أخرجه الحاكم والبيهقي وانظر روح المعاني ١٤٠/٢٧ . (٧) أخرجه البخاري . (٨) التفسير الكبير ١٦٤/٢٩ .

وَفَاكِهِةٌ كَثِيرَةٌ ﴿٣٦﴾ لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ ﴿٣٧﴾ وَفُرُشٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿٣٨﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً ﴿٣٩﴾ جَعَلْنَاهُنَّ
أَبْكَارًا ﴿٤٠﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٤١﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٤٢﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤٣﴾ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٤﴾

ينقطع ، يجري في غير أخدود قال القرطبي : كانت العرب أصحاب بادية ، والأنهار في بلادهم عزيزة ، لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء ، فوعدوا بالجنة بأسباب النزهة وهي الأشجار وظلالها ، والمياه والأنهار وجريانها ^(١) ﴿وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ أي وفاكهة كثيرة متنوعة ، ليست بالقليلة العزيزة كما كانت في بلادهم ، لا تنقطع كما تنقطع ثمار الدنيا في الشتاء ، وليست ممنوعة عن أحد ، قال ابن عباس : لا تنقطع إذا جُنيت ، ولا تمتنع من أحدٍ إذا أراد أخذها ^(٢) وفي الحديث (ما قُطعت ثمرة من ثمار الجنة إلا عاد مكانها أخرى) ^(٣) ﴿وَفُرُشٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي عالية وطيئة ناعمة وفي الحديث (ارتفاعها كما بين السماء والأرض ، ومسيرة ما بينهما خمس مائة عام) ^(٤) قال الألوسي : ولا تستبعد هذا من حيث العروج والنزول ، فالعالم عالم آخر فوق طور عقلك ^(٥) تنخفض للمؤمن إذا أراد الجلوس عليها ثم ترتفع به ، والله على كل شيء قدير ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً﴾ أي خلقنا نساء الجنة خلقاً جديداً ، وأبدعناهن إبداعاً عجباً ، قال في التسهيل : ومعنى إنشاء النساء أن الله تعالى يخلقهن في الجنة خلقاً آخر في غاية الحسن بخلاف الدنيا ، فالعجوز ترجع شابة ، والقيحة ترجع جميلة ^(٦) قال ابن عباس : يعني الأدميات العجائز الشمط خلقهن الله بعد الكبر والهرم خلقاً آخر ^(٧) ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أي فجعلناهن عذارى ، كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً ﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب وهي المتحبة لزوجها العاشقة له قال مجاهد : هن العاشقات لأزواجهن المتحبات هن اللواتي يشتهن أزواجهن ^(٨) ﴿أَتْرَابًا﴾ أي مستويات في السن مع أزواجهن ، في سن أبناء ثلاث وثلاثين ، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : (سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً﴾ فجعلناهن أبكاراً * عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ فقال يا أم سلمة : هن اللواتي قبضن في الدنيا عجائز ، شمطاً ، عُمشاً ، رُمصاً ، جعلهن الله بعد الكبر أترباً على ميلادٍ واحد في الاستواء) ^(٩) وفي الحديث أن امرأة عجوزاً جاءت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله : أدع الله أن يدخلني الجنة ، فقال : يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز ، فولّت تبكي ، فقال : أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، فإن الله تعالى يقول ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً﴾ فجعلناهن أبكاراً ^(١٠) ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي أنشأنا هؤلاء النساء الأبكار لأصحاب اليمين ليستمتعوا بهن في الجنة ، ثم قال تعالى ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَىٰ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ أي هم جماعة من الأولين من الأمم الماضية ، وجماعة من المتأخرين من أمة محمد ﷺ ، قال في البحر : ولا تنافي بين هذه الآية ﴿وثلثة من الآخرين﴾ وبين الآية التي سبقتها وهي قوله ﴿وقليل من الآخرين﴾ لأن الثانية في السابقين فلذلك قال ﴿وقليل من الآخرين﴾

(١) تفسير القرطبي ٢٠٩/١٧ . (٢) تفسير الخازن ١٨/٤ . (٣) أخرجه الطبراني . (٤) أخرجه النسائي والترمذي .

(٥) روح المعاني ١٤١/٢٧ . (٦) التسهيل ٩٠/٤ . (٧) تفسير الخازن ١٨/٤ . (٨) تفسير الألوسي ١٤٣/٢٧ .

(٩) تفسير القرطبي ٢١٠/١٧ والحديث أخرجه الترمذي عن أنس مرفوعاً (١٠) أخرجه الترمذي في الشمائل .

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْخَنَثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوْلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زَقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَكُلُوا مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾

وهذه في أصحاب اليمين ولذلك قال ﴿وثلة من الآخرين﴾^(١) . . ثم شرع تعالى في بيان الصنف الثالث وهم أهل النار فقال ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال﴾ استفهام بمعنى التهويل والتفطيع والتعجيب من حالهم أي وأصحاب الشمال - وهم الذين يعطون كتبهم بشائهم - ما أصحاب الشمال ؟ أي ما حالهم وكيف مآلهم ؟ ثم فصل تعالى حالهم فقال ﴿في سمومٍ وحميمٍ﴾ أي في ريح حارة من النار تنفذ في المسام ، وماء شديد الحرارة ﴿وظلٍ من يحمومٍ﴾ أي وفي ظلٍ من دخان أسود شديد السواد ﴿لا باردٍ﴾ أي ليس هذا الظل بارداً يستروح به الإنسان من شدة الحر ﴿ولا كريمٍ﴾ أي وليس حسن المنظر يُسرُّ به من يستفيء بظله قال الخازن : إن فائدة الظل ترجع إلى أمرين : أحدهما : دفع الحر ، والثاني : حسن المنظر وكون الإنسان فيه مكرماً ، وظلُّ أهل النار بخلاف هذا لأنهم في ظل من دخان أسود حار^(٢) . . ثم بيّن تعالى سبب استحقاقهم ذلك فقال ﴿إنهم كانوا قبل ذلك مُتْرَفِينَ﴾ أي لأنهم كانوا في الدنيا منعمين ، مقبلين على الشهوات والملذات ﴿وكانوا يُصْرُونَ على الخنث العظيم﴾ أي وكانوا يداومون على الذنب العظيم وهو الشرك بالله قال المفسرون : لفظ الإصرار يدل على المداومة على المعصية ، والخنث هو الذنب الكبير والمراد به هنا الكفر بالله كما قاله ابن عباس ﴿وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾ أي هل سنبعث بعد أن تصيح أجسادنا تراباً وعظاماً نخرة ؟ وهذا استبعادٌ منهم لأمر البعث وتكذيب له ﴿أو أبأؤنا الأولون﴾ ؟ تأكيدٌ للإنكار ومبالغة فيه أي وهل سيبعث أبأؤنا الأوائل بعد أن بليت أجسامهم وتفتتت عظامهم ؟ ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يومٍ معلومٍ﴾ أي قل لهم يا محمد : إن الخلائق جميعاً السابقين منهم واللاحقين ، سيجمعون ويحشرون ليوم الحساب الذي حدده الله بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ذلك يومٌ مجموعٌ له الناس وذلك يومٌ مشهود . وما تؤخره إلا لأجلٍ معدودٍ﴾ ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لأكلون من شجرٍ من زقومٍ﴾ أي ثم إنكم يا معشر كفار مكة ، الضالون عن الهدى ، المكذبون بالبعث والنشور ، لأكلون من شجر الزقوم الذي ينبت في أصل الجحيم ﴿فمالتون منها البطون﴾ أي فمالتون بطونكم من تلك الشجرة الخبيثة لغلبة الجوع عليكم ﴿فشاربون عليه من الحميم﴾ أي فشاربون عليه

فَشْرِبُونَ شُرْبَ آهِيمٍ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَزَلَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾

الماء الحار الذي اشتد غليانه ﴿فشاربون شُرْبَ آهِيمٍ﴾ أي فشاربون شرب الإيل العطاش قال ابن عباس : الهيمُ الإيل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها^(١) وقال أبو السعود : إنه يسלט على أهل النار من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل ، فإذا ملأوا منه بطونهم - وهو في غاية الحرارة والمرارة - سلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يتقطع أمعاءهم ، فيشربونه شرب الهيم وهي الإيل التي بها الهيام وهو داء يصيبها فتشرب ولا تروى^(٢) ﴿هَذَا نَزَلَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي هذه ضيافتهم وكرامتهم يوم القيامة ، وفيه تهكم بهم قال الصاوي : والنزل في الأصل ما يهبأ للضيف أول قدومه من التحف والكرامة ، فتسمية الزقوم نُزلاً تهكم بهم .

قال الله تعالى : ﴿نحن خلقناكم فلولا تصدقون . . إلى . . فسبح باسم ربك العظيم﴾
من آية (٥٧) إلى آية (٩٦) نهاية السورة .

المناسكة : لما ذكر تعالى الأشقياء المجرمين وأحوالهم في نار جهنم ، ذكر هنا الأدلة والبراهين على قدرة الله ووحدانيته في بديع خلقه وصنعه ، لتقوم الحجة على المنكر المكذب بوجود الله ، وختم السورة الكريمة بالتنويه بذكر أهل السعادة ، وأهل الشقاوة ، والسابقين إلى الخيرات ، ليكون ذلك كالتفصيل لما ورد في أول السورة من الإجمال ، والإشادة بذكر مآثر المقربين في البدء والمآل .

اللغات : ﴿تفكّهون﴾ تفكّه بالشيء تمتّع به ، ورجل فكه منبسط النفس غير مكترث بشيء
﴿المزن﴾ السحاب جمع مُزنة قال الشاعر :

ونحن كماء المزن ما في نصابنا كَهَامٌ ولا فينا يُعدُّ بخيل^(٣)
﴿تورون﴾ أورى النار من الزناد قدحها ﴿المقوين﴾ المسافرين يقال أقوى الرجل إذا دخل القواء وهو القفر ، والقوى الجوع قال الشاعر :

وإني لأختار القوى طاوي الحشا محافظةً من أن يُقال لئيم^(٤)

﴿مدهنون﴾ المدهن : الذي ظاهره خلاف باطنه ، كأنه شبّه بالدهن في سهولة ظاهره ومنه المداينة
﴿مدنين﴾ مجزيين ومحاسبين من الدين بمعنى الجزء ﴿فروح﴾ الروح بفتح الراء الاستراحة ﴿ريحان﴾ الريحان : كل مشموم طيب الريح من النبات .

(١) تفسير القرطبي ٢١٥/٧ . (٢) تفسير أبي السعود ١٣٢/٥

(٣) تفسير القرطبي ٢٢٠/١٧ . (٤) نفس المرجع السابق ٢٢٢/١٧ .

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾

التفسير : ﴿نحن خلقناكم فلولا تصدقون﴾ أي نحن خلقناكم أيها الناس من العدم ، فهلاً تصدقون بالبعث ؟ فإن من قدر على البدء قادرٌ على الإعادة ﴿أفأرىتم ما تُمنون﴾ أي أخبروني عما تصبونه من المنى في أرحام النساء ﴿أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾^(١) ؟ أي هل أنتم تخلقون هذا المنى بشراً سوياً ، أم نحن بقدرتنا خلقناه وصورناه ؟! قال القرطبي : وهذا احتجاج على المشركين وبيانٌ للآية الأولى والمعنى إذا أقررتم بأننا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث^(٢) ﴿نحن قدرنا بينكم الموت﴾ أي نحن قضينا وحكمنا عليكم بالموت وساوينا بينكم فيه قال الضحاك : ساوى فيه بين أهل السماء والأرض^(٣) ، سواء فيه الشريف والوضيع ، والأمير والضعلوك ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ أي وما نحن بعاجزين ﴿على أن نبدل أمثالكم﴾ أي على أن نهلككم ونستبدل قوماً غيركم يكونون أطوع لله منكم كقوله تعالى ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلقٍ جديد﴾ ﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾ أي ولسنا بعاجزين أيضاً أن نعيدكم يوم القيامة في خلقة لا تعلمونها ولا تصل إليها عقولكم ، والغرض أن الله قادر على أن يهلكهم وأن يعيدهم وأن يبعثهم يوم القيامة ، ففي الآية تهديد واحتجاج على البعث^(٤) ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى﴾ أي ولقد عرفتم أن الله أنشأكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، فخلقكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴿فلولا تذكرون﴾ أي فهلا تتذكرون بأن الله قادر على إعادتكم كما قدر على خلقكم أول مرة ؟ ﴿أولاً يذكر الإنسان أننا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾ ؟ ! ﴿أفأرىتم ما تحرثون﴾ هذه حجة أخرى على وحدانية الله وقدرته أي أخبروني

(١) يقول شهيد الدعوة « سيد قطب » في تفسيره الظلال ما نصه : « هذه هي الحقيقة الهائلة المتكررة في كل لحظة ، ينساها الإنسان لتكرارها أمام عينيه ، وهي أعجب من كل عجيب تدعها شطحات الخيال ! ! نطفة تُمْنى وتراق وهي من إفرازات هذا الجسد الإنساني الكثيرة كالعرق ، والدمع ، والمخاط ، فإذا هي بعد فترة من الزمن إنسان سميع بصير ، وإذا هذا الإنسان ذكر وأثنى ! ! كيف تمت هذه العجبية التي لم تكن - لولا وقوعها - تحظر على الخيال ؟ ! أين كان هذا الإنسان كامناً بعظمه ولحمه وجلده ، وعروقه وشعره وأظافره ، وخلاتفه وطباعه ؟ أي قلب بشري يقف أمام هذه الحقيقة الهائلة العجبية ، ثم يبالك أو يتأسك - فضلاً عن أن يجحد ويتبجح - ويقول : إنها وقعت هكذا والسلام ؟ ! إن دور البشر في أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يودع الرجل ما يمئني رحم امرأة ، ثم ينقطع عمله وعملها ، وتأخذ يد القدرة في العمل وحدها في هذا الماء المهين ، تعمل وحدها في خلقه وتنميته ، وبناء هيكله ونفخ الروح فيه ، ومنذ اللحظة الأولى تتم المعجزة وتقع الحارقة التي لا يصنعها إلا الله ، وهذا القدر من التأمل يدركه كل إنسان ، وهذا يكفي لتقدير هذه المعجزة والتأثر بها ، ولكن قصة هذه الخلية الواحدة منذ أن تُمْنى قصة أغرب من الخيال ، هذه الخلية الواحدة تبدأ في الانقسام والتكاثر ، فإذا هي بعد فترة ملايين الملايين من الخلايا ، كل مجموعة من هذه الخلايا ذات خصائص عجيبة ، فهذه خلايا عظام ، وهذه خلايا عضلات ، وهذه خلايا جلد ، وهذه خلايا أعصاب . . ثم هذه خلايا لعمل عين ، وهذه لعمل لسان ، وهذه لعمل أذن ، وكل منها تعرف مكان عملها ، فلا تخطيء خلايا العين مثلاً فتطلع في البطن أو القدم ، فسبحان العظيم القدير القائل ﴿أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾ . (٢) تفسير القرطبي ١٧ / ٢١٦ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٤٣٦ . (٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ٩١ .

﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (١٦) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿١٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿١٨﴾ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿١٩﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَسْفَلَ سَفَلِ الْمَاءِ ﴿٢٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٢١﴾ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٢٢﴾

عن البذر الذي تلقونه في الطين ﴿أأنتم تزرعون أم نحن الزارعون﴾؟ أي أنتم تنبتونه وتنشئونه حتى يكون فيه السنبل والحب أم نحن الفاعلون لذلك؟ فإذا أقررتم أن الله هو الذي يخرج الحب وينبت الزرع، فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض؟ ﴿لو نشاء لجعلناه حطاماً﴾ أي لو أردنا لجعلنا هذا الزرع هشيماً متكسراً لا ينتفع به في طعام ولا غيره قال القرطبي: والحطام المهشيم الهالك الذي لا ينتفع به في مطعم ولا غذاء، فنبههم بذلك على أمرين: أحدهما: ما أولاهم به من النعم في زرعهم ليشكروه الثاني: ليعتبروا في أنفسهم فكما أنه تعالى يجعل الزرع حطاماً إذا شاء، كذلك يهلكهم إذا شاء ليتعظوا فينزعروا^(١) ﴿فظلتم تفكَّهُون﴾ أي فظللتم وبقيتم تتفجعون وتحزنون على الزرع مما حلَّ به وتقولون ﴿إننا لمغرمون﴾ أي إنا لمحمّلون الغرم^(٢) في إنفاقنا حيث ذهب زرعنا وغرمنا الحب الذي بذرناه ﴿بل نحن محرومون﴾ أي بل نحن محرومون الرزق، غرمنا قيمة البذر، وحرمنا خروج الزرع ﴿أفأريتم الماء الذي تشربون﴾ أي أخبروني عن الماء الذي تشربونه عذباً فراتاً لتدفعوا عنكم شدة العطش ﴿أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾ أي هل أنتم الذين أنزلتموه من السحاب أم نحن المنزلون له بقدرتنا؟ قال الخازن: ذكّرهم تعالى نعمته عليهم بإنزال المطر الذي لا يقدر عليه إلا الله عز وجل^(٣) ﴿لو نشاء جعلناه أجاجاً﴾ أي لو شئنا لجعلناه ماءً مالحاً شديداً الملوحة لا يصلح لشرب ولا لزراع قال ابن عباس: ﴿أجاجاً﴾ شديد الملوحة وقال الحسن: مرّاً زعافاً لا يمكن شربه ﴿فلولا تشكرون﴾ أي فهلاً تشكرون ربكم على نعمه الجليلة عليكم؟! وفي الحديث أن النبي ﷺ كان إذا شرب الماء قال «الحمد لله الذي سقانا عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا»^(٤) ﴿أفأريتم النار التي تورون﴾ أي أخبروني عن النار التي تقدحونها وتستخرجونها من الشجر الرطب ﴿أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾ أي هل أنتم الذين خلقتم شجرها أم نحن الخالقون المخترعون؟ قال ابن كثير: وللعرب شجرتان: إحداهما المرخ، والأخرى العقار، إذا أخذ منها غصنان أخضران، فحك أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار^(٥)، وقيل: أراد جميع الشجر الذي توقد منه النار، لما روي عن ابن عباس أنه قال: ما من شجرة ولا عود إلا وفيه النار سوى العناب^(٦) ﴿نحن جعلناها

(١) تفسير القرطبي ٢١٨/١٧ . (٢) قال الضحاك «مغرمون» من الغرم، والمغرم الذي ذهب ماله بغير عوض، وقال ابن عباس: معذبون والغرام العذاب . (٣) تفسير الخازن ٢٣/٤ . (٤) أخرجه ابن أبي حاتم . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٤٣٨/٣ . (٦) حاشية الصاوي على الجلالين ١٦٦/٤ .

نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٦﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ * فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾
وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَتَّعِلُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾

تذكرة ﴿أي جعلنا نار الدنيا تذكيراً للنار الكبرى « نار جهنم » إذا رآها الرائي ذكر بها نار جهنم ، فيخشى الله ويخاف عقابه وفي الحديث (ناركم هذه التي توقدون جزءً من سبعين جزءاً من نار جهنم ، فقالوا يا رسول الله : إن كانت لكافية !! فقال : والذي نفسي بيده لقد فضلت عليها بتسعة وتسعين جزءاً ، كلهن مثل حرها) (١) ﴿ومتاعاً للمقوين﴾ أي ومنفعةً للمسافرين قال ابن عباس : ﴿المقوين﴾ المسافرين ، وقال مجاهد : للحاضر والمسافر ، المستمتعين بالنار من الناس أجمعين (٢) قال الخازن : والمقوي النازل في الأرض القواء - وهي الأرض الخالية البعيدة عن العمران - والمعنى أنه ينتفع بها أهل البوادي والسُّقار ، فإن منفعتهم أكثر من المقيم ، فإنهم يوقدون النار بالليل لتهرب السباع ويهتدي بها الضال إلى غير ذلك من المنافع وهو قول أكثر المفسرين (٣) . . وما ذكر دلائل القدرة والوحدانية في الإنسان ، والنبات ، والماء ، والنار ، أمر رسوله بتسبيح الله الواحد القهار فقال ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي فنزهه يا محمد ربك عما أضافه إليه المشركون من صفات العجز والنقص وقل : سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته ، وسخرها لنا بحكمته ، سبحانه ما أعظم شأنه ، وأكبر سلطانه !! عدد سبحانه وتعالى نعمه على عباده ، فبدأ بذكر خلق الإنسان فقال ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ ثم بما به قوامه ومعيشته وهو الزرع فقال ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ثم بما به حياته وبقاؤه وهو الماء فقال ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ثم بما يصنع به طعامه ، ويصلح به اللحم والخضار وهو النار فقال ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ فبها له من إله كريم ، ومنعم عظيم !! ثم شرع بالقسم على جلال القرآن ورفعته ، وعلو شأنه ومنزلته ، وأنه تنزيل العزيز الحكيم فقال ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ اللام لتأكيد الكلام وتقويته ، وزيادة « لا » كثير في كلام العرب ومشهور قال الشاعر :

تذكرتُ ليلي فاعترتني صباةٌ وكادَ نياطُ القلب لا يتقطّع

أي كاد يتقطع قال القرطبي : « لا » صلة في قول أكثر المفسرين والمعنى « فأقسم » بدليل قوله بعده ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ﴾ (٤) أي فأقسم بمنازل النجوم وأماكن دورانها في أفلاكها وبروجها ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَتَّعِلُونَ عَظِيمٌ﴾ أي وإن هذا القسم العظيم جليل ، لو عرفتم عظمته لآمنتهم وانفتحت به (٥) ، لما في المقسم به من الدلالة على عظيم القدرة ، وكمال الحكمة ، وفرط الرحمة ، ومن مقتضيات رحمته تعالى أن لا يترك عباده سدى ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ هذا هو المقسم عليه ، والمعنى أقسم بمواقع النجوم إن هذا القرآن قرآن

(١) أخرجه الشيخان ومالك . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٤٣٨ / ٣ . (٣) تفسير الخازن ٤ / ٢٤ .

(٤) تفسير القرطبي ١٧ / ٢٢٣ وانظر تفصيل الأقوال وأرجحها في كتابنا « تفسير آيات الأحكام » الجزء الثاني ص ٥٠٥ . (٥) لم يكن المخاطبون يعلمون عن مواقع النجوم إلا القليل ، أما في هذا العصر فقد ظهرت معجزة القرآن يقول الفلكيون : إن مجموعة واحدة من المجموعات التي لا تحصى في الفضاء الهائل ، الذي لا تعرف له حدوداً ، مجموعة واحدة هي « المجرة » التي تنتسب إليها أسرتنا الشمسية

فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٌ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾

كريم ، ليس بسحر ولا كهانة وليس بمفترى ، بل هو قرآن كريم مجيد ، جعله الله معجزة لنبيه محمد ﷺ وهو كثير المنافع والخيرات والبركات ﴿ في كتاب مكنون ﴾ أي في كتاب مصون عند الله تعالى ، محفوظ عن الباطل وعن التبديل والتغيير قال ابن عباس : هو اللوح المحفوظ ، وقال مجاهد : هو المصحف الذي بأيدينا ^(١) ﴿ لا يمسُّه إلا المطهرون ﴾ أي لا يمس ذلك الكتاب المكنون إلا المطهرون ، وهم الملائكة الموصوفون بالطهارة من الشرك والذنوب والأحداث ، أو لا يمسُّه إلا من كان متوضئاً طاهراً قال القرطبي المراد بالكتاب المصحف الذي بأيدينا وهو الأظهر لقول ابن عمر « لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر » وكتاب رسول الله ﷺ لعمر بن حزم « والألمس القرآن إلا طاهر » ^(٢) ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ أي منزل من عند الله جل وعلا . ثم لما عظم أمر القرآن ومجد شأنه وبخ الكفار فقال ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مُدْهِنُونَ ﴾ أي أفبهذا القرآن يا معشر الكفار تكذبون وتكفرون ؟ ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ أي وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون برازقكم ، وهو المنعم المتفضل عليكم ؟ ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ أي فهلاً إذا بلغت الروح الحلقوم عند معالجة سكرات الموت ﴿ وأنتم حينئذ تنظرون ﴾ أي وأنتم في ذلك الوقت تنظرون إلى المحتضر وما يكابده من شدائد وأحوال ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ﴾ أي ونحن بعلمنا واطلاعنا أقرب إلى الميت منكم ولكن لا تعلمون ذلك ، ولا تبصرون ملائكتنا الذين حضروه لقبض روحه قال ابن كثير : ومعنى الآية ملائكتنا أقرب إليه منكم ولكن لا ترونهم كما قال تعالى ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ ^(٣) ﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ﴾ أي فهلاً إن كنتم غير مجزيين بأعمالكم كما تزعمون ﴿ ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ أي تردون نفس هذا الميت إلى جسده بعد ما بلغت الحلقوم قال ابن عباس : ﴿ غير مدينين ﴾ أي غير محاسيين ولا مجزيين قال الخازن : أجب عن قوله ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ وعن قوله ﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ﴾ بجواب واحد وهو قوله ﴿ ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ ومعنى الآية : إن كان الأمر كما تقولون أنه لا بعث ولا حساب ، ولا

تبلغ ألف مليون نجم ، وإن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة « بلايين » نجم منها ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض ، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب نجم من مجال نجم آخر ، أو يصطدم بكوكب آخر ، إلا كما يجتمعت تصادم مركب في البحر الأبيض بأخر في المحيط الهادي ، يسيران باتجاه واحد وبسرعة واحدة وهو احتمال بعيد جداً إن لم يكن مستحيلًا ، نقلاً عن كتاب « الله والعلم الحديث ص ٣٣ » .

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٢٥ . (٢) نفس المصدر والصفحة . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٤٤٠/ ٣ .

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾
فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ
بِحَمِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

إله مجازي ، فهلاً تردون نفس من يعزُّ عليكم إذا بلغت الحلقوم ؟ وإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله تعالى فآمنوا به ^(١) . . ثم ذكر تعالى طبقات الناس عند الموت وعند البعث ، وبين درجاتهم في الآخرة فقال ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾ أي فأما إن كان هذا الميت من المحسنين السابقين بالدرجات العلاء ، فله عند ربه استراحة ورزق حسن وجنة واسعة يتنعم فيها قال القرطبي : والمراد بالمقربين السابقون المذكورون في أول السورة ^(٢) ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي وأما إن كان المحتضر من السعداء أهل الجنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي فسلامٌ لك يا محمد منهم ، لأنهم في راحة وسعادة ونعيم ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ أي وأما إن كان المحتضر من المنكرين للبعث ، الضالين عن الهدى والحق ﴿فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي فضيافتهم التي يُكرمون بها أول قدمهم ، الحميم الذي يصهر البطون لشدة حرارته قال في التسهيل : النزل أول شيء يُقدم للضيف ^(٣) ﴿وَتَصْلِيَةٌ بِحَمِيمٍ﴾ أي وهم إصلاء بنار جهنم وإذاعة لهم من حرها ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي إن هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من جزاء السابقين ، والسعداء ، والأشقياء هو الحق الثابت الذي لا شك فيه ولا ريب ، وهو عين اليقين الذي لا يمكن إنكاره ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي فنزه ربك عن النقص والسوء ، وعمّا يصفه به الظالمون ، لما نزلت هذه الآية الكريمة قال النبي ﷺ : (اجعلوها في ركوعكم ، ولما نزلت ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال ﷺ : اجعلوها في سجودكم) ^(٤) .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - جناس الاشتقاق ﴿إذا وقعت الواقعة﴾ والجناس الناقص في قوله ﴿روح وريحان﴾ .
- ٢ - الطباق بين ﴿الميمنة﴾ . . والمشامة ﴿وبين﴾ الأولين . . والآخرين ﴿وبين﴾ خافضة . . رافعة ﴿وفي إسناد الخفض والرفع إلى القيامة مجاز عقلي ، لأن الخافض والرافع على الحقيقة هو الله وحده ، يرفع أوليائه ويخفض أعداءه ، ونسب إلى القيامة مجازاً كقولهم «نهاره صائم» .
- ٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿وحوور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ أي كأمثال اللؤلؤ في بياضه

(١) تفسير الخازن ٢٧/٤ . (٢) تفسير القرطبي ١٧/٢٣٢ .

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٩٤/٤ (٤) أخرجه أبو داود وابن ماجه وصححه الحاكم .

وصفائه ، حذف منه وجه الشبه فهو مرسل مجمل .

- ٤ - التفخيم والتعظيم ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ كرهه بطريق الاستفهام تفخيماً .
- ٥ - التفنن بذكر أصحاب الميمنة ثم بذكر أصحاب اليمين ، وكذلك بذكر المشئمة وذكر أصحاب الشمال ﴿وأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة﴾ ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ .
- ٦ - تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾ لأن السلام ليس من جنس اللغو والتأثيم ، فهو مدح لهم بإفشاء السلام ، وهذا كقول القائل « لا ذنب لي إلا محبتك » .
- ٧ - التهكم والاستهزاء ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ أي هذا العذاب أول ضيافتهم يوم القيامة ففيه سخرية وتهكم بهم لأن النزل هو أول ما يقدم للضيف من الكرامة .
- ٨ - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون﴾ - ثم قال بعد ذلك ملتفتاً عن خطابهم ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ وذلك للتحقير من شأنهم ، والأصل هذا نزلكم .
- ٩ - الجملة الاعتراضية وفائدتها لفت الأنظار إلى أهمية القسم ﴿وإنه لقسمٌ - لو تعلمون - عظيم﴾ جاءت الجملة الاعتراضية ﴿لو تعلمون﴾ بين الصفة والموصوف للتهويل من شأن القسم .
- ١٠ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مما يزيد في رونق الكلام وجماله مثل ﴿في سدرٍ مخضودٍ * وطلحٍ منضودٍ * وظلٍ ممدودٍ﴾ ومثل ﴿فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم﴾ ويسمى هذا بالسجع المرصع وهو من المحسنات البديعية .
- لطيفة :** المناسبة بين المقسم به وهو النجوم وبين المقسم عليه وهو القرآن ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم﴾ أن النجوم جعلها الله ليتهدي بها الناس في ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن يُهتدى بها في ظلمات الجهل والضلالة ، وتلك ظلمات حسية ، وهذه ظلمات معنوية ، فالقسم هنا جاء جامعاً بين الهدايتين : الحسية للنجوم ، والمعنوية للقرآن ، فهذا وجه المناسبة والله أعلم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الواقعة »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية ، التي تعنى بالتشريع والتربية والتوجيه ، وتبني المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية ، والخلق الكريم ، والتشريع الحكيم .

* وقد تناولت السورة الكريمة « سورة الحديد » ثلاثة مواضيع رئيسية وهي :

أولاً : أن الكون كله لله جل وعلا ، هو خالقه ومبدعه ، والمتصرف فيه بما يشاء .

ثانياً : وجوب التضحية بالنفس والنفيس لإعزاز دين الله ، ورفع منار الإسلام .

ثالثاً : تصوير حقيقة الدنيا بما فيها من بهرج ومتاعٍ خادع حتى لا يغتر بها الإنسان .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن عظمة الخالق جلّ وعلا الذي سبّح له كل ما في الكون من شجرٍ وحجر ، ومدر ، وإنسانٍ ، وحيوان ، وجماد ، فالكل ناطق بعظمته شاهد بوحدانيته .

* ثم ذكرت صفات الله الحسنى ، وأسماؤه العليا ، فهو الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، والظاهر بآثار مخلوقاته ، والباطن الذي لا يعرف كنه حقيقته أحد ، وهو الخالق للإنسان والمدبر للأكوان .

* ثم تلتها الآيات وهي تدعو المسلمين إلى البذل والسخاء والإنفاق في سبيل الله بما يحقق عزة الإسلام ورفع شأنه ، فلا بدّ للمؤمن من الجهاد بالنفس والمال لينال السعادة في الدنيا والمثوبة في الآخرة .

* وتحدثت السورة عن أهل الإيمان ، وأهل النفاق ، فالؤمنون يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، والمنافقون يتخبطون في الظلمات ، كما كانوا في الدنيا يعيشون كالبهائم في ظلمات الجهل والغي والضلال .

* وتحدثت السورة عن حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ، وصورتها أدقّ تصوير ، فالدنيا دار الفناء ، فهي زائلة فانية ، كمثل الزرع الخصب الذي ينبت بقوة بنزول الغيث ، ثم يصفر ويذبل حتى يصير

هشياً وحطاماً تذرّوه الرياح ، بينما الآخرة دار الخلود والبقاء ، التي لا نصب فيها ولا تعب ، ولا هم ولا شقاء .

✽ وختمت السورة الكريمة بالغاية من بعثة الرسل الكرام ، والأمر بتقوى الله عز وجل ، والافتداء بهدي رسله وأنبيائه .

التسمية : سميت السورة « سورة الحديد » لذكر الحديد فيها ، وهو قوة الإنسان في السلم والحرب ، وعدته في البنيان وال عمران ، فمن الحديد تبنى الجسور الضخمة ، وتشاد العماير ، وتصنع الدروع والسيوف والرماح ، وتكون الدبابات والغواصات والمدافع الثقيلة إلى غير ما هنالك من منافع .

قال الله تعالى : ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . إِلَى . . . هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (١٥) .

اللفظة : ﴿سَبِّحْ﴾ نزه الله ومجده وقده ﴿العزیز﴾ القوي الغالب على كل شيء ﴿الأول﴾ السابق على جميع الموجودات ﴿الأخر﴾ الباقي بعد فنائها ﴿يلج﴾ يدخل ﴿يعرج﴾ يصعد ﴿الظاهر﴾ بوجوده ومصنوعاته وآثاره ﴿الباطن﴾ بكنه ذاته عن إدراك الأبصار له ﴿الحسنی﴾ المثوبة الحسنة والمراد بها الجنة ﴿انظرونا﴾ انتظرونا ﴿نقتبس﴾ نستضيء ونهتدي بنوركم ﴿سور﴾ حاجز بين الجنة والنار ﴿الغرور﴾ الشيطان وكل من خدع غيره فهو غار وغرور .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾

التفسير : ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مجد الله ونزهه عن السوء كل ما في الكون من إنسان ، وحيوان ، ونبات قال الصاوي : والتسبيح تنزيه المولى عن كل ما لا يليق به قولاً ، وفعلاً ، واعتقاداً ، من سبح في الأرض والماء إذا ذهب وأبعد فيهما ، وتسبيح العقلاء بلسان المقال ، وتسبيح الجماد بلسان الحال أي أن ذاتها دالة على تنزيه صانعها عن كل نقص ، وقيل بلسان المقال أيضاً ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾^(١) وقال الخازن : تسبيح العقلاء تنزيه الله عز وجل عن كل سوء ، وعمّا لا يليق بجلاله ، وتسبيح غير العقلاء من ناطق وجماد اختلفوا فيه ، فقيل : تسبيحه دلالة على صانعه ، فكأنه ناطق بتسبيحه ، وقيل : تسبيحه بالقول ويدل عليه قوله تعالى ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ أي قولهم ، والحق أن التسبيح هو القول الذي لا يصدر إلا من العاقل العارف بالله تعالى ، وما سوى العاقل ففي تسبيحه وجهان : أحدهما : أنها تدل على تعظيمه وتنزيهه والثاني :

لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ
وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ
يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ

أن جميع الموجودات بأسرها منقادة له يتصرف فيها كيف يشاء ، فإن حملنا التسبيح على القول كان المراد بقوله ﴿سبح لله ما في السموات والأرض﴾ الملائكة والمؤمنون العارفون بالله ، وإن حملنا التسبيح على التسبيح المعنوي ، فجميع أجزاء السموات وما فيها من شمس ، وقمر ، ونجوم وغير ذلك وجميع ذرات الأرضين وما فيها من جبال ، وبحار ، وشجر ، ودواب وغير ذلك كلها مسبحة خاشعة لجلال عظمة الله ، منقادة له يتصرف فيها كيف يشاء ، فإن قيل : قد جاء في بعض فواتح السور ﴿سبح لله﴾ بلفظ الماضي ، وفي بعضها ﴿يسبح لله﴾ بلفظ المضارع فما المراد ؟ قلت : فيه إشارة إلى كون جميع الأشياء مسبحاً لله أبداً ، غير مختص بوقت دون وقت ، بل هي كانت مسبحة أبداً في الماضي ، وستكون مسبحة أبداً في المستقبل ^(١) ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي وهو الغالب على أمره الذي لا يمانعه ولا ينازعه شيء ، الحكيم في أفعاله الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة . . ثم ذكر تعالى عظمته وقدرته فقال ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي هو جل وعلا المالك المتصرف في خلقه ، يحيي من يشاء ، ويميت من يشاء قال القرطبي : يميت الأحياء في الدنيا ، ويحيي الأموات للبعث والنشور ^(٢) ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ أي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولفظ ﴿قدير﴾ مبالغة في القادر لأن « فعيل » من صيغ المبالغة ﴿هو الأول والآخر﴾ أي ليس لوجوده بداية ، ولا لبقائه نهاية ﴿والظاهر والباطن﴾ أي الظاهر للعقول بالأدلة والبراهين الدالة على وجوده ، الباطن الذي لا تدركه الأبصار ، ولا تصل العقول إلى معرفة كنه ذاته ^(٣) وفي الحديث (أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت فسّر صاحب الكشاف « الباطن » بأنه غير المدرك بالحواس وهو تفسير بحسب التشهي يؤيد مذهبه من استحالة رؤية الله في الآخرة ، والحق أنه تعالى ظاهر بوجوده ، باطن بكنهه ، وأنه تعالى جامع بين الوصفين أزلاً وأبداً ^(٤) ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ أي هو تعالى عالم بكل ذرة في الكون ، لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ أي خلقها في مقدار ستة أيام ولو شاء لخلقها بلمح البصر ، وهو تحقيق لعزته ، وكمال قدرته ، كما أن قوله ﴿يعلم ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ تحقيق لحكمته ، وكمال علمه ﴿ثم استوى على العرش﴾ استواء يليق بجلاله من غير تمثيل ولا تكييف ^(٥) ﴿يعلم ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي يعلم ما يدخل في

(١) تفسير الخازن ٢٩/٤ . (٢) تفسير القرطبي ٢٣٦/١٧ . (٣) هذا أرجح الأقوال في تفسير « الظاهر والباطن » وقد اختاره أبو السعود والألوسي . (٤) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم وأحمد . (٥) حاشية زاده على البيضاوي ٤٨/٣ . (٦) انظر تفصيل معنى الاستواء في سورة الأعراف .

بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٦﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٧﴾ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَ وَانْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ

فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٤٨﴾

الأرض من مطر وأموات ، وما يخرج منها من معادن ونبات وغير ذلك ﴿وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾ أي وما ينزل من السماء من الأرزاق ، والملائكة ، والرحمة ، والعذاب ، وما يصعد فيها من الملائكة والأعمال الصالحة كقوله ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ ﴿وهو معكم أين ما كنتم﴾ أي هو جل وعلا حاضر مع كل أحد بعلمه وإحاطته قال ابن عباس : هو عالم بكم أينما كنتم قال ابن كثير : أي هو رقيب عليكم ، شهيد على أعمالكم ، حيث كنتم وأين كنتم ، من بر و بحر ، في ليل أو نهار ، في البيوت أو القفار ، الجميع في علمه على السواء ، يسمع كلامكم ويرى مكانكم ، ويعلم سرگم ونجواكم ^(١) ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي رقيب على أعمال العباد ، مطلع على كل صغيرة وكبيرة ﴿له ملك السموات والأرض﴾ كرره للتأكيد والتمهيد لإثبات الحشر والنشر أي هو المعبود على الحقيقة ، المتصرف في الخلق كيف يشاء ﴿والى الله ترجع الأمور﴾ أي إليه وحده مرجع أمور الخلائق في الآخرة فيجازيهم على أعمالهم ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي هو المتصرف في الكون كيف يشاء ، يقلب الليل والنهار بحكمته وتقديره ، ويدخل كلاً منهما في الآخر ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وأخرى بالعكس ﴿وهو عليم بذات الصدور﴾ أي هو العالم بالسرائر والضمائر ، وما فيها من النوايا والخوايا ، ومن كانت هذه صفته فلا يجوز أن يُعبد سواه . . ثم لما ذكر دلائل عظمته وقدرته ، أمر بتوحيده وطاعته فقال ﴿آمنوا بالله ورسوله﴾ أي صدقوا بأن الله واحد وأن محمداً عبده ورسوله ﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ أي وتصدقوا من الأموال التي جعلكم الله خلفاء في التصرف فيها ، فهي في الحقيقة لله لا لكم قال في التسهيل : يعني أن الأموال التي بأيديكم إنما هي أموال الله لأنه خلقها ، ولكنه متعمك بها وجعلكم خلفاء بالتصرف فيها ، فأنتم فيها بمنزلة الوكلاء فلا تمنعوها من الإنفاق فيما أمركم مالكمها أن تنفقوها فيه ^(٢) ، والمقصود التحريض على الإنفاق والتزهد في الدنيا ولهذا قال بعده ﴿فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾ أي فالذين جمعوا بين الإيمان الصادق

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٤٤٥ / ٢ قال في التسهيل : حمل قوم الاستواء على ظاهره ، وتأوله قوم بمعنى قصد كقوله «ثم استوى إلى السماء» ولو كان كذلك لقال : ثم استوى إلى العرش ، وتأولها آخرون أنها بمعنى استولى بالملك والقدرة . . والحق الإيمان به من غير تكييف ، فإن السلامة في التسليم ، ولله در مالك حين سأله رجل عن ذلك فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عن هذا بدعة ، وقد روي مثل قول مالك عن «أبي حنيفة» و «جعفر الصادق» و «الحسن البصري» ولم يتكلم الصحابة ولا التابعون في معنى الاستواء ، بل أمسكوا عنه ، ولذلك قال مالك : السؤال عنه بدعة . انتهى التسهيل في علوم التنزيل ٤٣ / ٢ وانظر ما كتبناه في الجزء الأول من هذا التفسير صفحة ٤٥٠ ففيه الايضاح والبيان .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٩٥ / ٤ وقيل المعنى : مما جعلكم خلفاء عنكم كان قبلكم فيما كان بأيديهم فانتقل لكم بالارث وسيخلفكم فيه من بعدكم ، والاول اظهر .

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِيُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ

والإنفاق في سبيل الله ابتغاء وجهه الكريم لهم أجر عظيم وهو الجنة قال أبو السعود : وفي الآية من المبالغات ما لا يخفى ، حيث جعل الجملة اسمية ﴿فالذين آمنوا﴾ وأعيد ذكر الإيمان والإنفاق ﴿آمَنُوا﴾ وأنفقوا ﴿وكرر الإسناد﴾ لهم ﴿وفخَّم الأجر بالتنكير ووصفه بالكبير﴾ لهم أجر كبير ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله﴾ استفهام للإنكار والتوبيخ أي أي عذر لكم في ترك الإيمان بالله ؟ ﴿والرسول يدعوكم لِيُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ أي والحال أن الرسول ﷺ يدعوكم للإيمان بربكم وخالقكم ، بالبراهين القاطعة ، والحجج الدامغة ﴿وقد أخذ ميثاقكم﴾ أي وقد أخذ الله ميثاقكم - وهو العهد المؤكد - بما ركز في العقول من الأدلة الدالة على وجود الله قال أبو السعود : وذلك بنصب الأدلة والتمكين من النظر^(١) وقال الخازن : أخذ ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر آدم وأعلمكم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه ، وقيل : أخذ ميثاقكم حيث ركب فيكم العقول ، ونصب لكم الأدلة والبراهين والحجج التي تدعو إلى متابعة الرسول^(٢) ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ شرطٌ حذف جوابه أي إن كنتم مؤمنين في وقت من الأوقات فالآن أحرى الأوقات لقيام الحجج والبراهين عليكم . . ثم ذكر تعالى بعض الأدلة الدالة على وجوب الإيمان فقال ﴿هو الذي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي هو تعالى الذي ينزل على محمد القرآن العظيم ، المعجز في بيانه ، الواضح في أحكامه قال القرطبي : يريد بالآيات البينات القرآن وقيل : المعجزات أي لزمكم الإيمان بمحمد ﷺ لما معه من المعجزات ، والقرآن أكبرها وأعظمها^(٣) ﴿ليُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي ليُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ الكفر إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي مبالغ في الرأفة والرحمة بكم ، حيث أنزل الكتب وأرسل الرسل لهدايتكم ، ولم يقتصر على ما نصب لكم من الحجج العقلية ﴿وما لكم أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ؟ أي أي شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله ، وفيما يقربكم من ربكم ، وأنتم تموتون وتختلفون أموالكم وهي صائرة إلى الله تعالى ؟ قال الإمام الفخر : المعنى إنكم ستموتون فتورثون فهلاً قدمتموه في الإنفاق في طاعة الله^(٤) !! وهذا من أبلغ الحث على الإنفاق في سبيل الله ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ أي لا يستوي في الفضل من أنفق ماله وقاتل الأعداء مع رسول الله قبل فتح مكة ، مع من أنفق ماله وقاتل بعد فتح مكة قال المفسرون : وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم ، لأن حاجة الإسلام إلى الجهاد والإنفاق كانت أشد ، ثم أعز الله الإسلام بعد الفتح وكثر

(١) تفسير أبي السعود ١٣٧/٥ . (٢) تفسير الخازن ٣١/٤ .

(٣) تفسير القرطبي ٢٣٩/١٧ . (٤) التفسير الكبير ٢٩/٢١٨ .

أَوْلَيْكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقْتِنَا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾
 مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٢﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى
 نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
 الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾

ناصريه ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ﴿١١﴾ أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقتنا وأقاتلوا أي أعظم أجراً ، وأرفع منزلة من الذين أنفقوا من بعد فتح مكة وقتلوا لإعلاء كلمة الله قال الكلبي : نزلت في « أبي بكر » لأنه أول من أسلم ، وأول من أنفق ماله في سبيل الله ، وذبح عن رسول الله ﷺ ﴿١١﴾ وكلاً وعد الله الحسنى ﴿١٢﴾ أي وكلاً ممن آمن وأنفق قبل الفتح ، ومن آمن وأنفق بعد الفتح ، وعده الله الجنة مع تفاوت الدرجات ﴿١٣﴾ والله بما تعملون خبير ﴿١٤﴾ أي عالم بأعمالكم ، مطلع على خفاياكم ونواياكم ، ومجازيكم عليه ، وفي الآية وعد ووعد ﴿١٥﴾ من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً ﴿١٦﴾ أي من الذي ينفق ماله في سبيل الله ابتغاء رضوانه ﴿١٧﴾ فيضعفه له ﴿١٨﴾ أي يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً ﴿١٩﴾ وله أجر كريم ﴿٢٠﴾ أي وله مع المضاعفة ثواب عظيم كريم وهو الجنة قال ابن كثير : أي جزاء جميل ورزق باهر وهو الجنة ، ولما نزلت هذه الآية قال « أبو الدرداح الأنصاري » يا رسول الله : وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدرداح ، قال : أرني يدك يا رسول الله ، فناوله يده ، قال : فإني قد أقرضت ربي حائطي - أي بستاني - وله فيه ستائة نخلة ، وأم الدرداح فيه هي وعيالها ، فجاء أبو الدرداح فناداها : يا أم الدرداح قالت : لبيك ، قال اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل ، فقالت : ربح بيعك يا أبا الدرداح ونقلت منه متاعها وصبيانها ﴿٢١﴾ . ثم أخبر تعالى عن المؤمنين الأبرار ، وما يتقدمهم من الأنوار وهم على الصراط فقال ﴿٢٢﴾ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعون نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴿٢٣﴾ أي اذكر يوم ترى أنوار المؤمنين والمؤمنات تتلأأ من أمامهم ومن جميع جهاتهم ليستضيئوا بها على الصراط ، وتكون وجوههم مضيئة كإضاءة القمر في سواد الليل ﴿٢٤﴾ بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴿٢٥﴾ أي ويقال لهم : أبشروا اليوم بجنات الخلد والنعيم ، التي تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿٢٦﴾ خالدين فيها ﴿٢٧﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿٢٨﴾ ذلك هو الفوز العظيم ﴿٢٩﴾ أي الفوز الذي لا فوز بعده لأنه سبب السعادة الأبدية ، روي أن نور كل أحد على قدر إيمانه ، وأنهم متفاوتون في النور ، فمنهم من يضيء نوره ما قرب من قدميه ، ومنهم من يُطفأ نوره مرة ويظهر مرة ﴿٣٠﴾ قال الزمخشري : وإنما قال ﴿٣١﴾ بين أيديهم وبأيمانهم ﴿٣٢﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين ، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم ﴿٣٣﴾ . ولما شرح حال المؤمنين يوم القيامة ، أتبع ذلك بشرح حال

(١) تفسير الخازن ٤/٣٢ . (٢) تفسير ابن كثير المختصر ٣/٤٤٨ . (٣) تفسير الكشاف ٤/٣٤٢ .

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا
نُورًا فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿٣٤﴾ ينادونهم ألم نكن
معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وقررتم بالله

المنافقين فقال ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم﴾ أي
انتظرونا لنستضيء من نوركم قال المفسرون : إن الله تعالى يعطي المؤمنين نوراً يوم القيامة على قدر أعمالهم
يمشون به على الصراط ، ويترك الكافرين والمنافقين بلا نور ، فيستضيء المنافقون بنور المؤمنين ، فيبناهم
يمشون إذ بعث الله فيهم ريحاً وظلمة ، فبقوا في الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم فيقولون للمؤمنين :
انتظرونا لنستضيء بنوركم ﴿قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً﴾ أي فيقول لهم المؤمنون سخريةً
واستهزاءً بهم : ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا هذه الأنوار هناك قال أبو حيان : وقد علموا أن لا نور
وراءهم ، وإنما هو إقناط لهم ^(١) ﴿فضرب بينهم بسور له باب﴾ أي ضرب بين المؤمنين والمنافقين
بحاجز له باب ، يحجز بين أهل الجنة وأهل النار ﴿باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ أي
في باطن السور الذي هو جهة المؤمنين الرحمة وهي الجنة ، وفي ظاهره وهو جهة الكافرين العذاب وهو
النار قال ابن كثير : هو سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون
دخلوه من بابه ، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة
والعذاب ^(٢) ﴿ينادونهم ألم نكن معكم﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين : ألم نكن معكم في الدنيا ،
نصلي كما تصلون ، ونصوم كما تصومون ، ونحضر الجمعة والجماعات ، ونقاتل معكم في الغزوات ؟
﴿قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم﴾ أي قال لهم المؤمنون : نعم كنتم معنا في الظاهر ولكنكم
أهلكتم أنفسكم بالنفاق ﴿وتربصتم﴾ أي انتظرتهم بالمؤمنين الدوائر ﴿وارتبتم﴾ أي شككتهم في أمر
الدين ﴿وغرتكم الأمانى﴾ أي خدعتكم الأمانى الفارغة بسعة رحمة الله ﴿حتى جاء أمر الله﴾ أي
حتى جاءكم الموت ﴿وغرركم بالله الغرور﴾ أي وخدعكم الشيطان الماكر بقوله : إن الله عفو كريم لا
يعذبكم قال قتادة : ما زالوا على خدعة من الشيطان حتى قذفهم الله في نار جهنم ^(٣) قال المفسرون :
الغرور بفتح الغين الشيطان لأنه يغر ويخدع الإنسان قال تعالى ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم
بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾ ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين
كفروا﴾ أي ففي هذا اليوم العصيب لا يقبل منكم بدل ولا عوضاً يا معشر المنافقين ، ولا من الكافرين
الجاحدين بالله وآياته وفي الحديث (إن الله تعالى يقول للكافر : أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا أكنت
تفتدي بجميع ذلك من عذاب النار ؟ ! فيقول : نعم يا رب ، فيقول الله تبارك وتعالى : قد سألتك ما

الْعُرُورُ ﴿١٥﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَى النَّارِ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَبئسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

هو أيسرُ من ذلك وأنت في ظهر أبيك آدم ، أن لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك (١) ﴿مأواكم النار﴾ أي مقامكم ومنزلكم نار جهنم ﴿هي مولاكم﴾ أي هي عونكم وسندكم وناصركم لا ناصر لكم غيرها، وهو تهكم بهم ﴿وبئس المصير﴾ أي وبئس المرجع والمنقلب نار جهنم .

قال بعض العلماء : « السعيد من لا يغتر بالطمع ولا يركن إلى الخدع ، ومن أطال الأمل نسي العمل ، وغفل عن الأجل » (٢)

قال الله تعالى : ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله . . إلى . . والله ذو الفضل العظيم﴾ من آية (١٦) إلى آية (٢٩) نهاية السورة .

المَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى اغترار المنافقين والكافرين بالحياة الدنيا ، نبّه المؤمنين ألا يكونوا مثلهم ، أو مثل أهل الكتاب بالاغترار بدار الفناء ، ثم ضرب مثلاً للحياة الدنيا وبهرجها الخادع الكاذب ، وختم السورة الكريمة ببيان فضيلة التقوى والعمل الصالح ، وأرشد المؤمنين إلى مضاعفة الأجر والنور باتباعهم هدي الرسول ﷺ .

اللغز : ﴿يأن﴾ يحن يقال : أنى يأنى مثل رمى يرمى أي حان ، قال الشاعر :

ألم يأن لي يا قلب أن أترك الجهلا وأن يحدث الشيب المبين لنا عقلاً (٣) ؟
﴿تخشع﴾ تذلل وتلين ﴿الأمد﴾ الأجل أو الزمان ﴿يهيج﴾ هاج الزرع إذا جف ويبس بعد خضرته ونضارته ﴿حطاماً﴾ فتاتاً يتلاشى بالرياح ﴿قفينا﴾ ألقنا وأتبعنا ﴿كفلين﴾ مثني كفل وهو النصيب .

سبب النزول : لما قدم المؤمنون المدينة ، أصابوا من لين العيش ورفاهيته ، ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا ونزلت هذه الآية ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ قال ابن مسعود : « ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنوات » (٤) .

* أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

الْفُضَيْرُ : ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ أي أما حان للمؤمنين أن ترق قلوبهم وتلين لمواظب الله ؟ ﴿وما نزل من الحق﴾ أي ولما نزل من آيات القرآن المبين ؟ ﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل﴾ أي ولا يكونوا كاليهود والنصارى الذين أعطاهم الله التوراة

(١) تفسير الألوسي ١٧٨/٢٧ والحديث في الصحاح . (٢) تفسير القرطبي ٢٤٧/١٧ .

(٣) تفسير القرطبي ٢٤٨/١٧ . (٤) أخرجه مسلم .

مِنْ قَبْلِ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا
يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ

والإنجيل ﴿فطال عليهم الأمد فقسست قلوبهم﴾ أي فطال عليهم الزمن الذي بينهم وبين أنبيائهم ،
حتى صلبت قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة قال ابن عباس : ﴿قسست قلوبهم﴾ مالوا إلى الدنيا
وأعرضوا عن مواضع القرآن وقال أبو حيان : أي صلبت بحيث لا تتفعل للخير والطاعة^(١) والغرض أن
الله يحذّر المؤمنين أن يكونوا مع القرآن كاليهود والنصارى حين قست قلوبهم لما طال عليهم الزمان
﴿وكثير منهم فاسقون﴾ أي وكثير من أهل الكتاب خارجون عن طاعة الله ، رافضون لتعاليم
دينهم ، من فرط قسوة القلب قال ابن كثير : نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من
قبلهم من اليهود والنصارى ، لما تطاول عليهم الزمن بدّلوا كتاب الله الذي بأيديهم ، ونبذوه وراء
ظهورهم ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون
موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعده ولا وعيده^(٢) ﴿اعلموا أنّ الله يحيي الأرض بعد موتها﴾ أي اعلموا
يا معشر المؤمنين أنّ الله يحيي الأرض القاحلة المجذبة بالمطر، ويخرج منها النبات بعد يبسها، وهو تمثيل
لأحياء القلوب القاسية بالذكر وتلاوة القرآن ، كما تحيا الأرض المجذبة بالغيث اهتان قال ابن عباس :
يلين القلوب بعد قسوتها فيجعلها محبّة منية ، وكذلك يحيي القلوب الميتة بالعلم والحكمة^(٣) قال في
البحر : ويظهر أنه تمثيل لتلين القلوب بعد قسوتها ، ولتأثير ذكر الله فيها ، فكما يؤثر الغيث في الأرض
فتعود بعد إجدابها مخصبة ، كذلك تعود القلوب النافرة مقبلةً يظهر فيها أثر الخشوع والطاعات^(٤) ﴿قد
بيّنا لكم الآيات﴾ أي وضحنا لكم الحجج والبراهين الدالة على كمال قدرتنا ووحدانيتنا ﴿لعلكم
تعقلون﴾ أي لكي تعقلوا وتتدبروا ما أنزل الله في القرآن ﴿إنّ المصدّقين والمصدّقات وأقرضوا الله
قرضاً حسناً﴾ أي الذين تصدقوا بأموالهم على الفقراء ابتغاء وجه الله ، والذين أنفقوا في سبيل الله وفي
وجوه البر والإحسان طيبة بها نفوسهم ﴿يضاعف لهم ولهم أجرٌ كريم﴾ أي يضاعف لهم ثوابهم بأن
تكتب الحسنه بعشر أمثالها ، ولهم فوق ذلك ثواب حسن جزيل وهو الجنة قال المفسرون : أصل
﴿المصدّقين﴾ المتصدقين أدغمت التاء في الصاد فصارت المصدّقين ، ومعنى القرض الحسن هو التصدق
عن طيب النفس ، وخلص النية للفقير ، فكأن الإنسان بإحسانه إلى الفقير قد أقرض الله قرضاً يستحق
عليه الوفاء في دار الجزاء ﴿والذين آمنوا بالله ورُسُلِهِ﴾ أي صدّقوا بوحداية الله ووجوده ، وآمنوا
برسوله إيماناً راسخاً كاملاً ، لا يخالجه شك ولا ارتياب ﴿أولئك هم الصّديقون والشهداء عند ربهم﴾
أي أولئك الموصوفون بالإيمان بالله ورسله ، هم الذين جمعوا أعلى المراتب فحازوا درجة الصديقية

(١) تفسير البحر المحيط ٨/٢٢٣ . (٢) تفسير مختصر ابن كثير ٣/٤٥١ . (٣) تفسير الخازن ٤/٣٥ . (٤) تفسير البحر المحيط ٨/٢٢٣ .

رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اَعْلَمُوا أَنَّمَا
 الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ
 ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ۗ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ

والشهادة في سبيل الله قال مجاهد : كل من آمن بالله ورسوله فهو صديقٌ وشهيدٌ^(١) ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي لهم في الآخرة الثواب الجزيل ، والنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيامهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي والذين جحدوا بوحداية الله وكذبوا بآياته أولئك هم المخلدون في دار الجحيم قال البيضاوي : فيه دليل على أن الخلود في النار مخصوص بالكفار ، من حيث أن الصيغة تشعر بالاختصاص ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ والصحبة تدل على الملازمة^(٢) . . . ولما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين ، ذكر بعده ما يدل على حقارة الدنيا وكمال حال الآخرة فقال ﴿اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ أي اعلموا يا معشر السامعين أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا لعبٌ يُتعبُ الناس فيها أنفسهم كإتعب الصبيان أنفسهم باللعب ﴿وَهَوٌّ﴾ أي وشغل للإنسان يشغله عن الآخرة وطاعة الله ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي وزينة يتزين بها الجهلاء كالملاابس الحسنة ، والمراكب البهية ، والمنازل الرفيعة ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ أي ومباهاة وافتخار بالأحساب والأنساب والمال والولد كما قال القائل :

أرى أهل القصور إذا أميتوا بنوا فوق المقابر بالصخور
 أبوا إلا مباهاةً وفخراً على الفقراء حتى في القبور^(٣)

﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي مباهاة بكثرة الأموال والأولاد قال ابن عباس : يجمع المال من سخط الله ، ويتباهى به على أولياء الله ، ويصرفه في مساخط الله ، فهو ظلمات بعضها فوق بعض^(٤) ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أي كمثل مطرٍ غزير أصاب أرضاً ، فأعجب الزُّرَّاعُ نباته الناشئ عنه ﴿ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ أي ثم يبس بعد خضرته ونُضْرته فتراه مصفر اللون بعد أن كان زاهياً ناصراً ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ أي ثم يتحطم ويتكسر بعد يبسه وجفافه فيصبح هشياً تذروه الرياح كذلك حال الدنيا قال القرطبي : والمراد بالكفار هنا الزُّرَّاعُ لأنهم يغطون البذر ، ومعنى الآية أن الحياة الدنيا كالزراع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار ، ثم لا يلبث أن يصير هشياً كأن لم يكن ، وإذا أعجب الزراع فهو في غاية الحسن^(٥) ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي والجزاء في الآخرة إما عذاب شديد للفجار ، وإما مغفرة من الله ورضوانٌ للأبرار ﴿وَمَا

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٣٢/٢٩ . (٢) تفسير البيضاوي ٤٥٣/٣ .

(٣) كنت سمعت هذين البيتين من شيخنا الجليل فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة عالم الشهاء أمد الله في عمره . (٤) التفسير الكبير

للرازي ٢٣٣/٢٩ . (٥) تفسير القرطبي ٢٥٥/١٧ .

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ؕ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾
مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۗ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾

الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴿٢٠﴾ أي وليست الحياة الدنيا في حقارتها وسرعة انقضائها إلا متاع زائل ،
ينخدع بها الغافل ، ويغتر بها الجاهل قال سعيد بن جبير : الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب
الآخرة ، فأما إذا دعيتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة ، فنعمة المتاع ونعم الوسيلة (١) . . ولما حقر
الدنيا وصغر أمرها ، وعظم الآخرة وفخم شأنها ، حث على المسارعة إلى نيل مرضاة الله ، التي هي
سبب للسعادة الأبدية في دار الخلود والجزاء فقال ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾ أي تسابقوا أيها
الناس وسارعوا بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم قال أبو حيان : وجاء التعبير
بلفظ ﴿سابقوا﴾ كأنهم في ميدان سباق يجرون إلى غاية مسابقين إليها ، والمعنى سابقوا إلى سبب مغفرة
وهو الإيمان ، وعمل الطاعات (٢) ﴿وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ أي وسارعوا إلى الجنة
واسعة فسيحة ، عرضها كعرض السموات السبع مع الأرض مجتمعة قال السدي : إن الله تعالى شبه
عرض الجنة بعرض السموات السبع والأرضين السبع ، ولا شك أن طولها أزيد من عرضها ، فذكر
العرض تنبيهاً على أن طولها أضعاف ذلك (٣) وقال البيضاوي : إذا كان العرض كذلك فما ظنك
بالطول (٤) ، ﴿أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله﴾ أي هيأها الله وأعدّها للمؤمنين المصدقين بالله
ورسوله قال المفسرون : وفي الآية دلالة على أن الجنة مخلوقة وموجودة لأن ما لم يُخلق بعد لا يوصف بأنه
أعدّ وهيء ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ أي ذلك الموعود به من المغفرة والجنة هو عطاء الله
الواسع ، يتفضل به على من يشاء من عباده من غير إيجاب ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ أي ذو العطاء
الواسع والإحسان الجليل ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض﴾ أي ما يحدث في الأرض مصيبة من
المصائب كقحط ، وزلزلة ، وعاهة في الزروع ، ونقص في الثمار ﴿ولا في أنفسكم﴾ أي من
الأمراض ، والأوصاب ، والفقر ، وذهاب الأولاد ﴿إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾ أي إلا وهي
مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن نخلقها ونوجدتها قال في التسهيل : المعنى أن الأمور كلها مقدرة في
الأزل ، مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن تكون ، وفي الحديث (إن الله كتب مقادير الأشياء قبل أن
يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وعرشه على الماء) (٥) ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي
إن إثبات ذلك على كثرته سهل هين على الله عز وجل وإن كان عسيراً على العباد . . ثم بين تعالى لنا

(١) التفسير الكبير ٢٩ / ٢٣٤ . (٢) البحر المحيط ٨ / ٢٢٥ .

(٣) التفسير الكبير ٢٩ / ٢٣٤ .

(٤) تفسير البيضاوي ٣ / ٤٥٤ . (٥) التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ٩٩ .

لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣٩﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ
وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤٠﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا
مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ

الحكمة في إعلامنا عن كون هذه الأشياء واقعة بالقضاء والقدر فقال ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم﴾ أي أثبت وكتب ذلك كي لا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ أي ولكي لا تبطروا بما أعطاكم الله من زهرة الدنيا ونعيمها قال المفسرون : والمراد بالحزن الحزن الذي يوجب القنوط ، وبالفرح الفرح الذي يورث الأشر والبطر ، ولهذا قال ابن عباس : « ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً ، وغنيمة شكرًا »^(١) ومعنى الآية : لا تحزنوا حزناً يخرجكم إلى أن تهلكوا أنفسكم ، ولا تفرحوا فرحاً شديداً يطغىكم حتى تأثروا فيه وتبطروا ، ولهذا قال بعض العارفين « من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب »^(٢) وقال عمر رضي الله عنه : « ما أصابتنى مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعم : الأولى : أنها لم تكن في ديني ، الثانية : أنها لم تكن أعظم مما كانت ، الثالثة : أن الله يعطي عليها الثواب العظيم والأجر الكبير ﴾ وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ ﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ أي لا يحب كل متكبر معجب بما أعطاه الله من حظوظ الدنيا ، فخور به على الناس . . ثم بين تعالى أوصاف هؤلاء المذمومين فقال ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ أي يبخلون بالإنفاق في سبيل الله ، ولا يكفهم ذلك حتى يأمروا الناس بالبخل ويرغبوهم في الإمساك ﴿ومن يتول﴾ أي ومن يعرض عن الإنفاق ﴿فإن الله هو الغني الحميد﴾ أي فإن الله مستغن عنه وعن إنفاقه ، محمود في ذاته وصفاته ، لا يضره الإعراض عن شكره ، ولا تنفعه طاعة الطائعين ، وفيه وعيد وتهديد ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾ اللام موطئة لقسم محذوف أي والله لقد بعثنا رسلنا بالحجج القواطع والمعجزات البينات ﴿وأنزلنا معهم الكتاب والميزان﴾ أي وأنزلنا معهم الكتب السماوية التي فيها سعادة البشرية ، وأنزلنا القانون الذي يحكم به بين الناس ، وفسر بعضهم الميزان بأنه العدل وقال ابن زيد : هو ما يؤزن به ويتعامل ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾ أي ليقوم الناس بالحق والعدل في معاملاتهم ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ أي وخلقنا وأوجدنا الحديد فيه بأس شديد ، لأن آلات الحرب تُتخذ منه ، كالدرع ، والرماح ، والتروس ، والدبابات وغير ذلك ﴿ومنافع للناس﴾ أي وفيه منافع كثيرة للناس كسكك الحراثة ، والسكين ، والفأس وغير ذلك وما من صناعة إلا والحديد آلة فيها قال أبو حيان : وعبر تعالى عن إيجاده بالإنزال كما قال ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ لأن الأوامر وجميع القضايا والأحكام لما كانت تُلقى من السماء جعل الكل نزولاً منها ،

مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ
وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ

وأراد بالحديد جنسه من المعادن قاله الجمهور^(١) ﴿وليعلم الله من ينصره ورسوله بالغيب﴾ عطف على محذوف مقدر أي وأنزلنا الحديد ليقاتل به المؤمنون أعداءهم ويجاهدوا لإعلاء كلمة الله ، وليعلم الله من ينصر دينه ورسوله باستعمال السيوف والرماح وسائر الأسلحة مؤمناً بالغيب قال ابن عباس : ينصرونه ولا يبصرونه^(٢) ، ثم قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي قادر على الانتقام من أعدائه بنفسه ، عزيز أي غالب لا يُغالب فهو غني بقدرته وعزته عن كل أحد قال البيضاوي : أي قوي على إهلاك من أراد إهلاكه ، عزيز لا يفتر إلى نصرة أحد ، وإنما أمرهم بالجهاد لينتفعوا به ويستوجبوا الثواب^(٣) وقال ابن كثير : معنى الآية أنه جعل الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحججة عليه ، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة تُوحى إليه السور ، ويقارعهم بالحجة والبرهان ، فلما قامت الحججة على من خالف أمر الله ، شرع الله الهجرة وأمر المؤمنين بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب ، ولهذا قال عليه السلام (بُعثت بالسيف بين يدي الساعة ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم)^(٤) ثم قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي هو قوي عزيز ينصر من شاء من غير احتياج منه إلى الناس ، وإنما شرع الجهاد ليلبو بعضهم ببعض^(٥) ﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾ لما ذكر بعثة الرسل ذكر هنا شيخ الأنبياء نوحاً عليه السلام ، وأبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام وبيّن أنه جعل في نسلهما النبوة والكتب السماوية أي وباللّه لقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا النبوة في نسلهما ، كما أنزلنا الكتب الأربعة وهي « التوراة والزبور والإنجيل والقرآن » على ذريتهما ، وإنما خصّ نوحاً وإبراهيم بالذكر تشريفاً لهما وتخليداً لماثرهما الحميدة ﴿فمنهم مهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون﴾ أي فمن ذرية نوح وإبراهيم أناس مهتدون ، وكثيرٌ منهم عصاة خارجون عن الطاعة وعن الطريق المستقيم ﴿ثم قفينا على آثارهم برسلنا﴾ أي ثم أتبعنا بعدهم برسلنا الكرام ، أرسلناهم رسولاً بعد رسول ، موسى ، وإلياس ، وداود ، وسليمان ، ويونس وغيرهم ﴿وقفينا بعيسى ابن مريم﴾ أي وجعلناه بعد أولئك الرسل لأنه كان آخر الأنبياء من بني إسرائيل ﴿وآتيناها الإنجيل﴾ أي وأنزلنا عليه الإنجيل الذي فيه البشارة بمحمد ﷺ ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً﴾ أي وجعلنا في قلوب أتباعه الحوارين الشفقة واللين قال في التسهيل : هذا ثناء من الله عليهم بمحبة بعضهم في بعض كما وصف تعالى أصحاب سيدنا محمد ﷺ بأنهم ﴿رحماء بينهم﴾^(٦)

(١) البحر المحيط ٢٢٦/٨ . (٢) تفسير الجلالين ١٧٦/٤ . (٣) تفسير البيضاوي ٤٥٦/٣ . (٤) أخرجه أحمد وأبو داود .

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٤٥٥/٣ . (٦) التسهيل لعلوم التنزيل ١٠٠/٤ .

رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَفَاتِنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٧٧﴾ يَتَأْتِيهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٨﴾ لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
 مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٩﴾

﴿ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم﴾ أي ورهبانيةً ابتدعها القسسُّ والرهبان وأحدثوها من تلقاء
 أنفسهم ، ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها قال أبو حيان : والرهبانيةُ رفضُ النساءِ وشهواتِ الدنيا ،
 واتخاذِ الصوامعِ ومعنى ﴿ابتدعوها﴾ أي أحدثوها من عند أنفسهم ^(١) ﴿إلا ابتغاءَ رضوانِ اللهِ﴾ أي ما
 أمرناهم إلا بما يرضي الله ، والاستثناء منقطع والمعنى ما كتبنا عليهم الرهبانية ، ولكنهم فعلوها من تلقاء
 أنفسهم ابتغاءَ رضوانِ اللهِ ﴿فما رعوها حقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي فما قاموا بها حقَّ القيام ، ولا حافظوا عليها
 كما ينبغي قال ابن كثير : وهذا ذمُّ لهم من وجهين : أحدهما : الابتداع في دينِ اللهِ ما لم يأمر به اللهُ
 والثاني : في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربةٌ تقربهم إلى اللهِ عز وجل ^(٢) ، وفي الحديث (لكل
 أمةٍ رهبانيةٌ ، ورهبانيةُ أمتي الجهاد في سبيلِ اللهِ) ^(٣) ﴿فَاتِنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي فأعطينا
 الصالحين من أتباع عيسى الذين ثبتوا على العهد وآمنوا بمحمد ﷺ ثوابهم مضاعفاً ﴿وكثيرٌ منهم
 فاسقون﴾ أي وكثير من النصارى خارجون عن حدود الطاعة منتهكون لمحارمِ اللهِ كقوله تعالى ﴿إن كثيراً
 من الأعبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيلِ اللهِ﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا
 اتقوا اللهَ وآمنوا برسوله﴾ أي يا من صدقتم بالله اتقوا اللهَ بامثالِ أوامره واجتنابِ نواهيه ، ودوموا
 واثبتوا على الإيمان ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي يعطكم ضعفين من رحمته ﴿ويجعل لكم نوراً
 تمشون به﴾ أي ويجعل لكم في الآخرة نوراً تمشون به على الصراطِ ﴿ويغفر لكم﴾ أي ويغفر لكم ما
 أسلفتم من المعاصي ﴿واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾ أي عظيمُ المغفرةِ واسعُ الرحمةِ ﴿لئلا يعلم أهلُ الكتابِ
 أن لا يقدرُونَ على شيءٍ من فَضْلِ اللهِ﴾ أي إنما بالغنا في هذا البيان ليعلم أهلُ الكتابِ أنهم لا يقدرُونَ
 على تخصيصِ فضلِ اللهِ بهم ، ولا يمكنهم حصرُ الرسالةِ والنبوةِ فيهم ، فلا في قوله ﴿لئلا﴾ زائدةٌ والمعنى
 ليعلم قال المفسرون : إن أهلَ الكتابِ كانوا يقولون الوحي والرسالةُ فينا ، والكتابُ والشرعُ ليس إلا
 لنا ، واللهُ خصنا بهذه الفضيلةِ العظيمةِ من بين جميعِ العالمين ، فردَّ اللهُ عليهم هذه الآيةَ الكريمةَ ﴿وأن
 الفضلَ بيدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي وأن أمرَ النبوةِ والهدايةِ والإيمانِ بيدِ الرحمنِ يعطيه لمن يشاء من
 خلقه ﴿واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ﴾ أي والله واسعُ الفضلِ والإحسانِ .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

(١) تفسير البحر المحیط ٨/٢٢٨ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٥٦ . (٣) أخرجه الإمام أحمد .

- ١ - الطباق بين ﴿يحيي ويميت﴾ وبين ﴿الأول والآخر﴾ وبين ﴿الظاهر والباطن﴾ .
- ٢ - المقابلة بين ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها﴾ وبين ﴿وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾ .
- ٣ - رد العجز على الصدر ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ وهو وما سبقه من المحسنات البديعية .
- ٤ - حذف الإيجاز ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ حذف منه جملة ﴿ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل﴾ وذلك لدلالة الكلام عليه ويسمى هذا الحذف بالإيجاز .
- ٥ - الاستعارة اللطيفة ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ أي ليخرجكم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، فاستعار لفظ ﴿الظلمات﴾ للكفر والضلالة ولفظ ﴿النور﴾ للإيمان والهداية وقد تقدم .
- ٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً﴾ مثل لمن ينفق ماله ابتغاء وجه الله مخلصاً في عمله بمن يُقرض ربه قرضاً واجب الوفاء بطريق الاستعارة التمثيلية .
- ٧ - الأسلوب التهكمي ﴿مأواكم النار هي مولاكم﴾ أي لا ولي لكم ولا ناصر إلا نار جهنم وهو تهكم بهم .
- ٨ - المقابلة اللطيفة بين قوله ﴿باطنه فيه الرحمة﴾ وقوله ﴿وظاهره من قبله العذاب﴾ .
- ٩ - التشبيه التمثيلي ﴿كمثل غيثٍ أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً . . .﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد .
- ١٠ - الجناس الناقص ﴿أرسلنا رسلنا﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف .
- ١١ - السجع المرصع كأنه الدر المنظوم ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديد﴾ وقوله تعالى ﴿فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ وهو كثير في القرآن .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحديد »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة المجادلة مدنية ، وقد تناولت أحكاماً تشريعية كثيرة كأحكام الظهار ، والكفارة التي تجب على المظاهر ، وحكم التناجي ، وآداب المجالس ، وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ ، وعدم مودة أعداء الله ، إلى غير ذلك ، كما تحدثت عن المنافقين وعن اليهود .

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان قصة المجادلة « خولة بنت ثعلبة » التي ظاهر منها زوجها - على عادة أهل الجاهلية في تحريم الزوجة بالظهار - وقد جاءت تلك المرأة رسول الله ﷺ تشكو ظلم زوجها لها وقالت يا رسول الله : « أكل مالي ، وأفنى شبابي ، ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني ، وانقطع ولدي ، ظاهر مني » ورسول الله ﷺ يقول لها : ما أراك إلا قد حرمت عليه ، فكانت تجادله وتقول يا رسول الله : ما طلقني ولكنه ظاهر مني ، فيرد عليها قوله السابق ، ثم قالت : اللهم إني أشكو إليك ، فاستجاب الله دعاءها ، وفرّج كربتها وشكواها ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله . . ﴾ الآيات .

* ثم تناولت حكم كفارة الظهار ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هنَّ أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفوٌ غفور . . ﴾ الآيات .

* ثم تحدثت عن موضوع التناجي ، وهو الكلام سرّاً بين اثنين فأكثر ، وقد كان هذا من دأب اليهود والمنافقين لإيذاء المؤمنين ، فبينت حكمه وحذرت المؤمنين من عواقبه ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثةٍ إلا هو رابعهم . . ﴾ الآيات .

* وتحدثت السورة عن اليهود اللعناء ، الذين كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ فيحيونه بتحية ملغوزة ، ظاهرها التحية والسلام ، وباطنها الشتيمة والمسبة كقولهم : السامُ عليك يا محمد يعنون الموت ﴿ وإذا جاءوك حيّوك بما لم يُحيِّك به الله ﴾ .

* وتناولت السورة الحديث عن المنافقين بشيءٍ من الإسهاب ، فقد اتخذوا اليهود بخاصة أصدقاء ، يحبونهم ويوالونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ، فكشفت الستار عن هؤلاء المذبذبين

وفضحتهم ﴿ ألم تر إلى الذين تولّوا قوماً غضب الله عليهم . . . ﴾ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة ببيان حقيقة الحب في الله ، والبغض في الله ، الذي هو أصل الإيمان وأوثق عرى الدين ، ولا بدّ في اكتمال الإيمان من معاداة أعداء الله ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان . . . ﴾ إلى آخر السورة الكريمة .

قال الله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها . . . إلى . . . وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾

من آية (١) إلى نهاية آية (١٠) .

اللفظة : ﴿ تحاوركما ﴾ المحاورة : المراجعة في الكلام من حار الشيء يحور إذا رجع يراجع ومنه الدعاء المأثور « نعوذ بالله من الحور بعد الكور » قال عنتره في فرسه :

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى
ولكان لو علم الكلام مكلمي
﴿ يظاهرون ﴾ الظهار مشتق من الظهر يقال : ظاهر من امرأته إذا حرّمها على نفسه بقوله : أنت عليّ كظهر أمي ﴿ منكراً ﴾ المنكر : كل ما قبّحه الشرع وحرّمه ونفّر منه ، وهو خلاف المعروف ﴿ يجادون ﴾ المحادّة : المعاداة والمخالفة في الحدود والأحكام وهي مثل المشاقة قال الزجاج : المحادّة أن تكون في حدّ يخالف حد صاحبك ، وأصلها الممانعة ﴿ كتبوا ﴾ الكبت : القهر والإذلال والخزي يقال : كبت أي قهره وأخزاه ﴿ نجوى ﴾ النجوى : الكلام بين اثنين فأكثر سراً ، تناجى القوم تحدّثوا فيما بينهم سراً ﴿ حسبهم ﴾ كافيهم .

سبب النزول : أ - روي أن «خولة بنت ثعلبة» امرأة «أوس بن الصامت» أراد زوجها موافقتها يوماً فأبت ، فغضب وظاهر منها ، فأنت رسول الله ﷺ وقالت يا رسول الله : إن أوساً ظاهر مني بعد أن كبرت سني ، ورق عظمي ، وإن لي منه صبيةً صغيراً ، إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليّ جاعوا فما ترى !! فقال لها : ما أراك إلا قد حرمت عليه ، فقالت يا رسول الله : والله ما ذكر طلاقاً وهو أبو ولدي وأحب الناس إليّ ، فجعل رسول الله ﷺ يعيد قوله : ما أراك إلا قد حرمت عليه ، وهي تكرر قولها ، فما زالت تراجعها ويراجعها حتى نزل قوله تعالى ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله . . . ﴾ الآيات .

ب - وروى البخاري عن عائشة أنها قالت : تبارك الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة - خولة بنت ثعلبة - فكلمت رسول الله ﷺ وأنا في جانب البيت أسمع كلامها ويخفى عليّ بعضه ، وهي تشتكي زوجها وتقول يا رسول الله : أبل شباي ، ونثرت له بطني ، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم إني أشكو إليك ، فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات (٢) .

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٧٩ . (٢) أخرجه البخاري وابن ماجه والبيهقي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَ كَمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾
 الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا
 مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾

التفسير : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ « قد » لا تدخل إلا على الأفعال ، وإذا دخلت على الماضي أفادت التحقيق ، وإذا دخلت على المضارع أفادت التقليل كقولك : قد يجودُ البخيلُ ، وقد ينزل المطر والمعنى : حقاً لقد سمع الله قول المرأة التي تراجعك وتحاورك في شأن زوجها قال الزمخشري : ومعنى سماعه تعالى لقولها إجابة دعائها ، لا مجرد علمه تعالى بذلك ، وهو كقول المصلي : سمع الله لمن حمده^(١) ﴿وتشتكي إلى الله﴾ أي وتتضرع إلى الله تعالى في تفريج كربتها ﴿واللهُ يسمعُ تحاوركما﴾ أي واللهُ جلُّ وعلا يسمع حديثكما ومراجعتكما الكلام ، ماذا قالت لك ، وماذا رددت عليها ﴿إن الله سميعٌ بصيرٌ﴾ أي سميع بمن يناجيه ويتضرع إليه ، بصير بأعمال العباد ، وهو كالتعليل لما قبله ، وكلاهما من صيغ المبالغة أي مبالغ في العلم بالمسموعات والمبصرات^(٢) . . ثم ذمَّ تعالى الظهار وبين حكمه وجزاء فاعله فقال ﴿الذين يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي الذين يقولون لنسائهم : أنتن كظهور أمهاتنا يقصدون بذلك تحريمهن عليهم كتحریم أمهاتهم ، لسن في الحقيقة أمهاتهم وإنما هنَّ زوجاتهم قال الإمام الفخر : الظهار هو عبارة عن قول الرجل لامرأته : أنتِ عليّ كظهر أمي ، يقصد علويّ عليك حرامٌ كعلوي على أمي ، والعربُ تقول في الطلاق : نزلتُ عن امرأتي أي طلقتها ، فغرضهم من هذه اللفظة تحريم معاشرتها تشبيهاً بالأم وقوله ﴿منكم﴾ توبيخٌ للعرب وتهجينٌ لعاداتهم في الظهار لأنه كان من أيمان أهل الجاهلية خاصةً دون سائر الأمم^(٣) ﴿إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم﴾ أي ما أمهاتهم في الحقيقة إلا اللواتي ولدنهم من بطونهن وفي المثل « ولدك من دمّي عقبيك » وهو تأكيد لقوله ﴿ما هنَّ أمهاتهم﴾ زيادة في التوضيح والبيان ﴿وإنهم ليقولون منكرًا من القول وزورًا﴾ أي والحال إن هؤلاء المظاهرين ليقولون كلاماً منكراً تنكره الحقيقة وينكره الشرع ، وهو كذبٌ وزورٌ وبهتانٌ ﴿وإن الله لعفوٌ غفورٌ﴾ أي مبالغ في العفو والمغفرة لمن تاب وأناب قال في التسهيل : أخبر تعالى أن الظهار منكر وزور ، فالمنكر هو الذي لا تعرف له حقيقة ، والزور هو الكذب ، وإنما جعله كذباً لأن المظاهر يجعل امرأته كأمه ، وهي لا تصير كذلك أبداً والظهار محرم ويدل على تحريمه أربعة أشياء : أحدها قوله ﴿ما هنَّ أمهاتهم﴾ فإن ذلك تكذيب للمظاهر

(١) تفسير الكشاف ٤/ ١٥٠ . (٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٤٣ . (٣) التفسير الكبير بشيء من الإيجاز ٢٩/ ٢٥١ .

وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۗ
 وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ
 سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۗ كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ

والثاني أنه سمّاه منكرًا والثالث أنه سمّاه زوراً والرابع قوله تعالى ﴿وإن الله لعفوٌ غفور﴾ فإن العفو والمغفرة لا تقع إلا عن ذنب ، والذنب مع ذلك لازم للمظاهر حتى يرفعه بالكفارة (١) . . ثم بيّن تعالى طريق الكفارة عن هذا القول الشنيع فقال ﴿والذين يظاهرون من نسائهم﴾ أي يظاهرون من زوجاتهم بتشبيهنّ بالأمهات ﴿ثم يعودون لما قالوا﴾ أي يعودون عمّا قالوا ، ويندمون على ما فرط منهم ، ويرغبون في إعادة أزواجهم إليهم ﴿فتحرير رقبة من قبل أن يتامسا﴾ أي فعليهم إعتاق رقبة - عبداً كان أو أمة - من قبل أن يعاشر زوجته التي ظاهر منها أو يجامعها ، والتماس كناية عن الجماع ودواعيه من التقبيل واللمس عند الجمهور قال الخازن : المراد من التماس المجامعة فلا يحل للمظاهر وطء امرأته التي ظاهر منها ما لم يكفر (٢) وقال القرطبي : لا يجوز للمظاهر الوطء قبل التكفير ، فإن جامعها قبل التكفير أثم وعصى ولا يسقط عنه التكفير ، وعن مجاهد تلزمه كفارتان (٣) ﴿ذلكم تُوعظون به﴾ أي ذلكم هو حكم الله فيمن ظاهر ليتعظ به المؤمنون ، حتى تركوا الظهار ولا تعودوا إليه ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي عالم بظواهر الأمور وبواطنها ومجازيكم بها ، فحافظوا على حدود ما شرع لكم من الأحكام ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتامسا﴾ أي فمن لم يجد الرقبة التي يعتقها فعليه صيام شهرين متوالين من قبل الجماع قال المفسرون : لو أفطر يوماً منها انقطع التابع ووجب عليه أن يستأنفها ﴿فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً﴾ أي فمن لم يستطع الصيام لكبر أو مرض ، فعليه أن يطعم ستين مسكيناً ما يشبعهم ﴿ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله﴾ أي ذلك الذي بيناه من أحكام الظهار من أجل أن تصدقوا بالله ورسوله في العمل بشرائعه ، ولا تستمروا على أحكام الجاهلية ﴿وتلك حدود الله﴾ أي وتلك هي أوامر الله وحدوده فلا تعدوها ﴿وللكافرين عذاب أليم﴾ أي وللجاحدين والمكذابين بهذه الحدود عذاب مؤلم موجه قال الألوسي : أطلق الكافر على متعدي الحدود تغليظاً وزجراً . (٤) ﴿إن الذين يُحادّون﴾ ولما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده ، ذكر المحادين المخالفين لها فقال ﴿إن الذين يُحادّون الله ورسوله﴾ أي يخالفون أمر الله ورسوله ، ويعادون الله ورسوله قال أبو السعود : أي يعادونها ويشاقونها لأن كلاً من المتعادين في حدٍّ وجهة غير حدٍّ الآخر وجهته ، وإنما ذكرت المحادّة هنا دون المعاداة

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١٠٢ . (٢) تفسير الخازن ٤/٤٥ . (٣) تفسير القرطبي ١٧/٢٨٣ . (٤) تفسير الألوسي ٢٨/٢٠ .

مِهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

والمشاققة لمناسبة ذكر « حدود الله » فكان بينهما من حسن الموقع ما لا غاية وراءه ^(١) ﴿كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي خُذْلُوا وَأُهِينُوا كَمَا خُذِلَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ الَّذِينَ حَادُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَذَلُّوا وَأُهِينُوا ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي والحال أنا قد أنزلنا آياتٍ واضحات ، فيها الحلال والحرام ، والفرائض والأحكام ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي وللكافرين الذين جحدوها ولم يعملوا بها عذاب شديد يهينهم ويذهب عزهم قال الصاوي : وقد نزلت هذه الآية في كفار مكة يوم الأحزاب حين أرادوا التحزب على رسول الله ﷺ والمقصود بها تسلية رسول الله ﷺ وبشارته مع المؤمنين بأن أعداءهم المتحزبين سيدلون ويخذلون ويفرق جمعهم فلا تحشوا بأسهم ^(٢) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي اذكر ذلك اليوم الرهيب حين يحشر الله المجرمين كلهم في صعيد واحد ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي فيخبرهم بما ارتكبوا في الدنيا من جرائم وآثام ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ أي ضبطه الله وحفظه عليهم في صحائف أعمالهم ، بينما هم نسوا تلك الجرائم لا اعتقادهم أن لا حساب ولا جزاء ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي وهو جل وعلا مطلع وناظر لا يغيب عنه شيء ، ولا يخفى عليه شيء . . ثم بيّن تعالى سعة علمه ، وإحاطته بجميع الأشياء ، وأنه تعالى يرى الخلق ويسمع كلامهم ويرى مكانهم حيث كانوا وأين كانوا فقال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أي ألم تعلم أيها السامع العاقل أن الله مطلع على كل ذرة في الكون ، لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولا يخفى عليه سرٌّ ولا علانية ، ما يقع من حديثٍ وسرٍّ بين ثلاثة أشخاص إلا كان الله رابعهم بعلمه ومشاركاً لهم فيما يتحدثون ويتهامون به في خفية عن الناس . ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ أي ولا يقع مناجاة وحديث بالسر بين خمسة أشخاص إلا كان الله معهم بعلمه حتى يكون هو سادسهم ﴿وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ أي ولا أقل من ذلك العدد ولا أكثر منه إلا واللَّهُ معهم يعلم ما يجري بينهم من حديثٍ ونجوى ، والغرض : أنه تعالى حاضر مع عباده ، مطلع على أحوالهم وأعمالهم ، وما تهجس به أفئدتهم ، لا يخفى عليه شيء من أمور العباد ، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي ثم يخبرهم تعالى بما عملوا من حسن وسيء ويجازيهم عليه يوم القيامة ، لأنه عالم بكل شيء من الأشياء قال المفسرون : ابتداءً الله هذه الآيات بالعلم بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ واختتمها بالعلم بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ١٤٤ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٨١ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ وَيَتَنَجَّجُونَ بِالْآثِمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يَحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبْتُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسَأَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾

عليهم ﴿﴾ لينبه إلى إحاطة علمه جل وعلا بالجزئيات والكلليات ، وأنه لا يغيب عنه شيء في الكائنات لأنه قد أحاط بكل شيء علماً ، قال ابن كثير : وقد حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بالمعصية في هذه الآية ﴿﴾ إلا هو معهم ﴿﴾ معية علمه تعالى ، ولا شك في إرادة ذلك ، فسمعه مع علمه محيط بهم ، وبصره نافذ فيهم ، فهو سبحانه مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء (١) . . ثم أخبر تعالى عن أحوال اليهود والمنافقين فقال : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى﴾ قال القرطبي : نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت (٢) ﴿ثم يعودون لما نهوا عنه﴾ أي ثم يرجعون إلى المناجاة التي نهوا عنها قال أبو السعود : والهمزة ﴿الم تر﴾ للتعجب من حالهم ، وصيغة المضارع ﴿ثم يعودون﴾ للدلالة على تكرار عودهم وتجده واستحضار صورته العجيبة (٣) ﴿ويتناجون بالآثم والعدوان ومعصية الرسول﴾ أي ويتحدثون فيما بينهم بما هو آثم وعدوان ومخالفة لأمر الرسول ﷺ لأن حديثهم يدور حول المكر والكيد بالمسلمين ، قال أبو حيان : بدأ بالآثم لعمومه ، ثم بالعدوان لعظمته في النفوس إذ هي ظلمات العباد ، ثم ترقى إلى ما هو أعظم وهو معصية الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفي هذا طعن على المنافقين إذ كان تناجيهم في ذلك (٤) ﴿وإذا جاءوك حيّوك بما لم يحيك به الله﴾ أي وإذا حضروا عندك يا محمد حيّوك بتحية ظالمة لم يشرعها الله ولم يأذن فيها ، وهي قولهم « السام عليكم » أي الموت عليكم قال المفسرون : كان اليهود يأتون رسول الله ﷺ فيقولون : السام عليكم بدلاً من السلام عليكم ، والسام الموت وهو ما أرادوه بقولهم ، وكان رسول الله ﷺ يقول لهم : وعليكم لا يزيد عليها ، فسمعتهم عائشة يوماً فقالت : بل عليكم السام واللعنة ، فلما انصرفوا قال لها رسول الله ﷺ : مهلاً يا عائشة ، إن الله يكره الفحش والتفحش فقالت يا رسول الله : أما سمعت ما قالوا ؟ فقال لها : أما سمعت ما قلت لهم ؟ إني قلت لهم : وعليكم ، فيستجيب الله لي فيهم ، ولا يستجيب لهم في ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ أي ويقولون فيما بينهم : هلاً يعذبنا الله بهذا القول لو كان محمد نبياً ؟ فلو كان نبياً حقاً لعذبنا الله على هذا الكلام قال تعالى رداً عليهم ﴿حسبهم جهنم يصلونها﴾ أي يكفيهم عذاباً أن يدخلوا نار جهنم ويصلوا حرها ﴿فبئس المصير﴾ أي بئس جهنم مرجعاً ومستقراً لهم قال ابن العربي : كانوا يقولون : لو كان محمد نبياً لما أمهلنا الله بسببه والاستخفاف به ، وجهلوا أن الباري تعالى حلیم لا يعاجل العقوبة لمن سبّه فكيف من سبّ نبيه ! ! وقد ثبت في

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٤٦١/٣ . (٢) تفسير القرطبي ٢٩١/١٧ . (٣) تفسير أبي السعود ١٤٥/٥ . (٤) تفسير البحر المحيط ٢٣٦/٨

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّجُوا بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَىٰ
وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ
شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

الصحيح « لا أحد أصبر على الأذى من الله ، يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافهم ويرزقهم » فأنزل الله تعالى هذا كشفاً لسرائرهم ، وفضحاً لبواطنهم ، وتكريماً لرسوله ﷺ (١) ، وأما إمهالهم في الدنيا فمن كراماته ﷺ على ربه لكونه بعث رحمة للعالمين . . ثم نهى تعالى المؤمنين عن التناجي بما هو إثم ومعصية فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴾ أي إذا تحدثتم فيما بينكم سرّاً فلا تتحدثوا بما فيه إثم كالقبيح من القول ، أو بما هو عدوان على الغير ، أو مخالفة ومعصية لأمر الرسول ﷺ ﴿ وتناجوا بالبرِّ والتقوى ﴾ أي وتحدثوا بما فيه خيرٍ وطاعة وإحسان قال القرطبي : نهى تعالى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود ، وأمرهم أن يتناجوا بالطاعة والتقوى والعفاف عما نهى الله عنه (٢) ﴿ واتقوا الله الذي إليه تُحْشَرُونَ ﴾ أي وخافوا الله بامثالكم وأمره واجتنابكم نواهيته ، الذي سيجمعكم للحساب ، ويجازي كلاً بعمله ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي ليست النجوى بالإثم والعدوان إلا من تزيين الشيطان ، ليدخل بها الحزن على المؤمنين قال ابن كثير : أي إنما يصدر هذا من المتناجين عن تزيين الشيطان وتسويله (٣) ﴿ وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله ﴾ أي وليس هذا التناجي بضارٍ للمؤمنين شيئاً إلا بمشيئة الله وإرادته ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي وعلى الله وحده فليعتمد وليثق المؤمنون ، ولا يبالوا بنجوى المنافقين فإن الله يعصمهم من شرهم وكيدهم ، وفي الحديث (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبها فإن ذلك يجزئه) (٤) .

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسّحوا في المجالس . . إلى . . ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾

المَنَاسِكَةُ : لما نهى تعالى عباده المؤمنين عمّا يكون سبباً للتباغض والتنافر ، أمرهم بما يصير سبباً لزيادة المحبة والمودة ، وهو التوسع في المجالس بأن يفسح بعضهم لبعض ، ثم حذر من موالة أعداء الله ، وختم السورة الكريمة ببيان أوصاف المؤمنين الكاملين .

اللِّغْطَمُ : ﴿ تفسّحوا ﴾ توسّعوا يقال : فسح له في المجلس أي وسّع له ، ومنه مكان فسيح أي واسع ﴿ انشزوا ﴾ انهضوا وارتفعوا يقال : نشز ينشز إذا تنحّى من مجلسه وارتفع منه ، وأصله من النشز

(١) نقلاً عن تفسير القرطبي ١٧/٢٩٢ . (٢) تفسير القرطبي ١٧/٢٩٤ .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٦٣ . (٤) أخرجه البخاري ومسلم .

وهو ما ارتفع من الأرض ﴿جَنَّة﴾ بضم الجيم وقاية ﴿استحوذ﴾ استولى وغلب على عقولهم ﴿الأذلين﴾ الأذلاء المغمورين في الذل والهوان .

سَبَبُ النَّزُولِ : أ - عن مقاتل قال : كان النبي ﷺ يُكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناسٌ من أهل بدر فيهم « ثابت بن قيس » وقد سُبِقوا إلى المجلس ، فقاموا حيال النبي ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يُوسَّعَ لهم فلم يفسحوا لهم ، فشقَّ ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله - من غير أهل بدر - قم يا فلان ، قم يا فلان ، بعدد الواقفين من أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، وطعن المنافقون في ذلك وقالوا : ما عدل مع هؤلاء ، قوم أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه !! فأنزل الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم . . .﴾ (١) الآية .

ب - عن ابن عباس قال : « إن الناس سألو رسول الله ﷺ وأكثروا عليه حتى شقَّ ذلك عليه ﷺ فأراد الله أن يخفف عن نبيه ويثبَّطهم عن ذلك فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقات . . .﴾ الآية فلما نزلت جبن كثير من المسلمين وكفُّوا عن المسألة (٢) .

ج - قال السدي : كان « عبد الله بن نبتل » المنافق يجالس رسول الله ﷺ ويرفع حديثه إلى اليهود ، فبينما رسول الله ﷺ في حجره من حجراته إذ قال يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار ، وينظر بعيني شيطان ، فدخل عبد الله بن نبتل - وكان أزرق العينين فقال له النبي ﷺ : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل ذلك ، فقال له النبي ﷺ : بل فعلت ، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبَّوه فأنزل الله ﴿ألم تر إلى الذين تولَّوا قوماً غضب الله عليهم ، ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون﴾ (٣) .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفْسَحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَفْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفْسَحُوا

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ نداء من الله تعالى للمؤمنين بأكرم وصف وألطف عبارة أي يا من صدقتم الله ورسوله وتحليتُم بالإيمان الذي هو زينة الإنسان ﴿إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا﴾ أي إذا قال لكم أحد توسعوا في المجالس - سواء كان مجلس الرسول ﷺ أو غيره من المجالس - فتوسعوا وافسحوا له ﴿يفسح الله لكم﴾ أي يوسع لكم ربكم في رحمته وجنته قال مجاهد : كانوا يتنافسون في مجلس النبي ﷺ فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض (٤) قال الخازن : أمر الله المؤمنين بالتواضع وأن يفسحوا في المجلس لمن أراد الجلوس عند النبي ﷺ ليتساوى الناس في الأخذ من حظهم من رسول الله ﷺ (٥) وفي الحديث (لا يقيمن أحدكم رجلاً من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن توسعوا وتفسحوا يفسح

(١) انظر القرطبي ٢٩٧/١٧ والتفسير الكبير للرازي ٢٦٨/٢٨ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٤٦٥/٣ وتفسير الخازن ٥٢/٤ . (٣) تفسير

القرطبي ٣٠٤/١٧ (٤) القرطبي ٢٩٦/١٧ . (٥) تفسير الخازن ٥٠/٤ .

يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةٌ ۚ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٧﴾

اللَّهُ لَكُمْ) (١) قال الإمام الفخر : وقوله ﴿يَفْسِحُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ مطلقٌ في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه في المكان ، والرزق ، والصدر ، والقبر ، والجنة ، واعلم أن الآية دلت على أن كل من وسَّع على عباد الله أبواب الخير والراحة وسَّع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة وفي الحديث (لا يزال الله في عون العبد ما زال العبد في عون أخيه) (٢) ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا﴾ أي وإذا قيل لكم أيها المؤمنون انفضوا من المجلس وقوموا لتوسَّعوا لغيركم فارتفعوا منه وقوموا قال ابن عباس : معناه إذا قيل لكم ارتفعوا فارتفعوا قال في البحر : أمروا أولاً بالتفسيح في المجلس ، ثم ثانياً بامتنال الأمر فيه إذا أمروا (٣) ، وألا يجدوا في ذلك غضاضة ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ أي يرفع الله المؤمنين بامتنال أوامره وأوامر رسوله ، والعالمين منهم خاصة أعلى المراتب ، ويمنحهم أعلى الدرجات الرفيعة في الجنة قال ابن مسعود : مدح الله العلماء في هذه الآية ثم قال : يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم فإن الله يقول يرفع المؤمن العالم فوق المؤمن الذي ليس بعالم درجات وقال القرطبي : بيِّن في هذه الآية أن الرفعة عند الله بالعلم والإيمان ، لا بالسبق إلى صدور المجالس ، وفي الحديث (فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب) وعنه ﴿يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء﴾ فأعظم بمنزلة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله ﷺ (٤) ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي خبير بمن يستحق الفضل والثواب ممن لا يستحقه ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول﴾ أي إذا أردتم محادثته سراً ﴿فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾ أي فقدموا قبلها صدقة تصدَّقوا بها على الفقراء قال الألوسي : وفي هذا الأمر تعظيم لمقام الرسول ﷺ ، ونفع للفقراء ، وتمييز بين المخلص والمنافق ، وبين محب الدنيا ومحب الآخرة (٥) ﴿ذلكم خير لكم وأطهر﴾ أي تقديم الصدقات قبل مناجاته أفضل لكم عند الله لما فيه من امتثال أمر الله ، وأطهر لذنوبكم ﴿فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم﴾ أي فإن لم تجدوا ما تصدقون به فإن الله يسألكم ويعفو عنكم ، لأنه لم

(١) أخرجه البخاري ومسلم (٢) تفسير الرازي ٢٩ / ٢٦٩ . (٣) أورد العلامة ابن كثير عند هذه الآية الكريمة « حكم القيام للقدام » فقال رحمه الله : وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال : فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث « قوموا إلى سيدكم » ومنهم من منع من ذلك محتجاً بحديث « من أحب أن يتم له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار » ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم في ولايته لقصة سعد بن معاذ لما استقدمه النبي ﷺ ليحكم في بني قريظة فلما أقبل قال « قوموا إلى سيدكم » وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه . . ثم قال : وأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم ، وفي السنن أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس ﷺ يكون هو صدر المجلس . ١ هـ . (٤) البحر المحيط ٨ / ٢٣٧ .

(٥) تفسير القرطبي ١٧ / ٣٠٠ . (٦) تفسير الألوسي ٢٨ / ٣٠ .

ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوٰتِكُمْ صَدَقْتُمْ ۚ فَاذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُم
مِّنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا

يكلف بذلك إلا القادر منكم ﴿أَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ عتابٌ للمؤمنين رقيقٌ رفيقٌ أي أخفتهم أيها المؤمنون الفقر إذا تصدقتهم قبل مناجاتكم للرسول ﷺ؟ والغرض: لا تخافوا فإن الله يرزقكم لأنه غني بيده خزائن السموات والأرض، وهو عتاب لطيف كما بينا، ثم نسخ تعالى الحكم تيسيراً على المؤمنين فقال ﴿فَاذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي فإذا لم تفعلوا ما أمرتم به وشق ذلك عليكم، وعفا الله عنكم بأن رخص لكم مناجاته من غير تقديم صدقة ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي فاكثفوا بالمحافظة على الصلاة ودفع الزكاة المفروضة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في جميع أحوالكم ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي محيطٌ بأعمالكم ونياتكم قال المفسرون: نسخ الله ذلك تخفيفاً على العباد حتى قال ابن عباس: ما كان ذلك إلا ساعةً من نهار ثم نسخ^(١) قال القرطبي: نسخت فرضية الزكاة هذه الصدقة، وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل، وما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «آية في كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي ولا بعدي، كان عندي دينار فتصدقت به ثم ناجيت الرسول ﷺ الخ فضعيف لأن الله تعالى قال ﴿فَاذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ وهذا يدل على أن أحداً لم يتصدق بشيء^(٢) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ تعجب للرسول ﷺ من أمر المنافقين الذين اتخذوا اليهود أصدقاء أي ألا تعجب يا محمد من حال هؤلاء المنافقين الذين يزعمون الإيمان، وقد اتخذوا اليهود المغضوب عليهم أولياء، يناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين!! قال الإمام الفخر: كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم في قوله ﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾ وكانوا ينقلون إليهم أسرار المؤمنين^(٣) ﴿ما هم منكم ولا منهم﴾ أي ليس هؤلاء المنافقون من المسلمين ولا من اليهود، بل هم مذنبون بين ذلك كقوله تعالى ﴿مذنبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ قال الصاوي: أي ليسوا من المؤمنين الخالص، ولا من الكافرين الخالص، لا ينتسبون إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء^(٤) ﴿ويحلفون على الكذب وهم يعلمون﴾ أي ويحلفون بالله كاذبين يقولون: والله إنا مسلمون، وهم يعلمون أنهم كذبة فجرة قال أبو السعود: والصيغة مفيدة لكمال شناعة ما فعلوا، فإن الحلف على ما يعلم أنه كذب في غاية القبح^(٥) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي هيأ لهم تعالى - بسبب نفاقهم - عذاباً في نهاية الشدة والألم، وهو الدرك الأسفل في جهنم ﴿إن المنافقين

(١) تفسير الخازن ٥٣/٤ . (٢) تفسير القرطبي ٣٠٣/١٧ .

(٣) التفسير الكبير ٢٧٣/٢٩ .

(٤) حاشية الصاوي على الجلالين ١٨٤/٤ . (٥) تفسير أبي السعود ١٤٧/٥ .

يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تَغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ
وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ
لَهُ وَكَأَيُّ حَلْفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ
ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَالِسُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلِينَ ﴿٢٠﴾

في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴿١٥﴾ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴿١٦﴾ أي بشس ما فعلوا
وبئس ما صنعوا ﴿١٧﴾ اتخذوا أيمانهم جنةً ﴿١٨﴾ أي جعلوا أيمانهم الكاذبة الفاجرة وقايةً لأنفسهم وسترةً لها من
القتل قال في التسهيل : أصل الجنة ما يُستتر به ويُنقى به المحذور كالترس ، ثم استعمل هنا بطريق
الاستعارة لأنهم كانوا يظهرن الإسلام ليعصموا دماءهم وأموالهم ﴿١٩﴾ ﴿فصدوا عن سبيل الله﴾ أي
فمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام ، بإلقاء الشبهات في قلوب الضعفاء والمكر والخداع بالمسلمين
﴿فلهم عذاب مهين﴾ أي فلهم عذاب شديد في غاية الشدة والإهانة ﴿لن تغني عنهم أموالهم
ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ أي لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم في الآخرة ، ولن تدفع عنهم شيئاً من
عذاب الله ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي هم أهل النار لا يخرجون منها أبداً
﴿يوم يبعثهم الله جميعاً﴾ أي يحشرهم يوم القيامة جميعاً للحساب والجزاء ﴿فيحلفون له كما
يحلفون لكم﴾ أي فيحلفون لله تعالى كما يحلفون لكم اليوم في الدنيا كذباً أنهم مسلمون قال ابن
عباس : هو قولهم : ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿ويحسبون أنهم على شيء﴾ أي يظنون أن
حلفهم في الآخرة ينفعهم وينجيهم من عذابها كما نفعهم في الدنيا بدفع القتل عنهم قال أبو حيان :
والعجب منهم كيف يعتقدون أن كفرهم يخفي على علام الغيوب ، ويجرونه مجرى المؤمنين في عدم
اطلاعهم على كفرهم ونفاقهم ، والمقصود أنهم تعودوا الكذب حتى كان على ألسنتهم في الآخرة كما كان
في الدنيا ﴿٢١﴾ ﴿ألا إنهم هم الكاذبون﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس إن هؤلاء هم البالغون في الكذب
الغاية القصوى حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علام الغيوب ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنسأهم
ذكر الله﴾ أي استولى على قلوبهم الشيطان وغلب عليهم وتملك نفوسهم حتى أنسأهم أن يذكروا ربهم
﴿أولئك حزب الشيطان﴾ أي أولئك هم أتباع الشيطان وأعوانه وأنصاره ﴿ألا إن حزب الشيطان هم
الخاسرون﴾ أي أتباع الشيطان وجنوده هم الكاملون في الخسران والضلالة ، لأنهم فوتوا على أنفسهم
النعيم الدائم وعرضوها للعذاب المقيم ﴿إن الذين يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يعادون الله ورسوله
ويخالفون أمرها ﴿أولئك في الأذلين﴾ أي أولئك في جملة الأذلاء المبعدين من رحمة الله ﴿كتب

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١٠٥/٤ . (٢) تفسير القرطبي ٣٠٥/١٧ . (٣) تفسير البحر المحیط ٢٣٨/٨ .

كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۗ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا

اللَّهُ لِأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴿٢١﴾ أي قضى الله وحكم أن الغلبة لدينه ورسله وعباده المؤمنين ﴿٢١﴾ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ أي هو تعالى قوي على نصر رسله وأوليائه ، غالب على أعدائه ، لا يُقهر ولا يُغلب قال مقاتل : لما فتح الله مكة والطائف وخيبر للمؤمنين قالوا : نرجو أن يُظهرنا الله على فارس والروم ، فقال عبد الله بن سلول : أتظنون أن الروم وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها ؟ ! والله إنهم لأكثر عدداً ، وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك فنزلت ﴿٢١﴾ كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴿٢١﴾ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿٢١﴾ أي لا يمكن أن ترى أيها السامع جماعة يصدقون بالله وباليوم الآخر يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وخالف أمرهما ، لأن من أحب الله عادى أعداءه ، ولا يجتمع في قلب واحد حب الله وحب أعدائه ، كما لا يجتمع النور والظلام قال المفسرون : غرض الآية النهي عن مصادقة ومحبة الكفرة والمجرمين ، ولكنها جاءت بصورة إخبار مبالغ في النهي والتحذير قال الإمام الفخر : المعنى أنه لا يجتمع الإيمان مع حب أعداء الله ، وذلك لأن من أحب أحداً امتنع أن يحب عدوه ، لأنها لا يجتمعان في القلب ، فإذا حصل في القلب مودة أعداء الله لم يحصل فيه الإيمان ﴿٢١﴾ ﴿٢١﴾ ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴿٢١﴾ أي ولو كان هؤلاء المحادون لله ورسوله أقرب الناس إليهم ، كالأباء ، والأبناء ، والإخوان ، والعشيرة ، فإن قضية الإيمان بالله تقتضي معاداة أعداء الله قال في البحر : بدأ بالأبء لأن طاعتهم واجبة على الأولاد ، ثم بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب ، ثم بالإخوان لأنهم بهم التعاضد ، ثم بالعشيرة لأن بهم التناصر والمقاتلة والتغلب على الأعداء كما قال القائل :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النسائبات على ما قال برهانا (٢)

قال ابن كثير: نزلت ﴿ولو كانوا آباءهم﴾ في «أبي عبيدة» قتل أباه الجراح يوم بدر ، ﴿أو أبناءهم﴾ في الصديق هم بقتل ابنه «عبد الرحمن بن أبي بكر» ﴿أو إخوانهم﴾ في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿أو عشيرتهم﴾ في حمزة ، وعلي ، وعبيدة بن الحارث ، قتلوا عتبة ، وشيبة ، والوليد بن عتبة يوم بدر (٤) ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾ أي أثبت الإيمان ومكنه في قلوبهم ، فهي مؤمنة موقنة مخلصه ﴿وأيدهم بروح منه﴾ أي وقواهم بنصره وتأييده قال ابن عباس : نصرهم على عدوهم ، وسمى ذلك النصر روحاً لأن به يحيا أمرهم (٥) ﴿ويُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي ويدخلهم في الآخرة بساتين فسيحة ، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكنين فيها أبد الأبد

(١) انظر البحر المحيط ٢٣٨/٨ وتفسير الألوسي ٣٤/٢٨ . (٢) التفسير الكبير ٢٩/٢٧٦ .

(٣) البحر المحيط ٢٣٩/٨ . (٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٦٧ . (٥) التفسير الكبير ٢٩/٢٧٧ .

عَنْهُ أَوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ أي قبل الله أعمالهم فرضي عنهم ، ونالوا ثوابه فرضوا بما أعطاهم ، وإنما ذكر رضوانه عليهم بعد دخولهم الجنة لأنه أعظم النعم ، وأجل المراتب قال ابن كثير : وفي الآية سر بديع وهو أنهم لما سخطوا على الأقارب والعشائر في الله تعالى ، عوّضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ^(١) ﴿أولئك حزب الله﴾ أي أولئك جماعة الله وخاصته وأوليائه ﴿ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ أي هم الفائزون بخيري الدنيا والآخرة ، وهذا في مقابلة قوله تعالى ﴿أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - صيغة المبالغة في ﴿إن الله سميع بصير﴾ وفي ﴿غفور رحيم﴾ وفي ﴿على كل شيء شهيد﴾ .
- ٢ - الإطناب بذكر الأمهات ﴿ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم﴾ زيادة في التقرير والبيان .
- ٣ - الطباق ﴿ولا أدنى من ذلك ولا أكثر﴾ لأن معنى أدنى أقل فصار الطباق بينها وبين أكثر .
- ٤ - عطف الخاص على العام تنبيهاً على شرفه ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ فإن ﴿الذين أوتوا العلم﴾ دخلوا في المؤمنين أولاً ثم خصوا بالذكر ثانياً تعظيماً لهم .
- ٥ - الاستعارة ﴿فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾ استعار اليمين لمعنى قبل أي قبل نجواكم .
- ٦ - الاستفهام والمراد منه التعجيب ﴿ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم . .﴾ .
- ٧ - الجناس الناقص بين ﴿يعلمون﴾ و﴿يعملون﴾ لتغير الرسم .
- ٨ - المقابلة بين ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ وبين ﴿أولئك حزب الشيطان . .﴾ الآية .
- ٩ - تحلية الجملة بفتون المؤكدات مثل «ألا ، وإن ، وهم» في قوله ﴿ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ .

١٠ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿الخاسرون ، الكاذبون ، خالدون ، يعملون﴾

لطيفة : روى الإمام أحمد عن أبي الطفيل أن « نافع بن عبد الحارث » لقي عمر بن الخطاب بعسفان - وكان عمر استعمله على مكة - فقال عمر : من استخلفت على أهل الوادي ؟ فقال : استخلفت عليهم « ابن أبيزى » فقال : ومن ابن أبيزى ؟ فقال : رجل من موالينا فقال عمر : استخلفت عليهم مولى ؟ فقال يا أمير المؤمنين : إنه قارىء لكتاب الله ، عالم بالفرائض ، قاضٍ ، فقال عمر رضي الله عنه : أما إن نبيكم ﷺ قال : (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ، ويضع به آخرين) .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المجادلة »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة الحشر مدنية وهي تعنى بجانب التشريع شأن سائر السور المدنية ، والمحور الرئيسي الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن « غزوة بني النضير » وهم اليهود الذين نقضوا العهد مع الرسول ﷺ فأجلاهم عن المدينة المنورة ، ولهذا كان ابن عباس يسمي هذه السورة « سورة بني النضير » وفي هذه السورة الحديث عن المنافقين الذين تحالفوا مع اليهود ، وبإيجاز هي سورة « الغزوات والجهاد » والفيء والغنائم .

* ابتدأت السورة الكريمة بتزويه الله وتمجيده ، فالكون كله بما فيه من إنسان ، وحيوان ، ونبات ، وجماد ، شاهد بوحدانية الله وقدرته وجلاله ، ناطق بعظمته وسلطانه ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

* ثم ذكرت السورة بعض آثار قدرته ، ومظاهر عزته ، بإجلاء اليهود من ديارهم وأوطانهم ، مع ما كانوا فيه من الحصون والقلاع ، وكانوا يعتقدون أنهم في عزة ومنعة لا يستطيع أحد عليهم ، فجاءهم بأس الله وعذابه من حيث لم يكن في حسابهم ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . . .﴾ الآيات .

* ثم تناولت السورة موضوع الفيء والغنيمة ، فبينت شروطه وأحكامه ، ووضحت الحكمة من تخصيص الفيء بالفقراء ، لئلا يستأثر به الأغنياء ، وليكون هناك بعض التعادل بين طبقات المجتمع ، بما فيه خير الفريقين ، وبما يحقق المصلحة العامة ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين . . .﴾ الآيات .

* وتناولت السورة أصحاب رسول الله ﷺ بالثناء العاطر ، فنوّهت بفضائل المهاجرين ومآثر الأنصار ، فالمهاجرون هجروا الديار والأوطان حباً في الله ، والأنصار نصرُوا دين الله ، وآثروا إخوانهم - المهاجرين - بالأموال والديار على أنفسهم مع فقرهم وحاجتهم ﴿للفقراء الذين أُخرجوا من

ديارهم وأموالهم يتتغون فضلاً من الله ورضواناً . . ﴿ الآيات .

* وفي مقابلة ذكر المهاجرين والأنصار ، ذكرت السورة المنافقين الأشرار ، الذين تحالفوا مع اليهود ضد الإسلام ، وضربت لهم أسوأ الأمثال ، فمثلتهم بالشیطان الذي يُغري الإنسان بالكفر والضلال ثم يتخلى عنه ويخذله ، وهكذا كان شأن المنافقين مع إخوانهم اليهود ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم . . ﴿ الآيات .

* ووعظت السورة المؤمنين بتذكر ذلك اليوم الرهيب ، الذي لا ينفع فيه حسب ولا نسب ، ولا يفيد فيه جاه ولا مال ، وبينت الفارق الهائل بين أهل الجنة وأهل النار ، ومصير السعداء ومصير الأشقياء في دار العدل والجزاء ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد . . ﴿ الآيات .

* وختمت السورة بذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا وبتزئيه عن صفات النقص ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو . . ﴿ الآيات وهكذا يتناسق البدء مع الختام ، أبدع تناسقٍ ووثام !!

قال الله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . . إلى . . ربنا إنك رءوف رحيم ﴿ من آية (١) إلى نهاية آية (١٠) .

اللفظة : ﴿ الحشر ﴾ الجمع ، وسمي يوم القيامة يوم الحشر لأنه يوم اجتماع الناس للحساب والجزاء ومنه ﴿ وحشر لسليمان جنوده ﴾ أي جمع له الجنود ﴿ قذف ﴾ ألقى وأنزل بشدة ﴿ الجلاء ﴾ الخروج من الوطن مع الأهل والولد ﴿ شاقوا ﴾ عادوا وخالفوا ﴿ لينة ﴾ بكسر اللام النخلة القريبة من الأرض ، الكريمة الطيبة ، سميت لينة لجودة ثمرها وأنشد الأخفش :

قد شجاني الحمامُ حين تغنَّى بفراق الأحباب من فوقِ لينة^(١)
﴿ أو جفتم ﴾ الوجيف : سرعة السير يقال : أوجف البعير إذا حثَّ وحمله على السير السريع ﴿ دُولَةٌ ﴾ بضم الدال الشيء الذي يتداول من الأموال ، وينتقل من يد إلى يد ﴿ خصاصة ﴾ فقر واحتياج ﴿ غلاً ﴾ حِقْدًا وضغينة .

سَبَبُ الزَّوْلِ : لما نقض اليهود « بنو النضير » العهد مع رسول الله ﷺ حاصرهم ﷺ وأمر بقطع نخيلهم وإحراقه إهانةً لهم وإرعاباً لقلوبهم ، فقالوا يا محمد : ألسنت تزعم أنك نبيٌّ ؟ وأنتك تنهى عن الفساد ؟ فما بالك تأمر بقطع الأشجار وتحريقها ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ ما قطعتم من لينةٍ أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله . . ﴿^(٢) الآية .

(١) تفسير القرطبي ٩/١٨ . (٢) التفسير الكبير ٢٩/٢٨٣ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾

التفسير : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي نزه الله تعالى ومجده ووقدسه جميع ما في السموات والأرض من ملك ، وإنسان ، وجماد ، وشجر كقوله تعالى ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ قال ابن كثير : يخبر تعالى أن جميع ما في السموات والأرض يسبح له ويمجده ويتقدسه ويوحده^(١) ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي وهو العزيز في ملكه ، الحكيم في صنعه ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم﴾ بيان لبعض آثار قدرته تعالى الباهرة وعزته الظاهرة أي هو جلّ وعلا الذي أخرج يهود بني النضير من مساكنهم بالمدينة المنورة ﴿لأول الحشر﴾ أي في أول مرة حُشروا وأخرجوا فيها من جزيرة العرب ، إذ لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك قال البيضاوي : لما قدم ﷺ المدينة صالح « بني النضير » على ألا يكونوا معه ولا عليه ، فلما ظهر يوم بدر قالوا : إنه النبي المنعوت في التوراة بالنصرة لا تُردُّ له راية ، فلما هُزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ، وخرج « كعب بن الأشرف » في أربعين راكباً إلى مكة وحالفوا « أبا سفيان » فأمر رسول الله ﷺ « محمد بن مسلمة » أخا كعب من الرضاعة فقتله غيلةً ، ثم صبَّحهم بالكثائب وحاصرهم ، حتى صالحوه على الجلاء ، فجلا أكثرهم إلى الشام ، ولحقت طائفة بخيبر ، فذلك قوله ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾^(٢) قال الألوسي : ومعنى ﴿لأول الحشر﴾ أن هذا أول حشرهم إلى الشام أي أول ما حُشروا وأخرجوا ، ونَبَّه بلفظ ﴿أول﴾ على أنهم لم يصبهم جلاءً قبله^(٣) ﴿ما ظننتم أن يخرجوا﴾ أي ما ظننتم أيها المؤمنون أن يخرجوا من أوطانهم وديارهم بهذا الذل والهوان ، لعزتهم ومنعتهم ، وشدة بأسهم ، حيث كانوا أصحاب حصون وعقار ، ونخيل وثمار ﴿وظننوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾ أي وظنوا أن حصونهم تمنعهم من بأس الله ، وتدفع عنهم عذابه وانتقامه قال البيضاوي : والأصل أن يُقال : وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم من بأس الله ، وتغيير النظم بتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بكونها حصينة ، بحيث ظنوا أنه لا يخرجهم منها أحد لأنهم في عزة ومنعة^(٤) ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾ أي فجاءهم بأسُ الله وعذابه من حيث لم يكن في

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٩ . (٢) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٦٩ . (٣) تفسير الألوسي ٢٨/ ٣٩ .

(٤) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤٧٠ .

وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣٠﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ
 اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٣١﴾ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ

حسابهم ، ولم يخطر ببالهم ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ أي وألقى في قلوب بني النضير الخوف الشديد ، مما أضعف قوتهم ، وسلبهم الأمن والطمأنينة ، حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ وفي الحديث (نُصرت بالرعب من مسيرة شهر)^(١) ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يهدمون بيوتهم بأيديهم من الداخل ، وأيدي المؤمنين من الخارج قال المفسرون : كان بنو النضير قبل إجلائهم عن ديارهم يخرّبون بيوتهم فيقلعون العمد ، وينقضون السقوف ، وينقبون الجدران ، لثلا يسكنها المؤمنون حسداً منهم وبغضاً ، وكان المسلمون يخرّبون سائر الجوانب من ظاهرها ليقترحموا حصونهم ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ أي فاتعظوا بما جرى عليهم يا ذوي العقول والألباب ﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء﴾ أي ولولا أن الله تعالى قضى عليهم بالخروج من أوطانهم مع الأهل والأولاد ﴿لعذبهم في الدنيا﴾ أي لعذبهم في الدنيا بالسيف كما فعل بإخوانهم بني قريظة ﴿ولههم في الآخرة عذاب النار﴾ أي ولههم مع عذاب الدنيا عذاب جهنم المؤبد ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أي ذلك الجلاء والعذاب بسبب أنهم خالفوا الله وعادوه وعصوا أمره ، وارتكبوا ما ارتكبوا من جرائم ، ونقض للعهود في حق رسوله ﴿ومن يشاقق الله فإن الله شديد العقاب﴾ أي ومن يخالف أمر الله ، ويعاد دينه فالله ينتقم منه لأن عذابه شديد ، وعقابه أليم ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذته أليم شديد﴾ . . ثم أخبر تعالى أن كل ما جرى من المؤمنين من قطع النخيل ، وإحراق بعض الأشجار المثمرة ، فإنما كان بأمر الله وإرادته فقال ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله﴾ أي ما قطعتم أيها المؤمنون من شجرة نخيل ، أو تركتموها كما كانت قائمة على سوقها فأمر الله وإرادته ورضاه ﴿وليخزي الفاسقين﴾ أي وليغيظ اليهود ويذلمهم ، بقطع أشجارهم ونخيلهم قال الرازي : المعنى إنما أذن تعالى في ذلك حتى يزداد غيظ الكفار ، وتتضاعف حسرتهم ، بسبب نفاذ حكم أعدائهم في أعز أموالهم^(٢) قال المفسرون : لما حاصر رسول الله ﷺ بني النضير ، كان بعض الصحابة قد شرع يقطع ويحرق في نخيلهم ، إهانة لهم وإرغاباً لقلوبهم ، فقالوا : ما هذا الإفساد يا محمد ؟ إنك كنت تنهى عن الفساد ، فما بالك تأمر بقطع الأشجار ؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة^(٣) ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم﴾ أي وما أعاد الله وردّه غنيمة على رسوله من أموال يهود بني النضير ﴿فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾

(١) أخرجه الشيخان . (٢) التفسير الكبير للرازي ٢٨٣/٢٩ .

(٣) انظر مختصر ابن كثير ٤٧١/٣ والبحر المحيط ٢٤٤/٨ وانظر سبب النزول السابق .

يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ
 وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ
 فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٠٧﴾

أي لم تسيروا إليه خيلكم ولا ركابكم ، ولا تعبتم في تحصيله قال القرطبي : وجف البعير وجيفاً إذا أسرع السير ، وأوجفه صاحبه إذا حمّله على السير السريع ، والركاب : ما يُركبُ من الإبل ، والمعنى : لم تقطعوا إليها شقّةً ، ولا لقيتم بها حرباً ولا مشقةً ، وإنما كانت من المدينة على ميلين ، فافتتحها رسول الله ﷺ صلحاً ، وأجلاهم عنها وأخذ أموالهم ، فجعلها الله لرسوله ﷺ خاصة يضعها حيث شاء (١) ﴿ولكنَّ اللّهُ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ولكنه تعالى من سنته أن ينصر رسوله بقذف الرعب في قلوب أعدائه ، من غير أن يقاسوا شدائد الحروب ﴿واللّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى قادر على كل شيء ، لا يُغالب ولا يُمانع ولا يعجزه شيء . . ثم بيّن تعالى حكم الفيء عامةً - وهو ما يغنمه المسلمون بدون حرب - فقال ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ أي ما جعله الله غنيمَةً لرسوله بدون قتال من أموال الكفار قال ابن عباس : هي قريظة ، والنضير ، وفدك ، وخيبر (٢) ﴿فَلِلّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ أي فحكمها أنها لله تعالى يضعها حيث يشاء ، ولرسوله يصرفها على نفسه وعلى مصالح المسلمين ﴿ولذي القربى واليتامى والمساكين﴾ أي ولأقرباء الرسول من بني هاشم وعبد المطلب ، ولليتامى الذين مات أبائهم ، وللمساكين ذوي الحاجة والفقير ﴿وابن السبيل﴾ أي وللغريب المنقطع في سفره قال في التسهيل : لا تعارض بين هذه الآية وبين آية الأنفال ، فإن آية الأنفال في حكم الغنيمة التي تؤخذ بالقتال وإيجاف الخيل والركاب ، فتلك يؤخذ منها الخمس ويقسم الباقي على الغامين ، وأما هذه ففي «حكم الفيء» وهو ما يؤخذ من الكفار من غير قتال فلا تعارض بينهما ولا نسخ ، وقد قرر الفقهاء الفرق بين الغنيمة والفيء ، وأن حكمها مختلف ، فالغنيمة ما أخذت بالقتال ، والفيء ما أخذ صلحاً ، وانظر كيف ذكر هنا لفظ الفيء ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ وذكر في الأنفال لفظ الغنيمة ﴿واعلموا أنّما غنمتم من شيء﴾ (٣) ! ! ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ أي لئلا ينتفع بهذا المال ويستأثر به الأغنياء دون الفقراء ، مع شدة حاجة الفقراء للمال قال القرطبي : أي فعلنا ذلك كيلا يتقاسمه الرؤساء والأغنياء بينهم دون الفقراء والضعفاء ، لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا أخذ الرئيس ربعها لنفسه - وهو المربع - ثم يصطفي منها أيضاً ما يشاء (٤) قال المفسرون : إن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير على المهاجرين فإنهم كانوا حينئذ فقراء ، ولم يُعط الأنصار منها شيئاً فإنهم كانوا أغنياء ، فقال بعض الأنصار : لنا سهمنا من هذا الفيء فأنزل الله هذه الآية ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ أي ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه ، وما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بكل

(١) تفسير القرطبي ١٠ / ١٨ . (٢) تفسير الخازن ٦٠ / ٤ . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١٠٨ / ٤ . (٤) تفسير القرطبي ١٦ / ١٨ .

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ
إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَنْ يُوقَ

خير وصلاح ، وينهى عن كل شرٍّ وفساد قال المفسرون : والآية وإن نزلت في أموال الفيء ، إلا أنها عامة
في كل ما أمر به النبي ﷺ أو نهى عنه من واجب ، أو مندوب ، أو مستحب ، أو محرم ، فيدخل فيها
الفيء وغيره^(١) ، عن ابن مسعود أنه قال : « لعن الله الواشيات ، والمستوشيات ، والمتنمصات ،
والمتفلجات للحسن ، المغيِّرات خلق الله » فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يُقال لها « أم يعقوب » - وكانت
تقرأ القرآن - فأتته فقالت : ما حديثٌ بلغني عنك أنك قلت كذا وكذا !! وذكرته له ، فقال ابن
مسعود : وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله تعالى ؟ فقالت المرأة : لقد قرأت ما بين
لوحى المصحف فما وجدته ! فقال : إن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه ، أما قرأتِ قول الله عز وجل ﴿ وما
آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾^(٢) ؟ ﴿ واتقوا الله ﴾ أي خافوا ربكم بامتثال أوامره
واجتناب نواهيه ﴿ إن الله شديد العقاب ﴾ أي فإن عقابه أليم وعذابه شديد ، لمن عصاه وخالف ما أمره
به ﴿ للفقراء الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ هذا متعلقٌ بما
سبق من حكم الفيء كأنه يقول : الفيء والغنائم لهؤلاء الفقراء المهاجرين الذين أُلجأهم كفار مكة إلى
الهجرة من أوطانهم ، فتركوا الديار والأموال ، ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿ وينصرون الله ورسوله ﴾
أي قاصدين بالهجرة إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ أي هؤلاء الموصوفون
بالصفات الحميدة هم الصادقون في إيمانهم قال قتادة : هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال ،
والأهلين والأوطان ، حباً لله ورسوله ، حتى إن الرجل منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صُلبه
من الجوع^(٣) . . ثم مدح تعالى الأنصار وبيّن فضلهم وشرفهم فقال ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان
من قبلهم ﴾ أي والذين اتخذوا المدينة منزلاً وسكناً وآمنوا قبل كثيرٍ من المهاجرين وهم الأنصار قال
القرطبي : أي تبوءوا الدار من قبل المهاجرين ، واعتقدوا الإيمان وأخلصوه ، والتبوء : التمكن
والاستقرار ، وليس يريد أن الأنصار آمنوا قبل المهاجرين ، بل أراد آمنوا قبل هجرة النبي ﷺ إليهم^(٤)
﴿ يحبون من هاجر إليهم ﴾ أي يحبون إخوانهم المهاجرين ويواسونهم بأموالهم قال الخازن : وذلك
أنهم أنزلوا المهاجرين في منازلهم ، وأشركوهم في أموالهم^(٥) ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة مما

(١) انظر التفسير الكبير للرازي ٢٩/٢٨٦ (٢) أخرجه البخاري ومسلم ، قال العلماء : الوشم هو غرز العضو من الإنسان بالإبرة ثم يُحشى
بكحل ، والمستوشمة هي التي تطلب أن يفعل بها ذلك ، والنَّامِصَة هي التي تنتف الشعر من الوجه ، والمتفلجة هي التي تتكلف تفرج ما
بين أسنانها من أجل الحسن ، وكل ذلك منهي عنه لأن فيه تغييراً لخلق الله .
(٣) تفسير القرطبي ١٨/١٩ . (٤) تفسير القرطبي ١٨/٢٠ . (٥) تفسير الخازن ٤/٦٢ .

شُحَّ نَفْسِهِ فَأَوْلَتْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾

أوتوا ﴿١١﴾ أي ولا يجد الأنصار حزاةً وغيظاً وحسداً مما أعطي المهاجرون من الغنيمة دونهم قال المفسرون : إن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة منهم ، فطابت أنفس الأنصار بتلك القسمة ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ أي يفضلون غيرهم بالمال على أنفسهم ولو كانوا في غاية الحاجة والفاقة إليه ، فإيثارهم ليس عن غنى عن المال ، ولكنه عن حاجة وفقر ، وذلك غاية الإيثار ﴿ومن يوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ أي ومن حماه الله وسلم من البخل فقد أفلح ونجح ، والشُّحُّ هو البخل الشديد مع الجشع والطمع ، وهو غريزة في النفس ولذلك أضيف إليها ، قال ابن عمر : ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ، إنما الشحُّ أن تطمع عينه فيما ليس له ^(١) وفي الحديث (واتقوا الشُّحَّ فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم) ^(٢) ﴿والذين جاءوا من بعدهم﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين المستحقين للإحسان والفضل ، وهم التابعون لهم بإحسانٍ إلى يوم القيامة ﴿يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ أي يدعون لهم قائلين : ياربنا اغفر لنا ولاخواننا المؤمنين الذين سبقونا بالإيمان قال أبو السعود : وصفوهم بالسبق بالإيمان اعترافاً بفضلهم ، لأن أخوة الدين عندهم أعزُّ وأشرف من النسب ^(٣) ﴿ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا﴾ أي ولا تجعل في قلوبنا بغضاً وحسداً لأحدٍ من المؤمنين ﴿ربنا إنك رءوفٌ رحيمٌ﴾ أي مبالغٌ في الرأفة والرحمة فاستجب دعاءنا ، قال ابن كثير : وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الغنيمة شيء لعدم اتصافه بأوصاف المؤمنين ^(٤) ، وقال شيخ زاده : بين تعالى أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين بالرحمة والدعاء ، فمن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء فقد كان خارجاً عن جملة أقسام المؤمنين بمقتضى هذه الآيات ، وقد روي عن الشعبي أنه قال : تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة ، سئلت اليهود : من خير أهل ملتكم ؟ فقالوا اصحاب موسى وسئلت النصارى فقالوا : اصحاب عيسى ، وسئلت الرافضة من شرُّ أهل ملتكم ؟ فقالوا : اصحاب محمد ﷺ أمروا بالاستغفار لهم فسبُّوهم ، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة ^(٥) . . اللهم ارزقنا محبة أصحاب نبيك الكريم .

قال الله تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم . . إلى . . وهو العزيز الحكيم﴾ من آية (١١) إلى آية (٢٤) نهاية السورة .

(١) حاشية الصاوي ٤/ ١٩٠ . (٢) أخرجه مسلم . (٣) تفسير أبي السعود ٥/ ١٥٢ .

(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٧٥ . (٥) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٧٧ .

* أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١١﴾ لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأُذُنُ مَا لَا يَنْصُرُونَ ﴿١١٢﴾

المناسكبة : لما ذكر تعالى أوصاف المؤمنين الصادقين ، أعقبه بذكر أوصاف المنافقين المخادعين ، الذين تركوا نصرة المؤمنين وصادقوا اليهود وحالفوهم على حرب المسلمين ، ثم ذكر البون الشاسع بين أصحاب النار وأصحاب الجنة ، وأنهم لا يستونون في الحال ولا المال ، وختم السورة الكريمة بذكر بعض أسماء الله الحسنی ، وصفاته العليا .

اللفحة : ﴿شئى﴾ متفرقة تشئت جمعهم أي تفرق ﴿خاشعاً﴾ ذليلاً خاضعاً ﴿متصدعاً﴾ متشققاً تصدع البنيان أي تشقق ﴿القدوس﴾ المنزه عن كل نقص وعيب ﴿المؤمن﴾ المصدق لرسوله بالمعجزات ﴿المهيمن﴾ الرقيب على كل شيء ﴿العزیز﴾ القوي الغالب ﴿الجبار﴾ العظيم القاهر ، صاحب العظمة والجبروت ﴿المتكبر﴾ المبالغ في الكبرياء والعظمة ﴿البارئ﴾ المبدع المخترع ﴿المصور﴾ خالق الصور .

التفسير : ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا﴾ تعجب من الله تعالى لرسوله من حال المنافقين أي ألا تعجب يا محمد من شأن هؤلاء المنافقين الذين أظهروا خلاف ما أضمروا ؟ ﴿يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ أي يقولون لليهود بني قريظة والنضير الذين كفروا برسالة محمد ﷺ ﴿لئن أخرجتم لنخرجن معكم﴾ أي لئن أخرجتم من المدينة لنخرجن معكم منها قال في التسهيل : نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول وقوم من المنافقين ، بعثوا إلى بني النضير وقالوا لهم : اثبتوا في حصونكم فإننا معكم كيف ما تقلبت حالكم ^(١) ، وإنما جعل المنافقين إخوانهم لأنهم كفار مثلهم ﴿ولا نطيع فيكم أحداً أبداً﴾ أي ولا نطيع أمر محمد في قتالكم ، ولا نسمع من أحد إذا أمرنا بخذلانكم ﴿وإن قوتلتم لننصرنكم﴾ أي ولئن قاتلكم أحد لنعاوننكم على عدوكم ونكون بجانبكم ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ أي والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فيما قالوه ووعدوهم به . . ثم أخبر الله عن حال المنافقين بالتفصيل فقال ﴿لئن أخرجوا لا يخرجون معهم﴾ أي لئن أخرج اليهود لا يخرج المنافقون معهم ﴿ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾ أي ولئن قوتل اليهود لا ينصرهم المنافقون ولا يقاتلون معهم قال القرطبي : وفي هذا دليل على صحة نبوة محمد ﷺ من جهة أمر الغيب ، لأنهم أخرجوا فلم يخرجوا معهم ، وقوتلوا فلم ينصروهم كما أخبر عنه القرآن ^(٢) ﴿ولئن نصرهم ليولين الأديار ثم لا ينصرون﴾ أي ولئن جاءوا لنصرتهم وقاتلوا معهم - على سبيل الفرض والتقدير - فسوف يهزمون ، ثم

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ١١٠ . (٢) تفسير القرطبي ١٨ / ٣٤ .

لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾

لا ينفعهم نصره المنافقين قال الإمام الفخر : أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لئن أخرجوا فإن المنافقين لا يخرجون معهم - وقد كان الأمر كذلك ، فإن بني النضير لما أخرجوا لم يخرج معهم المنافقون وقُوتلوا كذلك فما نصرهم - وأما قوله تعالى ﴿ولئن نصرهم﴾ فهذا على سبيل الفرض والتقدير أي بتقدير أنهم أرادوا نصرتهم لا بد وأن يتركوا تلك النصره وينهزموا^(١) ﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله﴾ أي لأنتم يا معشر المسلمين أشد خوفاً وخشية في قلوب المنافقين من الله ، فإنهم يرهبون ويخافون منكم أشد من رهبتهم من الله ﴿ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾ أي ذلك الخوف منكم بسبب أنهم لا يعلمون عظمة الله تعالى حتى يخشوه حق خشيته قال القرطبي : أي لا يفقهون قدر عظمة الله وقدرته^(٢) . ثم أخبر تعالى عن اليهود والمنافقين بأنهم جناء من شدة الهلع ، وأنهم لا يقدرّون على قتال المسلمين إلا إذا كانوا متحصنين في قلاعهم وحصونهم فقال ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى مُحَصَّنَةٍ﴾ أي لا يقدرّون على مقاتلتكم مجتمعين إلا إذا كانوا في قرى محصنة بالأسوار والخنادق ﴿أو من وراء جُدُرٍ﴾ أي أو يكونوا من وراء الحيطان ليتستروا بها ، لفرط جنونهم وهلعهم ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ أي عداوتهم فيما بينهم شديدة ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى﴾ أي تظنهم مجتمعين على أمرٍ ورأي - في الصورة - ذوي ألفة واتحاد ، وهم مختلفون غاية الاختلاف لأن آراءهم مختلفة ، وقلوبهم متفرقة قال قتادة : أهل الباطل مختلفة آراؤهم ، مختلفة أهواؤهم ، مختلفة شهادتهم ، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق^(٣) ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ أي ذلك التفرق والتشتت بسبب أنهم لا عقل لهم يعقلون به أمر الله قال في البحر : وموجب ذلك التفرق والشتات هو انتفاء عقولهم ، فهم كالبهائم لا تتفق على حالة^(٤) ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً﴾ أي صفة بني النضير فيما وقع لهم من الجلاء والذل ، كصفة كفار مكة فيما وقع لهم يوم بدر من الهزيمة والأسر قال البيضاوي : أي مثل اليهود كمثال أهل بدر ، أو المهلكين من الأمم الماضية في زمان قريب^(٥) ﴿ذاقوا وبال أمرهم﴾ أي ذاقوا سوء عاقبة إجرامهم في الدنيا ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي ولهم عذاب شديد موجع في الآخرة ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ أي مثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال ، كمثال الشيطان الذي أغرى الإنسان بالكفر ثم تخلى عنه وخذله ﴿فلما كفر قال إنني بريء منك﴾ أي فلما كفر الإنسان تبرأ منه الشيطان وقال ﴿إنني أخاف الله رباً

(١) التفسير الكبير ٢٩/٢٨٩ . (٢) تفسير القرطبي ١٨/٣٥ . (٣) تفسير الخازن ٤/٦٦ .

(٤) تفسير البحر ٨/٢٤٩ . (٥) تفسير البيضاوي ٣/٤٧٨ .

فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَعِذٌّ لِّكَ بِهِمَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ
فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ
الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾

العالمين ﴿١٧﴾ أي أخاف عذاب الله وانتقامه إن كفرتُ به قال في التسهيل : هذا مثلٌ ، مثلُ الله للمنافقين
- الذين أغوا يهود بني النضير ثم خذلوهم بعد ذلك - بالشیطان الذي يُغوي ابن آدم ثم يتبرأ منه ، والمراد
بالشیطان والإنسان هنا الجنس (١) ، وقولُ الشيطان ﴿إني أخاف الله﴾ كذبٌ منه ورياءٌ لأنه لو خاف الله
لامتثل أمره وما عصاه (٢) ﴿فكان عاقبتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي فكان عاقبة المنافقين
واليهود ، مثل عاقبة الشيطان والإنسان ، حيث صارا إلى النار المؤبدة ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ أي
وذلك عقاب كل ظالم فاجر ، منتهكٍ لحرمات الله والدين . . ولما ذكر صفات كلٍ من
المنافقين واليهود وضرب لهم الأمثال ، وعظ المؤمنين بموعظةٍ حسنة ، تحذيراً من أن يكونوا مثل من تقدم
ذكرهم فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ أي خافوا الله واحذروا عاقبه ، بامتثال أوامره ، واجتناب
نواهيه ﴿ولتنظر نفسٌ ما قدمت لغدٍ﴾ أي ولتنظر كل نفسٍ ما قدمت من الأعمال الصالحة ليوم
القيامة قال ابن كثير : انظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على
ربكم (٣) ، وسُمي يوم القيامة غداً لقرب مجيئه ﴿وما أمرُ الساعة إلا كلمح البصر﴾ والتكثير فيه للتفخيم
والتحويل (٤) ﴿واتقوا الله﴾ كرره للتأكيد وليبين منزلة التقوى التي هي وصية الله تعالى للأولين
والآخرين ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾ ﴿إن الله خبيرٌ بما
تعملون﴾ أي مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم
أنفسهم﴾ أي ولا تكونوا يا معشر المؤمنين كالذين تركوا ذكر الله ومراقبته وطاعته ، فأنساهم حقوق
أنفسهم والنظر لها بما يصلحها قال أبو حيان : وهذا من المجازاة على الذنب بالذنب ، تركوا عبادة الله
وامتثال أوامره ، فعوقبوا على ذلك بأن أنساهم حظاً أنفسهم (٥) ، حتى لم يقدموا له خيراً ينفعها ﴿أولئك
هم الفاسقون﴾ أي أولئك هم الفجرة الخارجون عن طاعة الله ﴿لا يستوي أصحاب النار
وأصحاب الجنة﴾ أي لا يتساوى يوم القيامة الأشقياء والسعداء ، أهل النار وأهل الجنة في الفضل
والرتبة ﴿أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ أي أصحاب الجنة هم الفائزون بالسعادة الأبدية في دار
النعيم ، وذلك هو الفوز العظيم . . ثم ذكر تعالى روعة القرآن ، وتأثيره على الصمِّ الراسيات من الجبال

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١١٠ . (٢) قال ابن كثير : أي مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ، كمثل
الشیطان إذ سؤل للإنسان الكفر ثم تبرأ منه وتنصل وقال إني أخاف الله رب العالمين. المختصر ٣/ ٤٧٦ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٧ . (٤) تفسير أبي السعود ٥/ ١٥٤ . (٥) تفسير البحر المحیط ٨/ ٢٥١ .

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٠٣﴾

فقال ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيتَهُ خاشعاً متصدعاً من خشيةِ الله﴾ أي لو خلقنا في الجبل عقلاً وتمييزاً كما خلقنا للإنسان ، وأنزلنا عليه هذا القرآن ، بوعدِهِ ووعدِهِ ، الخشوع وخضوع وتشقق ، خوفاً من الله تعالى ، ومهابةً له وهذا تصويرٌ لعظمة قدر القرآن ، وقوة تأثيره ، وأنه بحيث لو خوطب به جبلٌ - على شدته وصلابته - لرأيتَهُ ذليلاً متصدعاً من خشيةِ الله ، والمراد منه توبيخ الإنسان بأنه لا يتخشع عند تلاوة القرآن ، بل يعرض عما فيه من عجائب وعظائم ، فهذه الآية في بيان عظمة القرآن ، ودناءة حال الإنسان^(١) وقال في البحر : والغرضُ توبيخُ الإنسان على قسوة قلبه ، وعدم تأثره بهذا الذي لو أنزل على الجبل لتخشع وتصدع ، وإذا كان الجبل على عظمته وتصلبه يعرض له الخشوع والتصدع ، فابن آدم كان أولى بذلك ، لكنه على حقارته وضعفه لا يتأثر^(٢) ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ أي وتلك الأمثال نفضّلها ونوضحها للناس لعلهم يتفكرون في آثار قدرة الله ووحدانيتة فيؤمنون . . ثم لما وصف القرآن بالرفعة والعظمة ، أتبعه بشرح عظمة الله وجلاله فقال ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو﴾ أي هو جلٌّ وعلا الإله المعبود بحقٍ لا إله ولا رب سواه ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي عالم السر والعلن ، يعلم ما غاب عن العباد مما لم يبصروه ، وما شاهدوه وعلموه ﴿هو الرحمن الرحيم﴾ أي هو تعالى ذو الرحمة الواسعة في الدنيا والآخرة ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو﴾ كرر اللفظ اعتناءً بأمر التوحيد أي لا معبود ولا رب سواه ﴿المليك﴾ أي المالك لجميع المخلوقات ، المتصرف في خلقه بالأمر والنهي ، والإيجاد والإعدام ﴿القدوس﴾ أي المنزه عن القبائح وصفات الحوادث قال في التسهيل : القدوسُ مشتقٌ من التقديس وهو التنزه عن صفات المخلوقين ، وعن كل نقص وعيب ، والصيغة للمبالغة كالسُبوح^(٣) ، وقد ورد أن الملائكة تقول في تسبيحها : «سُبوح قدوس ، ربُّ الملائكة والروح» ﴿السلام﴾ أي الذي سلم الخلق من عقابه ، وأمنوا من جوره ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ وقال البيضاوي : أي ذو السلامة من كل نقص وآفة ، وهو مصدر وصف به للمبالغة^(٤) ﴿المؤمن﴾ أي المصدق لرسله بإظهار المعجزات على أيديهم ﴿المهيمن﴾ أي الرقيب الحافظ لكل شيء وقال ابن عباس : الشهيد على عباده بأعمالهم الذي لا يغيب عنه شيء^(٥) ﴿العزیز﴾ أي القادر القاهر الذي لا يُغلب ولا يناله ذلٌ ﴿الجبار﴾ أي القهار العالی الجنب الذي يذل له من دونه قال ابن عباس : هو العظيم الذي إذا أراد أمراً فعله ، وجبروتُ الله عظمته^(٦) ﴿المتكبر﴾ أي الذي له الكبرياء حقاً ولا تليق إلا به وفي الحديث القدسي (العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني فيهما قصمته

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٧٩ . (٢) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٥١ .

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١١١ . (٤) تفسير الخازن ٤/ ٧٢ . (٥) تفسير القرطبي ١٨/ ٤٧ . (٦) تفسير الخازن ٤/ ٧٢ .

هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِيُّ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

ولا أبالي (١) قال الإمام الفخر: واعلم أن المتكبر في صفة الناس صفة ذم ، لأن المتكبر هو الذي يُظهر من نفسه الكبر ، وذلك نقصٌ في حق الخلق ، لأنه ليس له كبر ولا علو ، بل ليس له إلا الذلة والمسكنة ، فإذا أظهر العلو كان كاذباً فكان مذموماً في حق الناس ، وأما الحق سبحانه فله جميع أنواع العلو والكبرياء ، فإذا أظهره فقد أرشد العباد إلى تعريف جلاله وعظمته وعلوه ، فكان ذلك في غاية المدح في حقه جل وعلا (٢) ، ولهذا قال في آخر الآية ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ أي تنزه الله وتقدس في جلاله وعظمته ، عمّا يلحقون به من الشركاء والأنداد ﴿هو الله الخالق البارئ﴾ أي هو جل وعلا الإله الخالق لجميع الأشياء ، الموجد لها من العدم ، المنشئ لها بطريق الاختراع ﴿المصور﴾ أي المبدع للأشكال على حسب إرادته ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ قال الخازن : أي الذي يخلق صورة الخلق على ما يريد (٣) ﴿له الأسماء الحُسنى﴾ أي له الأسماء الرفيعة الدالة على محاسن المعاني ﴿يسبح له ما في السموات والأرض﴾ أي ينزهه تعالى عن صفات العجز والنقص جميع ما في الكون بلسان الحال أو المقال قال الصاوي : ختم السورة بالتسبيح كما ابتدأها به إشارة إلى أنها المقصود الأعظم ، والمبدأ والنهاية ، وأن غاية المعرفة بالله تنزيه عظمته عما صورته العقول (٤) ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي العزيز في ملكه ، الحكيم في خلقه وصنعه .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي :

- ١ - طباق السلب ﴿ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾ .
- ٢ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه﴾ وبين ﴿وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ .
- ٣ - وضع الضمير بين المبتدأ والخبر لإفادة الحصر ﴿أولئك هم الصادقون﴾ .
- ٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿تبوءوا الدار والإيمان﴾ شبه الإيمان المتمكن في نفوسهم ، بمنزلٍ ومستقر للإنسان نزل فيه وتمكّن منه حتى صار منزلاً له ، وهو من لطيف الاستعارة .
- ٥ - الاستفهام الذي يراد به الإنكار والتعجب ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا ..﴾ الآية .
- ٦ - الطباق بين جميعاً وشتى في قولهم ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ .
- ٧ - التشبيه التمثيلي ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ..﴾ وجه الشبه منتزع من متعدد .

(١) تفسير القرطبي ٤٧/١٨ (٢) التفسير الكبير ٢٩/٢٩٤ . (٣) تفسير الخازن ٧٣/٤ . (٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/١٩٤ .

٨ - الكناية اللطيفة ﴿ولتنتظر نفسٌ ما قدمت لغدٍ﴾ كنى عن القيامة بالغد لقرنها .

٩ - الطباق بين ﴿الغيب . . والشهادة﴾ وبين ﴿الجنة . . والنار﴾ الخ .

لطيفة : أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : إني مجهد - أي اشتد بي الجوع والفاقة - فأرسل إلى بعض نسائه يسألها هل عندك شيء ؟ فقالت : والذي بعثك بالحق ما عندي إلا الماء ، ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك ، وقلن كلهن مثل ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : من يضيفه هذه الليلة يرحمه الله ؟ فقام رجل من الأنصار يقال له « أبو طلحة » فقال : أنا يا رسول الله !! فانطلق به إلى رحله - أي إلى منزله - فقال لها : هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخري عنه شيئاً وأكرميهِ ، فقالت : ما عندي إلا قوتُ الصبيان ، فقال عللهم بشيء ونومهم ، فإذا دخل ضيفنا فأريه أنا نأكل ثم قومي إلى السراج كي تصلحيه فأطفئيه ، ففعلت ففعلوا وأكل الضيف وباتا طاويين ، فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ فلما نظر إليه رسول الله ﷺ تبسم ، ثم قال : لقد عجب الله من صنيعكما الليلة بصاحبكما وأنزل الله ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . . الآية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحشر »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية ، التي تهتم بجانب التشريع ، ومحور السورة يدور حول فكرة « الحبّ والبغض في الله » الذي هو أوثق عُرى الإيمان ، وقد نزل صدر السورة عتاباً لحاطب بن أبي بلتعة حين كتب كتاباً لأهل مكة يخبرهم أن الرسول ﷺ قد تجهز لغزوهم ، كما ذكر تعالى حكم موالة أعداء الله ، وضرب الأمثال في إبراهيم والمؤمنين في تبرؤهم من المشركين ، وبيّن حكم الذين لم يقاتلوا المسلمين ، وحكم المؤمنات المهاجرات وضرورة امتحانهن ، وغير ذلك من الأحكام التشريعية .

* ابتدأت السورة الكريمة بالتحذير من موالة أعداء الله ، الذين آذوا المؤمنين حتى اضطروهم إلى الهجرة وترك الديار والأوطان ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء . . .﴾ الآيات .

* ثم بينت السورة أنّ القرابة والنسب والصدقة في هذه الحياة لن تنفع الإنسان أبداً يوم القيامة ، حيث لا ينفع الإنسان إلا الإيمان والعمل الصالح ﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة . . .﴾ الآيات .

* ثم ضربت المثل في إيمان إبراهيم عليه السلام وأتباعه المؤمنين ، حين تبرءوا من قومهم المشركين ، ليكون ذلك حافزاً لكل مؤمن على الاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براءء منكم وما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً . . .﴾ الآيات .

* وتحدثت السورة عن حكم الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتسقطوا إليهم . . .﴾ وحكم الذين قاتلوا المؤمنين وأذوهم ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين . . .﴾ الآيات .

* وبينت السورة وجوب امتحان المؤمنات عند الهجرة ، وعدم ردهنّ إلى الكفار إذا ثبت إيمانهن ، وقررت عدم الاعتداد بعصمة الكافر ، ثم حكم مبايعة النساء للرسول ﷺ وشروط هذه البيعة ﴿يا أيها

الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن . . . ﴿ الآيات وقوله ﴾ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأيعنك على ألا يشركن بالله شيئاً . . . ﴿ الآيات .

* وختمت السورة بتحذير المؤمنين من موالات أعداء الله الكافرين ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ، قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ وهكذا ختمت السورة بمثل ما بدأت به من التحذير من موالات أعداء الله ، ليتناسق الكلام في البدء والختام .

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء . . . إلى . . . كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾

من آية (١) إلى آية (١٣) نهاية السورة .
اللفظة : ﴿ أولياء ﴾ أصدقاء وأحباء جمع ولي وهو الصديق والناصر والمعين ﴿ يتفقوكم ﴾ يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ، وأصل الثقف الحذق في إدراك الشيء وفعله ، ومنه قولهم « رجل ثقيف لقف » ثم استعمل في الظفر والإدراك مطلقاً^(١) ﴿ أسوة ﴾ قدوة يقتدى به ﴿ أرحامكم ﴾ جمع رحم وهو في الأصل رحم المرأة ، واشتهر في القرابة حتى صار كالحقيقة فيها ﴿ ظاهرها ﴾ أعانوا ﴿ عصم ﴾ جمع عصمة وهي ما يعتصم ويتمسك به الإنسان من حبل أو عقد والمراد به هنا عقد النكاح ﴿ الكوافر ﴾ جمع كافرة وهي التي لا تؤمن بالله .

سبب النزول : لما تجهز رسول الله ﷺ لفتح مكة ، كتب « حاطب بن أبي بلتعة » إلى أهل مكة يخبرهم بذلك وقال لهم : إن رسول الله ﷺ يريد أن يغزوكم فخذوا حذرکم ، ثم أرسل الكتاب مع ظعينة - أي امرأة مسافرة - فنزل الوحي على رسول الله ﷺ يخبره بذلك ، فبعث رسول الله ﷺ علياً ، والزبير ، والمقداد وقال : « انطلقوا حتى تأتوا « روضة خاخ »^(٢) فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فأتوني به » فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا لها أخرجي الكتاب ، فقالت : ما معي من كتاب ، فقلنا لها : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب فأخرجته من عقاصها^(٣) ، فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ : ما هذا يا حاطب ؟ فقال يا رسول الله : لا تعجل عليّ إني كنت أمراً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفراً وارتداداً عن ديني ، فقال عمر ، دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ! ! فقال عليه الصلاة والسلام : إنه شهد بدرًا ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ! فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء . . . ﴾ الآية^(٤) .

(١) تفسير الألوسي ٦٨/٢٨ . (٢) روضة خاخ مكان على بعد قليل من المدينة . (٣) عقاصها : ضفائر شعرها .

(٤) أخرجه الشيخان وانظر روح المعاني ٦٥/٢٨ والقرطبي ٥٠/١٨ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَخْرُجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَشْفِقُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾ أي يا معشر المؤمنين ، يا من صدقتم بالله ورسوله ، لا تتخذوا الكفار الذين هم أعدائي وأعداؤكم أصدقاء وأحباء ، فإن من علامة الإيمان بغض أعداء الله لا مودتهم وصدافتهم قال في التسهيل : نزلت عتاباً لحاطب وزجراً عن أن يفعل أحد مثل فعله ، وفيها مع ذلك تشریف له لأن الله شهد له بالإيمان في قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ (١) ﴿تلقون إليهم بالمودة﴾ أي تحبونهم وتودونهم وتصادقونهم مع أنهم أعداء ألداء لكم قال القرطبي : أي تخبرونهم بسرائر المسلمين وتنصحون لهم (٢) ﴿وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾ أي والحال أنهم كافرون بدينكم وبقرآنكم الذي أنزله الله عليكم بالحق الواضح ﴿يخرجون الرسول وإياكم﴾ أي يخرجون محمداً من مكة ظلماً وعدواناً كما يخرجون أيضاً منها المؤمنين قال في البحر : وقدم الرسول تشریفاً له ولأنه الأصل للمؤمنين (٣) ، ومعنى إخراجهم أنهم ضيقوا عليهم وآذوهم حتى خرجوا منها مهاجرين إلى المدينة ﴿أن تؤمنوا بالله ربكم﴾ أي من أجل أنكم آمنتم بالله الواحد الأحد كقوله ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ ﴿إن كنتم تخرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾ شرط حذف جوابه أي إن كنتم تخرجتم مجاهدين في سبيل الله طلباً لرضوانه فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء قال الألوسي : وجواب الشرط محذوف دل عليه ما تقدم كأنه قيل : لا تتخذوا أعدائي إن كنتم أوليائي (٤) ﴿تسرون إليهم بالمودة﴾ وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ﴿أي تسرون إليهم بالنصيحة وأنا العالم بسريرتكم وعلانيتكم ، لا يخفي علي شيء من أحوالكم ؟ والغرض منه التوبيخ والعتاب﴾ ﴿ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ أي ومن يصادق أعداء الله ، ويفش أسرار الرسول ، فقد حاد عن طريق الحق والصواب . . ثم أخبر تعالى المؤمنين بعداوة الكفار الشديدة لهم ، المستحكمة في قلوبهم فقال ﴿إن يشفقوكم يكونوا لكم أعداء﴾ أي إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ، يظهرها ما في قلوبهم من العداوة الشديدة لكم ﴿ويسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء﴾ أي يمدوا إليكم أيديهم بالضرب والقتل ، وألسنتهم بالشتن

(١) التسهيل ٤/١١٢ . (٢) تفسير القرطبي ١٨/٥٢ . (٣) تفسير البحر المحيط ٨/٢٥٣ . (٤) تفسير الألوسي ٢٨/٦٧ .

لَنْ تَنْفَعَكَ أَرْحَامُكَ وَلَا أَوْلَادُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٦٠﴾ قَدْ كَانَتْ لَكَ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٦١﴾

والسبُّ ﴿وودُّوا لو تكفروا﴾ أي وقد تمنوا أن تكفروا لتكونوا مثلهم قال الزمخشري : وإنما أورده بذكر الماضي ﴿وودوا﴾ بعد أن ذكر جواب الشرط بلفظ المضارع ﴿لو تكفروا﴾ لأنهم أرادوا كفرهم قبل كل شيء (١) كقوله تعالى ﴿وودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء﴾ ﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم﴾ أي لن تفيدكم قراباتكم ولا أولادكم الذين توالون الكفار من أجلهم يوم القيامة شيئاً ، فلن يجلبوا لكم نفعاً ، ولن يدفعوا عنكم ضرراً قال الصاوي : هذا تخطئة لحاطب في رأيه كأنه قال : لا تحملكم قراباتكم وأولادكم الذين بمكة ، على خيانة رسول الله ﷺ والمؤمنين ، ونقل أخبارهم وموالاة أعدائهم ، فإنه لا تنفعكم الأرحام ولا الأولاد الذين عصيتم الله من أجلهم (٢) ﴿يوم القيامة يفصل بينكم﴾ أي في ذلك اليوم العصيب ، يحكم الله بين المؤمنين والكافرين ، فيدخل المؤمنين جنات النعيم ، ويدخل المجرمين دركات الجحيم ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي مطلع على جميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه﴾ أي قد كان لكم يا معشر المؤمنين قدوة حسنة في الخليل إبراهيم ومن معه من المؤمنين ﴿إذ قالوا لقومهم إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي حين قالوا للكفار إِنَّا متبرءون منكم ومن الأصنام التي تعبدونها من دون الله ﴿كفرنا بكم﴾ أي كفرنا بدينكم وطريقتكم ﴿وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً﴾ أي وظهرت بيننا وبينكم العداوة والبغضاء إلى الأبد ما دمت على هذه الحالة ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ أي إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده ، وتركوا ما أنتم عليه من الشرك والأوثان قال المفسرون : أمر الله المؤمنين أن يقتدوا بإبراهيم الخليل عليه السلام وبالذين معه في عداوة المشركين والتبرؤ منهم ، لأن الإيمان يقتضي مقاطعة أعداء الله وبغضهم ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك﴾ أي إلا في استغفار إبراهيم لأبيه فلا تقتدوا به ، فإنه إنما استغفر لأبيه المشرك رجاء إسلامه ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾ ﴿وما أملك لك من الله من شيء﴾ هذا من تنمة كلام إبراهيم لأبيه أي ما أذفع عنك من عذاب الله شيئاً إن أشركت به ، ولا أملك لك شيئاً غير الاستغفار ﴿ربنا عليك توكلنا﴾ أي عليك اعتمدنا في جميع أمورنا ﴿وإليك أنبنا﴾ أي وإليك رجعنا وتبنا ﴿وإليك المصير﴾ أي وإليك المرجع والمعاد في الدار الآخرة قال المفسرون : إن إبراهيم وعد أباه بالاستغفار كما في سورة مريم قال ﴿سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيماً﴾ واستغفر له بالقول فعلاً كما في

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ * عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ ﴿٧﴾ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨﴾ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾

سورة الشعراء ﴿٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٦﴾ وكلُّ هذا كان رجاء إسلامه ، ثم رجع عن ذلك لما تيقن كفره كما في سورة التوبة ﴿٧﴾ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴿٨﴾ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا بعذاب لا نطقه (١) وقال مجاهد : أي لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا : لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ذلك ﴿٩﴾ وَاغْفِرْ لَنَا ﴿١٠﴾ أي اغفر لنا ما فرط من الذنوب ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي أنت يا الله الغالب الذي لا يذل من التجأ إليه ، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما فيه الخير والمصلحة ، وتكرار النداء للمبالغة في التضرع والجوار . ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي لقد كان لكم في إبراهيم ومن معه من المؤمنين قدوة حسنة في التبرؤ من الكفار قال أبو السعود : والتكرير للمبالغة في الحث على الاقتداء به عليه السلام ولذلك صُدِّرَ بالقسم (٢) ﴿لَمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي لمن كان يرجو ثواب الله تعالى ، ويخاف عقابه في الآخرة ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي ومن يعرض عن الإيمان وطاعة الرحمن ، فإن الله مستغن عن أمثاله وعن الخلق أجمعين ، وهو المحمود في ذاته وصفاته ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ أي لعل الله جل وعلا يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم من أقاربكم المشركين محبة ومودة ، محبة بعد البغضاء ، وألفة بعد الشحنةاء قال في التسهيل : لما أمر الله المسلمين بعداوة الكفار ومقاطعتهم ، على ما كان بينهم وبين الكفار من القرابة والمودة ، وعلم الله صدقهم أنسهم بهذه الآية ، ووعدهم بأن يجعل بينهم مودة أي محبة ، وهذه المودة كملت في فتح مكة فإنه أسلم حينئذ سائر قريش (٣) ، وجمع الله الشمل بعد التفرق وقال الرازي : وعسى وعد من الله تعالى وقد حقق تعالى ما وعدهم به من اجتماع كفار مكة بالمسلمين ، ومخالطتهم لهم حين فتح مكة (٤) ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي قادر لا يعجزه شيء ، يقدر على قلب القلوب وتغيير الأحوال ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة ، لمن تاب إليه وأتاب ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أي لا ينهاكم عن البر بهؤلاء الذين لم يجاربوكم لأجل دينكم ، ولم يخرجوكم من أوطانكم كالنساء والصبيان ، ولفظة ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ في موضع جرب « عن » أي لا ينهاكم جل وعلا عن البر والإحسان هؤلاء ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي تعدلوا معهم ﴿إِنَّ

(١) القول الأول مروى عن ابن عباس ، والثاني قول مجاهد والأول هو الأرجح لأنه دعاء لأنفسهم بعدم تمكن الكفار من رقابهم ، وهو اختيار ابن عطية . (٢) تفسير أبي السعود ١٥٧/٥ . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١١٤/٤ . (٤) التفسير الكبير ٢٩/٣٠٣ .

إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٌ فَاَمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِنَّ فَإِن عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُم أَن تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا

الله يحبّ المقسطين ﴿٦٠﴾ أي يحب العادلين في جميع أمورهم وأحكامهم قال ابن عباس : نزلت في خزاعة ، وذلك أنهم صالحوا رسول الله ﷺ على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً ، فرخص الله في برهم والإحسان إليهم (١) . . . وروي عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت : قدمت أمي - وهي مشركة - في عهد قريش حين عاهدوا رسول الله ﷺ - تعني في صلح الحديبية - فأتيت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله : إن أمي قدمت وهي راغبة أفصلها ؟ قال : نعم صلي أمك (٢) ، فأنزل الله ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين . . . ﴾ الآية ﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهرنا على إخراجكم أن تولّوهم ﴾ أي إنما ينهاكم الله عن صداقة ومودة الذين ناصبوكم العداوة ، وقاتلوكم لأجل دينكم ، وأعانوا أعداءكم على إخراجكم من دياركم ، أن تتولّوهم فتتخذوهم أولياء وأنصاراً وأحباباً ﴿ ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون ﴾ أي ومن يصادق أعداء الله ويجعلهم أنصاراً وأحباباً ، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ﴾ أي اختبروهن لتعلموا صدق إيمانهن قال المفسرون : كان صلح الحديبية الذي جرى بين رسول الله ﷺ وكفار مكة قد تضمن أن من أتى أهل مكة من المسلمين لم يرد إليهم ، ومن أتى المسلمين من أهل مكة - يعني المشركين - رد إليهم ، فجاءت « أم كلثوم » بنت عقبة بن أبي معيط مهاجرة إلى رسول الله ﷺ ، فخرج في أثرها أخوها « عمارة » و « الوليد » فقالوا للنبي ﷺ : رُدّها علينا بالشرط ، فقال ﷺ : كان الشرط في الرجال لا في النساء ، فأنزل الله الآية ، قال ابن عباس : كانت المرأة تُستحلف أنها ما هاجرت بغضاً لزوجها ، ولا طمعاً في الدنيا ، وأنها ما خرجت إلا حباً لله ورسوله ، ورغبة في دين الإسلام (٣) ﴿ الله أعلم بإيمانهن ﴾ أي الله أعلم بصدقهن في دعوى الإيمان ، لأنه تعالى المطلع على قلوبهن ، والجملة اعتراضية لبيان أن هذا الامتحان بالنسبة للمؤمنين ، وإلا فالله عالم بالسرائر لا تخفى عليه خافية ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار ﴾ أي فإن تحققت إيمانهن بعد امتحانهن فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار ﴿ لا هنّ حلّ لهم ولا هم يحلّون لهن ﴾ أي لا تحلّ المؤمنة للمشرك ، ولا يحلّ للمؤمن نكاح المشركة قال الألوسي : والتكرير للتأكيد والمبالغة في الحرمة وقطع العلاقة بين المؤمنة والمشرك (٤) ﴿ وآتوهم ما أنفقوا ﴾ أي أعطوا أزواجهن الكفار ما أنفقوا عليهن من المهور قال في البحر :

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٩/٤/٣ . (٢) أخرجه الشيخان وأحمد . (٣) تفسير البحر المحيط ٨/٢٥٦ . (٤) تفسير الألوسي ٢٨/٧٦ .

مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَبَسْتُمْ لِبَسَاءَهُمْ مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَ حُرْمٌ مِنَ اللَّهِ بِحُكْمٍ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ
مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَمَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴿١١﴾ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ
مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ

أمر أن يُعطى الزوج الكافر ما أنفق على زوجته إذا أسلمت ، فلا يجمع عليه خسران الزوجة والمالية (١) ﴿١٠﴾ ولا
جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ﴿١١﴾ أَي وَلَا حَرَجَ وَلَا إِثْمَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَزَوَّجُوا هَؤُلَاءِ
الْمُهَاجِرَاتِ إِذَا دَفَعْتُمْ لَهُنَّ مَهْرَهُنَّ قَالَ الْخَازِنُ : أَبَاحَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ نِكَاحَ الْمُهَاجِرَاتِ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ إِلَى دَارِ
الْإِسْلَامِ وَإِنْ كَانَ لَهُنَّ أَزْوَاجٌ كُفَّارٌ - لِأَنَّ الْإِسْلَامَ فَرَّقَ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ أَزْوَاجِهِنَّ الْكُفَّارِ ، وَتَقَعَ الْفَرْقَةُ بِانْقِضَاءِ
عِدَّتِهِنَّ (٢) ﴿١٢﴾ وَلَا تُنْسَكُوا بِعَصْمِ الْكُوفَرِ ﴿١٣﴾ أَي وَلَا تَتَمَسَّكُوا بِعُقُودِ زَوْجَاتِكُمُ الْكُفَّارَاتِ ، فَلَيْسَ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُنَّ عَصْمَةٌ وَلَا عِلَاقَةٌ زَوْجِيَّةٌ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : الْمُرَادُ بِالْعَصْمَةِ هُنَا النِّكَاحُ ، يَقُولُ : مَنْ كَانَتْ لَهَا امْرَأَةٌ
كَافِرَةٌ بِمَكَّةَ فَلَا يَعتَدُ بِهَا فَلَيْسَتْ امْرَأَتُهُ ، فَقَدْ انْقَطَعَتْ عَصْمَتُهَا لِاخْتِلَافِ الدَّارَيْنِ (٣) ﴿١٤﴾ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ
وَلَيْسَ أَلَا مَا أَنْفَقُوا ﴿١٥﴾ أَي اظْطَبِرُوا يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنَ الْمَهْرِ إِذَا لَحِقَتْ أَزْوَاجِكُمُ الْكُفَّارِ ، وَلِيُطْلَبُوا
هَمٌّ - أَي الْمَشْرُكُونَ - مَا أَنْفَقُوا عَلَى أَزْوَاجِهِمُ الْمُهَاجِرَاتِ قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : كَانَ مِنْ ذَهَبٍ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ
مَرْتِدَاتٍ إِلَى الْكُفَّارِ يُقَالُ لِلْكَفَّارِ : هَاتُوا مَهْرَهَا ، وَيُقَالُ لِلْمُسْلِمِينَ إِذَا جَاءَتْ إِحْدَى الْكُفَّارَاتِ مُسْلِمَةً
مُهَاجِرَةً : رَدُّوا إِلَى الْكُفَّارِ مَهْرَهَا ، وَكَانَ ذَلِكَ نَصْفًا وَعَدْلًا بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ (٤) ﴿١٦﴾ ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ بِحُكْمِ
بَيْنَكُمْ ﴿١٧﴾ أَي ذَلِكَ هُوَ شَرْعُ اللَّهِ وَحُكْمُهُ الْعَادِلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكُمْ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٩﴾ أَي عَلِيمٌ
بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ ، حَكِيمٌ فِي تَشْرِيعِهِ لَهُمْ ، يَشْرَعُ مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ
إِلَى الْكُفَّارِ ﴿٢١﴾ أَي وَإِنْ فَرَّتْ زَوْجَةٌ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَحِقَتْ بِالْكَفَّارِ ﴿٢٢﴾ فَعَاقِبْتُمْ ﴿٢٣﴾ أَي فَغَزَوْتُمْ وَغَنِمْتُمْ
وَأَصَبْتُمْ مِنَ الْكُفَّارِ غَنِيمَةً ﴿٢٤﴾ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴿٢٥﴾ أَي فَأَعْطَوْا مَنْ فَرَّتْ زَوْجَتُهُ ،
مِثْلَ مَا أَنْفَقَ عَلَيْهَا مِنَ الْمَهْرِ ، مِنَ الْغَنِيمَةِ الَّتِي بِأَيْدِيكُمْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَعْنِي إِنْ لَحِقَتْ امْرَأَةٌ رَجُلًا مِنَ
الْمُهَاجِرِينَ بِالْكَفَّارِ ، أَمْرُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُعْطَى مِثْلَ مَا أَنْفَقَ مِنَ الْغَنِيمَةِ (٥) قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : لَمَّا نَزَلَتْ
الْآيَةُ السَّابِقَةُ ﴿٢٦﴾ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلَا مَا أَنْفَقُوا ﴿٢٧﴾ قَالَ الْمُسْلِمُونَ : رَضِينَا بِمَا حَكَمَ اللَّهُ ، وَكُتِبُوا إِلَى
الْمَشْرِكِينَ فَامْتَنَعُوا فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (٦) ﴿٢٨﴾ وَأَتَقُوا اللَّهَ ﴿٢٩﴾ أَي وَرَاقِبُوا اللَّهَ فِي أَقْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ ، وَاحْذَرُوا
عَذَابَهُ وَانْتِقَامَهُ إِنْ خَالَفْتُمْ أَوْامِرَهُ ﴿٣٠﴾ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ أَي الَّذِي آمَنْتُمْ وَصَدَقْتُمْ بِوُجُودِهِ ، فَإِنْ مِنْ
مَسْتَلْزِمَاتِ الْإِيمَانِ تَقْوَى الرَّحْمَنِ . . . وَلَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ جَاءَ نِسَاءَ أَهْلِ مَكَّةَ يُبَايِعُنَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ ،
كَمَا بَايَعَهُ الرِّجَالُ فَنَزَلَتْ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ﴿٣٣﴾ أَي إِذَا
جَاءَ إِلَيْكَ النِّسَاءُ الْمُؤْمِنَاتُ لِلْبَيْعَةِ فَبَايِعُهُنَّ عَلَىٰ هَذِهِ الْأُمُورِ السَّتَةِ الْهَامَةِ ، وَفِي مَقْدَمِهَا عَدَمُ الْإِشْرَاقِ بِاللَّهِ

(١) البحر المحيط ٢٥٧/٨ . (٢) تفسير الخازن ٧٩/٤ . (٣) تفسير القرطبي ٦٥/١٨ . (٤) تفسير القرطبي ٦٨/١٨ .

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٤٨٦/٣ . (٦) تفسير القرطبي ٦٨/١٨ ثم نقل القرطبي عن قتادة ان هذا الحكم قد نسخ بسورة براءة .

وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعَهُنَّ
وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾

جلّ وعلا ﴿ولا يسرقن ولا يزنين﴾ أي ولا يرتكبن جريمة السرقة ولا جريمة الزنى ، التي هي من أفحش الفواحش ﴿ولا يقتلن أولادهن﴾ أي ولا يئدن البنات كما كان يفعله أهل الجاهلية خوف العار أو خشية الفقر ، قال ابن كثير : وهذا يشمل قتله بعد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق أو العار ، ويعمُّ قتله وهو جنين كما يفعله بعض النساء الجاهلات ، تُطرح نفسها لثلاث تجل ، إمّا لغرض فاسد أو ما أشبهه^(١) ﴿ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهن﴾ أي لا تنسب إلى زوجها ولدًا لقيطاً ليس منه تقول له : هذا ولدي منك قال المفسرون : كانت المرأة إذا خافت مفارقة زوجها لها لعدم الحمل ، التقت ولدًا ونسبته له ليقبها عنده ، فالمراد بالآية اللقيط ، وليس المراد الزنى لتقدمه في النهي صريحاً^(٢) قال ابن عباس : لا تلحق بزوجها ولدًا ليس منه ، وقال الفراء : كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها : هذا ولدي منك ، وإنما قال ﴿يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهن﴾ لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها^(٣) ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ أي ولا يخالفن أمرك فيما أمرتهن به من معروف ، أو نهيتهن عنه من منكر ، بل يسمعن ويطعن ﴿فبايعهنّ واستغفرهنّ الله﴾ أي فبايعهن يا محمد على ما تقدم من الشروط ، واطلب هنّ من الله الصّحح والغفران لما سلف من الذنوب ﴿إنّ الله غفور رحيم﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة قال أبو حيان : كانت «بيعة النساء» في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا ، بعدما فرغ من بيعة الرجال ، وكان رسول الله ﷺ على الصفا وعمر أسفل منه ، يبايعهنّ بأمره ويبلغهنّ عنه ، وما مست يده عليه الصلاة والسلام يد امرأة أجنبية قط ، وقالت « أسماء بنت السكن » : كنت في النسوة المبايعات ، فقلت يا رسول الله : أبسط يدك نبايعك ، فقال لي عليه الصلاة والسلام : (إني لا أصافح النساء ، لكن أخذ عليهنّ ما أخذ الله عليهنّ) وكانت « هند بنت عتبة » - وهي التي شقت بطن حمزة يوم أحد - متنكرة في النساء ، فلما قرأ عليهنّ الآية ﴿على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن﴾ قالت وهي متنكرة يا رسول الله : إن أبا سفيان رجل شحيح ، وإني لأصيب الهنة - أي القليل وبعض الشيء - من ماله ، لا أدري أيجل لي ذلك أم لا ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فقال لها : وإنك لهند بنت عتبة ؟ قالت نعم فاعفُ عما سلف يا نبي الله ، عفا الله عنك ، فلما قرأ ﴿ولا يزنين﴾ قالت : أو تزني الحرة ؟ فلما قرأ ﴿ولا يقتلن أولادهن﴾ قالت : ربناهم صغاراً وقتلتهم كباراً فأنتم وهم أعلم - وكان ابنها حنظلة قد قُتل يوم بدر - فضحك عمر حتى استلقى ، وتبسم رسول الله ﷺ فلما قرأ ﴿ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهنّ

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٨٩ . (٢) انظر حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٢٠٠ وتفسير أبي السعود ٥/١٥٨ وتفسير الرازي

٣٠٨/٢٩ . (٣) روح المعاني للألوسي ٢٨/٨٠ .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَدْسُوا مِنْ الْأَخِرَةِ كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ

الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

وأرجلهم ﴿﴾ قالت هند : والله إن البهتان لأمرٌ قبيح ، ولا يأمر الله إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فلما قرأ ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ قالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء^(١) وأخرج الإمام أحمد عن « أميمة بنت رقيقة » - أخت السيدة خديجة وخالة فاطمة الزهراء - قالت : أتيت رسول الله ﷺ في نساءٍ لنبايعة ، فأخذ علينا ما في القرآن ﴿ألا نشرك بالله شيئاً﴾ الآية وقال : (فيما استطعتن وأطقتن) فقلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، قلنا يا رسول الله : ألا تصافحنا ؟ قال : « إني لا أصافح النساء ، إنما قولي لامرأةٍ واحدة قولي لمائة امرأة »^(٢) ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ أي لا تصادقوا يا معشر المؤمنين الكفرة أعداء الدين ، ولا تتخذوهم أجباء وأصدقاء توالونهم وتأخذون بأرائهم ، فإنهم قوم غضب الله عليهم ولعنهم قال الحسن البصري : هم اليهود لقوله تعالى ﴿غير المغضوب عليهم﴾ وقال ابن عباس : هم كفار قريش لأن كل كافر عليه غضبٌ من الله^(٣) ، والظاهر أن الآية عامة كما قال ابن كثير : يعني اليهود والنصارى وسائر الكفار ، ممن غضب الله عليه ولعنه^(٤) ﴿قد يسوا من الآخرة﴾ أي أولئك الفجار الذين يسوا من ثواب الآخرة ونعيمها ﴿كما يبس الكفار من أصحاب القبور﴾ أي كما يبس الكفار المكذبون بالبعث والنشور ، من أمواتهم أن يعودوا إلى الحياة مرة ثانية بعد أن يموتوا ، فقد كانوا يقولون إذا مات لهم قريب أو صديق : هذا آخر العهد به ، ولن يبعث أبداً^(٥) . . . ختم تعالى السورة الكريمة بمثل ما فتحها به وهو النهي عن موالات الكفار أعداء الله ، وهو بمثابة التأكيد للكلام ، وتناسق الآيات في البدء والختام ، وهو من البلاغة في مكان .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق في قوله ﴿وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم﴾ لأن الإخفاء يطابق الإعلان .
- ٢ - العتاب والتوبيخ ﴿تُسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم . . .﴾ الآية .
- ٣ - تقديم ما حقه التأخير لإفادة الصيغة للحصر ﴿ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير﴾ ، والأصل توكلنا عليك ، وأنبنا إليك . . الخ .
- ٤ - صيغة المبالغة ﴿قدير ، غفور ، رحيم﴾ وهو كثير في القرآن ومثله ﴿عليم حكيم﴾ .

(١) تفسير البحر المحيط ٢٥٨/٨ وانظر التفسير الكبير للرازي ٣٠٧/٢٩ . (٢) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي . (٣) البحر المحيط

٢٥٩/٨ . (٤) مختصر تفسير ابن كثير ٤٩٠/٣ .

(٥) هذا هو الراجح في تفسير الآية الكريمة وهو خلاصة قول ابن عباس وقتادة والحسن ، وقال مجاهد معناه أنهم يسوا من نعيم الآخرة كما يبس الكفار الذين هم في القبور من كل خير ، والأول أظهر والله أعلم .

- ٥ - طباق السلب ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم ﴾ ثم قال ﴿ إنما ينهاكم الله . . ﴾ الآية .
- ٦ - الجملة الاعتراضية ﴿ الله أعلم بإيمانهم ﴾ للإشارة إلى أن للإنسان الظاهر والله يتولى السرائر .
- ٧ - العكس والتبديل ﴿ لا هنَّ حلٌّ لهم ، ولا هم محلّون لهنَّ ﴾ وهو من أنواع البديع .
- ٨ - الكناية اللطيفة ﴿ ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ كنى بذلك عن اللقيط ، وهي من لطائف الكنايات .
- ٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿ قد يشسوا من الآخرة كما يشس الكفار من أصحاب القبور ﴾ كما أن فيه من المحسنات البديعية ما يسمى رد العجز على الصدر ، حيث ختم السورة بمثل ما ابتدأها ليتناسق البدء مع الختام .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الممتحنة »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الصف هي إحدى السور المدنية ، التي تُعنى بالأحكام التشريعية ، وهذه السورة تتحدث عن موضوع « القتال » وجهاد أعداء الله ، والتضحية في سبيل الله لإعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، وعن التجارة الرباحة التي بها سعادة المؤمن في الدنيا والآخرة ، ولكن المحور الذي تدور عليه السورة هو « القتال » ، ولهذا سميت سورة الصف .

* ابتدأت السورة الكريمة - بعد تسبيح الله وتمجيده - بتحذير المؤمنين من إخلاف الوعد ، وعدم الوفاء بما التزموا به ﴿ سَبَّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ * يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟

* ثم تحدثت عن قتال أعداء الله بشجاعة المؤمن وبسالته ، لأنه يقاتل من أجل غرض نبيل ، وهو رفع منار الحق ، وإعلاء كلمة الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِيَانٍ مَرْصُوعِينَ ﴾ .

* وتناولت السورة بعد ذلك موقف اليهود من دعوة موسى وعيسى عليهما السلام ، وما أصابهما من الأذى في سبيل الله ، وذلك تسلية لرسول الله ﷺ فيما ناله من كفار مكة ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

* وتحدثت السورة عن سنة الله في نصرته دينه ، وأنبيائه ، وأوليائه ، وضربت المثل للمشركين في عزمهم على محاربة دين الله ، بمن يريد إطفاء نور الشمس بقمه الحقيقير ﴿ يَرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَاللَّهُ مَتَمِّمٌ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ .

* ودعت السورة المؤمنين إلى التجارة الرباحة ، وحرصتهم على الجهاد في سبيل الله بالنفس والنفيس ، لينالوا السعادة الدائمة الكبيرة مع النصر العاجلة في الدنيا ، وخاطبتهم بأسلوب الترغيب والتشويق ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله . . . ﴿ الآيات .

✽ وختمت السورة بدعوة أهل الإيمان إلى نصرته دين الرحمن ، كما فعل الحواريون أصحاب عيسى حين دعاهم إلى نصرته دين الله فاستجابوا ونصروا الحق والرسول ✽ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله . . ✽ وهكذا يتناسق البدء مع الختام في أبداع بيان وإحكام .

قال الله تعالى : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . . . إِلَى . . . وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (٩) .

اللغة : ﴿سَبَّحَ﴾ التسبيح تمجيد الله وتنزيهه عما لا يليق به من صفات النقص ﴿العزیز﴾
الغالب الذي لا يُغلب ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء في مواضعها ويفعل ما تقتضيه الحكمة ﴿مقتاً﴾
بغضاً قال الزمخشري : المقت : أشدُّ البغض وأبلغه وأفحشه^(١) ﴿المرصوص﴾ المتماسك المتلاصق بعضه
ببعض قال الفراء : رصصتُ البناء إذا لائمُ بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة^(٢) ﴿زاعوا﴾ مالوا عن
الهدى والحق ﴿البيئات﴾ المعجزات الواضحات .

سبب النزول : روي أن المسلمين قالوا : لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا
وأفئسنا !! فلما فرض الله الجهاد كرهه بعضهم فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟
كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾^(٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا
تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾

التفسير : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي نزه الله وقُدَّسه ومجَّده جميع ما
في السموات والأرض من ملك ، وإنسان ، ونبات ، وجماد ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا
تفقهون تسبيحهم﴾ قال الإمام الفخر : أي شهد له بالربوبية والوحدانية وغيرها من الصفات الحميدة
جميع ما في السموات والأرض^(٤) ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي وهو الغالب في ملكه ، الحكيم في
صنعه ، الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ أي يا أيها
الذين صدَّقوا الله ورسوله لم تقولون بألسنتكم شيئاً ولا تفعلونه ؟ ولأي شيء تقولون نفل ما لا تفعلونه
من الخير والمعروف ؟ وهو استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ قال ابن كثير : هذا إنكار على من يعد

(١) تفسير الكشاف ٤/٣١٤ . (٢) التفسير الكبير ٢٩/٣١١ . (٣) تفسير أبي السعود ٥/١٥٩ . (٤) التفسير الكبير ٢٩/٣١٠ .

كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿١٠١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ
بَنِيْنَ مَرَّصُوْصٍ ﴿١٠٢﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِمَ تَقُولُونَ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا
زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي

وعداً ، أو يقول قولاً لا يفي به ، وفي الصحيحين « آية المنافق ثلاث : إذا وعد أخلف ، وإذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان » (١) ثم أكد الإنكار عليهم بقوله ﴿كبر مقتاً عند الله﴾ أي عظم فعلكم هذا بغضاً عند ربكم ﴿أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ أي أن تقولوا شيئاً ثم لا تفعلونه ، وأن تعدوا بشيء ثم لا تفون به قال ابن عباس : كان ناسٌ من المؤمنين - قبل أن يُفرض الجهاد - يقولون : لوددنا أن الله عز وجل دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان بالله لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرأوا به ، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناسٌ من المؤمنين وشق عليهم أمره فنزلت الآية (٢) وقيل : هو أن يأمر الإنسان أخاه بالمعروف ولا ياتمر به ، وينهاه عن المنكر ولا ينتهي عنه كقوله تعالى ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ ؟ ثم أخبرهم تعالى بفضيلة الجهاد في سبيل الله فقال ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾ أي يحب المجاهدين الذين يصفون أنفسهم عند القتال صفاً ، ويثبتون في أماكنهم عند لقاء العدو ﴿كأنهم بنيان مرصوص﴾ أي كأنهم في تراصهم وثبوتهم في المعركة ، بناءً قد رُصَّ بعضه ببعض ، وألصق وأحكم حتى صار شيئاً واحداً قال القرطبي : ومعنى الآية أنه تعالى يجب من يثبت في الجهاد في سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء ، وهذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوهم (٣) . . ولما ذكر تعالى أمر الجهاد ، بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد ، وجهادا في سبيل الله وأوذيا بسبب ذلك فقال ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني﴾ ؟ أي واذكر يا محمد لقومك قصة عبده ووكليمه « موسى بن عمران » حين قال لقومه بني إسرائيل : لم تفعلون ما يؤذيني (٤) ؟ ﴿وقد تعلمون أنني رسول الله إليكم﴾ أي والحال أنكم تعلمون علماً قطعياً - بما شاهدتموه من المعجزات الباهرة - أنني رسول الله إليكم ، وتعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة ؟ وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من كفار مكة ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ أي فلما مالوا عن الحق ، أمال الله قلوبهم عن الهدى ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي والله لا يوفق للخير والهدى من كان فاسقاً خارجاً عن طاعة الله قال الرازي : وفي هذا تنبيه على عظم إيذاء الرسل ، حتى إنه يؤدي إلى الكفر وزيف القلوب عن الهدى (٥) . . ثم ذكر تعالى قصة عيسى عليه السلام فقال ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم﴾ أي واذكر يا محمد لقومك هذه القصة

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٤٩١/٣ . (٢) المختصر ٤٩٢/٣ . وهذا القول هو اختيار الطبري .

(٣) تفسير القرطبي ٨٢/١٨ . (٤) قال القرطبي : وإذئته عليه السلام حين رموه بالأدرة - وهو انتفاخ الخصية - ومن الأذى أنهم دسوا امرأة تدعى عليه الفجور ، ومن الأذى قلوبهم ﴿اجعل لنا إلهاً كما هم إلهة﴾ وقولهم ﴿إذهب أنت وربك فقاتلا﴾ . (٥) التفسير الكبير ٣١٣/٢٩ .

رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِعُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٦٨﴾

أيضاً حين قال عيسى لبني إسرائيل إني رسول الله أرسلت إليكم بالوصف المذكور في التوراة قال
القرطبي : ولم يقل « يا قوم » كما قال موسى ، لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه^(١) فإنه لم يكن له فيهم
أب ﴿ مصدقاً لما بين يدي من التوراة ﴾ أي حال كوني مصدقاً ومعترفاً بأحكام التوراة ، وكتب الله
وأنبيائه جميعاً ، ولم أتكم بشيء يخالف التوراة حتى تنفروا عني ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي
اسمه أحمد ﴾ أي وجئت لأبشركم ببعثة رسول يأتي بعدي يسمى « أحمد » قال الألوسي : وهذا الاسم
الكريم علمٌ لنبينا محمد ﷺ كما قال حسان :

صَلَّى إِلَيْهِ وَمَنْ يَحْفُ بِعَرْشِهِ وَالطَّيِّبُونَ عَلَى الْمُبَارِكِ « أَحْمَدُ »^(٢)

وفي الحديث (لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا
الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا العاقب)^(٣) ومعنى العاقب الذي لا نبي بعده ، وروي أن
الصحابة قالوا يا رسول الله أخبرنا عن نفسك ! فقال : دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي
حين حملت بي كأنه خرج منها نوراً أضاءت له قصور الشام^(٤) ﴿ فلما جاءهم بالبينات ﴾ أي فلما جاءهم
عيسى بالمعجزات الواضحات ، من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، ونحو ذلك من المعجزات
الدالة على صدقه في دعوى الرسالة^(٥) ﴿ قالوا هذا سحرٌ مبين ﴾ أي قالوا عن عيسى : هذا ساحرٌ جاءنا
بهذا السحر الواضح ، والإشارة بقولهم « سحر » إلى المعجزات التي ظهرت على يديه عليه السلام ، قال
المفسرون : بشر كل نبي قومه بنبينا محمد ﷺ ، وإنما أفرد تعالى ذكر عيسى بالبشارة في هذا الموضع لأنه آخر
نبي قبل نبينا ﷺ ، فبين تعالى أن البشارة به عمّت جميع الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى
عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى
الإسلام ﴾ استفهامٌ بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن يدعوه ربه إلى الإسلام على لسان نبيه ، فيجعل مكان
إجابته إفتراء الكذب على الله بتسمية نبيه ساحراً ، وتسمية آيات الله المنزلة سحراً ﴿ واللّه لا يهدي القوم
الظالمين ﴾ أي لا يوفق ولا يرشد إلى الفلاح والهدى من كان فاجراً ظالماً ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله
بأفواههم ﴾ أي يريد المشركون بأن يطفئوا دين الله وشرعه المنير بأفواههم قال الفخر الرازي : وإطفاء نور
الله تعالى تهكمٌ بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن إنه سحر ، شُبّهت حالهم بحال من ينفخ
في نور الشمس بفيه ليطفئه^(٦) ، وفيه تهكمٌ وسخريةٌ بهم ﴿ واللّه متمُّ نوره ﴾ أي واللّه مظهرٌ لدينه ،

(١) تفسير القرطبي ٨٣/١٨ . (٢) تفسير الألوسي ٨٦/٢٨ . (٣) أخرجه البخاري ومسلم . (٤) سيرة ابن اسحق قال ابن كثير : إسناده جيد . (٥) هذا هو الظاهر أن الضمير يعود على « عيسى » لأنه المحدث عنه ، وقيل : يعود على « أحمد » الذي بشروا به ، والأول اختيار

البيضاوي والألوسي وصاحب البحر المحيط ، وهو الأظهر . (٦) التفسير الكبير ٣١٤/٢٩

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِأَلْهَدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١٠﴾

بنشره في الآفاق ، وإعلائه على الأديان ، كما جاء في الحديث (إنَّ الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقتها ومغاربها ، وإنَّ ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها . .) الحديث^(١) والمراد أنَّ هذا الدين سينتشر في مشارق الدنيا ومغاربها ﴿ولو كره الكافرون﴾ أي ولو كره ذلك الكافرون المجرمون ، فإنَّ الله سيعز شأن هذا الدين رغم أنف الكافرين قال في حاشية البيضاوي : كان كفار مكة يكرهون هذا الدين الحق ، من أجل توغلهم في الشرك والضلال ، فكان المناسب إذلالهم وإرغامهم بإظهار ما يكرهونه من الحق ، وليس المراد من إظهاره ألا يبقى في العالم من يكفر بهذا الدين ، بل المراد أن يكون أهله عالين غالبين على سائر أهل الأديان بالحجة والبرهان ، والسيف واللسان ، إلى آخر الزمان^(٢) ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ أي هو جلَّ وعلا بقدرته وحكمته بعث رسوله محمداً ﷺ بالقرآن الواضح ، والدين الساطع ﴿ليظهره على الدين كله﴾ أي ليعليه على سائر الأديان المخالفة له ، من يهودية ونصرانية وغيرهما ﴿ولو كره المشركون﴾ أي ولو كره ذلك أعداء الله ، المشركون بالله غيره قال أبو السعود : ولقد أنجز الله وعده بإعزاز دين الإسلام ، حيث جعله بحيث لم يبق دين من الأديان ، إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام^(٣) .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة .. إلى .. فأصبحوا ظاهرين﴾ من آية (١٠) إلى آية (١٤) نهاية السورة .

المناسكة : لما بيَّن تعالى أن المشركين يريدون إطفاء نور الله ، أمر المؤمنين بمجاهدة أعداء الدين ، ودعاهم إلى التضحية بالمال والنفس والجهد في سبيل الله ، وبيَّن لهم أنها التجارة الرباحة لمن أراد سعادة الدارين .

اللغة : ﴿تنجيكم﴾ تخلصكم وتنقذكم ﴿الحواريون﴾ الأصفياء والخواص من أتباع عيسى ، وهم الذين ناصروا المسيح عليه السلام ﴿أيدينا﴾ قوينا وساندنا ﴿ظاهرين﴾ غالبين بالحجة والبرهان .

سبب النزول : روي أن بعض الصحابة قالوا يا نبيَّ الله : لوددنا أن نعلم أيَّ التجارات أحبَّ إلى الله فتنجر فيها !! فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾^(٤) ؟ الآيات .

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم ، ومعنى « زوى الأرض » أي جمعها حتى رآها صلوات الله عليه . (٢) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٩٠ . (٣) تفسير أبي السعود ٥/ ١٦١ . (٤) تفسير القرطبي ١٨/ ٨٧ .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدْلَكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَّابُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ مُجْبُونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ النَّفْسِيرُ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدْلَكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾ أي يا من صدقتم الله ورسوله وأمنتهم بربكم حق الإيمان ، هل أدلكم على تجارة رابحة جلييلة الشأن ؟ والاستفهام للتشويق ﴿تنجيكم من عذاب أليم﴾ أي تخلصكم وتنقذكم من عذاب شديد مؤلم . . ثم بيّن تلك التجارة ووضحها فقال ﴿تؤمنون بالله ورسوله﴾ إيماناً صادقاً ، لا يشوبه شك ولا نفاق ﴿وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم﴾ أي وتجاهدون أعداء الدين بالمال والنفس ، لإعلاء كلمة الله قال المفسرون : جعل الإيمان والجهاد في سبيله « تجارة » تشبيهاً لهما بالتجارة ، فإنها عبارة عن مبادلة شيء بشيء ، طمعاً في الربح ، ومن آمن وجاهد بماله ونفسه فقد بذل ما عنده وما في وسعه ، لنيل ما عند ربه من جزيل ثوابه ، والنجاة من أليم عقابه ، فشبّه هذا الثواب والنجاة من العذاب بالتجارة لقوله تعالى ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ قال الإمام الفخر : والجهاد ثلاثة أنواع : ١ - جهادٌ فيما بينه وبين نفسه ، وهو قهر النفس ومنعها عن اللذات والشهوات . ٢ - جهادٌ فيما بينه وبين الخلق ، وهو أن يدع الطمع منهم ويشفق عليهم ويرحمهم ٣ - جهادٌ أعداء الله بالنفس والمال نصرةً لدين الله ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي ما أمرتكم به من الإيمان والجهاد في سبيل الله ، خير لكم من كل شيء في هذه الحياة ، إن كان عندكم فهمٌ وعلمٌ ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾ هذا جواب الجملة الخبرية ﴿تؤمنون بالله ورسوله﴾ لأن معناها معنى الأمر أي آمنوا بالله وجاهدوا في سبيله فإذا فعلتم ذلك يغفر لكم ذنوبكم أي يسترها عليكم ، ويمحها بفضله عنكم ﴿ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي ويدخلكم حدائق وبساتين ، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾ أي ويسكنكم في قصور رقيقة في جنات الإقامة ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ أي ذلك الجزء المذكور هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه ، والسعادة الدائمة الكبيرة التي لا سعادة بعدها ﴿وأخرى مجبونها﴾ أي ويمن عليكم بخصلةٍ أخرى تجبونها وهي ﴿نصرٌ من الله وفتحٌ قريب﴾ أي أن ينصركم على أعدائكم ، ويفتح لكم مكة وقال ابن عباس : يريد فتح فارس والروم ﴿وبشّر المؤمنين﴾ أي وبشّر يا محمد المؤمنين ، بهذا الفضل المبين قال في البحر : لما ذكر تعالى ما يمنحهم من الثواب في الآخرة ، ذكر لهم ما يسرهم في العاجلة ، وهي ما يفتح الله عليهم من البلاد^(١) ، فهذه هي خير الدنيا موصولٌ بنعيم الآخرة ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصاراً لله﴾ أي انصروا دين الله وأعلوا مناره ﴿كما قال عيسى ابن

(١) التفسير الكبير ٢٩/٣١٦ . (٢) تفسير البحر المحيط ٨/٢٦٣ .

مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

مريم للحواريين ﴿ أي كما نصر الحواريون دين الله حين قال لهم عيسى بن مريم ﴾ من أنصاري إلى الله ﴿ أي من ينصرنني ويكون عوني لتبليغ دعوة الله ، ونصرة دينه ؟ ﴾ قال الحواريون نحن أنصار الله ﴿ أي قال أتباع عيسى - وهم المؤمنون الخالص من خاصته المستجيبون لدعوته - نحن أنصار دين الله قال البيضاوي : والحواريون أصفياءه وهم أول من آمن به ، مشتق من الحور وهو البياض ، وكانوا اثني عشر رجلاً^(١) وقال الرازي : والتشبيه في الآية محمول على المعنى أي كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار الله^(٢) ﴾ فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة ﴿ أي فانقسم بنو إسرائيل إلى جماعتين : جماعة آمنت به وصدقته ، وجماعة كفرت وكذبت برسالة عيسى ﴾ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ﴿ أي فقوينا المؤمنين على أعدائهم الكافرين ﴾ فأصبحوا ظاهرين ﴿ أي حتى صاروا غالبين عليهم بالحجة والبرهان قال ابن كثير : لما بلغ عيسى بن مريم رسالة ربه ، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به ، وضلت طائفة فجحداوا نبوته ، ورموه وأمه بالعظام ، وهم اليهود عليهم لعنة الله ، وغلت فيه طائفة من أتباعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة ، وافترقوا فيه فرقاً وشيعاً ، فمنهم من زعم أنه ابن الله ، ومنهم من قال إنه ثالث ثلاثة « الأب والابن وروح القدس » ومنهم من قال : إنه الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - فنصر الله المؤمنين على من عاداهم من فرق النصارى^(٣) .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يأتي :

١ - أسلوب التوبيخ ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ ؟ وهي « ما » الاستفهامية حذف ألفها تخفيفاً ، والغرض من الاستفهام التوبيخ .

٢ - الإطناب بتكرار ذكر اللفظ لبيان غاية قبح ما فعلوه ﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ وبين ﴿ تقولوا .. وتفعلوا ﴾ طباق .

٣ - التشبيه المرسل المفصل ﴿ كأنهم بنيان مرصوص ﴾ أي في المتانة والترصص .

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله ﴾ استعار نور الله لدينه وشرعه المنير ، وشبهه من أراد إبطال الدين بمن أراد إطفاء الشمس بفمه الحقير ، على طريق الاستعارة التمثيلية ، وهذا من لطيف الاستعارات .

(١) حاشية البيضاوي ٤٩٢/٣ . (٢) التفسير الكبير ٣١٩/٢٩ . (٣) مختصر ابن كثير ٤٩٥/٣ .

٥ - الاستفهام للترغيب والتشويق ﴿هل أدلكم على تجارة﴾ ؟ .

٦ - الطباق ﴿فأمنت طائفة . . وكفرت طائفة﴾ .

٧ - السجع المرصع كأنه حبات در منظومة في سلك واحد مثل ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾
﴿قالوا هذا سحر مبين﴾ ﴿وبشر المؤمنين﴾ وهو من المحسنات البديعية .

تنبية : إنما قرنت قصة موسى وعيسى في هذه السورة لأنها من أنبياء بني إسرائيل ، وهما من أعظم أنبيائهم ومن أولي العزم الذين ذكرهم الله في كتابه العزيز بالثناء والتبجيل .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الصف »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* هذه السورة الكريمة مدنية وهي تتناول جانب التشريع ، والمحور الذي تدور عليه السورة بيان أحكام « صلاة الجمعة » التي فرضها الله على المؤمنين .

* تناولت السورة الكريمة بعثة خاتم الرسل محمد بن عبد الله ﷺ وبيّنت أنه الرحمة المهداة ، أنقذ الله به العرب من ظلام الشرك والضلال ، وأكرم به الإنسانية ، فكانت رسالته بلساناً لأعراض المجتمع البشري ، بعد أن كان يتخبط في الظلام .

* ثم تحدثت السورة عن اليهود ، وانحرفهم عن شريعة الله ، حيث كُلفوا بالعمل بأحكام التوراة ، ولكنهم أعرضوا عنها ونبذوها وراء ظهورهم ، وضربت مثلاً لهم بالحمار ، الذي يحمل على ظهره الكتب الكبيرة النافعة ، ولكنه لا يناله منها إلا العناء والتعب ، وذلك نهاية الشقاء والتعاسة .

* ثم تناولت أحكام « صلاة الجمعة » فدعت المؤمنين إلى المسارعة لأداء الصلاة ، وحرمت عليهم البيع وقت الأذان ووقت النداء لها ، وختمت بالتحذير من الإشغال عن الصلاة بالتجارة واللهو كحال المنافقين ، الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى متناقلين .

قال الله تعالى : ﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض .. إلى .. والله خير الرازيين ﴾
من آية (١) إلى آية (١١) نهاية السورة .

اللغة: ﴿ الأميين ﴾ العرب المعاصرين للنبي ﷺ سُموا بذلك لاشتغالهم بالأمية وهي عدم القراءة والكتابة ﴿ يزكّهم ﴾ من التزكية وهي التطهير من دنس الشرك والمعاصي ﴿ أسفاراً ﴾ جمع سفر وهو الكتاب الكبير قال الشاعر :

زوامل للأسفار لا علم عندهم بجيّدتها إلا كعلم الأباغر
لعمرك ما يدري البعيرُ إذا غدا بأوساقه أو راحَ ما في الغرائر^(١)
﴿ هادوا ﴾ تدينوا باليهودية ﴿ انفضوا ﴾ تفرقوا وانصرفوا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَنْ يَضَلُّوا مِثْلَ مِثْلٍ ﴿٢﴾

سَبَبُ الزُّوْلِ : عن جابر رضي الله عنه قال « بينا النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قائماً ، إذ قدمت غير من المدينة ، فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً أنا فيهم وأبو بكر وعمر ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكَوْا قَائِمًا . . ﴾ (١) الآية .

التفسير : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي ينزه الله ويمجده ويقدسه كل شيء في الكون من إنسان ، وحيوان ، ونبات ، وجماد ، وصيغة المضارع ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار ، فهو تسبيح دائم على الدوام ﴿ الْمَلِكِ ﴾ أي هو الإله المالك لكل شيء ، المتصرف في خلقه بالإيجاد والإعدام ﴿ الْقُدُّوسِ ﴾ أي المقدس والمنزه عن النقائص ، المتصف بصفات الكمال ﴿ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ أي العزيز في ملكه ، الحكيم في صنعه ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ أي هو جل وعلا برحمته وحكمته الذي بعث في العرب رسولاً من جملتهم ، أمياً مثلهم لا يقرأ ولا يكتب قال المفسرون : سُمِّيَ العرب أميين لأنهم لا يقرأون ولا يكتبون ، فقد اشتهرت فيهم الأمية كما قال عليه الصلاة والسلام (نحن أمة أمية ، لا نكتب ولا نحسب) (٢) الحديث والحكمة في اقتضاره على ذكر الأميين ، مع أنه رسول إلى كافة الخلق ، تشریف العرب حيث أضيف صلوات الله عليه إليهم ، وكفى بذلك شرفاً للعرب ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ أي يقرأ عليهم آيات القرآن ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي يطهرهم من دنس الكفر والذنوب قال ابن عباس : أي يجعلهم أذكاء القلوب بالإيمان (٣) ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أي ويعلمهم ما يتلى من الآيات والسنة النبوية المطهرة ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَنْ يَضَلُّوا مِثْلَ مِثْلٍ ﴾ أي وإن الحال والشأن أنهم كانوا من قبل إرسال محمد ﷺ إليهم لفي ضلال واضح ، عن النهج القويم ، والصرراط المستقيم قال ابن كثير : بعث الله محمداً ﷺ على حين فتره من الرسل ، وطموس من السُّبُل ، وقد اشتدت الحاجة إليه ، فقد كان العرب متمسكين بدين إبراهيم الخليل فبدلوه وغيروه ، واستبدلوا بالتوحيد شركاً ، وباليقين شكاً ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله ، وكذلك كان أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرّفوها ، فبعث الله محمداً ﷺ بشرع عظيم ، شامل كامل ، فيه الهداية والبيان لكل ما يحتاج الناس إليه من أمر معاشهم ومعادهم ، وجمع له تعالى جميع المحاسن ، وأعطاه ما لم يعط أحداً من

(١) أخرجه البخاري ومسلم وانظر تفسير « روح المعاني » للألوسي ١٠٤ / ٢٨ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم . (٣) تفسير القرطبي ٩٢ / ١٨ .

وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ^١ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٠﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٣١﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٢﴾

الأولين والآخرين^(١) ﴿٣٠﴾ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴿٣١﴾ أي وبعث الرسول إلى قوم آخرين ، لم يكونوا في زمانهم وسيجيئون بعدهم ، وهم جميع من أسلم إلى يوم القيامة قال الصاوي : والمعنى أنه بعث إلى المؤمنين الموجودين في زمانه ، وإلى الآتين منهم بعدهم ، فليست رسالته خاصة بمن كان موجوداً في زمانه ، بل هي عامة لهم ولغيرهم إلى يوم القيامة^(٢) ، وفي الحديث عن أبي هريرة قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأُنزلت عليه سورة الجمعة ﴿٣١﴾ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴿٣٠﴾ قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : وفينا سلمان الفارسي ، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجالٌ من هؤلاء »^(٣) قال مجاهد : في تفسير الآية : هم الأعاجم وكلٌ من صدق النبي ﷺ من غير العرب^(٤) ﴿٣٠﴾ وهو العزيز الحكيم ﴿٣١﴾ أي القويُّ الغالب في ملكه ، الحكيم ، في صنعه ﴿٣٢﴾ ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء ﴿٣٠﴾ أي ذلك الشرف الذي امتاز به سيد البشر ، وهو كونه مبعوثاً إلى كافة الناس ، وما شرف الله به العرب من نزول القرآن بلغتهم ، وإرسال خاتم الرسل إليهم ، هو فضلُ الله يعطيه لمن يشاء من خلقه ﴿٣١﴾ والله ذو الفضل العظيم ﴿٣٢﴾ أي هو جل وعلا ذو الفضل الواسع على جميع خلقه في الدنيا والآخرة . . ثم شرع تعالى في ذم اليهود الذين أكرمهم الله بالتوراة ، فلم ينتفعوا بها ولم يطبقوها ، وشبههم بالحمار الذي يحمل الأسفار فقال ﴿٣١﴾ مثلُ الذين حُمِّلوا التوراة ﴿٣٠﴾ أي مثل اليهود الذين أعطوا التوراة ، وكلفوا العمل بما فيها ﴿٣١﴾ ثم لم يعملوها ﴿٣٠﴾ أي ثم لم يعملوا بها ، ولم ينتفعوا بهديها ونورها ﴿٣٢﴾ كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴿٣٠﴾ أي مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل الكتب النافعة الضخمة ، ولا يناله منها إلا التعب والعناء قال القرطبي : شبههم تعالى - والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها - بالحمار يحمل كتباً ، وليس له إلا ثقل الحمل من غير فائدة ، فهو يتعب في حملها ولا ينتفع بما فيها^(٥) وقال في حاشية البيضاوي : ذمَّ تعالى اليهود بأنهم قراءُ التوراة ، علمون بما فيها ، وفيها آيات دالة على صحة نبوة محمد ﷺ ووجوب الإيمان به ، ولكنهم لم ينتفعوا بها مما ينجيهم من شقاوة الدارين ، وشبههم بالحمار الذي يحمل أسفار العلم والحكمة ولا ينتفع بها ، ووجه التشبيه حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شيء في الانتفاع ، مع الكدِّ والتعب^(٦) ﴿٣١﴾ بئسَ مثلُ القوم الذين كذبوا بآياتِ الله ﴿٣٠﴾ أي بئسَ هذا المثل الذي ضربناه لليهود ، مثلاً للقوم الذين كذبوا بآيات الله ، الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام^(٧) ﴿٣٢﴾ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴿٣١﴾ أي لا يوفق للخير ، ولا يرشد للإيمان من كان ظالماً فاسقاً قال عطاء : هم الذين

(١) مختصر ابن كثير ٣/٤٩٧ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٢٠٤ . (٣) أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم .

(٤) مختصر ابن كثير ٣/٤٩٨ . (٥) تفسير القرطبي ١٨/٩٥ . (٦) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/٤٩٤ . (٧) أقول : هذه الآية

الكريمة فيها تعريضٌ بنا معشر المسلمين إن لم نطبق أحكام القرآن ونعمل بمقتضاه وهو على حد قولهم : إياك أعني واسمعي يا جارة

قُلْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٦﴾
 وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ إِن الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ
 ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ
 يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾

ظلموا أنفسهم بتكذيبهم للأنبياء^(١) ، ثم كذب تعالى اليهود في دعوى أنهم أحباب الله فقال ﴿قل يا أيها الذين هادوا﴾ أي قل يا محمد هؤلاء الذين تهودوا وتمسكوا بجملة اليهودية ﴿إن زعتم أنكم أولياء لله من دون الناس﴾ أي إن كنتم أولياء الله وأحباؤه حقاً كما تدعون ﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ أي فتمنوا من الله أن يميتكم ، لتنتقلوا سريعاً إلى دار كرامته المعدة لأوليائه ، إن كنتم صادقين في هذه الدعوى قال أبو السعود : كان اليهود يقولون : ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ ويدعون أن الدار الآخرة لهم عند الله خالصة ، ويقولون ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً﴾ فأمر الله رسوله أن يقول لهم إظهاراً لكذبهم : إن زعتم ذلك فتمنوا الموت ، لتنتقلوا من داء البلاء إلى دار الكرامة ، فإن من أيقن بأنه من أهل الجنة ، أحب أن يتخلص إليها من هذه الدار التي هي مقر الأكدار^(٢) ، قال تعالى فاضحاً لهم ، ومبيناً كذبهم ﴿ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم﴾ أي ولا يتمنون الموت بحال من الأحوال ، بسبب ما أسلفوه من الكفر والمعاصي وتكذيب محمد عليه السلام وفي الحديث «والذي نفسي بيده ، لو تمنوا الموت ما بقي على ظهرها يهودي إلا مات»^(٣) قال الألوسي : لم يتمن أحد الموت منهم ، لأنهم كانوا موقنين بصدقه عليه السلام ، فعلموا أنهم لو تمنوه لماتوا من ساعتهم ، وهذه إحدى المعجزات ، وجاء في سورة البقرة نفي هذا التمني بلفظ ﴿ولن﴾ وهو من باب التفنن على القول المشهور^(٤) ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ أي عالم بهم وما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصي ، وإنما وضع الظاهر موضع الضمير «عليم بهم» ذماً لهم ، وتسجيلاً عليهم بأنهم ظالمون^(٥) ﴿قل إن الموت الذي تفرون منه﴾ أي قل لهم يا محمد : إن هذا الموت الذي تهربون منه ، وتخافون أن تتمنوه حتى بلسانكم ﴿فإنه ملاقيكم﴾ أي فإنه آتيكم لا محالة ، لا يتفعلكم الفرار منه كقوله تعالى ﴿أيئنا تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ لأنه قدر محتوم ، ولا يغني حذر عن قدر ﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ أي ثم ترجعون إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي فيجازيكم على أعمالكم ، وفيه وعيد وتهديد . . ثم شرع تعالى في بيان أحكام الجمعة فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة﴾ أي يا معشر المؤمنين المصدقين بالله ورسوله ، إذا سمعتم المؤذن ينادي لصلاة الجمعة ويؤذن لها ﴿فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع﴾ أي فامضوا إلى سماع خطبة الجمعة وأداء الصلاة ،

(١) التفسير الكبير للرازي ٥/٢٩ . (٢) تفسير أبي السعود ٥/١٦٣ . (٣) تفسير القرطبي ١٨/٩٦ .

(٤) روح المعاني ٢٨/٩٦ . (٥) تفسير أبي السعود ٥/١٦٣ .

فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ هَمَّوْا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١٢﴾

واتركوا البيع والشراء ، اتركوا التجارة الخاسرة واسعوا إلى التجارة الرباحة قال في التسهيل : والسعي في الآية بمعنى المشي لا بمعنى الجري^(١) لحديث « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة »^(٢) . . وقال الحسن : والله ما هو بالسعي على الأقدام ، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، ولكنه سعي بالقلوب ، والنية ، والخشوع^(٣) ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ أي ذلك السعي إلى مرضاة الله ، وترك البيع والشراء ، خير لكم وأنفع من تجارة الدنيا ، فإن نفع الآخرة أجل وأبقى ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم القويم ، والفهم السليم ﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾ أي فإذا أدبتم الصلاة وفرغتم منها ﴿ فانتشروا في الأرض ﴾ أي ففرقوا في الأرض وانثوا فيها للتجارة وقضاء مصالحكم ﴿ وابتغوا من فضل الله ﴾ أي واطلبوا من فضل الله وإنعامه ، فإن الرزق بيده جلّ وعلا وهو المنعم المتفضل ، الذي لا يضيع عمل العامل ، ولا يجيب أمل السائل ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ أي واذكروا ربكم ذكراً كثيراً ، باللسان والجنان ، لا وقت الصلاة فحسب ﴿ لعلمكم تفلحون ﴾ أي كي تفوزوا بخير الدارين قال سعيد بن جبير : ذكر الله طاعته ، فمن أطاع الله فقد ذكره ، ومن لم يطعه فليس بذاكر ولو كان كثير التسبيح^(٤) . . ثم أخبر تعالى أن فريقاً من الناس يؤثرون الدنيا الفانية على الآخرة الباقية ، ويفضلون العاجل على الأجل فقال ﴿ وإذا رأوا تجارةً أو هماً أنفضوا إليها ﴾ هذا عتاب لبعض الصحابة الذين انصرفوا عن رسول الله ﷺ وتركوه قائماً يخطب يوم الجمعة ، والمعنى : إذا سمعوا بتجارة رابحة ، أو صفقة قادمة ، أو شيء من هو الدنيا وزينتها ، تفرقوا عنك يا محمد وانصرفوا إليها ، وأعاد الضمير إلى التجارة دون اللهو ﴿ انفضوا إليها ﴾ لأنها الأهم المقصود ﴿ وتركوك قائماً ﴾ أي وتركوا الرسول قائماً على المنبر يخطب قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ قائماً على المنبر يخطب يوم الجمعة ، فأقبلت عير من الشام بطعام قدم بها « دحية الكلبي » - وكان أصاب أهل المدينة جوعاً وغلاء سعر - وكانت عادتهم أن تدخل العير المدينة بالطبل والصياح سروراً بها ، فلما دخلت العير كذلك انفض أهل المسجد إليها ، وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر ، ولم يبق معه إلا اثني عشر رجلاً قال جابر بن عبد الله : أنا أحدهم فنزلت الآية^(٥) قال ابن كثير : وينبغي أن يعلم أن هذه القصة كانت لما كان رسول الله ﷺ يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة كما هو الحال في العيدين ، كما روى ذلك أبو داود^(٦) ﴿ قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ﴾ أي قل لهم يا محمد : إن ما عند الله من الثواب والنعيم ، خير مما أصبتموه من اللهو والتجارة ﴿ والله خير الرازقين ﴾ أي خير من رزق

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١١٩ . (٢) أخرجه الستة . (٣) تفسير القرطبي ١٨/ ١٠٣ .

(٤) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٩٦ . (٥) انظر سبب النزول المتقدم . (٦) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٠٢ .

وأعطى ، فاطلبوا منه الرزق ، وبه استعينوا لنيل فضله وإنعامه .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - التشبيه التمثيلي ﴿مثل الذين حُمِّلُوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد أي مثلهم في عدم الانتفاع بالتوراة ، كمثل الحمار الذي يحمل على ظهره الكتب العظيمة ولا يكون له منها إلا التعب والعناء .

٢ - طباق السلب ﴿فتمنوا الموت .. ولا يتمنونه أبداً﴾ .

٣ - الطباق بين ﴿الغيب والشهادة﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٤ - التفنن بتقديم الأهم في الذكر ﴿وإذا رأوا تجارةً أو لهواً﴾ لأن المقصود الأساسي هو التجارة فقدمها ثم قال ﴿قل ما عند الله خيرٌ من اللهو ومن التجارة﴾ فقدم اللهو على التجارة لأن الخسارة بما لا نفع فيه أعظم ، فقدم ما هو أهم في الموضوعين .

٥ - المجاز المرسل ﴿وذروا البيع﴾ أطلق البيع وقصد جميع أنواع المعاملة من بيع وشراء وإجارة وغيرها .

تَبْيِيْهُ : يوم الجمعة سمي بذلك لاجتماع المسلمين فيه للصلاة ، وقد كان يسمى في الجاهلية « يوم العروبة » ومعناه الرحمة كما قال السهيلي ، وأول من سمَّاه جمعة « كعب بن لؤي » وأول من صلى بالمسلمين الجمعة « أسعد بن زرارة » صلى بهم ركعتين وذكَّرههم ، فسميت الجمعة حين اجتمعوا إليه ، فهي أول جمعة في الإسلام^(١) .

فَكَايْدَةٌ : كان « عراك بن مالك » إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : « اللهم إني أجبْتُ دعوتك ، وصليتُ فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين »^(٢) .

لَطِيْفَةٌ : التعبير بقوله تعالى ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ فيه لطيفة ، وهي أنه ينبغي للمسلم أن يقوم إلى صلاة الجمعة بعزيمة وهمة ، وجد ونشاط ، لأن لفظ السعي يفيد الجد والعزم ، ولهذا قال الحسن البصري : والله ما هو سعيٌ على الأقدام ، ولكنه سعيٌ بالنية والقلوب .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الجمعة »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة « المنافقون » مدنية ، شأنها شأن سائر السور المدنية ، التي تعالج « التشريعات والأحكام » وتحدث عن الإسلام من زاويته العملية وهي القضايا التشريعية .

* والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث بإسهاب عن النفاق والمنافقين ، حتى سميت السورة بهذا الاسم الفاضح ، الكاشف لأستار النفاق « سورة المنافقون » .

* تناولت السورة الكريمة في البدء أخلاق المنافقين ، وصفاتهم الذميمة التي من أظهرها الكذب ، ومخالفة الظاهر للباطن ، فإنهم يقولون بألسنتهم ما لا تعتقده قلوبهم ، ثم تأمرهم على الرسول ﷺ وعلى المسلمين ، وقد فضحتهم السورة وكشفت عن مخازيمهم وإجرامهم ، فهم بتظاهرهم بالإسلام يصدؤون الناس عن دين الله وينالون من دعوة الإسلام ما لا يناله الكافر المعلن لكفره ، ولذلك كان خطرهم أعظم ، وضررهم أكبر وأجسم ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾ .

* كما تحدثت السورة الكريمة عن مقالاتهم الشنيعة في حق الرسول ﷺ ، واعتقادهم بأن دعوته ستضمحل وتلاشى ، وأنهم بعد عودتهم من « غزوة بني المصطلق » سيتردون الرسول والمؤمنين من المدينة المنورة ، إلى غير ما هنالك من أقوال شنيعة .

* وختمت السورة الكريمة بتحذير المؤمنين من أن ينشغلوا بزينة الدنيا ولهوها ومتاعها عن طاعة الله وعبادته شأن المنافقين ، وبيّنت أن ذلك طريق الخسران ، وأمرت بالإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، قبل أن يفوت الأوان بانتهاء الأجل ، فيتحسر الإنسان ويندم حيث لا تنفع الحسرة والندم .

اللغز: ﴿جَنَّةٌ﴾ وقاية وسترة يحفظون بها أنفسهم وأموالهم وفي الحديث (الصوم جَنَّة) أي وقاية من عذاب الله ﴿طبع﴾ ختم عليها بالكفر ، والطبعُ : الختم ﴿يُؤفكون﴾ يصرفون عن الحق إلى الضلال ، من الإفك وهو الصِّرف ﴿لووا﴾ عطفوا وحرَّكوا يقال : لوَّى رأسه إذا حرَّكه وأداره ﴿ينفضوا﴾ يتفرقوا ﴿تلهكم﴾ تشغلكم ، واللهو : ما لا خير فيه ولا فائدة من القول أو العمل .

سَبَبُ النَّزُولِ : روي أن النبي ﷺ غزا « بني المصطلق » فزدحم الناسُ على ماءٍ فيه ، فكان ممن ازدحم عليه « جهجاه بن سعيد » أجير لعمر بن الخطاب ، و « سنان الجهني » حليف لعبد الله بن سلول - رأس المنافقين - فلطم الجهجاهُ سناناً ، فغضب سنان وصرخ يالأنصار، وصرخ جهجاه يا للمهاجرين ، فقال « عبد الله بن سلول » أوقد فعلوها !! والله ما مثلنا ومثل هؤلاء - يعني المهاجرين - إلا كما قال الأول « سَمَّنْ كلبك يأكلك » ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل - يعني بالأعز نفسه ، وبالأذل رسول الله ﷺ وصحبه - ثم قال لقومه : إنما يقيم هؤلاء المهاجرون بالمدينة بسبب معونتكم وإنفاقكم عليهم ، ولو قطعتم ذلك عنهم لفروا عن بلدكم ، فسمعه « زيد بن أرقم » فأخبر بذلك رسول الله ﷺ ، وبلغ ذلك ابن سلول فحلف أنه ما قال من ذلك شيئاً وكذب زيداً ، فنزلت السورة إلى قوله تعالى ﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل . . ﴾ (١) الآيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَكَذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾

التفسير : ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ أي إذا أتاك يا محمد المنافقون وحضروا مجلسك كعبد الله بن سلول وأصحابه ﴿ قالوا نشهد أنك لرسول الله ﴾ أي قالوا بألسنتهم نفاقاً ورياءً : نشهد بأنك يا محمد رسول الله ، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قال أبو السعود : أكدوا كلامهم بإن واللام ﴿ إنك لرسول الله ﴾ للإيدان بأن شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم ، وخلصوا اعتقادهم ، ووفور رغبتهم ونشاطهم (١) ﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾ أي والله جل وعلا يعلم أنك يا محمد رسوله حقاً ، لأنه هو الذي أرسلك ، والجملة اعتراضية جيء بها لدفع توهم تكذيبهم في دعوى رسالته ﷺ لثلاثتهم السامع أن قولهم ﴿ إنك لرسول الله ﴾ كذبٌ في حد ذاته قال في التسهيل : وقوله ﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾ ليس من كلام المنافقين ، وإنما هو من كلام الله تعالى ، ولولم يذكره لكان يوهم أن قوله ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ إبطالٌ للرسالة ، فوسَّطه بين حكاية المنافقين وبين تكذيبهم ليزيل هذا الوهم وليحقق الرسالة (٢) ثم قال تعالى ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ أي يشهد بكذب المنافقين فيما أظهروه من شهادتهم وحلفهم بألسنتهم ، لأن من قال بلسانه شيئاً واعتقد خلافه فهو كاذب ، والإظهار في موضع الإضمار ﴿ إن المنافقين ﴾ لذمهم وتسجيل هذه الصفة القبيحة عليهم ، كما جاءت الصيغة مؤكدة بإن واللام زيادة في التقرير والبيان ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ أي اتخذوا أيمانهم الفاجرة وقاية وسُترةً يستترون بها من القتل قال الضحاک : هي حلفهم بالله إنهم مسلمون ﴿ فصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١٢٢/٤ وانظر البخاري . (٢) تفسير أبي السعود ١٦٤/٥ . (٣) التسهيل ٢١٢/٤ .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٠٠﴾ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ
وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ
قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿١٠١﴾

فمنعوا الناسَ عن الجهادِ ، وعن الإيمانِ بِمحمدٍ ﷺ قال الطبري : أي عرضوا عن دين الله الذي بعث به نبيه ﷺ وشريعته التي شرعها لخلقهِ (١) وقال ابن كثير : إن المنافقين اتقوا الناسَ بالإيمان الكاذبة ، فاغترَّ بهم من لا يعرف جليَّةَ أمرهم ، فاعتقدوا أنهم مسلمون ، وهم في الباطن لا يألون الإسلامَ وأهله خبالاً ، فحصل بذلك ضررٌ كبيرٌ على كثيرٍ من الناسِ (٢) ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ أي قبح عملهم وصنيعهم لأنهم يظهرون بمظهر الإيمان ، وهم من أهل النفاق والعصيان ، فبئست أعمالهم الخبيثة من نفاقهم وإيمانهم الكاذبة قال الصاوي : وساء كبئس في إرادة الذم ، وفيها معنى التعجب (٣) وتعظيم أمرهم عند السامعين ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا﴾ أي ذلك الحلف الكاذب والصدُّ عن سبيل الله ، بسبب أنهم آمنوا بالسنتهم وكفروا بقلوبهم قال أبو السعود : أي نطقوا بكلمة الشهادة عند المؤمنين ، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم المجرمين ، وما فيه من الإشارة بالبعيد « ذلك » للإشعار ببعده منزلته في الشر (٤) ﴿فطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي ختم على قلوبهم فلا يصل إليها هدى ولا نور ﴿فهم لا يفقهون﴾ أي فهم لا يعرفون الخير والإيمان ، ولا يفرقون بين الحسن والقبيح ، لختم الله على قلوبهم ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾ أي وإذا رأيت هؤلاء المنافقين ، أعجبتك هيئاتهم ومناظرهم ، لحسنها ونضارتها وضخامتها ﴿وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾ أي وإن يتكلموا تُصغ لكلامهم ، لفصاحتهم وذلاقة لسانهم قال ابن عباس : كان ابن سلول - رأس المنافقين - جسيماً ، فصيحاً ، ذلق اللسان ، فإذا قال سمع النبي ﷺ قوله ، وكذلك كان أصحابه إذا حضروا مجلس النبي ﷺ يعجب الناسُ بهيكلهم (٥) ﴿كأنهم خشبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ أي يشبهون الأخشاب المسندة إلى الحائط ، في كونهم صوراً خالية عن العلم والنظر ، فهم أشباح بلا أرواح ، وأجسام بلا أحلام قال أبو حيان : شَبَّهُوا بالخشب لعزوب أفهامهم ، وفراغ قلوبهم من الإيمان ، والجملة التشبيهية وصف لهم بالجبن والخور (٦) ، ولهذا قال ﴿يحسبون كلَّ صيحةٍ عليهم﴾ أي يظنون - لجبنهم وهلعهم - كل نداء وكل صوت ، أنهم يرادون بذلك ، فهم دائماً في خوفٍ ووجل من أن يهتك الله أستارهم ، ويكشف أسرارهم قال ابن كثير : كلما وقع أمر أو خوفٌ يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم (٧) قال مقاتل : إذا سمعوا نشدان ضالة ، أو صياحاً بأي وجه كان ، طارت عقولهم ، وظنوا ذلك إيقاعاً بهم (٨) ﴿هم العدوُّ فاحذرهم﴾ أي هم الأعداء الكاملون في العداوة لك وللمؤمنين وإن أظهروا الإسلام ، فاحذرهم ولا تأمنهم على سرٍّ ، فإنهم عيون لأعدائك ﴿قاتلهم الله﴾ جملة دعائية أي أخزاهم الله ولعنهم ، وأبعدهم عن رحمته ﴿أنسى يؤفكون﴾ أي كيف يصرفون عن الهدى إلى

(١) تفسير الطبري ٢٨/٦٩ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٥٠٣ . (٣) حاشية الصاوي ٤/٢٠٨ . (٤) تفسير أبي السعود ٥/١٦٥ .

(٥) حاشية الصاوي ٤/٢٠٨ . (٦) البحر المحيط ٨/٢٧٢ . (٧) مختصر ابن كثير ٣/٥٠٤ . (٨) تفسير الألوسي ٢٨/١١١ .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٦٣﴾
 سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦٤﴾
 هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا^١ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ

الضلال ؟ وكيف تضل عقولهم مع وضوح الدلائل والبراهين ! ؟ وفيه تعجيب من جهلهم وضلالهم ، وانصرافهم عن الإيمان بعد قيام البرهان ، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (إنَّ للمنافقين علامات يُعرفون بها : تحيُّتهم لعنة ، وطعامهم نُهبة ، وغنيمتهم غلول ، لا يقربون المساجد إلا هُجراً ، ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرًا ، مستكبرين لا يألفون ولا يُؤلفون ، خشبٌ بالليل ، صُخبٌ بالنهار)^(١) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المنافقين : هلموا إلى رسول الله حتى يطلب لكم المغفرة من الله ﴿ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ ﴾ أي حركوها وهزوها استهزاءً واستكباراً ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي وتراهم يعرضون عمّا دُعوا إليه ، وهم متكبرون عن استغفار رسول الله ﷺ لهم ، وجيء بصيغة المضارع ليدل على استمرارهم على الإعراض والعناد^(٢) قال المفسرون : لما نزلت الآيات تفضح المنافقين وتكشف الأستار عنهم ، مشى إليهم أقرباؤهم من المؤمنين ، وقالوا لهم : ويلكم لقد افتضحتم بالنفاق وأهلكتم أنفسكم ، فأتوا رسول الله وتوبوا إليه من النفاق واسألوه يستغفر لكم ، فأبوا وحركوا رؤوسهم سخريةً واستهزاءً فنزلت الآية ، ثم جاءوا إلى « ابن سلول » وقالوا له : امض إلى رسول الله ﷺ واعترف بذنبك يستغفر لك ، فلوى رأسه إنكاراً لهذا الرأي ثم قال لهم : لقد أشرتم عليّ بالإيمان فأمنتُ ، وأشرتُم عليّ بأن أعطي زكاة مالي ففعلتُ ، ولم يبق لكم إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد ! ! ثم بيّن تعالى عدم فائدة الاستغفار لهم ، لأنهم مردوا على النفاق فقال ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ أي يتساوى الأمر بالنسبة لهم ، فإنه لا ينفع استغفارك لهم شيئاً ، لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ورسوله قال الصاوي : والآية للتيئيس من إيمانهم أي إن استغفارك يا محمد وعدمه سواء ، فهم لا يؤمنون لسبق الشقاوة لهم^(٣) ﴿ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ أي لن يصفح الله عنهم لرسوخهم في الكفر ، وإصرارهم على العصيان ، ثم علّله بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي لا يوفق للإيمان ، من كان فاسقاً خارجاً عن طاعة الرحمن . . ثم زاد تعالى في بيان قبائحهم وجرائمهم فقال ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ﴾ أي هم الفجرة الذين قالوا لا تنفقوا على المهاجرين حتى ينفرقوا عن محمد قال في البحر : والإشارة إلى ابن سلول ومن وافقه من قومه ، سفّه أحلامهم في أنهم ظنوا أن رزق المهاجرين بأيديهم ، وما علموا أن ذلك بيد الله تعالى ، وقولهم ﴿ على من عند رسول الله ﴾ هو على سبيل الهزاء ، إذ لو كانوا مقرين برسالته ما صدر منهم ما صدر ، والظاهر أنهم لم ينطقوا بنفس ذلك اللفظ ، ولكنه تعالى عبّر به

(١) أخرجه أحمد كذا في ابن كثير ٥٠٤ / ٣ . (٢) تفسير البحر المحيط ٢٧٣ / ٨ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٢ / ٩ .

الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧٧﴾ يَقُولُونَ لِنِ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ
وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا
أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ

عن رسوله إكراماً له وإجلالاً^(١) ﴿٧٧﴾ ولله خزائن السموات والأرض ﴿٧٨﴾ أي هو تعالى بيده مفاتيح الرزق يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، ولا يملك أحد أن يمنع فضل الله عن عباده ﴿٧٩﴾ ولكن المنافقين لا يفهمون حكمه الله وتدبيره ، فلذلك يقولون ما يقولون من مقالات الكفر والضلال . . ثم عدّد تعالى بعض قبائحهم وأقوالهم الشنيعة فقال ﴿٧٩﴾ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ﴿٧٧﴾ أي يقولون لئن رجعنا من هذه الغزوة - غزوة بني المصطلق - وعدنا إلى بلدنا « المدينة المنورة » ﴿٧٨﴾ ليخرجنا الأعز منها الأذل ﴿٧٧﴾ أي لنخرجنا منها محمداً وصحبه ، والقاتل هو ابن سلول ، وعنى بالأعز نفسه وأتباعه ، وبالأذل رسول الله ﷺ ومن معه^(٢) قال المفسرون : لما قال ابن سلول ما قال ورجع إلى المدينة ، وقف له ولده « عبد الله » على باب المدينة واستل سيفه ، فجعل الناس يميرون به ، فلما جاء أبوه قال له ابنه : وراءك ، والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول : إن رسول الله هو الأعز ، وأنا الأذل فقالت ، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : بلغني أنك تريد أن تقتل أبي ، فإن كنت فاعلاً فمرني فأنا أحمل إليك رأسه ! ! فقال له رسول الله ﷺ : بل تترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا^(٣) ﴿٧٧﴾ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴿٧٨﴾ أي لله جل وعلا القوة والغلبة ولمن أعزه وأيده من رسوله والمؤمنين لا لغيرهم ، والصيغة تفيد الحصر قال القرطبي : توهموا أن العزة بكثرة الأموال والأتباع ، فبيّن الله أن العزة والمنعة لله ولرسوله وللمؤمنين^(٤) ﴿٧٩﴾ ولكن المنافقين لا يعلمون ﴿٧٨﴾ أي ولكن المنافقين لفرط جهلهم وغرورهم لا يعلمون أن العزة والغلبة لأوليائه دون أعدائه ﴿٧٩﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴿٧٧﴾ لما ذكر قبائح المنافقين ، نهى المؤمنين عن التشبه بهم في الاغترار بالأموال والأولاد والمعنى : لا تشغلكم أيها المؤمنون الأموال والأولاد عن طاعة الله وعبادته ، وعن أداء ما افترضه عليكم من الصلاة ، والزكاة ، والحج ، كما شغلت المنافقين قال أبو حيان : أي لا تشغلكم أموالكم بالسعي في نمائها ، والتلذذ بجمعها ، ولا أولادكم بسروركم بهم ، وبالنظر في مصالحهم ، عن ذكر الله وهو عام في الصلاة ، والتسبيح ، والتحميد ، وسائر الطاعات^(٥) ﴿٧٩﴾ ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴿٧٨﴾ أي ومن تشغله الدنيا عن طاعة الله وعبادته ، فأولئك هم الكاملون في الخسران ، حيث آثروا الحقير الفاني على العظيم الباقي ، وفضلوا العاجل على الأجل ﴿٧٩﴾ وأنفقوا مما رزقناكم ﴿٧٨﴾ أي وأنفقوا في مرضاة الله ،

(١) تفسير البحر المحيط ٢٧٤ / ٨ . (٢) انظر سبب النزول المتقدم . (٣) يستحسن الرجوع إلى سيرة ابن اسحاق ففيها تفصيل للقصة وتوضيح . (٤) تفسير القرطبي ١٢٩ / ١٨ . (٥) البحر المحيط ٢٧٤٨ .

يَأْتِي أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾
 وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

من بعض ما أعطيناكم وتفضلنا به عليكم من الأموال ﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت﴾ أي قبل أن يجل الموت بالإنسان ، ويصبح في حالة الاحتضار ﴿فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب﴾ أي فيقول عند تيقنه الموت : يا رب هلاً أمهلتنى وأخرت موتي إلى زمنٍ قليل !! ﴿فأصدق وأكن من الصالحين﴾ أي فأصدق وأحسن عملي ، وأصبح تقياً صالحاً قال ابن كثير : كل مفرط يندم عند الاحتضار ، ويسأل طول المدة ليستدرك ما فات ، ولكن هيهات ^(١) ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ أي ولن يمهل الله أحداً أبداً كان إذا انتهى أجله ، ولن يزيد في عمره ، وفيه تحريض على المبادرة بأعمال الطاعات ، حذراً أن يجيء الأجل وقد فرط ولم يستعد للقاء ربه ﴿والله خبير بما تعملون﴾ أي مطلع وعالم بأعمالكم من خير أو شر ، ومجازيكم عليها .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي :

- ١ - التأكيد بالقسم وإنَّ واللام ﴿والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون﴾ زيادة في التقرير والبيان .
- ٢ - الجملة الاعتراضية ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾ جاءت معترضة بين الشرط وجوابه لبيان أنهم ما قالوا ذلك عن اعتقاد ، ولدفع توهم تكذيبهم في دعواهم الشهادة بالرسالة ، والأصل ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسولُ الله . . . والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون﴾ فجاءت الجملة اعتراضية بينهما .
- ٣ - الاستعارة ﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾ فإن أصل الجنة ما يُستتر به ويُتقى به المحذور كالترس ، ثم استعمل هنا استعارة لأنهم كانوا يظهرون الإسلام ليعصموا دماءهم وأموالهم .
- ٤ - الطباق بين ﴿آمنوا ثم كفروا﴾ وبين ﴿الأعزُّ منها الأذل﴾ وهو من المحسنات البديعية .
- ٥ - التشبيه المرسل المجلل ﴿وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشبٌ مسندة﴾ وهو من روائع التشبيه .
- ٦ - طباق السلب ﴿سواءً عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم﴾ .
- ٧ - الجملة الدعائية ﴿قاتلهم الله﴾ وهي دعاءٌ عليهم باللعنة والخزي والهلاك .
- ٨ - توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات ، وهو كثير في القرآن يزيد في رونق الكلام .

تنبية : النفاق لم يكن بمكة وإنما كان بها الكفر ، ولم يظهر النفاق إلا بالمدينة المنورة حين عزَّ

الإسلام وكثر أنصاره ، وقد كان المنافقون يظهرون الإسلام لصون دمائهم وأمواهم كما قال الشاعر :

وما انتسبوا إلى الإسلام إلا
لصون دمائهم أن لا تُسالا

فكائده : العزة غير الكبر ، ولا يحل للمسلم أن يُذل نفسه ، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه ، والكبر جهل الإنسان بنفسه ، قيل للحسن بن علي رضي الله عنهما : إن الناس يزعمون أن فيك كبراً وتيهاً فقال : ليس بتيه ولكنه عزة المسلم ثم تلا الآية ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ .

لطيفته : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « من كان له مال يبلغه حج بيت ربه ، أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل ، سأل الرجعة عند الموت ، فقال رجل يا ابن عباس : اتق الله فإنما يسأل الرجعة الكفار !! فقال : سأتلو عليكم بذلك قرآناً ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربّ لولا أخرجتني إلى أجل قريب ..﴾ الآية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المنافقون »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة التغابن من السور المدنية التي تعنى بالتشريع ، ولكنَّ جوَّها جو السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية .

* تحدثت السورة الكريمة عن جلال الله وعظمته وأثار قدرته ، ثم تناولت موضوع الإنسان المعترف بربه ، والإنسان الكافر الجاحد بالآء الله .

* وضربت الأمثال بالقرون الماضية ، والأمم الخالية ، التي كذبت رسل الله ، وما حلَّ بهم من العذاب والدمار ، نتيجةً لكفرهم وعنادهم وضلالهم .

* وأقسمت السورة على أن البعث حقٌّ لا بدَّ منه ، أقرَّ به المشركون أو أنكروه .

* وأمرت بطاعة الله وطاعة رسوله ، وحذرت من الإعراض عن دعوة الله .

* كما حذرت من عداوة بعض الزوجات والأولاد ، فإنهم كثيراً ما يمنعون الإنسان عن الجهاد والهجرة .

* وختمت السورة بالأمر بالإنفاق في سبيل الله لإعلاء دينه ، وحذرت من الشح والبخل ، فإن من صفات المؤمن الإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاته ، وهو شرط الجهاد في سبيل الله .

اللغات: ﴿صَوْرَكُمْ﴾ التصوير : التخطيط والتشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يتميز بها عن غيره ﴿نَبَأٌ﴾ النبأ : الخبر الهام ﴿وَبَالَ﴾ الوبال : العقوبة والنكال ﴿زَعَمٌ﴾ ظنٌّ ، والزعمُ هو القول بالظن ومنه قولهم « زعموا مطية الكذب » قال شريح : « لكل شيء كنيةٌ ، وكنية الكذب زعموا »^(١) ﴿التغابن﴾ الغبنُ ومعناه : النقص يقال : غبنه غبناً إذا أخذ الشيء منه بدون قيمته ، وسمي يوم القيامة يوم التغابن ، لأنه يظهر فيه غبن الكافر بتركه الإيمان ، وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان .

(١) تفسير القرطبي ١٨ / ١٣٥ .

سَبَبُ النَّزُولِ : روي أن رجلاً من أهل مكة أسلموا ، وأرادوا أن يهاجروا الى النبي ﷺ فمنعهم أزواجهم وأولادهم ، وقالوا : صبرنا على إسلامكم ولا صبر لنا على فراقكم ! ؟ فأطاعوهم وتركوا الهجرة فأنزل الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ . . ﴾ (١) الآية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَتَنْكُرُ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾

التفسير : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ينزه الله تعالى ويمجده جميع ما في السموات والأرض من مخلوقات ، تنزيهاً دائماً مستمراً بدون انقطاع ، وصيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ أي له جل وعلا الملك التام والتصرف الكامل في خلقه ، وهو المستحق للثناء وحده ، لأن جميع النعم منه سبحانه وتعالى ، وقدم الجار والمجرور فيها لإفادة حصر الملك والحمد فيه سبحانه ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ أي قادر على كل شيء ، يغني ويفقر ، ويعز ويذل ، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ، وهو كالدليل لما تقدم من أن الملك والحمد له سبحانه ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمن﴾ هذا تفصيل لبعض آثار قدرته أي هو الذي خلقكم أيها الناس بهذا الشكل البديع المحكم ، فكان يجب على كل واحدٍ منكم الإيمان به ، لكن منكم من كفر بربه ، ومنكم من آمن وصدق بخالقه قال الطبري : أي منكم كافرٌ بخالقه وأنه هو الذي خلقه ، ومنكم مصدقٌ به موقنٌ أنه خالقه وبارئته (١) ، وقدم الكافر على المؤمن ، لكثرة الكفار وقلة المؤمنين ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ وقليلٌ من عبادي الشكور ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي عالمٌ بأحوالكم ، مطلعٌ على أعمالكم ، لا تخفى عليه خافية من شئونكم وسيجازيكم عليها . . ثم فصل تعالى آثار قدرته ودلائل وحدانيته فقال ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾ أي خلقها بالحكمة البالغة ، المتضمنة لمصالح الدنيا والدين ، لا عبثاً ولا هواً ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ أي خلقكم في أحسن صورة وأجمل شكل ، فأتقن وأحكم خلقكم وتصويركم كقوله تعالى ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ فإن من نظر في شكل الإنسان وهيبته وتناسب أعضائه ، علم أن صورته أحسن صورة بالنسبة لسائر أنواع الحيوان ، ومن حسن صورته أنه خلق منتصباً غير منكب على وجهه (٢) ﴿وإليه المصير﴾ أي

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢١٢/٤ .

(٢) تفسير الطبري ٧٨/٢٨ . (٣) فإن قيل : إن بعض الناس قبيح المنظر والشكل ، فالجواب أن ذلك لا يخرجهم عن حسن الصورة

الإنسانية ، وإنما هو قبيح بالنظر إلى من هو أحسن منه .

يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشْرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ۗ وَأَسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٣﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا
أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلُوبًا بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۗ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٤﴾

وإليه تعالى وحده المرجع والمآب ، فيجازي كلاً بعمله ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾ أي يعلم ما في الكائنات من أجرام ومخلوقات ﴿ويعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ أي ويعلم ما تخفونه وما تظهرونه من نواياكم وأعمالكم ﴿والله أعلم بذات الصدور﴾ أي عالم بما في الصدور من الأسرار والخفايا ، فكيف تخفى عليه أعمالكم الظاهرة ؟ قال في البحر : نبه تعالى بعلمه بما في السموات والأرض ، ثم بعلمه بما يخفيه العباد وما يعلنونه ، ثم بعلمه بما أكتته الصدور ، على أنه تعالى لا يغيب عن علمه شيء ، لا من الكليات ولا من الجزئيات ، فابتدأ بالعلم الشامل ، ثم بسر العباد وعلانيتهم ، ثم بما تنطوي عليه صدورهم ، وهذا كله في معنى الوعيد ، إذ هو تعالى المجازي عليه بالثواب والعقاب (١) . . ثم ذكرهم تعالى بما حل بالكفار قبلهم فقال ﴿ألم يأتكم نبا الذين كفروا من قبل﴾ أي ألم يأتكم يا معشر قريش خبر كفار الأمم الماضية ققوم عاد وثمود ، ماذا حل بهم من العذاب والنكال !! ﴿فذاقوا وبال أمرهم﴾ أي ذاقوا العقوبة الوحيدة على كفرهم في الدنيا ﴿وله عذاب أليم﴾ أي وهم في الآخرة عذاب شديد موجه ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾ أي ذلك العذاب الذي ذاقوه في الدنيا وما سيدوقونه في الآخرة ، بسبب أنه جاءتهم رسلهم بالمعجزات الواضحات ، والبراهين الساطعات ، الدالة على صدقهم ﴿فقالوا أبشراً يهدوننا﴾ ؟ أي فقالوا على سبيل الاستغراب والتعجب : أرسل من البشر يصيرون هداة لنا قال الرازي : أنكروا أن يكون الرسول بشراً ، ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجراً (٢) ، وذلك لقله عقولهم وسخافة أحلامهم ﴿فكفروا وتولوا﴾ أي فكفروا بالرسول ، وأعرضوا عن الإيمان واتباع هدى الرحمن ﴿واستغنى الله﴾ أي استغنى الله عن طاعتهم وعبادتهم قال الطبري : أي استغنى الله عنهم ، وعن إيمانهم به وبرسله (٣) ﴿والله غني حميد﴾ أي غني عن خلقه ، محمود في ذاته وصفاته ، لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، لأنه مستغن عن العالمين . . ثم أخبر تعالى عن إنكارهم للبعث بعد تكذيبهم للرسالة فقال ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا﴾ أي ادعى كفار مكة وظنوا أن الله لن يبعثهم من قبورهم بعد موتهم أبداً ﴿قل بلى وربى لتبعثن﴾ أي قل لهم يا محمد : ليس الأمر كما زعمتم ، وأقسم بربي لتخرجن من قبوركم أحياء ولتبعثن ﴿ثم لتنبؤن بما عملتم﴾ أي ثم لتخبرن بجميع أعمالكم ، صغيرها وكبيرها ، جليلها وحقيرها ، وتجزون بها ﴿وذلك على الله يسير﴾ أي وذلك البعث والجزاء ، سهل هين على الله ، لأن الإعادة أسهل من الابتداء قال الرازي :

(١) تفسير البحر المحيط ٢٧٧ / ٨ . (٢) تفسير الفخر الرازي ٢٣ / ٣٠ . (٣) تفسير الطبري ٧٨ / ٢٨ .

فَعَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ
التَّعَابِنِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
خَالِدِينَ فِيهَا وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ

أنكروا البعث بعد أن صاروا تراباً ، فأخبر تعالى أن إعادتهم أهون في العقول من إنشائهم (١) . . . ولما بالغ في الإخبار عن البعث ، وذكر أحوال الأمم المكذبة ، أمر بالاعتصام بالإيمان والتمسك بالقرآن فقال ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾ أي فصدقوا بالله وبرسوله وبهذا القرآن الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ فإنه النور الوضاء ، المبدد للشبهات ، كما يبدد النور الظلمات ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾ أي واذكروا ذلك اليوم الرهيب - يوم القيامة - الذي يجمع الله فيه الخلائق كلها في صعيد واحد للحساب والجزاء قال ابن كثير : سُمي « يوم الجمع » لأن الله تعالى يجمع فيه الأولين والآخرين في صعيد واحد ، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، كقوله تعالى ﴿ذلك يومٌ مجموع له الناس وذلك يومٌ مشهود﴾ (٢) ﴿ذلك يومُ التعابن﴾ أي ذلك هو اليوم الذي يظهر فيه غبن الكافر وخسارته بتركة الإيمان ، وذلك أن المؤمنين اشتروا الجنة بترك الدنيا ، واشترى الكفار النار بترك الآخرة ، فظهر غبن الكافرين قال الخازن : وأصله من الغبن وهو أخذ الشيء بدون قيمته ، والمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة ، وذلك لأن كل كافر له أهلٌ ومنزل في الجنة لو أسلم ، فيظهر يومئذٍ غبن كل كافرٍ بتركة الإيمان ، ويظهر غبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان (٣) ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته﴾ أي ومن يصدق بالله ويعمل عملاً صالحاً ، يمح الله تعالى عنه ذنوبه ﴿ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي ويدخله جنات النعيم ، التي تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي مقيمين في تلك الجنات أبد الحياة ، لا يموتون ولا يُخرجون منها ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ أي ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه ، والسعادة التي لا سعادة بعدها ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ أي والذين جحدوا بوحداية الله وقدرته ، وكذبوا بالدلائل الدالة على البعث وبيات القرآن الكريم ﴿أولئك أصحاب النار خالدين فيها﴾ أي أولئك ما لهم جهنم ، ما كثر فيها أبداً ﴿ويَسَّ المصير﴾ أي وبُست النار مرجعاً ومستقراً لأهل الكفر والضلال . . . ثم أخبر تعالى بأن كل ما يحدث في الكون بقضائه وإرادته فقال ﴿ما أصاب من مُصيبةٍ إلاَّ بإذنِ اللَّهِ﴾ أي ما أصاب أحداً مُصيبةٌ في نفسه أو ماله أو ولده ، إلا بقضاء الله وقدره ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ أي ومن يصدق بالله ويعلم أن كل حادثة بقضائه وقدره ، يهد قلبه للصبر والرضا ويثبت على الإيمان قال ابن عباس : يهد قلبه لليقين ، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٣/٣٠ . (٢) تفسير مختصر ابن كثير ٥٠٩/٣ . (٣) تفسير الخازن ١٠٤/٤ .

بِكُلِّ شَيْءٍ عَظِيمٍ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدَوًّا
 لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ
 وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

لم يكن ليصيبه^(١) وقال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى بها ويُسلم لقضاء الله^(٢) ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي هو تعالى عالم بكل الأشياء ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء قال القرطبي : أي لا يخفى عليه تسليم من انقاد وسلَّم لأمره ، ولا كراهة من كرهه^(٣) ولم يرض بقضائه ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في كل ما شرع لكم من الأوامر والنواهي ، وكرَّر الأمر للتأكيد ولبيان أن طاعة الرسول واجبة كطاعة الله ﴿فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ أي فإن أعرضتم عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه من الهداية والإيمان ، فليس عليه ضرر إنما ضرر ذلك عليكم ، إذ ليس على الرسول إلا تبليغ الرسالة وقد أدى ما عليه ، والله ينتقم ممن عصاه وخالف أمره ﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي الله جل وعلا لا معبود سواه ، ولا خالق غيره ، عليه الاعتماد وإليه المرجع والمآب ﴿وعلى الله فليتكمل المؤمنون﴾ أي فعلية وحده توكلوا أيها المؤمنون في جميع أموركم قال الصاوي : وهو تحريضٌ وحثٌ للنبي ﷺ على التوكل على الله ، والالتجاء إليه ، وفيه تعليمٌ للأمة ذلك^(٤) ، بأن يلتجئوا إلى الله ويثقوا بنصره وتأييده ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أرواحكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم﴾ أي يا معشر المؤمنين إن بعض الزوجات والأولاد أعداء لكم ، يصدونكم عن سبيل الله ، ويشيطونكم عن طاعة الله ، فاحذروا أن تستجيبوا لهم وتطيعوهم قال المفسرون : إن قومًا أسلموا وأرادوا الهجرة ، فثبطهم أرواحهم وأولادهم عن الهجرة ، فلم يهاجروا إلا بعد مدة ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهاوا في الدين ، فندموا وأسفوا وهموا بمعاينة أرواحهم وأولادهم فنزلت الآية الكريمة^(٥) ، والآية تعم كل من انشغل عن طاعة الله بالأزواج والأولاد ﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا﴾ أي وإن عفوتهم عنهم في تشييطكم عن الخير ، وصفحتم عما صدر منهم ، وغفرتهم لهم زلاتهم ﴿فإن الله غفورٌ رحيمٌ﴾ أي فإن الله واسع المغفرة عظيم الرحمة ، يعاملكم بمثل ماعاملتم ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ أي ليست الأموال والأولاد إلا اختباراً وابتلاءً من الله تعالى لخلقته ، ليعلم من يطيعه ومن يعصيه ، وقدم المال لأن فتنته أشدُّ ﴿والله عنده أجرٌ عظيمٌ﴾ أي وما عند الله من الأجر والثواب أعظم من متاع الدنيا ، فلا تشغلكم الأموال والأولاد عن طاعة الله ، والآية ترغيبٌ في

(١) تفسير الطبري ٢٨/٨٠ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٥١٠ . (٣) تفسير القرطبي ١٨/١٤٠ .

(٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٢١٢ . (٥) انظر سبب النزول المتقدم .

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

الآخرة وتزهيدها في الدنيا ، وفي الأموال والأولاد التي فتن الناس بها ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ أي ابدلوا أيها المؤمنون في طاعة الله جهدكم وطاقتكم ، ولا تكلفوا أنفسكم ما لا تطيقون قال المفسرون : هذا في المأمورات وفضائل الأعمال يأتي الإنسان منها بقدر طاقته ، وأما في المحظورات فلا بد من اجتنابها بالكلية ويدل عليه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال : (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه)^(١) ﴿واسمعوا وأطيعوا﴾ أي واسمعوا ما توعظون به ، وأطيعوا فيما تؤمرون به وتنهون عنه ﴿وأنفقوا خيراً لأنفسكم﴾ أي وأنفقوا في سبيل الله من أموالكم ، يكن خيراً لأنفسكم ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ أي ومن سلم من البخل والطمع الذي تدعو إليه النفس ، فقد فاز بكل مطلوب ﴿إن ترضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم﴾ أي إذا تصدقتم في سبيل الله عن طيب نفس ، فإن الله يضاعف لكم الأجر والثواب ، وفي تصوير الصدقة بصورة القرض تلميحاً بليغ في الإحسان إلى الفقراء ﴿ويغفر لكم﴾ أي ويمح عنكم سيئاتكم ﴿والله شكورٌ حلِيمٌ﴾ أي شاكراً للمحسن إحسانه ، حلِيمٌ بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كثرة ذنوبهم ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي هو تعالى العالم بما غاب وحضر ، لا تخفى عليه خافية ﴿العزیز الحكيم﴾ أي الغالب في ملكه الحكيم في صنعه .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق في الاسم مثل ﴿فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمنٌ﴾ وكذلك بين ﴿الغيب والشهادة﴾ والطاق في الفعل مثل ﴿يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ وهو من المحسنات البديعية .
- ٢ - تقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر ﴿له الملك وله الحمد﴾ أي له وحده الملك والحمد .
- ٣ - الاستعارة اللطيفة ﴿والنور الذي أنزلنا﴾ أطلق على القرآن النور بطريق الاستعارة ، فإن القرآن يزيل الشبهات ، كما يزيل النور الظلمات .
- ٤ - المقابلة بين جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً . . .﴾ الآية وبين ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها﴾ الآية .
- ٥ - الجناس الناقص ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ لاختلاف الحركات في الشكل .

(١) أخرجه الشيخان .

- ٦ - جناس الاشتقاق ﴿أصاب . . مصيبة﴾ و ﴿يجمعكم ليوم الجمع﴾ .
- ٧ - الإطناب بتكرار الفعل زيادة في التأكيد واعتناء بشأن الطاعة ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ .
- ٨ - صيغة المبالغة ﴿والله شكورٌ حلِيم﴾ لأن فعول وفعيل من صيغ المبالغة .
- ٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿إن تُقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم﴾ شبه الإنفاق في سبيل الله والتصديق على الفقراء، بمن يُقرض الله قرضاً واجب الوفاء وذلك بطريق التمثيل ، وهو من لطيف الاستعارة وبديع العبارة .
- ١٠ - السجع المرصع لتوافق الفواصل مثل ﴿والله شكورٌ حلِيم﴾ ﴿عالم الغيب والشهادة العزيز الحكِيم﴾ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة التغابن »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الطلاق مدنية وقد تناولت بعض الأحكام التشريعية المتعلقة بأحوال الزوجين ، كبيان أحكام الطلاق السني وكيفيته ، وما يترتب على الطلاق من العدة ، والنفقة ، والسكنى ، وأجر الموضع إلى غير ما هنالك من أحكام .

* وتناولت السورة الكريمة في البدء أحكام الطلاق - الطلاق السني ، والطلاق البدعي - فأمرت المؤمنين بسلوك أفضل الطرق ، عند تعذر استمرار الحياة الزوجية ، ودعت إلى تطليق الزوجة في الوقت المناسب وعلى الوجه المشروع ، وهو أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، ثم يتركها إلى انقضاء عدتها .

* وفي هذا التوجيه الإلهي دعوة للرجال أن يتمهلوا ولا يسرعوا في فصل عرى الزوجية ، فإن الطلاق أبغض الحلال إلى الله ، ولولا الضرورات القسرية لما أبيع الطلاق لأنه هدم للأسرة .

* ودعت السورة إلى إحصاء العدة لضبط انتهائها ، لئلا تختلط الأنساب ، ولئلا يطول الأمد على المطلقة فيلحقها الضرر ، ودعت إلى الوقوف عند حدود الله ، وعدم عصيان أوامره .

* وتناولت السورة أحكام العدة ، فبينت عدة اليائس التي انقطع عنها دم الحيض لكبير أو مرض ، وكذلك عدة الصغيرة ، وعدة الحامل فبينته أوضح بيان مع التوجيه والإرشاد .

* وفي خلال تلك الأحكام التشريعية تكررت الدعوة إلى « تقوى الله » بالترغيب تارةً ، وبالتهريب أخرى ، لئلا يقع حيفٌ أو ظلم من أحد الزوجين ، كما وضحت أحكام السكنى والنفقة .

* وختمت السورة بالتحذير من تعدي حدود الله ، وضربت الأمثلة بالأمم الباغية التي عتت عن أمر الله ، وما ذاق من الوبال والدمار ، ثم أشارت إلى قدرة الله في خلق سبع سموات طباق ، وخلق الأرضين ، وكلها براهين على وحدانية رب العالمين .

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ . . . إِلَى . . . وَأَنْ السُّلْهُ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾
من بداية السورة الكريمة إلى نهايتها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ

اللغة: ﴿الْعِدَّةُ﴾ المدة التي تحتبس فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها ﴿أَحْصُوا﴾ اضبطوا بطريق العدِّ ﴿حِسْبُهُ﴾ كافيهِ ﴿وُجِدْكُمْ﴾ طاقتكم ووسعكم ﴿ارْتَبْتُمْ﴾ شككتم ﴿كَأَيْنَ﴾ كثير ﴿عَتَّ﴾ تكبرت وتجبرت وأعرضت ﴿نُكْرًا﴾ منكرًا شنيعًا وفظيعًا ﴿خُسْرًا﴾ خسارًا وهلاكًا .

سبب النزول: أ- روى البخاري أن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهي حائض ، فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال : ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرًا قبل أن يمسه ، فتلك العدة التي أمر بها الله عز وجل (١) .

ب- وروي عن أنس قال : طلق رسول الله ﷺ حفصة فأتت أهلها فأنزل الله تعالى ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ فقيل له : راجعها فإنها صوامة قوامة ، وهي من أزواجك ونسائك في الجنة (٢) .

ج- وروي أنه لما نزل قوله تعالى ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ قال جماعة من الصحابة يا رسول الله : فما عدة من لا قرء لها من صغر أو كبر فنزلت ﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم أن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر . .﴾ (٣) الآية .

التفسير: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ الخطاب للنبي ﷺ والحكم عام له ولأمته ، وخص هو بالنداء ﷺ تعظيمًا له ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا أي افعل أنت وقومك ، فهو نداء على سبيل التكريم والتعظيم قال القرطبي : الخطاب للنبي ﷺ خوطب بلفظ الجماعة ﴿طلقتم﴾ تعظيمًا وتفخيمًا (٤) والمعنى : يا أيها النبي ويا أيها المؤمنون إذا أردتم تطليق النساء ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ أي فطلقوهن مستقبلات لعدتهن ، وذلك في الطهر ، ولا تطلقوهن في الحيض قال مجاهد : أي طاهرًا من غير جماع لقوله ﷺ : (فليطلقها طاهرًا قبل أن يمسه ، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء) (٥) قال المفسرون : وإنما نهي عن طلاق المرأة وقت الحيض لثلاث تطول عليها العدة فتضر ، ولأن حالة الحيض منفرة للزوج ، تجعله يتسرع في طلاقها بخلاف ما إذا كانت طاهرًا ، وكونه لم يجامعها في ذلك الطهر ، لثلاث يحصل من ذلك الوطء حمل (٦) ، فتنقل العدة من الحيض لوضع الحمل وفي ذلك ضرر ظاهر ﴿وأحصوا العدة﴾ أي اضبطوها وأكملوها ثلاثة أقراء كاملة لثلاث تحتلط الأنساب ﴿واتقوا الله ربكم﴾ أي خافوا الله رب العالمين ، بامثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن﴾ أي لا

(١) أخرجه البخاري ومسلم . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٥١٢/٣ . (٣) روح المعاني ١٣٧/٢٨ . (٤) تفسير القرطبي ١٤٨/١٨ .

(٥) الحديث في الصحيحين وانصر سبب النزول المتقدم . (٦) انظر حكمة التشريع في كتابنا رواع البيان ٦٠٤/٢ .

بَيِّنِينَ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلُ مَسْكُوهَنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهَنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُعَظُّ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ تَخْرُجُونَهُنَّ مِنْ مَسَاكِنَهُنَّ ، بَعْدَ فِرَاقِكُمْ لهنَّ إِلَى أَنْ تَنْقُضِي عِدَّتَهُنَّ ﴿٢﴾ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ﴿٣﴾ أَي وَلَا يَخْرُجْنَ مِنَ الْبُيُوتِ حَتَّى تَنْقُضِي عِدَّتَهُنَّ ، إِلَّا إِذَا قَارَفَتِ الْمَطْلُوقَةُ عَمَلًا قَبِيحًا كَالزَّوْنِي فَتَخْرُجُ لِإِقَامَةِ الْحُدِّ عَلَيْهَا (١) قَالَ فِي التَّسْهِيلِ : نَهَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُخْرِجَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ الْمَطْلُوقَةَ مِنَ الْمَسْكَنِ الَّذِي طَلَّقَهَا فِيهِ ، وَنَهَاهَا هِيَ أَنْ تَخْرُجَ بِاخْتِيَارِهَا ، فَلَا يَجُوزُ لَهَا الْمَبِيتُ خَارِجًا عَنِ بَيْتِهَا ، وَلَا أَنْ تَغِيبَ عَنْهُ نَهَارًا إِلَّا لِضَرُورَةِ التَّصَرُّفِ ، وَذَلِكَ لِحِفْظِ النَّسَبِ وَصِيَانَةِ الْمَرْأَةِ ، وَاخْتَلَفَ فِي الْفَاحِشَةِ الَّتِي تَبِيحُ خُرُوجَ الْمُعْتَدَةِ فَقِيلَ : إِنَّهَا الزَّوْنِي فَتَخْرُجُ لِإِقَامَةِ الْحُدِّ عَلَيْهَا ، وَقِيلَ إِنَّهُ سَوْءُ الْكَلَامِ مَعَ الْأَصْهَارِ وَبِدَاءَةُ اللِّسَانِ فَتَخْرُجُ وَيَسْقُطُ حَقُّهَا مِنَ السَّكْنِيِّ ، وَيُؤَيِّدُهُ قِرَاءَةُ « إِلَّا أَنْ يَفْحَشْنَ عَلَيْكُمْ » (٢) ﴿٣﴾ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ أَي وَهَذِهِ الْأَحْكَامُ هِيَ شَرَائِعُ اللَّهِ وَمَحَارِمُهُ ﴿٤﴾ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴿٥﴾ أَي وَمَنْ يَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الْأَحْكَامِ ، وَيَتَجَاوَزُهَا إِلَى غَيْرِهَا وَلَا يَأْتُرُّ بِهَا ، فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِتَعْرِيفِهَا لِلْعُقَابِ ، وَأَضْرَبَهَا حَيْثُ فَوَّتَّ عَلَى نَفْسِهِ إِمْكَانَ إِرْجَاعِ زَوْجَتِهِ إِلَيْهِ قَالَ الرَّازِيُّ : وَهَذَا تَشْدِيدٌ فِيمَنْ يَتَعَدَّى طَلَاقَ السَّنَةِ ، وَمَنْ يَطْلُقُ لِغَيْرِ الْعِدَّةِ ﴿٦﴾ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿٧﴾ أَي لَا تَعْرِفُ أَيُّهَا السَّمَاعُ مَاذَا يُحْدِثُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ الطَّلَاقِ مِنَ الْأَمْرِ ؟ فَלَعَلَّ اللَّهَ يَقَلِّبُ قَلْبَهُ مِنْ بَغْضِهَا إِلَى مَحَبَّتِهَا ، وَمِنْ الرِّغْبَةِ عَنْهَا إِلَى الرِّغْبَةِ فِيهَا ، فَيَجْعَلُهُ رَاغِبًا فِي زَوْجَتِهِ بَعْدَمَا كَانَ كَارِهًا لَهَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَرِيدُ النَّدَمَ عَلَى طَلَاقِهَا ، وَالْمَحَبَّةَ لِرَجْعَتِهَا فِي الْعِدَّةِ (٣) ﴿٨﴾ فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلَ مَسْكُوهَنَّ أَي إِذَا شَارَفْنَ عَلَى انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ وَقَارَبْنَ ذَلِكَ ﴿٩﴾ فَمَسْكُوهَنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهَنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴿١٠﴾ أَي فَرَاغُوهَنَّ إِلَى عَصْمَةِ النِّكَاحِ مَعَ الْإِحْسَانِ فِي صَحْبَتِهِنَّ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ ، أَوْ أَتْرَكُوهَنَّ حَتَّى تَنْقُضِي عِدَّتَهُنَّ فَيَمْلِكْنَ أَنْفُسَهُنَّ قَالَ الْمَفْسُورُونَ : الْإِمْسَاكُ بِالْمَعْرُوفِ هُوَ إِحْسَانُ الْعِشْرَةِ وَتَوْفِيَةُ النِّفْقَةِ ، مِنْ غَيْرِ قَصْدِ الْمُضَارَّةِ فِي الرَّجْعَةِ لِتَطَوُّلِ عَلَيْهَا الْعِدَّةِ ، وَالْفِرَاقُ بِالْمَعْرُوفِ هُوَ أَدَاءُ الصَّدَاقِ ، وَالْمَتْعَةُ عِنْدَ الطَّلَاقِ ، وَالْوَفَاءُ بِالشَّرْطِ مَعَ تَوْفِيَةِ جَمِيعِ حَقُوقِهَا ﴿١١﴾ وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴿١٢﴾ أَي وَأَشْهَدُوا عِنْدَ الطَّلَاقِ أَوْ الرَّجْعَةِ ، شَخْصَيْنِ مِنْ أَهْلِ الْعَدَالَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ مِمَّنْ تَثْقُونَ فِي دِينِهَا وَأَمَانَتِهَا قَالَ فِي الْبَحْرِ : وَهَذَا الْإِشْهَادُ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿١٣﴾ وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴿١٤﴾ وَعِنْدَ

(١) تفسیر الفاحشة بالزنى هو قول ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة ، وروي عن ابن عباس أيضاً أنه البداء باللسان على الأحماء وهو قول أبي بن كعب . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١٢٦/٤ .

(٣) قال ابن القيم : «إن الله تعالى لما كان يبغض الطلاق ، لما فيه من انفصام عرى الزوجية ، وموافقة عدوه إبليس حيث يفرح بافتراق الزوجين ، وكان مع ذلك يحتاج إليه الزوج أو الزوجة ، شرعه على وجه تحصل به المصلحة ، وتدفع به المفسدة وحرمه على غير ذلك الوجه ، فشرع له أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، طليقة واحدة ، ثم يتركها حتى تنقضي عديتها ، فإن زالت أسباب الخلاف وحصلت الموافقة كان له سبيل إلى إعادتها ، وجعل العدة ثلاثة قروء ليطول زمن المهلة والاختيار ، فهذا هو الذي شرعه وأذن فيه » نقلاً عن محاسن التأويل ١٦/٥٨٣٢ .

اللَّهُ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١﴾ وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ
 قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٢﴾ وَاللَّيْلِ يَسِّنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ
 وَاللَّيْلِ لَمْ يَحِضْنَ ۗ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٣﴾

الشافعية واجب في الرجعة ، مندوب إليه في الفرقة ^(١) ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ أي اشهدوا بالحق دون تحيز لأحد ، خالصاً لوجه الله تعالى من غير تبديل ولا تغيير ، ودون مراعاة للمشهود له أو المشهود عليه ﴿ذلكم يؤعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي هذا الذي شرعناه من الأحكام ، إنما ينتفع ويتعظ به المؤمن الذي يخشى الله ، ويخاف الحساب والعقاب في الدار الآخرة ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ أي ومن يراقب الله ويقف عند حدوده ، يجعل له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ويرزقه من وجه لا يخطر بباله ولا يعلمه قال مجاهد : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال : إنه طلق امرأته ثلاثا ، فسكت حتى ظننت أنه رادها إليه ، ثم قال : ينطلق أحدكم فيركب أمهوقته ثم يقول : يا ابن عباس ، يا ابن عباس !! والله تعالى يقول ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾ وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجا ، عصيت ربك وبانت منك امرأتك ^(٢) وقال المفسرون : الآية عامة وقد نزلت في «عوف بن مالك الأشجعي» أسر المشركون ابنه ، فأتى رسول الله ﷺ وشكا إليه الفاقة وقال : إن العدو أسر ابني وجزعت أمه فما تأمرني؟ فقال ﷺ له : اتق الله واصبر ، وأمرك وإياها أن تستكثر من قول «لا حول ولا قوة إلا بالله» ففعل هو وامرأته ، فبينما هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ، ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها فنزلت ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ ^(٣) ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ أي ومن يعتمد على الله ، ويثق به فيما أصابه ونابه ، فإن الله كافيه قال الصاوي : أي من فوض إليه أمره كفاه ما أهمه ، والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل ، لأنه مأمور به ولكن لا يعتمد على تلك الأسباب ^(٤) ، وفي الحديث (لوتوكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً) ^(٥) ﴿إن الله بالغ أمره﴾ أي نافذ أمره في جميع خلقه ، يبلغ ما يريد ولا يعجزه شيء قال في التسهيل : وهذا حض على التوكل وتأكيد له ، لأن العبد إذا تحقق أن الأمور كلها بيد الله ، توكل على الله وحده ولم يعول على سواه ^(٦) ﴿قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾ أي قد جعل الله لكل أمر من الأمور ، مقدارا معلوماً ووقتا محدوداً ، حسب الحكمة الأزلية قال القرطبي : أي جعل لكل شيء من الشدة والرخاء أجلا ينتهي إليه ^(٧) . ثم بين سبحانه حكم المطلقة التي لا تحيض لصغرها أو لكبر سنها فقال ﴿واللاني يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم﴾ أي والنسوة اللواتي انتقطع حيضهن لكبر سنهن ، إن شككتم وجهلتم كيف عدتهن؟ فهذا حكمهن

(١) البحر المحيط ٢٨٢/٨ . (٢) عن محاسن التأويل ١٦/٥٨٣٨ . (٣) انظر القرطبي ١٨/١٦٠ والطبري ٢٨/٩٠ .

(٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٢١٥ . (٥) أخرجه الترمذي . (٦) التسهيل ٤/١٢٨ . (٧) القرطبي ١٨/١٦٨ .

ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَى كُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿١٠﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَّ فَاسْتَرْضِعْ لَهُنَّ

﴿فعدتهن ثلاثة أشهر﴾ أي فعدة الواحدة منهن ثلاثة أشهر ، كل شهر يقوم مقام حيضة ﴿واللاشي لم يحضن﴾ أي وكذلك اللواتي لم يحضن لصغرهن عدتهن ثلاثة أشهر ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ أي والمرأة الحامل تنتهي عدتها بوضع الحمل ، سواء كانت مطلقة ، أو متوفى عنها زوجها ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ أي ومن يخشى الله في أقواله وأفعاله ، ويجتنب ما حرم الله عليه ، يسهل عليه أمره ويوفقه لكل خير ﴿ذلك أمر الله أنزله إليكم﴾ أي ذلك هو حكم الله وشرعه الحكيم ، أنزله عليكم أيها المؤمنون لتأتمروا به ، وتعملوا بمقتضاه ﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾ أي ومن يتق ربه يمح عنه ذنوبه ، ويضاعف له الأجر والثواب قال الصاوي : كثر التقوى لعلمه سبحانه وتعالى أن النساء ناقصات عقل ودين ، فلا يصبر على أمورهن إلا أهل التقوى^(١) وقال في البحر : لما كان الكلام في أمر المطلقات ، وكن لا يطلعن إلا عن بغض أزواجهن لهن ، وقد ينسب الزوج إليها ما يشينها وينفر الخطاب عنها ، فلذلك تكرر الأمر بالتقوى ، وجاء مبرزاً في صورة شرط وجزاء ﴿ومن يتق الله يجعل﴾^(٢) الآية ﴿أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم﴾ أي أسكنوا هؤلاء المطلقات في بعض مساكنكم التي تسكنونها ، على قدر طاقتكم ومقدرتكم ، فإن كان موسراً وسع عليها في المسكن والنفقة ، وإن كان فقيراً فعلى قدر الطاقة ﴿ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن﴾ أي ولا تضيقوا عليهن في السكنى والنفقة ، حتى تضطروهن إلى الخروج أو الافتداء ﴿وإن كنن أولات حمل﴾ أي وإن كانت المطلقة حاملاً ﴿فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن﴾ أي فعلى الزوج أن ينفق عليها - ولو طالت مدة الحمل - حتى تضع حملها ﴿فإن أرضعن لكم﴾ أي فإذا ولدت ورضيت أن ترضع له ولده ﴿فاتوهن أجورهن﴾ أي فعلى الرجل أن يدفع لها أجر الرضاعة ، لأن الأولاد ينسبون إلى الآباء قال في التسهيل : والمعنى إن أرضع هؤلاء الزوجات المطلقات أولادكم ، فاتوهن أجره الرضاع وهي النفقة وسائر المؤن^(٣) ﴿واتمروا بينكم بمعروف﴾ أي وليأمر كل منها صاحبه بالخير ، من المسامحة والرفق والإحسان ، قال القرطبي : أي وليقبل بعضكم من بعض ما أمره به من المعروف الجميل ، والمعروف منها : إرضاع الولد من غير أجره ، والمعروف منه : توفير الأجرة عليها للإرضاع^(٤) ﴿وإن تعاسرتم﴾ أي تضايقتم وتشددتم ، وعسر الاتفاق بين الزوجين ، فأبى الزوج أن يدفع لها ما تطلب ، وأبت الزوجة أن ترضعه بأنقص من ذلك الأجر ﴿فاسترضع له أخرى﴾ أي فليستأجر لولده مرضعة

(١) حاشية الصاوي ٢١٧/٤ . (٢) البحر المحیط ٢٨٤/٨ .

(٣) التسهيل ١٢٩/٤ . (٤) تفسير القرطبي ١٦٩/١٨ .

أُخْرَى ﴿٦٥﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ، وَمَن قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلِيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا أَلًا مَّا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٦٦﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴿٦٧﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٦٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿٦٩﴾

غيرها ، وهو خبرٌ بمعنى الأمر أي فليسترضع لولده مرضعةً أُخرى قال أبو حيان : وفيه عتابٌ للأُم لطيف كما تقول لمن تطلب منه حاجة فيتوانى عنها : سيقضيها غيرك ، تريد أنها لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم^(١) قال الضحاك : إن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أُخرى ، فإن لم يقبل أُجبرت أمه على الرضاع بالأجر^(٢) ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ هذا بيانٌ لقدر الإنفاق والمعنى : لينفق الزوج على زوجته وعلى ولده الصغير ، على قدر وسعه وطاقته ، قال في التسهيل : وهو أمرٌ بأن ينفق كل واحد على مقدار حاله ، فلا يكلف الزوج ما لا يطيق ، ولا تُضَيِّع الزوجة بل يكون الحال معتدلاً ، وفي الآية دليلٌ على أن النفقة تختلف باختلاف أحوال الناس^(٣) يسراً وعسراً ﴿ومن قُدِّرَ عليه رِزْقُهُ﴾ أي ومن ضيَّقَ عليه رِزْقُهُ فكان دون الكفاية ﴿فَلِيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ أي فلينفق على مقدار طاقته ، وعلى قدر ما آتاه الله من المال ﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾ أي لا يكلف الله أحداً إلا بقدر طاقته واستطاعته ، فلا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني قال أبو السعود : وفيه تطيبٌ لقلب المعسر ، وترغيبٌ له في بذل مجهوده^(٤) ، وقد أكد ذلك الوعد بقوله ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي سيجعل الله بعد الضيق الغنى ، وبعد الشدة السعة والرخاء ، وفيه بشارةٌ للفقراء بفتح أبواب الرزق عليهم . . ثم حذرتعالى من عصيانه وتعدي حدوده ، وضرب الأمثال بالأمم السابقة فقال ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي وكثير من أهل قرية من الأمم السالفة ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أي طغت وتمردت على أوامر الله وأوامر رسله ﴿فحاسبناها حساباً شديداً﴾ أي فجازيناها على عصيانها وطغيانها بأنواع العذاب الأليم ، من الجوع والقحط وعذاب الاستئصال ﴿وعذبناها عذاباً نُكْرًا﴾ أي عذاباً منكرًا عظيماً يفوق التصور ﴿فذاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي ذاقَتْ عاقبة كفرها وطغيانها وتمردها على أوامر الله ﴿وكان عاقبة أمرها خُسْرًا﴾ أي وكانت نتيجة بغيتها الهلاك والدمار ، والخسران الذي ما بعده خسران . . ولما ذكر ما حلَّ بالأمم الطاغية ، أمر المؤمنين بتقوى الله ، تحذيراً من عقابه لئلا يصيبهم ما أصاب أولئك المجرمين فقال ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شديداً﴾ أي هيأ الله لهم في الآخرة عذاب جهنم الشديد المؤبد ﴿فاتقوا الله يا أولي الأبواب﴾ أي فحافوا الله واحذروا بطشه وانتقامه يا أصحاب العقول السليمة ﴿الذين آمنوا﴾ أي أنتم يا معشر المؤمنين الذين صدقتم بالله ورسوله ﴿قد أنزل الله إليكم ذِكْرًا﴾ أي قد أنزل الله إليكم وحياً يتلى

(١) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٨٥ . (٢) تفسير القرطبي ١٨/ ١٦٩ . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٢٩ . (٤) تفسير أبي السعود ٥/ ١٧٢ .

رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

وهو القرآن الحكيم ﴿١١﴾ رسولاً يتلوا عليكم آيات الله مبينات ﴿١٢﴾ أي وأرسل إليكم رسولاً وهو محمد ﷺ يقرأ عليكم آيات الله ، واضحات جليات ، تبيّن الحلال والحرام وما تحتاجون إليه من الأحكام قال في البحر : والظاهر أن الذكر هو القرآن ، وأن الرسول هو محمد ﷺ ﴿١١﴾ ليُخرج الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿١٢﴾ أي ليخرج المؤمنين المتقين ، من الضلالة إلى الهدى ، ومن ظلمة الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم ﴿١٢﴾ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً ﴿١٢﴾ أي ومن يُصدق بالله ويعمل بطاعته ﴿١٢﴾ يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ﴿١٢﴾ أي يدخله في الآخرة جنات النعيم ، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿١٢﴾ خالدين فيها أبداً ﴿١٢﴾ أي ماكثين في تلك الجنان - جنان الخلد - أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون ﴿١٢﴾ قد أحسن الله له رزقاً ﴿١٢﴾ أي قد طيب الله رزقهم في الجنة ووسّعه لهم ، لأن نعيمها دائم لا ينقطع قال الطبري : أي وسّع لهم في الجنات الرزق، وهو ما رزقهم من المطاعم والمشارب وسائر ما أعد لأوليائه فيها فطيبه لهم ﴿١٢﴾ ، وفي الآية معنى التعجب والتعظيم لما رزق الله المؤمن من الثواب . . ثم أشار تعالى إلى آثار قدرته، وعظيم سلطانه وجلاله فقال ﴿١٢﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴿١٢﴾ أي الله العظيم الكبير هو الذي خلق بقدرته سبع سموات طباقاً ﴿١٢﴾ ، ومن الأرض كذلك خلق سبع أرضين بعضها فوق بعض بدون فتوق بخلاف السموات ﴿١٢﴾ يتنزل الأمر بينهن ﴿١٢﴾ أي يتنزل وحي الله ويجري أمره وقضاؤه بين السموات والأرضين ﴿١٢﴾ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ﴿١٢﴾ أي لتعلموا أن من قدر على خلق ذلك قادر على كل شيء ﴿١٢﴾ وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴿١٢﴾ أي ولتعلموا أنه تعالى عالم بكل شيء ، لا تخفى عليه خافية .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق ﴿١٢﴾ فأمسكوهن بمعروفٍ أو فارقوهن ﴿١٢﴾ وكذلك ﴿١٢﴾ بعد عشر يسراً ﴿١٢﴾ .

(١) اختار بعض المفسرين أن المراد بالذكر هو الرسول ﷺ بدليل أنه أبدل منه قوله ﴿١٢﴾ رسولاً يتلو ﴿١٢﴾ وإليه ذهب الطبري وأبو السعود ، وما ذكرناه هو أرجح الأقوال أن المراد بالذكر « القرآن » وبالرسول محمد ﷺ وهو منصوب بفعل محذوف تقديره وأرسل رسولاً وهو اختيار ابن عطية وصاحب البحر المحيط .

(٢) البحر المحيط ٢٨٦/٨ . (٣) تفسير الطبري ٩٨/٢٨ . (٤) لا خلاف بين العلماء أن السموات سبع ، وأما الأرض فاختلف فيها فقيل : إنها سبع أرضين لظاهر الآية وللحديث الصحيح « من ظلم قيد شبر من أرض طوقه من سبع أرضين » وقيل : إنها أرض واحدة وأن الماثلة ليست في العدد وإنما هي في الخلق والابداع أي مثلهن في الإبداع والإحكام ، والأول أظهر والله أعلم .

- ٢ - الإظهار في موضع الإضمار للتهويل ﴿وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله﴾ .
- ٣ - الالتفات لمزيد الاهتمام ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ ورد بطريق الخطاب والأصل أن يكون بطريق الغائب « لا يدري » .
- ٤ - إيجاز الحذف ﴿واللائي لم يحضن﴾ حذف منه الخبر أي فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً .
- ٥ - تكرار الوعيد للتفطيع والترهيب ﴿فحاسبناها حساباً شديداً ، وعذبناها عذاباً نكراً ، فذاقت وبال أمرها﴾ الآية .
- ٦ - المجاز المرسل ﴿وكأئن من قرية﴾ يراد بها أهل القرية من باب تسمية الحال باسم المحل .
- ٧ - الاستعارة اللطيفة ﴿ليخرج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور﴾ استعار الظلمات للضلال والكفر ، واستعار النور للهدى والايان ، وهو من روائع البيان ، وجلال تعبير القرآن .
- ٨ - السجع المرصع كأنه الدر والياقوت مثل ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً . . يجعل له من أمره يُسرّاً . . ويعظم له أجراً . . وكان عاقبة أمرها خُسراً﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الطلاق »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة التحريم من السور المدنية التي تتناول الشؤون التشريعية ، وهي هنا تعالج قضايا وأحكاماً تتعلق « بيت النبوة » وبأمهات المؤمنين أزواج رسول الله ﷺ الطاهرات ، وذلك في إطار تهيئة البيت المسلم ، والنموذج الأكمل للأسرة السعيدة .

* تناولت السورة الكريمة في البدء الحديث عن تحريم الرسول ﷺ لجاريته ومملوكته « مارية القبطية » على نفسه ، وامتناعه عن معاشرتها إرضاءً لرغبة بعض زوجاته الطاهرات ، وجاء العتاب له لطيفاً رقيقاً ، يشف عن عناية الله بعبده ورسوله محمد ﷺ أن يُضَيَّقَ على نفسه ما وسَّعه الله له ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ .. ﴾ الآية .

* ثم تناولت السورة أمراً على جانب كبير من الخطورة ألا وهو « إفشاء السر » الذي يكون بين الزوجين ، والذي يهدد الحياة الزوجية ، وضربت المثل على ذلك برسول الله ﷺ حين أسرَّ إلى حفصة بسرٍّ واستكتمها إياه ، فأفشته إلى عائشة حتى شاع الأمر وذاع ، مما أغضب الرسول حتى همَّ بتطبيق أزواجه ﴿ وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً .. ﴾ الآية .

* وحملت السورة الكريمة حملة شديدةً عنيفة ، على أزواج النبي ﷺ حين حدث ما حدث بينهن من التنافس ، وغيره بعضهن من بعض لأمرٍ يسيرة ، وتوعدتهن بإبدال الله لرسوله عليه السلام بنساءٍ خيرٍ منهنَّ ، انتصاراً لرسول الله ﷺ ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنْ ، مُسَلَّمَاتٍ ، مَوْمِنَاتٍ ، قَانِتَاتٍ ، تَائِبَاتٍ .. ﴾ الآية .

* وختمت السورة بضرب مثلين : مثل للزوجة الكافرة في عصمة الرجل الصالح المؤمن ، ومثلاً للزوجة المؤمنة في عصمة الرجل الفاجر الكافر ، تنبيهاً للعباد على أنه لا يغني في الآخرة أحدٌ عن أحد ، ولا ينفع حسب ولا نسب ، إذا لم يكن عمل الإنسان صالحاً ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ ، وَامْرَأةَ لُوطٍ ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَاتَمَهُمَا - أَي كَفَرْنَا بِاللَّهِ وَلَمْ تَوْمَنَّا - فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ

لي عندك بيتاً في الجنة . . ﴿ الآيات . وهو ختم رائع يتناسق مع جو السورة وهدفها في ترسيخ دعائم الفضيلة والإيمان .

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك . . إلى . . وكانت من القانتين ﴾
من آية (١) إلى آية (١٢) نهاية السورة .

اللفظة : ﴿ تحلّة ﴾ تحليل اليمين بالكفارة ﴿ صغت ﴾ مالت عن الحق وزاغت ، وأصغى الإيذاء أماله ﴿ قانتات ﴾ مطيعات من القنوت وهو ملازمة الطاعة مع الخضوع ﴿ نصوحاً ﴾ خالصة صادقة ، والتوبة النصوح هي التي لا عودة بعدها إلى الذنب ، سميت نصوحاً لما فيها من الصدق والإخلاص يقال : هذا عسل ناصح إذا خلص من الشمع^(١) ﴿ أغلظ ﴾ من الغلظة وهي الشدة ﴿ أحصنت ﴾ عفت وصانت نفسها عن مقارفة الفاحشة .

سبب النزول : أ - روي أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه ، فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبويها فأذن لها ، فلما خرجت أرسل إلى جاريتها « مارية القبطية » فعاشرها في بيت حفصة ، فرجعت فوجدتها في بيتها ، فغارت غيرة شديدة ، وقالت : أدخلتها بيتي في غيابي وعاشرتها على فراشي ؟ ! ما أراك فعلت هذا إلا هواني عليك ! فقال لها رسول الله ﷺ مسترضياً لها : إني حرمتها علي ولا تخبري بذلك أحداً ، فلما خرج من عندها قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة - وكانتا متصافيتين - وأخبرتها بسر النبي ﷺ فغضب رسول الله وحلف ألا يدخل على نسائه شهراً واعتزلن فأنزل الله ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك . . ﴾ الآية (٢) .

ب - وروي أن رسول الله ﷺ كان يدخل على زوجته « زينب » رضي الله عنها فيشرب عندها عسلاً ، فاتفتت عائشة وحفصة على أن تقول له كل واحدة إذا دنا منها : أكلت مغاير - وهو طعام حلواً كريبه الريح - فلما مر على حفصة قالت له ذلك ، ثم دخل على عائشة فقالت له مثل ذلك - وكان ﷺ يكره أن توجد منه رائحة كريبه - فقال عليه السلام : لا ولكني شربت عسلاً عند زينب ولن أعود له وحلف فنزلت ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك . . ﴾ الآية (٣) .

(١) القرطبي ١٨ / ١٩٩ . (٢) انظر تفسير الطبري ٢٨ / ١٠١ وحاشية الصاوي ٤ / ٢١٩ .

(٣) الرواية الأولى عند المفسرين أشهر في سبب النزول ، وهي أن الرسول ﷺ حرّم عليه « مارية القبطية » وقد أخرجها الدارقطني عن ابن عباس ، والرواية الثانية ذكرت في الصحيحين بأوسع من هذا وهي أصح إسناداً من الأولى ، ولكن كونها سبباً للنزول مستبعد ، والذي يرجح الرواية الأولى أمور : أن مثل تحريم بعض النساء مما يتبع به مرضاة بعض الزوجات لا شرب العسل أو عدمه ، ثانياً أن الاهتمام بإنزال سورة فيها الوعيد والتهديد لأزواج رسول الله بالطلاق واستبداهن بنساء خير منهن ، وأن الله وملائكته وصالح المؤمنين عوناً لرسول الله ﷺ ، يدل على وجود تنافس بينهن وغيره بعضهم من بعض ، مما أدى إلى إيذاء رسول الله ﷺ فعلاً حتى حرّم بعض جواريه إرضاءً لهم ، واستكتم البعض منهن الأمر فأفشين السر وهذا يرجح ما ذكرناه وقد قال العلامة ابن كثير : وكون قضية شرب العسل سبباً للنزول فيه نظر ، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّغِي مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحْلَةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾

التفسير : ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ الخطاب بلفظ النبوة مشعرٌ بالتوقير والتعظيم ، والتنويه بمقامه الرفيع الشريف ، فلم يخاطبه باسمه العلم كما خاطب سائر الرسل بقوله « يا إبراهيم ، يا نوح ، يا عيسى بن مريم » وإنما خاطبه بلفظ النبوة أو الرسالة ، وذلك أعظم دليل وبرهان على أنه - صلوات الله عليه - أفضل الأنبياء والمرسلين ومعنى الآية : يا أيها الموحى إليه من السماء ، المنبأ بواسطة الأمين جبريل عليه السلام ، لماذا تمنع نفسك ما أحل الله لك من النساء ؟ ! قال المفسرون : إن رسول الله ﷺ خلا بأُم ولده « مارية » في بيت حفصة وعلمت بذلك فقال لها : اكنمي عليّ وقد حرمت مارية على نفسي فنزلت الآية ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾^(١) وفي افتتاح العتاب من حسن التلطف ما لا يخفى ، فقد عاتبه على إعتاب نفسه والتضييق عليها من أجل مرضاة أزواجه ، كأنه يقول : لا تتعب نفسك في سبيل أزواجك ، وأزواجك يسعين في مرضاتك ، فأرح نفسك من هذا العناء ﴿تبتغي مرضاة أزواجك﴾ ؟ أي تطلب رضا أزواجك بتحريم ما أحل الله لك ؟ قال في التسهيل : يعني تحريمه للجارية ابتغاء رضا حفصة ، وهذا يدل على أنها نزلت في تحريم الجارية ، وأما تحريم العسل فلم يقصد فيه رضا أزواجه وإنما تركه لرائحته^(٢) ﴿والله غفور رحيم﴾ أي والله واسع المغفرة ، عظيم الرحمة ، حيث سأمك في امتناعك عن مارية ، وإنما عاتبك رحمة بك ، وفي هذا إشارة إلى أن عتابه في ذلك إنما كان كرامة له ، وإنما وقع العتاب لتضييقه عليه السلام على نفسه ، وامتناعه مما كان له فيه أنس ومتمعة ، وبئس ما قاله الزمخشري في أن هذا كان منه ﷺ زلة لأنه حرم ما أحل الله له الخ فإن هذا القول قلة أدب مع مقام النبوة ، وجهل بصفات المعصوم ، فلم يكن منه صلوات الله عليه تحريم للحلال كما زعم حتى تعتبر مخالفة ومعصية ، وإنما امتنع عن بعض إمائنه تطيباً لخاطر بعض أزواجه ، فعاتبه الله تعالى عليه رفقاً به ، وتنويهاً بقدره ، وإجلالاً لمنصبه عليه السلام أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه ، جرياً على ما أُلّف من لطف الله تعالى به^(٣) ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ أي قد شرع الله لكم يا معشر المؤمنين ما تتحللون به من أيمانكم وذلك بالكفارة ﴿والله مولاكم﴾ أي والله وليكم وناصركم ﴿وهو العليم الحكيم﴾ أي وهو العليم بخلقته الحكيم في صنعه ، فلا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه

(١) انظر سبب النزول المتقدم فيه توضيح وتفصيل للقصة . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ١٣٠ .

(٣) شن صاحب « الانتصاف على الكشاف » الغارة على الزمخشري وشنع عليه وهو محق في ذلك ، لأن من نظر إلى لطف العتاب عرف حقيقة

وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيِّ إِلى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْريلُ وَصَلِحَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾

الحكمة والمصلحة . . ثم شرع تعالى في بيان القصة التي حدثت لرسول الله ﷺ مع بعض زوجاته فقال ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيِّ إِلى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ أي واذكر حين أسر النبي محمد ﷺ إلى زوجته حفصة خيراً واستكتمها إياه قال ابن عباس : هو ما أسر إلى حفصة من تحريم الجارية على نفسه ، كما أخبرها بأن الخلافة بعده تكون في أبي بكر وعمر^(١) ، وطلب منها ألا تخبر بذلك أحداً ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ أي فلما أخبرت بذلك السر عائشة وأفشته لها ﴿وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ﴾ أي وأطلع الله نبيه بواسطة جبريل الأمين على إفشائها للسر ﴿عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ أي أعلمها وأخبرها رسول الله ﷺ ببعض الحديث الذي أفشته معاتباً لها ، ولم يخبرها بجميع ما حصل منها حياءً منه وكرماً ، فإن من عادة الفضلاء التغافل عن الزلات ، والتقصير في اللوم والعتاب قال الحسن : ما استقصى كريم قط ، وقال سفيان : ما زال التغافل من شيم الكرام^(٢) قال الحازن^(٣) : المعنى أن النبي ﷺ أخبر حفصة ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم مارية على نفسه ، وأعرض عن ذكر الخلافة لأنه ﷺ كره أن ينتشر ذلك في الناس^(٤) ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ﴾ أي فلما أخبر الرسول حفصة بأنها قد أفشيت سره ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا﴾ أي قالت : من أخبرك يا رسول الله بأنني أفشيتُ سرّك ؟ قال أبو حيان : ظنت حفصة أن عائشة فضحتّها - وكانت قد استكتمتها - فقالت من أنبأك هذا على سبيل الثبوت ، فأخبرها أن الله جل وعلا هو الذي نبأه به فسكنت وسلّمت^(٥) ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أي فقال عليه السلام : أخبرني بذلك رب العزة ، العليم بسرائر العباد ، الخبير الذي لا تخفى عليه خافية ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ الخطاب لحفصة وعائشة ، خاطبهما بطريق الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما وحملهما على التوبة مما بدر منهما من الإيذاء لسيد الأنبياء ، وجوابه محذوف تقديره أي إن تبتما كان خيراً لكما من التعاون على النبي ﷺ بالإيذاء ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي فقد زاغت ومالت قلوبكما عما يجب عليكما من الإخلاص لرسول الله ، بحب ما يحبه ، وكرهه ما يكرهه^(٥) ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي وإن تتعاوننا على النبي ﷺ بما يسوءه ، من الوقعة بينه وبين سائر نسائه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ أي فإن الله تعالى هو وليه وناصره ، فلا يضره ذلك التظاهر منكما ﴿وَجِبْريلُ وَصَلِحَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وجبريل كذلك وليه وناصره ، والصالحون من المؤمنين قال ابن عباس : أراد بصالح المؤمنين أبا بكر وعمر فقد كانا عوناً له عليه الصلاة والسلام عليهما قال في التسهيل : معنى الآية : إن تعاونتما عليه ﷺ بما يسوءه من إفراط الغيرة ، وإفشاء سره ونحو ذلك ، فإن له من ينصره

(١) قال الرازي : لما رأى النبي ﷺ الغيرة في وجه حفصة أراد أن يرضاهما ، فأسر إليها بشيئين : تحريم الأمة على نفسه ، والبشارة بأن الخلافة بعده في أبي بكر وعمر اهـ التفسير الكبير ٤٣/٣٠ .

(٢) روح المعاني ١٥٠/٢٨ . (٣) تفسير الحازن ١١٧/٤ . (٤) البحر المحیط ٢٩٠/٨ . (٥) تفسير أبي السعود ١٧٤/٥ .

عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسَلِّمًا مَوْمِنًا قَسَمَ لِي تَبَيَّنَتِ غَيْبَاتُ عَدِيَّتٍ
سَلَّحَتْ ثِيَابًا وَابْكَارًا ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا

ويتولاه ، وقد ورد في الصحيح أنه لما وقع ذلك جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : ما يشقُّ عليك من شأن النساء ؟ فإن كنت طلقتهنَّ فإنَّ الله معك وملائكته وجبريل ، وأبو بكرٍ وعمر معك فنزلت الآية موافقة لقول عمر (١) ﴿والملائكةُ بعد ذلكَ ظهيرٌ﴾ أي والملائكةُ الأبرار بعد حضرة الله ، وجبريل ، وصالح المؤمنين أعوانٌ لرسول الله ﷺ على من عاداه ، فماذا يفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء أعوانه وأنصاره ؟ ! أفرد ﴿جبريل﴾ بالذكر تعظيماً له ، وإظهاراً لمكانته عند الله تعالى فيكون قد ذكر مرتين : مرةً بالإنفراد ، ومرةً في العموم ، ووسط ﴿صالح المؤمنين﴾ بين جبريل والملائكة تشريراً لهم ، واعتناءً بهم ، وإشادةً بفضل الصلاح ، وختم الآية بذكر ﴿الملائكة﴾ أعظم المخلوقات وجعلهم ظهراء للنبي عليه السلام ليكون أفخم بالنبي صلوات الله عليه ، وعظم مكانته ، والانتصار له ، إذ هم بمثابة جيشٍ جرارٍ ، يملأ القفار ، نصرَةً للنبي المختار ، فمن ذا الذي يستطيع أن يناوئ الرسول ﷺ بعد ذلك (٢) ؟ ثم خوفٌ تعالى نساء النبي بقوله ﴿عسى ربُّه إن طلقكُنَّ﴾ قال المفسرون : ﴿عسى﴾ من الله واجبٌ أي حقٌ واجب على الله إن طلقكُنَّ رسوله ﴿أن يُبدله أزواجاً خيراً منكُنَّ﴾ أي أن يعطيه عليه السلام بدلكنَّ زوجاتٍ صالحاتٍ خيراً وأفضل منكُنَّ قال القرطبي : هذا وعدٌ من الله تعالى لرسوله لو طلقهن في الدنيا أن يزوجه نساءً خيراً منهن ، والله عالمٌ بأنه لا يطلقهن ، ولكن أخبر عن قدرته ، على أن رسوله لو طلقهن ، لأبدله خيراً منهن ، تخويفاً لمن (٣) . . ثم وصف تعالى هؤلاء الزوجات اللواتي سيبدلهن فقال ﴿مسلمات﴾ أي خاضعات مستسلماتٍ لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﴿مؤمنات﴾ أي مصدقاتٍ بالله وبرسوله ﴿قانتات﴾ أي مطيعاتٍ لما يؤمرن به ، مواظباتٍ على الطاعة ﴿تائبات﴾ أي تائباتٍ من الذنوب ، لا يصررن على معصية ﴿عابدات﴾ أي متعبداتٍ لله تعالى يكثرن العبادة ، كأنَّ العبادة امتزجت بقلوبهن حتى صارت سجيةً لهن ﴿سائحات﴾ أي مسافراتٍ مهاجراتٍ إلى الله ورسوله (٤) ﴿ثيباتٍ وأبكاراً﴾ أي منهن ثيباتٍ ، ومنهن أبكاراً قال ابن كثير : قسمهن إلى نوعين ليكون ذلك أشهى إلى النفس ، فإنَّ التنوع ييسط النفس (٥) ، وإنما دخلت واو العطف هنا ﴿ثيباتٍ وأبكاراً﴾ للتنوع والتقسيم ، ولو سقطت لاحتل المعنى ، لأن الثيوبة والبكاراة لا يجتمعان ، فتدبر سرَّ القرآن . . ولما وعظ نساء الرسول موعظةً خاصة ، أتبع ذلك بموعظةٍ عامةٍ للمؤمنين فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا﴾

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١٣١/٤ .

(٢) لا يخفى أن الكلام في الآية مسوقٌ للمبالغة وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكةُ بعد ذلك ظهيرٌ وإلا فكفى بالله ولياً ، وكفى بالله نصيراً . (٣) تفسير القرطبي ١٨/١٩٣ .

(٤) قال ابن عباس : ﴿سائحات﴾ أي صائحاتٍ واستبدل بحديث (سباحةُ هذه الأمة الصيام) وقال زيد بن أسلم : ﴿سائحات﴾ أي مهاجراتٍ وتلا قوله تعالى ﴿التائبون العابدون السائحون﴾ أي المهاجرون ، ولعل هذا الرأي أرجح لأنه يتفق مع المعنى اللغوي للسباحة وهي السفر في الأرض للاعتبار ، وقد رجح ابن كثير الرأي الأول والله أعلم . (٥) ابن كثير ٣/٥٢٢ .

مَلَائِكَةٌ غُلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدِرُوا
 الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ
 عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ
 أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُم نَارًا ﴿٦٨﴾ أَي يَا مَنْ صَدَقْتُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَسْلَمْتُمْ وَجُوهَكُمْ لِلَّهِ ، أَحْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ ،
 وَصُونُوا أَزْوَاجَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ ، مِنْ نَارٍ حَامِيَةٍ مُسْتَعْرَةٍ ، وَذَلِكَ بِتَرْكِ الْمَعَاصِي وَفِعْلِ الطَّاعَاتِ ، وَبِتَأْدِيبِهِمْ
 وَتَعْلِيمِهِمْ قَالَ مُجَاهِدٌ : أَي اتَّقُوا اللَّهَ ، وَأَوْصُوا أَهْلِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَقَالَ الْخَازِنُ : أَي مَرَوْهُمْ بِالْخَيْرِ ،
 وَأَنَّهُمْ عَنِ الشَّرِّ ، وَعَلِمُوهُمْ وَأَدَبُوهُمْ حَتَّى تَقْوَهُمْ بِذَلِكَ مِنَ النَّارِ (١) ، وَالْمَرَادُ بِالْأَهْلِ النِّسَاءُ وَالْأَوْلَادُ وَمَا
 أَحْلَقَ بَيْنَهُمَا ﴿٦٧﴾ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴿٦٨﴾ أَي حَطْبُهَا الَّذِي تُسْعَرُ بِهِ نَارُ جَهَنَّمَ هُوَ الْخَلَائِقُ وَالْحِجَارَةُ قَالَ
 الْمَفْسُورُونَ : أَرَادَ بِالْحِجَارَةِ حِجَارَةَ الْكَبْرِيتِ ، لِأَنَّهَا أَشَدُّ الْأَشْيَاءِ حَرًّا ، وَأَسْرَعُ اتِّقَادًا ، وَعَنَى بِذَلِكَ أَنَّهَا
 مَفْرُطَةُ الْحَرَارَةِ ، تَتَقَدُّ بِمَا ذَكَرَ ، لَا كِنَارِ الدُّنْيَا تَتَقَدُّ بِالْحَطْبِ وَنَحْوِهِ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : حَطْبُهَا الَّذِي يَلْقَى
 فِيهَا بَنُو آدَمَ ، وَحِجَارَةُ مِنْ كَبْرِيتِ ، أَنْتَنُ مِنَ الْجِيفَةِ (٢) ﴿٦٧﴾ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاطٌ شِدَادٌ ﴿٦٨﴾ أَي عَلَى هَذِهِ النَّارِ
 زِبَانِيَةٌ غُلَاطُ الْقُلُوبِ ، لَا يَرْمُونَ أَحَدًا ، مَكْلُفُونَ بِتَعْذِيبِ الْكُفَّارِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : الْمَرَادُ بِالْمَلَائِكَةِ
 الزَّبَانِيَةِ ، وَهِيَ غُلَاطُ الْقُلُوبِ لَا يَرْمُونَ إِذَا اسْتَرَحَمُوا ، لِأَنَّهُمْ خَلَقُوا مِنَ الْغَضَبِ ، وَحُبِّ إِلَيْهِمْ عَذَابِ
 الْخَلْقِ كَمَا حُبَّ لِبْنِي آدَمَ أَكَلَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ (٣) ﴿٦٨﴾ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴿٦٧﴾ أَي لَا يَعْصُونَ أَمْرَ اللَّهِ
 بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ﴿٦٧﴾ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦٧﴾ أَي وَيَنْفِذُونَ الْأَوْامِرَ بِدُونَ إِمْهَالٍ وَلَا تَأْخِيرٍ . . . ثُمَّ يُقَالُ
 لِلْكَفَّارِ عِنْدَ دُخُولِهِمُ النَّارِ ﴿٦٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدِرُوا الْيَوْمَ ﴿٦٧﴾ أَي لَا تَعْتَدِرُوا عَنْ ذُنُوبِكُمْ
 وَإِجْرَامِكُمْ ، فَلَا يَنْفَعُكُمُ الْيَوْمَ الْإِعْتِدَارُ ، لِأَنَّهُ قَدْ قَدَّمَ إِلَيْكُمْ الْإِنذَارَ وَالْإِعْذَارَ ﴿٦٧﴾ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ
 تَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾ أَي إِنَّمَا تَنْالُونَ جَزَاءَ أَعْمَالِكُمُ الْقَبِيحَةِ ، وَلَا تَظْلَمُونَ شَيْئًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿٦٧﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ
 بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ دَعَا الْمُؤْمِنِينَ إِلَى التَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ النَّاصِحَةِ فَقَالَ ﴿٦٧﴾ يَا
 أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴿٦٧﴾ أَي تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ ذُنُوبِكُمْ تَوْبَةً صَادِقَةً خَالِصَةً ،
 بِالغَةِ فِي النَّصْحِ الْغَايَةِ الْقَصْوَى ، سَأَلَ عُمَرَ عَنِ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ فَقَالَ : هِيَ أَنْ يَتُوبَ ثُمَّ لَا يَعُودَ إِلَى
 الذَّنْبِ ، كَمَا لَا يَعُودُ اللَّبَنُ إِلَى الضَّرْعِ (٤) قَالَ الْعُلَمَاءُ : التَّوْبَةُ النَّصُوحُ هِيَ الَّتِي جَمَعَتْ ثَلَاثَةَ شُرُوطٍ :
 الْإِقْلَاعُ عَنِ الذَّنْبِ ، وَالنَّدَمُ عَلَى مَا حَدَثَ ، وَالْعَزْمُ عَلَى عَدَمِ الْعُودَةِ إِلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ الْحَقُّ لَأَدْمِي زَيْدٍ شَرَطَ
 رَابِعٌ وَهُوَ : رَدُّ الْمَظَالِمِ لِأَصْحَابِهَا ﴿٦٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴿٦٧﴾ أَي لَعَلَّ اللَّهَ يَرْحَمُكُمْ فَيَمْحُو
 عَنْكُمْ ذُنُوبَكُمْ قَالَ الْمَفْسُورُونَ : « عَسَى » مِنَ اللَّهِ وَاجِبَةٌ بِمَنْزِلَةِ التَّحْقِيقِ ، وَهَذَا إِطْمَاعٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ فِي
 قَبُولِ التَّوْبَةِ ، تَفْضِيلًا مِنْهُ وَتَكْرَمًا ، لِأَنَّ الْعَظِيمَ إِذَا وَعَدَ وَفَّى ، وَعَادَةُ الْمُلُوكِ أَنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا فِعْلًا قَالُوا
 « عَسَى » فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُحَقِّقِ (٥) ﴿٦٧﴾ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿٦٧﴾ أَي وَيُدْخِلُكُمْ فِي الْآخِرَةِ

(١) تفسير الخازن ٤/ ١٢١ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٢٣ . (٣) تفسير القرطبي ١٨/ ١٩٦ .

(٤) تفسير الخازن ٤/ ١٢٢ . (٥) انظر روح المعاني للألوسي ٢٨/ ١٦٠ .

يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمِنُ بِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَاتٍ نُوحٍ وَامْرَأَاتٍ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿٢٠﴾

حدائق وبساتين ناضرة ، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿يوم لا يُغزي الله النبي والذين آمنوا معه﴾ أي يوم لا يفضح الله النبي وأتباعه المؤمنين أمام الكفار ، بل يعزهم ويكرمهم قال أبو السعود : وفيه تعريضٌ بمن أخزاهم الله تعالى من أهل الكفر والفسوق^(١) ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾ أي نور هؤلاء المؤمنين يضيء لهم على الصراط ، ويسطع أمامهم وخلفهم وعن أيمانهم وشمالهم ، كإضاءة القمر في سواد الليل^(٢) ﴿يقولون ربنا أتمم لنا نورنا﴾ أي يدعون الله قائلين : يا ربنا أكمل علينا هذا النور وأدمه لنا ، ولا تتركنا تتخبط في الظلمات قال ابن عباس : هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين^(٣) ، يدعون ربهم به إشفافاً حتى يصلوا إلى الجنة ﴿واغفر لنا﴾ أي وامح عنا ما فرط من الذنوب ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ أي إنك أنت القادر على كل شيء ، من المغفرة والعقاب ، والرحمة والعذاب . . ثم أمر تعالى بجهاد أعداء الله من الكفرة والمنافقين فقال ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ أي جاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة والبرهان ، لأن المنافقين يظهرون الإيمان ، فهم مسلمون ظاهراً فلذلك لم يؤمر عليه الصلاة والسلام بقتالهم ﴿واغلظ عليهم﴾ أي وشدد عليهم في الخطاب ، ولا تعاملهم بالرفقة واللين ، إرعاباً وإذلالاً لهم ، لتكسر صلابتهم وتلين شكيמתهم ﴿ومأواهم جهنم﴾ أي ومستقرهم في الآخرة جهنم ﴿وبئس المصير﴾ أي وبئس جهنم مستقراً ومصيراً للمجرمين . ثم ضرب تعالى مثلاً للكفار في عدم انتفاعهم بصلة القرابة أو المصاهرة أو النكاح ، لأن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة ولا ينفع إلا العمل الصالح فقال ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط﴾ أي مثل تعالى للكفار في عدم استفادتهم بقرابة المؤمنين ، بحال امرأة نوح وامرأة لوط ﴿كانتا تحت عبدین من عبادنا صالحین﴾ أي كانتا في عصمة نبیین عظیمین هما «نوح» و«لوط» عليهما السلام ، وإنما وصفهما بالعبودية تشريفاً وتكريماً لهما بإضافتهما إليه تعالى ﴿فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً﴾ أي فخانت كل واحدة زوجها بالكفر وعدم الإيمان^(٤) ، فلم يدفعا عن امرأتهما - مع نبوتها -

(١) تفسير أبي السعود ١٧٥/٥ .

(٢) وفي الحديث أن النبي ﷺ سئل : كيف تعرف أمتك يوم القيامة من بين الأمم ؟ فقال : (إنهم يأتون غراً محجلين من آثار الوضوء) أي تسطع جباههم وأيديهم بالنور من آثار الطهور فيعرفهم بذلك رسول الله ﷺ . (٣) تفسير القرطبي ٢٠١/١٨ .

(٤) الخيانة هنا يراد بها الخيانة في الدين لا في العرض ، وقد أخطأ بعض المفسرين حيث نسب لهما فاحشة الزنى ، وهذا لا يجوز لأن الله تعالى أكرم أنبياءه أن تتعاطى واحدة منهن الفجور ، بل هن شريفات مصونات لحزمة الأنبياء ، وقد قال ابن عباس : ما بغت امرأة نبي قط ، وإنما كانت خيانتها أنها كانتا على غير دينهما وكانتا مشركتين ، فتدبره فإنه دقيق .

وَضْرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَاتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ
وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ
بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾

شيئاً من عذاب الله ﴿وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ أي وتقول لهما خزنة النار يوم القيامة : ادخلا نار جهنم مع سائر الداخلين ، من الكفرة المجرمين قال القرطبي : ضرب تعالى هذا المثل تشبيهاً على أنه لا يغني في الآخرة أحد عن قريب ولا نسيب ، إذا فرّق بينهما الدين ، كما لم يدفع نوح ولوط - مع كرامتهما على الله تعالى - عن زوجتيهما لما عصتا شيئاً من عذاب الله ^(١) ﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون﴾ وهذا مثل آخر للمؤمنين في عدم تضرره ببقاء قريبه على الكفر إذا كان هو مؤمناً قال أبو السعود : أي جعل حالها مثلاً لحال المؤمنين في أن وصلة الكفر لا تضرهم ، حيث كانت في الدنيا تحت أعدى أعداء الله « فرعون » وهي في أعلى غرف الجنة ^(٢) قال المفسرون : واسمها « آسية بنت مزاحم » آمنت بموسى عليه السلام ، فبلغ ذلك فرعون فأمر بقتلها ، فنجّأها الله من شره ، فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به وهو من أكفر الكافرين ، ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بها وهما رسولا رب العالمين ﴿ إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾ أي حين دعت ربها قائلةً : يا رب اجعل لي قصراً مشيداً بجوار رحمتك في جنة النعيم قال بعض العلماء : ما أحسن هذا الكلام فقد اختارت الجار قبل الدار حيث قالت ﴿ ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾ فهي تطمع في جوار الله قبل طمعها في القصور ، وفي الآية دليل على إيمانها وتصديقها بالبعث ﴿ ونجّني من فرعون وعمله﴾ أي وأنقذني من كفر فرعون وطغيانه ﴿ ونجّني من القوم الظالمين﴾ أي وأنقذني من الأقباط ، أتباع فرعون الطاغين ، قال الحسن : لما دعت بالنجاة نجّأها الله تعالى أكرم نجاة ، فرفعها إلى الجنة تأكل وتشرب وتتعمم ^(٣) ﴿ ومريم ابنة عمران﴾ أي ومريم ابنة عمران مثل آخر في الإيمان ﴿ التي أحصنت فرجها﴾ أي حفظت فرجها وصانته عن مقارنة الفواحش ، فهي عفيفة شريفة طاهرة ، لا كما زعم اليهود عليهم لعنة الله ، أنها زنت وأن ولدها عيسى ابن زنى ﴿ فنفخنا فيه من روحنا﴾ أي فنفخ رسولنا جبريل في فتحة جيبها ، فوصل أثر ذلك إلى فرجها فحملت بعيسى قال ابن كثير : إن الله بعث جبريل فتمثل لها في صورة بشر ، وأمره أن ينفخ بفيه في جيب درعها ، فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام ^(٤) ﴿ وصدّقت بكلمات ربها وكتبه﴾ أي وآمنت بشرائع الله القدسية ، وكتبه السماوية ﴿ وكانت من القانتين﴾ أي وكانت من القوم المطيعين ، العابدين لله عز وجل ، وهو ثناء عليها بكثرة العبادة والطاعة ، والخشوع ، وفي الحديث (كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ،

(١) تفسير القرطبي ٢٠١/١٨ . (٢) تفسير أبي السعود ١٧٦/٥ . (٣) البحر المحيط ٢٩٥/٨ .

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٥٢٥/٣ .

وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» (٥) .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين حرمٍّ وأحلٍّ ﴿لم تحرم ما أحلَّ﴾ وبين ﴿عرّف . . وأعرض﴾ وبين ﴿ثيباتٍ وأبكاراً﴾ وكلها من المحسنات البديعية التي تزيد في جمال الكلام .
- ٢ - الإلتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿إن تتوبا إلى الله﴾ زيادةً في اللوم والعتاب .
- ٣ - صيغ المبالغة ﴿العليم الخبير﴾ ﴿نصوحاً﴾ ﴿ظهير﴾ ﴿قدير﴾ الخ .
- ٤ - ذكر العام بعد الخاص ﴿وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة﴾ فقد خصَّ جبريل بالذكر تشريفاً ، ثم ذكره ثانية مع العموم اعتناءً بشأن الرسول ﷺ ووسطاً صالح المؤمنين بين الملائكة المقربين .
- ٥ - المجاز المرسل ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ ذكر المسبب وأراد السبب أي لازموا على الطاعة لتقوا أنفسكم وأهليكم من عذاب الله .
- ٦ - المقابلة بين مصير أهل الإيمان ومصير أهل الطغيان ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا﴾ و﴿ضرب الله مثلاً للذين آمنوا﴾ .
- ٧ - التغليب ﴿وكانت من القانتين﴾ غلبَ الذكور على الإناث .
- ٨ - السجع المرصع كأنه اللؤلؤ والمرجان، وهو كثير في القرآن فتدبره بإمعان .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة التحريم »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الملّك من السور المكية ، شأنها شأن سائر السور المكية ، التي تعالج موضوع العقيدة في أصولها الكبرى ، وقد تناولت هذه السورة أهدافاً رئيسية ثلاثة وهي « إثبات عظمة الله وقدرته على الإحياء والإماتة . . وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين . . ثم بيان عاقبة المكذبين الجاحدين للبعث والنشور » .

* ابتدأت السورة الكريمة بتوضيح الهدف الأول ، فذكرت أن الله جل وعلا بيده الملّك والسلطان ، وهو المهيمن على الأكوان ، الذي تخضع لعظمته الرقاب وتعنوله الجباه ، وهو المتصرف في الكائنات بالخلق والإيجاد ، والإحياء والإماتة ﴿ تبارك الذي بيده الملّك . . ﴾ الآيات .

* ثم تحدثت عن خلق السموات السبع ، وما زين الله به السماء الدنيا من الكواكب الساطعة ، والنجوم اللامعة ، وكلها أدلة على قدرة الله ووحدانيته ﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً . . ﴾ الآيات .

* ثم تناولت الحديث عن المجرمين بشيء من الإسهاب ، وهم يرون جهنم تتلظى وتكاد تتقطع من شدة الغضب والغليظ على أعداء الله ، وقارنت بين مآل الكافرين والمؤمنين ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور . . ﴾ .

* وبعد أن ساق بعض الأدلة والشواهد على عظمة الله وقدرته ، حذرت من عذابه وسخطه أن يحل بأولئك الكفرة الجاحدين ﴿ أمنتهم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور . . ﴾ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بالإبذار والتحذير للمكذبين بدعوة الرسول ، من حلول العذاب بهم في الوقت الذي كانوا يتمنون فيه موت الرسول ﷺ وهلاك المؤمنين ﴿ قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحماً فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ﴾ ؟ الآيات ويا له من وعيد شديد ، ترتعد له الفرائض ! !

فضلها : تسمى هذه السورة « الواقية » و « المنجية » لأنها تقي قارئها من عذاب القبر فقد قال ﷺ (هي المانعة وهي المنجية ، تنجي من عذاب القبر) أخرجه الترمذي .

قال الله تعالى : ﴿ تبارك الذي بيده الملك . . . إلى فمن يأتيكم بماء معين ﴾

من آية (١) إلى آية (٣٠) نهاية السورة الكريمة .

اللغز : ﴿ طباقاً ﴾ بعضها فوق بعض ، من طابق النعل بالنعل إذا قطعه بقدره وجعله فوقه ﴿ فطور ﴾ شقوق وخروق ، من فطر بمعنى شق قال الشاعر :

بنى لكمو بلا عمدٍ سماءً وسواها فما فيها فطور^(١)

﴿ حسير ﴾ كليل من الحسور وهو الإعياء يقال حسر البعير إذا كلَّ وانقطع قال الشاعر :

نظرتُ إليها بالمحصب من منى فعاد إليَّ الطَّرف وهو حسير^(٢)

﴿ شهيقاً ﴾ صوتاً منكراً كصوت الحمير ﴿ تميز ﴾ تتقطع ويفصل بعضها من بعض ، وأصلها تتميز

حذفت إحدى التاءين تخفيفاً ﴿ مناكبها ﴾ أطرافها ونواحيها ، وأصل المنكب : الجانب ومنه منكب الرجل

﴿ لجوا ﴾ تبادوا وأصروا ﴿ تمورا ﴾ ترتج وتضطرب ﴿ زلقة ﴾ قريباً منهم ﴿ غوراً ﴾ غائراً ذاهباً في الأرض .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلِكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾

التفسير : ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ أي تمجد وتعالى الله العلي الكبير ، المفيض على المخلوقات من فنون الخيرات ، الذي بقبضة قدرته ملك السموات والأرض ، يتصرف فيها كيف يشاء قال ابن عباس : بيده الملك ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويحيي ويميت ، ويغني ويفقر ، ويعطي ويمنع^(٣) ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أي وهو القادر على كل شيء له القدرة التامة ، والتصرف الكامل في كل الأمور ، من غير منازع ولا مدافع . ثم بين تعالى آثار قدرته ، وجليل حكمته فقال ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ أي أوجد في الدنيا الحياة والموت ، فأحيا من شاء وأمات من شاء ، وهو الواحد القهار ، وإنما قدم الموت لأنه أهيب في النفوس وأفزع قال العلماء : ليس الموت فناً وانقطاعاً بالكلية عن الحياة ، وإنما هو انتقال من دار إلى دار ، ولهذا ثبت في الصحيح أن الميت يسمع ، ويرى ، ويحس وهو في قبره كما قال عليه السلام (إنَّ أحدكم إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم)^(٤) الحديث وقال ﷺ : (والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم لكنهم لا يغيون) فالمتُّ هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ، ومفارتها للجسد ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ أي ليمتحنكم ويختبركم - أيها الناس - فيرى المحسن منكم من المسيء قال القرطبي : أي يعاملكم معاملة المختبر ، فإن الله تعالى عالم بالمطيع والعاصي أزلاً^(٥) ﴿ وهو العزيز ﴾ أي الغالب في انتقامه ممن عصاه ﴿ الغفور ﴾ لذنوب من تاب

(١) البحر المحيط ٢٩٨/٨ . (٢) القرطبي ٢١٠/١٨ . (٣) القرطبي ٢٠٦/١٨ .

(٤) جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم . (٥) تفسير القرطبي ٢٠٧/١٨ .

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٥﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٦﴾

وأنا ب إليه ﴿الذي خلق سبع سمواتٍ طباقاً﴾ أي خلق سبع سمواتٍ متطابقة ، بعضها فوق بعض ، كل سماء كالقبة للأخرى ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوتٍ﴾ أي لست ترى أيها السامع في خلق الرحمن البديع من نقص أو خلل ، أو اختلاف أو تنافر ، بل هي في غاية الأحكام والإتقان ، وإنما قال ﴿في خلق الرحمن﴾ ولم يقل « فيهن » تعظيماً لخلقهن ، وتبنيهاً على باهر قدرة الله ﴿فارجع البصر هل ترى من فطورٍ﴾ ؟ أي فكرّر النظر في السموات وردّده في خلقهن المحكم ، هل ترى من شقوق وصدوع ؟ ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ أي ثم ردّد النظر مرةً بعد أخرى ، وانظر بعين الاعتبار في هذه السموات العجيبة ، مرةً بعد مرةً ﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً﴾ أي يرجع إليك بصرك خاسعاً ذليلاً ، لم ير ما تريد ﴿وهو حسير﴾ أي وهو كليل متعب قد بلغ الغاية في الإعياء قال الإمام الفخر : المعنى إنك إذا كررت نظرك لم يرجع إليك بصرك بما طلبته من وجود الخلل والعيب ، بل رجع خاسئاً مبعداً لم ير ما يهوى مع الكلال والإعياء^(١) وقال القرطبي : أي اردد طرفك وقلب البصر في السماء ﴿كرتين﴾ أي مرةً بعد أخرى ، يرجع إليك البصر خاسعاً صاغراً ، متباعداً عن أن يرى شيئاً من ذلك العيب والخلل ، وإنما أمر بالنظر كرتين ، لأن الإنسان إذا نظر في الشيء مرة لا يرى عيبه ، ما لم ينظر إليه مرة أخرى ، والمراد بالكرتين التكثير بدليل قوله ﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ وهو دليل على كثرة النظر^(٢) . . . ثم بيّن تعالى ما زين به السماء من النجوم الزاهرة والكواكب الساطعة فقال ﴿ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح﴾ اللام لام القسم و﴿قد﴾ للتحقيق والمعنى والله لقد زيننا السماء القريبة منكم أيها الناس بكواكب مضيئة ساطعة ، هي السماء الأولى أقرب السموات إلى الأرض قال المفسرون : سميت الكواكب مصابيح لإضاءةها بالليل إضاءة السراج ﴿وجعلناها رُجوماً للشياطين﴾ أي جعلناها فائدةً أخرى وهي رجم أعدائكم الشياطين ، الذين يسترقون السمع قال قتادة : خلق الله تعالى النجوم لثلاث : زينةً للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلاماتٍ يهتدى بها في البر والبحر^(٣) وقال الخازن : فإن قيل : كيف تكون زينةً للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وكونها زينة يقتضي بقاءها ، وكونها رجوماً يقتضي زوالها ، فكيف الجمع بين هاتين الحالتين ؟ فالجواب أنه ليس المراد أنهم يرمون بأجرام الكواكب ، بل يجوز أن تنفصل من الكواكب شعلة وترمى الشياطين بتلك الشعلة وهي الشهب ، ومثلها كمثل قيس يؤخذ من النار وهي على حالها^(٤) ، أقول : ويؤيده قوله تعالى ﴿إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهابٌ ثاقب﴾ فعلى هذا ، الكواكب لا يرمم بها ؛ وإنما يكون الرجم بالشهب ﴿وأعدنا لهم عذاب السَّعِيرِ﴾ أي وهبنا وأعدنا للشياطين في

(١) التفسير الكبير للرازي ٥٨/٣٠ . (٢) تفسير القرطبي ٢٠٩/١٨ . (٣) البحر المحيط ٢٩٩/٨ . (٤) تفسير الخازن ٤/١٢٥ .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسِيسُ الْمَصِيرِ ﴿١٠﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿١١﴾
 تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَا يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿١٢﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ
 فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿١٣﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا
 فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٤﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٥﴾

الآخرة - بعد الإحراق بالشهب في الدنيا - العذاب المستعر ، وهو النار الموقدة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ أي وللكافرين برهم عذاب جهنم أيضاً ، فليس العذاب مختصاً بالشیاطين بل هو لكل كافر بالله من الإنس والجن ﴿وَسِيسُ الْمَصِيرِ﴾ أي وبئس المصير ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ أي إذا قذفوا وطرحوا في جهنم كما يطرح الحطب في النار العظيمة ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ أي سمعوا لجهنم صوتاً منكراً فظيعاً كصوت الحمار ، لشدة توقدها وغلبيتها^(١) قال ابن عباس : الشهيق لجهنم عند إلقاء الكفار فيها ، شهيق إليهم شهقة البغلة للشعير ، ثم تزرُ زفرة لا يبقى أحدٌ إلا خاف^(٢) ﴿وَهِيَ تَفُورٌ﴾ أي وهي تغلي بهم كما يغلي المرجل - القدر - من شدة الغضب ومن شدة اللهب قال مجاهد : تفور بهم كما يفور الحب القليل في الماء الكثير ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي تكاد جهنم تتقطع ويفصل بعضها من بعض ، من شدة غيظها وحنفها على أعداء الله ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ أي كلما طرح فيها جماعة من الكفرة ﴿سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا﴾ أي سألتهم الملائكة الموكلون على جهنم - وهم الزبانية - سؤال توبيخ وتقريع ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي ألم يأتكم رسولٌ ينذركم ويخوفكم من هذا اليوم الرهيب ؟ قال المفسرون : وهذا السؤال زيادة لهم في الإيلام ، ليزدادوا حسرةً فوق حسرتهم ، وعذاباً فوق عذابهم ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ أي أجابوا نعم لقد جاءنا رسولٌ منذر ، وتلا علينا آيات الله ، ولكننا كذبناه وأنكرنا رسالته ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أي وقلنا إمعاناً في التكذيب وتمادياً في النكير : ما أنزل الله شيئاً من الوحي على أحدٍ قال الرازي : هذا اعترافٌ منهم بعدل الله ، وإقرار بأن الله أزاح عنهم بيعته الرسل الكرام ، ولكنهم كذبوا الرسل وقالوا ما نزل الله من شيء^(٣) ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ هذا من تنمة كلام الكفار أي ما أنتم يا معشر الرسل إلا في بعدٍ عن الحق ، وضلال واضح عميق ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ أي وقال الكفار : لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو كنا نسمع سماع طالب للحق ، ملتمس للهدى ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي ما كنا نستوجب الخلود في جهنم ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ أي فأقروا بإجرامهم وتكذيبهم للرسل ﴿فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي فبعداً وهلاكاً لأهل النار قال ابن كثير : عادوا على أنفسهم بالملامة ، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة^(٤) ، والجملة دعائية أي أبعدهم الله من رحمته

(١) قال في التسهيل : الشهيق أفصح ما يكون من صوت الحمار ، ويعني به ما يسمع من صوت جهنم لشدة غلبتها وهولها . (٢) التسهيل

١٣٤/٤ . (٢) تفسير القرطبي ٢١١/١٨ . (٣) التفسير الكبير للرازي . ٦٤/٣ . (٤) مختصر تفسير ابن كثير ٥٢٨/٣ .

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۗ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾

وسحقهم سحقاً . . ثم لما ذكر حال الأشقياء الكفار أتبعه بذكر حال السعداء الأبرار فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي يخافون ربهم ولم يروه ، ويكفون عن المعاصي طلباً لمرضاة الله ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي لهم عند الله مغفرة عظيمة لذنوبهم ، وثواب جزيل لا يعلم قدره غير الله تعالى ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ﴾ الخطاب لجميع الخلق أي أخفوا قولكم وكلامكم أيها الناس أو أعلنوه وأظهروه ، فسواء أخفيتموه أو أظهرتموه فإن الله يعلمه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي لأنه تعالى العالم بالخفايا والنوايا ، يعلم ما يخطر في القلوب ، وما توسوس به الصدور قال ابن عباس : نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله ﷺ فيخبره جبريل بما قالوا ، فقال بعضهم لبعض : أسرُوا قولكم حتى لا يسمع إله محمد ، فأخبره الله أنه لا تخفى عليه خافية^(١) ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ؟ أي ألا يعلم الخالق مخلوقاته ؟ كيف لا يعلم من خلق الأشياء وأوجدها سر المخلوق وجهه ؟ ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ أي والحال أنه اللطيف بالعباد ، الذي يعلم دقائق الأمور وغوامضها ، الخبير الذي لا يعزب عن علمه شيء ، فلا تتحرك ذرة ، ولا تسكن أو تضطرب نفس إلا وعنده خبرها . . ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته ، وأثار فضله وامتنانه على العباد فقال ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ أي الله جل وعلا جعل لكم الأرض لينة سهلة المسالك ﴿فامشوا في مناكبها﴾ أي فاسلكوا أيها الناس في جوانبها وأطرافها قال ابن كثير : أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا في أقاليمها وأرجائها للمكاسب والتجارات^(٢) ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ أي وانتفعوا بما أنعم به جل وعلا عليكم من أنواع الكسب والرزق قال الألوسي : كثيراً ما يعبر عن وجوه الانتفاع بالأكل لأنه الأهم الأعم ، وفي الآية دليل على ندب التسبب والكسب ، وهو لا ينافي التوكل ، فقد مرَّ عمر رضي الله عنه بقومٍ فقال : من أنتم ؟ فقالوا : المتوكلون فقال : بل أنتم المتواكلون ، إنما المتوكل رجل ألقى حبه في بطن الأرض وتوكل على ربه عز وجل^(٣) ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أي وإليه تعالى المرجع بعد الموت والفناء ، للحساب والجزاء . . ثم توعدَّ تعالى كفار مكة المكذبين لرسول الله ﷺ فقال ﴿أَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ أي هل أنتم يا معشر الكفار ربكم العليَّ الكبير أن يخسف بكم الأرض فيغيبيكم في مجاهلها ، بعد ما جعلها لكم ذلولاً تمشون في مناكبها ؟ ﴿فإذا هي تمور﴾ أي فإذا بها تضطرب وتهتز بكم هزاً شديداً عنيفاً قال الرازي : والمراد أن الله تعالى يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك ، فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها

(١) الخازن ٤/١٢٦ والألوسي ٢٩/١٣ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٥٢٨ .

(٣) تفسير الألوسي ٢٩/١٥ .

أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۗ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۗ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ ۗ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمْ نَهَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ۗ إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾

فيذهبون ، والأرض فوقهم تمور فتلقيهم إلى أسفل سافلين ^(١) ﴿أم أمنتكم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾ أي أم أمنتكم الله العليّ الكبير أن يرسل عليكم حجارة من السماء ، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل ؟ ﴿فستعلمون كيف نذير﴾ أي فستعلمون عند معاينة العذاب ، كيف يكون إنذاري وعقابي للمكذبين ! ! وفيه وعيد وتهديد شديد ، وأصلها ﴿نذيري﴾ و﴿نكيري﴾ حذف الياء مراعاة لرءوس الآيات ﴿ولقد كذب الذين من قبلهم﴾ أي ولقد كذب كفار الأمم السابقة رسلهم ، كقوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم ، وهذا تسلية للرسول ﷺ وتهديد لقومه المشركين ﴿فكيف كان نكير﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم بنزول العذاب ؟ ألم يكن في غاية الهول والفظاعة ؟ ثم لما حذرهم ما عسى أن يحل بهم من الخسف وإرسال الحاصب ، نبههم على الاعتبار بالطير ، وما أحكم الله من خلقها ، وعن عجز ألفتهم المزعومة عن خلق شيء من ذلك فقال ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافّات ويقبضن﴾ أي أولم ينظروا نظر اعتبار إلى الطيور فوقهم ، باسطات أجنحتهن في الجوع عند طيرانها وتحليقها ، ﴿ويقبضن﴾ أي ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن وقتاً بعد وقت ؟ ولما كان الغالب هو فتح الجناحين فكأنه هو الثابت عبّر عنه بالإسم ﴿صافّات﴾ وكان القبض متجدداً عبّر عنه بالفعل ﴿ويقبضن﴾ قال في التسهيل : فإن قيل : لم لم يقل « قابضات » على طريقة ﴿صافّات﴾ ؟ فالجواب أن بسط الجناحين هو الأصل في الطيران ، كما أن مدّ الأطراف هو الأصل في السباحة ، فذكره بصيغة اسم الفاعل ﴿صافّات﴾ لدوامه وكثرته ، وأما قبض الجناحين فإنما يفعله الطائر قليلاً للاستراحة والاستعانة ، فلذلك ذكره بلفظ الفعل لقلته ^(٢) ﴿ما يمسكهن إلا الرحمن﴾ أي ما يمسكهن في الجوع عن السقوط في حال البسط والقبض ، إلا الخالق الرحمن الذي وسعت رحمته كل ما في الأكوان قال الرازي : وذلك أنها مع ثقلها وضخامة أجسامها ، لم يكن بقاؤها في جو الهواء إلا بإمساك الله وحفظه ، وإلهامها إلى كيفية البسط والقبض المطابق للمنفعة من رحمة الرحمن ^(٣) ﴿إنه بكل شيء بصير﴾ أي يعلم كيف يخلق ، وكيف يبدع العجائب ، بمقتضى علمه وحكمته . . ثم وبخ تعالى المشركين في عبادتهم لما لا ينفع ولا يسمع فقال ﴿أمّن هذا الذي هو جنود لكم ينصركم من دون الرحمن﴾ ؟ أي من هذا الذي يستطيع أن يدفع عنكم عذاب الله من الأنصار والأعوان ؟ ! قال ابن عباس : أي من ينصركم مني إن أردت عذابكم ^(٤) ؟ ﴿إن الكافرون إلا في غرور﴾ أي ما الكافرون في اعتقادهم أن ألفتهم تنفع أو تضر إلا في جهل عظيم ، وضلال مبين ، حيث

(١) التفسير الكبير ٧٠ / ٣ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١٣٦ / ٤ .

(٣) التفسير الكبير ٧١ / ٣ . (٤) تفسير الخازن ١٢٦ / ٤ .

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَجُوا فِي عَتْوٍ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾

ظنوا الأوهام حقائق ، فاعتزوا بالأوثان والأصنام ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ ؟ أي من هذا الذي يرزقكم غير الله إن منع الله عنكم رزقه ؟ والخطاب في الآيتين للكفار على وجه التوبيخ والتهديد ، وإقامة الحججة عليهم ^(١) ﴿بل لجوا في عتو ونفور﴾ أي بل تبادوا في الطغيان ، وأصروا على العصيان ، ونفروا عن الحق والإيمان . . ثم ضرب تعالى مثلاً للكافر والمؤمن فقال : ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمَّن يمشي سويًّا على صراط مستقيم﴾ ؟ أي هل من يمشي منكساً رأسه ، لا يرى طريقه فهو يخبط يخبط عشواءً ، مثل الأعمى الذي يتعثر كل ساعة فيختر لوجهه ، هل هذا أهدى أم من يمشي منتصب القامة ، يرى طريقه ولا يتعثر في خطواته ، لأنه يسير على طريق بين واضح ؟ قال المفسرون : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر كالأعمى الماشي على غير هدى وبصيرة ، لا يهتدي إلى الطريق فيتعسف ولا يزال ينكب على وجهه ، والمؤمن كالرجل السوي الصحيح البصر ، الماشي على الطريق المستقيم فهو آمن من الخبط والعتار ، هذا مثلها في الدنيا ، وكذلك يكون حالها في الآخرة ، المؤمن يمشي سويًّا على صراط مستقيم ، والكافر يمشي على وجهه إلى دركات الجحيم قال قتادة : الكافر أكب على معاصي الله فحشره الله يوم القيامة على وجهه ، والمؤمن كان على الدين الواضح فحشره الله على الطريق السوي يوم القيامة ^(٢) وقال ابن عباس : هو مثل لمن سلك طريق الضلالة ولمن سلك طريق الهدى ^(٣) . . ثم ذكروهم تعالى بنعمه الجليلة ، ليعرفوا قبح ما هم عليه من الكفر والإشراك فقال ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي قل لهم يا محمد : الله جل وعلا هو الذي أوجدكم من العدم ، وأنعم عليكم بهذه النعم «السمع والبصر والعقل» وخص هذه الجوارح بالذكر لأنها أداة العلم والفهم ﴿قليلًا ما تشكرون﴾ أي قلما تشكرون ^(٤) ربكم على نعمه التي لا تُحصى قال الطبري : أي قليلًا ما تشكرون ربكم على هذه النعم التي أنعمها عليكم ﴿قل هو الذي ذرأكم في الأرض﴾ أي خلقكم وكثركم في الأرض ﴿وإليه تُحشرون﴾ أي وإليه وحده مرجعكم للحساب والجزاء ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ أي متى يكون الحشر والجزاء الذي تعدوننا به ؟ إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به من مجيء الساعة والحشر ، وهذا استهزاء منهم ﴿قل

(١) التفسير الكبير ٧٣/٣٠ . (٢) قال ابن كثير : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه من الضلالة كمثل من يمشي مكباً على وجهه أي منحنيًا لا مستويًا ، لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب ، فهو تائه حائر ضال ، والمؤمن يمشي منتصب القامة على طريق واضح بين ، أيها أهدى سبيلًا لهذا أم ذلك !! مختصر ابن كثير ٣٠/٣ .

(٣) قال ابن عطية : المراد نفي الشكر ، فعبر بالقللة كما تقول العرب : هذه أرض قل ما تنبت كذا وهي لا تنبت البتة اهـ . نقلًا عن البحر

(٤) تفسير الطبري ٧/٢٩ . ٣٠٣/٨

قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسْتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾

إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ﴿٢٦﴾ أي قل لهم يا محمد : علم وقت قيام الساعة ووقت العذاب عند الله تعالى لا يعلمه غيره ﴿٢٦﴾ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ أي وما أنا إلا رسولٌ منذرٌ أخوفكم عذاب الله امثالاً لأمره . . ثم أخبر تعالى عن حال المشركين في ذلك اليوم العصيب فقال ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً ﴿٢٦﴾ أي فلما رأوا العذاب قريباً منهم ، وعاینوا أهوال القيامة ﴿٢٦﴾ سيئت وجوه الذين كفروا ﴿٢٦﴾ أي ظهرت على وجوههم آثار الاستياء ، فعلتها الكآبة والغم والحزن ، وغشيتها الذل والانكسار ، قال في البحر : أي ساءت رؤية العذاب وجوههم ، وظهر فيها السوء والكآبة ، كمن يساق الى القتل ^(١) ﴿٢٦﴾ وقيل هذا الذي كنتم به تدعون ﴿٢٦﴾ أي وقالت لهم الملائكة توبيخاً وتبكيئاً : هذا الذي كنتم تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه استهزاءً وتكذيباً ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمْنَا ﴿٢٨﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يتمنون هلاكك : أخبروني إن أماتني الله ومن معي من المؤمنين ، أو رحمتنا بتأخير آجالنا ﴿٢٨﴾ فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ أي فمن يحميكم من عذاب الله الأليم ، ووضع لفظ ﴿الكافرين﴾ عوضاً عن الضمير « يجيركم » تشنيعاً وتسجيلاً عليهم بالكفر قال المفسرون : كان الكفار يتمنون هلاك النبي ﷺ والمسلمين ، فأمره الله أن يقول لهم : إن أهلكني الله بالإماتة وأهلك من معي ، فأني راحةٍ وأي منفعة لكم فيه ، ومن الذي يجيركم من عذاب الله إذا نزل بكم ؟ هل تظنون أن الأصنام تخلصكم وتنقذكم من العذاب الأليم ^(٢) ؟ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴿٢٨﴾ أي قل لهم : أمانا بالله الواحد الأحد ، وعليه اعتمدنا في جميع أمورنا ، لا على الأموال والرجال ﴿٢٨﴾ فَسْتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ أي فسوف تعلمون عن قريب من هو في الضلالة نحن أم أنتم ؟ وفيه تهديد للمشركين ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴿٣٠﴾ أي قل لهم يا محمد : أخبروني إذا صار الماء غائراً ذاهباً في أعماق الأرض ، بحيث لا يستطيعون إخراجه ﴿٣٠﴾ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾ أي فمن الذي يخرج لكم حتى يكون ظاهراً جارياً على وجه الأرض ؟ هل يأتيكم غير الله به ؟ فلم تشركون مع الخالق الرازق غيره من الأصنام والأوثان ؟

الْبَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين ﴿الموت . . والحياة﴾ وبين ﴿أسروا أو اجهروا﴾ وبين ﴿صافات . . ويقبضن﴾

لأن المعنى صافات وقابضات .

(١) البحر ٣٠٧/٨ . (٢) انظر التفسير الكبير للرازي ٧٦/٣٠ .

- ٢ - وضع الموصول للتفخيم والتعظيم ﴿الذي بيده الملك﴾ أي له الملك والسلطان ، والتصرف في الأكوان .
- ٣ - الإطناب بتكرار الجملة مرتين زيادة في التذكير والتنبيه ﴿فارجع البصر . . ثم ارجع البصر كرتين﴾ وكذلك ﴿ما كنا في أصحاب السعير . . فسحقاً لأصحاب السعير﴾ .
- ٤ - الاستفهام الإنكاري للتفريع والتوبيخ ﴿ألم يأتكم نذير﴾ ؟
- ٥ - المقابلة ﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم﴾ قابله بقوله ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة﴾ وهو من المحسنات البديعية .
- ٦ - الاستعارة المكنية ﴿تكاد تميز من الغيظ﴾ شبه جهنم في شدة غليانها وهبها بإنسان شديد الغيظ والحنق على عدوه يكاد يتقطع من شدة الغيظ ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الغيظ الشديد بطريق الاستعارة المكنية .
- ٧ - الاستعارة التمثيلية ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾ هذا بطريق التمثيل للمؤمن والكافر ، فالؤمن يمشي سوياً على صراط مستقيم ، والكافر يمشي مكباً على وجهه إلى طريق الجحيم ، ويا لها من استعارة رائعة !!
- ٨ - السجع المرصع مراعاة لرعوس الآيات مثل ﴿فستعلمون كيف نذير﴾ ﴿فكيف كان نكير﴾ ؟ ﴿إنه بكل شيء بصير﴾ ومثل ﴿إن الكافرون إلا في غرور﴾ ﴿بل لجوا في عتو ونفور﴾ الخ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الملك »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة القلم من السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة والايان ، وقد تناولت هذه السورة ثلاثة مواضع أساسية وهي :

- أ - موضوع الرسالة ، والشبه التي أثارها كفار مكة حول دعوة محمد بن عبد الله ﷺ .
 - ب - قصة أصحاب الجنة « البستان » ، لبيان نتيجة الكفر بنعم الله تعالى .
 - ج - الآخرة وأهوالها وشدائدها ، وما أعد الله للفريقين : المسلمين والمجرمين .
- ولكن المحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو موضوع إثبات نبوة محمد ﷺ .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على رفعة قدر الرسول ﷺ وشرفه وبراءته مما ألصقه به المشركون من اتهامه - وحاشاه - بالجنون ، وبينت أخلاقه العظيمة ، ومناقبه السامية ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجرأ غير ممنون * وإنك لعلی خُلُقٍ عظیم ﴾ .. الآيات .

* ثم تناولت موقف المجرمين من دعوة رسول الله ﷺ وما أعد الله لهم من العذاب والنكال ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ ودوا لو تذهن فيدهنون * ولا تطع كل حلاف مهين .. ﴿ الآيات .

* ثم ضربت مثلاً لكفار مكة في كفرانهم نعمة الله العظمى ببعثة خاتم الرسل ﷺ إليهم وتكذيبهم به بقصة أصحاب الجنة « الحديقة » ذات الأشجار والزرع والثمار ، حيث جحدوا نعمة الله ومنعوا حقوق الفقراء والمساكين ، فأحرق الله حديثهم وجعل قصتهم عبرةً للمعتبرين ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ﴾ ولا يستثنون * فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم ﴾ الآيات .

* ثم قارنت السورة بين المؤمنين والمجرمين ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين .. ﴾ الآيات .

* وتناولت السورة الكريمة القيامة وأحوالها وأهوالها ، وموقف المجرمين في ذلك اليوم العصيب ،

الذي يكلفون فيه بالسجود لرب العالمين فلا يقدرّون ﴿يوم يكشف عن ساقٍ ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالصبر على أذى المشركين ، وعدم التبرم والضرر بما يلقاه في سبيل تبليغ دعوة الله كما حدث من يونس عليه السلام حين ترك قومه وسارع إلى ركوب البحر ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم﴾ الآيات .

قال الله تعالى : ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . . إلى . . وما هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾
من آية (١) إلى آية (٥٣) نهاية السورة

اللفظة: ﴿يسطرون﴾ يكتبون ، سَطَرَ العلم كتبه بالقلم ﴿ممنون﴾ مقطوع يقال : مننتُ الحبل إذا قطعته ﴿عتل﴾ العتل : الغليظ الجافي ، السريع إلى الشر ، مأخوذ من العتل وهو الجر ﴿خذوه فاعتلوه﴾ قال في الصحاح : عتل الرجل إذا جذبته جذباً عنيفاً^(١) ﴿زنيماً﴾ الزنيماً : الملتصق بالقوم وليس منهم ، وهو الدعوى الذي لا يعرف أبوه قال الشاعر :

زنيماً ليس يُعرف من أبوه بغياً الأم ذو حَسَبٍ لثيم^(٢)
﴿صارمين﴾ صرم الشيء قطعه ، وصرم النخلة قطع ثمرها ﴿حرد﴾ قصد وعزم ﴿زعيم﴾ كفيل وضمين ﴿مكظوم﴾ مملوء غيظاً وغماً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾

التفسير: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ نون حرف من الحروف المقطعة ، ذكر للتنبيه على إعجاز القرآن^(٣) . . أقسم تعالى بالقلم الذي يكتب الناس به العلوم والمعارف ، فإن القلم أخو اللسان ونعمة من الرحمن على عباده والمعنى : أقسم بالقلم وما يكتبه الكاتبون على صدق محمد وسلامته مما نسبه إليه المجرمون من السفه والجنون ، وفي القسم بالقلم والكتابة إشادة بفضل الكتابة والقراءة ، فالإنسان من بين سائر المخلوقات خصه الله بمعرفة الكتابة ليفصح عما في ضميره ﴿الذي علّم بالقلم﴾ علّم الإنسان ما لم يعلم ﴿وحسبك دليلاً على شرف القلم أن الله أقسم به في هذه السورة تمجيدهم لشأن الكاتبين ، ورفعاً من قدر أهل العلم ، ففي القلم البيان كما في اللسان ، وبه قوام العلوم والمعارف قال ابن كثير : والظاهر من قوله تعالى ﴿والقلم وما يسطرون﴾ أنه جنس القلم الذي يكتب به ، وهو قسم منه

(١) الصحاح للجوهري مادة عتل (٢) تفسير القرطبي ١٨ / ٢٣٤ (٣) انظر التحقيق العلمي الذي كتبناه في أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة .

مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٦١﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٦٢﴾ فَسَتَبْصِرُ
وَيُبْصِرُونَ ﴿٦٣﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٦٥﴾ فَلَا
تَطْعُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٦٦﴾

تعالى لتبنيه خلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم^(١) ﴿٦٠﴾ ما أنت بنعمة ربك
بمجنون ﴿٦١﴾ أي لست يا محمد بفضل الله وإنعامه عليك بالنبوة بمجنون ، كما يقول الجهلة المجرمون ، فأنت
بحمد الله عاقل لا كما قالوا ﴿٦٢﴾ يا أيها الذي نُزِّلَ عليه الذكر إنك لمجنون ﴿٦٣﴾ قال ابن عطية : هذا جواب
القسم ، وقوله ﴿٦٤﴾ بنعمة ربك ﴿٦٥﴾ اعتراض كما تقول للإنسان : أنت - بحمد الله - فاضل^(٢) ﴿٦٦﴾ وإن لك
لاجراً غير مَمْنُونٍ ﴿٦٧﴾ أي وإن لك لثواباً على ما تحملت من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله غير مقطوع ولا
منقوص ﴿٦٨﴾ وإنك لعلی خلق عظيم ﴿٦٩﴾ أي وإنك يا محمد لعلی أدب رفيع جم ، وخلق فاضل كريم ،
فقد جمع الله فيك الفضائل والكمالات . . يا له من شرف عظيم ، لم يدرك شأوه بشر ، فرب العزة جل
وعلا يصف محمداً بهذا الوصف الجليل ﴿٧٠﴾ وإنك لعلی خلق عظيم ﴿٧١﴾ وقد كان من خلقه ﷺ العلم
والحلم ، وشدة الحياء ، وكثرة العبادة والسخاء ، والصبر والشكر ، والتواضع والزهد ، والرحمة
والشفقة ، وحسن المعاشرة والأدب ، إلى غير ذلك من الخلال العلية ، والأخلاق المرضية^(٣) ولقد أحسن
القائل :

إذا الله أثنى بالذي هو أهله عليك فما مقدار ما تمدح الورى ؟

﴿فستبصر ويبصرون﴾ أي فسوف ترى يا محمد ، ويرى قومك ومخالفوك - كفار مكة - إذا نزل بهم
العذاب ﴿بأيكم المفتون﴾ أي أيكم الذي فتن بالمجنون ؟ هل أنت كما يفترون ، أم هم بكفرهم
وانصرافهم عن الهدى ؟ قال القرطبي : والمفتون : المجنون الذي فتنه الشيطان ، ومعظم السورة نزل في
« الوليد بن المغيرة » و« أبي جهل » وقد كان المشركون يقولون : إن بمحمد شيطاناً ، وعنوا بالمجنون
هذا ، فقال الله تعالى سيعلمون غداً بأيهم المجنون أي الشيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط
العقل^(٤) ﴿٦٤﴾ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ﴿٦٥﴾ أي هو سبحانه العالم بالشقي المنحرف عن دين الله
وطريق الهدى ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ أي وهو العالم بالتقي المهتدي إلى الدين الحق ، وهو تليل لما
قبله وتأكيد للوعد والوعيد كأنه يقول : إنهم هم المجانين على الحقيقة لا أنت ، حيث كانت لهم عقول لم
ينتفعوا بها ، ولا استعملوها فيما ينجيهم ويسعدهم ﴿فلا تطع المكذبين﴾ أي فلا تطع رؤساء الكفر

(١) مختصر ابن كثير ٣/٥٣٢ (٢) البحر المحیط ٨/٣٠٧ قال أبو حيان : والآية كالدليل القاطع على صحة الدعوى لأن النعمة كانت ظاهرة في

حقه عليه السلام من كمال الفصاحة والعقل والسيرة المرضية والاتصاف بكل مكرمة مما يكذب التهمة

(٣) أخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : « خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي : أف قط ، ولا قال لي لشيء فعلته : لم
فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله : ألا فعلته ؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً ، وما مستت خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله
ﷺ ، ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ » أخرجه البخاري ومسلم ، وفي البخاري عن عائشة لما سئلت عن

خلقته ﷺ قالت « كان خلقه القرآن » تعني التأدب بأدابه . (٤) تفسير القرطبي ١٨/٢٢٩

وَدَّوْا لَو تَدَّهْنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تَطْعَ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَتْ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ
الْأُولَىٰ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطومِ ﴿١٦﴾

والضلال الذين كذبوا برسالتك وبالقرآن ، فيما يدعونك إليه قال الرازي : دعاه رؤساء أهل مكة إلى دين آباءه ، فنهاه الله أن يطيعهم ، وهذا من الله إلهاب وتهيج للتشدد في مخالفتهم^(١) ﴿ودوا لوتدهن فيدهنون﴾ أي تمنوا لوتلين لهم يا محمد ، وتترك بعض ما لا يرضونه مصانعة لهم ، فيلينوا لك ويفعلوا مثل ذلك قال في التسهيل : المداينة والمدارة فيما لا ينبغي ، روي أن الكفار قالوا النبي ﷺ : لو عبدت آلهتنا لعبدنا إلهك فنزلت الآية^(٢) ﴿ولا تطع كل حلاف﴾ أي ولا تطع يا محمد كثير الحلف بالحق والباطل ، الذي يكثر من الحلف مستهيناً بعظمة الله ﴿مهين﴾ أي فاجر حقير ﴿هماز﴾ أي مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والعيب ﴿مشاء بنميم﴾ أي يمشي بالنميمة بين الناس ، وينقل حديثهم ليوقع بينهم وهو الفتان ، وفي الحديث الصحيح (لا يدخل الجنة غمام)^(٣) ﴿مناع للخير﴾ أي بخيل ممسك عن الإنفاق في سبيل الله ﴿معتد اثيم﴾ أي ظالم متجاوز في الظلم والعدوان ، كثير الآثام والإجرام ، وجاءت الأوصاف ﴿حلاف ، هماز ، مشاء ، مناع﴾ بصيغة المبالغة للدلالة على الكثرة ﴿عتل﴾ أي جاف غليظ ، قاسي القلب عديم الفهم ﴿بعد ذلك﴾ أي بعد تلك الأوصاف الذميمة التي تقدمت ﴿زنيم﴾ أي ابن زنا ، وهذه أشد معانيه وأقبحها ، أنه لصيق دعي ليس له نسب صحيح قال المفسرون : نزلت في « الوليد بن المغيرة » فقد كان دعياً في قريش وليس منهم ، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة - أي تبناه ونسبه لنفسه بعد أن كان لا يعرف له أب - قال ابن عباس : لا نعلم أحداً وصفه الله بهذه العيوب غير هذا ، فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً ، وإنما دُمَّ بذلك لأن النطفة إذا خبثت خبث الولد ، وروي أن الآية لما نزلت جاء الوليد إلى أمه فقال لها : إن محمداً وصفني بتسع صفات ، كلها ظاهرة في أعرفها غير التاسع منها يريد أنه ﴿زنيم﴾ فإن لم تصدقيني ضربت عنقك بالسيف ، فقالت له : إن أباك كان عنيماً - أي لا يستطيع معاشرته النساء - فخفت على المال فمكنت راعياً من نفسي فأنت ابن ذلك الراعي ، فلم يعرف أنه ابن زنا حتى نزلت الآية^(٤) ﴿أن كان ذا مالٍ وبنين﴾ أي لأن كان ذا مال وبنين قال في القرآن ما قال ، وزعم أنه أساطير الأولين^(٥) ؟ وكان ينبغي أن يقابل النعمة بالشكر لا بالجحود والتكذيب ﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ أي إذا قرئت آيات القرآن على ذلك الفاجر قال مستهزئاً ساخراً : إنها خرافات وأباطيل المتقدمين اختلقها محمد ونسبها إلى الله ، قال تعالى رداً عليه متوعداً له بالعذاب ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ أي سنجعل له علامة على أنفه بالخطم عليه يعرف بها إلى موته ، وكنى بالخرطوم عن أنفه على

(١) التفسير الكبير للرازي ٨٣/٣٠ (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١٣٨/٤ (٣) أخرجه مسلم

(٣) انظر تفسير الجلالين وحاشية الصاوي عليه ٢٣٣/٤ (٤) اختار الطبري وابن كثير هذا المعنى أن الآية متعلقة بما بعدها أي لأنه ذو مال وبنين يتكبر بماله وبنيه ويقول إن القرآن خرافات وأباطيل (٥) واختار غيرها أن الآية متعلقة بما سبق أي لا تطعه بسبب كثرة ماله وولده

إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ اغْدُوا عَلَيَّ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْظَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٣﴾

سبيل الاستخفاف به ، لأن الخرطوم للفيل والخنزير ، فإذا شبه أنف الإنسان به كان ذلك غاية في الإذلال والإهانة كما يعبر عن شفاه الناس بالمشافر ، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر ، قال ابن عباس : سنخطم أنفه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش ، وقد خطم يوم بدر بالسيف ^(١) قال الإمام الفخر : لما كان الوجه أكرم موضع في الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه لارتفاعه عليه ، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الأنفة ، وقالوا في الدليل : رغم أنفه ، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين ، فكيف على أكرم موضع من الوجه ^(٢) !! ثم ذكر تعالى قصة أصحاب الحديقة وما ابتلاهم تعالى به من إتلاف الزروع والثمار وضربه مثلاً لكفار مكة فقال ﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة﴾ أي إنا اخترنا أهل مكة بالفحط والجوع بدعوة رسول الله ﷺ كما اخترنا أصحاب البستان المشتغل على أنواع الثمار والفواكه ، وكلفنا أهل مكة أن يشكروا ربهم على النعم ، كما كلفنا أصحاب الجنة أن يشكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم قال المفسرون : كان لرجل مسلم يقرب صنعاء بستان فيه من أنواع النخيل والزروع والثمار ، وكان إذا حان وقت الحصاد دعا الفقراء فأعطاهم نصيباً وافراً منه وأكرمهم غاية الإكرام فلما مات الأب ورثه أبنائه الثلاثة فقالوا : عيالنا كثير والمال قليل ولا يمكننا أن نعطي المساكين كما كان يفعل أبونا ، فتشاوروا فيما بينهم وعزموا على ألا يعطوا أحداً من الفقراء شيئاً ، وأن يجنوا ثمرها وقت الصباح خفية عنهم ، وحلفوا على ذلك ، فأرسل الله تعالى ناراً على الحديقة ليلاً أحرقت الأشجار وأتلفت الثمار ، فلما أصبحوا ذهبوا إلى حديقتهم فلم يروا فيها شجراً ولا ثمرأ ، فظنوا أنهم أخطأوا الطريق ، ثم تبين لهم أنها بستانهم وحديقتهم وعرفوا أن الله تعالى عاقبهم فيها بنيتهم السيئة ، فندموا وتابوا بعد أن فات الاوان ^(٣) ﴿إذ أقسموا ليصرمونها مصبحين﴾ أي حين حلفوا ليقطعن ثمرها وقت الصباح ، قبل أن يخرج اليهم المساكين ﴿ولا يستنون﴾ أي ولم يقولوا إن شاء الله حين حلفوا ، كأنهم واثقون من الأمر ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون﴾ أي فطرقها طارق من عذاب الله ، وهم في غفلة عما حدث لأنهم كانوا نياماً ، قال الكلبي : أرسل الله عليها ناراً من السماء فاحترقت وهم نائمون ﴿فأصبحت كالصريم﴾ أي فأصبحت كالزرع المحصود إذا أصبح هشيماً يابساً قال ابن عباس : أصبحت كالرماد الأسود ، قد حرموها خير جنتهم بذنبهم ﴿فتنادوا مصبحين﴾ أي نادى بعضهم بعضاً حين أصبحوا ليمضوا على الميعاد إلى بستانهم ﴿أن اغدوا على حرتكم إن كنتم صادقين﴾ أي اذهبوا مبكرين إلى ثماركم وزروعكم وأعنا بكم إن كنتم حاصدين للثمار تريدون قطعها ﴿فانطلقوا وهم

(١) تفسير الطبري ١٨/٢٩ (٢) تفسير الفخر الرازي ٨٦/٣٠

(٣) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي ٨٧/٣٠ والبحر المحيط لأبي حيان ٨/٣١١

أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾
 بَلْ لَحْنٌ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا
 ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا بُولَيسَاءَ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ
 يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾

يتخافتون ﴿٣٢﴾ أي فانطلقوا نحو البستان وهم يخفون كلامهم خوفاً من أن يشعر بهم المساكين قائلين ﴿٣٢﴾ أن لا يدخلها اليوم عليكم مسكين ﴿٣٢﴾ أي لا تدخلوا في هذا اليوم أحداً من الفقراء إلى البستان ولا تمكنوه من الدخول ﴿٣٢﴾ وغدوا على حرد قادرين ﴿٣٢﴾ أي ومضوا على قصد وقدرة في أنفسهم يظنون أنهم تمكنوا من مرادهم قال ابن عباس : ﴿٣٢﴾ على حرد ﴿٣٢﴾ على قدرة وقصد وقال السدي : على حنق وغضب وقال الحسن : على فاقة وحاجة (١) ، وقول ابن عباس أظهر ﴿٣٢﴾ فلما رأوها قالوا إنا لضالون ﴿٣٢﴾ أي فلما رأوا حديقتهم سوداء محترقة ، قد استحالت من النضارة والبهجة إلى السواد والظلمة ، قالوا لقد ضللنا الطريق إليها وليست هذه حديقتنا قال أبو حيان : كان قولهم ذلك في أول وصولهم إليها ، أنكروا أنها هي واعتقدوا أنهم أخطأوا الطريق ، ثم وضع لهم أنها هي وأنه أصابها من عذاب الله ما أذهب خيرها فقالوا عند ذلك (٢) ﴿٣٢﴾ بل نحن محرومون ﴿٣٢﴾ أي لسنا مخطئين للطريق بل نحن محرومون ، حرماناً ثمرها وخيرها بجنايتنا على أنفسنا ﴿٣٢﴾ قال أوسطهم ألم أقول لكم لولا تسبحون ﴿٣٢﴾؟ أي قال أعقلهم وأفضلهم رأياً : هلا تسبحون الله فتقولون « سبحان الله » أو « إن شاء الله » قال في البحر : نههم ووبخهم على تركهم ما حضهم عليه من التسبيح ، ولو ذكروا الله وإحسانه إليهم لامتلوا ما أمر به من مواساة المساكين ، واقتفوا سنة أبيهم في ذلك ، فلما غفلوا عن ذكر الله وعزموا على منع المساكين ابتلاهم (٣) الله وقال الرازي : إن القوم حين عزموا على منع الزكاة واغتروا بما لهم وقوتهم ، قال الأوسط لهم توبوا عن هذه المعصية قبل نزول العذاب ، فلما رأوا حالة البستان ذكرهم بالكلام الأول ، فاشتغلوا بالتوبة ولكن بعد خراب البصرة (٤) ﴿٣٢﴾ قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴿٣٢﴾ أي فقالوا حينئذ : تنزه الله ربنا عن الظلم فيما فعل ، بل نحن كنا الظالمين لأنفسنا في منعنا حق المساكين ﴿٣٢﴾ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴿٣٢﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً يقول هذا أنت أشرت علينا بهذا الرأي ، ويقول ذاك : بل أنت ، ويقول آخر : أنت الذي خوفنا الفقر ورغبتنا في جمع المال ، فهذا هو التلاوم (٥) ﴿٣٢﴾ قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين ﴿٣٢﴾ أي قالوا يا هلاكنا وتعاستنا إن لم يغفر لنا ربنا ، فقد كنا عاصين وباغين في منعنا الفقراء ، وعدم التوكل على الله ، قال الرازي : والمراد أنهم استعظموا جرمهم (٦) ﴿٣٢﴾ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها ﴿٣٢﴾ أي لعل الله يعطينا أفضل منها بسبب توبتنا

(١) قال الطبري : وأولى الأقوال بالصواب قول من قال معناه : غدوا على أمر قد قصدوه واعتدوه واستسروه بينهم قادرين عليه وهو ترجيح

نقول ابن عباس وهو الذي اخترناه (٢) البحر المحيط ٣١٣/٨

(٣) التفسير الكبير ٩٠/٣٠ (٤) التفسير الكبير ٩٠/٣٠ (٥) التفسير الكبير ٩١/٣٠ (٦) التفسير الكبير ٩١/٣١

كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾
 أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ
 لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمُوا
 أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فُلْيَاتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾

واعترافنا بخطيئتنا ﴿إنا إلى ربنا راغبون﴾ أي فنحن راجون لعفوه ، طالبون لإحسانه وفضله ..
 ساق تعالى هذه القصة ليعلمنا أن مصير البخيل ومانع الزكاة إلى التلف ، وأنه يضمن ببعض ماله في سبيل
 الله فيهلك كل ماله مصحوباً بغضب الله ، ولذلك عقب تعالى بعد ذكر هذه القصة بقوله ﴿كذلك
 العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ أي مثل هذا العذاب الذي نزل بأهل الجنة ينزل
 بقريش ، ولعذاب الآخرة أعظم وأشد من عذاب الدنيا لو كان عندهم فهم وعلم ، قال ابن عباس : هذا
 مثل لأهل مكة حين خرجوا إلى بدر ، وحلفوا ألا يرجعوا إلى مكة حتى يقتلوا محمداً ﷺ وأصحابه ،
 ويشربوا الخمر ، وتضرب القينات - المغنيات - على رؤوسهم ، فأخلف الله ظنهم ، فقتلوا وأسروا
 وانهمزوا كأهل هذه الجنة لما خرجوا عازمين على الصرام فخابوا^(١) . . ثم أخبر تعالى عن حال المؤمنين
 المتقين بعد أن ذكر حال المجرمين من كفار مكة فقال ﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾ أي إن
 للمتقين في الآخرة حداثق وبساتين ليس فيها إلا النعيم الخالص ، الذي لا يشوبه كدر ولا منغص كما هو
 حال الدنيا ﴿أفجعل المسلمين كالمجرمين﴾؟ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أنساوي بين المطيع
 والعاصي ، والمحسن والمجرم ؟ ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾؟ تعجب منهم حيث انهم يسؤون المطيع
 بالعاصي ، والمؤمن بالكافر ، فإن مثل هذا لا يصدر عن عاقل ﴿أم لكم كتاب فيه تدرسون﴾؟ أي هل
 عندكم كتاب منزل من السماء تقرأون وتدرسون فيه ﴿إن لكم فيه لما تخيرون﴾ هذه الجملة مفعول
 لتدرسون أي تدرسون في هذا الكتاب أن لكم ما تشتهون وتطلبون ؟ وهذا توبيخ آخر للمشركين فيما كانوا
 يزعمونه من الباطل حيث قالوا : إن كان ثمة بعث وجزاء ، فسنعطى خيراً من المؤمنين كما أعطينا في الدنيا
 قال الطبري : وهذا توبيخ لهؤلاء القوم وتقريع لهم فيما كانوا يقولون من الباطل ، ويتمنون من الأمانى
 الكاذبة^(٢) ﴿أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة﴾ أي هل لكم عهود ومواثيق مؤكدة من جهتنا ثابتة
 إلى يوم القيامة ؟ ﴿إن لكم لما تحكمون﴾ هذا جوابه أي إن لكم الذي تريدونه وتحكمون به ؟ قال ابن
 كثير : المعنى أمعكم عهود ومواثيق مؤكدة أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون^(٣) ﴿سلكهم أيهم بذلك
 زعيم﴾ أي سل يا محمد هؤلاء المكابرين أيهم كفيل وضامن بهذا الذي يزعمون ؟ وفيه نوع من السخرية
 والتهكم بهم ، حيث يحكمون بأمور خارجة عن العقول ، يرفضها المنطق وتأبأها العدالة ﴿أم لهم شركاء
 فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾ أي أم لهم شركاء وأرباب يكفلون لهم بذلك ، فليأتوا بهم إن كانوا

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا
 يُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾
 وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾

صادقين في دعواهم قال في التسهيل : وهذا تعجيز للكفار والمراد إن كان لكم شركاء يقدرون على شيء ،
 فأتوا بهم وأحضرهم حتى نرى حالهم (١) . . ولما أبطل مزاعمهم وسفه أحلامهم ، شرع في بيان أهوال
 الآخرة وشدائدها فقال ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ أي اذكر يا محمد لقومك ذلك اليوم العصيب الذي
 يكشف فيه عن أمر فظيع شديد في غاية الهول والشدة ، قال ابن عباس : هو يوم القيامة يوم كرب
 وشدة (٢) قال القرطبي : والأصل فيه أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجد شمر عن ساقه ، فاستعير الساق
 والكشف عنها في موضع الشدة (٣) كقول الراجز :

قد كشفت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا

﴿ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾ أي ويدعى الكفار للسجود لرب العالمين فلا يستطيعون لأن
 ظهر أحدهم يصبح طباقاً واحداً ، وفي الحديث (يسجد لله كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في
 الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طباقاً واحداً) (٤) ﴿خاشعة أبصارهم﴾ أي ذليلة متواضعة
 أبصارهم لا يستطيعون رفعها ﴿ترهقهم ذلة﴾ أي تغشاهم وتلحقهم الذلة والهوان ﴿وقد كانوا يدعون
 إلى السجود وهم سالمون﴾ أي والحال أنهم كانوا في الدنيا يدعون إلى السجود وهم أصحاب الجسم
 معافون فيأبون قال الإمام الفخر : لا يدعون إلى السجود تعبداً وتكليفاً ، ولكن توبيخاً وتعنيفاً على تركهم
 السجود في الدنيا ، ثم إنه تعالى يسلب عنهم القدرة على السجود ويحول بينهم وبين الاستطاعة حتى تزداد
 حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه ، حين دعوا إليه في الدنيا وهم سالمو الأطراف والمفاصل (٥) ﴿فذرنني
 ومن يكذب بهذا الحديث﴾ أي اتركني يا محمد ومن يكذب بهذا القرآن لأكفيك شره وأنتقم لك منه !! وهذا
 منتهى الوعيد ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ أي سنأخذهم بطريق الاستدراج بالنعم ، إلى الهلاك
 والدمار ، من حيث لا يشعرون قال الحسن : كم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه (٦)
 قال الرازي : الاستدراج أن يستنزله إليه درجة درجة حتى يورطه فيه ، فكلما أذنبوا ذنباً جدد الله لهم نعمة
 وأنساهم الاستغفار ، فالاستدراج إنما حصل لهم من الإنعام عليهم ، لأنهم يحسبونه تفضيلاً لهم على
 المؤمنين ، وهو في الحقيقة سبب هلاكهم (٧) ﴿وأملي لهم﴾ أي أمهلهم وأطيل في أعمارهم ليزدادوا إثماً
 ﴿إن كيدي متين﴾ أي إن انتقامي من الكافرين قوي شديد وفي الحديث (إن الله ليملي للظالم حتى إذا
 أخذه لم يفله) ثم قرأ ﷻ ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد (٨)﴾ وإنما
 سمى إحسانه كيداً كما سماه استدراجاً لكونه في صورة الكيد ، فما وقع لهم من سعة الأرزاق ، وطول

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ١٤٠ (٢) مختصر ابن كثير ٣ / ٥٣٨ (٣) تفسير القرطبي ١٨ / ٢٤٩ (٤) جزء من حديث طويل أخرجه

البخاري ومسلم (٥) التفسير الكبير ٣٠ / ٩٦ (٦) تفسير القرطبي ١٨ / ٢٥١ (٧) التفسير الكبير ٣٠ / ٩٦ (٨) أخرجه الشيخان

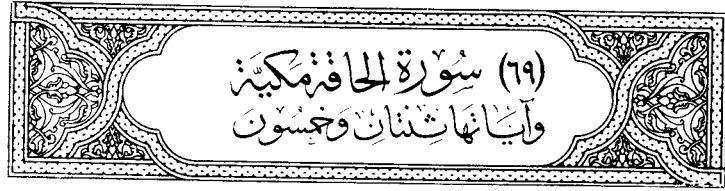
أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبِهْ رَبَّهُ فَقَجَلْهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

الأعمار ، وعافية الأبدان ، إحسان في الظاهر ، وبلاء في الباطن ، لأن المقصود معاقبتهم وتعذيبهم به ﴿أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون﴾ أي أتسألهم يا محمد غرامة مالية على تبليغ الرسالة ، فهم معرضون عن الإيمان بسبب ذلك التكليف الثقيل ببذلهم المال ؟ والغرض توبيخهم في عدم الإيمان فإن الرسول لا يطلب منهم شيئاً من الأجر قال الخازن : المعنى أتطلب منهم أجراً فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم عن الإيمان^(١) ﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ أي أم هل عندهم اللوح المحفوظ الذي فيه الغيب ، فهم ينقلون منه أنهم خير من أهل الإيمان ، فلذلك أصروا على الكفر والطغيان ؟ وهو استفهام على سبيل الإنكار والتوبيخ ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ أي فاصبر يا محمد على أذاهم ، وامض لما أمرت به من تبليغ رسالة ربك ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ أي ولا تكن في الضجر والعجلة ، كيونس بن متى عليه السلام ، لما غضب على قومه لأنهم لم يؤمنوا فتركهم وركب البحر ثم التقمه الحوت ، وكان من أمره ما كان ﴿إذ نادى وهو مكظوم﴾ أي حين دعا ربه في بطن الحوت وهو مملوء غماً وغيظاً بقوله ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه﴾ أي لولا أن تداركته رحمة الله ﴿لنبيذ بالعراء وهو مذموم﴾ أي لطرح في الفضاء الواسع الخالي من الأشجار والجبال ، وهو ملام على ما ارتكب ، ولكن الله أنعم عليه بالتوفيق للتوبة فلم يبق مذموماً ﴿فاجتبه ربه فجعله من الصالحين﴾ أي فاصطفاه ربه واختاره لنفسه فجعله من المقربين قال ابن عباس : رد الله إليه الوحي وشفعه في قومه^(٢) ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم﴾ أي ولقد كاد الكفار من شدة عداوتهم لك يا محمد أن يصرعوك بأعينهم ويهلكوك ، من قولهم نظر إلي نظراً كاد يصرعني قال ابن كثير : وفي الآية دليل على أن العين وإصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل ، ويؤيده حديث (لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين)^(٣) ﴿لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون﴾ أي حين سمعوك تقرأ القرآن ، ويقولون من شدة بغضهم وحسدكم لك : إن محمداً مجنون ، قال تعالى رداً عليهم ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ أي وما هذا القرآن المعجز إلا موعظة وتذكير للإنس والجن ، فكيف ينسب من نزل عليه إلى الجنون ؟! ختم تعالى السورة ببيان عظمة القرآن ، كما بدأها ببيان عظمة الرسول ، ليتناسق البدء مع الختام في أروع بيان وأجمل ختام .

(١) تفسير الخازن ٤/ ١٤٠ (٢) التفسير الكبير ٣٠/ ٩٩ (٣) الحديث رواه أحمد والترمذي وقال الترمذي : حسن صحيح .

البلاغة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي :

- ١ - الجناس الناقص بين لفظي ﴿مجنون﴾ و﴿ممنون﴾ لاختلاف الحرف الثاني .
 - ٢ - الوعيد والتهديد ﴿فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون﴾ وحذف المفعول للتحويل .
 - ٣ - صيغ المبالغة في ﴿حلاف ، هماز ، مشاء ، مناع﴾ وكذلك في ﴿أثيم ، وزنيم﴾
 - ٤ - الاستعارة الفائقة ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ استعار الخرطوم لأنف لأن أصل الخرطوم للفيل ، واستعارته لأنف الإنسان تجعله في غاية الإيداع لأن الغرض الاستهانة به والاستخفاف .
 - ٥ - الطباق بين ﴿المسلمين والمجرمين﴾ وبين ﴿ضل . . والمهتدين﴾ وهو من المحسنات البديعية .
 - ٦ - جناس الاشتقاق ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون﴾
 - ٧ - التقرير والتوبيخ ﴿ما لكم كيف تحكمون ؟ أم لكم كتاب فيه تدرسون﴾ ؟ والجمل التي بعدها .
 - ٨ - التشبيه المقلوب بجعل المشبه به مشبهاً والعكس ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾ ؟ لأن الأصل أفنجعل المجرمين كالمسلمين في الأجر والثوبة ؟ فقلب التشبيه ليكون أبلغ وأروع .
 - ٩ - الكناية الرائقة الفائقة ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ كناية عن شدة الهول ، وتفاقم الخطب يوم القيامة .
 - ١٠ - السجع المرصع المحبوك ، كأنه الدر المنظوم إقرأ الآيات الكريمة ﴿ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجرأ غير ممنون . .﴾ الخ وتدبر روعة القرآن !!
- « تم بعونه تعالى تفسير سورة القلم »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الحاقة من السور المكية ، شأنها شأن سائر السور المكية في تثبيت العقيدة والإيمان ، وقد تناولت أموراً عديدة كالحديث عن القيامة وأهوالها ، والساعة وشدائدها ، والحديث عن المكذبين وما جرى لهم ، مثل قوم عاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وفرعون ، وقوم نوح ، وغيرهم من الطغاة المفسدين في الأرض ، كما تناولت ذكر السعداء والأشقياء، ولكن المحور الذي تدور عليه السورة هو «إثبات صدق» القرآن وأنه كلام الحكيم العليم ، وبراءة الرسول ﷺ مما اتهمه به أهل الضلال .

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة والمكذبين بها ، وما عاقب تعالى به أهل الكفر والعناد ﴿الحاقة﴾ ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة * كذبت ثمود وعاد بالقارعة * فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية * وأما عاد فأهلكوا بريحٍ صرصر عاتية . . . ﴿الآيات .

* ثم تناولت الوقائع والفجائع التي تكون عند النفخ في الصور ، من خراب العالم ، واندكاك الجبال ، وانشقاق السموات الخ ﴿فإذا نُفِخَ في الصورِ نفخةً واحدةً﴾ وحملت الأرضُ والجبالُ فدُكَّتَا دَكَّةً واحدةً . . . ﴿الآيات .

* ثم ذكرت حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم المفرع ، حيث يعطى المؤمن كتابه بيمينه ، ويلقى الإكرام والإنعام ، ويعطى الكافر كتابه بشماله ، ويلقى الذل والهوان ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه . . . وأما من أوتي كتابه بشماله . . . ﴿الآيات .

* وبعد هذا العرض لأحوال الأبرار والفجار ، جاء القسم البليغ بصدق الرسول ، وصدق ما جاء به من الله ، ورد افتراءات المشركين الذين زعموا أن القرآن سحر أو كهانة ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ إنه لقول رسول كريم ﴿ .

* ثم ذكرت البرهان القاطع على صدق القرآن ، وأمانة الرسول ﷺ في تبليغه الوحي كما نزل عليه ، بذلك التصوير الذي يهز القلب هزاً ، ويثير في النفس الخوف والفرع من هول الموضوع ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾ لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين . . . ﴿الآيات .

* وختمت السورة بتمجيد القرآن وبيان أنه رحمة للمؤمنين وحسرة على الكافرين ﴿وإنه لتذكرة للمتقين﴾ وإنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين * فسيح باسم ربك العظيم .

قال الله تعالى : ﴿الحاقة﴾ ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة . . . إلى . . . فسيح باسم ربك العظيم ﴿ من آية (١) إلى آية (٥٢) نهاية السورة الكريمة .

اللغز : ﴿الحاقة﴾ القيامة سميت حاقة لأنها حقٌ مقطوع بوقوعها ﴿صرصر﴾ شديدة الصوت والبرد ﴿حسوما﴾ متتابعة لا تنقطع من الحسم وهو القطع قال الشاعر :

« فدارت عليهم فكانت حسوماً »^(١)

﴿رابية﴾ زائدة في الشدة والعذاب ﴿واهية﴾ ساقطة القوة ، ضعيفة متراخية من قولهم : وهي البناء اذا ضعف وتداعى للسقوط ﴿هاؤم﴾ اسم فعل أمر بمعنى خذوا ﴿قطوفها﴾ جمع قطف وهو ما يجتنى من الثمر ويقطف ﴿غسلين﴾ صديد أهل النار قال الكلبي : هو ما يسيل من أهل النار من القيح والصديد والدم إذا عذبوا فهو ﴿غسلين﴾ فعلين من الغسل^(٢) ﴿الوتين﴾ عرق متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه ويسمى الأبر وفي الحديث (ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع أبري)^(٣) ﴿حسرة﴾ ندامة عظيمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا

التفسير : ﴿الحاقة﴾ اسم للقيامة سميت بذلك لتحقيق وقوعها ، فهي حقٌ قاطع ، وأمر واقع ، لا شك فيه ولا جدال ﴿ما الحاقة﴾ ؟ التكرار لتفخيم شأنها ، وتعظيم أمرها ، وكان الأصل أن يقال : ما هي ؟ ولكنه وضع الظاهر موضع الضمير زيادة في التعظيم والتهويل ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ ؟ وما أعلمك يا محمد ما هي القيامة ؟ إنك لا تعلمها إذ لم تعانها ، ولم تر ما فيها من الأهوال ، فإنها من العظم والشدة بحيث لا يحيط بها وصف ولا خيال^(٤) ، وهذا على طريقة العرب فإنهم إذا أرادوا تشويق المخاطب لأمر أتوا بصيغة الاستفهام يقولون : أتدري ماذا حدث؟ والآية من هذا القبيل زيادة في التعظيم والتهويل كأنه قال : إنها شيء مريع وخطب فظيع . . ثم بعد أن عظم أمرها وفخم شأنها ، ذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب ، تذكيراً لكفار مكة وتخويفاً لهم فقال ﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ أي كذب قوم صالح ، وقوم هود بالقيامة ، التي تفرع القلوب بأهوالها ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ أي فأما ثمود - قوم صالح - فأهلكوا بالصيحة المدمرة ، التي تجاوزت الحد في

(١) البحر المحيط ٣١٩ / ٨ . (٢) التفسير الكبير ٣ / ١١٦ . (٣) نفس المرجع السابق ٣٠ / ١١٩ (٤) قال أبو السعود : والتكرار تأكيد لهولها وفضاعتها ، ببيان خروجها عن دائرة علم المخلوقات ، على معنى أن عظم شأنها ومدى هولها لا تكاد تبلغه دراية أحدٍ ولا وهم اهـ .

بِالطَّائِغِيَّةِ ﴿٦﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٧﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٨﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٩﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالنَّخَاطِئَةِ ﴿١٠﴾ فَعَصُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَاخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴿١١﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَا كُرْمًا فِي الْجَارِيَةِ ﴿١٢﴾ لَنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكَرَةً وَتَعْيِبًا أذُنٌ وَعَيْةٌ ﴿١٣﴾

الشدة قال قتادة : هي الصيحة التي خرجت عن حد كل صيحة (١) ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ﴾ أي وأما عاد - قوم هود - فأهلكوا بالريح العاصفة ذات الصوت الشديد وهي الدَّبُور وفي الحديث (نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدَّبُور) (٢) ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي متجاوزة الحد في الهبوب والبرودة ، كأنها عنت على خزائنها فلم يتمكنوا من ضبطها (٣) ، قال ابن عباس : ما أرسل الله من ريح قط إلا بمكيال ، ولا أنزل قطرة قط إلا بمكيال ، إلا يوم نوح ويوم عاد ، فإن الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه سبيل ثم قرأ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَا كُرْمًا فِي الْجَارِيَةِ﴾ وإن الريح عنت على خزائنها فلم يكن لهم عليها سبيل ثم قرأ ﴿بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ (٤) ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي سلطها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابة لا تفتر ولا تنقطع ﴿فترى القوم فيها صرعى﴾ أي فترى أيها المخاطب القوم في منازلهم موتى ، لا حراك بهم ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ أي كأنهم أصول نخل متأكلة الأجواف قال المفسرون : كانت الريح تقطع رؤوسهم كما تقطع رءوس النخل ، وتدخل من أفواههم وتخرج من أدبارهم حتى تصرعهم ، فيصبحوا كالنخلة الخاوية الجوف ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ ؟ أي فهل ترى أحداً من بقاياهم ؟ أو تجد لهم أثراً ؟ لقد هلكوا عن آخرهم كقوله تعالى ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ ﴿وجاء فرعون ومن قبله﴾ أي وجاء فرعون الجبار ، ومن تقدمه من الأمم الطاغية التي كفرت برسالتها ﴿والمؤتفكات﴾ أي والأمم الذين انقلبت بهم ديارهم - قرى قوم لوط - حيث جعل الله عاليها سافلها قال الصاوي : ﴿المؤتفكات﴾ أي المنقلبات وهي قرى قوم لوط ، التي اقتلعها جبريل ورفعها على جناحه قرب السماء ثم قلبها ، وكانت خمس قرى (٥) ﴿بالخاطئة﴾ أي بالفعل الخاطئة المنكرة (٦) ، وهي الكفر والعصيان ﴿فعصوا رسول ربهم﴾ أي فعصى فرعون رسول الله موسى ، وعصى قوم لوط رسولهم لوطاً ﴿فأخذهم أخذة رابية﴾ أي فأخذهم الله أخذة زائدة في الشدة ، على عقوبات من سبقهم ، كما أن جرائمهم زادت في القبح والشناعة على سائر الكفار ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَا كُرْمًا فِي الْجَارِيَةِ﴾ أي لما تجاوز الماء حده حتى علا كل شيء وارتفع فوقه حملناكم في السفينة ﴿لنجعلها لكم تذكرة﴾ أي لنجعل تلك الحادثة عظة للناس وعبرة ، تدل على انتقام الله ممن كذب رسله ﴿وتعيبها

(١) وروي عن مجاهد أن معنى الآية أهلكوا بطغيانهم ، والأول أرجح لمقابلته بعذاب عاد أبو السعود ١٨٨/٥ . (٢) أخرجه البخاري ومسلم . (٣) هذا قول علي وهو مروى عن الكلبي وابن عباس . (٤) تفسير الطبري ٣٢/٢٩ وقد رفعه القرطبي والصحيح انه موقوف على ابن عباس . (٥) حاشية الصاوي ٤/ ٢٤٠ . (٦) وقال مجاهد ﴿بالخاطئة﴾ أي بالذنوب والخطايا التي كانوا يفعلونها .

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ
الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ
يَوْمَئِذٍ مُّتْنِبًا ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ مِمَّا أَقْرَأْتُ وَأُ
كْتَبِيهِ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْتَقٍ بِحَسَابِيهِ ﴿٢٠﴾

أذن واعية ﴿١٣﴾ أي وتحفظها وتذكرها أذن واعية للمواعظ ، تنتفع بما تسمع قال القرطبي : والمقصود من
قصص هذه الأمم وذكر ما حلَّ بهم من العذاب ، زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول
ﷺ (١) ، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿وتعياها أذن واعية﴾ قال قتادة : الواعية هي التي عقلت عن الله
وانتفعت بما سمعت من كتاب الله عزَّ وجلَّ (٢) . . ولما ذكر قصص المكذبين ، أتبعه بذكر أهوال القيامة
وشدائدها فقال ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾ أي فإذا نفخ إسرافيل في الصور نفخة واحدة
لخراب العالم قال ابن عباس : هي النفخة الأولى التي يحصل عنها خراب الدنيا ﴿وحملت الأرض والجبال
فدكتا دكة واحدة﴾ أي ورفعت الأرض والجبال عن أماكنها ، فضرب بعضها ببعض حتى تندق وتفتت
وتصير كشيء مهيلاً ﴿فيومئذٍ وقعت الواقعة﴾ أي ففي ذلك الحين قامت القيامة الكبرى ، وحدثت
الدهاية العظمى ﴿وانشقت السماء فهي يومئذٍ واهية﴾ أي وانصدعت السماء فهي يومئذٍ ضعيفة
مسترخية ، ليس فيها تماسك ولا صلابة ﴿والملك على أرجائها﴾ أي والملائكة على أطرافها وجوانبها قال
المفسرون : وذلك لأن السماء مسكن الملائكة ، فاذا انشقت السماء وقفوا على أطرافها فزعاً مما داخلهم من
هول ذلك اليوم ، ومن عظمة ذي الجلال ، الكبير المتعال ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية﴾
أي ويحمل عرش الرحمن ثمانية من الملائكة العظام فوق رؤوسهم وقال ابن عباس : ثمانية صفوف من
الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله (٣) ﴿يومئذٍ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ أي في ذلك اليوم
الرهيب ، تعرضون على ملك الملوك ذي الجلال للحساب والجزاء ، لا يخفى عليه منكم أحدٌ ، ولا يغيب
عنه سرٌّ من أسراركم ، لأنه العالم بالظواهر والسرائر والضمائر . . ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء في
ذلك اليوم فقال ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾ أي فأما من أُعطي كتاب أعماله بيمينه لأنه من السعداء
﴿فيقول هؤم اقرءوا كتابيه﴾ أي فيقول ابتهاجاً وسروراً : خذوا اقرءوا كتابي ، والهاء في ﴿كتابيه﴾ هاء
السكت وكذلك في ﴿حسابيه﴾ و﴿ماليه﴾ و﴿سلطانيه﴾ قال الرازي : ويدل قوله ﴿هؤم اقرءوا
كتابيه﴾ على أنه بلغ الغاية في السرور ، لأنه لما أُعطي كتابه بيمينه ، علم أنه من الناجين ومن الفائزين
بالنعيم ، فأحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله (٤) ﴿إني ظننت أنني ملقٍ بحسابيه﴾ أي إني
أيقنت وتحققت بأنني سألقى حسابي وجزائي يوم القيامة ، فأعددت له العدة من الإيمان ، والعمل الصالح

(١) تفسير القرطبي ١٨/٢٦٣ . (٢) البحر المحيط ٨/٣٢٢ . (٣) القول الأول قول ابن زيد وهو الأظهر ، ويؤيده حديث « حملة العرش
اليوم أربعة ، فاذا كان يوم القيامة قواهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية » وانظر تفسير الطبري ٢٩/٣٨ . (٤) التفسير الكبير ٣٠/١١١ .

فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ
الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهُ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِمَا حِسَابِيَهُ ﴿٢٦﴾
يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَتِي ﴿٢٩﴾ خَذُوهُ فَعُغْلُوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ
أَلْحِمِمْ صَلْوَهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾

قال الحسن : إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل ، وإن المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل ^(١) وقال الضحاك : كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين ، ومن الكافر فهو شك ^(٢) . . قال تعالى مبيناً جزاءه ﴿فهو في عيشة راضية﴾ أي فهو في عيشة هنيئة مرضية ، يرضى بها صاحبها ، لما ورد في الصحيح أنهم يعيشون فلا يموتون أبداً ، ويصحون فلا يمرضون أبداً ، وينعمون فلا يرون بؤساً أبداً ﴿في جنة عالية﴾ أي في جنة رفيعة القدر ، وقصور عالية شاهقة ﴿قطوفها دانية﴾ أي ثمارها قريبة ، يتناولها القائم ، والقاعد ، والمضطجع قال في التسهيل : القطف جمع قطف وهو ما يجتنى من الثمار ويقطف كالعنقود ، روي أن العبد يأخذها بفمه من شجرها وهو قائم أو قاعد أو مضطجع ^(٣) ﴿كلوا واشربوا هنيئاً﴾ أي يقال لهم تفضلاً وإنعاماً : كلوا واشربوا أكلاً وشراباً هنيئاً ، بعيداً عن كل أذى ، سالماً من كل مكروه ﴿بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ أي بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الأيام الماضية يعني أيام الدنيا . . ولما ذكر حال السعداء أعقبه بذكر حال الأشقياء فقال ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله﴾ أي وأما من أعطي كتابه بشماله وهذه علامة الشقاوة والخسران ﴿فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه﴾ أي فيقول إذا رأى قبائح أعماله : يا ليتني لم أعط كتابي قال المفسرون : وذلك لما يحصل له من الخجل والافتضاح فيتمنى عندئذ أنه لم يعط كتاب أعماله ، ويندم أشد الندم ﴿ولم أدر ما حسابيه﴾ أي ولم أعرف عظم حسابي وشدته ، والاستهفام للتعظيم والتهويل ﴿يا ليتها كانت القاضية﴾ أي يا ليت الموتة الأولى التي متهأ في الدنيا ، كانت القاطعة لحياتي ، فلم أبعث بعدها ولم أعذب قال قتادة : تمنى الموت ولم يكن شيء عنده أكره من الموت ^(٤) ، لأنه رأى تلك الحالة أشنع وأمرماً ذاقه من الموت ﴿ما أغنى عني ماليه﴾ أي ما نفعتني مالي الذي جمعته ولا دفع عني من عذاب الله شيئاً ﴿هلك عني سلطانيه﴾ أي زال عني ملكي وسلطاني ، ونسي وجاهي ، فلا معين لي ولا مجير ، ولا صديق ولا نصير ﴿خذوه فعغلوه﴾ أي يقول تعالى لزبانية جهنم : خذوا هذا المجرم الأثيم فشدوه بالأغلال قال القرطبي : فيبتدره مائة ألف ملك ، ثم تجمع يده الى عنقه ، فذلك قوله تعالى ﴿فعغلوه﴾ ^(٥) ﴿ثم ألحيمم صلوه﴾ أي ثم أدخلوه النار العظيمة المتأججة ، ليصلى حرماً ﴿ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾ أي ثم أدخلوه في سلسلة حديدية طولها سبعون ذراعاً قال ابن عباس : بذراع الملك ، تدخل السلسلة من دبره ، وتخرج من

(١) تفسير القرطبي ٢٧٠ / ١٨ . (٢) نفس المرجع السابق والصفحة . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١٤٣ / ٤ .

(٤) تفسير الطبري ٣٩ / ٢٩ . (٥) تفسير القرطبي ٢٧٢ / ١٨ .

إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غَسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصَرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

حلقة ، ثم يجمع بين ناصيته وقدميه ^(١) والسلسلة هي حلق منتظمة ، كل حلقة منها في حلقة ، يلف بها حتى لا يستطيع حراكاً . . لما بين العذاب الشديد بين سببه فقال ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ أي كان لا يصدق بوحدانية الله وعظمته قال في البحر : بدأ بأقوى أسباب تعذيبه وهو كفره بالله ، وهو تعليل مستأنف كأن قائلًا قال : لم يعذب هذا العذاب البليغ ؟ فأجيب إنه كان لا يؤمن بالله ^(٢) ﴿ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ أي ولا يحث نفسه ولا غيره على إطعام المسكين قال المفسرون : ذكر الحض دون الفعل للتنبه على أن تارك الحض بهذه المنزلة ، فكيف بتارك الإحسان والصدقة ؟ ﴿ فليس له اليوم ههنا حميم ﴾ أي فليس له في الآخرة صديق يدفع عنه العذاب ، لأن الأصدقاء يتحاشونه ، ويفرون منه ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غَسْلِينٍ ﴾ أي وليس له طعام إلا صديد أهل النار ، الذي يسيل من جراحاتهم ^(٣) ﴿ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ أي لا يأكله إلا الأثمون المجرمون المرتكبون للخطايا والآثام قال المفسرون : ﴿ الخاطئون ﴾ جمع خاطيء وهو الذي يتعمد الذنب ، والمخطيء الذي يفعل الشيء خطأ دون قصد ، ولهذا قال ﴿ الخاطئون ﴾ ولم يقل المخطئون . . ولما ذكر أحوال السعداء من أهل الجنة ، ثم أحوال الأشقياء من أهل النار ، ختم الكلام بتعظيم القرآن فقال ﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ * وَمَا لَا تُبْصَرُونَ ﴾ أي فأقسم بالمشاهدات والمغيبات ، أقسم بما ترونه وما لا ترونه ، مما هو واقع تحت الأبصار ، وما غاب وخفي عن الأنظار ، و﴿ لَا ﴾ في قوله ﴿ فَلَا أَقْسِمُ ﴾ لتأكيد القسم وليست نافية ^(٤) قال الإمام الفخر : والآية تدل على العموم والشمول ، لأنها لا تخرج عن قسمين : مبصر وغير مبصر ، فشملت الخالق والخلق ، والدنيا والآخرة ، والأجسام والأرواح ، والإنس والجن ، والنعم الظاهرة والباطنة ^(٥) قال قتادة : هو عام في جميع مخلوقاته جل وعلا ، وقال عطاء : ما تبصرون من آثار القدرة ، وما لا تبصرون من أسرار القدرة ^(٦) ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ أي إن هذا القرآن لكلام الرحمن ، يتلوه ويقراه رسول كريم ، هو محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم قال القرطبي : والرسول ههنا محمد ﷺ ونسب القول إليه لأنه تاليه ومبلغه عن الله تعالى ^(٧) ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ أي وليس القرآن كلام شاعر كما تزعمون ، لأنه مابين لأوزان الشعر كلها ، فليس شعراً ولا نثراً ﴿ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ أي قلماً تؤمنون بهذا القرآن قال مقاتل : يعني بالقليل أنهم لا يصدقون بأن القرآن من الله ، بمعنى لا يؤمنون به أصلاً ، والعرب تقول : قلماً يأتينا يريدون لا

(١) التفسير الكبير ١١٤/٣٠ . وقال الحسن : الله أعلم بأي ذراع هو ؟

(٢) البحر المحيط ٣٢٦/٨ . (٣) نقله الطبري عن ابن عباس ، وقال قتادة : شر الطعام وأخبثه وأبشعه .

(٤) هذا هو القول الراجح بدليل ذكر جواب القسم ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾ وقيل : إنها نافية كأنه قال : لا يحتاج الأمر إلى قسم لوضوح الحق

وسطوعه . (٥) التفسير الكبير للرازي ١١٦/٣٠ . (٦) تفسير الألوسي ٥٢/٢٩ . (٧) القرطبي ٢٧٤/١٨ .

وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾
لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَلِيزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذَكَّرٌ
لِّلْمُنْتَقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

يأتينا^(١) ﴿ولا يقول كاهن﴾ أي وليس هو بقول كاهن يدعي معرفة الغيب ، لأن القرآن يغير بأسلوبه
سجع الكهان ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ أي قلماً تتذكرون وتتعتون ﴿تنزيل من رب العالمين﴾ أي هو
تنزيل من رب العزة جل وعلا كقوله تعالى ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ نزل به الروح الأمين * على قلبك
لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين * والغرض من الآية تبرئة الرسول ﷺ مما نسب إليه المشركون من
دعوى السحر والكهانة ، ثم أكد ذلك بأعظم برهان على أن القرآن من عند الله فقال ﴿ولو تقول علينا
بعض الأقاويل﴾ أي لو اختلق محمد بعض الأقوال ، ونسب إلينا ما لم نقله ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ أي
لانتقمنا منه بقوتنا وقدرتنا^(٢) ﴿ثم لقطعنا منه الوتين﴾ أي ثم لقطعنا نياط قلبه حتى يموت قال القرطبي :
والوتين عرق يتعلق به القلب ، إذا انقطع مات صاحبه^(٣) والغرض أنه تعالى يعاجله بالعقوبة ولا يمهله ، لو
نسب إلى الله شيئاً ولو قليلاً ، فإن تسمية الأقوال بالأقاويل للتصغير والتحقير ﴿فما منكم من أحدٍ عنه
حاجزين﴾ أي فما يقدر أحد منكم أن يحجز بيننا وبينه ، لو أردنا حينئذٍ عقوبته ، ولا أن يدفع عنه عذابنا قال
الخازن : المعنى إن محمداً لا يتكلم الكذب علينا لأجلكم ، مع علمه أنه لو تكلم لعاقبناه ، ولا يقدر أحدٌ
على دفع عقوبتنا عنه^(٤) ﴿وإنه لتذكرة للمتقين﴾ أي وإن هذا القرآن لعظة للمؤمنين المتقين الذين
يخشون الله ، وخص المتقين بالذكر لأنهم المنتفعون به ﴿وإننا لنعلم أن منكم مكذابين﴾ أي ونحن نعلم
أن منكم من يكذب بهذا القرآن مع وضوح آياته ، ويزعم أنه أساطير الأولين ، وفي الآية وعيد لمن كذب
بالقرآن^(٥) ﴿وإنه لحسرة على الكافرين﴾ أي وإنه لحسرة عليهم في الآخرة ، لأنهم يتأسفون إذا رأوا ثواب
من آمن به ﴿وإنه لحق اليقين﴾ أي وإنه لحق يقيني لا يحوم حوله ريب ، ولا يشك عاقل أنه كلام رب
العالمين ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي فتره ربك العظيم عن السوء والنقائص ، واشكره على ما
أعطاك من النعم العظيمة ، التي من أعظمها نعمة القرآن .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي :

١ - الإطناب بتكرار الاسم للتهويل والتعظيم ﴿الحاقة ما الحاقة﴾ الخ .

(١) التفسير الكبير ١١٧/٣ . (٢) هذا قول ابن عباس ومجاهد . (٣) تفسير القرطبي ٢٧٦/١٨ . (٤) تفسير الخازن ٤٨/٤ .

(٥) الظاهر أن الضمير يعود إلى القرآن وقال الطبري وإن التكذيب لحسرة وندامة على الكافرين ، وهو قول مقاتل .

- ٢ - التفصيل بعد الإجمال زيادة في البيان ﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ ثم فصله بقوله ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد﴾ الآية وفيه لفٌ ونشر مرتب .
- ٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية﴾ ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه .
- ٤ - الاستعارة اللطيفة الفائقة ﴿إنا لما طغى الماء﴾ الطغيان من صفات الإنسان ، فشبّه ارتفاع الماء وكثرته ، بطغيان الإنسان على الإنسان بطريق الاستعارة .
- ٥ - جناس الاشتقاق مثل ﴿وقعت الواقعة﴾ ومثل ﴿لا تخفى منكم خافية﴾ .
- ٦ - المقابلة البديعة ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه﴾ قابلها بقوله ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله . .﴾ الخ وهي من المحسنات البديعية .
- ٧ - طباق السلب ﴿فلا أقسم بما تبصرون . . وما لا تبصرون﴾ .
- ٨ - الكناية ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ لفظ اليمين كناية عن القوة والقدرة .
- ٩ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿فهو في عيشة راضية * في جنةٍ عالية * قطوفها دانية﴾ ومثل ﴿خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلّوه * ثم في سلسلةٍ ذرعاها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾ ويسمى في علم البديع السجع المرصع والله أعلم .
- تنبية** : روى الحافظ ابن كثير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقني الى المسجد فقامت خلفه ، فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أعجب من تأليف القرآن ، قال فقلت في نفسي : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، فقرأ ﴿إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون﴾ فقلت : كاهن ، فقرأ ﴿ولا بقول كاهنٍ قليلاً ما تذكرون﴾ الخ السورة ، قال : فوق في قلبي الإسلام كل موقع ، حتى هداني الله تعالى له .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحاقة »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة المعارج من السور المكية ، التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية ، وقد تناولت الحديث عن القيامة وأهوالها ، والآخرة وما فيها من سعادة وشقاوة ، وراحة ونصب ، وعن أحوال المؤمنين والمجرمين ، في دار الجزاء والخلود ، والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن كفار مكة وإنكارهم للبعث والنشور ، واستهزاؤهم بدعوة الرسول ﷺ .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن طغيان أهل مكة ، وعن تمردهم على طاعة الرسول ﷺ ، واستهزائهم بالإنذار والعذاب الذي خُوفوا به ، وذكرت مثلاً لطغيانهم بما طلبه بعض صناديدهم وهو « النضر بن الحارث » حين دعا أن يُنزل الله عليه وعلى قومه العذاب العاجل ، ليستمتعوا به في الدنيا قبل الآخرة ، وذلك مكابرةً في الجحود والعناد ﴿سأل سائلٌ بعذابٍ واقعٍ * للكافرين ليس له دافع * من الله ذي المعارج ..﴾ الآيات .

* ثم تناولت الحديث عن المجرمين في ذلك اليوم الفظيع الذي تتفطر فيه السموات ، وتتطاير فيه الجبال فتصير كالصوف الملون ألواناً غريبة ﴿يوم تكون السماء كالمُهْل * وتكون الجبال كالعهن * ولا يسأل حميمٌ حمياً * يبصرونهم يودُّ المجرم لو يفتدي من عذابٍ يومئذٍ ببنيه * وصاحبه وأخيه * وفصيلته التي تؤويه * ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه﴾ .

* ثم استطرقت السورة إلى ذكر طبيعة الإنسان ، فإنه يجزع عند الشدة ، ويبطر عند النعمة ، فيمنع حقَّ الفقير والمسكين ﴿إنَّ الإنسانَ خلُقَ هلوَعاً * إذا مسَّهُ الشرُّ جزوعاً * وإذا مسَّهُ الخير منوعاً﴾ .

* ثم تحدثت عن المؤمنين وما اتصفوا به من جلائل الصفات ، وفضائل الأخلاق ، وبينت ما أعدَّ الله لهم من عظيم الأجر في جنات الخلد والنعيم ﴿إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾ الآيات .

* ثم تناولت الكفرة المستهزئين بالرسول ، الطامعين في دخول جنات النعيم ﴿فما للذين كفروا

قِيلَكَ مَهْطَعِينَ * عَنْ الِيمِينِ وَعَنْ الشَّمَالِ عَزِيزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ .

* وَخَتَمْتُ السُّورَةَ الْكَرِيمَةَ بِالْقِسْمِ الْجَلِيلِ بَرَبِ الْعَالَمِينَ عَلَى أَنْ الْبَعْثُ وَالْجَزَاءُ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَعَلَى أَنْ اللَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نَبْدُلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . . إِلَى قَوْلِهِ خَاشِعَةً أَبْصَارِهِمْ تَرْهَقُهُمْ ذُلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ . . إِلَى . . ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾
من آية (١) إلى آية (٤٤) نهاية السورة .

اللِّغْزَاتُ : ﴿ المعارج ﴾ المصاعد والمدارج التي يرتقي بها الإنسان جمع معرج وهو المصعد ، والعروج الارتفاع إلى السماء ومنه معراج النبي ﷺ ﴿ المهمل ﴾ النحاس المذاب ﴿ العهن ﴾ الصوف المنفوش ﴿ فصيلته ﴾ الفصيلة : العشيرة الذي فصل عنهم وتولد منهم ﴿ لظى ﴾ اسم لجهنم سميت بذلك لأن نيرانها تتلظى أي تلتهب ﴿ الشَّوَى ﴾ جمع شواة وهي جلدة الرأس قال الأعشى :

قالت قتيلة ماله قد جللت شيئاً شواته (١) ؟

﴿ هَلُوعًا ﴾ كثير الجزع والضجر ، قال أبو عبيدة : الهلوع هو الذي اذا مسه الخير لم يشكر ، واذا مسه الضر لم يصبر (٢) ﴿ عزين ﴾ جماعات متفرقين جمع عزة وهي الجماعة المتفرقة قال الشاعر :

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا (٣)

﴿ يوفضون ﴾ يسرعون يقال : أوفض البعير اذا أسرع السير .

سَبَبُ النُّزُولِ : عن ابن عباس أن النضر بن الحارث قال حين خوفهم رسول الله ﷺ من عذاب الله ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ فأنزل الله ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾

التفسير : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ أي دعا داعٍ من كفار مكة لنفسه ولقومه بنزول عذاب واقع لا محالة قال المفسرون : السائل هو « النضر بن الحارث » من صناديد قريش وطواغيتها ، لما خوفهم

(١) التفسير الكبير ٣٠/١٢٨ . (٢) القرطبي ١٨/٢٩٠ . (٣) روح المعاني ٢٩/٦٤ . (٤) البحر المحيط ٨/٣٣٢ .

لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿١﴾ مِنْ آلِهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٢﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ
خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ
كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾

رسول الله عذاب الله قال استهزاء ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ فأهلكه الله يوم بدر ، ومات شرميتة ، ونزلت الآية بدمه ﴿للكافرين﴾ أي دعا بهذا العذاب على الكافرين ﴿ليس له دافع﴾ أي لا راد له إذا أراد الله وقوعه ، وهو نازل بهم لا محالة ، سواء طلبوه أو لم يطلبوه ، وإذا نزل العذاب فلن يرفع أو يدفع ﴿من الله ذي المعارج﴾ أي هو صادر من الله العظيم الجليل ، صاحب المصاعد التي تصعد بها الملائكة ، وتنزل بأمره ووحيه ، ثم فصل ذلك بقوله ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾ أي تصعد الملائكة الأبرار وجبريل الأمين^(١) الذي خصه الله بالوحي الى الله عز وجل ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ أي في يوم طوله خمسون ألف سنة من سني الدنيا قال ابن عباس : هو يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ثم يدخلون النار للاستقرار^(٢) قال المفسرون : والجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في سورة السجدة ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾ أن القيامة مواقف ومواطن ، فيها خمسون موطناً كل موطن ألف سنة ، وأن هذه المدة الطويلة تخفف على المؤمن حتى تكون أخف عليه من صلاة مكتوبة^(٣) ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾ أي فاصبر يا محمد على استهزاء قومك وأذاهم ولا تضجر ، فإن الله ناصرك عليهم ، وهذا تسلية له عليه الصلاة والسلام ، لأن استعجال العذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله ﷺ فأمره الله بالصبر قال القرطبي : والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ، ولا شكوى لغير الله^(٤) ﴿إنهم يرونه بعيداً﴾ أي إن هؤلاء المستهزئين يستبعدون العذاب ويعتقدون أنه غير نازل ، لأنكارهم للبعث والحساب ﴿ونراه قريباً﴾ أي ونحن نراه قريباً لأن كل ما هو آت قريب . . ثم أخبر تعالى عن هول العذاب وشدته وعن أهوال يوم القيامة فقال ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ أي تكون السماء سائلة غير متماسكة ، كالرصاص المذاب قال ابن عباس : كدردي الزيت أي كعكر الزيت^(٥) ﴿وتكون الجبال كالعهن﴾ أي وتكون الجبال متناثرة متطايرة ، كالصوف المنفوش إذا طيرته الريح قال القرطبي : العهن الصوف الأحمر أو ذو الألوان ، شبه الجبال به في تلونها ألواناً ، وأول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً ، ثم عنها منقوشاً ، ثم هباءً منثوراً^(٦) . . هذه حال السماء والأرض في ذلك اليوم المفزع ، أما حال الخلائق فهي كما قال تعالى ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ أي لا يسأل صديق صديقه ، ولا قريب قريبه عن شأنه ، لشغل كل إنسان بنفسه ،

(١) إنما فرد جبريل بالذكر وإن كان من جملة الملائكة لشرفه وفضل منزلته ، وهو المسمى بالروح لقوله تعالى ﴿نزل به الروح الأمين﴾ .

(٢) تفسير القرطبي ٢٨٢/١٨ . (٣) أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قيل يا رسول الله ما أطول هذا اليوم ! فقال ﷺ : (والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلها في الدنيا) . (٤) تفسير القرطبي ٢٨٤/١٨ .

(٥) وهذا قول مجاهد كذا في الطبري ٤٦/٢٩ . (٦) تفسير القرطبي ٢٨٥/١٨ .

يَبْصُرُونَهُمْ يَوْمَ الْمَجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَيْنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي
تُؤْتِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَلظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوْىِ ۚ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾
وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ * إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾

وذلك لشدة ما يحيط بهم من الهول والفرع ﴿يَبْصُرُونَهُمْ﴾ أي يرونهم ويعرفونهم ، حتى يرى الرجل أباه وأخاه وقرباته وعشيرته ، فلا يسأله ولا يكلمه بل يفر منه كقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ قال ابن عباس : ﴿يَبْصُرُونَهُمْ﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً ويتعارفون بينهم ، ثم يفر بعضهم من بعض^(١) ﴿يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ببنيه وصاحبه وأخيه﴾ أي يتمنى الكافر - مرتكب جريمة الجحود والتكذيب - لو يفدي نفسه من عذاب الله ، بأعز من كان عليه في الدنيا من ابن ، وزوجة ، وأخ ﴿وفصيلته التي تؤويه﴾ أي وعشيرته التي كانت تضمه إليها ، ويتكل في نوائبه عليها ، وليس هذا فحسب بل يتمنى لو يفتدي بجميع أهل الأرض ﴿ومن في الأرض جميعاً ثم يُنْجِيهِ﴾ أي وبجميع من في الأرض من البشر وغيرهم ثم ينجو من عذاب الله ، ولكن هيهات أن ينجو المجرم من العذاب ، أو ينقذه ذلك من شدة الكرب ، وفادح الخطب ، قال الإمام الفخر : و﴿ثم﴾ لاستبعاد الإنجاء يعني يتمنى لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده ، وبذلهم في فداء نفسه ثم ينجيه ذلك ، وهيهات أن ينجيه^(٢) ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَلظَىٰ﴾ ﴿كَلَّا﴾ أداة زجر وتعنيف أي لينزجر هذا الكافر الأثيم وليرتدع عن هذه الأمانى ، فليس ينجيه من عذاب الله فداء ، بل أمامه جهنم تتلظى نيرانها وتلتهب ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوْىِ﴾ أي تنزع بشدة حرها جلدة الرأس^(٣) من الإنسان كلما قلعت عادت كما كانت زيادة في التنكيل والعذاب ، وخصها بالذكر لأنها أشد الجسم حساسيةً وتأثراً بالنار ﴿تدعو من أدبر وتولى﴾ أي تنادي جهنم وتهتف بمن كذب بالرحمن ، وأعرض عن الإيمان ، قال ابن عباس : تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح تقول : إِيَّيَّيْ كَافِرٍ ، إِيَّيَّيْ يَا مُنَافِقَ ، ثُمَّ تَلْتَقِطُهُمْ كَمَا يَلْتَقِطُ الطَّيْرُ الْحَبَّ^(٤) ﴿وجمع فأوعى﴾ أي وتدعو من جمع المال وخبأه وكنزه في الخزائن والصناديق ، ولم يؤد منه حقَّ الله وحق المساكين قال المفسرون : والآية وعيدٌ شديد لمن يبخل بالمال ، ويحرص على جمعه ، فلا ينفقه في سبيل الخير ، ولا يخرج منه حق الله وحق المسكين ، وقد كان الحسن البصري يقول : يا ابن آدم سمعت وعيد الله ثم أوعيت الدنيا أي جمعتها من حلالٍ وحرامٍ ! ! ثم أخبر تعالى عن طبيعة الإنسان ، وما جبل عليه من الحرص الشديد على جمع حطام الدنيا فقال ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي إن الإنسان جبل على الضجر ، لا يصبر على بلاء ، ولا يشكر على نعماء قال المفسرون : الهلع : شدة الحرص وقلة الصبر ، يقال : جاع فهلع^(٥) ، والمراد بالإنسان العموم بدليل

(١) تفسير الطبري ٤٦/٢٩ . (٢) التفسير الكبير ١٢٧/٣ . (٣) هذا قول ابن عباس وقال مقاتل : تنزع النار الهامة والأطراف فلا تترك لحماً ولا جلدًا إلا أحرقت . (٤) تفسير القرطبي ٢٨٩/١٨ . (٥) التفسير الكبير ١٢٨/٣٠ .

إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَأْمُونَ ﴿٢٣﴾
وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ
رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ
أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾

الاستثناء منه ، والاستثناء معيار العموم ، ثم فسره تعالى بقوله ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ أي إذا نزل به مكروه من فقر ، أو مرض ، أو خوف ، كان مبالغاً في الجزع أكثراً منه ، واستولى عليه اليأس والقنوط ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي وإذا أصابه خيرٌ من غنى ، وصحة وسعة رزق كان مبالغاً في المنع والإمساك ، فهو إذا أصابه الفقر لم يصبر ، وإذا أغناه الله لم ينفق قال ابن كيسان : خلق الله الإنسان يحب ما يسره ، ويهرب مما يكرهه ، ثم تعبده بإفئاق ما يحب والصبر على ما يكره ^(١) ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ استثناءهم من أفراد البشر الموصوفين بالهلع، لأن صلواتهم تحملهم على قلة الاكتراث بالدنيا ، فلا يجزعون من شرها ولا يبخلون بخيرها ﴿الذين هم على صلواتهم دائمون﴾ أي مواظبون على أداء الصلاة ، لا يشغلهم عنها شاغل ، لأن نفوسهم صفت من أقدار الحياة ، بتعرضهم لنفحات الله ﴿والذين في أموالهم حق معلوم﴾ أي في أموالهم نصيب معين فرضه الله عليهم وهو الزكاة ﴿للسائل والمحروم﴾ أي للفقير الذي يسأل ويتكفف الناس ، والمحروم الذي يتعفف عن السؤال ، فيظن أنه غني فيحرم كقوله تعالى ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ ﴿والذين يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي يؤمنون بيوم الحساب والجزاء ، ويصدقون بحجيته تصديقاً جازماً لا يشوبه شك أو ارتياب ، فيستعدون له بالأعمال الصالحة ﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾ أي خائفون على أنفسهم من عذاب الله ، يرجون الثواب ويخافون العقاب ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي لأن عذاب الله لا ينبغي أن يأمنه إنسان ، إلا من أمته الرحمن والأمور بخواتيمها . . . إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُصَدِّقِينَ الْمُشْفِقِينَ قَلْبًا تَزْدِهِمُ الدُّنْيَا ، أو يطهرهم نعيمها ، أو يجزعون على ما فاتهم من حطامها ، فسواء عليهم أخصروا حظوظ الدنيا أم غنموا ، إذ أن لديهم من الفكر في جلال ربهم ، وذكر معادهم ، ما يشغلهم عن الجزع إذا مسهم الشر ، ويربأ بهم عن المنع إذا مسهم الخير ، ثم ذكر تعالى الفريق الخامس من الموفقين للخيرات وفعل الطاعات فقال ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ أي أعفاء لا يرتكبون المحارم ، ولا يتلوثون بالمآثم ، قد صانوا أنفسهم عن الزنى والفواحش ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي يقتصرون على ما أحل الله لهم من الزوجات المنكوحات ، والرقيات المملوكات ﴿فإنهم غير ملومين﴾ أي فإنهم غير مؤاخذين لأن وضع الشهوة فيما أباح الله من الزوجات والمملوكات ، حلالٌ يؤجر عليه الإنسان ، لما فيه من تكثير النسل والذرية ﴿فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ أي فمن طلب لقضاء شهوته غير الزوجات

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ
يَحَافِظُونَ ﴿٣٦﴾ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٨﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ
الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٩﴾

والمملوكات ، فقد تعدى حدود الله وعرض نفسه لعذاب الله قال الطبري : من التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته أو ملك يمينه ، ففاعلوا ذلك هم العادون ، الذين تعدوا حدود ما أحل الله لهم ، إلى ما حرّمه عليهم ، فهم الملمومون^(١) ﴿والذين هم لآماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي يؤدون الأمانات ، ويحفظون العهود ، فإذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا ﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾ أي يشهدون بالحق على القريب والبعيد ، ولا يكتمون الشهادة ولا يغيرونها ، بل يؤدون على وجهها الكامل ، بحيث تصان بها حقوق الناس ومصالحهم ، وخصّها بالذكر مع اندراجها في الأمانات ، تنبيهاً على فضلها لأن في إقامتها إحياء للحقوق ، وفي تركها تضييع للحقوق ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ هذا هو الوصف الثامن من أوصاف المؤمنين الذين وفقهم الله إلى تطهير نفوسهم من خلق الهلع المذموم أي يراعون شرائط الصلاة ويلتزمون آدابها ، ولا سيما الخشوع والتدبر ومراقبة الله فيها ، وإلا كانت حركات صورية لا يجني العبد ثمرتها ، فإن فائدة الصلاة أن تكف عن المحارم ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ ولما كانت الصلاة عمود الإسلام بولغ في التوكيد فيها ، فذكرت في أول الخصال الحميدة وفي آخرها ، ليعلم مرتبتها في الأركان التي بني عليها الإسلام^(٢) ، قال القرطبي : ذكر تعالى من أوصافهم في البدء ﴿الذين هم على صلواتهم دائمون﴾ ثم قال في الختم ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ والدوام غير المحافظة ، فدوامهم عليها أن يحافظوا على آدابها ، لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل ، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقبتها ، ويقيموا أركانها ، ويكملوها بسننها وآدابها ، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم ، فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات ، والمحافظة ترجع إلى أحوالها^(٣) ، وبعد أن ذكر تعالى أوصاف المؤمنين المتقين ، ذكر ما لهم وعاقبتهم فقال ﴿أولئك في جنات مكرمون﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الأوصاف الجليلة ، والمناقب الرفيعة ، مستقرون في جنات النعيم ، التي أكرمهم الله فيها بأنواع الكرامات ، مع الإنعام والتكريم بأنواع الملاذ والمشتريات ، لا تصافهم بمكارم الأخلاق ﴿فما للذين كفروا قبلك مهطعين﴾ أي ما لهؤلاء الكفرة المجرمين ، مسرعين نحوك يا محمد ، مادين أعناقهم إليك ، مقبلين بأبصارهم عليك ؟ قال المفسرون : كان المشركون يجتمعون حول النبي ﷺ حلقاً حلقاً ، يسمعون كلامه ويستنهضون به وبأصحابه ، ويقولون : إن دخل هؤلاء الجنة - كما يقول محمد - فلندخلها قبلهم فنزلت الآية^(٤) ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ أي جالسين عن يمينك وعن شمالك فرقاً فرقاً ، وجماعات جماعات يتحدثون ويتعجبون؟

(١) تفسير الطبري ٥٣/٢٩ . (٢) قال ابن كثير : افتتح تعالى الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها ، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها .

١٥٢/٤ . (٣) تفسير القرطبي ٢٩٢/١٨ . (٤) انظر تفسير أبي السعود ١٩٥/٥ وتفسير الخازن ١٥٢/٤ .

أَيَطْمَعُ كُلُّ أَمْرِيٍّ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٢٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٣٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرَ مَنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٣١﴾ فَذَرُّهُمْ يُخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلْقُوا
يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ ﴿٣٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ
تَرْهَقُهُمْ ذُلَّةٌ ذَلِكِ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٣٤﴾

قال أبو عبيدة: عزيز أي جماعات جماعات في تفرقة ومنه حديث (مالي أراكم عزيزين؟ ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها^(١)) ﴿أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم﴾ استفهام إنكاري مع التقرير والتوبيخ أي أيطمع كل واحد من هؤلاء الكفار ، أن يدخله الله جنات النعيم ، وقد كذب خاتم المرسلين ؟ ﴿كلا﴾ ردع وزجر أي ليس الأمر كما يطمعون ، فإنهم لا يدخلونها أبداً ثم قال ﴿إننا خلقناهم مما يعلمون﴾ أي خلقناهم من الأشياء المستقدرة ، من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة ، فمن أين يتشرفون بدخول جنات النعيم قبل المؤمنين ، وليس لهم فضل يستوجبون به دخول الجنة ؟ وإنما يستوجب دخول الجنة من أطاع الله قال القرطبي : كانوا يستهزئون بفقراء المسلمين ويتكبرون عليهم فقال تعالى ﴿إننا خلقناهم مما يعلمون﴾ أي من القدر فلا يليق بهم هذا التكبر^(٢) ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغرب﴾ أي فأقسم برب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغربها ﴿إننا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم﴾ أي قادرون على إهلاكهم ، واستبدالهم بقوم أفضل منهم وأطوع لله ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ أي ولسنا بعاجزين عن ذلك ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾ أي اتركهم يا محمد يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم ، واشتغل أنت بما أمرت به ، وهو أمر على جهة الوعيد والتهديد للمشركين ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ أي حتى يلاقوا ذلك اليوم العصيب الرهيب ، الذي لا ينفعهم فيه توبة ولا ندم ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعا﴾ أي يوم يخرجون من القبور إلى أرض المحشر مسرعين ﴿كانهم إلى نصب يوفضون﴾ أي كأنهم يسعون ويستبقون إلى أصنامهم التي نصبوها ليعبدوها ، شبه حالة إسراعهم إلى موقف الحساب ، بحالة إسراعهم وتسابقهم في الدنيا ، إلى آلهتهم وطواغيتهم ، وفي هذا التشبيه تهكم بهم ، وتعريض بسخافة عقولهم ، إذ عبدوا ما لا يستحق العبادة ، وتركوا عبادة الواحد الأحد ﴿خاشعة أبصارهم﴾ أي خاشعة منكسرة أبصارهم إلى الأرض لا يرفعونها خجلاً من الله ﴿ترهقهم ذلّة﴾ أي يغشاهم الذل والهوان من كل مكان ، وعلى وجوههم آثار الذل والانكسار ﴿ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون﴾ أي هذا هو اليوم الذي وعدوا به في الدنيا وكانوا يهزءون ويكذبون ، فاليوم يرون عقابهم وجزاءهم !!

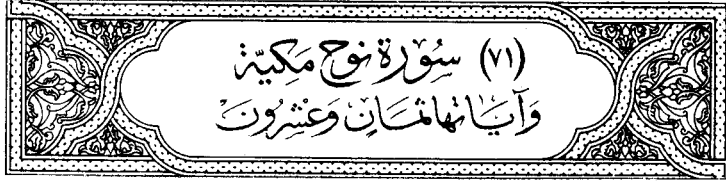
البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

(١) تفسير القرطبي ٢٩٣/١٨ والحديث أخرجه مسلم . (٢) تفسير القرطبي ٢٩٤/١٨ .

- ١ - الطباق بين ﴿بعيداً . . . وقريباً﴾ وبين ﴿اليمين . . . والشمال﴾ وبين ﴿المشرق والمغرب﴾ .
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿سأل سائل﴾ وكذلك ﴿تعرج - المعارج﴾ .
- ٣ - ذكر الخاص بعد العام تنبيهاً لفضله وتشريفاً له ﴿تعرج الملائكة والروح﴾ الروح هو جبريل .
- ٤ - التشبيه المرسل المجمل ﴿يوم تكون السماء كالمهل * وتكون الجبال كالعهن﴾ لحذف وجه الشبه
- ٥ - ذكر العام بعد الخاص ﴿لو يفتدي من عذاب يومئذٍ بنيه وصاحبه وأخيه . . . ومن في الأرض جميعاً﴾ جاء بالعموم بعد الخصوص لبيان هول الموقف .
- ٦ - المقابلة اللطيفة ﴿إذا مسَّ الشر جزوعاً﴾ قابله بقوله ﴿وإذا مسَّ الخير منوعاً﴾ .
- ٧ - الاستفهام الإنكاري للتقريع والتوبيخ ﴿أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم﴾ ؟
- ٨ - الكناية الفائقة الرائقة ﴿كلا إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ كناية عن المنى القدر ، مع النزاهة التامة في التعبير ، وحسن الإيقاظ والتذكير ، بألطف عبارة وأبلغ إشارة .
- ٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ وفي تشبيههم بذلك تهكم بهم ، وتعريض بسخافة عقولهم ، وتسجيل عليهم بالجهل المشين بالإسراع في عبادة غير من يستحق العبادة .
- ١٠ - السجع المرصع كأنه الدر والياقوت مثل ﴿إنها لظى * نزاعة للشوى * تدعو من أدبر وتولى﴾ الخ .

تنبيه: نبه تعالى بقوله ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً﴾ الآيات إلى طبائع البشر ، فبين أن الإنسان يتسرع إلى مشتهاه ، اتباعاً لهواه ، وأنه مفرط في الهلع والجزع ، فإن مسه خير شحت به نفسه ، وإن نزل به شر اشتد له قلقه ، ثم استثنى من ذلك الخلق الذميمة أصنافاً من البشر ، وهم الذين جمعوا مع الإيمان صالح الأعمال .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المعارج »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة نوح مكية ، شأنها شأن سائر السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة ، وتثبيت قواعد الإيمان ، وقد تناولت السورة تفصيلاً قصة شيخ الأنبياء « نوح » عليه السلام ، من بدء دعوته حتى نهاية حادثة الطوفان ، التي أغرق الله بها المكذبين من قومه ، ولهذا سميت « سورة نوح » ، وفي السورة بيان لسنة الله تعالى في الأمم التي انحرفت عن دعوة الله ، وبيان لعاقبة المرسلين ، وعاقبة المجرمين ، في شتى العصور والأزمان .

* ابتدأت السورة الكريمة بإرسال الله تعالى لنوح عليه السلام ، وتكليفه بتبليغ الدعوة وإنذار قومه من عذاب الله ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم﴾ .

* ثم ذكرت السورة جهاد نوح ، وصبره ، وتضحيته في سبيل تبليغ الدعوة ، فقد دعا قومه ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاً ، فلم يزداهم ذلك إلا إمعاناً في الضلال والعصيان ﴿قال رب إني دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزداهم دعائي إلا فراراً﴾ .

* ثم تابعت السورة تذكّرهم بإنعام الله وإفضاله على لسان نوح عليه السلام ، ليجدّوا في طاعة الله ، ويروا آثار قدرته ورحمته في هذا الكون ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سمواتٍ طباقاً * وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ! والله أنبتكم من الأرض نباتاً ! ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً﴾ !!

* ومع كل هذا التذكير والنصح والإرشاد ، فقد تمادى قومه في الكفر والضلال والعناد ، واستخفوا بدعوة نبيهم نوح عليه السلام حتى أهلكهم الله بالطوفان ﴿قال نوحُ رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزداهم ماله وولده إلا خساراً * ومكروا مكرًا كُبَّاراً﴾ وقالوا لا تدرن أهتكم ولا تدرن وداً ولا سواعاً .. ﴿الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بدعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك والدمار ، بعد أن مكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله ، فما لانت قلوبهم ، ولا انتفعت بالتذكير والإنذار ﴿وقال نوح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ - أَنْ أَنْذِرَ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ إِنِّي لَكُنْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۖ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ إِنَّ أَجَلَ رَبِّ لَآ تَذَرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا * رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ۖ .

قال الله تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ . . . إِلَى . . . وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾
من آية (١) إلى آية (٢٨) نهاية السورة .

اللغز : ﴿استغشوا﴾ غطوا غشاه أي غطاه ، والغشاء الغطاء ﴿مدراراً﴾ غزيراً متتابعاً ﴿أطواراً﴾ أحوالاً مختلفة طوراً بعد طور قال الشاعر : « والمرء يخلق طوراً بعد أطوار » (١) ﴿فجاجاً﴾ واسعات جمع فج وهو الطريق الواسعة ﴿كُبَّاراً﴾ كبيراً بالغ الغاية في الكبر ﴿دياراً﴾ أحداً يدور أو يتحرك على ظهر الأرض ﴿تباراً﴾ هلاكاً ودماراً .

التفسير : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أي بعثنا شيخ الأنبياء نوحاً عليه السلام إلى سكان جزيرة العرب قال الألوسي : واشتهر أنه عليه السلام كان يسكن أرض الكوفة وهناك أرسل (٢) ﴿أَنْ أَنْذِرَ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي بأن خوف قومك وحذرهم إن لم يؤمنوا من عذاب شديد مؤلم ، وهو عذاب الطوفان في الدنيا ، وعذاب النار في الآخرة ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي فدعاهم إلى الله وقال لهم : إنني لكم منذر ، موضح لحقيقة الأمر ، أنذركم وأخوفكم عذاب الله ، فأمرني واضح ودعوتي ظاهرة قال المفسرون : نوح عليه السلام أول نبي أرسل ، ويقال له : شيخ المرسلين ، لأنه أطولهم عمراً فقد مكث في قومه كما قص القرآن الكريم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ يدعوهم إلى الله ، ومع طول هذه المدة لم يؤمن معه إلا قليل ، وقد أفرد القرآن قصته في هذه السورة الكريمة التي تسمى «سورة نوح» من بدء الدعوة إلى نهايتها ، حيث أهلك الله قومه بالطوفان ، وهو أحد الرسل الكبار من أولي العزم وهم خمسة «نوح ، إبراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وقد شاع الكفر في زمانه وذاع ، واشتهر قومه بعبادة الأوثان ، واكثروا من البغي والظلم والعصيان ، فبعث الله لهم نوحاً عليه السلام وكان من خبرهم مع نبيهم ما قصه الله علينا في القرآن ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ أي فقال لهم : اعبدوا الله وحده ، واتركوا محارمه ، واجتنبوا ماثمه ، وأطيعوني فيما أمرتكم به من طاعة الله ، وترك عبادة الأوثان والأصنام ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي إنكم

اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ^ط لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْصِعَهُمْ فِيءَ آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ إِنَّ فَعَلْتُمْ مَا أَمَرْتُمْ بِهِ ، يَحْوِ اللَّهُ عَنْكُمْ ذُنُوبَكُمْ الَّتِي اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَإِنَّمَا قَالَ ﴿مَنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أَي بَعْضُ ذُنُوبِكُمْ الَّتِي حَصَلَتْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، لِأَنَّ الْإِيمَانَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ مِنَ الذَّنُوبِ لَا مَا بَعْدَهُ^(١) ﴿وَيُؤَخِّرُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَي وَيَمِدُّ فِي أَعْمَارِكُمْ إِنْ أَطَعْتُمْ رَبَّكُمْ ، إِلَى وَقْتٍ مُّقَدَّرٍ وَمَقْرَرٍ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى ، مَعَ التَّمَتُّعِ بِالْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ ، وَالْعَيْشِ الرَّغِيدِ قَالَ الْمَفْسُورُونَ : الْمُرَادُ بِتَأْخِيرِ الْأَجَلِ هُوَ التَّأْخِيرُ بِلَا عَذَابٍ ، أَي يَمُهِلُهُمْ فِي الدُّنْيَا بَدُونَ عَذَابٍ إِلَى انْتِهَاءِ أَجَالِهِمْ ، وَأَمَّا الْعَمْرُ فَهُوَ مَحْدُودٌ لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وَهَذَا قَالَ بَعْدَهُ ﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ أَي إِنْ عَمِرَ الْإِنْسَانُ عِنْدَ اللَّهِ مَحْدُودٌ ، لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ ، وَإِنَّمَا أُضِيفَ الْأَجَلُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَتَبَهُ وَأَثَبَهُ^(٢) ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَي لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ لَسَارِعْتُمْ إِلَى الْإِيمَانِ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أَي قَالَ نُوحٌ بَعْدَ أَنْ بَدَلَ غَايَةَ الْجُهْدِ ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِ الْحَيْلُ : يَا رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي إِلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ ، فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، مِنْ غَيْرِ فِتْوَرٍ وَلَا تَوَانٍ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا﴾ أَي فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي لَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ إِلَّا هَرَبًا ، وَشُرُودًا عَنِ الْحَقِّ ، وَإِعْرَاضًا عَنْهُ . . ثُمَّ وَصَفَ نَفُورَهُمْ وَصُورَ إِعْرَاضِهِمْ أَبْلَغَ تَصْوِيرٍ فَقَالَ ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أَي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ إِلَى الْإِقْرَارِ بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ ، لِيَكُونَ سَبَبًا فِي مَغْفِرَةِ ذُنُوبِهِمْ قَالَ فِي التَّسْهِيلِ : ذَكَرَ الْمَغْفِرَةَ الَّتِي هِيَ سَبَبٌ عَنِ الْإِيمَانِ ، لِيُظْهِرَ قَبْحَ إِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ ، فَإِنَّهُمْ أَعْرَضُوا عَنْ سَعَادَتِهِمْ^(٣) ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ أَي سَدُّوا آذَانَهُمْ لِثَلَا يَسْمَعُوا دُعَوْتِي ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ أَي غَطُّوا رُؤُوسَهُمْ وَوُجُوهَهُمْ بِثِيَابِهِمْ ، لِثَلَا يَسْمَعُوا كَلَامِي أَوْ يَرُونِي قَالَ فِي الْبَحْرِ : وَالظَّاهِرُ أَنَّ ذَلِكَ حَقِيقَةٌ ، سَدُّوا مَسَامِعَهُمْ حَتَّى لَا يَسْمَعُوا مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ ، وَتَغَطُّوا بِثِيَابِهِمْ حَتَّى لَا يَنْظُرُوا إِلَيْهِ ، كَرَاهَةً وَبَغْضًا مِنْ سَمَاعِ النَّصِيحِ وَرُؤْيَةِ النَّاصِحِ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كِنَايَةً عَنِ الْمُبَالِغَةِ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَمَّا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ ، فَهَمَّ بِمَنْزِلَةٍ مِنْ سَدِّ سَمْعِهِ ، وَمَنْعَ بَصَرِهِ^(٤) ﴿وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ أَي وَاسْتَمَرُّوا عَلَى الْكُفْرِ وَالطَّغْيَانِ ، وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ الْإِيمَانِ اسْتِكْبَارًا عَظِيمًا ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى فِرَاطِ عِنَادِهِمْ ، وَغُلُوبِهِمْ فِي الضَّلَالِ ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أَي دَعَوْتُهُمْ عَلَنًا عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ ، مَجَاهِرًا بِدُعَوْتِي لَهُمْ دُونَ خَوْفٍ أَوْ تَحْفِظٍ ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أَي أَخْبَرْتُهُمْ سِرًّا وَعَلَنًا ، خَفِيَّةً وَجَهْرًا ، وَسَلَكْتُ مَعَهُمْ كُلَّ طَرِيقٍ فِي الدَّعْوَةِ إِلَيْكَ قَالَ الْمَفْسُورُونَ : وَالْعَطْفُ بِشَمِّ يَشْعُرُ بِأَنَّ الْإِعْلَانَ وَالْإِسْرَارَ الْأَخِيرِينَ ، كَانَا طَرِيقَةً ثَالِثَةً سَلَكَهَا نُوحٌ فِي الدَّعْوَةِ ، غَيْرَ طَرِيقَةِ السَّرِّ الْمَحْضَةِ ، وَغَيْرِ

(١) هذا ما رجحه أبو حيان في البحر ، واختار الطبري أن «من» ليست للتبعيض وإنما هي بمعنى «عن» أي يغفر لكم عن ذنوبكم بمعنى يغفر لكم جميع الذنوب ، والأول أرجح .

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٢٤٩ / ٤ (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١٤٩ / ٤ (٤) البحر المحيط ٣٣٨ / ٨

أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾

طريقة الجهر المحضه ، فكان في الطريقة الثالثة يعلن لهم الدعوة مرة حيث يصلح الإعلان ، ويسرها لهم أخرى حيث يتوقع نفع الإسرار ، ثم وضع ما وعظهم به سرًا وعلانية فقال ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارًا﴾ أي آمنوا بالله وتوبوا عن الكفر والمعاصي ، فإن ربكم تواب رحيم ، يغفر الذنب ويقبل التوب ﴿يرسل السماء عليكم مدرارًا﴾ أي ينزل المطر عليكم غزيراً متتابعاً ، شديد الانسكاب ﴿ويمدكم بأموالٍ وبنين﴾ أي يكثر أموالكم وأولادكم ﴿ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ أي ويجعل لكم الحدائق الفسيحة ، ذات الأشجار المظلة المثمرة ، ويجعل لكم الأنهار تجري خلالها . . . أطمعهم نوح عليه السلام بالحصول على بركات السماء وبركات الأرض ، إن هم آمنوا بالله الذي بيده مفاتيح هذه الخزائن ، وأتاهم من طريق القلب لتحريك العواطف ، ولبيان أن ما هم فيه من انحباس الأمطار ، وما حرموه من الرزق والذرية ، إنما سببه كفرهم بالله الذي بيده وحده إرسال المطر ، وإغداق الرزق ، والإمداد بالأموال والبنين ، وأنه لا ينبغي لهم أن يكفروا بهذا الإله القادر ، ويعبدوا آلهة أخرى اخترعوها ، لا تضر ولا تنفع ، ثم عاد فهز نفوسهم هزاً ، وعطفها نحو الإيمان بأسلوب آخر من أساليب البيان فقال ﴿مالكم لا ترجون لله وقاراً﴾ أي ما لكم أيها القوم لا تخافون عظمة الله وسلطانه ، ولا ترهبون له جانباً !! قال ابن عباس : أي ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته (١) ! ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ أي وقد خلقكم في أطوار مختلفة ، وأدوار متباينة ، طوراً نطفة ، وطوراً علقة ، وطوراً مضغة ، إلى سائر الأحوال العجيبة ، فتبارك الله أحسن الخالقين . . ثم نبههم إلى دلائل القدرة والوحدانية ، منبثة في هذا الكون الفسيح فقال ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً﴾ أي ألم تشاهدوا يا معشر القوم عظمة الله وقدرته ، وتظنوا نظر اعتبار ، وتفكر وتدبر ، كيف أن الله العظيم الجليل خلق سبع سموات سماء فوق سماء ، متطابقة بعضها فوق بعض ، وهي في غاية الإبداع والإيقان !! ﴿وجعل القمر فيهن نورا﴾ أي وجعل القمر في السماء الدنيا ، منوراً لوجه الأرض في ظلمة الليل قال الإمام الفخر : القمر في السماء الدنيا وليس في السموات بأسرها ، وهذا كما يقال : السلطان في العراق ليس المراد ان ذاته حاصلة في كل أنحاءها ، بل إن ذاته في حيز من جملة أنحاء العراق ، فكذا ههنا (٢) وقال في البحر : والقمر في السماء الدنيا ، وصح كون السموات ظرفاً للقمر لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأ المظروف ، تقول زيد في المدينة وهو في جزء منها (٣) ﴿وجعل الشمس سراجاً﴾ أي وجعل الشمس مصباحاً مضيئاً يستضيء به أهل الدنيا كما

(١) تفسير الطبري ٥٩/٢٩ (٢) التفسير الكبير للرازي ١٤٠/٣٠ (٣) البحر المحيط ٣٤٠/٨ أقول : ليس ثمة نص صريح على أن القمر داخل السموات إلا هذا النص وقد عرفت تأويله ، وإذا كان القمر أقرب الكواكب إلى الأرض ، وثبت بالنص القاطع أن الله تعالى جعل الكواكب زينة للسماء ، وجعلها في السماء الدنيا ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ فإنه لا يستبعد أن يصل الناس إلى القمر ، لأنه دون =

وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ
بَسَاطًا ﴿٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿١٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهِمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ
إِلَّا خَسَارًا ﴿١١﴾

يستضيء الناس بالسراج في بيوتهم ، ولما كان نور الشمس أشد ، وأتم ، وأكمل في الانتفاع من نور القمر ،
عبر عن الشمس بالسراج لأنه يضيء بنفسه ، وعبر عن القمر بالنور لأنه يستمد نوره من غيره ، ويؤيده ما
تقرر في علم الفلك من أن نور الشمس ذاتي فيها ، ونور القمر عرضي مكتسب من نورها ، فسبحان من
أحاط بكل شيء علماً ﴿١٠﴾ واللّه أنبتكم من الأرض نباتاً بعد أن ذكر دليل الأفاق ، ذكر هنا دليل الأنفس ،
وذلك لأن في ذكر هذه الأمور ، دلالة واضحة على عظمة الله ، وقدرته وباهر مصنوعاته والمعنى خلقكم
وأنشأكم من الأرض كما يخرج النبات ، وسلّمكم من تراب الأرض كما يسئل النبات منها قال المفسرون : لما
كان إخراجهم وإنشأؤهم إنما يتم بتناولهم عناصر الغذاء الحيوانية والنباتية المستمدة من الأرض ، كانوا من
هذه الجهة مشابهي للنباتات التي تنمو بامتصاص غذائها من الأرض ، فلذا سمي خلقهم وإنشاءهم
إنباتاً ، أو يكون ذلك إشارة إلى خلق آدم حيث خلق من تراب الأرض ، ثم جاءت منه ذريته ، فصح
نسبتهم إلى أنهم أنبتوا من الأرض ^(١) ﴿١٠﴾ ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً أي يرجعكم إلى الأرض بعد
موتكم فتدفنون فيها ، ثم يخرجكم منها يوم البعث والحشر للحساب والجزاء ، وأكدّه بالمصدر ﴿إخراجاً﴾
ليبين أن ذلك واقع لا محالة ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم
تارة أخرى﴾ ﴿١١﴾ واللّه جعل لكم الأرض بساطاً أي جعلها فسيحة ممتدة ممهدة لكم ، تتقلبون عليها كما
يتقلب الرجل على بساطه قال في التسهيل : شبه الأرض بالبساط في امتدادها واستقرار الناس عليها ،
وأخذ بعضهم من الآية أنها غير كروية ، وفي ذلك نظر ^(٢) وقال الألوسي : وليس في الآية دلالة على أن
الأرض مبسوطة غير كروية ، لأن الكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحاً ، ثم إن اعتقاد الكرية
أو عدمها ليس بلازم في الشريعة ، لكن كريتها كالأمر اليقيني ، ومعنى جعلها بساطاً أي تتقلبون عليها
كالبساط ^(٣) ﴿١١﴾ لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً أي لتسلكوا في الأرض طرقاً واسعة في أسفاركم ، وتنقلكم في
أرجائها . . ولما أصروا على العصيان ، وقابلوه بأقبح الأقوال والأفعال ، حكى عنهم ما قصه القرآن ﴿قال
نوح رب إنهم عصوني﴾ أي إنهم بالغوا في تكذيبي وعصيان أمري ﴿واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا
خساراً﴾ أي واتبعوا اغنياءهم ورؤساءهم ، الذين أبطرتهم الأموال والأولاد ، فهلكوا وخسروا سعادة

= السماء الأولى ، كما وصلت إليه المركبة الفضائية في زماننا وكما أثبت العلم الحديث إمكان ذلك ، فليس ثمة محذور ديني على غزو الكواكب
والفضاء ، وأما الوصول إلى السماء واختراقها فذلك أمر مستحيل ودونه خطر القتاد لأن الله تعالى يقول : ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم
عن آياتها معرضون﴾ .

(١) انظر ما كتبه العلامة أبو حيان في تفسيره « البحر المحيط » / ٨ / ٣٤٠ وتفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربي ص ١٣١ . (٢) التسهيل
لعلوم التنزيل ٤ / ١٥١ . (٣) روح المعاني ٢٩ / ٧٦ وانظر ما كتبناه حول كروية الأرض في سورة لقمان من هذا التفسير .

وَمَكْرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٤﴾
 وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٥﴾ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا
 لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٦﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٧﴾ إِنَّكَ إِنْ
 تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٨﴾

الدارين ، فصاروا أسوة لهم في الخسار ﴿ومكروا مكرًا كَبِيرًا﴾ أي ومكر بهم الرؤساء مكرًا عظيمًا منتهيًا في الكبر قال الألوسي : ﴿وكَبِيرًا﴾ مبالغة في الكبر أي كبيراً في الغاية ، وذلك احتياهم في الدين ، وصددهم الناس عنه ، وإغراؤهم وتحريضهم على أذية نوح عليه السلام ^(١) ﴿وقالوا لا تذرُنْ آلهتكم﴾ أي لا تركوا عبادة الأوثان والأصنام ، وتعبدوا رب نوح ﴿ولا تذرُنْ ودًّا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾ أي ولا تركوا - على وجه الخصوص - هذه الأصنام الخمسة - ودًّا ، وسواعًا ، ويغوث ، ويعوق ، ونسراً قال الصاوي : وهذه أسماء أصنام كانوا يعبدونها ، وكانت أكبر أصنامهم وأعظمهم عندهم ، ولذا خصوها بالذكر ^(٢) ، وهذا من شدة كفرهم ، وفرط تعنتهم في المكر والاحتيال ، فقد كانوا يلبسون ثوب المنتصح المخلص ، ويسلكون في تثبيت الضعفاء على عبادة الآباء شتى الأساليب في المكر والخداع ﴿وقد أضلوا كثيراً﴾ أي وقد أضل كبراًؤهم خلقاً وناساً كثيراً ، بما زينوا لهم من طرق الغواية والضلال ، ثم دعا عليهم بالضلال فقال ﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً﴾ أي ولا تزدهم يارب على طغيانهم وعدوانهم ، إلا ضلالاً فوق ضلالهم قال المفسرون : دعا عليهم لما يئس من إيمانهم بإخبار الله له بقوله ﴿لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ فاستجاب الله دعاءه وأغرقهم ، ولهذا قال تعالى ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً﴾ أي من أجل ذنوبهم وإجرامهم ، وإصرارهم على الكفر والطغيان ، أغرقوا بالطوفان وأدخلوا النيران قال في التسهيل : وهذا من كلام الله تعالى إخباراً عن أمرهم ، ﴿وما﴾ في ﴿مما﴾ زائدة للتأكيد ، وإنما قدم هذا المجرور للتأكيد أيضاً ، ليبين أن إغراقهم وإدخالهم النار إنما كان بسبب خطاياهم وهي الكفر وسائر المعاصي ^(٣) ﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾ أي لم يجدوا من ينصرهم أو يدفع عنهم عذاب الله قال أبو السعود : وفيه تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله تعالى ، وأنها غير قادرة على نصرهم ، وتهكم بهم ^(٤) ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ أي لا تترك أحداً على وجه الأرض من الكافرين قال في التسهيل : و﴿ديار﴾ من الأسماء المستعملة في النفي العام يقال : ما في الدار ديار أي ما فيها أحد ^(٥) . . . ثم علل ذلك بقوله ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك﴾ أي إنك إن أبقيت منهم أحداً ، أضلوا عبادك عن طريق الهدى ﴿ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ أي ولا يأتي من أصلابهم إلا كل فاجر وكافر قال الإمام الفخر : فإن قيل : كيف عرف نوح ذلك ؟ قلنا بالاستقراء ، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فعرف

(١) روح المعاني ٧٦/٢٩ (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٢٥١/٤

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١٥١/٤ (٤) تفسير أبي السعود ١٩٩/٥ (٥) التسهيل ١٥١/٤

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٦٨﴾

طباعهم وجربهم ، وكان الرجل ينطلق بابنه إليه ويقول : يا بني إحذر هذا فإنه كذاب ، وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك ، فلذلك قال ﴿ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ . . . ولما دعا على الكفار أعقبه بالدعاء للمؤمنين فقال ﴿رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات﴾ بدأ بنفسه ثم بأبويه ، ثم عمم لجميع المؤمنين والمؤمنات ، ليكون ذلك أبلغ وأجمع ﴿ولا تزد الظالمين إلا تباراً﴾ أي ولا تزد يا رب من جحد آياتك وكذب رسلك ، إلا هلاكاً وخساراً في الدنيا والآخرة .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين ﴿أعلنت . . وأسرت﴾ وبين ﴿جهاراً . . وإسراراً﴾ وبين ﴿ليلاً . . ونهاراً﴾ وبين ﴿يعيدكم . . ويخرجكم﴾

٢ - المجاز المرسل ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم﴾ المراد رؤوس الأصابع فهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء .

٣ - الاستعارة التبعية ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾ شبه إنشاءهم وخلقهم في أدوار بالنبات الذي تخرجه الأرض ، واشتق من لفظ النبات أنبتكم على طريق الاستعارة التبعية .

٤ - ذكر المصدر للتأكيد مثل ﴿ويخرجكم إخراجاً﴾ و﴿أسرت لهم إسراراً﴾ و﴿استكبروا استكباراً﴾ ويسمى هذا في علم البديع بالإطناب .

٥ - ذكر الخاص بعد العام ﴿وقالوا لا تذرنا أهنتكم ولا تذرنا ودأ ولا سواعاً . .﴾ الآية وعكسه ذكر العام بعد الخاص ﴿رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات﴾ وكلاهما من باب الإطناب ، وهو من المحسنات البديعية .

٦ - السجع المرصع مراعاة لرؤوس الآيات مثل ﴿مدراراً ، أنهاراً ، وقاراً ، أطواراً﴾ الخ .

فائدة : استدل العلماء على عذاب القبر بقوله تعالى ﴿عما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً﴾ قالوا : المراد بها نار القبر وعذابه ، لأنه تعالى عطف بالفاء ، والفاء تفيد الترتيب مع التعقيب ، ونار الآخرة لم يذوقوها بعد ، فدل على أن المراد عذاب القبر، وهو استدلال لطيف .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة نوح »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الجن مكية. وهي تعالج أصول العقيدة الإسلامية «الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء» ومحور السورة يدور حول الجن ، وما يتعلق بهم من أمور خاصة ، بدءاً من استماعهم للقرآن ، إلى دخولهم في الإيمان ، وقد تناولت السورة بعض الأنباء العجيبة الخاصة بهم ، كاستراقهم للسمع ، ورميهم بالشهب المحرقة ، واطلاعهم على بعض الأسرار الغيبية ، إلى غير ذلك من الأخبار المثيرة .

* ابتدأت السورة الكريمة بالإخبار عن استماع فريق من الجن للقرآن ، وتأثرهم بما فيه من روعة البيان ، حتى آمنوا به فور استماعه ودعوا قومهم إلى الإيمان ﴿قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً . . .﴾ الآيات .

* ثم انتقلت للحديث عن تمجيدهم وتنزيههم لله جل وعلا ، وإفرادهم له بالعبادة ، وتسفيهم لمن جعل لله ولداً ﴿وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبةً ولا ولداً﴾ وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً . . .﴾ الآيات .

* ثم تحدثت السورة عن استراق الجن للسمع ، وإحاطة السماء بالحرس من الملائكة ، وإرسال الشهب على الجن بعد بعثة رسول الله ﷺ ، وتعجبهم من هذا الحدث الغريب ﴿وأننا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً﴾ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً . . .﴾ الآيات .

* ثم تحدثت السورة عن انقسام الجن إلى فريقين : مؤمنين ، وكافرين ومال كل من الفريقين ﴿وأننا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً﴾ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾ .

* ثم انتقلت للحديث عن دعوة رسول الله ﷺ ، وعن التفاف الجن حوله حين سمعوه يتلو القرآن ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لئداً﴾ قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً﴾ .

* ثم أمرت الرسول عليه السلام بأن يعلن استسلامه وخضوعه لله ، ويفرده جلّ وعلا بإخلاص العمل ، وأن يتبرأ من الحَوْلِ والطَّوْلِ ﴿قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً﴾ * قل إنني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً * قل إنني لن يجيرني من الله أحداً ، ولن أجد من دونه ملتحداً .

* وختمت السورة ببيان اختصاص الله جل وعلا بمعرفة الغيب ، وإحاطته بعلم جميع ما في الكائنات ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً﴾ * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رشداً . . . ﴿الآيات إلى آخر السورة الكريمة .

قال الله تعالى : ﴿قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن . . إلى . . وأحصى كل شيء عدداً﴾
من آية (١) إلى آية (٢٨) نهاية السورة الكريمة

اللغز : ﴿الرشد﴾ الحق والصواب ﴿جدُّ﴾ الجد لغة : العظمة والجلال والسلطان يقال : جد فلان في عيني أي عظم وجل ، والجد : الحظ ، وأبو الأب ﴿حرسا﴾ جمع حارس أو اسم جمع كخدم يقال : حرس وحراس ، والحارس : الحافظ للشيء يرعاه ويرقبه ﴿قدداً﴾ متفرقة مختلفة جمع قدة قال الشاعر : «إذ هم طرائق في أهوائهم قدد»^(١) ﴿غدقاً﴾ كثيراً واسعاً ﴿القاسطون﴾ الجائرون عن طريق الحق ، يقال قسط الرجل إذا جار ﴿صعداً﴾ شاقاً يعلو الإنسان ويغلبه فلا يطيقه يقال : فلان في صعد من أمره أي في مشقة ﴿يسلكه﴾ يدخله ﴿لبدأ﴾ متراكمين بعضهم فوق بعض يقال : تلبد الشيء أي تراكم بعضه فوق بعض ﴿ملتحداً﴾ ملجأ وحرزاً يتحصن به الإنسان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾

التفسير : ﴿قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن﴾ أي قل يا محمد لقومك : إن ربي أوحى إلي أن جماعة من الجن استمعوا لتلاوتي للقرآن ، فأمنوا به وصدقوه وأسلموا ﴿فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجبا﴾ أي فقالوا لقومهم حين رجعوا إليهم : إنا سمعنا قرآناً عجيباً ، مؤثراً في حسن نظمه ، وبلاغة أسلوبه ، وما حواه من بديع الحكم والعظات و﴿عجبا﴾ مصدر وصف به للمبالغة قال المفسرون : استمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن في صلاة الفجر ، ولم يشعر بهم ولا باستماعهم ، وإنما أخبر به الرسول بواسطة الوحي^(٢) بدليل قوله ﴿قل أوحى إلي﴾ ويؤيده ما قصه الله على نبيه في سورة الأحقاف من خبرهم ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى

(١) البحر المحيط ٣٤٤/٨ (٢) هذا قول ابن عباس ويدل عليه ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس « ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم . . الحديث وروي عن ابن مسعود خلفه .

يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾
 وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ
 رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ
 قَوْمَهُمْ مُنذِرِينَ ﴿٧﴾ والغرض من الإخبار عن استماع الجن ، توبيخ وتقريع قريش والعرب في كونهم تباطثوا
 عن الإيمان ، إذ كانت الجن خيراً منهم وأسرع إلى الإيمان ، فإنهم من حين ما سمعوا القرآن استعظموه
 وآمنوا به ورجعوا إلى قومهم منذرين ، بخلاف العرب الذين نزل بلسانهم ، فإنهم كذبوا واستهزءوا وهم
 يعلمون أنه كلام معجز ، وأن محمداً أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وشتان ما بين موقف الإنس والجن !!
 ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ أي يهدي هذا القرآن إلى الحق والرشاد والصواب فصدقنا به ﴿ولن نشرك
 بربنا أحداً﴾ أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الشرك ، ولن نجعل لله شريكاً بعد اليوم من خلقه قال
 الخازن : وفي الآية دليل على أن أولئك النفر كانوا مشركين ^(١) ﴿وأنه تعالى جدُّ ربنا﴾ أي تعالت عظمة
 ربنا وجلاله ﴿ما اتخذ صاحبة ولا ولداً﴾ أي ليس له زوجة ولا ولد ، لأن الزوجة تتخذ للحاجة ، والولد
 للاستئناس ، والله تعالى منزه عن النقائص ﴿وأنه كان يقول سفيهننا على الله شططاً﴾ أي وأن الأحق
 الجاهل فينا كان ينسب إلى الله ما لا يليق بجلاله وقديسيته ويقول قولاً شططاً بعيداً عن الحق وحده الاعتدال
 قال مجاهد : السفيه هو إبليس دعاهم إلى عبادة غير الله ^(٢) ﴿وأنا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله
 كذباً﴾ أي كنا نظن أن أحداً لن يكذب على الله تعالى لا من الإنس ولا من الجن في نسبة الصاحبة والولد
 إليه ، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك ^(٣) قال الطبري : وإنما أنكر
 هؤلاء النفر من الجن أن تكون علمت أن أحداً يجترىء على الكذب على الله لما سمعت القرآن ، لأنهم قبل
 أن يسمعه وقبل أن يعلموا تكذيب الله للزاعمين لله الصاحبة والولد كانوا يحسبون أن إبليس صادق ،
 فلما سمعوا القرآن أيقنوا أنه كان كاذباً في ذلك فسموه سفيهاً ^(٤) ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون
 برجال من الجن﴾ أي كان خلائق من الإنس يستجرون برجال من الجن ﴿فزادوهم رهقاً﴾ أي فزاد
 الإنس الجن باستعاذتهم بهم إثماً وطغياناً ، وعتواً وضلالاً قال أبو السعود : كان الرجل إذا أمسى في واد قفر
 وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه - يريد الجن وكبيرهم - فإذا سمعوا بذلك
 استكبروا وقالوا : سدنا الإنس والجن ، فزاد الرجال الجن تكبراً وعتواً ، فذلك قوله ﴿فزادوهم رهقاً﴾ ^(٥)
 ﴿وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً﴾ أي وأن كفار الإنس ظنوا كما ظننتم يا معشر الجن ، أن
 الله لن يبعث أحداً بعد الموت ، فقد أنكروا البعث كما أنكروا الموت ^(٦) ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها

(١) تفسير الخازن ٤/١٥٨ (٢) تفسير القرطبي ٩/١٩

(٣) هذا خلاصة رأي ابن كثير نقلناه مع شيء من التصرف (٤) تفسير الطبري ٦٨/٢٩ (٥) تفسير أبي السعود ٥/٢٠٠

(٦) هذا هو الظاهر من سياق الآيات أنه من كلام الجن لقومهم وهو اختيار الطبري ، واختار بعض المفسرين أنه من الوحي الذي أوحاه الله إلى رسوله وأن المعنى : وأن الجن كانوا ينكرون البعث كإنكاركم يا معشر قريش ، فلما سمعوا القرآن اهتدوا ، فهلا اهتديتم ؟

أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِلْتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشَهَابًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمَعِ ﴿٩﴾ فَمَنْ يَسْتَمِعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصْدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ بِنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشْدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا ظَنْنَا أَنْ لَنْ نَعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَأَمْنَابِهِ ؕ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ؕ فَلَا يَخَافُ بَحْسَ وَلَا رَهَقًا ﴿١٤﴾

ملئت حرساً شديداً وشهاباً ﴿٧﴾ يقول الجن : وأنا طلبنا بلوغ السماء لاستماع كلام أهلها ، فوجدناها قد ملئت بالملائكة الكثيرين الذين يجرسونها ، وبالشهب المحرقة التي تقذف من يحاول الاقتراب منها ﴿٨﴾ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ﴿٩﴾ أي كنا قبل بعثة محمد نظرق السماء لنستمع إلى أخبارها ونلقيها إلى الكهان ﴿١٠﴾ فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً أي فمن يحاول الآن استراق السمع ، يجد شهاباً ينتظره بالمرصاد بحرقه ويهلكه ﴿١١﴾ وأنا لا ندري أشراً أريد بمن في الأرض ﴿١٢﴾ أي لا نعلم نحن معشر الجن ما الله فاعل بسكان الأرض ، ولا نعلم هل امتلاء السماء بالحرس والشهب لعذاب يريد الله أن ينزله بأهل الأرض ؟ أم أراد بهم ربهم رشداً أي أم لخير يريد الله بهم ، بأن يبعث فيهم رسولاً مرشداً يرشدهم إلى الحق ؟ وهذا من أدب الجن حيث نسبوا الخير إلى الله ، ولم ينسبوا الشر إليه فقالوا ﴿١٣﴾ أشراً أريد بمن في الأرض ؟ أم أراد بهم ربهم رشداً ؟ قال ابن كثير : وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك ، وهذا هو الذي حملهم على تطلب السبب ، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغارها ، فرأوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة ، فعرفوا أن هذا هو الذي حفظت من أجله السماء ، فدنوا منه حرصاً على سماع القرآن ثم أسلموا ﴿١٤﴾ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك أي منا قوم صالحون أبرار ، عاملون بما يرضي الله ، ومنا قوم ليسوا صلحاء قال في التسهيل : وأرادوا بقولهم ﴿دون ذلك﴾ أي الذين ليس صلاحهم كاملاً ، أو الذين ليس لهم صلاح ﴿١٥﴾ كنا طرائق قدداء أي كنا فرقاً شتى ، ومذاهب مختلفة ، فمننا الصالح ومننا الطالح ، وفينا التقى والشقي ﴿١٦﴾ وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً أي علمنا وأيقنا أن الله قادر علينا ، وأنا في قبضته وسلطانه أينما كنا ، لن نعجزه بهرب ، ولن نتفلت من عقابه إذا أراد بنا سوءاً قال القرطبي : أي علمنا بالاستدلال والتفكر في آيات الله ، أنا في قبضته وسلطانه لن نفوته بهرب ولا غيره ﴿١٧﴾ . . ثم عادوا إلى شكر الله تعالى على نعمة الإيمان واهتدائهم بسماع آيات القرآن فقالوا ﴿١٨﴾ وأنا لما سمعنا الهدى آمناً به أي لما سمعنا القرآن العظيم آمناً به وبمن أنزله ، وصدقنا محمداً ﷺ في رسالته ﴿١٩﴾ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً أي فمن يؤمن بالله تعالى فلا يخشى نقصاناً من حسناته ولا ظملاً بزيادة سيئاته قال ابن عباس : لا يخاف أن ينقص من حسناته ، ولا أن يزداد في سيئاته ، لأن البخس

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْئَلُونَ مَنْ أضعفُ ناصراً وأقلُّ عدداً ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا

ينقضون عليه لاستماع القرآن^(١) ، وإنما وصفه تعالى بالعبودية ، ولم يذكره باسمه زيادة في تشریفه وتكرمه عليه السلام ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين طلبوا منك أن ترجع عن دينك : إنما أعبد ربي وحده ، ولا أشرك مع الله غيره بشراً ولا صنماً قال الصاوي : سبب نزولها أن كفار قريش قالوا له : إنك جئت بأمر عظيم ، وقد عادت الناس كلهم ، فارجع عن هذا فنحن نجريك وننصرك فنزلت^(٢) ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي قل يا محمد في محاجة هؤلاء : إني لا أقدر أن أدفع عنكم ضراً ، ولا أجلب لكم نفعاً ، وإنما الذي يملك هذا هو الله رب العالمين ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أي قل لهم أيضاً : إنه لن ينقذني من عذاب الله أحد إن عصيته ، ولن أجدي نصيراً ولا ملجأً منه ، فكيف أجيبكم إلى ما طلبتم ؟ قال قتادة : ﴿ملتحداً﴾ ملجأً ونصيراً^(٣) ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ أي لا أجدي ملجأً إلا إذا بلغت رسالة ربي ، ونصحتكم وأرشدتكم كما أمرني الله فحينئذ يجيرني ربي من العذاب كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ قال ابن كثير: أي لا يجيرني منه ويخلصني إلا بإبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها علي^(٤) ﴿ومَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ أي ومن كذب الله ورسوله ، ولم يؤمن بلقاء الله ، وأعرض عن سماع الآيات وتدبر الرسالات ، فإن جزاءه جهنم لا يخرج منها أبداً وإنما جمع ﴿خالدين﴾ حملاً على معنى ﴿مَنْ﴾ لأن لفظها مفرد ومعناها جمع ﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون﴾ أي حتى إذا رأى المشركون ما يوعدون من العذاب ﴿فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً﴾ أي فسيعلمون حينئذ من هم أضعف ناصراً ومعيناً ، وأقل نفراً وجنداً ؟ هل هم ؟ أم المؤمنون الموحدون ؟ ولا شك أن الله ناصر عباده المؤمنين ، فهم الأقوى ناصراً والأكثر عدداً ، لأن الله معهم وملائكته الأبرار ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ ؟ أي قل لهم يا محمد : ما أدري هل هذا العذاب الذي وعدتم به قريب زمنه ﴿أم يجعل له ربي أمداً﴾ أي أم هو بعيد له مدة طويلة وأجل محدود ؟ قال المفسرون : كان ﷺ كلما خوف المكذبين نار جهنم ، وحذرهم أهوال الساعة ، أظهروا الاستخفاف بقوله ، وسأله متى هذا العذاب ؟ ومتى تقوم هذه الساعة ؟ فأمره تعالى أن يقول لهم : لا أدري وقت ذلك ، هل هو قريب أم بعيد ؟ ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً﴾ أي هو جل وعلا عالم بما غاب عن الأبصار ، وخفي عن الأنظار ، فلا

(١) البحر المحيط ٨/٣٥٣ (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٢٥٧ (٣) تفسير الطبري ٢٩/٧٦ (٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٥٦٠

مِنْ أَرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يُسَلِّكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

يطلع على غيبه أحداً من خلقه ﴿إلا من ارتضى من رسول﴾ أي إلا من اختاره الله وارتضاه لرسالته ونبوته ، فيظهره الله على ما يشاء من الغيب قال المفسرون : لا يطلع الله على غيبه أحداً إلا بعض الرسل ، فإنه يطلعهم على بعض الغيب ، ليكون معجزة لهم ، فإن الرسل مؤيدون بالمعجزات ، ومنها الإخبار عن بعض المغيبات ، كما قال عن عيسى ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم﴾ ﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ أي فإنه تعالى يرسل من أمام الرسول ومن خلفه ، ملائكة وحرساً يحفظونه من الجن ، ويجرسونه في ضبط ما يليق به تعالى إليه من علم الغيب قال الطبري : أي فإنه تعالى يرسل من أمامه ومن خلفه حرساً وحفظاً يحفظونه من الجن^(١) ﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ أي ليعلم الله - علم ظهور^(٢) فإنه تعالى عالم بما كان وما يكون - أن رسله الكرام قد بلغوا عنه وحيه كما أوحاه إليهم محفوظاً من الزيادة والنقصان قال ابن كثير : المعنى أن الله يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته ، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، مع العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة^(٣) ﴿وأحاط بما لديهم﴾ أي أحاط علمه بما عند الرسل ، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ﴿وأحصى كل شيء عدداً﴾ أي علم تعالى علم ضبط واستقصاء جميع الأشياء ، المنبئة في الأرضين والسموات من القطر ، والرمل ، وورق الأشجار ، وزبد البحار ، فلا يغيب عنه شيء ، ولا يخفى عليه أمر ، فكيف لا يحيط علماً بما عند رسله من رسالاته ووحيه ، التي أمرهم بتبليغها إلى خلقه ؟ وكيف يمكن لرسله أن يفرطوا في تلك الرسالات ، أو يزيدوا أو ينقصوا أو يحرفوا فيها أو يغيروا ، وهو تعالى محيط بها ، محص لجميع الأشياء جليلها وحقيرها ؟ ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الوصف بالمصدر للمبالغة ﴿قرأنا عجباً﴾ أي عجباً في حسن إيجازه ، وروعة إعجازه
- ٢ - طباق السلب ﴿فأما به ولن نشرك بربنا أحداً﴾ لأن الإيمان نفي للشرك
- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿نقعد منها مقاعد للسمع﴾ لما بين اللفظتين من الاشتقاق اللطيف
- ٤ - الأسلوب الرفيع بنسبة الخير إلى الله ، دون الشر أبدأ مع الخالق ﴿وأنا لا ندري أشر أريد بمن في

(١) تفسير الطبري ٧٧/٢٩ .

(٢) قال المفسرون : ما جاء في القرآن من تعليل لعلم الله كقوله ﴿إلا لنعلم من يتبع الرسول﴾ وقوله ﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء﴾ فإنما هو علم ظهور لا علم بقاء ، فإنه تعالى عالم بالأشياء أولاً وإنما يظهر علمه لعباده (٣) مختصر ابن كثير ٥٦١/٣

الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً؟ وبين لفظ « الشر » و « الرشد » طباقاً في المعنى .

٥ - الطباق بين ﴿ الإِنْس . . والجن ﴾ وبين ﴿ ضراً . . ورشداً ﴾ وبين ﴿ المسلمون والقاسطون ﴾

٦ - الاستعارة اللطيفة ﴿ كنا طرائق قدداً ﴾ استعارة الطرائق للمذاهب المختلفة ، وهو من لطيف الاستعارة .

٧ - توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات مثل ﴿ أحداً ، ولدأ ، رصداً ، رشداً ، صعداً ، عدداً ﴾ الخ وهو ما يسمى في علم البديع بالسجع المرصع والله أعلم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الجن »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة المزمل مكية ، وهي تتناول جانباً من حياة الرسول الأعظم ﷺ ، في تبته ، وطاعته ، وقيامه الليل ، وتلاوته لكتاب الله عز وجل ، ومحورُ السورة يدور حول الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولهذا سميت « سورة المزمل » .

* ابتدأت السورة الكريمة بنداء الرسول ﷺ نداءً شفيفاً لطيفاً، ينمُّ عن لطف الله عز وجل ورحمته بعبده ورسوله محمد ﷺ الذي كان يجهد نفسه في عبادة الله ابتغاء مرضاته ﴿ يا أيها المزمل ﴾ * قم الليل إلا قليلاً * نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً * .

* ثم تناولت السورة موضوع ثقل الوحي الذي كلف الله به رسوله ، ليقوم بتبليغه للناس بجد ونشاط ، ويستعين على ذلك بالاستعداد الروحي بإحياء الليل في العبادة ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ * إن ناشئة الليل هي أشدُّ وطأً وأقوم قيلاً * إن لك في النهار سبْحاً طويلاً * .

* وأمرت السورة الرسول عليه السلام بالصبر على أذى المشركين ، وهجرهم هجراً جميلاً إلى أن

ينتقم الله منهم ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً﴾ وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً .

* ثم توعد الله المشركين بالعذاب والنكال يوم القيامة ، حيث يكون فيه من الهول والفرع ما يشيب له رءوس الولدان ﴿إن لدينا أنكالاً وجحيماً﴾ وطعاماً ذا غصةٍ وعذاباً أليماً * يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً . . . ﴿الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بتخفيف الله عن رسوله وعن المؤمنين من قيام الليل رحمة به وبهم ، ليتفرغ الرسول وأصحابه لبعض شئون الحياة ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك . . .﴾ إلى قوله ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خيرٍ تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها المزمل﴾ قم الليل إلا قليلاً . . . إلى . . . واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ من آية (١) إلى آية (٢٠) نهاية السورة .

اللغة: ﴿المزمل﴾ المتلف بثيابه يقال : تزمل بثوبه أي التف به وتغطى ، وزمل غيره إذا غطاه قال امرؤ القيس : كبير أناسٍ في بجادٍ مزمل^(١) ﴿سبحاً﴾ تصرفاً وتقلباً في مهاتك ، وأصل السبح العوم على وجه الماء ، واستعير للتصرف والتقلب في شئون الحياة ﴿أنكالاً﴾ جمع نكل وهو القيد الثقيل الذي يقيد به المجرم ﴿كثيباً﴾ الكثيب : الرمل المجتمع ﴿مهياً﴾ سائلاً متناثراً منهاراً قال أهل اللغة : المهيل الذي إذا وطأته بالقدم زل من تحتها ، وإذا أخذت أسفله انهال ، وأصله مهبول كمكيل أصله مكيول ﴿وبيلاً﴾ عظيماً شديداً وخيم العاقبة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ

التفسير: ﴿يا أيها المزمل﴾ أي يا أيها المتلف بثيابه ، وأصله المتزمل وهو الذي تلفف وتغطى ، وخطابه ﷺ بهذا الوصف ﴿يا أيها المزمل﴾ فيه تأنيسٌ وملاطفة له عليه السلام قال السهيلي ؛ إن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك معاتبته سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها كقول النبي ﷺ لعلي - حين غاضب فاطمة وقد نام ولصق بجنبه التراب - قم أبا تراب ، إشعاراً بأنه ملاطف له ، وغير عاتب عليه ، والفائدة الثانية : التنبيه لكل متزمل راقد ليله ، ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى ، لأنه الاسم المشتق من الفعل ، يشترك فيه المخاطب ، وكل من اتصف بتلك الصفة^(٢) ، وسبب هذا التزمل ما

قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي
عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾

روي في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما جاءه جبريل وهو في غار حراء - في ابتداء الوحي - رجع إلى خديجة يرجف فؤاده فقال : زملوني ، زملوني ، لقد خشيت على نفسي ، وأخبرها بما جرى^(١) ، فنزلت ﴿يا أيها المزمّل﴾ أي يا أيها الذي تلفف بقطيفته ، واضطجع في زاوية بيته ، وقد أشبه من يؤثر الراحة والسكون ، ويحاول التخلص مما كُلف به من مهمات الأمور ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي دع التزمّل والتلفف ، وانشط لصلاة الليل ، والقيام فيه ساعات في عبادة ربك ، لتستعد للأمر الجليل ، والمهمة الشاقة ، ألا وهي تبليغ دعوة ربك للناس ، وتبصيرهم بالدين الجديد . . ثم وضّح المقدار الذي ينبغي أن يصرفه في عبادة الله فقال ﴿نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ * أو زد عليه ﴿أي قم للصلاة والعبادة نصف الليل ، أو أقل من النصف قليلاً ، أو أكثر من النصف ، والمراد أن تكون هذه الساعات طويلة بحيث لا تقل عن ثلث الليل ، ولا تزيد على الثلثين قال ابن عباس : إن قيام الليل كان فريضة على رسول الله ﷺ لقوله ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ ثم نسخ بقوله تعالى ﴿فاقرأوا ما تيسر منه﴾ وكان بين أول هذا الوجوب ونسخه سنة^(٢) ، وهذه هي السورة التي نسخ آخرها أولها ، حيث رحم الله المؤمنين فأنزل التخفيف عليهم بقوله ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ، ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك . .﴾ الآية ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ أي اقرأ القرآن أثناء قيامك في الليل قراءة تثبت وتؤدّة وتمهل ، ليكون عوناً لك على فهم القرآن وتدبره ، قال الخازن : لما أمره تعالى بقيام الليل أتبعه بترتيل القرآن ، حتى يتمكن المصلي من حضور القلب ، والتفكير والتأمل في حقائق الآيات ومعانيها ، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر بقلبه عظمة الله وجلاله ، وعند ذكر الوعد والوعيد يحصل له الرجاء والخوف ، وعند ذكر القصص والأمثال يحصل له الاعتبار ، فيستنير القلب بنور معرفة الله ، والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني ، فظهر بذلك أن المقصود من الترتيل ، إنما هو حضور القلب عند القراءة^(٣) ، وقد كان رسول الله ﷺ يقطع القراءة حرفاً حرفاً - أي يقرأ القرآن بتمهل ، ويخرج الحروف واضحة - لا يمر بأية رحمة إلا وقف وسأل ، ولا يمر بأية عذاب إلا وقف وتعوذ^(٤) . . ثم بعد أن أمره تعالى باطراح النوم ، وقيام الليل ، وتدبر القرآن وتفهمه ، انتقل إلى بيان السبب في هذه الأوامر الثلاثة ، ذات التكليف الصعب الشاق فقال ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ أي سننزل عليك يا محمد كلاماً عظيماً جليلاً ، له هيبة وروعة وجلال ، لأنه كلام الملك

(١) راجع صحيح البخاري «باب أول نزول الوحي» .

(٢) التفسير الكبير المازي ١٧١/٣ . وإنما كلف رسول الله ﷺ وأصحابه بقيام الليل ، ليكون ذلك حافظاً لهم على الاستعداد الكامل لمجاهدة خصوم الدعوة ، وتربيتهم التربية «الجسمية والروحية» على أكمل الوجوه ، حتى يصبروا على تحمل المشاق والمصاعب ، وتحشم الأهوال والأخطار ، ويستفيدوا من هذه التربية الكريمة ما يجعلهم يتغلبون على كل أمر عسير يعرض لهم ، وقد كان من أثر هذه «التربية الروحية» أن ملك المسلمون مشارق الأرض ومغاربها بجهادهم وصبرهم وتحملهم للأذى في سبيل الله . (٣) تفسير الخازن ٤/١٦٥ .

(٤) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير عن تلاوة الرسول عليه السلام وعن فضائل تلاوة القرآن ٣/٥٦٢ .

إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴿٧٣﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧٤﴾ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ

العلامة قال الإمام الفخر : والمراد من كونه ثقيلاً هو عظم قدره ، وجلالة خطره ، وكل شيء نفس وعظم خطره فهو ثقیل ، وهذا معنى قول ابن عباس ﴿قولاً ثقیلاً﴾ يعني كلاماً عظيماً ، وقيل المراد ما في القرآن من الأوامر والنواهي ، التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين ، ووجه النظم عندي أنه لما أمره بصلاة الليل فكأنه قال : إنما أمرتك بصلاة الليل ، لأننا سنلقي عليك قولاً عظيماً ، ولا بد وأن تصير نفسك مستعدة لذلك القول العظيم ، وذلك بصلاة الليل ، فإن الإنسان إذا اشتغل بعبادة الله في الليلة الظلماء ، وأقبل على ذكره والتضرع بين يديه ، استعدت نفسه لإشراق وجلال الله فيها^(١) أقول : وهذا المعنى لطيف في الربط بين قيام الليل ، وتلاوة القرآن ، فإن الله تعالى كلّف رسوله أن يدعو الناس إلى دين جديد ، فيه تكاليف شاقة على النفس ، وأن يكلفهم العمل بشرائعه وأحكامه ، ولا شك أن مثل هذا التكليف ، يحتاج إلى مجاهدة للنفس ومصابرة ، لما فيه من حملهم على ترك ما ألفوه من العقائد ، ونبذ ما ورثوه من أسلافهم من العادات ، فأنت يا محمد معرضٌ لمناعب كثيرة ، وأخطار جمة في سبيل هذه الدعوة ، وحمل الناس على قبولها ، فكيف يمكنك أن تقوم بهذه المهمة الكبيرة ، وأنت على ما أنت عليه من التزمل والتلف ، والخلود إلى الراحة والسكون ، والبعد عن المشاق ، ومجاهدة النفس بطول العبادة وكثرة التهجد ، ودراسة آيات القرآن دراسة تفهم وتدبر ؟ فانشط من مضجعتك إذاً ، واسهر معظم ليلتك في مناجاة ربك ، استعداداً لتحمل مشاق الدعوة ، والتبشير بهذا الدين الجديد ، ويا لها من لفتة كريمة ، تيقظ لها قلب النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، فشمّر عن ساعد الجد والعمل ، وقام بين يدي ربه حتى تشققت قدماه . . ثم بين تعالى فضل إحياء الليل بالعبادة فقال ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ أي إن ساعات الليل وأوقاته التي فيها التفرغ والصفاء ، وما ينشئه المرء ويحدثه من طاعة وعبادة ، يقوم لها من مضجعه بعد هدأة من الليل ﴿هي أشد وطأً﴾ أي هي أشد على المصلي وأثقل من صلاة النهار ، لأن الليل جعل للنوم والراحة ، فقيامه على النفس أشد وأثقل ، ومن شأن هذه الممارسة الصعبة أن تقوي النفوس ، وتشد العزائم ، وتصلب الأبدان ، ولا ريب أن مصاولة الجاحدين أعداء الله تحتاج إلى نفوس قوية ، وأبدان صلبة ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ أي أثبت وأبين قولاً ، لأن الليل تهدأ فيه الأصوات ، وتنقطع فيه الحركات ، فتكون النفس أصفى ، والذهن أجمع ، فإن هدوء الصوت في الليل ، وسكون البشريه ، أعون للنفس على التدبر والتفطن ، والتأمل في أسرار القرآن ومقاصده ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي إن لك في النهار تصرفاً وتقلباً ، واشتغالاً طويلاً في شئونك ، فاجعل ناشئة الليل لتهدجك وعبادتك قال في التسهيل : السبح هنا عبارة عن التصرف في الأعمال والأشغال والمعنى : يكفيك النهار للتصرف في أشغالك ، وتفرغ بالليل لعبادة ربك^(٢) . . وبعد أن قرر الخطاب الإلهي هذه المقدمات التي هي بمثابة تمهيد وبساطٍ للدعوة ، انتقل إلى امر الرسول ﷺ بتبليغ الدعوة ، وتعليمه كيفية السير فيها عملاً ، بعد أن مهدها له نظراً فقال ﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ أي استعن على دعوتك بذكر الله ليلاً ونهاراً ، وانقطع إليه انقطاعاً تاماً في عبادتك وتوكلك عليه ،

إِلَيْهِ تَبْتِئًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْرُؤُهُمْ
هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا
ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾

ولا تعتمد في شأن من شئتوك على غيره تعالى قال ابن كثير : أي أكثر من ذكره وانقطع إليه جل وعلا ، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك مع إخلاص العبادة له^(١) ﴿ربُّ المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾ أي هو جل وعلا الخالق المتصرف بتدبير شئون الخلق ، وهو المالك لمشارك الأرض ومغارها ، لا إله غيره ولا رب سواه ، فاعتمد عليه وفوض أمورك إليه ﴿واصبر على ما يقولون﴾ أي اصبر على أذى هؤلاء السفهاء المكذبين فيما يتقولونه عليك من قولهم : « ساحر ، شاعر ، مجنون » فإن الله ناصرك عليهم ﴿واهجرهم هجراً جميلاً﴾ أي اتركهم ولا تتعرض لهم بأذى ولا شتيمة ، قال المفسرون : الهجر الجميل هو الذي لا عتاب معه^(٢) ، ولا يشوبه أذى ولا شتم ، وقد كان هذا قبل أن يؤمر بالقتال كما قال سبحانه ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ ثم أمر ﷺ بقتالهم وقتلهم ، والحكمة في هذا أن المؤمنين كانوا بركة قلة مستضعفين ، فأمروا بالصبر وبالمجاهدة الليلية ، حتى يُعدوا أنفسهم بهذه التربية الروحية على مناجزة الأعداء ، وحتى يكثروا عددهم فيقفوا في وجه الطغيان ، أما قبل الوصول إلى هذه المرحلة فينبغي الصبر والاقتصار على الدعوة باللسان . . . ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً صنائيد قريش ﴿وذرنى والمكذبين أولى النعمة﴾ أي دعني يا محمد وهؤلاء المكذبين بآياتي ، أصحاب الغنى ، والتنعيم في الدنيا ، والترف والبطر فأنا أكفيك شرهم قال الصاوي : المعنى اتركني أنتقم منهم ، ولا تشفع لهم ، وهذا من مزيد التعظيم له ﷺ ، وإجلال قدره^(٣) ﴿ومهلهم قليلاً﴾ أي وأمهلهم زمناً يسيراً حتى ينالوا العذاب الشديد قال المفسرون : أمهلهم الله تعالى إلى أن هاجر رسول الله ﷺ من مكة ، فلما خرج منها سلط عليهم السنين المجذبة وهو العذاب العام ، ثم قتل صنائيدهم بيد وهو العذاب الخاص^(٤) . . ثم وصف تعالى ما أعده لهم من العذاب في الآخرة فقال ﴿إن لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ أي إنَّ لهم عندنا في الآخرة قيوداً عظيمة ثقيلة يقيدون بها ، وناراً مستعرة هي نار الجحيم يحرقون بها قال في التسهيل : الأنكال جمع نكل وهو القيد من الحديد ، وروي أنها قيود سود من نار^(٥) ﴿وطعاماً ذا غُصَّةٍ﴾ أي وطعاماً كريهاً غير سائغ ، يغصُّ به الإنسان وهو الزقوم والضريع قال ابن عباس : شوك من نار يعترض في حلوقهم لا يخرج ولا ينزل^(٦) ﴿وعذاباً أليماً﴾ أي وعذاباً وجيعاً مؤلماً ، زيادة على ما ذكر من النكال والأغلال . . ثم ذكر تعالى وقت هذا العذاب فقال ﴿يوم تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أي يوم تتزلزل الأرض وتهتز بمن عليها اهتزازاً عنيفاً شديداً هي وسائر الجبال ، وذلك يوم القيامة ﴿وكانت الجبال كَثِيرًا مَّهِيلًا﴾ أي وتصبح الجبال على صلابتها تلاً من الرمل سائلاً متناثراً ، بعد أن كانت صلبة جامدة قال ابن كثير : أي تصوير الجبال

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٥٦٤ / ٣ (٢) كذا قال ابن كثير ٥٦٤ / ٣ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٢٦٠

(٤) حاشية الصاوي ٤ / ٢٦٠ (٥) التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ١٥٨ (٦) البحر المحيط ٨ / ٣٦٤

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ نَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ؕ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾

ككثبان الرمال ، بعد ما كانت حجارة صماء ، ثم إنها تُنسف نفساً فلا يبقى منها شيء إلا ذهب^(١) كقوله تعالى ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيزورها قاعاً صافصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً﴾ أي لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع . . ذكر تعالى العذاب المؤلم الذي أعده للمشركين ، ومكانه وهو الجحيم ، وآلاته وهي القيود وطعام الزقوم ، ووقته وهو عند اضطراب الأرض وتزلزلها بمن عليها ، وأراد بذلك تخويف المكذبين وتهديدهم بأنه تعالى سيعاقبهم بذلك كله ، إن بقوا مستمرين في تكذيبهم لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، ثم أعقبه بتذكيرهم بما حلّ بالأمم الباغية التي قد خلت من قبلهم ، وكيف عصت وتمردت فأنزل بها من أمره ما أنزل ، وضرب لهم المثل بفرعون الجبار فقال ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي بعثنا لكم يا أهل مكة محمداً ﷺ شاهداً على أعمالكم ، يشهد عليكم بما صدر منكم من الكفر والعصيان ﴿كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً﴾ أي كما بعثنا إلى ذلك الطاغية فرعون الجبار، رسولاً من أولئك الرسل العظام «أولي العزم» وهو موسى بن عمران قال الخازن : وإنما خص فرعون وموسى بالذكر من بين سائر الأمم والرسل ، لأن محمداً ﷺ آذاه أهل مكة واستخفوا به لأنه ولد فيهم ، كما أن فرعون ازدري بموسى وآذاه لأنه رباه^(٢) ﴿فعصى فرعون الرسول﴾ أي فكذب فرعون بموسى ولم يؤمن به ، وعصى أمره كما عصيتم يا معشر قريش محمداً ﷺ وكذبتم برسالته ﴿فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾ أي فأهلكناه إهلاكاً شديداً فظيعاً ، خارجاً عن حدود التصور ، وذلك بإغراقه في البحر مع قومه قال أبو السعود : وفي الآية التنبيه على أنه سيحقيق هؤلاء ما حاق بأولئك لا محالة ، و«الويليل» الثقل الغليظ من قولهم كلاً وبيلاً أي وخيم لا يستمرراً لثقله^(٣) . . وبعد أن ذكر الله أخذه لفرعون ، وأن ملكه وجبروته لم يدفعه عنه العذاب ، عاد فذكر كفار مكة بالقيامة وأهوالها ليبين لهم أنهم لن يفلتوا من العذاب كما لم يفلت فرعون مما حدث له فقال ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ أي كيف لا تحذرون وتخافون يا معشر قريش عذاب يوم هائل إن كفرتم بالله ولم تؤمنوا به؟ وكيف تأمنون ذلك اليوم الرهيب الذي يشيب فيه الوليد من شدة هوله ، وفضاعة أمره؟ قال الطبري : وإنما تشيب الولدان من شدة هوله وكربه ، وذلك حين يقول الله لأدم : أخرج من ذريتك بعث النار ، من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، فيشيب هنالك كل وليد^(٤) . . ثم زاد في وصفه وهوله فقال ﴿السماء منفطرٌ به﴾ أي السماء متشققة ومتصدعة من هول ذلك اليوم الرهيب العصيب ﴿كان وعده مفعولاً﴾ أي كان وعده تعالى بمجيء ذلك اليوم واقعاً لا محالة ، لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿إن هذه

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٥٦٥ (٢) تفسير الخازن ٤/ ١٦٩

(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٠٥ (٤) تفسير الطبري ٢٩/ ٨٦ ومختصر ابن كثير ٣/ ٥٦٥

إِنَّ هَذِهِ تَذَكْرَةٌ مِّنْ شَاءِ أَخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ * إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَّنْ نُّحْصِيهِ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ وَءَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَأُوا اللَّهَ قَرْضًا

تذكرة ﴿١٩﴾ أي إن هذه الآيات المخوفة ، التي فيها القوارع والزواجر ، عظة وعبرة للناس ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي فمن شاء من الغافلين الناسين ، أن يستفيد من هذه التذكرة قبل فوات الأوان ، فليسلك طريقاً موثقاً إلى الرحمن ، بالإيمان والطاعة ، فالأسباب ميسرة ، والسبل معبدة ، قال المفسرون : والغرض الحزب على الإيمان وطاعة الله عز وجل ، والترغيب في الأعمال الصالحة ، لتبقى ذخراً في الآخرة . . ثم عادت الآيات الكريمة للحديث عمّا بدأته في أول السورة من قيام الليل فقال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي إن ربك يا محمد يعلم أنك تقوم مع أصحابك^(١) للتهجد والعبادة أقل من ثلثي الليل ، وتارة تقومون نصفه ، وتارة ثلثه كقوله تعالى ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي والله جل وعلا هو العالم بمقادير الليل والنهار ، وأجزائهما وساعاتهما ، لا يفوته علم ما تفعلون من قيام هذه الساعات في غلس الظلام ابتغاء رضوانه ، وهو تعالى المدبّر لأمر الليل والنهار ﴿عَلِمَ أَنْ لَّنْ نُّحْصِيهِ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي علم تعالى أنكم لن تطيقوا قيام الليل كله ولا معظمه ، فرحمكم ورجع عليكم بالتخفيف قال الطبري : أي علم ربكم أن لن تطيقوا قيامه ، فتاب عليكم بالتخفيف عنكم^(٢) ﴿فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أي فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل ، وإنما عبّر عن الصلاة بالقراءة ، لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة قال ابن عباس : سقط عن أصحاب رسول الله قيام الليل وصارت تطوعاً ، وبقي ذلك فرضاً على رسول الله ﷺ^(٣) . . ثم بين تعالى الحكمة في هذا التخفيف فقال ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ﴾ أي علم تعالى أنه سيوجد فيكم من يعجزه المرض عن قيام الليل ، فخفف عنكم رحمة بكم ﴿وَءَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي وقوم آخرون يسافرون في البلاد للتجارة ، يطلبون الرزق وكسب المال الحلال ﴿وَءَاخِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي وقوم آخرون وهم الغزاة المجاهدون ، يجاهدون في سبيل الله لإعلاء كلمته ونشر دينه ، وكل من هذه الفرق الثلاثة يشق عليهم

(١) الآية نص صريح على أن قيام الليل كان واجباً على الرسول وعلى أصحابه ، وقد كلفوا أن يقوموا ساعات من الليل طويلة ، لا تقل على ثلثه ، ولا تزيد على ثلثه ، فإن قيام الليل وإحياءه بأنواع الطاعات المختلفة ، من ذكر ، وصلاة ، وتلاوة قرآن ، يقوي أبدانهم ، ويزكي أرواحهم ، ويعودهم الخشونة في العيش ، واجتناب ما عليه المترفون من الراحة والرخاوة والانغماس في اللذات ، كلفهم الله تعالى بذلك ليعدهم إعداداً روحياً وجسماً للقيام بأعباء الدعوة الجديدة ، وتحمل المشاق في سبيل نشر هذا الدين ، ويا لها من تربية كريمة مجيدة ، تنشئ

حَسَنًا وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

قيام الليل ، فلذلك خفف الله عنهم .. ذكر تعالى في هذه الآية الأعذار التي تكون للعباد تمنعهم من قيام الليل ، فمنها المرض ، ومنها السفر للتجارة ، ومنها الجهاد في سبيل الله ، ثم كرر الأمر بقراءة ما تيسر من القرآن تأكيداً للتخفيف عنهم قال الإمام الفخر : أما المرضى فإنهم لا يمكنهم الاشتغال بالتهجد لمرضهم ، وأما المسافرون والمجاهدون فهم مشغولون في النهار بالأعمال الشاقة ، فلو لم يناموا في الليل لتوالت أسباب المشقة عليهم ، فلذلك خفف الله عنهم وصار وجوب التهجد منسوخاً في حقهم^(١) ﴿فأقروا ما تيسر منه﴾ أي فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل ، واقروا في صلاتكم ما تيسر من القرآن ﴿واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي أدوا الصلاة المفروضة على الوجه الأكمل ، والزكاة الواجبة عليكم إلى مستحقيها قال المفسرون : قلماً يُذكر الأمر بالصلاة في القرآن ، إلا ويُقرن معه الأمر بالزكاة ، فإن الصلاة عماد الدين بين العبد وربّه ، والزكاة كذلك عماد الدين بينه وبين إخوانه ، والصلاة أعظم العبادات البدنية ، والزكاة أعظم العبادات المالية ﴿واقترضوا الله قرضاً حسناً﴾ أي تصدقوا في وجوه البر والإحسان ابتغاء وجه الله قال ابن عباس : يريد سائر الصدقات سوى الزكاة ، من صلة الرحم ، وقرى الضيف وغيرهما^(٢) ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾ أي أي شيء تفعلوه أيها الناس من وجوه البر والخير تلقوا أجره وثوابه عند ربكم ﴿هو خيراً وأعظم أجراً﴾ أي تجدوا ذلك الأجر والثواب يوم القيامة خيراً لكم مما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال ، فإن الدنيا فانية والآخرة باقية ، وما عند الله خيرٌ للأبرار ﴿واستغفروا لله﴾ أي اطلبوا مغفرة الله في جميع أحوالكم ، فإن الإنسان قلماً يخلو من تقصير أو تفريط ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي عظيم المغفرة ، واسع الرحمة . . ختم تعالى السورة بإرشاد المنفقين المحسنين ، إلى ان يطلبوا من الله الصفح والعفو ، إذ ربما كانوا لم يخلصوا النية في الإنفاق ، أو لم يحسنوا العمل في الإقراض ، فيضعوا النفقة في غير مواضعها ، أو ينفقوها فيما لهم فيه غرض وشهوة ، وهو ختم يتناسق مع موضوع الإنفاق ، فسبحان منزل القرآن بأوضح بيان !!

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين ﴿انقص منه . . أو زد عليه﴾ وبين ﴿المشرق . . والمغرب﴾ وبين ﴿الليل والنهار﴾ .

٢ - جناس الاشتقاق ﴿أرسلنا إليكم رسولا﴾ .

٣ - تأكيد الفعل بالمصدر مثل ﴿رتل القرآن ترتيلاً﴾ و﴿وتبتل إليه تبتيلاً﴾ و﴿فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾ زيادة في البيان والإيضاح .

- ٤ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا ﴾ ولو جرى على الأصل لقال إنا أرسلنا إليهم ، والغرض من الالتفات التقرير والتوبيخ على عدم الإيمان .
- ٥ - المجاز المرسل ﴿ فاقْرءُوا مَا تيسر من القرآن ﴾ أراد به الصلاة ، فأطلق اسم الجزء على الكل ، لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة .
- ٦ - ذكر العام بعد الخاص ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير ﴾ عمم بعد ذكر الصلاة ، والزكاة ، والإنفاق ليعم جميع الصالحات .
- ٧ - الاستعارة التبعية ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ شبه الإحسان إلى الفقراء والمساكين بإقراض رب العالمين ، وهو من لطيف الاستعارة .
- ٨ - السجع المرصع مثل ﴿ إن لدينا أنكالاً وجحياً * وطعاماً ذا غصة وعداباً أليماً ﴾ الخ .
- « تم بعونه تعالى تفسير سورة الزمل »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة المدثر مكية ، شأنها كسابققتها - سورة الزمل - تتحدث عن بعض جوانب من شخصية الرسول الأعظم ﷺ ، ولهذا سميت سورة المدثر .

* ابتدأت السورة الكريمة بتكليف الرسول بالنهوض بأعباء الدعوة ، والقيام بمهمة التبليغ بجدٍ ونشاط ، وإنذار الكفار ، والصبر على أذى الفجار ، حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ﴿ يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر ﴾ .

* ثم توالى السورة تنذر وتهدد أولئك المجرمين ، بيومٍ عصيبٍ شديد لا راحة لهم فيه ، لما فيه

من الأهوال والشدائد ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ فذلك يومئذ يوم عسير ﴿على الكافرين غير يسير﴾ .

* وبعد ذلك البيان الذي يرتعد له الإنسان ، تحدثت السورة عن قصة ذلك الشقي الفاجر « الوليد ابن المغيرة » الذي سمع القرآن وعرف أنه كلام الله ، ولكنه في سبيل الزعامة وحب الرئاسة زعم أنه من قبيل السحر الذي تعارفه البشر ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ وجعلت له مالا ممدوداً ﴿وبنين شهوداً﴾ ومهدت له تمهيداً ﴿ثم يطمع أن أزيد﴾ كلاً إنه كان لا ياتنا عنيداً ﴿سأرهقه صعوداً﴾ إنه فكر وقدر ﴿فقتل كيف قدر﴾ . إلى قوله تعالى : سأصليه سقر﴾ .

* ثم تحدثت السورة عن النار التي أوعد الله بها الكفار ، وعن خزنتها الأشداء ، وزبانيته الذين كلفوا بتعذيب أهلها ، وعددهم والحكمة من تخصيص ذلك العدد ﴿وما أدراك ما سقر﴾ لا تبقي ولا تذر ﴿لواحة للبشر﴾ عليها تسعة عشر ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾ . الآيات .

* وأقسمت السورة بالقمر وضيائه ، والصبح وبهائه ، على أن جهنم إحدى البلايا العظام ﴿كلا والقمر﴾ والليل إذ أدبر ﴿والصبح إذا أسفر﴾ إنها لإحدى الكبر ﴿نذيراً للبشر﴾ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾ .

* ثم تحدثت السورة عن الحوار الذي يجري بين المؤمنين والمجرمين ، في سبب دخولهم الجحيم ﴿إلا أصحاب اليمين﴾ في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر ﴿قالوا لم نك من المصلين﴾ ولم نك نطعم المسكين ﴿وكنا نخوض مع الخائضين﴾ الآيات .

* وختمت السورة ببيان سبب إعراض المشركين عن الإيمان ﴿كلا بل لا يخافون الآخرة﴾ كلاً إنه تذكرة ﴿فمن شاء ذكره﴾ وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ .

قال الله تعالى: ﴿يا أيها المدثر﴾ قم فأندر ﴿وربك فكبر﴾ . إلى . . هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ من آية (١) إلى آية (٥٦) نهاية السورة .

اللفظة: ﴿المدثر﴾ المتغطي بثيابه ، تدثر : لبس الدثار وهو الثوب الذي فوق الشعار ، والشعار الثوب الذي يلي الجسد ، ومنه حديث (الأنصار شعار ، والناس دثار) ﴿الناقور﴾ الصور الذي ينفخ فيه ، والنقر في كلام العرب الصوت ، سمي ناقوراً لأنه يخرج منه صوت عظيم رهيب ، يفرع الناس منه ويموتون ﴿عبس﴾ قطب بين عينيه ﴿بسر﴾ كلع وجهه وتغير لونه قال الليث : عبس إذا قطب ما بين عينيه ، فإن أبدى عن أسنانه في عبوسه قيل كلع ، فإن اهتم في الأمر وفكر فيه قيل : بسر ، فإن غضب مع

ذلك قيل : بسل^(١) ﴿أسفر﴾ أضاء وانكشف ﴿الكبر﴾ الدواهي وعظائم المصائب والعقوبات قال الراجز :

يا ابن المعلی نزلت إحدى الكبر داهية الدهر وصمء الغير^(٢)
 ﴿قسورة﴾ أسد ، من القسر وهو القهر ، سمي بذلك لأنه يقهر السباع ، وقيل هو جماعة الرماة الذين يتصيدون قال الأزهري : هو اسم جمع للرماة لا واحد له من جنسه قال لييد :
 إذا ما هتفنا هتفة في ندينا أتانا الرجال الصائدون القساور^(٣)

سَبَبُ النَّزُولِ : روي أنه لما نزل قوله تعالى ﴿عليها تسعة عشر﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم إن ابن أبي كبشة - يعني محمداً ﷺ - يتوعدنا ويخوفنا بجهنم ، ويخبر أن خزنة النار تسعة عشر ، وأنتم الجمع العظيم ؛ أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم !! فقال « أبو الأسد الجمحي » : أنا أكفيكم منهم سبعة عشر ، واكفوني أنتم اثنين ، فأنزل الله تعالى ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا . . .﴾ الآية^(٤) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾

التفسير : ﴿يا أيها المدثر﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ أي يا أيها المتغطي بقطيفته يريد النوم والراحة ، قُمْ من مضجعك قيام عزم وتصميم ، وحذر الناس من عذاب الله إن لم يؤمنوا ، خوطب ﷺ بهذا اللفظ « المدثر » مؤانسة له ﷺ وتلطفاً ، كما خوطب بلفظ ﴿المزمل﴾ في السورة السابقة قال المفسرون : كان ﷺ يتعبد في غار حراء فجاءه جبريل بالآيات الكريمة ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق . . .﴾ الآيات وهي أول ما نزل عليه من القرآن ، فرجع يرجف فؤاده فقال لخديجة : زملوني ، زملوني فنزلت ﴿يا أيها المزمل﴾ قُمْ الليل إلا قليلاً الآيات ثم فتر الوحي فحزن ﷺ فبينما هو يمشي سمع صوتاً من السماء ، فرفع رأسه فإذا الملك الذي جاءه بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فعراه ﷺ من رؤيته الرعب والفرع ، فجاء إلى أهله فقال : دثروني ، دثروني^(٥) فأنزل الله ﴿يا أيها المدثر﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ قال القرطبي : وفي هذا النداء ملاطفة في الخطاب ، من الكريم إلى الحبيب ، إذ ناداه بوصفه ولم يقل « يا محمد » ليستشعر اللين والملاطفة من ربه ، ومثله قول النبي ﷺ لخديفة بن اليان يوم الخندق : « قُمْ يا نومان »^(٦) ﴿وربك فكبير﴾ أي عظم ربك ، وخصه بالتمجيد والتقديس ، وأفرده بالعظمة والكبرياء ، فليس هناك من هو أكبر من الله قال الألوسي : أي اخصص ربك بالتكبير ، وهو وصفه تعالى بالكبرياء والعظمة ، اعتقاداً

(١) التفسير الكبير للرازي ٣٠ / ٢٠١ . (٢) تفسير القرطبي ١٩ / ٨٣ . (٣) البحر المحيط ٨ / ٣٦٩ (٤) التفسير الكبير ٣٠ / ٢٠٣ وتفسير الخازن ٤ / ١٧٧ . (٥) هذه الرواية ذكرها الطبري عن جابر بن عبد الله كذا في الطبري ٢٩ / ٩٠ . (٦) تفسير القرطبي ١٩ / ٦٠ .

وَتِيَابِكَ فَطَهَّرَ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرَ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُنَّ نُسْتَكْثُرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾
فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾

وقولاً^(١) ، وإنما ذكرت هذه الجملة بعد الأمر بالإنذار ، تنبيهاً للنبي ﷺ على عدم الاكتراث بالكفار ، فإن نواصي الخلائق بيد الجبار ، فلا ينبغي أن يبالي الرسول بأحد من الخلق ، ولا أن يرهب سوى الله ، فإن كل كبير مقهور تحت عظمته تعالى وكبريائه ﴿وتيابك فطهر﴾ أي وتيابك فطهرها من النجاسات والمستقذرات ، فإن المؤمن طيبٌ طاهر ، لا يليق منه أن يحمل الخبيث ، قال ابن زيد : كان المشركون لا يتطهرون ، فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه^(٢) وقال ابن عباس : كُنِيَ بالثياب عن القلب والمعنى وقلبك فطهر من الإثم والمعاصي واستشهد بقول غيلان

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدره أتقنع^(٣)

يقول العرب : فلان طاهر الثياب أو نقي الثياب ، يريدون وصفه بالنقاء من المعايب وذميم الصفات ، ويقولون : فلان دنس الثياب إذا كان موصوفاً بالأخلاق الذميمة قال الرازي : والسبب في حسن هذه الكناية ، أن الثوب كالشيء الملازم للإنسان ، فلهذا السبب جعلوا الثوب كناية عن الإنسان ، فقالوا : المجدُّ في ثوبه ، والعفة في إزاره^(٤) ﴿والرجز فاهجر﴾ أي اترك عبادة الأصنام والأوثان ولا تقربها قال ابن زيد : الرجز : الآلهة التي كانوا يعبدونها ، فأمره أن يهجرها فلا يأتيها ولا يقربها^(٥) وقال الإمام الفخر : الرجز : اسم للقبیح المستقذر كالرجس قال تعالى ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ وقوله ﴿والرجز فاهجر﴾ كلام جامع لمكارم الأخلاق ، كأنه قيل له : اهجر الجفاء ، والسفه ، وكل قبيح ، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين ، والمراد بالهجر الأمر بالمداومة على ذلك الهجران ، كما يقول المسلم : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ ليس معناه أنه ليس على الهداية ، بل المراد ثبتنا على هذه الهداية^(٦) ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ أي ولا تعط الناس عطاء وتستكثره ، لأن الكريم يستقل ما يعطي وإن كان كثيراً^(٧) ، واعط عطاء من لا يخاف الفقر وقال ابن عباس : لا تعط عطية تلمس بها أفضل^(٨) منها بمعنى : لا تعط شيئاً لتعطى أكثر منه ، وسر النهي أن يكون العطاء خالياً عن انتظار العوض تعففاً وكمالاً ، فإن النبي ﷺ مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق ﴿ولربك فاصبر﴾ أي اصبر على أذى قومك ، ابتغاء وجه ربك . ثم أخبر تعالى عن أهوال القيامة وشدائدها فقال : ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ أي فإذا نفخ في الصور ، نفخة البعث والنشور ، وعبر عن النفخ وعن الصور ، بالنقر في الناقور ، لبيان هول الأمر وشدته ، فإن النقر في كلام العرب معناه الصوت وإذا اشتد الصوت أصبح مفرعاً فكأنه يقول : إصبر على أذاهم ، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أذاهم ، وتلقى عاقبة صبرك ، ولهذا قال بعده ﴿فذلك يومئذ يوم عسير﴾ أي فذلك اليوم شديد

(١) روح المعاني ١١٦/٢٩ . (٢) تفسير ابن كثير ٥٦٨/٣ . (٣) تفسير الطبري ٩١/٢٩ واختار ابن جرير القول الأول وقال هو أظهر .

(٤) التفسير الكبير ١٩٢/٣٠ . (٥) تفسير الطبري ٩٣/٢٩ . (٦) التفسير الكبير ١٩٣/٣ . (٧) التسهيل لعلوم التنزيل ١٦٠/٤ .

(٨) مختصر تفسير ابن كثير ٥٦٨/٣ .

عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهودًا ﴿١٣﴾
وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾

هائل ، يشتد فيه الهول ويعسر الأمر عليهم ، والإشارة بالبعيد ﴿فذلك﴾ للإيدان بعد منزلته في الهول والفظاعة^(١) ﴿على الكافرين غير يسير﴾ أي هو عسير على الكافرين ، غير هين ولا يسير عليهم ، لأنهم يناقشون الحساب ، وتسود وجوههم ، ويحشرون زرقاً ، ويفتضحون على رعوس الأشهاد ، قال الصاوي : ودلت الآية على أنه يسير على المؤمنين ، لأنه قيد عسره بالكافرين ، وفيها زيادة وعيد وغيظ للكافرين ، وبشرى وتسلية للمؤمنين^(٢) . . ثم أخبر عن قصة ذلك الشقي الكافر « الوليد بن المغيرة » وقوله الشنيع في القرآن فقال ﴿ذرنى ومن خلقت وحيداً﴾ أي دعني يا محمد وهذا الشقي ، الذي خلقت في بطن أمه وحيداً فريداً ، لا مال له ولا ولد ، ولا حول له ولا مدد ، ثم كفر بي وكذب بآياتي قال المفسرون : نزلت في « الوليد بن المغيرة » كان من أكابر قريش ، ولذلك لقب الوحيد وريحانة قريش ، وقد أنعم الله عليه بنعم الدنيا من المال والبنين ، وأغدق عليه الرزق فكان ماله كالنهر الدافق ، وكان للوليد بستان في الطائف لا ينقطع ثمره صيفاً ولا شتاء ، فكفر بأنعم الله وبدلها كفراً ، وقابلها بالحدود بآيات الله والافتراء عليها ، وفيه نزل ﴿ذرنى ومن خلقت وحيداً﴾ وهو أسلوب بليغ في التهديد ، كما نزلت فيه الآيات المتقدمة في سورة نون^(٣) ، ﴿ولا تطع كل حلاف مهين . . إلى . . سنسمه على الخرطوم﴾ وهو الذي أدى رسول الله ﷺ وكاد له ، فإن صناديد قريش لما برموا برسول الله ، وضاعت عليهم الخيل في إسكاته ، وإطفاء نور دعوته ، لجأوا إلى الوليد فأشار عليهم بأن يلقبوه ﷺ بالساحر ، ويأمروا عبدهم وصبيانهم أن ينادوا بذلك في مكة ، فجعلوا ينادون إن محمداً ساحر ، فحزن لذلك رسول الله ﷺ فنزلت الآيات الكريمة في معرض تهديده وتخويفه ، ليكون ذلك أدعى للكسر من كبريائه ثم قال تعالى ﴿وجعلت له مالاً ممدوداً﴾ أي جعلت له المال الواسع المسوط ، من الإيل ، والخيل ، والغنم ، والبساتين النضرة قال البيضاوي : ﴿ممدوداً﴾ أي مبسوطاً كثيراً ، وكان له الزرع والضرع والتجارة^(٤) قال ابن عباس : كان ماله ممدوداً ما بين مكة والطائف وقال مقاتل : كان له بستان لا ينقطع نفعه شتاء ولا صيفاً^(٥) ﴿وبنين شهوداً﴾ أي وأولاداً مقيمين معه في بلده ، يحضرون معه المحافل والمجامع ، يستأنس بهم ولا يتنصص عيشه لفراقهم قال المفسرون : كان له عشرة بنين لا يفارقونه سفراً ولا حضراً ، وكان مستأنساً بهم وله بهم عز ومنعة ، أسلم منهم ثلاثة « خالد ، وهشام ، والوليد »^(٦) . . وبعد أن ذكر من مظاهر النعم المال والبنين عاد فعمم الخيرات الدنيوية التي أنعم بها الله عليه فقال ﴿ومهدت له تمهيداً﴾ أي بسطت بين يديه الدنيا بسطاً ، ويسرت له تكاليف الحياة ، ومظاهر الجاه والعز والسيادة ، فكان في قريش عزيزاً منيعاً ، وسيداً مطاعاً

(١) تفسير ابي السعود ٢٠٨/٥ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٢٦٥/٤ .

(٣) انظر ما كتبه في سورة ﴿ن﴾ حول قصة الوليد بن المغيرة من هذا التفسير .

(٤) تفسير البيضاوي ٤٩٢/٢ . (٥) التفسير الكبير ١٩٨/٣٠ . (٦) ذكر بعض المفسرين تبعاً للزحشرى أن الذين أسلموا « خالد ،

وعمارة ، وهشام » والصحيح أنه الوليد فأما عمارة فإنه مات كافراً . وانظر حاشية الشهاب ٢٧٤/٨ .

سَأْرَهْقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾

﴿ثم يطمع أن أزيد﴾ أي ثم بعد هذا العطاء الجزيل يطمع أن أزيد له في ماله وولده وقد كفر بي قال الفخر الرازي : لفظ ﴿ثم﴾ هنا للإنكار والتعجب ، كما تقول لصاحبك : أنزلتك داري ، وأطعمتك وأكرمتك ثم أنت تشتمني^(١)!! أي ومع كل هذا الإينعام والإكرام فقد كفر وجحد ، وبدل أن يشكر الوليد لربه هذا الإحسان ، ويقابله بالطاعة والإيمان ، عكس الأمر وقابله بالجحود والكفران ﴿كلاً﴾ ردع وزجر أي ليرتدع هذا الفاجر الأثيم عن ذلك الطمع الفاسد ، ثم علل ذلك بقوله ﴿إنه كان لآياتنا عنيداً﴾ أي لأنه معاند للحق ، جاحد بآيات الله ، مكذب لرسوله ، فكيف يطمع بالزيادة هذا الشقي العنيد ؟ ﴿سأرهقه صعوداً﴾ أي سأكلفه وأجثه إلى عذاب صعب شاق لا يطاق ، تضعف عنه قوته كما تضعف قوة من يصعد في الجبل قال القرطبي : ﴿صعوداً﴾ صخرة ملساء يكلف صعودها ، فإذا صار في أعلاها حدر في جهنم ، فيهوي ألف عام قبل أن يبلغ قرارها^(٢) وفي الحديث « الصعود جبل من نار يصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ، ثم يهوي فيه كذلك أبداً »^(٣) ﴿إنه فكر وقدر﴾ أي إنه فكر في شأن النبي والقرآن ، وأجال رأيه وذهنه الثاقب ، ثم رتب وهياً كلاماً في نفسه ، ماذا يقول في القرآن ؟ وبماذا يطعن فيه ؟ قال تعالى دعاء عليه ﴿فقتل كيف قدر﴾ أي قاتله الله وأخزاه على تلك الكلمة الحمقاء التي أجالها في نفسه ، حيث قال عن القرآن ، إنه سحر ، وقال عن محمد إنه ساحر ، وفي الآية استهزاء به وتهكم ، حيث قدر ما لا يصح تقديره ، ولا يسوغ أن يقوله عاقل قال في البحر : يقول العرب عند استعظام الأمر والتعجب منه : قاتله الله ، ومرادهم أنه قد بلغ المبلغ الذي يحسد عليه ويدعي عليه من حسّاده ، والاستفهام في قوله ﴿كيف قدر﴾ ؟ في معنى ما أعجب تقديره وما أغر به ؟ كقولهم أي رجل هذا ؟ أي ما أعظمه^(٤) ؟ ﴿ثم قتل كيف قدر﴾ كرر العبارة تأكيداً لذمه وتقييحاً لحاله ، ولغاية التهكم به ، كأنه قال : قاتله الله ما أروع تفكيره ، وأبدع رأيه الحصيف^(٥) ؟ حيث قال عن القرآن إنه سحر يؤثر ؟ قال المفسرون : مر الوليد بالنبي ﷺ وهو يصلي ويقرأ القرآن ، فاستمع لقراءته وتأثر بها ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال : والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو وما يعلى عليه ، ثم انصرف إلى منزله ، فقالت قريش : لقد صبأ والله الوليد ، ولتصبأن قريش كلها ! فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فانطلق حتى جلس إلى جانب الوليد حزيناً ، فقال له الوليد : مالي أراك حزيناً يا ابن أخي ؟ ! فقال : كيف لا أحزن وهذه قريش تجمع لك مالاً ليعينوك به على كبر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد وصبأت لتصيب من فضل طعامه ، وتنال من ماله !! فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أنني من أكثرهم مالاً وولداً ؟ ! وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام ؟ ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخفق ؟ قالوا : اللهم لا ،

(١) التفسير الكبير ٣٠/١٩٩ . (٢) تفسير القرطبي ٧٢/١٩ . (٣) أخرجه الترمذي والحاكم وصححه .

(٤) البحر المحيط ٨/٣٧٤ . (٥) هذا كما قال الزمخشري : ثناء عليه بطريق الاستهزاء والتهكم بمعنى ان ما أتى به في غاية الركافة والسقوط .

ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ
 الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوْ آحَةَ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ
 قَال : تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهن قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه كذباً قط ؟ قالوا اللهم لا ،
 فقلت قريش للوليد : فما هو ؟ ففكر في نفسه ثم قال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل
 وأهله وولده ، وما هذا الذي يقوله إلا سحر يؤثر ، فذلك قوله تعالى ﴿إنه فكر وقدر﴾ الآيات ^(١) تركنا
 الوليد يفكر ويقدر ، ولنرجع إليه لنرى ماذا فعل بعد ، قال تعالى ﴿ثم نظر﴾ أي أجال النظر مرة أخرى
 متفكراً في شأن القرآن ﴿ثم عبس﴾ أي ثم قطب وجهه وكلحه ضيقاً بما يقول ﴿وبسر﴾ أي وزاد في القبض
 والكلوح ، كالمهتم المتفكر في أمر يدبره قال في التسهيل : البسور تقطيب الوجه وهو أشد من
 العبوس ^(٢) ﴿ثم أدبر واستكبر﴾ أي ثم أعرض عن الإيمان ، وتكبر عن اتباع الهدى والحق ﴿فقال إن هذا
 إلا سحر يؤثر﴾ أي فقال : ما هذا الذي يقوله محمد إلا سحر ينقله ويرويه عن السحرة ﴿إن هذا إلا قول
 البشر﴾ أي ليس هذا كلام الله ، وما هو إلا كلام المخلوقين ، يخدع به محمد القلوب ، ويؤثر فيها كما يؤثر
 السحر بالمسحور قال الألوسي : هذا كالتأكيد للجملته الأولى ، لأن المقصود منها نفي كونه قرآناً أو من
 كلام الله تعالى ، ولذلك لم يعطف عليها بالواو ، وفي وصف إشكاله واستنباطه هذا القول السخيف
 استهزاء به ، وإشارة إلى أنه عن الحق بمعزل ، ويظهر من تتبع أحوال الوليد ، أنه إنما قال ذلك عناداً وحمية
 جاهلية ، لا جهلاً بحقيقة الحال ^(٣) ، ألا ترى ثناءه على القرآن ونفيه عنه جميع ما نسبوا إليه من الشعر
 والكهانة والجنون !! ﴿سأصليه سقر﴾ أي سأدخله جهنم يتلظى حرها ، ويذوق عذابها ﴿وما أدراك ما
 سقر﴾ ؟ استفهام للتهويل والتفطير أي وما أعلمك أي شيء هي سقر ؟ ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ أي لا تبقي على
 شيء فيها إلا أهلكته ، ولا تترك أحداً من الفجار إلا أحرقتة قال ابن عباس : لا تبقي من الدم والعظم
 واللحم شيئاً ، فإذا أعيد خلقهم من جديد تعاود إحراقهم بأشد مما كانت وهكذا أبداً ^(٤) ﴿لواحة
 للبشر﴾ أي تلوح وتظهر لأنظار الناس من مسافات بعيدة لعظمتها وهولها كقوله تعالى ﴿وبرزت الجحيم
 لمن يرى﴾ قال الحسن : تلوح لهم من مسيرة خمسمائة عام حتى يروها عياناً ^(٥) فهي بارزة الى أنظارهم ،
 يرونها من غير استشراف ولا مد أعناق ﴿عليها تسعة عشر﴾ أي خزنتها الموكلون عليها تسعة عشر ملكاً
 من الزبانية الأشداء كقوله تعالى ﴿عليها ملائكة غلاظٌ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾
 قال ابن عباس : « ما بين منكبي الواحد منهم مسيرة سنة ، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالقمع فيدفع

(١) انظر تفسير القرطبي ٧٣/١٩ والحازن ١٧٦/٤ والتفسير الكبير ٢٠١/٣٠ وانظر السيرة النبوية لابن هشام . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل

١٦١/٤ . (٣) روح المعاني ١٢٤/٢٩ . (٤) التفسير الكبير ٢٠٢/٣٠ .

(٥) اختار بعض المفسرين أن معنى ﴿لواحة للبشر﴾ أي محرقة للجلود مسودة لها ، تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل وإن ﴿البشر﴾ جمع بشرة وهي جلدة الانسان الظاهرة ، والظاهر ما ذكرناه لأن الله تعالى ذكر من وصفها ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ فأبي فائدة في وصفها بتسويد البشرة بعد ذلك ، وما اخترناه هو ما رجحه القرطبي ونسبه الى ابن عباس وكذلك ما رجحه الامام الفخر الرازي والله اعلم .

عَشْرًا ﴿١٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ
 أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي
 قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۚ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ

بتلك الضربة سبعين ألف انسان في قعر جهنم « قال الألوسي : روي عن ابن عباس أنها لما نزلت ﴿عليها تسعة عشر﴾ قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع ابن أبي كبشة - يعني محمداً - يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر ، وأنتم الدَّهْم - أي العدد - الشجعان ، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ؟ فقال أبو الأشد الجمحي : - وكان شديد البطش - أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين (١) ، فأنزل الله ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ أي وما جعلنا خزنة النار إلا من الملائكة الغلاظ الشداد ، ولم نجعلهم من البشر حتى يصارعوهم ويغالبوهم ﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾ أي لم نجعل ذلك العدد إلا سبباً لفتنة وضلال المشركين ، حيث استقلوا بعددهم واستهزءوا حتى قال أبو جهل : أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم تخرجون من النار (٢) ؟ قال الطبري : وإنما جعل الله الخبر عن عدة خزنة جهنم فتنة للكافرين ، لتكذيبهم بذلك وقول بعضهم لأصحابه - على سبيل الاستهزاء - أنا أكفيكموهم (٣) ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب﴾ أي ليتيقن أهل الكتاب من صدق محمد ، وأن هذا القرآن من عند الله ، إذ يجدون هذا العدد في كتبهم المنزلة ﴿ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ أي يزداد المؤمنون تصديقاً لله ورسوله ، بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم ﷺ وتسليم أهل الكتاب لما جاء في القرآن موافقاً للتوراة والإنجيل ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾ أي ولا يشك أهل الكتاب والمؤمنون في عددهم ، وهذا تأكيد لما قبله لأنه لما ذكر اليقين نفى عنهم الشك ، فكان قوله ﴿ولا يرتاب﴾ مبالغة وتأكيداً (٤) ، وهو ما يسميه علماء البلاغة الإطناب ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ أي وليقول الذين في قلوبهم شك ونفاق والكافرون من أهل مكة : أي شيء أراد الله بهذا القول العجيب ، الذي هو مثل في الغرابة والبداعة ؟ ولماذا نخوفنا بواسطته من سقر وخزنتها التسعة عشر ؟ قال الرازي : إثبات اليقين في بعض الأحوال لا يتنافى حصول الارتباب بعد ذلك ، فالمقصود من إعادة هذا الكلام هو أنه حصل لهم يقين جازم بحيث لا يحصل عقبيه البتة شك ولا ريب ، وقد كان ﷺ يعلم من حال قريش أنه متى أخبرهم بهذا العدد العجيب فإنهم يستهزئون به ويضحكون منه ، ولذلك بين تعالى الغاية من ذكر هذا الخبر أوضح بيان (٥) ﴿كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي مثل ما أضل الله أبا جهل وأصحابه ، يضل الله عن الهداية والإيمان

(١) تفسير الألوسي ١٢٦/٢٩ .

(٢) تفسير القرطبي ٧٩/١٩ . (٣) تفسير الطبري ١٠١/٢٩ .

(٤) نقل هذا القول صاحب التسهيل عن الزمخشري .

(٥) التفسير الكبير بشيء من التصرف ٢٠٦/٣٠ .

وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرَ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلَ إِذَا دَبَّرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحَ إِذَا
 أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشْرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
 كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَنْسَاءُ لُونَ ﴿٤٠﴾

من أراد إضلاله ، ويهدي من أراد هدايته^(١) ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ أي وما يعلم عدد الملائكة ، وقوتهم وضخامة خلقهم ، وكثرتهم إلا الله رب العالمين ، وفي الآية رد على أبي جهل حين قال: أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر؟ ﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ أي وما هذه النار التي وصفها لكم الجبار، إلا موعظة وتذكرة للخلق ليخافوا ويطيعوا ﴿كلًا والقمر﴾ كلمة ردع وزجر ثم أقسم تعالى بالقمر على أن سقر حق ، والمعنى ليرتدع أولئك المستهزون بالوحي والقرآن عن فعلهم وسوء صنيعهم ، وأقسم بالقمر ﴿والليل إذ أدبر﴾ أي وأقسم بالليل حين ولّى بظلمته ذاهباً ﴿والصبح إذا أسفر﴾ أي وبالصبح إذا تبّلع وأضاء ، ونشر ضياءه على الأرجاء ﴿إنها لإحدى الكبر﴾ أي إن جهنم لإحدى الدواهي الكبيرة ، والبلايا الخطيرة ، فكيف يستهزون بها ويكذبون؟ قال أبو حيان : أقسم تعالى بهذه الأشياء تشريفاً لها ، وتنبهاً على ما يظهر فيها من عجائب الله وقدرته ، وقوام الوجود بإيجادها ، أقسم على أن جهنم إحدى الدواهي العظيمة التي لا نظير لها^(٢) - وفي الآية إيحاء إلى أن الشمس والقمر مخلوقان لله ، وأنها في حركاتها وإدبارها وإسفارها ، ونشوء الليل والنهار عنهما ، مسخران لأمره تعالى ، ساجدان بين يدي قدرته وقهره ، فكيف يحسن بالبشر أن يعبدوها ويكفروا بالآله الذي خلقها ؟ ثم قال تعالى عن جهنم ﴿نذيراً للبشر﴾ أي هي إنذار للخلق ليقوا ربهم ﴿لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾ أي لمن أراد من العباد أن يتقرب إلى ربه بفعل الخيرات أو يتأخر بفعل الموبقات قال في البحر : والمراد بالتقدم والتأخر : السبق إلى الخير والتخلف عنه كقوله تعالى ﴿فمن شاء فليؤ من ومن شاء فليكفر﴾^(٣) قال ابن عباس : من شاء اتبع طاعة الله ، ومن شاء تأخر عنها بمعصيته^(٤) ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ أي كل نفس محبوسة بعملها ، مرهونة عند الله بكسبها ، ولا تفك حتى تؤدي ما عليها من الحقوق والعقوبات ﴿إلا أصحاب اليمين﴾ أي إلا فريق السعداء المؤمنين ، فإنهم فكوا رقابهم وخلصوها من السجن والعذاب ، بالإيمان وطاعة الرحمن ﴿في جنات

(١) قال علماء التوحيد : ليس معنى إضلال الله لفريق وهدايته لفريق أنه تعالى يجبر كلاً منهما على الضلالة والهدى ، ولا أنه تعالى يكرههم على سلوك سبيلي الخير والشر ، كلاً فإن هذا الإكراه منافع للعدل الإلهي ، بل منافع لحكمة التشريع السماوي ، ولا يتفق مع نصوص الشريعة المتواترة القاطعة ، الدالة على أن العبد له إرادة واختيار ، هما مناط التكليف والمؤاخذه وكذلك فهم الصحابة والسلف الصالح سأل رجل علياً رضي الله عنه فقال : أكان مسيرك إلى الشام - يعني لقتال أهلها - بقضاء الله وقدره ؟ ! فقال له : ويحك ، لعلك ظننت قضاءً لازماً ، وقدرًا حاتمًا ، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد ، إن الله سبحانه أمر عباده تحييراً ، ونهاهم تحذيراً وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً ، ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً ، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً ﴿ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾ ١ هـ وعلى ضوء هذا يفهم معنى الهداية والإضلال .

(٢) البحر المحيط ٨/٣٧٨ . (٣) البحر المحيط ٨/٣٧٩ . (٤) تفسير الطبري ١٠٣/٢٩ .

عَنِ الْمَجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نَطْعِمِ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُصُّ مَعَ
 الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّفَاعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ
 التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا
 مُّنْشَرَّةً ﴿٥٢﴾

يتساءلون عن المجرمين ﴿٤١﴾ أي هم في جناتٍ وبساتين لا يدرك وصفها ، يسأل بعضهم بعضاً عن حال المجرمين الذين في النار ، والسؤال لزيادة تبكيت أولئك المجرمين وتوبيخهم ، وإدخال الألم والحسرة على نفوسهم ، يقولون لهم ﴿٤٢﴾ ما سلككم في سقرٍ ؟ ما الذي أدخلكم جهنم ، وجعلكم تذوقون سعيرها ؟ قال في البحر : سؤالهم سؤال توبيخ لهم وتحقير ، وإلا فهم عالمون ما الذي أدخلهم النار ﴿٤٣﴾ قالوا لم نكُ من المصلين ﴿٤٤﴾ أي قال المجرمون مجيبين للسائلين : لم نكن من المصلين في الدنيا لرب العالمين ﴿٤٥﴾ ولم نكُ نطعم المسكين ﴿٤٦﴾ أي ولم نكن نتصدق ونحسن إلى الفقراء والمساكين قال ابن كثير : مرادهم في الآيتين : ما عبدنا ربنا ، ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا ﴿٤٧﴾ ﴿٤٨﴾ وكنا نحوض مع الخائضين ﴿٤٩﴾ أي وكنا نتحدث بالباطل مع أهل الغواية والضلالة ، ونقع معهم فيما لا ينبغي من الأباطيل قال في التسهيل : والنحوض هو كثرة الكلام بما لا ينبغي من الباطل وشبهه ﴿٥٠﴾ ﴿٥١﴾ وكنا نكذب بيوم الدين ﴿٥٢﴾ أي نكذب بيوم القيامة ، وبالجزاء والمعاد ، وإنما أحر التكذيب بيوم الدين تعظيماً له ، لأنه أعظم جرائمهم وأفحشها ﴿٥٣﴾ حتى أتانا اليقين ﴿٥٤﴾ أي حتى جاءنا الموت ونحن في تلك المنكرات والضلالات ، قال تعالى معقباً على اعترافهم بتلك الجرائم ﴿٥٥﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٥٦﴾ أي ليس لهم شافع ينقذهم من عذاب الله ، ولو شفع لهم أهل الأرض ما قبلت شفاعتهم فيهم قال ابن كثير : من كان متصفاً بمثل هذه الصفات ، فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعته شافع فيه ، لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلاً ، فأما من وافى الله كافراً فإنه مخلد في النار أبداً ﴿٥٧﴾ . ولما ذكر تعالى قبائحهم وشنائعهم عاد بالتوبيخ والتقريع عليهم فقال ﴿٥٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٥٩﴾ ؟ فما هؤلاء المشركين معرضين عن القرآن وآياته ، وما فيه من المواعظ البليغة والنصائح والإرشادات ؟ ﴿٦٠﴾ كَانَتْهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿٦١﴾ أي كأن هؤلاء الكفار حمر وحشية نافرة وشاردة ﴿٦٢﴾ فرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٦٣﴾ أي هربت ونفرت من الأسد من شدة الفزع قال في البحر : شبههم تعالى بالحرر النافرة مذمة لهم وتهجيناً ﴿٦٤﴾ وقال ابن عباس : الحرر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت ، كذلك هؤلاء المشركون إذا رأوا محمداً ﷺ هربوا منه كما يهرب الحمار من الأسد ثم قال : والقسورة : الأسد ﴿٦٥﴾ ﴿٦٦﴾ بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنْشَرَّةً أَي بَلْ يَطْمَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَجْرِمِينَ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ كَمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، ويريد أن ينزل عليه الوحي كما

(١) البحر ٣٨٠/٨ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٥٧٣/٣ . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١٦٢/٤ . (٤) مختصر ابن كثير ٥٧٣/٣

(٥) البحر المحيط ٣٨٠/٨ . (٦) التفسير الكبير للرازي ٢١٢/٣٠

كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذُكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ
التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

تنزّل على الرسل والأنبياء ، والغرض من الآية بيان إمعانهم في الضلالة وكأنه يقول : دع عنك ذكر إعراضهم وغبواتهم ونفارهم نفار العجوات مما فيه خيرهم وسعادتهم ، واستمع لما هو أعجب وأغرب ، وذلك طمع كل فردٍ منهم أن يكون رسولاً يوحي إليه ، وهيهات أن يصل الاشقياء إلى مراتب الأنبياء ، ثم قال تعالى ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ أي ليرتدعوا وينزجروا عن مثل ذلك الطمع ، بل الحقيقة أنهم قوم لا يصدقون بالبعث والحساب ، ولا يؤمنون بالنعيم والعذاب ، وهذا هو الذي أفسدهم وجعلهم يعرضون عن مواعظ القرآن ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرَةٌ﴾ كرّر الردع والزجر لهم بقوله ﴿كَلَّا﴾ ثم قال ﴿إِنَّهُ تَذَكُّرَةٌ﴾ أي إنّ هذا القرآن موعظة بليغة ، كافية لاتعاطهم لو أرادوا لأنفسهم السعادة ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ أي فمن شاء اتعظ بما فيه ، وانتفع بهداه ﴿وَمَا يَذُكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي وما يتعظون به إلا أن يشاء الله لهم الهدى فيتذكروا ويتعظوا ، وفيه تسلية للنبي ﷺ وترويح عن قلبه الشريف ، مما كان يخامره من إعراضهم وتكذيبهم له ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي هو جل وعلا أهل لأن يتقى لشدة عقابه ، وأهل لأن يغفر الذنوب لكرمه وسعة رحمته قال الألوسي : أي حقيق بأن يتقى عذابه ويطاع ، وحقيق بأن يغفر لمن آمن به وأطاعه^(١) وفي الحديث عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ ثم قال « قال ربكم : أنا أهل أن أتقى ، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً فأنا أهل أن أغفر له »^(٢) .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿عسير . . ويسير﴾ كما أن بين اللفظتين جناس الاشتقاق .
- ٢ - المقابلة بين ﴿والليل إذ أدبر﴾ وبين ﴿والصبح إذا أسفر﴾ .
- ٣ - الإطناب بتكرار الجملة ﴿فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر﴾ زيادة في التوبيخ والتشنيع .
- ٤ - جناس الاشتقاق ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ .
- ٥ - تقديم المفعول لإفادة الاختصاص ﴿وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر﴾ .
- ٦ - الطباق بين ﴿كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ وبين ﴿يتقدم أو يتأخر﴾ .
- ٧ - أسلوب التقرير والتوبيخ بطريق الاستفهام ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾ ؟
- ٨ - التشبيه التمثيلي ﴿كأنهم همّ مستنفرة * فرت من قسورة﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد .

- ٩ - الإيجاز بحذف بعض الجمل ﴿يتساءلون عن المجرمين * ما سلككم في سقر﴾ ؟ أي قائلين لهم : ما سلككم في سقر ، فحذف اعتماداً على فهم المخاطبين .
- ١٠ - الاستفهام للتهويل والتفخيم ﴿وما أدراك ما سقر﴾ ؟
- ١١ - ذكر الخاص بعد العام ﴿وكنا نكذب بيوم الدين﴾ خصه بالذكر مع أنه داخل في الخوض بالباطل مع الخائضين لبيان تعظيم هذا الذنب .
- ١٢ - السجع المرصع مثل ﴿كلا والقمر * والليل إذا دبر * والصبح إذا أسفر * إنها لإحدى الكبر﴾ ومثل ﴿وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين﴾ الخ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المدثر »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

- * سورة القيامة مكية ، وهي تعالج موضوع « البعث والجزاء » الذي هو أحد أركان الإيمان ، وتركز بوجه خاص على القيامة وأهوالها ، والساعة وشدائدها ، وعن حالة الإنسان عند الاحتضار ، وما يلقاه الكافر في الآخرة من المصاعب والمتاعب ، ولذلك سميت سورة القيامة .
- * ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة ، على أن البعث حق لا ريب فيه ﴿لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة * أيجسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ؟ بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ .
- * ثم ذكرت طرفاً من علامات ذلك اليوم المهول ، الذي يُخسف فيه القمر ، ويتحير البصر ، ويجمع فيه الخلائق والبشر للحساب والجزاء ﴿فإذا برق البصر * وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين المفر؟ كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر﴾ .

* وتحدثت السورة عن اهتمام الرسول بضبط القرآن عنده تلاوة جبريل عليه ، فقد كان عليه السلام يجهد نفسه في متابعة جبريل ، ويحرك لسانه معه ليسرع في حفظ ما يتلوه ، فأمره تعالى أن يستمع للتلاوة ولا يحرك لسانه به ﴿ لا تُحْرِكْ به لسانك لتعجلَ به ﴾ إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتَّبِعْ قرآنه * ثم إن علينا بيانه ﴿ .

* وذكرت السورة انقسام الناس في الآخرة إلى فريقين : سعداء وأشقياء ، فالسعداء وجوههم مضيئة تتلألأ بالأنوار ، ينظرون إلى الربّ جلّ وعلا ، والأشقياء وجوههم مظلمة قائمة يعلوها الذل والفترة ﴿ وجوهٌ يومئذٍ ناضرة * إلى ربها ناظرة * ووجوهٌ يومئذٍ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾

* ثم تحدثت السورة عن حال المرء وقت الاحتضار ، حيث تكون الأهوال والشدائد ، ويلقى الإنسان من الكرب والضيق ما لم يكن في الحسبان ﴿ كلا إذا بلغت التراقي * وقيل من راق ؟ وظنّ أنه الفراق * والتفتّ الساقُ بالساق * إلى ربك يومئذٍ المساق * فلا صدقٌ ولا صلوى * ولكن كذبٌ وتولى * ثم ذهب إلى أهله يتمطى . . . ﴾

وختمت السورة الكريمة بإثبات الحشر والمعاد بالأدلة والبراهين العقلية ﴿ أحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفةً من مني يمّتي ؟ ثم كان علقةً فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادرٍ على أن يحيي الموتى ﴾ ؟

قال الله تعالى : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة . . . إلى . . . أليس ذلك بقادرٍ على أن يحيي الموتى ﴾ من آية (١) إلى آية (٤٠) نهاية السورة .

اللفظ : ﴿ بنانه ﴾ البنان : أطراف الأصابع أو الأصابع نفسها جمع بنانة قال النابغة :

بمخضّبٍ رخصٍ كأنه بنانهُ عنم يكاد من اللطافة يُعقد^(١)

﴿ بَرَقَ ﴾ فزع وبُهِت وتَحَيَّرَ ، وأصله النظر إلى البرق فيدهش البصر قال ذو الرمة :

ولو أنّ لقمان الحكيم تعرضتُ لِعَيْنِهِ ميُّ سافراً كاد يبرق^(٢)

﴿ وَزَرَ ﴾ ملجأً وحصن يلتجئ إليه ﴿ ناضرة ﴾ حسنة مشرقة متهلّلة ، والنُصرة : النعمة وجمال البشرية والإشراف الجميلة ﴿ باسرة ﴾ شديدة الكلوحة والعبوس يقال : بَسَرَ وجهه إذا اشتد في عبوسه وكلاحتة ﴿ فاقرة ﴾ الفاقرة : الداهية والأمر العظيم يقال : فقّرت المصيبة أي كسرت فقّار ظهره ﴿ يتمطى ﴾ يتبختر في مشيته اختيالاً وكبراً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ﴿٢﴾ أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَدَرِينٌ ﴿٤﴾ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٥﴾ بَلَىٰ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٦﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٧﴾

التفسير: ﴿لَا أَقْسِمُ بيوم القيامة﴾ أي أقسم بيوم القيامة ، يوم الحساب والجزاء ﴿وَلَا أَقْسِمُ بالنفس اللوامة﴾ أي وأقسم بالنفس المؤمنة التقية ، التي تلوم صاحبها على ترك الطاعات ، وفعل الموبقات قال المفسرون : ﴿لَا﴾ لتأكيد القسم ، وقد اشتهر في كلام العرب زيادة ﴿لَا﴾ قبل القسم لتأكيد الكلام ، كأنه من الوضوح والجللاء بحيث لا يحتاج إلى قسم ، وجوابُ القسم محذوف تقديره « لتبعثنَّ ولتحاسبنَّ » دل عليه قوله ﴿أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ (١) ؟ .. أقسم تعالى بيوم القيامة لعظمه وهوله ، وأقسم بالنفس التي تلوم صاحبها على التقصير في جنب الله ، وتستغفر وتنيب مع طاعتها وإحسانها قال الحسن البصري : هي نفس المؤمن ، إن المؤمن ما تراه إلا يلوم نفسه : ماذا أردت بكلامي ؟ وماذا أردتُ بعلمي ؟ وإن الكافر يمضي ولا يحاسب نفسه ولا يعاتبها (٢) ﴿أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع ، أي أيظن هذا الإنسان الكافر ، المكذب للبعث والنشور ، أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرقتها ؟ قال المفسرون : نزلت هذه الآية في « عدي بن ربيعة » جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد : حدثني عن يوم القيامة ، متى يكون ؟ وكيف أمره ؟ فأخبره رسول الله ﷺ فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أومن بك ، كيف يجمع الله العظام ؟ فنزلت هذه الآية (٣) ، قال تعالى رداً عليه ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ أي بلى نجمعها ونحن قادرون على أن نعيد أطراف أصابعه ، التي هي أصغر أعضائه ، وأدقها أجزاءً ولطفها التثاماً ، فكيف بكبار العظام ؟ وإنما ذكر تعالى البنان - وهي رءوس الأصابع - لما فيها من غرابة الوضع ، ودقة الصنع ، لأن الخطوط والتجاويف الدقيقة التي في أطراف أصابع إنسان ، لا تماثلها خطوط أخرى في أصابع شخص آخر على وجه الأرض ، ولذلك يعتمدون على بصمات الأصابع في تحقيق شخصية الإنسان في هذا العصر (٤) ﴿بَلَىٰ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ أي بل يريد الإنسان بهذا الإنكار أن يستمر على الفجور ، ويقدم على الشهوات والآثام ، دون وازع من خلق أودين ، وينطلق كالحيوان ليس له هم إلا نيل شهواته البهيمية ، ولذلك ينكر القيامة ويكذب بها ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ أي يسأل هذا الكافر

(١) انظر التسهيل ٤/ ١٦٣ والألوسي ٢٩/ ١٣٥ وحاشية الصاوي ٤/ ٢٧٠ (٢) تفسير الخازن ٤/ ١٨٢ (٣) التفسير الكبير للرازي ٣٠/ ٢١٧

(٤) ثبت علمياً أن بشرة الأصابع مغطاة بخطوط دقيقة متناهية في الدقة ، منها ما هو على شكل « أقواس ، أو عراو ، أو دومات » وهذه الخطوط لا يمكن أن يشابه إنسان فيها آخر ، ولهذا اعتمدها الدول رسمياً وأصبحت تميز الإنسان ببصمة الإبهام ، فبارك الله أحسن الخالقين . انظر ما كتبه في كتابنا « التبيان في علوم القرآن » حول هذه المعجزة العلمية صفحة (١٣٦) .

فَإِذَا بَرَقَ الْبَصْرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُؤُ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾

الفاجر - على سبيل الاستهزاء والتكذيب - متى يكون هذا اليوم يوم القيامة؟ قال الرازي : والسؤال هنا سؤال متعنت ومستبعد لقيام الساعة ، ونظيره ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ ؟ ولذلك ينكر المعاد ويكذب بالبعث والنشور ، والغرض من الآية ﴿ليفجر أمامه﴾ أن الإنسان الذي يميل طبعه إلى الاسترسال في الشهوات ، والاستكثار من اللذات ، لا يكاد يُقر بالحشر والنشر ، وبعث الأموات ، لثلاثا تتنغمص عليه اللذات الجسمانية ، فيكون أبداً منكرًا لذلك ، قائلاً على سبيل الهزء والسخرية : أيان يومُ القيامة^(١) ، قال تعالى ردّاً على هؤلاء المنكرين ﴿فإذا برق البصر﴾ أي فإذا زاغ البصر وتحير ، وانبهر من شدة الأهوال والمخاطر ﴿وخسف القمر﴾ أي ذهب ضوؤه وأظلم ﴿وجمع الشمس والقمر﴾ أي جمع بينهما يوم القيامة ، وألقيا في النار ليكونا عذاباً على الكفار قال عطاء : يجمعان يوم القيامة ثم يُقذفان في البحر ، فيكون نار الله الكبرى^(٢) ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر﴾ أي يقول الفاجر الكافر في ذلك اليوم : أين المهرب ؟ وأين الفرار والمنجى من هذه الكارثة الداهية ؟ يقول قول الأيس ، لعلمه بأنه لا فرار حينئذٍ ﴿كلّلاً وزر﴾ ردع له عن طلب الفرار ، أي ليرتدع وينزجر عن ذلك القول ، فلا ملجأ له ، ولا مغيث من عذاب الله ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ أي إلى الله وحده مصير ومرجع الخلائق قال الألوسي : إليه جل وعلا وحده استقرار العباد ، لا ملجأ ولا منجى لهم غيره^(٣) . . . والمقصود من الآيات بيان أهوال الآخرة ، فالأبصار تنبهر يوم القيامة ، وتخشع وتحار من شدة الأهوال ؛ ومن عظم ما تشاهده من الأمور العظيمة ، والإنسان يطيش عقله ، ويذهب رشده ، ويبحث عن النجاة والمخلص ، ولكن هيهات فقد جاءت القيامة وانتهت الحياة ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي يُخبر الإنسان في ذلك اليوم بجميع أعماله ، صغيرها وكبيرها ، عظيمها وحقيرها ، ما قدّمه منها في حياته ، وما أخره بعد مماته ، من سنة حسنة أو سيئة ، ومن سمعة طيبة أو قبيحة^(٤) وفي الحديث (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)^(٥) ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ أي بل هو شاهد على نفسه ، وسوء عمله ، وقبح صنيعه ، لا يحتاج إلى شاهد آخر كقوله ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ والهاء في ﴿بصيرة﴾ للمبالغة كراوية وعلامة قال ابن عباس : الإنسان شاهد على نفسه وحده ، يشهد عليه سمعُه ، وبصره ، ورجلاه ، وجوارحه^(٦) ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ أي ولو جاء

(١) التفسير الكبير للرازي ٢١٨/٣٠ (٢) تفسير الطبري ١١٣/٢٩ وروي عن مجاهد أن المراد كورا كقوله تعالى ﴿إذا الشمس كورت﴾ وقيل : المراد جمعا فظلمعا من المغرب ، ولا يناسبه لأن الكلام عن القيامة . (٣) روح المعاني ١٤٠/٢٩ (٤) هذا معنى ما روي عن ابن عباس وابن مسعود وهو الأرجح وقيل : بما قدم في أول عمره وما أخر في آخره . (٥) الحديث في الصحاح . (٦) تفسير الطبري ١١٥/٢٩ .

لَا تُحْرِكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۚ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۚ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۚ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۚ (٢١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۚ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ۚ (٢٣)

بكل معذرة ليبرر إجرامه وفجوره ، فإنه لا ينفعه ذلك ، لأنه شاهد على نفسه ، وحجة بينة عليها قال الفخر : المعنى أن الإنسان وإن اعتذر عن نفسه ، وجادل عنها ، وأتى بكل عذر وحجة ، فإنه لا ينفعه ذلك لأنه شاهد على نفسه^(١) بما جنت واقترفت من الموبقات . . . وبعد هذا البيان انتقل الحديث إلى القرآن ، وطريقة تلقي الوحي عن جبريل فقال تعالى مخاطباً رسوله ﴿ لَا تُحْرِكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ أي لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي عليك بواسطة جبريل ، لأجل أن تتعجل بحفظه مخافة أن يتفلت منك ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ أي إن علينا أن نجمله في صدرك يا محمد وأن تحفظه ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ أي إذا قرأه عليك جبريل ، فأنصت لاستماعه حتى يفرغ ، ولا تحرك شفطيك أثناء قراءته ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أي ثم إن علينا بيان ما أشكل عليك فهمه يا محمد من معانيه وأحكامه ، قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك به لسانه وشفطيه ، مخافة أن يتفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله ﴿ لَا تُحْرِكُ بِهِ لِسَانَكَ . . ﴾ الآيات ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق واستمع ، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله عز وجل^(٢) قال ابن عباس ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ قال : فاستمع وأنصت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ قال : أن نبينه بلسانك^(٣) وقال ابن كثير : كان ﷺ يبادر إلى أخذ القرآن ، ويسابق الملك في قراءته ، فأمره الله عز وجل أن يستمع له ، وتكفل له أن يجمعه في صدره ، وأن يبينه له ويوضحه ، فالحالة الأولى جمعه في صدره ، والثانية تلاوته ، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه^(٤) ثم عاد الحديث عن المكذبين بيوم الدين فقال تعالى مخاطباً كفار مكة ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ أي ارتدعوا يا معشر المشركين ، فليس الأمر كما زعمتم أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء ، بل أنتم قوم تحبون الدنيا الفانية ، وتتركون الآخرة الباقية ، ولذلك لا تفكرون في العمل للآخرة مع أنها خير وأبقى ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴾ لما ذكر تعالى أن الناس يؤثرون الدنيا ولذائذها الفانية على الآخرة ومسراتها الباقية ، وصف ما يكون يوم القيامة من انقسام الخلق إلى فريقين : أبرار ، وفجار والمعنى وجوه أهل السعادة يوم القيامة مشرقة حسنة مضيئة ، من أثر النعيم ، وبشاشة السرور عليها ، كقوله تعالى ﴿ تعرّف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ أي تنظر إلى جلال ربها ، وتهيم في جماله ، أعظم نعيم لأهل الجنة رؤية المولى جل وعلا والنظر إلى وجهه الكريم بلا حجاب قال الحسن البصري : تنظر إلى الخالق ، وحق لها أن تنظر وهي تنظر إلى الخالق^(٥) ، وبذلك وردت النصوص

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٢٢ . (٢) أخرجه الشيخان وأحمد .

(٣) هذه الرواية عن ابن عباس ثابتة في الصحيحين .

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٦ . (٥) تفسير الطبري ٢٩/ ١٢٠ .

وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَنْظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴿٣١﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٣٢﴾

الصحيحة^(١) ﴿ووجوه يومئذٍ باسرة﴾ أي ووجوه يوم القيامة عابسة كالحة ، شديدة العبوس والكلوح ، وهي وجوه الأشقياء أهل الجحيم ﴿تنظن أن يفعل بها فاقرة﴾ أي تتوقع أن تنزل بها داهية عظمى ، تقصم فقار الظهر ، قال ابن كثير : هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة كالحة عابسة ، تستيقن أنها هالكة^(٢) ، وتتوقع أن تحمل بها داهية تكسر فقار الظهر ﴿كلا إذا بلغت التراقي﴾ ﴿كلا﴾ ردع وزجر عن إثارة العاجلة أي ارتدعوا يا معشر المشركين عن ذلك ، وتنبهوا لما بين أيديكم من الأهوال والمخاطر ، فإن الدنيا دار الفناء ، ولا بد أن تتجرعوا كأس المنية ، وإذا بلغت الروح ﴿التراقي﴾ أعالي الصدر^(٣) ، وشارف الإنسان على الموت ﴿وقيل من راق﴾ أي وقال أهله وأقرباؤه : من يرقيه ويشفيه مما هو فيه ؟ قال في البحر : ذكروهم تعالى بصعوبة الموت ، وهو أول مراحل الآخرة ، حين تبلغ الروح التراقي - وهي عظام أعلى الصدر - فقال أهله : من يرقى ويطب ويشفي هذا المريض^(٤) ؟ ﴿وظن أنه الفراق﴾ أي وأيقن المحتضر أنه سيفارق الدنيا والأهل والمال ، لمعاينته ملائكة الموت ﴿والتفت الساق بالساق﴾ أي والتفت إحدى ساقي المحتضر على الأخرى ، من شدة كرب الموت وسكراته قال الحسن : هما ساقاه إذا التفتا في الكفن^(٥) ، وروي عن ابن عباس أن المراد اجتمعت عليه شدة مفارقة الدنيا ، مع شدة الموت وكربه ، فيكون ذلك من باب التمثيل للأمر الهائل العظيم ، حيث يلتقي عليه شدة كرب الدنيا ، مع شدة كرب الآخرة ، كما يقال : شممت الحرب عن ساق ، استعارة لشدها^(٦) ﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾ أي إلى الله جل وعلا مساق العباد ، يجتمع عنده الأبرار والفجار ، ثم يساقون إلى الجنة أو النار قال الخازن : أي مرجع العباد إلى الله تعالى ، يساقون إليه يوم القيامة ليفصل بينهم . . ثم أخبر تعالى عن حال الجاحد المكذب فقال ﴿فلا صدق ولا صلى﴾ أي لم يصدق بالقرآن ، ولم يصل للرحمن قال أبو حيان : والجمهور على أنها نزلت في «أبي جهل» وكادت أن تصرح به في قوله ﴿يتمطى﴾ فإنها كانت مشيته ومشية قومه بني مخزوم ، وكان يكثُر منها^(٨) ﴿ولكن كذب وتولى﴾ أي ولكن كذب بالقرآن ، وأعرض عن الإيمان ﴿ثم ذهب إلى

(١) هذا هو مذهب أهل السنة ، ويؤيده ما ورد في الصحيحين « إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر . . » الحديث وفي صحيح مسلم « فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى » وأنكر المعتزلة رؤية الله في الآخرة ، وأولوا الآية ﴿ناظرة﴾ بمعنى منتظرة تنتظر ثواب ربها ، وهذا باطل لأن نظر بمعنى انتظر يتعدى بغير حرف الجر ، وانظر الأدلة وافية في تفسير الخازن

١٨٦/٤ (٢) مختصر ابن كثير ٥٧٨/٣

(٣) قال الفخر الرازي : واعلم أنه يكتفى ببلوغ النفس التراقي عن القرب من الموت ، ومنه قول ابن الصمة :

ورب عزيمة دافعت عنها وقد بلغت نفوسهم التراقي

(٤) تفسير الطبري ١٢٣/٢٩ . (٥) انظر البحر المحيط ٣٩٠/٨ .

(٦) تفسير الخازن ١٨٧/٤ . (٧) البحر المحيط ٣٨٩/٨ . (٨) البحر المحيط ٣٩١/٨

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُنْ نَظْفَةً مِّنْ مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً نَّخْلًا فَسَوَىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

أهله يتمطى ﴿٣٣﴾ أي ذهب يتبختر في مشيته ، وذلك عبارة عن التكبر والخيلاء ﴿٣٤﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أي ويل لك يا أيها الشقي ثم ويل لك قال المفسرون : هذه العبارة في لغة العرب ذهبت مذهب المثل في التخويف والتحذير والتهديد ، وأصلها أنها أفعل تفضيل من وليه الشيء إذا قاربه ودنا منه أي وليك الشر وأوشك أن يصيبك ، فاحذر وانتبه لأمرك . . . روي أن النبي ﷺ أخذ بيد أبي جهل ثم قال له : ﴿أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى﴾ فقال أبو جهل : أتتوعدني يا محمد وتهددني ؟ والله لا تستطيع أنت وربك أن تفعل بي شيئاً ، والله إني لأعزُّ أهل الوادي ، ثم لم يلبث أن قتل بيدر شر قتله ﴿ثم أولى لك فأولى﴾ كرهه مبالغة في التهديد والوعيد ، كأنه يقول : إني أكرر عليك التحذير والتخويف ، فاحذر وانتبه لنفسك ، قبل نزول العقوبة بك . . . ولما ذكر في أول السورة إمكان البعث ، ذكر في آخر السورة الأدلة على البعث والنشور فقال ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ ؟ أي أفيظن الإنسان أن يترك هملأً ، من غير بعث ولا حساب ولا جزاء ؟ وبدون تكليف بحيث يبقى كالبهائم المرسله ؟ لا ينبغي له ولا يليق به هذا الحسبان ﴿ألم يك نطفة من مني يُمْنَى﴾ الاستفهام للتقرير أي أما كان هذا الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين ، يراق ويُصب في الأرحام ؟ والغرض بيان حقارة حاله كأنه يقول إنه مخلوق من المنى الذي يجري مجرى البول ﴿ثم كان علقة فخلق فسوى﴾ أي ثم أصبح بعد ذلك قطعة من دم غليظ متجمد يشبه العلقة ، فخالقه الله بقدرته في أجمل صورة ، وسوى صورته وأثقتها في أحسن تقويم ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ أي فجعل من هذا الإنسان صنفين : ذكراً وأنثى بقدرته تعالى ، هذا هو أصل الإنسان وتركيبه ، فكيف يليق بمثل هذا الضعيف أن يتكبر على طاعة الله ؟ ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ أي أليس ذلك الإله الخالق الحكيم ، الذي أنشأ هذه الأشياء العجيبة ، وأوجد الإنسان من ماء مهين ، بقادر على إعادة الخلق بعد فنائهم ؟ بلى إنه على كل شيء قدير روي أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال : « سبحانك اللهم بلى » .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿قَدَّمَ . . وأخر﴾ وكذلك بين ﴿صدق . . وكذب﴾ .
- ٢ - الاستفهام الإنكاري بغرض التوبيخ ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه﴾ ؟ ومثله ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ ؟ لأن الغاية التوبيخ والتقريع .

- ٣ - استبعاد تحقق الأمر ﴿يسأل أيان يومُ القيامة﴾ فالغرض من الاستفهام الاستبعاد والإنكار .
- ٤ - الجناس غير التام بين ﴿بنانه﴾ و﴿بيانه﴾ لاختلاف بعض الحروف .
- ٥ - المقابلة اللطيفة بين نضارة وجوه المؤمنين ، وكلاحة وجوه المجرمين ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة * إلى ربها ناظرة﴾ وبين ﴿وجوه يومئذٍ باسرة . .﴾ الخ .
- ٦ - الجناس الناقص بين لفظ ﴿الساق﴾ و﴿المساق﴾ .
- ٧ - المجاز المرسل ﴿وجوه يومئذٍ﴾ عبر بالوجه عن الجملة فهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل .
- ٨ - الالتفات ﴿أولى لك فأولى﴾ فيه التفات من الغيبة إلى المخاطب تقيحاً له وتشنيعاً .
- ٩ - توافق الفواصل ويسمى في علم البديع السجع المرصع مثل ﴿فإذا برق البصر * وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذٍ أين المفر﴾ وهذا من خصائص القرآن ، معجزة محمد عليه الصلاة والسلام .
- ﴿تم بعونه تعالى تفسير سورة القيامة﴾



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الدهر من السور المدنية ، وهي تعالج أموراً تتعلق بالآخرة ، وبوجه خاص تتحدث عن نعيم المتقين الأبرار ، في دار الخلد والإقامة في جنات النعيم ، ويكاد يكون جوُّ السورة هو جو السور المكية لإيجائها وأسلوبها ومواضيعها المتنوعة .

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان قدرة الله في خلق الإنسان في أطوار ، وتهيته ليقوم بما كلف به من أنواع العبادة ، حيث جعل الله تعالى له السمع والبصر وسائر الحواس ﴿هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفةٍ أمشاجٍ نبئليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ .

* ثم تحدثت عن النعيم الذي أعده الله في الآخرة لأهل الجنة ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ * عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً ﴿ .

* ثم ذكرت أوصاف هؤلاء السعداء بشيء من الإسهاب ، فوصفتهم بالوفاء بالندى ، وإطعام الفقراء ابتغاء مرضاة الله ، والخوف من عذاب الله ، وذكرت أن الله تعالى قد آمنهم من ذلك اليوم العبوس الذي تكلح فيه الوجوه ﴿ يوفون بالندى ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ * ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً ﴾ الآيات .

* وأشادت - بعد ذكر أوصافهم - بما لهم عند الله من الأجر والكرامة في دار الإقامة، وبما حباهم الله من الفضل والنعيم يوم الدين ﴿ وجزاهم بما صبروا جنةً وحريراً ﴾ * متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً * ودانيةً عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ﴿ .

* وتتابعت السورة في سرد نعيم أهل الجنة في مآكلهم ، ومشربهم ، وملبسهم ، وخدمهم الذين يطوفون عليهم صباح مساء ﴿ ويطاف عليهم بأنيّةٍ من فضةٍ وأكوابٍ كانت قواريراً ﴾ * قوارير من فضة قدروها تقديراً * ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً * عينا فيها تسمى سلسبيلاً * ويطوف عليهم ولدانٌ مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ﴿ .

* وختمت السورة الكريمة ببيان أن هذا القرآن تذكرة لمن كان له قلبٌ يعي ، أو فكر ثاقب يستضيء بنوره ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ * وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً * يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً ﴿ .

قال الله تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر .. إلى .. والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً ﴾ من آية (١) إلى آية (٣١) نهاية السورة .

اللغة: ﴿ أمشاج ﴾ أخلاط جمع مشج ومشيج مثل شريف وأشراف ، يقال للشيء إذا خلط بغيره : مشيجٌ كخليط لفظاً ومعنى ﴿ مستطيراً ﴾ منتشرٌ غاية الانتشار يقال : استطار الشيء انتشر ﴿ قمطيراً ﴾ القمطير : الشديد العصب الذي يطول بلاؤه قال الأخفش : القمطير أشد ما يكون من الأيام وأطولها في البلاء ^(١) ﴿ دانية ﴾ قريبة ﴿ ذلت ﴾ سخرت وقربت ﴿ سلسبيلاً ﴾ السلسبيل : الشراب اللذيذ الذي هو غاية في السلاطة ، والذي يسهل في الحلق لعدوبته وصفائه ﴿ سندس ﴾ السندس : الرقيق من ثياب الحرير ﴿ استبرق ﴾ ثياب الحرير الغليظة ويسمى الديباج ﴿ أسرهم ﴾ الأسر في الاصل : الشد والربط ، ثم أطلق على الخلق يقال : شدّ أسره أي أحسن خلقه وأحكم تكوينه قال الأخطل :

من كل محتنب شديد أسره سلس القياد تحاله مختلاً ^(٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْعًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ
بِجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

التفسير : ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر﴾ أي قد مضى على الإنسان وقت طويل من الزمان ﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ أي كان في العدم ، لم يكن له ذكر ولا وجود قال ابن كثير : يخبر تعالى عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته وضعفه^(١) قال المفسرون : ﴿هل أتى﴾ بمعنى قد أتى كما تقول : هل رأيت صنيع فلان ، وقد علمت أنه قد رآه ، وتقول : هل أكرمتك ، هل وعظمتك ؟ ومقصودك أن تقرره بأنك قد أكرمته ووعظته ، والمراد بالإنسان الجنس ، وبالحين مدة لبثه في بطن أمه^(٢) ، والغرض من الآية تذكير الإنسان بأصل نشأته ، فقد كان شيئاً منسياً لا يفطن له ، وكان في العدم جرثومة في صلب أبيه ، وماء مهيناً لا يعلم به إلا الذي يريد أن يخلقه ، ومرّ عليه حين من الدهر كانت الكرة الأرضية خالية منه ، ثم خلقه الله ، وأبدع تكوينه وإنشائه ، بعد أن كان مغموراً ومنسياً لا يعلم به أحد . . . وبعد أن قرر أن الإنسان مرّ عليه وقت لم يكن موجوداً ، أخذ يشرح كيف أفاض عليه نعمة الوجود ، واختبره بالتكاليف الشرعية بعد أن متّعه بنعمة العقل والحواس فقال ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج﴾ أي نحن بقدرتنا خلقنا هذا الانسان من ماء مهين - وهو المنى - الذي ينطف من صلب الرجل ، ويختلط بماء المرأة « البويضة الأنثوية » فيتكون منهما هذا المخلوق العجيب قال ابن عباس : ﴿أمشاج﴾ يعني أخلاط ، وهو ماء الرجل وماء المرأة اذا اجتمعا واختلطا ، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور ، ومن حال إلى حال^(٣) ﴿نبتليه﴾ أي لنختبره بالتكاليف الشرعية ، والأوامر الإلهية ، لننظر أيشكر أم يكفر ؟ وهل يستقيم في سيره أم ينحرف ويزيغ ؟ ﴿فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ أي فجعلناه من أجل ذلك عاقلاً مميزاً ، ذا سمع وبصر ، ليسمع الآيات التنزيلية ، ويبصر الدلائل الكونية ، على وجود الخالق الحكيم قال الإمام الفخر : أعطاه تعالى ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر ، وهما كنياتان عن الفهم والتميز ، كما قال تعالى حاكياً عن إبراهيم ﴿لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر﴾ ؟ وقد يراد بهما الحاستان المعرفتان ، وخصّهما بالذكر لأنهما أعظم الحواس وأشرفها^(٤) ﴿إنا هديناه السبيل﴾ أي بينا للإنسان وعرفناه طريق الهدى والضلال ، والخير والشر ، ببعثة الرسل ، وإنزال الكتب . . . أخبر تعالى أنه بعد أن ركبه وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة ، بين له سبيل الهدى والضلال ، ومنحه العقل وترك له حرية الاختيار ، ثم هو بعد ذلك إما أن يشكر ، أو يكفر ، ولهذا قال بعده ﴿إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾ أي

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٨٠ . (٢) انظر التفسير الكبير للرازي ٣٠/ ٢٣٥ .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٨٠ . (٤) تفسير الفخر الرازي ٣٠/ ٢٣٧ .

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾
عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾

إما أن يكون مؤمناً شاكراً لنعمة الله ، فيسلك سبيل الخير والطاعة ، وإما أن يكون شقيماً فاجراً ، فيكفر بنعمة الله ويسلك سبيل الشر والفجور قال المفسرون : المراد هديناه السبيل ليكون إما شاكراً وإما كفوراً ، فالله تعالى دلَّ الإنسان على سبيل الشكر والكفر ، وعلى الإنسان أن يختار سلوك هذا أو ذاك ، وهذه الآية من جملة الآيات الكثيرة الدالة على أن للإنسان إرادة واختياراً هما مناط التكليف ، كقوله تعالى ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء﴾ إلى ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها﴾ وكقوله ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ فلا إكراه لأحدٍ ولا إجبار ، وإنما هو بمحض الإرادة والاختيار^(١) . . ثم بعد هذا البيان الواضح ، بين ما أعدّه للأبرار والفجار في دار القرار فقال ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ أي هيأنا للكافرين المجرمين قيوداً تشدُّ بها أرجلهم ، وأغلالاً تُعلِّقُ بها أيديهم إلى أعناقهم ، وسعيراً أي ناراً موقدة مستعرة يحرقون بها كقوله تعالى ﴿إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ في الحميم ثم في النار يُسجرون ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي الذين كانوا في الدنيا أبراراً بطاعتهم الجبار ، فإنهم يشربون كأساً من الخمر ، ممزوجة بأنفس أنواع الطيب وهو الكافور ، قال المفسرون : الكافور طيبٌ معروف يستحضر من أشجار ببلاد الهند والصين ، وهو من أنفس أنواع الطيب عند العرب ، والمراد أن من شرب تلك الكأس وجدها في طيب رائحتها ، وفوحان شذاها كالكافور^(٢) . قال ابن عباس : الكافور اسم عين ماءٍ في الجنة يقال له عين الكافور تترج الكأس بماء هذه العين وتختم بالمسك فتكون ألدَّ شراب ، ولهذا قال تعالى ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ أي هذا الكافور يتدفق من عينٍ جارية من عيون الجنة يشرب منها عباد الله الأبرار ، وصفهم بالعبودية تكريماً لهم وتشريفاً بإضافتهم إليه تعالى ﴿عباد الله﴾ والمراد بهم المؤمنون المتقون ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي يجرونها حيث شاءوا من الدور والقصور قال الصاوي : المراد أنها سهلة لا تمتنع عليهم ، ورد أن الرجل منهم يمشي في بيوته ، ويصعد إلى قصوره وييده قضيب يشير به إلى الماء ، فيجري معه حيثما دار في منزله ، ويتبعه حيثما صعد إلى أعلى قصوره^(٣) . . ولما ذكر ثواب الأبرار ، بين صفاتهم الجليلة التي استحقوا بها ذلك الأجر الجزيل فقال ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ أي يوفون بما قطعوه على أنفسهم من نذرٍ في طاعة الله ، إذا نذروا طاعةً فعلوها قال الطبري : النذر كل ما أوجبه الإنسان على نفسه من فعل ، فإذا نذروا بربوا بوفائهم لله ، بالنذور التي في طاعة الله^(٤) ، من صلاة ، وزكاة ، وحج ، وصدقة قال المفسرون : وهذا مبالغة في وصفهم بأداء الواجبات ، لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه ، كان بما أوجبه الله عليه أوفى^(٥) ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أي ويخافون

(١) انظر التفسير الكبير للرازي ٣٠/٢٣٨ . (٢) تفسير القرطبي ١٩/١٢٣ .

(٣) حاشية الصاوي ٤/٢٧٤ . (٤) تفسير الطبري ٢٩/١٢٩ . (٥) انظر التفسير الكبير ٣٠/٢٤١ .

وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿١٠﴾ إِنَّمَا نُنْعَمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿١١﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ﴿١٢﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١٣﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٤﴾ مُتَكِينِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا سَمَاسًا وَلَا

هول يوم عظيم كانت أهواله وشدائده - من تفتقر السموات ، وتناثر الكواكب ، وتطير الجبال ، وغير ذلك من الأهوال - ممتدة منتشرة فاشية ، بالغة أقصى حدود الشدة والفرع ، قال قتادة : استطار والله شر ذلك اليوم حتى بلغ السموات والأرض (١) ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ أي يطعمون الطعام مع شهوتهم له ، وحاجتهم إليه ﴿ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ أي فقيراً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ، ويتيماً مات أبوه وهو صغير ، فعدم الناصر والكفيل ، وأسيراً وهو من أسر في الحرب من المشركين قال الحسن البصري : كان رسول الله ﷺ يُؤْتَى بِالْأَسِيرِ ، فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول له : أحسن إليه فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه (٢) . . . نَبَّهَ تَعَالَى إِلَى أَنَّ أَوْلَئِكَ الْأَبْرَارَ مَعَ حَاجَتِهِمْ إِلَى ذَلِكَ الطَّعَامِ ، فِي سَدِّ جُوعَتِهِمْ وَجُوعَةِ عِيَالِهِمْ ، يَطْبِئُونَ نَفْسًا عَنْهُ لِلْبُؤْسَاءِ ، وَيُؤْثِرُونَهُمْ بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ﴿ إِنَّمَا نُنْعَمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ أي إنما نحسن إليكم ابتغاء مرضاة الله وطلب ثوابه ﴿ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴾ أي لا نبتغي من وراء هذا الإحسان مكافأةً ، ولا نقصد الحمد والثناء منكم قال مجاهد : أما والله ما قالوه بألسنتهم ، ولكن علم الله به من قلوبهم ، فأثنى عليهم به ، ليرغب في ذلك راغب (٣) ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ﴾ أي إنما نفعل ذلك رجاء أن يقينا الله هول يوم شديد ، تعبس فيه الوجوه من فظاعة أمره ، وشدته هوله ، وهو يوم قمطير أي شديد عصيب (٤) ﴿ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ أي حماههم الله ودفع عنهم شر ذلك اليوم وشدته ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ أي وأعطاهم نضرة في الوجه ، وسروراً في القلب ، والتنكير في ﴿ سُرُورًا ﴾ للتعظيم والتفخيم ﴿ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ أي وأثابهم بسبب صبرهم على مرارة الطاعة والإيثار بالمال ، جنة واسعة وألبسهم فيها الحرير كما قال تعالى ﴿ وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ . . . وفي الآية إيجاز ، أخذ بأطراف الإعجاز ، فقد أشار تعالى بقوله ﴿ جَنَّةً ﴾ إلى ما يتمتع به أولئك الأبرار في دار الكرامة من أصناف الفواكه والثمار ، والمطاعم والمشارب الهنية ، فإن الجنة لا تسمى جنة إلا وفيها كل أسباب الراحة كما قال تعالى ﴿ وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴾ وأشار بقوله ﴿ وَحَرِيرًا ﴾ إلى ما يتمتعون به من أنواع الزينة واللباس ، التي من أنفسها وأغلاها عند العرب الحرير ، فقد جمع لهم أنواع الطعام والشراب واللباس ، وهو قصارى ما تتطلع له نفوس الناس . . . ولما ذكر طعامهم ولباسهم وصف نعيمهم ومسكنهم فقال ﴿ مُتَكِينِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ أي مضطجعين في الجنة

(١) تفسير الطبري ١٢٩/٢٩ . (٢) روح المعاني ١٥٥/٢٩ .

(٣) مختصر ابن كثير ٥٨٢/٣ . (٤) قال الطبري : ﴿ قَمَطِيرٌ ﴾ شديد يقال : يوم قمطير أي شديد عصيب أ هـ ١٣١/٢٩ .

زَمَّهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ
كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا
﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾

على الأسرة المزيّنة بفاخر الثياب والستور قال المفسرون : الأرائك جمع أريكة وهي السرير ترخى عليه الحجلة ، والحجلة هي ما يسدل على السرير من فاخر الثياب والستور ، وإنما خصّهم بهذه الحالة لأنها أتم حالات المتنعم ﴿ لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴾ أي لا يجدون فيها حراً ولا برداً ، لأن هواءها معتدل فلا حرّ ولا قرّ ، وإنما هي نسيمات تهبّ من العرش تحمي الأنفاس ﴿ ودانية عليهم ظلالها ﴾ أي ظلال الأشجار في الجنة قريبة من الأبرار ﴿ وذلت قطوفها تذليلًا ﴾ أي أدنيت ثمارها منهم ، وسهل عليهم تناولها قال ابن عباس : إذا همّ أن يتناول من ثمارها تدلّت إليه حتى يتناول منها ما يريد^(١) . . ولما وصف طعامهم ولباسهم ومسكنهم ، وصف بعد ذلك شرابهم فقال ﴿ ويطاف عليهم ببانية من فضة ﴾ أي يدور عليهم الخدم بالأواني الفضية فيها الطعام والشراب - على عادة أهل الترف والنعيم في الدنيا - فيتناول كل واحدٍ منهم حاجته ، وهذه الأواني هي الصّحاف بعضها من فضة وبعضها من ذهب كما قال تعالى ﴿ يطاف عليهم بصحاف من ذهب ﴾ قال الرازي : ولا منافاة بين الآيتين ، فتارة يسقون بهذا ، وتارة بذاك^(٢) ﴿ وأكواب كانت قوارير ﴾ أي وأكواب - وهي كالأقداح - رقيقة شفافة كالزجاج في صفائه قال في البحر : ومعنى ﴿ كانت ﴾ أن الله تعالى أوجدها بقدرته ، فيكون تفخياً لتلك الخلقة العجيبة الشأن ، الجامعة بين بياض الفضة ونصوعها ، وشفيف القوارير وصفائها^(٣) ﴿ قوارير من فضة ﴾ أي هي جامعة بين صفاء الزجاج ، وحسن الفضة قال ابن عباس : ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء - يعني أن ما في الجنة أسمى وأشرف وأعلى - ولو أخذت فضة من فضة الدنيا ، فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب ، لم ير الماء من ورائها ، ولكن قوارير الجنة بياض الفضة ، مع صفاء القوارير^(٤) ﴿ قدرّوها تقديراً ﴾ أي قدرّوها السقاة على مقدار حاجتهم ، لا تزيد ولا تنقص ، وذلك ألدّ وأشهى قال ابن عباس : أتوا بها على قدر الحاجة لا يفضلون شيئاً ، ولا يشتهون بعدها شيئاً^(٥) ﴿ ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً ﴾ أي يسقى هؤلاء الأبرار في الجنة كأساً من الخمر ممزوجة بالزنجبيل ، والعرب تستلذ من الشراب ما مزج بالزنجبيل لطيب رائحته قال القرطبي : فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة والطيب^(٦) قال قتادة : الزنجبيل اسم لعين في الجنة يشرب منها المقربون صرفاً ، وتمزج لسائر أهل الجنة^(٧) ﴿ عيناً فيها تُسمى سلسبيلاً ﴾ أي يشربون من عين في الجنة تسمى السلسبيل ، لسهولة مساعها وانحدارها في الخلق قال المفسرون : السلسبيل : الماء العذب ، السهل

(١) تفسير القرطبي ١٩/١٣٧ . (٢) التفسير الكبير ٣٠/٢٤٩ . (٣) البحر المحيط ٨/٣٩٧ . (٤) تفسير الألوسي ٢٩/١٥٩ .

(٥) تفسير الألوسي ٢٩/١٦٠ . (٦) تفسير القرطبي ١٩/١٤٠ . (٧) تفسير البحر المحيط ٨/٣٩٨ .

* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَلْتَهُمْ رِبْعًا شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾

الجرىان في الحلق لعدوبته وصفائه ، وإنما وصف بأنه سلسبيل ، لأن ذلك الشراب يكون في طعم الزنجبيل ، ولكن ليس فيه لذعته ، فيشعر الشاربون بطعمه ، لكنهم لا يشعرون بحرقته ، فيبقى الشراب سلسبيلًا ، سهل المساغ في الحلق . . ثم وصف بعد ذلك خدم أهل الجنة فقال ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي ويدور على هؤلاء الأبرار ، غلمانٌ ينشئهم الله تعالى لخدمة المؤمنين ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي دائمون على ما هم عليه من الطراوة والبهاء قال القرطبي : أي باقون على ما هم عليه من الشباب ، والنضارة ، والغضاضة ، والحسن ، لا يهرمون ولا يتغيرون ، ويكونون على سن واحدة على مر الأزمنة (١) ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ﴾ أي إذا نظرتهم منتشرين في الجنة لخدمة أهلها ، خلتهم لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم ، كأنهم اللؤلؤ المنثور قال الرازي : هذا من التشبيه العجيب ، لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقاً يكون أحسن في المنظر ، لوقوع شعاع بعضه على بعض فيكون أروع وأبدع (٢) ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا لَا يَكَادُ يوصف ، وملكاً واسعاً عظيماً لا غاية له ، كما في الحديث القدسي (أعددتُ لعبادي الصالحين ، ما لا عين رأت ، ولا أُذنُ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) قال ابن كثير : وثبت في الصحيح أن (أقل أهل الجنة منزلةً من له قدر الدنيا وعشرة أمثالها) فإذا كان هذا عطائه تعالى لأدنى من يكون في الجنة ، فما ظنك بمن هو أعلى منزلةً وأحظى عنده تعالى (٣) ؟ ثم زاد تعالى في بيان وصف نعيمهم فقال ﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ أي تعلقوهم الثياب الفاخرة الخضراء ، المزينة بأنواع الزينة ، من الحرير الرقيق - وهو السندس - والحرير الثخين وهو - الاستبرق - فلباسهم في الجنة الحرير كما قال تعالى ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ قال المفسرون : السندس مارق من الحرير ، والاستبرق ما غلظ من الحرير ، وهذا لباس الأبرار في الجنة ، وإنما قال ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ لينبه على أن لهم عدة من الثياب ، ولكن الذي يعلوها هي هذه ، فتكون أفضلها ﴿ وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ أي وألبسوا في الجنة أساور فضية للزينة والحلية وعبر بالماضي إشارةً لتحقق وقوعه قال الصاوي : فإن قيل : كيف قال هنا ﴿ أساور من فضة ﴾ وفي سورة الكهف ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ وفي سورة فاطر ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ﴾ فالجواب أنهم تارة يلبسون الذهب فقط ، وتارة يلبسون الفضة ، وتارة يلبسون اللؤلؤ فقط على حسب ما يشتهون ، ويمكن أن يجمع في يد أحدهم أسورة الذهب والفضة واللؤلؤ (٤) ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ أي سقاهم الله - فوق ذلك النعيم - شراباً طاهراً لم تدنسه الأيدي ، وليس بنجس كخمر الدنيا قال الطبري : سقي هؤلاء الأبرار شراباً طهوراً ، ومن طهره أنه لا يصير بولاً نجساً ، بل رشحاً من أبدانهم كرشح المسك ، روي أن الرجل من أهل الجنة يقسم له شهوة مائة رجل من أهل

(١) تفسير القرطبي ١٤١/١٩ . (٢) التفسير الكبير ٢٥١/٣٠ . (٣) مختصر ابن كثير ٥٨٤/٣ . (٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٢٧٨/٤ .

إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٣٣﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ ءَائِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٣٥﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٣٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٣٦﴾

الدنيا ، فإذا أكل سقي شراباً طهوراً ، فيصير رشحاً يخرج من جلده أطيّب ريحاً من المسك الإذخر^(١) ﴿٣٣﴾ إن هذا كان لكم جزاء ﴿٣٤﴾ أي يقال لهم بعد دخولهم الجنة ومشاهدتهم نعيمها : هذا مقابل أعمالكم الصالحة في الدنيا ﴿٣٥﴾ وكان سعيكم مشكوراً ﴿٣٥﴾ أي وكان عملكم مقبولاً مرضياً ، جوزيتم عليه أحسن الجزاء ، مع الشكر والثناء . . مرّ في الآيات السابقة أن الله تعالى أعدّ للكافرين السلاسل والأغلال ، كما هيأ للأبرار أرائك يتكثون عليها ، وعليهم ثياب السندس والاستبرق ، وفي معاصمهم أساور الفضة ، وبين أيديهم ولدان مخلدون كأنهم اللؤلؤ المنثور ، يطوفون على أولئك الأبرار بصحاف الفضة وأكوابها الصافية النقية ، وقد ملئت شراباً ممزوجاً بالزنجبيل والكافور ، وكل ذلك للترغيب والترهيب ، على طريقة القرآن في المقارنة بين أحوال الأبرار والفجار . . وبعد هذا الوضوح والبيان ، كان المشركون يقابلون كل هذه الآيات بالصدّ والإعراض ، والاستهزاء بالقرآن وبمحمد عليه الصلاة والسلام ، وكان الرسول يتألم ويحزن لموقف المعاندين ، لذلك جاءت الآيات تشدّ من عزيمته ، وتسليّه وتحفف عن قلبه الشريف آثارهم والضرر ﴿٣٤﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٣٥﴾ أي نحن الذين أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن مفرقاً ، لتذكركم بما فيه من الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، فلا تبتئس ولا تحزن ولا تضجر ، فالقرآن حق ووعد صدق ﴿٣٥﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴿٣٥﴾ أي اصبر يا محمد وانتظر لحكم ربك وقضائه ، فلا بدّ أن ينتقم منهم ، ويقر عينك بإهلاكهم ، إن عاجلاً أو آجلاً ﴿٣٥﴾ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ ءَائِمًا ﴿٣٥﴾ أي ولا تطع من هؤلاء الفجرة من كان ﴿٣٥﴾ ءَائِمًا ﴿٣٥﴾ منغمساً في الشهوات ، غارقاً في الموبقات ﴿٣٥﴾ أَوْ كَفُورًا ﴿٣٥﴾ أي ولا تطع من كان مبالغاً في الكفر والضلال ، لا ينزجر ولا يرعوي ، وصيغة ﴿كفور﴾ من صيغ المبالغة ومعناها المبالغ في الكفر والجحود قال المفسرون : نزلت في «عتبة بن ربيعة» و«الوليد بن المغيرة» قالاً للنبي ﷺ : إن كنت تريد النساء والمال فارجع عن هذا الأمر ونحن نكفيك ذلك ، فقال عتبة : أنا أزوجك ابنتي وأسوقها لك من غير مهر ، وقال الوليد : أنا أعطيك من المال حتى ترضى فنزلت^(٢) ، والأحسن أنها على العموم لأن لفظها عام فهي تشمل كل فاسق وكافر ﴿٣٥﴾ وادكر اسم ربك ﴿٣٥﴾ أي صلّ لربك وأكثر من عبادته وطاعته ﴿٣٥﴾ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٣٥﴾ أي في أول النهار وآخره ، في الصباح والمساء ﴿٣٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ ﴿٣٥﴾ أي ومن الليل فصلّ له ، متهجداً مستغرقاً في مناجاته ﴿٣٥﴾ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٣٥﴾ أي وأكثر من التهجد والقيام لربك في جناح الظلام والناس نيام كقوله تعالى ﴿٣٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٣٦﴾ والمقصود أن يكون عابداً لله ذاكراً له في جميع الأوقات ، في الليل والنهار ، والصباح والمساء ،

(١) تفسير الطبري ١٣٧/٢٩ . (٢) انظر التفسير الكبير ٢٥٨/٣٠ وتفسير القرطبي ١٤٧/١٩ وحاشية الصاوي ٢٧٨/٤ .

إِنَّ هَتُوْلَاءَ يُجِبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا
 أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

بقلبه ولسانه ، ليتقوى على مجابهة أعدائه . . وبعد تسلية النبي الكريم ، عاد إلى شرح أحوال الكفرة
 المجرمين فقال ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أي إن هؤلاء المشركين يفضلون الدنيا على الآخرة ،
 وينهمكون في لذائذها الفانية ﴿ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً﴾ أي ويتركون أمامهم يوماً عسيراً شديداً ،
 عظيم الأحوال والشدائد ، وهو يوم القيامة ﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم﴾ أي نحن بقدرتنا
 أوجدناهم من العدم ، وأحكما ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق ، حتى كانوا أقوياء أشداء ﴿وإذا
 شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً﴾ أي ولو أردنا أهلكتناهم ، ثم بدلنا خيراً منهم يكونون أعبد لله وأطوع ، وفي
 الآية تهديدٌ ووعيدٌ ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ أي هذه الآيات الكريمة بمعناها الدقيق ، ولفظها الرشيق ، موعظة
 وذكرى ، يتذكر بها العاقل ، وينزجر بها الجاهل ﴿فمن شاء اتخذ إلىٰ ربه سبيلاً﴾ أي فمن أراد
 الانتفاع والاعتبار وسلوك طريق السعادة ، فليعتبر بآيات القرآن ، وليستتر بنوره وضيائه ، وليتخذ طريقاً
 موصلاً إلىٰ ربه ، بطاعته وطلب مرضاته ، فأسباب السعادة ميسورة ، وسبل النجاة ممهدة ﴿وما تشاءون
 إلا أن يشاء الله﴾ أي وما تشاءون أمراً من الأمور ، إلا بتقدير الله ومشئته ، ولا يحصل شيء من
 الطاعة والاستقامة إلا بإذنه تعالى وإرادته ، قال ابن كثير : أي لا يقدر أحد أن يهدي نفسه ، ولا يدخل في
 الإيمان ، ولا يجبر لنفسه نفعاً ، إلا بمشيئة الله تعالى ^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عالم بأحوال
 خلقه ، حكيم في تدبيره وصنعه ، يعلم من يستحق الهداية فييسرها له ، ومن يستحق الضلالة فيسهل له
 أسبابها ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي يدخل من شاء من عباده
 جنته ورضوانه حسب مشيئته وحكمته وهم المؤمنون ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وأما
 المشركون الظالمون فقد هيا لهم عذاباً شديداً مؤلماً في دار الجحيم ، ختم السورة الكريمة ببيان مال المتقين ،
 ومال الكفرة المجرمين .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿شاكراً﴾ و﴿كفوراً﴾ وبين ﴿بكرة﴾ و﴿أصيلاً﴾ وبين ﴿شمساً﴾ و﴿زمهرياً﴾ .
- ٢ - اللف والنشر المشوش ﴿إنا أعتدنا للكافرين سلاسل﴾ فإنه قدّم أولاً ذكر الشاكر ثم الكافر
 ﴿شاكراً أو كفوراً﴾ ثم عاد بالذكر على الثاني دون الأول ففيه لف ونشر غير مرتب .
- ٣ - المجاز العقلي ﴿يوماً عبوساً﴾ إسناد العبوس إلى اليوم من إسناد الشيء إلى زمانه كنهاره صائم .

- ٤ - الجناس غير التام ﴿فوقاهم﴾ .. ولقاهم ﴿فبين وقاهم ولقاهم جناس﴾ .
- ٥ - جناس الاشتقاق ﴿ويطعمون الطعام﴾ .
- ٦ - الطباق ﴿يحبون﴾ .. ويزرون ﴿﴾ .
- ٧ - الایجاز بالحذف ﴿إن هذا كان لكم جزاء﴾ أي يقال لهم : إن هذا .. الخ .
- ٨ - التشبيه البديع الرائع ﴿إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾ أي كاللؤلؤ المنتثر .
- ٩ - المقابلة اللطيفة ﴿يحبون العاجلة ويزرون وراءهم يوماً ثقيلاً﴾ قابل بين المحبة والترك وبين العاجلة والباقية .
- ١٠ - السجع المرصع مثل ﴿لؤلؤاً منثوراً﴾ .. شراباً طهوراً .. وكان سعيكم مشكوراً .. أثماً أو كفوراً﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الدهر »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

- * سورة المرسلات مكية ، وهي كسائر السور المكية تعالج أمور العقيدة ، وتبحث عن شؤون الآخرة ، ودلائل القدرة والوحدانية ، وسائر الأمور الغيبية .
- * ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بأنواع الملائكة ، المكلفين بتدبير شؤون الكون ، على أن القيامة حق ، وأن العذاب والهلاك واقع على الكافرين ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ فالعاصفات عصفاً * والناشرات نشرأ * فالفارقات فرقاً * فالملقيات ذكراً * عذراً أو نذراً * إنما توعدون لواقع ﴾ .
- * ثم تحدثت عن وقت ذلك العذاب الذي وعد به المجرمون ﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ وإذا السماء

فرجت * وإذا الجبال نسفت * وإذا الرسل أقتت * لأي يومٍ أُجلت * ليوم الفصل * وما أدراك ما يوم الفصل ﴿

* وتناولت السورة بعد ذلك دلائل قدرة الله الباهرة على إعادة الإنسان بعد الموت ، وإحيائه بعد الفناء ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذابين * ألم نهلك الأولين * ثم نتبعهم الآخرين * كذلك نفعل بالمجرمين * ويلٌ يومئذٍ للمكذابين * ألم نخلقكم من ماءٍ مهين﴾ الآيات .

* ثم تحدثت عن مآل المجرمين في الآخرة وما يلقون فيه من نكال وعقاب ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذابين * انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون * انطلقوا إلى ظلٍ ذي ثلاث شعب * لا ظليلٍ ولا يغني من اللهب * إنها ترمي بشررٍ كالقصر * كأنه جمالت صفر . .﴾ الآيات .

* وبعد الحديث عن المجرمين ، تحدثت السورة عن المؤمنين المتقين ، وذكرت ما أعدده الله تعالى لهم من أنواع الإفضال والإكرام ﴿إن المتقين في ظلال وعيون * وفواكه مما يشتهون * كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون * إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ .

* وختمت السورة الكريمة ببيان سبب امتناع الكفار ، عن عبادة الله الواحد القهار ، وهو الطغيان والإجرام ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذابين * كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون * ويلٌ يومئذٍ للمكذابين * وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون * ويلٌ يومئذٍ للمكذابين * فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ فالعاصفات عصفاً . . إلى . . فبأي حديث بعده يؤمنون ﴿ من آية (١) إلى آية (٥٠) نهاية السورة .

اللغز : ﴿ فرجت ﴾ فتحت وشقت يقال : فرجت الشيء فانفرج أي فتحته فانفتح ﴿ كفاتاً ﴾ الكفت في اللغة : الضمُّ والجمع قال الشاعر :

فأنت اليوم فوق الأرض حيٌّ وأنت غداً تضمُّك في كفات^(١)

﴿ شامخات ﴾ عاليات مرتفعات ، يقال : شمخ بأنفه إذا رفعه كبيراً ﴿ فراتاً ﴾ عذاباً شديداً الحلاوة ﴿ بشرر ﴾ الشرر : ما تطاير من النار وتفرق جمع شررة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾

التفسير : ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ أي أقسم بالرياح حين تهبُّ متتابعة ، يقفون بعضها إثر

فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا ﴿٤﴾ فَالْمَلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عَذْرًا أَوْ تَنْذِيرًا ﴿٦﴾
 إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ ﴿١٠﴾
 وَإِذَا الرَّسُلُ أُنْتَبِهُتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾

بعض^(١) ، قال المفسرون : هي رياح العذاب التي يهلك الله بها الظالمين ﴿فالعاصفات عصفًا﴾ أي وأقسم بالرياح الشديدة الهبوب ، إذا أرسلت عاصفة شديدة ، قلعت الأشجار ، وخربت الديار ، وغيرت الآثار ﴿والناشرات نشراً﴾ أي وأقسم بالملائكة الموكلين بالسحب يسوقونها حيث شاء الله ، لتنشر رحمة الله - المطر - فتحيي به البلاد والعباد ﴿فالفارقات فرقاً﴾ أي وأقسم بالملائكة التي تفرق بين الحق والباطل ، والحلال والحرام^(٢) ﴿فالملقىات ذكراً﴾ أي وأقسم بالملائكة تنزل بالوحي ، وتلقي كتب الله تبارك وتعالى إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿عذراً أو تَنْذيراً﴾ أي تلقي الوحي إغذاراً من الله للعباد لئلا يبقى لهم حجة عند الله ، أو إنذاراً من الله للخلق بالنقمة والعذاب ﴿إنما توعدون لواقع﴾ هذا هو جواب القسم أي إن ما توعدون به من أمر القيامة ، وأمر الحساب والجزاء ، كائن لا محالة قال المفسرون : أقسم تعالى بخمسة أشياء ، تنبهاً على جلالة قدر المقسم به ، وتعظيماً لشأن المقسم عليه ، فأقسم بالرياح التي تحمل الرحمة والعذاب ، وتسوق للعباد الخير أو الشر ، وبالملائكة الأبرار ، الذين يتنزلون بالوحي للإعذار والإنذار ، أقسم على أن أمر القيامة حق لا شك فيه ، وأن ما أوعده الله تعالى به المكذبين ، من مجيء الساعة والثواب والعقاب ، كائن لا محالة ، فلا ينبغي الشك والامتراء^(٣) . . ثم بين تعالى وفصل وقت وقوع ذلك فقال ﴿فإذا النجوم طُمِسَتْ﴾ أي محيت النجوم وذهب نورها وضيؤها ﴿وإذا السماء فُرِجَتْ﴾ أي شقت السماء وتصدعت ﴿وإذا الجبال نسفت﴾ أي تطايرت الجبال وتناثرت حتى أصبحت هباءً تذرره الرياح كقوله تعالى ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ ﴿وإذا الرسل أُنْتَبِهُتْ﴾ أي جعل للرسول وقت وأجل ، للفصل بينهم وبين الأمم ، وهو يوم القيامة كقوله تعالى ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم﴾ ؟ وأصل ﴿أُنْتَبِهُتْ﴾ وقُتت من الوقت أي جعل لها وقت محدد ، قال الطبري : أي أُجِّلَتْ للاجتماع لوقتها يوم القيامة^(٤) وقال مجاهد : هو الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أهمهم^(٥) ﴿لأي يوم أُجِّلَتْ﴾ ؟ استفهامٌ لتعظيم ذلك اليوم ، والتعجب لما يقع فيه من الهول والشدة أي لأي يومٍ عظيمٍ أخرت الرسل ؟ ثم قال ﴿ليوم الفصل﴾ أي ليوم القضاء والفصل بين

(١) اختلف المفسرون اختلافاً كبيراً في تفسير هذه الآيات الخمس ، بعضهم حملها جميعاً على الرياح وبعضهم حملها جميعاً على الملائكة ، وبعضهم فصل ، وتوقف الإمام ابن جرير ، وقد اخترنا ما ذهب إليه ابن كثير وما رجحه صاحب التسهيل حيث قال : والأظهر في المرسلات ، والعاصفات ﴿أنها الرياح ، لأن وصف الريح بالعصف حقيقة ، والأظهر في الناشرات ، والفارقات﴾ أنها الملائكة لأن قوله ﴿فالملقىات ذكراً﴾ المذكورة بعدها هي الملائكة ، ولم يقل أحد أنها الرياح ، ولذلك عطف المتجانسين بالفاء فقال ﴿والمرسلات فالعاصفات﴾ ثم عطف ما ليس من جنسها بالواو فقال ﴿والناشرات﴾ ثم عطف بالفاء ، وهذا قول جيد .

(٢) البحر المحیط ٨/٤٠٤ . (٣) انظر التفسير الكبير ٣٠/٢٦٥ . (٤) تفسير الطبري ٢٩/١٤٣ . (٥) التفسير الكبير ٣٠/٢٦٩ .

وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾

الخلائق ، يوم يفصل الله بين الأنبياء وأممهم المكذبين بحكمه العادل ﴿وما أدراك ما يوم الفصل﴾ ؟ استفهام للتعظيم والتهويل أي وما أعلمك أيها الإنسان بيوم الفصل شدته وهوله ؟ فإن ذلك اليوم أعظم من أن يعرف أمره إنسان ، أو يحيط به عقل أو وجدان ، ووضع الظاهر ﴿ما يوم الفصل﴾ مكان الضمير « ما هو » لزيادة تفضيح وتهويل أمره قال الإمام الفخر : عجب العباد من تعظيم ذلك اليوم فقال : لأي يوم أجلت الأمور المتعلقة بهؤلاء الرسل ، وهي تعذيب من كذبهم ، وتعظيم من آمن بهم ، وظهور ما كانوا يدعون الخلق إلى الإيمان به ، من الأهوال والعرض والحساب ، ثم إنه تعالى بين ذلك فقال ﴿ليوم الفصل﴾ وهو يوم يفصل الرحمن بين الخلائق ، ثم أتبع ذلك تعظيماً ثانياً فقال ﴿وما أدراك ما يوم الفصل﴾ أي وما أعلمك ما هو يوم الفصل شدته ومهابته ^(١) ؟ وجواب الشرط ﴿فإذا النجوم﴾ الخ محذوف لدلالة الكلام عليه تقديره : وقع ما توعدون به ، وجرى ما أخبركم به الرسل من مجيء القيامة ، والحذف على هذه الصورة من أساليب الإيجاز البياني الذي امتاز به القرآن ﴿ويل يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك عظيم وخسار كبير في ذلك اليوم لأولئك المكذبين بهذا اليوم الموعود قال المفسرون : كرر هذه الجملة ﴿ويل يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ في هذه السورة عشر مرات لمزيد الترغيب والترهيب ، وفي كل جملة وردت إخبار عن أشياء عن أحوال الآخرة ، وتذكير بأحوال الدنيا ، فناسب أن يذكر الوعيد عقيب كل جملة منها بالويل والدمار للكفرة الفجار ، ولما كان في سورة الإنسان السابقة ذكر بعضاً من أحوال الكفار في الآخرة ، وأظن في وصف أحوال المؤمنين هناك ، جاء في هذه السورة بالإطناب في وصف الكفار ، والإيجاز في وصف المؤمنين . . ثم بعد أن أكد الخبر بيوم القيامة ، وأنه حق كائن لا محالة ، وبعد أن خوف المكذبين من شدة هول ذلك اليوم ، وفظاعة ما يقع فيه ، عاد فخوفهم من بطش الله وانتقامه بأسلوب آخر فقال ﴿ألم نهلك الأولين﴾ ؟ أي ألم نهلك السابقين بتكذيبهم للرسل ، كقوم نوح وعاد وثمود ؟ ﴿ثم نتبعهم الآخرين﴾ ؟ أي ثم ألحقنا بهم المتأخرين ممن كانوا مثلهم في التكذيب والعصيان ، كقوم لوط وشعيب وقوم موسى « فرعون وأتباعه » ومن على شاكلتهم ﴿كذلك نفعل بالمجرمين﴾ أي مثل ذلك الإهلاك الفظيع نفعل بهؤلاء المجرمين « كفار مكة » لتكذيبهم لسيد المرسلين ﷺ ﴿ويل يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار لكل مكذب بالتوحيد والنبوة ، والبعث والحساب ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾ تذكير للمكذبين وتعجيب من غفلتهم وذهولهم عن أبسط الأمور المشاهدة ، وهي أن من خلقهم من النطفة الحقيرة الضعيفة كان قادراً على إعادة خلقهم للبعث والحساب والمعنى : ألم نخلقكم يا معشر الكفار من ماء ضعيف حقير هو مني الرجل ؟ وفي الحديث القدسي يقول الله عز وجل (ابن آدم أتى

فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾
 أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَّ شَمِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾
 وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ أَنْظِلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ أَنْظِلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثُلُثِ شُعْبٍ ﴿٣٠﴾

تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه (الحديث^(١)) فجعلناه في قرارٍ مكين ﴿٢١﴾ أي فجعلنا هذا الماء المهين في مكان حريز وهو رحم المرأة ﴿إلى قدرٍ معلوم﴾ أي إلى مقدار من الزمن محدّد معيّن، معلوم عند الله تعالى وهو وقت الولادة ، ﴿فقدّرنا فنعم القادرون﴾ أي فقدّرنا على خلقه من النطفة ، فنعم القادرون نحن حيث خلقناه في أحسن الصور، وأجمل الأشكال ﴿ويلَّ يومئذٍ للمكذّبين﴾ أي هلاك ودمار للمكذّبين بقدرتنا قال الصاوي : هذه الآية تذكير من الله تعالى للكفار بعظيم إنعامه عليهم ، وبقدرته على ابتداء خلقهم ، والقادرُ على الابتداء قادر على الإعادة ، ففيها ردُّ على المنكرين للبعث^(٢) . . ثم ذكّرهم بنعمة إيجادهم على الأرض حال الحياة ، ومواراتهم في باطنها بعد الموت فقال ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً * أحياء وأمواتاً﴾ ؟ أي ألم نجعل هذه الأرض التي تعيشون عليها كالأم لكم ، تجمع الأحياء على ظهرها ، والأموات في بطنها ؟ قال المفسرون : الكفت : الجمع والضم ، فالأرض تجمع وتضم إليها جميع البشر ، فهي كالأم لهم ، الأحياء يسكنون فوق ظهرها في المنازل والدور ، والأموات يسكنون في بطنها في القبور ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ قال الشعبي : بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم^(٣) ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات﴾ أي وجعلنا في الأرض جبلاً راسخات عاليات مرتفعتات لثلاث تضطرب بكم^(٤) ﴿وأسقيناكم ماءً فُرَاتاً﴾ أي وأسقيناكم ماءً عذباً حلواً بالغ العذوبة ، أنزلناه لكم من السحاب ، وأخرجناه لكم من العيون والأنهار ، لتشربوا منه أنتم ودوابكم ، وتسقوا منه زرعكم وأشجاركم ﴿ويلَّ يومئذٍ للمكذّبين * انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾ أي انطلقوا إلى عذاب جهنم الذي كنتم تكذبون به في دار الدنيا ، وهذا الكلام تقوله لهم خزنة النار تقريباً وتوبيخاً . . ثم وضّح ذلك العذاب وفصله فقال ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾ أي

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ، ورواه ابن ماجه في سننه ، وتماه أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال يقول الله عز وجل « ابن آدم أتى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقي قلت : أتصدق ، وأنى أوان الصدقة ؟ »

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٢٨٠ . (٣) مختصر ابن كثير ٣ / ٥٨٨ . (٤) لقد كشف القرآن عن حكمة وجود الجبال قبل أن يكتشفها العلم الحديث ، فالجبال كالأوتاد للأرض تثبتها وتقيها الاضطراب والميدان كما تقي أوتاد الخيمة الخيمة ، وقد كشف الوحي عن هذا المعنى فقال في سورة النحل ﴿وألقي في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ ولولا هذه الجبال الشاهقة لكانت الأرض - بما في جوفها من الغازات والأبخرة والمواد المترابطة المشتعلة - دائمة الاضطراب والحفقتان ، ولكانت كالريشة في مهب الهواء ، فسبحان الحكيم العليم على أن في خلق الجبال الشوامخ نعمة أخرى هي نشوء السحب فوقها ، وهطول الأمطار والثلوج عليها ، فتكون بسبب ذلك الأنهار والعيون ، ثم تكثر الأشجار والزروع ، فالجبال مخازن للثلوج والأمطار ، ومستودعات عامة لبركات السماء ، ولهذا قرن تعالى بها نعمة الماء فقال ﴿وأسقيناكم ماء فُرَاتاً﴾ فله ما أبدع أسرار القرآن ! !

لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جَمَلٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمٌ
الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَىٰ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ
فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾

اذهبوا فاستظلوا بدخانٍ كثيف من دخان جهنم ، يتفرع منه ثلاث شعب ﴿ لا ظليل ولا يغني من اللهب ﴾ أي لا يظل من يكون تحته ، ولا يقيه حر الشمس كما هو حال الظل الممدود ، ولا هو يدفع عنه أيضاً السنة النار المندلعة من كل جانب قال الطبري : لا هو يظلمهم من حرها ، ولا يكنهم من لهبها ، وذلك أنه يرتفع من وقود جهنم الدخان ، فإذا تصاعد تفرق شعباً ثلاثة^(١) قال المفسرون : سمى العذاب ظلاً تهكماً واستهزاءً بالعذبيين ، فالمؤمنون في ظلال وعيون ، والمجرمون في سموم وحميم ، وظل من يحموم ، واليحموم دخان أسود قاتم ، فكيف يصح أن يسمى ما هم فيه ظلاً إلا على طريق التهكم والاستهزاء ؟ ثم زاد تعالى في وصف جهنم وأهواها فقال ﴿ إنها ترمي بشرر كالقصر ﴾ أي إن جهنم تقذف بشرر عظيم من النار ، كل شرارةٍ منه كأنها القصر العظيم قال ابن كثير : يتطاير الشرر من لهبها كالحصون^(٢) ﴿ كأنه جمالت صفر ﴾ أي كأن شرر جهنم المتطاير منها الإبل الصفر في لونها وسرعة حركتها قال الرازي : شبه تعالى الشرر في العظم بالقصر ، وفي اللون والكثرة وسرعة الحركة بالجمالات الصفر^(٣) ، وهذا التشبيه من روائع صور التشبيه ، لأن الشرارة إذا كانت مثل القصر الضخم ، فكيف تكون حال تلك النار الملتهبة ؟ أجازنا الله من نار جهنم بفضله ورحمته ﴿ ويل يَوْمَئِذٍ لِلْمُكذِّبِينَ ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بآيات الله ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ أي هذا اليوم الرهيب ، الذي لا ينطق فيه أولئك المكذبون ولا يتكلمون كلاماً ينفعهم ، فهم في ذلك اليوم خرس بكم ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ أي ولا يقبل لهم عذر ولا حجة فيما أتوا به من القبائح والجرائم ، بل لا يؤذن لهم في أن يعتذروا ، لأنه لا تسمع منهم تلك الحجج والأعذار ولا تقبل كقوله تعالى ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ ﴿ ويل يَوْمَئِذٍ لِلْمُكذِّبِينَ ﴾ * هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ﴿ أي يقال لهم : هذا يوم الفصل بين الخلائق ، الذي يفصل الله فيه بحكمه العادل بين السعداء والأشقياء ، جمعناكم فيه مع من تقدمكم من الأمم لنحكم بينكم جميعاً ﴾ ﴿ فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾ أي فإن كان لكم حيلة في الخلاص من العذاب فاحتالوا ، وانقذوا أنفسكم من بطش الله وانتقامه إن قدرتم ، وهذا تعجيزٌ لهم وتوبيخ ﴿ ويل يَوْمَئِذٍ لِلْمُكذِّبِينَ ﴾ أي هلاك يَوْمَئِذٍ لِلْمُكذِّبِينَ بيوم الدين . . وبعد أن ذكر أحوال الأشقياء المجرمين ، أعقبه بذكر أحوال السعداء المتقين فقال ﴿ إن المتقين في ظلال وعيون ﴾ أي الذين خافوا ربهم في الدنيا ، واتقوا عذابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، هم يوم القيامة في ظلال الأشجار الوارفة ، وعيون الماء الجارية ، يتنعمون في دار الخلد ،

وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

والكرامة ، على عكس أولئك المجرمين المكذبين ، الذين هم في ظلٍ من مجوم - وهو دخان جهنم الأسود - الذي لا يقي حراً ، ولا يدفع عطشاً ، ولا يجد المستظل به مما يشتهي لراحته سوى شرر النار الهائل ﴿وفواكه مما يشتهون﴾ أي وفواكه كثيرة متنوعة مما يستلذون ويستطيبون ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾ أي ويقال لهم على سبيل الأنس والتكريم : كلوا أكلاً لذيذاً واشربوا شرباً هنيئاً ، بسبب ما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ أي إننا مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من أحسن عمله ، وأخلص نيته ، واتقى ربه ﴿ويلُّ يومئذٍ للمكذبين﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بيوم الدين ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾ أي يقال للكفار على سبيل التهديد والوعيد : كلوا من لذائذ الدنيا ، واستمتعوا بشهواتها الفانية ، كما هو شأن البهائم التي همها ملء بطونها ونيل شهواتها زماناً قليلاً الى منتهى آجالكم ، فإنكم مجرمون لا تستحقون الإنعام والتكريم ﴿ويلُّ يومئذٍ للمكذبين﴾ أي هلاك ودمار يوم القيامة للمكذبين بنعم الله ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ أي وإذا قيل هؤلاء المشركين صلُّوا لله ، واخشعوا في صلاتكم لعظمته وجلاله ، لا يحشعون ولا يصلون ، بل يظنون على استكبارهم يصرون قال مقاتل : نزلت هذه الآية في ثقيف ، امتنعوا عن الصلاة وقالوا لرسول الله ﷺ : حطَّ عنا الصلاة فإننا لا ننحني ، إنها مسبة علينا ، فأبى وقال : لا خير في دينٍ لا صلاة فيه^(١) ﴿ويلُّ يومئذٍ للمكذبين﴾ أي هلاك ودمار يوم القيامة للمكذبين بأوامر الله ونواهيهِ ﴿فبأي حديثٍ بعده يؤمنون﴾ ؟ أي فبأي كتابٍ وكلامٍ بعد هذا القرآن المعجز الواضح يصدقون إن لم يؤمنوا بالقرآن ؟ فإذا كذبوا بالقرآن ولم يؤمنوا به ، مع بلوغه الغاية في الإعجاز ، ونصوع الحججة ، وروعة البيان ، فبأي شيءٍ بعد ذلك يؤمنون ؟ قال القرطبي : كرر قوله ﴿ويلُّ يومئذٍ للمكذبين﴾ عشر مراتٍ للتخويف والوعيد ، وقيل : إنه ليس بتكرار ، لأنه أراد بكل قولٍ منه غير الذي أراده بالآخر ، كأنه ذكر شيئاً فقال : ويلُّ لمن يكذب بهذا ، ثم ذكر شيئاً آخر فقال : ويلُّ لمن يكذب بهذا ، وهكذا إلى آخر السورة الكريمة^(٢) .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - التأكيد بذكر المصدر زيادة في البيان وتقوية للكلام مثل ﴿فالعاصفات عصفاً﴾ والناشرات نشرأً﴾ فالفارقَات فرقاً﴾ وهو من المحسنات اللفظية .

٢ - الطباق بين ﴿عذراً .. ونذراً﴾ وبين ﴿أحياء .. أمواتاً﴾ وبين ﴿الأولين .. والآخرين﴾

وكلها من المحسنات البديعية .

- ٣ - وضع الظاهر مكان الضمير ، والمجيء بصيغة الاستفهام ﴿لأي يومٍ أُجِلت * ليوم الفصل * وما أدراك ما يوم الفصل﴾ ؟ لزيادة تفضيح الأمر وتهويله .
- ٤ - الاستفهام التقريري ﴿ألم نهلك الأولين﴾ ؟ ومثله ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾ ؟
- ٥ - الجناس غير التام بين لفظتي ﴿مهين﴾ و﴿مكين﴾ .
- ٦ - التشبيه المرسل المجمل ﴿ترمي بشرر كالقصر﴾ والمرسل المفصل ﴿كأنه جمالة صفر﴾ .
- ٧ - المقابلة بين نعيم الأبرار وعذاب الفجار ﴿إن المتقين في ظلالٍ وعميون * وفواكه مما يشتهون * كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾ قابل ذلك بقوله ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾ .
- ٨ - أسلوب التهكم ﴿انطلقوا إلى ظلٍ ذي ثلاث شعب، لا ظليل﴾ سمى العذاب ظلاً تهكماً وسخرية بهم .
- ٩ - المجاز المرسل ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ أطلق الركوع وأراد به الصلاة فهو من باب اطلاق البعض وإرادة الكل أي وإذا قيل لهم صلوا لا يصلون .
- ١٠ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون * إن المتقين في ظلالٍ وعميون * وفواكه مما يشتهون﴾ الخ ويسمى بالسجع المرصع وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الرسائل »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة عمّ مكية وتسمى ﴿سورة النبأ﴾ لأن فيها الخبر الهام عن القيامة والبعث والنشور ، ومحور السورة يدور حول إثبات « عقيدة البعث » التي طالما أنكرها المشركون .

* ابتدأت السورة الكريمة بالإخبار عن موضوع القيامة ، والبعث والجزاء ، هذا الموضوع الذي شغل أذهان الكثيرين من كفار مكة ، حتى صاروا فيه ما بين مصدق ومكذب ﴿عمّ يتساءلون﴾ عن النبأ العظيم . . . ﴿ الآيات .

* ثم أقامت الدلائل والبراهين على قدرة رب العالمين ، فإن الذي يقدر على خلق العجائب والبدائع ، لا يعجزه إعادة خلق الإنسان بعد فناءه ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾ والجبال أوتاداً * وخلقناكم أزواجاً * وجعلنا نومكم سباتاً﴾ الآيات .

* ثم أعقبت ذلك بذكر البعث ، وحددت وقته وميعاده ، وهو يوم الفصل بين العباد ، حيث يجمع الله الأولين والآخرين للحساب ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتاً﴾ يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا . . . ﴿ الآيات .

* ثم تحدثت عن جهنم التي أعدها الله للكافرين ، وما فيها من ألوان العذاب المهين ﴿إن جهنم كانت مرصاداً﴾ للطاغين مآباً * لا تبثن فيها أحقاباً﴾ الآيات .

* وبعد الحديث عن الكافرين ، تحدثت عن المتقين ، وما أعد الله تعالى لهم من ضروب النعيم ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب ﴿إن للمتقين مفازاً﴾ حدائق وأعناباً * وكواعب أتراباً * وكأساً دهاقاً﴾ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن هول يوم القيامة ، حيث يتمنى الكافر أن يكون تراباً فلا يحشر ولا يحاسب ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾

اللفظة: ﴿سُبَاتًا﴾ السبت في اللغة: القطع، سمي الليل سُبَاتًا لأنه يقطع العمل والحركة ﴿وهاجًا﴾ الوهاج: المتوقد المتلألئ من قولهم: وهجت النار إذا أضاءت ﴿ثجاجًا﴾ شديد الانصباب يقال: ثجج إذا سال بكثرة وفي الحديث: أفضل الحج: العج والثجج: رفع الصوت بالتلبية، والثجج: إراقة الدماء وذبح الهدايا ﴿كواعب﴾ جمع كاعب وهي التي برز نهدها واستدار مع ارتفاع يسير ﴿دهاقًا﴾ مملوءة يقال: أدهقت الكأس أي ملأتها قال الشاعر:

أتانا عامرٌ يبغي قرانا فآثرنا له كأساً دهاقاً

التفسير: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾؟ أي عن أي شيء يسأل هؤلاء الجاحدون بعضهم بعضاً؟ وأصل ﴿عم﴾ عن ما، أدغمت الميم في النون وحذفت الف ﴿ما﴾ الاستفهامية، وليس المراد هنا مجرد الاستفهام وإنما المراد تفخيم الأمر وتعظيمه، وقد كان المشركون يتساءلون عن البعث فيما بينهم، ويخوضون فيه إنكاراً واستهزاءً فجاء اللفظ بصيغة الاستفهام للتفخيم والتهويل وتعجيب السامعين من أمر المشركين، ثم ذكر تعالى ذلك الأمر الخطير فقال ﴿عن النبي العظيم﴾ أي يتساءلون عن الخبر العظيم الهام وهو أمر البعث^(١) ﴿الذي هم فيه مختلفون﴾ أي الذي اختلفوا فيه ما بين شاكٍ في وقوعه، ومكذب منكرٍ لحصوله ﴿كلَّا سيعلمون﴾ ردعٌ وزجرٌ أي ليرتدع أولئك المكذبون عن التساؤل عن البعث، فسيعلمون حقيقة الحال، حين يرون البعث أمراً واقعاً، ويرون عاقبة استهزائهم ﴿ثم كلاً سيعلمون﴾ تأكيدٌ للوعيد مع التهويل أي سيعلمون ما يحل بهم من العذاب والنكال... ثم أشار تعالى إلى الأدلة الدالة على قدرته تعالى، ليقيم الحجة على الكفار فيما أنكروه من أمر البعث، وكأنه يقول: إن الإله الذي قدر على إيجاد هذه المخلوقات العظام، قادرٌ على إحياء الناس بعد موتهم فقال ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾ أي ألم نجعل هذه الأرض التي تسكنونها ممهدة للاستقرار عليها، والتقلب في أنحاءها؟ جعلناها لكم كالفراش والبساط لتستقروا على ظهرها، وتستفيدوا من سهولها الواسعة بأنواع المزروعات؟ ﴿والجبال أوتاداً﴾ أي وجعلنا الجبال كالأوتاد للأرض تثبتها لئلا تميد بكم كما يثبت البيت بالأوتاد قال في

(١) البحر المحيط ٨/٤٠٩ والقرطبي ١٩/١٨١.

(١) هذا هو الراجح أن المراد بالنبي العظيم أمر البعث لأنه ذكر بعده دلائل القدرة على إمكان البعث من قوله ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً...﴾ الخ وذكر منها تسعة أمور، وقيل المراد بالنبي القرآن أو النبوة وما ذكرناه هو الراجح وهو اختيار العلامة أبي السعود.

وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾
وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَمَجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ
بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّتِ الْفَافَا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتُنَا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾

التسهيل : شبهها بالأوتاد لأنها تمسك الأرض أن تميد^(١) ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾ أي وجعلناكم أيها الناس أصنافاً ذكوراً وإناثاً ، ليتنظم أمر النكاح والتناسل ، ولا تنقطع الحياة عن ظهر هذا الكوكب الأرضي ﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾ أي وجعلنا النوم راحة لأبدانكم ، قاطعاً لأشغالكم ، تتخلصون به من مشاق العمل بالنهار ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ أي جعلنا الليل كاللباس يغشاكم ويستركم بظلامه ، كما يستركم اللباس، وتغطيكم ظلمته كما يغطي الثوب لابسته قال في التسهيل : شبهه بالثياب التي تلبس لأنه سترٌ عن العيون^(٢) ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾ أي وجعلنا النهار سبباً لتحصيل المعاش ، تتصرفون فيه لقضاء حوائجكم قال ابن كثير : جعلناه مشرقاً مضيئاً ليتمكن الناس من التصرف فيه ، بالذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك^(٣) ﴿وبيننا فوقكم سبعاً شداداً﴾ أي وبيننا فوقكم أيها الناس سبع سموات محكمة الخلق بديعة الصنع ، متينة في إحكامها وإتقانها ، لا تتأثر بمرور العصور والأزمان ، خلقناها بقدرتنا لتكون كالسقف للأرض كقوله تعالى ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ وقوله ﴿والسمااء بنيانها بأيدٍ وإنا لموسعون﴾ ﴿وجعلنا سراجاً وهجاً﴾ أي وأنشأنا لكم شمساً منيرة ساطعة ، يتوهج ضوءها ويتوقد لأهل الأرض كلهم ، دائمة الحرارة والتوقد قال المفسرون : الوهَج المتوقد الشديد الإضاءة ، الذي يضطرم ويلتهب من شدة لهبه وقال ابن عباس : المنير المتلألئ^(٤) ﴿وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً﴾ أي وأنزلنا من السحب التي حان وقت إمطارها ماءً دافقاً منهمراً بشدة وقوة قال في التسهيل : المعصرات هي السحب ، مأخوذة من العصر لأن السحاب ينعصر فينزل منه الماء^(٥) ، شبهت السحابة التي حان وقت إمطارها بالجارية التي قد دنا حيضها ﴿لنخرج به حباً ونباتاً﴾ أي لنخرج بهذا الماء أنواع الحبوب والزرورع ، التي تنبت في الأرض غذاءً للإنسان والحيوان ﴿وجنات ألفافاً﴾ أي وحدائق وبساتين كثيرة الأشجار والأغصان ، ملتفة بعضها على بعض لكثرة أغصانها وتقارب أشجارها .. ذكر تعالى هذه الأدلة التسع على قدرته تعالى ، كبرهات واضح على إمكان البعث والنشور ، فإن من قدر على هذه الأشياء قادرٌ على البعث والإحياء ولهذا قال بعده ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتاً﴾ أي إن يوم الحساب والجزاء ، ويوم الفصل بين الخلائق ، له وقت محدودٌ معلوم في علمه تعالى وقضائه ، لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ذلك يومٌ مجموع له الناسُ وذلك يوم مشهود* وما تؤخره إلا لأجل معدود﴾ قال القرطبي : سمي يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه ، وقد جعله وقتاً وميعاداً للأولين والآخرين^(٦) ﴿يومٌ ينفخ في الصور فتأتون أفواجا﴾ أي يكون ذلك يوم أن ينفخ في الصور نفخة القيام من القبور ، فتحضرون

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١٧٣/٤ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١٧٣/٤ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٥٩٠/٣ .

(٤) تفسير القرطبي ١٧٠/١٩ . (٥) التسهيل لعلوم التنزيل ١٧٣/٤ . (٦) تفسير القرطبي ١٧٣/١٩ .

وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِيْنَ
 مَعَابًا ﴿٢٢﴾ لَيْسِيْنَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾
 إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا
 فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

جماعات جماعات ، وزمراً زمراً للحساب والجزاء ، ثم ذكر تعالى أوصاف ذلك اليوم الرهيب فقال ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ أي تشققت السماء من كل جانب ، حتى كان فيها صدوعٌ وفتوحٌ كالأبواب في الجدران ، من هول ذلك اليوم كقوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ وعبر بالماضي ﴿وَفُتِحَتِ﴾ لتحقيق الوقوع ﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي ونسفت الجبال وقلعت من أماكنها ، حتى أصبح يخيل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء ، كالسراب يظنه الرائي ماءً وليس بماء قال الطبري : صارت الجبال بعد نسفها هباءً منبثاً لعين الناظر ، كالسراب الذي يظنه من يراه ماءً وهو في الحقيقة هباء^(١) ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي إن جهنم تنتظر وترقب نزلاءها الكفار ، كما يترصد الإنسان ويتربص عدوه ليأخذه على حين غرة قال المفسرون : المرصاد المكان الذي يرصد فيه الراصد العدو ، وجهنم ترصد أعداء الله لتعذبهم بسعيرها ، وهي مترقبة ومتطلعة لمن يمر عليها من الكفار الفجار لتلتقطهم إليها ﴿لِلطَّاغِيْنَ مَعَابًا﴾ أي هي مرجع ومأوى ومنزل للطغاة المجرمين ﴿لَا يَشِينُ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ أي ماكثين في النار دهوراً متتابعةً لا نهاية لها^(٢) قال القرطبي : أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب - أي الدهور - وهي لا تنقطع ، كلما مضى حقب جاء حقب ، لأن أحقاب الآخرة لا نهاية لها^(٣) قال الربيع وقتادة : هذه الأحقاب لا انقضاء لها ولا انقطاع^(٤) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي لا يذوقون في جهنم برودةً تخفف عنهم حرَّ النار ، ولا شراباً يسكن عطشهم فيها ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا﴾ أي إلا ماءً حاراً بالغاً الغاية في الحرارة ، وغساقاً أي صديداً يسيل من جلود أهل النار ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ أي عاقبهم الله بذلك جزاءً موافقاً لأعمالهم السيئة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي لم يكونوا يتوقعون الحساب والجزاء ، ولا يؤمنون بلقاء الله ، فجازاهم الله بذلك الجزاء العادل ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ أي وكانوا يكذبون بآيات الله الدالة على البعث وبالآيات القرآنية تكذيباً شديداً ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ أي وكل ما فعلوه من جرائم وآثام ضبطناه في كتاب لنجازيهم عليه ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أي فذوقوا يا معشر الكفار فلن نزيدكم على استغاثتكم إلا عذاباً فوق عذابكم قال المفسرون : ليس في القرآن على أهل النار آية هي أشد من هذه الآية ، كلما استغاثوا بنوعٍ من العذاب أغيثوا بأشد منه^(٥) . . ولما ذكر تعالى

(١) تفسير الطبري ٧/٣٠ . (٢) ليس في الآية الكريمة ما يدل على تنامي تلك الأحقاب ، لأن الحقب في كلام العرب لا يكاد يستعمل إلا فيما هو متتابع متلاحق ، وهو كناية عن التأييد ، فخطبهم بما تذهب إليه أوهامهم وما يعرفون ، وقيل إنها في عصاة المؤمنين وهذا خطأ لأنها في الكفار لقوله تعالى ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ . (٣) تفسير القرطبي ١٩/١٧٥ . (٤) و (٥) انظر القرطبي ١٩/١٨٠ وحاشية الصاوي ٤/٢٨٥ .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا
وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ
مِنهُ حِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ
الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَعَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ
وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا ﴿٤٠﴾

أحوال الأشقياء أهل النار ، ذكر بعدها أحوال السعداء الأبرار فقال ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي إن للمؤمنين الأبرار الذين أطاعوا ربهم في الدنيا ، موضع ظفر وفوز بجنت النعيم ، وخلص من عذاب الجحيم ، ثم فسّر هذا الفوز فقال ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ أي بساتين ناضرة فيها من جميع الأشجار والأزهار ، وفيها كروم الأعناب الطيبة المتنوعة من كل ما تشتهيها النفوس ﴿وَكوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ أي ونساء عذاري نواهد قد برزت أندأهن ، وهن في سنٍ واحدة قال في التسهيل : الكواعب جمع كاعب وهي الجارية التي خرج ثديها^(١) ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أي وكأساً من الخمر ممتلئة صافية قال القرطبي : المراد بالكأس الخمر كأنه قال : وخرأ ذات دِهَاقٍ أي مملوءة قد عُصرت ووصُفيت^(٢) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ أي لا يسمعون في الجنة كلاماً فارغاً لا فائدة فيه ، ولا كذباً من القول لأن الجنة دار السلام ، وكل ما فيها سالم من الباطل والنقص ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ أي جازاهم الله بذلك الجزاء العظيم ، تفضلاً منه وإحساناً كافياً على حسب أعمالهم ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ﴾ أي هذا الجزاء صادر من الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي لا يقدر أحد أن يخاطبه في دفع بلاء ، أو رفع عذاب في ذلك اليوم ، هيبته وجلاله ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب يقف جبريل والملائكة مصطفين خاشعين ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي لا يتكلم أحد منهم إلا من أذن الله له بالكلام والشفاعة ونطق بالصواب قال الصاوي : وإذا كان الملائكة الذين هم أفضل الخلائق وأقربهم من الله لا يقدر أن يشفعوا إلا بإذنه ، فكيف يملك غيرهم^(٣) ؟ ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ﴾ أي ذلك هو اليوم الكائن الواقع لا محالة ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي فمن شاء أن يسلك إلى ربه مرجعاً كريماً بالإيمان والعمل الصالح فليفعل ، وهو حث وترغيب ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ الخطاب لكفار قريش المنكرين للبعث أي إنا حذرناكم وخوفناكم عذاباً قريباً وقوعه هو عذاب الآخرة ، سمّاه قريباً لأن كل ما هو آت قريب ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي يوم يرى كل إنسان ما قدّم من خير أو شر مثبتاً في صحيفته كقوله تعالى ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا﴾ أي ويتمنى الكافر أنه لم يخلق ولم يكلف ويقول : يا ليتني كنت تراباً حتى لا أحاسب

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٧٤ . (٢) تفسير القرطبي ١٩/ ١٨١ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٢٨٦ .

ولا أعاقب قال المفسرون : وذلك حين يحشر الله الحيوانات يوم القيامة فيقتصصُ للجماء من القرناء ، وبعد ذلك يصيرها تراباً ، فيتمنى الكافر أن لو كان كذلك حتى لا يعذب .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الإطناب بتكرار الجملة للوعيد والتهديد ﴿كلا سيعلمون﴾ . ثم كلاً سيعلمون ﴿ .
 - ٢ - الإيجاز بحذف الفعل للدلالة المتقدم عليه ﴿عن النبأ العظيم﴾ أي يتساءلون عن النبأ العظيم .
 - ٣ - التشبيه البليغ ﴿الم نجعل الأرض مهاداً . والجبال أوتاداً﴾ ؟ أصل الكلام جعلنا الأرض كالمهاد الذي يفترشه النائم ، والجبال كالأوتاد التي تثبت الدعائم ، فحذف أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً ، ومثله ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ أي كاللباس في الستر والخفاء .
 - ٤ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ وبين ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾ قابل بين الليل والنهار ، والراحة والعمل ، وهو من المحسنات البديعية .
 - ٥ - التشبيه البليغ ﴿فكانت أبواباً﴾ أي كالأبواب في التشقق والانصداع ، فحذفت الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغاً .
 - ٦ - الأمر الذي يراد به الإهانة والتحقير ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ وفيه أيضاً التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والإهانة .
 - ٧ - الطباق بين ﴿برداً . . وحمياً﴾ .
 - ٨ - ذكر العام بعد الخاص ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً﴾ الروح وهو « جبريل » داخل في الملائكة ، فقد ذكر مرتين مرة استقلالاً ، ومرة ضمن الملائكة ، تبييناً على جلالته قدره .
 - ٩ - السجع المرصع مثل ﴿ألفافاً ، أفواجاً ، أبواباً ، ماباً ، أحقاباً﴾ وهو من المحسنات البديعية .
- « تم بعونه تعالى تفسير سورة النبأ » .



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة النازعات مكية ، شأنها كشأن سائر السور المكية ، التي تُعنى بأصول العقيدة «الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء» ومحورُ السورة يدور حول القيامة وأحوالها ، والساعة وأهوالها ، وعن مآل المتقين ، ومآل المجرمين .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالملائكة الأبرار ، التي تنزع أرواح المؤمنين بلطفٍ ولين ، وتنزع أرواح المجرمين بشدة وغلظة ، والتي تدبر شؤون الخلائق بأمر الله جل وعلا ﴿والنازعات غرقاً﴾ والناشطات نشطاً * والسابحات سبحاً * فالسابقات سبقاً * فالمدبرات أمراً﴾ الآيات .

* ثم تحدثت عن المشركين ، المنكرين للبعث والنشور ، فصورت حالتهم في ذلك اليوم الفظيع ﴿قلوبٌ يومئذٍ واجفة * أبصارها خاشعة * يقولون أننا لمردودون في الحافة * أنذا كنا عظاماً نخرة؟﴾ الآيات .

* ثم تناولت السورة «فرعون» الطاغية ، الذي ادعى الربوبية وتمادى في الجبروت والطغيان ، فقصمه الله وأهلكه بالغرق هو وقومه الأقباط ﴿هل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى * إذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى . . .﴾ الآيات .

* وتحدثت السورة عن طغيان أهل مكة وتمردهم على رسول الله ﷺ ، وذكرتهم بأنهم أضعف من كثير من مخلوقات الله ﴿أنتم أشدُّ خلقاً أم الساءُ بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة ببيان وقت الساعة الذي استبعده المشركون وأنكروه وكذبوا بحدوثه ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها * إنما أنت منذر من يخشاها * كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشيةً أو ضحاها﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّزَعَتِ غَرْقًا ❶ وَالنَّشِطَتِ نَشْطًا ❷ وَالسَّبِيحَتِ سَبْحًا ❸ فَالسَّبِقَتِ سَبْقًا ❹ فَالْمُدْبِرَاتِ
أَمْرًا ❺ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ❻ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ❼

اللغة: ﴿واجفة﴾ خائفة فزعة يقال : وجف القلبُ وجيفاً إذا خفق واضطرب من شدة الفزع
﴿الحافرة﴾ الرجوع إلى الحالة التي كان عليها يقال : رجع فلان في حافرته أي رجع من حيث جاء قال
الشاعر :

أحافرةً على صلح وشيب معاذَ الله من سَفَهٍ وِعَارٍ^(١)
﴿الساهرة﴾ وجه الأرض ، والعربُ تسمي وجه الأرض والفلاة ساهرة لأنه يُسهر عليها ﴿سَمَكها﴾
السَّمَك : العلوُّ والارتفاع ، وبناءٌ مسموك أي عال مرتفع ﴿أغطش﴾ أظلم يقال : غطش الليلُ وأغطشه
اللهُ أي صار مظلماً وأظلمه الله ﴿دحاها﴾ بسطها وسوأها قال زيد بن عمرو :
دَحَاها فلما استوت شدَّها بأيدي وأرسي عليها الجبالا^(٢)
﴿الطامة﴾ الداهية العظمى التي لا تستطاع قال الشاعر :
إنَّ بعضَ الحُبِّ يعمي ويُضْمُّ وكذلك البُغْضُ أدهى وأطمُّ^(٣)

النفسير : ﴿والنَّازعاتِ غَرْقًا﴾ أي أقسمُ بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار نزعاً بالغاً أقصى
الغاية في الشدة والعسر ﴿والنَّاشِطاتِ نَشْطًا﴾ أي وأقسمُ بالملائكة التي تنزع أرواح المؤمنين بسهولةٍ
ويسر ، وتسَلُّها سلاً رقيقاً قال ابن مسعود : إن ملك الموت وأعوانه ينزعون روح الكافر كما ينزع السَّقود -
سيخ الحديد - الكثير الشعب من الصوف المبتل ، فتخرج نفس الكافر كالغريق في الماء ، وينزع روح
المؤمن برفق ولين ، ويقبضها كما ينشط العقال من يد البعير^(٤) قال ابن كثير : أقسم سبحانه بالملائكة حين
تنزع أرواح بني آدم ، فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها ، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأما
حلته من نشاط^(٥) ﴿والسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ أي وأقسمُ بالملائكة التي تنزل بأمر الله ووحيه من السماء
كالذي يسبح في الماء ، مسرعين لتنفيذ أمر الله ﴿فالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ أي الملائكة التي تسبق بأرواح المؤمنين
إلى الجنة ﴿فالمُدْبِرَاتِ أَمْرًا﴾ أي الملائكة تدبِّر شؤون الكون بأمره تعالى ، في الرياح ، والأمطار ،
والأرزاق ، والأعمار ، وغير ذلك من شؤون الدنيا ، أقسم سبحانه بهذه الأصناف الخمسة على أن القيامة
حق ، وجواب القسم محذوف تقديره : لتبعثنَّ ولتحاسبنَّ ، وقد دل عليه قوله ﴿يومَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ تتبعها

(١) أنشده ابن الأعرابي والمراد : أرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والصبا بعد أن ثبتت وصلعت ؟ (٢) البحر المحيط ٤١٨/٨ .

(٣) تفسير القرطبي ٢٠٤/١٩ . (٤) تفسير الخازن ٢٠٤/٤ . (٥) مختصر ابن كثير ٥٩٥/٣ ثم قال : وهذا هو الصحيح وعليه الأكثرون .

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أءِذَا كُنَّا عِظْمًا
 نُخْرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتٰنَكَ حَدِيثُ
 مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ
 إِلَّا تَرَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرِنَهُ آيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾

الرادفة ﴿٨﴾ أي يوم ينفخ في الصور النفخة الأولى التي يرتجف ويتزلزل لها كل شيء ، تتبعها النفخة الثانية وهي نفخة القيام من القبور قال ابن عباس : الراجفة والرادفة هما النفختان الأولى والثانية ، أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله تعالى ، وأما الثانية فتحيي كل شيء بإذن الله تعالى (١) . . ثم ذكر تعالى حالة المكذبين وما يلقونه من الشدائد والأهوال فقال ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي قلوب الكفار في ذلك اليوم خائفة وحلة مضطربة ﴿أَبْصَرُهَا خَاشِعَةٌ﴾ أي أبصار أصحابها ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال يقولون أننا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ أي يقولون في الدنيا استهزاءً واستبعاداً للبعث : أنردُّ بعد الموت فنصير أحياء بعد فنائنا ونرجع كما كنا أول مرة ؟ قال القرطبي : إذا قيل لهم : إنكم تبعثون قالوا منكربين متعجبين : أنردُّ بعد موتنا إلى أول الأمر ، فنعود أحياء كما كنا قبل الموت ؟ والعرب تقول : رجع فلان في حافرتة أي رجع من حيث جاء (٢) ﴿أِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي هل إذا صرنا عظاماً بالية متفتتة سنرد ونبعث من جديد ؟ ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي إن كان البعث حقاً ، وبعثنا بعد موتنا فسوف نكون من الخاسرين لأننا من أهل النار ، قال تعالى ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي فإنما هي صيحة واحدة ، يُنفخ فيها في الصور للقيام من القبور ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ أي فإذا الخلائق جميعاً على وجه الأرض بعدما كانوا في بطنها . . ثم ذكر تعالى قصة موسى مع فرعون تسليةً لرسول الله ﷺ وتحذيراً لقومه أن يحل بهم ما حل بالطغاة المكذبين من قوم فرعون فقال ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ أسلوب تشويق وترغيب لسامع القصة أي هل جاءك يا محمد خبر موسى الكليم ؟ ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي حين ناجاه ربه بالوادي المطهر المبارك المسمى ﴿طوى﴾ في أسفل جبل طور سيناء ، قائلاً له ﴿إِذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أي إذهب إلى فرعون الطاغية الجبار ، الذي جاوز الحد في الظلم والطغيان ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَىٰ﴾ ؟ أي هل لك رغبة وميل إلى أن تتطهر من الذنوب والآثام ؟ ﴿وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ أي وأرشدك إلى معرفة ربك وطاقته فتتقيه وتخشاه ؟ قال الزمخشري : ذكر الخشية لأنها ملاك الأمر ، من خشى الله أتى منه كل خير ، وبدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العرّض كما يقول الرجل لضيفه : هل لك أن تنزل بنا ؟ وأردفه الكلام الرفيق الرقيق ليستدعيه بالتلطف ، ويستنزله بالمدارة من عتوه كما في قوله تعالى ﴿فقولا له قولاً ليناً﴾ (٣) ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ في الكلام محذوف أي فذهب موسى إليه ودعاه وكلّمه ، فلما امتنع عن الإيمان أراه المعجزة الكبرى ، وهي قلب العصا حيةً تسعى قال القرطبي : أراه العلامة العظمى وهي

فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا

المعجزة قال ابن عباس : هي العصا ^(١) ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ أي فكذب فرعون نبي الله موسى ، وعصى أمر الله بعد ظهور تلك المعجزة الباهرة ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى﴾ أي ولى مديراً هارباً من الحية ، يُسرع في مشيه من هول ما رأى ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ أي فجمع السحرة والجنود والأتباع ، ووقف خطيباً في الناس ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ أي فقال لهم بصوت عال : أنا ربكم المعبود العظيم الذي لا رب فوقه ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ أي فأهلكه الله عقوبة له على مقالته الأخيرة ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ والأولى وهي قوله ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ^(٢) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ أي إن فيما ذكر من قصة فرعون وطغيانه ، وما حلَّ به من العذاب والنكال ، لعظة واعتباراً لمن يخاف الله عز وجل ويخشى عقابه . . ولما انتهى الحديث عن قصة الطاغية فرعون ، رجع إلى منكري البعث من كفار قريش فنبههم إلى آثار قدرته ، ومظاهر عظيمته وجلاله فقال ﴿أَأنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ ؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ والمعنى هل أنتم يا معشر المشركين أشقُّ وأصعب خلقاً أم خلق السماء العظيمة البديعة ؟ فإن من رفع السماء على عظمها ، هينٌ عليه خلقكم وإحياءكم بعد مماتكم ، فكيف تنكرون البعث ؟ قال الرازي : نبههم على أمرٍ يُعلم بالمشاهدة ، وذلك لأن خلق الإنسان على صغره وضعفه ، إذا أضيف إلى خلق السماء على عظمها وعظم أحوالها يسير ، وإذا كان كذلك فإعادتهم سهلة فكيف ينكرون ذلك ؟ ^(٣) كقوله تعالى ﴿لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ ﴿بِنَاهَا﴾ أي رفعها عاليةً فوقكم محكمة البناء ، بلا عمد ولا أوتاد ، ثم زاد في التوضيح والبيان فقال ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ أي رفع جرمها وأعلى سقفها فوقكم فجعلها مستوية لا تفاوت فيها ولا شقوق ولا فطور قال ابن كثير : أي جعلها عالية البناء ، بعيدة الفناء ، مستوية الأرجاء ، مكلَّلة بالكواكب في الليلة الظلماء ^(٤) ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي جعل ليلها مظلمةً حالكاً ، ونهارها مشرقاً مضيئاً قال ابن عباس : أظلم ليلها وأنار نهارها ^(٥) ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أي والأرض بعد خلق السماء بسطها ومهدّها لسكنى أهلها ^(٦) ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ أي أخرج من الأرض عيون الماء المتفجرة ، وأجرى فيها الأنهار ، وأنبت فيها الكلال والمرعى مما يأكله الناس

(١) تفسير القرطبي ٢٠٢/١٩ . (٢) هذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة ، قال ابن عباس : كان بين كلمتيه الفاجرتين أربعون سنة ، فأمله الله ثم أخذه . (٣) التفسير الكبير للرازي ٤٣/٣١ .

(٤) مختصر تفسير ابن كثير . (٥) نفس المرجع السابق والصفحة . (٦) لا ينافي هذا القول بكروية الأرض ، فإن ذلك مقطوع به حتى قال الإمام الفخر ما نصه : «كانت الأرض أولاً كالكرة المجتمعة ، ثم إن الله تعالى مدّها وبسطها ، وليس معنى ﴿دحاهها﴾ مجرد البسط ، بل المراد أنه بسطها بسطاً مهياً لنبات الأقوات ، يدل عليه قوله ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ والجسم العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوي . . .

وَمَرَعَهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾
يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ
هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾

والأنعام ﴿والجبال أرساها﴾ أي والجبال أثبتها في الأرض ، وجعلها كالأوتاد لتستقر وتسكن بأهلها
﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ أي فعل ذلك كله ، فأنبع العيون ، وأجرى الأنهار ، وأنبت الزروع
والأشجار ، كل ذلك منفعة للعباد وتحقيقاً لمصالحهم ومصالح أنعامهم ومواشيهم ، قال الرازي : أراد
بمرعاها ما يأكله الناس والأنعام ، بدليل قوله ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ وانظر كيف دلّ بقوله : ﴿أخرج
منها ماءها ومرعاها﴾ على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنعام والأنعام من العشب ، والشجر ،
والحب ، والتمر ، والعصف ، والحطب ، واللباس والدواء ، حتى الملح والنار ، فالملح متولد من الماء ،
والنار من الأشجار^(١) . . . ولما ذكر تعالى خلق السموات والأرض ، وما أبدع فيها من عجائب الخلق
والتكوين ، ليقيم الدليل على إمكان الحشر عقلاً ، أخبر بعد ذلك عن وقوعه فعلاً فقال ﴿فإذا جاءت
الطامة الكبرى﴾ أي فإذا جاءت القيامة وهي الداهية العظمى ، التي تعمُّ بأهوالها كل شيء ، وتعلو
على سائر الدواهي قال ابن عباس : هي القيامة سميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل مفضع^(٢) ﴿يوم
يتذکر الإنسان ما سعى﴾ أي في ذلك اليوم يتذكر الإنسان ما عمله من خير أو شر ، ويراه مدوناً في صحيفة
أعماله ﴿وبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ أي أظهرت جهنم للناظرين فراها الناس عياناً ، بادية لكل ذي
بصر . . . وبعد أن وصف حال القيامة وأهوالها ، ذكر انقسام الناس إلى فريقين : أشقياء وسعداء فقال
﴿فأما من طغى﴾ أي جاوز الحد في الكفر والعصيان ﴿وأثر الحياة الدنيا﴾ أي فضل الحياة الفانية على
الآخرة الباقية ، وانهمك في شهوات الحياة المحرمة ، ولم يستعد لآخرته بالعمل الصالح ﴿فإن الجحيم
هي المأوى﴾ أي فإن جهنم المتأججة هي منزله ومأواه ، لا منزل له سواها ﴿وأما من خاف مقام ربه﴾
أي وأما من خاف عظمة ربه وجلاله ، وخاف مقامه بين يدي ربه يوم الحساب ، لعلمه ويقينه بالمبدأ والمعاد
﴿ونهى النفس عن الهوى﴾ أي وزجر نفسه عن المعاصي والمحارم ، وكفها عن الشهوات التي تؤدي بها
إلى المعاطب ﴿فإن الجنة هي المأوى﴾ أي فإن منزله ومصيره هي الجنة دار النعيم ، ليس له منزل
غيرها^(٣) . . . ثم ذكر تعالى موقف المكذبين بالقيامة ، المستهزئين بأخبار الساعة فقال ﴿يسألونك عن

(١) التفسير الكبير ٤٩/٣١ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٥٩٨/٣ .

(٣) هذه الآيات الكريمة هي «الميزان الدقيق» لمعرفة الإنسان نفسه ، هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار ؟ وهل هو من السعداء أم من الأشقياء ؟ فمن طغى وبغى ، وآثر شهوات الحياة على طاعة ربه فهو الشقي المعذب بالجحيم ، ومن أطاع الله واتقاه ، وسارع إلى مرضاة مولاه ، ونهى النفس عما تهواه فهو السعيد المكرم في دار النعيم ، فليضع الإنسان نفسه في هذا الميزان .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ
مَنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

السَّاعَةُ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ أي يسألك يا محمد هؤلاء المشركون عن القيامة متى وقوعها وقيامها؟ قال
المفسرون : كان المشركون يسمعون أبناء القيامة ، ووصفها بالأوصاف الهائلة مثل « طامة ، وصاحخة ،
وقارعة » فيقولون على سبيل الاستهزاء : متى يوجد لها الله وقيمها ، ومتى تحدث وتقع ؟ فنزلت الآية
﴿ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا ﴾ أي ليس علمها إليك حتى تذكرها لهم ، لأنها من الغيوب التي استأثر الله
بعلمها ، فلماذا يسألونك عنها ويلحون في السؤال ؟ ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴾ أي مردؤها ومرجعها إلى الله
عز وجل ، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين ، لا يعلمه أحد سواه ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ أي ما
واجبك يا محمد إلا إنذار من يخاف القيامة ، لا الإعلام بوقتها ، وخصَّ الإنذار بمن يخشى ، لأنه هو الذي
ينتفع بذلك الإنذار ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أي كأن هؤلاء الكفار يوم
يشاهدون القيامة وما فيها من الأهوال ، لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار ، بمقدار عشيَّة أو ضحاها .
قال ابن كثير : يستقصرون مدة الحياة الدنيا ، حتى كأنها عندهم عشيَّة يوم ، أو ضحى يوم . . . ختم تعالى
السورة الكريمة ، بما أقسم عليه في أولها من إثبات « الحشر، والبعث » فكان ذلك كالدليل والبرهان على
مجىء القيامة والساعة ، وليناسق البدء مع الختام .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين الآخرة والأولى في قوله ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ لأن المراد كلمتيه
الشيئتين الأولى والآخرة ، والطاق كذلك بين ﴿ عشيَّة . . وضحاها ﴾ .
- ٢ - جناس الاشتقاق في قوله ﴿ ترجف الراجفة ﴾ .
- ٣ - المقابلة بين قوله ﴿ السماء بناها * رفع سمكها فسواها ﴾ وبين ﴿ والارض بعد ذلك دحاها *
أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ وكذلك المقابلة بين ﴿ فأما من طغى * وأثر الحياة الدنيا ﴾ وبين ﴿ وأما من خاف
مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى . . ﴾ الآيات .
- ٤ - أسلوب التشويق ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ ؟ فإن المراد منه التشويق الى معرفة القصة .
- ٥ - الطباق بين ﴿ الجنة . . والجحيم ﴾ وبين ﴿ السماء . . والارض ﴾ الوارد في الآيات .
- ٦ - التشبيه المرسل المجمل ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشيَّة أو ضحاها ﴾ .
- ٧ - الاستعارة التصريحية ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ شبه أكل الناس برعي الأنعام ، واستعير
الرعي للإنسان بجامع أكل الإنسان والحيوان من النباتات ، ففيه استعارة لطيفة .
- ٨ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿ ضحاها ، دحاها ، مرعاها ، أرساها ﴾ وهو من
المحسنات البديعية ويسمى السجع . .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النازعات »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة عبس من السور المكية ، وهي تتناول شئونهاً تتعلق بالعقيدة وأمر الرسالة ، كما أنها تتحدث عن دلائل القدرة ، والوحدانية في خلق الإنسان ، والنبات ، والطعام ، وفيها الحديث عن القيامة وأهوالها ، وشدة ذلك اليوم العصيب .

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر قصة الأعمى « عبد الله بن أم مكتوم » الذي جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله ، ورسولُ الله ﷺ مشغول مع جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام ، فعبس ﷺ وجهه وأعرض عنه ، فنزل القرآن بالعتاب ﴿ عبس وتولى ﴾ أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتفتحه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدى ﴿ الآيات .

* ثم تحدثت عن جحود الإنسان ، وكفره الفاحش بربه مع كثرة نعم الله تعالى عليه ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ من أي شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدّره * ثم السبيل يسره . . . ﴿ الآيات .

* ثم تناولت دلائل القدرة في هذا الكون ، حيث يسر الله للإنسان سبل العيش فوق سطح هذه المعمورة ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً ﴾ ثم شققنا الأرض شقاً * فأنبثنا فيها حباً * وعناباً وقضباً * وزيتوناً ونخلاً ﴿ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة ، وفرار الإنسان من أحبابه من شدة الهول والفرع ، وبينت حال المؤمنين وحال الكافرين في ذلك اليوم العصيب ﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ يوم يفر المرء من أخيه * وأمّه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه * وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قتره * أولئك هم الكفرة الفجرة ﴿ .

قال الله تعالى : ﴿ عبس وتولى ﴾ أن جاءه الأعمى . . . إلى أولئك هم الكفرة الفجرة ﴿ (من آية ١ إلى ٤٢ نهاية السورة) .

اللغز : ﴿ عبس ﴾ كلع وجهه وقطب ﴿ تصدى ﴾ تتعرض له وتصغي لكلامه ﴿ سفره ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾ أَمَا مِنْ
أَسْتَغْنَى ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي ﴿٧﴾

السفرة : الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد جمع سافر مثل كاتب كَتَبَ ﴿أقبره﴾ جعل له قبراً وأمر أن يُقبر ﴿قضباً﴾ القضب : كل ما يقطع من البقول فينبت أصله مثل البرسيم « الفصة » والباقلاء ، والكُرَّاث وغيرها ﴿غلباً﴾ كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان جمع غلباء ﴿أباً﴾ الأب : المرعى وكل ما أنبتت الأرض مما تأكله البهائم كالكلأ والعشب ﴿الصاخة﴾ الصيحة التي تصم الأذان لشدتها ﴿مسفرة﴾ مشرقة مضيئة ﴿عبرة﴾ غبار ودخان ﴿قتره﴾ سواد وظلمة .

سَبَبُ النَّزُولِ : روي أن النبي ﷺ كان مشغولاً مع صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام ، وكان يطمع في إسلامهم رجاء أن يسلم أتباعهم ، فبينما رسول الله ﷺ مشغول بمن عنده من وجوه قريش ، جاء إليه « عبد الله بن أم مكتوم » وهو أعمى ، فقال يا رسول الله : علمني مما علمك الله ، وكرّر ذلك وهو لا يعلم أن الرسول مشغول مع هؤلاء المشركين ، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه ، وعبس وأعرض عنه وقال في نفسه : يقول هؤلاء إنما أتباعه العميان والسُّقَلَة والعبيد ، فعبس وجهه وأقبل على القوم يكلمهم فأنزل الله ﴿عبس وتولى * أن جاءه الأعمى﴾ الآيات (١) .

التفسير : ﴿عبس وتولى * أن جاءه الأعمى﴾ أي كلع وجهه وقطبه وأعرض عنه كارهاً ، لأن جاءه الأعمى يسأل عن أمور دينه قال الصاوي : إنما أتى بضمائر الغيبة ﴿عبس وتولى﴾ تطفأ به ﷺ وإجلالاً له ، لما في المشافهة بقاء الخطاب ما لا يخفى من الشدة والصعوبة واسم الأعمى «عبد الله بن أم مكتوم» وكان بعد نزول آيات العتاب إذا جاءه يقول له : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ، ويبسط له رداءه (٢) ﴿وما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي﴾ أي وما يُعلمك ويخبرك يا محمد لعل هذا الأعمى الذي عبست في وجهه ، يتطهر من ذنوبه بما يتلقاه عنك من العلم والمعرفة ! ! ﴿أو يذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ أي أو يتعظ بما يسمع فتنبه موعظتك ! ! ﴿أَمَا مِنْ أَسْتَغْنَى﴾ أي أما من استغنى عن الله وعن الإيمان ، بما له من الثروة والمال ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ أي فأنت تتعرض له وتصغي لكلامه ، وتهتم بتبليغه دعوتك ﴿وما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي﴾ أي ولا حرج عليك أن لا يتطهر من دنس الكفر والعصيان ، ولست بمطالب بهدايته ، إنما عليك البلاغ قال الألوسي : وفيه مزيد تنفير له ﷺ عن مصاحبتهم ، فإن الإقبال على المدبر مخل بالمروءة كما قال القائل :

(١) حاشية الصاوي ٢٩٢/٤ وتفسير القرطبي ٢١٠/١٩ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٢٩١/٤ .

وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۝ وَهُوَ يَخْشَى ۝ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۝ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝
فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝ قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ ۝
مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ ۱۸ ۝ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۝ ۱۹ ۝ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝ ۲۰ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۝ ۲۱ ۝ ثُمَّ
إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ۝ ۲۲ ۝

والله لو كرهت كفي مصاحبتي يوماً لقلت لها عن صُحْبَتِي بَيْنِي (١)

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ أي وأمّا من جاءك يسرع ويمشي في طلب العلم لله ويحرص على طلب الخير
﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ أي وهو يخاف الله تعالى ويتقي محارمه ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ أي فأنت يا محمد تتشاغل
عنه ، وتلهي بالانصراف عنه إلى رؤساء الكفر والضلال ! ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي لا تفعل بعد اليوم
مثل ذلك ، فهذه الآيات موعظة وتبصرة للخلق ، يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها العقلاء ﴿فَمَنْ شَاءَ
ذَكَرَهُ﴾ أي فمن شاء من عباد الله اتعظ بالقرآن ، واستفاد من إرشاداته وتوجيهاته ، قال المفسرون : كان
ﷺ بعد هذا العتاب ، لا يعبس في وجه فقير قط ، ولا يتصدى لغني أبداً ، وكان الفقراء في مجلسه أمراء ،
وكان إذا دخل عليه « ابن أم مكتوم » يبسط له رداءه ويقول : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي . . ثم بعد هذا
البيان أخبر عن جلاله قدر القرآن فقال ﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ﴾ أي هو في صحفٍ مكرمة عند الله
﴿مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ أي عالية القدر والمكانة ، منزهة عن أيدي الشياطين ، وعن كل دنسٍ ونقص
﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ أي بأيدي ملائكة جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ أي مكرمين
معظمين عند الله ، أتقياء صلحاء ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ثم ذكر تعالى قبح
جريمة الكافر ، وإفراطه في الكفر والعصيان مع كثرة إحسان الله إليه فقال ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ﴾
أي لعن الكافر وطرد من رحمة الله ، ما أشد كفره بالله مع كثرة إحسانه إليه وأياديه عنده ؟ قال الألوسي :
والآية دعاءٌ عليه بأشنع الدعوات وأفظعها ، وتعجيبٌ من إفراطه في الكفر والعصيان ، وهذا في غاية
الإيجاز والبيان (٢) ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي من أي شيء خلق الله هذا الكافر حتى يتكبر على ربه ؟
ثم وضّح ذلك فقال ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ أي من ماءٍ مهينٍ حقير بدأ خلقه ، فقدّره في بطن أمه
أطواراً من نطفة ثم من علقه إلى أن تمّ خلقه قال ابن كثير : قدر رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو
سعيد (٣) ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ أي ثم سهّل له طريق الخروج من بطن أمه قال الحسن البصري : كيف
يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين (٤) ؟ يعني الذكر والفرج ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أي ثم أماته وجعل
له قبراً يُوارى فيه إكراماً له ، ولم يجعله ملقى للسباع والوحوش والطيور قال الخازن : وهذه تكرمة لبني
آدم على سائر الحيوانات ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ أي ثم حين يشاء الله إحياءه ، يحييه بعد موته للبعث

(١) روح المعاني للألوسي ٤٠/٣٠ . (٢) روح المعاني للألوسي ٤٣/٣٠ .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٦٠٠/٣ . (٤) تفسير القرطبي ٢١٦/١٩ .

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُهُ ﴿٣٢﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٣٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٣٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا
 الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٣٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٣٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٣٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٣٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٤٠﴾
 وَفَلَكَهًا وَأَبًّا ﴿٤١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ ﴿٤٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٤٤﴾ وَأُمِّهِ
 وَأَبِيهِ ﴿٤٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٤٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٤٧﴾

والحساب والجزاء^(١)، وإنما قال ﴿إِذَا شَاءَ﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد ، فهو إلى مشيئة الله تعالى ، متى شاء أن يحيي الخلق أحياءهم ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُهُ﴾ أي ليرتدع وينزجر هذا الكافر عن تكبره وتجبره ، فإنه لم يؤد ما فرض عليه ، ولم يفعل ما كلفه به ربه من الإيمان والطاعة . . . ولما ذكر خلق الإنسان ، ذكر بعده رزقه ، ليعتبر بما أغدق الله عليه من أنواع النعم ، فيشكر ربه ويطيعه فقال ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ أي فلينظر هذا الإنسان الجاحد نظر تفكر واعتبار ، إلى أمر حياته ، كيف خلقه بقدرته ، ويسره برحمته ، وكيف هيأ له أسباب المعاش ، وخلق له الطعام الذي به قوام حياته ؟ ! ثم فصل ذلك فقال ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ أي أنا بقدرتنا أنزلنا الماء من السحاب على الأرض إنزالاً عجيبياً ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي شققنا الأرض بخروج النبات منها شقاً بديعاً ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ أي فأخرجنا بذلك الماء أنواع الحبوب والنباتات : حباً يقتات الناس به ويدخرونه ، وعنباً شهياً لذيذاً ، وسائر البقول مما يؤكل رطباً ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ أي وأخرجنا كذلك أشجار الزيتون والنخيل ، يخرج منها الزيت والرطب والتمر ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ أي وبساتين كثيرة الأشجار ، ملتفة الأغصان ﴿وَفَلَكَهًا وَأَبًّا﴾ أي وأنواع الفواكه والثمار ، كما أخرجنا ما ترعاه البهائم قال القرطبي : الأب ما تأكله البهائم من العشب^(٢) ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ أي أخرجنا ذلك وأنبتناه ليكون منفعة ومعاشاً لكم أيها الناس ولأنعامكم قال ابن كثير : وفي هذه الآيات امتنان على العباد وفيها استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة ، على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاماً باليةً وأوصالاً متفرقة^(٣) . . . ثم ذكر تعالى بعد ذلك أهوال القيامة فقال ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ﴾ أي فإذا جاءت صيحة القيامة التي تصخ الأذان حتى تكاد تصمها ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب يهرب الإنسان من أحبائه ، من أخيه ، وأمه ، وأبيه ، وزوجته ، وأولاده لاشتغاله بنفسه قال في التسهيل : ذكر تعالى فرار الإنسان من أحبائه ، ورتبهم على مراتبهم في الحنو والشفقة ، فبدأ بالأقل وختم بالأكثر ، لأن الإنسان أشد شفقة على بنيه من كل من تقدم ذكره^(٤) ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي لكل إنسان منهم في ذلك اليوم العصيب ، شأن يشغله عن شأن غيره ، فإنه لا يفكر في سوى نفسه ، حتى إن الأنبياء صلوات الله عليهم ليقول الواحد منهم يومئذ

(١) تفسير الخازن ٤ / ٢١٠ . (٢) تفسير القرطبي ١٩ / ٢٢٠ .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٦٠١ . (٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ١٨٠ .

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرَهَقَهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾
أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٢﴾

«نفسى نفسى» (١) . . ولما بيّن تعالى حال القيامة وأهوالها ، بيّن بعدها حال الناس وانقسامهم في ذلك اليوم إلى سعداء وأشقياء ، فقال في وصف السعداء : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي وجوه في ذلك اليوم مضيئة مشرقة من البهجة والسرور ﴿ضاحكة مستبشرة﴾ أي فرحة مسرورة بما رأته من كرامة الله ورضوانه ، مستبشرة بذلك النعيم الدائم ﴿ووجوه يومئذٍ عليها غبرة﴾ أي وجوه في ذلك اليوم عليها غبارٌ ودخان ﴿ترهقها قترة﴾ أي تغشاها وتعلوها ظلمةٌ وسوادٌ ﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ أي أولئك الموصوفون بسواد الوجوه ، هم الجامعون بين الكفر والفجور ، قال الصاوي : جمع الله تعالى إلى سواد وجوههم الغبرة كما جمعوا الكفر إلى الفجور (٢) .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في العتاب ﴿عبس وتولى﴾ . . ثم قال: وما يدريك لعله يزكى ﴿؟ فالتفت تنبيهاً للرسول ﷺ إلى العناية بشأن الأعمى .
- ٢ - جناس الاشتقاق بين ﴿يذكر . . والذكرى﴾ .
- ٣ - الكناية الرائقة ﴿ثم السبيل يسره﴾ كنى بالسبيل عن خروجه من فرج الأم .
- ٤ - أسلوب التعجب ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ ؟ تعجبٌ من إفراط كفره ، مع كثرة إحسان الله إليه .
- ٥ - الطباق بين ﴿تصدى﴾ وبين ﴿تلهى﴾ لأن المراد بهما تتعرض وتنشغل .
- ٦ - التفصيل بعد الإجمال ﴿من أي شيء خلقه﴾ ثم فصل ذلك وبينه بقوله ﴿من نطفة خلقه فقدّره﴾ ثم السبيل يسره * ثم أماته فأقبره﴾ .
- ٧ - المقابلة اللطيفة بين السعداء والأشقياء ﴿وجوه يومئذٍ مسفرة * ضاحكة مستبشرة﴾ قابلها بقوله ﴿ووجوه يومئذٍ عليها غبرة * ترهقها قترة﴾ .
- ٨ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات ، وهو من المحسنات البديعية ويسمى السجع مثل ﴿عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعل يزكى﴾ ومثل ﴿في صحف مكرومة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام بررة . . الخ﴾ .

(١) هذا جزء من حديث في الشفاعة أخرجه البخاري ومسلم . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٢٩٤ .

لطيفة : اقتبس بعض الأدباء من قوله تعالى ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ ؟ هذين البيتين :

يتمنى المرء في الصيف الشتا فإذا جاء الشتا أنكره
فهو لا يرضى بحالٍ واحدٍ قُتِلَ الإنسانُ ما أكفره ؟

« تم بعونه تعالى تفسير سورة عبس »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة التكوير من السور المكية ، وهي تعالج حقيقتين هامتين هما : « حقيقة القيامة » وحقيقة « الوحي والرسالة » وكلاهما من لوازم الإيمان .

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان القيامة وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل ، يشمل الشمس ، والنجوم ، والجبال ، والبحار ، والأرض ، والسماء ، والأنعام ، والوحوش ، كما يشمل البشر ، ويهز الكون هزاً عنيفاً طويلاً ، ينتشر فيه كل ما في الوجود ، ولا يبقى شيء إلا وقد تبدل وتغيّر من هول ما يحدث في ذلك اليوم الرهيب ﴿ إذا الشمس كورت * وإذا النجوم انكدرت * وإذا الجبال سُيرت * وإذا العشارُ عطلت * وإذا الوحوش حُشرت * وإذا البحارُ سُجرت ﴾ الآيات .

* ثم تناولت حقيقة الوحي ، وصفة النبي الذي يتلقاه ، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي الذي نزل لينقلهم من ظلمات الشرك والضلال ، إلى نور العلم والإيمان ﴿ فلا أقسم بالحنّس * الجوار الكنّس * والليل إذا عسعس * والصبح إذا تنفس * إنه لقول رسول كريم ﴾ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة ببيان بطلان مزاعم المشركين حول القرآن العظيم ، وذكرت أنه موعظة من الله تعالى لعباده ﴿ فأين تذهبون * إن هو إلا ذكرٌ للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾
وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾
بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾

اللغاة: ﴿انكدرت﴾ تناثرت ﴿العشار﴾ جمع عشاء وهي الناقة التي مر على حملها عشرة أشهر ﴿كشطت﴾ نُزعت وقلعت يقال: كشطت جلد الشاة أي نزعته وسلخته عنها ﴿الخنس﴾ الكواكب المضيئة التي تخنس نهاراً وتخفي عن البصر جمع خانس ﴿الكنس﴾ النجوم التي تغيب يقال: كنس إذا دخل الكناس وهو المكان الذي تأوي إليه الطباء ﴿عسعس﴾ أقبل بظلامه قال الخليل: عسعس الليل: إذا أقبل أو أدبر فهو من الأضداد قال الشاعر:

حتى إذا الصبح لها تنفساً وانجاب عنها ليلها وعسعسا^(١)

التفسير: ﴿إذا الشمس كُوِّرَتْ﴾ هذه الآيات بيان لأحوال القيامة وما يكون فيها من الشدائد والكوارث، وما يعتري الكون والوجود من مظاهر التغيير والتخريب والمعنى: إذا الشمس لُفَّت ومُحِي ضوؤها ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ أي وإذا النجوم تساقطت من مواضعها وتناثرت ﴿وإذا الجبال سُيِّرَتْ﴾ أي وإذا الجبال حركت من أماكنها، وسُيِّرَتْ في الهواء حتى صارت كالهباء كقوله تعالى ﴿ويوم نسف الجبال وترى الأرض بارزة﴾ ﴿وإذا العشار عُطِّلَتْ﴾ أي وإذا النوق الحوامل تركت همللاً بلا راع ولا طالب، وخص النوق بالذكر لأنها كرائم أموال العرب ﴿وإذا الوحوش حُشِرَتْ﴾ أي وإذا الوحوش جمعت من أوكارها وأبحارها ذاهلة من شدة الفزع ﴿وإذا البحار سُجِّرَتْ﴾ أي وإذا البحار تأججت ناراً، وصارت نيراناً تضطرم وتلتهب ﴿وإذا النفوس زُوِّجَتْ﴾ أي وإذا النفوس قرنت بأشباها، فقرن الفاجر مع الفاجر، والصالح مع الصالح قال الطبري: يُقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، وبين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار^(٢) ﴿وإذا الموءودة سُئِلَتْ﴾ بأي ذنب قُتِلَتْ أي وإذا البنت التي دفنت وهي حية سُئِلَتْ توبيخاً لقاتلها: ما هو ذنبها حتى قتلت؟ قال في التسهيل: الموءودة هي البنت التي كان بعض العرب يدفنها حية من كراهته لها أو غيرته عليها، فتسأل يوم القيامة ﴿بأي ذنب قُتِلَتْ﴾؟ على وجه التوبيخ لقاتلها^(٣) ﴿وإذا الصحف نُشِرَتْ﴾ أي وإذا الصحف الأعمال نشرت وبسطت عند الحساب ﴿وإذا السماء كُشِطَتْ﴾ أي وإذا السماء أزيلت ونزعت من مكانها كما ينزع الجلد

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٣٠. (٢) هذه رواية الطبري عن عمر بن الخطاب، وقيل المراد: قرن الأجساد بالأرواح، والأول أرجح والله أعلم.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١٨١/٤.

وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ﴿١٥﴾
 الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾
 ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ
 بِالْأَفْقِ الْأَمِينِ ﴿٢٣﴾

عن الشاة ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ أي وإذا نار جهنم أوقدت وأضرمت لأعداء الله تعالى ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ﴾ أي وإذا الجنة أُنزيت وقربت من المتقين ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ أي علمت كل نفسٍ ما أحضرت من خير أو شر ، وهذه الجملة ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ هي جواب ما تقدم من أول السورة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إلى هنا ، والمعنى إذا حدثت تلك الأمور العجيبة الغريبة ، علمت حيثئذ كل نفسٍ ما قدمته من صالح أو طالح . ثم أقسم تعالى على صدق القرآن ، وصحة رسالة محمد عليه السلام فقال ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ﴾ أي فأقسم قسماً مؤكداً بالنجوم المضيئة التي تختفي بالنهار ، وتظهر بالليل (١) ﴿الْجَوَارِي الْكُنَّسِ﴾ أي التي تجري وتسير مع الشمس والقمر ثم تستتر وقت غروبها ، كما تستتر الطبء في كناسها - مغاراتها - قال القرطبي : النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل ، وتكنس وقت غروبها أي تستتر ، كما تكنس الطبء في المغار وهو الكناس (٢) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ أي وأقسم بالليل إذا أقبل بظلامه حتى غطى الكون (٣) ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي وبالصبح إذا أضاء وتبلىح ، واتسع ضياؤه حتى صار نهراً واضحاً ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا هو المقسم عليه أي إن هذا القرآن الكريم ، لكلام الله المنزل بواسطة ملك عزيز على الله هو جبريل كقوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ قال المفسرون : أراد بالرسول « جبريل » وأضاف القرآن إليه لأنه جاء به ، وهو في الحقيقة قول الله تعالى ، وبما يدل على أن المراد به جبريل قوله بعده ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي شديد القوة ، صاحب مكانة رفيعة ، ومنزلة سامية عند الله جل وعلا ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أي مطاعٍ هناك في الملاء الأعلى ، تطيعه الملائكة الأبرار ، مؤتمن على الوحي الذي ينزل به على الأنبياء ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ أي وليس محمد الذي صاحبتموه يا معشر قريش ، وعرفتم صدقه ونزاهته ورجاحة عقله بمجنون كما زعمتم قال الخازن : أقسم تعالى على أن القرآن نزل به جبريل الأمين ، وأن محمداً ﷺ ليس بمجنون كما يزعم أهل مكة ، فنفى تعالى عنه الجنون ، وكون القرآن من عند نفسه (٤) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْأَمِينِ﴾ أي وأقسم لقد رأى محمد ﷺ جبريل في صورته الملكية التي خلقه الله عليها بجهة الأفق الأعلى البين من ناحية المشرق حيث تطلع الشمس قال في البحر : وهذه الرؤية بعد أمر غار حراء ، حين رأى جبريل على كرسي بين

(١) هذا قول علي وابن عباس ومجاهد والحسن ، كذا في الطبري . ٤٨/٣ . (٢) تفسير القرطبي ١٩/٢٣٥ .

(٣) هذا القول أرجح لمقابلته بالصبح فكأنه يقول : أقسم بالليل حين يقبل بظلامه ، وبالنهار حين يقبل بضياؤه ، وهو اختيار ابن كثير .

(٤) تفسير الخازن ٤/٢١٥ .

وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾
لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

السماء والأرض ، في صورته له ستائة جناح قد سد ما بين المشرق والمغرب ^(١) ﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ أي وما محمد على الوحي ببخيل يقصر في تبليغه وتعليمه ، بل يبلغ رسالة ربه بكل أمانة وصدق ﴿وما هو بقول شيطان رجييم﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان ملعون كما يقول المشركون ﴿فأين تذهبون﴾ أي فأي طريق تسلكون في تكذيبكم للقرآن ، واتهامكم له بالسحر والكهانة والشعر ، مع وضوح آياته وسطوع براهينه ؟ وهذا كما تقول لمن ترك الطريق المستقيم : هذا الطريق الواضح فأين تذهب ؟ ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ أي ما هذا القرآن إلا موعظة وتذكرة للخلق أجمعين ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ أي لمن شاء منكم أن يتبع الحق ، ويستقيم على شريعة الله ، ويسلك طريق الأبرار ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ أي وما تقدرُونَ على شيء إلا بتوفيق الله ولطفه ، فاطلبوا من الله التوفيق إلى أفضل طريق .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الجناس الناقص بين ﴿الخنس﴾ و﴿الكنس﴾ .
- ٢ - الاستعارة التصريحية ﴿والصبح إذا تنفس﴾ شبه إقبال النهار وسطوع الضياء بنسبات الهواء العليل التي تحمي القلب ، واستعار لفظ التنفس لإقبال النهار بعد الظلام الدامس ، وهذا من لطيف الاستعارة وأبلغها تصويراً حيث عبر عنه بتنفس الصبح .
- ٣ - الكناية اللطيفة ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ كنى عن محمد ﷺ بلفظ ﴿صاحبكم﴾ .
- ٤ - الطباق بين لفظ ﴿الجحيم﴾ .. و﴿الجنة﴾ .
- ٥ - الجناس غير التام بين ﴿أمين﴾ .. و﴿مكين﴾ .
- ٦ - توافق الفواصل رعاية لرءوس الآيات مثل ﴿كورت ، سیرت ، سُجرت ، سُعرت﴾ ومثل ﴿الخنس ، الكنس ، عسعس ، تنفس﴾ الخ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة التكوير »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة الانفطار من السور المكية ، وهي تعالج - كسابقتها سورة التكوير - الانقلاب الكوني الذي يصاحب قيام الساعة ، وما يحدث في ذلك اليوم الخطير من أحداث جسام ، ثم بيان حال الأبرار ، وحال الفجار ، يوم البعث والنشور .

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان مشاهد الانقلاب الذي يحدث في الكون ، من انفطار السماء ، وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار ، وبعثرة القبور ، وما يعقب ذلك من الحساب والجزاء ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَشَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴿ .

* ثم تحدثت عن جحود الإنسان وكفرانه لنعم ربه ، وهو يتلقى فيوض النعمة منه جل وعلا ، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها ، ولا يعرف لربه قدره ، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ * الذي خلقك فسواك فعدلك * في أي صورة ما شاء ربك ﴿ ؟ !

* ثم ذكرت علّة هذا الجحود والإنكار ، ووضحت أن الله تعالى وكّل بكل إنسان ملائكة يسجلون عليه أعماله ، ويتعقبون أفعاله ﴿كَلَّا بَلْ تَكذِبُونَ بِالدينِ﴾ * وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون ﴿ .

* وذكرت السورة انقسام الناس في الآخرة إلى قسمين : أبرار ، وفجار ، وبيّنت مال كل من الفريقين ﴿إِنَّ الْأبرارَ لَفِي نعيمٍ﴾ * وإن الفجار لفي جحيم * يصلونها يوم الدين . . ﴿ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بتصوير ضخامة يوم القيامة وهوله ، وتجرد النفوس يومئذ من كل حول وقوة ، وتفرد الله جل وعلا بالحكم والسلطان ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾ * ثم ما أدراك ما يوم الدين * يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله ﴿ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَمْتَ وَأَخَّرْتَ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾

اللغز: ﴿انفطرت﴾ انشقت ، والنفطر: الشق ومنه فطر ناب البعير ﴿انتثرت﴾ تساقطت وتهاوت ﴿بعثت﴾ قلبت يقال: بعثت المتاع قلبته ظهرًا لبطن ﴿غرك﴾ خدعك ﴿سواك﴾ جعل أعضائك سليمة سوية ﴿يصلونها﴾ يدخلونها ويدوقونها لهبها وحرها .

التفسير: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ أي إذا السماء انشقت بأمر الله لنزول الملائكة كقوله تعالى ﴿ويوم تشق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً﴾ ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ أي وإذا النجوم تساقطت وتناثرت ، وزالت عن بروجها وأماكنها ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي وإذا البحار فتح بعضها إلى بعض ، فاختلط عذبها بمالحها ، وأصبحت بحراً واحداً ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ أي وإذا القبور قلبت ، ونبش ما فيها من الموتى ، وصار ما في باطنها ظاهراً على وجهها ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَمْتَ وَأَخَّرْتَ﴾ هذا هو الجواب أي علمت عندئذ كل نفس ما أسلفت من خير أو شر ، وما قدمت من صالح أو طالح قال الطبري : ما قدمت من عمل صالح ، وما أخرت من شيء سنه فعمل به بعده^(١) ثم بعد ذكر أحوال الآخرة وأهوالها ، انتقلت الآيات لتذكير الإنسان الغافل الجاهل بما أمامه من أهوال وشدائد فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ أي أي شيء خدعك بربك الحليم الكريم ، حتى عصيته وتجرات على مخالفة أمره ، مع إحسانه إليك وعطفه عليك؟^(٢) وهذا توبيخ وعتاب كأنه قال : كيف قابلت إحسان ربك بالعصيان ، ورأفته بك بالتمرد والطغيان ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ ؟ ثم عدّد نعمه عليه فقال ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ﴾ أي الذي أوجدك من العدم ، فجعلك سويةً سالم الأعضاء ، تسمع وتعقل وتبصر ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي جعلك معتدل القامة منتصباً في أحسن الهيئات والأشكال ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ أي ركبك في أي صورة شاءها واختارها لك من الصور الحسنة العجيبة ولم يجعلك في الشكل كالبهيمة كقوله تعالى ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ . . ثم وبّخ المشركين على تكذيبهم بيوم الدين فقال ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ أي ارتدعوا يا أهل مكة ، ولا تغتروا بحلم الله ، بل أنتم تكذبون بيوم الحساب والجزاء ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ أي والحال أن عليكم ملائكة حفظة يضبطون

(١) تفسير الطبري ٥٤/٣٠ . (٢) هذه الآية واردة على سبيل التوبيخ والتعجب من حال الإنسان الجاحد لنعم ربه ، وليست واردة على

سبيل تلقين الحجة كما قال البعض حتى قالوا : يلقنه أن يقول : غرني كرمك ، ويؤيد ما ذكرناه قول عمر : غره حمقه وجهله .

كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾
يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ
الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

أعمالكم ويراقبون تصرفاتكم قال القرطبي : أي عليكم رقباء من الملائكة ^(١) ﴿كراماً كاتبين﴾ أي كراماً على الله ، يكتبون أقوالكم وأعمالكم ﴿يعلمون ما تفعلون﴾ أي يعلمون ما يصدر منكم من خير وشر ، ويسجلونه في صحائف أعمالكم ، لتجازوا به يوم القيامة . ثم بين تعالى انقسام الخلق يوم القيامة إلى أبرار وفجار ، وذكر مال كل من الفريقين فقال ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أي إن المؤمنين الذين اتقوا ربهم في الدنيا ، لفي بهجة وسرور لا يوصف ، يتنعمون في رياض الجنة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وهم مخلدون في الجنة ﴿وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ أي وإن الكفرة الفجار ، الذين عصوا ربهم في الدنيا ، لفي نار محرقة ، وعذاب دائم مقيم في دار الجحيم ﴿يصلونها يوم الدين﴾ أي يدخلونها ويقاسون حرها يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾ تعظيم له وتهويل أي ما أعلمك ما هو يوم الدين ؟ وأي شيء هو في شدته وهوله ؟ ﴿ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾ ؟ كرر ذكره تعظيماً لشأنه ، وتهويلاً لأمره كقوله ﴿الحاقة ما الحاقة ؟ وما أدراك ما الحاقة﴾ ؟ كأنه يقول : إن يوم الجزاء من شدته بحيث لا يدري أحد مقدار هوله وعظمته ، فهو فوق الوصف والبيان ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً﴾ أي هو ذلك اليوم الرهيب الذي لا يستطيع أحد أن ينفع أحداً بشيء من الأشياء ، ولا أن يدفع عنه ضراً ﴿والأمر يومئذ لله﴾ أي والأمر في ذلك اليوم لله وحده لا ينازعه فيه أحد .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿قدمت﴾ و﴿أخرت﴾ وهو من المحسنات البديعية .
- ٢ - المقابلة اللطيفة بين الأبرار والفجار ﴿إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم﴾ فقد قابل الأبرار بالفجار ، والنعيم بالجحيم وفيه أيضاً من المحسنات البديعية ما يسمى بالترصيع .
- ٣ - الاستعارة المكنية ﴿وإذا الكواكب انتشرت﴾ شبه الكواكب بجواهر قطع سلكها فتناثرت متفرقة ، وطوى ذكر المشبه به ورمز له شيء من لوازمه وهو الانتثار على طريق الاستعارة المكنية .

٤ - الاستفهام للتوبيخ والإنكار ﴿ما غرك بربك الكريم﴾ ؟

٥ - التنكير في كل من لفظة ﴿نعيم﴾ و ﴿جحيم﴾ للتعظيم والتهويل .

٦ - الإطناب بإعادة الجملة ﴿وما أدراك ما يوم الدين * ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾ ؟ لتعظيم هول ذلك اليوم وبيان شدته كأنه فوق الوصف والخيال .

٧ - السجع المرصع وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت﴾ ومثل ﴿وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين﴾ ومثل ﴿إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم﴾ .

لطيفة : روي أن الخليفة « سليمان بن عبد الملك » قال لأبي حازم المزني : ليت شعري أين مصيرنا يوم القيامة ؟ وما لنا عند الله ؟ فقال له : اعرضْ عملك على كتاب الله تجد ما لك عند الله ! فقال : وأين أجد ذلك في كتاب الله ! ! قال : عند قوله تعالى ﴿إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم﴾ قال سليمان : فأين إذاً هي رحمة الله ؟ فأجابه بقوله ﴿إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين﴾ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الانفطار » .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* هذه السورة الكريمة مكية ، وأهدافها نفس أهداف السور المكية ، تعالج أمور العقيدة وتحدث عن الدعوة الإسلامية في مواجهة خصومها الألداء .

* ابتدأت السورة الكريمة بإعلان الحرب على المطففين في الكيل والوزن ، الذين لا يخافون الآخرة ولا يحسبون حساباً للوقفة الرهيبة بين يدي أحكم الحاكمين ﴿ويلٌ للمطففين﴾ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ .

* ثم تحدثت عن الأشقياء الفجار ، وصورت جزاءهم يوم القيامة ، حيث يساقون إلى الجحيم

مع الزجر والتهديد ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ الآيات .

* ثم عرضت لصفحة المتقين الأبرار ، وما لهم من النعيم الخالد الدائم ، في دار العز والكرامة ، وذلك في مقابلة ما أعدَّه الله للأشقياء الأشرار ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خَتَمَهُ مَسْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ .

* وختمت السورة الكريمة بمواقف أهل الشقاء والضلال ، من عباد الله الأخيار ، حيث كانوا يهزءون بهم في الدنيا ويسخرون عليهم لإيمانهم وصلاتهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ إلى آخر السورة الكريمة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾

اللفظ: ﴿المطففين﴾ جمع مُطَفِّف وهو الذي ينقص في الكيل والوزن ، والتطفيف : النقصان وأصله من الطفيف وهو الشيء اليسير ، لأن المطفف لا يكاد يسرق في الكيل والوزن إلا الشيء اليسير ﴿ران﴾ غطى وغشى كالصدا يغشى السيف ، وأصله الغلبة يقال : رانت الخمر على عقل شارها أي غلبته قال الشاعر :

« وكم ران من ذنب على قلب فاجر »^(١)

﴿رحيق﴾ أجود الخمر وأصفاه وفي الصحاح : الرحيق صفوة الخمر وقال الأخفش : هو الشراب الذي لا غش فيه قال حسان :

بَرَدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ^(٢)

﴿فكهين﴾ معجبين متلذذين ﴿يتغامزون﴾ يشيرون إليهم بالأعين استهزاءً ﴿ثوب﴾ جوزي ﴿تسنيم﴾ عين عالية شرابها أشرف شراب ، وأصل التسنيم الارتفاع ومنه سنام البعير .

سبب النزول: عن ابن عباس قال « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، كانوا من أحبب الناس كيلاً فأنزل الله عز وجل ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك »^(٣) .

التفسير: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ أي هلاك وعذاب ودمار ، لأولئك الفجار الذين ينقصون المكيال والميزان ، ثم بين أوصافهم القبيحة بقوله ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي إذا

(١) البحر المحيط ٤٣٨/٨ . (٢) القرطبي ٢٦٣/١٩ . (٣) مختصر ابن كثير ٦١٣/٣ .

وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ
النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكْذِبُونَ أَيَّامَ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا
تُلِّيَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

أخذوا الكيل من الناس أخذوه وافيأً كاملاً لأنفسهم ﴿٣﴾ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴿٤﴾ أي وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ، ينقصون الكيل والوزن قال المفسرون : نزلت في رجلٍ يُعرف بـ « أبي جهينة » كان له صاعان ، يأخذ بأحدهما ويعطي بالآخر ، وهو وعيدٌ لكل من طفّف الكيل والوزن ، وقد أهلك الله قوم شعيب لبخسهم المكيال والميزان ، وفي الحديث (ولا طفّفوا الكيل إلاّ منعوا النبات وأخذوا بالسنين) (١) ﴿٥﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٦﴾ أي ألا يعلم ويستيقن أولئك المطففون أنهم سيبعثون ليوم عظيم ، شديد الهول ، كثير الفزع ؟ ! ﴿٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ أي يوم يقفون في المحشر حفاة عراة ، خاشعين خاضعين لرب العالمين قال في البحر : وفي هذا الإنكار والتعجب ، ووصف اليوم بالعظم ، وقيام الناس لله خاضعين ، ووصفه برب العالمين ، دليلٌ على عظم هذا الذنب وهو التطفيف (٢) ، وفي الحديث عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه (٣) . . ثم ذكر تعالى مال الفجار ، ومال الأبرار فقال ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِينٍ﴾ أي ليرتدع هؤلاء المطففون عن الغفلة عن البعث والجزاء ، فإن كتاب أعمال الأشقياء الفجار ، لفي مكان ضيق في أسفل سافلين ﴿٨﴾ وما أدراك ما سجين ﴿٩﴾ استفهامٌ للتعظيم والتهويل أي هل تعلم ما هو سجين ؟ ﴿١٠﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿١١﴾ أي هو كتاب مكتوب بالرقم في الثوب ، لا ينسى ولا يمحي ، أثبتت فيه أعمالهم الشريفة قال ابن كثير : ﴿سجين﴾ مأخوذ من السجن وهو الضيق ، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل سافلين ، وهي تجمع الضيق والسفول ، أخبر تعالى أنه كتاب مرقوم أي مكتوب مفروغ منه ، لا يزداد فيه أحد ولا ينقص منه أحد (٤) ﴿١٢﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين ﴿١٤﴾ الَّذِينَ يُكْذِبُونَ أَيَّامَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ أي يكذبون بيوم الحساب والجزاء ﴿١٦﴾ وَمَا يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٧﴾ أي وما يكذب بيوم الحساب والجزاء ألا كل متجاوز الحد في الكفر والضلال ، مبالغ في العصيان والطغيان ، كثير الآثام ، ثم وضّح من إجرامه فقال ﴿إِذَا تُلِّيَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي إذا تليت عليه آيات القرآن ، الناطقة بحصول البعث والجزاء ، قال عنها : هذه حكايات وخرافات الأوائل ، سطرها وزخرفوها في كتبهم ﴿١٨﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٩﴾ أي ليرتدع هذا الفاجر عن ذلك القول الباطل ، فليس القرآن أساطير الأوائل ، بل

(١) جزء من حديث أخرجه الحاكم والطبراني عن ابن عباس مرفوعاً ، وانظر الألويسي ٧١/٣٠ . (٢) البحر المحيط ٤٤٠/٨ . (٣) أخرجه

الشيخان ومالك (٤) مختصر تفسير ابن كثير ٦١٤/٣ .

كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ
الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾
يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾

غَطَّى عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَسَبُوا مِنَ الذُّنُوبِ ، فَطُمَسَ بِصَائِرِهِمْ فَصَارُوا لَا يَعْرِفُونَ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ قَالَ
الْمُفْسِّرُونَ : الرَّأْيُ هُوَ الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ حَتَّى يَسْوَدَّ الْقَلْبُ ^(١) ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾
أَي لِيَرْتَدِعَ هَؤُلَاءِ الْمَكْذُوبُونَ عَنْ غِيهِمْ وَضَلَالِهِمْ ، فَهَمَّ فِي الْآخِرَةِ مَحْجُوبُونَ عَنْ رُؤْيَةِ الْمَوْلَى جَل وَعَلَا فَلَا
يُرَوْنَهُ قَالَ الشَّافِعِيُّ : وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَالَ مَالِكٌ : لَمَّا حَجَبَ أَعْدَاءَهُ
فَلَمْ يَرَوْهُ ، تَجَلَّى لِأَوْلِيَائِهِ حَتَّى رَأَوْهُ ^(٢) ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أَي ثُمَّ إِنَّهُمْ مَعَ الْحَرَمَانِ عَنْ رُؤْيَةِ
الرَّحْمَنِ ، لِذَاخِلُوا الْجَحِيمَ وَذَائِقُوا عَذَابَهَا الْأَلِيمَ ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ أَي ثُمَّ تَقُولُ
لَهُمْ خِزْنَةُ جَهَنَّمَ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ : هَذَا الْعَذَابُ الَّذِي كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا ﴿أَفَسَحَّرَ هَذَا أَمْ
أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ؟ . . وَبَعْدَ الْحَدِيثِ عَنْ حَالِ الْفَجَّارِ ، ذَكَرَ تَعَالَى نَعِيمَ الْأَبْرَارِ فَقَالَ ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ
الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ وَزَجْرٌ أَي لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ مِنْ مَسَاوَاةِ الْفَجَّارِ بِالْأَبْرَارِ ، بَلْ
كُتِبَ لَهُمْ فِي سَجِينٍ ، وَكُتِبَ الْأَبْرَارُ فِي عِلِّيِّينَ ، وَهُوَ مَكَانٌ عَالٍ مُشْرِفٌ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ قَالَ فِي التَّسْهِيلِ : وَلَفْظُ
﴿عِلِّيِّينَ﴾ لِلْمُبَالَغَةِ ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْعُلُوِّ لِأَنَّهُ سَبَبٌ فِي ارْتِفَاعِ الدَّرَجَاتِ فِي الْجَنَّةِ ، أَوْ لِأَنَّهُ فِي مَكَانٍ عَلِيٍّ
رَفِيعٍ فَقَدْ رَوَى أَنَّهُ تَحْتَ الْعَرْشِ ^(٣) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ تَفْخِيمٌ وَتَعْظِيمٌ لِشَأْنِهِ أَي وَمَا أَعْلَمُكَ يَا مُحَمَّدُ
مَا هُوَ عِلِّيُّونَ ؟ ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أَي كِتَابُ الْأَبْرَارِ كِتَابٌ مُسَطَّرٌ ، مَكْتُوبٌ فِيهِ أَعْمَالُهُمْ ،
وَهُوَ فِي عِلِّيِّينَ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ ، يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَالَ الْمُفْسِّرُونَ : إِنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ إِذَا
قُبِضَتْ صُعِدَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ ، وَفَتَحَتْ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ، وَتَلَقَّتْهَا الْمَلَائِكَةُ بِالْبَشْرِى ، ثُمَّ يُخْرَجُونَ مَعَهَا
حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى الْعَرْشِ ، فَيُخْرَجُ لَهُمْ رَقٌّ فَيُكْتَبُ فِيهِ وَيُحْتَمُّ عَلَيْهِ بِالنَّجَاةِ مِنَ الْحِسَابِ وَالْعَذَابِ وَيَشْهَدُهُ
الْمُقَرَّبُونَ ^(٤) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أَي إِنَّ الْمُطِيعِينَ لِلَّهِ فِي الْجَنَاتِ الْوَارِقَةِ ، وَالظَّلَالَ الْمَمْتَدَّةِ يَتَنَعَّمُونَ
﴿عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ﴾ أَي هُمْ عَلَى السَّرْرِ الْمَزِينَةِ بِفَاخِرِ الثِّيَابِ وَالسُّتُورِ ، يَنْظُرُونَ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ
لَهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْكِرَامَةِ وَالنَّعِيمِ فِي الْجَنَّةِ ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أَي إِذَا رَأَيْتَهُمْ تَعْرِفُ أَنَّهُمْ
أَهْلُ نِعْمَةٍ ، لَمَّا تَرَى فِي وُجُوهِهِمْ مِنَ النُّورِ وَالْبَيَاضِ وَالْحَسَنِ ، وَمِنْ بَهْجَةِ السَّرُورِ وَرَوْنِقِهِ ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ
رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ أَي يُسْقَوْنَ مِنْ خَمْرِ فِي الْجَنَّةِ ، بِيضَاءٍ طَيِّبَةٍ صَافِيَةٍ ، لَمْ تَكْدُرْهَا الْأَيْدِي ، قَدْ خْتَمَ عَلَى

(١) وَفِي الْحَدِيثِ (إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً ، نَكَتَتْ فِي قَلْبِهِ نَكْتَةً سَوْدَاءَ ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ وَتَابَ صَقَلَ قَلْبَهُ ، فَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى
تَعْلُوَ عَلَى قَلْبِهِ) وَهُوَ الرَّأْيُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ . (٢) تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ
٢٥٩/١٩ . (٣) التَّسْهِيلُ لِعُلُومِ التَّنْزِيلِ ١٨٥/٤ . (٤) ذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ عَنْ كَعْبِ ٢٦٠/١٩ .

خَتَمَهُ مَسْكًَ ۖ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٣١﴾ وَمِرَاجُهُ مِنَ تَسْنِيمٍ ﴿٣٢﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا
 الْمُقْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٥﴾
 وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣٦﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا أُرْسِلُوا
 عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٨﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٩﴾

تلك الأواني فلا يفك ختمها إلا الأبرار ﴿ختمه مسك﴾ أي آخر الشراب تفوح منه رائحة المسك
 ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ أي وفي هذا النعيم والشراب الهنيء ، فليرغب بالمبادرة إلى طاعة
 الله ، وليتسابق المتسابقون قال الطبري : التنافس مأخوذ من الشيء النفيس الذي يحرص عليه الناس ،
 وتشتهيه وتطلبه نفوسهم والمعنى فليستبقوا في طلب هذا النعيم ، ولتحرص عليه نفوسهم^(١) ﴿ومرجه
 من تسنيم﴾ أي يمزج ذلك الرحيق من عينٍ عالية رفيعة ، هي أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه تسمى
 « التسنيم » ولهذا قال بعده ﴿عيناً يشرب بها المقربون﴾ أي هي عينٌ في الجنة يشرب منها المقربون
 صرفاً ، وتمزج لسائر أهل الجنة قال في التسهيل : تسنيم اسمٌ لعين في الجنة يشرب منها المقربون صرفاً ،
 ويمزج منه الرحيق الذي يشرب منه الأبرار ، فدل ذلك على أن درجة المقربين فوق درجة الأبرار^(٢) . . ولما
 ذكر تعالى نعيم الأبرار ، أعقبه بذكر مآل الفجار ، تسليةً للمؤمنين وتقويةً لقلوبهم فقال ﴿إن الذين
 أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾ أي أن المجرمين الذين من طبيعتهم الإيجرام وارتكاب الآثام ،
 كانوا في الدنيا يضحكون من المؤمنين استهزاءً بهم قال في التسهيل : نزلت هذه الآية في صناديد قريش
 كأبي جهل وغيره ، مرَّ بهم علي بن أبي طالب وجماعة من المؤمنين ، فضحكوا منهم واستخفوا بهم^(٣)
 ﴿وإذا مروا بهم يتغامزون﴾ أي وإذا مرَّ هؤلاء المؤمنون بالكفار ، غمز بعضهم بعضاً بأعينهم سخرية
 واستهزاءً بهم قال المفسرون : كان المشركون إذا مرَّ بهم أصحاب رسول الله ، تغامزوا بأعينهم عليهم
 احتقاراً لهم وازدراءً يقولون : جاءكم ملوك الدنيا ، يسخرون منهم لإيمانهم واستمساكهم بالدين ﴿وإذا
 انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين﴾ أي وإذا انصرف المشركون ورجعوا إلى منازلهم وأهلهم ، رجعوا
 متلذذين يتفكهون بذكر المؤمنين والاستخفاف بهم قال في البحر : أي رجعوا متلذذين بذكرهم وبالضحك
 منهم استخفافاً بأهل الإيمان^(٤) ﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾ أي وإذا رأى الكفار المؤمنين
 قالوا : إن هؤلاء لضالون لإيمانهم بمحمد ، وتركهم شهوات الحياة قال تعالى رداً عليهم ﴿وما أرسلوا
 عليهم حافظين﴾ أي وما أرسل الكفار حافظين على المؤمنين ، يحفظون أعمالهم ويشهدون برشدتهم أو
 ضلالهم ، وفيه تهكم وسخرية بالكفار كأنه يقول : أنا ما أرسلتهم رقباء ، ولا وكلتهم بحفظ أعمال عبادي
 المؤمنين ، حتى يرشدوهم إلى مصالحهم ، فلم يشغلون أنفسهم فيما لا يعينهم ؟ ﴿فاليوم الذين آمنوا

(١) تفسير الطبري ٦٨/٣٠ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١٨٥/٤ . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١٨٦/٤ . (٤) البحر المحيط ٤٤٣/٨ .

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُؤَبَّ الْأَكْفَارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

من الكفار يضحكون ﴿٣٥﴾ أي ففي هذا اليوم - يوم القيامة - يضحك المؤمنون من الكفار ، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا ، جزاءً وفاقاً ﴿٣٥﴾ على الأرائك ينظرون ﴿٣٦﴾ أي والمؤمنون على أسرة الدر والياقوت ، ينظرون إلى الكفار ويضحكون عليهم قال القرطبي : يقال لأهل النار وهم في النار اخرجوا ، فتفتح لهم أبواب النار ، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج ، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك ، فإذا انتهوا إلى أبوابها أغلقت دونهم ، فيضحك منهم المؤمنون^(١) ﴿٣٦﴾ هل تُؤَبَّ الكفار ما كانوا يفعلون ﴿٣٦﴾ أي هل جوزي الكفار في الآخرة بما كانوا يفعلونه بالمؤمنين من السخرية والاستهزاء ؟ نعم .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - التنكير للتهويل والتفخيم ﴿ويل للمطففين﴾ .
- ٢ - الطباق بين ﴿يستوفون﴾ و﴿يخسرون﴾ .
- ٣ - المقابلة بين حال الفجار والأبرار ﴿كلاً إن كتاب الفجار . . الخ﴾ و﴿كلاً إن كتاب الأبرار لفي عليين . . الخ﴾ .
- ٤ - التفخيم والتعظيم لمراتب الأبرار ﴿وما أدراك ما عليون﴾ ؟
- ٥ - جناس الاشتقاق ﴿فليتنافس المتنافسون﴾ .
- ٦ - الإطناب بذكر أوصاف ونعيم المتقين ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ * على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴿﴾ .
- ٧ - التشبيه البليغ ﴿ختامه مسك﴾ أي كالمسك في الطيب والبهجة ، فحذف منه الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغاً .
- ٨ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿يضحكون ، ينظرون ، يكسبون ، يفعلون﴾ الخ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المطففين »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الإنشقاق مكية ، وقد تناولت الحديث عن أهوال القيامة ، كشأن سائر السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية .

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر بعض مشاهد الآخرة ، وصوّرت الانقلاب الذي يحدث في الكون عند قيام الساعة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وأذنتُ لربها وحقَّتْ * وإذا الأرضُ مُدَّتْ * وألقتُ ما فيها وتخلَّتْ * وأذنتُ لربها وحقَّتْ﴾ .

* ثم تحدثت عن خلق الإنسان الذي يكذب ويتعب في تحصيل أسباب رزقه ومعاشه ، ليقدم لآخرته ما يشتهي من صالح أو طالح ، ومن خير أو شر ، ثم هناك الجزاء العادل ﴿يا أيها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك كدحاً فملاقيه * فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ الآيات .

* ثم تناولت موقف المشركين من هذا القرآن العظيم ، وأقسمت بأنهم سيلقون الأهوال والشدائد ، ويركبون الأخطار والأهوال في ذلك اليوم العصيب الذي لا ينفع فيه مال ولا ولد ﴿فلا أقسم بالشفق * والليل وما وسق * والقمر إذا اتسق * لتركبن طبقاً عن طبق﴾ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بتوبيخ المشركين على عدم إيمانهم بالله ، مع وضوح آياته وسطوع براهينه ، وبشرتهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم ﴿فما لهم لا يؤمنون * وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون * بل الذين كفروا يكذبون * والله أعلم بما يوعون * فبشرهم بعذاب أليم * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ .

قال الله تعالى : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ . . . إلى . . . لهم أجر غير ممنون﴾
(من آية ١ إلى ٢٥ نهاية السورة) .

اللفظة : ﴿كادحٌ﴾ الكدح : الجد والاجتهاد وجهد النفس في العمل قال الشاعر :
ومضتُ بشاشةً كل عيشٍ صالحٍ وبقيتُ أكدحُ للحياقِ وأنصب^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾
وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلِّقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ
بِئْمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾

﴿يجور﴾ يرجع يقال : حار يجور إذا رجع ومنه حديث (أعوذ بك من الحور بعد الكور) أي الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة ﴿الشقق﴾ الحمرة التي تكون بعد مغيب الشمس ﴿وسق﴾ جمع وضم ولف ﴿اتسق﴾ اجتمع وتكامل وتم نوره ﴿ممنون﴾ مقطوع .

التفسير : ﴿إذا السماء انشقت﴾ هذه الآيات بيان لأهوال القيامة ، وتصوير لما يحدث بين يدي الساعة من كوارث وأهوال يفزع لها الخيال والمعنى : إذا تشققت السماء وتصدعت مؤذنة بخراب الكون قال الألوسي : تنشق لهول يوم القيامة ^(١) ﴿وأذنت لربها وحقت﴾ أي واستمعت لأمر ربها وانقادت لحكمه وحقها أن تسمع وتطيع وأن تنشق من أهوال القيامة ﴿وإذا الأرض مدت﴾ أي وإذا الأرض زادت سعة بإزالة جبالها وأكامها ، وصارت مستوية لا بناء فيها ولا وهاد ولا جبال ﴿وألقت ما فيها وتخلت﴾ أي رمت ما في جوفها من الموتى والكنوز والمعادن وتخلت عنهم قال القرطبي : أخرجت أمواتها وتخلت عنهم ، وألقت ما في بطنها من الكنوز والمعادن كما تلقي الحامل ما في بطنها من الحمل ، وذلك يؤذن بعظم الهول ^(٢) ﴿وأذنت لربها وحقت﴾ أي واستمعت لأمر ربها وأطاعت ، وحقها أن تسمع وتطيع . . وجواب ﴿إذا﴾ محذوف ليكون أبلغ في التهويل أي إذا حدث كل ما تقدم ، لقي الإنسان من الشدائد والأهوال ، ما لا يحيط به الخيال . . ثم أخبر تعالى عن كد الإنسان وتعبه في هذه الحياة ، وأنه يلقي جزاءه عند الله فقال ﴿يا أيها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ الخطاب عام لكل إنسان أي أنت يا ابن آدم جاهدٌ ومجدٌ بأعمالك التي عاقبتها الموت ، والزمان يطير وأنت في كل لحظة تقطع شوطاً من عمرك القصير ، فكأنك سائر مسرعاً إلى الموت ، ثم تلاقي ربك فيكافئك على عملك ، إن كان خيراً فخيرٌ ، وإن كان شراً فشرٌ قال في البحر : كادحٌ أي جاهد في عملك من خير وشر طول حياتك إلى لقاء ربك ، فملاقى جزاء كدحك من ثواب وعقاب ^(٣) . . ثم ذكر تعالى انقسام الناس إلى سعداء وأشقياء وإلى من يأخذ كتابه بيمينه ، ومن يأخذ كتابه بشماله فقال ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾ أي فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه ، وهذه علامة السعادة ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ أي فسوف يكون حسابه سهلاً

(١) روح المعاني ٧٨/٣٠ . (٢) تفسير القرطبي ٢٦٨/١٩ . (٣) البحر المحيط ٤٤٦/٨ .

وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلِي سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَا أَقْسَمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

هيناً ، يُجازى على حسناته ، ويُتجاوز عن سيئاته ، وهذا هو العرضُ كما جاء في الحديث الصحيح^(١) ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ أي ويرجع إلى أهله في الجنة مبتهجاً مسروراً بما أعطاه الله من الفضل والكرامة ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أي وأما من أعطي كتاب أعماله بشماله من وراء ظهره ، وهذه علامة الشقاوة ﴿فسوف يدعوا ثُبُورًا﴾ أي يصيح بالويل والثبور ، ويتمنى الهلاك والموت ﴿ويصلى سَعِيرًا﴾ أي ويدخل ناراً مستعرة ، يقاسي عذابها وحرها ﴿إنه كان في أهله مسروراً﴾ أي لأنه كان في الدنيا مسروراً مع أهله ، غافلاً لاهياً ، لا يفكر في العواقب ، ولا تخطر بباله الآخرة قال ابن زيد : وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء في الدنيا ، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة ، ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها ، فأعقبهم به الحزن الطويل^(٢) ﴿إنه ظنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ أي إنه ظنَّ أَنْ لَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ رَبِّهِ ، ولن يحيبه الله بعد موته للحساب والجزاء ، فلذلك كفر وفجر ﴿بلى إنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ أي بلى سيعيده الله بعد موته ، ويجازيه على أعماله كلها خيراً وشرها ، فإنه تعالى مطلع على العباد ، لا تخفى عليه خافية من شئونهم ﴿فلا أقسم بالشَّفَقِ﴾ ﴿لا﴾ لتأكيد القسم أي فأقسم قسماً مؤكداً بحمرة الأفق بعد غروب الشمس ﴿والليل وما وسق﴾ أي وبالليل وما جمع وضم إليه ، وما لَفَّ في ظلمته من الناس والدواب والهوام قال المفسرون : الليل يسكن فيه كل الخلق ، ويجمع ما كان منتشراً في النهار من الخلق والدواب والأنعام ، فكلُّ يَأْوِي إلى مكانه وسربه ، ولهذا امتن تعالى على العباد بقوله ﴿وجعل الليل سكناً﴾ فإذا جاء النهار انتشروا ، وإذا جاء الليل أوى كل شيء إلى مأواه ﴿والقمر إذا اتَّسَقَ﴾ أي وأقسم بالقمر إذا تكامل ضوءه ونوره ، وصار بديراً ساطعاً مضيئاً ﴿لتركبنَّ طبقاً عَن طبقٍ﴾ هذا جواب القسم أي لتلاقنَّ يا معشر الناس أهوالاً وشدائد في الآخرة عسبية قال الألوسي : يعني لتركبنَّ أحوالاً بعد أحوال ، هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض ، وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها^(٣) وقال الطبري : المراد أنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالاً^(٤) ﴿فما لهم لا يؤمنون﴾ استفهام يقصد به التوبيخ أي فما هؤلاء المشركين لا يؤمنون بالله ، ولا يصدقون بالبعث بعد الموت ، بعد وضوح الدلائل وقيام البراهين على وقوعه ؟ ﴿وإذا قرئ عليهم القرآنُ

(١) المراد بالحساب اليسير في الآية هو « العرض » لما روي أن النبي ﷺ قال : (من حوسب عُدب) فقالت عائشة : أوليس الله عز وجل يقول ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ ! ! فقال ﷺ (إنما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب عُدب) رواه البخاري ومسلم . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله يدني العبد يوم القيامة ، حتى يضع كفه عليه ، فيقول له : فعلت كذا وكذا ، - ويعدد عليه ذنوبه - ثم يقول له : سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم) فهذا هو المراد من الحساب اليسير . (٢) تفسير القرطبي ٢٧١ / ١٩ .
(٣) روح المعاني للألوسي ٨٢ / ٣٠ . (٤) تفسير القرطبي ٨٠ / ٣٠ .

وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

لا يسجدون ﴿٢١﴾ أي وإذا سمعوا آيات القرآن ، لم يخضعوا ولم يسجدوا للرحمن ؟ ﴿٢٢﴾ بل الذين كفروا يكذبون ﴿٢٣﴾ أي بل طبيعة هؤلاء الكفار التكذيب والعناد والجحود ، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته ﴿٢٤﴾ والله أعلم بما يوعون ﴿٢٥﴾ أي والله أعلم بما يوعون من الكفر والتكذيب قال ابن عباس : ﴿يوعون﴾ أي يضمرون من عداوة الرسول ﷺ والمؤمنين ^(١) ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ أي بشرهم على كفرهم وضلالهم بعذاب مؤلم موجه ، واجعل ذلك بمنزلة البشارة لهم قال في التسهيل : ووضع البشارة في موضع الإنذار تهكم بالكفار ^(٢) ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي لكن الذين صدقوا الله ورسوله ، وجمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ﴿لهم أجر غير ممنون﴾ أي لهم ثواب في الآخرة غير منقوص ولا مقطوع ، بل هودائم مستمر . ختم تعالى السورة الكريمة ببيان نعيم الأبرار ، بعد أن ذكر مآل الفجار ، وهو توضيح لما أجمله في أول السورة من ملاقة كل عامل لجزائه في قوله ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين لفظ ﴿السما﴾ و ﴿الأرض﴾ .
- ٢ - المقابلة بين ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾ وبين ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾ .
- ٣ - الكناية ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ كنى به عن الشدة والأهوال التي يلقاها الإنسان .
- ٤ - الجناس الناقص بين كلمتي ﴿وسق﴾ و ﴿اتسق﴾ .
- ٥ - الأسلوب التهكمي ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ استعمال البشارة في موضع الإنذار تهكم وسخرية بالكفار .

٦ - توافق الفواصل مراعاة لراءوس الآيات مثل ﴿إذا السماء انشقت * وأذنت لربها وحقت﴾ ومثل ﴿فلا أقسم بالشفق * والليل وما وسق * والقمر إذا اتسق * لتركبن طبقاً عن طبق﴾ ويسمى بالسجع وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الإنشقاق »

(١٥) سُورَةُ الْبُرُوجِ مَكِّيَّةٌ وَأَيُّهَاثْنَانِ وَعَشْرُونَ

بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* هذه السورة الكريمة من السور المكية ، وهي تعرض لحقائق العقيدة الإسلامية ، والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هي حادثة « أصحاب الأخدود » وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة والإيمان .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات النجوم الهائلة ، ومداراتها الضخمة ، التي تدور فيها تلك الأفلاك ، وباليوم العظيم المشهود وهو يوم القيامة ، وبالرسل والخلائق على هلاك ودمار المجرمين ، الذين طرحوا المؤمنين في النار ليفتنوهم عن دينهم ﴿ والسما ذات البروج * واليوم الموعود * وشاهد ومشهود * قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ الآيات .

* ثم تلاها الوعيد والإنذار لأولئك الفجار على فعلتهم القبيحة الشنيعة ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ .

* وبعد ذلك تحدثت عن قدرة الله على الانتقام من أعدائه الذين فتنوا عباده وأوليائه ﴿ إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدىء ويعيد * وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد ﴾ .

* وختمت السورة الكريمة بقصة الطاغية الجبار « فرعون » وما أصابه وقومه من الهلاك والدمار بسبب البغي والطغيان ﴿ هل أتاك حديث الجنود * فرعون وشمود * بل الذين كفروا في تكذيب * والله من ورائهم محيط * بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ ﴾ وهو ختم رائع يناسب موضوع السورة الكريمة .

قال الله تعالى : ﴿ والسما ذات البروج . . إلى . . بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾

من آية (١) إلى آية (٢٢) نهاية السورة الكريمة .

اللغز : ﴿ الأخدود ﴾ الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق ، وجمعه أخاديد ﴿ قتل ﴾ لعن أشد اللعن ﴿ نعموا ﴾ عابوا وكرهوا ﴿ بطش ﴾ البطش : الأخذ بشدة ﴿ يبدىء ﴾ يخلق ابتداءً بقدرته ﴿ المجيد ﴾ العظيم الجليل المتعالي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ﴿٤﴾

النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ

التفسير : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أي وأقسم بالسماء البديعة ذات المنازل الرفيعة ، التي تنزلها الكواكب أثناء سيرها قال المفسرون : سميت هذه المنازل بروجاً لظهورها ، وشبهت بالقصور لعلوها وارتفاعها لأنها منازل للكواكب السيارة ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ أي وأقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة ، الذي وعد الله به الخلائق بقوله ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ﴿وشاهدٍ ومشهودٍ﴾ أي وأقسم بمحمد والأنبياء الذين يشهدون على أمهم يوم القيامة ، وبجميع الأمم والخلائق الذين يجتمعون في أرض المحشر للحساب كقوله تعالى ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ وقيل : الشاهد هذه الأمة ، والمشهود سائر الأمم ودليله ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾^(١) ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ هذا هو جواب القسم ، والجملة دعائية أي قاتل الله ولعن أصحاب الأخدود ، الذين شقوا الأرض طولاً وجعلوها أخاديد ، وأضرموا فيها النار ليحرقوا بها المؤمنين قال القرطبي : الأخدودُ الشقُّ العظيم المستطيل في الأرض كالخندق وجمعه أخاديد ، ومعنى ﴿قتل﴾ أي لعن ، قال ابن عباس : كل شيء في القرآن ﴿قتل﴾ فهو لعن^(٢) . . ثم فصلَّ تعالى المراد من الأخدود فقال ﴿النار ذات الوقود﴾ أي النار العظيمة المتأججة ، ذات الحطب واللهب ، التي أضرمها الكفار في تلك الأخاديد لإحراق المؤمنين قال أبو السعود : وهذا وصف لها بغاية العظم ، وارتفاع اللهب ، وكثرة ما فيها من الحطب^(٣) ، والقصدُ وصف النار بالشدة والهول . . ثم بالغ تعالى في وصف المجرمين فقال ﴿إذ هم عليها قُعُودٌ * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شُهُودٌ﴾ أي حين هم جلوس حول النار ، يتشفون بإحراق المؤمنين فيها ، ويشهدون ذلك الفعل الشنيع^(٤) والغرضُ تخويف كفار قريش ، فقد كانوا يعذبون من أسلم من قومهم ، ليرجعوا عن الإسلام ، فذكر الله تعالى قصة « أصحاب الأخدود » وعيداً للكفار ، وتسلياً للمؤمنين المعذبين ، ثم قال تعالى ﴿وما نقموا منهم

(١) اختلف المفسرون في تفسير ﴿الشاهد﴾ و﴿المشهود﴾ اختلافاً كبيراً حتى ذكر بعضهم فيها ستة عشر قولاً ، فقيل : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، وقيل : الشاهد هو محمد والمشهود هو يوم القيامة ، وقيل : الشاهد هو جوارح الإنسان والمشهود عليه هو ابن آدم . . الخ قال الصاوي : والأحسن أن يراد ما هو أعم ولذلك نكرها ليعم كل شاهد ومشهود .

(٢) تفسير القرطبي ٢٨٤ / ١٩ . (٣) تفسير أبي السعود ٢٥٢ / ٥ . (٤) خلاصة القصة « أن ملكاً ظالماً كافراً أسلم أهل بلده ، فأمر بالأخدود فشق في أفواه السكك ، وأضرم فيها النيران ، ثم أمر زبانيته وجنوده أن يأتوا بكل مؤمن ومؤمنة ويعرضوه على النار ، فمن لم يرجع عن دينه فليلقوه فيها ففعلوا ، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاغت أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أماه اصبري فإنك على الحق » انظر تفصيل القصة في صحيح مسلم .

إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾
 إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ
 لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾

إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ أي وما كان لهم ذنب ولا انتقموا منهم ، إلا لأنهم آمنوا بالله العزيز الحميد الغالب الذي لا يُضام من لا ذب جنابه ، الحميد في جميع أقواله وأفعاله ، والغرض أن سبب البطش بهم ، وتحريقهم بالنار ، لم يكن إلا إيمانهم بالله الواحد الأحد ، وهذا ليس بذنب يستحقون به العقوبة ، ولكنه الطغيان والإجرام ﴿الذي له مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هذا الإله الجليل المالك لجميع الكائنات ، المستحق للمجد والثناء قال في البحر : وإنما ذكر الأوصاف التي يستحق بها تعالى أن يؤمن به ، وهي كونه تعالى ﴿عزيزاً﴾ أي غالباً قادراً يُخشى عقابه ﴿حميداً﴾ أي منعماً يجب له الحمد على نعمه ﴿له ملك السموات والأرض﴾ أي وكل من فيها يحق عليه عبادته والخشوع له ، وإنما ذكر ذلك تقريراً لأن ما نقموه منهم هو الحق الذي لا ينقمه إلا مبطلٌ منهمك في الغي ﴿١١﴾ ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ أي هو تعالى مطلع على أعمال عباده ، لا تخفى عليه خافية من شؤونهم ، وفيه وعدٌ للمؤمنين ، ووعدٌ للمجرمين . . ثم شدد تعالى التكثير على المجرمين الذين عذبوا المؤمنين فقال ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات﴾ أي عذبوا وأحرقوا المؤمنين والمؤمنات بالنار ليفتنوهم عن دينهم ﴿ثم لم يتوبوا﴾ أي ثم لم يرجعوا عن كفرهم وطغيانهم ﴿فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ أي فلهم عذاب جهنم المخزي بكفرهم ، ولهم العذاب المحرق بإحراقهم المؤمنين . . ولما ذكر مصير المجرمين أعقبه بذكر مصير المؤمنين فقال ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي الذين جمعوا بين الإيمان الصادق والعمل الصالح ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي لهم البساتين والحدائق الزاهرة ، التي تجري من تحت قصورها أنهار الجنة قال الطبري : هي أنهار الخمر واللبن والعسل ﴿١١﴾ ﴿ذلك الفوز الكبير﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم بغاية المطلوب ، الذي لا سعادة ولا فوز بعده . . ثم أخبر تعالى عن انتقامه الشديد من أعداء رسله وأوليائه فقال ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ أي إن انتقام الله وأخذه الجبارة والظلمة ، بالغ الغاية في الشدة قال أبو السعود : البطش الأخذ بعنف ، وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم ، وهو بطشه بالجبارة والظلمة وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام ﴿١٣﴾ ﴿إنه هو يُبدئُ ويُعيدُ﴾ أي هو جل وعلا الخالق القادر ، الذي يبدأ الخلق من العدم ، ثم يعيدهم أحياء بعد الموت ﴿وهو الغفور الودود﴾ أي وهو الساتر لذنوب عباده المؤمنين ، اللطيف المحسن إلى أوليائه ، المحبُّ لهم قال ابن عباس : يودُّ أوليائه كما يودُّ أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة ﴿١٤﴾ ﴿ذو العرش﴾ أي صاحب العرش العظيم ، وإنما أضاف العرش

فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

إلى الله وخصه بالذكر ، لأن العرش أعظم المخلوقات ، وأوسع من السموات السبع ، وخلقته بهذا الوصف يدل على عظمة خالقه ﴿المجيد﴾ أي هو تعالى المجيد ، العالی على جميع الخلائق ، المتصف بجميع صفات الجلال والكمال ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه قال القرطبي : أي لا يمتنع عليه شيء يريد (١) . روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قيل له وهو في مرض الموت : هل نظر إليك الطيب ؟ قال : نعم ، قالوا : فماذا قال لك ؟ قال قال لي : ﴿إني فعّالٌ لما أريد﴾ (٢) ﴿هل أتاك حديث الجنود﴾ ؟ استفهامٌ للتشويق أي هل بلغك يا محمد خبر الجموع الكافرة ، الذين تجندوا لحرب الرسل والأنبياء ؟ هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس ، وما أنزل عليهم من النعمة والعذاب ؟ قال القرطبي : يؤنس بذلك ويسليه ، ثم بين تعالى من هم فقال ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ أي هم فرعون وثمود ، أولي البأس والشدة ، فقد كانوا أشد بأساً ، وأقوى مراساً من قومك ، ومع ذلك فقد أخذهم الله تعالى بذنوبهم ﴿بل الذين كفروا في تكذيب﴾ أي لم يعتبر كفار قريش بما حلّ بأولئك الكفرة المكذبين ، بل هم مستمرّون في التكذيب فهم أشد منهم كفراً وطغياناً ﴿والله من ورائهم محيط﴾ أي والله تعالى قادرٌ عليهم ، لا يفوتونه ولا يعجزونه ، لأنهم في قبضته في كل حين وزمان ﴿بل هو قرآنٌ مجيد﴾ أي بل هذا الذي كذبوا به ، كتابٌ عظيم شريف ، متناوٍ في الشرف والمكانة ، قد سما على سائر الكتب السماوية ، في إعجازه ونظمه وصحة معانيه ﴿في لوحٍ محفوظ﴾ أي هو في اللوح المحفوظ الذي في السماء ، محفوظٌ من الزيادة والنقص ، والتحريف والتبديل .

البلاغَة : تضمنت السورة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿يبدىء . . ويُعِيد﴾ .
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿وشاهد . . ومشهود﴾ .
- ٣ - تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ كأنه يقول : ليس لهم جريمة إلا إيمانهم بالله ، وهذا من أعظم المفاخر والمآثر .
- ٤ - المقابلة بين مصير المؤمنين ومصير المجرمين ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات﴾ الآية قابله قوله ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات . . الخ﴾ .
- ٥ - أسلوب التشويق لاستماع القصة ﴿هل أتاك حديث الجنود﴾ ؟

٦ - صيغة المبالغة مثل ﴿فعالٌ لما يريد﴾ ﴿العزیز الحمید﴾ وأمثال ذلك .

٧ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿واليوم الموعود * وشاهد ومشهود * قُتل أصحاب الأعدود * النَّار ذات الوقود . .﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية ويسمى بالسجع والله أعلم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة البروج »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* هذه السورة الكريمة من السور المكية ، وهي تعالج بعض الأمور المتعلقة بالعتيدة الإسلامية ، ومحور السورة يدور حول الإيمان بالبعث والنشور ، وقد أقامت البرهان الساطع والدليل القاطع على قدرة الله جل وعلا على إمكان البعث ، فإن الذي خلق الإنسان من العدم قادر على إعادته بعد موته .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات الكواكب الساطعة ، التي تطلع ليلاً لتضيء للناس سبلهم ، ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، على أن كل إنسان قد وكل به من يحرسه ، ويتعهد أمره من الملائكة الأبرار ﴿والسماء والطارق﴾ وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب * إن كل نفس لما عليها حافظ .

* ثم ساق الأدة والبراهين ، على قدرة رب العالمين ، على إعادة الإنسان بعد فئاته ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب * إنه على رجعه لقادر .

* ثم أخبر عن كشف الأسرار ، وهتك الأستار في الآخرة ، حيث لا معين للإنسان ولا نصير ﴿يوم تَبلى السرائر﴾ فما له من قوة ولا ناصر .

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم ، معجزة محمد ﷺ الخالدة ، وحثه البالغة إلى الناس أجمعين ، وبيئت صدق هذا القرآن ، وأوعدت الكفرة المجرمين بالعذاب الأليم ﴿والسماء ذات الرجوع﴾ والأرض ذات الصدع * إنه لقول فصل * وما هو بالهزل * إنهم يكدون كيداً * وأكد كيداً * فمهمل الكافرين أمهلهم رويداً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾
فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ
لَقَادِرٌ ﴿٨﴾

اللغة: ﴿الطارق﴾ مأخوذ من الطرق بمعنى الضرب بشدة ومنه المطرقة ، وكل ما جاء ليليل
يسمى طارقاً ﴿دافق﴾ مصبوب بقوة وشدة يقال : دفق الماء دفقاً إذا انصبَّ بدفع وشدة ﴿الترائب﴾ عظام
الصدر جمع تريبة مثل فصيلة وفصائل قال امرؤ القيس :

« ترائبها مصقولة كالسجنجل »^(١)

﴿الرجع﴾ المطر سمي به لرجوعه إلى الأرض مراراً ﴿الصدع﴾ النبات الذي تنشق عنه الأرض ﴿رويداً﴾
قليلاً أو قريباً .

التفسير: ﴿والسَّمَاءِ والطَّارِقِ﴾ أي أقسم بالسماء وبالكوكب النيرة ، التي تظهر ليلاً وتختفي
نهاراً قال المفسرون : سُمي النجم طارقاً لأنه إنما يظهر بالليل ويختفي بالنهار ، وكلُّ ما يجيء ليلاً فهو طارق
﴿وما أدراك ما الطَّارِقِ﴾ استفهام للتفخيم والتعظيم أي وما الذي أعلمك يا محمد ما حقيقة هذا
النجم ؟ ثم فسره بقوله ﴿النجمُ الثاقب﴾ أي النجم المضيء الذي يثقب الظلام بضائه قال الصاوي :
قد كثر منه تعالى في كتابه المجيد ذكر الشمس والقمر والنجوم ، لأن أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها ،
ومغارها عجيبة دالة على انفراد خالقها بالكمالات ، لأن الصنعة تدل على الصانع^(٢) ﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا
عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ هذا جواب القسم أي ما كلُّ نفسٍ إلا عليها حافظ من الملائكة ، يحفظ عملها ويحصي عليها
ما تكسب من خيرٍ وشرٍ كقوله ﴿وإن عليكم لحافظين﴾ كراماً كاتبين ﴿قال ابن كثير : أي كلُّ نفسٍ عليها
من الله حافظ يجرسها من الآفات^(٣) . . ثم أمر تعالى بالنظر والتفكير في خلق الإنسان ، تنبيهاً على إمكان
البعث والحشر فقال ﴿فليَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ؟ أي فليَنْظُرِ الْإِنْسَانُ فِي أَوَّلِ نَشَأَتِهِ نَظْرَةَ تَفَكُّرٍ
واعتبار ، من أي شيء خلقه الله ؟ ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ أي خلق من المني المتدفق ، الذي ينصب بقوة
وشدة ، يتدفق من الرجل والمرأة فيتكون منه الولد بإذن الله ﴿يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ أي
يُخْرَجُ هَذَا الْمَاءُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَعَظْمِ الصُّدْرِ ، مِنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ^(٤) ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ أي إن
الله تعالى الذي خلق الإنسان ابتداءً ، قادر على إعادته بعد موته قال ابن كثير : نبه تعالى الإنسان على

(١) روح المعاني للألوسي ٩٧/٣٠ (١) حاشية الصاوي ٣٠٩/٤ . (٢) مختصر ابن كثير ٦٢٩/٣ .

(٣) الصلب : فقار الظهر ويسمى سلسلة الظهر ، والترائب : عظام الصدر ، وكنى بالصلب عن الرجل ، وبالترائب عن المرأة .

يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾
 إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِأَهْزَلٍ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ
 أَمَهُلُهُمْ رُويْدًا ﴿١٧﴾

ضعف أصله الذي خلق منه ، وأرشده إلى الاعتراف بالمعاد ، لأن من قدر على البداءة ، فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ﴿يوم تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي يوم تمتحن القلوب وتختبر ، ويُعرف ما بها من العقائد والنيات ، ويميز بين ما طاب منها وما خبث ﴿فماله من قوة ولا ناصر﴾ أي فليس للإنسان في ذلك الوقت قوة تدفع عنه العذاب ، ولا ناصر ينصره ويحيره ، قال في التسهيل : لما كان دفع المكارِه في الدنيا إما بقوة الإنسان ، أو بنصرة غيره له ، أخبره الله تعالى أنه يعدمها يوم القيامة^(١) ، فلا قوة له في نفسه ، ولا أحد ينصره من الله . . ولما ذكر تعالى أمر المبدأ والمعاد ، عاد فأقسم على صدق هذا الكتاب المعجز فقال ﴿والسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أي أقسم بالسماء ذات المطر ، الذي يرجع على العباد حيناً بعد حين قال ابن عباس : الرَّجْعُ المطرُ ولولاه لهلك الناس وهلك مواشيهم^(٢) ﴿والأرض ذات الصدع﴾ أي وأقسم بالأرض التي تتصدع وتنشق ، فيخرج منها النبات والأشجار والأزهار قال ابن عباس : هو انصداعها عن النبات والثمار^(٣) . . أقسم سبحانه وتعالى بالسماء التي تفيض علينا الماء ، وبالأرض التي تخرج لنا الثمار والنبات ، والسماء للخلق كالأب ، والأرض لهم كالأُم ، ومن بينهما تتولد النعم العظيمة ، والخيرات العميمة ، التي بها بقاء الإنسان والحيوان ﴿إنه لقولٌ فصل﴾ أي إن هذا القرآن لقولٌ فاصل بين الحق والباطل ، قد بلغ الغاية في بيانه وتشريعه وإعجازه ﴿وما هو بأهزل﴾ أي ليس فيه شيء من اللهو والباطل والعبث ، بل هو جدُّ كله ، لأنه كلام أحكم الحاكمين ، فجديرٌ بقارئه أن يتعظ بآياته ، ويستنير بتوجيهاته وإرشاداته ﴿إنهم يكيدون كيداً﴾ أي إن هؤلاء المشركين - كفار مكة - يعملون المكائد لإطفاء نور الله ، وإبطال شريعة محمد ﷺ ﴿وأكيد كيداً﴾ أي وأجازيهم على كيدهم بالإمهال ثم النكال ، حيث أخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر كقوله تعالى ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ قال أبو السعود : أي أقبلهم بكيد متين لا يمكن رده حيث استدرجهم من حيث لا يعلمون^(٤) ﴿فمهمل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ أي لا تستعجل في هلاكهم والانتقام منهم ، وأمهلهم قليلاً فسوف ترى ما أصنع بهم ، وهذا منتهى الوعيد والتهديد .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الاستفهام للتفخيم والتعظيم ﴿وما أدراك ما الطارق﴾ ؟

٢ - الطباق بين ﴿السماء والأرض﴾ وبين ﴿الفصل والهزل﴾ .

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١٩٢ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٦٢٨ . (٣) تفسير الطبري ٣٠/٩٥ . (٤) تفسير أبي السعود ٨/٤٣٨ .

- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿يكيدون كيداً﴾ .
- ٤ - الإطناب بتكرار الفعل مبالغة في الوعيد ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ .
- ٥ - الكناية اللطيفة ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ كنى بالصلب عن الرجل ، وبالترائب عن المرأة ، وهذا من لطيف الكنايات .
- ٦ - السجع الرصين الذي يزيد في جمال الأسلوب ورشاقته ونضارته مثل ﴿والسما ذات الرجع والأرض ذات الصدع﴾ ومثل ﴿إنه لقول فصل * وما هو بالهزل﴾ وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الطارق »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

- * سورة الأعلى من السور المكية ، وهي تعالج باختصار المواضيع الآتية :
- ١ - الذات العلية وبعض صفات الله جل وعلا ، والدلائل على القدرة والوحدانية .
 - ٢ - الوحي والقرآن المنزل على خاتم الرسل ﷺ وتيسير حفظه عليه ﷺ .
 - ٣ - الموعدة الحسنة التي ينتفع بها أهل القلوب الحية ، ويستفيد منها أهل السعادة والإيمان .
- * ابتدأت السورة الكريمة بتنزيه الله جل وعلا ، الذي خلق فأبدع ، وصور فأحسن ، وأخرج العشب ، والنبات ، رحمة بالعباد ﴿سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى ..﴾ الآيات .
- * ثم تحدثت عن الوحي والقرآن ، وأنست الرسول ﷺ بالبشارة بتحفيظه هذا الكتاب المجيد ، وتيسير حفظه عليه ، بحيث لا ينساه أبداً ﴿سنقرئك فلا تنسى * إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى﴾

* ثم أمرت بالتذكير بهذا القرآن ، الذي يستفيد من نوره المؤمنون ، ويتعظ بهديه المتقون ، ﴿فذكر إن نفعت الذكرى . سيذكر من يخشى . ويتجنبها الأشقى﴾ الآيات
* وختمت السورة ببيان فوز من طهر نفسه من الذنوب والآثام ، وزكاها بصالح الأعمال ﴿قد أفلح من تزكى﴾ وذكر اسم ربه فصلي ﴿إلى نهاية السورة الكريمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾
فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾

اللغات: ﴿غثاء﴾ الغثاء : ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشائش والأوراق والنباتات ﴿أحوى﴾ أسود مأخوذ من الحوة وهي السواد أو السمرة ﴿يصلى﴾ يدخل ويقاسي حرها يقال : أصليته ناراً وجعلته يذوق حرها .

التفسير: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ أي نزهه يا محمد ربك العلي الكبير عن صفات النقص ، وعمما يقوله الظالمون ، مما لا يليق به سبحانه وتعالى من النقائص والقبايح ، وفي الحديث أنه ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال : « سبحان ربي الأعلى »^(١) . ثم ذكر من أوصافه الجليلة ، ومظاهر قدرته الباهرة ، ودلائل وحدانيته وكماله فقال ﴿الذي خلق فسوى﴾ أي خلق المخلوقات جميعها ، فأتقن خلقها ، وأبدع صنعها ، في أجمل الأشكال ، وأحسن الهيئات قال في البحر : أي خلق كل شيء فسواه ، بحيث لم يأت متفاوتاً ، بل متناسباً على إحكام وإتقان ، للدلالة على أنه صادر من عالم حكيم^(٢) ﴿والذي قدر فهدى﴾ أي قدر في كل شيء خواصه ومزاياه بما تجل عنه العقول والأفهام ، وهدى الإنسان لوجه الانتفاع بما أودعه فيها ، وهدى الإنعام إلى مراعيها ، ولو تأملت ما في النباتات من الخواص ، وما في المعادن من المزايا والمنافع ، واهتداء الإنسان لاستخراج الأدوية والعقاقير النافعة من النباتات ، واستخدام المعادن في صنع المدافع والطائرات ، لعلمت حكمة العلي القدير ، الذي لولا تقديره وهدايته لكننا نهيم في دياجير الظلام كسائر الأنعام قال المفسرون : إنما حذف المفعول لإفادة العموم أي قدر لكل مخلوق وحيوان ما يصلحه ، فهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع به^(٣) ﴿والذي أخرج المرعى﴾ أي أنبت ما ترعاه الدواب ، من الحشائش والأعشاب ﴿فجعله غثاء أحوى﴾ أي فصيئه بعد الخضرة أسود بالياً ، بعد أن كان ناضراً زاهياً ، ولا يخفى ما في المرعى من المنفعة بعد صيرورته هشياً يابساً ، فإنه يكون طعاماً جيداً لكثير من

(١) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس . (٢) البحر المحيط ٤٥٨/٨ (٣) انظر روح المعاني ١٠٤/٣٠ والتسهيل لعلوم التنزيل ١٩٣/٤

سُنْقَرُكَ فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْتَى ﴿٧﴾ وَنَيْسِرُكَ لِلْيَسْرِى ﴿٨﴾ فَذَكْرٌ إِنْ
 نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿٩﴾ سِيدَ كُرْمٍ يَخْشَى ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ
 لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾

الحيوانات ، فسبحان من أحكم كل شيء ﴿٦﴾ وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴿٧﴾ !! وبعد أن ذكر دلائل قدرته ووحديته ، ذكر فضله وإنعامه على رسوله فقال ﴿سُنْقَرُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ أي سنقرتك يا محمد هذا القرآن العظيم فتحفظه في صدرك ولا تنساه ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي لكن ما أراد الله نسخه فإنك تنساه .. وفي هذه الآية معجزة له عليه الصلاة والسلام ، لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وكان مع ذلك لا ينسى ما أقرأه جبريل عليه السلام ، وكونه يحفظ هذا الكتاب العظيم من غير دراسة ولا تكرار ولا ينساه أبداً ، من أعظم البراهين على صدق نبوته ﷺ قال ابن كثير : هذا إخبار من الله تعالى ووعده لرسوله ﷺ بأنه سيرثه قراءة لا ينساها^(١) ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ أي هو تعالى عالم بما يجهر به العباد وما يخفونه من الأقوال والأفعال ، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ﴿وَنَيْسِرُكَ لِلْيَسْرِى﴾ أي ونوفقك للشريعة السمحة البالغة اليسر ، التي هي أيسر وأسهل الشرائع السماوية ، وهي شريعة الإسلام ﴿فَذَكْرٌ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ أي فذكر يا محمد بهذا القرآن حيث تنفع الموعظة والتذكيرة كقوله ﴿فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ﴾ قال ابن كثير : ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم ، فلا يضعه عند غير أهله ، كما قال علي رضي الله عنه « ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم ، إلا كان فتنة لبعضهم » وقال : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟^(٢) ﴿سِيدَ كُرْمٍ يَخْشَى﴾ أي سيتنفع بهذه الذكرى والموعظة من يخاف الله تعالى ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ أي ويرفضها ويتعد عن قبول الموعظة الكافر المبالغ في الشقاوة ﴿الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى﴾ أي الذي يدخل نار جهنم المستعرة ، العظيمة الفظيعة قال الحسن : النار الكبرى نار الآخرة ، والصغرى نار الدنيا^(٣) ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ أي لا يموت فيستريح ، ولا يحيا الحياة الطيبة الكريمة ، بل هو دائم في العذاب والشقاء^(٤) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي قد فاز من طهر نفسه بالإيمان ، وأخلص عمله للرحمن ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ أي وذكر عظمة ربه وجلاله ، فصلى خشوعاً وامثالاً لأمره ﴿بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي بل تفضلون أيها الناس هذه الحياة الفانية على الآخرة الباقية ، فتشتغلون لها وتنسون الآخرة ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي والحال أن الآخرة خير من الدنيا وأبقى ، لأن الدنيا فانية ، والآخرة باقية ، والباقي خير من الفاني ، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ؟ وكيف يهتم بدار الغرور . ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلود ؟ قرأ ابن مسعود هذه

(١) مختصر ابن كثير ٣ / ٦٣٠ (٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) البحر المحيط ٨ / ٤٥٩ (٤) قال الطبري : العرب إذا وصفت الرجل بوقوعه في شدة شديدة قالوا : لا هوحي ولا هو ميت فحاطبهم الله

إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾

الآية فقال لأصحابه : أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة ؟ قالوا : لا ، قال : لأن الدنيا أحضرت وعجلت لنا بطعامها ، وشرابها ، ونسائها ، ولذاتها ، وبهجتها ، وإن الآخرة غُيبتُ وزُويتُ عنا ، فأحببنا العاجل ، وتركنا الآجل^(١) ﴿إن هذا لفي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ صحف إبراهيم وموسى ﴿أي إن هذه المواعظ المذكورة في هذه السورة ، مثبتة في الصحف القديمة المنزلة على إبراهيم وموسى عليهما السلام ، فهي مما توافقت فيه الشرائع ، وسطرته الكتب السماوية ، كما سطره هذا الكتاب المجيد .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق ﴿لا يموت . . ولا يحيا﴾ وكذلك ﴿الجهر . . وما يخفى﴾ ،
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿نيسرك لليسرى﴾ و ﴿ذُكِّر . . والذكرى﴾ .
- ٣ - المقابلة بين ﴿سيدكر من يخشى﴾ وبين ﴿ويتجنبها الأشقى﴾ .
- ٤ - حذف المفعول ليفيد العموم في قوله ﴿خلق فسوى﴾ وفي ﴿قدر فهدى﴾ لأن المراد خلق كل شيء فسواه ، وقدر كل شيء فهده .
- ٥ - السجع غير المتكلف وهو كثير في القرآن مثل ﴿أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى ، سنقرئك فلا تنسى﴾ وهو من المحسنات البديعية .

تبديئه : صحف موسى غير التوراة ، وقد ورد أنه أعطي عشر صحف وكانت كلها عبراً ، قال أبو ذر : سألت رسول الله ﷺ عن صحف موسى ما كانت ؟ قال : كانت عبراً كلها ﴿عجبتُ لمن أيقن بالموت كيف يفرح ! عجبتُ لمن أيقن بالنار كيف يضحك ! عجبتُ لمن رأى الدنيا وتقبلها بأهلها كيف يطمئن إليها ! عجبتُ لمن أيقن بالقدر ثم ينصب ! عجبتُ لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل !!﴾

﴿تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعلى﴾



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة الغاشية مكية ، وقد تناولت موضوعين أساسيين وهما :

* ١ - القيامة وأحوالها وأهوالها ، وما يلقاه الكافر فيها من العناء والبلاء ، وما يلقاه المؤمن فيها من السعادة والهناء .

* ٢ - الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين ، وقدرته الباهرة ، في خلق الإيل العجيبة ، والسماء البديعة ، والجبال المرتفعة ، والأرض الممتدة الواسعة ، وكلها شواهد على وحدانية الله وجلال سلطانه . وختمت السورة الكريمة بالذكر برجوع الناس جميعاً إلى الله سبحانه للحساب والجزاء .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾

اللفظ: ﴿الغاشية﴾ القيامة تغشى الناس بأهوالها ﴿خاشعة﴾ ذليلة خاضعة ﴿ناصبة﴾ من النصب وهو التعب ﴿ضريع﴾ شيء في النار كالشوك مرّ متنن ﴿ناعمة﴾ ذات حسن وبهجة ونضارة ﴿غمارق﴾ وسائد ومرافق يتكأ عليها جمع غمرقة قال زهير :

كهولاً وشباناً حساناً وجوههم على سرر مصفوفةٍ وغمارق^(١)

﴿زرايبي﴾ بسط فاخرة جمع زريبة وقال الفراء : هي الطنافس التي لها حمل رقيق ، ﴿مبثوثة﴾ مفرقة في المجالس ﴿إياهم﴾ رجوعهم .

التفسير: ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ الاستفهام للتشويق الى استماع الخبر، وللتنبية والتفخيم لشأنها أي هل جاءك يا محمد خبرُ الداهية العظيمة التي تغشى الناس وتعمهم بشدائدها وأهوالها، وهي

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾

القيامة ؟ قال المفسرون: سميت غاشية لأنها تغشى الخلائق بأهوالها وشدائدها ، وتعمهم بما فيها من المكاره والكوارث العظيمة ﴿وجوهٌ يومئذٍ خاشعة﴾ أي وجوهٌ في ذلك اليوم ذليلة خاضعة مهينة ﴿عاملة ناصبة﴾ أي دائبة العمل فيما يتعبها ويشقيها في النار قال المفسرون : هذه الآية في الكفار ، يتعبون ويشقون بسبب جر السلاسل والأغلال ، وخوضهم في النار خوض الإبل في الوحل ، والصعود والهبوط في تلاها ودركاتها كما قال تعالى ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون﴾ وهذا جزاء تكبرهم في الدنيا عن عبادة الله ، وانهاكهم في اللذات والشهوات ﴿تصلى ناراً حامية﴾ أي تدخل ناراً مسعرة شديدة الحر قال ابن عباس : قد حميت فهي تلتظي على أعداء الله ^(١) ﴿تسقى من عين أنية﴾ أي تسقى من عين متناهية الحرارة ، وصل حرها وغليناها درجة النهاية ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ أي ليس لأهل النار طعام إلا الضريع وهو نبت ذو شوك تسميه قريش « الشبرق » وهو أخبث طعام وأبشعه وهو سم قاتل قال قتادة : هو شر الطعام وأبشعه وأخبثه ^(٢) . . ذكر تعالى هنا أن طعامهم الضريع ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ وقال في الحاقة ﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾ ولا تنافي بينهما ، لأن العقاب ألوان ، والمعدبون أنواع ، فمنهم من يكون طعامه الزقوم ، ومنهم من يكون طعامه الضريع ، ومنهم من يكون طعامه الغسلين ، وهكذا يتنوع العذاب ﴿لا يسمن ولا يغني من جوع﴾ أي لا يفيد القوة والسمن في البدن ، ولا يدفع الجوع عن آكله قال أبو السعود : أي ليس من شأنه الإسمان والإشباع ، كما هو شأن طعام الدنيا ، وقد روي أنه يسلم عليهم الجوع بحيث يضطرهم إلى أكل الضريع ، فإذا أكلوه يسلم عليهم العطش فيضطرهم إلى شرب الحميم ، فيشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم ^(٣) ﴿وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم﴾ . . ولما ذكر حال الأشقياء أهل النار ، أتبعه بذكر حال السعداء أهل الجنة فقال ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناعمة﴾ أي وجوه المؤمنين يوم القيامة ناعمة ذات بهجة وحسن ، وإشراق ونضارة كقوله تعالى ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ ﴿لسعيها راضية﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا وطاعتها لله راضية مطمئنة ، لأن هذا العمل أورثها الفردوس دار المتقين ﴿في جنة عالية﴾ أي في حدائق وبساتين مرتفعة مكاناً وقدرأ ، وهم في الغرفات آمنون ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ أي لا تسمع في الجنة شتماً ، أو سباً ، أو فحشاً قال ابن عباس : لا تسمع أذى ولا باطلاً ^(٤) ﴿فيها عين جارية﴾ أي فيها عيون تجري بالماء السلسبيل لا تنقطع أبداً قال الزمخشري : التنوين في ﴿عين﴾ للتكثير أي عيون كثيرة تجري مياهاها ^(٥) ﴿فيها سرر مرفوعة﴾ أي في الجنة أسرة مرتفعة ، مكللة بالزبرجد والياقوت ، عليها الحور العين ، فإذا

(١) تفسير الخازن ٤/٢٣٧ (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٦٣٢ (٣) تفسير أبي السعود ٥/٢٥٩

(٤) تفسير الطبري ٣/١٠٤ (٥) روح المعاني ٣٠/١١٥

وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَمَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَّابِيٌّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾
وَأَلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ

أراد وليُّ الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له ^(١) ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ أي وأقداح موضوعة على حافات العيون ، معدة لشرابهم لا تحتاج إلى من يملأها ﴿وَمَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ أي ووسائد - مخدّات - قد صُفِّ بعضها إلى جانب بعض ليستندوا عليها ﴿وَزَرَّابِيٌّ مَبْثُوثَةٌ﴾ أي وفيها طنافس فاخرة لها خمل رقيق مبسوطة في أنحاء الجنة . . ثم ذكر تعالى الدلائل والبراهين الدالة على قدرته ووحدانيته فقال ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ أي أفلا ينظر هؤلاء الناس نظر تفكر واعتبار ، إلى الإبل - الجمال - كيف خلقها الله خلقاً عجيباً بديعاً يدل على قدرة خالقها ؟ ! قال في التسهيل : في الآية حضُّ على النظر في خلقتها ، لما فيها من العجائب في قوتها ، وانقيادها مع ذلك لكل ضعيف ، وصبرها على العطش ، وكثرة المنافع التي فيها ، من الركوب والحمل عليها ، وأكل لحومها ، وشرب ألبانها وغير ذلك ^(٢) ﴿وَأَلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ أي وإلى السماء البديعة المحكمة ، كيف رفع الله بناءها ، وأعلى سمكها بلا عمد ولا دعائم ؟ ﴿وَأَلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي إلى الجبال الشاهقة كيف نصبت على الأرض نصباً ثابتاً راسخاً لا يتزلزل ؟ ! ﴿وَأَلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي وإلى الأرض التي يعيشون عليها ، كيف بسطت ومهدت حتى صارت شاسعة واسعة يستقرون عليها ، ويزرعون فيها أنواع المزروعات ؟ ! قال الألوسي : ولا ينافي هذا ، القول بأنها كرة أوقرية من الكرة لمكان عظمها ^(٣) والحكمة في تخصيص هذه الأشياء بالذكر ، أن القرآن نزل على العرب وكانوا يسافرون كثيراً في الأودية والبراري منفردين عن الناس ، والإنسان إذا ابتعد عن المدينة أقبل على التفكير ، فأول ما يقع بصره على البعير الذي يركبه فيرى منظراً عجيباً ، وإن نظر فوق لم ير غير السماء ، وإن نظر يميناً وشمالاً لم ير غير الجبال ، وإن نظر تحت لم ير غير الأرض ، فلذلك ذكر هذه الأشياء قال ابن كثير : نبه تعالى البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو ركبٌ عليه ، والسماء التي فوق رأسه ، والجبل الذي تجاهه ، والأرض التي تحته ، على قدرة خالق ذلك وصانعه ، وأنه الرب العظيم ، الخالق المالك المتصرف ، الذي لا يستحق العبادة سواه ^(٤) . . ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد ولم يعتبر بذلك الكفار ، أمر نبيه ﷺ بوعظهم وتذكيرهم فقال

(١) مختصر ابن كثير ٦٣٣/٣ . (٢) التسهيل ١٩٦/٤ إنما خص تعالى الإبل بالذكر ، لأنها أفضل دواب العرب ، وأكثرها نفعاً ولهذا تسمى « سفينة الصحراء » فانظر إلى خلقها العجيب ، فإنها في غاية القوة والشدة ، وهي مع ذلك تنقاد مع الطفل الضعيف ، وهي تجلس لتضع عليها حملتها عن قرب ، ثم تقوم بما تحمله بما ينوء عنه العصبه أولو القوة ، ثم صبرها على الجوع والعطش الأيام المديدة ، ثم بلوغها المسافات الطويلة ، ورعيها بكل نبات في البراري ، وغير ذلك من عجائب الخلق والتكوين ، فسبحان الحكيم العليم !

(٣) اثبت علماؤنا ان الارض كروية كالامام الفخر الرازي ، وأبي السعود ، والألوسي ، كما نقلنا بعض ذلك في سورة لقمان ، وأما كونها مسطحة أو مبسوطة فانما هي بالنسبة لعظمتها وسمتها أو بالنسبة للناظرين ، فليس في القرآن ما يخالف الحقائق العلمية .

(٤) مختصر ابن كثير ٦٣٤/٣

إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾
 إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾ أي فعظهم يا محمد وخوفهم ، ولا يهمنك أنهم لا ينظرون ولا يتفكرون ، وإنما أنت واعظ ومرشد ﴿لست عليهم بمصيطر﴾ أي لست بمتسلط عليهم ولا قاهر لهم حتى تجبرهم على الإيمان ﴿إلا من تولى وكفر﴾ أي لكن من أعرض عن الوعظ والتذكير ، وكفر بالله العلي القدير ﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ أي فيعذبه الله بنار جهنم الدائم عذابها قال القرطبي : وإنما قال ﴿الأكبر﴾ لأنهم عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر^(١) ﴿إن إلينا إيابهم﴾ أي إلينا وحدنا رجوعهم بعد الموت ﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ أي ثم إن علينا وحدنا حسابهم وجزاءهم .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - أسلوب التشويق ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ ؟
- ٢ - المجاز المرسل بإطلاق الجزء وإرادة الكل ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ المراد أصحابها .
- ٣ - الطباق في الحرف بين ﴿إلينا إياهم .. وعلينا حسابهم﴾ .
- ٤ - جناس الاشتقاق ﴿فذكر .. مذكر﴾ وبين ﴿يعذبه .. والعذاب﴾
- ٥ - المقابلة بين وجوه الأبرار ووجوه الفجار ﴿وجوه يومئذ ناعمة * لسعيها راضية﴾ قابل بينها وبين سابقتها ﴿وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة﴾ .
- ٦ - السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿لسعيها راضية * في جنة عالية * لا تسمع فيها لاغية﴾ ..

الخ

تَبْيِيْهُ : روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قدم الشام ، أتاه راهب شيخ كبير عليه سواد ، فلما رآه عمر بكى ، فقيل له : ما يبكيك يا أمير المؤمنين إنه نصراني ؟ فقال : ذكرت قول الله عز وجل ﴿عاملة ناصبة * تصلى ناراً حامية﴾ فبكيته رحمةً عليه^(٢) .

﴿تم بعونه تعالى تفسير سورة الغاشية﴾



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة الفجر مكية ، وهي تتحدث عن أمور ثلاثة رئيسية وهي :

* ١ - ذكر قصص بعض الأمم المكذبين لرسول الله ، كقوم عاد ، وثمود ، وقوم فرعون ، وبيان ما حلَّ بهم من العذاب والدمار بسبب طغيانهم ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد . . ﴾ الآيات .

* ٢ - بيان سنة الله تعالى في ابتلاء العباد في هذه الحياة بالخير والشر ، والغنى والفقر ، وطبيعة الإنسان في حبه الشديد للمال ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه . . ﴾ الآيات .

* ٣ - الآخرة وأهوالها وشدائدها ، وانقسام الناس يوم القيامة إلى سعداء وأشقياء ، وبيان مآل النفس الشريرة ، والنفس الكريمة الخيرة ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً * وجاء ربك والملك صفاً صفاً * وجيء يومئذٍ بجهنم يومئذٍ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ إلى نهاية السورة الكريمة .

قال الله تعالى : ﴿ والفجر وليالٍ عشر . . . إلى . . . فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي ﴾

من آية (١) إلى آية (٣٠) نهاية السورة الكريمة .

اللغز : ﴿ حجر ﴾ عقل ولب قال الفراء : العرب تقول إنه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها ، وأصل الحجر المنع ، وسمي العقل حجراً لأنه يمنع عن السفه قال الشاعر .

وكيف يُرَجَّى أن يتوب وإنما يُرَجَّى من الفتيان من كان ذا حجر^(١)

﴿ جابوا ﴾ قطعوا ومنه قولهم : فلان يجوب البلاد أي يقطعها ﴿ التراث ﴾ الميراث ﴿ المأ ﴾ شديداً وأصله الجمع ومنه قولهم : لم الله شعته ﴿ جمّاً ﴾ كثيراً عظيماً كبيراً قال الشاعر :

إن تغفر اللهم تغفر جمّاً وأيُّ عبدٍ لك ما ألماً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَجْرِ ﴿٥﴾
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾

النفسير : ﴿والفجر * وليالٍ عشر﴾ هذا قسم أي أقسم بضوء الصبح عند مطاردته ظلمة الليل ، وبالليالي العشر المباركات من أول ذي الحجة ، لأنها أيام الاشتغال بأعمال الحج^(١) قال المفسرون : أقسم تعالى بالفجر لما فيه من خشوع القلب في حضرة الرب ، وبالليالي الفاضلة المباركة وهي عشر ذي الحجة ، لأنها أفضل أيام السنة ، كما ثبت في صحيح البخاري (ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام - يعني عشر ذي الحجة - قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء) ﴿والشفع والوتر﴾ أي وأقسم بالزوج والفرد من كل شيء فكأنه تعالى أقسم بكل شيء ، لأن الأشياء إما زوج وإما فرد ، أو هو قسم بالخلق والخالق ، فإن الله تعالى واحد « وتر » والمخلوقات ذكر وأنثى « شفع »^(٢) ﴿والليل إذا يسر﴾ أي وأقسم بالليل إذا يمضي بحركة الكون العجيبة ، والتقيد بسرياته لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة ، ووفور النعمة ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ أي هل فيما ذكر من الأشياء قسم مقنع لذي لب وعقل ؟ ! والاستفهام تقريرى لفخامة شأن الأمور المقسم بها ، كأنه يقول : إن هذا القسم عظيم عند ذوي العقول والألباب ، فمن كان ذا لب وعقل علم أن ما أقسم الله عز وجل به من هذه الأشياء فيها عجائب ، ودلائل تدل على توحيده وربوبيته ، فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على الإله الخالق العظيم قال القرطبي : قد يقسم الله بأسمائه وصفاته لعلمه ، ويقسم بأفعاله لقدرته كما قال تعالى ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ ويقسم بمفعولاته لعجائب صنعته كما قال ﴿والشمس وضحاها﴾ ﴿والسما والطارق﴾ ﴿والفجر وليال عشر﴾^(٣) وجواب القسم محذوف تقديره : ورب هذه الأشياء ليعذبن الكفار^(٤) ، ويدل عليه قوله ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾ ؟ أي ألم يبلغك يا محمد ويصل إلى علمك ، ماذا فعل الله بعاد قوم هود ؟ ﴿إرم ذات العماد﴾ أي عاداً الأولى أهل أرم ذات البناء الرفيع ، الذين كانوا يسكنون بالأحقاف بين عمان وحضرموت ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ أي تلك القبيلة التي لم يخلق الله مثلهم في قوتهم ، وشدتهم ، وضخامة أجسامهم ! والمقصود من ذلك تحذير أهل مكة بما صنع تعالى

(١) هذا قول الجمهور وهو مروى عن ابن عباس ، وقيل هي العشر الأخير من رمضان لأن فيها ليلة القدر ، وهي رواية أيضاً عن ابن عباس ، والأول أرجح .

(٢) هذا القول روي عن مجاهد وابن عباس ، وروي عن ابن عباس أيضاً أن الشفع يوم النحر لكونه العاشر ، والوتر يوم عرفة لكونه التاسع ، وذكرت أقوال أخرى كثيرة غير هذه . (٣) تفسير القرطبي ٤١/١٩ . (٤) انظر روح المعاني للألوسي ٣٠/١٢٢ .

وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ،

بعاد ، وكيف أهلكهم وكانوا أطول أعماراً ، وأشد قوة من كفار مكة ! ؟ قال ابن كثير : وهؤلاء « عاد الأولى » وهم الذين بعث الله فيهم رسوله « هوداً » عليه السلام فكذبوه وخالفوه ، وكانوا عتاة متمردين جبارين ، خارجين عن طاعة الله مكذبين لرسله ، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم ، وجعلهم أحاديث وعيراً ﴿١١﴾ وثمرود الذين جابوا الصخر بالواد ﴿٩﴾ أي وكذلك ثمود الذين قطعوا صخر الجبال ، ونحتوا بيوتاً بوادي القرى ﴿١٠﴾ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً أمينين ﴿١٣﴾ وكانت مساكنهم في الحجر بين الحجاز وتبوك قال المفسرون : أول من نحت الجبال والصخور والرخام قبيلة ثمود وكانوا لقوتهم يخرجون الصخور ، وينقبون الجبال فيجعلونها بيوتاً لأنفسهم ، وقد بنوا ألفاً وسبعمئة مدينة كلها بالحجارة بوادي القرى ﴿١٢﴾ وفرعون ذي الأوتاد ﴿١٠﴾ أي وكذلك فرعون الطاغية الجبار ، ذي الجنود والجموع والجيوش التي تشد ملكه قال أبو السعود : وصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربونها في منازلهم أولتعيديه بالأوتاد ﴿١٣﴾ الذين طغوا في البلاد ﴿٩﴾ أي أولئك المتجبرين « عاداً ، وثمرود ، وفرعون » الذين تمردوا وعتوا عن أمر الله ، وجاوزوا الحد في الظلم والطغيان ﴿٩﴾ فأكثروا فيها الفساد ﴿٩﴾ أي فأكثروا في البلاد الظلم والجور والقتل ، وسائر المعاصي والآثام ﴿٩﴾ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴿٩﴾ أي فأنزل عليهم ربك ألواناً شديدة من العذاب بسبب إجرامهم وطغيانهم قال المفسرون : استعمل لفظ الصب لاقضائه السرعة في النزول على المضروب ، كما قال القائل « صببنا عليهم ظالمين سياطنا » والمراد أنه تعالى أنزل على كل طائفة نوعاً من العذاب ، فأهلكت عاد بالريح ، وثمرود بالصيحة ، وفرعون وجنوده بالغرق كما قال تعالى ﴿٩﴾ فكلاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ﴿٩﴾ ﴿١٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ ﴿١٤﴾ أي إن ربك يا محمد ليرقب عمل الناس ، ويحصيه عليهم ، ويمجازيهم به قال في التسهيل : المرصاد المكان الذي يترقب فيه الرصد ، والمراد أنه تعالى رقيب على كل إنسان ، وأنه لا يفوته أحد من الجبارة والكفار ، وفي ذلك تهديد لكفار قريش ﴿١٥﴾ . . . ولما ذكر تعالى ما حل بالطغاة المتجبرين ، ذكر هنا طبيعة الإنسان الكافر ، الذي يطر عند الرخاء ، ويقنط عند الضراء فقال ﴿٩﴾ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربُّهُ ﴿٩﴾ أي إذا اختبره وامتحنه ربه بالنعمة ﴿٩﴾ فأكرمه ونعَّمه ﴿٩﴾ أي فأكرمه بالغنى واليسار ، وجعله منعماً في الدنيا بالبني والجاه والسلطان ﴿٩﴾ فيقول ربي أكرم من ﴿٩﴾ أي فيقول ربي أحسن الي بما أعطاني من النعم التي أستحقها ، ولم يعلم أن هذا ابتلاء له أيشكر أم يكفر ؟ ﴿٩﴾ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه ﴿٩﴾ أي وأما إذا اختبره وامتحنه ربه بالفقر وتضييق الرزق

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٦٣٦ . (٢) انظر القرطبي ١٩/٤٨ . والبحر المحيط ٨/٤٧٠ . (٣) تفسير أبي السعود ٥/٢٦٢ .

(٤) سورة العنكبوت آية ٤ ، وانظر حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٣١٧ . (٥) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١٩٧ .

فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ
الْثَرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ
وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِئَاءَ يَوْمٍ يُؤَمِّدُ بِهِمْ ^طيَوْمٍ يُؤَمِّدُ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ

﴿فيقول ربِّي أهانن﴾ أي فيقول غافلاً عن الحكمة : إن ربِّي أهانني بتضييقه الرزق عليّ قال القرطبي : وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث ، وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظّ في الدنيا وقتلته ، وأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقيه المؤدي إلى حظ الآخرة ، وإن وسّع عليه في الدنيا حمده وشكره ^(١) ، وإنما أنكر تعالى على الإنسان قوله ﴿ربي أكرمن﴾ وقوله ﴿ربي أهانن﴾ لأنه إنما قال ذلك على وجه الفخر والكبر ، لا على وجه الشكر ، وقال : أهانن على وجه التشكي من الله وقلة الصبر ، وكان الواجب عليه أن يشكر على الخير ، ويصبر على الشر ، ولهذا ردعه وزجره بقوله ﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم﴾ أي ليس الإكرام بالغنى ، والإهانة بالفقر كما تظنون ، بل الإكرام والإهانة بطاعة الله ومعصيته ولكنكم لا تعلمون ، ثم قال ﴿بل لا تكرمون اليتيم﴾ أي بل أنتم تفعلون ما هو شرّ من ذلك ، وهو أنكم لا تكرمون اليتيم مع إكرام الله لكم بكثرة المال ! ! ﴿ولا تحاضون على طعام المسكين﴾ أي ولا يحض بعضكم بعضاً ولا يحثه على إطعام المحتاج وعون المسكين ﴿وتأكلون الثّرات أكلاً لماً﴾ أي وتأكلون الميراث أكلاً شديداً ، لا تسألون أمن حلال هو أم من حرام ؟ قال في التسهيل : هو أن يأخذ في الميراث نصيبه ونصيب غيره ، لأن العرب كانوا لا يعطون من الميراث أنثى ولا صغيراً ، بل ينفرد به الرجال ^(٢) ﴿وتحبون المال حباً جماً﴾ أي وتحبون المال حباً كثيراً مع الحرص والشره ، وهذا ذمّ لهم لتكالبهم على المال ، وبخلهم بإنفاقه ﴿كلاً إذا دكّت الأرض دكاً دكاً﴾ كلاً للردع أي ارتدعوا أيها الغافلون وانزجروا عن ذلك ، فأمامكم أهوال عظيمة في ذلك اليوم العصيب ، وذلك حين تنزل الأرض وتحرك تحريكاً متتابعاً قال الجلال : أي زلزلت حتى ينهدم كل بناءٍ عليها وينعدم ^(٣) ﴿وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً﴾ أي وجاء ربك يا محمد لفصل القضاء بين العباد ، وجاءت الملائكة صفوفاً متتابعة صفّاً بعد صف قال في التسهيل : قال المنذر بن سعيد : معناه ظهوره للخلق هنالك ، وهذه الآية وأمثالها مما يجب الإيمان به من غير تكييف ولا تمثيل ^(٤) وقال ابن كثير : قام الخلائق من قبورهم لربهم ، وجاء ربك لفصل القضاء بين خلقه ، وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم محمد ﷺ ، فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً ^(٥) ﴿وجيء يومئذٍ بجهنم﴾ أي وأحضرت جهنم ليراها المجرمون كقوله ﴿وبُرزت الجحيم لمن يرى﴾ وفي الحديث (يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها) ^(٦) ﴿يومئذٍ يتذكر الإنسان﴾ أي في

(١) تفسير القرطبي ٥١/١٩ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١٩٨/٤ . (٣) تفسير الجلالين ٣١٨/٤ .

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ١٩٨/٤ . (٥) مختصر ابن كثير ٦٣٨/٣ . (٦) أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً .

يَلْبِثَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيَّتُهَا
النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾
ذلك اليوم الرهيب ، والموقف العصيب ، يتذكر الإنسان عمله ، ويندم على تفريطه وعصيانه ، ويريد أن
يقلع ويتوب ﴿وَأَنْسَىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ أي ومن أين يكون له الانتفاع بالذكرى وقد فات أوانها ؟ !
﴿يقول يا ليتني قدمت لحياتي﴾ أي يقول نادماً متحسراً : يا ليتني قدمت عملاً صالحاً ينفعني في
آخرتي ، لحياتي الباقية قال تعالى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ أي ففي ذلك اليوم ليس أحد أشد عذاباً
من تعذيب الله من عصاه ﴿ولا يوثق وثاقه أحد﴾ أي ولا يقيد أحد بالسلاسل والأغلال مثل تقييد الله
للكافر الفاجر ، وهذا في حق المجرمين من الخلائق ، فأما النفس الزكية المطمئنة فيقال لها ﴿يا أيُّهَا
النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ أي يا أيُّهَا النفس الطاهرة الزكية ، المطمئنة بوعد الله التي لا يلحقها اليوم خوفٌ ولا
فزع ﴿ارجعي إلي ربك راضية مرضية﴾ أي ارجعي إلى رضوان ربك ووجنته ، راضية بما أعطاك الله
من النعم ، مرضيةً عنده بما قدمت من عمل قال المفسرون : هذا الخطاب والنداء يكون عند الموت ،
فيقال للمؤمن عند احتضاره تلك المقالة ﴿فادخلي في عبادي﴾ أي فادخلي في زمرة عبادي الصالحين
﴿وادخلي جنتي﴾ أي وادخلي جنتي دار الأبرار الصالحين .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستفهام التقريري ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾ ؟
- ٢ - الطباق بين ﴿الشفع .. والوتر﴾ .
- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿لا يعذب عذابه﴾ ﴿ولا يوثق وثاقه﴾ ﴿يتذكر .. الذكرى﴾ .
- ٤ - المقابلة ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه﴾ و﴿بين﴾ و﴿أما إذا ما ابتلاه فقدر عليه
رزقه ..﴾ الآية فقد قابل بين ﴿أكرمن وأهانن﴾ و﴿بين توسعة الرزق﴾ .
- ٥ - الاستعارة اللطيفة الفائقة ﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾ شبه العذاب الشديد الذي نزل
عليهم بسياطٍ لاذعة تكوي جسد المعبذب واستعمل الصب للإيزال .
- ٦ - الالتفات ﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم﴾ فيه التفات من ضمير الغائب الى الخطاب زيادة في
التوبيخ والعتاب ، والأصل ﴿بل لا يكرمون﴾ .
- ٧ - الإضافة للتشريف ﴿فادخلي في عبادي﴾ .
- ٨ - السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر﴾ ومثل ﴿وثمود
الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذي الأوتاد * الذين طغوا في البلاد﴾ الآيات .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الفجر »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* هذه السورة الكريمة مكية ، وأهدافها نفس أهداف السورة المكية ، من تثبيت العقيدة والإيمان ، والتركيز على الإيمان بالحساب والجزاء ، والتميز بين الأبرار والفجار .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالبلد الحرام ، الذي هو سكنُ النبي عليه الصلاة والسلام ، تعظيماً لشأنه ، وتكريماً لمقامه الرفيع عند ربه ، ولفتاً لأنظار الكفار إلى أن إيذاء الرسول في البلد الأمين من أكبر الكبائر عند الله تعالى .

* ثم تحدثت عن بعض كفار مكة ، الذين اغتروا بقوتهم ، فعاندوا الحق ، وكذبوا رسول الله ﷺ وأنفقوا أموالهم في المباهاة والمفاخرة ، ظناً منهم أن إنفاق الأموال يدفع عنهم عذاب الله ، وقد ردت عليهم الآيات بالحجة القاطعة والبرهان الساطع .

* ثم تناولت أهوال القيامة وشدائدها ، وما يكون بين يدي الإنسان في الآخرة من مصاعب ومتاعب وعقباتٍ لا يستطيع أن يقطعها ويمتازها إلا بالإيمان والعمل الصالح .

* وختمت السورة الكريمة بالتفريق بين المؤمنين والكفار في ذلك اليوم العصيب ، وبينت مال السعداء ، ومآل الأشقياء ، في دار الجزاء .

قال الله تعالى : ﴿ لا أقسمُ بهذا البلد * وأنتَ حلٌّ بهذا البلد ... إلى ... عليهم نارٌ مؤصدة ﴾ من آية (١) إلى آية (٢٠) نهاية السورة .

اللغز : ﴿ كبد ﴾ الكبدُ : الشدة والمشقة ، وأصله من كبد الرجل كبداً إذا وجعته كبده ثم استعمل في كل تعب ومشقة ، ومنه المكابدة لمقاساة الشدائد ﴿ اقتحم ﴾ الاقتحامُ : الدخول بسرعة وشدة يقال : اقتحم الأمر ، واقتحم الحصن إذا رمى نفسه فيه بدون روية ﴿ العقبة ﴾ الطريق الوعر في الجبل ﴿ فك ﴾ الفكُّ تخليص الشيء من الشيء يقال : فككت الجبل ، وفككت الأسير أي خلصته من الأسر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾
أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾

﴿مَسْغَبَةٌ﴾ مجاعة يقال : سغب الرجل إذا جاع وقال الراغب : هو الجوع مع التعب^(١) ﴿متربة﴾ افتقار يقال : ترب الرجل إذا افتقر ولصق بالتراب ، وأترب إذا استغنى وكذلك أثرى^(٢) ﴿مؤصدة﴾ مطبقة من أوصد الباب إذا أغلقه وأطبقه

التفسير : ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ هذا قسم ، أقسم سبحانه بالبلد الحرام « مكة » التي شرفها الله تعالى بالبيت العتيق - قبة أهل الشرق والغرب - وجعلها مهبط الرحمات ، وإليها تجبى ثمرات كل شيء ، وجعلها حرماً آمناً ، وجعل حرمتها منذ خلق السموات والأرض^(٣) ، فلما استجمعت تلك المزايا والفضائل أقسم الله تعالى بها قال في التسهيل : أراد بالبلد « مكة » باتفاق ، وأقسم بها تشریفاً لها^(٤) ﴿وأنت حلٌ بهذا البلد﴾ أي وأنت يا محمد ساكنٌ ومقيمٌ بمكة بلد الله الأمين قال البيضاوي أقسم بالبلد الحرام وقيدته بحلوله عليه السلام فيه - أي إقامته فيه - إظهاراً لمزيد فضله ، وإشعاراً بأن شرف المكان بشرف أهله^(٥) ﴿ووالدٍ وما ولد﴾ أي وأقسم بآدم وذريته الصالحين قال مجاهد : الوالد آدم عليه السلام ﴿وما ولد﴾ جميع ذريته قال ابن كثير : وما ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسنٌ قوي ، لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى وهي المساكين ، أقسم بعده بالساكين وهو « آدم » أبو البشر وولده وقال الخازن : أقسم الله تعالى بمكة لشرفها وحرمتها ، وبآدم وبالأنبياء والصالحين من ذريته ، لأن الكافر - وإن كان من ذريته - لا حرمة له حتى يقسم به^(٦) ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ هذا هو المقسم عليه أي لقد خلقنا الإنسان في تعب ومشقة ، فإنه لا يزال يقاسي أنواع الشدائد ، من وقت نفخ الروح فيه إلى حين نزعها منه قال ابن عباس : ﴿في كبد﴾ أي في مشقة وشدة ، من حمله ، وولادته ، ورضاعه ، وفضامه ، ومعاشه ، وحياته ، وموته^(٨) ، وأصل الكبد : الشدة ، وقيل : لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم ، وهو مع ذلك أضعف الخلق^(٩) قال أبو السعود : والآية تسليةٌ لرسول الله ﷺ مما كان يكابده من كفار مكة^(١٠) . . ثم أخبر تعالى عن طبيعة الإنسان الجاحد بقدرة الله ، والمكذب للبعث والنشور فقال ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ أي أيظن هذا الشقي الفاجر ، المغتر بقوته ، أن الله تعالى لا يقدر عليه لشدته وقوته ؟ قال

(١) روح المعاني ١٣٨/٣٠. (٢) البحر المحيط ٤٧٣/٨. (٣) في الحديث الذي رواه الشيخان إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة ، لم تحل لأحد قبلي ، ولن تحل لأحد بعدي ، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار . (الحديث
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ١٩٩/٤ (٥) تفسير البيضاوي ٦٦٠/٣ (٦) مختصر تفسير ابن كثير ٦٤٠/٣ (٧) تفسير الخازن ٢٤٨/٤
(٨) تفسير الخازن ٢٤٨/٤ (٩) نفس المرجع السابق (١٠) تفسير أبي السعود ٢٦٥/٥

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بُدَّ (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ وَاحِدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩)
 وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُ رَقَبَةً (١٣) أَوْ إِطْعَمٌ فِي
 يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦)

المفسرون : نزلت في « أبي الأشد بن كلدة » كان شديداً مغترأً بقوته ، وكان يسطط له الأديم - الجلد - فيوضع تحت قدميه ، ويقول : من أزالني عنه فله كذا ، فيجذبه عشرة فيتقطع قطعاً ولا تنزل قدماه ، ومعنى الآية : أيظن هذا القوي المارد ، المستضعف للمؤمنين ، أنه لن يقدر على الانتقام منه أحد ؟ ﴿ يقولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بُدَّ ﴾ أي يقول هذا الكافر : أنفقت مالا كثيراً في عداوة محمد ﷺ قال الألوسي : أي يقول فخرأً ومباهاةً على المؤمنين : أنفقت مالا كثيراً ، وأراد بذلك ما أنفقه « رياءً وسمعةً » وعبر عن الإنفاق بالإهلاك ، إظهاراً لعدم الاكتراث ، وأنه لم يفعل ذلك رجاء نفع ، فكأنه جعل المال الكثير ضائعاً ، وقيل يقول ذلك إظهاراً لشدة عداوته لرسول الله ﷺ (١) ﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ ؟ أي أيظن أن الله تعالى لم يره حين كان ينفق ، ويظن أن أعماله تخفى على رب العباد ؟ ليس الأمر كما يظن ، بل إن الله رقيب مطلع عليه ، سيسأله يوم القيامة ويجازيه عليه . . ثم ذكره تعالى بنعمه عليه ليعتبر ويتعظ فقال ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ أي ألم نجعل له عينين يبصر بهما ؟ ﴿ وَلِسَانًا ﴾ أي ولساناً ينطق به فيعبر عما في ضميره ؟ ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ أي وشفتين يطبقهما على فمه ، ويستعين بهما على الأكل والشرب والنفخ وغير ذلك ؟ قال الخازن : يريد أن نعم الله على عبده متظاهرة ، يقرره بها كي يشكره (٢) ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ أي وبيناه طريقي الخير والشر ، والهدى والضلال ، ليسلك طريق السعادة ، ويتجنب طريق الشقاوة قال ابن مسعود : ﴿ النَّجْدَيْنِ ﴾ الخير والشر كقوله تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (٣) ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ أي فهلا أنفق ماله في اجتياز العقبة الكئود ، بدل أن ينفقه في عداوة محمد ﷺ ؟ ! قال في البحر : والعقبة استعارة للعمل الشاق على النفس ، من حيث فيه بذل المال ، تشبيهاً لها بعقبة الجبل وهو ما صعب منه وقت الصعود ، فإنه يلحقه مشقة في سلوكها ، ومعنى اقتحمها دخلها بسرعة وشدة (٤) ، وهو مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس ، والهوى ، والشيطان ، حتى ينال رضى الرحمن ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ؟ فَكُ رَقَبَةً ﴾ أي وما أعلمك ما اقتحام العقبة ؟ وفيه تعظيم لشأنها وتهويل . . ثم فسرها تعالى بقوله ﴿ فَكُ رَقَبَةً ﴾ أي هي عتق الرقبة في سبيل الله ، وتخليص صاحبها من الأسر والرق ، فمن أعتق رقبة كانت له فداء من النار ﴿ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ أي أو أن يطعم الفقير في يوم عصيب ذي مجاعة ، قال الصاوي وقيد الإطعام بيوم المجاعة ، لأن إخراج المال فيه أشد على النفس (٥) ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أي أطمع اليتيم الذي بينه وبينه قرابة ﴿ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أو المسكين الفقير البائس الذي قد

(١) تفسير الألوسي ١٣٦/٣ . (٢) تفسير الخازن ٤/٤٤٩ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٦٤١

(٤) تفسير البحر المحيط ٨/٤٧٦ . (٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٣٢٢ .

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُعَايِنَتَنَا هُمُ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾

لصق بالتراب من فقره وضره ، وهو كناية عن شدة الفقر والبؤس قال ابن عباس : هو المطروح على ظهر الطريق لا يقيه من التراب شيء ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ أي عمل هذه القربات لوجه الله تعالى ، وكان مع ذلك مؤمناً صادق الإيمان قال المفسرون : وفي الآية إشارة إلى أن هذه القرب والطاعات لا تنفع إلا مع الإيمان ﴿ وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالرحمة ﴾ أي وأوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان وطاعة الرحمن ، وبالرحمة والشفقة على الضعفاء والمساكين ﴿ أولئك أصحاب الميمنة ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الجليلة ، هم أصحاب الجنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ، ويسعدون بدخول جنات النعيم ﴿ والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة ﴾ قرن بين الأبرار والفجار على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب ، لبيان المفارقة الهائلة بين أهل الجنة وأهل النار ، وبين السعداء والأشرار أي والذين جحدوا نوبة محمد وكذبوا بالقرآن هم أهل الشمال - أهل النار - لأنهم يأخذون كتبهم بشئائهم ، وعبر عنهم بضمير الغائب إشارة إلى أنهم غائبون عن حضرة قدسه ، وكرامة أنسه ﴿ عليهم نارٌ مؤصدة ﴾ أي عليهم نارٌ مطبقة مغلقة ، لا يدخل فيها روح ولا ريحان ، ولا يخرجون منها أبد الزمان (١) . . اللهم لا تقننا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، ونجنا من ذلك يا رب .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ - زيادة ﴿ لا ﴾ لتأكيد الكلام ، وهو مستفيض في كلام العرب ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ أي أقسم بهذا البلد ، وفائدتها تأكيد القسم كقولك : لا والله ما ذاك كما تقول أي والله قال امرؤ القيس :
« لا وأبيك ابنة العامري » .

٢ - جناس الاشتقاق ﴿ ووالد وما ولد ﴾ فكل من الوالد والولد مشتق من الولادة .

٣ - الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ ؟ ومثله ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ ؟

٤ - الاستفهام التقريري للتذكير بالنعمة ﴿ ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفقتين ﴾ ؟

٥ - الاستفهام للتحويل والتعظيم ﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ ؟ لأن الغرض تعظيم شأنها .

٦ - الاستعارة اللطيفة ﴿ وهديناها للنجدين ﴾ أي طريقتي الخير والشر ، وأصل النجد الطريق المرتفع ، استعير كل منهما لسلوك طريق السعادة ، وسلوك طريق الشقاوة .

(١) اقتبسنا هذا التفسير من الطبري والقرطبي والبحر المحيط وتفسير ابن كثير وغيرها من أمهات كتب التفسير .

- ٧ - الاستعارة كذلك في قوله ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ لأن أصل العقبة الطريق الوعر في الجبل ، واستعيرت هنا للأعمال الصالحة لأنها تصعب وتشق على النفوس ، ففيه استعارة تبعية .
- ٨ - الجناس الناقص بين ﴿مقربة﴾ و ﴿متربة﴾ لتغير بعض الحروف .
- ٩ - المقابلة اللطيفة بين ﴿أولئك أصحاب الميمنة﴾ و بين ﴿أولئك أصحاب المشأمة﴾ .
- ١٠ - مراعاة الفواصل ورءوس الآيات مثل ﴿لا أقسم بهذا البلد . . . ووالد وما ولد * لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ ومثل ﴿عينين ولساناً وشفقتين﴾ وهو من المحسنات البديعية .
- ﴿تم بعونه تعالى تفسير سورة البلد﴾



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة الشمس مكية ، وقد تناولت موضوعين اثنين وهما :

- ١ - موضوع النفس الإنسانية ، وما جبلها الله عليه من الخير والشر ، والهدى والضلال .
- ٢ - وموضوع الطغيان ممثلاً في ﴿ثمود﴾ الذين عقروا الناقة فأهلكهم الله ودمرهم .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بسبعة أشياء من مخلوقات الله جل وعلا ، فأقسم تعالى بالشمس وضوئها الساطع ، وبالقمر إذا أعقبها وهو طالع ، ثم بالنهار إذا جلا ظلمة الليل بضياؤه ، وبالليل إذا غطى الكائنات بظلامه ، ثم بالقادر الذي أحكم بناء السماء بلا عمد ، وبالأرض الذي بسطها على ماء جمد ، وبالنفس البشرية التي كملها الله وزينها بالفضائل والكمالات ، أقسم بهذه الأمور على فلاح الإنسان ونجاحه إذا اتقى الله ، وعلى شقاوته وخسرانه إذا طغى وتمرد .

* ثم ذكر تعالى قصة ﴿ثمود﴾ قوم صالح حين كذبوا رسولهم ، وطغوا وبغوا في الأرض ، وعقروا الناقة التي خلقها الله تعالى من صخر أصم معجزةً لرسوله صالح عليه السلام ، وما كان من أمر هلاكهم

الفضيع الذي بقي عبرةً لمن يعتبر ، وهو نموذج لكل كافرٍ فاجرٍ مكذبٍ لرسول الله .

* وقد ختمت السورة الكريمة بأنه تعالى لا يخاف عاقبة إهلاكهم وتدميرهم ، لأنه ﴿ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ
وَمَا بَدَّلْنَاهَا ﴿٥﴾

اللغز : ﴿ ضُحَاهَا ﴾ ضوءها ، والضحي وقت ارتفاع الشمس أول النهار قال المبرد : الضحي مشتقٌ من الضحّ وهو نور الشمس^(١) ﴿ طحاهَا ﴾ بسطها ومدّها قال الجوهري : طحوته مثل دحوته أي بسطته^(٢) ﴿ دسَاهَا ﴾ أخفاها وأصل الكلمة دسها أبدلت السين الثانية ألفاً تخفيفاً ﴿ قدمدم ﴾ الدمدمه : إطباقُ الشيء على الشيء يقال : دمدم عليه القبر أي أطبقه والمراد به هنا إطباقُ العذاب عليهم بمعنى إهلاكهم بطريق الاستئصال ﴿ عقباهَا ﴾ عاقبتها وتبعها .

التفسير : ﴿ والشمس وضُحَاهَا ﴾ أي أقسم بالشمس وضوئها الساطع إذا أثار الكون وبدد الظلام ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ أي وأقسم بالقمر إذا سطع مضيئاً ، وتبع الشمس طالعاً بعد غروبها قال المفسرون : وذلك في النصف الأول من الشهر ، إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة وخلفها في النور ، وحكمة القسم بالشمس أن العالم في وقت غيبة الشمس عنهم كالأموات ، فإذا ظهر الصبح وبزغت الشمس دبت فيهم الحياة ، وصار الأموات أحياء فانتشروا لأعمالهم وقت الضحوة ، وهذه الحالة تشبه أحوال القيامة ، ووقت الضحي يشبه استقرار أهل الجنة فيها ، والشمس والقمر مخلوقان لمصالح البشر ، والقسم بهما للتنبيه على ما فيهما من المنافع العظيمة^(٣) ﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ أي وأقسم بالنهار إذا جلا ظلمة الله بضيائه ، وكشفها بنوره وقال ابن كثير : إذا جلا البسيطة وأضاء الكون بنوره^(٤) ﴿ والليل إذا يغشاهَا ﴾ أي وأقسم بالليل إذا غطى الكون بظلامه ، ولفه بشبحة ، فالنهار يجلي المعمورة ويظهرها ، والليل يغطيها ويسترها ، قال الصاوي : وأتى بالفعل مضارعاً ﴿ يغشاهَا ﴾ ولم يقل ﴿ غشيها ﴾ مراعاةً للفواصل^(٥) ﴿ والسماء وما بناها ﴾ أي وأقسم بالقادر العظيم الذي بنى السماء ، وأحكم بناءها بلا عمد قال المفسرون : ﴿ ما ﴾ اسم موصول بمعنى « من » أي والسماء ومن بناها والمراد به الله رب العالمين ، بدليل قوله بعده ﴿ فألمها فجورها وتقواها ﴾ كأنه قال : والقادر العظيم الشأن الذي بناها ، فدلّ بناؤها

(١) روح المعاني للألوسي ٣٠ / ١٤٠ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٦٤٤ . (٣) انظر حاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٣٢٣ .

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٦٤٤ . (٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٣٢١ .

وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾
 وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ
 اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾

وإحكامها على وجوده ، وكمال قدرته ﴿والأرض وما طحها﴾ أي وأقسم بالأرض ومن بسطها من كل جانب ، وجعلها ممتدة ممهّدة ، صالحة لسكنى الإنسان والحيوان ، وهذا لا ينافي كرويتها كما قال المفسرون ، لأن الغرض من الآية الامتنان بجعل الأرض ممتدة واسعة ، ميسرة للزراعة والفلاحة وسكنى الإنسان^(١) ﴿ونفس وما سواها﴾ أي وأقسم بالنفس البشرية وبالذي أنشأها وأبدعها ، وجعلها مستعدة لكمالها ، وذلك بتعديل أعضائها ، وقواها الظاهرة والباطنة ، ومن تمام تسويتها أن وهبها العقل الذي تميز به بين الخير والشر ، والتقوى والفجور ، ولهذا قال ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ أي وعرفها الفجور والتقوى ، وما تميز به بين رشدها وضلالها قال ابن عباس : بين لها الخير والشر ، والطاعة والمعصية ، وعرفها ما تأتي وما تتقي قال المفسرون : أقسم سبحانه بسبعة أشياء « الشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار ، والسماء ، والأرض ، والنفس البشرية » إظهاراً لعظمة قدرته ، وانفراده بالألوهية ، وإشارة إلى كثرة مصالح تلك الأشياء وعظم نفعها وأنها لا بد لها من صانع ومدبر لحركاتها وسكناتها وقال الإمام الفخر : لما كانت الشمس أعظم المحسوسات ، ذكرها تعالى مع أوصافها الأربعة الدالة على عظمها ، ثم ذكر سبحانه ذاته المقدسة ، ووصفها - جلّ وعلا - بصفات ثلاث ليحظى العقل بإدراك جلال الله تعالى وعظمته ، كما يليق به جلّ جلاله ، فكان ذلك طريقاً إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات ، إلى بيداء أوج كبريائه جلّ شأنه^(٢) ﴿قد أفلح من زكّاهها﴾ هذا هو جواب القسم أي لقد فاز وأفلح من زكّى نفسه بطاعة الله ، وطهرها من دنس المعاصي والآثام ﴿وقد خاب من دسّاهها﴾ أي وقد خسر وخاب من حقر نفسه بالكفر والمعاصي ، وأوردها موارد الهلكة ، فإنّ من طواع هواه ، وعصى أمر مولاه ، فقد نقص من عداد العقلاء ، والتحق بالجهلة الأغبياء . . ثم ضرب تعالى مثلاً لمن طغى وبغى ، ولم يطهر نفسه من دنس الكفر والعصيان ، فذكر ﴿ثمود﴾ قوم صالح عليه السلام فقال ﴿كذّبت ثمود بطغواها﴾ أي كذبت ثمود نبيها بسبب طغيانها ﴿إذ انبعث أشقاها﴾ أي حين انطلق أشقى القوم بسرعة ونشاط يعقر الناقة قال ابن كثير : وهو « قدار بن سالف » الذي قال الله فيه ﴿فنادوا أصحابهم فتعاطى فعقر﴾ وكان عزيزاً شريفاً في قومه ، ورئيساً مطاعاً فيهم ، وهو أشقى القبيلة^(٣) ﴿فقال لهم رسول الله﴾ أي فقال لهم صالح عليه السلام ﴿ناقة الله وسقياها﴾ أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ، واحذروا أيضاً أن تمنعوها من سقياها أي شربها ونصيبيها من الماء كما قال تعالى ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ ﴿فكذبوه فعقروها﴾ أي فكذبوا نبيهم صالحاً وقتلوا الناقة ، ولم يلتفتوا

(١) انظر أقوال المفسرين في إثبات كروية الأرض في سورة لقمان (٢) التفسير الكبير للرازي ٣٠ / (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٦٤٥ / ٣ .

فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

إلى تحذيره ﴿فدمدم عليهم ربهم بذنوبهم﴾ أي فأهلكهم الله ودمرهم عن آخرهم بسبب إجرامهم وطغيانهم قال الخازن : والدمدمة : هلاكٌ باستئصال والمعنى أطبق عليهم العذاب طبقاً فلم ينفلت منهم أحد^(١) ﴿فسوأها﴾ أي فسوى بين القبيلة في العقوبة فلم يفلت منهم أحد ، لا صغير ولا كبير ، ولا غني ولا فقير ﴿ولا يخاف عقباها﴾ أي ولا يخاف تعالى عاقبة إهلاكهم وتدميرهم ، كما يخاف الرؤساء والملوك عاقبة ما يفعلون ، لأنه تعالى لا يسأل عما يفعل .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿الشمس والقمر﴾ و﴿الليل والنهار﴾ وبين ﴿فجورها وتقواها﴾ .
 - ٢ - المقابلة اللطيفة بين ﴿والنهار إذا جلاها﴾ وبين ﴿والليل إذا يغشاها﴾ وبين ﴿قد أفلح من زكّأها﴾ وبين ﴿وقد خاب من دسّأها﴾ وكل من الطباق والمقابلة من المحسنات البديعية .
 - ٣ - الإضافة للتكريم والتشريف ﴿ناقة الله﴾ نسبت إلى الله تشريفاً لأنها خرجت من حجر أصم معجزةً لصالح عليه السلام .
 - ٤ - التهويل والتفضيع ﴿فدمدم عليهم ربهم بذنوبهم﴾ فإن التعبير بالدمدمة يدل على هول العذاب .
 - ٥ - السجع المرصع مراعاة للفواصل وروءوس الآيات وهو ظاهر جلي في السورة الكريمة .
- « تم بعونه تعالى تفسير سورة الشمس »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الليل مكية ، وهي تتحدث عن سعي الإنسان وعمله ، وعن كفاحه ونضاله في هذه الحياة ، ثم نهايته إلى النعيم أو إلى الجحيم .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالليل إذا غشي الخليفة بظلامه ، وبالنهار إذا أثار الوجود بإشراقه وضيائه ، وبالخالق العظيم الذي أوجد النوعين الذكر والأنثى ، أقسم على أن عمل الخلائق مختلف ، وطريقهم متباين ﴿والليل إذا يغشى﴾ والنهار إذا تجلَّى ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ إن سعيكم لشتى﴾ .

* ثم وضحت سبيل السعادة ، وسبيل الشقاء ، ورسمت الخطأ البياني لطالب النجاة ، وبينت أوصاف الأبرار والفجار ، وأهل الجنة وأهل النار ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ وصدق بالحسنى ﴿فسييسره لليسرى﴾ وأما من بخل واستغنى ﴿وكذب بالحسنى﴾ فسييسره للعسرى﴾ .

* ثم نبهت إلى اغترار بعض الناس بأموالهم التي جمعوها ، وثرواتهم التي كدسوها ، وهي لا تنفعهم في القيامة شيئاً ، ودكرتهم بحكمة الله في توضيحه لعباده طريق الهداية وطريق الضلالة ﴿وما يغني عنه ماله إذا تردى﴾ إن علينا للهدى ﴿وإن لنا للأخرة والأولى﴾ .

* ثم حذرت أهل مكة من عذاب الله وانتقامه ، ممن كذب بآياته ورسوله ، وأنذرهم من نار حامية تتوهج من شدة حرها ، لا يدخلها ولا يذوق سعيها إلا الكافر الشقي ، المعرض عن هداية الله ﴿فأنذرتكم نارا تلتظى﴾ لا يصلها إلا الأشقى ﴿الذي كذب وتولى﴾ .

* وختمت السورة بذكر نموذج للمؤمن الصالح ، الذي ينفق ماله في وجوه الخير ، ليزكي نفسه ويصونها من عذاب الله ، وضربت المثل بأبي بكر الصديق رضي الله عنه حين اشترى بلالاً وأعتقه في سبيل الله ﴿وسيجنبها الاتقى﴾ الذي يؤتي ماله يتزكى ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴿ولسوف يرضى﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَلْبِلْ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ
أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾

اللغز: ﴿تجلى﴾ انكشف وظهر ﴿شتى﴾ متفرق ومختلف ﴿الحسنى﴾ الكلمة الحسنى وهي كلمة التوحيد ﴿اليسرى﴾ الخصلة المؤدية الى اليسر والراحة وهي الجنة ﴿العسرى﴾ الخصلة المؤدية إلى العسر والشدة وهي جهنم ﴿تردى﴾ هلك وسقط في الهاوية ﴿تلظى﴾ أصلها تتلظى أي تلهب وتتوقد ﴿يصلهاها﴾ يدخلها ويقاسي حرها .

المناسكة: روي أن بلالاً رضي الله عنه كان عبداً مملوكاً لـ « أمية بن خلف » وكان سيده يعذبه لإسلامه ، ويخرجه إذا حميت الشمس فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ! ! فيقول وهو في تلك الحالة : أحد ، أحد ، فمرَّ به أبو بكر الصديق وهم يصنعون به ذلك ، فقال لأمية : ألا تتقي الله في هذا المسكين ! ! فقال له : أنت أفسدته علي فأنقذه مما ترى ، فاشتراه أبو بكر منه وأعتقه في سبيل الله ، فقال المشركون : إنما أعتقه ليد كان له عنده فزلت ﴿وما لأحدٍ عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى﴾^(١) .

النفسير: ﴿والليل إذا يغشى﴾ أي أقسم بالليل إذا غطى بظلمته الكون ، وستر بشبحه الوجود ﴿والنهار إذا تجلَّى﴾ أي وأقسم بالنهار إذا تجلَّى وانكشف ، وأثار العالم وأضاء الكون قال المفسرون : أقسم تعالى بالليل لأنه سكن لكافة الخلق ، يأوي فيه الإنسان والحيوان إلى مأواه ، ويسكن عن الاضطراب والحركة ، ثم أقسم بالنهار لأن فيه حركة الخلق وسعيهم إلى اكتساب الرزق ، والحكمة في هذا القسم ما في تعاقب الليل والنهار من مصالح لا تُحصى فإنه لو كان العمر كله ليلاً لتعذر المعاش ، ولو كان كله نهاراً لما سكن الإنسان إلى الراحة ، ولاختلت مصالح البشر ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ أي وأقسم بالقادر العظيم الذي خلق صنفَي الذكر والأنثى ، من نطفةٍ إذا تمنى . . أقسم تعالى بذاته على خلق النوعين ﴿الذكر والأنثى﴾ للتنبية على أنه الخالق المبدع الحكيم ، إذ لا يُعقل أن هذا التخالف بين الذكر والأنثى يحصل بمحض الصدفة من طبيعة بلهاء لا شعور لها فإن الأجزاء الأصلية في المنى متساوية ، فتكوين الولد من عناصر واحدة تارة ذكراً ، وتارة أنثى ، دليل على أن واضع هذا النظام عالم ، بما يفعل ، محكم لما يصنع ﴿إن سعيكم لشتى﴾ هذا هو جواب القسم أي إن عملكم لمختلف ، فمنكم تقى ومنكم شقى ، ومنكم صالح ومنكم طالح ، ثم فسره بقوله ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ أي فأما من

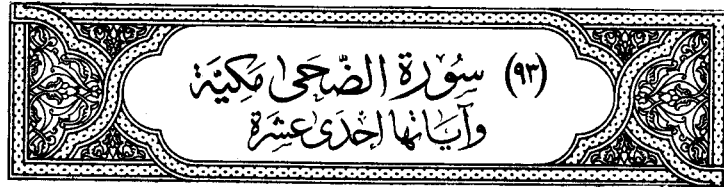
(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣٢٦/٤ وتفسير الخازن ٢٥٦/٤ .

وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِّيْسِرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾
 فَسَنِّيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ
 وَالْأُولَى ﴿١٣﴾ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيَجْزِيهَا
 الْآتِقُ ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ
 الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾

أعطى ماله وأنفق ابتغاء وجه الله ، واتقى ربه فكف عن محارم الله قال ابن كثير : أعطى ما أمر باخراجه ،
 واتقى الله في أموره^(١) ﴿وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى﴾ أي وصدق بالجنة التي أعدّها الله للأبرار ﴿فَسَنِّيْسِرُهُ
 لِلْيُسْرَى﴾ أي فسنيته لعمل الخير، ونسهل عليه الخصلة المؤدية لليسر ، وهي فعل الطاعات وترك
 المحرمات ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ أي وأمّا من بخل بإنفاق المال ، واستغنى عن عبادة ذي الجلال قال
 ابن عباس : بخل بماله ، واستغنى عن ربه عزّ وجل ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ أي وكذب بالجنة ونعيمها
 ﴿فَسَنِّيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ أي فسنيته للخصلة المؤدية للعسر ، وهي الحياة السيئة في الدنيا والآخرة وهي
 طريق الشر قال المفسرون : سمى طريقة الخير يسرى لأن عاقبتها اليسر وهي دخول الجنة دار النعيم ،
 وسمى طريقة الشر عسرى لأن عاقبتها العسر وهو دخول الجحيم ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾
 استفهام إنكاري أي أي شيء ينفعه ماله إذا هلك وهو في نار جهنم ؟ هل ينفعه المال ، ويدفع عنه
 الوبال ؟ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ أي إنّ علينا ان نبين للناس طريق الهدى من طريق الضلالة ، ونوضح
 سبيل الرشده من سبيل الغي كقوله ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ ﴿وَإِنَّ
 لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ أي لنا ما في الدنيا والآخرة ، فمن طلبها من غير الله فقد أخطأ الطريق
 ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ أي فحذرتكم يا أهل مكة ناراً تتوقد وتتوهج من شدة حرارتها ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا
 الْأَشْقَى﴾ أي لا يدخلها للخلود فيها ولا يذوق سعيها ، إلا الكافر الشقي . . ثم فسره تعالى بقوله
 ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي كذب الرسل وأعرض عن الإيمان ﴿وسيجزيها الآتقى﴾ أي وسيبعد عن
 النار التقى النقي ، المبالغ في اجتناب الشرك والمعاصي . . ثم فسره تعالى بقوله ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ
 يَتَزَكَّى﴾ أي الذي ينفق ماله في وجوه الخير ليزكي نفسه ﴿وما لأحدٍ عنده من نعمة تُجْزَى﴾ أي وليس
 لأحدٍ عنده نعمة حتى يكافئه عليها ، وإنما ينفق لوجه الله قال المفسرون : نزلت الآيات في حق « أبي بكر
 الصديق » حين اشترى بلالاً وأعتقه في سبيل الله فقال المشركون : إنما فعل ذلك ليد كانت له عنده فنزلت
 ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ أي ليس له غاية إلا مرضاة الله ﴿ولسوف يرضى﴾ أي ولسوف يعطيه
 الله في الآخرة ما يرضيه وهو وعد كريم من رب رحيم .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين لفظة ﴿الأشقى﴾ و ﴿الأتقى﴾ وبين ﴿اليسرى﴾ و ﴿العسرى﴾ .
 - ٢ - المقابلة اللطيفة ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى﴾ وبين ﴿وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى﴾ الآيات .
 - ٣ - جناس الاشتقاق ﴿فسيئره لليسرى﴾ لأن اليسرى من التيسير فبينهما مجانسة .
 - ٤ - حذف المفعول للتعميم ليذهب ذهن السامع كل مذهب ﴿فأما من أعطى واتقى . .﴾ الآيات .
 - ٥ - السجع الرصين غير المتكلف كقوله ﴿لا يصلها إلا الأشقى . . . وسيجنبها الأتقى﴾ الخ .
- كان عمر رضي الله عنه يقول : أعتق سيدنا سيدنا يريد أعتق سيدنا أبو بكر سيدنا بلالاً ، فما أروع هذه النفوس ؟ اللهم ارزقنا محبة أصحاب الرسول جميعاً .
- « تم بعونه تعالى تفسير سورة الليل »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

- * سورة الضحى مكية ، وهي تتناول شخصية النبي الأعظم ﷺ ، وما حباه الله به من الفضل والإنعام في الدنيا والآخرة ، ليشكر الله على تلك النعم الجليلة .
- * ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على جلالة قدر الرسول ﷺ وأن ربه لم يهجره ولم يبغضه كما زعم المشركون ، بل هو عند الله رفيع القدر ، عظيم الشأن والمكانة ﴿والضحى﴾ واللَّيْلُ إِذَا سَجَى * ما ودَّعك ربُّك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى﴾ .
- * ثم بشرته بالعطاء الجزيل في الآخرة ، وما أعدَّه الله تعالى لرسوله من أنواع الكرامات ، ومنها

الشفاعة العظمى ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ .

* ثم ذكّرت بما كان عليه في الصغر ، من اليتيم ، والفقر ، والفاقة ، والضياع ، فأواه ربه وأغناه ، وأحاطه بكلاه وعنايته ﴿ألم يجدك يتيماً فأوى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى﴾ .

* وختمت السورة بتوصيته ﷺ بوصايا ثلاث ، مقابل تلك النعم الثلاث ، ليعطف على اليتيم ، ويرحم المحتاج ، ويمسح دموعه البائس المسكين ﴿فأمّا اليتيم فلا تقهر * وأمّا السائل فلا تنهر * وأمّا بنعمة ربك فحدث﴾ وهو ختم يتناسق فيه جمال اللفظ مع روعة البيان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ

اللغز : ﴿سجى﴾ سجى الليل : اشتد ظلامه ﴿قلى﴾ أبغض قال الراغب : القلي : شدة البغض يقال : قلاه ويقليه أي أبغضه^(١) ﴿أوى﴾ ضمّه إلى من يرهه ﴿عائلاً﴾ فقيراً معدماً وهو من اشتد به الفقر قال جرير :

الله نزل في الكتاب فريضةً لابن السبيل وللفقير العائل^(٢)

﴿تقهر﴾ تذله وتحقره ﴿تنهر﴾ تزجره وتغلظ عليه في الكلام .

سَبَبُ النَّزُولِ : اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقيم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة - وهي أم جميل امرأة أبي لهب - فقالت يا محمد : إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك !! لم أره قربك ليلتين أو ثلاثاً فأنزل الله عز وجل : ﴿والضحى * والليل إذا سجى * ما ودَّعك ربك وما قلى﴾^(٣) .

التفسير : ﴿والضحى * والليل إذا سجى﴾ أقسم تعالى بوقت الضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس ، وأقسم بالليل إذا اشتد ظلامه ، وغطى كل شيء في الوجود قال ابن عباس : ﴿سجى﴾ أقبل بظلامه^(٤) قال ابن كثير : هذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء ، وبالليل إذا سكن فأظلم وأدهم ، وذلك دليل ظاهر على قدرته تعالى^(٥) ﴿ما ودَّعك ربك وما قلى﴾ أي ما تركك ربك يا محمد منذ اختارك ، ولا أبغضك منذ أحبك ، وهذا رد على المشركين حين قالوا : هجره ربه ، وهو جواب القسم ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ أي وللدار الآخرة خير لك يا محمد من هذه الحياة الدنيا ، لأن الآخرة باقية ، والدنيا فانية ، ولهذا كان عليه السلام يقول : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ﴿ولسوف

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني . (٢) البحر المحيط ٨/٤٨٦ . (٣) الحديث في الصحيحين بدون ذكر اسم المرأة .

(٤) تفسير الخازن ٤/٢٥٨ . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٦٤٩ .

يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾
فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٥﴾ أي سوف يعطيك ربك في الآخرة من الثواب ، والكرامة ، والشفاعة ، وغير ذلك إلى أن ترضى قال ابن عباس : هي الشفاعة في أمته حتى يرضى ، لما روي أن النبي ﷺ ذكر أمته فقال : اللهم أمتي أمتي وبكى ، فقال الله يا جبريل اذهب إلى محمد واسأله ما يبكيك ؟ - وهو أعلم - فأتى جبريل رسول الله ﷺ وسأله فأخبره رسول الله بما قال ، فقال الله يا جبريل : اذهب إلى محمد وقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك^(١) ، وفي الحديث (لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإنني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة)^(٢) الحديث قال الخازن : والأولى حمل الآية على ظاهرها ليشمل خيري الدنيا والآخرة معاً ، فقد أعطاه الله تعالى في الدنيا النصر والظفر على الأعداء ، وكثرة الأتباع والفتوح ، وأعلى دينه ، وجعل أمته خير الأمم ، وأعطاه في الآخرة الشفاعة العامة ، والمقام المحمود ، وغير ذلك من خيري الدنيا والآخرة^(٣) . . ثم لما وعده بهذا الوعد الجليل ، ذكره بنعمه عليه في حال صغره ليشكر ربه فقال ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ أي ألم تكن يا محمد يتيماً في صغرك ، فأواك الله إلى عمك أبي طالب وضمك إليه ؟ قال ابن كثير : وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه ، ثم توفيت أمه وله من العمر ست سنين ، ثم كان في كفالة جده « عبد المطلب » إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين ، فكفله عمه « أبو طالب » ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره حتى ابتعثه الله على رأس الأربعين وأبو طالب على عبادة الأوثان مثل قومه ومع ذلك كان يدفع الأذى عن رسول الله ﷺ ، وكل هذا من حفظ الله له ، وكلاءته وعنايته به^(٤) ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ أي ووجدك تائهاً عن معرفة الشريعة والدين فهداك إليها كقوله تعالى ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ قال الإمام الجلال : أي وجدك ضالاً عما أنت عليه الآن من الشريعة فهداك إليها^(٥) ، وقيل : ضل في بعض شعاب مكة وهو صغير فردّه الله إلى جده قال أبو حيان : لا يمكن حمله على الضلال الذي يقابله الهدى ، لأن الأنبياء معصومون من ذلك قال ابن عباس : هو ضلاله وهو في صغره في شعاب مكة^(٦) ، وقيل : ضل وهو مع عمه في طريق الشام^(٧) ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ أي ووجدك فقيراً محتاجاً فأغناك عن الخلق ، بما يسر لك من أسباب التجارة . . ولما عدّد عليه هذه النعم الثلاث ، وصّاه بثلاث وصايا مقابلها فقال ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ أي فأما اليتيم فلا تحتقره ولا تغلبه على ماله قال مجاهد : أي لا تحتقره وقال سفيان : لا تظلمه بتضييع ماله ، والمراد كن لليتيم كالأب الرحيم ، فقد كنت يتيماً فأواك الله ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ أي وأمّا السائل المستجدي الذي يسأل عن حاجة وفقر ، فلا تزجره إذا سألك ولا تغلظ له القول بل أعطه أو رده رداً جميلاً قال قتادة : ردّ المسكين برفقٍ ولين ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أي حدّث الناس بفضل الله وإنعامه عليك ، فإن

(١) أخرجه مسلم . (٢) أخرجه الشيخان . (٣) تفسير الخازن ٤ / ٢٦٠ .

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٦٥٠ . (٥) تفسير الجلالين ٤ / ٣٣٠ .

التحدث بالنعمة شكر لها قال الألوسي : كنت يتياً وضالاً وعائلاً ، فأواك الله وهداك وأغناك ، فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث ، فتعطف على اليتيم ، وترحم على السائل ، فقد ذقت اليتيم والفقير ، وأرشد العباد إلى طريق الرشاد ، كما هداك ربك (١) .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿الآخرة﴾ و﴿الأولى﴾ لأن المراد بالأولى الدنيا وهي تطابق الآخرة .
- ٢ - المقابلة اللطيفة ﴿ألم يجدك يتياً فأوى * ووجدك عائلاً فأغنى﴾ قابلها بقوله ﴿فأماً اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر﴾ وهي من لطائف علم البديع .
- ٣ - الجناس الناقص بين ﴿تقهر﴾ و﴿تنهر﴾ لتغير الحرف الثاني من الكلمتين .
- ٤ - السجع المرصع كأنه الدر المنظوم في عقد كريم ﴿ألم يجدك يتياً فأوى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى﴾ الخ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الضحى »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الإنشراح مكية ، وهي تتحدث عن مكانة الرسول الجليلة ، ومقامه الرفيع عند الله تعالى ، وقد تناولت الحديث عن نعم الله العديدة على عبده ورسوله محمد ﷺ ، وذلك بشرح صدره بالإيمان ، وتنوير قلبه بالحكمة والعرفان ، وتطهيره من الذنوب والأوزار ، وكل ذلك بقصد التسلية لرسول الله عليه السلام عما يلقاه من أذى الفجار ، وتطبيب خاطره الشريف بما منحه الله من الأنوار ﴿ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذي أنقض ظهرك﴾ .

* ثم تحدثت عن إعلاء منزلة الرسول ، ورفع مقامه في الدنيا والآخرة ، وقرن اسمه ﷺ باسم الله تعالى ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ .

- * وتناولت السورة دعوة الرسول ﷺ وهو بمكة يقاسي مع المؤمنين الشدائد والأهوال من الكفرة المكذبين ، فأنسه بقرب الفرج وقرب النصر على الأعداء ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ .
- * وختمت بالتذكير للمصطفى ﷺ بواجب التفرغ لعبادة الله ، بعد انتهائه من تبليغ الرسالة ، شكرًا لله على ما أولاه من النعم الجليلة ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾

التفسير : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استفهامٌ بمعنى التقرير أي قد شرحنا لك صدرك يا محمد بالهدى والإيمان ، ونور القرآن كقوله تعالى ﴿فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ قال ابن كثير : أي نورناه وجعلناه فسيحاً ، رحيباً ، واسعاً ، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحاً ، سمحاً ، سهلاً ، لا حرج فيه ولا إصرٌ ولا ضيق^(١) وقال أبو حيان : شرح الصدر تنويره بالحكمة ، وتوسيعه لتلقي ما يوحى إليه وهو قول الجمهور ، وقيل : هو شق جبريل لصدره في صغره وهو مروى عن ابن عباس^(٢) ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي حططنا عنك حملك الثقيل ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي الذي أثقل وأوهن ظهرك قال المفسرون : المراد بالوزر الأمور التي فعلها ﷺ ، ووضعهاعنه هو غفرانها له كقوله تعالى ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وليس المراد بالذنوب المعاصي والآثام ، فإن الرسل معصومون من مقارفة الجرائم ، ولكن ما فعله عليه السلام عن اجتهاد وعوتب عليه ، كإذنه ﷺ للمنافقين في التخلف عن الجهاد حين اعتذروا ، وأخذته الفداء من أسرى بدر ، وعبسه في وجه الأعمى ونحو ذلك ، قال في التسهيل : وإنما وصفت ذنوب الأنبياء بالثقل ، وهي صغائر مغفورة لهم ، لهمم بها وتحسرهم عليها ، فهي ثقيلة عندهم لشدة خوفهم من الله وهذا كما ورد في الأثر (إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَىٰ ذُنُوبَهُ كَالْجَبَلِ يَقَعُ عَلَيْهِ ، وَالْمُنَافِقُ يَرَىٰ ذُنُوبَهُ كَالذَّبَابَةِ تَطِيرُ فَوْقَ أَنْفِهِ)^(٣) والنقيض هو الصوت الذي يسمع من المحمل فوق ظهر البعير من شدة الحمل ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي رفعا شأنك ، وأعلينا مقامك في الدنيا والآخرة ، وجعلنا اسمك مقروناً باسمي قال مجاهد : لا أذكر إلا ذكرت معي وقال قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ، ولا متشهد ، ولا صاحب صلاة إلا ينادي : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وفي الحديث (أتاني جبريل فقال لي يا محمد : إن ربك يقول : أتدري

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٦٥٢/٣ . (٢) تفسير البحر المحيط ٤٨٧/٨ والرواية التي أشار إليها ذكرت في صحيح مسلم ، فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل - وهو يلعب مع الغلمان - فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرجه واستخرج منه علقة وقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طستٍ من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره المرضعة - فقالوا إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون . أخرجه مسلم قال أنس : وكنت أرى أثر المخيط في صدره .

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٢٠٦/٤ .

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾

كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله تعالى أعلم، قال: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي (١) قال في البحر: قرن الله ذكر الرسول بذكره جل وعلا في كلمة الشهادة، والأذان والإقامة، والتشهد، والخطب، وفي غير موضع من القرآن، وأخذ على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به (٢) كما قال حسان بن ثابت:

وَضَمَّ إِلَهَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ إِسْمِهِ لِيُجْلَهُ فَذُو الْعَرْشِ مُحَمَّدٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ (٣)

﴿فإن مع العسر يسراً﴾ أي بعد الضيق يأتي الفرج، وبعد الشدة يكون المخرج قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ في مكة في ضيق وشدة هو وأصحابه، بسبب أذى المشركين للرسول والمؤمنين، فوعده الله باليسر، كما عدّد عليه النعم في أول السورة تسلية وتأييماً له، لتطيب نفسه ويقوى رجاؤه، وكأن الله تعالى يقول: إن الذي أنعم عليك بهذه النعم الجليلة، سينصرك عليهم، ويظهر أمرك، ويبدل لك هذا العسر بيسر قريب، ولذلك كرره مبالغة فقال: ﴿إن مع العسر يسراً﴾ أي سيأتي الفرج بعد الضيق، واليسر بعد العسر فلا تحزن ولا تضجر وفي الحديث ﴿لن يغلب عسرٌ يسرين﴾ (٤) ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ أي فإذا فرغت يا محمد من دعوة الخلق، فاجتهد في عبادة الخالق، وإذا انتهيت من أمور الدنيا، فأتعب نفسك في طلب الآخرة ﴿وإلى ربك فارغب﴾ أي اجعل همك ورغبتك فيما عند الله، لا في هذه الدنيا الفانية قال ابن كثير: المعنى إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها، وقطعت علائقها، فانصب إلى العبادة، وقم إليها نشيطاً فارغ البال، وأخلص لربك النية والرغبة (٥).

البلاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الاستفهام التقريري للامتنان والتذكير بنعم الرحمن ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ الخ .
 - ٢ - الاستعارة التمثيلية ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ الذي أنقض ظهرك ﴿شبه الذنوب بحمل ثقيل يرهق كاهل الإنسان ويعجز عن حمله بطريق الاستعارة التمثيلية .
 - ٣ - التنكير للتفخيم والتعظيم ﴿إن مع العسر يسراً﴾ نكر اليسر للتعظيم كأنه قال يسراً كبيراً .
 - ٤ - الجناس الناقص بين لفظ ﴿اليسر﴾ و﴿العسر﴾ .
 - ٥ - تكرير الجملة لتقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب ﴿إن مع العسر يسراً﴾ * إن مع العسر يسراً ﴿ ويسمى هذا بالإطناب .
 - ٦ - السجع المرصع مراعاة لرءوس الآيات ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ * وإلى ربك فارغب ﴿ ومثلها ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ الذي أنقض ظهرك ﴿ وهو من المحسنات البديعية .
- « تم بعونه تعالى تفسير سورة الإنشراح »

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٦٥٢/٣ . (٢) تفسير البحر المحیط ٤٨٨/٨ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ٦٥٢/٣ .

(٤) أخرجه الحاكم والبيهقي . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٦٥٣/٣ .



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة التين مكية ، وهي تعالج موضوعين بارزين هما :

الأول : تكريم الله جل وعلا للنوع البشري .

الثاني . موضوع الإيمان بالحساب والجزاء .

* ابتدأت السورة بالقسم بالبقاع المقدسة والأماكن المشرفة ، التي خصها الله تعالى بإنزال الوحي فيها على أنبيائه ورسله وهي « بيت المقدس » و « جبل الطور » و « مكة المكرمة » على أن الله تعالى كرم الإنسان ، فخلقه في أجمل صورة ، وأبدع شكل ، وإذا لم يشكر نعمة ربه فسيرد إلى أسفل دركات الجحيم ﴿ والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين ﴾ .

* ووبخت الكافر على إنكاره للبعث والنشور ، بعد تلك الدلائل الباهرة التي تدل على قدرة رب العالمين ، في خلقه للإنسان في أحسن شكل ، وأجمل صورة ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ .
* وختمت ببيان عدل الله بإثابة المؤمنين ، وعقاب الكافرين ﴿ فما يكذبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ ؟ وفيها تقرير للجزاء ، وإثبات للمعاد .

اللغات : ﴿ طور سينين ﴾ هو جبل الطور الذي كلم الله عليه موسى ومعنى ﴿ سينين ﴾ المبارك ﴿ تقويم ﴾ تعديل يقال : قوم العود أي عدله وجعله مستقيماً ، وقومه الدهر جعله متزناً حصيف الرأي والعقل ﴿ ممنون ﴾ مقطوع ﴿ الدين ﴾ الجزء مأخوذ من دان بمعنى جازى ومنه الحديث الشريف (كما تدين تدان) أي كما تفعل تُجازى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾

النفسير : ﴿ والتين والزيتون ﴾ هذا قسم أي أقسم بالتين والزيتون لبركتها وعظيم

وَطُورِ سَيْنِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ
أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾

منفعتهما قال ابن عباس : هو تينكم الذي تأكلون ، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت (١) وقال
عكرمة : أقسم تعالى بمنابت التين والزيتون ، فإن التين ينبت كثيراً بدمشق ، والزيتون ببيت
المقدس (٢) . . وهو الأظهر ، ويدل عليه أن الله تعالى عطف عليه الأماكن « جبل الطور » و « البلد الأمين » فيكون
قسماً بالبقاع المقدسة التي شرفها الله تعالى بالوحي والرسالات السماوية ﴿ وطور سينين ﴾ أي وأقسم
بالجبل المبارك الذي كلم الله عليه موسى وهو « طور سيناء » ذو الشجر الكثير ، الحسن المبارك قال
الخازن : سمي « سينين » و « سيناء » لحسنه ولكونه مباركاً ، وكلُّ جبلٍ فيه أشجارٌ مثمرة يسمى سينين
وسيناء (٣) ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ أي وأقسم بالبلد الأمين « مكة المكرمة » التي يأمن فيها من دخلها على
نفسه وماله كقوله تعالى ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ﴾ !! قال الألوسي :
هذه أقسام ببقاع مباركة شريفة على ما ذهب إليه الكثيرون ، فأما البلد الأمين فمكة المكرمة - حماها الله -
بلا خلاف ، وأما طور سينين فالجبل الذي كلم الله تعالى موسى عليه ، ويقال له : طور سيناء ، وأما التين
والزيتون فروي عن قتادة أن المراد بهما جبلان : أحدهما بدمشق ، والثاني ببيت المقدس ، وعنى بالتين
والزيتون منبتيهما ، وقيل : المراد بهما الشجران المعروفان وهو قول ابن عباس ومجاهد ، والغرض من
القسم بتلك الأشياء الإيانة عن شرف البقاع المباركة ، وما ظهر فيها من الخير والبركة ببعثة الأنبياء
والمرسلين (٤) وقال ابن كثير : ذهب بعض الأئمة إلى أن هذه محال ثلاث ، بعث الله في كل منها نبياً مرسلأً
من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار فالأول : محلة التين والزيتون وهي « بيت المقدس » التي بعث الله
فيها عيسى عليه السلام والثاني : طور سينين وهو « طور سيناء » الذي كلم الله عليه موسى بن عمران
والثالث : البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً ، وهو الذي أرسل الله فيه محمداً ﷺ ، وقد ذكر في آخر
التوراة هذه الأماكن الثلاثة « جاء الله من طور سيناء - الجبل الذي كلم الله عليه موسى - وأشرق من
ساعير - يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى - واستعلن من جبال فاران - يعني جبال مكة
التي أرسل الله منها محمداً ﷺ » فذكرهم بحسب ترتيبهم بالزمان ، وأقسم بالأشرف ثم الأشرف منه ، ثم
بالأشرف منها (٥) ، وجواب القسم هو قوله ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ أي لقد خلقنا
جنس الإنسان في أحسن شكل ، متصفاً بأجمل وأكمل الصفات ، من حسن الصورة ، وانتصاب القامة ،
وتناسب الأعضاء ، مزيناً بالعلم والفهم ، والعقل والتميز ، والنطق والأدب ، قال مجاهد : ﴿ أحسن
تقويم ﴾ أحسن صورة ، وأبدع خلق (٦) ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ أي ثم أنزلنا درجته إلى أسفل
سافلين ، لعدم قيامه بموجب ما خلقناه عليه ، حيث لم يشكر نعمة خلقنا له في أحسن صورة ، ولم

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ١١٠ . (٢) البحر المحيط ٨/ ٤٨٩ . (٣) تفسير الخازن ٤/ ٢٦٦ .

(٤) روح المعاني ٣٠/ ١٧٣ بشيء من الإيجاز . (٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٥٤ . (٦) تفسير الطبري ٣٠/ ١٥٦ .

إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالَّذِينَ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ
 اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

يستعمل ما خصصناه به من المزايا في طاعتنا ، فلذلك سنده إلى أسفل سافلين وهي جهنم قال مجاهد والحسن : ﴿أسفل سافلين﴾ أسفل دركات النار وقال الضحاك : أي رددناه إلى أرذل العمر ، وهو الهرم بعد الشباب ، والضعف بعد القوة^(١) قال الألوسي : والمتبادر من السياق الإشارة الى حالة الكافر يوم القيامة ، وأنه يكون على أقبح صورة وأبشعها ، بعد أن كان على أحسن صورة وأبدعها^(٢) ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي إلا المؤمنين المتقين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾ أي لهم ثواب دائم غير مقطوع عنهم ، وهو الجنة دار المتقين ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ الخطاب للإنسان على طريقة الالتفات أي فما سبب تكذيبك أيها الانسان ، بعد هذا البيان وبعد وضوح الدلائل والبراهين ؟ فإن خلق الإنسان من نطفة ، وإيجاده في أجمل شكل وأبدع صورة ، من أوضح الدلائل على قدرة الله عز وجل على البعث والجزاء ، فما الذي يدعوك إلى التكذيب بيوم الدين بعد هذه البراهين ؟ ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ أي أليس الله الذي خلق وأبدع ، بأعدل العادلين حكماً وقضاً وفصلاً بين العباد ؟ ! وفي الحديث أن النبي ﷺ كان إذا قرأها قال : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - المجاز العقلي بإطلاق الحال وإرادة المحل ﴿والتين والزيتون﴾ أراد موضعها الشام وبيت المقدس على القول الراجح .

٢ - الطباق بين ﴿أحسن تقويم﴾ وبين ﴿أسفل سافلين﴾ .

٣ - جناس الاشتقاق ﴿أحكم الحاكمين﴾ .

٤ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والعتاب ﴿فما يكذبك﴾ ؟ !

٥ - الاستفهام التقريري ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ ؟

٦ - السجع المرصع ﴿البلد الأمين .. أسفل سافلين .. أحكم الحاكمين﴾ والله أعلم .

لطيفة : ذكر الإمام القرطبي أن « عيسى الهاشمي » كان يحب زوجته حباً شديداً ، فقال لها يوماً : أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر ! فاحتجبت عنه وقالت طلقتنني ، فحزن حزناً شديداً وذهب إلى الخليفة « المنصور » وأخبره الخبر ، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم ، فقال جميع من

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ١١٥ . (٢) تفسير الألوسي ٣٠/ ١٧٦ .

حضر : قد طُلِّقت ، إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة فقد بقي ساكناً فقال له المنصور : مالك لا تتكلم ؟ فقال له الرجل يا أمير المؤمنين : يقول الله تعالى ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ فليس شيء أحسن من الإنسان ، فقال صدقت ، وردّها إلى زوجها .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة التين »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة العلق وتسمى ﴿سورة اقرأ﴾ مكية وهي تعالج القضايا الآتية :

أولاً : موضوع بدء نزول الوحي على خاتم الأنبياء محمد ﷺ .

ثانياً : موضوع طغيان الإنسان بالمال وتمرده على أوامر الله .

ثالثاً : قصة الشقي « أبي جهل » ونهيه الرسول ﷺ عن الصلاة .

* ابتدأت السورة ببيان فضل الله على رسوله الكريم بإنزاله هذا القرآن « المعجزة الخالدة » وتذكيره بأول النعماء وهو يتعبد ربه بغار حراء ، حيث تنزل عليه الوحي بآيات الذكر الحكيم ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق .. إلى .. علم الإنسان ما لم يعلم﴾ .

* ثم تحدثت عن طغيان الإنسان في هذه الحياة بالقوة والثراء ، وتمرده على أوامر الله بسبب نعمة الغنى ، وكان الواجب عليه أن يشكر ربه على إفضاله ، لا أن يجحد النعماء ، وذكّرت بالعودة إلى ربه لينال الجزاء ﴿كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى * إن إلى ربك الرجعى﴾ .

* ثم تناولت قصة « أبي جهل » فرعون هذه الأمة ، الذي كان يتوعد الرسول ويتهدهده ، وينهاه عن الصلاة ، انتصاراً للأوثان والأصنام ﴿أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى﴾ الآيات .

* وختمت السورة بوعيد ذلك الشقي الكافر ، بأشد العقاب إن استمر على ضلاله وطغيانه ، كما

أمرت الرسول الكريم بعدم الإصغاء إلى وعيد ذلك المجرم الأثيم ﴿كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية﴾ إلى ختام السورة ﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾ .

﴿ وقد بدأت السورة بالدعوة إلى القراءة والتعلم ، وختمت بالصلاة والعبادة .ليقترن العلم بالعمل ، ويتناسق البدء مع الختام .

اللغة : ﴿علق﴾ جمع علقه وهي الدم الجامد ، سميت علقه لأنها تعلق بالرحم ﴿نسفاً﴾ السفع : الجذب بشدة وقوة قال أهل اللغة : سفعت بالشيء إذا قبضت عليه وجذبتة جذباً شديداً ، وسفع بناصية فرسه جذبها قال الشاعر :

قومٌ إذا كثر الصياح رأيتهم ما بين ملجم مهرة أو سافع^(١)
 ﴿الناصية﴾ شعر مقدّم الرأس ﴿الزبانية﴾ مأخوذ من الزبن وهو الدفع ، والمراد بهم ملائكة العذاب ، الغلاظ الشداد ، والعرب يطلقون هذا الاسم على من اشتد بطشه قال الشاعر :

مطاعيم في القُصوى ، مطاعين في الوغى زبانيةٌ غلبَ عظام حلومها^(٢)
 روي أن أبا جهل اللعين قال لأصحابه يوماً : هل يُعفّر محمد وجهه بين أظهركم ؟ - يريد هل يصلي ويسجد أمامكم - قالوا : نعم ، فقال : واللأت والعزى لئن رأيتَه يصلي كذلك لأطأنّ على رقبته ، ولأعفرنّ وجهه في التراب ، فجاء يوماً فوجد رسول الله ﷺ يصلي ، فأقبل يريد أن يطأ على رقبته ، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقي بيديه ، فقيل له : ما لك ؟ فقال : إن بيني وبينه خندقاً من نار ، وهولاً وأجنحة فقال رسول الله ﷺ : (لودنا مني لاخطفته الملائكةُ عضواً عضواً) فأنزل الله ﴿ رأيت الذي ينهى * عبداً إذا صلى . . ﴾ إلى آخر السورة^(٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾

التفسير : ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ هذا أول خطاب إلهي وجه إلى النبي ﷺ وفيه دعوة إلى القراءة والكتابة والعلم ، لأنه شعار دين الإسلام أي إقرأ يا محمد القرآن مبتدئاً ومستعيناً باسم ربك الجليل ، الذي خلق جميع المخلوقات ، وأوجد جميع العوالم ، ثم فسّر الخلق تفخيماً لشأن الإنسان فقال ﴿خلق الإنسان من علق﴾ أي خلق هذا الإنسان البديع الشكل ، الذي هو أشرف المخلوقات من العلقه- وهي الدودة الصغيرة - وقد أثبت الطب الحديث أن المنى الذي خلق منه الإنسان محتو على حيوانات

(١) البحر المحيط ٤٩١/٨ . (٢) روح المعاني ١٨٨/٣٠ . (٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة ، وانظر مختصر ابن كثير ٦٥٨/٣ والخازن

أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٤﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٥﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا لَیَطْفَخُ ﴿١٠﴾ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿١١﴾ وَإِنَّمَا تَرَىٰ بِالْمِجْرَمِ ﴿١٢﴾ الَّذِي يَدْعُوا يَدْعَا وَهُوَ شَاظِرٌ ﴿١٣﴾ وَإِنَّمَا تَرَىٰ بِالْمِجْرَمِ ﴿١٤﴾ الَّذِي يَدْعُوا يَدْعَا وَهُوَ شَاظِرٌ ﴿١٥﴾ وَإِنَّمَا تَرَىٰ بِالْمِجْرَمِ ﴿١٦﴾ الَّذِي يَدْعُوا يَدْعَا وَهُوَ شَاظِرٌ ﴿١٧﴾

وديدان صغيرة لا ترى بالعين ، وإنما ترى بالمجهر الدقيق - الميكروسكوب - وأن لها رأساً وذنباً ، فبإذن الله أحسن الخالقين^(١) قال القرطبي : خص الإنسان بالذكر تشريفاً له ، والعلقة قطعة من دم رطب ، سميت بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تمر عليه^(٢) ﴿إقرأ وربك الأكرم﴾ أي اقرأ يا محمد وربك العظيم الكريم ، الذي لا يساويه ولا يدانيه كريم ، وقد دل على كمال كرمه أنه علم العباد ما لم يعلموا ﴿الذي علم بالقلم﴾ علم الإنسان ما لم يعلم ﴿أي الذي علم الخط والكتابة بالقلم ، وعلم البشر ما لم يكونوا يعرفونه من العلوم والمعارف ، فنقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، فكما علم سبحانه بواسطة الكتابة بالقلم ، فإنه يعلمك بلا واسطة وإن كنت أمياً لا تقرأ ولا تكتب قال القرطبي : نبه تعالى على فضل علم الكتابة ، لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إنسان ، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولاها ما استقامت أمور الدنيا والدين^(٣) . . وهذه الآيات الخمس هي أول ما تنزل من القرآن ، كما ثبت في الصحاح أن النبي ﷺ نزل عليه الملك وهو يتعبد بغار حراء ، فقال : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارئ^(٤) . . الخ قال ابن كثير : أول شيء نزل من القرآن هذه الآيات المباركات ، وهن أول رحمة رحم الله بها العباد ، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم ، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقه ، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم ، وهو القدر الذي امتاز به « آدم » على الملائكة^(٥) . . ثم أخبر تعالى عن سبب بطن الإنسان وطغيانه فقال ﴿كلا إن الإنسان ليطغى﴾ أي حقاً إن الإنسان ليتجاوز الحد في الطغيان ، واتباع هوى النفس ، ويستكبر على ربه عز وجل ﴿أن رآه استغنى﴾ أي من أجل أن رأى نفسه غنياً ، وأصبح ذا ثروة ومال أشر وبطر ، ثم توعدّه وتهدهد بقوله ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ أي إن إلى ربك - أيها الإنسان - المرجع والمصير فيجازيك على أعمالك ، وفي الآية تهديد وتحذير لهذا الإنسان من عاقبة الطغيان ، ثم هو عام لكل طاغ متكبر قال المفسرون : نزلت هذه الآيات إلى آخر السورة في « أبي جهل » بعد نزول صدر السورة بمدة طويلة ، وذلك أن أبا جهل كان يطغى بكثرة ماله ، ويبالغ في عداوة الرسول ﷺ والعبدة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب^(٦) ﴿أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى﴾ تعجب من حال ذلك الشقي الفاجر أي أخبرني يا محمد عن حال ذلك المجرم الأثيم ، الذي ينهى عبداً من عباد الله عن الصلاة ، ما أسخف عقله ، وما أشنع فعله !! قال أبو السعود : هذه الآية تقبيح وتشنيع لحال الطاغى وتعجب منها ، وإيدان بأنها من الشناعة والغرابة بحيث يقضى منها العجب^(٧) ، وقد أجمع المفسرون على أن العبد المصلي هو محمد

(١) إقرأ كتاب « الطب محراب الإيمان » ج ٢ ص ٥٣ . (٢) تفسير القرطبي ١١٩ / ١٩ .

(٣) تفسير القرطبي ١٢٠ / ١٩ . (٤) أخرج الشيخان عن عائشة قالت : « أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث - أي يتعبد - فيه الليالي ذوات العدد . . الخ الحديث .

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٦٥٦ / ٣ . (٦) انظر حاشية الصاوي ٣٣٦ / ٤ وتفسير القرطبي ١٢٣ / ١٩ . (٧) تفسير أبي السعود ٢٧٤ / ٥ .

صَلَّى ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَه لِنَسْفَعَا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تَطْعَهُ وَآتَجِدْ وَأَقْتَرَب ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾

ﷺ ، وأن الذي نهاه هو اللعين « أبو جهل » حيث قال : لئن رأيتُ محمداً يصلي لأطأن على عنقه^(١) ﴿أرأيتَ إن كان على الهدى﴾ أي أخبرني إن كان هذا العبد المصلي - وهو النبي ﷺ - الذي تنهاه عن الصلاة صالحاً مهتدياً ، على الطريقة المستقيمة في قوله وفعله ! ! ﴿أو أمر بالتقوى﴾ أي أو كان أمراً بالإخلاص والتوحيد ، داعياً إلى الهدى والرشاد ، كيف تزجره وتنهاه^(٢) ! ! فما أبلهك أيها الغبي الذي تنهي من هذه أوصافه : عبدٌ لله مطيعٌ مهتدٍ منيب ، داعٍ إلى الهدى والرشاد ؟ ! وما أعجب هذا ؟ ! ثم عاد لخطاب الرسول ﷺ فقال ﴿أرأيتَ إن كذب وتولى﴾ أي أخبرني يا محمد إن كذب بالقرآن ، وأعرض عن الإيمان ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ أي ألم يعلم ذلك الشقي أن الله مطلع على أحواله ، مراقب لأفعاله ، وسيجازهه عليها ! ! ويله ما أجهله وأغباه ؟ ! ثم رده وزجره فقال ﴿كلاً لئن لم ينته﴾ أي ليرتدع هذا الفاجر « أبو جهل » عن غيه وضلاله ، فوالله لئن لم ينته عن أذى الرسول ، ويكف عملاً هو عليه من الكفر والضلال ﴿لنسفعاً بالناصية﴾ أي لناخذنه بناصيته - مقدم شعر الرأس - فلنجرنه إلى النار بعنفٍ وشدة ونقذفه فيها ﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾ أي صاحب هذه الناصية كاذبٌ ، فاجرٌ ، كثير الذنوب والإجرام قال في التسهيل : ووصفها بالكذب والخطيئة مجازاً ، والكاذب الخاطيء في الحقيقة صاحبها ، والخطيء الذي يفعل الذنب متعمداً ، والمخطيء الذي يفعله بدون قصد^(٣) ﴿فليدع ناديه﴾ أي فليدع أهل ناديه وليستنصر بهم ﴿سندع الزبانية﴾ أي سندعوا خزنة جهنم ، الملائكة الغلاظ الشداد ، روي أن أبا جهل مرَّ على النبي ﷺ وهو يصلي عند المقام فقال : ألم أنك عن هذا يا محمد ! فأغلظ له رسول الله ﷺ القول ، فقال أبو جهل : بأي شيء تهددني يا محمد ! والله إنني لأكثر أهل الوادي هذا نادياً فأنزل الله ﴿فليدع ناديه﴾ سندع الزبانية ﴿قال ابن عباس : لودعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته^(٤)﴾ ﴿كلاً لا تطعه﴾ أي ليرتدع هذا الفاجر ، ولا تطعه يا محمد فيما دعاك إليه من ترك الصلاة ﴿واسجد وأقترب﴾ أي وواظب على سجودك وصلاتك ، وتقرَّب بذلك إلى ربك وفي الحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد »^(٥) .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿اقرأ باسم ربك . . ثم قال : اقرأ وربك الأكرم﴾ لمزيد الاهتمام بشأن

(١) انظر سبب النزول المتقدم . (٢) هذا هو الظاهر أن الذي هو على الهدى ، أو أمر بالتقوى هو محمد ﷺ ، وهو اختيار ابن عطية والجمهور ، وذهب الزمخشري إلى أنها في الناهي ، وهو ضعيف .

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢٠٩ . (٤) تفسير القرطبي ١٩/ ١٢٧ . (٥) رواه مسلم في صحيحه .

القراءة والعلم .

٢ - الجناس الناقص بين ﴿خلق﴾ و﴿علق﴾ .

٣ - طباق السلب ﴿عَلَّمَ الإنسان ما لم يعلم﴾ .

٤ - الكناية ﴿أرأيت الذي ينهى عبداً﴾ كنى بالعبد عن رسول الله ﷺ ولم يقل : ينهاك تفخياً لشأنه وتعظيماً لقدره .

٥ - الاستفهام للتعجب من شأن الناهي ﴿أرأيت الذي ينهى﴾ ؟ ﴿أرأيت إن كان على الهدى﴾ ؟

٦ - المجاز العقلي ﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾ أي كاذب صاحبها خاطيء فأسند الكذب إليها مجازاً .

٧ - السجع المرصع مثل ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق﴾ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة العلق »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة القدر مكية ، وقد تحدثت عن بدء نزول القرآن العظيم ، وعن فضل ليلة القدر على سائر الأيام والشهور ، لما فيها من الأنوار والتجليات القدسية ، والنفحات الربانية ، التي يفيضها الباري جل وعلا على عباده المؤمنين ، تكريماً لنزول القرآن المبين ، كما تحدثت عن نزول الملائكة الأبرار حتى طلوع الفجر ، فيا لها من ليلة عظيمة القدر ، هي خير عند الله من ألف شهر ! !

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾

التفسير : ﴿إننا أنزلناه في ليلة القدر﴾ أي نحن أنزلنا هذا القرآن المعجز في ليلة القدر

وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿١﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٢﴾ تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٣﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٤﴾

والشرف قال المفسرون : سميت ليلة القدر لعظمتها وقدرها وشرفها ، والمراد بإنزال القرآن إنزاله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم نزل به جبريل إلى الأرض في مدة ثلاث وعشرين سنة كما قال ابن عباس : أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ ﴿١﴾ ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ تعظيم وتفخيم لأمرها أي وما أعلمك يا محمد ما ليلة القدر والشرف ؟ قال الخازن : وهذا على سبيل التعظيم لها والتشويق لخبرها كأنه قال : أي شيء يبلغ علمك بقدرها ومبلغ فضلها ؟ ! ﴿٢﴾ ثم ذكر فضلها من ثلاثة أوجه فقال تعالى ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ أي ليلة القدر في الشرف والفضل خير من ألف شهر ، لما اختصت به من شرف إنزال القرآن الكريم فيها قال المفسرون : العمل الصالح في ليلة القدر خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، وقد روي أن رجلاً لبس السلاح وجاهد في سبيل الله ألف شهر ، فعجب رسول الله والمسلمون من ذلك ، وتمنى رسول الله ﷺ لأُمَّته فقال يا رب : جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً ، وأقلها أعمالاً ! فأعطاه الله ليلة القدر ، وقال : ليلة القدر خير لك ولأمتك من ألف شهر ، جاهد فيها ذلك الرجل ﴿٣﴾ قال مجاهد : عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر ﴿٤﴾ ، هذا هو الوجه الأول من فضلها ثم قال تعالى ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾ أي تنزل الملائكة وجبريل إلى الأرض في تلك الليلة بأمر ربهم من أجل كل أمر قدره الله وقضاه لتلك السنة إلى السنة القابلة ، وهذا هو الوجه الثاني من فضلها ، والوجه الثالث قوله تعالى ﴿سلام هي حتى مطلع الفجر﴾ أي هي سلام من أول يومها إلى طلوع الفجر ، تسلّم فيها الملائكة على المؤمنين ، ولا يُقدّر الله فيها إلا الخير والسلامة لبني الإنسان .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الإطناب بذكر ليلة القدر ثلاث مرات ، زيادة في الاعتناء بشأنها ، وتفخيماً لأمرها .
- ٢ - الاستفهام بغرض التفخيم والتعظيم ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ ؟
- ٣ - ذكر الخاص بعد العام ﴿تنزل الملائكة والروح﴾ فذكر جبريل بعد الملائكة لينبه على جلالة قدره .
- ٤ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿القدر ، شهر ، أمر ، الفجر﴾ وهو من المحسنات البديعية اللفظية والله أعلم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة القدر »

(١) انظر مختصر ابن كثير ٦٥٩/٣ و القرطبي ١٣٠/١٩ . (٥) تفسير الخازن ٢٧٥/٤

(٣) روي هذا عن ابن عباس ومجاهد . (٤) مختصر تفسير ابن كثير ٦٥٩/٣ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة البيّنة وتسمى ﴿سورة لم يكن﴾ مدنية ، وهي تعالج القضايا الآتية :

- ١ - موقف أهل الكتاب من رسالة محمد ﷺ .
- ٢ - موضوع إخلاص العبادة لله جلّ وعلا .
- ٣ - مصير كل من السعداء والأشقياء في الآخرة .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن « اليهود والنصارى » وموقفهم من دعوة رسول الله ﷺ ، بعد أن بان لهم الحقّ وسطعت أنواره ، وبعد أن عرفوا أوصاف النبي المبعوث آخر الزمان ، وكانوا ينتظرون بعثته ومجيئه ، فلما بعث خاتم الرسل كذبوا برسالته ، وكفروا وعاندوا .

* ثم تحدثت السورة عن عنصر هام من عناصر الإيمان ، وهو « إخلاص العبادة » لله العلي الكبير ، الذي أمر به جميع أهل الأديان ، وإفراده جلّ وعلا بالذكر ، والقصد ، والتوجه في جميع الأقوال والأفعال والأعمال ، خالصة لوجهه الكريم .

* كما تحدثت عن مصير أهل الإِجرام - شرّ البرية - من كفرة أهل الكتاب والمشركين ، وخلودهم في نار الجحيم ، وعن مصير المؤمنين ، أصحاب المنازل العالية - خير البرية - وخلودهم في جنات النعيم ، مع النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، جزاء طاعتهم وإخلاصهم لرب العالمين .

اللغز: ﴿منفكين﴾ منتهين زائلين ، وأصلُ الفك : الفتحُ ومنه فكُ الكتاب ، وفكُ الخللخال ﴿البيّنة﴾ الحجّة الواضحة ، والدلالة القاطعة ﴿مطهّرة﴾ منزّهة عن الباطل والشبهات ﴿قيمة﴾ مستقيمة عادلة ﴿حنفاء﴾ مائلين عن الباطل إلى الدين الحق ، وأصل الحنف : الميلُ ﴿البرية﴾ الخلق من قولهم : برأ الله الخلق ، ومنه البارئ أي الخالق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِيعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ

التفسير : ﴿لم يكن الذين كفروا﴾ أي لم يكن أهل الكفر والجحود ، الذين كفروا بالله وبرسوله ، ثم بينهم بقوله ﴿من أهل الكتاب والمشركين﴾ أي من اليهود والنصارى أهل الكتاب ، ومن المشركين عبدة الأوثان والأصنام ﴿منفكين حتى تأتيهم البينة﴾ أي منفصلين ومنتهين عما هم عليه من الكفر ، حتى تأتيهم الحجة الواضحة ^(١) ، وهي بعثة محمد ﷺ ، ولهذا فسرها بقوله ﴿رسول من الله﴾ أي هذه البينة هي رسالة محمد ﷺ المرسل من عند الله تعالى ﴿يتلوا صحفاً مطهرة﴾ أي يقرأ عليهم صحفاً منزّهة عن الباطل عن ظهر قلب ، لأن النبي ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب قال القرطبي : أي يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب ، يتلوها عن ظهر قلبه لا عن كتاب ، لأنه عليه السلام كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ ^(٢) قال ابن عباس : ﴿مطهرة﴾ من الزور ، والشك ، والنفاق ، والضلالة وقال قتادة : مطهرة عن الباطل ^(٣) ﴿فيها كتب قيمة﴾ أي فيها أحكام قيمة لا عوج فيها ، تبين الحق من الباطل قال الصاوي : المراد بالصحف القراطيس التي يكتب فيها القرآن ، والمراد بالكتب الأحكام المكتوبة فيها ، وإنما قال ﴿فيها كتب قيمة﴾ لأن القرآن جمع ثمرة كتب الله المتقدمة ^(٤) . ثم ذكر تعالى من لم يؤمن من أهل الكتاب فقال ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ أي وما اختلف اليهود والنصارى في شأن محمد ﷺ ، إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة ، الدالة على صدق رسالته ، وأنه الرسول الموعود به في كتبهم قال أبو السعود : والآية مسوقة لغاية التشنيع على أهل الكتاب خاصة ، وتغليظ جنائياتهم ، ببيان أن تفرقهم لم يكن إلا بعد وضوح الحق ، وتبين الحال ، وانقطاع الأعذار بالكلية ، كقوله تعالى ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ ^(٥) وقال في التسهيل : أي ما اختلفوا في نبوة سيدنا محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا أنه حق ، وإنما خص أهل الكتاب هنا بالذكر ، لأنهم كانوا يعلمون صحة نبوته ، بما يجدون في كتبهم من ذكره ^(٦) ﴿وما

(١) لم تذكر السورة أنهم منفكون عن ماذا ؟ لكنه معلوم إذ المراد هو الكفر والضلالة التي كانوا عليها ، فقد أتاهم رسول الله ﷺ بالقرآن المبين ، فبين لهم ضلالتهم وشركهم وما كانوا عليه من الجاهلية ، ودعاهم إلى الإيمان فأمن منهم من آمن ، واهتدى منهم من اهتدى ، فأنقذهم الله من الجهالة والضلالة ، ولم يكونوا منفصلين عن كفرهم قبل بعثة ﷺ إليهم ، والآية فيمن آمن من الفريقين : المشركين وأهل الكتاب . (٢) تفسير القرطبي ١٤٢/٢٩ . (٣) نفس المرجع السابق والصفحة . (٤) حاشية الصاوي ٣٤٢/٤ . (٥) تفسير أبي السعود ٢٧٧/٥ . (٦) التسهيل لعلوم التنزيل ٢١٢/٤ .

وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۗ
 أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿١٠١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿١٠٢﴾ جَزَاؤُهُمْ
 عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۗ أَبَدًا ۖ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۗ

أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴿١٠٠﴾ أي والحال أنهم ما أمروا في التوراة والإنجيل إلا بأن يعبدوا الله وحده ، مخلصين العبادة لله جلّ وعلا ، ولكنهم حرقوا وبدلوا ، فعبدوا أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ﴾ ﴿ حنفاء ﴾ أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ، مستقيمين على دين إبراهيم ، دين الحنيفية السمحة ، الذي جاء به خاتم المرسلين ﴿ وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ﴾ أي وأمروا بأن يؤدوا الصلاة على الوجه الأكمل ، في أوقاتها بشروطها وخشوعها وآدابها ، ويعطوا الزكاة لمستحقيها عن طيب نفس قال الصاوي : وخصّ الصلاة والزكاة لشرفهما (١) ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ أي وذلك المذكور من العبادة والإخلاص ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، هو دين الملة المستقيمة - دين الإسلام - فلماذا لا يدخلون فيه ؟ ثم ذكر تعالى مال كل من الأبرار والأشرار ، في دار الجزاء والقرار فقال ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدون فيها ﴾ أي إن الذين كذبوا بالقرآن وبنبوّة محمد عليه السلام ، من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان ، هؤلاء جميعهم يوم القيامة في نار جهنم ، ماكين فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون ﴿ أولئك هم شرّ البرية ﴾ أي أولئك هم شر الخلق على الإطلاق قال الامام الفخر : فإن قيل : لم ذكر ﴿ كفروا ﴾ بلفظ الفعل ، ﴿ والمشركين ﴾ باسم الفاعل ؟ فالجواب تنبيهاً على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر ، لأنهم كانوا مصدقين بالتوراة والإنجيل ، ومقرين بمبعث محمد ﷺ ثم إنهم كفروا بذلك بعد مبعثه عليه السلام ، بخلاف المشركين فإنهم ولدوا على عبادة الأوثان ، وإنكار الحشر والقيامة ، وقوله ﴿ أولئك هم شرّ البرية ﴾ لإفادة الحصر أي شر من السراق لأنهم سرقوا من كتاب الله صفة محمد ﷺ وشرّ من قطاع الطريق ، لأنهم قطعوا طريق الحق على الخلق (٢) ، ولما ذكر مقرّ الأشقياء ، ذكر بعده مقرّ السعداء فقال ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي إن المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان وصلاح الأعمال ﴿ أولئك هم خير البرية ﴾ أي هم خير الخليقة التي خلقها الله وبرأها ﴿ جزاؤهم عند ربهم ﴾ أي ثوابهم في الآخرة على ما قدموا من الإيمان والأعمال الصالحة ﴿ جنات عدن تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي جنات إقامة تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿ خالدون فيها أبداً ﴾ أي ماكين فيها أبداً ، لا يموتون ولا يخرجون منها ، وهم في نعيم دائم لا ينقطع ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ أي رضي الله عنهم بما قدموا في الدنيا من الطاعات وفعل الصالحات ، ورضوا عنه بما أعطاهم من

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٣٤٣ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٣١/ ٤٩ .

ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

الخيرات والكرامات ﴿ذلك لمن خشي ربه﴾ أي ذلك الجزاء والثواب الحسن لمن خاف الله واتقاه ، وانتهى عن معصية مولاه .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ - الإجمال ثم التفصيل ﴿حتى تأتيهم البينة﴾ ثم فصلها بقوله ﴿رسولاً من الله يتلو صحفاً مطهرة﴾ .

٢ - الطباق بين ﴿خير البرية﴾ و﴿شر البرية﴾ .

٣ - الاستعارة التصريحية ﴿يتلو صحفاً مطهرة﴾ لفظة مطهرة فيها استعارة حيث شبه تنزه الصحف عن الباطل بطهارتها عن الانجاس .

٤ - المقابلة بين نعيم الأبرار وعذاب الفجار ﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب . .﴾ الآية وبين ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ الآية .

٥ - توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿البينة ، القيمة ، خير البرية ، شر البرية﴾ ونحو ذلك .

تنبية : الإخلاص هولبُ العبادة وقد جاء في الحديث القدسي : (أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه) وقد قسم العلماء الأعمال الى ثلاثة أقسام : « مأمورات ، ومنهيات ومباحات » فأما المأمورات فالإخلاص فيها بأن يقصد بعمله وجه الله ، وإن كانت النية لغير وجه الله ، فالعمل رياء محض مردود ، وأما المنهيات فإن تركها بدون نية خرج عن عهدها ، ولم يكن له أجر في تركها ، وإن تركها ابتغاء وجه الله كان مأجوراً على تركها ، وأما المباحات كالأكل والنوم والجماع وشبه ذلك ، فإن فعلها بغير نية لم يكن بها أجر ، وإن فعلها بنية وجه الله فله فيها أجر ، فإن كل مباح يمكن أن يصير قرينة إذا قصد به وجه الله ، مثل أن يقصد بالأكل القوة على العبادة ، ويقصد بالجماع التعفُّف عن الحرام .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة البينة »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الزلزلة مدنية ، وهي في أسلوبها تشبه السور المكية ، لما فيها من أهوال وشدائد يوم القيامة ، وهي هنا تتحدث عن الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة ، حيث يندك كل صرحٍ شامخ ، وينهار كل جبل راسخ ، ويحصل من الأمور العجيبة الغريبة ما يندهش له الإنسان ، كإخراج الأرض ما فيها من موتى ، وإلقائها ما في بطنها من كنوز ثمينة من ذهبٍ وفضة ، وشهادتها على كل إنسان بما عمل على ظهرها تقول : عملت يوم كذا ، كذا وكذا ، وكل هذا من عجائب ذلك اليوم الرهيب ، كما تتحدث عن انصراف الخلائق من أرض المحشر إلى الجنة أو النار ، وانقسامهم إلى أصناف ما بين شقي وسعيد .

اللغة : ﴿زلزلت﴾ حركة تحريكاً عنيفاً ﴿أثقالها﴾ الموتى الذين في جوفها ، جمع ثقل وهو الشيء الثقيل ومنه ﴿وتحمل أثقالكم﴾ قال الأحفش : إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها ، وإن كان فوقها فهو ثقل عليها^(١) ﴿يصدر﴾ ينصرف ويخرج ، والصدور ضد الورود ، فالوارد الآتي ، والصادر المنصرف ﴿أشتاتاً﴾ متفرقين جمع شت يقال : ذهبوا أشتاتاً أي متفرقين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾

التفسير : ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ أي إذا حركت الأرض تحريكاً عنيفاً ، واضطربت اضطراباً شديداً ، واهتزت بمن عليها اهتزازاً يقطع القلوب ويُفزع الألباب كقوله تعالى ﴿اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ قال المفسرون : إنما أضاف الزلزلة إليها ﴿زلزالها﴾ تهويلاً كأنه يقول : الزلزلة التي تليق بها على عظم جرمها ، وذلك عند قيام الساعة تتزلزل وتتحرك تحريكاً متتابعاً ، وتضطرب

وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَآءَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَسْتَاتًا لِّيرَوُاْ أَعْمَلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

بمن عليها ، ولا تسكن حتى تلقي ما على ظهرها من جبل وشجر وبناءٍ وقلاع^(١) ﴿٢﴾ وأخرجت الأرض أثقالها ﴿٣﴾ أي وأخرجت الأرض ما في بطنها من الكنوز والموتى قال ابن عباس : أخرجت موتها وقال منذر ابن سعيد : أخرجت كنوزها وموتها^(٢) وفي الحديث (تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت ، ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق فيقول في هذا قطعت يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً)^(٣) ﴿٤﴾ وقال الإنسان ما لها ﴿٥﴾ ؟ أي وقال الإنسان : ما للأرض تزلزلت هذه الزلزلة العظيمة ، ولفظت ما في بطنها ؟ ! يقول ذلك دهشة وتعجباً من تلك الحالة الفظيعة ﴿يومئذٍ تحدث أخبارها﴾ أي في ذلك اليوم العصيب - يوم القيامة - تحدث الأرض وتخبر بما عمل عليها من خير أو شر ، وتشهد على كل إنسان بما صنع على ظهرها ، عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿يومئذٍ تحدث أخبارها﴾ فقال : (أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ أو أمَةٍ بما عمل على ظهرها ، تقول : عمل يوم كذا ، كذا وكذا ، فهذه أخبارها)^(٤) وفي الحديث (تحفظوا من الأرض فإنها أمكم ، وإنه ليس من أحدٍ عاملٍ عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة به)^(٥) ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ أي ذلك الإخبار بسبب أن الله جلت عظمته أمرها بذلك ، وأذن لها أن تنطق بكل ما حدث وكبرى عليها ، فهي تشكو العاصي وتشهد عليه ، وتشكر المطيع وتثني عليه ، والله على كل شيء قدير ﴿يومئذٍ يصدر الناسُ أسأتاتاً﴾ أي في ذلك اليوم يرجع الخلائق من موقف الحساب ، وينصرفون متفرقين فرقاً فرقاً ، فأخذ ذات اليمين إلى الجنة ، وأخذ ذات الشمال إلى النار ﴿ليروا أعمالهم﴾ أي لينالوا جزاء أعمالهم من خير أو شر ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ أي فمن يفعل من الخير زنة ذرة من التراب ، يجده في صحيفته يوم القيامة ويلق جزاءه عليه قال الكلبي : الذرة أصغر النمل وقال ابن عباس : إذا وضعت راحتك على الأرض ثم رفعتها ، فكل واحد مما لصق به من التراب ذرة^(٦) ﴿ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ أي ومن يفعل من الشر زنة ذرة من التراب ، يجده كذلك ويلق جزاءه عليه قال القرطبي : وهذا مثل ضربه الله تعالى في أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة ، وهو مثل قوله تعالى ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾^(٧) .

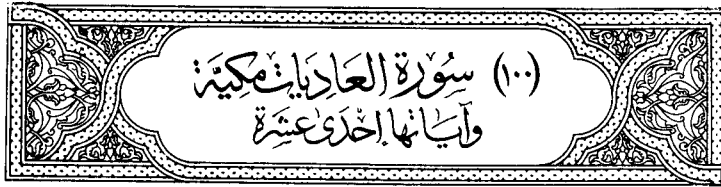
البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ - الإضافة للتهويل والتفطيع ﴿زلزالها﴾ .

(١) انظر التسهيل ٢١٣/٤ والخازن ٢٨٠/٤ . (٢) تفسير الألوسي ٢٠٩/٣٠ . (٣) أخرجه مسلم في صحيحه . (٤) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح . (٥) أخرجه الطبراني في معجمه . (٦) التفسير الكبير ٦١/٣١ . (٧) تفسير القرطبي ١٥٠/٢٠ .

- ٢ - الإظهار في مقام الإضمار ﴿وأخرجت الأرض﴾ لزيادة التقرير والتوكيد .
- ٣ - الاستفهام للتعجب والاستغراب ﴿وقال الإنسان ما لها﴾ ؟
- ٤ - جناس الاشتقاق ﴿زلزلت . . زلزالها﴾ .
- ٥ - المقابلة بين ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً . .﴾ و ﴿ومن يعمل مثقال ذرة شراً . .﴾ .
- ٦ - السجع المرصع كأنه الذهب السبيك أو الدر والياقوت مثل ﴿زلزالها ، أثقالها ، أوحى لها ، أخبرها ، ما لها﴾ وهو من المحسنات البديعية .
- فكائِدَة : سمى رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿فمن يعمل مثقال ذرة . .﴾ الجامعة الفائزة حين سئل عن زكاة الحُمُر فقال : ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفائزة الجامعة ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ أخرجه البخاري .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الزلزلة »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة العاديات مكية ، وهي تتحدث عن خيل المجاهدين في سبيل الله ، حين تغير على الأعداء ، فيسمع لها عند عدوها بسرعة صوت شديد ، وتقذح بحوافرها الحجارة فيتطاير منها النار ، وتثير التراب والغبار ، وقد بدأت السورة بالقسم بخيل الغزاة - إظهاراً لشرفها وفضلها عند الله - على أن الإنسان كفور لنعمة الله تعالى عليه ، جحوداً لآلائه وفيوض نعمائه ، وهو معلى لهذا الكفران والجحود بلسان حاله ومقاله ، كما تحدثت عن طبيعة الإنسان وحبه الشديد للمال ، وختمت السورة الكريمة ببيان أن مرجع الخلائق إلى الله للحساب والجزاء ، ولا ينفع في الآخرة مال ولا جاه ، وإنما ينفع العمل الصالح .

اللفظة: ﴿صُبْحاً﴾ الضبْح: صوت أنفاس الخيل إذا عدت قال عنترة: والخيل تُكدح حين تضبَح في حياض الموت صبْحاً^(١) ﴿أثرن﴾ هيجن ﴿نقعا﴾ النقع: الغبار ﴿كنود﴾ كفور جحود لنعمة الله من كند النعمة إذا كفرها ولم يشكرها قال الشاعر:

كنوداً لنعماء الرجال ومن يكن
كنوداً لنعماء الرجال يبعث^(٢)
﴿بعثر﴾ أثير وقلب من بعثرت المتاع إذا جعلت أسفله أعلاه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَدِيَّتِ صُبْحاً^(١) فَالْمُورِيَّتِ قَدْحاً^(٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً^(٣) فَأَثْرَنَ بِهِ نَقْعاً^(٤) فَوَسَطْنَ
بِهِ جَمْعاً^(٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ^(٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ^(٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ^(٨)
* أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ^(٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ^(١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ^(١١)

النفسير: ﴿والعاديات صبْحاً﴾ أي أقسم بخيل المجاهدين المسرعات في الكرّ على العدو، يُسمع لأنفاسها صوت جهير هو الضبْحُ قال ابن عباس: الخيل إذا عدت قالت: أْح، أْح فذلك صبْحها قال أبو السعود: أقسم سبحانه بخيل الغزاة التي تعدو نحو العدو وتضبَح صبْحاً وهو صوت أنفاسها عند عدوها^(٣) ﴿فالْمُورِيَّاتِ قَدْحاً﴾ أي فالخيل التي تخرج شرر النار من الأرض بوقع حوافرها على الحجارة من شدة الجري ﴿فالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً﴾ أي فالخيل التي تغير على العدو وقت الصباح قبل طلوع الشمس قال الألوسي: هذا هو المعتاد في الغارات، كانوا يعدون ليلاً لثلاث يشعرون بهم العدو، ويهجمون صباحاً ليروا ما يأتون وما يذرون^(٤) ﴿فأثرن به نقعاً﴾ أي فأثارت الخيل الغبار الكثيف لشدة العدو، في الموضع الذي أغرن به ﴿فوسطن به جمعاً﴾ أي فتوسطن به جموع الأعداء، وأصبحن وسط المعركة. . أقسم سبحانه وتعالى بأقسام ثلاثة على أمور ثلاثة، تعظيماً للمقسم به وهو خيل المجاهدين في سبيل الله، التي تسرع على أعداء الله، وتقذح النار بحوافرها، وتُغير على الأعداء وقت الصباح، فتثير الغبار، وتتوسط العدو فتصيبه بالرعب والفرع، أما الأمور التي أقسم عليها فهي قوله ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أي إن الإنسان لجاحد لنعم ربه، شديد الكفران قال ابن عباس: جاحدٌ لنعم الله وقال الحسن: يذكر المصائب وينسى النعم^(٥) ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ أي وإن الإنسان لشاهد على كنوده، لا يقدر أن يحجده لظهور أثره عليه ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ أي وإنه لشديد الحب للمال حريص على جمعه، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمه ضعيف متقاعس. . ثم بعد أن عدّد عليه قبائح أفعاله خوّفه فقال ﴿أفلا يعلم إذا بُعْثِرَ ما في القبور﴾ أي أفلا يعلم هذا الجاهل إذا أُثير ما في القبور وأُخرج ما فيها من

(١) الألوسي ٢١٥/٣٠ . (٢) القرطبي ١٦٠/٢٠ . (٣) أبو السعود ٢٨٠/٥ . (٤) روح المعاني ٢١٥/٣٠ . (٥) القرطبي ١٦٠/٢٠ .

الأموات ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي وجمع وأبرز ما في الصدور من الأسرار والخفايا التي كانوا يسرونها ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي إِنَّ رَبَّهُم لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ، ومجازيهم عليه أوفر الجزاء ، وإنما خص علمه بهم في ذلك اليوم - يوم القيامة - لأنه يوم الجزاء ، بقصد الوعيد والتهديد ، فهو تعالى عالم بهم في ذلك اليوم وغيره .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ - التأكيد بـانّ واللام في مواضع مثل ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ﴿وَإِنَّ لِحَبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ زيادة في التقرير والبيان .

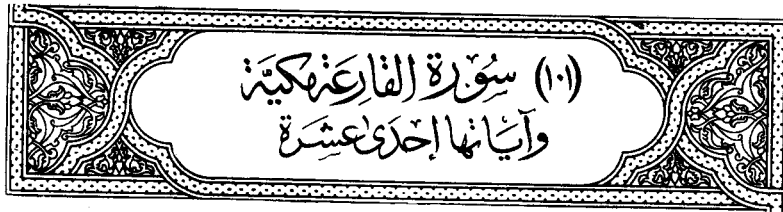
٢ - الجناس غير التام بين ﴿لشَهِيدٌ﴾ و ﴿لشَدِيدٌ﴾ وكذلك ﴿صَبِحًا﴾ و ﴿صَبِحًا﴾ .

٣ - الاستفهام الإنكاري للتهديد والوعيد ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ ؟

٤ - التضمين ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ ضمّن لفظ ﴿خَبِيرٌ﴾ معنى المجازاة أي يجازيهم على أعمالهم .

٥ - توافق الفواصل مثل ﴿شَهِيدٌ ، شَدِيدٌ﴾ و ﴿الصدور ، القبور﴾ الخ . ويسمى « السجع المرصّع » وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة العاديات »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة القارعة مكية ، وهي تتحدث عن القيامة وأهوالها ، والآخرة وشدائدها ، وما يكون فيها من أحداث وأهوال عظام ، كخروج الناس من القبور ، وانتشارهم في ذلك اليوم الرهيب كالفراسح المتطاير ، المنتشر هنا وهناك ، يحيئون ويذهبون على غير نظام من شدة حيرتهم وفزعهم .

* كما تحدثت عن نسف الجبال وتطايها حتى تصبح كالصوف المنبث المتطير في الهواء ، بعد أن كانت صلبة راسخة فوق الأرض ، وقد قرنت بين الناس والجبال تنبيهاً على تأثير تلك القارعة في الجبال حتى صارت كالصوف المندوف ، فكيف يكون حال البشر في ذلك اليوم العصيب ؟

* وختمت السورة الكريمة بذكر الموازين التي توزن بها أعمال الناس ، وانقسام الخلق إلى سعداء وأشقياء حسب ثقل الموازين وخفتها ، وسميت السورة الكريمة بالقارعة لأنها تفرع القلوب والأسماع بهولها .

اللغز: ﴿القارعة﴾ اسم من أسماء القيامة ، سميت بها لأنها تفرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها ، وأصل الفرع الضرب بشدة وقوة ، تقول العرب : قرعتهم القارعة وفقرتهم الفارقة ، إذا وقع بهم أمر فظيع ﴿المبثوث﴾ المنتشر المتفرق ﴿العهن﴾ الصوف ذو الألوان أو المصبوغ ﴿الهاوية﴾ اسم لجهنم سميت بذلك لأن الناس يهونون بها أي يسقطون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾

التفسير: ﴿القارعة ما القارعة﴾ أي القيامة وأي شيء هي القيامة ؟ إنها في الفظاعة والفخامة بحيث لا يدركها خيال ، ولا يبلغها وهم إنسان فهي أعظم من أن توصف أو تصور ، ثم زاد في التفخيم والتهويل لشأنها فقال ﴿وما أدراك ما القارعة﴾ ؟ أي أي شيء أعلمك ما شأن القارعة في هولها على النفوس ؟ إنها لا تفرع القلوب فحسب ، بل تؤثر في الاجرام العظيمة ، فتؤثر في السموات بالانشقاق ، وفي الأرض بالزلزلة ، وفي الجبال بالدك والنسف ، وفي الكواكب بالانتثار ، وفي الشمس والقمر بالتكوير والانكدار إلى غير ما هنالك قال أبو السعود : سميت القيامة قارعة لأنها تفرع القلوب والأسماع بفنون الأهوال والأفزاع ، ووضع الظاهر موضع الضمير ﴿ما القارعة﴾ تأكيداً للتهويل ، والمعنى أي شيء عجيب هي في الفخامة والفظاعة ، ثم أكد هولها وفظاعتها بقوله ﴿وما أدراك ما القارعة﴾ ؟ بيان خروجها عن دائرة علوم الخلق ، بحيث لا تكاد تنالها دراية أحد^(١) . . . وبعد هذا التخويف والتشويق إلى معرفة شيء من أهوالها ، جاء التوضيح والبيان بقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أي ذلك يحدث عندما يخرج الناس من قبورهم فزعين ، كأنهم فراش متفرق منتشر هنا وهناك ، يموج بعضهم في بعض من شدة الفرع والحيرة قال الرازي : شبه تعالى الخلق وقت البعث ههنا بالفراش المبثوث ، وفي آية أخرى بالجراد المنتشر ، أما وجه التشبيه بالفراش ، فلأن الفراش إذا ثار لم

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا
مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾

يتجه إلى جهة واحدة ، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى ، فدلَّ على أنهم إذا بُعثوا فزعوا ،
وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة ، يصبحون كغوغاء الجراد يركب بعضه بعضاً ، فكذلك الناس إذا
بُعثوا يموج بعضهم في بعض كالجراد والفراش كقوله تعالى ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾^(١)
﴿وتكونُ الجبال كالعهن المنفوش﴾ هذا هو الوصف الثاني من صفات ذلك اليوم المهول أي وتصير
الجبال كالصوف المنتثر المتطاير ، تتفرق أجزاءها وتتطاير في الجو ، حتى تكون كالصوف المتطاير عند
الندف قال الصاوي : وإنما جمع بين حال الناس وحال الجبال ، تنبيهاً على أن تلك القارعة أثرت في الجبال
العظيمة الصلبة ، حتى تصير كالصوف المندوف مع كونها غير مكلفة ، فكيف حال الإنسان الضعيف
المقصود بالتكليف والحساب^(٢) ! ثم ذكر تعالى حالة الناس في ذلك اليوم ، وانقسامهم إلى شقي وسعيد
فقال ﴿فأما من ثقلت موازينه﴾ أي رجحت موازين حسناته ، وزادت حسناته على سيئاته ﴿فهو
في عيشة راضية﴾ أي فهو في عيش هنيء رغيد سعيد ، في جنان الخلد والنعيم ﴿وأما من خفت
موازينه﴾ أي نقصت حسناته عن سيئاته ، أولم يكن له حسنات يُعتدُّ بها ﴿فأمه هاوية﴾ أي فمسكنه
ومصيره نار جهنم يهوي في قعرها ، سبأها أمماً لأن الأم مأوى الولد ومفرغه ، فنار جهنم تؤوي هؤلاء
المجرمين ، كما يأوي الأولاد إلى أمهم ، وتضمهم إليها كما تضم الأم الأولاد إليها قال أبو السعود :
﴿هاوية﴾ اسم من أسماء النار ، سميت بها لغاية عمقها وبعد مهواها ، روي أن أهل النار يهون فيها
سبعين خريفاً^(٣) ﴿وما أدراك ماهيه﴾ ؟ استفهام للتخيم والتهويل أي وما أعلمك ما الهاوية ؟ ثم
فسرها بقوله ﴿نارٌ حامية﴾ أي هي نار شديدة الحرارة ، قد خرجت عن الحد المعهود ، فإن حرارة أي نارٍ
إذا سُمرت وأُلقي فيها أعظم الوقود لا تعادل حرارة جهنم ، أجارنا الله منها بفضلته وكرمه .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ - الاستفهام للتخيم والتهويل ﴿وما أدراك ما القارعة﴾ ؟ ﴿وما أدراك ماهيه﴾ ؟

٢ - وضع الظاهر مكان الضمير للتخويف والتهويل ﴿القارعة * ما القارعة﴾ ؟ والأصل أن يقال :
القارعة ما هي ؟

٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿يكون الناس كالفراش المبثوث﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه
الشبه أي في الكثرة والانتشار ، والضعف والذلة ، ومثله ﴿كالعهن المنفوش﴾ أي في تطايرها وخفة سيرها
فيسمى مرسلًا مجملًا .

(١) التفسير الكبير ٧٢/٣١ . (٢) حاشية الصاوي ٤/٣٤٧ . (٣) تفسير أبي السعود ٥/٢٨٢ ، ونقل عن قتادة أن المراد بقوله ﴿فأمه هاوية﴾ أي فأم رأسه هاوية في قعر جهنم لأنه يطرح فيها منكوساً ، والأول أظهر .

٤ - المقابلة ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية﴾ ثم قابلها بقوله ﴿وأما من خفت موازينه فأمه هاوية﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٥ - المجاز العقلي ﴿فهو في عيشة راضية﴾ أي راضٍ بها صاحبها ففيه اسناد مجازي .

٦ - الاحتباك وهو أن يحذف من كل نظير ما أثبتته في الآخر فقوله تعالى ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية * وأما من خفت موازينه فأمه هاوية﴾ حذف من الأول ﴿فأمه الجنة﴾ وذكر فيها ﴿عيشة راضية﴾ وحذف من الآية الثانية ﴿فهو في عيشة ساخطة﴾ وذكر ﴿فأمه هاوية﴾ فحذف من كل نظير ما أثبتته في الآخر ، وهو من المحسنات البديعية كذلك .

٧ - توافق الفواصل في الحرف الأخير ، وهو واضح في السورة الكريمة .

تنبية : الجمهور على أن الميزان حقيقي له كفتان ولسان ، توزن فيه الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات ، وروي عن ابن عباس أنه يؤتى بالأعمال الصالحة على صور حسنة ، وبالأعمال السيئة على صور قبيحة ، فتوضع في الميزان ، فمن رجحت حسناته سعد ، ومن رجحت سيئاته شقي ، والله أعلم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة القارعة »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة التكاثر مكية ، وهي تتحدث عن انشغال الناس بمغريات الحياة ، وتكالبهم على جمع حطام الدنيا ، حتى يقطع الموت عليهم متعتهم ، ويأتيهم فجأة وبغته ، فينقلهم من القصور إلى القبور .

الموتُ يأتي بغتةً والقبرُ صندوقُ العملِ

* وقد تكرر في هذه السورة الزجر والإنذار تخويفاً للناس ، وتنبهاً لهم على خطئهم ، باشتغالهم بالفانية عن الباقية ﴿كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون﴾ .

* وختمت السورة الكريمة ببيان المخاطر والأهوال التي سيلقونها في الآخرة ، والتي لا يجوزها ولا ينجو منها إلا المؤمن الذي قدّم صالح الأعمال .

اللفظ: ﴿أهالك﴾ الإلهاء : الشغل والانصراف عن الشيء الهام إلى ما يدعو إليه الهوى ، وأصل اللهو الغفلة ثم شاع في كل شاغلٍ قال الراغب : اللهو ما يشغلك عما يعني ويممُّ ﴿التكاثر﴾ التباهي بكثرة المال والجاه وهو بمعنى المكاثرة ﴿المقابر﴾ القبور جمع مقبرة ، والقبور جمع القبر قال الشاعر :

أرى أهل القُصور إذا أميتوا بنوا فوق المقابر بالصخور
أبو إلا مباحةً وفخرًا على الفقراء حتى في القبور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَكَ التَّكَاثُرُ ۚ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ
عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٣﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٤﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ ثُمَّ لَتَسْعُنَّ يَوْمَئِذٍ النَّعِيمَ ﴿٦﴾

التفسير: ﴿أهالك التكاثر﴾ أي شغلكم أيها الناسُ التفاخر بالأموال والأولاد والرجال عن طاعة الله ، وعن الاستعداد للآخرة ﴿حتى زرتم المقابر﴾ أي حتى أدرككم الموت ، ودفنتم في المقابر ، والجملة خبرٌ يراد به الوعظ والتوبيخ قال القرطبي : المعنى شغلكم المباحة بكثرة المال والأولاد عن طاعة الله ، حتى مُتُّم ودفنتم في المقابر ﴿١﴾ ﴿كلأ سوف تعلمون﴾ زجرٌ وتهديدٌ أي ارتدعوا أيها الناس وانزجروا عن الاشتغال بما لا ينفع ولا يفيد ، فسوف تعلمون عاقبة جهلكم وتفريطكم في جنب الله ، وانشغالكم بالفاني عن الباقي ﴿ثم كلأ سوف تعلمون﴾ وعيدٌ إثر وعيد ، زيادة في الزجر والتهديد أي سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت وعابنتم أهواله وشدائده قال ابن عباس : ﴿كلأ سوف تعلمون﴾ ما ينزل بكم من العذاب في القبر ﴿ثم كلأ سوف تعلمون﴾ أي في الآخرة إذا حلَّ بكم العذاب ﴿٢﴾ ﴿كلأ لو تعلمون علم اليقين﴾ أي ارتدعوا وانزجروا فلو علمتم العلم الحقيقي الذي لا شك فيه ولا امتراء ، وجواب ﴿لو﴾ محذوفٌ لقصد التهويل أي لو عرفتم ذلك لما أهالكم التكاثر بالدنيا عن طاعة الله ، ولما خُدعتم بنعيم الدنيا عن أهوال الآخرة وشدائدها كما قال ﷺ : (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً) ﴿٣﴾ الحديث قال في التسهيل : وجواب ﴿لو﴾ محذوفٌ تقديره : لو تعلمون لزدجرتم واستعددتم للآخرة ، وإنما حذف لقصد التهويل ، فيقدر السامع أعظم ما

(١) القرطبي ١٦٨/٢٠ وقال ابن كثير : يقول تعالى : شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها ، عن طلب الآخرة وابتغائها ، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت ، وزرتم المقابر وصرتم من أهلها . (٢) القرطبي ١٧٢/٢٠ . (٣) جزء من حديث رواه البخاري .

يخطر بباله^(١) كقوله تعالى ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ ﴿لترونَّ الجحيم﴾ أي أقسم وأؤكد بأنكم ستشهدون الجحيم عياناً ويقيناً قال الألوسي : هذا جواب قسم مضمّر ، أكد به الوعيد ، وشدد به التهديد ، وأوضح به ما أذروه بعد إبهامه تفخياً^(٢) أي والله لترون الجحيم ﴿ثم لترونَّها عين اليقين﴾ أي ثم لترونها رؤية حقيقية بالمشاهدة العينية قال في البحر : زاد التوكيد بقوله ﴿عين اليقين﴾ نفياً لتوهم المجاز في الرؤية الأولى^(٣) ﴿ثم لتسألنَّ يومئذٍ عن النعيم﴾ أي ثم لتسألنَّ في الآخرة عن نعيم الدنيا من الأمن والصحة ، وسائر ما يُتْلذذ به من مطعم ، ومشرب ، ومركب ، ومفرش .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

- ١ - الوعظ والتوبيخ ﴿أهاكم التكاثر﴾ فقد خرج الخبر عن حقيقته إلى التذكير والتوبيخ .
- ٢ - التكرار للتهديد والإنذار ﴿كلا سوف تعلمون﴾ ثم كلا سوف تعلمون ﴿وعطفه بـ﴾ ﴿ثم﴾ للتنبية على أن الثاني أبلغ من الأول ، كما يقول العظيم لعبده : أقول لك ثم أقول لك لا تفعل ، ولكونه أبلغ نُزِّل منزلة المغايرة فعطف بـ ثم .
- ٣ - حذف جواب ﴿لو﴾ للتحويل ﴿لو تعلمون علم اليقين﴾ أي لرأيتم ما تشيب له الرءوس ، وتفرغ له النفوس من الشدائد والأهوال .
- ٤ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿لترون﴾ ﴿ثم لترونها﴾ لبيان شدة الهول .
- ٥ - الكناية ﴿حتى زرتم المقابر﴾ كنى عن الموت بزيارة القبور والمراد حتى مُتُّم .
- ٦ - المطابقة بين ﴿النعيم﴾ .. و﴿الجحيم﴾ .
- ٧ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات وهو من المحسنات البديعية .

تنبية : روى الترمذي عن عبد الله بن الشخير قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ﴿أهاكم التكاثر﴾ فقال : «يقول ابن آدم مالي ، مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟»

لطيفة : روى مسلم عن أبي هريرة قال : (خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبي بكر وعمر ، فقال ﷺ : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قالوا : الجوع يا رسول الله ، قال : وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما ! فقوموا فقاموا معه ، فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هوليس في بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحباً وأهلاً ، فقال لها رسول الله ﷺ : أين فلان ! قالت : ذهب يستعذب لنا الماء ، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله وصاحبه ثم قال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرم

أضياً فأمني ، فانطلق فجاءهم بعدق - عنقود - فيه بسر وتمر ورطب فقال : كلوا ، وأخذ المديّة - السكين - فقال له رسول الله ﷺ : إياك والحلوب ! فذبح لهم شاة فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا ، فلما شبعا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر : والذي نفسي بيده لتسألنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم) .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة التكاثر »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة العصر مكية ، وقد جاءت في غاية الإيجاز والبيان ، لتوضيح سبب سعادة الإنسان أو شقاوته ، ونجاحه في هذه الحياة أو خسارته ودماره .

* أقسم تعالى بالعصر وهو الزمان الذي ينتهي فيه عمر الإنسان ، وما فيه من أصناف العجائب ، والعيبر الدالة على قدرة الله وحكمته ، على أن جنس الإنسان في خسارة ونقصان ، إلا من اتصف بالأوصاف الأربعة وهي ﴿الإيمان﴾ و ﴿العمل الصالح﴾ و ﴿التواصي بالحق﴾ و ﴿الاعتصام بالصبر﴾ وهي أسس الفضيلة ، وأساس الدين ، ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله : لو لم ينزل الله سوى هذه السورة لكفت الناس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكْفُورٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

التفسير : ﴿والعصر﴾ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿١﴾ أي أقسم بالدهر والزمان لما فيه من أصناف

الغرائب والعجائب ، والعبر والعظات ، على أن الإنسان في خسران ، لأنه يفضل العاجلة على الآجلة ، وتغلب عليه الأهواء والشهوات قال ابن عباس : العصر هو الدهر أقسم تعالى به لاشتماله على أصناف العجائب وقال قتادة : العصر هو آخر ساعات النهار ، أقسم به كما أقسم بالضحى لما فيها من دلائل القدرة الباهرة ، والعظة البالغة^(١) . . وإنما أقسم تعالى بالزمان لأنه رأس عمر الإنسان ، فكل لحظة تمضي فإنها من عمرك ونقص من أجلك ، كما قال القائل :

إنا لنفرحُ بالأيام نقطعها وكلُّ يومٍ مضى نقصُ من الأجل
قال القرطبي : أقسم الله عز وجل بالعصر - وهو الدهر - لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها ، وما فيها من الدلالة على الصانع ، وقيل : هو قسمٌ بصلاة العصر لأنها أفضل الصلوات^(٢) ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ، فهؤلاء هم الفائزون لأنهم باعوا الخسيس بالنفيس ، واستبدلوا الباقيات الصالحات عوضاً عن الشهوات العاجلات ﴿وتواصوا بالحق﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً بالحق ، وهو الخير كله، من الإيمان ، والتصديق ، وعبادة الرحمن ﴿وتواصوا بالصبر﴾ أي وتواصوا بالصبر على الشدائد والمصائب ، وعلى فعل الطاعات ، وترك المحرمات . . حكم تعالى بالخسار على جميع الناس إلا من أتى بهذه الأشياء الأربعة وهي : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، فإن نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا كمل الإنسان نفسه بالإيمان والعمل الصالح ، وكمل غيره بالنصح والإرشاد ، فيكون قد جمع بين حق الله ، وحق العباد ، وهذا هو السرُّ في تخصيص هذه الأمور الأربعة .

البالغة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

- ١ - إطلاق البعض وإرادة الكل ﴿إن الإنسان﴾ أي الناس بدليل الاستثناء .
- ٢ - التنكير للتعظيم ﴿لفي خسر﴾ أي في خسر عظيم ودمار شديد .
- ٣ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ لإبراز كمال العناية به .
- ٤ - ذكر الخاص بعد العام ﴿وتواصوا بالصبر﴾ بعد قوله ﴿بالحق﴾ فإن الصبر داخل في عموم الحق ، إلا أنه أفرد بالذكر إشادة بفضيلة الصبر .
- ٥ - السجع غير المتكلف مثل ﴿العصر ، الصبر ، خسر﴾ وهو من المحسنات البديعية .

تنبية : أخرج البيهقي في الشعب عن «أبي حذيفة» - وكانت له صحبة - قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة ﴿والعصر﴾ ثم يسلم أحدهما على الآخر .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة العصر »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة الهزرة مكية ، وقد تحدثت عن الذين يعيبون الناس ، ويأكلون أعراضهم ، بالطعن والانتقاص والازدراء ، وبالسخرية والاستهزاء فعل السفهاء .

* كما ذمت الذين يشتغلون بجمع الأموال ، وتكديس الثروات ، كأنهم مخلصون في هذه الحياة ، يظنون - لفرط جهلهم وكثرة غفلتهم - أن المال سيخلصهم في الدنيا .

* وختمت بذكر عاقبة هؤلاء التعساء الأشقياء ، حيث يدخلون ناراً لا تخمد أبداً ، تحطم المجرمين ومن يلقي فيها من البشر ، لأنها الحطمة نار سقر !!

اللغز : ﴿هُمَزَةٌ﴾ الهماز : الذي يغتاب الناس ويطعن في أعراضهم ، وبناء « فُعلة » يدل على الاعتياد فلا يقال : لُعنة وضُحكة إلا للمكثر المعتاد ﴿لُمَزَةٌ﴾ اللماز : الذي يعيب الناس وينال منهم بالحجاب والعين ﴿الحطمة﴾ نار جهنم سميت بذلك لأنها تكسر كل ما يلقى فيها وتحطمه وتهشمه ﴿مؤصدة﴾ مطبقة مغلقة من أوصد الباب إذا أغلقه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ بِحَسْبِ أَنْ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطْمَةِ ﴿٤﴾
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾
فِي عَمَدٍ مُّدَدَةٍ ﴿٩﴾

التفسير : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ أي عذاب شديد وهلاك ودمار ، لكل من يعيب الناس ويغتابهم ويطعن في أعراضهم ، أو يلزمهم سراً بعينه أو حاجبه قال المفسرون : نزلت السورة في

« الأخنس بن شريق » لأنه كان كثير الوقعة في الناس ، يلزمهم ويعيبيهم مقبلين ومدبرين ، والحكم عام لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب^(١) ، ﴿الذي جمع مالا وعدده﴾ أي الذي جمع مالا كثيرا وأحصاه ، وحافظ على عدده لئلا ينقص فمنعه من الخيرات قال الطبري : أي أحصى عدده ولم ينفقه في سبيل الله ولم يؤد حق الله فيه ولكنه جمعه فأوعاه وحفظه^(٢) ﴿يُحْسَبُ أَنْ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي يظن هذا الجاهل لفرط غفلته أن ماله سيتركه مخلداً في الدنيا لا يموت ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ أي ليرتدع عن هذا الظن فوالله ليطرحن في النار التي تحطم كل ما يلقي فيها وتلتهمه ﴿وما أدراك ما الحطمة﴾ تفخيم وتهويل لشأنها أي وما الذي أعلمك ما حقيقة هذه النار العظيمة ؟ إنها الحطمة التي تحطم العظام وتاكل اللحوم ، حتى تهجم على القلوب ، ثم فسرها بقوله ﴿نار الله الموقدة﴾ أي هي نار الله المسعرة بأمره تعالى وإرادته ، ليست كسائر النيران فإنها لا تخمد أبداً ، وفي الحديث (أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة)^(٣) ﴿التي تطلع على الأفئدة﴾ أي التي يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب فتحرقها قال القرطبي : وخص الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه ، فإنهم في حال من يموت وهم لا يموتون كما قال تعالى ﴿لا يموت فيها ولا يحيا﴾ فهم إذا أحياء في معنى الأموات^(٤) ﴿إنها عليهم مؤصدة﴾ أي إن جهنم مطبقة مغلقة عليهم ، لا يدخل إليهم روح ولا ريحان ﴿في عمدٍ ممددة﴾ أي وهم موثوقون في سلاسل وأغلال ، تشدُّ بها أيديهم وأرجلهم ، بعد إطباق أبواب جهنم عليهم ، فقد يشسوا من الخروج بإطباق الأبواب عليهم ، وتمدد العمدة إيداناً بالخلود إلى غير نهاية . .

البالغة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

- ١ - صيغة المبالغة ﴿همزة ، ولمزة﴾ لأن بناء « فُعلة » يدل على أنها عادة مستمرة .
- ٢ - التنكير للتفخيم ﴿جمع مالا﴾ أي مالا كثيراً لا يكاد يحصى .
- ٣ - التفخيم والتهويل ﴿وما أدراك ما الحطمة﴾ ؟ تهويلاً لشأن جهنم .
- ٤ - الجناس غير التام بين ﴿همزة﴾ و ﴿لمزة﴾ ويسمى الجناس الناقص .
- ٥ - توافق الفواصل مثل ﴿عدده ، أخلده ، الموقدة ، ممددة﴾ ويسمى بالسجع .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الهمزة »

(١) انظر القرطبي ١٨٣/٢٠ . والرازي ٩١/٣١ . (٢) تفسير الطبري ١٨٩/٣٠ .

(٣) رواه الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً ، قال والأصح أنه موقوف . (٤) تفسير القرطبي ١٨٥/٢٠ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الفيل مكية ، وهي تتحدث عن قصة « أصحاب الفيل » حين قصدوا هدم الكعبة المشرفة ، فردَّ الله كيدهم في نحورهم ، وحى بيته من تسلطهم وطغيانهم ، وأرسل على جيش « أبرهة الاشرم » وجنوده أضعف مخلوقاته ، وهي الطير التي تحمل في أرجلها ومناقيرها حجارة صغيرة ، ولكنها أشدُّ فتكاً وتدميراً من الرصاصات القاتلة ، حتى أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم ، وكان ذلك الحدث التاريخي الهام ، في عام ميلاد سيد الكائنات محمد بن عبد الله ، سنة سبعين وخمسة مائة ميلادية ، وكان من أعظم الإرهاصات الدالة على صدق نبوته ﷺ .

اللفظ : ﴿أبَابِيل﴾ جماعات جماعات بعضها في إثر بعض قال الجوهري : وهو من الجمع الذي لا واحد له يقال : جاءت إليك أبابيل أي فرقاً وجماعات قال الشاعر :

كادت تهْدُ من الأصوات راحلتي إذ سالت الأرض بالجرذ الأبابيل^(١)
 ﴿سَجِيل﴾ طين متحجر ﴿عصف﴾ ورق الزرع بعد الحصاد كالتبن وقشر الحنطة ، سمي عصفاً لأن الريح تعصف به فتفرقه ذات اليمين وذات الشمال .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

التفسير : ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ أي ألم يبلغك يا محمد وتعلم علماً يقينياً كأنه مشاهد بالعين ، ماذا صنع الله العظيم الكبير بأصحاب الفيل الذين قصدوا الاعتداء على البيت

الحرام؟ قال المفسرون: روي أن «أبرهة الأشرم» ملك اليمن، بنى كنيسةً بصنعاء وأراد أن يصرف إليها الحجيج، فجاء رجلٌ من كنانة وتغوَّط فيها ليلاً ولطخ جدرانها بالنجاسة احتقاراً لها، فغضب «أبرهة» وحلف أن يهدم الكعبة، وجاء مكة بجيش كبير على أفيال، يتقدمهم فيل هو أعظم الفيلة، فلما وصل قريباً من مكة فرَّ أهلها إلى الجبال، خوفاً من جنده وجبروته، وأرسل الله تعالى على جيش أبرهة طيوراً سوداً، مع كل طائر ثلاثة أحجار، حجر في منقاره وحجران في رجليه، فرمتهم الطيور بالحجارة، فكان الحجر يدخل في رأس الرجل ويخرج من دبره فيرميه جثة هامدة، حتى أهلكهم الله ودمَّرهم عن آخرهم، وكانت قصتهم عبرة للمعتبرين^(١) قال أبو السعود: وتعليقُ الرؤية بكيفية فعله جل وعلا ﴿كيف فعل﴾ لا بنفسه بأن يقال: «ألم تر ما فعل ربك» الخ لتحويل الحادثة، والإيدان بوقوعها على كيفية هائلة، وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى، وكمال علمه وحكمته وشرف رسوله ﷺ فإن ذلك من الإرهاصات لما روي أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي عليه الصلاة والسلام^(٢) ﴿ألم يجعل كيدهم في تضليل﴾ أي ألم يهلكهم ويجعل مكرهم وسعيهم في تحريب الكعبة في ضياعٍ وخسارٍ؟! ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل﴾ أي وسلَّط عليهم من جنوده طيراً أتتهم جماعات، متتابعة بعضها في إثر بعض، وأحاطت بهم من كل ناحية ﴿ترميهم بحجارة من سجيل﴾ أي تقذفهم بحجارة صغيرة من طين متحجر، كأنها رصاصات ثاقبة لا تصل إلى أحدٍ إلا قتلته ﴿فجعلهم كعصفٍ مأكول﴾ أي فجعلهم كورق الشجر الذي عصفت به الريح، وأكلته الدواب ثم راثته، فأهلكهم عن بكره أبيهم، وهذه القصة تدل على كرامة الله للكعبة، وإنعامه على قريش بدفع العدو عنهم، فكان يجب عليهم أن يعبدوا الله ويشكروه على نعمائه، وفيها مع ذلك عجائب وغرائب من قدرة الله على الانتقام من أعدائه قال في البحر: كان صرف ذلك العدو العظيم عام مولده السعيد عليه السلام، إرهاباً بنبوته إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول، من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم السلام، وقد أهلكهم الله تعالى بأضعف جنوده وهي الطير التي ليست من عاداتها أنها تقتل^(٣).

البلاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

- ١ - الاستفهام للتقرير والتعجب ﴿ألم تر كيف فعل ربك . .﴾ الآية .
- ٢ - الخطاب للنبي ﷺ بإضافته إلى اسم الجلالة ﴿فعل ربك﴾ تشريف للنبي العظيم، وإشادةً بقدرة الله تعالى .

٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿فجعلهم كعصفٍ مأكول﴾ ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه .

٤ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿الفيل، تضليل، سجيل، أبابيل﴾ الخ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الفيل »

(١) انظر التفسير الكبير ٩٦/٣١ والقرطبي ١٨٧/٢٠ . (٢) أبو السعود ٥/٢٨٥ . (٣) البحر المحيط ٨/٥١٢ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* تحدثت هذه السورة عن نعم الله الجليلة على أهل مكة ، حيث كانت لهم رحلتان : رحلة في الشتاء إلى اليمن ، ورحلة في الصيف إلى الشام من أجل التجارة ، وقد أكرم الله تعالى قريشاً بنعمتين عظيمتين من نعمه الكثيرة هما : نعمة الأمن والاستقرار ، ونعمة الغنى واليسار ﴿فليعبدوا ربَّ هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع * وأمنهم من خوف﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيَّاهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي
أَطَعَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

التفسير : ﴿لا يلف قريش إيلافهم﴾ هذه اللام متعلقة بالفعل الذي بعدها ﴿فليعبدوا﴾ ومعنى ﴿الإيلاف﴾ الإلف والاعتياد يقال: ألفت الرجل الأمر إلفاً وإلفاً؛ وألفه غيره إيلافاً والمعنى: من أجل تسهيل الله على قريش وتيسيره لهم ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام كما قال تعالى ﴿رحلة الشتاء والصيف﴾ أي في رحلتي الشتاء والصيف ، حيث كانوا يسافرون للتجارة ، ويأتون بالأطعمة والثياب ، ويربحون في الذهاب والإياب ، وهم آمنون مطمئنون لا يتعرض لهم أحد بسوء ، لأن الناس كانوا يقولون : هؤلاء جيران بيت الله وسكان حرمه ، وهم أهل الله لأنهم ولاة الكعبة ، فلا تؤذوهم ولا تظلموهم ، ولما أهلك الله أصحاب الفيل ، وردَّ كيدهم في نحورهم ، ازداد وقع أهل مكة في القلوب ، وازداد تعظيم الأمراء والملوك لهم ، فازدادت تلك المنافع والتاجر ، فلذلك جاء الامتنان على قريش ، وتذكيرهم بنعم الله ليوحدوه ويشكروه ﴿فليعبدوا ربَّ هذا البيت﴾ أي فليعبدوا الله العظيم الجليل ، ربَّ هذا البيت العتيق ، وليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة الجليلة

التي خصَّهم بها قال المفسرون : وإنما دخلت الفاء ﴿فليعبدوا﴾ لما في الكلام من معنى الشرط كأنه قال : إن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه من أجل إيلافهم الرحلتين ، التي هي من أظهر نعمه عليهم ، لأنهم في بلادٍ لا زرع فيها ولا ضرع ، ولهذا قال بعده ﴿الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ أي هذا الإله الذي أطعمهم بعد شدة جوع ، وآمنهم بعد شدة خوف ، فقد كانوا يسافرون آمنين لا يتعرض لهم أحد ، ولا يُغير عليهم أحد لا في سفرهم ولا في حضرهم كما قال تعالى ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾ وذلك ببركة دعوة أبيهم الخليل إبراهيم عليه السلام حيث قال ﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ وقوله ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ أفلا يجب على قريش أن يفرّدوا بالعبادة هذا الإله الخليل ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ؟ !

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين ﴿الشتاء . . والصيف﴾ وبين الجوع والإطعام ﴿أطعمهم من جوع﴾ وبين الأمن والخوف ﴿وآمنهم من خوف﴾ .

٢ - الإضافة للتكريم والتشريف ﴿رب هذا البيت﴾ .

٣ - تقديم ما حقه التأخير ﴿لايلاف قريش﴾ والأصل ﴿ليعبدوا رب هذا البيت ، لايلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ فقدّم الايلاف تذكيراً بالنعمة .

٤ - التنكير في لفظة ﴿جوع﴾ ولفظة ﴿خوف﴾ لبيان شدتها أي جوع شديد ، وخوفٍ عظيم .

تبيّه : قال الإمام الفخر : أعلم أن الإنعام على قسمين : أحدهما دفع ضرر وهو ما ذكره في سورة الفيل ، والثاني : جلب النفع وهو ما ذكره في هذه السورة ، ولما دفع الله عنهم الضرر ، وجلب لهم النفع ، وهما نعمتان عظيمتان أمرهم بالعبودية وأداء الشكر ﴿فليعبدوا رب هذا البيت . . .﴾ الآيات .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة قريش »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

✽ هذه السورة مكية ، وقد تحدثت بإيجاز عن فريقين من البشر هما :

أ - الكافر الجاحد لنعم الله ، المكذب بيوم الحساب والجزاء .

ب - المنافق الذي لا يقصد بعمله وجه الله ، بل يرائي في أعماله وصلاته .

✽ أما الفريق الأول : فقد ذكر تعالى من صفاتهم الذميمة ، أنهم يهينون اليتيم ويزجرونه غلظةً لا تأديباً ، ولا يفعلون الخير ، حتى ولو بالتذكير بحق المسكين والفقير ، فلا هم أحسنوا في عبادة ربهم ، ولا أحسنوا إلى خلقه .

✽ وأما الفريق الثاني : فهم المنافقون ، الغافلون عن صلاتهم ، الذين لا يؤدونها في أوقاتها ، والذين يقومون بها « صورة » لا « معنى » المراءون بأعمالهم ، وقد توعدت الفريقين بالويل والهلاك ، وشنعت عليهم أعظم تشنيع ، بأسلوب الاستغراب والتعجب من ذلك الصنيع ! !

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۖ ۞
فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۖ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۖ وَيَمْنَعُونَ
الْمَاعُونَ ۖ ۞

اللغز : « يدع » يدفع بعنفٍ وشدة يقال : دعه دعاً أي دفعه دفعاً ومنه « يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً » « يحض » الحض : الحث والترغيب « ساهون » جمع ساهي يقال : سها عن كذا يسهوسهواً

إذا تركه عن غفلة ﴿الماعون﴾ الشيء القليل من المعن وهو القلة تقول العرب : « ماله معنة ولا سعة » أي ماله قليل ولا كثير من المال ، قال المبرد والزجاج : الماعون كل ما فيه منفعة كالفأس والقدر والدلو وغير ذلك .

التفسير : ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾ ؟ استفهام للتعجيب والتشويق أي هل عرفت الذي يكذب بالجزاء والحساب في الآخرة ؟ هل عرفت من هو ، وما هي أوصافه ؟ إن أردت تعرفه ﴿فذلك الذي يدعُ اليتيم﴾ أي فذلك هو الذي يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً بجفوة وغلظة ، ويقهره ويظلمه ولا يعطيه حقه ﴿ولا يحضُّ على طعام المسكين﴾ أي ولا يبحث على إطعام المسكين قال أبو حيان : وفي قوله ﴿ولا يحضُّ﴾ إشارة إلى أنه هو لا يُطعم إذا قدر ، وهذا من باب الأولى لأنه إذا لم يحضُّ غيره بخلاً ، فلأن يترك هو ذلك فعلاً أولى وأحرى^(١) وقال الرازي : فإن قيل : لم قال ﴿ولا يحضُّ على طعام المسكين﴾ ولم يقل : ولا يُطعم المسكين ؟ فالجواب أنه إذا منع اليتيم حقه ، فكيف يطعم المسكين من مال نفسه ؟ بل هو بخيل من مال غيره ، وهذا هو النهاية في الخسة ، ويدل على نهاية بخله ، وقساوة قلبه ، وخساسة طبعه^(٢) ، والحاصل أنه لا يُطعم المسكين ولا يأمر بإطعامه ، لأنه يكذب بالقيامة ، ولو آمن بالجزاء وأيقن بالحساب لما صدر عنه ذلك ﴿فويل للمصلين﴾ أي هلاك وعذاب للمصلين المنافقين ، المتصفين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ أي الذين هم غافلون عن صلاتهم ، يؤخرونها عن أوقاتها تهاوناً بها قال ابن عباس : هو المصلي الذي إن صلى لم يرج لها ثواباً ، وإن تركها لم يخش عليها عقاباً^(٣) وقال أبو العالية : لا يصلونها لمواقيتها ، ولا يتمون ركوعها ولا سجودها^(٤) ، وقد سئل رسول الله ﷺ عن الآية فقال : (هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها)^(٥) قال المفسرون : لما قال تعالى ﴿عن صلاتهم ساهون﴾ بلفظة ﴿عن﴾ علم أنها في المنافقين ، ولهذا قال بعض السلف : الحمد لله الذي قال ﴿عن صلاتهم﴾ ولم يقل « في صلاتهم » لأنه لو قال « في صلاتهم » لكانت في المؤمنين ، والمؤمن قد يسهو في صلاته ، والفرق بين السهوين واضح ، فإن سهو المنافق سهو ترك وقلّة التفات إليها ، فهو لا يتذكرها ويكون مشغولاً عنها ، والمؤمن إذا سها في صلاته تداركه في الحال وجبره بسجود السهو ، فظهر الفارق بين السهوين ، ثم زاد في بيان أوصافهم الذميمة فقال ﴿الذين هم يراءون﴾ أي يصلون أمام الناس رياءً ليقال إنهم صلحاء ، ويتخشعون ليقال إنهم أتقياء ، ويتصدقون ليقال إنهم كرماء ، وهكذا سائر أعمالهم للشهرة والرياء ﴿ويمنعون الماعون﴾ أي يمنعون الناس المنافع اليسيرة ، من كل ما يستعان به كالإبرة ، والفأس ، والقدر ، والملح ، والماء وغيرها قال مجاهد : الماعون العارية للأمتعة وما يتعاطاه الناس بينهم كالفأس والدلو والآنية وقال الطبري : أي يمنعون الناس منافع ما عندهم ، وأصل الماعون من كل شيء منفعته^(٦) . . وفي الآية زجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة ، فإن البخل بها نهاية البخل وهو مخل بالمروءة .

(١) البحر المحیط ٥١٧/٨ . (٢) التفسير الكبير ١٦٢/٣١ .

(٣) القرطبي ٢١١/٢٠ . (٤) نفس المرجع السابق . (٥) أخرجه ابن جرير (٦) تفسير الطبري ٢٠٣/٣٠ .

البلاغة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستفهام الذي يراد به تشويق السامع إلى الخبر والتعجيب منه ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾ ؟
- ٢ - الإيجاز بالحذف ﴿فذلك الذي يدعُ اليتيم﴾ حذف منه الشرط أي إن أردت أن تعرفه فذلك الذي يدعُ اليتيم ، وهذا من أساليب البلاغة .
- ٣ - الذم والتوبيخ ﴿فويلٌ للمصلين﴾ ووضع الظاهر مكان الضمير ﴿فويل لهم﴾ زيادة في التقييح لأنهم مع التكذيب ساهون عن الصلاة .
- ٤ - الجناس الناقص ﴿ويمنعون الماعون﴾ .
- ٥ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿ساهون ، يراءون ، الماعون﴾ الخ

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الماعون »



بين يدي السورة

* سورة الكوثر مكية ، وقد تحدثت عن فضل الله العظيم على نبيه الكريم ، بإعطائه الخير الكثير والنعم العظيمة في الدنيا والآخرة ، ومنها ﴿نهر الكوثر﴾ وغير ذلك من الخير العظيم العميم ، وقد دعت الرسول إلى إدامة الصلاة ، ونحر الهدى شكراً لله .

* وختمت السورة ببشارة الرسول ﷺ بخزي أعدائه ، ووصفت مبغضيه بالذلة والحقارة ، والانقطاع من كل خير في الدنيا والآخرة ، بينما ذكر الرسول مرفوعاً على المنابر والمنابر ، واسمه الشريف على كل لسان ، خالد إلى آخر الدهر والزمان .

اللفظ : ﴿الكوثر﴾ الخير الكثير وهو مبالغة من الكثرة ، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد ، والقدّر والخطر كوثرًا قال الشاعر :

وأنت كثيرٌ يا ابن مروان طيبٌ وكان أبوك ابنُ العقائل كوثراً^(١)
﴿انحر﴾ النحر خاصٌ بالإيل ، وهو بمنزلة الذبح في البقر والغنم ﴿شانتك﴾ الشانسيء : المبغض من
الشانان بمعنى العداوة والبغض ومنه ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم﴾ أي بغضهم ﴿الأبتر﴾ المنقطع عن كل خير ،
من البتر وهو القطع يقال : بترت الشيء بترأً قطعته ، والسيف الباترُ : القاطعُ ، ويقال للذي لا نسل له
أبتر ، لأنه انقطع نسبه ، وسميت خطبة زياد بالخطبة البتراء لأنه لم يحمد الله فيها ولم يصل على النبي
الكريم ﷺ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

التفسير : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ تكريماً لمقامه الرفيع وتشريفاً أي
نحن أعطيناك يا محمد الخير الكثير الدائم في الدنيا والآخرة ، ومن هذا الخير « نهر الكوثر » وهو كما ثبت
في الصحيح (نهرٌ في الجنة ، حافظه من ذهب ، ومجره على الدر والياقوت ، تربته أطيّب من المسك ،
وماؤه أحلى من العسل ، وأبيض من الثلج ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً)^(١) عن أنس قال :
(بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا ، إذ أغفى إغفاءً ثم رفع رأسه مبتسماً فقلنا : ما أضحكك يا
رسول الله ؟ قال : أنزلت عليّ أنفاً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ السورة
ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم قال : فإنه نهرٌ وعدنيه ربي عز وجل ، فيه خيرٌ
كثير ، هو حوضٌ ترد عليه أمتي يوم القيامة ، أنيته عدد النجوم ، فيختلج العبد - أي ينتزع ويقتطع - منهم
فأقول : إنه من أمتي ! فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعدك)^(٢) قال أبو حيان : وذكر في الكوثر ستة
وعشرون قولاً ، والصحيح هو ما فسره به رسول الله ﷺ فقال : (هو نهرٌ في الجنة حافظه من ذهب ،
ومجره على الدر والياقوت ، تربته أطيّب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل) وعن ابن عباس :
الكوثرُ : الخير الكثير^(٣) ﴿فصلٌ لربك وانحر﴾ أي فصلٌ لربك الذي أفاض ما أفاض عليك من الخير
خالصاً لوجهه الكريم ، وانحر الإيل التي هي خيار أموال العرب شكراً له على ما أولاك ربك من الخيرات
والكرامات قال في التسهيل : كان المشركون يصلون مكاءً وتصديّة ، وينحرون للأصنام فقال الله لنبيه
ﷺ : صلّ لربك وحده ، وانحر لوجهه لا لغيره ، فيكون ذلك أمراً بالتوحيد والإخلاص ﴿إِنَّ شَانِئَكَ
هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي إن مبغضك يا محمد هو المنقطع عن كل خير قال المفسرون : لما مات « القاسم » ابن

(١) القرطبي ٢٠/٢١٦ . (٢) رواه الترمذي .

(٣) أخرجه مسلم والترمذي . (٤) البحر ٨/٥١٩ وما ذهب إليه ابن عباس من أنه الخير الكثير جامع لأقوال المفسرين ، فقد أعطي الرسول
ﷺ الفضائل الكثيرة العميمة ، أعطي النبوة ، والكتاب ، والحكمة ، والعلم ، والشفاعة ، والحوض المورود ، والمقام المحمود ، وكثرة
الاتباع ، والنصر على الأعداء ، وكثرة الفتوحات إلى غير ما هنالك من الخيرات صلوات الله وسلامه عليه .

النبي ﷺ قال العاص بن وائل : دعوه فإنه رجلٌ أبتّر لا عقب له - أي لا نسل له - فإذا هلك انقطع ذكره فأنزل الله تعالى هذه السورة ، وأخبر تعالى أن هذا الكافر هو الأبتّر وإن كان له أولاد ، لأنه مبتور من رحمة الله - أي مقطوع عنها - ولأنه لا يُذكر إلا ذكر باللعنة ، بخلاف النبي ﷺ فإن ذكره خالد إلى آخر الدهر ، مرفوع على المآذن والمنابر ، مقرون بذكر الله تعالى ، والمؤمنون من زمانه إلى يوم القيامة أتباعه فهو كالوالد لهم صلوات الله وسلامه عليه .

البلاغة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

- ١ - صيغة الجمع الدالة على التعظيم ﴿إنا أعطيناك﴾ ولم يقل : أنا أعطيتك .
 - ٢ - تصدير الجملة بحرف التأكيد الجاري مجرى القسم ﴿إنّا﴾ لأن أصلها إنّ ونحن .
 - ٣ - صيغة الماضي المفيدة للوقوع ﴿أعطيناك﴾ ولم يقل : سنعطيك لأن الوعد لما كان محققاً عبّر عنه بالماضي مبالغة كأنه حدث ووقع .
 - ٤ - المبالغة في لفظه الكوثر .
 - ٥ - الإضافة للتكريم والتشريف ﴿فصلٌ لربك﴾ .
 - ٦ - إفادة الحصر ﴿إنّ شأنك هو الأبتّر﴾ .
 - ٧ - المطابقة بين أول السورة وآخرها بين ﴿الكوثر والأبتّر﴾ فالكوثر الخير الكثير ، والأبتّر المنقطع عن كل خير ، فهذه السورة على وجازتها جمعت فنون البلاغة والبيان فسبحان منزل القرآن ! !
- « تم بعونه تعالى تفسير سورة الكوثر »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الكافرون مكية ، وهي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والضلال ، فقد دعا المشركون رسول الله ﷺ إلى المهادنة ، وطلبوا منه أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدوا إلهه سنة ، فنزلت السورة تقطع أطماع الكافرين ، وتفصل النزاع بين الفريقين : أهل الإيمان ، وعبدة الأوثان ، وترد على الكافرين تلك الفكرة السخيفة في الحال والاستقبال .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

التفسير : ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين يدعونك إلى عبادة الأوثان والأحجار ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ أي لا أعبد هذه الأصنام والأوثان التي تعبدونها ، فأنا بريء من آلهتكم ومعبوداتكم التي لا تضر ولا تنفع ولا تغني عن عابدها شيئاً قال المفسرون : إن قريشاً طلبت من الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدوا إلهه سنة ، فقال ، معاذ الله أن نشرك بالله شيئاً فقالوا : فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك ، فنزلت السورة فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملائكة من قريش ، فقام على رءوسهم فقرأها عليهم فأيسوا منه^(١) وآذوه وآذوا أصحابه وفي قوله ﴿قل﴾ دليل على أنه مأمور بذلك من عند الله ، وخطابه ﷺ لهم بلفظ ﴿يا أيها الكافرون﴾ ونسبتهم إلى الكفر - وهو يعلم أنهم يغضبون من أن ينسبوا إلى ذلك - دليل على أنه محروس من عند الله ، فهو لا يبالي بهم ولا بطواغيتهم ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أي ولا أنتم يا معشر المشركين عابدون إلهي الحق الذي أعبده وهو الله وحده ، فأنا أعبد الإله الحق وهو الله رب العالمين ، وأنتم تعبدون الأحجار والأوثان ، وشتان بين

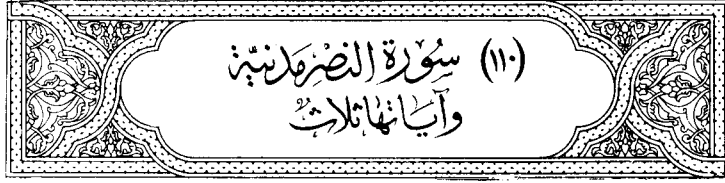
(١) انظر روح المعاني للألوسي ٣٠ / ٢٥٠ وتفسير القرطبي ٢٠ / ٢٢٥ .

عبادة الرحمن ، وعبادة الهوى والأوثان ! ! ﴿ولا أنا عابدٌ ما عبدتم﴾ تأكيدٌ لما سبق من البراءة من عبادة الأحجار ، وقطعٌ لأطماع الكفار كأنه قال : لا أعبد هذه الأوثان في الحال ولا في الاستقبال ، فأنا لا أعبد ما تعبدونه أبداً ما عشتُ ، لا أعبد أصنامكم الآن ، ولا فيما يستقبل من الزمان ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أي ولستم أنتم في المستقبل بعابدين إلهي الحق الذي أعبده ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ أي لكم شرككم ، ولي توحيدى ، وهذا غاية في التبرؤ من عبادة الكفار ، والتأكيد على عبادة الواحد القهار ، قال المفسرون : معنى الجملتين الأولتين : الاختلاف التام في المعبود ، فالله المشركين الأوثان ، وإله محمد الرحمن ، ومعنى الجملتين الآخرتين : الاختلاف التام في العبادة ، كأنه قال : لا معبودنا واحد ، ولا عبادتنا واحدة .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

- ١ - الخطاب بالوصف ﴿يا أيها الكافرون﴾ للتوبيخ والتشنيع على أهل مكة .
- ٢ - طباق السلب ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ فالأول نفي والثاني إثبات .
- ٣ - المقابلة بين كل من الجملتين الأوليين ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أي في الحال ، والمقابلة بين الجملتين الآخريين ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أي في الاستقبال ، وفي هذه المقابلة نفي لعبادة الأصنام في الحال والاستقبال وهو من المحسنات البديعية .
- ٤ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون﴾ .

« انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الكافرون »



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة النصر مدنية ، وهي تتحدث عن « فتح مكة » الذي عزَّ به المسلمون ، وانتشر الإسلام في الجزيرة العربية ، وتقلمت أظافر الشرك والضلال ، وبهذا الفتح المبين دخل الناس في دين الله ، وارتفعت راية الإسلام ، واضمحلت ملة الأصنام ، وكان الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه ، من أظهر الدلائل على صدق نبوته عليه أفضل الصلاة والسلام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

التفسير : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ، يذكره ربه بالنعمة والفضل عليه وعلى سائر المؤمنين ، والمعنى : إذا نصرك الله يا محمد على أعدائك ، وفتح عليك مكة أم القرى قال المفسرون : الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه إخباراً بالغيب ، فهو من أعلام النبوة ﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ﴾ أي ورأيت العرب يدخلون في الإسلام جماعات جماعات من غير حرب ولا قتال ، وذلك بعد فتح مكة صارت العرب تأتي من أقطار الأرض طائفة قال ابن كثير : إن أحياء العرب كانت تنتظر فتح مكة ، يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبي ، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجا فلم تمض سنتان حتى استوثقت جزيرة العرب إيماناً ، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ^(١) ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ أي فسبح ربك وعظمه ملتبساً بحمده على هذه النعم ، واشكره على ما أولاك من النصر على الأعداء ، وفتح البلاد ، وإسلام العباد ﴿ واستغفره ﴾ أي اطلب منه المغفرة لك ولأمتك ﴿ إنه كان تواباً ﴾ أي إنه جلّ وعلا كثير التوبة ، عظيم الرحمة لعباده المؤمنين .

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٨٧ . وقال القرطبي و « اذا » بمعنى قد أي قد جاء نصر الله لأن نزولها بعد الفتح .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ - ذكر الخاص بعد العام ﴿ نصر الله والفتح ﴾ نصر الله يشمل جميع الفتوحات فعطف عليه ﴿ فتح مكة ﴾ تعظيماً لشأن هذا الفتح واعتناءً بأمره .

٢ - إطلاق العموم وإرادة الخصوص ﴿ ورأيت الناس ﴾ لفظ الناس عام والمراد به العرب .

٣ - دين الله هو الإسلام ﴿ يدخلون في دين الله ﴾ وأضافه إليه تشريفاً وتعظيماً ، كبيت الله وناقاة الله .

٤ - صيغة المبالغة ﴿ إنه كان تواباً ﴾ لأن صيغة « فعال » للمبالغة .

تنبية : هذه السورة الكريمة فيها نعي النبي ﷺ ولهذا تسمى سورة ﴿ التوديع ﴾ وحين نزلت قال رسول الله ﷺ لعائشة : ما أراه إلا حضور أجلي ، وقال ابن عمر : نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع ، ثم نزلت ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ الآية فعاش بعدهما النبي ﷺ ثمانين يوماً^(١) . وروى الإمام البخاري عن ابن عباس قال : « كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال : لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال : إنه من علمتم ! ! فدعاني ذات يوم فادخلني معهم - قال فما رأيت أنه دعاني إلا ليريم - فقال عمر : ما تقولون في قول الله تعالى ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا بأن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لي : أكذا تقول يا ابن عباس ؟ قلت : لا قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه فقال ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فذلك علامة أجلك ﴾ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ فقال عمر : والله ما أعلم منها إلا ما تقول^(٢) .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النصر »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة المسد مكية ، وتسمى سورة الذهب ، وسورة تَبَّتْ ، وقد تحدثت عن هلاك « أبي لهب » عدو الله ورسوله ، الذي كان شديد العداوة لرسول الله ﷺ ، يترك شغله ويتبع الرسول ﷺ ليفسد عليه دعوته ، ويصد الناس عن الإيمان به ، وقد توعدته السورة في الآخرة بنارٍ موقدة يصلها ويشوى بها ، وقرنت زوجته به في ذلك ، واختصتها بلون من العذاب شديد ، هو ما يكون حول عنقها من حبلٍ من ليفٍ تجذب به في النار، زيادة في التنكيل والدمار .

اللغز : ﴿ تَبَّتْ ﴾ هلكت والتبابُ : الهلاك والخسران ومنه قوله تعالى ﴿ وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾ وقال الشاعر : « فتباً للذي صنعوا » ﴿ ذات لهب ﴾ ذات اشتعال وتلهب ﴿ جيدها ﴾ عنقها قال امرؤ القيس :

« وجيدٍ كجيد الريم ليس بفاحش »^(١)

﴿ مسد ﴾ ليف قال الواحدي : المسد في كلام العرب : الفتل ، يقال مسد الحبل يمسه مسداً إذا أجاد فتله ، وكلُّ شيء فتل من الليف والحوص فهو مسد^(٢)

سبب النزول : عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتک الأقربين ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا ونادى : يا بني فهر ، يا بني عدي ، لبطون من قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو الخبر ، فاجتمعت قريش وجاء عمه « أبو لهب » فقالوا : ما وراءك ؟ فقال ﷺ : أرأيتم لو أخبرتمكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك كذباً قط ، قال : ﴿ فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد ﴾ فقال له أبو لهب : تباً لك يا محمد سائر اليوم ، لهذا جمعنا ؟ فأنزل الله ﴿ تبَّتْ يدا أبي لهب وتب ﴾^(٣) . . . السورة .

ب - وعن طارق المحاربي قال « بينا أنا بسوق ذي المجاز إذ أنا بشاب حديث السن يقول أيها الناس : « قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » وإذا رجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه - مؤخر القدم - ويقول : يا أيها الناس إنه كذابٌ فلا تصدقوه ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا هو محمد يزعم أنه نبي ، وهذا عمه « أبو لهب » يزعم أنه كذاب »^(٤) .

(١) القرطبي ٢٠ / ٢٤١ . (٢) التفسير الكبير ٣١ / ١٧٣ . (٣) روح المعاني ٣٠ / ٢٦٠ . (٤) القرطبي ٢٠ / ٢٣٦ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصِلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

التفسير: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أي هلكت يدا ذلك الشقي ﴿أبي لهب﴾ وخاب وخسر وضلَّ عمله ﴿وتبَّ﴾ أي وقد هلك وخسر، الأول دعاء، والثاني إخبار كما يقال: أهلكه الله وقد هلك قال المفسرون: التباب هو الخسار المفضي إلى الهلاك، والمراد من اليد صاحبها، على عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كله وجميعه، وأبو لهب هو «عبد العزى بن عبد المطلب» عم النبي ﷺ وامرأته العوراء «أم جميل» أخت أبي سفيان، وقد كان كل منهما شديد العداوة للرسول ﷺ فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر رضي الله عنه، وفي يدها فهر - قطعة - من الحجارة، فلما دنت من الرسول ﷺ أخذ الله بصرها عنه فلم تر إلا أبا بكر، فقالت يا أبا بكر: بلغني أن صاحبك يهجوني، فوالله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه، ثم أنشدت تقول:

مُذَمَّمًا عَصِينَا . وَأَمْرَهُ أَبِيْنَا . وَدِينَهُ قَلِينَا

ثم انصرفت فقال أبو بكر يا رسول الله: أما تراها رأيتك؟ قال: ما رأيتني لقد أخذ الله بصرها عني، وكانت قريش يسبون الرسول ﷺ يقولون: مذمماً بدل «محمد» وكان يقول صلوات الله عليه: ألا تعجبون كيف صرف الله عني أذى قريش؟ يسبون ويهجون مذمماً وأنا محمد^(١)! قال الخازن: فإن قلت: لم كناه وفي التكنية تشريف وتكرمة؟ فالجواب من وجوه: أحدهما: أنه كان مشتهراً بالكنية دون الاسم، فلو ذكره باسمه لم يعرف، الثاني: أنه كان اسمه «عبد العزى» فعدل عنه إلى الكنية لما فيه من الشرك - لأن العزى صنم فلم تضيف العبودية إلى صنم - الثالث: أنه لما كان من أهل النار، وماله إلى النار، والنار ذات لهب، وافقت حاله كنيته وكان جديراً بأن يذكر بها^(٢) ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ أي لم يفده ماله الذي جمعه، ولا جاهه وعزه الذي اكتسبه قال ابن عباس ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ من الأولاد، فإن ولد الرجل من كسبه. . . روي أن الرسول ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً، فإنني أفتدي نفسي من العذاب بما لي وولدي فتزلت^(٣) قال الألوسي: كان لأبي لهب ثلاثة أبناء «عُتْبَةُ» و«مَعْتَبُ» و«عُتَيْبَةُ» وقد أسلم الأولان يوم الفتح، وشهدا حنيناً والطائف، وأما «عُتَيْبَةُ» فلم يسلم، وكانت «أم كلثوم» بنت رسول الله ﷺ عنده، وأختها «رُقَيْيَةُ» عند أخيه عُتْبَةُ، فلما نزلت السورة قال أبو لهب لهما: رأسي ورأسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد، فطلقاها ولما

(١) انظر القرطبي ٢٣٤/٢٠ والألوسي ٢٦٤/٣٠ . (٢) تفسير الخازن ٣١٧/٤ . (٣) مختصر ابن كثير ٦٩٠/٣ .

أراد « عْتِيبة » بالتصغير الخروج الى الشام مع أبيه قال : لَاتِيَنَّ مُحَمَّدًا وَأَوْذِيَنَّهُ فَأَتَاهُ فَقَالَ يَا مُحَمَّد : إني كافر بالنجم إذا هوى ، وبالذي دنا فتدلى ، ثم تفل أمام النبي ﷺ وطلَّق ابنته « أم كلثوم » فغضب ﷺ ودعا عليه فقال : (اللهم سلط عليه كلباً من كلابك) فافترسه الأسد ، وهلك أبو لهب بعد وقعة بدر بسبع ليالٍ بمرضٍ معدٍ كالطاعون يسمى « العدسة » وبقي ثلاثة أيام حتى أنتن ، فلما خافوا العار حفروا له حفرة ودفعوه إليها بعود حتى وقع فيها ثم قذفوه بالحجارة حتى واروه ، فكان الأمر كما أخبر به القرآن^(١) ﴿سَيَصَلَّى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي سيدخل ناراً حامية ، ذات اشتعال وتوقد عظيم ، وهي نار جهنم ﴿وَامرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ أي وستدخل معه نار جهنم ، امرأته العوراء « أم جميل » التي كانت تمشي بالنميمة بين الناس ، وتوقد بينهم نار العداوة والبغضاء قال أبو السعود : كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك فتشرها بالليل في طريق النبي ﷺ^(٢) لا يذائه وقال ابن عباس : كانت تمشي بالنميمة بين الناس لتفسد بينهم^(٣) ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي في عنقها حبلٌ من ليف قد فتل فتلاً شديداً ، تعذب به يوم القيامة قال مجاهد : هو طوقٌ من حديد وقال ابن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة من جوهر ، فقالت : واللاتِ والعزرى لأنفقنها في عداوة محمد ، فأعقبتها اللهمنا حبلاً في جيدها من مسد النار^(٤) .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

- ١ - المجاز المرسل ﴿يبدأ أبي لهب﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي هلك أبو لهب .
- ٢ - الجناس بين ﴿أبي لهب﴾ وبين ﴿ناراً ذات لهب﴾ فالأول كنية والثاني وصف للنار .
- ٣ - الكنية للتصغير والتحقير ﴿أبي لهب﴾ فليس المراد تكريمه بل تشهيره ، كأبي جهل .
- ٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿حمالة الحطب﴾ مستعار للنميمة وهي استعارة مشهورة قال الشاعر : « ولم يمش بين الحي بالحطب الرطب » .
- ٥ - النصب على الشتم والذم ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾ أي أخص بالذم حمالة الحطب .
- ٦ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المسد »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الإخلاص مكية ، وقد تحدثت عن صفات الله جل وعلا الواحد الأحد ، الجامع لصفات الكمال ، المقصود على الدوام ، الغني عن كل ما سواه ، المنتزه عن صفات النقص ، وعن المجانسة والمماثلة ، وردت على النصارى القائلين بالتثليث ، وعلى المشركين الذين جعلوا لله الذرية والبنين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

اللفظ: ﴿الصَّمَدُ﴾ السيد المقصود في قضاء الحاجات قال الشاعر :

ألا بكر الناعي بخير بني أسد
بعمر بن مسعود وبالسيد الصمد^(١)

﴿كُفُوًا﴾ الكفوؤ: النظير والشبيه قال أبو عبيدة : يقال : كفؤ ، وكفاء ، وكفاء كلها بمعنى واحد وهو المثل والنظير .

سبب النزول: روي أن بعض المشركين جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد صف لنا ربك ، أمن ذهب هو ، أم من فضة ، أم من زبرجد ، أم من ياقوت ؟ ! فنزلت ﴿قل هو الله أحد . . . الله الصمد . . .﴾ السورة .

التفسير: ﴿قل هو الله أحد﴾ أي قل يا محمد هؤلاء المشركين المستهزئين : إن ربي الذي أعبده ، والذي أدعوكم لعبادته هو واحد أحد لا شريك له ، ولا شبيه له ولا نظير ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، فهو جل وعلا واحد أحد ، ليس كما يعتقد النصارى بالتثليث « الآب ، والابن ، وروح القدس » ولا كما يعتقد المشركون بتعدد الآلهة قال في التسهيل : واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معانٍ ، كلها صحيحة في حقه تعالى : الأول : أنه واحد لا ثاني معه فهو نفي

(١) البحر المحیط ٨/٥٢٧ . (٢) انظر التفسير الكبير ٣١/١٧٥ .

للعدد ، والثاني : أنه واحد لا نظير ولا شريك له ، كما تقول : فلان واحد في عصره أي لا نظير له
والثالث : أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعص ، والمراد بالسورة نفي الشريك رداً على المشركين ، وقد أقام الله
في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته تعالى ، وذلك كثير جداً ، وأوضحها أربعة براهين : الأول ؛ قوله
تعالى ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ ؟ - وهذا دليل الخلق والإيجاد - فإذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع
الموجودات ، لم يصح أن يكون واحد منها شريكاً له والثاني : قوله تعالى ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله
لفسدنا ﴾ - وهو دليل الإحكام والإيداع - الثالث : قوله تعالى ﴿ لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى
ذي العرش سبيلاً ﴾ - وهو دليل القهر والغلبة - الرابع : قوله تعالى ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من
إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾ - وهو دليل التنازع والاستعلاء^(١) ثم أكد تعالى
وحدانيته واستغناؤه عن الخلق فقال ﴿ الله الصمد ﴾ أي هو جل وعلا المقصود في الحوائج على الدوام ،
يحتاج إليه الخلق وهو مستغن عن العالمين قال الألوسي : الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد ، الذي يصمد
إليه - أي يلجأ إليه - الناس في حوائجهم وأمورهم^(٢) ﴿ لم يلد ﴾ أي لم يتخذ ولداً ، وليس له أبناء
وبنات ، فكما هو متصف بالكمالات ، منزّه عن النقائص قال المفسرون : في الآية ردٌ على كل من جعل لله
ولداً ، كاليهود في قولهم ﴿ عزيز بن الله ﴾ والنصارى^(٣) في قولهم ﴿ المسيح بن الله ﴾ وكمشركي العرب في
زعمهم أن ﴿ الملائكة بنات الله ﴾ فردّ الله تعالى على الجميع في أنه ليس له ولد ، لأن الولد لا بد أن يكون
من جنس والده ، والله تعالى أزلي قديم ، ليس كمثله شيء ، فلا يمكن أن يكون له ولد ، ولأن الولد لا
يكون إلا لمن له زوجة ، والله تعالى ليس له زوجة وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ بديع السموات والأرض
أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴾ ؟ ! ﴿ ولم يولد ﴾ أي ولم يولد من أبٍ ولا أمٍ ، لأن كل مولود
حادث ، والله تعالى قديم أزلي ، فلا يصح أن يكون مولوداً ولا أن يكون له والد ، وقد نفت الآية عنه
تعالى إحاطة النسب من جميع الجهات ، فهو الأول الذي لا ابتداء لوجوده ، القديم الذي كان ولم يكن
معه شيء غيره ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ أي وليس له جل وعلا مثيلٌ ، ولا نظير ، ولا شبيه أحدٌ من
خلقه ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ قال ابن كثير :
هو مالك كل شيء وخالقه ، فكيف يكون له من خلقه نظيرٌ يساميه ، أو قريب يدانيه ؟ تعالى وتقدس
وتنزّه ، وفي الحديث القدسي (يقول الله عز وجل : كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن
له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقلوه : لن يعيدني كما بداني ، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته ، وأما
شتمه إياي فقلوه : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً
أحد) .

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٢٢٣/٤ ، وقد ذكر في التسهيل هذه النصوص الكريمة دون بيان وجه الدلالة ، وما ذكر بين المعترضين مثل :
دليل الخلق والإيجاد ، دليل الإحكام والإيداع فهو من كلامنا .

(٢) روح المعاني ٢٧٣/٣٠ . (٣) يعتقد النصارى بأن الإله ثلاثة أقانيم « الأب ، والابن ، وروح القدس » وهي عقيدة التثليث التي أشار
إليها القرآن الكريم بقوله ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ﴾ الآية ويعتقدون بأن الثلاثة واحد ، والواحد
ثلاثة ، ويزعمون أنهم موحدون ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

البلاغة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

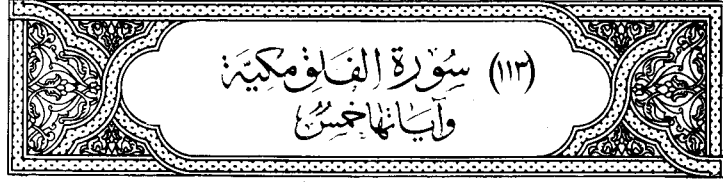
- ١ - ذكر الاسم الجليل بضمير الشأن ﴿ قل هو ﴾ للتعظيم والتفخيم .
- ٢ - تعريف الطرفين ﴿ الله الصمد ﴾ لإفادة التخصيص .
- ٣ - الجناس الناقص ﴿ لم يلد ﴾ ﴿ ولم يولد ﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف .
- ٤ - التجريد فإن قوله تعالى ﴿ قل هو الله أحد ﴾ يقتضي نفي الكفء والولد ، وقوله ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ هو تخصيص الشيء بالذكر بعد دخوله في العموم وذلك زيادة في الايضاح والبيان .
- ٥ - السجع المرصع وهو من المحسنات البديعية ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ﴾ .

لطيفة : هذه السورة الكريمة مؤلفة من أربع آيات ، وقد جاءت في غاية الإيجاز والإعجاز ، وأوضحت صفات الجلال والكمال ، ونزهت الله جل وعلا عن صفات العجز والنقص ، فقد أثبتت الآية الأولى الوجدانية ، ونفت التعدد ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وأثبتت الثانية كماله تعالى ، ونفت النقص والعجز ﴿ الله الصمد ﴾ وأثبتت الثالثة أزليته وبقائه ونفت الذرية والتناسل ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ وأثبتت الرابعة عظيمته وجلاله ونفت الأنداد والأضداد ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ فالسورة إثبات لصفات الجلال والكمال ، وتنزيه للرب بأسمى صور التنزيه عن النقائص .

فائدة : روي عن النبي ﷺ أنه قال : (من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فكأنما قرأ بثلاث القرآن)^(١) قال العلماء : وذلك لما تضمنته من المعاني والعلوم والمعارف ، فإن علوم القرآن ثلاثة : « توحيد ، وأحكام ، وقصص » وقد اشتملت هذه السورة على التوحيد ، فهي ثلث القرآن بهذا الاعتبار ، وقيل : إن ذلك في الثواب أي لمن قرأها من الأجر مثل أجر من قرأ ثلث القرآن ، والله أعلم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الإخلاص »

(١) أخرجه الإمام أحمد والنسائي من حديث أبي بن كعب مرفوعاً



بَيْنَ يَدَيْ السُّورَةِ

* سورة الفلق مكية ، وفيها تعليم للعباد أن يلجأوا إلى حمى الرحمن ، ويستعيذوا بجلاله وسلطانه من شر مخلوقاته ، ومن شر الليل إذا أظلم ، لما يصيب النفوس فيه من الوحشة ، ولانتشار الأشرار والفجار فيه ، ومن شر كل حاسد وساحر ، وهي إحدى المعوذتين اللتين كان ﷺ يعود نفسه بهما .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾
وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

اللفق : ﴿الفلق﴾ الفلق : الصبح تقول العرب : هو أيين من فلق الصبح ، والفلق بالكسر الداهية والأمر العجب ، وأصله من فلقت الشيء أي شققته ، فكل ما انفلق من شيء من حيوان ، وحب ، ونوى فهو فلق ، ومنه « فلق الإصباح » قال ذو الرمة : « حتى إذا ما انجلى عن وجهه فلق » أي انجلى الصبح عن وجهه ﴿غاسق﴾ الغاسق : الليل إذا اشتد ظلامه ، والغسق أول ظلمة الليل يقال : غسق الليل أي أظلم قال الشاعر :

إِنَّ هَذَا اللَّيْلَ قَدْ غَسَقَا وَاشْتَكَيْتُ الْهَمَّ وَالْأَرْقَا^(١)

﴿وقب﴾ دخل بظلامه ، والوقوب : الدخول ﴿النفاثات﴾ النفث : شبه النفخ دون تفل بالريق ، فإذا كان معه ريق فهو التفل قال عنترة :

فَإِنْ يَبْرَأُ فَلَمْ أَنْفِثْ عَلَيْهِ وَإِنْ يُفْقَدُ فَحُقَّ لَهُ الْفُقُودُ^(٢)

النفيس : ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ أي قل يا محمد ألتجىء وأعتصم برب الصبح الذي

ينفلق عنه الليل ، وينجلي عنه الظلام قال ابن عباس : ﴿ الفلق ﴾ الصبح كقوله تعالى ﴿ فالتق الإصباح ﴾^(١) وفي أمثال العرب : هو أبيض من فلق الصبح قال المفسرون : سبب تخصيص الصبح بالتعوذ أن انبثاق نور الصبح بعد شدة الظلمة ، كالمثل لمجيء الفرج بعد الشدة ، فكما أن الإنسان يكون منتظراً لطلوع الصباح ، فكذلك الخائف يتربص مجيء النجاح ﴿ من شر ما خلق ﴾ أي من شر جميع المخلوقات من الإنس ، والجن ، والدواب ، والهوام ، ومن شر كل مؤذ خلقه الله تعالى ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ أي ومن شر الليل إذا أظلم واشتد ظلامه ، فإن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الإنس والجن ولهذا قالوا في المثل « الليل أخفى للويل » قال الرازي : وإنما أمر أن يتعوذ من شر الليل ، لأن في الليل تخرج السباع من آجامها ، والهوام من مكانها ، ويهجم السارق والمكابر ، ويقع الحريق ، ويقل فيه الغوث^(٢) ﴿ ومن شر النفاثات في العقد ﴾ أي ومن شر السواحر اللواتي يعقدن عقداً في خيوط وينفنن - أي ينفخن - فيها ليضروا عباد الله بسحرهن ، ويفرقوا بين الرجل وزوجه ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ قال في البحر : وسبب نزول المعوذتين قصة « لبيد بن الأعصم » الذي سحر رسول الله ﷺ في مشط ومشاطة وجف - قشر الطلع - طلعة ذكر ، ووتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة ، مغروز بالإبر ، فأنزلت عليه المعوذتان ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد في نفسه خفه ﷺ حتى انحلت العقدة الأخيرة فقام فكأنما نشط من عقال^(٣) ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ أي ومن شر الحاسد الذي يتمنى زوال النعمة عن غيره ، ولا يرضى بما قسمه الله تعالى له .

البلاغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

- ١ - الجناس الناقص بين ﴿ فلق ﴾ و﴿ خلق ﴾ .
- ٢ - الإطناب بتكرار الاسم ﴿ شر ﴾ مرات في السورة ﴿ من شر ما خلق ﴾ ﴿ ومن شر غاسق ﴾ ﴿ ومن شر النفاثات ﴾ الخ تنبيهاً على شناعة هذه الأوصاف .
- ٣ - ذكر الخاص بعد العام للاعتناء بالذكر ﴿ من شر ما خلق ﴾ فإنه عموم يدخل تحته شر الغاسق ، وشر النفاثات ، وشر الحاسد .
- ٤ - جناس الاشتقاق بين ﴿ حاسد ﴾ و﴿ حسد ﴾ .
- ٥ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الفلق »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الناس مكية ، وهي ثاني المعوذتين ، وفيها الاستجارة والاحتماء برب الأرباب من شر أعدى الأعداء ، إبليس وأعوانه من شياطين الإنس والجن ، الذين يغوون الناس بأنواع الوسوسة والإغواء .

* وقد ختم الكتاب العزيز بالمعوذتين وبدىء بالفاتحة ، ليجمع بين حسن البدء ، وحسن الختم ، وذلك غاية الحسن والجمال ، لأن العبد يستعين بالله ويلتجىء إليه ، من بداية الأمر إلى نهايته .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾
الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْخِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

اللغز: ﴿الوسواس﴾ الشيطان الموسوس ، مشتق من الوسوسة وهي الكلام الخفي وحديث النفس قال الأعشى :

« تسمعُ لِلحَلْبِيِّ وَسْوَاساً إِذَا انصرفت »^(١)

﴿الخناس﴾ الذي عادته أن يخنس أي يتوارى ويختفي ويتأخر يقال : خنس الظبي إذا اختفى ، وسمي الشيطان خناساً لأنه يتوارى ويختفي إذا ذكر العبد ربه ، فإذا غفل عن ذكر الله عاد فوسوس له والخنوس : التأخر ﴿الخننة﴾ بكسر الجيم الجنُّ جمع جني ، وبضم الجيم الوقاية وفي الحديث (الصوم جنّة)^(٢) أي وقاية من عذاب الله .

التفسير: ﴿قل أعوذ﴾ أي قل يا محمد أعتصم وألتجىء وأستجير ﴿برب الناس﴾ أي

(١) القرطبي ٢٠ / ٢٦١ . (٢) جزء من حديث رواه الشيخان .

بخالق الناس ومربيهم ومدبر شؤونهم ، الذي أحياهم وأوجدهم من العدم ، وأنعم عليهم بأنواع النعم قال المفسرون : إنما خصَّ الناس بالذكر - وإن كان جلت عظمته رب جميع الخلائق - تشریفاً وتكريماً لهم ، من حيث إنه تعالى سخر لهم ما في الكون ، وأمدهم بالعقل والعلم ، وأسجد لهم ملائكة قدسه ، فهم أفضل المخلوقات على الإطلاق ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ أي مالك جميع الخلق حاكمين ومحكومين ، ملكاً تاماً شاملاً كاملاً ، يحكمهم ، ويضبط أعمالهم ، ويدبر شؤونهم ، فيعز ويذل ، ويغني ويفقر ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ أي معبودهم الذي لا رب لهم سواه قال القرطبي : وإنما قال ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ * ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ لأن في الناس ملوكاً فذكر أنه ملكهم ، وفي الناس من يعبد غيره فذكر إنه إلههم ومعبودهم ، وأنه الذي يجب إن يستعاذ به ويلجأ إليه ، دون الملوك والعظماء^(١) ، وترتيب السورة بهذا الشكل في منتهى الإبداع ، وذلك لأن الإنسان أولاً يعرف أن له رباً ، لما يشاهده من أنواع التربية ﴿ رَبِّ النَّاسِ ﴾ ثم إذا تأمل عرف أن هذا الرب متصرف في خلقه ، غني عن خلقه فهو الملك لهم ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ ثم إذا زاد تأمله عرف أنه يستحق أن يُعبد ، لأنه لا عبادة إلا للغني عن كل ما سواه ، المفتقر إليه كل ما عداه ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ وإنما كرر لفظ الناس ثلاثاً ولم يكتف بالضمير ، لإظهار شرفهم وتعظيمهم والاعتناء بشأنهم ، كما حسن التكرار في قول الشاعر :

لا أرى الموت يسبق الموتَ شيء نَعَّصَ الموتُ ذا الغنى والفقيرا

قال ابن كثير : هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل « الربوبية » و « الملك » و « الإلهية » فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه ، وجميع الأشياء مخلوقة ومملوكة له ، فأمر المستعبد أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات^(٢) ﴿ مَنْ شَرُّ الْوَسْوَاسِ ﴾ أي من شر الشيطان الذي يلقي حديث السوء في النفس ، ويوسوس للإنسان ليغريه بالعصيان ﴿ الْخَنَّاسِ ﴾ الذي يخنس أي يختفي ويتأخر إذا ذكر العبد ربه ، فإذا غفل عن الله عاد فوسوس له وفي الحديث « إن الشيطان واضع خطمه - أنفه - على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا نسي الله التقم قلبه فوسوس »^(٣) ﴿ الَّذِي يَوْسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ أي الذي يلقي لشدة خبثه في قلوب البشر صنوف الوسوس والأوهام قال القرطبي : ووسوسته هو الدعاء لطاعته بكلام خفي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت^(٤) ﴿ مَنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ ﴿ مَنْ ﴾ بيانية أي هذا الذي يوسوس في صدور الناس ، هو من شياطين الجن والإنس كقوله تعالى ﴿ شِيطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوْحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا ﴾ فالآية استعانة من شر الإنس والجن جميعاً ، ولا شك أن شياطين الإنس ، أشد فتكاً وخطراً من شياطين الجن ، فإن شيطان الجن يخنس بالاستعانة ، وشيطان الإنس يزين له الفواحش ويغريه بالمنكرات ، ولا يثنيه عن عزمه شيء ، والمعصوم من عصمه الله .

البَلَاغَةُ : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ - الإضافة للتشريف والتكريم ﴿ أعوذ برب الناس ﴾ وفي الآيتين بعدها .

(١) القرطبي ٢٠ / ٢٦٠ . (٢) مختصر ابن كثير ٣ / ٦٩٦ . (٣) رواه الحافظ الموصلي . (٤) القرطبي ٢٠ / ٢٦٣ .

٢ - الأطناب بتكرار الاسم ﴿رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس﴾ زيادة في التعظيم لهم ، والاعتناء بشأنهم ، ولو قال ﴿ملكهم ، إلههم﴾ لما كان لهم هذا الشأن العظيم .

٣ - الطباق بين ﴿الجنة﴾ و﴿الناس﴾ .

٤ - جناس الاشتقاق ﴿يوسوس . . والوسواس﴾ ثم ما في السورة من الجرس الموسيقي ، الذي يفضل الألحان بعدوية البيان ، وذلك من خصائص القرآن .

تَبْيِيْهِ : عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه ونفث فيهما وقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ والمعوذتين ، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ برأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاثاً »^(١) .

يقول راجي عفوره الجليل ، الشيخ محمد علي الصابوني بن الشيخ جميل : إنه قد تمّ - بعون الله وتوفيقه - تفسير القرآن العظيم ، في مهبط الوحي - مكة المكرمة - البلد الأمين ، وقد مكثت في تأليف هذا التفسير خمس سنين ، وكان الفراغ منه في الثامن عشر من شهر جمادى الثانية ١٣٩٨ هـ - سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة بعد الألف من هجرة سيد المرسلين ، ونسأل الله حسن القبول ، وأن يمنحنا التوفيق والسداد والحمد لله في البدء والختام ، وصلى الله على عبده ورسوله ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وكتبه

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبدالعزيز

الراوي	* * أطراف الحديث * *	الصفحة
اليزار	«إن لكل شيء قلباً وقلبُ القرآن يس . . .»	٦
مسلم	«أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد، والبقاع خالية . . .»	٨
ابن أبي حاتم وابن ماجه	«بيننا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطم عليهم نور، فإذا الربُّ تعالى . . .»	١٩
مسلم	«ألا تصفون كما تصفُ الملائكة عند ربهم؟ قلنا وكيف يا رسول الله؟ . . .»	٢٨
الترمذي	«لأن قطة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم . . .»	٣٦
ابن أبي حاتم	«من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى فليقل آخر مجلسه: سبحان ربك رب العزة . . .»	٤٨
	حديث قدسي: «يقبض الله تعالى الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك . . .»	٨٧
الشيخان	«يُحْتَم على في الكافر- فمه- ثم يقال لجوارحه انطقي فتتلق بأعماله . . .»	١٢٠
مسلم	«اجتمع عند البيت ثلاثة نفر: قرشيان وثقفي، قليل فقه قلوبهم . . .»	١٢٠
الترمذي	«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها جرة ماء»	١٥٧
البخاري	«يوشك أن ينزل فيكم عيسى بن مريم حكماً مقسطاً . . .»	١٦٢
الشيخان	«لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة . . .»	١٦٤
	«ما من أحدٍ إلا وله منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار، الكافر يرث منزل المؤمن في النار . . .»	١٦٥
ابن أبي حاتم	«لما استعصت قريش على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف . . .»	١٧٠
البخاري	«ما أول أشرط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه . . .»	١٩٤
البخاري	«كان ﷺ إذا رأى غيباً أو رجماً عُرف في وجهه . . .» الحديث	١٩٩
البخاري	«والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله في الدنيا»	٢٠٧
البخاري	«تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية»	٢٢٧
الشيخان	«قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه وركب حماراً . . .»	٢٣١
مسلم	«رب أشعث أغبر ذو طمرين لو أقسم على الله لأبره»	٢٣٥
	«لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: سبحان الله إن للموت لسكرات»	٢٤٤
البخاري	«لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه . . .»	٢٤٦
مسلم	«رفع لي البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك . . .»	٢٦٢
ابن أبي حاتم	«إن الرجل ليتكوى المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه . . .»	٢٦٤
البخاري	«ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»	٢٧٠
أحمد	«رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته مرتين . . .»	٢٧٣

الراوي	* * أطراف الحديث * *	الصفحة
الشيخان	«ثم صُعد بي إلى السماء السابعة ورُفعت إليّ سدرة المنتهى . . .»	٢٧٣
ابن كثير	«رأيت السدرة يعشاها فرّاش من ذهب، ورأيت على كل ورقة ملكاً . . .»	٢٧٤
الشيخان	«إن الله كتب على ابن آدم حظّه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة . . .»	٢٧٦
الشيخان	«انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين فقال رسول الله: اشهدوا . . .»	٢٨٤
مسلم والترمذي	«جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت ﴿يوم يسحبون﴾»	٢٨٩
الترمذي والحاكم	«ياي أسمع الجنّ أحسن جواباً لربها منكم؟ ما أتيت على قوله تعالى . . .»	٢٩٥
مسلم وأحمد	«خُلقت الملائكة من نور، وخُلقت الجنان من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»	٢٩٥
البخاري	«جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما . . .»	٣٠٠
الترمذي	«إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حُلّه . . .»	٣٠١
البخاري	«إن في الجنة خيمةً من لؤلؤة مجوّفة عرضها ستون ميلاً . . .»	٣٠٢
الحاكم والبيهقي	«قال أعرابي يا رسول الله: إن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها فقال ما هي؟ قال السدر . . .»	٣٠٨
البخاري	«إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها وأقرء وإن شئتم . . .»	٣٠٨
الترمذي في الشمائل	«إن امرأة عجوز أجات النبي ﷺ فقالت يا رسول الله: أَدع الله أن يدخلني الجنة . . .»	٣٠٩
ابن أبي حاتم	«الحمد لله الذي سقانا عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحاً أجاجاً . . .»	٣١٣
الشيخان ومالك	«ناركم هذه التي توقدون جزءً من سبعين جزءاً من نار جهنم . . .»	٣١٤
أبو داود وابن ماجه	«لما نزلت آية ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ قال ﷺ: اجعلوها في ركوعكم»	٣١٦
مسلم وأحمد	«أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء . . .»	٣٢٠
الشيخان	«يقول الله للكافر: أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا أكنت تفتدي . . .»	٣٢٤
مسلم	«قال ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية . . .»	٣٢٥
أحمد وأبو داود	«بُعِثت بالسيف بين يدي الساعة، وجُعِل رزقي تحت ظل رمحي . . .»	٣٣٠
أحمد	«لكل أمة رهبانية، ورهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله»	٣٣١
البخاري والبيهقي	«تبارك الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة خولة بنت ثعلبة . . .»	٣٣٤
البخاري ومسلم	«إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه . . .»	٣٣٩
الشيخان	«لا يزال الله في عون العبد ما زال العبد في عون أخيه . . .»	٣٤١
الشيخان	«نصرتُ بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً . . .»	٣٤٩
البخاري ومسلم	«لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات . . .»	٣٥١
مسلم	«واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم . . .»	٣٥٢
البخاري ومسلم	«جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهودٌ، فأرسل إلى بعض نسائه . . .»	٣٥٨
الشيخان	«انطلقوا حتى تأنوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فأتوني به . . .»	٣٦٠
الشيخان وأحمد	«إن أمتي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها؟ قال: نعم صلي أمك»	٣٦٤

الراوي	* * أطراف الحديث * *	الصفحة
البخاري ومسلم	«لي خمسة أسماء: أنا محمد وأنا أحمد، وأنا الحاشر، وأنا الماحي، وأنا العاقب»	٣٧٢
مسلم	«إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي . . .»	٣٧٣
الشيخان	«بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قائماً إذ قدمت غير المدينة . . .»	٣٧٨
مسلم	«كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿وآخرين منهم﴾ . . .»	٣٧٩
أحمد	«إن للمنافقين علامات يُعرفون بها: تحتهم لعنة، وطعامهم نُهبة . . .»	٣٨٦
الشيخان	«إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه . . .»	٣٩٥
الشيخان	«ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتنظفها، فإن بدا له أن يطلقها . . .»	٣٩٨
الترمذي	«لو توكلتم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خصاصاً . . .»	٤٠٠
البخاري ومسلم	«إن أحدكم إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم . . .»	٤١٥
الشيخان	«قال أنس: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف قط . . .»	٤٢٥
مسلم	«لا يدخل الجنة نمام»	٤٢٦
البخاري ومسلم	«يسجد لله كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الديار ياء وسمعة . . .»	٤٣٠
الشيخان	«إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . . .»	٤٣٠
أحمد والترمذي	«لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين»	٤٣١
البخاري ومسلم	«نُصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»	٤٣٥
الترمذي والحاكم	«الصعود جبلٌ من نار يصعد فيه الكافر سبعين خريفاً . . .»	٤٧٦
أحمد وابن ماجه	حديث قدسي: «يقول الله عز وجل: ابن آدم أنى تُعجزني وقد خلقتك من مثل هذه . . .»	٥٠٢
الترمذي	«إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء . . .»	٥٣٣
البخاري ومسلم	«من حوسب عُذْب فقالت عائشة: أو ليس الله تعالى يقول ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ . . . الخ»	٥٣٨
أحمد	«كان ﷺ إذا قرأ هذه الآية قال: سبحان ربي الأعلى . . .»	٥٤٨
مسلم	«يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك . . .»	٥٥٨
الشيخان	«إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة . . .»	٥٦١
مسلم	«اللهم أمي أمي وبكي، فقال الله يا جبريل: إذهب إلى محمد واسأله ما يبكيك . . .»	٥٧٣
الشيخان	«لكل نبي دعوةٌ مستجابة، فتعجّل كل نبي دعوته . . .» الخ .	٥٧٣
مسلم	«لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً، فأنزل الله . . .»	٥٨١
مسلم	«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»	٥٨٣
مسلم	«تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة . . .»	٥٩١

الراوي	** أطراف الحديث **	الصفحة
الترمذي	«أتدرون ما أخبارها؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال فإن أخبارها..»	٥٩١
البخاري	«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً..»	٥٩٨
مسلم	«خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: ما أخرجكما؟...» الخ	٥٩٩
أحمد والنسائي	«من قرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن.»	٦٢٢

* * *

تم بعون الله تعالى وفضله الفراغ من طباعة هذا التفسير
في غرة شعبان ١٤٠١ هـ في بيروت
والحمد لله رب العالمين



دار القرآن الكريم
للغناية بطبعه ونشر علومه